التيسير في التفسير

الجزء الأول

= البقرة ـ آل عمران -

تأليف

العالم الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

تحقيق

عبد الله بن حمود العزي محمد بن بدر الدين الحوثي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

تقـــديـــم

بقلم/ نجـل المؤلف
السيد/ محمد بن بدر الدين الحوثي

الحمد لله رب العالمين الذي أنـزل القـرآن هـدى للمـتقين، وحجـة علـى الطغـــاة والمســـتكبرين ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال٤٢] والصلاة والسلام علـى رسـوله الأمـين الداعي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله الهداة الميـامين قرنـاء القـرآن الـذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

أما بعـــد.. فإن القرآن الكريم هو الكتاب المحفوظ الذي لا يأتيـه الباطـل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيه الهدى والنور، والرحمة والخير والبركة، رسم الله فيه للأمة طريق عزها ومجدها ورفعتهـا وسموهـا، وأرشدها فيه إلى ما يوصلها إلى جنات النعيم، وينجيها من العـذاب الأليـم، وكفى بهذا رحمة ونعمة وتكريماً.

إنه منهج للحياة بكل مناحيها عقيدة وشريعة، ونظاماً يشمل كل جوانـب الحياة المادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية.

كما تزخر آياته بالحديث عن الأمم السابقة ومواقفها ومصير تلك الأمم كدروس وعبر لمن تدبر وتبصر، إضافة إلى الحديث المستفيض عن المستقبل عن اليوم الآخر ونقل صورة واضحة عن أحداثه وأهواله وما تؤول إليه أحوال العالمين، وأين يكون مصير الجميع من المؤمنين والكفرة المجرمين، مبينا الأسباب التي أدت إلى كلا المصيرين وسبل الاستقامة على الخط المستقيم، مما يعكس مدى رحمة الله ورأفته بالإنسان ليفوز بالجنة وينجوَ من النار.

وفي رحابه الكريم يتجول الإنسان مع الأنبياء والمرسلين ويعتبر ويتدبر في أحوالهم وأعمالهم ومجاهدتهم في اتجاه تعبيد الناس لله سبحانه، وصراعهم مع المشركين والمعاندين عبر العصور، وكيف مضوا في الدعوة إلى الله صابرين محتسبين، وما هي توجيهات الله لهم إزاء عناد المعاندين وإصرار المكذبين وخداع المنافقين، ليجد منهجاً متكاملاً يزخر بالحركة والجهاد والعمل، فيشكل كل ذلك زاداً للدعاة المخلصين، وسلاحاً بأيدي المؤمنين المجاهدين، يستلهمون منه ما يقوي العزائم ويشحذ الهمم للاستعلاء على مخططات الجاهلية الحديثة بصورها ورموزها في هذه المرحلة الحاسمة التي أطبق فيها الكفر والضلال ضد أولياء الله وأنصار دين الله في كل بقاع الدنيا.

إنه كتاب الحياة يحي القلوب الموات، ويحررها من أسر الضلال والجهالات، وينير لها الدروب في الظلمات، لتسلك السبيل إلى الله وإلى رضوانه وجناته.

وفي الحقيقة مهما قلنا ووصفنا فلن نصل ولو إلى جزء يسير مما يمكن أن يقال عن القرآن، مهما كانت قدرة الإنسان على الوصف والبيان، إلا أننا نتبرك بقبسات مما قاله الإمام الأواه الحليم، القاسم بن ابراهيم الرسي عليه صلوات رب العالمين، في (مديح القرآن الكريم) وهو كلام عظيم جدير بالتأمل والتدبر.

قال × في وصف القرآن الكريم: ((نور أعين القلوب المبصرة، وحياة ألباب النفوس المطهرة، إلف فكر كل حكيم، وسكن نفس كل كريم، وقصص الأنباء الصادقة، ونبأ الأمثال المتحققة، ويقين شكوك حيرة أولي الألباب، وخير ما صُحب من الأصحاب، سر أسرار الحكمة، ومفتاح كل نجاةٍ ورحمة، قول أرحم الراحمين، وتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فأي مُنزِّل سبحانه ونازل وتنزيل.

لقد جل سبحانه وتنزيله عن كل تمثيل، وطهر وتقدس ـ إذ وَلِيَه بنفسه، ونزل به روح قدسه ـ عن قذف الشياطين وأكاذيبها، وافتراء مردة الآدميين وألاعيبها، فأُحكم عن خطل الوهن والتداحض، وأُكِرم عن زلل الاختلاف والتناقض، فجُعل بآياته مترافداً، وبضياء بيناته متشاهداً، غير متكاذب الأخبار، ولا متضايق الأنوار.

بل ضحيان النور، فيحان الأمور، سيحان الأنهار بالحياة المنجية، واسع الأعطان والأفنية، ساطع النور والبرهان، جامع الفصل والبيان، فأنواره بضيائه زاهرة، وأسراره لأوليائه ظاهرة، فما إن يوارى عن أهله الذين أُسْتُودِعُوا علمه من سرائر سريرة، ولا يدع ما وضح من نوره في قلوبهم من مشكله حيرة، بعزائم حكماته المنزلة، ودلائل آياته المفصّلة))[1].

ويضيف × : ((سماويٌّ أحله الله برحمته أرضه، وأحكم به في العباد فرضه، فلا يُوصَلُ إلى الخيرات أبدا إلا به، ولا تُكشف الظلمات إلا بثواقب شهبه، مَن صحبه صحب سماوياً لا يجهل، وهادياً إلى كل خير لا يضل،

---

(١) مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم الرسي: ١/ ١٣٣.

ومؤنساً لقرنائه لا يُمَلُّ، وسليماً لمن صحبه لا يَغِلُّ، ونصيحاً لمن ناصحه لا يغشّ، وأنيساً لمن آنسه لا يوحش، وحبيباً لمن حآبَّهُ لا يبغض، ومقبلاً على من أقبل عليه لا يعرض، يأمر بالبر والتقوى، وينهى عن المنكر والأسواء، لا يكذب أبداً حديثاً، ولا يخذل من أوليائه مستغيثاً، إن وعد وَعْداً أنجزه، أو تعزَّز به أحدٌ أعزه)).

ثم يوصينا ويرشدنا × إلى الإهتداء بالقرآن والمحافظة عليه والاستفادة منه بقوله: ((فاتخذِوه هادياً ودليلاً، واجعلوا سبيله لكم إلى الله سبيلاً، حافظوا عليه ولا ترفضوه، واتخذوه حبيباً ولا تبغضوه، فإنه لا يحب أبداً له مبغضاً، ولا يُقبل على من كان عنه معرضاً، ولا يُهدَى إليه من عاداه، ومن تعامى عنه أعماه، ولا يبصر ضياءه إلا من تأملَّه، ولا يُعْطِي هداه إلا أهله، من ضل عنه أضله، يُقلَّد جَهْلَه مَنْ جَهِلَه، إن أُدبِر عنه أدبر، أو أُقبِل عليه بصَّر..

إلى قوله: يعطي من قَبِلَ عطاه، ويمنع من أبى قبول هداه، يَقرُب لمن ارتضاه، ويَشْسع عمن سخط قضاه، يَعْلَنُ لأوليائه ويَظْهَر، ويكتتم عن أعدائه ويستر، نور هدىً على نور، وفرقان بين البِرِّ والفجور، أرشدُ زاجرٍ وآمرٍ، وأعدل مقسط ومعذِّر، يوقظ بزجره النُّوَماء، ويعظ بأمره الحكماء، ويُحيي بروحه الموتى، ولا يزيد من مات عنه إلا موتاً، يعدل أبداً ولا يجور، وكل أمره فَقَدرٌ مقدور، ظاهره ضياء وبهْجَة، وباطنه غور ولجّة، لا يُملك حَسنُ أنواره، ولا يُدرك باطنُ أغواره، فمن ظهر لظاهر مَنَاظِره، رأى أعاجيبه في موارده ومصادره، ومن بَطُنَ لمستَبطَنِه، رأى مكنون محاسنه، من غرائب علمه، وأطايب حِكَمِه، لبابُ كل لباب، وفصل كل خطاب، وحكمه من حكم رب الأرباب.

اكتفى به منه في هداه لأوليائه، واصطفى به من خصّه الله سبحانه باصطفائه، فمصابيح الهدى به تُزْهِر واهجة، وسُبُل التقوى به إلى الله تلوح ناهجة، يُحتاج إليه ولا يَحتاج، سراجه أبداً بنوره وهَّاج، يُعلِّم ولا يُعلَّم، ويُقوِّم ولا يُقوَّم، فهو المهيمن الأمين، والفاصل المبين، والكتاب الكريم، والذكر الحكيم، والرضى المقنع، والمنادي المسمع، والضياء الأضوى، والحبل الأقوى، والطود الأعلى، الذي يعلو فلا يعلى، ولا يؤتى لسورة مِن سوره أبداً بمثل ولا نظير، ولا يوجد فيه اختلاف في خبر ولا حكم ولا تقدير، فصل كل خطاب، وأصل كل صواب..))[٢].

ومؤلف هذا التفسير المبارك هو السيد العالم المجاهد ربيب الإيمان، ورضيع التقوى والعرفان، وفقيه القرآن، بقية الآل الأكرمين، حامي حمى العقيدة المطهرة، من أضاليل وافتراءات المشبهة المجبرة، المجاهد في سبيل الله، والقائم بشرع الله السيد/ بدر الدين بن أمير الدين بن الحسين بن محمد بن حسين بن أحمد بن زيد بن يحيى بن عبدالله بن أمير الدين بن عبد الله بن نهشل بن المطهر بن أحمد بن عبد الله بن عز الدين بن محمد بن إبراهيم بن الإمام المظلل بالغمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى المرتضى بن المطهر بن القاسم بن المطهر بن محمد بن المطهر بن علي بن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهم أجمعين.

مولده: في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥هـ قضى معظم عمره في نشر هدي الله والإصلاح بين الناس منذ أن غادر بلاده ومسقط رأسه مدينة ضحيان صعدة وهو في الثانية والثلاثين من العمر متوجهاً إلى بلاد خولان عامر،

---

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٣٤.

وكان هو المرجع الوحيد في الفتوى والإرشاد والتعليم، وفض النزاعات القبلية في تلك البلاد، حيث تنقل في عدد من مناطقها وكان لا ينتقل من منطقة إلى أخرى إلا بعد أن يترك الأثر الطيب على سلوكيات الناس وأخلاقهم وودينهم عموماً، وظل على هذا المنوال مدة خمسين سنة وهو مع ذلك يكابد المرض المزمن الذي ابتلى به منذ الصبا (مرض الربو) حيث لم يثنه ذلك عن القيام بالدور الأكمل والأشمل يبتغي بذلك رضوان الله وخدمة عباده.

إنه العالم الرباني الذي قصد القرآن الكريم في رحلة إليه منذ شبابه، حتى وصل إلى واحاته الخضراء، وغاص في أعماقه، وارتوى من ينابيعه الصافية ما أروى ظمأه، حيث مضى يتدبر القرآن آية آية، ويحول مفاهيمها إلى منهج عملي جهادي يعكس إرشادات وتوجيهات القرآن الكريم في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر العلم والفضيلة، ومحاربة الجهل والرذيلة عبر كل الوسائل الممكنة توجيهاً وتدريساً وتأليفاً حتى نشأ وترعرع تحت رعايته وعنايته مجموعة من المستنيرين الذين مضوا على نهجه القرآني وخطه الإيماني، وتأثر بثقافته القرآنية الكثير الكثير من الجماميع المؤمنة، فكانوا الرافد الأقوى للمسيرة القرآنية المعاصرة، التي بدأت خطواتها في الثمانينات من القرن العشرين.

لقد كانت كتبه وإرشاداته القيمة هي الوقود لمسيرة الدفاع عن منهج أهل البيت الطاهرين، التي كشفت زيف وأباطيل المبطلين وتضليل المضللين، ولمن يريد معرفة حقيقة ما قلنا ينبغي له الإطلاع على ما تم طبعة من تلك المؤلفات المفيدة والتي تربو على (٣٥) مؤلفاً وخصوصاً كتابه (تحرير الأفكار عن تقليد الأشرار) وكذا كتابه (الغارة السريعة في الرد على الطليعة) فهما من أوسع ما كتبه رضوان الله عليه في الرد على الأفكار المنحرفة عن نهج القرآن والرسول ص.

إن هذه النفحات القدسية التي عطرت صفحات هذا المؤلف الجليل، وهذه الدرر التي تتلألأ بأنوار الهداية ليست وليدة لحظة جادت بها قريحته، أو مجرد فكرة آنية خطتها يده كما هو شأن معظم المفسرين، بل إنها مفاهيم راسخة تجذرت في داخله، وعلوم ربانية مكنونة بين جوانحه، وهي العلوم التي يمنحها الله من اختصه لذلك وارتضاه ممن اختارهم لوراثة كتابه، وتجلت لهم أسراره، فسبروا أغواره، وأشرقت في قلوبهم أنواره، فبدت على سلوكهم آثاره، مما يجعل المتصفح لهذا المؤلف الكريم، المتأمل لتلك اللفتات اللطيفة، والرؤى الثاقبة العجيبة يلمس تلك المسحة القدسية ويلحظ تلك المنحة الربانية، والهداية الإلهية التي خص بها ورثة الكتاب من السابقين بالخيرات، المُعدّين لبيان غامض الآيات.

فمرحى مرحى لطلاب علوم القرآن، وبشرى لعشاق المعرفة بقناعة واطمئنان، وهنيئاً لكل المتعطشين لهدي القرآن الكريم، بهذا المنهل الصافي، والبلسم الشافي والبيان الوافي، وسطع بأنواره من بين ركام الآلام والمشاكل والمحن، ولله الحمد والمنة الذي مَنَّ على مؤلفه بالرعاية والألطاف والسلامة والإعانة حتى تحقق الحلم، ورأى النور هذا المنجز العظيم، رغم قسوة الظروف، وتقلب الأيام، واضطراب الوضع، خصوصاً في السنوات الأخيرة، فتمت به النعمة على كل المؤمنين، وقامت به الحجة على جميع المعاندين، فهو كتاب ميسّر واضح البينات، قوي الدلالات غاية في الإنصاف بعيد عن التعصب، خال عن الغلو والتعسف، سهل العبارة دون تعقيد أو تكلف.

يقصد إلى بيان الحقيقة بأقرب طريقة، ويطرح ما وفقه الله لفهمه مهما بدا مجانباً لما قاله غيره، بأسلوب بعيد عن أساليب المتعاظمين الذين يسعون

للشهرة بتكلف الخلاف، والإعتساف في الأدلة وعدم الإنصاف، بل يطرح ما توصل إليه فكره بتواضع كبير، وبثقة العالم المستنير، يهدف إلى قول الحق، وبيان الصدق، لا يخشى في الله لومة لائم.

فلله ما أعظمها من نعمة أنعم الله بها على أمة الإسلام، وله سبحانه الحمد على فواضله وجزيل الإنعام، وجزى الله مؤلفه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، ومن عليه بدوام العافية والشفاء، وحفظه من كل الشرور والأسواء.

محمد بن بدر الدين الحوثي

ضحيان ـ صعدة

جمادى الثاني/١٤٢٩هـ

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين.. وبعـــــد:

اعلم أن تفسير القرآن مفتاحه معرفة لغة العرب، لأن القرآن نزل بلسانهم، كما يحتاج إلى استمداد العون والتسديد من الله وإخلاص العمل له سبحانه وتعالى، والتسبب لهدايته وتنويره بالاستقامة على التقوى، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا...﴾ [الأنفال٢٩] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحديد٢٨].

كما يحتاج إلى القدرة على استحضار الآيات المتماثلة لأنه كثيراً ما يتميز المعنى في آية بمعرفة نظيرها في القرآن، ويحتاج المفسر إلى التأني والتأمل والتثبت، ويستعين كذلك بالإطلاع على ما تيسر له من كتب التفسير للأئمة الطاهرين (عليهم السلام) وغيرهم لينتبه للمعنى المقصود، فأما تفسير رسول الله صلى الله عليه وآله متى صح عنه فهو حجة، وكذا تفسير أمير المؤمنين × .

وقد اعتمدت كثيراً على تفسير القرآن بالقرآن إضافة إلى اعتماد الذوق العربي كوني بحمد الله أصيلاً في العربية نسباً وبلداً.

وقد يكون في التفسير خلاف بل هو الغالب فأكتب ما هو عندي الصواب ولا أتعرض للرد على خلافه رغبة في عدم التطويل، كما أنني أحياناً قد أخالف التفسير الشائع المتداول فأرجو حملي على السلامة وحسن النية وأن يجعله الناظر فيه سبباً للتأمل أو سؤال من تبين له وجه الترجيح أو سؤالي إن أمكن.

وكثيراً ما أعدل عن التفسير بالرواية لعدم صحتها عندي وكون مدلولها خلاف الظاهر أو لعدم صحة كونها رواية عن الرسول كما في تفسير (والنازعات) حيث لم يصرح القاسم × بنسبتها إلى النبي أوالوصي، فلذلك عدلت كثيراً عن اعتماد الروايات في التفسير، وقد أعدل عنه إلى ما لا يخالفها إلا بالتعميم أو الإطلاق، لأن القرآن لا يقصر على أسباب النزول ولا يوقف تفسيره على معرفتها بل هو مستقل بإفهام معانيه مع أن معرفة الأسباب وظروف النزول تعين على فهم المعنى، وينبغي للمفسر مراعاتها والتفسير بما يناسبها ما أمكن بدون عدول عن الظاهر، وقد اعتمدت على الظاهر وحاولت التمسك بالمعنى الحقيقي ما أمكن حتى توجد قرينة بيِّنة لإرادة المجاز.

وحيث تختلف القراءات اعتمدت قراءة أهل المدينة المنورة، وهي القراءة المشهورة، ولأنها قراءة أئمة الزيدية التي ورثوها عن آبائهم، كما اعتمدت كذلك قراءة حفص المروية عن أمير المؤمنين علي × المشهورة في العالم الإسلامي.

هذا ولقد كنت راغبا عن القيام بهذا العمل، رغم تكرر الطلب من كثير من الإخوان، وذلك لصعوبته والحاجة فيه إلى مزيد الحذر من التفسير بغير الصواب والقول على الله بغير علم والتفسير بالرأي، حتى جاء الولد حسين وبلغني طلب سيدي مجد الدين / أن أفسِّر القرآن، وذلك لما يلاحظ

من حاجة الطلاب من أبناء الزيدية إليه؛ لأن كتب الزيدية الأولين في التفسير يتعسر تحصيلها، ولم يكن قد طبع منها شيء في ذلك الوقت، وبعضها قد فُقد، فرأيت أن أكتب تفسيراً صالحاً للمبتدئ في الغالب أسهّل عباراته بقدر ما أستطيع فاستعنت بالله سبحانه على هذا العمل وقمت بتفسير القرآن الكريم بقدر الوسع.

وكنت ألازم العمل يوم كانت الفرصة سانحة، ثم حدثت شواغل أخرت العمل بعض التأخير، ثم قامت الحرب علينا سنة١٤٢٤هـ وبها انقطعت عن مواصلة العمل وفارقت الكتب، ومضى بنا الوقت حتى ضعف البصر ولما يكتمل التفسير، إذ كان قد بقي منه نحو ستة أجزاء من القرآن، حتى سنحت الفرصة فقمت بتفسيرها شفوياً وتسجيلها في أشرطة كاسيت وكان ذلك باللهجة الدارجة المستعملة في عصرنا.

وقد تولى الولد محمد حفظه الله تسجيلها ثم كتابتها باللغة العربية الكاملة، وذلك من (سورة الصافات) إلى آخر (سورة التحريم) وبعد ذلك تمت مراجعته أكثر من مرة، أما (جزء تبارك، وجزء عم) فقد كان تقدم تفسيرهما من قبل، هذا وقد جرى بعض التعديل على ماقد كنت رجحته في تفسير بعض الآيات وذلك خلال الفترة الأخيرة التي أتيحت لي الفرصة فيها للمراجعة والملاحظة للكتاب مع الولد محمد فلا يشكل هذا عند المقارنة مع المخطوط أو ماكان قد طبع من الكتاب.

وأسال الله قبول العمل وحسن الختام، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله الطاهرين.

بدر الدين الحوثي وفقه الله

بتاريخ ربيع الثاني/سنة ١٤٢٩هـ

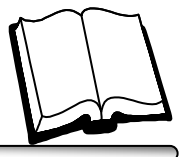

التيسير في التفسير

سورة الفاتحة

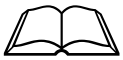

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المعنى: باسم الله أقرأ، أي هذا كلام الله أقرأه باسمه، ليس كلامي أنا، وعلى هذا فهي تلقين للرسول ص ولأمته، مثل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وهذا أرجح من تقدير أبتدئ؛ لأنه لو لم يكن المراد إلا الابتداء باسمه تعالى لكان الابتداء الحقيقي به أولى من الإخبار به، كأن يقال: الله الرحمن الرحيم، ولأن القراءة قد ظهرت في ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١] ومثله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ [هود:٤١].

وتقول عند الذبح: ((بسم الله)) أي باسم الله أذبح؛ لأنه أحل لي ذبح هذه وبناءً عليه أذبح لا اعتداءً وظلماً، ويظهر أن وجوب التسمية على الذبيحة لإفادتها هذا المعنى، وتقول: ((باسم الله آكل)) أي لأنه نعمته وكذا الشرب واللباس وغيرها و((باسم الله أعمل))؛ لأنه بتيسيره وما خلق لي من القدرة.

و﴿ٱللَّهِ﴾ هو الذي يأله إليه المخلوقون، ويفزعون إليه في المهمات، ويلجأون إليه عند المصائب، وإياه يعبدون، فمعناه: الإله الذي لا إله إلا هو.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ اسم لله يفيد رحمته لعباده والدليل على أنه اسم أن الكفار أنكروه ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان:٦٠] ولو كان مجرد وصف بالرحمة لما أنكروه كما لم ينكروا الرحيم.

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ وصف لله تعالى، يدل أنه يرحم عباده، ومن رحمته سبحانه إرسال الرسول ص، وإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فالدلالة على رحمته وتكرارها بالاسم والوصف في أوائل السور، فيه فائدة عظيمة، كأنه يقول: استمعوا لكلام الرحمن الرحيم لتشملكم الرحمة إذا اتبعتموه، فإنه أنزله لكم رحمة لكم.

﴿٢﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ هو المدح على الجميل الاختياري والجميل يعم الإحسان ويعم تحصيل الخير المطلوب والوقاية من الشر وإنصاف المظلوم والحكم بالحق والعدل وحيث أن نعم الله لا يحصيها العباد وما بهم من نعمة فمن الله ومن أعظم نعمه الهداية لما يرضيه ويقرّب منه ويؤدي صاحبه إلى السعادة الدائمة في جنات النعيم وحيث أن منه تعالى نعم الدنيا والدين ونعم الدنيا والآخرة التي لا تنتهي.

فله الحمد كله وهو له، ولو كانت النعمة بواسطة بعض المخلوقين ولا يكون حمد لمخلوق إلا بإذن الله وتيسيره لفعل سببه فحمد المخلوق نعمة من الله عليه، فهو لله من حيث أنه المنعم به لم يكن إلا بنعمته وتيسيره فالله المحمود على النعمة التي بواسطة العبد قبل حمد العبد والله المحمود على حمد العبد لأنه من نعمته ولو كان حمد العبد للعبد فهو نعمة بواسطة العبد ونظير هذا الحصر قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] بمعنى: أن أمرها إليه وحده لا تكون إلا بإذنه ورضاه ولم يناف ذلك وقوعها من العبد.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سيّدهم، وهم كلهم له عبيد، وتعليق الحمد على الربوبية يفيد أنه تعالى محمود في ربوبيّته؛ لأنه منعم على عبيده كريم في مَلَكَتِه، أنعم عليهم وعاملهم بالحلم والرحمة، والتعريض على السعادة نعماً لا يحصونها وأعظمها إكمال العقول والدعوة إلى السعادة الأبدية وتيسير طريقها بإرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك. والعالمون جمع عالم يعم الإنس والجن والملائكة الأولين من العوالم والآخرين.

﴿٣-٤﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فمن رحمته دعوة عباده إلى ما فيه نجاتهم من النار والفوز بالجنة ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ المُلك ـ بالضم للميم ـ يفيد: ولاية الأمر والنهي والتصرف فيهم بإثابة المطيع، وعقاب العاصي، وسؤالهم عما قدموا في الدنيا من الأعمال، ومحاسبتهم على الصغير والكبير، وإحضارهم في موقف الحساب لهذا الشأن، والمِلكَ ـ بكسر الميم ـ يفيد: أنهم عباده يتصرف فيهم كيف شاء.

و﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، أي يوم القيامة، وإسناد المُلك ـ بالضم ـ إلى اليوم لكونه ظرفاً لما يقضي فيه ملك الملوك من جزاء، وله الملك يومئذٍ لاملك سواه ولا شريك له في ملكه، إذًا فالدين إنما هو منه يدين عباده بما قدموا في الدنيا ليس لأحد سواه.

وهذه الآيات تفيد: أنه المستحق للعبادة، وأنه يرجى من عبادته الفائدة العظمى، كما أن هذه الآيات إذا قرعت السمع، ووقرت في القلب، توجد في النفس رغبة إلى الله ورهبة منه، وتبعث على طلب الهداية منه إلى طريق رحمته ورضوانه، وإلى ما يقرِّب لديه يوم الدين، وتدعونا إلى أن نقول:

﴿٥﴾ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ لأنك ربنا المحمود في ربوبيته المنعم علينا الرحيم بنا الذي له الملك علينا، يوم الجزاء الذي يجزينا بما قدمنا لا شريك لك نتوسل بعبادتك إلى رحمتك وإلى هدايتك.

والعبادة: هي الخضوع المعبّر عن العبودية، أي أن تخضع وتَذَلَّلَ لله معبراً بذلك عن كونك عبداً له تعالى، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ..﴾ [النساء:١٧٢] فدل على أن العبادة تعبير عن العبودية، وقال تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] يعني الذين عبدوهم في الدنيا، فنقول:

ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نخصك بالعبادة ونعبدك وحدك لا شريك لك؛ لأنك ربنا لا شريك لك فينا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نطلبك الإعانة على أمورنا لا نستعين غيرك، لأنك الذي تسمع الدعاء وتجيب دعوة الداعي لأنك ربنا الكريم في ربوبيته الحميد الرحيم بعباده السميع العليم القادر على تحقيق المطلوب وصرف المرهوب، فبالإخلاص في عبادتك ودعائك أن تعيننا نتوسل إلى هدايتك لنا وهي من الإعانة لنا، فتم الاتصال بين نستعين وقوله:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وهذا الدعاء العظيم الذي قصد أعظم المطلوب وأجمعه للخير على شكل التضرع وإعلان الحاجة والافتقار إلى ربنا والاعتراف بضعفنا بحيث أنا مع وضوح الصراط نحتاج إلى أن يهدينا إليه، وذلك لما يصرفنا من شواغل الدنيا ومن الغفلة ومن ضعف العزم، فبالهدى تنشرح صدورنا، فتقوي إرادتنا وننتبه من غفلتنا ونزهد في الدنيا، فلا نشتغل بشواغلها حتى نمضي في الصراط المستقيم، والهدى أصله الإرشاد إلى الطريق، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢] فهو شرح يرشدنا إلى الصراط كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨] و﴿الصِّرَاطَ﴾ هو الطريق المعبّد الذي لا يلتبس على من مشى فيه، وهو صراط الله الذي دعا إليه عباده قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا..﴾ [الأنعام:١٦١].

وفي التعبير بـ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ فائدة أخرى، وهي: أنا لم نطلب الهداية إلى الطريق من أجل غموضه وكونه مظنة الالتباس وغلط من مشى فيه؛ لأنه طريق واضح يعبر عنه بالصراط المستقيم، وإنما طلبناه لضعفنا وما يعرض لبصائرنا من الضعف بسبب الذنوب والغفلة والأغراض الدنيوية.

و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي لا عوج فيه فضلاً عن أن يكون فيه ثنايا أي لفّات، والطريق المستقيم أقرب إلى المطلوب، ووصف هذا الصراط بالاستقامة؛ لأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ [الكهف:١].

وقال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ﴾ [الكهف:٢] فصراط الله قيّم لا عوج له معتدل لا يجور بأهله عن قصده، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده وبيّنه لهم بالقرآن والسنة وغيرهما من وسائل المعرفة.

واعلم أن الصراط، والطريق، والسبيل، كل منها يدل على أمر مقصود بالمضي فيه، فصراط إلى ماذا؟ وطريق إلى ماذا؟ وسبيل إلى ماذا؟

والجواب قد بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:٢٧] والهدى إليه أولاً في الدنيا بالإرشاد إلى معرفته الكاملة، وذكره كثيراً بالقلب واللسان، حتى نترك ما يشغلنا عن ذكره وعبادته، وثانياً في الآخرة بإيصالنا بما تقدم من هدايتنا في الدنيا إلى رحمته ورضوانه ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] ثم بيَّن تعالى هذا الصراط المؤدي إليه فقال تعالى:

﴿٧﴾ ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وهم رسل الله الذين أنعم عليهم بالهدى ومن تبعهم إتباعاً كاملاً ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر:١٨] قال تعالى في إبراهيم × : ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام:٨٠] أي لإسلام نفسي له وإسلام وجهي له، ثم قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ..﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿.. وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام:٨٤-٩٠].

وقال تعالى بعد ذكر عدد من الأنبياء (عليهم السلام): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ [مريم:٥٨] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣].

وهذا لأن نعمة الهدى أعظم النعم باعتبار أنه يؤدي إلى السعادة الأبدية وينجي من الشقاوة الأبدية، فكأنه لا نعمة إلا نعمة الذين هداهم الله إليه؛ لأن نعمة الهدى هي النعمة الكبرى التي تصغر في جنبها سائر النعم الدنيوية، وحيث أن السورة أول سورة نزلت من القرآن أو من أول ما نزل لا نتحقق أنه يدخل من هذه الأمة في قوله تعالى:﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ غير رسول الله ص وعلي × ، ولا يدخل فيه أحد ممن يعبد الأصنام يومئذ؛ لأن أنعمت فعل ماض، فلا بد أن يكون المعني بها من قد هداهم قبل نزولها.

فإن سأل سائل عن فائدة قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولماذا لم يكف ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن وصف الصراط بالإستقامة يفيد: أنه الحق؟

فالجواب وبالله التوفيق: أن قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ..﴾ إلى آخرها، يفيد تعيين أهل الصراط فهم رسل الله ومن تبعهم الذين أخلصوا لله العبادة وثبتوا على تقوى الله وطاعته كما أمرهم لم يتعرضوا لغضب الله ولا ضلوا عن سبيل الله وفي تعيينهم **فائدة:** وهي أنا لم نطلب الهداية للصراط بسبب الحيرة والتباس الطريق كما هو شأن من يسأل عن الطريق ويطلب الهداية إليها بل نحن نعلم أن الصراط المستقيم صراط الله الذي جاءت به الرسل منهم خاتمهم محمد ص؛ ولكن نسأل الهداية إليه لإصلاح عزمنا وكشف الغفلة وغيرها من الصوارف كما قدمنا.

وفائدة أخرى وهي الإيمان بالرسل وما جاءوا به من عند الله حيث نجعل هداهم نعمة من الله، ولما كان قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ قد يُطمع أهل الكتابين الذين هما نعمة عظمى، مع أنهم خالفوا طريقهما، بيّن: أن الذين أنعم الله عليهم لا هم مغضوب عليهم، ولا هم ضالون، فدل ذلك على أنهم غيرهم.

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي كاليهود والنصارى ومن كان مثلهم، الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة:٦٠] ونزل فيهم قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧] فالذين أنعم الله عليهم غير مغضوب عليهم ولا ضالين، بل مرضي عنهم مهتدون، وفي هذا دلالة على أن النعمة العظمى هي الهدى، ورضوان الله تعالى وهي فائدة لقوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ مع فائدة تعيينهم وإخراج اليهود والنصارى .

وقال الإمام القاسم × : ((﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ في هذا الموضع هم اليهود، و(الضالون) في هذا الموضع: هم النصارى)) وهو × لا يعني: أن اليهود غير ضالين، كيف والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيدًا﴾ [النساء:١٦٧] ولا يعني × : أن النصارى غير مغضوب عليهم، كيف وقد شملتهم الآية الأولى ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة:٦٠] وإنما أراد × في هذا الموضع خاصة الذي هو آخر الفاتحة كما قيد بقوله × في هذا الموضع.

نعم.. والغضب في المخلوق معروف وهو حالة في النفس تدعو إلى البطش ويريد صاحبه أن يبطش بمن سبّب له، وفي الحديث ((أنه جمرة تتوقد في جوف ابن آدم، ألا ترون إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه)) والله سبحانه منزّه عن هذا؛ لأنه لا يشبه المخلوقين.

وفي كلام أمير المؤمنين × في خطبة له × في (التوحيد) وتجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة غيرها كما قال الرضي ورقمها [٢٢٨] في صفة الله سبحانه: ((يريد ولا يضمر، يحب ويرضى من غير رقة، ويبغض ويغضب من غير مشقّة)) انتهى.

والضلال: هو غواية السائر عن الطريق وخفاؤها عليه، هذا إذا قيل ضل عن الطريق أو نحو هذا واستعمل في العدول عن طريق الحق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١] ويستعمل الضلال في غير هذا ومرجعه إلى الضياع والغواية، والضالون هنا: المراد بهم الغاوون المخالفون للحق.

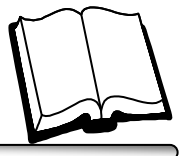

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ﴾ هذه الأحرف من حروف المعجم، هي أسماء للحروف التي ينظم منها الكلام، فـ(ألف) اسم للألف في (قال) و(دعا) ونحو ذلك، و(لام) اسم للام في (قال) ونحوها، و(ميم) اسم للميم في (محمد) ونحو ذلك.

وقد جاء في القرآن الكريم ذكر هذه الثلاثة الأحرف كثيراً، فقد ذكر ألف لام أربع عشرة مرة؛ ست مرات مع الميم، والسابعة مع الميم والصاد، وست مرات مع الراء، والسابعة مع الميم والراء، وذلك في ﴿الم﴾ ﴿المص﴾ ﴿الر﴾ ﴿المر﴾ وذكرت الميم سبع مرات في ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ ومرة في ﴿المر﴾ وسبعاً في الحواميم، ولعل سبب ذلك ـ والله أعلم ـ كثرة هذه الأحرف في الكلام، فجاءت كافية عن ذكر الأحرف كلها، وهذا حيث جاءت لقصد التحدي بآيات الكتاب المركبة من حروف المعجم التي ينطق بها العرب، فكأنه يقول: هذا القرآن هو أحرف من الأحرف التي تتكلمون بها في كلامكم، فما لكم لا تأتون بسورة من مثله إن كنتم في ريب منه؟!

فسرد بعض الأحرف إشارة إلى كلها وأكثر منها لهذا الغرض ما هو أكثر وروداً في الكلام، لكونه أوضح وأقرب لفهم الأميين، وكذا حيث جاءت هذه الأحرف في أول بعض السور للدلالة على أن الله تعالى أوحى هذا القرآن كلاماً حقيقياً مؤلّفاً من الأحرف من شأنه أن يسمع ويكتب، تحقيقاً لكونه من الله أنزله على عبده ورسوله أوحاه كلاماً كما نسمع ونرى.

لا أنه تقوّله، ولا كان مجرد إلهام للمعنى دون القول وحروفه، ولم نعرف من أسرار هذه الأحرف أكثر من هذا ولا ننفي ما جهلناه، ولكن نقول ما ينسب إلى القرآن الكريم من المعاني الباطنة على ثلاثة أقسام:

قسم يتوصل إليه علماء الدين المهتدون بهدي القرآن، يتوصلون إليه بالظاهر من دلالات القرآن.

وقسم يتوصلون إليه بالدلائل العقلية، وهو لاحق بالأول أو بالقرائن الظاهرة من ظروف نزول القرآن أو من مناسبة مقاصد القرآن المعروفة بالممارسة في التفسير.

وقسم يدَّعَي بالإلهام دون أن يتوصل إليه بدليل، فهذا مردود ولا تسمع دعواه ولا سيما إذا خالف الظاهر كما تدعيه الباطنية؛ لأنه لا دليل عليه، ولأن الله أنزل القرآن للناس بلسان العرب ليعقلوه كلهم ولم يخص به شيخاً ولا إماماً كما هو معلوم من دين الرسول ص، ولا يجوز أن يخاطب الله سبحانه عباده بما يفهمونه وهو غير مراد، بل المراد خلافه أو ضده، هذا لا يصدر من حكيم ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين:٨].

أما الدليل على ما فهمناه من إرادة تحقيق أن الله تعالى أوحى الكتاب كلاماً مؤلفاً من الأحرف أو التحدي، فإنه يظهر من اقتران الأحرف بما يدل على ذلك في بعض المواضع، مثل قوله تعالى: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:١-٣] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:١] ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:١] ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء،القصص:١-٢] ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:١] ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢].

واختار الإمام القاسم بن محمد × في (الأساس) أن هذه الأحرف جاءت في أوائل بعض السور للقسم بها، واحتج لذلك بأن القسم مفهوم في مثل قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣] وقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق:١] ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١] فجعل القسم بالأحرف وبالقرآن، وقدّر حرف القسم قبل الأحرف وجعل الواو المذكورة عاطفة، وليس بعيداً أن يقسم الله بالأحرف التي أنطق الإنسان بها؛ لأنها من دلائل قدرة الله وعلمه، ومن نعم الله العظمى على الإنسان.

وما ذكرته من إرادة التحدي أو تحقيق وحي القرآن كلاماً مؤلفاً من الحروف، إنما يترجح في بعض المواضع ولا يقاس عليه بقيتها، فالمحقق أنها اسم لمعناها المفهوم عند العرب الذي تبنى منه الكلمات، فأما فوائدها وأسرارها فموكول إلى من علّمه الله.

قال الإمام القاسم بن إبراهيم × في كتاب (الرّد على ابن المقفّع) [ص١٤٦] نسخة صورة مخطوطة: ((ثم عمد ـ أي ابن المقفع ـ إلى سرّ أسرار القرآن، وأعجب عجائب سر القرآن من الرايات والحواميم وما ذكر فيه من قاف والم وطسم، فعدّ علمها جهلاً، وظن مصون عجيبها مبتذلاً، وأراد ويله علم سر أنبائها، وما طواه الله إلاَّ عن الأصفياء في إيحائها، وكَلاَّ لم يجعله الله لعلمها أهلاً، ولم يجعل قلبه العميّ لها محلاً، بل أخفاه الله وزمّله ولم يعطه إلاَّ أهله)) انتهى المراد. وفي الأم: إنبائهما وإيحائهما بالتثنية، ولكن من الواضح أنه غلط.

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم × في كتاب (مديح القرآن الكبير) [ص٤٩٢] من مجموعِهِ × في مدح القرآن: ((كيف بما في حواميمه من غرائب حكمه، وما في طواسينه [من] عجائب مكنونه، وما في ق، وطه، ويس، من علم جمّ للمتعلمين)) انتهى المراد.

هذا ولسنا بمكلفين بعلم أسراره، والتكليف به خاص بمن يستطيعه، وأما الخرص والتخمين فليس من التفسير المقبول، وكذلك ما يروى من تفسيرها عن علي × بدون سند صحيح ولا وجه يوجب اعتماده، فلا يصح عندنا ولا نراه، وما روي عن الإمام الهادي × : من أن الله تعالى لم يطلع أحداً على معانيها، حتى أنه لم يطلع رسوله ص، فهو قول عندي بعيد صحته عن الهادي × ، والأقرب عنه × نفي التكليف لنا بعلمها فقط.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ قد تقدم في تفسير (الفاتحة) أن الهدى من أهم المطالب وأعظم النعم؛ لما يترتب عليه من النجاة من النار والفوز بالجنة والسعادة الأبدية، وهذه الآية الكريمة تدلنا على ما به نهتدي، وهو القرآن مع التقوى من حيث أنه الحق الذي لا ريب فيه ولا شك في انه صدق وحق وعدل، وأنه من الله ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] فلا يتعلق به الريب من أي جهة.

والريب: هو القلق في النفس، فهو كناية عن نفي الشك فيه، وفي قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ تعبيراً عن القرآن إشارة إلى أنه نزل ليكتب ويبقى تتوارثه الأجيال ليهتدوا به، والراجح: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ و﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ خبر أول.

وقوله: ﴿لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ خبر ثان وقوله: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ خبر ثالث، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وقد تضمن قوله تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ بيان: أن القرآن هدى لمن يهتدي به، وهو بداية الكلام في اختلاف المكلفين بين من يهتدي به ومن يكفر به ومن لا يؤمن به مع دعواه الإيمان، ثم بيان الحجة على أنه من الله نزله على عبده ورسوله، ثم الوعيد لمن كفر والوعد لمن آمن، فأول فرقة هم المتقون الذين يهتدون به.

وبيّن صفة المتقين التي انفردوا بها عن الكفار والمنافقين، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يصدقون به ويذعنون له، وتقبله قلوبهم موقنة أنه الحق، و (الغيب) هنا هو ما أخبر الله به من المغيبات، ومن ذلك ما ذكره الله في آخر السورة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ..﴾ الآية.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾وإقامتها أن يحيوها، فيؤدوها قيّمة، أي خالصة لله كاملة فروضها وشروطها في أوقاتها، وهذه من خواص المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢] وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [التوبة:٧١].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [الأنفال:٢-٣] وغير ذلك.

ولعل من إقامتها حضور الذهن فيها بحيث يعلم ما يقول، قال تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ مما رزقناهم مما أعطيناهم من المال، وهذا خاص بالحلال؛ لأن ما أخذه العبد غصباً مثلاً لا يقال فيه رزقه الله إياه، بل هو رزق لأهله، والمراد الإنفاق فيما أمر الله به، مثل ما في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ

والإنفاق في وجوه الخير من علامات الإيمان والتقوى؛ لأن المؤمن المتقي يرجو الثواب وصرف العقاب فيبعثه ذلك على الإنفاق بخلاف المنافق والمكذب بالدين، وكذلك قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤] وقال تعالى في المكذب بالدين: ﴿وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة:٣٤] وقال في المنافقين: ﴿وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] وغير ذلك.

۝٤ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ هذا عطف على ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ فهو من صفة المتقين، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يعم القرآن، وما أوحاه الله إلى رسوله محمد ص من غيره، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ يعم التوراة والإنجيل، وكل ما أنزل الله مما ذكر في القرآن خصوصاً أو عموماً، والإيمان بها الإيمان بأنها من الله سبحانه، وأنها حق وصدق، واليقين بالآخرة يبعث على التقوى؛ لأن اليقين بما فيها من الجزاء لتلازمهما كما دل عليه القرآن.

ومن أيقن بصدق الوعد والوعيد خاف من النار ورغب في الجنة، فبعثه ذلك على التقوى؛ ولأن اليقين بالآخرة من تمام الإيمان بالله وقدرته وعلمه وصدق وعده بالآخرة، ومن كان كذلك أيقن بصدق الوعد والوعيد بما في الآخرة، وذلك مع الإيمان به يؤدي إلى التقوى، فظهر بهذا أن هذه الآيات بيان للمتقين، في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي أهل هذه الصفات المذكورة على هدىً من ربهم، وهذا الهدى خاص بهم، وهو إعدادهم للاهتداء بالقرآن، فصدورهم له مشروحة، وقلوبهم له مفتوحة، وبصائرهم منوّرة، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ﴾ [الأنعام:١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨] وهذا الهدى مسبب عن التقوى، وقد يحتج لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وعندي: أن هذا الهدى هو ما يفهمونه من القرآن ويحفظونه، ولكن بسبب الهدى الذي هو إعدادهم لفهم القرآن وحفظه كما يرشد إلى ذلك السياق، راجع (سورة مريم) و(سورة محمد) ص.

نعم الأَولى أن نفسر قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بما يعم الأمرين: الهدى الذي هو إعدادهم للاهتداء به، والهدى الذي هو ما يفهمونه ويحفظونه من القرآن، وهذا هو الصواب إن شاء الله؛ لأنه كله فائدة التقوى، وفائدة الصفات المذكورة.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ بما يصيرون إليه في الآخرة من ثواب الله، بل، وبما ينالون من الحياة الطيبة في الدنيا، فهم المفلحون بفوائد الاهتداء بالقرآن كلها، والفلاح: الظفر بالخير.

قال في (الكشاف): ((والمفلح الفائز بالبغية، كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر ولم تستغلق عليه)) اهـ.

عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الكفر يستعمل في الجحود وفي كفر النعمة، وهاتان الآيتان في كفار معينين كافرين، الكفر الذي هو ضد الإيمان، والكفر الذي هو ضد الشكر.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فالإنذار لا يحدث لهم خوفاً يبعث على النظر في صدق الوعد والوعيد؛ لأنهم معرضون عنه كارهون له، فوجوده وعدمه سواء عليهم، ولذلك لا يؤمنون بما أمِروا بالإيمان به.

﴿٧﴾ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ هذا تمثيل لها بالمسدودة التي هي غير مفتوحة للإيمان، فلا سبيل للإيمان ليدخلها، والختم: ما يجعل على فم القارورة أو نحوها من شمع أو طين أو نحو ذلك لإحكام سدّ فمها، فشبهت قلوبهم بذلك؛ لأن كفرهم سبّب لهم الخذلان وإرسال الشياطين عليهم كما قال تعالى: ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣] وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٣-٤].

فصاروا بإرسال الشياطين عليهم يزينون لهم الباطل، ويثقلون عليهم الحق، ويكرِّهون إليهم الإيمان، كارهين للإيمان كراهة شديدة تحول بينهم وبينه، فكأنها ختم على قلوبهم يمنع دخول الإيمان فيها، أما نسبة ذلك إلى الله سبحانه ففيه فوائد:

الفائدة الأولى: تعظيم هذا الختم والدلالة على قوته؛ لأن الله غالب على أمره.

الفائدة الثانية: الدلالة على أن الله قد غضب عليهم، وعاقبهم بهذا الختم الذي هم معه لا يصيرون إلى خير.

الفائدة الثالثة: الدلالة على أن الله تعالى غني عنهم لا يبالي بهلاكهم ولا بامتناعهم من الإيمان وكفرهم.

الفائدة الرابعة: أن يتسلى الرسول ص عنهم ولا يتعب نفسه في محاولة إيمانهم كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] والتسلية هي من حيث الإشعار بأن الله خذلهم وشاء تركهم على كفرهم.

الفائدة الخامسة: تشريف كلام الله العزيز المقتدر عن أن يكون ذكره لتمردهم يشبه الشكوى منهم.

أما وجه صحة النسبة للمانع من الإيمان إلى الله فله وجهان:-

الأول: أن الله فطر القلوب على أن تميل إلى ما عُوِّدت وتألف ما أُلِّفت كما فطرها على الشهوة والإلتذاذ بلذات الدنيا، فالقلب من هذه الجهة طوع لصاحبه، إما أن يوجهه إلى خير الآخرة وسعادتها والنجاة من النار فتكون رغبته في ذلك، وفيما يصرف عنه النار، وإما أن يوجهه إلى لذات الدنيا وأغراضها والسلامة من مشاق التكليف والراحة من العناء والانقياد للكبر وكراهية الانقياد لداعي الحق، فيتوجه القلب إلى ذلك ويكره ما صرف عنه في اعتقاده ورأيه وفيما يوسوس له الشيطان، فصحت نسبة المانع إليه سبحانه بهذا المعنى؛ لأنه هيّأ القلب وأعده لذلك بما فطره عليه وحسنت هذه النسبة لما ترتب عليها من الفوائد الخمس وغيرها، كالابتلاء بالمتشابه.

الوجه *الثاني*: أن يعتبر إرسال الشياطين والخذلان كالتسبيب لوجود المانع من دخول الإيمان في القلب، كما يقال: أفسد ولده، لمن أهمله ووفّر له ما يشتهي، فجعل ترك تأديبه وتعليمه مع توفير ما يشتهي إفساداً له منسوباً إلى أبيه.

﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ وهذا معطوف على قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي وختم على سمعهم، فكأن آذانهم مسدودة سداً محكماً يمنع سماع الإنذار والآيات، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود:٢٠] وهو تشبيه في المعنى بمن لا يستطيع أن يسمع كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا..﴾ [الجاثية:٧-٨] ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان:٧] وهذا لأنهم لأجل كراهتهم لآيات الله وإنذار الرسول ص وإصرارهم على رفضه والتكذيب يكون سماعهم لها لا يؤدي إلى ثمرة السماع التي تكون لطالب الحق السليم من الخذلان وإرسال الشياطين، فكأن سماعهم ليس سماعاً ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ فكأن إثبات الختم على سمعهم مجازاً بهذا المعنى؛ لأن بينهم وبين الانتفاع بالسمع حائل وسد من كراهيتهم للسماع وإصرارهم على الكفر والتكذيب واستكبارهم.

﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ وهذا مجاز كأنهم لا يبصرون؛ لأنهم لا ينتفعون بما يرونه من آيات الله التي تأتي على يدي رسوله ص، بل كأنهم لا يرون رسول الله ص حين ينذرهم ويتلو عليهم آيات الله، فكأن على أبصارهم غطاء.

ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وجه العطف أن الختم والغشاوة عقوبة على تمردهم عن قبول الإنذار، والعذاب العظيم عقوبة أخرى، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠].

﴿٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ هؤلاء قوم من المنافقين أشبهوا الكفار المذكورين قبلهم في تمردهم عن قبول الحق، بل كانوا أشد منهم كفراً لمحاربتهم الدين من بين المسلمين ومخادعتهم لهم، وغير ذلك مما ذكر في الآيات التي جاءت فيهم لبيان تمردهم وإفسادهم ووقوفهم من الكتاب الذي لا ريب فيه موقف المحاربين، ولم تأت لتفسير النفاق والتعريف بحقيقة المنافق كما لم تأت الآيتان في الكفار لبيان حقيقة الكافر؛ لأن المنافق هو الذي يتولى الكفار من دون المؤمنين سرّاً وهو مظهر للإسلام.

وهذا قد احتج له الإمام القاسم × والإمام الناصر في (البساط) بما فيه الكفاية، وأوضح دليل فيه قوله تعالى في بعض المنافقين: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٤-١٤٥] وقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾ الآيات [الحشر: من آية١١] فتأمل!!

والمنافقون يختلفون في الجرائم ودرجاتها، فهذه الآيات في بعض، وفي (سورة النساء) في بعضهم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [آية:٨٨] وفي (سورة التوبة) ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [آية:٦١] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [آية:٧٥] ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي﴾ [آية:٤٩].

وفي (سورة المنافقين) كلام في بعضهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [آية:٨] ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [آية:٧] وسبب النفاق مرض القلب، أي التردد والارتياب في صدق الرسول ص بعد سماع الآيات الدالة عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥] ثم الخوف من غلبة الكفار، ثم يكون تولي الكفار سراً عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢] وليس المراد: أنه لا يلزمهم حكم الكفر بتولي الكفار، وإنما المراد: أنه لا يشترط في المنافق أن يضمر في نفسه الكفر الذي هو الجحود بالقرآن والرسول، بل قد يكون المنافق كذلك، وقد يكون شاكاً متردداً في ريبه متولياً للكفار.

وقد يكون مرتداً كالمذكورين في (سورة النساء) في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً..﴾ الآية [٨٨-٨٩] فتأمل!! وقال تعالى في بعضهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة:٧٤].

ولنرجع إلى تفسير الآيات ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ الراجح: أن هذه منهم كلمة إنشاء للإقرار بالله واليوم الآخر توهم مطابقة القلب للسان.

والإنشاء أشد في الخداع من الخبر الذي يقبل التصديق والتكذيب؛ لأن من أنشأ كلمة الإيمان يقبل كما أفاده قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة:٦١] وقوله تعالى:﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:٩٤] فمن أنشأ كلمة الإيمان قبل عملاً بالظاهر وامتثالاً لأمر الله تعالى، فلهذا يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ ليُقبَلوا.

فأما تعليقهم الإيمان بقولهم بالله ﴿وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ فإن الإيمان من هذه الناحية هو الباعث على طاعة الله وتقواه؛ لأن الإيمان بالله إذا صدق كان باعثاً على الخوف من الله ومراقبته والإيمان باليوم الآخر إذا صدق كان باعثاً على الخوف من النار والرغبة في الجنة، وذلك يبعث على الطاعة والتقوى، فالمؤمن بالله واليوم الآخر لا بد أن يكون كامل الإيمان؛ لأن في نفسه الباعث القوي على ذلك، فقد لزم من دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر دعواهم الإيمان المطلق، ولذلك كان إبطال قولهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور:٤٧] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ الآية [النساء:٦٠-٦٥] وهذا لأن الإيمان بالله والرسول والإيمان بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله كله إذا صدق يستلزم الإيمان الكامل ويكون مدعيه مدعياً للإيمان المطلق.

﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ

أما قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الكلمة الجامعة لأسباب الخشية من الله، فهو أبلغ في الخداع بإيهام أن شأنهم الصلاح والإصلاح والانقياد لأمر الله ورسوله، والنصيحة للرسول وللمسلمين، خوفاً من الله واستعداداً للقائه، ولكن الله تعالى كشف زيفهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ وبيّن تعالى أنهم في ذلك القول:

﴿٨﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أما مخادعتهم للذين آمنوا فظاهر، وأما خداعهم لله سبحانه فهو مجاز؛ لأنهم في غفلتهم عن الله وجهلهم بالآخرة وكون همّهم الدنيا فهم يعتبرون السلامة في الدنيا غاية مرامهم، فأظهروا الإسلام لئلا يقاتلهم المسلمون، وليعيشوا معهم وبينهم كأنهم مؤمنون، فقد فرّوا من عذاب الله لهم بأيدي المؤمنين.

فكأنهم يخادعون الله بإظهار الإسلام والإيمان، وإن كانوا غافلين عن الله؛ لأنهم لجئوا إلى إظهار الإيمان لينجوا مما يفعله المسلمون بالكافرين من القتال بأمر الله وبنصر الله فقد فروا من الله بخداعهم للمؤمنين، حيث فروا مما هو في الواقع عذاب من الله بأيدي المؤمنين، فاعتبروا مخادعين لله وإن كانوا غافلين عن الله، لأن عملهم يشبه عمل المخادع لله.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن ضر الخداع عليهم، فهم يفعلون بأنفسهم ما هو كالخداع لها؛ لأنهم يعتبرونه نفعاً ونجاةً، وهو في الواقع ضر وهلاك، فقد خادعوا أنفسهم وخدعوها وإن كانوا غافلين عن ذلك.

مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنهم يخادعون أنفسهم ويخدعونها، قال في (الكشاف): ((والخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه ـ قلت: يعني تغطيةً على ما يريد من المكروه ـ وقال: ((والشعور: علم الشيء علم حِس من الشعار، ومشاعر الإنسان حواسه، والمعنى أن لحوق ضرر ذلك بهم كالمحسوس، وهم لتمادي غفلتهم كالذي لا حس له)) انتهى.

﴿١٠﴾ ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ قد قلت فيما مر أن مرض القلب: هو التردد والارتياب، ولكن الراجح أنه ذلك، وأسباب ذلك من الكبر أو الحسد أو نحو ذلك مما يكره الإيمان من أغراض النفس الأمارة بالسوء وكراهية الإيمان لبعض هذه الأسباب أو كلها، وذلك مشبّه بالمرض.

﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ من جنس مرضهم؛ لتمردهم عن الإيمان، وتكذيبهم بآيات الله، بسبب ذلك المرض الأول، وهذا شبه الختم في الكفار، وقد مر تفسيره.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ وصف العذاب بأنه ﴿أَلِيمُۢ﴾ يدل على شدته، أي أنه عذاب شديد؛ لأن من شأن العذاب أن يؤلم ألماً شديداً، فإذا وصف بأنه أليم دل على زيادة ألمه عن المعنى الذي تفيده كلمة عذاب ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ تعليل لتعذيبهم بذلك العذاب، ويصلح مع ذلك تعليلاً لقوله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾.

﴿١١-١٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بما تكيدون به الإسلام، وإذا ذكر الفساد مع زيادة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو عبارة عما شأنه أنه يعم ضرورة وينتشر إذا لم يدفع، كمحاربة الدين بالدعايات أو الشبه أو غيرها، وكمحاربة اقتصاد المسلمين أو إضعاف جمهورهم بأي وسيلة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ فنحن أبعد عن الفساد في الأرض بالغوا في تنزيه أنفسهم، وهذا العطف هو عطف لصفتهم هذه على صفتهم في الآية التي قبلها، قوله: ﴿مَنۡ يَقُولُ آمَنَّا﴾ أعني على الصلة، والآيتان اللتان بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ آمِنُوا﴾ ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ كذلك يذكر سبحانه قولهم، ويرده رداً شافياً.

ففي الأولى قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ وفي الثانية: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ وفي الثالثة: ﴿أَنُؤۡمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ وفي الرابعة: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِئُونَ﴾ والآيات المتضمنة لذلك متعاطفة بشكل واضح في سياق ذمهم وتقبيح طريقتهم:.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ قال في (الكشاف): ((ردّ الله ما ادعوه من الانتظام في جملة المصلحين أبلغ ردّ وأدلّه على سخط عظيم، والمبالغة فيه من جهة الاستئناف وما في كلتا الكلمتين، (ألا) و(إن) من التأكيد، وتعريف الخبر، وتوسيط الفصل)) انتهى.

قلت: أنا أستشعر من ابتداء الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿أَلا﴾ التي هي حرف تنبيه، كأن الآية تعلن بهذا التصريح وتنادي به في المسلمين، وفي ذلك فوائد:

الأولى: إبطال قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾ وتحقيق أن الواقع ضده على غاية المضادة.

الثانية: الدلالة على أن القائل: ﴿لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هو المصيب، وأنهم المخطئون بالرد عليه.

الثالثة: تحذير المسلمين منهم لئلا يفسدوهم، أو يفسدوا ما بينهم من الألفة والإخاء.

إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ففيه دلالة على أنهم في ضلال بعيد، حيث لا يشعرون أن ما يفعلونه من كيد الإسلام والمسلمين إفساد.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ الذين هم الصادقون في إيمانهم فهم الناس هنا؛ لأنهم الصالحون الكاملون في الإنسانية، ولأنهم أهل القوة بألفتهم والعزة بإيمانهم، فإيمانهم هو الإيمان الذي يبعث على العمل الصالح والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين ومباينة الكفار، خلاف ما عليه المنافقون الذين يتولون الكفار ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤] ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ [المجادلة:٨] ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ استخفافاً بأهل الدين واستضعافاً لعقولهم، وزعماً أن أهل الدين فاقدون لحسن الرأي ورجاحة العقول، وزعماً أن ما يصدر عن المنافقين إنما هو مقتضى الرأي وتوخي المصلحة وإرادة استمالة الكفار إلى الإسلام وترغيبهم فيه باللين والمصانعة والمجالسة، فعدّوا مخالفة طريقة المؤمنين لطريقتهم إنما هي من ضعف الرأي ونقص العقول.

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه وتأكيد لما بعدها، وفي هذا الرد عليهم من التأكيد مثل ما في قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ ويبين أنهم هم السفهاء، كما أخبر الله أصدق القائلين أنهم سلكوا في نفاقهم طريقة توجب لهم الدرك الأسفل من النار، فهم في الآخرة أبداً معذبون، وفي الدنيا في فرق وقلق مذبذبون لم يستفيدوا بالنفاق أمناً، ولا عزة، ولا راحة، بل على العكس من ذلك كما تفيده الآيات الكريمة في (سورة البقرة) و(سورة النساء) و(سورة التوبة) و(سورة المنافقين).

يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمۡ

والعقل لا يدعو إلى ذلك، بل يدعو إلى طريق الأمن والسلامة والكرامة، فدل تصرفهم الخاطئ على أنهم ضعاف العقول؛ لأنهم أهملوا عقولهم واتبعوا أهواءهم فضعفت عقولهم بالغفلة وترك النظر، وبقوة هوى النفس في خلاف العقل فصح أنهم هم السفهاء، قال في (الكشاف): ((والسفه: سخافة العقل، وخفة الحلم)) انتهى.

﴿وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ لأن علمهم بذلك يتوقف على الإيمان الصادق الذي يعرف به صواب الرأي وطريق الفلاح وأسباب النجاة وأسباب التوكل على الله، وبينهم وبين ذلك مسافات ومراحل، نسأل الله الثبات.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ عن المسلمين، أو عن المسلمين وغيرهم ﴿إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ الذين يغوونهم من اليهود مثلاً ﴿قَالُوٓاْ﴾ لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ﴾ مشاركون لكم في قضاياكم ضد الإسلام، وهذه عبارة اتخاذهم أولياء، فالمعيّة والولاء متفقان في المعنى، فسواء قولهم: نحن معكم في الأمور المهمة، أو نحن أولياؤكم.

﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ إذ قلنا كلمة الإيمان فنحن إنما قلناها استهزاء بالمؤمنين أي سخريّة بالمؤمنين واستخفافاً بهم، ليس جداً، فالهزوء كلام غير جد لغرض الاستخفاف بمن يقال له، ألا ترى إلى قول (بني إسرائيل): ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ كأنهم استبعدوا أن يكون جادّاً في أمرهم بذبح بقرة، وجوّزوا أنه في ذلك يستهزئُ بهم.

﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ بمعنى: أنه يفعل لهم فعل المستهزئ يملي لهم ولا يعاجلهم بالعقاب، لا لأنه راضٍ عنهم، ولا لأنه غير معاقب لهم، بل هو معدّ لهم العذاب، فعبر سبحانه بالعبارة المشاكلة لكلمتهم، وهو سبحانه لا يستهزئ، ولكن هذه مشاكلة لفظية، كقول الشاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي خيطوا لي جبةً وقميصاً، وأتى بالفعل الدال على التجدد لتكرار أعمالهم التي يستحقون بها العذاب، فكلما أجرموا أمهل.

﴿وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ حيث يخذلهم ويتركهم يعاودون الطغيان، يبسط لهم نعمته فيزدادون طغياناً ويزيدهم رجساً إلى رجسهم بما ينزل من القرآن الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء:٨٢] ونسبة الإمداد إليه سبحانه مجاز كالختم، وقد مر التحقيق فيه.

ومعنى ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتردّدون في الباطل، لا يهتدون للصواب كالأعمى يتردد في غير طريق لا يهتدي إلى الطريق، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ومقابلته بقوله: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ﴾ يظهر منه أن المنافقين إنما يقولون للمؤمنين عند ملاقاتهم في طريق أو نحوها لا يقصدونهم إلى محلهم، وأما شياطينهم فيتوجهون إليهم ويقصدون الخلوة معهم ميلاً إليهم، وقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يريدون لم نتحول عنكم بما قلناه للمؤمنين، بل ما زلنا معكم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى أهل الكلام الذي حكاه سبحانه عنهم في الآيات من قوله: ﴿ومن الناس﴾ وأهل الصفات التي اشتمل عليها الكلام فيهم، وفي قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ تعجيب منهم؛ لأن اشتراء الضار النافع عجيب يُسأل عن فاعله مَن هو، فيقال: هو هذا الذي صنع كذا وكذا.

كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ

ومعنى ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ استبدلوا، أخذوا الضلالة بدل الهدى، وأي عاقل يختار الضلالة عن الطريق بدلاً من الهدى لها؛ لكنهم أهملوا عقولهم، ولما كانوا في موقع الهدى في محضر الرسول يتلو آيات الله، وفي موقع بركات النبوة بحيث أن حقهم لو استعملوا عقولهم أن يهتدوا، فاختاروا الضلال والكفر صَحَّ اعتبار ذلك منهم استبدالاً واشتراء؛ لأنهم تركوا ما هو ميسر لهم لو أرادوه.

فكأنه بأيديهم لحضوره لديهم وتيسره أو أنهم قد كانوا آمنوا قبل هذا كله كما يشير إليه ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وعلى هذا فالإشتراء واضح وجعل باطلهم مكانه وبدله، ولما كان المشتري يحاول أن يشتري بالثمن القليل ما يسوى أكثر وعلى الأقل يتجنب الغبن ويشتري المبيع رغبة فيه، بحيث يبذل ماله لتحصيله، وهؤلاء المنافقون كذلك راغبون في الضلالة رغبة قوية شبهوا بالمشتري، فقيل: ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾ مجازاً عن استبدالهم الضلالة بالهدى، ولكنهم غبنوا غبناً فاحشاً، فقيل فيهم تهكماً بهم:

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ لأن الذي ينبغي للمتجر أن يطلب الربح لا أن يطلب الخسران المبين ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ لأنهم قد باعوا الهدى، فرأس المال قد فات ولم يحصل لهم بتفويته فائدة كما يحصل للمشتري في بعض الأحوال مع أن نفي الفائدة تهكم بهم كما قلنا.

﴿١٧-١٩﴾ ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ حالهم العجيب، كحال ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ عمل لتحصيل نار، فحصلها ليرى بها في الظلمة

﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ باشتعالها، وحصل منها النور المطلوب بتحصيلها ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ بأمر غالب لا يستطاع رده؛ لأن الله غالب على أمره.

﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ لشدة الظلمات المتراكمة عليهم، إما أن يكون معناه: تركهم فلم يفعل لهم شيئاً، فلم يرجع لهم النور، ولم يدلهم على الطريق حال كونهم ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ وإما أن يكون المعنى: صيرهم في ظلمات لا يبصرون.

وأفاد (صاحب الكشاف) أنه يقال: ((ذهب به: إذا استصحبه ومضى به معه، وذهب السلطان بماله: أخذه ـ ثم قال ـ: والمعنى: أخذ الله نورهم وأمسكه ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ﴾ [فاطر:٢] فهو أبلغ من أذهبه، وقال: إن معنى أذهبه: أزاله وجعله ذاهباً)) انتهى.

ونظير المعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠] وهو عندي أرجح من الثاني؛ لأن تصييرهم في الظلمات يستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾.

أما تركهم بمعنى ترك الإنقاذ لهم من تلك الحالة فهو معنى جديد، وحاصل التفسيرين واحد، وهو إذهاب الله لنورهم وبقاؤهم في ظلمات لا يبصرون بترك الله لهم فيها أو تصييره، إلاَّ أن إفادة البقاء بتركهم أظهر من إفادة البقاء بتصييرهم.

والراجح في معناها: أن هؤلاء الذي نافقوا كانوا قد أسلموا، ولكنهم سارعوا إلى النفاق، فذهب عنهم نور الإسلام، وصاروا كما وصفهم تعالى، وقد قال تعالى في بعض المنافقين: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦] وقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤].

وهذا لا يخرجهم عن النفاق إذا كان سراً لا يظهرونه للمؤمنين، فكانوا بالإسلام قد حصّلوا الضوء القوي؛ لأنهم صاروا في صحبة الرسول ص ومحل نزول القرآن، وصاروا بمحل يرون طريق الهدى واضحاً كما يرى الطريق بضوء النار الكبيرة التي تضيء ما حولهم، فلما نافقوا ذهب الله بنورهم؛ لأنه ذهب استعدادهم لقبول الهدى، وصاروا كأن على أبصارهم غشاوة، فكان حضورهم في بلد النبوءة كلا حضور؛ لا ينير لهم نور النبوة، فأشبهوا من انطفأت ناره التي كان بها يبصر، فذهب نورها كله وصار في ظلمات لا يبصر.

فهذا المثل يبين سوء حالهم بعد أن كانوا قد حصلوا في مظنة السعادة، فكانوا يسعدون لولا سوء اختيارهم، وكانوا يهتدون لولا اختيارهم للضلال، أو أنهم كانوا قد أسلموا جادّين في إسلامهم، ثم تحوّلوا، وهذا المثل أيضاً يشير إلى شدة الظلمة عليهم؛ لأن الظلمة التي يفاجئها البصر بعد النور تكون شديدةً عليه، وهؤلاء كذلك يشتد عليهم الخذلان وظلمة القلوب كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ..﴾ الآية [آل عمران:٨٦] وكما قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الصيب: المطر؛ لأنه يصوب أي ينزل فيه ظلمات لكونه في الليل، وقد غطى سحابه النجوم فلا تنير لهم، فاشتدت الظلمة بالليل، وتراكم السحاب والمطر، فصارت ظلمات متعددة بتعدد أسبابها على هؤلاء المنافقين، فشأنهم حين يكونون في هذه الظلمة ـ والمطر ينزل عليهم ـ أن يكونوا في حيرة وقلق، ومع ذلك ما يزيد القلق، وهو الخوف من الصواعق الذي يكون بسبب الرعد والبرق.

أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

﴿يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ إما لشدة صوتها، وإما لباعث الخوف من الصواعق التي صوتها شديد مع شدة القلق والخوف والاشتغال بالمطر، لا يتذكرون أنّ جعل أصابعهم في آذانهم لا ينجيهم من أن تصيبهم الصواعق.

﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ لا يفوتونه ولا ينجيهم منه جعل الأصابع في الآذان ولا غيره، وهذا تمثيل لإفادة هذا المعنى؛ لأن من أحيط به لا يتخلص من الهلاك، ويكون تحت قهر المحيط به، فكذلك المنافقون المذكورون ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس:٢٧] ولا ينقذهم منه احتيالهم وأيمانهم الفاجرة واعتذاراتهم الكاذبة.

﴿٢٠﴾ ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾ حين يلمع بقوة مفاجئة للبصر ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ لشدة حرصهم على الفرار من المطر، وهي لحظات لا تفيدهم ﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ البرق بذهابه عنهم أو أظلم مكانهم لذهاب البرق؛ لأن المكان حيث المطر والظلمة قد فهم من السياق ﴿قَامُوا۟﴾ وقفوا لحيرتهم مع شدة حرصهم على المشي.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ﴾ فلا يسمعون ولا يبصرون، وذلك أشد عليهم؛ لأن من بقي له السمع قد ينتفع بصوت يسمعه يعرف به الجهة التي يريد أن يتوجه إليها في الظلمة، والمبصر قد ينتفع بلمع البرق لحظة، أما من ذهب سمعه وبصره فحيرته أشد وقلقه أكثر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فهو يفعل بهم ما شاء، فلو شاء لجعل هؤلاء المنافقين في حيرة وقلق وخوف أشد مما هم فيه، وهذا المثل يبين حالهم في نفاقهم وما صاروا فيه من الحيرة والقلق والخوف وعدم القدرة على التخلص من سوء الحال، فهم في خوف من أن يفتضحوا، ويظهر كفرهم فيقتلوا وخوف أن يغلب الكفار فيقتلوا مع المسلمين، وعناء في التستر بالنفاق والأعذار، وانظر حالهم في (سورة التوبة): ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [آية:٧٤] ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [آية:٩٥] ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ [آية:٩٤] ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [آية:١٠٧] ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [آية:٩٤] ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [آية:٦٤] ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [آية:٦٥] فخوف من ناحية، وتقريع وتوبيخ من ناحية، واشتغال بتستر لا يجدي وخزي وذلة لا تخلص منها الاعتذارات، وكيف وهي تتنزل فيهم قوارع القرآن والوعيد الشديد، ويكشف القرآن بعض أسرارهم وما في قلوبهم، ويكفي في الدلالة على خوفهم وقلقهم، قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٦-٥٧].

فهم في حال سيئة مظلمة وقلوبهم مظلمة، ختم الله على قلوبهم، فهذا المثل يبين سوء حالهم في النفاق الذي هو أدل دليل على أنهم هم السفهاء حين اختاروا لأنفسهم تلك الحالة كما أن المثل الأول يدل على سفاهتهم حيث عدلوا عن الهدى بعد أن أضاء لهم الطريق وأشرفوا عليه، وكان ذلك أسهل عليهم ممن لم يكن قد أسلم أصلاً، فهذان المثلان يدلان على أنهم هم السفهاء، كما أن اشتراءهم الضلالة بالهدى كان دليلاً على ذلك، ولو لم يكونوا قد أسلموا لوجود الرسول ص في بلدهم ونزول القرآن عليه وهو يتلوه على الناس، فالحق واضح والهدى سهل المنال.

ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ

﴿٢١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ كان الكلام الماضي في ثلاث فرق من الناس باعتبار موقفهم من القرآن؛ الذي أنزله الله هدىً للناس فاختلفوا فيه، وهذه دعوة عامة لأصناف الناس في هذه الآية والتي بعدها تدعوهم إلى الأمر الذي خلقوا له، وتحذرهم من الشرك الذي كان قد انتشر في الأرض مع أنه أكبر الكبائر، وفي قوله تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ إشارة إلى أنه تحق له العبادة؛ لأنه مالككم، والعبادة تعبير عن العبودية.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فكلكم عباده تحق له منكم العبادة حقاً عليكم وعلى آبائكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ربكم، أي اعبدوه لعلكم تتقون عذابه، فعبادته بخلاف عبادة الأنداد التي هي مملوكة لله مثلكم ليس لها شرك فيكم ولا تضركم إذا لم تعبدوها فلا معنى لعبادتها، أما ربكم الذي تحق له العبادة فأنتم محتاجون إلى عبادته لتتّقوا عذابه.

﴿٢٢﴾ ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ بأن أعدّها لكم صالحة لتعيشوا فيها إعداداً كاملاً، حتى كأنها فراش لكم كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك:١٥] فمن شاء مشى عليها ومن شاء حرث ومن شاء بنى وغير ذلك، ألا ترى أنه يتعسر ذلك لو كانت متخلخلة يهوي فيها من أراد المشي عليها أو مملوءة بالصخور التي لم يتصل بعضها ببعض، أو كالمفروشة بالمرو الحداد، أو كانت تلولاً كالجبال، لكنه سبحانه جعلها متحملة للمشي عليها والأعمال مهيأة لذلك، حتى كأنها فراش للناس.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ أي مبنيّة، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] ويحتمل: أنها سقف للأرض من كل جهة، فهي محيطة بها من مسافة بعيدة، ولذلك فالسماء واسعة جداً، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

وعلى هذا: فالسماء بناء محيط بالأرض وما حولها وما بينها وبين الأرض من كل جهة ـ والله أعلم ـ ولا بد أن للسماء منفعة للناس تصحح أن تعتبر السماء بناءً لهم وإن لم يعرفوها.

فأما فوائد الشمس والقمر والنجوم فظاهرٌ بعضُها، وقد جاء في القرآن، وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾ [الصافات:٦-٧] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان:٦١] وقال تعالى حاكياً: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح:١٥-١٦].

فلا يبعد أن تسمى السماء بناء من أجل النيرات ؛ لأنها كالسقف، والنيرات كالمصابيح المعلقة في السقف، وهذا المعنى هو الظاهر؛ لأنه المعلوم عند المخاطبين من قبل نزول القرآن، ولا بد أن للنيرات علاقة بالسماء أوجبت اعتبارهن كائنات فيها وزينة لها، مع أنه يكفي في صحة الظرفية كون السماء محيطة بالفضاء وما فيه من الكواكب والشمس إن كانت فيه والقمر، فالحاصل أن السماء بناءٌ لأهل الأرض بمعنى أنها محيطة فوق كل جهة، ولهم فيها منافع بما فيها من الشمس والقمر والكواكب.

وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ

فأما الفوائد التي لا تعرفها العرب فلا يجب أن تكون مقصودة هنا؛ لأن الكلام مسوق لإثارة دفائن العقول ليعلموا بعقولهم بهذه الأدلة أن العبادة تحق له وحده ولا تحق لغيره ويحتج عليهم بما يعلمون، ولعله من أجل ذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي تعلمون هذه الدلالة على أنه هو الذي يستحق العبادة.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من جهة العلو حيث يكون السحاب، قال تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الروم:٤٨] وفائدة ذكره: أنه بعيد عن الناس لا تناله أيديهم ولا يقدر على إنزاله إلاَّ الله فإنزاله من السماء آية ونعمة.

﴿مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ أما كونه للشرب فظاهر، من أنه ماء نزل من السماء، فبيّن سبحانه أنه الذي خلق الناس ورزقهم فهو الذي تحق له العبادة والشكر؛ لأنه المالك المنعم.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ لأنها لم تخلق ولم ترزق، وليس لها ملك في الناس، بل هي مربوبة مثلهم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أنه الذي خلقكم وآباءكم وخلق ما تحتاجون له من الماء والرزق وهو القادر على كل شيء كما قدر على خلقكم، وإنزال ماء صالح للشرب والسقي، وإخراج الثمرات المنوعة بقدرته، وهو العليم بكل شيء كما أتقن صنعكم وصنع أرزاقكم، فكيف تجعلون له مماثلاً في استحقاق العبادة وهو مخلوق ضعيف لم يخلق ولم يرزق.

﴿٢٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ﴾ شك وقلق ﴿مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ محمد ص وهو القرآن الكريم بتوهم أنه تقوّله ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ في الحكمة والإتقان وحسن التعبير؛ لأنه إذا قدر أن يتقولَّه ؛ قدرتم أن تتقوَّلوا

﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗاۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ

مثله في الحكمة والإتقان وحسن التعبير كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور:٣٤] وقال تعالى في (سورة يونس): ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [آية:٣٨] فظهر أن ﴿مِّن﴾ ليست للتبعيض، وإنما هي للبيان ولو كانت للتبعيض لكان المعنى فأتوا بسورة من كتاب مثله، وليس المراد كما بينا.

﴿وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم﴾ ليشهدوا على إتيانكم بسورة من مثله، وتفسير الدعوة بهذا أظهر؛ لأنها مقرونة بذكر الشهداء، فكانت كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ وهذا يفيد: أنهم لو قالوا كلاماً وزعموا أنه مثل القرآن وسموه (سورة) لما وجدوا شهداء يشهدون بذلك؛ لوضوح الفرق وافتضاح الدعوى، فالناس يستحيون من الشهادة بذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام:١٥٠].

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنه سبحانه يعلم أنكم لن تفعلوا، فكيف يشهد لكم بالفعل فلا معنى لدعوته للشهادة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في تجويز أنه تقوّله لتبينوا أنكم على صواب في الارتياب فيه.

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ لم تأتوا بسورة من مثله بعد هذا التحدي ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ لن تأتوا بسورة من مثله أبداً، فقد بان لكم أنه لا ريب في أنه كلام

الله أنزله على رسوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا﴾ حطبها الذي توقد به ﴿ٱلنَّاسُ﴾ أي جنس الناس، والمراد الذين استحقوها بمعصية الله ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فهذه النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ فلا تكفروا بالقرآن والرسول، وآمنوا لتنجوا منها، وجملة ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ حاليّة.

أي فاتقوا النار حال كونها أعدت للكافرين، ولما أنذر الكافرين اتبعه التبشير للمؤمنين، وهكذا جاء في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الصالح ضد الفاسد.

وفي (حديقة الحكمة) للإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة × : ((الصلاح في أصل اللغة: هو السلامة من الآفات، وهو نقيض الفساد في كلامهم، انتهى. وقال × : وصلاحها ـ أي الأعمال ـ سلامتها من آفات التبعات)) انتهى.

وتكرر في القرآن الكريم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ دون وعملوا الحسنات، ولعل الحكمة فيه: أن صلاح العمل لا يكفي أنه في الأصل حسن حتى ينضاف إلى ذلك أنه خالص من الرياء سليم من الإحباط، فلا بد من الإخلاص والتقوى ليكون مقبولاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

فالعمل الذي لم يخلص لله لا يعتبر صالحاً، وكل عمل محبط فهو غير صالح، بل هو كالزرع الذي أصابته آفة كما أن عامله لا يعد من الصالحين؛ لأنه معيب كأن به عاهة وفساداً، أما العمل الخالص لله المقرون بالتقوى والإيمان، فهو كالزرع السليم من الآفات والعوائق الذي ينمو ويثمر.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّتٍ﴾ هذه (اللام) تفيد: أنها لهم ملك أو شبه الملك، وتفيد: أنها صارت حقاً لهم، والجنة هي الأشجار أو الزروع الكثيرة التي تجن أي تغطي ما فيها.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ تكرر في القرآن الكريم هذا الوصف؛ لأن الجنات تحتاج إلى ماء وإلا اصفرت أوراقها، ثم يبست، أما إذا كان الماء يجري من تحتها، فهي لا تزال في صلاح ونمو وإثمار وخضرة جميلة تسر الناظرين، وفائدة أخرى: أنها لا يلحق أهلها عناء بسقيها كجنات الأرض التي تسقى من الآبار، بل الماء يجري من تحتها، وهذه صفتها، فلا تحتاج إلى إيصال الماء إليها من الآبار، والنهَر مجرى الماء الواسع، وفائدة أخرى وهي أنه يجتمع جمال الخضرة وجمال الماء ويتمم كل منهما جمال الآخر.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ أي من نوع من ثمارها ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أول ما أعطينا في الجنة ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا﴾ في حسنه ونفعه ولذته، قال السيد العلامة الكبير عبد الله بن أحمد الشرفي اليماني الزيدي، أحد تلاميذ الإمام القاسم بن محمد × في تفسيره (المصابيح): «قال المرتضى ـ يعني الإمام محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم عليهم السلام ـ: وقال بعض من يتعاطى العلم: أن معنى هذا الذي رزقنا أي في الدنيا وشبهوه بالثمر الأوّل، وليس ذلك عندي كذلك؛ لأنه إذا كان ثمر الجنة كثمر الدنيا فلا فضل إذاً لنعيم الآخرة على نعيم الدنيا، وهذا مخالف للكتاب محال عند ذوي الألباب.

والمعنى في ذلك عندي: أن معنى قول أهل الجنة: ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ يريدون بذلك: أنه لا يصلهم من الله ـ عزَّ وجل ـ رزق إلاَّ أعجبهم ووقع بمرافقهم.

ثم يصل بهم من بعد ذلك أرزاق تكون في الجودة والموافقة كالأول سواء؛ لأن أرزاق الدنيا منها موافق ومنها مخالف ومنها طيب ومنها رديء، وأرزاق الجنة كلها مؤتلفة مصيبة للشهوة، وقد فسر الله ذلك في آخر الآية، فقال سبحانه: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وقد قال بعض الناس: متشابهاً في الألوان، وذلك خطأ من المقال، وإنما المعنى: وأوتوا به متشابهاً في الإرادة والشهوة والمحبة؛ لأن أرزاق الدنيا لا تشتبه عند صاحبها...)) إلخ.

قلت: هذا تفسير حسن جداً، وهو وإن كان فيه حمل الكلام على التشبيه فقرينته ظاهرة، وهي أن الحمل على الحقيقة يؤدي إلى القول باستمرار أهل الجنة في الغلط وتكرار الغلط كلما رزقوا من ثمرة، وهذا بعيد جداً؛ لأن التجربة مرتين أو نحوها تكفيهم لمعرفة الغلط وتدعوهم إلى السكوت عن هذا الكلام؛ لأنهم أهل حكمة كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤].

فإن *قيل*: إنهم لا ينكشف لهم الخطأ، بل لا يزالون في الخطأ أبداً؟

قلنا: إنه يستلزم أن لا يعلموا أن قد وجدوا ما وعدهم ربهم حقاً؛ لأن من جملة الوعد هذه الآية، وقد أفادت أنهم يرزقون ثمرات مختلفة متشابهة، وهم في خطئهم يعتقدونها ثمرة واحدة تَرِدُ عليهم كل مرة، فأين وجدانهم لما وعدهم ربهم حقاً.

فظهر: أن ليس المراد ذلك، وأن المعنى: أنهم أعجبوا بالأول، فكانت لا تزال في أنفسهم لذته وفائدته لكونه الأول، فلم يزالوا يذكرونه عند كل رزق يماثله في اللذة والمنفعة، فيخبروا أنه مثله تعبيراً عن تكرار النعمة الكاملة، وهذا من طيب القول؛ لأنه شكر للمنعم، فظهر أن قولهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ من التشبيه المؤكد.

فأما قول من قال: إن المراد التشبيه بما رزقوا في الدنيا، فهو بعيد كما قال المرتضى × .

ولا معنى لتكرار القول في كل مرة بهذا المعنى، وأكثر أهل الدنيا فقراء لم ينالوا ثمرات الدنيا كلها لاختلاف البلدان في الثمرات وقلتها في بعض البلدان، ولا تكاد تجتمع أنواع ثمرات الدنيا في بلد واحد طيب فضلاً عن الخبيث الذي لا يخرج نباته إلاَّ نكداً، فكيف يقولون: هذا الذي رزقنا في الدنيا، ولم يرزقوا إلاَّ بعضه، فظهر ضعف ذلك التفسير. [انتهى البحث].

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ﴾ أي في الجنات ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ نساء مطهرات في خَلْقِهِنَّ، ليس فيهن وسخ ولا حيض، وظاهره أن في كل جنة من الجنات واحدة أو أكثر، فالذي له جنات تتعدد أزواجه كما في (سورة الرحمن).

ويمكن أن الله تعالى فرق صفات الحور، كما فرق صفات الجنة في القرآن لحكمة في ذلك، تشويقاً للقارئ حيث يطلع على وصف في آية فيرغب لأجله وحده، ثم يطلع في موضع آخر على وصف آخر فتجدد رغبته وتقوى، ثم يطلع على وصف زائد على ما قد وجد، فتزداد رغبته وتجدد له عند كل وصف رغبة مع الرغبة الأولى، ولا تزال تجدد له الرغبة بتجدد الأوصاف، وهكذا في الإنذار والتخويف.

وعلى هذا فلا نحتاج إلى قولنا: لعل وصف الحور بالطهارة دليلٌ على أن الطهارة أهم أوصاف الحور، ويكفي أن نقول: إن ذلك ترغيب كامل مستقل يدل على أهمية الطهارة في الترغيب، ولا حاجة إلى أن نقول: يشمل التطهير الخُلُقي؛ لأنه وإن كان من أوصافهن فلا يجب ذكره هنا، وله محل آخر أي للحصانة والعفاف، وهذا هو الراجح لعدم الدليل على إرادة المعنيين هنا.

﴿وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قال القاسم بن إبراهيم × في (تفسير سورة البينة): ((وتأويل ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ فهو بقاؤهم أبداً بعد المصير إليها)) انتهى.

ومعناه: أنهم لا يزالون أحياء لا يموتون، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [الأنبياء:٣٤-٣٥] وفي (معلَّقة طَرفَه):

ألا أيُّ هذا الزاجرى أَحْضرُ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتـــي فدعني أبادرها بمـــا ملكت يدي

وهكذا اقترن الوعيد بالوعد كما سيقترن معناهما في الوقوع يوم القيامة، وفي الجمع بينهما زيادة ترغيب وترهيب، لما يستفاد من المقابلة من الترهيب بالنار، وفوات الجنة، ومن الترغيب بالجنة والسلامة من النار ، وبضدها تتميز الأشياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير هذه الآية: ((قال المرتضى × : الاستحياء من الله ـ عزَّ وجل ـ ليس من طريق الخجل ولا الحصر، ولا يتوهم ذلك من له دين أو معرفة بالله أو يقين، وإنما المعنى في ذلك: أنه لا يرى في التمثيل للحق والصواب والصدق بما صح من الأمثال عيباً ولا خطأ ولا مقالاً لأحد من أهل الكفر والضلال، بل ذلك عند الله ـ تبارك وتعالى ـ صواب وصدق حسن، وذكر مثل هذا سواءً الهادي ×)) انتهى.

قلت: فالمعنى: أنه ليس عيباً عند الله أن يضرب المثل بالبعوضة فما فوقها، ولا هو مما يتعلق به الحياء في نفس الأمر.

قال في (الكشاف) بعد إيراد كلام حسن في تفسير الآية: ((ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة، فقالوا: أما يستحيي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت؟؟،فجاءت على سبيل المقابلة، وإطباق الجواب على السؤال، وهو فنّ من كلامهم بديع وطراز عجيب..)) إلخ، راجع (الكشاف) إن شئت.

قال الشرفي: ((و [ما] هذه إبهامية، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادته شياعاً وعموماً، كقولك: أعطني كتاباً مَّا، تريد أي كتاب كان أو صلة للتأكيد، كالتي في قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء:١٥٥])) انتهى.

قلت: والأول أحسن لأنه مطابق للمقصود؛ لأن المراد أيّ مثل أراده سبحانه ولأي معنى صحيح ضربه، مع أن كونها صلة في هذا الموضع لا يعرف له نظير، ولم يمثل له في (مغنى اللبيب).

قال في (الكشاف): ((وضرب المثل اعتماده وصنعه من ضرب اللبن وضرب الخاتم، وقال: وانتصب بعوضةً بأنها عطف بيان لِمثلاً أو مفعولٌ ليضرب، ومثلاً حال عن النكرة مقدمة عليه، أو انتصبا مفعولين فجرى ضرب مجرى جعل)) انتهى.

قلت: هذا الآخر أظهر؛ لأن المعنى في هذه الآية وأمثالها جعل الشيء مثلاً، كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً﴾ [النحل:١١٢] وقوله: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ [النحل:٧٦] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا﴾ [النحل:٧٥] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الزمر:٢٩] ولا يصح عطف البيان في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً﴾ [الزخرف:٥٧] ولا الحال في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت:٤٣] وقد جاء التصريح بجعل في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ لأنه صواب في نفسه لا موجب للحياء منه، ولأنه من الله العزيز الحكيم الذي لا يقول ما هو عيب ونقص ـ سبحانه وتعالى ـ فلو لم يعرفوا وجه صحته لآمنوا بأنه الحق من الله؛ لعلمهم أن هذا القرآن كلام الله لا ريب فيه ولا اشتباه وإيمانهم به.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً﴾ استنكاراً لجعله مثلاً، وتجاهلاً بالحكمة فيه، والغرض من ذلك الجدل في القرآن، وإن نسبوه إلى الله، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] وجاء الجواب عنهم: إن الله أراد به الفتنة والاختبار.

﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ باختباره لهم المؤدي إلى كشف ما كان مستوراً منهم، والذي ازدادوا عنده رجساً إلى رجسهم ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ باختبارهم المسبب لزيادة إيمانهم لما فيه من توضيح الحق والحكمة.

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ الذين هم بفسقهم مستعدون للضلال به، مستحقون للخذلان، والفسق: الخباثة والفجور، ألا ترى إلى هذه الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ والمقابلة بين المؤمن والفاسق في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ [السجدة:١٨] وقال في أصحاب القرية الذين اعتدوا في السبت: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥] وقال تعالى: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] وقال تعالى: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة:٦٧].

فظهر: أن الفاسقين: هم الخبثة الفجار بأي سبب، ويناسب ذلك قول العرب للعاهرة: فَسَاق، وإن كان ما يعد خباثة قبل الإسلام أقبح من بعض ما يعد خباثة بعد الإسلام، كسباب المؤمن، ونبزه باللقب السيء، ومضارة الكاتب أو الشهيد.

بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ العهد: الوعد المؤكد باليمين، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل:٩١] وقال تعالى:﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:٣٤].

فهذا المعنى هو الذي ينسب إليه الوفاء أو النقض، فأما العهد بمعنى التوصية فينسب إليه الطاعة أو المعصية أو نحو ذلك، ونقض العهد إهماله وترك اعتباره بالحنث كأنه كان عقدة محكمة فنقضها بمخالفة العهد كأنه جعلها في اعتباره لها وصيرها منقوضة، والميثاق توثيق الوعد وتقويته ليوثق به، قال: ﴿حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُونَنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ [يوسف:٦٦].

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فسره في (الكشاف): بقطع الأرحام، وقطع موالاة المؤمنين، ولا إشكال أنها عامة في كل ما أمر الله به أن يوصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهو الفساد الذي من شأنه أن ينتشر في الأرض، كمحاربة الدين، ومحاربة اقتصاد أهله ليغلبوا، وإيراد الشبهات ضد الحق، ونشر الدعايات التي يعم فسادها ونحو ذلك، فهذا الفساد هو الفساد في الأرض، ومنه كل ما يعم ضره كتحريق كتب الهداية وإضاعتها عن طلابها، وقتل علماء الدين.. ونحو ذلك، فهو كله إفساد في الأرض، ينسب الإفساد في الأرض إلى من فعل خصلة منه.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ قد استحقوا الإضلال بهذه الجرائم كانوا قد اشتروا الضلالة بالهدى، وتلك الصفقة الخاسرة لما تؤدي إليه من سوء العاقبة وعذاب الآخرة وفوات فائدة ثواب أهل الهدى الذي هو جنات النعيم، وهذا لأن هذه الآية مرتبطة بالتي قبلها بقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ..﴾ إلى آخر الثلاث، صفة للفاسقين الذين يضلهم بضرب المثل المذكور، أي يبتليهم به ويفتنهم ويختبرهم به فيضلوا.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على تحريم نقض عهود الله، وعلى تحريم قطع ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام، وإيتاء ذي القربى، وأداء الأمانة إلى أهلها، ومودة ذوي القربى، والاجتماع على الحق، وترك التفرق في الدين إلى غير ذلك، وعلى تحريم الفساد في الأرض)) انتهى.

قلت: كل علاقة واجبة، فهي داخلة في ذلك كموالاة المؤمنين، ولما كان الكافرون قد ذكروا ووعدوا بالنار وكان كفرهم بالقرآن والرسول قد احتج لإبطاله بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا..﴾ إلى آخر الآيات، وكفرهم بالتوحيد قد سبق إبطاله بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وبقي كفرهم باليوم الآخر لمجرد استبعاد إحياء العظام وهي رميم؛ لأنهم كانوا جامعين بين هذه الأنواع من الكفر، وكان كفرهم باليوم الآخر يتضمن نفي قدرة الله وعلمه قدرته على إعادتهم وعلمه سبحانه بأجسادهم وقد ضاعت في التراب ردّ عليهم سبحانه بقوله:

خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ أي قبل إحيائكم في بطون أمهاتكم ﴿فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ فهو الذي يحيي ويميت، فكيف لا يقدر على إعادتكم، بل لا بد من الإعادة، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ إليه وحده دون شركائكم، فيجازيكم بكفركم، فقد جمعت الآية الاحتجاج عليهم ووعيدهم وتوبيخهم على الكفر، مع أنه سيعيدهم ثم إليه يرجعون فيعاقبهم، ولا يجدون من يشفع لهم أو ينصرهم؛ لأنهم يرجعون إليه وحده يحكم فيهم ما يريد.

﴿٢٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وذلك نعمة عليكم، فحق عليكم أن تشكروا ولا تكفروا، وهو دليل على قدرته على إعادتكم، من حيث هو دليل على أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأن صنع ما في الأرض من حاجات الإنسان المطابقة لحاجته المناسبة لخلقه وإتقان صنعها، وما فيها من اختلاف الصور المحكمة والألوان والطعوم والروائح وأسباب النفع، كل ذلك دليل على أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ تمثيل لصنعه للسماوات بصنع من يتجّه إلى المصنوع ويقبل على عمله فيه ويقصد إليه لا يلتفت إلى غيره، وذلك في المخلوقين يكون لقوة الرغبة في ذلك العمل، أو لشدة الاهتمام به لصعوبته، ولا يصح التمثيل بهذا لله سبحانه؛ لأنه لا يصعب عليه شيء، فما بقي إلاَّ التمثيل بالأول.

ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ

ولعل المراد: التنبيه على الإرادة بلا إهمامة؛ ليدل على أنه فعال لما يريد، فأما ﴿ثُمَّ﴾ فيظهر: أنها هنا للترتيب بين الآيتين في الاستدلال، لا للترتيب في خلق الأرض وخلق السماء؛ لأنه تعالى قد جمعها في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١] ونظير الترتيب لغير الترتيب في الوقوع قول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

فهو ترتيب المدح لا تعبير عن الترتب في الوقوع.

أما قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٢٧-٣٠] فيظهر منه: أن دحو الأرض وتهيئتها لمعيشة البشر متأخر عن خلق الأرض والسماء؛ لأن الليل والنهار بالنسبة إلى الأرض إنما هو بعد خلقها، وكما تشير إلى ذلك الآيات في (سورة فصلت) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [آية:٩-١٠] فظهر: أن ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ إنما هي للترتيب في ذكر الدليلين.

﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تسويتها إحكام صنعها سليمة من النقص والخلل، وهذه دلائل على قدرته وعلمه، فكيف تكفرون به وهو بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه كيف يعيدكم إذا ضللتم في الأرض.

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ واذكر في شأن علمه تعالى بكل شيء، إذ قال ربك ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والخليفة: هو الإنسان، كأنه خليفة لله سبحانه؛ لأنه يظهر مكنون آياته المخبوءة في الأرض ولأمور غير ذلك.

﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نقول تنزيهاً وتبرئة من العيوب وتبعيداً عن النقائص حامدين لك ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نقول تنزيهاً لك وتبعيداً عن العيوب عابدين لك بالتقديس، فالتسبيح: تنزيه عن العيوب وعما هو نقص من العظمة والجلال.

والتقديس: تنزيه عن القبائح، وفائدة الجمع بينهما؛ التصريح بالتنزيه عن القبائح، قد أعلمهم الله سابقاً أن الإنسان سيكون منه من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فسألوه أن يجعلهم هم الخليفة في الأرض ليسبحوا بحمده ويقدسوا له في الأرض؛ لأنهم يحبون الله، ويكرهون أن يستخلف من يعصي.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فأنا أعلم حكمة لا تعلمونها في جعل الإنسان خليفة، وإن كان منه من ذكرتم.

وحكى الشرفي في (المصابيح): عن المرتضى محمد بن الهادي إ في تفسير هذه الآية ما لفظه: ((وقلت: ما معنى جواب الملائكة حين يقولون: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الخبر جاءهم من عند الله أم [من] عند أنفسهم؟

قال × : فهذا الخبر خبر غيب لا يعرفه الملائكة ولا تقع عليه إلاَّ بإخبار الله لهم، ولكن الله ـ عزَّ وجل ـ قد أطلعهم عليه وأخبرهم بما يكون من بني آدم من سفك الدماء والإفساد في الأرض وما يكون منهم من عناد، فكان هذا منهم استفهاماً لا معارضة ولا شكّاً في أمر الله تبارك وتعالى، وأعلمهم سبحانه أنه يعلم ما لا يعلمون، بما سيكون من المؤمنين والأنبياء المبعوثين إليهم، والأمر والنهي الذي بثه فيهم، وما في ذلك من الصلاح.

ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ

فكانت معصية الخلق من أنفسهم اختياراً بلا جبر من الله لهم، ولا إدخال في معصيته، ولا إخراج من طاعته، ولم يكن فعل هؤلاء المختارين للمعصية ـ من بعد أن مكنهم سبحانه من الطاعة وبيّن لهم ما فيه النجاة ـ بموجب ترك خلقهم ورفض إظهار الحكمة فيهم وما أراد سبحانه من الصنعة وإيجاد البرية وإظهار القدرة، وقد علم الله ما يكون من فعل النبيين وطاعتهم واجتهادهم له وما يكون من المؤمنين من الطاعة والعبادة والتسليم لحكمه، والمجاهدة للظالمين حتى يفيئوا إلى أمر الله ويرجعوا إلى طاعته، فكل هذا خير كبير وفضل جليل علمه الله أنه سيكون من ولد آدم، ولم تعلمه الملائكة حتى علّمها الله به وفهّمها ذلك)) انتهى.

قلت: هذا كلام جيد، ومن فوائد إيجاد الخليفة: اختبار الملائكة بأمرهم بالسجود لآدم ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ولا نحصر فوائد ذلك لقصور علمنا.

﴿٣١﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ عمومه يدل: أن قد علمه اسم كل جنس من أجناس المخلوقات، كالماء، والنار، والحديد، والذهب، والفضة..إلى غير ذلك، ولعله سبحانه علمه ذلك إعداداً للخلافة في الأرض، فعرفه ما فيها من المعادن والشجر والدواب وغيرها ليدري كيف ينتفع هو وذريته بما خلق لهم فيها، من حيث أن تعليم الأسماء من حيث هي أسماء يستلزم تعريف المسميات، ويؤكد ذلك قوله سبحانه:

أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فالمعنى: عَرَضَ المسميات على الملائكة بتغليب العقلاء، وهو سبحانه وتعالى قادر على عرض الأجناس التي خلقها كلها، فلا نحتاج إلى أن نقول المراد عرض صورها كما في التلفزيون والسينما، فإن كان المراد عرض ما قد خلق وما سيخلق، فعرض ما سيخلق عرض صورته.

وقوله سبحانه للملائكة: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ أي قولوا لي بأسماء هذه الأشياء المعروضة عليكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنكم أهل للخلافة في الأرض، حيث قلتم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ فإذا لم تعلموا أسماءها، كما علم آدم × فهو وذريته أحق منكم بالخلافة في الأرض؛ لأنهم بتصرفهم في الأرض بالحرث وغيره، وبتصرفهم فيما خلق لهم فيها يظهرون آيات كثيرة تدل على الله، وينتفعون فيها بنعم كثيرة تدل على كرم الله، كالطائرة، والسيارة، والكهرباء، وما فيه من المنافع، ولولا الإنسان ما ظهرت هذه الأشياء، ولكن ظهرت على يديه؛ لأن الله علمه ما لم يعلم، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ سبحانك أنت أحكم الحاكمين، وأنت علام الغيوب، وعلمنا قاصر عن علم أسماء هذه الأشياء ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العليم بكل شيء الحكيم في كل قضاء.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم﴾ أي أخبر الملائكة ﴿بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ بأسماء ما عرض على الملائكة ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ وتبيّن لهم امتياز الإنسان بعلم ما جهلوا.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فكان هذا يغنيكم عن السؤال بقولكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ لأنه حلٌّ لكل إشكال يعرض في أي شيء من أقواله سبحانه أو أفعاله أن يعلم العبد أن الله سبحانه يعلم وجوه الحكمة كلها، وليس جهلنا بالحكمة في بعض الأشياء دليلاً على عدم الحكمة؛ لأنا قد نجهل الحكمة ثم نعلمها بعد الجهل بها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيدهم: أن لها غيباً، والغيب: ضد الشهادة، فهم يشاهدون الأرض ولا يعلمون ما أخفي فيها من منافعها ومصالحها وفوائد ما فيها، وكذلك السماوات، فغيب السماوات والأرض يعلمه الله سبحانه، وقد أفهمهم أن لها غيباً يعلمه سبحانه ولا يعلمونه، والظاهر في الإضافة أنها على معنى في، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:٧٥].

وإذا كانت الإضافة على معنى (اللام) شمل العموم فوائد الأجزاء، وما يترتب عليها مما تقتضيه الحكمة، وما يتعلق بهما من المغيبات التابعة لوجودهما، ولا يجب أن يكون غيب السماوات والأرض خارجاً عنهما وإن كانت الإضافة على معنى (اللام) كما لو قيل: يعلم ما لهما من الفوائد المحجوبة فيهما.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم﴾ لا يلزم منه أنهم قد صاروا بإنبائه لهم عالمين بها كما يعلمها آدم؛ لأن الغرض من إنبائه لهم أن يعلموا امتيازه بعلم الأسماء لا أن يصيروا عالمين بها كما يعلمها؛ لأنه يمكن أن لا يحفظوا كل ما سمعوه لعدم إعدادهم لحفظه، والأقرب: أن المعروض على الملائكة الجمل من المسميات ليسهل إخبار آدم لهم بها؛ لأن إنبائهم بالأسماء كلها على التفصيل يطول ويستغرق زماناً طويلاً.

وعلى ذلك: لا يكون أنبأهم بالأسماء كلها على التفصيل، فمثلاً عرض عليهم الحيوان والشجر والمعادن وأسماؤها الجملية ثلاثة أسماء، وهكذا سائر الجمل، وهي تشتمل على أصناف كثيرة جداً وأسماؤها كثيرة جداً تستدعي قاموساً، فلا يلزم أن يكون الملائكة(عليهم السلام) قد علموا الأسماء كلها كما علمها آدم ×.

وكذلك لا يلزم أن تكون مسميات الأسماء كلها هي من غيب السماوات والأرض، وإنما يلزم أن يكون بعضها غيباً أو أن يكون بعض أسمائها غيباً؛ لأنهم قالوا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ ولم ينفوا علمها كله، وعلى هذا فالأسماء هي شاملة لأسماء غيبها وشهادتها وحين أنبأهم آدم بأسماء ما عرض عليهم ظهر لهم بعض ما كان غيباً في حقهم، فصح أن يرتبط بذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فالإبداء والكتمان من بعضهم لبعض ولبعضهم من بعض، وذلك كالجواب على قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فكأنه قال: أنا أعلم بما تسرون وما تعلنون، ولم يقرهم على دعواهم الصلاحية؛ لأن في جملتهم إبليس، فقوله: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يفيد: أنه يعلم ما فيهما من المناسبة والصلاحية لإسكان أهلهما فيهما وما في أهلهما من الصلاحية لهما.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يفيد: أنهم لا يعلمون ما يكتمون، فدعواهم إنما هي مبنية على الظاهر، والله أعلم بالحقيقة، وهذه كالتقدمة لابتلائهم بالأمر بالسجود لآدم الذي عنده انكشفت حقيقة إبليس، وأنه لم يكن في عبادته على يقين ـ والله أعلم.

وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ

وبهذا يظهر: أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ كان جواباً عليهم في كلامهم في الإنسان، وفي كلامهم في أنفسهم، حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وفي هذه القصة الكريمة فوائد:

الأولى: بيان أن الله بكل شيء عليم، عالم الغيب والشهادة، عالم ما كان وما سيكون.

الثانية: أن نعتقد الحكمة والصواب في كل أفعاله - سبحانه - وأقواله سواء عرفنا وجه الحكمة أم جهلنا؛ لأنه يعلم ما لا نعلم، فجهلنا بها لا يدل على عدمها.

الثالثة: أن لا نزكي على الله أحداً إلاَّ من زكاه الله؛ لأنا لا نعلم إلاَّ الظاهر في غير من زكاه الله تعالى، ومن زكيناه، فالمعنى: أنا نعتقد ذلك بناءً على الظاهر، ونبني على هذا الاعتقاد الموالاة والمعاملة وإن لم نقطع بالمغيب عنا من سرّه الذي قد يكون هو غافلاً عنه، وليس المراد بالتزكية له القطع على مغيبه، ولعل هذا هو ما نهى الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢].

﴿٣٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قُلْنَا﴾ القائل: هو الله، وهذه نون العظمة، فيها مناسبة لأمره تعالى للملائكة كلهم وابتلائه لهم؛ لأنه مالكهم يحكم فيهم ما يريد ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ السجود هنا: تعظيم بغير عبادة لآدم، وهو - وإن كان سجوداً لآدم - فهو عبادة لله؛ لأنه طاعة له، وتسليم لأمره، وخضوع له؛ لأنه ربهم المالك لهم الذي له الحكم فيهم.

ولم يسألوا لماذا صح السجود لآدم؟ لأنه قد تقرر عندهم أن الله هو العليم الحكيم، وأنه يعلم ما لا يعلمون، فالسجود لآدم عبادة لله من حيث هو طاعة، ومن حيث هو تسليم، فسجودهم لآدم سجود لله بهذا المعنى، وليس هذا السجود لآدم، وكذلك السجود ليوسف ليس عبادة؛ لتجرده عن معنى العبادة الذي هو الاعتراف بالعبودية، كما يفيده قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ الآية [النساء:١٧٢] أي عن الإقرار بالعبودية، والاعتراف بأنه عبد لله.

وقوله تعالى في المشركين: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] وفي هذه الآية وأمثالها دلالة على أن صيغة الأمر من الله سبحانه تفيد الوجوب؛ لأنه وجب عليهم السجود بقوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وسمّى قوله ذلك أمراً في قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢] فدل على أن تلك الصيغة أمر.

﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ امتثالاً لأمر الله ربهم ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ أن يسجد، أي امتنع من امتثال هذا الأمر ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ﴾ عن السجود لآدم، اعتقد في نفسه أنه أكبر من أن يسجد لآدم ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كان من جملة الكافرين، وكفره إما بجحده للحكمة والصواب في الأمر بالسجود لآدم كما يفيده قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢] وقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف:١٢] وأما إنه كان كافراً من قبل.

فمعنى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي من قبل، وذلك باعتقاد باطل كان يكتمه عن الملائكة، هذا إذا كان معنى الكفر الجحود، فإن كان معناه الرفض والمباينة، كقولهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] فظاهر، وكذا إن كان معناه ضد الشكر، كما في قوله: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ..﴾ الآية [النمل:٤٠].

والظاهر: أنه قد كفر بالمعاني الثلاثة كلها، فيحمل عليها كلها، على قول من يصحح استعمال المشترك في معانيه جميعاً إذا لم يوجد قرينة تعين المقصود من معانيه، ولكن كفره بجحد الحكمة والصواب أقرب؛ لاقترانه بما ذكر في الآية فيحمل عليه، وإن كانت المعاني قد اجتمعت فيه.

وهل استثناء إبليس متصل كما هو الظاهر لدخوله في أمر الملائكة بالسجود فيشكل جعله من الملائكة مع قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]؟

والجواب: أن العرب لا تعرف الملائكة جنساً خاصاً كجنس البشر، وإنما تعرف أنهم خلق آخر في السماء مكرمون عند الله مقربون، وليس في مفهوم اسم الملائكة عندهم أنهم خلقوا من أصل واحد.

وعلى هذا: فيجوز أن تختلف أصولهم مع كونهم كلهم ملائكة، ويمكن أن نجعل الآيتين دليلاً على ذلك، فقد دلت آية على أنه كان من الملائكة حين أمروا بالسجود وشمله الأمر كما شمل كل واحد منهم، ودلت الآية على أنه كان من الجن، ولا مانع من ذلك في العقل ولا في المعلوم من السمع، ولعل سبب مصيره ملكاً طول عبادته مع الملائكة في السماء، فقد روي أنه عَبَدَ الله ستة آلاف سنة.

فإن قيل: فيشكل هذا على ما سبق من احتمال أنه كان كافراً من قبل؟

فالجواب: أنه يحتمل أنه كان عابداً مخلصاً، وفي آخر أمره فتن مثلاً عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ والله أعلم، وعلى هذا فلا تعارض بين كونه صار ملكاً لطول عبادته مع الملائكة، وكان كافراً بعد ذلك قبل الأمر بالسجود لآدم، وفي هذا الموضع اقتصر من قصة إبليس على ما ذكر كأن المقصود ما أشار إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٣٦﴾

فبالنسبة إلى قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ ذكر (قصة الأسماء) وبالنسبة إلى قولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ذكر قصة إبليس، فبين بالقصتين أنه يعلم ما لا يعلمون في شأن الإنسان وفي شانهم.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ العطف على ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ إلى آخر القصة عطف على قصة إبليس في امتناعه من السجود، قصة إغوائه لآدم وحواء، وإخراجه لهما من الجنة.

وقوله: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ معناه: أقيما في الجنة ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ رزقاً واسعاً رافهاً ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من الجنة تجدان المأكول كثيراً في كل ناحية أردتما الأكل فيها.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ هذا نهي أفاد التحريم للشجرة المشار إليها، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ بالمعصية؛ لأن معصية العبد لمالكه المنعم عليه حيف وجور ضد العدل، فهو ظلم بهذا المعنى، وإن لم يكن ضراً على الله سبحانه وتعالى بل ضره على العبد فيقال: ظلم نفسه من حيث أن ضره عليه، لا لأنه مفهوم الظلم هنا.

ومثله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] معناه: شديد الحيف والجور والتعدي؛ لأن الله هو الخالق المنعم بالنعم التي لا نحصيها، فهو المستحق للعبادة، فصرفها لغيره حيف وجور شديد، وليس المراد أن الإنسان لا يظلم نفسه بالمعاصي، وإنما المراد أن ذلك معنى الظلم في هذا السياق، وأمثاله مما يراد به تحقيق الوقوع في المعصية كما أن ظلم الإنسان نفسه المراد في نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] أو هو من معناها.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ جعل الشيطان هذه الشجرة سبباً لزلتهما، والزلة الخطيئة، ولعلها سميت زلة تشبيهاً بالزلة في الطين، ونحوه مما يسبب لسقوط الإنسان، فكأنهما إنزلقا إلى الخطيئة انزلاق من لا يشعر أنه يسقط في طين أو نحوه، وهذا يشعر بأنهما إنما أكلا منها بخديعة من الشيطان وحيلة لا جرأة على الله وتعمداً لمعصيته، فهو يناسب ما يروى مما يفيد: أنهما أكلاها بضرب من التأويل وهو أنها كانت زرعاً، والمنهي عنه شجرة البر، فأكلا منها على تجويز أن المنهي عنه شجرة الشعير، وترددهما في المنهي بعد علم آدم أنه البر لنسيانه.

وهذا لا يستقيم على تفسير الإشارة في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بأنها إشارة إلى عين الشجرة وشخصها، إنما يستقيم على تفسير الإشارة بأنها إشارة إلى الجنس، كما في الحديث في شجرة الثوم: ((من أكل من هذه البقلة فلا يقربن مسجدنا)) رواه الإمام زيد بن علي إ في (المجموع).

ويشكل على هذا قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢٠-٢٢] فظاهره: أنهما أكلا من الشجرة بسبب رغبتهما فيها لتحصل لهما المنفعة الموهومة، فكيف صح أن تقول: لم يكونا متعمدين أكلها؟

والجواب: لا إشكال أن الرغبة فيها هي الباعث، ولكن يمكن أنهما وإن رغبا فيها كانا كارهين لتعمد المعصية، فلم تبعثهما الرغبة على تعمد أكلها على أنها هي الشجرة المنهي عنها، ولكن بعثتهما الرغبة على ترك الوقوف عند الشبهة فقد كان يمكنهما العدول عن الشجرة التي فيها شبهة إلى غيرها

من المأكولات الكثيرة، كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فلا ضرورة للأكل من هذه الشجرة المشتبهة، ولكنهما كانا لشدة رغبتهما في فائدة الشجرة الفائدة الموهومة المزعومة يرغبان في أن يأكلاها بدون أن يتعمدا أكلها لتحصل فائدتها من دون تعمد المعصية، وهذا شأن بعض الناس إذا رغبوا في الشيء طلبوا توجيهاً يخلص عن المعصية.

فمن هنا أكلا منها راغبين في أن تكون في الواقع الشجرة المنهي عنها مستأنسين بأنهما لا يعلمان أنها هي الشجرة المنهي عنها، ناسيين أن الله قد حذرهما من الشيطان حيث أعلمهما أنه لهما عدو مبين، فكان الباعث على أكلها هو الرغبة فيها، مع أنهما غير متعمدين لها من حيث هي الشجرة المنهي عنها، فظهر: أنه لا تلازم بين كون السبب الرغبة وكونهما متعمدين للمعصية، فمن هنا انزلقا في المعصية وكانت تلك زلة أقيما منها وعثرة أقيلا منها.

والشيطان هو الذي شأنه الإغواء عن طريق الحق بالتغرير، ألا ترى أن إبليس عبر عنه باسمه الأول حين امتنع من السجود لآدم ولما احتال لإغواء آدم وحواء صار اسمه الشيطان وعبر عنه بهذا الاسم.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من رغد العيش بغروره ﴿وَقُلْنَا﴾ لآدم وزوجه ولإبليس: ﴿اهْبِطُوا﴾ أما آدم وزوجه المخلوقة منه، فهبوطهما من جنتهما، وأما إبليس فهبوطه من السماء أو من جنة آدم؛ إذ لا يبعد أنه لما طرد من السماء صار إلى آدم وحواء ليغويهما، وهذا هو الراجح، ولعلها لم تكن في حقه رفاهية ورغداً؛ لأن ما فيها معدّ للإنسان خاصة؛ ولأن إبليس مستغرق بالحسد والحقد، فليس له في جنة آدم راحة.

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ

﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ يبيّن أن عداوة الشيطان لهما باقية لم تنته عند إغوائه لهما وإخراجهما من الجنة، وأما عداوتهما له فبالدعاء عليه واللعنة له ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي إلى وقت تستقرون فيها وتتمتعون بما فيها من المنافع القصيرة الأمد من حيث أنكم تنتقلون من الأرض إلى موضع الجزاء في الآخرة النار لإبليس والجنة لآدم وزوجه حيث البقاء الدائم الذي بالنسبة إليه اعتبرت مدة نعم الأرض قصيرة، فسميت متاعاً، والحين وقت الموت.

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ هذه الكلمات مبهمة تلقاها آدم، أي قبلها أو تلقنها، فكانت سبباً لأن يتوب عليه، ولعلها دعوته إلى التوبة، والإيحاء أن يقولا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ الآية [الأعراف:٢٣] أو إعلامه أن قد عصى بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢].

قال الشرفي في (المصابيح): ((واختلفوا في تلك الكلمات ما هي؟ فقال الهادي × : والصحيح عندنا: أن الكلمات هو ما كان الله قد أعلمه بخلق من سيخلقه من ذريّة آدم ونسله، أنه سيكون منهم مطيع ويكون عاص باختيارهم، وأنه سبحانه يقبل التوبة من تائبهم إذا تاب وأخلص التوبة وراجع..)) إلى آخره.

قال الشرفي: ((وفي تفسير هذه الكلمات يقول القاسم بن إبراهيم إ : هن كلمات الاستغفار والتوبة والإنابة، ذكرهن آدم بعد المعصية، فطفى بهنّ

ما وجب عليه من غضب ربّه، فلما أن تلكم بكلمات التوبة وأظهرهنّ صرف الله عنه العقاب وصار حكمه عند الله حكم من أناب وتاب)) انتهى.

قلت: لا مانع من هذا التفسير على أن يكون الله تعالى أمره أن يقول كلمات التوبة، فتلقاها من ربه وقالها، فكانت الكلمات من الله حين أمره بها، ومن آدم حين قبلها وتكلم بها، فكان (تلقَّى) هنا مثل (تلقن).

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قبل توبته، ولم تذكر حواء هنا؛ لأنها تابعة له، وقد ذكرت في قوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ إلى آخر الآية [الأعراف:٢٣] والأرجح عندي الموافق لما في (سورة الأعراف) أن الكلمات قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ..﴾ إلى آخر الآية [آية:٢٢].

وأن تلقيها هو التوبة بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [آية:٢٣] فهنا أجمل الكلمات وهناك بينها والقصة واحدة، والسياق واحد، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، ووجه كون قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ [الأعراف:٢٣] إلى آخره تلقياً للكلمات، أن الكلمات موعظة باعثة على التوبة، فكانت التوبة تلقياً لها وقبولاً يؤكد كونها قبولاً، التطابق بين قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ [الأعراف:٢٢] وقول آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣].

وقد *يقال*: كيف قدم هنا الأمر بالهبوط على التوبة، وفي (سورة الأعراف) قدم التوبة؟

والجواب: أنه هنا ذكر الأمر بالهبوط قبل التوبة، وذكره بعد ذكر التوبة فلا تعارض، وإنما هنا زيادة ذكر الأمر بالهبوط قبل ذكر التوبة، ولعله تكرر هنا توطئة لما رتب عليه في الآيتين وكان الأمر متكرراً في الواقع، وأجمله في (سورة الأعراف) وبنى عليه ما في الآيتين.

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ

ومنشأ الإشكال توهم أن قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ [آية:٢٤] متصل بقوله تعالى: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا..﴾ إلى آخر الآية [آية:٢٣] بحيث يتوهم أن الأمر بالهبوط مبني على التوبة؟

والجواب: أن قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا﴾ [الأعراف:٢٤] متصل بالقصة كلها جملة، وهي مبني على أكلهما من الشجرة وإخراجهما من الجنة لا على التوبة، فلا يدل ذلك على أنه لم يتكرر، وإنما أجمل الحكاية في (سورة الأعراف) وفصلها في (سورة البقرة) كما فصل في (سورة الأعراف) ما أجمل هنا في قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ..﴾ الآية.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا﴾ ظاهره الأمر لآدم وزوجه والشيطان، وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ ظاهر الضمير للجنة، وهذا يصحح ما رجحت من أن إبليس لما طرد من السماء صار إلى جنة آدم ليغويه ويوقعه في المعصية.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ إرشاد إلى طريق الحق بكتاب أو وحي إلى نبي ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والمراد في الآخرة يأمنون عذاب الآخرة وأهوالها، كذا قيل.

والأرجح: أن المعنى لا يخاف عليهم، والنفي هذا كقوله تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي ليس من شأنهم أن يخاف عليهم غيرهم أو لأنه الواقع لأن من عرفهم لا يخاف عليهم العذاب، ولا يحزنون كما يحزن أعداء الله في الآخرة؛ لأنه قابل ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم الجاحدون لشيء مما يجب الإيمان به.

والمكذبون بآيات الله: هم الذين يقولون: ليست آيات توجب الإيمان بما تدل عليه، والآية هي العلامة الدالة ومنها آيات القرآن؛ لأنها تدل على الحق، وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر الآية، فتأملها في مواردها نحو: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف:٧٣].

فالذين كفروا وكذبوا بآيات الله قد جمعوا بين جريمتين كبيرتين: الكفر بالله أو برسوله أو باليوم الآخر أو بالكتاب أو بالملائكة أو بالنبيين؛ لأن الكفر أساس الباطل وبعضه يدعو إلى بعض، فالكافر باليوم الآخر يتجرأ على الظلم وغيره من القبائح؛ لأنه لا يخاف العقاب ويفقد الرغبة في فعل الخير؛ لأنه لا يرجو الثواب، كما أشار إليه قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣] ولا يصلح المجتمع الإنساني إلاَّ بالرهبة من العقاب والرغبة في الثواب.

والجريمة الثانية: التكذيب بآيات الله يلجئون إليه تبريراً لكفرهم ومحاربة للحق وصداً للناس عن الإيمان، والجمع بين الجريمتين شأن الأمم التي كذبت الرسل، وهي جمهور العالم الإنساني، وهو شأن المكذبين بالقرآن وبالرسول محمد ص، فهو أمر توارثته جماهير الأمم من عهد نوح × أو من قبله إلى هذا الزمان على أنه أمر عظيم الخطر، فكان التقدم بذكره والتحذير منه من أول تكليف البشر بالشرائع هو الذي ينبغي إكمالاً للحجة على الأمم. وأصحاب النار هم سكانها الملازمون لها، وفي قصة آدم عبرة ولا سيما لأهل العلم، فقد ترادفت عليه النعم حيث عُلّم الأسماء وجُعل خليفة في الأرض وأمِر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلاَّ إبليس.

ومع ذلك تتابع عليه الوعيد: الأول: إذا أكل من الشجرة صار من الظالمين، وذلك يستلزم أنه يكون جزاؤه كجزاء سائر الظالمين إذا لم يتب، الوعيد الثاني: إذا أكل من الشجرة شقي بإخراجه من الجنة وجعله في دار العناء يحرث ويحصد ويغزل وينسج له ثوباً وغير ذلك، ويعرض له في بعض الحالات الجوع أو التعب أو الحر أو البرد.

فإن قيل: إن الشقاء والظلم بمعنى واحد؟

قلنا: لا موجب لذلك، ولا دليل عليه إلاَّ أن يقال: إخراجه من الجنة وما لحقه بعد ذلك من العناء لا يسمى شقاء؛ لأنه صحيح البدن قوي معدّ للعمل بفطرته، فلا يكون العمل شقاء، وخروجه من الجنة المفوّت للرفاهيّة فيها إلى عيشه في دار العمل لا يبلغ أن يسمى شقاء، وإن كان فيه مشقّة؛ لأنه لم يثبت أنه كان في الجنة التي فيها ((ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)).

ألا ترى أنه لم يذكر في جنة آدم أن فيها ما تشتهي نفسه أو ما يشاء، وإنما وصفت بأنه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى، وهكذا حالة كثير من الناس في أرض العمل، فليس أسف الخروج منها شديداً بحيث يعد شقاء؛ لأنه لا يبلغ أسف الطفل إذا فطم، بل ولا قريباً منه بالنظر إلى أن آدم يعرف من نفسه الكفاءة للعيش في دار العمل بسهولة وهناء، لكن يقال: لا بد أن يحصل له في أول الأمر شدة وعسر حتى تحصل الثمرة والثياب والفراش والمسكن. والشقاء في اللغة: الشدة والعسر.

فإن قيل: إذا لم يكونا واحداً، فكيف قال في (سورة البقرة): ﴿وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وفي (سورة طه): ﴿فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه:١١٧]؟

عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا

قلنا: هذه نفسها دليل لنا على أن الشقاء غير الظلم؛ لأن الظلم رتب الحكم به على الأكل من الشجرة والشقاء رتب على الخروج من الجنة، وهو متأخر عن الأكل من الشجرة، فقد كان من الظالمين قبل أن يشقى، وعادة القرآن أن يذكر في موضع شيئاً وفي موضع آخر شيئاً آخر من القصة الواحدة، انظر قصة آدم في (سورة البقرة) و(سورة الأعراف) ففي سورة البقرة ذكر الهبوط مرتين، وفي (سورة الأعراف) ذكر قوله: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا..﴾ الآية [آية:٢٢] وكذلك غيرها من القصص في القرآن الكريم.

الوعيد الثالث: في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وفي (قصة آدم ×) عبرة من حيث أن المعصية كانت سبباً لزوال النعمة، وفي ذلك تحذير لذريته من زوال النعم بسبب المعاصي، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] وعبرة قطع الطمع في دخول جنة الخلد مع الإصرار على المعاصي؛ لأن المعصية سببت الخروج من هذه الجنة، وهي دون تلك، فكيف يمكن دخول جنة الخلد التي لهم فيها ما يشاؤون مع العصيان، وفي نهج البلاغة نحو هذا عن أمير المؤمنين × ، وعبرة أن التوبة لم تنفع لإرجاع النعمة الفائتة بسبب المعصية، وإن سببت للخروج من الظلم والسلامة من العقاب؛ لأن توبة آدم × لم تنفع لإرجاعه في الجنة.

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ إسرائيل: هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل ـ عليهم وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام.

قَلِيلاً وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞

وبنو إسرائيل: هم أهل الكتابين: (التوراة) و(الإنجيل) وقد آمن بعضهم بنبينا محمد ص وبعضهم كفروا، فكبرت معصيتهم بكونهم أهل الكتاب يعرفون رسول الله ص كما يعرفون أبناءهم، وكونهم يفسدون من يقتدي بهم فجاءت فيهم هذه الآيات موعظة لهم، واحتجاجاً عليهم، وإنذاراً وبياناً لفسادهم وطغيانهم، وتمردهم حسداً وحبّاً للدنيا، لئلا يغتر بهم أحد ولتعظم الحجة عليهم يوم القيامة إن لم يقبلوا، وقد أجمل النعمة هنا وفصل فيما بعد بتعداد نعم كثيرة.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ ومن عهد الله الذي يجب عليهم الوفاء به ما ذكره سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧] وأما العهد العام فهو على قبول التوراة وذكر ما فيها من الإنذار والتبشير وغير ذلك، ويأتي ذكر مواثيق أخذت عليهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ..﴾ الآية، وقد ذكر عهده وعهدهم في (سورة المائدة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي..﴾ الآية [آية:١٢].

﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ الرهبة: الخوف، قال في (الكشاف): ((وهو من قولك: زيداً رهبته، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾)) انتهى. قلت: فالمعنى: أمرهم أن يخافوا الله، ولا يخافوا أحداً إلاَّ الله.

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ وهو القرآن الكريم، وفي كونه مصدقاً لما معهم قطع لعلّتهم؛ لأن الإيمان به لا ينافي الإيمان بما معهم.

﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ﴾ لأنهم بسبب الكتاب الذي معهم يقتدي بهم بعض الناس في الكفر، فنُهوا أن يكونوا أول هذا الفريق، أي قدوته ومتبوعه؛ لأن ذلك جريمتان؛ جريمة كفرهم، وجريمة صد الناس عن دين الله، كما قال تعالى في (سورة النحل): ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [آية:٨٨].

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَنزَلْتُ﴾ تنبيه على وجه وجوب الإيمان به، وهو أن الله أنزله فهو حق وصدق وإنزاله حق، كما قال سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] وكما قال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تتبدلوا بها متاع الدنيا فإنه قليل بالنسبة للثمن المدفوع فيه، ولأنه يفنى عن قليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِى﴾ يعم (التوراة) و(القرآن) لأنهم إذا كفروا فقد تركوا التوراة والقرآن، لأنهما يدعوان إلى الإيمان بالله ورسله.

﴿وَإِيَّـَٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أمِروا أن يتقوا الله وحده؛ لأن بطشه شديد ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥-٢٦] فالتقوى تنجي من عذابه وما لحقهم من ضر مع التقوى، فهو خير لهم حتى لو قتلوا في سبيل الله فهو خير لهم، وإذا فاتتهم التقوى فاتهم كل خير في الآخرة، كما قال أمير المؤمنين × : ((لا يرجونَّ أحدكم إلاَّ ربه، ولا يخافنّ إلاَّ ذنبه)).

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ لا تخلطوا الحق بالباطل ليقبل الباطل بسبب اختلاطه بالحق، حكى الرضي في (نهج البلاغة) عن علي × من كلام له × : ((فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخفَ على المرتادين،

ولو أنّ الحق خلصَ من لبس الباطل انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث، فيُمْزَجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه ونجا الذين سبقت لهم من الله الحسنى)) انتهى.

﴿وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق الذي أخذ عليكم الميثاق ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

﴿٤٣﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ عطف على ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ لأنه لم يتخلل إلاَّ ما يجري مجرى الحث على الإيمان، فالمراد: آمنوا، وأقيموا الصلاة.. إلخ، والإيمان بالقرآن يستلزم العمل بشرائع الدين كلها، ولكن خصت هذه لعظمتها في الدين وفي ذكرها مع الدعوة إلى الإيمان إشارة أن الغرض الدعوة إلى عبادة الله، كقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ..﴾ الآية [آل عمران:٦٤].

و(إقامة الصلاة) قد مر تفسيرها، وأما إيتاء الزكاة فهو تسليمها من دون مطالبة من الفقير أو تهديد من الإمام، بل إذا حضر المصدق سلموها إليه لمجرد معرفة أنه مصدق، ولعل هذا هو السبب في عبارة ﴿ءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ في أكثر مواضعها في القرآن دون زكوا، ليفيد حسن الأداء لها.

وأما تخصيص (الركوع) بالذكر، مع أنه جزء من الصلاة فقيل فيه ـ على ما حكاه الشرفي في (المصابيح)ـ: ((اقتضى ذكر الركوع هاهنا أن اليهود لم يكن في صلاتهم ركوع، فأُمروا بالركوع)) انتهى.

قلت: إن صح هذا فهو الظاهر، وإلا فقد خص الركوع لحكمة لا نعلمها، ولا يبعد أنه توطئه لقوله: ﴿مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ويكون تخصيصه إشارة إلى إدراك الجماعة بإدراك الركوع مع الراكعين، وأن ذلك لا ينافي إقامة الصلاة حيث استلزم ترك القراءة في الركعة الأولى.

أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال × ـ يعني إمام زمانه القاسم بن محمد × ـ: تدل على وجوب إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وعلى وجوب صلاة الجماعة، والألف واللام في الصلاة والزكاة للعهد لتقدم معرفة الصلاة كما في الأخبار الواردة في فضائل علي × ، وأنه صلى مع النبي ص قبل الناس بسبع سنين، والله أعلم)) انتهى.

﴿٤٤﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الهمزة للإنكار عليهم والتوبيخ، وهو منصبّ إلى نسيانهم أنفسهم، والبرّ ضد الفجور، وهو الإحسان وفعل الخير، ونسيان أنفسهم أنهم يغفلون عن أمرها بالبر؛ لأن أذهانهم موجّهة إلى الأغراض الدنيوية وما يدعو إليه الحسد والكبر من الكيد للمسلمين والطعن في الدين والتكذيب بآيات الله، فهم بمعزل عن أن يأمروا أنفسهم بالبر، كأنهم ناسون له أو هم ناسون له حقيقة، والتوبيخ لهم على الجمع بين الأمرين لا على أمر الناس بالبر، ونظيره قوله تعالى:﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١] فليس العيب الدعاء العريض، إنما التبكيت على الجمع بينه وبين الإعراض والنأي بالجانب.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣] فليس التبكيت على الدعاء لله خالصاً، بل على إضافة البغي إليه.

يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا

وتحقيقه: أن الإنسان إذا أقر بالحق في حالة كان حجة عليه في حال عناده، فإذا بُكِّتَ على عناده وقد أقر بالحق فالمقصود الاحتجاج عليه بإقراره، ونظيره لو قلت لرجل: كيف تصوم ولا تصلي؟

فأنت لا تعيب عليه الصيام وإنما تعيب عليه ترك الصلاة.

ومن الغلط الفاحش توهم أن الدعاء الخالص في حال الشدة معيب أو أمر الناس بالبر، إنما المعيب الشر وإضافته إلى الخير حجة عليه، وقد وجدت كتاباً لبعض المفسدين يدعو إلى ترك الدين كله إذا كان العبد لا يقوم به كله، نعم يمكن أن يكون أمرهم للناس بالبر لم يكن إلاَّ رياء وسمعة، وتقوية لمركزهم في عنادهم، وعلى هذا يكون منكراً عليهم نفس أمرهم للناس بالبر، وعلى هذا لا تكون هذه الآيات نظير الآيات المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ احتجاج عليهم بما يتلونه في التوراة من الوعد والوعيد والميثاق على الإيمان برسل الله وغير ذلك مما يدعوهم إلى أن يأمروا أنفسهم بالبر أو إلى أن يكونوا أبراراً.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تبكيت واحتجاج عليهم بالعقول؛ لأن من شأن العاقل أن ينصح لنفسه ويتدبر عواقب الأمور فيسعى لنفسه في عاقبة حسنة أي أن العقل يدعو إلى ذلك، وإذا كان العبد يرشد غيره ويغوي نفسه فكأنه لا يعقل.

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟﴾ على القيام بما أمرتم به من الإيمان بالكتاب وما إليه ﴿بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ ففيهما عون، ولعل العون في الصبر من حيث أن الصابر يتعود تحمل الشاق على النفس حتى تألفه نفسه، ومن حيث

أن الله معه يعينه ويقوي إرادته، وأما الصلاة فلأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فبذلك تنهى عن الحسد والكبر ويسهل الإيمان.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ شاقة ثقيلة على أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣] فالإيمان بالقرآن وما يلزم معه من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وسائر الشرائع الناسخة لدينهم الذي نشئوا عليه وتعصبوا له، ومصيرهم تابعين لمحمد ص، وهو من ولد إسماعيل، وقد كانت النبوءة والكتاب في بني إسرائيل، وأسباب غير ذلك تثقل من أجلها إجابتهم إلى ما دعاهم إليه من الإيمان بما أنزل على رسوله ص وتشغلهم عن ذلك بالكبر والحسد.

﴿إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ الذين ذلّت قلوبهم لله، فلا يريدون إلاَّ ما يرضيه، ولا مجال في قلوبهم للكبر ولا للحسد ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ الظن هنا، قيل: بمعنى العلم، وهذا بعيد؛ لأن السياق يستدعي تحقيق إيمانهم الصحيح الذي يكون عن علم اليقين، فالتعبير بما يفيد ذلك هو المناسب للبلاغة المطابق لمقتضى الحال.

وقيل: المراد أنه يكفي الظن في بعثهم على الطاعة والتقوى لعظم العقاب المحذور، وهذا لا يخلص من المشكلة؛ لأنهم قد وصفوا بالظن، فدل ذلك على أنه واقع منهم لا مجرد أنه مفروض مقدّر، والذي يصح مع إبقاء الكلمة على حقيقتها بدون معارضة للمقصود الذي هو المدح أن معنى قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ وقوله في (قصة أصحاب طالوت): ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ﴾ مصيرهم إليه في القريب العاجل.

وهذا بواسطة استعمال (اسم الفاعل) في هذا المعنى، إما بطريقة أنه (اسم الفاعل) المستعمل للحال، وجعل القريب العاجل كأنه في الحال، فكأنه قال: ملاقو الله في الحال، وإما لقرينة السياق، فكأنه قال: ملاقو الله في القريب العاجل، وذلك أن من كان أمله في الحياة قصيراً استعد للآخرة ولم يبال بأغراض الدنيا، ولم يحرص على ترك الجهاد، بل يحرص على الشهادة.

ونظير الآيتين في استعمال (اسم الفاعل) للقريب العاجل قوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] فلا يبعد أن قد أيقنوا بدخولهم النار عند حضور الموت، وفي البرزخ وعند خروجهم من القبور، أو على الأقل ظنوا، فظنهم عند رؤية النار أنهم مواقعوها ظن الوقوع فيها في القريب العاجل، لا مجرد ظنهم أنهم سيقعون فيها، ولو تأخر وقوعهم فيها.

ومن استعمال (اسم الفاعل) للقريب العاجل، ما رواه الإمام أبو طالب × في (الأمالي) في قصة الإمام علي × لما ضربه ابن ملجم ـ لعنه الله ـ قال: ((وروي عن عمرو بن ذي مرّ، قال: قلت له يا أمير المؤمنين إنه خدش وليس بشيء؟

فقال × : (إني مفارقكم إني مفارقكم) ودعا بصحيفة ودواة وكتب وصيته)) انتهى، فقوله × : (إني مفارقكم) معناه: في القريب العاجل.

ويظهر: أن منه: قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت:٣١] ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٣٤].

وقول امرئُ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا

فقد ظهر: أن (اسم الفاعل) في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ من هذا القبيل، يؤكد ذلك قوله تعالى في (أصحاب طالوت): ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ فانظر كيف كان قومه ثلاثة أقسام: قسم شربوا من النهر وهم الأكثر، وقسم بخلافهم، وقد ظنوا أنهم لا يطيقون قتال جالوت لقلة الباقين معه وكثرة قوم جالوت، وقسم ردوا عليهم قولهم: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا﴾ بقولهم: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ..﴾ إلخ، وهؤلاء هم الصفوة من المؤمنين.

فكيف يصلح أن ينسب إليهم ظن البعث، كما قال الكفار: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]؟ وكيف يصلح استعمال الظن بمعنى العلم وهم بيقينهم وإيمانهم أقوى من غيرهم؟ والمناسب أن يوصفوا بقوة الإيمان لا بعبارة توهم ضعف يقينهم، وكيف يؤتى بعبارة لا تؤتي سبب إقدامهم وشجاعتهم وتشجيعهم لأصحابهم؟ إن هذا لبعيد!!

أما إذا قلنا: المراد أنهم يظنون قرب لقائهم لله وقصر مدة بقائهم في الحياة الدنيا، فالمهمّ عندهم الاستعداد للقاء الله، وأحسن الاستعداد الجهاد في سبيل الله والتعرض للشهادة في سبيل الله، ولذلك فهم مشتاقون إلى الإقدام ومشجعون لأصحابهم ليتمّ الغرض المطلوب حتى يفوزوا بالنصر أو الشهادة، فهذا المعنى هو المناسب للسياق ـ وبالله التوفيق.

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ كما خلقهم في الدنيا ورزقهم وأمرهم ونهاهم يرجعون إليه ليجزيهم بما كانوا يكسبون، وليس مع رجوعهم إليه رجوع إلى غيره من شفيع أو ناصر أو معين، بل يرجعون إليه وحده ليحكم فيهم ما يريد.

فهم يخشونه ويسهل عليهم امتثال أمره بالإيمان بالكتاب، وبكل ما أمروا به؛ لأنهم موقنون به وهو في نظرهم قريب جدّاً لقصر آمالهم في الحياة واعتبارهم ما بعد الموت أوّل الرجوع إلى الله بأرواحهم، وما يكون من مجازاتها في حياة البرزخ، أو لأنهم يعتبرون توفّيَه لأنفسهم أول الرجوع إليه، وفي شعر الناصر الأطروش الحَسن بن علي × ـ يعني نفسه ـ:

أنـاف على السبعين ذا العامُ رابع ولا بدّ لي أنـي إلى اللـه راجـع

وكذلك لقاء الله. قال في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة:٧٧]: ((والمعنى: فخذلهم الله حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم، فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا)) انتهى.

وعن أمير المؤمنين × لما كلموه في تقليله للفطور، لا يزيد على ثلاث لقم، فيقول الحسن × : يا أبتِ لو زدت؟ فيقول: ((أحب أن ألقى الله خميصاً)) انتهى، رواه الموفق بالله × في كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) [ص١٩٢- مخطوط].

وفي كلام الحسين × : ((ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله ـ عزَّ وجل ـ)) رواه المرشد بالله في (الأمالي) [ج١ص١٦١].

﴿٤٧﴾ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ إعادة النداء لهم كإعادة التنبيه للنائم إذا لم ينتبه لأول نداء وإعادة التذكير بالنعمة تنبيهٌ لهم من غفلتهم عن النعمة، وبعثٌ لهم على الشكر وتفضيلهم على العالمين تفضيلهم في النعم؛ لأنه آتاهم ما لم يؤت أحداً من العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل:٧١] وقوله تعالى في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٧٠].

تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ

وهذا واضح من عطف ﴿أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ﴾ على ﴿نِعْمَتِىَ﴾ وفتح الهمزة؛ لأن معناه: ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿أَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ومعناه: التذكير بالنعمة، فالتفضيل هو التفضيل في النعمة.

وقوله تعالى: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ معناه: في الماضي، فكانوا أفضل العالمين في النعم، ولا يلزم بقاء الفضل واستمراره؛ لأن فضلتكم فعل ماض يصدق بتفضيلهم على العالمين الأولين؛ لأنهم إذا فضلوا على الناس كلهم الموجودين في الزمان الأول فقد فضلوا على العالمين؛ لأن العالمين اسم لمن قد وجد ولا يشمل المعدوم الذي هو غير موجود في ذلك الزمان.

ومتى *قيل*: فالتفضيل في النعمة نعمة، فكيف عطف على ﴿نِعْمَتِىَ﴾؟

فالجواب: أن ﴿نِعْمَتِىَ﴾ يحتمل: أن المراد به أنه آتاهم الكتاب، كقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فالكتاب الجامع للآيات الكثيرة نعمة كبرى، فالتذكير بالتوراة من حيث هي نعمة، ومن حيث هي حجة عليهم، وعلى هذا فلا إشكال في العطف، ويحتمل أن: ﴿نِعْمَتِىَ﴾ عام لكل نعمة، فعطف التفضيل عليها من عطف الخاص على العام، كعطف جبريل على الملائكة في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِلَ﴾.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ يعني اتقوا شر يوم هذه صفته، فهو يوم لا ينجي منه إلاَّ اتقاءه في الدنيا ﴿لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ لا تؤدي عنها حقاً ولا تقضي عنها ديناً ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ لتنقذها من شره لو جاءت بشفاعة شافع.

ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ

﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فدية تعدلها وتقوم مقامها في القَدْر ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران:٩١] ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم شملهم عموم النكرة في سياق النفي، وهم نفوس كثيرة ولا ينصرهم أحد لدفع شر ذلك اليوم، وفي الآية دلالة على أنها لا تنفع الشفاعة للمجرمين كلهم، ويدخل في ذلك أهل الكبائر المنتسبين إلى الإسلام، وليس ذلك حطاً من مرتبة الشافع؛ لأنه يكون على وجه يحصل فيه التكريم للشافع والإهانة للمشفوع له.

كما روي عنه ص أنه قال: ((إني فرطكم على الحوض، وسيُجاء برجال فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)) أو كما قال، فقوله: ((أصحابي أصحابي)) شفاعة ليردوا إليه ويسقيهم من الحوض، ولكنها لم تنفعهم، بل كان الجواب ذمهم وبيان استحقاقهم للعذاب.

﴿٤٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ لا يبعد حمل كلمة ﴿آلِ﴾ هنا على قرابة فرعون، أو على فرعون وقرابته، على معنى أنهم هم الذين يظلمون بني إسرائيل ويأمرون الأقباط بظلمهم.

﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلۡعَذَابِ﴾ يكلفونكم سوء العذاب يكرهونكم عليه من سامه خسفاً إذا حمله على ما هو ذل، قال عمرو بن كلثوم:

إذا ما المَلْكُ سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا

قال في (الكشاف): ((وأصله من سام السلعة إذا طلبها)) انتهى.

يعني: إذا طلب بيعها منه، وقيل: من سام الإبل: إذا رعاها وهو بعيد غير مناسب للمعنى، والظاهر: في مضارعه يسيمون، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل:١٠] لأن السائمة: هي الإبل الراعية، والسوم: الرعي، وإن صح نسبته إلى صاحب الإبل تجوزاً، وقوله تعالى:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ ووجه السوم فيه أنهم جعلوا ذبح الأبناء واستحياء النساء عادة مستمرة، فإذا ولد مولود إسرائيلي فهم يتوقعون ذبحه، فكانت هذه العادة سوماً لهم سوء العذاب من أجل أنهم لا يزالون يتوقعون قتل الأولاد في المستقبل، وهذا يناسب ذكر الإنجاء منهم؛ لأنه تخليص من الشر المستقبل لا مما قد وقع، وهذا المذكور ليس كل سومهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ولكنه أعظمه وأشده عليهم، فذكر بعينه، وهم يعرفون سومهم سوء العذاب غير ذلك.

وفي (سورة إبراهيم): ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ﴾ [آية:٦] بالعطف، فعُطف عطف الخاص على العام وسوء العذاب أقبحه.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ نعمة من الله، كقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧] ولعل (بني إسرائيل) كانوا من العدد بحيث يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، أو بحيث يتجنب الظالم ظلمهم لقوتهم، ولكنهم تواكلوا وتخاذلوا وغلب عليهم اليأس، وعدمت ثقة بعضهم ببعض، فلم يجتمعوا بل تفرقوا، وتركوا محاولة الاجتماع والتوحد الذي تكون القوة معه، إذا كان مع صدق الديانة، والتوكل على الله، فلذلك استحقوا أن يتركوا وشأنهم حتى استضعفهم فرعون وصار يعاملهم المعاملة الجائرة، بسوء ما سبق منهم من التواكل والتخاذل وقلة المبالاة بعواقب ذلك، فمن هنا كان إنجاؤهم بعد ذلك بلاءً من ربهم عظيماً ـ والله أعلم.

تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

﴿٥٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ إذ فرقنا لكم البحر، حين ضربه موسى بعصاه ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣] ولما كان فرق البحر من أجلهم ليمرُّوا طريقهم بين الفرقين، كانوا كأنهم آلة لفرق البحر انفلق بمرورهم فيه، فهذه نعمة عليهم أن فرق لهم البحر وهي من الخوارق العظام، وجعل لهم فيه طريقاً سلكوه وحولهم من البحر كل فرق كالطود العظيم لا يسيل عليهم حتى خرجوا من البحر سالمين من الغرق وسالمين من إدراك فرعون وقومه.

﴿فَأَنجَيْنَٰكُمْ﴾ في مروركم فيه من الغرق ومن فرعون ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ وهذه نعمة أخرى إهلاك عدوهم وهم ينظرون؛ لأنها بذلك تحققت لهم نجاتهم من آل فرعون، وحصل لهم شفاء لما في صدورهم من الغيظ، أو خفف عنهم بمشاهدتهم هلاك عدوهم في تلك الحال، وبتلك الصورة التي اقترنت فيها نجاتهم بهلاك عدوهم كلهم في وقت واحد برجوع البحر عليهم.

﴿٥١﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ يحضر فيها في جانب الطور الأيمن يسمع فيها كلام ربه ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ إلهاً، وكان ذلك منكم من بعد موسى الذي هو رسول الله إليكم، والذي قد علمكم التوحيد، وأنكر عليكم ابتغاء إله غير الله فعظمت الجريمة بسرعة انقلابهم عن دينه واستبدال هداه لهم بالضلالة، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ معناه: أنهم ظالمون بذلك؛ لأن الشرك ظلم عظيم.

وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ

﴿٥٢﴾ ﴿ثُمَّ عَفَوۡنَا عَنكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أما العفو فحين تابوا، وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ يشير إلى أن العفو عن مثل ذلك في العادة بعيد، كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران:٨٦] فلما أن هداهم الله للتوبة ببركة موسى وعفا عنهم حين تابوا كانت تلك نعمة عظيمة يجب عليهم شكرها، ولما كان هذا تعريضاً لهم على الشكر شبه بالإنعام رجاء الشكر، فقال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَٱلۡفُرۡقَانَ﴾ الفرقان بين الحق والباطل، بما أوحى إليه ربه من ذلك مع التوراة وقبلها، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ أي بذلك، ومعنى (لعل) مثله في ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿٥٤﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ﴾ لأنكم تعرضتم بذلك للعذاب الدائم الشديد وصيرتم أنفسكم مستحقين له ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ﴾ الذي خلقكم وجعل صوركم متقنة مختلفة يتميز بعضها من بعض، فأنتم عباده يستحق عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به، ويستحق عليكم أن تتوبوا إليه من الشرك.

﴿فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ وسلموها لبارئها تحقيقاً للتوبة بامتثال أمر الله في أنفسكم التي هي أعز الأشياء عليكم، واعترافاً بأن أنفسكم له يحكم فيها ما يريد.

ولعلهم لما كانوا قد أشربوا في قلوبهم العجل كانت توبتهم لا تتم إلاَّ بهذه التوبة أو بتسليم أنفسهم لله تعالى ليذهب رجس العجل وأثر عبادته عن قلوبهم.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ﴾ لأن الشهادة والجنة خير من البقاء على الذنب حتى تموتوا ثم تصيروا إلى النار وقوله عند بارئكم؛ لأنه هو الذي يثيبهم عليه ويرضى عنهم.

﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بإسقاط هذا التكليف الشاق، روي أنهم حين عزموا على هذا الأمر اجتمعوا وعصبوا على أعينهم وتضاربوا بالسيوف أو نحو هذا فنزلت توبتهم أي قبول توبتهم، وهي بالتسليم لأمر الله، وعفى عنهم ربهم بإسقاط هذا التكليف الشاق، فكانت تلك شهادة للماضين وتوبة للباقين.

وقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل:٢٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة:١٣] أي رجع لكم بالرحمة والتخفيف عنكم بنسخ ذلك التكليف.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يرجع على عباده بألطافة، ويرحمهم حين يتعرضون لرحمته، وحين لا يستوجبون التشديد في حكمته، هذا وإسقاط الأمر بالقتل بالنسبة للباقين، فأما الماضين فقد مضوا على الحكم الأول شهداء، والتمنن بالعفو على الباقين، ويظهر: أنهم الأكثر إن لم يكونوا هم الكل ممن تاب، وما يروى من تكثير القتلى، فلعله من رواية اليهود ليفتخروا به، وليس في هذه الآية وأمثالها من القرآن ما يدل على وقوع قتل لا كثير ولا قليل، بل الظاهر أنه لم يقع؛ لأنه تمنن عليهم، وله الحمد والشكر، فعم بني إسرائيل.

جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ

فظهر منه: أن العفو نزل قبل أن يقع قتل بموجب الحكم الأول، ولولا ذلك لما كان العفو عاماً لبني إسرائيل الذين عبدوا العجل، ولَمَا مَنَّه على خلائفهم المخاطبين بقوله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ واعتماد القرآن الذي لا ريب فيه أولى من اعتماد الروايات التي يكثر فيها الكذب، وخصوصاً فيما يتعلق بـ(بني إسرائيل).

﴿٥٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿جَهْرَةً﴾ عياناً، أرادوا أن يتجلى لهم فيروه بأعينهم، ولعل رغبتهم هذه هي أخت رغبتهم في أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة، أي أنهم يريدون إلهاً يشاهدونه كما للمشركين آلهة يشاهدونها بزعمهم، فطلبوا أن يروا الله سبحانه ليكونوا قد حصلوا على ضالتهم المنشودة، ولشدة حرصهم على ذلك أكّدوا هذا الطلب بقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ وصيروا ما رأوا من الآيات والنعم كأن لم يكن.

﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الظاهر: في معنى ﴿ٱلصَّـٰعِقَةُ﴾ هنا أنها المهلكة، وأنها رجفة الطور حين اندك، ففي (سورة الأعراف): ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [آية:١٥٥] وفيها: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [آية:١٤٣] وعلى هذا فمعنى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ تنظرون مكانكم يرتجف بكم، إما الجبل نفسه أو ما حوله عند ارتجافه حين اندك.

﴿٥٦﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لا مانع من حمله على الحقيقة كموت الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه، والله يحيي ويميت، ويؤكد ذلك السياق.

ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ

﴿٥٧﴾ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ جعلناه عليكم ظللاً تظلكم من الشمس، قيل: ذلك في التيه، فسخّر الله لهم السحاب يسير سيرهم. وأما ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ ففي مصابيح (الشرفي): ((قال ـ أي المرتضى × ـ : ﴿ٱلْمَنَّ﴾ فهو شيء كان يقع على الشجر يضرب إلى الخضرة حلو كانوا يأكلونه، والسلوى: فهو طير أصغر من الحمام كانوا ـ أيضاً ـ يأكلونه في أيام تيههم، وذلك أن الله لما أمرهم بدخول القرية فكان من كلامهم ما قد سمعت مما قصّه الله في كتابه، فحرم الله عليهم مصر أربعين سنة، فكانوا يتيهون في مواضع حذاها هو الآن معروف، ولا يهتدون لها، فأنزل الله سبحانه المن والسلوى، وجعله لهم رزقاً يعيشون به إذ الأجساد لا تقوم إلاَّ بالغذاء)) انتهى.

قوله: ((مما قصه الله في كتابه)) يعني في (سورة المائدة) [آيتي: ٢٢، ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي بكفرهم للنعم كما وقع منهم من الفسق المذكور في تلك القصة.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ المعروفة عندهم، وقوله: ﴿هَٰذِهِ﴾ يظهر منه: أنهم كانوا قد قربوا منها ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ الذي تدخلون منه ﴿سُجَّدًا﴾ خاضعين لله متذللين بلا عجب ولا كبر، سليمين من سكرة النصر.

فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا

حكى الشرفي في (المصابيح) في تفسير الآية من (سورة الأعراف) عن الحسين بن القاسم إ ما لفظه: ((ومعنى ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا الباب خشّعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار، والخشية لله الواحد الجبّار، ولم يرد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه، وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك روينا عن أئمتنا وسلفنا)) انتهى.

﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ ﴿حِطَّةٌ﴾ بمعنى: حط عنا الذنوب.

قال في (الكشاف): ((والأصل النصب بمعنى حط عنا ذنوبنا حطةً، وإنما رفعت لتعطي معنى الثبوت، كقوله: [صبر جميل فكلانا مبتلى] والأصل: صبراً على أصبر صبراً)) انتهى.

قلت: لأن أول البيت: [شكى إليّ جملي طول السُّرى].

﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ جواب الأمر بقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أو الأمرين من قوله: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ وهو عندي أرجح ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواباً مع غفران الخطايا ونعمة دخول القرية.

﴿٥٩﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من المأمورين بهذا القول، وفي (سورة الأعراف): ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [آية:١٦٢] فظهر: أن المبدلين بعضهم.

﴿قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي خالفوا الأمر، وأتوا بدل القول ذلك بقول خلاف المأمور به، ولم يظهر من الآية أنهم فعلوا ذلك استهزاء بالأمر، وليس يجب علينا معرفة ذلك البدل؛ لأن الله أبهمه ولم يبينه، إلاَّ بأنه غير الذي قيل لهم، وذلك محط الفائدة، ولا يبعد أن القول كان كلاماً استدعاه فرحهم بالدخول، وإعجابهم بقوتهم من أغاريد أو غيرها ـ والله أعلم.

عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ

وما قيل: أنهم قالوا: (حنطة) بعيد؛ لأن لغتهم عبرانية، وإنما المذكور من هذه الأوامر ومن قولهم هو ترجمة الواقع، وليس في الحروف موافقاً للكلمات العربية.

﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي المبدلين، وفائدة إعادة اللفظ أن لا يتوهم لو قيل عليهم عود الضمير إلى الكل من المأمورين بدخول القرية، ومما ذكر بعده ﴿رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي عذاباً.

وقوله: ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يفيد: أنه شيء نزل من السماء، مثل: وبآءٌ ينزل في طل أو حر شديد يأتي به حر الشمس، وقد قيل: إنه طاعون ولا يبعد على معنى أنه وبآء نزل.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ يفيد: أنه عقوبة على جرائمهم كلها، هذه المذكورة وغيرها، ويمكن دخول معصيتهم لموسى حين امتنعوا من دخول القرية، فدعا ربه ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٥].

ويناسب هذا ما ذكره الشرفي في (المصابيح) حيث قال: ((وفي (البلغة): روي أنّ الآباء هلكوا، وبقي الأبناء وفيهم الفضل والعبادة)) انتهى.

وحاصل هذا: أن الفاسقين عند دخول القرية هم الفاسقون قبل أربعين سنة والله أعلم.

﴿٦٠﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ قيل هذا في التيه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : هو حجر كان مع موسى ـ صلى الله عليه ـ يحمل بين يديه على حماره، وذلك أنه لما استسقى الله سبحانه لقومه إذ عطشوا، أمره الله أن يضرب الحجر بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، ولم يكن إلاَّ حجراً صغيراً، وكانت الآية في الصغير المحمول المتحرك المنقول عظيمة جليلة أعظم أمراً من الحجر الراسي، لأنه لو كان راسياً لقال فيه القائل: إن الماء ينبع من الأرض في الحجر، فلما أن كان حجراً صغيراً يحمل كانت آية جليلة عظيمة باهرة من آيات الله الجليلة)) انتهى المراد.

قلت: انفجار الماء اثنتا عشرة عيناً من الحجر بسبب ضرب موسى إياه بالعصا آية عظيمة، سواء كان راسياً أم منتقلاً، وإنما أراد المرتضى × أن الآية عظمت أكبر من ذلك بكون الحجر صغيراً منتقلاً.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ قيل: كل سبط، وكانوا اثني عشر سبطاً، والمراد: ذرية كل سبط، وهذه نعمة؛ لأنه يقل الاختلاف والمزاحمة والمسابقة على الماء، وهذا تشعر به الآية في (سورة الأعراف): ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ..﴾ الآية [١٦٠].

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أمر إباحة وتعبير عن الإنعام عليهم بذلك، ونهي عن الفساد في الأرض؛ لأن الواجب شكر النعمة لا مقابلتها بالفساد في الأرض الذي هو كفر قد يؤدي إلى سلب النعمة وتعجيل النقمة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، والعثيّ الفساد أو أشد الفساد، ومفسدين حال مؤكدة، وصح ذلك لاختلاف اللفظ.

وإذا قابلت بين هاتين الآيتين وبين آيتي (سورة الأعراف) وجدت في كل منهما فائدة خاصة، فهنا قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فأفاد: أن الذي جرّأهم على التبديل هو ظلمهم من قبل، وهنا ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

وَاحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

فأعاد اللفظ ليفيد: أن العذاب عليهم خاص، ولكن ليس في هذه تصريح بأن المبدلين بعضهم، فأفاده في (سورة الأعراف) بقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ [آية:١٦٢] وفي (سورة الأعراف): ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [آية:١٦١] ولم يقل: ﴿رَغَدًا﴾ وقال في (آية البقرة): ﴿رَغَدًا﴾ فأفاد سعة المأكول في كل موضع شاءوا.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ طعام واحد ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ واعتبروه واحداً من حيث أن غداءهم وعشاءهم كل يوم منه لا يخلفه طعام آخر، فاعتبروا المجموع من المن والسلوى طعاماً واحداً نظراً إلى الثاني الذي يريدون أن يخلفه.

وقولهم: ﴿يُخْرِجْ لَنَا﴾ الظاهر منه يخرج لنا من الأرض، أي ينبت لنا، والبقل: الفُجْل وما أشبهه مما لا ساق له، ويستنبت أو ينبُت بالبذر، ولا يبقى أصله في الأرض كما يبقى أصل الحشيش، هذا الذي يظهر من التفاسير المختلفة أنه يجمعها، أما موضع الخلاف فالله أعلم بالحقيقة.

والقثاء: الخيار، أو شيء مثل الخيار، وفومها، قيل: هو البر، وهو الأقرب، وقيل: هو الثوم، قلت: لو قرن بالبصل لكان الظاهر، ولكنه قرن بالعدس، وهو من الحبوب وهو البلسن، والبصل معروف يجعل في الطبائخ وغيرها،

وهو نافع من الوباء ومن ضرر اختلاف الماء على المسافر، وفيه منافع كثيرة مذكورة في الطب، وفي إضافتهم هذه الأشياء إلى ضمير الأرض تنبيه على أنهم يريدون طعاماً من نبات الأرض من حيث هو من الأرض خلاف ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾.

ولعل سبب ذلك: أن طعامهم قبل التيه كان مما تنبت الأرض من هذه الأشياء، فلما طالت مدتهم في التيه ولا طعام لهم مما كانوا ألفوه في نشأتهم وتربيتهم إنما طعامهم خلافه، وهو المن والسلوى، والمن والسلوى وإن كان خيراً من تلك الأشياء، فإن استمرارهم عليه كان سبباً لقلة رغبتهم، واشتياقهم إلى ما كانوا يأكلونه من الأشياء المختلفة من ألوان النبات، كما قالت ميسون شعراً:

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلي من قصر منيف

إلى آخر الأبيات.

﴿قَالَ﴾ موسى × : ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ فإن من الغلط أن يكون طلب الإنسان تبعاً لمجرد الرغبة وإن فوت الذي هو خير له.

﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ إن هبطتم مصراً، ولعل هذا كان قبل معصيتهم وامتناعهم عن دخول الأرض التي كتب الله لهم، وقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [المائدة:٢٦] فكأن موسى × يقول لهم: إن طعامكم واحد ما دمتم في التيه، لا يدعكم الخوف أن تفتحوا لأنفسكم مصراً من أمصار الجبارين الذين تشردتم في التيه من خوفهم، فإن شئتم المطعومات التي طلبتم، فاهبطوا مصراً من تلك الأمصار ليكون لكم وطن وقرار وتزرعوا ما تحبون.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ فلم يزالوا في التيه إلى تمام أربعين سنة ﴿وَبَآءُو﴾ بعد ذلك ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا حين تمكنوا في الأرض كما قال تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤].

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأنه سبب الغضب كونه قتلاً ظلماً وعدواناً على النبيين، والنبيون ـ صلوات الله عليهم ـ لا يقتلون إلاَّ وقتلهم بغير الحق، ولكن من حسن البيان التصريح بما هو محط الفائدة، ولعل فيه ـ أيضاً ـ فائدة أخرى، وهي: أنهم عباد من عباد الله، فلو أنهم استحقوا القتل ما غضب الله له.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ أي وقع منهم الكفر وقتل الأنبياء بسبب عصيانهم أو معاصيهم وعدوانهم المتكرر منهم، فالمعاصي والعدوان جرتهم إلى ما هو أكبر وجرأتهم على ما هو أخطر، فمن أجل ذلك ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ والذلة: خلاف العزة.

وذلك يفيد: أنهم صاروا في حال يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم، والمسكنة الضعف والخضوع، ولعلها سميت مسكنة من السكون؛ لأن صاحبها لا يتحرك للدفاع، بل يلتزم السكون لضعفه، والاعتداء ظلم الغير، مثل اعتدائهم في السبت بصيد الحوت وهو محرم عليهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ الذين آمنوا هم الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ص وما يجب الإيمان به، والإيمان

تصديق وقبول وإذعان يدعوا إلى الطاعة باللسان والجنان والأركان؛ لأنه يسبب الخوف من العقاب والرغبة في الثواب، قال الله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] وغيرها، والذين هادوا هم اليهود، والنصارى هم المنتسبون إلى دين عيسى × .

وأما الصابين، فحكى الشرفي في (المصابيح): ((عن المرتضى × أنه قال: والصابين، فهم فرقة أخرى من النصارى يدعون بالصابين، وإنما اشتق اسم الصابين من الصبو، يقال: صبا فلان. وفي ذلك ما يقول الشاعر:

صبوت إلى اللهو بعد المشيب وقد كنت للّهو قدماً تروكا

قلت: وقول الله تعالى حاكياً عن يوسف × : ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف:٣٣] وعبارة (لسان العرب): ((الصّبوة: جَهْلةُ الفُتُوّة واللهو من الغزَل، وقال: وصبا يصبو صَبْوةً وصُبُوّاً: أي مال إلى الجهل والفتوّة)) انتهى، فلعل تسمية (الصابين) بهذا الاسم كانت ذمّاً لهم بميلهم إلى الباطل على التشبيه بمن يصبو، وهذا التفسير على (قراءة نافع) بغير همز.

فأما على قراءة ﴿ٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ بالهمز ـ فقد فسره بعض أهل اللغة: بالخروج من دين إلى دين، وقالوا: الصابئون: قوم يزعمون أنهم على دين نوح، قال في (لسان العرب) وفي (الصحاح): ((جنس من أهل الكتاب..)) إلخ.

قلت: وهذا أقرب لتتفق القراءتان على معنى واحد، والأولى: أنهم فرقة أصل دينهم النصرانية، ولكنهم غيروا فيه حتى خرجوا عن النصرانية وصار لهم اسم خاص.

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من آمن أي من كل الملل المذكورة، ولا مانع من شمول الذين آمنوا؛ لأنهم مأمورون بالإيمان فيما بقي من أعمارهم، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ الآية [النساء:١٣٦].

ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۖ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾

وأما بقية أهل الملل، فالمعنى: دخلوا في الإسلام واتقوا الله؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح يستلزم ذلك كما قدمناه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة؛ لأن توبتهم تمحو ذنوبهم السابقة، فالآية وعد وتبشير لأهل الملل كلهم إذا آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً، ودعوة لهم إلى الإيمان.

﴿٦٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ على أخذ التوراة وما آتاهم الله على لسان موسى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ أي الجبل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ..﴾ الآية [الأعراف:١٧١] وذلك ليمتثلوا أمر الله تعالى بقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ بعزم صادق قوي وصبر ﴿وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الوعد والوعيد والهدى لمن اهتدى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ربكم وتتقون عذابه الذي لا بد منه إن خالفتم ونكثتم.

﴿٦٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ الميثاق والآية العظمى والنعمة الكبرى بالتعريض على الهدى ﴿فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بهدايته لكم إلى التوبة والرجوع إلى العمل بالميثاق ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أهل النار الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ فاتقوا الله واعتبروا بهم، واحذروا أن ينزل بكم العذاب العاجل كما نزل بهم.

فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا

والذين اعتدوا في السبت: هم الذين ذكرهم الله في (سورة الأعراف) وفصّل قصتهم من قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [آية:١٦٣] والقرد: حيوان معروف قريب من مشابهة الإنسان في صورته وإدراكه، ومعنى ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مطرودين من رحمة الله في ذلة وهوان.

﴿٦٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي هذه المصيبة النازلة والعقوبة العاجلة ﴿نَكَٰلًا﴾ أي عذاباً عقوبة وزجراً ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من المعاصي المستقبلة ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ المعاصي السابقة أي لأجل ما خلفها من المعاصي؛ لأنها زاجرة عنه لبني إسرائيل كقوله تعالى في السارق والسارقة: ﴿جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة:٣٨] فالجزاء لهما والنكال لهما ولغيرهما.

وعلى هذا فـ(اللام) في قوله تعالى: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ لام التعليل، أي من أجل ما بين يديها وما خلفها، أو لام الاختصاص أي جعلناها لما بين يديها زجراً، ولما خلفها جزاءً، وفائدة الزجر لما يكون بعدها زيادة الحجة على من ارتكب مثلها أو خلافها مما يسبب العذاب.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين تنفعهم المواعظ؛ لأنهم يتّعظون فلا يرتكبون مثلها مما يوجب العذاب، فاعتبروا بما قد علمتم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ لأنهم لم يتوقعوا مثل هذا الأمر، واستبعدوا أن يؤمروا بذبح بقرة واحدة على كثرتهم، واستعدادهم للعمل بالتكليف الثقيل، فجوّزوا أن موسى × غير جاد في هذا الكلام، وإنما قاله استخفافاً بهم.

هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ

﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ يقول × : إن هذا لَو وقع هزؤاً مني لكان جهالة عليكم حين آمركم بما لم يأمركم به الله، وجهالة من حيث أنه قول على الله ما لم يقل، وتعظم بوقوعها من رسول الله إليكم، فكيف تقع مني؟ ولكنه لم يقل: فكيف تقع مني، وأكتفى بالتعوذ بالله؛ لأنه في براءته من ذلك معتمد على لطف الله وعصمته، وفيه تعريض بهم؛ لأن كلامهم هذا جهالة، وكان التعوذ هذا دليلاً على أنه بريء من حيث قد أفاد أنه جهالة لا تليق به، وهو رسول، ومن حيث دل على شدة كراهته للجهالة بالتعوذ بالله منها، ومعنى أعوذ: أستجير بالله وألجأ إليه لينجيني.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الدعاء هو طلب من يعتبره الداعي أعلى بالقدرة والقهر تذللاً وافتقاراً، وقولهم لنا يفيد دعواهم أنهم يريدون امتثال الأمر، إنما يؤخرهم انتظار البيان.

وقولهم: ﴿رَبَّكَ﴾ وهم يعلمون أنه ربهم، فلم يقولوا ربنا مع أن الطلب من أجلهم؛ لأنهم يعلمون أن لموسى صلة بربه من أجلها يستجيب له، وكذا في قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا﴾ وقولهم فيما يأتي: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ وقد لاحظ هذا المعنى قوم فرعون، حين قالوا: ﴿يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف:١٣٤] واعتبرت هذه الصلة في الآيات الكريمة من سورة (قد أفلح المؤمنون): ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [آية:٥٧] حيث جاء ذكر ربهم في أربع آيات متتابعة، ولم يأت الضمير فيما بعد الأولى.

وقولهم: ﴿يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ دعوى أن أمرهم بذبح بقرة مجمل يحتاجون إلى بيانه، وهو في الواقع مطلق يصدق بذبح أيّ بقرة ذبحوها لو امتثلوا قبل

يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾

هذه المطالبة، ولكن أنفتهم من أن يكون هذا هو المراد، وهَوَاهُم في أن يكون المراد بقرة مخصوصة لذبحها، معنى زائد على ذبح غيرها، حَمَلهم على جعل المطلق مجملاً، وهكذا الهوى، يصد عن الحق، ويحمل على تفسير كلام الله ورسوله بما يوافق الهوى وإن خالف الحق.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فقيد ذلك المطلق، وصار التكليف بالمقيد من أجل طلبهم البيان لغير مجمل. قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : والفارض: المسنّة التي قد انفرض فمها، وانفراضه فهو: سقوط أسنانها، والبكر، فهي: لم تلقح قط)) انتهى المراد.

وقوله: ﴿عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي متوسطة في سنها بين الفارض والبكر ﴿فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ من ذبح البقرة التي هذه صفتها، فقد وجب عليكم بأمر الله.

﴿٦٩﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ قوله: ﴿فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ أي شديدة الصفرة خالصتها، وقوله: ﴿تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ يفيد: جمالها بلونها، وحسن صورتها، وهذا تقييد للمطلق مع التقييد الأول، فصار المأمور به بقرة جامعة للوصفين.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا﴾ بوجود عدد من البقرات فتيات صفر جميلات، فنحن مترددون لا ندري أيّتهن المراد ذبحها ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إلى المراد، إذا بيّن لنا مرة ثالثة بياناً ثالثاً.

قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي أن الله ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ الذّلول: المذللة للعمل التي ألفت العمل فذلّت لمن يعمل عليها، وإثارة الأرض: حرثها المظهر لبعض ما بطن، والمفتت لبعض ما كان جامداً متلاصقاً.

والمعنى: أنها ليست ذلولاً بحيث أنها تثير الأرض، وفي هذا التقييد إشارة إلى أنها ذلول لسائقها وقائدها، فذلك غير منفي، إنما المنفي كونها ذلولاً لحرث الأرض، وأنها لا تحرث الأرض، فجمع قوله: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ﴾ بين نفي كونها ذلولاً للحرث ونفي اعتياد الحرث الذي تكون به ذلولاً، وقوله: ﴿وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ يفيد: أنها لا تنزع الماء لسقي الحرث، فأفاد سلامتها من تعب العمل.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ سليمة من العيوب، سلمها الله منها ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ فلونها واحد لم يوشّ بلون آخر من غرة أو تحجيل أو غير ذلك ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ لأنك جئت بالأوصاف التي معها يصعب امتثال الأمر، وذلك هو الذي نهواه، فجعلوا الحق تابعاً لهواهم، و ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ﴾ بجفائهم وجلافتهم، وقد جاء بالحق من قبل.

﴿فَذَبَحُوهَا﴾ جامعة للصفات ﴿وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أنفة من تكليفهم بذبح بقرة، فذبحوها وهم كارهون لذبحها، بحيث كادوا أن لا يذبحوها، ولم يكفهم صعوبة هذا التكليف بزيادة أوصاف البقرة؛ لأنه لم يخرجهم عن كونهم كلفوا ذبح بقرة.

وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٧٣ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ

---

٧٢ ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَا﴾ تدافعتم كل يدفع عن نفسه تهمة القتل ويلصقها بغيره ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ (الواو) للحال، أي تدارأتم فيها في حال أن الله مخرج ما كنتم تكتمون، وهو يعم قتل القتيل وغيره، كالباعث على قتله، والغرض المقصود به.

٧٣ ﴿فَقُلۡنَا﴾ لكم: ﴿ٱضۡرِبُوهُ﴾ أي القتيل المفهوم من قوله: ﴿قَتَلۡتُمۡ﴾ ﴿بِبَعۡضِهَا﴾ أي ببعض البقرة بعد ذبحها، حكى الشرفي في (المصابيح) عن المرتضى × أنه قال في البقرة المذكورة: وهذه فهي التي أمر الله سبحانه أن يضرب القتيل ببعضها، وذلك أنه قتل قتيل في بني إسرائيل، فادّارأوا فيه واتهم بعضهم بعضاً بقتله، وعظم بينهم الأمر فيه، فأمرهم الله عز وجلّ أن يضربوه ببعضها، ففعلوا ذلك، فعاش القتيل وأخبرهم بقاتله، فكانت هذه آية عظيمة جليلة في إحياء الله سبحانه له، وقد كان قادراً أن يحييه بضربة عود لو أمرهم لقام مقام البقرة، ولكن الله يفعل ما يشاء، لا معقّب لحكمه.

﴿كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ كما أحيى هذا القتيل ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ يريكم دلائله الدالة على قدرته وعلمه وسائر ما دلت عليه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ ما تدل عليه، وتعلمون وتفهمون، أي وكذلك يريكم الله آياته، فكم آتاهم من آية بينة، فكان في أمرهم بذبح البقرة سرّ لو علموه لم يتعنتوا ذلك التعنت، ولكنهم كانوا لو علموه لاختلفوا، فالبريء يدعوا إلى امتثال الأمر، والقاتل ومن يتعصب له من قريب أو نحوه يمتنعون ويتعللون،

وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَـٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٧٤﴾

فكان لا يحصل ذبحها منهم كلهم، وضرب القتيل ببعضها منهم كلهم، وذلك أنهم شركاء في الذبح بالفعل والرضى، وشركاء في ضرب القتيل ببعضها بالفعل والرضا.

فأدّى ذلك الذي فعلوه واشتركوا فيه إلى إحياء القتيل وانقطاع التدارؤ فيه بإخباره بقاتله منهم، بحيث علموا بتلك الآية العظمى أن الله هو الذي أحياه وأنطقه كلهم، واتضح الحق فيه لهم كلهم، وكان المقصود الأعظم أن يريهم الله كيف يحيي الموتى آية لهم وزيادة في الحجة على من كفر، وآية لنبيئهم الذي كانت هذه الأوامر من طريقه لينقادوا له ويتركوا التعنت عليه.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ المذكور كله من الإحياء للقتيل وما كان فيه من الموعظة لكم والتذكير بإحيائكم بعد موتكم، والدلالة على قدرة الله عليه بما شاهدتم، وما تقدم تعديده من النعم والآيات من قوله تعالى: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾.

﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةً﴾ لأن قلوبكم لا تلين لآية ولا لموعظة ولا تتأثر لتخويف ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ لأنها تلين له حتى يخرج منها بقوة وكثرة ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُ﴾ تضعف عن التماسك مع ضغط الماء فتشقق له ليخرج منها، أما قلوبكم فلا تلين لتكون مصدراً للخير ولا تتأثر بالمواعظ والآيات لتسمح بأن يخرج منها شيء من الخير خضوعاً للحق ورقّةً ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا﴾ أي من الحجارة ﴿لَمَا يَهۡبِطُ﴾ يسقط وينزل ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ لضعفه عن الاستمساك في مكانه الذي أذن الله بهبوطه منه حيث لم يبق له ما يحفظه في مكانه.

وذلك إمّا لأنه قد يكون بسبب استمساكه مكانه وكان ضعيفاً مع ثقله فسقط لغير سبب ظاهر، وإما أن سبب استمساكه وإن كان قوياً فلم تكن قوته تكفيه لحفظه عند عارض غالب من رجفة أو مطر، ولما كان سقوطه ونزوله من مكانه يشعر بعجزه عن الاستمساك في مكانه وضعفه عن مخالفة أمر الله فيه وإذنه بهبوطه بما هيأ له من السبب الأصلي أو العارض قيل فيه: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ إما على المجاز كأنه هبط من خشية الله؛ لأنه انقاد لقضائه فيه ذليلاً، وإما على الحقيقة إذا كان له حياة مخالفة للحياة المعهودة من حيث أنا لا نرى لها حركة اختيارية، وإنما احتمل الكلام هذا؛ لأنه كلام الله القادر على كل شيء العليم بكل شيء، فهو يعلم ما لا نعلم، وليس في تجويز ذلك فتح لباب الجهالة، إنما ذلك لو جوزنا لها حياة مثل هذه الحياة المعهودة في الحيوان المتحرك بالحركات الاختيارية، فأما حياة مخصوصة خلافها لتعرف الله وتخضع له فلا مانع منها في العقل.

ويؤكد هذا قوله: ﴿مِنۡهَا﴾ ولم يقل: وإنها لَتَسَّاقط، حتى نقول: المراد أن شأنها ذلك ومن حقها أن تتساقط لو جعل الله لها عقولاً وأراها آياته، وقد يكون هذا إشارة إلى الجبل في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ [الأعراف:١٤٣] والظاهر فيه: أنه جعله دكاً بتجليه له.

وفي كلام القاسم × في (الرد على من زعم أن الله يُرى بالأبصار) في (مجموعه) [ص٤٠٥]: ((أحدث في الجبل عقلاً يدرك به ما يتجلى له، وإن الله تبارك وتعالى أحدث آية فتجلّى الله للجبل [بها] وجعلها آية سماوية ولم تكن أرضية)) انتهى المراد.

قلت: يعني أن الجبل عرف الله معرفة تامة قوية، فعظّم الله وبلغ من تعظيمه أن تقطع وساخ وذهب، فلا مانع من حمل الآية الكريمة على هذا،

۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ

فهو معنى حقيقي معهود عند السامعين المخاطبين من بني إسرائيل، ومثله ممكن عندهم، فلا حاجة معه إلى صرف الكلام إلى المعنى المجازي.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا بد أن يحاسبكم عليه ويجازيكم.

﴿٧٥﴾ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ﴾ مع قسوتهم هذه ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كلام الله، يصنعون ذلك بكلام الله من التوراة التي هي كتابهم، لا يتحرجون منه، ولا يخافون لقسوة قلوبهم، ومن كان كذلك لا يرجى منه إيمان لكم وقبول منكم.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ خداعاً ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يوم القيامة يحتجون عليكم بما أقررتم به في الدنيا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأن من شأن العاقل أن لا يعين على نفسه.

﴿أ﴾ يقولون هذا ﴿وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كما هو اللائق بمن يقول ذلك، فهم حينئذ أحق أن يعاب عليهم وينكر عليهم مخالفة العقول، فإن كانوا يعلمون ذلك، فكيف لا يعلمون أنه سواء في علم الله حدثوهم أم لم يحدثوهم حاجوهم به أم لم يحاجوهم به؟! وأين عقولهم حين ينكرون على أصحابهم التحديث ويعتبرونه مخالفة للعقول؟! أما إذا أنكروا عليهم التحديث وهم لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون، فهم أجهل وأجهل ممن يعيبون عليهم التحديث!

أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ

﴿٧٨﴾ ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من قوم موسى ﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ ﴿أُمِّيُّونَ﴾ لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، فهم جاهلون بما في الكتاب، وقوله: ﴿إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ استثناء منقطع؛ لأن الأماني غير معلومة لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ والأمنية: ما يرغب فيه ويرجى من الخير، وقد يكون الرجاء صادقاً، وقد يكون خطأ، وفي شعر محمد بن عبد الله النفس الزكية × الذي رواه في (أمالي أبي طالب):

متى أرى للحق نوراً وقد ... أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنيّة طال عذابي بها ... كأنني فيها أخو حلم

وقد فسر أمانيهم القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ فهؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب وإنما يظنون أماني قد اتكلوا على الأماني فأعرضوا عن الدين وعن التعليم وتفرغوا للدنيا.

﴿٧٩﴾ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من كتبهم التي يكتبون غير كتاب الله ﴿بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ يشير إلى أنهم ابتدعوه بأيديهم جرأة على الله ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ليوهموا أنه من التوراة.

ونظير هذه قوله تعالى في (سورة آل عمران): ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آية:٧٨].

أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إما الرشوة وإما ما هم عليه من الثروة بسبب رئاستهم في أهل دينهم، وإما كل ذلك يشترونه بالكذب على الله ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ وعيد بالعذاب ﴿مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الزور ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ من الرشا وما يشبهها من الهدايا المحرمة وغيرها.

﴿٨٠-٨١﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ منتهية يحصرها العدد.

﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ بذلك ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ لأنه أصدق القائلين ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقد جمعتم بين باطلين، القول على الله بغير علم والتمني الباطل الذي يُجرِّؤكم على الباطل، وهذا هو الواقع؛ لأن الله سبحانه لو كان وعدهم ذلك ما عاب عليهم القول به.

وقد حقق هذا بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ كلمة نفي لما قالوا به في قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ثم فَصَّل معنى هذا، فقال تعالى: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ لم يكن له من شرها منجى، كقوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] وقوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف:٦٦] أي تغلبوا وتُقهروا ولا تجدوا لإنقاذه سبيلاً، فالمعنى لم يكن له ما ينقذه من شر خطيئته من عذر صحيح كالخطأ والنسيان والإكراه أو توبة تمحو السيئة، بل تورط في العذاب بسببها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون فيها لا يموتون سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا

﴿٨٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون، سواء كانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم، فالجنة جزاء على الأعمال الصالحة، والنار جزاء على الأعمال السيئة، ولا فرق في ذلك بين أهل الكتاب وغيرهم.

﴿٨٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي تحسنون بالوالدين إحساناً، والمعنى ـ فيما أعتقد والله أعلم ـ أن الله أخذ منهم ميثاقاً، أي كلاماً موثقاً مثل أن أقسموا بالله لا يعبدون إلاَّ الله ويحسنون بالوالدين أو أخذ ميثاقهم، فأقسموا لا يعبدون إلا الله، وأمرهم أن: أحسنوا بالوالدين إحسانا.

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القريب في النسب ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ اليتيم: الصغير الفاقد لأبيه ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ المسكين: الفقير الشديد الحاجة، بحيث يحتاج إلى السؤال، سواء سأل أم لم يسأل، وأما الحديث: «ليس المسكين هذا الذي ترده اللقمة واللقمتان..» إلى آخره، فإنه من المجاز كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الإحياء

لأن المقصود بالحديث التنبيه، والحث على التصدق على المحتاج الذي لا يسأل، وبيان أنه أشد في معنى المسكنة، وليس المقصود تعليم اللغة ولا وضعاً جديداً.

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي حسناً بالفتحتين، وفيه مبالغة في وصف الكلام بالحسن، حتى كأنه حُسْن ـ بضم الحاء وسكون السين ـ أو المقصود الأمر بحسن القول لا القول نفسه، فليس المقصود إلاَّ تبعاً للأمر بالحُسن، وفائدة هذا ترجيح الصمت، حيث لا يكون المقصود حُسن القول، والحُسن ضد القبح، فيعم الإحسان الطبيعي الجائز الذي ليس معه وجه قبح، والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد مر تفسيره ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن أمر الله ونهيه وما أخذ عليكم الميثاق به، والتولي، ضد الإقبال إلى الشيء، وتوليهم: هو توليهم عن الله بترك عبادته وإقبالهم إلى الدنيا، وترك طاعة الله في أمره ونهيه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على تحريم الشرك بالله، وعلى وجوب الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين، وعلى أن يقولوا للناس حسناً، من أمرٍ بمعروفٍ ونهي عن منكر، وإرشاد ضال، وابتداء بالسلام وردّه، وتشميت العاطس، واجتناب الفاحش من القول، والسب والمراء، وعلى تحريم التولّي والإعراض عما ذكره الله وشرعه في هذه الآية)) انتهى.

قلت: والفرق بين الوالدين وسائر الناس في هذه الآية: أن الأمر بالإحسان إلى الوالدين غير خاص بالقول، وكذا ذو القربى واليتامى والمساكين، فيعم الإحسان ببذل المال وبالأفعال للنفع والدفع، ويفهم منه قبح الإساءة إليهم.

مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يدل على تحريم الشرك الأكبر، وعلى تحريم الشرك بالعبادة الذي هو الرياء، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ دليل على أنه لا يدل على ضعف المذهب قلة القائلين به، وأنه قد يكون هو الحق.

﴿٨٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ لما كانوا جماعة واحدة في نسبها وملتها نسب إلى جملتهم دماء بعضهم وإخراج بعضهم من ديارهم كما ينسب إلى جملة البدن ما يقع على عضو منه، وفيه إشارة إلى أن ضر البعض ضر للجملة، كما يقال في المثل العرفي: ((القُدّ في الثوب والكسر في الصَّبَح)) أي في الساق ـ والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ بهذا الميثاق ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ به على الدوام، لم تنسوه ولم ترجعوا عن الإقرار به.

﴿٨٥﴾ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كلمة احتجاج،

ومثلها واقع في لغتنا، يقول القائل منا لصاحبه ـ محتجّاً عليه ـ: أنت ذا فعلت كذا وكذا، والمفروض أن لا يقع منك هذا، أو نحو هذا الكلام، ولعل الأصل في هذه الإشارة أنه يؤتى بها للتسجيل على المخاطب بأنه هو يفعل الجريمة كما تقول: أنت يا هذا فعلت كذا وكذا.

وقوله: ﴿تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ يفيد تكراره منهم وإصرارهم عليه، فهم باقون عليه في الحال، وهذا أبلغ في التشنيع عليهم، وذكر في (الكشاف) أن قوله: ﴿ثُمَّ﴾ هو استبعاد لما أسند إليهم.

قلت: يعني أنه مثل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف:٥٧] وقول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلاَّ ابن حرةٍ يرى غمرات الموت ثم يزورها

وهو قريب. قال في (المصابيح): ((قال في (الكشاف): ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ﴾ استبعاد لما أسند إليهم، وتشنيع عليهم بما فعلوا من القتل والإجلاء من الدور بعد أخذ المواثيق عليهم)) انتهى المراد.

وقد سقط من المطبوعة التي عندي عبارة: ((وتشنيع عليهم بما فعلوا)) ومؤلف (المصابيح) متقدم قبل أربعمائة سنة تقريباً، أي قبل الطبع، وحذف الكلمة مخل. والفريق قسم مفارق لغيره.

﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ تتعاونون، والإثم: الباطل ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظلم، وهكذا أهل الباطل يتعاونون من أجل باطلهم على ظلم أهل الحق، وفي هذه الآية دليل على أن المتعاونين يكونون شركاء في القتل والإخراج من الديار كما في ذبح البقرة؛ لأنه تعالى قال: ﴿تَقْتُلُونَ﴾ ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ فنسب ذلك كله إليهم.

ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي إن يأتكم الفريق أسارى تنقذوهم من الأسر بدفع الفدية عملاً بحكم التوراة الموجبة عليكم ذلك فتحرجتم من تركهم، ولم تتحرجوا من إخراجهم وهو محرم عليكم إخراجهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حين تفادونهم ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ فأنتم لا تعملون بحكمه في تحريم إخراجهم من ديارهم، وهذا توبيخ لهم واحتجاج عليهم بإيمانهم ببعض، على فرض وقوعه لا إنكار للإيمان كما قدمت في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ هوان وافتضاح عقوبة القتل، والإخراج ومفاداة الأسارى ليس له جزاء، أي ثواب، لأنه غير مقبول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ كأنه جعل ردّاً لأنهم كانوا قبله في عذاب، فردوا إلى العذاب وهو أشد مما كانوا فيه؛ لأنه عذاب النار، وعذابها أشد العذاب، ويحتمل أشد العذاب في جهنم كعذاب آل فرعون لجرائم كبيرة وكثيرة، هذه المذكورة وغيرها كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ على قراءة نافع؛ لأنه راجع إلى من يفعل ذلك، وعلى قراءة حفص ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالمثناة من فوق؛ لأنه شامل لهم، فسيجازيكم عليه كله.

﴿٨٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الجرائم المذكورة في الآية الماضية أو في الآيات الماضية في (بني إسرائيل) كلها ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ لأن الباعث على تلك الجرائم كلها حب الحياة الدنيا الراجح على حب الآخرة،

أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا

فاختاروا الدنيا على الآخرة، وطلبوا الحياة الدنيا بما هو ترك للدين ورفض له ومحاربة له، فكانوا بذلك قد استبدلوا الحياة الدنيا بالآخرة؛ لأنها لا تنال إلاَّ بالدين وهم قد اشتروا الدنيا بالدين.

ويظهر: أنهم حين كانوا يقتلون بعضاً منهم ويخرجون بعضاً من ديارهم كانت هناك لهم سلطة، فمن تولاها أمن على حياته، ومن باين تلك السلطة لجورها وفسادها في الأرض خاف على حياته، فكان أكثرهم يميل مع السلطة حبّاً للحياة وحباً لأغراضها تبعاً لحبّها، فيعين السلطة لذلك على الظلم، فما كان من السلطان من قتل لأخيارهم وتشريد فهم شركاء فيه، وكانوا به قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة.

وهكذا يفعل جماهير هذه الأمة ليطمئنوا على حياتهم فينقادوا للظلمة حتى يصيروا معاونين لهم على الظلم، وحتى يصيروا مشاركين لهم فيما فعلوا من قتل أولياء الله وتشريدهم، والسبب الأول فيه حب الحياة الدنيا وكونه أرجح من حب الآخرة بحيث ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي هو أشد العذاب، بل يبقى على شدته أبداً ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ كما يمنون أنفسهم شفاعة أنبيائهم لهم.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا﴾ أتبعنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآيات الواضحة الدالة على أنه رسول الله إليكم.

﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ قويناه بجبريل × الذي هو روح الطهارة من القبائح لعصمته، والواجب الاهتداء بهم، ولكن ما زادوهم إلاَّ نفوراً، فهم يكفرون ببعضهم ويقتلون بعضهم، فأنكر الله ذلك عليهم بقوله تعالى:

مَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ أَن

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ أنفتم من الخضوع للحق ﴿فَفَرِيقٗا﴾ من الرسل ﴿كَذَّبۡتُمۡ﴾ تبريراً لخلافهم واتباعكم لأهوائكم ﴿وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ محاربة للحق ونصراً لباطلكم، فأنتم مصرون على هذه الجرائم إلى الآن حيث تكفرون برسول الله محمد ص استكباراً وأنفة أن يكون الرسول من بني إسماعيل وأنفة من اتباعه.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ عليها أخبية تغطيها فلا تفهم القرآن، وهذا كقول قوم شعيب: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته بأن سلبهم التوفيق، وخذلهم كما في آية (سورة النساء): ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾ [آية:١٥٥] ﴿بِكُفۡرِهِمۡ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

﴿فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ وقلة إيمانهم إما لقلة ما يؤمنون به، فهم لا يؤمنون إلاَّ ببعض ما في التوراة، وهو ما وافق أهواءهم، وإما لقصر مدته، ففي كلام أمير المؤمنين × : ((فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً، ومنه ما يكون عواري بين الصدور والقلوب)) أو كما قال.

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن ﴿مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ﴾ من كتب الله ﴿وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كانوا يدعون الله على الذين كفروا، أن يفتح بينهم وبين الذين كفروا، أي يفصل بينهم بحكم من عنده، وهذا الفصل إما بالنصر عليهم، وإما بالحجة القاطعة للخلاف.

يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغۡيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ﴾ بالدليل الذي يبين أنه الحق، وبموافقته الصفات الموجودة عندهم، فليس أمراً مستغرباً بحيث تنكره نفوسهم ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ وصاروا كالذين كفروا من قبل؛ الذين كانوا يستفتحون عليهم، وجحدوا الفتح الذي كانوا يطلبونه من قبل؛ لأن القرآن والرسول ص وما جعل الله من النصر على الذين كفروا كل ذلك فتح بالنصر وبالحجة القاطعة للخلاف، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة:١-٣].

﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المذكورين أو المذكورين وسائر الكافرين، وهذه الجملة الاسمية أعظم مما لو قيل: فلعن الله؛ لأن الجملة الاسمية تدل على ثبات اللعنة واستمرارها، والأقرب: أن المراد بالكافرين المذكورين من أهل الكتاب وأن اللعنة هنا بمعنى اللعنة في قوله تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿بِئۡسَمَا ٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡ﴾ (بئس) كلمة ذم، ضد نعْمَ في المدح، واشتراء النفس الممدوح: تقوى الله التي تنقذها من النار، فاشتراء النفس: إنقاذها من النار بالثمن الذي هو تقوى الله كما في الحديث: ((الناس غاديان، فمشتر نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها)) فلما كان هذا الإشتراء هو الذي ينبغي لكل عاقل وهو الإشتراء الممدوح سمي كفرهم بآيات الله الذي جعلوه بدل الإيمان والتقوى سمي اشتراءً على طريق المشاكلة التقديرية، ولكن جعل اشتراء مذموماً؛ لأنه لا ينقذهم من النار، بل يوقعهم في النار ويخلدون فيها بسببه.

﴿أَن يَكۡفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا الذي اشتروا به أنفسهم المذموم ﴿بَغۡيًا﴾ محاربة لله ورسوله؛ كراهة ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ من بني إسماعيل أو غيرهم، والمنزل من فضل الله هنا الكتاب والحكمة، كرهوا إنزال الله لها على محمد ص، فقد كرهوا أن يكون إنزاله على من يشاء هو، كما قال الشاعر:

ألا قل لمن كان لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترضَ لي ما وهب

فالكفر مذموم وحده، فإذا انضاف إلى ذلك أنه بغي من حيث أنهم كفروا ليقتدى بهم ويضعف الإسلام بكفرهم وانضاف إلى ذلك ـ أيضاً ـ أنه حسد كان هذا الكفر يستحق الذم المضاعف.

﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ فاحتملوا ورجعوا بغضب من الله على غضب لتعدد الأسباب، وأعتقد أن هذه ـ أيضاً ـ مشاكلة تقديرية؛ لأن الإنسان يبوء إلى بيته بما يكسب لنفسه وعياله من الرزق، وهؤلاء رجعوا حاملين غضباً على غضب، والغضب ما وقع عليهم من اللعنات والخزي في الدنيا.

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ في الآخرة، فإذا مات هؤلاء كافرين كان لهم ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ وفائدة هذا التعليق على الكفر وأمثاله من التعليق: أن لا يتوهم أن الوعيد على الأشخاص الذين كان الكلام فيهم، ولو تابوا وآمنوا، ونظيره في (سورة النساء): ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [آية:١٦٠-١٦١].

قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا

ومعنى أن العذاب ﴿مُّهِينٌ﴾ أن الله يهينهم به؛ لأنه إهانة من حيث أنه عذاب جزاء بما عملوا، وإهانة بما فيه من ضروب الإهانة كإطعامهم الزقوم وسقيهم الصديد وإرجاعهم إلى أمكنتهم منها كلما حاولوا الخروج، وقوله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] وسحبهم في النار على وجوههم نعوذ بالله.

﴿٩١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لأن الله أنزله والحكم له لأنه ربكم، فالواجب عليكم الإيمان به؛ لأنه أنزله الله ﴿قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهذا منهم تحكّم على الله، إذ ليس لهم حق أن لا يؤمنوا إلاَّ بما أنزل عليهم، فيؤمنوا به؛ لأنه أنزل عليهم، أما غيره مما أنزله الله فيكفرون به وهو الحقّ مصدقاً لما معهم، فيكفرون به؛ لأنه لم ينزل عليهم مع أن دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم دعوى تكذبها أفعالهم، كما حققه قوله تعالى:

﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقتل مؤمناً متعمداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] فكيف إن كان المؤمن نبيئاً من أنبياء الله الذين وجب الإيمان بهم وبما أوتوا.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ حين غاب عنكم ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ لأن الشرك ظلم عظيم.

فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ

﴿٩٣﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَقَكُمْ﴾ على اتباع ما أنزل إليكم ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ آية عظيمة قائلين لكم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم﴾ التوراة وغيرها ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وعزيمة وصبر ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ ما في الكتاب وغيره سماع طاعة وانقياد.

﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ﴾ حبّ ﴿ٱلْعِجْلَ﴾ وذكره كما قال الشاعر: أنتم حلول فؤادي وهو بيتكم

﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم خذلوا، فصار في قلوبهم، وقد جعل عرض العجل عليهم أو حبه الذي ترتب عليه قبولهم له شبه السقي لهم إذا سقوا شراباً فشربوه لأنهم تقبلوه بسهولة وسرعة كما يتقبل الشارب ما يشربه فكأنهم أشربوا العجل إذ عرض لهم هو أو حبه فجعلوه في قلوبهم.

﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان بما أنزل الله يبعث على اتباعه والحذر من مخالفته، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٠-٦٥] وهذا تهكم بهم في دعواهم الإيمان، كأنه يقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإيمانكم يأمركم بقتل الأنبياء، وقولكم: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وعبادة العجل والإصرار عليها ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ﴾ وما هكذا الإيمان؛ لأنه يدعو إلى عبادة الله وحده والسمع والطاعة وترك قتل النفس التي حرم الله إلاَّ بالحق. والمقصود أن دعواكم الإيمان تكذبها أفعالكم الخبيثة.

خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ

﴿٩٤﴾ ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ الجنة التي عرضها السموات والأرض وعند الله معدة لكم عنده و ﴿خَالِصَةً﴾ سالمة، فهي لكم كلها ﴿مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ سبقتم الناس إليها، فأنتم بالنسبة إليها من دون الناس فيما بينها وبين الناس، كقول الشاعر يصف شراباً صافياً:

تريك القذا من دونها وهي دونه

وأحسن من هذا قول الله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ [الكهف:٩٣].

وقوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ لأن من علم أن الجنة له لا يبالي بفراق الدنيا ويكون شوقه إلى الجنة أقوى من حب الدنيا؛ لقلة لذات الدنيا، واقترانها بالمنغصات والمتاعب، وعظم لذات الجنة، وخلوصها من المنغصات والمتاعب والأمن فيها من كل شر، فكيف لا يعجل عليها الإنسان الذي من طبعه العجل، ويتمنى الموت ليخرج من هذه الدنيا ويصير في الجنة.

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، حيث تزعمون أن الجنة لكم ﴿خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ في قولكم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لن يتمنوا الموت أبداً، وذلك لعلمهم بجرائمهم التي اكتسبوها، فإذا ماتوا صاروا إلى النار من أجلها،

أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ

بجرائمهم التي اكتسبوها، فإذا ماتوا صاروا إلى النار من أجلها ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو يعلم ما يبدون وما يكتمون، ويعلم ما قد وقع منهم من الظلم الموجب للنار، وهذه الآية معجزة؛ لأنها خبر قاطع أنهم لن يتمنوه أبداً، وكان ذلك صدقاً لم يتمنوه، وهو خبر غيب مع أنهم مظنة أن يحملهم الجدل وحب تكذيب القرآن والرسول أن يتمنوا الموت؛ لأنها كلمة سهلة على اللسان، وليس الموت في العادة تبعاً للتمني، فقد يتمنى الإنسان الموت ولا يموت؛ لأن في أجله بقية، فلا بد أن باعثهم على التمني كان قوياً جداً، فلما لم يتمنوا دل ذلك على أنهم يعلمون أن هذا كلام الله وأنه ينذر بعذاب عاجل كالمسخ أو الخسف مما يكشف زيفهم بالتمني.

ودل ذلك على أن هذا كلام الله علام الغيوب، ولو كان محمد ص تقوّله ما تجرأ على أن يتحداهم بتمني الموت؛ لأنه لا يأمن حينئذ أن يتمنوا الموت فيكذبوه، وتكون لهم حجة عليه، فهذه معجزة أخرى، هذا كله لأنهم لم يتمنوا الموت؛ لأنهم لو تمنوه لاشتهر لتوفر دواعي الكفار والمنافقين إلى نقله على كثرتهم لو كان.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ لفرط حبهم للدنيا واعتقادهم أنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب الذي قد استحقوه بالكفر وغيره، والحرص: شدة الرغبة، وشدة طلب النفس للشيء، فهو من المعاني النفسية، وهو يبعث على شدة طلب الشيء، فلذلك يقال لمن اشتد طلبه للشيء: إنك لحريص على هذا، وذلك لأن شدة الطلب دليل على الحرص.

والحرص قد يكون على ما يمكن طلبه كالمال، وعلى ما لا يمكن طلبه كالحياة في بعض الأحوال، وقد يكون محموداً كالحرص على صلاح الناس والحرص على بقاء الصالحين، قال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] وقد يكون مذموماً كالحرص على الحياة للتمتع بما تهواه النفس فيها لا لغرض ديني، وفي كلام أمير المؤمنين × الذي رواه أبو طالب في (الأمالي) في (ذكر الرزق) [ص٢٩٢]: عن أمير المؤمنين علي × قال: أوصاني رسول الله ص فقال: ((عليك يا علي باليأس عما في أيدي الناس، فإنه الغنى الحاضر)) فقلت: زدني يا رسول الله، فقال: ((يا علي إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر)) إلى قوله ((ولا تذم أحداً على ما لم يؤتك الله فإن الرزق لا يجرّه حرص حريص ولا يصرفه كراهة كاره)) انتهى.

فقابل الحرص بالكراهة، وأما قوله: ((فإنه الغنى..)) فالمراد أن اليأس يؤدي إلى القناعة، وقد قال × ـ كما في نهج البلاغة ـ: ((القناعة مال لا ينفد)) فلذلك جعل اليأس الغنى، أو لأن اليأس عما في أيدي الناس يذهب الطمع فيما في أيديهم ويوجب القناعة عما في أيديهم، وذلك يوجب الغنى عما في أيديهم، وهو المهم من الغنى.

فأما الفقر إلى الله فهو محمود، وليس هذا مقابلة بين اليأس والطمع، بل كل واحد في كلام مستقل بدليل قوله: ((زدني)) فقد ظهر من هذه الجملة أن الحرص شدة الرغبة، وقد فسروه بشدة الطلب، ولا ينبغي أن يكون المراد به إلاَّ طلب النفس، أي شدة طلب النفس.

ويؤكد هذا أن (صاحب الكشاف) والشرفي في (المصابيح) قالا في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هو بيان لزيادة حرصهم على طريق الاستئناف، انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): أي يحب أحدهم أن يعيش ألف سنة، فظهر أن الحرص هو شدة الرغبة.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ فالتنكير فيه؛ لأن المقصود على حياة في المستقبل، ولو قليلاً منها يعيشون، فهم يحرصون على أي حياة، ولو ساعة يحيون، ولم يناسب أن يقول: على الحياة؛ لأنهم فيها، وليس المقصود حرصهم على الموجود، بل المقصود حرصهم على المفقود في الحال، وهو الحياة في المستقبل، فإذا عاش اليوم فهو حريص على حياته في غد، وحريص على أن يحيى فيما بعد حتى أنه عند اقتراب موته وظنه أن قد قرب فراقه للحياة يحرص على حياة يبقى فيها ولو قلّت، ولو كان في شدة المرض وحين يرغب الإنسان في التخلص من شدة المرض وطوله ولو بالموت، فهؤلاء على خلاف ذلك لا يزالون راغبين في الحياة والبقاء كارهين للموت.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ فهم أحرص من الذين أشركوا من قريش ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وبيان تلك الجملة بهذه يبين أن المقصود حرصهم على حياة في المستقبل، ولو كان المقصود حرصهم على الحياة الموجودة لكان بيانه بذكر شدة حذرهم من أسباب فراقها، فالحرص على حياة في المستقبل يرجونها بطول آمالهم وحياة في المستقبل لا يرجون بلوغها؛ لأنها أبعد من المأمول.

فقد ظهرت فائدة التنكير لأنهم يحرصون على حياة لا يبلغونها، وهي غير الحياة التي هم فيها وهي المقصودة في هذا الذم أصالة، ويتبعها في الذم حرصهم على ما لا يعلمون أنهم يبلغونه؛ لأنهم يحرصون عليه سواء كانوا يبلغونه أم لا، فهم يحرصون عليه ولو كانوا في الواقع لا يبلغونه.

ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ

والحاصل: أنهم أحرص الناس على حياة زائدة على الحياة التي هم فيها، ولو كانت زائدة على المكتوبة لهم، بل وعلى الحياة الزائدة على الحياة المكتوبة لهم، ولذلك يود أحدهم لو يعمر ألف سنة.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ ﴿هُوَ﴾ ضمير عائد إلى أحدهم، أي وما أحدهم، هذا الذي يود لو يعمر ألف سنة ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر، وقوله: ﴿أَن يُعَمَّرَ﴾ فاعل مزحزح، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢] وفي هذا تأكيد لوعيده بالعذاب، وبيان أنه لا بد له منه سواء عمر أم لم يعمر، وتجهيل له حيث يرغب في طول الحياة فراراً من العذاب، أي عذاب نار جهنم وطول الحياة لا ينجيه من العذاب بل لا بد له منه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ بـ﴿مِنَ﴾ الابتدائية، تشبيه له في الحال بنفسه حين يكون في العذاب كأنه يقول: لا بد له من العذاب حتى كأنه الآن قد صار فيه، وهو لا يزحزحه منه أي لا ينجيه منه ويباعده أن يعمر، والزحزحة فيها معنى التنحية ـ بالحاء المهملة ـ والإبعاد، فلا تنحية ولا إبعاد ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعيى بجزاءه، وفي قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ دلالة على استمرارهم في أباطيلهم.

﴿٩٧﴾ ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب؛ لأن السياق فيهم أو لأهل الكتاب وغيرهم؛ لأنك رسول إلى الناس جميعاً.

لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

قال الشرفي في (المصابيح): ((اعلم أنه لا بد من سبب وأمر قد ظهر من اليهود حتى يأمره تعالى بأن يخاطبهم، والمفسّرون ذكروا أموراً، ولنكتفِ هاهنا بما ذكره المرتضى × حيث قال: فإن اليهود لما سألت محمداً ص من الذي ينزّل عليك بالوحي؟ فقال لهم: ((جبريل ×)). فقالوا ـ عليهم لعنة الله ـ : فنحن أعداء جبريل، فهو عدوّنا؛ لأنه ينزل عليك بإبطال أمرنا، وهذا أعدى الخلق لنا، فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ..﴾..إلى قوله: ﴿..فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنما هو مهلك لهم ومخزٍ ومعاقب)) انتهى المراد.

فقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ يشير إلى الذين عادوه من أهل الكتاب، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ﴾ أي فإن جبريل نزل هذا القرآن ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقد تكرر قوله: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ فوقع هنا، وفي (سورة الشعراء) فكأنه × كان يوصله إلى قلبه ص مباشرة، ويقوم مقام حاسة السمع التي توصل الكلام إلى القلب ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو الحق الذي ليس لكم أن تردوه بعلة عداوتكم للرسول الذي نزّله؛ لأنه لو كان باطلاً ما أذن الله بإنزاله.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله التوراة وغيرها، فلا عذر لكم في رده ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾فهو النعمة العظمى التي يجب أن تقبل وتشكر، فكيف تردوا الهدى الذي فيه سعادتكم إن هديتم، والبشرى لكم بالجنة إن آمنتم اعتلالاً بعداوتكم للرسول الذي نزل به، وكيف عاديتموه، وإنما جاء ـ بإذن الله ـ بالهدى والبشرى للمؤمنين.

﴿٩٨﴾ ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) ـ حاكياً عن المرتضى × ـ :

يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا

((ومعنى: عدو لميكائل، فإنهم سألوه من أين يأتي جبريل بالوحي؟ فقال: ((من ميكائل)) فقالوا: ميكائل ـ أيضاً ـ عدوّنا)) انتهى المراد.

وهذه الآية تبين: أن اليهود الذين اتخذوا جبريل عدواً ليسوا أعداء له وحده بل هم أعداء الله وملائكته كلهم ورسله كلهم وجبريل وميكائل، وليس المراد بهذا السياق الإخبار بهذا، بل المراد الوعيد على هذه العداوة، وأفاد أنهم كذلك إن لم يتوبوا، وفائدة هذا التعليق أن لا يوهم أن الله عدو لهم ولو تابوا، وأكد هذا بتعليق العداوة ـ عداوة الله ـ لهم على الكفر حيث قال: ﴿عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: عدو لهم، وفيه فائدة عموم سائر الكافرين.

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ في دلالتها على صدقك، وأن الحق معك، وعلى إبطال المكذبين لك، وتهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفاجرون، أهل الجرأة على الباطل، والممارسة للقبائح؛ لأن الآيات بينات لا يجحدها منصف وجحدها قبيح جداً من حيث أهميتها من حيث أنها تهدي إلى طريق السعادة للناس كافة، ونجاتهم من عذاب الله، فهي خير عظيم عام للبشر، ومدافعتها شرّ عام عظيم.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ فلذلك يتجرؤون على نقض العهود، وقد كان من عهدهم الإيمان برسل الله، فكفروا برسول الله محمد ص، وبعضهم كفر بعيسى × ؛ لأن عادتهم وطريقتهم ترك الإيمان، والسياق في الكفار من (بني إسرائيل).

يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وهو محمد ص ﴿مُصَدِّقٌ﴾ للتوراة، وما ﴿مَعَهُمْ﴾ منها ومن كتب الله ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ عُلّموا التوراة وما فيها من صفات الرسول وأخذ الميثاق عليهم بالإيمان برسل الله فنبذوا ﴿كِتَـٰبَ ٱللَّهِ﴾ الذي هو التوراة، وذلك كبير جداً؛ لأن من نبذ كتاب الأمير في بلده يُعَدّ مسيئاً في حقه يستحق العقوبة، فكيف بمن نبذ كتاب ملك الملوك الذي يدعو عباده إلى رحمته وإلى أسباب كرامتهم ونجاتهم من العذاب المهين؟!

﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وهذا أقبح النبذ والتمرد أن يلقوه وراء ظهورهم رفضاً له واستخفافاً به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً من العلم كأنهم لا يعلمون من وعد الله ووعيده ما يردع عن التمرّد، وكأنهم لا يعلمون من عظمة الله ورقابته عليهم ما يخيفهم من عذابه كأنهم لا يعلمون كما لا تعلم الأنعام.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾ الواو عاطفة لما بعدها على قوله تعالى: ﴿نَبَذَ﴾ فأفادت أنهم جمعوا بين الإثمين، نبذ كتاب الله واتباع ما تتلوا الشياطين، لارتكاب جريمة السحر، وتلاوة الشياطين قراءتهم التي بها يُعلمون السحر.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾ أي أنهم يتلون السحر عليه ليوهموا أنه إنما تم الملك لسليمان به، وأن سليمان لما عمل به حصل له ملكه ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ ما عمل السحرَ كما أوهمت الشياطين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحۡرَ﴾ حكى الشرفيّ في (المصابيح): ((عن القاسم × أنه قال: السحر أمرٌ لا يواتي أهله إلاَّ بعظم من الكفر)) انتهى. هكذا في النسخة، ولعل الأصل: بعظيم من الكفر، ولعل القاسم × أخذه من هذه الآية، وأراد × أن الشياطين في حال تعليمهم الناس يكفرون ليواتيهم السحر ويحصل به ما أرادوا به، فظهر أنهم يحتاجون إلى الكفر لهذا الغرض؛ لأن السحر إنما يتقبله الناس عنهم إذا شاهدوا تجربته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلۡمَلَكَيۡنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ نفي لمفسدة من مفاسد السحر عطف على نفي المفسدة الأولى، أي عطف على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ و ﴿ٱلۡمَلَكَيۡنِ﴾ اسم لرجلين كانا ﴿بِبَابِلَ﴾ سميا به لاعتقاد الناس فيهم الفضل الكبير، وظنهم أنهما في فضلهما بمنزلة الملكين، وذلك لما يجري على أيديهما من الخوارق في اعتقادهم، فجعلوهما ملكين كما قالت النسوة في يوسف × : ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١].

فبين الله تعالى: أن ذلك ليس منزلاً من عند الله تكون به الخوارق، وإنما هو سحر من الشياطين، أو أن اليهود كانت تدّعي أن الله أنزل السحر على الملكين ليوهموا أن الله يرضاه وأنه ليس كفراً، فرد الله قولهم هذا إذا كانت ما نافية، وهو الأظهر، والموافق لتفسير المرتضى × الذي حكاه الشرفي في (المصابيح).

وأما قول (بعض المفسرين): أنها موصولة، فهو بعيد؛ لأن السياق في ذم اليهود باتباع تعليم السحر، وعلى فرض أنها موصولة، يصير المعنى: واتبعوا ما أنزل الله، وهذا التعبير في الذم بعيد.

﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فهما يعرفان بأن السحر كفر أو لا يتم إلاَّ بالكفر.

﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وهذه جريمة عظمى ينضاف فيها إلى كفرهم ظلم الزوجين، وما أكثر ما يصيب الناس هذا العدوان وما أشده على الزوجين ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإذنه بوقوع الضرر لا بإيقاعه، أي بإرادته التخلية بينهم وبينه وتمكينهم منه؛ ابتلاءً للمظلوم وفتنةً للظالم أو بإذنه أي بتخليته وتمكينه، وهو قادر على منعهم غير غافل عما يعملون.

﴿وَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أي هؤلاء المتعلمون للسحر من أهل الكتاب لظنهم أنهم ينتفعون به بما ينالون به من المال، والواقع أنهم يتعلمون ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لأنه سبب لعذابهم وفساد عليهم في دينهم ولا يحصل به غرضهم من الثروة ووفور المال، بل يكونون مع استعماله كما لو لم يستعملوه أو أسوأ حالاً، وإذا كان معنى يضرهم بالنسبة إلى غرضهم من السحر الذي هو المال فهو دليل على أن السحر شؤم عليهم ونقص من أرزاقهم؛ لأن بعض المعاصي تنقص الرزق، فهو يضرهم في معاشهم ولا ينفعهم والأظهر يضرهم في آخرتهم أو في دنياهم وآخرتهم، ولا ينفعهم في دنياهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي نصيب، فقد علموا أنه يفوت عليهم الثواب ولا ينالون في الآخرة أيّ نصيب،

وعلمهم بذلك من التوراة أو غيرها من كتب الله، ومعنى اشتراه: استبدله بدينه، وهذه جرأة على معصية الله عظيمة وسوء نظر لأنفسهم.

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ (بئس) كلمة ذم، و (اللام) تأكيد للذم، و ﴿مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ ما باعوا به أنفسهم؛ لأن في السحر هلاكهم وعذابهم الدائم الذي فيه يخسرون أنفسهم، فقد باعوها بالسحر.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم بئس ما باعوا به أنفسهم فينقذونها من الهلكة بالتوبة من السحر والرجوع إلى الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٦] والمعنى لو كانوا يعلمون لانتفعوا بهذا التحذير والإنذار، وعدم علمهم بما أخبر الله به في هذا القرآن لغفلتهم وإعراضهم عن آيات الله واشتغالهم بالدنيا وكثرة ذنوبهم، فلم يعلموا أن السحر الذي باعوا به أنفسهم ذميماً أيّ ذميم.

وقد يشكل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ مع قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾؟

والجواب: أن قوله: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ معناه: لو كانوا يعلمون أن السحر ذميم ـ أيّ ذميم ـ وهو ما عبر عنه بقوله سبحانه: ﴿وَلَبِئْسَ﴾ ـ وذلك لأنهم لا يعتبرونه ذميماً؛ لأن الشيطان قد زيّنه لهم مع حرصهم على المال الذي يحصل لهم به، وحبُّهم له من أجل المال ينسيهم عيبه، فلا يعتبرونه ذميماً لعظم فائدته في اعتقادهم، فاختلف المثبت والمنفي.

وكذلك يشكل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾؟

ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۖ لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ

والجواب: أن المتبعين للسحر بعضهم، فما كل أهل الكتاب يعملونه، والذين يتبعونه يعلمون أن من اشتراه ماله في الآخرة من خلاق، والذين يعتقدون أنها لن تمسهم النار إلاَّ أيماً معدودة هم غير مرتكبي جريمة السحر، مع أن من الجائز عليهم أن يقولوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ وهم ـ أعني مرتكبي السحر ـ يعلمون أنهم في قولهم هذا كاذبون.

مع أن القائلين: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا﴾ المذكورين فيما مر، يمكن أنهم الذين يكتبون الكتاب بأيديهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ فيمكن أنهم هم القائلون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾.

وعلى هذا: فوظيفة بعضهم التزوير وبعضهم السحر، وأهل التزوير يقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وأهل السحر قد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من نصيب أو كلهم يعلمون ذلك، والقائلون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ هم الذين: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وقالوا ـ هم ـ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ يعنون أنفسهم لا كل أهل الكتاب على اختلافهم في الجرائم، فلا إشكال.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الذي أمروا به ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ ربهم بأن تابوا من جرائمهم واجتنبوا المعاصي من وقت التوبة ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ثواب من عند الله وهو الجنة ﴿خَيۡرٞ﴾ مما هم فيه من السحر والكسب الحرام ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ والأصل لو كانوا يعلمون لاختاروا ما هو خير لهم الذي هو الإيمان والتقوى، أو لعلموا أنه خير لهم، ولكنهم لكفرهم وغفلتهم وإقبالهم على الدنيا كأنهم لا يعلمون شيئاً ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤].

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ ۞ مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ

﴿١٠٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾ ﴿رَٰعِنَا﴾ راقبنا، أي لاحظنا ولا تغفل عنا ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ إما انتظرنا حتى نفهم ما تقول، أو انظر إلينا نظر الرحمة بحسن الرعاية لنا عند حضورنا لديك، فأمروا بترك كلمة ﴿رَٰعِنَا﴾ إما لأنها تشير إلى الغفلة وتجري مجرى انتبه لنا، وهي قلة أدب، وإما لسد ذريعة اليهود الذين كانوا يقولونها لغرض فاسد، كما يدل عليه قوله تعالى في (سورة النساء): ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [آية:٤٦] وإما للأمرين معاً ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ ما يبلغه رسول الله ص إليكم سماع قبول وطاعة.

﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ اليهود الذين يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا﴾ [النساء:٤٦] وسائر الكافرين ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، أو هو عذاب النار وعذاب البرزخ وعذاب الدنيا بالمصائب العاجلة، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الطور:٤٧] أي فيما بينهم الآن، وبين عذاب يوم القيامة، والأظهر أنه العذاب الذي سيعذبون به كله.

﴿١٠٥﴾ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الذين ليس لهم كتاب، فوصفهم المعرف لهم أنهم المشركون حيث لا ملة لهم يعرفون بها غير الشرك ولا كتاب يختصون به وينتمون إليه، فوصفهم المعرف لهم المشركون، ولا ينافي هذا أن أهل الكتاب الكافرين أو أكثرهم مشركون؛ لأنه تعالى قد بيّن شركهم في (سورة التوبة) وإنما المقصود أن يعم الفريقين بوضوح.

مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن

﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بل هم كارهون لذلك؛ لأنهم يحسدونكم ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ولا يصرفها كراهة كاره؛ لأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فهو يؤتي فضله من يشاء، ولذلك أورث القرآن الذين اصطفى من عباده وصيّر فيهم النبوءة والكتاب بعدما كانت في (بني إسرائيل) وجعل محمداً رسولاً وأنزل عليه الكتاب.

﴿١٠٦﴾ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ بنسخ حكمها ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ بأن يحذف ذكرها من القلب بقوة إلهية ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أصلح منها بالنسبة لوقت نزول الأصلح، فالناسخة خير بالنسبة لوقت حكم النسخ لا بالنسبة لما قبل النسخ؛ لأن الخير فيما تقتضيه الحكمة من الناسخ في وقته والمنسوخ قبل نسخه.

وكذلك قوله: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ على فرض النسيان، يكون البدل خيراً من المنسي، وعلى معنى النسيئة يعجل ما هو خير من المؤجل قبل وقت إنزال المؤجل، والحاصل: أن الخير فيما أنزل الله، وليس لأحد أن يعترض؛ لأنه كلام أحكم الحاكمين ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو ينزل ما يشاء.

﴿١٠٧﴾ ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو يحكم ما يريد؛ لأن الحكم له في عباده ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولاكم بالنعم والألطاف وحسن الرعاية ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينقذكم من عذابه، إن أراد أن يعذبكم، ولعل الخطاب لبني إسرائيل، بدليل ما قبلها وما بعدها، وهو ردّ على من أنكر النسخ منهم.

يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿١٨﴾ ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ حين قال له قومه: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ غوي الطريق السوي وهو طريق الحق والسلامة والكرامة، وتبدل الكفر بالإيمان يشمل جعل الكفر بدل الإيمان بالردة عن الإيمان إلى الكفر وجعل الكفر بدل الإيمان باختيار الكفر، وهو يدعى إلى الإيمان فلا يجيب داعي الله ويختار الكفر.

﴿١٩﴾ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾ أي أحبّوا ذلك، و﴿لَو﴾ للتمني، كأنه قال: تمنوا أن يردوكم من بعد إيمانكم الإيمان الصادق الذي لا نفاق فيه ﴿كُفَّارًا﴾ ليخرجوكم من النور إلى الظلمات ومن طريق السعادة إلى طريق الشقاء ومن عزة الإيمان إلى ذلّة الكفر.

﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ فالباعث هو الحسد الذي أوجدته أنفسهم الأمارة بالسوء بعداوتها لكم وحرصها على بطلان أمركم، والحسد غيرة تبعث على كراهة حصول النعمة للغير الذي يغار من حصول النعمة له أو كراهة بقاء نعمته، هذا الحسد المذموم، وقد يستعمل الحسد في الغيرة من دون قيد، ولعله أصل الحسد، وحقيقته، وينقسم إلى: محمود: وهو ما لم يبعث على الإثم، ورغّب في العمل الصالح لنيل مثل نعمة المحسود، ومذموم: وهو عكس المحمود، وهو الذي ذكرت أوّلاً، وخطره عظيم ـ نعوذ بالله منه ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق:٥].

فانظر كيف صار المذكورون من أهل الكتاب من أجل الحسد من بعد ما تبيّن لهم الحق، وكان مقتضى العقل لو استعملوا عقولهم وتركوا الحسد أن يتبعوا الحق ليرضوا ربهم وينقذوا أنفسهم من النار ويسعدوا في الآخرة، وحينئذ يكونون إخواناً للمؤمنين سليمين من الحسد والعداوة لأهل الحق.

﴿فَٱعۡفُواْ﴾ عما يصدر منهم من الأذى وتحملوا ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ أعرضوا عن أذاهم، ولا ترادّوهم ولا تقاتلوهم باعتبار أنهم حين ذاك لا يشكلون خطورة كما يشكلها رموز الكفر من قريش وغيرهم، فالمعنى: تغاضوا عن قتالهم فليس الوقت وقتهم، وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾ بتسليطكم عليهم وأمركم بالجهاد في سبيله، وحينئذ لا عفو ولا إعراض، وليس المراد أن يصيروا إلى السباب، ولكن كما قال الشاعر:

فلا تكثري فيه المـــــقال فإنه محا السيف ما قال ابن دا رة أجمعا

أو (أمره): نصره للدين، وإعلاؤه لكلمته، وحينئذ لا يضركم حسدهم، وهذا مناسب لآخر الآية.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو قادر على إعزازكم وإذلالهم، وعلى الأول فهو قادر على تمكينكم من قتالهم بتوفير العدد والعدة، وتهيئتكم للقتال وتسليطكم عليهم.

والعفو، والصفح: ترك السباب والمماراة المؤذية والجدال الكثير، وترك القتال حتى يؤمروا به، والأولى فاعفوا عن أذاهم وأعرضوا عنهم، لا تقاتلوهم حتى يأتي الله بأمره، وأمره تقويتكم بأن يأمركم بجهادهم وينصركم عليهم، والأمر هنا بمعنى الشأن أي نصره وإعلاؤه لكلمته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو قادر على ذلك.

وَمَا تُقَدِّمُواْ لأنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ

﴿١١٠﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فذلك يكفي عن الجهاد قبل الأمر به، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النساء:٧٧].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ حث على الإنفاق في وجوه الخير، وعلى فعل الخير كله، فالعبد إذا أنفق فيما يرضي الله فكأنه قدمه أمامه ليوافي يوم القيامة فيجده أمامه قد قدمه لنفسه، وكذلك فعل الخير كله، وفي كلام أمير المؤمنين في (وصيته لابنه الحسن إ): ((وإذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك إلى يوم القيامة فيوافيك به غداً حيث تحتاج إليه، فاغتنمه، وحمِّله إياه وأكثر من تزويده)) انتهى المراد، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ بالنسبة إلى الإنفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لعلمه بمراتب الحَسن في الحُسن ومقادير ما يناسبه من الثواب، وكذلك في كونه بصيراً بما يعمل المبطلون لعلمه بمقاديره في القبح ومقادير ما يناسبه من العقاب، فهو ينزل العمل منزلته اللائقة به، ويجعل له حكمه المناسب له كما يفعل البصير بالصناعة العليم كيف يتقنها.

﴿١١١﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ أو على ما تقدم من أقوالهم مثل: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أو على ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ فجعلوا الجنة خاصة بهم، ومَنَّوا أنفسهم أنها لهم.

وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ

﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ أي هذه وما شابهها كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة:١٨] وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ وقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥] كقوله تعالى ـ بعد ذكر نبي الله داود صلى الله عليه ونبينا محمد ص ـ: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ فالإشارة إلى المذكورَين وسائر الرسل، وكقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف:٢٨] أي المخاطبة وسائر النساء، فجمعهن في الخطاب من أجل الواحدة المخاطبة، ومعنى ﴿أَمَانِيُّهُم﴾ التي يمنونها أنفسهم.

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ والبرهان: الحجة، والمراد: بيان أنه لا حجة لهم، وإنما هي أماني من عند أنفسهم، فالأمر للتحدي؛ لأنه إذا طالبهم بالبرهان ولم يأتوا به تبين أنهم افتروا على الله كذباً؛ لأنهم أهل جرائم وتمرد على الله، فليسوا أهلاً لما يمنونه أنفسهم، ولأن غيرهم الذين أسلموا لله يدخلون الجنة، ولا شك في أنهم أهل لذلك كما كان المسلمون لله قبل اليهودية والنصرانية، فنفي دخولهم الجنة كذب على الله يكشفه عدم البرهان؛ لأنهم لو كانوا صادقين لكانوا في أمانيهم مستندين إلى برهان، فالفارق بين الصادق فيما يحكي عن الله، والكاذب على الله، هو البرهان للصادق، وعدم البرهان للكاذب.

﴿١١٣﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ تصريح بإبطال قصر الجنة عليهم ونفي دخول غيرهم ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ إسلام الوجه لله: جعله لله وحده لا يتوجه به لغيره، ومعنى ذلك إخلاص العبادة لله؛ لأن الذي يعبد غيره قد توجه لغير الله وشرّك في وجهه معبوده، فالإسلام للوجه جعله سَلَماً لله، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لإخراج المسيء، ولو ترك الإشراك في وجهه فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أقام هذا مقام: فإنه سيدخل الجنة وفيه دلالة على أن سبب الجنة هو العمل الذي يستحق به الأجر عند الله؛ وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان.

وفي قوله سبحانه: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى الرَّد على اليهود الذين يدّعون اختصاصهم بالله مع أنهم وغيرهم من البشر كلهم عباد لله، وهو ربهم كلهم لا فرق بينهم في ذلك، وفي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ مناسبة لقوله: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ من حيث أن معناه: عبد الله مخلصاً له العبادة.

فأجر العبادة من ربه؛ لأن العبادة وإسلام الوجه له تعبير عن كونه رب العابد له وتعبير عن كون الذي أسلم وجهه لله عبداً له، فأجر العبادة من المعبود الذي هو ربه، ففي قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ إشارة إلى أنه معبوده، وفيه إشارة إلى وجه استحقاق الأجر منه، وهو أن عبادته عبادة لربه، فاستحق بها الثواب؛ لأنها حق وصواب أمره بها ربه، فآجره عليه.

وقد قدمت زيادة على هذا في مناسبة قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لعبادتهم لربهم وخوفهم من ربهم ورجائهم له، وذكرت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ [المؤمنون:٥٧] وإفادة جملة ذلك لصلتهم بالله من حيث هو ربهم.

فتحصل من فوائد قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾:

إفادة: أن طريق الجنة هو العمل المذكور لا أماني اليهود؛ لأنهم فاقدون لهذا السبب، عادلون عن طريق الجنة الموصل إليها،

وإفادة: أن الجنة أجر على العمل من رب المسلمين له المحسنين، الذي عبدوه فاستحقوا الأجر منه بعبادتهم لربهم الذي أمرهم بعبادته، وهو يرد على اليهود والنصارى دعوى اختصاصهم بالله،

وإفادة: أن الصلة بالله من طريق الإخلاص له والإحسان، هي الصلة بالله لا الأماني.

وقوله: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أعتقد أن المعنى: أنه ليس من شأنهم ذلك، كقوله تعالى: ﴿لا ريب فيه﴾ لأنهم في طريق النجاة من النار؛ لأن كل عاقل يعلم أن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فهو في طريق النجاة، وأنه لا يخاف عليه من إخلاص عبادته لله وإحسانه، فدعوى اليهود أنه لن يدخل الجنة مكابرة للعقول، وما أحسن هذه العبارة حيث لم يسند نفي الخوف إليهم؛ لأنهم وإن كانوا على طريق النجاة يكونون خائفين من ذنوبهم في الدنيا، فلم ينف عنهم أن يخافوا بل هم أكثر خوفاً لله من المجرمين، وقد قال تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤].

وقد مرّ قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مرتين، وهذه الثالثة، وقد جاءت في مواضع من القرآن، فالمقصود: أنهم لا يُخاف عليهم وإن كانوا خائفين في الدنيا والله أعلم.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إما أن المراد في الآخرة؛ لأنهم في الدنيا يحزنون من ذنوبهم، وإما أن المراد ـ وهو الراجح عندي ـ التعريض بأهل الباطل؛ لأنهم في بعض حالتهم يحزنون من باطلهم كما قال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] فالمراد: ولا هم يحزنون من طريقتهم هذه التي هي إسلام وجوههم لله كما يحزن غيرهم من طرائقهم المخالفة.

ونظير هذا: قول إبراهيم الذي حكاه الله عنه في قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾ [الأنعام:٨١-٨٢] أي أنهم هم الذي يأمنون ولا يخافون من إيمانهم وتركهم للمعاصي،وهذه حجة على قومه الذين أشركوا بالله بلا برهان، فهم أحق بالخوف من شركهم، فهكذا ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لا يحزن من أجل إسلامه وإحسانه؛ لأنه يعلم أن ذلك سبب النجاة بخلاف من أشرك وأساء، فإنه ينبغي له أن يخاف ويحزن من طريقته وربما حزن، فالحاصل: أن هذه الجملة احتجاج على اليهود والنصارى.

فإن قيل: إذا لم يقل في المسلمين المحسنين: لا يخافون، لئلا يوهم عدم خوفهم من ذنوبهم، فكيف قال سبحانه: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ ولم يقل: ولا حزن عليهم، مع أنهم يحزنون كما قال أمير المؤمنين: ((المؤمن بشره في وجهه وحزنه في قلبه)) انتهى.

فهم يحزنون لأسباب عدة، مثل غلبة الجور وظهور المنكرات، ويحزن المؤمن من ذنوبه، فكيف لم يقل: ولا حزن عليهم؟ لئلا يوهم هذا المعنى كما في ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

فالجواب: إن عدم الخوف سمة المجرمين الظلمة كما قلنا، وكذلك من سمتهم في الغالب أن لا يحزن الناس عليهم إذا ماتوا، أما المخلص المحسن فإن الناس يحزنون عليه، فلم يناسب حاله أن يقال فيه: لا حزن عليه، فكان الحزن مخالفاً للخوف؛ لأن المجرم الظالم يقال فيه: لا يخاف الله، ويقال فيه: إذا مات لا حزن عليه، والمخلص المحسن يقال فيه: يخاف الله ويُحزَن عليه إذا مات، فالمناسب في المؤمن نفي الخوف عليه لا الحزن عليه.

لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

فظهر: إتقان عبارة القرآن: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا يُخاف عليهم ولا هم يحزنون من دينهم وإحسانهم كما يحزن أهل الباطل من باطلهم في بعض الحالات لو لم يكن إلاَّ عند اقتراب الأجل وحضور الموت أو أن من شأنهم أن يحزنوا، وينبغي لهم ذلك، نعم وهذا المعنى يصلح للدنيا والآخرة فلا خوف عليهم في الدنيا ولا في الآخرة ولا هم يحزنون في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿١١٣﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ المراد: ليسوا على طريق حق، فبالغوا وجعلوا دين الآخرين لا أصل له ولا أساس له، ومعنى هذا الكفر من كل منهما بكتاب الآخر ورسول الله إليه ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي يوجب عليهم الإيمان برسل الله وكتبه، وهو كتاب الله الذي يجب عليهم اتباعه وهو التوراة؛ لأن الفريقين يتلونها، وتسمى عند النصارى العهد القديم أو جنس الكتاب الصادق على التوراة وعلى الإنجيل.

﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ الذين لا يعلمون هم أهل الجاهلية الذين ليس لهم كتاب، فتجرءوا على جحد الحق بأن قالوا مثل قول اليهود والنصارى بأن قالوا: ليست النصارى أو اليهود أو كلاهما على شيء فهو مثل قولهم في جحد الحق، ويوافق هذا التفسير قوله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلاَ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ**﴾ [القصص:٤٨].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ

فثبت أنهم كفروا بموسى، وذلك يستلزم كفرهم بالتوراة، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فجعل الخلاف بين الفرق الثلاث، فأما الكفر بمحمد ص فقد وقع من الفرق الثلاث، وكان يناسبه ـ لو كان المراد ـ أن يقول: فالله يحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي لا أظلم ممن منع مساجد الله التي بنيت لذكره وشرع لعباده أن يذكروه فيها وذكر الله من العبادة التي خلقوا لها فهذه الجريمة عدوان على مساجد الله، وعلى من يريد أن يذكر الله فيها، بل وعلى ذكر الله بمنع وقوعه في المساجد، فاعتدى على حرمة مساجد الله وعلى حرمة الذكر وجمع بين الجريمتين وضم إحداهما إلى الأخرى.

قال في (الكشاف): ((﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ ثاني مفعولي منع؛ لأنك تقول: منعته كذا..)) إلخ.

أقول: فلهذا قلت: إن المنع هذا عدوان على مساجد الله، أعني لكون مساجد الله مفعول أول، وأن يذكر فيها اسمه مفعول ثانٍ، وهذا عام لا يختص بالفرق الثلاث، وإن كنّ سببه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ﴾ تعريض بالفرق الثلاث، فيدل على أن ذلك قد وقع منهم أو من بعضهم أن قد سعوا في خراب مساجد الله.

وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

ولعل سبب ذلك تكفير كل فرقة الفرقة الأخرى، فيؤدي ذلك إلى القتال والتسبيب لخراب المساجد بمنع أهلها منها وإهمالها، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج:٤٠].

فإذا كانت الحروب قد وقعت وهي مظنة تخريب المساجد من قبل أعداء الدين، فلا موجب لتعيين الفاعلين مَن هم، وليس من واجب التفسير تعيين ما أبهم القرآن، ويكفي أن نقول ظاهر الآية التعريض بالفرق الثلاث أنه قد وقع منهن كلهن أو بعضهن منع مساجد الله، والسعي في خرابها، وظاهرها العموم لكل مساجد الله التي كانت موجودة في عصرهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ لأنهم رجس، يجب تنزيه المساجد عنهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨].

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ يستحقون الخزي في الدنيا بأي وسيلة كالطرد من المساجد ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على قبح منع المسلمين من مساجد الله، وعلى تحريم خرابها الحسيّ والحكمي، وهو منع ذكر الله فيها، وتجب إخافة من فعل ذلك، وأن يخزيهم من قدر على إخزائهم كما في الآية)) انتهى.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ جهة طلوع الشمس ﴿وَٱلْمَغْرِبُ﴾ جهة غروبها، يفرد وهو عبارة عن المشارق

والمغارب باختلاف الاعتبار، أعني قد يعتبر المشرق متعدداً باعتبار تعدد مطالع الشمس بتعدد منازلها، وقد تعتبر المشارق كلها مشرقاً واحداً لعدم اعتبار اختلاف المطالع، وكذلك المغرب.

والمراد: أن له تعالى أن يوجه عباده في عبادتهم حيث شاء؛ لأن الجهات كلها له، ولعل فائدة تخصيص المشرق والمغرب بالذكر أن الشمال والجنوب كان معهوداً حيث صلوا من المدينة المنورة إلى الجنوب إلى الكعبة، وإلى الشمال لغرب حين صلوا هناك إلى بيت المقدس والله أعلم، أو أن المشرق والمغرب يعم أكثر الجهات لامتداد الجهتين إلى الشمال صيفاً والجنوب شتاءً.

وقوله: ﴿تُوَلُّواْ﴾ أي توجهوا وجوهكم، وقوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ تعبير عن كونه يصلح قبلة تتوجهون إليه في عبادة الله، وهو من المجاز معناه: كأن الله هناك يقبل إليكم بوجهه سبحانه وتعالى، وهو منزه عن الأعضاء، وإنما المراد بيان أنه يصلح ليكون قبلة تقبل منكم الصلاة إليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع الرحمة لعباده كلهم، ولا تختص رحمته بأمة كـ(بني إسرائيل).

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على جواز التوجّه بالصلاة إلى أيّ جهة شاء المصلي عند التباس جهة الكعبة، والجهل بها)) انتهى.

قلت: وتدل على أن الجهات كلها تصلح أن تكون قبلة، ولا يختص بذلك بيت المقدس، فإذا شاء سبحانه وتعالى أن يوجههم إلى جهة صارت قبلة، فالآية كالمقدمة لما يأتي في القبلة.

﴿١١٦﴾ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ يظهر أن قوله تعالى: ﴿قَالُواْ﴾ الضمير فيه راجع إلى الفرق الثلاث: اليهود، والنصارى، والذين لا يعلمون، و﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ ردّ لكلامهم، وتنزيه لله سبحانه عن الولد.

وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ

﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون مطيعون، فعيسى وعزير والملائكة كلهم عباد لله منقادون يقضي فيهم ما يشاء ويحكم ما يريد، ليس لهم من الأمر شيء.

﴿١١٧﴾ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وهما دليل على أنه تعالى قادر على إبداع ما يشاء وخلقه قبل أن يوجد له مثل كما بدع آدم من التراب، فكيف لا يقدر على خلق عيسى من دون أب ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يعسر عليه خلق حتى كأنه إنما يأمر الشيء أن يكون، فإذا أمره فهو يكون.

﴿١١٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من كفار العرب ﴿لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ جحداً بالآيات، وزعماً أن آيات الله ليست آيات ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ من الكفار كقوم هود في قولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود:٥٣] وكل أمة كفرت برسولها فهي مكذبة بآيات الله ﴿مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ يطالبون أن يكلمهم الله استكباراً وتعنتاً ويكذبون بآيات الله.

﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فهي كلها تكره الحق وتميل إلى الباطل وتتكبر ولا تؤمن بآيات الله ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

فقولهم: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞ﴾ لا وجه له، بل هو أبطل الباطل؛ لأن الله جعل الآيات وجعلها بيّنات لا تخفى على من يريد الحق ومن شأنه أن يوقن لوجود الآيات البينات، أما من لا يوقن مع وجود الآيات البينات فالحجة قائمة عليه؛ لأن المانع من إيقانه هو إعراضه وكراهته للحق وشغل قلبه عن النظر في الآيات بوسواس الشيطان والكبر والحسد، وغير ذلك من الموانع التي هي من عنده، ويجدها من نفسه.

أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ

﴿١١٩﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ في قوله: ﴿إِنَّآ﴾ بكلمة التعظيم، إشارة إلى أن ذا الجلال والإكرام العزيز الحكيم العلي العظيم أرسلك ﴿بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فما أقبح طريقة الكفار المحاربين للدين من اليهود والنصارى، والذين لا يعلمون يحاربون هذه الرسالة التي تولاها ملك الملوك علام الغيوب أحكم الحاكمين مع أنها رسالة بالحق، ولا يرسل سبحانه إلاَّ بالحق، ومع أنها مهمة لمصلحة البشرية بل ضرورية لنجاة من يريد النجاة من النار وسعادة من يريد السعادة الدائمة، فما أقبح التكذيب بها، وما أقبح الجدال في دلائلها، وما أقبح معارضتها بالمكر، وما أقبح الإعراض عنها.

﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ الذين لم يقبلوا منك ولم يهتدوا بهداك وتمردوا وأصروا واستكبروا، فهم مخذولون لا يرجعون إلى الهدى، ولا يزالون على طريق الجحيم حتى صار اسمهم ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ [المائدة:٩٩] ليس عليك هداهم، فلست مسئولا عنهم، وفي قراءة منسوبة إلى نافع: ﴿وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بالجزم و(فتح التاء) ومعناها إما الأمر بالإعراض عنهم؛ لأن من عادة المعرض أن لا يسأل عمّن أراد الإعراض عنه؛ لأنه لا يبالي به كيف كانت حالته، وإما على معنى لا تسأل ربك عنهم لماذا يعذبهم؛ لأنه لا يُسأل عما يفعل، وإما لا تسأل ربك هل يمكن أن يعفو عنهم أو نحو هذا، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧] وإما لا تسأل عنهم، أي عن العذاب الذي يصيرون إليه تعظيم للعذاب وتعبير عن شدته على السمع. كما قال الهبل:

سماعك بالنار يا ذا الحجا ... شديد شديد شديد شديد

فكيف إذا أنت عاينتها ... فكيف الوقوع فكيف الخلود

ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ

وحكى الشرفي في (المصابيح): ((عن المرتضى × : أن القراءة ـ بضم التاء، وضم اللام ـ لم يذكر غيرها. قال الشرفي: وكلام أبي الفتح الديلمي × مثل هذا، وهي قراءة جميع القراء، إلاَّ نافعاً)) انتهى.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ لأنهم متعصبون لدينهم وغاضبون مما جئت به في شأنهم وحاسدون لك على الرسالة واتباع أمر الله ومكانتك عند الله.

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ وقد هداني إلى صراط مستقيم، فلن أتبع ملتكم ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ لأنهم في كفرهم إنما هم متبعون للأهواء تقودهم إلى الكفر والأباطيل والعمل بالمنسوخ من شريعتهم الذي صار بالنسخ قد انتهى حكمه وصار التمسك به تعصباً، إنما هو من الأهواء، وقد خرج عن كونه من الدين ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الذي أنزله الله إليك وهداك به وبين لك أنهم على ضلال مبين.

﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولى رعايتك ويعصمك من خذلان الله لك بشفاعته ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنك عذاب الله، وليس معنى هذا أن رسول الله ص مظنة اتباعه لأهوائهم أو قريب من ذلك، ولكن هذا تعبد كنهيه عن سائر المنكرات التي لا تقع منه، ويثاب على تركها، وفيه دلالة واضحة على أن اليهود والنصارى ما لهم من الله من ولي ولا نصير.

﴿١٢١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ علمناهم التوراة ورزقناهم فهمها والاهتداء بهداها فهم ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ لا يحرفون ولا يبدلون لسلامتهم من التعصب والحسد ورغبتهم في الحق.

إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالذي جاءك من الحق؛ لأن غرضهم اتباع الحق، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت:٤٧] وذلك لأن التوراة تدعو إلى الإيمان بما أنزل على محمد، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] فالذين أوتوا الكتاب قسمان:

قسم كما قال تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] فهؤلاء لا يتلونه حق تلاوته.

وقسم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ..﴾ الآيات [القصص:٥٢-٥٣].

وعلى هذا: فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ الذين علمناهم وفهمناهم، فخرج عن ذلك الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ فلا يقال فيهم: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ بهذا المعنى وإن كانوا منسوبين إلى الكتاب.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ كالتخصيص لما سبق في اليهود والنصارى كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٣] ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي من يكفر من اليهود والنصارى والذين لا يعلمون وغيرهم بالذي جاءك من الحق ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأن التعب في التدين بلا فائدة خسران، بل ويؤدي إلى العذاب الدائم، فهو الخسران الشديد.

﴿١٢٢﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في النعم كقول موسى لقومه: ﴿يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة:٢٠]

تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن

والمراد بتذكيرهم نعم الله عليهم، حثهم على الشكر، وتحذيرهم من كفر النعم الذي من أعظمه الكفر بما أنزل الله على محمد والتكذيب بآيات الله.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا﴾ تحتاجون إلى أن تتقوه وهو يوم القيامة، ولا بديل ينجيكم منه؛ لأنه يوم ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ لا تؤدّي عنها حقاً ولا تقضى عنها ديناً ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ﴾ يعدلها، فتفتدي به من مال، أو ولد، أو أي شيء.

﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٞ﴾ ليعفى عنها ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ أي الذين لم يتقوا ذلك اليوم على أنهم الجمع الكبير الجم الغفير، فلا يُفيدهم ناصر ينصرهم، وهذه الآية الكريمة تكذّب أمانيهم وتبين أنها غرور خادع؛ لأنها قد بينت أنه لا ينجي المكلف من عذاب يوم القيامة إلاَّ التقوى، فعليكم أن تؤمنوا بالله ورسوله محمد ص وما أوتي من القرآن والسنة والآيات.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٖ﴾ اختبره بهن، أي شرع له خصالاً أو أمره بخصال ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي أتم ما ذكر له في الكلمات، فرجع الضمير إلى الكلمات؛ لكونه أتم المذكور فيهن، كقوله تعالى: ﴿ونرثه ما يقول﴾ ونظيره قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

والمراد: أنه × قام بما شرع له في الكلمات المذكورة كاملاً بلا تقصير ولا بخس، فالعمل كامل والنية خالصة والذهن حاضر، والخشوع كامل،

وعلى الجملة قام به على الوجه المشروع بلا تقصير في ذات ولا صفة، وذلك لقوة إيمانه ويقينه وصبره.

ويحتمل: أن هذا الابتلاء كان قبل النبوة والرسالة، فكان إتمامهن سبباً للرسالة والإمامة لمن في عصره ومن بعده، ومن يدعي أن هذا الابتلاء كان بعد الرسالة، فليس له دليل.

ولا يشكل قول القائل: إن هذا الإبتلاء لا يكون إلاَّ بوحي، فكيف يكون قبل النبوة؛ لأنا نقول: ما المانع أنه كان × محدَّثاً قبل النبوّة تهيئة للنبوة كما كانت مريم بنت عمران وأم موسى، ولو سلمنا أنه لا يكون قبل النبوة فلا دليل على تأخره، ومن الجائز أنه كان في أول النبوة ثم ترتبت الرسالة على إتمام الكلمات بعد النبوة، أي أنه كان نبياً فابتلي بكلمات فأتمهن، فجعل رسولاً وإماماً للأجيال.

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فإتمامه لما ابتلي به كان سبباً لجعله للناس إماماً، وقد قيل: إن فيه دلالة على أن الإمامة أعظم من النبوة؛ لأنه كان نبياً، ثم بعد ذلك صار إماماً عندهم، ونقول: لا دلالة على ذلك؛ لأن الإمامة رتبت على إتمامه ما ابتلي به لا على النبوة، والنبوة تكون لمن اختاره الله لها، ولو لم يكن رسولاً، ومن الجائز أن يكون الله اختار إبراهيم للنبوة لكونه أهلاً بصلاحه العقلي، وكونه شاكراً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

واختاره للرسالة بإتمامه ما أمر به، فكانت النبوة أولاً لنفسه والإمامة من أجل الناس ولعل سبب تقديم النبوة في حقه أنه لم يكن لديه كتاب ولا أثر من نبي كان قبله، فلم يكن بد من تقديم نبوته ليعرف ما يخصه من التكليف

فتأخرت الإمامة عنها لا لكونها أعظم من حيث هي إمامة، ولا لكونها درجة أرفع، بل لكون الإمامة تتوقف على العلم والصبر واليقين بآيات الله، والنبوة لا تتوقف على العلم بالشرعيات؛ لأن ذلك دور، إذا لم يكن عنده كتاب أو أثر من نبي قبله كآدم × .

فإن قيل: فقد دل ذلك على أن الأهلية للإمامة أعظم من الأهلية للنبوة؛ لأن الأهلية للإمامة توقفت على العلم بالشرعيات بخلاف النبوة؟

قلنا: لا دلالة على ذلك؛ لأن الأهلية للنبوة وإن لم تتوقف على العلم بالشرعيات، فالنبوة تتوقف على كمال عقلي واستعداد فائق، فلا يبعد أن يكون بعض من يصلح للإمامة لا يصح للنبوة، اللهم إلاَّ أن يراد الإمامة العامة، كإمامة إبراهيم الخليل وإمامة محمد ص الإمامة التي هي لازم الرسالة، كما قال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] وقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء:٥٩] وغير ذلك فهي إمامة الرسول فيما أرسل به وكونه متبوعاً فيه لكل من أرسل إليهم وكل من أمر باتباعه من الأجيال المتتابعة، فهي متوقفة على النبوة، وهي أعظم درجة من أجل الرسالة من حيث أمر أن يبلغ ويدعو إلى طاعته من أرسل إليهم ويقوم بتكاليف الرسالة الشاقة التي ذكرت في القرآن ودل على عظمها وعظم مشقتها، ولا تكون إلاَّ لذي أهلية خاصة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤].

والحاصل: أن الإمامة مُختلِفة، وفضلها مختلف، وعظم إمامة إبراهيم × لا يستلزم أن تكون كل إمامة مثل إمامة إبراهيم.

وحاصل الجواب: أنا لا نسلم ترتب إمامة إبراهيم على نبوته، بل على طاعته، فلا نسلم أن الإمامة أفضل، وأنا لو سلمنا أن إمامته أفضل من نبوته فلم نسلم أن كل إمامة مثلها، وقد قال تعالى في (بني إسرائيل): ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] فلم يرتب إمامتهم على نبوة، وإنما رتبها على صبرهم ويقينهم بآيات الله اليقين المستمر.

وقد *قيل*: إن يقينهم كيقين إبراهيم الخليل المذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

والجواب: أن يقينهم بآيات الله أنها دليل على ما هي دليل عليه، وهو يصح أن يوقنوا بها جملة، ولا يتوقف على أن يريهم الله ملكوت السموات والأرض كما أرى إبراهيم × ، إنما يتوقف على العقل الكامل والإيمان الراسخ والنظر والتفكر مع أن الملكوت المُلك ـ بضم الميم ـ، وإراءتُه إعلامه، وهو يحصل كذلك بالنظر المؤدي إلى العلم بأن الله رب كل شيء، فله الأمر، ومع أن يقين إبراهيم مطلق ويقين أئمة بني إسرائيل مقيد بالآيات، فلا وجه للتسوية بين يقين إبراهيم الخليل × ويقين سائر الأئمة، وعلم ذلك عند الله تعالى.

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ اجعل أئمة بقرينة قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالجمع يدل على أن المطلوب جمع، وهو × أراد أئمةً للناس كافة لمن في عصره ولمن بعده من الأجيال كما أن إبراهيم × إمام كذلك، والكلام في سياق الاحتجاج على أهل الكتاب الكافرين بمحمد ص، فظهر أنه المقصود بإيراد القصة؛ لأنه رسول إلى العالمين ص.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يفيد: أن قد أجاب دعوة إبراهيم وزاده فائدة؛ أنه لن ينال عَهْدُه بالإمامة ظالماً، فليس هذا ردّاً على إبراهيم × ، ولا تخصيصاً لدعوته؛ لأنه قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فأتى بـ﴿مِن﴾ التي للتبعيض، فليس فيها عموم وليس في كلامه تعرض لكونه ظالماً أو غير ظالم، وفائدة هذه:

أولاً: الرد على من سيكفر ويقول: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١٢٤].

ثانياً: الرد على من ادعى النبوة من الظالمين كمسيلمة الكذاب لتكون معرفة ظلمه كافية لإبطال دعواه.

ثالثاً: الرد على من ادعى الإمامة الشرعية وهو ظالم، فيكون ظلمه دليلاً على كذب دعواه وهو وإن لم يكن السياق فيه فقد دخل في عموم عهدي، وعموم الظالمين، والعام لا يقصر على سببه، وقد قيل: إن هذا دليل على عصمة الإمام؛ لأن من عصى فهو ظالم، ولو كان قد تاب.

قلنا: التائب قد خرج عن اسم الظلم؛ لأن توبته قد محت ذنبه وصار مستحقاً للمدح غير مستحق للذم، وتسميته ظالماً ذم له بعد خروجه عن استحقاق الذم، وصار مؤمناً، ومحسناً ضد الظالم وضد المسيء، قال تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّٰتِ﴾ [الشورى:٢٢].

فهل *تقولون*: أن التائب هو من النوع الأول؟ أم من النوع الثاني؟

فإن قلتم: من الأول، خالفتم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى:٢٥] وقوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان:٧٠] وعلى هذا اللغة العربية، فمن أساء سمي مسيئاً حتى يرجع ويتوب من إساءته ويصلح ما أفسد ويحسن، ومتى صار محسناً سمي محسناً ولا ينظر إلى إساءته من قبل.

وكذلك من أحسن يسمى محسناً، ومتى تحول عن طريقته وصار من المفسدين لم يسم محسناً نظراً لإحسانه السابق قبل الإساءة، فدعواكم أن التائب ظالم غير مسلمة ولا حجة لكم إلاَّ استصحاب اسمه قبل التوبة، وهو استصحاب باطل؛ لأن التوبة قد محت ظلمه واختلفت حاله فهو كاستصحاب اسم الكفر لمن قد أسلم، واسم الإسلام لمن قد أشرك، واستصحاب اسم المريض لمن قد عوفي وصار صحيحاً وغير ذلك.

فاللغة لا تثبت لكم هذا الاستصحاب، وهو دعوى على اللغة لا تسمع، فلا نسلم أن التائب من ظلمه المبدل حسناً بعد سوء الذي يبدل الله سيئاته حسنات ظالم داخل في عموم: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وعلى هذا فيكفي ظهور عصمته، أي هدايته وتوفيقه من بعد التوبة والإصلاح، فإن قالوا: لا يخلو إما أن يكون إبراهيم طلب إماماً ظالماً أو لم يطلبه الأول باطل بالاتفاق. والثاني: إما أن يكون طلب إماماً معصوماً أو لم يطلبه، الأول هو ما نريد.

وقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابة مطابقة، والثاني أن يكون طلب إماماً معصوماً أو غير معصوم، فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، وقصر للإجابة على المعصوم.

والجواب: نختار الثاني في أول قسمة، فلم يطلب ظالماً، ونختار الثاني في القسمة الثانية فلم يطلب في هذا الدعاء معصوماً، فلا ذكر للعصمة. وقولكم: فقوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لإخراج غير المعصوم، دعوى لا دليل عليها، بل هو إجابة مطابقة.

فإن *قالوا*: إذا جعلناها إجابة مطابقة بطلت فائدتها؛ لأنه إذا طلب إماماً غير ظالم، وأجيب بأنه ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لم يكن الجواب رداً على إبراهيم ولا تخصيصاً لكلامه.

قلنا: لا موجب لجعل الجواب ردّاً على إبراهيم، ولا لجعله تخصيصاً لدعوته، فأما الفائدة فلم تقصر على ذلك، ويكفي في الفائدة التصريح بما لم يذكره إبراهيم، وكون التصريح من مالك الملك.

فصل

وقد قيل: إن هذه الآية دليل على أنه لا بد أن يكون الإمام منصوصاً عليه بعينه، ووجه الدلالة: أن الآية قد دلت على أن الإمام لا يكون ظالماً من غير فرق بين الظالم في الظاهر والظالم في الباطن، فدلت على أنه لا بد أن يكون منصوصاً عليه، وإلا جاز أن يكون ظالماً في الباطن.

قلنا: أما الرسول فلا بد من أن يصدقه الله بآية خارقة لا لأجل هذه الآية الدالة على أن الرسول لا يكون ظالماً، وذلك لأن ظهور كونه غير ظالم، وعدم العلم بظلم منه باطن لا يكفي في تصحيح دعواه الرسالة، ولم يثبت دليل عام يقتضي الاكتفاء بظهور عصمته.

وأما الإمام من بعد علي والحسنين فإنه يكفي ظهور فضله، وظهور صلاح ظاهره وباطنه، ولا نكلف علم باطنه؛ لأن الآية لم تشترط ثبوت العصمة إنما نفت العهد للظالم ولم تنف العهد لمن جوزنا أنه في الباطن ظالم

مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ

ولا دلت على وجوب العمل بهذا التجويز ولأنه لا يثبت حكم المعصية إلاَّ بعد ثبوتها، وإذا لم تثبت وجب العمل على حسن الظن، لقوله تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢].

والحاصل: أن الآية إنما دلت على أن الظلم مانع، ومجرد تجويز وجود المانع لا حكم له، ألا ترى أن إمام الصلاة يجوز أنه جنب في الباطن ولا حكم لهذا التجويز إذا لم يظهر أنه جنب.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يثوبون إليه، أي يرجعون؛ لأنهم إليه يترددون للحج وللعمرة رجاء الثواب، وفوائد الحج والعمرة ﴿وَ﴾ جعلنا البيت ﴿أَمْنًا﴾ لمن دخله، بل ولمن دخل حرمه.

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ أي موضع قيامه على الصخرة عند البيت حيث هناك أثَرَ قدميه الشريفتين ﴿مُصَلًّى﴾ يصلون فيه تبركاً به أو لنيل فضل الصلاة فيه، قال الشرفي في (المصابيح): ((معنى ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي جَعَلوا من مقام إبراهيم مصلى، ومقامه فهو في الصخرة بمكة عند البيت)) انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ قرئ بكسر (الخاء) ومعناه: وقلنا: اتخذوا، وبفتح (الخاء) على الخبر، بأنهم اتخذوه.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ البيت: هو الكعبة، وتطهيره للمذكورين دلالة على أنه سيكون للطواف به والصلاة والعكوف، وهو اللبث في المسجد الحرام للعبادة، فأمر إبراهيم وإسماعيل إ بما ذكر إعداداً له.

ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على وجوب طهارة البيت من الأرجاس، ومعاصي الناس)) انتهى.

قلت: وهذه الآية تشبه الآية من (سورة آل عمران): ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ..﴾ الآية [٩٧] والسياق في (بني إسرائيل) في الآيتين، فهما رد عليهم من حيث دلتا على ثبوت الدين من عهد إبراهيم وإسماعيل قبل أن تنزل التوراة والإنجيل، فيدل ذلك على بطلان تعصبهم للتوراة والإنجيل، وجعلها ضرورية للدين؛ لأن الدين قد استقام بالإسلام لله وحده والعبادة المذكورة لله، ولم يشترط فيه ما اختصت به التوراة والإنجيل أو اليهودية والنصرانية كالسبت واستقبال بيت المقدس.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ أي الحرم: حرم الكعبة، أو الإشارة إليه وإلى ما حوله ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ أراد × : أن يتمكنوا من البقاء حول البيت ليقيموا الصلاة ولا يضطرهم الجوع إلى المغادرة لذلك الوادي الذي ليس بذي زرع.

﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فالرزق في هذه الدنيا للمؤمن والكافر، وقد أجيبت دعوة إبراهيم، وصار في مكة المركز الديني مركز بني إسماعيل على دين إبراهيم وإسماعيل، خلاف مركز بني إسرائيل، فلم تكن اليهودية ولا النصرانية من ضروريات دين الله.

تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن

وأعتقد أن دعوة إبراهيم ربه أن يجعل ﴿هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ معناها: طلب جعله كذلك بقدرة الله وفعله، وإعداد قلوب الناس لذلك لا مجرد الحكم التشريعي.. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:٥٧] فهو أمرٌ استمر في عهد الجاهلية حتى في عهد الشرك.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ ظاهره: أنه تعالى يلجيه إلى عذاب النار كإلجاء السجين لدخول السجن، وهو السّوق المذكور في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١] فيظهر أنهم يمشون إلى جهنم لعنف السوق وهيبة السائق، ولعل من الإضطرار ما روي فيه عن النبي ص ما معناه: أنه يبلغ بهم التوبيخ والتخزية على رؤوس الأشهاد أن يتمنوا أنهم سورع بهم إلى النار.

﴿١٢٧-١٢٩﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ أي يبنيان أساس البيت رافعين له، أو كان أصل القواعد موجوداً فزادا عليه بناءً مجانساً لها قوياً كما تبنى القواعد أي أسس البناء، فصار هذا البناء رفعاً للقواعد، ولعل السبب كونه قريباً من مجرى السيل فرفعا أساسه لئلا يدخله السيل داعيين ربهما أدعية:

الدعاء الأول: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وتقبُّل العمل الصالح أن يجعله تعالى مقرباً إليه سبباً لثوابه.

الدعاء الثاني: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي مسلمَين وجوهنا لك، أي مخلصَين لك العبادة، ويحتمل مسلمَين أنفسَنا لك، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] وإسلام النفس أبلغ من إسلام الوجه؛ لأن إسلام النفس لله شأن الخواص الذين لم يبق لهم في الحياة الدنيا غرض نفسي غير عبادة الله وذكره والتقرب إليه بكل وسيلة من الجهاد وغيره، والاشتغال بذلك عن كل غرض نفسي حتى المباحات يصير غرضهم فيها الاستعانة على العبادة أو نيتهم فيها تصيّرها قربة، وحتى أنهم يختارون الأشق على النفس إذا كان أفضل عند الله، وذلك كله لأنهم جعلوا أنفسهم خالصة لله، فسلموها له هذا التسليم ولا إشكال في هذا؛ لأنهم باعوا أنفسهم من الله وطلقوا الدنيا، فلا يقال: ما معنى إسلام النفس لله وهي له وحده لا شريك، سواء أسلمها أم لم يسلمها، فقد صح بيعها من الله، وهي له سبحانه من قبل البيع.

﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ الاحتمال فيه كالاحتمال الأول، وقد روي عن الإمام زيد بن علي | أنه قال: ((نحن الأمة المسلمة)) انتهى.

فهو يقوي احتمال مسلمة أنفسها لك، فتكون خاصة برسول الله ص وبذوي القربى، الذين باعوا أنفسهم من الله، وأسلموها له كما أسلم إبراهيم وإسماعيل، وبالخُلَّص الذين ذكر الله تعالى وصفهم بعد آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى..﴾ [التوبة:١١١] فقال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢] فدل على جمعهم هذه الصفات مع بيعهم أنفسهم من الله ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ علّمنا عبادتنا لك حول هذا البيت، أي مناسك الحج والعمرة ونحوهما ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تب علينا، والتوبة من الله على عباده الرجوع عليهم برحمته وألطافه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة:١١٨] وهو أعم من قبول التوبة والهداية لها.

الدعاء الثالث: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي في ذريتنا، وهم ذرية إسماعيل؛ لأن ذريته ذرية لأبيه إبراهيم إ ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ فهو من ذرية إسماعيل ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾ الدالة عليك، وعلى أنه رسول الله إليهم، وعلى اليوم الآخر وغير ذلك، ليعلموا أنه رسول الله ويؤمنوا به وبما يتلو عليهم ويعلمهم الكتاب فيحفظوه ويعلموا معانيه ويعلمهم الحكمة ليكونوا حكماء في منطقهم وسلوكهم على طريق الصواب وحسن الرأي ورجاحة العقل، وذلك يتوقف على أن يكونوا علماء؛ لأن الجاهل لا يكون حكيماً.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يصلحهم، وقد فسر بأن يطهرهم، ولم يظهر لي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] فدل على التغاير، فالتزكية بما يكون من الرسول من أسباب صلاحهم من التعليم والمواعظ والترغيب وما يكون لحاضريه ومشاهدي سيرته من بركات النبوة وما يكون لمن سمع بذلك من التأسي به وغير ذلك.

وأيضاً يكون إصلاحهم بالدعوة وظهور الآيات والمعجزات على يديه والبركات الخارقة، وأيضاً بما يكون من جهاده لأعداء الدين الذين يفتنون من أسلم ويدعون إلى الباطل والشرك حتى ترتفع راية الحق ويظهر أمر الله وهم كارهون، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، فقوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فيه طلب ما يحصل به العلم.

مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ

وقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ فيه طلب ما يُحَصّل به الرسول الإيمان والعمل الصالح والتقوى في الأمة المذكورة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ومن عزتك أن تظهر دينك وتعلي كلمتك، ومن حكمتك أن لا تهمل عبادك بلا بشير ولا نذير، فهذه الدعوات تفيد: أنها ستكون أمة مسلمة، رسولها منها ليس من بني إسرائيل، يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فهم على أساس مستقل وصراط مستقيم لا يحتاجون إلى اليهودية ولا النصرانية، قد كفاهم كتابهم ورسولهم واستغنوا بهما عن التوراة والإنجيل، وهذا يبطل تعصب اليهود والنصارى لملتهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ يقال: رغب عن الشيء إذا لم يُردْه ﴿مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ دينه الذي هو الإسلام لله ورفض الأديان المخالفة للتوحيد، والسفه: خفة العقل، ولعله عدي إلى نفسه لتضمينه معنى خسر أو أضاع أو أهمل أو أهان أو نحو ذلك مما هو شأن السفيه، ويفهم من السياق.

والمعنى: أيّ عاقل يرغب عن ملة إبراهيم؟!! كأن ذلك لا يتصور إلاَّ ممن سفه نفسه وذلك لوضوح حجته في أنه إذا عبد الله ولم يلبس إيمانه بمعصية فهو أحق بالأمن ممن عبد غير الله بدون برهان من الله، فعبادة الله لا جدال فيها؛ لأنه الخالق الرازق، وترك الشرك لا ينبغي أن يكون فيه جدال؛ لأنه مجرد خرافة وأسماء يسميها الجاهلون، ليس فيه إذن من الله ولا أي حجة من العقل، فملة إبراهيم هي النهج الواضح والصراط المستقيم، فاتباعها مقتضى العقل، والعدول عنها علامة السفه.

ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ﴾ الاصطفاء: اختيار صفوة الشيء وأفضله ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ للنبوة والرسالة، وما كان معها من مقاومة الشرك والعمل لإعلاء كلمة الله وتمكين دين الله في الأرض، فدينه دين الله الذي اصطفاه لعباده.

﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فله ثوابه وكرامته عند الله؛ لأنه من الصالحين، وفيه دلالة على أن سبب الثواب هو الصلاح لا ما يمني أهل الكتاب أنفسهم، وفي الآية دلالة على أن الدين هو عبادة الله الخالصة له؛ لأن هذا دينه، فلا حكم لصورة من صور العبادة إلاَّ لكونها عبادة لله خالصة، فمتى خرجت عن ذلك بنسخ أو رياء أو نحوه فليست من دين إبراهيم؛ لأنها خرجت عن كونها عبادة لله خالصة، ودين إبراهيم العبادة الخالصة، وقوالب العبادة غير مقصودة لذاتها في دينه × .

﴿١٣١﴾ اذكروا يا (بني إسرائيل) ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡ﴾ وجهك لربك ﴿قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الذي يجب على العالمين أن يسلموا له وجوههم؛ لأنه ربهم المالك لهم، المستحق لأن يعبدوه وحده، ولعل هذا القول كان أول نبوته، كما قال لموسى في أول ما أوحى إليه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه:١٤].

﴿١٣٢﴾ ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ وقُرئ: ﴿وَأَوْصَى﴾ والمراد: أنه أوصى بهذه الكلمة التي قال له ربه ﴿وَيَعۡقُوبُ﴾ أوصى بها بنيه، قائلين لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ أي اختاره لكم من حيث هو خير الأديان ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ لله وجوهكم، لا تشركون به شيئاً، فأهل الكتاب قد عدلوا عن وصية آبائهم حين أشركوا عزيراً وعيسى وأحبارهم ورهبانهم.

يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ

﴿١٣٣﴾ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ أي بل أكنتم شهداء، ومعنى الإضراب الانتقال من حجة إلى أعظم منها، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤] وفي هذه الآية دلالة على شدة اهتمام يعقوب بعبادة الله وحده وشدة خوفه على بنيه من الشرك حيث أقبل عليهم ليأخذ منهم الوعد بالثبات على التوحيد، وهو في حال حضور الموت له.

﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وجوهنا لا نعبد غيره، فنحن على هذا الدين الذي ورثناه منك وورثته من آبائك وورثوه من إبراهيم، لا نعدل عن دين آبائنا الذي توارثوه، الذي هو التوحيد، فقد طمئنوا آباءهم بإفهامه أن تمسكهم بالتوحيد كالأمر الطبيعي لهم؛ لأن من طبع الخلف الميل النفسي إلى طريق السلف، فكيف يعدلون عنه وسلفهم إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب.

﴿١٣٤﴾ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ الإشارة إلى إبراهيم ويعقوب، وأبناء إبراهيم عليهم السلام، ويحتمل أن أبناء يعقوب داخلون فيها ﴿أُمَّةٌ﴾ أهل دين واحد. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ قد مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ ليس لكم من عملهم شيء ولا لهم من عملكم شيء ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨] ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ فيظهر: أن المراد به: أن يقول لأهل الكتاب: لا سبيل لكم إلى معرفة ما كانوا عليه إلاَّ الأخبار، وخبر الله عنهم أصدق الأخبار.

وأما قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ ففائدته ـ والله أعلم ـ قطع الأماني ورجاء أنهم سينفعونكم بشفاعة أو يهب الله مسيئكم لهم فيعفو عنه لأجل تلك الأمة، وذلك أنهم إنما عملهم لهم وحدهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فلعل المراد به: لستم مسئولين عما كانوا يعملون، والمهم لكم: أن تتبعوا الرسول، وما أنزل إليه من الله الذي أنزل هذا القرآن ـ والله أعلم.

﴿١٣٥﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ﴾ ﴿أَوْ﴾ ليست للتخيير، وإنما هي للترديد بين الأمرين، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:٢٤] وقول الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

وذلك أن من طلب منه أن يكون يهودياً وطلبه آخرون أن يكون نصرانياً، فمجموع الطلبين يتضمن: أن يكون على إحدى الملتين، من حيث أنه لا يمكن الجمع بينهما، وكونه على إحدى الملتين إجابة لأحد الطلبين، فقد طلب منه اليهود أن يكون على أحدهما؛ وهو اليهودية، وطلبه النصارى أن يكون على أحدهما ؛ وهو النصرانية، فمجموع الطلبين لإحدى الملتين التي هي اليهودية أو النصرانية.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي بل اتبعوا ملة إبراهيم؛ لأن قولهم: ﴿كونوا هوداً أو نصارى﴾ يفهم منه اتباع دينهم كأنهم قالوا: اتبعوا ديننا، فجوابه: بل نتبع، أو بل اتبعوا ملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكررت هذه الكلمة الكريمة، ففي (سورة آل عمران): ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٩٥] وفي (سورة الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٦١] وفي (سورة النحل): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٢٠].

وفي (سورة آل عمران) ـ أيضاً ـ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٦٧] وفي (سورة الأنعام) ـ أيضاً ـ: ﴿إِنَّنِي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:٧٩] وفي (سورة النحل) ـ أيضاً ـ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آية:١٢٣] هذا كله في إبراهيم × .

وفي (سورة الحج): ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [آية:٣٠-٣١] وفي (سورة لم يكن): ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [آية:٥].

وقد قيل في تفسير (الحنيف): أنه من الحَنَفِ الذي هو الميل في القدم، وهذا عندي بعيد؛ لأن الإشتقاق من العيوب يكون على وزن أفعل مثل: أحنف، أعرج، أعور، أعمى، أصم.. إلى غير ذلك، ولأن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هو معنى العدول عن أديان الشرك، فيكون ذكر الميل فضلة، وهو بعيد في القرآن الحكيم.

ولأن الوصف بالميل إذا أطلق كان ذماً نحو ﴿فَلاَ تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء:١٢٩] ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] فكيف يستعمل الوصف بالحنف بمعنى المائل، ولا يقيد بأن يقول عن الباطل أو نحوه؟ فهذا لا يليق بكتاب الله الذي هو أحسن الحديث لفظاً ومعنى، فلا يليق به استعمال العبارة الناقصة؛ لأن نقصها خلل في الفصاحة وإن كان المراد صحيحاً، كقول الشاعر:

والعيش خير في ظلال النـ ـوك ممن عاش كدّاً

أي العيش منها في ظلال الحماقة خير ممن عاش كدّاً في ظلال العقل، فكيف إذا كان نقصها يوهم المعنى الفاسد، وقد قيل في معاني (الحنيف) غير ذلك، وأحسن ما قيل في ذلك أنه: الطائع المستقيم الخاشع.

وفي كتاب (الدليل الكبير) أول كتاب من مجموع القاسم × : ((والحنيف فهو: المحب الخاشع)) انتهى. أفاده القاسم × في تفسير (سورة لم يكن).

وقال الشرفي في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:٣٠-٣١]: ((ومعنى قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ خاشعين لله ثابتين على دينه، وقد ذكر المعنى الذي هو مائلين، لكن الراجح الذي أفاده القاسم × كما ذكرت.

هذا في وصف إبراهيم × ، فأما من بعده، فيحتمل أنه الخاشع الثابت كما هو الظاهر في قوله تعالى في أهل الكتاب والمشركين: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥] من أجل قوله: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لأنه يغني عن وصف العبادة بكونها على ملة إبراهيم، فأما الخشوع مع الإخلاص فهو مناسب، وكذا في قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ لأنه أنسب لكلمة: ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩].

مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟

ويحتمل: ما كان في كلام الجاهلية من كلامهم أنهم أرادوا به دين إبراهيم لكون إبراهيم كان حنيفاً، فحفظوا الاسم فجعلوا الاسم لمن كان على دينه بزعمهم أنه على دينه، وهذا لا ينافي المعنى الأصلي لوصف إبراهيم × أنه كان حنيفاً. واعتقاد الجاهلية أن من اختتن وحج البيت الحرام حنيفٌ؛ لأنهم لم يتمسكوا من دين إبراهيم إلاَّ بالختان والحج، وقولهم ـ مع كونهم يعبدون الأوثان ـ : نحن حنفاء على دين إبراهيم، لعل ذلك الاعتقاد والقول هو سبب استمرار قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ مقروناً بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ليردّ عليهم باطلهم وانتسابهم كذباً إلى دين إبراهيم.

﴿١٣٦﴾ ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن والسنة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ أسباط إبراهيم × ، أي أبناء بنيه أو أسباط المذكورين.

﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وهو التوراة؛ لأنها كانت لهما، والإنجيل وغير ذلك ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ آمنا بذلك كله خصوصاً وعموماً ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بل نؤمن أن دينهم واحد هو الإسلام لله وأنهم كلهم على الحق وأنهم كلهم مؤمنون برسل الله كلهم ولا يكفر نبي بنبي.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وجوهنا، نعبده ولا نعبد غيره، وهذا ردّ على اليهود والنصارى القائلين: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ فديننا الإيمان بالله ورسله، وبما أوتي النبيئون من ربهم، ولا شك أن ذلك كله حق؛ لأن القرآن قد جاء به وأثبت نبوة موسى وعيسى، وصدْق التوراة والإنجيل.

فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا

فنحن نصدق ما صدق الله ورسوله ص، ونحن لله مسلمون وجوهنا لا نعبد غيره، بل نعبد الله وحده، فأي عيب في ديننا ﴿هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٥٩].

﴿١٣٧﴾ ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾ أي أهل الكتاب ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ فقالوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا..﴾ إلخ، ما ذكر في الآية ﴿فَقَدِ ٱهۡتَدَواْ﴾ إلى الحق.

﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن ذلك وتركوه وقالوا نؤمن بما أنزل علينا، نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖ﴾ ليسوا طالبين للحق ولا هم أهل إنصاف إنما يريدون الخلاف ومجانبة الحق.

وقوله تعالى: ﴿بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ لو كان المعنى المقصود ومفهوم اللفظ: فإن آمنوا بالله وما أنزل لقيل فإن آمنوا بمن آمنتم به على طريقة التغليب، فإما أن يكون المعنى بمثل الله ومثل ما أنزل إليكم، فلا يصح.

فالراجح: أن المراد: فإن آمنوا بأن قالوا مثل القول هذا الذي عبرتم به عن إيمانكم، وليس المراد مجرد القول بدون الإيمان بالقلب؛ لأن قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ..﴾ إلخ، المراد القول المقبول المطابق لما في القلب، فإيمانهم بقول مثله لا يكون مثله، إلاَّ إذا طابق ما في القلب، والمراد بالمماثلة أن يقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلى محمد وما أنزل إلى إبراهيم.. إلى آخر الآية.

﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما يخفي كل منكم ومنهم وما يعلن، ومعنى (يكفيكهم) ينجيك منهم، ويتولى دفعهم عنك ودفع شقاقهم.

فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ

﴿١٣٨﴾ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ التي جعلها لنا نصطبغ بها، أي آمنا بالله وما أنزل ونحن له مسلمون، وصبغ الله لنا فهو مصدر نوعي مثل قِعدَة البدوي، فهي خير من صبغتكم التي تصبغون بها أولادكم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي لا أحسن، فالصبغة التي صبغناها لا أحسن منها، ذكر الشرفي في (المصابيح) أن بعض النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يُسَمّونه المَعمُودِيّة، ويقولون: هو تطهير لهم، فإذا فعل الواحد بولده ذلك قالوا: الآن صار نصرانيّاً حقاً، انتهى المراد.

فصبغة المسلم قوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ..﴾ إلى ﴿..وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فإذا قالها صار مسلماً حقاً وهذه مشاكلة، كقول حاتم لما نحر نحيرة من الإبل: هكذا فَزْدِيْ أنهْ، وذلك أنهم كانوا يفصدون عرقاً من الناقة أو الجمل ويجعلون الدم في إناء ثم يأكلونه، فأراد حاتم أنه ينحرها بدلاً من الفصد.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ﴾ لا لغيره، لأنا عباد الله وحده لا شريك له فينا، فلا نتخذ الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، ولا نعبد عيسى ولا عزيراً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ إذ أسلمنا له وعبدناه وحده ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فنحن وأنتم مجمعون على أن عبادته حق، وأنه المالك لنا ولكم، فكيف نجعل له شريكاً بعد علمنا بهذا.

﴿وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ فلستم مسئولين عن أعمالنا، ولا نحن مسئولين عن أعمالكم، فلأي سبب تجادلوننا في أعمالنا؟! ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ أنفسَنا وعبادتَنا ولا شك في استحقاقه الإخلاص؛ لأنه ربنا وحده لا شريك له، فلماذا تحاجوننا في ديننا، فلا باعث للجدال إلاَّ الحسد.

كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤١﴾ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ

﴿١٤٠﴾ ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ ﴿أَمۡ﴾ أي بل ﴿تَقُولُونَ﴾ وهذا انتقال من الرد عليهم في المحاجة إلى الرد عليهم في الزور والبهتان الذي يقولونه، فبعد أن حكى قولهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ﴾ أي يا محمد ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ فقد بين سبحانه أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وهو علام الغيوب.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في التوراة أو غيرها مما أنزل، وهي تبيّن الحق في هذا الشأن وتوضح أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى، وتشهد لنا أنهم كانوا مسلمين، فكيف كتمتم شهادة الله التي عندكم لنا وافتريتم خلافها، كأنكم تدّعون أنكم أعلم من الله، وكيف لم تخافوا الله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم جزاءً موفوراً.

﴿١٤١﴾ ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡ﴾ أي إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب والأسباط ﴿أُمَّةٞ﴾ أهل دين واحد قد مضوا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡ﴾ فليس لكم من دينهم شيء ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فلا تحتاجون لمعرفة ما كانوا يعملون؛ لأنكم لا تسألون عنه، ولذلك فلا حاجة للجدال فيما كانوا عليه.

﴿١٤٢﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ الذين عقولهم خفيفة، وهم: أناس من أهل الكتاب كفروا بالله ورسوله

انقياداً للحسد بعد ما تبين لهم الحق، وضر ذلك عليهم لأنهم تعرضوا لغضب الله وصاروا من أهل النار، فأي سفاهة فيمن ينقاد للحسد حتى يصير من أهل النار لا يتدبر عاقبة ولا يبالي بضر نفسه.

وقوله سبحانه: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يشير إلى أن القائلين ليسوا من أهل الكتاب وحدهم؛ لأن السياق قبل هذه الآية كان فيهم ولم يقل: سيقولون، ونسب القائلين إلى الناس جملة، فلا بد أن غير أهل الكتاب شاركوهم ولعلهم منافقون تلقنوا ذلك من أهل الكتاب.

وقولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾ ما حولهم عن القبلة الأولى ووجههم إلى الكعبة تجاهل بالحق الذي هو أمر الله، وإيهام أن ذلك لغرض نفسي كالتعصب للكعبة، ولو كان ذلك كذلك لكان مخالفة لحكم الله وجهالة وسفاهة حاشا رسول الله ص ومن معه، ولكنهم تبعوا أمر الله:

أولاً: في استقبالهم القبلة التي كانوا عليها.

وثانياً: في استقبالهم شطر المسجد الحرام، والسفهاء، هم: المتّهمون لهم بما هو سفاهة.

وقولهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ تشنيع لعدولهم إلى الكعبة؛ فلم يقولوا: ما عدل بهم إلى الكعبة؛ لأن غرضهم أن يجعلوهم متولين عن القبلة ﴿ٱلَّتِي﴾ قد آمنوا بها سابقاً و ﴿كَانُواْ عَلَيۡهَا﴾ فعابوا عليهم تركها بعد إقرارهم بها غير ملتفتين إلى أنهم عدلوا إلى الكعبة البيت الحرام.

﴿قُل﴾ يا محمد رَدّاً عليهم: ﴿لِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ فالأمر له في أن يجعل قبلة أي جهة شاء إما على المعنى الذي مرّ ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

وإما على معنى: أنه هو الذي جعل مشرق الشمس ومغربها واختار له جهاته من الأرض، فانقادت له الأرض والشمس، فكذلك يختار القبلة فتكون كما اختار؛ لأن بيده ملكوت كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يفيد: أن القبلة الكعبة نستقبلها بهداية الله لنا إليها في ضمن هدايته لنا إلى صراط مستقيم، فكان المهم بيان أن الله هدانا إلى صراط مستقيم، حيث هدانا إلى اتباع ما أوحى إلى رسوله من الهدى، كما أن السفهاء كانت مهمتهم في اعتراضهم على ترك القبلة التي كانوا عليها، هو القدح في الدين.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : السفهاء الذين ذكرهم الله سبحانه، فهم السفهاء في نفوسهم الذين لا عقول لهم ولا تمييز ولا دين، سفهاء الرأي والأحلام من أهل الكتاب وغيرهم، وذلك أن النبي ص كان يصلي إلى بيت المقدس وكان يحب الصلاة إلى قبلة إبراهيم × ، وهو قول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ فأمر الله ـ عزَّ وجل ـ أن يولي وجهه ومن كان معه من المؤمنين إلى الكعبة وهي قبلة إبراهيم × ، ثم قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ..﴾ إلى قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾.

فأمره سبحانه أن يقول لهم عندما يكون من كلامهم وجهلهم وطعنهم عليه في تحوله عن القبلة وغيرها من الأديان تعبّدٌ من الله تعبدك وهو يفعل عز وجل ما شاء ويتعبد بما أراد، وما تعبّد به فهو طاعة له، فكان قول النبي ص لهم: ﴿لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ قطعاً لحججهم [في الأم لحجهم] وفلاً لكلامهم، فلا يجدون معه قالاً ولا قيلاً.

جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ

و﴿اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج:١٨] و﴿يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:٤١] وقيل: إن النبي ص صلى إلى بيت المقدس سبعة عشر)) انتهى [هكذا بدون تمييز للعدد ولعله سقط من النسخة التي عندي].

﴿١٤٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما جعلنا قبلتكم الكعبة ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً﴾ أهل دين الإسلام لله ﴿وَسَطًا﴾ خياراً ملتزمين بطاعة ربكم ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله على أكمل الوجوه، والخطاب للنبي ص وخاصته الدعاة إلى دينه المجاهدين معه في سبيل الله، فالإعتراض كان موَجَّهاً إليهم؛ لأن الغرض به القدح في دينهم لصرف الناس عنهم، ولذلك قال في الجواب: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهذه خاصة بالمتقين لا يدخل فيها المخلطون، وليس المراد بالأمة كل من ينتمي إلى الإسلام، فهو اصطلاح حادث، وإنما المراد به المخاطبون المذكورون، وكذلك ليس منهم المنافقون.

﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ﴿لِّتَكُونُوا۟﴾ بسبب كونكم خياراً ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فالشهيد على الأمة لا يكون إلاَّ أوسطهم، وذلك الرسول ص؛ لأنه في عهده شهيد على الموجودين الذين هو بينهم مطلع على إسلامهم أو كفرهم كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل:٨٩] فقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى الموجودين، يؤكد هذا ما حكاه الله تعالى عن عيسى × : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] ودل ذلك كله أن شهداء الله هم خيار الأمم، وأن من كل أمة شهيداً هو خيرهم يشهد عليهم يوم القيامة بما شاهد من قومه، وأن الرسول ص شهيد على من كان في عصره الذين عرفهم بإيمان أو كفر.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ أي بيت المقدس ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي من يتبع الرسول فيتحول معه إلى قبلته الأخيرة وينفصل ويظهر ويمتاز عمن ينقلب على عقبيه، وهو الذي يعبد الله على حرف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج:١١].

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ ليس معناه: أنه لا يعلم ما سيكون، فهو علام الغيوب، وإنما المراد: أن هذا التكليف يشبه الإختبار من حيث أنه سبب لظهور المؤمن الثابت على دينه بوقوع ذلك منه عند هذا التكليف بخلاف من لم يكن ثابتاً في دينه كما علم الله ذلك من قبل بوقوع الانقلاب منه عند هذا التكليف، والسياق يفيد: أن المقصود في هذه الحالة امتياز المؤمن الصادق في إيمانه امتيازه من غيره، فأما انكشاف من لم يكن كذلك فهو واقع تبعاً للمقصود.

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ شاقة ثقيلة على النفوس، كقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣] فهو في التعبير عن ثقلها أشد مما لو قيل ثقيلة؛ لأن كبيرة عليهم يدل على ثقل زائد يصعب احتماله جداً.

ولا إشكال أن المراد بهذا: هو تحويل القبلة، وعلى هذا: فالضمير راجع إلى المفهوم من السياق المؤنث، إما الكعبة أي التحويل إليها، وإما الفتنة بهذا التكليف.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ المراد به: الخاشعون لله الذين يريدون ما يرضي الله ولا يبالون بما خالفه؛ لأن رغبتهم في طاعة الله غالبة على كل رغبة نفسية، بل ربما غلبت حتى لا يبقى رغبة تخالفها، ولذلك لا يثقل عليهم شيء من طاعة الله، وذلك؛ لأن الله هداهم هدى زائداً على الهدى العام للمكلفين، وهو تنوير قلوبهم بحيث يحبون طاعة الله ويكرهون معصيته، ولا يبقى لهم هوى يعارض ذلك؛ لأن هواهم الطبيعي يضعف عن المعارَضة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بل لا بد أن يثيبكم عليه ثواباً عظيماً، والخطاب للثابتين المتبعين للرسول ص وهم المؤمنون الخلص، ويؤخذ منه أنه لا يضيع صلاتهم إلى بيت المقدس؛ لأنهم صلوها إيماناً بالله ورسوله ويخرج من ذلك من صلى من المنافقين لموافقة اليهود لا إيماناً بالله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لعله على معنى التوزيع، فرحمته سبحانه وسعت كل شيء، وقال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] ورأفته لمن شاء على الحكمة أو تعم الناس لكن من كفر وتمرد تكون الرأفة به في صغره مثلاً، وهذا لأن الرأفة أبلغ من الرحمة بدليل العطف في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد:٢٧] والعطف دليل التغاير، ويكون المعنى رحمة في بعض الأحوال، ورأفة في بعض آخر.

وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ

وفي (لسان العرب) ما لفظه: ((ومن صفات الله ـ عزَّ وجل ـ الرؤوف، وهو الرحيم لعباده العطوف عليهم بألطافه، والرأفة أخص من الرحمة وأرق)) انتهى .

قلت: ولعل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور:٢] أتى بذكر الرأفة لكونها مظنة أن تغلب صاحبها فيقصّر فيما أمر الله به من الحد بسبب شدة الرحمة له، فيناسب هذا كون الرأفة أخص وأرقّ ـ والله أعلم، والله سبحانه منزّه عن الرقة، والمراد: أنه يعامل معاملة الرءوف، وكذلك الرحيم.

١٤٤ ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ تقلب الوجه في السماء نَظَره إلى جهة فوق، وهذا شأن من ينتظر آتياً يأتي من جهة أن ينظر إلى تلك الجهة، فرسول الله ص عمل على دفع الطبيعة البشرية في انتظاره نزول الوحي في شأن القبلة، ولعل سبب ذلك وعد من الله سابق أنه سيجعل قبلته الكعبة أو دعاء يتوقع إجابته أو نحو ذلك، و﴿قَدْ﴾ للتقليل، وذلك لقلة الفعل أو للتحقيق، ولا موجب لحمله على التكثير لإمكان أن تقلب وجهه في السماء قليل.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ هو ص يرضاها؛ لحكم الله بتوليتها، وبالطبع لكونها قبلة أبيه إبراهيم ـ صلى الله عليه ـ وليس المعنى: أنه لم يكن يرضى القبلة بيت المقدس؛ لأنه ص يرضى ما رضي الله له.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ اجعل ﴿وَجْهَكَ﴾ واليا ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي موجهاً إليه، وقوله تعالى: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي بعضه؛ لأنه يكفي استقبال بعضه، ولذلك صحت الصلاة جوف الكعبة، والمسجد الحرام الكعبة وتحريمها؛ لأن من دخلها كان آمناً، وهي مسجدٌ بني للصلاة فيه والطواف حوله وغير ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وظاهر طهارته للركع السجود طهارته للمصلين فيه لا للمصلين خارجه.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ والمراد مع التمكن من ذلك، فيصلي إلى الكعبة من أمكنه التوجه إليها، ولو كانت فوقه أو تحته، أما من تعذر عليه ذلك لمرض أو التباس أو غير ذلك، فهو يكفيه الاستقبال حيث أمكن، بدليل الآية السابقة ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أي استقبال شطر المسجد الحرام لعلمهم أن الحكم لله وأن هذا حكمه ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء والضمير لأهل الكتاب من آمن منهم ومن كفر، والمراد أنه سبحانه سيجازي كلاً بعمله.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل الآيات على أن القبلة كانت إلى غير الكعبة، وهو بيت المقدس بالإجماع المعلوم، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ وعلى نسخ استقبال بيت المقدس وتحويله إلى الكعبة المشرّفة، وعلى ان امتحان العباد بالنسخ حسن، وأن فيه حكمةً، وكذلك سائر الإمتحانات كما يأتي في قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ..﴾ الآية [الحج:١١].

وكابتلاء (أصحاب السبت) بحشر الحيتان إليهم يوم سبتهم، فكانت تأتيهم شرّعاً وعلى أن طائفة من الأمة جعلهم الله شهداء على الناس؛ لأن الآية لفظها عام، ومعناها خاص؛ لأنه لو كان المراد بها جميع الأمة لكان المعنى: وجعلنا جميع الأمة شهداء على جميع الأمة، وذلك فاسد، فما بقي إلاَّ أن يكون المعنى خاصّاً بطائفة من الأمة)) انتهى المراد نقله هنا.

وأقول: قد بينت فيما مضى أنه ليس عاماً للأمة، وليس هناك صيغة عموم، وإنما هو ضمير غيبه،في قوله حاكياً: ﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ يحتمل الاختصاص بقادة الإسلام، وحيث أن المقصود به القدح في الإسلام، فالمقصود به أصالة هو رسول الله ص، وإنما ضَمّوا إليه خاصته كُفْراً به وتسوية بينه وبينهم.

أما الأتباع الذين ليسوا قادة في الدين فليس السؤال موجهاً إليهم؛ لأنهم أتباعٌ معلومٌ جوابُهم لو سُئلوا: أنه الإتِّباع لرسول الله ص ((كم)) ضمير خطاب لرسول الله ص وأناس معه غير معينين؛ لا بعموم في الضمير ولا خصوص في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ مع أن قوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قد دل من حيث هو جواب السؤال على أن المراد في الجواب رسول الله ص وخاصته الذين هداهم الله إلى صراط مستقيم، الهدى المطلوب في قولهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ الهدى المذكور في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٥] وهذا لا يدخل فيه المخلطون، فأكد ذلك أن الكلام في رسول الله ص وخاصته قادة الإسلام المطهرين، فقوله تعالى ـ عطفاً على ذلك ـ : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ خاص بهم؛ لأن السياق واحد، يؤكد ذلك أن الوسط هم الخيار، وقد مر هذا وأعدته لزيادة بعض الكلام.

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ

فظهر: أن قول الإمام ((لفظها عام)) سهو، وأن الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ﴾ خاص برسول الله ص وأناس معه غير معروفين في الخطاب لا بعموم ولا خصوص، فهو مجمل بينته القرائن المذكورة، فأما لفظ ﴿أُمَّةً﴾ فلا يدل على العموم؛ لأن استعماله في أمة الإسلام كلهم عرف خاص طارئ ليس في القرآن، وفي القرآن: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٥٩] فثبت أنه يستعمل في بعض المنتمين إلى الملة لسبب خاص يجمعهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ لا يدل على أن المخاطبين هم كافة أهل الملة؛ لأنه ص شهيد على الخاصة والعامة الموجودين في عصره الذين علم إيمانهم أو كفرهم، فخطاب الخاصة بأنه شهيد عليهم لا مانع منه.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ لأنهم متعصبون لقبلتهم قد كفروا بالحق بعد الآيات البينات فخذلوا، فلا يفيدهم زيادة الآيات، ولو جاءتهم كل آية، فلا يتبعون ﴿قِبْلَتَكَ﴾ التي هي الكعبة.

﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ لأن الله قد هداك للحق ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ [الزمر:٣٧] ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ لتعصب كل ملة لقبلتهم وكون القائد لكل منهم إلى دينه هو الهوى ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ لأن من الحيف والجور أن يعدل العبد عن أمر مالكه المنعم عليه إلى أهواء أعداء ربه.

كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٤٨﴾ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ

﴿١٤٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي الذين علمهم الكتاب، فهم يقرؤونه ويفهمون معانيه ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون ما جاءك من العلم، أي يعلمون أنه من الله ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ معرفة تامة ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي من هؤلاء الذين يعرفونه ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ فيعلمون الحق ويعلمون إثم الكتمان، فيعلمون أن ذلك الكتمان قبيح، ومع ذلك يكتمون؛ جرأة على الله وانقياداً للحسد والكبر والهوى.

﴿١٤٧﴾ ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لأن ما أمر به حق، وما شرعه الحق فالحق منه؛ لأن التشريع منه، له الحكم وله الملك، ومن ذلك جعل الكعبة قبلة فهو حق من الله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الشاكّين؛ لأن الله يحكم لا معقب لحكمه ولا مبدل لكلماته، ولا يشرك في حكمه أحداً، فما شرعه فهو الحق وما بعد الحق إلاَّ الضلال، فلا مجال للمرية.

﴿١٤٨﴾ ﴿وَلِكُلّٖ﴾ منك ومنهم ومن كل فريق منهم ﴿وِجۡهَةٌ﴾ قبلة يوليها وجهه ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي الله سبحانه هو الذي شرع تلك الوجهة وجعلهم بحكمه يولونها وجوههم؛ لأنه المشرّع، فهم كلهم في الأصل تبعوا تشريعه لعلمهم أنه الحق وإنما يتعصبون لوجهتهم من بعد ما ولاهم الله إياها، واتبعوا تشريعه، فكان عليهم أن يتبعوا تشريعه إذا نسخها كما اتبعوا تشريعه حين شرعها، وهذا يمكن أنه عبارة عن القبلة فقط،، ويمكن أنه كناية عن الشرعة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي الخيِّرات بالتشديد وهو يصلح للأعمال الصالحات وللدرجات التي تنال بالأعمال الصالحات، فإن كان المراد بها الأعمال فالمراد أمر الفرق المختلفة أن تستبق الحق الذي يقبله الله وهو خير الطرق وأفضلها، وأعماله هي الخيرات أي الفاضلات، وإن كان المراد به الدرجات، فهو كقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦] والاستباق إليها: أن يعمل كل ليسبقها، وذلك بأن يعمل العمل الموصل إليها وهو الدين الحق الذي يتقبله الله ويثيب عليه.

فالحاصل: أمر الفرق أن تستبق وتطلب السبق باتباع الحق الذي يؤدي إلى السعادة، فهو الذي ينبغي التنافس فيه لا الطرائق التي لا يقبلها الله، فلا تؤدي إلى الدرجات العلى، وليس لها من صفة الخير والفضل شيء؛ لأنها صارت بالنسخ غير مرضية، وهذه الآية مثل آية المائدة، وحاصل ذلك أمر أهل الملل أن يكونوا على الحق.

ومعنى ذلك: أن يصيروا ملة واحدة هي الحق، وهو دين الله الذي شرعه في القرآن وفيما أوحى إلى محمد ص.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ﴾ من أقطار الأرض أو غيرها من الأمكنة ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ مجتمعين، وذلك يوم يجمعكم ليوم الجمع، وهذا كقوله تعالى في (سورة المائدة): ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [آية:٤٨] ولعل ذكر الأمكنة ليعم كل من يستقبل قبلَة فيتناول من يكون قريباً من قبلة فيختارها ويتعصب لها لقربها فبيّن لهم أن مرجعهم إلى الله في أي مكان كانوا، وعلى هذا فعليهم أن يطيعوه في أي مكان كانوا؛ لأن مكانهم لا ينفعهم أو ينجيهم من الرجوع إلى الله لتجزى كل نفس بما تسعى، ويتناول من يكون بعيداً من الكعبة فيظن أن بُعده عذر له في ترك استقبال الكعبة أو يتهاون بالقبلة لبعدها ـ والله أعلم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو على جمعهم إذا شاء قدير.

وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾

﴿١٤٩﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ من أي مكان ﴿خَرَجْتَ﴾ إليه وصرت فيه ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ منه ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فالحكم واحد فيمن كان في بلده، ومن كان خارجاً عنها فعليه أن يستقبل الكعبة في صلاته.

﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وتأكيد بخصوص الخارج من بلده الذي تختلف عليه الجهات، وتلتبس عليه القبلة ويحتاج إلى النظر في العلامات أو سؤال أهل البلد المسلمين، فالحكم واحد ولا يسقط إلاَّ عند تعذر معرفة جهة الكعبة بأي وسيلة ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو غير غافل عن المصلي في أي مكان كان.

﴿١٥٠﴾ ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ وهذا تأكيد لما سبق، وليترتب عليه ما يأتي كما ترتب على الأول قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ إلى آخر ما قال سبحانه فيهم.

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي أمرناكم أن تولوا وجوهكم شطر المسجد الحرام لئلا يكون للناس عليكم حجة، لو بقيتم على استقبال بيت المقدس وترك الكعبة، والحجة ما يحاجون به، أي يجادلون، ولو لم يكن دليلاً صحيحاً، فلولا ذلك لكان لهم ما يجادلونكم به فيقول أهل الكتاب: لولا أن

ديننا هو الحق ما كان على قبلتنا، ويقول كفار العرب: لو كان على حق لكان يستقبل الكعبة قبلة إبراهيم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هنا هم المكابرون الذين لا يقبلون حجة، ولا ينصفون في جدال، فهم لا يزالون في حيف وجور، ولا ينفعهم بيان الحق ولا دفع الشبهة، فهم لا يزالون يتمسكون بحجة داحضة ويجادلون بشبهة باطلة، فالاستثناء منقطع، أي لكن الذين ظلموا يحاجونكم بحجة داحضة وهي حجة المكابر التي لا يُبَالَى بها ولا يُشْتَغَل بالجدال فيها، وإنما جداله بالسيف متى لجّ به الخصام إلى السيف، وعند ذلك ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ ولا تحيدوا عن قتالهم خوفاً منهم، ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ لا تخالفوا أمري فيهم بالقتال كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة:١٣] وقد أمر سبحانه بقتالهم في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:٢٩] وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] وغير ذلك، وأشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : فالخشية قد تكون من الأذية والكلام والبسط والقتال، فأمر الله أن لا يخشوا الخلق ولا يهابوهم ولا يدارون الظلمة ولا في الله سبحانه يتاقونهم، وأن تكون خشيتهم لله سبحانه وقصدهم إياه والطلب منهم لرضاه)) انتهى.

فالأولى تفسير ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾ بالمعنيين ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ﴾ جعلت قبلتكم قبلة أبيكم إبراهيم التي ترضونها ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ باتباع أمر الله في القبلة التي صار استقبالها هو الهدى وفي غيرها.

كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿١٥١-١٥٢﴾ ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ أي جعلنا قبلتكم التي ترضونها ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ..﴾ إلى آخرها، أو جعلنا قبلتكم قبلة أبيكم إبراهيم التي رفع قواعدها ودعا عند ذلك هو وأبوكم إسماعيل أن نجعل من ذريتهما أمة مسلمة، ونبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتنا ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم، فكما أجبنا الدعوة في الرسول جعلنا القبلة ذلك البناء الكريم.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ في صلاتكم وغيرها ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ بالثواب والتكريم ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾ من أجل نعمة القبلة ونعمة الرسول وإتمام النعمة والشكر بالقلب واللسان والأركان العبادة والطاعة شكراً على النعم ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ كما كفرني الجاحدون بالحياة بعد الموت من العرب الذين يزعمون أنهم على دين إبراهيم وهم كافرون بقدرة الله على إحيائهم بعد الموت وبعلمه بما ضاع في الأرض من أجسادهم، فلم تنفعهم دعواهم أنهم حنفاء ولا تعظيمهم للكعبة المشرفة.

ولعلها ـ والله أعلم ـ ستكون جاهلية ينتمون فيها إلى دين محمد كما انتمى بعض أهل الجاهلية الأولى إلى دين إبراهيم ويكفرون بالله تعالى كما كفروا، فيكون هذا النهي حجة عليهم من علام الغيوب كما أنطق عيسى × في أول كلامه للناس وهو في المهد بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم:٣٠].

ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم

ولم يكن يخطر ببال السامعين أن بعض النصارى سيقولون أن الله هو المسيح بن مريم، ومثل هذا التجويز يعتبر لإبقاء الكلام على ظاهره، فأما لصرف الكلام عن ظاهره فلا يلتفت إليه.

﴿١٥٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذي يظهر من تتبع الآيات المبدوءة بهذا النداء أنها ابتداء كلام بحيث لا يجب ربطها بالآية التي قبلها، وكأنه قد انتهى الكلام مع بني إسرائيل وفي شأن القبلة.

وجاء ابتداء أبحاث جديدة في الجهاد، والحج، والصوم، والزكاة، والطلاق، والإنفاق في سبيل الله، والربا.. وغير ذلك، ولا إشكال في حسن ارتباط الحث على الصبر وفضل الشهادة والصلاة باعتبارها تعين على تحمل مشاق التكليف، وهذا البحث مرتبط بما سبق من ذكر تمرد الكفار والمنافقين والكفار من بني إسرائيل من حيث أن مقاومتهم للإسلام أدّت إلى وجوب الجهاد والإنفاق في سبيل الله من أجل الجهاد والاستعانة بالصبر والصلاة من أجل الجهاد وغيره من المشاق التي تكون بسبب أعداء الإسلام وغيرها.

والاستعانة بالصبر تفيد القوة من جهتين:

الأولى: إن الصبر على مقاومة الأعداء يؤدي إلى ضعفهم وهزيمتهم من حيث أن صبر أهل الإيمان أقوى، ومن حيث أن النصر مع الصبر.

الجهة *الثانية*: إن النفس تتعود ما عودت حتى يصير سهلاً أو تخف مشقته، فإذا عوّدت الصبر هان عليها الصبر والاستمرار على الصبر.

وأما القوة الحاصلة بالصلاة فمن حيث أن الصلاة الكاملة في إخلاصها لله وخشوعها لله تزيد الإيمان في القلب والرغبة في التقرب إلى الله، وذلك قوة في الجهاد، والدليل على أنها تزيد الإيمان قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] والنهي إنما هو من طريق الإيمان الباعث على كراهة الفحشاء والمنكر، وإذا كانت ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فلا بد أنها ترغب في الجهاد؛ لأنه نهي عن الفحشاء والمنكر.

ثم حسْبُنا دليلاً على أن الصلاة تعين على الجهاد وغيره من التكاليف الشاقة، هذه الآية الكريمة ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ والآية التي سبقت خطاباً لبني إسرائيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ وعلى هذا فمن الغلط اعتقاد أن الرغبة في الصلاة تصرف الناس عن الجهاد؛ لأنها من أسباب الصلاح، وأهل الصلاح يرغبون في الجهاد، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌ﴾ أي لا تقولوا فيهم هم أموات ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَـٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ أي بل هم أحياء ولكن أنتم لا تحسون بحياتهم، فلا تجعلوا عدم شعوركم بحياتهم دليلاً على موتهم.

وقد زاد هذا تحقيقاً الآيات في (سورة آل عمران) فهي حياة حقيقة لا شك فيها، والشهيد إنما يخرج من هذه الحياة إلى حياة أفضل، وعلى المكلف أن يؤمن بما أنزل الله ولا يعارضه بجهله، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٨٥] وكفى بهذه ترغيباً في الجهاد في سبيل الله؛

بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧

لأن المجاهد يكره الجهاد لحب الحياة، فإذا علم أنه إذا قتل في سبيل الله صار إلى حياة أفضل ؛ حياة كرامة وشرف ورزق وفرح صار إليها بعد حياة العناء والمنغصات المحدودة جاهد بقوة، فالحث على الصبر من أجل الجهاد ومن أجل سائر التكاليف كالحج والصيام، فما أحسن هذه الآية فاتحة لما بعدها من الآيات الكريمة في (سورة البقرة)؛ لأن الطاعة لا تتم ولا تستمر إلاَّ بالصبر.

﴿١٥٥-١٥٦﴾ ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿لَنَبۡلُوَنَّكُم﴾ لنختبرنكم، أي نفعل ما هو مثل الاختبار الذي يتبين به من يصبر ومن لا يصبر، فأنتم تحتاجون معه إلى الصبر الذي سبق الحث عليه.

وقوله تعالى: ﴿بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ..﴾ إلى آخره، يفيد: تقليل ما يبتلى به، ليوطنوا أنفسهم على الصبر ولا يهابوه، ويظنوا أنه لا يطاق، والابتلاء بالخوف يميّز بين المؤمن الصادق في إيمانه والمؤمن بلسانه دون قلبه وينجم عنده النفاق، فقال المنافقون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢] وقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلاَءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩] والابتلاء بالجوع يتبين به من يُؤْثِرُ على نفسه كأهل البيت(عليهم السلام)، ومن لا يصبر على الجوع فيطلب الأكل ولو من الحرام، ومثله نقص من الأموال يتبين به من يرضى بحكم الله ويصبر؛ ولا يحمله النقص على البخل، ومن تمحقه البلوى.

ومثله نقص الأنفس والثمرات، فبان بذلك حاجة المؤمن إلى الصبر للثبات على دينه ولنيل فضيلة الصبر العظمى التي أفادها قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وإنها لبشارة عظمى؛ لأنها من ملك الملوك أكرم الأكرمين الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ هذا بيان للصابرين؛ لأنه لا يتم الصبر ولا يستمر إلاَّ بالإيمان ؛ أنا لله مملوكون وعباد مربوبون، فله الحق أن يبلونا بما شاء وعلينا الرضى بقضائه والصبر على بلائه؛ لأنا عباده، والإيمان بأنا ﴿إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ليجزينا بما قدمنا من إحسان أو إساءة، فنصبر لنفوز بالثواب وننجو من العقاب، فإذا آمنا بهذا بقلوبنا، وعبّرنا عن هذا الإيمان بألسنتنا تسجيلاً على أنفسنا أنا عباد لله نرجوه ونخافه استطعنا أن نصبر ونثبت على الصبر ما دمنا كذلك.

﴿١٥٧﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ قيل في تفسير الصلوات هنا: ثناء جميل، قال الشرفي في (المصابيح): ((اعلم أن الصلاة من الله هي: الثناء والمدح والتعظيم)) وقال (صاحب الكشاف): ((الصلاة: الحنو والتعطف، فوضعت موضع الرأفة وجمع بينها وبين الرحمة)).

ولم أقتنع بهذا ولا ذاك بسبب جمع الصلوات؛ لأنه يكون معناه على الأول: ثناءات وتعظيمات، وعلى الثاني: رأفات، وقد روي عن ابن عباس أنه فسرها: بالبرَكات، وهذا قريب من حيث أن بعض أهل اللغة قال: أصل الصلاة: اللزوم، ومن حيث أن بعض أهل اللغة قال في البَركة: إن أصلها الثبات، وهذا وإن كان يستلزم ترادف الصلاة والبركة في هذا الموضع لا ينافيه اختلافهما في موضع آخر إذ يجوز أن يكون للصلاة معانٍ متعددةٌ، فتارة ترادف البركة وتارة تخالفها.

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

وهذا المعنى يستحسن في هذا الموضع من حيث أن الوعد بالبركات يناسب الصبر على النقص ليفيد تعويض ما فات بطريق البركة في غيره، ومن حيث أن البركات قد جمعت وقرنت بالرحمة في قوله تعالى: ﴿رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود:٧٣].

وقال الراغب الأصفهاني في (مفرداته): ((والصلاة قال كثير من أهل اللغة: هي الدعاء والتبريك والتمجيد)) انتهى.

قلت: التبريك: طلب البركة، فلا يبعد استعماله في تحصيل البركة كالتعليم أصله التسبيب لحصول العلم ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ [الكهف:٦٦] واستعمل في إيجاد العلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾ [البقرة:٣١] والله أعلم.

وبعد هذا وجدت في تفسير الإمام زيد بن علي إ لـ(غريب القرآن): ((﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ﴾ معناه: هو الذي يرحمكم وتدعو لكم ملائكته، وقال: معنى يصلي: يبارك عليكم)) انتهى، قال المحقق عليه: انظر (مجاز القرآن لأبي عبيدة) [٢/١٣٨] و(تفسير غريب القرآن لابن قتيبة) انتهى.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ أي الصابرون المؤمنون بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، فالاهتداء لا يتم إلاَّ بالصبر ولا يدوم إلاَّ بالصبر، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، والصبر كما تراه في هذه الآيات: صبر على طاعة الله، وصبر على بلائه.

﴿١٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ هذا أول الكلام في الحج والعمرة، و﴿ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾ اسم لموضعين مخصوصين بمكة يقال لهما جبلان،

ولعل الصواب أكمتان، فالصفا مرتفع يرقى عليه الحاج أو المعتمر وينزل منه ليسعى إلى المروة وهي مرتفع يرقى عليه الحاج أو المعتمر إذا بلغه في آخر الشوط ومعنى: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ من معالم الله التي جعلها أعلام متعبداته، قال في (الكشاف): ((والشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، أي من أعلام مناسكه ومتعبداته)).

﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): عن أبيه، عن جده، عن علي × ، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ قال × : ((كان عليهما أصنام فتحرّج المسلمون من الطواف بينهما لأجل الأصنام، فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ لئلا يكون عليهم حرج في الطواف من أجل الأصنام)) انتهى. والآية تفيد: شرعية الطواف بهما، لا وجوبه، ولا عدم وجوبه. ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ قال الراغب في (المفردات): ((والتطوع في الأصل: تكلف الطاعة، وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم)).

قلت: لعله يعني هذا في التطوع اللازم، فأما المتعدي إلى مفعول فقد قال فيه: ((وتطوّع كذا تحَمَّله طوعاً، قال: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٧٩])) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح) في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة:٧٩]: ((المتنفلين الذين ينفقون طوعاً وهم من المحتاجين)) انتهى.

قلت: إذا كان التطوع مشتقاً من الطوع، فمعناه: فعل الخير برغبة، سواء كان واجباً أم مستحباً، ولو كان مشتقاً من الطاعة لكان خاصاً بالواجب، وظاهر كلام الراغب: أن تخصيصه بالمستحب متعارف، ومفهوم هذه العبارة أنه ليس حقيقة شرعية.

يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟

وعلى هذا: فلا يفسر به القرآن الكريم إلاَّ أن يكون عرف اللغة، ومعنى ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ أنه يفعل كفعل الشاكر من مكافأة العبد المتطوع خيراً وإعلان حسناته ومدحه، وهذا من كرم الله سبحانه وحسن ثوابه لعبده الشاكر لأنعمه.

﴿١٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الذين يخفونه عن الناس، والكتمان: إخفاؤه عن السائل، وعن الجاهل الذي يتوقع منه الغلط بجهله، وعن الغالط المستمر على غلطه مع علم العالم بذلك، ومن الكتمان: إخفاء ما هو حجة عليه.

وعلى الجملة: إخفاء ما هو مطالب بإظهاره بلسان الحال أو بلسان المقال، ومن الكتمان الامتناع عن تبيين ما أمر بتبيينه شرعاً أو عقلاً، وما أنزل الله: ما أوحاه إلى الرسل والأنبياء.

و﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآيات البينات التي هي حجة لله على المكذبين، كالآيات الدالة على صدق الرسول، ويدخل في ذلك المعجزات بأنواعها، وكلام الله المصدق له، ويدخل في ذلك الكرامات الدالة على صدق الإمام في دعواه الإمامة، وأنه على حق في قيامه ﴿وَٱلْهُدَىٰ﴾ عام لكل أنواع التعاليم السماوية من تعليم العبادات والمعاملات والعقائد والمواعظ والقصص والأمثال.

وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ احتجاج على الكاتم بأن الله بينه للناس عامة، فليس له أن يختص به أو يخص من يريد، وفيه دلالة على أن الناس كلهم قد أعدهم الله لفهم ما أنزل، وإلا لكان إنما بينه للإمام كما تزعم الباطنية، أو للشيخ كما يزعم بعض الصوفية.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ وعيد شديد بأنه يطردهم من رحمته، والطرد من الرحمة قد يكون بمعنى الإبعاد عن التوبة بالخذلان وإرسال الشياطين على الكاتم كما قال تعالى: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ دليل على استحقاقهم للعن من كل لاعن.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿تَابُواْ﴾ رجعوا إلى الله بالطاعة والإقلاع عن المعاصي، والعزم الصادق على طاعة الله في كل شيء، والندم للعصيان الماضي، ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما أفسدوا بالكتمان، وما أفسدوا بغير الكتمان ﴿وَبَيَّنُواْ﴾ بينوا ما كانوا كتموا ولم يكتموا في المستقبل.

وتوبة الله عليهم: رجوعه عليهم بالرحمة والمغفرة، وهو ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ كثير التوب على عبده، فلا يستبعد منه قبول التوبة ولا هداية العاصي للتوبة إذا لم يصدر منه ما يوجب الإبعاد منها بالخذلان، وإرسال الشياطين، ومن توبته على عبده غير ذلك؛ لأنها عامة كما مر، وهذا الوعيد وهذا الاستثناء كله عام لكل كاتم ولكل تائب، ولو فرض أن الآيتين كان سبب نزولهما أناساً مخصوصين، فالعام لا يقصر على سببه.

خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿١٦١-١٦٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي استمروا على الكفر حتى ماتوا كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] وكما روي أن فاطمة عليها السلام ماتت واجدة على أبي بكر، وهذا استعمال ظاهر، ومنه قول الشاعر:

فمت ما على من مات حراً نقيصة ألا إنما النقصان أن تتهضما

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ كأن الملائكة عليهم السلام إنما يلعنون من مات على كفره دون الحي، وعلى هذا فاستغفارهم لمن في الأرض بمعنى طلب قبول توبة التائب وهداية المصر للتوبة، وهذا لعلمهم بشدة العذاب ودوامه، فهم يرغبون في توبة الإنسان إشفاقاً عليه؛ لأنه لو كان يفيده ويدفع عنه العذاب أن يبكي عليه أهل السموات وأهل الأرض رحمة له وإشفاقاً عليه، لكان ذلك حسناً مناسباً لعظم المصيبة عليه.

وقد جادل إبراهيم × في قوم لوط لهذا المعنى، وما كان × مذموماً بذلك؛ بل مدحه الله، ولو كانوا يستغفرون للمصر لا على طلب هدايته للتوبة بل على فرض أنه يموت مجرماً لاستغفروا لمن مات مجرماً ولما لعنوه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين في لعنة الله، فلا يزالون مطرودين من رحمة الله ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فقوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ يفيد: أنهم لا يموتون، وقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾ يفيد: أن العذاب باق لا يخفف، وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يفيد: أنه لا يؤخر عنهم إنظاراً لهم، نعوذ بالله.

وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿١٦٣﴾ ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ **ليس متعدداً كما يزعم بعض النصارى أن الله تعالى ثلاثة أقانيم، وكذلك ليس مؤلفاً من أعضاء ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فكل معبودٍ سواه ليس معبوداً بحق ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو الذي ينبغي أن يعبد طمعاً في رحمته.**

﴿١٦٤﴾ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **إيجادهما عظيمتين واسعتين على المقدار الذي جعله سبحانه ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كون كل منهما يخلف الآخر لا يستمر الليل ولا يستمر النهار، وكل يحتاج إليه البشر ﴿وَٱلْفُلْكِ﴾ السفائن ﴿ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ تشق مَوجَ البحر ليسافر الناس عليها؛ لابتغاء فضل الله، وذلك بصنعه للخشب الذي منه ألواحها والحديد الذي منه مساميرها، وتسخير الرياح التي تسوقها ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾** [الشورى:٣٣].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ **إنزاله من السماء آية، وكيفية إنزاله آية، وكونه نزل لإحياء الأرض مُعدّاً لذلك آية،**

أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ

وحياتها بعد موتها آية ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ فرق الدواب ونشرها في الأرض لها رزقها بسبب الماء الذي ينبت المرعى فخلقها آية، واختلاف أنواعها آية، ورزقها آية.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ تحويلها من جهة بعد جهة، من شرق وغرب وجنوب وشمال، ونحو ذلك آية ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ﴾ الذي سخره الله وذلّله فهو يسوقه إذا شاء إلى بلد ويحبسه إذا شاء ﴿بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي جمعه حتى يتراكم لا تفرقه الرياح آية، وفي سوقه إلى بلد تحتاجه آية، وفي حبسه عند إنزال الماء منه على بلد آية، وفي كونه مصدراً للماء على خفة السحاب ولطافته وثقل الماء آية، سواء كان يحمل الماء من البحر أم كان فيه مصنع الماء بين السماء والأرض لا تناله أيدي البشر ولا ينزل إلاَّ متى شاء ربهم.

ففي هذه الأشياء كلها آيات تدل على أن الله ربهم الذي تحق له العبادة، وأنه لا ندّ له إذ كل ما سواه مخلوق مربوب، وتدل على قدرة الله وعلمه وأنه قادر على إحيائهم للحساب والجزاء لا يخفى عليه منهم شيء، وتدل على أن الله هو المنعم عليهم الذي يستحق أن يشكروه، ويدل إتقانه هذه المصنوعات وحسن التدبير فيها كما ذكرت على علم الله وقدرته، علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وأنه الأول قبل كل شيء، وأنه لا يشبه المخلوقين، وعلى الجملة: أصول العقائد في معرفة الله، ومعرفة رسله، وكتبه، واليوم الآخر، كلها أصل معرفتها مما ذكر الله من هذه الآيات وأمثالها.

ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ

﴿١٦٥﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ من لا ينتفع بهذه الآيات ولا يهتدي بها، فهو يتخذ أصناماً أو غيرها مما يجعله شريكاً لله، ويجعلها ﴿أَندَادًا﴾ لله، أي مثله في الإلهية، من دون الله يعبدها ويخشاها ويرجوها ويدعوها كأنها أقرب إليه من الله ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أي كما يُحبَ الله المنعم على عباده نعماً لا يحصونها، ومنه أصول النعم وفروعها.

والذي يدعوهم إلى رحمته وثوابه يدعوهم إلى السعادة الدائمة، ويفتح لهم باب التوبة، ولا يعاجلهم بالعقوبة فهو الرحيم بعباده الكريم الحليم، فكيف أحبوا أصناماً لا تنفع ولا تضر؟! وجعلوها أنداداً لله، ما أجهلهم! وما أكفرهم للنعم!!

وحب الله معنى في القلب يدعو إلى طاعته، والسعي في سبيل مرضاته، واجتناب ما يكره، وحب رسله وأوليائه كلهم، وبغض أعدائه، وحب عبادة الله والرغبة في التقرب إليه وكراهة معصية الله كما قال الهادي × : ((لكل شيء ضد، وضدّ حياتي المعاصي)) انتهى.

بل كما في الحديث الشريف: ((أحِبُّوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي)) ومن شأن المحب الرغبة في طاعة المحبوب، ومن شأن المحب الرغبة في أن يحبّه المحبوب، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] ولكون حب الله يستدعي حب عبادته يكون حب الله سبباً في كراهة ما يشغل عن عبادة الله وذكر الله.

قال الإمام القاسم × في كتاب (سياسة النفس): وقد بلغني أن عيسى بن مريم ـ صلى الله عليه ـ كان يقول لمن يحضره ولحواريه: ((بحق أقول لكم: إنه لا يصلح حب ربّين، وما جعل الله لرجل من قلبين، لا يصلح حب الله وحب الدنيا في قلب، كما لا تصلح العبادة إلاَّ لربّ)) وكان يقول صلى الله عليه: ((بحق أقول لكم: إن حب الدنيا رأس كل خطيئة، وكذلك فحب الله، ولا قوة إلاَّ بالله، فعاصم لأهله من كل سيئة)) انتهى.

قلت: لأن حب الله يستلزم حب طاعته والرغبة في عبادته والتقرب إليه، ويستلزم كراهة معصيته والخوف من مقته، وكما أنه يستلزم حب طاعته فهو يستلزم حب أن يطيع الناس ربهم وكراهة أن يعصوه، ويستلزم الغضب لله والرغبة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لإيمانهم بإنعامه عليهم نعمة الدنيا ونعمة الدين، وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، ولكن قلب الفاجر غافل عن الله وعن إنعامه عليه، وكذلك إيمانهم بكرمه وحلمه وسعة رحمته وفضله وإحسانه العظيم، والقلوب تحب أهل الكمال والفضل، فكيف لا تحب من هو المنعم بالهدى لكمال الكامل وفضل الفاضل ذو الجلال والإكرام، وله المثل الأعلى، فأنت تحب الفاضل لحب الفضل، تحب العالم لحب العلم، تحب الكريم لحب الكرم، تحب صاحب العدالة لحب العدل، وهكذا، فكيف لا تحب العزيز الحكيم الرحمن الرحيم الحليم الكريم؟!!

ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ

فعلى قدر المعرفة بالله والمعرفة بأسمائه الحسنى على معناها الكامل، أعني على التفصيل ينبغي أن يكون حب المؤمن لله، لكن إذا تفرغ من حب الدنيا الذي يسبب الغفلة، أقول هذا لتحقيق المعنى ولا أدعي لنفسي هذا، ولكني أوصي نفسي وإخواني أن ندعو الله أن ينزع حب الدنيا من قلوبنا ويهدينا لمعرفته كما ينبغي، ولحبّه كما ينبغي إن ربي قريب مجيب.

﴿وَلَوۡ تَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام:٢٧] وعلى قراءة ﴿تَرَى﴾ بالمثناة من فوق، الخطاب للنبي ص أو عام لكل سامع، والذين ظلموا هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أنداداً ظلماً وحيفاً وجوراً أو هو عام لكل ظالم، فلا يقصر على سببه، والمعنى: لو تراهم في تلك الحالة لرأيت أمراً عظيماً من بؤسهم وذلتهم وصغارهم وندمهم لهول الموقف.

﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾ لأن القوة لله جميعاً ليس لشركائهم شيء من القوة لينفعوهم أو يدفعوا عنهم أو يشفعوا لهم أو نحو ذلك، ولا لغيرهم قوة إلاَّ بالله، فالقوة لله وحده؛ ولأن الله شديد العذاب، فصار الذين ظلموا إلى تلك الحالة؛ لأنهم لم يكن لهم حول ولا قوة وعظم الخطب عليهم؛ لأن ﴿ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

﴿١٦٦-١٦٧﴾ ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ لهول الموقف خوفاً من أن يزاد عذابه من أجل إضلالهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾

خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ

فلم يبق لهم سبب يتعلقون به للتخلص من العذاب فلا توبة تقبل ولا دعاء يُسمع ولا تضرع ينفع ولا فدية ولا شفاعة ولا ناصر.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ ليت ﴿لَنَا كَرَّةٗ﴾ إلى حالة التكليف كما كنا في الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾ من المتبوعين ولا نعينهم في شيء من أمرهم ونقطع العلائق بيننا وبينهم ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾ فلم ينفعونا بشيء وقطعوا حبالنا عنهم.

﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ الطرفين التابعين والمتبوعين يريهم الله أعمالهم ندامات؛ لأن المتبوعين نادمون لزيادة عذابهم بسبب إضلال التابعين، والتابعين نادمون على اتباعهم لتبرئ المتبوعين منهم، بل ولزيادة عذابهم بسبب طاعتهم في معصية الله وإيثارهم طاعتهم على طاعة الله، قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨] فهناك ظهرت حسرات الفريقين.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰ﴾ أي لو تراهم حين يرون العذاب وحين يرون أعمالهم حسرات عليهم ويتعادون ويكفر بعضهم ببعض ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأن القوة لله جميعاً فلا يجدون من ينقذهم، ولأن الله شديد العذاب فلا ينتهي عذابه.

﴿١٦٨-١٦٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ كانت الجاهلية مع شركهم يحرمون بعض ما أحل الله، كما حكى الله في (سورة الأنعام) وهو الحلال الطيب.

وتحريمهم له ليس بمحرم له؛ لأن الحكم لله وحده وليس لأحد غيره أن يحل ما حرم ولا يحرم ما أحل؛ لأن الملك له، واتباع حكم غيره نوع من الشرك، ولذلك قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤] فأمرهم الله أن يأكلوا مما رزقهم في الأرض وأحله، إيماناً بالله وكفراً بالطاغوت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، أي لا تقتدوا به ولا تتبعوا طريقه، أي ما يزينه من الأعمال، وهذا عام في تحريم ما أحل الله على طريقة الجاهلية وفي الغلو والإبتداع، وفي الباطل كله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ أي بيّن العداوة تحذير من اتباعه؛ لأنه إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، فأي عداوة تساوي عداوته، وهذا يوجب ترك اتباعه، وأضاف سبحانه إلى هذا المعنى معنى آخر فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ السوء: القبيح ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ما زاد قبحه من القبائح، وهي صفة محذوف، كالمنكرات الفحشاء، أو الفعلة الفحشاء، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وهذا القول من السوء، وخصه بالذكر ليعلموا أنه مما يدعو إليه الشيطان ويأمرهم به ليحذروه، وقد كانوا كما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨] وهو تحذير لهم ولمن بعدهم من أهل العقائد الباطلة والبدع التي ينسبونها إلى الله بغير علم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَأۡمُرُكُم﴾ إهانة لهم، ودليل على أنهم بطاعتهم للشيطان جعلوا أنفسهم تحت أمره، وأهانوا أنفسهم بجعل الشيطان أميراً عليهم.

أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١ يَٰٓأَيُّهَا

---

١٧٠ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ومع أن الشيطان لهم عدو مبين إنما يأمرهم بما ذكر، يأبون إتباع ما أنزل الله الذي يهديهم ويعصمهم من الشيطان، وانقادوا للشيطان الذي يدعوهم إلى الكبر والحسد والحمية للآباء، فهم يتبعون أمر الشيطان ولا يتبعون ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ الذي هو الهدى، وهو أمر ربهم الذي هو أولى بهم، ويجعلون عذرهم التعصب لآبائهم فيقولون: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾ أي ما وجدنا ﴿عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ أيتبعون آباءهم ولو كانوا جاهلين ضالين؛ لمجرد أنهم آباؤهم، فمعنى هذا: أنهم لا يريدون الحق، وأنهم قد رضوا لأنفسهم بالباطل، وأنهم لم ينصحوا أنفسهم، فكيف وقد جاءهم النذير ينذرهم عذاب السعير، فهم كما في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ الشَّيۡطَانُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١] قد عرضوا أنفسهم لعذاب السعير.

١٧١ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في عدم قبولهم لما يتلى عليهم من آيات الله، وفي إعراضهم عنها حتى لا يهتدون ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗ﴾ النعق: زجر الراعي بالغنم، نعق الراعي بالغنم: إذا صاح بها.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : أما قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ﴾ فهو مثل ضربه الله لهم بغنم راعٍ

سَامَتْ فضَلَّت وتتابعت فذهبت فأراغَها صاحبها، فلم يجدها فعَلا شَرَفاً من الأرض لها، وأقبل ينعق بها وهي لا تسمعه وهو في دعاء ونداء وهي سائمة ترعى، ولا تجب له صوتاً، ولا تألوه فوتاً، كذلك قال الذين كفروا، حالهم في عدم الإجابة إلى الحق كحال هذه الغنم المستعجمة من الخلق)) انتهى.

قلت: وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يفيد أن الكلام فيهم لبيان غفلتهم عن داعي الحق وتشبيههم بالأنعام، فشبّه حالهم مع الداعي بحال الغنم مع الراعي، وحيث المقصود تشبيه حال بحال لا يلزم أن يلي حرف التشبيه المنعوق به، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾ [يونس:٢٤].

وقول الإمام الهادي × : ((وهي لا تسمعه)) لعله يعني لا تسمعه من حيث هو صاحبها، أي لا تنتبه له؛ لأن صاحبها ينعق بها، فلا تدري أنه يدعوها، أي يطلب إقبالها إليه ولا تفهم أنه ينادي لها، ولذلك قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ ولم يقل: (دعاءه ونداءه)؛ لأنه يمر على مسامعها، ولا تنتبه أنه دعاء صاحبها ونداءه، فهي لا تسمع إلاَّ مجرد دعاء ونداء لا تنتبه له ولا تلتفت إليه.

﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا تشبيه لكل منهم بالأصم الذي لا يسمع، الأبكم: الذي لا ينطق، الأعمى: الذي لا يبصر ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما يقال لهم، ولا ما يراد بهم،كما لا يعقله من جمع الصفات الثلاث.

وفائدة ذكر البكم: الذي هو عدم قدرة النطق، المبالغة في الدلالة على بعدهم من الفهم؛ لأن من ينطق قد يسأل ويبيّن وجه الخفاء عليه، فقد يمكن تفهيمه من طريق اللمس، أو الجس، أو حمل الشيء ليعرف خفته أو ثقله، أو محاولة حمله ليعرف ثقله أو نحو ذلك.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ

وكذلك تفهيمه من طريق الشم أو من طريق الطعم أو بجذبه، بحيث يشعر أنه قد أشرف على هوة، ولو لم يسأل لم ينتبه له ولا لوجه اللبس عليه، فإذا كان أبكم لا ينطق أنسدت عليه طريق السؤال والتفهيم المتوقف على السؤال.

﴿١٧٢-١٧٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ الأمر بالأكل من الطيبات إما بمعنى لا تجتنبوا الأكل من بعضها لأجل تحريم الجاهلية له بل كلوا مما كانوا يحرمونه ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ تحقيقاً لاستحلاله، أو بمعنى وجوب الأكل من كل نوع رزقه المكلف، أو بمعنى ﴿لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة:٨٧] أو لأجل المعاني كلها، واشكروا لله نعمته عليكم بالطيبات من الرزق وكل نعمه.

﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ فإن من حق من لا يعبد إلاَّ الله أن يعلم أن الحكم لله فلا حرام إلاَّ ما حرم ولا حلال إلاَّ ما أحل ومن جعل لغير الله حكماً بتحليل أو تحريم فلم يخصه بالعبادة ولا يبعد دلالة الآية على أن من أسلم لا يكفيه الإقرار بحل ما كان محرماً له قبل إسلامه إذا ملكه أو أُعطيه بل يجب عليه أن يأكل منه ليحقق استحلاله في نفسه وليخرج نفسه عن اجتنابه، ولعله سبب الأمر في الآية لئلا يبقوا على اجتناب شيء من طيبات الرزق، فهي على عمومها في حقه في كل ما كان محرِّماً له.

ويلحق به من يتجنب بعض المأكولات اللذيذة ظنّاً منه أن ذلك من الزهد في الدنيا، وهنا تفصيل، فليس من هذا تجنب بعض المأكولات اقتصاداً، وهذا على أحد وجهين:

الأول: أن يكون لا يحصل له إلاَّ بأن يشتريه فلا يشتريه ويتركه اقتصاداً، أو يكون معه موجوداً لكنه يحتاج إلى بيعه لحاجته إلى ثمنه حاجة يستدعيها الاقتصاد، وكذلك ليس من هذا تجنب بعض المأكولات اللذيذة أو نحوها من اللذات لئلا تتعودها نفسه، فتقوى رغبتها فيها وتطالبه فيما بعد بتحصيلها في حين لا تحصل له إلاَّ بالاشتغال عن العمل الصالح من طلب العلم أو غيره أو لا تحصل له إلاَّ بتقصير في الاقتصاد.

وكذلك ليس من هذا تجنب بعض المأكولات لئلا يشتغل بها عن عمل صالح من بحث في الكتاب أو درس على الشيخ أو تدريس أو نحو ذلك، أو لئلا تسبب له كسلاً أو نوماً يشغله عن البحث في كتب العلم أو عن أي نوع من أنواع العبادة، فهذه طرائق محمودة.

وكذلك تركه ليقتدى به في ترك الاشتغال باتباع الشهوات. والأعمال بالنيات، وكذلك ليس من هذا ترك بعض المشتهيات إيثاراً لغيره، فذلك من الإحسان وثوابه مع النية الصالحة خير من أكله، ويعظم ثوابه إذا آثر به يتيماً أو مسكيناً أو نحو ذلك.

وكذلك ليس من المذموم تركها فراراً من الدَّين ـ بفتح الدال ـ لأنه خطر إذا لم يقضه لأنه من أكْل أموال الناس بالباطل، ولأن غمّ الدين من الضر «ولا ضر ولا ضرار في الإسلام» كما في الحديث رواه القاسم × ، والهادي × ، والأصل: تحريم الضر حيث لا إذن فيه خاص.

ومن هنا يتبين حسن الاقتصاد الذي يؤدي تركه إلى تحمل الدَّين، فتحصّل جواز ترك الأكل لوجوه:

الأول: الاقتصاد.

الثاني: خوف التعود.

الثالث: الاشتغال بما هو أهم من الأكل.

الرابع: للإقتداء به.

الخامس: الفرار من الكسل والنوم.

السادس: الإيثار.

السابع: الفرار من الدَّين.

الثامن: الفرار من الضر في حق من يضره بعض المأكولات كالتمر في حق النَّاقِهِ ونحو ذلك.

هذا وما سوى هذه الأحوال المذكورة فلعله يحصل الامتثال بأكل الكل من الكل، ولا يجب على كل فرد أن يأكل من كل الطيبات، بل يكفي أن يأكل كل فرد من نوع، وقد قيل: يكفي الأكل من بعض أنواع الطيبات؛ لأن ﴿مِن﴾ للتبعيض، ولم يترجح لي؛ لأنك لا تقول إذا أكلت من نوع واحد: أكلت من كل شيء، أعني ليس هذا معروفاً في استعمال العرب.

ولهذا كان قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣] يفيد: تكثير أنواع ما ملكت، ولو كان يكفي في حصول المعنى ملكها الشيء من نوع واحد، لما كان هذا الكلام يفيد المقصود، ولا يبطل بقولنا: يحصل الامتثال بأكل الكل من الكل ما قدمنا من إيجاب الأكل على من كان يحرم الشيء ؛ لأن القرائن تفيد أنه مقصود فلا يسقط عنه بأكل الآخرين منه .

وبقي وجه تخصيص في هذه الآية الكريمة، وهو أنه تعالى قال: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ ومن لم يملك المطعوم ولا صار له بوجه استحقاق ولا أُعطيه فلم يُرزَقه، فلم يدخل في عموم هذه الآية، فلا يجب عليه أن يشتري من نوع ليأكل منه أو يصطاده أو نحو ذلك، لأجل هذه الآية الكريمة، بل لا يجب عليه أن يأكل إلاَّ مما رزقه الله وأعطاه، وما ذكرته في هذه الآية هو أوضح في تفسير (آية المائدة).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ هذه التي كان الكفار يستحلونها وهي المحرمة لا ما يحرمونه من البحيرة والوصيلة والحامي وغيرها، والحصر هنا إضافي يرشد إليه السياق فلا ينافي تحريم غير هذه كالربا والرشوة وغيرها من أكل أموال الناس بالباطل، وكذا ما يضر الآكل ضرراً أرجح من النفع، كالطين، والقات في حق من يضره ضرراً واضحاً راجحاً على لذته وفائدته، بحيث يكون معيباً في العقل كمن يسبب له الجنون، أو يسبب له القولنج الذي يحدث به نوبات وجعٍ شديدٍ في البطن يكاد يقتله.

﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ﴾ الإهلال: أصله رفع الصوت، قال:

لأهلّوا واستهلوا فرحاً

والإهلال بما يذبح أو ينحر: رفع الصوت عليه بكلمة التقرب به، فإن كانت الكلمة ذكر اسم الله عليه أو التلبية فلا إشكال، وإن كانت ذكر غير الله لإفادة التقرب إليه فهي محرمة وهي المحرمة في الآية.

وهل يدخل في ذلك ما يسمى في (اليَمن) المقصد أو الهَجَر ـ بفتح الهاء والجيم ـ وهو ما يذبح لتطييب نفس المذبوح له، أو لطلب مساعدته على أمر لم يكن يرضاه؟

الأرجح: أنه لا يطلق تحريمه ولا تحليله، فما أهل به لغير الله حرم بظاهر الآية ـ وإن لم يكن شركاً، وما لم يهل به لغير الله كما هو المعتاد عند أهل المعرفة فلا يحرم، وذلك بأن يقول الذابح: ((باسم الله)) ولا يقترن ذلك بالإهلال لغير الله، ويتأخر الكلام الآخر بمهلة أو يتقدم بمهلة بحيث لا يكون في العرف مقارناً للذبح.

والأحوط: أن يتقدم الكلام ولا يذبح في المجلس؛ لأنه ما دام الذبح عند الكلام قبل الاعراض ولو تأخر فهو يعتبر مقارناً، وليس في الآية ذكر المقارنة فلا فائدة في التعلق بلفظ المقارنة، وما دام رفع الصوت أي الجهر بالكلام ورفعه عند الذبح فقد دخل في عموم الآية، وهو عند الذبح ما دام الذبح في المجلس قبل الإعراض والمراد بالكلام قولهم: هذا جاهنا عندك في طيبة النفس أو في أن توافقنا على ما طلبنا أو نحو هذا؛ لأنهم قد أعلنوا التقرب به إليه ولا يقال: إنهم إنما تقربوا بالمذبوح لا بالذبح؛ لأنا نقول ليس في الآية إلاَّ الإهلال بالمذبوح، فما دام المذبوح ذبح لتطييب نفسه وجهروا بذكره عند ذبحه لهذا الغرض فقد حصل الإهلال به له، فظهر: أنه لا يطلق تحليله ولا تحريمه ـ أعني المقصد ـ وللسيد إبراهيم بن محمد الوزير كتاب في تحريمه وأنه شرك، وقد رددت على جعله شركاً بـ(رسالة).

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ إلى أكل ما حرم الله في هذه الآية ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ بأكل ما حرم الله ﴿وَلَا عَادٍ﴾ ولا متجاوز لما أحل الله كمن رخص له فتجاوز في الأكل ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ويدخل في الباغي: من يأكل المحرم في حال الاضطرار مصراً على أكله في غير الضرورة، أي يأكله لا للاضطرار، فهو يأكله في حالة الاضطرار كما يأكله في حال عدم الاضطرار.

وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى

ويدخل فيه: من بغى على من يحرم قتله ليأكل منه أو ليشرب من دمه أو على حيوان محترم لا للضرورة بل بغياً عليه وجرأة، فلا تبيحه الضرورة في حقه، ويدخل في العادي كل من عدل عن الحلال، وهو متمكن من تحصيله، وهذا وإن كان خارجاً عن الاضطرار إلى المحرم، فإن الشرط هذا محقق للاضطرار، وفائدته: أن لا يتوهم أنه مضطر إذا اشتد به الجوع ولم يكن يملك طعاماً ولا يباح له، فهو عادٍ ما دام يتمكن من تحصيله حلالاً بأي وسيلة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تشجيع للمضطر إذا كان من أهل التقى لما يحدث من خاطر احتمال عدم الاضطرار، وأنه يتحمل الصبر، واحتمال أن ما قد أكله من الميتة مثلاً يمسك روحه ويقوى به على المشي إلى حيث يجد الأكل أو يقوى به على العمل بالأجرة ليشتري طعاماً أو نحو ذلك، فليأكل ما دام لا يثق بحصول الكفاية لإمساك الروح وإنقاذه من الإضطرار إن كان الأكل ينقذه، وما دام يخاف على نفسه فليأكل راجياً مغفرة الله إن أخطأ ورحمته.

فأما حمل الميتة معه لئلا يضطر في المستقبل فليس بغياً ولا عدواً ما لم يكن غيره مضطراً إليها في الحال، وليس كافراً حربيّاً، فعليه أن يترك له ما يحتاجه في الحال وينقذه من الموت.

﴿١٧٤-١٧٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فالكتمان محرم، واستبدال الثمن القليل بما أنزل الله من الكتاب

محرم آخر، وكل ثمن بدل فهو قليل، فقوله: ﴿قَلِيلاً﴾ ليس شرطاً، بل بيان لقلته وحقارته في جنب بيع الدين، ويدخل في هذا من يكتم ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأجل معاش يعطاه من بعض ملوك الجور.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ للتبعيض، ولو كان المراد الكل لقيل: الكتاب الذي أنزله الله، وكل كلمة يصدق عليها ما أنزل الله؛ لأن الله أنزلها، ويقبح كتمانها؛ لأن الله أنزلها، فالمعنى: الذين يعتادون كتمان ما أنزل الله ولو كلمة واحدة من الكتاب تكرر كتمانهم لها، فقد دخلوا في الآية؛ لأن أهل الكتاب لم يكونوا يكتمون كل كلمة من الكتاب، ولعله يدخل في هذا كثير من الناس يأخذون المعاشات، ويكتمون الحق من أجلها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لأن ما أكلوه من بدل ما أنزل الله يكون في الآخرة ناراً في بطونهم ولا يبعد أن يكون هذا حقيقة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ..﴾ إلى قوله: ﴿..يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة:٣٤-٣٥].

وعلى هذا فالظاهر الحقيقة، ولا موجب للتأويل.. نعم هو مجاز من حيث تسميته ناراً باعتبار ما يؤول إليه مثل: ((أعصر خمراً)).

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إذا صح التعبير بالغضب في القرآن منسوباً إلى الله، والمراد غايته، والله يتعالى عن مشابهة المخلوقين، صح أن نقول: قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ دلالة على غضبه عليهم؛ لأن من آثار الغضب عندنا ترك تكليم المغضوب عليه، فإذا لم يكلمهم كان عدم الكلام دلالة على أنه يعذبهم ويفعل بهم ما يفعل الغاضب، ولا يوجد منه لهم أي شيء ينافيه الغضب في العادة عندنا.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ ولا يحكم بأنهم زاكون؛ لأنهم مجرمون، وإن ادعوا لأنفسهم الزكاة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٩].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بتلك الجريمة الكبرى كتمان ما أنزل الله واستبدال المال به، والعذاب مؤلم تأليماً شديداً،فوصفه بأنه أليم يدل على زيادته في التأليم على ما يفيده اسم العذاب.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ في تلك المبادلة بما أنزل الله من الكتاب بالثمن، فمعناها: اشتراء الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فهي صفقة خاسرة خسراناً مبيناً.

﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ فما أشد جرائمهم الموجبة للنار، ولّما كانوا بذلك كأنهم قد صاروا بسببه في النار لكون مصيرهم إليها بسبب جرائمهم هذه التي يتجرؤون عليها أمراً متحتماً جعلت جرائمهم التي هي سبب النار واستمرارهم عليها أو تكررها منهم كأنها صبر على النار؛ لأنهم في كل مرة من كتمانهم يستوجبون النار، وفي كل مرة من استبدالهم بها المال يستحقون النار، فتكرر أسباب النار منهم كأنه صبر على النار؛ لأنه سبب النار، كقوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾.

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي إ : ((﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ معناه: ما أجرأهم عليها)) اهـ. فتكرر أسباب النار منهم بدون خوف ولا مبالاة، وهم يعلمون أنه سبب النار عجيب !،كما أن الصبر على النار عجيب واستعمال أداة التعجب من علام الغيوب للدلالة على أن الأمر عجيب في حقنا.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : هذا تبكيت من الله ـ عزَّ وجل ـ لكفرة عباده، وتقريع لقلة صبرهم على النار، فقال: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ ولا يصبرون عليها، وكذلك تقول العرب للرجل في الشيء إذا لم يقوَ عليه وأيقنت بعجزه عنه: ما أقواك على كذا وكذا، من طريق التقريع له بضعفه وقلة احتماله، وقد قيل: إن معنى ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي ما أصبرهم على عمل النار الذي يهلكون به ويستوجبون العذاب بفعله، فأقام النار مقام عملها)) انتهى.

قلت: الأولى الجمع بين التفاسير المذكورة، ولا تعارض إذا كان المرتضى يعني بالتقريع والتبكيت: التّجهيل لهم، فهو معنى حسن جداً نضيفه إلى ما قلناه، وإلى ما روي عن الإمام زيد بن علي إ .

قال الشرفي في (المصابيح) ـ أيضاً ـ: ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على قبح كتمان ما أنزل الله، وعلى تحريم أخذ العوض عن ذلك، و[أن] ما حرمه الله من كل وجه لا يملكه من حرم عليه)) انتهى.

قلت: يعني ما حرم أخذه لا يملك بالمعاوضة كالربا والرشوة ومهر البغي وغير ذلك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا﴾ [النساء:١٠] فدل على تحريم أكله لا مجرد تحريم المعاوضة فيه وتحريم أكله لتحريم التصرف فيه؛ لأنه أخذ بالمعاوضة المحرمة والتصرف فيه سواء، وإنما خص الأكل للتخويف كما قال تعالى في أموال اليتامى، ولو ملك لحل أكله، والتصرف فيه باشتراء ما يؤكل، وليس المراد أكله بعينه، بل المراد إتلافه بأكله أو أخذ مأكول به؛ لأن الفلوس لا تؤكل، وكثيراً ما تكون الرشوة من الفلوس وأموال اليتامى لا تكون كلها مأكولة.

ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى

فظهر: أن المراد الإتلاف في الأكل أو بالأكل، كله يعبر عنه بالأكل، بل لا يبعد أن المراد الإتلاف، ولو لغير الأكل، وعبّر عنه بالأكل على طريقة التغليب، وهذا لا ينافيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠] لأن بعضه مأكول أو أتلف في مأكول، فصح ذلك مع التغليب.

﴿١٧٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوعيد على الكتمان والاستبدال بما أنزل الله ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ فقبح كتمانه والاستبدال به؛ لأنه نصرة للباطل ومعارضةً لأمر الله، وتفويت لفائدة ما أنزل الله ومحاولة لتضييع الحق، فهو محادة لله ومحاربة للحق.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ لعله حيث ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ فصاروا مختلفين في الكتاب؛ لاستناد اليهود إلى (التوراة) والنصارى إلى (الإنجيل) فخالفت اليهود في (الإنجيل) وخالفت النصارى في (التوراة) وخالف الذين لا يعلمون في (التوراة) وكل ذلك عناد وتمرد لا يستند إلى دليل، ثم إن الفرق الثلاث كما اختلفوا في الكتاب فهم في شقاق ومعاندة بجحدهم للقرآن ورسول الله محمد ص، فصار بينهم وبين صراط الله مسافات ومراحل ـ والله أعلم.

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

﴿١٧٧﴾ ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى × : ((معناه: ليس كل البر تولية المشرق والمغرب من القِبَل التي أنتم تُمارون فيها ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ فأخبر سبحانه بفنون البر وما يصح لهم به الإيمان ويكمل لهم اسم البر والإحسان)) انتهى.

﴿ٱلۡبِرَّ﴾ الاتساع في الإحسان وفعل الخير، و﴿قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ الجهات التي يولي إليها الكفار وجوههم ويزعمون أن ذلك هو البر، وليس البر ذلك، ولكن البر الإيمان بلوازمه وتوابعه التي يعملها ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ وقد قدمت معنى الإيمان بالله واليوم الآخر في تفسير أوائل السورة ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لأن الإيمان بهم من الإيمان بالغيب ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ ومنه القرآن الكريم ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ومنهم خاتمهم محمد ص، فلا بد من الإيمان بالكتاب كله وبالنبيين كلهم.

﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ﴾ أي ماله، كقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾ [النازعات:٤٠] أي نفسه ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ في حال حب المال كالإطعام في حال حاجة المطعِم ـ بكسر العين ـ إلى الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [الإنسان:٨] وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي ذوي قرابة المؤتي، قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾ ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الذين فقدوا آباءَهم، أي هلك آباؤهم ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾ أهل الحاجة الشديدة الذين يحتاجون إلى المسألة ولم يسألوا، من أجل الحديث عن النبي ص: ((ليس المسكين بهذا الطوّاف عليكم الذي تردّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان)) قالوا: فمَن المسكين، يا رسول الله؟ قال: ((الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس)) رواه الإمام الهادي في (الأحكام).

وليس يعني ص تعليم اللغة، وإنما أراد الحث على إطعام المحتاج الذي لا يسأل ولا يعرف معرفةً تغنيه عن السؤال بحيث يتصدق عليه، ولا يحتاج إلى السؤال، والذي يفهم من الحديث أن المسكين المحتاج الشديد الحاجة، فكأنه ص يقول: ليس المحتاج شديد الحاجة بهذا الطوّاف عليكم، ولكن المحتاج الشديد الحاجة المحتاج الذي لا يسأل ولا يفطن له، وإنما يعرف بالتأمل في وجهه وعلامات الحاجة عنده، فالمحتاجون ثلاثة: سائل، ومعروف بالحاجة أو تظهر حاجته بدون بحث مع أنه لا يسأل، والثالث الذي فيه النص أنه مسكين.

وفائدة الحديث: التنبيه على هذا الثالث؛ لئلا يغفل عنه ويكتفي بالإنفاق على الأول والثاني، نعم.. ومن كان من القسم الثالث فاشتدت به الحاجة حتى اضطر إلى السؤال ولم يعتد السؤال لم يخرج عن القسم الثالث؛ لأن الحديث فيمن يعتاد السؤال بكثرة كما يفيده لفظ ((الطواف)) المفيد للمبالغة، ومن كان يطوف متعرّضاً وكثر ذلك منه فهو في حكم السائل وإن لم يسأل، إذا كان يعطى بالتطواف كما يعطى السائل؛ لأن الحديث لم يذكر إلاَّ الطواف.

وأما ﴿ٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فالسبيل: الطريق، والمراد المار في السبيل المحتاج من حيث هو في السبيل أي تبعاً لمروره في السبيل، ولعله يؤخذ من نسبته إلى السبيل أنه ليس له مرتفق حول السبيل؛ لأنه غريب.

قال الهادي × في (الأحكام): ((وأما ابن السبيل فهو مار الطريق المسافر الضعيف، فيعان بما يكفيه من قليل أو كثير)) انتهى.

ذكر هذا في تفسير آية الصدقات، وتفسير الهادي × يعم المنقطع، والذي اشتدت عليه الحال لضعفه وقلة زاده، وكذا من هو مظنة أن يبلغ أي الحالتين لذلك، والمراد إعانته ليرجع إلى بلده أو يتخلص من تلك الحال بالوصول إلى بلد آخر أقرب من بلده أو مثلها، قال الهادي × في ذكر إعانة ابن السبيل: ((حتى ينتهي ويصل إلى بلده)) انتهى.

فمتى تخلص من تلك الحال بالوصول إلى بلده أو مثلها أو بأي سبب فقد خرج عن كونه ابن السبيل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ يعم كل سائل، ولو كان يعتاد السؤال، ولكن من يتخذه حرفة ويسأل وهو غير محتاج وتحقق منه ذلك فيمنع، أو يقلل عطاؤه جدّاً لئلا يكون إعطاؤه معاونة له على الإثم؛ لأنه بسببه يرغب في السؤال فيعيده ويكرره ويستمر عليه كلما أعطي لرغبته في المال لا لضيق الحال، وقد جاء في تحريم السؤال روايات عن النبي ص منها ما رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ص: ((كفى بالمرءِ إثماً أن يضيع من يعول أو يكون عيالاً على الناس)) وقال ص: ((لا تحل الصدقة لغني، ولا لقوي، ولا لذي مرة سويّ)) اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي في تحرير الرقاب، وفسره الهادي × في (الأحكام) بالمكاتبين، الذين يكاتبون مواليهم على شيء معلوم.

قلت: وهذا أظهر وأوفق لتفسير إيتاء المال في الرقاب بإنفاقه في تحرير الرقاب، والسياق هنا وفي آية الصدقات يدل عليه ولا يدل على أكثر منه، والله أعلم، فأما من جعل عتق الأمة صداقها فقد أنفقها في تحريرها وزواجها، فلا يبعد دخوله في هذه الآية لا في آية الصدقات.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي إ) عن أبيه، عن جده، عن علي(عليه السلام) قال: قال رسول الله ص: ((أربعة لهم أجران: رجل كانت له أمة فأدَّبَها وأحسن أدَبَها ثم أعتقها فنكحها فله أجران..)) الحديث.

قلت: لعله اشترط حسن الأدب ليكون العتق قُربة، وهذا يناسب قول الهادي × : ((إنه لا قربة في عتق الفاسق الذي يتقوى بالعتق على فسقه؛ لأنه معاونة له على الفسق)).

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهما من البر، وفي ذكر الزكاة هنا دلالة على أن الإنفاق المذكور قبل من غير الزكاة، والآية تدل على: أن من لا يفعله مع التمكن منه والإيسار، فليس من المتقين؛ لأن التقوى تبعث عليه لطلب التثبيت ومحو الذنوب، سواء قلنا: أنه واجب، أم لم نقل.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ﴾ فهو من شأن المتقين، وقوله: ﴿إِذَا عَـٰهَدُواْ﴾ يفيد: أنه لا يتقرب بالعهد ليوفى به، أي ليس ذلك مراداً في الترغيب في الوفاء، نعم إذا أمر الإمام المحق بالعهد وجب لوجوب طاعته.

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ﴾ حالة الجوع ونحوه ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ حالة المرض ونحوه ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ في حال القتال.

وقلت: في الأول ونحوه؛ لأنه يعم أنواع الفقر حتى ضيق المسكن، وفي الثاني ونحوه؛ لأنه يعم أنواع الضر، ويدخل فيه الغم والحزن والغيظ والخوف والصبر في الحالات الثلاث، وفي كل ما ذكر في الآية يميّز الصادق في إيمانه الذي تطابق قوله وفعله وضميره.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ ونظيره: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ وإذا كانوا هم الذين صدقوا وهم المتقون فهم المؤمنون الأبرار، قال (الناصر الأطروش) الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن عمر بن علي زين العابدين عليه السلام في (البساط) [ص٢٠ ـ مخطوطة]: حدثنا بشر [بن عبد الوهاب] قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، قال: جاء رجل إلى أبي ذرّ ـ رحمة الله عليه ـ فسأله عن الإيمان؟ فقرأ عليه أبو ذر: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ..﴾ الآية، فقال الرجل: ليس عن البر سألتك؟ فقال أبو ذرّ: جاءَ رجل إلى النبي ص فسأله عما سألت، فقرأ عليه كما قرأتُ عليك، فأبى أن يرضى كما أبيتَ أن ترضى، فقال رسول الله ص: ((الذي إذا عمل حسنةً سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئةً ساءته وخاف عقابها)) انتهى.

قلت: هذا فيمن كان على الحال الطبيعية في الإسلام، فأما من كان رجاؤه وسروره لسوء عقيدته مع إصراره على الكبائر فهو غير مقصود؛ لأنه متمنٍّ مغرور، وعمله غير مقبول لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] والآية التي أتممنا تفسيرها تردّ عليه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا

﴿١٧٨-١٧٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ القصاص قتل من قَتل ظلماً متعمداً وتوجيه الخطاب إلى الذين آمنوا عموماً، دليل على وجوب تحصيل سلطة تنفذ القصاص حين يعجز وليّ الدم، وأن الواجب معاونة وليّ الدم ليتمكن من القصاص، وهذا وأمثاله من التكاليف دليل على شرعية الإمامة ووجوبها على الأمة عموماً؛ لأنه تعالى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ فعمهم في الخطاب والإيجاب، ولم يخص القاتل هنا.

﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ﴾ وهذا يعم الحر الأصلي ومن تجددت له الحرية وكان عبداً، وإن سمي عبداً مجازاً؛ لأنه حر ليس عبداً ﴿وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ أي المملوك ﴿وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰ﴾ الأنثى الحرة بالأنثى الحرة، والأنثى الأمة بالأنثى الأمة، وليس في هذه دلالة على قصاص الرجل بالمرأة ولا الحر بالعبد، ودلت على: قصاص الغني بالفقير، والأمير بالمأمور، وكبير الناس بصغيرهم، والشاب بالطفل، والرجل الشاب بالشيخ الكبير ونحو ذلك.

وكذا في العبيد والإناث، فما يصدر من معاونة القاتل حتى لا يتمكن ولي الدم من القصاص بأي طريق مثل تخويف الشهود أو تخويف الحاكم أو تخويف الولي، فهو من الباطل، والتعاون على الإثم والعدوان.

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ﴿عُفِيَ لَهُۥ﴾ أُسقط له من أخيه الذي على ملة الإسلام فهو أخوه في الدين المشترك بينهما الذي هو التوحيد والإقرار بالرسول والقرآن ونحو ذلك، وفي ذكر الأُخوّة ترغيب في العفو وحث على العطف، وقوله تعالى: ﴿شَيْءٌ﴾ يعم العفو عن القصاص، وعن بعض الدية إن عفى عن القصاص.

﴿فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي لا يسيء المطالبة بالدية أو بقيتها لأجل أنه قد قتل قريبه، بل تكون المطالبة بشكل معروف لا يستنكره العقلاء أهل المروءة، فلا تقترن المطالبة بسب ولا وعيد، ولا تكون بصوت رفيع مع قرب المطالب بل تكون برفق.

﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ﴾ للدية أو ما بقي منها ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ كلام طيب وتسليم جميل، وبالأولى أن يكون بالمعروف، فلا يسلم بواسطة الظالم الذي يأخذ بعضه ولا يقترن بالتشكي ودعوى أنه مظلوم بأخذ الدية أو نحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى ولي المقتول، فلا تدفع إلى غيره، وإذا كانوا ورثة دفع إلى كل منهم نصيبه، ولا يبعد دلالتها على: أنه لا يقضى منها دين الميت إلاَّ بإذن أهلها، وأنها ليست من الميراث، وإنما يعمل بها ما يعمل بالميراث بمعنى أنها تقسم على حسب الإرث، وهو في قول الله تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا﴾ [النساء:٩٢] أوضح.

وعلى هذا: فهي ليست عوضاً للميت عن نفسه بل هي عوض للولي؛ لأنه موتور مغيظ محنق، وفائدته: التخفيف عنه وتقريبه إلى العفو؛ لأن العفو لولا الدية يكون بعيداً، فأما الميت فيحكم بينه وبين قاتله يوم القيامة وينصف له ملك يوم الدين، وما قيل: إنها للميت كأرش الجراحات، يرده: إنها لو كانت كذلك لكانت أروشاً على عدد ما في الحي من أعضاء ومعانٍ؛

لأن القتل أبطل ذلك كله، ولأن الدية لا تستحق إلاَّ بما يستحق به القصاص في هذه الآية، وذلك لا يكون إلاَّ عند خروج الروح؛ لأن المجروح لا يسمى قتيلاً إلاَّ متى خرجت روحه بسبب الجرح مثلاً، وفي تلك الحال لا يملك بل يورث ما ترك.

﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ أي شرع العفو وسقوط القصاص بالعفو بإسقاطه، وكذلك سقوط ما عفى من الدية، فهو تخفيف؛ لأن التكليف بالقصاص ثقيل.

﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إما ولي الدم، وإما القاتل، فولي الدم إذا عفى وأسقط القصاص ثم قتل القاتل فهو معتدٍ يقتل به وله عذاب أليم لعدوانه لا بد من زجره لئلا يظهر إسقاط القصاص، ويأخذ الدية ثم يقتل لأنه قد يطمع في الجمع بين القصاص وأخذ الدية، وقد يقبل الدية، فإذا أكلها ندم على القصاص، وقد يقبل الدية، فإذا أغراه بعض الشياطين ندم وتجرأ على القصاص بعد أن بطل حقه فيه، وأما القاتل إذا عفي عنه فتجرأ على قتل مسلم آخر ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لتجريه على العدوان بعد أن خفف الله عنه ورحمه، فلم يشكر تلك النعمة ويتق الله، بل ازداد جرأة على القتل، أو نسي النعمة كأن لم تكن.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فقصاص إنسان واحد قد يكون سبباً لحياة كثير من الناس، ولو لم يشرع القصاص لتجرأ على القتل كثير من الناس، وحيث يترك القصاص في أهل الجهل ويعدلون إلى النقاء، يكثر القتل بالتسلسل، والنقاء قتل رجل يختارونه أو يتيسر لهم قتله بدل المقتول، وهو غير القاتل، وإنما هو من قبيلة القاتل مثلاً، وولي الدم من قبيلة أخرى.

ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ

فإذا رجع الناس لحكم الله وقتلوا القاتل لا غيره انقطع التسلسل، وطريقة أهل الألباب ترجيح الحكمة على العاطفة المخالفة، وفي الآية الكريمة دليل على أن الذين يجادلون في حسن القصاص عادلون عن طريقة أولي الألباب، أي أهل العقول، وخاطب أولي الألباب؛ لأنهم هم الذين ينتفعون ويؤمنون بذلك.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ الله، فتقوى الله هي المراد الأهم؛ لأنها تؤدي إلى السلامة من عذاب الله، وهذا تعليل للتعليل، فتقليل القتل تعليل للقصاص والتقريب إلى تقوى الله تعليل لترك القتل العدوان، فالقصاص وسيلة للتقوى من حيث يزجر عن العدوان بالقتل، وهذا الإنزجار قُربٌ إلى التقوى كما أن القتل عمداً عدواناً بُعدٌ عن التقوى.

﴿١٨٠﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أوجب عليكم، وعم الخطاب؛ لأن السامعين كلهم يموتون، والخير المال، و ﴿ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ بما تعرفه العقول ولا تنكره الفطرة السليمة، وهو إما أن يكون قبل المواريث فيكون على ما يراه الميت بالمعروف، وإما أن يكون بعد نزول وصية الله التي هي أقدم وأوجب، فالمعروف ما طابقها؛ لأنه تعالى صدّر (آيات المواريث) بقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ﴾ [النساء:١١] وختمها في أوائل (سورة النساء) بقوله تعالى: ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ [آية:١٢] فأرشد إلى العمل بوصيته وترك وصية غيره إذا خالفت.

﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا

﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي حق الإيصاء المذكور حقاً على المتقين، أي وجب أو حال من الوصية، أي واجباً كالدين وسائر الحقوق، وفي قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تأكيد لإيجابها.

﴿١٨١﴾ ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ﴾ التبديل: إيجاد بدل، إما بدعوى أنه الوصية، أو بدعوى أنه رجع عن الوصية وأبدلها بهذا البدل، وعلى هذا فالتبديل يكون من الكاتب أو الشهود، ويكون من غيرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾ حصر وقصرٌ إضافي، أي إثمه عليهم، لا على الميت ومن أقام الشهادة على وجهها، فأما من أخذ البدل بالزور وهو يعلم فهو حرام عليه وهو آثم بأخذه، وأخذه منكر خارج عن التبديل، بل هو غصب أعانه عليه التبديل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿١٨٢﴾ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ الجنف: الميل، وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي إ : ((الجنف: الجور والخطأ، والإثم: العمد)) انتهى.

قلت: الحاصل الحيف بمخالفة المعروف في تفضيل بعض الموصَى لهم على بعض، تفضيلاً يستنكر ويعاب بغير تعمد لمخالفة المعروف، والإثم: ترك بعضهم، والإيصاء بالكل للآخرين عمداً، ومخالفةً لأمر الله، أو تفضيلهم كذلك.

ولعل الجنف خاص بالأولاد فيما بينهم والأقربين المستوين في الدرجة؛ لأن التفضيل بينهم هو الذي يسمى ميلاً، والإثم: مخالفة الحق عمداً بمخالفة المعروف، أو بترك الإيصاء لبعض مع الإيصاء بالكل للآخرين.

كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ

﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الوالدين والأقربين، فإن الوصية المخالفة لأمر الله لا حكم لها ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وليس ذلك من التبديل المنهي عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمصلح المتحري للصواب والقسمة، حسبما كان ينبغي للموصي أن يوصي، وفائدة ذكر الغفران والرحمة: التشجيع على الإصلاح لئلا يترك خوفاً من الخطأ، ومعنى الخوف من الجنف أوالإثم: الخوف مما يترتب عليه من الفساد والشقاق، وكون التركة تؤخذ على غير الحق إن تركت كما أوصى.

﴿١٨٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ فرض، والصيام: الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الفجر إلى الليل بنية ذلك، وقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ﴾ تشبيه في أنه كتب، وذلك ترغيب فيه أو تسهيل له، والذين من قبلنا يحتمل أنهم النصارى وحدهم، أو هم وغيرهم وهو الأقرب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فهو من أسباب التقوى؛ لأنه تمرين للنفس على ترك ما تشتهي وتعويد لها، والخير كله يسهل بمصيره عادة وفي كلام أمير المؤمنين علي × : ((عوّد نفسك السماح، فإن الخير عادة)).

﴿١٨٤﴾ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ قال في (الكشاف): ((وانتصاب أياماً بالصيام كقولك: نويت الخروج يوم الجمعة)) اهـ.

وقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ تقليل لمدة الصيام، وفيه فوائد:

الأولى: أن الصوم للأيام لا لليالي.

الثانية: أن يوم الصوم لا يتبعض، بل يصام كله، وما وقع في الحساب من تبعيض يوم الثلاثين يجعل بعضه من شهر رمضان وبعضه من شوال لا حكم له فيُصام اليوم كله، ولا التفات إلى الحساب.

الثالثة: أن الواجب أيام، من حيث هي أيام، وعلى هذا فهو واجبات متعددة، ولا ينافي ذلك إسناد الوجوب إلى الشهر في الآية الثانية.

ومن فوائد ذلك: وجوب اليوم واليومين على من له عذر كالهمّ الذي يعجز عن صيام الشهر ويستطيع اليوم الواحد أو اليومين مثلاً، فيصوم ما يستطيع بلا ضرر عليه، ويفطر ما يخاف منه الضرر.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تجزيه، وهذا يدل على أنها معينة بالشهر مع تعيينها بالعدد، ويدل على أنه يجزيه عن ما أفطر من هذه الأيام عددها من أيام أخر، وظاهره صحة الصيام مع المرض والسفر إن صام، لأن ذكر ما يجزي لم يرفع إيجابها، وإنما صار ذلك واجباً مخيراً في حق المريض والمسافر.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ مع المرض والسفر إذا أفطروا ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وفي قراءة: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وطعام المسكين لليوم الواحد، فوجبت عليهم الفدية؛ لأنهم أفطروا وهم يطيقون الصيام لعدم شدة المرض أو صعوبة السفر.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ في إطعام المساكين، وهذا ترغيب في الزيادة من الإطعام على الواجب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ لما في الإنفاق من الفضل، والفائدة لنصرة الإسلام بإطعام من حول رسول الله ص، ثم لغيرهم.

هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الإطعام؛ لأن الصيام أداء واجب والإطعام تبع للرخصة ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون، علمتم أنه خير لكم.

﴿١٨٥﴾ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ الراجح: أن ﴿شَهْرُ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وأن هذا تمهيد لتعيينه للصوم لفضله على غيره من الشهور، ولشكر نعمة إنزال القرآن فيه بصومه، ومعنى إنزال القرآن فيه في الليلة المباركة ليلة القدر أن ابتداءه وأوله كان في شهر رمضان في ليلة القدر.

ولعل الوجه في هذا أن المنزل هو القرآن، وما لحق من بعد ذلك زيادة فيه كأنه شيء واحد ينمو، كما تقول: ولد رسول الله ص عام الفيل، وهو حين ولد أصغر منه حين كبر بكثير، أو أن القرآن اسم جنس يصدق على السورة، والسورتين، والأكثر والكل، قال: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس:٦١].

وقوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لعله بمعنى هدى للناس يعلمون به صدق الرسول ص ويتبع ذلك اهتداؤهم بما في القرآن وما جاء به الرسول، وإيمانهم بما يدل عليه القرآن والسنة.

وقوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ﴾ بمعنى أنه آيات بينات ودلائل واضحات من الهدى من بيان الصراط المستقيم ﴿وَٱلْفُرْقَانِ﴾ بين الحق والباطل، فهذه نعمة عظيمة وفضيلة شهر رمضان على غيره من الشهور.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (من شهد) من حضر، يقال: فلان شاهد، بمعنى: حاضر في البلد، والمعنى: من كان في بلده في هذا الشهر فليصمه.

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تجزيه، وظاهرها: أن المريض إذا صام أجزاه، وإذا أفطر وقضى أجزاه، وأما المسافر فلم يتناوله هذا الأمر، وقد احتج به من يقول: لا يجزيه صيامه في السفر؛ لأنه لم يشرع له إلاَّ القضاء، ولا نسلم هذا لأنه وإن لم تدل هذه الآية على شرعيته له فقد دلت عليها الأولى، وعدم الدلالة هنا ليست دلالة على عدم شرعيته له.

فإن *قيل*: إن التقدير فعليه عدة من أيام أخر، وهذا يدل على أنه لا يجزيه الصيام في شهر رمضان؟

قلنا: إن المفهوم من الآية هو الترخيص لمشقة الصيام في السفر والمرض وتقدير: فعليه عدة لا يفيده، إنما يفيد التكليف بعدة من أيام أخر، وإذا فسرنا العدة بعدة أيام السفر والمرض كان ذلك إضافة تكليف إلى تكليف؛ لأنه لا يفيد الترخيص في الإفطار ولا إيجابه.

فظهر: أن تقديركم لا يفيد المقصود، أما تقديرنا يجزيه فيفيده وهو صالح في سائر المواضع المماثلة لهذا من القرآن مثلاً في كفارة اليمين، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، أي يجزيه، وفي (كفارة الظهار) كذلك، وفي (الحج): ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ﴾ أي تجزيه عن ترك الحلق، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ أي يجزون، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ أي تجزي عن الكتاب،

قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ

فالتقدير المطرد الذي يرشد إليه السياق هو الظاهر، وخلافه دعوى بلا دليل من حيث تضمُّنه الزيادة على ما يرشد إليه السياق ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ ولذلك رخص للمريض والمسافر؛ لأنه يريد التسهيل والتخفيف، ولا يريد التشديد.

﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ فجمع لكم بين النعمتين: التيسير بتأخير الصوم عن حالة المرض والسفر، وإبدال ما فات، لئلا يفوتكم ثواب إكمال العدة، وفائدة الصوم، وليتم الابتلاء بالعدة كلها ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ شكراً ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ لأنه هداكم للدين المؤدي إلى السعادة الدائمة بهذا القرآن الذي أنزله في هذا الشهر المبارك وتتلونه فيه وتصومون وتصلون وتدعون وتقربون فيه بأنواع القرب العديدة.

﴿وَ﴾ شرع لكم طريق السعادة والكرامة والسلامة ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة العظمى، وقد قدمت في تفسير (سورة الفاتحة) الاستدلال بها على أن نعمة الهدى أعظم النعم.

﴿١٨٦﴾ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ لينالوا مني حاجاتهم، وصرف مهماتهم، وبأي وسيلة يتوسلون إلى ذلك، ولما كان تهيئة الوسيلة إليه راجعة إلى كرمه كان السؤال عنها سؤالاً عنه؛ لأنها لا تكون إلاَّ منه وكونها منه راجع إلى كرمه ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ليس بعيداً كما يتصور الجاهلون، ويظنون أن الوسائط أقرب منه، بل هو قريب من عبده فيمكنه طلب حاجته منه بأيسر ما يكون.

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي حين دعاني، وذلك يدل على سرعة الإجابة، وفي كلام أمير المؤمنين × في وصيته لابنه الحسن × : ((واعلم.. أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذِن لك في الدعاء وتكفَّل لك بالإجابة، وأمرَك أن تسأله ليعطيَك، وتسترحمَه ليرحمَك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبه عنك، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه..)).

إلى قوله × : ((فإذا ناديته سمع نداك، وإذا ناجيته علم نجواك، فأفضَيتَ إليه بحاجتك وأبثثته ذات نفسك، وشكوتَ إليه همومك، واستكشفته كروبك، واستعنته على أمورك، وسألته من خزائن رحمته ما لا يقدر على إعطائِه غيرُه، من زيادة الأعمار، وصحة الأبدان، وسعة الأرزاق، ثم جعل في يديك مفاتيح خزائنه بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته واستمطرت شآبيب رحمته)) انتهى المراد.

نقلته لأنه كالتفسير للآية، ولما فيه من التنبيه على كرم الله وعمومه لعباده، وأنه غير مقصور على من يتوسل بهم الناس، وأن استبعاد الإجابة مخالف لما دل عليه بقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ حيث عمّهم كلهم، ولم يخص أهل الفضل منهم ليدعوه كلهم الفاضل والمفضول والمتقي والمذنب حتى يكونوا كلهم عابدين له بالدعاء متعرضين لفضله لا لفضل الوسائط، شاكرين له متى أجابهم، لا لمن يتوسلون به مستدلين بذلك على عموم كرمه لعباده، وسعة رحمته لهم في هذه الدنيا.

ولينظر العاقل لو كان له بنون يريد أن يحسن إليهم ويعرّفهم رحمته لهم ورغبته في الإحسان إليهم؛ لأنه أبوهم وهم بنوه كلهم، فكان بعضهم إذا احتاج حاجة طلب أباه بلا واسطة فقضاها له فشكره على إنعامه عليه،

وكان بعضهم إذا احتاج حاجة توسط في طلبها بواسطة من خواصّ أبيه، فإذا قضاها له أبوه شكر الواسطة؛ لأنها قضيت له حاجته بسببه غافلاً عن شكر أبيه الذي هو قضى حاجته، وكان يقضيها له من غير الواسطة، فلينظر العاقل أيّ الفريقين أوفق لغرض أبيه.

فإذا نظرنا إلى كرم الله وأنه أكرم وأرحم من الأب بولده، فلماذا نلجأ إلى الوسائط وقد دعانا إلى أن ندعوه وبيّن أنه قريب لا نحتاج إلى واسطة يبلغه ولا حاجب بيننا وبينه، وهو يريد سبحانه أن ندعوه ولا ندعو غيره ونشكره على الإجابة ونعرف فضله ورحمته لنا وكرمه بما نجد من إجابته لدعائنا وقضائه لحوائجنا دون أن يحوجنا إلى واسطة ينعم علينا لأجله لا لأجلنا كأن فضله ورحمته وكرمه مقصور عليه ليس لنا منه نصيب.

إذا عرفت هذا عرفت أن التوسل بالوسائل من الناس لم يظهر أنه مشروع، وما ورد منه مخصوص بمحله، فما روي عن النبي ص في توسل الأعمى به كان مقروناً بأمر الأعمى أن يدعو ربه وكان في التوسل به إرهاص لمعجزة؛ لأنه بالتوسل بالنبي يتبين أن إرجاع الله تعالى لبصره كان من أجل توسله بالنبي ص فكانت فائدة يحصل بها الإيمان بالله ورسوله أو يزداد؛ لوضوح الدلالة في هذه القصة على أن رجوع بصَره بسبب توسله برسول الله ص.

وكذلك ما روي في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ إن الكلمات توسل آدم بمحمد وآل محمد أن يغفر الله له أو أن يتوب عليه، فهذه الرواية إن صحت مقصورة على آدم، وفائدتها: أن يؤمن آدم بمحمد ص وبفضل آله، ويكون ذلك سبباً لزيادة إيمان من صحت له الرواية إن صحَّت، فليس فيها دلالة على شرعية التوسل بهم لمن لا يكون في توسله هذه الفائدة كما قلنا في (قصة الأعمى).

فإن قال قائل: فهل تقول: إن التوسل كله شرك كما تقول الوهابية؟!

قلت: معاذ الله أن أقول ذلك.

فإن قال قائل: فإذا لم يكن مشروعاً، فهل هو ممنوع؟

قلت: إذا لم يكن مشروعاً فلا فائدة له؛ لأن المتوسَّل به للحاجة ليس وسيلة لها في الواقع؛ لأنه لم يصح أن الله تعالى يقضيها من أجل التوسل به لعدم الدليل على ذلك، اللهم إلاَّ في دعاء الغير الذي جاء الدليل على إجابته كدعاء الوالد لولده ودعاء الإمام العادل والمؤمن لأخيه بظهر الغيب، فهذا لا نزاع فيه لورود الدليل فيه، فقد دل الدليل على أن الحاجة تقضى بذلك، فلماذا نتعدى ما ثبت فيه الدليل إلى غيره.

فإن قيل: قد توسل عمر بالعباس، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك وإنا نتوسل إليك بعم نبيك لتسقينا؟

قلت: لعل العباس كان يدعو، فصح التوسل به لأجل دعائه مع أنه لا حجّة في فعل عمر، إنما نحتج به على أتباعه الوهابية الذين يقولون: إن التوسل شرك، وغاية ما فيه أنه مباح من حيث هو توسل، وفيه توسل بقربى رسول الله، فهو إقرار بفضلها، ولكن لا معنى للتوسل بالأشخاص الذين لا يدعون؛ لأنهم ليسوا عملنا وفضلهم لهم ليس لنا منه شيء؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:١٨].

فإذا قلنا: اللهم اقض حاجتنا بجاه فلان، فلا معنى له؛ لأن جاه الفاضل لنفسه ليس لغيره، اللهم إلاَّ الذرية فقد دل الدليل على أن فضل الفاضل يكون وسيلة لذريته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١] وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور:٢١] وقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢] دلالة على أن ذلك لا ينافي كون عمل الأب لنفسه، فليس ينقص من أجره شيء لولده، وإنما ذلك تفضل ورحمة، ولعل السبب في الذرية أن الأب يكون راغباً في أن يحسن إليهم من أجله.

وقد فهم هذا أبو بكر لما قال: ((ارقبوا محمداً في أهل بيته)) لأنه طبيعي، والقرآن يقرّه، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

وقال تعالى حاكياً: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ وقال تعالى حاكياً: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ..﴾ الآية، وقال تعالى حاكياً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧].

فإن *قيل*: فإن الله تعالى قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] فدل على أن من المشروع اتخاذ الوسيلة على الإطلاق؟!

فالجواب: ليس هذا معنى الآية؛ لأنه لم يقل: واتخذوا الوسيلة إليه، ومن الواضح الفرق بين الكلمتين، فإن قوله: ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] ليس معناه: إلاَّ أطلبوا الوسيلة إليه، أي أطلبوا ما هو في الواقع وسيلة إليه، أي وسيلة للتقرب إليه، وهو العمل الصالح والدعاء والإيمان، وبالجملة كل ما هو قربة إلى الله.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧] أي يدعون مبتغين إلى ربهم الوسيلة بالدعاء وغيره مما يقربهم إلى ربهم، ولو كان معنى ابتغوا إليه الوسيلة ما شئتم لدخل فيه المشركون القائلون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ويقولون: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

والحاصل: أنه لا وسيلة إلاَّ ما جعله الله وسيلة لا ما اتخذناه نحن دون الله سبحانه وتعالى، فلا دلالة في قوله تعالى: ﴿ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة:٣٥] على جواز التوسل على الإطلاق.

هذا وقد دل قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ على سرعة الإجابة، فما معنى ذلك؟

والجواب: أنه يعجل له حيث الحكمة في التعجيل، فأما إذا اقتضت خلافه؛ وتأجيله أو تبديله فالإجابة لعلها الحكم به له، أي بالمؤجل أو البدل أو يصرف عنه بدلاً من المطلوب ما صرْفه أهم، وقد لا يعطى مطلوبه؛ لأنه ضر عليه كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء:١١].

وفي كلام أمير المؤمنين علي × في (وصيته لابنه الحسن): ((فلا يقنطنّك إبطاء إجابته، فإن العطية على قدر النيّة، وربما أخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبته؛ فيه هلاك دينك لو أوتيته)) انتهى المراد.

قلت: وسياق الآية يفهم منه هذا الاستثناء؛ لأن إجابة الدعاء الذي تكون إجابته أضر على صاحبه إلاَّ أنه لا يعلم، ليست مراده في الآية؛ لأن المقصود الدلالة على رحمة الله بعباده وإنعامه عليهم بقوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾.

قلت: سرعة الإجابة فيما أجّل تكون بأن يكتب له ذلك وتكون كالموعود به من حين طلبه، كما روي في دعاء المريض رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي، عن رسول الله ص وفيه في أثناء

لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

الحديث: ((فإذا قال: يا رب، قال: {لبيك عبدي، لا تدعوني بشيء إلاَّ أستجبت لك على إحدى ثلاث خصال: إما أن أعجل لك ما تسألني، وإما أن أدّخر لك..})) الحديث.

فالحاصل: أن الإجابة أن يكون ما هو بمنزلة الوعد له بما طلب أو بما هو خير له، وهذا إذا لم يطلب خلاف القضاء المحتوم أو خلاف الحكمة.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ فاستجابتهم لدعوة الله وإيمانهم به توسل إلى رشادهم، وشكرٌ لربهم على نعمة الحث على الدعاء والوعد بالإجابة، أو نعمة الإجابة.

والرشد: الاهتداء للخير، ويستعمل بمعنى الخير نفسه، كما في قول الله تعالى: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن:١٠] وهو في الأول أظهر، وفي المقابلة في الآية بين إجابة الله لعباده واستجابتهم له إرشاد إلى الشكر، ودلالة على كرم الله ورحمته؛ لأنه يستجيب لهم وهو غني عنهم وأكثرهم لا يستجيبون له وهو منعم عليهم وهم محتاجون إليه، وقد تخللت هذه الآية آيات صيام شهر رمضان، فوضعها هنا يشير إلى اغتنام الدعاء في الشهر الكريم كما قال في (الحج): ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾.

يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿١٨٧﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ يكون الكلام الذي يستحى منه لغير الزوجين، وهو كناية عن الجماع؛ لأنه من مقدماته، ولا يجب أن يجعل مجازاً؛ لأن من أدب الجماع تقديم بعض مقدماته.

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فهن بتحصينكم عن المعصية ستر لكم وأنتم ستر لهن بما يحصل لهن من الثبات على العفة باستغنائهن بالأزواج، ففي إباحة الرفث ليلة الصيام هذه المصلحة؛ لأنه يطول على الشباب الصبر إلى انسلاخ الشهر، ولذلك وقعت المخالفة ممن لم يصبر ليلة الصيام.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بإتيانهن ليلة الصيام حين كان محظوراً، وسمِّي خيانة؛ لأن الصوم أمانة عند المكلف، فالإفطار خيانة لله، ونسب الإختيان إلى أنفسهم لأن ضره عليهم ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن:٦] والقصة ذكرها الإمام الهادي × في (الأحكام) [ج١ ص٢٣١] وذكر فيها: ((أن الصيام كان لشهر رمضان، من أحكامه: أن لا ينكحوا النساء ليلاً ولا نهاراً حتى ينسلخ شهر رمضان، وقال فيها: فإن ناموا لم يجز لهم أكل ولا شرب حتى يكون من الغد عند دخول الليل)) انتهى.

قلت: ولعل ذلك كان معنى قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فكان الصيام النهار كله وبعض الليل من الأكل والشرب، والليل كله من الجماع، فكان الصيام الشهر كله ليلاً ونهاراً إلاَّ جزءاً من الليل للأكل والشرب فقط، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ تخصيص لقوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ أي نسخ لصيام بعض الليل.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بنسخ تحريم الجماع في الليل، وبالهداية إلى التوبة ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ لتوبتكم من المعصية ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ في الليل كله، أي فالآن أبيح لكم ذلك، فالظرف للأمر، فهي من أدلة حدوث القرآن، والمباشرة كناية عن الجماع ﴿وَٱبْتَغُواْ﴾ بالجماع ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ من الولد، بإتيانهن في محل التسبيب للولد وترك العزل، وهو يفيد: أن المشروع طلب تكثير المسلمين، كما في الحديث: ((تناكحوا تكاثروا)).

وذلك لأن في كثرة المسلمين قوّة لهم إذا اتحدوا، وهم وإن كانوا في عصر من العصور غير متَّحدين فإنهم إذا تكالب عليهم أعداؤهم قتلاً ونهباً وإهانة لا بد أن يضطر بعضهم إلى التوحد، فإذا كانوا كثيراً حصلت القوة، ولا يبعد أن تكون بينهم وبين الكفار حروب طاحنة يُستعمل فيها سلاح الإبادة، فإذا كان النسل كثيراً كانوا خلفاً من الماضين وقوة باقية للإسلام.

أما إذا كان النسل محدداً فهو معرض للنقص بالأمراض والحوادث مع أن من الناس من لم يتزوج أو زوجته عاقر أو يموت أولادها بطناً بعد بطن، فإذا أجحفت الحرب بعدد المسلمين كان البدل قليلاً، فإن استمروا على تحديد النسل قرناً بعد قرن فالخطر أعظم، وإن بدا لهم أن هذا الرأي غلط ويرفضوا تحديد النسل حين شاهدوا النقص والحاجة إلى الرجال كان تحصيل جيل بعد ذلك بطيئاً يحتاج إلى انتظار نحو عشرين سنة حتى يأتي الجيل الجديد، فربما غلبهم العدو قبل ذلك وحدد نسلهم اضطراراً، وما أرى تحديده فراراً من مؤنتهم إلاَّ غلطاً؛ لأن الله هو الرزاق، وإن اتسع العمل بسبب كثرتهم فسيكثر العاملون ويكثر استثمار خيرات الأرض بكثرتهم، وأرض الله واسعة لن تضيق بأهلها، والموت ينقصهم والحروب التي تأتي حيناً بعد حين تأخذ منهم ضحايا قد يكون بها عزة الباقين.

وعلى الجملة: فالقرآن والسنة هما الحق، ومخالفتهما خلاف الصواب؛ لأن ﴿اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة:٧٨] وهو يريد بالمؤمنين اليسر ولا يريد بهم العسر، فلو كان تكثير النسل يؤدي إلى العسر لكان أعلم بذلك، ولَما حثّ عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ دليل على أن الصيام إنما هو من هذا الوقت من الفجر، وفي (أمالي أحمد بن عيسى) في (كتاب الصيام) [ج١ ص٦١٥] من (رأب الصدع): ((حدثنا محمد، قال: أخبرنا جعفر، عن قاسم بن إبراهيم، قال: آخر وقت السحور: أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، والخيط الأبيض: هو الفجر المعترض، وإنما قيل الخيط لاختياطه [وهو اعتراضه])) انتهى.

ومعنى ﴿يَتَبَيَّنَ﴾ أن يكون واضحاً لمن يرى، ومعنى ﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ﴾ يتميز الخيط الأبيض بوضوحه من الخيط الأسود، أي من ظلام الليل الذي فوق الفجر المعترض الممتد من جهة الشمال إلى جهة الجنوب، والعكس.

فهناك خيط أبيض ممتد يميناً وشمالاً وخيط أسود ممتد فوق الخيط الأبيض بامتداد الخيط الأبيض يتميز الأبيض من الأسود بتضادهما، وعلى هذا فليس المراد بهذا الخيط الضوء القوي الذي يفصل بينه وبين سواد الليل نور ضعيف، بل هو النور الضعيف المجاور لسواد الليل يتبين لمن يراه ويتميز له بمضادته لسواد الليل.

ومعنى تبيُّنه: أن يراه الناظر إليه بغير تأمل، ويتميز له بغير تكلف، ويدخل في هذا من تبين له لكنه لم يتحققه لضعف بصره أو وجود غبار في الأفق أو غير ذلك من الموانع.

فأما ضوء القمر فيحتمل اعتباره مانعاً كسائر الموانع، ويحتمل اعتباره منقصاً لسواد الليل المعين على رؤية الفجر ومعارضاً بنوره لنور الفجر الضعيف فهو باعتبار نقصه لسواد الليل ليس مانعاً وباعتبار معارضته لضوء الفجر قبل قوته يعتبر مانعاً.

فالأحوط مراعاة الأمرين وأن لا يحكم بقياسه على حال عدم القمر بواسطة الساعة المعروفة التي تبين الساعات والدقائق بل يؤخر قليلاً أو ينتظر وضوحه بالتأمل بحيث يعرف أنه لولا القمر لكان واضحاً بدون تأمل والمراد بوضوحه هنا أن يكون معلوماً بالرؤية متيقناً في حال وجود القمر على أن في هذه الطريقة نظراً؛ لأن القمر آية الليل وهي أصيلة فيه، فليس لها حكم الموانع العارضة.

فالأحوط: انتظار تبين الفجر بدون تأمل، وهذا للصلاة، فأما لترك المفطرات فالأحوط العمل بالطريقة الماضية لاحتمال أن عدم التبين سببه معارضة نور الفجر بنور القمر لا تخفيف سواد الليل، ومن الاحتياط للصيام العمل بالساعة في الفجر لاحتمال أن ضوء القمر أخفى ضوء الفجر بالغلبة عليه، وهذا إذا لم تكن الأيام في ازدياد الطول، فأما معه فإن الفجر يكون في اليوم الثاني أسرع منه في اليوم الأول فلا يتكل على الساعة.

﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾ الصيام إلى الليل: الصيام إلى حضور الظلمة، وكون الصائم مظلماً أي داخلاً في الظلمة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس:٣٧] وعلى هذا فهي ناسخة لإجزاء الصيام إلى سقوط قرص الشمس كما نسخت ابتداء الصيام نسخت انتهاءه.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ في عطف هذه على حكم الصيام في آيته إشعار بأن شهر الصوم مظنة الاعتكاف، ودلالة على تخصيص إباحة النساء ليلة الصيام بحال عدم الاعتكاف.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾ دليل على جواز الاعتكاف في أي مسجد، وفي كون النهي عن المباشرة في حال الاعتكاف، المراد به لا يباشرها في البيت مثلاً دليل على أن الاعتكاف يكون لبثاً في المسجد مدة محدودة بالنية أو النذر حتى يتصور أن يخرج ويجامع في غير المسجد مع اعتباره معتكفاً في حال الجماع.

وإنما قلت: إن النهي هنا متناول للجماع في غير المسجد لأن الجماع في المسجد لو كان هو المقصود لقال: (ولا تباشروهن في المساجد)؛ لأن الجماع في المسجد لا يختص تحريمه بحالة الاعتكاف؛ لأنه يؤدي إلى الجنابة والكون في المسجد في حال الجنابة اختياراً وعمداً، وقد روي عن النبي ص أنه قال: ((لا أحل المسجد لجنب ولا حائض)) والروايات في هذا كثيرة في إخراج رسول الله ص أصحابه من المسجد وسد أبوابهم الشارعة إلى المسجد إلاَّ باب علي × .

وقال الشرفي في (المصابيح) في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِ﴾: ((نزلت في ناس من الصحابة كانوا يعتكفون في المساجد، فإذا عرضت لأحدهم حاجة إلى أهله خرج وجامعها فنهوا)) انتهى.

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يمكن أن الإشارة إلى حدود الصوم وإباحة الأكل والشرب والجماع وحد إباحة الجماع، ويمكن أن الإشارة موجهة إلى ما جاء في آيات الصيام وما صحبها، وهو أظهر؛ لأن هذه خاتمة الموضوع كله؛

ولأنها وقعت مخالفة من الماضين قبل الإسلام في حد الصيام حيث جعلوه في وقت غير الذي أمر الله به.

﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ تأكيد للنهي عن مخالفة تحديد الله سبحانه بإيجاب التزام العمل به والوقوف عنده وتحذير من التهاون به، وله صور منها: الإفطار قبل تحقق الليل، ومنها الأكل ونحوه في السحر بدون حذر من الأكل أو نحوه بعد طلوع الفجر، وذلك فيمن كان في منزل أو خلف جبل أو في حال الغمام أو نحو ذلك، ومنها: ملاعبة الزوجة في النهار، ومنها: استعمال ما هو مظنة النزول من الحلق مع الريق كالبردقان، فهذه كلها قرب للحد مظنة لتعديه.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ في هذه الجملة ـ وقد تكررت ـ ترغيب في تعلم معاني القرآن ودفع لكيد الشيطان الذي يوسوس للإنسان أنه صعب عليه أو متعذر، فيشتغل بغيره ويتركه، وفيه ردّ على من يجعل فهمه خاصاً بالإمام أو بالشيخ؛ لأن قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ﴾ دليل على بطلان قولهم لأن الناس عام شامل لكل الناس، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي باتباع آياته وامتثال أمره ونهيه.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ (١٨٨) وهذه عامة لكل وسيلة لأخذ مال أحد الذين آمنوا مخالفة للحق كالرشوة ومهر البغي وكسب المغنّية وحلوان الكاهن وكل معاملة محرمة، ومن الباطل ما جعل سبباً بواسطة التغرير أو الكذب أو الإكراه، وليس سبباً شرعياً يحل به المال؛ لأنه يعمه اسم البطلان؛ لأن ما كان بالكذب أو التغرير ليس سبباً، وإنما ظن المعطي أنه سبب، وهو في الواقع باطل وغير مرضي عنده، لو انكشفت له الحقيقة.

وأما الإكراه فهو ظلم ولا تصح المعاملة به لفقدان الرضى من المكره، فما ترتب عليه من بيع أو غيره فهو باطل داخل في عموم الآية، ومن الباطل معاشات الظلمة التي تعطى لمن يعينهم أو يكف عن معاونة أهل الحق أو عن القيام بالقسط، فإعطائهم إياها باطل فهم يأكلونها بالباطل.

﴿وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أصل الإدلاء: يكون إبداء الحجة، كإبراز شهادة عادلة، واستعمل فيما يسلم من المال إلى الحكام توصلاً إلى أكل مال الغير، سواء كان الغرض أن يحكم الحاكم للراشي، أو أن يترك الحكم لصاحب الحق بحيث يتمكن الطامع من أكل ماله، فالآية الكريمة شاملة للأمرين.

﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير ﴿فَرِيقًا﴾ ((قطعة)) وهو مناسب لما في (مفردات الراغب) من اشتقاق الفريق من الفَرْق لفصله عن الفريق الآخر، والأرجح: أنه عبارة عن جملة من المال مأخوذة من مال المسلم؛ لأن الرشوة لا تدفع إلى الحاكم لأخذ التافه الحقير الذي هو أقل من الرشوة، فالفريق عبارة عن مقدار مرغوب فيه ولو شيئاً واحداً في معنى جملة من المال لغلاء ثمنه، ولأنه جملة مؤلفة من أبعاضه الثمينة، فالنهي عنه لأنه مظنة الوقوع بسبب الرغبة فيه.

وقوله: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ أي بالجعالة التي هي إثم، وهو يعم الرشوة والهدية لهذا الغرض، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون أن الله حرم ذلك فتجرؤون على معصيته، وفي هذه الآية ـ وغيرها من القرآن كثير ـ دلالة على بطلان الإشتراكية بمعنى أن الأموال كلها مشتركة لا يختص فرد بشيء منها، ودلالة على أن أكل أموال الناس بدعوى الإشتراكية محرم؛ لأنه أكل لها بالباطل.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

﴿١٨٩﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ الأهلّة: جمع هلال، وهو ما يبدو من القمر في أول الشهر، ذكر الراغب في (مفرداته): ((أنه يسمى هلالاً إذا كان في الليلة الأولى من الشهر والثانية)) اهـ.

والسؤال عن شأنه لأنه واضح أنه بعض القمر، كأنهم قالوا: لماذا يبدو ثم يكبر ويصير قمراً، ثم يصغر حتى يعود كالعرجون القديم، ثم يبدو هلالاً في أول الشهر وهكذا مستمراً، ولكون الرسول ص بعث والقرآن نزل لبيان المعارف الدينية كان الجواب ببيان ما فيه من حكمة ونعمة، لا بالجواب المطابق أن سبب ذلك ما يذكره علماء الفلك؛ لأن المهم التعريف بحكمة الله ونعمته وإن كان في ذلك الجواب آية لكنهم أحوج إلى بيان النعمة والحكمة مع أن الآيات المشاهدة تكفيهم.

﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ ﴿مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ ينتفعون بها في معاملاتهم وأعمالهم مثل أجل الدين وأجل عمل الأجير وأجل العطلة وغير ذلك، وينتفعون بها لمعرفة أشهر ﴿ٱلْحَجِّ﴾ ليسافروا للحج ويفعلوه في وقته بواسطة عدد الشهور من محرم إلى شهر الحجة.

﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ لأن الله لم يشرع ذلك، فليس قربة كما كانت الجاهلية تظن ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي عمل من اتقى ربه فأطاعه واجتنب معاصيه ﴿وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ تركاً للبدعة، ورفضاً لعمل الجاهلية ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لأن الفلاح لا سبيل إليه إلاَّ التقوى التي تنجي من النار وتبلغ أهلها الجنة.

يُقَـٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ

﴿١٩٠﴾ ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ﴾ **لأنهم يقاتلونكم محاربة لدين الله وصدّاً عن سبيل الله، فقاتلوهم حماية لدين الله، وقصداً لإعلاء كلمة الله، وفيها دلالة على وجوب نية ذلك في القتال لا مجرد الدفاع، فإنه لا يكفي وإن كان حسناً، بل واجباً، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾** [آل عمران:١٦٧] **لأن المقصود الاستعانة بهم على دفع العدو، وقد عرف منهم أنهم لا يريدون القتال في سبيل الله، فكأنه قيل: قاتلوا في سبيل الله، فإن لم تريدوا ذلك فادفعوا العدو، فليس المراد التخيير في التكليف الشرعي، وإنما المراد قاتلوا على أية حال، ولو لم يكن إلاَّ دفعاً للعدو، وهذا واضح.**

والحاصل: أن قتال العدوّ لدفعه واجب، ونية الدفع لحماية الإسلام وإعلاء كلمة الله واجب، مع ذلك الواجب بدليل هذه الآية وغيرها، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ﴾ أي الذين قد اعتادوا قتالكم، فليس الأمر هنا مخصوصاً بحالة الدفاع، بل هو كقوله تعالى: **﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾** [التوبة:١٣] وعلى هذا فالواجب قتالهم كما هو مفصل في (سورة التوبة).

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ بالقتال الذي نهيتم عنه كالقتال في الحرم بغير وجه، والقتال في الأشهر الحرم، وقتال من بينكم وبينهم ميثاق قبل النبذ، وقتال من لم يقاتلوكم ولم يظاهروا عليكم عدواً، ولم يطعنوا في الدين ولم يفتنوا مسلماً، وقتل النساء والصبيان والشيوخ العاجزين.

ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهذا زجر عظيم؛ لأن أهل السياسة يطمعون في الهجوم على العدوّ حال غفلته وعدم استعداده ولا يتقيدون بنهي الله، فبيّن الله أنه لا يحبهم وأنه لا يرضى عملهم، فهم آثمون في ذلك.

﴿١٩١﴾ ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ أي الذين أمر الله بقتالهم ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ حيث ظفرتم بهم ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ من البلد الذي كنتم فيه وهم فيه، فأخرجوكم منه بغير حق، إلاَّ أن تقولوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج:٤٠] فحيث قد أمكنكم إخراجهم وتطهير البلاد من رجسهم فأخرجوهم.

وفيها دلالة على أن الله أمر رسوله ص بقتال أهل مكة وإخراجهم، وقد روي في مكة خاصة أن الله حرمها ولم يأذن في القتال فيها لأحد إلاَّ لرسول الله ص ساعة من نهار، وهذا معنى الحديث، وهو في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) فأما غيره فلا يقاتل في الحرم إلاَّ دفاعاً وقصاصاً.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ فقد كان الكفار بمكة يفتنون من أسلم ويعذبونه ليرجع عن الإسلام إلى الكفر ولم يكن الكفار يرعون حرمة الحرم ويتركون الفتنة فيه رعاية لحرمته، فليس لهم أن ينكروا عليكم قتلهم فيه؛ لأن فتنتهم لمن أسلم أشد من القتل، فهم يستحقون القتل جزاءً، ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾.

﴿وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ أي في الحرم، و﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ الكعبة، وعنده حرمه، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:٥٧] ﴿فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ وهم إذا قاتلوكم في الحرم هم المسؤولون عن هتك حرمة الحرم ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أن يقتلوا.

فإن قيل: ظاهر الآية هذه تحريم قتالهم في الحرم إذا لم يبدأوا بالقتال فيه، وظاهر الآية التي قبلها جواز ذلك؟

فالجواب: أن الآية الأولى خاصة برسول الله ص وبالمهاجرين معه، بدليل قوله: ﴿مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ فقد أباحها الله له كما في الحديث، والآية الثانية عامة لهم ولمن بعدهم، فالأصل تحريم القتال في الحرم إلاَّ دفاعاً أو قصاصاً، وتخصيص رسول الله ص ومن معه من المهاجرين غير معارض لهذا الأصل؛ لأن المشركين قد بدأوهم حين قتلوا بعض من أسلم وفتنوا بعضاً وهموا بقتل الرسول ص، فأخرجوه ومن معه من مكة.

وجواب آخر ـ وهو أظهر ـ : أن رسول الله ص أذن له في قتالهم إلاَّ في الحرم، فلا يبدأهم بقتال، وله أن يدخل الحرم بقوته وجند الله معه كافّين عن القتال حتى يبدأهم الكفار بالقتال في الحرم، فالإذن الأول مطلق مقيد بهذه الآية، فإذا بدأوهم بالقتال في الحرم حل قتالهم فيه وأخرجوا منه.

فكأنه قيل: أذن لكم في قتالهم وإخراجهم من مكة بأن تدخلوها ولا تبدأوهم بالقتال، فإذا بدأوكم وهم لا بدّ أن يبدأوكم فاقتلوهم وأخرجوهم، وهذا لتكونوا قد رعيتم حرمة الحرم وقتلتم الذين يقاتلونكم وأخرجتموهم من حيث أخرجوكم.

فإن قيل: فظاهر الآيتين جواز ذلك لمن بعدهم لو وقع لهم مثل ما وقع لهم بأن استولى الكفار على مكة وطردوا أولياءه المتقين منها أن يهجم إمام الحق عليها ويطهرها من الكفار بنفس الطريقة بدلالة الآيتين، وبدلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤] فما الحل مع ورود الحديث المصرح باختصاص رسول الله ص؟!

وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ

قلت: إذا كان إمام شرعي فهو أعلم بالحل، ولعله لا يتفق مثلما وقع في عهده ص، بل يكون مركز دولة الكفر خارج الحرم، أعني موضع الجيش والقوة لضيق مكة بكثرة السكان، فإذا كان كذلك كفى الإمام أن يهجم على مركز القوة، فإذا انتصر عليهم وبطلت دولتهم لم يحتج إلى قتالهم في الحرم فلا إشكال.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ بأن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨] وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة:٥] فالانتهاء انتهاؤهم عن عداوة الإسلام وتوبتهم من محاربته بالدخول فيه كما ذكر في الآية، وهذا لأنهم ما داموا مصرين على محاربة الإسلام، فلم ينتهوا؛ لأن اسم محاربتهم للدين باق عليهم وحكمهم باعتيادهم لقتال المسلمين ثابت عليهم ماداموا مصرين غير تائبين منه، ومجرد تركهم للقتال مع بقاء الإصرار ليس انتهاء فلا يتحقق انتهاؤهم إلاَّ بالتوبة؛ لأن الإصرار في قلوبهم لا يذهب إلاَّ بالتوبة، فإذا تابوا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لمن تاب، فلا مقاصة في القتال في الحرم السابق للتوبة.

﴿١٩٣﴾ ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ فهذه فائدتان لقتالهم مع الأولى في سبيل الله وتحقيق لغاية القتال الذي أمروا به، فالذين يقاتلون المسلمين يقاتلون حتى لا يُفتن مسلم بسبب إسلامه، وحتى لا يكون دين لغير الله.

ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ

والفوائد في قتالهم: أن المؤمن يحصل له أجر الجهاد في سبيل الله، وأجر دفع الفتنة لمن أسلم، وأجر إذهاب الدين لغير الله، ومن الدين لغير الله العمل بالقوانين المخالفة لشريعة الله، واتباع علماء السوء في تغيير الدين، وطاعة ولاة السوء في معصية الله، وأشباه ذلك.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ تابوا عن قتالكم وعن فتنة من أسلم وعن الدين لغير الله كما مر في الأولى ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فحيث قد تابوا فقد خرجوا عن كونهم ظالمين وصار قتالكم لهم عدواناً محرماً، والعدوان على الظالمين الجائزُ قتالُهم في الشهر الحرام إذا اعتدوا على المسلمين فيه.

﴿١٩٤-١٩٥﴾ ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ قصاص للمعتدي ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞ﴾ من حرمة الشهر الحرام وحرمة الحرم ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ بهتك حرمة منها ﴿فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ في البلد الحرام أو في الشهر الحرام، ولا يضركم تسمية عدواناً في لغة العرب؛ لأن الحرام ما حرم الله والحلال ما أحل.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فلا تزيدوا على ما أحل لكم، مثل: هتك حرمتين قصاصاً في هتك حرمة واحدة، وكذلك حافظوا على طاعته في كل أمر من قتالهم كما أمرتم، والالتزام بحدوده في القتال وغيره، واجتناب معاصيه كلها، والتوبة إليه عند المخالفة.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ فقاتلوهم كما أمرتم وارجوا النصر من الله؛ لأنه معكم ما دمتم متقين ولا تخالفوا في شيء من أمره متعمدين فتخرجوا عن التقوى، وعن استحقاق النصر، ويفوتكم كون الله معكم.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في سبيل نصر دين الله، وحماية دين الله، والدفاع عن دين الله، ومنه الإنفاق على أنصار الدين ليثبتوا على نصرهم للدين، أو لتقويتهم على نصر الدين أكثر، وعلى المهاجرين في سبيل الله والمرابطين، وأنصار علماء الدين القائمين في نصر الدين وحراسهم، وعلماء الدين أنفسهم لهذا الغرض، وطلاب علم الدين الذي يتوصلون به إلى الدفاع عن الدين.

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ بترك الإنفاق في سبيل الله حتى يقهركم أعداء الله لعجزكم عن قتالهم بغلبة الفقر المؤدي إلى ترك الجهاد من كثير من الناس، ومن الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة: الاستسلام للعدو مع إمكان الدفاع، ومن الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة التخاذل عن نصر الإسلام، والتفرق المؤدي إلى الضعف عن الدفاع، ونحو هذا من التسبيب الاختياري الذي يكونون فيه عملوا سبب هلاكهم بأيديهم كمن يتسلم للعدوِّ معطياً له يديه ليقبض عليهما.

وليس منه جهاد المستميت كأهل بدر، وزيد بن علي، ومحمد بن عبد الله، وإبراهيم بن عبد الله، الذين لم يكن لهم بدّ من القتال، وكان تركهم للقتال إلقاء باليد إلى التهلكة؛ لأنهم لو تركوا القتال لقتلوا، وكالحسين ومن معه رضوان الله عليهم، وهذا لأن أصل المعنى في الآية: ولا تلقوا أنفسكم إلى التهلكة بأيديكم، فمن خرج عن حالة الاختيار لم يكن أعطى العدو نفسه بيديه؛ لأن المراد باختياره وعمله بيديه كما ذكرت.

وكذلك من قاتل يرجو النصر أو دعا للقتال راجياً لحصول أنصار كثير قد سبقت منهم بيعة فنكثوا فاضطروا إلى القتال كما ذكرت، ولو دخل في الآية كل من قاتل وقتل لتعذر الجهاد وخرجت الشهادة عن كونها إحدى الحسنيين، فلا يدخل فيه من قاتل مجوزاً للسلامة، ولو تجويزاً ضعيفاً، بل هذا شأن الأبطال الذين يقاتلون في سبيل الله لرجائهم إحدى الحسنيين، كأمير المؤمنين علي × في (بدر) و (أحد) حين فر الناس و(حنين) حين فر الناس، وحين رقد في مرقد رسول الله ص وفداه بنفسه، وكالمجاهدين من ذريته الذين اقتدوا به، وأشبهوه في بطولته وضربه، وشروا أنفسهم من الله.

﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا ترغيب في الإحسان، بل أمر به وهو مطلق يصدق على الإحسان بالإنفاق وسائر أنواع الإحسان.

قال الشرفي في (المصابيح): بعد ذكر هذه الآيات السّت: «قال إمامنا المنصور بالله × في أحكام هذه الآيات السّت: تدل على وجوب قتال من قاتل أهل الحق وقتلهم حيثما ثقفوا، وإخراجهم من حيث أخرجوا أهل الحق، وعلى تحريم الاعتداء، وعلى تحريم القتال عند المسجد الحرام حتى يقاتلوا أهل الحق فيه، فمتى فعلوا ذلك وجب قتلهم فيه، وعلى وجوب قتال كل معتد حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وعلى أن الحرمات قصاص، فمن اعتدى على أهل الحق جاز الاعتداء عليه بمثل ما اعتدى، وعلى أن من اعتدى في شهر حرام اعتدي عليه في شهر مثله، وعلى وجوب إلتزام التقوى مع ذلك كله، وعلى وجوب الإنفاق في سبيل الله وهو الجهاد، وعلى تحريم الإلقاء بالأيدي إلى التهلكة بأن يعصوا الله ويتركوا ما أمرهم الله به من هذه الأحكام، أو أن يسلموا أنفسهم إلى أيدي الظالمين فيهلكوهم، وعلى وجوب الإحسان في الأعمال الواجبة، وفي ترك المحرم، وعلى الحث على الحسنات واجبها ومندوبها» انتهى.

لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ لا يبيح المقاصة بالمعصية ولا المعصية المقارنة للقصاص، فأما القتال في الحرم قصاصاً أو في الشهر الحرام قصاصاً فقد دلت الآية على إباحته، فليس قصاصاً بالمعصية، وقد أمر الله بالتقوى في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِي يَاأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ وغيرها، فلم يرخص في معصيته للقصاص، فلا يجوز القصاص بقتل الصبي جزاء لقتل الصبي، ولا بالزنا بالحرمة جزاء للزنا بالحرمة، ولا بأكل طعامه في نهار شهر رمضان جزاءً لأكله طعامك في نهار شهر رمضان، فليس ذلك وأشباهه مقصوداً في الآية، إن الله لا يأمر بالفحشاء.

ومن هنا حرم القصاص في الجراح بما يظن الموت بسببه، بل ينتظر حال المعتدى عليه، فإن مات من الجراح قتل الجارح له؛ لأنه قتله وإن عوفي سُلِّم له أرش الجناية، وكذلك حرم القصاص بأشد من جناية المعتدي، ولذلك حرم القصاص بما هو مظنة الزيادة ككسر العظم بكسر العظم، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ والزيادة اعتداء.

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ هذا فيمن دخل في الحج أو العمرة بالإحرام، فأما الأمر بالحج نفسه فهو في آية أخرى.

﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ عن الإتمام بمرض أو عدو أو غير ذلك ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ يجزي عن الاستمرار فيهما لإتمامهما.

﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ تحللاً من الإحرام لهما ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ ومحله الحرم؛ أو منى في الحج خاصة، والإحصار عن الإتمام قيل: خاص بالإحصار عن الوقوف في الحج والطواف في العمرة.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ ظاهره: الإطلاق، بحيث يتناول من أحصر عن طواف الزيارة وإن كان قد وقف بعرفات؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥ﴾ يصلح في المحصر عن الإتمام وإن كان قد وقف بعرفات إذا لم يكن قد رمى الجمرة وحل له الحلق بالرمي؛ لأنه يحل له الحلق بطواف الزيارة، أي طواف النساء فيكون له الإحلال بالهدي على أن يطوف طواف الزيارة متى استطاع، مع أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ﴾ ليس قيداً في الإحصار، وإنما هو حكم من أحكامه.

ويمكن أن يخص هذا الحكم من لم يكن رمى الجمرة من المحصرين، ولا طاف طواف الزيارة بقرينة أن منع الحلق خاص بمن كان ممنوعاً من الحلق لأجل الإحرام، ويبقى قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ﴾ على عمومه، يتناول من قد رمى الجمرة وحلق ولم يطف طواف الزيارة؛ لأنه محصر عن إتمام الحج.

وما قيل: من أن معناه فإن أردتم التحلل من الإحرام فعليكم ما استيسر من الهدي، فلا نسلم صحته، بل معناه: فإن أحصرتم عن الإتمام للحج أو العمرة ﴿فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِ﴾ يجزيكم لترك الإتمام كما قدمت في نظائره، والمذكور هو الإتمام؛ إتمام الحج والعمرة لا إتمام الإحرام، فلا يصح صرفه إلى إتمام الإحرام، مع أن إتمام الإحرام لا يكون إلاَّ بطواف الزيارة؛

لأن من رمى الجمرة يبقى عليه بعض من الإحرام، وهو تحريم النساء حتى يطوف طواف الزيارة، فيكون حكم الإحصار عاماً لمن بقي عليه شيء من الإحرام، وتحريم الحلق خاصاً بمن لم يكن رمى الجمرة، فالمحصر: الذي قد رمى الجمرة وحلق يفدي للتحلل من بقية الإحرام، هذا ما فهمته أنا من الآية الكريمة.

ولم يذكر الإمام الهادي × في (الأحكام) إلاَّ المحصر عن الوقوف، حيث قال: ((فإن هو تخلص من إحصاره حتى يأتي مكة فإن لحق الحج حج..)) إلخ.

فظاهره: أنه خاص بالمحصر عن الوقوف، ولكنه لم يذكره تفسيراً للآية، ولم يصرح بأن الإحصار إنما يكون عن الوقوف، ومثيله كلام الإمام زيد بن علي إ في (المجموع) ويمكن أنهم خصوا بالذكر من أحصر عن الوقوف والطواف في العمرة؛ لأن ذلك هو الغالب في الإحصار، فأما الإحصار عن تمام الحج بعد الوقوف فهو نادر جداً؛ لأنه إن كان لعدوٍّ فالغالب أنه يكون في الطريق قبل الوصول إلى عرفات، ومن لم يمنع من عرفات لم يمنع من مكة في الغالب؛ لأنهما في العادة يكونان تحت دولة واحدة.

وإن كان الحصر لمرض فيمكن التخلص منه في الغالب بركوب سرير يحمل فيه ويطاف به طواف الزيارة، ويذبح دماء عن بقية المناسك، فلم يكن الإحصار بالمرض إلاَّ نادراً فيمن اشتد به المرض وخشي التلف إن طيف به أو زيادة شدة المرض، واستمر به حتى يعود أصحابه واضطر للعودة معهم لخشية الموت إذا تركوه وحده ولم يستطع إيقافهم لينتظروا حتى يطوف، ولم يستطيعوا انتظاره للخوف من انفرادهم في الطريق إذا تأخروا، فبان أنهم لم يذكروا الإحصار عن بقية الحج؛ لأنه نادر جداً.

وعلى هذا: فلا يخص الإحصار بالإحصار عن الوقوف، وقد يتصور الإحصار عن طواف الزيارة فيمن طاف طواف القدوم قبل الوقوف، ثم وقف واشتد به المرض وكان رفيقه جاهلاً، وهو زائل العقل، فلم يطف به، وتركه ثم عاد به معه لجهله كيف يصنع به، ولم يفق المريض إلاَّ في الطريق في العودة أو كان جاهلاً لم يستطع شيئاً من أعمال الحج لمرضه ولم يدر ما يصنع لجهله حتى رجع ثم أحصر عن العودة بمرض أو عدو أو عدم نفقة للعودة، فهذه صورة وهي نادرة أيضاً.

وقد وقع نظيرها في الإحصار عن العمرة للجهل، فقد خرج أناس من المدينة وأحرموا للعمرة ثم انقلبت بهم السيارة وحدثت فيهم جراح وحالة شديدة، فحملوا في سيارة أخرى إلى المدينة المنورة ولبسوا ثيابهم واعتبروا أنفسهم أن قد حلوا لعجزهم في تلك الحال عن إتمام العمرة، أو لذلك وللبسهم ثيابهم، فلما تحسنت حالتهم في طيبة ورجعوا أحرموا للعمرة من ذي الحليفة وهم في الواقع ما زالوا محرمين؛ لأنهم لم يبعثوا بهدي، ثم طافوا بالبيت لهذه العمرة الأخيرة ورجعوا بلادهم وعجز بعضهم عن الرجوع من بلاده لاستكمال بقية المناسك؛ لفقره، فهذا لا إشكال أنه محصر على المذهب.

وإنما الإشكال في الحاج الذي قد وقف لو وقع له حادث فترك في المستشفى ثم أعيد إلى بلده وهو لا يشعر أو لا يدري ما يصنع، ثم لما وصل إلى البلاد سأل، ما يلزمه؟ فإن كانت تُمْكنه العودة وجبت عليه ليطوف طواف الزيارة وإن كان عاجزاً عن ذلك فعلى ما رجحته يبعث بهدي ويتخلص من إحرامه ببلوغ الهدي محله، وعلى قولهم: إن المحصر إنما هو المحصر عن الوقوف يبقى هذا على بقية إحرامه حتى يتمكن من العودة أو يموت.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ﴾ قال المؤيد بالله في (شرح التجريد): ((ولا خلاف أن اسم الهدي يتناول الشاة، وروى ابن أبي شيبة قال: حدثنا حفص، عن جعفر، عن أبيه، عن علي (عليه السلام) قال: ما استيسر من الهدي شاة. وروى ابن أبي شيبة، عن ابن عباس، وابن عمر ذلك، وهو مما لا خلاف فيه)) انتهى.

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ﴾ فاحتاج إلى الحلق في المرض، وذلك قد يكون لوضع علاج من الصداع على الرأس إذا احتاج المريض إلى ذلك أو لأي سبب احتاج المريض إلى الحلق أو احتاج إلى الحلق الذي به أذى من رأسه كالذي به القمل الذي يؤذيه في رأسه.

﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ إطعام ستة مساكين ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ ذبح شاة من الشاء، والنسك: جمع نسيكة، مثل صحيفة وصحف، فمن كان كما ذكر الله ففدية مما ذكر تجزيه عن ترك الحلق من أجل الإحرام، والمراد تقدير لفظ تجزيه أو ما يوافقها في إفادة حَلّ المشكلة مثل: تكفيه أو تغنيه، فهذا هو الذي يفيده السياق كما مر في آية الصيام، وتفسير الصيام والصدقة والنسك بما ذكرت؛ رواه الإمام زيد بن علي في (مجموعه) عن أبيه، عن جده، عن علي (عليه السلام).

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ وزال الإحصار بالخوف، أو سلمتم الإحصار بالخوف فأتموا كما أمرتم ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ﴾ التمتع: الانتفاع العاجل، والتمتع بالعمرة: أن يعتمر من يريد أن يحج، فإذا وصل ميقات الحج أحرم بالعمرة ليستبيح بعدها ما يحرم بالإحرام مما يحل لغير المحرم، ويتخلص بها من الإحرام للحج عند وصوله الميقات إذا كان يطول عليه الإحرام لبُعد يوم النحر.

وهذا لأنه إذا وصل الميقات لم يكن له بدّ من الإحرام، إذ ليس له أن يتجاوز الميقات إلى الحرم بغير إحرام؛ لأن ذلك ينافي كون الميقات ميقاتاً للإحرام، فالإحرام للعمرة أخفّ له؛ لأنه يصل مكة فيطوف ويسعى ويقصر، وانتهت العمرة وحل له لبس ثيابه وتغطية رأسه والطيب والنساء ونحو ذلك من محظورات الإحرام، وبقي على هذا إلى الحج حين يحرم للحج يوم التروية مثلاً، فقد تمتع بما حل له بواسطة العمرة، فلذلك صح التعبير بأنه تمتع بالعمرة إذ لولا العمرة لاحتاج إلى الإحرام للحج حين بلغ الميقات.

﴿فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ يجزيه عن الإحرام للحج من الميقات، واستمراره على إحرامه إلى يوم النحر، وقد قيل: إن في هذا دلالة على أن التمتع دون الإفراد والقران في الفضل؛ لأن هذا جارٍ مجرى الترخيص الذي يقرن بفدية؛ لأن الهدي كان بدل الإحرام بالحج.

وأنا لا أرى في هذا دلالة على ما قالوه، بل يدل على التخيير؛ لأن الهدي لو كان فدية لسماه الله فدية، فلما سماه هدياً دل ذلك على أن الكلام جرى مجرى التخيير بين الإحرام للحج من الميقات وبين التمتع مع الهدي، والتخيير لا يدل على أن أحدهما أفضل، وقد روي عن بعض الأئمة اختيار التمتع بما يفيد أنه عنده أفضل، ولعله أفضل في حق من يفعله حماية لحكم الله من الضياع ودفعاً لإهماله وتصييره بمنزلة المنسوخ، ولئلا يدعى من بعد أنه منسوخ، وكانت الحال تقتضي ذلك؛ لأن عمر نهى عنه.

وروي أن علياً × حج متمتعاً فأنكر عليه عثمان، فقال علي × : ((ما كنت لأدع سنة رسول الله ص عن قولك)) أو نحو هذا.

وفي (أمالي الإمام أحمد بن عيسى) [ج١: ص٦٩٧] من (رأب الصدع): ((حدثنا محمد، قال: حدثنا عباد بن يعقوب، عن يحيى بن سالم، قال: قال أبو الجارود: قال أبو جعفر [أي الباقر]: لو حججت مائة حجة ما حججت إلاَّ متمتعاً)) اهـ.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ هدياً ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ ظاهر الآية: أن الهدي يكون عند الإحرام للحج؛ ليكون قد صدق عليه أنه تمتع إلى الحج، فإذا لم يجد هدياً صام عشرة أيام، ثلاثة منها بعد أن أحرم للحج ولم يجد هدياً، وذلك يستلزم أن يحرم قبل يوم التروية ليصوم الثلاثة الأيام قبل يوم الأضحى للنهي عن صيامه وصيام أيام التشريق، ويحتمل أن النهي لغير المتمتع، فلا إشكال، وظاهر الآية أنه لا يجزي الصيام قبل الإحرام للحج؛ لأنه ليس في الحج.

وعلى هذا: فالإحرام يوم التروية خاص بواجد الهدي، وعليه تحمل الرواية: أن السنة للمتمتع أن يحرم يوم التروية.

﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ في الطريق أو عند وصول المسكن فوراً بلا تأخير ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وجبت على المتمتع، وفائدة هذا أن لا يتوهم أنه يجزيه ثلاثة أيام في الحج ويجزيه سبعة إذا رجع، ولم يصم ثلاثة أيام في الحج.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التمتع بالعمرة إلى الحج وأحكامه ﴿لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فمن كان أهله حاضري المسجد الحرام لم يشرع له ذلك، ولعل معناه: أنه حاضر لا يرد الميقات من خارج، فلا يحتاج إلى التمتع أو أنه يجوز له لو جاء من خارج أن يحرم من داره؛ لأنه ميقاته، وليس عليه أن يحرم من ميقات الآفاقي.

ويحتمل أيضاً ـ وهو الراجح عندي ـ لترابط سياق الكلام فيهما لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمۡ﴾ فقد ربط بين المسألتين بـ(الفاء) أن الإشارة إلى حكم التمتع وحكم الإحصار كله، فيلزم من كان أهله حاضري المسجد الحرام: أن يصبر على إحرامه حتى يجعل الله له سبيلاً إلى أهله أو يخرجوا إليه؛ لأن ميقاته داره، فلم يكن محتاجاً إلى الإحرام حيث أحصر، فلم يستحق التحليل بالهدي، أو لأنه لم يصح إحرامه قبل بلوغه ميقاته الذي هو داره في الحرم على القول بأنه لا يصح الإحرام قبل بلوغ الميقات عندهم.

فيؤخذ من هذا: أن ﴿حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ هم مَن كان ساكناً في الحرم المحرم، وهو الأقرب؛ لأن الحاضر في اللغة ضد الغائب، ومن كان خارج الحرم فهو غائب عن الكعبة، وهي المسجد الحرام، وحضور الكعبة هو القرب منها، ودعوى أكثر من هذا واعتباره حضوراً يحتاج إلى دليل، واللغة هي العمدة في تفسير القرآن لا الرأي، مع أنه قد ظهر وجه التخصيص لمن في الحرم، فالمهم تخليص الحاج من الانقطاع في الطريق؛ لأنه قد يؤدي إلى هلاكه بنفاد الزاد حيث لا يجد بدلاً.

ومن كان أهله في الحرم الغالب أن يكون عندهم لا يحصر عنهم، فإذا اتفق خروجه وإحصاره فهي صورة نادرة؛ لأن الإحصار إن كان من أجل الدولة المستولية على الحرم فهي تفتح له لكونه من اهلها، وإن كان الإحصار من خارج فالعادة في الأصل أن يكون صاحب الحرم محترماً، ولذلك قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧] وإن كان من أجل قطاع الطريق الطامعين فهو بعيد في أيام الحج لكثرة الأصحاب الوافدين للحج، وإن كان الإحصار لمرض فالهدي لا يفيده شيئاً إلاَّ ما قد رخص فيه للمرض مع الفدية، وهي تغني عن الهدي.

وقيل: (من كان أهله حاضري المسجد الحرام) من ميقاته داره، إذْ له الدخول بغير إحرام فلا يحتاج إلى التمتع، وهذا مبني على أنه في داره، وهو بعيد؛ لأنه كان يكفي أن يقول: ذلك لمن لم يكن حاضرَ المسجد، ولا معنى يفيد لذكر الأهل وخصوصاً أنه مظنة أن يكون الحاضرون فيه دون أهلهم كثيراً، فذكر الأهل لا فائدة له تظهر إلاَّ في حق من كان متمتعاً أو محصراً قد حيل بينه وبين أهله كما حيل بينه وبين إتمام الحج أو العمرة.

ومن كان وارداً من خارج المواقيت إلى الحرم التي لأهل الآفاق، وفيه أهله مقيمون فلعله يؤخذ من الآية أن له الدخول بغير إحرام، فلا يحتاج إلى التمتع بل يدخل ويحرم للحج من داره؛ لأنه ميقاته، فقد قال بعضهم: إذا أتى داره قبل الإحرام فله أن يحرم منها ولم يلزمه الإحرام من الميقات، ولكن لم يقرر للمذهب، وكلا القولين تخريج للإمام لهادي × .

أما من قال: يحرم من ميقات أهل الآفاق فتخريجه من قول الهادي في مواقيت أهل الآفاق مواقيت لأهلهن، ولمن أتى عليهن من غير أهلهن، فدخل المكي في العموم.

وأما من قال: يحرم من داره فتخريجه من قوله في (المنتخب) من كان منزله أقرب إلى مكة أحرم من منزله، وجعل المقصود في الكلام الأول من أتى من أهل الآفاق لا المكي، ومن كان دون المواقيت ويرجحه أمران:

الأول: أن الهادي جعل تلك المواقيت لأهل الآفاق خاصة؛ لأنه قال في (الأحكام) في (باب القول في مواقيت الإحرام): ((ثم وقّت رسول الله ص لأهل الآفاق في الإحرام مواقيتهم..)) فذكرها، فظاهره: أنها خاصة بهم؛ لأنه أطلقه، ثم قال بعد تعيين كل ميقات لأهل أفقٍ: هن مواقيت لأهلهن، ولمن

أتى عليهن من غير أهلهن، والظاهر: أن المقصود أهل الآفاق، ويعني بذلك أهل الآفاق، من أتى منهم ميقاتاً من مواقيتهم غير ميقات بلده أو ليس له ميقات مسمى باسم بلده؛ لأنهم المذكورون، ولا ذكر هناك لمن كان أقرب إلى الحرم من المواقيت كلها.

الأمر *الثاني*: أن من كان أقرب إلى الحرم أو فيه ليس من أهل المواقيت المذكورة، وله ميقات أصليّ ليس بدلاً من المواقيت المذكورة لأهل الآفاق، وهو داره كما هو مذكور في (المنتخب)؛ لأنه قال: ((أما من حج فأخذ على طريق المدينة فميقات إحرامه من ذي الحليفة، وأما من أخذ على طريق الجادة أو من أتى من أهل نجد ـ أيضاً ـ فميقات إحرامه من ذات عرق..)) إلى قوله: ((ومن أتى من أهل اليمن من طريق نجد أو من أهل نجد فميقات إحرامه قرن المنازل. قال محمد بن سليمان: قلت: فمن كان منزله أقرب إلى مكة من هذه المواقيت، فمِن أين يحرم؟ قال: من منزله)) انتهى.

فدل على أن منزله ميقاته، فإذا أتى منزله أحرم منه، فظهر: أن المنزل في حق الحرمي ميقات أصلي، وفي (أمالي أحمد بن عيسى) [ج١/ ص٦٧٧] من (رأب الصدع): ((حدثنا محمد، قال: حدثني جعفر، قال: سألت قاسم بن إبراهيم، ما معنى قول علي: من تمام الحج أن تحرم من دويرة أهلك؟ قال: إذا كان من دون الميقات فمن دويرة أهله. قال أبو جعفر: كذلك هو عندي)) انتهى.

فترجح: أن هذا فائدة ذكر الأهل في الآية، وأنه لا تمتع ولا إحصار لمن أهله مقيمون في الحرم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فأطيعوه في الحج والعمرة وأحكامهما، وحكم الإحصار، وفي كل ما شرع لكم، وفيها دلالة على وجوب العلم بـ﴿أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ولا يكفي الظن.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على وجوب إتمام الحج والعمرة على من أحرم بهما فريضة أو نافلة، وعلى وجوب ما استيسر المحصر من الهدي، وأدناه شاة وتجزي عن المحصر ولو قارناً؛ لأن الآية لم تفصل بعد أن أباح له الخروج من الإحرام، وعلى تحريم الحلق حتى يبلغ الهدي محله المشروع، وهو منى لمن حج [في الأم: حجج، وهو غلط] اختياراً، ومكة لمن اعتمر اختياراً، وسائر الحرم اضطراراً، هذا هو الأحوط في المحلّ، ومحله من الزمان هو ما عيَّنه المحصر، والإحصار: هو الخوف والمرض.

وتدل على إباحة محظورات الإحرام للمريض، ومن به أذى، وعلى وجوب الفدية لأجل استباحتها من صيام ثلاثة أيام أو ذبح شاة أو إطعام ستة مساكين كما ورد ذلك مفصلاً في خبر كعب بن عجرة عن النبي ص، وعلى جواز التمتع بالعمرة إلى الحج، وعلى وجوب ما استيسر من الهدي على المتمتع وهو شاة، فإن كان يستيسر أكبر من شاة فهو أفضل، فمن لم يجد من المتمتعين الهدي وجب عليه صيام ثلاثة أيام في الحج، ويجب أن يكون في غير أيام التشريق، ويجب أن يكون في شهر عرفة لأنـ[ه] من أشهر الحج، وسبعة عند أهله إذا رجع في أي شهر كان غير رمضان والعيدين وأيام التشريق، وعلى أن التمتع [في الأم: التمتيع، وهو غلط] لم يشرع إلاَّ لمن لم يكن [أهله] حاضري المسجد الحرام)) انتهى.

قلت: قوله × : ((يذبح الهدي في مكة)) يعني: أقرب إلى الكعبة؛ لأنها في عصر الإمام لم تكن قد اتسعت كما في عصرنا، أما في عصرنا فلا عبرة بما جاوز الحرم من مكة، فلا يذبح فيه ولا يذبح إلاَّ في الحرم.

مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن

وقوله: ((إباحة محظورات الإحرام للمريض)) يعني: الجائزة قبل الإحرام، وقوله: ((في شهر عرفة)) لأنه من أشهر الحج، يعني لقول الله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ﴾ وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ وما روي من تفسيرها: بشوال، والقعدة، وعشر ذي الحجة، المراد به وقت الإحرام لا وقت أعمال الحج كلها، ولعله يعني بقوله: ((في شهر عرفة)) ما دام المتمتع في الحج قبل أن يرجع، فلو رجع بعد إتمام الحج في أثناء شهر عرفة فليس له تأخرها لحين رجوعه؛ لأنه ليس في الحج.

﴿١٩٧﴾ ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي وقت الحج أشهر معلومات، وهن شوال وذو القعدة للإحرام بالحج، وذو الحجة لأعمال الحج كلها، إلاَّ أن الإحرام ينتهي وقته بانتهاء ليلة النحر، ولطواف الزيارة والوقوف بعرفة وغير ذلك، لكل منها وقت معيّن، ويجمعها الشهر ذو الحجة، ولذلك سمّي ذا الحجة وسمي يوم النحر يوم الحج الأكبر؛ لأنه أول وقت طواف الزيارة، أو هو وقته الإختياري وهو العاشر من ذي الحجة، وفيه من أعمال الحج غير الطواف، فظهر: أن الحجة من أشهر الحج، كما قال الإمام القاسم بن محمد فيما نقلته آنفاً عنه.

ومن قال: إن أشهر الحج: شوال، والقعدة وحدهما فقد أبعد؛ لأن شهر الحجة متبادر أعظم منهما، وإنما فيهما الرواية، ولذلك قال تعالى: ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ لأن ذا الحجة معروف بالحج من عهد الجاهلية والإسلام، وتجويز أن المراد شهران خلاف الظاهر.

والإحتجاج بقوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] ضعيف؛ لأنه يستغنى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، فلا يحتج على استعمال الجمع في غير ذلك، ولو جاء نادراً فلا يفسر به القرآن لتعسر فهمه؛ لأن من الفصاحة سلامة الكلام عن استعمال غريب اللغة النادر الذي لا يفهمه إلاَّ النادر من أهل اللغة كما ذكروا في علم البيان.

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ أوجبه على نفسه بالإحرام له والدخول فيه بالتلبية بنية الدخول في الحج أو كلمة: أحرمت لك، أو نحوها مما هو من أعمال الحج مع النية كالتقليد للهدي.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فكل ذلك محرم على الحاج، الرفث كناية عن الجماع وعن الكلام الذي يستحيا منه، والفسوق: الفجور والخباثة بكل أنواعها من الظلم والإلحاد في الحرم وسبّ أولياء الله ومدح الظلمة وغير ذلك.

والجدال ظاهر، وظاهره المنع من الجدال على الإطلاق، ولعل السبب أنه يوجه القلب إلى موادّ الجدل والأخذ والرد، ويشغله عن ذكر الله والدعاء والاستغفار ويثير الغضب فيشغل القلب أشد من ذلك، ومع كون الحج قد علم الله أنه يلتقي فيه أهل المذاهب المختلفة، فلو جعل الجدال فيه جائزاً واستعد كل أناس للجدال عن مذهبهم واختاروا لذلك منهم أقواهم في الجدل لصار الحج ملتقى جدل وكان مظنة أن تثور فيه الفتن بسبب ما يؤدي إليه الجدل من الغيظ، وذلك شغل عن اغتنام تلك المواقف لذكر الله والدعاء والتماس رقة القلب، وهذا أمر واضح والجدال بالحق له وقت غير الحج، فلا يخص من عموم هذه الآية.

ويمكن بيان الحق بغير جدال، فإن قبل الخصم فالمراد، وإن لم يقبل جعلت بينك وبينه موعداً لما بعد الحج، وإن تعذر ذلك جعلت له موعداً ليدلي بما في نفسه بشأن ما أدليت له من الحجة، فإن وجدته منصفاً زدت له من البيان ما يحلّ الإشكال بدون مرادّة في الكلام ومغالبة تؤذي وتغيظ، وإن وجدته لا يفيده شيء لتعصبه وبُعده عن الحق تركته واعتذرت بهذه الآية الكريمة، فهما أمران مختلفان؛ بيان الحق بلا جدل والجدل لبيان الحق، فيعمل بالأول ويترك الثاني عملاً بالآية.

فإن *قيل*: بل يجب الجدال بالحق؛ لأن الله أوجب التبليغ وحرم الكتمان؟

قلنا: قد بيّنا أنه يمكن الجمع بين الدليلين، فيبين الحق بلا جدال، ويترك الخصم يجادل نفسه إن أراد الحق، أعني يفكر فيما ورد عليه من البيان، وما كان يعتقده حجة وينظر أيهما أصح فاستعمال هذه الطريقة أنفع من المغالبة والمماراة، وما بدا له من إشكال بعد التفكير والنظر الكامل سأل عنه سؤالاً بلا جدال، وأجيب عنه بلا جدال، ثم عاد إلى النظر والتفكير وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ [سبأ:٤٦].

والحاصل: بيان الحق بغير جدال، جمعاً بين الدليلين، وترجيحاً لحكمة منع الجدال في الحج التي ذكرتها آنفاً، مع أن الجدال أكثره داعية إلى التعصب فهو عكس المطلوب، وإنما ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن، وهي كلمة جامعة تحتها آداب:

منها: ترك المقاطعة في الكلام، وترك الخصم يدلي بما في نفسه كله بدون مغافصة.

ومنها: ترك رفع الكلام أكثر من إسماع الخصم.

ومنها: ترك التسجيل عليه بالخطأ قبل أن يمهل حتى ينظر في الحجة.

ومنها: إحالته إلى البحث وذكر مواضع البحث حتى يقدر على ذلك حيث الإشكال يستدعي ذلك، ولا يمكن حله في مجلس واحد كإثبات تواتر حديث أو صحته.

ومنها: ترك الاحتيال لإفحامه قبل أن يقتنع بالدليل، هذا حيث المقصود الإفادة، فأما إن كان المقصود قطع الجدال وكان لا يرضى بتركه إلاَّ بهذه الحيلة وكانت الحال لا يمكن فيها البيان لعذر شرعي فلا بأس بها.

ومنها: الإجابة على الخصم في كل ما أورد عليك، وإن كان في رأيك ضعيفاً، وترك الجواب قد يكون مراوغة وفراراً من حجة الخصم، فهو عيب، وقد يكون عجلةً على الكلام بما في نفسك، فهذا تقصير؛ لأنه لا يفوت ما في نفسك، ويمكن أن تقوله من بعد فاصبر حتى ترد عليه.

فإن كان جاهلاً –والجواب لا يفيده لجهله– قلت له: إنه لا يستفيد من جوابك إلا بعد أن يقرأ ويتعلم، وإن كان قد انتقل عن موضوع الجدال قلت له: هذا انتقال، وإن كان أورد عليك سؤالاً تخشى من الجواب عليه ضرراً من الناس، لأنهم يغضبون عليك ويضرونك أو يهتكون عرضك حتى يمنع من قبولهم منك كلمة الحق فلا بأس أن تروغ عن الجواب لعذر شرعي كما مر، وكما قال الشاعر:

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا

وبالجملة أدب الجدل: بيان الحق بقدر الإمكان، واجتناب ما يثير الخصم إلاَّ بيان الحق بقدر الإمكان ومحاولة تقريب الفائدة بقدر الإمكان.

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ هذا حث على اغتنام فعل الخير في الحج، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فأنتم في سفر بعيد ومهبط أحدكم على جنة أو نار، فتزودوا في هذه الحياة زاداً يبلغكم الجنة، والحج بما فيه من الدعاء عند البيت، وفي عرفات وسائر المشاعر سبب للتقوى التي هي خير الزاد، وكذلك التوبة هناك والاستغفار وكل عمل سبب للتوفيق وطرد الشيطان وتنوير القلب، كل ذلك سبب للتقوى، فكل مسافر يحتاج إلى الزاد لئلا ينقطع، والتقوى زاد خير من كل زاد؛ لأنها تبلغ صاحبها الجنة وتنجيه من النار.

﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فكل ذي لبّ أي كل عاقل إذا استعمل عقله ونظر في عاقبته وأنه لا بد أن يلقى ربه ويسأله ويحاسبه ويجازيه وأنه لا بد صائر إلى الجنة أو النار وأنه لا طلب للجنة ولا هرب من النار إلاَّ في هذه الحياة، فمن حقه أن يتقي الله؛ لأن من شأن العاقل أن يتدبر عواقب الأمور.

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي أحكام هذه الآية يقول إمامنا المنصور بالله × : الأشهر المعلومات: شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، أما الأولان وعشر ذي الحجة فظاهر، وأما ما وراء العشر من ذي الحجة فلتمام ما بقي من أعمال الحج كصيام ثلاثة أيام للمتمتع الذي لم يجد الهدي، وكطواف الزيارة، ويباح فيها [أي في الحجة] الإحرام بالعمرة للمتمتع وللقِران مع الحج في أولها، والإحرام بالعمرة للمفرد في آخرها، ويكره تأخير الصيام للمتمتع [عنها] وطواف الزيارة لغير عذر عنها، وتدل على أن فرض الحج فيهن، وأما غيرهن فلا دليل عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ مجمل، وقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ مبين.

رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ

ويجب رد المجمل إلى المبين و[تدل] على تحريم الرفث وهو الجماع، وكل قول فاحش، والفسوق، وهو تعمد المعاصي، وتدل على أن فعل المعصية من المحرم أغلظ، وتحريم الجدال، ويجب على صاحب الحق أن يبينه لما تقدم من تحريم كتمان الحق، فمتى بيّن الحق فلا يزيد عليه للنهي عن الجدال، وتدل على وجوب الزاد وأن خير الزاد التقوى، ومن التقوى ترك السؤال لقوله ص: ((لا تسأل الناس شيئاً ولو سوطك إن يسقط منك حتى تنزل إليه، فتأخذه)) ونحو ذلك، وتدل على الحث على فعل الخير كله، وقوله: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ من تمّ عقله فإنه داخل فيمن أمره الله بالتقوى)) انتهى.

﴿١٩٨﴾ ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فقفوا في عرفات ابتغاء فضل الله بطاعته والأعمال الصالحة في عرفات، والتلبية، والدعاء، والذكر، والاستغفار، ولا تتحرجوا من الوقوف فيها كما كانت قريش تفعل وتقف في مزدلفة لئلا تخرج من الحرم، فاخرجوا من الحرم ابتغاء فضل الله، ويدخل في ابتغاء فضل الله التجارة في الحج بدون تقصير في طاعة الله.

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ ﴿ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ﴾ مكان في (مزدلفة) مشهور، وذكر الله عنده يتناول ذكره في الصلوات: المغرب، والعشاء، والفجر، وغيرها، وذكر الله عند المشعر ذكره في مزدلفة، فهي كلها عند المشعر الحرام وزيادة القرب منه قبل الخروج من مزدلفة مشروع.

أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿ٱذْكُرُوهُ﴾ شكراً على هدايته إياكم بعد الضلال، فقد كنتم من قبل رحمة الله لكم بالرسول والقرآن لمن الضالين، فلولا الله لما اهتديتم ولبقيتم على ضلالكم من الشرك وتحريم ما أحل الله، والخرافات في الحج: كالوقوف في مزدلفة، والطواف بالعراء، والصلاة بالمكاء، والتصدية، وغير ذلك كثير

﴿١٩٩﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذكر الله عند المشعر الحرام ﴿أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ بلا اختلاف بينهم من وقف بعرفات ومن وقف بمزدلفة حيث يفيضون من مزدلفة إلى منى أجمعون، هذا هو ظاهر الآية وتحويلها عن ظاهرها لأجل رواية عروة بن الزبير لا يصح عندي.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فتلك مواقف استغفار يرجى فيها القبول، مع أن الله غفور رحيم لا تختص مغفرته ورحمته بتلك المواقف، فاستغفروه؛ لأنه ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿٢٠٠﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ أتممتموها بالطواف بالبيت، والبقاء في منى، ورمي الجمار، وغير ذلك كما بينه الرسول ص ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ بعد الحج والفراغ منه؛ لأنكم لم تفرغوا من ذكر الله، فلا تزالوا ذاكرين لله غير غافلين عنه، كما أنكم لا تزالون ذاكرين لآبائكم لطول تربيتهم لكم ونشأتكم في إحسانهم، وعيشكم معهم

في عطفهم عليكم، فالله أحق أن لا تزالوا ذاكرين له؛ لأنه المنعم عليكم بخلقكم وإنعامُه عليكم من حين أحياكم مستمرٌ ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقد قيل: إنها في الذين كانوا يتفاخرون بآبائهم فيمدحونهم ويشيدون بذكرهم افتخاراً بهم، وهذا عندي ضعيف؛ لأن أكثر آبائهم كانوا مشركين، ولم يكن افتخارهم بهم مرضياً؛ لأنهم حمم جهنم، وأعمالهم في الشرك كسراب بقيعة، وقد روي النهي عنه عن النبي ص، فلو كان المراد لقيل: فاذكروا الله كما كنتم تذكرون آباءكم، أي في زمان الجاهلية، فلما قال تعالى: ﴿كَذِكْرِكُمْ﴾ كان ظاهره أنه ذكر غير ذاك الذكر المهجور، وأنه الذكر المعتاد لكل الناس.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ ينبه على أن ليس المراد الإقتصار على مثل ذكرهم لآبائهم، وإنما المراد التنبيه على أن النعمة سبب الذكر، فقد كانت نعمة آبائهم عليهم سبباً لذكرهم، فينبغي أن يذكروا الله لنعمته عليهم، وليس المراد التحديد.

﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ لأن الدنيا أكبر همه، فما له في الآخرة من نصيب، وإنما يبعث للحساب والعقاب والخلود في النار، ليس له أي فائدة في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨] وليس من شرط هذا أن لا يطلب الآخرة بلسانه، فكثير من عبيد الدنيا إذا ذكرت لهم الآخرة وعذاب النار قالوا: الله يرحمنا، ويقولون في (القنوت): ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ولكن همهم الدنيا وطلبهم الجاد هو طلب الدنيا.

حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ

وأما طلبهم للآخرة فهو بألسنتهم ولا يعملون لها ولا يتقون عذاب النار، وهذا لأن قوله تعالى في هذه الآية لم يذكر فيه الإقتصار على طلب الدنيا بألسنتهم، وإنما أفاد أنها الأهم عندهم، فهم لا يطلبون الآخرة، وإن طلبوها فالطلب بألسنتهم مع الغفلة وترك السعي لها، فهو كلا طلب لأنهم غير مؤمنين بالآخرة، وما وقع منهم من دعاء أو نحوه فهو جري على العادة الموروثة.

﴿٢٠١-٢٠٢﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ وهي التي نحتاجها في الدنيا ولا تفسد علينا في ديننا، فهي نعمة حسنة كقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وقوله: ﴿حَسَنَةً﴾ صفة لمحذوف تقديره، إما مفرد مؤنث مثل: عطية ونعمة، وأما جمع يؤنث وصفُه مثل أرزاق، وإما جمع مؤنث مثل: نعم وعطايا ومنافع، وحذف الموصوف لعله وقع اهتماماً بالصفة لكونها مهمة عندهم، فهو كما لو قالوا: ربنا آتنا في الدنيا ما ليس فيه محق لديننا، فليس المهم كثرة المسؤول ولا عموم أنواع الهبات، وإنما المراد المحتاج إليه الذي يدل عليه الطلب.

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وهي الجنة؛ لأن من لم يكن من أهلها لا يؤتى أيَّ حسنة ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ طلب الوقاية يشعر بعظم الخطر فيها كأنها طالبة للإنسان أو محيطة به إذا لم يكن له وقاية منها لفَحَتْهُ واستشعار هذا من تمام الإيمان الباعث على طلب الوقاية، والوقاية هي الهداية والتوفيق ثم العصمة عن المعاصي بحيث يختم للإنسان بتوبة نصوح، والوقاية هذه سبب للوقاية في الآخرة، فأي الوقايتين فهي كناية عن الأخرى للتلازم بينهما.

إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ

﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ أولئك الذين يريدون الآخرة ويحذرون ويدعون الله، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ في الآخرة، بخلاف الأولين الذين ما لهم في الآخرة من نصيب، وهذا النصيب مما كسبوا في الدنيا؛ لأن كسبهم بعضه مباح وبعضه معاصي في حق أكثرهم قد تابوا منها، والذي منه النصيب في الاخرة هو الإيمان والعمل الصالح والتقوى.

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فحسابه لما كسبوا لا يضيع شيئاً؛ لأنه عالم الغيب لا ينسى ولا يغلط في الحساب.

﴿٢٠٣﴾ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ﴾ هي أيام التشريق، يوم حادي عشر ويومين بعده، وهما يوما النفر، يرمي الحجاج فيها الجمار، ويذكرون الله عند الرمي، وينحرون لله البدن، ويذبحون ما أهدوا إذا لم يذبحوه في يوم العيد يذبحون في يومين بعده، ويذكرون الله على ما نحروا وذبحوا.

قال في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): حدثني زيد بن علي عن أبيه، عن جده عن علي (عليه السلام)، قال: أيام النحر ثلاثة أيام: يوم العاشر من ذي الحجة، ويومان بعده، في أيها ذبحت أجزاك، وأشهر الحج، وهو قول الله عزَّ وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، والأيام المعلومات أيام العشر، والمعدودات، هي أيام التشريق ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ يوما النفر يوم اثني عشر ويوم ثلاثة عشر ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ انتهى.

قلت: تفسير أشهر الحج كأنه ناظر إلى اسم الحج في الأصل الذي هو القصد، فقصد البيت والتوجه إليه يكون في تلك المدة، أما بقية أعمال الحج بعد الوصول إليه بالوصول في حرمه فبعضها بعد ذلك كما في أيام التشريق المذكورة، وذكر الله فيها منه التكبير الذي يبدأ من فجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق وغيره.

قال في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): حدثني زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام أن النبي ص قال: ((يا علي كبّر في دبر صلاة الفجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق صلاة العصر)).

وفيه عقيب هذا: حدثني زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: ((التكبير: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلاَّ الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد)) انتهى.

وفيه: حدثني زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام، قال: أيام الرمي يوم النحر، وهو اليوم العاشر، يرمي فيه جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ولا يرمي يومئذ من الجمار غيرها وثلاثة أيام بعد يوم النحر يوم حادي عشر ويوم ثاني عشر ويوم ثالث عشر يرمي فيهن الجمار الثلاث بعد الزوال كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة ويقف عند الجمرتين الأوّلتين ولا يقف عند جمرة العقبة، انتهى.

قلت: هذه الثلاثة الأيام هي أيام التشريق، والمراد فيها ذكر الله بمنى وفيها دلالة على وجوب البقاء في منى في النهار وأنه أصل ليس لمجرد وجوب المبيت.

ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ وهما الثاني من أيام التشريق والثالث منها، وهو الرابع من أيام منى، بدليل التفريع بالفاء على ذكر الله في أيام معدودات والمتعجل في اليوم الثاني من أيام التشريق الذي هو ثالث العيد، يكون قد ذكر الله بمنى في أيام آخرها يوم نفَر، فالمراد باليومين يومي النفر.

﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فهما سواء في الجواز ﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ بإتمام المناسك والقيام بما لزم من لوازم الحج واجتنب المعاصي من محظورات الإحرام والظلم والتعدي ومعاونة الظلمة ومدحهم، وسبّ أولياء الله وتخويفهم، وتاب إلى الله من كل معصية فهذا الذي لا إثم عليه.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في المستقبل ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ لتتقوه وتستعدوا للقائه، وتعدوا للسؤال عند ذلك جواباً نافعاً وعملاً صالحاً مقبولاً، وفيها دلالة على وجوب العلم بالآخرة، وأنه لا يكفي الظن، ومن فوائد هذه الآية الخاتمة لآيات الحج المحافظة على أعمال الحج وحراستها من الإحباط واغتنام الإستمرار على الصلاح الذي كان في الحج؛ لأنه أيسر من العودة إلى الصلاح ثانياً بعد الفساد.

﴿٢٠٤-٢٠٦﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما يقوله في شأن الحياة الدنيا، كأن يقول: إنها متاع الغرور؛ لأنه كلام يعجب الرسول ص، والراجح يعجبك قوله الذي يغرر به ويخادع؛ لأنك لا تعلم ما في قلبه، وفي الحياة الدنيا، أي في دار التكليف والإختيار، التي ترك الله عباده

يقولون ما شاءوا؛ لأن الحياة الدنيا وقت الإختبار والإبتلاء، فلذلك تركهم الله يقولون ما يعجبك وهم به مخادعون.

﴿وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ﴾ كأن يقول: أُشهد الله أن قلبي مؤمن بأنك رسول الله، وكقولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١].

﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ أي يقول ذلك في حال أنه ألد الخصام، فهو كاذب ومخادع، وهو شديد الخصام يبالغ في الخصام ويتعمق فيه، أي في خصامه لك الذي يفعله وإفساده بما يبيت من القول وما يناجي به أصحابه وما يقوله لشياطينه، وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي إ : ((فالألد: الشديد الخصومة بالباطل، والجمع: لدّ)) اهـ.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ عنك بعد دعواه المذكورة، وقد سمع منك الحق والهدى لو كان يهتدي ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ﴿سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ حين تولى عنك بحيث يدل ذلك على أنه لم يكن صادقاً في دعواه لمسارعته إلى الفساد حين تولى؛ لأنه لو كان صادقاً لازداد هدىً بحضوره عند الرسول ص وسماعه منه، وكان بعيداً من الانقلاب والسعي للفساد العام الذي ﴿يُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ﴾ لأنه يسعى لغلبة الكفار على رسول الله وهلاكه وذهاب الإسلام وعموم الكفر، وذلك ـ لو كان ـ سبب للعذاب كما كان في الأمم الماضية مثل قوم نوح ومن بعدهم، وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي إ : ((فالحرث: الزرع، والنسل: نسل كل دابة)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ كالبرهان على كذب المنافق في دعواه المذكورة؛ لأنه لو كان صادقاً لكان شأنه أن يسعى لما يحبه الله.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

وفيه تقريع له وتجهيل حيث جعل الفساد مكان الصلاح، كما لو وفد على رجل ضيف فعذبه فقيل في ذلك: ما هذه ضيافة جيّدة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ ﴿أَخَذَتْهُ﴾ استولت عليه وسيطرت عليه، وصرفته عن التقوى، و﴿ٱلْعِزَّةُ﴾ عزته في نفسه واعتزازه ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ بتولي الكفار وظنه أن العزة لهم، كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء:١٣٩] وقولهم: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ﴾ [المنافقون:٨] فلأجل محافظته على هذه العزة لا يتقي الله؛ لأنه يظن أن الإسلام سيذهب، وأن الكفر سيكون الغالب لما يرى للكفار من قوة في العدد والعدّة وللمسلمين من قلة العدد بالنسبة للكفار وقلة المال والعُدّة، فالعزة عنده في تولي الكفار وبقائه على النفاق، فعزته بالإثم صرفته عن تقوى الله التي منها: ترك النفاق، وترك موالاة الكفار في الخفاء، والإيمان كما آمن الناس.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ﴾ جزاءً لجرائمه كلها ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ مهّد لنفسه، فقد كان يظن أنه بالنفاق يمهد لنفسه لحين غلبة الكفار على الإسلام، فإذا الواقع أنه مهد لنفسه جهنم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ﴾ يبيعها من الله لإيمانه بالله واليوم الآخر وزهده في الحياة الدنيا ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ لحبه لله ورغبته في النجاة من عذابه وفي ثوابه العظيم.

﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فهو يشتري منهم أنفسهم بأن لهم الجنة ويرضى عنهم ببيعهم أنفسهم، وأعدّ لهم أجراً عظيماً وفضلاً كبيراً؛ إذ ليس من الرأفة أن يبيعوا له أنفسهم ويتحملوا المشقة ليرضوه ثم لا يرضى عنهم، أو لا يعظم لهم الثواب ويصيرهم في أسعد حال، وهذا وعد مؤكد تأكيداً عجيباً من حيث أنه عبّر عنه بما هو برهان عليه، وروي أن هذه الآية نزلت في علي × .

وروى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) [ج١: ص١٣٠] عن الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) قال: ((أول من شرى نفسه لله ـ عزَّ وجل ـ عليّ، ثم قرأ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾)) ومثل هذا رواه محمد بن سليمان الكوفي في (مناقبه).

ورواه الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) بإسناده عن أبي سعيد الخدري قصة مبيت علي × على فراش النبي ص، وفي آخرها: ((فأنزل الله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾)) وفي تخريجه للشيخ المحمودي: أنه أخرجه الثعلبي في تفسير الآية من تفسيره (الكشف والبيان).

وروى الحاكم أبو عبد الله النيسابوري في (المستدرك) [ج٣: ص٤] عن ابن عباس قال: ((شرى علي نفسه، ولبس ثوب النبي ص، ثم نام مكانه)).

ورواه أحمد بن حنبل في (المسند) [ج١: ص٣٣٠ ـ ط١] قال المعلق على (شواهد التنزيل): ورواه الطبراني مطوّلاً في مسند عبد الله بن عباس من (المعجم الكبير) [ج٣ / الورق- ١٢٨] انتهى المراد.

وفي (شواهد التنزيل) [ج١: ص١٢٧ـ ١٢٨] عن ابن عباس أنه قال: أنام رسولُ الله ص علياً على فراشه ليلة انطلق إلى الغار، فجاء أبو بكر يطلب رسول الله ص فأخبره علي أنه قد انطلق فاتَّبعه أبو بكر وباتت قريش تنظر علياً وجعلوا يرمونه، فلما أصبحوا إذا هم بعلي فقالوا: أين محمد؟ قال: لا علم لي به، فقالوا: قد أنكرنا تضوّرك، كنا نرمي محمداً فلا يتضوّر وأنت تتضور، وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾.

وَرَوَى نحوه بإسناده عن السدّي، وفي الباب روايات غير ذلك في مستدرك الحاكم، وحكاه في تعليق (شواهد التنزيل) عن ترجمة الإمام علي × من (تاريخ ابن عساكر) في ترجمة الإمام علي × وغيره.

أقول: وإن علياً × مظنة ذلك وأهله لسائر الروايات الدالة على أنه × فدى رسول الله ص بنفسه ليلة الغار فأما شراؤه نفسه من الله فلا شك فيه ومقاماته تشهد بذلك في (بدر) و(حنين) و(الخندق) و(خيبر) و(أحد) وحديث الراية يدل على ذلك مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:١١١] وهو رأس المؤمنين الذي ((بحبه يعرف المؤمنون)).

فصح أنه × قد شرى نفسه من الله وأنه داخل في الآية دخولاً أوّليّاً، وهذا يقوّي الرواية أنها نزلت فيه، وليس المراد أنها خاصة به × ؛ إذ ليس في الآية دلالة على الخصوص، وقد دل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ [التوبة:١١١] على العموم لكل مؤمن صادق الإيمان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]

فيدخل فيها الأئمة المجاهدون في سبيل الله من ذرية رسول الله، كالحسن، والحسين، وزيد بن علي، ويحيى بن زيد، ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وأخوته، والحسين بن علي بن الحسن بن الحسن المقتول بفخ، وغيرهم.

وقد ذكر الإمام الهادي × في أواخر كتاب (الأحكام) كلاماً في هذا جرّ إليه البحث، فقال × : بعد أن ذكر الحديث عن جبريل أنه قال: ((إن يوم الجمعة يوم القيامة، وفيه تقوم الساعة)) قال يحيى بن الحسين: ((ما زلت مذ رويت هذا الحديث يدخُلُني في كل يوم جمعة وَجلٌ وخوف، وما ذلك من سوء ظني بربي ولا قلة معرفة مني برحمة خالقي، ولكن مخافة من لقائه ولم أقم بما أمرني بالقيام به، وأنهض بما حضّني على النهوض فيه وجعله أكبر فرائضه عليّ وأعظمها عندي ولديّ في مباينة الفاسقين ومجاهدة الظالمين والنصرة لدين رب العالمين، وإني لأرجو أن يكون الله سبحانه لا يعلم مني تقصيراً في طلب ذلك، ولكن لا راغب في الحق ولا طالب له من الخلق ولا معين لي عليه ولا مؤازر لي فيه، ولقد دعوت إلى ذلك فعُصيت ونهضت فيه فخُذِلت وخُلّيت ودعَوت إلى الرحمن وجهدت في إحياء ما أُميت من الإيمان فصُمَّتْ آذان هذا الخلق عن دعوتي وزهدوا فيما خَبَروا من حقائق سيرتي، وخُولفت في أمر الله فلم اتُّبَع، وعُصِيت حين دعوت إلى الله فلم أُطع، فقلت: رَبّ إني لا أملك إلاَّ نفسي، فبِعْتُها منه ومالي؛ في جوف الكعبة البيت الحرام؛ بما بذل لي من الثمن الربيح ذو الجلال والإكرام حين يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٠٩﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

[التوبة:١١١] ثم انتظرت أمر الله وأرصدت لذلك حتى يفتح الله ويأذن فيما طلبت من إحياء حقّه إذْنَ معونة وتسديد وتوفيق لذلك، وتأليف بين قلوب العباد الذين يرجَى بهم إصلاح البلاد أو نلقاه سبحانه على ذلك عازمين وبه متمسكين)) انتهى.

نقلته لما فيه من الفوائد المتعلقة بالآية، وكونه تفسيراً لها.

﴿٢٠٨-٢١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ قرئ ﴿السَّلم﴾ بفتح السين وكسرها، وفسر ﴿ٱلسِّلۡمِ﴾ هنا بالإسلام، ولكن الإسلام الذي بمعنى إسلام الوجه لله لا يناسبه السياق؛ لأن كل الذين آمنوا قد أسلموا بهذا المعنى، ولو قال: أسلموا لصح حمله على المستقبل بلا إشكال، فأما قوله تعالى: ادخلوا فإنه لا يقال لمن هو داخل فلا بد أنه الإسلام للنفس كلها كالإسلام في قوله تعالى لإبراهيم الخليل: ﴿أَسْلِمْ﴾ وقوله تعالى فيه وفي إسماعيل: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [الصافات:١٠٣] والفرق أن الأول معناه عبادة الله وحده، والثاني معناه تسليم النفس لله.

وهذا التسليم للنفس يتفاوت، فقسم منه تسليم السابقين الذين يجعلون نياتهم وأعمالهم كلها فيما يرضي الله فلا يعملون شيئاً لهوى النفس حتى المباحات لا يستعملونها إلاَّ لتعين على الطاعة والقربات، وإذا تعارضت القُربة والمباح تركوا المباح واستغرقوا في الطريقة هذه ليلهم ونهارهم وكل أحوالهم وكل معاملاتهم توصلاً إلى مرضاة الله وقسم من التسليم للنفس

تخصيصها في كل أمر واجب، وفي اجتناب كل محظور من غير فرق بين ما يشق على النفس وما يسهل وما تهواه وما لا تهواه لاعتبارهم أنفسهم لله ليس لهم منها شيء حتى اجتنبوا الشبهات، وأقاموا الصلوات وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم تسليماً لها لله.

ومن هذا القسم رفضهم لاتباع الهوى في حكم أو مذهب أو تفسير آية أو حديث أو نحو ذلك أو فتوى أو أمر أو نهي قبل تحقق أن ذلك حق، أي رفض اتباع الهوى بغير هدى من الله، ومن هذا القسم ترك المعاونة في خصومة لأجل الهوى قبل تحقق أنه مع الحق، ومن هذا القسم اجتناب الدخول في حزب من الأحزاب قبل تحقق أنه على الحق لأجل هوى النفس، وعلى الجملة محاربة هوى النفس إلاَّ فيما تحقق أنه حقٌ بناءً على أنه ملك لله ليس له من الأمر شيء.

وهذا القسم مثل الأول لا فرق بينهما إلاَّ في أمرين المباح المتحقق إباحته يعملونه ويستعملونه؛ لأن الله أباحه، والقربات غير الواجبة واجتناب المكروهات غير المحرمة يلتزمه أهل القسم الأول بقدر طاقتهم، ولا يلتزمه أهل القسم الثاني؛ لأن الله رخص لهم.

فقد ظهر للإسلام بمعنى القسمين المذكورين مناسبة للآية التي قبلها؛ لأن أعظم ما يحقق تسليم النفس لله بذلها لله بالجهاد في سبيل الله وبذل المال في ذلك، ومناسبة لقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ من حيث أن بعض المخالفين غافل عن هذا المعنى وعن الإلتزام به بمعنى تسليم النفس لله ورفض هوى النفس إلاَّ فيما لا يعارض التسليم المذكور، وقد فسر السلم بالإستسلام وهو صحيح بمعنى تسليم النفس.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ فإتباع خطوات الشيطان طاعة للنفس وللشيطان بمعصية الله، وهو معارض لتسليم النفس لله، وفي قوله تعالى: ﴿خُطُوَٰتِ﴾ تحذير من الشيطان أن لا يتبعه في خطوة واحدة يخطوها، فاتباعه في خطوة واحدة يعينه على الإنسان فيطالبه بالخطوة الثانية ثم الثالثة فيوقعه في أكبر من الخطوة الأولى ثم أكبر من الثانية ثم أكبر من الثالثة حتى يصير من حزب الشيطان.

﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ أصل الزلل: زلل القدمين في شيء يزل بهما كالطين، ويستعمل في الهفوة والمعصية الواقعة وحدها ليس فاعلها من المصرين على المعاصي قبلها، فإن وقعت الزلة منكم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الدلائل البينات التي تبين الحق القاطعةُ للعلة ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ﴾ لا ينال، فلم يُعْصَ مغلوباً، وإنما تركهم تعصونه لأنكم في دار اختبار.

وسيجازيكم إن لم تتوبوا؛ لأنه ﴿حَكِيمٞ﴾ لا يترك عباده يعملون المعاصي إهمالاً إنما يتركهم اختباراً؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ففي هذا وعيد مؤكد بالبرهان كأنه تعالى يقول: لا تحسبوا أنه يترككم تعصونه وتصرون على عصيانه دون أن يعاقبكم؛ لأن ذلك لا يليق بعزته، ولا يجوز في حكمته.

قال الشرفي في (المصابيح): وقال × ـ يعني الإمام القاسم بن محمد × ـ في هاتين الآيتين: ((تدلان على وجوب الدخول فيما وضح دليله من الدين على الناس كافّة، وعلى تحريم اتباع خطوات الشيطان من مخالفة الحق، وأن الوعيد لمن زل عن الحق ولم يرجع، وان ذلك من الكبائر)) انتهى.

ولما تقدم ذكر ألدّ الخصام رجع الكلام إليهم في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظرون ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ في (سورة النحل): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [آية:٣٣].

وفي (سورة الأنعام): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [آية:١٥٨].

قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كقوله تعالى في أهل الكتاب: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر:٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل:٢٦].

والمعنى: أنه تولى إذلالهم وقهرهم من حيث لم يتوقعوا، وذلك بقذف الرعب في قلوبهم، وأنه تعالى تولى هدم بنيانهم بهدم قواعده، فكذلك قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي كما أتى أهل الكتاب بأن يتولى الإتيان بعذابهم ﴿فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ ينتظرون منها المطر كما فعل بعاد حين أتاهم العذاب ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤] ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يأتون مع ذلك بأمر الله لهم بعذاب آخر، أو بما يزيد عذاب الله شدة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي بينهم وبين الرسول ص كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام:٥٨] فهو رسول أرسله الله إليهم لينذرهم العذاب فإذا جاءهم العذاب ذهب وقت الإنذار وانقطع الخوض بينهم وبين الرسول، فظهر: أن الآيات سواء في المعنى.

سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

وفي (آية الأنعام) زيادة: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [آية:١٥٨] والمراد: أنه لا يفيد فيهم شيء من الآيات والنذر، فلا ينتظر شيء يؤمنون لأجله، فالحصر إضافي، وجعلوا منتظرين للعذاب؛ لأنهم متعرضون له كافرون بالآيات لا يؤمنون حتى يروا العذاب ﴿يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] يستعجلون بالعذاب تكذيباً به، ويطالبون بآية يؤمنون بها وهم لا يؤمنون إلاَّ بالعذاب، فانتظارهم للآية على فرض صدقهم في المطالبة انتظار للعذاب، والحاصل أنهم في حالهم كالمنتظرين للعذاب ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فأَرْجِعْ يا محمد أمرهم إلى الله وكلهم إلى قضائه.

﴿٢١١﴾ ﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةم بَيِّنَةٖ﴾ فهم لا يجحدون تلك الآيات البينات المذكورة في أول السورة، ولا يخفى عليهم أنه آتاهم في التوراة آيات كثيرة تهديهم إلى الحق لو اتبعوها، وكل الآيات نعمة من الله عليهم؛ لأنها تدلهم على الخير والسلامة من العذاب.

﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وهذا إنذار لبني إسرائيل الذين بدلوا آيات الله التي في التوراة بما يفترونه كما تقدم.

﴿٢١٢﴾ ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ لغفلتهم عن دلائل الإيمان بالآخرة وعدم إيمانهم بها، فليس لهم ما يزهدهم في الحياة الدنيا؛ لأنهم لا يرونها متاع الغرور، ولا يزهّدهم فيها خوف من النار ولا رغبة في الجنة.

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ

﴿وَ﴾ لذلك ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لضعف حالهم من ناحية المال والزينة وإقبالهم على العمل للآخرة ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا و﴿ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين تنقلب الحال بإعزاز أولياء الله ورفع درجاتهم وإهانة أعداء الله عزّ وجل.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ لئلا يتوهم أن التصديق بلا تقوى يكفي أو لأن الذين اتقوا مطابق للذين آمنوا؛ لأن الإيمان الصحيح هو إيمان المتقين، فأتى بذكرهم لإفادة هذه الفائدة من حيث أقام الذين اتقوا مقام كلمة الذين آمنوا، وهذا الوجه أظهر.

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ دليل على أن ما بأيدي الكفار من نعمة الله لم يكن إلاَّ بمشيئة الله اختباراً لهم، ليس كما يتوهمون من الحظ ويمن الطائر بحيث يقول المحظوظ: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا﴾ [الكهف:٣٦] بناءً على أنه صاحب حظ وقبول، وجهله أن ذلك من الله بمشيئته.

وقوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ دلالة على أن ما عند الله لا ينفد، فلا يحتاج إلى الحساب، إنما يحتاج إلى الحساب من يخشى نفاد ما عنده، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فإنه يرزق من يشاء، فالأمر فيها لله وحده وسيرزق الذين اتقوا بغير حساب؛ لأنه لا ينفد ما عنده، ولأن نعيمهم لا ينفد فالآية شاملة للفريقين.

بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ

﴿٢١٣﴾ ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على دين واحد، فاختلفوا، أو علم الله أنهم سيختلفون ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي مع النبيئين ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ لأن الكتاب يكون معروفاً بينهم لا يجحدونه، فمن خالفه كانت الحجة قائمة عليه ولم تكف الروايات عن أنبيائهم؛ لأنه يكون في الروايات الخلاف في صحتها، والكذب على أنبيائهم.

﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ﴾ أي في الكتاب ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ اختلفوا فيه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ فالاستثناء شامل لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ أي ما اختلف فيه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ وما اختلفوا فيه إلاَّ ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ فدل على أنهم لم يختلفوا عن جهل بما في الكتاب؛ لأنهم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ أي عُلِّموه ولا اختلفوا عن عدم الدلائل البينات فيه أو فيه وفيما حفظ متواتراً عن أنبيائهم، فدل مجموع ذلك على أنهم اختلفوا والحجة قائمة والحق واضح لطالب الحق، ولكن اختلفوا ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ من أجل الهوى؛ لأنه يصد عن سبيل الله.

﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنهم لم يغلبهم هوى النفس عن تحكيم الكتاب فيما شجر بينهم ولم يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى وسلموا للحق تسليماً فهداهم ﴿لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي لما اختلف الآخرون المخالفون لهم فيه ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ﴾ لأن مطلوبهم الحق لا ما تهوى الأنفس.

وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ متعلق بهَدى، ولا حاجة لتقدير فاهتدوا بإذنه لإمكان أن المعنى: فهداهم بإذنه أن يهتدوا، أي الإذن الكوني لا مجرد الإذن التشريعي ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فينبغي التعرض لهدايته بالإيمان الصادق واجتناب موانعها.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ يفيد: الإذن بأن يهتدوا، وذلك يستلزم التمكين ومنع الصوارف، ومعنى الاختلاف في الكتاب بين أهله الذين أوتوه هو الاختلاف في دلالته في محل النزاع حيث يدعي بعضهم دلالة الكتاب على مذهبه وينفيها الآخر، فالاختلاف في دلالة الكتاب اختلاف في الكتاب؛ لأن الدلالة كالصفة للكلام والاختلاف في الصفة يسمى اختلافاً في الموصوف لأن المختلفين في الصفة يتكلمون في الموصوف.

ألا ترى أن هذا يقول: دل الكتاب على كذا، والآخر يقول: لم يدل على ما ادعيتم، فكلاهما متكلم في الكتاب وقد دلت الآية أن القرآن حاكم بين الأمة فيما اختلفوا فيه بسبب الأهواء مثل ما سببت له السياسات الدولية كالخلاف في الجبر والتشبيه والإمامة والوعيد؛ لأنه حاكم بينهم فيما اختلفوا فيه من الدين على الإطلاق، وجعله حاكماً دليل على أنه لا يَحكم عليه رواية قول إمام أو شيخ، أو رواية عن النبي ص بل يتبع القرآن ويرد ما خالفه أو يؤول، وجعله حاكماً دليل على أنه لا يؤول من أجل رواية خالفته أو نحوها.

وجعله حاكماً بين الناس دليل على تيسر فهمه للناس كلهم لا يختص بإمام ولا شيخ؛ لأنه قال: ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلا بد من إمكان فهم الناس لحكمه، وليس عجز بعض الناس عن فهمه إلا لعدم معرفته بالعربية، أو هوى في نفسه يصده عن تفهمه؛ لا لكون القرآن غامض الدلالة في نفسه.

ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ

وقد وصفه الله بكونه ﴿مُبِينًا﴾ [النساء:١٧٤] ونحو ذلك، فأما ما فيه من الفوائد الغامضة فهي زائدة على مفهوم الكلمة الواحدة بإضافة آية إلى آية، أو إضافة الكلام إلى دليل العقل أو نحو ذلك، ولا يجوز جعل معانيه خفية غير ظاهرة لأنه نزل على العرب بلسانهم قطعاً، ولا يقبل إثبات معان غامضة لا يتوصل إليها بالمعنى الظاهر بطريقة معقولة بل بدعوى إلهام أو وحي جديد، وما قيل من المعاني بطريقة المناسبة فلا يعمل به ولكن ينزل منزلة تأويل الرؤيا ولا يعتبر من معنى القرآن فلا يحكم به.

وليس غموض الحكمة في بعض الكلمات من غموض المعنى؛ كالحروف في أوائل بعض السور مثل ﴿حم﴾ لأن المعنى ظاهر؛ فمعنى الحاء معروف في حروف الهجاء وهو منها، وكذا الميم معناها معروف، والخفي هو الحكمة في الإتيان بالحرفين، ويستعان بالعترة الأطهار على فهم غوامضه التي تعرف بما ذكرته آنفاً، وكذلك عند قصور الفهم بسبب قصور القارئ لقلة علمه باللغة العربية، وليس المراد تقليد الواحد منهم؛ لأن القرآن هو الثقل الأكبر، ولكن ليبينوا وجه الدلالة حتى يفهم السائل معنى الآية.

ومن المؤسف أن أكثر الأمة عكسوا وحكَّموا عليه غيره وتجاهلوا معناه وتعاموا عنه؛ فمن قائل: ((السنة حاكمة على القرآن)) ومن قائل: ((الشيخ)) ومن قائل غير ذلك، مع أن قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] وغيرهما يدل على عموم هدايته لكل مؤمن، أي أن كل مؤمن يصلح للإهتداء به.

ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ

﴿٢١٤﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾ هذا خطاب للذين آمنوا يدل على خطئهم في ظنهم إن ظنوا أنهم يدخلون الجنة من دون أن ينالهم الابتلاء الشاق كما نال من قبلهم من الرسل وأتباعهم ويصبروا كما صبروا.

وقوله: ﴿أَمْ﴾ فيها معنى (بل والهمزة) كأنه قيل: بل أحسبتم، ولعل الإضراب راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي لا يكفيكم العزم على التوبة والرجوع إن زللتم، بل لا بد من استعدادكم لتحمل المشاق في ابتلائكم بالجهاد وغيره، أو الإضراب راجع إلى أقرب من ذلك آية تحكيم القرآن، أي لا يكفي استعدادكم لذلك بل لا بد من الاستعداد لجهاد أعداء الله المخالفين لكتابه إن أردتم الجنة.

وقوله: ﴿وَلَمَّا﴾ (الواو) للحال أي في حال أنه ﴿لَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ ومثل الذين خلوا ما نالهم من الشدة، كأنه مَثَلٌ في اشتهاره، وكونه عبرة لغيرهم؛ لأن الأمثال تضرب ليلحق بها ما كان مثلها في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَأْتِكُم﴾ دليل على أن إتيانه أي إتيان مثله متوقع أي سوف يكون، ثم ذكر مثل الذين خلوا، فقال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ﴾ حالة البؤس بالفقر ونحوه ﴿وَٱلضَّرَّآءُ﴾ حالة الضر بالأمراض ونحوها.

﴿وَزُلْزِلُوا۟﴾ بالحروب والتخويف من أعدائهم وامتدت مدة ذلك ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ﴾ أي رسولهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ أي استمرت الشدة وهم يطمعون في النصر يقولون: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾؟ لشدة شوقهم إلى النصر، وضجرهم مما نالهم.

بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ

﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ هذا جواب سؤالهم؛ وهو يفيد قرب نصرهم، ثم إنه قد وقع نصرهم كما أخبر الله لأنه أصدق القائلين، وفي هذا عبرة لنا إذا ابتلينا لنتوقع النصر ولا نقنط منه؛ لأن السياق يدل على إتيان المثل بتمامه؛ وتمامه انتهاء الشدة بالنصر.

﴿٢١٥﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ ولعل سبب سؤالهم أنهم لا يجدون ذهباً ولا فضة وما لديهم من القوت ونحوه قليل؛ وبعضه يستبعدون أن يكون إنفاقها مأموراً به كالبيوت وآلة الحرث وآلة سقي النخل.

﴿قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا الجواب اشتمل على إفادتهم في سؤالهم لأن قوله: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ مطلق يتناول القوت وغيره مما ينتفع به، واشتمل على زيادة بيان من يُعطَى، فإعطاء الوالدين مطلق؛ لأنهما إن كانا محتاجين عاجزين وجب إعطاؤهما الكفاية لهما، وإن كانا غنيين أعطيا ما تيسر براً لهما وصلة وكذا الأقربون.

وهذه الآية تعم الوارث وغيره، كالآية الماضية: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:٩٠] فتدل هذه الآيات على وجوب إيتائه ولو لم يكن وارثاً؛ لوجود مسقط مثل الأخ مع وجود الأب، ولا جهالة في ذلك ولا التباس؛ لأنه إن كان محتاجاً فكيف يشكل الأمر بإيتائه وهو محتاج، وإن كان غنياً فلا إشكال في الأمر بإيتائه صلة له والإنفاق للحاجة على قدرها والإنفاق للصلة يكفي فيه ما يعد إحساناً وصلة ورعاية للرحامة ولو قليلاً من المُقِل لأنه لا يعاب إذا قلّت عطيّته بسبب إقلاله.

وهذا لأن قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ وهو لا يخصص العموم إنما هو نص على بعض أفراده، وفيه دلالة على وجوب الإنفاق بسبب المولود على المرضع، وأن الإنفاق على الوارث أوجب، وأن وجوبه عليه قبل الوجوب على غيره، ولا يدل على أنه لا يجب على القريب إذا عجز الوارث أو امتنع ولم يمكن إجباره، أو كان غائباً يحصل الضرر بانتظاره أو انتظار مراسلته، ولا مال له حاضر ينفق منه الحاكم،أو لا حاكم ولا يتهيأ الأخذ منه، ففي هذه الأحوال ينتقل الوجوب إلى القريب لئلا يموت المولود أو يتضرر بالإهمال.

والأقربون: يعم الولد وولد الولد ذكورهم وإناثهم، والإخوة والأخوات، بدليل (آية المواريث) مع قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٧] ففصل ميراث الأقربين بما في آية المواريث، وأما ذو القربى فهو يعم الأعمام وذريتهم.

والكلام في اليتامى كالكلام في الأقربين؛ فإن كانوا أجانب كان الوجوب على الأقربين أسبق إن أمكن الإنفاق من القريب هذا في الإنفاق للحاجة، فأما الإنفاق للتأنيس فيعم القريب والبعيد ويكفي منه القليل الذي يحصل به التأنيس بالنسبة إلى اليتم.

وأما المساكين: فقد مرَّ الكلام فيهم في آية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ..﴾ وكذا ابن السبيل، هذا وأما وجوب الإنفاق في سبيل الله فقد سبق الأمر به

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ واجب أو تطوع ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وهذا ترغيب في فعل الخير كله.

وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على وجوب نفقة الوالدين، والأقربين، واليتامى، والمساكين، والمسافرين المنقطعين، حيث لم يجدوا النفقة، وعلى مواساتهم استحباباً حيث كانوا يجدون ذلك، فقد حث الله على ذلك في قوله: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾)) انتهى.

﴿٢١٦﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي فرض عليكم، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ﴾ أي تكرهه النفوس من الناحية الطبيعية، وهذا هو الأصل في الطبيعة ولا ينافيه رغبة السابقين فيه؛ لأنهم يرغبون فيما يشق عليهم رغبة في فائدته، فهو مكروه من ناحية المشقة، مرغوب من ناحية الفائدة.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي يقرب أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم لأن الكره يكون لما يشق على النفس وإن كانت فيه فائدة عظيمة إذا كانت مغيبة يجهلها الإنسان أويغفل عنها والنفس مولعة بحب العاجل، فالإنسان بطبعه يكره فراق بيته وأهله وماله وأصحابه ولا يدري يعود إليهم إذا ذهب للجهاد أم لا، مع أن الجهاد في سبيل الله خير له.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ لأن نفوسكم تنظر إلى وجه الرغبة وتجهل ما فيه من الشر أو تغفل عنه.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ لأنه علام الغيوب؛ فهو يعلم الشيء في حال أنا لا نعلمه لكثرة ما نجهل؛ وما أوتينا من العلم إلا قليلاً،

فهو سبحانه وتعالى يعلم ما هو الخير لنا وما هو الشر، ونحن نجهل كثيراً من ذلك، فما دلنا عليه من الخير كالجهاد في سبيله؛ فعلينا أن نؤمن بخيره ونرغب فيما دلنا عليه لأنه الخير في الواقع وإن شق على النفوس؛ لأن المشقة تنتهي وتبقى الفائدة أبداً.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال ـ أي الإمام القاسم بن محمد × ـ : ((هذا نص صريح في أن الجهاد فريضة من الله وإن كان كرهاً للناس)) انتهى.

قلت: قد دل القرآن على وجوب الجهاد في هذه الآية وفي غيرها، ودل على أنه من شأن المؤمن.. الفارق بينه وبين مدّعي الإيمان.. وإنما آمن بلسانه دون قلبه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٤-١٥] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٦].

وهذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ ترد على من يمنّي نفسه أن قد قام بفريضة الجهاد؛ لأنه يجاهد نفسه وهو الجهاد الأكبر، أو لأنه يجاهد بقلمه، ويحتج فيما يكتب على بطلان أقوال الكفار، ويدافع عن الإسلام بقلمه ولسانه، وهذا كله وإن كان جهاداً فهو لا يكفي عن بذل النفس في سبيل الله، وإذا صدق في جهاد نفسه فمنه بيعها من الله وحملها على القتال في سبيل الله، وتعريضها للقتل أو الغلبة؛ للقيام بما فرض الله عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة:١١١].

ومن الناس من يقول: لو كان جهاد لجاهدت، ويظن أن نيته لذلك تكفيه دون أن يعمل لتحصيل الأنصار والقوة؛ بل يكتفي بانتظار اجتماع جيش ذي عدة ولعل الآخرين مثله، كل منهم ينتظر وينوي أن يجاهد إذا جاء جهاد.

أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ

ولعل كثيراً من الناس لو علم وجوب الجهاد وإعداد القوة لاستعد للجهاد ولكن الناس لا يذكرون له الجهاد ولا يأمرونه بالإعداد، فهل الجهاد يأتي الناس وهم قاعدون لا يدعو إليه أحد ولا يستعد له أحدٌ كما يأتيهم شهر رمضان، وشهر الحج، وأوقات الصلاة!!

إذاً فانتظار الجهاد كانتظار الصلاة، أما إذا كان الجهاد لا يكون إلا بالاجتماع له والإعداد له والتداعي إليه والتواصي به والحث عليه والتخويف من الاتكال على الأعذار فإنه يلزم الذين يريدون امتثال أمر الله والقيام بفرضه تحصيل ما لا يتم إلا به، والتماس الأنصار والقوة، والعمل على جلب المحبة والإخاء وتأليف القلوب للقيام بالواجب، وأن يحذروا أن يكونوا كمن أمر بطلوع السطح فقال لا أستطيع ليس عندي سلم؛ وهو يستطيع التماس السلم والصعود عليه، وليعتبروا بالإمام القاسم بن محمد × في جهاده وصبره ومصابرته حتى انتصر، وكذلك الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين، وكذلك الناصر الأطروش، وغيرهم من أئمة الهدى الذين باعوا أنفسهم من الله صادقين.

﴿٢١٧﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ ما حكمه؟ وما حرمته؟ أي هل يجوز القتال فيه؟! ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ إثم عظيم ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وما عطف عليه مبتدأ؛ خبره قوله: ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿وَكُفْرٌۢ بِهِۦ﴾ أي بالله ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي صد عن المسجد الحرام ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ﴾ هذه الأربع الجرائم كلها ﴿أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ من القتال في الشهر الحرام، فالجاهلية كانوا يحرمون القتال في الشهر الحرام ويستحلون تلك الجرائم؛ فيصدون الناس عن الدخول في الإسلام الذي هو سبيل الله، ويكفرون بالله بإنكارهم للبعث، ويصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله ص عام الحديبية وأخرجوا أهل المسجد الحرام منه؛ حيث ألجئوهم إلى الهجرة من مكة وحرموهم البيت العتيق وهم أهله وأولياؤه؛ وليس للكفار من ولاية المسجد الحرام شيء، فهذه الجرائم أكبر عند الله.

وروي أن سبب نزول الآية هذه: أن بعض المسلمين قتلوا رجلاً وهم لا يعلمون أن قد دخل شهر رجب وادعى المشركون أن شهر رجب قد كان دخل وأنهم قتلوه في رجب وضجوا من قتله في الشهر الحرام؛ فردّ الله عليهم بأنه لا يحل القتال في الشهر الحرام، وأنهم يفعلون ما هو أكبر عند الله.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ لمن أسلم بتعذيبهم له ليرجع عن الإسلام إلى الشرك ﴿أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ وقد كان الكفار يفتنون من أسلم ولا يبالون في ذلك بحرمة الشهر الحرام ولا حرمة الحرم.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ فهم في جرائمهم مستمرون، وعليكم أن تقاتلوهم كما أمرتم في الآية الأولى، وتصبروا وتصابروا حتى لا يستطيعوا ردكم عن دينكم.

﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ أي بطلت وذهبت كما يموت الحيوان إذا حبط من بعض المأكول.

هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ

﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ فلا تبقى لهم حرمة الإسلام بل يقتلون إن لم يتوبوا قبل أن يموتوا ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ فلا ينفعهم إسلامهم قبل الردة أي نفع ولا شيء من عملهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أصحاب النار هي لهم مستقر ومقام وهم أهلها ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ هم فيها باقون لا يموتون ولا يخرجون.

﴿٢١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ لأنهم يعلمون أنهم بإيمانهم وهجرتهم وجهادهم مظنة أن يرحمهم الله فيصرف عنهم عذاب جهنم، فهم لكونهم في سبيل الله يرجون رحمة الله مع كونهم يحذرون الآخرة ويخافون سوء الخاتمة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فقد أصابوا في رجائه من حيث أن سببه صحيح، ومن حيث أنهم يرجون رحمة الغفور الرحيم؛ الذي هو أهل أن يرجى لأنه أهل أن يغفر ويرحم، وهذا الرجاء الصحيح المحمود إذا حصل للمؤمن المهاجر في سبيل الله المجاهد في سبيل الله حصل له به فرح وسرور، ورغبة في الإستمرار على سببه، ونشاط في العمل، بخلاف المتمني المخادع لنفسه المتبع لهواه العامل عمل النار وهو يدّعي أنه يرجو رحمة الله فإنه يزداد فجوراً وبعداً عن التوبة.

وإني لأظن أن الرجاء القلبي خاص بالمؤمن، وأن الفاجر بفقده للإيمان الصادق غافل عن الآخرة لا يدخل قلبه رجاء كما لا يدخله خوف لعدم إيمانه بالآخرة إيماناً يبعث على الإستعداد لها فادّعاؤه للرجاء إنما هو قول بلسانه أما قلبه فهو غافل عن الآخرة.

وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ يؤخذ منه جواز قتالهم إذا قاتلوا في الشهر الحرام، كما جاز قتالهم في الحرم إذا قاتلوا فيه.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ ﴿ٱلْخَمْرِ﴾ عصير من العنب أوالتمر يغطى أياماً نحو سبعة أو أكثر أو أقل حتى يصير مسكراً وحينئذ يكون خمراً، وقد جاءت روايات تفيد تحريم كل مسكر وفي بعضها: ((كل مسكر خمر)).

﴿وَٱلْمَيْسِرِ﴾ هو القمار، وحاصله: طائفتان يحضران مالاً، ثم يستعمل كل فريق ما يأخذ به المالين من العمل المصطلح عليه أو يستعملا القرعة أو نحوها فيأخذ أحدهما المالين ويخسر الآخر ماله بدون عوض، وكانت الجاهلية يفتخرون بشرب الخمر وإتلاف المال فيه ويفتخرون بالميسر وكانوا يأخذون ما أخذوه بالقمار ويقسمونه للفقراء فيفتخرون بالميسر لذلك، ولعلهم هم الذين سألوا رسول الله ص لينظروا ما هو حكم الإسلام في الخمر والميسر.

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ على من استعملها؛ لما في الخمر من تحريمها، ولعنها، ولعن شاربها، وبائعها، ومشتريها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه؛ وذلك لأنها أم الخبائث تجر إلى السكر وما يكون مع السكر من الخبائث، ويستعان بها على الزنا واللواط، كما قال الشاعر:

لها محبان لوطي وزنّاء

وقد يزني السكران بأخته، وقد يقتل ابنه أو غيره لسكره؛ فيؤدي إلى العداوة، ومع فرط خبثها يولع بها صاحبها حتى كأنه مضطر إليها فيستمر عليها حتى يموت إلا من وفقه الله وأعانه على تركها.

وأما إثم الميسر فلأن الله حرمه وفيه ظلم للغارم لأخذ ماله بالباطل وتسبيبه للعداوة والبغضاء لأنه يجحف بالغارم ويغيظه إذا عظمت غرامته، وقد بين الله مفاسدهما بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١].

﴿وَمَنَفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ والمنافع: أصغر من الإثم لا تعادله كالتجارة في الخمر، وإطعام المساكين في الميسر، فهذا لا يعادل تحريمهما وما فيهما من المفاسد، وفائدة ذكر أن فيهما منافع الرد على من يجادل عنهما من الكفار، فكأنه قيل: إنهما وإن كان فيهما منافع فـ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ لا تعادله المنافع، فلا تعارض تحريمهما

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ سبق الجواب على هذا السؤال بذكر ما يفيد أن المنفَق أيّ خير وأن الإنفاق للوالدين ومن ذكر معهما، وهنا زيادة جواب لتحديد المنفَق وهو العفو وهو ما يفضل عن الحاجة الصادقة لا الحاجة النفسية التي هي حاجة الشحيح والطامع في الشهوات ويقدم الأوجب فالأوجب، وأما الإيثار على نفسه فهو فضيلة

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ فآيات الله مبيَّنات للمكلفين لا تخص الشيخ ولا الإمام وبالتفكر فيها يهتدي قارؤها للمعنى؛ ومن التفكرِ، التفكرُ فيما أشارت إليه من مفاسد الخمر والميسر، والتفكر في رحمة الله بعباده حيث لم يكلفهم الإنفاق المجحف، وفي رحمة الله بمن أوجب الإنفاق عليهم، وفي رحمته بالأمر بالإنفاق في سبيل الله لئلا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، ولإعلاء كلمة الله ليسعد الناس في الآخرة ويدفع الظلم ويسود العدل

وَٱلْأَخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ

كما أن إنفاق المال للظلمة المفسدين في الأرض عكس ذلك، ومن التفكر في آيات الله التفكرُ في هدايته للخير العاجل والآجل، كما تدل عليه في مواضع عديدة من القرآن، فهي تهدي إلى الخير للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة فآياته مبينات

﴿٢٢٠﴾ ﴿فِي﴾ شئون ﴿ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ إذا تفكرتم فيها اهتديتم إلى خير الدنيا والآخرة، ألا ترى أن الناس لو عملوا بها في الإنفاق في سبيل الله والجهاد في سبيل الله والإنفاق على من أمر الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر حتى ساد الحق والعدل وطاعة الله وذهب التظالم والخمر والميسر والربا وأرجعت المظالم ولم يبق في الأرض مستضعف يمنع ما يستحقه من الإنفاق ومن الحرية والإنصاف لكان الناس في سعادة عاجلة في الدنيا وعمل صالح للآخرة.

وبهذا تبين: بطلان دعايات الكفار الجاهلين بالدين ومنافعه والمكابرين للحق، من قولهم: أن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم، وكذبوا وخابوا وخسروا، بل هو طريق السلامة والكرامة، وهو لا يمنع من تعلم العلوم الحديثة في مختلف الجوانب، ومنها: صناعة الطائرات ونحوها، بل هو يدعو إلى إعداد القوة ويحل لهم أخذ ما أعد لعباده من منافع البحر والبر.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ لكم ولهم ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ أي فهم إخوانكم، عليكم أن تنصفوهم، ولا تستبدوا عليهم

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ فعليكم أن تراقبوه في معاملتكم لليتامى وقيامكم عليهم وعلى أموالهم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ﴾ لشق عليكم في التكليف، وكلفكم ما فيه الوجع الشديد عليكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب لا ينال ﴿حَكِيمٌ﴾ فأمره ونهيه على ما فيه الحكمة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي أحكام هذه الآية يقول إمامنا المنصور بالله × : تدل على تحريم الخمر والميسر للنص الجلي على حصول الإثم الكبير فيهما، وتدل على أن ارتكابهما من الكبائر، وعلى أن النفقة بما فضل عن الكفاية، وهذا إجمال وهو مبين في الزكاة بالأنصباء في المواشي والذهب والفضة وفي المكيل كذلك؛ كما جاءت به السنة المعلومة، وفي نفقة النافلة قوله ص: ((لا صدقة إلا عن ظهر غنَى)) وقوله سبحانه: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞ﴾ [الحشر:٩] في مثل الوجبة والوجبتين مشروع حسن كما يأتي إن شاء الله تعالى.

وتدل على وجوب إصلاح اليتامى في أموالهم وتعليمهم فيما يصلح لهم، وتدل على جواز مخالطتهم ومشاركتهم في طعامهم وسائر تصرفاتهم ولا يجب مع ذلك العلم بالتساوي، وأن الله لم يُعنت المسلمين أي لم يحملهم مشقة في ذلك وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ تهديد من الله سبحانه لمن أفسد اليتامى في أموالهم وتعليمهم ما لا يليق بهم وأن ذلك حرام)) انتهى.

قلت: كلامه × لم يستوعب الإنفاق الواجب؛ لأن منه الإنفاق في سبيل الله ولم يذكره هنا و غيره كما مر، وقوله × : ولا يجب مع ذلك العلم بالتساوي، يعني × مع تحري التساوي وإنما لم يجب تيقن التساوي تيسيراً على العباد.

خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

فأما تحري الحق فلا بد منه لئلا يأكل مال اليتيم بغير حق، وقوله التساوي يعني لليتيم بقدره المساوي لما يحتاج الواحد مثله من العائلة، أو ما يحتاج القائم بالإنفاق عليه في مثل حاجة اليتيم وليس مقصوده التساوي بين ما ينفق عليه وما ينفق على غيره على كل حال لأن الإنفاق على قدر الحاجة وهي تختلف باختلاف الناس، فحاجة الصبي في المهد خلاف حاجة الشباب، وحاجة الشيخ خلاف حاجة الشباب، وحاجة المريض خلاف حاجة الصحيح، وحاجة من تحدث به علة يحتاج لأجلها إلى اجتناب ما يضره من المأكولات والإدامات وغيرها واستعمال ما يدفع علته من الدواء والدفء وتخفيف العمل وبعض المأكولات التي لا يحتاجها الصحيح كحاجة ذي العلة، فالتساوي أن يكون لكل بقدر حاجته، وأراد × أن ذلك ليس كالمعاوضة في الربويات التي يشترط في جوازها تيقن التساوي.

﴿٢٢١﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ فلا يكفي تركهن لما هو شرك بل تحريمهن مستمر حتى يؤمنّ وعلى هذا فلا بد من إسلامها وامتحانها حتى يظهر منها الإيمان وفي ذلك فوائد:

الأولى: أنها ما دامت على كفرها لا تحل، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠].

الثانية: أنها وإن تركت ما هو شرك فلا يؤمن بقاء الشرك في قلبها وإن تركته قولاً وفعلاً.

الثالثة: أن حكم الشرك باقٍ عليها ما لم تتب ولا توبة إلا بالإسلام والإيمان بأن الله لا شريك له، وبما وجب الإيمان به؛ فلا تحل قبل ذلك لأنها في حكم المشركة، فالآية الكريمة قد شملت هذه الفوائد، وقد غلط في التعبير من قال في تفسيرها فحرمهن ما دمن مشركات لأن عبارة القرآن أعم وأنفع لشمولها المشركات بقلوبهن ومن هن معرضات للعودة في الشرك لإصرارهن عليه وعدم المانع لهن الذي هو الإيمان.

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ﴾ والأمة المؤمنة يباح نكاحها لمن خشي العنت، فهي خير من المشركة سواء كانت أمة أو غير أمة وهذا يدل على شرف الإيمان وعلوّ قدره حيث فضلت الأمة المملوكة على الحرة المشركة، مع أن الغالب في ذلك العصر في أول الإسلام أن تكون الأمة من غير العرب وأن المشركة التي هي حول المسلمين تكون من العرب بل قد تكون من قريش، وقد يقال: المراد بالأمة: أمة الله لا أمة المخلوق؛ وهذا بعيد لأنه كان يكفي أن يقول: ولمؤمنة خير من مشركة، لو كان المراد أمة الله فكل النساء إماء الله وتذهب فائدة ذكر الأمة.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ ويدخل في هذا: الإعجاب بجمالها، والإعجاب بها لأجل مالها، أو لأجل منصبها ومعدنها، فالأمة المؤمنة خير منها وأصلح للزواج بينها وبين المسلم.

﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ﴾ فتحريمهم دائم حتى يؤمنوا، وفي هذا دلالة على أن المزوِّج هو الرجال وأن المرأة لا تستقل بنفسها في ذلك وإن كان لا بد من رضاها، ولولا ذلك لقال: ولا تنكحن المشركين حتى يؤمنوا، فلما قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ دون ولا تنكحن دل ذلك

على أن نكاح المرأة متوقف على إنكاح الرجال لها وإلا بطلت فائدة توجيه الخطاب إليهم وصار كما لو قال للنساء: ولا تزوِّجن المشركات مسلماً حتى يؤمنَّ، وهذا لا معنى له مع كون المسلم يتزوج ولا يحتاج إلى أن تزوجه النساء.

﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ﴾ من المماليك ﴿خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ بأي مرغب فيه من الفتوّة والسخاء والشجاعة وجمال الخلق وكمال البنية والثروة وسعة الصدر والرفق واللين والعاطفة فهذه المرغبات وغيرها كلها لا شيء في جنب الإيمان.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي المشركات والمشركون ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فالخطر في مناكحتهم أعظم من الخطر في مناكحة العبد الفقير، أو الذي لا يظهر فيه مرغب سوى الإيمان لأن الإيمان يدعو إلى الخير واجتناب الظلم واجتناب التقصير في الحقوق.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾ فالزواج بأهل الإيمان هوالذي يدعو إليه لئلا تفوت الجنة والمغفرة لأن فوات ذلك هوالخسران المبين، أما الدنيا فما فات منها فعليه العفاء إذا سلم الدين وهذا معنى واضح لا لبس فيه ولا اشتباه، وعموم الآية يدل على تحريم الكتابية المشركة لأنا لو فرضنا إباحة الكتابية فليس معناه أن كونها كتابية يبيح نكاحها على كل حال ولو كانت مشركة، إنما معناه إن كونها كتابية لا يقتضي تحريمها إذا لم يوجد مانع غير كونها كتابية.

ألا ترى أنها لا تحل إذا كانت أمّاً أو أختاً أو بنتاً أو نحو ذلك أو كانت زانية مصرة على الزنا، فكيف لا يكون الشرك إذا انضاف إلى نسبتها إلى

الذين أوتوا الكتاب مانعاً من نكاحها مع أنه الخطر العظيم على الزوج وأولاده لأن المشركة تدعوهم إلى الشرك بطريقة التخويف مما تشرك به، فقد يمرض ابنها وتعتقد أنه يشفى إذا قربت لمن تشرك به من دون الله، وتخوف أباه إن لم يوافقها على هذا أن ابنه يموت، وكثير من المسلمين ضعفاء الإيمان ينحرف بسهولة.

فأما تربية أولادها على الشرك بنفس الطريقة فظاهر، ألا يكفينا القرآن وهو يحذرنا من ذلك ويفيد أنهم يدعون إلى النار، وأن الله لا يرضى ذلك لأنه يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه فكيف يرضى المشركة إذا كانت كتابية مع حصول المانع فيها من جهة العموم ومن جهة التعليل.

وما مثال ذلك إلا مثال رجل قرأ قول الله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ﴾ فقال: قد أباح الله الأكل والشرب ولم يمنع من أكل الحرام في ليلة الصيام فيستحل بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير في ليلة الصيام، أو رجل قرأ قول الله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة:٥] فاستحل طعامهم ولو كان فيه خمر أو لحم خنزير، ولا إشكال في أن ذلك من الباطل الذي لا يقوله من يريد الحق.

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَـتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما هو في فطرتهم، فمن الفطرة أنه لا ينبغي لعاقل إلا الحذر من أسباب النار على نفسه وعلى أولاده، فقد بين الله الخطر في مناكحة المشركين وأنها تدعو إلى النار ومظنة التسبيب لها لنتذكر ما هو حاضر في عقولنا إن غفلنا عنه، وبهذا ظهر أن هذه الآية هي المحكمة وما توهم منه خلافها فهو من المتشابه.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟

﴿٢٢٢﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي عن حكمه في الإسلام وليس المراد السؤال عن مفهوم لفظ المحيض لأنهم عرب يعرفون لغتهم ولا يحتاجون إلى السؤال عنها.

﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ لنجاسته وقذارته ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ لتسلموا نجاسته وقذارته، وبهذا ظهر أن المعنى الأصلي في اعتزالهن هو اعتزالهن عن الجماع أي ترك الجماع، وإنما يحرم ما تحت الإزار لئلا تغلب الشهوة فيقع الجماع لأن الإنسان ضعيف العزم، فلو عزم على الإستمتاع بما دون الفرج وهو عازم على تجنب الفرج فلا يبعد أن تغلبه الشهوة، ولا يقاس على المعصوم للفرق الواضح.

﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ بأن ينتهي دم الحيض في الحيضة، وتتطهر منه بإزالة نجاسته والغسل منه، ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأنها لا تطهر بانتهاء الحيض حتى تتطهر من أثره بما أمرها الله به من التطهر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ دلالة على أنه لا يحل جماعها في حال استمرار الدم، ولا في النقا المتوسط بين حالات الدم، ولا عند انقطاعه وانتهائه قبل التطهر؛ لأنها دلت على أنها لا تطهر بذلك، ولا بد من التطهر لتطْهُرَ بانتهاء الحيض والتطهر من أثره.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يدل على أنه لا يأتيها من حيث شاء، بل موضع مخصوص أمر الله بالإتيان منه، وهو ما خلق للزوج المذكور في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦] وهو ما دل عليه في الآية الآتية.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ إليه، ومن التوبة: التوقف عند حدود الله واجتناب ما حرم ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ باجتناب نجاسة الحيض وغيره، فاجتناب القاذورات يسمى تطهراً، قال تعالى: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢] يعنون بمجانبتهم لأعمال قوم لوط، وفي هذا إشارة إلى تعيين الموضع الذي أمر الله بإتيانهن منه، وأنه غير الدبر؛ لنجاسة الدبر بالبراز فإتيانها منه ليس من التطهر بل هو ترك للتطهر، والموضع الذي أمر الله به خاص بالتواب المتطهر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام ـ يعني الإمام القاسم بن محمد × ـ : تدل على وجوب اعتزال النساء في المحيض، وتحريم وطئهن لأجل الأذى، ويشاركهن في حصول الأذى النفساء؛ فيحرم وطؤها بجامع الأذى، ولا يحل وطؤهن إلا بعد أن يطهرن من الأذى ويتطهرن بالاغتسال، والآية تدل على شمول اعتزالهن فلا يقارَبن لوطء ولا استمتاع وقد خصصها ما تلقته الأمة بالقبول من السنة المبيحة لما عدا الوطء من الاستمتاع وغيره من سائر التصرفات كترجيل المرأة رأس زوجها ومس جسدها بيده وتقبيلها وغير ذلك، وتدل على وجوب التوبة من الذنوب والتطهر للصلاة واستحباب النظافة)) انتهى.

حَرْثُكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا

قلت: وقوله: المبيحة لما عدا الوطء من الاستمتاع، يستثنى منه ما يؤدي إلى الجماع؛ لأن فاعله يعين الشيطان على نفسه، لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، فلا تجوز معاونته بما يؤدي إلى المعصية لقول الله تعالى: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢] وفي الحديث الصحيح: أن رسول الله ص قال لعمر: ((لك ما فوق الإزار، ولا تطلع على ما تحته)) وقال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ وقد مر تفسيرها.

﴿٢٢٣﴾ ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ شبه النساء بالحرث الذي يبذر فيه البذر فيكون منه الزرع، وهذا تنبيه على أن الموضع الذي أمر الله أن تؤتى منه هو الموضع الذي يكون بإتيانه الولد، وكفى ببيان الله بياناً لمن تفهم، فمن البيِّن: أن فائدة ذلك النهي عن الدبر، ولو لم يكن ذلك هو المقصود لما كان لهذا الكلام أهمية، ولكفى: (ائتوا نسائكم أنى شئتم).

﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ هذا مطلق يتناول التقديم لمنافع الدنيا والآخرة، فالتقديم لمنافع الدنيا، مثل ابتغاء الولد بالجماع، والثمر بالحرث، والتقديم لمنافع الآخرة بالتقوى والعمل الصالح، ووقوعه في هذا السياق يظهر منه منع العزل.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ ومن تقوى الله العمل بما أمر في هذه الآيات، وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ يفيد: وجوب العلم بلقاء الله وهو الحضور يوم القيامة في موقف السؤال والحساب ولا يكفي الظن.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم آمنوا بالله واليوم الآخر وكل ما يجب الإيمان به، وأطاعوا الله ورسوله؛ فلهم البشرى بالثواب العظيم والخير الكثير.

وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على إباحة وطء النساء أي الزوجات في موضع الحرث، وهو موضع الولد من الفرج، من قدّامها وورائها، وعلى جواز الاستمتاع بسائرها ما خلا ما حرمه الله من اللواطة وهو إتيان النساء في أدبارهن فإنه من الفواحش الكبار، والأصل فيه إتيان الذكور فيما لم يجعله الله موضعاً للحرث، فمن فعل ذلك فهو داخل في معنى قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:٧] كما يأتي إن شاء الله تعالى، ولأنه ص نهى ((عن محاش النساء)) رواه جابر)) انتهى.

﴿٢٢٤﴾ ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ فسّروا جعله تعالى عرضة للأيمان بإكثار الحلف بالله جرأة على الله، والأولى: لا تجعلوا أيمانكم تعرض وتقطع البر وعمل الخير، ومن الإثم العظيم إذا كانت غموساً فقد جعلوه عرضة لأيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): ((وروى المرتضى عن جده القاسم إ : أنه سئل عن هذه المسألة؟

فقال ـ رحمة الله عليه ـ : ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ لا تكثروا الحلف بالله في كل حال وعند كل مقام، وقّروا الله وأجلّوه عن أن تجعلوه عرضة لأيمانكم، وإن أصلحتم بين الناس، وإن أردتم بأيمانكم الإصلاح)) انتهى.

وقال الإمام الهادي × في (الأحكام) [ج٢/ص١٧٢-١٧٣]: ((وقال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وذلك فمعناه أن يحلف الرجل أن لا يبر له رحماً، وأن لا يصلح بين اثنين من المسلمين، لأن الله تبارك وتعالى قد أمر بالإصلاح بين المسلمين بقوله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

ولا ينبغي للرجل إذا أُمر بخير فعُصي، أو أصلح بين اثنين فلم يُطَع؛ أن يحلف أن لا يصلح بينهما، ولا يعود في الدخول في شيء من أمرهما، فإذا قيل له أصلح بينهما قال: قد حلفت أن لا أفعل فلست أقدر لمكان يميني ولست أستطيع أن أحنث في قسَمي فنهاه الله عن ذلك، وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: ولا تجعلوا أيمانكم علة تعرض وتقطع بينكم وبين طاعة الله في صلة أرحامكم والإصلاح بين إخوانكم؛ بل بروا واتقوا وعن أيمانكم كفِّروا، وقد يدخل في تفسير هذه الآية أن يكون الله سبحانه نهى عباده عن القسم به في كل حق وباطل، وأن يجعله عرضة ليمينه في النازل وغير النازل)) انتهى.

قلت: الرواية عن الإمام القاسم × معناها أن قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ..﴾ إلى آخره؛ تفسير للمحلوف عليه فهو مرتبط بقوله: ﴿لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾ كأنه قيل: لأيمانكم لتَبَرُّنَّ ولتتّقُنَّ ولتُصلِحُنَّ.

أما تفسير الإمام الهادي × فقد جعل قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ وما بعده راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةً﴾ أي لا تجعلوا الله عرضة لأجل أيمانكم يعرض عن أن تبروا وتتقوا وتصلحوا.

وعلى هذا لا يكون: ﴿﴿أَن تَبَرُّواْ﴾ تفسيراً للمحلوف عليه؛ بل كأنه قيل: لا تجعلوا الله معرضاً لأيمانكم من أجل كراهة أن تبروا، وهذا ضعيف لعموم الأيمان وخصوص السبب، وأقرب منه أن يكون التقدير ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم من أن تبروا.. إلى آخره..واستعمال مِن في المحلوف منه ظاهر كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِنۡ نِسَآئِهِمۡ﴾وعليه تكون الأيمان خاصة بالحلف من البر والمعنى في هذا مستقيم، والنهي عن الحلف من البر أقرب، لكنه غير صحيح؛ لعدم الدليل على تقدير مِن، فلم يبق إلا تفسير الآية بما روي عن الإمام القاسم × أو الإمام الهادي × ، وتفسير الإمام القاسم أظهر باعتبار استعمال العرب لكلمة عرضة، وما ذكره الإمام الهادي × قد حكى مثله (صاحب اللسان) عن الفراء.

والهادي والقاسم إ عربيان، وفي كل من التفسيرين مرجح، والراجح عندي تفسير الإمام القاسم × لما ذكرت، وإن كان تفسير الإمام الهادي × أوفق للنظر.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يسمع الأيمان وغيرها ويعلم ما في صدور الحالفين من إجلال لله أو خلافه ويعلم كل شيء.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام × ـ يعني القاسم بن محمد ـ: تدل على تحريم التَّجَاري على الله في الأيمان واعتيادها وإن برَّت وأن يتحرز عن تعودها)) انتهى.

﴿٢٢٥﴾ ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ الراجح في معنى (اللغو) أنه الملغي مع كونه خطأً في اللفظ، أو كذباً غير متعمد وإن تعمد لفظه، والمراد بالملغي الذي لا يترتب عليه في العادة إلزام فعل أوترك، ولا يؤخذ به مال أو نحوه فهو ساقط لا يعتد به، فهي كقوله تعالى بعد النهي عن دعوة الرجل لمن تبناه والأمر بدعوته لأبيه أو بالأخ أو المولى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] وذلك أن الإنسان إذا تعود اليمين يسبق لسانه بها كما أن تعود الدعوة للمتبني يسبق لسانه بها خطأً، ولأن الله تعالى قابل اللغو بما كسبت القلوب فقال تعالى.

﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] ويدخل في هذا: اليمين الفاجرة إذا تعمدها الحالف وإن كان يظنها صدقاً؛ لأنه قد تعمد اليمين وليست ملغاة لأنه يترتب عليها أخذ مال أو نحوه، وعلى هذا فليس له أن يحلف إلا بما يشهد به لو كان شاهداً لأنه باليمين شاهد لنفسه كما في اللعان.

وقد دخل في قوله ص: ((من حلف على مال أخيه فاقتطعه ظالماً لقي الله يوم القيامة وهو معرض عنه)) رواه الهادي في (الأحكام) بصيغة الجزم، وقال: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ..﴾ إلى آخرها [آل عمران:٧٧] نزلت في رجل حلف لرجل عند رسول الله ص يميناً فاجرة باطلة فقال رسول الله ص: ((من حلف على مال أخيه..)) الحديث.

ولا يقال: إنها من اللغو؛ لأنها ليست من الساقط الذي لا يعتد به كيف وهو يترتب عليها الحكم له بمال أخيه فلم تُلغَ مع أنه يشترط في الساقط الذي لا يعتد به أن يكون ظاناً صدقه مطمئناً به، أعني ظاناً لمدلول اليمين وإلا أثم بالخبر وإن لم يأثم باليمين لكونها خطأً، فالأيمان أقسام:

القسم *الأول*: كثرة الأيمان لغير موجب ولا حاجة تصلح لها اليمين.

الثاني: اليمين الفاجرة المتعمدة المعلوم فجورها.

الثالث: اليمين الفاجرة المجهول فجورها وهي متعمدة ويستفيد بها شيئاً من الدنيا.

الرابع: اليمين المتعمدة التي يظن صدقها وهي لا تفيده شيئاً من مال أو نحوه.

الخامس: اليمين غير المتعمدة فيما يظنه الواقع.

السادس: اليمين الخطأ فيما لا يظنه الواقع ولا يعلم.

فالأولى محرمة على تفسير الإمام القاسم × ، والثانية بلا خلاف، والثالثة في الراجح لعموم الأدلة.

والثلاث الباقية لا إثم فيها؛ إلا أن الإثم في السادسة في الخبر، ويمكن جعلها أربعاً:

الأولى: كثرة الأيمان.

الثانية: المتعمدة التي يقتطع بها مال المسلم.

الثالثة: الملغاة.

الرابعة: اليمين الفاجرة المتعمدة التي يعلم كذبها ولا تفيده شيئاً، وهي إثم.

وهذه الأقسام في غير المعقودة فهي قسم وحدها، وقد جعلها علماؤنا ثلاثاً: الغموس، واللغو، والمعقودة.

ويمكن جعل الغموس ما يأثم بها، واللغو الملغاة الساقطة كما فصَّلْت.

والمعقودة تأتي ـ إن شاء الله ـ في (سورة المائدة) ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فهو لا يؤاخذ باللغو، ولا يعاجل بعقوبة كسب القلوب، ويقبل التوبة ممن يتوب.

يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ

﴿٢٢٦-٢٢٧﴾ ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ﴾ أي يحلفون بالله ﴿مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ أي أزواجهم أن لا يطئوهن ﴿تَرَبُّصُ﴾ انتظار وكف عن مطالبة الزوج ﴿أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖ﴾ فهذا من حقوق الزوج على زوجته بحكم أحكم الحاكمين.

﴿فَإِن فَآءُو﴾ رجعوا إلى أزواجهم وخرجوا عن أيمانهم بالحنث فيها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لهم ذلك الحلف وإن كان من سوء العشرة للزوجات وخلاف المعروف من المعاشرة، وفي هذا ترغيب في الفيء والرجوع إلى المعاشرة بالمعروف وذلك رحمة للزوجين.

﴿وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ﴾ أي جعلوا الطلاق عزيمة لا رخصة فيها، أي طلقوا طلاقاً هو عزيمة لإيجابه الفرقة بين الزوجين، وخرجوا من رخصة الخيار إلى العزيمة وفي قوله تعالى: ﴿تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو..﴾ ﴿..وَإِنۡ عَزَمُواْ..﴾ يدل مجموع ذلك: أنها لا تتربص أكثر من أربعة أشهر، أي لا حق له في ذلك، وعلى هذا فيؤمر باختيار أحد الأمرين، ويحبس إن امتنع ويضيق عليه حتى يطلق أويفيءَ

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ يسمع الطلاق ولايخفى عليه إيقاع العزيمة في الفراق فيجب العمل بأحكام الطلاق ولا يجوز إلغاؤه بحال.

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا

﴿٢٢٨﴾ ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ **ثلاث حيض كاملات، أي يجب عليهن أن يتربصن بأنفسهن، أي ينتظرن بها، ويكففن عن الزواج، وعلى هذا فالقروء من بعد العلم إذا كانت مكلفة ليتحقق منها الانتظار والكف عن الزواج.**

﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ **أي للمطلقات** ﴿أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ **من الولد إن كانت قد علقت فليس لها أن تكتمه لئلا تطول عدتها، فأما كتمان الخروج من العدة فأعتقد أنه غير مذكور في الآية، وأن دم الحيض لا يخلق في الرحم وإنما يمر منه، ولكن يحرم كتمان الخروج من العدة؛ لأنه خيانة لله وللمطلِّق؛ حيث يكلف زيادة الإنفاق بغير حق ويجعل له الرجعة ولا رجعة له، فأما كتمان الخروج من العدة لغير محذور فلعله لا إثم فيه كردِّ خاطب غير مرغوب وتخاف من رده لغير عذر فترده بإيهام بقائها في العدة.**

﴿إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ **أي إن كن يؤمنَّ بالله واليوم الآخر آمنَّ بأنه لا يحل لهن فلم يفعلنه، وهذا تأكيد لتحريم ذلك الكتمان ودلالة على أن من كتمت فليست بمؤمنة؛ لأن الإيمان ما وقر في القلب، وصدقه العمل.**

﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ **أي في مدة التربص، وهذا أحسن من التعبير بالعدة؛ لأنه يدخل فيه بقية الطهر الذي طلقها فيه مستقبلة لعدتها** ﴿إِنۡ أَرَادُوٓاْ﴾ **بردِّهن** ﴿إِصۡلَٰحٗا﴾ **لا إن كان المراد الضرار أو الحبس عن الأزواج مع سوء العشرة والإهمال فليس أحق بها لغير الإصلاح بل هو ظالم بإرجاعها وإن كانت مازالت في التربص.**

حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ

﴿وَلَهُنَّ﴾ متى ردوهن ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ من الحق ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ الذي لا يستنكر، فلها حق الإنفاق بالمعروف، والمعاشرة بالمعروف، وعليها طاعة الزوج في نفسها في غير معصية الله، وقد قيل: عليها عمل ما داخل البيت أي من صناعة الطعام، وفرش الفراش ونحو ذلك، وإرضاع ولدها وحضانته، وعلى الزوج ما تحتاج إليه من خارج مع المسكن والذي في هذه الآية ذكر الذي لها، أما الذي عليها فيؤخذ من دليل آخر.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ وهذه الدرجة مبينة في (سورة النساء) في قوله تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**...﴾ الآية [النساء:٣٤] وقوله تعالى: ﴿مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ معنى المماثلة، المماثلة في العدل أي يجب لهن بقدر ما يجب عليهن ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فما حكم به فهو حق مطابق للحكمة، ومن خالف حكمه فلا بد من جزائه بما يستحق؛ لأن ذلك من عزته.

﴿٢٢٩﴾ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ أي تطليق مرتين مرة بعد مرة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ على ما مر في الآية قبلها من الرد في التربص ﴿أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ إرسال وترك للإمساك حتى تخرج من العدة مع الإحسان إليها، بأن يترك لها مثلاً كسوتها ويجهزها للعودة إلى أهلها جهازاً حسناً، وهذا مثل للإحسان؛ لا تعيين ولا تحديد، فأما نفقة العدة فتأتي إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿**إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا**﴾ فليس للضرار ولا للمنع من الزواج مع الإهمال وهو من الضرار.

ومثله الحبس والإمساك ليرثها إذا ماتت، أو لئلا يرثها غيره مع الإهمال أو التقصير في الحقوق الزوجية، فكل ذلك ليس بمعروف ولا إصلاح ويأتي تأكيد الزجر عن الإمساك ضراراً.

وظاهر الآية: وقوع التطليقة الثانية، وإن لم تتخلل رجعة ما دامت في العدة، كما روي عن الإمام القاسم × ، ولا نسلم أن المطلق قد خرج عن كونه أهلاً للتطليق كما لم يخرج عن الإرث وهو تابع للزوجية، فدل ذلك على بقاء حكم الزوجية مادامت في العدة إلا ما خص المطلقة من أحكام الطلاق المبينة في الكتاب والسنة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ فسماهم بعولة، ولا يلزم أنه مجاز لاستعمال اسم الزوج في البائنة مجازاً باعتبار ما كان عليه.

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا﴾ وبعض الناس يأسف على ما قد سلم لها فيحاول استرجاعه بحيلة للمخالعة وأخذه باسم الخلع وهو ظالم فيه وفي أخذ مالها ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ﴾ أي الزوجان ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ لفرط الكراهة مثلاً بأن يثقل عليها طاعته حتى تظن أنها لا تقوم بواجبه، وهو يظن أنه لا يستطيع القيام بما كانت تستحق عليه من الإنفاق ونحوه لمعصيتها له؛ وهذا لأن حدود الله هنا أحكام الزوجين وحكم كل منهما الذي جعله الله تبعاً للزواج، فإذا كانت تهمل من جانبها فقد جاز الخلع.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ أسند الخوف أولاً إلى الزوجين لبيان الحكم في حقهما، ثم أسنده إلى الدولة الإسلامية بقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لبيان إحالة أمرهما إلى الحكومة حتى تنظر في أمرهما وهل يمكن الإصلاح بينهما وبقاؤهما في الزوجية، أوقد تحقق سبب الخلع فقد يكون الخلاف بينهما لغضب عارض وخلاف على أمر يمكن فيه حلُّ الإشكال والإصلاحُ بينهما وتركُ الطلاق.

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

أما إذا عرف عند دولة الحق أن لا مجال من الخلع؛ تولت هي المخالعة بينهما ليكون على وجه الصحة؛ لأن الخلع قد يدخله ما يفسده ويبطل الطلاق، أو يفسده مع صحة الطلاق رجعياً.

وإذا ترك الناس يتولونه بدون ذلك تولوه بدون إرجاع إلى أهل العلم وحصل الفساد الذي يترتب عليه مفاسد بسبب الجهل، فلا بد أن تتولاه دولة الحق بنفسها أو تحيلهما إلى نائب من العلماء يقوم بالمقصود فإذا وقع على وجه الصحة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ لا جناح عليه في الأخذ، ولا جناح عليها في الأداء، وهذا لأن المعاملة بالباطل يكون الإثم فيها على الآخذ والمعطي في الغالب كالربا والرشوة وغيرهما.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حدها في الطلاق ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ طمعاً في أخذ ما آتيتموهن أو بغضاً لهن أو تهاوناً بأمر الله فيهن ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وإذا كان من الظالمين فهو من أهل النار؛ قال تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٧] وقال تعالى حاكياً: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩] وقال تعالى: ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١] ولا يبعد انحصار أسباب النار كلها في الظلم، وأن كونها ظلماً هو سبب العقاب عليها وإن اختلفت أسماؤها.

﴿٢٣٠﴾ ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ رجع الكلام إلى أول الآية التي قبل هذه في الذي قد طلق مرتين، فإن طلقها مرة ثالثة: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾ أصلاً لا في العدة

ولا بعدها ولا بعقد جديد ومهر جديد ولا بأي وسيلة ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥ﴾ برضاها واختيارها نكاحاً وزواجاً صحيحاً لا ليطلقها وترجع ولكـــن:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾ كما هو معنى (إن) الشرطية أنها لغير المتوقع، لأن المتوقع يقال فيه: (إذا) أو (متى) ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ بالتراضي بينهما بالمعروف كما يأتي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ وقد جاء في الروايات النهي عن التحليل واشتراط أن يدخل بها الزوج الثاني تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها فلا تحل بمجرد العقد، ولعله شرع ليصعب التحليل؛ لأنها لو كانت تحل بالعقد وحده ثم الطلاق لكان التحليل سهلاً، وكثير من الناس لا يمنعه من التحليل إلا المروءة لئلا يكون كالتيس المستعار، ولو كان يحصل بالعقد وحده لسهل عليهم فكان اشتراط الدخول موافقاً للآية من حيث أن المقصود زواج لا يتوقع فيه الطلاق.

﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ في الزواج ويعملا بحكم الله فيه ليخرج ما كان لغرض فاسد كأن يخدعها ويعدها ويمنيها وقصده حبسها عن التزوج بغيره ولا يريد أن يقوم بحقوقها الزوجية، أو هي ترضى به لا للقيام بحقوق الزواج؛ بل ليسهل لها الزنا من حيث أنها تأمن الفضيحة بالحمل فترجع له لا لأجله؛ بل لأجل غيره، فالزواج المتوسل به للباطل جناح وحرام.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ فلا عذر بعد البيان، وفيها دلالة على تمكن كل من يعلم أن يفهم حدود الله وهو كل مكلف وإنما يذم من لا يعلم من المكلفين لأنه متمكن من العلم ولكنه أعرض وتمرد حتى خذل وصار لا يعلم الواضحات بالدلائل البينات، أو أعرض عن التعلم ورضي لنفسه بالجهل.

فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ

وكلاهما غير مقصود في الآية؛ لأن اللوم عليهما، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا..﴾ الآية [الكهف:٥٧] وإنما المقصود من يريد الحق ويطلب العلم، فالآيات والحدود مبينة له.

٢٣١ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أعيد الكلام ليبني عليه الزجر عن الضرار ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ أو أن الأجل آخر العدة، فللزوج الرجعة ولو لم يراجع في أولها، وهذا مناسب لترتيب النهي عن الضرار عليه بأن يدعها حتى تقارب انتهاء العدة ثم يراجعها ليطلقها مرة ثانية وتعتد عدة أخرى، وللضرار صور غير هذه.

وقوله تعالى: ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ أي لأن تتجاوزوا حدود الله في الزواج بأن تمسكوهن لغير العمل بحقوق الزواج بل للضرار.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ كما ظلم المرأة، ويوم المظلوم على الظالم شر من يوم الظالم على المظلوم، وكيف لا يكون قد ظلم نفسه وقد صار من أهل النار بظلمه للمرأة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ بأن تسخروا منها استكباراً وعتواً كما هو شأن كل جبار عنيد، وفيه تحذير لكل من يؤمن بآيات الله بلسانه دون قلبه ويخالفها في سلوكه؛ لأن ذلك الإيمان ليس جداً لعدم الإيمان بقلبه وإنما هو إيهام وتغرير وتدليس.

فإمّا أن هذا معنى الهزؤ، وإن لم يتعمد السخرية، وإما أنه مظنة الهزء والسخرية إذا أصابته فتنة بسبب عصيانه فغضب ووقعت منه السخرية، كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] وقد مر تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أن المعاصي تجر إلى ما هو أكبر منها.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فليس من شأن المنعَم عليه أن يكفر المنعِم؛ بل إساءته إلى المنعِم أقبح بقدر النعمة، فكيف يكون من غمَرته نعم الله واستمرت له منذ خلق ثم جاءته النعمة العظمى نعمة الهدى إلى الإسلام ومعرفة طريق السعادة والسلامة من النار ولعل هذه النعمة هي المراد هنا أي نعمته بالرسول والقرآن والهداية إلى الإسلام.

﴿و﴾ اذكروا ﴿مَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ عن المعاصي، فاذكروا ما في الكتاب والسنة من الزواجر، والحكم النافعة، والبيان الكافي لطريق السعادة، والترغيب العظيم في الجنة، والتحذير من الشيطان، والتحذير من الاغترار بالدنيا وغير ذلك، فلا تغفلوا عن ذلك وتعصوا ربكم بظلم النساء وإمساكهن ضراراً.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فأخذه شديد وبطشه شديد، وما لكم ﴿مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] لدفع عذابه ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لتراقبوه وتتقوه لأنه لا يخفى عليه شيء، وفيها دلالة على وجوب العلم ولا يكفي الظن، والعلم يحصل بالنظر في إتقان مصنوعاته، وما جعل بينها من المناسبة كخلق الإنسان وحواسه، وخلق الطعام المناسب له للذته وتغذيته مع تنويع الأطعمة من الحبوب والفواكه والبقول وغيرها وكلها مناسبة.

فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ

وإتقان صنع آلة الأكل؛ فأسنان تقطع، وكواسر تكسر التمر ونحوه، وطواحن تطحن المأكول في الفم، وشفتان تمسكانه لا يتساقط مع الطحن، وريق يسارع إلى اللقمة ليمازجها.

ولسان يردها بين الطواحن ويميز ما فيها مما يضر من حصاة أو شعرة يحس بها فيخرجها من بين اللقمة، ثم آلة ابتلاع اللقمة عند صلاحها لذلك، فيطلع لها المريء ويدفعها إليه الفم فينزلها إلى المعدة لتجمع المأكول والمشروب ثم تهضم المأكول وترسل بعضه إلى الكبد لتعمل عملها فيه وترسل بعضاً آخر إلى الأمعاء لتعمل عملها فيه ليحصل الغذاء للبدن فينمو ويقوى على أعماله فهذا دليل واضح على قدرة الله وعلمه وغيره كثير.

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي صرن في أجلهن للزواج وخرجن من التربص ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ لا تمنعوهن ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ أي يتزوجن أزواجهن الذين كانوا أزواجهن، وسموا أزواجاً تسمية بما كانوا عليه مجاز، وفيه مناسبة لحال الزوجين حيث رغبا في التراجع بسبب ما بقي في أنفسهما من أثر الزواج الأول من المرغبات في العودة إلى الزواج، فلما بقي أثره في أنفسهما أشبه ما لو كان باقياً فحسن استعمال هذا الإسم للمناسبة.

﴿إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بأن يرضى هو وترضى هي بزواج بعقد جديد ومهر جديد وزواج صادق كما شرعه الله للزوجين، فإذا لم يكن التراضي إلا على غير المعروف فلا بأس بعضلها، وفيه دلالة على أن أمر زواج المرأة إلى الأولياء .

أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ

﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي ذلك النهي عن العضل يوعظ به من كان يؤمن لأنه الذي يتعظ، لأن إيمانه بالله واليوم الآخر يبعثه على الطاعة والمحافظة على دينه خشية لله وخوفاً من عذابه؛ ولذلك فهو أهل لأن يخص بالموعظة وأهل أن يوعظ رحمة له لئلا ينقلب، أما الفاجر المصر فلا يستحق إلا الخذلان.

﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أطيب ﴿وَأَطْهَرُ﴾ فلا تحسبوا العضل خيراً لكم، وهذا تأكيد لأن من الناس من يغضب على الزوج بسبب خلاف سبق فيثقل عليه إرجاعها، وقد علم الله من المصلحة ما لم يعلم فقد يؤدي العضل مع شدة ندمهما وحرصهما على العودة في زواجهما ويأسهما من موافقة الولي وغضبهما من عضله إلى أن يقعا في الفاحشة، ويدنسا بذلك أعراض الأولياء، ويقع الأولياء في عار المنع حيث سببوا لذلك فبان أن ترك العضل أزكى وأطهر، وفيه فضيلة عظمى لمن عصى نفسه وأخضعها لأمر الله راغمة.

﴿٢٣٣﴾ ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ هذا في المطلقات فإنه يقع الخلاف على الولد، والعطف على أحكام المطلقات يُشعِر بذلك.

وفائدة التأكيد بقوله تعالى: ﴿كَامِلَيْنِ﴾ ظاهرة لأن الناس قد يدعون تمام الحول مع عدم التحقيق في التاريخ، والمقصود حولين بلا نقص.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ ومن الطبيعي في الوالدين إرادة الإتمام، إلا لعذر مثل: مرض الأم وكراهة إرضاعه من غيرها لعدم الثقة بغيرها، ولعله السبب في إحالة ذلك إلى إرادة الأب أو الأبوين.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ من أجل الرضاع، أو لأن الحضانة من معنى الرضاع وتوابعه، فالرزق والكسوة للرضاع وتوابعه، فكما وجبت نفقة المعتدة لحبسها نفسها من أجل الزوج وجبت كذلك نفقة المرضعة لولده لحبسها نفسها في رعاية الولد وذلك أجر من الله لها كما جعل المهر أجراً، فلا يلزم أن تجري على الحضانة أحكام الإجارة بحيث تعتبر الجهالة في العمل والنفقة والكسوة مفسدة لأن ضابط ذلك كله الحاجة؛ حاجة الصبي وحاجة المرضعة، وحكم الله فيه أغنى عن تطبيق أحكام الإجارة عليه.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بلا تقتير يستنكر ولا إكثار فوق الحاجة للترفيه بما يشق على الأب ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فعلى الأب أن يقوم بحاجتها بقدر ما يستطيع من بذل الموجود والسعي لما لا يجد ولا يكلف ما لا يسعه.

﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ بتكليفها الحضانة وحبسها عن السعي لقوتها مع التقصير من الأب، أي لا يجعل ولدها آلة لضرارها ﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ فلا يجوز أن يضارّ بتكليفه ما ليس في وسعه.

ومن الضرار لها التشديد عليها والأذية بدعوى أنها تقصر على الولد، والتهديد لها إن لحقه ضر أو هلك، والاتهام لها أنها سوف تقصر، ونحو ذلك من الأذية.

ومن الضرار: إحواجها إلى المطالبة بنفقتها وجدالها في حاجتها وغير ذلك، ومن الضرار للأب: دعوى أنه يقتّر في الإنفاق، وتحري حال اشتغاله لطلبه مع إمكان طلبه في حال فراغه، والسكوت عن طلب حاجة الطفل بالنهار ثم مطالبته في الليل؛ ليصعب عليه طلبها ونحو ذلك، فالآية تنهى عن الضرار كله.

﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ﴾ للمولود ﴿مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما على الأب وذلك إذا مات الأب أو فقد ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي الوالدان ﴿فِصَالاً﴾ أي فطاماً للمولود ﴿عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ فخَرَج التراضي بطريقة المكابرة والمغاضبة لأن التشاور هو الذي يطلب فيه الرأي السديد؛ لا ما يقصد فيه الضرار ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في الفصال.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ﴾ حيث أرادت الأم الفصال ولم يرده الأب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في استرضاعهم لدى مرضعة أخرى ﴿إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ يحتمل: أنه يدخل فيه التسليم للأم والتسليم للمرضعة، لأنه إذا كان السبب الإساءة إلى الأم عند التسليم إليها بأن لا يسلم إليها إلا بمطالبة وشجار أو يصحب التسليم أذية وتشكٍّ من تغريمه أو نحو ذلك مما يصاحب التسليم خلاف المعروف.

فرفع الجناح عنه في الإسترضاع مشروط بأن لا يكون السبب مخالفته للمعروف فيما كان يسلم للأم؛ لأن عليه أن يسلم بالمعروف كما هو مذكور في أول الآية؛ لأنه داخل في المعروف في قوله تعالى: ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما بعده كالتفسير له، وأما المعروف المقارن للتسليم إلى المرضعة الأجنبية والأقرب أنه المراد هنا فهو خلاف ما يستنكر، ومنه اتقاء التهمة فلا يدخل عليها بيتها خالية، ولا يأتيها بالنفقة ليلاً خالية ونحو ذلك.

أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واتقوه في المعاملات كلها فلا تظلموا، واتقوا الله في كل شيء ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فلا يعيى في مقدار جزاءه، ولا في الفصل بين الحق والباطل، ولا تعييه الحيَل والأعذار الباطلة.

﴿٢٣٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ﴾ من الذين آمنوا فله حرمة الإسلام ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ ينتظرن بأنفسهن ويمسكنهاعن الزواج ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ ليالي بأيامها وهذا عام لكل زوجة مدخولة وغير مدخولة؛ لا بد أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشراً من حين تعلم بوفاة زوجها.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ الذي جعله الله لهن لإباحة زواجهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يشير إلى أن الأولياء أو أهل الولاية مأمورون بإلزامها أن تتربص، وإنما رخص لهم بعد تمام العدة في تركها تتزين بالمعروف غير المنكر؛ فلا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى.

وفي قوله: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ إفادة: أنها في حال التربص لم يكن لها ذلك، وأن تركه من التربص؛ لأنها في حال التربص ليس لها أن تتعرض للأزواج.

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من حَسَن أو قبيح، ومن حسن في الظاهر وقبيح في الباطن؛ كالتحيل لبعض الزينة بشيء من الأعذار الفاسدة.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ

﴿٢٣٥﴾ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ﴾ المتوفى أزواجهن لأن السياق فيهن بدلالة العطف، والمراد في حال التربص، فذلك من الرجل لا ينافي تربص المرأة؛ لأنها ليست معرضة بالتزوُّج؛ إنما التعريض من الرجل والتربص من المرأة.

وفائدة التعريض: أن يشير إلى رغبته في تزوجها بعد العدة لئلا يسبقها عليه أحد إن أرادت، ويظهر من هذا تحريم التصريح بالخطبة لأنه لو كان جائزاً ما احتيج إلى التعريض شرعاً؛ لأنه كان يكفي أن يقول: ولا جناح عليكم في خطبة النساء، وإذا ارتفع الجناح من الشرع فكيفية الخطبة موكولة إلى الخاطب ورأيه لنفسه، فلما لم يذكر إلا التعريض فُهِم: أنه الجائز دون التصريح.

والتعريض: أن يقول: إني محتاج إلى زوجة وإني منتظر وفاء العدة لعل الله يقسم لنا بالزواج، فإن كانت من أهل الذكاء كفاها أن يرسل لها بمسبحته أو نحو ذلك، والتعريض غير الكناية؛ لأن التعريض كلام يفهم من عرضه إرادة التزوج بها، وليس عبارة عن طلبها للتزوج به، أما الكناية فهي طلب التزويج، مثل أن يقول: أحب أن توافقيني على أن تكوني راعية لبيتي مربية لأولادي.

﴿أَوْ أَكْنَنتُمْ فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فعزمتم على الخطبة وكتمتم ذلك حتى تم التربص فلا جناح عليكم في ذلك ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بقلوبكم أو ألسنتكم أو بهما فرخص لكم فيما قال.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ فالمواعدة ممنوعة وهي أن يعدها وتعده، ووعده لها قد يكون في السر وقد يكون في العلانية بحضور أهلها مثلاً، والذي في السر مظنة أن يكون فيه كلام لا يصلح مع الأجنبية، ولا يليق بأهل الحياء، والحياء من الإيمان، وما كان ينافي الحياء فهو خلاف القول المعروف.

والأعراف والعادات تختلف في حد القول المعروف وخلافه، أي ما ينبغي أن يستحيى منه وما لا يستحي منه المؤمن ذو المروءة؛ باعتبار موضوع الكلام، وباعتبار طريقة التعبير التصريح والتلويح والكناية والمجاز والحد هو المعروف عند أهل الدين والمروءة من أهل البادية في البادية وأهل المدن في المدن، فأما المعروف عند الفجار الذين لا يستحيون فلا حكم له.

﴿وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ﴾ ﴿لَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ﴾ لا تعقدوا عقد النكاح الذي هو عزيمة لا يبقى بعده رخصة لأحد الزوجين في إهمال موجبه؛ لقول الله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١] هذا تكليف آخر بشأن العقد، فقد يكون بعض العامة الجهلة حريصاً على أن لا تفوت فيطلب العقد خوفاً من أن يأتي خاطب آخر ترضاه ويعد وعداً مؤكداً أنه لا يمسها حتى تخرج من العدة وهذا هو الباطل بعينه؛ فلا حكم لعقده وهي لا تزال في خياريها تختار من شاءت.

لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن

و﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ هو ما كتب الله عليها من التربص وأجله تمام أربعة أشهر وعشر ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ راقبوه واتقوا فيما تخفون في أنفسكم من الظنون والنيات والعقائد، كالظن بعدم فائدة التربص؛ لأن الميت لا يدري ما تصنع زوجته من تربص أو زواج، وهذا خطاب للجهلة والمنافقين وغيرهم.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فلا يحملكم الحذر منه على ترك التعريض والإكنان في أنفسكم خوفاً من أن يقع في التعريض خطأً كلمةٌ زائدة على المباح، وهذا خطاب لأهل الورع وغيرهم، فهو ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر الخطأ وما تاب منه فاعله ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل على معاقبة من عصاه بل يؤجله ليتوب إن شاء حتى ينتهي أجله.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي لا حرج ولا تكليف يشق في طلاق غير المسمى لها إذا لم يكن قد دخل بها فلا يجب لها مهر ولا نصف مهر ولا نفقة عدة ولا عدة، والمس كناية عن الجماع والفريضة تسمية المهر.

﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ بقدر لا يشق عليه ﴿مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فلا يقل بحيث يعاب لقلته ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهي إحسانٌ لأنها لا موجب لها من عقد أو دخول؛ ولكن جبرٌ لخاطر المطلقة وإحسان لتسريحها، وكونها إحساناً لا يمنع وجوبها من حيث هي حق لله بدليل قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فلعله أوجبها تكرمة للمؤمنين، وتنزيهاً لهم عن مشابهة الجفاة والبخلاء.

تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ

﴿٢٣٧﴾ ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ أي يجزي عن كله ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ فيسقط النصف الواجب؛ بعفوهن وإسقاطهن له ﴿أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ وهو الزوج إذا ترك لها المهر كله أو سلمه لها كله فتعين النصف مشروط على ظاهر الآية بما ذكر.

﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ﴾ أيها الأزواج وأيتها الزوجات ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ لأنه تمرين للنفس على فعل الخير والرفق والإحسان، والمسلمون مع الإحسان فيما بينهم أقرب إلى التحابّ في الله؛ الذي هو من التقوى لأنه واجب وهم معه أبعد عن التظالم والتحاسد والتفرق.

﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ وهذا عام للمسلمين ليس خاصاً بالمطلّق والمطلَّقة؛ ولذلك خرج الكلام عن الغيبة إلى الخطاب وقال: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ ليعم المخاطبين، وفي (نهج البلاغة) و(صحيفة الإمام الرضا) عن آبائه واللفظ لـ(نهج البلاغة): عن أمير المؤمنين علي × [رقم ٤٦٠] وقال × : ((يأتي على الناس زمان يعضُّ المؤسر فيه على ما في يده ولم يؤمر بذلك، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ تَنْهَدُ فيه الأشرار، وتستذل فيه الأخيار، ويبايع المضطرون، وقد نهى رسول الله ص عن بيع المضطرين)) انتهى.

وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجعل لكل عمل ما يليق به من ثواب أو عقاب، أو صلاح حال عاجل أو سوء حال عاجل، أو بركة أو نزع بركة، أو شفاء مرض أو تلف مال، أو غير ذلك، ما شاء كما شاء فهو ﴿بَصِيرٌ﴾ بأعمال العباد حسنها وقبيحها، وما يعذَر فيه صاحبه وما لا يعذر وغير ذلك، وقد حكى الهادي × عن العرب استعمال (بصير) بهذا المعنى حيث قال: ((من ذلك قول العرب: فلان بصير بالفقه، والنحو، والحساب، بصير بالشعر والكلام في كل الأسباب..)) انتهى المراد، ومحله في (المجموعة الفاخرة) [ص٣٥/ مخطوط].

﴿٢٣٨﴾ ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ وهي الخمس: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والمحافظة عليها: إقامتها في أوقاتها بكل حال؛ لا تترك لشغل، ولا لنوم، ولا لمرض، ولا لسفر، ولا لخوف.

وقد *يقال*: كيف قلت: ولا نوم، وقد جاء في الحديث: ((رفع القلم عن ثلاثة؛ وذكر من الثلاثة؛ النائم حتى يستيقظ))؟

والجواب: أن الذي يسهر اختياراً ثم ينام عند الفجر وهو يعلم أنه لا يستيقظ في وقت الفجر، يكون غير محافظ عليها؛ لأنه يستطيع أن ينام في النصف الأول من الليل ليستيقظ، وهذه عُدَّةُ من أراد الصلاة؛ والله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة:٤٦] فلم يعذر من فقد العدة وقت الخروج لأنه كان متمكناً من إعدادها من قبل، فإذا أمرنا أن نحافظ على الصلاة فذلك يلزم منه إعداد العدة لها.

فإن **قيل**: فإن رسول الله ص نام فلم يستيقظ إلا من حر الشمس هو وأصحابه فصلوا الفجر بعد الشروق؛ وسبب ذلك التعب وتأخر النوم؟

قلنا: إن في الحديث أنه قال: ((مَن يكلؤُنا الليلة)) فقال رجل: أنا يا رسول الله، فبات الرجل مرة قاعداً، ومرة قائماً، حتى غلبه النوم؛ فكان سبب تأخير الصلاة هو نوم الكالئ؛ لأنه لو لم ينم لنبه النبي ص ومن معه فلا تفريط.

وكذلك لو أن رجلاً سهر واتخذ وسيلة ليستيقظ بها في وقت الفجر؛ كأن يطلب ممن يستيقظ أن يوقظه، ويثق به أنه يوقظه، فينام فينسى من وثق به أو ينام فهذا لا تفريط منه ولا إخلال بالمحافظة.

فإن **قيل**: أنه غير مكلف بصلاة الفجر قبل دخول وقتها؟

قلنا: أما التكليف فإنه فقد كُلِّف من حين حمل عقله، وأما الصلاة قبل وقتها فلم يكلف أن يصلي قبل الوقت، لكنه قد كلف أن يصلي في الوقت، فليس له أن ينام على صفة تفوته الصلاة متعمداً لأنه مكلف قبل النوم، وإن لم يكن مكلفاً حال النوم، ألا ترى أن الذي ينام في الدار المغصوبة آثم بنفس بقائه فيها حال النوم، لأنه تعمده قبل النوم، وإن لم يكن مكلفا حال النوم، وسبب إثمه أنه مكلف قبل النوم أن لا ينام فيها.

﴿وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ﴾ الفضلى؛ قال تعالى: ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ [القلم:٢٨] واختلف فيها أيّ الصلوات هي؟ وقد روى الإمام الهادي × في (الأحكام): عن علي × : ((أنها الجمعة في يومها، والظهر في سائر الأيام)) ويؤكد هذا أن الله خص الجمعة بالحث عليها في (سورة الجمعة).

﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ أي قوموا في الصلوات لله، فالقيام منها؛ ولا تتم إلا به في حق من أمكنه القيام.

وقوله تعالى: ﴿قَـٰنِتِينَ﴾ حال، والقنوت استعمل في القرآن في مواضع يجمعها الخضوع، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا..﴾ الآية [الزمر:٩] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ [الأحزاب:٣١] وقال تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ [النساء:٣٤] وقال تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] وقال تعالى: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ﴾ [التحريم:٥].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : القانتون: فهم الداعون إلى الله، المسلمون لأمر الله، القائمون بحكم الله)) انتهى.

قلت: لعل كلام الإمام الهادي × وقع في تفسير (آية آل عمران) وهو يعني: أن الخضوع لله ليس معناه الإنشغال بالذكر والصلوات النوافل، بل منه: القيام بحكم الله، والجهاد في سبيله؛ فهو أعظم الخضوع لله، وقد جعل (صاحب القاموس) من معاني (القنوت) التواضع لله، وهو مناسب للخضوع.

وقال في (اللسان) بعد ذكر معان مختلفة: ((وقنت له؛ ذَلّ)) قال في (لسان العرب) أيضاً: ((وفي التنزيل: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام؛ فأمسكنا عن الكلام، فالقنوت هاهنا: الإمساك عن الكلام في الصلاة)) انتهى.

قلت: يمكن أن زيد بن أرقم فهمه من الخضوع لله كما روي عن رسول الله ص أنه قال: ((إن في الصلاة لشغلاً)) فهو يعني: أن الخاضع لله في صلاته ينشغل بذلك عن كلام الناس، وعلى هذا تكون تسمية الدعاء قنوتاً لأن فيه خضوعاً لله زائداً.

قال في (اللسان): ((ويرد بمعان متعددة: كالطاعة، والخشوع، والصلاة، والدعاء، والعبادة، والقيام، وطولُ القيام، والسكوت، فيصرف في كل واحد من هذه المعاني إلى ما يحتمله لفظ الحديث الوارد فيه)) انتهى.

قلت: الراجح: أنه مشترك معنوي، وأنما ذكروه إنما هو قنوت حيث يكون خضوعاً، ألا ترى أن القيام لغير العبادة لا يسمى قنوتاً، لأنهم إنما أرادوا القيام في الصلاة؛ ولذلك قال في (اللسان): ((والمشهور في اللغة أن القنوت الدعاء، وحقيقة القانت: أنه القائم بأمر الله، فالداعي إذا كان قائماً خص بأن يقال له قانت، لأنه ذاكر لله وهو قائم على رجليه، فحقيقة القنوت العبادة والدعاء لله عز وجل في حال القيام، ويجوز أن يقع في سائر الطاعة لأنه إن لم يكن قياماً بالرجلين فهو قيامٌ بالشيء بالنية. ابن سيدة: والقانت: القائم بجميع أمر الله)) انتهى.

فظهر: أنهم أرادوا قيام الطاعة لا مجرد القيام، فالمعاني مشتركة في الخضوع، وظهر من قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر:٩] أن القيام ليس من مفهوم القنوت؛ ولذلك صح في حال السجود، فظهر أنه الخضوع، وهو معنى قول (صاحب القاموس): ((قنت لله: تواضع له)) وقول (صاحب اللسان): ((قنت له: ذلَّ)).

والتعبير بـ(الخضوع) أحسن من التعبير بـ(التواضع) هذا والقيام هو الإنتصاب مع البقاء في مكان واحد أي الوقوف، فلا تصح الصلاة مع المشي إلا في حال الضرورة.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ

﴿٢٣٩-٢٤٠﴾ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فاضطررتم إلى السير ﴿فَرِجَالاً﴾ صلوا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ سائرين كما في حال المسايفة والفرار من عدوّ يجوز الفرار منه، والفرار من سَبُعٍ أو نحوه، وعلى الجملة؛ حالة الخوف الملجئ إلى السير.

﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أي فصلوا قياماً ذاكرين الله شكراً على نعمته بتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، وفهم الأمر بالقيام مما تقدم.

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم﴾ أي شأنهم وواجبهم وصية عند الموت لأزواجهم ﴿مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ﴾ وهو النفقة والسكنى إلى تمام حولٍ من موته ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فلا تخرج الزوجة في الحول ولو كان في الخروج متاع لها ما لم تخرج وهي مختارة للخروج.

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ﴾ من منافعهن بِالْمَعْرُوفِ غير المستنكر؛ أما المستنكر كالتعرض للأزواج في الحول، والوقوف مواقف التهم، وترك الإحداد حين يعاب تركه فلا يجوز.

﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلا يهمل ولا يرضى الباطل؛ لأنه غالب لا ينال وحكيم ليس في أمره مخالفة للحكمة فلا بد من جزاء من ترك ما أمر به أو فعل ما نهي عنه بما يستحق.

بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمتاع نفقة العدة للمعتدة، وأما من لا عدة لها فلها المتعة كما مرَّ، وفي الآية دلالة على أن ترك ما فيها مخالف للتقوى ومخرج منها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فبين تعالى آياته في القرآن الكريم كما بين هذه الآيات للناس ليعقلوا معناها ويحفظوه ليتبعوا آياته، وفي هذا دلالة على أن القرآن غير غامضِ الدلالة على ما كلفنا الله به من أحكامه، وذلك يبطل قول الباطنية ومن يخص به الشيخ أو الإمام.

﴿٢٤٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مخرجه مخرج التعجب، كأن الله يعجِّب خلقه من حال هؤلاء الألوف ـ ثم قال ـ : ولا يجوز أن يكون هذا العدد دون العشرة؛ لأن بناء فُعُول في (باب العدد) على ما زاد على العشرة)) انتهى.

قلت: التعجيب منهم حين تركَّز على كثرتهم، يظهر منه: أنهم فروا من القتال وهم يستطيعون الدفاع لكثرتهم، فكان عجزُهم عن الدفاع عن أنفسهم، ولجوءهم إلى الخروج من ديارهم ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ عجيباً؛ لأنهم يستطيعون الدفاع، واقتران هذه الآية بما بعدها من الأمر بالقتال في سبيل الله يؤكد هذا.

فأما الرواية أنهم فروا من الطاعون فالله أعلم بصحتها، ولا يبعد أنها من أكاذيب اليهود إذا كان هؤلاء الألوف منهم.. فرووا هذه القصة؛ ليستتروا من عار الفرار، ومن البعيد أن يفرق بين الكثير والقليل في الفرار من المصائب الربانية؛ لأن الفرار طبيعي من طبائع البشر والكثير والقليل فيه سواء.

ألا ترى أن فرار الألوف من الفيضان ليس عجيباً، ويؤكد هذا أن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ﴾ يفهم منه أن ذلك جرى مجرى العقوبة على فرارهم، والعقوبة إنما تكون على فعل معصية أو ترك واجب، فظهر: أنهم فروا من القتال وكان واجباً عليهم الدفاع.

فإن قيل: أنهم فروا من الله فأراهم قدرته على إماتتهم؟

قلنا: ليس الفرار من أسباب الهلاك يعتبر فراراً من الله؛ لأن الله قد مكن من الفرار وجعل الطباع تدعو إليه، وجعله سبباً للنجاة في بعض الحالات، فدل ذلك على جوازه إذا لم ينه عنه، وأنه ليس فراراً من الله، كما أن الفرار من الفيضان ليس فراراً من الله، وأيضاً الفرار من أسباب الهلاك لا يستلزم الجهل بقدرة الله على إهلاك الهارب حيث صار فلا يوجب العقوبة، فظهر: أن عقابهم على فرارهم من القتال، وترجيحهم حذر الموت على الدفاع الذي فيه دفع الظالم عن ظلمه ومنعه عن زيادة التمكن والقوة على الفساد؛ فلذلك يستحقون أن يعاملوا بنقيض قصدهم فأماتهم الله؛

﴿ثُمَّ أَحۡيَٰهُمۡ﴾ تفضلاً عليهم، ولا مانع من حمله على ظاهره، وأنه تعالى أحيى الأشخاص الذين أماتهم كالذي أماته الله مائة عام ثم بعثه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لأنه ينعم عليهم ويعاملهم معاملة الحلم والرحمة

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ

وفي إحياء الذين أماتهم نعمة عظيمة لتعريضهم على التوبة والنجاة من عذاب الآخرة ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لأن الإنسان ظلوم كفار لا يهمه إلا مطالبةُ العاجلة دون ما عليه من الحق لربه.

﴿٢٤٤﴾ ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ العطف إما على قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ وهو أظهر، وإما على ما يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لَـذُو فَضْـلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ من الحث على الشكر، فكأنه قيل: اشكروا فضل الله وقاتلوا، والأمر هنا بالقتال في سبيل الله مطلق يقتضي وجوبه على الإطلاق كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَالَّـذِينَ كَفَـرُوا يُقَـاتِلُونَ فِـي سَـبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء:٧٦] وغير هذه من الأوامر والدلائل على وجوب القتال في سبيل الله.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه من يجاهد ومن يقعد ومن يحرض ومن ينصر ومن يثبط ومن يتكل على الإعتذارات الكاذبة، فعلينا مراقبته واتقاء عذابه.

﴿٢٤٥﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ والقرض الحسن الإنفاق في سبيل الله من الحلال برغبة ونية خالصة لله ومنه الإنفاق في سائر وجوه البر ﴿فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ وقد ذكر الله تضعيف الإنفاق في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ

وجاء في حديث في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) في تضعيف صدقة السر ((فيربيها كما يربي أحدكم فلوّه أو فصيله، حتى تصير اللقمة مثل أحد)) ولا يبعد أن التضعيف نوعان:

الأول: بالتفضل بزيادة الأجر كجزاء الحسنة بعشر أمثالها،

النوع *الثاني*: ترتيب فوائد كثيرة للحسنة وآثار حسنة تكثر فتعظم بها الحسنة التي هي سببها، ولعل هذا معنى الحديث المذكور والآية تشمله وتشمل الأول.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فهو يقبض ابتلاءً ويبسط ابتلاءً، وبيده الخير فلم يرغب في الإنفاق من قلة ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيجزي كل نفس بما تسعى، ويوفي المحسنين أجورهم.

﴿٢٤٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ إشارة إلى أن ما يذكره عجيب، والملأ كبار القوم ﴿إِذۡ قَالُواْ لِنَبِيّٖ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكٗا نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ هذا القول منهم دليل على قلة المعرفة أو قلة الدين لأن الذي يبعث لهم ملكاً هو الله سبحانه، وإنما يملك النبي إن أذن الله له أن يدعو الله لهم بأن يبعث لهم ملكاً؛ ولذا قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ..﴾ الآية، ولم يقل: (قد بعثت لكم).

وطلبوا ملكاً ليجمع كلمتهم ويلم شعثهم ويوحد صفهم حتى يستطيعوا الجهاد؛ لأن الجهاد لا يصلح بلا أمير له هيبته ونفوذ الأمر في قومه كما قال أميرالمؤمنين: ((وإنه لا بد للناس من أمير يقاتَل به العدوّ)) وقالوا ﴿نُّقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليساعدهم النبي على ما طلبوا، لأنهم لو طلبوا ملكاً لاسترجاع أرضهم وطرد عدوهم عنها لكان هذا غرضاً دنيوياً، والنبي لا يدرون لعله لا يساعدهم على ذلك، أما إذا كان الغرض الجهاد في سبيل الله فهو غرض صالح مظنة أن يوافقهم عليه نبيهم.

﴿قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ﴾ هل الأقرب منكم أنكم لن تقاتلوا إن كتب عليكم القتال بوجود الملك، وفائدة هذا الكلام: الإشعار بأنه لم يغتر بكلامهم ولم يصدق وعدهم؛ وإن أسعدهم إلى ما طلبوا وفيه بعث للحميّة وصدق النيّة وتأكيد الوعد بالجهاد.

﴿قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا﴾ أي لأي سبب لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا لأن القتال قد جمع لنا الغرضين؛ الديني والدنيوي، فكيف لا نقاتل لنسترجع أرضنا ونرجع إلى ديارنا وأبنائنا ولننصر الله.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لما كان لهم ملك ووجب عليهم القتال ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ عن طاعة الله وعن الجهاد ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ منهم الذين يأتي ذكرهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ العصاة الذين تولوا، وفيه دليل على أن العاصي المتمرد ظالم؛ وذلك لأنه حاف ومال عن العدل والإنصاف، لأن الحق على العبد طاعة المالك المنعم، فمعصيته حيف وجور فهو ظلم.

طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

وإنما سمي الضرر العاري عن جلب نفع أو دفع ضرر أو استحقاق ظلماً، لأنه مخالف للعدل حيف وجور، فالظلم مخالفة العدل والإساءة بغير حق وإن لم تكن ضراً، وأما كون ذلك ظلماً للنفس فهو معنى آخر.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ كما طلبتم لتقاتلوا في سبيل الله ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ من أين يكون له الملك علينا كأنهم توهموا أن الملك يثبت بالوراثة أو بالثروة ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لشرفنا في قومنا ومكانتنا عندهم لأنا نحن الملأ ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ ليميل الناس إليه ويرغبوا في نصرته، لأجل تحصيل المال منه.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ اختاره صفوة وخيرة، فبطل قولكم: ﴿نَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأن الذي يصطفيه الله أحق؛ لأن الحكم لله والولاية له على عباده، وبطل قولكم: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أيضاً لأن الحكم لله لا للناس؛ فله أن يختار من شاء، وليس الخيار للناس فلا تشترط رغبتهم ولذلك فلا يشترط أن يؤت سعة من المال ترغِّبهم فيه

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ فكماله بتوسعه في العلم والقوة وكمال البنية خير من سعة المال، وزيادته عليكم في ذلك كله يوجب له أنه أحق منكم، وفي الآية دليل على أن أحق المسلمين بالقيادة والملك عليهم هو أعلمهم وأقواهم على هذا الشأن كما قال أمير المؤمنين: ((أحق الناس بهذا الأمر أقواهم عليه، وأعلمهم بحكم الله فيه)).

وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ

فالقول: بجواز «إمامة المفضول مع وجود الأفضل» ضعيف إلا أن يكون وجود الفاضل كلا وجود.. كالمحبوس الميؤوس منه، بشرط كمال المفضول في علمه بما يجب في هذا الأمر، وعلم الدين كله، وكماله في قدرته على القيام بواجبات هذا الأمر، وفضله في ذلك على بقية من في زمانه لدلالة الآية الكريمة على أن صاحب الزيادة أولى، وعلى أنه يجب أن يكون صفوة وخيرة.

﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾ لأنه المالك للناس كلهم وهم كلهم عباده فليس لهم شيء من الأمر وليس لهم أن يولوا من شاءوا فَلَو أجمعوا على رجل غير مرضي عند الله ما كان له الحكم ولا صحت له ولاية، فما يجري من الإنتخابات التي تستعمل فيها الدعايات المضللة أو المغريات من الأموال والوعود لا حكم لها.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ ففضله واسع، فلذلك يكمل من يشاء، ويزيده بسطة في العلم والجسم، ويجعله صفوة ولو كان فقيراً لا يراه الناس مظنة لذلك، أو لا يرغبون في ولا يته؛ وهو عليم بموضع الإختيار والإصطفاء وحيث يجعل ملكه والأهلية لملكه.

﴿٢٤٨﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ﴾ إن علامة ملكه، زادهم دليلاً على الدليل الأول: ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ يدل عليه بما فيه من السكينة والبقية.

قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ

قال في (الكشاف): ((التابوت: صندوق التوراة)) فقال: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فإذا كان معكم في الجهاد نزلت السكينة عليكم من ربكم، وقويتم على عدوكم، فمعنى ﴿فِيهِ﴾ بسببه؛ كما قال الشاعر:

ففي الشك تفريط، وفي الحزم قوة ويخطئ في الحزم الفتى ويصيب

﴿وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ من كتب العلم كالتوراة، أو منها ومن آثار، إما تذكّر بموسى وهارون فتبعث الحمية على القتال في نصرة دينهما، وإما أن كرامتها وعزتها عليهم تبعثهم على الجد في القتال لحفظها ودفع العدو عنها.

﴿تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾ حال من ﴿يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ أي يأتيكم تحمله الملائكة فتلك معجزة لطالوت تدل على أن الله جعله ملكاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فقد قطع علتهم ولم يبق لهم عذر في ترك الجهاد معه ولم يبق إلا أن يتمردوا؛ لعدم الإيمان في من تمرد منهم.

﴿٢٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ﴾ فقد اضطروا ـ لغلبة الحجة عليهم ـ إلى إظهار الطاعة والانقياد وفيهم الأخيار الأبرار الصادقون، فالجنود قد جمعت من يصلح ومن لا يصلح فكان من الحكمة التمييز بين الخبيث والطيّب والإكتفاء بالطّيب وإن قل.

﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ فاختبرهم بهذا النهر من الماء؛ لأن من صبر على العطش صبر على القتال، ودل امتناعه من الشرب على صدق نيته في الجهاد، ومن شرب دل ذلك على فساده، وقلة صبره، وضعف نيته، وكانت الغرفة الواحدة مستثناة؛ لأنها لا تنافي صدق النية ورحمة للعطشان ليخف عنه العطش؛ حتى يصير إلى مكان آخر يرخص لهم فيه في الشرب.

﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وهنا تميز الخبيث من الطيب، ورجع الجمهور الفاسد عن المسيرة، ولعل الحكمة في ذلك أنهم لو خرجوا معه ما كانوا إلا مفسدين، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ..﴾ الآية [التوبة:٤٧].

﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ يعنون أنهم قليل؛ لأنهم قد خلفوا الجماهير الذين شربوا من النهر أكثر من غرفة للواحد، وقد تبين: أن المتقي المطيع مؤمن، وأن العاصي ظالم من الآيتين هذه والأولى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فكل فريق يختص باسمه فلا الظالم مؤمن، ولا المؤمن ظالم، كما فهم من سياق الآيتين.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ أهل الأمل القصير في الحياة فهم لذلك راغبون في الشهادة، راغبون في الجهاد في سبيل الله، ليختموا به البقية الباقية من أعمارهم ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالوه تشجيعاً لأصحابهم وتثبيتاً لهم، والإذن بوقوع الشيء يلزم معه إزالة الصارف والمانع من وقوعه.

وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ

ولذلك فقوة جالوت تنهار مع الإذن من الله بأن يكون هو المغلوب وحزب الله هم الغالبون، فقولهم: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه على أن النصر من عند الله وأنه إن ينصرهم فلا غالب لهم.

﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ولذلك إذا صبرنا عند لقاء العدو كان الله معنا، وإذا كان معنا كانت القوة معنا..الغالبة على كل قوة وكنا نحن الغالبين، وبناءً على ذلك بطل قولهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ ولم يبق إلا العزم والثبات والصبر ليفوزوا بالنصر وعظيم الأجر.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فاستعملوا السلاح الذي هو سلاح المؤمن قبل استعمال السيوف ونحوها، ومعنى ﴿بَرَزُواْ لِجَالُوتَ﴾ ظهروا له ولم يبق بينه وبينهم حاجز من جبل أو غيره ولا بعد مسافة بل أشرفوا على الشروع في القتال، فاستعانوا بالله، وطلبوه أن يفرغ عليهم ﴿صَبۡرٗا﴾ أي يصب عليهم صبراً، ولعل اختيار الصبّ ليشمل الأعضاء فتتحمل ما يلحقها من الضرب ونحوه.

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ عند اللقاء؛ لأن المقاتل قوي ما لم تزل قدماه عند مصاولة العدو فيسقط، وتلك الحال مظنة زلل الأقدام لما يكون من المراوغة القوية واختلاف اتجاه حركات الأقدام ووجود ما يتعثر فيه في الأرض مع اشتغال الذهن والبصر بالعدوّ، ومن تثبيت الأقدام الإعانة على البقاء في المعركة وترك الفرار؛ كما قال أمير المؤمنين × لابنه محمد بن الحنفية: ((تِد في الأرض قدمك)) يعني أثبت مكانك حتى كأن قدميك موتدتان على الأرض.

ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾

﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الذين هم أعداؤك وأعداء دينك، وفي هذا الدعاء دلالة على أن مهمتهم نصر دين الله وكبت أعداء الله حيث قالوا: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقولوا مكانها وانصرنا على أعدائنا.

﴿٢٥١﴾ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الذي بيده قلوب العباد؛ يقوي منها ما يشاء، ويرعب ما يشاء، وبيده ملكوت كل شيء؛ فأعز جنده، وهزم عدوه، وجعله المغلوب المقهور ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ وتحقق النصر من الله؛ بقتل قائد الجيش وأميره وتمت النعمة لطالوت ومن آمن معه بما صبروا ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي آتى داود × ، وكأنها كانت جائزة له على إقدامه وقتله لجالوت لعظم فعل ذلك وعموم نفعه؛ كما روي في فضل قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب × لعمرو بن عبد ودّ.

﴿وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ كتعليمه صناعة الدروع الجيدة الجامعة بين القوة وحسن تقدير السرد؛ فلا تثقل أكثر مما يلزم ولا يخرقها السلاح.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ فالجهاد مصلحة ضرورية، والمسئولية في سفك الدماء على أعداء الله الذين لو خلوا وشأنهم لفسدت الأرض؛ لأنهم يدعون إلى الباطل، ويصدون عن سبيل الله، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويحرقون الكتب الدينية، ويسعون في الأرض فساداً؛ والله لا يحب المفسدين، وفي قصة الملأ من بني إسرائيل ونبيهم وطالوت ونخبته فوائد عسكرية مع كونها دينية، فقد أفادت أن كبار الناس وأشرافهم قد يطلبون الجهاد باسم الدين وغرضهم الدنيا والحصول على المناصب.

ومنها: أنه لا يوثق بهم للجهاد لأن من همه ونيته الدنيا يكون حريصاً على الحياة، فليس مظنة الثبات للموت وإن كانوا أبطالاً فإن حبهم للحياة يمنعهم من المغامرة في مظانِّ الهلاك؛ ولأن حرصهم على المناصب يؤدي إلى إفساد نياتهم إذا لم تحصل لهم المناصب.

ومنها: أن الجدال على المناصب علامة حب الدنيا الذي ليس من شأن من يقاتل في سبيل الله.

ومنها: انتخاب القائد القوي الكامل في كفاءته ودينه الذي لا إشكال في أنه أصلح للقيادة ليقتنع به أهل النفوس البريئة من فساد النية ويصدقوا في الكون معه، وطاعته ونصحه، ولأن القائد الزاهد في الحياة الدنيا أشجع وأثبت في المهالك وأصبر على الشدائد وأحسن رعاية لأصحابه لصدق نيته وسلامته من الأنانية والتكبر وحبه لهم ورحمته لهم وسلامته من الإستبداد والغش للأصحاب، ولأن القائد الديني أقوى رغبة في الجهاد والشهادة فهو أشد إقداماً وثباتاً.

ومنها: انتخاب القائد الذكي المدبر السليم من الجبن المعارض لحسن الرأي والسليم من البخل الذي هو من أعظم أسباب الذلة وتفرق الأصحاب مع معارضته لحسن الرأي في الإنفاق.

ومنها: انتخاب الأعلم في علم الدين ليكون أعلم بالحق في تصرفاته وتصرفات أصحابه وأثبت على الحق لعلمه أنه على حق.

ومنها: انتخاب الأقوى في بدنه ليتحمل شدائد القتال وما يكون معه من الحر والبرد والمطر والجوع والعطش فيكون ثابت الصحة بعيداً من المرض وليحمل ما حُمِّلَ من التكاليف بجدارة وقدرة كاملة ويستطيع الثبات على القتال والإستمرار عليه ومصابرة العدو، ويتحمل التعب والسهر وأذى الأصحاب مع العناء في الجهاد.

ومنها: أن يكون واسع الصدر حليماً يصبر على الأذى، ويتحمل السب والاتهامات التي تعرض من جهلة الأصحاب، ولا يضيق صدره عنهم أو يضيع عليه الرأي لأجل ضيقه منهم أو يصير في شقاق بينه وبينهم، وليستطيع حسن البيان لهم حتى يردهم عن الغلط برفق ولين، وتكون معاملته لهم كلها ترغيب وسبب لحبهم إياه وثباتهم معه.

ومنها: أن يكون له شجاعة طبيعية ورباطة جأش ليستطيع القيادة في المعارك واقتحام المهالك؛ لأنه إذا كان ضعيف القلب والأعصاب لا يستطيع ذلك وإن كان دينياً زاهداً في الحياة، فهذا ما حضر من صفات القائد المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ فأما من جهة الجند فقد ظهر منه اختياره ما تيسر من الصالحين الصادقين إذا اجتمع له جند منهم.

وقد قيل: أن أصحاب طالوت الذين ثبتوا معه كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر، وهذا النصاب نص عليه الإمام زيد بن علي إ في (المجموع) وذلك لأنه إذا لم يكن له من يثق به ويعتمد عليه من الصالحين؛ كان على خطر من أصحابٍ مظنةِ الهزيمة أو الخلاف له أو الاختلاف، ولم يكونوا مظنة الصبر الذي هو سبب النصر، ولا اللجوء إلى الله في طلب الصبر، ولم يكن له يد عليهم في أمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل يحتاج إلى مداراتهم في دين الله، فليسوا مظنة النصر بالطريقة التي انتصر بها أصحاب طالوت بل يكون معهم بين الرجاء واليأس إن صدقت نياتهم.

ومن تدبير الجند: دفع أهل النيات الفاسدة عن صحبته، وردهم عن الخروج معه بحيلة يحتال لها القائد الذكي، بحيث لا يؤدي ردهم بالعنف إلى أن يصيروا مع العدوّ، أو ينظموا منظّمة ضده أو غير ذلك من فسادهم كالإرجاف على من بعدهم والدعايات المضللة.

تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ

ومن تدبير الجند: إعداد ما يحتاج إليه من الطعام والشراب وغيره بواسطة عمال لهذا العمل، فإن كانت نفقاتهم من عنده تولى تحصيل عمال لتحصيل ما يحتاجونه وعمال لأخذه وإيصاله إليهم وعمال أمناء لتوزيعه عليهم وإن كانت نفقاتهم منهم فإعداد من يشترون منهم إذا نفد ما بأيديهم من الزاد.. لكن هذا الأخير وإن لم تدل الآيات عليه من حيث انتخاب الجند فقد دلت عليه من حيث اصطفاء القائد فهي من جملة صفاته التي تقدمت وهي حسن الرأي.

﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فمن فضله أن يجعل أولياءه يدفعون أعداءه عن الفساد في الأرض، ومن فضله أوجب الجهاد، ودل عباده على أسباب النصر، وأمرهم بإعداد القوة، وأمر بالكون مع الصادقين، وأمر بالتعاون على البر والتقوى، وأمر بتكوين أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠-١١] فدل على أن الجهاد خير للذين آمنوا، وأن من الدعوة إلى الخير الدعوة إلى الجهاد.

يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ

﴿٢٥٣﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تلك إشارة إلى الآيات السابقة من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ..﴾ أو من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ..﴾ فهي آيات أنزلها الله مطابقة لما عند أهل الكتاب من ذلك القصص، ولذلك فهي دليل من حيث هي إخبار بغيب بالنسبة إلى المبلغ لها؛ لأنه لم يقرأ في الكتب بل هو أمي من الأميين في بلد الأميين نشأ ولم يخالط أهل الكتاب، فتبين أن الله يتلو عليه هذه الآيات وأنه من المرسلين ص.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ تلك إشارة إلى الرسل الذين قد ذكرهم فيما مرَّ، وهم: محمد ص، وعيسى، وموسى، وإبراهيم، وداود، وسليمان، والتفضيل من الله زيادة خير لبعضهم على بعض كزيادة العلم، وعموم رسالة إبراهيم وجعله إماماً للعالمين واتخاذه خليلاً.

﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ فقد ﴿كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤] وفي الكلام خلاف؛ فالحنابلة وغيرهم يجعلونه صفة، والأشاعرة يثبتون كلاماً نفسياً ويجعلونه صفة، وقيل بل كلام الله مخلوق من جملة أفعاله، ولا إشكال أن كلام الله في علمه أنشأه بلا رويّة ولا تفكر، وأوحاه إلى رسله وأنبيائه وكلم به موسى، كما لا شك في قدرته على الكلام وأنه يقول ولا يلفظ، فليس قوله يكون بآلة كآلة المخلوق التي هي اللسان وما إليه؛ بل يقول سبحانه بدون آلة كما يفعل بدون آلة.

وقوله: كلام مؤلف من الحروف والكلمات المرتبة التي يتقدم بعضها على بعض ويتأخر بعضها عن بعض، فهو محدث بلا إشكال، فأما تسميته مخلوقاً فلا ضرورة لها، وليس يوصف الكلام بالخلق إلا على معنى الكذب في لغة العرب، فالتعبير بأنه محدث أولى، كما لا ضرورة لجعله فعلاً من الأفعال فيوهم أنه تعالى لا يقدر على إيجاد الكلام بقدرة القول، أي لا يقدر على أن يقول وإنما يقدر على أن يخلق أعني لا نتوهم أنه لا يقدر على القول إلا من حيث قدرته على الخلق، وأنها لا تتعلق قدرته بالقول من حيث هو قول، وهذا أمر إعتباري والخلاف فيه لفظي، والأولى في التعبير أن نقول: هو تعالى قادر على القول كما هو قادر على الفعل وإن كانت القدرة واحدة.

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ مع تفضيله لأن الفضل يصدق بزيادة درجة واحدة فبين تعالى أنه فضل بعضهم ورفعه في الفضل درجات.

﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الآيات الواضحات الدلالة على أنه رسول من الله إلى بني إسرائيل ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ بجبريل × و ﴿ٱلْقُدُسِ﴾ البعد من القبائح، وجبريل × هو الروح الأمين؛ سماه الله روحاً، فقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل:١٠٢] وأضيف إلى القدس كما تقول: حاتم الجود؛ إضافة الموصوف إلى الصفة، ولعله سمي روحاً؛ لأنه حياة للدين كما سمي القرآن روحاً؛ لأنه حياة للإيمان في القلوب.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل السابق ذكرهم ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ مع عيسى وموسى وإبراهيم وغيرهم ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ فليس الخلاف لالتباس الحق أو خفائه، وإنما هو للهوى المؤدي إلى الكفر.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لأنه عزيز حكيم، فهو مع تخليته للكفار وتمكينهم للابتلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤١] ينصر من ينصره ويعز جنده ويدافع الكفار بالمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ ثم قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ لعل الأولى إشارة إلى أنه قادر على جعلهم أمة واحدة لا يختلفون، ولكن اقتضت حكمته تمكينهم وتخليتهم فاختلفوا، والثانية إشارة إلى أنهم حين اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم كفر، هو قادر على إهلاك الكافرين دون أن يحتاج المؤمنون إلى قتالهم؛ ولكن اقتضت حكمته الابتلاء للفريقين بالتخلية والتمكين للكفار والمؤمنين والأمر للمؤمنين بقتال الكفار.

فنظير الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة:٤٨] ونظير الثانية قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد:٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ٢٥٤ الإنفاق هنا هو المشروع، ومنه الإنفاق في سبيل الله، والإنفاق للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل، وغير ذلك كما مرَّ.

وفي هذه الآية أمر بالإنفاق لينفع المنفق نفسه، ويقدم لنفسه ليوم لا ينفعه غير ما قدم في هذه الدنيا من الإنفاق والعمل الصالح؛ حيث تبطل الوسائل المعهودة في الدنيا كالبيع لتحصيل الربح، أو الحاجة التي ينتفع بها.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

والخلة ليعين الخليل خليله عند الحاجة لنفع أو دفع، والشفاعة حيث يشفع أهل الوجاهة لمن يستشفع بهم فتنفعه شفاعتهم، فكل هذه الوسائل لا توجد في يوم القيامة إذا لم يقدم الإنسان لنفسه عملاً صالحاً وتقوى؛ تنجيه من النار وتبلغه الجنة.

فأما الشفاعة للمؤمنين فهي لهم بإذن الله، بسبب إيمانهم وتقواهم، والمقصود في الآية بالنفي شفاعة من يتدخل بالشفاعة كما في الدنيا، والشفاعة التي سببها الإستشفاع كما في الدنيا، فالمنفي هو الشفاعة المعهودة التي يتوصل إليها المكروب باختياره، ألا تراه نفاها كما نفى البيع والخلة؛ وهما اختياريان، فالمقصود نفي الوسائل المعهودة ليجدَّ الإنسان في التقديم لنفسه في هذه الدنيا، ولا يتكل على الأماني.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كأنه بمعنى أن الله لم يظلمهم بتعذيبهم في الآخرة ومنعهم الشفاعة وكل سبب للإنقاذ من العذاب؛ بل هم الظالمون بما اكتسبوا في الدنيا، فهي كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦].

﴿٢٥٥﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحقٍ إلا هو لأنه رب العالمين المنعم عليهم؛ فهو المستحق لأن يعبدوه؛ ولأنه يسمع الدعاء ويستجيب، ويعلم العبادة ويثيب؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، القادر على كل شيء، الرحيم

الكريم فهو الذي تنفع عبادته لطلب الثواب والهرب من العقاب، وجلب الأرزاق وشفاء الأمراض، والبركة، وصرف المصائب وغير ذلك، مع أنه قريب مجيب رحيم ودود لم يلجئنا إلى وسائط، ولم يجعل بيننا وبينه حاجباً.

بل هو أقرب من كل قريب، وأكرم من كل كريم، وأرحم من كل رحيم، قد أمرنا أن ندعوه ووعدنا الإجابة فلماذا الوسائط؟! أهُم أرحم؟ أم هم أكرم؟ أم هم أقرب وأسمع للدعاء؟ سبحانه وتعالى علواً كبيراً، فالله هو المعبود بحق الذي تأله إليه القلوب.

﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ بخلاف الأصنام والأنصاب التي تعبد من دون الله ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾ القائم بأمور السماوات والأرض ومن فيهما؛ فبه قيام السماء والأرض؛ وهو الخالق والرازق ومدبر أسباب المعيشة، وصارف ما لا يأذن به من المصائب، فبه قامت أحوال العباد فهو الذي يستحق أن يعبدوه.

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ فلا يغفل عن عبد من عباده لحظة واحدة، فلا يزال عبده تحت رعايته ورقابته، والسِنَةُ النعاس ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فكلهم عباده فهو المستحق للعبادة، أما شركاء المشركين فهم عباد مثلهم مملوكون لله.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ لأنهم كلهم عباده وله الملك وحده فليس لأحد أن يشفع عنده إلا بإذنه، وليس لأحد أن يتدخل بشفاعة عنده؛ ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً، لأنهم كلهم عباده ليس لهم من الأمر شيء.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم مستقبلهم وماضيَهم من أعمالِهم وجزائهم، وما يكون من شأنهم يوم القيامة، فنفيه للشفاعة صدق وحق؛ لأنه خبر علام الغيوب ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ لأنه لا علم لهم إلا ما علمهم، ولا يحيطون به علماً، وليس لهم من العلم بالله إلا ما دلتهم عليه آياته في ملكوته وكتبه وما أوحاه إلى رسله الحاصل ما علمهم سبحانه، أما ما لم يعلمهم فليس لهم إليه سبيل، وعليهم أن يقفوا عند حدهم ولا يتكلفوا ما لم يُكلَّفوا.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ لأنه ملك الملوك؛ أحاط ملكه بكل شيء، ووسع كل شيء، ولما كان الكرسي من عادة الملوك أن يتخذوه كان عبارة هنا عن الملك، وسعته عبارة عن سعة الملك.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام في كتابه (الأصول الثمانية) في (الإيمان) ما لفظه: اعلم أن السماء والأرض محلهما في ملك الله تعالى من صغرهما في ملكه كبيت في صحراء، أنَّى يرتفع [لعله تصحيف أين يقع] البيت في الصحراء، وكمحل حلقة في أرض فلاة كما قال النبي ص، كذلك قال الله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

والكرسي: ما يستقر عليه، ويكون محلاً لما يحل فيه، فجعل الله السماوات والأرض مستقِرة في حيّز ملكه، فصار قوله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معناه: وسع ملكه السماوات والأرض)) انتهى.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ أي لا يثقل عليه حفظهما أي حفظ السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ﴾ [فاطر:٤١].

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

وفي هذه الآية إفادة حفظهما من كل شيء؛ فلا تزولان ولا تتصادمان، ولا يصدم أحدَهما شيء حتى يأذن الله بخرابها بأي طريقة، أو كيف شاء؛ لأنه على كل شيء قدير ولا يعسر عليه شيء.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ القاهر فوق عباده ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ له عظمة الملك، والقدرة على كل شيء، والعلم بكل شيء، والغنى عن كل شيء، والقهر على كل شيء، والإنعام على العالمين، والكرم والحلم والعزة والحكمة والفضل والرحمة له الأسماء الحسنى.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ نفي لشرعية الإكراه وكونه من الدين بل وينفي وقوعه في ضمن الدين أي من أهل الدين، والمقصود أن تكون دعوة الناس إلى الدين من خلال التبيين لا الإكراه لتحصل القناعة عندهم به، ولتكمل الحجة عليهم إذا ما رفضوا وصاروا صادين عن هدى الله فاسدين مفسدين لعباد الله، فيجب جهادهم لدفعهم ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة٢٥١] كما أن الأمر بقتال الكفار في غير موضع من القرآن.

وعلى هذا: فالمراد بالآية: أن يقتصر المسلمون ـ في دعوة الكفار إلى الإسلام ـ على الدعوة إلى الدين وبيان الحجة على أنه الحق، والترغيب فيه، ودفع الشبه، ولا حاجة إلى الإكراه فلا يعملوا للإدخال في الإسلام بالإكراه على الدخول في الإسلام.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ

﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ أصل الرشد إصابة الطريق، وأصل الغي الغواية عن الطريق، ثم استعمل الرشد في الخير والحق، واستعمل الغي في الشر والباطل، وروى الشرفي في (المصابيح) عن الهادي × قال: ((الرشد هاهنا فهو الحق والهدى وقيام الحجة على الكفرة والأعداء، والغي فهو الباطل الذي كانوا فيه من كفرهم وغيهم)) انتهى.

﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ الطاغوت ما أطغى عن الله من الأصنام وسائر شركاء المشركين ومن الكهانة والحكم بغير حكم الله، والعروة الوثقى مجاز عن المنجي لمن تمسك به؛ فلا يهوي ولا يميل عن الطريق بمعنى أنه تمسك بمقبض وثيق، وأصل العروة التي تكون في الدلو والكوز يقبض بها.

وقوله تعالى: ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ تعبير عن ثبات ما تمسك به من الدين كالعروة التي لا تنفصل بمن تمسك بها ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع من آمن به وكفر بالطاغوت ويعلم ما في نفسه فيجزيه بما يستحق ويزيده هدى بما اهتدى ويتولاه بألطافه وحسن رعايته إذا صدق في ذلك.

﴿٢٥٧﴾ ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يتولى أمورهم، ولا يكلهم إلى أنفسهم، ولا إلى أحد من عباده، فيحسن رعايتهم ويجعل لهم ألطافاً ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الجهل وشُبَه الباطل إلى نور الحق والهدى.

إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ لا يتولاهم الله بألطافه؛ بل يكلهم إلى ما اختاروا لأنفسهم ويوليهم ما تولوا، فتضلهم الشياطين وكل ما يطغي عن الله، وسمّوا أولياء على طريق المشاكلة وهم في الحقيقة مهملون مخذولون، قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] وإنما الشياطين تضلهم وذلك تَوَلِّيْهَا لهم مجاز.

﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ وهذا لأن فطرة الله التي فطر الناس عليها تدعو إلى الحق وترك الشرك، وإنما الكفار تغويهم الشياطين فيخرجون عن حكم الفطرة إلى الكفر والشرك ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ سكّانها باقون أبداً لا يموتون ولا يتحولون عن صحبتها.

﴿٢٥٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلمة تعجيب للسامع وتوقيف له على الأمر الذي يذكر بعدها، وهنا الأمر العجيب؛ مجادلة المجادل في الله وآياته الدالة عليه لا تحصى، وأَقْرَبُهَا الإنسانُ: خَلْقُهُ وإِتْقَانُ صنعه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ دلالة على أن الباعث له على الجدال في الله الحسد لإبراهيم وكراهية إيتائه الملك، كجدال فرعون في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]؟

يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي إيتاء الملك إبراهيم صلوات الله عليه يقول المرتضى × : معنى إيتائه فهو حكمه له وبه، فلما أن بعثه الله إلى الخلق داعياً، وإلى الحق هادياً كان صلوات الله عليه متبوعاً لا تابعاً، وآمراً لا مأموراً، ملكه الله أمر الخلق ونهيهم، إن أطاعوه أصابوا حظهم ورشدوا في أمرهم، فكان الأمر والنهي لإبراهيم بحكم الله والملك له خالصاً، فكان حاله في مخالفتهم له وبعدهم عنه كحال من أُعطي شيئاً وولي عليه فاغتصبه غيره فانتزعه من يديه، والغاصب ظالم لا ملك له)) انتهى المراد، وقد مرت قصة طالوت وملكه وليس له سعة من المال وثبت له الملك بإيتاء الله له.

﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهذه آية من آيات الله تكفيه لو أنصف ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ عبارة جوفاء جادل بها وهو يعلم أنه لا يحيي ميتاً، ولا يميت كما يميت الله الأحياء، وإنما يقتل النفوس البريئة ظلماً وتجبراً؛ وهذا لا يوجب له الربوبية، وترك قتل بعض الأحياء حياً ليس إحياءً، وهذا يشترك فيه كثير من الناس ولا يدعون أنهم أرباب، وإنما هي مكابرة وطغيان.

﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ لم يدر ما يجيب به لأنه لم يهتدِ للحق، ولو اهتدى لقال: (آمنت بالله) ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لتمردهم لم يستحقوا إلا الخذلان.

وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي

---

٢٥٩ ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ على معنى أو لم تر كالذي مرّ على قرية قد تهدمت دورها على سقوفها لأن أهلها قد ماتوا.

﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ قال من أين يحيي هذه الله بعد موتها وبأي طريقة وكيف يحييها، ولعل هذا السؤال كان بمعنى التعجب من إحيائها بعد موتها أي من القدرة على ذلك ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ فهذه آية عظيمة تدل على قدرة الله على البعث بعد الموت.

﴿قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ﴾ أي ميتاً ﴿قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ﴾ أي بقيت في الموت مائة سنة ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡ﴾ لم يتغير بمرور السنين عليه أعني لم يفسد، وهذه آية آخرى تدل على قدرة الله أن يخرق العادات ويخلق المستبعدات ﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ فلك فيه آية أخرى ﴿وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ﴾ فَعَلْنَا ذلك بك.

﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ﴾ عظام الحمار ﴿كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ بالراء المهملة أو بالزاي قرئ بكل منها، ننشر نعيد حياتها ونبعثها، وننشز بـ(الزاي) نرفعها بالحياة فنجعلها تتحرك لتجديد بنائها وانتظامها ﴿ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗا﴾ حتى يرجع الحمار كما كان، وهذه آية عظيمة وبما شاهد من بعثه نفسه ثم بعث حماره وما إلى ذلك؛ يتبين له أن قدرة الله على إحياء القرية بعد موتها ليست أمراً عجيباً لقدرة الله على كل شيء.

كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾ ما دلت عليه هذه الآيات ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا أقول أنى يحيي هذه الله بعد موتها لأن علمي بقدرته على كل شيء لا يبقى معه استبعاد ولا استغراب.

﴿٢٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أرني إحياءك للموتى بحيث أشاهد موتى يحيون بعد الموت ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾؟! لأن المؤمن يكون موقناً بالإحياء بعد الموت، موقناً بقدرة الله على كل شيء، موقناً بعلم الله بكل شيء؛ وإذا لم يعلم ذلك فليس مؤمناً ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ آمنت ﴿وَلَٰكِن﴾ طلبت ذلك ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ بمشاهدة إحيائك للموتى.

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أملهن إليك واضممهن إليك،وأعتقد أن الله جعل في ذلك سراً لتحيى وتأتيه حين يدعوها ليكون سبباً كنفخة عيسى في هيئة الطير من الطين ليكون طائراً بإذن الله.

﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ ظاهره الأمر بتقطيعهن وأن يجعل من القطع على كل جبل منهن جزءاً لتباعَد القطع بعضها من بعض، وعموم كل جبل محدود بالاستطاعة، أي بقدر ما يستطيع بلوغه من الجبال في وقت محدود قد فهمه.

﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ﴾ أي ادع الطير الأربعة يأتينك يسعين إليك سعياً، فكان هذا كما أخبر الله أصدق القائلين ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلعزته وحكمته لا بد أن يحيي الموتى لتجزى كل نفس ما كسبت، فهذا دليل آخر يدل على أنه لا بد من البعث، مع الدليل على أن الله قادر عليه.

يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا

﴿٢٦١﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في إحياء دين الله وإعلاء كلمة الله، وأصل السبيل الطريق، والمراد بإضافته إلى الله: أنه الذي شرعه الله لعباده، أي الدين الذي شرعه، والإنفاق فيه الإنفاق لتقويته أو للدفاع عنه فهو الإنفاق في الجهاد في سبيل الله.

﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ والسنبلة: هي التي تخرج من الزرعة فيتكون فيها الحب، قال: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ [يوسف:٤٧] ﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖ﴾ فكانت جملة الحب سبعمائة حبة من حبة واحدة، وهذا توضيح لتضعيف ثواب الإنفاق في سبيل الله لما يترتب عليه من نصرة الدين والدفاع عنه، وما يترتب على نصرة الدين وعلى الدفاع عنه من دفع الفساد، وانتشار الصلاح، وخمول الباطل، وظهور الحق، وكثرة حسنات الثابتين على الدين والداخلين فيه بسبب الجهاد.

﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بتضعيف الثواب أو بتضعيف الحسنات نفسها بما يتفرع عنها من حسنات بتيسير الله ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بفضله ورحمته يعم المؤمنين ويهدي من يشاء بواسع فضله ﴿عَلِيمٞ﴾ بما ينفق من أنفق، وبمقدار ما يستحق من التضعيف وبكل شيء.

﴿٢٦٢-٢٦٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى﴾ فهم الذين يضاعف الله لهم، فهذا قيد للآية التي قبله وبيان شرط

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ

للتضعيف، وهو أن لا يتبعوه ﴿مَنًّا﴾ والمنّ: ذكرك الإحسان لمن قد أحسنت إليه احتجاجاً عليه لتريَه أن لك حقاً عليه؛ إما لقصد أذيته، وإما لغرض الترفع عليه، أو لغرض دنيوي، ولعله يخرج منه ما ألجأت إليه ضرورة دينية لتعريفه بالحق عليه لنهيه عن منكر، أو أمره بمعروف، كما قد يصدر من الوالدين للولد لزجره عن العقوق؛ ولذلك قلت لغرض دنيوي.

والأحوط: اجتناب هذا واتخاذ واسطة ينبه الولد على حق الوالدين؛ لأني لا أعلم أحداً قال هذا التفصيل وإن كانت أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبيان الحق تشمله.

الشرط الثاني لتضعيف الإنفاق: أن لا يتبعوه ﴿أَذًى﴾ إما بقول أو فعل أو ترك، فإذا اجتمعت الشروط كان ﴿لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لا يضيع منه مثقال ذرة ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في العاقبة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لأنهم قدموا لأنفسهم ما يمنع ذلك.

﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ كلمة طيبة تقولها للمسلم ﴿وَمَغۡفِرَةٌ﴾ عما يصدر منه من أذية أو غيرها ﴿خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى﴾ خير للفاعل لأنه يثاب على القول المعروف والمغفرة ولا يثاب على صدقة يتبعها أذى ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم وإنما تتصدقون لأنفسكم ﴿حَلِيمٞ﴾ لا يعاجل بالعقوبة على المن والأذى وغيرهما من المعاصي.

وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ

﴿٢٦٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ هذا نهي يدل على التحريم والإثم على المانّ والمؤذي مع الدلالة على بطلان صدقته ﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ﴾ فلا أخلص لربه النية، ولا كان مؤمناً ليقبل منه الإنفاق لو أخلص؛ لأن الإيمان شرط في قبول العمل، ولذلك قيد به الوعد في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وغيرها.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ مثل حجر أملس لا يُنبت ﴿عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ مطر قوي عظيم القطر ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أجرد لا تراب عليه ولا نبات، قال في (الكشاف): «ومنه صَلِدَ؛ جبين الأصلع إذا برق» فهكذا يذهب إنفاق المرائي ذهاب التراب عن الصفوان؛ لأنه لا بقاء عليه إذا جاءه المطر.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ فقد فات المال وفاتت فائدته، ولا يقدرون على تلافي ثواب الإنفاق أو تلافي المال الذي كدوا له وجمعوه ثم صار هباءً منثوراً ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلا تصلح أعمالهم وتحبطها معاصيهم.

﴿٢٦٥﴾ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿يُنفِقُونَ﴾ أموالهم من أجل ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ أي طلب مرضاة الله،

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

أي يطلبون بالإنفاق مرضاة الله لا يراءون ولا يريدون به جزاء ولا شكوراً، وهذا شأن المؤمنين أهل الخشية من الله لأنها تبعثهم الخشية على ابتغاء مرضاة الله وطلبها بالصدقة لأن رضوان الله والنجاة من غضبه أهم ما يطلبه المؤمن.

﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ لتثبيت أنفسهم على الهدى، ولئلا تتحول إلى الباطل خوفاً من سوء الخاتمة، فقوله: ﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ معطوف على المفعول من أجله مثله في المعنى، فما أعظم فائدة الصدقة حيث تدفع البلاء في الدين كما تدفع البلاء في البدن فمثلها في عظم فائدتها:

﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ ﴿جَنَّة﴾ بستان أو زرع بمكان مرتفع تستفيد فيه بالهواء النقي والشمس ﴿أَصَابَهَا وَابِلٞ﴾ مطر غزير ﴿فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أفادت أهلها وأعطتهم أكلها ثمرها المأكول ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ ضعفي الثمر المعتاد ﴿فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞ﴾ يقوم مقام الوابل ويجزي عنه، فلا بد أن تؤتي أكلها وافراً أو مضاعفاً، ولعل هذا إشارة إلى اختلاف الصدقات في مواقعها وأسباب تضعيفها لأهلها، فمنها ما تكثر أسباب التضعيف فتكثر الأضعاف، ومنها ما تقل أسباب التضعيف فلا يحرم أهلها الثواب الموعود به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لأنه عالم بدرجات الأعمال في الحسن والقبح.

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا﴾ في خلالها ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فهناك أنواع النخيل وأنواع العنب، وفي خلالها الفواكه الأخَر والزروع، فله في هذه الجنة من كل الثمرات.

كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ

﴿وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ﴾ فهو محتاج إلى ثمرها مع ضعفه عن التكسب أشد مما كان في الشباب ﴿وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ﴾ فهو في أشد الحاجة إلى غلول جنته لنفسه ولذريته لضعفهم عن التكسب كضعف أبيهم أو جدّهم.

﴿فَأَصَابَهَآ﴾ أي أصاب جنته ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ إعصار من الريح تهب من الأرض نحو السماء وتمر بشدة فأصاب الجنة يضربها بناره ﴿فَٱحْتَرَقَتْ﴾ فما أشد الخسارة في هذه الحالة فاتت جنته، فمن أين يقوت نفسه وذريته؟! لأنه ضعيف عاجز عن التكسب وذريته ضعفاء مثله، فلا يستطيع ولا يستطيعون العمل لكسب الرزق، فضلاً عن العمل لإبدال الجنة بجنة أخرى عوض عنها، وهذا المثل يبين للعاقل خسارة إحباط العمل وخسارة إبطال الصدقة التي تقدم تشبيهها بجنة بربوة ليحذر المؤمن إبطالها بالمنّ والأذى وإحباطها بالمعاصي المحبطة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التبيين ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ كيف تحبط الأعمال، وكيف يكون الخسران؛ لأن الإنسان يأتي يوم القيامة أحوج ما يكون إلى حسناته، فإذا كان قد أحبطها تحققت خسارته في حين لا يمكنه إبدالها بحسنات جديدة يكتسبها في الآخرة، كما قال الشاعر:

قل لي إذا متَّ كيف تنقص من ... سيئة أو تزيد في حسنة

وفي هذه الآية: دلالة على أن الله يبين آياته للذين آمنوا كلهم لم يخص بها إماماً ولا شيخاً، فلا هي رموز ولا هي ألغاز.

﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ

﴿٢٦٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ وهذا عام لما يكسب بالتجارة والإستغلال وغيرها كالغياصة في البحر يكسب بها العنبر والمرجان واللؤلؤ، فتعم الآية الزكاة والخمس وغيرها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ وقد مر في السورة ذكر مصارف عديدة في آيتين.

﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ من نباتها وما يؤخذ من ترابها من المعادن وغيرها، وما يخرج من الأرض من البترول، ولعل الأولى جعل المعادن ونحوها والبترول من القسم الأول طيبات ما كسبتم، ويخص النبات بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم﴾ لأنه هو يخرج النبات وثمراته، وهذه الآية كما ذكرت تعم الخمس والزكاة وغيرهما، والتفاصيل من السنة.

﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ﴾ ولا تتعمدوا وتقصدوا ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾ الرديء الفسل ﴿مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ دون غيره بل يخرج الواجب من الوسط ولا يجب أن يُنتَقى أجوده للإنفاق وإن كان هذا فضلاً لصاحبه إذا أنفقه.

﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِ﴾ هذا تحقيق للردي الذي نهينا عن تيممه، وهو الذي لا يؤخذ بالثمن ولا ينفُق إلا إذا أغمض صاحبه عن بعضه وأعطاه بدون ثمن في القصد والإرادة ليشتري الكل رغبة فيما يغمض عنه فيه.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن صدقاتكم وعن كل شيء وإنما يأمركم لمصلحتكم ومصلحة المجتمع ﴿حَمِيدٞ﴾ يستحق الحمد لأنه المنعم على عباده غنيهم وفقيرهم ولأنه الكريم الحكيم في أقواله وأفعاله.

ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا

﴿٢٦٨﴾ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ لتخافوا الفقر فتبخلوا أو تنفقوا الردي دون الجيد ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ كالمن والأذى والحرص على المال الحرام والبخل بالواجب ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم﴾ بالإنفاق ﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ كما أفاده في الآية السابقة ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ..﴾ الآية.

فمن الفضل مضاعفة العوض، ومن الفضل إنزال الرزق كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام الهادي × في (الأحكام): ((استنزلوا الرزق بالصدقة)) وفي كلام أمير المؤمنين × ((إذا أملقتم فتاجروا الله بالصدقة)) ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ بفضله ورحمته يعم عباده في الدنيا ويضاعف لأوليائه في الآخرة ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن ينفق، وما أنفق، وفيمَ أنفق، وبنيّته في إنفاقه، وبكل شيء.

﴿٢٦٩﴾ ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ كما يرزق عباده ويعمهم بفضله يؤتي ما هو خير من المال وهو الحكمة من يشاء كما يختص برحمته من يشاء، والحكمة هي العلم النافع والهدى للعمل ووضع الأمور مواضعها وجودة الرأي والتدبير.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي الحكمة وتفسيرها يقول إمامنا المنصور بالله عبدالله بن حمزة × : والحكمة العلم النافع؛ وهو علم القرآن، وتفسير معانيه، وتفصيل مجمله ومحكمه، والمعرفة بأحكام أوامره ونواهيه، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ومجمله ومبينه، وناسخه ومنسوخه، والإعتبار بعِبَرِه، والفهم لأمثاله العجيبة وقصصه الغريبة، فهذا عندنا رأس الحكمة ومفتاح الرحمة)) انتهى.

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن

وقد ذكر الإمام المنصور بالله × هذا مختصراً في (حديقة الحكمة) في شرح الحديث الأول، ثم قال × : ((ومثل هذا التأويل مرويّ عن جدنا عبدالله بن الحسن ×)) انتهى.

قلت: يشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:١-٢].

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ خيراً من ما في الدنيا من الأموال والمتاع، كما قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨] وفي الحديث ((من حفظ القرآن فظن أن أحداً أوتي مثل ما أوتي فقد حقر ما عظم الله وعظّم ما حقر الله)) أو كما قال.

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أهل العقول؛ الذين يستعملون عقولهم في طلب الحكمة؛ فهم الذين يذّكرون بتذكير الله، فتحصل لهم الحكمة من الله بتقوى الله التي هي شأن أهل العقول الذين يتدبرون العواقب، والزهد في الدنيا الذي هو شأن أهل العقول الذين يتدبرون عواقب الأمور..أهل العقول الراجحة، التي لا يلهيها حب الدنيا عن طلب الحكمة.

﴿٢٧١﴾ ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ فإن الله يعلمه فيجزي على الخير خيراً وعلى الشر شراً ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ كالذي ينفق ماله رئاء الناس، والذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، والذين ينذرون لغير الله تقرباً إليه أو رجاء أن ينفع بما لا يقدر عليه إلا الله، والنذر لغير الله هو النذر الذي يوقع لغير الله.

فأما النذر لله بما يعطى لغير الله من صدقة ونحوها فليس من النذر لغير الله، ومعنى النذر: الإيجاب على النفس، فإن كان الإيجاب لله مثل النذر بالصوم أي إيجابه فهو مشروع بشروطه المذكورة في محله، وإن كان الإيجاب لغير الله بحيث يرجى نفعه بالوفاء ويخشى ضره بترك الوفاء والخوف منه في ترك الوفاء خوف أن يسبب تلفاً في مال أو مرضاً في ولد مثلاً؛ فإذا وقع شيء من ذلك نسب إلى المنذور له من أجل النذر له وترك الوفاء، فهذا معناه أن النذر أوجب له المنذور به وصير له حقاً في العقاب بترك الوفاء.

فلا يبعد أن يكون الشرك فيه من حيث اعتقاد الوجوب له بالنذر له لمكانته وعظمته، لا لأن الله أوجب الوفاء بالنذر وتوهُّم أن هذا منه، فإن كان لا يعتقد له الحق وهو خلاف الظاهر لأن المقصود بالنذر الإيجاب على النفس للمنذور له، وإنما يخشى ضره بترك الوفاء مع قطع النظر هل له حق أو لا، فلا يبعد أن يكون الشرك فيه من حيث اعتقاد نفعه وضره بما لا يقدر عليه إلا الله؛ كبركة مال وأولاد، وشفاء مريض، وصرف ضر بطريقة لا يقدر عليها إلا الله علام الغيوب، القادر على كل شيء.

ولكن أمرهم إلى الله، فهو يعلم ما تكن صدروهم، وما يعلنون من عقائد ونيات وأعمال وأقوال، وله الحكم وإليه يرجعون، وما نذروا له من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين بالشرك في النذر أو بترك الوفاء فيما يجب الوفاء به من أنصار، ولعل الذين ينفقون أموالهم لنصر المشركين في الحرب، والذين ينذرون لشركائهم لينصروهم؛ داخلون في هذه الآية دخولاً أوليّاً فما لهم من أنصار وإن ظنوا أن آلهتهم تنصرهم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:٧٤].

يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ

﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لا للرئاء ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ أي الصدقات، ولم يقل فنعما هو أي الإبداء، وفائدة هذا أنها لا تبطل بالإبداء ﴿وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾ أي تخفوها عن الناس بحيث لا يعلم بها أحد.

وقوله: ﴿وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ﴾ يفيد أن لا ينتظر بها سؤال الفقير؛ لما ذكره الراغب في معنى الإيتاء في (مفردات الراغب) وهو قريب لحسن ذلك المعنى وتكرر كلمة الإيتاء في القرآن بخلاف الإعطاء.

﴿فَهُوَ﴾ الإيتاء بالإخفاء ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لأنه يضاعف لكم أكثر من صدقة العلانية، وهذا في غير الزكاة والعُشر لأنها تسلم إلى رسول الله ص لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] وبعد الرسول ص إلى القائم مقامه.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ بسبب إخفاء الصدقات وإيتائها الفقراء، وفي (أمالي أبي طالب ×) في (الباب الثاني والعشرين) بسند صحيح: عن علي × قال: قال رسول الله ص: ((إن صدقة السر تطفئ غضب الرب، وإن الصدقة لتطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار)) انتهى.

وهذا فيمن تقبل منه، فأما الفاجر المصر المتمرد فلا تفيده لقول الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٥٣] ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عليم بخُبْره؛ فلا يخفى عليه ما هو خالص له، وما ليس خالصاً.

﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ﴾ أن يكونوا في طريق الحق غير ضالين عنه، إنما عليك أن تهدي من يهتدي، وتقيم الحجة على من أبى، بأن تبين له الحق

ليهلك من هلك عن بينة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ بألطافه وبأسباب من المهتدين كقبول الحق من أول معرفته وكالدعاء بالتوفيق وكالصدقة وغير ذلك.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾ أنفقتم؛ لأن نفعه لكم، وفي الحديث: ((ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت)) وروي أن بعض نساء النبي ص تصدقت بلحم واحدة من الغنم لم تبقِ منه إلا العنق، فقالت لرسول الله ص: لم يبقَ منها إلا العنق، فقال ص: ((كلها بقي إلا العنق)) هذا لفظ الحديث أو معناه، وقد تكرر الترغيب في الإنفاق؛ لعظم فائدته مع أن الأنفس أحضرت الشح؛ فهي تحتاج إلى التكرار.

﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ فهذا هو الذي يبقى لكم ما تنفقون في حال أنكم ما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله أن ينظر إليكم أن يرضى عنكم؛ لأن شأن من يرضى منا عن إنسان أن ينظر إليه، كما أنه إذا سخط عليه أعرض عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [آل عمران:٧٧] فكما كان نفي النظر إليهم عبارة عن غضبه عليهم؛ كان النظر إليهم عبارة عن الرضى عنهم ويعبر عن ذلك بالوجه.

ألا ترى أن أبناء يعقوب × قالوا: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف:٩] فقد كانوا يغارون من نظره إلى يوسف × وأرادوا أن يكون نظره إليهم وحدهم؛ فعبروا عن النظر إليهم وحدهم بقولهم: ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ [يوسف:٩].

وأعتقد أن هذا هو السر في تكرار كلمة الوجه في مواضع التعرض لرضوان الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩].

ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢] وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨] وغيرها، فهذه كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد:٢٧].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ فأنتم تقدمونه ليوفَّ إليكم يوم القيامة، ولا تظلمون أي لا تنقصون منه شيئاً، فالنفقة مع فوائدها العظيمة ترجع لصاحبها مع فوائدها؛ ثم بين تعالى مصرف هذا الإنفاق الذي رغب فيه هنا؛ فقال تعالى:

﴿٢٧٣﴾ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ فلهؤلاء تنفقون لأنهم مع فقرهم محصرون في سبيل الله في مركز الإسلام، مستعدون لنصر الله ورسوله؛ ولذلك لا يستطيعون ضرباً في الأرض؛ لإحاطة أعداء الإسلام بدار الإسلام، فلا يستطيعون أن يسعوا لتحصيل قوتهم وقوت عيالهم إن كان لهم عيال، فحاجتهم إلى الإنفاق ممن يجد ما ينفق حاجة شديدة، مع عظم ثواب الإنفاق عليهم لشدة حاجتهم وكونه نصراً للإسلام؛ لأنه إذا لم ينفق لهم هلكوا وهم أنصار الإسلام.

أو اضطروا إلى التقية وإظهار كلمة الردة واللحوق بدار الكفر وهم أنصار الإسلام، ولذلك قال تعالى: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] فالإنفاق عليهم نصر للإسلام، فأجره عظيم من هذه الناحية ـ أيضاً ـ مع عظم أجره من حيث أنه في أناس صالحين أبرار أهل دين ومروءة.

﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ عن أموال الناس، وخص الجاهل؛ لأن العالم يعرف أن التعفف عن أموال الناس شأن المؤمن المتقي للحرام وللشبهات؛ فليس علامة الغنى، وكذلك التعفف عن السؤال خوف الإثم من السؤال أو للحياء والمروءة حيث يباح، فالجاهل بهم الذي لا يعرف حالهم ومكانهم من الدين والمروءة يحسبهم أغنياء فينبغي التعرف لهم فبماذا يعرفون؟!

قال تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ أي بعلاماتهم، فالجائع يظهر جوعه في وجهه، والمغتم من جوع أولاده يظهر غمه في وجهه، كما يظهر حالهم لمن تأمل من بقائهم في المسجد حين يذهب عنه الناس ليأكلوا وغير ذلك.

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ الإلحاف: الإلحاح والتشديد والمبالغة في الطلب، وهذا يتنزه عنه المؤمن لدينه ومروءته؛ لأنه لا يريد شيئاً بسوط الحياء، كما أنه يستحي من الإلحاح، فينبغي الإنتباه لهم، ولا ينتظر منهم السؤال، فإن اضطروا إلى السؤال للتعريف بحاجتهم أكتفي منهم بالتنبيه ولم يتركوا إذا لم يُلِحُّوا بناء على أنهم لو كانوا محتاجين لألحوا، أو لو كانوا شديدي الحاجة لألحوا لأنه غلط.

وقد فسّر قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ بأنه تعريض بالمنافقين وليس المراد به أن هؤلاء المؤمنين يسألون؛ لأنهم قد وصفوا بالتعفف.

يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا

وأقول: لكن التعفف غير مقصور على ترك السؤال فإنه يصدق بالتعفف عن أموال الناس، فالمحتاج قد يأخذ سنبلة من الزرع لأن صاحبها لا ينكر عليه، أو يأخذ ما يتساقط على من يكتال أو يكيل لأنه لا ينكر لقلته، أو يتعرض لما يتساقط من النخل من التمر كذلك ونحو ذلك، فترك هذا يعتبر تعففاً، فلا يقصر التعفف على ترك السؤال وخصوصاً السؤال الجائز للضرورة فإنه لا ينافي التعفف، بل قد يكون واجباً لإنقاذ النفس من الموت، أو إنقاذ محترم الدم من الأولاد أو غيرهم، وعلى هذا فلا إشكال في وصفهم بالتعفف، مع فرض سؤالهم بدون إلحاف.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ وهذا ترغيب في الإنفاق لأن الله يعلمه ولو سراً في ظلمة الليل فيجزي به كما وعد.

﴿٢٧٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ لعله لرغبتهم في الإنفاق كلما جاء سبب مع وجدان ما ينفق، فإذا كان عنده ما ينفق ورأى محتاجاً النهار أعطاه ليبادر مع الحاجة، وإذا علم أحداً محتاجاً في الليل وعنده ما ينفق كالجار يبيت جائعاً أعطاه وكذلك ينفق سراً حيث تيسر الإسرار، وعلانية حيث اقتضت الحال العلانية للإقتداء، أو وجود المحتاج ويخشى فواته إن أخّر ليعطيه سراً، أو سأله واحتاج إلى إعطائه علانية لئلا يتهم بالبخل أو نحو ذلك من الأسباب، وقد روي أنها نزلت في علي × .

﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ مدخر ليوم حاجتهم إليه ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أما غيرهم فقد يخاف عليه من الإنفاق لأنه إسراف أو نحوه،

يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى

وقد يحزن لأنه أنفق لغرض فاسد، أو لأمل الحصول على غرض فلم يحصل، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

روى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل): بإسناده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ نزلت في علي خاصة؛ في أربعة دنانير كانت له تصدق بعضها نهاراً وبعضها ليلاً، وبعضها سرّاً وبعضها علانية)) انتهى.

قلت: لتكون الحالات أربع يمكن أنه أنفق نهاراً سراً مرة ومرة نهاراً علانية، وأنفق ليلاً مرة سراً ومرة علانية.

ولما كمل الحث على الإنفاق والترغيب فيه بحيث إذا عمل به المسلمون لم يحتج الفقير إلى الربا جاء التحذير من الربا فقال تعالى:

﴿٢٧٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال القاسم × : المس: هو اللمم، واللمم فهو الجنون، وأما التخبط فما يعرف من خبط المتخبَّط، وهو الغشيان من خارج لا من داخل، وكما يعلم من مقابلة المقابل)) انتهى.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي هذه الآية يقول القاسم × : إنما مثّل الله آكل الربا إذ مثلوا رباهم وما حرم الله عليهم من الربا ونهاهم بالبيع الذي فيه إرباء، وإنما هو أخذ بالتراضي وإعطاء، فقالوا: ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ وشبهوا ما لم يجعل الله متشابهاً فشبهوا الحرام بالحلال، والهدى فيه بالضلال فمثلهم الله لما هم عليه من الجهل أنه عندهم أنقص أهل النقص من الجنون والخبل)) انتهى.

وقد قيل: أن هذه صفتهم يوم القيامة يعرفون بها يقومون ويسقطون كالمصروع، وأنا لا أستبعد أن هذا في الدنيا، وأن المراد بقيامهم قوتهم بالمال إذا جمعوه من الربا وأنه يشتد حرصهم على المال وخوفهم من الفقر ولا يزال بهم خوف الفقر والسقوط بعد القوة، فهم في توقعهم للفقر وخوفهم منه؛ كالذي يصاب بالصرع، فلا يقوم إلا وهو خائف أن يصيبه مرضه متوقع له.

وقد روى أبو طالب × في (الأمالي) في (الباب الخامس والأربعين): عن علي × قال: قال رسول الله ص: ((من أمسى وأصبح والآخرة أكبر همّه جعل الله الغنى في قلبه، وجمع له أمره، ولم يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، ومن أمسى وأصبح والدنيا أكبر همه جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت عليه أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم له)) انتهى.

فظهر: أن هذا المعنى قريب أن يرسل الله خوف الفقر على آكل الربا، فلا يزال يتوقع السقوط أي ذهاب المال وضعف الحال.

ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ

﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ﴾ عن الربا ﴿فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ في الجاهلية لا يطلب به تيسيراً عليه لكونه أخذه قبل نزول القرآن بتحريمه ﴿وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ إن تاب تاب عليه وإلا عذبه ﴿وَمَنۡ عَادَ﴾ إلى الربا بعد نزول القرآن ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ عقوبة على الربا.

﴿٢٧٦﴾ ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ ينقصه ويبخسه والمحق ضد البركة ﴿وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ يضاعفها لأهلها المتصدقين بها فتوفَّى إليهم في الآخرة مضاعفة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ فهم مظنة أن لا يهديهم ولا يوفقهم لتوبة، والكَفّار المبالغ في الكفر بآيات الله أو الكفر لنعم الله، والأثيم صاحب الإثم، ودخل في هذا أهل الربا القائلون: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾.

﴿٢٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ هذا الوعد للمؤمنين بعد الوعيد لأهل الربا والكَفَّار الأثيم على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الإنذار والتبشير تحذيراً وترغيباً، وبضدها تتبين الأشياء، ليختار العاقل ما هو خير له؛ حيث يرى الفرق بين الإيمان الموجب للجنة، والعصيان الموجب للنار، ويرى الفرق بين المحسن والمسيء وحكمة الله في الفرق بينهما.

بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ

﴿٢٧٨-٢٧٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿ذَرُواْ﴾ اتركوا ما بقي من الربا عند صاحب الدين الذي ضوعف عليه فما بقي من التضعيف لا حق للمقرض فيه؛ وإنما عفي له ما أكل في الجاهلية لا ما بقي ولم يأكله.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي معنى هذه الآية يقول المرتضى × : الربا الذي نهى الله عنه وحرمه: هو ما قد عرف من هذه المعاملات والزيادات في الإسلام والديون والمشارات، فلما أن حرم الله ذلك وحظره كانت بقايا للمسلمين من تلك الأسلاف والديون والمباعات قد بقيت من ديونهم وتخلفت عن غرمائهم، فكانوا يظنون أنه ليس عليهم إثم في اقتضاء ما بقي منها، وأجروا آخرها كمجرى أولها؛ فنهاهم الله عن ذلك وغفر لهم ما قد سلف من قبل التحريم وحظر عليهم ما بقي لهم، فأمرهم بتركه ومنعهم من أخذه واقتضائه وهو بقية الربا.

ثم قال سبحانه: ﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يريد القتل والقتال حتى يفيئوا إلى أمر الله ويرجعوا إلى حكمه، وحكم عليهم بالقتل بعد إذ سماهم مؤمنين إن لم ينتهوا عن أخذ الربا والميل إلى الهوى، وأوجب عليهم في ذلك أعظم بلاء فهذا معناها ومجراها)) انتهى.

قلت: تسميته ديناً لهم بقي لهم؛ مجاراة لهم في التعبير، ولا شيء لهم بعد تحريم الله له في الآيات السابقة.

وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٨٠ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ

﴿وَإِن تُبۡتُمۡ﴾ من الربا ﴿فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ فما بقي من رؤوس الأموال فلهم أخذه ﴿لَا تَظۡلِمُونَ﴾ بأخذ الربا ﴿وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾ بمنع رؤوس أموالكم كاملة غير منقوصة.

﴿٢٨٠-٢٨١﴾ ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ﴾ معسر وفي ذمته رأس مال ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ﴾ بدل من طلبه في حال الإعسار فينظر حتى الإيسار وتمكنه من القضاء ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فتسقطوا عن المعسر ما في ذمته أو بعضه، وهذا ترغيب يكفي العاقل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ ومن لم يصدق خبر الله سبحانه فليس بمؤمن.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ جعل اليوم نفسه مخوفاً نحتاج إلى اتقائه كما قال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان:١٠] واتقاؤه هو الإعداد له في هذه الحياة الدنيا بتوبة نصوح وتجنب للمعاصي وعمل صالح والرجوع إلى الله المصيّر إلى موقف الحساب والسؤال عن الأعمال، ولعله سمّي رجوعاً لرجوع الحياة فيه بعد الموت.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ من صالح أو سيئ ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بزيادة عقاب على ما يستحقون ولا بنقص صالح مما كسبوا كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]

وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨] ولهذا عظم ذلك اليوم وثقلت القيامة في السماوات والأرض.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام × ـ يعني القاسم بن محمد ـ: دلت على صحة التوبة خوفاً من الله ومما يجازي به أهل المعاصي يوم القيامة)) انتهى، قلت: يعني إذا صحت التوبة بالندم على المعصية لقبحها كما حققه في (الأساس).

﴿٢٨٢﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ التداين: التعامل، أي إذا تعاملتم بدين، أو هو التعامل بالدين، أي إذا تعاملتم بدين، أي بتأجيل لأحد العوضين في المعاملة من قرض أو غيره؛ فاكتبوا الدين المؤجل عند المعاملة، وظاهره الوجوب.

﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي التمسوا كاتباً يكتب بينكم الدين بالعدل واطلبوه أن يكتب ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ﴾ فليس له أن يمتنع وعليه أن يجيب شكراً لنعمة الله عليه بتعليمه الكتابة ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ الدين ﴿وَلْيُمْلِلِ﴾ أي يملي على الكاتب ﴿ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ ليكون إملاؤه اعترافاً وإقراراً بالدين أو بالمسلم فيه إن كانت المعاملة سَلَماً.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام ـ يعني القاسم بن محمد × ـ: دلت على وجوب الكتابة لا يضيع الدين بأن ينساه أيهما لا سيما الغريم فيكون ظالماً ولا يضيع لرب الدين ماله، فإن تضييع المال حرام لأنه حينئذٍ لم يتصدق به، وعلى وجو ب الكتابة لمن كان يحسنها، وعلى أن لا يزيغ فيما كتب ولا يكتب إلا الحق ولا يبخس)) انتهى.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ أي الذي عليه الحق ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ عند إملائه على الكاتب لينقص بعض الحق نقص عين أو نقص صفة.

﴿فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ﴾ وفي الآية دلالة على أن الكتابة إنما تكون بعد ثبوت الدين في ذمة المؤجل له، فما يقع من الكتابة قبل استلام القرض وقبل أن يثبت في الذمة كذب وخطأ.

والسفيه: المعتوه الذي لا يحكم بإقراره، والضعيف: الذي نقص ذهنه وإدراكه وعقله من الكبر، والذي لا يستطيع أن يمل: هو الأخرس العاجز، والولي: هو الأب والجد والوصي والإمام ومنصوبه، فعليه أن يملي بالعدل لا زيادة ولا نقص.

والأولى أن الضعيف يعم الصبي والكبير المختل عقله، لقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام ـ يعني إمام زمانه القاسم بن محمد × ـ: دلت على وجوب الولاية على من كان هذا حاله، وعلى وجوب قيام الولي بما يجب على من كان كذلك)) انتهى.

﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ﴾ على الإملاء أو على المداينة ﴿شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡ﴾ فلا يكتفى بالصبيان ولا بالنساء ﴿فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ﴾ حيث لم يوجد رجلان أو لم يرضيا ﴿فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ﴾ يجزون عن رجلين ﴿مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم العدول حيث يوجد العدول، والمعروفون بالصدق الموثوق بهم عند عدم العدول كما في كثير من الأقطار؛ لأنهم يكونون مرضيين للضرورة أي موثوق بهم، وقد أجاز الإمام المهدي محمد بن القاسم الحوثي الحسيني العمل بشهادتهم إذا حصل الظن بصدقها، وظاهر الآية: العموم لمن وثق به المتعاملون.

﴿أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ والضلال قد يكون النسيان، فالتذكير للناسي تذكيره بالدين وما حضر عليه من المعاملة، وقد يكون الضلال العدول عن طريق الحق والعزم على كتمان الشهادة أو تغييرها عن وجهها فتذكيره تخويفه بالله، وظاهر الضمير في إحداهما للمرأتين فهو تعليل لإيجاب امرأتين بدلاً من رجل.

﴿وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ أعتقد أنه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَنۡ يَكۡتُبَ﴾ فالمعنى لا يأبوا تحمل الشهادة إذا ما دعوا؛ فهو أمر لهم بإجابة

طلب المتعاملين المأمورين باستشهادهم، وسمُّوا شهداء كما سمّوا في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ﴾ فأما تحريم كتمان الشهادة فيأتي في الآية التي بعد هذه، وهذا لأن السياق ما زال في أول المعاملة وما يجب فيه.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ وهذا تأكيد للأمر بالكتابة وتحذير من التكاسل والتساهل بأمر الكتابة، والسئآمة: الملل والضجر فلا تجوز؛ لأن هذا واجب أوجبه الله، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ تأكيد للأمر بكتابة الأجل.

﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ﴾ أقسط عند الله أي كتابة الدين إلى أجله أعدل عند الله؛ لئلا يؤخذ في القضاء أكثر من الحق ولا ينقص من الدين شيء ﴿وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ﴾ لأن الشهود بالكتابة يتذكرون، فيشهدون شهادة قيمة لا عوج فيها، وأدنى أي أقرب لئلا ترتابوا، فلا يرتاب الذي عليه الحق بتوهمه أنه قد طلب بأكثر مما عليه، ولا يرتاب الذي له الحق بتوهمه أن الذي عليه الدين يريد أن ينقصه مما له، فالكتابة تمنع الريب؛ لأنها تذكرهما بالحقيقة، وتمنع التوهم والغلط، وهذا تأكيد لإيجاب الكتابة، ودلالة على وجوبها لئلا يقع نزاع أو ارتياب يفسد ذات البين فهي من المحافظة على صلاح ذات البين.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَا﴾ تجارة حاضرة أي كلا العوضين حاضر، تديرونها بينكم فتداولها الأيدي لطلب الربح فيها فلا جناح في ترك الكتابة؛ لأنه لا يكون نزاع على أحد العوضين لعدم التأجيل.

﴿وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡ﴾ ليشهد الشهود على ذلك عند الحاجة؛ لأن الأصل بقاء المال للبائع إذا لم يثبت البيع إذا لم يرتفع الأصل باليد.

وقد تكون مشكلة إذا شهد الشهود على ملك البائع لأنهم لا يعلمون البيع، ويمكن أن يقاس مظنة الخلاف على الدين فتجب الكتابة؛ لا لأجل الخلاف في قدر الثمن؛ بل لأجل نفي البيع جملة والتشاجر فيما بعد؛ وهذا في الأراضي والدور الموروثة، فأما المستهلكات والأشياء الحقيرة والتي لا يعرف ملك البائع فيها لقرب عهده باستفادته، أي لو أنكر البيع ما وجد شهوداً على الملك فلا بأس، ويمكن أن يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ﴾ إذا كان الشهود ينسون مع طول المدة؛ وهذا لأن قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً﴾ في سياق التوثيق بسبب التأجيل.

وهنا سبب آخر في بعض المعاملة غير التأجيل وليس من التخصيص بالقياس؛ لأن الأقرب في قوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أنه في الذي تتداوله الأيدي لطلب الربح؛ وهذا بعيد عن المشكلة بخلاف الموروث الذي يباع، فليس بيعه تجارة؛ لأن التجارة ما يطلب فيه الربح، وكذلك قد يحدث الخلاف في الحدود أو الحقوق في الأراضي والدور.

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ الراجح في هذا أن أصله (ولا يضارَر) بفتح الراء الأولى، بدليل الخطاب بعده بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ﴾ ولم يقل: وإن يفعلا، أو إن يفعلوا؛ لأن حث الكاتب على العدل قد سبق، فترجح أن المراد نهي الغرماء عن مضارة الكاتب أو الشهيد؛ وذلك ليكتموا الحق فيقول الكاتب: ليس هذا خطي، والشهود: لا نعلم هذا؛ خوفاً من الغريم.

أو يقول الكاتب: أنا غلطت في الكتابة والصواب أقل أو أكثر؛ ليسهل للشهود الباطل إذا خافوا أو ليشكك عليهم إذا كانت المدة قد طالت ومضارّتهم بعد أداء الحق والشهادة على وجهها معاقبة لهم من الغريم الظالم

تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن

ومن الضرار تهديدهم إن شهدوا بالحق، ومن الضرار إدخالهم في خصومة شديدة، فإذا شهدوا قال الغريم: لا تصح شهادتهم عليّ لأنهم غرماء حاقدون، فالآية تنهى عن الضرر كله وبأي شكل كان، وقد جعلها الإمام القاسم بن محمد × بمعنى فتح (الراء) وبمعنى كسره، حملاً للمشترك على معنييه.

﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ﴾ خروج بكم عن الحق إلى الخباثة والفجور ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ﴾ فلا تخالفوا في شيء مما في هذه الآية الكريمة ولا غيرها ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ العلم النافع، فاعملوا به، واشكروا الله عليه ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فتعليمه الحق والصواب وهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن اتبع تعليمه ومن خالف، فيجزي كلاً بما يستحق.

﴿٢٨٣﴾ ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُواْ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ تجزي عن الكتاب فيدفع الذي عليه الحق رهناً يقبضه الذي له الحق وثيقة في حقه ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ فلم يأخذ منه رهناً ﴿فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ﴾ أي ما أُتمن عليه من الحق الذي أُتمن عليه ولم يؤخذ منه رهن، أو من الرهن إذا رده إليه حتى يرجعا البلد مثلاً، فهي تعم.

﴿وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ لأنه رقيب عليه وإن تمكن من الجحد في الدنيا فلن ينفعه الجحد يوم القيامة، وهذا الكلام خاص بالسفر لعدم الكاتب، وللسفر أحكام تخصه فلايلحق به حال السعة في الحضر؛ ولذلك قال تعالى:

تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا

﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ فالكلام الأول على أصله من إيجاب الكتاب والشهود ونسبة الإثم إلى القلب لأنه الكاتم بالكف عن الشهادة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ من كتمان أو غيره فراقبوه.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فله الحكم بما شاء، فما سبق من أحكام في السورة هو الحق وليس لأحد مخالفته وليس لغير الله حكم؛ لأن غير الله إذا حكم فهو عبد يحكم على عبد مثله.

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ من حق أو باطل ﴿يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ لأنه عالم به ﴿فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لأنه المالك لا راد لأمره ولا يشاء إلا الحق، وما الله يريد ظلماً للعباد، ومن المغفور الخواطر التي ليست اختيارية تأتي مع الإيمان الصحيح، كما في الحديث الذي رواه الإمام الهادي × في (الأحكام) ولكن لعلها لا تدخل في الحساب، اللهم إلا أن يقع تقصير في دفعها فتدخل في الحساب؛ لتغفَر أو يعذب صاحبها إن تعمد التقصير ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من تعذيب أو غيره.

﴿٢٨٥﴾ ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ محمد ص ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ والذي أنزل إليه هو هذا القرآن، وما أوحي إليه سواه آمن به كله لأنه الحق من ربه ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ آمنوا بما أنزل إلى الرسول ص.

ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿كُلٌّ﴾ من الرسول والمؤمنين ﴿ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ لأن ما أنزل إلى الرسول ص قد دلهم على ذلك وهداهم للإيمان به، وللتلازم بين الإيمانين تم الإتصال لأنهما صارا إيماناً واحداً بما أنزل وما دل عليه، والمراد: الإيمان بالله كما يجب لا كتصديق الكفار بالله مع شكهم في البعث واستبعادهم القدرة عليه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ لا كما تفعل اليهود والنصارى من التصديق ببعض والكفر ببعض.

﴿وَقَالُواْ﴾ أي الرسول والمؤمنون ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ لما أمر الله به وما حكم فيما أنزل إلى الرسول ﴿غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا﴾ أي اغفر لنا غفراناً ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فأمنوا باليوم الآخر والمرد إلى الله للحساب والجزاء.

﴿٢٨٦﴾ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ لأنه حكيم رحيم، وهذه الآية ترد على المجبرة؛ لأنهم إن قالوا: الكافر مكلف بالإيمان لكنه لا يستطيع الإيمان؛ خالفوا هذه الآية، وإن قالوا: إنه غير مكلف؛ لزمهم أن تعذيبه ظلم وخالفوا المعلوم من الدين، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٦٢].

﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾ من خير ﴿وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾ من شر من المعاصي والظلم ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ حكاية لدعاء الرسول والمؤمنين بعد إيمانهم بالمصير إلى الله وإيمانهم بأنه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡ﴾.

أو قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ من كلامه تعالى معترض بين كلام الرسول والمؤمنين؛ للتنبيه على أن قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ليس التزاماً بما ليس في وسعهم، وأنهم لم يلتزموا إلا بما في وسعهم، ونظيره قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آية:٤٢].

﴿إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ فقولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ليس مانعاً من النسيان والخطأ؛ لأنهم بشر ينسون ويخطئون فهم يدعون الله أن لا يؤاخذهم به.

﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا﴾ حملاً ثقيلاً يشق تحمله، كالحمل الذي يأصر حامله مكانه ولا يستطيع المشي به لثقله ﴿كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ بسبب عصيانهم واستحقاقهم للتشديد كأصحاب العجل وأصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر.

﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ إما حقيقة لا طاقة لنا به فهو تعبد بالدعاء، كقولهم: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:١٩٤] وإما مجاز والمقصود به صرف التكاليف الشاقة كوجوب القصاص والديون الغالبة التي يحتاج معها إلى الخروج من ماله كله لا يبقى له إلا قوت يومه وستر عورته ومسكنه الضروري، وكما لو كلفهم في وقت نزول القرآن بأمر أعظم من هذا وهم في الواقع يطيقونه، ولكنه يقال له في مجاز الكلام لا يطاق لصعوبته وثقله على النفس.

﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما صدر منا بالتوفيق للتوبة والإستغفار إن كان المراد ما يصدر في المستقبل، وإن كان المراد ما قد صدر في الماضي فهذا نفسه استغفار منه ﴿وَٱرْحَمْنَآ﴾ طلب الرحمة يعم خير الدارين أعني يصلح له وأهم الرحمة الرحمة بصرف عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٦] فهي الرحمة العظمى التي تتم بها السعادة.

وفي الجمع بين طلب العفو وطلب الغفران وطلب الرحمة عناية كاملة لإسقاط العقاب على ما قد صدر، وترك المعاجلة بالعقوبة على ما يصدر من الزلات حتى نتوب؛ لأن الغفران والرحمة قد يستعمل بهذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهذا يدل على أنهم في كمال إيمانهم المذكور مستعدون لجهاد الكفار، فليس الجهاد مما يطلبون أن لا يكلفوا به، وقولهم: ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا﴾ بمعنى: أنت المتولي لأمورنا، كما وعدتنا في قولك: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] وقولك: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنعام:٤٠] ولكونك مولانا ومتولي حسن رعايتنا ﴿فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لتنصر دينك، ويكون الدين لك وحدك.

وقولهم: ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقولوا على أعدائنا؛ يشعر بأن المهم في النصر عندهم إعلاء كلمة الله وإبطال الكفر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله ـ يعني القاسم بن محمد ـ × : دلت على وجوب جهاد الكفار والدعاء إلى الله بنصر المؤمنين على الكافرين)) انتهى.

والحمد لله رب العالمين..

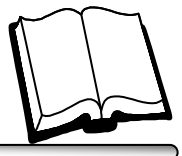

التيسير في التفسير

سورة آل عمران

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ
ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ﴾ سبق الكلام في الحروف التي تكون في أوائل السور، كما سبق تفسير (البسملة).

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا المطلع الكريم يناسب ما يأتي في هذه السورة من الرد على النصارى في شأن عيسى × والدعوة إلى الإسلام الذي هو إخلاص العبادة لله، والإله هو المعبود بحق فلا معبود بحق إلا الله، وكل ما سواه عبد مربوب.

﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي الذي لا يموت وما يعبد المشركون أموات غير أحياء، أو جائز عليهم الموت، وقد قال الله تعالى في عيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهذه الوفاة إحدى الموتتين، والله هو ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ بشؤون السماوات والأرض ومن فيهما بتدبير أمور المعاش وغيرها، وشئون الآخرة.

﴿٣-٤﴾ ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فكله حق لأنه كلام أصدق القائلين وأحكم الحاكمين ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما قبله من كتب الله يحكم بصدقها وما فيه موافق لما فيها من الإخبار عن الله وعن توحيده وعن اليوم الآخر وغير ذلك.

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ فهما من كتب الله، فالقرآن مصدق بهما ومصدق لما فيهما فلا عذر لأهلهما من تصديق القرآن الذي ثبت بالبرهان القاطع أنه من الله كما مر في أوائل (سورة البقرة) ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي أنزلهما من قبل في زمان سابق ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ليس فيهما شيء من أباطيل أهل الكتابين من الشرك والأماني وغيرها وإنما هما هدى بما يدلان عليه من التوحيد والإنذار لأعداء الله والتبشير لأولياء الله وغير ذلك.

﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الفرقان بين الحق والباطل، فتمّت حجته على من أشرك ومن عصى ومن كفر بآيات الله؛ لأنه لم يبق لهم عذر بعد الفرقان الذي أنزله الله بين الحق والباطل: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] و﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ إما عبارة عن كل ما جعل الله لعباده من الفرقان بين الحق والباطل من القرآن والكتب السابقة وغير ذلك من المعجزات وهو الأقرب هنا لتقدم ذكر القرآن، وإما عبارة عن القرآن كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وعطفه على ما مر؛ لأجل وصفه بأنه (فرقان) أي يفرق بين الحق والباطل، كما قال الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمـــام وليث الكتيبـــة في المزدحـــم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ لما كانت الآيات سبيل العبادة التي خلق لها الإنس والجن، وسبيل سعادة البشرية في الدنيا والآخرة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كان التكذيب بها من أكبر الجرائم؛ لأنه معارضة لحكمة الله ورحمته لخلقه، ومعاونة للشيطان، ودفع للمصالح، ومحافظة على الفساد والجهل، فاستحقوا العذاب الشديد، وجاء فيهم هذا الوعيد لأن الله ﴿عَزِيزٌ﴾ ومن عزته: أن لا يهمل أعداءه يفسدون ويحاربون دينه ويصدون عن سبيله ويضلون عباده، دون أن يجزيهم بما يستحقون من العذاب الأليم.

هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ

فلا بد من تعذيبهم لأن الله ﴿عَزِيزٌ﴾ ولا بد من تعذيبهم لأن الله ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ أي ذو مكافأة للمجرمين بالعقوبات على جرائمهم، فليس لأحد أن يغتر بحلمه وإمهاله ورحمته، فإن كل جزائه في الآخرة وفق حكمته، وكما هو رحيم فهو ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ولو كانت الحكمة في الآخرة أن لا يعامل إلا بالرحمة ما عذب أحداً؛ لأنه غني عن تعذيبهم، ولكن اقتضته عزته وحكمته فلا بد لهم منه ونعوذ بالله.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه شيء، وهو علام الغيوب ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس:٧٩].

﴿٦﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ (الرحم) موضع الولد الموجود في بطن أمه ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الصور؛ لعلمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وهذه من أوضح الآيات دلالة على ذلك، فهناك تصوير العظام التي أصلها الماء المهين، وجعلها عظام إنسان برأسه وعنقه وسلسلة ظهره، وعظام أضلاعه وصدره ويديه، وحوض في أسفله يركب فيه رجليه، ثم توصيل العظام بالأعصاب، مع تواصلها في أصل صنعتها بتداخل أطرفها، ثم دماغ وقلب وكبد ورئتان وأمعاء وكلى إلى غير ذلك، ثم عروق يجري الدم فيها من القلب إلى نواحي البدن شبه المواصير، ثم نفخ الروح فيه وقد أعدّ له في بدنه الأعضاء والفم واللسان لأنه سيُلهم البيان، ومع ذلك ترى الوجوه مختلفة لا تتفق كما تتفق مصنوعات الورشة الواحدة، حتى الأخوة من الأم والأب، وهذه من أعظم الآيات مع كثرة الناس فسبحان الله وبحمده.

ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه المالك لما خلق وكلهم عباده، ولأنه هو الذي يرجى ويخشى وتنفع العابدين عبادته ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل خلاف ما يوافق الحكمة، فلا يتخذ ولداً لأنه غني ولا يتخذ شريكاً لأنه خلاف الحكمة وفي هذه الآيات مناسبة لما يأتي في شأن عيسى × بعد إحدى عشرة آية.

٧ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ﴾ لا تشابه فيها والقرآن الكريم تنزيل من حكيم، فهو كله على وفق الحكمة ليس فيه خلل، ولكن اقتضته حكمته تعالى أن يجعل منه محكماً هادياً لمن يهتدي، لا إشكال فيه ولا خفاء في معناه، ليكون دستوراً للأمة كلها، وأن يجعل منه متشابهاً للابتلاء والاختبار، فقال سبحانه في المحكمات: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المرجع الذي يهتدي به المهتدون ويؤمه طلاب الحق ويصيرون إليه، كما قال تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ﴾ [القارعة:٩].

وقال تعالى في المتشابه: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ أي وآيات أخر متشابهات لنوع إبهام فيها، يحتاج المؤمن عندها إلى الإيمان بأنها من الله، وأن لها معنى صحيحاً خلاف ما يتوهم منها الجاهلون من الباطل، وقد ظهر من التفريع الذي يأتي أن المتشابه هو ما يتعلق به أهل الباطل بسبب خذلانهم وقصدهم للفساد، ووجود نوع من الابهام مكنهم أن يتعلقوا به.

وعلى هذا: فهو شامل لما كان فيه اشتباه:

إما لإجمال فيه مثل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] قبل نزول البيان، ومثل: ﴿الم﴾ ﴿حم﴾ ونحوها.

وإما لاستبعاد فاسد صيره مشكلاً مثل: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا..﴾ الآية [الحج:٧٣] فإن استبعاد الكفار وجهلهم صيره متشابهاً عندهم وفي حقهم.

فأما ما خفي معناه وأمكن البحث عنه وصار واضحاً وإنما كان غامضاً لغفلة القارئ أو قلة معرفته باللغة، فهذا ليس من المتشابه.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ ميل عن الحق وهم الكفار والمجرمون كلهم الذين ذكرهم في (سورة البقرة) في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ..﴾ الآية [آية:٢٦-٢٧].

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي يتعلقون به ويجعلونه دليلاً لهم على باطلهم، ولجعلهم إياه دليلاً اعتبر تعلقهم به اتباعاً له؛ لأنهم جعلوه إمامهم قائداً لهم إلى باطلهم.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي طلب الفتنة أي للجدال به للصدّ عن الحق ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ ابتغاء منهم لتأويله أي لتأويلهم إياه، فهو إضافة المصدر إلى مفعوله؛ لأنهم يدّعون أنه يؤول إلى سبب باطل أو معنى فاسد، ألا ترى أنهم تعلقوا بقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] للجدال في القرآن فقالوا: أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر! فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ..﴾ الآية [المدثر:٣١].

وتعلق ابن المُقَفَّع لإبطال القرآن والكفر به بالحروف المذكورة في أول السور، فردَّ عليه الإمام القاسم × في كتاب (الردّ على ابن المقفَّع): ((أوَ لا ترى أن الكفار قالوا: أما يستحي رب محمد أن يمثل بالبعوض كأنهم أرادوا ذكر الذباب، فقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦].

وتعلق ابن المقفع بقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥] فقال لعنه الله: إن ربهم على كرسيه، وقال ابن المقفّع: ثم زعموا أن الله خلق الأشياء كلها بيده من شيء موجود، وزعم أن اليد لا يمكن قبضها وبسطها إلا بعد وجود)) انتهى. فأقول: صدق الله العظيم.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي التأويل الصحيح للمتشابه وما يؤول إليه على الحق والصواب، وهذا لا يمنع التأويل الذي يوافق المحكم بضرب من الترجيح لكونه المعنى لا القطع بأنه المعنى كله؛ فالعلم لله الذي هو فوق كل ذي علم، أما المخلوقون فعلمهم محدود ومن الجائز عليهم أن لا يحيطوا بمعنى المتشابه وبما يؤول إليه معناه، وإن علموا أو ظنوا بعض ذلك، والمراد بما يؤول ما يتفرع عنه وتفاصيل مفهومه الحقيقي، كالعلم بخزنة جهنم على التفصيل وغير ذلك، فلم يعْرَ عن الفائدة ولم يجب أن يعلموا تأويله كله.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إنه الحق أي الكتاب ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ نزل، وفي خطبة رواها الإمام أبوطالب × في (الأمالي) في [ص:١٥٦] في (باب الخطب والمواعظ عن أمير المؤمنين علي ×): ((وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه،

وفي سنة رسول الله، ولا عن الأئمة أثره، فكِلْ علمه إلى الله سبحانه، فإن ذلك منتهى حق الله عليك، اعلم أيها السائل أن الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن الاقتحام على السُّدَد المضروبة دون الغيوب الإقرارُ بجملة ما جهلوا تفسيره من تفسير الغيب المحجوب فقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فحمد الله سبحانه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التَّعَمُّق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً)) انتهى المراد؛ ونحوه في (نهج البلاغة) في (خطبة رقم:٩٠).

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ : والراسخ: هو المتمكن في بحبوحة الشيء الذي يدخل ولا يطيش، والعرب تقول: رسخت الحجر في الماء إذا تمكنت ووقعت في أسفل الماء ودخلت)) انتهى المراد.

قلت فالمعنى: الثابتون المتمكنون في العلم، الذين لا تزلهم الشبه ولا تطيشهم عن مكانهم من العلم، لأنهم ثابتون فيه متمكنون، وذلك لأنهم علي يقين وهدى من ربهم، وهذا عام للمتقين الموقنين ليس خاصاً ببحار العلم، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى في (سورة المدثر): ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ الآية [آية:٣١].

وعلى هذا فكأنه قيل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ للشك والتشكيك فيه، وأما الراسخون في العلم فيقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فالآية هذه كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت:٤٤].

أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ

﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ بما في القرآن من التذكير وبسائر آيات الله وتذكيره وينتبه من الغفلة والجهل والعمى ﴿إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ جمع لُبّ، والمراد به هنا: العقل الذي يستعمله صاحبه لمعرفة الحق، فجعل قلبه كالثمرة التي فيها لُبُّها وجعل قلب الزائغ كالثمرة الفارغة من اللب، قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص:١٠] وقال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] فجعل القلب فارغاً لما فيه من الحَيرة وذهاب التعقل، فكذلك قلوب أهل الزَّيغ لا ينفع فيها التذكير؛ لأنها تأباه وتكرهه وتعرض عنه كما قال تعالى حاكياً: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٨].

﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ هذا حكاية عن الراسخين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ جملة معترضة بين كلامهم، أو من كلامهم، والزيغ قد يكون عقوبة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ونسبته إلى الله تعالى كنسبة الختم إليه وقد مر معناه، والمراد طلب العصمة والألطاف عن أسباب الزيغ.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام الهادي × : إن *قال* قائل: كيف يُزيغ قلب من هداه؟ وكيف جاز لهم أن يظنوه بالله؟

قيل لهم: هذا دعاء منهم بالتثبيت لهم بالمعونة، والتوفيق والتسديد والإرشاد يقولون: ربنا زدنا هدى إلى هدانا، ومعونة إلى قوتنا، ولا تتركنا من رحمتك فنهلك وتزيغَ قلوبنا بعد ما نحن عليه من اجتهادنا في طاعتك واتباعنا لمرضاتك، لا أنهم يتوهمون على ربهم ويظنون بخالقهم ظلماً لهم وإزاغة عن رشدهم)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش × : يريدون بذلك لا تثقّل علينا المِحَنَ وتشدد علينا البلوى فنؤثر أهواءنا فتزيغ قلوبنا من محنتك فندع عند ذلك طاعتك، وإذا كان ذلك منهم فإنما أُتوا من قِبَلِ أنفسهم، فجازَ في اللغة أن ينسب ذلك إلى الله ـ جلَّ ذكره ـ لما كان من محنته وبلواه، يراد بذلك أنها لما اشتدت عليهم مِحَنُهُ أغواهم)) انتهى .

قلت: يشير × إلى مثل ما وقع على أصحاب السبت بسبب فسقهم الماضي، ولعله المراد في قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣] أي اختبار يكون منهم عنده زيغ قلوبهم، فالدعاء أن لا يزيغ قلوبهم لخوفهم من الزيغ بسبب ما قد يقع منهم من الزلات ليوفقهم الله للتوبة وترك الإصرار إن وقع منهم ذلك، وأن يثبتهم على طاعته حتى لا تقع منهم معصية تسبب الزيغ فالدعاء شامل للمعنيين.

﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تنويراً للقلوب وزيادة في الألباب وحباً لما يرضيك وكراهة لما يسخطك وزهداً في الدنيا وانتباهاً من الغفلة، فالمراد بالرحمة ما هو سبب للبعد من الزيغ والمصير إلى رحمة الله في الآخرة.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ اسم مبالغة لأنه الواهب لكل خير كثير فمنه الهبات التي لا نحصيها عدداً، فأنت المرجو لكل خير المدعو لكل حاجة، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : تدل على وجوب الالتجاء إلى الله والاستجارة به من الضلال وطلب الهداية)) انتهى.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وهذه من الحكاية عن الراسخين في العلم تفيد إيمانهم بالقيامة وما فيها، وبأنه لا ريب فيها لوضوح آياتها، ولكون وعد الله بها لا يتخلف،

أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى

لأن الله لا يخلف الميعاد، لأنه سبحانه يعلم ما سيكون فلو أخلف الوعد لكان الوعد كذباً أخبر به عن الموعود به وهو يعلم تخلفه، وهو سبحانه غني حميد كريم لا يصدر عنه شيء من النقايص والعيوب، وهذا من الراسخين أعني التصديق بوعد الله خلاف ما يكون من أهل الزيغ من الجدال في آيات الله ليجحدوا ما يفيده المحكم من الوعيد أو من الوعد والوعيد أو نحو ذلك من فوائد القرآن التي يكذب بها أهل الزيغ.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أيَّ كفر؛ لأنهم كذبوا بآيات الله التي تهدي إلى التوحيد والإيمان بالكتاب والرسول والملائكة والنبيين واليوم الآخر ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لن تكفى وتدفع عنهم من الله شيئاً من عذابه، فالأموال لن تقبل منهم فدية تفديهم من العذاب، والأولاد يفصل بينهم وبين والديهم يوم القيامة: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١] ﴿لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة:٣] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧] أي يشغله ويدفعه عن أهله فلا يمكن أن يفدي الولد أباه بنفسه أو يفتدي به أبوه، فالغناء بمعنى الكفاية والدفع، قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر:٤٧] أي تكفوننا نصيباً من النار فتدفعوه عنا، والمراد بالكفاية هنا ما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥] ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧].

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦] أي أن الجاهلين يدافعون الحق بظنهم والظن لا يدفع الحق وذلك لأنهم يتبعون الظن دفعاً للحق الذي هو القرآن الدال على بطلان ما هم عليه من الشرك ونحوه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان:٢١].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] أي لا تدفع شفاعتهم شيئاً، وقوله تعالى في (سورة الجاثية): ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية:١٨-١٩] أي لن يكفوك ويدفعوا عنك من الله شيئاً، أي فإن اتبعت أهواءهم فلن يكفوك العذاب من الله ويدفعوه عنك، وفي (سورة إبراهيم): ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:٢١] أي فهل تكفوننا شيئاً من عذاب الله تدفعوه عنا، وقد بسطت في هذا دفعاً للغلط.

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الكفار﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ أي هم حطب نار جهنم، والمراد به هؤلاء الكفار في وقت محمد ص، ولذلك قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ×) لقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: ((معناه: كشأنهم وعادتهم)).

قلت: استعمال الدأب بمعنى العادة ظاهر في قول امرئ القيس:

كدأبك من أمّ الحُوَيْرِثِ قبلها وجارتها أمّ الرباب بمأسل

ومثل تفسير الإمام زيد بن علي إ في (القاموس) وفسره في (لسان العرب): بالعادة والملازمة.

والحاصل: أنه لا إشكال في استعمال الدأب بمعنى العادة، والراجح: أن المراد هنا بيان سنة الله في الذين خلوا، وهي أنه يأخذهم بذنوبهم ليعتبر بهم الباقون ويعلموا أن الله تعالى يعاقب المجرمين، فلا يكذبوا بتعذيبهم في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٦-١٩] وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر:٤٣].

نعم.. وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ قال تعالى: ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ليعم التكذيب وكل ذنوبهم في أنه سبب للأخذ والعقاب الشديد، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ كما يدل على شدة عقاب الأولين فهو إنذار صادق للآخرين، نعوذ بالله من عذابه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي الذين حولك من قريش وغيرهم من أهل الكتاب وغيرهم فهو عام لهم ﴿سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ سينصر الله دينه فتغلبون، فهو كقوله تعالى: ﴿جُندٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾ [ص:١١] وصدق الله فقد غلبوا كلهم والخسارة الكبرى أنهم يحشرون ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ سميت مهاداً، لأنها جزاء أعمالهم في الدنيا، وشأن العاقل أن يمهّد لنفسه مكاناً حسناً موافقاً للبدن والروح، كما فعل المؤمنون في تمهيدهم لأنفسهم الفرش المرفوعة ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات:٤٤].

وأصل المهاد: الفراش ونحوه الممهد لينام عليه مثلاً، فلما كانت لهم جهنم بدلاً من المهاد سميت مهاداً على طريق المشاكلة التقديرية، وفيه حسن بليغ؛ لأنها ضد المهاد وشر مكان.

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣ زُيِّنَ لِلنَّاسِ

١٣ ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾ يحتمل: الخطاب للذين كفروا ليؤكد لهم قوله تعالى: ﴿سَتُغۡلَبُونَ﴾ وهذا هو الراجح، ويحتمل: الخطاب للمؤمنين؛ لأن الأولى وعد لهم بالنصر، ويحتمل: الخطاب للفريقين، فهي آية للمؤمنين على النصر، كقوله تعالى في (سورة الحشر): ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آية:٢] وذلك تشجيع لهم على الاستمرار في الجهاد.

﴿فِي فِئَتَيْنِ ٱلۡتَقَتَاۖ﴾ في جماعتين كل واحدة فئة، واللقاء هنا لقاء الفريقين للقتال، وكان هذا يوم بدر ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في نصر دين الله والدفاع عنه، فقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي بسبب سبيل الله وفي شأن سبيله، فسبيل الله ينسب إليه القتال، فقال تعالى: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وينسب إليه الإنفاق، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٩٥] وينسب إليه الهجرة، قال تعالى: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النور:٢٢].

فالمعنى: القتال من أجل سبيل الله، وكذلك الهجرة والإنفاق لأن المراد نصر الدين بالإنفاق وبالهجرة، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر:٨].

﴿وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ أي وفئة أخرى كافرة تحارب دين الله ﴿يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِ﴾ قرئ ﴿تَرَوْنَهُم﴾ بالتاء المثناه من فوق، وقرئ ﴿يَرَوۡنَهُم﴾ بالياء المثناه من تحت، والراءون: هم الكفار يرون المسلمين في حال المعركة مثليهم رأي العين لا رأي الظن والحسبان، وهذا نصر لرسول الله ص ومن معه.

وفي (قراءة نافع) استمرار على خطاب الكفار؛ لأنهم بأصنافهم راضون بحرب قريش لرسول الله ص، فصح أن تنسب الرؤية إلى جملتهم، والمراد الحاضرون للمعركة؛ هذا إذا كان قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ خطاباً للكفار موجهاً إلى اليهود، فأما إن كان خطاباً للكفار غير مقصود به اليهود إلا بطريقة العموم، فنسبة الرؤية إلى الذين كفروا أظهر؛ لأن المقصود الحاضرون منهم.

أما رأيهم مثليهم، فيحتمل: أنه بسبب اختلاط الملائكة بهم في صورة البشر، كما كان جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] وهذا ممكن في قدرة الله أن يجعل الملائكة كذلك، ليكثر عدد المسلمين في أعين الكفار.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى × : الفئتان اللتان التقتا يوم بدر كان المشركون فيما يقارب الألف إلا أمراً يسيراً، وكان المسلمون في ثلثمائة وثلاثة عشر، فنصرهم الله على المشركين وأظهرهم عليهم ومنحهم أكتافهم، وإنما خرج رسول الله ص في هذه الجماعة اليسيرة لطمع بالعير التي فيها أبو سفيان، وبلغ ذلك قريشاً فخرجوا في لقاء العير فالتقوا حيث ذكر الله ﷻ حين يقول: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ [الأنفال:٤٢] فكان نصر الله لنبيه وللمؤمنين على جمائع الكافرين يومئذٍ من أكبر الدلالات والآيات في النصر والعون لمحمد ص، وكان مما يشهد له بالنبوة واللطف من الله والكفاية لنبيه ص» انتهى.

قلت: ووجه الدلالة على أنهم سيغلبون: أن الله نصر نبيه ومن معه في بدر على قلة عددهم وعدّتهم على الكفار وهم جمع كبير أهل قوة وبأس شديد.

حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

﴿يُؤَيِّدُ﴾ يقوّي من يشاء جرت بذلك عادته كما أيّد طالوت ومن معه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النصر ﴿لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ ليعلموا أن الله ينصر نبيئه فيما يستقبل من الحروب، وكذلك ينصر أولياءه المجاهدين في سبيله في كل زمان ومكان، ونظير هذا قوله تعالى في (سورة الحشر): ﴿فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [آية:٢] و﴿ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بمعنى البصائر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﴿إ﴾): ((معناه: معرفة لأولي العقول)).

﴿١٤﴾ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ أصل حب الشهوات المذكورة طبيعي، ولكنه يقلّ بأسباب الزهد في الدنيا حتى يغلبه العقل، ويكثر ويتربى بطول الأمل والغفلة أو الجهل بما يؤدي إليه و﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ هوى النفس في المشتهيات، وهو الخطر على الدين، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:٤٠-٤١] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦] فمن حق العاقل العارف بخطره أن ينفر منه ولا يراه حسناً جميلاً، ولكن أكثر الناس يجهلون عواقبه، أو يغفلون عنها فيرونه حسناً لما يترتب عليه من اللذات العاجلة والأغراض النفسية فذلك تزيينه.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ﴿إ﴾): ((واحدها قنطار، فالقنطار: ألف ومائتا أوقية، والقنطار: مائة رطل، والقنطار: ألف دينار، ومن الورق إثنا عشر ألفاً مثل الدية)) انتهى المراد. و﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ المجمّعة المؤلفة من قناطير.

ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ

﴿وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾ في (تفسير الإمام زيد إ): ((معناه: المعلمة المسماة)) انتهى، وفيها تفاسير مختلفة، و﴿ٱلۡمُسَوَّمَةِ﴾ بهذا المعنى تكون العلامات عليها والأسماء، دليلاً على فضلها، وافتخار أهلها بها، كأنهم يتحدّون بها أهل الخيل أن يأتوا بمثلها، كما يتحدى البطل في الجهاد بأخذ سِمَة على رأسه مثل عصابة حمراء أو ريشة كبيرة في عمامته، فتفسير الإمام زيد × أوفق للسياق.

﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الأزواج الثمانية لكثرة منافعها ﴿وَٱلۡحَرۡثِ﴾ لما فيه من فوائد من زرع وفواكه كثيرة، والفتنة بالحرث عظيمة لبقائه، قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٧٦].

﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ منفعة الحياة الدنيا المنفعة القصيرة المدة فهي تفارق صاحبها أو يفارقها بالموت ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ ﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ حسن المرجع في الآخرة، فهو أولى بأن يحبه العقلاء لأنهم يحبون تلك الأشياء لأنهم ينالون بها حاجاتهم وما يهوونه منها، و﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ الجامع لكل ما تشتهيه الأنفس على أكمل وجه وعلى الدوام هو عند الله ومن الله يدعو إليه، ويَعِدُ به وعداً صادقاً، وأنت في هذه الدنيا تحب من ترجو منه حاجة تشتهيها ويعدك بها لاعتقادك أنه يريد لك الخير ويرغب في قضاء حاجتك، فكيف يؤثر الإنسان حب شهوات الدنيا على حب الله الذي يريد له الخير في الدنيا والآخرة إن اتقاه.

١٥ ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾ الذي تحبونه فهو أولى أن تحبوه ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فما أعظم هذا الخير، لأنه نعيم عظيم دائم، لا يموت صاحبه ولا يفارقه.

رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ

﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ لعلها خصّت بالذكر، لذكر نساء الدنيا في الآية الأولى وتقديمها في الذكر هناك وطهارتها، من خلقها نظيفة من كل وسخ ومن ذلك الحيض، ومن ذلك الزكام والنخام، وقد ذكر لها صفات أخرى مفرقة في القرآن.

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للذين اتقوا فهو يفعل لهم من صرف العذاب عنهم، وصرف كل مكروه عنهم، وتكريمهم وإعطائهم رغباتهم ما يفعله الراضي عنهم المقتدر على كل شيء، العليم بأحوالهم، وما يريدون، وما يكرهون، وما يسرهم، وما يسوءهم، ولا يشغله عنهم شيء ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

فالرضوان في العادة: مصدر الإحسان، وصرف المكروه، فهي كلمة تدل على صرف كل مكروه والإحسان إليهم والتكريم بما لا نطيق حصره وحسن الرعاية على أبلغ الوجوه.

ألا ترى أنك تعطي ضيفك طعاماً وشراباً وغير ذلك من حاجاته لئلا يلحقه برد ولا يضره حَر وتحاول أن لا تلحقه أذية، ولكن إذا كان الضيف كريماً مرضيّا فإنك تجدّ في تحصيل حاجاته والمحاذرة أن لا يلحقه شيء يؤذيه وتحاول تكريمه بقدر ما تستطيع، فكلمة (الرضوان) وعد عظيم، ولذلك قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِٱلْعِبَادِ﴾ لعلمه بأعمالهم ومقادير ما يناسبها من الجزاء، وقدرته على تنزيل كل عامل منزلته، ثم وصف الذين اتقوا الذين وعدهم بما ذكر في الآية، فقال تعالى:

﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا

﴿١٦-١٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ الماضية لأنا قد آمنا بما يجب الإيمان به، وذلك يستلزم العزم على الطاعة، لأنه يستلزم الخوف من الله والخوف من النار.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على بلاء الله وعلى طاعته؛ لأن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ وفي كل خبر ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ لله الخاضعين له ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ فيما أمر الله بالإنفاق فيه أو شرع، وهذه الصفة سبقت في أول (سورة البقرة) وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧] وهي في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥] وغير ذلك.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ لخوفهم من عذاب النار يمتنعون من النوم في ذلك الوقت ليستغفروا الله في ذلك الوقت الذي هو مظنة الإجابة، و(الأسحار): جمع سَحَر ولعله من أول ما تظهر نخلة الفجر حتى تذهب الظلمة أو تضعف، كما أفاده الراغب في (مفرداته) وفائدة الجمع العموم ليفيد استمرارهم على ذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت الآيتان على أن يتوسل إلى الله بالإيمان باللسان وبذكر ما يفعله المؤمن من الطاعة وما يتجنبه من المعصية لأن ذلك من الإيمان، وعلى الصبر فيما يحب، وعلى صدق اللهجة والاستكانة لله سبحانه، والاستمرار على طاعة الله، وعلى الإنفاق مما رزق الله سبحانه الواجب والمستحب، وعلى أن أفضل أوقات الاستغفار الأسحار من الليل)) انتهى.

﴿١٨﴾ ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ أصدق القائلين الذي يصدّق به الكفّار من أهل الكتاب ومشركي العرب: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو فلا عيسى ولا غيره كلهم عباد لله ﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ شهدوا بذلك، ولعل هذا للرد على من يعبد الملائكة ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ شهدوا بذلك فلم يبق إلا الجاهلون الذين أهملوا عقولهم.

﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، فكما أن الشرك ظلم، فالتوحيد عدل؛ لأن الله الخالق الرازق هو المالك للمخلوقين المنعم عليهم، فهو المستحق لئن يخضعوا له بإظهار عبوديتهم له، وجعل غيره إلهاً معناه أنه شريك في ملك المخلوقين فيظهرون عبوديتهم له وهو في الواقع عبد مثلهم فهو ظلم أن يعبدوا غير الله والله خالقهم، ويشكروا غير الله والله هو المنعم عليهم، وقد روي في حديث عن الله تعالى أنه قال: {إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر غيري} أو كما روي.

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تأكيد وتمهيد لقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فإن العزة لله جميعاً فكل من سواه عبد ذليل والله سبحانه هو الحكيم، فكيف يجعل لنفسه شريكاً أو يرضاه وهو عبد لله، وليس ذلك يصلح في الحكمة، كما بين تعالى في قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

فليس من الحكمة أن يجعل لنفسه شريكاً ينازعه في ملكه أو يعارضه، وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٥] فكيف يجعل شريكاً لله من لا ينفع ولا يضر؟!

ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل:٧٦] فأصنامهم لا تصلح لشيء، فكيف تُجعل أنداداً لله؟!! وقال تعالى:﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل:٧١] فليس من الحكمة أن يجعل عبده شريكاً له في ملكه، له حق المعارضة والمُشَاكَسَة.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ ﴿ٱلدِّينَ﴾ الذي يُدَان به لينفع صاحبه، فالدين النافع: هو الإسلام، أما الشرك فليس شيئاً بل هو ضر على أهله و﴿ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ أن نسلم وجوهنا لله، أي نخلصها لله ونجعلها سالمة له كقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] وإسلامنا لوجوهنا: أن نتوجه بها لله وحده لا شريك له.

والحاصل: أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، فهذا هو الدين النافع ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في شأن عيسى وعزير وفي توحيد الله تعالى وغير ذلك: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ وقامت الحجة عليهم بما عندهم في التوراة والإنجيل وبعقولهم، ولكنهم اختلفوا من بعد ذلك ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ داخل في الحصر، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً، فقوله: ﴿بَغۡيَۢا﴾ داخل في المستثنى بـ(إلا) ويظهر من ذلك: أن سبب الخلاف السياسة وبغي بعضهم على بعض، فكانوا يخلقون الخلافات في الدين ليجعلوا المخالف مفسداً ويبرروا بذلك بغيهم عليه.

أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لأعماله ومقاديرها في القبح وقدر ما تستحقه من درجات العقاب فهو حساب سريع لا يغادر شيئاً لأن الله علام الغيوب، وهذا وعيد بجزائه بقدر جرائمه كلها، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام ـ يعنى القاسم بن محمد × ـ: دلت على قبح الاختلاف وأن مخالفة ما علم من الدين في الآيات كفر بآيات الله)) انتهى.

﴿٢٠﴾ ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي المذكورون من أهل الكتاب جادلوك بما يتخذونه حجة لهم على شركهم ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ فأخلصنا له العبادة وجعلنا وجوهنا له وحده لا نشرك به شيئاً في وجوهنا، فكيف تدّعون: أن الله لا يرضى منا ذلك ونحن أخلصنا له كما أمرنا، ولأنه الذي خلقنا ورزقنا، وكيف لا نكون نحن المهتدين للحق والصواب، وأيّ ذنب في ذلك وهو ربنا.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ وهم قريش ومن حولهم الذين ليس لهم كتاب: ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ كما أمر الله وبين الحجة الصحيحة على أنه الدين النافع فهل أسلمتم له وجوهكم كما أسلمنا له؟!! ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ لطريق الحق وقبلوا هدى الله لعباده ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن هذه الدعوة التي جاءت في صورة الاستفهام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ ليس عليك هداهم وقد بلغت ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ لأنه عليم بما يفعلون ومقاديره، وهو قادر على جزائهم بما يستحقون، وهو الحكيم فهو لا يَعْيَ عن جزائهم بما يستحقون بقدر ما يستحقون.

بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا

﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يقولون لا تدل على ما جعلها الله آية له ويجحدون كونها آية له ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ظلماً وعدواناً، وهذا يدل على أن الواقع من اليهود كذلك، وفيه إشارة إلى أن ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ عباد من عباد الله تجري عليهم أحكام العدالة كما تجري على غيرهم، فلو فرض أن قتلهم كان بحق كالقصاص ما ضر القاتلين كونهم أنبياء، وهذا لأنه لا يكون قتل النبيئين إلا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وعلى هذا فالواجب التسوية بين الشريف والدنيء في إقامة أحكام الله عليهم.

﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولعل أكثر ما يكون ذلك حرصاً على الرئاسة، لأن الجماهير تحب الأبرار الذين يأمرون بالقسط أي العدل من الناس فالرؤساء الظلمة يخافون أن يغيروا عليهم رئاستهم.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأن سعيهم المذكور هو في الواقع سعي للعذاب الأليم ومن سعى لأمر يبشر بحصول ما سعى له، فهذه عبارة عن إخبارهم بأنهم يصيرون إلى عذاب أليم، وتسمية هذا الإخبار المفجع بشارة مُشَاكَلَةٌ وتَمْلِيْحٌ، وفي هذا دلالة واضحة على أن الرضا بالظلم مشاركة فيه؛ لأن الذين في عهد رسول الله ص لم يباشروا قتل النبيئين فأمره ص بتبشيرهم بالنار لأجل قتلهم، إنما هو لمشاركتهم لأسلافهم بالرضا منهم بقتل النبيئين.

وكذلك قال الله في (قوم صالح): ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود:٦٥] والخطاب لقومه جملة والكلام فيهم جملة، مع أن القاتل للناقة واحد منهم بأمر طغاتهم.

لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا

﴿٢٢﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ أصل الحَبوطُ: حُبُوطُ الدابة من الغنم أو الإبل، تأكل مأكولاً كثيراً أو زرعاً صغاراً يضرها فتموت، فشبهت بها أعمال هؤلاء المذكورين من أهل الكتاب، فلعلهم كانوا يصلون ويصومون ويفعلون بعض أعمال البر، لكنها حابطة لا تفيدهم ثواباً لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لا ينصرهم من عذاب الله أحد من أتباعهم أو أهل دينهم، ولا من شركائهم مثل عزير والأحبار والرهبان الذين اتخذوهم ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١].

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب من قصتهم أنهم أهل كتاب ينتمون إليه وقد قرؤوا نصيباً منه وفهموه، ومع ذلك ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن تحكيم كتاب الله ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ يمتنع من الإجابة للتحاكم إلى كتاب الله ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن كتاب الله منشغلون بدنياهم من قبل ذلك، فحالهم مستمرة على الإعراض.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التولي والإعراض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ فكان قولهم هذا، أو اعتقادهم أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات سبباً لجرأتهم على التولي عن تحكيم كتاب الله والإعراض عنه،

رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن

﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الروايات المكذوبة على أنبيائهم أومَنْ قوله عندهم حجة.

والإنسان العاقل ليس من العادة أن يغترّ بما يفتريه هو، فليس المراد: أنهم يتعمدون الكذب على أنبيائهم ويغترون، هم الكاذبون أنفسهم بما افتروه على أنبيائهم لأنهم يعلمون أنه كذب افتروه هم، فليس المراد إلا: أن بعضهم اغتر بما يفتريه البعض الآخر مما يوافق أهواءهم ويرضون به من أكاذيب يبنون عليها أمانيهم كقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

فدل ذلك: على أن الروايات التي لا يعلم صدقها لا يصح قبولها لمخالفة ما جاء في كتاب الله، وأن الواجب تحكيم كتاب الله، وأن اعتماد الروايات المفيدة للظن اغترار خلاف الصواب، وهذا لأن الإنسان لا يغتر إلا بما يظنه صدقاً، فتخصيص حكم الكتاب بها أو تبيين مجمل فيه أو اتباع متشابهه لأجل الروايات خطأ مبني على اغترار، وهذا في الوعيد واضح من نص الآيات وسياقها.

﴿٢٥﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ يصنعون إذا انكشف لهم اغترارهم ووضح الحق وقد أحضروا لموقف الحساب والجزاء الكامل حيث توفى ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ كما وعد الله، وخلق له السموات والأرض، وجعل القيامة والجزاء، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ * لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥١] فالجزاء الأوفى دستور الملك الذي بني عليه خلق السموات والأرض.

هذا والتعجيب من أهل الكتاب ـ فيما أرى والله أعلم ـ ليس في مجرد توليهم عن كتاب الله وإعراضهم من حيث توليهم عن الحق وإعراضهم عنه فليس ذلك عجيباً منهم، ولا في توليهم عنه وإعراضهم عنه مع كونه كتابهم الذي ينتمون إليه فهذا ليس عجيباً لأن حب الدنيا يميل بالناس، ولا في اغترارهم بما يرويه أسلافهم لأن كثيراً من الناس يغترون بما يظنون صدقه.

وإنما العجيب هو اعتلالهم وتسهيلهم لميلهم وتسويفهم لرفضهم كتاب الله بما هو حقيق أن يكون زاجراً لهم عن ذلك؛ لأن بقاءهم في جهنم أياماً معدودات ليس بالأمر السهل؛ لأن الساعة الواحدة بل الدقيقة الواحدة تنسيهم لذات الدنيا كلها، ولا يعادلها ملك الدنيا كله لو نالوه ودام لهم حتى قامت القيامة، كيف وهي ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:٦-٧] وصاحبها ﴿يَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧].

تأمل قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ لتفهم أن كل جزء من الإنسان فيه من الألم ما هو سبب للموت لو كان يموت لكنه لا يموت، فما أعجب هؤلاء المغترين يستعدون للبقاء فيها أياماً من أجل أغراض هذه الدنيا الحقيرة التي هي ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ وهي لا تبقى لهم ولا يبقون لها.

تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ﴾ يا محمد لتبين لهم أن الأمر لله وحده ﴿ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فبيّن لأهل الكتاب وغيرهم أنهم لا يستطيعون من ذلك شيئاً وأن الأمر لله وحده، وهو الغالب على أمره، فلا يستطيعون إبطال نبوة محمد ورسالته ص، ولا رد نقل الملك في محمد وآل محمد عن بني إسرائيل وإعزاز رسول الله ص وإذلال حساده الذين حاولوا إبطال أمره: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير هذه الآية: ((قال الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش × : فإن مراد الله سبحانه بهذا: أنه يعطى النبوة من اصطفاه، ومعنى اصطفاه: اختاره على علم منه بقيامه بأمره وطهارته وإخلاصه له في الدين، فحكم سبحانه لأنبيائه بالملك وجعله لهم، وقد حكم ـ أيضاً ـ لغير الأنبياء من الأئمة الملوك الذين أخذوا الملك من جهة الطاعة له مثل طالوت وذي القرنين فمن دونهما، فإنهما لم يكونا نبيين وكانا بقيامهما بأمر الله وطاعتهما إياه مستحقين للملك، فأما من تغلب بالكفر والمعاصي لله على الناس فلم يعطهم الله ذلك الذي تغلبوا عليه.

وقوله: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ فذلك تسليطه الأنبياء والمرسلين على من تغلّب بالناس، فملكوهم حتى انتزعوا الملك منهم بأمر الله وحكمه، وذلك في مثل كسرى وغيره، أو بموتهم فإنه إذا أماتهم فقد انتزع منهم ملكهم في كل شيء)) انتهى.

قلت: ويدل على هذا التفسير ما مر في (قصّة طالوت) ففيها: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٤٧] فدل ذلك على أن إيتاءه الملك: توليته عليهم.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام الهادي: والملك: هو جبايات الدنيا وأموالها، والذين يشاء أن يؤتيها إياهم، فهم الأنبياء، ثم الأئمة من بعدهم، والذين يشاء أن ينزعه عنهم، فهم أعداؤه من جبابرة أرضه، ومعنى ﴿تُؤْتِي﴾ فهو الحكم بالملك لهم صلوات الله عليهم [فمن] حكم له بالنبوة أو بالإمامة فقد آتاه الملك، لأن الملك هو الأمر والنهي والجبايات والأموال التي بها قوام العساكر واتخاذ الخيل والرجال والسلاح)) انتهى.

فأما إعزاز من يشاء، فالراجح: أن معناه نصر أوليائه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فبالنصر ذهبت الذلة وصاروا في عزة، وإذلال من يشاء، مثل: إذلال كفرة أهل الكتاب، حيث صاروا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وحين أخرجهم من ديارهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر:٢] فالإعزاز: بالحكم، والنصر، والإذلال: بالحكم، والقهر.

ويؤكد هذا التفسير قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ فإيتاء الملك الذي هو خير إيتاء أولياء الله الذين هم ولاة العدل والإحسان، فالملك خير لهم بما ينالون به من ثواب عناء القيام بمصالح الناس، ودفع الفساد، والجهاد في سبيل الله، وخير لرعاياهم بدفع التظالم بينهم، ونشر العلم النافع، والإرشاد وصلاح الدين والدنيا، بخلاف تمكين الجبابرة فليس خيراً لهم ولا لرعاياهم؛ لأنهم يفسدون في الأرض، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس،

ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي

وذلك سبب لشيوع الباطل، وخمول الحق ونزع البركات، وظلم الضعيف، وتضييع أحكام الله وكل ذلك سبب لعذاب الآخرة للملوك وأعوانهم ومن أفسدوه من رعاياهم؛ ومثل المعنى هذا في إيتاء الملك يأتي في نزع الملك والإعزاز والإذلال.

فظهر: أن قوله تعالى: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ يؤكد ما ذكرنا من التفسير، وأن كل ما ذكر نعمة ورحمة من الله الذي هو على كل شيء قدير، فهو يقلب الأحوال ويأتي باليسر بعد العسر بقدرته، وقد أتبع هذه الآية الدليل على قدرته على تقليب الأحوال، فقال تعالى:

﴿٢٧﴾ ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فبينا ترى النهار مبصراً في الآفاق كلها قبيل غروب الشمس، ترى الليل مقبلاً بسواده من المشرق يتخلل سواده ضوء النهار طالعاً في أفق المشرق حين غروب الشمس، ثم ينتشر سواد الليل حتى يعم الآفاق التي تراها، وهكذا في آخر الليل يكون الظلام في كل أفق، ففي السحر تطلع نخلة الفجر ثم نور الفجر متخللاً سواد الليل وذلك بقدرة القادر على تقليب الأحوال؛ وهذا في تفسير ﴿تُولِجُ﴾ أظهر عندي.

وقد فسر: بإدخال بعض وقت الليل في النهار، وإدخال بعض الليل أي بعض وقته في النهار، وذلك اختلاف الليل والنهار في الطول والقصر في الشتاء والصيف ـ والله أعلم.

شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كإخراج الشجر الحي من الحب والنوى الميت، كما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام:٩٥] فقد يموت الحمل في بطن أمه فيخرج ميتاً بقدرة الله تعالى.

﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ رزقاً تفضلاً محضاً لا يحاسب فيه المرزوق لأن الحساب إنما يكون في القرض وما في معناه أما رزق الله لعبده فليس كذلك، فهو يرزقه طفلاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، ولا يمنعه قلة شكره عن رزقه، بل يرزق الكافرين والغافلين عن نعمه اللاهين عن ذكرها، وإن طالت مدة الرزق وطالت معه مدة الكفران، وإنما يحاسب العبد على أعماله ليجزى بما يستحق من ثواب أو عقاب ولا حساب على الرزق.

﴿٢٨﴾ ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا نهى عن طريقة المنافقين الذين يتخذون ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهي الموالاة الشَّنِيعَة لأن معناها: أنهم جعلوا الكافرين أخصّ بهم وعلاقتهم بهم أقوى وأدخل، فكأنهم جعلوا الكافرين في مكان أقرب إليهم يليهم والمؤمنين أبعد خلف الكافرين.

والحاصل: أنهم جعلوا الكافرين بينهم وبين المؤمنين، وهذا معنى ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لأنهم جعلوا لأنفسهم علاقة بالكافرين وعلاقة بالمؤمنين والواقع صورة علاقة بالمؤمنين، وقد نهى الله عن هذه الطريقة وشدد فيها؛ فقال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ فهو عدو لله ليس له بالله أي صلة.

وفي (سورة النساء): ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٤-١٤٥] وفائدة التأكيد في التحذير ظاهرة؛ لأن الدواعي كانت تتوفر إلى النفاق؛ لأن المسلمين كانوا قليلاً بالنظر إلى الكفار فمن لا يكون راسخ الإيمان يطمع في الاتصال بهم ليأمن على نفسه حين تنقلب الحال على ما يتوقع من سقوط دولة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة:٥٢].

فإن **قيل**: فإن موالاة الكفار حرام على كل حال، فما فائدة التقييد بقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؟!

قلت: فائدتها: التنبيه على أنه لا يمكن الجمع بين اتخاذ الكافرين أولياء والمؤمنين أولياء؛ لتضاد الطريقتين، لأن من كان مع الكافرين في شؤونهم المهمة فليس مع المؤمنين، وفي ذلك فائدة: تحديد المنهي عنه وتوضيحه؛ لئلا يتوهم منه تحريم الإحسان إلى من لم يقاتل المسلمين والعدل في معاملتهم، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

وكذلك التنبيه على أنها لا تحرم مصانعتهم لضرورة التقية، كما استثناه تعالى فقال: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ لأنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩] والتحذير من توليهم باسم التقية والواقع النفاق أو إظهار الولاية لمن قد قاتل في الدين لغير ضرورة التقية.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾

فإن **قيل**: فكيف صح استثناء التقية من توليهم دون المؤمنين؟!

قلت: هو استثناء منقطع، وفائدته: التحقيق للرخصة فيما صورته توليهم دون المؤمنين للضرورة واتقاء القتل أو نحوه، وإطلاق التقية يدخل فيه التقية على النفس و على الولد وعلى كل من يشق على النفس مشقة عظيمة؛ فما يقال من أنه لا يجوز الكذب ولو كان فيه نجاة نبي من القتل مبالغة للتحذير من الكذب.

والأقرب: أنه يجوز، أو أنه معفوٌ عنه كالنطق بكلمة الكفر لنجاة من في قتله ضرر ومشقة عظمى من سائر المؤمنين فضلاً عن الأنبياء والأئمة بدلالة هذه الآية، لأن الاتقاء عليهم اتقاء على النفس لما يلحقها من الحزن عليهم والغيظ لقتلهم، فأما الأئمة الذين في قتلهم ذلة وهوان لأتباعهم فقتلهم أضر عليهم، فالاتقاء عليهم اتقاء على النفوس التي تذل وتظلم بسبب عدم من يدفع عنهم.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ قال المنصور بالله × في (حديقة الحكمة): ((و﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ المنتهى)) انتهى ﴿لِيَجۡزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ [إبراهيم:٥١].

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو يعلم من قلبه مريض ومن قلبه مطمئن بالإيمان وهو صادق حين يعتذر بالتقية وعلمه تَعَالَى محيط بـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو قادر على جزاء كل نفس بما عملت ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ أي يوم القيامة يوم الجزاء على العمل، ويحتمل: حضور العمل، أنه يسجل فيرَى ويسمع نفسه كما في التلفزيون والسينما، أو أن العمل نفسه يكون محفوظاً في شي إن كان هذا ممكناً في بعض الأعمال، كما روي في الذكر لله في جوف الليل ــ والله أعلم ـ فيحضر يوم القيامة عند عامله، أو أن حضور العمل حضور جزائه واعلامه أنه جزاؤه، أو أن العمل يجعل في صورة شخص يساعد العامل كما قيل ـ والله أعلم ـ والأقرب الأول.

قال الشرفي في (المصابيح): «واعلم أن العمل عرض لا يبقى ولا يمكن وجدانه يوم القيامة فلا بدّ فيه من التأويل، وهو من وجهين:

الأول: أنه يجد صحائف الأعمال، وهو كقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] وقال: ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

والثاني: أنه يجد جزاء الأعمال» انتهى المراد.

قلت: في هذا العصر ظهر التلفزيون والسينما وغيرهما من الوسائل، ورؤية ما فيه تعتبر رؤية لما هو صورته، وسماع ما فيه سماع لما سجل في إذاعته، فالناس يقولون: رأينا فلاناً في التلفزيون، وسمعنا فلاناً في التلفزيون، فلا يبعد مثل هذا في رؤية العمل وحضوره بحضور جهازه.

وقد كنت زماناً أجوّز هذا في نفسي وأرجحه قبل أن أجده لأحد من العلماء، ثم وجدت بعض علماء العصر قد سبقني إليه ـ والله أعلم ـ وهو أقرب المجاز الذي يفهم من الكلام لتعذر الحقيقة عند السامع إذا كان المراد حضور العمل في موقف السؤال والحساب.

وهو الأرجح في قوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١-١٤] وكقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار:١-٥] فالظاهر: أنه العمل محضر بحضور كتابه.

﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ تجده محضراً أي كل نفس تجد ما عملت من سوء محضراً، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف:٤٩] ويحتمل: أنه الجزاء في (آية الكهف).

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ فالظاهر: العطف، بدليل الحال الذي هو قوله تعالى: ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي تجده محضراً وهي تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً.

والأمد: المدة الطويلة، بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ [الجن:٢٥] أي أجلاً بعيداً غير قريب، فقوله تعالى: ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ معناه: أجل بعيد بعيد.

ومجيء الحال من المعطوف وارد في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل:٤٩-٥٠] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور:٤١].

وهذا المعنى أرجح لإفادة حضور العمل السيء بطريقة النص، وإذا جعلنا قوله تعالى: ﴿مَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ﴾ مبتدأ و﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ خبراً لم يكن نصاً على حضوره، والتنصيص على حضوره مما يقتضيه السياق فهو أرجح.

قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾ لحكمته ورحمته ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ومن رأفته التحذير من عذابه وتكثير الآيات الدالة عليه، وتكرار المواعظ دعوة إلى التوبة والنجاة من عذابه، مع أنه غني عنهم ولا يضره تعذيبهم.

٣١ ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للنصارى المُدَّعِين لحب الله ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ كما تدعون فمن شأن المحب أن يكون راغباً في أن يحبه محبوبه ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ فإنكم إن اتبعتموني أحبكم الله ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ من الشرك وغيره لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، وإتباع الرسول في كل دينه يمحو الذنوب كلها؛ لأن من دينه التوبة إلى الله، والطاعة في كل شيء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فتعرضوا لمغفرته ورحمته باتباع رسوله.

٣٢ ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ﴾ فأسلموا له وامتثلوا أمره باتباع الرسول وطاعته فهذا هو المقصود باتباعه ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فما داموا كافرين متولين عن دعوة الرسول ص فإن الله لا يحبهم لكونهم كافرين؛ وفائدة التعليق على الكفر: أن لا يتوهم أنه لا يحب الأشخاص لذاتهم أو أنه قد كره ذواتهم كما يكره الإنسان من قد أساء إليه في الماضي إساءة موجعة بقي أثرها في نفسه، سبحان الله الحكيم الكريم الذي ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] بل متى تابوا واتبعوا الرسول غفر لهم ورضي عنهم، وصار الماضي منهم كأن لم يكن.

عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ من البشر، فهو صفوة الله أكمله وهداه، واصطفاه على بنيه الأولين الذين في عهده وأكثر الآخرين ﴿وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقد دخل محمد وعلي وذريتهما في ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ لأنه من ذريّة إبراهيم.

وقوله تعالى: ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يظهر أن مثل هذا يستعمل فيعم المضاف إليه، كما مر من قوله تعالى: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة:٢٤٨] بالتغليب، وهذا إذا لم يقدم ذكره وحده كالصلاة عليه وعلى آله، ومثل: ((إن الصدقة لا تحل لمحمد، ولا لآل محمد)) فهذا خاص لا يعم المضاف إليه.

أما إذا ذكر في الإضافة فقط كما هنا، وكما في قوله تعالى:﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] فالراجح: أنه عام، ومنه: قول زيد بن أرقم وهو عربي اللسان في (تفسير أهل البيت): ((آل علي، وآل جعفر، وآل العباس، وآل عقيل)) يعني: علياً وذريته، وجعفر وذريته، والعباس وذريته، وعقيلاً وذريته، ويظهر أن منه: قول الله تعالى في (سورة الحجر): ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [آية:٥٨-٥٩] وقوله تعالى بعدها: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [آية:٦١-٦٢].

ويؤكد أن المراد بـ﴿ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم وذريته، وكذلك ﴿ءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ على طريقة التغليب قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا بد أن إبراهيم وعمران قد دخلا في الاصطفاء، لئلا يؤدي إلى أن الله اصطفى المذكورين على إبراهيم وعمران إذا كانا داخلين في عموم العالمين.

والآل: هم الذرية الذين اصطفاهم الله لحمل رسالته وجعل فيهم النبوة والكتاب، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٥٤] فهم ورثة العلم، ومنهم الأنبياء، ومنهم ورثة الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦].

و﴿ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ هي ذرية إبراهيم، لهم فضل النسبين، كما قال في (بني إسرائيل): ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء:٣] فقد ظهر معنى الإصطفاء وأنه لذرية إبراهيم وعمران، وأنها قدمت هذه الآية تمهيداً لقصة مريم بنت عمران وابنها عيسى عليهما السلام.

﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال في (الكشاف): ((﴿ذُرِّيَّةً﴾ بدل من آل إبراهيم وآل عمران)) انتهى، ولا إشكال أنه تفسير لآل إبراهيم وآل عمران، ومدح للأبناء بمشابهة الآباء في الجملة على اختلاف درجات المشابهة.

وقوله: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ لتحقيق هذه المشابهة، وأن أساسها هو النسب وذلك من فضل الله على الآباء والأبناء، كما قال تعالى في (سورة الأنعام) بعد ذكر الهدى لعدد من الأنبياء، فعطف عليهم: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آية:٨٧].

ولعل هذا بسبب دعاء الآباء لأبنائهم، كما قال تعالى حاكياً عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

وحكى سبحانه عن زكريا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وهذا الاصطفاء بالنسبة إلى بقية الناس لجملة الذرية أن فيهم الكتاب والحكمة وهداية الناس، وليس لكل شخص كما هو واضح، وقد قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦] ولكن وجود الفاسقين وحتى المشركين لا يبطل هذا الاصطفاء لغيرهم من الذرية ـ وبالله التوفيق.

وقد رجحت تفسير قوله تعالى: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ بما ذكرت، وحاصله: أن قوله تعالى: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ كناية عن التشابة بين الفروع والأصول، كما يتشابهون في الصور وغيرها، رجحته على جعله مجازاً على تفسير بعضهم لقوله تعالى: ﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أنه مجرد المشابهة في الدين، وإنما رجحته لمناسبة السياق وكونه أقوى.

وهذا دليل كاف على التفاضل، وليس لأحد أن يعترض على الله في ذلك، والعنصرية الممقوتة تكون باعتبارات، مثل: المال، اللون، أو غير ذلك مما ليس له أساس في التشريع.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فاصطفاؤه لمن اصطفاه لعلمه بأنه خير من غيره واصلح لحمل الرسالة، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] وقوله: ﴿سَمِيعٌ﴾ لعله يشير إلى سبب الإصطفاء الذي هو الدعاء، كدعاء امرأة عمران لبنتها مريم وذريتها.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿نَذَرْتُ﴾ أي أوجبت ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾

تعنى حملها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) لقولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾ ((معناه: خالص دائم، لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، والمحرر: المعتق)) انتهى

قال سيد قطب في (تفسيره): ((والتعبير عن الخلوص المطلق بأنه تحرر مُوحٍ فما يتحرر حقاً إلا من يخلص لله كله ويفر إلى الله بجملته وينجو من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل قيمة، فلا تكون عبوديته إلا لله وحده، فهذا هو التحرر)) انتهى المراد.

قال الشرفي: ((والتقبل: أخذ الشيء على وجه الرضى به)) انتهى. وقوله: ((أخذ الشيء)) أي ما جُعِل للآخذ.

﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل قول، ومنه نذرها بما في بطنها ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، ومنه نيتها وقصدها بالنذر.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ قولها: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ كالشكوى إلى الله، والتأسف لفوات الغرض المقصود بالنذر، لكون الأنثى لا تصلح له، أو الشكوى من نقص الغرض لأن الأنثى لا تقوم بما يقوم به الذكر من الخدمة ليلاً ونهاراً، وعلى اختلاف الأحوال.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ يشير إلى أنه تعالى يعلم من حال مريم وكمالها وما قد أعدّها له ما لو علمته لم تأسف لكونها أنثى. وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ يحتمل: أنه حكاية عنها، وأرادت أن الذكر لا يحتاج إلى مثل ما تحتاج الأنثى من التستر واجتناب المزاحمة في المسجد، واجتناب دخوله حين يخشى الخلوة بأجنبي، واجتناب الذهاب لحاجات المسجد من أي موضع، فالذكر ليس كالأنثى في ذلك، فلذلك أسفت لكونها أنثى رغبة منها في خادم منها يخدم المسجد مثلاً.

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً

ويحتمل: أنه من كلام الله تعالى وليس حكاية عنها، فيكون معناه: وليس الذكر الذي ظنته أصلح للغرض المقصود بالنذر، ليس كالأنثى التي وضعتها بل هي أفضل؛ لما فيها من المصلحة العظمى، والنفع في الدين، وإن لم يكن ذلك بخدمة المسجد.

وقولها: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ قيل: أصل (مريم) في لغتهم: العابدة فسميت بذلك تفاؤلاً، وهو قريب من حيث مناسبته للسياق ولغرض أمها.

وقولها: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ دعاء لها بسبب الرغبة في صلاحها ولذريتها كذلك، وهكذا أهل الصلاح يحبون لذرياتهم الصلاح ويدعون لهم به.

﴿٣٧﴾ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ تقبلها من حيث هي نذر له، وهذا يدل على أن النذر لم يبطل بكونها أنثى؛ لأن النذر وقع عليها بقول أمها: ﴿مَا فِى بَطْنِى﴾ وقوله تعالى: ﴿رَبُّهَا﴾ يشير إلى أن التقبل رحمة لأمَتِه من حيث هو ربها ومالكها.

﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قبول أن تكون مختصة بعبادته، وهذا ﴿حَسَنٍ﴾ لأن نفعه لها وهو كرامة لها وشرف ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أنشأها نشأة حسنة بكمال البنية وجمالها، وإكمال طبائعها الكريمة من الحياء والميل إلى الأدب والعفة والخير.

طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ نبي الله، جعلها في عياله يحفظها ويرعاها، ولعل سبب الكفالة أن أمها توفيت فحضنتها أختها (امرأة زكريا) ولا نثق بما يروى في كتب التفسير مما لا نعلم مصدره وطريقه.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾ مكانها الذي تتعبد فيه، وقوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي من أين لك هذا؟! سؤال إما ليتأكد أنه جاء لها من الله بطريقة خارقة ليعرف بذلك كرامتها عند الله تعالى، وإما لعنايته بتفقد أحوالها، والأول أرجح.

وقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يفهم: أنه ليس من طريق أحد من البشر وإلا لكان الجواب غير مطابق للسؤال؛ لأن زكريا × يعلم أنه من الله وإنما بواسطة البشر، فليس السؤال عنه من هذه الجهة.

وقولها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ تنبيه على أن الله رزقها؛ لأنه شاء ذلك كما يشاء رزق غيرها، وفيه تغافل حسن عن كونه كرامة لها.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى المكان الذي سألها فيه،

وهو يشير إلى أن زكريا لما رأى صلاحها دعا ربه الذي أنبتها نباتاً حسناً وجعلها من الصالحين أن يهب له ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ والطيبة: ضد الخبيثة، ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تجيب الدعاء، أو لا يخفى عليك دعائي، أي دعوتك لأنك سميع الدعاء وأرجوك الإجابة.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ النداء في اللغة: قول رفيع، يسمع من بعيد كالنداء للصلاة، والمراد بـ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الذين أرسلهم الله إلى زكريا لتبليغه البشارة، والوعد من الله تعالى وتبليغهم كلام الله ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي﴾ لا يشغله عن الصلاة كسماع القرآن، لأنه في سماعه لكلام الله متّجه إليه.

﴿بِيَحْيَىٰ﴾ بولد سماه الله يحيى ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كلمة مبهمة يكون التصديق بها واجباً وفضيلة ليحيى، والكلمة (عيسى) الذي خلقه بدون أب، كقوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١] ولعله سمي (كلمة) لأن الله وعدها به وكان كما وعدها، أو لأن الله أوجده بقوله: ﴿كُنْ﴾ لا بواسطة أب، فتسمية ذلك كلمة مجاز في الأصل، ولعل هذا معنى ما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن الإمام الهادي × ، وصار حقيقة في عيسى.

﴿وَسَيِّدًا﴾ معطوفاً على ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ أي يسود قومه، وفي ذلك تطمين له من خوفه من الموالي بأن ابنه يسودهم فلا يكون لهم أمر ما دام ﴿وَحَصُورًا﴾ معطوف كذلك على﴿مُصَدِّقًۢا﴾ فهو من صفات يحيى، ﴿وَحَصُورًا﴾ كثير الحصر لنفسه عن هواها، ولعل من ذلك الرهبانية يرعاها حق رعايتها.

قال الشرفي في (المصابيح): قال الإمام المرتضى × : ﴿وَحَصُورًا﴾ وهو الذي حصر نفسه عن النساء، فكان ـ صلى الله عليه ـ هو الذي حصر نفسه عن ذلك [و] قد يُروَى عن رسول الله ص: ((لا حصر بعد يحيى، ولا سياحة بعد عيسى، من رغب عن سنتي فليس مني، عليكم بالمساجد)). انتهى

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطف على ﴿مُصَدِّقًۢا﴾ وفي ذلك بشارة لزكريا بابنه يحيى جامعاً للصفات المذكورة قبل موت زكريا.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ سؤال عن طريقة حصول الولد؛ لأنه لم يكن قد علم بالطريقة، وليس معنى السؤال الاستبعاد، بل هو يجوّز أن يحصل له بطريقة عادية، أما من جهة كبره فباستعمال شيء يعيد له الماء والقدرة مثلاً، وأما من جهة امرأته فكذلك أو بأن يأمره يتزوج فتاه؛ أو هذا السؤال لتأكد أن الولد يحصل له بطريقة خارقة كقوله لمريم: ﴿أَنَّى لَكِ هَٰذَا﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فهو يجعل لك ولداً على كبر سنك، ومع كون امرأتك عاقراً؛ لأنه الله الذي يفعل ما يشاء، والعاقر: هي التي لا تحمل.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ تدلني على ذلك، وفيه وجهان: أحدهما: السؤال عن وقت ذلك ليأتي أهله فيه؛ لأنه لا يريد أن يأتيها إلا لهذا الغرض لكبَره وضعفه، فجعل له آية ثلاثة أيام ليأتي أهله فيها، وهذا هو الراجح لقوله تعالى في (سورة مريم): ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ [آية:١١] فظاهره: أن حبس لسانه كان من ذلك الوقت لا حين علقت زوجته، والوجه الثاني: تدلني على أن قد علقت به.

ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ إلى المعنى، والمراد: يرمز إليه فيفهم بدون كلام يفيده بوضعه، كأن ينطق بكلمة تشير إلى المقصود ولا تكفي في الدلالة الوضعية، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: إشارة باللسان من غير بيان)) انتهى.

وهذا يناسب استثناءه من التكلم وإن كان منقطعاً، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم:١٠].

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ في الثلاثة الأيام وبعدها، أو في الثلاثة الأيام؛ بقرينة العطف، وما سواها مسكوت عنه؛ والعشي: من الظهر إلى الغروب ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ دخوله في البكرة التي هي من طلوع الفجر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) لقول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤٢]: ((معناه: صلوا له، والبكرة: صلاة الفجر، والأصيل: صلاة العصر)) انتهى.

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أمر بتسبيح زائد على المأمور به من قبل إجابة دعوته المذكورة، وهو الأقرب إذا كانت الصلاتان واجبتين عليهم بتسبيحهما من قبل.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ أي واذكر إذ ﴿قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ اختارك صفوة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من المعاصي.

إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اختارك على نساء العالمين صفوة لدينه، فأجمل الاصطفاء أولاً، ثم بينّ أنه الاصطفاء على نساء العالمين كافة؛ لأنها أصلحهن لما أراده من إظهار دينه بواسطتها وجعلها أم رسوله عيسى، وجعلها وابنها آية للعالمين، بحملها لأبنها من غير أب، البلوى التي لا تتحملها وتمتثل أمر الله فيها إلا هي بحيث أتت به قومها تحمله واثقة بالله متوكلة عليه، فهو تعالى اصطفاها لأمر عظيم، وتكليف ثقيل لا يصلح له غيرها.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ﴿ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ اخضعي له، وتذللي له بالعبادة وفي العبادة ﴿وَٱسْجُدِى﴾ له ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ وصلي مع المصلين لتركعي معهم، فهو كناية عن الصلاة مع الجماعة،وقد كانت النساء يصلين مع الجماعة خلف صفوف الرجال في وقت رسول الله ص، فتفسير الآية بمثل ذلك أقرب، وأمر الملائكة لها أمر بشكر النعمة، والإستعداد لتحمل التكليف الثقيل.

﴿٤٤-٤٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر في (آل إبراهيم) و (آل عمران) من قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ...﴾ الآية؛ وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ تنبيه على الدليل على أنه تعالى يوحيه إلى نبيه محمد ص المخاطب بهذه الآية الكريمة لاخباره بما لا يعلم، لولا أن الله يوحيه إليه؛ لأنه لم يتعلم عند أهل الكتاب، ولم يقرأ كتاباً، ولم يستطع قراءة مخطوط، لأنه لم يخط كتاباً.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ أي يقترعون قرعة بإلقاء أقلامهم، ولا ندري كيف كانت قرعتهم بإلقاء أقلامهم وأنه إلقاء في الماء كما يُروى أو في غير ماء، وليس المهم معرفة كيف كانت القرعة ولذلك لم يذكر، إنما المهم الدلالة على كرامتها في أهل بيتها أو من لهم بها علاقة تؤدي إلى المنافسة في كفالتها مع المتنافسين، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي يتخاصمون، أي يتشاجرون في هذا الشأن الذي هو كفالة مريم.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ قد انتهى الكلام قبل هذه الآية في (قصة مريم ‘) من حين كانت حملاً مما يفيد: صلاح أمها وهي حامل بها، ويفيد: صلاح أمها حين وضعتها، ويفيد: حسن تربية مريم ونشأتها في كفالة نبي الله زكريا، ونشأتها على الطهارة والعبادة، ومالها من الكرامة عند الله بما دل عليه كلام الملائكة لها، وبالرزق من عند الله وغير ذلك، وهذه الآية تبدأ الكلام في (قصة حملها عيسى ×) من حين بشرت به.

وقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ يفيدها: أن هذا الولد يوجد بكلمة من الله، فهو تقدمة لإفادتها أنه يوجد بدون أب، وإكمالاً للبشرى أخبرت باسمه ورسالته وما يعلمه الله من العلوم الواسعة، وما يجعل له من الآيات العظيمة عقيب ولادته، وعند رسالته ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

و﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ لقب له × تلقته العرب باشتهاره، ولعل العرب لا تعرف أصل معناه في العبرانية، ولا أن أصله في لغة قومه مشيحاً، فلا يلزم تفسير المسيح إلا بأنه لقب لعيسى × .

قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ

وقوله: ﴿عِيسَى﴾ هو العَلَمُ، وقوله: ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ عطف بيان يشير إلى أنه ينسب إلى أمه ولا ينسب إلى أب قريب، والوجيه: الذي له شرف وقدر رفيع وذلك بما جعل الله له من أسباب الشرف وعلو الشأن، وما هداه له من كمال التقوى والعلم والعمل والزهد الكامل الذي يضرب به المثل، والورع والحكمة وغير ذلك، فهو وجيه في الدنيا عند الله وعند الناس، وجيه عند الله بحيث يجيب دعوته وينصره على أعدائه ويختاره للرسالة، ووجيه عند الناس لأن له جلالة في النفوس وشرفاً وهو وجيه في الآخرة عند الله له ما يشاء عنده.

﴿وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ في الدنيا والآخرة فهو مكرم معظم محبوب عند الله مرضي عنه ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿ٱلۡمَهۡدِ﴾ ما يمهد للصبي من الفراش والمضجع، فالمعنى: أنه يكلم الناس في صغره وهو في المهد لم يبلغ وقت التكلم في العادة، وفي إسناد التكليم إلى الناس هذا التكليم الخارق، إشارة وإطماع لها أنه سيكلم الناس بما ينزهها ويدل على طهارتها.

والكهل: ابن الأربعين فما فوق، ولعل ذكر الكهولة لإفادة أنه يعيش معها حتى يكون كهلاً، وأن قوله: ﴿يُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ﴾ ليس لتخصيص الكلام بالمهد، ووصفه بالصلاح لأنه أساس الخير كله، وسبب الوجاهة والتقريب، وبشرى لها لرغبتها في صلاحه.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ جعلت جوابها للملائكة موجهاً إلى الله علام العيوب ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ من أين يكون؟!

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ يكون لك ولد من دون أن يمسك بشر بقدرة الله الذي ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فقوله: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ﴾ بمعنى: يخلق ولداً من غير أب؛ لأنه على كل شيء قدير، وفسره بقوله: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فهو تعريف بالله من حيث دلالته على أنه على كل شيء قدير.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿قَضَىٰٓ﴾ يختلف معناه باختلاف سياق الكلام، وقد فسر هنا بالإرادة، والأقرب: أنه يشير إلى معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١] وأن الأمر المقضي: هو المحتوم الذي لا بد من وقوعه لأن الحكمة تقتضيه، فالمعنى: إذا حتم أمراً وأوجب أن يقع ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي لا يعسر عليه إيجاده، بل كأنه في إيجاده له إنما يأمره أن يكون، وعند ذلك يكون.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إما مصدر بمعنى يعلمه الكتابة، وإما بمعنى الكتب ﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ من عطف الخاص على العام، وهذا أظهر، فمعناه: أنه يعلمه الكتب النافعة من كتب الله وكتب العلماء الأولين.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ علم وصلاح ورجاحة عقل، وحسن رأي وتدبير، بحيث يضع الأمور مواضعها اللائقة بها، ويدل على الخير وما يكون أحسن عاقبة ويحذر مما تكون عاقبته شراً بمعرفته لعواقب كثير من الأمور التي تستفاد بالتجربة وحسن النظر والوحي.

﴿وَٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ كتاب الله الذي أنزله على موسى بقي حكمه في وقت عيسى × لم ينسخه (الإنجيل) إلا بعض الأحكام.

جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ

﴿٤٩-٥١﴾ ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عطف على ﴿وَجِيهًا﴾ وأُخّر ليتصل به الكلام في الرسالة ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لعل رسولاً إلى بني إسرائيل ضُمِّن معنى مكلماً لبني إسرائيل؛ لأنه أرسل إليهم ليكلمهم بهذا الكلام إلى آخره الذي يأتي.

﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ أي شيئاً ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ في (لسان العرب): ((الهيئة: صورة الشيء وشكله وحالته)) انتهى.

﴿فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِرَاً بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الذي جعل ذلك النفخ سبباً لحياته، كما جعل حضانة الدجاجة للبيضة سبباً لحياة الفرخ فيها.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأعمى الذي لم يكن بصيراً فعمي بعد إبصار ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ المصاب بالبرص، وهو: بياض شديد في الجلد يصير به الجلد خشناً، وإبرائه: إزالة العمى والبرص بالتسبيب كالدعاء.

وقولـــه: ﴿وَأُحِيٓ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ كـــالأول ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ أخبركم بهذه المغيبات عنى، وظاهره: الاستقبال؛ لأنه لو كان المراد الماضي لقيل: بما أكلتم وما ادخرتم، ولأن دلالته على الوحي من الله علام الغيوب أوضح، وقد يجاب عن الاستقبال: بأنه لا يلزم أن يكون مستقبلاً إلا في حال قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ﴾ لا في حال إنبائه لهم بذلك على التفصيل، فيصح أن ينبئهم في الحال أي في حال أكلهم وادخارهم وقبله وبعده، مع أن ذلك كله مستقبل بالنسبة إلى حال قول عيسى × : ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (آية) أي دليلاً على صدقي في قولي: إني رسول الله جئتكم بآية من ربكم. وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بها دليلاً عن صدقي، فإن كنتم مؤمنين إذا جاءتكم آية فما جئتكم به آية لكم، والمعنى: أنها تكفي من كان شأنه الإيمان؛ لأنه منصف يريد الحق، ولا يجحد بها إلا الظالم المتمرد في الباطل.

﴿وَمُصَدِّقٗا﴾ أي جئتكم بآية من ربكم وجئتكم مصدقاً لما بين يدي فلا عذر لكم في أن تكفروا بي لتصديقكم بالتوراة ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ ﴿بَيۡنَ يَدَيَّ﴾ قدّامي، أي جاء من قبلي.

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ رحمة من الله أحل لكم في ديني بعض الذي حرم عليكم عقوبة لكم بظلمكم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء:١٦٠] فكان تحليلها في دين عيسى × نسخاً لذلك التحريم أو بعضه، و هو رحمة لمن آمن بعيسى منهم.

إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ

﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ﴾ فقد وجب عليكم الإيمان بي؛ لأنها آية من ربكم الذي تجب عليكم طاعته، افتتح خطابه: بأنه قد جاءهم بآية من ربهم، واختتم احتجاجه بذلك لأن ذلك هو موجب الإيمان به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ فالحكم له فينا ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ بامتثال أمره؛ لأنكم عباده، ولا تطيعوا غيره أو تتعصبوا لغيره من الرهبان أو الأحبار الذين يصدون عن سبيل الله، لأنكم عباد الله وحده، وهو ربكم وحده لا شريك له ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ طريق قيّم لا عوج فيه، واضح لا خفاء فيه، وهو أن تعبدوا الله، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

كان هذا الكلام حكاية لمريم ‘ من عند الله تعالى عالم ما سيكون، ولما كان وعده صدقاً لا يتخلف كان ذكره كافياً عن ذكر وقوع ما وعد به، فقد خلق الله عيسى × كما وعد وكان من أمره ما ذكر، وقال لقومه ما حكى الله.

﴿٥٢-٥٣﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (الإحساس): إدراك المحسوس بإحدى الحواس الخمس: (السمع، والبصر، واللمس، والشم، والذوق) فالمقصود: أن عيسى × سمع منهم الكفر وتيقنه يقيناً كما هو شأن المحسوس، وفيه إشارة إلى تثبّته × ، وأنه لم يتسرع إلى قتالهم لظن أو خبر مخبر.

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ التمس لـه أنصاراً يدفعون الكفار وينصرون الله ورسوله، وهذا من إعداد القوة كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فليس للمؤمن أن يقعد عن نصر الإسلام والدفاع عنه بدعوى عدم الناصر، بل عليه أن يلتمس الأنصار.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي متوجهين إلى الله في توجهنا للجهاد؛ لأنا نجاهد في سبيله، ونسلم له أنفسنا التي اشتراها منا بالجنة و﴿إِلَى﴾ في هذا الموضع مثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء:١٠٠].

و﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ هم المؤمنون الخلص، الذين صدقوا الإيمان وصدّقوه بالجهاد في سبيل الله الذي هو مخبَر الإيمان، وقد صار الحواريون اسماً لهم خاصاً بهم، أعنى هؤلاء الذين أجابوا عيسى × .

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أجابوه كما طلب وكما يريد أن يجاهدوا لله، أي لنصر دينه لا لعيسى × ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الذي أوجب علينا نصرك فنحن ننصرك لأنا آمنا بالله، واشهد لنا يوم القيامة بأنا مسلمون أوجهنا لله مخلصون له ديننا، ويحتمل قولهم: ﴿وَٱشْهَدْ﴾ أي ونشهدك ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أعني أنه إنشاءٌ للإشهاد.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أجابوا عيسى × ، ولجأوا إلى ربهم متوسلين بإيمانهم واتباعهم الرسول أن يكتبهم مع الشاهدين الذين شهدوا شهادة الحق لله ولعبده ورسوله، أي فتقبل منا هذا، لأن كتابته لنا تدل على قبوله بخلاف شهادة المنافقين في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١] فهي غير مقبولة، ولا مكتوبة لهم في كتاب الأعمال الصالحة، والسياق يفيد إخلاصهم لله ونزاهتهم الكاملة عما صار إليه بعض النصارى، ولذلك توسلوا بإيمانهم واتباعهم الرسول لا بعيسى × وجاهدوا لله لا لعيسى × .

ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ

وقال: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وهذا هو الدين القويم، الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ وليس المراد أن التوسل بالأنبياء مذموم مطلقاً ولكن توسل من يعتقد لمن توسل به وجاهة عند الله معناها المشاركة لله تعالى في الملك، فأما من لا يرى للمتوسَّل به نفوذاً في ملك الله يخوله أن يتدخل بين الله وعباده ويكون ما تدخل له بل هو بريء من ذلك، فلا بأس إذا كان للتوسل معنى يسوغه، كما قدمت في تفسير: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦].

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ الضمير للذين أحس عيسى منهم الكفر ﴿مَكَرُواْ﴾ ليغلبوه ويبطلوا دينه ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ بهم عقوبة لهم ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ لأن مكره حق، لأنه لا يمكر إلا بمن يستحق، ولأن مكره يكون مع إقامة الحجة ليهلك من هلك عن بينة.

وفي (المصابيح): «قال الإمام المرتضى × : قد سئل جدي القاسم صلوات الله عليه عن هذه المسألة؟

فقال: أما مكر الله واستهزاؤه فهو استدارج الله وإملاؤه ومكر من كفر بالله ربه فإنما هو احتيال من الذين كذبوا وحيه واستهزاء..

إلى قوله: وإذا كان استهزاؤهم ومكرهم إنما هو إخفاءهم ما يخفون، وسترهم من أمرهم ما يسترون، فأمور الله أستر وأبطن وأخفى عنهم وأكَنُّ وذلك فقد يكون مكراً من الله بهم، واستهزاءً واختداعاً، فلذلك كان الله سبحانه خادعاً لمن خدعه لا مخادعاً ولا مخدوعاً، وكان قلب من خادعه سبحانه عن العلم بمكر الله مقفلاً مطبوعاً».

وكأن هذه الآية تذكر ما يأتي في قصة رفعه × ، وقد ذكر تعالى في (سورة الصف) ما يفيد ظاهره: أن عيسى × والحواريين جاهدوا وانتصروا، فالقصة في (آل عمران) فيها اختصار؛ لأن سياقها في الرد على المشركين بعيسى، والذي في (سورة الصف) في الحث على الجهاد.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قوله: ﴿إِذْ﴾ هو ظرف إذا كان متعلقاً بمكر الله، وأما إن كان التقدير واذكر إذ قال الله فهو مفعول به.

وقوله تعالى: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي من رجسهم، فلا ينالونك بقتل ولا أسر ولا يسمعونك كلامهم الفاحش.

﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ في الماضي قبل هذا القول وهم ﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾ الذين قالوا: ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ومن كان قد تبعهم بإحسان إن كان أحد قد تبعهم، وجعله تعالى لهم ﴿فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ نصرهم أولاً، كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف:١٤].

ومعنى ﴿ظَاهِرِينَ﴾ عالين عليهم غالبين، فأما بعد موتهم، فبقاء العزة لطريقتهم ودينهم إلى يوم القيامة، بحيث يكون ذكرهم بالصلاح والهدى، وأنهم كانوا أهل الحق في الأجيال متوارثاً في النصارى والمسلمين، بخلاف الذين كفروا، فكانوا فوقهم أحياء وأمواتاً ـ والله أعلم.

كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا

وهذا لا ينافي اختلاف النصارى فيما كان الحواريون عليه إذا كان الغالب بينهم والأكثر أو الإجماع أنهم كانوا على الحق، وإنما اختلفوا في الحق الذي كانوا عليه فقد بقي نصرهم وعلوّ شأنهم وبقيت ذلة أعدائهم؛ لكون أتباعهم مقهورين إلى يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ هذا من كلام الله تعالى لعبده ورسوله عيسى × ﴿ثُمَّ إِلَيَّ﴾ إلى الله ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أنت ومن اتبعك من جانب والذين كفروا بك من جانب ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ﴾ في الماضي قبل هذا الكلام أو في الماضي قبل رجوعكم إليّ ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ فبيّن: أن الحكم له، وأن الملك يوم القيامة له وحده، وأن مرجع المختلفين إليه وحده؛ لأنه ربهم وحده لا شريك له.

﴿٥٦﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ وهذا فيه فائدتان:

الأولى: أنه قد بشر عيسى × بتفوق الحواريين إلى يوم القيامة، وفي هذه الآية الكريمة بين حال الذين كفروا، فأفاد بيان حال الذين كفروا بعيسى، وأنه يعذبهم عذاباً عاجلاً ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ولعله كان بتسليط أعدائهم عليهم وضرب الذلة عليهم والمسكنة وما صاحب ذلك من العذاب، ويحتمل أنه تعالى عذب الذين كفروا بعيسى ـ وأَصْل الكلام فيهم ـ بعذاب عاجل من عنده أو بأيدي أعدائه لا ندري ما نوعه.

يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن

والثانية: عذاب ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فهو ظاهر.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فلن ينقذهم من عذاب الله عزير ولا غيره.

﴿٥٧﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يحتمل العموم للحواريين ومن قبلهم ومن بعدهم في كل زمان، ودخل الحواريون فيه دخولاً أولياً، ويحتمل اختصاصه بالحواريين لأنه في سياق بيان ما يترتب على الحكم المذكور سابقاً.

والأجور: ثوابهم الكريم الذي يسعدون فيه أبداً، وسمى أجوراً لكونه في مقابل العمل جزاء للعاملين ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالعاقبة للمتقين وحدهم.

قال في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × ـ هو القاسم بن محمد القائم على رأس الألف من الهجرة باليمن ـ: دلت على أن ثواب الله ليس إلا لمن آمن وعمل صالحاً لا لمن قال الإيمان قول بلا عمل، وعلى أن الله لا يحب الظالمين من شريف ووضيع، وعلى أن الله لا يحابي أحداً من خلقه)) انتهى. قلت: ففيها رد على الذين قالوا: ﴿**نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**﴾ [المائدة:١٨].

﴿٥٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ القصص لأمر مريم وعيسى إ ، حال كوننا ﴿نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ﴾ تتلقاه من ربك هو ﴿مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على صدقك ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ المحكم الحق الصادق الذي ينطق بالحكمة، فدلالته على حقيقة عيسى وحُكمه ومنزلته عند الله هو الحق.

فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا المثل ردّ على الغلاة من النصارى الذين يحتجون بأنه ليس له أب من بني آدم، كما أنه ردّ على اليهود الكفار الذين يقذفون أمه زاعمين أنه لا يكون مولود بدون أب، فبين الله تعالى قدرته على خلقه × من دون أب كما خلق آدم من دون أب ولا أم، وكفى في وجوده قول الله ﴿كُن﴾ أي إيجاده اختراعاً بدون كلفة، وقوله تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾ تصوير لحال وجوده حين قال له كن كأنه كائن في الحال.

﴿٦٠﴾ ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ هذا هو ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ لا قول النصارى ولا اليهود ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الشاكين في أمر عيسى عليه السلام بعد أن جاءك الحق من الله أصدق القائلين الذي خلق عيسى، فقد بطل به قول اليهود وغلاة النصارى.

﴿٦١﴾ ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿فِيهِ﴾ في هذا القصص عن عيسى، أو في عيسى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بالحقيقة، وأن قد تيقنت الحق: ﴿فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ﴾ من يعز علينا تعريضه للهلكة لنباهلكم، والمباهلة: أن نجعل ﴿لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ منا أو منكم، وهو علام الغيوب، قد علم من هو الكاذب ليجعل لعنته عليه بدعاء الفريقين نحن وأنتم.

أخرج مسلم في (جامعه) المسمى (صحيح مسلم) [ج١٥: ص١٧٦] بسنده عن سعد بن أبي وقاص من حديث، قال: ولما نزلت هذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ص علياً، وفاطمة، وحسناً، وحسيناً، فقال: ((اللهم هؤلاء أهلي)) انتهى.

وأخرجه بكامله أحمد بن حنبل في (المسند) [ج١: ص١٨٥] وأخرجه الترمذي [ج١٣] من شرح (جامع الترمذي) عارضة الأحَوَذِي [ص ١٧٢] قال الترمذي: ((هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه)).

وفي (تفسير ابن كثير) ما لفظة: ((وقال أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن داود المكي، حدثنا بشر بن مهران، أخبرنا محمد بن دينار، عن داود ابن أبي هند، عن الشعبي، عن جابر، قال: قدم على النبي ص العاقب والطيب، فدعاهما إلى الملاعنة، فواعداه على أن يلاعناه الغداة، قال فغدا رسول الله ص فأخذ بيد علي، وفاطمة، والحسن، والحسين، ثم أرسل إليهما [فأبيا] أن يجيبا، وأقرّا له بالخراج. قال: فقال رسول الله ص: ((والذي بعثني بالحق لو قالا: لا، لأمطر الوادي عليهم ناراً)).

قال جابر: فيهم نزلت: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ قال جابر: ﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ رسول الله ص وعلي بن أبي طالب، و﴿أَبْنَآءَنَا﴾ الحسن والحسين و ﴿وَنِسَآءَنَا﴾ فاطمة.

قال ابن كثير: وهكذا رواه الحاكم في (مستدركه) عن علي بن عيسى، عن أحمد بن محمد الأزهري، عن علي بن حجر، عن علي بن مسهر، عن داود بن أبي هند به بمعناه، ثم قال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه)) انتهى المراد.

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

قلت: وهذا الحديث أخرجه أبو نعيم في (دلائل النبوة) [ص١٢٤] بهذا السند وزاد فيه مع أحمد بن داود المكي محمد بن زكريا الغلابي، قالا: حدثنا بشر بن مهران الخصاف.. إلى آخر السند والحديث، وفيه زيادة في القصة، وفيه: ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا وأقرا له وليس فيه (بالخراج) وفيه: فقال رسول الله ص: ((والذي بعثني بالحق لو فعلا لأمطر الوادي عليهما ناراً)) انتهى.

وقال الإمام زيد بن علي إ في كتاب (الصفوة) بعد ذكره لهذه الآيات: ((فلم يكن تبارك وتعالى يأمره أن يدعو أبناءه وليس له أبناء، فكان ابناه يومئذ الحسن والحسين إ ، ولم يكن له ابن يومئذ غيرهما)) انتهى.

وفي (تفسير ابن جرير الطبري): ((حدثنا ابن حميد قال حدثنا عيسى بن فرقد عن أبي الجارود عن الإمام زيد بن علي، في قوله تعالى: ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ...﴾ الآية قال: كان النبي ص، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين)) انتهى.

ولـ(صاحب الكشاف) كلام حسن في تفسير (آية المباهلة) ثم قال بعده: ((وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ص؛ لأنه لم يروِ أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك)) انتهى.

﴿٦٢-٦٣﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القصص في عيسى × ﴿لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ لأنه الصدق وخلافه الباطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فلا عيسى إله ولا غيره ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ الإله الواحد.

ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلا يشاركه في عزته أحد: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] فليس لعيسى شيء من الملك، والله هو ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ وليس من الحكمة أن يجعل لنفسه شريكاً في ملكه حتى لا يبقى له إلا نصيبه.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فحسبك علمه بهم، فهو يكفيك وأمرهم إليه، وسيجازيهم بما أفسدوا، أي هؤلاء المكذبون بالحق في عيسى وفي توحيد الله تعالى.

﴿٦٤﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾ معناه: عدل)) انتهى

وفي (المصابيح) تفسير الشرفي: ((أي هلموا إلى كلمة فيها الإنصاف من بعضنا لبعض، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه، والسواء: هو العدل والإنصاف)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((عن الأخفش: تقول مكان سُوى، وسِوًى، وسَوَاءٌ: أي عدل ووسط فيما بين الفريقين)) انتهى، وهذه الدعوة عامة لأهل الكتاب اليهود والنصارى.

وقوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى آخره تفسير الكلمة السواء، وقوله: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ أي لا نجعل له شريكاً في شيء من صفاته كالقدرة على كل شيء، والعلم بكل شيء، والربوبية والملك.

تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أن نجعل الحكم لله وحده، ولا نصنع كما صنعتم في اتخاذكم أحباركم ورهبانكم ﴿أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وفي هذا زيادة إيضاح وإعلان بالإنصاف، وإن كان قد دخل تحت قوله: ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾.

ومعنى: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ إلى هذه الكلمة، إلى الإجتماع عليها، وتطبيقها منا ومنكم، فلم ندعكم إلى أن نستعبدكم، أو نستأثر عليكم، أو نستبد عليكم، إنما ندعوكم ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ﴾ هي لكم مثل ما هي لنا، وهي لنا مثل ما هي لكم، لأن معناها: استواء الجميع في العبودية لله تعالى، والإنقياد منا ومنكم لذلك وهو الدين الذي ندعوا إليه.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عن هذه الدعوة أو عما دعوتموهم إليه فيها ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ أنفسنا لله وحده لا نعبد إلا إياه ولا نتخذ رباً غيره، فديننا هذا ونحن برءاء من دينكم.

﴿٦٥-٦٦﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ لأي غرض ولعل الغرض فاسد يعاب عليهم وهو الجدال في الحق، وذلك أنه قد قام الدليل الواضح على أن القرآن من الله مصدق لرسول الله ص، فما بقي لمن أنصف إلا أن يؤمن.

كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ

فتوجيه الأنظار إلى إبراهيم × ، وإثارة الجدال في دينه ما هو؟ حتى يستحيل الموضوع إلى مسألة تاريخية يقول فيها كل فريق ما أراد، وحتى يتمكن المبطل المخالف لحجة الرسول الواضحة أن يدعي أنه على حق بدعوى أنه على دين إبراهيم ويعارض بذلك الحق الواضح مغالطة وجدال بالباطل.

مع أن هذا الجدال لا أصل له يعتمد عليه؛ لأن دعوى كل فريق أن إبراهيم × منهم أي كان يهودياً أو نصرانياً دعوى واضحة البطلان؛ لأن اليهودية والنصرانية إنما كانت بعد بعثة موسى وعيسى إ وإنزال التوراة والإنجيل، ولذلك استحق المجادلون فيه أن يوبخوا بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لأنهم لم يستعملوا عقولهم كما هو شأن من لا يهمه إلا التخريب.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي موضوعه أو حكمه في التوراة أو الإنجيل، وقد نسخه الإسلام مثلاً كما لو جادلوا في السبت، فهذا جدال ينبني على أساس وإن كان باطلاً من حيث أن الله يحكم ما يريد، فهو يحدث من أمره ما يشاء، وينسخ ما يشاء بحكمته، أما جدالهم في إبراهيم فلا أساس له؛ إذ ليس في التوراة ولا الإنجيل أنه كان يهودياً أو نصرانياً فالجدال ذلك مجرد مشاغبة ومعارضة لا سماع لها، وخصوصاً وهي معارضة لما أخبر الله به وهو يعلم ما لا يعلمون، ولا علم لهم بما قالوا كما أن كثيراً من الأمور يجهلونه ولا يعلمونه.

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهۡلَ

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا﴾ إبطال لقول اليهود ﴿وَلَا نَصۡرَانِيّٗا﴾ إبطال لقول النصارى ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إبطال لدعوى بعض المشركين من الأميين أنهم على دين إبراهيم إذا اختتنوا وحجوا، وهو مع ذلك إبطال لدعوى المشركين من أهل الكتاب.

والحنيف: الخاشع لله المحب له كما مر عن الإمام القاسم × ، ومر الجواب على من فسره بالمائل. والمسلم: المسلم لوجهه لله البريء من عبادة غير الله.

ومعنى (أسلم وجهه لله): أخلصه لله، ولم يجعل فيه شركاً لغيره، من السَّلَم الخالص لله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] ولهذا كان الإسلام دين محمد ص ودين إبراهيم ودين الأنبياء والرسل كلهم ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ولهذا يكون من نطق بالشهادتين خروجاً من الشرك مسلماً من قبل أن يعمل أعمال الإسلام أي من عقيب النطق بالشهادتين.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ في عهده وبعده فكانوا حنفاء لله مسلمين له غير مشركين﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ محمد ص لأنه حنيف مسلم وما كان من المشركين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله واليوم الأخر لأنهم حنفاء لله غير مشركين به﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كلهم الأولين والآخرين والأنبياء منهم وغير الأنبياء فهو يتولى شأنهم ويحسن رعايتهم ويدبر لهم ما هو خير لهم فعليهم أن يكِلُوا إليه أمورهم ويثقوا به ناصراً ومعيناً وكافياً.

وبهذا تم الجواب على جدالهم في إبراهيم، ويأتي ذكر مكيدة لأهل الكتاب أو مكائد وذكر ما فيه تحذير للمؤمنين منهم.

﴿٦٩﴾ ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جماعة منهم ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ ﴿لَوْ﴾ في هذا السياق تقوم مقام (أن) المصدرية، إلا أنها تدل على أنه مع الطمع فيه مما يؤيس منه ولذلك يقال أنها للتمني.

﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ بما هم فيه من الضلالات ومن ضلالهم هذا الطمع الفارغ الذي يبعثهم عليه الحقد على المسلمين والحسد لهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم ما يضلون إلا أنفسهم؛ لفرط خذلانهم وعمى بصائرهم.

ولسيد قطب هنا كلام جيّد في دس أهل الكتاب، منه قوله: ((دسوا ولبّسوا في التاريخ الإسلامي وأحداثه ورجاله، ودسوا ولبّسوا في الحديث النبوي، حتى قيض الله رجاله الذين حققوه وحرروه، إلا ما ندّ عن الجهد الإنساني المحدود، ودسوا ولبسوا في التفسير القرآني حتى تركوه تيهاً لا يكاد الباحث يفيء فيه إلى معالم الطريق، ودسوا ولبسوا في الرجال ـ أيضاً ـ فالمئات والألوف كانوا دسيسة على التراث الإسلامي..)) الخ.

وقد يسر الله لهذا الدين من يدافع عنه كما في الحديث الذي رواه الإمام زيد بن علي إ في (مجموعه): عن أبيه، عن جده، عن علي × قال: قال رسول الله ص: ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)) انتهى.

كما حفظ الله دينه بحفظ القرآن الكريم الذي ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وجعله الله حاكماً بين الناس، ووصاهم الرسول ص بالتمسك به، وبأهل بيته لئلا يضلوا.

ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت

وروى الإمام أبو طالب × في (أماليه) بإسناده عن النبي ص أنه قال: ((إن عند كل بدعة تكون بعدي يكاد بها الإيمان، ولياً من أهل بيتي موكَلاً يذبّ عنه، يعلن الحق وينوِّرُهُ، ويردّ كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله)) انتهى، وهو موافق لـ(حديث الثقلين) وكذلك (حديث السفينة) و(حديث النجوم) وقد بسطت في ذلك في (تحرير الأفكار).

والحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ إن كان حقيقياً مطلقاً، فمعناه: أن هذه الطائفة لا يقبل منها أحد لا من المسلمين ولا غيرهم؛ لأنها لا يرغب أحد في موافقتها لحقارتها وهوانها، وسوء ظن الناس فيها، وإن كان الحصر إضافياً، فالمعنى: ما يضلون إلا أنفسهم لا إياكم، وهذا أقرب ـ والله أعلم.

﴿٧٠﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿لِمَ﴾ سؤال عن الباعث على الكفر، وهل هو إلا الحسد والكبر وحب الرئاسة، وهذه معايب يستحي العاقل أن تعرف فيه، وكفرهم بآيات الله منه الكفر بالقرآن الكريم وإنكار أنه من الله، وهم يشهدون تلاوته، ويشهدون تحدي العرب بسورة من مثله، فهي جرأة قبيحة أن يحضروا الآيات التي جاء بها رسول الله ص ويشاهدوها، ثم يكفروا بها، فالحجة عليهم أعظم ممن بلغته الآيات ولم يشهد حين جاء بها الرسول ص، لأن المشاهد علمه ضروري، أما الغائب فقد يحتاج إلى الإستدلال على صدق الأخبار.

طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ

﴿٧١﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ﴾ **أَلِلْحسد والكبر وحب الرئاسة تتورطون في هذه الجرائم، فأين عقولكم؟!! ولبس الحق بالباطل: خلط الحق بالباطل ومثال ذلك: أن يعترفوا بشيء مما في (التوراة) مخلوطاً بغيره مما ينسبونه إليها وليس منها، وكتمانهم للحق مثل: أن يكتموا شيئاً في (التوراة) من أوصاف رسول الله ص أو من غيرها كرجم الزاني ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه موجود وتعلمون إثم ذلك.**

﴿٧٢﴾ ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ **قال في (المصابيح): ((قال الإمام الحسين بن القاسم إ : هذه حيلة قد علمها الله من أهل الكتاب فأخبر بها المؤمنين لئلا يقبلوا نفاقهم)) انتهى.**

﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾ **لتظهروا أنكم منصفون ما تريدون إلا الحق ولذلك آمنتم ﴿وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾ ليشكوا في دينهم إذا كفرتم، بدعوى: أنه بدا لكم أنكم غلطتم بالإيمان، وأنكم ما كفرتم إلا لذلك، بحجة أنكم قد آمنتم أول النهار ولو كان الباعث الحسد أو التعصب ما آمنتم أول النهار لكنكم عرفتم أنه غلط.**

وقولهم: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فرار من أن يقولوا: (أنزل على محمد) ودعوى أنه ومن معه سواء في دعوى الوحي، كما قدمت في قولهم: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ﴾ [البقرة:١٤٢].

قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ﴾ هذا من تمام الحيلة، أي اكفروا آخره ولا تؤمنوا بعد هذا الكفر، لأنكم إذا ترددتم مرة أخرى ذهب اعتباركم، فابقوا على كفركم ﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ﴾ مرة أخرى ﴿إِلَّا لِمَن﴾ هو ﴿تَبِعَ﴾ لكم في ﴿دِينَكُمۡ﴾ يوافقكم على الكفر، وعلى جحد الحق الذي تعلمونه، فهو يعلم أن الحق مع محمد ص لما في (التوراة) من نعته، فإذا آمنتم له بذلك فهو لا يؤديه إلى الدخول في الإسلام، لأنه تابع لكم في دينكم لا يريد خلافكم.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ فلن تستطيعوا بحيلتكم ولا غيرها أن تضلوا من هدى الله، وهذه الجملة معترضة بين حكاية كلامهم جاءت عند تمام حكاية الحيلة ﴿أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ﴾ تعليل لاستعمال الحيلة ومحاولة أن يرتد المؤمنون ليبطل أمر النبي ص فلا يكون للعرب مثل ما لبني إسرائيل كتاب يتبعونه ودين يجمعهم ومكانة ظاهرة بين الأمم باسم دين وعلم، بل ليبقوا كما كانوا، وكذلك غيرهم من الأمم، عليكم أن تسعوا في أن لا يكون لهم مثل ما لكم.

﴿أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ لو آمنتم بعد كفركم مرة أخرى لأنها تبطل دعواكم أنه أنكشف لكم الخطأ في الإيمان وجه النهار، فإذا كفرتم بعد ذلك لم يبق لكم ما تحاجونهم به عند ربكم؛ لأنكم قد أقررتم لهم مرتين وأبطلتم دعواكم انكشاف الخطأ، فالتعليل الأول لاستعمال الحيلة والعطف عليه لتعليل الثبات عليها وحياطتها بدوام الكفر بعد الإيمان وجه النهار.

ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ

﴿..قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ * يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هذا جواب يردّ عليهم في استعمال الحيلة لئلا يؤتى أحد مثل ما أوتوا في الدنيا، ولئلا يحاجوهم في الآخرة فيسعدوا بالحكم لهم على أهل الكتاب، فهو يبين: أن حسدهم للمسلمين خير الدنيا والآخرة وكيدهم لهم لإبطال نعمتهم لا يفيدهم، لأن فضل الله ليس بيد غيره ممن يُتصورُ الاحتيال عليه ليحولـه عمن شاء.

بل هو ﴿بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ الواسع الـذي هـو رب العـالمين المـنعم علـيهم كلـهم المربي لهم العليم الذي يعلم حيث يجعل رسالاته يؤتيه من يشاء، فلا يمسـكه أحد عمن آتاه الله، لأنه ﴿**اللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ**﴾ [يوسف:٢١] ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لكرمه وقدرته على العطاء الكبير لا ينقصه البذل والجود، كمـا لا يفره المنع والجمود سبحانه وتعالى، فمنه الخير كله وبيده الخير كله ﴿**يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ [البقرة:١٠٥] [لأن له الملك وحده لا شريك له، وليس لأحد أن يعارضه في اختصاصه، لأنه لا دخل لهم في الملك، وما أعظم فضله علـى بني إسماعيل الأمة المسلمة بالرسول والقرآن، بل فضله بذلك على العـالمين من اتبع الرسول ص والقرآن، فأداهم ذلـك إلى الفـوز العظـيم الـذي هـو السلامة من النار وإدخالهم الجنة خالدين فيها أبداً.

٧٥-٧٦ ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ﴾ تأمنه بأن تدفع إليه قنطاراً قرضاً أو وديعة، والقنطار مقدار كبير.

قال في (الصحاح): ((والقنطار معيار، ويروى عن معاذ بن جبل ا أنه قال: هو ألف ومائتا أُوْقِيَّة. ويقال: هو مائة وعشرون رِطلاً. ويقال: ملء مسك الثور ذهباً، ويقال: غير ذلك ـ والله أعلم ـ ومنه قولهم: قناطير مقنطرة)) انتهى.

فأما الراغب ففسره: ((بما فيه عبور الحياة، أي ما يكفي الحي لإستمرار حياته ـ ثم قال ـ: وذلك غير محدود القدر في نفسه، وإنما هو بحسب الإضافة ـ ثم قال ـ : ولما قلنا: اختلفوا في حده، فقيل: أربعون أوقية، وقال الحسن: ألف ومائتا دينار، وقيل: ملء مسك ثور ذهباً.. إلى غير ذلك، وذلك كاختلافهم في حد الغنى)) انتهى المراد.

ففهمنا من ذلك: أنه مقدار كبير، إذا أمنت به هذا البعض من أهل الكتاب أداه إليك ولم يجحده ولم يمطل، ولعلهم الذين أسلموا إما بعد أن أسلموا أو قبل؛ لأنهم لا يستحلون أموال الأميّين.

والدينار قليل بالنسبة إلى القنطار، وهو عملة من الذهب، ولعله وزن ستين حبة من الشعير ﴿مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ﴾ بهذا المقدار يغلبه الحرص عليه فيجحده أو يمطله ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ فهو يرجو نفعك ولو جحد أو مطل انقطع عنه نفعك، وذلك مثل من يقترض فيوفي، لأنه يحتاج إليك ويخشى لو مطلك أن تمنعه حاجته، فمادمت قائماً عليه بقضاء حاجاته فإنه يوفيك لذلك، أما من لا يحتاج إليه فإنه يمطله إذا كان من الأميين.

وقد فسر بالقيام على رأسه بالمطالبة والمحاكمة، وهو عندي غير مناسب لقوله تعالى: ﴿مَا دُمْتَ﴾ ولو كان المراد لكان ـ والله أعلم ـ يقال: إلا إذا قمت عليه، وذلك لأن تسليم الدينار لا يكون وقته ممتداً بامتداد وقت المطالبة والمحاكمة بل يؤدى في لحظة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ترك الإيفاء بالدينار ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي المذكورين من أهل الكتاب ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ سبيل لتعذيبنا أو معاقبتنا ﴿فِي﴾ أكل مال ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ بغير حق.

قال الشرفي في (المصابيح): ((عن الإمام المرتضى محمد بن الإمام الهادي، عن جده الإمام القاسم بن إبراهيم (عليه السلام): تأويل ذلك أن من أهل الكتاب من يستحل كل مال المسلم يهودي أو نصراني، وقال: إن الأرض وما فيها من الله طعمة)) انتهى.

يعني عطية لهم، أي لليهود إن كان يهودياً، أو للنصارى إن كان نصرانياً، والحاصل: أنهم يقولون: لا إثم علينا في الأميين، لأنهم وما ملكوا عطية لنا من الله.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه كذب، فيتعمدون الكذب على الله، أو وهم يعلمون أنه كذب ويعلمون إثم الكذب على الله.

﴿بَلَىٰ﴾ كلمة إبطال لكلامهم الذي هو كذب على الله ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هذا تفصيل لردّ قولهم.

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾ يفيد: أن على المسلمين عهداً، ولعله عهدهم على الجهاد قال تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠] أو هو قولهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧] فهو بيعتهم على السمع والطاعة ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي أتقى الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فكيف يجعلهم طعمة لأعدائه المغضوب عليهم بل دماؤهم وأموالهم حرام.

ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِى ٱلۡأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِى ٱلۡأَخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَشۡتَرُونَ﴾ يستفيدون ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ ثمناً قليلاً ﴿وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ﴾ أو يستبدلون بعهد الله ثمناً قليلاً وأيمانهم، فالأول: من يحلف فاجراً ليحكم له بمال على خصمه، والثاني: من عاهد وحلف ثم نكث لغرض دنيوي يستفيده بالنكث؛ والأولى أن الآية عامة للفريقين فالأول بقوله: ﴿وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ﴾ والثاني بقوله تعالى: ﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ والاستفادة والاستبدال كُلُّهُ اشتراءٌ مجاز.

قال الإمام الهادي × في (الأحكام) في (كتاب الأَيمَان) بعد أن ذكر هذه الآية ما لفظه: وقوله تعالى: ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِى ٱلۡأَخِرَةِ﴾ فهو لا نصيب لهم في ثواب الله في الآخرة، وأما قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فمعناه: لا يبشرهم برحمة، ولا يخصهم منه بمغفرة، ولا ينظر إليهم بنعمة، وأما قوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ فهو لا يحكم لهم بتزكية، ولا يختم لهم برحمة ولا بركة، ولا يجعلهم في حكمه من الزاكين، ولا عنده من الفائزين.

قال: وهذه الآية نزلت في رجل حلف لرجل عند رسول الله ص يميناً فاجرة باطلة فقال رسول الله ص: ((من حلف على مال أخيه فاقتطعه ظالماً، لقي الله يوم القيامة وهو معرض عنه)) انتهى.

فقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ﴾ أي لا نصيب لهم، والنصيب: هو المفروض ولو لم يكن أجراً كما في المواريث، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ مجاز عن الغضب، وخصه الإمام الهادي × بكلام

مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ

الرضى عنهم، وهو صحيح لأنه المقصود في السياق، ولأن كلام الاحتجاج عليهم وارد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس:٥٩-٦٢] وقال تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لاَ تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١٥].

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (فريقاً) بعضاً مفارقاً لبعض آخر، ﴿يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم﴾ يفتلونها، أي يحولونها عن قراءة (التوراة) على الصواب إلى القراءة المزيفة ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي يكتبونه بأيديهم ليوهموا أنه من التوراة فيجعلون هذا الكتاب المزيف آلة للعدول عن التوراة بأن يقرؤوه كما يقرؤون التوراة ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ بدعوى أنه حق وصواب ليوهموا مع قراءتهم الموهمة إيهاماً مؤكداً أنه من الكتاب أي من التوراة وما هو من الكتاب ولا هو من عند الله لا من (التوراة) ولا من غيرها.

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون على الله آثمون بالكذب على الله، وكأنهم مع تعمدهم للكذب على الله يفرون من الكذب الصريح بأنه من التوراة، إما لئلا يفتضحوا في العاجل، وإما لخوف عذاب عاجل.

وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ

﴿٧٩﴾ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مثل: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ يستعمل للدلالة على أن المنفي بعيد الوقوع شبه المستحيل، ألا ترى إلى قوله إبليس نعوذ بالله منه: ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] يعنى: أن هذا شبه المستحيل منه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣] للدلالة على أن ذلك ينافي الحكمة لأن النذير يتقدم التعذيب ولا يقارنه لأن العذاب الحاضر الذي لا يمكن في الحكمة كشفه ولو آمنوا لا معنى لإنذاره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] لأن قتل المؤمن عمداً ينافي إيمان القاتل لخوفه من الله وحبه لأخيه المؤمن في الله، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

فقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ..﴾ الآية يدل على أن ذلك شبه المستحيل من هذا البشر الذي اختاره الله واصطفاه لإيتائه الكتاب والحكم والنبوة، لأن الله علام الغيوب فلو كان هذا البشر يدعو الناس إلى الشرك ما اختاره لذلك لأنه خلاف الحكمة، ثم إن ما آتاه الله من الكتاب والحكم والنبوة يزيده صلاحاً إلى صلاحه ونوراً إلى نوره ويدعوه إلى شكر النعمة كما هو شأنه، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتَهُ﴾ [الأنعام:١٢٤] فرسل الله صفوة من عباده

يصطفيهم على علم بهم وبغيرهم، فالكتاب والحكم والنبوة يزيدهم هدى إلى هداهم، فبينهم وبين الباطل مسافات ومراحل، فلا يجوز أن ينسب إليهم أنهم دعوا عباد الله أن يكونوا عبيداً لهم من دون الله لأن ذلك شبه المستحيل منهم.

﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ هو الحكم بما أنزل الله ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ هي الوحي بشريعة ودين كامل مصحوباً بآية تدل على أن ذلك وحي من الله تعالى.

وقوله: ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي لأكون لكم وساطة بينكم وبين الله أقربكم إليه واشفع لكم عنده وتتوسلون بي إليه هذا معنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ومعنى ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّى﴾ اتخذوني إلهاً وربّاً مالكاً لكم كما فعلت النصارى بعيسى × ، وقد تضمن هذا الكلام من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ..﴾ الدلالة على بطلان دعوى ذلك من النصارى وغيرهم، وقام هذا مقام النهي عن دعوى ذلك فعطف عليه قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ عابدين لرب العالمين، دعاة إلى عبادته، معلمين لعبادته، ناصحين له، موالين لأوليائه، معادين لأعدائه، مخلصين له، مكثرين لذكر رب العالمين، حتى تستحقوا هذا الاسم الكريم ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الذي معناه النسبة إلى ربهم لكثرة لهجهم بذكره ونصحهم وإخلاصهم في عبادته ودعوة الناس إليه.

﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بسبب علمكم لكتاب الله، فإنه يدعوكم إلى أن تكونوا ربانيين بما فيه من الهدى والمواعظ، هذا على قراءة نافع ﴿تعلمون﴾ بالتخفيف، فأما على قراءة ـ ضم التاء، وفتح العين، وتشديد اللام ـ فالمعنى بسبب تكرار تعليمكم لكتاب الله، فإن المعلم أحق أن يعمل به وهو في حال التعليم يتذكر ما فيه من الهدى والمواعظ.

أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

والذي يعاود التذكر بتكرار التعليم واستمراره أحق أن يتذكر ولا يغفل ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ من كتب الهداية إما من كتب الله تعالى وإما من كتب العلماء الهداة التي فيها التذكير والمواعظ والإرشاد.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾ بشر علمه الله الكتاب والحكم وآتاه النبوة ﴿أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فكما لا يتصور منه أن يقول للناس: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ كذلك ﴿لَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا﴾ لأن هذا ينافي دينه وعقيدته وحاله في اخلاصه لله.

وقوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾ سؤال إنكار بمعنى يأمركم بالكفر بما جاء به من عند الله والعدول عنه إلى عبادة غير الله بعد إذ قد أجبتم دعوته وأسلمتم لربكم وجوهكم تعبدونه لا تشركون به، أيدعوكم إلى الضلال بعد الهدى، وإلى الفساد بعد الصلاح، والى الكفر بعد الإيمان، وإلى الشرك بعد الإسلام هذا كما نقول في لغتنا لا يتصور منه لمنافاته طريقته وحاله، ولأنه يهدم بذلك بنيانه الذي قد بناه وتعب في بناءه وتحمل المصاعب والشدائد والأذى والخوف حتى إذا تم بنيانه رجع لهدمه، ولأنه يكون كما قال شعيب × : ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٨٩] لأنه إن كان صادقاً في أول أمره فقد كذب في دعوته إلى الشرك، وإن كان صادقاً ـ والعياذ بالله من القول بذلك ـ في دعوته إلى الشرك فقد كشف كذبه فيما مضى منه من الدعوة إلى التوحيد و إخلاص العبادة لله.

جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ

﴿٨١-٨٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا يا أهل الكتاب ﴿إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على الإيمان والنصرة لأي رسول أرسله الله وأتاهم مصدقاً لما معهم، والمقصود بهذا العهد: أتباعهم الذين أتاهم رسول الله محمد ص مصدقاً لما معهم من كتب الله، الذي لو بعث في حياة أنبيائهم الأولين لوجب عليهم الإيمان به ونصره بهذا العهد الموثق ليعلموا اتباعهم الذين بعث فيهم أنه رسول من الله يجب عليهم الإيمان به ونصره.

ولعل هذا معنى ما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن الإمام أبي الفتح الديلمي × حيث قال: ((قال في (البرهان): والميثاق الذي أخذه الله عليهم هو: أن يأخذوا على قومهم بتصديق النبي ص)) انتهى.

وكذلك ما حكاه الشرفي عن الإمام المرتضى محمد بن الهادي إ حيث قال: ((قال المرتضى × : معنى ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ هو محمد ص والمخاطبون فهم أهل الكتاب)) انتهى المراد، ولعله يعنى الخطاب بحكاية أخذ الميثاق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ أي اذكروا يا أهل الكتاب ﴿إِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ بيان لما أخذ عليه ميثاقهم، كقول يعقوب × : ﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ [يوسف:٦٦] وجعل العهد معلقاً على ما آتاهم من الكتاب والحكمة أن يكون سبباً للإيمان بالرسول المصدق له، وهذا مناسب للآية التي قبل هذه ومؤكد لمعناها، لأنه دل على أن الواجب أن يكون الكتاب والحكمة سبباً للإيمان ولا يكون سبباً للدعوة إلى الشرك أو الكفر بالرسول المصدق لما معهم.

فالآية الكريمة عامة للنبيئين توجب عليهم الإيمان بكل رسول يأتي مصدقاً لما معهم، وسياقها يوضح: أن محمداً رسول الله ص قَدْ تَنَاوَله العهدُ العامُ للنبيئين أن يؤمنوا به لو جاءهم في حياتهم لأنه مصدق لما معهم وينصروه، وذلك حجة على من ينتمي إليهم من أهل الكتاب العارفين بهذا الميثاق الممثل لوحدة النبيئين في هذا التكليف ومنع تعصب أتباعهم لهم بحيث يكفرون بالرسول المصدق لما معهم افراطاً في التعصب أوتستراً باسم الدين واسم اتباعهم لأنبيائهم.

فقوله: ﴿لَمَآ ءاتَيْنَاكُم﴾ (ما) موصولة مبتدأ، والخبر القسم المقدر وجوابه، أي والله لتنصرنه، والرابط مقدر أي من أجله أي بسبب ما آتيناكم، أو أغنى عن الرابط ضمير الرسول المصدق لما معكم وهو (ما آتيناكم) فكأنه قيل: ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ من كتاب وحكمة لتؤمنن بالرسول المصدق له.

﴿قَالَ﴾ الله للنبيئين ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ أقررتم هذا الميثاق ورضيتموه ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الذي هو الإيمان والنصرة ﴿إِصْرِى﴾ عهدي الثقيل الذي تتقيدون به، أي احتملتم الميثاق الذي حملتكم ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ رضينا وقبلنا، وكفى هذا في احتمالهم ما حملوا؛ لأنه قد لزمهم بحكم الله، فليس منهم إلا الرضى وكان الرضى هو أخذ الميثاق، إلا أن له وجهتين: وجهة القبول والرضى واجتناب الإباء لحكم الله، ووجهة تحمله بالرضى به نفسه.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾ بهذا الميثاق المأخوذ عليكم لدى أممكم ليعلموا به ويعملوا بموجبه ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ به فحكمه لا يضيع أبداً.

دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ ﴿تَوَلَّىٰ﴾ عن العمل بموجب هذا الميثاق، ويدخل فيه تولي أتباعهم؛ لأنه ملزم لهم من حيث دلالته على أنه الحق الذي يجب اتباعه لكونه الحق، ولذلك فالمتولون عن اتباع الرسول الذي أخذ الميثاق على الأنبياء بالإيمان به ونصرته من اتباع الأنبياء ﴿هُمُ﴾ أي الأتباع المتولون ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخبثة الفاجرون، وهذا لوضوح الحق وأنهم لم يعدلوا عنه إلا لفسقهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩].

﴿٨٣﴾ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ تَبْغُونَ﴾ أيها المتولون الفاسقون، وهو التفات فيه توبيخ لهم ـ على قراءة المثناة من فوق ـ فأما على قراءة ﴿يَبْغُونَ﴾ بالمثناة من تحت، فالكلام في المتولين بغير التفات.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فدين المتولين غير دين الله، ولن يقبل منهم إلا دين الله الذي ﴿لَهُۥٓ﴾ وحده ﴿أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ لأنه الغالب على أمره ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] الذي له الحكم فيهم بما يشاء وليس لمخلوق أن يحكم بخلاف حكم الله ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] فمن أسلم وجهه له طوعاً رَشِد ومن لم يسلم له طوعاً فهو منقاد لقضائه فيه كرهاً فهو يجزيه بعصيانه الجزاء الأوفى ولا ينازعه فيه منازع، لأنه لله وحده ومرجعه إليه وحده، وكما أخذ الله الميثاق على النبيئين على الإيمان والنصرة للرسول المصدق بما أوتوه الذي يجيء بعدهم، فقد أمر الله هذا الرسول ص أن يؤمن بما أوتوه فقال تعالى:

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

﴿٨٤﴾ ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ **يا محمد** ﴿ءَامَنَّا﴾ **أنا ومن معي** ﴿بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ **أي وبما أنزل الله علينا لنتبعه من الكتاب والحكمة، وآمنا بما** ﴿أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ **وهذا الإيمان المفصل حجة على أهل الكتاب؛ لأن فيه التصديق بما معهم ولما معهم أعني ما ذكر من ذلك في التوراة، وما أوتي النبيئون من كتاب وحكمة.**

وهذا أعني لفظ ﴿أُوتِيَ﴾ **هنا مناسب للفظ** ﴿لَمَآ ءَاتَيْنَٰكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ **وتطبيق له، وفيه تصريح بما** ﴿أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ **من كتاب وحكمة وتقوية للحجة على أهل الكتاب من اليهود والنصارى** ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ **لأنهم حاملون كلهم لرسالة واحدة ودين واحد أوحاه الله إليهم وهو عبادة الله وحده، وإسلام الوجوه له، وكلهم منقادون لأمره خاضعون لحكمه، ليس عندهم تعصب ولا أنانية ولا تكبر، فدينهم واحد يصدق بعضهم بعضاً.**

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ **أوجهنا لله وحده لا نشرك به أحداً في عبادته، وهذه حجة للنبي ومن معه واضحة، لأن الله تعالى حكيم لا يجعل لنفسه شريكاً في ملكه ولا يرضى لنفسه شريكاً.**

﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ

﴿٨٥﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ من يطلب أو من يرد غير الإسلام الذي هو إخلاص العبادة لله ديناً مخالفاً له ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لأن الله لا يرضاه فهو مردود على صاحبه ﴿وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة في نار جهنم لا يفيده دينه شيئاً بل هو وبال عليه.

والإسلام يعم عبادات: القلب، والبدن، واللسان؛ لأنها تكون خالصة لله أو غير خالصة وهو صفة لها كلها إذا خلصت لله، فالإيمان من الإسلام كما يفهم من تتبع الآيات الواردة في هذه السورة وغيرها، كقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾.

فمعنى الإسلام: إسلام الوجه لله، أي إخلاص العبادة لله، وقد يستعمل بمعنى إسلام النفس لله وهو واحد، إلا أن إسلام النفس قد يكون أبلغ إذا كان كإسلام إبراهيم × : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١] وإسلامه × وابنه في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣] ومعناه: جعل نفسه سلَماً لله، أي خالصة لله ضد المشتركة، قال تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [الزمر:٢٩].

ولهذا يدخل الإنسان الذي كان مشركاً يدخل في الإسلام بالنطق بالشهادتين وبراءته مما كان يعبد من دون الله لأنه أسلم نفسه لله.

ومقتضى ذلك: أن يستمر في طاعته والإخلاص له، فإذا فسق وتمرد مع براءته من الشرك لم يخرج عن الإسلام، ولكن ليس له حكم المؤمن لأن إسلامه ناقص إن كان معناه إخلاص العبادة لله لنقص العبادة عيناً وصفة، فإن كان معناه إسلامه نفسه فلأنه لم يستمر عليه بالعمل بموجبه، فإن فسقه ينافي إسلامه نفسه لله لأن معنى إسلامه نفسه لله: جعله نفسه لله وحده.

ومقتضى ذلك: أن يعبده ويطيعه لكونه جعل نفسه عبداً له خالصاً وفسقه عدول عن التعبد له ومنازعة في العبودية، فلم يبق إسلامه صدقاً إلا باعتبار سلامته من الشرك، إن لم نقل: أنه أشرك بطاعة الشيطان شرك الطاعة المنافي لإسلامه نفسه لله؛ فأما باعتبار جعله نفسه عبداً لله فقد خالفه بفسقه ولا يلزم مثل هذا فيمن نطق بالشهادتين قبل أن يعمل الطاعات من صلاة وغيرها وقبل أن يعصي؛ لأنه لم يصدر عنه في تلك الحال ما يعارض معنى النطق بالشهادة وإسلامه نفسه لله تعالى.

فالمسلم الكامل الإسلام قد أسلم عباداته كلها لله القلبية ومنها الإيمان، والقولية وأعمال جوارحه كلها جعلها سالمة لله تعالى؛ وبهذا ظهر: أن هذا الإسلام قد شمل الإيمان، وأنه لا حاجة إلى أن نقول: الإسلام في الآية هو الإيمان أي الإعتقاد والقول والعمل أي الدين كله؛ لئلا يلزم أن الإيمان غير الإسلام فيلزم أنه غير مقبول هناك؛ لأنا قلنا: الإسلام هو إخلاص الدين لله من حيث هو إخلاص الوجه، أو من حيث هو إخلاص النفس، وفي (سورة هود): ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية:١٤] وفي (سورة اقترب): ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية:١٠٨] وهذا باعتبار مفهوم الإسلام، مع أنه يصدق على الدين كله من حيث التطبيق.

عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ

ولا أعتقد أن استعمال الإسلام بمعنى الدين والشريعة التي شرعها الله لمحمد ص وأمته إلا استعمال عرفي تعارفت به الأمة، ولذلك فلا يفسر به الإسلام في القرآن بمعنى أنه مفهومه.

﴿٨٦-٨٩﴾ ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الهدى قد يكون بمعنى البيان للحق الذي تقوم به الحجة وهو عام للمكلفين، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧] وقد يكون الهدى تنوير البصيرة بحيث يزداد صاحبه فهماً وعلماً وحكمة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] وهذا لا يكون للظالمين المستحقين للخذلان، ولعله المراد في هذه الآية كيف يهديهم وهم لا يستحقون إلا الخذلان.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ معناه: أن إيمانهم حجة عليهم ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ حين آمنوا وشهادتهم هذه حجة عليهم، ولبقاء حكمها من حيث هي حجة عليهم صح عطفها على ﴿كَفَرُوا۟﴾ لأن حاصله: أنه أجتمع منهم الكفر، والشهادة أن الرسول حق، وكذلك ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ لأنها ما زالت آيات بينات في حال كفرهم فهي حجة عليهم فكيف يهديهم وهو ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ﴾ أنهم مطرودون من رحمة الله في الآخرة أو في الدارين،

ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

ولعنة الملائكة والناس الدعاء عليهم بأن يلعنهم الله، وهذا يفيد أن استغفار الملائكة لمن في الأرض إما خاص بالذين آمنوا، وإما مخصوص بالأحياء ومعناه طلب توفيقهم للتوبة التي هي سبب المغفرة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي في لعنة الله التي هي الطرد من رحمته، والطرد من رحمته هنا معناه: مصيرهم في عذابه في نار جهنم ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ متى أمر بهم إلى النار وجاء وقت تعذيبهم فلا يمهلون.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد كفرهم الذي كان بعد إيمانهم فجددوا الإيمان وندموا على ما فرطوا وعزموا أن لا يعودوا إلى معصية، والتوبة هي الرجوع إلى الله، ولأن العاصي كالعبد الآبق من سيده كانت توبته بالرجوع إلى الله، والرجوع إلى الله: الإقلاع عن معصيته، والعزم على طاعته في كل شيء، والدخول في الطاعة بالإستغفار، وعمل الواجب الفوري كالإيمان.

﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ ما قد أفسدوا بردتهم وفي حالها من إفساد الدين بكشف تغريرهم وتكذيب أنفسهم فيما قد كذبوا ونحو ذلك؛ لأنهم قد يكونون أفسدوا بردتهم وأفسدوا فيها، كما حاول الذين قالوا: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ..﴾ إلى آخره.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ "رَّحِيمٞولكونه غفوراً رحيماً يغفر لهم ويرحمهم وهذا مبالغة في الوعد بالمغفرة والرحمة؛ لأنه كالحجة على أنه سيغفر لهم ويرحمهم.

وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ

﴿٩٠-٩١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ هذا بيان أن التوبة المؤخرة عن وقتها لا تقبل، فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٧-١٨].

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا﴾ مجمل بينته هذه الآية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ البالغون في الضلال مبلغاً عظيماً، الفائقون لغيرهم في الضلال، ويحتمل ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ لا التائبون، فالقصر قصر القَلْبِ؛ لأن توبتهم لم تخرجهم عن العصيان فهم مازلوا في التيه؛ وهذا أرجح من الأول.

وحيث قد أفادت هذه الآية أنها لا تقبل توبة في الآخرة، بين تعالى أنها كذلك لا تقبل فدية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ وهذا على فرض وتقدير أنه استطاع تحصيل ملء الأرض ذهباً لينفقه، على أن يكون فكاكاً له من النار بأي طريقة، كصدقة للمساكين، أو هدية، أو رشوة للزبانية، أو غير ذلك من وجوه الدفاع والإحتيال لدفع العذاب، ولو دفعه فدية يفتدي به من العذاب كما يفتدي بالمال للسلامة في الدنيا من الحبس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ فلن ينصرهم شركاؤهم ولا أنبياؤهم الذين ينتمون إليهم لا بشفاعة ولا غيرها ليدفعوا عنهم العذاب.

تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٩٢﴾ ۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۗ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾

فالحاصل: أنهم معذبون لا مجال لهم من العذاب؛ وفائدة فرض ملء الأرض ذهباً: أن يعلموا أن عذابهم محتوم عليهم لا وسيلة لدفعه، وهذه الآية عامة للمرتدين وغيرهم من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿٩٢﴾ ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ ﴿ٱلۡبِرَّ﴾ وسيلة الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الإنفطار:١٣] وهذه الآية تدل على أن العبد لا يكون برّاً إلا إذا بَرَّ بالإنفاق مما يحب؛ والإنفاق إما في سبيل الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٩٥] وقوله تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ يعم المقبول وغير المقبول والجيد والخبيث، فهو يجعل للإنفاق حكمه، ولا يضيع ما يصلح قبوله ولو قليلاً، ولا يقبل الخبيث الذي ينفق ليتقى به الإنفاق الواجب من الطيب، ولا يقبل ما أنفق رئاء الناس أو لغرض دنيوي ليس لله.

وهذه الآية خطاب للمسلمين جاءت بعد نهاية الإحتجاج على أهل الكتاب في شأن التوحيد ورسالة محمد ص وختم الكلام بوعيد الكفار، وبعد هذه الآية يعود الكلام مع أهل الكتاب في مواضيع غير ذلك، فقال تعالى:

فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ

﴿٩٣-٩٤﴾ ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ وهذا يشير إلى أنهم بعد ذلك حرم عليهم بعض الطعام عقوبة لهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ..﴾ [النساء:١٦٠] إلى آخر الآيات، بينما اليهود ينكرون أن الله تعالى حرّم عليهم شيئاً من الطعام.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ أي كان حِلاًّ في دين أبيهم إسرائيل أو دين الأسباط الأنبياء من ذريته أو من بنيه الاثني عشر.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فهي ناطقة بهذا وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي صادقين في ردّه وتكذيبه، فالتوراة تكشف أنكم كذبتم بالحق.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي من بعد قيام الحجة عليه تمرداً وعناداً ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الجائرون المخالفون للعدل.

﴿٩٥﴾ ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ في قوله، وكذبتم في زعمكم أن تحريم بعض طعامكم ليس عقوبة بل هو تحريم قديم من عهد إسرائيل وإبراهيم ونوح.

﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فأسلموا لله وجوهكم وأنفسكم، واعملوا بملة إبراهيم ﴿حَنِيفًا﴾ محباً لله خاشعاً ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فأنتم على غير ملته.

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ قبلة ليتوجهوا إليه في صلاتهم ويحجوا إليه ويعملوا كل عبادة تتعلق به: ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي للبيت الذي ﴿بِبَكَّةَ﴾ أي الكعبة.

قال في (الصحاح): ((وتَبَاكَّ القوم، أي ازدحموا، وبَكَّ عنقه: أي دقّها، وبكّة: اسم بطن مكة، سميت بذلك لازدحام الناس، و يقال: سميت لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة)) انتهى.

وفي (الكشاف) جعل بكة هي مكة، وكذا في (مفردات الراغب) أما تفسير الإمام زيد بن علي إ لـ(غريب القرآن) فقال فيه: ((فبكة: موضع البيت، وسمي بذلك لأن الناس يتباكّون فيه، معناه: يتزاحمون، ومكة: جميع القرية وهي أم القرى وأم كل شيء أصله)) انتهى.

قلت: هذا أرجح ولو سلك (صاحب الكشاف) والراغب طريقتهما في دعوى أن أصل الكلمتين واحد وجعلا الأصل بكة، ثم قيل: مكة تغيراً كما يقع في بعض الكلمات من إبدال حرف مكان حرف، وكانتا اسمين لشيء واحد، ثم جعل مكة اسماً للقرية بطريقة الغلبة فيها وكانت صغيرة بيوتاً قليلاً حول البيت ببكة ثم ازدادت بيوتاً وكبرت مع بقاء اسمها مكة فاختلف معنى بكة ومكة من حيث المطابقة كما اختلف سابقاً من حيث المفهوم، لكان هذا أوفق لطريقة أهل الصرف ودعاويهم في الاشتقاق.

ويؤيد تفسير الإمام زيد × و(أصحاب الصحاح) اختيار هذا الاسم في هذا السياق لأن قوله: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي للحج والعمرة ومنافع الناس، وقبلة يناسب ذكر الاسم المشتق من معنى ازدحام الناس.

﴿مُبَارَكًا﴾ فيه بركات دينية ودنيوية، كفضل الصلاة فيه، والحج والعمرة، ودنيوية كنفي الفقر بمتابعة الحج والعمرة، وتيسر منافع بسبب التقاء الناس للتجارة وغيرها.

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ لما فيه من الدلائل بسبب ما جعل الله له في القلوب من الإجلال والإحترام، حتى جعله آمنا، وجعله نعمة للناس للتواصل لمنافعهم، وجعل بسببه الإيلاف لقريش، وأهلك بسببه أصحاب الفيل، فهي دلائل على قدرة الله وعلمه وسعة فضله وإنعامه، وانظر إلى قوله تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٩٧].

﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ في شأنه آيات بينات واضحة تدل على فضله:

الأولى: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فهو مكان معروف عند الكعبة، فيه أثر قدميه في حجر، وهو لا يزال يذكر بقيام إبراهيم يرفع القواعد من البيت، ويدل على علو شأن إبراهيم × حيث جعل له هذه الآية.

الثانية: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فلو لا أن الله جعل له هذا الاحترام في نفوس الناس ما كان آمناً لداخله ولولا أن الله شرفه ما جعل له هذه المكانة في نفوس الناس.

يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ

الثالثة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗا﴾ فقد فضله الله على المساجد كلها، حيث أوجب حجه على الناس كلهم إلا من لم يستطع إليه سبيلاً، والسبيل إليه: الطريق الموصل إليه، واستطاعته: استطاعة السير فيه حتى يبلغ البيت، وجاء في الحديث أنه «الزاد والراحلة» وهو في (مجموع الإمام زيد بن علي إ).

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ كلهم الكافر وغير الكافر فلا نقص عليه بكفر الكافرين، ومن كفر بحكم الله في هذا البيت أي خالفه من أهل الكتاب المتعصبين للقدس أو من غيرهم، وقيل: ومن كفر أي لم يحج مع استطاعته، ومعنى ﴿كَفَرَ﴾ كفر نعمة الله، وهذا مستقيم فيكون من تمام فضائل الحج مؤكداً للفضيلة الثالثة، ويؤكد الأول: أن السياق ما زال في أهل الكتاب، وقد يجاب: بأنه لا ينافي كون السياق فيهم، فهم مأمورون بالحج وبشرطه، وكافرون لنعمة الله بتركه.

﴿٩٨﴾ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ لماذا لا تراقبون الله وتخشونه، فتعملون هذه الجريمة التي هي أساس الفساد، كما أن الإيمان بآيات الله أساس الصلاح ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ حاضر ﴿عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ﴾ أي ليس بغافل عنه ولا غائب؛ وآيات الله التي يكفرون بها هي القرآن، ودليل نبوءة رسول الله ص وغيرهما.

﴿٩٩﴾ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿لِمَ﴾ سؤال عن السبب الباعث في هذه الآية والتي قبلها ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾ ﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾ وهي تشير إلى أن البواعث ذميمة لا يحبون الاعتراف بها، كالحسد، والكبر.

فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ

والصد ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ التحويل والمنع عن دينه الذي هو سبيله، أي الطريق إليه أو الطريق الذي شرعه لعباده ﴿تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ كقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة:٤٧] ولعل هذا هو مساومتهم لرسول الله ص ليوافقهم في بعض الشيء، وذلك عوج لو فعله لكان قد جعله في ضمن سبيل الله، فهي محاولة أن يجعلوا في سبيل الله عوجاً، وسبيل الله مستقيمة لا تعوج أبداً؛ لأنه شرعها ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:٤٥].

وإنما ذلك البغي عار على أهل الكتاب وخزي لأنهم ﴿شُهَدَآءُ﴾ على ما عندهم في التوراة، فهم يعلمون أن سبيل محمد ص سبيل الله فمحاولتهم أن يجعلوا فيها عوجاً محاربة لدين الله، وهم يعلمون أنه دين الله ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:٤٢].

وإذ قد تقرر تمردهم، تحول الكلام عن خطابهم إلى خطاب الذين آمنوا لتوجيههم إلى المحافظة على دين الله وحمايته وإقامته، فقال تعالى:

﴿١٠٠-١٠١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ هذا بيان لمحل الخطر ليحذروه ولا يغتروا بأن هذا الفريق من أهل الكتاب يدعون الإيمان بكتابهم، وفي قوله تعالى: ﴿بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ إشارة إلى ما سبق من الوعيد على من ارتد، وتشنيع للكفر بعد الإيمان، من حيث هو بعد الإيمان، لأن المؤمن شأنه أن يكون قد عرف الحق وظفر بالنعمة العظمى وهي كونه في طريق النجاة من النار والفوز بالجنة فإذا تحول عن ذلك استبدل الباطل بالحق والشقاوة بالسعادة التي قد كان في طريقها وهي الخسارة العظمى.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إنكم في حالة بعد عن الكفر وهي أنكم قد آمنتم، وأعظم من ذلك معه أنكم ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ التي تهدي إلى الإيمان وتخرج الناس من ظلمات الكفر إلى النور لأنها آيات تدل على الحق وتهدي إليه، ومع ذلك أن ﴿فِيكُمْ﴾ رسول الله حياً موجوداً بينكم يتلو عليكم آيات الله، ويظهر على يديه المعجزات الدالة على أنه رسول الله، وأنتم تشاهدون ذلك، ومع ذلك إن الله يثبتكم وينجيكم من الرجوع إلى الكفر إذا اعتصمتم به وتمسكتم بأسباب هدايته.

والاعتصام: هو اللجوء لطلب النجاة: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ﴾ [هود:٤٣].

والهداية: الإرشاد إلى الطريق.

والصراط: الطريق الواضح القوي.

والمستقيم: الذي ليس فيه عوج، بل هو مستوٍ فقد هدى إلى طريق السلامة من الكفر أو إلى طريق السعادة والسلامة على الإطلاق.

والاعتصام بالله الذي هو التمسك بأسباب النجاة ينبغي لمن أراده أن يعرف أسباب النجاة ولعل بعضها متداخل أو متلازم، فالذي يجمعها هو تقوى الله وطاعته، لأن المعاصي قد تجر إلى الكفر من حيث تقسي القلب وتؤدي إلى الخذلان:

ومنها: الدعاء بطلب التوفيق والعصمة، وحسن الخاتمة، فإن أهل الجنة يتساءلون: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور:٢٦-٢٨].

تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

ومنها: أربع جاء في الحديث أنها تحول الشقاء سعادة، وتقي مصارع السوء في حديث رواه المرشد بالله في (أماليه) بإسناده عن علي × [ج٢ ص١٢٤] وهي: ((الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، وصلة الرحم)) وفي كل واحدة روايات أخر ليس هذا مقام جمعها.

ومنها: حب أولي قربى رسول الله ص، فقد جاء في الحديث: ((والله لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله)) وقال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣] ولا إشكال أن فائدة ذلك للأمة.

وروى الإمام الهادي × في (الأحكام): عن النبي ص: ((ما أحبنا أهل البيت أحد فزلت به قدم إلا وثبتته أخرى)) وهذا واضح لأن المحبين لهم يتمسكون بهم، وفي (حديث الثقلين): ((ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي)).

ومنها: حسن الخلق أوسع من اصطناع المعروف.

ومنها: أمور قد دخلت في تقوى الله، منها اجتناب الإصرار على المعصية ولا سيما الكبائر المتعمدة، ولعل منها عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، والنميمة، والربا، واليمين الفاجرة، وشهادة الزور، وموالاة أعداء الله ومعاداة أولياء الله، وقتل المؤمن عمداً عدواناً؛ وليس الكفر بعيداً ممن عصى واعتدى لإمكان أن يكفر بأن يحكم بغير ما أنزل الله، أو يجعل الحكم لغير الله كما فعل أهل الكتاب الذين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] نسأل الله العصمة والتوفيق.

تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ

﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ كما ينبغي أن تتقوه لأن بطشه شديد وهو على كل شيء شهيد، فنحتاج إلى الحذر الكامل من عذابه والمراقبة له الكاملة والزهد في لذات الدنيا وأغراضها لنستطيع الورع الكامل من المحرمات؛ لأن من قويت رغبته في الدنيا وطال أمله في الحياة قد لا يتورع تسويفاً للتوبة، وإن تورع عن الحرام الواضح فقد لا يقف عند الشبهة لغلبة الشهوة، وكذلك نحتاج إلى الإعتصام بالله والعمل بأسباب التوفيق كما مر.

وقد قيل: إن معنى (تقوى الله حق تقاته): أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، ولكن الله تعالى يقول في (صفة المتقين): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فمن تاب ولم يصر فهو متق، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] فالمتقي التواب الذي لا يصر، والمتطهر: الذي لا يعصي، أو الذي يتطهر من النجاسات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أمر بأن نكون مسلمين حال الموت؛ لأن الحكم للخاتمة، فمن لم تكن خاتمته الإسلام لم ينفعه إسلامه قبل فلا بد من استمرار الإسلام إلى الموت.

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ لأجل تتقوا الله ولا تموتوا إلا وأنتم مسلمون (حبل الله) السبب الذي جعله لنا لنتمسك به وهو القرآن، فأوجب علينا أن نعتصم به لننجو، وأن نجتمع على الاعتصام به، ونهانا عن التفرق ولم ينهنا عن التفرق إلا وقد جعل لنا سبيلاً إلى ترك التفرق، والتفرق أن نكون فِرَقاً أو فريقين.

والسبيل إلى ترك التفرق: هو الرجوع إلى الكتاب، والسنة الجامعة، أي المعلومة التي يمكن الإجتماع بسببها لا المختلف في صحتها، وما وقع من خلاف في صحتها أو نسخها رجع فيه إلى القرآن؛ لأن الله جعل الكتاب والسنة حكمين.

وقد علم أن الكتاب محفوظ لا يقع فيه اختلاف يؤدي إلى التفرق، إلا إذا كان السبب هو الهوى والتعصب، كما قال تعالى في أهل الكتاب ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] وقد جعل الكتاب وحده حاكماً في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] فدل على أنه يرجع إليه إذا وقع خلاف في صحة رواية أو نسخها.

والتفرق المنهي عنه يشمل التفرق بسبب الخلاف في المذهب، والتفرق بسبب الخلاف في السياسة، والتفرق بسبب الخلاف في بعض حاجات الدنيا، والتفرق بسبب سوء الظن وشيوع السباب، كما قال شاعر:

فإن النار بالعودين تورى وإن الحرب أولها كلام

وهذا قد يكون سببه غضب أو هوى فالواجب تبديل السوء في الظن بحسن الظن، قال تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠].

ولا يمكن اعتبار الفريقين أخوين إلا بواسطة حسن الظن والحمل على السلامة، وفتح باب التأويل لكل منهما، بل لا يمكن ترك التفرق إلا بذلك.

فالنهي عن التفرق دليل واضح على ما لا يتم إلا به، والسياق سياق المحافظة على الإسلام، فيفهم منه أن الأمر بأن نعتصم بحبل الله جميعاً والنهي عن التفرق من أجل المحافظة على الإسلام؛ لأنه يحتاج إلى حماية والحماية تحتاج إلى قوة ولا قوة مع التفرق؛ ولذلك قرن الله بين إقامة الدين وترك التفرق في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وقد أكد تعالى أمره ونهيه بتذكيرنا بالنعمة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ فاعتصموا بحبل الله جميعاً شكراً لهذه النعمة، واجتنبوا التفرق شكراً لهذه النعمة نعمة التأليف بين قلوبكم بحيث أصبحتم إخوناً في الله.

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ بهدايتكم إلى الإسلام واتباع الرسول ص ﴿شَفَا حُفْرَةٍ﴾ حرفها وطرفها، قال في (لسان العرب): ((والشفا: حرف الشيء وحدّه، قال الله تعالى: ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة:١٠٩] والإثنان: شفوان، وشفا كل شيء حرفه، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾)) انتهى.

فالمعنى: كنتم مشرفين على الوقوع في ﴿حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ ولعل الإنقاذ من الحفرة باعتبارهم في سببها مشرفين عليها لم يبق بينهم وبينها إلا أن يموتوا إذا لم يسلموا، فهم في هذه الحالة في ورطة مؤدية إلى الحفرة فالإنقاذ من سببها إنقاذ منها.

إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي كذلك البيان لسبيل هدايتكم وثباتكم على الإسلام ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لتفهموا ما تهتدون به ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لطريق الحق وهو الثبات على الإسلام حتى الموت والقيام بما كلفناه حتى الموت.

وفي الآية دلالة على بطلان قول من يدعي أن فهم القرآن خاص بالإمام أو الشيخ؛ لأن الخطاب للذين آمنوا كلهم، فدلت على: أن الله قد بين لهم القرآن كلهم، وإنما يؤتون في قلة الفهم من التقصير في تعلم العربية والتقصير في التفهم والوعي، أو من المعاصي التي هي ظلم إذا كثرت وأظلم القلب منها، قال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ الآيتين [محمد:١٦-١٧].

﴿١٠٤-١٠٥﴾ ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَلْتَكُن﴾ (اللام) فيه لام الأمر للذين آمنوا، أُمِرُوا أمراً وكلفوا تكليفاً عاماً لهم أن تكون منهم ﴿أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ..﴾ الآية، قال الراغب: ((والأمة كل جماعة يجمعها أمرٌ مّا)) انتهى.

وهذه الآية تهدي إلى المحافظة على الإسلام، وإبقائه حياً بالدعوة إلى الخير، والخير هو طاعة الله، ومن الخير الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف:١٠-١١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١] ومن الخير ما لا يتم الجهاد إلا به من الألفة واجتناب التفرق.

ومن الخير: تعلم الدين، وإعانة طلاب العلم بالمدارس، وتيسير الكتب والمشائخ، وترغيبهم في التعلم، واجتناب تنفيرهم وغير ذلك.

ومن الخير: نشر التعليم في جميع أقطار بلاد الإسلام بقدر الوسع، أو على الأقل نشر الإرشاد والمواعظ، والدعوة إلى التعلم، والتحذير من الجهل، والإنذار للمعرضين؛ والأمر بالمعروف يكون باللسان على مراتبه، والنهي عن المنكر يكون بما يستطاع من قول وفعل على مراتبه المذكورة في علم العقائد.

وقوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح: هو الظفر بالخير والفوز، فيدل على: أنه لا يفلح من لا يقوم بهذا الواجب؛ والإشارة لأهل الصفات المذكورة، أوْ لَهم ولمن أقامهم وحماهم و أعانهم من الذين آمنوا كلهم لأنهم مشاركون لهم حكماً وإن لم يشاركوهم فعلاً؛ وفي الآية دلالة ـ كما قلت ـ على تكليف الذين آمنوا كلهم بإيجاد أهل الصفات المذكورة بإيجاد أمة هذه صفتها وطريقتها وعادتها المستمرة، وعلى هذا يجب تعلم الدين ليمكن إيجاد أمة من العلماء تقوم بهذا الواجب.

وقد غلط من قال: إن هذا الواجب خاص بالعلماء؛ لأن الخطاب موجه إلى الذين آمنوا كلهم، فعلى الأمة أن يوجدوا علماء ليقوموا بهذا الواجب، فالعلم شرط أداء لا شرط وجوب.

ومن فوائد هذه الآية: وجوب تحضير المذكورين بأن يدعو بعضهم بعضاً إلى تحصيل هذه الأمة، ويتعاونوا بالمال والدفاع عنهم ويستمروا على ذلك،

ويتخيروا الصالحين لذلك بالعلم والعمل والعقل والزهد في الدنيا والورع، الذين يحاولون جمع المسلمين باستعمال الرفق والتيسير، وحسن الظن، وفتح باب التأويل، والحمل على السلامة، دون من يشدد ويسعى في تفريق المسلمين وإلقاء العداوة بينهم والبغضاء عملاً بسوء الظن وبناء على المخالفات في المسائل الفرعية التي للناظر فيها نظره، والمخالفات بطريق الخطأ والنسيان والإضطرار.

وهؤلاء مع قلتهم لا يستطيعون القيام بالمهمة في كل البلاد، فالأولى أن يكون هؤلاء هم قادة الأمة ومراجعها ويضاف إليهم من ينقاد لهم ويعمل بما أمروه ولا يخالفهم، حتى تكون الأمة عبارة عن القائمين بالعمل من القادة واتباعهم العاملين معهم وفق ما خططوا لهم، ولا بد لهم من رئيس هو خيرهم أعلمهم بواجب هذه الأمة وأقواهم على القيام به وأوسعهم صدراً وأبلغهم في الزهد والورع، وذلك لأنهم إذا لم يكن لهم رئيس اختلفوا وتضاربت أعمالهم وتعارضوا وضعفوا وفي الأخير يبطل أمرهم أو لا يحصل المأمور به في الآية.

ولما كان التفرق آفة الإسلام وآفة هذه الأمة التي تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أكّد الله النهي عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ نهى الله أن نكون مثلهم، فلا يجوز لنا أن نكون فِرَقاً أو فريقين، بل علينا أن نتوحد في دين الله، فالفرقة التباين والتحزب.

وأما الإختلاف فالمنهي عنه الإختلاف فيما قد جاءتنا فيه البينات، فإذا تعامينا عن البينات، واتبعنا الأهواء، واكتفينا بالشبهات والظنون بعد وجود

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ

البينات عندنا، فاختلفنا لأغراض سياسة أو تحاسد أو نحو ذلك من الأغراض الشخصية، كاتباع الأسلاف والتعصب لهم، فهذا هو المنهي عنه في الآية الكريمة، والمتوعد عليه بالعذاب العظيم، فلا يحكم بنجاة كل فرقة تنتمي إلى الإسلام مع مخالفتها الآيات البينات من القرآن، ولا بهلاك كل فرقة مع كون خلافها في مسائل غامضة الدلائل بعض الغموض.

﴿١٠٦-١٠٩﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ﴾ أذكر يوم تبيض ﴿وُجُوهٌ﴾ أي يكون لها نضرة النعيم، ويظهر فيها البشرى والسرور لأهلها، كما قال تعالى في (سورة المطففين): ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [آية:٢٤] ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ من الخوف والهم والغم وسوء الحال، قال الله تعالى في (سورة عبس) و (سورة يونس) ما يدل على هذا أو قريب منه. ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي يقال لهؤلاء المذكورين وهم أهل وجوه مخصوصون: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

فدل على أنهم صائرون في العذاب ذائقون له بما كانوا يكفرون في الدنيا، ودل على أنهم يوبخون في موقف السؤال، وهذا تأكيد للأمر بالثبات على الإسلام، والنهي عن الموت على غير إسلام، ودليل على أن من المسلمين من سيموت على الكفر وهو في كل من كفر بعد الإيمان ومات على الكفر بأي أصناف الكفر، وبعضها لا يستبعد إلا بعصمة الله كما مر.

ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهم الذين ثبتوا على الإيمان حتى ماتوا عليه، فهم في ﴿رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ في الموقف وفي شوقهم إليه ومنه إلى الجنة، وفي الجنة هم في رحمة الله ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لا يموتون، ولا تفارقهم رحمة الله، وهي السعادة الدائمة التي تستحق الصبر في الدنيا وحتى الموت ليبلغها الصابر.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما مر في هذه السورة من الآيات، فهي آيات الله يتلوها على عبده ورسوله محمد ص بالحق لأن كل ما فيها حق من الله فكل ما كلف عباده فهو حق وعدل وحكمة لم يظلمهم بتكليفهم، ومن عصى فعذبه فهو الذي أوقع نفسه في المعصية التي هي سبب العذاب، فليس عذابه ظلماً قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ فله الملك وحده لا شريك له، وله الحكم في عباده يأمرهم وينهاهم كيف شاء، لا ينازعه منازع ولا يعارضه معارض، وإليه ترجع أمورهم لأنه ربهم، لا إلى غيره في الدنيا والآخرة، أما أمور الدنيا فترجع إلى كتابه وسنة رسوله ولو بالقياس الذي ثبت بهما حكم أصله وعلته.

وأما أمور الآخرة فهو الذي يحكم فيها وينفذ أحكامه ولا يتدخل أحد لمنازعته بل الملائكة والنبيئون يردون الأمر إليه ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] حتى الشفاعة لا تكون ﴿إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣] ورضي.

مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ

﴿١١٠-١١٢﴾ ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لما أمر الله أن يكون من الذين آمنوا أمة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بيّن بهذه الآية، أن الأمة المأمور بها موجودة فيهم، فلم يأمر بها لعدمها في الحال ولكن للمستقبل الذي تكون هذه الأمة قد مضت قبله.

وقوله: ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لأنهم أخرجوا من ديارهم وأمروا بالهجرة لإعزاز دين الله وإظهاره في أرض الله ليسعد الناس به إن اتبعوه، فالخطاب لرسول الله ص ومن معه من أهل الصفات المذكورة الأخيار الذين يستحقون أن يوصفوا بأنهم كانوا مستمرين على أنهم خير أمة.

أي قد كانوا في الماضي حتى نزول الآية؛ ولا إشكال أنهم مخصوصون بمن نصر الإسلام وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر لاجتماع مادلت عليه الآية فيهم:

الأول: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾.

الثاني: ﴿أُخْرِجَتْ﴾.

الثالث: ﴿لِلنَّاسِ﴾.

الرابع: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

وهي واضحة في رسول الله ص، وعلي، وحمزة، وجعفر بن أبي طالب ونحوهم، ولا يدخل فيها من لم يكن أسلم عند نزولها ولا من لم يسلم إلا بعد الفتح وسقوط الهجرة عن أهل مكة، ولا من لم ينصر الإسلام أو لم يأمر بمعروف وينه عن منكر.

وقد قيل: أنها نزلت في أهل البيت عليهم السلام لعله بالمعنى الذي ذكرت، والصواب: أنها فيهم وفيمن كان معهم على طريقتهم في جمع الأوصاف المذكورة.

بحمد الله كنت فهمت هذا كما ذكرت، وبعد ذلك وجدت في (مستدرك الحاكم) [ج٢ ص٢٩٤] بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول الله ص من مكة إلى المدينة، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وأقره الذهبي في (تلخيصه) وصواب العبارة: هم رسول الله ومن معه من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، ولعل الرواة غيروا، أو أن ابن عباس غفل عن عد رسول الله ص منهم.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وذكر الإيمان بالله؛ لأنه أساس الدين ولا يقبل شيء من الدين إلا به، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩].

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ لينقذوا أنفسهم من النار ويفوزوا بالجنة ﴿مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَسِقُونَ﴾ الذين لم يؤمنوا أو آمنوا ثم نافقوا أو فارقوا الإيمان منهم من نافق ومنهم من في قلبه مرض ولم ينافق.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ لن يضركم الفاسقون من أهل الكتاب إلا أذى، ولعل الحصر للدلالة على أنهم لن يستطيعوا ردكم عن دينكم أعني أن الحصر إضافي، وأضاف إليه أنهم إن قاتلوا الذين آمنوا فروا ثم لا ينصرون بل تقهرونهم؛ ويؤخذ منها أن لو صلح المسلمون ما غلبتهم إسرائيل وأمريكا والله أعلم.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿ضُرِبَتْ﴾ على هؤلاء الكفار من أهل الكتاب اليهود ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ كما تضرب الخيمة على سكانها، و﴿ٱلذِّلَّةُ﴾ ضد العزة، فهي العجز عن الدفاع.

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ أي أدركوا وظفر بهم ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ إلا معتصمين أو متمسكين ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقد فسر بالذمة، وأمنهم بسبب الجزية، ولا يبعد أن الحبل من الله ومن الناس يعم الحالات العارضة بأن يسلطوا بواسطة قوة من دولة أخرى، فمن الله التسليط ومن الناس الحماية مثلاً حماية دول النصارى لإسرائيل وإمدادهم لها بالسلاح وغيره، وهذا لأن قوله تعالى: ﴿بِحَبْلٍ﴾ نكرة تصلح لكل وسيلة أمن وعزةٍ مّا.

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ احتملوا غضباً، ولعل سبب هذا التعبير أن الإنسان يبوء إلى بيته حاملاً بعض حاجاته أو حاجات أهله أو بيته، فيقال: باء بكذا، أي رجع حاملاً كذا، ثم استعمل في الحمل ولو مجازياً، ولعل فيه تَهَكُّماً بهم من حيث أن الأصل فيما يبوء به الإنسان أنه فائدة إستفادها وعاد بها إلى بيته، فاستعماله في المضرة والخسارة تهكم ـ والله أعلم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ وهي سكون وضعف بسبب الذلة، فقد خيَّمتْ عليهم المسكنة، وصارت لهم مسكناً مجازاً عن اشتمالها واستمرارها.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ضرب الذلة والمسكنة عليهم عقوبة عاجلة بسبب أنهم تكرر منهم مراراً الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء بغير حق، فقد كفروا بالآيات مراراً وتكراراً، ولعل المراد اليهود من أهل الكتاب لأنهم كانوا في المدينة المنورة وحولها وهو الأرجح، أو هم والنصارى، وكفر النصارى السابق: كفرهم بدلائل توحيد الله، ودلائل أنه لا يشبه المخلوقين، وغير ذلك مما لا نعلم ولكنه ضعيف.

وكفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى في الأخير كفرهم بالقرآن، وما جاء لرسول الله ص من الآيات، وقتلهم الأنبياء في الماضي وهو بغير حق، ولا يتصور إلا أن يكون بغير حق، ولكن فائدة هذا القيد تحقيق عبوديتهم لله وأن قتلهم لو كان بحق ما كان إثماً؛ وفيها فائدة أن لا يتوهم أن القتل جريمة على الإطلاق، بل قد يكون غير المعصوم مستحقاً له فلا يكون قتله جريمة.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجرم الشنيع والتجبر الفضيع الذي يستبعد وقوعه من أهل كتابٍ منتمين إلى رسول فيهم الربانيون والأحبار وقعوا فيه، أي في ذلك المنكر ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ من قبل وتكرر منهم من العدوان، فإنهم بسبب ذلك خذلوا، وقست قلوبهم واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله وورطهم في أكبر مما كان منهم وهو التكذيب بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق.

ومما يدل على عظم جريمة قتلهم الأنبياء ما رواه الحاكم بستة أسانيد، عن أبي نعيم: حدثنا عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ب قال: ((أوحى الله تعالى إلى محمد ص: إني قَتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفاً، وإني قاتل بابن ابنتك سبعين ألفاً وسبعين ألفاً)).

ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، قال الذهبي في (تلخيصه): قلت: على شرط مسلم، انتهى.

وقد جاء في الحديث عن النبي ص: ((لتحذن حذو من قبلكم)) فقد حذت هذه الأمة حذوا أهل الكتاب بقتل الذين يأمرون بالقسط من ذرية رسول الله، كالإمام زيد بن علي، وابنه يحيى، ومن قتل بنو العباس، ومن بعدهم، ولعل تلك الجرائم وإن هانت عند النواصب هي سبب تسليط التتار على هذه الأمة وتمزيقهم وتسليط أعدائهم ـ والله أعلم.

﴿١١٣-١١٤﴾ ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ قد تقدم قوله تعالى: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ولكن أعيد ليفصل الكلام في المؤمنين.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة جمعهم الإيمان الصادق ﴿قَآئِمَةٌ﴾ غير قاعدة لعزتهم بالإيمان، فهم مجاهدون في سبيل الله بخلاف المتخلفين الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٩٠].

﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يقرؤون آيات القرآن الذي أنزله الله وجعله آيات للناس وهم يصلون، وسمى صلاتهم سجوداً لخضوعهم فيها لله، كما قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨].

عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا

و﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته أي يكررون الصلاة في الليل في أوله وأثنائه وآخره، وأشار بقوله: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلى ما في القرآن من الهدى والنور؛ لأن الآيات الدلائل.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً كاملاً على يقين بتوحيده وعدله وما تدل عليه أسماؤه الحسنى مما يستلزم أن يخشوه ويراقبوه ويخشعوا له.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الذي هو يوم الحساب والجزاء ما يستلزم الإستعداد له خوفاً وطمعاً، ويسارعون في الخيرات في الأعمال الصالحات لرغبتهم فيها وحرصهم عليها، فيستكثرون منها بقدر وسعهم ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فالصفات المذكورة هي الصلاح أو عنوان الصلاح.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ قُرئ ﴿يَفْعَلُوا۟﴾ بالياء المثناة من تحت والتاء المثناة من فوق وكذلك ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ فالقراءة بالياء على أصل السياق في المؤمنين من أهل الكتاب، أما القراءة بالتاء المثناة من فوق فهي فيهم ـ أيضاً ـ لكنه إلتفات إليهم، أو ليعم المؤمنين كلهم، فلن يكفروا خيراً فعلوه بل يشكرون على القليل والكثير.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين هم أهل لأن تقبل أعمالهم ولا يكفروا منها شيء، و كان عليماً بالمؤمنين من أهل الكتاب أهل الصفات المذكورة لأنه عليم بالمتقين منهم ومن غيرهم.

صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ

﴿١١٦-١١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ **من أهل الكتاب وغيرهم لأنهم كذبوا بآيات الله لن تكفيهم** ﴿أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ **شيئاً** ﴿مِّنَ﴾ **عذاب** ﴿ٱللَّهِ﴾ **فلن تدفع عنهم نصيباً من النار، كقوله تعالى:** ﴿**فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ**﴾ [غافر:٤٧] ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ **أهلها الذين يبقون فيها** ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ **باقون لا يموتون.**

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ **فلن تغني عنهم أموالهم لا بالإنفاق العاجل، ولا يوم القيامة لو فرض أنها تكون يومئذ باقية معهم، فإنفاقها في الدنيا ضائع لا ثواب فيه؛ لأنه مَقْرونٌ بالمحبطات من كفرهم وجرائمهم، فمثله في حبوطه مثل زرع أرسل الله عليه ريحاً** ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ **ذات برد شديد عقوبة على معاصيهم التي هي ظلمهم أنفسهم فأهلكته.**

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ **بما يصدر منهم في الحين بعد الحين من الكفر وغيره من الجرائم المحبطات لإنفاقهم، وهذا السياق في الكافرين، وفي التحذير من الكفر، وفي الأمر بالثبات على الإسلام يستدعي التحذير من أهل النفاق لأنهم ضر على المسلمين ومحاربة للإسلام، فقال تعالى:**

تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ۖ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وبطانة الرجل: خاصته وصفوته وثقته الذي سره عنده ويثق به ويعتمده، فبطانة الرجل الذين يستبطنون أمره)) انتهى المراد.

وقال الراغب: ((وتستعار البطانة لمن تختصه بالإطلاع على باطن أمرك قال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ أي مختصاً بكم يستبطن أموركم)) انتهى المراد.

وقوله: ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ أي من دون المؤمنين، بحيث تكون البطانة أدخل من المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] أي بينها وبينهم، وبينهم وبينها .

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ لا يقصرون في إفساد عليكم، أي يجتهدون في الإفساد عليكم أو في إفسادكم ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أحبوا عنتكم أن تعنتوا، أو ما قد وقع عليكم من عنت، فهم كانوا محبين أن يقع عليكم، والعنت: الضرر الشديد، وهذا كشف لسرهم لئلا يغترّ بهم المؤمنون إذا كانوا يوهمون أنهم يحبونهم.

﴿قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ بما يبدر منهم من الكلام الذي يدل على البغضاء، وفي هذا الكلام تصوير بليغ لكثرة ما في قلوبهم من البغضاء، كأنها لكثرتها قد بدت من أفواههم، وهو كلام قيِّم، لأن البغضاء الخفيفة قد يمكن كتمها، أما الشديدة فلا بد معها من فلتات لسان تدل عليها الحازم اللبيب ﴿وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ﴾ مما قد ظهر بدلالة الكلام ـ أي كلامهم.

﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ فلا عذر لكم بعد البيان الواضح الكافي لمن يعقل، وفي قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ إيقاظ من الغفلة وتحريك للحذر، ودلالة على أن من لم يفهم بعد هذا البيان فليس بعاقل؛ وفيه دلالة على أن القرآن خطاب عام للمسلمين لا يختص بفهمه الإمام ولا الشيخ، بل هو خطاب لكل من يعقل.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بيان للغلط في حب المنافقين.

﴿هَٰٓأَ﴾ حرف تنبيه مناسب لغفلة المؤمنين عن نفاق البطانة، وأنهم يحبونها توهماً أنها مؤمنة وهي لا تحب المؤمنين، والحال مختلف فهم مؤمنون بالكتاب كله، وهي لا تؤمن به كله، وأعظم من ذلك أنها تنافق فتظهر لكم الإيمان كذباً ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ﴾ عنكم ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ لفرط حسدهم لكم وعداوتهم.

و﴿ٱلۡأَنَامِلَ﴾ رؤوس الأصابع، وعضها: جعلها في أفواههم والاعتماد عليها بأسنانهم، وتعدّى عضّوا بقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ لتضمنه معنى اغتاظوا أو نحوه، كقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢] أي حزيناً أو نحوه.

يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ دعاء عليهم بالموت من غيظهم، وخطابهم بهذا الدعاء ليعلموا أن الله قد أطلع نبيه على ما يخفون في صدورهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فقد علم ما في صدوركم من الغيظ، وأظهرنا عليه.

﴿١٢٠﴾ ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ الحسنة هنا: بمعنى النعمة، مثل: النصر، والغنائم، ومعنى ﴿تَمْسَسْكُمْ﴾ تتصل بكم وتبلغكم، ومعنى ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تحزنهم ضد تسرهم ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ﴾ مصيبة ﴿يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ لأنها ساءتكم.

ومعنى ﴿يَفْرَحُواْ﴾ يجتمع لهم بها سرور واطمئنان إلى أن أحوالكم متدهورة وأن دينكم سيذهب ولأخذ الثقة أو الاطمئنان أو نحوه في معنى الفرح كان الفرح بما آتانا من حاجات الدنيا مذموماً، قال تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] وفي قارون: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] فهو كقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس:٧].

ولذلك كان الفرح بالدنيا مذموماً كالاطمئنان إليها، وكان الفرح بالحق الذي تحمد عقباه محموداً، قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨]؛ أما السرور بالنعمة فهو طبيعي، وقد جاء في الحديث عن النبي ص: ((من أوجب المغفرة إدخالك السرور على أخيك المؤمن)).

لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ لأنهم يكيدون المؤمنين لإبطال أمرهم ومحو دينهم، والمؤمنون مع الصبر والتقوى مكتوب لهم النصر، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة:١٢٣] وقال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يدعه ينالكم، بل يصرفه عنكم أو يبطله، وهو مثل للسيطرة عليه والغلبة لأهله.

ولما انتهى زجر المؤمنين عن مؤاخاة المنافقين والاطمئنان بهم لأنهم العدو الأكبر، أتبع سبحانه ذلك قصة معركة أحد، وما كان فيها من أعمال المنافقين، وما كان فيها من ضرر المعصية، وما كان فيها من النصر قبل المعصية، وقد توسعت قصتها واشتملت على فوائد كثيرة وتربية دينية، فقال تعالى:

عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا

﴿١٢٨-١٢١﴾ ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿تُبَوِّئُ﴾ تجعل أماكن يثبتون فيها، وتأمرهم أن يتخذوها مَبَاءَةً يرجعون إليها كلما فارقوها لحاجة، فليس لأحد أن يترك مكانه المعيّن له، ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأمرك لهم بالثبات في أماكنهم عليم بمن يطيع ومن يعصي، وسميع بكل قول ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي هاتين الطائفتين يقول المرتضى × : سئل عن هذه المسألة أبي الهادي إلى الحق / ؟ فقال: هما بنو سلمة وبنو حارثة، فكانت بنو سلمة نحو سلع، وبنو حارثة نحو أحد حين عبّأ النبي ص الناس وذلك يوم [الخندق])) انتهى.

قال الشرفي: ((ويدل قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي ناصرهما على أن ذلك لم يكن منهما معصية، وعلى أنهما لم يعزما على ترك الجهاد وإنما هو حديث نفس...)) الخ

وقول الإمام الهادي × : ((نحو أحد)) لعله يعني تفشلا نحو أحد، و(أحد) هو جبل حول المدنية وعنده كانت المعركة فمعنى همت أن تفشلا حدثتهما أنفسهما بالفرار، ولعل سبب ذلك ما وقع من الخلاف في الرأي ورجوع عبد الله ابن أبيّ ومعه جماعة إلى المدينة فنظرتا إلى قلة المجاهدين في جنب كثرة العدو.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ المتولي لشأنهما، المحسن لرعايتهما، المدبر لهما ما فيه الخير لهما من النصر أو الشهادة أو غير ذلك؛ لأنه عالم الغيب، والقادر على كل شيء، وهو لا يريد لأوليائه إلا ما هو خير لهم، فعليهم أن يكلوا أمرهم إليه، ويتكلوا عليه في الجهاد، ولا يترددوا فيه بعد ما أمروا به؛ لأنه خير لهم ولا يكون فيه لهم إلا ما هو خير لهم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة:٥١-٥٢] فهذا معنى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

وفائدة هذا: أن يجاهدوا باذلين أنفسهم لله مسلمين لأمره لا يتوقفون حتى يثقوا بالنصر وقهر العدو، فتفسير ﴿وَلِيُّهُمَا﴾ بقوله: ناصرهما في هذا السياق وأمثاله، خلاف الظاهر عندي.

﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿أَذِلَّةٌ﴾ بالفقر، وقلة العدة للجهاد مع قلتهم في العدد، فالأذلة هنا مقابل الأعزّاء، وذلك لأنهم كانوا مستضعفين لقلة عددهم وكثرة أعدائهم في الأرض، وإنما اعتزوا بالجهاد في (بدر) والصبر، حتى نصرهم الله وأعزهم وأخرجهم بنصره من الذلة إلى العزة.

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ باجتناب معاصيه من الفشل عن الجهاد وغيره ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ بالتقوى، فالجهاد وسائر الطاعات من الشكر ونعمة النصر يوم بدر يجب عليكم شكرها فاتقوا الله رجاء أن تشكروا النعمة.

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ ﴿إِذۡ﴾ هذه هي الثالثة في هذه القصة، فلعل الأولى

منصوبة بـ(أذكر) وما بعدها بدل من الأولى، تقول يا محمد لتشجع المؤمنين: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ لتثبتوا على الجهاد ﴿أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم﴾ اللطيف بكم الذي هو وليكم ﴿بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ من السماء بأمر الله، ينزلهم إمداداً لكم وتأييداً.

﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: ألا يزيد على ثلاثة آلاف فأجيب بلى يزيد بأن يجعل المدد خمسة آلاف من الملائكة.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أهل سمات وعلامات، والسمة: العلامة، وكانوا يتخذون السمات لتحدي الأبطال، مثل ريشة يغرزها البطل في عمامته، أو عصابة حمراء يعصب بها رأسه، والوعد هذا مشروط بالصبر والتقوى؛ لئلا يبطل الإبتلاء بالجهاد وبذل النفوس لله فالإمداد متوقف على أن يصبروا في الجهاد ويتقوا الله فلا يخالفوا أمراً من أوامر الله ورسوله.

وأما الآية التي قبلها فليس فيها وعد بالمدد، وإنما هو عرض عليهم وسؤال: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾ وليس ذلك وعداً، إنما الوعد في الثانية، ولكنه مشروط بالصبر والتقوى.

وقوله: ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ أي الأعداء إن أتوكم في فورهم هذا، أي لم يتراخ إتيانهم ولم يتأخر، ولعلهم قد أقبلوا فكان فورهم مواصلتهم الهجوم حتى يأتوا المؤمنين.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وما جعل هذا الوعد المشروط ﴿إِلَّا بُشۡرَىٰ﴾ تستبشرون بها أي تسرون، وفي هذا السرور معونة وتخفيف من الشّدّة، فهو رحمة.

وجعل الله هذا الوعد ﴿لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ لأنه يفيد: أنكم إذا صبرتم واتقيتم، جاء المدد وعند ذلك ترجون النصر، ومقتضى ذلك: أنكم تفهمون من هذا الوعد أنكم لن تغلبوا إن تصبروا وتتقوا وذلك سبب لاطمئنان قلوبكم وذهاب القلق الذي سببه قلتكم وكثرة الأعداء.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من الملائكة، ولا من كثرة العدد، لأن النصر يكون بتقوية القلوب والأبدان، وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء المخذولين وهذا لا يقدر عليه إلا الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي يفعل ما هو حكمه وخير، وفيه إشارة إلى أنه إن نصر المؤمنين فالحكمة تقتضي النصر وإن حبس عنهم النصر وأصيبوا فالحكمة تقتضي ذلك.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ وعدكم الله ذلك الوعد الذي يكون معه النصر إن تم شرطه، فينصركم ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ كأنهم شبهوا بالجسد الواحد، فقتل بعضهم، وأسر بعضهم، قطع لطرف منهم لأنهم يفصلون عنهم بالقتل والأسر.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يذلهم ويبطل قوّتهم، قال في (الكشاف): ((ويقال: كبته: بمعنى كَبَدَه، إذا ضرب كبده بالغيظ والحرقة)) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((وقال الفراء: كبتوا: أي غيظوا واحزنوا [كذا] يوم الخندق كما كبت من قاتل الأنبياء قبلهم، قال الأزهري: وقال من احتج للفراء: أصل الكبت الكَبْد فقلبت الدال تاء أخذ من الكبد وهو معدن الغيظ والأحقاد، فكأن الغيظ لما بلغ مبلغه أصاب أكبادهم فأحرقها)) انتهى المراد.

وقال الشرفي / في (المصابيح): ((الكبت في اللغة: صرع الشيء على وجهه، يقال: كبته فانكبت، هذا تفسير، ثم يذكر والمراد منه الإخزاء والإهلاك واللعن والهزيمة والغيظ والإذلال وكل ذلك ذكره المفسرون)) انتهى.

قلت: المناسب للسياق من هذه المعاني الإخزاء والإغاظة والإذلال فأما اللعن فهو غير داخل في الترديد بين قطع طرف أو كبت لأنهم كلهم ملعونون، والإهلاك لا يناسب السياق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ وهي مناسبة للمعنى الأصلي سواء كان هو الكبت بمعنى إصابة الكبد ـ بالدال ـ أو كان المعنى الأصلي هو الصرع على الوجه أي الكبُّ ــ بالباء الموحدة المشددة ـ وقوله: ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ أي يرجعوا عن القتال ﴿خَآئِبِينَ﴾ لم ينالوا خيراً ولا نالوا مرادهم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يهديهم للإسلام ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بعذاب من عنده، فالأمر لله يفعل ما يشاء و﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ يعني النبي ص ليس شريكاً في شيء من أمرهم، بل أمرهم إلى الله وحده وليس على الرسول إلا البلاغ، وامتثال أمر الله في الجهاد وقبول إسلام من أسلم والقيام بما كلفه الله، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي يستحقون التعذيب.

فائدة: قال في (المصابيح) قُبَيْلَ تفسير قوله الله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾: ((قال الحاكم ـ يعني الجشمي صاحب التفسير الكبير ـ: جميع مغازي رسول الله ص ست وعشرون غزوة، قاتل في تسع منها، بدر الكبرى كانت يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان سنة اثنتين من الهجرة، وذلك أن جبريل أتى النبي ص يخبره بعير أبي سفيان المقبلة من الشام

فخرج في خِفّ من أصحابه، وبلغ ذلك أبا سفيان فغيّر الطريق وبعث النفير إلى مكة فخرجوا حتى أتوا بدراً فرأى بعضهم الحرب وبعضهم الكفّ ثم اتفقوا على الحرب فقُتِلَ جماعة وأسِرَ جماعة منهم العباس ثم فدى الأسارى، ومنها أحد في شوال سنة ثلاث، والخندق وقريظة في شوال سنة أربع، وبني المصطلق، وبني لحيان في شعبان سنة خمس، وخيبر في سنة ستّ، والفتح في رمضان سنة ثمان، وحنين والطائف في شوال سنة ثمان، وأول مغازيه بدر وآخرها تبوك. وسراياه ستة وستون)) انتهى.

قوله: عِير أبي سفيان كان الله قد أباحها، ودل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ...﴾ الآية من (سورة الأنفال) [آية:٧].

وقوله: فقتل جماعة وأسر جماعة: أي من المشركين، وقوله: والفتح في شهر رمضان: أي فتح مكة المكرمة، وقد جعل الخندق في السنة الرابعة، وقال شيخنا العلامة مجد الدين بن محمد في (التحف) [ص١١]: ((وفي الخامسة يوم الأحزاب ...)) إلخ ، ومثله في (سيرة بن هشام) وفي قول الحاكم: خيبر في سنة ست، وفي كلام شيخنا في (التحف) [ص١١]: سنة سبع وهو الذي في (سيرة ابن هشام) وفي (سيرة ابن هشام): ((أن غزوة تبوك في رجب سنة تسع)) انتهى.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لله وحده كل العالمين، لا شريك له فيهم ولا في بعض منهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لأنهم عباده، لا منازع له في قضائه فيهم، ولا معقب لحكمه.

وقد بيّن في كتابه من يشاء أن يغفر لهم ومن يشاء أن يعذبهم ؛ وليست الآية مسوقة لبيانهم ولا لإبطال بيانهم، ولا تعارض بينها وبين بيان من يشاء لهم المغفرة أو العذاب.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فمن أسلم وأصلح بعد كفره قبل توبته ولو كان ممن قد حارب رسول الله ص.

١٣٠-١٣٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال في (البرهان) ـ أي الإمام أبو الفتح الديلمي × ، أحد أئمة الزيدية له ترجمة في (التحف) ـ: بل يريد بالأكل الأخذ، والربا: زيادة القدر في مقابلة زيادة الأجل وهو ربا الجاهلية المتعارف بينهم بالنَّسا، وهو أن يقول عند حلول الأجل إما أن تعطيني وإما أن تربيني، فإن لم يعطه ضاعف ذلك عليه، ثم يفعل ذلك عند حلوله من بعد حتى يصير أضعافاً مضاعفة)) انتهى

وقال في (الكشاف): ((نهى عن الربا مع توبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه كان الرجل منهم إذا بلغ الدَّين محِلَّه زاد في الأجل فاستغرق بالشيء الطفيف مال المديون)) انتهى

قلت: وهذا واضح وقد حرم الله الربا بما في (سورة البقرة) من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا...﴾ إلى قوله: ﴿.. وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ [آية:٢٧٥-٢٧٩] وفي ذلك أحاديث مشهورة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أمر بالتقوى بترك المعاصي كلها من الربا وغيره، وهو تأكيد للنهي عن الربا.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله ـ يعني القاسم بن محمد × ـ : دلت على تحريم الربا، وعلى وجوب تقوى الله سبحانه وهي أن يلزم المؤمن ما أوجب الله ويجتنب ما حرم الله)) انتهى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فيه وجوه:

الوجه الأول: أن المراد بالكافرين المستحلين للربا، الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥] فحذر الله من استحلال الربا، لأن بعض المسلمين كانوا قد أَلِفُوا الربا في الجاهلية وصار عندهم أمراً مأنوساً، فحذرهم من الإستمرار على التساهل به.

والوجه الثاني: أن المراد بالكافرين: الكافرون بنعمة الله، لأن الربا من أعظم الكفر لنعم الله، لأنه استعمال المال الذي أنعم الله به على عبده في معصيته البشعة الشنيعة.

الوجه الثالث: أن المراد بالنار التي أعدت للكافرين: نار الآخرة جملتها، فقد أعدت للكافرين الجاحدين وغيرهم، لكل منهم على قدر جرائمه كما دل عليه القرآن الحكيم وكثير من الأحاديث النبوية كالوعيد على آكل الربا، فالمعنى أنكم إن أكلتم الربا دخلتم تلك النار وإن لم تكونوا من الكفار.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ فيما قد أمر الله به ونهى، وفيما يستقبل من أمر الله ونهيه، فليس لمؤمن الخِيَرَةُ من أمره فيما قضى الله ورسوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بصرف عذابه عنكم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦].

عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ

﴿١٣٣-١٣٦﴾ ﴿سَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذه قراءة ﴿سَارِعُوا۟﴾ بدون العطف، وقرئ: ﴿وَسَارِعُوا۟﴾ بـ(الواو) والمسارعة، والمبادرة، والمسابقة متقاربة يجمعها تعجيل العمل و﴿مَّغْفِرَةٍ﴾ نكرة يراد بها مغفرة خاصة، وهي المغفرة في الآخرة، المغفرة الخاصة للمتقين؛ لأن الناس في الدنيا يشتركون في مغفرةٍ المحسن والمسيء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد:٦] وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يدل على أن المغفرة صرف عذاب جهنم، فكأنه قال: سارعوا إلى صرف النار عنكم وإدخالكم الجنة.

وقوله: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ترغيب عظيم، يفيد: أن للواحد من أهلها مملكة لقلّة أهلها مع سعتها، وقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تفسير للمسارعة أنها المسارعة إلى التقوى وفيها، ثم بيّن المتقين لأن أصل المتقي من يتخذ لنفسه وقاية تقيه فيختلف معناه باختلاف ما يتّقى فبيّن أن المتقي هو المطيع، إلا أن أهل الطاعة طبقتان:

الطبقة الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فهذه درجة المحسنين، ولن يبلغ هذه الدرجة إلا الأخيار، كما قال الشاعر:

ذريني أنل ما لا ينال من العلى فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل

والمقصود بهم: المؤمنون، ولذلك قال في آخرها: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ التاركين لما يحبط الأعمال ويمنع قبولها، فالصفات المذكورة عناوين لفضلهم، وعلامات لكمالهم.

و﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ حال السرور بسعة الرزق ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ حال الإقلال والحاجة، فهم ﴿يُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] والمراد الإنفاق في وجوه الخير المقربة إلى الله.

﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ الذين يصبرون ويمنعون أنفسهم من فعل ما يشفي الغيظ من الانتقام، قال في (المصابيح): ((قال المبرد: تأويله أنه كتمه على امتلائه، ومنه يقال: كظمت السقاء: إذا ملأته وشددت عليه، والكاظم الممتلئ غيظاً)) انتهى المراد، أي الممتلئ الذي يحبسه كما يشد على القربة.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ تقرباً إلى الله، ولذلك يعفو عن القريب والبعيد، والغني والفقير، والصغير والكبير، والمحسن والمسيء، يصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه إلا فيما شرعه الله من الحدود والآداب فيفعله لله لا انتقاماً لنفسه.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهؤلاء منهم، فما أعظم شأنهم وأسعد حالهم في الآخرة، وقد فسر الله المحسنين في قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان:٣-٥].

﴿وَ﴾ *الطبقة الثانية* من المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ فعلوا معصية فاحشة زائدة في قبحها ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأي ذنب تعرضوا به لعقوبة من الله ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الرقيب عليهم العليم بما يصنعون، الذي إليه يرجعون، المنعم عليهم نعماً لا تحصى، ذكروه ذكراً بقلوبهم أدّاهم إلى الاستغفار وترك الإصرار على العصيان؛ لأجل أنه تفريط في جنب الله.

والاستغفار: طلب الغفران، والمراد به: ما تطابق عليه القلب واللسان، والمراد: استغفروا الله أي طلبوه الغفران ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ولذلك طلبوه ولم يطلبوا غيره أو يتكلوا على غيره كما يتكل المشركون على شفاعة شركائهم ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن قد عصوا به ربهم، فهم متعمدون له عالمون أنه معصية فخرجوا عنه بترك الإصرار وترك الإصرار: بالإضراب عنه، والعزم أن لا يعودوا إليه أبداً، وبالاستغفار، فالتوبة أمران هما المذكوران، فأما الندم على ما مضى من المعصية فهو شرط؛ لأنه لا يخرج عن الرضى بالمعصية إلا بالندم على فعلها فهو شرط في ترك الإصرار، لأن من الذنب الرضى بالذنب.

قال أمير المؤمنين × فيما روي في (نهج البلاغة) [ج٣/ ص١٥٤]: ((الراضي بفعل قوم كالداخل فيه معهم، وعلى كل داخل في باطل إثمان: إثم العمل به، وإثم الرضى به)) انتهى. وهو موافق لكلام له آخر، حاصله: أن الرضى بالمعصية مشاركة فيها، واحتج لذلك بقول الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:١٥٧] فعمهم والذي باشر عقرها واحد منهم، قال تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩].

وفي كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) ما لفظه: ((وعن القاسم بن إبراهيم × : التوبة: الندم، والعزم على ألا يعود إلى شيء من المعاصي والإخلال بالواجب، وذلك مروي عن علي بن موسى الرضا × وعليه الاعتماد، فالتوبة: الندم، والعزم على أن لا يعود إلى أمثاله في القبيح أو الإخلال بالواجب شرط)) انتهى.

قلت: والأولى أنهما ركنان للخروج من الإصرار لتحقيق الخروج عن الإصرار وقد دلت الآية دلالة واضحة: على أن الاستغفار وحده لا يكفي بل لابد من ترك الإصرار وإلا لم يكن العاصي من المتقين، وهذا واضح وعلى هذا فلا يقبل الاستغفار مع الإصرار؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] والمصر ليس مؤمناً، لأن المؤمن هو المسلّم لأمر الله وحكمه وأين التسليم من العاصي المصر، والإيمان شرط في قبول العمل لقوله الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أهل الصفات المذكورة من قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ جزاؤهم ما سارعوا إليه المغفرة والجنة التي عرضها السموات والأرض، لهم فيها جنات بساتين كثيفة الشجر ملتفة الغصون ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فهي مخضرة على الدوام ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥] وللأنهار جمال مع جمال الشجر فاجتمع جمالهما.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يموتون ولا يفارقونها ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ ذلك الأجر العظيم ﴿نِعْمَ﴾ كلمة مدح، تفيد: استحقاق الممدوح للمدح من الله مالك الملك.

مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ

قال الشرفي / في (المصابيح): ((ودلت الآيات على أن الجنة للمتقين والتائبين دون المصرين خلاف ما افتراه الرازي والمجبرة، ودل قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ على أن ذلك أجر لعملهم، فيبطل قول المجبرة: أن الثواب لا يستحق بالعمل)) انتهى.

﴿١٣٧-١٣٩﴾ ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ قد مضت ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ في الزمان الماضي ﴿سُنَنٞ﴾ عادات الله في إهلاك المكذبين ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتروا آثار المهلَكين، فإذا رأيتموهم ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ هذا الخطاب للكفار إنذار بهلاكهم إن لم يؤمنوا؛ ووقوع الآية في أثناء سياق القتال بينهم وبين رسول الله ص والمؤمنين يشير إلى أنه يرجى النصر لرسول الله ص.

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَيَانٞ لِّلنَّاسِ﴾ وتوضيح للإنذار والإعذار والتبشير وطرق النجاة وأسباب العذاب وأسباب الجنة، وكل ما لأجله أرسل الرسول وأنزل القرآن مما كلف الناس به، فهو بيان لهم كلهم.

ومعنى أنه بيان لهم: أنه من وضوح الدلالة على معانيه بحيث يتمكنون من فهمه كلهم، فقد أعد ليفهموه كلهم ومن لم يفهمه فمن جهته التقصير؛ لأنه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [الشعراء:١٩٥] وفي ذلك دلالة واضحة على عموم الخطاب به للناس كلهم وأنه ينبغي لهم كلهم أن يتفهموه ولا ييأس أحد من فهمه إذا فهم اللسان العربي، وأن فهمه لا يختص به الإمام ولا الشيخ.

قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

﴿وَهُدًى﴾ أي هذا القرآن هدى ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يهتدون به لأنهم مستعدون لذلك فيعرفون طريق الخير الموصل إلى ربهم وموعظة لهم وزجر عن الباطل ببيان ما يؤدي إليه من العذاب والخسران.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ رجع الكلام إلى الجهاد وفصل بين الكلام الأول وهذا بزواجر ومواعظ مفيدة؛ لأن الجهاد يحتاج المجاهدون معه إلى الصلاح لينصروا، ولأن الفصل يهيئ السامع لسماع بقية الكلام وينشطه له لئلا يطول عليه الكلام في موضوع واحد.

﴿وَلَا تَهِنُوا۟﴾ نهي عن الوَهَن، والوَهَن: ضد الصلابة، فالمعنى: اثبتوا واستمروا على صلابتكم ضد أعداء الله، بحيث لا تذهب صلابتكم عنهم ليجدوا فيكم غلظة وقسوة ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ لما أصابكم من الشدة في سبيل الله، لا تحزنوا على تعرضكم لذلك بالجهاد وطاعة الرسول ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أنتم الأعلون العزة والنصر لكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن شأن المؤمن أن لا يَهِن عن قتال أعداء الله ولا يحزن وأنه الأعلى المنصور؛ لأن حزب الله هم الغالبون.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿قَرْحٌ﴾ جراح وهو كناية عما أصابهم ـ أعني المؤمنين ـ يوم أحد، فقد كان المسلمون في أول المعركة قتلوا منهم حتى ضعف الكفار وخُيِّل للمسلمين أن الكفار منهزمون، أو قد بدأوا في الهزيمة، فبدأ المسلمون

في أخذ الغنائم، واختل نظامهم بإخلاء بعضهم مقاعدهم التي بوأهم إياها رسول الله ص عند استعدادهم للقتال فرجع الكفار على المسلمين من ورائهم فقتلوا منهم كثيراً، وجرحوا رسول الله ص وسقط في الأرض، وانهزم جمهور المسلمين، وكان من القتلى حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ص، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((القرح: الجراح والقتل)).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ يحتمل: أنه أصابهم مثل ما أصاب المسلمين في المعركة نفسها لانتصارهم أول اليوم، وإن لم يظهر أثره فيهم إلا إشرافهم على الهزيمة، فلعل سبب ذلك كثرتهم لا قلة القتلى، فتفسير المثل بما وقع يوم بدر ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال في (الكشاف): ((والمراد بالأيام: أوقات الظفر والغلبة ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ نصرفها ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نديل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء)) انتهى المراد.

وليس المراد بذلك إلا التمكين وما جعل لعبادة من القوة والاختيار بحيث يمكن أن يبلو بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] فالنصر والعزة لأوليائه ما داموا متمسكين بأسباب النصر المعروفة، فإذا قصروا عنها جاز في الحكمة إدالة الكفار بما قد جعل لهم من القوة التي يستطيع المؤمنون دفعها لو تمسكوا بأسباب النصر، وفيها عقاب للكفار في الآخرة، وثواب للمؤمنين بما يقع لهم من الشهادة في سبيل الله والجراح، وألم القلوب والأبدان، ولو امتنع هذا في الحكمة ما جاز تمكين الكفار الأولين من قتل الأنبياء، فالمداولة لا مانع منها في الحكمة بهذا المعنى، وفيها فوائد يأتي ذكرها في الآيات الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ابتلاكم بتمكين الكفار حتى يميز الخبيث من الطيب، فالمؤمنون يثبتون على إيمانهم في حال الشدة كما يثبتون في حال الرخاء، أما من لم يكن صادقاً في دعوى الإيمان فإنه يظهر على حقيقته عند الامتحان، فقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ﴾ أي فعل ذلك فعل المختبر الذي يريد أن يعلم، وهو سبحانه عالم ما سيكون، ولكن الثواب والعقاب يتبع ما يقع من الإيمان والكفر أو النفاق أو الفسق والاختبار يقع ليترتب عليه حكم الله في عباده، وليس الحكم يتبع العلم أنه لو ابتلاهم لأطاعوا أو لعصوا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ بما ينالون من فضل الجهاد في سبيل الله وسبقهم في ذلك لغيرهم حتى يستحقوا أن يجعلهم الله شهداء على الناس، ولعل هذا هو المراد في قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:٧٨].

وقد روى الطبري في (تاريخه) في [المجلد الثاني: ص١٧] من (الجزء الثالث): بإسناده عن محمد بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه عن جده، قال: لما قتل علي أصحاب الألوية أبصر رسول الله ص جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: (أحمل عليهم) فحمل عليهم ففرق جمعهم، وقتل عمرو بن عبد الله الجمحي، قال: ثم أبصر رسول الله ص جماعة من مشركي قريش، فقال لعلي: (أحمل عليهم) فحمل عليهم ففرق جماعتهم، وقتل شيبة بن مالك ـ أحد بني عامر بن لؤي ـ فقال جبريل: (يا رسول الله إن هذه للمواساة) فقال رسول الله ص: (إنه مني وأنا منه) فقال جبريل: (وأنا منكما) قال: فسمعوا صوتاً (لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي))) انتهى.

ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ

ولعل الذين قتلوا في سبيل الله سيكونون يوم القيامة شهداء على أعداء الله بما شاهدوا ولأنصار دين الله بما شهدوه منهم ولعلهم سموا شهداء لذلك، فتفسير القرآن بالمعنى الأصلي المعبر عنه في القرآن أظهر، كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] وقول عيسى × : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يدل على أنه لم يمكنهم في المعركة حبّا لهم وإنما تمكينهم فتنة لهم واختبار وعاقبته عذاب لهم وخسار.

﴿١٤١﴾ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال الخليل: المحص، الخلوص من الغش، ومحصت الذهب بالنار: أخلصته مما يشوبه)) انتهى المراد.

وقال الناصر × في (البساط) في (مسألة تعلق المجبرة بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ [البقرة:٢٨٦] فقال × : ((وقد يمتحن الله المؤمن في بعض الأحوال بالشدائد والزلازل وعظيم البلاء، ليمحصهم من صغار ذنوبهم، وليختبر طاعتهم وصبرهم، نظراً منه لهم ـ جل ذكره ـ ﴿لِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإذا صبروا ورضوا بامتحان الله إياهم وبلواه لهم زادهم ثواباً وكرامة، وضاعف لهم الحسنات، وأوجب لهم رفيع الدرجات)) انتهى.

مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ

وقال × في (البساط) أيضاً في (مسألة للمجبرة في الخير والشر)): ((فهذه المصائب تكون في الدنيا تمحيصاً للمؤمنين ومحقاً للكافرين، وقال ـ تقدَّس ذكره ـ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾)) انتهى.

فالقرح الذي مس القوم محق لهم؛ لأنه عقوبة عاجلة، قال في (المصابيح): ((وأصل المحق في اللغة فناء الشيء حالاً بعد حال وكذلك استعمل في النقصان)) انتهى.

﴿١٤٢﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ﴿أَمْ﴾ في معنى (بل) التي للإضراب، والهمزة التي للاستنكار، فالإضراب للانتقال من بيان بعض الحكمة في المداولة بين الناس إلى بيان أن دخولهم الجنة متوقف على ذلك الامتحان وأمثاله والاستنكار من حيث أن حسبانهم ذلك خطأ؛ لأن الجنة حفت بالمكاره، فلا تنال إلا بالصبر ومكافحة الهوى والصبر، ولا يتهيأ الصبر الذي يتميز به الفاضل من المفضول إلا مع الشدائد التي تظهر حقائق الناس ودرجاتهم في الصبر، وذلك موجب البيع المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١] والجنة تستحق ذلك؛ لأنها دار الدرجات الرفيعة والملك الكبير.

ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ

﴿١٤٣-١٤٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ﴾ **بتمني الشهادة التي أساسها الموت** ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ **وأنتم لما تحضروا المعركة** ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ **حين لقيتموه في المعركة ورأيتم أصحابكم يقتلون، فهو أمر متوقع من قبل في الجملة، وقد أظهرتم قلة المبالاة به حين تمنيتموه، فلا تجزعوا منه حين وقع بإخوانكم، فهو ذلك الذي تمنيتم لأنفسكم.**

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞۚ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ﴾ **يمضي كما مضى قبله الرسل، فليس معنى الرسالة أن يبقى في الدنيا خالداً ليبقى دينه ببقائه، وإنما معناها: التبليغ عن الله دينه الذي ارتضاه لعباده، فإذا بلغه فقد حصل المقصود بتبليغه، ولا يبطل بموته؛ لأن الدين لله لا للرسول، والله حي لا يموت** ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ **الرسول** ﴿أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ﴾ **عن دين الله، وفي هذا الترديد بين قتله وموته فائدة بقاء ابتلائه ص بالجهاد باذلاً نفسه لله وابتلاء أصحابه ـ حيث يجوّزون قتله ـ بالقتال دون دين الله، مع أن الله عالم ما سيكون.**

وقد أخبر في آخر حياة الرسول ص وبعد هذه المعارك التي بذل فيها نفسه لله وانقضت بسلامته أنه يعصمه من الناس، ولو أخبره من قبل الجهاد أنه يعصمه من الناس لخف ابتلاؤه بالجهاد، وفات عليه ثواب بذل النفس لله، ومعنى الانقلاب هنا الرجوع عن الدين.

وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ ترشيح لاستعارة الإنقلاب عن الإتجاه إلى جهة أمام، إلى الإتجاه إلى جهة وراء بواسطة الإعتماد على الأعقاب وتحويل القدم إلى الوراء: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ لأن الله غني عن طاعة المطيع، ولا تنقصه معصية العاصي ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين يشكرون الله على نعمة الإسلام ويعرفون قدرها، فيتمسكون بدينهم راغبين حريصين على الثبات عليه، فلا يتحولون عنه لموت الرسول ص ولا لغير ذلك من الإبتلاء.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إن الذي يحي هو الذي يميت، فكما أن المخلوق ليس من شأنه أن يحيى إلاّ بإذن الله، كذلك ليس من شأنه أن يموت إلاّ بإذن الله، وذلك لأن الأجل جنة حصينة، فما دام مكتوبة له الحياة لا يموت؛ لأن الله غالب على أمره، فإذا أراد التخلية ليموت خلاّ بينه وبين سبب الموت فمات بإذن الله، أي تخليته وجعل سبب الموت سبباً للموت فهو بإذن الله.

﴿كِتَٰبٗا﴾ إما كتبه الله كتاباً، وإما سمى الموت ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ أي مكتوباً له أجل يأتي فيه، قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧] قال في (الكشاف): ((أي مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار)) انتهى.

ولعل عطف هذه الآية على التي قبلها لبيان أن رسول الله ص لن يموت حتى يأتي أجله الذي كتبه الله على ما تقتضيه الحكمة فلن يقتل قبل ذلك؛ لأنه محفوظ بحفظ الله.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يصدق على الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾.

ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يتناول الذين قال فيهم: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وفيه إشارة إلى الفرق بين الثوابين؛ لأن ثواب الدنيا قليل زائل، وثواب الآخرة عظيم باق، والذي يريد الدنيا ما له في الآخرة من نصيب، كما في (سورة هود) آية [١٥] و(سبحان) آية [١٨] و(الشورى) آية [٢٠]. وقوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وعد للصالحين الذين يشكرونه بطاعته وذكره ولا يكفرون نعمته بمعصيته إلاّ أن يتوبوا، ولا يصروا كما مر في المتقين.

﴿١٤٦-١٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قُرئ: ﴿قَٰتَلَ﴾ وقرئ: ﴿قُتِلَ﴾ بالمبني للمجهول، والجمع بين القراءتين: أنه ﴿قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فقتل منهم بعضهم ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ لأن قراءة ﴿قَٰتَلَ﴾ تدل على أن الربيين قاتلوا، وقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ يدل على أنهم أصيبوا وقراءة ﴿قُتِلَ﴾ بالمبنى للمجهول تدل على أنهم مجاهدون معه أصيبوا، فمؤدى القراءتين واحد، ونسبة القتل إلى جملتهم والمقتول بعضهم تنزيل لهم منزلة الجسد الواحد، ونظيره: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾.

وجواب آخر: وهو أن قوله: ﴿قُتِلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ لا يدل على قتل الربيين كلهم؛ لأنه نكرة في الإثبات، وعود الضمير إليهم بقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ أي فما وهن الربيون الباقون لما أصابهم من قتل إخوانهم،

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] وقول الشاعر:

تنفك تسمع ما حييت بهالك حتى تكونه

فقوله: «حتى تكونه» معناه: حتى تكون هالكاً، ولا يلزم أنه الهالك الأول بعينه؛ لأن الأول كان في حياة المخَاطَب سمع بهلكه، ولا يصح أن يقول: حتى تكون الهالك الذي سمعت به.

والربيون: الربانيون وقد مر، وأما على قراءة: ﴿قَتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ فلا إشكال أي فما وهنوا لما أصابهم من مصيبة في الجهاد، ولو كانت في نبيئهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يفيد: أن بقاء قوتهم وصلابتهم من أجل أن المصيبة أصابتهم في سبيل الله، وهم قد بذلوا أنفسهم لله، فما أصابهم في سبيل الله فلهم فيه عوض كبير، ويفيدهم الصبر عليه أجراً بغير حساب، فعلمهم بذلك يهوّن عليهم ما أصابهم في سبيل الله، فلا يوهنهم.

ومعنى ﴿كَأَيِّن﴾ التكثير، مثل: كم، فكأنه قيل: وكم من نبي ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ عن جهاد العدو ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾ ماذلوا وخشعوا، فضد الوهن الصلابة، وضد الضعف القوة، وضد الاستكانة العزة واستشعارها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومنهم المذكورون، لأن وصفهم هذا يفيد صبرهم.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿مَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ حين أصيبوا إلاّ أن استغفروا الله خوفاً أن يكونوا أصيبوا بسبب ذنوب لهم، فحملهم ذلك على الاستغفار.

والإسراف: تجاوز الحد، وقولهم: ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ لعله بمعنى: أغراضنا وحاجتنا، والإسراف فيها: تجاوز الحد اللائق بهم في الاشتغال بها عن ذكر الله وعبادته، وحاصله: أنهم خافوا أن يكونوا قد مالوا إلى الدنيا في بعض الأمور فاستغفروا لذلك.

وأما تفسيره بالإسراف في المعاصي فبعيد؛ لأنهم لو أرادوا ذلك قالوا: (وإسرافنا فيها) أي في الذنوب، أو: ﴿وَإِسۡرَافَنَا﴾ من دون أن يقولوا: ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ فلما قالوا: ﴿فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ ظهر: أن الإسراف هنا مجاوزة الحد في عمل الدنيا لأغراضهم فيها وطلبوا تثبيت أقدامهم في القتال.

وفي كلام أمير المؤمنين × لابنه محمد بن الحنفية: ((تِد في الأرض قدمك)) ومعنى طلب تثبيت الأقدام طلب الإعانة على الثبات في الجهاد، ويقابل ثبات القدم: زللها المؤدي إلى السقوط والتعرض به للقتل، ويحتمل أن يقابله ـ أيضاً ـ الفرار، لكنه مجاز كقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل:٩٤].

وَدَعَوا الله أن ينصرهم ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الذين هم أعداء الله، فهذا آداب الجهاد، حكاها الله عنهم لنستفيدها لأنفسنا:

الأول: التطهر من الذنوب بالاستغفار عند لقاء العدوّ، ومن المهم قبل ذلك التخلص من المظالم، وما يمنع قبول الاستغفار.

الثاني: الدعاء بالمعونة والتثبيت للأقدام.

الثالث: الدعاء بالنصر على أعداء الله، من حيث أنهم كفار أعداء لله ولدينه.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثواب الدنيا النصر والفتح وما يتبعهما، كقوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف:١٣] وقد فسر ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالنصر والغنيمة، ولكن في حديث (المجموع): عن الإمام زيد بن علي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليهم السلام، عن النبي ص قال: ((أعطيت ثلاثاً لم يعطهن نبي قبلي..)) إلى قوله ص: ((..وأحل لي المغنم ولم يحل لأحد قبلي) إلى آخر الحديث، وتخريج الحديث في (الروض النضير) [جزء ١ ص٤٠٦ ـ٤٠٧] من حديث علي × وابن عُمَر ـ وجابر وغيرهم.

﴿وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي وثواب الآخرة الحسن، كقول عنترة:

يقضمن حُسنَ بنانه والمعصم

ويحتمل: أن الثواب هو ما يثوبون إليه وحسنه ظاهر، فإتيانهم حسن الثواب مثل إتيانهم حسن المثاب، أي جعل مئآبهم حسناً، وجعل ثوابهم حسناً؛ لأنه سعادتهم في الآخرة ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ومنهم أهل الصفات المذكورة، فالله يحبهم؛ لأنهم صابرون، والله يحبهم لأنهم محسنون ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

﴿١٤٩-١٥١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأن الكفار لا يزالون يحاولون أن ﴿يَرُدُّوكُمۡ﴾

عن دينكم وأعظم المحاولات القتال ما استطاعوه، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧] ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ بعد كونكم الفائزين وما أعظمها خسارة أن يصير المرتد الميت على كفره إلى نار جهنم قد خسر نفسه لأنه يبعث لا لينال خيراً ولكن ليعذب فحياته ليست لنفسه إنما هي للشقوة والعذاب وحرمان كل خير نعوذ بالله.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ المتولي لأموركم، المحسن لرعايتكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾ لأنه على كل شيء قدير، غالب على أمره، فإن ينصركم فلا غالب لكم، فكيف تطيعون أعدائكم وتعصون مولاكم الذي يريد لكم الخير في الدنيا والآخرة؟!! بل هو أولى أن تطيعوه وتعصوا عدوه.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ قال في (الصحاح): ((الرعب: الخوف)) انتهى، وقال تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢] وفي الحديث في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) و غيره: ((ونُصِرتُ بالرعب على مسيرة شهر)) انتهى، وهذا تشجيع للمؤمنين فلا يحتاجون إلى أن يطيعوا الذين كفروا، لأن المؤمنين الأعلون.

وسبب إلقاء الله الرعب في قلوبهم إشراكهم ﴿بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ لأن الفطرة تقتضي أن يعبدوا الله وحده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم، فوجبت عليهم عبادته، فالعدول إلى عبادة ما لم يخلق ولم يرزق بلا برهان من الله عدول عن الفطرة لمجرد هوى الأنفس، والظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، وقد كفى في إبطال الشرك أن الله ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ فدل على قبح التقليد في كل دين لم ينزل الله به سلطاناً.

فأما تقليد القاصر في تعيين حكم الله الذي جاء في كتاب الله وسنة رسوله ص فليس من هذا، إلا أنه لا يكفي في العقائد أما أنه ليس من هذا فلأن كتاب الله وسنة رسوله ص قد علم المسلمون بأنهما جاءا بأحكام الله تعالى وهي مطلوب المقلد فلم يطلب ما لم ينزل به سلطاناً إنما قلد للتوصل إلى ما نزل به سلطان من الله وذلك غاية وسعه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

وأما أنه لا يكفي في العقائد فلأمرين:

الأول: أن المطلوب فيها العلم نحو قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّـهُ﴾ [محمد:١٩] ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤] ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤] ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّـهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] وغير ذلك، والتقليد لا يحصل به العلم.

الثاني: أنه لا ضرورة للتقليد في العقائد؛ لأنها عقليات يتمكن من العلم فيها الناظر بعقله، ويكفيه التنبيه على الأدلة أو ضروريات معلومة بين المسلمين من ضرورة الدين، وأدلتها واضحة في القرآن سهلة الفهم للعربي ومتعلم العربية، أما من هو أعجمي فيكفيه الوقف وتعلم العربية والقرآن بقدر وسعه حتى يتمكن من فهم الأصول المأخوذة من القرآن، وما دام متعلماً فهو على سبيل نجاة.

ولو جاز التقليد في العقائد لجاز التقليد في اليهودية والنصرانية وهو خلاف المعلوم من دين الإسلام وهو باطل من حيث أنه لا يحصل به العلم، ومن حيث أنه يكفي في تحصيل العلم بنبوءة نبي الإسلام أيسر بحث لمعرفة إعجاز القرآن بسماع آيات التحدي بسورة من مثله، والسؤال عن معناها وبيانه بترجمة يحصل بها العلم لتطابق المترجمين في الجهات المتباعدة وقرائن صدقهم

حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ

حتى يحصل العلم بتفهيمهم له وتنبيههم له على دلائل صدقهم من أحوال واقعية وأمور عقلية معروفة كمطابقته للعقول في التوحيد وإثبات الجزاء على الأعمال في الآخرة وأمور كثيرة فارقة بين الإسلام وغيره من الملل، ولا يبعد أن يجعل الله له آية فيمن يعلِّمه يعرف بها صدقه مؤكدة لقوله، بل لا بد منه لمن طلب الحق ولم يتمكن من العلم بالسؤال لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل:١٢] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

وقد كان للإمام الناصر × في بلاد الفرس كرامات كثيرة، وأسلم على يديه أمم، ولعل معظم السبب هو الكرامات ـ والله أعلم.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي مأوى الذين كفروا ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بئس مثواهم نار جهنم ﴿بِئْسَ﴾ كلمة ذم ضد نِعْمَ، والمثوى: المقام، فهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر، أو ﴿وَعْدَهُۥٓ﴾ بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، كما في (سورة الأنفال) وهذه السورة.

قال الشرفي / في (المصابيح): «إعلم أنا قد ذكرنا في قصة أحد أن النبي ص جعل أحداً خلف ظهره واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل وأمرهم أن يثبتوا هناك ولا يبرحوا سواء كانت النصرة للمسلمين أو عليهم، فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم

بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون من ورائهم ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ قال الليث: الحَسُّ: القتل الذريع، يحسونهم: أي يقتلونهم قتلاً كثيراً، ومعنى ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي بلطف الله وتيسيره)) إنتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿تَحُسُّونَهُم﴾ معناه: تقتلونهم)) إنتهى، ومثله في (مفردات الراغب الأصفهاني).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ فسروا (الفشل) تارة بالضعف مع الجبن، وتارة بالضعف والجبن، والأولى: أنه الضعف، وأن الجبن سمي فشلاً لأنه ضعف، فالفشل هنا ليس إلا ضعف الرأي وإخلاء الرماة مواضعهم أعني الذين أخلوها منهم، ولعل الجمهور سكتوا عنهم لما وصلوا إليهم ولم يأمروهم بالعودة فوراً إلى مقاعدهم، ولذلك نسب الفشل إليهم كلهم، ويظهر أن الفشل هو الضعف قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ﴾ فليس معناه: أن تجبنا، بل قد حصل الجبن، وإنما هموا بالضعف الذي هو ترك القتال.

قال في (لسان العرب): ((الفشل: الفزع، والجبن، والضعف، ومنه: حديث جابر: (فينا نزلت: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ﴾) وكذلك في (حديث الإستسقاء) وكقول الشاعر:

سوى الحنظل العاملي والعلْهز الفَشْل

أي الضعيف يعني الفشل مدخره وآكله، فصرف الوصف إلى العلهز وهو في الحقيقة لآكله، فظهر من هذا: أن الضعف معنى للفشل مستقل غير مشروط فيه الجبن، فقوله: الفشل: الفزع والجبن والضعف، محمول على أن كل واحد من الثلاثة معنى مستقل.

ومثله قول (صاحب الكشاف): ((الفشل: الجبن وضعف الرأي، فهو محمول على أنهما معنيان، وفي (سيرة ابن هشام) عن ابن اسحاق: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي تخاذلتم)) انتهى.

﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ وكان عليكم أن تبقوا مجمعين على رأي قائدكم وطاعته، ولا سيما وهو رسول الله ص الذي لا ينبغي عنده تنازع، بل الواجب الإنقياد لقضائه، والتسليم الكامل، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥] ﴿وَعَصَيْتُم﴾ بإخلاء الرماة مقاعدهم وموافقة من وافق من الآخرين ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من قتل الأعداء وقوة المسلمين وهي نعمة كان الواجب شكرها، والثبات على طاعة الله ورسوله، لا المبادرة إلى المعصية.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ في تلك الحالة التي يجب فيها إيثار طاعة الله لو لم يكن إلا للحذر من العقوبة بتسليط العدو وهو حاضر ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ وهم من ثبت من الرماة لم يفارق مقعده ومن وافقهم في رأيهم من الآخرين، قال الشرفي في (المصابيح): ((أي منكم من مال إلى الغنيمة، ومنكم من أراد ثواب الآخرة، بأن لزم الشعب ولم يبرح على طاعة رسول الله ص وهو عبد الله بن جبير ومن ثبت معه.

قال إمامنا المنصور بالله × : أحكام الفريقين مختلفة، فحكم من يريد الدنيا بينه الله في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦] وحكم من يريد الآخرة بينه الله في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩])) إنتهى.

قلت: وفي الآية دلالة على تفسير من أراد الدنيا أنه الذي يختار الغرض الدنيوي على عمل الآخرة عند التعارض بين الغرض الدنيوي وبين طاعة الله ورسوله ص.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ يدل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ هو جمهورهم بالفعل والرضى لا كلهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ يحمل على: أنهم جعلوا الموضوع محل رأي وتدبير جديد، فتنازعوا بأن أدلى كل طرف برأيه، ولو كان التنازع مجرد المعصية وتقريرها من طرف وإنكارها من طرف آخر لما كان هناك تنازع مذموم، إنما المذموم المعصية وتقريرها أما المنكر لها الآمر بالمعروف، فلا يعد منازعاً مذموماً.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ﴿صَرَفَكُمْ﴾ بأن سلبكم ذلك التأييد الذي كان في أول المعركة فانهزمتم عنهم ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ليختبركم أي يفعل بكم فعلاً كفعل المختبر، وذلك: أنه انكشف عند الهزيمة أهل الإيمان القوي الثابت، وضعاف الإيمان الذي هو عواري بين الصدور والقلوب، والذين في قلوبهم مرض، والمنافقون، حيث ظن بعضهم أن الإسلام قد سقط، وطلب أن يأخذوا لهم الأمان من أبي سفيان.

وهذا الصرف كان لبعضهم ولعلهم العصاة والراضون والمتنازعون؛ لأنه روي: أن الرماة الذين ثبتوا ولم يفارقوا مقاعدهم ثبتوا حتى قتلوا، وكذلك رسول الله ص وعلي × ، وأبو دجانة الأنصاري، وقليل ثبتوا وقاتلوا قتالاً شديداً، ولعل قتال أمير المؤمنين × للجماعات الذي تقدم ذكره من رواية الطبري عن أبي رافع كان في تلك الحال الذي قل فيها المدافع كما يفهم من سياقها.

وفي (سيرة ابن هشام): عن أبي سعيد الخدري ا : ((أن عتبة ابن أبي وقاص رمى رسول الله ص يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شَجّه في جبهته، وأن ابن قمئة جرح وجنته فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله ص في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لايعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيد رسول الله ص ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً..)) إلخ.

وفي (سيرة ابن هشام) أيضاً: قال ابن إسحاق: فلما انتهى رسول الله ص إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: ((اغسلي عن هذا دمه يابنية فوالله لقد صدقني اليوم)) وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: ((وهذا أيضاً فأغسلي عنه دمه فو الله لقد صدقني اليوم)) فقال رسول الله ص: ((لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف وأبو دجانة)).

وفيها: وأخرج الحاكم في (المستدرك) [جزء ٣/ ص٢٤] بسنده عن ابن عباس ب قال: جاء علي ا بسيفه يوم أحد قد انحنى، فقال لفاطمة ل : ((هاكي السيف حميداً فإنها قد شفتني)) فقال رسول الله ص: ((لئن كنت أجدت الضرب بسيفك لقد أجاده سهل بن حنيف، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت الأفلح، والحارث ابن الصمة)) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه)) انتهى، وأقره الذهبي في (تلخيصه) وفي (تاريخ اليعقوبي): أن المسلمين إنهزموا ما بقي مع رسول الله ص إلا ثلاثة نفر علي والزبير وطلحة)) انتهى .

وفي (سيرة ابن هشام): أن ابن أبي بحيح، قال: نادى مناد يوم أحد: ((لاسيف إلا ذو الفقار ولافتى إلا علي)) انتهى.

يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَابَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٥٣ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم

ومن أوضح الواضحات: ثباته يوم أحد؛ لأنه لو فر ما خفي على الأمة لكثرة أعدائه وحساده الذين يكتمون فضائله، فلو وقع ذلك لأذاعوا به وشاع في بلاد الإسلام كلها، ولا شك في هذا عند من عرف انحراف كثير من الأمه وقتال كثير منهم وتوارثهم لبغضه.

﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ﴾ الخطاب للمؤمنين لا للمنافقين والذين في قلوبهم مرض لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يتفضل عليهم بالنعم التي لا يحصونها ومن فضله تبشيرهم بعفوه عنهم.

١٥٣ ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ ﴿إِذۡ﴾ منصوب بتقدير: اذكر، أو اذكروا، قال في (الصحاح): ((قال الأخفش: أصعد في الأرض، أي مضى وسار، واصعَّد في الوادي وصعَّد تصعيداً، أي انحدر فيه)) انتهى، وقال في (المصابيح): أي تذهبون في الوادي يوم أحد)) انتهى.

﴿وَلَا تَلۡوُۥنَ﴾ لا تلتفتون ولا تعطفون ﴿عَلَىٰٓ أَحَدٖ﴾ بعدكم إمعاناً في الهزيمة ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ واقفاً في أخرى المنهزمين يدعوكم لترجعوا إليه وأنتم لا تلوون عليه على أنه قريب منكم تسمعونه.

﴿فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ الله ﴿غَمَّۢا﴾ جزاء غم، فبسبب غم الرسول ص بمعصيتكم حين خالف بعض الرماة مقاعدهم وتنازعتم وعصيتم، وكان ذلك سبب غم للقائد شديد من حيث هو معصية لله ومن حيث هو سبب لرفع النصر.

مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ

فبسبب ذلك أثابكم الله غم صرفكم عن عدوكم وسلبكم القوة التي كانت في أول اليوم، حتى انهزمتم الهزيمة بهذا الشكل المذكور ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ هذه الإثابة ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ لما قد جربتم في هذه المرة ﴿وَلَا﴾ تحزنوا لـ﴿مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ لما قد جربتم في هذه المصيبة، فهي كما قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] فكانت مصلحتهم إذ عصوا في التمحيص والتهذيب والإعداد، لتحمل الشدائد وفهم موقعهم أنه موقع اختبار وابتلاء، ليخلصوا لله ويبتعدوا عن الأنانية ولا يتجرءوا على عصيان رسول الله ص في المستقبل ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من حسن أو ضده، فراقبوه ولا تغفلوا عنه لتعملوا ما فيه صلاح أمركم وتتركوا ما يوجب لكم العقوبة.

﴿١٥٤﴾ ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ ﴿ٱلۡغَمِّ﴾ الذي كان عند دعاء الرسول ص أنزل الله بعده ﴿نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ حصل به الأمن لها رحمة من الله وفضلاً، والنعاس: أول النوم يميل به الرأس.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ غيرها ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ لا الدين ولا الرسول ص ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وهو أنهم ما وعدهم النصر إلا غروراً كما في (سورة الأحزاب) ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي كان الجهل بالله شأنها، فهو أشنع الظن لا يستند إلا إلى الجهل بالله.

﴿يَقُولُونَ﴾ عند الهزيمة أو بعدها ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ليست لنا دولة ولا أمر وهذا ما طمع فيه المنافقون والكفار، ظن المنافقون أن قد تحقق ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فهو مالك الملك يؤتي ملكه من يشاء، فدولة الإسلام باقية ماشاء الله بقاءها.

﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ﴾ في أنفسهم ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ فهم في أنفسهم يرون أن قد ذهبت دولة الإسلام ولم يبق إلا أخذ الأمان من الكفار قد أهمتهم أنفسهم لهذا الظن السيئ.

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ هذا الجواب يفهم منه: أن القوم ظنوا أن الخروج كان غلطاً لأنه لم يكن لهم قدرة على القتال، فهم خرجوا للقتال بزعمهم وليس لهم من الأمر شيء وليس لهم أي سلطة، وذلك تأكيد لقول قائلهم: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَّتَّبَعْنَاكُمْ﴾ فهم يزعمون لتثبيط المسلمين عن طاعة الرسول ص أن الخروج قضية انتحارية، فأجابهم الله سبحانه أن بقاءكم في البيوت لم يكن ليدفع القتل عمن قتل لأن الرسول ص والمسلمين لا بد لهم من القتال حيث قد هجم عليهم المشركون، فسواء خرجوا أو بقوا لا بد أن يقتل من كتب عليه القتل لأنه يبرز لدفاعهم، فيقتل حيث كتب أنه يقتل.

وهؤلاء الذين قتلوا لم يكن رأيهم البقاء في البيوت؛ لأن رأيهم كان في الخروج إلى الكفار لئلا يظنوا أنهم قد جبنوا عن لقائهم، وهم يرغبون في الشهادة، فلو لم تخرجوا أيها المعترضون على الخروج لخرج هؤلاء الشهداء بإختيارهم ورغبتهم في الجهاد وقتلوا حيث كتب لهم أنهم يقتلون، لأن رأيهم خلاف رأيكم وشأنهم خلاف شأنكم، فلماذا تحزنون على خروجكم وهم لم يكونوا ليسلموا لو بقيتم في بيوتكم؟!!

وسواء كان معنى ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِمُ﴾ علم الله أنهم يقتلون في مضاجعهم أي مواضع سقوطهم قتلى، أو كتبت للملائكة في ليلة القدر في كتاب أنهم يقتلون ليزدادوا إيماناً عند صدق الخبر، فهو ليس سائقاً، وإنما هو مطابق للواقع كما لو أخبر بالصدق عما قد مضى في أنه غير مؤثر في وقوع المخبر به وإنما لا يتخلف لأنه لم يخبر به إلا لأنه سيقع.

فالخبر لازم للوقوع، ولا يصح معه فرض التخلف لأنه فرض اجتماع النقيضين لا لأن الخبر سائق إلى المخبر به، وكذلك لم يعلم إلا لأنه سيقع فوجب أن يعلمه وإلا كان جاهلاً سبحانه وتعالى، فوجب أن يكون عالماً بوقوعه لأنه سيقع، ففرض عدم وقوعه فرض اجتماع النقيضين ولا يصح، بل يستلزم فرض تخلفه فرض أن الله لم يعلم أنه واقع وإلا كان فرض علم الله تعالى بوقوعه وبتخلفه فرض علمه باجتماع النقيضين وهو محال.

﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ﴾ أي ليفعل فعل المختبر لما تضمرونه في صدوركم بأنه سيفعل ما يكون سبباً لظهوره، وهو سبحانه عليم بذات الصدور ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ من الإيمان والنيات الحسنة، وهذا بالنسبة إلى المؤمنين الذين كان انهزامهم زلة لا لخبث ضمائرهم،

مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ

فابتلوا بتلك البلوى لتطهير ضمائرهم، كما قال تعالى ـ فيما مر ـ: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فيذهب عنهم الغلط وتوهم أنهم لابد أن ينصروا لمجرد انتمائهم إلى الإسلام وكونهم مع الرسول ص، وتوهم أن لهم الحق في ذلك على الإطلاق أو نحو هذا الوهم بما بان بهذه البلوى خلافه وتصححت به العقيدة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من صالح أو سيئ.

﴿١٥٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾ انهزموا وفروا منكم أي بعضكم ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جمع المسلمين وجمع الكفار ﴿إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أوقعهم في الزلل أي في المعصية، وخوفهم أعداءه وتمكن الشيطان من ذلك بسبب بعض ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ من المعاصي من قبل، كالتهاون بأمر رسول ص للرماة أن يبقوا في مقاعدهم..أو غير ذلك.

وفي هذه فائدة عسكرية مهمة لمن يريد الجهاد: أن يتوب توبة صادقة، ويلازم الحذر من المعاصي، وتجديد التوبة عند كل زلة فوراً ليبقى النصر والتأييد والثبات، ولايكون للشيطان عليه سبيل.

﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ لأنهم لم يصروا بل ندموا كما مر في صفة المتقين وعزموا على الثبات فوراً، وهذا فيمن لم يبعد في الهزيمة بل كان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١-٢٠٢] والتوبة مقبولة من الكل.

كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ

ولكن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يفهم: أنه خاص بالخيار من الفارين بالنسبة إلى غيرهم من الذين فروا الذين لم يصروا من حيث جعلها زلة، وليس ذلك إلا فيمن لا يصر، فأما ماسبق منهم من المعصية فلعله كان سبيلاً للشيطان؛ لأنهم لم يتوبوا منه غفلة لإشتغال أذهانهم بالمعركة لا إصراراً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ فلذلك قبل توبتهم ولم يعجل بعقابهم قبل التوبة لأنه ﴿حَلِيمٌ﴾ والحليم هو الذي لا يعجل بالعقاب، بل يتركه إما مطلقاً وإما مؤقتاً.

﴿١٥٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ﴾ في النسب ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ (الذين كفروا) يحتمل أن المراد بهم: الذين يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، ويحتمل: أنهم من اليهود الذين كانوا في المدينة ولم يكونوا أسلموا لأن وقعة الخندق متقدمة، وكانوا صالحوا رسول الله ص ولم يكن نزل الأمر بقتالهم أو الجزية.

﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي سافروا، والتقدير: سافروا فماتوا في سفرهم أو قتلوا ﴿أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى﴾ جمع غاز، أي فقتلوا أو ماتوا، قال الذين كفروا لهم، أي فيهم: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ فنهى الله الذين ءامنوا أن يكونوا مثلهم، أو يعتقدوا اعتقادهم، أو يقولوا كقولهم، لأنه قول باطل، من حيث أنهم لا يعلمون الغيب.

لَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ

ومن الممكن أن لو كانوا عندهم لماتوا بسبب معتاد أو لغير سبب ظاهر، أو لقتلوا بأي سبب، ومن حيث أن الحياة والموت بإذن الله لا يملكون موتاً ولا حياة، فليس تدبيرهما إليهم، ومن حيث أن هذا يمنع الضرب في الأرض لابتغاء فضل الله والجهاد في سبيل الله محاذرة الموت والقتل؛ وعلى المؤمن أن يَكِلْ أمره إلى الله ولايترك الأسباب المشروعة ولا الجهاد لأنه لا يصيبه إلا ما كتبه الله له، ليست المصائب بالصدفة.

﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ قالوا ذلك ﴿لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ القول ﴿حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أسفاً على من مات أو قتل عقوبة لهم، فـ(اللام) مثلها في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨].

﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فمن أحياه فلن يستطاع إماتته، ومن أماته فلن يستطاع إحياؤه؛ لأن الله غالب على أمره ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجعل لكل عمل حكمه، ويرتب عليه من الخير والشر ماينا سبه.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ فهذا جواب آخر يبطل قولهم: ﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ الموهم أن القتل خسارة، فبين الله: أن السعادة في الشهادة في سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ مُتُّمۡ﴾ يفيد: أن الموت في سبيل الله يحصل معه المغفرة من الله والرحمة، ولعل ذلك لكون الخاتمة الجهاد في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿خَيۡرٌ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ أي من المال ونحوه من أغراض الدنيا الفانية.

ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ

وقراءة ﴿تَجْمَعُونَ﴾ بالمثناة من تحت، أي مما يجمع أولئك الذين كفروا وقالوا لإخوانهم، وقراءة ﴿تَجْمَعُونَ﴾ بالتاء، خطاب للناس أو الذين آمنوا؛ لأن الشهيد يصير إلى ما هو خير له من أهله وماله.

﴿١٥٨﴾ ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ إليه لا إلى غيره، فحيث متم أو قتلتم في سبيله فيكفيكم أنكم تحشرون إليه لأنكم تفوزون برضوانه وحسن ثوابه؛ لأنه ﴿لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠] وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين.

﴿١٥٩﴾ ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (الفاء) للتفريع على ما سبق منهم من المخالفة قبل الهزيمة، والمخالفة بالهزيمة، فتفرع الكلام في لين النبي ص لهم بعد هذه المخالفات، وهو أن هذا اللين كان بـ﴿رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لهم لأنه الذي جعلك على خلق عظيم، وهداك للرفق بهم، واللين بعد أن صدر منهم ما يدعوا إلى الإغلاظ عليهم في معاملة قادة الجيوش.

والضمير في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ لأصحابه، قال في (الصحاح): ((الفظ: الرجل الغليظ)) انتهى، أي سيئ الخلق، كقول الشاعر:

جعلت جزاءي غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل

وغليظ القلب: قاسي القلب قليل الرحمة، أو لا يرحم.

﴿لَٱنفَضُّواْ﴾ لتفرقوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ بعد إجتماعهم.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ وهذه زيادة في اللين وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ يتناول ما قد وقع من الخلاف يوم أحد أوقبله، وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ يتناول هذه الحادثة في أحد، وما جرى مجراها مما ندموا وتابوا منه ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ في الشأن المهم، غير ما حكم الله فيه بحكمه، مثل تدبير حرب أو صلح، والمشاورة: أن يشير النبي ص برأيه ويعرضه عليهم، ويطلب منهم إبداء ما يرون أنه الأحسن.

قال الراغب في (تفسير مفردات القرآن): ((والمشاورة، والمشورة: استخراج الرأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شُرتُ العسل: إذا اتخذته من موضعه واستخرجته منه)) انتهى.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((والأمر هنا الحرب وغيره مما ليس فيه وحي)) انتهى.

قلت: يعني بالحرب: التفاصيل فيها كما شاورهم ص هل يلقون العدو ليقاتلوهم أو يبقون في المدينة فإذا جاءوهم قاتلوهم فيها، فأما الحرب جملة فقد جاء فيها في (سورة الأنفال) و(سورة الحج) ما يدل على القتال للمدافعة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾ على أمر بعد المشاورة فأمض له وتوكل ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ كِل أمرك إليه، وإلى حسن رعايته لك، ولا تتردد وتعاود المشاورة، بل امض اعتماداً على ما يدبره الله لك.

فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : الواجب الإقتداء برسول الله ص في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] انتهى)) قلت: لعله × يعني ما ذكر في الآية كله.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وإن كثر الأعداء ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ فلا ناصر لكم غيره، وقام السؤال بقوله تعالى: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ مقام فلا ناصر لكم، لأن من الواضح أنه لا يتوقع نصرهم من أحد؛ لأن من حولهم من العرب كفار وأكثرهم أعداء، والذين هم مسالمون أكثر ما يتوقع منهم أن لا يعتدوا على المسلمين، فأما أن ينصروهم فلا يرجى فالنصر من الله وحده، فعليكم أن تطلبوه منه بطاعته وطاعة رسوله والعمل بما أدبكم به في الجهاد وبالدعاء والإلتجاء إليه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فالتوكل عليه واجب عليهم تكرر الأمر به في القرآن؛ والتوكل على الله: الإعتماد على رعايته للمؤمن وتدبيره له، وهذا في امتثال أمر الله ونهيه، أي يطيع الله اعتماداً على مايرجوه منه واتكالاً عليه، فلا يصغي إلى تخويف من عدو في القتال، أومن الفقر في الإنفاق أو نحو ذلك، وليس معنى التوكل أن يثق بأنه لايقتل مثلاً، ولكن أن يرضى بما كتب الله له في سبيله فيجاهد راضياً بذلك راجياً أنه يختار له ماهو خير له، ولا يحتاج في هذا الرجاء إلا أن يكون على بصيرة في دينه تائباً إلى ربه فإذا كان كذلك حق له أن يرجو ما هو الخير له.

ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ

فللتوكل مقدمة هي البصيرة، كما حكى الله عن بعض الرسل: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم:١٢] وقال تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل:٧٩] فهو إذا كان على بصيرة اعتقد أن الله هو مولاه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال:٤٠] ومعنى هذه الولاية: تولي أمور المؤمن بحسن الرعاية، فالمؤمن يعلم أنه لن يصيبه إلا ماكتب الله له، ويرجو أنه لا يكتب له إلا ماهو خير له، ولذلك كان الإحتجاج على الكفار للمؤمنين بهذا ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة:٥١].

وفائدة التوكل: أن لا تتحول عن طاعة الله لخوف أن تؤدي إلى مكروه، وليس من التوكل الإلقاء بالنفس إلى التهلكة حيث لاتجوز السلامة في مجرى العادة، ولذلك لا يجب التوضي بالماء في السفر في القفر الذي هو ليس مظنة الماء بل يظن الهلاك إن توضأ بالماء، وجاء فيه الحديث في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): «أنه يمسك الماء لنفسه ويتيمم للصلاة» ولامن التوكل ترك أسباب السلامة من ضرر البرد المعتادة ومن حر الشمس كذلك، ولا ترك كسب الرزق.

نعم.. من التوكل أن لا يشغله الكسب عن الصلاة مثلاً، ومن التوكل إنقاذ الغريق الذي يجب إنقاذه وإن جوز المنقذ هلاك نفسه إذا كان راجياً للسلامة وإنقاذ الغريق.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أما على قراءة ﴿يَغُلَّ﴾ بفتح الياء وضم الغين، فمعناه: ماصح ولا تهيأ أن يغل النبي.

والغل: خيانة الغنيمة، وهي من المنكرات، وقد روي أنهم قالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ص: «كلا إني رأيته في النار في عباءة غلها» أو كما قال، فلا يتهيأ لنبي أن يغل لأنه معصوم، وله من الورع والزهد ما يبعِّده عن الغلول.

وأما على قراءة أن ﴿يُغَل﴾ بضم الياء وفتح الغين، فهو مجاز للدلالة على أنه من القبح بحيث يستبعد وقوعه من مسلم مقاتل تحت راية النبي، فكأنه من الملحق بالمستحيل، فأما (صاحب الكشاف) فقد جعل المعنى في القرائتين واحداً، وجعل معنى يُغل ـ بضم الياء ـ يوجد غالاً أو يحكم عليه أنه غال، مثل: يُكفَر، ويُفسَق ـ بضم (الياء) وفتح (فاء) يكفر و(سين) يفسق.

وهذا المعنى عندي بعيد، وأقرب منه: أنه لا ينبغي أن يغله غال أي يخونه خائن؛ لأن الغلول قبيح فكيف بغلول يقع خيانة للنبي ص، فأما النبي ص فلا يتصور أن يغل أي يخون فضلاً عن أن يعلم منه ذلك أو يحكم به، أعني أن المهم نفي الخيانة لا نفي العلم بها أو نفي الحكم بها.

فإن *قيل*: إن نفي العلم بها كناية عن نفيها؟

قلنا: إن التصريح هنا أبلغ من الكناية.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يجيء به معه في الحشر يفتضح به ويكون حجة عليه ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من أهل الغلول وغيرهم ﴿مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزاد في عقاب العاصي ولا ينقص من ثواب المطيع.

﴿١٦٢﴾ ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فلابد أن الله الحكيم لا يسوي بينهما، بل يجعل لمن اتبع رضوانه حسن الثواب، ويجعله في الدنيا محرّم العِرْض، فلا يحل تهمته بالغلول ولاغيره من الرذائل.

دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

﴿١٦٣﴾ ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ **فأهل الثواب درجات متفاوتة، وأهل العقاب درجات متفاوتة لتفاوت الأعمال في الخير والشر ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ في حكم الله وجزائه ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ كلهم، فسيجعل لكل عمل ما يليق به من الجزاء بقدره، لعلمه سبحانه بالأعمال ومقادير حسنها وقبحها باطنها وظاهرها، فهو ﴿بَصِيرُۢ﴾ بها لتنزيل كل عمل منزلتة اللائقة به لعلمه به وقدرته على ذلك على أبلغ الوجوه، والبصير بالشيء: الخبير به الماهر فيه في مثل: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ [طه:٩٦] وقد ذكر هذا المعنى الإمام الهادي × في (مجموعه) المسمى (المجموعة الفاخرة).**

قال في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت على وجوب التفرقة بين من اتبع رضوان الله وبين من سخط الله عليه في الأحكام، إلا ماخصه دليل)).

﴿١٦٤﴾ ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولاً مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ **﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنعم عليهم ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولاً﴾ هو محمد ص ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ في النسب.**

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ليعلموا أن الله أرسله إليهم ويهتدوا بما في الآيات من الهدى ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ بالتربية الحسنة وتعليمهم أسباب الزكاء، وهو

الطّيبُ ضد الخبث ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي هو القرآن ليحفظوه ويتدبروا آياته ويتبعوه ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي يعلمهم الحكمة، فيجمعوا بين الإيمان والصلاح والعلم المستفاد من القرآن ومن التزكية والحكمة المستفادة من القرآن والسنة، فيكونوا مؤمنين أتقياء علماء حكماء، فقد جعل الله لهم خيراً كثيراً وهيّأ لهم فضلاً عظيماً.

ويظهر من كلام بعض المفسرين في الحكمة: ((أنها الرأي الذي أحكم في صدقهِ فلا يتخلله كذب، وفي نفعه فلا يعقبه ضرر)) انتهى.

وقيل: ((هي ملكة يتأتّى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة ووزن الأمور بموازينها الصحيحة وإدارك غايات الأوامر والتوجهات)) انتهى.

وقيل في تفسيرها: العلم، وقيل الفقه، وقيل: فهم معاني القرآن ومعرفة محكمه ومتشابهة وناسخة ومنسوخة وعامة وخاصة، ونحو ذلك على التفصيل، والأولى أن يقال: الحكمة فائدة من فوائد معرفة معاني القرآن على التفصيل لا أنها هي العلم؛ لأن القرآن يدل على اختلاف مفهوم العلم والحكمة، قال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف:٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٣].

فمن انتفع بعلمه فعمل به وكان راجح العقل جيد التدبير إذا هَمَّ بأمر تدبّر عاقبته، حسن المعرفة لعواقب الأمور فهو الحكيم، بخلاف العالم الذي لم ينتفع بعلمه الذي عقل العلم عقل رواية لا عقل رعاية، كعلماء السوء والأحبار الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، فليسوا حكماء وإن كانوا علماء، ومن أمثال إيتاء الحكمة ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى

فقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان:١٢] يستفاد منه حكمة لأنه يعرف به أن الرأي السديد أن يشكر الإنسان لينفع نفسه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] وكذلك قوله تعالى: ﴿هَاأَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [محمد:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل:٢٠] وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٧٧] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يبين أنهم كانوا في أشد الحاجة إلى الرسول ليهديهم من ضلال أي غواية عن طريق الرشاد ﴿ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي بيّن لا يخفى أنه غواية كعبادة الأصنام وأكل الميتة وشرب الخمر والزنا والقتال على أهواء وخلافات عدوانية وحمية جاهلية ووأدٍ للبنات وتحريم بعض الأنعام كما حكاه الله في (سورة الأنعام) وغير ذلك من الضلال.

﴿١٦٥﴾ ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ رجع الكلام فيما يتعلق بيوم أحد، والمصيبة التي أصابت المسلمين فيه هي قتل سبعين رجلاً وجراح أصابتهم، وهزيمتهم، وغَمٌّ وخوف وحزن.

ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ هو إصابة المسلمين للكفار يوم بدر وفي معركة أحد، ولكن المسلمين كان بعضهم يعتقد أن النصر معهم على كل حال فلما أصابتهم مصيبة يوم (أحد) قالوا: ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾؟!

أي من أين هذا استغراب لوقوعها ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ فأنتم سبّبتم له، فكنتم مصدره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلم يترك صرف المصيبة لأنه لم يقدر على صرفها، ولكنه لما سبق ذكره من الحكمة وما يأتي.

﴿١٦٦-١٦٨﴾ ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ في أحد جمع المسلمين الذي قد كان كافياً لمقاومة العدو وجمع الكفار، ولم يكن التقاء جمع الكفار بأفراد لا يصلحون للمقاومة في مجرى العادة، بل قد بلغوا أنهم جمع وجند وحزب ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنه لم يغلب ولم ينسكم، ولكنه أراد أن يبتليكم ويؤدبكم ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبوا على إيمانهم ولم يرتابوا فيكون لهم فضيلة الثبات وأجره.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ وما أصابكم يوم أحد كان لهذه الحكمة أن يبتلي الذين نافقوا حتى ينكشف سرهم، فقد كان فيما روي: ادعى عبد الله بن أُبَيّ أن رسول الله ص خالف رأيه في البقاء في المدينة حتى يصل العدوّ إلى المدينة ويقاتلوه عند وصوله.

وكان رسول الله ص ـ فيما روي ـ قد رجح هذا الرأي عند المشاورة في الخروج أو البقاء، ولكن بعض المخلصين من أصحابه أشاروا بالخروج للقاء العدوّ فوافقهم رسول الله ص فخرج ومعه الجيش وكانوا فيما روي ألفاً، فرجع عبد الله بن أبي ومعه ثلث الجيش من الطريق، بدعوى: أن الخروج خلاف الرأي، ولما اشتد القتال تبعهم بعض المخلصين، وقال لهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾ أي ادفعوا عن وطنكم وأهلكم ومالكم وأنفسكم إن كنتم لا تريدون القتال في سبيل الله، ولكن عبد الله بن أبيّ لا يريد القتال أصلاً لأنه خلاف الولاء للكفار الذي هو معنى النفاق.

فظهر: أن رأيه في البقاء في المدينة لم يكن ليقاتل فيها، وإنما ليسلمها للعدو عند وصوله، وأن خروجه مع الجيش لم يكن ليقاتل، ولكن ليرجع فيضعف بذلك قوة المسلمين، وأنه لا يريد القتال لا في سبيل الله ولا في الدفاع، وأنه عاص لله ورسوله.

ثم تجلى نفاقه بإرجافه حيث أجاب: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾ فهو يزعم أن لقاء العدو في تلك الحال ليس إلا بمثابة انتحار وتسليم النفس للهلاك، وهذا باطل واضح، فقد قاتلوا في بدر وهم قلة أقل من عددهم يوم (أحد)

ولكنه قد ظن عدو الله أن الكفار هم الغالبون وأن الإسلام يسقط، وفي أمله أنهم إذا غلبوا رجع إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ من النطق بالشهادتين وما أشبه ﴿مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لأنهم غير مؤمنين ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ من النفاق والنية الخبيثة وغير ذلك.

﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قَعَدُوا﴾ عن القتال في حال هجوم العدو الذي لا يدفعه إلا القتال لا القعود وإنما القعود يُجرّيه، فإذا هجم على المسلمين مع فرط حقده عليهم لغضبه لدينه وملته ولمقتل أصحابه يوم بدر فكيف يُبْقِيْ على مسلم بل هو مظنة أن يستأصل شَأْفَتَهم فكيف يقول عدو الله المنافق: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وهم إنما دعوهم إلى القعود، فقد ظهر نفاقه في هذه الكلمة أيضاً.

﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾ أي فادفعوا عن أنفسكم ﴿الْمَوْتَ﴾ الذي لابد منه ولا مفر منه ولا محيص ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ إنكم تستطيعون دفع القتل عن إخوانكم لو أطاعوكم، فإنَّ دَفْعَ القتل عنهم حينئذ مثل دفع الموت؛ لأنهم لو أطاعوكم فقعدوا هجم عليهم العدو فقضى عليهم بلا ريب.

وفي كلام أمير المؤمنين × : ((فو الله ما غزي قوم قط في عقر دارهم إلا ذلوا)) وفي القرآن الكريم حكاية: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة:٢٣] فما يروى أن رسول الله ص كان رأيه البقاء في المدينة محمول على أنه كان يوهم ذلك تألفاً للمنافقين قبل ظهور نفاقهم، ورؤياه أنه أدخل يده في جيب درعه كان تأويله رجوعه المدينة بعد تولي الأعداء ورجوعهم إلى مكة، بمعنى: أنه رجع في حفظ الله وحمايته ونصره بالرعب، ولو كان تأويله ترك الخروج لكانت الرؤيا لم تصدق.

يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞

﴿١٦٩-١٧٠﴾ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ العطف بالواو يفيد أن هذا من الرد على المنافقين الذين جعلوا القتل خسارة، حيث قالوا: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ بمعنى: أنها فاتتهم السلامة المرغوبة، فبيّن الله أن الذين قتلوا في سبيل الله أحياء في حالة أحسن من الدنيا، ونهى النبي ص عن حسبانهم أمواتاً، والخطاب له عام، له ولمن بلغه، ولعله خص لتبشيره تبشيراً خاصاً به؛ لأنه قتل حمزة ومؤمنون عزيز عليه ما عنتوا معه، فكانت المصيبة عليه عظيمة.

وقوله: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ أي بل هم أحياء أرواحهم، ولعله عبر بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ ليفيد التصعيد بأرواحهم، وأن الحياة حياة الأرواح، ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أنها مقربة مكرمة، ومعنى ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ رزقاً يصلح للأرواح، ولا مانع أن يكون لأجسادهم حياة مخالفة لهذه الحياة المعهودة، ولكن الروايات وقوله: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ يظهر منها أن المراد حياة الأرواح.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ نصب ﴿فَرِحِينَ﴾ على أنه حال من ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ وفي هذا زيادة التحقيق لكونهم أحياء حقيقة، فهم حين قتلوا خرجوا من الحياة الدنيا، وانتقلوا إلى حياة أفضل في النعمة والسرور.

وقوله: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يفيد: أنه لا ينقص من أجورهم شيئاً؛ لأنه ليس من الأجور ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أو معنى ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ هدايتهم للجهاد ونيل الشهادة.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾ بإخوانهم المؤمنين الباقين بعدهم، فقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي ما زالوا أحياء باقين خلفهم.

وفائدة: ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ تحقيق أن المراد بعدم اللحوق: بقاؤهم خلفهم لا القصور عن درجتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بدل اشتمال من (الذين) أي يستبشرون بأن لا خوف على إخوانهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ في الآخرة، وذلك لأنهم علموا بحسن عاقبتهم فاستبشروا لهم، والمراد: لا خوف عليهم من عذاب الله.

﴿١٧١﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ نعمة إحسان وفضل عطاء تفضل، فالنعمة والفضل ماهم فيه من الكرامة التي تفضل بها، ويستبشرون بـ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بل لا بد أن يوفّوه يوم القيامة.

وهذا كله لهم ولإخوانهم، وقيل: لإخوانهم، والأولى العموم؛ لأنه وإن رجع يستبشرون الثانية إلى الأولى، فلا يلزم أن تخص إخوانهم، فكأنه قيل: ويستبشرون بالذين من خلفهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل، فاستبشارهم بالذين من خلفهم داخل في استبشارهم بنعمة من الله وفضل لأنه نعمة الله عليهم، وعلى إخوانهم وفضله للشهداء ولإخوانهم.

مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ

﴿١٧٢-١٧٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ **الذي يظهر من ترك العطف في أول الآيتين، أنهما تفسير للذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وتخصيص بهم، فلا يدخل في ذلك غيرهم.**

ومعنى: ﴿ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ **أجابوا دعوة الرسول إلى الجهاد مرة أخرى** ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ **في وقعة أُحُد، وتلك حالة شديدة؛ لأنهم كانوا في حالة تعب وجراح وقد لاقوا من ملاقاة الكفار شدة أثرها باقٍ في أنفسهم لكنهم يحبون الله ورسوله حباً غلب ذلك كله، لأنهم يريدون الآخرة ويرغبون في الشهادة فلذلك عظم فضلهم وأجرهم؛ فيحتمل: أنهم أهل حمراء الأسد، ويحتمل: أنهم الذين ثبتوا مع النبي ص بعد قتل من قتل منهم وانهزام الكثير من الصحابة، والأقرب: أنهم أهل حمراء الأسد؛ لأجل قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ...﴾.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((وفي سبب نزول هذه الآية أقوال:

***الأول*: أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا على انصرافهم وقالوا: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعب أردفتم قتلتموهم حتى لم يبق منهم إلا الشريد تركتموهم ارجعوا واستأصلوهم فرجعوا إلى حمراء الأسد،**

وسمع بهم رسول الله ص فأراد أن يرهب عدوه فدعا أصحابه إلى اتباعه، ونادى مناديه: (أن لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس) وألقى الله الرعب في قلوب الكفار فانهزموا من غير قتال، فخرج الرسول ص مع قوم من أصحابه، وقيل: كانوا سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد وهي من المدينة على ثمانية أميال)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وعد معلق على الإحسان والتقوى جملة؛ لأن العمدة في قبول الأعمال التقوى، و(من) للبيان ولا تفيد الكل ولا البعض أنهم أحسنوا واتقوا ولكنها تتبع الواقع عموماً أو خصوصاً، ألا ترى إلى قوله تعالى:﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ [الأحزاب:٣٠] أنها لا تفيد: أن إحداهن أتت بفاحشة ولا كلهن، فكذلك قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ﴾ سواء كانوا كلهم أو بعضهم، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] فلا معنى للخلاف هل هي للبيان أو للتبعيض.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ أي بعض الناس، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((يعنى رجلاً واحداً)) انتهى.

والذي يظهر من الروايات: أن الإرجاف وقع مرتين، المرة الأولى عقب غزوة أحد، والثانية قرب موعد بدر الصغرى، فالأول: ركب من عبد قيس والثاني: نعيم بن مسعود.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ أي جمعوا العدة لحربكم، وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ أي هذا الإرجاف لأنهم جددوا عزمهم على القتال وإن كان العدو قد جمعوا لهم ورغبوا في الشهادة وازدادوا صلاحاً

وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ

واستعداداً، فاستنارت بصائرهم وازداد إيمانهم ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا أي يكفينا الله؛ لأنه معنا ونحن متوكلون عليه ﴿وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ الذي توكل إليه الأمور لقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وحسن رعايته لأوليائه.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ رجعوا حين علموا أن العدو لايلقاهم ﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ وهي في أنفسهم وما استفادوه، فالنعمة والفضل في أنفسهم زيادة الهدى والنور وقوى البصائر والفرح بإلقاء الله الرعب في قلوب الأعداء وفضيلة الصبر والنيات الصادقة وما استفادوه من الإرهاب على العدو وأنهم ما وهنوا في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا.

وقوله: ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ أي في مخرجهم ذلك واتبعوا رضوان الله باستجابتهم لله ورسوله.

وقولهم: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ وغير ذلك مما اتبعوا به ما يرضي الله كالنَّصَب والظمإ وغير ذلك مما ذكر في (سورة التوبة) وقوله تعالى: ﴿ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ يشير إلى فضله تعالى عليهم بما هيأ لهم من أسباب الفضل والقربة وهداهم له، فإنه فضل عظيم نالوه بصبرهم وخلوص نياتهم وهداية الله لهم، ويشير إلى فضل عظيم أعده لهم في الآخرة.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ إنما ذلك المرجف المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾

عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ

إنما هو الشيطان يخوفكم ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ الكفار الذين هو معهم في عدواتكم، تعدى بخوف إلى أوليائه؛ لأن غرضه بالتخويف جعل أوليائه مخوفين فأبطل الله كيده بقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣] فإن شأن المؤمن أن يخشى الله لإيمانه بقدرته وعلمه وإيمانه بالرسول ص ووجوب طاعته وكون مخالفته سبباً لعذاب الله، فالمراد: خافوا معصيتي أو خافوني إن خفتموهم مثل خوفكم لي.

﴿١٧٦﴾ ﴿وَلَا تَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لَا تَحْزُنكَ﴾ مسارعتهم في الكفر بنصرهم للكفر ومسارعتهم في نصر الكفر، وذلك أن رسول الله ص كان حريصاً على ظهور دين الله وسقوط الكفر حباً من الرسول ص لله ورغبة في أن تكون كلمة الله في الأرض هي العلياء وكلمة الذين كفروا السفلى، فقال تعالى: ﴿لَا تَحْزُنكَ﴾ أي ذلك ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بمسارعتهم.

وهو الذي مكنهم من ذلك حتى استحقوا ﴿أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا﴾ أي نصيباً ﴿فِى﴾ خير الحياة ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فلا تحزن مما يصنعون؛ لأنهم لن يضروا الله، وإنما يضرون أنفسهم، وهو تعالى هيأ لهم أن يضروا أنفسهم حين مكنهم من نفعها وضرها فاختاروا ضرها، وحين خذلهم بسبب ذلك وسلط عليهم الشياطين أي تركهم وشأنهم.

إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

﴿١٧٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ استبدلوا الكفر بالإيمان، إما أنهم ارتدوا كما حصل من بعض المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤] وإما أنهم لما كانوا في حضرة الآيات يتلوها رسول الله ص ويسمعونها وكان من حقهم لو استعملوا عقولهم ورفضوا أهواءهم أن يؤمنوا، لكنهم اختاروا الكفر بدلاً من أن يؤمنوا، فكانوا كأنهم اشتروا الكفر بالإيمان.

﴿١٧٨﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿نُمْلِى لَهُمْ﴾ نطيل لهم في مدة الحياة ممكنين من الطاعة والمعصية ابتلاءً، وقد علم الله ماسيختارون، فكانوا كأنه مهلهم ليختاروا الإثم، وفي هذا التعبير دلالة على أنه غني عنهم، وأنها لا تضره معصيتهم وأنه مهلهم وهو عالم ما سيكون منهم؛ وأصل السياق لا يحسبن الذين كفروا أن املاءنا لهم خير لأنفسهم بل هو يستلزم أن يختاروا الإثم فيصير لذلك شراً لهم، ولم يقل بل هو شر لهم لأن الإملاء في الأصل نعمة لهم؛ لأنهم يتمكنون فيه من تلافي أنفسهم بالإسلام والتوبة فهو في الأصل خير لهم من حيث هو تعريض على السعادة الدائمة وإنما ينقلب شراً لهم بسوء اختيارهم.

فما أحسن تعبر الآية الكريمة ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ فكان الشر ازديادهم إثماً لا نفس الإملاء فهو ابتلاء، ونفعه وضره تابع لاختيارهم وإنما يصير شراً بازديادهم فيه إثماً ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿لَهُمْ﴾ يصيرون إليه فتكون الحياة الدنيا كأن لم تكن إلا سبباً له ووبالاً عليهم.

لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ

﴿١٧٩﴾ ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ **هو نفي مؤكد بمعنى أنه لا يصح في حكمة الله أن يذر المؤمنين ملتبسين بغيرهم غير متميزين عنهم.**

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي على الحالة التي أنتم عليها من التشابه في دعوى الإيمان وعدم تميز الصادق في دعواه من الكاذب، فقوله: ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أي الآن عند نزول الآية هذه، ولا يصح أن يفسر بما كنتم عليه قبل وقعة أحد إذا كانت الآية إنما نزلت بعد أحد، بل هي تفيد: أنه لابد من ابتلاء وفتنة غير ما قد كان في وقعة أحد حتى يتم التميز بين المؤمنين الصادقين وغيرهم، فهي كقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ...﴾ إلى آخر الآيتين [العنكبوت:٢-٣].

فأما إن كانت هذه الآية نزلت قبل أحد فمن مصاديقها ما كان من الإبتلاء في أحد، وفائدة تأخيرها في ترتيب الآيات الدلالة على فتنة غير ما قد وقع حتى يميز الخبيث الفاقد للإيمان الكاذب في دعواه الإيمان من الطيب المؤمن حقاً.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ حتى تميزوا بين الخبيث والطيب من قبل أن يتميزوا بأعمالهم الكاشفة عن أسرارهم بسبب الفتنة، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء فيرسلهم إليكم ليطلعوكم على ما يشاء من الغيب

يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ

أي على ما أرسلهم به من الغيب كأخبار البعث والجنة والنار، دون أن يطلعكم على الغيب جملة، فأغنى ذكر الرسل عن ذكر المرسل به لوضوحه من الواقع الذي هو الإنذار والتبشير ونحو ذلك من الأخبار بالمغيب فيما أُرسل به خاصة لا كل الغيب.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي ؑ): ((﴿يَجْتَبِي﴾ معناه: يختار)) ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ إيماناً صحيحاً صادقاً لا مجرد الدعوى ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو السعادة الدائمة في الآخرة.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ الباخلون ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ عن الإنفاق الواجب عليهم، لا يحسبوا بخلهم به ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُم﴾ من إنفاقه وحسبانهم هذا مثل حسبان الذين كفروا أن إملاء الله لهم خير لأنفسهم؛ لأنه غلط عكس الواقع وقوله: ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل و﴿خَيْرًا﴾ مفعول ثان لـ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ لأنه من أفعال القلوب، والمفعول الأول مقدر أي بخلهم، دل عليه قوله: ﴿يَبْخَلُونَ﴾. ﴿بَلْ﴾ البخل ﴿هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بيان لكونه شراً لهم، أي يجعل طوقاً لهم في أعناقهم، فهذا أشبه (آية الكنز): ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ...﴾ الآية [التوبة:٣٥] وجوزوا أنه مجاز عن لزوم إثم البخل لهم، ولكن كان يكفي لو أريد ذلك، سيطوقونه يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣].

أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾

فالظاهر الحقيقة، ولا موجب للتأويل؛ لأن أمور الآخرة مخالفة للمعهود في الدنيا، إلا أن الآية تحتمل تطويقهم به يوم القيامة في موقف الحساب تقريعاً لهم وتوبيخاً وتشهيراً بهم في الموقف، لا أنه يبقى في أعناقهم في النار، وهذا قريب إذا كان الذي بخلوا به من الأنعام ونحوها أو من الحبوب ونحوها ـ والله أعلم.

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فهو خير الوارثين لا يبقى إلا هو ويفنى كل ذي مال، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠] وهو حث على الإنفاق، لأن الذي يبخل به يموت ويرثه غيره، فتكون فائدة البخل أنه لم ينتفع به كأنه لم يكن له، ولذلك جاء في الحديث: ((ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت)).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه على قدره وعلى قدر حقيقته ومخبره، فالبخل إذا كان الدافع له حب المال فقط له درجة من العذاب، وإذا كان الباعث عليه عداوة الدين وكراهة الإنفاق في سبيل الله لأنه نصر للدين يكون عذابه أشد وهكذا.

﴿١٨١-١٨٢﴾ ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ لا أتصور أن يقولوا ذلك اعتقاداً، والأقرب: أنه استهزاء بأمر الله بالإنفاق في سبيله، أو بتسميتة قرضاً لله، كما روي كفراً وتمرداً وتكذيباً، ولزمهم حكمه وإن أخرجوه مخرج الإلزام، أي إن كان الله اقترض منا فهو فقير ونحن أغنياء لأن شرطه واقع فهو لازم لهم.

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ نثبته عليهم لا يلغى ولا يضيع ليجزوا به ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَآءَ﴾ نكتبه عليهم لمشاركتهم فيه بالرضى بما فعل أوائلهم من قتل الأنبياء، ويظهر من هذا أن القائلين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ هم من اليهود، ويجوز أن يحمل الكتاب على الحقيقة ليوبخوا به، ولكن الأقرب هنا هو الأول؛ لأن قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ للمستقبل وكتابة الحفظة له فيما نتصور عند وقوعه وقد مضى، وهو الذي نفهمه من قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يفيد عظم جريمتهم بتصريحه بكونه بغير حق فهو ظلم عظيم؛ وهذه الآية والتي تأتي قريباً ـ إن شاء الله ـ من أوضح الأدلة على أن الرضى بالعمل مشاركة فيه كما قال أمير المؤمنين × ، واحتج له بقوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:١٥٧] فالمشاركة في قتل الأنبياء إنما هي بالرضى به تعصباً لأسلافهم وتمرداً وعتواً ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ إهانة لهم ودلالة على قصد تعذيبهم ليذوقوه فهو غضب عليهم شديد.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾ في الدنيا ﴿أَيْدِيكُمْ﴾ أي فعلتموه من الجرائم ونسبتة إلى أيديهم تحقيق لنسبته إليهم وإن كان بعضه قولاً باللسان وبعضه رضى بالقتل، كقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يونس:٧١].

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي وبأن الله ليس بظلام للعبيد، فإن كانت (الباء) للمصاحبة فمعناها: أن عذابهم مقرون بجرائمهم اللازمة لهم في أعناقهم لا تنفك عنهم أبداً، وبعدل الله في تعذيبهم.

وإن كانت للسببية ـ وهو أظهر ـ فمعناها: أن ذلك العذاب بسبب جرائمهم وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، فلا يترك الظالم دون أن ينتصف منه للمظلوم فمن عدله الانتصاف لأنبيائه الذين قتلتموهم بغير حق، ولا يجوز منه ترك الإنصاف لأنه الذي مَكَّن الظالم من قتل المظلوم بل جزاءه شرط في حسن التمكين وتركه ظلم لا يكون من الله ـ جلّ جلاله ـ لأنه ليس بظلام للعبيد؛ واستعمال صيغة التكثير لكثرة الظلم المنفي من حيث كثرة العبيد الذين يقع منهم ما يوجب عليهم الانتقام.

﴿١٨٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ وهذا كذب على الله أضافوه إلى قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ﴾ ومع كونه كذباً على الله منع من الإيمان بالرسل الذين لم يأتوا بقربان تأكله النار فهو صد عن الإيمان، مع أنه كذب على الله واضح البطلان؛ لأن الله ﴿أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود:٤٥] لا ينهى عن الإيمان برسله، وهو مضمون دعواهم الكاذبة فهي خرافة مَرْذُولَة لا تقبلها العقول، كيف يرسل الله الرسول وينهى عن الإيمان به، والقربان: ما يتقرب به من الذبائح أو النَّحَائِر ﴿تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ يرسلها الله عليه فتأكله.

قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ

﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي﴾ بالآيات البينات، الدالة على أنهم رسل من الله اصطفاهم للرسالة، وإذا جاءت الآيات وجب الإيمان بها وبالرسل؛ لأنها دلت على أنهم رسل من الله، وبانت عن أفعال المخلوقين فتبين أنها من الله لكون المخلوقين لا يقدرون عليها فوجب الإيمان بأنها آية من الله تدل على صدق الرسول، فقد جاءوكم بالبينات التي توجب عليكم الإيمان.

﴿وَ﴾ جاءوكم ﴿بِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ﴾ فكل رسول منهم جاء بقربان تأكله النار ولم يكن ذلك إلا زيادة في الحجة عليكم، ودعواكم أنه شرط في الإيمان قول من عند أنفسكم قلتموه كذباً ﴿فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ بعد ذلك ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في اعتذاركم عن ترك الإيمان بمحمد بدعوى أن الله عهد إليكم أن لا تؤمنوا أي لم يمنعكم من الإيمان إلا ذلك وأنتم لم تؤمنوا برسل قبله جاءوا بالبينات وبالذي قلتم، بل قتلتموهم فبان أنكم لا تؤمنون، ولو جاء ما قلتم.

﴿١٨٤﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ فلك أسوة رسل من قبلك كذبوا مع أنهم ﴿جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الحجج الواضحة الدالة على صدقهم ﴿وَ﴾ جاءوا بـ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب فيها هدى وإرشاد ﴿وَ﴾ جاءوا بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ الذي يهدي به الله إلى صراط مستقيم؛ لأنه منير يضيء الصراط المستقيم،

ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ

وهذا الكتاب يمتاز على الزبر بما فيه من الهدى والنور، فلم يكن ينبغي لعاقل أن يكذب رسلاً ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ لأنهم جاءوا لهداية الناس إلى السعادة الدائمة، وإنقاذهم من عذاب النار، فهم جاءوا بالخير العظيم لمن قبله واتبعه، فكذبهم الكافرون لغير حجة ولاعذر ولكن ظلماً وانقياداً للشيطان، فتكذيبهم لا يقدح في رسالة الرسل ولا يدل على ضعف الآيات فكذلك تكذيب من كذبك يا محمد فلا يحزنك كفرهم.

﴿١٨٥﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ولو بلغت في الفضل والدين مبلغاً عظيماً مثل رسول الله ص لأن الدنيا ليست دار الجزاء ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لا قبله ﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾ أي أبعد ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾ المعهودة نار جهنم ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظفر بالخير العظيم والنجاة من كل شر، فحسبه ذلك ولا عليه إذا لم يعجل ثوابه في الدنيا الفانية التي هي دار العمل لادار الجزاء.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ﴾ قليل زائل متاع ﴿ٱلْغُرُورِ﴾ مع قلته وكونه يفنى أنه يغتر بها كثير من الناس الذين يحبون العاجلة ويذرون الآخرة، فلذلك لم تكن دار جزاء لأولياء الله و﴿ٱلْغُرُورِ﴾ مصدر غَرَّ أي غرهم متاع الحياة الدنيا.

ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا

﴿١٨٦﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ **لتختبرن، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾** [البقرة:١٥٥].

﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بما يصيبها من أسباب النقص، وبالنقص من الثمرات وغيرها ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بالنقص من الأنفس، وبالأمراض وبالجراح في سبيل الله وغير ذلك، وفائدة هذا التقديم: أن يتهيئوا ويستعدوا ويعزموا على الصبر والتقوى، فكلما جاءت مصيبة تذكروا الصبر والتقوى عندها.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ اليهود والنصارى أو هم وغيرهم ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ عموما ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ من التكذيب والجدال في آيات الله والسب وغير ذلك، وسمي أذى لأنه يُتأذى منه.

قال في (مفردات الأصبهاني): ((الأذى: ما يصل إلى الإنسان من الضرر)) انتهى، والآية في الضرر المسموع وحده وقال تعالى: ﴿كَثِيرًا﴾ ليوطنوا أنفسهم على تحمله.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟﴾ على الإبتلاء والأذى في الله ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الصبر والتقوى ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. قال في (لسان العرب): ((وعزم ليفعلن: أقسم، وعزمت عليك: أي أمرتك أمراً جداً)) انتهى.

***وعلى هذا*: فـ(عزم) مصدر، بمعنى (اسم المفعول) أي من معزوم الأمور عليكم.**

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي إ): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: ((عزائم سجود القرآن أربع...)) إلى قوله: ((..وسائر ما في القرآن، فإن شئت فاسجد وإن شئت فاترك)) فدل على أن العزيمة ما لا خيار فيه، وهي فعيلة بمعنى مفعولة، زيدت فيها التاء لجريه مجرى الإسم مثل: النطيحة وغيرها.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((وللآية تأويلان: الأول: أن المراد منه أمر الرسول ص بالمصابرة على الإبتلاء في النفس والمال والمصابرة على تحمل الأذى وترك المعارضة والمقابلة، وإنما أوجب الله تعالى ذلك؛ لأنه أقرب إلى دخول المخالف في الدين، كما قال سبحانه: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية:١٤] والمراد بهذا الغفران: الصبر، وترك الإنتقام، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] وقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] وقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤] قال الواحدي: ((كان هذا قبل نزول آية السيف)).

وقال غيره ـ وهو الصحيح ـ : ((إن هذا ليس بمنسوخ، والظاهر: أنها نزلت عقيب قصة أحد، والمعنى أنهم أمروا بالصبر على ما يؤذون به الرسول ص على طريق الأقوال الجارية فيما بينهم، واستعمال مداراتهم في كثير من الأحوال، والأمر بالقتال لا ينافي الأمر بالمصابرة على هذا الوجه، والتأويل الثاني: أن يكون أراد من الصبر و التقوى الصبر على مجاهدة الكفار ومنابذتهم والإنكار عليهم..الخ)) انتهى.

يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ

قلت: لأن القتال في سبيل الله امتثال لأمر الله ليس انتقاماً من الأذى بل لكفرهم وصدهم عن سبيل الله.

﴿١٨٧﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ هذه الآية في أهل الكتاب تناسب قوله تعالى فيهم: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ من حيث دلت هذه الآية على أنهم لا يريدون الحق بل يتبعون أهواءهم، ولذلك نبذوا كتاب الله ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ واستبدلوا به ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هو ما ينالونه من الدنيا ليكتموا، أو لأنهم كتموا ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه سحت يعذبون به استبدلوه بالحق الذي لو اتبعوه سعدوا فهي صفقة خاسرة.

و(بئس) كلمة ذم تعبر عن ذم ما تقال فيه ضد نِعْمَ في المدح، وقوله تعالى في أول الآية ﴿وَإِذْ﴾ بمعنى: اذكر إذ أخذ الله؛ وفي الآية دلالة على: أن الكتاب بيّن الدلالة، بحيث يفهمه أهل الكتاب كلهم، ولذلك كان الكاتمون مذمومين على الكتمان وكان كلهم مكلفاً بالبيان، فدل ذلك على أنه لم يكن خاصاً بإمام أو وصي أو شيخ، فإذا جاز ذلك في التوراة جاز في القرآن أن الخطاب به عام، وأنه بيّن بحيث يفهمه كل مكلف باتباعه ومن قصر عنه فإنه لتركه تعلم العربية أو إعراضه عن إحراز ما يفهمه من معانيه وحفظها، فبطل دعوى من يدعي اختصاص الخطاب به وفهمه بالإمام أو الشيخ، وقوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ معناه تركوه مستخفين به.

﴿١٨٨﴾ ﴿لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ قال في (الصحاح): ((فرح به: سُرّ به، والفرح ـ أيضاً ـ البطر)) انتهى، وفي (لسان العرب) الفرح: نقيض الحزن، وقال ثعلب: هو أن يجد في قلبه خِفّة، ثم قال: والفرح ـ أيضاً ـ البطر.

وقوله تعالى: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] قال الزجّاج: ((معناه: ـ والله أعلم ـ لا تفرح بكثرة المال في الدنيا؛ لأن الذي يفرح بالمال يصرفه في غير أمر الآخرة، وقيل: لا تفرح لا تأشر، والمعنيان متقاربان لأن إذا سُرّ ربما أَشِرَ)) انتهى.

وفي (تفسير الشرفي /): ((عن الإمام المرتضى بن الهادي إ في تفسير: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ معنى ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ فهو فرحهم بما ارتكبوا وأتوه من الجرأة على خاتم النبيئين والطعن على المؤمنين مع قبيح فعلهم ومُسْتَسْمَجِ سيرتهم، فكانوا يستحسنون ذلك من أنفسهم ويرونه جائزاً عندهم لشرارتهم وشدة كفرهم وبعدهم من الله وعنادهم.

والفرح: فهو أشر وإزْدِهَاء وتبع للمعصية والهوى، كفرح قارون إذ يقول له قومه: ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] وإنما كان فرحه جرأة وأشَرَاً ومعصية لله وتمرداً، وهذه الآية نزلت في اليهود ذماً لهم فيما كانوا يأتون من الجرأة على الله سبحانه وعلى أوليائه)) انتهى.

أما الراغب ففي (مفرداته): ((الفرح: انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب) أيضاً: ((الأشَرُ: شدة البطر، ثم قال: فالأشر أبلغ من البطر والبطر أبلغ من الفرح فإن الفرح وإن كان في أغلب أحواله مذموماً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] فقد يحمد تارة إذا كان على قدر ما يجب، وفي الموضع الذي يجب كما قال تعالى: ﴿فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨] وذلك أن الفرح قد يكون من سرور بحسب قضية العقل، والأشَرُ لا يكون إلا فرحاً بحسب قضية الهوى)) انتهى.

وقال في تفسير (البطر): ((البطر: دَهَشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها ـ ثم قال ـ : ويقارب البطر الطَّرَبُ وهو خفّة أكثر ما يعتري من الفرح)) انتهى المراد.

قوله: ((دَهَشٌ)) أي تحير وذلك بإهمال العقل عند السرور، ولعله لما يصاحبه من الثقة بحالة السرور وتخيل بقائها وعدم تدبر العواقب بحيث يعرّض النعمة للزوال لأجل كفرها وعدم تقييدها بالشكر؛ ومن هنا يظهر أن ذم الفرح من حيث يقترن به الإطمئنان إلى ما سُرَّ به فهو مذموم إلا ما كان فرحاً بالحق، أما الفرح بالباطل فلا إشكال في أنه مذموم، وأما الفرح بأغراض الدنيا وما تهوى الأنفس منها فلأنه لا ينبغي الإطمئنان إليها والثقة بها فهو مذموم؛ لأنه إهمال للعقل ـ وبالله التوفيق.

ومعنى ﴿بِمَآ أَتَواْ﴾ نحو بما جاءوا وبما واقعوا فلا يعم العمل الصالح قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان:٤] أعنى الذي يراد به فَعَلَ، فأما على معناه الأصلي، فهو يستعمل في إتيان المساجد وإتيان الجمعة وغير ذلك، فعلى هذا صح تفسيره بما أتوا من الباطل خاصة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَّتُحِبُّونَ أَن تُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ فقال الشرفي / في (المصابيح) عن الإمام المرتضى محمد بن الهادي × : ((ثم قال ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَّتُحِبُّونَ أَن تُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ فهو ما كانوا يتوسمونه ويذكرونه عن أنفسهم من الفضل والطاعة لله والمدح لأمر ربهم فأكذبهم الله ـ عزَّ وجل ـ في قولهم، وبيّن للمسلمين كفرهم ﴿وَّتُحِبُّونَ أَن تُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ فأخبر أنهم غير فاعلين لما ذكروا ولا صادقين فيما انتحلوا بل هم كاذبون وعند الله معذبون)) انتهى.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: بمنجاة منه)) انتهى، ومثله في (الكشاف) أما الراغب في (مفرداته) فجعل (مفازة) مصدر فاز، والإسم الفوز، قال: أي لا تحسبنهم يفوزون ويتخلصون من العذاب)) انتهى، والمعنى واحد.

وفي (المصابيح) عن المرتضى × : ((والمفازة: فهي البعد فذكر سبحانه أنهم من العذاب قريب غير بيعد)) انتهى المراد.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فلا ينجون من العذاب وذلك العذاب الأليم فهو عذاب شديد، وظاهر قوله تعالى: ﴿وَّتُحِبُّونَ أَن تُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ أن هذا الحب خصلة مذمومة سواء كانت من اليهود أم من المنافقين أم من غيرهم، لكن لا يبعد اعتبار قوله: ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ قيد للحب أيضاً من حيث هو قيد للمحبون وذلك يتصور في المنافقين الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، من حيث أنهم لم يفعلوا فقيد الحيثية معتبر، فلا يدخل فيه من يحب أن يحمد على الشيء وهو يود أنه فعله، إنما يخص من يحب أن يحمد بما لم يفعل راغباً في كونه لم يفعل لأنه يرى أن نِفَاقه قد نفق، وذلك غاية مراده، وفي ذهني عن بعض الأئمة ـ أظنه المنصور بالله عبد الله بن حمزة × ـ أنه حرم الحب للحمد بما لم يفعل على الإطلاق.

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

﴿١٨٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فله الأمر والحكم له وحده لا شريك له، يعذب ما يشاء، ويرحم من يشاء، وإليه يرجع أمر المختلفين المذكورين في هذه السورة وغيرهم كله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الغالب على أمره، له الخلق يخلق ما يشاء فكما خلق آدم من تراب خلق عيسى من غير أب؛ لأنه على كل شيء قدير.

﴿١٩٠﴾ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في (مفردات الراغب): «الخلق أصله: التقدير المستقيم» انتهى، ويظهر: أنه المراد هنا، وتقدير السماوات والأرض: جعلها واسعة عظيمة تسع العالمين، وإتقان صنعها لتصلح لهم ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ هو أن كل واحد يخلف الآخر على الاستمرار بنظام محكم محدد حتى لا يطول أحدهما بحيث يختل حال الناس والشجر والدواب، أو يقصر كذلك، ففي النهار فوائد الشمس والضياء، وفي الليل فوائد توفير الرطوبة والتبريد وراحة النوم حتى يعتدلا وينفعا، فهي نعمة ينبغي أن تشكر وهي كذلك آيات.

وقوله تعالى: ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ بمعنى دلالات يُهْتَدَى بها، ولم يحدد هاهنا، وإنما يأتي الإشارة إلى وجه واحد من وجوه الدلالة فهي آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه رب كل شيء له الملك لا إله إلا هو كما هو مفصل في علم أصول الدين.

و(وأولو الألباب) أهل العقول، والمراد هنا: الذين يستعملون عقولهم في طلب الحق، لا من يهمل عقله ويلفق من الشبه ما يحول بينه وبين المعرفة.

ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ

﴿١٩١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ هذه الثلاث الحالات يغفل فيها كثير من الناس فذكرها، ولم يذكر الركوع والسجود فهما مظنة الذكر، فكان المراد يذكرون الله على كل حال، ومن ذلك الذكر في الصلاة من قيام لمن استطاع، وفي القعود لمن استطاع وعجز عن القيام، وعلى جنب لمن عجز عن القيام والقعود، كما جاء في الحديث عن النبي ص، والجنوب: هي الأضلاع عن يمين الإنسان وشماله، أو الأضلاع وما اختلط بها.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنع الله لهما كيف جعلهما عظيمتين واسعتين للعالمين في صنع قوي محكم، فيعلمون أن الله الحكيم لم يخلق هذا الخلق العظيم إلا لحكمة فهما مقر للعالمين يظهر أن خلقهما من أجلهم، وهم لم يخلقوا عبثاً إنما خلقوا ليعبدوا الله ولكنهم مخيرون في قدرتهم يقدرون على الطاعة والمعصية فمنهم المطيع ومنهم العاصي مع ما يأتيهم من الرسل والكتب ومع ذلك يموت المطيع والعاصي قبل الثواب والعقاب فتبين أن هذا الخلق العظيم العالم والعالمين هو تقدمة للآخرة وأن فيها ثواب المحسن وعقاب المسيء كما أخبرت به الرسل.

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ لجأوا إلى الدعاء وسارعوا إليه عند تذكرهم الآخرة وما فيها من النار، فهذه صفة أولي الألباب الذين استعملوها فيما يهديهم فهم يذكرون الله كثيراً

أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾

ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، تفكراً يؤديهم إلى ذكر البعث والحشر والحساب والنار، تفكراً يبعثهم على اللجوء إلى الله والإعتراف بحكمته، وأن هذا الخلق خُلِقَ لأمر عظيم، فسبحوا ربهم عن العبث والإهمال وطلبوا الهداية لطريق النجاة من النار واللطف لاستعمال أسباب النجاة من النار.

ومعنى (قِنَا) اجعل لنا وقاية من النار، وهو يشير إلى أنها تطلب أهلها، مثل: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان:٦٥] .

﴿١٩٢﴾ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ﴾ قالوا: ﴿إِنَّكَ﴾ ولم يقولوا: إنه من يدخل النار، لأن الخزي من حيث أن الذي أدخله النار هو الله، فكان إدخاله النار فضيحة له ودلالة على استحقاقه لها بعمله، لأن الله أحكم الحاكمين، ودلالة على كفره لنعم الله في الدنيا وتمرده على أكرم الأكرمين الذي دعاه في الدنيا إلى رحمته، وفتح له باب توبته وعرض عليه طريق جنته فأبى إلا طاعة الشيطان واتباع هواه، فاستحق غضب الله ولعنته وعذابه الدائم.

فالخزي من حيث افتضاحه بالإساءة في جنب الله العظيم، ومن حيث افتضاحه بسوء تدبيره لنفسه حيث اختار لها أسباب العذاب التافهة التي لا ينبغي لعاقل أن يرضاها بدلاً من السلامة من العذاب الدائم والثواب العظيم.

ألا ترى أن السارق إذا قطعت يده من أجل عشرة دراهم سرقها يكون قطعها خزياً عليه، حتى أن قومه قد يدافعون عنه ما استطاعوا لما في ذلك من العار، وفي هذه الآية ونحوها من الآيات ردّ على الجهلة الذين يقولون: «النار ولا العار» فهي منهم جهالة عظمى من حيث أن النار أشد من كل مصيبة ومن كل عار ومن حيث أنها عار على أهلها وخزي عظيم.

قال في (الكشاف): «﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ فقد أبلغت في إخزائه، وهو نظير قوله: ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ ونحوه في كلامهم: من أدرك مرعى الصمّان فقد أدرك، ومن سبق فلاناً فقد سبق» انتهى. الصمّان: موضع.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ الأصل: وما لهم من أنصار، أي يدفعون عنهم عذاب الله، وأقيم الظاهر مقام المضمر للدلالة على أن سبب عذابهم هو الظلم والظلم كل حيف وجور سواء في معاملة المخلوقين أو معاملة الخالق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] لأنه حيف وجور ضد العدل والإنصاف.

قال الشرفي / في (المصابيح): «قال إمامنا المنصور بالله × : دلت الآية على وجوب ذكر الله حيث يجب في الصلاة وغيرها، وأن من تعذر عليه القيام في الصلاة صلى قاعداً ومن تعذر عليه القعود صلى على جنبه وكيف أمكن، وعلى وجوب التفكر في السماوات والأرض وما خلق الله فيهما من الآيات، وعلى وجوب اعتقاد أن الله خلق الخلق لحكمة، وعلى تنزيه الله من أن يخلق شيئاً باطلاً لا حكمة فيه، وعلى الحث على الدعاء إلى الله تعالى في أن يقينا سبحانه عذاب النار بأن يوفقنا لما يرضيه ويعصمنا عما يسخطه سبحانه، ودل قوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ على تحريم معاونة الظالمين؛ لأنه من النصر لهم» انتهى

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ هذه من دعاء أولي الألباب المبين لاستعمالهم عقولهم فيما يهديهم، إنا سمعنا داعياً رفيع الدعاء يدعو الناس ليؤمنوا يأمرهم بالإيمان أمراً ﴿أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾ حين عرفنا الحق لم نتأخر، فنتوسل بإيماننا إلى أن تغفر لنا ذنوبنا، وتكفر عنا سيئاتنا ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾.

وفي قولهم: ﴿يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ دلالة على تلازم الإيمان بالله الإيمان الكامل الصحيح والإيمان المطلق الذي يتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وذلك لأنه يلزم من الإيمان بالله مع وجود الرسول والقرآن الإيمان بالرسول والقرآن ويلزم من الإيمان بالله والرسول والقرآن الإيمان باليوم الآخر والعمل بما يقتضي الإيمان من الطاعة لله والحذر من عذابه، وغفران الذنب قد يكون في الدنيا لا في الآخرة وقد يكون في الدنيا والآخرة، فطلبوا الغفران المطلق، وهو العفو أي في الدنيا والآخرة بقرينة السياق، وأن يستر الله عنهم سيئاتهم حتى لا يروها حسرات عليهم يوم القيامة؛ لأن التكفير: التغطية والستر، قال الشاعر:

يعلوا طريقة متنها متواتراً ... في ليلة كفر النجومَ غمامُها

وهم قالوا: ﴿كَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ فالمعنى: استر عنا سيئاتنا التي تسؤونا رؤيتها، فهم بخلاف الذين قال الله فيهم: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ [البقرة:١٦٧] ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ أمتنا ﴿مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ مع الصادقين الذين أمرتنا أن نكون معهم وذلك من حسن الخاتمة، و ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ ضد الفجار وهم المتقون المنفقون المجاهدون الصابرون في البأساء والضراء وحين البأس، كما أفادته آية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ...﴾ إلى آخرها [البقرة:١٧٧].

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ

وهم الأمة الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر الذين قادتهم رسول الله ص والأئمة الطاهرون المجاهدون في سبيل الله ومن على نهجهم الذين من مات وهو معهم لم يمت ميتة جاهلية.

﴿١٩٤﴾ ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ هذا بقية دعاء أولي الألباب المستعملين لها في طلب الهدى طلبوا أن يؤتيهم الله ما وعدهم على رسله، والأقرب عندي: أنه أمرٌ يقوم به الرسل يوم القيامة مثل: الشهادة لهم، أو الشفاعة، أو المرافقة في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩] ومثل السقي من الحوض أو كل ذلك أو ذلك وغيره، فهذا الذي حضر في ذهني ـ والله أعلم.

﴿وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾ كقول إبراهيم × : ﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧] وهو يعم الخزي بالعذاب وبترك الثواب، بحيث يشمت بهم الأعداء، وهو سبحانه لا يخلف الوعد، و﴿لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُنْ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء:٤٠] ولكن هذا نوع من العبادة وقد احترسوا من إيهام خلف الوعد بقولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أو المعنى إعصمنا عن إحباط أعمالنا حتى لا نستحق الإخزاء يوم القيامة بإحباط أعمالنا وبالعذاب ويكون قولهم: ﴿إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ أي لا بد من القيامة لأنك وعدت بها.

أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥ لَا

١٩٥ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ﴾ **دعاءهم على أن يعملوا صالحاً؛ يقول سيد قطب في (تفسيره): «أنه ليس مجرد التفكر ومجرد التدبر، وليس مجرد الخشوع والارتجاف، وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزي ومن النار إنما هو العمل الإيجابي الذي ينشأ عن هذا التلقي وعن هذه الاستجابة...» الخ.**

فالاستجابة ليست تحقيق مطالبهم بلا شرط، ولكنها ما فصّله الله في بقية الآية من العمل والهجرة والصبر على الأذى في الله والقتل في سبيل الله، ومعنى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم﴾ أنه مقبول، ولهم عليه ثوابه؛ لأن هذه فائدة حفظه من الضياع.

وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ﴾ يصرح بالمساوات بين الذكر والأنثى في قبول العمل والثواب عليه إذا كان من أهل الصفات المذكورة، ومعنى قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾ الذكور والإناث بعضهم من بعض، فهم كالنوع الواحد، وهما نوعان من جنس واحد ولكنهما متقاربان لأن صورهما وقواهما وعقولهما ونحو ذلك أمور متقاربة جداً، ومع ذلك فهما متفرعان من الذكر والأنثى، فالذكر متفرع منهما والأنثى كذلك متفرعة من الذكر والأنثى، ولا يبعد أن هذا معنى قوله تعالى: ﴿بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾.

وقال في (الميزان) [ج ٤/ ص٨٩]: ((بحث فلسفي: المشاهدة والتجربة تقضيان أن الرجل والمرأة فردان من نوع جوهري واحد وهو الإنسان، فإن جميع الآثار المشهودة في صنف الرجل مشهودة في صنف المرأة من غير فرق وبروز آثار النوع يوجب تحقق موضوعه بلا شك. نَعَمْ، يختلف الصنف بشدة وضعف في بعض الآثار المشتركة، وهو لا يوجب بطلان وجود النوعية في الفرد.

وبذلك يظهر: أن الاستكمالات النوعية الميسورة لأحد الصنفين ميسورة في الآخر، ومنها الاستكمالات المعنوية الحاصلة بالإيمان والطاعات والقربات، وبذلك يظهر عليك أن أحسن كلمة وأجمعها في إفادة هذا المعنى قوله سبحانه: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمۡ﴾ يثبت لهم فضلين: فضل الهجرة إلى الله ورسوله، وفضل الإخراج من ديارهم لثباتهم على الإيمان فهو في الله، كقوله تعالى: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ فهما فضيلتان لكونهما مسببين عن الإيمان واتباع الرسول، ولهما عليهما الأعواض وثواب الصبر الذي هو الثبات على الإيمان والهجرة في سبيل الله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ أي ﴿قَـٰتَلُواْ﴾ في سبيلي ﴿وَقُتِلُواْ﴾ في سبيلي، وقوله تعالى: ﴿وَقُتِلُواْ﴾ يحتمل أنه خاص بالقتلى، فيكون الكلام خاصاً بهم من قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ..﴾ إلى آخر الآية، والأقرب: أنه شامل لهم ولإخوانهم هنا.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ لأن القتل مصيبة لهم كلهم وإن كان القتلى بعضهم،

نظيره قولهم: ﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ والمراد قتل إخوانهم، ولعل منه: ﴿قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا﴾ ونظيره قول الشاعر:

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها

والبيت من (معلقة لبيد) إحدى (المعلقات السبع) قال في شرحه: ((أي أصابها السبع بافتراس ولدها)) انتهى.

وليس على حذف مضاف أي قتل بعضهم ولكن على معنى أصابهم في القتال قتل.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ كما سألوا ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ وقد دل هذا على وقايتهم عذاب النار؛ لأنها لا تكون إلا عقاباً على السيئات وقد صارت كأن لم تكن، ولأن دخول الجنة لازم للسلامة من النار لأنهما ضدان؛ والجنات هنا هي البساتين الغليظة التي تُجِنُّ أماكنها والأنهار مجاري الماء فهي مستمر فيها جري الماء، فالأشجار لا تزال خضراء لا تعطش، واجتمع جمال الأشجار وجري الأنهار، ثواباً على أعمالهم وإيمانهم وتفكرهم ودعائهم.

﴿ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهو عظيم لأن الثواب يجمع بين العطاء والتكريم، والتكريم من الله عظيم؛ لأنه من العظيم ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ أعده لأوليائه بعدله وحكمته وفضله ورحمته سواء كان قد وجد أم كان في قوة الموجود؛ لأن الله قادر عليه عليم بما به يحسن الثواب من وجوه الثواب وصفاته، فهو سهل عليه كأنه موجود، فهذه صفات المؤمنين الذين بنوا إيمانهم على التفكر في آيات السماوات والأرض، وحققوا إيمانهم بالجهاد في سبيل الله وتحمل المشاق في سبيل الله، وهذه عقباهم.

يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾

وإليك صفة الكفار وعقباهم:

﴿١٩٦-١٩٨﴾ ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ إن بعض الناس يغتر ببسط النعمة لأعداء الله، فيظن أن ما هم عليه من الكفر سهل لا يوجب عليهم غضب الله، وأن الله لو كان غاضباً عليهم ما أعطاهم، وهذا خطأ من الظن فالدنيا متاع قليل لا قدر له عند الله، لأنه لم يجعله دليلاً على رضاه أو عدم غضبه وإنما هو فتنة واختبار.

ومعنى (تقلبهم في البلاد) تمكنهم من التنقل فيها لا يمنعهم سلطان المؤمنين ولا الخوف، وذلك لضعف المسلمين في وقت نزول هذه الآية، فالكفار يتنقلون لكسب الأرزاق حيث يشاءوا في بلادهم أو في بلاد العرب.

ثم بين تعالى حقارة هذا التقلب، فقال تعالى: ﴿مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ فهو حقير من حيث هو ﴿مَتَٰعٞ﴾ قصير المدة يذهب عن قريب وحقير من حيث هو ﴿قَلِيلٞ﴾ في نفسه إما بالنسبة إلى ما يعتاد للبشر في هذه الحياة، وإما بالنسبة إلى نعيم الجنة ﴿ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ حيث يصير متاع الدنيا كأن لم يكن، بل أشد من ذلك أنه ينقلب وبالاً عليهم بكفرهم لنعم الله وتعذيبهم على كفر النعمة وبسوء تصرفهم في الدنيا باستعمال النعم في المعاصي كالربا، وبتحريم ما أحل الله وغير ذلك.

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ جهنم؛ لأن المهاد هو الفراش الذي يمهد للراحة عليه أو النوم لكن جهنم نار الله لا راحة فيها ولا نوم، ولكن عذاب أليم،

وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠

وهم مهدوها لأنفسهم بكفرهم، فبئس المهاد هي اتخذوها بدلاً من أن يمهدوا لأنفسهم مكاناً ينجون فيه من العذاب.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ﴿لَٰكِنِ﴾ كلمة استدراك، وهي تفيد: المقارنة بين العاقبتين، فعاقبة الكفار المكنين في الدنيا جهنم، وعاقبة المتقين الجنة سواء مكنوا في الدنيا أم لا، فليس المهم الدنيا وتمكنها أو قلة حالها إنما المهم العاقبة لأنها الدائمة، إما شقوة دائمة وإما سعادة دائمة، والدوام أمر عظيم عند من يتفكر فيه وينسب إليه الدنيا الحقيرة الفانية.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فهم كالوفد المكرم الذي يقدم له عند نزوله الطعام والشراب، لكن الجنات نزل من عند الله أكرم الأكرمين فضيافته أعظم ضيافة.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ لأنه الثواب العظيم الدائم والفضل العظيم الذي لا ينقطع، كيف لا وقد قال فيه سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان:٢٠] فالتمكين في الدنيا لا يقاس به ولاسيما تمكين الكفار الذي عاقبته النار؛ والأبرار ضد الفجار وهم المؤمنون المطيعون لله ورسوله.

١٩٩ ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ

رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في هذه الآية الكريمة تأكيد لما سبق من ذكر المؤمنين من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ إلى آخر الآيتين.

وفي هذه الآية تنزيه لهم عما يقع من غيرهم من أهل الكتاب من اشتراء ثمن قليل بآيات الله، وذلك أن للمؤمنين كرامتهم عند الله فاستحقوا الإشادة بذكرهم وتأكيد الثناء عليهم في هذه السورة التي فيها كثر الرد على أهل الكتاب وذكر كثير من باطلهم، فناسب فيها إعلان تنزيه المؤمنين من أهل الكتاب وتبرئتهم من رجس الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أي القرآن وسائر ما أنزل على رسوله محمد ص وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي التوراة والإنجيل وغيرهما مما أنزل على أنبيائهم، وفي إسناد المنزل إلى رسلهم إليهم والمنزل إلى المبعوث من العرب إليهم تكريم للطائفتين لمن قبل الكرامة مثل هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب، فأبقى لهم كرامتهم بإنزال الله ما أنزل إلى أنبيائهم مع إيمانهم بمحمد ص وبما أنزل إلى بني إسماعيل.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ خاضعين لله ذالّين لله ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأنهم مهتدون بهدى الله، لا يصرفهم عنه كبر ولا حسد ولا حب الدنيا فليسوا كالكافرين من أهل الكتاب.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة من قوله تعالى: ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حق لهم فلا يضيعه الله ربهم الرحيم بهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا ينقص من أجرهم مثقال ذرة؛ لأن الله يعلمه كله ولا يخفى عليه من مقداره وحسابه شيء؛ لأنه يحيط علمه بمقدار الشيء وعدده من دون إجالة فكر ولا تأمل كما يفعل الحاسب ولا يسبق علمه به خفاء عليه ولا غفلة عنه سبحانه وتعالى.

﴿٢٠٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أمرهم بالصبر لأنه لاثبات على الدين إلا به وقد تقدم في السورة ذكر بعض الشدائد، وأنه لابد من الجهاد والصبر لدخول الجنة، وأمرهم بالمصابرة وهي المغالبة في الصبر، فإذا صبروا على الجهاد وصبر العدو لم يكفهم الصبر الأول، بل لابد من المغالبة في الصبر بقدر ما يستطيعون، فكلما تجددت من العدو مغالبة وجب الصبر على دفعها، وكلما صبر العدو وجدد صبراً وجب عليهم أن يجددوا صبراً على القتال ومحاولة قهره. والمرابطة الثبات في مواقف الاستعداد للعدو وهجومه المتوقع حيث يتوقع إتيانه، فهناك تربط الخيل معدة للجهاد، كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

والرباط شاق حيث يكون استعداداً لهجوم العدو فيكون فيه الخوف والمحاذرة، ويتحمل فيه البرد أو الحر وترك الأهل والمساكن، فيحتاج فيه إلى الصبر.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وهي كلمة جامعة لطاعة الله فيما أمر ونهى، فلابد من إكمال الطاعة لينفع الصبر والمصابرة والرباط ويكون العاقبة فلاحاً وظفراً بالجنة والسلامة من النار؛ لأنه ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فالجاهل الذي يمني نفسه إذا كان في العسكرية أنه لا يضره ترك الصلاة أو شرب الخمر أو غير ذلك من المعاصي، إنما يخادع نفسه وهو في الآخرة من الخاسرين.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت على وجوب ما ذكره الله سبحانه من الصبر والمصابرة والمرابطة في الجهاد وتقوى الله من القيام بما فرض الله سبحانه، واجتناب ما حرم)) انتهى.

قلت: والتوبة عند كل زلة كما تقدم في تفسير (المتقين).

وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وآله وسلم تسليما كثيراً

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	معنى [بسم الله] وأهمية الابتداء به	الفاتحة	١
٢	معنى العبادة	الفاتحة	٥
٣	فائدة قوله تعالى: [صراط الذين أنعمت عليهم]	الفاتحة	٧
٤	معاني الأحرف التي بدأت بها بعض السور	البقرة	١
٥	صفات المتقين	البقرة	٢ـ ٥
٦	مبحث حول نسبة الختم على القلوب إلى الله	البقرة	٧
٧	لفتة حول قوله تعالى [هذا الذي رزقنا من قبل]	البقرة	٢٤ ـ ٢٦
٨	من فوائد قصة آدم مع الملائكة عندما علمه الله الأسماء	البقرة	٣٣
٩	هل أكلا آدم وزوجته من الشجرة متعمدين!	البقرة	٣٥ – ٣٦
١٠	ما الكلمات التي تلقاها آدم من ربه!	البقرة	٣٧
١١	هل الشقاء والظلم بمعنى واحد!	البقرة	٣٨ـ ٣٩
١٢	ولتجدنهم أحرص الناس على حياة	البقرة	٩٦
١٣	من فوائد قوله تعالى: [فله أجره عند ربه]	البقرة	١١٣
١٤	لفتة رائعة حول قوله تعالى: [لا خوف عليهم ولاهم يحزنون]	البقرة	١١٣
١٥	فصل في الإمام	البقرة	١٢٤
١٦	الإحصار في الحج	البقرة	١٩٦
١٧	أدب الجدال	البقرة	١٩٧
١٨	التسليم لله ومراتبه	البقرة	٢٠٨
١٩	الإستعداد للجهاد	البقرة	٢١٦
٢٠	أقسام الأيمان	البقرة	٢٢٥
٢١	كيف نحافظ على الصلاة!	البقرة	٢٣٨
٢٢	حكم الخواطر السيئة	البقرة	٢٨٤
٢٣	تعريف المتشابه	آل عمران	٧
٢٤	الموالاة والمعاداة	آل عمران	٢٨

م	الموضـــــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
٢٥	حضور العمل يوم القيامة	آل عمران	٢٩ـ٣٠
٢٦	من هم الآل؟	آل عمران	٣٣ ـ ٣٤
٢٧	تعريف الإسلام	آل عمران	٨٥
٢٨	أسباب النجاة	آل عمران	١٠٠ ـ ١٠١
٢٩	ولتكن منكم أمة	آل عمران	١٠٤
٣٠	في الإختلاف المنهي عنه	آل عمران	١٠٥
٣١	لفتة في معنى "كنتم خير أمة"	آل عمران	١١٠
٣٢	طبقات المطيعين	آل عمران	١٣٣ ـ ١٣٦
٣٣	تعريف التوبة	آل عمران	١٣٥
٣٤	معنى الشهيد والشهادة	آل عمران	١٤٠
٣٥	آداب الجهاد	آل عمران	١٤٦ـ١٤٨
٣٦	لا يكفي التقليد في العقائد	آل عمران	١٤٩ـ١٥١
٣٧	التشاور في الأمر	آل عمران	١٥٩
٣٨	مقدمة التوكل وفائدته	آل عمران	١٦٠
٣٩	معنى الحكمة	آل عمران	١٦٤
٤٠	الفرح المذموم	آل عمران	١٨٨

محتويات الجزء الأول

رقم السورة	السـورة المفسَّـرة	الصفحات من	الصفحات إلى
	المقدمـة	٣	١٣
١	سورة الفاتحة	١٧	٢٤
٢	سورة البقرة	٢٧	٣٩٥
٣	سورة آل عمران	٣٩٧	٥٨٩
	فهرس المسائل والمواضيع	٥٩٠	٥٩١
	فهرس المحتويات	٥٩١	

التيسير في التفسير

الجزء الثاني

= النساء ـ الأنعام -

تأليف

العالم الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

تحقيق

عبد الله بن حمود العزي محمد بن بدر الدين الحوثي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

سورة النساء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ

تفسير (سورة النساء) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ هذا خطاب عام للناس أمرهم الله بتقواه، فقال: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ ليذكروا أنه مالكهم الذي تجب عليهم طاعته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فأصلكم واحد فلا تتظالموا، فمن التقوى تقوى الله من بعضكم في بعض ﴿وَ﴾ خَلَق من النفس الواحدة التي هي آدم × ﴿خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي أم بني آدم ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ من آدم وزوجه في أقطار الأرض ﴿رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ وذلك دليل على قدرته ورعايته لخلقه ورزقه لهم حتى كثروا، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يهملهم فهو إعداد لما يأتي في السورة من التكاليف على بعضهم لبعض.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ لعلمكم أنه رقيب عليكم، ومعنى ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ يقول بعضكم لبعض: ((أسألك بالله)) ﴿وَ﴾ اتقوا ﴿ٱلْأَرْحَامَ﴾ أن تقطعوها في المواريث أو غيرها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ في الحال والماضي فيما قد ظلمتم فيه النساء واليتامى وقطعتم فيه الأرحام وغير ذلك.

ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ۝٣ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ

۝٢ ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ﴾ **أموالهم في حال إنفاقها عليهم، وعند إيناس رشدهم إذا بلغوا النكاح، والخبيثُ: الحرام، والطيبُ: الحلال، فقد يرى الرجل شيئاً من مال اليتيم يستحسنه ويرغب فيه، فيأخذه لنفسه ويجعل لليتيم بدله ليزعم أنه هو نصيب اليتيم وقد غش نفسه؛ لأنه تبدّل الخبيث بالطيب.**

﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ **بضم مال اليتيم إلى مال الرجل ودعوى أن الكل للرجل ليس لليتيم منه شيء، وأكثر ما يقع هذا من الذي يتلف ماله فيحتاج إلى مال اليتيم فيتلفه كما أتلف مال نفسه فعبر عنه بالأكل لأن أكثر الإتلاف يكون في الأكل للحاجة إلى الأكل كل يوم وعموم الحاجة للكبير والصغير ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا﴾ في (مفردات الراغب): ((الحوب: الذنب)) ومثله في (الصحاح) وفي (الكشاف): ((الحوب: الذنبُ العظيم)) وكذا في (المصابيح)، وهو في (لسان العرب) عن الفراء، والأول في (لسان العرب) أيضاً عن أبي عبيد والزجاج، وقد وصفه الله بالكبر، فإذا كان معناه: الإثم العظيم، فهو مثل العذاب الأليم فهو عظيم جداً.**

۝٣ ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ

أَيۡمَـٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كُتب لهن ولا ترغبون في نكاحهن بل ترغبون في تركه فاعدلوا عنهن، وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُم﴾ بأن حلَّ ووافق رغبتكم، ولا تنكحوا اليتامى رغبةً في مالهن مع الرغبة في ترك نكاحهن للعشرة، لتسلموا ظلمهن بمنعهن ما لهن أو مهورهن أو ما يحق لهن من النفقة الواجبة على الزوج أو غير ذلك مما وجب لهن ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ﴾ أي لهذا اثنتان وهذا اثنتان ﴿وَثُلَٰثَ﴾ لهذا ثلاث من النساء وهذا ثلاث ﴿وَرُبَٰعَ﴾ لواحد أربع ولغيره من الرجال أربع.

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ فيهن أو بينهن ﴿فَوَٰحِدَةً﴾ أنكحوا واقتصروا عليها أو مملوكة أحدكم يستغني بها عن الزواج حذراً من الحيف وعدم القيام بحق الزوجة، ذلك الإقتصارُ على واحدة أو المملوكة ينكحها مالكها بالملك أدنى وأقربُ لئلا تحيفوا بسبب تعدد المنكوحات.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد × : دلت هذه الآية على تحريم الجور من الولاة على اليتامى لكثرة الزوجات فقصرهن على أربع، فأباح تزويج ما دون الأربع إلى أن قال سبحانه: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ يريد سبحانه في العدل بين الزوجات، وكذلك في العدل في أموال اليتامى لأجل الزوجات ﴿فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَـٰنُكُمۡ﴾ ودلَّ ذلك على وجوب تجنُّب ما يكون سبباً للجور أو أي قبيح.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ أي ذلك الذي هو الاقتصار على أربع فما دون إلى الواحدة، أو ما ملكت اليمين أقربُ شيءٍ إلى نفي الميل عن العدل في حق اليتامى وفي حق الزوجات.

مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُواْ

العولُ هاهنا: هو الميل، من قولهم: عَال الميزان: أي مَالَ، وقولهم: عالَ في مشيته: إذا مال متبختراً، وعلى وجوب إيفاء النساء صدقاتهن وهي مهورهن، وأن المهور نحلة أي هبة، فمن نحل امرأته ما تستحق فيه الشفعة لا يشفع لأنه نحلة وليس عوض مال و[على] إباحة ما طبن به نفساً من المهور)) انتهى.

﴿٤﴾ ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ ﴿ءَاتُواْ﴾ الزوجات مهورَهن حال كونها ﴿نِحْلَةً﴾ أو نُصِب على أنه مفعول مطلق على أن ﴿ءَاتُواْ﴾ بمعنى انحلوا، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: اعطوا، و ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾ مهورُهن و ﴿نِحْلَةً﴾ عن طيب نفس)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((والنَّحلة، والنِّحلة: عطية على سبيل التبرع)) انتهى المراد. وفي (الصحاح): ((والنُّحل ـ بالضم ـ: مصدر قولك: نحلته أنحله نحلاً، والنُّحلى: العطية على فُعْلَى، ونحلت المرأة مهرها عن طيب نفس من غير مطالبة، ويقال: من غير أن يأخذ عوضاً، يقال: أعطاها مهرها نِحْلةً ــ بالكسر ـ)) انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): ((والنُّحل ـ بالضم ـ إعطاؤك الإنسانَ شيئاً بلا استعاضة، وعَمَّ به بعضُهم جميعَ أنواع العطاء)) انتهى المراد. وقال: وفي الحديث: ((ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدبٍ حسنٍ)) النُّحل: العطية

والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق، وفي حديث أبي هريرة: ((إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين كان مال الله نُحْلاً)) أراد: يصير الفيء عطاءً من غير استحقاق على الإيثار والتخصيص، انتهى.

وقولهم: من غير استحقاق أرادوا ليس أجرا على عمل إلا هذا القول الأخير، ولا يستقيم في المهر؛ لأنه مستحَق، وقد سماه الله أجراً في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ وقولِه تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠] فلا بُد من أن أحدهما مجاز إما نحلة وإما أجورهن، وسواءٌ كانت نحلة حقيقة أم مجازاً فقد أفاد وجوبها على الزوج لا في مقابل خدمتها له، وأن تكون بطيبة نفس لأنها حق من الله، وأن لا يحوجها إلى المطالبة كما هو شأن النحلة أن يكون الباعث عليها الرغبةَ.

﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ﴾ مما ءاتيتموهن ﴿نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا﴾ سائغاً لا تنغيص فيه و ﴿مَّرِيٓـًٔا﴾ مثله تأكيد، أو هو بمعنى: نافعاً مغذياً، بأن ينهضم بسهولة، وهو معنى قولهم: ما يحمد عاقبته، واستعمل الأكل في المهر مع أنه قد يكون فضة أو ذهباً أو حرثاً؛ لأن المراد أخذه والانتفاع به سواء كان مأكولاً أو غيره واستعمال الأكل فيه مجاز، و ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ ترشيح.

﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾ جمع سفيه، قال في (الصحاح): ((السفه: ضد الحلم)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((واستعمل في خفة النفس لنقصان العقل وفي الأمور الدنيوية والأخروية..)) إلى قوله: ((.. قال في السفه الدنيوي ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾)) انتهى المراد.

وقال الشرفي / ، عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي × : ((وأصل السفه خفّة الحِلم، فلذلك وصف به الناقص العقل، ووصف المفسد بذلك لنقصان تدبيره، ووصف الفاسق لنقصانه عند أهل الدين والعلم)) انتهى المراد.

وقال في (الكشاف): ((السفهاء: المبذرون أموالهم، الذين ينفقونها فيما لا ينبغي، ولا يَدَيْ لهم بإصلاحها وتثميرها والتصرف فيها)) انتهى، وقوله: لا يدَي: أي لا طاقة.

وقال الشوكاني في (فتح القدير) في تفسير: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:١٣] في تفسير السفاهة: ((وهي رقة الحلوم، وفساد البصائر، وسخافة العقول)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((وقال المرتضى × ـ أي محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام ـ: السفهاء ها هنا فهم الأبناء والإخوة الذين أوجب الله على الآباء النفقةَ عليهم إذا كانوا فقراء، فأمر الله ـ عزَّ وجل ـ إذا علموا منهم الإفساد لها أن لا يدفعوا إليهم منها ما يفسدون أو به على معصية الله يستعينون، والسفهاء فهم سفهاء الرأي وسفهاء العقول الذين لا تمييز لهم ولا نظر في أمور نفوسهم)) انتهى.

وظاهره: عموم السفه بالنقص الخُلقي، والسفه في الرأي بإهمال العقل، ويدل على الثاني قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:١٣] وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:١٣٠].

ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ

ومعنى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا﴾ أي قواماً لمعيشتكم وصلاحاً، وقياماً لكم بأن تسلموا الضعف الذي يقعدكم عجزاً عن العمل أو تحيراً عن وسيلة ما يسد الخلة، فكأن الإنسان يعتمد في قيامه على ماله، فإذا عدم عجز عن القيام أو لم يجد ما يقوم لأجله، فالمال قوام له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾ أي في أموالكم وذلك إذا سلمت التبذير أمكن أن تكون رأس مال ترزقونهم من أرباحه أو يُشتَرى بها مالٌ ترزقونهم من غلوله أو كرائه، فيكون لهم فيها رزق مع بقاء رأس المال، هذا إذا كانت نقداً، فأما إذا كانت حرثاً أو غيره مما له غلول فرزقهم فيها رزقُهم من غلولها مع بقاء رقاب المال.

والرزق: هو العطاء الجاري وهو هنا عبارة عن المأكول ونحوه من المتلفات، بقرينة قوله: ﴿وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ وهذا فيمن تجب نفقته من القرابة وغيرهم، فأما من لا قرابة بينك وبينه، فالوجوب على قرابته إن أعسر، فأما من لا قرابة له فعلى المسلمين من مال المصالح، فالآية عامة للناس، وتخصيص القرابة بالآيات الأُخَر.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ قولاً ليّناً رفيقاً، والمجانين داخلون في عموم الآية أو لاحقون بقياس الأولى؛ لأنهم أشد ضعفاً، ويترجح: أن الآية في سفهاء العقول الذين لا يستطيعون التدبير لمصالحهم فأما سفهاء الرأي المهملون لعقولهم مع صحتها فليسوا مظنة أن يقال فيهم: وارزقوهم فيها واكسوهم تبعاً لسفاهتهم، إنما يكون ذلك لمجرد الإعسار.

أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ

---

٦ ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ ﴿ٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾ **لتعرفوا رشدهم إن كانوا رشيدين وسفاهتَهم إن كانوا سفهاء** ﴿حَتَّىٰٓ﴾ **غايةٌ للإختبار، والشرطُ الأول هو (إذا) والشرط الثاني وجزاؤه هما جواب الشرط الأول، وهما غاية الإختبار وشرط تسليم أموالهم إليهم، وبلوغ النكاح: بلوغ القوة والحاجة إلى النكاح وقت إنزال المني عند النكاح.**

﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم﴾ **أدركتم وعرفتم، وعبارة الإيناس تفيد: أن الرشد مطلوب كما هو شأن من لا يطمع في مال اليتيم، والرشدُ: صواب الرأي في التصرف في المال، ويكفي من الرشد القليل؛ لقوله تعالى: ﴿رُشۡدٗا﴾ فمتى دلَّ الإختبار على وجود معرفةٍ للرأي السديد في الإنفاق، وجب بعد بلوغ اليتيم تسليمُ ماله إليه كله.**

﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ ﴿إِسۡرَافٗا﴾ **مجاوزةً للحق الذي حدَّه الشرع، والبِدار: المبادرة والمسابقة إلى أكله قبل أن يكبر اليتيم، أي مبادرة كبر اليتيم** ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا﴾ **له مال يقيمه** ﴿فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡ﴾ **عن الحرام عن أكل مال اليتيم وغيره من الحرام وما يعاب أكله، والإستعفاف: التنزُّه، وفي معلقة عنتره:**

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا﴾ محتاجاً حاجةً ماسَّةً لقُوت أو سترِ عورة أو نحو ذلك من الضروريات له أو لعائلته زوجته وأولاده الصغار، وحاصلها: ما يبعث الخائف على ذمته وعرضه إلى أن يقترض أو يسأل فهو فقير ومفتقر ومحتاج، ولا يقال له في اللغة غني ما دام هكذا، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ [التوبة:٩١-٩٣] أي يجدون ما ينفقون على أنفسهم في الجهاد راحلةً وزاداً، وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:٢٧٣] أي يحسب عندهم ما يسد خلتهم لأنهم لم يَسألوا، فهم عند الجاهل أغنياء عن الصدقة، فالفقير له أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف.

والمعروف: ضد المنكر، وهو الإقتراض بقدر الضرورة، وأجرة ما عمل وليُّ اليتيم بنية الأجرة بقدر عمله، ولا يبعد أن من المعروف الفضلة التي لا تخزن في العادة ولا تنفق للبيع، مثل: فضلة الحقين من اللبن التي تعطى للجيران حيث لا يباع ولا يشترى لو عرض للبيع.

وقلت في الإقتراض: بقدر الضرورة؛ لأن قدر الضرورة لا إشكال فيه، أما الزائد فإنه ينكر على من لا يظن التمكن من القضاء.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ في وقت ذلك، كما مر ذكره ﴿فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ﴾ شهيدين ممن ترضون من الشهداء، يشهدان دفْعَ ما دفعتم إليهم حتى إذا جحد يتيمٌ شهدا عليه؛ لأن الوصي ونحوه إذا قال: قد دفعت إليك مالك وجحد اليتيمُ، كان المدعي هو الوصي، والمنكر هو الذي كان يتيماً ـ وهو

صاحب المال ـ فالبينة على المدعي، وإذا لم تكن له بينة كانت اليمين على المنكر، فإن حلف بطلت دعوى تسليم ماله إليه وحكم عليه لليتيم بماله، فقد أرشد الله الأوصياء ونحوهم إلى الإشهاد لتبين بالشهادة براءةُ ذمتهم، وظاهر الأمر الوجوب.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت الآية الكريمة على وجوب اختبار اليتامى بعد بلوغهم، فإن عرف رشدهم وجب تسليم أموالهم إليهم وإن لم يعرف رشدهم وجب على الولي حفظه، ويجب الإشهاد عليهم حين رد الأموال عليهم، وتجب العفة عن تناول أموالهم على من كان متولياً عليهم، ويباح للولي القريب الوارث حيث يجب الإنفاق عليه من قريبه أن يأكل بالمعروف وهو نفقة مثله من مثله من تجب عليه ممن يرثه)) انتهى.

وقال الشرفي / في (المصابيح) أيضاً: ((قال الحسين بن القاسم إ : إنما أطلق الله للفقير أن يأكل من مال اليتيم إلا بمنزلة الأجير، وإذا قام بالمال اشتغل به عن الكسب لنفسه وضاع، إلا أن يقتات ببعضه فأطلق الله له ذلك برحمته وعدله)) انتهى.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ يحاسبكم على مال اليتيم؛ لأنه هو العليم بالخفيات الذي لا يضل ولا ينسى، فيوكل إليه تعالى ما خفي من مال اليتيم، وإنما يبين على ما يدفع ويعترف به من مال اليتيم، أما ما ادعى إنفاقه على اليتيم فيكفي فيه يمينه إن اتهمه اليتيم وأمره إلى الله وهذا فيما خفي، فأما لو كان لليتيم بينة على مال جحده الوصي عمل بها، أو ادعى إنفاقه ولليتيم بينة أنه أنفقه لنفسه خيانةً عمل بها.

وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ

﴿٧﴾ ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ الأب والأم، وما تركا ما خلفا بعد موتهما من الميراث ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ الأصول والفروع: البنون وبنوهم وبناتهم وبنو بنيهم ما سفلوا من الذكور، وكذلك الأصول: الآباء والأجداد من طريق الآباء والجدات من طريقهم والأمهات وأمهاتهن، فالوالدان قد ذكرا والأجداد والجدات مع عدمهما كما هو مفصل في الفرائض، وكذلك من الأقربين الإخوة لأبوين أو لأب أو لأم وميراثهم في بعض صور الميراث.

وفي هذه السورة تفسير مواريث الوالدين والإخوة والأولاد، فصَّل فيها ما أجمل في هذه الاية المباركة التي أسست ميراث النساء ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ وقد كانت الجاهلية لا يورثونهن فيما يقال، وآثارها باقية إلى الآن فعند بعض الجاهلين الظالمين يكون ميراث المرأة اسماً بلا مسمى، وقد جعله الله ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ فرضه الله لهن وأوجبه لهن.

﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ الذين بينهم وبين الميت قرابة، والقسمة هي بين الوالدين والأقربين، ويلزم حضورهم لأنهم المتقاسمون فمع المقاسمة بينهم إذا حضر غيرهم من ذوي القرابة ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ من المقسوم والضمير له أو لما ترك.

﴿وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ وذلك تأنيس لذوي القربى الذين لا ميراث لهم، ورعاية لقربهم من الميت، وتمييز بينهم وبين الأجانب عنه، وتأنيس لليتامى أو سد خلة، وسد خلة للمساكين، والمروءة والعادات تحدد مقدار ما يرزقون، ولا حرج مع التزام المروءة وصلاح النية والسلامة من الشح، فلا يقال: لو كان واجباً لحدّه الله.

والأقرب: أن الأمر للورثة بقوله تعالى: ﴿فَٱرۡزُقُوهُم﴾ ﴿وَقُولُواْ﴾ فيعطون بعد القسمة ليعطي كل واحد من قسمه مارضي به، أو قبلها إن تراضوا بقدر ما يعطون، والتكليف للبالغين، فأما الصغار فلا شيء عليهم؛ لأنهم غير مكلفين، ولم نعرف أن هذا حق في المال، وإنما هو من واجب المروءة والمواساة، والقولُ المعروف: القول الحسن الذي لا جفاء فيه كالترحيب بهم.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ : وإنما أمر الله بالكلام الجميل لما فيه من سرور العباد والتألّف لهم إلى دين الله ذي العزة والأياد ولأن ذلك يدعو إلى المودة والإئتلاف وينفي ـ كذا ـ بعد الضغاين والإختلاف، فلم يرض عز وجل لأوليائه الكرام بطبائع الجفاة الكفرة اللئام الذين لا يلفظون بطيب من الكلام لما هم عليه من الخساسة وسفه الأحلام والتجبر والكبر على ضعفة الأنام والإحتقار والجفاء للمساكين والأيتام)) انتهى.

قال الشرفي: قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد × : ((دلت على جواز الصدقة بل على وجوبها لأولي القربى واليتامى والمساكين عند قسمة الميراث، وعلى أن يقال لهم قولاً [كذا] معروفاً)) انتهى.

ولا يقال: قد نسخت الزكاةُ كلَّ إنفاق؛ لأن الله تعالى قد أوجب غير الزكاة في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] وقد أوجب الله الإنفاق في سبيله، وأوجب الخمس وغيره، فما يروى: ((ليس في المال حق سوى الزكاة)) إما عام مخصَّص بهذه الأوامر القرآنية وغيرها، وإما ضعيف لمخالفته القرآن.

وقد ذكره السيوطي في (الجامع الصغير): عن ابن ماجة، عن فاطمة بنت قيس: أنها سمعته ـ تعني النبي ص يقول ـ: ((ليس في المال حق سوى الزكاة)) وقد روى هو وغيره عن أبي هريرة عن النبي ص: ((إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك)) وروي عن أنس حديث الأعرابي وفيه: ((..لا أدع منهن شيئاً ولا أجاوزهن، ثم وثب)) فقال النبي ص: ((إن صدق الأعرابي دخل الجنة)).

والأولى: أن هذه الروايات منسوخة، وأنها كانت قبل نزول الآيات في وجوب غير الزكاة، وفي (الترمذي) (باب ما جاء أن في المال حقاً سوى الزكاة) فأورد عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، قالت: سألت أو سئل النبي ص عن الزكاة فقال: ((إن في المال لحقاً سوى الزكاة..)) ثم تلى هذه الآية في (البقرة): ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧] أورده من طريقين: عن شريك، عن أبي حمزة ـ ثم قال الترمذي ـ: هذا حديث إسناده ليس بذاك، وأبو حمزة ميمون الأعور يضعَّف، انتهى.

ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا

قلت: هذا السند هو سند حديث: ((ليس في المال حق سوى الزكاة)) في (سنن ابن ماجه): حدثنا علي بن محمد، حدثنا يحيى بن آدم، عن شريك، عن أبي حمزة، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس: أنها سمعته تعني النبي ص يقول: ((ليس في المال حق سوى الزكاة)) فلا معنى للقدح في روايات (ليس) بأبي حمزة؛ لأنه في ضدها فالأولى تساقط الروايتين لتناقضهما واتحاد راويهما، والعمل بالقرآن لأنه الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ولأن أول القضاء ما في كتاب الله، فهو الناسخ كما حققته في (تحرير الأفكار).

۝٩ ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا﴾ ﴿وَلۡيَخۡشَ﴾ حذف مفعوله؛ لدلالة السياق عليه أي: ليخشوا الله.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ﴾ عامٌّ في الأوصياء فعليهم أن يتقوا الله في اليتامى وأن يقولوا قولاً سديداً، وكذا فيمن حضر حين الوصية، فعليه أن يتقى الله ولا يأمر بخلاف الحق في الورثة بتحويزهم بإقرارٍ كاذب أو وصيةٍ غير جائزة، وكذا فيمن يتصل باليتامى أو بأموالهم ولو غير الأوصياء، فعليهم أن يتقوا الله في اليتامى فلا يظلموهم بضرب أو أذية أو دَعٍّ عن حق من حقوقهم أو تغريم بدعوى في مالهم أو دعوى دين على مورثهم أو غصب أو أي ظلم لهم ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لأنه رقيب عليهم وسيجزيهم بما ظلموا، وكذا في ضعاف الورثة من النساء والشيوخ والمرضى وغيرهم

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا

﴿وَلْيَقُولُوا﴾ لهم وفيهم ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي قولاً صواباً، ليس فيه ظلم، ولا أذى، ولا غلظة، ولا جفاء، بل قول معروف حق.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ هذا وعيد مؤكد لما تقدم من الأمر والنهي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا..﴾ الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا..﴾ الآية، ولعل سبب التأكيد أمور:

الأول: أنهم كانوا يأكلون أموال اليتامى في الجاهلية وكانت عادةً يحمل عليها الحرص وحب المال، ومثل ذلك لا يتركه الحريص إلا بالتأكيد والوعيد.

الثاني: أن من اليتامى يتامى الشهداء والمؤمنين، وكان ذلك كثيراً في وقت النبي ص لكثرة الشهداء والمؤمنين، ولا ينبغي إلا أن تحسن لهم الخلافة في يتاماهم فضلاً عن أن يظلموا.

الثالث: أن الحرص على المال شديد ثابت في الإنسان كالغريزة كما قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠] ومال اليتيم يكون معَرّضاً للأخذ لضعفه عن الدفاع، مع مجاورة ماله لمال قرابته أو مخالطتها في الغالب، أو تزوج أمه بمن يسبب زواجها به لأكل ماله كما قد يسبب لظلم اليتيم

مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ

باستخدامه بغير فائدة له، أو شغله بالخدمة عن قراءة ما ينفعه من الدروس والقرآن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي أن عاقبة ما يأكلونه أن يكون ناراً في بطونهم إما بنفسه كما في الكنز أو بسببه كما قال الشاعر:

إن لنا أحمرةً عجافاً يأكلن كل ليلة إكافا

أي ثمن إكاف، ويمكن اجتماع الأمرين فما أتلفه الظالم من كسوة أو غيرها من غير المأكول يكون ناراً في بطنه حقيقة أو بسببه، ولا إشكال أن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ مجاز باعتبار الحال العاجلة؛ لأن المراد: أنه إنما سيكون ناراً في الآخرة في بطنه ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ناراً ذات لهب.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الإمام × ـ يعني القاسم بن محمد ـ: دلت الآية الكريمة على تحريم أموال اليتامى، وأن أخذه ظلم من الكبائر)) انتهى.

﴿١١﴾ ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ هذا الخطاب لمن أشرف على الموت فهو نسخ لأمره بالوصية في قوله تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾

[البقرة:١٨٠] وهذا مفهوم من توجيه الخطاب إلى المأمورين بالوصية ومن تسمية هذه الفرائض ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ في أولها وآخر الآية الثانية فهي مثل صبغة الله.

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ حيث كان الأولاد ذكوراً وإناثاً أو ذكراً وأنثيين أو ذكرين ومعهما أنثى أو أكثر، فالمراد: للأنثى مثل نصف حظ الذكر، وللذكر مِثلا حظِّ الأنثى، ولكن جعلت الأنثى أي نصيبها أصلاً تأكيداً لإرثها.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي لم يكن معهن ذكر حتى يكون لكل اثنتين مثل حظه بل انفردن فكنَّ نساءً، وقوله تعالى: ﴿فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: ولو فوق اثنتين ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ وترك النص على اثنتين لظهوره من حيث: أن للواحدة الثلث إذا كان معها ابن وله الثلثان، ومن حيث أن الواحدة لها النصف إذا انفردت، فلا بد أن تكون طريقة الإثنتين مثل طريقة ما فوق الإثنتين؛ لأنا لو جعلنا طريقتهن طريقة الواحدة لزم أن يأخذن المال كله لكل واحدة نصف، فإذا كان ما فوق الإثنتين ليس لهن إلا الثلثان، فبالأولى الإثنتان مع أن الله قد فرض للأختين الثلثين في آخر السورة فلا ينقص البنتان عنهما، لأن البنتين أقرب، فظهر: أن لهما الثلثين.

﴿وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ أي نصف ما ترك أبوها، وانتهى التقسيم بين الأولاد فظهر منه: حكم الأولاد إذا كانوا ذكوراً وإناثاً، وحكم ما فوق الأثنتين من البنات المنفردات، وحكم الواحدة، واكتفى بذلك عن ذكر ميراث الإبن إذا انفرد عن الإناث والإبنين والأبناء، كما اكتفى بذكر فوق اثنتين عن ذكر اثنتين؛ لأن ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ فالواحد له

الكل، والإثنان فما فوق لم يمكن لهما أكثر من الكل، فللواحد الكل ولما فوقه الكل، ولأن الله قد نص في آخر السورة ما يفيد: أن الأخ يرث الكل فالإبن أقرب، وهذا إيجاز محكم.

﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أبويه لأبيه وأمه إن كان له ولد ذكر أو أنثى ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ فإن ورثه مع الأبوين غيرُهما ـ ولا يتصور ذلك إلا إذا كان الزوج ـ فإنه ينقص ميراث الأم عن الثلث؛ لأن الزوج يأخذ ميراثه كما يأتي والباقي تأخذ الأم ثلثه وللأب الباقي.

﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ مع أنه لا شيء للإخوة مع وجود الأب لكنه يعود لهم إذا مات الأب قبلهم.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((لا خلاف أن الأخت الواحدة لا تحجب الأم من الثلث إلى السدس وأن الثلاث يحجبن، واختلفوا في الثنتين فكل الصحابة والتابعين على أنهما كالثلاث، غير ابن عباس فإنه لا يحجب بهما، وقد سقط خلافه بإجماع التابعين)) انتهى.

وهذا مشكل ففي (مجموع الإمام زيد بن علي إ) من حديثٍ: عن أبيه، عن جده، عن علي (عليه السلام): ((وكان يحجب الأم بالأخوين ولا يحجبها بالأختين، وكان لا يحجبها بأخ وأخت، وكان لا يحجب بالأخوات إلا أن يكون معهن أخ لهن)) انتهى.

قال في شرحه في (تتمة الروض النضير): ((وقد قال زيد بن ثابت لما أنكر ـ أي ابن عباس ـ حجبها بالأخوين: إن العرب تسمي الأخوين إخوة كما

أخرجه الحاكم وصححه وقال هو على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ورواه البيهقي في (سننه) ثم احتج صاحب التتمة بقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ فقوله: ﴿أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ يصدق بالإثنين، وقد تناولهما ضمير الجمع، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾)) انتهى.

ومن استعمال لفظ الجمع في المثنى قول الله تعالى: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم:٤] ولعله بسبب الإضافة إلى المثنى فأغنت، وهناك فرق بين استعمال الجمع في عموم الثلاثة فأكثر والإثنين وفي الإثنين وحدهما، فدخولهما في العموم لا يبعد أنه حقيقة بخلاف استعمال الجمع فيهما وحده، وهذا إذا كانا ذكرين، فأما إذا كانا أخاً وأختا أو أختين، فظاهر الحديث في المجموع: أنهما لا يحجبان، وما ذلك إلا لأنهما لا يسميان إخوة؛ لأن فيه جهتين من التغليب: تغليب الجمع على المثنى، والمذكر على المؤنث، واللغة لا تثبت بالقياس، فالعمدة ما صح من النقل.

قال في (تتمة الروض): ((وقد روى في (الجامع الكافي): أن علياً، وابن مسعود، وزيد بن ثابت: كانوا يحجبون الأم من الثلث إلى السدس بالإثنين من الإخوة والأخوات)) انتهى.

وقد نص الإمام الهادي × في (الأحكام) على حجب الأم بالثلاث الأخوات وحدهن، وقد جعل المؤيد بالله حجب الأختين وحدهما للأم بطريق النظر، واعتمد النظر في جعل الإثنين بمنزلة الجمع، قال: ((لأن إلحاقهما بالثلاثة أقرب من إلحاقهما بالواحد)) وبيَّن لذلك نظائر في المواريث، وطريقة المؤيد بالله × أحسن من تحميل القرآن خلاف الظاهر في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾.

﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ أي هذه الفرائض إنما تكون للورثة من بعد وصية يوصي بها أو دين، وفي تنكير وصية إشعار بأنها غير الوصية المعهودة التي كانت شرعت للوالدين والأقربين؛ لأنها لو كانت هي المراد لقال تعالى: (من بعد الوصية).

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ أي على الميت ولا يشترط أن يوصي به بل يكفي ثبوته ولعله أخر الدين ليكون فرض الدين على الميت مستبعداً، إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن الحذر من تخليف الدين بقدر المستطاع، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ دَيۡنٍ﴾ مطلقٌ يصدق بالقليل والكثير، حتى لو لم يبقَ من التركة إلا أقل القليل.

فأما الوصية فقد دل الدليل على أنها لا تزاد على الثلث، إلا بإذن الورثة أو إجازتهم، فإن زاد ولم يرضوا لم يصح منها إلا الثلث، ولعله يستفاد من قوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُضَآرّٖ﴾ بخلاف الدين؛ لأنه واجب على الميت ولا خيار له فيه بعد ثبوته في ذمته، فيلزم الوفاء به كله.

﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا﴾ الأرجح عندي: أن الخطاب للمورثين الذين خوطبوا في أول الآية، فالمشرف على الموت لا يدري من هو الأنفع له بعد موته أبوه أم ابنه ليقضي دينه وينفذ وصيته، ويرفق بمن يخاف عليه من الورثة الضعاف، فلا يدري من الأحق بميراثه، وعلى هذا فعليه أن يرضى بقسمة الله ويتكل عليها ولا يلتفت إلى عاطفةٍ لابنه أو أبيه.

﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فلا يسأل عنها الميت في تفضيل وارث على وارث؛ لأنها قسمة الله التي فرضها وأوجبها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ فهو أعلم بما هو الخير من القسمة وما هو مقتضى الحكمة، وهو الحكيم الذي كل أحكامه على الحكمة.

أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ

﴿١٢﴾ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ **في هذه الآية وجّه الخطاب في أولها إلى الورثة وأغنى عن خطاب المورِّث قولُه تعالى في آخرها: ﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وتوجيه الخطاب إليه في الأولى المفيد للنسخ.**

وقوله تعالى: ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ يفيد: حجب الزوج بالولد مطلقاً ذكراً أو أنثى من هذا الزوج أم من زوج قبله أم كيف ما كان فليس له مع الولد إلا الربع.

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ هذا الخطاب للمورِّث، ولعل السرَّ فيه: أن المقصود توجيه الخطاب إلى الرجال لأنهم الحكام والقاسمون، والربع إذا تعددت الزوجات، أو الثمن يقسم بينهن، لأنه لم يقل: لكل واحدة الربع أو الثمن، كما قال: ﴿لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا

السُّدُسُ﴾ في موضعين بل جعل لهن الربع أو الثمن من غير فرق بين حالة تعدد أو انفراد.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((المراد هنا بالإخوة: الإخوة لأمّ إجماعاً)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالكلالة من لم يرثه أب أو ابن، والكلالة: الإخوة والأخوات من الأم)) انتهى.

وحاصله: أن الكلالة يطلق على المورث المذكور وعلى الإخوة أو الأخوات في حال عدم الأب والإبن، لكنه في الآية ظاهرٌ في الأول، أي: يورث حال كونه كلالة.

وفي (نهاية ابن الأثير): ((وقيل: الأب والإبن طرفان للرجل فإذا مات ولم يخلفهما فقد مات عن ذهاب طرفيه فسمي ذهاب الطرفين كلالة)) انتهى، وفي (حاشيتها): ((القائل هو القتيبي، كما في الهروي)) انتهى.

وقوله: ((فسمي ذهاب طرفيه كلالة)) أي لأن الكلالة في الأصل مصدر من (كَلَّ) بمعنى: الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء، كما في (المصابيح) و(الكشاف) وغيرهما، والمشهور في تفسير الكلالة: من لم يترك ولداً ولا والداً، أو ما خلا من الوالد والولد.

وقال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((وروي ذلك عن رسول الله ص أن رجلاً سأله عن الكلالة؟ فقال: أما سمعت الآية التي أنزلت في

الصيف: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ من لم يترك ولداً ولا والداً فورثته كلالة، وروي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب × أنه قال: الكلالة ما خلا من الوالد والولد، وذلك الصواب عندنا)) انتهى.

وقد احتج الإمام الهادي × لذلك بالقرآن في (باب القول في ميراث الكلالة) ولا تضارب في التفسير، فكلال القرابة أي ضعفها يصبح نسبته إلى الميت وإلى وارثه القريب، فكلاهما كلالة، وإنما يختلف التفسير باختلاف السياق الدال على قصد كلالة قرب الموروث، أو كلالة قرب الوارث.

وقال في (لسان العرب): ((والكلالة: الرجل الذي لا والد له ولا ولد، ثم قال: والعرب تقول: لم يرثه كلالةً، أي لم يرثه عن عُرض بل عن قرب واستحقاق، قال الفرزدق:

ورثتم قناة الملك غير كلالة عن ابني مناف عبد شمس وهاشم

ثم قال: وقال الليث: اعلم أن الكلالة في الأصل هي مصدر كَلَّ الميّت، يكِلّ كلاً وكلالة فهو كَلٌّ: إذا لم يخلف ولداً ولا والداً يرثانه هذا أصلها، قال: ثم قد تقع الكلالة على العَين دون الحدث، فتكون اسماً للميت الموروث وإن كانت في الأصل اسماً للحدَث على حد قولهم: هذا خلق الله: أي مخلوق الله، قال: وجاز أن تكون اسماً للوارث على حد قولهم: رجل عدل: أي عادل، وماء غور: أي غائر..)) إلخ.

وفي (لسان العرب) حاكياً عن الأزهري: ((ودل قول الشاعر أن الأب ليس بكلالة وأن سائر الأولياء من العصبة بعد الولد كلالة، وهو قوله:

فإن أبا المرء أحمى له ومولى الكلالة لا يغضب

أراد: أن أبا المرء يغضب لـه، إذا ظُلـم، ومـوالي الكلالـة وهـم الإخـوة، والأعمام، وبنو الأعمام، وسائر القرابات لا يغضـبون للمـرء غضـب الأب انتهى، وفيه حكاية عن ابن بري وقال عامر بن الطفيل:

وما سودتني عامــر عن كلالـة أبى اللــه أن أسمـو بـأم ولا أب»

انتهى.

وقال ابن الأثير في (النهاية) حاكياً عن الهروي: «قد تكرر في الحديث ذكر الكلالة، وهو أن يموت الرجل و لا يَدَع والداً ولا ولداً يرثانه» انتهى.

وفي (الصحاح): «الكَلُّ الذي لا ولد له ولا والد، يقال منـه كَـلّ الرجـل يَكِلّ كلالةً، والعرب تقول: لم يرثه كلالةً، أي لم يرثـه عـن عُـرُض بـل عـن قرب واستحقاق، قال الفرزدق:

ورثتـم قنـاة الـملك غير كلالة عن ابني مناف عبد شمس وهاشم»

انتهى.

والتعبير في تفسير (الكلالة) بلفظ: نفي الوالد والولد، هو في (القـاموس) ولم أجد التعبير بعدم الأب والإبن، إلا في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) وهو كاف، إلا أن الشهرة بخلافه أرجـح، كمـا حكيـت عـن أحكـام الإمـام الهادي × وعن (لسان العرب) و(الصحاح) ومثله في (القاموس).

وفي (تفسير الطبري): «واختلف أهل التأويل في الكلالة، فقـال بعضـهم: هي ما خلا الوالد والولد، ثم رواه عن أبي بكـر وعمـر بأسـانيده، ثـم رواه عن ابن عباس بأسانيده عن سليم بن عبد، أنه قال: ما رأيتهم إلا قد اتفقـوا أن من مات ولم يدع ولداً ولا والداً أنـه كلالـة رواه بأسـانيد، ثـم رواه عـن

الحكم وابن زيد، ثم رواه عن قتادة والزهري وأبي إسحاق، قال: الكلالة من ليس له ولد ولا والد..

ثم قال: وقال آخرون: الكلالة ما دون الولد، ثم قال: وقال آخرون: الكلالة: ما خلا الوالد، هكذا قال، ولكن روى في إسناد القول بذلك عن شعبة قال: سألت الحكم عن الكلالة؟ قال: فهو ما دون الأب، ثم روى بإسناده عن ابن زيد قال: عن ابن زيد: الكلالة: الميت الذي لا ولد له ولا والد والحي كلهم كلالة، هذا يرث بالكلالة وهذا يورث بالكلالة)) انتهى.

نعم يمكن تفسير (الوالد) بالأب وحده وإن أمكن دعوى العموم للأم في قوله: لا والد له بطريقة التغليب لكن الأم تسمى والدة ولا تسمى والداً والتغليب خلاف الأصل، ألا ترى أنه قد غلب عليها اسم الأب في قوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ ولا يلزم دخولها في نفي الأب، فكذا في نفي الوالد، ويؤكد هذا: أن ذكر الأب قد ورد في قول الشاعر:

وما سودتني عامر عن كلالة أبى الله أن أسمو بأمٍ ولا أب

فهو ظاهر: في أن الكلالة ما عدا الأب دون الأم، وقد وقع التصريح به في بعض المواضع، كما مرَّ عن الحكم، وكما روى ابن جرير في (تفسيره) بسنده عن قتادة: ((قوله: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ﴾ والكلالة: الذي لا ولد له ولا والد لا أب ولا جدّ ولا ابن ولا ابنة فهؤلاء الأخوة من الأم)) انتهى.

فما بقي الإشكال أنه سواء قيل: لا والد أو لا أب، وبقي الإشكال في قولهم: ولا ولد، فالولد يعم الذكر والأنثى، وقد قال تعالى في الكلالة: ﴿إِنِ

امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ فالأقرب: أن البنت تخرج الإخوة عن الميراث بالآية وإنما يرثون بالحديث، أعني الإخوة لأبوين أو لأب من حيث أنهم عصبة يأخذون ما أبقت السهام، ولا تعارض لأن هذا فيما أبقت السهام والآية فيما ترك الميت جملة، كما قال تعالى: ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ أي الأخ أو الأخت ﴿فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي أكثر من واحد أو واحدة ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ لا يزادون عليه بسبب زيادة عددهم إن زادوا على اثنين، قالوا ويقسم بينهم بالسوية؛ لأن الله سوى هنا بين الأخ والأخت، فجعل لكل واحد منهما السدس، ولأنه في موضع التفضيل ينص عليه فقد ذكره في الأولاد وذكره في الإخوة أي لأب وأم أو لأب، ولم يقتصر على أحدهما فكان تركه هنا مرجحاً للتسوية، وهذا الميراث كغيره ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أما المضاررة بالوصية، فهي: الزيادة على الثلث، وأما المضارة بالدين، فهو: بالتبرع في المرض المخوف والغبن الفاحش المسبب للدين، وكلاهما يتصور في اشتراء ما يتبرع به بثمن دين، والغبن في اشتراء ما يُغبن فيه غبناً فاحشاً بدين، وكذلك في النكاح بأكثر من مهر المثل في المرض المخوف.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ للزوجين والإخوة للأم، كما أوصى للأولاد فوصية الله أوثق من وصية الميت للورثة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ فحكمه الحق وفرضه الواجب؛ لعلمه بوجوه الحكمة، وقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ﴾ يحتمل: أنه ذكر هنا إشارةً إلى حلمه ـ تعالى ـ عما سبق في الجاهلية من ظلم النساء واليتامى

ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِي

وغير ذلك، أو إلى أنه يقسم الميراث كما فرضه الله، من غير فرق بين البر والفاجر، إذا وحدت الملة الوارث والموروث، ولم يكن مانع من الإرث منصوص عليه كالقتل.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ ﴿تِلۡكَ﴾ الحدود المذكورة من أول السورة في اليتامى والزواج والميراث وغير ذلك كلها ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الذي له الملك يجب أن يطاع ولا يتعدى حد من حدوده ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في المواريث وسائر الحدود المذكورة وغيرها من أمر الله ونهيه ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ﴾ بساتين غليظة تجن أمكنتها في جنة النعيم، خالداً لا يموت باقياً فيها ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ والظفر والفلاح ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ لما فيه من الملك الكبير والنعيم الدائم ولما يستلزمه من الزحزحة عن النار.

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بقطيعة رحم، أو أي مخالفة في حدود الله المذكورة في السورة أو غيرها ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ﴾ في المواريث أو غيرها ﴿يُدۡخِلۡهُ نَارًا﴾ وهي نار جهنم ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ باقياً فيها لا يموت ﴿وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لما في جهنم من أنواع الإهانة بالعذاب المتنوع.

يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ

﴿١٥﴾ ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ **فالزانية لا تجلد حتى يشهد عليها أربعة شهداء، وفائدته: أن لا يعمل بالظن وأقوال الناس التي يتناقلونها حتى يعتقدوا أنها زانية، بل لو فرض أنها زانية في الواقع فلا حكم لذلك حتى يشهد عليها أربعة من المسلمين، فأما الإقرار فإنما يثبت حكمه بالدليل الخاص.**

وقال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((وكذلك قول الله حين يقول: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ فكان هذا أول ما أنزل الله على نبيه ص في أمر الزانيين حتى أنزل عليه ما أنزل من الحدود، فكان ذلك السبيل الذي ذكر الله أنه يجعله)) انتهى. وفيه تفسير الفاحشة وتفسير السبيل، وقد فسر البعض الفاحشة هنا بأنها جريمة المساحقة.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَا﴾ **أي يأتيان الفاحشة فآذوهما كالتعزير والإهانة وقد فسروهما بالزاني والزانية، ولكن عطفه على قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ﴾ مع تفسيره بالزواني يُبعِّد ذلك، والأقرب:**

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ

أنه في اللوطيين للمقابلة بهما للإناث، والمذهب: أنه يُحَد حد الزاني، وجعلوه داخلاً في حد الزنا، وفي الحديث: ((اقتلوا الفاعل والمفعول به)).

والأولى: أن هذا ليس من النسخ، بل إضافة إلى الأذية القتل، أو أن الجلد والقتل نوع من الأذية، فهو من الإطلاق والتقييد لا من النسخ؛ لأن هذه الآية لم تعين نوعاً من الأذى.

﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ فاتركوا أذيتهما من بعد التوبة والإصلاح لخروجهما عن استحقاق الإهانة بالتوبة، ولعل هذا قبل وجوب الحد بشهادة الشهود فأما بعده فلا تتحقق التوبة والإصلاح؛ لأن الخوف من الحد يبعث على إظهار التوبة، والأقرب: أن هذا كان قبل شرع الحد بالجلد والرجم، فكانت الأذية تجب حتى التوبة، وإذا سارع إلى التوبة سقطت الأذية، ولا يسقط الجلد بالتوبة لأنه حكم آخر وإن كان قيداً للأذية قبل سقوطها، لأن الله أوجبه إيجاباً مؤكداً ولم يستثن التائب منه، وشرعه شرعاً مستقلاً لا وصفاً للأذية، فلا يسقط بسقوط الأذية بغير الحد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ﴿تَوَّابًا﴾ رجّاعاً من إيجاب العقوبة إلى العفو ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده التائبين إليه توبة نصوحاً.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ لما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ بيَّن تعالى من يتوب عليه وأوجب على نفسه أن

يتوب عليه، لأن الحكمة تقتضي ذلك، مع كرمه ورحمته وهو من يتوب إلى الله ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ أي من وقتٍ قريب، وهو ما دام في دار الخيار فتاب مختاراً قبل حضور الموت، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((كل شيء دون الموت فهو قريب)) انتهى.

وقد بيَّن تعالى في الآية التي بعدها: أن ما كان عند حضور الموت أو يوم القيامة فهو من بعيد، والقرب والبعد اعتباريان، فلما كان وقت حضور الموت لا تقبل فيه التوبة اعتبر وقتاً بعيداً؛ لأنه تأخر عن وقت قبول التوبة، و﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: الذنب.

وقوله تعالى: ﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ أي يعملونه بجهالة وسفاهة، وعدول عن اتباع العقل والحكمة، وهو يسمى في اللغة: جهلاً، وجهالةً، قال الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن علي (عليه السلام): ((إذا اعتكف الرجل فلا يرفث ولا يجهل..)) إلخ، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه بعمد)).

وفائدة هذا القيد: دفع توهم أن الله يتوب عليه بسبب عمل السوء؛ لأنه جهالة لا يصلح إلا أن يكون سبباً للعقوبة، وإنما ذكره ليرتب عليه ذكر التوبة من العبد التي هي سبب توبة الله عليه والعفو عنه، فأحكم الحاكمين لا يحب عمل السوء ولا يرضاه لعباده لأنه جهالة لا يرضاها حكيم، فما روي عن النبي ص أنه قال: ((لو لم تذنبوا لجاء الله تعالى بقوم يذنبون ليغفر لهم)) بعيدٌ من الحسن، ظاهره: الضعف؛ لأن مثل هذا التعبير لا يصدر عن

يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

رسول الله ص الذي ظاهره الترغيب في الذنب، والله تعالى أرسله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب:٤٦].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمن يتوب من قريب ومن لم يتب، وعليماً بمن يستحق التوبة عليه ومن لا يستحق ﴿حَكِيمًا﴾ لا يتوب إلا على من يستحق ذلك، لأن مقتضى عزته وحكمته أن يعذب من لم يتب.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تتكرر منهم، ويصرون عليها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ كفارٌ لنعمة الله بالمعاصي والإصرار عليها حتى الموت، هذا أحد معاني الكفر والسياق يُعَيِّنُه، لأنه في مقابلة ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ فالسياق في المعاصي مطلقاً لا في كفر الجحود.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لأنهم لم يتوبوا من قريب، وقد بسط الناصر × في (البساط) الإحتجاج على أن أهل الكبائر المصرين عليها يُسمَّون كفاراً فراجعه.

و﴿أَعْتَدْنَا﴾ أي أعددنا، قال الشرفي / في (المصابيح): «أصل ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا، فأبدل الدال تاءً، وقيل: أصله من العتاد وهو عُدَّة الرجل، والمعنى: هيَّأنا لهم عذاباً أليماً موجعاً» انتهى، ومثله في (مفردات الراغب الأصفهاني) وإذا كان من العتاد فهو تَهكُّمٌ بهم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران:٢١].

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

قال في (الصحاح): ((العتيد: الشيء الحاضر المهيَّأ، وقد عتّده تعتيداً وأعتدَه اعتاداً: أي أعدَّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف:٣١] ثم قال: والعتاد: العدة، يقال: أَخَذ للأمر عُدَّته وعَتَاده: أي أهبته وآلته)) انتهى المراد.

ويظهر من قوله: ((الحاضر الْمُهَيَّأ)) أن فيه معنى الإعداد، ولكنه مع ذلك يفيد الحضور كما يفيده الإعداد، ومثله في (لسان العرب) وذكر الخلاف: ((فقيل: أعد يُعِد إنما هو اعتد يعتَد، ولكن أدغمت التاء في الدال، وأنكر الآخرون، فقالوا: اشتقاق أعد من عين ودالين؛ لأنهم يقولون: أعددناه فيُظهرون الدالين..)) إلى قوله: ((قال الأزهري: وجائز أن يكون عتَد بناءً على حِدَةٍ وعَدَّ بناء مضاعفا، قال: وهذا هو الأصوب عندي)) انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ﴾ وراثتهن كرهاً منهيٌّ عنها كيفما كانت، *وتتصورها*: في أن يتزوجها قريبها الذي تحل له أي ابن عمها وهي كارهة له غير راضية بزواجه وهو يريد بتزوُّجها أن يرثها إذا ماتت ما يرثه الزوج، وهذا يتصور إذا كانت صغيرة لَمَّا تبلغ، وكذا إذا زوجها إياه أبوه وهو صغير ولكن أباه يريد أن يرثها لو ماتت عن ابنه ثم مات ابنه وهذه بعيدة.

الصورة الثانية: أن يحبسها وليُّها عن الزواج مع وجود الخاطب الذي ترضاه وترغب فيه، فيحبسها وليها عن الزواج ليبقى له ميراثها كله ولا يكون

للزوج النصف أو للزوج وأولاده منها الكل أو الأكثر، فإذا منعها الزواج كرهاً ليرثها الكل مثلاً، كان قد ورثها كرهاً إذا ماتت في حياته ولم تتزوج.

الصورة الثالثة: أن يتزوج رجل امرأةً فيكرهها وتكرهه ويحبسها وهو يسيء عشرتَها ويظلمها، ولكنه لا يطلقها ليرثَها إن ماتت قبله حيث يؤمل أنها تموت قبله لأنها أكبر سناً أو لأنها ذات مرض أو أمراض تتعاهدها في أكثر الأوقات، فهذه ثلاث صور داخلة في عموم الآية، لأن المراد: النهي عن إكراههن على سبب إرثهن بأي صورة.

﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يأتي تفسير هذه الجملة في كلام المرتضى × ، قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول المرتضى × جواباً عمَّن سأله عنها؟ معنى ﴿أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾ فهو ما يفعله كثير من الناس تكون عنده المرأة يَكرهها ولا يحبُّها، ويكون لها مالٌ وسَعَة فيحمله حب المال والرجا لموتها على أن لا يطلقها، وهو غير محبّ لها ولا قائمٍ بما أوجب الله عليه في أمرها، بل هو ظالم لها غير مقيم لما أمر الله سبحانه فيها، فأخبرهم ـ عزَّ وجل ـ أنه لا يُحِل لهم ذلك، ولا أن ينبغي أن يظلموهن.

وأمَرَهم: أن يقوموا بما أمر الله من حقهن، أو ينفذوا فيهن ما أمر الله ـ تبارك وتعالى ـ من سراحهن، ولا يحبسوهن ظلماً رجاءً منهم لورث أموالهن، فمنعهم الله من ذلك وزجرهم عنه، وكذلك ـ أيضاً ـ ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ فالعَضْلُ لهن: هو إمساك الرجال لهن من غير رغبة ولا محبة، ولا قيامٍ بما أمر الله ـ عزَّ وجل ـ به فيهنَّ، فيكون عند ذلك قد ظلمها في

أخذه بما يعمل فيه من التضييق عليها حتى أخذ ما أعطاها، وهذا يفعله كثير ممن لا يتقي الله إذا كره المرأة وكان عليه لها مهر خشي إن طلقها أن تطالبه به وهو فليس في قلبه لها محبة فلزمها ليتعبها عند ذلك بالتضييق عليها، والخصومة لها، والإعتزال لفراشها، ويتبع كل أمر يعلم أنه يغمها، حتى يضطرها بفعله هذا إلى أن تفتدي منه، فإذا فعل ذلك فاعل فقد ظلم وجار، وأخذ ما لا يحل له أخذه، ولا يجوز عند الله سبحانه فعله)).

قال × : ((والفاحشة: فهي كل أمر استُفحِش من الفعل واستقبح من ذلك إذا كانت مخالفة للدين مضادة للمؤمنين، ومن ذلك: إذا لم تقم بما أوجب الله عليها من حقه، وفعلت في أمره ما ذكرنا أنه يفعل في أمرها من القبيح، ومن الفاحشة: التبرج، وإتيان ما حرم سبحانه، فإذا فعلت ذلك وطلبت المباراة وردّ ما أخذت منه، حل له أن يأخذه إذا كان منها لا منه.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ فذاك أمر منه سبحانه ـ عزَّ وجل ـ لأزواجهن بالمعاشرة لهن ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ والمعروف: فهو الحسن الجميل من الأمور الذي لا ظلم فيه ولا جور.

معنى ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فهو فإن أبغضتموهن وسئمتموهن ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يقول: (عسى) في هذه النساء من البركات واللطف وما يرزق الله منهن من النسل المبارك التّقيّ الذي يسر والده ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لم تعلموا به أنتم بعد، وسيكون منهن ما تسرون)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ يلحق به بالأَولى إذا أراد أن يذهب بكل ما آتاها من مهرٍ ونفقة، وبالأَولى إذا أراد الزيادة على ذلك،

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ

والفاحشة: المعصية لله الزائدة في قبحها كالزنا والقذف، والمبيِّنة: ما تبين فحشها واتضح وثبتت بالمشاهدة، أو البينة المعمول بها شرعاً، والمعروف: خلاف المنكر، وخلاف ما يستنكر ويعاب على الزوج في عرف بلده.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾ فلا تعتقدوا الخير في فراقهن، فمن الأمر القريب أن ﴿يَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ إن أمسكتموهن، وهذا إذا كن صالحاتٍ لا فاجرات يبغضن لفجورهن المعلوم، وقد روي نهي عن الحمقاء، ولعله فيمن لم يكن قد تزوجها، فأما من قد تزوجها فيمسكها ما تمسكت بالدين وصبرت على ما في نفسها من الأوهام وسوء الظن، فإن أداها الحمق إلى الأذية لزوجها بغير حق، والتعدي لأجل سوء الظن، كانت من أهل الفاحشة البينة لأن الظلم قبيح، وظلم المرأة لزوجها أقبح لما له من الحق عليها، وهذا إذا أفرطت في بذاءة اللسان، وأفحشت في السباب أو خاصمته، وإلا فالأحوط المجاملة حتى تفتدي نفسها، أو الطلاق بدون عوض.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ القنطار: مال كثير، وقد تقدم ذكره في (سورة آل عمران) وذلك: أن الزوج إذا رغب في إبدال زوجةٍ مكان التي قد تزوجها وقد آتاها مهراً كثيراً، ثم رغب في طلاقها وإبدالها، فإنه يرغب في استرجاع مهرها ليعطيه للأخرى، فهذا الموضع *الثالث* الذي ينهى فيه عن ظلم النساء، بسبب الحرص على المال في هذه الآيات، *والأول*: إرثهن كرهاً، *والثاني*: عضلهن لأخذ بعض المهر، وذكر

وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ

القنطار هنا؛ لأنه مظنةُ طمعِ الزوج فيه لكثرته ورغبته عنها وحاجته إليه للثانية. فالمعنى: ولو قنطاراً، فليس له أن يسترجعه لكثرته، وتخيّله أنها ظالمة له بأخذه كله وأنه جور عليه، ومثله ما دونه أو أكثر منه؛ لأنه كله ظلم.

وقوله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ لعل البهتان هنا دعوى أن له حقاً فيه أو أنها لا تستحقه أو نحو ذلك من الكذب الذي يستعمله الزوج ليبرر في الصورة أخذه ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ إثماً بيِّناً واضحاً؛ لأن الزوج ظالم لها بأخذ مهرها وليس له فيه أي حق.

﴿٢١﴾ ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ ﴿كَيْفَ﴾؟ سؤال استنكار، ودلالة على أنه لا وجه لذلك. ﴿أَفْضَىٰ﴾ صار في الفضاء وهو المكان الخالي ﴿بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي صار إليها أو صارت إليه في المكان الخالي الذي يصلح فيه الجماع لخلوه من الناس ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ وهو العقد الموجب لحقوقهن، ومن جملتها ما فرض لهن من مهر، فقد تناوله الميثاق الغليظ، وهو غليظ؛ لعظم حرمته، ووجوب الوفاء به، وقبح التهاون به.

قال الشرفي / في (المصابيح): «دلت الآية الأولى: على تحريم تزويج من يحل تزويجها من بنات القرائب نحو بنات العم وهن كارهات، وعلى تحريم تزويج امرأة القريب التي يحل تزويجها بعد موته وهي كارهة، وعلى وجوب معاشرتهن بالمعروف، ومن العشرة: النفقة، والكسوة، وعلى استحباب إمساك من كُرِهت من النساء؛ لما يجعل الله في ذلك من الخير الذي ذكره الله سبحانه.

فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَـٰعَةِ وَأُمَّهَـٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم

ودلت الآية الثانية: على إباحة تبديل الزوجة بمن شاء ممن يحل تزويجها من أخواتها أو غيرهن، وعلى تحريم ظلمهن شيئاً من مهورهن، ذكر هذا إمامُنا المنصور بالله القاسم بن محمد ×)) انتهى.

وبعد بيان جملة من حقوق النساء في هذه السورة، بيّن تعالى جملة ممن يحرم منهن، فقال تعالى:

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ في الجاهلية قبل الإسلام، ونكاحُها: تزوّجها وتسريها، أي اتخاذها للوطء بالملك ودخوله في النكاح، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ فهو اسم لما يستحل به الوطء من زواج، أو ملك للتسري.

﴿إِنَّهُ﴾ أي نكاح من قد نكحها الأب ﴿فَـٰحِشَةً﴾ معصية زائدة في قبحها ﴿وَمَقْتًا﴾ بغضاً شديداً من الله لفاعله، أي سبب بغض ﴿وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ طريقاً لقضاء النكاح، أي أنه سيءٌ مذموم، والآباء يتناول الأجداد، قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : في هذه الآية الكريمة تناوَلُ ما نكح الآباء من قِبَل الأب، ومن قِبَل الأم من الأجداد، ومن قِبَل الأب من الرضاعة، ومن قِبَل الأم من الرضاعة)) انتهى.

بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ

﴿٢٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ حرم الله نكاح (الأم) التي ولدتك، و(البنت) التي ولدتها ولو من الزنا، كما تحرم الأم من الزنا، و(الأخت) وهي تكون أختاً من الأم أو من الأب أو منهما، و(العمة) أخت الأب لأبويه أو لأحدهما، و(الخالة) أخت الأم لأبويها أو لأحدهما، و(بنات الأخ) كذلك و(بنات الأخت) كذلك.

قال الإمام الهادي × في (الأحكام) في هذه الآية الكريمة: ((فحرم الله تبارك وتعالى الأمهات، فحرم بتحريمهن كل من ولدهن من الجدات وإن علون فارتفعن وتباينّ في الولادة للأمهات فافترقن، لأنهن جدات والجدات فهن أمهات، وحرم الله تبارك وتعالى على المؤمنين بناتهم وما ولدن من الأولاد وأولاد الأولاد وإن سفلن في الولادات، فهن بحكم الله للأجداد بنات لا يحل لهم نكاحهن بما حرم الله من نكاح أمهاتهن، وكذلك حرم ـ جلَّ جلاله عن أن يحويه قول أو يناله ـ الأخوات فحرم بتحريمهن بناتهن على عموماتهن وما ولدن بناتهن من البنات، وبنات البنات وإن بعدت مواليدهن على إخوة جداتهن؛ لأنهم وإن تباعدوا منهن أعمامهن، والحكم فيهن وإن سفلن بالتحريم على أعمام جداتهن كحكم أخواتهم اللاتي نطق الكتاب بتحريمهن عليهم؛ لأنهن في المعنى كبناتهن إذ هن بنات أخواتهم.

وكذلك حرم الله العمات والخالات؛ لأنهن في عداد الآباء والأمهات، وحرم الله تبارك وتعالى بنات الإخوة وبنات الأخوات؛ لأنهن من العمومة كالبنات تعظيماً منه لقريب القرابات، وتأكيداً منه على عبيده في صلة الولادات، فصار حكم بنت أخي المسلم كحكم بنته عليه وكذلك حكم بنت أخته لديه)) انتهى المراد.

﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ أي التي صارت أمّاً لأنها أرضعتك، وهذا دليل على تحريمها ولو لم ترضع إلا مرة؛ لأنها قد أرضعت، فهو ناسخ لما روي من عشر ثم خمس رضعات محرمات، أعني: أنه ناسخ للعدد؛ لأن الحكم هنا عُلِّق على الرضاع لا على عدد من الرضاع.

﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ قال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((ثم حرم سبحانه الأمهات المرضِعات لمن أرضعن من البنين والبنات على البنين وأبناء البنات والبنين وإن سفل ميلادهم؛ لأنهن بإرضاع الآباء وإن بعدن أمهاتٌ للأبناء)) انتهى.

قلت: دخول ذرية الرضيع هو بالسنة، والأخت من الرضاعة يعم: الأخت التي رضعتَ من أمها ولو لم ترضع هي من أمك، ويعم: الأخت التي رضعت هي من أمك ولو لم ترضع من أمها، ويعم: الأخت التي رضعت أنت وهي من امرأة ثالثة غير أمك وغير أمها فهي أمكما من الرضاعة وأنتما أخوان من رضاعها، ولا فرق بين من رضعت معها في وقت رضاعها أو قبلها ولو قبل وجودها أو بعدها ولو بعد فطامها ولو بعد فطام من بعدها من أخواتها أو إخوتها، فأنتما أخوان إذ قد حصل الرضاع.

ولا يعتبر في الرضاع اجتماع على لبن ولادة واحدة، فأما الأخت من الأب أي من زوج المرضعة الذي أرضعت من اللبن الحادث بعد علوقها بولد له ففيها خلاف لأنها لم ترضع من أمك ولا رضعت من أمها ولكنها بنت زوج المرضعة، فإن كانت تسمى في اللغة أختاً فقد دخلت في العموم في قوله تعالى: وأخواتكم من الرضاعة؛ لأن سبب أخوَّتها هو الرضاع من امرأة أبيها أو من امرأة أبيك أو من امرأة زوج مرضعتك، بأن رضعتَ من امرأة ورضعتْ هي من ضرَّتها، فإذا كان زوج المرضعة يسمى أباً وبنته تسمى أختاً من الأب في اللغة دخلت في عموم الآية، وإلا فتحريمها بالسنة، وظاهر الكشاف دخولها في الآية.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ فهي محرمة على الإطلاق، ولا يشترط في تحريمها الدخول ببنتها؛ لأن تحريمها مطلق غير مشروط بالدخول.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: ((حرم الله من النسب سبعاً ومن الصهر سبعاً، فأما السبع من النسب: فهي: الأم، والإبنة، والأخت، وبنت الأخ، وبنت الأخت، والعمة، والخالة، والسبع من الصهر: فامرأة الأب، وامرأة الإبن، وأم المرأة دخل بالإبنة أو لم يدخل بها، وابنة الزوجة إن كان دخل بأمها وإن لم يكن دخل بها فهي حلال، والجمع بين الأختين، والأم من الرضاعة، والأخت من الرضاعة)) انتهى.

وظاهره: التفسير للآية؛ لقوله في أول الكلام: ((حرم الله..)) ولأنه لم يذكر غير من في الآية وجعل لغيرهن كلاماً آخر، ولم يدخلهن في هذا الحصر سبعاً وسبعاً.

وفي (أمالي أحمد بن عيسى) [٢/٩٦٨] من تخريجها (رأب الصدع) بإسناده: عن الحكم بن عتيبة: أن رجلاً سأل ابن مسعود بالكوفة عن رجل تزوج امرأة فماتت قبل أن يدخل بها أيحل له أن يتزوج أمها؟

قال: فكأن ابن مسعود رخّص له فيها، فتزوّجها فولدت له، فعرض في نفس ابن مسعود منها شيء فلقي علياً فسأله فقال: ((لا تحل له)) فقال: أليس الله يقول: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾؟ فقال علي: ((هذه قد فسرت وهذه مبهمة)) قال: فرجع ابن مسعود ففرق بينهما، انتهى.

وفي (الأمالي) أيضاً هناك [ص٩٦٩] بسنده: عن السدي في قوله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ قال: قال علي بن أبي طالب: ((إذا تزوج الرجل الجارية دخل بها أو لم يدخل بها، لم تحل له أمها لأنها محرمة مبهمة في كتاب الله عزَّ وجل)) وفيها هناك في [الصفحة] بسنده: عن ابن عباس قال: هي مبهمة ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾)) انتهى.

ومعنى (مبهمة): ليس فيها تفصيل بين المدخولة بنتها وغير المدخولة بنتها، وهذا واضح ولا يصح دعوى أنها مقيدة مع الربائب؛ لأن ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ هي لابتداء نسبة الربيبة، وبيان مصدر هذه النسبة مثلها في قولك: هو أخي من أبي أو من أمي أو منهما لبيان مصدر الأخوة، ولم يذكر في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ النسبة بينهن وبين الزوج ولا معنى لأن يقال: هي أمها منها، أي أم البنت من البنت، فجعل القيد راجعاً إليها تمحل ودعوى خلاف الظاهر.

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الربيبة: هي بنت الزوجة من غيرك، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فربيبة الرجل: بنت امرأته، و﴿فِى حُجُورِكُم﴾ معناه: في بيوتكم)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((وحَجر الإنسان وحِجره ـ بالفتح والكسر ـ والجمع: حجور)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((ويقال: فلان في حِجر فلان، أي في منع منه عن التصرف في ماله وكثير من أحواله، وجمعه: حجور، قال تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ وحِجر القميص ـ أيضاً ـ اسم لما يجعل فيه الشيء فيمنع)) انتهى.

لعله يعني بقوله: في منع منه، أي في حماية منه وحفظ، فلعل (تفسير الإمام زيد بن علي إ) أراد به هذا؛ لأنهن إذا كنَّ في البيوت كنَّ في الحماية. وقال (صاحب القاموس): ((ونشأ في حِجره: أي في حفظه وسَتره)) انتهى.

وفي (لسان العرب): حَجر الإنسان وحِجره ـ بالفتح والكسر ـ حضنه، وفي (سورة النساء): ﴿فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾ واحدها حَجر ـ بفتح الحاء ـ يقال: حَجر المرأة، وحِجرها: حضنها، والجمع الحجور، وفي حديث عائشة (رض): ((هي اليتيمة تكون في حَجْر وليّها)) ويجوز أنه من حَجْر الثوب وهو طرفه المتقدم؛ لأن الإنسان يرى ولده في حِجره، والولي: القائم بأمر اليتيم ـ ثم قال في موضع آخر ـ: ونشأ فلان في حَجر فلان وحِجره، أي حفظه وستره)) انتهى.

عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا

قال في (الكشاف): ((فإن قلتَ: ما فائدة قوله: ﴿فِي حُجُورِكُم﴾؟ قلت: فائدته التعليل..)) إلخ.

يعني: أنه ليس للتقييد وإخراج من ليست في الحجر، لكنه سواء كان للتعليل أو للتقييد قد صير الكلام خاصاً بمن في الحجر، ويحتاج من ليس في الحجر إلى دليل لتحريمها.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ الحلائل: الزوجات، الواحدة حليلة، والزوج حليل ﴿ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾ لتحقيق الأبناء، لئلا يتوهم دخول المتبنى الذي كانوا يسمونه ابناً، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب:٤] وفي قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب:٣٧].

﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ في الجاهلية قبل الإسلام فهو مغفور، فالإستثناء بمعنى لكن، وهو نظير قوله تعالى: ﴿مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فهو يغفر لمن تاب ويرحمه، ومن ذلك: من أسلم بعد الجاهلية فقد جَبَّ الإسلامُ ما قبله، وجعل الإستثناء هنا كالأول؛ لقرينة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ ولولا ذلك لأمكن أن يكون هنا متصلاً أي إلا ما قد سلف فلم يُحَرِّم، والجمع بين الأختين الجمع في زواج واحد أو تسَرّ.

جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ

﴿٢٤﴾ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي من المزوجات حُرّمن عليكم ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ أي المملوكات السبي فالمسبيَّة حلال لمالكها، وعليه أن يستبرئها بحيضة، وإذا كانت حاملاً كفّ عنها حتى تضع ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتبَ الله عليكم هذا التحريم لمن مر في الثلاث الآيات كتاباً.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ النكاح المحرم في الآيات، أو ﴿مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ الكتاب أي ما لم يتناوله من النساء، وهذا العموم قد أخرج منه نكاح المشركات، ومن حرمت بالرضاع، والجمع بين المرأة وعمتها، والجمع بين المرأة وخالتها.

وقوله: ﴿أَن تَبْتَغُواْ﴾ بدلٌ، أي: أحل لكم أن تبتغوا أي تطلبوا النكاح ﴿بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ﴾ عن الحرام بالحلال ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ أي زانين كما يبتغى الزنا بالمال، ولكن بالمهور، وثمن الإماء السريات.

﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم﴾ ﴿مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فليس للزوج أن يؤخر المهر بعد الدخول بزوجته، بل إذا استمتع بها ولو مرةً وجب عليه تسليم مهرها، والدخول استمتاع وفي (معلقة امرء القيس):

وبيضة خدر لا يرام خباؤها تمتَّعت من لهوٍ بها غير معجل

والإستمتاع: الإنتفاع القليل المدة، ففي (مجموع الإمام زيد بن علي إ) في (الحج): عن علي × في (مواقيت الإحرام): ((فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ ذا الحليفة..

ثم قال ـ: فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ العقيق ـ ثم قال ـ: فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ الجحفة ـ ثم قال ـ: فمن شاء استمتع بثيابه وأهله حتى يبلغ يلملم..)) إلخ.

واعتبرت مدة الحياة الدنيا قصيرة، فقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وقال تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ﴾ [التوبة:٦٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم:٣٠].

وأخرج أحمد بن حنبل في (المسند) [٢/ ١٦٨]: عن رسول الله ص أنه قال: ((الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة)) وهو في (سنن ابن ماجة: ١/ ٥٧١) وراويه عبد الله بن عمرو عربي اللسان.

فإن *قيل*: إنه يجب تسليم المهر بالعقد؟

قلنا: إن صح هذا وأنه لا يجوز تأخيره إلى بعد الدخول، فإن العقد قد يشرط فيه التأجيل، ففائدة الآية: بطلان الشرط بالدخول.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: أن امرأة أتت علياً × ورجل قد تزوجها ودخل بها، وسمى لها مهراً، وسمى لمهرها أجلاً، فقال له علي × : ((لا أجل لك في مهرها إذا دخلت بها، فحقها حالّ فأدّ إليها حقّها)).

وهذا في (أمالي أحمد بن عيسى) [٢/ ٩٨٩] من (رأب الصدع): حدثنا محمد، قال: حدثني أحمد بن عيسى، عن حسين، عن أبي خالد، عن زيد بن علي، عن آبائه.. فذكره.

وفي الآية الكريمة فائدة أخرى، وهي: وجوب المهر معجلاً بالدخول، ولو لم يكن سمي، و﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، كما قال تعالى: ﴿أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٠] فظهر: أنه لا يصح الإحتجاج بالآية على تشريع المتعة المؤقتة.

وما روي من قراءة: (فما استمتعتم به منهن إلى أجل) فالقرآن محفوظ، فلو كانت منه لحفظت كما حفظ، ولكتبت في (المصاحف) فأما جعل القراءة الشاذة روايةً عن النبي ص فغير متعين؛ لأنه في بعض المواضع يحتمل: أن الصحابي ذكره على جهة التفسير، كما ذكروا أنها حرقت المصاحف لما اختلط بها من التفسير.

وإذا كان تفسيراً فهو رأي لصاحبه، ولا يلزم اتباعه؛ لجواز الخطأ عليه، ولما ثبت من اللغة العربية أنه غير متعين، وأنه صالح في الدخول بالزوجة.

فأما قولهم: إن الإستمتاع قد صار حقيقة شرعية في المتعة المتنازع عليها، فهو غير مسلم ولا دليل عليه، إنما اشتهر في العرف من عهد عمر في متعة النساء أنها هي المؤقتة لا في الإستمتاع، والقرآن لا يفسَّر بالعرف الحادث بعد موت الرسول ص.

﴿فَرِيضَةً﴾ مسماة مهراً، فلا تجزي عنه التبرعات ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ فما أسقطته بطيبة نفسها برئ منه أو أرجعته له، وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾ يخرج به التراضي بأن لا مهر لها من أول الزواج وقبل الفرض، فهذا لا يصح ويلزمه المهر ويبطل الشرط.

ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن

وفي (أمالي أحمد بن عيسى) [٢/ ٩١٥]: بإسناده: عن علي × في رجل نكح امرأة فأصدقته المرأة واشترطت أن بيدها الطلاق والجماع، فقال علي: «خالَفَت السنة، وولَّت الحق من لم يولِّه الله، فقضى أن عليه الصداق، وبيد الزوج الجماع والفرقة، وقال: ذلك السنة» انتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بأحوالكم وما تقتضيه الحكمة من تكليف أو ترخيص، وعليم بما يصدر من تراضٍ حقيقي عن طيبة نفس وما ليس كذلك، وعليم بكل شيء، وحكيم في كل أفعاله وأقواله.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿طَوْلاً﴾ تحصيل طول من المال يتزوج به، والطول: سعة وزيادة على القوت الضروري ونحوه، واستطاعته: إما أن يكون موجوداً عنده يستطيع إنفاقه في الزواج لا يحتاجه للقوت الضروري ونحو القوت، وإما أن يستطيع كسبه حلالاً بسبب يستطيعه كمضاربة وإجارة عمل، فإذا كان يستطيعه فلا يدخل في هذه الإباحة للتزوج بالأمة، و﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ هنا الحرائر.

وقوله تعالى: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم﴾ أي فلينكح مما ملكت أيمانكم أيها المؤمنون، فليس له أن يتزوج مملوكة لكافر، وقوله: ﴿مِّن فَتَيَـٰتِكُمُ﴾ الفتاةُ: هي الشابة، وعلى هذا: فليس له أن يتزوج أمة صغيرة، ولا عجوزاً قد بلغت الستين، أما الصغيرة فلعدم صلاحيتها للجماع، وأما الكبيرة فلأن نفسه لا تقنع بها لتحفظ دينه لنقص لذتها.

والأرجح: أنها لا تحرم بمجرد المفهوم بل لا مفهوم له، لأن ذكرها لكونها مظنة الفائدة ومظنة التحصيل لا لإخراج غيرها، فإذا لم يجد فتاة ووجد عجوزاً وخاف العنت حلت له؛ لأن الأصل الحل لدخولها في عموم ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾.

وقوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ يخرج الكافرات فلا يحل نكاحها، فأما الفاجرة المسلمة فلعلها تلحق بالمؤمنة إذا كان فجورها بغير الزنا؛ لأنهم في المعاملات يلحقون بالمؤمنين فيما ليس فيه موالاة ويحتمل أن تلحق بالكافرة، والإحتمالان يرجع فيهما إلى دليل آخر.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُم﴾ فليس عليكم إلا العمل بظاهر الإيمان لأنكم لا تعلمون منه ما يعلمه الله سبحانه ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ الأحرار والعبيد جنس واحد، فإذا جمعهم الإيمان فلا غضاضة في الزواج منهم.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ المالكين لهن أي تزوجوهن بإذنهم، فلا بد من إذنهم إذا كان المزوج لهن قرابتهن أو غيرهم، وإن تولى المالك العقد فهو أذن وزيادة ﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن وفي تسليمه إليهن تأنيس

لهن، وإن كان عليهن تسليمه إلى المالكين لهن، وقد جرت العادة أن يستلم مهر الحرة وليها ثم لا يعطيها منه شيء فما أبعد هذه العادة من الدين ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: بأن يكون مهر زواج لا أجرة بغاء.

﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾ مصونات ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ كالتفسير لإحصانهن الذي هو حفظهن من الريبة، والمسافِحات: الزانيات، والمتخذات أخدان: المتخذات أخلاء من الرجال الأجانب، فهن متهمات بالزنا، غير محفوظات منه؛ لكثرة المخالطة وقوة الحب، واطلاع كل منهما على سر الآخر، قال في (الصحاح): ((الخِدْن، والخَدين: الصديق، يقال: خادنت الرجل، ومنه: خِدْن الجارية، قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾)) انتهى.

ولا بد في تحريمها أن تكون هي اتخذت خدناً، فأما لو كان الأجنبي يحسن إليها ويقضي لها أغراضها وهي لا تخالطه ولا تسارّه بأسرارها، ولكنها في بعض الحالات تحسن إليه مكافأة لإحسانه لا توصُّلاً إلى صداقته فلم تتخذه خدناً.

﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾ بالزواج الكاسر للشهوة ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فعلى الحرة مائة جلدة، وعلى هذه الأمة نصف المائة، فأما الرجم فلا يتنصف لأن النصف لا يوقف له على حد.

وقد ذكر الإمام الهادي × : أن العبيد إذا أقروا بالزنا أربع مرات جلدوا سواء كانوا محصنين أو غير محصنين، وهذا قريب لعموم الأدلة في جلد الزاني وورود روايات عديدة في جلد الأمة الزانية من غير فصل بين محصنة وغير محصنة، فالآية هذه دليل على تنصيف الحد في الأمة المزوجة وتقاس عليها في التنصيف بالأولى غير المزوجة، وقيس عليها العبد بجامع الرق، ولا إشكال أنه العلة في تنصيف حد الأمة.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ أي التزوج بالأمة إنما يجوز للحر إذا خشي العنت أي الوقوع في الفاحشة، سميت عنتاً؛ لأنها ضرر شديد فُسِّر به لقرينة السياق، وكون مهمة الزواج حفظ الدين فهو الغالب.

مع أن العنت يحتمل أن يفسر بالمشقة العظيمة تشبيها لها بالضرر الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٠] أي في شأن أموال اليتامى بالتكليف الشاق الزائد في مشقته، والمعنيان متقاربان شدة المشقة من الشبق وخوف الوقوع في المعصية بسبب شدة الحاجة، وهذا أقرب لقوله تعالى:

﴿وَأَن تَصْبِرُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي تصبروا على الحاجة مع العفاف ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من الزواج بهن لخشية العنت، فأفاد: أن المراد بخشية العنت خشية عدم الصبر على الحاجة، أو خشية المشقة الشديدة بمصابرة الحاجة، فأما خشية الضرر الشديد في البدن كالجنون فهو نادر يبعد أن يعلق عليه جواز نكاحهن، ويبعد الترغيب في الصبر مع خشيته، وهذا هو ظاهر كلام الشرفي / في (المصابيح) و (صاحب الكشاف) فأما (صاحب الصحاح) فقال: ((العنت: الإثم وقد عنِت الرجل، وقال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ يعني: الفجور والزنا، والعنت ـ أيضاً ـ الوقوع في أمر شاق، وقد عنِت وأعنته غيره، ويقال للعظم المجبور إذا أصابه شيء فهاضه: قد أعنته فهو عنِتٌ ومعنَتٌ، وجاءني فلان متعنتاً: إذا جاء يطلب زلتك)) انتهى.

فظهر منه: أن ما فسرنا به أرجح، وأنه لا يقال: العنت في العظم المكسور بل الإعنات، وفي (لسان العرب): ((العنت دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة)) انتهى، وقد زاد: أنه قد يستعمل بمعنى الهلكة، ولكن هذا لا يستقيم في سياق هذه الآية مع أنه زائد على الحقيقة كما يظهر من كلامهم.

قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا موجب للمبالغة في الحذر من تزوج الإماء بل متى وجد الإنسان من نفسه خشية العنت جاز له أن يتزوجها ولا يضره احتمال أنه يصبر، وكذلك متى كان ظاهرها الإيمان جاز له تزوجها وليس عليه جناح إن أخطأ الواقع، وكذلك متى كان الظاهر عنده العجز عن تحصيل طَول حرة لأنه لم يجد وسيلة وقد نظر فلم يخطر بباله وسيلة لطَول حرة صح له تزوجها من هذه الجهة ولا يضره لو كان مخطئاً في ظنه.

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تشجيع على هذا الزواج متى كان الظاهر تكامل شروطه ليتزوج الأعزب المحتاج اتكالاً على مغفرة الله ورحمته لما في ذلك من مصلحة الإحصان وسدّ الذريعة على الشيطان.

﴿٢٦﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ إنزال الآيات السابقة في هذه السورة ﴿لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ حتى تعرفوا ما شرع فيها ولا يخفى إلا على معرض عن تفهم القرآن، وهذه (اللام) التي يقال: إنها زائدة، أعتقد أنها تأتي حيث يحذف المراد الحقيقي ويذكر ما لأجله أريد، فهي (لام التعليل) كما قال الشاعر:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكل سبيل

فالمعنى: أريد أن أتناسى ذكرها لأنسى ذكرها، فحذف المراد الحقيقي اختصاراً لدلالة العلَّة عليه وأقيمت علته مقامه، فقيل: اللام زائدة بناء على أن العلة هي المراد، فالآية الكريمة على ما فسرت تبيِّن لماذا أراد الله ما سبق من الآيات، وإذا قلنا: يريد الله أن يبين لكم فات هذا المعنى.

﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ﴾ بما نزل في أوائل هذه السورة ﴿سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ من الذين أنعم الله عليهم من النبيئين وأتباعهم ﴿وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إذا اتبعتموه وتركتم ما كنتم عليه في الجاهلية من ظلم اليتامى والنساء وتزوج امرأة الأب والجمع بين الأختين والزيادة في عدد الزوجات المفرطة وغير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما تحتاجون إليه من ذلك وما هو الخير لكم وما تقتضيه الحكمة وكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أقواله وأحكامه وأفعاله وكل شأن من شأنه سبحانه وتعالى.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ فانظر كيف لم يأت باللام، ولو أتى بها لكان تكراراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ فبان الفرق، وأن (اللام) هي (لام التعليل) لا زائدة، فهنا يبين: أنه يريد أن نطيعه ونتوب إليه ليتوب علينا، إلا أن هذه الإرادة ليست إرادةَ جبر أو إلجاء.

﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلاً عَظِيمًا﴾ وهذا تحذير من ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ لئلا يستميلونا عن سبيل الله فنميل ﴿مَيۡلاً عَظِيمًا﴾ كما يريدون، و﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ما تشتهي الأنفس من أغراض الدنيا، فـ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ هم الذين يتبعون ما تهوى الأنفس، وهو يعم ما تهواه بالأصالة كالنساء، وما تهواه لغضب أو عداوة أو نحوها وإن كان في الأصل مما تكرهه النفس لولا الغضب أو العداوة أو نحوها فهو عام للمعاصي كلها؛ لأنها لا تخرج عنه، فينبغي الحذر ممن يتبع هواه على الإطلاق.

ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ

﴿٢٨﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ **التخفيف: ضد التثقيل، فالمراد: تخفيف التكاليف بما سهل من أسباب تيسير التكليف، كإباحة تعداد الزوجات، وجعل ميراث الأنثى في بعض المواريث نصف ميراث الذكر، وإباحة الإماء للضرورة، وغير ذلك من الأحكام ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ ضعيف الصبر، وضعيف الإرادة والعزم، وضعيف الثبات، فاحتاج إلى تخفيف الله عنه فخفف عنه برحمته وكرمه وحكمته.**

﴿٢٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ **يعبر بالأكل عن أخذ المال للتصرف فيه سواء كان مأكولاً أو غير مأكول وذلك على طريقة التغليب، أو للتشنيع، كما قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا﴾** [الفجر:١٩].

وقوله ﴿بَيۡنَكُم﴾ يشعر بالتعامل والأخذ والإعطاء الذي يكون المال فيه بين الآخذ والمعطي في مكان التعامل، وقوله: ﴿بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ أي بالسبب الباطل الذي لا يثبت به حق كالربا وحلوان الكاهن وكسب المغنية وكسب الزانية والرشوة والأجرة على حق واجب على العامل ونحو ذلك.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ فهي حلال للبائع والمشتري، والتجارة يقصد فيها تحصيل الربح، وهو في الصورة إلى غير مقابل ولكن الله أحله، ويلحق بذلك التبايع بدون ربح فحله أظهر، وقوله: ﴿عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ يخرج ما كان أحد المتبايعين مُكرَهاً أو كلاهما فلا يحل به المال المأخوذ به.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعم قتل الإنسان نفسه وقتله أخاه المؤمن، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٨٤-٨٥] وذلك أنها جعلت الجملة كالشيء الواحد، فالفرد كالعضو إذا جَرَح عضواً من صاحبه قيل جرح نفسه، وهذا المعنى يشير إلى أن ضرر القتل على الجملة لأن المقتول نقص منها، ونظير ذلك قول الشاعر:

قومي همو قتلوا أميم أخي ... فإذا رميت يصيبني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جللاً ... ولئن سطوت لأوهنن عظمي

مع أنه لا سواء؛ لأن الإسناد في الآية إلى الجملة كما ذكرت بخلاف البيتين.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال بعضهم: اتفقوا على أن هذا نهي عن أن يقتل بعضهم بعضاً، وإنما قال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ كقوله ص: المؤمنون كنفس واحدة، ولأن الجنس واحد، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور:٦١] أي فليسلم بعضكم على بعض؛ ولأن العرب يقولون: قتلنا ورب الكعبة، إذا قتل بعضهم..)) إلخ.

قلت: وفي القرآن الكريم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] ولا إشكال في أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ يعم قتل المؤمن نفسه بأي وسيلة، ويدخل فيه الغسل من الجنابة في البرد القاتل وغير ذلك.

عُدۡوَٰنًا وَظُلۡمًا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ فلا يرضى أن تقتلوا أنفسكم بغير حق، ولعله يخرج منه فداء الإسلام والمسلمين مما يكون الضرر فيه أشد من قتل الواحد كالمترس بهم في الحرب ليؤخذ أرض المسلمين، وكالفدائي الذي يقتل بالمتفجرات أمةً من الكفار ليخرج الكفار من أرض المسلمين، ولكن هذا الإستثناء يحتاج إلى دليل، فإن كان العقل يدل عليه فهو يجري مجرى التخصيص بالقول؛ لأنه يستغنى بعلم السامع عن التخصيص بالقول.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنًا وَظُلۡمًا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ يقتل نفسه أو غيره الإشارة إلى الآخر وهو الذي في (المصابيح) و(الكشاف) وقرينته قوله تعالى: ﴿عُدۡوَٰنًا وَظُلۡمًا﴾ وإن كان الكل ظلماً ﴿فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗا﴾.

قال في (الصحاح): ((ويقال: صَلَيت الرجل ناراً إذا أدخلته فيها وجعلته يصلاها، فإن ألقيته فيها إلقاءً كأنك تريد إحراقه. قلتَ: أصليته بالألف وصلّيته تصلية، وقرئ: ﴿وَيُصَلَّى سَعِيْراً﴾ ومن خفف فهو من قولهم: صَلِي فلان النار بالكسر يَصْلَى صُلِيّا احترق)) انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ×) لـ(غريب القرآن): ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: ((معناه: نشويهم بالنار وننضجهم بها)) انتهى، وفي (الصحاح) أيضاً: ((وصليت اللحم وغيره أصليه صلياً، مثال: رميته رمياً إذا شويته، وفي الحديث: إنه عليه الصلاة والسلام: أتي بشاة مصلية، أي مشوية)) انتهى.

كَرِيمًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن

ونحو هذا في (مفردات الراغب) و(لسان العرب)، وفي (لسان العرب): ((قال الكسائي: المصلية المشوية، فأما إذا أحرقته وأبقيته في النار قلتَ: صلَّيته بالتشديد وأصليته)) انتهى، فهو عنده أشد من الإنضاج.

وقول الإمام زيد معناه: نشويهم، يشعر بمباشرتها لأجسادهم وأرواحهم، كما تباشر ما يشوى من اللحم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فلا مشقة عليه من أجل رقة تحصل عند ذلك، أو مُدافع ينصرهم، أو نقص عليه في ملكه بهلكهم.

﴿٣١﴾ ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ ﴿كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كالقتل عدواناً وظلماً، فخرج القتل خطأ فهو صغير، وقد قيل الخطأ غير داخل في النهي، قلنا: بل هو داخل فيه وإن لم يدخل في الوعيد، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ يعم العمد والخطأ، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء:٣٢] كذلك.

فإن **قيل**: إنه لا يستطاع اجتنابه فليس معصية، وعموم الأدلة مخصوص بالعقل؟

قلنا: ليس كله لا يستطاع تركه، ألا ترى أن بعضه يمكن تركه باستعمال الحذر والإحتياط وهو مستطاع، ولعل ذلك سبب إيجاب الكفارة في القتل خطأ وإيجاب الدية والأرش على كل حال في العمد والخطأ، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٣٣].

ولعل هذا خاص بالإكراه على الزنا؛ لأن ما يبيحه الإكراه لا يسمى معصية، كيف وقد أذن الله به.

فالحاصل: أن الخطأ الذي يمكن الإحتراز منه معصية وكذلك النسيان، وإذا كانت معاصي فهي صغائر بلا إشكال، والعمد كبائر بالنسبة إلى الخطأ والنسيان، ومع هذا فالكبائر متفاوتة في الكبر فما وصف في القرآن أو السنة بالكبَر أونحوه فهو كبير بالنسبة إلى ما هو دونه من المعاصي المتعمدة، وكذلك ما جاء فيه وعيد خاص به؛ لأنه يفهم من تخصيصه أنه زائد في القبح زيادة سببت للوعيد عليه بخصوصه.

فإن *قيل*: ما عدا الموصوف بالعظم ونحوه والمتوعد عليه بخصوصه من سائر المعاصي يحتمل الصغر والكبر؟

قلنا: قد حققنا أن المتعمَّد من ذلك كبير بالنسبة إلى الخطأ والنسيان، ولا ينافي ذلك أن بعضه صغير بالنسبة إلى تلك الموصوفة بالعظم أو المتوعد عليها بخصوصها؛ لأن ما هو كبير بالنسبة إلى الخطأ والنسيان قد دخل في عموم: كبائر ما تنهون عنه، ولا ينافي ذلك وصفه بالصغَر بالنسبة إلى ما هو أعظم منه؛ لأن الحكم في الآية الكريمة معلق على الكبر، ولا ذكر فيها للصغر، فما صدق عليه اسم الكبَر من حيث هو منهي عنه متعمد بلا تأويل لا يخرجه منها كونه صغيراً بالنسبة إلى العظائم المخصوصة؛ لأن ذلك لا يرفع عنه اسم الكبَر من حيث هو منهي عنه متعمد بلا تأويل؛ لأن قبحه كبير من حيث هو معصية لله ـ جلَّ جلاله ـ المنعم بالنعم العظمى المستمرة التي لا نحصيها عدداً، ومن حيث قد قامت الحجة على فاعله وعظمت بالمواعظ والعبر وغير ذلك، فالإساءة إلى الله المالك المنعم باستعمال نعمه في

معصيته أو الإشتغال عن طاعته باستعمال نعمته إساءة قبيحة عظيمة القبح، فالمتعمَّد بلا تأويل كله كبير.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قلت: وعند الناصرية، وهو ظاهر كلام الهادي × ، وصريح قول المرتضى وقول القاسم بن علي العياني عليهم السلام وغيرهم، وبعض البغدادية: كل عمد كبيرة)) انتهى المراد.

وقد يعترض هذا القول: بأن الخطأ والنسيان لا يؤاخذ به صاحبه ولو لم يجتنب الكبائر؟

والجواب: أنه قد مرّ عند تفسير قول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران:١٩٣] أن تكفيرها سترها بحيث لا يرونها في الآخرة حسراتٍ عليهم، وليس المراد نكفر عنكم سيئاتكم الخطأ والنسيان فقط بل كل السيئات الماضية قبل الإيمان.

وقد روى الناصر × في (البساط) قال: وحدثنا بشر، قال: حدثنا وكيع بن الجراح، قال: حدثنا الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قلنا يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: ((من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء أخذ بالأول والآخر)) انتهى، بشر وثقه (صاحب طبقات الزيدية) في (نسمات الأسحار).

وروى عنه الناصر × في (البساط) فأكثر وهو من مشائخه، والحديث في (جامع البخاري) المسمى (الصحيح) [٨/٤٩]: حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا سفيان، عن منصور والأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود رضي الله عنه، فذكره بتمامه.

وهو في (مسلم) [١/ ١٣٥] عنوانه في (شرح النووي): (باب هل نؤاخذ بأعمال الجاهلية): حدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل.. إلى آخر السند، والحديث بلفظ: ((أما من أحسن منكم في الإسلام فلا يؤاخذ بها، ومن أساء أخذ بعمله في الجاهلية والإسلام)).

ثم قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا أبي ووكيع، وحدثنا أبوبكر بن أبي شيبه، واللفظ له، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن أبي وائل..إلى آخر السند والحديث..

ثم قال: حدثنا منجاب بن الحارث التميمي أخبرنا علي بن مُسْهِر عن الأعمش بهذا الإسناد مثله.

وأخرجه ابن ماجة في (سننه) في (أبواب الرقاق) [٢/ ٥٦٠]: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدثنا وكيع، وأبي، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله.. فذكره، وشقيق هو أبو وائل.

وهو في (سنن الدارمي) و(مسند أحمد) من طرق، فهذا الحديث شاهد لما فسرنا به الآية الكريمة، وقد احتج الناصر في (البساط) لذلك فراجعه.

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ والمدخل الكريم: هو الجنة، فيها كرامة أولياء الله، ووصفت بالكرم؛ لما تعطي أهلها من الإكرام والإحسان.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت الآية الكريمة على وجوب اجتناب الكبائر، وعلى أن اجتنابها سبب للتوفيق الموصل إلى التوبة التي يكفر الله بها سائر الذنوب)) انتهى المراد.

فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في المواريث وغيرها؛ لأن هذا التمني يستلزم كراهة بقاء النعمة لصاحبها الذي فضله الله بها، وذلك حسد فلا ينبغي لمؤمن، ولا بأس بتمني مثله بشرط الرضى بقسمة الله والصبر عليها ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ لما كان التفضيل بين الرجال والنساء ظاهر ومتعدد الجهات خصهم الله بهذا، يبين أن لكل جنس منهما نصيباً مما اكتسب، فالفرصة في هذه الحياة متاحة للرجال أن يكتسبوا لأنفسهم من خير الدنيا ومن خير الآخرة، وهي للنساء كذلك وإن اختلف الكسب، وكأن هذا الكلام تسلية للمفضل عليه بالملك القهري أن الله قد مكنه من كسب الخير الكثير في دينه ودنياه.

فأما قوله تعالى: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا﴾ ولم يقل للرجال ما اكتسبوا وللنساء ما اكتسبن، فالأقرب عندي ـ والله أعلم ـ أنه تزهيد في كسب المال؛ لأنه يشير إلى أنه لا ينتفع به كله، فكأن مالا ينتفع به ليس له كما قال أمير المؤمنين علي × : ((لكل امرئ في ماله شريكان: الوارث، والحوادث)) بل في الحديث عن النبي ص: ((ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت)).

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وهذه وسيلة عظمى ينال بها الخير ممن بيده الخير فلا ضرورة لتمني ما في يد الغير وبدلاً من ذلك يستغني المرء بالإكتساب والدعاء الذي ينال به الداعي من فضل الله الذي لا يعسر عليه خيراً كثيراً، وينبغي السؤال لما ينجي من النار ويؤدي إلى الجنة والدرجات العلى فيها؛ لأن ذلك الخير الباقي فأما كثرة المال فلا تبقى لصاحبها ولا يبقى صاحبها لها.

نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فهو عليم بمن يتمنى وتمنيه، ومن يصبر وصبره، ومن يكتسب ومن يدعوه، وما اكتسب المكتسب، وما طلب الداعي وعليم بكل احوالهم وبكل شيء، فهو بصير بقضاء الحاجات وتفريج الكربات ودفع المصيبات، لطيف لما يشاء فينبغي اغتنام الدعاء.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ فقد قسم سبحانه ما ترك الوالدان والأقربون، فالقسمة باقية لا تنسخ بما يجعل للموالي بالموالاة، وقوله: ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ﴾ هم الوراث الذين هم أهل ما قسم لهم، فكأنه تعالى قال: جعلنا أهلاً ومُلاكاً، كقول الشاعر:

وإن مولاك لم يسلم ولم يصدِ

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ ﴿عَاقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ عاهدتموهم على علاقة تقوم مقام الأخوة في النسب، قال في (المصابيح): ((أي ماسحتموهم بأيديكم حال المحالفة، والمراد هنا مولى الحِلف لا مولى العتاق)) انتهى.

قال (صاحب الكشاف): ((وكان الرجل يعاقد الرجل، فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، وترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف فنسخ)) انتهى، فظهر: أن المعاقدة، والتعقيد: هي العقد بالكلام، ونُسِب إلى الأيدي لاقترانه بالمصافحة.

فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ

﴿فَئَاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من التركة، ظاهره: أنه نصيب معهود فلعله السدس وليس ميراثاً؛ لأن الله تولى قسمة المواريث فلا تثبت بعهد ولا تنتفي ولكنه وصية فوجب إيتاؤه ولم ينسخ إلا كونه ميراثاً بالولاء، وإنما جعلته وصية لقولهم: ترثني وأرثك وعلى هذا فله حكم الوصية كالإقرار بالوارث وهذا هو المفهوم من جملة الآية أنه ليس وارثاً ولكن يؤتَى نصيبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ فهو شهيد على عقد المحالفة، وشهيد على إيتائهم إن أوتوا، ومنعهم إن منعوا فتجب مراقبته والحذر من معصيته.

﴿٣٤﴾ ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ المرأة ضعيفة بالنسبة إلى الرجل من أصل خلقها وطباعها، ومن أجل اشتغالها بالحمل والرضاع وحضانة أولادها، فهي محتاجة إلى قيام الرجل عليها لحفظها وحمايتها وصيانتها والإنفاق عليها والقيام بأمورها التي يقوم بها الرجال فـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ مثال مبالغة لقائمين لتكرُّر القيام وتعدد جهاته.

فالمرأة تقوم على أطفالها، والرجل قائم عليها وعلى أولاده، فهو مدير الأسرة والقائم بأمورها ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ﴾ وهم الرجال ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي على النساء، فالرجل أصلح للقيام بالأسرة وعليها لما عنده من الكفاءة لهذه الوظيفة، وبما أنفق من ماله على زوجته وعياله، فقد أغناها عن السعي للمعيشة، ومكنها من القيام بعملها في البيت لتحضن أولادها لشدة

حاجتهم إليها، ولتحفظ نفسها عما يؤدي إليه التكسب من مخالطة الأجانب في كثير من الحالات، ولتبقى في بيته ليسكن إليها بما أنفق من مهرها فيستغني بها عن الحرام وتستغني به.

فالقيام على المرأة هو القيام بمصالحها، وهو يستلزم الأمر والنهي في هذا الشأن، وليس معناه مجرد ولاية أمر ونهي كيف شاء الرجل ولو خارج مصلحتها وحقِّه الواجب عليها له الذي ثبت بدليل آخر.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ﴿قَٰنِتَٰتٌ﴾ مطيعات لا يتكبرن عما يجب عليهن لأزواجهن، بل يخضعن لأمر الله ويتواضعن للأزواج ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (الغيب) ما غاب عن الزوج من أنفسهن ومسكنهن وما بأيديهن من ماله وأولاده، فهن أمينات على ذلك لا يقصرن في حفظه وحفظها لذلك إنما هو بحفظ الله ومعونته ووقايته، فعليهن وعلى أزواجهن طلب الحفظ منه وشكر نعمته عليه.

﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ ﴿ٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ خلاف الصالحات لخروجهن عن القنوت بإظهار الترفع على الزوج والإستخفاف به، وعدم المبالاة بحقه، أو إظهار عدم الرغبة فيه، أو إظهار الرغبة في غيره، أو نحو ذلك من مقدمات النشوز ودلائله التي يخرجن بها عن حقيقة الصالحات ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ ازجروهن عن النشوز بتذكيرهن عقاب الله وشدة عذابه، وأن الله هو الذي أوجب حق الزوج عليهن كما أوجب عليه حقوقهن، فعليها أن تراقب الله وتخشاه، ومن الوعظ تخويفها بأي شيء يحق له كالضرّة، قال في (مفردات الراغب): ((الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويف)).

﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ هجرها: تركُ وصلها والإعراض عنها، والمراد: أن يهجرها مؤقتاً، ليكون ذلك تاديباً لها، وليس المراد إخراجها من داره أو تحوله في دار أخرى، إنما هو أن يكون في مضجعه ويتركها في مضجع آخر ولو في منزل واحد، والمضجع: مكان مدِّ الجسم للنوم أو غيره، قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى عطفها تثنت فكانت عليه لباسا

﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ والمراد: ضرب تأديب لإصلاحهن لا الضرب الشديد؛ لأنه موحش ومسبب للفرقة، وفي الحديث عنه ص: ((الرفق يمن، والخرق شؤم)).

ولعل المراد الترتيب في هذه الأدوية لإصلاحهن كما رتبن في الآية، فيبدأ بالوعظ بقدر ما يستطيع بكلامٍ رفيق ولين، وبدون سبّ وتأثيم منفر فلا يقل: يافاجرة يا عدوة الله، ثم إذا لم ينفع الوعظ انتقل إلى هجرها في المضجع مؤقتاً ولو ليلة أو أكثر ما لم يؤد إلى يأسها منه أو تصلح بأقل مدة منه، فإذا لم ينفع انتقل إلى قليل من الضرب ليدل به على شدة استنكاره لنشوزها ويخيفها به من زيادة الضرب إن لم تصلح.

ولا ينبغي للزوج المبالغة والإستقصاء في طلب حقوقه عليها، بل ما كان معلوماً كالجماع إذا عرف أنها تمتنع منه لغير عذر بل تمرداً، فأما لعذرٍ كجوع أو تعب أو حزن فيمهلها ولا يحوجها إلى النشوز باستعمال التأديب ونيتها طاعته؛ لأن ذلك غير المقصود في الآية، وأما إذا امتنعت عن أمر فيه خلاف أيجب عليها أم لا؟، فيبدأ بمحاكمتها، إما لتعرف الواجب عليها، وإما لمنع الشقاق وهو أعم من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا..﴾ الآية.

خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ لا تطلبوا سبيلاً لأذاهن أو للتقصير في حقوقهن بالتماس ما تجعلونه ذنباً منهن تجعلونه وسيلة لإساءة عشرتهن وهذا قد يقع من الزوج ليؤديها إلى أن تفتدي نفسها منه كما مر وقد يقع منه عملاً بأوهام لا يعمل بها في الشرع، وقد يكون سببها مرضٌ فيه وضرر في أعصابه كما يصدر ممن يكثر من القات، وقد يكون جهلاً من الزوج وميلاً إلى الشقاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): «وعُلُوّه لا بالجهة، وكبَره لا بكبَر الجثة بل هو عليّ كبير بكمال قدرته، ونفاذ مشيته، وذكر هاتين الصفتين في هذا الموضع في غاية الحسن وبيانه من وجوه:

الأول: أن المقصود منه تهديد الأزواج على ظلم النسوان، والمعنى أنهن إن ضعفن عن دفع ظلمكم وعجزن عن الإنتصاف منكم، فالله سبحانه عليٌّ قاهر كبير قادر ينتصف لهن منكم ويستوفي حقهن منكم، فلا ينبغي أن تغتَرُّوا بكونكم أعلى يداً منهن..» إلخ كلامه.

فمن حيث أن الله عَلَيٌّ ينبغي أن نخشاه؛ لأنه القاهر فوق عباده الغالب على أمره، ومن حيث أن الله كبير ينبغي أن يخشاه ويستحيي منه عبدُه الحقير الذليل المحتاج إليه في كل حال، بل يخشع له لعظمته وجلاله.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خطاب لقيادة الأمة القائمة بشؤونها أهلِ الصلاح والصلاحية لذلك، فعليهم أن ينظروا في أمور المسلمين، ومنها مشاكل الأسرة التي هي مظنة الشقاق ثم الطلاق، فيسعوا لحل المشاكل ببعث حَكَمين أي إرسالهما إلى محل الأسرة أحدهما من أهل الزوج أي قرابته، والآخر ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ أي قرابتها.

ويتخيروا الحكمين من عقلاء الرجال الذين هم مظنة الإصلاح لا التعصب للقرابة بالميل مع القريب فهما مظنة تقوية الشقاق إذا لم يكونا صالِحَين مصلحَين.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا﴾ إن يرد الزوجان إصلاحاً من الحكمين وكانت نيتهما صلاح الزواج وحل المشكلة ﴿يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ عند حضور الحكمين إما بإصلاح الحكمين أو بأن ينتبه المخطئ لخطأه عند حضورهما إذا خشي أن يشددا عليه أو أتهمهما بقصد الإفساد، فبتوفيق الله بينهما يذهب الشقاق ويخلفه الوفاق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ فهو يعلم ما في قلوب الزوجين من النيات الصالحة أو الفاسدة، ويعلم ما يصلح شأنهما وهو عالم بخبرهما وباطن سرهما؛ لأنه عليم بكل شيء، خبير بكل سر.

فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾

﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بطاعته والخضوع له، وإخلاص العبادة له، فهذه عبادته لا تتم إلا بأن نجعل أنفسنا عبيداً له وحده لا شريك له، فلو عبدنا غيره لم تتم لنا عبادته.

ألا ترى أن الأنبياء يأمرون قومهم بعبادة الله ما لهم من إله غيره فقد جعلوهم غير عابدين لله حين كانوا مشركين لأنه لا يقبل منهم مع الشرك بعض عبادة؛ ولأنهم لم يجعلوا أنفسهم في حال الشرك عبيداً لله وحده، فلم يعبدوه، بدليل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾.

فدل على أن معنى العبادة: أن تجعل نفسك عبداً لله، فإذا جعلت نفسك لله ولشريكٍ معه فلم تجعل نفسك لله إنما جعلت بعضك، وعلى هذا جرى خطابُ الأنبياء لأممهم انظر (سورة الأعراف).

وقول نوح: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩] وقول هود مثل ذلك، وصالح، وشعيب عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ نهيٌ عن أن نجعل له شريكاً في شيء من صفاته وما يتبعها كعلم الغيب والقدرة الخارقة والمشاركة في الملك أو في الحكم أو في الربوبية، وكونه تعالى لا شريك له في ذلك حجةٌ على من أشرك بعبادته غير الله، أو بالرئاء، فمفهوم الإشراك به غير مفهوم الإشراك بعبادته.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((واتفقوا على أن هاهنا محذوفاً، والتقدير: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، كقوله: ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد:٤] أي فاضربوها.

ويقال: أحسنت بفلان وإلى فلان، كقول كثير:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقليَّةَ إن تَقَلَّت))

قلت: أعتقد أن الإستعمال الشائع تعديةُ الإحسان بـ(إلى) فإذا كانت تعديته بـ(الباء) قليلاً فالأولى جعله من التضمين لمعنى اللطف أو الرفق.

وكذلك (أسيئ بنا) فالشائع أن يقال: أساء إليه، فالأولى: أنه أراد أوقعي بقلوبنا السوء بالهجر ونحوه، فعداه بـ(الباء) لئلا يوهم، أو صلي إلينا سوءاً بقولٍ أو فعل؛ لأنه لا يريد وصفها بالتعدي والظلم أو أنها مظنة ذلك.

والإحسان بالوالدين: شكر لنعمتهما على الولد، فإذا وجب لحقِّهما على الولد فبالأولى أن تقبح الإساءة إليهما، وقد جاء في الحديث الزجرُ عنها وأنها من الكبائر، وفي رواية: ((من أكبر الكبائر)).

﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فقد أمرنا أن نحسن بهؤلاء.

و(ذو القربى) صاحب القرب من النسب، وفسرهم أهل المذهب: بمن ولده جدا أبويه، فعم هذا التفسير: الأعمام والأخوال وذرياتهم، مع الأخوة والأخوات وذرياتهم، وعم الوالدين والأولاد وذرياتهم، وعم الأجداد والجدات الأسفلين، وهذا في ذي القربى.

فأما الأقربون ففيه تفضيل في قرب النسب، فلا يعم أهل القربى كلهم وإنما هم من جاء ذكرهم في المواريث في القرآن، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ [النساء:٣٣] فهم الإخوة مع الوالدين والأولاد، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] فشمل الأعمام فهم أقرب من سائر العشيرة بعد هم.

وفي (لسان العرب) ـ من رواية عن الزجاج ـ: والقرابة، والقربى: الدنو في النسب، والقربى في الرحم وهي في الأصل مصدر، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ثم قال: وأقارب الرجل وأقربوه عشيرته الأدنون، وفي التنزيل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] وجاء في التفسير: أنه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا، ونادى الأقرب فالأقرب فخذاً فخذاً: ((يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، يا عباس، يا صفية)) إلخ.

وأقول: إنه قد اعتمد الرواية في تفسير (الأقارب) وألفاظُها مختلفة، فأخرج الطبري في (تفسيره) بإسناده عن عائشة، قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] قالت: قال رسول الله ص: ((يا صفية بنت عبد المطلب، يا فاطمة بنت محمد، يا بني عبدالمطلب.. إني لا أملك لكم من الله شيئاً، سلوني من مالي ما شئتم)) وروى مثله بسند آخر، ثم روى بإسناده مثله عن عروة بن الزبير.

وقال الطبري: حدثنا أبو كريب، قال: ثنا ابن نمير، عن الأعمش، عن عمرو بن مرَّة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] قام رسول الله ص على الصفا ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس إليه فبين رجل يجيء وبين آخر يبعث

رسوله، فقال: ((يا بني هاشم، يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني..، يا بني..)) إلخ.

وهذه الرواية لا تدل على أنهم كلهم عشيرته الأقربون؛ لأنه نذير للأقربين والأبعدين، فمن الجائز أنه عم بالدعوة ليأتي الأقربون والأبعدون ليعم الكل ويخص الأقربين بقوله: ((يا بني عبد المطلب..)).

ويدل على ذلك ما رواه الطبري بإسناده عن علي × قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ص: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] دعاني رسول الله ص فقال لي: يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، قال: فضقت بذلك ذرعاً وعرفت أني متى ما أنادهم بهذا الأمر أرَ منهم ما أكره فصمتُّ حتى جاءني جبريل، فقال: (يا محمد إنك إن لا تفعل ما تؤمر به يعذّبك ربك) فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رِجْل شاة، واملأ لنا عُسّاً من لبن، ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم وأبلغهم ما أمرت به ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً.. إلى آخر الرواية، وهي في (تفسير الطبري) وفي تاريخه نحوها بسند آخر تقوي هذه الرواية وإن لم تكن مثلها في اللفظ، ورواها أبو نعيم في (دلائل النبوة) والبيهقي في (دلائل النبوة).

فظهر: أنهم الأقربون من العشيرة، فأما الأقربون من ذوي القربى: فهم الوالد والولد، وألحقنا بهم الإخوة لدخولهم في تفصيل ما أجمله قولُه تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ﴾ فأما الأعمام فإنما ورثوا بالتعصيب، والدليل على ذلك: أن العمة لا ترث إلا مع ذوي الأرحام بخلاف الأخت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ قد مر ذكرهم والتحذير من ظلمهم، وهذا أمر بالإحسان إليهم لتأنيسهم والجبر من ضعف يتمهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ هم مثل اليتامى فيحسن إليهم ولو لم يعطوا، فالإحسان أعم من العطاء فلا يترك الإحسان بالقول ونحوه عند تعذر العطاء، وقد مر تفسيرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ﴾ هو المجاور في المسكن أي مَن كان مسكنه قريباً من مسكنك، وقد جاء في أهل المقبرة: ((جيران لا يتزاورون)) وأنشِد لأمرئ القيس:

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا مقيمان هاهنا ... وكل غريب للغريب نسيب

وللسموأل:

وما ضرّنا أنا قليل وجارنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل

فلا يشترط في الجوار الملاصقة.

وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ تنبيهٌ على أن له حق الجوار مع كونه قريباً، وكانت الجاهلية غافلة عن هذا، وكانت تفتخر بحماية الجار الأجنبي، مع أن الجار ذا القربى له حق الجوار وحق الرحامة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجنب: الأجنبي، قال الشرفي / في (المصابيح): ((والإحسان إليهم: بالمواساة، والنصرة، وحسن العشرة، وكف الأذى)) انتهى.

قلت: الأذى إساءة فتحريمه من المفهوم، ولعله يدخل في حسن العشرة التعليمُ للقرآن والتربية الدينية إن أمكن، والنصائح التي يحتاجها الجار، وطلاقة الوجه، والإبتسامة، والكلمة الطيبة وغير ذلك، فالإحسان لا حدّ له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ الذي يصحبك ويكون معك مستمراً أو في حالة الصحبة، وقوله تعالى: ﴿بِٱلْجَنۢبِ﴾ يخص الذي حولك فيخرج المبتعد عنك، وهو يعم الصاحب في السفر حال السفر، والصاحب: الزميل في طلب العلم مثلاً، والصاحب في معمل وغير ذلك، حتى الصاحب في السجن، وقد دخلت فيه الزوجة التي تكون معك في مسكن أو غيره، فهي صاحبة للزوج والزوج صاحب لها، فقد دخلا في عموم الآية، ولذلك فسره الإمام زيد بن علي إ بالمرأة، وروي ذلك عن علي × ، وحقوق الصحبة تختلف وتتفاوت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ قالوا: هو المسافر الذي انقطع عن بلده، وعبارة الراغب: ((ابن السبيل: المسافر البعيد عن منزله، نسب إلى السبيل لممارسته إياه)) انتهى.

قلت: لعله نسب إلى السبيل ليحسن إليه ولو كان غريباً مجهولاً لغربته فيحسن إليه لأجل السبيل، أي لكونه فيه غريباً، ولا يوقف الإحسان إليه على معرفته ومعرفة أبيه.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((والإحسان إليه إيواؤه ومعونته وإعطاؤه حقه)) انتهى. يعني: إطعامه وسقيه، وإيواؤه: جعله في بيت يبيت فيه، وهذا الإحسان غير حقه من الزكاة، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ العبيد والإماء والبهائم، قال الشرفي / : ((حتى الهرة والدجاجة)).

قلت: ويحتمل: أنه خاص بالعبيد والإماء، لأن السياق في الناس، ولأن هذا الإسم كثر استعماله في الإماء خاصة وفي الإماء والعبيد، ولعله بسبب نسبة الملك إلى اليمين، بخلاف الأنعام فقد قال تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس:٧١] وهذا هو الراجح، وإن كان الإحسان إلى الأنعام من خُلُق أهل الدين، وقد جاء الحث في الحديث على الإحسان اليها أو الرفق بها، لكن لم يثبت نسبة ملك اليمين إليها، بل الملك فقط بدون ذكر اليمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا * ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ لَمَّا أمر الله تعالى بالإحسان وَوَسع مواقعه وكان امتثال ذلك شأنَ أهل الإيمان عقّب ذلك ببيان أنه تعالى لا يحب من كان على ضد صفات أهل الإحسان، ونفي الحب تعبير عن تركهم من الألطاف ونحو ذلك مما يفعله الله لأوليائه.

والمختال: ذو الْخُيَلاء ومَن لازمه الكبر؛ لأن سبب الخيلاء إعجابه بنفسه، وقال الراغب: ((والخُيَلاءُ: التكبر عن تخيل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((والخال، والخُيَلاءُ، والخِيَلاء: الكبر، تقول منه: اختال فهو ذو خيلاء وذو خال وذو مَخيلَة، أي ذو كبر، قال: والخال ثوب من ثياب الجُهّال)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالمختال ذو الخيَلاء والكبر)) انتهى، ومثله في (المصابيح) وفي (الكشاف): ((المختال: التيَّاه الجهول الذي يتكبر عن إكرام أقاربه وأصحابه ومماليكه..)) إلخ، وهو موافق لما مرّ، قال في (المصابيح): ((والفخور: المفتخر على عباد الله)) إلخ.

أقول: (فَخُور) يدل على كثرة ذلك منه؛ لأن فعولاً من أمثلة المبالغة فهو لإعجابه بنفسه يكثر تعداد ما يدعيه فضلاً على غيره ليثبت بذلك ما يعتقده في نفسه من تفوقه على غيره، وقد فسر الفخور في (لسان العرب) بالمتكبر، ولعله: يعني المتكبر على غيره بالفخر عليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ فالبخل كما قال الراغب في (مفرداته): ((إمساك المقتنيات عمّا لا يحق حبسها عنه، ويقابله: الجود)) انتهى، ولعله هو المعنى الحقيقي وغيره مجاز كالبخل بالسلام، والبخل بالعلم، وفي الحديث: ((البخيل من ذكرت عنده فلم يصلّ عليّ)) اللهم صلِّ على محمد وآله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ بيانٌ لصفة المخالفين الذين لا يحبهم الله، لأنهم على صفات ضد صفات المؤمنين، ومِن أمرهم بالبخل قولهم: ﴿لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] وهو من الأمر بالمنكر الذي هو من عادة الكفار والمنافقين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يعم كتمان المال عمّن يستحق أن يعطى أو يقرَض وكتمان العلم ومنه كتمان ما في التوراة مما كانوا مطالبين بإظهاره من صفات رسول الله ص وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ أعتدنا بمعنى أنه أعدّه لهم وهيأه سواء كانت التاء أصلية أو أصله أعددنا كما مر، والكافرين أهل الصفات المذكورة، إما لأنه كفر النعمة ـ وهو الأقرب ـ أو الكفر بالإيمان. والعذاب المهين: عذاب جهنم، وذكر الإهانة مناسب لاختيالهم وتكبرهم وفخرهم.

قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ **قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ **عطفٌ على** ﴿ٱلَّذِينَ﴾ **فهو ذم يدل على انقسام أهل الخيلاء.**

والفخر قسمين: قسم البخلاء، وقسم المنفقين مالَهم رئاءَ الناس، والرّئاء فِعال من الرؤية، فأصله محاولة أن يراهم ويرونه منفقاً ليمدحوه أو يعتقدوا فيه الجود، والواقع: أنهم لا يبذلون المال إلا لطلب الثناء من الناس أي لغرض دنيوي راجعٍ إليهم، ولكنه أشنع من الإنفاق في أغراض النفس المباحة؛ لأن الرياء إشراك لغير الله في العمل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ **بيانٌ للعيب الثاني من عيوب هذا الفريق، ولعله يشير إلى من يدعي ذلك دعوى كاذبة، كما قال تعالى:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] **وهم من المنافقين، وقد قال تعالى فيهم:** ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ **يفيدُ: أن الشيطان قرينٌ لهم** ﴿فَسَآءَ قَرِينًا﴾ **فهو قرين سيءٌ؛ لأنه كما قال تعالى:** ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت:٢٥] **فهو يزين لهم باطلَهم المستقبل ليفعلوه والماضيَ ليصرُّوا عليه ولا يتوبوا منه، ليكونوا من أصحاب السعير.**

تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أيُّ ضرٍّ عليهم لو آمنوا، وأيُّ نقص لو آمنوا بالله واليوم الآخر، وأنفقوا مما رزقهم الله إنفاقاً مقبولاً ليس الإنفاق رئاء الناس فهو لا يعدّ إنفاقاً محموداً بل هو مذموم، وهذا زيادةُ احتجاجٍ عليهم وبيان أن الله تعالى لم يكلفهم ما يضرهم أو يكون عيباً عليهم، فلا عذر لهم في ترك الإيمان والإنفاق، وهذا دليل على أنهم كانوا قادرين على الإيمان والإنفاق؛ لأنهم لو لم يكونوا قادرين لما صح توبيخهم والاحتجاج عليهم.

ومعنى أنهم كانوا قادرين على ذلك: أنهم كانوا سالمين من الآفات المانعة، مستطيعين للدخول في الإيمان، فإذا قلنا: إنهم كانوا في حال كفرهم قادرين على الإيمان، فالمراد: أنهم في حال الكفر قادرون على الخروج منه إلى الإيمان، وليس المراد: أنهم قادرون على الجمع بين الكفر والإيمان، وهذا واضح.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنه يجزيهم في الآخرة بسوء ما عملوا في الدنيا؛ لأنه عليم بهم على ما هم عليه.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهذا زيادة في الاحتجاج على أولئك الفريقين، وكلهم يبخلون على اختلاف نوعي البخل، فهو يبين أنهم لو أنفقوا مع أن يكونوا مؤمنين لَما ضاع عليهم مثقالُ ذرة مما أنفقوا وأحسنوا، بل كان يضاعف لهم كل حسنة من الإنفاق والإيمان وغيره، وقد مرّ تفسير مضاعفتها، ويؤتون في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو ثوابها ضوعف كما ضوعفت حسناتهم وهذا عام لهم ولغيرهم فهو ترغيب في فعل الخير وإنفاق الخير.

كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا

﴿٤١﴾ ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ **﴿فَكَيۡفَ﴾ بهؤلاء المتكبرين أهل الخيلاء والفخر والبخل وترك الإيمان كيف بهم يوم القيامة ﴿إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ﴾ يوم القيامة يشهد بما رأى وعلم منهم من خير أو شر ﴿وَجِئۡنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الموجودين في عهدك الذين شاهدتَهم وعلمتَ المطيع منهم والعاصي ﴿شَهِيدٗا﴾ تشهد عليهم بسيئاتهم التي توجب عليهم العذاب، فلا ينفعهم جحد وإنكار ولا اعتذار ولا تقبل منهم توبة وما للظالمين من أنصار كيف بهم في هذه الحال.**

﴿٤٢﴾ ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ **﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم ﴿إِذَا جِئۡنَا مِنۡ كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا﴾ ﴿يَوَدُّ﴾ أي يحب ويرغب أو يتمنى في نفسه ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ يصيرون في بطن الأرض ويُعَفّى أثرهم كأنهم غير موجودين في بطنها ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ أراده منهم وهو يعم جواب السؤال عما قدموا وما قدموا من الكلام في الدنيا فلا يكتمون شيئاً، ولعله بعد شهادة الشهداء عليهم وانتباههم أنه لا يغني عنهم الإنكار شيئاً، والأمة: الجماعة الذين يجمعهم أمرٌ، قال تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾** [القصص:٢٣].

وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى الحاضرين فهم أمة، وليس المراد أنه شهيد على من قبله من الأمم، ولا من سيوجد بعده ص ولكن من في عهده وعلم حالهم، فهو شهيد عليهم بما علم منهم وشاهده، كما قال عيسى

تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ

× : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] وهذا هو سبب استعمال اسم الإشارة هنا وفي (سورة النحل) ثم الأخيار ممن معه شهداء على من في عهدهم من التابعين وغيرهم، وهكذا الأخيار من التابعين شهداء على من شاهدوه من التابعين ومن بعدهم.

والحاصل: أن كل أمة يشهد عليهم خيارهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد:١٩] وقال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

والخيارُ عندنا: هم الخيار من آل رسول الله ص مثل: علي، والحسنين، وعلي بن الحسين، وزيد بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ويحيى بن زيد.. وغيرهم.

﴿٤٣﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لا تتأهبوا وتقاربوا أن تفعلوها، فلا تتوضأوا، ولا تدخلوا المسجد، ولا تؤذِّنوا، ولا تقيموا، ولا تصلُّوا، فهو من قسم الكناية ﴿وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ فاجتنبوا سبب السكر عند الصلاة، وليس هذا إباحة للسكر في غير وقت الصلاة، بل هو مسكوت عنه، كما لو قال: لا تطف بالبيت وأنت عريان، فالنهيُّ موجهٌ إلى السكر كما أنه موجَّه إلى العري في هذا المثال.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ تعليلٌ للنهي عن السكر المانع من العلم بما يقولون في الصلاة من القراءة والأذكار، وفيها دلالة على وجوب إحضار الذهن لما يقول المصلي، ولعل ذلك في القدر الواجب من القراءة والأذكار.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾ أي ولا تقربوا الصلاة جُنُباً ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ وقد قلنا: من معنى قرب الصلاة: الإستعدادُ لها، فالإستثناء هذا محمولٌ على حال الإستعداد لها والذهاب للتطهر، فالمعنى: إلا عابري سبيل توصُّلاً إلى الصلاة، وتقرباً إليها بالعبور لفعل شرطها، ولما كان دخول المسجد هو من مقدمات الصلاة تناوله قرب الصلاة، وكانت لهم بيوت موجهة أبوابها إلى المسجد، فكانوا يحتاجون المرور من المسجد، فربما توهَّموا أن ذلك منهيٌ عنه فقال: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ ليرخص لهم في المرور إلى خارج المسجد ليتطهروا، وتوجيه الأبواب إلى المسجد قد نسخ بسد الأبواب إلا باب علي × ، فما بقي ضرورة للعبور من المسجد، ولكن يبقى الحكم لحال الضرورة كمن احتلم في المسجد.

وحديث (سد الأبواب إلا باب علي ×) له أسانيد عديدة، أوردها ابن حجر في (القول المسدد) وصحح بعض أسانيده، وصحح الحديث، ومن ألفاظه قولُ ابن عباس ب في أثناء حديث: ((وسد أبواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد وهو جنب وهو طريقه ليس له طريق غيره)) انتهى.

ويؤخذ من الآية وجوب تقديم الغسل على الوضوء، وعلى الأذان والإقامة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ﴾ بالمسافر عادم الماء.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورٗا﴾ **﴿وَإِن كُنتُم﴾ حين تريدون الصلاة ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾ جمع مريض ﴿أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ وأقل السفر بريد حالتان المرض والسفر مظنة فقدان الماء ﴿أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾ وهو المكان المنخفض من الأرض يستَتِر فيه لقضاء الحاجة فهو قد بال أو تغوط.**

﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فأنتم جنب ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾ لتغتسلوا به من الجنابة إن كانت؛ ولتوضئوا به من أثر الحدث ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾ اقصدوا ﴿صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ وتوجهوا إليه.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((والملامسة: الجماع، وفيه: فالتيمم: التعمُّد، والصعيد: وجه الأرض، والطيب: النظيف)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((والصعيد: يقال لوجه الأرض)) انتهى. وفي [الصحاح]: ((الصعيد: التراب، وقال ثعلب: وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠])) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((الصعيد: المرتفع من الأرض، وقيل: الأرض المرتفعة من الأرض المنخفضة، وقيل: ما لم يخالطه رمل ولا سبخة، وقيل: وجه الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف:٤٠] وقال جرير:

إذا تيم ثوت بصعيد أرض بكت من خبث لؤمهم الصعيد

وقال في آخرين:

والأطيبين من التراب صعيداً

وقيل: الصعيد: الأرض، وقيل: الأرض الطيبة، وقيل: هو كل تراب طيب، وفي (التنزيل): ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ وقال الفراء ـ في قوله ـ: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٨] الصعيد: التراب، وقال غيره: هي الأرض المستوية.

وقال الشافعي: لا يقع اسم صعيد إلا على تراب ذي غبار.. إلى قوله.. وقال أبو إسحاق: الصعيد: وجه الأرض..إلى قوله..لا أعلم خلافاً فيه أن الصعيد وجه الأرض..)) إلخ.

وهذه الأقوال متقاربة؛ لأن وجه الأرض: هو التراب، وليس منه الجبال قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:١٧-٢٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت:٩-١٠] وغير ذلك، فوجه الأرض تراب، وإذا مسه الماء كان طيناً.

والإشكال في الطين هل يجزي للتيمم؟

الأحوط: استعماله إذا عدم الماء والتراب، وفي الحديث: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) قال الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ انتهى من حديثٍ في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) وفيه دلالةٌ على أن الصعيد من الأرض، فلا يصح التيمم بالأحجار والنورة ونحوها.

وتفسير الطيب: بالنظيف الطاهر، هو الأقوى، فأما اعتبار الإنبات فيه فلعله يصح بناء على أن الأصل في التراب الإنبات فإذا لم ينبت فهو فاسد فلا يوصف بالطيب.

وأما الاحتجاج لذلك بقول الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:٥٨] ففيه نظر؛ لأن طيب البلد باعتبار مصلحة السكان؛ ولذلك قال: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨] فجعله خبيثاً لفوات مصلحة أهله وإن كان منبتاً نباتاً نكداً.

فالحاصل: أن خبث البلد وطيبها غير طيب التربة من حيث هي صعيد لا من حيث هي بلد، وقوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ أي منه كما يفيده التفريع على تيممه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ كثير العفو، ومن العفو الترخيصُ بالعدول إلى الصعيد الطيب ﴿غَفُورًا﴾ كثير المغفرة، وفيه تشجيع على استعمال الرخصة عند ظهور وقتها، وترك المبالغة في الحذر من الخطأ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب:٥].

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت هذه الآية الكريمة على وجوب فراغ القلب للصلاة، وأن لا يقرَب الصلاةَ مَن به سَكَرُ النوم، أو كان ذاهلاً حتى لا يعلم ما يقول في صلاته، وعلى أن لا يصلي الصلاة مَن كان جنباً حتى يغتسل إلا أن يكون في سفر ولم يجد الماء، فإنه يتيمم كما صرحت به الآية الكريمة، وكذلك من جاء من الغائط أو لامس النساء ولم يجد الماء.

والمراد من الملامسة: الجماع، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا..﴾ الآية [الأحزاب:٤٩] ونحوها: ﴿لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ..﴾ إلى قوله ﴿.. وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا

وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ

فَرَضْتُمْ..﴾ [البقرة:٢٣٦-٢٣٧] **وعلى أن التيمم ليس إلا الوجه واليدين، وعلى أن الله جعل ذلك غفراناً ورحمة، أي تخفيفاً على عباده)) انتهى.**

﴿٤٤﴾ **﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ كلمة تعجب من قصة هؤلاء اليهود ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا﴾ من التوراة، أي علموا نصيباً منها، أي بعضاً وكان من حقهم أن ينتفعوا بذلك البعض، ويكونوا أبعد عن السعي بالفساد، ولكنهم على العكس من ذلك يستبدلون الضلالة بدل أن يهتدوا بما علموه، ويريدون من المؤمنين أن يضلوا ويغووا عن سبيل الله.**

﴿٤٥﴾ **﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ ﴿وَٱللَّهُ﴾ وليكم وهو ﴿أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡ﴾ فلن يضركم كيدهم ومحاولتهم لإفسادكم؛ لأن الله كاف لمن تولاه لا يحتاج غيره ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾** [الزمر:٣٧] **لأن الله وليه ومتولي هدايته ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا﴾ لأوليائه فلن يضروكم بالقهر وإبطال عزة الإسلام.**

﴿٤٦﴾ **﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ هؤلاء الذين ذكروا بالتعجيب من قصتهم هم ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي من اليهود الذين عادَتُهم أن يسعوا في الأرض فساداً**

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ من بيان الحق، يحرفونه: يحولونه إلى غير محله، ليستطيعوا لبس الحق بالباطل، وتضييع فائدة سياق الكلام التي بها يتضح المراد ولا يمكن فيه جدال.

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ يقولون ﴿سَمِعْنَا﴾ قول الرسول ص أو ما تلاه من القرآن ﴿وَعَصَيْنَا﴾ تمرداً وعناداً واستخفافاً بكلام الله ورسوله ص ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ وهذا من كلماتهم، ومعناها: الدعاء عليه بالصمم، ولكنها مغلَّفة باحتمال الدعاء له بأن لا يسمع قولاً يسوءه ﴿وَرَٰعِنَا﴾ وهذه كلمة يقولونها للرسول ص: ﴿رَٰعِنَا﴾ يوهمون أنه طلب المراعاة، ولهم فيها مقصد فاسد.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ: يقولون: ﴿رَٰعِنَا﴾ واعتقادهم: راعناً بالتنوين، من الرُّعونة التي هي الحمق والسفه لعنهم الله تعالى)).

﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ ﴿لَيًّۢا﴾ أصل اللي: الفتل، وهو هنا: تحويل الكلام إلى المعنى الفاسد ﴿وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ من حيث يزعمون أنه لو كان نبيئاً لافتضحوا وانكشف زيفهم ومقاصدهم الفاسدة، أو لنَزل بهم العذاب، كقولهم في أنفسهم: ﴿لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة:٨] فقد افتضحوا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة:٨].

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من تلك الكلمات المذمومة التي هي وبال عليهم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ لأن هذا كلام قيّم لا عوج فيه بخلاف كلامهم المذكور آنفاً.

ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ

﴿وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته بسبب كفرهم، وهذا الطرد: سلب التوفيق وخذلانهم بسبب كفرهم، ولذلك لا يؤمنون ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان ببعض ما في التوراة لفساد قلوبهم، ونصب ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه قائم مقام المفعول المطلق ولو كان الاستثناء من فاعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ لرفع على البدل؛ لأنه أرجح في مثل هذا مثل: ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ خطاب للعلماء بالتوراة؛ لأن الحجة عليهم أعظم لعلمهم بما في (التوراة) من صفات محمد رسول الله ص وما فيها مما جاء به القرآن من أخبار الأولين وغير ذلك؛ ولأن فسادهم إن لم يؤمنوا بالقرآن أعظم؛ لأن لهم أتباعاً يغترون بكفرهم ﴿ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ بالقرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ من التوراة أو من كتب الله جملة.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ وعيدٌ إن لم يؤمنوا بطمس وجوه منهم، وليس عاماً ولكنه تخويف لكل واحد أن يكون وجهه من الوجوه التي يطمسها الله، وطمسها إزالة صورتها فلا يبقى أنف ولا شفتان ولا عينان ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾ بإدخال صورة الوجه إلى جهة القفا حتى تكون على القفا مبالغة في طمسها ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ لعناً خاصاً بأن نخزيهم ﴿كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ

وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ

ٱلسَّبْتِ﴾ كما أخزيناهم، ويحتمل: نجعلهم قردة كما جعلنا أصحاب السبت المذكورين في (سورة الأعراف) وفي (البقرة) وهذا أظهر.

قال في (المصابيح): «وقيل: لما نزلت هذه الآية، أتى عبد الله بن سلام إلى النبي ص وقال: ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يتحول وجهي في قفاي، وسمع كعب بن عمر هذه الآية، فقال: يا رب آمنت، يا رب أسلمت» انتهى.

فظهر: أن هذه الوجوه هي وجوه علماء (بني إسرائيل) الذين آمنوا، فكانت تطمس لو لم يؤمنوا ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وهو ما قضى أنه يفعله أو ما شاء أن يفعله فهو واقع لا يتخلف؛ لأن الله على كل شيء قدير.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ يظهر أن هذه الآية متصلة بما قبلها، كالتعليل للوعيد في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا..﴾ الآية، وهذه الآية تعظيم للشرك، ودلالة على أن صاحبه لا يعذر بحال من الأحوال، أما ما دونه من أنواع المعاصي فإنه قد يقع على وجه يُصيّره معفواً، ألا ترى أن قتل النفس بغير حق قد يقع خطأً، وكذا الزنا قد يقع غلطاً، وشرب الخمر قد يقع ممن يجهل أنها خمر.. وهكذا سائر المعاصي، أما الشرك فلا يكون على وجه يعفى؛ لأنه لا يكون إلا عمداً لمعنى الشرك فلا يعذر صاحبه.

وفيها دلالة على أنه لا يعذر مَن أشرك ولو جهل أنه مشرك كالذين ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ

ولعل اتصال هذه الآية بما قبلها دلالة لأهل الكتاب المذكورين أنهم مشركون لاتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقول اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] واتخاذه رباً، ولعل بعض اليهود لا يعتقد أنه مشرك وفيه نوع من الشرك.

﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ لأنه جعل لله شريكاً في عباده أو في ملكه أو في حكمه أو في قدرته أو في علمه بدون برهان، وإنما هو افتراء واختلاق اتبع فيه ظنه وهواه، فكان افتراؤه ذلك ﴿إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ ارتكبه، وهذا دليل على ما قلتُ من أن الشرك لا يكون إلا عمداً، والمراد أن ما هو شرك في الواقع تعمده المشرك ولو لم يعلم أنه شرك فهو لا يغفر لتعمد المعنى، والإثم: الفجور.

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلاً * ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؟ سؤال تعجيب من ﴿ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾ يدعون لأنفسهم الصلاح، ولا معنى لذلك؛ لأنه لا يفيدهم شيئاً ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ فهي التزكية بالحق النافعة لمن زكَّاه ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلاً﴾ لا ينقصون مما يستحقون بزكائهم شيئاً ولو مقدار فتيل، والفتيل: يكون في بطن نواة التمر كالخيط، يضرب به المثل في القلة، كما يشبه بالنقير: وهو كالنقطة الصغيرة في ظهر النواة، والقطمير: وهو قشرة رقيقة على النواة.

أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمۡ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُلۡكِ فَإِذٗا لَّا يُؤۡتُونَ ٱلنَّاسَ

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ **فهو أبعد عن الزكاء بل هم المجرمون، وافتراؤهم على الله كنسبتهم إليه الولد، وقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾** [آل عمران:٢٤] ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ﴾ **بالإفتراء على الله ﴿إِثْمًا مُّبِينًا﴾ إثماً بيناً، وفجوراً مكشوفاً ينافي تزكيتهم لأنفسهم.**

﴿٥١﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً﴾ ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ﴿نَصِيبًا﴾ **من (التوراة) فقد حصل لهم طرف من العلم، ومع ذلك ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ الذي هو باطل لا يخفى بطلانه على من أوتي نصيباً من الكتاب.**

وفي (مفردات الراغب): ((ويقال لكل ما عبد من دون الله: جبت، وسمي الساحر والكاهن جبتاً)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الجبت: كلمة تقع على الصنم، والكاهن، والساحر، ونحو ذلك)) انتهى.

وقد اختلف المفسرون في معنى (الجبت) و(الطاغوت) ففي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((قال زيد بن علي إ : فالجبت: السحر، والجبت: الكاهن، والطاغوت: الشيطان)) انتهى المراد.

وفي (تفسير الشرفي) أعني (المصابيح) ما لفظه: ((وروي عن القاسم × أنه قال: الجبت: السحر، والطاغوت: كل ما أطغى وأضل عن الحق من الأصنام وغيرها)) انتهى.

نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ

ولعل هؤلاء المؤمنين بالسحر، هم الذين، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ..﴾ الآية [البقرة:١٠٢] وأما إيمانهم بالطاغوت فلعله تحاكمهم إلى الطاغوت، كالمذكور في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ وهو من يحكم بغير حكم الله من الكهنة وغيرهم.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي يقولون في الذين كفروا أي كفروا بالله ورسوله ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الكفار ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً﴾ أي أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله ورسوله محمد ص، والمراد بالسبيل: الطريقة، أي الدين.

﴿٥٢﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المؤمنون بالجبت والطاغوت، القائلون للذين كفروا: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ..﴾ فهم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعينهم وحقيقتهم ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ طردهم من رحمته، وهذا الطرد هو الخذلان، وسلب التوفيق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ بل ألهم نصيب من الملك؟ إشارة إلى أنهم كرهوا رسالة محمد ص ولم يرضوا بحكم الله فيها، كأنهم شركاء لله في ملكه، لا يرسل إلا من يريدون، وليس لهم نصيب في الملك ولو كان لهم ﴿نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لبخلوا بما لديهم فلا ﴿يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ لبخلهم، والنقير: نقرة تكون في ظهر نواة التمر، يمثّل بها في القلّة.

بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ **بل أيحسدون، إضراب انتقال إلى احتجاج على اليهود الزاعمين أن الكفار أهدى من الذين آمنوا وسلكوا طريقة أهل الحسد، الذين يكرهون حصول النعمة لمن أعطاه إياها.**

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × ـ والمراد به أينما ذكر في (المصابيح) محمد بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم عليه السلام ـ: هؤلاء المذكورون في الحسد هم أهل الكتاب حسدوا محمداً ص ما خصه الله به وأعطاه وحسدوا المؤمنين ومن تبعه من المسلمين فقال الله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ فأخبر سبحانه بما آتى الأنبياء وهذا دليل على أنهم أرادوا النبوة فيهم وحسدوا رسول الله ص ما خصه الله به من الملك وأنزل عليه من الوحي، ألا تسمع كيف يقول: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ..﴾ إلى قوله: ﴿.. فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ فلم ينتفعوا إذ كان ذلك في داود وسليمان حتى صدوا عنه وأبعدوه ـ كذا ـ وكرهوه ونابذوه)) انتهى.

فحاصل المعنى: أم يحسدون محمداً ص من آل إبراهيم ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ وهو ما كان لداود وسليمان، فمن أهل الكتاب من آمن به ومنهم من صد عنه: فالمعنى قد سبق منهم هذا الحسد لآل إبراهيم، وليس بدعاً منهم حسدهم لمحمد ص، أو فقد صد بعضهم عن آل إبراهيم لغير داعي الحسد والأول أظهر.

ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ **هذا وعيد عام لمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب ولسائر الكفار الذين جحدوا كون القرآن من الله وكذبوا بالآيات الدالة على صدق الرسول ص من القرآن وغيره ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ نجعلهم فيها تباشر أجسامهم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ليبقى إحساسهم بالحريق.**

ومعنى قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ ليطعموه أي ليجدوا ألم العذاب في قلوبهم وأنفسهم أو هو تعليل لإصلائهم وتجديد جلودهم في كل لحظة أو نحوها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ فمقتضى عزته الانتقام من أعدائه الذين ظلموا واستعملوا نعمه في معاصيه وأطاعوا عدوه وعصوا رسله ﴿حَكِيمًا﴾ ومقتضى حكمته أن يجزيهم بما عملوا ولولا الجزاء ما صح تمكينهم من المعاصي وتخليتهم يظلمون؛ لأن ذلك لولا الجزاء يكون إهمالاً مخالفاً للحكمة كما هو مخالف للعزة.

﴿٥٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ **بساتين ذات أشجار مغطية لأرضها وهي في الجنة التي وعد المتقون ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فلا تظمأ، أكلها دائم وظلها، لا تتساقط أوراقها، وهذا مع جمال اجتماع الخضرة والماء الجاري من تحت الأشجار.**

تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لا يموتون بل باقين فيها أبداً ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ من الحيض ومن كل ما ينافي النظافة، فهي نظيفة من أصل فطرتها لا تحتاج إلى تنظف بشيء مما تستعمله نساء الدنيا ولا سعال ولا مخاط ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾ معطوف على سندخلهم جنات فاجتمعت لهم لذة الجنات وجمالها وجمال الأنهار ونعمتها ولذة الظل الممدود الذي لا يتخلله شعاع من الشمس ولا ينسخه.

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ ﴿ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ عامٌ لكل أمانة، مثل: الودائع، والرسالات، وأموال اليتامى، وقضاء الدين، وثمن المبيع المؤجل من ذلك، وأداؤها: تسليمها، وأهلها: ملاكها ومن لهم ولايتها، ومن الأمانات: الضالَّةُ، واللقطة، فهي أمانة عند من أخذها، ومنها: ما أخذه المصدق من الزكوات وغير ذلك.

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإن الله يأمركم ﴿أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ والعدل: هو الحق خلاف الجور، فلا يجوز الحكم بغير علم يميز بين العدل والجور، ولا يجوز الحكم بالجور اتباعاً للهوى أو بغضاً للمحكوم عليه كما قال تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨] وكذلك لا يجوز الحكم قبل تبين الحق، فلا يحكم لأحد الخصمين قبل سماع ما يقول الآخر أو قبل أن يدلي كل من الخصمين بحجته إن كان له حجة، ويحتاج الحاكم إلى أن يكون له ورع يحجزه عن الجور والميل لهوى النفس أو الغضب أو الخوف أو العجلة، وكلها راجعة إلى اتباع الهوى، والله تعالى يقول: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ

جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦] وقد قام قوله تعالى: ﴿أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ مقام ذكر الشروط من العلم والورع والتثبت وكل ما لا يتم العدل إلا به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ يعظكم عن الخيانة والجور في الحكم بما في القرآن من المواعظ والوعيد وإكمال الحجة عليكم بحكمة الله ورحمته فنعم هذا الذي يعظكم به الله فقال في أول الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ وقال هنا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ فهو تأكيد للأمر، ودلالة على أن الله قد أتم الحجة عليكم، وقطع المعذرة بما وعظكم به في هذا القرآن من المواعظ العظيمة التي هي نعم المواعظ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ فلا تخفى عليه خيانة خائن، ولا جور جائر في حكمه فراقبوه.

﴿٥٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر بطاعة الله في كل شيء وطاعته وجبت بها طاعة الرسول وأولي الأمر ولذلك فصل طاعة الرسول وأولي الأمر؛ لأنه لا شركة لهما في الملك، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ فطاعة الرسول بأمر الله وهي تبع لرسالته، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤] فوجبت طاعته في كل شيء، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ..﴾ الآية [النور:٦٣] وقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

وأما طاعة ولي الأمر الولاية العامة فهي كذلك بأمر الله، وهو قائم مقام رسول الله ص في إقامة الدين والحكم بالحق والعدل، وهداية الناس، والدعوة إلى الخير، وجهاد الكفار والظالمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك مما به صلاح وسعادة الناس في الدنيا والآخرة.

وهذه مهمة كبرى، ومسئولية عظمى، لا يتهيأ القيام بها إلا لمن ارتضاه الله واختاره من ورثة كتاب الله الذين دل عليهم القرآن الكريم، والرسول ص وهي لذلك ولاية شرعية مستمدة من القرآن، فلا ولاية شرعية إلا ما كان مصدره القرآن الكريم، ولا اعتبار للولاية بالوراثة أو الملكية أو ما يسمى بالديمقراطية ونحو ذلك مما صدر عن القوانين الكفرية الواردة من أعداء الإسلام المغايرة لشريعة الله.

ولقد عمل الظالمون في الماضي والحاضر على تضليل الناس، ولبس الحق بالباطل من خلال استغلال هذه الآية الكريمة لتثبيت ملكهم، وردع الناس عن مخالفتهم، وإلزام الناس بطاعتهم، فاعتبروا أنهم أولوا الأمر المقصود في هذه الآية، تضليلاً على الناس وغشاً لهم، وكذلك افتروا على النبي ص واختلقوا كثيراً من الأخبار الموجبة لطاعة ولي الأمر حتى وإن كان ظالماً فاسقاً جائراً، وهذا ضلال كبير، وفساد عظيم يتنافى مع القرآن والرسول الكريم ص وحاشا لله أن يريد ذلك، وحاشا لرسوله ص أن يصدر منه كذلك، والله المستعان.

وأما طاعة الأمراء المتولين لولاية خاصة كأمراء السرايا ونحوهم فهي واجبة تبعاً لأمرهم، فلا تجب إلا في حدود أمر الأمير، فمن حيث أن الأمراء كلهم ليس لأحد منهم أن يأمر بمعصية الله أو ينهى عن طاعة الله، بل

الواجب عليهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤١].

فإمرة الأمراء كلهم محدودة بأن يأمروا بالحق وليس لهم أن يأمروا بمعصية، فالأمر بالمعصية خارج عن حدود ولايتهم ولا تجب طاعتهم فيه من حيث هم أمراء بل تجب مخالفتهم طاعة لله ورسوله، وهذا فيمن لم يثبت أنه مع الحق وأنه لا يأمر إلا بالحق فنفس أمره ونهيه دليل على الحق.

وأما سائر الأمراء صغارهم وكبارهم فلا أمر بطاعتهم على الإطلاق بل في حدود إمرتهم؛ لأن الحكم معلق عليها، فأمير السرية يطاع في حدود إمرته وذلك فيما يتعلق بالمقصود الذي أرسل له لا في كل شيء وكذلك الأمير على بلد لأعمال مخصوصة تذكر في عهد الوالي الذي ولاّه، فإمرته محدودة بها.

وبهذا يظهر: أنه لا يجب في كل صاحب ولاية أن يكون معصوماً، ولا حاجة إلى اشتراط العصمة؛ لأنه ليس مشرعاً ولا طاعة له إن أمر بمعصية، نعم ينبغي في الإمام الأعظم أن يكون الظاهر من حاله لعلمه وورعه وزهده وسعة صدره وقوته على تحمل هذا الأمر أنه لا يتحول في المستقبل إذا تمكن في الأرض وهذا يمكن فيمن كمل اختباره في سفره وحضره ورضاه وغضبه وغير ذلك من أحواله حتى ظهر منه أنه لن يتحول، ومن كان هكذا فالظاهر من حاله العصمة.

وعلى هذا: يحمل ما حكي عن أبي العباس الحسني من اشتراط العصمة في الإمام، وأن المراد العصمة في الظاهر، لا اشتراط أن تثبت عصمته بدليل، ومرادنا بالعصمة: التسديد من الله والتوفيق والألطاف، كما قال أمير المؤمنين × : ((من العصمة تعذر المعاصي)).

والمراد ـ أيضاً ـ العصمة عن تعمد الظلم، ومخالفة الحق عمداً، لا الخطأ والنسيان وما أشبه خطايا الأنبياء، ويمكن الاحتجاج لهذا القول بقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤١] والله أعلم، وفي اشتراط هذا نظر لاحتمال الدليل فإن وجد مَن ظاهره كما ذكرنا فلا إشكال أنه أولى ممن ليس كذلك وإن لم يوجد فعدمه دليل على أنه لا يشترط.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ دليلٌ على أنه لا طاعة لكافر؛ لأنه ليس منا، وكذا المنافق والفاجر المسرف الغاش لرعيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]؛ ولأن الواجب نهيه عن المنكر والأخذ على يديه من الظلم، وقد كفرهم الإمام الهادي × وأوجب البدء بقتالهم، واحتج لذلك بقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] ولعل هذا فيمن يدعي الباطل الواضح البطلان ويدعي أنه حق بناء على قانون كفري أو لمجرد اتباع هواه.

﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ﴾ خطاب للذين آمنوا فهو يعم الولاة والرعايا، فعليهم أن يردوا ما اختلفوا وتعارضوا فيه وتطالبوا إلى الله والرسول.

وفي (أمالي المرشد بالله ×) في (الحديث الرابع والثلاثين) [٢/ ٢٣٥] قصة التحاكم بين أمير المؤمنين علي × ويهودي في درع لأمير المؤمنين × بعد حرب صفين.

وفي (أمالي أبي طالب ×) بسند آخر عن الشعبي قال: وجد علي بن أبي طالب × درعاً له عند نصراني، فأقبل به إلى شريح يحاكمه.. إلى آخر القصة وهي في (الباب الثالث) [ص٥٥-٥٦].

ولعل هذا هو السر في الإتيان بـ(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ ويحتمل أن الإتيان بـ(الفاء) للتفريع على طاعة الله وطاعة الرسول المأمور بها في أول الآية، ولكن هذا يشمل أولي الأمر في إيجاب الرجوع إلى الله ورسوله، ويدل على أن الرد إلى أولي الأمر لا يغني عن الرجوع إلى الله ورسوله؛ لأن على أولي الأمر إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بحكم الله ورسوله؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ولم يقل: (وأولي الأمر منكم).

فظهر: أن الواجب الرد إلى الله ورسوله، وأنه لا يستغنى عن ذلك بالرد إلى أولي الأمر، فأما التحاكم إلى أولي الأمر الذين يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله بناء على أنهم كذلك، فليس استغناء عن كتاب الله وسنة رسوله بل توصل إلى حكمهما، بحيث لو ظهر مخالفة الحاكم لهما وقطع بذلك لرد حكمه كسائر الحكام، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] وعلى هذا فلا دلالة في الآية على أن قول الأمير حجة بمنزلة الكتاب والسنة.

ومعنى الرد إلى الله: الرد إلى حكمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:١٠] والرد إلى الرسول: الرد إلى حكمه؛ لأنه يحكم بحكم الله في كتابه أو فيما أوحى إليه من وحيه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وقد روي عن أمير المؤمنين علي × أنه قال: ((الرد إلى الله الرد إلى كتابه، والرد إلى رسوله الرد إلى سنته الجامعة غير المفرقة)).

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حثٌ على الرد إلى الله والرسول ويدل على أن ذلك من مقتضى الإيمان ومن شأن المؤمن، وهو يفيد: أن من امتنع من الرد إليهما وأصر على الشقاق فليس بمؤمن، وكذلك من ردّ إلى غيرهما كحكام الطاغوت من الكهنة وغيرهم، كما يأتي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا..﴾ إلى آخر الآيات.

وأما قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ فهو ترغيب في الرد إلى الله والرسول عند التنازع؛ لأنه يقطع الخلاف ويقرب من الائتلاف، ويوضح الحق لمن كان غالطاً، ويدفع الكبر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ فالرد إلى الله والرسول يؤول بالمتنازعين إلى مآل محمود ويصير بهم إلى عاقبة مرضية؛ لأنه يقطع تطور النزاع وتسلسل الخلاف بين المتنازعين، بل وبين ورثتهم ومن يتبعهم حتى تبقى فائدة الحكم يتوارثها الأجيال، كما أن ترك الرد إلى الله ورسوله قد يؤدي إلى القتال وتسلسل القتال، فلعظم أهمية الرد إلى الله والرسول جاء في الحث عليه هذه الآية والآيات التي تليها.

إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ

﴿٦٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ **تعجيب من قصتهم وتوجيه للسامعين إليها** ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ **يدّعون ذلك دعوى ويقولونه بألسنتهم أنهم آمنوا** ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ **بالقرآن أنه من الله، وأنه حق، أو بما أنزل إليك من الوحي كله أنه حق من الله، ومع هذه الدعوى ما يكشف كذبها، وهي أنهم** ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ **إلى الكاهن مثلاً** ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ **أن يكفروا بكل حاكم يحكم بغير حكم الله.**

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ **أن يغويهم غواية بعيدة عن طريق الصواب؛ لأنهم أطاعوه فتسلط عليهم، وظاهر الآية: أن الخصمين أرادا التحاكم إلى الطاغوت، فما يروى: أن سبب نزولها أن أحدهما طلب التحاكم إلى أبي القاسم أي النبي ص، والآخر طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف ونحو هذه الرواية، فذلك غير صحيح لمخالفته ظاهر الآية.**

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ **أي إذا دعوا** ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ **ليردوا ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول رأيتهم** ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ **أي يعرضون عنك إعراضاً؛ لأنهم منافقون غير مؤمنين كما زعموا.**

تَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

﴿٦٢﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ **تكون حالهم** ﴿إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ﴾ **بنفاقهم وطلبهم التحاكم إلى الطاغوت وسائر معاصيهم** ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ **للتخلص من المصيبة أو لتغطية نفاقهم** ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾ **بطلب التحاكم إلى الطاغوت** ﴿إِلَّآ إِحْسَـٰنًا﴾ **فيما بيننا وتيسيراً من كل منا لخصمه لسهولة التحاكم إلى الطاغوت مثلاً** ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ **فيما بيننا وقطعاً للخلاف لا الفرار من التحاكم لديك فادع لنا بكشف المصيبة أو فلا تتهمنا بالنفاق.**

﴿٦٣﴾ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ **الذين يحلفون بالله إن أردنا، أي الذين في قلوبهم خلاف ما يزعمون قد علمه الله، فلا يفيدهم الحلف شيئاً** ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ **اتركهم** ﴿وَعِظْهُمْ﴾ **أزجرهم عن النفاق وادعهم إلى الإيمان لينجوا من النار** ﴿وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ **قال في (الكشاف): «أي قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم، مؤثراً في قلوبهم..»** إلخ.

أقول: الظاهر: قل لهم في أنفسهم أي قل لهم كلاماً فيهم تخبرهم عن حكمهم عند الله وتنذرهم عاقبة نفاقهم ونحو هذا من كشف زيفهم بما يعلمون به أن الله قد أطلعه على ما يكتمون أو نحو هذا ﴿قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ ينفذ إلى قلوبهم ويؤدي إليها الخوف والغم بسبب ما قدمت أيديهم، والإعراض هنا مثله في قوله تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [التوبة:٩٥] فهو ترك العقاب العاجل

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا

أو الإعراض عن محاورتهم فيما يعتذرون منه وهذا أقرب؛ ولذلك صح تقديمه قبل قوله تعالى: ﴿وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ﴾.

﴿٦٤﴾ **﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فليس لأحد أن لا يرضى بحكم الرسول، ولا يتم الإيمان بالرسول إلا باتباعه وطاعته وتحكيمه.**

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بطلب التحاكم إلى الطاغوت وصدودهم عنك ﴿جَآءُوكَ﴾ تائبين ﴿فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ﴾ طلبوه أن يغفر لهم ﴿وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾؛ لأنهم قد تابوا ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾؛ لأنه لو تابوا تاب عليهم ورحمهم وأخبرهم بذلك الرسول فكان هذا خيراً لهم من الحلف بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً.

﴿٦٥﴾ **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ تكذيبٌ لدعواهم أنهم آمنوا بعد بيان الدليل على بطلان الدعوى كما لو قالوا قد آمنا، فقال لا، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ﴾ قسم على إبطال دعواهم.**

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ..﴾ إلى آخر الآية، دليلٌ على أن الإيمان لا يكون إلا مع تحكيم الرسول ص ولا يكفي التحكيم بل لا بد

عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُواْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ وَإِذٗا

من أن لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضى، ولا يكفي ذلك بل لا بد من التسليم والانقياد للحكم.

وقوله: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ أي فيما وقع بينهم من مشكلة تنازعوا فيها، قال في (الصحاح): ((وشجر بين القوم: إذا اختلف الأمر بينهم..)) انتهى.

قلت: معنى اختلاف الأمر: اختلاف وجوهه التي لأجلها تنازعوا فيه، ولعل أصل معنى شجر هنا من شجَرَه الرمحُ إذا شبَكَه، قال:

يذكرني (حم) والرمح شاجر فهلا تلى (حم) قبل التقدم

والحرج: الضيق، فإذا وجدوا في أنفسهم ضيقاً من حكم الرسول الذي حكم به بينهم فليسوا مؤمنين، والتسليم: الانقياد بتنفيذ الحكم والعمل به.

قال الشرفي / في [المصابيح]: ((قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد × : هذا نص صريح في عدم إيمان من يجد في صدره أدنى حرج من حكم ما جاء به رسول الله ص)) انتهى.

قال في (الكشاف): ((تسليماً تأكيدٌ للفعل بمنزلة تكريره، كأنه قيل: وينقادوا لحكمه انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم)) انتهى.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُواْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ السياق في الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وهم يزعمون أنهم آمنوا، بدليل العطف في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فهم في صدودهم عن الرسول ص يصدون عن الشريعة اليسرى، ولو أمروا

لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

بقتل أنفسهم أو الخروج من ديارهم لامتنعوا، ولم يبق تستر بالأيمان الفاجرة: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

والضمير في قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ﴾ عائد إلى أحد الشيئين، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ يفيدُ: أن القليل منهم يصلحون في المستقبل مطلقاً، أو لَوْ كلِّفوا أحد الأمرين، ويحتمل: أن القليل منهم لو خيِّر بين قتل نفسه والخروج من داره لاختار الخروج من داره وامتثل به؛ لأنه لم يؤمر بقتل نفسه على التعيين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ ما يؤمرون به زجراً لهم عن الباطل، كالتحاكم إلى الرسول لئلا يقعوا في أحد باطلين: إما التحاكم إلى الطاغوت، وإما المغالبة المؤدية إلى الجرح أو القتل أو نحو ذلك إذا تركوا المحاكمة ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لأنه أمر علاَّم الغيوب أحكم الحاكمين الذي لا جور فيه ولا غلط الذي يريد اليسر ولا يريد العسر ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ لكم على الحق وطريق النجاة؛ لأن طاعة الله وتقواه مع الإيمان سبب للتثبيت، كما أن المعصية قد تكون سبباً للزيغ.

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿وَإِذاً لَّأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ ﴿وَإِذاً﴾ لو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴿لَّأَتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ﴾ من عندنا ﴿أَجْرًا﴾ ثواباً ﴿عَظِيمًا﴾ فاجتمعت لهم فائدة العاجل بإصابة الحق الذي هو ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ والتثبيت على الحق لئلا تزل قدم بعد ثبوتها، وفائدة الثواب في الآخرة، وفائدة زيادة الهدى ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ

ولعله قدم ذكر الأجر لكونه أبلغ في الترغيب وزيادةُ الهدى سببٌ لزيادة الأجر، والصراط: الطريق القوي الواضح قال الشاعر:

دعسنـــا أرضهـم بالخيل حتى تركناهـــا أذل من الصـــراط

والمستقيم: الذي لا عوج فيه، والمراد به: سبيل الله الذي هو دينـه، فتـدل الآية على: أن الانقياد لأمر الله ونهيه سبب للعلم النـافع الـذي هـو معرفـة الدين وسببٌ للتوفيق للعمل به.

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ هذا عام للمؤمنين المطيعين بأنهم يكونوا ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ في الجنة يرافقونهم فيها يواصلونهم فيها ويلاقونهم ويزورونهم مثلاً فكما هداهم في الدنيا لصراطهم جعلهم في الجنة رفقائهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

قال في (الكشاف): ((فيه معنى التعجب، كأنه قيـل: ومـا أحسـن أولئـك رفيقـاً)) انتهـى، ومثلـه في (المصـابيح). والأقـرب: أن المـراد بالصـديقين: السابقون إلى الأنبياء المصدقون بما جاءوا به.

وقد روى الحاكم في (شواهد التنـزيل) في الآيات من (سورة الحديد) بسنده: عن ابن أبي ليلى، عن أبيه، قال: قال رسول الله ص: ((الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل ياسين ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:٢٠] وحزبيـل مـؤمن آل فرعون، هو الذي قال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّي اللَّهُ وَقَدْ جَـاءَكُمْ بِالْبَيِّنَـاتِ مِـنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر:٢٨] وعلي بن أبي طالب الثالث وهو أفضلهم)) انتهى.

وأخرجه ابن المغازلي [ص١٥٩-١٦٠] بسنده عن ابن أبي ليلى عن أبيه قال: قال رسول الله ص فذكره، وخرجه المحمودي في طبعة (شواهد التنزيل) الثالثة من عدة كتب، فأفاد: أنه رواه أبو نعيم في كتاب (معرفة الصحابة) وابن عدي. قال: ((ورواه ـ أيضاً ـ في (الروض النضير) [٥/٣٦٨] عن ابن النجار، وأبي نعيم في (المعرفة) ورواه ـ أيضاً ـ السلفي في المشيخة البغدادية)) انتهى.

وأما الشهداء فيحتمل: أنهم الشهداء على الناس، وقد مر ذكرهم عند قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ..﴾ وهذا أظهر.

ويحتمل: أنهم الذين قتلوا في سبيل الله، ولا يبعد أنهم سموا شهداء لأنهم يشهدون على الناس، فيكون المعنى واحداً.

والصالحون: هم الكاملون في الإيمان والتقوى والعمل الصالح الذين سلموا من المعايب ومن الجهل، فهم أهل العلم النافع والعمل به، وهذا لأن السياق يدل على تفوقهم في الصلاح.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كون المطيع لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم المذكورين هو ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ العظيم ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ الذي ينبغي أن يسعى له كل عاقل ويطلبه بكل جهد؛ لأنه الفضل من الله ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥] أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، لا ينقصه عطاء، ولا يثقل عليه تفضل؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ بمن أطاع وبما يحق له من الفضل.

حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴿٧٢﴾

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت الآية الكريمة على أن جميع ما أنعم الله به على عباده المؤمنين من الهداية والثواب فضل من الله تفضَّل به على أوليائه وليس ذلك بواجب عليه، تعالى الله عن أن يجب عليه واجب)) انتهى.

قلت: يعني أنه لا يجب على الله تعالى على حدٍّ وجوب الأجرة للأجير لأن الطاعات وجبت للمالك المنعم فلا يجب للعبد أجر عليها ولكنه يستحق الثواب، بمعنى أنه أهل له، كما أن العاصي يستحق العقاب بمعنى أنه أهل له وحقيق به ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ بطاعة من أطاعه وما يستاهل من الثواب والتفضل وبكل شيء.

﴿٧١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ كونوا على حذر من أعدائكم وقد جعل الحذر مأخوذاً كالسلاح وأضيف إليهم؛ لأنه وقاية لهم يختص بهم كما يختص بهم السلاح ﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي جماعات ﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا﴾ مجتمعين كلكم، والنَّفْرُ: الخروج إلى العدو أو هو عام لكل ارتحال في سرعة.

قال في (مفردات الراغب): ((النفر: الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء، كالفزع إلى الشيء وعن الشيء)) انتهى.

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ﴾ أي ممن قد آمن في الماضي ولكنه قد

وَلَئِنۡ أَصَـٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ فَلۡيُقَـٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ

صار في قلبه مرض وذهب منه الإيمان، وأكد هذا بـ(إن) و(اللام) وتأكيد الفعل؛ لأنهم يستبعدون ممن قد آمن أن ينقلب مثبطاً عن الجهاد مائلاً إلى الدنيا ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ليثبطن عن الجهاد ويخذل عنه.

﴿فَإِنۡ أَصَـٰبَتۡكُم﴾ في الجهاد ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ بوقوع قتل وجراح مثلاً ﴿قَالَ﴾ هذا المثبط: ﴿قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا﴾ أي أنعم الله علي إذ لم أكن معهم فيصيبني ما أصابهم، ومعنى شهيداً: حاضراً وهذا القول منه من خذلانه؛ لأنه الخاسر بالتخلف عن رسول الله ص وكأنه أراد تبرير تخلفه وتبرير تثبيطه والزيادة في التثبيط بهذا الكلام.

﴿٧٣﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَصَـٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَصَـٰبَكُمۡ﴾ أي نالكم ﴿فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولحقكم نصر وغنيمة مثلاً ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ﴾ بالغنيمة ﴿فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ وذلك أنه لا يهمه إلا الدنيا ومطالبها، فهي عنده الفوز العظيم.

ويظهر من هذا: أن الكلام في بعض من قد آمن ولم ينافق إنما في قلبه مرض قد ذهب عنه الإيمان واشتغل بحب الحياة ومطالبها، فتثبيطه ليس نفاقاً إنما هو ليوجَد متخلفون معه حتى لا ينفرد بالعار؛ ولهذا لو أصابوا غنيمة لتمنى أنه كان معهم، والمنافق بعيد من ذلك لأنه يكره نصر الإسلام على كل حال.

يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ﴾ فهذه مودة الإيمان استمرت فيه حتى ظهر أمره واستمرت فيهم كذلك بناء على إيمانه، وكانت هذه المودة تهيئ له الغزو معهم لوثوقه بهم في رعاية الصحبة والأخوَّة في الطريق وحال المعركة لكن تخلف ميلاً إلى الراحة وزهداً في الدين وقلة مبالاة بأمر الله ورسوله، وكثير من الناس أمثال هذا مسلمين غير منافقين لأن المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

﴿٧٤﴾ ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمرٌ بالقتال في سبيل الله ﴿ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ أي يبيعون ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ﴾ أي بالحياة الآخرة أي حياة السعادة الدائمة في جنات النعيم، وهذه هي التجارة الرابحة لا تجارة عبيد الدنيا الذين خسروا الجنة وهم لا بد مفارقون للدنيا.

﴿وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ شهيداً ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ ينتصر على العدو ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو ثواب الآخرة جنات النعيم، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، فكأنه قيل للمؤمنين: قاتلوا في سبيل الله ولا تكونوا مثل هذا المثبط الخاسر، وفي هذه الآية دلالة على وجوب القتال في سبيل الله، وهي دلالة واضحة، كدلالة قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] وفي ذلكم دلالة على لزوم ما لا يتم إلا به من

وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

إعداد القوة، وصلاح ذات البين، واتخاذ قيادة صالحة ذات كفاءة كاملة في الشجاعة وحسن الرأي والتدبير، والنصح لله ورسوله، وبيع الدنيا بالآخرة.

﴿٧٥﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ﴾ سؤال استنكار عن سبب ترك القتال ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مع وجود الباعث عليه لمن آمن واتقى وضعف الصارف عنه بحيث لا ينبغي للمؤمن أن يعتذر به، كأن يقول السبب حب الحياة العاجلة ونسيان الآخرة؛ لأن متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ وفي المستضعفين لأنهم إخوة في الدين مقهورون، وفيها دلالة على حق المؤمن على المؤمن، وأنه يشترك فيه الذكر والأنثى، والحر والعبد.

قال في (الصحاح): ((والوليد: الصبي والعبد، والجمع: ولدان وولْدَة)) انتهى. قال في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت الآيتان الكريمتان على وجوب القتال في سبيل الله، واستنقاذ الضعفاء المؤمنين الذين يحبون الهجرة ولا يستطيعون سبيلاً من الرجال والنساء والولدان)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ يدل على أنهم راغبون في الهجرة إلا أنهم لم يستطيعوا فدعوا الله أن يخرجهم من القرية التي هم فيها ساكنون؛ لأن أهلها ظالمون ولا يستطيعون الهجرة من بينهم ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ

أي من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى شؤوننا ويقوم بمصالحنا ويدفع عنا عدونا ونجاهد تحت قيادته ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ ينصرنا على أهل هذه القرية.

وقولهم: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ يفيد: أنهم طلبوا أن يجعل الله ذلك من عنده وهو الولي الذي يستطيعون معه العمل بدين الله الذي يرضاه الله لهم غير ولاة السوء، وكذلك قولهم: ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ فيظهر: أنهم أرادوا بهذا الدعاء طلب نصر الله لنبيه ص حتى يفتح بلد الظلمة ويخلص المستضعفين من ظلم الظالمين؛ لأن ذلك هو الذي يتصور في تلك الحال.

﴿٧٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتثالاً لأمر الله، ورغبة في ثواب الله ومرضاته؛ لأن إيمانهم بالله واليوم الآخر المبني على اليقين يبعثهم على الخوف من الله والحذر من النار، بحيث يؤثرون طاعة الله على حب الدنيا؛ ولأنهم يغضبون لله على أعداء الإسلام، وتحركهم الحمية الإسلامية للجهاد، فمن هنا كان الجهاد من علامات الإيمان كما في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ والطاغوت: ما أطغى، يفسر بالشيطان وقادة الكفر، وسبيلهم الباطل ومحاربة الحق ﴿فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ﴿أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ هم المقاتلون في سبيل الطاغوت فقد صاروا بذلك من حزب الشيطان وصاروا مع الشيطان في الدعوة إلى الباطل، والصد عن سبيل الله.

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٧٧ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ

﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ **فلا يستطيع مقاومة أهل الحق إذا صبروا وكانوا حزب الله وجنده؛ لِما عندهم من قوة الإيمان، وما ينزل لهم من نصر الرحمن؛ ولأن حزب الشيطان يحبون الحياة ويؤثرونها بخلاف المؤمنين الذين باعوا أنفسهم من الله رغبة في الجنة ومرضاة ربهم، فهم في القتال يرجون إحدى الحسنيين: إما النصر، وإما الشهادة.**

٧٧ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ **تعجيب من قصتهم وتنبيهٌ للسامع للإصغاء لها قيل لهم كفوا أيديكم ولا تمدوها لإثارة الفتنة ومخاصمة الكفار، كما يفعل بعض الأتباع الذين يجرُّون المصائب على من هم معه قبل كمال الإعداد لقتال العدو وينفرِّون الناس عن إتباع الحق؛ لأن عدوانهم ينسب إلى أهل الحق لانضمامهم إليهم، وهم يصورون للناس أن الذي يفعلونه صلابة في الدين فقيل لهم: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ عما تفعلون ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فذلك يكفيكم عن الخصومة في هذا الأوان، واجعلوا جدكم الذي تزعمونه في الدين بدلاً من أن تجعلوه في الخصومات، اجعلوه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فهو العمل النافع إذا كان مع التقوى.**

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال المرتضى × : هؤلاء قوم ممن كان مع رسول الله ص من المنافقين يظهر بلسانه ما ليس في قلبه، وكانوا يتبرعون إلى الفتنة والقتال ويمدون أيديهم فيما لا يجوز من الأفعال، فنهاهم الله عن ذلك، وكان فعل هذا من قبل أن يفترض الله ـ عزَّ وجل ـ على النبي ص الجهاد، فأمر الله سبحانه بالجهاد وحكم به عليهم، وأطلق لنبيه ولهم، ثم نَكَلوا عما كانوا يقولون، ورجعوا عما كانوا من أنفسهم يُظهِرون.

ثم أخبر أنهم يخشون الناس ويفزعون من قتالهم كخشية المؤمنين لله الذين لا ينكُلون عن أمره ولا يرجعون عن حكمه، فذكر الله ـ عزَّ وجل ـ هؤلاء المنافقين أنهم يخشون الناس ويهابون كخشية الله وليس لهم خشية، ولو كانت لهم خشية لله وهيبة ومعرفة ما نَكَلوا ولا رجعوا ولا وَنَوا ولا قصَّروا، ولكن الله أخبر نبيئه والمؤمنين أن هؤلاء المنافقين يخشون الناس كخشية الله التي في قلب نبيئه وقلوب المؤمنين معه، فذم الله سبحانه أهل النفاق والكفر والشقاق بفعلهم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦])) انتهى.

قلت: لا يبعد عندي أنهم في أول أمرهم لَـمَّا ينافقوا وأنهم إنما كانوا فاقدي الإيمان، ثم نافقوا بعد ما كتب عليهم القتال ـ والله أعلم.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ لما كتب عليهم القتال ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾ جهلاً منهم بحكمة الله في القتال وعظم فائدته في الدنيا والآخرة وعدم مبالاةٍ بالدين والدفاع عنه، وهذا لأن معنى: ﴿لِمَ كَتَبْتَ﴾ لأيِّ سببٍ كتبت.

مُّشَيَّدَةٍۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ

وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ﴾ طلب إمهالهم في الحياة إلى أن يموتوا بآجالهم وهي قريبة، فهم حريصون على الحياة مدة قليلة طلبوا أن يسقط عنهم القتال حرصاً عليها وتقريبهم للأجل، وتقليلهم للمدة في هذا الدعاء دليل على جهلهم بقدرة الله وسهولة تعميرهم في هذه الحياة، فطلبوه كما يطلب المخلوق الشيء القليل ليسهل عليه إعطاء المطلوب.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ لا ينبغي أن تجعلوه أكبر همكم ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ لما فيها من النعيم المقيم والملك الكبير فهي التي ينبغي أن تحرصوا عليها ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا تنقصون من أجر الجهاد والعمل للآخرة شيئاً، والفتيل يضرب به المثل في القلة كما مر، وهو خيط صغير يكون في بطن نواة التمر. وفائدة قوله: ﴿لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ دفع توهمهم أن الآخرة خير لهم على الإطلاق لو قال: والآخرة خير، فبين: أن الآخرة ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ فإن اتقوا فهي خير لهم، وإلا فلا.

﴿٧٨﴾ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾

﴿يُدْرِككُّمُ﴾ أي يلحقكم فهو طالب لكم لا تفوتونه، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): ((البروج: القصور، الواحد برج)) انتهى.

وفي تفسير الإمام زيد بن علي إ لـ(غريب القرآن): ((﴿فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ معناه: في حصون واحدها برج، والمشيدة: المطوّلة، والمشيد: المزيّن)) انتهى.

قلت: الأنسب للسياق أن المشيدة هنا بمعنى: المطولة؛ لزيادة حصانتها بالطول، وقد يقال: إن طلاءها بالشيد الذي هو الجص زيادة في قوّتها، وحصانتها من حيث أن المشيد يصعب الطلوع فيه من خارجه، فيأمن ساكنُه طلوعَ العدو من ظهر البرج.

وعلى هذا: فيحمل على المعنيين لعدم التنافي ولمناسبة كل منهما، وهذه الجملة من الآية تذكير بالموت، وأنه لا ينفع الفرار منه؛ لأنه لا بد منه، وإذا لم يكن الحياد منه إلا لتأخيره مدة قليلة فهي لا تساوي فوات فريضة الجهاد وثوابها والتعرض لعذاب الله بمعصية أمره بالجهاد.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ هذا نوع آخر من كلام هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿**كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ**﴾ يدل على فسادهم وإفسادهم واستعدادهم للنفاق. فإذا نالوا نعمة ولو كانت بسبب من رسول الله ص لم يعترفوا له بالتسبيب للخير، بل قالوا: ﴿هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ واقتصروا على ذلك، وإن نالتهم مصيبة قالوا للنبي ص: ﴿هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ ولولاك ما أصابتنا، وذلك على طريقتين:

إحداهما: ما كان بسبب وجود النبي ص وعداوة الكفار له مثل مؤنة حفر الخندق، وهول يوم الأحزاب، وهذا يدل على فسادهم، وأنهم لا يريدون الدفاع عن الدين، ولا عن النبي ص.

الطريقة *الثانية*: التشاؤم كما كان من قوم فرعون، وحكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿**وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ**﴾ [الأعراف:١٣١] وهذا كثير في الأولين والآخرين يتشاءمون بأهل الحق تنفيراً عنهم.

أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ فالفتح، والنصر، والغنائم، والأرزاق.. ونحو ذلك، كلها من الله تعالى نعمة لعباده واختبار، والمصائب تنزل من الله اختباراً وتمحيصاً للمؤمنين وتمريناً لهم على تحمل الشدائد، وغير ذلك من الفوائد، وعقوبةً للعصاة المتمردين ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ فلا يرجعون عن جهالاتهم، ولا يهتدون بما بلغهم الرسول ص من هدى الله ولا يحسنون إسلامهم ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً صادقاً بعد ما جاءتهم البينات.

﴿٧٩﴾ ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ من نعمة وخير ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ تفضل ﴿وَمَا أَصَابَكَ﴾ من مصيبة كالمرض ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أنت سببت له، وهذا معنى نسبته إلى العبد أنه بسبب العبد مع أنه من الله، فلا تعارض، وقد قال في مصيبة (أُحُدٍ): ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠] ولا يجب في التسبيب كله أن يكون معصية متعمدة، بل يمكن أن يكون خطأ ويكون سبباً للمصيبة، وليست عقوبة كأكل بعض الطعام الذي يضر بغير تعمد.

نعم قوله تعالى: ﴿مَّا أَصَابَكَ﴾ الظاهر: أنه خطاب للنبي ص، ومن فائدة ذلك: أن يعرف الجاهلون الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أن يعرفوا أن ما أصابهم فبما كسبت أيديهم؛ لأنهم أولى لعصيانهم تعمداً بخلاف الرسول ص.

عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞۖ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗا﴾ **كسائر رسلنا مبشرين ومنذرين، فعلى هؤلاء المتشائمين أن يكون همهم معرفة ما أرسلت به من عند الله وإتباعك لا التشاغل عن ذلك بالأغراض الدنيوية وجعلها أكبر همهم** ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ **على الرسول والمرسل إليهم والمتبع للرسول والمخالف له.**

٨٠ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾؛ **لأن الله أمر الناس بطاعته لأنه مبلغ عن الله وما ينطق عن الهوى** ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ **عن طاعة الرسول وعصاه فأمره إلى الله، فهو الذي يجازيه، وليس على الرسول أن يحفظه عن العصيان الذي هو سبب هلاكه.**

٨١ ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾ **هم الذين قيل لهم:** ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ﴾ **يقولون: شأننا طاعة للرسول** ﴿فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ ﴿بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ **ذهبوا من عندك وصاروا في فضاء من الناس** ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٞ﴾ **أي قالت في الليل قولاً قدرته لنفعها وسلامتها فيما تظن قولاً** ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُ﴾ **لك أي خلاف الطاعة، فهي تبيت المعصية، ولعله تزيين النفاق والتآمر بينهم أن ينافقوا.**

﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ **يحفظ** ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ **لا ينساه فيجزيهم به يوم القيامة، أو يكتب يأمر الحفظة**

لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ

أن يكتبوه ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ لا تعاقبهم ولا توبخهم ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اتخذه وكيلاً تكل إليه أمورك، واعتمد على نصره وحمايته وكفايته ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ لأنه عالم بحالك وكل شأن من شؤونك لا يغيب عنه شيء ولا يغفل عنك لحظة، ومع ذلك هو قادر على نصرك وحمايتك وكفايتك، وهو مع ذلك برّ رحيم لطيف لما يشاء.

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ لَمَّا كانت معاصيهم سببُها مرضٌ في قلوبهم دلهم على القرآن ﴿شِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧] فإنهم إذا تدبروه بإنصاف وطلب للحق وجدوه ناصحاً أميناً يهدي إلى طريق مستقيم، بما فيه من الوعد والوعيد، والتذكير بالله، والتحذير من الشيطان ومن الاغترار بالدنيا نفَعهم إذا آمنوا به وأيقنوا أنه من الله أصدق القائلين، فلينظروا ليعلموا أنه من الله.

﴿وَ﴾ من الدليل على أنه من الله أنه: ﴿لَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ لأن المخلوق ضعيف تختلف حالته في النشاط وحضور الفكر والكسل والغفلة والقوة والضعف ونحو ذلك، فيختلف كلامه تبعاً لاختلاف حالاته، فيحسن نظمه تارة ويغيره تارة أخرى، فلذلك ترى قصائد الشاعر الواحد تختلف في الحسن والإتقان وتتفاوت.

بل القصيدة الواحدة تختلف في إحكام الكلام؛ لأن بعض المعاني تتجه إليه فكرته لرغبته فيه وقوة الباعث عليه من حب وشوق أو حزن أو غيظ وغضب أو طمع أو بغض أو غير ذلك، والبعض الآخر يتكلفه فالذي يسهل يكون أقدر على إتقان نظمه والذي يتكلفه يضعف عن إتقانه وهذا واضح.

أما كلام الله ـ جلَّ جلاله ـ فلا يختلف؛ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] و ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] وقد علم العرب هذا فلم يستضعفوا شيئاً من نظمه ولا انتقدوا شيئاً من تركيبه، ولو كان فيه اختلاف لسارعوا إلى نقده لكراهتهم للإيمان به ورغبتهم في إبطاله، وتدبر القرآن: تفهُّم معانيه وما يستفاد منها وتؤدي إليه.

قال في (الكشاف): ((تدبر الأمر: تأمله، والنظر في أدباره وما يؤول إليه في عاقبته ومنتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصُّر ما فيه)) انتهى.

قال في (المصابيح) حاكياً: ((وفي الآية دلالة على بطلان قول من يزعم أن القرآن لا يفهم معناه إلا بتفسير الرسول ص أو حجة الله تعالى؛ لأنه لو كان كذلك لم يكن لدعاء المكلفين إلى التدبر في القرآن، وتوبيخهم على ترك الاستدلال به معنى)) انتهى.

وقد بسطت في هذا المعنى في (تحرير الأفكار) جواباً عمن قال: ((السنة حاكمة على القرآن)) وهم يحتجون بقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤].

قالوا: والمراد لتبين بالسنة.

والجواب: لا نسلم أن المراد بالسنة، فهي دعوى لا دليل عليها؛ لأنه المبلغ للقرآن إلى الناس، فالمعنى: لتبينه بتبليغه تبليغاً بيناً بتبيين حروفه في تلاوته عليهم، ورفع صوتك به بحيث يسمعونه بتمامه؛ لأنه لو أغمض بعض الحروف بحيث تلتبس على السامع وخفض صوته به عند تلاوته عليهم فلم

يَسْتَنْبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ

يسمعوه تماماً، لصح أن يقال: إنه لم يبينه لهم، وقد روي أنه ص كان يرتل القرآن حتى لو أراد أحد أن يعد الحروف لعدها أو كما قيل.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة:١٧] أي قراءته لك، ثم للناس بتبليغك إليهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ لك ثم للناس في تبليغك من الملك وتبليغك للناس.

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ ليس معناه تراخي البيان؛ لأنه ليس المعطوف بـ(ثم) وإنما هي للترقي من درجة إلى درجة، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:١] وكقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

ولو سلم أن (ثم) لتراخي وجوب البيان على الله عن وجوب قراءة القرآن، فلا يستلزم ذلك تراخي البيان؛ لأنه يمكن أنه سبحانه كتب على نفسه أن ينزل القرآن ويُقرأ على الرسول ص ثم على الناس، ثم كتب على نفسه أن يجعله بياناً للرسول وللناس؛ لتقوم به الحجة، ويتبين به قصد السبيل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:٩].

وهذا على سبيل الفرض والتقدير، ولا يلزم منه تراخي البيان عن قراءة القرآن، فلا يلزم التغاير بين القرآن وبيانه، وقد وصف الله آيات القرآن بأنها (بينات) كقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت:٤٩] فدل ذلك على أن بيان القرآن صفة له لازمة لا مفارق له مغاير.

إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً ﴿٨٤﴾

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ قال في (الكشاف): ((هم ناس من ضعفة المسلمين الذين لم تكن فيهم خبرة بالأحوال، ولا استبطان للأمور، كانوا إذا جاءهم خبر عن سرايا رسول الله ص من أمن وسلامة أو خوف وخلل أذاعوا به، وكانت إذاعتهم مفسدة، ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول ص وإلى أولي الأمر منهم، وهم كبراء الصحابة البصراء بالأمور أو الذين كانوا يؤمرون ﴿لَعَلِمَهُ﴾ لعلم تدبير ما أخبروا به ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ الذين يستخرجون تدبيره بفطنتهم وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها)) انتهى.

وفيه نظر من وجوه:

الوجه الأول: أنه قال: ((هم ناس من ضعفة المسلمين..)) إلخ، مع أن السياق، والعطف يفيد أنهم المذكورون في الآيات قبلها من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ وقد دلّت على فسادهم، وأنهم مظنة النفاق فمسارعتهم إلى إذاعة ما سمعوه إما لفساد نياتهم، وإما لعدم مبالاتهم بما تؤدي إليه الإذاعة.

الوجه الثاني: أنه قال: ((كانوا إذا جاءهم خبر عن سرايا رسول الله ص..)) والآية الكريمة لا تدل على قصر الذي جاء من الأمن أو الخوف على ذلك بل ولا عليه نفسه، ومن الجائز: أن الأمن أي سبب الأمن، مثل

خبر يفيد أن العدو اختلفوا مثلاً فأضربوا عن ملاقاة المسلمين في معركة متوقعة يجب على المسلمين الاستعداد لها، فيؤدي الخبر إلى ترك الاستعداد للجهاد، مع أن الخبر كذب والاستعداد ضروري، ومن الجائز: أن الخوف مثل خبر عن كثرة العدو المهاجم وكثرة عدته من الخيل وغيرها، ليرجف على المسلمين ليثبط ضعفاء الإيمان، ليتخلفوا عن الجهاد مع الرسول ص فلعل هؤلاء من الذين قال الله فيهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب:٦٠].

الوجه الثالث: أنه قال: ((وهم كبراء الصحابة..)) وقدمه قبل قوله: أو الذين كانوا يؤمرون، مع أن أولي الأمر في الحقيقة في هذه الآية هم الذين أمرهم رسول الله ص وتسمية من لم يؤمر ولي أمر مجاز، ولعل فائدة ذكرهم لوقت غيابهم حيث يرسلهم رسول الله ص فإذا أذاع المفسدون خبراً تضر إذاعته فعليهم أن يسألوا أميرهم عن حقيقة ذلك الخبر؛ لأن الأمراء أهل رأي وذكاء وشجاعة، وإرجاع الخبر إليهم يفيد: إما تكذيب الخبر، وإما الاستعداد بحيلة أو قوة تعارض الخبر أو نحو ذلك، وأمير المؤمنين علي × مقدم فيهم ويلحق سائر أئمة الهدى بالقياس؛ لأن الآية في حوادث مضت، بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ﴾ وفي أولئك الذين كانوا في وقت الرسول ص، لأن (الواو) في أول الآية عطف على الكلام فيهم، والضمير في ﴿جَآءَهُمْ﴾ عائد عليهم، و(جاء) فعل ماض، و﴿أَذَاعُواْ﴾ فعل ماض، و﴿أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أناسٌ مضوا كان رسول الله ص يؤمرهم.

وأما قول بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ وأن المعنى: ولو ردوا

القرآن إلى أولي الأمر منهم، لعلم معناه الذين يستنبطونه، أي يستنبطون معنى القرآن منهم فهو مشكل؛ لأن الظاهر: عود الضمير إلى أقرب ملفوظ؛ ولأن التوصل إلى ذلك قد يؤدي إلى جعل فهم القرآن من خصائص الأئمة، وهو مذهب بعض الإمامية ليتوصلوا به إلى اشتراط أن يكون الإمام معصوماً، وبالتالي منصوصاً عليه، وهو أيضاً مذهب الباطنية.

وقد رد عليهم قول الله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ كما مر في تفسيرها، وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤] فعلى قول الباطنية على القلوب كلها أقفالها، إلا قلوب الأئمة، وبالله التوفيق.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] فكيف يحكم بين الناس وهم لا يفهمونه، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] فكيف يهتدون بما لا يفهمونه، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ..﴾ [المائدة:١٥-١٦] فقال: ﴿جَاءَكُمْ﴾ أفاد: أنهم مخاطبون به، فكيف يتعذر فهمهم له وهو خطاب لهم، فهل خاطبهم الله بما لا يفهمونه؟ ثم قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ فعم كل مؤمن، وقال: ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ فلو كان رموزاً لا يفهمها إلا الإمام لما كان مبيناً.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ عام في كل ما يتعلق بالحروب، وفيما يتعلق بسائر الأحكام الشرعية؛ لأن الأمن والخوف حاصل بكل ما يتعلق بباب التكليف، فثبت أنه ليس في الآية ما يوجب تخصيصها بأمر الحرب)) انتهى.

قلت: الكلام حكاية فعل، فهو خاص بما جاء المذكورين ﴿الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ وجاء فيهم ما ذكره الله في الآيات الماضية، وليس يعم ما أنزل الله من الوعد والوعيد وما يتعلقان به من الطاعة والمعصية؛ لأن إذاعة الوعد بالجنة والوعيد بالنار غير مذمومة، وليس يتبادر من قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ إلا الأمن من المخلوقين أو الخوف منهم.

فظهر: أنه فيما يرجع إلى الأمن من أعداء الإسلام أو الخوف منهم، ولو سلمنا أنه عام للأمن من المخلوقين والأمن من الخالق والخوف من المخلوقين والخوف من الخالق فالوعد والوعيد لا يجوز كتمانه ولا يعاب إذاعته فهو مخصوص من العموم لو سلمناه، وكيف تعاب إذاعة سبب الأمن، وقد ذكره الله في الكتاب العزيز، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧] وإذاعة هذا غير مذمومة، وكذلك في القرآن كثير من أسباب الخوف، مثل: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ..﴾ إلى آخر السورة [الهُمَزة] ومثل: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٧-٨] وإذاعة هذا غير مذمومة.

وفي هذه الآية دلالة على أن المذكورين فيها يفهمون آيات الله ولو كان فهمها خاصاً بالإمام لم يقل فيهم: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٨] لأن من لا يفهمها يكون كأن لم يسمعها، فلا يعاب عليه أن يسمعها ثم يصير غير متأثرٍ بها ولا متعظ بها ولا مهتد، بل هو ﴿كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ وهذا واضح.

ومن الدليل قوله تعالى في القرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] واللسان العربي يفهمه العربي ولا يختص الإمام بفهمه، وقد وصفه بأنه مبين فدل على سهولة فهمه لكل من يفهم اللسان العربي فلا يختص بالأئمة.

ولا إشكال أنه ينبغي الإستعانة بتفسيرهم لأجل ما لهم من زيادة الفهم، فأما حجر القرآن عن غيرهم فهو فساد كبير مخالف لما علم من الدين ضرورة، وأئمة الهدى يدعون الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله، لأنهم مخاطبون بهما، ويحتجون عليهم بالآيات والأحاديث بناء على أنهم يفهمونهما، وقال قائلُ الأئمة (عليه السلام): ((أطيعوني ما أطعتُ الله فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم)) فكيف يعلمون أنه عصى الله لولا أن عليهم أن يتمسكوا بكتاب الله، وأنهم يفهمون الكتاب والسنة فيعرفون الطاعة والمعصية، وكيف يتمسك بالكتاب من لا يفهمه؟!!

وفي حديث الثقلين: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي)) فقدم الكتاب، وفي بعض روايات الحديث: ((.. كتاب الله حبل طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلوا)) فكيف يتركه فيهم لينجوا من الضلال ويحثهم على التمسك به، وهم لا يستطيعون فهمه بل فهمه خاص بالإمام؟!!

وفي (وصية أمير المؤمنين علي ×) رواها أبو طالب × في (أماليه) وهي في (الباب الرابع): ((أوصيك يا حسن وجميع ولدي وأهل بيتي ومن بلغه كتابي هذا..)) إلى قوله × : ((... واللهَ الله في القرآن لا يسبقنكم إلى العمل به غيركم..)) إلخ.

وهذه الوصية رواها الكليني في (الكافي) [٧/ ٥١-٥٢] وهي في (نهج البلاغة/ رقم ٤٧) في (باب المختار من كتبه ×) وفي (النهج) غيرُها من الحث على العمل بكتاب الله كما في (عهده × للأشتر) ومن خطبة له × (رقم ١٧٥) في قسم (الخطب) يقول فيه: ((واعلموا أنه ليس لأحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال..)) إلى قوله × : ((..فكونوا من حرثته وأتباعه، واستدلوه على ربكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتهموا عليه آراءكم، واستغِشُّوا فيه أهواءكم)) انتهى.

وفي (الكافي) للكليني [ج٢] من الأصول [ص٥٩٨-٥٩٩]: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن النوفلي، عن السكونيّ، عن أبي عبد الله، عن آبائه (عليهم السلام) قال: قال رسول الله ص: ((أيها الناس إنكم في دار هدنة..)) إلى قوله.. فقام المقداد فقال: يا رسول الله وما دار الهدنة ؟ قال: ((دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم، فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع، وماحلٌ مصدَّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل..)) الحديث.

وهو في (أمالي أبي طالب ×) في (الباب الثالث عشر) وفي (مجموع الإمام زيد بن علي ×) في (باب طاعة الإمام) بسنده عن علي × قال: ((حقٌ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله، وأن يعدل في الرعيّة، فإذا فعل ذلك فحقٌ عليهم أن يسمعوا وأن يطيعوا، وأن يجيبوا إذا دعوا، وأيما إمام لم يحكم بما أنزل الله فلا طاعة له)) انتهى.

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم × في كتاب (مديح القرآن الكبير) بعد أن أورد آيات من القرآن في فضل القرآن وما فيه من الهدى ما لفظه: ((ومن لم يهتد في أمره بكتاب الله لم يهتد بغيره للحق أبداً..)) إلى قوله × : ((..فالويل كل الويل لمن لم يكتف في أموره وأمور غيره بتنزيل رب العالمين، كيف عظم ضلاله وغيّه، وضلت أعماله وسعيه..)) ثم قال × : ((..فمن اعتصم بنور كتاب الله وبرهانه، واتبع ما فيه من أموره وتبيانه، أدخله الله كما قال سبحانه: ﴿مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾ وهداه به كما وعد صراطاً مستقيماً، ومن أبصر به واهتدى لم يعم بعده أبداً..)) إلخ.

وقال × في كتاب (الدليل الصغير): ((الحمد لله الذي جعل الهدى فيما نزل من كتابه مكملاً، ونزّل برحمته للعباد منه بياناً مفصلاً، فيه لمن استغنى به أغنى الغنى، ولمن اجتنى ثمرات هداه أكرم مجتنى..)) إلى قوله × : ((..فاتخذوه هادياً ودليلاً..)) إلخ.

وقال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((يجب على الإمام أن يكتب إلى الباغين كتاباً قبل مسيره إليهم يدعوهم فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله ص)) انتهى.

وقال × فيها في (باب القول في معاونة الظالمين) في الكلام في أعداء أهل البيت الذين يُحمِّلون البريء ذنب المذنب منهم: ((وَيْح من فعل ذلك من هذه الأمة، أما يسمع قول الله سبحانه حين يقول في ذلك وفيمن كان من الخلق كذلك: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤]..)) إلى قوله × : ((.. بل قد سمعوه ووعوه، ولكن عاندوا في ذلك الحق..)) إلى قوله: ((.. كأن لم يسمعوا الله سبحانه كيف أمر نبيه أمراً بأن يفرض على الأمة مودتهم فرضاً فقال: ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:٢٣] بلى

قد سمعوا ذلك بآذانهم، وفهموا فرض الله فيهم بقلوبهم، ثم رفضوا من بعد ذلك رفضاً..)) إلخ.

وفي (أمالي أبي طالب ×) في (قصة عن بعض أعداء الناصر الحسن بن علي الأطروش ×) أنه قال في الناصر نكرهه؛ لأنه يحسن مثل هذه الحجة؛ ولأنه يرد متقلداً مصحفه وسيفه، ويقول: قال أبي رسول الله ص: ((إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي)) فهذا هو كتاب الله أكبر الثقلين، وأنا عترة رسول الله ص أحد الثقلين، انتهى المراد.

فهذه الجملة تفيد: أن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وخيارهم يدعون إلى كتاب الله، ويحتجون على الأمة به، ومعنى هذا: أن فهمه ممكن للأمة، وإلا لما كان لدعوتهم إليه معنى، ولا ينافي هذا أن الخاصة قد يفهمون من القرآن معاني ما يرتقي إليها فهم العامة في جوانب معينة، ولهذا أمر الله بسؤال أهل الذكر في قوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ﴾[الأنبياء٧] وقد طال الكلام ومعناه أمر مفروغ منه في هذا العصر في بلادنا، ولكن لا يبعد تغير الحال عن قريب والله المستعان.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

﴿عَلَيْكُمْ﴾ الخطاب للرسول ص ومن معه الذين هداهم الله وعصمهم عن أن يكونوا مثل المذكورين في الآيات من قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم﴾ إلى هذه الآية، فبَيَّن للمؤمنين أن ذلك للمؤمنين كان بفضل الله ورحمته وتوفيقه وهدايته، فعليهم: أن يشكروا نعمته بما أنزل من الإنذار، ولا يعجبوا بأنفسهم فإنها قريبة التحول إذا لم يكن لها من لطف الله عاصم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي منكم، ولعله: رسول الله ص، وعلي × ، وأبو ذر ا ونحوه.

مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ

﴿٨٤﴾ ﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ ﴿فَقَـٰتِلْ﴾ **يا محمد** ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا﴾ **أن تبذل** ﴿نَفْسَكَ﴾ **لله وتجعلها في الجهاد في سبيله، وليس عليك أن يقاتل من معك من المؤمنين، إنما عليك أن تحرضهم على القتال. قال في (الصحاح): ((والتحريض على القتال: الحث والإحماء عليه ـ ثم قال ـ: والْحَرَّاضُ: الذي يُوقِدُ على الحُرُض ليتخذ منه نورة أو جصاً)) انتهى.**

قلت: قوله: والإحماء، معناه: إثارة الحمية والغضب على العدو؛ ولعل ذلك هو سبب اختيار التحريض مكان الحض ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **بجهادكم في سبيل الله، فالمعنى قاتل** ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **على القتال رجاء أن ينصركم الله على الذين كفروا فيكف عنكم بأسهم بنصركم عليهم** ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾**؛ لأنه القاهر فوق عباده وبطشه شديد فالعاجل منه قد كان في القرون الماضين كقوم عاد وثمود، والآجل عذاب النار** ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ **قال الراغب في (مفرداته): ((ونكّلت به، إذا فعلت به ما ينكل غيره واسم ذلك الفعل نكال)) انتهى، فالمعنى: تعذيباً زاجراً عن فعل سبب ذلك التعذيب.**

﴿٨٥﴾ ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ **(الشفاعة) أن تطلب للمحتاج حاجته إما نيل خير وإما سلامة من شر، وفي حديث في (صحيفة الإمام الرضا): ((الشفيع جناح الطالب)).**

قال (صاحب الكشاف) ـ ونعم ما قال ـ: ((الشفاعة الحسنة، هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جُلب إليه خير، وابتغِي بها وجه الله، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز)) انتهى.

والأَولى أن يقال بدل حق مسلم، غرض صحيح ليشمل الحد ما فيه مصلحة، ولو كانت الشفاعة لذمي أو لأسير أو من يرجى إسلامه أو صلاحه بسبب العفو عنه أو ترك ظلمه.

﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ قال في (المصابيح): ((والكفل: النصيب، ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨] أي نصيبين)) انتهى باختصار.

والشفاعة السيئة: ما كانت معاونةً على الإثم والعدوان، أو موادّة لمن حاد الله ورسوله ليست لمصلحة دينية، ومعنى ﴿نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ الثواب في الخير والعقاب في الشر، ولو أطلقت الشفاعة السيئة على المحْلِ بالمؤمن مثلاً، أي التبليغ بقوله الضار أو فعله الضار لصح المعنى، ولكنه مجاز مشاكلة لفظية والأصل الحقيقة.

قال في (الكشاف) ومثله في (المصابيح): وقيل الشفاعة الحسنة، هي الدعوة للمسلم؛ لأنها في معنى الشفاعة إلى الله، وعن النبي ص: ((من دعا لأخيه المسلم بظهر الغيب استجيب له، وقال له الملك: ولك مثل ذلك)).

قال في (تخريج الكشاف): أخرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بلفظ: ((قالت الملائكة: آمين، ولك بمثله)) انتهى. قال في (الكشاف): ((فذلك النصيب والدعوة على المسلم بضد ذلك)) انتهى، فأدخل (صاحب الكشاف) المحل في الشفاعة.

فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ

والحديث أخرجه أحمد، ومسلم، عن أبي الدرداء بلفظ: ((ولك بمثلٍ)) وليس فيه كلمة (ذلك) وقوله: ((ولك بمثلٍ)) هو آخر الحديث، وفي (سنن ابن ماجة) في (المناسك) هذا الحديث وآخره: ((ولك بمثله)) وهو في (سنن أبي داود) وآخره: ((ولك بمثلٍ)) بدون (هاء) الضمير، ولم أجده بلفظ: ((ولك مثل ذلك)).

﴿مُّقِيتًا﴾ قال في (المصابيح) للشرفي / : ((في المقيت قولان: أحدهما ـ وهو قول المرتضى × ـ: أن المقيت القادر على الشيء، وأنشدوا للزبير بن عبد المطلب:

وذا ضغن كففت السوء عنه وكنت على إساءته مقيتا

أي قادراً قال × : وقد قال بعض المفسرين: إن معنى مقيتاً: هو شهيداً، وليس هذا عندي بصواب)) انتهى. قلت: وفي (لسان العرب): ((الفراء: المقيت: المقتدر، والمقدر كالذي يعطي كل شيء قوته، وقال الزجاج: المقيت: القدير ـ ثم قال ـ وقال أبو إسحاق الزجاج: إن المقيت بمعنى الحافظ والحفيظ)) انتهى.

وعلى تفسيره بـ(المقتدر) يكون المعنى: إن الله ﴿كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقِيتًا﴾ مقتدراً، فهو مقتدر على جزاء الشافع بالخير وبالشر، يجزي كلاً بمقدار ما يستحق، وأخذ التقدير في معناه مناسب؛ لاشتقاقه من القوت.

قال في (المصابيح): ((وقال إمامنا × : دلَّ ذلك على حسن سعي من سَعى إلى الخير للغير، وعلى قبح ضده)) انتهى.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾ قال في (مفردات الراغب): ((فالتحية أن يقال: حياك الله،

قال: وأصل التحية من الحياة، ثم جعل ذلك دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن الحياة أو سبب حياة)) انتهى المراد.

فالتحية تصدق على الألفاظ المختلفة وأحسنها السلام، وظاهر الآية العموم فتعم قولهم: عم صباحاً، وقولهم: صباح الخير ونحوه، وقد ورد في المنافقين: ((تحيتهم لعنة)) ومعناه: إذا لقي بعضهم بعضاً لعنه مكان التحية، فهي مشاكلة تقديرية، ولا يدخل في التحية قولهم: كيف أصبحت؟ وكيف أمسيت؟ وكيف الحال؟ مما ليس دعاء.

﴿فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ﴾ أجيبوا مَن حياكم بأحسن من تحيته فإذا قال: السلام عليكم، فقولوا: وعليكم السلام ورحمة الله ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾ حَيُّوه بتحيته أي بمثلها، فإذا قال: (السلام عليكم) فالرد لها: (وعليكم السلام).

وقوله تعالى: ﴿أَوْ﴾ يصلح للتخيير حيث صلح الأمران، وللترديد بين حالة صلاحية أفضل، وحالة أن لا يصلح إلا الرد، ومنه إجابة الذمي بقول المجيب: وعليكم، ولا مانع من ذلك؛ لأنه من الإقساط إليهم، وقد قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ..﴾ الآية [الممتحنة:٨] مع أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم﴾ عام لتحية المسلم والذمي والذكر والأنثى.

بل وظاهره عموم تحية الكافر الحربي، فإن ثبت مخصص لتحيته عمل بالمخصص وإلا عمل بهذا العموم؛ لأن الرد ليس من الموالاة ولا الموادّة، بل هو من شأن المسلم الإنصاف والإحسان، وقد قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] فعم الناس.

فإن قيل: إن معنى السلام الأمان، ولا ينبغي تأمين الحربي؟

قلنا: لا مانع من تأمينه وقتاً قصيراً لينظر ما يقول بعد السلام، ثم إذا لم يرد الاستجارة ولا طلب الأمان لغرض صحيح أعلن له بالبراءة من أمانه إن لم يسلم ثم قتل حيث لا أمان له، ولا مانع آخر من قتله، وظاهر الآية: وجوب الرد أو الأحسن، ولو سلم واحد على جماعة وجب على كل واحد الرد أو الأحسن، ولكن لعله يجزي جواب الواحد عن الجماعة إذا وكلوه فكان جوابه عنه وعنهم.

وعليه يحمل الحديث إن صح عن علي × قال: قال رسول الله ص «يجزي عن الجماعة إذا مرت أن يسلم أحدهم، ويجزي عن القعود أن يردّ أحدهم» رواه الإمام أبو طالب × في (أماليه) وهو في (الباب السابع والثلاثين) [ص ٣٤٤] وهو في (سنن أبي داود) في (باب ما جاء في رد الواحد عن الجماعة) [٤/ ٣٥٤] ورقم الحديث [٥٢١٠].

والظاهر: أن السند واحد من سعيد بن خالد، وسعيد هذا ليس بالمشهور، وقد ضعفه عدد من القوم، والعمدة: أنه ليس لنا معرفة بحاله، فالراجح: أن الرد فرض عين أو الأحسن، ولا يبعد أنهم لو وكلوا واحداً منهم فأجاب عن نفسه وعنهم معلنا للإضافة إليهم فقال: وعليكم السلام عني وعمن عندي أن يجزي ذلك، وأن ذلك لا يعني أنه فرض كفاية، ولكن الأحوط: أن يجيب كل واحد ـ والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسب على الصغير الذي يتهاون به الناس وغيره ولا يترك.

حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾

﴿٨٧﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ **هذه أصول الدين تدل على أهمية طاعة الرسول والنصح له لدعوته إلى هذه الأصول حين كان أكثر الناس مشركين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا بكتابه، واعتبر يوم القيامة فاصلاً بين العباد مجازياً لكل عامل بعمله، فالناس يجمعهم الله إلى هذا اليوم الذي يقسمون فيه فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير، وجمعهم إليه جمعهم فيه له، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾** [التغابن:٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لا شك فيه، وأصل الريب قلق النفس من الشك، كما قال الشاعر:

لقد رابني من عامر أن عامراً بعين الرضى يرنو إلى من جفانيا

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ لا أصدق من الله حديثاً، خرج النفي مخرج السؤال؛ لأنه لا يدعي أحد انه أصدق ولا يدعَى لأحد أنه أصدق من الله، فوعده بجمع الناس ليوم القيامة صدق، وكلما في كتابه صدق وحق؛ لأنه غنى كريم لا يحتاج إلى الكذب ولا يريده؛ لأن إرادته إرادة حكمة لا إرادة شهوة وهوى، وهو عالم أنه غني عن الكذب والباطل، وأن ذلك قبيح لا يصدر من غني حكيم كريم.

﴿٨٨﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ **﴿فَمَا لَكُمْ﴾ تفريع على ما تبين من أهمية طاعة الرسول واتباعه والنصح له.**

قال في (الكشاف): ((﴿فِئَتَيْنِ﴾ نصب على الحال، كقولك: مالك قائماً)) انتهى، وهو سؤال استنكار لاختلافهم في المنافقين وتنازعهم بحيث صاروا فئتين، قال الراغب في (مفرداته): ((والفئة: الجماعة المتظاهرة، التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((روي أنها نزلت في قوم قدموا على النبي ص مسلمين، فأقاموا بالمدينة ما شاء الله، ثم قالوا: يا رسول الله نريد أن نخرج إلى الصحراء فأْذَن لنا فيه، فأَذِن لهم فلما خرجوا لم يزالوا يرحلوا [كذا] مرحلة مرحلة حتى لحقوا بالمشركين، فتكلم المؤمنون فيهم، فقال بعضهم: لو كانوا مؤمنين مثلنا لبقوا مثلنا وصبروا كما صبرنا، وقال قوم: هم مسلمون وليس لنا أن ننسبهم إلى الكفر حتى يظهر أمرهم)) انتهى المراد.

ولعل استنكار التنازع راجع إلى أنهم لم يسارعوا إلى ردّ أمرهم إلى الله والرسول كما أمر سبحانه، فالإنكار لثباتهم على التنازع بحيث أنهم فئتان، أو أنهم تنازعوا فيهم مع وضوح حالهم في عدم الإيمان، أو الخروج من الإيمان لأنهم تعربوا بعد الهجرة، وهذا أظهر؛ لأن الإنكار جاء مقيَّداً بالحال الذي هو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ﴾ فلم يكن ينبغي التنازع فيهم، بل كان ينبغي أن تتخلوا عن أمرهم، وتجعلوا أمرهم إلى الرسول ص ليرى فيهم رأيه أو يحكم الله فيهم؛ لأنهم بترك الهجرة قد خرجوا من ولايتكم لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال:٧٢].

وقد ظهر نفاقهم لأنه لازم لرجوعهم إلى قومهم؛ لأنه لا يتهيأ لهم إلا بإظهار المودة لقومهم وأنهم معهم، ولولا ذلك لطردهم قومهم عند

وصولهم لاختلاف الملة فكيف تنازع فيهم المسلمون وصاروا فئتين وقد تبين نفاقهم وأن الله ﴿أَرْكَسَهُم﴾ أي ردهم في الركس، والركس: النجس ﴿بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ بمعاصيهم السابقة التي سهلت لهم النفاق والرجوع عن الهجرة.

قال في (المصابيح): ((وقال المرتضى × : معناه: خذلهم وتركهم من التوفيق لشرارتهم وبعدهم من طاعة ربهم، فهلكوا بذلك وصاروا من المعذبين، وعند الله من المقبوحين)) انتهى.

قلت: الآية من المتشابه، ولا إشكال أن ليس المراد: أن الله أرجعهم في الرجس جبراً، وإنما هو: التسبيب له بالخذلان، وترك الشياطين تؤزهم، فنسب إلى الله على طريقة المجاز، ليدل على أنه غني عنهم لا يبالي بهم، وأن خذلانه لهم عقوبة من الله على ما كسبوا من قبل، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] ولو كانوا مجبورين على الزيغ لكان زيغهم مترتباً على إزاغته لهم، فكان سبحانه وتعالى إذا أخبر بذلك قال: (فلما أزاغ الله قلوبهم زاغوا) بدلاً من أن يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ لكن الزيغ منهم باختيارهم كان سبباً لعقوبتهم بالإزاغة، التي هي التسبيب لزيغ أقبح من الزيغ الأول، بإهمالهم وخذلانهم، مع استعدادهم لذلك بعصيانهم الماضي.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ سؤال إنكار على من يجادل عنهم ويعتبرهم مسلمين، كأنه يريد أن يحكم لهم بالهدى، وقد حكم الله بضلالهم فهذا هو الذي ينكر عليهم، فأما محاولة هداية الكفار والمنافقين بالترغيب في الدين والتألف للكفار، فلا يعاب على من فعله، وقد أرسل الله رسوله إلى الناس جميعاً يدعوهم إلى الإيمان والهدى.

وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ

قال الشرفي في (المصابيح): فالآية دالة على تحريم الحكم بالهدى لمن ضل ذكره إمامنا المنصور بالله × ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ لأنه قد عدل عن سبيل الله ولا يوجد سبيل غيرها يؤدي إلى بلوغ الخير والسلامة في الآخرة، وقد شبهوا بمن ضل في متاهة ولن توجد لهم طريق أبداً فهم هالكون لا محالة.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ أنه إنكار على من يرى تألفهم إلى الدين والرفق بهم فشبه بمن يريد أن يهدي من يعلم أن الله قد أضله بحيث لا يرجع إلى الهدى أبداً، فالكلام تسجيل عليهم بالضلال الدائم لا إنكار على من يحاول هدايتهم، لأنه سؤال لتشبيههم بمن يريد ذلك وهذا أنسب لآخر الآية.

٨٩ ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ هؤلاء الذين رجعوا إلى بلاد الكفر قد رجعوا إلى الكفر و ﴿وَدُّواْ﴾ أحبوا ورغبوا ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ في الكفر لرغبتهم في الكفر، وأن لا يبقى فيه مخالف، أو ليأمنوا جانبكم وهذا أظهر.

﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي حتى يؤمنوا ويهاجروا في سبيل الله، ولكونه لا يكفي إسلامهم في دار الكفر لوجوب الهجرة عليهم، فموالاتهم حرام حتى يهاجروا في سبيل الله، والهجرة في سبيل الله: هي الهجرة لنصر دين الله، ولطاعة الله في الدين كله.

وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الهجرة في سبيل الله مع الإيمان من جديد ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ خذوا منهم من شئتم واقتلوا من شئتم، وهذا تخيير بين الأخذ والقتل على التوزيع، مثل: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء:٣].

وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ يحتمل في أي موضع من الأرض لتخويفهم في بلادهم وفي غيرها، وقيل حيث وجدتموهم ولو في الحرم، والأقرب أنه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ..﴾ [التوبة:٥] وأن الحرم مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..﴾ [البقرة:١٩١].

﴿وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ لوجوب معاداتهم ولو ادعوا أنهم باقون على الإسلام؛ لأن الله تعالى قد بيَّن أنهم قد كفروا ﴿وَلَا﴾ تتخذوا منهم ﴿نَصِيرًا﴾ في قتال غيرهم ينصركم لأن حكمهم حكم سائر المشركين.

﴿٩٠﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ ﴿يَصِلُونَ﴾ عند ﴿قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ عهد على ترك القتال، فإذا وصلوا عندهم مقبلين إليهم فاتركوهم، قيل: إذا وصلوا إليهم لاجئين إليهم، ولعل اشتراط اللجوء مفهوم من حيث أن الذين بينهم وبينهم ميثاق لا يقبلونهم إلا إذا كانوا لاجئين؛ لأنهم ليس لهم أن يؤوا محارباً لله ورسوله، فلا بد أن يكون لاجئاً أو يخرج من بينهم ولا يبقى حكمه حكمهم.

﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَـٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَـٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ﴾ فهم مثل الذين يصلون إلى من بينكم وبينهم ميثاق؛ لأنهم جاؤوكم طالبين للسلم لا يريدون قتالكم ولا قتال قومهم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ ضاقت وانقبضت واحتبست؛ لكراهتهم قتالكم وكراهتهم قتال قومهم، فهم داخلون في الاستثناء من قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَـٰتَلُوكُمْ﴾ فلا تخالفوا نهي الله عن قتالهم وكفوا عنهم كما أمركم الله، واشكروا نعمة الله عليكم بإلقاء الرعب في قلوبهم حتى حصرت صدورهم أن يقاتلوكم، فلو شاء قوى قلوبهم ومكنهم من قتالكم وأذهب عنهم الرعب، ولو كان ذلك لقاتلوكم لأنه لم يمنعهم من قتالكم إلا نصر الله لكم بإلقاء الرعب في قلوبهم.

﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ هذا زيادة توضيح وتفسير للاستثناء في قوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ المعطوف على المستثنى، وبيان أن المراد بقوله: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ هو مجيئهم لطلب السلم لا بقاؤهم عند المسلمين فليس شرطاً ولا هو المراد، بل متى طلبوا السلم وانصرفوا عنكم معتزلين لكم في مكان من الأرض لا يقاتلونكم وطلبوا المضى في السلم والبقاء عليه وأبلغوكم أنهم متمسكون بالسلم أو أنهم مسالمون لكم، فلا يجوز قتالهم، ولعل هذا كان قبل نزول (براءة).

هذا ويحتمل: أن قوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ﴾ فالمعنى: إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق، أو قوم جاء وكم حصرت صدورهم.

سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗاۚ وَمَن قَتَلَ

أما قوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ فالراجح ما قلته أولاً: أنه تفسير للاستثناء، فهو راجع إلى المنافقين إلى قوله تعالى: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ﴾ والمعنى: إلا الذين يصلون إلى معاهدين أو مسالمين.

﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾ أي الواصلون إلى معاهدين أو مسالمين ﴿فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ فلا تقتلوهم ولا تأخذوهم وأصل السبيل الطريق، والمعنى ما جعل الله لكم سبيلاً إلى قتلهم أي ليس لكم حجة من الله ولا أذن بقتالهم أو أسرهم.

﴿٩١﴾ ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾

﴿سَتَجِدُونَ﴾ قوماً ﴿ءَاخَرِينَ﴾ غير المذكورين في الآية السابقة يخادعونكم، فيظهرون لكم: أنهم يريدون الإسلام، أو أنهم مسلمون أو يطلبون منكم أماناً إذا جاءوكم لسبب من الأسباب ﴿يُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿أَن يَأۡمَنُوكُمۡ﴾ ثم يرجعون إلى قومهم، فيظهرون لهم أنهم لا يتحولون عن دين المشركين ويدفعون توهم قومهم أنهم أسلموا أو أنهم يريدون الإسلام ليأمنوا قومهم.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ إلى اختبار قومهم لهم أنهم باقون على الشرك كأن يأمروهم بالسجود للصنم أو التقريب له أو يأمروهم بمعاونة الكفار على المسلمين ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَا﴾ في الفتنة وفعلوا ما طَلَب منهم قومُهم فسجدوا للصنم مثلاً فلا هم مسلمون ولا قريبون من الإسلام.

وقوله: ﴿أُرۡكِسُواْ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُمۡ﴾ فهي من المتشابه، والركس: الرجس، وهو نجس الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾ [التوبة:٢٨] وفي حديث ابن مسعود: ((أن رسول الله ص أخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال إنها ركس)).

وفي (الصحاح): ((والركس ـ بالكسر ـ: الرجس)) والأقرب: أنهم إذا جاءوا المسلمين، أظهروا لهم أنهم يريدون السلم وإذا رجعوا إلى قومهم فهم منهم، وكلما اختبرهم قومهم إذا شكُّوا فيهم بسبب ذهابهم إلى المسلمين فعلوا ما اختبروهم به، فهم كفار غير مظهرين للإسلام.

ولذلك قال تعالى فيهم: ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ فلو كانوا مسلمين ما أمروا باعتزال المسلمين، وليس في الآية أنهم يسلمون ثم يرتدون، بل ظاهرها: أنهم يريدون أن يجتمع لهم أمن المسلمين وأمن قومهم، وذلك لا يكون بالإسلام تارة والردة تارة؛ لأنهم إذا أسلموا خافوا قومهم، وإذا ارتدوا خافوا المسلمين.

فالأقرب: أنهم يتوسلون بغير الإسلام إلى أمن المسلمين ليأمنوا المسلمين مع أمنهم قومهم ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ فلا يدخلوا بلدكم ﴿وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ بإبلاغكم أنهم مسالمون لكم ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ تصديقاً لإلقائهم السلم حتى يذهب الخداع ويكونوا على أمر واضح، لا بد من اجتماع هذه الثلاث

مُؤۡمِنًا خَطَـٔٗا فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ وَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞ فَدِيَةٞ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ تَوۡبَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا

الخصال، وإلا ﴿فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾ الأخذ: الإمساك والأسر ﴿حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ﴾ حيث ظفرتم بهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ الأعداء المخادعون ﴿جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا﴾ حجة واضحة وتسليطاً بيناً لقتلهم وأسرهم، وهو تسليط بحكم الله عليهم بذلك، وبنصر المسلمين عليهم نصراً عزيزاً.

﴿٩٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٍ أَن يَقۡتُلَ مُؤۡمِنًا إِلَّا خَطَـٔٗا﴾ ما صح له ولا استقام ولا لاق بحاله، أي أن إيمانه يحجزه عن قتل المؤمن إلا خطأً؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يأمر بتقوى الله واجتناب سخطه خوفاً من عذابه، ولذلك قال تعالى في أهل الكتاب المدعين للإيمان بما أنزل عليهم: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] وهذا تهكم بهم وتسجيل عليهم بكذبهم في دعوى الإيمان؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين ما قتلوا أنبياء الله، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٨١].

وقد تكرر في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ قال تعالى حاكياً عن الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:١١] فليس المراد أن ذلك لا يجوز لنا، وإنما المراد أنه لا يليق بحالنا؛ لأنا لا نقدر عليه إلا بإذن الله الذي يظهر الآيات على أيدينا، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥].

وقول يوسف × : ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي..﴾ إلى قوله: ﴿..مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف:٣٨] أي لا يليق بحالنا لمعرفتنا بالله ووحدانيته وخوفنا منه وعلمنا بقبح الشرك إلى غير ذلك من موانع الشرك؛ ولهذا فالاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا خَطَئًا﴾ متصلٌ ولا حاجة لجعله منقطعاً.

والخطأ: ما ليس بعمد، كأن يرمي طيراً فيصيب مؤمناً وهو لا يريد أن يصيبه، أو يضرب رجلاً بعصى وهو لا يريد قتله ولا يظن ذلك، ومن الخطأ وكْزُ موسى × للقبطي لأنه لم يرد أن يقتله.

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ تحرير رقبة: إعتاق رقبة، أي عبد، أو جارية مؤمنة، فلا يجزي الكافر، والمنافق المعلوم نفاقه، ولا الصبي الذي لم يبلغ حد التكليف والإيمان، والدية معروفة عند العرب مائة ناقة.

وفي الشرع: قال الإمام الهادي × : ((دية الرجل من الذَّهب في أصحاب الذهب ألف مثقال ـ ثم بين أصحاب الذهب من أهل البلدان ـ ثم قال ـ : والدية في أهل الدراهم عشرة آلاف درهم ـ ثم قال ـ : وفي أهل البوادي من العرب وغيرهم مائة من الإبل ـ ثم قال ـ : وفي أهل البقر مائتا بقرة، وفي أصحاب الشاء: ألفا شاة)) انتهى باختصار.

﴿مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ أي أهل المؤمن القتيل، وهم ورثته، والراجح أنها لهم جبر لمصيبتهم وتطييب لأنفسهم وصلاح لذات البين بين المؤمنين، فأما القتيل فعوضه في الآخرة، وقد سميت الدية ميراثاً، والأقرب: أنها لم تسم ميراثاً في الكتاب ولا في السنة، وإنما وقعت تسميتها ميراثاً في لفظ بعض

الرواة فالتعبير منهم لاعتقادهم أنها ميراث، وإذا لم تكن ميراثاً فلا يقضى منها دين الميت إلا بإذن الورثة، فلهم أن يفعلوا ذلك، كما لهم أن يصّدقوا بها على القاتل فيتنازلوا عن الدية أو بعضها.

﴿فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ يجزي لبراءة ذمة القاتل، ولا تلزمه الدية، وهذا يؤكد أنها ليست ميراثاً حقيقة؛ لأن الميراث إذا عدم الوارث لبيت مال المسلمين، والقوم العدو: هم الكفار.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ ﴿قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ عهد على ترك القتال أي صلح موثق بالعهد ﴿فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ﴾ لمكان العهد ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ لأنه مؤمن كما يفيده السياق، وهو ظاهر كلام الإمام الهادي × في (الأحكام) وهذا يؤكد أن الدية ليست ميراثاً حقيقياً، وإنما هي جبر لأهل الميت، وقام العهد في استحقاق الجبر لأهل الميت هنا مقام اتحاد الملة.

وقال الشرفي / في (المصابيح): ((ثم ذكر حال المسلم المقتول خطأ إذا كان فيما بين أهل العهد وأهل الذمة، ولا شك أن هذا ترتيب حسن..)) إلخ.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ رقبة؛ لفقره، أو لعدم العبيد والإماء، كما في زماننا ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ يكفيه بدل التحرير للرقبة، ولا بد من تتابعهما ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ على القاتل؛ لكونه غير متعمد، والتوبة هي الرجوع، فالتوبة من الله هنا الحكم على القاتل بالدية والكفارة، لما في ذلك من الرحمة والتطهير وصلاح الشأن.

فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ومنه القتل وكونه خطأ ﴿حَكِيمًا﴾ في كل شيء، ومنه حكمه على القاتل خطأ، والعهد المذكور هنا ـ أعني الميثاق ـ ذكر الإمام الهادي × أنه نسخ بآيات (براءة) التي أبطلت العهود، هذا معنى كلامه.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ بأن يوقع به ما هو عالم أنه يقتل في العادة من جرح، أو سقي سم، أو إلقاء من شاهق، ولو لم يكن غرضه قتله بل غرضه البطش به وإيجاعه غير مبالٍ بقتله، وهذا قد يكون في حال الغضب ـ نعوذ بالله منه.

﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾ عقوبته في الآخرة نار ﴿جَهَنَّمُ خَٰلِدًا﴾ باقياً لا يموت ﴿فِيهَا﴾ في نار جهنم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فلا يفتر عنه العذاب، ولا تنفعه شفاعة، ولا تسمع له شكوى؛ لأن السياق يفيد أن ذكر الغضب للدلالة على غايته وما يؤدي إليه ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ طرَدَه من رحمته، إما في الآخرة بإبعاده من الرحمة في جهنم تغلق عليه أبوابها، وإما في الدنيا بسلب التوفيق للتوبة، ثم في الآخرة.

﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ إعداد الشيء من المخلوق: تحصيله ليستعمل في المستقبل حين يجيء وقت استعماله، كإعداد القوة للعدو لتستعمل في المستقبل عند القتال، أما إعداد الله سبحانه فيحتمل أن يكون هو الحكم بالشيء وتقديره؛ لأنه قادر على تحصيله في وقته فهو كالموجود وهذا وإن كان مجازاً فهو قريب، ويحتمل: أن إعداد العذاب العظيم إيجاد جهنم كما روي عن النبي ص، وحَمْل ذلك على المجاز يحتاج إلى قرينة.

ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

فإن **قيل**: القرينة الدليل العقلي وهو أن الله قادر على إيجادها في وقتها ولا فائدة في تعجيل خلقها قبل وقتها لإعدادها؟

وقد **يجاب**: بأن نفي الفائدة يحتاج إلى دليل؛ لأن من الممكن أن في خلقها حكمةً لا نعلمها، أعني في إعدادها كما يخلق للإنسان رجلين قبل وقت المشي ويَدَين قبل وقت البطش وغير ذلك، ويمكن أن يكون في ذلك آية لمن يشاهدها من الملائكة وتذكير عظيم يزداد به إيمانهم أو غير ذلك من الحكمة والله أعلم.

﴿٩٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سافرتم في سبيل الله في الجهاد ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾ حذراً من قتل المؤمن.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ﴾ أبلغكم السلم: ترك القتال، أي أبلغكم ما يوجب السلم، وهو كالنطق بالشهادتين، معلناً لكم للكف عن القتال لا تردوا عليه قوله بقولكم له: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ بقلبك إنما شهدت شهادة الحق لئلا نقتلك فتقتلوه بناءً على أنه كافر، والتبين: الكف عن قتاله حتى ينظر هل تم على إسلامه فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، أو رجع إلى الكفر فيقتل متى رجع إلى الكفر.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تقتلوه قبل التبين لأجل أخذ ماله غنيمة، وهو يفيد: أن أخذه ميلٌ إلى الحياة الدنيا، وترجيح لمطلبها، فإيثاره بعد نزول هذه الآية لا يكون من مؤمن يأمره إيمانُه بإيثار الآخرة على الدنيا لينجو من النار.

والآية تعم من ألقى السلم بذكر عهد بينه وبين الرسول مثلاً أو أمان قد سبق له، فعلى المجاهدين أن يكفوا عنه حتى يظهر ما يدل على صدقه، أو يتبين لهم كذبه فهي عامة، وإن كان قولهم: ﴿لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ إنما يكون فيمن نطق بالشهادتين للرد عليه.

قال الإمام الهادي × في (الأحكام) في (كتاب الديات): ثم قال ـ عزَّ وجل ـ تحذيراً للمؤمنين، وتأكيداً منه في التحفظ إذا ضربوا في الأرض من قتل المؤمنين .. فذكر الإمام الهادي × هذه إلى قول الله تعالى: ﴿مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ ثم قال الإمام الهادي × : ((فيقال: إن هذه الآية نزلت في أسامة بن زيد حين بعثه رسول الله ص إلى أرض (غطفان) ولم يكن بالمؤمر على السرية، فبلغ غطفان خبره فهربوا وتخلف رجل من غطفان يقال له مرداس بن نهيك فلما رآهم خافهم فألجأ غنمه إلى كهف في الجبل ثم استقبلهم فسلم عليهم وشهد بشهادة الحق فحمل عليه أسامة فطعنه وأخذ ماله.

فنزل جبريل فأخبر النبي ص بخبره فلما قدموا على النبي ص جعل صاحب السرية يثني على أسامة ورسول الله ص معرض حتى إذا فرغ الرجل قال رسول الله ص: ((يا أسامة قال الرجل: (لا إله إلا الله) فقتلته؟ كيف لك بـ (لا إله إلا الله)؟!!)) قال: يا رسول الله إنما قالها تعوّذاً منا قالها بلسانه ولم يكن لها حقيقة في قلبه.

غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ

فقال له النبي ص: ((أفلا شققت على قلبه فنظرت ما فيه؟!)) فقال: إنما قلبه بضعة من جسده، فقال رسول الله ص: ((إنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: (لا إله إلا الله) فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم وحسابهم على الله)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تطلبون بذلك عرض الحياة وعرض الحياة المال ونحوه من أغراض الحياة الدنيا؛ ولكون ذلك سبب نزول هذه الآية جاء على طريقة التوبيخ لمن فعل ذلك فلا مفهوم لها، وكما يدل عليه بقية الآية فلا يقال مفهومها إذا كان الغرض دينياً فلا بأس أن يقال: لست مؤمناً.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ تغنيكم عن مال من قال: (لا إله إلا الله) ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ﴾ حين قلتم: (لا إله إلا الله) ولا يعلم الناس ما في قلوبكم ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بقبول إسلامكم في تلك الحال ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ لأن حكم الله قبول الإسلام ممن أسلم ومعاملته على الظاهر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فلا تخفى عليه سبحانه مخالفتكم لأمره إن خالفتم، وسيجزيكم بما عملتم.

مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿٩٥-٩٦﴾ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ رجع الكلام إلى الحث على الجهاد، والقاعدون: هم الذين تركوا الجهاد، وسموا قاعدين باعتبار أنهم لم ينفروا بل بقوا في بلدهم وقعدوا عن الجهاد، والقاعد: هو الجالس ليس بقائم ولا مضطجع، فذكرت حالتهم الغالبة في وقت النفر وهي القعود؛ ولعله قد صار عبارة عن البقاء في البلد وترك النفر من غير نظر إلى حالة جلوس أو غيرها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ﴾ وهم: أهل المرض، والعمى، والعرج، يفهم منه أن من أقعده عن الجهاد الضرر، ولولا الضرر لجاهد، فإنه قد يكون بمنزلة المجاهد.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى﴾ تقديم لتفسيره بقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿دَرَجَةً﴾ لأنهم اشتركوا في الإيمان، واختص المجاهدون بفضيلة الجهاد، وذلك في مثل (يوم بدر) حين كان المتخلفون لم يؤمروا بالنفر من المدينة، فأما المتخلفون العصاة المتمردون فليس لهم فضل، وليسوا من المؤمنين؛ لأن شأن المؤمنين أن يجاهدوا في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ دلالة على أن المؤمنين القاعدين لهم ثواب الإيمان، و ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة لموصوف محذوف، فإن كان التقدير: المثوبة الحسنى أو العاقبة الحسنى فهي ثواب الآخرة، وإن كان التقدير: العدة الحسنى فهي وعد الله للمؤمنين في كتابه وعلى لسان رسوله ص وقد قيل: إنها تدل على أن الجهاد فرض كفاية، وفي دلالتها نظر؛ لأنه قد يسقط عن المؤمن لا لأن الجهاد فرض كفاية، بل لحالة عارضة كما في بدر، وكما إذا تخلف لأجل الوالدين العاجزين المضطرين إليه، وكمن لا يجد ما يحمله للسفر وينفق على نفسه ونحو ذلك.

والأولى أن الجهاد واجب على كل مؤمن، وإنما يسقط لأعذار في حال الأعذار، والدليل (آية الحجرات) المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ الآية [التوبة:١١١] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣] وغيرها فهذه أوامر عامة لكل مؤمن.

﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لعلهم القاعدون لغير عذر فهم غير مؤمنين، ففضل الله المجاهدين بالجنة وما فيها من الأجر العظيم الذي هو ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ لأهلها من الله على قدر أعمالهم، وفضل المجاهدين على هؤلاء ﴿مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبهم ﴿وَرَحْمَةً﴾ بصرف العذاب عنهم، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٦] فلا يناله ضر أبداً ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن آمن وجاهد ولمن أطاعه واتقاه وتاب إليه، فالتفضيل هنا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:٤٠] وكثيراً يأتي التفضيل بدون مشاركة.

قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ

﴿٩٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾

﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ عاصين لله ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡ﴾ في مكان طاعة لله أم في مكان معصية؟ فإن كنتم في مكان طاعة، فكيف عصيتم ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران:١٠١]؟ فهناك مكان الطاعة، وإن كنتم في مكان معصية فكيف لم تهاجروا إلى مكان الطاعة لتتمكنوا من طاعة الله؟!

﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جواب غير مطابق للسؤال، كنا مغلوبين على أمرنا لا نستطيع طاعة ربنا ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الملائكة ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ لتتمكنوا من عبادة ربكم وتقواه، فليس الاستضعاف عذراً لكم مع تمكنكم من الهجرة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ لأنهم ماتوا وهم ظالموا أنفسهم بمعصية الله تعالى.

﴿٩٨﴾ ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ استثنى الله المستضعفين الذين ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ﴾ لطاعة الله ولا للهجرة ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ للخروج إلى حيث يتخلصون من قبضة المشركين ويطيعون ربهم.

﴿وَٱلۡوِلۡدَٰنِ﴾ الصغار الذين بلغوا حد التكليف ولم يبلغوا حد المعرفة كيف يتخلصون بسبب غفلة الصغر، أو هم العبيد والإماء على الإطلاق، وخصُّوا بالذِكر؛ لأنهم في الغالب يكونون في قبضة ملاكهم مغلوبين على أمرهم.

وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا

﴿٩٩﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المستضعفون حقيقة وصدقاً ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((صرّح الهادي، وابناه ـ أحمد الناصر، ومحمد المرتضى ـ﴾ في تفسيرهم لكتاب الله: بأن ﴿عَسَى﴾ من الله واجب، وأنه ليس على وجه الشك)) انتهى.

وفي الآيتين دلالة على وجوب الهجرة على من لم يستطع أن يتم دينه إلا بها، فهي كقوله تعالى: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦] ويدخل في عمومها، من يضطر إلى معاونة الظلمة بالمال أو غيره على الظلم، ومن لا يستطيع تعلم دينه إلا بالهجرة، والمرأة التي يحملها زوجها على ترك الصلاة أو الصيام، أو يطأها وهي حائض ولا تستطيع الفرار منه، فلا يعذر إلا من لا يستطيع حيلة للتخلص ولا يهتدي سبيلاً، لا يدري من أين يذهب إلى حيث يتخلص.

فأما دليل وجوب الهجرة إلى الرسول ص وإلى إمام الهدى بعده، فهو في أواخر (سورة الأنفال) غير مشروط بظلم المكلف نفسه إن لم يهاجر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ يفيد: أنه تعالى عفو غفور في الماضي مع الحال، فهو لم يزل عفواً غفوراً منذ خَلَق العباد وكلَّفهم.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ هذا ترغيب في الهجرة في سبيل الله، والمراغم: ما يراغم به أعداء الله.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((يقال: أرغمت الرجل: إذا فعلت ما يكرهه ذلك الرجل، واشتقاقه من الرُّغام وهو التراب)) انتهى.

وقال الراغب في (مفرداته): ((ورغم أنف فلان رغماً وقع في التراب، وأرغمه غيره، ويعبر بذلك عن السخط، كقول الشاعر:

إذا رغمت تلك الأنوف لم ارضها ولم أطلب العتبى ولكن أزيدها

فمقابلته بالإرضاء مما ينبّه دلالته على الإسخاط، وعلى هذا قيل: أرغم الله أنفه، وأرغمه أسخطه، وراغمة ساخطة، وتجاهدا على أن يرغم أحدهما الآخر)) انتهى المراد.

فالمراغَم: محل استطاعة على إرغام العدو، وعلى الكثير بأنواع من أسباب سخط العدو كالجهاد، وتكثير أهل الحق وتقويته بهم وتقويتهم به، والسعة من وَسِعَ، وهي سعة مجال الهجرة كقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً﴾ ويحتمل سعة مكان الهجرة تيسر الرزق فيه، والسلامة من الظلم والاضطهاد الذي يعتبر تضييقاً، كقوله تعالى: ﴿وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦] وقوله تعالى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة:١١٨].

وهذا ظاهر لأن السعة في الأرض لا ترغب إلا مع الرزق فسعة مجال الهجرة بتيسير رزق المهاجر، وإن قل فهو كثير مع رضوان الله، ولا بد أن يصبر المكلف ويتوكل على الله، وإلا ترك الهجرة أو رجع عنها، قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [العنكبوت:٥٦-٥٩].

ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فقد امتثل أمر الله بخروجه من بيته مرتحلاً عنه للهجرة إلى الله ورسوله، والهجرة إلى الله الهجرة إلى دينه، والهجرة إلى رسوله الهجرة إلى محل هجرته للكون معه في دينه، فإذا خرج مرتحلاً بهذه النيَّة الصالحة ثم أدركه الموت قبل بلوغه مهاجَر الرسول ص ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

قال الراغب في (مفرداته): ((الوقوع: ثبوت الشيء وسقوطه)) انتهى.

قلت: قد يكون ثبوت الشيء حصوله، مثل: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١] وإثباتُ الأجر له دلالة على حصوله، فأول حصوله عند حضور الموت وتبشير الملائكة له بالجنة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لتضمينه معنى وَجَب وَحَقَّ، وقد يكون ثبت بمعنى استحقه وصار له تشبيهاً له بما قد حصل؛ لأنه واقع لا يتخلف، وهذا أظهر وأنسب؛ لقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ولذلك قَبِل توبتَه عند خروجه، وغفر له ورحمه في وقت قصير قبل أن يبلغ دار الهجرة ويتعلم الفروض ويعمل.

﴿١٠١﴾ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ قال الراغب في (مفرداته) ((والضرب في الأرض: الذهاب فيها هو ضربها بالأرجل)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((وضرب في الأرض ضرباً ومضرباً ـ بالفتح ـ أي سار في ابتغاء الرزق)) انتهى. وفي (لسان العرب): ((يقال: ضرب في الأرض إذا سار فيها مسافراً)) انتهى، ومثله في (المصابيح).

ولفظ (الكشاف): ((الضرب في الأرض هو السفر)) انتهى المراد، وهو لفظ يشعر بالعناء والمشقة حيث ذكر هنا، وفي الترخيص في قراءة القرآن ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المزمل:٢٠] وقصر الصلاة لأجل الخوف هو جعلها على الصفة المشروعة للخوف فقصر منها ما كان يفعله لولا الخوف.

قال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((وأن قول الله ـ عزَّ وجل ـ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ هو قصرها مع الإمام عما جعل الله من فرضها الذي هو ركعتان أي مع الإمام)) ثم ذكر × صفة صلاة الخوف إلى أن قال: ((وكل أي من الطائفتين قد قسم صلاته قسمين وصلاَّها جزأين: جزءاً مع إمامه، وجزءاً وحده، فهذا معنى القصر ـ ثم قال ـ: لا أدري من كلامه أم حكاية عن جده القاسم × وقصرها في هذه الآية إنما هو تنصيفها مع الإمام..)) إلخ.

قلت: لعله سمي قصراً من حيث هو منعها وكفها عن متابعة الإمام في الركعة التي ينفرد بها المؤتمون، ونظيره: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾ [الصافات:٤٨] أي لا يمددنها إلى غير أزواجهن، بل يقصرنه على أزواجهن ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الأقرب أنه تعليل للترخيص في قصر الصلاة المذكور، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾ أي بَيِّنَ العداوة تحتاجون إلى الحذر منه لكفره وإيمانكم.

فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا

﴿١٠٢﴾ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ ﴿وَإِذَا كُنتَ﴾ **يا محمد** ﴿فِيهِمْ﴾ **إذا ضربوا في الأرض وخافوا أن يفتنهم الذين كفروا** ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **بإقامة المؤذن وشروعك فيها بالتكبير** ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ **في الركعة الأولى** ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ **استعداداً للعدو إن هجم وهم مصلون ليدافعوه وهم مصلون** ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ **فُسِّر بالسجدتين، واتفقت عليه الروايات في (صلاة الخوف) أي لا تكفي سجدة واحدة، فأما التفسير فقد فسرت بإتمامهم صلاتهم، تقول: سلم الإمام أي التسليمتين، فلا يستمروا مع الإمام في صلاتهم بل عليهم أن يصيروا من وراء المصلين محافظين عليهم مراقبين للعدو.**

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ **ومفهومه: أن الطائفة الأولى قد صلت، فقيل: لأنها إذا سجدت قامت فأتَمَّت صلاتها بسرعة والإمام قائم منتظرٌ للطائفة الثانية، وقيل: تكفيها ركعة واحدة وتذهب تجاه العدو، وقيل:**

تؤخر الثانية ثم تقضيها وتعيين الحكم في الركعة الثانية للطائفة الأولى يرجع فيه إلى السنة، وقد اختلفت فيه الروايات.

وقد قيل: إن صلاة الخوف خاصة برسول الله ص؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ حكى هذا في (الكشاف) وهو قريب إلا أنها رويت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام أنه قال في صلاة الخوف: ((يقسم الإمام أصحابه طائفتين..)) إلخ، فأثبتها للإمام، والطائفة: اسم لناسٍ ولو قلّوا، والمراد: بعض الحاضرين معه.

وقوله: ﴿مَعَكَ﴾ أي يقوموا مصلين معك جماعة، وفيه دلالة على أهمية الجماعة، بل وجوبها عند إقامتها لهم بالأذان والإقامة والشروع فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ وهذا بعد انصراف الطائفة الأولى الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي لحمايتكم من العدو، وقوله: ﴿لَمْ يُصَلُّواْ﴾ يشعر بأن هناك غيرهم قد صلوا، فيؤكد أن الطائفة الأولى قد صلت.

وبذلك احتج الإمام القاسم × على أن الطائفة الأولى تتم صلاتها قبل انصرافها إلى مواجهة العدو، كما رواه في صلاة النبي ص (صلاة الخوف) ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ بقية صلاتك ويتموا لأنفسهم بعد تسليم الإمام كما في الأحاديث عن النبي ص ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ جعل الحذر كالشيء الذي يؤخذ لدفع شر العدو كالدرع والدرقة، ولعله خص الطائفة الثانية بذكر الحذر؛ لأن العدو يزداد حرصهم على مهاجمة المصلين في الركعة الثانية من حيث هي عندهم فرصة كادت أن تفوت.

قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم﴾ في حال غفلتكم ﴿مَّيْلَةً وَٰحِدَةً﴾ وهي الهجوم، ولعله سمي ميلة لكونه على غفلة، كأن العدو كانوا متجهين إلى أمورهم غير مقبلين عليكم فعدلوا إليكم، وتوحيد الْمَيلة لاجتماع العدو عليها ووقوعها دفعة واحدة لشدة عداوتهم وحرصهم على الأسلحة والأمتعة. والمتاع: ما ينتفع به، وهذا تأكيد للحث على الحذر والتيقظ وأخذ الأسلحة، أو تعليل لقصر الصلاة على الصفة المذكورة.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ هذا ترخيص في وضع الأسلحة حالة المطر لمشقة حملها مع المطر، وكون حالة المطر ليست مظنة هجوم العدو، أما حالة المرض فلضعف المريض عن حمله، ومع هذا الترخيص أمِروا بأخذ الحذر، وهو الانتباه والنظر إلى جهة العدو في الحين بعد الحين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ بيان لحال الكافرين أن الله مكنهم من محاربة المسلمين؛ لأنه أعد لهم عذاباً مهيناً، ولولا أنه يجزيهم بجرائمهم لما مكنهم، فلإعداد العذاب مكنهم؛ ولتمكينهم وجب أن تحذروهم؛ لأنه أعد لهم عذاباً جامعاً بين الألم والإهانة.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنهيتموها وفرغتم منها ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ في أحوالكم لتكثروا من

يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ

ذكره، كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّـهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥] والْجُنوب: هي الضلوع يضطجع عليها عند إرادة النوم وفي حالة التعب أو نحوه.

﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ ﴿فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ﴾ ذهب الخوف ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ اجعلوها قيِّمة كما أمرتم في حالة الأمن، ولا تجعلوها كصلاة الخوف ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ﴾ مكتوبة ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ محدودة بفروضها وشروطها.

ومعنى ﴿مَّوۡقُوتٗا﴾ محدوداً، وحدود الصلاة عدد ركعاتها وركوعها وسجودها وقيامها وقعودها كما أمر الله، وأذكارها من التكبير والقراءة وغير ذلك، ومن حدودها: أن تكون جامعة لشروطها من الطهارة، واستقبال القبلة وغير ذلك، ولهذا لا يزاد فيها ولا ينقص منها، بل يؤتى بها على عدد ركعاتها وأركانها بلا زيادة ولا نقصان، وكذلك أذكارها.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿تَهِنُواْ﴾ من الوَهَن ضِدُّ الصلابة و﴿ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ طلبهم، أي طلب أخذهم أو قتلهم، فالمعنى: اطلبوهم بصلابة وقسوة.

﴿إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ﴾ في طلبهم بالسفر والقتال ﴿فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَ﴾ فاصبروا ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بقتالهم وطلبهم ﴿مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ من قتالهم إياكم، فأنتم ترجون الجنة و رضوان الله وهم لا

أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

يرجون ذلك فاصبروا لتنالوا الجنة ورضوان الله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بما في نفوسكم وما في نفوسهم، وبكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في أمركم بقتالهم وفي كل ما يقضي وما يخلق.

قال الشرفي / : ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت الآية على أن خوف الآلام والأسقام في سفر الجهاد لا يرخص في تركه)) انتهى.

قلت: لأن المعنى: ابتغوهم بصلابة وإن أُلِمتُم، لكن لعله الألم الذي لا يمنع من القتال كالحر والبرد والتعب والجراح وقتل بعض الأصحاب، فأما ألم المرض الذي يمنع من القتال فليس من توابع الجهاد العادية وقد رخص الله للمرضى، ويحتمل: أنه إذا لم يوقن بالمرض وجب الطلب حتى يمرض؛ لأن الحر والبرد ليسا عذراً مع أنهما مظنة التسبيب لمرض، فظهر: أن الظن للمرض ليس عذراً.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿لِتَحْكُمَ﴾ به ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ لأن فيه الحقَّ، وهذا في الدلالة على أن القرآن هو الحاكم بين الناس، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الحق، فهو ص يستند في الحكم إلى ما أراه الله في القرآن أو في غيره مما أوحاه إليه.

فالمعنى: لتحكم بين الناس بما أراك الله في القرآن بالقرآن، وتحكم بسائر الوحي فيما لم تجد في القرآن، وبهذا تختلف هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ..﴾ [البقرة:٢١٣]؛ لأن هذه في النبي ص وهو يعلم

ما أوحي إليه من غير القرآن ومن القرآن، أما مَن بعده فإنهم إذا لم يعلموا غير الكتاب واختلفوا في السنة لم يكن حاكم إلا الكتاب فيما اختلفوا فيه أَمِن السنة أم لا، وفي القضية التي هي غير الخلاف ذلك وليس هذا الاختلاف من التدافع لما بينت.

﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ قال الشرفي / : ((قال إمامنا المنصور بالله × : قال المرتضى × : أراد الله ـ عزَّ وجل ـ إكرام نبيئه وتعظيمه من بعد إقامة الحجة على أهل الشرك من أهل الكتاب أن لا يكون لهم خصيماً فيما قد بان لهم من الحق وعرفوه معه ص من الصدق ووجدوه في كتبهم وثبت في عقولهم)) انتهى المراد.

فحاصل المعنى: أنْ احكم بما أنزل الله ولا تجادل من أبى قبول الحق من أهل الكتاب الذين خانوا بكتمان ما عندهم من الحق كصفات النبي الأمي.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿ٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ أطلبه أن يغفر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ للمستغفرين ﴿رَّحِيمًا﴾ لهم وغفوراً كثير الغفران، رحيماً يرحم عباده؛ فلكونه يرحم تُطلب منه الرحمة بالاستغفار، وقد جاء عن أمير المؤمنين تفسير الاستغفار بستة معان، وهو في حق أهل الكبائر.

فأما رسول الله ص فهو مطهر من الأرجاس، واستغفاره يكون من الخطأ والنسيان، وما يقع بتأويل كالأذن لمن يستأذن؛ لأنه إن استأذن عن الجهاد لعذر فهو معذور، وإن استأذن لغير عذر فهو كاره للجهاد غير مأمون أن ينهزم فيضر غيره من المجاهدين أو يفسد، فأنزل الله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣] فالاستغفار من الرسول ص من مثل هذا.

تُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰأَنتُمْ هَـٰؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ كما نهي ص عن مخاصمتهم، نُهِي عن الجدال عنهم وعن كل من يخون الله ورسوله وجعل مختاناً لنفسه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١] فكأنه أخذ نفسه واسترقها بخيانته لله ورسوله؛ لأنه خسر نفسه بخيانته، فكأنه أتلفها خيانة وأخذها كما يأخذ الخائن المال خيانة لمن ائتمنه عليه، وكلمة افتعل تستعمل في أخذ الشيء نحو اقتطف واقتبس واشترى وارتدى وأتزر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ من يعتاد هذه الجريمة ويعتاد الإثم؛ لأنه مصر على الإثم، ولعل فائدة التكثير الإشارة إلى أنه مصرٌّ فيخرج من ذلك مَن صدرت منه وسارع إلى التوبة، أو إن ﴿ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ معناه: أنه تكرر منهم بغير توبة في خلاله ووقع منهم مراراً عديدة، كما يشعر به الفعل المضارع الذي يستعمل فيما يتكرر من فاعله ويصير عادة له مستمرة، فهو في أناس مخصوصين مثل المنافقين، فأقام قوله: ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ مقامَ لا يحبهم؛ ليفيد: أنه لا يحبهم بسبب خيانتهم وإثمهم الذي صار عادة لهم، فهو ذم لهم، وبيانٌ لكثرة خيانتهم وإثمهم، فأقامه مقامَ إن الله لا يحبهم لهذه الفائدة وليعم من كان مثلهم.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾

ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ

للخيانة من المؤمنين فيُبَيِّتون التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول في مكان يستخفون فيه؛ ليخفى على المؤمنين ما يُبيِّتون ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بترك معصيته فلا يحاولون أن لا يراهم في معصيته ويسمع كلامهم المنكَر؛ لأنهم غافلون عن الله آمنون لمكره لا يستحيون منه.

﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ في حال كلامهم الذي لا يرضاه وهم يُبيِّتونه، أي يقولونه في البَيَات؛ لإخفائه وهو معهم يسمع ويرى، أي لا يخفى عليه قولهم ولا يخفون عليه، وليس بينه وبينهم مسافة تُبعدُهم عنه، بل هو أقرب إليهم من حبل الوريد؛ لأنه معهم لا بمقارنة ولا ظرفية؛ لأن معيَّته ليست مثل مَعِيَّة الأجسام أو الأعراض؛ لأنه لا يحتاج إلى مكان ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ قد أحاط بأعمالهم فلا تضر المؤمنين؛ لأن الله يمنع ضرَّها.

﴿١٠٩﴾ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ قال في (الكشاف): ((ها، للتنبيه في (أنتم) و(أولاء) وهما مبتدأ وخبر و﴿جَـٰدَلْتُمْ﴾ جملةٌ مبيِّنةٌ لوقوع (أوْلاءِ) خبَراً كما تقول لبعض الأسخياء: أنت حاتمٌ تجود بمالك وتؤثر على نفسك)) انتهى.

وجوّز فيه وجهاً آخر، ولكن هذا عندي هو الظاهر، و(أنتم) خطابٌ لبعض الصحابة جادلوا بناءً على حسن الظن، ولعل ذلك كان قبل النهي، أو لجهلهم بأن جدالهم من المنهي؛ لجهلهم بأن مَن جادلوا عنهم خائنون، وقد نزَّل بعض المفسرين تفسير الآيات على سبب خاص وهو بعيد، والأَولى أنها عامَّةٌ وقعت دستوراً، وإن كان السبب خاصاً.

﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ التي فيها يعمل الإنسان ما يشاء من حق وباطل، ويقول ما يشاء؛ لأن الله ترك عباده مخيرين لاختبارهم وتكليفهم حتى يطيع المطيع باختياره، ومن يعصى يعصي باختياره، فإن نفع الجدال عنهم في الحيوة الدنيا فهو متاع قليل ينتهي سريعاً ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ توكل أمورهم إليه ليدافع عنهم.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((والوكيل: هو الذي فوِّض إليه تدبير الشيء والقيام عليه)) انتهى، فالمعنى: أنهم يوم القيامة يردون إلى الله وما لهم من نصير ولا معين ولا شفيع.

﴿١١٠﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا إرشاد للعصاة الخونة والمجادلين عنهم إن كانوا أثموا ليتوبوا إلى الله؛ لأنه غفور للتائبين؛ رحيم يتوب عليهم برحمته، والاستغفار: طلب المغفرة، فمن طلب المغفرة وجد السبيل إليها، وليس المراد: أنه يغفر له مع الإصرار؛ لأن الاستغفار منه غير مقبول؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وقوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا..﴾ الآية [آل عمران:١٣٥] وليس في الآية وعْدٌ بالمغفرة لمجرد الاستغفار؛ لأن المراد الطلب الجاد لا باللسان وحده، والطلب الجاد يكون الباعثُ عليه الرغبة في المغفرة والخوف من العقوبة، والطالب بهذا المعنى قد قيل له: إنه ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلا يقنط ولكن يطلب ذلك من طريقه، ونظير هذا لو قيل لمريض: إذا أردت الشفاء فاذهب إلى الطبيب فلان فإنه طبيب، فالمراد أن الطبيب يستطيع أن يداوي مرضه لا أنه يُشفَى بمجرد الذهاب إليه.

إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا

﴿١١١﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ فهو المسئول عنه والمعاقَب عليه، ولا يتعداه إلى غيره، فالمجادلون عن الخائنين إذا استغفروا الله ولم يكونوا تعمدوا المعصية، فليس عليهم شيء من إثم الخائنين؛ لأنهم لم يشاركوا فيه ولم يرضوا به ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالخائن والمجادل ومن يستحق العقوبة ومن لا يستحقها ﴿حَكِيمًا﴾ فهو يجازي من يستحق ولا يجازي من لا يستحق.

فإن **قيل**: هذه الآية وأمثالُها من القرآن تدل على أن الآمر بالمعصية والراضي بها لا يشاركان فيها؟

قلنا: أما الآمر فهو كاسب لها بالأمر، وكذلك الراضي الذي ترتب وقوعها على رضاه، قال تعالى في (ثمود): ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ﴾ [القمر:٢٩] وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء:١٥٧] فجعلهم مشاركين في عقرها، ونسَبَه إليهم كلِّهم مع أن المباشر لعقر الناقة واحد من ثمود، فأما من رضي بالمنكر بعد وقوعه، فالدليل على إثمه ما روي فيه عن علي × في (نهج البلاغة) وتسميته مشاركاً في المعصية مجاز استعاره.

﴿١١٢﴾ ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ قيل في تفسيرها: الخطيئة المعصية التي لم يتعمدها فاعلها والتي تعمدها، والإثم ما تعمده صاحبه، وقيل: الخطيئة: ما تخص فاعلها كترك الصلاة والإثم ما يتعداه إلى غيره، وقيل: الخطيئة الصغيرة والإثم الكبيرة، وهذا فيه إشكال؛ لأنه إن أراد بالصغيرة الخطأ فقد جعل في آخر الآية الإثم

المبين هذه المعصية فهو متناقض، وإن أراد بالصغيرة بعض العمد على القول بذلك، فليس اشتقاق الخطيئة من الخطأ الذي هو ضد العمد، فمن أين سمي الصغير بهذا المعنى خطيئة؟!!

وقد قال تعالى في قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا..﴾ الآية [نوح:٢٥] وفي خطيئاتهم الشركُ وتكذيبُ رسولهم والدعوة إلى الشرك وهذه كبائر، والإشكال الوارد على هذا القول واردٌ على الأول؛ لأنه قال في تفسير ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ما معناه: أن البهتان الكذب والإثم فعله المعصية فهو مشكل مع جعل فعله المعصية يعم العمد والخطأ، والإشكال وقع بسبب تفسير الإثم المبين بالمعصية التي فعلها العاصي ورمى بها بريئاً، وهو بعيد لوجهين:

الأول: أنه أدى إلى الإشكال المذكور، *الثاني*: أنه قد فرض وقوعه في أول الآية فكيف يخبر به في آخرها خبراً مبنياً على فرض وقوعه، فالراجح: أن قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ خاصٌ برمي البريء، معناه: برمي البريء احتمل إثمَ البهتان الذي هو الكذب؛ لأنه إثم ولو لم يكن رمياً لغيره بما فعل، كما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا﴾ [النساء:٢٠] واحتمل برمي البريء إثماً مبيناً؛ لأنه ظلَمَه برميه وهو بريء.

وأعتقد ـ والله أعلم ـ أنه تعالى قال في أول الآية: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾ لِئَلا يتوَهَّم أن المراد في آخر الآية بالإثم المبين ذلك الفعل الذي هو متردد بين أن يكون خطيئة أو إثماً، فالحمد لله الذي بيَّن آياته وفصَّلها كما أنه بدأ بذكر فعله لها، لأن رميه لغيره بها مع كونه فاعلها دون الغير أشنع وأبلغ في القبح مما لو لم يكن هو الفاعل؛ ولذلك رتب عليه بقوله: ﴿ثُمَّ

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ

يَرْمِ﴾ فأتى بـ﴿ثُمَّ﴾ لأنه أمر بعيد من حيث أنه لا يتوقع من فاعل المعصية إلا محاولة الستر، فأما رمي غيره بها بعد أن فعلها فذلك غير متوقع منه، فكان هذا كقول الشاعر:

ولا يكشف الغماء إلا بن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾ من الذين يختانون أنفسهم ظنوا أنهم يستطيعون أن يستميلوه إلى الباطل فهموا بذلك، فلولا ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ على النبي ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾ إياه لضل، وفضل الله ورحمته من جملته العصمة ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأن همهم أن يضلوك ضلال منهم، وما يضرونك من شيء؛ لأن الله عصمك.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ فهداك بهما وثبتك على الهدى ﴿وَعَلَّمَكَ﴾ بهما ما لم تكن تعلم علماً نافعاً.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ بيان لعِظَم النعمة من الله عليه ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ من قبل إنزال الكتاب وفي حال إنزال الكتاب والحكمة والرسالة، فهو فضل عظيم؛ لأنه سبب الكرامة في الدنيا والآخرة والشرف الأبدي والسعادة في الآخرة والمقام المحمود والدرجة الوسيلة وغير ذلك.

مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ أن جواب ﴿لَوۡلَا﴾ قولُه تعالى: ﴿لَهَمَّت﴾ فيكون المعنى: إن فضل الله ورحمَتَه منعهم أن يهمُّوا بإضلال النبي ليأسهم من إمكان إضلاله وعلمهم بقوة إيمانه وثباته على دينه، وذلك لأنهم راغبون في إضلاله ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ برغبتهم في ذلك والله أعلم.

﴿١١٤﴾ ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ (النجوى): الكلام الذي يكون بين متحادثين يكتمونه عن غيرهم، فلا خير في كثير من النجوى؛ لأن الداعي إلى كتمانها في الغالب كونها في ذلك الظرف تناجياً بالباطل الذي يخاف أهله من أن يُطّلع عليه، وقد يكون النجوى لأمرٍ بصدقة أو معروف فهذا حسن، وقد تقتضي الحال إخفاءَه لوجود من يعارض الأمر ويثبط فيخفى ليسلم الأمر من المعارضة، أو لوجود من يطالب في الصدقة، فإذا علم بالأمر بها لغيره ألحَّ في الطلب وآذى وغيره أحق، وقد يكون الإخفاء لغير ذلك من الأغراض الحسنة.

وكذلك الأمر بمعروف إن أريد بالمعروف الإحسان، وإن أريد به الواجب، والظاهر: العموم، فقد يكون إخفاؤه أقرب لطاعة الآمر إذا كان المأمور يأنف من الأمر بين الناس كالنصيحة وكذلك الإصلاح بين الناس، فقد يوجد من يعارض الصلح ولو علم به لأفسد واحتال عند أحد الخصمين حيلة لئلا يقبل الصلح، ولعل هذا يشير إلى الاستعانة على الأمور

ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن

بالكتمان، كما روي في (سلسلة الإبريز بالسند العزيز) عن النبي ص: ((استعينوا على الحوائج بالكتمان)) انتهى. وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ﴾ يعم المنكر والمباح الذي يضيع به الوقت في غير مصلحة.

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴿ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ﴾ طلباً لمرضاة الله وتوصلاً إليها، وفي هذا ترغيب عظيم؛ لأن مرضاة الله أهم ما يطلب ﴿فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ فحصل له النجاة من غضب الله والفوز بثوابه العظيم، وقد قلّ من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، بل قد يصلح بين الناس بعض الكبراء لطلب حسن الصيت، أو لأخذ الأجرة من المتخاصمين، أو لمجموع الغرضين ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾ [الإنسان:٢٧].

﴿١١٥﴾ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ عام في الكفار والمنافقين الذين يخانون أنفسهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرآن الحكيم الذي تحداهم أن يأتوا ﴿بِسُورَةٍ مِّنۡ مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣] فلم يفعلوا، وقال: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٣] فكان صدقاً مع شدة حرص أعداء الإسلام على إبطال الرسالة وتكذيب الرسول والقرآن، فقد تبين لهم الهدى بالمعجز العظيم الذي هو القرآن وغيره، ومع ذلك شاقوا الرسول.

﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين في إيمانهم الناصحين لله ورسوله الذين لا يتولون أعداء الله، ولا يتناجون بالإثم والعدوان، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٧١] فهذه سبيلهم، وهم الناس الذين إذا قيل للمنافقين: ﴿آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:١٣] وسبيل المنافقين ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ..﴾ إلى آخر الآية [التوبة:٦٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ..﴾ الآية [المائدة:٥٢] وغيرها، فغيرُ سبيل المؤمنين سبيلُ من في قلبه مرض، فليس له إيمان يدعوه إلى الخير ويأمره بتقوى الله، بل يثقل عليه ما يسهل على المؤمن، وقد يحتج بالآية على: أن الإجماع حجة؛ لأن مخالف الإجماع متبع لغير سبيل المؤمنين.

والراجح: أن المراد بـ﴿سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ما يدعو إليه الإيمان من حيث دعوة الإيمان إليه وهي الخصال السابق ذكرها، ولكن لا يبعد دخول ما أجمع عليه المؤمنون ضمناً في حق من عَلِم الإجماع في المسائل الدينية؛ لأن إيمان أهل الإجماع بعثهم على الإجماع من حيث بعثهم على ما اتفقوا عليه طاعة لله ورسوله، فأما من لم يعلم الإجماع وهو ملتزم بصفات المؤمنين المذكورة في القرآن الفارقة بين المؤمن وغيره فهو متبع لسبيل المؤمنين، ولا يصدق عليه

يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ

أنه متبع لغير سبيل المؤمنين؛ لأن سبيلهم في الحقيقة ما ذكرتُ وقد اتبعه، وهو المراد في الآية عندي ـ والله أعلم؛ لأن المراد بسبيل المؤمنين السبيل المعروفة التي دل عليها القرآن فهي المعهودة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥] فإن معناه: العمل بما تدعوا إليه الإنابة إلى الله والرجوع إليه وهي طاعته، وإيثار طاعته على طاعة من سواه، وإلا لزم أن كل منيب إلى الله يجب اتباعه في مذهبه.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ نخذله ونجعله والياً لما تولاه أي ما اختار لنفسه من مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، وذلك ببسط النعمة وسلب التوفيق ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾ نعذبه بصليّها ومباشرتها لجسده ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ ما أسواها مصيراً يصير إليه نعوذ بالله، ولما كانت الآية الماضية في المنافقين وهم ينصرون المشركين ويتولونهم وفي المشركين عقَّبها بالتحذير من الشرك فقال تعالى:

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ قد مر تفسير أكثرها، والمرجئة يتمسكون بها ليجعلوا الآيات البينات مجملة، وذلك باطل؛ لأن المجمل يفسر بالمبين، ولا يجوز جعل المبين مجملاً بالمجمل، وإجمال من يشاء الله له الغفران بحكمته ورحمته يؤدي إلى إجمال المغفور من حيث أنه عمل من يشاء الله أن يغفر له لا كل عمل ولو لم يعمله من يشاء أن يغفر له، فلذلك كان مجملاً في العمل؛ لأنه لا نعلم من هو العامل الذي يغفر له فلا نعلم عمله تبعاً للجهل به.

وقد ظن (صاحب حاشية الكشاف) أنها وردت في السورة مرتين لتأكيد الإرجاء، والتحقيق: أنها تكررت للتحذير من الشرك واستدعاء السياق لها في الموضعين كما بينت، وقد جاء في هذه السورة الوعيد الجازم موجهاً إلى المسلمين بدليل السياق، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

وقوله تعالى عقيب (آيات المواريث): ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى ﴿..وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهي بيِّنة في عصاة المسلمين؛ لأنها لو كانت في الكفار لقال: أسلمت، أو آمنت كما قال فرعون، مع أن السياق قبل الآيتين في المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ والسياق في المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ..﴾ ولا إشكال أنهما في الذين أسلموا ولم يهاجروا، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾ وظاهر الخطاب في أولها للمسلمين، فهذه سبع آيات في (سورة النساء).

لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ يفيد: تشبيه الضال عن الحق بالضال عن طريق السلامة في متاهة وقد ابتعد عن الطريق؛ ليفيد أن المشرك قد صار بينه وبين الحق مسافة بعيدة، والحق هو طريق السلامة.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ هذا في مشركي قريش ومن كان على طريقتهم؛ لأنهم يؤنثون أصنامهم، مثل: ﴿..اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠] وكأنهم يعتبرونها رمزاً للملائكة الذين يزعمون أنهم إناث، والآية الأولى في مشركي أهل الكتاب، والمخصِّص هنا العقل المخرج للمشركين من أهل الكتاب والحصر إضافي، أي ليست آلهة، وإنما هي إناث كقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ﴾ [النجم:٢٣].

﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا * لَّعَنَهُ ٱللَّهُ..﴾ ﴿وَإِن يَدْعُونَ﴾ أي وإن يعبدون ﴿إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾ لا الملائكة؛ لأنهم عبدوا الأصنام لا الملائكة، ونسبت عبادتهم إلى الشيطان لأنه سببها بالأمر والإغراء، فالحصر إضافي، ولا ينافي أنهم يعبدون الأصنام، وسميت عبادتهم للشيطان دعاءً مشاكلة؛ لأنها دعاؤهم لأصنامهم، والْمَرِيد كما في (الصحاح): العاتي، قال: ((والمرود على الشيء: المرون عليه)).

وقال في (لسان العرب) بعد أن فسر المارد بـ(العاتي): ((وتأويل المرود أن يبلغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه ذلك الصنف ـ ثم قال ـ والمريد: الخبيث المتمرد الشرِّير، وشيطان مارد ومريد واحد)).

قلت: يؤكد هذا الحديث في فضل شهر رمضان حيث يفهم منه أن مردة الشياطين شر من بقيتهم، نعوذ بالله منهم.

يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا

﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ هذه صفة ثانية للمريد والأولى ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي طرده من رحمته، فهي خَبَر لا إنشاء، والصفة الثانية تفيد: أنه إبليس نعوذ بالله منه.

﴿١١٩﴾ ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ الضميرين للنصيب المفروض الذي اقتطعه من بني آدم وغيرهم وفرضه لنفسه بتخلية الله تعالى ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ قال في (لسان العرب) حاكياً: أبو العباس أحمد بن يحيى: التمني: حديثُ النفس بما يكون وبما لا يكون انتهى المراد.

والمقصود بحديث النفس: التأميل، فمعنى ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ أوقعهم في التمني لطول العمر مثلاً والمغفرة مع الإصرار، وتأميل التوبة في آخر العمر، والتمني هذا غير التمني الذي يعبر عنه بـ(ليت) لأنه مأيوس.

﴿وَلَأٰمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((البتك: القطع، وسيف باتك: قاطع، والتبتيك: التقطيع)) انتهى.

وفي تفسير الإمام زيد إ لـ(غريب القرآن): ((معناه: يُقَطِّعُنَّ)) انتهى. وفي (مفردات الراغب الأصفهاني) مثل ما ذكره الشرفي، وزيادة: أن البتك يقال في قطع الأعضاء والشعر، وبتك الآذان ظلم للأنعام، سواء فعلوه تقرباً لأصنامهم أم لعباً وعبثاً.

﴿وَلَأٰمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ تغيير خلق الله تحويل صورة المخلوق عن صفتها الأصلية التي خلقت عليها، مثل: وشر الأسنان، وخصي الفحل من الناس، وجعل البصير أعمى أو أعور، والسميع أصم، والسوي أعرج

ونحو ذلك، ونتف شعر اللحية حتى يصير صاحبها أمرداً، ونتف شعر العانة، والوشم بشق الجلد وجعل الكحل فيه، وتشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، بتغيير الصورة أو الصوت.

ويدخل في هذا تحويل الذكر أنثى أو الأنثى ذكراً كما قيل بوقوع أحدهما أو كليهما في بلاد الغرب، فأما مجرد حلق الشعر الذي لم يثبت جواز حلقه وأصوله باقية بلا تشبه بالنساء أو العكس ففيه نظر، وأما التشبه بلباس أو عادة فلا يترجح دخوله في تغيير خلق الله، وإن كان داخلاً في حديث: ((لعن من تشبه من الرجال بالنساء أو تشبهت من النساء بالرجال)) أعني يشمله الحديث.

وقوله: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ مرتين تكبُّرٌ عليهم واستعلاء.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من يتبع الشيطان فتفوته ولاية الله ويتولاه الشيطان ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ خسراناً بيِّناً؛ لأن ولاية الله أن يلطف بعبده، وينصره، ويدبر له الخير في دينه ودنياه؛ لأنه يتولى أموره لإصلاح شأنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٣-٤].

فتبين: أن ولاية الله هداية إلى السعادة الدائمة، وولاية الشيطان هداية إلى عذاب السعير حيث الشقاوة العظيمة الدائمة، وهذا خسران بيِّن لمن فاتته ولاية الله واستبدل بها ولاية الشيطان.

تَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ

﴿١٢٠﴾ ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فهذه من ولاية الشيطان لمن اتبعه ﴿يَعِدُهُمْ﴾ وعداً يغويهم به، كوعدهم بطول العمر ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ يوسوس لهم بالأماني ليغويهم بها ويجرِّيهم على المعاصي ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ إلا بأن يغرهم ويخدعهم.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((إيهام النفع بما فيه الضرر.. إلخ، وقال تعالى في يوم الأحزاب: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٠-١٢])) انتهى.

أرادوا الوعد بإظهار الدين، وقالوا في (وقعة بدر): ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال:٤٩] وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٤].

﴿١٢١﴾ ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ المأوى: الذي يأوي إليه الحيوان من مسكن أو غيره مما فيه غرض له ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:٤٣] ﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف:٦٩] ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٠] ﴿فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة:٢٠] من التهكم بهم أو المشاكلة التقديرية؛ لأنها تكون لهم مستقراً ومقاماً كما يكون المأوى.

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي لا يجدون مكاناً يحيصون إليه، أي يعدلون من العذاب، قال الراغب في (المفردات): ((أصله من حَيصَ بَيصَ: أي شدة، وحاص عن الحق يحيص: أي حاد عنه إلى شدة ومكروه)) انتهى.

أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن

فعلى هذا: لا يجدون معدلاً يلجأون إليه، ولا معدلاً مكروهاً مثل الموت يلجأون إليه، والراجح: أن المحيص ما يلجأ إليه من الشر ولو لم يكن ما يلجأ إليه شر، ففي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: مَعدَل)) وفي (الصحاح): ((حاص عنه يحيص حيصاً وحيوصاً ومحيصاً ومَحَاصاً وحَيَصانا أي عَدَل وحَادَ، يُقَال: ما عنه محيص، أي محيد ومهرب)) انتهى المراد.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ قال في (الكشاف): ((﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكِّدان: الأول لنفسه، والثاني لغيره)) انتهى.

قوله: ((لنفسه)) يعني: للوعد الذي هو قول الله تعالى: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ مؤكِّدٌ للوعد بأن الموعود به حق لا يتخلف، والقيل: القول، وفي قصيدة عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدِمِ

وصدق الله لا أصدق منه؛ لأنه غني عن الكذب، وعالم لا ينسى، وقدير لا يعجز، وكل عسير عليه يسير، وفي الآية دلالة على وصف الوعد بالصدق فلو تخلف كان كذباً، وذلك من حيث أن وعده خبر عن الواقع الذي سيكون وهو عالم بالمخبَر به، أما المخلوق فوعده مبنِيٌّ على عزمه ونيته وهو لا يعلم يبقى ذلك العزم أم يتحول، فكأنه إذا وعد إنما يخبر عن عزمه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران:١٥٢] كهذه الآية.

﴿١٢٣﴾ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ أي ليس يكون لكم بأمانيكم، أي ما وعد الله به في الآية التي قبل هذه، ونظير هذا التركيب الحديث: ((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل)) أي لا ينال العبد أن يكون مؤمناً ((بالتمني)) أي بأن يمني نفسه أنه مؤمن ((ولا بالتحلي)) أي بإظهار بعض أوصاف المؤمن كالخشوع، والأماني: ما يمني نفسه أو يمنيه الشيطان أو غيره، أي يرجوه ويؤمله جمع أمنية، وروى أبو طالب × في (الأمالي) للإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية:

متى ترى للعدل نوراً وقد ... أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنية طال غرامي بها ... كأنني فيها أخو حلم))

انتهى.

وفي قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ دلالة على أنه لا يوثق بالظن، وأن من عمل ﴿سُوٓءًا﴾ جزي به، والسوء والسيئة سواء ﴿يُجْزَ بِهِۦ﴾ وفيها دلالة على أن الشفاعة لا تكون لترك الجزاء، وإنما تكون لأهل الجنة في زيادة الخير ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ فيها ردٌّ على يتوهم أنه سيكون له ولي يدفع عنه العذاب.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي دافع بينه وبين الله وهو تمثيل بما يكون ممن أراد أن يدفع عمن يضر به غيره فيتوسط بين الضارب والمضروب ليكف عنه، والولي: الذي يتولى رعاية الإنسان وإصلاح شأنه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصره عند سوقه إلى جهنم فيتخلص من العذاب ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار:١٩].

يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ

والخطاب في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ للمسلمين المصدقين بما وعد الله به في الآية التي قبل هذه، فالآية في عمومها لعصاة المسلمين واضحة الدلالة فأما المؤمن الصادق الإيمان فجزاؤه على الصغائر إن لم يكن منه سبب لتكفيرها ما يناله من المصائب، وأما خروج التائب من عمومها فأغنى عن ذكره كونه معلوماً من الدين؛ لأن رسول الله ص أرسله الله إلى الناس ليتوبوا من الشرك وغيره ليغفر لهم، مع أن هذا غير مقصود في الآية؛ لأنه لا يقال في الخطأ والنسيان ونحوهما ﴿وَلَا تَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ولأن الجزاء مع الإيمان لا ينافي تمنى الجنة فلا يناسب التفسير به أول الآية؛ ولأن الأقرب أنها تكفر باجتناب الكبائر لدخولها في العموم، فالأقرب: أن الصغائر وإن كانت سبباً فلا يدل ذلك على أن المسبَّب عقوبة.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ محمول على التسبيب للبلوى ليعوض أجرها الذي ينال بالصبر عليها، وعوضها ما نقص بسبب الصغيرة أي ما فات ـ والله أعلم، والروايات في هذا لعلها مما وضع للملوك لتسهيل المعاصي فلا يعدل عن القرآن لأجلها.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فلا فرق في حكم الله، ولا تضر الأنثى أمانيّ أعدائها المتكبرين ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف:٤٩] فالأماني قد تكون للإنسان وقد تكون عليه، ووعد الله لا يتبع الأماني بل هو ما فصل به في كتابه.

مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ﴿١٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في الثواب على العمل، فلا ينفع العمل بلا إيمان ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ من أجل عملهم وإيمانهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي لا ينقصون من ثوابهم مقدار نقير، قال الراغب في (المفردات): ((والنقير: وَقْبة في ظهر النواة يضرب به المثل في الشيء الطفيف، وقال: الوقب كالنقرة في الشيء)) اهـ وكذا في (الصحاح): ((النقير: النُّقرة التي في ظهر النواة)) انتهى.

﴿١٢٥﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾؟! سؤال في معنى النفي وجعل سؤالاً لوضع معناه في الفطرة؛ لأن الله هو الخالق الرازق فهو المالك المستحق للعبادة، وإسلام الوجه لله أن تجعله لله خالصاً لا تتوجه به لعبادة غير الله، كقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] وغيرها.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مطيع لله، قال تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان:٣-٤] ولا يكون كذلك العاصي المصر ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ فأخلص لله وآمن به، وهي ملة محمد ص ﴿حَنِيفًا﴾ خاشعاً لله أو خاشعاً لله محباً له.

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلاً﴾ الخِلَّة في الأصل: صداقة ومودة في الخليل لخليله، قال الراغب: ((فإن الخلة من تخلل الود نفسه ومخالطته، كقول الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني ... وبه سمي الخليل خليلا

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ

ولهذا يقال: تمازج روحانا)) انتهى. وقد بين أن ذلك أنما يصح في المخلوق، فأما الخلة من الله سبحانه وتعالى فالمراد بها: غاية ذلك ولازمه.

قال الزمخشري في هذه الآية: ((هي جملة اعتراضية لا محل لها من الأعراب، كنحو ما يجيء في الشعر: والحوادث جمة، فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته)) انتهى.

قلت: وتسمية النحاة لها اعتراضية أو معترَضَة لا يمنع مجيئها في آخر الكلام؛ لأنها كثيراً تأتي معترضة بين الكلام، وذلك كاف في صحة التسمية؛ لأنها اصطلاح لهم.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ فكلهم عباده ولا إله إلا هو، فالحق هو إسلام الوجوه له ولم يزل ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ فكل شيء في قبضته، فمرجع العباد إليه وحده لا شريك له في ملكه.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فقد أفتى سبحانه بحكم النساء في الميراث والزواج في هذه السورة الكريمة وفي (سورة البقرة) و (سورة الطلاق) وغيرها.

﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ويفتيكم ما يتلى

عليكم من الفتوى ﴿فِي يَتَامَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ من الحقوق كالمهر والنفقة إذا تزوجتموهن وكالميراث ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لعدم الرغبة فيهن، فتقدم فيهن من الفتوى قولُهُ تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ أي فاتركوا نكاح اليتامى للرغبة في مالهن، وانكحوا غيرهن من النساء ما طاب لكم منهن.

ونزل من الفتوى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ ونزل: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا..﴾ الآية، فهذه الآية تأمر بالرجوع إلى ما سبق لأنها إحالة للمستفتي على ما مر، وتبين أن المراد في أول السورة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا﴾ هو حكم اليتامى المذكورات هنا.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾ أي وفي المستضْعَفين من الولدان: أي ما يتلى عليكم فيهم، أو يفتيكم فيهم ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ..﴾.

﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي يفتيكم أن تقوموا لليتامى بالقسط أو ما يتلى عليكم أن تقوموا لليتامى بالقسط، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا..﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ..﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى..﴾ وغيرها.

﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا﴾ فهو يجزيكم به لا يفوت منه شيء، وهو عام في كل خير، ويدخل فيه فعل الخير للنساء اليتامى أو عموماً، والمستضعفين من الولدان واليتامى عموماً.

مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٢٨ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ

---

١٢٨ ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ ﴿بَعۡلِهَا﴾ زوجها ﴿نُشُوزًا﴾ نُبُوّاً عنها وترفعاً، قال الشرفي / في (المصابيح): ((والمراد: أنها خافت لما لاح لها من أمارات النشوز، وهو أن يمنعها ما يتوجه عليه من نفقة وحسن عشرة، والإعراض أن يقل محادثتها لطعن سن أو ملال أو طموح في أخرى أو غير ذلك)) انتهى المراد، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يصَّالحا﴾ فلا إثم عليه ولا عليها.

وقوله تعالى: ﴿صُلۡحٗا﴾ بالتنكير، أي: أيَّ صلح يرتضيانه ويتفقان عليه، والمراد: ما لا يحل حراماً أو يحرم حلالاً كما جاء في الحديث؛ لأن إباحة الصلح ليس إلا لترك بعض الحقوق الزوجية، وتحريم الحلال أو تحليل الحرام أمر خارج عن ذلك، فليس داخلاً في الآية ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ ترغيب في الصلح بين الزوجين وغيرهما.

﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ إشارة إلى الصلح بنقص النفقة أو تركها، فقد يكون الزوج ثقلت عليه النفقة وأشرف على النشوز من أجل شحه بالمال، فلا بأس بالصلح بالنقص أو الترك إذا كانت الزوجة تجد نفقة من مالها أو مال أبيها مثلاً، وذلك لاستبقاء الزواج بينهما.

﴿وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ ترغيب في الإحسان بعد الصلح، وأن لا يتكل الزوج عليه، وكذلك في الإحسان بأن

ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ

لا يحوجها إلى الصلح وغير ذلك من الإحسان، وترغيب في التقوى؛ لأن الله يجزي بما عمل العبد من طاعة وإحسان جزاء موفوراً؛ لأنه بذلك خبير لا يخفى عليه قليل ولا كثير، وكذلك ما عمل العبد من سوء فالله كان به ﴿خَبِيرًا﴾ يجزيه به الجزاء الأوفى.

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِ﴾ قد قال تعالى: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾ فمن تزوج اثنتين أو أكثر فإنه يقع في المشكلة، فالميل ثلاثة أقسام:

الأول: الميل اليسير بسبب غلبة الحب مثلاً مع التسوية في المبيت والإنفاق الواجب، ومع إخفاء الميل بقدر المستطاع؛ لئلا يضر التي مال عنها بالغيظ والغم، فهذا لا يبعد جوازه، وقد روى في (مجموع الإمام زيد بن علي ﷺ): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام في قول الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡ﴾ قال: ((هذا في الحب والجماع، وأما النفقة والكسوة والبيتوتة فلا بد من العدل في ذلك)).

القسم الثاني من الميل: التقصير في التسوية في المبيت والواجب من النفقة، فهذا لا يجوز، ولكن تجوز المصالحة عند خشيته، كما في الآية التي قبل هذه، فإن أبى أحدهما الصلح فلا بد من العدل أو الطلاق.

القسم الثالث: ما نهي عنه في هذه الآية ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ فهذا لا يجوز ولا بالصلح؛ لأن الله نهى عنه، وإن أباح الصلح وخصه بالنهي دون ما دونه ـ والله أعلم.

كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟

﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿وَإِن تُصْلِحُوا۟﴾ بعد الفساد بتركها كالمعلقة وذلك بحسن العشرة أو المصالحة على بعض الحقوق ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله بالتوبة من ما مضى والطاعة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يغفر ما مضى؛ لأنه ﴿كَانَ﴾ وما زال ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

ومعنى ﴿كَانَ﴾ إثباتُ الشيء فيما مضى لا نفيه في الحال، فهو يكون في بعض الأمور منتفياً في الحال وفي بعض ثابتاً، ولم أقل: لم يزل؛ لأنه مفهوم كان ولكنه لأنه الواقع، أما ﴿غَفُورًا﴾ فمن حين خلق المكلفين وكثرت مغفرته لهم، وأما ﴿رَّحِيمًا﴾ فهو بمعنى مَن شأنه أن يرحم، فيكون صفة له في الأزل، فشأنه في الأزل أن يفعل ما يفعله الراحم، وهذا واضح لأنه في المخلوق صفة مشبهة ليس اسم فاعل.

﴿١٣٠﴾ ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بالطلاق أو غيره من أسباب التفرق ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ﴾ أي كلاً منهما عن صاحبه ﴿مِّن سَعَتِهِۦ﴾ قال في (الكشاف): ((والسعة: الغنى والمقدرة، والواسع: الغني المقتدر)) انتهى.

والأولى أن تفسير السعة بالغنى أو الاقتدار، إنما يصح لسعة الحال التي تقابل ضيق الحال، فأما السعة المضافة إلى الله فهي ما يفيده وصفة بأنه واسع.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((وإنما جاز وصف الله بذلك؛ لأنه واسع الرزق، واسع الفضل، واسع الرحمة، واسع القدرة، واسع العلم فلو ذكر الله تعالى أنه واسع كذا لاختص بذلك المذكور، لكنه لما ذكر الواسع وما أضافه إلى شيء معين دل على أنه واسع في جميع الكمالات)) انتهى، ونحوه في (مفردات الراغب الأصفهاني).

ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا ١٣١ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢ إِن

وقوله تعالى: ﴿حَكِيمًا﴾ دليل أنه جوز الطلاق بحكمته فالاعتراض على شرع الطلاق إنما هو جهل بالحكمة مع كونه كفراً، فقد يكون الطلاق فَرَجاً لأحد الزوجين أو لهما معاً، حتى كأنه خرج من السجن، مع أن الله قد رخص للزوج لئلا يضطر إلى الطلاق مع بقاء المصلحة في بقاء الزواج حيث رخص في تزوج ثنتين وثلاث وأربع، فلا يضطر الزوج إلى طلاق الأولى لرغبته في الثانية وهكذا.

وكذلك رخص في الصلح كما مر وفيه إبقاء للزواج، ومع شرعه تعالى للطلاق شرَع الرجعة إذا لم يكن خُلْعاً ولا ثالثاً وكانت مدخولة، وقال تعالى: ﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:١] فقد يندم الراغب في الطلاق فتكون الرجعة تيسيراً له وإبقاءً للزواج، ثم إن الله أحكم الحاكمين قد حكم به فلا معنى لاعتراض الكفار.

١٣١ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَإِيَّاكُمۡ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه دلالة على أن من فيهما عباده يحكم فيهم ما يريد، فالأحكام الماضية في السورة وغيرها كلها حق، ومن ذلك الصلح بين الزوجين والتفرق إن كان، فعلى العباد أن يطيعوه ليتقوا عذابه، ولقد وصى بتقواه الأولين والآخرين، فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس، وهي نعمة ورحمة لمن قَبِلَها.

يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ

﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ نعمة الله وتخالفوا وصيته، أو وإن تكفروا بوصيته وتجحدوا أنها منه ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنما أنتم عبيد عصوا ربهم فاستحقوا العقاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر:٧] وهنا زيادة الإطلاق، فهو ما زال غنياً عن كل شيء ﴿حَمِيدًا﴾ مستحقاً للحمد أهلاً لئن يُحمَد ولو لم تحمدوه وكفرتم نعمته، وهذا يرجح تفسير الكفر هنا بكفر النعمة.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ فهو مدبر شؤون عباده بأرزاقهم وغيرها من أحوالهم، وبما شرع لهم من الأحكام، وبما أنزل من الكتب، وأوحاه إلى الرسل، وبما جعل من العقول والأسماع والأبصار، وتدبير أسباب سعادتهم في الآخرة، وسلامتهم من العذاب، وغير ذلك من تدبير شؤونهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾ توكل إليه أمور عباده؛ لأنه القدير العليم الرحيم الكريم.

﴿١٣٣﴾ ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ ﴿يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ يتوفاكم ﴿وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ ليعبدوه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ لم يزل قديراً على إذهابكم منذ خلقكم وعلى الإتيان بغيركم من قبل ذلك، وهذا تنبيه إلى معرفة رحمته ومغفرته كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وأكد أنه غني عن عباده، وأنه لا ينقصه إعدامهم وإنما تعليمهم

سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ

وإرشادهم وما كلفهم به من الأحكام في هذه السورة وغيرها رحمة لهم ونعمة؛ لأنهم إذا أطاعوه صاروا إلى السعادة الدائمة.

﴿١٣٤﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من الله أو من عباده كالعامل بالأجرة ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ فليطلبه من الله بالدعاء وإخلاص العبادة فهو خير له من ثواب الدنيا وحده ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا﴾ لمن دعاه ﴿بَصِيرًا﴾ لا يخفى عليه عبادة مَن عبده فيجزيه خيراً، ويصلح له أمر دنياه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٤].

﴿١٣٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خطاب لمن آمن؛ لأن إيمانه حجة عليه، وإذا كان إيمانه باقياً فهو يدعوه إلى الطاعة ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ لم يقل: قوموا بالقسط، بل أمر بملازمة القيام بالقسط حتى يكون المؤمن قوَّاماً بالقسط، يسمى بمثال المبالغة، وأمرهم بذلك أمراً يدل على الوجوب، وأكده بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ الأولاد والإخوة والأخوات، فيجب أن لا تأخذهم عاطفةٌ تصدهم عن القيام بالقسط بالعدل والشهادة بالحق.

ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ

﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا﴾ مَن عليه الحق، فاشهدوا عليه لا يمنعكم غنى الغني، ولا فقر الفقير ﴿فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ﴾ بالغني والفقير، فعليكم أن تطيعوا أمره فيهما ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟﴾ إما هوى في غني لأجل غناه، فكثير من الناس يداري الغني ويكره إغضابه أو فعل ما يكره، وكذلك الفقير قد تدعو الرحمة له إلى الرفق به، وأن لا يحمل ما يثقل عليه، وكلاهما من الهوى ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ عن ﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ بكلمة الحق والقيام بالقسط، ويظهر أن هذا خطاب عام للشهود والحكام.

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ لَيُّ الشهادة: تحويلها عن وجهها ليبطل الحق أو بعضه، والإعراض: الإعراض عن القيام بالقسط، والإعراض عن الشهادة بالحق كتماناً لها.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ عالماً بما تعملون بظاهره وخبره الباطن، وهذا تخويف للمؤمنين بأنه يجزيهم إذا لَووا أو أعرضوا الجزاء الأوفى. قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلَّت على تحريم الشهادة بغير الحق، وعلى تحريم الإعراض عن أداء الشهادة بالحق)) انتهى.

﴿١٣٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ هذه الآية ابتداءٌ في كلام يدعو إلى الإيمان ويحذر من الكفر والنفاق، وهي تدل على وجوب الإيمان بالله ورسله

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

وكتبه، والأمر لمن قد آمن ليؤمن في المستقبل، ويثبت على الإيمان ﴿بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد ص ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ﴾ محمد وهو القرآن، ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ عام لكتب الله المنزلة على النبيئين الذين قبل محمد ص ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل تنزيل الكتاب على محمد ص.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ ومن يجمع بين أنواع الكفر المذكورة ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ لأن كل نوع من الكفر ضلال، فإذا جمع الأنواع فقد صار بعيداً في ضلاله في متاهة واسعة فبينه وبين العودة إلى الطريق مسافات ومراحل، ولعل هذا فيمن يكفر بالبعث والجزاء استبعاداً للقدرة عليه ويكفر بمحمد ص وبكون القرآن من الله ويكفر بالملائكة على معناهم الحقيقي، ويزعم أن إبراهيم كان مشركاً، ولا يؤمن بالرسل ولا بالكتب، وهم من أهل الجاهلية من العرب الذين ليس لهم كتاب وأشباههم من العجم.

﴿١٣٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال المرتضى × : هؤلاء قوم ممن آمن مع النبي ص رجعوا إلى قريش وارتدوا عن الإسلام، ثم رجعوا ثم آمنوا ثانية، فرجعوا إلى الكفر فازدادوا فيه ومضوا عليه.

فأخبر الله أنهم حين ازدادوا كفراً ثم مضوا على ذلك، أن الله لا يغفر لهم ولا يهديهم سبيلاً، بل تركهم من التوفيق والتسديد والعون والتأييد،

﴿١٣٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا

وحكم عليهم سبحانه عند ذلك بالهلكة والخذلان، بما استوجبوه من تركهم للحق والإيمان، فصاروا بذلك معذبين ولديه سبحانه من الهالكين، فأخبر سبحانه أن لم ينفعهم ما كان من إيمانهم أولاً وما كانوا عليه في إسلامهم؛ لأن ما ختموا به أعمالهم من الردة والكفر موجب لهم النار..)) إلخ.

وقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ فيه تأكيد بقوله تعالى: ﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ﴾ ودلالة على أنه لا يليق بعظمته وجلاله وعزته وحكمته أن يغفر لهم، ونظير هذا التعبير للتأكيد قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر:٣٣].

﴿١٣٨﴾ ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿بَشِّرِ﴾ تهكم بهم لأن البشرى الحقيقية ما كان إعلاماً بالخير، والمنافقين: قيل هم الذين أبطنوا الكفر وأظهروا الإسلام.

والراجح: ما قاله الناصر × واحتج له في (البساط): أنهم الذين يتولون الكفار سراً ويظهرون الإسلام، سواء أضمروا الكفر أم كانوا مقرين في أنفسهم غير مؤمنين ولا جاحدين؛ لأن مفهوم النفاق اتخاذ الوجهين لإرضاء الفريقين، ولكن بعض المنافقين كفروا ولكن ذلك خارج عن مفهوم النفاق، ويظهر أن الله تعالى قد فسره عقيب هذا الوعيد بقوله تعالى:

﴿١٣٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كما أفاده قوله تعالى في آخر الآيات الآتية في زجر المنافقين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾.

وقوله تعالى في (سورة الحشر): ﴿..أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ..﴾ الآية [آية:١١] ففسر نفاقهم بهذا القول، ويدل على أن بعض المنافقين لم يكونوا كافرين وإن كانوا في حكمهم بسبب النفاق، يدل على ذلك قوله تعالى في بعض المنافقين: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران:١٦٧] انظر (البساط) للإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش × وقد طبع والحمد لله.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾ سؤال تبكيت للمنافقين، وبيان لغلطهم؛ لأن الباعث لبعضهم أو كلهم هو الخوف من غلبة الكفار للمؤمنين، والمنافقون لجهلهم وعدم الإيمان في قلوبهم ينظرون إلى كثرة الكفار وقوتهم من الناحية المادية، فهم أكثر سلاحاً وآلة حرب وأكثر أموالاً، فلاعتقادهم الراجح أن الغلبة ستكون للكفار سارعوا إلى اتخاذهم أولياء خشية أن تصيبهم دائرة، ولكنهم مع ذلك يرون قوة المؤمنين بإيمانهم فلا يجزمون أنهم سيغلبون؛ لأنهم قد انتصروا في بدر مع قلتهم وقلة خيلهم ومالهم.

فلذلك اختار أعداء الله الذين في قلوبهم مرض اختاروا لأنفسهم إظهار الإسلام للمسلمين واتخاذ الكفار ﴿أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كما قال الله تعالى: ﴿قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦] وأدَّاهم الْفَرَق مع عدم الإيمان إلى اختيار النفاق، فرد الله عليهم بأن الغلبة ستكون للمؤمنين؛ لأن ﴿ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وهذا واضح لا ينفيه المنافقون، فكيف لا يرجحون أن النصر يكون لأولياء الله الدعاة إلى عبادته وحده، ولعل ذلك لأنهم لا يوقنون بأنهم أولياء الله الدعاة إلى دينه لعدم الإيمان في قلوبهم، فنظروا إلى ظاهر الحال فاستحقوا التوبيخ لجهلهم، بأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ

﴿١٤٠﴾ ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ هذا خطاب للمؤمنين أو لهم ولكل من قد أسلم ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا﴾ أي إذا سمعتم ذكرها والكفر بها والاستهزاء بها وأصل الكلام: آياتُ الله يُكْفَر بها ويُستهزَأ بها مبتدأ وخبر، فنسخه ﴿سَمِعْتُمْ﴾ مفعولين بهما لـ(سمعتم) على طريقة (ظن وأخواتها) في نسخ المبتدأ والخبر، وقد عد صاحب الأجرومية (سمعت) من أخوات (ظننت) وهو واضح هنا.

والمنزل قوله تعالى في (سورة الأنعام): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ..﴾ الآية [آية:٦٨] وفي مجموع الآيتين دلالة على: أن خطاب الرسول ص في مثل هذا يكون حكمه عاماً له ولأمته إلا ما خصه دليل ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ إذاً إذا قعدتم معهم وأنتم تسمعونهم يكفرون بآيات الله ويستهزئون بها مثلهم في الإثم، وهذا يكفي في الزجر عن ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ لأن المنافقين يسمعون الكفار يكفرون بآيات الله فاجتمعوا في الدنيا على الإثم وفي الآخرة في العقاب، وهذا يؤكد أن معنى ﴿مِّثْلُهُمْ﴾ هو مثلهم في العقاب.

نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا

﴿١٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ ينتظرون بكم الدوائر؛ لأنهم يتوقعون أن يغلبكم الكفار، وقوله تعالى: ﴿بِكُمْ﴾ يُفهَمُ منه أنهم خائفون منكم أو كارهون لكم ويصبرون على ذلك لتوقعهم ذهابكم، وهم المنافقون يجاملون المسلمين ويبقون معهم تربصاً به الدوائر ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لم يرجعوا عن نفاقهم بل يستمرون فيه؛ فلذلك ﴿قَالُوٓاْ﴾ لكم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي أنا معكم، ما زلنا على دينكم فقد عرفتم ذلك منا من قبل اليوم وهذا لخوفهم من المؤمنين؛ لأنهم لم يتبعوا سبيل المؤمنين ويكونوا مثلهم في المحافظة على الجماعة والامتثال لأوامر الرسول ص.

ومع ذلك قد نافقوا فهم يخافون أن يعتبرهم المؤمنون كافرين غير مقبول منهم دعوى الإسلام، وهذا حين رأوا قوّة المسلمين ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿نَصِيبٌ﴾ بأن حصلت لهم فيكم وقعة مؤلمة لكم؛ لأن الحرب سجال تتقلب فيه الحال لتقلب أحوال المسلمين كما كان (يوم أحد) وفي أول (وقعة حنين) ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ للكافرين تقرباً إليهم وتحبباً لديهم لزيادة أملهم في أن الغلبة والقوة لهم: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ نسيطر عليكم في الرأي ونغلبكم في التدبير ﴿وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من أن تكونوا معهم، فاحتجوا بأمرين على صدقهم في أنهم مع الكفار:

الأمر الأول: الاستحواذ عليهم وغلبتهم في الرأي حتى حصلوا على النصيب بسبب رأي المنافقين وتدبيرهم، ويظهر: أن المنافقين كانوا زينوا للكفار حرب المسلمين ومنّوهم أنهم يغلبون المسلمين، وغلبوهم بهذا الرأي حتى قاتلوا المسلمين، فادعى المنافقون أن هذا بسبب رأيهم لهم في القتال.

الأمر الثاني: منعهم لهم أن يكونوا مع المؤمنين أي تحذيرهم من الإسلام، فهو دليل ثان على صدق المنافقين في أنهم مع الكفار، وأنهم غير جادِّين في إظهار الإسلام، وهذا حين رأوا قوة الكفار وتقوى أملهم في أن العاقبة للكفار، هذا على فرض أن المنافقين حرضوا الكفار على حرب المسلمين، فإن لم يكونوا فعلوا فالمعنى نسيطر عليكم في المنع من الإسلام، فهي في المعنى قضية واحدة أرادوا سيطرنا عليكم بالرأي والتدبير لكثرة تحذيركم من الإسلام حتى منعناكم فالمنع نتيجة التحذير.

والحاصل: أنهم أرادوا التقرب إلى الكفار كما صنعوا مع المسلمين حين كانت القوة لهم؛ لأنهم قوم يَفْرَقون ويخشون أن تصيبهم دائرة بأن يقتلهم الكفار إذا حاربوا المسلمين وغلبوهم في ظنهم وتوقعهم.

﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلاً﴾ ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ بين الفئات الثلاث: المؤمنين، والكافرين، والمنافقين ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلاً﴾ يغلبونهم بها ويقهرونهم ويضيع الإسلام، بل قد أراد إظهاره على الدين كله.

فهذا رد على تربص المنافقين بالمؤمنين دائرة السوء، وبيان: أنهم يتوقعون ما لن يكون، ويحتمل: أن المراد في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا لا يزال النصر لأوليائه الناصرين له، وفي الآخرة لا يكون لهم عند المحاكمة حجة على

قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن

المؤمنين؛ لأن المؤمنين قاتلوهم بأمر الله وأذنه، والكفار قاتلوا المؤمنين ظلماً وعدواناً، فالحجة للمؤمنين، ولن يُجعل للكفار سبيل يجادلون بها وتكون لهم بها الحجة على المؤمنين، وهذا هو الراجح حملها على المعنيين.

وقد يشكل على المعنى الأول غلبة الكفار للمسلمين في هذا العصر؟!

والجواب: أنهم لن يغلبوا المسلمين غلبة عامة للمسلمين وإن غلبوهم في قُطْر فذلك لا يضيع به الإسلام، مع أن ذلك يكون السبب فيه من المسلمين، كما قال تعالى: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥] فحزب الله هم الغالبون فما دام المؤمنون الصادقون في الإيمان حزباً وجنداً كما كانوا في عهد الرسول ص فلن يغلبوا، أما إذا اختلفوا وتنازعوا وعصوا فاستحقوا الخذلان، فقد أنذرهم ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

﴿١٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ يخادعون رسوله والمؤمنين ويحلفون على الكذب ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون:١] ولما كانوا مخادعين لرسول الله ص الذي بلغ دين الله ودعا إلى الله كان خداعهم له مكراً بدين الله فاعتبر خداعاً لله.

ويحتمل: أنهم استعملوا هذا الخداع وظنوا أنه ينفعهم في الدنيا وأن الله يتركهم لا يكشف أمرهم فاعتبروا مخادعين لله بهذا المعنى ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ وهو غالبهم في الخداع؛ لأنه ينعم عليهم بالأموال والأولاد، كأنه لا يعاقبهم على نفاقهم ومع ذلك يمهلهم ويملي لهم، وهم لا محالة صائرون إلى الدرك

الأسفل من النار فأشبه هذا فعل المخادع الغالب، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أو هو على طريقة المشاكلة، والمعنى وهو غالبهم بأمره في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ لأنه لا دافع لهم إليها إلا الخوف من الناس؛ لأنهم لا يخافون العقاب من الله، ولا يرجون الثواب، ولا يحبون عبادة الله وذكره، ولا يرغبون في التقرب إليه ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يريدون أن يراهم الناس عند قيامهم إلى الصلاة ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ في الصلاة إلا قليلاً، أو ولا يذكرون الله لا في الصلاة ولا في غيرها.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي ﴿إِلَّا﴾ ذكراً ﴿قَلِيلٗا﴾ فهم يذكرونه قليلاً؛ لأنهم مقرون بالله، فاجتمعت صفات المنافقين:

الأولى: ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الثانية: يتربصون بالمؤمنين الدوائر.

الثالثة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

الرابعة: ﴿إِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

فأما قوله تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ فيحتمل: أنها في الصلاة، فتكون صفات لصلاتهم: كسالى، يراءون، ولا يذكرون الله في الصلاة ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فيكون مجموع الثلاث هذه صفة واحدة.

ويحتمل أن قوله: ﴿يُرَآءُونَ﴾ غير خاص بالصلاة فهو صفة للمنافقين مستقلة، وقوله: ولا يذكر الله كذلك، والمعنى متقارب؛ لأن المرائي بصلاته يرائي بغيرها، ومن لا يذكر الله في الصلاة إلا قليلاً، فغيرها بالأولى أن لا يذكر الله فيه.

تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ

﴿١٤٣﴾ ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ قال في (الكشاف): ((وحقيقة المذبذب: الذي يُذَبُّ عن كِلا الجانبين، أي يذاد ويدفع، فلا يقرّ في جانب واحد، كما قيل: فلان يرمي به الرحوان، إلا أن الذبذبة فيها تكرير ليس في الذبّ، كأن المعنى: كلما مال إلى جانب ذب عنه)) انتهى.

فالمنافق على هذا مدفوع ليس له قبول عند المؤمنين ولا عند الكافرين؛ لأنه ذليل خائف لا يعتز به الكفار فيرغبوا فيه؛ لأنهم لا يصدقونه في دعواه أنه معهم، والمؤمنون يعرفونه بعلاماته، فليس له قبول باسم مؤمن.

﴿لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ لا إلى المؤمنين ينضمُّون ويرجعون، ولا إلى الكفار؛ لأنهم غير مؤمنين بقلوبهم ولا كفار ينطقون بالكفر صراحة وهذا في أول أمرهم، وقد صرح بعضهم بالكفر عند تطوره في الباطل، قال تعالى فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة:٧٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ ومن يخذله ويسلبه التوفيق لكثرة معاصيه واستمراره على الإصرار أو لعناده بعدما تبين له الحق، والإضلال في اللغة: التسبيب للضلال ولو بالحق، كما قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى في (سورة المدثر): ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [آية:٣١] فالفاسق يضل بالحق

لأنه يجعله سبباً لضلاله، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٥] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً﴾ تشبيه له بمن هو تائه في قفر بعيد من الطريق وليس حوله طريق يهتدي بها، وذلك لأن المنافق قد كره الحق وتزين له النفاق فلا تؤثر فيه موعظة مع قسوة قلبه وعدم الإيمان في قلبه ولا ينفع استدلال ولا احتجاج؛ لأن ذلك من كتاب الله أو كلام رسول الله عن الله وهو غير مؤمن بذلك فانسدت الطريق إلى هدايته؛ لأنه لا يفكر ولا يستعمل عقله بل لا يزال معرضاً إتباعاً لهواه في النفاق فهو بسبب إعراضه وانصرافه عن قبول الحق والإيمان به، كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:١٨].

فالإضلال هنا: التسبيب للضلال بالسبب الحق الذي ليس سبباً يؤدي إلى الضلال لا محالة وإنما هو سبب في حق الفاسق لأنه يجعله سبباً للضلال باختياره فخذل وولاه الله ما تولى عقوبة له، وقد حقق هذا الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) وبيَّن: أن الإضلال يكون عقوبة.

فأما الإضلال بمعنى خلق الضلال فليس معروفاً في لغة العرب؛ لأن المعروف الإضلال عن الطريق ولا يكون في العادة إلا بالتسبيب ولا يفهمون الإضلال بمعنى خلق الضلال، وكذلك الإضلال بالتسبيب لغير ذنب يستحق به وبسبب يؤدي إلى الضلال، حتى ولو وقع لمؤمن فهذا لا تجوز نسبته إلى الله تعالى؛ لأنه حكيم غني كريم رءوف رحيم لا يظلم العباد، ولا يحب الفساد، وليس في القرآن ذكر لهذا التسبيب إنما فيه إثبات العقوبة وهي

فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

لا تكون إلا بالحق كبسط النعمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] وهذه من المتشابه، إلا أنها قد أفادت المقصود هنا، وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧] وغير ذلك كثير.

﴿١٤٤-١٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا * إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ لما تم بيان صفات المنافقين المبشَّرين بالنار حذَّر من قد آمن كلهم من طريقة المنافقين، وبيَّن لهم عظم جريمتهم وشناعتهم ببيان ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وكفى بذلك تحذيراً من النفاق، وفي هذا دلالة واضحة أن حقيقة النفاق اتخاذ من قد آمن الكافرين أولياء من دون المؤمنين، ولكن من كان كذلك فإنه يفعل ما حكى الله عنهم من صفاتهم المذكورة فيما مر.

وقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا﴾ أي تجعلوا له حقاً في تعذيبكم، أو تجعلوا له عليكم سبباً في تعذيبكم، فالمراد سلطان الحكمة، فأما سلطان القدرة فهو حاصل، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينًا﴾ أي بيِّناً واضحاً، وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلدَّرۡكِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فجهنم أدراك: معناه: منازل وأطباق)) انتهى المراد.

وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ

وفي (الصحاح): ((ودركات النار: منازل أهلها، والنار دركات، والجنة درجات والقعر الآخر درْك ودرَك)) انتهى، وهذا لا يدل على أن كفار الجحود ليسوا في الدرك الأسفل، وقد قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥] والسياق في كافر النعم، ويمكن أن الدرك الأسفل وادٍ في سواء الجحيم فيكون أسفل مِن سَواءِها ـ والله أعلم.

﴿١٤٦﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما توعد الله المنافقين بالعذاب الأليم وبالدرك الأسفل من النار، بيَّن لهم أن باب التوبة في هذه الحياة وفي مدة الاختيار مفتوح لمن تاب وأصلح ما قد أفسد في نفاقه، واعتصم بالله فرفض ولاية الكفار، واستغنى بحفظ الله لأوليائه ونصره لهم وهو الاعتصام به ﴿وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ فرفضوا الرياء ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ التائبون أهل الصفات الثلاث ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في الآخرة كما هم معهم في الدنيا ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يوم القيامة وقد بينه في غيره هذه الآية.

﴿١٤٧﴾ ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ وهذا تأكيد للوعد بقبول التوبة، وبيان أن التوبة لا تتم بدون الإيمان والشكر، وتنبيه على كرم الله وسعة رحمته حيث يشكر عبده الشاكر لنعمته، ودلالة على علمه بتوبة من تاب وإيمان من آمن وشكر من شكر وبكل شيء.

بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿١٤٨﴾ ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿ٱلۡجَهۡرَ﴾ رفع الصوت بالكلام، والسوء من القول: يعم كلمة الكفر ونحوها مما يقوله المكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ويعم الشكوى من الظالم، ويعم السوء من القول كلام الكفر وغيره من الباطل، والغيبة، والنميمة، والتقرير على الباطل بقول القائل أصاب أو أحسن أو نحو ذلك، وكان ﴿سَمِيعًا﴾ للقول كله وما هو مستثنى وما ليس بمستثنى ﴿عَلِيمًا﴾ بالعذر وبعدم العذر أي أنه لا عذر، و ﴿سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ لكل قول وبكل شيء.

﴿١٤٩﴾ ﴿إِن تُبۡدُواْ خَيۡرًا أَوۡ تُخۡفُوهُ أَوۡ تَعۡفُواْ عَن سُوٓءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرًا﴾ هذا في إظهار الخير ضد الجهر بالسوء وفي إخفاء الخير، وهو يفيد الترخيص في ذلك حيث لا يعلم سبب إثم، وترغيب في العفو بالدلالة على أنه محمود؛ لأن من صفات الله تعالى أنه عفو قدير، فهو يعفو مع القدرة على الانتقام.

وفي الآية هذه إشارة إلى أن إبداء الخير وإخفائه يشملهما العفو من الله؛ ولعل السبب أن إبداء الخير قد يكون فضولاً من القول ليس شكراً لنعمة ولا ذكراً لقدوة، والإخفاء قد يكون تقصيراً في كلام ينبغي أن يقال؛ لأنه شكر نعمة وليس المقصود به كتمانها فيكون غير معفو والمعفو ما لم يتعمد فيه معصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] فما كان خطأً وزل فيه صاحبه فهو معفو سواء كان أبدأ أم أخفى.

يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ

وأما النطق بالعفو عن السوء، فهو داخل في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ﴾ قال في (الصحاح): ((وعفوت عن ذنبه إذا تركته ولم تعاقبه)) انتهى، وقال الراغب في (المفرادات): ((وقولهم في الدعاء: أسألكم العفو والعافية، أي ترك العقوبة، والسلامة)) انتهى.

﴿١٥٠-١٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ ﴿يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ يتكرر منهم الكفر بالله مرة بعد مرة مثل حين عبدوا العجل فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي، ومثل حين شبهوه بخلقه وغير ذلك من كلامهم في الله بما هو كفر به ورسله، يتكرر منهم الكفر بالرسل بتكذيبهم في دعوى الرسالة جملة أو في بعض ما جاؤوا به، يتكرر منهم ذلك المرة بعد المرة، كجدالهم في طالوت بقولهم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢٤٧] ومثل حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] وهذا رد لخبره.

وقد دل على جراءتهم في تكذيب الرسل قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧] ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ بأن يردوا ما تأتي به الرسل ويزعموا أن حكم الله غيره.

ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ

فإذا قيل: حكم الرسول بكذا، قالوا: هذا قاله من تلقاء نفسه وحكم الله خلافه ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ من الرسل ومما أنزل الله كقوله: ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ [البقرة:٩١].

﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ بين الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه والكفر بذلك ﴿سَبِيلاً﴾ طريقة وديناً ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ هم الكافرون بحقيقتهم و ﴿حَقًّا﴾ إنهم عين الكافرين وإن سبيلهم هو الكفر بعينه؛ لأن إيمانهم غير صحيح بما آمنوا به ولا مقبول فهم كفار خلص، وقد رد الله عليهم دعواهم الإيمان بقوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] فقد عبدوا العجل وعصوا موسى، فقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤] ودخلوا الباب على خلاف ما أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ..﴾ [آية:٥٨] ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا..﴾ [آية:٥٩] راجع (سورة البقرة).

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أعتدنا للكافرين عموماً وهؤلاء قد دخلوا في العموم؛ لأنهم الكافرون حقاً فقد أعدلهم عذاباً مهيناً مُذِلاً محقِّراً مناسِباً لتكبرهم.

﴿١٥٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ..﴾ إلى آخر الآية [البقرة:٢٨٥] ومن اتبع الرسول ص ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿١٥٣﴾

﴿وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ﴾ قال في (المصابيح): «و﴿أَحَدٖ﴾ يستعمل في الواحد المذكر والمؤنث والمثنى والمجموع منهما» انتهى، ومثله في (الكشاف) و (مفردات الراغب الأصفهاني) وفي (المفردات) تفصيل جيد.

﴿أُجُورَهُمۡ﴾ ثواب كل منهم بقدر ما يستحق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ فلا يمنعهم ثوابهم لما يصدر من زلات غير متعمدة، أو لم يصروا عليها كما مرَّ في صفة المتقين، وهذا فارق بينهم وبين عصاة أهل الكتاب المصرِّين على الكبائر الراضين بما سلف من أوائلهم، فكانت معاصيهم مضادة للإيمان، دالة على أنهم غير صادقين في دعوى الإيمان.

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡ﴾ ﴿أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا﴾ يخصهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ولعلهم أرادوا أن ترقى في السماء وتنزل عليهم بنفسك كتاباً يتضمن إثبات نبوتك غير القرآن، لأن القرآن قد كفى لو أنصفوا، لكن للتعنت سألوا كتاباً ينزل عليهم إما بأسمائهم يقول: إلى فلان وفلان وفلان اتبعوا محمداً فإني أرسلته، وإما أن ينزل بالكتاب محمد إليهم خاصة، فيبلغهم عن الله أن محمداً نبي ﴿فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ فهم أهل التعنت وهو عادتهم فلا تبال بهم يا محمد.

قال الشرفي / : ((ومعنى ﴿جَهْرَةً﴾ أن يريهم الله معاينة ومشاهدة)) انتهى. وقال الراغب في (المفردات): ((جهر، يقال لظهور الشيء بإفراط حاسة البصر أو حاسة السمع)) انتهى.

فعلى هذا: طلبوا معاينة جلية واضحة وهذا أظهر ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ في طلب المحال وطمعهم فيه وجهلهم بالله حيث ظنوا انه من المواد التي ترى، وجهلهم، هكذا قد سبقه جهلهم حين قالوا: ﴿**يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٣٨].

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للترقِّي إلى ذكر جهالة أعظم وأبشع وأقبح من طلب الرؤية، وهي (اتخاذهم العجل) الذي ادعوا أنه إله موسى ولم يكتفوا بالشرك كقول الشاعر:

يرى غمرات الموت ثم يزورها

ويحتمل: أن اتخاذ العجل كان من أهله بعد أن أخذت الصاعقة الذين طلبوا الرؤية، فتكون ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الوقوع، والأول أظهر عندي؛ لأن المتخذين للعجل غير الذين طلبوا الرؤية، وإنما جمعهم التراضي بطلب إله من جنس آلهة المشركين كما شاركهم الآخرون بالرضا فشاركوهم ونسب إلى الجملة، فحَمل ﴿ثُمَّ﴾ على الترقي في المعنى أظهر؛ لأن اتخاذ العجل ليس انتقالاً من طلب الرؤية، بل بعضهم طلب الرؤية وكانوا مع موسى في الميقات أربعين ليلة، وبعضهم اتخذ العجل وكانوا مع هارون خلفه موسى عليهم حين ذهب للميقات، وفي (سورة البقرة): ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ..**﴾ [آية:٥١].

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ

﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أن ذلك منكر وباطل، حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف:١٣٩] و﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ الدالة على خالق السموات والأرض، القادر على كل شيء، كفلق البحر لموسى ومن معه وجعله فيه طريقاً يبساً، وإنجائهم من فرعون وقومه، وإغراق فرعون ومن معه بنفس البحر الذي انفلق لموسى ومن معه، وآيات الله لا تحصى.

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ حين تابوا أو عفونا حين وصل موسى ونسف العجل فلم يعاجلهم الله بالعذاب، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ..﴾ الآية [الكهف:٥٨].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا﴾ قوة وهيبة لأجلها انقادوا له حين رجع إليهم ونسف العجل في البحر، وكذلك آتاه الله سلطاناً حين طلبوا الرؤية فأخذهم بالصاعقة، وهذا يدل على أن موسى لم يطلبها طمعاً فيها، ولكن لإقناع قومه بما يكون من الله بسبب الطلب.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ حقق معناه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف:١٧١] ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ على قبول التوراة بقوة وجدّ وصبر وعزم صادق على اتباعها، كما قال تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ..﴾ الآية [البقرة:٦٣].

وقال (صاحب الكشاف): ((﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾ بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه)) انتهى. ولا يبعد أن (الباء) للمصاحبة، وأنهم أعطوا الميثاق حين ظنوا أنه واقع بهم، أو أن رفعنا فوقهم الطور مضمَّن معنى أمرناهم وكلفناهم؛ لأن رفع الطور فوقهم بعثهم على الميثاق ـ والله أعلم.

وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ

والمقصود: أن تخويفهم بهذه الآية بعثهم على العهد، إما باختيارهم بسبب الخوف؛ لأنهم لم ينذروا بوقوعه إن لم يعاهدوا ولكن خافوا فعاهدوا فلم يكن اضطراراً، وهذا أظهر، وإما أنهم أكرهوا على العهد ليحذروا في المستقبل وقوع مثل ذلك التخويف والاضطرار إلى العهد.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ ﴿سُجَّدًا﴾ بمعنى خاضعين لله، قال الشرفي / في (المصابيح): ((عن الحسين بن القاسم × : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] أي ادخلوا الباب خشعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار والخشية لله الواحد الجبار، ولم يرد في هذا الموضع سجودا على الوجوه وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك روينا عن أئمتنا وسلفنا﴾)) انتهى من تفسير (سورة الأعراف).

وحكى الشرفي عن المرتضى × مثله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [آية: ١٠٦] آخر (سورة الأعراف).

﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ ﴿لا تعَدّوا﴾ أي لا تعتدوا ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ باصطياد الحيتان أو غيره مما هو محرم في السبت في دينهم ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ على أن لا يعتدوا في السبت، أو على ذلك وغيره، والأقرب: أنه ميثاق خاص بالسبت غلظ حرمة السبت.

﴿١٥٥﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ (الباء) سببيه أي بسبب نقضهم لميثاقهم ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ التي يأتي بها الأنبياء الذين كذبوهم.

مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ

﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ﴿بِغَيْرِ﴾ استحقاق للقصاص مثلاً، وقتل الأنبياء لا يكون بحق، ولكن فيه إشارة إلى أن المكلفين سواءٌ أمام العدل لا هوادة ولا لين لأحد، فيفيد: أن الأنبياء لو قَتَلُوا بغير حق لاستحقوا القصاص، فكذلك من قتلهم بغير حق في أن ذلك جريمة عظيمة.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي لا نفهم ما جاء به النبي من الأنبياء الذين كذبوهم أو قتلوهم، أو ما جاء به خاتمهم ص و﴿غُلْفٌ﴾ جمع أغلف أي مغطى بغلاف ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا﴾ فهم يفهمون، ولكن قلوبهم لا تقبل الحق، فكأن عليها طبع وختم يمنع دخول الإيمان إليها ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من الإيمان.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((ذَمٌّ لهم بأن جعلها كالمطبوع عليها التي لا تفلح أبداً، أي خذلها وسلبها الألطاف؛ بسبب كفرهم، وفعل الكفر يوجب العقاب، فبان أن الطبع والختم إنما هو على وجه العقوبة)) انتهى المراد.

وفي إسناد ذلك الطبع إلى الله تعالى وفوائده وكذلك وجه صحة النسبة للمانع من الإيمان إلى الله، كلام قد مر مفصلاً عند تفسير قول الله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [آية:٧] من (سورة البقرة) فراجع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ معطوف على نقضهم.

﴿١٥٦﴾ ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ هذا عطف على ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾ وكفرهم؛ لعله هنا كفرهم بعيسى وبالآيات التي جاءهم بها، ويحتمل: العموم لهذا ولكفرهم بأنبياء غيره مثل سليمان، كما قال تعالى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ

والبهتان العظيم: رميها بالفاحشة مع أن الله قد برأها من ذلك، ومع بعدها من ذلك القبيح ونزاهتها الكاملة ومع فضلها وعلو شأنها في الدين، ومع أن غرضهم برميها فيما بعد ظهور الآيات جحد الآيات والتكذيب بخلق الله لعيسى من غير أب والتكذيب بكونه رسولاً من الله والتكذيب بآيات الله التي جاء بها، فتظاهرت أسباب قبح رميها بالفاحشة.

قال الراغب الأصفهاني في تفسير (البهتان): ((أي كذب يبهت سامعه لفظاعته ـ وقال أيضاً في تفسير: بُهت ـ : أي دهِش وتَحيَّر)) انتهى.

﴿١٥٧-١٥٨﴾ ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾

﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ عطف على ﴿نَقْضِهِمْ﴾ وهذا القول جريمة مع كونه كذباً؛ لأنهم افتخروا بما يدعونه وهو منكر عظيم لو كان والجمع بين الأسماء لتحقيق أنه المقصود بالافتخار بقتله، وهذه جرأة منهم عظيمة، ودليل على عناد شديد، و﴿ٱلْمَسِيحَ﴾ و ﴿عِيسَى﴾ اسمان مترادفان و﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ وصف محقق لدفع استبعاد أن يكون هو المقصود، وللدلالة على أنهم لم يبالوا بكونه رسول الله.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ الصلب: تعليق الإنسان على خشبة أو نحوها مشدود إليها، قال الشرفي / في (المصابيح) ــ حاكياً عن المرتضى محمد بن الهادي إلى الحق إ ، وهو المراد أينما ذكره في (المصابيح) ـ قال: ((أراد الله سبحانه بذلك عيسى صلوات الله عليه لما أخذه الظالمون ليهلكوه وسجنوه في البيت لقتلوه [كذا والصواب: ليقتلوه] فسلمه الله من كيدهم ودفع عنه ما هموا به من عظيم كفرهم، وألبس الكافر الذي يحرسه

شبه عيسى في صورته وخلقه فلم يفرقوا عند ذلك بينه وبين عيسى × في شيء من أمره فلما أن نهضوا لقتل عيسى ـ صلى الله عليه ـ وجدوا صاحبهم في مكانه فقتلوه ولم يشكوا فيه عندما عاينوه أنه عيسى ـ صلى الله عليه ـ فأخبرهم ـ عزَّ وجل ـ عنه، فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ثم رفعه الله عنهم، وأخرجه من بينهم سالماً مسلّماً)) انتهى.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا * بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أهل الكتاب الكافر برسالته والمدعي لإلهيته، والمدعى أنه ابن الله كلهم في ﴿شَكٍّ مِّنْهُ﴾ وإن ادعوا أنه قتل وصلب فهم مترددون في ذلك، والشك التردد في الشيء تردداً متساوياً أو راجحاً ومرجوحاً فيسمى شكاً باعتبار التردد وعدم العلم، ولذلك يعبر عن العلم بنفي الشك فتقول هذا الأمر واقع لا شك فيه.

قال في (الصحاح): ((الشك خلاف اليقين)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((الشك نقيض اليقين)) انتهى، وفي (القاموس): ((الشك: خلاف اليقين انتهى.

فقوله تعالى: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ إثباتٌ لترددهم في قتله وصلبه، ثم قال تعالى تصريحاً بعدم علمهم بذلك فقال: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ فهو تأكيد لإثبات الشك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ أي لكن اتباع الظن زعموا أنهم قتلوه في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ﴾ والظن اعتقاد راجح مع بقاء التردد، فهم اتبعوا الظن في دعوى قتله بسبب أنه شبه لهم فظنوا أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي وما تيقنوا أنهم قتلوه هذا حاصل المعنى.

قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾

فكأنه قيل: وما قتلوه قتلاً يقيناً، أي متيقناً ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ كما مر في (سورة آل عمران) ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ فرفْع عيسى لم يكن لقوة أعدائه؛ لأن الله لو شاء أهلكهم في لحظة، ولكن اقتضت حكمته رفعه فرفعه مع عزته وحكمته، ومن العجيب دعواهم أنه إله، مع أنهم يقولون: إنه قتل وصلب، ويحملون صورة الصليب ويتبركون بها في ملابسهم، وذلك دليل على أنهم أهملوا عقولهم.

﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦ﴾ وما من أحد إلا ليؤمنن به أي بعيسى × قبل موته.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ بكذبهم في دعواهم قتله وصلبه، وهذا لا ينافي قوله تعالى حاكيا عن عيسى × : ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡ﴾ [المائدة:١١٧]؛ لأن هذه الشهادة العامة بما فعلوا وهو حاضر فيهم مشاهد لهم، أما هذه الخاصة بتكذيبهم فيما افتخروا به من قتله وصلبه فإنها جارية مجرى الشهادة بالمحسوس من حيث أنه عالم أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، فصح أن يشهد على المدعين لقتله وصلبه بكذبهم، وعلى سائر أهل الكتاب الذين أطبقوا على أنه قتل وصلب.

وقد دل سياق هذه الآيات: على قبح هذه المقالة، ولعل السبب أن أصلها من أعدائه الذين افتخروا بها فأخذها النصارى بجهالة؛ لأنها تنفي كرامة الله لرسوله بمجرد قول أعدائه الظالمين الذين شبّه لهم أو اتّباع الظن مثلهم.

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ

ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ على أهل الكتاب بجميع أفعالهم لكنها خاصة بمن كان فيهم قبل أن يتوفاه الله.

﴿١٦٠﴾ ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ أي فبذلك المذكور من أول الآيات من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ قال في (الكشاف): ((بدل من قوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ﴾)) انتهى.

فهو كالإعادة للتعليل، وفيه زيادة فائدة: أن هذه الأشياء كانت علة للتحريم؛ لكونها ظلماً عظيماً؛ ولعلهم أنفوا من تحريم ما حرم الله عليهم عقوبة لهم فكان، ذلك سبباً لتعداد جرائمهم التي كانت سبباً لتحريم طيبات.

ثم عطف على ذلك ذكر أسباب أخر، فقال تعالى: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (صدهم): منعهم عن سبيل الله عن دينه كثيراً من الناس، أوصداً كثيراً، وذلك نحو صدهم عن الإيمان بعيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما وآل محمد ـ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : دلت على تحريم الاحتجاج بالشُّبَهِ المضلة؛ لأنها صد عن سبيل الله)) انتهى.

﴿١٦١﴾ ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ عطف على الأسباب للتحريم المذكور، وفيها دلالة على أن النهي يكفي لإفادة التحريم، وقيام الحجة على المخالف له ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ عطف على أسباب التحريم المذكورة أي حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم بصدهم وأخذهم وأكلهم،

يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ

والباطل ضروب: منها: الربا، وقد خص بالذكر لزيادة في قبحه وعاره، ومنها: الرشوة، وأجرة السحر، وأجرة الكهانة، وأجرة تحريف الكتاب، ونسبة ما ليس منه إليه، كما مر في قول الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطف على حرمنا عليهم وخص الكافرين بالذكر لبيان أن السبب كفرهم لنعم الله وكفرهم بآيات الله لا كونهم يهوداً، وليخرج من آمن منهم كما يأتي في قوله تعالى:

﴿١٦٢﴾ ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ..﴾ إلى آخره الخبر.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال في كتاب (إعراب القرآن): ((الواو معترضة، و(المقيمين) نصب على المدح، بإضمار فعل لبيان فضل الصلاة على ما قاله سيبويه وغيره، والتقدير: أعنى أو أَخُصُّ المقيمين الصلاة، الذين يؤدونها على وجه الكمال، فإنهم أجدر المؤمنين بالرسوخ في الإيمان، والنصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة هاهنا: هي ما ذكرنا آنفا من مزيه الصلاة، على أن تغيير الإعراب في كلمة بين أمثالها ينبه الذهن إلى وجوب التأمل فيها، ويهدي التفكير لاستخراج مزيتها، وهو من أركان البلاغة)) انتهى.

بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا

وقد مر في (سورة البقرة) نظيره في الصبر في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:١٧٧] ولعل تخصيص إقامة الصلاة لما فيها من الخشوع المعين على امتثال أمر الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [آية:٤٥] وهي في (البقرة) في (بني إسرائيل) في سياق دعوتهم إلى الإيمان بما أنزل الله على محمد ص وقد أمر الله (بني إسرائيل) أن يستعينوا بالصبر والصلاة، فتخصيص ﴿ٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لمزيد فائدتها في حق أهل الكتاب الذين يصعب عليهم الدخول في الإسلام والإيمان إلا الخاشعين لله.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ كذلك تخصيص لما قد شمله اسم الإيمان، وفائدته التنبيه على الخروج من عقائد اليهود في الله مع دعواهم الإيمان به كالتشبيه ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ خُصَّ مع أنه قد دخل في الإيمان ليحقق إيمانهم على ما يقتضيه الإيمان بالقرآن، لا على عقائدهم السابقة في أمور الثواب والعقاب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ لإيمانهم وعملهم الصالح، وهو ثواب الآخرة في جنات النعيم.

﴿١٦٣﴾ ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ (إنَّ) فيها دلالة على العظمة لله، فهي تشير إلى استناد الوحي إلى عظمة الله وجلاله وحكمته وفضله ورحمته وعزته ﴿كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ دلالة على أنها سنة الله في الأولين والآخرين، فلا عجب أن يوحي إليك، ودلالة على أنه وحي نبوة مثل وحي نبوتهم.

قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ

وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ يحتمل: العطف على ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ فيكون المعنى: وكما أوحينا، ويحتمل: أنه عطف على أوحينا إليك، وحاصل المعنى واحد. ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ قيل: يوسف وإخوته أسباط إسرائيل، والسِّبط، قال الراغب فيه في (المفردات): ((ولد الولد)) انتهى.

وقال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٠] سميت ذرية كل سبط باسمه، وهو استعمال شائع، مثل عاد لذريته، وقال الشاعر:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهمو ... من العبيد وثلث من مواليها

أي بنو حنيفة، وفي (لسان العرب): ((قال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي، ما معنى السبط في كلام العرب؟ قال: السبط، والسبطان، والأسباط: خاصة الأولاد والمصاص منهم)) انتهى.

وأما تفسير (الأسباط) هنا بقبائل بني إسرائيل ذرية الأسباط فهو سهو؛ لأنهم ليسوا كلهم أنبياء، والأقرب: أن معنى الأسباط: نبي الله يوسف ومن كان مثله من إخوته، وذرية يوسف وإخوته.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ عطف على ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ والزبور: اسم لكتاب داوود × ، وقوله تعالى: ﴿زَبُورًا﴾ أي كتاباً، ولعله نكِّر لعدم معرفة العرب به قبل نزول القرآن.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ قال في (الكشاف): ((﴿رُسُلًا﴾ نصب بمضمر في معنى ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو: أرسلنا ونبأنا وما أشبه ذلك، أو بما فسره قصصنا)) انتهى.

حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ

يعنى: أنه من الاشتغال، وفي كتاب (إعراب القرآن للدرويش) لم يذكر إلا الوجه الأول قال: ((تقديره: وآتينا)) انتهى.

﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ أي أخبرناك بهم، وبقصة رسالتهم.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ بلا واسطة مبلغ عن الله من الملائكة، بل خاطبه بلا واسطة خطاباً موجهاً إليه، وهذا الفارق بينه وبين غيره، وليس في الآية دلالة على الكلام النفسي الذي تثبته الأشاعرة وتجعله من الصفات، وقوله تعالى: ﴿تَكۡلِيمًا﴾ مصدر مؤكد للتكليم حقيقة وبدون واسطة مبلغ.

﴿١٦٥﴾ ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿رُّسُلٗا﴾ يعني به المذكورين بأسمائهم وفي الجملة رسلاً قد قصصنا ورسلاً لم نقص، فكلهم جعلهم الله رسلاً ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ مبشرين لمن آمن واتقى ومنذرين للمجرمين ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ﴾ فيقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ [طه:١٣٤] فما بقي لهم حجة بعد الرسل.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ غالبا لا ينال حكيماً فقد عامل عباده بالحكمة في التقديم إليهم بإرسال الرسل، مع أنه غني عنهم كما عاملهم بالعزة حيث لم يتركهم هملاً يفسدون ويظلمون من دون جزاء، ولا تمييز بين المطيع والعاصي، فكذبوا الرسل كل رسول كذبته أمته، وكذب الكافرون من أهل الكتاب وغيرهم رسول الله محمداً ص، وجحدوا نزول القرآن عليه من الله.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ

﴿١٦٦﴾ ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿لَّٰكِنِ﴾ استدراك من ذكر تكذيب المكذبين من أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي ﴿يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَ﴾ وهو القرآن وسائر الوحي يشهد به أنه منه أنزله إليك ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أنزله وهو عالم به.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾ أن الله أنزله، وأنه من الله أنزله عليك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾؛ لأن قوله الحق، ولا يجوز عليه الكذب؛ لأنه غني لا يحتاج إلى الكذب، وعالم أنه غني، وقد تبين أن الله قد شهد به بكونه معجزاً لم يأتوا بسورة من مثله.

﴿١٦٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ ﴿صَدُّواْ﴾ إن كان من الصدود فالمعنى: أعرضوا، وإن كان من الصدِّ، فالمعنى: صدوا غيرهم ومنعوهم عن سبيل الله، بأن ضللوا عليهم وأغووهم وقد مر ذكره في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والكل واقع منهم الإعراض والإغواء، فيحمل على المعنيين.

﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾ ضلوا عن طريق الصواب وغووا ﴿ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ فصاروا في متاهة لا يهتدون للصواب، وصار بينهم وبين طريق الحق مسافة بعيدة.

﴿١٦٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ ﴿ظَلَمُواْ﴾ بالصدِّ عن سبيل الله، والتكذيب لرسول الله، وغير ذلك ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ نفي مؤكد، يفيد: أنه لا يليق بعظمة الله ولا ينبغي أن يغفرلهم؛ لأنه مخالف لعزته وحكمته.

جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ لوجوب خذلانهم في الحكمة عقوبة لهم، أو لأنه لا يؤثر في قلوبهم لتهتدي إلا القسر والإلجاء، وذلك ينافي حكمته، لأنه لا يخرجهم إلى الهدى الحقيقي، وإنما هي صورة الهدى ألجأ إليها القسر، ولا فائدة لذلك، وقد استحقوا أن يوليهم ما تولوا بعزته.

﴿١٦٩﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي لكن يهديهم طريق جهنم، وهي مشاكلة لفظية؛ لأن الهدى خاص في الدلالة على طريق الصواب، و ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه غني عنهم لا نقص عليه في تعذيبهم ولا مشقة ولا عناء، واليسير: ضد العسير.

﴿١٧٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ دعوة عامة للناس من أهل الكتاب وغيرهم من العرب والعجم ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ قد انتهى إليكم الرسول المرسل إليكم، جاءكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي أرسل به وأمر بإبلاغه من ربكم أرسله به، وهو القرآن وسائر الوحي إلى محمد ص.

﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ الإيمان الذي يدعوكم إليه ويأمركم به، وهو الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر، ومن ذلك: الإيمان برسالة محمد ص، وبالآيات التي جاء بها، ومن ذلك: القرآن ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ لأن في الإيمان نجاتكم من النار، وسعادتكم في الآخرة أبداً، وذلك خير من الدنيا وما فيها.

لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ﴾ بالرسول أو بالحق الذي جاء به أي القرآن ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإنما أنتم قليل في جملة ما في السموات والأرض فلا يعبأ بكم ولا يبالي بفوات طاعتكم، وأنتم كغيركم مما في السموات والأرض عبيد مملوكون فإن عصيتم حق عليكم العقاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿عَلِيمًا﴾ بكفر من كفر، وبكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ فلا بد من أن يجزي من كفر.

وقال الشرفي / في تفسير الآية السابقة: ((وفيه وجهان:

الأول: المراد أنه تعالى خالقهم ومالكهم والمنعم عليهم بأصناف النعم كلها، فحق كل عاقل أن يكون منقاداً لأوامره ونواهيه، يرجو ثوابه ويخاف عقابه.

الثاني: أنهم إن كفروا، فإن لله ما في سمواته وأرضه من أصناف مخلوقاته من يوحده ويعبده ويتقيه من الملائكة والثقلين، وكان ذلك غنياً عن خلقه وعبادتهم، ومستحقا لأن يحمد؛ لكثرة نعمه وأن لم يحمده أحد)) انتهى.

قلت: هذان وجهان، والذي ذكرت قبله وجهان، فهي أربعة معان أفادها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقد تكررت في هذه السورة لإفادتها الفوائد المتعددة المناسبة للسياقات المختلفة.

سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا

﴿١٧١﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خطاب لليهود والنصارى ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ الغلو في الدين: تجاوُزُ الحد الصحيح في الدين، وهو نوع من البدعة اختص باسم الغلو؛ لأن الباعث عليه رغبة أصلها ديني، ولكنها قويت وصارت هوى نفسياً فدعت إلى تجاوز الحد؛ حد الصواب.

فاليهود غلوا في أنفسهم، فتجاوزوا نعمة الله عليهم بتفضيلهم على العالمين بما اختصهم به مثل: فلق البحر لهم لينجيهم ويغرق عدوهم وهم ينظرون، فتجاوزوا ذلك حتى قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] وقالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥] وقالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠].

والنصارى قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] واتخذوا عيسى إلهاً على اختلافهم، بين من يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧] ومن يقول: (ثلاثة أقانيم): أقنوم أب، وأقنوم ابن، وأقنوم روح القدس، ومجموع الثلاثة بزعمهم الله سبحانه وتعالى.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ فاتركوا الغلو، لئلا تقولوا على الله غير الحق، فقد نهى عن ذلك وحرمه ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فدرجته في الشرف أن الله اصطفاه رسولاً له إلى (بني إسرائيل) وكفاه شرفاً من هذه الناحية أنه رسول

الله، وخلْقه من غير أب لا علاقة له بأن يكون إلهاً؛ إنما خلقه الله بقوله: ﴿كُنْ﴾ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٤٧] وهي ﴿كَلِمَتُهُۥٓ﴾ التي خلق بها آدم بل وكل شيء، وهي قضاؤه وإيجاده للشيء ﴿أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ بأن قضى وجود ابنها في بطنها.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ من أمره نفخه في جسد الولد، كما نفخ في آدم من روحه ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] صدق الله فهو أمر استأثر الله بعلمه؛ وبه يحيي المخلوق، ويحتمل أن الروح في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ غير الروح في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم:١٢] وأن قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ مدح لعيسى كما مدح القرآن بذلك.

وقد حكى عن عيسى × قوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١] فلما كان عيسى × سبباً لحياة الإيمان في القلوب ببركته وحسن تعليمه وموعظته، كان حقيقاً بأن يسمى روحا كما سمي القرآن روحاً، وهذا أقرب عندي؛ لوجوه:

الأول: أن نفخ الروح قد دخل في قوله: وكلمته؛ لأنها عبارة عن إيجاده جسداً وروحاً.

الثاني: أنه تعالى جعل عيسى نفسه روحا بجملته وذلك غير الإخبار بنفخ الروح فيه وكون الروح جزءً منه.

الثالث: أن الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ في خطاب الذين غلوا فيه يناسبه أن يشمل مزاياه التي من أجلها غلوا فيه، ويشمل ما يمتاز به عيسى؛ ولذلك لم يقتصر على قوله كلمته، بل قال: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

فكذلك ينبغي أن يذكر ما كان له من البركات، وما ظهر على يديه من الآيات التي يحيَى بها الإيمان في قلوب المؤمنين، كنفخه في صورة الطير بحيث تكون ﴿طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران:٤٩] وإحيائه القلوب الميتة بمواعظه وحكمته وسائر بركاته، التي كانت له أينما كان بإذن الله، وحينئذ تكون هذه الكلمات الثلاث قد عمت وشملت مزايا عيسى ـ صلى الله عليه ـ فكان إدخالها في الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ هو مقتضى الحال، وكان أبلغ في الحجة على الغلاة فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يشير إلى أن تلك البركات والحياة إنما هي من الله وبإذنه، و (مِن) هذه هي (مِن الابتدائية) مثل: ﴿وَمَا بِكُم مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] أعني في قوله تعالى: ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾ أي صادرة منه.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ فلا تجعلوه متعدداً ثلاثة أقانيم، ولا تجعلوه عيسى، بل نزهوه عن مشابهة المخلوقين؛ لأن من آمن بشبيه للمخلوق لم يؤمن بالله، فآمنوا بالله ورسله، ومن ذلك الإيمان بعيسى رسولاً لا إلهاً، والإيمان برسول الله محمد ص ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أقانيم، ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم.

﴿ٱنتَهُواْ﴾ عن الشرك ﴿خَيْرًا لَّكُمْ﴾ لتهتدوا ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا ثلاثة أقانيم: أقنوم أب، واقنوم ابن، واقنوم روح القدس ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لأنه الغني فلا يحتاج إلى ولد، والولد إن أرادوا به الفرع لزمهم أن يكون الله جنساً قابلاً للزيادة بالتفرع، فلزم أنه قابل للزيادة والنقصان والوجود والعدم سبحانه وتعالى.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ

وإن أرادوا به الولد بالعاطفة والحب والحنو، فذلك خاص بالمخلوق، ولا يليق بالغني عن كل شيء؛ لأن العاطفة حاجة ولعلهم أرادوا هذا، فرد الله عليهم بأنه الغنيّ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [يونس:٦٨] فالرد عليهم بأنه الغني، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ لأن ذلك نسبة الحاجة إليه.

﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ فكل من جعلوه إلهاً من دون الله إنما هو عبد لله، فلا يشارك الله في ملكه ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ لعباده، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] فعلى عباده أن يكلوا إليه أمورهم ويستغنوا به لتدبير شؤونهم عن إثبات إله غيره

﴿١٧٢﴾ ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ لن يأنف ﴿أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ لأنه معترف بأنه عبد لله خاشع له ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فهم مؤمنون بأنهم عباد لله، ولا يدّعون ما يدّعيه بعض المشركين الذين يزعمون أنهم بنات الله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] عطفهم على عيسى لمشابهة القول فيهم للقول في عيسى؛ ولكون الرد على الفريقين واحداً؛ ولكون الرد على النصارى جاء لتقرير أن الله ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ فناسب ذكر الرد على من جعل الملائكة ولداً لله، مع الرد على اليهود الذين جعلوا عزيراً بن الله، والنصارى الذين قالوا: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] كقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠].

وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ عن الاعتراف بالعبودية لله ربهم، المالك لهم ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يظن أنه فوق أن يعترف بالعبودية أو يترفع عن الاعتراف بالعبودية، فالله سيحشرهم يحشر العباد ﴿إِلَيْهِ﴾ يوم القيامة إلى محل السؤال والحساب حيث يجمعهم، كما قال تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين.

﴿١٧٣﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فقد عبدوا الله مع الإيمان عبادة مقبولة لمصاحبتها الإيمان ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ بالحسنة عشر أمثالها ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ خيراً كثيراً يتفضل به عليهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟﴾ أنفوا من عبادة الله ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ترفعوا عن عبادة الله ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عذاب جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ مَن يدفع عنهم بتولي شؤونهم والقيام بإصلاح أمورهم ولا بنصر لهم، وهذا ردٌّ على المشركين الذين يظنون أن شركائهم سيشفعون لهم ويدفعون عنهم بما لهم من المكانة عند الله ـ بزعمهم ـ تخولهم أن يتدخلوا يوم القيامة إن بعثوا، فيدفعوا عنهم وينصرونهم بالشفاعة.

وقد تم في الآيات الماضية الرد على المشركين من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وما جاء في اليهود من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾

جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ

مع ما سبق فيهم عند قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ وما جاء في النصارى في الآيات التي مرت قريباً احتجاجاً كاملاً وإنذاراً وإعذاراً، ثم عقب ذلك بقوله تعالى:

﴿١٧٤-١٧٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ ﴿بُرۡهَٰنٞ﴾ دليل وحجة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ وما كان من ربكم فهو الحق والهدى، والبرهان هو القرآن الكريم فهو دليل من حيث إعجازه على أنه من الله، وهو نور من حيث أنه من الله يبيِّن الحق في الدين ويدل على بطلان الأديان المخالفة للإسلام، وعلى ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾ [آل عمران:١٩].

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ﴾ إلهاً واحداً لا إله إلا هو ولا رب سواه فعبدوه وأخلصوا له العبادة ﴿وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ﴾ فلم يتخذوا شفعاء ولا شركاء يعتقدون أنهم ينصرونهم، أو يشفون مرضاهم، أو يوفرون أرزاقهم، بل اعتصموا بالله وتوكلوا عليه ولم ينافقوا ﴿فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ﴾ وهي رحمة خاصة بالمؤمنين.

﴿وَفَضۡلٖ﴾ منه عليهم خاص بالمؤمنين ﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ كقول موسى: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات:١٩] والهداية إليه تفيد معرفته الكاملة وذكره وشكره وخشيته ومراقبته ﴿صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ طريقاً

لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

واضحاً لا عوج فيه، وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، يؤديهم إلى ذكر الله بقلوبهم وخشيته ومراقبته وكمال معرفته بمعرفة معاني أسمائه الحسنى والإيمان بها، وهذه الرحمة والفضل، والهداية عاجلة لأولياء الله في الدنيا ثم في الآخرة حين يصيرون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] في دار كرامته ورضوانه وفضله ورحمته.

فنسأل الله التوفيق والسداد والثبات، وقد جرت عادة القرآن بإتْبَاع الوعد بالوعيد، لكنه هنا كفى الوعيد في الآية التي قبل هذه، وأغنت عن تكرار الوعيد لقربها.

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ قال في (الصحاح): ((والكل الذي لا وَلَد له ولا والد، يقال منه كَلّ الرجل يكلّ كلالةً)) انتهى.

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ هذا فيمن لا أب له؛ لأنه قد فهم من أول السورة أن الأب هو الوارث مع عدم الولد في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾.

فتحصل أن الكلالة: مَن لا أب له ولا ولد، أعني: أن الحكم فيه، وأن الأم لا تبطل ميراث الإخوة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ﴾ أي الكلّ، والمراد هنا: الأخ لأبوين، أو لأب، وكذلك الأخت؛ لأنه قد تقدم ذكر ميراث الأخوة من الأم، فأما من كان له ولد فإن كان ذكراً فلا إشكال؛ وإن كان أنثى فميراث الإخوة معها بدليل آخر ليس من هذه الآية؛ لأنها خاصة بمن لم يكن له ولد، ولم تفصل بين الذكر والأنثى.

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ إذا كن أكثر فلهن الثلثان لا غير وهو يؤخذ من حكم البنات؛ لأنهن أقرب ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلأُنثَيَيْنِ﴾ وأخذ حكم الاثنين من أول الآية، حيث كان للواحدة النصف وللواحد الكل،، وكذلك الاثنان من الذكور مع الواحدة، والثنتان من الإناث مع الواحد قد أفادت الآية أن ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾.

﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ أي لئلا تضلوا، أو كراهة أن تضلوا، ومعنى تضلوا تخالفوا الحق، فشبّه مخالف الحق بمن ضل الطريق، وهو هنا عبارة عن الخطأ بسبب خفاء الدليل لو لم يبينه، أو هو عام للخطأ والعمد.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بالحكمة في الميراث وعليم بحاجة العباد إلى بيان أدلة الأحكام لئلا يضلوا، وعالم بكل شيء، ولعل الحكمة في النص على الجمع من الرجال والنساء بخلاف النص في الإخوة لأم، أن الإخوة إذا كانوا جماعة قد يطمعون في أخذ الميراث كله؛ لكثرتهم مع أن توريث النساء يسبب قلة ما يكون للواحد، فقطعت الآية الكريمة أطماع الجاهلية، أما الإخوة لأم فقد قطع طمعهم بالتسوية بين الذكر والأنثى.

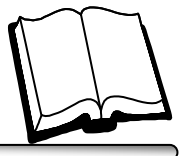

التيسير في التفسير

سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا

تفسير (سورة المائدة)

۝١ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾

تخصيص الذين آمنوا بالخطاب؛ لأنهم يبعثهم إيمانهم بالله ورسوله وكتابه واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء يبعثهم على امتثال أمر الله ونهيه، أو لأن إيمانهم حجة عليهم، من حيث أنهم قد وقع منهم الإيمان الذي يدلهم على وجوب الامتثال، ولعل هذا أقرب؛ لأنه أنسب لاختيار الموصول وصلته الفعلية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ دون اسم الفاعل (أيها المؤمنون) في أكثر المواضع في القرآن الكريم.

و﴿أَوۡفُواْ﴾ أمرٌ من الوفاء وهو تطبيق ما سبق من العقود، العقود: جمع عَقدٍ ـ بفتح العين ـ وهو الكلام الموثق المستلزم لإلزام قائله حقاً، سواء كان عهداً أو عقداً من عقود المعاملات، أو قبولاً للتكليف من الله يفيد الالتزام بالطاعة، ومنه اليمين المعقودة، ولكنها خصت بالإذن بالكفارة.

قال السيد عبد الله بن أحمد الشرفي في تفسيره (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد ـ رحمة الله عليه ـ : دلت على انعقاد العقود كلها، وعلى وجوب الوفاء بها..)) الخ.

قلت: وقد جاء في بعضها الحث على الوفاء، نحو: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ [النحل:٩١] ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [الإسراء:٣٤] ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان:٧] ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧] ﴿وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء:٢١].

ولعل قوله تعالى: ﴿أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ مع عمومه لكل عقد جاء في أول السورة للحث على العمل بما فيها، من حيث أن الذين آمنوا قد التزموا بالطاعة.

﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم﴾ الإحلال للأنعام مقابل التحريم وهو: الأذن بأكلها، وبذبحها ونحرها ولم يقل: (أحلت لكم الأنعام) كما في غير هذه السورة، والأنعام ثلاثة أنواع من البهائم، واسم البهائم يعمها ويعم غيرها.

قال الراغب في (المفردات): ((والبهيمة: ما لا نطق لَه وذلك لما في صوته من الإبهام، لكن خص في التعارف بما عدا السباع والطير)).

قلت: الأقرب: أنها سميت بهيمة لأنها لا تعرف ما يعرف الإنسان، فالمعارف مستبهمة عليها مجهولة لديها، ليس لها إلا ما ألهمها الله لمعاشها ونحوه والانتفاع بها، ولذلك قال الهادي بن إبراهيم / :

وما الناس إلا أنتم دون غيركم وسائر أملاك الزمان بهائم

فقوله تعالى: ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ بمعنى الأنعام التي هي بهائم، قال في (الكشاف): ((إضافته على معنى من)) انتهى.

ففي قوله تعالى: ﴿بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ فائدة تتعلق بإحلال الأنعام، لعله الإشارة إلى رحمة الله بها؛ لأنه جعلها بهائم، فإحلالها مع كونها بهائم أهون عليها مما لو كانت تعرف ما يعرف الإنسان ـ والله أعلم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي ما ذكر في الآيات القرآنية تحريمه من الميتة وأنواعها التي تأتي في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ..﴾ الآية.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ

وقوله تعالى: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌ﴾ أي غير جاعليه حلالاً في حال إحرامكم، فقوله: ﴿غَيۡرَ﴾ حال مما سبق، والمعنى: أن الله قد حرمه وأنتم قد آمنتم، فلا تحلوه وقد حرمه الله.انتهى.

أي لا يقع منكم إحلاله فيفيد أن من أحله فقد خرج من الإيمان ومعنى هذا تأكيد تحريمه وهو مذكور في أواخر السورة، ولعل ما يأتي نزل قبل هذا، أو أن هذا موجز قدم على التفصيل، و﴿حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو المحرم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ إشارة إلى أن له الملك، وإلى أن المخاطبين عباده له أن يتعبدهم كيف شاء، ودلالة على أن هذه الأحكام العظيمة، ومنها تعميم التكليف بالعقود وإباحة ذبح الأنعام وأكلها على ما فيه من الألم والشدة عليها، والتحريم للصيد في حال الإحرام كل ذلك لأن الله يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، هذا وهو سبحانه أحكم الحاكمين لا يحكم إلا بالحق، فالأنعام لها في الآخرة عوض ما نالها في الدنيا عوض عظيم.

﴿٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي × : هذا نهي من الله سبحانه للمؤمنين أن يحلوا شيئاً حرم الله عز وجل من هذه الأشياء،

والشعائر: فهي الإبل التي تشعر عند الإحرام، وإشعارها فهو شق أسنمتها، والهدي: فهو ما أهداه المحرم إلى مكة، والقلائد: فهي الإبل ـ أيضاً ـ المقلدة التي يقلدها الحاج بعد إحرامه.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ﴾ فهم القاصدون للبيت الحرام المتوجهون نحوه من حاج كان أو معتمر، فنهى الله ـ تبارك وتعالى ـ عن إباحة ما ذكر، ومعنى الشهر الحرام فهو الأشهر الحرم، فقال: ﴿ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ وهو يريد الشهور، كما قال: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الإنفطار:٦] وهو يريد الناس، والأشهر الحرم التي نهوا عن الإحداث فيها، فهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، وهن اللواتي ذكر الله تبارك و تعالى حين يقول: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ..﴾ [التوبة:٣٦]..)) إلخ.

وحكى الشرفي / في (المصابيح) عن المرتضى × أنه قال: ((والشعائر: فهي ما تعبد الله به خلقه في الحج مثل الصفا والمروة والمواقف والجمار والبُدْنَ، فأمر الله أن لا يبيحوا ذلك ولا يتركوه ولا يفرطوا فيه ...)) الخ.

قلت: هذا صحيح؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج:٣٦] و(من) للتبعيض، ولعل الإمام الهادي × أراد تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ ٱللَّهِ﴾ يعني: أن المراد بالشعائر: البدن المُشْعِرَة، لا أن الاسم خاص بها، يعنى: أن النهي عن إحلال اعتراضها كما فعلت قريش حين صدوا رسول الله ص وصدوا الهدي الذي كان معه، ولكن ليس مستحيلاً أن يقع من بعض الجبابرة إحلال المناسك بالبناء فيها لنفسه وأصحابه وخدمه وجعل بعضها بساتين ونحوها، فالأولى إبقاء الآية على عمومها.

و﴿ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ جمع قلادة، وتفسيرها بالإبل المقلدة من التطبيق، وأما المفهوم فالظاهر: أن المراد احترام القلائد التي هي علامة أنها لله فيترك التعرض للإبل المقلدة احتراماً للقلائد، وقوله في الهدي:ما أهداه المحرم المراد إلى الحرم، أي أهداها لله.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ الفضل هنا ثواب الحج والعمرة وما فيهما من القرب. والرضوان غفران الذنوب وما يترتب عليه من التوفيق وتيسير سبل الخير؛ لأن من رضي عن عبده أراد له الخير ولذلك كان الرضوان في الآخرة أكبر، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة:٧٢] وابتغاء ذلك إرادته والتوصل إليه بأمّ البيت الذي هو الكعبة من حيث هو توصل إلى الحج والعمرة وما فيهما.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ فالواجب إنما هو اجتناب الصيد حال الإحرام وليس من الدين اجتنابه بعد الإحلال تورعاً، والإصطياد: أخذ الصيد وما يجري مجرى الأخذ من الاستيلاء عليه والسيطرة بكونه قد صار في الشبكة أو نحو ذلك.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ ولا يكسبنكم بغض قوم لأن ﴿صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ أي لا يسبب البغض للعدوان عليهم وإن كان سبب البغض أنهم صدوكم عن المسجد الحرام.

قال الشرفي في (المصابيح): ((معناه: لا يحملكم بغض أهل مكة وعداوتهم بأن صدوكم عن المسجد الحرام على أن تعاملوهم معاملة تتجاوزون فيها حَدَّ الحق إلى الباطل)) انتهى

ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ

قلت: ويحتمل أنه نهى عن قتالهم في الشهر الحرام لتقدم قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ فخص هذه الحالة لئلا يتوهموا أن صدهم عن المسجد الحرام يحل قتالهم في الشهر الحرام، لقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤] وهذا أقرب عندي.

﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾

التعاون: تفاعل من العون أن يجعل كل من المتعاونين قوّته مع قوة أصحابه لتحصيل شيء باجتماع القوى عليه. و ﴿ٱلۡبِرِّ﴾ اسم جامع، وقد بينه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى آخر الآية، وهي في (سورة البقرة) [آية:١٧٧] ﴿وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ اجتناب المعاصي لطلب السلامة من العذاب، وأصل التقوى استعمال الوقاية لدفع المكروه.

و﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ الذنب المسبب للعذاب، قال في (الصحاح): ((الإثم: الذنب)) انتهى ﴿وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ الظلم والجور، ومنه القتال في الشهر الحرام، ولا يشترط في مفهوم المعاونة القصد لها، كما حققه الإمام القاسم بن محمد × في (رسالة التحذير) وقد طبعت، وهذه الآية جامعة لفوائد كثيرة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تقوى الله: طاعته في كل أمره ونهيه؛ وختمت هذه الآية بهذه الجملة ليحافظ الذين آمنوا على ما في هذه الآية وإن شقت على الأنفس، كترك العدوان على الذين صدوا الرسول ص ومن معه عن المسجد الحرام، وفي ذلك دلالة على الوعيد على أهل الصلاة.

وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ۚ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم

﴿٣﴾ ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ ـ بتخفيف الياء ـ التي ماتت دون أن تذبح أي لم تمت من الذبح، ويلحق بها ما قطع من أعضاء أي الأنعام وهي في الحياة قبل أن تذبح للحديث ﴿وَٱلدَّمُ﴾ لا يجوز شربه رائقاً ولا أكله خاثراً مطبوخاً.

و﴿ٱلْخِنزِيرِ﴾ حيوان بالشام وغيره معروف عندهم ولحمه عند الإطلاق يعم العروق والشحم؛ لأن الجملة يسمى لحماً، وإنما يختلف عند المقارنة حيث يقال: لحم وشحم ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ مر تفسيره في تفسير (آية البقرة) ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ﴾ التي يخنقها ما يحبس نَفَسَهَا من حبل أو غيره فتموت.

كذا قال الإمام الهادي × في المنخنقة، وقال × : ((وأما الموقوذة: فهي التي ترمى على مَوْقِذتها، أو تضرب فتموت؛ وأما المتردية: فهي التي تردّى من رأس الجبل أو من المطارة أو في البئر أو في غير ذلك مما تسقط فيه الدابة فتموت ولا يلحق ذكاتها، وأما النطيحة: فهي ما تنطحه البقرة أو الشاة منهن فتموت، وأما ما أكله السبع: فهي الدابة يقتلها السبع ولا تلحق ذكاتها فحرم الله ذلك كله إلا أن يلحق منه ذكاة فيذبح وفيه شيء من حياة فيكون حيئذ ذكياً)) انتهى من (الأحكام).

وقال الشرفي في (الموقوذة) وهي: ((المقتولة بغير حدٍّ رجماً أو ضرباً بعصى، يقال: وقَذَهُ، يَقِذُهُ، وقْذاً: إذا ضربه حتى أشفى على الهلاك)) انتهى.

وفي (الصحاح) وغيره نحوه، ولم أجد تفسير الموقوذة، وليست شرطاً، أعنى أن الوقذْ ضربٌ ونحوه يؤدي إلى الموت في أي موضع من الجسد، ولعل أصل الموقوذة التي تضرب على موقذتها، ثم استعمل في التي تضرب ضرباً يؤدي إلى الموت على الإطلاق؛ لأن هذا هو المعروف في اللغة، وقوله × : ((أو من المطارة)) قال في (الصحاح): ((وبئر مطارة واسعة الفم)) انتهى

والأقرب: أن الإمام الهادي × أراد المكان المرتفع الذي يطير منه الطائر لارتفاعه، لأنه × قال: أو في البئر.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ قال الإمام الهادي × : ((ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ والنصب: فهي آلهتهم المنصّبة التي كانوا يذبحون لها وعلى اسمها، ومعنى قوله: ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ فإنما هو للنصب)) انتهى.

قلت: أصل مفهوم ﴿عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ حول النصب بحيث يكون الظاهر أنه ذبح من أجلها ولها، قال امرؤ القيس:

وقوفاً بها صَحْبي عليّ مَطِيَّهُم يقولون لا تهلك أسىً وتجمل

ومثله لطرفة بن العبد، وقال بدل (وتجمل) (وتجلد) والمراد: حولي مطيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النور:٥٨] وفي حديث الهرة: ((إنها من الطوافين عليكم)) وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ﴾ [الصافات:١٣٧].

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ (الأزلام): جمع زلم، وهو قِدْح ـ بكسر القاف وسكون الدال ـ أي قطعة قوية صلبة تستعمل في الإستقسام، وفي الميسر: قال في (الصحاح): ((والزَّلَم ـ بالتحريك ـ القِدْحُ، قال الشاعر:

بـات يقاسيها غـلام كالزّلَـم خدلج الساقين ممسوح القدم

وكذلك الزُّلم ـ بضم الزاي ـ والجمع: الأزلام، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها)) انتهى.

وإنما قلت في الزلم: قطعة قوية صلبة؛ لأن الشاعر أراد مدح نفسه بالقوة على سوق الإبل أو الغنم التي ساقها وهرب بها، وقصته مذكورة في (المصابيح) في تفسير الآية التي قبيل هذه.

قال: ((قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في الحطم بن هند البكري أتى رسول الله ص وحده وخلف خيله خارجة من المدينة فدعاه رسول الله ص فقال إلى ما تدعو؟ فأخبره، وقد كان النبي ص قال لأصحابه: ((يدخل عليكم اليوم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان)) فلما أخبره النبي ص قال: لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقبى غادر، فمر بسرح من سرح المدينة فاستاقه، وانطلق وهو يرتجز ويقول:

قد لفّها الليل بسواق حطم ليس براعي إبل ولا غنم
ولا بجزار على ظهر وضم باتوا نياماً وابن هند لم ينم
بات يقاسيها غلام كالزَّلم خدلج الساقين ممسوح القدم

ثم أقبل من العام القابل حاجاً قد قلد الهدي، فأراد رسول الله ص أن يبعث إليه، فنزلت هذه الآية حتى بلغ: ﴿وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ﴾)) انتهى المراد.

وقال في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَـٰمِ﴾: قال في (البرهان): أي تطلبون علم ما قُسِمَ أو لم يُقسَم من رزق أو حاجة بالأزلام وهي قداح ثلاثة، مكتوب على أحدها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث: غِفْل لا شيء عليه، وكانوا إذا أرادوا سفراً أو حاجة أو غزواً ضربوا بها واستقسموا، فإن خرج: أمرني ربي فعلوه، وإن خرج: نهاني ربي تركوه، وإن خرج الأبيض أعادوه، فنهى الله سبحانه عنه، فسمى بذلك استقساماً لأنهم طلبوا به علم ما قسم لهم)) انتهى.

قوله: ((وإن خرج الأبيض أعادوه)) المراد بالأبيض: الذي لم يكتب فيه، وقوله: أعادوه، أي أعادوا الضرب بها، والذي يظهر: أنهم يجعلونها في شيء يغطيها ويجيلونها فيه، ثم يخرجون أحدها وينظرون أيها خرج.

وقرينة هذا قوله: فإن خرج.. وإن خرج.. وإن خرج، فظهر: أن الضرب إجالتها وتحريكها بقوة لتختلط ويختلف وضعها عما كانت عليه عند جعلها في الظرف.

وقد قيل أن المراد: الاستقسام عند أن تذبح الجزور، وتقسم سبعة أقسام ثم يتقامرون عليها بأزلام عشرة، والأقرب: أن الآية عامة لذلك كله، وأن العرب كانوا يتوهمون أن ما أحذوه بالقمار مقسوم لهم، فالعموم بواسطة هذا المعنى.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي معصية وجرأة على الله وخطيئة كما أفاده تفسير الإمام الهادي × لغير هذه الآية، وتفسير (صاحب البرهان): ((أنه خروج عن أمر الله وطاعته وهو فعل ما تقدم ذكره ـ أي الاستقسام المذكور)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ﴾ في تأويل المصدر معطوف على ما سبق أي وحرم عليكم أن تستقسموا بالأزلام، فظاهرها: تحريم الإستقسام نفسه، وتفسيره بتحريم أخذ الجزور بالقمار إخراج لها عن ظاهرها فهو تأويل، ولو قيل: وما استقسموه بالأزلام لكان ظاهراً، كقوله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ ولا حاجة إلى التأويل؛ لأن تحريم الاستقسام بالأزلام يستلزم تحريم ما أخذ بناء على أنه مقسوم اعتماداً على الاستقسام بالأزلام، وهو محرم لا يفيد أنه مقسوم، فهو مازال ملك مشتري الناقة، أو ذابح الناقة، أو صاحبها، أو قد حرمت بالنحر على وجه محرم ليس ملك الذي أخذه بالاستقسام بالأزلام، فهو حرام عليه وعلى المساكين الذين أعطاهم هذا المستقسم.

﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ قد أظهر الله دينة فما بقي للكفار طمع في إذهابه، لأنهم قد أيسوا من قدرتهم على ذلك لقوة الإسلام بقوة أهله، واجتماع كلمتهم، وطاعتهم لقائدهم، وصبرهم على القتال في الدين ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ ليبقى لكم دينكم وعزكم، فلا تغيروا ولا تبدلوا، واثبتوا على ذلك في حياة الرسول وبعده.

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بكمال الشرائع ومطابقتها للحكمة فالتكاليف والأحكام قد نزلت على الرسول ص كلها كاملة محكمة ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بإكمال الدين وجمعكم عليه أخواناً، قد ألّف بين قلوبكم فتمت لكم العزة، وحصل لكم الأمن في دينكم بتمكينه في الأرض.

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ ارتضيت لكم إسلام أنفسكم ووجوهكم لله ﴿دِينًا﴾ تدينون الله به؛ لأنه الحق وفيه لكم السعادة الدائمة في الآخرة والنجاة من النار، وأنتم أهل لذلك بشكركم للنعمة، واستحقاقكم للهداية للإسلام والتوفيق له.

فإن قيل: فكيف دخلت هذه الجملة في حوادث اليوم المذكور، وهو يرضى لهم الإسلام ديناً من قبله؟

فالجواب ـ والله أعلم: أنه رضى زائد على ما سبق؛ لأنهم أتموا أركان الإسلام بالحج من بعضهم، وبعزمهم عليه وسفرهم له من بعضهم ونشر كثير من أحكام الحج وغيره وتعلمها تلك الأيام، وكثرة العبادة والخشوع في مناسك الحج في عرفات وعند البيت وسائر المواقف، فقد رضي الله عنهم وأراد لهم الخير وأسباب الجنة والسعادة الدائمة فوق الرضى السابق.

ومعنى الرضى: غايته كمعنى الرحمة أي أن يفعل سبحانه فعل المحب الراضي والرضى في المخلوق ضد الكراهة والبغض، فالحب داخل في معنى الرضى؛ ولذلك جاء في الحديث الشريف: ((ومَن الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، ومَن الذي إذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق)).

أما اليوم المذكور، فهو اليوم الذي كملت فيه الأحكام ونزولها على الرسول ص، ولعله يربطه بهذه الآية أن هذه الأحكام التي فيها على التفصيل الشامل للمقتولة من الأنعام آخر ما نزل من الأحكام، وليس المراد أن إكمال الدين بها، بل بإكمال الدين كله، ومنه: تحريم الميتة والمقتولة، كما يكون إتمام خلق الإنسان بخلق بنانه، فإذا تم الشيء بتحصيل آخر جزء منه وإن كان صغيراً صح أن يقال اليوم تم.

ولا ينافي أن ذلك (يوم عرفة) أو (يوم الغدير) فلعل ولاية أمير المؤمنين قد نزلت قبله بكثير، وذلك يوم إنذار عشيرة الرسول ص أو في (تبوك) فإنزالها يوم عرفة ثم يوم الغدير تأكيد لما سبق.

ويمكن أن يقال: أنه وإن كان تأكيداً باعتبار فهو حكم جديد باعتبار تجديد التشريع والأمر والتكليف لوجوب امتثاله آخراً كما وجب امتثاله أولاً، فمن هنا تكون ولاية أمير المؤمنين × من حوادث يوم الغدير، ويكون إكمال الدين بما حدث منه في ذلك اليوم من ولاية أمير المؤمنين × وغيرها.

والمراد بإكمال الدين ـ كما مر ـ إنزاله على الرسول ص كاملاً، ومنه ولاية أمير المؤمنين، فهي حكم من أحكام الدين لا أنها تضمنت بقية الأحكام كما يزعم بعض الشيعة، كأنهم أرادوا أن إكمال الدين تبليغ الرسول ص بعضه إلى الناس كافة، وإحالتهم في البعض الآخر إلى علي × ليبلغه، وهذا غير معنى الآية عندنا.

بل إكمال الدين بإنزال ولاية أمير المؤمنين × التي فيها تشريع القيادة التي تحمي الإسلام وتدفع عنه المفسدين، وتنفّذ أحكامه بدفع التظالم، وإقامة الحدود، ونصب الولاة والحكام وغير ذلك، وهداية من يهتدي بالمواعظ والحكم والآداب، والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلوات والجمَع، وإيتاء الزكاة، ونشر المعلمين في بلاد الإسلام والمرشدين ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الحج:٤١] وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ الآية [آل عمران:١٠٤].

وعلى القائد المسلم ما على العلماء من التعليم وإبلاغ الشرائع والوجوب عليه أكثر، لأن الحاجة إليه أكثر وهو أقدر؛ هذا في القيادة جملة، فأما أمير المؤمنين علي × فيجب اتباعه وهو طريق من طرق الشريعة، لأنه ((مع الحق والحق معه)) وقد بسطت هنا للحاجة إليه.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ ألجأته الضرورة وهي الجوع الذي يخشى منه التلف، أو المرض الذي يلجئ خوفه إلى أكل الميتة، و(المخمصة): المجاعة سواء كانت عامة له ولغيره أم خاصة به حيث لا يجد ما يأكل إلا من الميتة أو المقتولة.

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ قال الراغب الأصفهاني: ((أصل الجنف: ميل في الحكم فقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة:١٨٢] أي ميلاً ظاهراً، وعلى هذا غير متجانف لإثم أي غير مائل إليه)) انتهى، فيشترط أن لا يأكل منها إلا لأنها ألجأته الضرورة لا ميلاً إلى أكلها حراماً، وقد مر زيادة تحقيق في تفسير (آية البقرة) ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك لا يؤاخذ المضطر غير المتجانف لإثم.

قال في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد رحمه الله تعالى: دلت الآية على تحريم الميتة ومن ذلك الشظا وما لا ذكاة له، إلا ما استثنى رسول الله ص من السمك والجراد، وعلى تحريم جميع ما ذكره الله في هذه الآية فهي نصوص صريحة، وعلى أن المسلمين وأهل الحق إذا كانوا في مَنَعَةٍ فإنه يحرم عليهم التخوف من الأعداء، ويجب عليهم قصدهم لإقامة الدين.

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ...﴾ إلى آخره دلت هذه الآية الكريمة على أن شريعة محمد ص لا نقص فيها فلا تحتاج إلى رأي المبطلين وأن الله قد أتمّ نعمته على عباده بهذه الشريعة المطهرة وأنها داخلة فيما يسأل الله عنه من النعيم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨] وإن رضَي الله بالإسلام، فيحب الرضى على عباده بما رضي لهم سبحانه)) انتهى

مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ

وقد يستدل بالآية على إبطال القياس، ولكن إذا ثبتت علة الحكم بالدليل الشرعي جرى ذلك مجرى عموم الحكم للفرع، وقد سماه بعض الإمامية: عموماً وأثبتوه مع نفيهم للقياس، ولذلك لا يخفى تحريم ما نزل الماء عليه فقتله كالمنخنقة؛ وقد يقال: هو من المنخنقة؛ لأنه لا يشترط أن تنخنق بحبل أو عودين وقد خنقها الماء؛ والأولى في المثال: ما جرح بحدٍ لغير ضرورة في غير المذبح فمات، فإن من فهم تحريم المذكورات لأجل أسباب هلاكها، وهذا سبب هلاك مثلها يفهم تحريمها، وهذا مع قوله الله تعالى: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩] ولا يمكن الرد فيما لم يتناوله الحكم إلا بالقياس المذكور.

﴿٤﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ إلتفات من الخطاب إلى الغيبة يسألك الذين آمنوا ﴿مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ لعل المقصود ماذا أحل لهم من المأكولات ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ منها، ويحتمل ماذا أحل لهم العموم فيتناول السؤال المأكولات والمشروبات والملبوسات والمنكوحات، فيكون قوله تعالى: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ عاماً لها كعموم السؤال وإن كان السياق في اللحوم كما يأتي قريباً في النكاح، وهو خارج عن السياق.

﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ ما علمتم اسم شرط وفعل الشرط، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟﴾ جواب الشرط يدل على أن ما صاده الكلب المعلم إذا تمت الشروط حلال طيب، وتعليم الكلب تعليمه ليجيب صاحبه ويأتمر بأمره إذا أرسله على الصيد سواء كان جائعاً أم شبعاناً.

قال الإمام القاسم × فيما رواه الإمام الهادي × في(الأحكام) عن أبيه عن جده: ((المكلَّبُ فهو المَغري، وإكلاب الكلب فهو الإغراء، ولا يكون ذلك من المغري للكلاب إلا إشلاء وأمراً)).

قلت: يظهر أن التكليب: تحصيل الكلب على الصيد في الكلْب بإشلائه على الصيد، أي إرساله؛ لأنه قد تعلم الإمتثال فيحصل فيه الكَلَب على الصيد ولو كان شبعان، ولذلك قال الإمام القاسم × : ((والمكلَّب: هو المغرى لأن أمر صاحبه له يكون إغراء له بسبب تعليمه)).

وقوله تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ يفيد: أن هذا من نعمة الله علينا لأنه علمنا كيف نعلم الكلاب وغير ذلك فعلينا أن نشكر النعمة ولأنه الذي سخر لنا الكلاب وأعدها لذلك سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ دليل على حل الصيد بإمساك الكلب له علينا أي ما أمسكن عليكم من الصيد، ومعنى ﴿عَلَيْكُمْ﴾ حولكم أو حولكم من أجلكم، قال تعالى: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب:٣٧] أي لا تفارقها والفراق كناية عن الطلاق، وقد أفاد هذا المعنى في (مغني اللبيب) حيث قال في (على): ((تكون للاستعلاء، إما على المجرور وهو الغالب، أو على ما يقرب منه، نحو ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه:١٠])) انتهى.

وفي قصيدة عمرو بن كلثوم:

تركنا الخيل عاكفة عليه مقلدة أعنتها صفوناً

قال شارحها: ((يقول: قتلناه وحبسنا خيلنا عليه وقد قلدناها أعنّتها في حال صفونها عنده)) انتهى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ وقد مر تفسيره؛ وفائدة: اشتراط أن يكون الإمساك عليكم: أن يترك منه ما لم تمسكه إلا بعد غيابها عن صاحبها وغياب الصيد فأمسكته في غيابها إذا لم تدرك ذكاته؛ لاحتمال: أن يكون تردى مع الفرار فأعان التردي على قتله، أو أنه أعان عليه شيء مجهول.

قال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((حدثني أبي، عن أبيه: أنه سئل عما قتل الكلب والصقر؟ فقال: ما قتل الكلب المعلّم فحلال عندي أكله، وذكاة ما قتل الكلب المعلّم فهو قتله له يؤكل ما قتل وإن أكله إلا أقله، ولا أعلم فيما أجبتك به في هذا اختلافاً بين الناس، إلا ما ذكر فيه من خلاف عن ابن عباس..)).

إلى قوله: ((وظننت أن ابن عباس تأول في ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ فكان عند ابن عباس أكله له غير إمساك منه على من أرسله، وهو عندي فقد يمسك بالقتل أكثر الإمساك، والمذكور المشهور أن عدي بن حاتم، وأبا ثعلبة الخشني، سألا رسول الله ص عن أكل الكلب المعلم يأكل من صيده فأمرهما بأكل فضله، وقال أصحاب رسول الله ص كلهم إلا ابن عباس وحده من بينهم: يؤكل فضل الكلب المعلم وإن لم يبق من الصيد إلا بضعة من اللحم)) انتهى المراد.

وقد عنى الإمام القاسم × : أن الصيد قد حل بإمساكه قبل أن يأكله فلا يحرم بالأكل؛ لأن حله قد سبق الأكل، ثم قال × : ((فأما ما قتل الصقر والبازي، فأعجب ما قيل فيه من القول إليَّ: أنه ليس بذكيّ؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ ولم يقل:ما علمتم مصقرين، والمكلِّب فهو المغرى..)) إلى قوله × : ((والصقر لا يؤمر ولا يشلأ)) انتهى.

وهو يعني أن الصقر لا يقبل التعليم والتكليب، وإنما يجيب إلى الطعام لحاجته ويذهب إلى الصيد إذا كان جائعاً لا لأمر صاحبه، لأنه إذا كان شبعان لا يأتمر.

قال الإمام القاسم × : ((فإن كانت حالة الفهود كحالها ـ أي كحال الصقور ـ لا تشلأ ولا تؤمر فلا يحل أكل فضول أكلها، وإن كانت تؤمر وتشلأ فتأتمر فهي كالكلب يؤكل ما أفضلت وَذَكِيٌّ ما قتلت؛ وبهذا فيما بلغني كان يقول علي × وابن عباس وابن عمر)) انتهى.

يعني: أن الفهد كالكلب إذا كان يقبل التكليب بالتعليم، فأما أكل الفضل فقد مر خلاف ابن عباس؛ وقد نقلت هذا الكلام لما تضمن من تفسير الآية.

فتحصل أن المعنى: ما علمتم من الكلاب وغيرها من الجوارح التي تجرح الصيد، وأن تعليمها جعلها تأتمر بأمر صاحبها من حيث أنه يحصل فيها بأمره كَلَبٌ وشبق على الصيد فتسرع إليه بسبب التعليم الذي جعلها يحصل فيها الكَلَبُ على الصيد.

وأن معنى: ﴿مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾ مما أمسكن حولكم ولا إشكال أن الإمساك من أجل صاحبه لأنه بسببه، فسواء قلنا عليكم: حولكم، أو قلنا عليكم: حولكم من أجلكم؛ لأن الكلب أمسكه بسبب الكَلَب عليه والكلب عليه بسبب الإرسال، وأن أكل الكلب من الصيد أو تركه خارج عن معنى التعليم والتكليب.

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ هذا أمر وجوب، فيجب ذكر اسم الله على الكلب عند إرساله، أو على الصيد عند إرسال الكلب كما في الروايات.

وظاهر الرواية: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ﴾ للكلب، أي واذكروا اسم الله على الكلب عند إرساله، كأنه قيل: إرسال الكلب على الصيد باسم الله أي بحكمه وإذنه وإباحته، كما يقول الذابح: (باسم الله).

والرواية في (أمالي أحمد بن عيسى): أخبرنا محمد، قال: أخبرنا محمد بن عبيد، قال: أخبرنا محمد بن فضيل، عن زكرياء، عن عامر، عن عدي بن حاتم، قال:سألت رسول الله ص عن صيد الكلب؟ قال: ((إن وجدت عنده كلباً آخر فخشيت أن يكون أخذ معه وقد قتله فلا تأكل، فإنما ذكرت اسم الله على كلبك ولم تذكر اسمه على غيره)) انتهى.

زكريا هو (ابن أبي زائدة) وعامر هو (الشعبي) وذكر صاحب (رأب الصدع): أن هذا الحديث متفق عليه، يعنى بين البخاري ومسلم.

قلت: وسنده على شرط (صاحب الصحيح المختار) من أصحابنا إلا بن فضيل وزكريا، وقال سيدي عبد الله بن الهادي في (الجداول) في (ترجمة محمد بن فضيل): ((عداده في ثقات محدثي الشيعة)) انتهى، وقال في زكريا: ((وعده المنصور بالله من رواة العدلية)) انتهى، قلت: ومع كونه كوفياً هو مظنة التشيع ولم أجد ما يدل على ميله.

وقال المؤيد بالله × في (التجريد) و(شرحه): ((إذا أرسل المسلم الكلب المعلم على الصيد وسمّى حين أرسله فأخذ الكلب الصيد فقتله قبل أن يلحق صاحبه ذكاته جاز أكله، وهذه الجملة لا خلاف فيها)) انتهى، وهذا يؤكد: أن الضمير للكلب، فإرساله على الصيد بمنزلة الذبح في التسمية ـ والله أعلم.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ هذا تحذير من أكل الصيد بدون تمام الشروط، كأن يكون الكلب غير معلم، أو يصطاد بدون إرسال صاحبه المسلم، أو لا يكون قريباً منه بحيث لا يعلم أنه الذي قتله بإرساله، أو يعينه كلب آخر لم يرسله أحد، أو غير معلم، وسرعة الحساب تستلزم توفية الجزاء بحيث لا يغفل عن مثقال ذرة.

لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ۚ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

﴿٥﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ هو يوم نزول الآية، وعبارة (اليوم) مما يشير إلى ضرورة اعتبار الوضع بالنسبة للمسلمين ولأهل الكتاب.

وهذا واضح بالنسبة لوقت نزول الآية، فالمسلمون كانوا في قوة ومنعة، وأهل الكتاب على النقيض من ذلك، وهذا ما يدعو إلى القول بضرورة التفريق بين مدلول الآية في مرحلة نزولها، ومدلولها في هذا العصر الذي استقوى فيه أهل الكتاب، وكبرت مؤامراتهم على المسلمين، فيكون مدلول الآية باعتبار الوضع كما أسلفت، وهذا ما تشير إليه عبارة (اليوم) في بداية الآية ـ والله أعلم.

﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ تأكيد للإحلال المذكور سابقاً، وتمهيد لإحلال طعام الذين أوتوا الكتاب كما مهد لإحلال صيد الكلاب، بقوله تعالى: ﴿**قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**﴾ فيدل على أنه من الطيبات.

و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ اسم للذين رزقوا علم التوراة، ولا يشمل الجهلة الذين ﴿**لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ**﴾ [البقرة:٧٨] بل هم من أهل الكتاب، فالإيتاء من الله يشعر في بعض المواضع بالتعليم، كما قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة:٢٦٩].

فلا يقال للجاهل ولو قرأ ألفاظ الحكمة وهو لا يعلم معناها، لا يقال: (أوتي الحكمة) ولذلك قال تعالى في علمائهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٢-٥٣] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت:٤٧] كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] مع أنه قد يطلق ويراد أهل الكتاب جملة على طريقة التغليب، أو لحكمة يقتضيها سياق الكلام.

والمراد بطعامهم: ما سلم من سبب آخر يمنع من أكله، لا ما أخذوه بالربا، أو نجسوه بالخمر، أو لحم الخنزير، أو بغيرهما من النجاسات، فهو واضح في التمر والحبوب.

وقوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾ يفيد: جواز إطعامهم، ولعله في أهل الذمة ونحوهم إذا كانوا في وضع لا يشكلون خطورة على المسلمين لضعف حالهم كما هو الحال في مرحلة نزول الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ...﴾ الآية [الممتحنة:٨] فمثل هذا الترخيص لا يدل إلا على أنه غير ممنوع من هذه الجهة التي علق عليها الترخيص، ولا يدل على أنه رافع لكل مانع، ومبطل لأدلة الموانع الأخرى.

ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ [البقرة:١٨٧] لا تدل إلا على أنه لا مانع من ذلك من جهة الصيام وليس رافعاً لكل مانع، فلا يدل على إباحة مقاربة الحائض ليلة الصيام، ولا على جواز أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير ليلة الصيام، وهذا واضح.

وعلى هذا: فلحومهم التي لم تذبح على الطريقة الإسلامية لا تحل، أما ما علمنا أنهم ذبحوه على الطريقة الإسلامية فإن كان الإسلام شرطاً في صحة الذكاة، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ والخطاب للذين آمنوا فذبحهم مانع من حل اللحم، وإن لم يكن الإسلام شرطاً وقد طابق الذبح الصفة المشروعة لم يبق إلا الإسلام فلا يكون مانعاً، فالآية هذه لا تدل بنفسها على حل ذبائحهم، بل لا بد من دليل آخر، وإلا فالظاهر التحريم، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾.

فإن *قيل*: فما فائدة الترخيص إذا لم يكن المقصود حل اللحم؟

قلنا: هي كقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:٨] لأنه قد يتوهم وجوب تركهم مبالغة في معاداتهم.

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ ذكر المحصنات من المؤمنات في هذا السياق قد يكون تمهيداً لقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على أن المراد المؤمنات من الذين أوتوا الكتاب، فهن حل لكم لأنهن مؤمنات، وهذا تفسير الإمام الهادي × ، وقد احتج له في (الأحكام) بما يكفي فليراجع في (كتاب النكاح) من (الأحكام).

ويؤكده أن استعمال قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في علمائهم الذين قد آمنوا أظهر؛ لأنه مدح كما بينت، ومن أعظم مؤكداته: أن نكاح اليهودية والنصرانية مظنة أن تستخدم من قبل الكفار لإدخال الضرر على المسلمين في أي جانب وبأي طريقة وخاصة في هذا العصر الذي يحرص اليهود والنصارى على إدخال الضرر على المسلمين، وإفسادهم بجد وعناية كبيرة.

كما أن نكاحها مظنة أن يكون لها أولاد تربيهم على دينها إذا مات زوجها أو غاب، مع أن كثيراً من المسلمين يغفلون عما يجري على أولادهم من التربية على الباطل، وخصوصاً العامة من المسلمين الذين لا يهمهم إلا أعمال دنياهم، فكيف يحل من يدعو إلى النار، وقد علل تحريم مناكحة المشركين بقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٢١] ومثل هذا لا يتصور أن يتخلف، فيشرع الله الدعاء إلى النار ويترك الدعاء إلى الجنة.

فإن **قيل**: إباحة المؤمنات من أهل الكتاب أمر مفروغ منه، فما فائدة ذكره؟

قلنا: إنه وإن كان أمراً مفروغاً منه في وقت الرسول ص فيمكن أن التصريح به جاء لأجل المستقبل، ألا ترى أن في بلدنا هذه يتنزهون من نكاحهن ويعتبرونه معيباً، مع أنه تعالى قد قال: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وحلهن أمر مفروغ منه، فما المانع في المعطوف عليهن، وأن يكون من عطف الخاص على العام.

ولو قلنا: أنها في الكافرة لقلنا فيها كما قلنا في الطعام، وإن شرطها أن لا يكون فيها مانع آخر غير كونها من الذين أوتوا الكتاب، فإذا كانت مشركة حرمت لأجل الشرك، كما لو كانت أختاً من نسب أو رضاع، بل لو كانت قد أشركت فيما مضى ثم تركت فلا تحل، لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١] فلا يرفع تحريمها مجرد الترك ولا يرفعه إلا الإيمان؛ ولعل الحكمة أن القلب قد يكون باقياً على الشرك، وقد يكون مستعداً للعودة فيه ما لم تؤمن.

﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ فتحرم من منعها زوجها المهر ظلماً، ولعل هذه هي فائدة ذكر المحصنات من المؤمنات لأنه حكم جديد ﴿مُحۡصِنِينَ﴾ بهذا النكاح، والإحصان الحماية عن الحرام فهو يحمي نفسه وعرسه ﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ توضيح لمعني الإحصان، والسفاح الزنا ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ قال الراغب: ((قال الله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ جمع خِدْن، أي المصاحب، وأكثر ذلك يستعمل فيمن يصاحب بشهوة، يقال: خِدْنُ المرأة، وخدينها)) انتهى. وقد مر في (سورة النساء) تفسيره.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله × : ((دلت الآية الكريمة على حل كل طيب والمحصنات من المؤمنات، وهن العفيفات من الزنا، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب وهم الذين لم يشركوا بالله من اليهود والنصارى دون من أشرك منهم..)) الخ.

قلت: والأقرب: أنه لا يدخل فيها من تهود أو تنصر من غير بني إسرائيل إذا كان المراد الكافرات، فأما اللاتي أسلمن فهن حل كلهن.

﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ﴿يَكۡفُرۡ﴾ بالإيمان يرجع عنه ويرفضه ويقلع عنه، مثل ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ [الممتحنة:٤] ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت:٢٥] ﴿فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الماضي حين كان مؤمناً، فلا ينفعه ما سبق من إيمانه ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير، وصاروا في شقوة لا تنقطع، وهذا حث على الثبات على الإيمان.

إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُواْ

﴿٦﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ لما كانت الصلاة في الغالب تكون في المسجد يقوم إليها الإنسان من مسكنه إما بعد النوم كالفجر، وإما بعد راحة الظهيرة كالظهر، وإما بعد الراحة من عمل النهار كالمغرب، وإما بعد العَشاء ـ بفتح العين ـ قال تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا تهيأتم لها.

﴿فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ استعداداً لها، وذلك يستلزم النية، والوجه مابين الأذنين من قدام، وحده من أعلا مقاص الشعر ومن أسفل منتهى الذقن.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ فاليد كلها تغسل إلا ما فوق المرفق، والمرفق ما يرتفق عليه عند الإتكاء مجمع العضد والذراع.

﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ ماءً، وقد أفاد الماء ذكر الغسل والسياق للتطهر وفي المسح بالماء تنظيف لظاهر الشعر، ومسح يتعدى إلى مفعول به فيختلف باختلاف المقصود، فإذا كان المقصود تجفيف اليد مثلاً، قلت: امسحها بالمنديل؛ لأنها هنا ليست آلة بل المسح موجّه إليها واقع عليها، وإذا كان المقصود إزالة ما في اليد من ماء أو دهن أو دم، قلت: أمسحه بالأرض أو برأسك أو برجلك أو نحو ذلك؛ لأن المسح موجّهٌ إلى ما في اليد واقع عليه، ومنه ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ أي ماء.

وفي التيمم في (سورة النساء) ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [آية:٤٣] أي منه كما صرح به في (المائدة) ومنه الحديث: ((إن رسول الله ص وطئ بَعَرَ بعيرٍ رطب فمسحه بالأرض وصلى ولم يحدث وضوءً ولم يغسل قدماً)) رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) و (أمالي أحمد بن عيسى).

والحديث الآخر: ((فأمسّ إبهامه أنفه فإذا دم، فأعادها مرة فلم ير شيئاً فأهوى بها إلى الأرض فمسحه، ولم يحدث وضوءاً ومضى إلى الصلاة)) رواه في (المجموع) و(الأمالي) وفي (نهاية ابن الأثير).

وفي حديث فرس المرابط: ((أن علَفَه وروثه ومسحاً عنه في ميزانه)) يريد مسح التراب عنه.انتهى.

فالمفعول محذوف كما في الآية، وبهذا يظهر معنى (الباء) وأنها لإلصاق الماء بالرأس كما في ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء:٤٣] لإلصاق بعض من الصعيد بالوجه، وأنها ليست زائدة؛ مع أن الإثبات لا تزاد فيه (الباء) إلا في نحو: بحسبك درهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٧٩] ومواضع مخصوصة، وهو سماعي لا يقاس عليه.

﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أي واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين، فالرجل كلها تغسل إلا ما فوق الكعبين من الرجْلِ، والكعبان: عظمان في أسفل الساق، وهما المقصود هنا بدليل التثنية؛ لأن الأرجل مجموعة، فإما أن يلحظ الجمع فيقال: إلى الكعاب مثل إلى المرافق، وإما أن يلحظ الفرد، فلو كان المراد في القدم الواحد كعب واحد كعب الشراك لقيل إلى الكعب، ولو قيل:والرجلين بالتثنية صح أن يقال: إلى الكعبين لتثنية الرجلين مع كون المقصود كعب الشراك، إذا كان حقيقياً وفيه نظر.

قال الراغب: ((كعب الرِّجْلِ: العظم الذي عند ملتقى القدم والساق)) ولم يذكر غيره، وقال في (الصحاح): ((الكعب: العظم الناشز عند ملتقى الساق والقدم، وأنكر الأصمعي قول الناس: إنه في ظهر القدم)) انتهى

والوجه في غسل الكعبين: أن الغاية إذا احتمل دخول ما بعدها واحتمل خروجه كان هنا وفي المرفقين محمولاً على الدخول، لأن الأمر قد عم الأرجل والأيدي، فالأصل مع الالتباس الغسل إذا لم يتحقق الخروج من الحكم مع أنه أحوط.

وظاهر الآية: وجوب الوضوء عند كل قيام إلى الصلاة، فإن قام إلى كل فريضة قياماً توضأ لكل فريضة، وإن قام إلى الصلاتين قياماً واحداً توضأ لهما وضوءاً واحداً، فالحكم تابع للقيام.

وفي (أمالي أحمد بن عيسى): ((حدثنا محمد حدثنا جعفر بن محمد، قال سألت قاسم بن إبراهيم عن الرجل يصلي الصلوات بالوضوء الواحد؟ فقال: قد أمر الله بالوضوء عند ما يقوم إلى الصلاة وهو المحكم عندنا..)) الخ

نعم قولنا: بغسل الرجلين، هو العمل بقراءة (النصب) وهي القراءة المشهورة في العالم لم تختلف فيها قراءة حفص ونافع، وحمل العطف على المنصوب لفظاً وحكماً أقوى من دعوى أنه منصوب بالعطف على محل (رؤوسكم) لأن العطف على المنصوب لفظاً وحكماً ظاهر لا إشكال فيه.

وإن *ادعى* بعض الإمامية: أنه لا يجوز لأجل الفصل بقوله تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾؟

قلنا: الفصل لا يمنع، وهو موجود في مواضع كثيرة في القرآن الكريم كالآية التي قبيل (آية الوضوء): ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ عطف على ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ وقد فصل ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ﴾.

والعطف مع الفصل في (سورة الأنعام) في مواضع منها: قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آية:٨٤-٨٧].

فانظر كيف عطف: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ على جملة: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ ثم عطف ﴿زَكَرِيَّا﴾ على ﴿نُوحًا﴾ وقد فصل بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم عطف إسماعيل، وقد فصل بقوله: ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ثم عطف ﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ على ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ ثم عطف: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ على ﴿إِسْمَاعِيلَ﴾ أي وهدينا من آبائهم، وقد فصل بقوله: ﴿وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ثم عطف قوله: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ على ﴿نُوحًا هَدَيْنَا﴾ وما بعده، وقد فصل بما ترى، فالعطف مع الفاصل لا وجه لمنعه ولا استبعاده.

وقال في (مغني اللبيب) في أقسام العطف: «أحدها العطف على اللفظ وهو الأصل» انتهى، ولم يشترطوا عدم الفصل.

وأما قوله: إن العطف على أقرب ملفوظ هو الأصل، فلا نسلم أنه الأصل إلا إذا استوى المعطوف عليه الأقرب والأبعد، ولم يكن مرجح إلا القرب، فأما إذا كان العطف على اللفظ والمعنى فهو أرجح من العطف على المحل؛ لأنه تأويل خلاف الظاهر؛ لأن الأصل العطف على اللفظ، مع أن العطف على المحل لا يجوز إلا بشروط لم تحصل هنا؛ لأن من شروطه إمكان ظهور الإعراب في المعطوف عليه في الفصيح من الكلام، مثل: ليس زيد بقائم ولا قاعداً، ومنه قول الشاعر:

فلسنـا بالجبـال ولا الحديدا

فيصح: ليس زيد قائماً، ولسنا الجبالَ بالنصب الظاهر، وفي الآية لا يصح حذف (باء الإلصاق) وإيصال الفعل بنفسه، فاختل شرط العطف على المحل.

فإن *قيل*: لو قيل: (وامسحوا رؤوسكم) لجاز؟

قلنا: هذا ليس على حذف (باء الإلصاق) وتعدية الفعل بنفسه، بل يكون (رؤوسكم) مفعول به، وهو استعمال آخر جعل فيه الممسوح هو الرأس، وإنما المثال لو قال: (وامسحوا رؤوسكم ماءً) أي برؤوسكم، فهذا لا يصح، فلهذا قلت: لا يصح حذف (باء الإلصاق) فاختل شرط العطف على المحل، أما ليس زيد بقائم فإنه استعمال واحد تحذف فيه الباء أو تزاد.

فإن *قيل*: نختار أن (الباء زائدة) والأصل: (وامسحوا رؤوسكم)؟

قلنا: لا يصح حمل القرآن على العدول عن الاستعمال الصحيح الفصيح إلى ما لم يثبت جوازه، لأن ذلك مخل بالفصاحة ومخالفة للظاهر؛ لأن المتبادر المعنى الثابت للباء الذي هو الإلصاق بلا خلاف المشهور بين العرب لا غرابة فيه ولا شذوذ، فالعدول عنه بلا حجة من عطف القرآن على الرأي والتحكم في التفسير.

وكون الباء للإلصاق معنى ذكره النحاة قال (صاحب مغنى اللبيب) في معاني (الباء المفردة): ((أولها الإلصاق، قيل: وهو معنى لا يفارقها، فلهذا اقتصر عليه سيبويه)) انتهى

وفي (المفصل): قال: والباء معناها الإلصاق، كقولك: به داء أي التصق به وخامره ـ ثم قال ـ : ويدخلها معنى الإستعانة، وذكر بقية المعاني، فقد جعل الإلصاق هو المعنى الأصلي.

قال ابن يعيش في (شرح المفصل): ((واللازم لمعناها الإلصاق))انتهى، وابن الحاجب صدر الإلصاق في معاني (الباء) ولم نجد أحداً ذكر خلافاً بين النحاة في ذلك، فالظاهر إجماعهم عليه، وأما دعوى أن (الباء) للتبعيض فلا دليل عليه.

وقولهم: إنه لابد لها من فائدة وليست إلا التبعيض؟

قلنا: لا نسلم انحصار الفائدة في التبعيض، وقد بينا الفائدة وأن الرأس في الآية ليس هو المفعول به، بل المفعول به محذوف وهو (الماء) وإنما الرأس يلصق به الماء، فهي فائدة ظاهرة اقتضتها اللغة الثابتة، أما استعمال (الباء) للتبعيض فلم يثبت، وتفسير القرآن به فرع ثبوته قياسياً، ولا يكفي وجوده في كلمة مخصوصة كما قلنا في استعمالها زائدة.

وأما *قول* بعض الإمامية أن: (أرجلكم) معطوف على (رؤوسكم) لأنه الأقرب، وإعمال الأقرب في باب التنازع أولى؟

قلنا: لا يصح القياس على التنازع؛ لأن طريقته استعمال خاص بتوجه عاملين مختلفين إلى معمول واحد وليس مما نحن فيه ولا يقاس عليه العطف، لأن اللغة لا تثبت بالقياس، مع أن النحاة اختلفوا في باب التنازع هل الأول أولى بالإعمال لسبقه أو الثاني لقربه، مع أن هذا حيث يجوز العطف، وقد بينا أن الأصل المتبادر العطف على اللفظ وأن العطف على المحل اختل فيه جواز العطف على المحل باختلال شرطه.

فإن *قيل*: إن الرواية عن بعض الأئمة تفيد: أن (الباء) للتبعيض؛ لأنهم احتجوا على التبعيض بوجود (الباء)؟

قلنا: الرواية عنهم غير صحيحة عندنا، ولو صحت لاحتمل أنهم أرادوا أنها للإلصاق، وأن الإلصاق يحصل بإلصاق الماء ببعض الرأس كما تقول

لصقت بجدار الكعبة، وإنما لصقت ببعضه، وهذا نظر واجتهاد لا حكاية لغة للعرب بإثبات أن (الباء) للتبعيض، وقد اعترف الطوسي بأن (الباء) تأتي للإلصاق، ولكنه نفى أنها في الآية لذلك، وقد بينت أنها للإلصاق بما فيه كفاية.

ولو قيل: أن (الباء) في قوله: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ للظرفية، والمعنى: امسحوا فيها ماء وكذا في آية ﴿فَٱمۡسَحُوا بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡ مِنۡهُ﴾ أي امسحوا في وجوهكم من الصعيد، فالرأس محل للماء، والوجه محل لبعض الصعيد لكان محتملاً؛ لأن (الباء) تستعمل للظرفية بلا إشكال، والمعنى واحد، وامتناع العطف على المحل فيها وفي (باء الإلصاق) واحد لاختلال شرطه؛ وقد طولت هنا لكثرة ما وقع من الجدال في هذا الموضوع مع بعض الإمامية.

وقد احتج بعضهم للعطف على المحل بنحو ﴿مَنۡ يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمۡ﴾ [الأعراف:١٨٦] في قراءة جزم (يذر) عطفاً على محل ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ وهو من إثبات اللغة بالقياس؛ لأن هذا مع عدم ما يعطف عليه لفظاً، وهو في الفعل وفي العطف على جملة قامت مقام الفعل المجزوم، ونحن في العطف على المفرد للمفرد وقد مر ذكر شرطه.

﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ ﴿وَإِن كُنتُمۡ﴾ حين تقومون إلى الصلاة ﴿جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ من الجنابة بالغسل؛ لأن الجنابة مانعة من الصلاة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ [النساء:٤٣] والتطهر بالاغتسال، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾ [النساء:٤٣] فهنا إحالة على ما تقدم في (سورة النساء).

﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا﴾ ﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ فلم تجدوا بسبب عجز المريض عن طلب الماء أو كنتم على سفر ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ

مَآءً﴾ لبعدكم في القفر عن مواضع الماء، فذكر المرض والسفر، لأنهما مظنة أن لا يجدوا ماء، وفائدة ذكر المظنة تحسين فرض عدم الماء حتى لا يكون فرض الماء مستبعداً عند السامعين الذين عندهم الماء من أيسر الحاجات.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ لتحقيق أن التيمم يكون على الجنب وعلى المحدث، فقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ إشارة إلى الحدث لأن الذي يريد أن يبول أو يتبرز ينزل إلى منخفض من الأرض ليستتر فيه ففي هذا تعليم التستر عند قضاء الحاجة والإنفراد لقوله: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم﴾ ولم يقل: (أو جئتم).

وقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً﴾ يفهم منه: البحث عن الماء، لأنك في مثل هذا لا تقول: لم أجد إلا إذا بحثت، ويفهم منه: التأخير، لأن الماء لا يزال مرجواً بإنزال مطر أو غيره، فإذا كان ظاناً أنه لا يجد فلا يكفي ذلك لأن (لم) لنفي الوجدان وتحقق النفي في الماضي وما دام مستقبلاً لا يقال: لم أجد، فأما من لا يجد فهو غير داخل في الشرط لأن معناه لا يجد في الحال أو في الاستقبال فهو غير المذكور، ولذلك يلزم التأخير إلى خشية فوت الفرض لأنه يصدق عليه حينئذ أنه لم يجد.

وتيمم الصعيد: قصده والتوجه لتحصيله، وهو يدل على اختيار الطيب، ولا يكفي مطلق التراب أينما حصل، والصعيد: وجه الأرض وقد مر تحقيقه في تفسير آية (سورة النساء) والطيب: السليم من القذر والنجاسات السليم من التغير والفساد وقد مر فيه زيادة تحقيق.

﴿فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ ﴿مِّنْهُ﴾ أي من الصعيد الطيب بأن يلصق بالوجه واليدين بواسطة المسح، وقوله: ﴿وَأَيْدِيكُم﴾ ولم يقل إلى

المرافق، إما إحالة عليه، وإما إحالة على البيان من السنة إذا لم يكن المراد اليد كلها إلى الإبط، فأما تفسيره بالكفين قياساً على قطع السارق فبعيد، وقياسه على الوضوء أقرب.

فإن *قيل*: ليس قياساً، وإنما هو دليل على أن اليدين يصدق على الكفين؟

قلنا: ليس دليلاً؛ لأن اليد المقطوعة جملة اليد، وقطعها يتحقق من أي أبعاضها، ولذلك تحقق بقطع الكف كما تقول: قطعت الحبل، ولو كان قطعه من ربعه أو ثمنه أو نحو ذلك.

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ﴾ ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ هذا التشريع للوضوء والغسل ﴿لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم﴾ حرجاً، ولو قليلاً من الحرج، فليس المراد بهذه الأحكام.

﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ﴾ لأن الإنسان قد يبتعد عن التنظف لقلة مبالاته بالنظافة أو كسلاً أو اشتغالاً، فكانت الحكمة أن يفرض عليه فرضاً، وكانت الصلاة أحق بالطهارة، فعيّن لها المفروض ولفرضه علينا من الله كان الله مطهراً لنا بفرضه وبتيسير الماء للتطهر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال:١١].

﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ بتشريع أسباب الكمال للإنسان المطيع وارتفاع درجته وتحصيل فوائد الطهارة الدينية كالنشاط للصلاة والدنيوية كالنظافة والصحة، وشكر النعمة إظهار اعتراف القلب بها باللسان والأعضاء، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

والكفر: تغطية النعمة بترك الإظهار.

نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا

﴿٧﴾ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فامتثلوا أوامره في الطهارات وغيرها لأن ذكر النعمة يذكر بحق المنعم ويدعو إلى شكرها ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ حين آمنتم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقلتم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ غفرانك ربنا فالتزمتم بطاعته ليغفر لكم، والميثاق: القول المؤكد الذي يكون حجة على قائله.

قال الشرفي في (المصابيح): «وهو الميثاق الذي أخذه الله على المسلمين حين بايعهم رسول الله ص على السمع والطاعة...» الخ، وهو ظاهر فيحمل عليه الميثاق، ويلحق به التزام العبد عند التوبة أن يطيع ليغفر له.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ باتقاء عذابه، وذلك بالطاعة الخالصة لله وتجديد التوبة عند كل زلة،وهذا تأكيد لما في الآية الماضية من الأمر وتحذير من المخالفة.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تذكير بوجوب مراقبة الله في كل عمل وكل اعتقاد وكل نية، لأنه ﴿عَلِيمٌۢ﴾ بالخصلة المضمرة في الصدر المكتومة في الضمير و﴿عَلِيمٌۢ﴾ بخبايا النفس التي قد يغفل صاحبها عنها، فعلى المكلف أن يتيقظ ويحاسب نفسه محاسبة دقيقة.

وبهذه الآية تم الكلام في وجوب الطهارات، وعند إتيان موضوع آخر يبدأ بنداء الذين آمنوا إذا كان فيه تكليف لهم في هذه السورة الكريمة:

تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ

﴿٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ يدل على الاستمرار والتكرار، حتى يوصف الواحد بأنه قوام، والقيام لله يشمل: الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدفاع عن الدين بالقلم، واللسان، والسلاح، ونصرة الحق كذلك، على أن يكون ذلك كله لله طاعة وتقرباً إليه وتعبداً له، فهذا واجب مستقل أضاف إليه واجباً هو منه فقال تعالى:﴿شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ شهداء بالحق، عام للمسائل العلمية الدينية، وللشهادة بالقسط فيما تشاجر فيه الناس من أمور الدنيا.

﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ ﴿شُهَدَآءَ﴾ قد مر تفسيره في أول السورة، والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ﴿أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾ فتتركوا العدل لأجل بغضهم، وهو يعم ترك الشهادة لهم بالحق، وترك الإنصاف لهم فيما استحقوه من أرش أو قصاص أو دين أو إجارة أو غير ذلك، فنهى وأمر بقوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ﴾ حثاً على العمل بهذا التكليف وإن شق على النفس، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ أي أقرب لاتقاء عذاب الله؛ لأنه من أهم عمل التقوى الذي هو الطاعة لله سبحانه فيما أمر ونهى فالمطيع فيه أقرب إلى الطاعة في غيره من التكاليف، فهو أقرب للتقوى.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ حث على تقوى الله بطاعته في القيام له والإنصاف وفي كل شيء، فهو تأكيد ختمت به هذه، كما ختم الكلام في (الطهارة) بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا

وختمت (آية الصيد بالكلاب) بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ وختمت آية: ﴿لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فأفاد ذلك أن تقوى الله: طاعته في كل أمرٍ ونهي، لا في ترك الشرك وحده، ودل ذلك على أن العصاة من الذين قد آمنوا يعذبون، ولا يدفع عنهم ترك الشرك بالله الذي خرجوا منه بشهادة التوحيد والدخول في الإسلام.

﴿٩﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الحسنات التي لم يصحبها مفسد ولا محبط ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هذا هو الوعد.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ آيات الله: دلائله من القرآن وغيره، قال في (الصحاح): «الجحيم: اسم من أسماء النار، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧] انتهى

﴿١١﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ يمدوا أيديهم لقتالكم ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ هذا الوصف ينطبق على (يوم الأحزاب) الذي قال تعالى فيه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥]

وقال تعالى فيه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب:٩].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ذكرهم بنعمته، ليطيعوه شكراً، وتجنباً لكفر النعمة الذي يتنزه عنه من استعمل عقله لقبحه عقلاً وعطف عليه الأمر بتقوى الله ليطيعوه ليقوا أنفسهم عذابه، وأمرهم بالتوكل ليثبتوا على طاعته ولا يصرفهم عنها خوف عدو أو خوف فقر أو نحو ذلك.

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة العنكبوت): ((والتوكل: هو الوثوق به، وإسناد الأمر إليه)) انتهى.

وقال المنصور بالله × في (حديقة الحكمة شرح الأربعين السيلقية) في التوكل: ((ومعناه ـ أي التوكل ـ أن لا تهتمّ بالأمر المهمّ اعتماداً على غيرك فيه، ولذلك سمي الرجل: وكْلاً وهو الذي لا يهتم بالأمور اعتماداً على غيره فيها وهو ذم عندهم.

ومعنى التوكل على الله: أن تعتمد في كل مهمّ عليه، وتردّ كل مُلِمٍّ إليه، وتضع يدك في يديه، ولا ترجوا لكل شديدة سواه، ولا توالي خوفاً من المشاقّ عداه، تؤثر إن أعطاك لترضي وليه، وتشكر إن منعك لتكبت عدوه، ولا تطلب شيئاً من رزقه بمعصيته، ولا تعصه عزّ وعلا لرضى أحد من خلقه، ولا تقصر في شيء من عبادته ولوازم تكليفه، فهذا معنى التوكل عندنا، وبه يسمى العبد متوكلاً شرعاً)) انتهى من شرح (الحديث السادس).

وقوله في تفسير التوكل على الله: وتضع يدك في يديه، أي تتوجه حيث وجهك، لا يمنعك خوف من عاقبة الأمر، لأنك قد وكلت أمرك إليه، فما شاء أن يقضي لك بسبب طاعته فأنت راضٍ به.

مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يفيد: الحصر، فعلى المؤمن أن يتوكل على الله وحده لا يتوكل على غيره.

ولما أمر المؤمنين بذكر ميثاقه الذي واثقهم به، ذكرهم بما صار إليه بنو إسرائيل بعد نقض الميثاق الذي واثقهم به، فقال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) قال: ((في (البرهان): يعنى بإخلاص العبادة لله ولزوم طاعته)) انتهى.

قلت: الأقرب أن الميثاق عليهم بما ذكره: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي..﴾ الآية، فأخذ الميثاق منهم على ذلك، وأعطاهم العهد على أنهم إن وفوا بذلك ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ...﴾ إلى آخر الآية، ولذلك قال في (سورة البقرة): ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [آية:٤٠] وهذا قد شمله كلام (صاحب البرهان) وهو أبو الفتح الديلمي من أئمة الزيدية.

﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان): ((أخذ من كل سبط منهم نقيباً والنقيب: الشهيد على قومه وهو الأمين والضمين أيضاً، وهؤلاء النقباء كانوا مبعوثين إلى الجبارين ليقفوا على ما عندهم وينظروا في أحوالهم ويرجعوا بها إلى موسى × فرجعوا ينهون عن قتالهم لما رأوا من شدة الجبارين وعظم بأسهم)) انتهى.

قلت: الظاهر: أن وظيفة النقباء تتعلق بالميثاق، وأنهم أمناء كل واحد على أصحابه لمتابعتهم بالوفاء بالعهد ـ والله أعلم.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ لبني إسرائيل عند أخذ الميثاق ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ رقيب عليكم شهيد على ما يكون منكم من وفاء أو نقض للعهد، ثم رغبهم في الوفاء فقال تعالى: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ﴿وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾ من مضى ومن بعث بعد هذا العهد ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ قال الراغب: ((التعزير: النصرة مع التعظيم)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((التعزير: التعظيم والتوقير)) انتهى.

وقول الراغب أقوى؛ لقول الله تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] والتوقير: التعظيم، والعطف ظاهره التغاير، وقال (صاحب الكشاف): ((وعزرتموهم: نصرتموهم ومنعتموهم من أيدي العدوّ ـ ثم قال في الكشاف ـ : يقال: عزرت الرجل، إذا حطته وكنفته، والتعزير والتأزير من وادٍ واحد، ومنه: لأنصرنك نصراً مؤزراً، أي قوياً)) انتهى.

ومثله في (المصابيح) فقد اتفق هو وقول الراغب في إثبات النصرة، فهو الراجح والموافق للعهد على النبيئين ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعم الإنفاق في سبيل الله، أو هو المراد.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَرُ﴾ فقوله: ﴿لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يفيد: النجاة من عذاب الله، وقوله: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ﴾ يفيد: الفوز بالثواب الدائم.

نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ

﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ هذه النعمة العظيمة نعمة الدين والوعد العظيم فنكث العهد فقد غوى سواء الطريق، وتاه في غير الطريق، لأنه عدل عن طريق السلامة والكرامة بعد وضوحه، ثم بين تعالى ما صاروا إليه بعد الميثاق:

﴿١٣﴾ ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ بسبب نقضهم لميثاقهم ﴿لَعَنَّٰهُمْ﴾ طردناهم من رحمتنا فمنعناهم الألطاف وسلبناهم التوفيق ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ لا تؤثر فيها المواعظ، ولا تلين لذكر الله وعظمته وجلاله وعزته وجبروته، ونسبة القسوة إلى الله لأنه فطر القلوب على قبول التأثر بالخير والشر فتصلح بالخير وتفسد بالشر لأنها تألفه، وذلك بفعل صاحبه وقد تركه الله يفسد قلبه لاستحقاقه الخذلان، وفائدة نسبته إلى الله التخويف منه، وأن لا يخرج الكلام مخرج الشكوى منهم كما قدمت في ختم الله على قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ يبين قسوة قلوبهم ويذكر أثراً من آثار القسوة يدل على جرأتهم على الباطل وعدم المبالاة بفعل المنكر العظيم، والكلم: ما أنزل الله من كلماته، وتحريفها عن مواضعها: تحويلها عن سياقها المبين للمراد بها حتى يمكنهم تفسيرها بغير معناها، ولعلهم كانوا ينقلون الكلمة دون سياقها في ورقة مستقلة ويكتمون السياق، كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام:٩١] والله أعلم.

ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١٤ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا

﴿وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ تركوا نصيباً مفيداً نافعاً ﴿مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ في التوراة من المواعظ والترغيب والترهيب كأنهم نسوا لأن الناسي للشيء لا ينتفع به حتى فاتهم ما فيه من الخير.

﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ ﴿عَلَىٰ خَآئِنَةٖ﴾ على خيانة ﴿مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡ﴾ وإنما رجحت أنها بمعنى المصدر لأجل الاستثناء، فالمعنى أنها تتكرر منهم الخيانة فإن كان الخطاب لرسول الله ص فهي تشير إلى جرأتهم بخيانة الرسول ص وإن كان الخطاب للسامع فمعناه: إن عادتهم الخيانة عادة مستمرة، والأول أوفق للسياق قبلها وبعدها.

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي اعف عما صدر من خيانة محتملة ﴿وَٱصۡفَحۡ﴾ عن زلاتهم لفضل الحلم والإحسان وما فيه من الترغيب في الإسلام وزيادة الحجة عليهم، وهذا مطلق، مقيد بما في (سورة البقرة): ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [آية:١٠٩]. أو أن آية (المائدة) نزلت بعدما أعطوا الجزية وصاروا أهل الذمة وهو الأقرب، لأن الذين يطلع على خائنة منهم هم الذين قد انتصر عليهم رسول الله ص لا البعيدون الذين ليس بينهم وبينه عهد ولا ذمة ولا معاملة، وغير الذين أجلاهم إلى الشام.

١٤ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ﴾ ومن الذين ادعوا أنهم نصارى وغيروا وبدلوا بعد ذلك ولم يثبتوا على النصرانية لأنهم

عدلوا عن التوحيد الذي هو أصل الدين، وحقيقته: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ..﴾ الآية [البينة:٥] فحين أشركوا كانوا قد خرجوا عن دين النصرانية الأصيل وبدلوه مع تمسكهم بهذا الاسم ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ﴾ على السمع والطاعة وإخلاص العبادة لله والإيمان برسل الله ونصرهم، أخذ ميثاقهم في الإنجيل مع أخذ الميثاق أولاً على بني إسرائيل جملة.

﴿فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ وبذلك نقضوا الميثاق ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال في (الكشاف): ((﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ فألصقنا وألزمنا، من غري بالشيء إذا لزمه ولصق به وأغراه غيره، ومنه الغِرَاء الذي يلصق به)) انتهى، أي أن الغراء سمي به من اللصوق.

قال الإمام الهادي × يصف قتاله لأعداء الله:

غريت أنامل راحتي بصفيحتي ... للَّه درّ خبعثن أغراها

فإغراء العداوة والبغضاء على أحد معنيين: إما على معنى جعلنا في قلوبهم العداوة والبغضاء فأغرينا عداوة وبغضاء كل حزب بالحزب الآخر فنسب الإغراء إلى العداوة والبغضاء وهو لصاحبها؛ لأن الإغراء لصاحبها وقع بها لأنها الباعثة على القتال، فهو مجاز لفظي.

المعنى الثاني: أغرينا بينهم: ألصقنا بقلوبهم العداوة بينهم والبغضاء، كما يلصق الشيء بواسطة الغراء، والإغراء في المعنى الأول هو مثل إغراء الكلب بالصيد، وهل يحتاج إسناد هذا إلى الله تعالى إلى تأويل أو لا يحتاج باعتبار كونهم كفار مستحقين للعقاب وهذا هو الراجح.

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ فيه دلالة على أنه سبحانه عليم بما ﴿يَصْنَعُونَ﴾ ولا ينساه، وأنه يحاسبهم عليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأوفى.

يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ

﴿١٥﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خطاب عام للذين هادوا والذين قالوا إنا نصارى لدعوتهم جميعاً إلى الإيمان بالكتاب والرسول وترك الشرك.

﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ من أحكام الله تعالى وما في كتابكم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ﴾ تخفونه عن الناس وعن جهلة أصحابكم، وهذه آية لكم تدلكم على أن الله أوحى إليه ذلك الذي يبينه لكم وأنتم تكتمونه؛ لأنه لم يقرأ كتابكم ولا تعلم منكم ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ مما كنتم تكتمونه لعدم الحكمة في إظهاره.

﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ربكم فعليكم أن تتبعوه ﴿نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ يحتمل أن المراد بالنور: القرآن، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فالعطف مثله في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:١] فهو نزل نوراً يهتدى به، ونزل كتاباً يكتب ليحفظ وتتوارثه الأجيال.

وعلى هذا فترك العطف في أول الآية لتمام الاتصال، لأن الرسول جاء بالقرآن وهو برهان رسالته فهما كالشيء الواحد، ويحتمل أن المراد بالنور: الرسول ص، كقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] وقولُه تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ يدل على أن القرآن واضح الدلالة على ما به يهتدي من اتبعه:

بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن

﴿١٦﴾ ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿يَهْدِى بِهِ﴾ يهدي بالقرآن ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي أنزله هدى للمتقين ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ من اتبع سبب رضوانه بأن آمن وتاب إلى ربه واتقاه ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ طرق السلام المؤدية إلى السلامة في الآخرة من العذاب ومن كل شر.

فإن **قيل**: هداية من اتبع رضوانه سبل السلام من تحصيل الحاصل؛ لأن من اتبع رضوانه فقد اهتدى إلى سبيل السلامة من العذاب؟

فالجواب: أن العاقل عندما يسمع آيات الله إما أن يؤمن ويتوب فيكون قد اتبع رضوان الله في هذه اللحظة، وإن كان لم يعلم شرائع الإسلام ولكن لا بدله من تعلم ما جاء به الرسول واتباعه، وإلا انحرف عن رضوان الله، فإذا تعلم واتبع كلما علم كان متبعاً لرضوان الله يزيده الله هدى، وهكذا ما بقي في دار التكليف فقد ظهر أنه ليس من تحصيل الحاصل؛ لأن سبب رضوان الله في أول أمره دون سبب رضوانه بعد أن أمكنه التعلم وسبب رضوانه بعد أن علم أكثر من سبب رضوانه قبل إمكان التعلم، فالطلب للعلم وسبب رضوانه بعد وجوب الجهاد عليه أكثر منه قبل ذلك، وهكذا سائر التكليف، ولعل هذا سبب جمع سبل السلام باعتبار تعدد التكاليف واختلاف درجات التكليف ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلمات الباطل والجور كالشرك وسائر العقائد الباطلة والخرافات والظلم والفساد إلى نور الحق والعدل والصدق ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي بأمره ولطفه وتيسيره، لا بالإجبار كما قال الجهال)) انتهى.

يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

ولما كان خروج الإنسان مما ألفه واعتاده واستمر عليه من العادات الباطلة والعقائد التي هي ظلمات إلى نور الحق والعدل والصواب ثقيلاً على النفوس، بحيث أن كثيراً من الناس لا يريد إلا البقاء على ما ألفه، قال تعالى: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ ليعلم أن ذلك غير مستبعد ممن أذن الله بخروجه من الظلمات إلى النور بأن يسر له ذلك وحببه إليه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وذلك برحمة الله وفضله، وكون العبد لم يتمرد ويجادل في آيات الله ويتبع كل شيطان مريد، بحيث يستحق لو كان كذلك الخذلان وإرسال الشياطين عليه.

﴿وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهذه الهداية هي قرينة الإخراج من الظلمات إلى النور،وهي تنوير القلب الذي يحصل معه الاستمرار على الحق والرغبة في ذلك والزهد فيما يشغل عن ذكر الله وشكره وحسن عبادته وهو الصراط الذي لا يعوج الموصل إلى السعادة الدائمة، الواضح الذي لا يلتبس على صاحبه ولا يخفى؛ لأنه بسبب الزهد في الدنيا لا يدخل في شبهة ولا يسلك طريقاً يشك في هدايته ويترك ما يريبه إلى مالا يريبه، فهو على طريق واضح يوصله السعادة الدائمة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد × : هذه الآية نص صريح في أن الكتاب العزيز هو الهادي إلى سبل السلام، والى الصراط المستقيم من الدين، ومن ذلك عرض ما لم يعلم مما ورد من السنة على الكتاب العزيز)) انتهى.

١٧ ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ ذكر سيد قطب في (تفسيره): ((أن بعض النصارى أحدثوا هذا القول في سنة٤٣١ميلادية)) انتهى.

بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ

وذكر هناك في تفسير الآية أقولاً لهم مختلفة، ولا يكاد يتصور القول بأنه الله مع القول أنه ابن مريم لولا أن إهمال العقل يتقبل الإنسان معه كل باطل ولا يبالي، فهذا الكفر كفر بالله، وكفر بما جاء في الكتب، وما أرسلت به الرسل من تسبيحه وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وأنه الخالق، وأنه الأول قبل كل شيء، وأنه لا شريك له، إله واحد، لا إله إلا هو، وهو مع ذلك كفر بنعمة الله ونسبة للنعمة إلى المسيح × .

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ وهذا يبين: أن الذي خلق المسيح بن مريم قادر على إهلاكه وإهلاك أمه ومن في الأرض جميعاً، فالكل مخلوقون يقدر من خلقهم أن يهلكهم، فكيف يكون الله من يجوز عليه الهلاك ولا يملك أن يدفع عن نفسه ولا يملك من الله أن يرجع عما أراد من إهلاكه لو أراد الله إهلاكه، وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ يفيد: أنه تعالى قادر على إهلاكهم في وقت واحد.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ فيه حصر بتقديم الخبر وهو ﴿لِلَّهِ﴾ فله الملك وحده لا شريك له، ولأن له الملك فهو ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ومن ذلك خلق آدم بلا أب ولا أم، وخلق زوجه، وخلق عيسى من أم بلا أب ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه خلق عيسى من غير أب فليس يجب أن يكون له أب حتى قلتم أن الله أبوه سبحانه و تعالى.

﴿١٨﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فرّعوا على جعلهم (عزير بن الله) في

قول اليهود، وجعلهم (عيسى بن الله) في قول النصاري، فرّعوا على ذلك قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ﴾.

وأما قولهم: ﴿وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ فلعلهم اغتروا لجهلهم بكثرة نعم الله عليهم كفرق البحر لهم لإنقاذهم من آل فرعون وإهلاك فرعون وقومه بإغراقهم، وكالمناجاة لموسى ومعه سبعون من قومه لعلهم يكتبون ما نزل، وكإنزال المنّ والسلوى عليهم، وتظليل الغمام ونحو ذلك، وجعل الكتاب فيهم والأنبياء الكثير منهم، ولكن نعم الله ابتلاء للعبد أيشكر؟! أم يكفر؟! فإن كفر كانت الحجة عليه أعظم، وهو عند الله ألْوَم.

وقد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ فإن النعمة لو كانت دليلاً على الحب، لكان التعذيب يدل على البغض والكراهية ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ فأنتم عباد مربوبون كسائر البشر المخلوقين.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لأنهم عباده كلهم، يحكم فيهم ما يريد، والذي يشاء أن يغفر له التائب إليه، والذي يشاء أن يعذبه من عصاه وتمرد عليه ولم يتب إليه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لله وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ لا يشاركه فيه عزير، ولا عيسى، ولا اليهود، ولا النصارى، بل هم عباده حق عليهم ووجب أن يعبدوه ويتقوه ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وحده يصير العباد كلهم فيحكم فيهم بحكمه، ولا يكون لحكمه راد ولا منازع فيه، فاليهود والنصارى مصيرهم كغيرهم إلى الله وحده لا إلى غيره معه، فلا ينفعهم هناك عزير، ولا المسيح بن مريم، ولا أمه.

قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ

﴿١٩﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ الحق ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قد جاءت فَبَعُدَ عهدُكم بالرسل، واحتجتم إلى رسول يبين لكم الحق، ويخرجكم مما لولاه لم تنفكوا عليه من الباطل، كما قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ..﴾ الآيات [سورة البينة].

﴿أَن تَقُولُواْ﴾ يوم القيامة ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لئلا تقولوا ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ ولم يبق لكم عذر وقامت عليكم الحجة بمحمد ص والقرآن الحكيم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على إرسال الرسل ﴿لئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّـهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فكيف كذبتم الرسول.

ثم بين تعالى بعض تمرد بني إسرائيل، ليبين: أنه لا يستبعد تكذيبهم للرسول ص، فقال تعالى:

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذكّرهم بنعمة الله ليطيعوا الله فيما يأمرهم به من دخول الأرض المقدسة، فإن الحجة عليهم أعظم والمعصية منهم أقبح.

وقوله: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ يدل على أنهم قد مكنهم الله في الأرض بعد ما كانوا أذلة، وقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي من نعم الله التي يجب شكرها.

ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ

﴿٢١﴾ ﴿يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ لما كان هذا التكليف شاقاً عليهم لما فيه من قتال الجبارين، مهّد له بتذكيرهم بعظم نعم الله عليهم، وأضاف إلى ذلك تشجيعهم بأن الله كتبها لهم، فهم مظنة أن ينتصروا ويدخلوها، وحذرهم المعصية، وبين لهم أنها ارتداد عن طاعة الله وانقلاب على الأعقاب.

وهذا دليل على تسمية الفسق ارتداد، إلا أن يقال: إنما عنى نهيهم عن الهزيمة والفرار من الزحف وهو محتمل، إلا أن قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ يبين أن المراد: الارتداد عن الطاعة؛ لأن الارتداد الذي بمعنى الهزيمة تولية الأدبار، لا على الإدبار الذي هو القهقرى يتأخر مع بقاء اتجاهه، مع أن تولية الأدبار من جملة المعصية؛ لأنهم أمروا أن يدخلوا فإذا انهزموا عصوا هذا الأمر وارتدوا عن الطاعة إلى العصيان ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ أي خسارة الدين، وخسارة فوت نعمة أخذ الأرض المقدسة التي كتب الله لهم أن يأخذوها يوماً من الدهر.

وقد *قيل*: أن اليهود اليوم يحتجون بهذه الآية على أن فلسطين لهم؟!

والجواب: أنا لا نسلم أنها كانت لهم من حيث هم يهود، وإنما كانت لقوم موسى قرية في (فلسطين) بدليل قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة:٢٣] لأنهم بعد التوبة من عبادة العجل كانوا مسلمين، وأراد موسى أن يتمكن الإسلام في (فلسطين) لا لأجل عنصر اليهود ولذلك فسّقهم لما عصوا، لأن الغرض المقصود كان دينياً هو الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، وتمكين

تَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن تَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن

الإسلام في أرض الإسلام التي كانت بلد الإسلام من عهد إبراهيم الخليل ـ صلى الله عليه ـ وتطهير الأرض المقدسة من رجس الجبارين، ولو كان الغرض مجرد إسكان اليهود في القدس لما شدد عليهم فيه لأنه غرض دنيوي إن شاءوا نيله وإلا فلا يهم، واليهود اليوم في القدس بمنزلة الجبارين في وقت موسى × ، فينبغي للصادقين من المسلمين إخراج الجبارين من الأرض المقدسة.

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ ﴿جَبَّارِينَ﴾ قهارون يجبرون الناس على ما يريدون وهذا معناه: الامتناع عن الجهاد يدعون أنهم لا يستطيعون قتال الجبارين.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ من الذين يخافهم قوم موسى ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ بالهدى فلم يكونا مع قومهما الجبارين، فقالا نصيحة لقوم موسى العاصين: ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ على الجبارين ﴿ٱلۡبَابَ﴾ باب مدينتهم فذلك وإن شق عليكم يؤدي إلى النصر، لأنكم إذا ﴿دَخَلۡتُمُوهُ﴾ دخل الرعب على أهل البلد ﴿فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَ﴾ بالتأكيد لأنه ما غزي قوم إلى عقر دارهم إلا ذلوا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأن شأن المؤمن أن يطيع الله، ويكل أمره إلى الله إن أراد له النصر أو الشهادة، فلا يمنعه الخوف من طاعة الله تعالى.

نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي ۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ

﴿٢٤﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ أصروا على الامتناع، وزادوا على ذلك قولهم: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ وكأنه جواب عن قول موسى لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إذا صبرتم نصركم لأن الله معكم، وقولهم: ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ تأكيد لامتناعهم.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِي ۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ الملك: بمعنى القدرة على توجيه قومه كيف أراد كقول الشاعر:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا

ومنه قول الله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١] واستثنى نفسه وأخاه لعلمه أن أخاه يطيعه ولا يخالفه أبداً وهو هارون × .

وقوله: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ طلب للإذن من الله بتركهم والهجرة من بينهم؛ لمعصيتهم وفسقهم الذي هو خبثهم وفجورهم، فقد كره مساكنتهم، ولا ندري إن كان أجيب ليفارقهم فراقاً مؤقتاً ويذهب في طلب الخضر الذي جاءت قصته في (سورة الكهف) الله أعلم، أو أن الله توفاهما وأراحهما بالموت من التكليف كله.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ﴾ الله ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فإنها أي الأرض المقدسة ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ ممنوعة منعاً باتاً لا يستطيعون دخولها كقول عنترة:

ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ

يا شـاة ما قنص لمن حلت لـه حرمـت علـيّ وليتهـا لم تحرم

إلى قوله:

عُلّقتها عَرَضـاً واقتـل أهلهـا زعمـاً لعمـر أبيك ليس بمزعم

وهذا لا ينافي أنها كتبت لقوم موسى؛ لأنه لم يكن مؤقتاً بوقت أمرهم بدخولها وقد صدق بعد الأربعين سنة، والمراد: قوم موسى × جملتهم لا الأشخاص بعينهم، لأن بعضاً لا بد أن يموت في خلال الأربعين، ويكون الداخل بعض شيوخهم وذرياتهم قد صاروا مع بقايا الشيوخ هم قوم موسى.

وقوله تعالى: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يمشون في الأرض في حيرة، فلا هم راجعون إلى (مصر) ولعله للخوف وضرب الذلة على العصاة، ولا هم داخلون الأرض المقدسة، ولا هم صائرون إلى غيرهما من البلدان، ولا هم باقون في مكان من القفر يستوطنونه؛ لأنها عقوبة كتب عليهم التيه والله غالب على أمره ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ قال الراغب: ((الأسى: الحزن، وحقيقته: إتباع الفائت الغم)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((وأسى على مصيبته بالكسر يأسى أسىً أي حزن)) انتهى، فالمعنى: فلا تحزن عليهم لأنهم فاسقون أي لا تحزنك مصيبتهم التي هي التيه أربعين سنة؛ ولعل هذه القصة آخر قصص بني إسرائيل مع موسى × .

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يقرن ذكر القصص ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لأن أكثر القصص لا يكون صدقاً، بل يختلط الصدق والكذب، أو يكون القصص كله كذباً، أما قصص الله فكله حق وصدق، لأنه علام الغيوب، حكيم لا يجوز عليه الكذب سبحانه وتعالى.

لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ ظاهره: أنه قربان واحد اشتركا فيه، كما يشترك المضحون في أضحية واحدة فقوله: ﴿مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ نائب فاعل ﴿فَتُقُبِّلَ﴾ وكذا ﴿مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ نائب فاعل ﴿يُتَقَبَّلْ﴾ أو أن نائب الفاعل صح ضمير القربان، كما ذكر أن لكل منهما قرباناً؛ وإنما لم يثنِّ لأنه في الأصل مصدر فذلك محتمل.

﴿قَالَ﴾ الذي لم يتقبل منه: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ غاظه قبول قربان أخيه مع عدم قبول قربانه، فتوعده بالقتل ليشفي غيظه، وهكذا يجر الحسد إلى الظلم ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فالفارق حكمة الله، التي اقتضت أن يتقبل منى دونك، وأنت الذي لم تتق الله، فالسبب من عندك فلُمْ نفسك ولا تلمني.

﴿٢٨﴾ ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بسط اليد: مدّها مقابل قبضها، وقوله: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ يدل على أنه يتورع من قتل أخيه وإن كان قد توعده بالقتل؛ ولعل ذلك لم يكن مرخصاً وإن ظن صدقه، فليس له أن (يتغداه قبل أن يتعشاه) أما الدفاع عند المواجهة للقاتل فلعله واجب؛ لأنه نهي عن منكر.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يبين: سبب تورعه من قتل أخيه، وفي ذلك موعظة لأخيه، وليس فيه دلالة على أنه لا يبسط يده إليه ليدفعه عن قتله، لأنه إنما نفى بسط يده إليه ليقتله لا ليدفع عن نفسه.

جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي

﴿٢٩﴾ ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ أن تطهرني بالشهادة، وتحمل ذنوبي أي مثلها، أو تحمل إثم قتلي، كما لو جعل على القاتل ما على المقتول من الدّين جزاء مع القصاص ـ والله أعلم.

﴿وَإِثۡمِكَ﴾ الأول والآخر ﴿فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ بجرائمك ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي الكون من أصحاب النار ﴿جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ كلهم القتلة وغيرهم.

قوله: ﴿أَن تَبُوٓأَ﴾ قال في (الصحاح): ((المباءة: منزل القوم في كل موضع ـ ثم قال ـ : وبوأت للرجل منزلاً وبوأته منزلاً أي هيّأته ومكّنت له فيه، ثم قال: وأبأت الإبل رددتها إلى المباءة، وأبأت على فلان ماله، إذا أرحت عليه إبله أو غنمه ـ ثم قال ـ : قال الأخفش: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٢] رجعوا به، أي صار عليهم، قال ـ أي الأخفش ـ وكذلك باء بإثمه يبوء بَوْءاً)) انتهى.

قلت: الأظهر: أنه بمعنى الرجوع إلى المباءة أي المنزل كما قالوا: أبأت الإبل رددتها إلى المباءة، إذ ليس في أبأت الإبل إلا زيادة همزة التعدية، فظهر أن أصله: باءت الإبل، أي رجعت إلى مباءتها، فظهر صحة كلام الأخفش، فأما تفسير (باء) أي حل مبوأ فلم يثبت استعمال (باء) بهذا المعنى، إنما يقال: تبوأ بمعنى اختار مباءة، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف:٥٦].

سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ

﴿٣٠﴾ ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

(طوعت له نفسه) زينت له نفسه ﴿قَتْلَ أَخِيهِ﴾ حتى جعلته طوعاً غير كره والطوع ضد الكره، وجعل القتل طوعاً، بمعنى: أن يقع طوعاً تسمية للمسبب باسم سببه ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ﴾ أبلغ من (سولت له نفسه) أو سهلت، لأن التسويل والتسهيل قد يكون مع بقاء الكره، بخلاف التطويع فهو يدل على عدم الكره ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ من أهل النار الذين خسروا أنفسهم وفاتهم كل خير، ذلك هو الخسران المبين.

﴿٣١﴾ ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ بعث الله ﴿غُرَابًا﴾ أثاره ووجهه إلى هذا العمل ﴿يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويدفن فيها ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ﴾ يواري: يستر ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ ما يسوء رؤيته أي جسده بعد القتل أو عورته.

﴿قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ كلمة ندب يقولها المصاب بمصيبة شديدة، والويل الهلاك ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾ بالنصب، عطفاً على أكون، فلما بعث الله غراباً ليريه أن يبحث في الأرض ليواري فيها سوءة أخيه، أي ليريه أن يواري سوءة أخيه بطريقة البحث في الأرض والدفن فيها، وهذا يدل على أنه لم يكن مات قبله أحد من أولاد آدم × فلم يكونوا عرفوا دفن الميت.

أما قول القاتل: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ فإنه يظهر منه: أنه تنبه لخسارته من جهة جهله وعدم عاطفته على أخيه، حيث تركه مكشوفاً لم يدفنه لعدم مبالاته به.

إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن

﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ لانتباهه لخسارته بقتله أخاه ثم تركه بدون دفن، يشير إلى ذلك قوله: ﴿فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى﴾ لأن قتله أشد من تـرك مواراتـه، وقد علق ذلك الإنكار على نفسه على كونه أخاه وهـذه الخسـارة عنـده أن خسر أخاه بجهله وفرط قسوته، وذلك لأن باعثه على القتل قد زال، فحصل ندمه على أخيه ولسوء تصـرفه بـترك دفنـه، والحاصـل: أن عاطفـة الأخـوة رجعت بعد قتله، فندم ندماً مستمراً.

﴿٣٢﴾ ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ﴿مِنْ أَجْلِ﴾ قتـل ابن آدم أخاه، مع ما بينهما من القـرب بسـبب الباعـث النفسـي الـذي هـو الحسد ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ زجراً عن القتل بغـير حـق ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشـأن ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا﴾ غـير قصـاص، ولا دفـع للفسـاد في الأرض ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ في أن ذنبه لا يغفر بـل هـو مـن أصـحاب النار كما لو قتل الناس جميعاً، وهذا قطع للطمع في مغفـرة القتـل والتهـاون به، فالمناط كون المقتول نفساً وكون قتله غير قصـاص ولا دفـع فسـاد، فـلا يختلف في هذا كون المقتول صغيراً أو كبيراً أو معتوهـاً أو مريضـاً أو شـيخاً كبيراً أو قريباً أو بعيداً أو أنثى أو غير ذلك.

ومن هنا قال موسـى: ﴿رَبِّ إِنِّـي ظَلَمْـتُ نَفْسِـي فَـاغْفِرْ لِـي﴾ [القصص:١٦] فاحتاج إلى التوبة لقتل رجل من آل فرعون قبل الأذن بقتله.

وفائدة ذكر هذا لبني إسرائيل: منع تساهل اليهود بقتل النفوس البريئة، كقتلهم الأنبياء بغير حق، وقتلهم الجماعي للفلسطينيين، فهم في حاجة إلى الزجر الشديد لتهاونهم بالقتل وخصوصاً لمن كان من سائر الأمم الذين لا يرى اليهود لهم حرمة الإسرائيليين، فبين الله: أن أي نفس من أي جنس قتلت بغير قصاص ولا دفع الفساد في الأرض، فإن قاتلها معذب في جهنم خالداً فيها، كما لو قتل الناس جميعاً، وهذه الآية تبدأ الكلام في بني إسرائيل بحسن تخلص من قصة ابني آدم.

﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ في أن الله يثيبه ثواباً عظيماً ويؤتيه أجراً عظيماً، ولا مانع هنا أن يؤتى تفضلاً من الله من أحيى نفساً كما لو أحيى الناس جميعاً، بعضه ثواب وبعضه تفضل؛ لأن الثواب بقدر العمل، والتفضل لا مانع منه وإن كثر، وإحياء النفس: إنقاذها من الموت عند حصول سبب الموت لولا الإنقاذ، كإنقاذ الغريق، والجنين، ومن أراد الظالم قتله.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ ولقد جاءت بني إسرائيل رسل الله ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة دلالة بينة على أنهم رسل الله و ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الناهية عن القتل بغير حق، والدالة على الحق ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك الذي هو حجة قاطعة للعذر ﴿إِنَّ كَثِيرًا﴾ من بني إسرائيل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ في القتل بغير حق في الأرض إسرافاً منتشراً في الأرض كثيراً عظيماً، بحيث يقتلون النبيئين، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وذلك فساد يعم شره في الأرض.

قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): «السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر» انتهى.

يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣

وحيث قد جاء ذكر الفساد في الأرض من بني إسرائيل والفساد في الأرض الذي يفهم من الآية أنه يجوز قتل فاعله، أتبع ذلك بحد المفسدين في الأرض على اختلاف طبقاتهم، فقال تعالى:

٣٣ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الحرب: ضد السلم وهو القتال، ومحاربة الله: محاربة الدعاة إلى الله وإلى دين الله، كأئمة الهدى، والذين يأمرون بالقسط من الناس، ومحاربة الرسول: محاربة لله من هذه الجهة، ومحاربة للرسول من حيث هي محاولة لإبطال تبليغ الرسالة واتباعها.

﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا﴾ بتقوية الباطل ومدافعة الحق بأي طريقة. قال الشرفي في (المصابيح): ((قال إمامنا المنصور بالله ـ رحمة الله عليه ـ : الآية صريحة في حدود المحاربين والساعين في الأرض بالفساد، كجند الظالمين، وقطاع السبيل و(أو) بمعنى (الواو) كقول الشاعر:

سيان كسر رغيفه أو كسر عظم من عظامه))

انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ﴾ يفيد: مسارعتهم في عمل الفساد، لأن السعي مسارعة في السير، والمعنى: يسعون ليفسدوا، كقوله تعالى: ﴿سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة:٢٠٥].

وعلى هذا: فالآية لا تخص قطاع الطريق، بل قد لا تعمهم إذا كان قطعهم للطريق فساداً دنيوياً لا يضر الدين، وإن جاز قتلهم دفاعاً.

﴿أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ﴾ الصلب: تعليق المقتول أو شدّه إلى خشبة أو نحوها، أو هو الشد إلى الخشبة والتعليق لحي أو ميت، قال الإمام الهادي × في (الأحكام) كالمفسر لهذا الآية: ((يجب بحكم الله ورسوله على من حمل السلاح وأخاف به المسلمين: أن ينفى من الأرض.

فإن أخذ: أدِّبْ وعزِّرَ إن لم يكن أحدث حدثاً يلزمه فيه بعض أحكام الله، فإن لم يؤخذ: اتبع بالخيل والرجال حتى يبعد ويذهب.

وعلى من أخاف الطريق وأخذ المال: قطع اليد والرجل من خلاف تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ثم يخلى ليذهب حيث شاء، وعلى من أخاف الطريق وأخذ المال وقتل، القتل والصلب من بعد القتل، ولا يجوز أن يصلب حياً)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((والمراد: أن يقتلوا إن أفردوا القتل، أو يصلبوا مع القتل حيث جمعوا بين القتل وأخذ المال فيقتل ويصلب ثلاثة أيام، فلا صلب فوق ثلاثة أيام عند آل الرسول (عليهم السلام)) انتهى المراد.

وظاهر كلام الراغب: أن الصلب للحي، حيث قال: ((والصلب الذي هو تعليق الإنسان للقتل)) انتهى.

ولكنه قد أفاد: أن الصلب لا يكون إلا مع القتل، وهو الذي يشعر به قول الذين آمنوا ـ وكانوا سحرة ـ لما قال لهم فرعون: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه:٧١] فأجابوا، وفي جوابهم: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه:٧٢].

وإذا كان الصلب يستلزم القتل قبله أو بعده فيمكن إبقاء (أو) على أصلها أي أحد هذه العقوبات، فيكون المعنى: أن يقتلوا بغير صلب، أو يصلبوا أي مع القتل للتلازم، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا، والمعنى على حسب مقتضى المحاربة، وما قد أوجب عليه الحد.

وتقطيع الأيدي، قالوا: أن تقطع اليمنى إذا كان المحارب قد أخذ المال، والأرجل أن تقطع الرجل اليسرى، وهو معنى: ﴿مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ ولعله لو تعين قطع اليد اليسرى لضرورة أو غلط لوجب قطع الرجل اليمين ليكون من خلاف جهة اليد المقطوعة كما هو ظاهر الإطلاق وله حكمه، بدليل ما روى في سارق قطعت يسراه غلطاً فأجزأ ذلك.

وأما النفي من الأرض: فهو إخافته بحيث يهرب ويبعد عن بلاد يمكن إفساده فيها على المسلمين، فإن كفى إخراجه من بلاده لأنه يضعف مع الغربة ويعجز عن الفساد، فلعله يكفي، وإلا طرد حتى يصير حيث لا يتمكن من الفساد؛ لظاهر الآية، لأنه قال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ ثم قال: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ فالأرض الثانية هي الأولى، لأن المقصود دفع فساده في الأرض الذي هو مظنة أن يعم ضرره بسبب إضعاف المؤمنين بحرب اقتصادهم أو غير ذلك، كمنع المدارس الدينية.

﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحد والعقاب ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ وإهانة واستخفاف عاجل ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ زاجر له ولغيره، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١].

﴿وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مع العذاب في الدنيا، وفيها دلالة على عدم صحة الحديث في «إن من أصابه حد في الدنيا فهو كفارته ولا يعذب في الآخرة» أخرجه الحاكم في (المستدرك) وهو مخالف للقرآن، فهو غير صحيح.

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ

﴿٣٤﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فمن تاب في حال يجوز فيه تمكنه من الاستمرار على فساده؛ لأنه لم يقبض ولا صار في محل حصار غالب فهي توبة صادقة ليس ملجأ إليها ولذلك فهي مقبولة؛ لأن ﴿ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر للتائبين ويرحمهم، ويجب علينا أن نعلم ذلك ونعمل بموجبه فلا نؤاخذ التائب بأن نجري عليه الحد المذكور بل يسقط عنه، أما القصاص فلا يسقط لأنه حق لولي المقتول وهو غير هذا الحد الذي أسقطته التوبة، وكذلك وجوب إرجاع المظالم لأهلها؛ لأن الأصل وجوب ذلك، إلا أن تصح الرواية عن أمير المؤمنين × أنه أسقط ذلك كله.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد × : هذه الآية تدل على سقوط حد من تاب قبل أن يظفر به ولا يسقط القصاص، لأن هذه الآية في سياق آية الحدّ فقط)) انتهى

﴿٣٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ لما مر ذكر المحاربة لله ورسوله والفساد في الأرض، وذكر نوع مدافعة لذلك، أتبعه بالدفاع الأكبر الذي هو الجهاد في سبيله، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١] وفي آية: ﴿..لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ..﴾ إلى آخرها [الحج:٤٠].

ولما كان الجهاد شاقاً على النفوس قدم على الأمر به الأمر بتقوى الله، وابتغاء ما يتوسل به إليه؛ لأن من امتثل ذلك امتثل الأمر بالجهاد، واتقاء الله اتقاء عذابه بطاعته، وابتغاء ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾ إليه: طلبها بالفعل المقرب لنيلها، أو بالنية التي تصير العمل وسيلة، فالأول: كالشهادة، والثاني: كالتوبة وكل عمل مقرب.

قال الراغب: ((الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهي أخص من الوصيلة؛ لتضمنها معنى الرغبة)) انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): ((الوسيلة: ما يتقرب به إلى الغير، والجمع الوسيل، والوسائل، يقال: وسَّل فلان إلى ربه وَسيلة، وتوسل إليه بوسيلة: أي تقرب إليه بعمل)) انتهى باختصار.

قال في (الميزان): ((وإذا كانت ـ أي الوسيلة ـ نوعاً من التوصل وليس إلا توصلاً واتصالاً معنوياً بما يوصل بين العبد وربه ولا رابط يربط العبد بربه إلا ذلة العبودية، فالوسيلة هي التحقق بحقيقة العبودية، وتوجيه وجه المسكنة والفقر إلى جنابه تعالى، فهذه هي الوسيلة الرابطة، وأما العلم والعمل فإنما هما من لوازمها وأدواتها..)) الخ.

قلت: ذِلّة العبودية تكون بالعمل المعبر عنها كتسليم النفس لله في الجهاد والإنقياد لأمر الله فيما يشق على النفس وإخلاص الخضوع لله في الصلاة والدعاء، وجهد المقلّ في الصدقة والإيثار على النفس تقرباً إلى الله وكل عمل ورد فيه أنه مقرب إلى الله كالسجود على التراب وذلك كله إنما يعرف بالأدلة من الكتاب والسنة وليس للعبد أن يجعل وسيلة غير ذلك لأنه إما شرك وإما بدعة، وذلك مبعّد من الله لا مقرب وقد نقلت كلام (صاحب الميزان) لتحقيق هذا.

أما قول بعض الإمامية في تفسير هذه الجملة: «يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتقاء في مدارج الكمال الإنساني عبر التقوى واتباع السبل والوسائل إلى الله تعالى وهو الكمال المطلق، قال: ويعم هذا كل سبيل مقرّب إليه، ومن الوسائل: التأسي بالرسول العظيم وأهل بيته الطاهرين، والتوسل والإستشفاع بهم باعتبارهم عباداً مقرّبين إليه جل وعلا» انتهى.

فقوله: «والتوسل والاستشفاع بهم» هو غير التوسل بالعمل، ومعناه: اتخاذهم وسيلة إلى الله وهذا غير مسلم، لأن اعتبارهم عباد مقربين لا يستلزم صحة التوسل بهم؛ لأن كونهم مقربين باسم المفعول لا يستلزم أن يكونوا مقرِّبين باسم الفاعل، فلا يصح منا دعاؤهم لهذا الغرض، وسؤالهم أن يقربونا إلى الله.

نعم التوسل إلى الله بحبهم واتباعهم فيما هو صحيح عنهم لا إشكال فيه، إنما الإشكال في اتخاذ وسيلة لم يثبت أنها وسيلة بنفسها؛ لأن الآية الكريمة لا تدل على ذلك كما أفاده كلام (صاحب الميزان) وهو المحقِّق في تفسيرها، وكم كنت أحب أن تطهر بلادهم من دعاء الأئمة والسجود لبعضهم تعلقاً بهذه الآية الكريمة من بعضهم وهو عندي غلط جرهم إلى ما يعاب عليهم ويجرئ خصومهم على جعلهم مشركين بسبب ذلك.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ والجهاد في سبيل الله: هو القتال لنصر دين الله، وإعلاء كلمة الله، كما جاء في الرواية عن النبي ص: «من جاهد لتكون كلمة الله هي العلياء فهو جهاد في سبيل الله» رواه أبو طالب × في (أماليه) ومحله (الباب الثالث والخمسون) والمعتمد اللغة في تفسير الآية، ومعنى الجهاد ومعنى في سبيله.

لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۚ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٣٧ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ قال الراغب: ((والفلاح: الظفر، وإدراك بغيته)) انتهى، والظفر هنا: هو السلامة من النار ودخول الجنة، وتضمينه معنى النجاة في هذا الموضع أقرب، وقد جاء في الشعر:

لو أن حياً مدرك الفلاح ... أدركه ملاعب الرماح

يريد النجاة من الموت، ويناسب هذا المعنى التعليل بقوله تعالى:

٣٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۚ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فالآية التي قبل هذه الآية حث على طلب النجاة من عذاب يوم القيامة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((والمقصود من الكلام، يعني في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ..﴾ إلى آخر الآية: التمثيل للزوم العذاب لهم، وأنه لا سبيل لهم إلى الخلاص منه)) انتهى.

قلت: وقد أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فدل على أنه لا يدفعه شيء لا الفدية ولا غيرها.

٣٧ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ يحاولون ذلك لرغبتهم في الخروج، والدليل على أنه كناية عن المحاولة، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج:٢٢] فقوله تعالى: ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ يدل على أنهم يتزحزحون عن أماكنهم لمحاولة الخروج؛ لأنهم لو لم يحاولوا لما كان للإعادة معنى.

فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

وقد استبعد بعضهم: إرادة أن يخرجوا وقد أيقنوا أنهم لا يخرجون؟

والجواب: أن من الجائز غفلتهم عن هذا اليقين، وأن تحدث الإرادة في سكرات الألم، قال تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ فالمحاولة للخروج زيادة في العذاب لما يتكلفون فيها من سحب السلاسل والتحرك على الجمر ثم العذاب النفسي والجسدي بإعادتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿مُّقِيمٌ﴾ باق لا ينقطع بموت ولا غيره، وهذه الآية والتي قبلها تابعتان للحث على الجهاد الذي هو دفع الفساد في الأرض.

ولما كان السارق يشبه قاطع الطريق في الظلم بأخذ المال وفي الظلم بتسببيه للحاجة إلى الحراسة التي تشغل عن كثير من الأعمال وقد تشغل عن طلب العلم وعن الصلاة في جماعة وغير ذلك جاء زجره بالحد فقال تعالى:

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا الأمر بقطع يد السارق موجهاً إلى الذين آمنوا، ومثله الأمر بجلد الزاني، دليل على أنه يجب على المسلمين إيجاد أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتقيم الحدود.

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق:١] يدل على أن إلى هذه الأمة إلزام الأزواج جعل الطلاق على السنة، وغير ذلك من الخطابات العامة مثل: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ فالأحكام التي يقيمها قائد الأمة بسبب تأييد الأمة له وانقيادهم له منسوبة إلى جملتهم، وهم مأمورون بها جملة أن تقيمها دولتهم لأن عليهم إعانة الدولة الإسلامية ونصرها.

رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا

فهذه الآيات من دلائل الإمامة لأن الفرد لا يتهيأ له إقامتها وحده ولو حاول أحد بدون سلطة إقامتها لكان ذلك سبباً للفوضى والقتال بين المسلمين فتعين وجوب تحضير سلطة قادرة على ذلك، فهي من أدلة الإمامة عندنا وأدلة ولاية الفقيه عند من أثبتها من الإمامية، والمعنى متقارب.

وجمع (الأيدي) لعموم السارق والسارقة؛ لأن المقطوع من السارق يد واحدة فقط كما هو معلوم من السنة والمقطوع الكف؛ لأنه يحصل به الامتثال، فلا موجب لأكثر منه، وليس المحل محل تخيير لما في الزيادة من الضرر الشديد فيبعد التخيير مع الفرق الكبير، مع أن السنة قد عينت القطع من مفصل الكف وتعيين اليمنى للقطع حكم آخر لا تفسير للآية، ولذلك أجزأ قطع اليسرى عند الغلط.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا﴾ دليل على أن القطع عقوبة فليس للسارق فيه عوض فهو ظلم نفسه ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ زجراً من الله للسارق ولغيره ودفعاً لهم عن السرقة فهي فائدة عظيمة للمجتمع.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دليل على أنه حق وصواب فليس لأحد أن يعترض حكمه ولأنه تصرف الذي خلق اليد المالك للعبد ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فلعزته وحكمته يعذب المجرمين فليسوا محل رحمة؛ لأن الرحمة لا تعارض العزة والحكمة لأنها ليست رحمة رقة وضعف وإنما هي رحمة كمال.

﴿٣٩﴾ ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فلا يتوهم من تعجيل عقابه بالقطع أنه لا تقبل له توبة تنجيه من عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ﴾ أي من بعد أن سرق فاستحق العذاب بظلمه؛ لأن السارق ظلم المسروق عليه وجار وظلم نفسه أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ يفيد إلزامه أن يرجع السرقة إذا كانت باقية، بل وظاهره: وجوب إصلاح ما أفسد على المسروق عليه بكسر بابه أو خرق جداره أو نحو ذلك، فأما السرقة إذا كانت قد تلفت فقد قيل تسقط بالحد لأنه لا يجتمع حد وغرم.

فأما قبل الحد إذا تاب فقال الشرفي في (المصابيح): ((وقال إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد ـ رحمة الله عليه ـ : دلت الآية على أن التائب إلى الله ممن سرق المصلح بردّ ما أخذ والمستحلّ من المأخوذ عليه يسقط عنه الحدّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذا قول بعض التابعين ومرويّ عن الشافعي، وذهب الثوري وأبو حنيفة وبن حنبل وإسحاق: أن السارق إذا غرم سقط الحدّ وقد قال ص: ((ادرءوا الحدود بالشبهات)) وقال ص لسارق: ((ما أخالك سرقت)) يلقنه بما يدرأ به الحد، والعمل بهذه الآية أولى..الخ.

قلت: أما الحديث: ((ما أخالك..)) فلا بد أنه ص لا يخاله سرق، أي لا يظنه، فهو صادق في ذلك، وعليه يحمل تلقينه لئلا يكون أقر لهيبة الرسول ص وهو بريء، فالاحتجاج بالآية أولى، كما قال × ، ولعله يعنى التائب قبل رفعه إلى الإمام، وفي حال تجويز أن لا يرفع الاحتمال ذلك فأما من قد رفع فلا مجال من قطعة إذا لم يكن تاب كما ذكرت لأنه عند أخذه إلى الإمام ويأسه من السلامة من القطع ملجأ إلى إظهار التوبة فلا يعلم أنه تائب حقاً، وعند وصوله إلى الإمام وجب قطعه؛ لأن الله قد أوجب القطع ولم يرخص في تأخيره انتظاراً للتوبة المحققة.

تَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾

﴿٤٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ **هذه الآية ترد على الكفار الذين يعيبون القطع في الإسلام، وتدل على أنه حق من الله الذي ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو يحكم ما يريد و ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لاستحقاقه العذاب.**

وقوله تعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ يؤكد كلام الإمام القاسم بن محمد × ، لأنه قابل التعذيب بالغفران، فكأنه قال: ويترك تعذيب من يشاء ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فهو غالب على أمره، فمن شاء قطعه على كل حال فلا بد أن يقطع، وهذا تحذير للسارق من أن يسلط الله عليه وهو يمنى نفسه السلامة من القطع فيسرق وهو لا يدري، لعل الله يسلط عليه فينكشف سرقه ويؤخذ وتقطع يده بأمر الله ومشيئته.

﴿٤١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا تَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ ﴿لَا تَحۡزُنكَ﴾ **لا تحزن من أجلهم، إما على معنى: لا تحزن عليهم لكونهم هالكين فهم متمردون مستحقون لفتنتهم؛ لأنهم سماعون للباطل مائلون عن الحق فهم ظلموا أنفسهم، وإما على معنى لا يحزنك كيدهم للإسلام أو الخوف من كيدهم فالله لا بد أن يظهر دينه.**

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعم الذين في قلوبهم مرض المنافقين وغيرهم ممن لم يؤمن ولَمَّا ينافق، ومسارعتهم في الكفر سماعهم لكذب الكفار في تكذيبهم للرسول ص أي قبولهم له وتصديقهم لهم، وقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ هو قول انفردت به أفواههم ولم يصدر عن قلوبهم، فالإيمان الصحيح هو الذي يتواطأ عليه القلب واللسان، أما مجرد القول فليس إيماناً؛ ولذلك قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ ولم يقل: من الذي آمنوا بأفواههم.

والدليل قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ [الحجرات:١٤] فهذا فائدة قوله تعالى: ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وذلك لأن قولهم آمنا إنشاء يوهمون به إيمانهم وليس خبراً عن إيمان قلوبهم؛ ولهذا لم يقل: (من الذين قالوا آمنا ولم تؤمن قلوبهم) لأنهم لم يدعوه كما فعلت الأعراب وإنما أنشأوا بأفواههم إنشاءً، فقال:﴿وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ﴾ ليبين أن قولهم آمنا مجرد قول باللسان لا يطابقه الجنان لا لإبطال قولهم آمنا وتكذيبه لأنه ليس خبراً ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ عطف على ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ فالفريقان مسارعون في الكفر وهم حول الرسول ص حيث ينزل القرآن وآيات النبوة، فلا تحزن لأجل مسارعتهم في الكفر.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ هؤلاء المسارعون في الكفر هم ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ مكثرون من سماع الكذب وهو يعم ما يعلمون أنه كذب وما يغترون به مما يفترونه فيقبلونه اتباعاً للهوى، كقولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة:٨٠] سماعون لقوم من اليهود ﴿لَمۡ يَأۡتُوكَ﴾ وهؤلاء اليهود مفسدون مضلون.

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ إفساداً وإضلالاً لمن يسمع منهم ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ﴾ فكما أنهم مضلون بكذبهم وتحريفهم الكلم من التوراة من بعد أن جعله الله في مواضعه التي اختارها لَه لئلا تدل على معناها المقصود، أو ليمكنهم أن يزعموا لها معنى غير معناها، فكما أنهم ضالون مضلون بهاتين الطريقتين فهم مضلون بأمرهم أن لا يقبلوا إلا الباطل وتحذيرهم من قبول الحق؛ لزعمهم أنه الباطل.

قال الإمام الهادي × في (الأحكام): «ومن الدليل على أن الرجم حكم من الله قديم على المحصنين، ما أخبر الله به نبيئه عن اليهود وتبديلها لَه وطرحها إياه من التوراة وتحريفها لحكم الله، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ يريد: يحرفون ما في التوراة من حكم الرجم، وهذه الآية نزلت فيما كان من أمر بشرة اليهودية ...الخ، ذكر قصتها حتى أمر رسول الله ص برجمها هي والزاني بها، وقصة اليهود في إنكارهم حكم التوراة وافتضاحهم وذلك في الأحكام في باب القول في حد الزاني في الكتاب فليرجع إليه.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ كهؤلاء المضلين ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الفتنة: بمعنى العذاب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ..﴾ [الذاريات:١٣-١٤] وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١] أي تعذيب من أسلم، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣] لا يعذب مسلم، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ..﴾ الآية [البروج:١٠] وقال تعالى: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠] أي تعذيبهم لمن أسلم.

فقوله تعالى: ﴿فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ لن تملك لَـه مـن الله أن يعفو عنه أو أن يخفف من العذاب أو أن يُنظِره بعد مجيء وقـت العـذاب أو نحو ذلك؛ لأن الحكم لله لا معقب لحكمه، وليس لأحد لا رسـول الله ص ولا غيره أن يتدخل بين الله وعباده ليحول الله سبحانه عـن إرادتـه إلى إرادة ما يَطلب منه المتدخل؛ لأنهم كلهم عباده، والملك يومئذ لله وحده: ﴿يَـوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٩].

وهـذا هـو معنـى مـا فسـرها بـه الإمـام الهـادي × ، كمـا حكـى في (المصابيح) عنه × ، وقال الناصر × في (البسـاط) في مسـألة في الفتنـة وجوابهـا: ((فيقـول سـبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ وفي هذا الموضع يريد: من يرد الله عذابه فلن تستطيع أن تدفع عنه ما يريده الله من عذابه، والله سبحانه فلا يريد أن يعذب إلا من هو مصر علـى معاصيه وقد علم أنه لا يرجع عن كفره ولا يتوب..)) إلخ.

فقد اتفق الهادي والناصر إ على تفسـير الفتنـة هنـا بالعـذاب، وهـو مناسب لتفسير: ﴿لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بأن المعنى: لا تحـزن عليهم لهلاكهم، فيكون المعنى: ولو حزنت عليهم والله يريد تعـذيبهم، فلـن تملك لهم من الله شيئاً.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لأنهـم متمـردون مصـرون على رجسـهم، لا يسـتحقون مـن الله أن يطهـر قلـوبهم، أو لم يسـتحقوا؛ أو لأنهم لا يقبلون لطفاً ولا يمكن تطهيرها إلا بالقسر والإلجاء الذي لا يفيـدهم الخروج إلى الطاعة ولا يدفع استحقاقهم النار بما قدموا؛ ولذلك فهـم يموتـون على ما في قلوبهم من الإصرار على باطلهم مستحقين للفتنة على النار.

قال الناصر × في (البساط): ((وليس من حكمه أن يعذب من يعلم أنه يتوب ويرجع يوماً مَّا؛ لأنه قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] يقول: لا أعذب من أعلم أنه يتوب ويستغفر، وقال جلَّ ذكره: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣] يقول: لو علمت أنهم يقبلون لأسمعتهم ما طلبوا وأريتهم من الآيات ما سألوا، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨] فهذا وأشباهه في القرآن كثير يُعْلِمُ الله ـ جلَّ ذكره ـ أنه عالم باختيارهم معاصيه وعاقبة أمرهم، وأنهم لا يتوبون مختارين غير مضطرين، وأنه لا يعذب من يعلم أنه يتوب ويرجع عن كفره وضلاله.

وأما قوله سبحانه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ..﴾ الآية، فمعنى ذلك: أنه لا يريد أن يحكم لقلوبهم بالطهارة والإيمان وهي كافرة، ولا يشهد لها بالطهارة وهي نجسة ولا يزكيها، وإنما صاروا بهذه المنزلة لكفرهم وشركهم الذي اختاروه وأصروا عليه)) انتهى المراد.

وقوله: ولا يزكيها؛ لعله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٩] أو إلى قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧] ومثل تفسير الناصر × حكى في (المصابيح) عن الهادي × .

فأما تفسير المجبرة أو بعضهم (الفتنة) بمعنى الضلال، فهو غير معروف في اللسان وإن ادعوه في كتبهم في اللغة فلا يُقبَل منهم؛ لأنهم جارون لأنفسهم مع أنه غير مناسب لهذه الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لو جعلناه على تفسيرهم لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من

الفتنة بإزالتها منها، لصار المعنى: ومن يرد الله فتنته أي ضلاله، فلن تملك لَه من الله شيئاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ من الفتنة، والترتيب على هذا لا يصح؛ لأنه إذا أراد فتنتهم فقد أغنى عن ذكر أنه لم يرد طهارتهم من الفتنة؛ لأن إرادة الفتنة أبلغ من عدم إرادة الطهارة منها كما لا يخفى على منصف؛ وهذا لأن قوله: ﴿لَمۡ يُرِدِ﴾ لنفي وقوع الإرادة في الماضي فليتأمل!!

ولذلك لا يصح أن نقول على تفسير (الهادي) و(الناصر) للآية: إن المعنى لم يرد أن يطهر قلوبهم يوم القيامة، وإنما يصح أن يكون المعنى: لم يرد أن يطهر قلوبهم في الماضي، وإن زكوا أنفسهم وزعموا أنهم مطهرون.

والراجح عندي في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنه كناية عن أن في قلوبهم رجساً هو سبب تعذيبهم، وفائدة الكناية: تسلية رسول الله ص بأنه تعالى أراد أن يتركهم على رجسهم، فلا يحزن لشدة رغبته في إيمانهم حباً منه ص لله وكراهة أن يعصى، ثم رتب على ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ كما دل تعالى بقوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ على إرادته تعذيبهم فما أراده وقع.

فإن قيل: إذا كان ﴿مَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ من يرد تعذيبه فقد أفاد أنه يعذب فما فائدة قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؟!

فالجواب: أن لَه فائدةً، وهي: أن قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ﴾ اسم شرط وفعل الشرط، وذلك ليس صريحاً في أنه يريد للمسارعين في الكفر تعذيبهم، فصرح بأنه يعذبهم، وفائدة أخرى وهي: الإخبار بوقوع ما يريده فهو أبلغ لما فيه من التصريح بتعذيبهم.

سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ

وفائدة أخرى وهي: بيان أنهم يعجل لهم في الدنيا خزي ويؤجل لهم في الآخرة عذاب عظيم، وفي هذا تفصيل ليس في الإخبار بإرادة تعذيبهم.

قال في (الصحاح): ((وخَزِيَ ـ بالكسر ـ يَخْزَى أي ذلّ وهان)) انتهى.

قلت: الأولى أنَّ ذلَّ وخَزِيَ متقاربان لا مترادفان؛ لقوله تعالى حاكياً: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه:١٣٤] قال الشرفي في (المصابيح): ((من قبل أن نذل بالعذاب ونخزى بالفضيحة على رؤوس الأشهاد)) انتهى، وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا﴾: ((أي فضيحة وهوان)) انتهى، وقال (صاحب القاموس) في تفسير: (خَزِيَ): ((وقع في بليَّة وشهرة، فذل بذلك، قال: وأخزاه الله: فضحه)) انتهى.

وقال في (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنيَا﴾: ((ذلٌّ وفضيحة)) انتهى، وقال في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ [فصلت:١٦] وأضاف العذاب إلى الخزي وهو الذل والإستكانة..)) الخ.

فظهر: أن الخزي انفعال يسببه العذاب من حيث هو عار على الفاجر؛ لأنه الذي سبب له وجرّه على نفسه بسوء اختياره.

﴿٤٢﴾ ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ لهواهم في قبوله، أو لاعتقادهم وجوب قبوله حيث صدر من الأحبار أو الرهبان، فالمذموم ثلاثة أقسام:

الأول: ما علم أو ظن أنه كذب.

الثاني: ما قُبِلَ اتباعاً للهوى مع الشك في صدقه أو مع كونه في مسألة قطعية، وهو لا يفيد القطع مع معارضته للقاطع الذي يجب اتباعه.

الثالث: ما كان سبب قبوله اعتقاد وجوب قبوله لصدوره عن الأحبار والرهبان بناء على أن قبول خبرهم واجب على كل حال بناء على وجوب اتباعهم على كل حال.

﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾ الحرام، كالرشوة والهدية التي هي مكافأة على واجب.

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ ﴿فَإِن جَآءُوكَ﴾ لتحكم بينهم ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ﴾ لأن حكمك الحق ﴿أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ﴾ لأنهم لا يقبلون حكمك إلا إن وافق هواهم ﴿وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗا﴾ وإن زعموا أنك لم تدرِ ما تحكم، أو أنك كتمت الحق، أو غضبوا عليك من الإعراض عنهم.

﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ﴾ قال في (الصحاح): ((والقسط ـ بالكسر ـ العدل، ثم قال: والقسط ـ أيضاً ـ مكيال، وهو نصف صاع، والفرْق ستة أقساط)).

قلت: هذا الصواب أن القسط العدل؛ لقول الله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأعراف:٢٩] ولعله يؤخذ في معناه تحقق العدل الذي ليس معه أيُّ ميل فيكون أبلغ من الأمر بالعدل، وذلك لمناسبته القسط الذي هو كيل محدود، والقسطاس لميزان محكم ـ والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ وهذا ترغيب عظيم في العدل لكل من يخاف الله ولكل من يعلم حاجته إلى الله.

ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا

﴿٤٣﴾ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ هذا دليل واضح على أن الكلام من قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ كان في اليهود، أي كيف يصدر عنهم ذلك وهم لم يسلموا، بل هم ضالون مضلون، فهؤلاء لا يصدر عنهم إلا لغرض فاسد وفي سبيل اتباع الهوى، ورجاء أن تحكم بما يَهْوون لا لطلب الحق؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله، فلو كان غرضهم التوصل إلى الحق لاكتفوا عن تحكيمهم لك.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلو كانوا يتبعون حكمك ولا يتولون عنه من بعد أن حكمت بينهم لما كان ذلك معيباً بل هو الحق، ولكنهم يتولون من بعد ذلك ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المعروفون باتباع الهوى والميل معه حيث مال والمعروفون بالكفر والصد عن سبيل الله والتكذيب بآيات الله ما هم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك عَظُمَ باطلهم بتكامل معايبهم، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تأكيد يدل على بعدهم من الإيمان وأن بينهم وبينه مسافات ومراحل.

﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ﴾ الهدى: تعليم سبيل الله وهي دينه، والنور: المواعظ التي تزهد في الدنيا وكل ما يستنير به القلب وتقوى به البصيرة ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ

﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ الذين أسلموا أنفسهم لله فحكمهم بالتوراة لله ﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ العلماء الدعاة إلى الله المكثرون من ذكر الله ومراقبته ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ العلماء فهم يحكمون بها.

﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ بسبب أن الله تعالى استحفظهم كتابه أو بعض كتابه أي أمرهم أن يحفظوه من الضياع ومن التحريف ومن الزيادة والنقصان، أو بما استحفظوا جعلهم الله حافظين له لا ينسونه، والأولى عموم المعنيين فهما من حفظه فقد كلفهم الله أن يحكموا وصاروا يحكمون بالتوراة بسبب أن الله جعلهم حافظين لها.

ويحتمل أن قوله: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ﴾ بدل من قوله: ﴿بِهَا﴾ أي يحكمون بما استحفظوا منها؛ لأنها كتاب الله وكانوا عليه شهداء يشهدون أنه من التوراة لعلمهم وتيقنهم أنه منها؛ ولعل في هذا مأخذاً أن الرواية شهادة، وأنه لابد من اثنين يرويان الحديث أو أكثر كما في الشهادة.

﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ أيها الحكام بـ(التوراة) ﴿وَٱخْشَوْنِ﴾ فلا يجوز الحكم بغير الحق لخشية سلطان أو حزب وليس يعذر حاكم بخشية الناس؛ لأن عليه أن يخشى الله ويتقيَ عذابه فيحكم بما في (التوراة) ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لا تستبدلوا بالحكم بآياتي ثمناً قليلاً هو الرشوة فهي قليل في جنب ما هي عوضه، وقليل في جنب العذاب الذي تؤدي إليه وكل ما في الدنيا قليل؛ لأنه زائل فهذا تحذير من العدول عن الحكم بما أنزل الله رغبة في الرشوة أو نحوها، والأول تحذير من تركه للرهبة.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأن الحكم بغير ما أنزل الله جحد لما أنزل الله فهو كفر.

عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ﴾ خطاب لهذه الأمة أي عليكم أن تحكموا بكتاب الله الذي هو القرآن كما حكم النبيئون والربانيون والأحبار بالتوراة، وهذا هو ظاهر كلام الناصر × في (البساط) وقال: يعنى بالناس أهل مكة، وجعل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ في هذه الأمة، والظالمون في اليهود، والفاسقون في النصارى.

والراجح عندي: أن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ...﴾ إلى آخر الآية حكاية لما كلف به النبيئون الذي أسلموا والربانيون والأحبار؛ لأن الكلام في القرآن يأتي في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا إِلَيۡكَ الْكِتَابَ..﴾ الآية التي تأتي قريباً، والتي بعدها.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على بني إسرائيل ﴿فِيهَآ﴾ أي في (التوراة) ومعنى ﴿كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أوجبنا عليهم هذه الأحكام التي هي جعل النفس بدل النفس المقتولة، والعين بدل العين، وهكذا بقيتها، والجروح قصاص: يجرح الجاني بمثل ما جرح المجني عليه، و(الباء) للمبادلة مثل الحديث النبوي: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة..» إلى آخر الحديث.

ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ فمن تصدق بما استحقه أي عفى عن الجاني ﴿فَهُوَ﴾ أي المتصدق به أو التصدق كفارة لَه يكفِّر به عنه من سيئاته، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿...وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١].

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفيه دليل على أن العفو كان جائزاً في شريعة بني إسرائيل)) انتهى.

قلت: هو ظاهر السياق، ولعله مشروط بأن يكون العفو مجاناً ليكون كفارة، أما سيد قطب فزعم أن ليس في (التوراة) وإنما هو في شريعتنا، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فهم من أهل النار؛ لأنها جزاء الظالمين، فقد أفادت أن من لم يحكم بما أنزل الله اجتمع له الوصف بالكفر، والوصف بالظلم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ﴿قَفَّيْنَا﴾ أتبعنا لأن التابع يكون قفا المتبوع ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ على آثار النبيين الذين أسلموا أو الربانيين والأحبار، فهو على طريقتهم في الحكم بما في (التوراة) إلا ما نسخه الله في شريعة عيسى حال كونه ﴿مُصَدِّقًا﴾ أي بما معه من الآيات الدالة على صدقه ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ لما تقدمه ﴿مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فالنبيون يصدقون كتب الله ولا يتفرقون، ولعل بعض النصارى كانوا قد كفروا بالتوراة في قولهم: ﴿لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة:١١٣] فهذا ردٌّ عليهم.

فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وآتينا عيسى بن مريم ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ كتاب الله الذي أنزله على عيسى اسمه الإنجيل ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما قال في التوراة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فالإنجيل مصدق لها كما عيسى × مصدق لها ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي هدى للمتقين وموعظة لهم، ولا تكرار؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ وصف للإنجيل يبين كماله في نفسه مع قطع النظر عمن ينتفع به أولا ينتفع.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بيان لمن ينتفع بالهدى والنور أنهم المتقون، ونظيره وصف القرآن: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾.

﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ من حكم عام أو مخصص لبعض ما في التوراة أو ناسخ لبعضها أو دلالة على النبي الأمي الذي من بعد عيسى وهكذا في التوراة، فالحكم عام لكل ما أنزل الله وما تجدد إنزاله ناسخاً لما قبله وجب العمل بما تجدد، ولا يجوز إهماله تعظيماً لما سبق؛ لأن الأول إنما ثبت حكمه لأن الله أنزله، فوجب اتباع الناسخ لأن الله أنزله.

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفجار، وهذا عام لكل من لم يحكم بما أنزل الله أضاف لهم اسماً ثالثاً فهم كافرون، وهم ظالمون، وهم فاسقون، وفي هذا الاسم الأخير زجر لمن زينت لَه طريقة مخالفة لما أنزل الله من اليهود، أو من غيرهم كغلاة النصارى،

عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم

وغلاة الشيعة، وغلاة الصوفية، وكاليهود، والنصارى التاركين للقرآن بعد نزوله، فهؤلاء وإن زينت لهم أنفسهم دينَهم، وظنوا أنهم صالحون أبرار، ليسوا إلا خبثة فجاراً خارجين عن دين الله، وإن ظنوا أنهم صالحون مصلحون، ويدخل في هذا من يترك بعض أحكام الله ويبدله بالقانون لمصلحة اجتماعية يظنها.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾ ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هذا الذي هو القرآن الحكيم ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ لما تقدم قبله من كتب الله جملة أو تفصيلاً ﴿وَمُهَيۡمِنًا﴾ على الكتاب الماضي أي الكتب عبَّر عنها بالكتاب؛ لأن أصله مصدر: كَتَب كِتَابةً وكِتَاباً ولذلك يستعمل كما هو من غير فرق بين مفرد ومثنى ومجموع.

ومعنى إنزاله بالحق أنه أنزله رب العالمين الذي له الحكم في عباده، والذي اقتضت حكمته إنزالَه على العالمين، كقوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ ثم عطف عليه: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] فالإنزال بالحق؛ لأنه من الله العزيز الحكيم، والنازل فيه الحق من الشرائع والوعد والوعيد وقصص الأولين والآيات وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي القرآن مهيمن على ما بين يديه من الكتاب أي شاهد عليه مصدَّق أمين فيما نسبه إلى الكتب التي قبله؛ لأن القرآن كلام الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾ [النساء:١٢٢].

قال الناصر × في (البساط): ((﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾: أي شهيداً عليه)) انتهى، قال في (الصحاح): ((المهيمن الشاهد)) انتهى.

وفي (تفسير الطبري) بإسناده عن ابن عباس: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: يقول شهيداً، وفيه سند عن السدي: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: شهيداً عليه، وبسند عن قتادة: أميناً وشاهداً على الكتب التي خلت قبله.

وروى الطبري بأسانيد عن أبي اسحاق، عن رجل من تميم، عن ابن عباس: ((﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: مؤتمناً عليه)) انتهى، وهو مثل الأول، وروى الطبري أيضاً ـ بسند آخر ـ عن ابن عباس قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ قال: والمهيمن: الأمين، قال: القرآن أمين على كل كتاب قبله، انتهى، وأورد الطبري روايات عن بعض المفسرين مثل هذا.

وفي (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي إ : ((وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فالمهيمن: المصدق لما قبله والأمين عليه)) انتهى، ويحتمل أنه × أراد تفسير قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أو أنه × يعنى أن المهيمن الأمين عليه مع كونه مصدقاً له.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿مُهَيْمِنًا﴾ أي رقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة ويبين بعض ما حرِّفَ فيها، وقيل: الأمين ـ إلى قول الشرفي ـ: فلهذا قال المفسرون: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي أميناً على الكتب الذي [كذا] قبله)) انتهى المراد.

فجعله بمعنى رقيباً، وجعل الرقابة عليه: بمعنى الشهادة بصدقه، والشهادة عليه فيما بيّن أنه محرف منه، فصار المعنى مثل الأول أو قريباً منه.

وقال الشرفي / في تفسير اسم الله تعالى: ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]: ((الرقيب على كل شيء الحافظ له)) انتهى.

فأما (صاحب الكشاف) فقال: ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾ ورقيباً على سائر الكتب؛ لأنه يشهد لها بالصحة والثبات)) انتهى، وقال في (الكشاف) في تفسير اسم الله تعالى ﴿الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣]: ((الرقيب على كل شيء الحافظ لَه، مفيعِل من الأمْنِ إلا أن همزته قلبت هاء)) انتهى.

والراجح في معنى (الرقيب): أن أصله بمعنى الراصد فيكون الرصد للشيء لحفظه، ويكون الرصد عليه لمعرفة ما يكون منه، ويكون الرصد للشيء لانتظاره، فمن الأول قوله تعالى: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً﴾ [التوبة:١٠] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] ومن الثالث قوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٣] إلا أنه سمي الانتظار ترقباً، وفي (الصحاح): ((الرقيب: الحافظ، والرقيب: المنتظر، تقول: رقبت الشيء أرقبه رقوباً إذا رصدته)) انتهى باختصار.

وقال الشرفي / في تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]: ((والرقيب: هو المراقب الذي يحفظ عليك جميع أفعالك)) انتهى.

وعلى هذا: فالرقيب قريب من معنى (الشهيد) ولكن تفسير (المهيمن) في قوله تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ بالشهيد الأمين أقرب من تفسيره بالرقيب.

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالقرآن لأن الله أنزله إليك ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ فاتباع خلاف ما أنزل الله إتباع للأهواء وأهل الكتاب يريدون اتباع أهوائهم وإن خالف ما أنزل الله.

﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ فلا عذر ولا رخصة في العدول عما أنزل الله وإن أدى إلى التفرق؛ لأن الله قد شاء ذلك ولو شاء لجعلنا على شرعة واحدة حتى لا نتفرق، لكنه أراد أن يبلونا فيما جعل لنا من الشرعة والمنهاج أنتبعه أم نعدل عنه للأهواء والمصالح الدنيوية، حتى يتبين من يجعل أمر الله فوق الأغراض والمصالح الدنيوية الموهومة، ومن يعدل عن أمر الله إلى الأهواء.

و(الشرعة): الشريعة، والمنهاج: الطريق المستقيم الواضح، فجعل لليهود شرعة قبل نسخها، وللنصارى ـ أيضاً ـ كذلك قبل نسخها، وجعل لنا شريعته التي ارتضاها للعالمين فأرسل بها محمداً ص وأنزل بها هذا الكتاب.

قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى الآية، كما قال الهادي × : فالشرعة هي الفرائض المفروضات والأحكام المجعولات، المأمور الخلقُ بفعلهن، والمحكوم عليهم بأداء فرضهن، والمنهاج: فهو الطريق الواضح الدال على ما ذكرنا من الشرعة الناطقة لها السنة المتبعة، والجعل فلا يكون إلا فعلاً لله)) انتهى.

﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ ما أعد الله لعباده الصالحين، واستباقه باتباع ما أنزل الله فينبغي لمن أراد نفع نفسه أن يتبع ما أنزل الله ولا يأنف من ترك المنسوخ إلى الناسخ ولا ينظر إلى من تخلف عن ذلك؛ لأنه في عمل يسبق به الخيرات وهو سابق لمن تخلف، ومن تخلف فإنما خسر الخيرات، وعلى هذا فلا خير ولا صلاح في العدول عما أنزل الله وإن سماه

بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ

أعداء الدين خيراً، بل هو الخسران المبين، بل وإن توهم البشر الضعيف أنه أصلح للمجتمع وأوفق للوقت الحاضر فإنما هو الخسران والضلال المبين؛ لأن الله أعلم بمصالح عباده وليس لهم أن يعصوه نظراً للمصلحة في ظنهم.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فهناك في الآخرة حين يرجعون إلى الله، وقد ضل عنهم ما كانوا يميلون إليه من الأغراض الدنيوية من الرئاسة وجمع المال وغير ذلك، يبين لهم الحق الذي كانوا يختلفون فيه، ويجزي كل عامل بعمله حيث لا ينفع قانون ولا استحسان ولا مصلحة، إلا تقوى الله واتباع ما أنزل، كما أن الرجوع إليه وحده، لا إلى رئيس ولا شارع قانون ولا حزب ولا أنصار.

﴿٤٩﴾ ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ ﴿وَ﴾ أنزلنا إليك ﴿أَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم﴾ بين أهل الكتاب ﴿بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ على كل حال رضوا أم سخطوا أطاعوا أم عصوا ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ فمخالفة ما أنزل الله إليك في أي شيء من أجلهم إنما هو اتباع لأهوائهم، وإن كان من دينهم وشريعتهم؛ لأنه بعد النسخ بما أنزل الله قد صار هواهم لا غير ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ﴾ بأي حيلة وبأي ترغيب يفتنوك، لتعدل عن جزء مما أنزل الله إليك أو كلمة أو حرف، ولو وعدوك إذا طاوعتهم فيه أن يسلموا أجمعون، فمساعدتهم إنما هي افتتان وفساد ووقوع في الهلكة.

مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ

ومثل هذا ما يغرر به بعض عملاء الكفار من دعوى أن الزمان هذا لا يصلح بتطبيق الدين كله، وأنه لا بد من التعديل فيه وإلا بقي المسلمون في التخلف والرجعية ونحو هذا من التغرير.

فعلينا: أن نحذرهم، وأن لا نتنازل عن شيء من دين الله لا صغير ولا كبير، وأن نعلم أن العزة والقوة في اتباع دين الله؛ لأن ﴿الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩] ولا يذل من أعزه الله، ولم يضر المسلمين اليوم إلا تساهلهم في مخالفة ما أنزل ومخالفتهم لأمر الله حتى تفرقوا وضعفوا وقوي عليهم عدوهم، ولا يزالون حتى يرجعوا إلى دينهم كله ويتوكلوا على الله.

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ عنك بسبب الحذر منهم وترك مساعدتهم بإهمال شيء مما أنزل الله ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡ﴾ فلا تحزن عليهم وارض لهم بما أراد الله لهم، وإذا أراد تعالى أن يصيبهم ببعض ذنوبهم فبالأولى إصابتهم بسبب ذنوبهم كلها، ففيه دلالة على أن بعضها كافٍ في استحقاقهم للعذاب، وأن بعضها عظيم يستدعي وحده أن يصيبهم الله، فاعلم ذلك، ولا يحزنك توليهم عنك ولا عليك منهم.

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ فهو الخبث والفجور يصرفهم عن قبول الحق بعد وضوحه ولذلك فلا تبال بهم وتوكل على الله.

۝٥٠ ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَ﴾ أن تحكم به بينهم، فكل حكم خلاف ما أنزل الله فهو حكم الجاهلية، وإن ادعوا أنه هو العلم أو أنه مقتضى الحكمة؛ لأن الله أعلم بالحكمة والصواب، فالحكمة والصواب فيما أنزل؛ ولذلك فإن خلافه إنما يستند إلى الجهل وإن ظنوه العلم.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يعلمون يقيناً أنه أحكم الحاكمين وأنه علام الغيوب الذي لا يخفى عليه الصواب ولا يرضى لعباده أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، وأن الخير في اتباع حكمه والأحسن عاقبة كما أخبر بذلك وهو أصدق القائلين.

وما أحسن قول سيد قطب هنا: ((ومن ذا الذي يجرؤ على ادعاء أنه يشرع للناس ويحكم فيهم خيراً مما يشرع الله لهم ويحكم فيهم، وأيّة حجة يملك أن يسوقها بين يدي هذا الإدعاء العريض؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعلم بالناس من خالق الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أرحم بالناس من رب الناس؟ أيستطيع أن يقول: إنه أعرف بمصالح الناس من إله الناس؟!

أيستطيع أن يقول: إن الله سبحانه وهو يشرع شريعته الأخيرة ويرسل رسوله الأخير ويجعل رسوله خاتم النبيين ويجعل رسالته خاتمة الرسالات ويجعل شريعته شريعة الأبد.. كان سبحانه يجهل أن أحوالاً ستطرأ وأن حاجات ستستجد، وأن ملابسات ستقع فلم يحسب حسابها في شريعته؛ لأنها كانت خافية عليه حتى انكشفت للناس في آخر الزمان..)).

إلى قوله... ما الذي يستطيع أن يقوله وبخاصة إذا كان يدعي أنه من المسلمين.. الظروف الملابسات عدم رغبة الناس الخوف من الأعداء..ألم يكن هذا كله في علم الله وهو يأمر المسلمين أن يقيموا بينهم شريعته وأن لا يُفتَنوا عن بعض ما أنزله قصور شريعة الله عن استيعاب الحاجات الطارئة والأوضاع المتجددة والأحوال المتغلبة، ألم يكن ذلك في علم الله وهو يشدد هذا التشديد ويحذر هذا التحذير، يستطيع غير المسلم أن يقول ما شاء، ولكن المسلم أو من يدّعون الإسلام.

ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ

ما الذي يقولونه من هذا كله ثم يبقون على شيء من الإسلام أو يبقى لهم شيء من الإسلام، إنه مفرق الطريق الذي لا معدى عنده من الاختيار، ولا فائدة في المماحكة عنده ولا الجدال، إما إسلام وإما جاهلية، إما إيمان وإما كفر، إما حكم الله وإما حكم الجاهلية، والذين لا يحكمون بما أنزل الله هم الكافرون الظالمون الفاسقون..)) الخ كلامه الجميل المفيد لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وبعد هذه الآيات التي توجب الحكم بما أنزل الله حذر سبحانه من موالاة اليهود والنصارى أعداء ما أنزل الله على رسول الله ص فقال تعالى:

﴿٥١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الولاية تكون بالحب والصداقة، وتكون بالمحالفة على النصرة والمعية في الموقف أو في الرأي، والتوجه أو نحو ذلك.

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩] مع قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ...﴾ الآية [الحشر:١١].

وظاهر كلام الإمام الهادي في (الأحكام) أن الميل إليهم بأي نصرة ولو بمجرد تأمينهم أن ذلك موالاة لهم، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وتلك ولاية المحبة والتناصر لاتفاق الدين لا للحلف.

بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ في أنه كافر عدو لله ورسوله، والقدر المشترك بين اليهود والنصارى هو الكفر والمعاداة لله ورسوله ص فهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال:٧٣] فليس المعنى: أن المتولي يهودي نصراني، وإنما المراد ما ذكرت فهو كافر ضال مثلهم في الغواية والبعد عن الهدى؛ لأنه قد صار من القوم الظالمين الذين لا يهديهم الله؛ لاستحقاقهم الخذلان.

وفي قوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ دلالة على أنهم لا يتولون المنافقين ولا ينصرونهم، فهو زجر عن موالاة اليهود والنصارى طمعاً في نصرتهم.

﴿٥٢-٥٣﴾ ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ ﴿فَتَرَى﴾ فبعد النهي عن اتخاذهم أولياء ترى ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الذين هم شاكون مرتابون لم يدخل الإيمان في قلوبهم، وإنما يدعونه وليسوا صادقين، ولأجل هذا المرض لا يثقون بعزة المؤمنين ولا يعتقدون أن الله ينصرهم.

بل ينظرون إلى ظاهر الحال من كثرة الكفار وقوتهم المادية، فهم يخافون غلبة الكفار لهم إن ثبتوا مع المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦] أي فأظهروا الإيمان فرقاً من المؤمنين، ونافقوا فرقاً من الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ﴾ يفيد: أنهم يخالطونهم ويمشون من عند بعضهم إلى عند بعض مسرعين؛ ذلك لأنهم يتولونهم بالصداقة والمحبة لعدم الإيمان في قلوبهم يريدون رضاهم عنهم وأن يأمنوهم إن غلب الكفر ويعتذرون عن ذلك بقولهم ﴿نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞ﴾ شر يأتي به تقلّب الأحوال، فنحن نتقيهم تقاة.

﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

(الفتح): الحكم فعسى الله أن يأتي بالحكم بين المؤمنين والمنافقين بعقاب عاجل للمتولين لليهود أو النصارى ﴿أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ ينكشف سر هؤلاء المنافقين وأنهم قد تولوا الكفار حقيقة لا مجرد اتقاء بحيث ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في هؤلاء المنافقين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ غاية جهدهم في التأكيد ﴿إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ باتخاذ اليهود أو النصارى أولياء بعد ما نهى الله عنه ﴿فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأنهم بذلك أصبحوا منافقين في الدرك الأسفل من النار نادمين بسبب ما أسروا في أنفسهم انكشف وخرج عن كونه سراً في أنفسهم إلى فضيحتهم به وخزيهم أو لذلك والفتح.

ويحتمل الفتح الحكم بين رسول الله ص وبين الكفار، بإعزاز دين الله وإظهاره، كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١] بحيث يندم المنافقون على ما أسروا في أنفسهم من موالاة الكفار وتوقع أن يغلبوا المسلمين؛ لأنهم لم ينالوا خيراً وإنما نالوا به الخزي، ولم يكونوا محتاجين إليه ليأمنوا جانب الكفار.

يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ

ولما حذر تعالى من تولي اليهود والنصارى ووقع بعد ما حذر منه عقب ذلك بالزجر عن الردة؛ لأن سببها وسبب النفاق واحد فقال تعالى:

﴿٥٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖ﴾ هذه الآية منفصلة عما قبلها كما يفيده تصديرها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كما يظهر في نظائرها التي تكون في موضوع جديد، ويكون أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولو كانت تابعة لما قبلها مرتبطة به، لكفى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في صدر التحذير من تولي الكفار.

والارتداد عن الدين: يحتمل عودتهم إلى الكفر الذي كانوا عليه؛ لأن الارتداد الرجوع، قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف:٩٦] وهذا هو الظاهر هنا لقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ..﴾ إلى قوله: ﴿..يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن الكفر والخروج من الملة يستلزم الجهاد، ويؤكد هذا وصفهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهذا السياق يفهم منه أن الردة ستكون، وجهاد أهلها سيكون.

وقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي لحبهم وعلمهم بحق المؤمن عند الله، وقوله: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لبغضهم في الله وتوكلهم على الله وحرصهم على تطهير الأرض منهم وقوّتهم بالألفة بينهم.

وقوله تعالى: ﴿تُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يفيد: صلاح نياتهم في الجهاد، ليس حمية على وطن أو غضباً لأنفسهم، بل لإعلاء كلمة الله في الأرض، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ يشير إلى ما يكون من كثرة القتلى بحيث يلامون على سفك الدماء، وأنهم لا يبالون بلوم من لامهم في سفك الدماء لأنه بالحق لله وفي الله.

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإتيان بهم وإلى ما هداهم له من صفاتهم وأعمالهم والله واسع يسع فضله من يشاء من عباده ولا يقف على رضى المخلوقين، وفي هذا إشارة إلى أنهم محسودون، كما قال في (سورة آل عمران) بعد ما حكى عن أهل الكتاب: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آية:٧٣] .

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يردّ على من يحسد، أو يستبعد بأن الله أعلم حيث يجعل ذلك ومن يصلح لذلك ومن يشكر النعمة ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]؟! أو أن قوله تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ صرف للأذهان عن تعيين مدلولها على ظنهم وحسبانهم، ونظير ذلك في (سورة الروم): ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم:٣-٤] فالسياق يوهم أنهم يفرحون بغلب الروم على فارس، ولكنه تعالى حول الفهم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم:٥] فهو غير نصر الروم لتقييده بالحال الذي أحال ذلك إلى من يشاء الله أن ينصره، وهو رسول الله ص ومن معه نصرهم يوم (بدر).

هذا وفي (الميزان) تدقيق في تفسير هذه الآية، قال: ((وفي الآية ملحمة غيبية)) انتهى، وقد رجح في (الميزان) أن الردة المذكورة في الآية هي تولي اليهود والنصارى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وغيرها وهذا محتمل؛ لأن الارتداد الرجوع والنفاق بعد الإيمان رجوع عن الدين، ولكن لا يتعين ما ذكره فقد روى الإمام الهادي × في (الأحكام) في (باب القول فيما ذكر عن المهدي ×) قال: وبلغنا عن رسول الله ص أنه قال: ((تكردس الفتن في جراثيم العرب حتى لا يقال: الله، ثم يبعث الله قوماً يجتمعون كما يجتمع قزع الخريف فهنالك يحيي الله الحق ويميت الباطل)) انتهى.

فأما الشرفي / فقال: قال في (البرهان) وغيره: هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين × ، قال الشرفي: وهذا قول أهل البيت جميعاً وشيعتهم ـ رضي الله عنهم ـ ويقولون: أنها نزلت في عهد علي × كرم الله وجهه ويدل عليه وجهان:

الأول: أنه ص لما دفع الراية إلى علي × يوم (خيبر) قال: ((لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله)) وهذا هو الصفة المذكورة في الآية، فشهد لَه بذلك، ورقَّته علي المؤمنين وغلظته على الكافرين هي أشهر من الشمس.

والوجه *الثاني*: أنه تعالى ذكر بعد هذه الآية قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ وهذه الآية في حق علي × فكان الأولى جعل ما قبلها ـ أيضاً ـ في حقه، انتهى.

وقد رجح هذا الرازي في تفسيره لأجل (حديث الراية) ويمكن الربط بين هذه الآية الكريمة والآيتين الآتيتين بعدها، بأن السياق لبيان حماية الله لدينه

وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ

ودفع أعدائه عن هدمه، فبين في هذه الآية: أنه من يرتدد عن دينه فسوف ينصر الله دينه بالقوم الذين يأتي بهم الصالحين لذلك لأجل صفاتهم المذكورة، فيجاهدون في سبيل الله.

وفي الآيتين الآتيتين بعدها يبين: أن علياً × هو قائد حزب الله ورسوله، وأن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ كما أنه × مع الرسول أكبر المجاهدين في سبيل الله بعد رسوله، فالسياق لنصر دين الله بالقيادة الصالحة، وفائدة ذلك: أن لا يتوهم المنافقون عدم صلاحية الموجودين لذلك من سياق الآية التي فيها: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ ونظير هذا ما تقدم في (آل عمران): ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ..﴾ الآية [آية:١٠٤] ثم قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ الآية [آية:١١٠] راجع تفسيرها هناك.

فإن كانت الآية: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ في علي × وخاصته، مثل: عمار، وأبي أيوب، ومحمد بن أبي بكر، والأشتر، فلا إشكال من ناحية الربط.

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ الله ولي المؤمنين، يدير شؤونهم، ويحسن رعايتهم، ويهديهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧] وقال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

وفي الحديث النبوي: ((اللهم اهدني فيمن هديت، وتولني فيمن توليت)) فهذه ولاية خاصة حاصلها حسن الرعاية، والرسول ص ولي الذين آمنوا يحسن رعايتهم، لأنه كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] وعلي × يحسن رعايتهم؛ لأنه يحبهم في الله يواسيهم بنفسه ولا يستأثر عليهم بشيء، ويسير فيهم سيرة رسول الله ص لا يضعف عنها بقلة علم ولا بقلة نصح للمؤمنين، ولا يعجز عن تحمل أعبائها.

كيف لا.. وقد خصه ص بقوله: ((من كنت مولاه فعلي مولاه)) وبقوله: ((أنت مني وأنا منك)) وقوله: ((أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لانبي بعدي)) فهو شريكه في أمره إلا النبوة، وهو وزيره كما كان هارون × لموسى × قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان:٣٥] وذلك كله يدل على كمال كفاءته لولاية المؤمنين الولاية العامة لإصلاح مجتمعهم، ودفع المفسدين عنه، وحفظ دينهم، وحمايته من أعدائهم، فولاية الله سبحانه هي أصل الولاية؛ لأنه لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين، وولاية رسوله من جملة ولايته للمؤمنين، وكذلك ولاية الإمام علي × هو رحمة للمؤمنين، ونعمة وحسن رعاية من الله لهم ومن رسوله ص.

أما نزول هذه الآية في علي × فقال الشرفي / في (المصابيح): ((قال القاسم بن إبراهيم × : لا خلاف بين الأمة أنها نزلت في علي × ولم يدعها أحد غيره)) انتهى.

قال الشرفي: ((ونزول هذه الآية في علي × وكونه المراد بها هو إجماع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، وإجماعهم حجة للأدلة المعلومة من الكتاب والسنة)) اهـ.

وقد قطع بنزولها في علي × الإمام الهادي × كما أفاده في أول كتاب (الأحكام) وعَقَدَ المنصور بالله × لذلك فصلاً في (الشافي) [ج١/ ص١٢٢] جمع فيه روايات عديدة من (تفسير الثعلبي) و(السنن الكبرى) للنسائي و(مناقب ابن المغازلي) قال: ((وقد أوردنا أسانيد أهل البيت في ذلك في آخر الكتاب وهو فصل مفيد فليراجع)).

وكذلك الحاكم الحسكاني بسط في تحقيق نزولها في علي × ، فرواه عن ابن عباس ب بسنده عن مجاهد عنه، وبسنده عن طاووس عنه، وبسنده عن الضحاك عنه، وبسند عن سفيان الثوري، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس، وبه عن سفيان قال: وحدثني الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكر ذلك مع تفسير للآية وقصة نزولها في علي × ، ورواه في (شواهد التنزيل) أيضاً عن أنس بن مالك، بإسناد عن إبراهيم بن هدبة، عن أنس، وخرجه المحمودي من (فرائد السمطين) للحموئي، ومن (كفاية الطالب) للكنجي.

وأخرجه في (شواهد التنزيل) عن أنس ـ أيضاً ـ من رواية حميد الطويل عن أنس، وأخرجه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن محمد بن الحنفية ، بإسناده عن عطاء بن السائب، وابن جريج، وخرجه المحمودي في (تخريج شواهد التنزيل) من رواية أبي نعيم في (الحلية) بإسناده عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس.

ورواه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن عمار بن ياسر، وعن جابر ب ، ورواه في (شواهد التنزيل) عن علي × ، وخرجه المحموي في (تخريج شواهد التنزيل) من عدة كتب، وأخرجه في (شواهد التنزيل) بإسناده عن

المقداد بن الأسود، وبسند عن أبي ذر الغفاري ب ، وخرجه المحمودي، ورواه في (شواهد التنزيل) بسند عن أبي صالح عن ابن عباس ب ، ورواه بسند عن عبد الله بن محمد بن الحنفية.

وأخرج في (شواهد التنزيل) بسنده: عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ نزلت في علي خاصة، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في علي، وقوله: ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ نزلت في علي، أمِر رسول الله أن يبلغ فيه، فأخذ بيد علي وقال: ((من كنت مولاه فعلي مولاه ...الخ)).

وخرجها المحمودي من (مناقب محمد بن سليمان) قال المحمودي: ورواه أيضاً أبو الليث السمرقندي ـ ثم قال ـ : وقريباً منه رواه أبو نعيم مطولاً بسندين عن ابن عباس في كتابه [ما نزل من القرآن في علي] ثم بسط في التخريج فليراجع، ونقله في التخريج من (أمالي المرشد بالله الخميسية) كما في الأمالي بتمامه.

ثم أخرج في (شواهد التنزيل) عن ابن عباس ب أن نزول قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في علي × من طريقين، وفي (الدر المنثور) للسيوطي: وأخرج الخطيب في المتفق عن ابن عباس قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع، فقال النبي ص للسائل: ((مَن أعطاك هذا الخاتم))؟ قال: ذاك الراكع، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ..﴾.

وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه: عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ..﴾ الآية، قال: نزلت في علي بن أبي طالب، وأخرج الطبراني في (الأوسط) وابن مردويه عن عمار بن ياسر، قال: وقف بعلي سائل وهو راكع في صلاة التطوع فنزع

خاتمه فأعطاه السائل، فأتى رسول الله ص فأعلمه ذلك فنزلت على النبي ص هذه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ فقرأها رسول الله ص على أصحابه ثم قال: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ مَن والاه، وعاد من عاداه)).

وأخرج أبو الشيخ، وابن مردويه: عن علي بن أبي طالب، قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ص في بيته: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلى آخر الآية، فخرج رسول الله ص فدخل المسجد وجاء الناس يصلون بين راكع وساجد وقائم يصلي، فإذا سائل فقال: ((يا سائل هل أعطاك أحد شيئاً))؟ قال: لا، ذاك الراكع ـ لعلي ابن أبي طالب ـ أعطاني خاتمه.

وأخرج ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن عساكر: عن سلمة بن كهيل قال: تصدق علي بخاتمه وهو راكع، فنزلت: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ..﴾ الآية، وأخرج ابن جرير: عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ..﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب تصدق وهو راكع.

وأخرج ابن جرير عن السدي، وعتبة بن حكيم.. مثله الخ التخريج، فليراجعه من أراد الزيادة، وقد حكى الأميني في (الغدير) عن ابن تيمية: أنه نفى ذلك في كتابه المسمى (منهاج السنة) وردّ الأميني عليه بنقل نزولها في علي × من ستة وستين كتاباً، في بعضها ذكر اتفاق المفسرين على نزولها في علي × ومحل ذلك في (الغدير) [ج٣/ ص١٥٥] وما بعدها إلى [صفحة١٦٢].

يؤكد هذه الروايات أنه تعالى قال: ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ فجملة: (وهم راكعون) حال من يؤتون أي يؤتون الزكاة حال الركوع أو الركعة، وحمل الركوع على المعنى الشرعي الأكثر استعمالاً هو أرجح من

حمله على الخضوع؛ لأن كلام الشارع يتبادر منه المعنى الشرعي مع أنه يمكن حمله على المعنيين أو المعاني لاجتماعها في الركوع، فظهر أنها علامة تميز مصداق الثلاث الجمل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ﴿وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فتعين مصداقها الذي هو المراد بإثبات الولاية لَه، كما هي لله ورسوله بقوله: ﴿وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾.

فأما استعمال الجمع ومصدقه واحد، ففي القرآن الكريم: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا..﴾ [المنافقون:٧] ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ..﴾ [المنافقون:٨] وذلك عبد الله ابن أُبَي، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ..﴾ [آل عمران:١٧٣] وذلك نعيم بن مسعود.

ويؤكد ذلك ـ أيضاً ـ أن الخطاب للذين آمنوا المذكورين في الآية قبلها، فلو كان المراد العموم لقال: (وبعضكم أولياء بعض) كما في (سورة الأنفال): ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [آية:٧٢] وفي (سورة التوبة): ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١] لأن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لو كان المراد به العموم في سياق خطاب الذين آمنوا يكون بمنزلة ما لو قال: (وأنتم ولي أنفسكم) والشيء الواحد لا يكون ولي نفسه، ولذلك يكون التعبير ضعيفاً؛ لأن الجملة كالشيء الواحد، والموالاة بمنزلة التقارب لا تكون إلا بين شيئين، بل لو كان المراد ذلك لقال: (وأنفسكم) بدل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾..الخ.

ولا يقال: إن الولاية للصالحين من الذين آمنوا لا لكلهم فارتفع الإشكال؛ لأنا نقول: إن إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة من صفات المؤمنين والخطاب لهم فلا خصوص، أما أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من صفاتهم

فلقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة:٧١] فدلت على أن من لم يكن كذلك فليس بمؤمن؛ لأن الآية في سياق الفرق بين المنافقين والمؤمنين، فقال تعالى في المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾ [التوبة:٦٧] إلى آخر الآيات في زجرهم، ثم قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ الآية [التوبة:٧١].

وأما أن الخطاب لهم، فلأن أول الكلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ..﴾ فهي تدل على أن الخطاب لهم في حال إيمانهم قبل أن يرتدوا، تحذيراً لهم من الارتداد، ومن خرج من الإيمان إلى ترك إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة خاضعاً لله، فقد ارتد عن دينه الذي هو الإيمان؛ لأنه رجع إلى العصيان عن الإيمان، والارتداد: الرجوع، وإن خصة العرف بالخروج من الملة، فالقرآن لا يفسر بالعرف الحادث بعد نزوله.

فظهر: أنه لا يصح أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في الآية مصداقه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في التي قبلها بل هو مخصوص، وذلك يؤكد الروايات أنها نزلت في علي × .

فأما فائدة استعمال العموم بدل الخصوص: فلعل الحكمة ـ والله أعلم ـ أنه لو قال: (والمؤمن الذي يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وهو راكع) وكان علي × هو المعروف بإيتاء الزكاة في حال ركوعه، لكان ذلك كالتصريح باسمه، ولم يكن من الحكمة التصريح في علي × لكثرة أعدائه وشدة عداوتهم، وكثرة حساده، أو للإبتلاء في هذا الباب، وفتنة المسلمين كما فتن الذين من قبلهم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ توليه لله اتخاذه ولياً بطاعته وإتباع رسوله، والكون مع الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة إلى آخر الآية في صفِّه وعلى طريقته، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ يفيد: أن من كان مع الله تعالى ومع رسوله ص ومع الإمام علي × فهو من حزب الله الغالب بنصر الله، وقوَّى أن حزب الله ﴿هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ بـ(إنَّ) وقصر القلب الحاصل بتعريف اسم (إنَّ) وخبرها المفيد للحصر وضمير الفصل، وهذا ترغيب عظيم ومؤكد، لكون السياق في نصر الله لدينه بأوليائه من قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ..﴾.

وحزب الله: الذين يتولون الله ورسوله، ولا يوادون من حاد الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢١-٢٢] قال في (الصحاح): ((حزب الرجل: أصحابه)) انتهى.

فأما الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ﴾ والقصر، فهو إما بالنسبة إلى وقت نزول الآية إلى آخر عهد علي × حتى قتل، ثم بعده يجب تولي أشبه الناس به في حسن الرعاية للناس بطريقة القياس وبعموم الأدلة، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] وإما للدلالة على أن من بعده من أئمة الهدى لا يبلغ مبلغه في الولاية التي قرنها الله بولاية الله ورسوله ص وإن بلغوا في حسن الرعاية ما بلغوا فرعايتهم للمؤمنين دون رعايته × ، فصح القصر على الدوام، لكن هذا يصيّر القصر مجازاً كقول الشاعر:

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ

ليس من مات فاستراح بميْتٍ إنما الْمَيْت ميِّت الأحياء

فتعين: أن الحصر بالنسبة إلى وقت نزول الآية، والموجودين إذ ذاك.

والأولى أن يقال: هذا (قصر القلب) وهو في سياق التحذير من الردة يبين أنه لا حاجة للردة ولا فائدة لها في التخلص من خوف غلبة الكفار، فإن الله ورسوله والذين آمنوا يحسنون رعاية الذين آمنوا، وإذا تولوهم فإنهم غالبون، فكأنه قيل: إنما وليكم الله لا رؤساء الكفر كما يتوهم المنافقون، وعلى هذا لا إشكال في الحصر والقصر؛ لأنه ليس قصر الإفراد، بل هو كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها، ولا ينافي أنها تكسب لنفسها.

فإن *قيل*: يلزم من هذا: أن لَه ولاية في عهد الرسول ص والمعلوم خلافه؟

قلنا: لا نسلم قولكم: والمعلوم خلافه، وإنما المعلوم: أن ولايته كانت لا تعارض ولاية الرسول ص بل هي وزارة وخلافة إذا غاب، و(حديث الغدير) و(حديث المنزلة) يدلان على ولايته في عصره ص.

ولما تقدم قبل هذه الآيات الثلاث الزجر عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، وكانت حال المسلمين وحال اليهود والنصارى تستدعي مزيداً من التحذير قال تعالى:

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ

* وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فبيّن ﷻ: أن اليهود والنصارى يقبح اتخاذهم أولياء مع قبحه لكونهم أعداءً لله يقبح لاتخاذهم ديننا الذي هو دين الله هزواً ولعباً، وفي هذا الإسناد إثارة لحمية المسلم حيث علق النهي على الموصول، لأجل أن الصلة تستدعي الحمية المانعة من موالاتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿دِينَكُمْ﴾ ولم يقل: ديني.

وأما قوله تعالى: ﴿مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فهو تشنيع عليهم؛ لأنهم لو اهتدوا بالكتاب لآمنوا بمحمد واتبعوا دينه، ولكنهم لم يهتدوا وغلبهم الحسد فاتخذوا الإسلام هزؤاً ولعباً؛ جرأة على الله وخبثاً، فكيف يتخذهم المسلم أولياء؟!

وقوله تعالى: ﴿وَالْكُفَّارَ﴾ من عطف العام على الخاص، ليفيد: النهي عن اتخاذ الكفار أولياء من أي صنف كانوا من أصناف الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تأكيد للنهي ودلالة على أنه يعذبهم إن عصوا، كقوله تعالى في أول السورة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يفيد: أن شأن المؤمنين تقوى الله؛ لأن الإيمان الصحيح الصادق يبعث على تقوى الله ويأمر بها؛ لأنه يسبب الخوف من الله والحذر من عذابه.

وموقع هذه الجملة في هذا السياق مناسب غاية المناسبة؛ لأن المؤمن لا يتولى الذي كفروا، والحث هنا على التقوى حثٌ على ترك اتخاذهم أولياء كما هو واضح، قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ [المجادلة:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ..﴾ الآية.

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ

ففي قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ إلهابٌ وتحريك للذين آمنوا ليجتنبوا اتخاذ الكفار أولياء، ثم عطف على قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾ عطفاً خاصاً بالصلاة؛ لأن اتخاذها هزؤاً واضح في القبح، والدلالة على قسوة اليهود وعنادهم حيث اتخذوها هزؤاً ولعباً، وهي خضوع لله وتذلل وعبادة لا ينكرها دينهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗا﴾.

ثم سجل عليهم بإهمال العقول، وأنهم صاروا كالأنعام بل هم أضل فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ فدل: على أن جرأتهم على اتخاذ الصلاة هزؤاً ولعباً سببها إهمال العقول، ولو استعملوا عقولهم لعلموا أنه لا ينبغي الاستهزاء بعبادة الله وذكره.

﴿٥٩﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ ﴿هَلۡ تَنقِمُونَ﴾ هل تعيبون وتنكرون منا إلا أن آمنا، وهذا ليس عيباً، قال الراغب: «نقَمت الشيء ونقمته، إذا أنكرته باللسان أو بالعقوبة» ولكنهم عابوه كفراً منهم بالقرآن وبالإنجيل إذا كان المنكرون هم اليهود؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ﴾ يعم (الإنجيل).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ قيل في تفسيره: إنه نظير قول القائل: هل تكره مني إلا أني عفيف وأنك فاجر، وهل تنكر مني إلا أني غني وأنك فقير.

ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ

قلت: إن صح وقوع هذا في لغة العرب بلفظ ـ مني ـ في المثالين وبلفظ ـ وأنك ـ فهو لا يستقيم في سياق ﴿هَلْ تَنقِمُونَ﴾ أي تنكرون بالقول، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ وإن لم يصح فالراجح: أن أهل الكتاب حملوا ذنوب فساقهم على المسلمين، وجعلوا إسلام المسلمين هو سبب فسقهم، وذلك يتصور بطريقتين:

الأولى: ترغيب اليهود لفساقهم بإباحة الجريمة؛ لئلا يدخلوا في الدين الذي يحرمها قولاً وفعلاً.

الثانية: أن يسهِّلوها لهم ويجعلوها مكفرة بثباتهم على اليهودية ويزعموا لهم أنها صغيرة في جنب الدخول في الإسلام، فلما كثر الفسق وانتشر بجعله خيراً من الإسلام وبتهوينه لفساقهم لئلا يدخلوا في الإسلام حمّلوا الإسلام عيبهم وجعلوه سبب فسقهم، فكان عندهم من جملة ما يعيبون به الإسلام أنه سبب لانتشار الفسق فيهم ـ والله أعلم.

وعلى هذا: يصح التركيب أنهم يعيبون من المؤمنين الإيمان، ويعيبون منهم فسق فساقهم، مخالفة للعدل الذي يقضي بأنها: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام:١٦٤] وقد ذكر في (الكشاف) وجوهاً أربعة، لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ فراجعه إن شئت.

﴿٦٠﴾ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل الكتاب يا أهل الكتاب المنتسبون إليه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ﴾ مما نقمتم علينا وهو الإيمان وليس مما يحق أن ينقم وفسق أكثركم ونحن منه براء وبريئون فما

بقي إلا الإيمان فشر منه مرجعاً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عمل ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ بذنبه ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ وقد مر في السورة: ﴿لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً..﴾ إلى آخر الآية، ومرَّ في (سورة النساء) تعديد جرائمهم ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ﴾ كما مرَّ في (سورة البقرة) ويأتي في (سورة الأعراف).

وقوله: ﴿وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ لعلهم قوم من النصارى كفروا بعد إنزال المائدة عليهم قال الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قيل: القردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار أهل مائدة عيسى × ، وقال ابن عباس: المسخين في أصحاب السبت فشبابهم مسخوا قردة ومشائخهم خنازير، ثم قال الشرفي: وقال الهادي × : فهؤلاء قوم من بني إسرائيل مسخوا حين عتوا واجترءوا فجعلوا صور ما ذكر الله ﷻ عن أن يحويه قول أو ينالـه من القردة والخنازير، فجعْل الله لهم تحويله لصوَرهم وإحلاله لنقمه سبحانه بهم على ما كان من فعلهم وما استوجبوا بجرمهم)) انتهى المراد.

وما ذكره الإمام الهادي × يكفينا؛ لأنه الذي دل عليه القرآن من دون تعيين الممسوخين خنازير، وأما ما حكي عن ابن عباس فلا يصح عنه؛ لأنه مخالف للقرآن؛ لأنه دل على مسخ الذين اعتدوا في السبت من أصحاب القرية قردة، وذلك ينافي جعلهم قسمين قردة وخنازير، وابن عباس أجل من أن يخفى عليه أو يعتمد من الأساطير على رواية تخالفه.

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ حكى الشرفي في (المصابيح): ((عن الهادي × أنه قال: وأما قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فإنما هو على التقديم والتأخير،

أرادسبحانه هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فجعلها في اللفظ مؤخرة وهي في المعنى مقدمة، وفعل الطاغوت فليس من فعل الله؛ لأن الطاغوت هو ما أطغى من الفعل وأفسد من العمل، وخالف الحق وجنّب عن الصدق)) انتهى.

قلت: قد جعل الإمام الهادي × في (آية الوضوء) ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ معطوفاً على ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ ومثل ذلك أراد هنا؛ ولعله جعل اللعنة والغضب شيئاً واحداً، هو خذلانهم وسلبهم التوفيق، بحيث يصيرون إلى عذابه.

والعبادة للطاغوت: إما أنها طاعتهم للشيطان في ترك عبادة الله على قول الناصر × : أن الطاعة للشيطان عبادة لَه كما بسطه في (البساط) وبناء عليه يصلح تفسير (الطاغوت) بالشيطان، وبالملوك الذين كانوا يأمرونهم بالفساد في الأرض حين علوا علواً كبيراً.

ويحتمل: أن عبادتهم للطاغوت: إيمانهم بهم، وقد مرَّ التفسير لَه عند ذكر قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١] والظاهر: أن منهم من عبد الطاغوت حقيقة، ولذلك عابه عليهم لكونهم أهل كتاب يدّعون اتباعه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي أسوأ حالاً، والمراد أنهم أشر في أنفسهم، ونسب ذلك إلى مكانهم على طريقة الكناية، كقول الشاعر:

يبيت بمنجاة من اللؤم بيتها إذا ما بيوت بالملامة حُلَّتِ

والمعنى واضح؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يغضب عليهم ويلعنهم إلا وهم شر، ولا يجعل منهم القردة والخنازير إلا وهم شر؛ ولأن من عبد الطاغوت شر ممن آمن بالله وكتبه، وهذه المفاضلة كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت:٤٠].

بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ ۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ

﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾: المستوى من الطريق فلا انحراف فيه ولا طلوع ولا نزول، فهو لا يخفى على السائر فيه، ولا يضل عنه إلا من هو أعمى البصر والبصيرة، وهؤلاء الموصوفون من أهل الكتاب قد شبهوا به؛ لأنهم عدلوا عن الصراط المستقيم وهو بيِّنٌ لهم في (التوراة).

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦ﴾ أي هؤلاء الذي نهاكم الله عن اتخاذهم أولياء الذين اتخذوا دينكم هزؤاً ولعباً ﴿إِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ استهزاءً بكم؛ لأنهم قالوا ذلك وقد دخلوا مضمرين للكفر، مصرين عليه، مصاحبين له، وهم وإن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ قد خرجوا من عندكم بالكفر كما دخلوا به.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ﴾ في الماضي قبل مجيئهم وعند دخولهم وخروجهم، فكيف تتخذونهم أولياء وقد نهاكم العليم الخبير؟!

﴿٦٢﴾ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾ ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ أي ذلك ظاهر منهم مكشوف، لا يتسترون فيه كما في زماننا الذي حذا كثير من أهله حذو أهل الكتاب و﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ المعاصي كشرب الخمر و﴿ٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ التعدي على الناس، ومسارعتهم إلى ذلك: إقدامهم عليه بسرعة لفرط جرأتهم على الله، وحرصهم على الإثم والعدوان.

﴿وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَ﴾: أكلهم الربا، والرشوة، وأكلهم أموال الناس بالباطل بأي طريقة كان ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي والله لبئس ما كانوا يعملون، فكيف تتخذونهم أولياء وهم ضالون مضلون؟!!

ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا

﴿٦٣﴾ ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ لبئس ما كان الربانيون والأحبار يصنعون من المصانعة بترك النهي والمداهنة، كأن ذلك كان صناعة لهم يتقنونها لتحصيل أغراض دنيوية، فهلا كانوا ينهونهم وهم ربانيون وأحبار.

قال الشرفي: ((و﴿ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ علماء أهل الإنجيل ﴿وَٱلْأَحْبَارُ﴾ علماء اليهود)).

قلت: الراجح: أن (الأحبار) علماء الفريقين، بدليل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ [التوبة:٣١] و(الربانيين) الدعاة إلى الرب، فهم يدعون الناس إلى تقوى الله، ويأمرونهم بالبر من دون أن ينهوا فاعل المعصية عنها بعينه، ولعل الحرام سمي سحتاً؛ لأنه سببٌ لهلاك صاحبه وخلوده في النار، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] أي يهلككم بعذاب.

وقال الراغب: ((السِّحتُ: القشر الذي يستأصل، قال تعالى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] وقرئ ﴿فَيَسْحَتَكُم﴾ يقال: سحته، وأسحته، ومنه السحت للمحظور الذي يلزم صاحبه العار، كأنه يُسْحِتُ دينه ومروءته)) انتهى.

قوله: القشر الذي يستأصل: عبارة (الصحاح): وسحتُّ الشحم عن اللحم إذا قشرته عنه، وفي (الصحاح): ((وسَحَته وأسحته أي استأصله)) انتهى.

وعلى هذا: فمعنى: ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه:٦١] فيستأصلكم، أي يهلككم أجمعين، وعلى هذا: فلا ينبغي اتخاذهم أولياء حتى الربانيين والأحبار.

قَالُواْ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ

﴿٦٤﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ مجاز عن البخل أخزاهم الله، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء:٢٩] أي لا تترك الإنفاق ولا تكثره إلى حد يجحف بحالك.

وفي تفسير الإمام زيد بن علي إ لـ(غريب القرآن): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: ((معناه: هو يحب أن يمسك خيره)) انتهى.

﴿غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾ هذا من الردّ على اليهود، يعبر عن سخط الله عليهم، ومقته لمقالتهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤].

﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ فأكذب الله قولهم وبيَّن أن عطاءه مستمر على ما يشاء؛ لأنه حكيم في إنفاقه في البسط والتقدير، وسواء في قدرته وكرمه بسط أو قدر، فلا يصعب عليه البسط ولا يقدر لمشقة البسط سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قال في (الكشاف): ((غل اليد وبسطها، مجاز عن البخل والجود، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ولا غل ولا بسط حتى أنه يستعمله في ملك لا يعطي عطاء ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء جزيلاً، لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، وقد استعملوهما حيث لا تصح اليد، كقوله:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكـرت نـداه تلاعه ووهاده

ولقد جعل لبيد للشَّمال يداً، في قوله:

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال: بَسَط اليأس كفيه في صدري، فجُعِلت لليأس الذي هو من المعاني لا من الأعيان كفَّان، ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية)) انتهى باختصار.

ويدل على ما ذكره قول الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] وليس للمخاطب جناح حقيقي، ومن الغلط البيّن تسمية هذه الآية وأمثالها باسم (آيات الصفات) فليست من الصفات، وإنما تسميتها دعوى بلا بينة؛ لأنها لم تخرج في القرآن مخرج الوصف لله سبحانه بأن لَه أعضاء ـ سبحانه وتعالى ـ وإنما جاءت مجيء ذكر الجناح واليد، في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ [الحجر:٨٨] ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:٢٤] ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

ألا ترى أن هذا السياق ليس بصدد وصف العذاب بأن له يدين، وكذلك قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] في القرآن وفي الإنجيل.

ومن العجيب قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، ولم ينزهوا الله عن اليد، فكأنهم يقولون: معنى الآية إثبات اليد؛ لأن لله يداً، وعلى هذا فاحتجاجهم بالآية دور؛ لأنهم أثبتوا لَه يداً بناء على احتجاجهم بالآية، ولو أنصفوا مع قولهم: إن اليد يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، لقالوا: ليس المعنى إثبات اليد؛ لأن الله ليس لَه أعضاء، أو على أقل تقدير

وقفوا في المعنى ولم يثبتوا يداً، بناء على أصلهم أنه يختلف معناها بحسب ما تضاف إليه، وهم لم يثبتوا للعذاب يداً بناء على هذا الأصل.

ومن الدور قولهم: نثبت ما أثبت القرآن؛ لأنه مبني على أنه أثبت عضواً، لا على مجرد لفظ اليد، ألا ترى أنهم لا يقولون: نثبت للقرآن يدين، كما أثبت في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة:٩٧] ولا يقولون: نثبت للعذاب ما أثبت القرآن لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

فظهر: أنهم قاسوا الخالق على المخلوقين، وجعلوا الإضافة في قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾ كإضافة اليد إلى المخلوق، وزعموا أن خلاف ذلك تعطيل بناء على هذا القياس، وهو جهل عظيم، بل التعطيل تشبيه الخالق بالمخلوق؛ لأنه يلزم منه عبادة غير الله، أي الصورة التي يتوهمونها ونفي غيرها بناء على أنها هي الله سبحانه وتعالى.

فأما البَلْكَفَة فلا تفيدهم بعد إثبات العضو، وكذلك قولهم: ((تليق بجلاله)) لأنه ليس إلا كقولنا: للملائكة أجنحة ليست كأجنحة الطيور التي نراها، بل أجنحة تليق بهم وتناسب خلقهم وأجسامهم، فكما أن هذا لا ينفي الجناح الذي هو آلة الطيران، فكذلك قولهم بزعمهم تليق بجلاله؛ لأنه يكفي عندهم نفي كونها من جنس أيدي المخلوقين، وليس إلا كنفي كون أجنحة الملائكة من جنس أجنحة الطيور التي نراها؛ لأنهم لا يعنون بقولهم: ((تليق بجلاله)) نفي العضو، فلذلك لم يخلصهم من التشبيه ـ وبالله التوفيق.

ولو خرج ذكر الأعضاء في القرآن مخرج وصفه تعالى بأسمائه الحسنى كما في آخر (سورة الحشر) بأن كان فيه مثلاً هو الله ذو الوجه واليدين والجنب والعين لساغ جعل ذلك من المتشابه، فأما وهو لم يقع كذلك، فليس ينبغي عده

من المتشابه إلا عند من يجهل اللغة العربية، ولذلك لم يجرِ عند العرب إشكال في معناها؛ لأنه لا يخطر ببال العربي الأصيل إلا المعنى الذي سيق لَه الكلام، كإثبات العطاء المستمر، ولا يخطر بباله إثبات عضو لله ـ سبحانه وتعالى ـ وعلى هذا فتسمية هذه وما أشبهها (آيات الصفات) بدعة؛ لأنها لم تكن في الكتاب هذه التسمية، ولا السنة، وإنما ابتدعوها ليتوصلوا إلى إثبات مذهبهم.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ وذلك لخذلانهم واستمرارهم في الكفر، مثل أن يسمعوا قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] فيزعموا أنه فقير؛ لأنه بزعمهم طلب القرض ولا يطلبه إلا الفقير، وغير ذلك من أنوع الطغيان والكفر يتوصلون إليه بالقرآن كما مثلت، فيزيدهم ﴿طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ إلقاء الشيء: طرحه، والعداوة: المباينة مع البغض وإرادة الضر بالغير، وذكر إلقاء العداوة دون جعل العداوة يشعر بسهولة تحصيلها بينهم، وهو على معنى التخلية مع فطرة النفوس على قبول العداوة والبغضاء بسبب ما يقع بينهم من اختلاف مع تركهم تحكيم العقول، كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

أو على أنهم يستحقون كلهم تسليط بعضهم على بعض، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥] وهذا أظهر، فهم على ذلك إلى يوم القيامة، وهذا يدل: على أن المهدي المنتظر لا يستطيع إدخالهم في الإسلام، وغاية قوته عليهم أن يضرب عليهم الجزية والصغار، كما أمر الله.

لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞ يَا أَيُّهَا

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ لما بينهم من العداوة والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر:١٤] فأما عدوانهم على مصر وسوريا والأردن في حرب الأيام الستة، فهي محمولة على أن الموقد لها الحقيقي هو أمريكا، وإنما هي باسم اليهود، وكذا عدوانهم السابق على مصر مع دولتين عظيمتين، أو المراد: كلما أوقدوا ناراً لحرب المؤمنين، بقرينة قوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢].

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿يَسْعَوْنَ﴾ يدل على شدة عنايتهم بالفساد، والسعي: سير سريع، وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يدل على أنهم يسعون لنشر الفساد في الأرض وإشاعته في أقطار الأرض ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ فيرجى منه أن لا يخليهم وشأنهم؛ لأنه لا يحب الفساد، وذلك كله دليل على أنه لا ينبغي لمؤمن اتخاذهم أولياء.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿آمَنُوا﴾ بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الله بطاعته ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ﴾ ما مضى من ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بالتغطية لها، كأن لم تكن ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ مثل كل مؤمن تقي.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ من كتب الله التي منها القرآن في عهد محمد ص، وإقامتُها: إحياؤها والعمل بما فيها، فتركها ونسيانها إضاعة وإهمال ضد الإقامة.

ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ

﴿لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ بنزول بركات السماء وظهور بركات الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] لكنهم لم يقيموا (التوراة) و(الإنجيل) وما أنزل إليهم فعوقبوا بنقص البركات وقلة الأرزاق، حتى قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ والسبب من عند أنفسهم فما كان ينبغي لهم إلا أن يلوموا أنفسهم ويرجعوا إلى ربهم لا أن يزدادوا كفراً إلى كفرهم.

﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ﴾ دفع لإيهام أنهم كلهم لم يؤمنوا ولم يقيموا (التوراة) قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ...﴾ الآية [آل عمران:١٩٩].

﴿سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ ما أسوء أعمالهم التي يعملونها مستمرين على أعمال السوء، وقد مر تفصيل بعض أعمالهم السيئة قريباً، وفي (سورة البقرة) تفصيل كامل يدل على سوء أعمالهم، وكذلك مرَّ قولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وفي (سورة النساء) كلام كثير في جرائم اليهود، ويأتي في هذه السورة في جرائم النصارى.

﴿٦٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ منزل مخصوص ليس كلما أنزل؛ لأنه لو كان عاماً، لكان قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ كتحصيل الحاصل، كما لو قال: (وإن لم تفعل فلم تفعل) فتبين: أنه منزل مخصوص لو لم يبلغه لحبط تبليغه الماضي وصار لم يبلغ رسالات الله أو رسالته.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ تقدمة للأمر بالتبليغ مناسبة ما على الرسول إلا البلاغ، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تنبيه على وجوب طاعته؛ لأنه المالك المربي.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا قطع للعلة في ترك التبليغ، وفيه إشارة إلى أن الأمر الذي أمر بتبليغه مما يخشى منه عدوان أعداء الله على المبلغ.

قال في (الكشاف): ((فإن **قلت**: أين العصمة وقد شج في وجهه يوم أحد وكسرت رباعيته صلوات الله عليه))؟! انتهى.

قلت: لا وجه للسؤال، لأن قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ مضارع فليست العصمة إلا من حين نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ ولا يلزم عصمته في الماضي مع أنه تعالى قد عصمه من القتل في الماضي لكن قوله تعالى: ﴿يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ لا يختص بالقتل ولم يخبره في الماضي بأنه يعصمه من الناس ليباشر المعارك باذلاً نفسه لله، كما قال تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ [النساء:٨٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولذلك احتجْتَ إلى العصمة من الناس وإخبارك بها لتبلغ هذا الأمر المخصوص الذي يثير بعض الناس، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ﴾ والتعليل: بأن ﴿ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾ كقوله تعالى: ﴿وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء:١٠٢] في أنه تعليل بتركهم على كفرهم، إلا أنه هنا عبر عنه بترك هدايته لهم، وهناك عبر عنه بإعداد العذاب لهم المسوغ لتركهم على كفرهم يقاتلون المسلمين ويحتاج المسلمون إلى أخذ الحذر منهم.

قال السيوطي في (الدر المنثور): ((وأخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه، وابن عساكر: عن أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ على رسول الله ص يوم (غدير خمّ) في علي بن أبي طالب.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن مسعود، قال: كنا نقرأ على عهد رسول الله ص: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إن علياً مولى المؤمنين ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾)) انتهى.

وروى المرشد بالله × في (الأمالي الخميسية) [ج١/ ص١٤٥ـ١٤٦] باسناده عن ابن عباس ا في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ نزلت في علي × أمر رسول الله ص أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله ص بيد علي × فقال: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه)) انتهى.

وفي (مناقب أمير المؤمنين علي ×) تأليف محمد بن سليمان الكوفي: محمد بن سليمان، قال: حدثنا محمد بن منصور، عن عبّاد، عن علي بن هاشم، عن أبي الجارود، عن أبي جعفر × قال: لما أمر الله رسول الله ص بما أمر به قال: قومي حديث عهد بالجاهلية، إذ أتاه جبريل فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فأخذ بيد علي فقال: ((من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه)) انتهى.

وقال الإمام الهادي × في أول كتاب (الأحكام): ((وفيه ـ أي في علي × ـ:أنزل الله على رسوله بـ(غدير خُمّ): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فوقف ص وقطع سيره، ولم يستجز أن يتقدم خطوة واحدة حتى ينفذ ما عزم به عليه في علي × ..)) الخ (حديث الغدير).

وفي (شواهد التنزيل) عند ذكره لهذه الآية: بإسناده عن أبي هريرة، عن النبي ص قال: ((لما أسري بي إلى السماء سمعت تحت العرش: أن علياً راية الهدى، وحبيب من يؤمن بي، بلغ يا محمد)) قال فلما نزل النبي ص أسر ذلك فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ في علي بن أبي طالب ﴿..وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن أبي سعيد الخدري، قال: نزلت هذه الآية في علي ابن أبي طالب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وفي (شواهد التنزيل): بإسناد عن ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ الآية، نزلت في علي أمر رسول الله ص أن يبلغ فيه، فأخذ رسول الله بيد علي، فقال: ((من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه)).

وفيه بإسناد قال: حدثنا عبد الله ابن أبي أوفى قال: سمعت رسول الله ص يقول يوم (غدير خم) وتلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ ثم رفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، ثم قال: ((ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، ثم قال: اللهم اشهد)).

وفيه: بإسناد عن زياد بن المنذر، يقول: كنت عند أبي جعفر ـ محمد بن علي ـ وهو يحدث الناس، إذ قام إليه رجل من أهل البصرة يقال لَه: عثمان الأعشى، كان يروي عن الحسن البصري، فقال: يا ابن رسول الله جعلني الله فداك إن الحسن يخبرنا أن هذه الآية نزلت بسبب رجل، ولا يخبرنا من الرجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾؟

فقال: لو أراد أن يخبر به لأخبر به، ولكنه يخاف، إن جبريل هبط على النبي ص فقال له: ((إن الله يأمرك أن تدل أمتك على صلاتهم..)) إلى قوله × : ((..ثم هبط فقال: إن الله يأمرك أن تدل أمتك على وليّهم على مثل ما دللتهم عليه من صلاتهم وزكاتهم وصيامهم وحجهم ليلزمهم الحجة في جميع ذلك)) فقال رسول الله ص: يارب إن قومي قريبوا عهد بالجاهلية وفيهم تنافسٌ وفخر، وما منهم رجل إلا وقد وتره وليهم وإني أخاف، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يريد فما بلغتها تامة ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلما ضمن الله لَه بالعصمة وخوَّفه أخذ بيد علي بن أبي طالب ثم قال: ((يا أيها الناس من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأحبَّ من أحبَّه، وابغض من أبغضه)) قال زياد: فقال عثمان: ما انصرفت إلى بلدي بشيء أحب إلي من هذا الحديث)) انتهى، وأنا اختصرته وهو بتمامه في (شواهد التنزيل).

وفيه بإسناد عن ابن عباس وجابر ابن عبد الله ب قالا: أمر الله محمداً أن ينصب علياً للناس ليخبرهم بولايته، فتخوف رسول الله ص أن يقولوا: حابا ابن عمه، وأن يطعنوا في ذلك عليه، فأوحى الله إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ الآية، فقام رسول الله بولايته يوم (غدير خمّ) انتهى.

قال المحمودي في (تخريج أحاديث شواهد التنزيل): ((والحديث رواه ابن مردويه في كتاب (مناقب علي ×) بعدة طرق..)) الخ.

وفيه بسند عن ابن عباس: عن النبي ص رواية فيها بعض الطول، قال في آخرها: حتى كان يوم الثامن عشر أنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ

أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إلى قوله..ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب، فرفعها حتى رأى الناس بياض إبطيهما، ثم قال: ((أيها الناس الله مولاي، وأنا مولاكم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله)) وأنزل الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ انتهى، وفي تخريجه زيادات، فليراجع من أراد.

وقد بسط الأميني في (الغدير) تخريج نزول قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ في (غدير خم) في ولاية علي × وذلك في (الغدير) في [ج١/ص٢١٤ـ٢٢٣] فراجعه، وفي (الميزان) بيان مفيد ينبغي تأمله، وهو في [ج٦/ص٤٢-٤٨].

وفي (الشافي) تأليف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة في [ج١/ص١١٤] نقل من (تفسير الثعلبي) بإسناده عن ابن عباس I في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ..﴾ الآية: نزلت في علي بن أبي طالب أمر النبي ص بأن يبلغ فيه فأخذ رسول الله ص بيد علي × فقال: ((من كنت مولاه فعلي موالاه، اللهم وال من والاه وعادِ من عاداه)) اهـ، وقد أسند المنصور بالله × (تفسير الثعلبي) منه إلى المؤلف [ج١/ص٥٤].

فتحصل من ذلك كله: أنها نزلت في علي × ، وقد أكدَته القرائن في الآية كونها في منزل مخصوص، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ﴿لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ فلا يكفيكم انتماؤكم إلى بعض كتب الله مع ترك ما بعدها فما أنتم عليه ليس شيئاً؛ لأنه لا يقبل منكم.

هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ

قال في (الكشاف): ((كما تقول: هذا ليس بشيء، تريد تحقيره وتصغير شأنه، وفي أمثالهم: أقل من لا شيء)) انتهى.

﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُواْ﴾ حتى تعملوا بها كلها، وقوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعم كل ما أنزل الله إليهم ومنه القرآن لا عذر لكم في تركه؛ لأن الله أنزله إليكم كما أنزل التوراة، أو قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم﴾ أي القرآن الذي أنزل إليكم، وقوله: ﴿إِلَيْكُم﴾ بيَّن أنه خطاب لأهل الكتاب كما هو خطاب لغيرهم.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿طُغْيَٰنًا﴾ تجاوزاً للحد المعهود في العصيان وحسداً وكبراً ﴿وَكُفْرًا﴾: تكذيباً وجحوداً لآيات الله، أو كفر نعمة ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ فلا تحزن على القوم الكافرين؛ لأنهم متمردون لا يريدون الحق فهم أهلكوا أنفسهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذين قد آمنوا بمحمد والقرآن، ودخلوا في دين الله، وأهل الملل الثلاث، لا ينفعهم ما هم عليه، دون الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، فالمراد في الذين آمنوا اشتراط صدق الإيمان، بكونه مقروناً بالعمل الصالح الذي يبعث عليه الإيمان الصادق والاستمرار عليه في المستقبل.

وأما أهل الملل الثلاث فلا بد لهم من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كذلك، وذلك يتضمن: توحيد الله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين، وعن الشريك، وعن الولد، ويستلزم: الإيمان بالرسول، والقرآن، من حيث أن الإيمان بالله واليوم الآخر يبعث على الإيمان بآيات الله الدالة على أن القرآن من الله، وأن محمداً رسول الله ص، وسائر ما يجب الإيمان به.

ويستلزم: أن العمل لا يكون صالحاً إلا إذا كان كما أمر الله به، وشرع في كتابه، وعلى لسان رسوله ص؛ لأن ما خالفه منسوخ قد صار غير مشروع، فالآية في الملل الثلاث بالنسبة إلى ما قبل البعثة، لتبين: أن العمدة الإيمان بالله، واليوم الآخر، والعمل الصالح، لا الأسماء، فهي ترد قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:١١١].

﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ أهل ملة غير ملة الإسلام، وغير ملتي اليهود والنصارى، وقد بسط في بيان دينهم (صاحب الميزان) [ج١/ص١٩٥] أما سيد قطب فقال في (تفسيره) [ج١/ص٩٥]: ((﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب قبل البعثة، الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام، فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد، وقالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم...)) إلى قوله: ((..فقال عنهم المشركون: إنهم صبأوا، أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك، ومن ثم سموا الصابئة)) انتهى المراد.

والتعبير بقوله: تلك الطائفة من مشركي العرب، لا يناسب تفسيره، فصواب العبارة: تلك الطائفة الذين كان أصلهم من مشركي العرب، وقوله: فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرتضونها، فاهتدوا إلى التوحيد فيه أنه يوهم ضياع التوحيد بالكلية.

إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟

وظاهر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف:٢٨] أنه لم يزل التوحيد يتوارثه عقب إبراهيم × ، ولذلك قالوا: إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم.

وقد اتفق التفسيران للصابئين: على أنهم قوم يوحدون الله، ليسوا من اليهود ولا النصارى، وكانوا قبل بعثة الرسول ص، إلا أن تفسير (الميزان) أثبت لهم أصناماً، فنافى ذلك قوله: إنهم أناس يوحدون الله.

والحاصل: أنهم أهل ملة دينية غير اليهود وغير النصارى، وقد قدمت في تفسير (البقرة) حكايات لدينهم خلاف ما هنا، ولكن المحقق هذا الحاصل.

﴿٧٠﴾ ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كما مر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ..﴾ الآية، فذكر أخذ الميثاق هنا تقدمة لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ ليبين نقضهم للميثاق، وأنه لا يفيدهم انتسابهم للكتاب وهم مخالفون لما فيه عادلون عن الإيمان الصحيح والعمل الصالح إلى ضدهما..

كيف لا وهم كلما جاءهم رسول من الرسل الذين أرسلوا إليهم استكبروا، ففريقاً من الرسل كذبوا وفريقاً يقتلون، أي كذبوا فريقاً من الرسل وقتلوا فريقاً؛ وقدم المفعول؛ لأنه المهم، من حيث هو رسول أخذ عليهم الميثاق بالإيمان به ونصرته فكذبوه أو قتلوه.

وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ

قال في (الكشاف): ((فإن قلت: لِمَ جيء بأحد الفعلين ماضياً وبالآخر مضارعاً ؟ قلت: جيء يقتلون على حكاية الحال الماضية، واستحضاراً لتلك الحال الشنيعة للتعجب منها)) انتهى؛ و لعل قوله: للتعجب، غلط في النسخة، والصواب: والتعجيب منهم.

وقد اعتبر باقياً بالنسبة للموجودين من أهل الكتاب ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١] فقال ـ والله أعلم ـ ﴿تَقْتُلُونَ﴾ لأنهم مشاركون فيه في الحال، فكأنه باق إلى الآن ـ والله أعلم ـ أو أنه على استحضار الحال، ففيه رد على من زعم أنه جيء بالمضارع في قوله تعالى: ﴿وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ لكونه آخر الآية؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ ليس آخر آية.

﴿٧١﴾ ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فلذلك تجرؤا على تكذيب وقتل مَن كذبوا وقتلوا من الأنبياء، وهم قد تعرضوا للفتنة بتلك الجرائم لكنهم يظنون أنهم أحباء الله فلن يؤاخذهم بذنوبهم.

والفتنة: إما عذاب، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] أو تكليف يشق عليهم ويكونون معه إذا عصوا أدَّاهم للعذاب، كتكليف أصحاب السبت وابتلائهم بالحوت، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣].

﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ لأن آيات الله تتلى عليهم في التوراة، وهم يقرؤونها ولكنهم لا ينتفعون بها، كأنهم عمي لا يبصرونها، وصم لا يسمعونها؛ لجرأتهم على المعاصي، وقسوة قلوبهم لحسبانهم أن لا تكون فتنة.

مَرۡيَمَ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ

﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فهداهم، ولعل ذلك بنبي من أنبيائهم أو زاجر عظيم حدث لهم ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ بعد اهتدائهم ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ فهو يجازي بقدر المستحق من خير أو شر، وينزل كلاً من الضال والمهتدي منزلته، ولا يخفى عليه شيء من عملهم ولا من توبة التائب وإصرار المصر.

٧٢ ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ فهم يعلمون أنه ابن مريم، ومع ذلك يزعمون أن الله هو ابن مريم؛ كأنهم يريدون أن الله ﷻ تجسد أي تحول جسداً ﷻ.

قال الإمام القاسم × في كتاب (الرد على النصارى) [ص٢٩٩/خ]: ((وزعمت الفرق الثلاث من النصارى ـ فنعوذ بالله من الجهل بالله ـ أنها تجد فيما في أيديها من كتب الأنبياء: أن المسيح ابن مريم هو الله وابن الله، فجعلوا في قولهم هذا الابن أباه)) انتهى المراد.

وقد حقق × مقالاتهم أحسن تحقيق، ورد عليها بواضح الرّد النافع المفيد، فليطالعه من أراد التحقيق، وأقرب الرد وأنفعه: القرآن الحكيم، فإذا علموا أنه كلام الله علموا بطلان مقالهم، وقد تبين: أن القرآن كلام الله بتحديه للعرب أن يأتوا بسورة من مثله فلم يأتوا بشيء؛ وبإخباره أنهم لن يفعلوا، فكان خبره صدقاً.

إِلَٰهُۥ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

وبناء على ما حكاه الإمام القاسم × يظهر: أن الآية الكريمة تعمهم بالتكفير؛ لأنهم تارة يقولون: هو هو، وتارة يقولون: ثالث ثلاثة، فكفرهم الله بكلا القولين، وذكر الإمام القاسم × : أن النصارى أخذوا مذاهبهم في المسيح × من اليهود، فأنكر عليهم قبوله من اليهود؛ ولكن لعله دخل على النصارى بواسطة يهودي تنصر سعياً في إفسادهم وخداعاً لهم، ليضلهم عن التوحيد، لئلا ينتصروا على اليهود في الحرب بينهم.

﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ فبيّن لهم عيسى × : أن الله ربه وربهم، وأمرهم أن يعبدوا الله، والعبادة اعتراف بالعبودية ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ فأنذرهم المسيح فوات الجنة عليهم بالشرك والخلود في النار، وأنه لا يكون لهم من ناصر لا المسيح ولا غيره؛ والعلة في ذلك أنهم ظالمون، لأنه أقام ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ مقام: وما لهم، فظهر: أن العلة الجامعة لأهل النار هي الظلم، وإن كان الشرك ظلماً عظيماً.

﴿٧٣﴾ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ كل واحد من الثلاثة إله بزعمهم، وهم بزعمهم: (الله، وروح القدس، وعيسى) فقالوا: الله أب، وعيسى: ابن جوهره بزعمهم جوهر الأب وهو مولود غير مخلوق في قولهم، وروح القدس ليس أباً ولا ابناً، ومجموع الثلاثة واحد بزعمهم، راجع كتاب (الرد على النصارى) للقاسم × .

رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ واحد غير متعدد، وهو الله لا إله إلا هو و(مِنْ) تفيد تقوية عموم النفيْ ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَنتَهُواْ﴾ يمتثلوا نهي الله لهم ويطيعوه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ والذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، والذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، علق الوعيد على الكفر، بعد أن أخبر أنهم كفروا؛ ولعل الحكمة دفع التوهم من قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ للعموم لكل ما يقولون من حق وباطل ـ والله أعلم.

وإنما رجحت أن قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ يعم القولين؛ لأن ﴿يَقُولُونَ﴾ يدل على التكرار، والقولان تكرار من حيث هو قول شرك، وقد ابتدأ بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ فعدوله عن الماضي إلى المضارع في قوله: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ وهو الفعل الذي يكون عادة لفاعله فيعبر عنه بالمضارع.

﴿٧٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(الهمزة) سؤال للتوبيخ إن لم يتوبوا، وللدعاء إلى التوبة، و(الفاء) للتفريع على ما مضى في الآيات، من بيان كفرهم، ومن الوعيد الشديد عليه؛ لأن من شأنه أن يبعثهم على التوبة والاستغفار لطلب النجاة من العذاب الشديد وحرمان الجنة؛ لأن الله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يقبل التائبين المستغفرين، فيغفر الذنوب المهلكة، ويبدل أهلها من غضبه عليهم رحمة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال الفرَّاء: هذا أمر بصورة الإستفهام كقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ في آية الخمر)) انتهى.

ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ

﴿٧٥﴾ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ أي فليس إلهاً وهذا قصر القلب، أي ما هو ﴿إِلَّا رَسُولٌ﴾ لا إله، وقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ يحقق أن الرسالة لا تعني أنهم آلهة؛ ولذلك خلوا أي مضوا من هذه الدنيا مع أنهم جاءوا بالآيات الدالة على صدقهم مثل ما جاء على يدي موسى وعصاه من الخوارق.

﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ صدِّيقة، مصدّقة بكلمات الله وكتبه، أو كثيرة الصدق كما في الحديث الشريف: ((عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)) انتهى، أو كما قال ص.

﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وذلك دليل الحاجة والضعف المنافي للربوبية، قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال في (البرهان): هذا ردّ على اليهود والنصارى في قولهم إنه: ﴿ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ ردّ على اليهود في نسبتها إلى الفاحشة، والصديقة: المبالغة في صدقها ونفي الفاحشة عنها)) انتهى.

قلت: يعنى أن قوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ رد على النصارى في قولهم إنه ابن الله، وقوله تعالى: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ رد على اليهود.

قال الإمام القاسم × في كتاب (الرد على النصارى) [ص٢٨٤/خ]: ((وليس أحد من النصارى يثبت لمريم ما يثبت لابنها من الإلهية، بل كلهم يقول: إنها أمة من إماء الله محدثة غير قديمة ولا أزلية، وقد يلزمهم صاغرين فيها من إضافة الإلهية إليها ما قال الله تبارك و تعالى ـ ملزماً لهم ـ فيها..)) الخ.

والقول المشار إليه قد نبّه × عليه في [ص٢٨٢ ـ٢٨٣] حيث قال × : وفي ذلك ما يقول الله سبحانه لعيسى ـ صلوات الله عليه ورضوانه ـ فيما نزل من الكتاب في يوم البعث والحساب توقيفاً وتعريفاً لَه وللعباد، على أنه قد يجب للوالد في الذات ما يجب للأولاد وتوبيخاً لمن أفرده دون أمه في العبودية والإلهية وحالهما في الذات حال واحد مستوية فعبدوه عماية وجهلاً دونها وهم يعلمون أنه ابنها ومنها، ويوقنون ولا يشكون أن أباها أبوه فهي وآباؤها أولى منه بما أعطوه..

إلى قوله × : «..إذ يقول لَه ـ صلى الله عليه ـ في ذلك عن غير ما سخطة ولا لوم ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِ وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ..﴾ الآية، إلى قوله تعالى: ﴿..وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مع بعض تفسير لغرض الاحتجاج على النصارى، فراجعه فإنه مفيد، وكلام (صاحب البرهان) هنا كأنه مبني على ما ذكره الإمام القاسم × .

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فتبيين الآيات لهم يبين عدل الله وحكمته وفضله ورحمته حيث لم يتركهم، مع أنهم لو استعملوا عقولهم لاهتدوا للصواب، وعلموا بطلان جعل المسيح إلهاً ورباً ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ﴾ بعد إكمال الحجة عليهم وقطع المعذرة ببيان الآيات ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ من أين يؤفكون، فإنك إذا نظرت وبحثت لم تجد لهم شبهة من شأنها إضلالهم وقلبهم من التوحيد إلى الشرك، وإنما هي خرافات مكذوبة على الأنبياء قبلوها بواسطة إهمالهم لعقولهم أو ما في كتبهم من المتشابه الذي جاء في أصحاب المسيح كما جاء فيه ولم يزعموا أن الحواريين أبناء لله كما زعموا في عيسى × .

﴿٧٦﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً وهو عيسى × ، ولعل هذا وهو كونه ﴿لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ لازم لهم من قولهم: إنه لم يستطع تخليص آدم وبني آدم من ملك الشيطان إلا بتعرضه للصلب والأذى، فلو كان يملك الضر والنفع لاستطاع إنقاذهم واشتراهم بفدية غير صلبه وتعرضه للضر والأذى، هذا إذا كانت خارجةً مخرج الإلزام، وكذلك يلزم من قولهم: إن الأب خلق الخلق بواسطة الابن، وأن تدبير أمور الخليقة وظيفة روح القدس.

قال الإمام القاسم × في كتاب (الرد على النصارى) [ص٢٨٤ـ ٢٨٥]: ((وكذلك قالت النصارى: إن الله خلق الأشياء بآنية نفسه وحفظها ودبرها بروح قدسه، وأن الابن خلق الخلق وفطره، وأن روح القدس حفظ الخلق ودبره، وزعموا أن قوّة الخلق غير قوّة الحفظ والتدبير، وأن الأب لم ينفرد من ذلك بقليل ولا كثير)) انتهى المراد.

فإذا كان الحفظ وتدبير الأمر ليس إلا وظيفة روح القدس وله وحده دون عيسى قوة الحفظ والتدبير كان عيسى لا يرجى منه نفع ولا يخشى منه ضر؛ لأن ذلك كله من الحفظ وتدبير الأمر.

هذا ويحتمل: أن الله تعالى قال: ﴿أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ ليبين للنصارى الحقيقة أن عيسى × لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، ومعنى ملكه له قدرته عليه مستقلاً غير متوقف على إذن الله وإقداره عليه، بل متى شاء فعل بدون قيد ولا شرط فنفى الله ذلك عن عيسى وهو أصدق القائلين.

ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٧٧ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فيفيد: أنه الذي يسمع الدعاء من العابد حين يعبده، ويسمع الذاكر لَه حين يذكره ويعلم العبادة وخلوص النية بها، فهو الذي يرجى منه نفع العبادة لدفع الضر وجلب النفع.

٧٧ ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ الغلو: تجاوز الحد المشروع تديناً، كالإفراط في تعظيم عيسى بجعله رباً، وكاتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وقوله تعالى: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي غلواً غير الحق، وهذا ذم للغلو بأنه غير الحق، وتعريف بالفصل بين الغلو وغير الغلو لمن قد غلا وهو لا يرى أنه غال.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يخبرهم الله أن اتباعهم لأسلافهم الذين يعظمونهم، إنما هو اتباع لأهوائهم وليسوا إلا قوماً قد ضلوا وأضلوا كثيراً، فهم مع ضلالهم في أنفسهم مفسدون لا يستحقون أن يعتبروا قدوة في الدين، ومع أن ضلالهم واضح لمن استعمل عقله لأنهم ضلوا عن الحق الواضح الذي هو سواء السبيل الذي لا عوج فيه.

٧٨ ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ دعا عليهم داود وعيسى ابن مريم بلعنة الله، ولما كان ذلك حكم الله فيهم كان لعنة من الله على لسان دود وعيسى ابن مريم ﴿ذَٰلِكَ﴾

فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي

لعنهم المذكور﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ فهو جزاء لهم ﴿بِمَا عَصَواْ﴾ ربهم كتركهم للنهي عن المنكر، وكتوليهم للذين كفروا، وبما ﴿كَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ كاعتداء أصحاب السبت، وكقتل الأنبياء، والذين يأمرون بالقسط من الناس.

٧٩ ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُ﴾ تركوا النهي عن المنكر فيما بينهم حتى لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر قط، ولعل النهي المذكور في الحديث لم يكن يعد نهياً؛ لأنه قول غير جاد بل هو لاحق بالهزل.

قال الناصر × في (البساط) [٩٤ـ ٩٥]: وحدثنا بشر، قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا سفيان، قال: حدثنا علي ابن بَذيمة، قال: سمعت أبا عبيدة يقول: قال رسول الله ص: «لما وقع النقص في بني إسرائيل جعل أحدهم يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، ولا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشَريبَه وجليسه، فصرف الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...﴾ إلى آخر أربع آيات ﴿..وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾».

قال: وكان رسول الله ص متكئاً فاستوى جالساً، ثم قال: (كلاَّ والذي نفسي بيده حتى يأخذوا على يدي الظالم، ويأطروه على الحق أطراً) قال الناصر الحسن بن علي × : «يأطروه على الحق: أي يعطفوه على الحق عطفاً» انتهى.

قوله: فصرف الله..، هكذا في النسخة، ويمكن تفسيره: بالخذلان، على معنى الصرف عن الهدى، ولو جاء بلفظ: فضرَّب ـ بتشديد الراء ـ لكان معناه: الإغراء بينهم، كما أفاده في (الصحاح).

ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ۞ لَتَجِدَنَّ

والحديث في (سنن أبي داود) [ج٤/ص١٢١] بلفظ: ((ضربَ..)) ولعله بدون تشديد ـ مجاز عن إلقاء العداوة والبغضاء بينهم، كأن قلب المبغض إذا رأى عدوه أو سمعه يضرب بالعصا، فجعل العدو يضرب به قلب عدوه ـ والله أعلم.

وقد خرج الحديث السيوطي في (الدر المنثور) من كتب عديدة بلفظ ضرب، وأورد الحديث ونحوه عن ابن مسعود، ومعاذ، وأبي موسى الأشعري.

والحديث ـ أيضاً ـ في أمالي المرشد بالله × بلفظ ضرب من طريقين: عن عبيدة وفي آخر أحداهما: ((كلاَّ والذي نفسي بيده حتى تأطروهم..)) الخ ـ بالمثناة من فوق ـ راجع (أمالي المرشد بالله) فله طرق، إلا أنه يجمعها طريقان، وفيهما معاً باللفظ أو المعنى الخطاب في آخره بالمثناة من فوق، والذم لهم على ترك النهي عن المنكرات التي فعلوها موجّه إلى تركهم لَه في وقته لا إلى تركه بعد وقوعه، وإنما ذكر وقوعه يفيد أنه قد جاء وقت النهي فلم ينهوا عنه، ونظيره قوله تعالى في قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص:٨١].

﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ كلهم العصاة والمداهنون، وهذا ذم مؤكد بـ(لام القسم).

﴿٨٠﴾ ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لوقت نزول القرآن وما قبله يتولون من هم في دين أهل الكتاب كفار لا يجوز توليهم، أي يصادقونهم ويصافونهم المودَّة.

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ هو ما كانوا يفعلون، ونُسِب إلى أنفسهم لأنها هي الأمارة بالسوء التي ورطتهم فيه، وجعل تقديماً لأنفسهم، لأن من شأن العاقل الذي سمع الوعد والوعيد أن يقدم لنفسه عملاً صالحاً ينجيه من العذاب ويبلغه الجنة، فلما كان المذكورون من أهل الكتاب جعلوا مكان ذلك المعاصي الموبقات جعلت تقديماً لأنفسهم، على طريق المشاكلة التقديرية، أو تهكماً بهم.

وقوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إما مخصوص بالذم أي هو سخط الله عليهم؛ لأن معاصيهم سبب السخط، وإما تعليل للأفعال المذمومة أنها وقعت منهم؛ لأن سخط الله عليهم، أي أن معاصيهم جرَّت معاصيَ أكبر منها بسبب خذلان الله لهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

﴿وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا يخرجون منه كما زعموا أنها لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَبِئْسَ..﴾ إلى ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿٨١﴾ ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ النبي الذي ينتمون إليه ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ كما يدعون ﴿مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ لأن الإيمان لا يدع صاحبه يتولى أعداء الله، كما قال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٢٢] لأن المؤمن يحب في الله ويبغض في الله كما في الحديث: ((أوثق عرى الإيمان: الحبّ في الله، والبغض في الله)).

﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب، وهم الذين قال فيهم: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ..﴾ وهو احتراس لئلا يوهم أن أهل الكتاب كلهم فاسقون مع أنهم

أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى

ليسوا سواء، فهؤلاء ليسوا مؤمنين بل هم ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن أمر الله خبثة فجار، ومن كان كذلك لا يستبعد منه الشرك فلا يغتر بهم من بعدهم.

وقد قيل: إن بعض النصارى احتج لقولهم في عيسى بأنه مذهب واضح البطلان في بادئ الرأي، فلولا أن فلاناً وفلاناً وفلاناً من أسلافهم قد علموا صحة ذلك لما دانوا به؛ لأنهم أهل عقول ودين فلعل ما ساقه القرآن من ذكر معاصي أهل الكتاب من ترك التناهي عن المنكر وتولي الكفار ساقه لإبطال هذه الشبهة وتحقيق أن ضلالاتهم إنما هي أهواء أنفسهم لا برهان لهم بها.

﴿٨٢﴾ ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ لعلَّه خطاب عام لكل سامع لوضوح عداوتهم لكل من يعرفهم ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ عام لكفار العرب المشركين وللمشركين من أهل الكتاب وغيرهم؛ وذلك لأن دين الله الذي عليه المؤمنون ينافي دين المشركين وهم يحبون من يتخذونهم أنداداً لله كحب الله؛ ولذلك يبغضون المؤمنين الذين يبرءون من شركائهم، فسواء في هذا الغلاة من النصارى الذين أشركوا بعيسى وسائر المشركين؛ لأن شدة حب النصارى الغلاة لعيسى تجعلهم يغضبون على من ينفي إلهيته على قدر غلوهم فيه؛ فلذلك لا فرق بينهم وبين سائر المشركين، بل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ في غلاة النصارى الذين أشركوا بعيسى أظهر؛ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ ولم يقل والمشركين لأن الشرك حادث في النصارى كما هو حادث في بعض اليهود، وأصل دينهم الذي ينتمون إليه هو التوحيد.

ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ أي ولم يشركوا وهم النجاشي ومن أشبهه ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي قرب مودتهم للذين آمنوا ﴿بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ ﴿قِسِّيسِينَ﴾ كبار علماء النصارى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : والقسيسون، فهم كبار النصارى يصلون بهم ويقدمونهم ويعظمونهم)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((والقَسّ ـ أيضاً ـ رئيس من رؤساء النصارى في الدين والعلم وكذلك القسيس)) انتهى.

وأصل الرهبان: من الرهبة، وهي الخشية، ثم صار اسماً للزاهد الذي يتخلى للعبادة ويترك شواغل الدنيا، ثم صار يستعمل في المتخلي للعبادة المظهر للزهادة والتخلي من الشواغل الدنيوية.

فالحاصل: أن في هؤلاء النصارى قدوةً مهيّأةً لقبول الإيمان بدين الله الذي جاء به الرسول ص وأن هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى كلهم ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ فهم بذلك مهيئون أيضاً لقبول الحق لسلامتهم من الكبر المانع منه لثقل الخروج من الدين المألوف إلى غيره لمجرد اتباع الحق فقد سلموا من هذا المانع كما سلموا من الغلو الذي يمنع المشركين من التوحيد، فكانوا قريباً من قبول الحق غير نافرين من الذين آمنوا، بل هم أقرب مودةً لهم لموافقتهم في التوحيد وتجويزهم قبل النظر وسماع القرآن أن الدين الذي دخلوا فيه هو الحق قد أرسل الله به محمداً ص.

رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ من القرآن ﴿تَرَىٰٓ﴾ أي يراها الحاضر لهم ﴿مِمَّا عَرَفُواْ﴾ بسبب ما عرفوا ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو أن الله قد أرسل الرسول الذي بشر به عيسى مصدقاً لما جاء به عيسى × ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿ءَامَنَّا﴾ بما أنزلت على محمد ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ به.

قال الشرفي في (المصابيح): ((روي عن النجاشي أنه قال لجعفر بن أبي طالب حين اجتمع في مجلسه المهاجرون إلى الحبشة والمشركون وهم يغرونه عليهم ويطلبون هلاكهم عنده: هل في كتابكم ذكر مريم؟

قال جعفر: فيه سورة تنسب إليها، فقرأها إلى قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [مريم:٣٤] وقرأ (سورة طه) إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه:٩] فبكى النجاشي، وكذلك قومه الذين وفدوا على رسول الله ص وهم سبعون رجلاً حين قرأ عليهم: سورة يس)) انتهى.

﴿٨٤﴾ ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَمَا لَنَا﴾ أيُّ مانع يمنعنا، وأيُّ حالة لنا تنافي الإيمان وتمنع منه، وهذا استبعاد منهم لترك الإيمان؛ لأن اللائق بحالهم هو الإيمان بالله وما جاء هم من الحق، وطمع أن يدخلهم ربهم مع القوم الصالحين الذين هم محمد ومن معه ص يدخلهم معهم الجنة، وهذه الآيات فيهم مثل الآيات في (سورة القصص): ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ..﴾ [القصص:٥٢-٥٣] الآيات .

ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٨٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ

﴿٨٥﴾ ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أثابهم الله جنات جعلها لهم ثواباً فصارت لهم بحكمه وجعله، ويحتمل: أن ذلك وعد مؤكد بإخراجه مخرج الماضي، كأنه قيل: فأحلَّهم جنات خالدين فيها، وهذا أقرب لجعل ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حالاً محققة، وعلى الأول يكون خالدين حالاً مقدَّرة ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المحسنون: هم المؤمنون المتقون فجزاهم الله ما يجزي المحسنين لأنهم منهم.

﴿٨٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وهذا يعم المشركين من أهل الكتاب وسائر الكفار المكذبين، و﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ نار جهنم، وأصحابها أهلها.

﴿٨٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ التحريم هنا منع النفس ذلك باليمين أو بقوله: هو حرام عليَّ مثلاً، بقرينة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ أي تتجاوزوا الحد المشروع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ لأنهم تدينوا بما لم يشرعه لهم وفيه مفسدة المشقة عليهم وتثقيل المشروع لاختلاطه بالزيادة، مع أنه لا فائدة في الاعتداء وتجنب ما وهب الرب الكريم.

﴿٨٨﴾ ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ يأكل المؤمن من طيبات الرزق ما تيسر وحضر، ولكنه لا

أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

يشغل وقته بالسعي لتحصيل الفضلات من المأكول، ويتجنب تعويد النفس بما يسبب اشتغالها بالشهوات، ولا بأس بترك الأكل في بعض الحالات إيثاراً للمحتاجين، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ..﴾ [الإنسان:٨].

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلاً﴾ يخرج الحرام، لأنه رزق من أعطاه الله لا من اغتصبه، وقوله تعالى: ﴿حَلَٰلاً طَيِّبًا﴾ كالتفسير لما رزقنا، لأن الخبيث محرم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بامتثال أمره ونهيه الذي أنتم به مؤمنون، فأنتم تعلمون أنه يعلم ما تسرون وما تعلنون، وأنه يجزي كل نفس بما تسعى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((روي أنه ص وصف القيامة يوماً لأصحابه فبالغ في الإنذار، فرقّوا واتفقوا على أن لا يزالوا صائمين قائمين وأن لا يباتوا [كذا ولعل الأصل: يناموا] على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء والطيب، ويجبّوا مذاكيرهم، فبلغ ذلك النبي ص فقال: ((إني لم أومر بذلك، إن لأنفسكم عليكم حقاً، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإني أقوم وأنام، وأصوم وأفطر، وآكل اللحم، وآتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)) فنزلت)) انتهى، يعنى قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا..﴾ الآية.

﴿٨٩﴾ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ اللغو: الخطأ الذي لا ينبني عليه حكم فهو ملغي، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × :

اللغو فهو ما لا يتعمد فيه اليمين ولا يقصد فيه جرأة على رب العالمين، وإنما تقع من طريق الغفلة والسهو، واللغو: ما لا يكون له حقيقة ولا قصد ولا ضمير، وقد قيل في اللغو: إنه الرجل يحلف على الشيء ما فعله وقد فعله، وليس هو عندنا كذلك)) انتهى.

وتفسير المرتضى حسن؛ لأنه جعله الحلف خطأ الذي لم يتعمده الحالف ولا قصد أن يحلف، وهذا داخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب:٥] فأما من تعمد اليمين بناء على ظن الصدق فليست يمينه من اللغو، بل إذا اقتطع بها حق مسلم دخل في عموم الوعيد لأنها مما كسب القلب، وليس له أن يحلف إلا على اليقين بما يحكم به الحاكم لو علمه لأنه شاهد لنفسه.

فإن *قيل*: فإن الهادي × فسرها بالتي يظن الحالف صدقها؟

قلنا: إن الذي يحلف خطأ لا بد أن يكون ظاناً للصدق، وإلا كان آثماً لتعمده الكذب وإن لم يتعمد اليمين، فلا بد أن يكون اليمين خطأ ممن يظن الصدق، وهذا جمع بين التفسيرين، هذا الراجح عندي.

﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾ عقد اليمين: الحلف على فعل في المستقبل أو ترك، كقوله: (والله لا أكلت من هذا) قال الشرفي: ((قال في (البرهان): وعقدها: هو لفظ باللسان، وقصد بالقلب، لأن ما لم يقصده الإنسان بقلبه فهو لغو لا يؤاخذ به، والعقد يجب أن يكون على فعل مستقبل ولا يكون على فعل ماض، والفعل المستقبل نوعان: نفي، وإثبات..)) الخ.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ﴾ أي بسبب تعقيدكم الأيمان، وذلك إذا لم تحفظوها، ولا حاجة لتقدير محذوف بنكث أيمانكم؛ لأن المؤاخذه على النكث بسبب التعقيد لليمين ولولا التعقيد ما وقع نكث؛ ولأن الظاهر أن سبب الكفارة هو اليمين وإنما النكث شرط.

﴿فَكَفَّـرَتُهُۥ﴾ أي كفارة تعقيد الأيمان ليصير كأن لم يكن، والتكفير: الستر والتغطية ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ قال الإمام الهـادي × في (الأحكـام) في (كفـارة الـيمين) كالتفسير للآية: ((يطعم عشرة مسـاكين غـداءهم وعشـاءهم مـن أوسـط مـا يطعم أهله من الطعام، ويأدمهم بأوسط الأدْم، يطعم كل واحد منهم نصف صاع من دقيق أو صاعاً من تمر أو شعير أو صاعاً مما يأكلـه هـو وأهلـه مـن الذرة وغيرها من الطعام، أو يكسوهم كسوة تجمع جسد كل مسـكين مـنهم إما قميصاً سابغاً، وإما ملحفة يلتحف بها، وإما كسـاء، ولا تكـون الكسـوة إلا كسوة جامعـة للبـدن، لا يجـوز أن يكسـى أحـدهم عمامـة وحـدها ولا سراويل وحده، أو يعتق رقبة مسلمة صغيرة أو كبيرة، وهو في هذه الكفارت الثلاث بالخيار)) انتهى المراد.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ يجزيه كفارة ليمينه، قـالوا: ويجـب أن تكون الثلاثة متتابعة ومن كان لا يجد طعاماً ولا كسوة ولا رقبة ولكنـه يجـد ثمن أحد هذه الأشياء فلا يجزيه الصوم، وكذلك من كان لَه مال أو عـرض إذا باعه تمكن من تحصيل الطعام أو الكسوة أو الرقبة فلا يجزيه الصيام.

فأما من لم يجد عشرة مساكين فيرسل الكفارة لتنفق حيث يوجد المسـاكين المسلمون، فإن عدموا انتظر حتى ييأس، ومتى يـأس فـالراجح عنـدي: أنـه يجزيه الصوم حيث يأس من تحصيل الرقبة والمساكين؛ لأنه في المعنى كمـن لم يجد طعاماً ولا كسوة ولا رقبة، بـل لا يبعـد دخولـه في عمـوم قولـه تعـالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ وإنما قلت ينتظر تحصيل المساكين للرواية عن أمير المـؤمنين × ذكرها الإمام الهادي × في (الأحكام).

ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ

﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡ﴾ ذلك المذكور كما ذكر كفارة أيمانكم، وهو يدل على أن التكفير لليمين نفسها كما دل عليه أول الآية ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ أدّوا حقها ولا تهملوها فمن أهملها فقد أضاعها ولم يحفظها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ..﴾ [البقرة:١٤٣] وقال تعالى: ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران:١٩٥] وفي الحديث: ((كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول)) رواه الإمام زيد بن علي إ في (المجموع) وفيه بحث نفيس في اليمين والكفارة، قال في (الصحاح): ((حفظت الشيء حفظاً أي حرسته)) انتهى.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ كذلك البيان في هذه الآيات يبين الله لكم آياته في القرآن وغيره، أو المراد آيات القرآن، وهذا دليل على أن الآيات بينات بالنسبة للعرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فلا تحتاج إلى بيان من النبي ص ولا من إمام ولا شيخ.

فأما تفصيل ما أجمل في القرآن أي عبر به عن جملة مفصلة في السنة فليس من البيان بها؛ لأن اللفظ القرآني عبارة عن الجملة وهي معروفة بالسنة فصارت بينة؛ لأنها معروفة جملة، وليس ذلك من باب الترجمة للكلام الذي لم يفهم كما أن اسم الإنسان مفهوم المعنى، ولا ينافيه أن معرفة بعض أجزائه يحتاج إلى علم التشريح، فنحمد الله على بيانه، ونسأله الهداية لتعلمه واتباعه، فإنه من أعظم النعم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿٩٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ قال في (لسان العرب):

((والخمر: ما أسكر من عصير العنب؛ لأنها خامرت العقل، ثم قال: وقال أبو حنيفة: قد تكون الخمر من الحبوب، فجعل الخمر من الحبوب قال ابن سيده: وأظنه تسمحاً منه؛ لأن حقيقة الخمر إنما هي من العنب دون سائر الأشياء)) انتهى.

وقد فسر الإمام الهادي × هذه الآية في (الأحكام) في (الحدود) فقال × : الخمر: كل ما خامر العقل فأفسده، فإذا أفسده كثيره كان حراماً قليله، ولذلك سميت خمراً لمخامرتها للعقل وإبطالها له، سواء كانت من عنب أو تمر أو عسل أو ذُرةٍ أو شعير أو حنطة أو زهو أو غير ذلك من الأشياء)) انتهى المراد هنا، ويأتي إن شاء الله بقية تفسيره لهذه الآية.

والمختار عندي: أن الخمر وإن سميت خمراً لمخامرتها العقل، فهو اسم لها لا مجرد صفة بالمصدر، فإن كانت تصنع من غير العنب فتحصل جامعة للصفات التي يطلبها شارب الخمر من الخاصة المحصلة للنشاط والإطراب، والتفريح، والتنبيه للأعصاب، وغير ذلك مما يعرفه أهلها ويطلبه منها شاربُها فقد حصلت حقيقة الخمر، وأصلها الذي صنعت منه خارج عن مفهومها.

ألا ترى أن خمر الجنة يسمى خمراً وليس من العنب، وعسلها عسلاً وليس من النحل، ولبنها لبناً وليس من الأنعام، وذلك لأن الاسم للذات بصفاتها غير مأخوذ في معناه أصلها؛ ولعل سبب الخلاف في الخمر هل هو خاص بما أخذ من العنب؟ أم عام لكل شراب خُمِّرَ وأسكر من غير نظر إلى أصله؟ لعل سبب الخلاف أن العرب لم يكونوا يستطيعون صنعتها جامعة لأوصافها ومميزاتها إلا من العنب، وما صنعوه من غيره يكون ـ والله أعلم ـ بخلافها في بعض معناها، إلا أنه موافق لها في الإسكار.

فأما في هذا العصر فلعل بعض النصارى وغيرهم يصنعها جامعة لأوصاف نبت العنب من غير العنب، فهي خمر بلا إشكال؛ لأنه لم يفقد فيها إلا النسبة إلى العنب وهي خارجة عن مفهوم الخمر.

وعلى هذا: فالنبيذ المسكر المصنوع من غير العنب الذي لم تكمل فيه أوصاف الخمر التي من العنب إنما يحرم لإسكاره، وللحديث: ((كل مسكر خمر)) فإنه يدل على أن كل مسكر لَه حكم الخمر، وهذا هو المقصود في الحديث لا تعليم الاسم، لأن العرب لا تحتاج إلى من يعلمها لغتها.

وأيضاً لو كان مفهوم الخمر مفهوم المسكر، لكان الحديث بمنزلة ما لو قيل: (كل مسكر مسكر) فظهر: أن ليس إلا مثل قوله ص: ((الطواف بالبيت صلاة، إلا أن الله أباح فيه الكلام)) أو كما قال.

وأوضح من هذا ما رواه الإمام الهادي × في (الأحكام) وهو في (أمالي أحمد بن عيسى): عن زيد بن علي، عن آبائه، عن علي عليه السلام أنه قال: ((السكر بمنزلة الخمر)) أي حكمه حكم الخمر، ولو كان كل سكر خمراً حقيقة ما استقام هذا الكلام.

وقال الإمام الهادي × في (الأحكام) في (باب القول في حدّ الخمر): وحدثني أبي عن أبيه، أنه قال: بلغنا عن أمير المؤمنين × أنه كان يقول: ((لا أجد أحداً يشرب خمراً ولا نبيذاً مسكراً، إلا جلدته الحدّ ثمانين)) انتهى.

وأما ﴿ٱلْمَيْسِرُ﴾ فقال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((والميسر: فهو النَّرْد والشطرنج والقمار كله، وكل ما كان من ذلك مما يلهي عن ذكر الرحمن ويشغل عن كل طاعة وإيمان)) انتهى، وظاهره: أن اللعب بالنَّرْد والشطرنج ونحوهما من الميسر من غير اشتراط القمار.

وفي (لسان العرب): والميسر: اللعب بالقداح، قال: وفي التنزيل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩] قال مجاهد: كل شيء فيه قمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز.

وروي عن علي ـ كرَّم الله وجهه ـ : ((الشِّطرنج ميسر العجم)) شبّه اللعب به بالميسر وهو القِداح ونحو ذلك، قال: والياسر: الجازر؛ لأنه يجزئ لحم الجزور، وهذا الأصل في الياسر، ثم يقال للضاربين بالقِداح والمتقامرين على الجزور: ياسرون؛ لأنهم جازرون إذا ـ كذا ـ كانوا سبباً لذلك، الجوهري: الياسر اللاعب بالقداح)) انتهى المراد من (لسان العرب).

وفي (الصحاح): ((والياسر: اللاعب بالقداح كما حكاه في (لسان العرب) قال: والميسر قمار العرب بالأزلام)) انتهى، وقال في القمار: ((قال ابن دريد: والقمار: المقامرة، وتقامروا: لعبوا بالقمار، وقَمَرت الرجل اقمِره ـ بالكسر ـ قَمْراً إذا لاعبته فيه فغلبته، وقامرته فقَمَرتُه اقمُره ـ بالضم ـ إذا فاخرته فيه فغلبته)) انتهى.

وفي كلام أمير المؤمنين × رواه في (نهج البلاغة): ((فإن المرء المسلم ما لم يغش دناءة تظهر فيخشع لها إذا ذكرت وتغرى بها لئام الناس، كان كالفالج الياسر الذي ينتظر أول فورة من قِداحه توجب لَه المغنم ويرفع بها عنه المغرم، وكذلك المرء المسلم البريء من الخيانة ينتظر من الله إحدى الحسنيين ...)) الخ، انتهى، وفيه توضيح الياسر.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي) عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام: ((أنه مر بقوم يلعبون بالنرد، فضربهم بدرته حتى فرّق بينهم ـ ثم قال ـ: ألا وإن الملاعبة بهذه قماراً كأكل لحم الخنزير، والملاعبة بها غير قمار كالمتلطخ بشحم الخنزير وبدهنه، ثم قال × : هذه كانت ميسر العجم، والقداح كانت ميسر العرب، والشطرنج مثل النرد)) انتهى.

بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد إ : ((﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩] فالميسر: القمار)) انتهى، ومثله في تفسير هذه الآية.

فترجح أن الميسر القمار بواسطة القداح أو النرد أو الشطرنج أو غيرها، ولعل الإمام الهادي × ذكر النرد والشطرنج؛ لئلا يتوهم أن الميسر خاص بالقداح.

وأما ﴿ٱلْأَنصَابُ﴾ فقال الإمام الهادي × في (الأحكام): والأنصاب: فهي أنصاب الجاهلية التي كانوا ينصبونها من الحجارة لعبادتهم يعبدونها من دون الله وهي اليوم فموجودة في شعاب الأرض وفي آثارهم منصوبة على حالها قائمة منذ عهدهم.

وأما ﴿ٱلْأَزْلَٰمُ﴾ فقال الإمام الهادي × : والأزلام: فهي القداح التي كانت الجاهلية تضرب بها وتستقسم بها وتجعلها حكماً في كل أمرها، عليها كتب وعلامات لهم، فما خرج من تلك الكتب والعلامات جعلوه لهم هداية ودلالات، فأخبر الله تعالى أن ذلك كله من فعلهم أمرٌ عن الله يصدهم ومن طاعته يمنعهم ومن التعاهد لأوقات فرائض الصلوات يشغلهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ﴾ انتهى

قال الراغب: ((﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وذلك أبلغ من قولهم اتركوه)) انتهى. قلت: لأن معناه المجانبة له، أي الكون في جانب غير جانبه.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي والواجب عليكم: التحاب والتآلف والتآخي، ليمكنكم الجهاد في سبيل الله، والتعاون على البر والتقوى، و﴿يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن

يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ لما في ذلك من المفاسد العظيمة التي من أهمها: الضعف عن حماية الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ أي بسبب الخمر والميسر؛ ولعله من الكناية بأن جعل الخمر والميسر محلاً للعداوة والبغضاء، وفي هذا مأخذ لتحريم أسباب العداوة والبغضاء بين المسلمين.

﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ويصرفكم ويمنعكم ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بقلوبكم وألسنتكم لاشتغالكم بالخمر والميسر ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ كذلك، والاشتغال بالميسر ظاهر لشدة حرص المتقامرين على الغلبة واشتغاله بسبب القمار، وأما الخمر فمن جهتين: جهة التجارة فيه، وجهة السكر.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ فهل أنتم يا مسلمون تاركون لهما بعدما بيّن الله فيهما تلك المعايب التي ينبغي للمسلم أن يبغضهما ويشتد حذره منهما فهما، رجس وشأنكم التطهر من عمل الشيطان عدو الله وعدوكم، وشأنكم الحذر منه واجتناب خطواته، يريد ﴿أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ وشأنكم الولاية والحب ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وشأنكم ذكر الله كثيراً ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وشأنكم المحافظة عليها، فهذه العيوب تدل على أن شأن المسلم أن يجتنبهما وينتهي بنهي الله عنهما.

وهذا الخطاب للمؤمنين رحمة من الله، ليتركوا عن قناعة، فيه لطف يشبه لطف الوالد بولده، ونظيره خطابهم في أول (سورة الممتحنة) للتحذير من اتخاذ الكفار أولياء فتأمله ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣] فلهم رحمة خاصة بهم زائدة على الرحمة للناس جملة.

تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ **في كل حكم ومن ذلك اجتناب ما ذكر قبل هذه فيُجْتَنب طاعةً لله وطاعة للرسول** ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ **عن طاعة الله ورسوله فيجب عليكم أن تعلموا يقيناً أن الذي على الرسول هو** ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ **فأما الحساب والعقاب فهو إلى الله، فلا تغتروا إن خفي على الرسول توليكم أو لم يستطع قهركم، إذ لم يرسل إليكم لهذا القهر كلما عصيتم.**

وقوله تعالى: ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ **أي الموضح لحكم الله الدال عليه دلالة بينة، وفي هذا رد على الباطنية، ومن يثبت التوصل إلى الأحكام بالرموز والإلهام، دون البلاغ من الرسول ص البلاغ المبين الذي تفهمه العرب.**

﴿٩٣﴾ ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿طَعِمُوٓاْ﴾ **أكلوا أو شربوا مع تقوى الله، واجتناب تعمد معصيته وذلك المباحات، وما طعموا خطأً لم تعمد قلوبهم به معصية فهذا الذي يكون مع التقوى. فأما تعمد الحرام بعد العلم بتحريمه فهو ترك للتقوى وتعرض للعقاب، كما قال تعالى في الوعيد على ذلك:** ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا..﴾ **الآية** [النساء:١٤] **وغيرها.**

أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن

وقد روى الإمام الهادي × في (الأحكام) في (باب القول في حد الخمر): عن علي × في قصة أنه قال × في تفسير هذه الآية: إن الله لما حرم الخمر شكا المؤمنون إلى النبي ص فقالوا: كيف بآبائنا وإخواننا الذين ما توا وقتلوا وهم يشربون الخمر؟! أي قبل تحريمها ـ وكيف بصلاتنا التي صلينا ونحن نشربها؟! أي قبل تحريمها ـ هل قَبِل الله منا ومنهم أم لا؟

فأنزل الله فيهم: ﴿لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فكان ذلك معذرة للماضين، وحجة على الباقين)) انتهى.

وفي قوله: أم لا، فائدة نحوية وهي جواز استعمال (أم) بعد (هل) وقد منع ذلك صاحب (المغني) وفي (حاشية) عن ابن مالك: أن (هل) تأتي بمعنى (الهمزة) قال الدسوقي: وحينئذ فتعادلها (أم) المتصلة كحديث: ((هل تزوجت بكراً أم ثيباً)) انتهى دماميني اهـ.

وفي كلام أمير المؤمنين علي × في (الخطبة الغراء): ((هل من مناص أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو محار أم لا))؟ انتهى.

وعندي أن المعادِلة بلفظ (أم لا) لم تخرج (هل) عن أصلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ هذه الآية تخبر بأن الله تعالى سيبلوا الذين آمنوا، أي يختبرهم

قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ

من يخاف الله ويصبر عن التعدي فيثيبه، وهذا الابتلاء فيما حرم من الصيد مع الإحرام أو صيد الحرم، ولا تعم الصيد كله؛ لأن قوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ﴾ يفيد بعضاً منه، ولو كان المراد العموم لكفى أن يقول: بالصيد.

وقوله تعالى: ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ أي قريب بحيث ﴿تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ﴾ إن اصطدتموه، أو لا ينال إلا بالرمح؛ ولعل فائدة هذا التنبيه على عظم البلوى به، حيث أن صيده سهل ينال بالأيدي أو بالرماح لا يحتاج إلى الكلاب ولا إلى السهام، وهذا ليستعد المؤمن بالعزم على الصبر عنه ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ مع أنه عالم من سيخاف، لكن المراد أن يعلم ذلك واقعاً؛ ليثيب عليه لأن الثواب يترتب على وقوعه.

﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ بعد هذا التقديم أو بعد الاختبار بالصيد مع العلم بتحريمه، وفي قوله: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ﴾ دلالة على أن الصيد المحرم يكون اصطياده اعتداء عليه وظلماً؛ لأنه لم يبق للإنسان حق فيه بعد تحريمه، وقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد بعذاب الآخرة.

﴿٩٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ جمع حرام، وهو الْمُحْرِم ـ بسكون الحاء، وكسر الراء، وضم الميم في أوله ـ ولا يدخل فيه صيد الحرم لغير المحرم، فتحريم صيد الحرم بدليل ثان؛ لأن داخل الحرم إذا لم يكن محرماً فليس حراماً، وإن صح أن يقال: له محرم أي صائر في الحرم، كما يقال: منجد أو متهم أو معرق، لمن صار إلى نجد أو إلى تهامة أو إلى العراق.

﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ كما سماه تعدياً في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ سماه قتلاً، فلا يكون ذكياً وإن ذبحه، وقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ يخرج الخطأ فهو معفو ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ﴾ يكفي للتخلص من هذا الاعتداء، وعلى قراءة إضافة (جزاء) إلى ﴿مِّثْلُ﴾ يكون المعنى: جزاء مثل المقتول، فما وجب في مثله فهو جزاؤه، وعلى ترك الإضافة يكون المعنى: فجزاءٌ يكفيه، وذلك الجزاء هو مثل ما قتله ﴿مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ أي المثل من النعم.

قال في (الصحاح): ((والنعم: واحد الأنعام، وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الإسم على الإبل)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((والنَّعم: واحد الأنعام، وهي المال الراعية، قال ابن سيده: النعم الإبل والشاء)) انتهى المراد.

وفي (مفردات الراغب): ((النعم خاص بالإبل) ومثله حكى في (لسان العرب) عن ابن الأعرابي، وقال في (اللسان) في قوله تعالى: ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾: ((قال الأزهري: دخل في النعم هاهنا الإبل والبقر والغنم)) انتهى.

وهذا ظاهر كلام الإمام الهادي × ، لأنه ذكر ذلك في سياق ما دلت عليه الآية، ونذكر هنا كلامه، قال × في (الأحكام): ((قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ والمتعمد لقتل الصيد من المحرمين الذي جعل الله عليه الجزاء فهو الذي يريد قتله متعمداً، يرميه بالسهم أو يطعنه بالرمح أو يضربه بالسيف يريد قتله ويتعمد أخذه، وهو ناس لإحرامه غير ذاكر لما هو داخل فيه من حجة.

فأما من قتله متعمداً ذاكراً لما هو فيه من إحرامه، فلا بد له من التوبة النصوح إلى الله من ذلك، وهي كبيرة أتاها يجب عليه الخروج إلى الله منها، ويجب عليه معها الجزاء، والجزاء فهو مثل ما يقتل يحكم به عليه ذوا عدل، والعدل: فهو البصير بالحكومة في ذلك، مع الصلاح في الدين والخشية لرب العالمين، فمن كان قتل ما يكون جزاؤه شاة فلم يجد الشاة أطعم عشرة مساكين إن أحب، أو صام عشرة أيام، فإن قتل المحرم بقرة وحش أو نعامة، فعليه في النعامة بدنة يحكم بها ذوا عدل، فإن كره البدنة لثقل مؤنتها وأحب أن يحكم عليه بالإطعام، فإنا نرى أن عليه إطعام مائة مسكين، وإن أحب أن يحكم عليه بالصيام حكم عليه بصيام مائة يوم.

وهو في الجزاء والصدقة والصيام بالخيار أيهن شاء فعل؛ لأن الله سبحانه قال: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ فقال: أو فجعل بذلك إلى صاحبه الخيار، وكذلك ـ أيضاً ـ عدل البقرة من الإطعام إطعام سبعين يوماً)) انتهى باختصار، وقد بين معنى التعمد، ومعنى النعم، ومعنى العدلين.

وأما قوله تعالى: ﴿هَدْيًا﴾ فالهدى ما يهدي إلى الكعبة من النعم و﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ بالغ عند الكعبة في حرمها، قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ((وعنى بالكعبة: الحرم، لأنها فيه، ولا يجوز أن يهدي في الجزاء ما لا يجوز في الأضحية من صغار النعم)) اهـ.

قلت: لعله يعني أن معنى بلوغ الكعبة بلوغ حرمها، كما قال تعالى ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣] والبيت العتيق هو الكعبة البيت الحرام.

وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ

قال الشرفي / في تفسير ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣] : ((والمعنى وقت وجوب نحرها منتهية إلى البيت العتيق، والمراد: الحرم الذي في حكم البيت..)) إلخ.

قلت: ويمكن أن محلها اسم مكان حلها فيكون المعنى مكان حلها إلى البيت أي قريب منه يليه، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح:٢٥] قال الشرفي: ((ومحله: هو مكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب)) انتهى.

وقوله تعالى ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ أي ليذوق من قتل الصيد عقوبة أمره وضرره الثقيل، وفي تفسير الهادي × لقوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق:٩]: ((معنى ﴿فَذَاقَتْ﴾ هو وجدت، ومعنى ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ هو عاقبة أمرها، ومعنى ﴿أَمْرِهَا﴾ فهو فعلها وما تقدم من فسقها)) انتهى من (المصابيح) [ج/ ١ص٢٥٤ ـ خ].

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ قبل نزول هذا الحكم من قتل الصيد في الإحرام في زمان الجاهلية أو في أول الإسلام ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ لقتل الصيد متعمداً ﴿فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ يجزيه ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ ومن عزته أن يجزي من تعدى ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ذو جزاء وعقاب لمن عصاه متعمداً ولم يتب.

قال الراغب: ((والنَّقمة: العقوبة)) انتهى المراد.

﴿٩٦﴾ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ ﴿صَيْدُ ٱلْبَحْرِ﴾ ما صيد من البحر أضيف إلى البحر؛ لأنه من حيوان البحر الذي

ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ

يعيش فيه ﴿وَطَعَامُهُۥ﴾ ما أخذ من غير اصطياد، وقد جزر عنه البحر فأخذ من مكانه بدون اصطياد، فأما الطافي على الماء ففيه رواية تدل على تحريمه ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ أينما كنتم ورزقتم منه ﴿وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ قال الراغب: ((السير: المضي في الأرض)) انتهى، ولعله أعم من السفر، وفي (معلقة امرئ القيس):

فقلت لها سيري وارخي زمامه

فهو متاع للسيارة: صيد البحر وطعامه.

﴿وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمًا﴾ ﴿صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ﴾ حيوان البر الذي يؤخذ بالاحتيال؛ لأنه متوحش لا ينال إلا بالاصطياد، ويدل على أنه اسم للحيوان الذي يصاد قوله تعالى: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ..﴾ الآية، وسمي صيداً؛ لأنه يصاد في العادة.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فلا تأكلوا شيئاً حرمه عليكم؛ لأنكم ﴿إِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥].

﴿٩٧﴾ ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ قواماً للناس وإقامة لحالهم وصلاحاً لهم لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية لمن حج، وممن حج أو اعتمر، فالتجارة تحيى، والأسواق تقوم، ومنافع الناس بالتعارف والتلاقي في مواضع الحج والعمرة، كما قال تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج:٢٨].

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ جعله قياماً للناس وهو عام لكل شهر من الأربعة الحرم، لما فيه من نعمة الأمن، وترك الحرب، فيمكن مع الأمن ما لا يتهيأ مع الخوف من السفر وطلب المعاش وسائر الحاجات.

﴿وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَـٰٓئِدَ﴾ جعل ذلك كله قياماً للناس، فبائع الهدي يستفيد الثمن، ومشتريه يستفيد الثواب، والفقراء والملاك ينتفعون بالأكل منه ﴿وَٱلۡقَلَـٰٓئِدَ﴾ إمَّا ما يقلد من الهدي إشعاراً بأنه هدي.

وتقليده: جعل القلادة في عنقه.

قال الراغب: ((والقلادة: المفتولة التي تجعل في العنق من خيط وفضة وغيرهما، وبها شُبِّه كل ما يتطوق وكل ما يحيط بشيء)) انتهى.

أو القلائد في الآية: قلائد ما يقلد من الأنعام المهداة لله، فإن كان كناية ففائدته الإشارة إلى ما في الهدي المقلد من النعمة التي يفرح بها الفقراء حين يرون القلادة، ويحترم الهدي من رأى القلادة كي لا يتعرض لَه بسوء احتراماً للكعبة، وإن كان المراد القلادة: فهي شعار تحصل به الفائدة المذكورة وهذه النعم المذكورة في الكعبة وهداياها عظيمة وشاملة.

قال في (الميزان) [ج٦/ ص١٤٢]: ((ولو استقرأ المفكر المتأمل جزئيات ما ينتفع به الناس انتفاعاً جارياً أو ثابتاً من بركات البيت العتيق والشهر الحرام، من صلة الأرحام، ومواصلة الأصدقاء، وإنفاق الفقراء، واسترباح الأسواق، وموادة الأقرباء والأداني، ومعارفة الأجانب والأباعد، وتقارب القلوب، وتطهر الأرواح، واشتداد القوي، واعتضاد الملة، وحياة الدين، وارتفاع أعلام الحق ورايات التوحيد، أصاب بركاتٍ جمَّةً ورأى عجباً)) انتهى.

ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ

﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لأن تدبير أسباب النعمة التي هيأها لعباده دليل على علمه بأحوالهم وحاجاتهم وما فيه صلاح أمرهم، كدلالة إتقان الصنع على أن الخالق ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لكثرة المصنوعات التي لا نحصيها، وعموم أثر التدبير والإحكام، ففي السماء النيِّراتُ وإحكام سيرها في أفلاكها على نظام لا يغيره طول الزمان، واختلاف الليل والنهار على نظام محكم، وما في الأرض من الدواب والأشجار على اختلاف أنواعها وكثرتها وفوائد ثمار الأشجار، وتدبير خلق الإنسان وتدبير أسباب معيشته وسائر الحيوانات، آياتٌ لا تحصى تدل على سعة علمه تعالى، وإحاطته بكل شيء؛ لأن دليله في كل مخلوق، فكلها دليل على أن الله ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لأنه عالم بذاته لا بعلمٍ مخلوق فيكون محدوداً.

﴿٩٨﴾ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ هذا أمر يدل على وجوب العلم، وطريقة النظر المؤدي إلى العلم بصدق الوعد والوعيد، وفائدة العلم بشدة عقابه تعالى: تقواه، وفائدة العلم بأنه ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: طلب مغفرته ورحمته بالتوبة والاستغفار، والمحافظة على التقوى، وقد بيَّن القرآن أسباب العقاب، وأسباب المغفرة والرحمة، ولا تعارض بين أسمائه تعالى ولا بين أفعاله، ولا بين أفعاله ولا بين أقواله؛ لأنه عليم حكيم.

ٱلْخَبِيثُ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

﴿٩٩﴾ ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ **فقد بلغ الإنذار وبيان أسباب العقاب، وبلغ التبشير وأسباب الرحمة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما نعلن وما نخفي وإليه المرجع، وهو الذي يحاسب ويجازي، فعلينا أن نراقبه ونتقيه.**

﴿١٠٠﴾ ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ **لا يستوي الفاسق والمؤمن ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ﴾** [السجدة:١٨] **﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ فليس له وزن عند الله بكثرته ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ لتكونوا طيبين ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فبها تهتدون للتقوى، وهي حجة عليكم يوم القيامة، إن لم تتقوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بالسعادة في الآخرة والنجاة من العذاب.**

وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل:٣٢] **﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾** [الأنفال:٣٧] **ولعل ارتباط قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ بما قبلها لتأكيد ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وأنه ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وأنه أرسل ليبلغ الإنذار والتبشير، وذلك لأنه حكيم لا يسوي بين المجرمين والمسلمين، بل لا بد من ثواب المطيع ولذلك فلا بد من الآخرة لتجزى كل نفس بما تسعى، فكان التصريح بأنه ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ﴾ تنبيهاً على أن الله العزيز الحكيم لا يسوِّي بينهما بترك الجزاء لهما معاً كما يظن الكافرون.**

ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ

﴿١٠١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ الآية هذه أولها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كما بدئت الآيات في هذه السورة بهذا المطلع الفاصل لما بعده عما قبله، والدال على استقلال ما بعده، وأنه موضوع جديد، والنهي عن السؤال عن أشياء وصفت بثلاث صفات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ فخرج السؤال عن ثواب الأعمال وعقوبات المعاصي ليرغَب في العمل الصالح ويتجنب المعاصي، ونحو ذلك السؤال عن الأحكام الشرعية.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ فإذا لم يكن حين ينزل القرآن فلا تبدى للسائل فلا بأس بذلك، وفي هذا دلالة على أنه إذا انقطع الوحي انقطع علم الغيب، وإذا انقطع وقت نزول القرآن فلا وحي، فبطل إثبات علم الغيب بالإلهام أو الاتصال بالرسول ص بعد وفاته ليخبر ببعض المغيبات.

والصفة *الثالثة*: قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا﴾ فسترها رحمةً بعباده، وهذه تدل على أن الإخبار بما سئل عنه يستلزم الكشف عن رذيلة يفتضح بها صاحبها ويتألم بذلك السائل؛ لأن العفو يدل على أن المعفو عنه سوء، فظهر بهذه الصفات الثلاث أنها تجتمع في مثل سؤال بعضهم للنبي ص مَن أبي؟ فإذا اتفق أنه كان غير الذي ينتسب إليه ويظنه أباه وأنه كان لغير رِشدَة كان هذا هو المنهي عنه سؤاله.

فإن **قيل**: النهي عن السؤال لما يحتمل هذا فهو خلاف ظاهر الآية أم لما يتحقق فيه فهو خلاف ما يفيده ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ لأنه يفيد: أنه عند السؤال لم يبد لهم، فهو خفي عليهم غير محقق؟!

قلنا: النهي عما هو في الواقع جامعٌ للثلاث الصفات، وذلك يستلزم اجتناب مظنة الوقوع فيه والمحتمل له؛ لأنه شبهة يقف عندها المؤمن، أو المراد به النهي عن مظنة وفائدة تعليق الحكم على الواقع: التنبيه على المفسدة في السؤال إذا اتفق جامعاً للصفات الثلاث.

﴿١٠٢﴾ ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَـٰفِرِينَ﴾ قال الراغب: ((والسؤال إذا كان للتعريف تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة بالجار)) انتهى.

قلت: إذا تعدى بنفسه كان ذلك باعتبار المسئول عنه مطلوباً بالسؤال؛ لأنه أي السؤال طلب للجواب، وفي (الصحاح) أفاد نحو ما ذكره الراغب.

وفي (لسان العرب): ((قال ابن بري: سألته الشيء، بمعنى استعطيته إياه، قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٦] وسألته عن الشيء: استخبرته)) انتهى.

قال في (الكشاف): ((فإن قلت: كيف قال: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ ولم يقل: (قد سأل عنها)؟

قلت: الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ ليس براجع إلى ﴿أَشْيَآءَ﴾ حتى تجب تعديته بـ﴿عَنْ﴾ وإنما هو راجع إلى المسألة التي دل عليها ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ﴾ يعني: قد سأل قوم هذه المسألة من الأولين ﴿ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا﴾ أي بمرجوعها أو بسببها ﴿كَـٰفِرِينَ﴾)) انتهى.

وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ

قلت: الراجح: أن الضمير في ﴿سَأَلَهَا﴾ يرجع إلى الإجابة المفهومة من ﴿تُبۡدَ لَكُمۡ﴾ لأن السائل يطلب الإجابة، وهذا هو المناسب لقوله تعالى﴿ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ﴾ أي كافرين بالإجابة، التي هي إبداء الأشياء المسئول عنها، فـ(الباء) على ظاهرها، إذا قيل: كفر بكذا لم يخرجها إلى السببية، والمعنى: أنهم طلبوها، ثم كفروا بها بعد أن طلبوها، ولو تركوا السؤال ما أنزلها الله فلم يحتاجوا إلى الكفر.

﴿١٠٣﴾ ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ﴾ قال الإمام الهادي × في (الأحكام) في (كتاب الذبائح): ((والبحيرة: التي كانوا جعلوها: فهي الناقة من الإبل كانت إذا ولدت خمسة أبطن فنتجت الخامس سقباً وهو الذكر ذبحوه فأهدوه للذين يقومون على آلهتهم، وإن كانت أنثى استبقوها وغذوها وشرموا أذنها وسموها بحيرة، ثم لا يجوز لهم بعد ذلك أن يدفعوها في دية، ولا يحلبوا لها لبناً، ولا يجزّوا لها وبراً، إلا أن يحلبوا لبنها إن خافوا على ضرعها في البطحاء، وإن جزُّوها جزُّوها في يوم ريح عاصف يذرون وبرها في الرياح، ولا يحملون على ظهرها، ويخلون سبيلها تذهب حيث شاءت، وإن ماتت اشترك في لحمها الرجال والنساء فأكلوه)) انتهى.

قلت: فالبحيرة: هي التي يشقون أذنها، ويجعلون لها هذه الحرمة لأنها أنثى، وكانت البطن الخامس مما نتجت أمها، ونحوه في (لسان العرب) عن ابن عرفة، وقد قال بعضهم: ((إذا كان الخامس ذكراً بحروا أذنه أي شقوها وأعفوا ظهره من الركوب والحمل والذبح..)) إلخ.

قال الإمام الهادي × : ((وأما السائبة: فهي من الإبل كان الرجل إذا مرض فشفي أو سافر فأدي أو سأل شيئاً فأعطي سيَّبَ من إبله ما أراد أن يسَيِّبَه شكراً لله، ويسميها سائبةً، ويخليها تذهب حيث شاءت مثل البحيرة، ولا تمنع من كلأ ولا حوض ماء ولا مرعى)) انتهى، ومثله في (الكشاف).

قال الإمام الهادي × : ((وأما الوصيلة فهي من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة خمسة أبطن عندهم فكان الخامس جَدْياً ذبحوه، أو جَدْيَين ذبحوهما، وإن ولدت عناقين استحيوهما، فإن ولدت عناقاً وجدياً تركوا الجدي ولم يذبحوه من أجل أخته، وقالوا: قد وصَلَتْه، ولا يجوز ذبحه من أجلها، وأما الأم فمن عُرض الغنم يكون لبنها ولحمها بين الرجال دون النساء، فإن ماتت أكل الرجال والنساء منها واشتركوا فيها.

وأما الحام، فهو: الفحل من الإبل كانوا إذا ضرب عشر سنين وضرب ولد ولده في الإبل، قالوا: هذا قد حمَى ظهره فيتركونه لما نتج لهم، ويسمونه حامياً ويخلون سبيله، فلا يمنع أين ما ذهب، ويكون مثل البحيرة والسائبة فلا يجوز في دية، ولا يحمل عليه حمل، فهذه الثلاثة من الأنعام التي حرمت ظهورها)) انتهى المراد.

وقوله تعالى ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ معناه: أنه لا وجود لها في مخلوقاته، فما ادعاه الكفار من إثبات بحيرة أو سائبة أو وصيلة أو حام، فهو كذب لا أصل لَه؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فالتي سموها بحيرة ليست بحيرة؛ لأن (التاء) فيها زيدت، لأنه اسم لها يعبر عن حكمها عندهم، والتي سموها سائبةً ليست سايبة.. وهكذا؛ لأن الكل حلال كسائر

حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا

الأنعام، وفيه رد على المجبرة الذين زعموا: أن أفعال العباد من الله، فعلى قولهم: هو الذي جعل بحيرة وسائبة..إلخ؛ لأن فعل المشركين على قول المجبرة وفي مذهبهم من الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ..﴾ الآية [الفرقان:٤٤] أي لا يستعملون عقولهم ليعرفوا الحق، بل يهملونها، فلا يعقلون الحق، أي لا يفهمونه، بل هم ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

﴿١٤﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لتعرفوا حكم الله في الأنعام وغيرها في كتابه ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ليبين لكم حكم الله ﴿قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ قالوا: يكفينا ما وجدنا عليه آباءنا، فلا نحتاج إلى ما أنزل الله ولا إلى الرسول.

﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أيكفيهم ما وجدوهم عليه ولو كانوا لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون لحق؟!! وهذا الرد كافٍ لإبطال دعواهم أنه يكفيهم سنة آبائهم؛ لأن ذلك لا يستند إلى حجة بلا احتمال جهل آبائهم واحتمال ضلالهم واقع لا شك فيه، فاستنادهم إليه مجرد تعصب لآبائهم بلا حجة، وعلى قولهم: يلزم احتمال أنهم على جهل وضلال مثل آبائهم.

وهذا جواب حكيم بأسلوب جميل، وفيه دلالة على أن مجرد احتمال بطلان الدعوى يكفي في ردها لأن (لو) تستعمل في المحتمل النادر، مثل: للسائل حق ولو جاء على فرس، وبذلك كان الجواب في غاية الرفق بالجهلة المتعصبين لآبائهم.

ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ

---

١٠٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : معنى الآية وتفسيرها: لا يضركم ضلال الضالين، ولا تحاسبون بفعل المبطلين، ولا تسألون عن شيء من أعمال المفسدين، وإنما أفعالهم عليهم وضررهم في رقابهم، وقد ذكر أن اليهود قالوا للمسلمين: كيف تطمعون بالنجاة وآباؤكم مشركون ولستم بناجين من فعلهم؟ فأنزل الله هذه الآية، وقال: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤] فأخبر أنه لا يعذَّب أحد بجرم أحد والداً كان أو ولداً)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ﴾ دليل: على أنه لا يسقط عن المؤمن تكليفه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وغير ذلك، كإقامة الحدود، واجتناب الموالاة؛ لأن ذلك من الهدى الذي شرعه الله في القرآن، فمن ترك ما أمر الله به فلم يهتدِ.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ فإنما هو إغراء لحفظ النفس من أسباب الهلكة، وليس معناه: لا تبالوا بضلال غيركم، ولا تأمروا بمعروف، ولا تنهوا عن منكر.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أنتم ومن ضل ترجعون مجتمعين للسؤال والجزاء ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ فيخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لأنه لم يخفَ عليه شيء من أعمالكم وهو يحاسبكم ويجزيكم.

ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ

﴿١٠٦﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ ﴿شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ هي الشهادة التي تؤدى بين المؤمنين عند الحاجة، والمراد هنا: تحملها، بدليل قوله تعالى ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ وتحملها ﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ﴾ وهي الشهادة على ما أوصى به الميت فلا بد من استشهاد اثنين ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ العدل ضد الجور فهما ملتزمان بالعدل مجتنبان للجور ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من الذين آمنوا.

﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا يكفي شاهدان من غير الذين آمنوا، إلا في حال الضرورة الملجئة إلى استشهاد شهيدين من غير الذين آمنوا، وذلك إذا ضربنا في الأرض وخرجنا من بلاد الإسلام ولم نجد إلا من غير الذين آمنوا لتضيق الحادثة بحضور الموت، وظاهره: الإطلاق، بل هو ظاهر في الكفار الذين يؤدي إليهم الضرب في الأرض، حيث كان الإسلام لم ينتشر في الأرض، وكان الضرب في الأرض مظنة الخروج من بلاد الإسلام.

﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عند أداء الشهادة، راجع إلى أول الكلام فهو في العدلين من الذين آمنوا، وإنما قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ﴾ إلى الموت شبه المعترض بين الكلامين.

مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ

﴿فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يقسمان بالله بعد الصلاة: لا نكتمها أو نغيرها لأجل مال نعطاه لنكتم الشهادة أو نلويها فيكون بدلاً من أدائها على وجهها.

وقوله تعالى ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أي قلقتم لتجويز أن يكتمها شاهد أو يغير فيها والشك في ذلك، فخذوا منهما العهد المذكور، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي المشهود عليه فـ﴿لَا نَشْتَرِى﴾ بالشهادة ﴿ثَمَنًا﴾ لأن المشهود عليه ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ﴾ هذا تمام ما يقسمان عليه: الالتزام بأن لا يكتما الشهادة، والاعتراف بأنها حق لله عليهما، وأنهما إذا كتماها من ﴿ٱلْءَاثِمِينَ﴾ فيكون اعترافهما هذا حجة عليهما إن كتما يوم القيامة، وفي الدنيا إن عثر على كتمانها، وحبس الشاهدين من بعد الصلاة ليؤديا اليمين هو توقيفهما ليحلفا قبل أن يشهدا، وهذا عند أداء الشهادة.

﴿١٠٧﴾ ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ عثر عليه: انكشف وظهر أن الشاهدين ﴿ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ بتغيير في الشهادة، إما بتبديل، أو بزيادة، أو نقص، فلم يؤدياها على وجهها، فاستحقا عقوبة ذلك الإثم، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ﴾ [الفرقان:٦٨-٦٩].

﴿فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ﴾ لأن الشاهدين كتما الشهادة أو غيَّراها، فكاد الحق أن يفوت، وكاد المستحق عليه أن يضيع الحق عليه، فكان الآخران اللذان ينال بشهادتهما الحق من

المستحق عليه هما ﴿ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ﴾ بأن يشهدا ويعمل بشهادتهما؛ لأنهما قاما من الذين استحق عليهم الحق مقام الصدق، وشهدا عليه بالحق وهو مقام الشاهدين الأولين لو أقاما الشهادة ولم يكتما أو يغيرا، فمقامهما من المشهود عليه هو قيامهما عليه بأداء الشهادة بالحق، فلما تخلف الأولان عن مقامهما من المشهود عليه كان الآخران الأوليين بذلك المقام.

(آخران) مبتدأ، وجملة ﴿يَقُومَانِ..﴾ إلى قوله: ﴿عَلَيۡهِمُ﴾ صفة سوغت الابتداء بالنكرة، والأوليان خبر المبتدأ، و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾ ومجرورها متعلقان بمقامهما وهي (من) التي تحدد المسافة والنسبة، كالحديث: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى)) وقول عنترة:

ولقد نزلتِ فلا تظني غيره مني بمنزلة المحَب المكرَم

بناء على أن قوله: (مني) متعلق بـ(نزلتِ) وهو الظاهر عندي، ومنه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] و﴿مَقَامَهُمَا﴾ مصدر، أو ظرف مكان.

﴿فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيداً لشهادتهما ﴿وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ﴾ في شهادتنا على المستحق عليه، أي لم نعتدِ عليه ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إنا إذا اعتدينا عليه وشهدنا عليه بما ليس عليه ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تسجيلاً على أنفسهم بالظلم وإقراراً بإثم الظلم إن اعتديا، وهذا من تأكيد الشهادة.

فإن **قيل**: كيف يتصور العثور على أن الأولين كتما مثلاً؟

قلت: إذا شهدا على إقرار الميت ببعض الحق الذي يعلمه الآخران عليه فالمستحق عليهم الورثة، وإذا شهدا على دعوى الميت بعض الحق له الذي يعلمه الآخران فالمستحق عليهم المدعَى عليهم، فالعثور: هو الإطلاع

أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ

على ما كتم الشاهدان بسبب معاينة المعاملة سابقاً قبل ضرب الأرض أو سماع الإقرار سابقاً من الميت أو من غرمائه، أو بسبب إقرار الشاهدين من بعد الشهادة على ما كتما، أو بسبب من حضر عند الوصية من المسلمين ولم يكونا باسم متحملين للشهادة، أو حضرا في مرض الموصي قبل أن يوصي وسمعا منه ما يناقض شهادة الشاهدين ويبين ما كتما، هذا الظاهر عندي، ولا يجب تنزيل الآية على قصة تميم الداري.

﴿١٠٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي أمر الله به في الآيتين ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَن يَأْتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ أن يأتوا الأولان والآخران، فالأولان بتحليفهما قبل الشهادة بعد الصلاة، والآخران بقسمهما: ﴿لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا..﴾ إلخ، والكل من الأولين والآخرين لخوف الفضيحة بورود أيمان تكشف كتمانهم.

﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي أدنى أن يخافوا ﴿أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ﴾ يؤتى بها بعد غيابها عن موقف الشاهدين فتكشف كتمانهما، وهذا الخوف يصلح للأولين والآخرين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ﴾ بالجمع.

فإن **قيل**: فلماذا قيل: ﴿أَوْ يَخَافُوٓاْ﴾ ولم يؤتَ بـ(الواو) مكان (أو) ؟

قلت: إذا أتوا بالشهادة على وجهها لأجل ما ذكر كله فهو المراد، وقد تضمن ذلك الخوفَ المؤدي إلى أداء الشهادة على وجهها، وإنما جيئ بـ(أو) لأجل حالة الكتمان أو التغيير؛ لأنه جعل مقابل أداء الشهادة على وجهها الخوف من انكشاف الكتمان أو التغيير، وفائدة ذلك: أنه إذا خان مع خوفه أن يفتضح كان مستحقاً للفضيحة أكثر من غيره؛ لأنه قد تعرض لها عمداً.

فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عطف على الأوامر المذكورة في الآية للتحذير من المخالفة في شيء منها أو في غيرها، وتمهيداً للأمر بالسماع ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ أوامر الله سماع من يريد الاتباع، أو بمعنى: اقبلوا، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الذين تركوا التقوى والسماع، فهم مخذولون.

﴿١٠٩﴾ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ اذكر يوم يجمع الله الرسل يوم القيامة ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ أيُّ إجابة أجبتم في الدنيا من أممكم الذين أرسلتم إليهم إجابة حسنة؟! أم سيئة؟! أم ماذا؟! سؤال عن إجابة أممهم كلها، وهم لا يحيطون بها علماً؛ لأن من أممهم من لم يشاهدوه لغيابه عنهم، أو لأنه كان بعد توفيهم، وكذلك من أممهم من لا يعلمون سره ونيته وما بطن من إجابته، ولذلك نفوا العلم بما يطابق السؤال.

أما العلم ببعض الإجابة فهو غير مسئول عنه هنا، وفيه دلالة على أنهم لا يعلمون الغيب لا علماً ذاتياً، ولا بإعلام الله تعالى لهم؛ لأنهم نفوا العلم عموماً، ولو كانوا يعلمون ذلك كله لما ساغ النفي للعلم في جواب هذا السؤال، فتأويله: بأنه لا علم لنا ذاتياً خلاف الظاهر، وكذا قوله: ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩] وفي هذا رد على بعض الإمامية الذين يدَّعون أن المهدي يَعْلَمُ أنصاره ومن خالفه ومن هو متَّبع له على التفصيل بأسمائهم، ويعلم ما يفعلون.

وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ

﴿١١٠﴾ ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾

هذا يكون يوم القيامة يوم يجمع الله الرسل، واختص بالكلام لما سبق في الدنيا من غلوٍّ بعض النصارى فيه، وهذا الكلام يشير إلى أنه عبد لله أنعم عليه.

﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾

﴿أَيَّدتُّكَ﴾ قويتك، و (روح القدس) جبريل × ، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل:١٠٢] فهو له معين، ولعل هذا في صغره وكبره، أما الصغير فإنه ضعيف يحتاج إلى من يرعاه، وأما الكبير فلأنه يحتاج إلى من يعينه على أعدائه وفي بعض مهماته، و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ ما يمهد للصبي من فراش يجعل عليه، والكهل: فوق الشباب، أي من تجاوز سن الشباب، أو هو في آخر الشباب.

وحكى الشرفي في (المصابيح) عن الإمام أبي الفتح الديلمي ـ صاحب البرهان ـ: أن الكهل: ابن ثلاثين سنة، وأفاد الراغب في (مفرداته): أنه من شارف الشيب، ولعله يعني: من ظهر فيه بياض بعض شعره، ولم يغلب على السواد.

وقال (صاحب الكشاف): ((وحين الكهولة الذي هو وقت كمال العقل وبلوغ الأشد، والحد الذي يستنبأ فيه الأنبياء)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الكهل: الذي جاوز الثلاثين، ووخطه الشيب)) انتهى.

والمعنى متقارب، وهذا التكليم في المهد وكهلاً نعمة، من حيث أن التكليم في المهد نعمة عليه بالمعجزة، وعلى والدته بالتبرئة، والدلالة على فضلها، وفي المهد من حيث أنه كان يكلم الناس بما أرسله الله به، وعلى والدته برسالة ابنها وسلامته حتى بلغ الكهولة، مع أن القدرة على تكليم الناس نعمة على كل حال.

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ اسم يعم الكتب، كقوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أو هو مصدر (كَتَب) أي علمتك الكلام، وعلمتك الكتاب الذي هو أحد اللسانين وبه تحصل العلوم المكتوبة، قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] و﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ المعلومات النافعة كأسباب الزهد في الدنيا.

وقد حكي عنه × كثير من الحكم في كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) للإمام الموفق بالله × ، و (التوراة) التي أنزلت على موسى و(الإنجيل) الذي أنزل على عيسى، والإنجيل لم ينسخ التوراة، بل هي معمول بها في دين عيسى × ، إلا ما خصه دليل من كلام عيسى × أو من (الإنجيل) لقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠].

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى﴾ أذن الله له بالتصوير، ولعل هذا يشير إلى أن الأصل التحريم في تصوير صورة الحيوان، وإنما أذن الله لعيسى × لما في ذلك من الحكمة الخاصة ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا﴾ أي من الصورة المفهومة من قوله: ﴿كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾.

والظاهر: أنه النفخ المطلق الذي هو إرسال النفس من الفم بقوة، ولو كان المراد نفخ الروح لقيل: فتنفخ فيها الروح؛ لأنه لا يعبر عن نفخ الروح

بمطلق النفخ، فتكون طائراً ﴿بِإِذْنِي﴾ بإذني أن تكون طائراً بذلك السبب، وهو صناعة الطين كهيئة الطير والنفخ، فكان سبباً لحياته بجعل الله له سبباً، كما جعل حضانة البيضة سبباً لحياة الفرخ.

وفي قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِي﴾ دلالة على إحاطة قدرة الله تعالى وعلمه بما صنعه عيسى × فلو شاء لم تكن طيراً، ودلالة على سهولة الأمر الخارق على الله، حتى كأنه في وجوده لا يحتاج إلا إلى الإذن بوجوده، وفيه ـ أيضاً ـ رد على النصارى الذين زعموا أن إحياءه × للموتى راجع إلى أنه إله سبحان الله عما يقولون علواً كبيراً.

﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ ﴿ٱلْأَكْمَهَ﴾ الأعمى الذي ولد أعمى وإيجاد البصر له من الله، وأذن تعالى أن يكون على يد عيسى × معجزة لَه كسائر المعجزات الخارقة للعادة، فقوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ كذلك رد على النصارى ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ كذلك يصعب علاجه، فإبراؤه معجزة تكون بإذن الله، ولا يستقل بها عيسى بقدرته، كسائر المعجزات التي تكون على أيدي الرسل، كفلق البحر بضربة عصى موسى، والبرص: بياض يكون في الجلد ويكون به الجلد خشناً في ملمسه، وهذا الفارق بينه وبين البهق.

﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي الجنس، مثل: ﴿**يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**﴾ [الفرقان:٧] قال في (المصابيح): والذي أحيى من الموتى رجلين وامرأة، ذكره في (البرهان) انتهى.

وهذا نظير إحياء الطير، و(إخراج الموتى): إخراجهم من قبورهم، وهذه آية عظيمة لدلالة هذا على إحيائه وقوته على الخروج من بين التراب، فهذه المعجزات تقوية له وتصديق من الله له.

أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ

﴿وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ **وإذ نصرتك على الذين كفروا وحاولوا قتلك، بأن كففتهم عنك ﴿إِذۡ جِئۡتَهُم﴾ بالآيات البينات، الدالة على أنك رسول الله إلى بني إسرائيل، وكذلك كففت الذين آمنوا بهدايتهم للإيمان، فالكف لبني إسرائيل جملة؛ لأنهم أشداء يقتلون الأنبياء، ولولا إيمان من آمن لكان مثل الذين كفروا يريد قتلك.**

أما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فقالوا ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا الذي جئتهم به ﴿إِلَّا سِحۡرٞ﴾ وتخييل، وليس شيئاً واقعياً بزعمهم كصنع الساحر في تخييله قلب الحبل حية، وقولهم: ﴿مُّبِينٞ﴾ أي بين، أي بيّن أنه سحر، مبالغة منهم في الكفر.

﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ **(الحواريون) الخلص من بني إسرائيل الذين دعاهم عيسى × الذين هم الصفوة منهم، وهذا الوحي الراجح: أنه هدايتهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾** [النحل:٦٨] **فالمعنى: هدايتهم للإيمان بي وبرسولي، ليكونوا أنصاراً لك ومصدقين لك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾** [آل عمران:٥٢] **وقوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ..﴾ الآية** [الصف:١٤].

فهم معروفون بنصره × ، وهدايتهم للإيمان بالله وبرسوله عيسى × من النعم عليه؛ لتأييده بهم ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ لله لا نجعل له شريكاً، وهذا من الرد على النصارى.

أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا

﴿١١٣﴾ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ هل يقدر على هذا الأمر الخارق للعادة؟! وقولهم: ﴿رَبُّكَ﴾ يشير إلى أنهم يريدون أن يدعوَ لهم أو يسأل الله عن ذلك فيجيب من أجل عيسى × ، وقولهم: ﴿عَلَيْنَا﴾ لأنهم يريدون المائدة لأنفسهم.

﴿قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فلا تشكوا في قدرته على كل شيء، لأن المؤمن لا يرتاب في أن الله على كل شيء قدير، أو لا تسألوا هذا السؤال الموهم للشك في الله لما فيه من قلة الأدب، أو لا تطلبوا الأمر الخارق وقد رأيتم من الآيات ما كفاكم للإيمان بالله وبرسوله، واشتغلوا بتقوى الله عن طلبه، أو أراد الكل من هذه المعاني، فأجابوه عن المعنى الأخير:

﴿١١٣﴾ ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ ﴿نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾ لنسد جوعنا ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ بوقوع الآية التي طلبنا، فنزداد إيماناً، وتسكن قلوبنا عن الخواطر التي تدعو إلى الشك ونحتاج إلى مدافعتها بالتذكر لما مضى من الآيات ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ في كل ما أخبرتنا به عن الله، وعن قدرته، وعن رسالتك، وعن اليوم الآخر ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ لنشهد لمن لم يعاينها أنها وقعت هذه الآية العظيمة وعايناها، أي لنتحمل الشهادة بها.

مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ ۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ

﴿١١٤﴾ ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي يا الله ربنا كلنا، يقابل قولهم: ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ﴿أَنزِلۡ﴾ علينا طلَبها له ولهم، لعله أراد بذلك أن يعرفوا جده في الدعاء.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : وإنما سألوا أن تكون المائدة لهم عيداً، وكان ذلك يوم عيد من أعيادهم، فقالوا: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ وأرادوا جميعهم، وهذا موجود في لغة العرب، تقول: بلغت الرسالة أولهم وآخرهم، وهذا الكلام حسن جميل جائز، وقلت: هل أنزلها عليهم أم لا؟!

قال × : بل قد أنزلها، ألا تسمع كيف يقول ـ وقوله الحق ـ : ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقد قيل: إنها لم تنزل عليهم، وليس ذلك عندي كذلك؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وقوله الحق، ووعده الصدق، تعالى علواً كبيراً)) انتهى.

قلت: ويؤكد أن المراد بقوله تعالى: ﴿لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ لجميعنا قوله: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ولو كان المراد أن تتكرر للموجودين ومن سيوجد لقال: تكون لنا أعياداً، وقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡنَا﴾ يدل به على أن سؤال المائدة ليس لمجرد العيد، بل لأنه طلب رزق ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ثناء على الله بما هو أهله مناسب لطلب الرزق.

فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾ وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ

﴿١١٥﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ﴾ **يجحد بعد هذه الآية العظيمة التي طلبوها وجاءت لطلبهم، أو يكفر النعمة بعد هذه النعمة العظيمة التي يزدادون بها إيماناً مع ما فيها من التكريم لهم.**

قال الراغب: ((والمائدة: الطبق الذي عليه الطعام، ويقال: لكل واحدة منهما: مائدة)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((وهي خوان عليه طعام، فإذا لم يكن عليه طعام فليس بمائدة، وإنما هو خِوَان)) انتهى، والأولى: أنه في الآية الطعام على الخوان؛ لقوله: ﴿نَأۡكُلَ مِنۡهَا﴾ وكما أفاده الراغب.

وقوله تعالى: ﴿لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لعل المراد: أنه عذاب خاص، يكون خزياً عليهم من حيث أنه خصهم، وما يروى أنهم طلبوا عيسى أن يريهم من هذه الآية أية أخرى ثم كفروا بعد ذلك فمسخوا قردة وخنازير لا ينبغي اعتماد الرواية إذا لم تأتِ من مصدر صحيح؛ لأن القرآن أثنى على الحواريين، ولم يذكر عنهم سوى هذا السؤال الذي يعاب عليهم، ولا أستبعد أن الرواية من كذب اليهود، اختلقوها على الحواريين عداوةً لهم.

﴿١١٦﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **هذا معطوف على قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ**

مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ وهذا السؤال شبه سؤال الموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٩] وفيه فائدة أخرى: استدعاء التوبيخ والتقريع للنصارى، الذين اتخذوا عيسى إلهاً بما في جواب عيسى × وذكر أمه لبيان أنه سواء اتخاذه إلهاً واتخاذها إلهاً؛ أو لأن بعض النصارى أشركوا بها كما يحكى عن بعض الحبشة، ولعل شركهم ليس تصريحاً بإلهيتها، بل بالغلو فيها ونسبة ما لا يقدر عليه إلا الله إليها، من مثل: شفاء المريض، وإطالة العمر، وبركة الرزق، وإنزال المطر، ومنع المطر عن العصاة غضباً عليهم، فاتخاذهم لها إلهاً: دعاؤها لجلب النفع الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ومعنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يتخذوهما إلهين قريبين منهم في اعتقادهم، يعتبرون نفعهما وإجابتهما للدعاء أقرب من إجابة الله، ويتخيلون الله بعيداً منهم، فهذا معنى ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وليس معناه: نفي إلهية الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ [الكهف:٩٣] وقوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] أي الشمس، وقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] وغير ذلك.

﴿قَالَ﴾ أي عيسى ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً وتبعيداً عن أن يكون معك إله ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أن عبوديتي لك وإيماني بالتوحيد لك يمنعني أن أقول ما ليس لي بحق، ونظير هذا النفي: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥] فهو نفي مؤكد بالدلالة على المانع.

﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ نفى أن يكون قال للناس: ﴿ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾

عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ

بطريقة إثبات علم الله به لو كان؛ لأنه ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ ونفى عن نفسه علم الغيب، تحقيقاً لإقراره بأنه ليس بـ(إله).

﴿١١٧﴾ ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ لأنك أمرتني أن آمرهم بعبادتك وحدك، فما قلت لهم إلا ذلك المأمور به، وبينت لهم أنك ربي وربهم، فعلينا أن نعبدك وحدك لا شريك لك إن جعلت (أَنْ) مفسرة، فعلى تضمين ﴿قُلۡتُ لَهُمۡ﴾ أمرتهم وعدل عن لفظ الأمر إلى لفظ القول، ليناسب قوله: ﴿أَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ﴾ ليناسب مقام الاعتراف بعبوديته لله تعالى الذي هو مقتضى الحال، فلم يقرن أمر الله له بأمره لهم؛ لأن أمره لهم إنما هو أمر تبليغ عن الله تعالى وليس إلهاً من دون الله سبحانه وتعالى، فقد نفى أنه قال لهم ذلك بوجوه:

من ذلك قوله: ﴿سُبۡحَانَكَ﴾ وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ومن ذلك قوله: ﴿إِنۡ كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥ..﴾ إلخ، ومن ذلك قوله: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ﴾ ومن ذلك ما حكاه عن نفسه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ وهذا ينافي دعوى الإلهية، وينافي أمر الناس باتخاذه واتخاذ أمه إلهين من دون الله.

وإن جعلت (أنْ) مصدريةً، فعلى تأويل: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بمصدر هو أمرهم بعبادة الله ربي وربهم إن صح ذلك؛ لأن الأصل في (أَنِ) المصدرية أن يكون المعنى على أن تسبك بالمصدر هي والفعل بعدها، والفعل (اعبدوا) فالأصل: ما أمرتني به عبادتهم لله ربي وربهم، أي ما أمرتني بقوله:

عبادة الله ربي وربهم، وهذا لم يستقم، ولا يصح تأويل القول بالمقول فيه، مثل: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٨٠] لأن الاستثناء للقول الحقيقي المأمور به الذي هو قول عيسى × ، لا فعلهم الذي هو عبادة الله وحده.

فجعل (أَنِ) مفسرةً أولى وإن كانت في لفظ القول، وذلك لأن الحكم يختلف مع التضمين للفظ الآخر إذا روعي التضمين، وقد جعلها مفسرة بناء على التضمين الزمخشري في (كشافه) وهو من علماء العربية، حيث جوَّز جعلها مفسرة على تأويل القول بالأمر، وحسنه ابن هشام في (مغني اللبيب).

ولا إشكال أن معنى ﴿مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ﴾ ما أمرتني أن أقوله لهم؛ لأنه مستثنى من قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ غاية ما فيه أنه روعي التضمين باستعمال (أن) المفسرة، وروعي لفظ القول بتعديته إلى المستثنى بنفسه، فروعي اللفظان، كما روعي في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء:٢] التضمين لتضموها المناسب لاستعمال (إلى) مع بقاء معنى الإتلاف أو نحوه مما يعبر عنه بالأكل.

﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ متحملاً للشهادة عليهم ﴿مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ معايناً لأعمالهم سامعاً لأقوالهم مشاهداً لهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ لم أعلم ما يفعلون و﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعلم ما يفعلون لا يخفى عليك شيء منهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ في كل حال، وفي الآية هذه دلالة على أن الشهداء على الأمم هم ممن شاهد أعمالهم فقط، فالرسول ص شهيد على أمته الموجودين في عهده الذين شاهدهم، أما من بعده فالشهداء عليهم هم خيارهم المشاهدون لهم.

أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

﴿١١٨﴾ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بسبب شركهم بي وبأمي ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ ليس لي من أمرهم شيء، بل أمرهم إليك وحدك تحكم فيهم ما تريد ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلن تكون المغفرة على وجه يخالف عزتك وحكمتك لمجرد إسعاد شفيع متدخل بشفاعته أو نحو ذلك، وعلى هذا ففرض العفو ليس لاحتمال وقوعه، وإنما هو للدلالة على أن أمر العباد إلى الله وحده، وأنه يقضي فيهم بعزته وحكمته، فالمؤمنون يرحمهم بعزته وحكمته.

قال في (سورة التوبة): ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله ﴿..أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية:٧١] وقال في أعدائه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فمن عزته وحكمته رحمة أوليائه، ومن عزته وحكمته تعذيب أعدائه، فلا مغفرة للمشركين إلا على فرض إمكانها من دون مخالفة لعزته وحكمته وذلك لا يكون لأعداء الله؛ لأنه قد ثبت بقوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] أن مقتضى عزته وحكمته تعذيبهم.

﴿١١٩﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ لعيسى × بشارة له بصدقه في الحياة الدنيا: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم ﴿يَوْمُ يَنفَعُ

ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡ﴾ والصادقون: هم الذين صدقوا الله في إيمانهم فوافق قولهم عملهم ونيتهم، فنصروا الله، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم، وأخلصوا دينهم لله، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ وهذا لاستحقاقهم الثواب والتكريم، فبالأولى أن صدقهم نَفَعهم بأن نجاهم من النار، فتم بالصدق نفع الصادقين.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ لعله بمعنى رضوا عنه في إثابتهم بما أثابهم به من النعم، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥] أو هو تعبير عن عظم سعادتهم برضوان الله عنهم، وبرضوانهم عنه وحبهم له ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأنه سعادة عظمى دائمة، ونجاة من كل شر.

﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ من المخلوقات من العقلاء وغيرهم، وذلك يعم المسيح ابن مريم وأمه إ ، والملك لله وحده ليس لهما فيه نصيب يشاركان به ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بما قد تقرر من الاحتجاج في هذه السورة على أهل الكتاب وغيرها، تقرر أن لله ملك السموات والأرض وما فيهن، وأنه على كل شيء قدير.

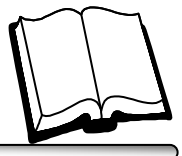

التيسير في التفسير

سورة الأنعام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ

تفسير (سورة الأنعام)

قال الشرفي في (المصابيح): ((مكية غير ست آيات فإنها مدنية، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات، ومثل هذا في (البرهان)) انتهى من (المصابيح) وذكر أنها نزلت جملة واحدة.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو المستحق للحمد ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ وذلك دليل على قدرته التي لا تساويها قدرة ولا تقاربها، وعلى سعة علمه وإحاطته بكل شيء، لأن صنعه محكم، والإحكام دليل على العلم، ولأن الظلمات والنور مقدران بمقادير محكمة تابعة لمقدار حجم الأرض ومقدار سرعة دورتها، ومقدار نسبة المسافة بين الأرض والشمس، خلق ذلك وقدره بقدرته وعلمه نعمة منه على عباده، والمذكور هنا جعل الظلمات.

فأما تقديرها ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء:٣٣] ولعل جمع الظلمات هنا لتعدد الحجب التي تحجب النور، كما قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور:٤٠].

﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن دل خلقه على عظمته وجلاله بما خلق وجعل، فـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بآيات الله وبأنعمه قابلوا ذلك بأنهم ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بربهم شركاءهم، أي يجعلونها عديلة لله؛ لأنهم جعلوها آلهة تستحق العبادة بزعمهم.

أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي إ : ((معناه: تجعلون له مثلاً وتشركون به)) انتهى، وفي (الصحاح): ((والعديل: الذي يعادلك ذلك في الوزن والقدر)) انتهى، قال الشرفي في (المصابيح): ((وفائدة ﴿ثُمَّ﴾ استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته..)) إلخ.

وفي هذه الآية إشارة إلى معظم ما يأتي في هذه السورة من ذكر آيات الله، وما يأتي فيها من الرد على المشركين، والعدل بالله يصدق على أنواع الشرك كلها.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ وهذه آية أخرى تدل على قدرته وعلمه وملكه للإنسان، يتصرف فيه كيف يشاء، وقدرته على إحيائه بعد الموت وجزائه.

﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ بدأ خلق الإنسان من طين، وهو خلق أبينا آدم × من الطين بتسوية صورته من الطين، الذي هو تراب ممزوج بالبلل ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ ثم قضى لكم أجلاً في الحياة أو للممات، والمعنى متقارب، فالحياة حتى الممات هي بقضائه تعالى، وذلك يستلزم أن الممات بقضائه تعالى، والممات هو بقضائه في حينه المقضي يكون لا يتقدم ولا يتأخر، وذلك يستلزم أن بقاء الحياة بقضائه.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وأجل آخر ﴿مُّسَمًّى﴾ معين وقته محدود ﴿عِندَهُۥ﴾ في قدرته وعلمه يأتي بالمؤجل به في حينه، والأقرب: أنه أجل القيامة، وهكذا في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) فحياة كل شخص مؤقته بتأجيل الله، وتناسل القرون في هذه الحياة الدنيا مؤجل بتأجيل الله،

ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ

فبقضائه حياة كل فرد وموته، وبقضائه الحياة الأولى والحياة الآخرة وانتهاء الحياة الأولى لكل الناس أجمعين بقضائه.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) معناه: تشكُّون، أي تشكُّون في صدق الوعد والوعيد؛ استبعاداً للقدرة على إحياء العظام وهي رميم، وقد خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، وخلقكم من طين، وحدد آجالكم وحدد هذه الحياة الأولى التي هي تَقْدِمَة للآخرة.

قال الشرفي في (المصابيح) ـ حاكياً عن الحاكم الجشمي المفسر ـ : ((قال الحاكم: فإنه نبه بقوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ على إبطال قول من يقول بقدم العالم، وبقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ على إبطال قول الثنوية القائلين بقدمهما لأنهما أجسام [كذا] بمنزلة غيرهما، وبقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ على إبطال قول الطبائعية)) انتهى.

قلت: هكذا القرآن شفاء من كل داء.

﴿٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ يدعوه أهل السماء الله وأهل الأرض يدعونه الله؛ لأنه الإله في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٨٤].

﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ فهو الذي يعلم دعاءكم له وسائر عبادتكم إياه، فاعبدوه ولا تعبدوا غيره ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ من سيئات أو حسنات فاتقوه وراقبوه.

﴿٤﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ولذلك فهم يشركون بالله ولا يتقونه مع قيام الحجة عليهم.

﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ بآيات الله ورسوله وكتابه، وما دلت عليه من توحيده وغيره بعد قيام الحجة عليهم ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ قال الراغب في (مفرداته): ((النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر في الأصل: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة)) انتهى.

وقوله: ((ذو فائدة عظيمة)) لعل الصواب: ذو فائدة مهمة؛ لقول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمد ... وبات الخلي ولم ترقد
وبات وباتت لَه ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جائني ... وخبرته عن بني الأسود

وقوله عنترة:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ إن أريد به القرآن الذي كان المكذبون يستهزئون به، فأنباؤه ما فيه من الوعيد، وإتيانه إتيان المتوعَد به، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٣١] أي ما وعد به، وإن أريد ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ عامة من الكتاب والرسول وخزنة جهنم والعذاب وغير ذلك، فالنبأ عنه: الإخبار عنه بأنه لم يكن مما يستهزئ به أهل العقول والنبا هذا هو الجزاء الناطق بلسان الحال أنهم كانوا في استهزائهم في غواية بعيدة، أو القول المقارن للعذاب ذوقوا العذاب بما كنتم تستهزئون أو نحو هذا القول مما يحصل به ندمهم على ما قدموا من التكذيب والإستهزاء، وهذا أظهر والإستهزاء استخفاف، والسخرية مثله.

أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٦ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي

---

٦ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ آثار من قد ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ قبلهم من القرون الكثيرة فيعلموا كثرتها، أو ألم يعلموا ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ أي جواب كم أهلكنا أي أنهم كثير، يحق لهم أن يعتبروا بهم، ويحذروا أن يهلكهم كما أهلك القرون التي أهلكها من قبلهم، فما بالهم لم يعتبروا بهم ويحذروا التكذيب والإستهزاء بالحق، كأنهم لم يروا كم أهلكنا قبلهم، فالسؤال للتوبيخ.

وأما (القرن) فقال الشرفي في (المصابيح): ((وفي القرن يقول المرتضى × : القرن: الخلف الذي يكون بعد الأول الفاني، فأما ما يقال به من ثمانين سنة فليس ذلك بشيء؛ لأنا قد رأينا قوماً يزيدون على الثمانين في عصر واحد، ولكن القرن ما خلف مَن قد مضى، ويقال: القرن؛ لأنهم غير الأولين، وفي ذلك ما يقول الشاعر:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخُلِّفتَ في قرن فأنت غريب))

انتهى.

﴿مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بما جعلنا لهم فيها من المستقر والمال والقوة ﴿مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ﴾ أي هو قليل بالنسبة لما جعلنا لهم ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا﴾ بالأمطار المتتابعة الكثيرة.

قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩

---

٧ ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ ليتيقنوا أنه كتاب ليس خيالاً كما يخيل الساحر للبصر لقالوا بعدما علموا أنه كتاب أنـزله الله من السماء على رسوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي ما هذا الذي رأيناه ولمسناه بأيدينا إلا سحر تخييل من ساحر لا حقيقة لَه ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أي بيّن أنه سحر مكابرة منهم وعناداً.

٨ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ ﴿لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بينك يا محمد وبين الذين كفروا؛ لأن الرسول أرسل إليهم منذراً لهم ليؤمنوا ويتقوا في حال التكليف وسعة الإختيار غير ملجئين، ولا في حال رؤيتهم للعذاب، وهذا ينتفي بنـزول الملك، وتنقلب الحال حال هلاك لا ينفع معها إيمان، ولا بقي معها للإنذار معنى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنْظَرِينَ﴾ [الحجر:٨].

فالملك لا ينـزل إلا بما تقتضي الحكمة إنـزاله بـه، ولا تقتضـي الحكمـة إنـزاله لأجل اقتراح المتمردين الذين قد جائتهم الآية البينة وهي القرآن فلم يؤمنوا، ولو نـزل الملك مـا آمنـوا، إنمـا هـم لاعبـون متمـردون، فلـذلك لا تقتضي الحكمة إنـزال الملك نذيراً مع محمد ص إنما تقتضـي لـو أنـزله الله أن ينـزله بهلاكهم، وبـذلك ينقطـع وقـت الإنـذار والـدعوة إلى الله، وهـذا

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ

معنى (قضي الأمر) أي انتهى الإنذار والدعوة إلى الإيمان ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ لأن العذاب يكون قد حضر مع الملك فلا يمهلون.

﴿٩﴾ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾

قال الشرفي في (المصابيح): ((وما أحسن جواب الإمام القاسم بن ابراهيم إ عن من سأله عن معنى هذه الآية؟ فإنه قال: كانوا يقولون: لولا أنزل عليه ملك فيكون معه شهيداً فيشهد له برسالته بما ينكرون، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ يقول تبارك وتعالى: ثم لا يتركون ساعة ولا يؤخرون، فما ينفعهم إذا أخذوا أيمانهم بعد رؤيتهم للعذاب وعيانهم، ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ ما أيقنوه إلا أن يروه رؤية ويعاينوه، وما كانوا ليروه عياناً إلا أن يجعله الله مثلهم إنساناً في الصورة والحلية وما للرجال من الهيئة لا في جميع حدود البشرية ولكنه في الرؤية والمنظر، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ يقول سبحانه ولو فعلنا ذلك به فجعلناه رجلاً كما يعرفون، لزادهم لبساً إلى لبسهم، ولما أيقنوا أنه ملك في أنفسهم ولو نزلنا عليه الملك على حاله لما كان أحد منهم معايناً له ولا مدركاً..)) إلخ.

والحاصل: أن الملك إن جاءهم على صفته الأصلية لم يروه، وإن كان رجلاً في صورته لم يؤمنوا أنه ملك، وكان الله تعالى قد لبس عليهم كونه ملكاً بجعله رجلاً، وهم لبسوا على أنفسهم ويلبسون عليها بطلب مَلك مع إنكارهم المعجزات، حتى خذلوا وبعدوا عن الإيمان، بسبب تعنتهم وتمردهم، والرين على قلوبهم.

بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ **كما استهزأ قومك بقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ استهزاءً وسخرية لا لطلب معرفة الحق ﴿فَحَاقَ﴾ فأحاط بالأولين ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ من الآيات والرسل أي سببت لهم العذاب العاجل، وفي هذه تأكيد لكلام (صاحب الصحاح) في تفسيره الإستهزاء بالسخرية، وقوله تعالى: ﴿مِنۡهُم﴾ أي سخروا من الرسل المذكورين.**

﴿١١﴾ ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿قُلۡ﴾ **يا محمد لقومك: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتروا آثار المكذبين الذين أهلكهم الله بذنوبهم ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ فكروا كيف كانت ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ الهلاك على سوء الحال وغضب الجبار والمؤدي إلى النار والشقوة الدائمة، لتعتبروا بهم، وتحذروا مثل ما حل بهم.**

﴿١٢﴾ ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِ﴾ ﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ **من حي وجماد ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ فهو رب من في السموات ومن في الأرض، فهو إلههم وحده ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ فكيف يدعو المشكرون من دونه شركاء، لا يملكون ولا ينفعون، والله هو ربهم الرحيم بهم الذي هو رازقهم ومطعمهم وساقيهم وشافي مرضاهم، وبيده الخير ومنه**

الخير، ومن كرمه ﴿كَتَبَ﴾ وأوجب على نفسه ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ فهو لا يعاجل العاصين، وهو يدعو إلى التوبة ويعد قبولها، ويحذر عباده نفسه، ولذلك أرسل الرسل رحمة للعالمين.

﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ إلى موقف العرض على الله يوم القيامة وإلى ما يكون في يوم القيامة من الحساب والجزاء، فالجمع ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ جمعهم إلى ما فيه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩].

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضعه نصب على البدل من الضمير في قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ والمعنى: ليجمعن هؤلاء المشكرين الذين خسروا أنفسهم)) انتهى.

وهذا عندي أحسن الأقوال فيها، فأول الآية احتجاج عليهم وآخرها تسجيل عليهم بالخذلان، وأنهم بسبب تمردهم وعنادهم قد خسروا أنفسهم، بأن فوتوا عليها سبيل السلامة، وسببوا لها الخذلان المؤدي إلى الخسارة الدائمة، فأول خسارتهم أنفسهم: بُعْدهم عن قبول الحق بقسوة قلوبهم وكراهتهم للحق وتكبرهم عن قبوله، حتى لم يبقَ لهم صلاحية لقبوله وصاروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ..﴾ فلذلك كانوا قد خسروا أنفسهم بوقوعهم في سبب الخسارة الدائمة بدخول النار، وترتب أنهم لا يؤمنون على خسارة أنفسهم بوقوعها في الخذلان الشديد والضلال البعيد.

ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ

﴿١٣﴾ ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهذا يعم الأرض كلها، والآية الماضية تشمل ما في الأرض وما في السموات، ويحتمل: أن الليل والنهار يكونان شاملين للسموات والأرض ـ والله علم.

وقوله تعالى: ﴿مَا سَكَنَ﴾ إما من السكنى، فيكون التعبير به لفائدة الليل والنهار لما اشتملا عليه لنفع الشمس فيما تظهر عليه، ثم نفع الليل فيما يأتي عليه بعد الشمس، فكانا للجماد وغيره بمنزلة المسكن الذي ينتفع به ساكنوه، وإما من السكون وهو بعيد؛ لأن الراجح: أن الأرض تتحرك جملتها بما فيها وإن كان أهلها لا يحسّون حركتها.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فهو الحقيق بالعبادة؛ لأنه رب كل شيء، ولأنه الذي يسمع الداعي ويعلم عبادة من عبده، وهو الذي إليه يرجع العباد في الآخرة لأنه ربهم وحده ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بهم وبأعمالهم ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢] وكل من في السموات والأرض عباده ليس لهم من الأمر شيء، وهو جامع عبادَه يوم القيامة ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥] لأنه ربهم فما في الآيتين دال على هذه المعاني كلها.

﴿١٤﴾ ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُ﴾ ﴿وَلِيًّا﴾ يتولى أموري ويرعاني ويدبر مصالحي ويدفع عني، ولا يكون هكذا إلا الله العالم بأحوالي، القادر على إصلاح أمري، السميع لدعائي، فأما غيره فإنه يجهل ويعجز ويبخل، فكيف أتخذ غير الله ولياً؟!

عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ

قال الشرفي في (المصابيح): ((وإنما أولى غير الله (همزة الإستفهام) دون الفعل الذي هو ﴿أَتَّخِذُ﴾ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً لا في اتخاذ الولي)) انتهى.

قلت: يعني أن محط الإنكار غير الله كيف يتخذ ولياً مع وجود ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ القادر على كل شيء العليم بكل شيء الذي ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فهو الوهاب الكريم، الغني الذي لا يحتاج، فهو الذي ينفع من اتخذه إلهاً يدعوه ويرجوه لرعاية مصالحه.

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ فلا بدَّ لي من إسلام وجهي لله قبل الناس كلهم، وهذا دليل على أهمية الإسلام لله ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فهم أعداء الله عباد الشيطان، فلا تكونن واحداً منهم، وفي هذا زجر للمشركين عن الشرك، حيث نهى أن يكون واحداً منهم، ولم يقل: ولا تشرك.

﴿١٥﴾ ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ الذي أمرني أن أكون أول من أسلم ونهاني أن أكون من المشركين نهياً مؤكداً فإني أخاف إن عصيته في ذلك أو غيره ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بسبب معصيته فالشرك قبيح من حيث هو اتخاذ غير الله ولياً، ومن حيث هو معصية لله، وفي هذا تحذير للمشركين، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ..﴾ الآية [الزمر:٦٥] ووصف اليوم بأنه عظيم لما فيه من الأمور العظيمة.

عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا

﴿١٦﴾ ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ﴿مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ﴾ عذاب اليوم العظيم يوم إذ يأتي ذلك العذاب ﴿فَقَدۡ رَحِمَهُۥ﴾ الله الرحمة العظمى؛ لأن النجاة من النار أهم ما يكون يومئذٍ ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إي صرف عذاب ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أو رحمة الله له هو ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قال في (مفردات الراغب): ((الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة)) انتهى.

و﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ البيِّن، فهو ظفر بالخير عظيم بنفسه من غير شرط أن يصير إلى الجنة، إن كان قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ إشارة إلى صرف العذاب، فأما إن كان إشارةً إلى رحمة الله، فيحتمل: أن جعله من أهل الجنة بعض هذه الرحمة.

﴿١٧﴾ ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا دليل على أن شركاء المشركين لا تفيد شيئاً، وأن الله هو الذي يفعل ما يشاء، فهي لا تشفي مريضاً، ولا تؤمِّن خائفاً، ولا تنصر مقاتلاً.

﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا راد لفضله، وهذه الآية تدعو إلى: عبادة الله وحده، والتوكل عليه، ورجائه وحده لكشف الضر وإبقاء الخير، وتشير إلى بطلان الشرك كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر:٣٨] ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا ممسك لما أعطى.

ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

﴿١٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ قال الراغب في تفسير (المفردات): ((القهر: الغلبة والتذليل معاً، ويستعمل في كل واحد منهما)) انتهى، وفي (الصحاح): ((قهره قهراً: غلبه، وفيه: وقُهر غُلِب)) انتهى.

﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ لأنه مالكهم ومالك قواهم، وله الملك عليهم وعلى كل المخلوقات، وهو المحيط بقدرته وعلمه على كل قدرة وعلى كل معلوم، فقهره لعباده من حيث أنه فوقهم بملكه وملكوته ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في قهره فلا يظلم ولا يقهر قهراً يعارض مقتضى الحكمة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ فلا يغلط في قهره، بل قهره مطابق لمقتضى علمه ببواطن الأمور وحقائق الأشياء وبمقتضى الحكمة.

﴿١٩﴾ ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين المكذبين ﴿أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ أي شيء أصدق وأحق وأنفع شهادة؟!

وجواب هذا السؤال، وهو أن الله ﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ جواب لا ينازِع فيه خصومهُ الذين بلغهم آيات الله الدالة على صدقه وصدق إنذاره وصدق كل ما بلغهم عن الله، فالله شهيد لَه بإقامة الحجة عليهم، وقيامه بواجبه، وشهيد عليهم بالتمرد بعد بيان الحق من الله ربهم ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ فراقبوه واتركوا الشرك والتكذيب وآمنوا.

﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ بما في القرآن من كلام الله ووعيده فاحذروا ما أُنْذِرْتُم، ولأنذر به من بلغه من العالمين، كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ

﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُ﴾ ﴿أَئِنَّكُمۡ﴾ سؤال توبيخ على هذه الشهادة الكاذبة الآثمة ﴿قُل لَّآ أَشۡهَدُ﴾ كما تشهدون.

﴿قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَا﴾ الإله ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ هو الله، أما غيره فليس بإله ﴿وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا﴾ تشركونه في الإلهية أنفي إلاهيتهم، وأبرأ من عبادتهم، ولا صلة بيني وبينهم، بل هم عدو لي.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾ ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعرفون (القرآن) أنه من الله أوحاه إلي، أو يعرفون أنه أوحي إلي هذا القرآن ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾ تحقيق للمعرفة التي في قلوبهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال المرتضى × : الذين أوتوا الكتاب فهم اليهود والنصارى، وهم يعرفون محمداً ص، ويثبتون صفته، ويقفون على صحة أمره وما أمروا به من طاعته كما يعرفون أبنائهم، مشروحٌ ذلك في كتبهم مبيَّنٌ لهم، ولكن جحدوا ما عرفوا، وأنكروا ما علموا فضلوا وخسروا، ذلك هو الخسران المبين» انتهى.

قلت: عبر عنهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لأن الكتاب الذي آتاهم الله ـ جلَّ جلاله ـ هو سبب معرفتهم للرسول وما أنزل إليه أنه من الله تعالى، ويظهر أن القرآن يجعل القرآن والرسول كالشيء الواحد؛ لأن الإيمان بأن القرآن أوحاه الله إلى محمد يستلزم الإيمان بأن محمداً رسول الله، ولعله هو السر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الطلاق:١٠-١١].

وفي (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [آية:٨٩] قيل كانوا يستفتحون يطلبون الفتح من الله أي الحكم بينهم وبين الذين كفروا بالنبي الذي يتوقع ظهوره، وفي آية في (سورة البقرة): ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [آية:١٠١] وكتاب الله هنا: (التوراة) أو (الإنجيل) أو هما، كأنهم لا يعلمون ما في كتاب الله وما في نبذه وراء ظهورهم، فهي كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة:٨٩].

وإذا جعلنا الضمير في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ لإيحاء القرآن إلى محمد ص فلا التفات فيه، أما إذا جعلناه للرسول ففيه التفات من التكلم إلى الغيبة أو من الخطاب إلى الغيبة، لابتداء الكلام بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ وهذا أظهر.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حقت على أنفسهم كلمة العذاب؛ لأنهم ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم قد خذلوا وسلطت عليهم الشياطين وكرهوا الحق وكرهوا النظر النافع وأعرضوا، فصار بينهم وبين الإيمان مسافات بعيدة، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩] فخسارتهم أنفسهم فسادها ومصيرها بحيث لا تصلح أبداً وحقت عليها كلمة العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ الراجح: أنه خبر لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ والمراد به: كفارهم المعاندون.

كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ

﴿٢١﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أظلم ممن وقع منه إحدى الجريمتين اختلاق الكذب على الله أي تعمد الكذب ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ وكلا الجريمتين وقعتا من المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ وغير ذلك وكذبوا بآيات الله التي جاء بها رسول الله ص.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأن مصيرهم إلى العذاب وفوات كل خير، وهذا عام لكل ظالم، وقد يعجل للظالم بعض العقوبة في الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] وهذا يعم المفترين.

﴿٢٢﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ واذكر لبيان مصير المشركين ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ والضمير للمشركين والمكذبين والمفترين السابق ذكرهم.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين في موقف السؤال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ وقد عاينوا أهوال الآخرة وعلموا أن لا ملجأ لهم نقول لهم يومئذ ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ﴾ تدَّعون أنهم شركاء لله، وذلك توبيخ لهم، وتنبيه على أنه قد ﴿ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وضل عنهم ما كانوا به يشركون، كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:٢٨] وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء:٩٢-٩٣].

إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ

﴿٢٣﴾ ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد توبيخهم وامتحانهم بسؤال الله لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص:٦٢] لم يؤدِّ هذا الإمتحان إلا إلى قولهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فالفتنة: الإمتحان المذكور وكونه قولهم ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ تأديته إليه وتسبيبه له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء:١٠].

وحاصل المعنى: لم يجدوا جواباً عن هذا الإمتحان الشديد إلا جحد الشرك، والقسم بالله والإعتراف بربوبيته، وذلك لشدة الهول عليهم وانقطاع حجتهم.

﴿٢٤﴾ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿ٱنظُرْ﴾ في حالتهم التي صاروا إليها من الذلة وسوء الحال التي أدتهم إلى أن يقولوا: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وانظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ﴾ في الدنيا يفترونه، من دعوى نصر شركائهم لهم وشفاعتهم لهم، ونحو ذلك من افترائهم، أي اختلاقهم وكذبهم المتعمد.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ومن المشركين من يستمع القرآن دانياً ﴿إِلَيْكَ﴾ يا محمد ليسمع لا رغبة في الحق، بل إما لحبِّ الإطلاع لينظر كيف هذا القرآن وهذا في أول استماع، وحبُّ الإطلاع من غرايز الإنسان، وإما للتعجب من فصاحته وحسن بيانه وجمال أسلوبه.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال الراغب: «والكنان: الغطاء الذي يكنّ فيه الشيء، والجمع: أكنة» انتهى.

وهذا تمثيل كالختم؛ لما أفسدوا قلوبهم وقد خلقها الله قابلة للصلاح والفساد، وصاروا بذلك لا يؤمنون ولا يتفهمون القرآن من حيث دلالة آياته على الحق؛ لكراهتهم لما هو ضد اعتقادهم ودينهم الذي زين لهم وتزيينُ الشياطين لهم الإعراض عن الإهتداء بالقرآن، صاروا كأن بينهم وبين فقه غوامضه ودلالاته النافعة أكنة تحول بين قلوبهم وبين فقهه.

وفائدة نسبة ذلك إلى الله تعالى: الدلالة على أنهم مستحقون للخذلان؛ بتمردهم، مستاهلون لإرسال الشياطين عليهم عقوبة لهم على تمردهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] فهو تعالى غير مبال بهم بل قد أراد خذلانهم، ولما كان خذلانهم كالسبب لبعدهم عن فقه القرآن بحيث أن قلوبهم حين خذلت تواردت عليها أسباب البعد عن الفهم حتى أشبهت ما عليه كنان حائل بينها وبين الفهم أقيم ذلك مقام الخذلان، فنسب إلى الله تعالى للدلالة على أنه غير مبال بهم، وعلى أنهم استحقوا الخذلان الذي صاروا من أجله لا يفقهون، والذي هو عقوبة لهم على تمردهم.

ونظيره ما يقال لمن أهمل ابنه وسهل لَه الحصول على ما يهواه وأهمله ولم يربِّه تربية الصلاح: أفسد ابنه، ومن فائدة هذه النسبة: تنزيه كلام الله عن مشابهة الشكوى، وأعظم من ذلك التحذير من الخذلان المؤدي إلى أن يصير القلب كأنه في كنان، وقد مرَّ في تفسير ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] نحو هذا.

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ أي وجعلنا في آذانهم ﴿وَقۡرٗا﴾ أي ثِقلاً يمنع السمع وهذا من المجاز واضح؛ لأنهم يسمعون ولكن لا يصغون له إصغاء راغب في الحق، بل يسمعونه وهم له كارهون فشبهوا بمن لا يسمع كما قال الشاعر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق اللَّه حين أُرِيْدُ

ولو كانوا لا يسمعونه حقيقة ما كان للأكنة على القلوب معنى، وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ..﴾ [الحجر:١٢-١٣] فدلَّ على أنهم يسمعونه ويصل إلى قلوبهم، ولكنهم لا يقبلونه ولا يهتدون بهداه، فشبهوا بمن لا يفهم ولا يسمع، لحائل بينه وبين الفهم والسمع.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ لأن قلوبهم فسدت وصارت لا تقبل الآيات، كما ترى الطبيعي الملحد تذكر له دلائل الخالق فلا يقبلها كأنها لا تعمل في قلبه شيئاً، والمراد بفساد القلوب: فقدانها لصلاحية الإهتداء بالآيات مع بقاء العقل والسمع والبصر؛ لأن نفوسهم تأباه وتردّه قبل أن ينتفع به القلب، مع بعده عن الإنتفاع بذهاب استعداده له.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لمدى بعدهم عن قبول الحق أنهم ﴿إِذَا جَآءُوكَ﴾ يا محمد وأنت مصدر الهدى جادلوك بشكل عجيب، هو مجرد الجحود وقول الزور الذي ليس له أي حجة، بل هو واضح البطلان؛ لأن القرآن مخالف لأساطير الأولين في المواضيع وأحكام المواضيع، حيث أنهم أرادوا بـ(أساطير الأولين) أكاذيب سطرها الأولون من المبطلين يتلهى بها السامعون ولا تفيدهم شيئاً، والقرآن ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]

يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ

آيات محكمات نافعات بأدلة صحيحة تعرفها العقول، وحِكَم وإنذار وتبشير، وعلوم تخرج من اهتدى بها من الظلمات إلى النور، وأساطير: جمع أسطورة، والجدال: المجادلة أي المغالبة بالقول، قال تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف:٥٦].

﴿٢٦﴾ ﴿وَهُمْ﴾ أي المذكورون فيما مر كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ فالضمير لهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿يَنْهَوْنَ﴾ عن الذي يقولون فيه: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ ولو كان أساطير الأولين لكان واضح البطلان ولما احتاجوا إلى النهي عن استماعه، ولكنهم حين استمعوه سمعوه قرآناً عجباً فنهوا عن استماعه حذراً من إيمان من يسمتع وقلبه سليم، ونهيهم عنه من جملة جرائمهم المذكورة في هذه السورة؛ لأنه صد عن سبيل الله.

﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ يبعدون عنه، كراهةً لَه بعد ما سمعوه ووجدوه كلاماً لا يطيقه البشر ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بالنهي عنه والنأي عنه ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن وَبَالَ ذلك عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بسوء عاقبتهم لكفرهم، ولا يضرون بجدالهم ونهيهم ونأيهم دين الله ولا القرآن ولا الرسول ص وإن ظنوا أنهم بذلك يضعفون الحق؛ لأن الله يظهر دينه وينصر رسوله وكتابه، وما يشعرالكافرون المذكورون فهم يهلكون أنفسهم ولا يدحضون الحق وما يشعرون بذلك، أي ما يعلمون.

ثم بيّن تعالى بعض وخامة كفرهم وهلاكهم به فقال تعالى:

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ حالهم بعد تكذيبهم وجرائمهم في الدنيا حين أشرفوا على دخول النار وعاينوها فقالوا متمنِّين ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى دار التكليف والعمل ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ﴾ فيها ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لننجو من النار.

﴿٢٨﴾ ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ ﴿بَلْ﴾ تجلَّت الحقيقة وكشف الغطاء وعلموا علماً ضرورياً أن الحق هو الإيمان، وأن الباطل ما كانوا عليه، كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩] وقد كان هؤلاء المتمردون الذين فيهم السياق يعرفون الحق، كما قال في بعضهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] ولكنهم كانوا في غفلة وكبر وهوى حَالَ بينهم وبين الإيمان، وكانوا يخفون معرفتهم؛ لأنهم ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ فكيف يعترفون به ولم يتمنوا ذلك الذي تمنوه رغبةً في الحق ولكن حبّاً لأنفسهم وخوفاً من النار التي قد أشرفوا عليها ـ نعوذ بالله ـ فهم مجدُّون في التمني.

﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ لأنهم يتبعون هوى أنفسهم، فلو ﴿رُدُّواْ﴾ ورجع الإبتلاء والإختبار لمالوا عن الحق لتلك الأسباب الأولى ولأمّلوا أنهم إن رجعوا إلى الله مرة أخرى ردّهم إلى دار الخيار كما ردهم أول مرة فاتخذوها تجربة لإمكان الرد، أو أن بعضهم يؤمل أن سيتوب في آخر عمره حتى يجيئه الموت وهو على كفره. والحاصل: أن الله علام الغيوب قد أخبر بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهو عنه، وهو أصدق القائلين.

بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في زعمهم الذي يفهم من كلامهم أنهم لو ردوا لتَركوا التكذيب بآيات الله ولآمنوا، وفي هذه الآية: دلالة على أن الكذب ما خالف الواقع وإن طابق الإعتقاد، وإنما لا يقال لبعض القائلين المعتقدين للصدق تأدباً وتجنباً للإيهام.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ عطف على أقوالهم التي مرّ ذكرها، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ وقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما الحياة إلا حياتنا الدنيا أي ليس بعدها حياة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت كفراً منهم بالبعث والجزاء، فبيّن الله عاقبة هذا الكفر بقوله تعالى:

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عند ربهم وبين يديه ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فبين ذلتهم في الآخرة، وإقرارهم بالحق وقسمهم عليه بالله ربهم، ثم لم يفدهم ذلك شيئاً، بل قال تعالى لهم: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ تفريعاً بـ(الفاء) على ما أقروا به ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وهنالك يندمون حين لا ينفع الندم، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؟! إشارة إلى البعث وإرجاعهم إلى الله إلى موقف السؤال والحساب والحكم من الله فيهم.

فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا

﴿٣١﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً
قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا
سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ تحقيق لوقوع الخسارة العظمى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ في تحقيق الرحمة العظمى، وهذه الخسارة عند بلوغهم غاية التكذيب بلقاء الله، وهي ﴿إِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ فجأة ﴿قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ انقلبت الحال في قدر لمح البصر وانكشفت الحقيقة بمجيء الساعة، فعند ذلك قالوا: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ تحولوا من التكذيب بها إلى التحسر على ما فرطوا فيها.

والحسرة: الغم الشديد، قال في (لسان العرب): ((وحسر، يحسر، حسراً، وحسرة: إذا اشتدت ندامته على أمر فاته)) انتهى باختصار، وقال: ((والحسرة: أشد الندم حتى يبقى النادم كالحسير من الدواب الذي لا منفعة فيه)) انتهى، وقولهم: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا﴾ كقولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ فهو دعاء للحسرة والغرض تنبيه السامع، وذلك تقوية للدلالة على الحسرة وتنويه بها.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال أبو عبيدة: يقال فرطت في الشيء، أي ضيعته، فقوله: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي تركنا وضيعنا، وقال الزجاج: ﴿فَرَّطْنَا﴾ أي قدمنا العجز، جعله من قولهم: فرَط فلان إذا سبق وتقدَّم، قال الواحدي: فالتفريط عنده تقديم التقصير)) انتهى، وكلام أبي عبيدة أقوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف:٨٠] فالتفريط لا يختص بالعجز.

تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ

﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ﴾ أي ذنوبهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ قد لزمتهم ذنوبهم لم تنفك عنهم ولم يستطيعوا طرحها عن ظهورهم على ثقلها وعارها عليهم ووبالها ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ساء ما يحلمون يومئذ في ذلك الموقف الشديد ساء ما يزرون ما أسوأه.

وقوله: ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع، ليصغي لهذه الجملة، فما أسوأ تلك الأحمال الثقيلة الوبيلة التي تؤديهم إلى نار جهنم، وهذا تمثيل لسوء حالهم في موقف السؤال والحساب بسبب ذنوبهم، فهم يتحسرون من تفريطهم في الساعة وهم يحملون ذنوبهم لا تنفك عنهم.

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ فلم يكن ينبغي لهم أن يؤثروها على الحذر من النار وعلى السعي للدار الآخرة؛ لأن أغراض الدنيا منتهية بلا فائدة، فهي أشبه باللعب واللهو الذي لذته إنما هي في وقته ثم ينتهي بلا ثمرة.

قال الراغب الأصبهاني: ((اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه)) انتهى، وصواب العبارة: ما ينشغل به ليفيد الإختيار له ويخرج ما شغله اضطراراً كالوجع الشديد فلا يسمى لهواً، وعبارة (الصحاح): ولهوت بالشي، ألهو، لهواً: إذا لعبتَ به وتلهيت به مثله، وقال في (الصحاح): ((وألهاه: أي شغله)) انتهى، فجعل الشغلَ تفسيرَ الإلهاء لا تفسير اللهو.

﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ الدار الآخرة هنا: الجنة ﴿خَيۡرٞ﴾ من الدنيا؛ لأن نعيمها دائم وسعادتها دائمة فلا قيمة للدنيا في جنبها، لأنها تفنى مع قلَّتها وما فيها من المنغصات والمحن ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ حين تتركون الخير العظيم الدائم من أجل القليل الفاني، فمن شأن العاقل أن يتدبر العواقب ويختار الخير العظيم الدائم على القليل الفاني الذي يسبب لَه العذاب الدائم.

﴿٣٣﴾ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ من التكذيب بالآخرة وغيره، كقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وقولهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ..﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ قال الراغب: ((الجحود: نفي ما في القلب إثباته، وإثبات ما في القلب نفيه)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((الجحود: الإنكارُ مع العلم، فالمعنى: أنهم ينكرون آيات الله الدالة على صدقك كالقرآن وهم يعلمون أنها آيات الله صدَّقك بها، فلا تحزن مما يقولون فإنهم ﴿لاَيُكْذِبُونَك﴾ أما على قراءة نافع [بسكون الكاف وتخفيف الذال] فالمعنى: لا يجدونك كاذباً؛ لأن آيات الله قد صدقتك وهم قد علموا أنها آيات الله.

وفي (الشافية) لابن الحاجب و(شرح الرضي) عليها في معاني (أَفْعَل): ولوجوده عليها أي لوجودك مفعول أفعل على صفة وهي كونه فاعلاً لأصل الفعل نحو: أكرمتَ فاربط أي وجدت فرساً كريماً، وأسمنتَ أي وجدتَ سميناً، وأبخلته أي وجدتَه بخيلاً)) انتهى المراد.

وأما على قراءة ﴿يُكَذِّبُونَكَ﴾ [بفتح الكاف، وتشديد الذال] فالمعنى: إنه تكذيب بألسنتهم وهم يعلمون أنك صادق فهو كَلا تكذيب؛ لأن الذي يهمك أن يعلموا أن الذي جئت به هو الحق من ربك، فقلوبهم مصدقة لك فلا يحزنك التكذيب بألسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي ولكنهم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر لإفادة أن ظلمهم جرأهم على هذا المنكر العظيم وأوردهم ذلك المورد الوخيم الذي لا يليق بعاقل منصف أن يرضاه لنفسه.

فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِئ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ ﴿رُسُلٞ﴾ أرسلهم الله من قبلك ﴿فَصَبَرُواْ عَلَىٰ﴾ تكذيب المكذبين لهم وأذى الكافرين لهم ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كوعده رسله بالنصر فلا مبدل لوعده؛ لأنه لا مبدل لكلمات الله، وهي تعم الوعد والوعيد والحكم والقصص وغير ذلك فلا مبدل لها؛ لأنها صدق وعدل، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِئ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مافيه لك تسلية وتشجيع على الصبر، ووعد بالنصر، ونحو ذلك.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖ﴾ قال في (الصحاح): ((والنفق: سرب في الأرض لَه مخلص إلى مكان)) انتهى، وقال الراغب: ((والسُّلَّم ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية فيرجى به السلامة ثم جعل اسماً لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب)) انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((السلم واحد السلاليم التي يرتقى عليها)) انتهى. ولم يزد ثم جعل اسماً.. إلخ.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × هذا تسهيل من الله سبحانه على نبيه ص لِمَا علم من غمه بإعراض الخلق عن الله سبحانه ومعصيتهم له ومخالفتهم لحكمه، فلما كبر ذلك على رسول الله وعظم عنده

إعراضهم عن الله سبحانه واشتد عليه ما يرى من شرارتهم، قال الله سبحانه: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي عظُم عليك إعراض المشركين وعدم إيمانهم وتوهَّمت لرغبتنا في إيمانهم أن كثرة الآيات توثر فيهم ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يقول ترقى في السماء فتأتيهم بآية وهذا غاية الإجتهاد في الذهاب في الأرض والسماء، فقال: إنك قد جئتهم من الآيات والعلامات والحجج الواضحات الباهرات بما في أقل منه يؤمن من كان له قلب أو معرفة، ولم تترك غاية في حرص ونصيحة واجتهاد أو موعظة، فما تريد أن تعمل بهم بعد ذلك أتذهب في الأرض أو في السماء وليس تقدر على ذلك؟ ليس عليك من الأمر إلا ما قد فعلت)) انتهى المراد.

وقوله: وتوهمت لرغبتنا في إيمانهم، أقول: أظن الأصل لرغبتك في إيمانهم؛ لأن السياق في حرص النبي ص على إيمانهم، فالراجح أن قوله: لرغبتنا، تصحيف من بعض النساخ.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ وهذه تسلية لرسول الله ص لأنها تدل على أن الله تعالى قد شاء أن يتركهم وشأنهم؛ لاستحقاقهم الخذلان مع أنه لو شاء لجمعهم على الهدى؛ لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] وهو الذي يتولى إظهار دينه ونصر رسوله، فكِل أمرَك وأمرهم إلى الله ولا تبال بهم.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ بمحاولة أن يؤمنوا أكثر مما قد فعلت أو بالطمع في أن يؤمنوا وهو طمع فيما لا يكون أو بمحاولة الإتيان بآية كما يقترحون، وحكمة الله تأبى ذلك؛ لأنهم لا يؤمنون ولو جاء ما اقترحوه.

يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ

قال الشرفي في (المصابيح): «وهذا النهي لا يقتضي إقدامه على مثل هذه الحالة، كما أن قوله: ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١] لا تدل على أنه ص أطاعهم وقَبِل دينهم..إلخ.

قلت: يعني أن النهي لا يدل على أنه يقع منه المنهي لولا النهي، ولقائل أن يقول: أن ذلك النهي من التثبيت والعصمة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٧٤] فليس معنى العصمة استغناءه عن النهي والتحذير.

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ و ﴿ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ هم الذين يريدون الحق، فهم الذين يسمعون سماعاً يعتدُّ به لأنه السماع الذي ينتفعون به، أما المعرض الكاره للحق فهو وإن سمع فسماعه كلا سمع؛ لأنه معرض عن طلب الحق وكاره، فالذي يسمع سماع طلب للصواب، هو الذي يستجيب لله ورسوله، أما الكاره للحق المعرض عنه المخذول فهو كالميت الذي لا يسمع، فقراءة القرآن عليه بمنزلة درس عند ميت، ولكن عاقبته أن يبعثه الله من الموت الحقيقي، ثم إلى الله وحده يرجع ليحاسبه ويوفيه حسابه، وهناك يسمع حين لا يفيده السمع شيئاً.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي هلاَّ أنزل عليه ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إن كان أرسله كما يدعي، وهذا من كفرهم بآيات الله، واعتبارهم لها أنها ليست آيات، وقد ردَّ الله عليهم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١].

إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ﴾ فلم يترك ذلك، إلا لأنه قد بيَّن صدق الرسول ولا تقتضي الحكمة إجابتكم إلى ما تقترحون، ولولا ذلك لنزله، لأنه قادر على تنزيله، ولكن أكثر هؤلاء الكافرين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله قادر على ذلك لجهلهم بالله واستبعادهم لقدرته سبحانه على ما يقترحون.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ ٣٨

هذا بيان لقدرة الله وسعة علمه تعالى بأن جعل كل دابة تدب في الأرض أمماً كل نوع منها أمَّة، وجعل سبحانه كل ﴿طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ صغيراً أم كبيراً أمماً كل نوع أمة يجمعها تدبيره لمعاشها وما يتوقف عليه من كمال خلقها الذي به صلحت للمعاش وتدبيره تعالى لتناسلها وتقديره لأعمارها وتدبيره لأسباب سلامتها من أضدادها فيما قدر من حياتها:

فمنها: ما يستطيع الدفاع عن نفسه بما خلق لَه من آلة الدفاع وقوّته، ومنها: ما هو سريع الفرار والإختفاء، ومنها: ما بيته ضيق لا يتسع لضده، ومنها: ما يحتال للسلامة بإيهام أنه قد مات كما يفعل الثعلب، أو بإعداد مخرج من بيته للفرار من غير بابه كما يفعل اليربوع، أو بالسكون مكانه كما تفعل الدويبة الصغيرة التي تدل عليها حركتها فإذا سكنت اختفت.

فهذه الأنواع وسائر أنواع الحيوانات والطيور لكلٍ منها تدبير معيشته ورعايته، لا يخفى على الله تعالى ولا يشغله شأن عن شأن، فهي في رعايته سبحانه كما الإنسان في رعايته على كثرة الأنواع، ولكل نوع ما يختص به

من العادات المعيشية وطلب الرزق والمسكن والمحافظة على الحياة، فهو أمّة وحده لاجتماعه على ما خصه من بين سائر الأنواع.

قال في (الصحاح): ((والأمة: الجماعة ـ ثم قال ـ: وكل جنس من الحيوان أمة)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((والأمة: كل جماعة يجمعهم أمرٌ ما..)) إلخ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْثَالُكُم﴾أي في أن كل أمة لها أسباب معيشتها ولها خلقها ورزقها ورعايتها وآجالها وغير ذلك.

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ قال في (البرهان): يعني من أمور الدين إما مفصلاً يستغني عن التفسير أو مجملاً جعل إلى تفسيره سبيلاً، قال الحسين بن القاسم إ : معنى ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ أي لم نتوانَ في شيء في الكتاب ولكنا جعلنا فيه أصول جميع الأسباب، ولم نتوانَ في الخبر عن رحمتنا حتى ذكرنا البهائهم والطير والدواب ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ أي يجمعون في ذلك اليوم إلى الله وينشرون)) انتهى.

قلت: والحشر في هذه الآية: إحياء الحيوانات والطير، وسوقها إلى حيث تجمع لإعطاء كل منها ما يستحقه، بسبب ما لحقه في الدنيا من مشقة أو ألم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ فيه تنزيل الحيوانات والطير منزلة العقلاء، ولعل السر فيه أنها حين تحشر تعطى من الفهم ما تعرف به عدل الله في قضائه، وأنها قد وُفيت ما تستحقه من الأعواض والأجور على ما سخرت لَه من نفع الإنسان وغيره، وعلى ما ألهمت من ذكر الله ونحوه، وقد قيل: إن لها تكليفاً بقدر معين تفهمه ـ والله أعلم.

يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ لما كانوا لا ينتفعون ببيان الله لهم ورده لأقوالهم الباطلة بما ينفع من يقبل الحق، شبههم بالصم الَّذين لا يسمعون، وأضاف تشبيههم بالبكم الذين لا ينطقون؛ لأنهم لا ينصفون فيعترفوا بالحق عند وضوحه، بل هم عن ذلك كالخرس.

ثم قال: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ بدلاً من تشبيههم بالعمي، فدل على أنهم لا يبصرون الحق، بسبب ما هم فيه من ظلمات الباطل التي تحول بينهم وبين الرؤية للحق، مثل: الكبر، والحسد، وحمية الجاهلية لآبائهم المشركين، ولما يعبدونه من دون الله، ومثل: عقائدهم التي استمروا عليها وتعصبوا لها، ومثل: هواهم فيما ورثوه عن آبائهم وما نشأوا عليه.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومشيئته سبحانه ليست مشيئة شهوة؛ لأنه لو أراد إرادة الشهوة لعمت إرادته كل مشتهى بل كل شيء؛ لأن ذاته لا نسبة بينها وبين شيء دون شيء، بل ذاته مخالفة للأشياء كلها، فليس كالمخلوق الذي جعلت لَه شهوة فيما يكمل معيشته واستمرارَ وجوده فإما أن يشتهيها كلها، وإما أن يستغني عنها كلها، فلما رأينا الأشياء تنقص وتتغير والأحياء تموت بعد تمام خلقها، علمنا أنه غير محتاج إليها؛ لأنه لو كان محتاجاً إليها لحافظ عليها، ولما جاز عليه تغير الحاجة، لأنها لو كانت لكانت ذاتية توجد ما دامت الذات.

فدلّ ذلك على أنه غير محتاج إلى شيء منها، وأنه غني عما خلق كله كما هو غني عما لم يخلق، وإذا ثبت أن مشيئته ليست مشية شهوة لم يبقَ إلا أنها مشية الحكمة، وليس من الحكمة إضلال عبده وهو يدعوه إلى الهدى وهو

مستعد للإجابة، ولم يسبق منه ما يستحق به الإضلال، فدل ذلك على أنه لا يشاء الإضلال إلا على ما تقتضيه الحكمة، وهو الإضلال لمن استحق الإضلال؛ بتمرده عن قبول الحق بعد بيانه، الإضلال الذي لا يسلب الاختيار، ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة؛ لأنه لو سلبه الإختيار والتمكن من الفهم والطاعة لرفع عنه التكليف، ولما عاقبه على ما صدر عنه في حال الإضلال؛ لأنه حكيم وهو ﴿بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] و﴿لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس:٤٤] ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

فما هو الإضلال الذي لا يسلب الإختيار، ولا يسلب التمكن من الفهم والطاعة، وقد استحقه العبد بتمرده؟

قلنا: قد بيّنه الله تعالى في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ولم يقل: إنه يخلق الضلال، أو يسلب الإختيار، أو يسلب قدرة الفهم والطاعة، وإنما هو جعل صدره ضيقاً فإذا ضاق صدر العاصي بسبب عصيانه وتمرده كان هواه في ترك ما ثقل عليه فاتبع هواه كما اتبع هواه قبل الإضلال، فلما اتبع هواه كان قد أضله هواه عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦] وجعل صدره ضيقاً بسبب تمرده وإن كان منسوباً إلى الله، فيمكن مع ذلك أن له نسبة إلى العاصي من حيث أنه عوّد قلبه اتباع الهوى وترك ما كلف، حتى أثرت العادة في قلبه فصار الحق عليه ثقيلاً، وهذا الثقل النفسي هو سبب ضيق الصدر؛ لأنه مفطور على تأثره بالآثار النفسية، وعلى هذا تكون العقوبة بخذلانه عند تصرفه المفسد لقلبه وترك لطفه؛ لأنه استحق الخذلان ـ وبالله التوفيق.

فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ترغيب كامل في التعرض لهداية الله تعالى؛ لأنها هداية يكون عندها ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ بسبب حبه للإيمان، وانشراح صدره للإسلام، فإذا عاين الصراط المستقيم سار فيه بغير تردد ولا تراخٍ، فاعتبرت هدايته جعله على صراط مستقيم لأنها سببه.

﴿٤٠﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ في الدنيا ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم الشرك، فإذا كنتم عند هول العذاب أو الساعة لا تدعون غيره، تبيَّن: أن إشراككم ليس عن اعتقاد أن شركاءكم يسمعون دعاءكم ويكشفون عنكم الضر، وإنما هو التقليد الأعمى والتعصب.

﴿٤١﴾ ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ﴾ أي بل الله وحده تدعون لكشف الضر ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ ولا يشاء كشف الساعة ولا كشف العذاب إذا كان قد نزل وعاينوه، ولكنه قادر على ذلك فلو شاء لكشفه، فهي تدل: على أنه هو الذي يسمع الدعاء، ويكشف العذاب إن شاء؛ لأنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:٢٠] فهو الذي ينبغي أن يُدعى ويُخشى ويُرجى ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ﴾ لاشتغال أذهانكم بطلب النجاة ممن يقدر عليها ويسمع الدعاء.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((البأساء: الشدة)) انتهى، وقال: ((والبأساء، والضراء: الشدّة)) انتهى.

جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ

قلت: لعل في مفهومها اختلافاً، باعتبار البؤس في البأساء أي هو يقابل النّعمة، واعتبار الضر في الضراء ـ والله أعلم.

وفي التعبير بأخذهم دلالة على عظَم المصيبة وقهرها لهم واستيلائها عليهم، بحيث عجزوا عن دفعها واستسلموا لها، وذلك ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى الله إذا علموا أن سببها هو الكفر، فيؤمنوا برسلهم، والتضرع التذلل الذي هو ضد التكبر وإذا تركوا الكبر وتذللوا لله آمنوا.

﴿٤٣﴾ ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ لأن الشدة هي من الله، فهلا تضرعوا إليه حين جاءت، لأن من شأن العاقل طلب النجاة إذا أمكن، وهو ممكن بالتضرع ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ فلم تؤثر فيها الشدة لتلين وتذل لله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ما تكرر منهم وألفوه من الشرك وسائر الباطل وتزيين الشيطان لهم: وسوسته لهم بما يرغبهم فيما هم عليه حتى يرغبوا فيه، فيكون في رأيهم حسناً لإلْفهم لَه ورغبتهم فيه، فاستحسنوه استحسان النفس لما تشتهيه، فلم يتضرعوا بل تحملوا الشدة وصبروا عليها.

والفرق بين البأس هذا والعذاب المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ أن البأس هذا لم يبلغ بهم الخوف الشديد الملجئ إلى الرجوع الذي يكون عند ظن الهلاك، فلذلك تحملوه وصبروا عليه إصراراً على كفرهم.

﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

﴿٤٤﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ وهو البأساء والضراء التي أخذهم الله ليتذكروا، ومعنى نسيانهم: غفلتهم عنها، من حيث هي تذكير لهم وعدم تذكّرهم بها وإعراضهم عنها من حيث هي تذكير لهم حتى كأنهم نسوها حقيقة، ومنه قوله تعالى في المنافقين: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ [التوبة:٦٧].

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أبواب النعم المختلفة بتيسير أسباب الثمار والمراعي، وازدهار التجارة ونمو الإقتصاد، وكثرة الأنعام والدواب، وأسباب توفر المأكول والمشروب على اختلاف أنواعهما، وأسباب اللباس والفراش، وغير ذلك كالصحة والقوة والأمن، فقوله تعالى: ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعم أسباب مطالبهم المعروفة في هذه الحياة الدنيا، كقوله تعالى في الحرم: ﴿تُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ إشعار بإتيان الأسباب ونزولها عليهم بغزارة، وإقبال الخير شبه نزول الأمطار، ولما كان هذا الإقبال فتنة واختباراً ناسبه أن يقول عليهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ قال في (المصابيح) ـ ونِعمَ ما قال ـ : ((ومعناه: حتى إذا تقلبوا في ضروب النعم وتصرفوا في أنواع اللذات واطمأنوا بها وركنوا إليها، أخذناهم)) انتهى المراد.

وأخذ الطمأنينة والثقة في معنى الفرح، وأنه ليس مجرد السرور هو الظاهر من تأمل مواقعه في القرآن؛ لأن الفرح بالدنيا مذموم والفرح بنصر الله غير مذموم، والفرح بما أنزل الله من الهدى مأمور به.

والفرق: أن الإطمئنان إلى الدنيا مذموم لأنه اغترار، والإطمئنان إلى الدين حق وصواب لأن عاقبتَه محمودة محققة.

وحكى الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي ـ في تفسير قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] قال: ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣] من العوافي والنعم التي لا توجب الفرح بها لفنائها وقلة بقائها)) انتهى.

فهذا يفيد: أن توقع زوال النعمة ينافي الفرح بها، فيدل على أن الطمأنينة إلى الشيء لازمة للفرح به، مع أن الإنسان مجبول على السرور بحصول ما يحتاجه، وإن كان يعلم أنه لا يدوم، فظهر الفرق بينهما.

وقوله تعالى: ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ عذبناهم فجأة لم يكونوا يتوقعون العذاب ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ المبلس: المتحير في المخرج مما هو فيه، وفي تفسير المرتضى الذي حكاه الشرفي في (المصابيح): ((والمبلس: فهو الذي ليس لَه ولا في يده شيء، العادم لما كان معه، الآيس مما كان يؤمِّله فدامت حسراتهم..)) إلخ.

وفي (الكشاف): ((واجمون متحسرون آيسون)) فزاد الوجوم: أي السكوت، وفيه نظر، لأن الله تعالى قال في (سورة الأنبياء): ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٤-١٥] فإن أراد ساكتون بالموت فهو خلاف الظاهر، لأن الموتى لا يوصفون بالتحسر واليأس، فالأولى: أن الإبلاس عند العذاب وتحقق الهلاك، ففجأة العذاب تبِعتْها فجأة الإبلاس.

يَأۡتِيكُم بِهِۦۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ

﴿٤٥﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ هلكوا كلهم لم يبقَ لهم عقب بسبب عموم العذاب لهم كلهم، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أقيم مقام الضمير أي دابرهم وهو يفيد أن هلاكهم بسبب ظلمهم ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الذي أهلكهم وطهر الأرض منهم لينقطع ظلمهم وفسادهم، لأنه ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم المدبر لأمورهم ولإظهار الحق ونصره بتدمير أعدائه.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۦۗ﴾ ﴿خَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ حتى لا تفهم شيئاً؛ لأنها مسدودة بالختم، وهذا تمثيل لمنع الفهم، فالله تعالى هو القادر على ذلك، وشركاء المشركين لا يقدرون على تعويض ما أخذ أو فتح ما غلق، وقوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾ أي بالفائت المدلول عليه في الكلام، فالذي يملك السمع والأبصار والعقول، هو الذي يستحق العبادة؛ لأنه المالك المنعم لا من لا يقدر على ذلك فلا معنى لعبادته بل هي عين الباطل.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ ﴿ٱنظُرۡ﴾ فكِّر ﴿كَيۡفَ نُصَرِّفُ﴾ لهم ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على بطلان الشرك وعلى صدق القرآن والرسول ص نأتيهم بآية، ثم نأتي بأخرى من معنى آخر، ثم نأتي بأخرى كذلك آيات متنوعة متعددة، ومن حيث تنويعها باعتبار معانيها سمي تصريفاً مثل ﴿تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [البقرة:١٦٤].

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

﴿ثُمَّ﴾ بعد تصريف الآيات لهم ﴿هُمۡ يَصۡدِفُونَ﴾ قال الراغب: ((صدف عنه: أعرض إعراضاً شديداً)) انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((معناه: يعرضون)) انتهى، ومثله في (الصحاح) ﴿ثُمَّ هُمۡ﴾ أي المشركون ﴿يَصۡدِفُونَ﴾ بعد تصريف الآيات، يستمرون على إعراضهم كلما جاءتهم آية.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قال تعالى في هذه ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾ وفي التي قبلها ﴿قُلۡ أَرَأَيۡتُمۡ﴾ ولعل وجه الحكمة: أن لفت أنظارهم في الأولى إلى قدرة الله ونعمته وعجز شركائهم، وفي هذه الآية لفت أنظارهم إلى أنفسهم كيف يصنعون إن أتاهم ﴿عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ وهم على ظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً﴾ يصور لهم حالة نزول العذاب حين ينزل إما بشدة المباغتة وإما بهول المجاهرة ومعاينته عند نزوله حتى وصوله لا يستطيعون دفعه ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ﴾ أي بالعذاب ﴿إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي فلم يأتكم إلا لأنكم ظالمون فأنتم الذين سببتم لإتيان العذاب بإصراركم على الظلم والإعراض عن آيات الله.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ فالرسل كلهم جاؤوا الأمم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن وأصلح ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن كفر ﴿فَمَنۡ ءَامَنَ﴾ بالرسل وما جاؤوا به ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ وعمل صالحاً ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بل هم آمنون في الآخرة مستبشرون.

يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ

﴿٤٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فلم يؤمنوا برسولهم ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ يباشرهم العذاب بسبب ما كانوا في الدنيا ﴿يَفۡسُقُونَ﴾ أي ما تكرر من فسقهم كله، يؤاخذون به كله أوله وآخره.

﴿٥٠﴾ ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ في قولي إني رسول الله إليكم ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ من الأموال وما يحتاج الناس إليه فهي بيدي فإذا لم أدّع هذا، فليس لكم أن تقترحوا علي ما ليس في وسعي، بل عليكم أن تنظروا في دلائل صدقي.

﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي وقل لهم: ﴿لَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ وهذا أقوى من نفي دعوى علم الغيب، وهو عام يخصه ما أوحاه إليه ليبلغه، كما قال تعالى: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ..﴾ [الجن:٢٦-٢٨] وذلك لأن الآخرة غيب والجنة والنار والملائكة كل ذلك غيب بلغته الرسل إلى أممهم ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فليس لكم أن تكذبوا رسالتي، بدعوى أني بشر آكل الطعام وأمشي في الأسواق ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فأقول ما أمرني الله به، لا أتبع غير وحيه.

﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فالمؤمن المتبع لما أوحاه الله كالبصير، والكافر كالأعمى، ومن تفكّر واستعمل عقله علم أن البصير أعرف بالهدى من الأعمى.

أَن تُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ

---

٥١ ﴿وَأَنذِرۡ بِهِۦ﴾ أي بما يوحى إليك ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن تُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ الذين ينتفعون بالإنذار، لأنك إذا أنذرتهم خافوا أن يحشروا إلى ربهم ليسألهم ويحاسبهم ويجزيهم بما عملوا ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ ﴿أَن تُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ في حال أنهم ﴿لَيۡسَ لَهُم﴾ من دون ربهم ﴿وَلِيّٞ﴾ يتولى أمورهم ويدبر ما يصلح شأنهم ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾ يتدخل فيما بينهم وبين ربهم بشفاعته فيصرف عنهم العقاب، وقوله: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي فيما بينهم وبين ربهم يحول دون جزائهم، فهم الذين ينتفعون بالإنذار، أنذرهم بالقرآن ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ العذاب، والإنذار بالقرآن: تلاوة ما فيه من الوعيد، وتقييد الإنذار به؛ لأن العربي إذا سمعه عرف أنه خارق في إحكامه وحسن نظمه، فعرف أنه كلام الله، فالإنذار به إنذار مقرون بالحجة.

٥٢ ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ لا تطردهم من عندك كما أراد المتكبرون المحتقرون لهم، والدعاء: طلب الحاجات من الله، والرغبة إليه في قضائها، و(الغداة): أول النهار، وأما ﴿ٱلۡعَشِيِّ﴾ فقال الراغب: ((العشي: من زوال الشمس الى الصباح)).

وفي (لسان العرب): ((وأما العشي، فقال أبو الهيثم: إذا زالت الشمس دعي ذلك الوقت العشي، قال الأزهري: وصلاتا العشي هما الظهر والعصر، وقال الأزهري: يقع العشي على ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها كل ذلك عشي، فإذا غابت الشمس فهو العشاء، وقيل: العشي: من زوال الشمس إلى الصباح)) انتهى باختصار.

وقد جاء في روايات (حديث الغدير): وراح يصلي عشية. مع وصفهم تلك الحال بشدة الحر، فالراجح: أن العشي من زوال الشمس، وأما آخره فإما الغروب، وإما بعد ذلك.

والآية الكريمة تفيد: أن المذكورين يكثرون ذكرالله في أوقات الفضيلة، وقد جاء في الغداة روايات كثيرة تدل على فضل الذكر فيها، وجاءت روايات في فضل الذكر بعد العصر إلى غروب الشمس، فأما الذكر من بعد الزوال إلى بعد العصر فلعله في الصلوات وأدبارها.

وأما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ فالراجح في معناه: يريدون التقرب إليه، والتوسل إلى رضوانه، لأن الراضي يقبل على المرضي عنه بوجهه، كما أن الساخط يعرض عن المسخوط عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧] وهو تعبير عن الغضب عليهم، فإرادة وجهه: إرادة نظره إلى عبده أي رضوانه، وقد قال أولاد يعقوب: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا..﴾ إلى قولهم: ﴿..اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٨-٩] يريدون نظره بوجهه إليهم وحدهم، كناية عن حبّه لهم وحدهم، وليس بمعنى الذات.

فالمعنى في الآية هذه وأمثالها: خلوص النية للتقرب إلى الله وطلب رضوانه، ليس لهم غرض دنيوي لا رياء ولا سمعة ولا غير ذلك، فهم أهل للتقريب والإكرام لا للطرد والإبعاد.

قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى × : ((ومحمد × فلم يطرد أحداً، وإنما قالت له قريش لما دعاهم إلى الله سبحانه، فقالوا: كيف نؤمن يا محمد وقد سبقنا من ليس له قدر فينا ولا رئاسة من أوساط الناس

وأتباعنا، فاطردهم فإن طردتهم آمنا بك، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، تعريفاً لهم وردّاً عليهم، وأمر بخلاف قولهم، وشهد الله سبحانه لمن اتبع رسوله بالدين وإخلاص النيات، فقال: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ فأخبر أنهم يقصدون ويطلبون ما عنده، فكان هذا مدحاً لهم وثناء عليهم)) انتهى المراد.

﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾ وهذا وجه آخر للنهي عن طردهم يفيد: أنه لا يحتاج إلى طردهم؛ لأنه لا يحاسب بعملهم ولا يحاسبون بعمله، وهو يشير إلى أن ضعف الإنسان وحقارته ليس لقلة ماله أو رجاله، إنما هو لقلة عمله الذي يستحق به المدح والثواب، أو سوء عمله الذي يستحق به الذم والعقاب.

وهؤلاء الذين نهيت عن طردهم سواء كان عملهم صالحاً أو سيئاً ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ بسبب مجاورتهم، فلا حاجة إلى طردهم لأجل أعمالهم التي لا تعلمها، وإنما ترى منها خيراً، وكذلك لا ينالون بمجاورتك شيئاً من حسابك يصير عليهم فينقصوا عليك من حسناتك، ولهذا فلا حاجة لك في طردهم، وفيه ـ أيضاً ـ إشارة إلى أنه لو حسن طردهم لما حسن إلا لحاجة النبي ص خاصة لا لإرضاء الكفار المتكبرين، فلا يتصور وقوعه من الرسول ص ولذلك لم يذكر.

والحاصل: لا تطرد الذين يدعون ربهم المذكورين ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ منصوب في جواب النهي، يفيد: أنه لو طردهم لكان من الظالمين، وحاشاه ص من أن يطرد المؤمنين أو يكون من الظالمين، ولكن هذا ردٌّ على المتكبرين كما أفاده المرتضى × ، وبيان لقدر المؤمنين عند الله وكرامتهم.

لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ

﴿٥٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ كذلك الفتن الذي فتنا المستكبرين من قريش بالمؤمنين الفقراء الذين يدعون ربهم، كذلك الفتن فتنا بعض الناس ببعض امتحَنَّا بعض الناس ببعض، يمتحن الكبراء أو المستكبرين بالفقراء والمستضعفين، وفي كلام الإمام علي × في الخطبة (القاصعة): ((فإن الله سبحانه يختبر عباده المستكبرين في أنفسهم بأوليائه المستضعفين في أعينهم، ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون بن عمران إ على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصى فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه ودوام عِزِّه، فقال: ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلا ألقي عليهما أساورة من ذهب إعظاماً للذهب وجمعه واحتقاراً للصوف ولبسه..)) إلخ .

هكذا يبتلى من يراه الناس عظيماً بمن يرونه حقيراً، ولعل مثل هذا وقريباً منه يحدث لغالب كبراء الناس من الرؤساء والعلماء ومشائح القبائل وكبار الأغنياء وغيرهم، فنسأل الله الثبات على الحق.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ امتحناهم ليظهر ما يكون منهم عند الفتنة، وقولهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ سؤال احتقار للمشار إليهم لنفي أن يمن الله عليهم ويختارهم من بين المستكبرين يريدون ﴿لَوۡ كَانَ﴾ ما عليه المستضعفون ﴿خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف:١١] لأنا أحبّ إلى الله منهم، ولذلك يعطينا ويمنعهم، ونحن أحق منهم أن يمن الله علينا لو كان خيراً ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فهم أحق بالنعمة لا الكافرون.

عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ

وقوله تعالى: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ التعليل من المتشابه، ومثله متعدد في هذه السورة، والأقرب في تأويله: أن المراد بيان علم الله سبحانه بما يكون منهم عند الفتنة قبل أن يفتنهم، فلما جعلوا الفتنة سبباً لهذا القول وترتب القول على الفتنة وهو سبحانه يعلم ذلك من قبل، كان كأنه فتنهم ليقولوا، فهو مجاز عن علم الله به وعدم مبالاته به، حتى كأنه مقصود ـ والله أعلم.

﴿٥٤﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعم كل مؤمن، ولا يخص الذين ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾.

﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ تكريمٌ لهم وتأمين ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ أوجب على نفسه، تحقيق للرحمة أنها واقعة لهم على كل حال، لكن إذا عمل أحدهم ﴿سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ فالرحمة له من بعد التوبة والإصلاح، وهي بشرى بقبول توبته والمغفرة لمن تاب وأصلح كلما عمل سوءاً، وقوله: ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ كالقيد الواقعي، لبيان أن ذلك لا يليق بالمؤمن وأنه يكون جهالة بمعنى سفاهة وقع فيها، بسبب غفلته وذهوله عن الإيمان، ومفارقته عند غلبة غضبة أو شهوة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ﴾ أي أصلح ما أفسد لأن عامل السوء قد يكون أفسد بل ذلك كثير في معاصي المعاملة والغيبة والنميمة والكذب وأذى المسلم وغير ذلك، فهذا مثل قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة:١٦٠] وهذا أظهر من تفسيره بإصلاح العمل؛ لأنه يقال فيه: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة:٦٢] والله أعلم.

ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلۡ إِنِّي

وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يفيد: أنه يغفر للتائب ويرحمه، لأنه ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فهو تأكيد للوعد.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التفصيل الكامل المبين للمعنى ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ فلا يصح دعوى: أن القرآن رموز لا يفهما إلا الإمام أو الشيخ ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ قرئ برفع ﴿سَبِيلُ﴾ على أنها فاعل (تستبين) أي تتبين، وقرى بنصب ﴿سَبِيۡلَ﴾ على أنها مفعول به، أي تستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، والمجرمين هنا ظاهر في الذين هم ﴿بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ والذين هم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ وأمثالهم ممن مر ذكرهم في السورة، التي تبين فيها سوء سبيل المجرمين وضلالتها، وأنها سبيل العذاب والخذلان، وسبيل التمرد عن قبول الحق والعناد وغير ذلك من عيوبها، فتفصيل الآيات لحكم عديدة، ومنها تبين سبيل المجرمين.

﴿٥٦﴾ ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمشركين: ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهو يعم عبادتها بالدعاء وعبادتها بغيره كالذبح وغيره، كما يأتي ذكره في هذه السورة، وهذا تنبيه للمشركين على أن من دين الرسول ص اجتناب الشرك.

﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ﴾ لأني ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّنۡ رَّبِّي﴾ فكيف أدع الحق الواضح لأتبع الباطل الذي لا برها ن لَه وإنما هو مجرد اتباع الأهواء ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ﴿قَدۡ ضَلَلۡتُ﴾ إن اتبعت أهوائكم ضلالاً لا أهتدي معه أو بعده، فهو ضلال مجرد، أو ضلال يسبب الخذلان وسلب التوفيق، وفي هذا دلالة للمشركين أنهم ضالون بطريقة حكيمة فيها رفق ولطف في التعبير.

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ تبين لي أن الحق هو التوحيد وأن الشرك ضلال بعيد، والبينة: هي القرآن الحكيم الذي هو من الله سبحانه، فرسول الله ص على بيان الله الذي بينه لَه، لكن الكفار كذبوا بالقرآن فحرموا أنفسهم سبيل الهدى.

﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من القيامة أو العذاب، لأني لا أملك ذلك، وإنما أنا نذير لكم فإن آمنتم فقد تبين لكم الحق، وإن كفرتم فقد تبين، ولا عذر لكم في عدم إتياني بما تستعجلون، وليس لكم ولآبائكم أن تحكموا بما شئتم من شرك أو غيره أو لزوم اتباعي أو تركه لعدم ما اقترحتم.

﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد أمر أن لا تعبدوا إلى إياه، فليس لكم أن تتحكموا باشتراط ما اقترحتم ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ يقص القصص وقد قص بالحق ما أصاب المشركين قبلكم بشركهم وتكذيبهم ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ لأنه يفصل بالحق ولا يغلط ولا ينسى، وهو يستطيع تنفيذ فصله بين عباده، فهو فصل نافذٌ يحق الحق ويبطل الباطل فلا بد أن يفصل بيننا وبينكم.

﴿٥٨﴾ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لأن الساعة أو العذاب الذي أنذركم يقطع وقت الإنذار والدعوة إلى الطاعة والإيمان؛ لأنه يبطل الإختيار ويرفع التكليف، ولا يبقى إلا أن يحل عليكم ما أنذرتكم ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فهو أعلم بكم وهو يجزيكم بإجرامكم.

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا

﴿٥٩﴾ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ : معناه: وعنده علم الغيب الذي لا يعسر عليه عسير، ولا يعزب عنه صغير ولا كبير، ولكنه ضرب المثل بالمفاتح لعلمه كما ضرب المثل بالكتاب لحفظه، وليس ثَم كتاب وإنما هو مثل مضروب، قال الشاعر:

في كفه من رُقَى الشيطان مفتاح

أي معه حيَل من عزائم الشيطان حتى يسهل عليه ما يتعذر على غيره فضرب المثل بالمفتاح ـ قال الشرفي ـ ومثل هذا ذكر المرتضى × ، وقال: مفتاح الشيء فهو علمه؛ لأنه لا يوصل إلى ما كان منغلقاً إلا بمفاتحه، وإنما هذا مثل ضربه الله ـ عزَّ وجل ـ لخلقه وبينه لعباده بأنهم يعلمون بأن الاغلاق لا يفتحها إلا المفاتح، فلما أن كان الغيب منغلقاً عن الخلق والله سبحانه هو العالم، قال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ والغيب: هو ما استتر واستجنَّ وغبي فلم يعلم، وذلك لا يعلمه إلاَّ الله ـ عزَّ وجل ـ إلا ما دلَّ عليه وفتحه وبيَّنه لعباده وأخبر به)) انتهى من (المصابيح).

وما ذكره المرتضى × هو التحقيق، فليس لأحد قوّة علم الغيب لا استقلالاً ولا بتقوية من الله، ولكن ما أخبر الله به من المغيبات علمه من بلغه الخبر مع حجته كالقيامة وأهوالها، وهذا مخصوص من العموم، ولا دليل على تأويل نفي علم الغيب بنفي الأصالة والإستقلال الذاتي.

جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ هذا تفصيل لبعض ما أجمله تعالى في قوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بالنسبة إلى ما يغيب من ذلك عن المخلوق، وهو مع ذلك دليل على إحاطة علمه بالمشاهدات المذكورة، لكن الراجح: أن ذكرها لتحقيق سعة علمه، وأنه لا يغفل عن شيء كما يغفل المخلوق، فقد يغفل عن الورقة تسقط بحضرتة والحبة تسقط وتغيب في التراب، أما الله فلا يغفل عن شيء.

وقوله تعالى: ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي تحت ما يحجب النور من أجزاء الأرض، تنبيه على أن الظلمات لا تغيّب عنه شيئاً، وكذلك قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ أي ولا يسقط من رطب ﴿وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في علمه لا ينساه، كما لو كان في كتاب مبيّن لما كتب، وذلك كله يبيِّن صحة الخبر بالبعث والجزاء للأمم كلها أوّلها وآخرها، كما يبيّن أنه تعالى هو الذي يعلم عبادة من عبده وطاعة من أطاعه، فهو الإله الحق دون شركاء المشركين الذين لا يسمعون، ولو سمعوا ما استجابوا.

﴿٦٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم﴾ ويبعثكم لا شركاؤكم فليس لهم فيكم أي تصرف ﴿يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾ في منامكم فتصير أنفسكم في قبضته ليس لكم تصرف إلا ما أبقاه لكم حال النوم، وهذا معنى توفيهم قبض أنفسهم كما يتوفى صاحب الدين ماله بقبضة من غريمه، لأن النفس حال النوم صارت في قبضة الله وصاحبها لم يبقَ لَه تصرف فيها كما كان قبل النوم، فأنتم في قبضته.

﴿وَيَعْلَمُ﴾ حين يتوفاكم ﴿مَا جَرَحْتُم﴾ ما اكتسبتم في النهار من المعاصي أو غيرها فلو شاء بقيت أنفسكم في قبضته ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ في النهار ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لتستكملوا أجلاً مسمى حتى تنتهي حياتكم ويحين مماتكم كلكم أو بعضكم؛ لأن منكم من يحترم بإذن الله فيقتل قبل ذلك أو يموت، والبعث هنا: إرسال النفس بعد قبضها بحيث تنتبه من نومها ويرجع لها تصرفها الكامل.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال في (البرهان): قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ يعني في النهار باليقضة ويصرف الروح بعد قبضها بالنوم ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ يعني استكمال العمر وانقضاء الأجل بالموت)) انتهى، انتهى من (المصابيح).

قلت: والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ من هذه الآية، كالضمير في قول الشاعر:

تنفك تسمع ما حييـ ـتَ بهالكٍ حتى تكونَه
والمرءُ قد يرجو الحيا ةَ مؤمِّلاً والموت دونه

وقال الشرفي في تفسير (سورة سبأ) من (المصابيح): ((ثم قال [الله] مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ..﴾ [آية:٣٦] أي ويضيق لمن يشاء، وهو يحتمل بسط الرزق وتضييق الرزق على واحد على حسب المصلحة، ويحتمل: أن يراد بمن قدر له الرزق غير من بسط له)) انتهى، فقد جوّز مثل ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾.

والراجح عندي في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ:٣٩] أي لمن يشاء، ومن أوضح الأمثلة لذلك قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ أي تركتم لينة ـ وبالله التوفيق.

حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد قضاء الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿ثُمَّ﴾ حين ترجعون إليه وتقفون في موقف الحساب ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ فأنتم في قبضته في الدنيا والآخرة فكيف تعرضون عنه وتعبدون غيره وكيف لا تتقونه.

﴿٦١﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الغالب المذل لهم بالموت وغيره من البلاء ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ليحفظوكم حتى يأذن الله بهلاك أحدهم، فإذا جاءه الموت أخذته رسلنا الذين أرسلناهم لتوَفِّيه ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في شيء مما أمروا به بل يفعلون ما أمروا بلا تقصير، فلا تأخير لنفس عن أجلها فله الملك دون شركاء المشركين، فلا يملكون موتاً ولا حياة.

﴿٦٢﴾ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ﴾ بعد الموت ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ مالكهم الذي له ولاية التصرف فيهم، كما قال النابغة:

لما رأى واشق إقعاص صاحبه ... ولا سبيل إلى عقل ولا قود

قالت لَه النفس إني لا أرى فرجاً ... وإن مولاك لم يسلم ولم يصد

واشق: اسم كلب، يعني: أنه أيس من نجاة صاحبه ومن أن يصيد بكلبه، أو أراد متولي أمرك، والحاصل أن الولاية هنا ولاية المِلك، وردهم إما ردّ النفس إليه يمسكها كيف يشاء، كما قال تعالى: ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ [الزمر:٤٢] فيؤخذ منه أن الإنسان هو النفس، وأن الجسد لها آلة

مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٍ ثُمَّ

ووعاء؛ لأنه تعالى نسب التوفي إليها في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] فالموت أخذها من الجسد وأسند التوفي إلى المخاطبين في قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة:١١] وإما ردهم إلى الله يوم القيامة، وهذا أرجح لاستعمال الجمع في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ بعد الإفراد، ولقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾.

فظهر: أن المراد رد العباد ليوم الحساب وهو من مصاديق قهره فوق عباده، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور وليس لشركاء المشركين شيء من التصرف في العباد ولغفلتهم جاء التنبيه بقوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ ليعلموا بطلان الشرك؛ لأنه خلاف حكمه تعالى، وليعلموا أنه يحاسبهم ويجزيهم؛ لأن ﴿لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ لأنه يعلم تفصيل الحساب وأفراد المحسوب وجملته من غير تفكير.

﴿٦٣﴾ ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿مَن يُنَجِّيكُمْ﴾ من المخاوف التي تعرض لكم في ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ كأن الظلمات جاءت بها؛ لأنها مشتملة عليها، ولأنها زيادة في هول المصائب، انظر قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ..﴾ الآية [البقرة:١٩] كالمصائب النازلة في الليل الغالبة التي لا تستطيعون دفعها، ولذلك تدعون الله ينجيكم منها؛ لأنكم بفطرتكم تعلمون أنه القادر على أن ينجيكم، وأنه الذي يسمع دعاءكم وتعدون عند ذلك وعداً مؤكداً، بل تعاهدون عهداً ﴿لَئِنْ أَنجَانَا﴾ الله أو ﴿أَنْجَيْتَنَا﴾ [يونس:٢٢] يا الله ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾ النازلة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك معدودين من الشاكرين وفي جملتهم، وهذا تأكيد للشكر الذي عاهدوا عليه.

أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ

﴿٦٤﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ يعرض لكم فينفرج أي ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الذي ﴿يُنَجِّيكُم﴾ مما نجوتم منه من هذه المصائب والكرب لا شركاؤكم ولذلك تلجأون إليه وحده إذا اشتد الأمر ولم تجدوا ملجأ ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ مع علمكم بذلك ﴿تُشْرِكُونَ﴾ ما لا ينفعكم ولا يضركم، والكرب الغم الشديد والإنجاء منه يكون بإزالة سببه.

﴿٦٥﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ﴿يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ يظهر عليكم ويثير ويوقع ﴿عَذَابًا﴾ صادراً ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ ولا موجب لحصره على مثال؛ لأن علم الغيب أوسع من الأمثلة، وقدرة الله تعالى على كل شيء لا يناسبها تحديد النازل من فوق أو الآتي من تحت الأرجل، ومن مصاديقها في هذا الزمان القنابل والصواريخ والألغام.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ ﴿يَلْبِسَكُمْ﴾ يخلطكم ﴿شِيَعًا﴾ في حال أنكم مختلفون فرقاً كل فرقة يشايع بعضها بعضاً وأحزاباً يتعاون كل حزب ضد الآخرين.

وفي (مفردات الراغب): «والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه: يقال: شيعة، وشِيَع، وأشياع» انتهى باختصار، وقال في (الصحاح): «وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، يقال: شَايَعَه كما يقال: والاه من الولي» انتهى المراد.

قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ

﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ في حال اختلاطكم شيعاً، وذلك بالقتال الذي يكون فيه القتل والجراح والتعويق بالعمى أو الصمم أو قطع الأيدي أو كسر بعض العظام أو غير ذلك من آثار الحرب التي يسلط الله فيها بعضهم على بعض، فهو القادر على ذلك، وإن ظنوا أنهم يحذرون الوقوع في أسبابها ويسعون في السلم ما استطاعوا.

ولعلها تأتي الحرب العالمية الثالثة مع عناية الدول الكبرى في الحذر من الوقوع فيها لما عندهم من أسباب الهلاك العام والدمار الشامل، ولكن الله ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١].

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ احتجاجاً تارة، وتذكيراً تارة، وتخويفاً تارة، نحول الآيات من نوع إلى نوع ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أنهم في شركهم على خطر عظيم فيتقوا بأس الله قبل أن ينزل بهم وحين تنفعهم التقوى.

﴿٦٦﴾ ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ﴾ أي بهذا القرآن وما فيه من الآيات والحجج البالغة والنصائح النافعة لمن قَبِلها والإنذار القاطع للعلة والبرهان الواضح الفارق بين الحق والباطل، والدال على أن القرآن من الله أصدق القائلين وأحكم الحاكمين ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يعذر من كذب به ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ لم يكِل الله إليَّ أمركم إنما أنا رسول منه لأنذركم الإنذار القاطع للأعذار ومع الإعذار بالإنذار وبيان الحق بالحجة، فأمركم إلى الله وحده فهو الذي يحاسبكم ويجزيكم بما عملتم.

غَيْرِهِۦٓ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن

﴿٦٧﴾ ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ نبأ الله به في القرآن من القيامة والحساب والجزاء ومن غير ذلك ﴿مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ وقت استقرار وتحقق الموعود به كأن المنتظر الموعود به مقبل إلينا، فإذا حان وقوعه فكأنه وصل من إقباله وبلغ الغاية واستقر وصار حاضراً بعد أن كان مقبلاً، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف:١٨٧] ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يوم القيامة صدق الأنباء التي جاء بها القرآن والرسول ص حين ترون الموعود به، وهذا وعيد أمرالله رسوله ص أن يقوله لقومه عن الله تعالى.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ يتكلمون في آياتنا بالجدال أو التكذيب أو الإستهزاء، يسترسلون في ذلك كما يسترسل الخائض في الماء، فإذا شرعوا في ذلك توقعت منهم زيادة ثم زيادة؛ لأنهم أعداء الدين.

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ حتى لا تسمع ما يقولون ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ أي غير الخوض في آيات الله؛ لأن المراد: الإعراض عنهم حال ذلك المنكر؛ فإذا انتهى فلا مانع من الحضور في مكان يوجدون فيه لإسماعهم القرآن وإبلاغهم الرسالات ولبعض الحاجات، وهذا قبل وجوب الهجرة عنهم؛ لأن (سورة الأنعام) مكية.

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ فنسيت الإعراض عنهم حال خوضهم ﴿فِي آيَاتِنَا﴾ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ﴾ التذكر لوجوب الإعراض عنهم، بل قم عنهم ولا تقعد معهم؛ لأنهم ظالمون لا يجوز حضور ظلمهم.

ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ أصله (وإن ينسك) (إن) حرف شرط و(ما) صلة للكلام وتقوية، و(نون التوكيد) كذلك، ولعل فائدة التأكيد التحذير من التساهل مع عدم تحقق النسيان وتأكد الغفلة، فالشرط هو النسيان المحقق الكامل، وهذا خطاب للرسول ص ويلحق به المؤمنون، والدليل قوله تعالى:

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَلَٰكِن ذِكۡرَىٰ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فلا يرضون بالخوض في آيات الله ولا يتأثرون به، بل يكرهونه بقلوبهم فما عليهم من حساب الخايضين لا قليل ولا كثير، ولكن نهى الله عن القعود معهم وأمر بالإعراض عنهم تذكيراً للصواب.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ يثبتون في المستقبل على تقوى الله ولا ينخدعوا بخوض الخائضين إذا سمعوه ولم يعرضوا عنه، فقد يغتر من استمع لخوضهم في آيات الله بجدالهم وينقدح في قلبه الشك، فيصير مريض القلب بعد أن كان مؤمناً، فنهوا عن القعود معهم وأمروا بالإعراض عنهم لعلهم يتقون في بقية أعمارهم ولا ينقلبون أو يترددون، ونظير هذا قوله تعالى في المنافقين الذين ثبطهم عن الخروج مع المجاهدين: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة:٤٧].

كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي

﴿٧٠﴾ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ أي اتركهم أي أعرض عنهم، ولعل هذا بمعنى ترك محادثتهم في غير التبليغ، كقوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل:١٠] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ لعلهم الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥] المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

فهذه الآية تنطبق عليهم على ظاهرها، فلا ينبغي الإشتغال بمحاورتهم لأنهم إنما يتبعون أهواءهم ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ فآثروا أغراضهم الدنيوية على النظر لأنفسهم، والتدبر للقرآن، والإعداد للآخرة؛ بسبب حبهم للحياة الدنيا وجعلها أكبر هّمهم.

﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ﴾ أي بالقرآن مع إعراضك عنهم في غير حال التذكير، والتذكير به قراءة الوعيد ليخافوا ويتذكروا النظر لأنفسهم والإعداد للآخرة ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ﴾ أي ذكر به لئلا تبسل نفس أي ليذكروا ويتقوا فينجوا من إبسالهم بما كسبوا، فقوله: ﴿أَن تُبۡسَلَ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَذَكِّرۡ﴾ أو كراهة أن تبسل نفس، وهي أيّ نفس تذكرت واتقت، وابسال النفس بما كسبت : إسلامها للعذاب يوم القيامة، حيث لا شافع ولا دافع ولا بقي لها أي حرمة، بل صارت هدراً.

قال في (الصحاح): ((وأبسلته: إذا أسلمته للهلكة، فهو مبسَل، قال عوف بن الأحوص بن جعفر:

وإبسالي بَنِـيَّ بغـير جُـرم بعونـاه ولا بـدم مـراق

قال في (الصحاح): ((وكان حمل عن غنيّ لبني قشير دم ابن السجفية فقالوا: لا نرضى بك، فرهنهم بنيه طلباً للصلح، قال: وقوله تعالى: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ قال أبو عبيدة: أي تُسْلم، وأنشد للنابعة الجعدي:

ونحن رهنًّا بالأفاقة عامراً بما كان في الدرداء رهناً فأُبسِلا))

انتهى المراد.

وقال في (لسان العرب) في استعمال (البسل) بمعنى الحلال:

أيُثبَت ما زدتم وتُلغَي زيادتي دمي إن أُحِلَّت هذه لكُمُ بَسْلُ

أي حلال)) انتهى، قيل: ((بعوناه: أي أجرمناه، وقيل: الدرداء كتيبة)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي بسبب ما كسبت من الذنوب من الشرك أو غيره، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قطع لأطماع المشركين الذين يقولون: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ويرجون منهم النصر.

وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يتدخّل بينهم وبين الله بتوليهم أو بالشفاعة لهم، قال تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف:٩٠] أي يسترهم عن الشمس بينهم وبينها، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم:١٧] أي بينها وبين أهلها، وقال عنترة:

إن تُغْدِفي دوني القناع فإنني طَبٌّ بأخذ الفارس المستَلْئِمِ

وقد بسطت في إثبات هذا المعنى في كتاب (الإيجاز في الرد على فتاوى الحجاز).

ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾ قال الراغب: ((وقوله: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ [المائدة:٩٥] أي ما يعادل من الصيام الطعامَ، فيقال للفداء: عدل إذا اعتبر فيه معنى المساواة)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((والعدل الفدية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآ﴾ أي تفدِ كلَّ فداء، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا﴾ [المائدة:٩٥])) انتهى.

قلت: وانتصاب ﴿كُلَّ﴾ إما على أنه مفعول به، والأصل: وإن تعدل بنفسها كل عدل، وإما على أنه قائم مقام المفعول المطلق، مثل: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧] ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة:٤٤] وعلى هذا يصح أن يكون نائب فاعلِ ﴿يُؤۡخَذۡ﴾ ضمير يعود على ﴿عَدۡلٖ﴾ بمعنى فدية، فأما جعله مصدراً فإنه يخرجه عن معنى الفدية إلى معنى المساواة أو التسوية قال في (الصحاح): ((وعدلت فلاناً بفلان: إذا سويت بينهما)) انتهى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ أسلموا للهلكة والعذاب وأهدروا ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الجرائم ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ شديد الحر ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ﴾ وفي هذا دلالة على شدة ألمه؛ لأن العذاب من حيث هو عذاب يؤلم ألماً شديداً فإذا وصف بأنه أليم دل على أنه فائق لغيره من العذاب في شدة الألم، وهذا الشراب والعذاب هو الذي أبسلوا له ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ كفر النعمة أو كفر الجحود الذي أوقعهم في سائر الجرائم التي كسبوها.

ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿٧١﴾ ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ **احتجاج على المشركين لإبطال الشرك بأنه دعاء من لا يرجى منه خير فيرغب إليه لطلب الخير ولا يخشى منه ضر فيخضع له لطلب السلامة من ضره؛ لأنه لا ينفع ولا يضر، وأبلغ من كونه لا يضر أي ليس من شأنه الضر أنه لا يضرنا وقد تبرأنا منه ودعونا إلى تركه إن دعاءه رجوع عن سبيل الهدى، فلو فعلناه موافقةً لكم أيها المشركون كنتم قد رددتمونا ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا﴾ وأخرتمونا عن السير في سبيل الهدى ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ وكنا قد اخترنا موافقتكم بالتأخر عن سبيل الهدى على هدى الله لنا إلى سبيل الخير والنجاح والفلاح، فكيف نرضى ذلك لأنفسنا؟ وهذا كقول (مؤمن آل يس) في دعوته لقومه إلى اتباع المرسلين: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً..﴾ إلى آخر الآية** [يس:٢٣].

﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ **لو أطعناكم وتركنا هدى الله كنا ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾ وهو حيران لا يهتدي بدعوة أصحابه.**

قال في (الصحاح): ((واستهواه الشيطان: استهامه)) انتهى، وقال في (لسان العرب): ((وفي التنزيل العزيز: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ وقيل: استهوته استهامته وحيّرته، وقيل: زينت له الشياطين هواه ﴿حَيْرَانَ﴾ في حال حيرته، ويقال للمستهام الذي استهامته الجن: استهوته الشياطين)) انتهى المراد.

قلت: هذا تشبيه للضلال في العقيدة والعمل الذي هو الضلال المعنوي بالضلال المحسوس الذي يقع من الذاهب في الأرض وقد ضل الطريق بسبب إغواء الشياطين له حيث وسوسوا له حتى ذهل عن الطريق وذهب لوجهه وصار في حيرة لا يدري أين يذهب، فهو يمشي ﴿حَيۡرَانَ﴾ متردداً ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَا﴾ وهو في حيرته يخبط ولا يجيبهم، فأمر الله رسوله ص أن يقول للمشركين أنكون مثل هذا فنترك الهدى ونتأخر عن سبيل القصد فنبقى في ضلال وحيرة عن الحق، والله يدعونا إلى الهدى.

﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ لأنه ينقذ من عذاب النار، ويبلغ أهله جنات النعيم؛ ولأن هدى الله هدى من عالِم الغيب والشهادة الذي لا يغلط، هدى من الحكيم الذي لا يخالف الصواب والرأي السديد، هدى من الذي هو بالناس رؤوف رحيم، فالهدى الحسي إلى الطريق في الأرض ليس شيئاً بالنسبة إلى هدى الله لعباده الذي يؤدي من اهتدى به إلى الفلاح والسعادة الدائمة؛ ولأن هدى الله لا يقبل التغيير بالإضلال لأن هدى الله كامل قوي يغلب كل تضليل فمن يهدي الله فلا مضل لَه.

﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ﴾ أنفسنا ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم أجمعين، ولا نشرك في أنفسنا غيره؛ لأن رب العالمين هو المالك لهم وحده دون غيره، ليس لغيره فيهم أي مشاركة، والعبادة اعتراف بالعبودية، فالإعتراف بالعبودية لغير رب العالمين باطل مبين، فأمرنا بالإسلام لنسلم لرب العالمين.

قال في (الكشاف) ـ ونعم ما قال ـ : «فإن قلت: ما معنى (اللام) في ﴿لِنُسۡلِمَ﴾؟ قلت: هي تعليل للأمر، بمعنى أمرنا وقيل لنا: اسلموا لأجل أن نسلم» انتهى.

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

قلت: ومثله ما قدمت في قول الله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة:٦] وفي قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [النساء:٢٦] فاللام (لام التعليل) ولا نسلم أنها زائدة، ولكن (لام التعليل) تفيد إرادة ما دخلت عليه، فكأن فعل الإرادة هو الذي أفادها، فلعل ذلك سبب جعلهم (اللام) زائدة.

﴿٧٢﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟﴾ أي وأمرنا أن ﴿أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي اتقوا رب العالمين، وهو الذي يجب أن تسلموا لَه وتقيموا الصلاة له وأن تتقوه؛ لأنكم ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إليه وحده، فيجزيكم بما قدمتم في الدنيا، وفي تخصيص إقامة الصلاة من بين العبادات بالذكر هنا دلالة على عظم شأنها في عبادة الله.

﴿٧٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي رب العالمين الذي أمرنا لنسلم لَه هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ وحده لم يشاركه في خلقها غيره مما يعبد المشركون ولا من غيره وخلقها بالحق والحكمة والصواب، لم يخلقها عبثاً ولا باطلاً ولا لعباً، ولعل المراد هنا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أنه خلقهما ليعبد فيهما، فكيف يعبد غيره.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ لشيء عظيم ﴿كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ﴾ لَه كن هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وقوله فيه هو الحق ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ فيه وحده لا شريك لَه في الملك ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بيان ليوم يقول كن وتفسير لَه لإبهام المقول

۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

لَه (كن) فظهر: أن المقول له كن هو البعث وأمور القيامة كلها، وهو تعبير عن سهولته في قدرة الله وسرعته، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فلا يغفل عن أحد ممن خلق في الدنيا ولا عن عمل عامل، وخبره عن يوم ينفخ في الصور حق؛ لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يرضى لنفسه شريكاً وهو الحكيم فلا يهمل المحسن والمسيء بدون جزاء ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بخُبْر كل مكلف وما يخفيه من نية وعقيدة ونحو ذلك، فالذي إليه مرجع العباد، وهو عالم الغيب والشهادة، وله الملك يوم القيامة، كيف ندعو من دونه ما لا ينفعنا ولا يضرنا؟!

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ هذا ابتداء رد آخر على المشركين ضمن (قصة ابراهيم ×) وحجته على قومه، وأبوه آزر لعله عمه، ميّز بذكر اسمه كما هو الأصل في المجاز أن يقرن بقرينة صارفة عن الحقيقة، أما الأب الحقيقي فيكفي ذكره بدون قرينة، ويؤكد هذا أن الكلام هذا ليس فيه من الرفق ما في كلام ابراهيم لأبيه المذكور في (سورة مريم).

واذكر يا محمد ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾؟ السؤال سؤال إنكار وتوبيخ، واكتفى فيه بذكر أصنام؛ لأن الصنم جسد لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، فأغنى ذكر اسمه عن ذكر حاله؛ لأنه مفهوم من اسمه، ومعنى اتخاذها آلهة: عبادته لها وجعلها شريكة لله في ملكه وعبوديته بدون برهان من عقل ولا سمع، وذلك الباطل الذي لا ينبغي أن يرضاه لنفسه عاقل فقوله × :

وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى

﴿إِنِّيَ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ تعبيرٌ فيه نوع رفق ببيان أنه معتمد على اليقين في تضليله وتضليل قومه، وحكمه بأنه ضلال بيِّن، وهو كلام لا يستطيع أن يجيب بمثله، فيقول: بل اعلم يقيناً أنا على هدى إن أنصف؛ لأنه لا حجة لَه لا من العقل ولا من السمع، فما بقي إلا أن يطالب إبراهيمَ × بالحجة أو يسكت ولا يعارضه بسوء.

﴿٧٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما أريناه ما ذكر في قوله: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وأنعمنا عليه بتلك الهداية نريه ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بما جعلنا له من العقل والهداية إلى النظر المؤدي إلى العلم بملكنا للسموات والأرض ليبين للناس ذلك.

﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ بالله، أهل اليقين بالله وأن له كل شيء، وأنه رب كل شيء، وأن لا إله إلا هو، وحين أراه الله ملكوت السموات والأرض وكان من الموقنين جعل يبين لقومه ويحتج عليهم:

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ كان قومه في جاهلية جهلاء بعيدة أذهانهم عن النظر والتفكير وهم مع ذلك أشداء في شركهم لا يريدون أن يسمعوا إنكاراً لَه أو جدالاً فيه، فكأن الرأي التدريج في الإحتجاج عليهم وجعله في صورة أنه ناظر لنفسه لا في صورة من يعترض عليهم.

فابتدأ عند رؤية الكوكب بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ كأنه اختاره على الأجسام الأرضية لإشراقه، وفي تلك الحال لا بد أنه كان يعرف أن الكوكب سيأفل

فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ

أي يغيب لكنه تجاهل ذلك ليحصل الإحتجاج بالتدريج والتأني ﴿جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ غشيه وأخفاه ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ﴾ لا أحبه رباً ولا أرضاه؛ لأني ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ لغيابهم عني وجهلهم بحالي وانقطاعهم عني حال غيابهم.

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ تكراراً للإحتجاج بصورة احتجاج آخر وتسويغاً للتحول لأجل التفكير الدال على بطلان القول الأول، ولا بدَّ أنه كان يعلم أن القمر الذي بزغ بعد غيابه سوف يأفل كما أفل الكوكب ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ قد اخترته لزيادة نوره: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقد تبيَّن الغلط في الكوكب، ثم تبيَّن الغلط في القمر لو كان ذاك عن جدٍ واعتقاد، ولكنه فرض وتقدير كقول عمر: مات النصراني والسلام، أي افرض وقدِّر أنه مات.

فالخوف من تكرر الغلط باعثٌ على اللجوء إلى الله لطلب هدايته والوقاية من أن يكون ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الغاوين عن طريق الصواب، وفي هذا دلالة على إيمانه بالله، وأن كلامه في الكوكب والقمر إنما هو جدال لقومه، ولعل قومه لم يكونوا إلا كمشركي العرب يقرون بالله ويدعون الشركاء، فلذلك لم يكن عندهم منافياً لكلامه في الكوكب والقمر لجوءه إلى الله ليهديه.

﴿٧٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُ﴾ لعله اختار الإشارة إلى هذه الجرم الفائق في إشراقه الزائد في حجمه ليعلق افتراض ربوبيته على ما يشاهد منه لا على كونه شمساً يدعي لها المشركون الإلهية باعتبار اعتقادهم فيها فاجتنب إيهام ذلك.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ ﴿أَفَلَتۡ﴾ غربت وعند ذلك قرَّر أنها لا تصلح للربوبية؛ لأنها تغيب عنه وتهمله في حال غيابها فهو لا يرضاه، فتقرر أنه ليس شيء من المخلوقات يصلح رباً فتبرأ مما يشركه قومه، وذلك دليل على كمال اقتناعه بأنها لا تنفع ولا تضر ولذلك يتبرأ منها آمناً مطمئناً مؤكداً للبراءة بـ(إن) والجملة الإسمية المفيدة للإستمرار والثبات.

٧٩ ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ للعبادة وجهته لله، وعبَّر بقوله: ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأن ابتداءه خلق السموات ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ دليل عليه؛ ولأن غيره لا يتوهم المشركون أنه فطر السموات والأرض، وقوله: ﴿حَنِيفٗا﴾ جاء في (تفسير القاسم ×) له خاشعاً، وفي بعض المواضع عنه × خاشعاً محباً.

ولعله مراد الحسين بن القاسم فيما حكاه الشرفي في (المصابيح) حيث قال: ((قال الحسين بن القاسم إ : معناه: وجهت وجهي إلى الله بكلِّيتي وصرفت وجهتي وهمتي، وليس يريد وجهه دون قلبه ولسانه وغيرهما من جوارحه وبنانه، والحنيف: هو الثابت الذي لا يميل ولا يزيغ عن الطريق ولا يحول، قال الشاعر:

حمدت الله حين هدى فؤادي إلى الإسلام والدين الحنيف

وقيل: معنى الحنيف: أنه المائل عن الشرك إلى التوحيد، واحتجوا بالحنف الذي يكون في بعض الأقدام وهو الميل، قال الشاعر:

إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ

واللَّــه لــولا حنــف برجلـه ما كان فيكــم من غــلام مثله

وقيل غير ذلك، والقول الأول قول سلفنا وهو المعمول عليه)) انتهى.

قلت: وقد مر بعض الرد على تفسيره بالميل، وقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ مصارحة لقومه ببراءته من الشرك والمشركين.

﴿٨٠﴾ ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ حاجه قومه: جادلوه؛ لدعوته إلى التوحيد، ورفض الشرك، وإعلان بطلان الشرك والبراءة منه.

﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى﴾؟ سؤال توبيخ لهم وإنكار عليهم محاجتهم في الله، وقد جعل محاجتهم في الشرك محاجة في الله؛ لأن الشرك جعل أنداد لله هو منزه في عظمته وجلاله أن يكون لَه ندٌّ من خلقه، ولا سيما تلك الأصنام الجمادات، فمن السفه جعلها أنداداً ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.

وقوله: ﴿وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ كلمة جامعة لكمال هدى الله لَه فقد عرف الله وآمن به إيماناً كاملاً، وتبين له بطلان الشرك وأنه ظلم عظيم، فمحاجتهم له كمحاجة الأعمى للبصير على الطريق والبصير يراها والأعمى يجادل فيها ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:٧٣] ثم ذكر لهم حجة واضحة فقال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ فطريق الأمن خير من طريق الخوف وقد علمت أن الله لا يؤاخذني بعبادتي له وحده واجتناب ما سواه، ولو أشركت بغير برهان من الله لخفت أن يعاقبني.

يُنَزِّلَ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾ يبيِّن أن الأمر كله لله، وقد علم أن الله لا يشاء ضره من جهة شركائهم، لكن في جعل الأمر كله إلى مشية الله إبطال للأنداد، كقوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٣٨].

﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فهو يعلم إخلاصي لَه فلا أتوقع أن يخذلني بإنزال الضر من جهة الأنداد بل أتوقع أن ينصرني ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أنه تعالى لا يخفى عليه من أخلص له ومن أشرك به، بل هو رقيب عليهم، وهذا يكفي لحصول الأمن لمن أخلص له وأطاعه؛ لأن المخلص المطيع يثق بأن الله لا يعذبه على الإخلاص له.

﴿٨١﴾ ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ ﴿كَيْفَ أَخَافُ﴾ ما لا ينفع ولا يضر بل هو جماد كسائر الجمادات، فكيف أخافه لمجرد أنكم أشركتم به بدون حجة، وكيف لا تخافون أنكم أشركتم بالله في مِلكه ومُلكه ما لم ينزل الله به عليكم سلطاناً تحتجون به على شرككم، وقد عدل × عن أن يقول: (ولا تخافون الله) لأن الله هو الرحمن الرحيم الرؤوف بالناس، ليس من شأنه أن يُخَافَ هو، إنما المخوف عقابه الذي سببه شرك المشرك وجرم المجرم، فعلق الخوف على سببه الذي هو أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم سلطاناً، ولا إشكال في صحة إسناد خوف العباد إلى ربهم، إلا أن هذا احتراس مطابق لمقتضى الحال؛ لأنه في خطاب الجاهلين، ونظيره قول (مؤمن آل ياسين): ﴿إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ﴾ [يس:٢٣] فأنكر إبراهيم × على قومه اجتماع أن يخاف وهو المخلص لربه ولا يخافون وهم المشركون.

ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ

﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الفريقان: من آمن بالله وأخلص له، ومن أشرك به ما لم ينزل الله عليه به سلطاناً، سألهم إبراهيم × : أي الفريقين أحق بأن يأمن بعد ما بين أنه لا يخاف ما أشركوا به، وأنكر عليهم كيف يخافهم والمشركون لا يخافون أنهم أشركوا فبيَّن أنه أحق بالأمن، فسألهم إن كانوا ممن يعلم أن يقرُّوا بالحق من هو أحق بالأمن، ثم صرح به، فقال تعالى:

﴿٨٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الكامل وهو الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر إيماناً يبعث على الطاعة لله ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾ لم يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ كما هو شأن الإيمان الصادق، عدل عن قوله: (الذين أخلصوا العبادة لله) إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأن العبادة لا تقبل إلا من مؤمن، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء:٩٤] فذكر الإيمان يشمل إخلاص العبادة وشرط قبولها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شرط للأمن في حال التكليف أي أن من آمن واتقى الظلم أحق أن يأمن وثوقاً بأنه على الحق وأن الله لا يعذبه على ذلك، وشركاء المشركين لا يضرون ولا ينفعون فهو آمن عذابَ الله وضرَّ غيره، فالإحتجاج بالأمن أي في هذه الحياة وفي حال اختيار الطريقة المرضية التي يكون سالكها واثقاً بها بعد النظر الصحيح؛ وشرط

اجتناب الظلم لأن الظالم يخاف ذنبه، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل:١٠-١١] فالظالم ليس له أن يأمن حتى يتوب.

وهذا الكلام لبيان طريقة الأمن ردّ على المشركين يبين: أن الحق الإخلاص لله، والباطل: الشرك، وليس بصدد الأمن في الآخرة ولا بصدد منع الخوف من الذنوب في الدنيا ممن لا يتيقن صحة توبته أو يخاف أن يكون عليه ذنب قد نسيه ولم يتب منه، أو يخاف أن يذنب في المستقبل، فكل هذا لا ينافي المقصود في هذه الآية الذي هو بيان الدين الذي يثق به من كان عليه وهو حقيق بأن يثق لا الجاهل الغافل المعرض فإنه لا يستحق أن يأمن، ولذلك قال ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي أهل الإيمان واجتناب الظلم ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ لهم أن يأمنوا ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لا من أمِن طريقته وهو ضال فليس له أن يأمن بل عليه أن يخاف؛ لأنه في طريق العذاب.

﴿٨٣﴾ ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ﴿وَتِلْكَ﴾ أي حجة إبراهيم صلى الله عليه هي ﴿حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ﴾ علمناها ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ حجة ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ إما جملة حالية أي آتيناه حجتنا حال كوننا ﴿نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ وإما جملة استئنافية تعليلٌ لإيتاء إبراهيم، وعلى الوجهين يفيد الكلام رفع إبراهيم درجات بما آتاه الله من الحجة، أو بما آتاه ومن جملته الحجة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو يرفع من هو أهل لأن يرفعه ﴿عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بمن هو أهل لأن يرفعه درجات، وهي تشير إلى رفع محمد ص درجات بما آتاه الله من الحجة على قومه، أو بما آتاه الله جملة، ومنه الحجة على قومه.

وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ

﴿٨٤﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ ﴿كُلًّا﴾ من إسحاق ويعقوب ﴿هَدَيْنَا﴾ أو كلا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿هَدَيْنَا﴾ وهو الهدى الكامل بالعلم بالدين كله، والهداية للعمل بالعلم، ومن ذلك الهدى: الإخلاص لله تعالى، واجتناب الشرك، ولعله قدم ذكر إسحاق ويعقوب احتجاجاً على من أشرك من ذريتهما المدَّعين أنهم على دينهم.

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ فكان على دين الله مخلصاً لَه ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي من ذرية نوح، وإن كان أكثر المذكورين من ذرية إبراهيم، ولكن لوطاً ليس من ذرية إبراهيم وهو من المذكورين، وكذا يونس، أو الضمير لإبراهيم ورجحه، في (المصابيح) قال: ((وهو قول أئمتنا)) انتهى.

﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ولعله قدمهما لكفر بعض بني إسرائيل بهما أو بسليمان ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ﴾ هديناهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ نهديهم، كما قال في يوسف × : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢] وكذلك قال في موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص:١٤] فالإحسان سبب للهدى بالحكم والعلم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ وهدينا من ذريته زكرياء ﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فهديناهم بسبب صلاحهم، أو لأنا هديناهم كانوا من الصالحين.

وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ

وفي ذكر عيسى × دليل على أنه من الذرية بواسطة أمه، ولذلك فيصح أن الحسن والحسين وذريتهما من ذرية رسول الله ص، وقد جمعتُ الحجج على ذلك في كتاب (الذرية المباركة) في أن الحسن والحسين ابنا رسول الله ص في (تسعة فصول).

قال الشرفي في (المصابيح): ((ومثل هذا المعنى من دلالة الآية ذكره زيد بن علي × في كتاب (الصفوة) والرازي في (تفسيره) وقال فيه: ((ويقال: إن أبا جعفر الباقر استدل بهذه الآية عند الحجاج بن يوسف، وعن الشعبي قال: كنت عند الحجاج فأتي بيحيى بن يعمر فقيه خراسان من بلخ مكبلاً في الحديد فقال له الحجاج: أنت زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله ؟ قال: بلى، فقال الحجاج: لتأتينِّي بها واضحة من كتاب الله أو لأقطعنك عضواً عضواً، فقال: أتيتك بها واضحة بينة من كتاب الله يا حجاج، قال: فتعجب من جرأته بقوله: يا حجاج، فقال لَه: ولا تأتينِّي بهذه الآية: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ [آل عمران:٦١] فقال: آتيك بها واضحة من كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ...﴾ إلى قوله: ﴿..وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ فمن كان أبو عيسى؟ وقد ألحِقَ بذرية نوح، قال: فأطرق الحجاج مليّاً، ثم رفع رأسه وقال: كأني لم أقرأ هذه الآية من كتاب الله حلُّوا وثاقه واعطوه من المال كذا)) انتهى من (المصابيح).

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ أي وهدينا من ذريته إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم ونوح والمذكورين من ذريته كلاً منهم ﴿فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معطوف على جملة قوله تعالى: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ وما عطف عليه.

هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن

﴿٨٧﴾ ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ عطف على ﴿نُوحٗا هَدَيۡنَا﴾ أي وهدينا ذلك الهدى من آباء الأنبياء المذكورين وذرياتهم وإخوانهم ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ﴾ هيأناهم بالعلم والحكمة وما تحتاجه مهمتم في تبليغ الرسالة.

وقال في (الصحاح): ((واجتباه: أي اصطفاه)).

﴿وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي كل المذكورين الذين ذكر الله تعالى أنه هداهم، هداهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ واحد ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ وهو صراط الله الذي ارتضاه لهم، وهو توحيده ومعرفة دينه وعبادته وإخلاص العبادة لَه وطاعته وتقواه، وقد فسر (الصراط المستقيم) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣] فهدى الله الأنبياء المذكورين ومن قراباتهم إلى هذا الدين، فهو الحق الذي ارتضاه لعباده واصطفاه على الأديان.

﴿٨٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ ولذلك فينبغي أن نسأله فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦] ونجتنب كل ما خالفه من دين الجاهلية كالشرك ودين المشركين ومن كل دين مخالف لدين الله.

﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وكفى بهذا تحذيراً من الشرك ودليلاً على أنه لا يقبل مع الشرك أيُّ حسنة؛ لأنه يحبط كل حسنة، وفي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دلالة على حبوط العمل بالشرك وإن كان متكرراً ومستمراً كعمل الأنبياء المذكورين صلى الله عليهم وعلى نبينا وآله.

يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا

﴿٨٩﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۖ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالهدى إلى صراط مستقيم ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ الكتب السماوية عبَّر عنها بالكتاب؛ لأن أصله مصدر ﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾ علمناهم الحكم، والراجح: أنه جامع لحكم الله في عباده وعليهم أي الحكم التشريعي فيعم أحكام الدين كله، وعطفه على ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ ليعم ما اشتمل عليه الكتاب، وما لم يذكر في الكتاب مما أوحاه إليهم، وليفيد فهمهم الكامل لمعنى الكتاب ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ التي هي الوحي من الله تعالى بالشرائع، فهم أهل الهدى إلى دين الله الذين منه التوحيد واجتناب الشرك.

﴿فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ ﴿فَإِن يَكۡفُرۡ﴾ بما آتيناك يا محمد إذ آتيناك ﴿الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كما آتيناهم فإن يكفر ﴿بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون من أهل مكة ومن حولها، فالضمير هنا مثله في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] أي في النهار، فكأنه قيل: فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوءة هؤلاء، والمراد به: ما آتاه الله محمداً ص ﴿فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمًا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ وهم السابقون من ورثة الكتاب؛ لأنهم حملة الدين وحماته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر:٣٢].

وروى الشرفي في (المصابيح): ((عن المرتضى محمد بن الهادي × : أن الموكلين بها هم الأئمة المعروفة طاعتهم المحكوم من الله ـ عزَّ وجل ـ بطاعتهم.

ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى

قال الشرفي: قال الحسين بن القاسم إ : يعني بذلك: أمير المؤمنين وذريته الأخيار الطاهرين، الذين وكلهم الله بالدعاء إلى جدهم بعد أمير المؤمنين والدهم، فهم بالدين والحكمة والنبوة موكلون، وعلى الله سبحانه متوكّلون، وبطاعته في ذلك وغيره عاملون)) انتهى.

قلت: تاريخهم يشهد بحمايتهم للدين، وجهادهم لأعداء الله المفسدين، فجهاد أمير المؤمنين علي × ، وحمزة، وجعفر، والحسن، والحسين، وزيد بن علي، وابنه يحيى، ومحمد بن عبد الله، وإبراهيم بن عبد الله، وإدريس بن عبد الله، ومحمد بن محمد بن زيد، والحسين بن علي الفخي، ومحمد بن إبراهيم، والهادي، والناصر الأطروش وكثير من ذرياتهم ظاهر، ولله در الهبل حيث يقول:

تفانوا على إظهار دين أبيهمُ كراماً ولا جبن لديهم ولا بخل

وروى الإمام أبو طالب في (الأمالي) بإسناده عن علي × قال: قال رسول الله ص: ((إن عند كل بدعة تكون بعدي يكاد بها الإيمان ولياً من أهل بيتي موكلاً يذبّ عنه يعلن الحق وينوره ويرد كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله)) انتهى.

ومعنى ﴿وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا﴾ جعلناهم للإيمان بها ولحمايتها، وأمرناهم بذلك.

﴿٩٠﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء المذكورون ومن معهم هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إلى الصراط المستقيم لا المشركون من هؤلاء وآبائهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ فبهدى الله لهم ﴿ٱقۡتَدِهۡ﴾ بأن تحذو حذوه؛ لأنه الهدى إلى الصراط المستقيم.

لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ

﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على القرآن ﴿أَجْرًا﴾ فلا عذر لكم بمغرم تتحملوه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ من ربهم، ينبههم من غفلتهم، ويثير دفين عقولهم، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:٩].

قال في (الصحاح): ((الذكرى: ضد النسيان)) انتهى باختصار، وعلى هذا: يكون وصف القرآن بأنه (ذكرى) بمعنى أنه سبب للذكرى.

وفي (لسان الميزان): ((والذكرى: اسم للتذكرة)) انتهى، وهو المتبادر في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

فأما الراغب فقال: ((والذكرى: كثرة الذِّكْر، وهو أبلغ من الذكر، قال تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [ص:٤٣] ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥] في آيٍ كثيرة)) انتهى.

وعلى تفسير (الذكرى) بالتذكرة، يوصف بها القرآن حقيقة، و(العالمين) يعم الأمم كلها.

﴿٩١﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((معناه: ما عرفوا الله حق معرفته، ولا عظموه حق عظمته)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((وقال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أي ما عظموا الله حق تعظيمه)) انتهى، وفي (المصابيح): ((أي ما عظموه حق تعظيمه، عن ابن عباس، والحسن من قولهم: فلان لَه قدر، أي خطر)) انتهى.

وهذا القول: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍ﴾ قول اليهود، كما يدل عليه قوله تعالى في بقية هذه الآية، ولعل المشركين من أهل مكة سألوهم.

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء:٥١] ما يفيد ذلك.

﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ كما يليق بعظمته وجلاله وعزته وحكمته وفضله ورحمته، أن لا يهمل عباده ويتركهم في ظلمات الجهل بلا كتاب ولا رسول ولا شيء يهديهم وينير لهم الطريق إلى سعادتهم ويقيم به الحجة على الظالمين.

﴿تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ ﴿تَجۡعَلُونَهُۥ﴾ تدعون وتزعمون أنه قراطيس ﴿تُبۡدُونَهَا﴾ وتلك القراطيس التي تبدونها ليست كل الكتاب بل إنما هي بعضه ﴿وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗا﴾ لم تبدوه وهو من الكتاب؛ لأنكم تبدون ما لا يخالف هواكم وتكتمون ما يخالف هواكم، وهذا استطراد بديع حكيم يبين أنهم متمردون لا يريدون الحق، فغير عجيب منهم أن يقولوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيۡءٍ﴾ وقد كانوا يكتمون كثيراً مما أنزل الله على موسى في التوراة.

﴿وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ فأنتم تجدون عندكم من العلم ﴿مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿وَلَآ﴾ علمه ﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾ من عند أنفسهم، فمن أنزل هذا العلم؟ ومن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزله، وأنزل كل علم لا يبلغه الإنسان بعقله، فقد تبين بطلان قولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ بعد هذا الجواب الحاسم ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ في كلامهم الباطل وجدالهم في الحق ﴿يَلْعَبُونَ﴾ جعل لعباً؛ لأنه مجرد اتباع هوى ولهو يلهون به، فأشبه اللعب بالكرة وغيرها من أنواع اللعب الذي يكون للتلهي به وإعطاء النفس هواها، فأعرض عن محاورتهم بعد الجواب المذكور، واتركهم يقولون ما شاءوا، وهذا كان قبل قوة الإسلام والتمكن من النهي عن مثل هذا المنكر.

﴿٩٢﴾ ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ليبقى وتتوارثه الأجيال ﴿مُبَارَكٌ﴾ لكثرة فوائده العلمية والروحية وغيرها ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله بـ(التوراة) و(الإنجيل) و(الزبور) وسائر ما أنزل الله من قبل (القرآن) جملة.

﴿وَلِتُنذِرَ﴾ يا محمد ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهل أم القرى وهي مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ ومن حول أم القرى فهم في أشد الحاجة إلى إنذارهم؛ لبعد عهدهم بالرسالة ولا كتاب عندهم قبل هذا القرآن مع كثرة الباطل عندهم من الشرك وغيره من أمور الجاهلية، فهذا وجه النص عليهم بعينهم، مع أنه رسول الله إلى الناس جميعاً، كما دل عليه قوله تعالى مخاطباً لموسى × : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَو تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا

ثم قال تعالى بعدها: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا..﴾ إلى قوله: ﴿.. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٨] وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] وغير ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بهذا الكتاب؛ لأن الإيمان بالآخرة يبعثهم على النظر المؤدي إلى الإيمان بالقرآن ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ كما هو شأن كل مؤمن قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة:٧١] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩] والمحافظة على الصلاة العناية بإقامتها في وقتها حذراً من إضاعتها، وإضاعتُها تركها في وقتها.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾ سؤال في معنى النفي، لأن من الواضح شناعة هذا الظلم؛ لما يترتب عليه من الفساد العظيم فلا ظلم أشد منه، والإفتراء، والإختلاق: أن يقول على الله بلا مستند عقلي ولا شرعي، قال في (الصحاح): ((وفَرَى فلان كذباً: إذا خلقه، وافتراه اختلقه والإسم الفِرية)) انتهى.

ويدخل المشركون إذا زعموا أن الله يرضى شركهم ومن ادعى الولاية من الله على عباده بلا مستند شرعي ولا عقلي، وقوله: ﴿أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ﴾ فهو في معنى المفتري على الله كذباً مع فساد التغرير على عباد الله بالباطل ليتبعوه على باطله مثل مسيلمة الكذاب، وقوله تعالى: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا مفسد بكفره بما أنزل الله ودعواه أنه سينزل مثله كذباً وكفراً وصداً عن سبيل الله، فهؤلاء الثلاثة قد ظلموا ظلماً عظيماً.

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ هذا تصوير لحال الظالمين عند غمرات موتهم وشدة الملائكة عليهم حين يبسطون أيدهم لإخراج الأنفس، وغمرات الموت، قال في (الكشاف): ((شدائده وسكراته، وأصل الغمرة: ما يغمر من الماء، فاستعيرت للشدة الغالبة)) انتهى.

وفي قصيدة عنترة:

في حومة الحرب التي لا تشتكي غمراتها الأبطال غير تغمغم

قال (شارح المعلقات السبع): ((وغمرات الحرب: شدائدها التي تغمر أصحابها، أي تغلب قلوبهم وعقولهم، التغمغم: صياح ولَجَبٌ لا يفهم منه شيء)) انتهى، فهذا يناسب تفسير (الكشاف) لغمرات الموت.

وقوله تعالى: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): ((وقال الحسين بن القاسم × : معناه: باسطوا أيديهم عليهم بالعذاب ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ أي خلصوا أنفسكم من الدنيا [أيدينا ظن] أي لا تقدرون على الخلاص)) انتهى المراد، وهو مناسب لذكر غمرات الموت، أي أخرجوا أنفسكم من هذه الغمرات.

وتفسير ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ بأنهم باسطوها بالعذاب موافق لقول الله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَارَهُمۡ﴾ [محمد:٢٧] ويحتمل: ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لقبض أرواحهم عند معالجتها لقبضها، وقيل: معنى ﴿أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ هاتوها من أجسادكم، وهذا هو الذي صدره الشرفي، وهو قريب ليكون مفسراً للبسط أنه لنزع أنفسهم وهو أوفق لتصوير الحال من حذف ما بسطت الأيدي لَه، وذلك أوفق لقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾ الذي يوجه الذهن لاستماع شرح حال الظالمين عند النزع، وتصويره للسامع، وسواء كان أمراً حقيقياً لإهانتهم أم تعبيراً عن حالهم عند معالجتهم للنفس لتخرج كأنهم آمرون بإخراجها.

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ الراجح: أن هذا حكاية لما يقال لهم عند بعثهم، كأنه مقترن بإخراج أنفسهم وقد طوي ما بينهما من الزمان في الواقع؛ لأنه يوم القيامة كأن لم يكن لقلته في نظر الأموات كأن لم يلبثوا إلا ساعة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥] ونظيره في طي المدة وتخطيها إلى ما ورائها قوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف:٤٥-٤٦].

فكأن الظالمين خرجت أنفسهم ورجعت في أبدانهم، وقيل لهم ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ﴾ في وقت واحد، والدليل على هذا قوله تعالى في الآية الثانية ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فأفاد أن قد خلقهم المرة الثانية، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] أي ويقولون: ذوقوا عذاب الحريق على أنه عطف على قوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾ و﴿عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ عذاب الهوان، أي الذلة والصَّغار.

خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ يدل على أن الذي قال: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ استخفَّ بالقرآن وأنِف من الإلتفات إليه والنظر في صدقه استعلاءً، فحمله ذلك على قوله: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ جحداً لكونه معجزاً واستخفافاً به.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف:٤٨] فهو تأكيد للوعد بالإشارة إلى ما ذكرهم به في الدنيا من قدرته تعالى على الإعادة كما قدر على خلقهم أول مرة، وقوله تعالى: ﴿فُرَٰدَىٰ﴾ تنبيه على ضعفهم يوم القيامة، بانفراد كل واحد عن الأنصار والقرابة والأعوان والإخوان والعشائر، فهو في حال ذلة بعد التكبر في الدنيا والغرور.

﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ قال في (الصحاح): ((وخوَّله اللهُ الشيءَ: أي مَلَّكَه إياه)) انتهى، ومثله في (لسان العرب) ففيه فائدتان:

الأولى: أن أسباب التعزز في الدنيا هي الأصحاب والأموال التي كان مالكاً لها فقد ذهبت، وصار كما قال تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم:٨٠].

الثانية: تذكيرهم نعمة الله عليهم كأنه لما قال: ﴿خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ قال: أنعمنا عليكم وذلك أبلغ في تبكيتهم؛ لأنهم كانوا يجعلون نعمة الله سبباً لاستكبارهم عن آياته وتكبرهم، وقوله: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ تحقيق لتركه وارتحالهم عنه إلى الآخرة؛ لأن الراحل عن الشيء التارك له يخلفه وراء ظهره.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ وهذا بعد بيان ذلتهم بالإنفراد عن الأعوان والأنصار ومفارقة المال، يبين ذلتهم مع خيبة أملهم بعدم الشافعين الذين كانوا يؤملون شفاعتهم ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وأعظم من ذلك: أنه يبين بطلان ما كانوا يزعمون، ويذكر بجريمتهم العظمى وهم في يوم الحساب والجزاء، وذلك أعظم أسباب الذلة والصغار.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ﴾ أي في هذه الحالة التي هي وقت الحاجة إلى الشفاعة، وفيه تهكم بالمشركين وشركائهم حيث نفى حضورهم معهم بنفي رؤيتهم، وفيه ـ أيضاً ـ تصوير لتلك الحال، وبيان أنها أمور ستكون مشاهدة وضرورية.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ فيه فائدتان:

الأولى: أنه قد تبين لكم بطلان ذلك الزعم.

الثانية: تذكيرهم بجريمتهم العظمى زعمهم الباطل أنهم فيهم شركاء وهم لم يخلقوا ولم يرزقوا فجعلوا ما هو لله وحده خالصاً لَه جعلوا بعضه لغيره، وذلك أن عبادتهم زعم أنهم عباد لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [النساء:١٧٢] فأقام قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ مقام ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ فدل على أن معنى العبادة أن يجعل نفسه عبداً.

وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي الصلة بين الذين زعمتم أنهم شركاء فيكم وبينكم، كقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة:١٦٦] وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ أي ضاع عنكم ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنه يكون لكم من شركائكم من النصرة والشفاعة وما أشبه ذلك، فقد ضاع كله في هذا الموقف الحرج فما لكم من قوة ولا ناصر.

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا

ويحتمل في إعراب ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ﴾ أنه من التنازع فكل منهما يطلب ﴿مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فاعلاً له، فالمعنى: تقطع بينكم ما كنتم تزعمون، وضل عنكم ما كنتم تزعمون، وذلك على توزيع ما كانوا يزعمون أي ما كنتم تزعمون من الصلة بينكم وبين شركائكم، التي هي بزعمكم الصلة بين المملوك ومالكه التي من أجلها يحمي المالك مملوكه، وتزعمونه من حمايتهم لكم من أجل هذه الصلة، تقطع ذلك بينكم وضاع عنكم، وفيه تهكم بهم بجعل الصلة منقطعة، والحقيقة أنه لم يكن لها وجود، وإنما كانوا يتوهمونها جهلاً وضلالاً.

كما أن قوله: ﴿وَضَلَّ عَنكُم﴾ تهكم؛ لأن أصله أن يستعمل في ضياع ما كان موجوداً وهو هنا في ضياع ما كانوا يزعمونه ولا حقيقة لَه، ولما كان المشركون قد جعلوا لله شركاء، وخوفهم الله عاقبة شركهم أتبع ذلك بالدلائل على الله، الدالة على أنه يجب تنزيهه عن الأنداد التي جعلوها شركاء لله وهي لا تخلق ولا ترزق، وهذه الدلائل دلائل على قدرة الله على إعادة المشركين وجزائهم في الآخرة بما وعدهم، بل تفيد فوائد معرفة الله كلها، فقال تعالى:

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ لما كانت هذه وما بعدها إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ احتجاجاً على المشركين، تبين: أن الله تعالى هو الخالق الرازق، وأنه العليم بكل شيء، القدير على كل شيء، وتعرض بشركائهم أنهم لم يفعلوا شيئاً مما

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ

عدد في هذه الآيات، كانت على هذا الأسلوب: فالق الحب والنوى، مخرج الحي من الميت، فالق الإصباح، وهو الذي أنشأكم، وهو الذي، وهو الذي.. بعبارة تعيين الفاعل لذلك أنه الله، لا بعبارة أن الله فعل ذلك.

ولما كان إخراج الحي من الميت غامضاً عند المشركين ناسب في الإحتجاج عليهم أن يأتي مفسراً فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ فدل بهذه الآية على أنه هو الذي يفلق الحب فيخرج منه الزرع ويفلق النوى فيخرج منه النخيل والخوخ وغيرها؛ ولكون قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ آية واحدة لم يعطف ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ﴾ بالواو وبخلاف سائر الآيات فهي متعاطفة، فوصف الزرع والشجر بالحياة وبذرها بالموت بعد انفلاقه كوصف الأرض بالموت قبل نزول المطر والحياة بعده وبعد اخضرارها.

وقوله تعالى: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ آية ثانية تدل على الله فالمولود الذي يكون قد مات في بطن أمه لم تخرجه هي باختيارها متى شاءت ولكن الله هو الذي يخرجه بتهيئة أسباب خروجه متى شاء.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ القادر العالم الذي دل عليه إخراجه الحي من الميت والميت من الحي هو ربكم لا أصنامكم وما تعبدون من دونه ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين تؤفكون عن الحق إلى الباطل، أي تقلبون وتحولون، فليس لهم خلق، ولا لكم برهان فيهم.

﴿٩٦﴾ ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ بعد الليل المظلم الذي استمر وقتاً إما طويلاً كما في الشتاء، وإما دون ذلك كما في الصيف، فلماذا جاء الصباح ففلق بضوءه ظلمة الليل؟ إنها قدرة الله تعالى.

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ لما اشتمل عليه من الأرض والأشجار والمياه والحيوان كالبيت الذي يسكن فيه الحي، فالليل يحفظ رطوبة الأرض والأشجار وقوة المياه ورطوبة الحيوان، ويعدِّل حرارة الشمس وقد سماه الله تعالى: ﴿لِبَاسًا﴾ [النبأ:١٠] وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل:٨٠].

قال في (الصحاح): ((والسَّكن: النار، ثم قال: والسكن ـ أيضاً ـ كل ما سكنت إليه)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((وقال اللحياني: والسَّكَن ـ أيضاً ـ سكنى الرجل في الدار، يقال: لك فيها سَكَن أي سُكْنَى، والسَّكَن والمسْكَن والمسكِن: المنزل والبيت، الأخيرة نادرة)).

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ والله الذي جعل الشمس والقمر ﴿حُسْبَانًا﴾ أي حساباً، فلولاهما ما عرف حساب الشهر الواحد، وحساب الشهور، والسنة الشمسية، والفصول الأربعة: الصيف، والخريف، والشتاء، والربيع، وهذا دليل على قدرته تعالى وعلمه المحيط بكل شيء، فحساب الشمس والقمر دقيق محكم مستمر آلاف السنين، فتبارك الله رب العالمين.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي فلق الإصباح وجعْل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً كله ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يعارضه معارض يغير ما أحكم ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

﴿٩٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فيهتدى بنورها، ولولا هي لاشتدت الظلمة على المسافرين.. ألا ترى كيف تشتد الظلمة إذا حجب نورَ النجوم سحاب، ويهتدى بالنجوم لمعرفة الجهات ليهتدى إلى الجهة المطلوبة للمسافرين وأشد الحاجة إلى ذلك في ظلمات البر حيث لا جبال مثل (تهامة) وفي ظلمات البحر.

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡ

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ بيَّناها وميَّزنا بعضها من بعض، فهي آيات عديدة كثيرة يهتدي بها من يعلم، أي مَن من شأنه أن يعلم لسلامته من الهوى المعمي للبصيرة والخذلان، بسبب الإستمرار على التمرد والعصيان، والإعراض عن النظر في الآيات اشتغالاً بأغراض الدنيا، ففي الشمس آيات، وفي القمر آيات، والليل آية، والنهار آية، وفي النجوم آيات عديدة.

٩٨ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ من أبينا آدم أنشأنا أوجدنا بعد أن لم نكن ﴿فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ فلكم في إنشائكم مستقَر ومستودَع تكثرون بواسطتهما، فالمستقر: بطون الأمهات فإنشاء الذريات فيها وتربيتها حتى تتكامل ثم تخرج بعد كمالها، والمستودَع: مستودع النطفة حيث تخلق فتخرج إلى المستقَر، وهذه آيات عظيمة، وهذا رأي (صاحب الكشاف).

والراجح عندي: أن المستقر: هو محل المعيشة، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة:٣٦] والمستودع: هو القبر؛ لأن الإنسان فيه كالوديعة يرد عند البعث.

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ الكلام فيفقهون كلام الله في تعديد الآيات وتبيينها، فيعلمون بما فصل من آيات الصنع الدالة على الله الخالق العليم القدير، فالآيات القرآنية تُذكِّر بآيات الكون لمن يفهم الكلام.

٩٩ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الجو، كقوله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الروم:٣٨] على تقدير محكم في كيفية نزوله بحيث ينفع ولا يضر، فتراه كأنه نازل من غربال

فيعم البلاد من الحرث والمراتع والمحتطبات بسبب نزوله من السماء ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ أي أخرج الله بالماء ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الزروع والشجر والمرعى، وغير ذلك مما لا يكاد يحصى لكثرة أنواع النبات.

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا﴾ فأولاً يخرج من الأرض أصفر اللون أو أبيضَ ثم ينمو فيخرج منه الأخضر ﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ ﴿نُّخۡرِجُ﴾ من الخضر بعد تكامله وخروج سنبله الأخضر، نخرج ﴿مِنۡهُ حَبّٗا﴾ وما هو الحب، وما الفائدة فيه، قد عرفه الإنسان وعرف فائدته فلم يحتج إلى وصفه بأنه طعام الإنسان الذي يعيش به، فتبارك الله رب العالمين يخرج هذا الحب ﴿مُّتَرَاكِبٗا﴾ في السنبلة تستمد كل حبة غذاءها من السنبلة حتى تكمل وتصلح، فيتراكب لكثرته واجتماعه في السنبلة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ﴾ ﴿طَلۡعِهَا﴾ إما أكمامها التي تخرج أولاً وفيها الثمر ثم تنشق فيخرج منها العذق، قال في (المصابيح): «وهو [أي العذق] في النخل كالعنقود من العنب، فهو يخرج من الكم، والكم يخرج من النخلة.

وعلى هذا التفسير للطلع، يظهر: أنه مصدر القِنْو، وإما نفس الثمر الذي في الكمّ يكون قنواناً، فكأنه ـ أي الكم ـ مصدر للقنوان، والقنوان: جمع قنو، قال الراغب: القنو العذق تثنيته قنوان، وجمعه قنوان» انتهى.

أي تثنيته في حال الرفع كجمعه (قنوان) وقوله تعالى: ﴿دَانِيَةٞ﴾ دانية من الدنوّ وهو القرب، فإما بمعنى: قرب قطافها؛ لأنها إذا خرجت من الأكمام ينتظر صلاحها ثم تقطف، فتعتبر دانية لقرب قطافها، وإما دانية بالنسبة إلى منابتها ومخارجها من النخلة ومواضع أصولها؛ لأنها تتدلى عند ثقل البسر، كما قال امرؤ القيس:

فآتت أعاليه وآدت أصوله وأدلى بقنوان من البسر أحمرا

وقال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٣] فهي آية حين تخرج من النخلة وحين تخرج من الأكمام فيرى فيها البسر ﴿مُّتَرَاكِبًا﴾ يستمد غذاءه من الشماريخ حتى يتم ويصير رطباً قوتاً لأهل بلده وفاكهة لهم ولغيرهم قد أتقن صنعَه صانعُه وجعله لذيذاً للإنسان نافعاً، فتبارك الله رب العالمين.

﴿وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ وأخرجنا من النبات أو بالماء جنات شجراً ملتفاً يغطي مكانه من أنواع العنب ذوات الألوان المختلفة وأشكال حبها المختلفة والطعم اللذيذ المختلف والنفع للإنسان وفاكهة يستغنى بأكلها عن غيرها أكلة أو أكثر فقد يستغنى بها أياماً، إلا أنها تقوى شهوة الخبز إذا ترك أياماً، فالأعناب آية عظيمة أشجارها وثمارها.

﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ وهو يكثر وينمو شجره في الشام فيثمر الزيتون ثمراً يؤكل ويعتصر منه الزيت، فيكون إداماً نافعاً سهل الهضم بالنسبة إلى غيره من الأدهان، ودهناً جيداً نافعاً للإنسان، وقد قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠] وقال تعالى: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [النور:٣٥] ففي الزيت فائدة ثالثة، وهي أنه يستعمل وقوداً للمصباح.

﴿وَٱلرُّمَّانَ﴾ وهو آية عظيمة في صنعه، حيث يكون حبه الضعيف متراكباً في جيوب يستمد غذاء من أجزاء فواصل هي جيوبه، وجملتها تستمد من أصل الرمانة، ويجمعها خباء كالجلد يحفظها حتى تتم وتصلح، فإذا فلق الآكل خباءه وجده متراكباً مفصلاً في جيوب جميل المنظر منه حلو لذيذ نافع للإنسان، ومنه حامض دواء كالخل صنع الله الذي أتقن صنعه وصنع شجرته.

﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ أخرجنا هذا المذكور أي الحب والفواكه بالماء الواحد ﴿مُشْتَبِهًا﴾يشبه بعضه بعضاً ﴿وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ أي بعضه مشتبهاً وبعضه غير متشابه، وذلك تقدير القدير العليم الذي خالف بينه وبين أنواع الصنف الواحد وجعل بعضه مشتبهاً وبعضه غير متشابه صنعاً محكماً مفيداً للإنسان، ففيه آيات مفصلات تدل على أن الله هو الخالق القدير العليم.

وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتَۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ

﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ كيف يكون تدبير صنعه من الشجرة التي تخالفه في شكله وطعمه ونفعه ويستمد منها غذاءه وكيف يكون حجمه وطعمه ولونه ﴿وَ﴾ انظروا إلى ﴿يَنۡعِهِۦٓ﴾ إذا أينع وتم صلاحه للإنسان كيف يختلف عن صفته في حجمه ولونه وطعمه ونفعه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي﴾ إنزال الماء من السماء وهو واحد، وإخراج نبات كل شيء على اختلاف النبات وتطوير النبات حتى تخرج منه الثمرات النافعات للإنسان من الحب، والثمر، والعنب، والزيتون، والرمان، على صفاتها حين تخرج من أشجارها وصفاتها حين يتم صلاحها ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ مفصلات ودلائل بينات ﴿لِّقَوۡمٖ﴾ من شأنهم أن يؤمنوا إذا رأوا الآيات، وسمعوا القرآن يعددها لهم، ويثير دفائن عقولهم ويذكرهم من غفلتهم، فأما المتمردون فما تغني عنهم الآيات، فتبارك الله رب العالمين لقد بين الآيات المفصلات الدالة على أنه الخالق الرازق الذي يستحق العبادة ويستحق الشكر على النعم العظيمة المتواصلة المتنوعة.

١٠٠ ﴿وَ﴾ مع هذا كله ﴿جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتَۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لما كانت الآيات الماضية تدل على بطلان الشرك وأنه ظلم عظيم عطف عليه ذكر ما عليه المشركون مع اختلافهم في الشرك من جعلهم شركاء لله وبيَّن هؤلاء الذين جعلوهم شركاء بأنهم جن، وبيَّن أن الله خلقهم رداً عليهم.

فالأقرب: أن الجن بيان لشركاء، وسوغ ذلك تطابق البيان والمبين؛ لأن التعريف لفظي لأنه لم يقصد به عموم الجن ولا الحقيقة المعهودة، أو أن عطف

البيان لا يشترط فيه التوافق في التعريف والتنكير بين البيان والمبين كما اختاره الرضي في (شرح الكافية) أو هو بدل وليس المبدل منه ملغي بل هو عمدة كما اختاره الرضي وغيره، والجن إما من كانوا يعوذون بهم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ وهذا أظهر، وإما الملائكة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال: قال في (البرهان): ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي أن مشركي العرب جعلوا الملائكة بنات الله شركاء لَه، كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات:١٥٨] فسمى الملائكة جناً لاجتنانهم عن الأبصار)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ الراجح: أن الضمير للجن، أي وخلق الجن فهم عباد لله مربوبون، لا شركاء لَه في عباده.

أما قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ﴾ ففي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): معناه: اختلقوا، انتهى، أي افتروا.

وقال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن (البرهان) للإمام أبي الفتح الديلمي: ((أي كذبوا)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((وخرَّق الكذب وتخرقه وخرَّقه كلّه اختلقه، قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ قرأ نافع وحده ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ بتشديد الراء، وسائر القراء قرأوا ﴿وَخَرَقُواْ﴾ بالتخفيف، قال الفراء: معنى ﴿خَرَقُواْ﴾ افتعلوا ذلك كذباً وكفراً، وقال: وخرقوا واخترقوا وخلقوا واختلقوا واحد، قال أبو الهيثم: الإختراق والإختلاق والإختراص والإفتراء واحد)) انتهى.

ومعناه في (المصابيح) و(الكشاف): ((وخرق البنين، جعل عيسى وعزيراً إ بنين، وظاهر الجمع: أن المشركين قد زادوا غيرهما، واختراق البنات قولهم في الملائكة عليهم السلام: بنات الله سبحانه.

كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يفيد: قبح قولهم هكذا، من حيث أنه اختلاق وافتراء، ومن حيث أنه قول على الله بغير علم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩].

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لله ودلالة على أن ما قالوه بعيد عن الحق؛ لأن التسبيح تنزيه وتبعيد عن النقص ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تعالى علوّ الشأن والعزَّة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن وصفهم لَه بصفة المخلوق الضعيف وهو القوي العزيز، أي جل وعلا عما وصفوه به.

قال الشرفي في (المصابيح): فإن **قيل**: فعلى هذا التقدير لا يبقى بين قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ وقوله: ﴿تَعَالَىٰ﴾ فرق؟

قيل لَه: بل بينهما فرق ظاهر، فإن المراد بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ إن هذا القائل يسبحه وينزهه عما لا يليق به، والمراد بقوله: ﴿تَعَالَىٰ﴾ كونه في ذاته متعالياً متقدساً عن هذه الصفات..)) إلخ.

والظاهر عندي: أن مضمون التسبيح: نفي النقص، ومعنى ﴿تَعَالَىٰ﴾ إثبات الكمال وعلو الشأن والغلبة، ولعل هذا مراد الشرفي / .

﴿١٠١﴾ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال في (الصحاح): ((أبدعت الشيءَ: اخترعته على غير مثال، والله تعالى ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والبديع المبتدِع، والبديع المبتدَع أيضاً)) انتهى المراد.

ومثله في (مفردات الراغب) ورجح في ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما، ورجح (صاحب الكشاف) أن المعنى: بديع سماواته، ولم يجوزه بمعنى مبدِع، بل قال في هذا المعنى: وقيل: البديع بمعنى المبدع)) انتهى.

والراجح: أن ﴿بَدِيعُ﴾ فعيل بمعنى مفعول؛ لأنه استعمال كثير شائع بخلاف فعيل بمعنى مفعِل، ومع هذا يصير حاصل المعنى بالإلتزام أنه تعالى مبتدع السموات والأرض؛ لأنها لما كانت مبدوعة لزم منه أنه مبدعها، أما مفهوم ﴿بَدِيعُ﴾ فالراجح: أنه راجع إلى اسم المفعول، نعم رجح (صاحب الكشاف) أنه صفة مشبهة، فقال: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف كقولك: فلان بديع الشعر)) انتهى.

وهذا أقرب، قال في (لسان العرب): ((والبديع، والبِدْع: الشيء الذي يكون أولاً، وقال قبل هذا: وركيّ بديع حديثه الحفْر ـ ثم قال ـ : وسقاء بديع جديد، وكذلك زمام بديع ـ ثم قال ـ: وحبْل بديع جديد أيضاً، حكاه أبو حنيفة، والبديع من الحبال الذي أُبتدئ فتله، ولم يكن حبلاً فنكث ثم غُزل وأعيد فتله ـ ثم قال ـ: والبديعُ الزِّقُّ الجديد)) انتهى المراد، فهذه المعاني راجعة إلى فعيل بمعنى مفعول، إلا أنها صفات.

﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ من أين يكون ﴿لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وهذا في نفي الولد أي ولد الصلب، وهو غير نفي اتخاذ الولد بالتبني، وفي نفي الولد بالتبني، فالكل منفي عن الله.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ إما أن يكون مستقلاً بنفي الولد، فمعناه: من أين يكون لَه ولد وهو ليس له جنس فيتكثر بوجود فرع يتفرع منه، والولد إنما يكون من جنس الوالد، وهذا خاص بما يقبل الكثرة والقلة، وما يقبل القلة والكثرة يقبل العدم، وما يقبل العدم لا يستحق القدم؛ لأنه ليس واجب الوجود فمن أين يكون لله سبحانه فرع وهو لا يقاس على المخلوقين؟

وإما أن يكون قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ مرتبطاً بقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ فيكون المعنى: أن الولد إنما يكون من الأنثى وليس لله أنثى يتهيأ له منها ولد؛ لأنه ليس له صاحبة زوجة أو ما في معنى الزوجة، ولعل هذا كافٍ في نفي الولد؛ لأن المشركين لا يثبتون له صاحبة بمعنى أنثى يجامعها، فيكون له منها ولد، وإن أثبت بعض النصارى أنثى يكون فيها الولد الموجود عندهم من قبل، والذي هو عندهم ابن من قبل أن يكون في بطن مريم، بل هو عندهم قديم، والسؤال وارد عليهم ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؟! ولم يوجد له بواسطة مريم، فليس جعله ابناً بأولى من جعله أباً؛ لأن الأب والإبن عندهم قديمان، فلا وجه لجعل أحدهما أباً دون الآخر، وجعل الآخر ابناً دون من جعلوه أباً، وكذلك ابن التبني أنى يكون ولداً؟! فالتبني لا يثبت للمتبني الولادة فليس ولداً.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكل شيء مملوك لَه وهو رب كل شيء، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٢-٩٣] وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف:٥٩] والعبودية تنافي البنوة التي معناها يستلزم المشاركة في الجنس ويستلزم للولد مكانة تنافي مكانة العبد، فهو رد على دعوى الولد وعلى دعوى اتخاذ الولد ما ليس ولداً بالأصالة، ولهذا رد الله تعالى على المشركين بإثبات عبودية شركائهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا لنفي الولد بواسطة التبني؛ لأن من الغلط في الرأي والمنافي للحكمة أن يتخذ عبده ولداً بجعله شريكاً له في ملكه، فمن

تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠

هو بكل شيء عليم لا يكون منه اتخاذ الولد؛ لأنه لا يغلط، ولا يجهل وجه الحكمة: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨] ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٢٩].

﴿١٠٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ الذي خلق كل شيء فلا شريك له في مخلوقاته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فهو رب كل شيء، فلا شريك له فيكم ولا في غيركم، والإله: هو المعبود بحق فلا تحق العبادة إلا لله؛ لأن معناها: اعتراف بالعبودية للمعبود.

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ وحده لأنكم عباده وحده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ فكِلُوا أموركم إليه لنفعكم ولدفع الضر عنكم فلا ترجوهما من غيره؛ لأنه لا يقدر على ذلك غيره وهو يقدر على كل شيء، ويعلم أحوالكم، وما تحتاجون إليه، وما ينفعكم وما يضركم، وهو مالككم والمتصرف فيكم كيف يشاء، فهو الوكيل على كل عباده الذي ينبغي أن توكل إليه أمورهم؛ لأنهم لا ينفعهم أحد إلا بإذنه، ولا يضرهم أحد إلا بإذنه، وما أراد لهم من نفع أو ضرٍّ لا يدفعه غيره، فلا وكالة لغيره بهذا المعنى.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ تحقيق لكونه لا يقاس على المخلوقين، فالذين جعلوا له بنين وبنات توهموا أنه يشبه المخلوقين، فجوزوا له البنين والبنات، سواء بمعنى: أنه ولد بنين

وبنات، أو بمعنى: اتخذ بنين وبنات ليكونوا له ريحانة يلتذُّ بهم كما يلتذ الوالد بالولد ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس:٦٨] فقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ تنبيه على مخالفته لكل ما تدركه الأبصار، فلا يقاس بالمخلوقين ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لأنه لا يخفى عليه شيء، وهذا تتميم لبيان الفرق بينه وبين المخلوقين، وعدم التشابه بينه وبينهم في الذات؛ لأنها جازت عليهم الرؤية وامتنعت رؤيته، فهذا وجه التمدح بها، فأما من يجعل ذلك لمجرد نفي الرؤية ويقول بإمكانها عليه فقد لزمه أن هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف:٢٧] سبحان الله وتعالى.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ عن أن تدركه الأبصار ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بخبر كل شيء وغامض سره، فاللطيف هنا بمعنى الخفي كاسمه تعالى الباطن ومن استعمال اللطف في الخفاء قول الحجاج: للطف ما توسلتَ به، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف:١٠٠] أي يدبر لكونه من حيث لا يشعر المخلوق، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف:١٩] أرادوا أن يترفق، بحيث لا يظهر بسبب إقباله أو تصرفه أو إدباره.

وفي (لسان العرب): واللطيف من الكلام ما غمض معناه وخفي، فتفسير ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ هنا بالخفي الذي لا يدرك بالحواس وإنما يعرف بآياته أنسب للسياق من حيث قابل ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ كما قابل ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وقد أفاده (صاحب الكشاف) وهو من أئمة اللغة العربية.

فأما تفسير ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ بلطيف التدبير، فهو يلزم منه أنه لا يصلح أن يقال لَه لطيف؛ لأن اللطيف تدبيره فيكون لطيف التدبير وصفاً جارياً على غير من هو له.

عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ

وقال (صاحب لسان العرب): ((ومعناه [أي اللطيف] والله أعلم: الرفيق بعباده، قال أبو عمر: واللطيف: الذي يوصل إليك أربَك في رفق)) انتهى المراد.

وهذا يستقيم في تفسير ﴿لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى:١٩] بل هو الظاهر فيه لأجل تقييده بعباده، ولا يلزم اتفاق المقيد والمطلق كما لم يلزم في ﴿الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] و﴿بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

وفي (مفردات الراغب): ((وقد يعبر باللطائف [باللطيف] عما لا الحاسة تدركه، ويصح أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم)) انتهى.

وجعل اللطيف بمعنى الخفي الذي لا تدركه الحواس، هو الذي يناسب جعل هذه الآية من البديع كما في (متن التلخيص) حيث جعله من مراعاة النظير، فقال: ((ومنها [أي مراعاة النظير] ما يسميه بعضهم تشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه، نحو ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾)) انتهى.

﴿١٤﴾ ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ قد جاءتكم آيات بينات تهدي البصائر وتنير لها وتقويها، وتكشف عنها ظلمات الجهل وتحييها بإيقاظها للنظر الصحيح، فكأن الآيات من هذه السورة ومن غيرها تفيد بصائر وتوجدها في القلوب، والبصيرة للقلب كالبصر للعين، وجمع البصيرة: بصائر، فقد جاء في هذه السورة ما يكفي ويشفي للهداية إلى إخلاص العبادة لله وتوحيده، ورفض الشرك وتقبيحه.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ ببصيرة قلبه واهتدى للحق ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أبصر أي فائدة ذلك لنفسه ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ قلبه بعد هذه الآيات فعلى نفسه ضُرُّ ذلك العمى ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظكم عن العمى وأردكم عن الردى، إنما أنا رسول الله لأبيِّن لكم سبيل الهدى وأنذر وأبشر.

وهذه الآية جاءت على الحكاية لكلام الرسول ص كما جاء على الحكاية لكلام الملائكة (عليهم السلام)، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٥-١٦٦] ولعل ذلك إشارة إلى أن الآيات في هذه السورة قد بلغت النهاية في بيان بطلان الشرك والتحذير منه، وفي إبطال الكفر فما بقي إلا التعقيب من الرسول ص على ذلك الإحتجاج، والبيان الكافي بأنه قد جاء نوراً للبصائر.. إلى آخر الآية.

﴿١٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ كهذا التصريف للآيات في هذه السورة وتحويلها من أسلوب إلى أسلوب، وهي متفقة في المراد كالآيات في أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا﴾ والآيات في إبراهيم والأنبياء (عليهم السلام)، ثم العودة إلى أسلوب أول السورة بشكل مخالف بعض المخالفة من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى..﴾ إلى آية ﴿..وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ وبيان جهلهم بالله وقياسهم له على المخلوق، وبيان الفرق بشكل قريب للأفهام يبطل القياس، فكذلك يصرف الله الآيات في القرآن في هذه السورة وفي غيرها.

﴿وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((معنى ﴿دَرَسْتَ﴾ حفظت وأتقنت فكانوا إذا سمعوا ورأوا ما يجيء به رسول الله ص من آيات الله ـ عزَّ وجل ـ وتصرفه من أحكامه وبينه من حلاله وحرامه، قالوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ يريدون أنه محكِم لما هو فيه دارس لَه يوهمون أنه × يتعلم ذلك ويدرسه من أخبار الأولين)) انتهى.

وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۚ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ

وقوله تعالى: ﴿لِيَقُولُواْ﴾ الراجح فيه: أنه مجاز شبه قولهم ﴿دَرَسۡتَ﴾ بالغرض المقصود للدلالة على أن الله تعالى صرف الآيات القرآنية وهو يعلم أنهم يقولون من أجله درست، فكأنه صرفها ليقولوا درست، ومن فائدة ذلك: التنبيه على أن الله لا يبالي بقولهم هذا، ولا بضلالهم بعد البيان كما لو كان مقصوداً بالتصريف للآيات.

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ نصرف الآيات؛ لأن تصريف الآيات أبلغ في البيان فنصرفها لنبين القرآن ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فيفهموا وينتفعوا، وقوله: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ أي عادتهم أن يعلموا؛ لأن قلوبهم سليمة من موانع العلم.

﴿١٦﴾ ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿ٱتَّبِعۡ﴾ هذا القرآن وسائر ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لأنه أوحى إليك فأنت أولى من اتبعه؛ ولأنه من ربك المالك لك، فعليك أن تطيعه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فعليك أن تعبده باتباع ما أوحي إليك منه ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تنزهاً عن مخالطتهم وبعداً عن سماع باطلهم وتطهراً عن رجسهم، وليس المراد ترك إبلاغهم الحجة، بل المراد الجمع بين الأمرين الإبلاغ فالإعراض.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْ﴾ فلم يُعصَ مغلوباً، بل هو قادر على أن يحول بينهم وبين الشرك، ولكنه أراد أن يمكنهم من التوحيد والشرك، ويخليهم يختارون لأنفسهم؛ لأن حكمته في ذلك، فلا يحزنك شركهم.

ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن

﴿وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ فما عليك من شركهم أي ضرر ولا مسؤولية فلا تبال بهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ فتردهم عن الشرك إلى التوحيد أو تصنع فيهم ما اقتضاه رأيك، كما هو شأن الوكيل الذي وكل إليه أمر غيره، إنْ عليك إلا البلاغ.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ ﴿وَلَا تَسُبُّواْ﴾ شركاءهم الذين يدعونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عبادة لهم لاعتقادهم فيهم ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ﴾ كما سببتم آلهتهم عدواناً منهم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ بل بجهلهم وضلالهم عن الحق.

﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ فلِمَيل طباعهم إليه يغضبون من تقبيحه؛ لأن من طبع النفس كراهة سب المحبوب، فأما نسبة التزيين إلى الله سبحانه وتعالى ففائدته الدلالة على أنه تعالى لا يبالي بهم ولا بشركهم، فأما معنى التزيين هنا، فلعله بفطرة النفس على حب ما تعودته وألفته أو اعتقدت أنه صواب ولو خطأ، ولعل مرجع حب العقيدة إلى حب النفس، وذلك من مقدمات الإبتلاء، فنسبة التزيين إليه بهذا المعنى مجاز وفائدته كفائدة نسبة الختم إليه تعالى مجازاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم إ : معناه: لما أمليناهم كان إملاؤنا تزييناً لفعلهم، وإن كنا لم نرضَ مع الإملاء بعملهم، وإنما هذا على المجاز لا الحقيقة، ومعنى أن يكون التزيين من الله هو لما جعل وركّب في أنفسهم من الشهوات التي جعلها محنة لهم ليفرق بذلك بين أوليائه وبينهم» انتهى.

جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ

أي ليفرق بين من اتبع هواه ومن خالف هواه طاعة لله ﴿ثُمَّ﴾ بعد تركهم يختارون لأنفسهم ما تهواه أنفسهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ﴾ ليجزيهم بما عملوا ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يوم يرجعون إليه ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ في الدنيا، ويبين لهم حقيقته حتى يعلم أهل الباطل أنهم كانوا في ضلال مبين، وأنهم كانوا كاذبين، أو ينبئهم: يعلمهم بما كانوا يعملون؛ لأنه لم ينسَ بل ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦] وذلك في موضع الحساب والتقديم للعقاب، وهذا أظهر والكل واقع.

١٠٩ ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا﴾ هذا القسم نوع من محاربتهم للرسول والقرآن؛ لأنهم يزعمون أنها لم تأتهم آية، ويجعلون آيات الله لا شيء، أي يجحدون أنها آيات، وقد قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١] و﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أبلغ طاقتهم في المبالغة في الحلف.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي هذه الآية يقول المرتضى × : هذا إخبار من الله ـ عزَّ وجل ـ عن أهل الكفر والنفاق والصدِّ عن الحق والشقاق من أهل الكتاب وغيرهم، كانوا يحلفون بالله ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَا﴾ ويصدقون بمحمد ص عند إتيانها)) انتهى المراد.

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) حاكياً عن المرتضى × : فقال الله سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ومعنى ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ إنما أراد بها من الله سبحانه.

مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ

ثم قال: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأخبر سبحانه بما علم من سرهم وأحاط به من غامض كفرهم، وأنهم إذا رأوا الآيات لم يؤمنوا بها ولا عند المعاينة لها يصدقونها ولا يرجعون بها، ولقد جاءهم من الآيات والمعجزات مع رسول الله ص ما ثبت له به النبوة والتصديق وزاح به الشك عنه وسوء الظن فلم ينتفعوا بذلك ولم يؤمنوا به، بل ثبتوا على كفرهم وأصرُّوا على معصيتهم..إلى قوله × : ..وإنما كان هذا منهم عبثاً وتمرداً وتعنتاً لغير قصد الهدى ولا لطلب التقوى)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ جواب عن مطالبتهم بآية تدل على أنهم كانوا يحلفون مطالبة للنبي ص كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلاَ اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف:٢٠٣] فأمره الله أن يجيب عنهم بأن الآيات ليست عنده ﴿إنما﴾ هي ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يأتي بها متى شاء وذلك لأن مطالبتهم لَه بالآية مبني على كفرهم بكونها من الله تصديقاً لَه فرد عليهم هنا وفي (سورة العنكبوت). وقد مرَّ ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ وهو يناسب ما هنا.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قال في (الصحاح): ((وقلبت الشيء، فانقلب: أي انكب)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((القلب: تحويل الشيء عن وجهه ـ ثم قال ـ : وقلبه، وقلّبه: حوّله ظهراً لبطنٍ، وقلبت الشيء، فانقلب: أي انكبَّ)) انتهى المراد.

فالمعنى: تغيير القلوب والأبصار عن حالتها الطبيعية، كأنها كُبَّت كما يكب الإناء فلا يعي شيئاً هذا في الأفئدة، أما في الأبصار فكبها يبطل اتجاهها

إلى المبصَر فهي لكبّها لا تراه، وهذا مجاز لأن أفئدتهم وأبصارهم لو كبت حقيقة لبطل فهمهم ورؤيتهم لكل شيء، ولذلك فهو مجاز كجعل الصدر ضيقاً.

وحاصل المعنى: أن أفئدتهم وأبصارهم صارت بسبب إبائهم وامتناعهم من الإيمان عند سماعهم للقرآن ووضوح أنه من الله أنزله مصدقاً لرسوله فلتمردهم عن الإيمان بعد وضوح الحق صارت أفئدتهم لا تصلح للإيمان كأنها منكوسة؛ لأن معصيتهم أفسدتها ورانت عليها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٣-١٤].

فأما نسبة تغيير القلوب والأبصار هنا إلى الله تعالى، فلأنه تركها مع أنه فطَرَها قابلةً للتغير والنفار من الحق، فلما تركها لأهلها يفسدونها بالتوجه إلى الباطل والتعود لَه واعتباره مطابقاً لأهوائهم وأغراضهم النفسية حتى كرهوا الحق ونفروا منه، كأنهم لا يستطيعون الرجوع إليه لفرط كراهتهم له، فاعتبر ترك الله لهم يفسدون قلوبهم إفساداً لقلوبهم، كما تقول: أفسد فلان ولده، إذا لم يؤدبه وأعطاه من المال والكسوة ولذات المأكول ونحو ذلك مع إهماله عن التوجيه الحسن والتربية الصالحة، فنسب إليه فساد ولده، واعتبر مسبباً له على طريقة المجاز.

فكذلك من هذه الجهة ترك الله للعصاة يفسدون قلوبهم جعل إفساداً منه لها مجازاً، إلا أنه من الله سبحانه وتعالى حسن؛ لأنه عقوبة لهم على تمردهم، وقد مر نحو هذا في تفسير ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] وأفئدة: جمع فؤاد وقد فسر بباطن القلب في قوله تعالى: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة:٧].

ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيّٖ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ

﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ نتركهم في طغيانهم، والطغيان: تجاوز الحد المعتاد، نحو ﴿لَمَّا طَغَى الْمَاءُ﴾ [الحاقة:١١] والعمه: الحيرة والتردد، قال الراغب: ((العمه: التردد من التحير)) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((العمه: التحيُّر والتردد ـ ثم قال ـ: قال رؤبة:

ومَهْمَهٍ أطرافه في مَهْمَهِ أعمى الهدى بالجاهلين العُمَّهِ))

انتهى المراد. وقوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ يفيد: أنه لا يهديهم بعد فساد قلوبهم، فهو فساد مستمر لا يكون بعده إيمان.

﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ﴾ هذا بيان لكذب الذين أقسموا ﴿لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۚ﴾ فبيَّن تعالى: أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم الآيات العظيمة المذكورة فأنزل الله ﴿إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ مصدقين للرسول ص ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ أي كلم هؤلاء الحالفين الموتى، فقالوا لهم: إن محمداً ص نبي صادق، وحشر الله عليهم كل شيء مصدقاً له ص.

﴿وَحَشَرۡنَا﴾ أي أخرجنا، وهذا عام للأحياء والأموات، فالحشر للأحياء: إخراجُها من أماكنها ومكامنها كأوجرة السباع وأوكار الطيور، والحشرُ للأموات: إخراجُهم من بطن الأرض، وإخراجهم ـ أيضاً ـ من أماكنهم بالبعث والإقبال بهم إلى هؤلاء الذين أقسموا، فقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٖ﴾ عام لكل المخلوقات من الحيوانات والجمادات، لو حشرها الله على هؤلاء الذين أقسموا مصدقة للرسول ص ما آمنوا.

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي لم يكن من شأنهم مبالغةً في النفي، كقول إبليس لعنه الله: ﴿لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] وقوله تعالى: ﴿قِبَلاً﴾ قرئ [بكسر القاف، وفتح الباء] قال الراغب: ومن قرأ ﴿قَبَلاً﴾ فمعناه: عياناً، ومثله في (الصحاح)، وقرئ ﴿قُبُلاً﴾ [بضم القاف والباء] قال في (الصحاح): قال الأخفش: أي قبيلاً، قال في (الصحاح): ((والقبيل: الجماعة، تكون من الثلاثة فصاعداً من قوم شتّى، مثل الروم، والزنج، والعرب، والجمع: قُبُل)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أصنافاً)) قال في (الصحاح): ((وقال الحسن: معاينة)) انتهى، فجعل معنى القراءتين واحدة، ومعنى: معاينة، أن يعاين هؤلاء الذين أقسموا كل شيء محشوراً عليهم قد جاءهم مصدقاً للرسول ص ﴿مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ: وإنما قال ذلك ـ عزَّ وجل ـ دليلاً على قدرته عليهم، وأنهم لا يمتنعوا [كذا] بغلبة، ولكنهم اختاروا هلاك أنفسهم، إذ مكنهم من الإختيار لفعلهم)) انتهى.

قلت: فالمعنى لكنه شاء أن يخليهم يختارون لأنفسهم ويذرهم في طغيانهم ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ظاهر الضمير عوده إلى الذين أقسموا أي ﴿يَجْهَلُونَ﴾ أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم تلك الآيات العظيمة، فهم عازمون على الإيمان لو جاءتهم آية كما يريدون، ولكن الله عليم بهم وبما يكون منهم لو جاءتهم، وقد بيّن سبحانه: أنهم لا يؤمنون ولو جاءت آية كما يقترحون، فلم يكن من الحكمة إجابتهم إلى ما اقترحوا، ولأن الله غني عن إظهارها لبيان كذبهم.

رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ

﴿١١٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما مكنا هؤلاء الكفار من معاداة الحق وسببنا لها ببيان الحق الذي يغيظهم حتى إنكم لو سببتم الذين يدعون من دون الله لسبوا الله، وحتى أقسموا جهد أيمانهم ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ جحداً لنزول الآيات البينات من القرآن وغيره ملكنا الكفار قبلهم الذين عادوا الأنبياء وجادلوا بالباطل وسببنا لمعاداتهم لهم بما أوحيناه إلى الأنبياء من الحق الذي يكرهه الكافرون ويبغضون من جاء به، كقوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧].

وقوله تعالى: ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ مفعول لـ(جعلنا) أي جعلنا شياطين الإنس عدواً، أو عطف بيان كما قدمت في ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠] من أنه لا يشترط التطابق في التعريف والتنكير على ما اختاره الرضي.

والشيطان: قال في (الصحاح): ((والشيطان معروف، وكل عاتٍ من الإنس والجن والدواب شيطان، قال جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزل وهن يهوينني إذ كنت شيطانا

والعرب تسمي الحية شيطاناً)) انتهى المراد.

ولعله خاص بما يضر بطريقة خفية، كمن يغوي بتضليله أو بمكره وكيده أو حيلته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة:١٤].

وقوله تعالى: ﴿يُوحِي﴾ أي يوسوس أو يقول بطريقة خفية كما هي عادة المضلل يخفي تضليله لئلا يكشف باطله، وقوله: ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لعله أظهر في وسوسة الجن للإنس، والزخرف: الزينة، فزخرف القول: ما زينوه بوجه مرغّب في قبوله، والغرور: ما يغتر به كما أفاده في (الصحاح) أي يخدع به الغافل صفة لزخرف القول.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي أنه أراد أن يخليهم وشأنهم، ولو شاء لسلبهم القدرة على ذلك فلم يفعلوه، فهو تعالى لم يعصَ مغلوباً، والضمير لما ذكر من العداوة والوحي ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (ذرهم) أي دعهم أي اتركهم وما يفترونه مما يوحي بعضهم إلى بعض، أي اتركهم مع باطلهم أي كِلْ أمرهم إليّ ولا تشتغل بهم، فليس عليك إلا تبليغهم وقد بلغتهم فعادوك وخادعوا ليبطلوا الحق، والواو في قوله: ﴿وَمَا﴾ واو المعية.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ (١١٣) (تصغى) تميل ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى ما يفترون الذي هو زخرف القول، أو إلى زخرف القول ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فلا يخافون العذاب، فلذلك تميل أفئدتهم إلى سماع الباطل من شياطين الإنس والجن؛ لأنه لا غرض لهم في طلب الحق، وليرضوا زخرف القول ليرغبوا فيه ويقبلوه ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ وليكتسبوا من الإثم بسبب قبولهم لزخرف القول ما هم مكتسبون، أي جعلنا لكل نبي عدواً يفسدون ويضلون ويفترون ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ﴾ أي أرسلنا وأوحينا ما يغيظ الشياطين فيكونون أعداء للنبي ليترتب عليه ما ترتب من محاربتهم للدين وإضلالهم لغير المؤمنين.

أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

(واللام) إما للتعليل المجازي، أي شبه ذلك بالغرض المقصود في أن الله تعالى أنزل الحق الذي يغيظهم وهو يعلم ما يترتب عليه منهم لكنه لم يبال بهم لغضبه عليهم واستغنائه عنهم، حتى كأنه يريد ذلك منهم، فأكَّد الدلالةَ على عدم المبالاة بهم باللام تشبيهاً لَه بإرادة ما يكون منهم في أنه لم يصرفه عن إنزال الحق الذي يغيظهم، وإما (لام العاقبة) كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] والأول أرجح في هذا السياق.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ: هذا يرجع إلى قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ ولكنه من التقديم والتأخير، (والواو) من قوله: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ ليس لها معنى إلا الصلة والزينة للكلام، ومعنى ﴿لِتَصْغَىٰٓ﴾: أي فعل الشياطين ووحيهم وكلامهم، وزينوا [كذا] كذبهم ومحالهم لتميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وليرضوا ذلك ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي ليكتسبوا من الكفر ما هم مكتسبون، أي ليكتسبوا ما كسب شياطينهم، ومعنى ﴿مَا هُم﴾ ها هنا اسم لشياطينهم)) انتهى، يعني: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿مَا هُم﴾ راجع إلى الشياطين.

﴿١١٤﴾ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ قد حكم الله بإخلاص العبادة له ورفض الشرك كما تسمعون في هذه

السورة حكماً مبيناً محفوفاً بالحجة الصحيحة ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ أفغير أحكم الحاكمين، وأصدق القائلين، وعلام الغيوب الذي هو الله ﴿أَبْتَغِى﴾ أحداً شأنه أن يحكم، وأعدِلُ عن الله الذي قوله الحق إلى غيره ليحكم ببطلان الشرك أو صحته؟!

وهذا كقول يوسف × : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠] فهو تنبيه وتعليم للجاهلين إنه ليس لمخلوق أن يقول في إثبات الشرك بما شاء، فالمقلدون لآبائهم في الشرك اعتمدوا على قول آبائهم بغير الحق؛ لأنه ليس لآبائهم أن يحكموا بما شاءوا ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وقد مرّ في السورة هذه، إلا أنه في هذه الآية كالتفريع على ما مر.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ وهو الذي أقام الحجة، وأتم النعمة بأن أنزل إليكم القرآن مفصل المعاني، كقوله تعالى: ﴿أُحْكِمَتْ ءَايَاتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود:١] أي واضح الدلالة على سبيل الهدى فقد حكم بالحق وقطع العلة، فكيف أعدل عنه حكماً إلى غيره بلا برهان، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ﴾ ولم يقل: (إلي) ليدل على أنه قد حكم بيني وبينكم بالقرآن الذي أنزله خطاباً لكم وحجة عليكم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ علماء بني إسرائيل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أن هذا الكتاب ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة والصواب، فهو الحق وخلافه الباطل.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ من الشاكّين وهذا خطاب للنبي ص يقصد به غير النبي ص؛ لأنه عطف على قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾.

ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ

قال الشرفي / في (المصابيح): ((وما أحسن قول المرتضى × ذلك، فإنه قال: لم يكن محمد ص من الممترين، ولم يخبر الله سبحانه أنه من الممترين، وإنما قال: لا تكن منهم، كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] وهو فلم يشرك ص، وهذا في اللغة جائز..)) إلخ.

﴿١١٥﴾ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ قرئ ﴿كَلِمَتُ﴾ بالإفراد و﴿كَلِمَات﴾ بالجمع، وهو من العطف على قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ من حيث هو حكاية لكلام النبي ص، بمعنى: قل: أفغير الله، أو تقول: أفغير الله أبتغي حكماً، فأكد هذا بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ﴾ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ فكلماته سبحانه، أحكامه فيما أنزل من الكتب، ومنها: ﴿أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [هود:١٤] وأمره: بأن لا نعبد إلا إياه، وكلمته هي هذه التي توارثها الأنبياء، أنزلها على الأنبياء أولهم وآخرهم ﴿صِدْقًا﴾ في معناها ﴿وَعَدْلاً﴾ في قضائها ﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ كقوله فيما مرّ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام:٣٤] لأنه الحق لا يبدل لأن خلافه باطل ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد:٤١].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لا يخفى عليه قول ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء ولعله وعيد على من خالف حكمه تعالى من شياطين الإنس والجن وغيرهم.

﴿١١٦﴾ ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ هذا ـ أيضاً ـ راجع إلى قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ اللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾ و﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ المشركون وسائر المبطلين، فقد انتشر الشرك في الأرض باختلاف صوَره في العرب والعجم وفي أهل الكتابين وغيرهم، وكذلك انتشر الباطل وشاع في الأرض باختلاف أنواعه تبعاً لاختلاف الأهواء، وللجهل، وللشياطين.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في دياناتهم ومللهم ونحلهم ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لا البرهان ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ ليسوا علماء إنما هم أهل تخمين وتقدير وظن كخرص الثمر وذلك لا يفيد علماً ولا ينجي من الضلال، بل بسببه وقع الضلال والإضلال من التابع والمتبوع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: يظنون ويكذبون)) انتهى.

قال الراغب: ((وحقيقة ذلك: أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال [له]: خرص، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه)) انتهى المراد.

ولعله يقال: الأولى تفسير ﴿يَخۡرُصُونَ﴾ بيكذبون لأن الظن قد ذكر في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والجواب: أن قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ كلام في مستندهم، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ كلام فيهم أنهم ليسوا أهل علم في أباطيلهم ولا معتمدين على بينة معلومة، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ عِنۡدَكُمۡ مِنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَا إِنۡ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنۡ أَنۡتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ فدل ذلك على أن أكثر أهل الأرض لا يعتمدون على كتاب من الله ولا مستند شرعي.

عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ

وهذا وإن كان قد فهم من قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لكن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يوضح أنه ليس لهم أصل معلوم يعتمدون عليه في ظنهم، كمن يعتمد على دليل صحيح في أنه من الله، ولكنه إنما يظن دلالته على ما يرى فليسوا كذلك، بل ليسوا أهل علم ولا بينة من الله وإنما هم يخرصون، فقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ كلام فيما يتبعونه.

وقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ كلام فيهم ببيان جهلهم بما يصح اعتماده ـ والله أعلم، هذا ويحتمل: أنه بمعنى يكذبون، فقد ثبت استعمال الخرص بمعنى الكذب والكذب وسيلة من وسائل الإضلال، وقد قال تعالى: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران:٢٤] لكنه سبب للضلال خاص بالسامع فأما الكاذب نفسه فليس سبباً لضلاله، والكلام عام لأكثر أهل الأرض لبيان سبب ضلالهم، فليتأمل.

﴿١١٧﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وقد أعلمك بضلال أكثر من في الأرض وأعلمك بسبيل الإهتداء، فاستمسك بالذي أوحي إليك.

﴿١١٨﴾ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ تفريع على قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ وتأكيد ذلك بما عطف عليه لبيان أن حكم الله هو الحق، والتأكيد بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ لئلا نحرم ما حرم الجاهلون من الأنعام التي كانوا يحرمونها كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وهذا ابتداء رد عليهم في هذا الشان بعد الرد عليهم في الشرك.

وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ

﴿١١٩﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿مَا لَكُمْ﴾ كلمة إنكار واستبعاد، مثل: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ﴾ [الكهف:٤٩] وهي سؤال عن السبب لترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه.

﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ وقد بَيَّن لكم ما حرم عليكم بياناً كاملاً ولم يحرم عليكم تلك التي حرمتها الجاهلية ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ والإستثناء من الضمير المحذوف الذي هو عائد الموصول أي حرمه عليكم ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ فقد أحله، وقد تكرر في القرآن الأمر بالأكل مما ذكر.

والراجح : أنه كناية عن استحلاله؛ لأن الغالب في السامعين أن لا يمتنعوا من الأكل منه إلا لاعتقادهم تحريمه أو شكهم فيه إذا لم يؤمنوا، فقال: ﴿إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمنين بما أنزل الله لا يرتابون في حل ما أحله الله وإن حرمه آباؤهم، وإذا استحلوه أكلوا منه متى وجدوه لتوفر الداعي وعدم الصارف.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الإنس والجن ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ عن طريق الصواب ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ التي يتبعونها، فتضلهم عن سبيل الله ﴿بِغَيْرِ﴾ استناد إلى ﴿عِلْمٍ﴾ وهذا لا ينافي اعتمادهم على الظن والخرص لأن اعتماده مما يهوون ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ للحق الظالمين بتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فهذا اعتداء في ملك الله.

وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾

قال الراغب: ((والإعتداء: مجاوزة الحق، وقال في (الصحاح): ((والعدوان: الظلم الصراح، وقد عدا عليه، وتعدى عليه، واعتدى، كله بمعنى)) انتهى، وهذا أقرب فتسمى مجاوزة الحق: اعتداء، من حيث هي ظلم فربك أعلم بالمعتدين؛ لأن علمه محيط بهم، وباعتدائهم، وبسبب اعتدائهم، وبسرّهم ونياتهم، فاستمسك بخبره عنهم.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ ﴿ذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ ما يظهر للناس من بعضهم ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ ما يخفى بإسرار أو كتمان، أو بإضمار في القلب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((الإثم: الذنب)) انتهى.

وعلى هذا: فهو عام يدخل في عمومه الفواحش والبغي، وكسب الذنب: تحمله، والإقتراف: الإكتساب هنا، وأصل الكسب العمل لتحصيل الرزق، فاستعمل في كسب الإثم لأن الإنسان يطلبه كأنه فائدة يستفيدها، أو هو تهكم بالمذنب، أو مشاكلة تقديرية، لأن الذي ينبغي للإنسان أن يسعى لما ينفعه، والمذنب جعل الذنب بدلاً مما ينفعه، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ﴾ يفيد التكرار، فيدل على أنه لا يدخل في عمومه صاحب الزلة الذي لا يصر عليها.

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ﴾ ﴿مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ يعم الميتة ونحوها، ويعم ما أهل به لغير الله ولم يذكر عليه اسم الله.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : فنهاهم الله سبحانه عن أكل ذبائح الملحدين والجاحدين المشبهين والكفرة المتمردين؛ لأن هؤلاء كلهم غير عارف بالله ـ عزَّ وجل ـ ولا مقرّ، وإنما يعرفه من آمن به وصدق رسله ووحّده، وذبائحهم فميتة غير ذكية لا يحل أكلها، ولا يسع مسلماً الإنتفاع بها)) انتهى.

قلت: يعني: أن المشبه غير عارف بالله، فهو إذا سمى يعبِّر باسم الله عن الصورة التي يتوهمها، فلم يسم الله على الحقيقة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ﴾ قال الإمام الهادي × في (الأحكام) في (كتاب الذبائح): ((فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ فحرم بذلك الميتة وما ذبحت الجاهلية لغير الله، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞ﴾ يريد: أن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه فمعصية)) انتهى.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ الأقرب: أن المراد شياطين الجن يوسوسون إلى أوليائهم من الإنس الدعاة إلى ما هو اتباع الشياطين ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ ليغالبوكم بما يوسوسون به من الشبهة والتلبيس والتغرير والخداع ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ﴾ وإن وافقتموهم على ما جادلوكم لأجله وسلَّمتم لهم تحليل ما لم يذكر اسم الله عليه ﴿إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ بتحليل ما حرم الله؛ لأنكم جعلتم الحكم لغير الله، وهو إشراك في مُلك الله لغير الله سبحانه.

وقد أكد الحكم بالشرك بـ(إنَّ) و(اللام) فيبعد حمله على المجاز، مع أن الأصل الحقيقة، وقد قال تعالى: ﴿وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:٢٦] وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١] فظهر: أن جعل الحكم لغير الله من الشرك الأكبر الذي هو شرك العدل بالله سبحانه.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟

﴿١٢٢﴾ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ هذه الآية الكريمة تبيِّن: أنه لا يستوي من هداه الله للإيمان وعلمه القرآن وسائر ما جاء به الرسول ص، ومن لم يزل في الجاهلية الجهلاء قد أصرَّ على الكفر حتى خذل، فهو لا يزال في ظلمات الجاهلية ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ فكأنه في الظلمات لا يبصر الطريق ولا يزال فيها، فقد تراكمت عليهم الظلمات: ظلمة الجهل البسيط، وظلمة العقائد الباطلة من الشرك وغيره، ظلمة الجهل المركب، وظلمة الأثام، والظُلَم التي ترين على القلوب، وظلمة الحواجز بينهم وبين الإيمان من الكبر والحسد والتعصب للآباء ولدينهم الذي نشأوا عليه، وتزيين الشياطين لهم ما هم عليه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾؟! سؤال إنكاري، أي لا يكون من كان ميتاً بالجهل أو بالكفر ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ هديناه للإيمان فصار مؤمناً حي القلب بالإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ علمناه ما جاء به الرسول ص من الهدى ﴿يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ يعمل بالخير مع المؤمنين ويكون مع الصادقين ﴿كَمَن﴾ صفته أنه ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

قال في (الكشاف): ((ومعنى قوله: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كمن صفته هذه، وهي قوله: ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ بمعنى: هو في الظلمات ليس بخارج منها، كقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ﴾ [محمد:١٥] أي صفتها هذه، وهي قوله: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ﴾)) انتهى، فعلى هذا الظلمات مجاز عن الجهل والشرك وسائر ما ذكرت.

فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما زين لهذا الذي في الظلمات ما كان مستمراً عليه آلفاً لَه من أعماله الباطلة ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ﴾ كلهم ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ولعل الكلام الأول في شياطينهم، أو في كبير شياطينهم كأبي جهل، فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما فهم من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ وهو أنه قد زين له ما كان يعمل.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ وكما جعلنا هذا الذي في الظلمات حيث هو أي في مكة ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ وجعلهم في كل قرية: إسكانهم فيها حتى صاروا أكابر مجرميها ليمكروا بأهل الحق وبأتباعهم من مجرميها، وهذه (اللام) مثلها في قوله تعالى: ﴿لِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰ﴾ وقد مرَّ قريباً مبسوطاً.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ولا يضر المؤمنين مكرهم فالحصر إضافي، أو الضمير في أنفسهم راجع إلى ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:٨٤] وهذا لأنهم يضلون بالمكر من يتبعهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يشعرون أنهم لا يضر مكرهم إلا من هو مثلهم في الإجرام، والأول أرجح، فالمعنى: إنهم يمكرون ضد الإيمان ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ هذا المكر ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن إثمه عليهم لا يتعداهم، فهم يمكرون بأنفسهم يحتالون في تعذيبها وما يشعرون بذلك.

رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن

﴿١٢٤﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ قال الشرفي / : ((قال المرتضى × : هذا إخبار من الله ـ عزَّ وجل ـ عن الظالمين الخونة الكافرين أنهم إذا جاءتهم آية من آيات الله سبحانه مع محمد صلوات الله عليه وآله وسلم تبهر العقول وتصحح النبوة ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ﴾ بها ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ مثلها كما أوتيها فإذا أوتينا ذلك آمنا وصدقنا أنه من الله ـ عزّ وجل ـ فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أراد أنكم لستم في موضع الرسالة ولا منزلة الطهارة، ولا بأهل ثقة ولا أمانة، فاختار الله سبحانه لرسالته وما أنزل من حجته محمداً ص؛ لأمانته، وفضله، ومعرفته بالله ـ عزَّ وجل ـ وقدره عنده، وقد يروى أن الذي قال هذه المقالة: الوليد بن المغيرة المخزومي وأبو مسعود الثقفي)) انتهى [أي كلام المرتضى الذي حكاه في (المصابيح)].

وقد مرَّ في السورة قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ فيحتمل أن هذا الجواب هو المراد في هذه الآية، أو كلا المعنيين، وهذا أظهر لاختلاف سبب الجواب، وما ذكره المرتضى × من قوله: إنكم لستم في موضع الرسالة، تفيده الآية بطريقة التعريض ومعونة الحال.

فأما أصل السياق فهو يدل على أن محمداً ص أهل للرسالة وأن غيره لا يصلح أن توضع فيه الرسالة، وفيها مدح عظيم لرسول الله ص من حيث دلت على أن الله اختاره للرسالة لأنه محلها الذي يصلح لها، وقد روي عن

يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا

رسول الله ص الدعاء بين الجلالتين: ((اللهم أقل العثرة، واغفر الزلة، واغسل الحوبة، واقبل التوبة، وتجاوز عن الخطيئة، وارحم من لا ناصر له سواك)) وهذا الدعاء خضوع لله تعالى، وابتعاد عن العجب أو الفخر، كما قال نبي الله نوح × فيما حكاه الله عنه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا..﴾ إلى قوله: ﴿..إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١].

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ ﴿صَغَارٌ﴾ حقارة وهوان وذلة وهو جزاء مناسب لتكبرهم عن الإيمان، ومكرهم ضده، والذين أجرموا الذين جنَوا وأذنبوا وقوله: ﴿صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عند لقاء الله في الآخرة ﴿بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ﴾ بما تكرر منهم من المكر كله لا يضيع منه شيء، ولعل هذا راجع إلى ما حكاه الله ـ عزَّ وجل ـ عن شياطين الإنس والجن وعن أكابر المجرمين وعن القائل: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ وعيد على الكل.

﴿١٢٥﴾ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي هذه الآية وتفسيرها يقول القاسم × : تأويلها من يرد الله أن يرشده فيزيده هدى على هدى؛ لأنه لا يعطي الهداية إلا من اهتدى، كما قال تبارك وتعالى في زيادته لهم هدى إلى هداهم: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧] والتقوى فمن الهدى، وآتى فمعناها: أعطى، فهو آتاهم التقوى بتبصرته وتقويته لهم على ما عملوا منها، وبمنعه لهم تبارك وتعالى من الضلالة ونهيه لهم عنها.

وليس بين الضلال والهدى منزلة هادية لأهلها ولا مضلة ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ بعد الهدى ﴿يَشْرَحْ﴾ يريد يفسح ﴿صَدْرَهُۥ﴾ للتقوى ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ بعد الضلالة والعمى ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ﴾ بما اتبع من الضلالة والهوى ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يفعل الله بأهل الضلالة والإعتداء)) انتهى.

وقال الشرفي حاكياً عن المرتضى، عن أبيه الهادي × في جملة كلام: ((وأما تضييق الصدر الذي ذكر الله سبحانه أنه يفعله بعبده، فإنما ذلك خذلان من الله لأهل المعاصي على ما يكون من جرأتهم على الله ـ عزَّ وجل ـ وإقدامهم على معاصيه، فإذا حادُّوا الله وخالفوه وبإظهار المعصية باينوه خذلهم وتبرأ منهم فعدموا التوفيق، فضاقت صدورهم واختلطت عليهم أمورهم بما استجلبوه في معصيتهم جزاء على فعلهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] والله تعالى ليس يظلم عبيده، ولا يخرجهم من طاعته، ولا يدخلهم في معصيته، بل طريق الرشد هداهم، وسبيل نجاتهم آتاهم، كما قال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿إِنَّ اللَّـهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤])) انتهى المراد نقله من (المصابيح).

وأما ﴿حَرَجًا﴾ فقال في (الصحاح): ((مكان حرَج، وحرِج: أي ضيق كثير الشجر لا تصل إليه الراعية)) انتهى.

﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فاستحقوا بتركهم الإيمان وإصرارهم على الكفر، أن يضيق صدورهم عن الإسلام فيثقل عليها، لا بمعنى أنه يخلق الكفر فيها ولا يجبرهم عليه، ولكن يكرهونه لثقله ولضيق صدورهم عنه وعدم رغبتهم فيه، فجعل الرجس هو الإضلال المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾.

صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا

فيكون *حاصل المعنى*: كذلك يضل الله الذين لا يؤمنون، وسمى الضلال رجساً لقذارته، من حيث كونه كالسبب للعصيان والإستمرار على ترك الإيمان.

وقد فسر الإمام الهادي × جعل الصدر ضيقاً بالخذلان المؤدي إلى الضيق، وذلك لأن الشياطين تزين لَه الباطل، وتذكره ثقل الإيمان لما فيه من التكليف لرفض الهوى وتحمُّل التكاليف الشرعية والخضوع للحق ورفض الكبر والحسد، وتوسوس لَه أنه لا يستطيع هذا في حال أنه فاقد للطف قد خلي بينه وبين شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

فنسبة التضييق إلى الله كنسبة الإفساد للولد إلى والده إذا أهمل تربيته وتركه يتبع هواه، إلا أن تضييق صدر الذي لا يؤمن حق؛ لأنه عقوبة على تمرده على الله، وفي هذا الكلام دلالة على أن الله غني عنهم لا يبالي بضلالهم، وأنه قد غضب عليهم وفي ذلك غاية التحذير من التعرض للخذلان.

﴿١٢٦﴾ ﴿وَهَـٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ طريق ربك أي سنته في الهداية والإضلال ليس له طريق غيره وهو صراط مستقيم لا عوج فيه؛ لأنه إحسان إلى المؤمن وعدل في الكافر ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي قد بيَّنا الآيات بيان تفصيل ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ بتذكير الله لهم وينتبهون من غفلتهم ببيان الله لهم فهم الذين ينتفعون بالآيات، وقد فصل الله في هذه السورة وبين عظمته وجلاله واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، وبيَّن سبيل المشركين، وبيَّن ضلالهم واستحقاقهم للإضلال، وفصل الكلام في ذلك تفصيلاً نافعاً للمؤمنين، وكذلك في غير هذه السورة من القرآن الحكيم.

يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي

﴿١٢٧﴾ ﴿لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ للقوم الذين يذّكرون ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ وهي الجنة التي وعد المتقون، فهي دار السلامة من كل شر ومن كل ضر ومن كل عناء ومن كل هم وغم ومن كل مكروه، قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أي في ضمانه، كما تقول: لفلان عندي حق)) انتهى المراد.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَهُوَ﴾ أي ربهم ﴿وَلِيُّهُم﴾ المتولي لرعايتهم وإصلاح شأنهم وصرف كل مكروه عنهم، وإعطائهم من الثواب ما فيه سعادتهم ومن فضله ما يشاء بسبب ما كانوا يعملون في الأيام الخالية، أي أعمالهم الصالحات التي كانوا يعملونها.

﴿١٢٨﴾ ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ واذكر يوم نحشر العباد الذين هديناهم والذين أضللناهم، مجموعين في موقف العرض على الله فنقول:

﴿يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أخذتم من الإنس أتباعاً لكم كثيراً، وقد روي أنهم من بني آدم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون.

﴿وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ﴾ أولياء الجن من الإنس، والمراد بالجن: شياطينهم، وفي هذا دلالة على كثرتهم بالنسبة إلى الصالحين منهم حتى كأن الصالحين غير موجودين لقلتهم، وكأن شياطينهم هم الجن كلهم، فقال ﴿أَوۡلِيَآؤُهُم﴾ أي أتباعهم الذين صاروا معهم في الدنيا ﴿رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ﴾ استمتعنا بهم واستمتعوا بنا، أي نلنا بهم أي بسببهم أغراضاً دنيوية تهواها أنفسنا، ونالوا بنا أغراضاً لهم تهواها أنفسهم، أي بسببنا، فكأنا طلبنا بهم متاعاً لنا، وكأنهم طلبوا بنا متاعاً لهم.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ ﴿وَبَلَغْنَآ﴾ نحن والجن ﴿أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ والراجح: أن الأجل هنا أجل الحياة الآخرة، وموعد لقائهم لربهم إقرار منهم بذلك حين لا ينفعهم الإقرار، والأجل الواحد: هو موعد لقائهم لربهم ووقوفهم موقف الحساب.

﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ فرتب على إقرارهم ببلوغ الأجل إخبارهم بأن النار مثواهم أي مقرهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا مدة الموقف والسؤال فيه والحساب وما يكون فيه من الإحتجاج عليهم، فهو استثناء من المدة المفهومة من قوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ لأنه لولا الإستثناء لكان معنى الكلام: أنها مقركم باقين فيها من الآن.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): وهذا الإستثناء منه في مدة العرض يوم القيامة، وذلك ما بين بعثهم من قبورهم إلى حين مصيرهم إلى جهنم، فكأنه قال: النار مثواكم إلا في هذه المدة التي ذكرها، فإنهم فيها غير خالدين [في النار]...)) إلخ كلامه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يجزي على مقتضى الحكمة، ولا يهمل الجزاء بعد تمكينهم في الدنيا من أسباب العذاب من الشرك والظلم وأنواع الفساد في الأرض، وقد علل بعزته وحكمته تعالى في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾ يفيد: علمه باستحقاقهم العذاب الدائم، وعلمه بما عملوا في الدنيا مما استحقوا به العذاب.

بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ

﴿١٢٩﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿نُوَلِّى﴾ نجعله والياً عليه يستحوذ عليه ويكون له عليه سلطان وقوة على إغوائه، وذلك بالتخلية والتمكين من غير سلب القدرة عن التابع ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكما ولينا شياطين الجن أتباعهم من الإنس ﴿نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الجن أو الإنس ﴿بَعْضًۢا﴾ من الجن والإنس ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي عقوبة بذنوبهم التي كانوا يكسبونها أي تكررت منهم واستمروا وأصروا عليها حتى استحقوا الخذلان والتسليط عليهم، وهذه الآية الكريمة جملة معترضة بين قصة المشركين يوم الحشر.

﴿١٣٠﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ هذا تصوير لموقف المشركين يوم الحشر من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ وهذا سؤال احتجاج عليهم بأن الرسل قد جاءتهم يبينون لهم آيات الله الدالة عليه وعلى توحيده وعلى بطلان الشرك، وينذرونهم ملاقاة يوم حشرهم وما فيه من العذاب الشديد.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ قيل: المراد من جملتكم تعرفونهم ويمكنكم التعلم منهم وهم من الإنس، والظاهر: أن الرسل من الثقلين ولا ينافيه أن محمداً ص رسول إليهم كلهم؛ لأنه يصدق بالرسل من قبله، ولا مانع من وجود رسل من الجن قبل محمد ص فلا موجب للتأويل.

وقيل: الرسل يعم رسل الله ورسلهم، فرسل الله من الإنس، ولهم رسل من الجن يبلغونهم فيقصون عليهم الآيات وينذرونهم وحجتهم حجة رسل الله، وهذا قريب إلا أن المتبادر من الرسل رسل الله، وليس في القرآن أنهم أرسلوا إلى الجن رسلاً من الجن.

فأما قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف:٢٩] فليس فيه أن محمداً ص أرسلهم.

فإن قيل: هم رسل الله ـ أيضاً ـ إلى قومهم؛ لأنه وجب عليهم التبليغ؟

قلنا: هذا لا يثبت لهم اسم الرسالة من الله حقيقة، كما أن الطائفة في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة:١٢٢] لم يثبت لها اسم الرسالة من الله، وكذلك المبلغون من العلماء بعد الرسول ص لا يقال لهم: (رسل الله) ولذا قال بعض المشركين: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ أي من الوحي إليهم وإيتائهم الصحف المطهرة، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فظهر: أن اسم الرسالة خاص بمن أوحى الله إليه شريعة ليبلغها.

وقوله تعالى: ﴿يَقُصُّونَ﴾ كقوله: ﴿يَتْلُونَ﴾ [الزمر:٧١] لأنهم يبلغون آيات الله كما جاءت الرسل من الله، قال الراغب: ((القصّ: تتبع الأثر، يقال: قصصت أثره ـ ثم قال ـ : والقصص: الأخبار المتتبَّعة..)) الخ.

﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾ بأن الرسل قد أتتنا كما قال الله تعالى، أقرُّوا بما سألهم الله عنه ها هنا، وعلموا أن قد لزمتهم الحجة ولم يبقَ لهم حجة ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فآثروها على طاعة الله، وهذه جملة ذكرت بين قصة المشركين لبيان سبب إعراضهم عن الرسل المنذرين وردهم لآيات الله ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ﴾ ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿كَـٰفِرِينَ﴾ بالله ورسله وآياته.

وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ

﴿١٣١﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إرسال الرسل إلى الإنس والجن وتبليغهم الآيات وإنذارهم يوم القيامة وما يكون فيه من الجنة والنار والجزاء بهما ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ أي لأن لم يكن، أي بسبب ﴿أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ ظلماً ﴿وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ لم يعلموا لعدم إبلاغهم الآيات والإنذار ولم يأتهم تذكير من غفلتهم.

قال الشرفي / في (المصابيح): «قال المرتضى ص: فأخبر سبحانه أنه لا يهلكهم وهم غافلون؛ لأن الإهلاك لهم على غفلة من غير دعوة ظلم، والله ـ عزَّ وجل ـ بريء من ذلك، متعال عنه لا يعذب إلا من بعد الإعذار والإنذار..» إلخ.

فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] إلا أن هذه الآية تشير إلى أن ما سبق في الدنيا من إهلاكه تعالى للقرى لم يكن إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وهي قرى المشركين من عادٍ وثمود وأصحاب مدين وغيرهم، كما ذكرها سبحانه في (سورة الأعراف) و(سورة هود) وغيرهما، قال تعالى في (سورة هود): ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [آية:١٠٠-١٠١].

﴿١٣٢﴾ ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من أهل القرى ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ متفاوتة من أعمالهم، فبعضهم أشد عصياناً وتمرداً وكفراً من بعض ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ عن

مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ

أعيان معاصيهم وعددها ومقاديرها في القبح وتسبيبها لاستحقاق العذاب بل هي محصاة في علمه لا ينساها ذواتها وصفاتها، فهم صائرون بعد إهلاكهم العام بتدمير القرى إلى جزاء كلٍ منهم لكل سيئة بمثلها ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿١٣٣﴾ ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ من خلق جديد يستخلفه في الأرض، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠] فهو قادر على ذلك وغير محتاج إلى عيشكم في الدنيا.

﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ﴾ ولو كان محتاجاً إليهم ما أماتهم، ولو لم يكن قادراً على أن يأتي بآخرين يستخلفهم ما استخلفكم في الأرض، ولكنه برحمته يبقيكم في هذه الحياة إلى آجالكم، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] فمن الرحمة تأخيرهم تعريضاً لهم على التوبة وتمكيناً منها في بقية أعمارهم مع أنه غني عنهم، أما تأخير المؤمنين فهو أبلغ في الرحمة؛ لأنهم يكتسبون في هذه الحياة ثواب الآخرة وسعادتها الدائمة، ويظهر: أن هذه الآية غير خاصة بالعصاة؛ لابتدائها بقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ﴾ والظاهر: أنه خطاب للرسول ص.

﴿١٣٤﴾ ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ﴾ إنما توعدونه من الآخرة وما فيها من الثواب والعقاب لا بد أنه آتٍ؛ لأنه لم يخلقكم في هذه الحياة بطريقة إنشاء قرن بعد قرن يُهلِك قرناً ويأتي بآخرين لم يخلقكم عبثاً ولا لحاجة إليكم، إنما خلقكم تقديماً وإعداداً للآخرة التي وعدتم.

مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۗ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بل نحن قادرون على إعادتكم وجزائكم بعد الإعادة وقادرون على جزائكم لا تعجزوننا في الدنيا بقوة ولا بعد موتكم، وهذه كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس:٥٢-٥٣].

قال الراغب في تفسير (العجز): ((وصار في التعارف اسماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة قال: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ [المائدة:٣١] وأعجزت فلاناً، وعجَّزته، وعاجزته: جعلته عاجزاً)) انتهى المراد.

وهذا هو الظاهر، فتفسير الإعجاز بالفوات، إنما معناه: أنه عجز عن إدراك الفائت.

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ ذكر (صاحب لسان العرب) و(صاحب القاموس) معنى المكانة: التَّؤدة، فعلى هذا يصح تفسير المكانة في الآية بالتؤدة، بمعنى: الأناة، أي اعملوا على أناتكم في عملكم أي غير معجَلين عنه، وهو تأكيد لتركهم على ما هم عليه إحالة لهم إلى الجزاء، وذكر الراغب تفسير المكانة المكان، وحكاه (صاحب لسان العرب) عن بعض أهل اللغة.

وقال (صاحب الكشاف): ((المكانة تكون مصدراً ، يقال: مكن مكانة إذا تمكن أقصى التمكن، وبمعنى المكان، يقال: مكان، ومكانة)) انتهى، وذكر (صاحب القاموس) تفسيراً للمكانة: المنزلة عند الملك، وحكاه (صاحب لسان العرب) عن بعض أهل اللغة.

وقال في (لسان العرب): ((ابن سيده: وتمكَّن من الشيء واستمكن: ظفر، والإسم من كل ذلك المكانة)) انتهى، وحكى في (لسان العرب): ((قال ابن برّي: وقد جاء مكن يمكن)) انتهى.

وظاهره أنه غريب، وتفسير المكانة بالتؤدة أنسب؛ لاستعمال (على) في الآية، قال في (اللسان): ((أبو زيد، يقال: امش على مكينتك ومكانتك وهينتك، قال قطرب: فلان يعمل على مكينته: أي اتئاده)) انتهى.

فأما استعمال (المكانة) بمعنى: المنزلة عند الملك، فهو خاص بمحله ولا يناسبه سياق الآية، واستعمال (المكانة) بمعنى: المكان يكون مع (في) أو (الباء) فلو كانت التلاوة: (بمكانتكم) أو (في مكانتكم) صلح ذلك.

ويمكن تفسير (المكانة) بالظفر أي على ظفركم بمطلوبكم من دنياكم، كأنه قيل: على مكانتكم مما نلتم من المال ونحوه، وهذا المعنى هو الذي اختاره (صاحب المصابيح) إلا أنه فسره بقوله: أي من جهتكم التي أنتم فيها، فصيرها بمعنى المكان.

وقال الشرفي في تفسير (سورة هود): والمعنى: حال كونكم موصوفين بغاية المكنة والقدرة، وفسره في أواخر (سورة هود) ﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود:٩٣] على حالكم وجهتكم التي أنتم عليها، انتهى.

فكأنه جعلها بمعنى المكان، أما (صاحب الكشاف) فقد فسرها على المعنيين الذين ذكرهما، فقال: ((وقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ يحتمل: اعملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها، يقال للرجل إذا أمِر أن يثبت على حاله: على مكانتك يا فلان، أي اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه)) انتهى.

وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ

قلت: ليس في الآية: (اثبتوا) ولذلك يكون المعنى على كلامه الأخير اعملوا على ما أنتم عليه، وهذا ليس بالقوي؛ لأنه مجمل، والأقوى المناسب للسياق ما قدمته، وهو الذي صدره (صاحب لسان العرب) في تفسير المكانة و(صاحب القاموس) فالمعنى: اعملوا بدينكم متروكين عليه إني عامل بديني، وهو جارٍ مجرى ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠].

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند الموت أو نزول العذاب العاجل أو يوم القيامة ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ الآخرة أي ما فيها من العاقبة المحمودة، كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨] أما أنا جزاء على عملي، وأما أنتم جزاء على شرككم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الفلاح: الظفر، والفوز، فلا يفلح الظالمون؛ لأن الظلم ليس إلا سبباً للعقاب لا للظفر بعاقبة الدار.

﴿١٣٦﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ ﴿جَعَلُوا۟﴾ بأن حكموا به ﴿لِلَّهِ﴾ أو نذروا به له ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ مما خلق، فهو في حكم الحق له وحده؛ لأنه الذي خلقه، والحرث: قال الراغب: ((الحرث: إلقاء البذر في الأرض وتهيُّؤها للزرع، ويسمى المحروث: حرثاً)) انتهى المراد.

قال الشرفي في (المصابيح): ((والحرث: الزرع هاهنا، ويقال: الحرث: أرض الزرع، ومنه قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣])) انتهى.

مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ

قلت: الزرع هنا عبارة عن النبات المعروف، فجعلوا قوله تعالى: ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ [القلم:٢٢] أي على زرعكم، ولعله تسمية الشيء باسم محله؛ لأن الله تعالى فرق بين الحرث والزرع في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤].

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا﴾ الحرث ﴿لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ﴾ بدعواهم وبناء على دينهم الباطل لا على الحق إن ذلك كله لله وحده ﴿وَهَٰذَا﴾ أي الآخَر من الحرث والأنعام ﴿لِشُرَكَآئِنَا﴾ وهذا من باطلهم.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡ﴾ ما جعلوه لشركائهم لم ينفقوه لله حبًّا لشركائهم وحماية لحقها بزعمهم، وما جعلوه لله فهو وحده يصل إلى شركائهم لأي سبب عندهم، كأن يكون ما جعلوه لشركائهم قد تلف وأرادوا أن ينفقوا لآلهتهم فينفقون ما هو لله بزعمهم.

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ما أسوأ ما يحكمون، أي حكمهم الباطل الجائر من حيث أنهم جعلوا لشركائهم ما ليس لها ولا تملك شيئاً، ومن حيث أنهم يوصلون إليها ما قد جعلوه لله ولا يرضون بالعكس، ومن حيث أنهم جعلوا ما رزقهم الله في غير فائدة بل في الضر عليهم، ومن حيث أنهم جعلوا ما رزقهم الله في معصيته، ومن حيث أنهم جعلوا شركائهم أنداداً لله سبحانه وتعالى ينذرون لهم كما ينذرون له، ومن حيث أنهم حكموا بغير حكم الله فيما هو لله وحده.

عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ

﴿١٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ﴾ فيه احتمال: أنهم ذبحوا أولادهم قرباناً لآلهتهم، وإما أن المراد بشركائهم: الذين يجعل المشركون لهم الحكم بغير حكم الله من الكهنة وغيرهم جعلوا شركاء لأنهم جعلوا لهم أن يحكموا فيهم، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] وعلى هذا يصح أن يكون المراد بقتل أولادهم: وأد البنات، أي دفنهن وهن في حال الحياة.

﴿لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ (اللام) على الإحتمال الأول هي (لام العاقبة) أما على الإحتمال الثاني فيصح أن تكون على أصلها، وأن تكون للعاقبة ﴿لِيُرۡدُوهُمۡ﴾ ليهلكوهم بجعلهم من أهل النار بعملهم الباطل ﴿وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡ﴾ الأصلي الذي هو التوحيد الذي ورثوه بعد أبيهم إبراهيم × بما يوهم أن الشرك حق، أما إذا كان ذبح أولادهم لأصنامهم قرباناً، فذلك يوهم أنهم لو لم يكونوا يعلمون أن شركائهم آلهة ما ذبحوا لها أولادهم؛ لأن العاطفة على الولد تمنع من قتله بغير سبب صحيح، بل لمجرد الخرافة والعقيدة الباطلة، فهذا لبس على المقلدين لهم.

وأما على الإحتمال الثاني، فلعله إيقاعهم في اللبس وظلمة الباطل، بسبب جرائمهم، ومنها هذه الجريمة الشنعاء التي هي ظلم يرين على قلوبهم، ويمنعهم من التبصر للحق، بإضافة هذه الجريمة إلى جرائمهم الأخَر ـ والله أعلم.

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي هذا التزيين لقتل أولادهم، أو﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ الشرك الذي زين لهم قتل أولادهم، أو ما فعلوا ما ذكر على أنه عائد إلى

حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ

جملة المذكور، أو ما فعلوا اللبس فلو ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لمنعهم؛ لأنه قادر على منعهم حتى لا يقع منهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فلا تشتغل بهم ولا يحزنك افتراؤهم فتحاول صرفهم عما هم عليه بأي وسيلة غير الإنذار والحجة والموعظة، والواو هي (واو) المفعول معه كما تقول: اتركه وشأنه، أو المراد: اترك أمرهم إلى الله، فهو يتولى جزاءهم على معنى الوعيد لهم، والإفتراء: الإختلاق.

﴿١٣٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ ﴿حَرْثٌ﴾ زرع ﴿حِجْرٌ﴾ محجور ممنوع أي محرم ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن﴾ يشاء الله تفسير للتحريم ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أن الله يشاء لبعضهم أن يطعموها دون بعض، وهذا فيما جعلوه لأوثانهم من الأنعام والزرع، ولعل التعبير عنه بالحرث؛ لأنهم جعلوا الحرث الذي يزرع لشركائهم ـ والله أعلم.

قال في (المصابيح): ((يعني خدم الأوثان والرجال دون النساء، فهن ممنوعات)) اهـ، أي التحريم عليهن خاصة.

﴿وَ﴾ هذه أنعام ﴿حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ أي حرم ركوبها، ولعله الحامي الذي يقولون: قد حمى ظهره، وقد مر تفسيره في (المائدة) ﴿وَ﴾ هذه ﴿أَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ قال في (المصابيح) في الذبح: ((وإنما يذكرون أسماء الأصنام)) انتهى.

﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ على الله سبحانه وتعالى، أي قالوا هذه الأباطيل افتراء على الله، افتراء إما مفعول مطلق لـ﴿قَالُوا۟﴾ وإما مفعول من أجله بالنسبة إلى الذين

لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ

ابتدعوا لهم هذه الأكاذيب ومن ماثلهم ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ بافتراءاتهم التي تكررت منهم واستمروا عليها ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ يوم القيامة.

﴿١٣٩﴾ ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والذي في البطون أرادوا به الأجِنَّة والألبان، وجعلوا ذلك لذكورهم دون الإناث وأزواجهم، وإنما جعلوا ذلك لأن الذكران كانوا يخدمون الأوثان ففضّلوا بذلك للخدمة والذكورة)) انتهى.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ ما وصفوا به الأنعام افتراء على الله، وإفساد لأتباعهم، وجعل الوصف كأنه الجزاء لتأكيد الدلالة على التسبيب للجزاء، كقول الشاعر:

تردَّى ثياب الموت حُمراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضرُ

فجعل دم الشهيد كأنه تحول سندساً ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ومقتضى الحكمة الجزاء وبالعلم لا يضيع شيء بدون جزاء.

﴿١٤٠﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ قتل الأولاد وتحريم ما رزقهم الله سبب لخسارتهم العظمى التي هي دخول النار وفوات كل خير في الآخرة فاجتمع ذلك لهم مع خسارتهم أولادهم وخسارتهم بعض ما

أحل الله لهم فحرموه فتحققت عليهم الخسارة، فقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ﴾ فيه تأكيد وتحقيق، كقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا﴾ ومن هذا الباب قول الشاعر:

فلا وأبي الطير المربّة بالضحى على خالد لقد وقعت على لحم

وقوله تعالى: ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي أن صنيعهم في قتل أولادهم سخف وقلة عقل؛ لأنهم لو استعملوا عقولهم ما فعلوه، وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنهم لم يعتمدوا فيه على حجة من الله، بل فعلوه جهالة فهي شناعة عظيمة؛ لأن قتل الأولاد ظلم ومخالفة للفطرة والإنسانية وقسوة شنيعة، وهو مع ذلك إهمال للعقول، ومجازفة بداعي الجهل.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى سبب خسارتهم لما أحل الله لهم من حيث أن الله رزقهم، ومن حيث أنه معارضة لحكم الله؛ لأنه لم يرزقهم إلا وقد أحله لهم، وقوله: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ يبيِّن شناعة ذلك التحريم وزيادة قبحه، وكونه سبباً للخسارة العظمى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ تسجيل عليهم بالغواية فيما صنعوه تديناً بأنه تضييع لطريق الحق والصواب وتيه في الباطل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ إما بمعنى: أن شأنهم أن يضلوا لأنهم ما كانوا مهتدين قط، وإما بمعنى: الرد لاعتقادهم وظنهم أنهم مهتدون، كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:٧٩] وقد كان فرعون قال لهم: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] وبعد هذا التسجيل عليهم بالضلال بين الله الحجة البالغة على أن الحكم له في الحرث والأنعام لا لغيره، وبين أنها نعمة من الله يجب شكرها، وهذا مع كونها دليلاً على أنه الذي يستحق العبادة دون شركائهم فقال سبحانه:

مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ

﴿١٤١﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ قال الراغب: (والإنشاء: إيجاد الشيء وتربيته)) انتهى. ﴿جَنَّٰتٖ﴾ أنواعاً من الجنات مختلفة وأفراداً كثيرة ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ وهي ما يجعل على عريش كالعنب ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ وأنشأ النخل ﴿وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ فالنخل له ثمر مختلف في لونه وطعمه وغير ذلك من صفاته، والزرع كذلك، فالحبوب أنواع كثيرة البر أنواع والشعير أنواع والذرة أنواع والأرز أنواع والعلس قيل: هو من البر، وقيل: جنس برأسه، وذلك الإختلاف تابع لقدرة الله تعالى وعلمه وحكمته وفضله ورحمته.

﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ أي وأنشأ ﴿ٱلزَّيۡتُونَ﴾ وأنشأ ﴿ٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا﴾ وهو المتقارب في الصفة مثل نوعي الرمان الحلو ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ مثل النوع الحلو والنوع الحامض، والوصف بالتشابه لعله عائد إلى جملة الزيتون والرمان إلا أني لا أعرف أنواع الزيتون، وقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] وهو قليل في اليمن.

﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ ولا تحرموا شيئاً منه كما فعل المشركون ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ ﴿حَقَّهُۥ﴾ ما جعل الله فيه من الحق للفقراء والمساكين، ثم جعله لثمانية أصناف، والحصاد قال في (الصحاح): حصدت الزرع وغيره ـ ثم قال ـ : والمِحْصَد: المِنجَل، فأفاد: أن الحصد يكون بالقطع، كقطف العنب، وفي (لسان العرب): الحصد: جزُّك البر، ونحوه من النبات حصد الزرع وغيره من النبات يحصده.

حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ ﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ الضمير فيهما عائد إلى المذكور من أول الآية، وقوله تعالى: ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ ترخيص في الأكل منه قبل إخراج زكاته ولا يسقط زكاة ما أكل قبل؛ لأنه قال ﴿وَآتُوا حَقَّهُ﴾ فعاد الضمير إلى المذكور ـ أيضاً ـ أو إلى ثمره، فعم المأكول وغيره.

﴿وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ عطف على ﴿كُلُوا﴾ و﴿آتُوا﴾ فالظاهر: أنه خطاب متعلق بالثمر، فيكون الإسراف إما بإنفاقه في معصية الله كمعاونة الظالم، وإعطاء خدم شركاء المشركين، وإما بالإنفاق الزائد على المنفعة، وهو إتلاف في غير فائدة كما يفعل في بعض الضيافات، وإما بجعله مسكراً، وإما بالإفراط في الأكل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ عام لكل مسرف ولو في أمر خارج عن الثمر كالإسراف في القتل والتبذير بالماء أو غيره، قال في (الصحاح): ((والإسراف في النفقة: التبذير)) انتهى، وقال الراغب: ((السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان في الإنفاق أشهر)) انتهى.

والأقرب في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أنه وعيد، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠] ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢] ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠] ولعله وعيد بالخذلان وترك الألطاف ـ والله أعلم.

﴿١٤٢﴾ ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي وهو الذي أنشأ لكم ﴿مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً﴾ تحملكم وتحمل أثقالكم وهي من الإبل، ومن الأنعام

﴿فَرَشًا﴾ والفرش يتخذ من جلود الأنعام ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها، وقال الراغب: ((والفرش: ما يفرش من الأنعام، أي يركب)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((والفرش: المفروش من متاع البيت ـ ثم قال ـ: والفَرش: صغار الإبل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾)) انتهى.

قلت: الآية واردة في سياق تعديد النعم، فجعل الفرش صغار الإبل لا يناسب السياق إلا أن يسمى فرشاً لأنه ينحر ويكون جلده ووبره فرشاً جيداً أفضل من جلد الكبار فهو مناسب حينئذ، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البلغة): الحمولة الكبار من الإبل والفرش الصغار، ومثله في البرهان)) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((وفرش الإبل وغيرها صغارها ـ ثم قال ـ: وقال الفراء: الحمولة ما أطاق العمل، والحمل والفرش الصغار، وقال أبو إسحاق: أجمع أهل اللغة على أن الفرش صغار الإبل، وقال بعض المفسرين: الفرش صغار الإبل وإن البقر والغنم من الفرش.

قال: والذي جاء في التفسير يدل عليه قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ فلما جاء هذا بدلاً من قوله [عزَّ وجل]: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ جعله للبقر والغنم مع الإبل)) انتهى المراد.

قال في (المصابيح): ((وقيل: الحمولة ما حمل من الإبل والبقر، والفرش الغنم، قال الشاعر:

وحوينا الفَرشَ من أنعامكم والحمولات وربات الحجل))

انتهى، فترجح: أن الحمولة ما يحمل من الإبل والبقر، وأن الفرش صغار الإبل، وأن الغنم تسمى فرشاً أيضاً؛ لأن جلودها تصلح فراشاً ولا سيما الضان فهي كصغار الإبل لما ذكر من الدليل على ذلك.

ٱثۡنَيۡنِۖ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أمر إباحة وتمنن وزيادة فائدة في الأنعام مع الحمل والفرش ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ وهذا عام لكل خطوات الشيطان، ويدخل فيه دخولاً أولياً تحريم ما أحل الله من الأنعام من السائبة والوصيلة والحامي.

قال في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ : والخطوات: مَثَل مضروب، يراد به: لا تفعلوا مثل فعله، والخُطوات ـ بالتخفيف ـ هي جماعة خطوة من الخطأ، وليست بجماعة الخطيئة فاعلم ذلك)) انتهى.

قلت: لعل فائدة ذكر الخطوات التحذير من إضلال الشيطان التدريجي كأنه يخطو خطوة واحدة فيتبعه فيها من يتبعه ثم يزيد خطوة فيتبعه، وهكذا حتى يصير بعيداً من الصواب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ تعليل معقول لأن اتباع الإنسان لعدوه خطأ واضح لأن العدو مظنة الإضلال والإضرار ، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٞ﴾ أي بيِّن العداوة، وكيف لا يكون بيِّنَ العداوة وهو إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿١٤٣﴾ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ أي وأنشأ لكم من الأنعام ثمانية أزواج حمولة وفرشاً من كل نوع زوجين ذكراً وأنثى، قال الراغب: ((يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج كالخف والنعل، ولكل ما يقترن بآخر مماثلاً له أو مضاد [كذا] زوج ـ ثم قال الراغب ـ : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ﴾ أي أصناف)) انتهى.

ٱثۡنَيۡنِۖ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ

قلت: الأقرب أنها سميت أزواجاً لأنها من كل نوع زوجان، كما أفاده (صاحب الكشاف) وهو المناسب للتفصيل الآتي:

﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ ﴿مِّنَ ٱلضَّأۡنِ﴾ الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ﴾ التيس والعنز، والنعمة متعددة منها في الضأن جودة اللحم والفرش، ومنها في المعز زيادة اللبن وصلاح الجلد وعاء للماء والسمن لزيادة قوّته ولغير ذلك مع أن المعز أقوى في المرعى، فهي لا تكلف أهلها كالضأن.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمشركين الذين يحرمون ما أحل الله ﴿ءَآلذَّكَرَيۡنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله ﴿أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ العنز والنعجة ﴿أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ أم الحمل من أولاد الضأن والمعز الذي في أرحام الأنثيين، والأرحام: جمع رحم، وهي وعاء الجنين، اشتملت عليه لتحفظه وتربيه حتى يتم خلقه، أي أم ما اشتملت عليه حرمه الله؟!

﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ﴾ أي ذلك حرمه الله، فهاتوا ما يفيد العلم من كتابٍ لله ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف:٤] عن رسولٍ لله ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم التحريم.

﴿١٤٤﴾ ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ من الثمانية الأزواج عطف على ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ الذكر من الإبل والأنثى من الإبل ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ الذكر والأنثى عطف على ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ فهنا عطف أربعة على أربعة لتيسير فهم تفصيل الثمانية الأزواج.

قال الشرفي في (المصابيح): ((عرفهم الله في الإبل والبقر مثل ما عرفهم في الشا [كذا] والمعز موبِّخاً لهم ومنكراً عليهم ما فعلوه)) انتهى.

قوله: في الشا، يعني في الضأن، ونظير ما هنا من عطف اثنين على اثنين قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾ [هود:٢٤] فالأصم معطوف على الأعمى، والسميع معطوف على البصير، وهما عطف على الأعمى والأصم، ولذلك قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي من هو أعمى أصم ومن هو بصير سميع.

﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: الجمل والثور أم الناقة والبقرة ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ التحريم الذي تزعمونه ﴿شُهَدَآءَ﴾ حاضرين على التحريم مشاهدين لَه أوحاه الله إليكم ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ﴾ به بزعمكم، أي بل أكنتم شهداء وهم لا يدعون ذلك، فمن أين جاءهم تحريم ما حرموا، وليس عندهم من الله وحي بواسطة كتاب ولا رسول ولا بمشاهدة، فقد تبين افتراؤكم على الله بتحريم ما حرمتم.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي لا أظلم منه لجمعه بين الإفتراء على الله والتسبيب لإضلال الناس، أي ليغوي الناس عن طريق الحق بغير علم منهم أنه يغويهم، فهو خيانة لهم من حيث يفتري الكذب فيصدقونه وهو كاذب، مع كونه تسبيباً لباطلهم ومشاركة في إثمه، فقد بان أنه لا أظلم منكم، وهذا من حسن الجدال من حيث أنه لم يواجههم بأن يقول لا أظلم منكم بل دل عليه بالعموم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تحقيق لكونهم مضلين للناس فهم لا ينالون هدى الله إياهم بالإفتراء عليه ليضلوا الناس؛ لأن الله سبحانه لا يجعل الظلم سبباً للهدى، فليس افتراؤهم إلا إضلالاً خالصاً.

إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ

﴿١٤٥﴾ ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ **فما حرمتموه لم أجده** ﴿فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ **وقوله:** ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ﴾ **أي إلا أن يكون المحرم على الطاعم** ﴿مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ **فقد وجدت فيما أوحي إلي تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير.**

﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ **أي الذي وجدته محرماً رجس نجاسة وقذر ليس من الطيبات إذا كان ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير، وهذا حين نزلت السورة بمكة قبل نزول (المائدة) وقبل تحريم كل ذي ناب من السبع، وهذا فائدة** ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ **لئلا ينفي تحريم غير الثلاثة لأنه إنما نفى الوجدان.**

﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ **عطف على** ﴿مَيۡتَةً﴾ **أي** ﴿أَوۡ﴾ **يكون** ﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ **جعل كأنه فسق؛ لأنه ذبح** ﴿فِسۡقًا﴾ **فجوراً وخبثاً؛ لأن الله تعالى لم يحل ذبحه مع الإهلال به لغير الله.**

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم إ : يريد ـ عزَّ وجل ـ لا يحل لأحد أن يهل، ولا يتكلم بغير ذكر الله على ذبيحة ولا غيرها، وسمي ذلك الكلام فسقاً أهل به ونطق به لغير الله، والإهلال في اللغة: هو الجهر بالكلام» انتهى المراد.

وهو يعني: أن الآية دلت على أن الإهلال لغير الله فسق؛ لأنها دلت على أن المذبوح فسق إذا أهل به لغير الله وذلك بسبب كون الإهلال لغير الله فسقاً.

وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن

قال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((والمسفوح: فهو السائل وهو القاطر، وأما قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فإنه يقول: إنه رجس محرم، وأما [قوله تعالى]: ﴿فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ فالفسق: هو المعصية والجرأة على الله بالذبح لغير الله والخطية)) انتهى المراد.

﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ﴾ إلى شيء من هذه المذكورات الميتة وما ذكر بعدها، قال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((وأما قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ يريد غير باغٍ في فعله، ولا مقْدم على المعصية في أكله، ولا متعدٍ لأمر ربه، ولكن من اضطر إلى ذلك فجائز لَه أن يأكل منه، إذا خشي على نفسه التلف من الجوع فيأكل منه ما يقيم نفسه ويثبت في بدنه روحه إلى أن يجد في أمره فسحة..)) انتهى المراد.

فالبغي: الإقدام على المعصية في الأكل من المحرم، والعدو تعدى ما أحل الله إلى ما حرم، كالزيادة على ما اضطر إليه.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود، والظفر الذي ينمو في رأس الإصبع وبعض الحيوان يقتل به، وبعض الطيور يمسك به أعواد الشجر إذا وقع عليها فقد عم التحريم عليهم أكثر الطيور سباعها وغير سباعها كالدجاج، وكذلك سائر الحيوان الذي له ظفر كالوبر، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : هو ما كان له ظفر يعرف به ويقع عليه اسم الظفر فهو عليهم محرم، ولكن أباحوه وأكلوه وتعدوا فيه)) انتهى.

﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي حرمنا عليهم الشحوم من البقر والغنم ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾ وهو أكثر الشحم إن دخل فيه ما علق على الظهر، كشحم الجنوب والإلية.

و﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ الأمعاء في قول الراغب، و(صاحب الصحاح) و(صاحب الكشاف) وقيل: ما تحوّى من الأمعاء كالمباعر أي استدارت فيه الأمعاء فتخرج الدقاق والمستقيم، وقيل: المباعر أي ما فيه البعر، وهذا لأن الحوايا إن كانت جمع حاوية فهي الأمعاء كلها لأن بعضها يحوي بعراً وبعضها يحوي سائلاً يصير بعراً عند مصيره في الأمعاء الغلاظ، وإن كانت الحوايا جمع حويَّة فهي خاصة بالمتلوية، أي ما حملت الحوايا من الشحوم ليس محرماً على الذين هادوا.

﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ فهو مستثنى كما حملت ظهورهما وذلك مثل ما بين عظام الصدر والرأس والعصعص وهو داخل الإلية المختلط بعظم العصعص فما بقي محرم إلا الذي على الكرش ثوب البطن، والأولى أن ما حملت ظهورهما خاص بما على الظهر فلا تدخل فيه الإلية ولا شحم الجنوب ولا شحم الكلَى ولا الشحم الذي على الصدر الطبقة الخارجة فوق عظام الصدر، وإلا لزم أن لا يبقى مستثنى إلا شحم الرأس والعنق والرجلين واليدين؛ لأن الكرش ـ أيضاً ـ معلق في الظهر فشحمه معلق معه، وظاهر جمع الشحوم تنوع الشحم، ولا تنوع في شحم العنق والرأس والرجلين واليدين، فظهر: أن المراد أنواع الشحم فالثروب نوع، والإلية نوع، وما على الظهر والجنوب والعنق وخارج الرأس والرجلين واليدين نوع، وشحم الكلى نوع.

كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ التحريم جزينا الذين هادوا عقوبة لهم ﴿بِبَغْيِهِمْ﴾ وتعديهم على عباد الله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ وصدق الله العظيم، وكذب اليهود الجاحدون لكونه عقوبة، أو الجاحدون لتحريمه.

﴿١٤٧﴾ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ السياق في الذين هادوا فالأقرب أن قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي اليهود ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ في الدنيا ولذلك يمهلكم مع تكذيبكم ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ إذا جاء المجرمين أي عذابه، أو البأس أعم فيدخل فيه التسليط على قريظة والنظير وخيبر وغيرهم، و﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ يعم المكذبين وغيرهم، ويدخل فيه المكذبون دخولاً أولياً.

﴿١٤٨﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ احتجاجاً بترك الله لهم على شركهم، وكذلك تركهم على تحريم ما أحل الله، أرادوا أنه لو كان كارهاً لذلك لمنعهم منه؛ لأنه لا يسكت عليه وهو قادر على منعهم، فقد جعلوه تعالى مقرراً لهم على شركهم وعلى تحريم ما حرموا، وهذه شبهتهم يريدون بها أنهم على حق، وأن الرسول كاذب في تحريم ما فعلوه من الشرك، والتحريم لما لم يحرمه الله.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التكذيب والجدال عنه ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم الذين نزل بهم العذاب حتى ذاقوا بأسنا، ولم ينفعهم ما شبهوا به ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٍ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾ ﴿عِلۡمٍ﴾ بأن الله رضي تحريمكم وشرككم من كتابٍ لله، أو أثارة عن رسله، فتظهروه لنا ببيانٍ واضح، أي ليس عندكم فهو سؤال في معنى النفي.

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ تكذبون بسبب اتباعكم للظن وما تهوى الأنفس، وقد ترجح أن معنى ﴿تَخۡرُصُونَ﴾ تكذبون؛ لأنه لو كان بمعنى التخمين لكان من شأنه أن يجعل مع الظن متبعاً يبنى عليه قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ إلى آخره، فلما عدل به إلى قوله: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ ولم يقل: إلا الظن والخرص، ظهر أن المراد: تخرصون بأقوالكم الباطلة كلها، أو بهذا القول خاصة وذلك لأن الخرص إن كان يستعمل في الكذب على الإطلاق صلح حمله على أقوالهم الباطلة كلها ما استند إلى الظن وما لم يستند إلى شيء، وإنما هو افتراء، وإن كان الخرص خاصاً بالكذب المستند إلى التخمين حمل قوله: ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ على قولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ..﴾ إلخ.

قال الراغب: ((وحقيقة ذلك: أن كل قول مقول عن ظن وتخمين يقال [له]: خرص، سواء كان مطابقاً للشيء أو مخالفاً لَه من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع، بل اعتمد فيه على الظن والتخمين، كفعل الخارص في خرصه)) انتهى المراد.

وقوله: ((ولا غلبة ظن)) لعله يعني: ولا قوة ظن.

أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡۚ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ

﴿١٤٩﴾ ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ﴾ التي قد بلغتكم وبلغت الأمم من قبلكم ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] فأي منع ونهي عن الشرك والطاغوت أبين مما نزله على الرسل، وبلغوا أممهم، وكيف صح مع ذلك أن تدعوا أنه رضي لكم بالشرك وأنه لم يمنعكم.

﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ﴿فَلَوۡ شَآءَ﴾ بعد بلوغ الحجة إياكم ﴿لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ لأنه قادر على ذلك بطريقة القهر، لكنه شاء أن يخليكم وما تختارون لأنفسكم، فلا حجة لكم في تركه لكم وما تختارون لأنفسكم، بعد بلوغ الحجة وقطع المعذرة.

﴿١٥٠﴾ ﴿قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ ﴿قُلۡ﴾ أحضروا ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ﴾ عن يقين ومشاهدة لحجة من الله لا من يشهدون افتراء على الله وجرأة على الزور، أي أنه لا يوجد شهداء على ما تدعون.

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ لأنفسهم ﴿فَلَا تَشۡهَدۡ مَعَهُمۡ﴾ لأنهم كاذبون ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ﴾ يا محمد أهواءهم، ولا من كان مثلهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله؛ لأن الهدى هدى الله وما خالفه ضلال ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلا يحجزهم خوف من الرجوع إلى الله والسؤال والجزاء

أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ

عن تعمد الباطل واتباع ما تهوى الأنفس ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فإن من عدل بربه حجراً أو صنماً أو أي مخلوق ضعيف فقد تبين أنه على باطل، وأنه لا يبالي بالباطل فهو يتبع ما تهواه نفسه من الباطل ولا يبالي، والمعنى: ولا تتبع سبلهم فإن سلوكهم ليس إلا لمجرد الأهواء بلا حجة فعبر عن سبلهم بالأهواء؛ لأنها سببها، ويحتمل ولا تتبع أهواءهم وتحاول بذلك إرضاءهم فهم ليسوا أهلاً لذلك.

وفي جمع (الأهواء) إشارة إلى اختلافها وتعددها وذلك مما يصعب إرضاء أهله ولو لم يكن باطلاً، كيف وهم يكذبون ولا يؤمنون بالآخرة، وهم بربهم يعدلون، فاتباع أهوائهم يستلزم التكذيب بآيات الله والكفر بالآخرة والعدل بالله ـ نعوذ بالله.

﴿١٥١﴾ ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿أَتْلُ﴾ أتبع بالقراءة ما أوحي فأقرأه عليكم كما أوحي إلي، فهو الحق لا افتراؤكم واتباعكم للظن وخرصكم، وقوله تعالى: ﴿مَا حَرَّمَ﴾ إن كانت ﴿مَا﴾ مصدرية فظاهرٌ في صحة تفسيره، بقوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى آخر الآية، وإن كانت موصولة أي ما حرمه، فالمراد: أتل بيان ما حرمه ربكم المالك لكم والذي لَه الحكم فيكم وعليكم فتحريمه الحق لا تشركوا نهي يقتضي التحريم، وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ يعم كل ما يشرك المشركون على اختلافهم بجعله شريكاً لله سبحانه وتعالى.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ فلا يقع منكم إساءة إلى أحدهما، وقوله ﴿بِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾ أي أحسنوا بالوالدين ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ قال في (الكشاف في تفسير (سورة يوسف): يقال: أحسن به وأحسن إليه، وهذا صحيح؛ لأن الله تعالى قال في (سورة النساء): ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى..﴾ إلى قوله: ﴿..وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣٦] وقيل: معناه: لا تتركوا الإحسان إلى الوالدين، أي لأن السياق فيما حرم الله، ويحتمل أن المقصود النهي عن العقوق فعبر بالأمر بالإحسان إليهما؛ لأنه أبلغ في الدلالة على قبح العقوق.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾ في (الصحاح) و(لسان العرب) و(القاموس): الإملاق: الفقر، قال (صاحب اللسان): ((وأصله: إتلاف المال حتى لا يبقى شيء، فاستعمل في الفقر حتى صار أشهر)) وقال في (الكشاف): ((من أجل فقر ومن خشيته)) انتهى، وقال في (المصابيح): ((أي من خوف الفقر)) انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد ×): ((معناه: من فقر وفاقة)) انتهى.

﴿نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡ﴾ وهذا وعد من أصدق القائلين فلا ملجئ إلى وأْد البنات ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ النهي عن قرب الفاحشة نهي الحوم حولها وعن مقدماتها، قال الراغب: ((الفُحش، والفَحشاء، والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال)) انتهى.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ ما كان بحيث يراه الناس أو يسمعونه، وما يخفى فليس قبحه خاصاً بالمعلن، والفواحش، مثل: الزنا، واللواط، والربا، وافتراء الكذب على الله، واليمين الفاجرة، وقذف البرئ بالزنا، أو اللواط، والسب الزائد تعدياً، وفي قصيدة النابغة:

لم تؤْذِ أهلاً ولم تُفْحِشْ على جار

قال في (الصحاح): ((وكل شيء جاوز حده فهو فاحش)) انتهى.

﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ جعلها حراماً وأثبت لها الحرمة، فليس لأحد أن يعتدي عليها وهي نفس الإنسان الذي لم يقع منه ما يجيز قتله من قتل أو شرك بدون ذمة ولا صلح أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ جعل الحق، كأنه آلة للقتل لأنه وسيلته وسببه، وذلك الحكم من الله بقتلها لسبب من الأسباب المذكورة في محلها، وقد عدَّ الإمام الهادي × في (الأحكام) أسباب استحقاق القتل.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وصف للنفس بأن الله حرمها وليس للتقييد، لأنه لو كان للتقييد لكفى عن الإستثناء، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ تأكيد للنهي بأن الله حرمها.

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى اتباع مدلول الكلام الذي ذكر من قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَصَّىٰكُم﴾ بمعنى نهاكم وأمركم للمستقبل، كوصية الحي لما بعد الموت، من حيث أنه للمستقبل ليس للمكلف أن ينساه أو يهمله.

قال الراغب: ((الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترناً بوعظ)) انتهى، وفي (القاموس): ((وأوصاه، ووصَّاه توصية: عهد إليه)) انتهى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي تعقلونه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف:٢] فالمعنى لعلكم تعقلون هذه الوصايا وتفهمونها؛ لأنها كلام محكم بيِّن يسير الفهم.

إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي

﴿١٥٢﴾ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾

تحذير للطامع من قرب مال اليتيم بتوليه أو استعماله أو نحو ذلك، فالإبتعاد عنه أسلم لَه وأقرب إلى تركه.

وقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي قربه بالطريقة التي هي أحسن أو بالفعلة التي هي أحسن، وهي طريقة صاحب العدالة والإحسان الذي لا يقرب مال اليتيم طمعاً فيه، إنما يقربه ليصلحه ويحفظه فهي أحسن من تركه. وجازت مع ذلك مخالطة مال اليتيم تيسيراً لمصلحة اليتيم لئلا يؤدي التشديد إلى تركه، وذلك لا ينافي التصرف بالتي هي أحسن ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ استمروا على تركه إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ قوته عند بلوغ النكاح، ولا تأكلوه بداراً أن يكبر، وأشده وبلوغه قوته أن يكون قد احتاج النكاح كما في آية (سورة النساء) ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى﴾ [النساء:٦] فعند بلوغه أشده يسلم إليه ماله إذا أونس رشده كما في (آية النساء).

﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ أمر معطوف على النهي لأن الوزن بالقسط يستلزم ترك الحيف على من يعاملهم بالبيع والشراء وغيرهما، فهي من النهي عن أكل المال بالباطل وخص الكيل والوزن لأن الأخذ بهما مع البخس يكثر ويسهل والإيفاء إكمال لحق من يعطونه من مشتر أو نحوه.

وقوله تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ أي لا نضيق عليها بل نكلفها ما يسعها، قالوا: والوسع: دون الطاقة، أي أن ما يطيقه المكلف أكثر مما يسعه،

فاكتفى بالوسع تيسيراً على المكلف، وفي هذا دلالة على بطلان الجبر؛ لأنه يلزم من الجبر تكليف ما ليس في وسعه، أي أنه كلف ما ليس في وسعه؛ لأن القدرة عندهم موجبة فإذا لم يقع الفعل دل ذلك على عدم القدرة عليه، وإذا عدمت القدرة عليه فالمكلف لا يطيقه فضلاً عن كونه ليس في وسعه.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ﴿فَٱعْدِلُواْ﴾ لا تجوروا في قول، والجور يكون في الخبر والإنشاء والصدق والكذب، فالأمر بما لا يحق للآمر ولا مصلحة فيه للمأمور ولا هو حق عليه جور، ومثله النهي عن الحق، والخبر الصدق قد يكون ظلماً كإخبار الظالم بمكان المظلوم ليأخذه أو يأخذ ماله، والكذب كله خلاف العدل إلا من أكره وقلبه مطمئن بالصدق، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي الذي تقولون فيه أو له، فلا تمنعكم العاطفة من العدل في شهادة أو غيرها.

﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ﴾ لا تنكثوا العهد ولا بعضه بل اثبتوا على موجب العهد وأضيف إلى الله لأن الوفاء بالعهد أوجبه الله وهو يعم المواثيق فيما بين العبد وربه والمواثيق بين الناس كالعهد في الصلح والعهد في البيعة للإمام والعهد المأخوذ على الشاهدين أو على الوصي أو غير ذلك، ويحتمل أن عهد الله يختص بما كان باسمه تعالى، كقولك: علي عهد الله، وبما كان لله على عبده، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ وهذا لأن جعل ما سوى ذلك من عهدٍ لا يظهر وجه لإضافته إلى الله وإن كان يجب لله الوفاء به، وليس كالشهادة التي أضيفت إلى الله في قوله: ﴿وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ [المائدة:١٠٦] لأن الشهادة بعد تحملها صارت حقاً لله على المتحمل، وأداؤها لله، وليس كذلك العهد إذا لم يكن باسمه ولا بين العبد وربه، فإن الواجب الوفاء به، أما العهد نفسه فهو على حاله لم يصر لله واجباً والذي لله يستحقه على العبد هو الوفاء به فقط، والعهد هو الكلام الموثق كالعقد.

مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ تقدم به إليكم لتعملوا به وتثبتوا على التمسك به في المستقبل ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لعلكم في المستقبل تذكرون ولا تنسون أنه قد وصاكم به ولا تغفلون عنه لتعملوا به ما عشتم.

﴿١٥٣﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ المتلوّ صراط الله ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ والإشارة إلى قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا..﴾إلى آخر الآيات، فهو طريق واضح وهو مستقيم لا يعوج؛ لأنه الحق ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ فاتبعوا صراط الله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ المخالفة لَه التي ليست سبيل الله بل سبل غيره ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ فتتفرق ﴿بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي تفرق فيما بينها عادلة بكم عن سبيله، وبذلك تكونون قد تفرقتم عن سبيله فهذا أمر بالتمسك بالمتلوِّ المذكور ونهي عن التفرق بواسطة اتباع طريقة غيره، وفتح همزة (أنَّ) لأنه معطوف على منصوب، أي وتعالوا أتل عليكم أن هذا صراطي.

ففي هذه الآيات إشارتان بلفظ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وإشارة بلفظ ﴿هَٰذَا﴾ فلا بد من الفرق، والراجح: أن الفرق ما ذكر فالإشارتان إلى اتباع المتلوّ، وهذا إشارة إلى المتلوّ نفسه، وقد جعله الإمام القاسم بن محمد × في (الإعتصام) إشارة إلى القرآن جملة وهو قريب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ [الإسراء:٩] ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء:٥٠] والأصل في الإشارة إلى الكلام الذي تقوله في أوله أو آخره أو أثنائه أن تكون بإشارة القريب مثل (هذا) لأنه في معنى الحاضر، فلا يعدل عنه إلا لاعتبار آخر اقتضى تنزيله منزلة الغائب.

ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ

وفي الحديث الشريف في مدح القرآن «وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم» رواه الإمام أبو طالب في (الأمالي) عن معاذ بن جبل عن النبي ص، وعلى هذا: فقوله: ﴿صِرَٰطِى﴾ بضمير التكلم ظاهر فسياق هذه الآية غير سياق الآيتين قبلها إلى قوله تعالى: ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ فقط، وضمير المتكلم في ﴿صِرَٰطِى﴾ مثله في قوله الشاعر:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري إني امرؤ صرعي عليك حرام

الشاهد في ضمير (صرعي).

وقوله تعالى: ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي عن السبيل الذي دل عليه القرآن، فيظهر منه أن القرآن جعل صراط الله لأنه بيان صراط الله الذي ارتضاه لعباده، أو لأن القرآن من صراط الله، كقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗا﴾ فصراطه تعالى: هو سنته وأقواله، باعتبارها طريقة تقتضيها الحكمة في الأولين والآخرين فهي سنته، ومنها القرآن.

﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمٗا..﴾ إلى ﴿..سَبِيلِهِۦ﴾ ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ الله وتتقون التفرق؛ لأن تقوى الله هي طاعته وطاعته اتباع كتابه، ومن لازم اتباع كتابه ترك التفرق، وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ من المتلو فلذلك جاء بضمير الغائب.

﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ﴾ ﴿١٥٤﴾ تتمة للهدى على ما قد أعطاه الله من قبل، وقال الشرفي في (المصابيح): «والمعنى ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى﴾ بعد هذه التوصية لأنها قديمة يوصي بها كل نبي أمته لم تنسخ،

فصح العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ على ﴿وَصَّاكُمْ﴾ كأنه قيل: ذلكم وصاكم به يا بني آدم قديماً وحديثاً، ثم أعظم من ذلك أنا آتينا موسى الكتاب)) انتهى.

ولا حاجة لقوله: ثم أعظم من ذلك؛ لأنه قد جعل العطف بثم للترتيب في الوقوع بالنسبة إلى توصية الأولين، ويحتمل أن العطف بثم راجع إلى الإحتجاج على الذين حرموا بعض ما أحل الله بغير علم، كأنه قيل: وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات لتأكلوا من ثمره ومن الأنعام حمولة وفرشاً لتأكلوا مما رزقكم الله لم نحرم شيئاً من ذلك هل عندكم من علم بالتحريم فتخرجوه، ثم بعد ذلك أنزلنا التوراة والقرآن هدى للناس تبين ما أحل الله وما حرم، فعبر عن إنزال التوراة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وعن إنزال القرآن بقوله﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ فاحتج أولاً بأنه خلق هذه النعم للإنسان فحرم الجاهلون بعضها بغير حجة، وثانياً بأنه قد أنزل الكتابين مبينين لما أحل وما حرم.

ويحتمل ـ أيضاً ـ أن هذا العطف بـ(ثم) راجع إلى ما أفاده قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ لتضمنه معنى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] ويؤيد هذا ما يأتي من تعليل إنزال القرآن بقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ فإنه كلام في إبلاغ الحجة على المشركين المحرمين من دون الله مناسب، لقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾.

فكأنه قيل: قل: فلله الحجة البالغة ببعث الرسل في كل أمة، ثم بإيتائنا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن موسى من بيان تحريم الله للشرك وبيان حل ما أحل الله من الثمرات والأنعام جملة وإنزال هذا الكتاب ـ والله أعلم.

﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ

وعلى هذا: فالعطف بـ(ثم) وقع لأن إنزال التوراة على موسى مضاف إلى بعث الرسل في كل أمة: ﴿أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] مع تأخرها عن معظم ذلك البعث، وهذا الوجه الأخير أرجح الوجوه عندي، ونظيره في العطف بـ(ثم) على مدلول ما تقدم: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر:٣٢].

﴿وَ﴾ آتينا موسى الكتاب الذي هو التوراة ﴿تَفۡصِيلاً لِّكُلِّ شَيۡءٍ﴾ محتاج إليه من الدين أي بياناً مفصلاً ﴿وَهُدًى﴾ إلى صراط الله ﴿وَرَحۡمَةً﴾ تنقذ من النار ومن ضلالات الجهل ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿لَّعَلَّهُم﴾ أي قوم موسى ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ بحضورهم يوم القيامة موقف السؤال والحساب؛ لأنه موعود به في (التوراة) وهو موقف العرض على الله.

﴿١٥٥﴾ ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ فقد بلغتكم به الحجة عليكم في تحريم الشرك وإبطال تحريم ما أحل الله وغير ذلك ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير عظيم الفوائد.

قال الراغب: ((والبَرَكة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء ـ ثم قال ـ: والمبارك ما فيه ذلك الخير ـ ثم قال الراغب ـ: ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحَسّ وعلى وجه لا يحصى ولا يُحصَر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة)) انتهى المراد.

وقد وصفه الله بالبركة في هذه السورة مرتين، وفي (سورة اقترب) و(سورة ص) تنبيهاً على أن فوائده أكثر مما يقدره الناظر على عدد سوره

مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ

وآياته؛ لأن فوائده تكثر من حيث لا يحتسب، مثل كثرتها من حيث إضافة فائدة إلى فائدة، وتفرع فائدة من تلك الإضافة أو فوائد، وأما عظم فوائده فمن حيث أنها تفيد: معرفة أصول الدين، ومعرفة أسماء الله الحسنى، ومعرفة عظمة الله وجلاله، ومعرفة الجنة وطريقها، والنار وطريقها، ومعرفة الطريقة التي هي أقوم الطرائق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..﴾ الآية [الإسراء:٩] ﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ واتقوا الله باتباعه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ بصرف عذاب يوم عظيم.

١٥٦ ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ أي وهذا كتاب أنزلناه ﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ أي لئلا تقولوا أو كراهة أن تقولوا يوم القيامة: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ وهما اليهود والنصارى أنزل عليهم من قبل وجودنا أي وجود المخاطبين بمكة وهم أهلها ومن حولها ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ لبعد بلدنا عنهم وكون دراستهم بالعبرانية ونحن عرب، وقوله: ﴿عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿كُنَّا﴾.

١٥٧ ﴿أَوۡ تَقُولُواْ﴾ يوم القيامة ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ لأنهم تفرقوا وتقاتلوا وكثير منهم يظهر يوم القيامة أنهم كانوا فاسقين ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم﴾ هذا الكتاب الذي هو ﴿بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ آية بينة ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يدل على أنه من ربكم إعجازه لكم فهو آية بينة على أن محمداً رسول الله وعلى ضلالكم بالشرك ومنكرات الجاهلية ﴿وَهُدٗى﴾ للتي هو أقوم ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ ينقذ من النار ومن ظلمات الجاهلية.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ بعد هذا الإحتجاج العظيم فيه عليكم من قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ وإلى قوله تعالى: ﴿..فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أو من أول (سورة الأنعام) وهو أنسب لكونها كلها احتجاج على المشركين، ولكون هذه الآية في أواخر السورة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعد وضوح الحجة فيها أنها آياته، وبعد وضوح الحجة على المشركين بما دلت عليه الآيات، وهذا يدل على أنه لا أظلم من المشركين المحرمين لما أحل الله، المكذبين بآيات الله الصادفين عنها.

﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ قال الراغب: ((صدف: أعرض إعراضاً شديداً)) انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((صدف عني أي أعرض)) انتهى، ومثله في (القاموس) وفي (لسان العرب): ((الصدوف: الميل عن الشيء، ثم قال ابن سيِّده: صدف عنه يصدف صدفاً وصدوفاً عَدَل، وأصدفه عنه عدل به وصدف عني أعرض. وقوله تعالى: ﴿سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون)) انتهى.

فالعذاب واقع بهم على الإعراض لا على التكذيب بآيات الله وحده ولا عليه وعلى الشرك وتحريم ما أحل الله ونحو ذلك وحده بل على الكل وعلى الإعراض، لأنه جريمة عظمى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا..﴾ الآية [السجدة:٢٢] وذلك لأنه لو لم يعرض عنها بل أقبل عليها ونظر فيها لكان مظنة أن يرجع إلى الصواب إذا لم يكن قد تمرد سابقاً حتى خذل.

يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي

﴿١٥٨﴾ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظرون ليؤمنوا ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كقوله حاكياً عنهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ [الفرقان:٢١] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ كقولهم: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ [الفرقان:٢١] وقولهم: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء:٩٢]. فهم يطلبون أن يأتي الله ويؤكد لهم نبوة محمد مشافهة.

﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ التي تضطرهم إلى الإيمان، فهي بعض مخصوص، بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ ولعلهم انتظروا بإيمانهم هذه الآية، حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا..﴾ إلى قولهم: ﴿..أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢] فجعلوا ذلك آية تبعثهم على الإيمان، ولو سقطت السماء كسفاً لكانوا ملجئين إلى الإيمان فلم ينفعهم إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يحتمل: أنه المذكور أولاً، أي سقوط السماء كسفاً، ويحتمل: أن المراد أعم مما ينتظرون، أي يوم يأتي بعض آيات ربك من الآيات الملجئة إلى الإيمان التي هي سقوط السماء وغيره ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ ويحتمل أن المراد بها غير ما ينتظرون، فيكون كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ لاَ بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان:٢٢] بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ [الفرقان:٢١].

وعلى هذا: يصح تفسير ﴿بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ الثانية بطلوع الشمس من مغربها، كما أخرجه أحمد بن حنبل في (مسنده) [ج٣/ ص٣١]: حدثنا وكيع، حدثنا بن أبي ليلى، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري: عن النبي ص: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا..﴾ ﴿..خَيْرًا﴾ قال: ((طلوع الشمس من مغربها)) انتهى، وفي طلوع الشمس من مغربها روايات عديدة، وأكثرها لا يدل على أن طلوعها من مغربها معنى الآية؛ لاحتمال أنه من التطبيق، بمعنى: أنه داخل في عموم الآية.

أما حديث أبي سعيد ـ وسنده جيد ـ فظاهره تفسير الآية به، والتفسير للآية بطلوع الشمس من مغربها روي عن ابن مسعود من كلامه.

فإن كان ﴿ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾ الثانية يعم الملجئ وغيره، أي الآيات عام لا البعض، فالتفسير بالبعض الملجئ مناسب لسياق الآية، مع دلالة قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء:٩٢] وهذا أظهر من جعل آيات ربك الثانية خاصاً بالملجئة.

فأما قوله تعالى: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا﴾ فهو يبين أن انتفاع المؤمن الصحيح الإيمان بإيمانه وبعمله الصالح أما كسب الخير في حال الإختيار من غير المؤمن فلا ينفع، فإذا جاء بعض الآيات الملجئ لم يكن لَه ما ينفعه لأن كسبه الخير في الماضي حابط كسراب بقيعة، وإيمانه حال الإلجاء لا ينفعه، ولا معنى لتقدير كسبه خيراً حال الإلجاء لا ينفعه؛ لأنه لا كلام في كسبهم الخير حال الإلجاء فلا دليل على تقديره مع عدم ذكره في الآية، وليس مفروضاً في غير هذه الآية إنما يفرض الإيمان؛ لأنه أعظم ما يتوسل به عند الإضطرار أما الأعمال التي هي كسب الخير فلا يقدّر نفعها عند نزول العذاب الملجئ؛ لأنها منسية حينئذ فلا معنى لتقديرها في الآية ولا دليل عليه فتقديره مجرد دعوى وعطف للقرآن على الهوى، وإن زخرفه أحمد في (حاشيته) على (الكشاف).

شَيْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

وقد جعل بعض المفسرين قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وعيداً بأمر ممكن، فاحتاجوا إلى تأويل قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ وقوله: ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

والراجح عندي: أنه حكاية لما يعلقون به إيمانهم كما بينت في أول الكلام في معناها؛ لأنهم جعلوا ما اقترحوه غاية لامتناعهم من الإيمان فكأنهم انتظروا بإيمانهم وقوعه، وقد تبين جعل بعضه غاية في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء:٩٠-٩٢] فمعناه: أن تركهم الإيمان ممتدّ حتى يقع أحد المقترحات في الآيتين، فهو بمنزلة المنتظر وإن فرض أنهم لا ينتظرونه حقيقة في قلوبهم فيصح تسميته انتظاراً مجازاً من الإستعارة التبعية لمشابهة تأخيرهم للإيمان بتأخير المنتظر به، وبذلك يستقيم ذكر الملائكة وذكر إتيان ربه.

ويفيد ما أفاده قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ..﴾ إلى آخر الآيتين في أنه تعليق لإيمانهم بالمقترحات، وأنهم متمردون، والوعيد بعده مناسب بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ أي ﴿ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بإيمانكم ما علقتموه عليه فهو تهديد ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ نزول العذاب بكم لهذا التمرد.

﴿١٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ﴾ دفع لتوهم تحسين طريقة الطائفتين كليهما، وأن محمداً ص أنزل عليه هذا الكتاب المبارك ليكون هو ومن اتبعه بمنزلة إحدى الطائفتين فيكونوا طائفة ثالثة، لأنهم أهل كتاب كالطائفتين.

فبيَّن سبحانه أن محمداً ص متبعاً لهذا الكتاب داعياً إلى اتباعه ليس كأولئك الطائفتين اليهود والنصارى المتفرقين لأنهما وإن كانتا أهل كتابين من الله يدَّعيان اتباعه فإنهم قد تفرقوا من بعد ما جاءتهم البينة في كتابهم، وتركوا اتباع ما أنزل عليهم فليس محمد ص مثلهم ولا على طريقتهم في الإنتماء إلى ما أنزل الله قولاً بلا عمل، ومحمد ص منزه عما هم عليه من الشرك وغيره من الباطل.

وقوله تعالى: ﴿شِيَعًا﴾ بمعنى فرقاً، كل فرقة شيعة لمتبوعهم وطريقتهم ينصرون متبوعهم وطريقته ويتشايعون فيما بينهم ضد الفرق الأخرى بغياً بينهم بالتعاون ضد الآخرين، فهم أهل أهواء وأغراض سياسية لا أهل دين واتبّاع لما أنزل الله، فليس رسول الله ص مثل فرقة منهم في شيء من الطريقة والتدين، وهذا الكلام في المتفرقين منهم وهم أكثرهم وجمهورهم وغالبهم، ولذلك نسب إليهم جملة في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٦-١٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ليحكم بينهم يوم القيامة، ولأن أمرهم إليه تركهم يتفرقون في أباطيلهم ولم يتركهم لأنهم على حق في ذلك ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ يوم القيامة ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ أي أنه عالم به لا ينساه فهو ينبئهم يوم القيامة عند الحكم بينهم فيجزيهم بما كانوا يعملون، وهو وعيد شديد على التفرق في الدين وتحذير منه.

وقد جاءت روايات كثيرة من وجوه عديدة يقوي بعضها بعضاً في افتراق اليهود والنصارى، وهلاك كل منهم إلا فرقة، وأن هذه الأمة ستفترق إلى

﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ

ثلاث وسبعين كلها هالكة إلا فرقة، وقد صححها الألباني في (سلسلة الأحاديث الصحيحة) [ج١/ص١٤] وقال في [ج٣/ص٤٨٠] في سند رواية عوف بن مالك لهذا الحديث: ((وهذا إسناد جيد)) انتهى.

ثم بيَّن وجه كونه جيداً والعمدة عندنا كثرة الأسانيد، وقال الألباني في [ج١/ص١٤]: ((على أن للشوكاني في هذا المقام خطأ آخر أفحش من هذا [أي من خطئه في تقليده للسخاوي في كلامه في هذا الحديث] وهو تضعيفه في تفسيره لهذه الزيادة مقلداً ـ أيضاً ـ في ذلك غيره مع أنها زيادة صحيحة وردت عن غير واحد من الصحابة بأسانيد جيدة، كما قال بعض الأئمة)) انتهى، وحكى الألباني في [ج١/ص٢٠] رد المقبلي في (العلم الشامخ) على من ضعّف هذه الزيادة.

﴿١٦٠﴾ ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ فسوف يجزى بالحسنة الواحدة جزاء عشر حسنات ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي بقدر جزاء سيئة واحدة لا يزاد مع السيئة تضعيف لها بطريقة الغضب أو لزجر غيره كما يفعل الظلمة.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص من ثواب أو زيادة في عقاب، وسمي نقص الثواب ظلماً والمراد لا ينقصون من ثوابهم؛ لأن العرب تسمي النقص ظلماً، قال تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [الإسراء:٧١] ويحتمل: وهم لا يظلمون أي ظلم حقيقي.

﴿١٦١﴾ ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، فهو المستقيم الذي لا عوج فيه طريق واضح لا خفاء فيه يوصل إلى رحمة الله ورضوانه مستقيم لا عوج فيه؛ لأنه الحق فكيف أعدل عنه إلى أباطيل الجاهلية وقد هداني ربي ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ تفسير للصراط المذكور بأنه دين أي طاعة لله ومعاملة مع الله ﴿قِيَمًا﴾ لا بدعة فيه ولا ميل عن الحق، فوصفه بالإستقامة من حيث هو صراط يمدح باستقامته وسلامته من العوج الذي يسبب طول السير وبعد المسافة، أو يسبب الغلط بانحرافه عن القصد حيث لم يشعر السائر بانحرافه فيتقدم خارجاً منه فهو مدح للمشبه به ليفيد مدح الدين المشبه بأنه خير طريقة.

أما قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ فهو يفيد أن الدين نفسه قيم سليم من عيوب الأديان التي تدخلها بسبب الإبتداع والإنحراف أو الأديان التي يختارها الإنسان ليست من الله فهي من أصلها معوجّة عن الصواب، وهذا على قراءة ﴿قَيِّمًا﴾ [بفتح القاف وكسر الياء وتشديدها].

فأما على قراءة ﴿قِيَمًا﴾ [بكسر القاف وفتح الياء وتخفيفها] فهو بمعنى: قوام، فهذا الدين قوام لي تقوم به حياتي لصلاحه لها وإصلاحه لها وجعلها حياة طيبة لسلامتها من ضرر المخالفة اللازم لها كضرر الخمر والميسر والقوانين الإنسانية المخالفة لدين الله ولسلامتها من تضييع العمر في غير فائدة للمستقبل، وجعل هذا العمر مؤدياً إلى عذاب الآخرة وسلامتها من العيش الضنك الذي لا بد منه لمن أعرض عن ذكر الله، وعلى هذا مرجع القراءتين إلى معنى واحد.

رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ

فأما الشرفي فقال في تفسير ﴿قِيَمًا﴾: ((مصدر بمعنى القيام وصف به وهو أبلغ من قائم)) انتهى، فجعل قيّماً وقيماً القراءتين، بمعنى واحد.

﴿مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿مِّلَّةَ﴾ أبيكم ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ الذي اتفق أهل الملل أنه على الحق وادعى أهل كل ملة أنهم على دينه بلا حجة أو الذي تدعي العرب أنها على دينه خطأ منهم ﴿حَنِيفٗا﴾ خاشعاً لله ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فزعمكم أيها المشركون أنكم على دينه زعم باطل؛ لأنكم مشركون وما كان من المشركين قط.

﴿١٦٣﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمشركين ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾ لله وحده فأنا أدعوه في صلاتي وحده ولا أدعو غيره كما يفعل المشركون ﴿وَنُسُكِي﴾ نحري وذبحي له وحده لا أنسك لغيره كما تصنعون أيها المشركون.

﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ كذلك هما لله، أي منذوران لله تعالى، فسأجعل كل أعمالي في حياتي كلها وفق مراد الله وفيما يحقق لي رضاه، وكذلك أُسخِّر موتي فيما يرضي الله وسأجعله في سبيله وأنذره ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المالك لي، وهذا هو الإسلام الكامل في أعلى درجاته إسلام نفسه لله وحده إسلاماً كاملاً؛ لأنه لا يبقي لنفسه من نفسه شيئاً.

﴿١٦٣﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ﴾ أمرني ربي بأن أجعل حياتي ومماتي له وفي سبيله، ناصراً لدينه ومجاهداً لإعلاء كلمته ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ سابقهم في الإسلام لا يبلغ مبلغي فيه أحد من البشر، أو أول المسلمين في زماني سبقت بإسلامي من اتبعني كلهم وكنت قدوتهم في الإسلام وهذا أقرب.

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ

﴿١٦٤﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي هذا لا يكون مني أبداً، فالسؤال بمعنى النفي كقول (مؤمن آل ياسين): ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا..﴾ [يس:٢٣] وقوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ احتجاج على المشركين بأن الله رب كل شيء فلا يستحق العبادة غيره، ومعنى ﴿أَبْغِى﴾ أطلب أن يكون لي رب غيره وجعل (غير) بعد همزة السؤال؛ لأن (غير) محط الإنكار، أي كيف غير الله اتخذ ولياً؟!

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ احتجاج آخر بأني لو فعلت ذلك ما ضررت به إلا نفسي﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ احتجاج ثالث بأني لو فعلت ذلك لم يحمل أحد عني ذنبي فهو ردٌّ على القائلين: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ [العنكبوت:١٢] ومعنى ﴿تَزِرُ﴾ تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾ حاملة ﴿وِزْرَ﴾ حمل ﴿أُخْرَىٰ﴾نفس أخرى.

قال في (الصحاح): ((والوزر: الإثم والثقل ـ ثم قال ـ : وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة حمل أخرى)) انتهى.

والدليل على أنه استعير من حمل الثقيل قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ فقوله: ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ استعارة، وقوله: ﴿عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ ترشيح، وفي (لسان العرب): ((الوزر: الحمل الثقيل، والوزر: الذنب لثقله ـ ثم قال ـ: ووَزَرت الشيء أزِرُه وَزْراً حملته، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾)) انتهى.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ترتيب على الإحتجاج الماضي، وعلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي..﴾ وما بعدها

بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ أنت ومن معك والمشركون ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ إليه وحده في الآخرة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم في القيامة في مقام الحساب والجزاء ﴿بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من طاعة وعبادة خالصة لله ومعصية وشرك لم يخفَ عليه منه شيء، ولم ينسَ منه شيئاً، فيبين لكم الذي كنتم تختلفون فيه حين يبين لكم الحق من الباطل مما اختلفتم فيه، كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩].

﴿١٦٥﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، وإضافة الخلائف إلى الأرض لخلافتهم من قبلهم في عمارتها والإصلاح لما يصلحون فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٣-١٤] فالخلافة في الأرض قسمان: خلافة قرن لقرن وأمة لأمة ينتفعون بالأرض انتفاع من قبلهم، وخلافة إنسان لله، كقوله تعالى: ﴿يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص:٢٦].

فقوله تعالى: ﴿جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ الخطاب للموجودين عند نزول الآية وخلافتهم لمن قبلهم معروفة، ولكن بين الله هنا أنه هو الذي جعلهم خلائف لا غيره ممن يعبدهم المشركون أو غيرهم فهو كقوله تعالى:

في السورة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾ في آيات عديدة يرد فيها على المشركين ويبين لهم أنهم مبطلون.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف:٣٢] إلا أن هذه أعم من آية الزخرف.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ عام للنعم كلها من الأموال والأولاد والأزواج ومن القوة والفطنة والعلم والحكمة بل والعقل والسمع والبصر ومن الولاية لما تحت أيديهم من ناس أو أنعام وغير ذلك ونتيجة الإبتلاء الذي هو الإبتلاء بما ذكر: الجزاء لكل نفس بما كسبت، والمغفرة لمن هو أهل في الحكمة لئن يغفر لَه، فرتب على ذكر البلوى ذكر الجزاء والمغفرة فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ وسرعة العقاب وقوعه عقيب المعصية لمن استحق ذلك، ومن أعظم أنواع العقاب وأشده: الخذلان، وإرسالُ الشياطين، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] فهذا نعوذ بالله عقاب عاجل سريع.

ويحتمل أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كالنتيجة لما تقدم في السورة كلها خاتمة لها، فقد تبين فيها أنه سريع العقاب بخذلان المتمردين المدلول عليه في السورة، وتبين أنه غفور رحيم بالدعوة للعصاة إلى التوبة والمغفرة لهم والرحمة، وبتأجيلهم وإمهالهم حتى تتهيأ لهم التوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دعوة إلى مغفرته ورحمته، وبيان لما في السورة من وعيد المشركين وتقبيح طريقتهم وأعمالهم الجاهلية أنه كله تقبل التوبة منه، ويغفر كله لمن تاب لأنه غفور رحيم، وما في السورة من

الإحتجاج عليهم هو نفسه دعوة إلى التوبة ليغفر لهم ويرحمهم، وكذلك يرحم عباده ويغفر لهم بتأجيلهم في هذه الحياة، ولو يؤاخذهم حين يكسبون الإثم لكان ذلك عظيماً عليهم، ولكن يعرضهم على التوبة بتأجيلهم ويدعوهم إليها ليغفر لهم ويرحمهم فكان التأجيل والدعوة مغفرة ورحمة، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وجعل خاتمة السورة ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ مناسب لذكر جرائم المشركين وعنادهم وهو يدعوهم ليغفر لهم من ذنوبهم ويؤخرهم إلى أجل مسمى، فكأنه يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعجل لهم العذاب وهم كما قد بين في هذه السورة مبطلون ومكذبون ومجادلون ومصرون على باطلهم، معاندون بعد وضوح الحق وقيام الحجة عليهم بهذا القرآن العظيم، فذلك التأجيل والدعوة إلى رحمته مع أنهم كما ذكرنا؛ لأنه غفور رحيم.

والحمد لله رب العالمين.

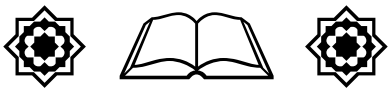

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــــــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	هل فى المال حق سوى الزكاة؟	النساء	٨
٢	حكم الفدائي أو الإستشهادي	النساء	٢٩
٣	حكم الخطأ والنسيان وتحديد الكبائر	النساء	٣١
٤	مولى الحِلْف وعدم نسخ نصيبه	النساء	٣٣
٥	واللاتي تخافون نشوزهن	النساء	٣٤
٦	شهادة الرسول على الناس	النساء	٤٢
٧	وجوب إحضار الذهن حال الصلاة	النساء	٤٣
٨	مثير وا الفتن	النساء	٧٧
٩	لتبين للناس ما نزل إليهم لا يعني البيان بالسنة	النساء	٨٢
١٠	فهم القرآن فى متناول الجميع	النساء	٨٣
١١	يتبع فهم القرآن فى للجميع	النساء	٨٣
١٢	تعريف التحية	النساء	٨٦
١٣	الدية ليست ميراثاً	النساء	٩٢
١٤	معنى تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة	النساء	٩٥ـ ٩٦
١٥	ليس الجهاد فرض كفاية	النساء	٩٥ـ ٩٦
١٦	فلا تميلوا كل الميل	النساء	١٢٩
١٧	تعريف المنافق	النساء	١٣٨
١٨	لن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا.. كيف؟ ومتى؟	النساء	١٤١
١٩	فى صفات المنافقين	النساء	١٤٢
٢٠	فى معنى [اليوم أكملت لكم دينكم]	المائدة	٣
٢١	حكم الأمر بالوضوء تابع للقيام للصلاة	المائدة	٦
٢٢	[وأرجلكم إلى الكعبين] الفصل لا يمنع العطف	المائدة	٦
٢٣	وجوب غسل القدمين	المائدة	٦
٢٤	رد على اليهود في دعوى الملكية لأرض فلسطين	المائدة	٢١
٢٥	معنى الوسيلة	المائدة	٣٥

م	الموضـــــــــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
٢٦	[إنمـــا ولـــيكم الله ورســـوله والـــذين آمنـــوا] الإستدلال على نزولها فى الإمام علي [ع]	المائدة	٥٥ـ ٥٦
٢٧	رد على المشبهة فى معنى [اليد]	المائدة	٦٤
٢٨	آية الولاية وتخريج حديث الغدير	المائدة	٦٧
٢٩	لفتة رائعة فى اسم الخمر وحقيقتها	المائدة	٩٠
٣٠	معنى مشيئة الله سبحانه ومعنى الإضلال	الأنعام	٣٩
٣١	الفرح المذموم والمحمود	الأنعام	٤٤
٣٢	الخلافة فى الأرض قسمان	الأنعام	١٦٥

محتويات الجزء الثاني

رقم السورة	السـورة المفسّـرة	الصفحات من	الصفحات إلى
٤	سورة النساء	٦	٢٣١
٥	سورة المائدة	٢٣٣	٤١٤
٦	سورة الأنعام	٤١٥	٥٨٤
فهرس بأهم المواضيع والمسائل		٥٨٥	٥٨٦
فهرس المحتويات		٥٨٦	

]

التيسير في التفسير

الجزء الثالث

= الأعراف ـ يوسف -

تأليف

العالم الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

تحقيق

عبد الله بن حمود العزي محمد بن بدر الدين الحوثي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

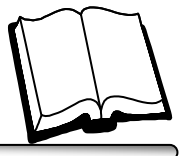

التيسير في التفسير

سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن

ابتداء تفسير (سورة الأعراف)

قال الشرفي في (المصابيح): ((سورة الأعراف مائتان وست آيات مكية غير ثماني آيات: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي..﴾ إلى ﴿..وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ فإنها مدنية)) انتهى.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓصٓ﴾ تقدم في تفسير (الفاتحة) تفسير البسملة، وتقدم في أول تفسير (سورة البقرة) في الكلام في الحروف المذكورة في أوائل السورِ، ولا إشكال أنها عبارة عن معانيها المعروفة المعبر عنها في (ألف، باء، تاء، ثاء.. إلخ) التسعة والعشرين اسماً للحروف التي يتركب منها الكلم، فألف للحرف الأول من (أنا) ومن (أمر) ومن غيرهما، والحرف الثاني من (رأى) ومن (نأى) وغيرهما وما في سائر الكلام منه سواء في أول الكلمة أو أثنائها أو آخرها.

وهكذا (اللام) اسم للحرف الثاني في (لفظ الجلالة) وفي (إله) وفي (علم) وما هو منه في سائر الكلمات، سواء في أولها أو أثنائها أو آخرها، وهكذا الكلام في (ميم) وفي (صاد) فالكل أسماء لحروف تستعمل في تركيب الكلام، فهذا لا إشكال فيه، إنما الإشكال في الغرض المقصود الذي لأجله ذكرت في أوائل السور، فقيل: أُعلِم به العرب أنه ـ أي القرآن ـ مركب من حروف كلامهم في سياق التعجيز بسورة من مثله تأكيداً للتعجيز.

دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

قلت: يحتمل أن هذا من جملة الغرض فيها، ويحتمل مع ذلك أنها ذكرت إعلاماً للعرب أنه أوحي إلى رسول الله ص كلاماً مؤلفاً من الحروف المعروفة ليدل بذلك على أنه وحي حقيقة نفس الكلام المؤلف من الحروف لا مجرد المعاني، وهذا يظهر في قوله تعالى: ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ..﴾ [الشورى:١-٣].

وقيل: ذكرت الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها للقسم بها؛ لأنها في بعض السور تقترن بذكر مقسم به مثل: ﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف:١-٢] فأقسم الله بها كما أقسم بغيرها من ما يجتمع فيه أنه آية ونعمة، مثل: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾.

وقيل: ذكرت الحروف المذكورة وفيها سرّ لمعان يُطْلِع الله عليها من هداه لها.

﴿٢﴾ ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي ذلك أو هذا كتاب أوحي إليك أي هذا القرآن أنزله الله كتاباً يكتب ليحفظ وتتناقله الأمم وتتوارثه الأجيال، محفوظاً بالكتابة في المصاحف ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ بل عليك أن ينشرح له صدرك، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء:٦٥] والحرج: الضيق.

﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالإنذار بالقرآن من أهم مقاصد إنزاله إلى رسول الله ص لشدة حاجة الناس إليه بسبب غلبة الجهل وكثرة الشرك على اختلاف المشركين فيه، وكثرة الباطل في الجاهلية وعند أهل الكتاب ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ من الغفلة للمؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

﴿٣﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ خطاب للمنذَرين وللرسول ص وللمؤمنين وهو أمر باتباع القرآن، أو هو عام له ولسائر الوحي من الله.

وقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تنبيه على وجوب اتباعه على العباد؛ لأنه من مالكهم؛ ولأنه حق وصواب، لأنه من الله، ولأنه رحمة للعالمين من ربهم الرحيم بهم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ من دونه يحولون بينكم وبينه ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مَن تتولونهم وتحبونهم فلا يحملكم توليهم على اتباعهم وترك ما أنزل الله.

وقلت: يحولون بينكم وبينه؛ لأن معنى ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أن تتبعوهم من قبل أن تتبعوا القرآن؛ لأن معنى من دونه بينكم وبينه، فكان المعنى: لا تجعلوا الأولياء أسبق إلى اتباعكم لهم، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [العنكبوت:٢٥] ومنه إتباع الآباء وترك القرآن من أجل اتباعهم، ومنه اتباع قوانينَ وضعها البشر برأيهم غير مستندين إلى القرآن.

﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤثرون اتباع آيات الله على إتباع من تحبون لتذكركم حق الله عليكم، وأنكم في الآخرة ترجعون إليه فيجزيكم بما قدمتم، وأن من خالف أمر الله يتعرض لعذاب عاجل وآجل.

﴿٤﴾ ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ أهلكناها بسبب كفرهم بما أنزل الله ومعصيته وإيثارهم اتباع أولياءهم على اتباع ما أنزل الله ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا﴾ أي بيَّتهم في الليل ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ في حال قيلولتهم في النهار.

قال في (الصحاح): «القائلة: الظهيرة، يقال: أتانا عند القائلة، وقد يكون بمعنى القيلولة، وهي: النوم في الظهيرة، يقال: قال، يقيل، قيلولة..» انتهى المراد، وفي (مفردات الراغب): «قِلتُ قيلولةً: نمت وسط النهار» انتهى المراد.

إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ

فمعنى ﴿قَآئِلُونَ﴾ نائمون في الظهيرة وسط النهار، وعطف ﴿فَجَآءَهَا﴾ على ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ لجريه مجرى التفصيل الذي يعطف بالفاء على الإجمال كما تقول خطب فقال كذا.

﴿٥﴾ ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لم يدَّعوا أن الله لم يرسل إليهم منذراً، أو يدَّعوا أنه لم يمكنهم القبول من النذير، أو يدَّعوا أن النذير لم يأت بحجة تدل على صدقه، أو أن النذير كان مجنوناً أو كذاباً مجرباً في الكذب؛ ولذلك أعرضوا ولم ينظروا في دليل صدقه، بل لم يجدوا أي حجة وأي دعوى سوى الاعتراف بأن السبب لهذا العذاب المهلك من عند أنفسهم وهو الظلم بالإعراض عن النذير، وإيثار الهوى، وإيثار اتباع الأولياء على اتباع أمر الله ربهم، وهكذا نجد الناس إذا جاءت المصائب من الجدب أو تسليط الظلمة ليهلكوهم قالوا ذنوب الناس وإعراضهم عن طاعة الله ولم يقف حال المعرضين عن ما أنزل الله إلى اتباع أوليائهم على العذاب العاجل وحده، بل لابد من العقاب الآجل وهو أشد وأبقى.

﴿٦﴾ ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ ألم تأتكم رسل؟ ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٦٥] ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هل بلغتم الرسالة كما أمرتم؟ و﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ﴾؟ وهذا السؤال سؤال حساب لا سؤال تعرف، فهو سبحانه أعلم بما قدموا كلهم.

﴿٧﴾ ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ نقص عليهم في الآخرة سيرتهم في الدنيا، وما قدموا، وما أخروا، وما أسروا، وما أعلنوا بعلمٍ ما فيه

فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ وَلَقَدۡ

تظننٌّ، بل العلم الذي هو شأن الرقيب عليهم الشهيد على كل ما عملوا، وهو مع ذلك ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام:٧٣] ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١٠٩] ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ كما قال عيسى × : ﴿أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة:١١٧] وكما قال تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦] وغير ذلك، فلا يقال له: غائب، ويُجتنَب التعبير عنه سبحانه بالغائب.

٨ ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ تقدير مقادير الأعمال ليكون الجزاء تابعاً في مقداره لمقدار العمل على التحقيق، بلا تساهل ولا مجازفة ولا إهمال لشيء من الأعمال ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧] فهذا العدل هو الحق، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: العدل)) انتهى.

﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ كانت له حسنات مقبولة نافعة ثقل بها ميزانه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون الظافرون بالنجاة والسعادة الدائمة.

٩ ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لم يكن له من العمل الصالح ما يثقل به ميزانه؛ لأن أعماله أحبطتها سيئاته، فكانت ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور:٣٩] ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ وما أعظمها من مصيبة أن حياتهم الآخرة ليست لهم، ولم يبق لهم من أنفسهم أي فائدة وإنما يبقون ليعذبوا.

﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾ فكما خسروا أعمالهم خسروا أنفسهم وسبب ذلك كله أنهم كانوا في الدنيا بآيات الله جل جلاله يظلمون، والظلم بآيات الله يكون التكذيب بها، ويكون الاستهزاء بها، ويكون الاستخفاف بها، لأنه كله ظلم متعلق بآيات الله.

مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ١٠ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ

وهذه الآيات كما ترى ليس فيها ذكر لموازنةٍ بين الحسنات والسيئات، بل ظاهرها أن الموزون هو الحسنات فقط، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٨] فهو كذلك لايفيد الموازنة بين الحسنات والسيئات، إنما يفيد اعتبار السيئة في الجزاء وإن صغرت، ولو لم تكن إلا مثقال ذرة فلن تهمل ولن يغفل عنها، ولن تنسى بل يجدها محضرة في كتابه وفي جزائه، فأما الموازنة بين الحسنات والسيئات فلم تذكر.

١٠ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿مَكَّنَّٰكُمۡ﴾ أيها الناس في الأرض لتنتفعوا بها وتعيشوا فيها والتمكين للبشر في الأرض تقويتهم على الانتفاع بمنافعها، وجعلها لهم قراراً، وإعدادها لانتفاعهم بها.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ قال الراغب: ((العيش: الحياة المختصة بالحيوان ـ ثم قال ـ: ويشتق منه المعيشة لما يَتَعَيَّش منه)) انتهى، وقال الشرفي في (المصابيح): ((﴿مَعَٰيِشَ﴾ جمع معيشة ما يعاش به من المطاعم والمشارب أو ما يتصل به إلى ذلك)) انتهى. وعبارة (لسان العرب): ((معايش: ما يَعيشون به، ويحتمل: أن يكون الوصلة إلى ما يعيشون به)) انتهى.

قلت: (الباء) للآلة في قوله: ما يعيشون به، فقد دخلت الوصلة في جملة الآلة، فالأولى أنه عام لما يعيشون به أساساً ولما يتوصلون به إلى ما يعيشون به، فبيّن الله نعمته على الناس، ثم بين أن شكرهم قليل وهو حث على الشكر.

إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ

﴿١١﴾ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أيها الناس أي خلقنا هذا النوع من الحيوانات والمراد ابتدأنا خلقهم بخلق أولهم وهو آدم، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم:٢٠] وخلق الإنسان إيجاده مقدّراً، وتصويره تحصيل صورته مثلاً: جَعْل عينين، ولساناً وشفتين، وجعْل الإنسان منتصباً على رجليه، يعمل بيديه..وغير ذلك، فهذه نِعَم عظيمة وتكريم للإنسان بما فضله به على سائر الحيوانات.

﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾ وهذا تكريم عظيم للإنسان والنعمة على الوالد نعمة على الولد، وهذا سجود تكريم ليس سجود عبادة﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ تصريح بمفهوم الإستثناء، لأنه ينبني عليه الكلام الآتي.

﴿١٢﴾ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ هذا سؤال عن الباعث على المعصية، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ تحقيق للمعصية بأنه أمره بالسجود، فلم يسجد حين أمره، وقد علم سبحانه ما منعه، ولكن سأله ليجيب بذكر ما منعه، وأمرُه بالسجود هو في ضمن قوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا﴾ وهو يدل على: أنه قد كان بعبادته الماضية في السماء صار من الملائكة، وإن كان أصله من النار كسائر الجن؛ ولذلك دخل في عموم أمر الملائكة، ولا مانع أن يكون اسم الملك ليس مفهومه نسب معيّن بل حالة من العبادة والكرامة بسببها مع الكون في السماء مقر العبادة الخالصة ومقرّ الملائكة كما يسمى الرسول رسولاً سواء كان رسولاً إلى الناس أو رسولاً إلى النبي من الله، أي أن اسم الملك إنما هو صفة لا اسم جنس مخصوص، وفي الآية دلالة على أن صيغة: افعل تسمى أمراً، وأنها تفيد الوجوب من حيث هي أمر.

فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾قيل فيه: (لا) صلة في الكلام للتأكيد، وقال بعض المفسرين: ((والظاهر أن (مَنَعَ) مضمَّن معنى حَمَل أودَعى، والمعنى: ما حملك أو دعاك على أن لا تسجد مانعاً لك)) انتهى.

قلت: ومن هذا قول الراغب، أي ما حملك، وحصلت به الدلالة على أن السؤال ليس سؤالاً عن عذر مانع من السجود، بل هو سؤال عن الباعث على المعصية الذي حمله عليها، وعلى هذا فـ(لا) نافيه، وصح ذلك لتضمين (مَنَعَ) حَمَل، ومثل هذا التضمين مشكل؛ لأنه لا يستقيم إلا مع حذف مفعول منع، وتضمين الفعل ضد معناه وهو بعيد، وأقرب منه جعل (لا) صلةً للكلام يحسّنها أن أصلها النفي، وأن المقصود بالسؤال عن المانع من السجود السؤالُ عن الحامل على تركه، فحَسُنَ جعل الكلام في صورة النفي ملاحظةً للمعنى المذكور ـ والله أعلم.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هذا ذكر الباعث على المعصية، وأنه كونه في دعواه خير من آدم التي احتج لتصحيحها بأن ربه خلقه من نار وخلق آدم من طين، وهذا ليس مبرراً للمعصية؛ لأن عليه امتثال أمر المالك المنعم، وأن يسلِّم لحكم الله لأنه الحق، فامتناعه عين الباطل و الإنقياد للكبر، وليس له أن يجادل أحكم الحاكمين الذي لا يظلم أحداً ولا يأمر بالباطل؛ ولهذا ترك الردّ عليه؛ لأنه لم يأت بحجة إلا مجرد التعبير عن استكباره؛ لأن أصله من النار ولا يلزم منه أنه خير من آدم؛ لأن آدم شرف بروحه المخصوص، والتسوية التي اختص بها، وإعداد فطرته للعلم الغزير.

﴿١٣﴾ ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ كانت عقوبة عاجلة طرده من مكان شريف رفيع أو مكانة شريفة

رفيعة، وقد أبهم هنا، وفي سائر مواقع القصة فلنبهم ما أبهم، ولا نقل هو السماء التي هي محل العبادة، ولا الجنة ولا الرئاسة، فذلك أمر زائد على التفسير؛ لعدم الدليل عليه، وإن كان ذكر الهبوط يوحي بأنه في السماء جملة من دون تعيين لمقر الملائكة، وكان الظن أنه مقر الملائكة؛ لأنه مظنة التنزيه عن إبليس من حيث أنه محل العبادة بمنزلة المسجد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨] فلا نجزم بذلك جزماً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ يدل على أنه لا يصلح للبقاء فيها في حال تكبره، وليس من شأنه إلا أن يُطرَد عنها فرتب عليه طرده عنها بقوله ـ عزّ وجل ـ : ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ والصاغر: الذي يستحق المنزلة الدنيئة السافلة الحقيرة، فهذا حكم من تكبر عن الحق كما أن من تواضع لأمر الله رفعه الله.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ﴾ في الحياة هذه ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يعني بعث آدم وذريته أو كافة المخلوقين، وذلك يوم القيامة حين ارتفاع التكليف ومجيء وقت الجزاء ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إلى نهاية وقت التكليف وهو يوم الوقت المعلوم الذي اقتضت حكمة الله إنظاره إليه ابتلاءً للعباد واختباراً يظهر فيه من يطيع الله ومن يطيع عدو الله وعدوه، فأما بعد ارتفاع التكليف فلا وعد له بالإنظار إلى يوم يبعثون.

وفي التعبير بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إشارة إلى أن إنظاره كان مقدَّراً من قبل سؤاله، فقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ خبر عن أنه منظر من قبل، لا أنه أحدث له الإنظار إجابة لدعائه، لأنه لو كان إجابة كان إنشاء لا يؤكد بـ(إنّ) ولكنه أكده بـ(إن) لئلا يتوهم عدو الله أن الإنظار إجابة لدعائه لم يكن مكتوباً له من قبل، ونظيره لو قال رجل: اعطني هذا القلم، فقلتَ: إنه لك، لأنه إنما نسيه عندك من قبل.

أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

﴿١٦﴾ ﴿قَالَ﴾ الشيطان ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي لآدم وذريته ﴿صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ لأصدَّهم عنه، وقوله: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ يعني بما سببت لغوايتي؛ لأنك أمرتني بالسجود وأنا لا أسجد له؛ لأنه عليَّ أمر ثقيل كالمستحيل، فقد أغويتني به أي سببت لغوايتي ومعصيتي لك، وعُدُولي عن طريق الرشد، فبسبب ذلك أُقسم لأنتقمن منهم؛ لأن غوايتي كانت من أجلهم ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ لإغوائهم ﴿صِرَاطَكَ﴾ أي اعترضهم في سلوكهم على دينك لأصدهم عنه، فصراط الله: هو دينه الذي ارتضاه لعباده، شبهه بالطريق يَقعُد عليه ليصد المارة عن سلوكه ويحولهم إلى الغواية والمشي في غير طريق هداية.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ ﴿لَأَتِيَنَّهُم﴾ لمحاولة إغوائهم من كل جهة، فإذا أتيت الإنسان من جهة فلم يرض أتيته من جهة ثانية وهكذا، بل وإذا كان يوافق حين آتيه من بعض الجهات ومن الجهة أو الجهات الأخرى أتيته منها، فالحاصل أنه يأتيه من كل جهة من الجهات الأربع سواء أطاعه في بعضها أم عصاه.

وهذا تمثيل لاحتيال الشيطان لإغواء الإنسان من أي جهة يجدها مدخلاً على الإنسان كالتخويف من الفقر في المستقبل والتخويف من الفقر على من يخلفه من أولاده والتثقيل للطاعة والتثبيط عنها والدعوة إلى الزيادة والغلو والدعوة إلى بدعة يزينها له ديناً، والدعوة إلى الفواحش والظلم وتزينها.

مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ لأني أستطيع إغواءهم إلا عبادك منهم المخلصين، وفي قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ احتمالان:

أحدهما: أنه يفوِّت عليهم فضيلةَ الشكر ويلحق بهم عارَ الكفر فيوقعهم في مثل ما وقع فيه من الخسة والدناءة وسقوط المنزلة ويفوت عليهم ثواب الشكر وفائدته العاجلة.

واحتمال: أن عدو الله بجهالته وقلة معرفته بالله أراد أنه يفوّت عليه شكر عباده، بمعنى أنه غرض لله تعالى، فوّته عليه جهلاً منه أن الله غني عن العالمين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧] وكأن هذه المحاورة وقعت قبل خروجه عن مكانه الذي طرد منه بعد أمره بأن يخرج، فلذلك أعيد الأمر بالخروج إهانة له وتأكيداً لطرده.

﴿١٨﴾ ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿مَذْءُومًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: معيب مرجوم ﴿مَّدْحُورًا﴾ فيه معناه: مبعداً)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الذام: العيب يهمز ولا يهمز)) انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((الدحر: الطرد والإبعاد)) انتهى.

﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي من آدم وولده ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ أي من الجن ومن ذريّة آدم، دخل الجن في خطاب إبليس لأنه منهم، و(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ بيان ما ملئت منه، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ..﴾ إلى آخرها جواب القسم سادّ مسد جواب الشرط، فهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ..﴾ [الإسراء:٦٣] وقوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] والمراد من تبعه ولم يتب.

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تحقيق لعموم الثقلين الجن والإنس إنه يملأها منهم، وفي هذا دلالة على أنه غني عنهم لا يبالي بغوايتهم ولا بمصيرهم في جنهم، وأن إبليس ومن تبعه هم الخاسرون ﴿وَلَنْ يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف:٣٩].

﴿١٩﴾ ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هي جنةٌ فيها نعمة لآدم وزوجه لعلها في الأرض وهي معروفة عند آدم، فالتعريف لأنها معهودة عند آدم.

﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ تعبير عن كثرة المأكول وأنه موجود حيث شاءا أن يأكلا ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وهي أيضاً معهودة لآدم فصحت الإشارة إليها كقوله ص: «من أكل من هذه البقلة» يعني الثوم، فيحتمل أن الإشارة إلى جنس كما في الحديث، وقد فسرت بشجرة البُرّ، ويحتمل أن الإشارة إلى عَين.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمعصية ربكما وكل معصية لله فهي ظلم؛ لأن معصية المالك المنعم حيف وجور؛ لأن الطاعة حق على العبد المنعَم عليه.

﴿٢٠﴾ ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ قال الشرفي / : «قال في (البرهان: الوسوسة فهو إخفاء الصوت بالدعاء، يقال: وسوس له إذا أوهمه النصيحة ووسوس إليه إذا ألقى إليه المعنى» انتهى المراد.

﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ وسوس لهما من أجل أن يكشف لهما ما سُتر عنهما ﴿مِن سَوۡءَٰتِهِمَا﴾ من عيوبهما التي تسوءهما، أو من عوراتهما.

وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

﴿وَقَالَ﴾ في وسوسته ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ﴾ كراهة ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ إذا أكلتما منها، والملائكة ملوك يتصرفون في العالم تصرف الملِك، وهذا ترغيب في أن يكونا مَلكين وقد أسجد الله لآدم ملائكته فمرجعه إلى الترغيب في المُلك، كقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾ [طه:١٢٠] ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون، ولا يبالي أن يكذب بدعوى أن الملائكة ملوك، وبدعوى أن من المخلوقين خالدين لا يموتون أبداً، فقد أوهمهما أن النهي عن أكلهما من الشجرة ليس لمصلحتهما.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ معناه: حلف لهما)) انتهى، ومثله في الصحاح وغيره.

﴿٢٢﴾ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (دلاهما): أوقعهما في الخطر أي في المعصية، وفي شعر معاوية في مولاه حريث:

ودلاّه عمروٌ والحوادث جمة ... وقد يهلك الإنسان من لا يحاذر

و لعل أصله التدلية في الحبل في البئر أو نحوه، والغرور كلامه الذي غرهما به.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((معناه: فَجَعَلا يخصفان الورق بعضه إلى بعض ينظمانه)) انتهى، وخصف الورق عليهما، الأقرب: أنه استعداد للخروج من الجنة، بسبب أن لباسهما نزع عنهما، ليضطرَّا إلى

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا

العمل لتحصيل اللباس كما يعملان لتحصيل الأكل والفراش والمسكن، فكان استعمال الورق لباساً أول ضعف الحال.

﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا تذكير لهما بأنهما قد زلاّ من جهة أنفسهما لاغترارهما بغرور الشيطان، لا من عدم التحذير من الله.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أي تابا إلى الله واعترفا بالخطيئة، ويترجح أن هذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه أي تلقنها، أي هداه لها فاهتدى لها وقالها فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، ويظهر: أن هذا كان قبل نبوءة آدم، وأنهما كانا في أول أمرهما لمّا تشرع لهما شريعة إنما نهيا عن الأكل من الشجرة، وكان ذلك لطفاً لهما، ليشتد حذرهما من الشيطان حتى ينجوا من النار، ويدخلا جنة الخلد؛ لأن التحذير من الشيطان لم يكن كافياً لهما وحده حتى جرَّبا كيده وذاقا مرارة الإغترار بغروره، ورُبَّ ضارة نافعة.

فإن *قيل*: لا يخلو إما أنهما عند نهيهما عن الشجرة قد كانا بلغا حدَّ التكليف أولم يكونا بلغا حد التكليف، إن لم يكونا بلغا حد التكليف فكيف كانت معصية وتوبة؟ وإن كانا بلغا حد التكليف فكيف لم يكلفا بشريعة؟

والجواب: أنهما بلغا حداً يصح فيه تكليفهما باجتناب الشجرة، ولا يلزم منه أنهما بلغا حداً يصح في الحكمة والرحمة تكليفهما فيه بشريعة كاملة، أي أنهما كانا حديثي سن، قد حصل لهما بعض الصلاحية للتكليف، وعلى هذا تكون قصة الشجرة قبل تعليم آدم الأسماء وتعليمه بعد خروجه من الجنة، واصطفاؤه بعدما وجد له بنون.

تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ ظاهر الأمر بالهبوط لآدم وزوجه والشيطان والعدواة بين الشيطان وآدم وزوجه، ولعل الشيطان أهبط أوّلاً من السماء فصار إلى آدم وزوجه لإغوائهما، ولا مانع من أنه كان في الجنة إذا كانت نعمتها لآدم وزوجه وليس فيها لإبليس مثل ما لهما من اللذات، بل ولا مانع أن يكون له فيها متاع؛ لأنه ممهل كما في الأرض، وهذا يستقيم على أن الإهباط الأول من السماء وأنها المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ كأن الخطاب لهم، والحكم لهم ولذرياتهم، مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والدليل على هذا قوله تعالى:

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يحتمل تخرجون من بطنها، ويحتمل تخرجون منها جملة إلى الجنة والنار وهذا أقرب، وهذا خطاب لآدم وذريته وما بعده خطاب لبنيه والخطاب الأول لآدم شمل ذريته بالتغليب وما بعده لبني آدم الذين وجدوا عند نزوله، ومن بعدهم يدخل في عمومه حين يوجد.

﴿٢٦﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗا﴾ خطاب لبني آدم الذين كانوا موجودين في عهد آدم عند نزول هذا الخطاب، ثم من بعدهم حين وجدوا، فقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ من مقول القول في الآية التي قبلها يذكر نعمة الله عليهم باللباس، ففيه فائدتان:

الأولى: مواراة السوءات أي ستر العورات، وهو تكريم للإنسان وتفضيل له على غيره من الحيوانات، وقد نبه على حاجته إليه بقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل:٨١].

الفائدة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ فاللباس للإنسان بمنزلة الريش للطائر؛ لأن الإنسان في الغالب ظاهر الجلد لا يغطيه شعر كغيره من الحيوانات الأرضية، ولا ريش كالطيور، فجعل الله له اللباس قائماً مقام الريش للطائر ومقام الشعر لغيره من الحيوانات الأرضية الظاهرة، ولعله خص الريش بالذكر لإغنائه في الدلالة على حاجة الإنسان إليه ونعمة الله به؛ ولأن الإنسان إن شاء لبس ثوباً واحداً فكان له خفة الريش، وإن شاء ضاعف اللباس فكان له وفرة الريش ونفعه في الدفئ ـ والله أعلم.

﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ وأنزلنا عليكم لباس التقوى بإرسال الرسل وإنزال الكتب وهدايتكم للتقوى إن اهتديتم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي لباس التقوى ﴿خَيْرٌ﴾ لأنه ستر يستر صاحبه عن معايب الأعمال ورذائل الأخلاق، وهو شرف لصاحبه ووقاية نافعة في الدنيا والآخرة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فالآية في اللباس الذي أنزله من القطن وغيره وهَدَى الإنسان لغزله ونسجه والتستر به واللبس له لحاجته إليه لظهور جلده، ومخالفته في ذلك للحيوانات الأرضية الظاهرة والطيور، فهذه دليل على علم الله تعالى وقدرته حيث خلق الإنسان مخالفاً في ذلك، وحيث جعل اللباس له ليقوم مقام الريش والشعر، والآية في الهداية إلى لباس التقوى حيث ميز الإنسان عن سائر الحيوانات بالعقل، وميّزه في قدرة

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ

العمل، وجعل له الهداية والتعليم الذي امتاز به عن السباع والبهائم، والذي لولاه لكان في أسوء حالة من التظالم وسوء الحال في التناسل والتربية وغير ذلك، حيث لا يكون له مع زيادة قدرته وفهمه وازعاً يحمله على العدل والإحسان، وينظم له معاملته فيما بينه على ما تستقيم به معيشته وتكافله وتعاونه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي بني آدم﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ وفيه التفات من الخطاب إلى الغيبة، لظهور إعراض أكثرهم فكفى توجيه الخطاب لمن يستمع وينتفع، أو لأن أكثرهم لم يكن قد وجد، وفي هذه الآية الكريمة ردّ على من يترك اللباس تهاوناً به وكفراً، ومن يتركه في حال الطواف إمّا تديُّنا لئلاَّ يجب عليه التصدق به في اعتقاده لأنه طاف فيه.

﴿٢٧﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في هذه الآية الكريمة تحذير من الشيطان وإشارة إلى وسيلة النجاة من سلطانه، فالتحذير:

أولاً: بالدعوة لهم إلى أن يعتبروا بأبويهم حيث أغواهما الشيطان حتى أخرجهما من الجنة أي سبّبَ بإغوائه لهما لخروجهما من الجنة، تأديباً لهما وكون غوايتهما نهاية للبقاء فيها، لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَاآدَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى..﴾ [آية:١١٧] إلى آخر الآيات من (سورة طه).

وقوله تعالى: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ كقوله: ﴿كَمَآ أَخْرَجَ﴾ أي أنه سبب بإغوائهما لإخراجهما في حال نزع اللباس عنهما بسببه أي بسبب إغوائه، ففيه بيان شدة عدواته حيث أغواهما ليخرجهما ولينزع عنهما لباسهما ﴿لِيُرِيَهُمَا﴾ بإخراجهما ونزع لباسهما ﴿سَوْءَاتِهِمَآ﴾ فيعلما أنهما ضعيفان في إرادتهما، ضعيفان في حزمهما، ضعيفان في حذرهما من عدوهما بحيث استطاع إخراجهما من الجنة، ونزع لباسهما الذي كان لهما في الجنة، ومغادرتهما محل الرفاهية إلى مسكن الشقاء بتوقف تحصيل حاجاتهم على العمل لتحصيلها، ففي هذا عبرة لبنيهما ليحذروا أشد مما أوقعهما فيه أن يدخلهم عذاب السعير، وهي الفتنة العظمى.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ سائر شياطين الجن، وفي (مفردات الراغب): ((والقبيل: جمع قبيلة، وهي الجماعة المجتمعة التي يقبل بعضها على بعض)) انتهى.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ تنبيه على أنهم يحاولون إغواء الإنسان وهو لا يشعر بهم؛ لأنه لا يراهم، ولذلك فالإنسان يحتاج إلى الحذر منهم في كل حال.

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا الجعل هو ترك الشياطين يغوون الذين لا يؤمنون، بلا صارف من لطف الله ولا معونة على دفع إغوائهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل:١٠٠] وهو ما نعبر عنه بالخذلان، وهذه الولاية هي أكبر المصائب من حيث أن الله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٤].

فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ

وأما الإشارة إلى وسيلة النجاة من سلطانه، ففي قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فأفهم أن من يؤمن ينجو من تسلط الشيطان عليه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ..﴾ الآية [النحل:٩٩-١٠٠].

﴿٢٨﴾ ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ عطف هذه الآية إما على الآية التي قبلها، بمعنى أن الله حذَّر بني آدم من الشيطان ولم يحذر أكثرهم بل ينسبون ما أوقعهم فيه إلى الله انقياداً للشيطان، وإما على ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ فهي من صلة الموصول، والأول أظهر؛ لأن المتمردين على الله المكذبين بآياته المجادلين فيها المصرين على ذلك يخذلون، وإن لم يقولوا: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ردّ الله سبحانه قولهم، وبيّن كذبهم عليه بأن الله لا يأمر بالفحشاء، أمر بقول ذلك رسولَه، وأن ينكر عليهم قولهم على الله ما لا يعلمون، وفيها دلالة على أنه لا يجوز القول على الله بغير علم لا في القطعيات ولا الظنيات، فينبغي التحرز في الفتوى وفي الحكم بأن يقول الحاكم أو المفتي: «الذي أرى» أو نحو هذا.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ في (الصحاح): «القِسط ـ بالكسر ـ العدل» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب) قال: «وهو من المصادر الموصوف بها

ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا

كعدل، يقال: ميزان قِسط، قال: وقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء:٤٧] أي ذوات القسط)) انتهى، وفي (المصابيح): ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي بالعدل.

﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ أمر الله رسوله ص أن يقول: ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ﴾ وحسُنَ عطف الأمر على الخبر، لأن الخبر يفيد الأمر، فكأنه قيل: أقسطوا وأقيموا وجوهكم، أو أن الأمر في المعنى محكي عن الله؛ لأن الرسول ص إنما يأمر بذلك لأن الله يأمر به، فكأنه قيل: أمر ربي بالقسط، وبإقامة وجوهكم، وإقامة الوجوه: التوجُّه بها لله وحده كما أمر.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني توجهوا حيث كنتم إلى الكعبة في الصلاة، واجعلوا سجودكم خالصاً لله دون ما سواه من الأصنام والأوثان)) انتهى.

فجعل ﴿مَسۡجِدٖ﴾ مصدراً، أي عند كل سجود، ويحتمل: أن المراد توجهوا لعبادة الله وحده عند إتيان كل مسجد، وهذا أقرب لإبقاء معنى المسجد على معناه المعروف في الشرع، وفيه فائدة: وجوب استحضار النية عند التوجه إلى المسجد للعبادة، ووجوب الصلاة في المسجد.

﴿وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي ادعوا ربي مخلصين له العبادة كلها من الدعاء وغيره ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ كما خلقكم أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ في الآخرة، فأنتم محتاجون إلى إخلاص الدين لله؛ لأنكم تعودون إليه فيجزيكم بما قدمتم.

﴿٣٠﴾ ﴿فَرِيقٗا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُۚ﴾ ﴿هَدَىٰ﴾ لأنهم لم يستحقوا الخذلان فهداهم، وفريقاً استحقوا الخذلان وأن يتركوا وشأنهم ضالين عن سبيل الحق.

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فحق عليهم أن يضلوا؛ لأن ضلالهم نتيجة حتمية لاتخاذهم الشياطين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ [الحج:٤] ولاكتفائهم بأن يحسبوا أنهم مهتدون مع نزول القرآن بالحق الواضح والدليل القاطع الهادي لمن اتبعه ومجيء الرسل قبله بالبيانات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦].

والراجح في قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا..﴾ ﴿وَفَرِيقًا﴾ أن نصب فريقاً على الحال، والثاني معطوف عليه، فالمعنى: تعودون يوم القيامة فريقين: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ أي تعودون فريقين، ليجزي كل فريق بما يستحق.

والراجح أن قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ تذكير بالدليل على قدرته تعالى، سواء كان المراد ﴿بَدَأَكُمْ﴾ خلقكم أول مرة، وهو أظهر، أم كان المراد: كما بدأ خلقكم، فكل ذلك من دلائل قدرته تعالى على إعادتهم، فالإنذار بالعودة وإثبات قدرة الله عليها هو من أهم مقاصد القرآن، وذلك يكفي في التشبيه بالبدءِ، ولا دليل على أن المراد به: أنه بدأكم فريقين، فكما بدأكم فريقين تعودون فريقين، بل هو ضعيف؛ لأنه يخرج التشبيه عن الإحتجاج المألوف في القرآن في مواضع عديدة إلى ذكر المناظرة بين حالهم في البدء وحالهم في الإعادة، وذلك ضعيف؛ لأنهم في حال البدء كانوا غير مكلفين فضلاً عن كونهم فريقين ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ ﴿وَفَرِيقًا..﴾ ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وإذا ظهر ضعف هذا عند تفسير البدء بمعناه الحقيقي، فلا ملجئ لحمله على المجاز ليتسنى التشبيه المذكور كما يريدون.

تُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ

فأما **قول** من قال بذلك: لو كان المراد إثبات قدرته تعالى على الإعادة لكان المناسب أن يقال: يعيدكم؟!

فالجواب: أنّا لا ندعي أن الكلام مسوق لذلك حتى يلزم ما ذكرت، وإنما السياق سياق الحث على الإخلاص، لأنا عائدون إلى الله، وذكر الحجة على العودة بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ لتأكيد الحث على الإخلاص، فهو عارض فلا يلزم أن يقال: يعيدكم؛ لأن التحذير من العودة هو الذي سيق له الكلام ـ والله أعلم.

﴿٣١﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ قد تقدم أن اللباس للإنسان كالريش للطائر، وأنه قائم مقام الريش، فالأقرب أن المراد بالزينة: اللباس، وهو أهم الزينة من حيث أن ستر العورة أهم من غيره من الزينة، ويناسب هذا ذكر المسجد؛ لأنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة، فقرينة الحال تساعد على تعيين اللباس للطواف وللصلاة في أي مسجد، بقرينة التعميم لكل مسجد، وليس خاصاً بالصلاة، بل ظاهره: أخذ اللباس عند إتيان المسجد، وهو ظاهرة حسنة للمسلمين في مجتمعهم؛ ولذا شرع لهم التجمل في الجمعة، والأقرب: أن الأمر للوجوب؛ بقرينة ذكر المسجد، ولو كان للإباحة ما كان خاصاً بالمسجد.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ فيمكن أن المراد به: استحلال ما أحله الله واجتناب تحريمه، كما فعلت الجاهلية من تحريم بعضه كما مر في (سورة الأنعام) فيكون الأمر هنا كالأمر في قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا

كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ

مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [آية:١١٨] وقرن به ذكر الشرب للتنبيه على أنهما سواء، فكما لا يحرم شرب الماء لا يحرم الطعام، وهذا إذا لم يكن مانع كالصيام المشروع.

وختَم الكلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كما ختم في (سورة الأنعام) في الإحتجاج على المشركين : **﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** [آية:١٤١] وذلك للنهي عن إنفاق الرزق في الوجه المحرم فيدخل في العموم دخولاً أوّليّاً، ويحتمل: أن الأمر بالأكل والشرب للإباحة، لبيان بطلان تحريم الجاهلية لبعض المأكول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ نهي عام لكل إسراف، سواء بإتلاف المال ونحوه، أي كل نافع في غير فائدة يصلح إتلافه لها، أو بإنفاقه في محرم كالمعاونة على الإثم والعدوان، أو في مضرة راجحة على لذته، فيدخل إكثار الأكل بحيث يضر الأكل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ دليل على تحريم كل عمل ذكَر الله أنه لا يحب أهله **﴿لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** [البقرة:١٩٠] **﴿لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** [آل عمران:٥٧] **﴿لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾** [لقمان:١٨].

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ وهذا احتجاج على أهل الجاهلية، الذين حرموا بعض ذلك، كما مر في (سورة الأنعام) وهو يؤكد ما فسرْتُ به الآية التي قبل هذه.

وقد روي: أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالكعبة عراة، فروي: أنهم كانوا يتحرجون من لبس الثياب في الطواف لأجل أنها ثياب يذنبون فيها، وروي: أنهم كانوا يعتقدون أنهم إذا طافوا في الثياب وجب عليهم أن يتصدقوا بها، وكل ذلك تحريم لزينة الله التي أخرجها لعباده.

وسؤالهم ﴿مَنْ حَرَّمَ﴾؟ تنبيه على أن الحرام إنما هو ما حرم الله، أما ما لم يحرمه فليس حراماً، فعليهم أن ينظروا فيما حرمته الجاهلية، فإذا لم يصح أن الله حرمه فتحريمه باطل، وهكذا في الطيبات من الرزق من الأنعام والحرث وغيرها مما ينتفع به الإنسان وهو سليم من أسباب الخبث، وما حرمه الله ففيه سبب خبث.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يامحمد ﴿هِيَ﴾ أي الطيبات من الرزق أو الزينة والطيبات من الرزق ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في وقت الإيمان النافع ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا كما هي في الدنيا محفوفة بالمكاره، فالله أخرجها في الدنيا لعباده البر والفاجر؛ لأن الدنيا عرض حاضر يأكل فيها البَرُّ والفاجر، والآخرة وعد الله المؤمنين فيها بالرزق الخالص عن المكدرات والمتاعب وسائر ماحفت به أرزاق الدنيا من المكاره؛ وهذا لأن معنى خلوصها: أنه لا يخالطها مكروه، وليس معناه: أنها خاصة لهم، فمعنى ﴿خَالِصَةً﴾ غير معنى خاصة، وفائدة قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قطع طمع الكفار في نفع إيمانهم يوم القيامة، والمقابلة بين الحياة الدنيا والآخرة، بما يدل على أن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ كذلك التفصيل لهذه الآية أو الآيات ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ﴾ أي نبيّنها بتفصيلها، حتى يعلمها من هو مستعد للعلم بسلامة قلبه من الخذلان والغفلة والإعراض والإنشغال بالدنيا، ومستعد بالنية الصالحة والتفهم.

بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا

﴿٣٣﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾ حصر إضافي أي لم يحرم الله طيبات الرزق والزينة، إنما ﴿حَرَّمَ﴾ هذه التي كانت في الجاهلية وهي خبائث، و﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ الزنا، واللواط، وما أشبههما في القبح والرذالة.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ دفع لتوهم أن المحرم إنما هو ما ظهر منها ﴿وَٱلۡإِثۡمَ﴾ كالخمر، والكذب، وكتمان الشهادة، والربا، وسائر الذنوب التي لا تعد في العُرف من الفواحش، ولا من التعدي على الناس في ظاهرها ﴿وَٱلۡبَغۡيَ﴾ التعدي على الناس والظلم لهم ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ قيد واقعي أو لدفع توهم أن التسلط بالحق بغيٌ محرم ﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ وهذا قيد واقعي ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قد مر تفسيره قريباً.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ كهذه الأمة التي بعث فيها الرسول ص فكفروا به ﴿أَجَلٞ﴾ محدود يمتعون بخلاقهم، ويتقلبون في البلاد مُمَهَّلين ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ ذهبوا بذهاب ريحهم وإدبار دنياهم، وبطل اجتماعهم وقوّتهم الذي كانوا به أمَّةً، فهؤلاء المشركون المكذبون لرسول الله ص في أم القرى وما حولها لهم أجل يذهب فيه اجتماعهم وقوتهم حتى لا يكونوا أمة، وهذا إنذار لهم إما بهلاكهم أو ذلتهم وتفرقهم أيادي سبأ، وهذا قريب من قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا..﴾ الآية، وقد ذهبت تلك الأمة، وذهب ملك بني أمية وبني العباس وغيرهم من الدول.

يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ

﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ﴾ عن أجلهم ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ ولعل أصل المعنى: لا يسبق ذهابهم أجلهم ولا يتأخر عنه، وزيدت (السين) لإفادة: أن حالهم غير قابلة للتقديم ولا للتأخير، فلا يتقدمون ولا يقدُمُهم غيرهم، ولا يتأخرون ولا يؤخرهم غيرهم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ معطوف على جملة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ﴾ والساعة: عبارة عن المدة القصيرة غير محددة، خلاف الساعة في عرف هذا الزمان.

﴿٣٥﴾ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ يظهر: أنه هذه التوصيات الأربع المبدوءة بقوله تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ وقعت لهم بعد خروج أبيهم وأمهم من الجنة في أول زمان بني آدم، فحكاها الله تعالى من قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ ﴿يَابَنِي آدَمَ..﴾ فكلها من مقول القول في ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ وما وقع خلالها من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عارض في خلال الحكاية للتوصيات المتقدمة لبني آدم في أول عهدهم ـ وبالله التوفيق.

والتوصية في هذه الآية قريبة من التوصية في (سورة البقرة): ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آية:٣٨] وفي (سورة طه): ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى﴾ [آية:١٢٣].

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ

وجاءت التوصيات الأربع في (سورة الأعراف) محكية للرد على أهل الجاهلية بما قد وصى به بني آدم جملة في أول عهدهم، وهذا الخطاب لبني آدم لا بد أنه وقع بعد وجودهم، فهو غير التوصية المذكورة عند هبوط آدم وزوجه من الجنة، وإن أشبهته في هذا الخطاب الرابع.

وقوله تعالى: ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ أي إن يأتكم، و(ما) بعد (إن) تقوية وصلة للكلام، وقوله: ﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ لحقته (نون التوكيد) فلم يجزم، وهذه وصية لبني آدم من أول جيل منهم، ليستعدوا للإيمان بالرسل، والعمل بما جاءوا به وهو التقوى والإصلاح؛ لأن التقوى: اجتناب المعاصي، والإصلاح: إصلاح العمل، وإصلاح ما ينبغي إصلاحه، ومنه ما سبق إفساده ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ في الآخرة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيها.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي تأتي بها الرسل ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ أَنِفُوا وترفعوا عن الإيمان بها وعن قبولها لأي سبب من كبر أو حسد أو تعصب لما خلفه الآباء أو غير ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فهم أهل الخوف والحزن والعذاب والخسران، وهذا إنذار ليؤمنوا بالرسل؛ لأن الإيمان بهم صلاح الفرد من الناس والمجتمع إذا اتبعوهم، فقد أكمل الله الحجة على بني آدم بتوصياته.

﴿٣٧﴾ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وهو يوصيهم بالتقوى، واجتناب التكذيب من عهد آدم × ، وتأتيهم الرسل

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟

بالآيات من ربهم فلا أظلَمَ ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ لأنه أساء إلى ربه، وأطاع عدو الله الشيطان، وحاول الإفساد في الأرض بالكذب على الله، أو التكذيب بآياته.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ ينالهم نصيبهم مما كتب الله لهم من العمر والزرق وغير ذلك في هذه الحياة التي هي دار اختبار، فلا تمنع معصيته من نيل ما كتب له ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾ ملائكة الموت يتوفونهم بتوفي أنفسهم ﴿قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هل ينصروكم أو يدفعون عنكم؟!

﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ لِنعَم الله، أو مكذبين لرسل الله، وقولهم: ﴿ضَلُّوا۟﴾ أي ضاعوا ﴿عَنَّا﴾ فلم يدفعوا عنا، اعتراف مع اعتراف، أي اعتراف بما كانوا عليه من الشرك، واعتراف بأنهم لم ينفعوهم ﴿وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالإقرار أنهم كانوا في الدنيا كافرين، وقولهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يحتمل: أنه عند الموت، وهو الظاهر لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ..﴾ [الأعراف:٣٧] ويحتمل: أنه يوم القيامة.

أما قوله تعالى:

﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ فهو يوم القيامة، فهنا قد طويت المدة ما بين الموت والبعث، حتى كأن

ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى

ساعة الموت مقترنة بالأمر بدخولهم النار، وهذا طي مناسب لأن المدة بينها تمضي، فإذا بعثوا لم تكن في نظرهم إلا قليلاً، وقد مر مثله في (سورة الأنعام).

وقوله تعالى: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي مع أمم، وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ يدل على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ..﴾ الكفار المتأخرون، والمراد بقوله: ﴿خَلَتْ﴾ مضت، فالكل في النار.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ أختها التابعة لها أو المتبوعة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ﴾ تتابعوا وتلاحقوا واجتمعوا في جنهم ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ التابعون ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ وهم المتبوعون ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ فقد اغتاظ التابعون من المتبوعين، حين رأوا أنهم سببوا لدخولهم النار، وانقلبوا أعداء يطلبون من الله أن يضاعف عذابهم بالنار، بأن يجعل عليهم عذاباً من النار مع ما هم فيه مثل ما هم فيه.

﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ فقد وفاهم الله ما يستحقون من تضعيف عذابهم، فللمتبوعين ضعف بسبب سعيهم في فساد التابعين، وللتابعين ضعف لإيثارهم طاعة أعداء الله على طاعة ربهم الخالق الرازق، وهو يدعوهم إلى رحمته، ويحذرهم من الشيطان، ومن أسباب الهلاك فعصوه، فعذابهم على المعصية كامل، وتضعيفه بكونه طاعة للمتبوعين ـ والله أعلم.

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ بتخفيف عذابكم وسلامتكم من تضعيفه؛ لأن لكل ضعفاً، فكل فريق يحاول الشر

سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

للفريق الآخر، المتبوعون حاولوا إغاظة التابعين، كما طلب التابعون تضعيف عذاب المتبوعين وهذه العداوات والحسرات والغيظ نوع من عذابهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ (آياتنا) المعجزات الدالة على صدق الرسول ص وآيات القرآن حيث قالوا: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك:٩] ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا﴾ ترفعوا عن الإيمان بها، وطلبوا العلو بذلك ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ تعبير عن غضب الله تعالى عليهم، فلا تفتح أبواب السماء لقبول أعمالهم، ولا لصعود أرواحهم، وهذا في الدنيا حين السماء باقية بأبوابها.

فأما في الآخرة فقد قال الله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ:١٩] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وقال تعالى: ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] وهذه السماء هي المعهودة التي ينصرف إليها الخطاب، فأما سماوات الآخرة فلو كانت المراد لنكرت، فقيل: (لا تفتح لهم أبواب سماء).

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ دلالة على تعذر دخولهم الجنة، كما يتعذر دخول الجمل ـ وهو أكبر الدواب المعروفة عند العرب ـ في سم الإبرة التي يخاط بها، وهي تسمى خياطاً وسَمُّها: ثُقْبُها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بحجبهم عن السماء، وحرمانهم الجنة، فهو جزاء لكل مجرم غير خاص بالمكذبين المستكبرين منهم، وفيه تعليل لحرمانهم بإجرامهم، وهذه خسارة عظمى ولعنة دائمة.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ

﴿٤١﴾ ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿مِهَادٌ﴾ جمر ولهب تحتهم، سمي مهاداً باسم الفراش الذي يمهد للنائم مثلاً، وهو تهكم بهم ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ جمع غاشية، مثل: جوارٍ جمع جارية، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليل بظلمهم، من حيث دل على أن النار جزاء كل ظالم؛ وذلك لأنهم كلهم مجرمون، وكلهم ظالمون وإن اختلفت جرائمهم وتفاوت ظلمهم من شرك، أو قتل نفس بغير حق، أو كفر، أو ربا، أو يمين فاجرة، أو شهادة زور، أو نميمة.. أو غير ذلك، فكل جرائمهم ظلم؛ لأنها حيف وعدول عن العدل والإنصاف؛ لأنها إساءة إلى رب العالمين المالك المنعم، فهي ظلم وجور ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٦-١٧] وقال تعالى في (آية الطلاق): ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

﴿٤٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ السليمات من المفسدات ومن المحبطات.

وقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملة معترضة من *فوائدها*: الدلالة على أن المقصود بالصالحات ليس عاماً للواجب وغيره، بل ما كلفوا به وهو الواجب.

وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا

ومن *فوائدها*: دفع توهم أن الإنسان لا يستطع العمل للجنة بأن ذلك في وسعه، ولو لم يكن في وسعه ما كلفه الله، فالعمل للجنة في وسع الإنسان.

ومن *فوائدها*: الدلالة على بطلان القول بالجبر؛ لأن من معناه: أن الكفار الذي يموتون على الكفر ويصيرون في النار لم يكونوا يستطيعون الإيمان والعمل الصالح، فضلاً عن أن ذلك كان في وسعهم.

وكذلك من معنى (الجبر): أنهم لم يكونوا يستطيعون ترك المعاصي والتكذيب بآيات الله وأسباب الخذلان، فإما أن يقول المجبرة: أنهم لم يكونوا مكلفين، وذلك خلاف المعلوم من الدين ضرورة، ومن المعلوم ضرورة أن الله لا يعذبهم بما لم يكونوا يستطيعون تركه، ولا بترك ما لم يكونوا يستطيعون فعله، ومن المعلوم من الدين أن الكفار معذبون كما في هذه الآيات في هذه السورة وغيرها، فدل ذلك على بطلان الجبر.

﴿٤٣﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قال في (المصابيح): ((الغل: هو الحقد)) انتهى المراد، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): ((والغِلُّ: العداوة، قال: وغَلّ يَغِلّ إذا صار ذا غِلّ أي ضِغْن)) انتهى المراد.

وفي (الصحاح): ((والغِل: الغِشّ والحقد أيضاً)) انتهى المراد، وإزالة ما في صدورهم من غل، هي من صرف كل مؤذٍ ومؤلمٍ عنهم؛ لأن الحقد يؤذي صاحبه، والسلامة منه راحة له ولجلسائه وخدَمِه ومجاوريه ومزاوريه.

وهل يدل هذا على أنه كان في صدورهم غل قبل دخول الجنة؟!

الجواب: ظاهر كلمة النزع أنه كان فيها، ولعل تفسيره بالحقد أولى من تفسيره بالعداوة، وهو الذي في (البرهان) و(الصحاح) فلا يلزم منه إرادة الضرر إن أمكن بخلاف العداوة، وقد وصف خيار المتقين بكظم الغيظ، وهو يستلزم الحقد، ولا يتعين في الآية الكريمة أن الغل بين أصحاب الجنة نُزِع من صدورهم بعد أن دخلوها، بل قد يكون مقارناً لدخولهم الجنة.

فإن صح أن يكون بينهم في الدنيا غل فهو داخل في العموم، والأقرب: أنه لا يكون بين المؤمنين الصادقين في إيمانهم؛ لأن الحب في الله يغلب أسباب الحقد؛ ولحديث: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا».

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وفي ذلك لذة للبصر وسرور للنفس، وجري الأنهار من تحتهم لا يختص بحال كونهم في القصور؛ لأنها تجري من تحتهم إذا تجولوا في الجنة تحت الأشجار ـ والله أعلم.

﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ في الجنة هذا القول لرغبتهم في الشكر ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج:٢٤] لم ينشغلوا بهذه النعمة الحاضرة عن ذكر النعمة التي أدت إليها وهي الهدى الذي هو أعظم النعم، ولم ينشغلوا عن ذكر المنعم، وسمى الله أهل الهدى: الذين أنعم عليهم في (سورة الفاتحة).

وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ تحقيق للنعمة بشدة حاجتهم إليها؛ لأن الإنسان يغتر بالعاجلة، ويغفل عن الآخرة، فقالوا: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ أي لم يكن من شأننا أن نهتدي ولا مناسباً لحالنا، كقول الشيطان: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

رَبُّنَا حَقًّا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا

ثم قالوا: ﴿لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي هذا مصداق ما جاءت به الرسل من الوعد، وذاك مصداق ما جاءت به من الوعيد.

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وهذه نعمة من نعم الجنة أن نادهم المنادي بصوت رفيع، بما معناه: ﴿تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فهذا تكريم لهم، وبيان: أن عملهم في الدنيا كان يستحق الثواب، وحكايته في القرآن ترغيب للمكلفين في العمل للجنة.

﴿٤٤﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمۡ﴾ فأهل الجنة قد هدوا إلى صراط الحميد، فأرادوا أن يعترف أهل النار بصدق وعده؛ لأن أكثرهم كانوا مكذبين، وقد علموا حين صاروا في موقف الحساب بالنار لأهلها، والكرامة لأولياء الله، وعلموا أن أهل الجنة قد صاروا فيها، فبان لهم صدق الوعد والوعيد؛ ولذلك سألهم أهل الجنة: ﴿فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقًّا﴾؟ ولم يقولوا: ما وعدكم؛ لأن المقصود إقرارهم بصدق الوعد للفريقين، بدلاً من تكذيب المكذبين بهما في الدنيا.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين أصحاب الجنة وأصحاب النار، كأنه يريد أن يُسمع الفريقين: ﴿أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولعل هذا النداء ترتَّب على قول أهل النار: ﴿نَعَمۡ﴾ لئلا يطمعوا في نفع هذا الإقرار، و﴿لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ الطرد من رحمته، والبقاء في عذابه.

عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا

﴿٤٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿يَصُدُّونَ﴾ يستعمل بمعنى: يعرضون، ومصدره الصُّدود، ويستعمل تارة بمعنى: صد الغير عن سبيل الله، أي منعه واستعمال المضارع؛ لأنه حكاية الماضي لاستحضاره ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ بذمها، وادعاء العيوب فيها ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ فحكم الكفر باق لم يخرجهم منه قولهم: ﴿نَعَمْ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ بين أهل الجنة وأهل النار ﴿حِجَابٌ﴾ فهم لا يتراءون إلا إذا اطلع من أهل الجنة مطلع ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أعراف الحجاب: أي أعاليه، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((هو سور بين الجنة والنار، والأعراف: كل موضع مرتفع مشرف)) انتهى.

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ كلاً من أهل الجنة وأهل النار من قبل أن يدخلوهما يعرفونهم ﴿بِسِيمَىٰهُمْ﴾ وسيماهم: علاماتهم، وهي بالنسبة إلى كونهم من أهل الجنة أو أهل النار، بياض الوجوه وسوادها ونحو ذلك.

أما السيما التي تعرفهم بالأشخاص، فهي ما كان موجوداً في الدنيا وجاء بعضه في الآخرة يتميز به الشخص والرجال هؤلاء من الناس؛ لأنه المعنى الحقيقي، والراجح: أنهم من السابقين أو أنهم السابقون سبقوا إلى دخول الجنة، واطلعوا على السور ينظرون إلى من بقي في المحشر ومن دخل النار.

﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ عرفوا أنهم من أصحاب الجنة، فنادوهم يبشرونهم: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا خوف عليكم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ والنداء في حال أن المبشَّرين الذين ناداهم أصحاب

لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ

الأعراف نادَوْهُم قبل أن يدخلوها ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها لم يكن تأخير دخولها إلا لانتظار الإذن لهم.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي أبصار هؤلاء الطامعين في دخول الجنة ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أي إلى جهـــــتهم ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا يدل على عظم ذلك الموقف، حيث يُشاهَد أهل النار قبل أن يدخلوها قد تبين عليهم سوء الحال، واسودت وجوههم، وخشعت أبصارهم، وانحلَّت قواهم من الخوف، فحق لمن رآهم أن يتعوذ بالله من أن يجعله معهم، والدليل على أن الضمير في ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ لأصحاب الجنة الطامعين، قوله تعالى بعد هذا:

﴿٤٨﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ فجدد ذكر ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ لما تخلل كلام في غيرهم، وبان بذلك أن بقية الكلام الماضي في أصحاب الجنة استطراد، وموعظة لنا بعد تمام ذكر نداء أصحاب الأعراف لهم، ثم انتقل أصحاب الأعراف لنداء رجال من أصحاب النار ﴿يَعْرِفُونَهُم﴾ بعلامات شخصية تميزهم ويعرفون بها من هم.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ما دَفَع عنكم جمعكم للمال والرجال في الدنيا، وما استمر منكم في الدنيا من استكباركم عن الحق، واعتقادكم أنكم فوق أن تقبلوه، فقد انكشف غلطكم فيه ولم يدفع عنكم العذاب.

عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ

﴿٤٩﴾ ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي من قول أصحاب الأعراف أنهم يقولون لرجال من أصحاب النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المؤمنون الذين قد ظهرت لهم سيما أهل الجنة ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ وهذا سؤال تقرير يلفتون به أنظار المستكبرين إلى المؤمنين المستضعفين.

ثم يوجه أصحاب الأعراف الخطاب إلى المؤمنين الذين أقسم المستكبرون لا ينالهم الله برحمة، فيقول أصحاب الأعراف لهؤلاء المؤمنون: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فقد أذن الله بدخولكم الجنة ونجاتكم من النار، فأول الآية خطاب من أصحاب الأعراف لرجال كانوا في الدنيا مستكبرين قد عرفوهم، وآخرها خطاب للمستضعفين المذكورين، والمستكبرون يسمعون قولهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ وهذا بيان لخطأ المستكبرين وكرامة المستضعفين فقد رفعهم الله، وأذل وأخزى المستكبرين، والخِطابانِ هنا مثل الخطابين في قوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾ [يوسف:٢٩].

﴿٥٠﴾ ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بلوغ النداء بينهم بإذن الله، ونحن نجد في الدنيا وسائل الإعلام تبلغ الكلام من بعيد، طلبوا الإفاضة عليهم من الماء؛ لعلمهم بتوفره لأهل الجنة وسهولة إفاضته عليهم من ناحية كثرته، وطلبوا أحد الأمرين لاستبعادهم أن يعطوهما معاً

ٱلدُّنۡيَا ۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى

وقالوا: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ﴾ أي من المأكولات مثلاً، توصُّلاً إلى إعطائهم على أنه منهم يعطونهم كما يعطى السائل في الدنيا.

فأجابوهم بما يناسب حال المؤمنين الذين لا يرضون ما لا يرضي الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي فلن نفيض عليكم واحداً منهما، وهذا التحريم معناه: المنع، لا التكليف الشرعي.

﴿٥١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ أصل الدين: معاملة العبد لربه بالطاعة والعبادة، وهؤلاء اتخذوا ما هو في الأصل طاعة أو ما أصله طاعة اتخذوه لهواً ولعباً؛ لأنهم يفعلونه لمجرد أنه عادة يتلهّون بها وليلعبوا.

فمثلاً: يطوفون بالبيت لا للتقرب إلى الله ولا لطاعته؛ ولكن لأنه عادة جرى عليها الناس في ذلك البلد، ويصلُّون عند البيت بالمكاء والتصدية للّعب بهما، ولعل كثيراً ممن يصلون اليوم ويصومون لاحقون بهؤلاء لجهلهم بالله وبدينه، فيفعلون ذلك لأنه عادة الناس فيصلون بلا تعلم لشروط الصلاة وفروضها، ولا إحضار ذهن لنية أو لخشوع، ولا قصد للتقرب إلى الله، ولا لامتثال أمره ولا يُتِمُّونها، فهي مجرد لهو يلهون به ثم ينصرفون إلى دنياهم، وكذلك يصوم مع الناس لينام النهار ويسهر الليل على اللهو واللعب.

ولقد بلغني عن بعض أهل البلدان: أنهم يحيون ليالي شهر رمضان بالرقص والغناء، وبلغني عن بعضهم: أنهم يتخذون الملاهي في الإحتفالات الدينية، وقد جاء في حديث عن النبي ص: «إني أخاف عليكم بيع الحُكم، واستخفافاً بالدم، وأن تتخذوا القرآن مزامير» رواه في (صحيفة الإمام الرضا).

وفي اتخاذ القرآن مزامير رواية أخرى في (أمالي المرشد بالله) وهو من مدلول الآية؛ لأن استماع القرآن في الأصل دين، فإذا اتخذوه لمجرد التلذذ بالصوت دون التفات إلى المعنى فقد اتخذوه مزامير، لأن المزامير صوت بلا معنى، فهذا من اتخاذ الدين لهوا ولعباً.

أما قوله تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنهم اغتروا بها؛ لأنها عاجلة طال أملهم فيها، فاشتغلوا بها عن الإعداد للآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ لا نجيب لهم دعوة، ولا نقضي لهم حاجة، ونتركهم كالمنسيين في نار جنهم وعذابها، جزاء ومبادلة لنسيانهم ﴿يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ وهو حين يعذبون في جهنم لم يستعدوا له في الدنيا حتى ينجوا من عذاب ذلك اليوم.

﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي وكما كانوا بآياتنا يجحدون، واعلم: أن هذه الآية إن كانت من الحكاية لجواب أصحاب الجنة على أصحاب النار فيشكل عليه تحويل الكلام، كأنه يقوله الله لقوله: ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ وقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وإن كانت ابتداء من كلام الله بعد حكاية كلام أهل الجنة، فلم يكن في أولها دلالة على ذلك.

ولحل الإشكال نقول: يحتمل أنها حكاية عن أهل الجنة، وصح تحويل الضمير من الغيبة إلى ضمير القائل الحاكي؛ لأن الحاكي له هو الذي ينساهم، وهو الذي جحدوا بآياته أي كذبوا بها وهم يعلمون أنها حق، فهو من باب قول الشاعر:

إني امرؤ صرعي عليك حرام

أو أنها ـ أعني هذه الآية ـ ليست حكاية، بل هي من الله جاءت مربوطة بالحكاية عن أهل الجنة وصفاً للكافرين المذكورين في كلام أهل الجنة، وهذا أرجح، فلا هي حكاية ولا هي ابتداء بتقدير (مبتدأ).

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ

ونظيرها في (سورة طه): ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى﴾ [آية:٥٢-٥٤] وفي (سورة الزخرف): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مِهَادًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [آية:١٩-١٣].

﴿٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿جِئْنَاهُم﴾ جئنا أصحاب النار بكتاب، وهذا يدل على أنها قد جاءتهم الكتب من أول أمة كذبت، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٢١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بيَّنَّا دلالته بواسطة تفصيله وسلامته من التعقيد وتداخل الكلام الذي يصعب معه فهم المعنى، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يفيد تحقيق التفصيل؛ لأن الله فصله وهو يعلم كيف يكون مفهوماً لعلمه بأفهامهم وبطريقة جعل الكلام مفهماً لهم، ويحتمل ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على علمٍ يستفاد منه ويفيده القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ..﴾ إلى قوله: ﴿..عِلْمًا﴾ [طه:١١٤] والإحتمال الأول أرجح؛ لأن الثاني يكفي عنه في المقام قوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فالكتاب هدى إلى طريق النجاة والسعادة بالجنة، فلو آمنوا به واتبعوه نجوا من النار، وتسمية القرآن ﴿هُدًى﴾ ظاهرة؛ لأنه بيان لطريق الجنة أو لسبيل الله، فلا نحتاج إلى تقدير ذي هدى، وكذلك قوله ﴿رَحْمَةً﴾ لأنه كتسمية الجنة رحمة الله.

فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ

﴿٥٣﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ ﴿تَأْوِيلَهُۥ﴾ ما يؤول إليه ﴿يَنظُرُونَ﴾ أي ينتظرون، أي ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره من وقوع ما وعد به ليؤمنوا به أو تخلفه فيعلموا أنه لم يكن حقاً.

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وهو ما وعد به من الحشر والحساب والجزاء وهو تأويله الحق الذي كان لا بد من وقوعه ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ أي لم يؤمنوا به وتركوه كالمنسي ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك يوم جاء ما وعد الله به وهو يوم القيامة، فقد غلطوا على أنفسهم في انتظاره ليؤمنوا؛ لأن الإيمان يوم القيامة لا ينفعهم ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ وهذه حالة سيئة فقد جاء وعد الله وحضر العذاب ولم يجدوا إلا هذا السؤال حين لا يعلمون شفعاء ولا شفعاء ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الحالة التي كنا عليها في الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي نعمل الطاعة ونؤمن وهيهات ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ فما أعيدوا إلا للحساب والجزاء ونحوه لا لمصلحة لهم في الحياة، فحياتهم ليست لهم إنما هي للجزاء ونحوه، ففاتهم كل خير.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿ضَلَّ عَنْهُم﴾ ضاع عنهم ﴿مَّا كَانُواْ﴾ في الدنيا يفترونه من دعاويهم: أن شركاءهم سينصرونهم، أو أن الملائكة سيشفعون لهم أو أنبياءهم.. أو غير ذلك، وما أشبهه من الأماني التي انكشفت خداعاً لأنفسهم وغروراً، ولما كان في هذه الآية إشارة إلى المشركين والمكذبين، جاء بعدها الإحتجاج عليهم، فقال تعالى:

ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ إن مالككم الله، فأنتم عباده وحده، فعليكم أن تعبدوه وحده، وتتركوا الشرك، وتتركوا التكذيب بآيات الله، لتؤمنوا بالله ورسوله، وتعبدوا الله، وتؤمنوا بالآخرة لتستعدوا لها، ثم بين قدرته تعالى ليعلموا أنه قادر على كل شيء، فهو الذي يُرجَى منه فائدة العبادة، وتخشى منه العقوبة؛ وليعلموا أنه قادر على إحيائهم بعد الموت، وبين لهم أن الملك له وحده، ليعلموا أنهم في الآخرة يرجعون إليه وحده، فقال سبحانه:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الظاهر: أنها مقادير هذه الأيام المعهودة، وتأويلها بأيام أطول بكثير يبطل تحديد المدة بأيام ويحولها إلى التحديد بأعوام وليس بعيداً في قدرة الله، وإن كان العالم من بعد ذلك يتطور شيئاً فشيئاً، فذلك لا يدل على أنه كذلك من ابتداء خلقه، وفيه رد على من يدعي أنه وجد بالتفاعل بين العناصر التي هي: التراب، والهواء، والماء، والنار؛ لأن التفاعل لا يكون منها تلقائياً، بل تحتاج إلى من يجعلها بحيث تتفاعل، ويدبر لها أسباب التحول إلى أرض وسماء، وإلا احتمل أن يطفي الماء النار، أو يبدد الهواء التراب، أو يبقى كل واحد في مكان من الفضاء وحده، وليس إحراق النار الماء بأولى من إطفاء النار بالماء إذا لم يكن فاعل يدبر طريقة ينتج عنها أحد الأمرين دون الآخر.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فله الملك والتصرف والولاية على ما خلق، فهو الذي يتصرف فيه، ويدبر أمره من يوم خلقه، فالملك له وحده لا يشاركه فيه شيء من خلقه؛ ولذلك فله الأمر وحده كما له الخلق وحده.

فمعنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تولَّى أمور الخلق، ونفذ ما يشاء من التصرف فيها ولها، ولذلك عقبه بذكر بعض التصرف، فقال سبحانه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ قال تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١] فالليل المفعول الأول كما أصله: غشي الليل النهار، فلما دخلت عليه (همزة التعدية) وصار رباعياً كان مضارعه (يُغشِي) وصار الليل مفعولاً أوّلاً، فهذا تصرف عظيم بخلق الشمس، وتحديد النسبة بينها وبين الأرض، وتقدير الدورة الأرضية، فمن يقدر على ذلك إلا الله القادر على كل شيء، الذي يتصرف في العالم كيف يشاء.

وغشيانه: وقوعه عليه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ﴾ [لقمان:٣٢] في رأي العين، بدليل قوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ مسرعاً حريصاً على غشيانه، فهو في رأي العين قد لحق النهار يدفعه إلى جهة المغرب، وقد قيل: إن قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يحتمل: أن الليل يغشي النهار، ويحتمل: أن النهار يغشي الليل، وهو عندي بعيد؛ لأن الليل أولى بأن يجعل غاشياً كما أن النهار كاشف يظهر الشيء فلا يعد غاشياً، قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس:٣-٤].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ وخلق ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ﴾ في جريها على نظام محدود، كما سخرها دائبة مستمرة على ذلك بأمره، والأمر الحقيقي ينسب إلى المأمور الذي يفهم ويعقل، أما الجماد فأمره أمر تدبير وتسخير بقدرة الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَنْ يَقُولَ لَهُۥ كُن..﴾ [يس:٨٢] وهو تمثيل لسهولة كل شيء في قدرته تعالى، وتسخير الشمس والقمر والنجوم هو من تدبير شؤون العالم والتصرف فيه، وفي هذا دلالة ظاهرة: على أن الشمس والقمر والنجوم غير السموات.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه؛ لأن المشركين كانوا غافلين عن ذلك فأشركوا به ما لا يخلق ولا ينفع ولا يضر وليس له في ملك الله أي مشاركة، وإذا كان الخلق والأمر لله وحده كما يفيده تقديم الخبر له فهو ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المستحق أن يعبدوه، فهذه الآية تؤكد في آخرها ما بُدأت به، وآخرها بعد ذكر خلق السموات والأرض وتفصيل بعض التصرف في شؤون العالم يشبه ذكر النتيجة بعد تمام الدليل.

فصل في معنى (العرش)

لا إشكال أن معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ منسوباً إلى الله غير معنى استواء المخلوق على سرير؛ لأن مشابهة الخالق للمخلوق محال، فكذا ما يستلزم المشابهة، واللسان العربي يستعمل الكلامَ في معنى حقيقي تفهمه العرب ويتبادر إلى أذهانها، أو معنى مجازي إن صرفت قرينة عن إرادة المعنى الحقيقي، ولا إشكال أن تعذر المعنى الحقيقي في كلام الحكيم أكبر قرينة على أنه غير مقصود، فما بقي إلا المجازي؛ لأن القرآن نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] والمعنى الذي ذكرته، وهو تولي أمور العالم والتصرف فيه تصرف الملك في مملكته هو أوفق للسياق، فقد حصلت القرينة الصارفة والمناسبة، وذلك أن العرب تعبر عن الملك بالعرش، كقول الشاعر:

تداركتما عبساً وقد ثل عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

وهو الظاهر في قول الله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر:١٥] فقوله: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ تعبير عن علو الشأن، ليس معناه: دَرَج مثل درج الدار، وقوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي ذو الملك، ووصف ملكه بالعظم، وعظم الملك أعظم من عظم عرش مصنوع كالسرير.

فأما من قال: الاستواء معلوم؟

فيقال له: هل أردت اللفظ؟ فهذا لا نزاع فيه، أم أردت المعنى؟ فما هو إن كان معلوماً؟

فإن قال: معلوم أنه استوى.

قلنا: ما معنى استوى؟

فإن قال: لا نعلم، فقد أقر أنه غير معلوم، وإلا فماله لا يزيد على لفظ استوى، ولا يفسره بكلمة أخرى.

فإن قال: استواء يليق بجلاله.

قلنا: قد ثبت أنه لا يليق بجلاله الإستواء المعروف في العربية، الذي هو مفهوم الإستواء، فمن أين لكم أنه استواء كما زعمتم؟! لأن الكلام ليس فيه إلا المعنى الذي تفهمه العرب، وهي لا تفهم ما ذكرتم ولا تفهمونه أنتم؛ لأنكم لا تريدون بقولكم: ((استواء يليق بجلاله)) معنى مفهوماً؛ يعبر عنه بالاستواء، إنما تأتون باللفظ لمعنى مجهول جملة وتفصيلاً.

وقولكم: ((يليق بجلاله)) إنما هو تعبير عن كونه غير المعنى الحقيقي في لغة العرب، وذلك لا يفهم معناه لا جملة ولا تفصيلا، وأنتم تقولون: ((وجه يليق بجلاله)) و((يد تليق بجلاله)) فقولكم: ((يليق بجلاله)) لا يميز شيئاً عن شيء من المعاني التي تدعونها، وحمل الكلام على المعنى الذي ذكرناه حَمل على معنى مفهوم، وليس لكم أن تعارضوه؛ لأنكم لا تدرون ما هو الإستواء الذي يليق بجلاله، فما يدريكم لعل ما ذكرناه هو الإستواء الذي يليق بجلاله.

فأما دعواكم: أن إثباتكم للمعنى المجهول للإستواء، مثل إثبات علم الله وقدرته، فهي مغالطة؛ لأنا أثبتنا معنى العلم والقدرة في اللغة، وإنما نفينا مشابهته للمخلوق بكون القدرة معنى في جسم، والعلم معنى في جسم،

ودعواكم: أن معناهما في اللغة هو العَرَض القائم في الجسم دعوى باطلة، فإن مفهومهما لا يلتفت فيه إلا إلى إثبات ضد الجهل وإثبات ضد العجز من غير النظر إلى ما هو.

والحاصل: أن العلم والقدرة قد فهم معناهما المعروف عند العرب جملة فأما الإستواء فلم نفهم ما تدعون لا جملةً ولا تفصيلا، فليس معنى عربياً، وقد جعلتم لهذه الكلمة وضعاً جديداً، وكذلك للوجه واليد بلا دليل، وهو تحكم باطل، ولو كان معناه مجهولاً ما صح الإحتجاج لإثبات الربوبية لله في هذه الآية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ..﴾المختومة بقوله تعالى: ﴿..أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤] وكذلك الإحتجاج في (سورة يونس): ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [آية:٣] فكيف صح الإحتجاج بالمعنى المجهول جملة وتفصيلا، فهذا احتجاج واضح، ولذا ختمه بقوله: ﴿ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((عن القاسم بن إبراهيم × : أما العرش والكرسي، فإنهما ملك الله وسلطانه، كما أن العرش والكرسي مقعد كل ملك ومكانه، وليس يتوهم مَن آمن بالله أنما ذكره الله سبحانه من كرسيه وعرشه ككراسي خلقه وعروشهم التي تكون مقاعدَ لهم في ملكهم)) انتهى المراد.

وللقاسم × في (مجموعه) (كتاب العرش والكرسي) وهو كتاب مفيد في الموضوع فليطالَع، وقد حقق الله في هذه الآية الكريمة ربوبيته وقدرته، وأن له الخلق والأمر، ثم قال كالتفريع على ذلك:

لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ

﴿٥٥﴾ ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أمرنا بالدعاء أن ندعو ربنا الذي خلقنا ورزقنا، ففيه فوائد:

الأولى: أنه عبادة له، وللعبادة خلقنا.

الثانية: أنه سميع الدعاء القادر على إجابته، وقد أنعم علينا ابتداءً قبل أن ندعوه، فهو بكرمه يجيب الدعاء.

والثالثة: أنه قد وعد بالإجابة، فالدعاء مفتاح خير لنا، ووقاية لنا من الشرور.

وقوله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ بمعنى تذللاً، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ [الأنعام:٤٣] وقد يكون التضرع برفع الأصوات بالدعاء على وجه التذلل كما في الاستسقاء والحج.

وقوله: ﴿وَخُفْيَةً﴾ بحيث لا يسمعه الغير؛ لأنه لا يخفى عليه، وقد روي أن موسى × قال: ((يا رب أقريب أنت فأناجيك، أم بعيد فأناديك، قال يا موسى: أنا جليس من ذكرني)) أو كما قال، وأظن الحديث في (صحيفة الإمام الرضا) وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ..﴾ [الرعد:١٠] الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وهم الذين يدعون غير الله، كما يرشد إليه السياق من حيث أن السياق في الرد على المشركين، ولا إشكال أن الشرك بالدعاء لغير الله اعتداء.

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ ﴿لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمحاربة الدين، ونصرة الباطل، والجدال في آيات الله، وإضلال عباد الله .

ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالاً سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ

﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ بالرسل والكتب وأسباب الهدى والعدل والإحسان في عباد الله، ومن الإفساد في الأرض: السعي في التفريق بين المسلمين، وإلقاء العدواة والبغضاء بينهم، والمدارس التي تحول الطلاب إلى الباطل، وكذلك إفشاء أسباب الفساد بدعوى مشاركة المرأة للرجل، أو غير ذلك.

﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿وَٱدۡعُوهُ﴾ وادعوا ربكم ﴿خَوۡفًا﴾ بطلب النجاة من عذابه ومن كل شر ﴿وَطَمَعًا﴾ بطلب الجنة وكلِّ حاجة ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ بالإجابة للدعاء والإثابة على العبادة الخالصة بالدعاء وغيره ﴿قَرِيبٌ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ المؤمنين المخلصين، وقد فسر ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في أول (سورة لقمان) بما فسر به (المتقين) في أول (سورة البقرة) وفسر به (المؤمنين) في أول (سورة النمل) فكلها تتضمن إقامة الصلاة، والإنفاق، والإيقان بالآخرة، والجهاد في سبيل الله.

﴿٥٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ وربكم الذي يرسل الرياح مبشرات ﴿بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أي قبل المطر الذي هو رحمته لعباده وقرئ ﴿نشراً﴾ بالنون أي محييات للأرض بتسبيبها للمطر.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالاً سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ﴿أَقَلَّتۡ﴾ أي الرياح رفعت في الجو ﴿سَحَابًا ثِقَالاً﴾ بالماء الذي فيها ﴿سُقۡنَٰهُ﴾ من حيث أقلَّته حتى يبلغ فوق البلد الميت من الجدب وإبطاء المطر، فقد يبست فيه المراعي وانقطع إنبات الزرع ونحوه، فهو في ضعف حاله وانقطاع إنباته كالميت الهامد.

نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ

﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لتأكلوا منها، فهذا التدبير دليل على الله وقدرته ورحمته بعباده ونعمته، وهذا بيان واضح نافع لمن تدبر ليعرف ربه فهي حركات مدبرة لنهاية مطلوبة للعباد نافعة، إرسال الرياح بعد سكونها ثم سوق السحاب بمائها تحفظه حتى تصل على البلد الميت فترسله، فينزل بالبلد الميت فيحييه، ويخرج به من كل الثمرات التي يحتاجها عباد الله، وذلك دليل على الله الرازق لعباده؛ لأنه تدبير مدبر عليم قدير كريم رحيم.

﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ كما أخرجنا بالأرض بعد موتها من كل الثمرات وكان البلد قبل ذلك كأنه لا يصلح لإخراج الثمرات؛ لاستمرار يباسه وطول مدة إجدابه، فلما نزل به المطر أحياه وأنبت وأثمر، وذلك التدبير والصنع دليل على قدرة الله تعالى على إخراج الموتى من قبورهم، وأن استبعاد الكفار له إنما هو كاستبعاد القانطين لنبات الأرض قبل أن ينزل المطر.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ بهذا التدبير بإرسال الرياح، ثم سوق السحاب لبلد ميت، ثم إنزال الماء به، ثم إخراج أنواع الثمرات، أي فعلنا ذلك ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ قدرتَنا على إخراج الموتى، فهي آية ونعمة جعلناها للأمرين.

٥٨ ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الذي طاب لأهله لصلاح تربته؛ لأنه يتيسر فيه رزقهم ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦ﴾ ﴿يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ صالحاً أو قوياً بإذن ربه الذي صنع تربته وأعدها لذلك.

﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ على أهله بضعف تربته ﴿لَا يَخۡرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدٗا﴾ قال الراغب: ((وناقة نكداء: طفيفة الدَّر، صعبة الحلب)) انتهى، وعلى هذا يكون المعنى: قليل النبات لا يحصل إلا بصعوبة إذا كان صفة للبلد.

وفي (لسان العرب): ((ونكِد الرجُلُ: قلّل العطاء، أو لم يعطِ البتة)) انتهى، وهذا يصلح وصفاً للبلد، وقال في (لسان العرب): ((النكد: الشؤم واللؤم، نكِد نكداً فهو نكِد..)) إلخ، فالبلد القليل النبات مشؤوم؛ لأن أهله يتعبون في خدمة الحرث وفائدته قليلة.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ أي كما فصَّلنا الآيات في هذا السياق من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ..﴾ إلى قوله: ﴿..نَكِدًا﴾ سنتنا نفصل الآيات في سائر القرآن الكريم وغيره، أو في الكون وما فيه من أثر التدبير والدلالة على ربكم.

والآية في المخالفة بين التربة، بجعل طبع هذه هو الصلاح للإنبات، وطبع هذه قلة الصلاح والحاجة إلى عناء أهلها، هي اختلاف طبع التربتين الذي لا يكون إلا من فاعل أصلح طبع تربةٍ نعمةً لأهلها، وأضعف طبع تربة لتبين نعمته في غيرها وابتلاء لأهلها، ولو كانت آثار طبع واحد لاتفقت في الصلاح أو في الضعف؛ لأن ما تنتجه الورشة الواحدة يكون سواء، أما الصانع فيخالف بين مصنوعاته كيف يشاء، كما خالف بين القطع المتجاورات من الأرض، وخالف بين الشجر التي تسقى بماء واحد ويختلف ثمرها في الجودة، وخالف بين ألوان الناس والدواب والأنعام، وإن كان ذلك بسبب طبائع مختلفة، فهو الذي خالف بين الطبائع، ولا بد أن ينتهي اختلافها إلى فاعل مختار.

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي

وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ دليل على أن الآيات نعم تستوجب شكر الناس؛ لأنها سبب للعلم النافع لمن تفكر.

﴿٥٩﴾ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هذا ابتداء القصص بالحق الذي يبيِّن هداية الله لعباده، وإرساله للرسل إليهم بآياته منذرين لهم ومحذرين من عذاب الآخرة وداعين إلى عبادة الله وحده، واجتناب الشرك والفساد في الأرض، ويبين عاقبة المكذبين لهم.

﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بدأ بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ للدلالة على عطفه عليهم ونصحه لهم فدعاهم إلى عبادة الله التي لها خلقوا، وذكرهم بأن الله لا شريك له، ليتركوا الشرك الذي هو الظلم العظيم، ثم خوفهم بعذاب الله لينظروا حتى يعلموا أنه يدعوهم إلى الحق، ويجتنبوا أسباب عذاب الله الذي يكون في ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وبيَّن لهم نصحه بأنه يخافه عليهم.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي في عدول عن طريق الصواب وغواية عنه ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بيِّنٌ واضح لا خفاء فيه و﴿ٱلْمَلَأُ﴾ جماعة اجتمعوا على أمر، ويقال: هم كبار القوم وهو الأقرب هنا، وإن كانت الجماعة تسمى ملأ، وقالوا عناداً: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ مؤكدين دعواهم أنهم يرونه في غواية بيِّنة، جرأةً منهم على الكذب، وحرصاً على إبطال قول نبيهم؛ ولعل الباعث لهم كراهة أن يكون له الرئاسة في قومهم، ولهذا قالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤].

ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ

﴿٦١﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ واحدة، أي ليس بي أيُّ ضلال، ليس الباعث لي على دعوتكم وإبلاغكم أني لكم نذير مبين أي ضلالة، ولكني رسول إليكم ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي هو ربكم المالك لكم، والذي هو أولى بكم وهو المالك للعالمين كلهم.

﴿٦٢﴾ ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ خبر ثان لـ(لكن) أي أبلغكم ما أرسلني به ربي المالك لي، الذي لا بد لي من طاعته، وهي رسالات متعددة أريد تبليغها كلها ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ كما هو شأن الرسول من رب العالمين الذي أرسله رحمة لهم، أن يتحرى لهم الخير مخلصاً في ذلك ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأنتم محتاجون إلى استماع كلامي واتباعي لأنقذكم من ظلمات الجهل.

﴿٦٣﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ معطوف على تضليلهم له والسؤال لإنكار العجب، كيف عجبوا لذلك وهو خير جاءهم من ربهم ﴿ذِكْرٌ﴾ يذكرهم من غفلتهم، وهم غافلون في أشد الحاجة إلى الذكر، وهذا الذكر ولعله (الكتاب) الذي أنزله على رسوله، أنزله ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ منهم معروف لديهم لاينكرونه، جاءهم هذا الذكر من ربهم منزلاً على رجل منهم لأمر مهم في أشد الأهمية، وهو إنذارهم عذاباً شديداً دائماً.

فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

﴿وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وليتقوا هذا العذاب، ولعلهم إذا جاءهم ذكر من ربهم يرحمون، يرحمهم الله بتوفيقه وألطافه إذا لم يعاندوا حتى ينجوا من النار ويفوزوا برحمة الله العظمى في جنات النعيم، فالرحمة الكاملة: هي السلامة من العذاب والفوز بالجنة، والمراد: الرحمة بالتوفيق المؤدي إلى الرحمة الكاملة، فعجبهم من الذكر والرسول لهذا الغرض المهم، عجب منكر معيب عليهم.

﴿٦٤﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوه في كل ما قال لهم: من أنه ما لهم من إله غير الله، وأن عليهم أن يعبدوا الله وحده، وأنه نذير لهم، وأنه جاءهم بذكر من ربهم لينذرهم وليتقوا ولعلهم يرحمون، واستمروا على تكذيبه حتى جاءهم العذاب ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ الذين معه في الدين والإيمان شاركوه في ذلك وصاحبوه عليه، فهذه هي معيتهم للرسول، ولا يستحق هذا الاسم منافق ولا فاسق و﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، وهي آية لتدبير نجاتهم في قوة أخشابها ومساميرها وإتقان صنعها حتى صارت ضامنة لنجاتهم من الغرق وهي تجري بهم في موج كالجبال.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ لا يبصرون ببصائرهم، وهذا إنذار للمكذبين من بعدهم والتكذيب بالآيات جحد كونها آيات، مع دعوى أن نسبتها إلى الله كذب.

﴿٦٥﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ كما قال نوح لقومه: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله، وقد اتخذتم من دونه آلهة وتركتم إخلاص العبادة لله.

قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ﴿سَفَاهَةٍ﴾ **خفة عقل وعتاهة، بحيث لا ينبغي لنا أن نصغي لقولك ولا نلتفت لكلامك** ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ **في قولك:** ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ **وإنذارك لنا بقولك:** ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾.

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **لم يردعه قولهم:** ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ **واكتفى بالجواب المحكم، الذي هو الحق الذي يدل على رجاحة عقله والذي هو مهمته.**

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ **التي أرسلني بها إليكم وأمرني أن أبلغكم إياها، فأنا أمتثل أمر ربي** ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ **فأنا أدعوكم إلى ما فيه الخير لكم، وأخلص لكم الإرشاد إلى ما فيه الخير لكم، وأنا** ﴿أَمِينٌ﴾ **في ذلك؛ لأن الله اختارني لذلك.**

﴿٦٩﴾ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ **إنكار لعجبهم من أنهم في أمس الحاجة إلى النذير، وربهم المالك لهم لا يريد أن يهملهم بلا نذير.**

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ﴾ على قوم نوح ﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ زيادة واسعة في كمال أبدانكم وقوتكم. قال في (الصحاح): ((البسطة: السعة)) انتهى، فبيّن لهم: أنها نعمة عليهم يجب أن يشكروا الله عليها، ولكنهم جعلوها داعية لهم إلى الكفر، حيث قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ تذكروا نعم الله لتشكروه ولا تكفروه، أو ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟﴾ كنايةً عن الأمر بالشكر ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بالخير وتنجون من العذاب إذا شكرتم نعم الله عليكم.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ حولوا دعوته لهم إلى معنى يتعصبون له، وهو ترك ما كان يعبد آباؤهم، فانشغلوا بالتعصب لآبائهم، بحيث طلبوا تعجيل العذاب إن كان صادقاً، وهي وسيلة شيطانية لرفض الحق، والتعصب للباطل ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فإذا جاءهم العذاب، فقد نال الشيطان مراده منهم ليكونوا من أصحاب السعير، والرسول جاءهم منذراً يدعوهم إلى النجاة من العذاب.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ عقوبة عاجلة من ربكم؛ لتمردكم بعد وضوح الحق، وإصراركم على الباطل، فقد خذلتم وغضب ربكم عليكم، فأرسل عليكم الشياطين تؤزكم أزّاً، حتى صرتم إلى حد من الغواية والعمى في مكان بعيد من الحق.

فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ

﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖ﴾ ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي﴾؟! سؤال إنكار، يعيب عليهم جدالهم في ما يعبدون من دون الله، وهي مجرد ﴿أَسۡمَآءٖ﴾ سموها هم وآباؤهم؛ لأنهم يرون حجراً أو تمثالاً فيسمونه إلهاً، فليس لـه مزية على سائر الأحجار والتماثيل المصنوعة إلا مجرد تسميتهم لـه إلهاً بلا حجة، وإنما هي تسمية اختلقوها من أنفسهم؛ ولهذا جعلها مجرد أسماء سموها هم وآباؤهم، بدون أي حجة من الله تسلطهم على التسمية ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما استعجلتم به ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لـه؛ لأنكم قد صرتم بحيث يتوقع نزوله عليكم.

﴿٧٢﴾ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ كان المقدم في (قصة نوح) و(قصة هو) ذكر نجاتهما ومن معهما، وذلك إرشاد إلى النجاة في اتباع ما أنزل إلينا من ربنا وترك الأولياء من دونه، وقوله تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي بوسيلة لنجاتهم دبَّرها لهم، كإخراجهم من بلد قومهم قبل نزول العذاب.

﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿قَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ أي أهلكناهم بسبب تكذيبهم بآياتنا، والدابر: العقب أي الذرية، فأهلكهم بحيث لم يبق لهم عقب، وذلك لأن العذاب عمهم ولم يُبق كبيراً ولا صغيراً. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ معطوف على ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهو يفيد: أنهم لو كانوا يؤمنون في بقية أعمارهم لما أهلكهم، ولكنه تعالى علم أنهم لن يؤمنوا لو أبقاهم، فإهلاكهم لمجموع الأمرين: التكذيب، وكونهم لن يؤمنوا.

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ

ومثلها في (سورة يونس) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [آية:١٣].

قال في (المصابيح): ((وأما عاد فهم قومٌ كانوا باليمن بـ(الأحقاف) قال ابن إسحاق: والأحقاف: الرمل الذي بين عمان إلى حضرموت)).

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي اعبدوا الله وحده، وهو يفيد: أن عبادتهم لو كانت لله مع شركائهم ما كانت مقبولة فهي كلا عبادة، إنما العبادة لله ما كان له خالصاً.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ بينة تدل على صدق رسولكم، وأن ما جاءكم به حق، وقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بيان للبينة أنها هي ناقة الله، وقوله: ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي جعلها الله لكم لتكون لكم آية، فهي لكم من حيث هي آية لا لتركبوها ولا لتأكلوها.

﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ اتركوها ترتع ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ لا تعترضوها ولا تمنعوها؛ لأنها ناقة الله، والأرض لله، وهو المالك للأرض له حكمه فيها، فعليكم أن تتركوها تأكل في أرض الله، وهذا ابتلاء لهم، ولعله بمطالبتهم كانت هذه الآية العظيمة، الناقة التي تشرب ماءهم في يوم ولهم يوم ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يعم الضرب والجرح والقتل والضرَّ كلَّه، وهذا إنذار لهم بالعذاب الأليم إن مسّوها بسوء.

وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ

﴿٧٤﴾ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ اذكروا نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض تنتفعون بمنافعها من بعد عاد ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ جعل لكم في الأرض مباءة أو مباءات أي مواضع سكنى.

قال في (لسان العرب): «والتبوُّء: أن يُعلِم الرجلُ الرجلَ على المكان إذا أعجبه لينزله، وقيل: تبوّأه أصلحه وهيّأه، وقيل: تبوّء فلان منزلاً إذا نظر إلى أسهل ما يُرى وأشدِّه استواء وأمكنِه لمبيته فاتخذه، وتبوأ: نزل وأقام والمعنيان قريبان» انتهى.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ من السهول ما تبنى منه القصور بجعله طيناً متيناً، وبناء القصر منه، أو بجعله لبناً ثم يبنى، ومنها ما يجعل آجرّاً يوقد عليه في النار فيصير قويّاً خفيفاً، وهو أصلح لأعالى القصور، ولذلك اختاره عدو الله، فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَاهَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا﴾ [القصص:٣٨].

﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ نحت الجبال: تسويتها بآلات تجعل فيها التجاويف الكبيرة التي تصلح للسكنى، وذلك بالضرب بالفؤوس أو نحوها، حتى تأخذ بطون الجبال وتصير الجبال بيوتاً، وقد شاهدنا من هذه البيوت في بلاد (صعدة) حكى الشرفي في (المصابيح): «أن ثموداً عُمّروا أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم، فينهدم في حياته فنحتوا البيوت من الجبال» انتهى.

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نِعَمَ الله، والمراد: اشكروا نعم الله ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولا تفسدوا فساداً ينتشر في الأرض، و(العثيّ) الفساد وأخذ انتشاره في الأرض من نسبته إليها، وقوله ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكدة.

ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي

---

٧٥ ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ **بدل بعض من كل، يفهم منه: أن الذين استضعفوا لم يكونوا آمنوا كلهم، ولكن آمن بعضهم، فقال لهم الملأ الذين استكبروا:** ﴿أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ **مجادلة منهم للمؤمنين** ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ﴾ **بالآية التي أرسل بها تدل على أنه مرسل من ربه** ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾ **بأنها آية من الله تدل على صدقه.**

٧٦ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

وهذا نهاية العناد أن يكفروا بالآية العظمى التي هي الناقة، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): في الناقة آيتان: أحدهما: أنها خرجت من صخرة ملينا [ملساء ـ ظ] تمخضت بها كما تمخض المرأة، ثم انفلقت على الصفة التي طلبوها، والثاني: كان لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كله، وتسقيهم اللبن بدله، ولهم شرب يوم يخصهم لهم ما فيه)) انتهى.

٧٧ ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ **كفراً بها ومحاربة لدين الله** ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ **قال في (لسان العرب): ((عتا، يعتُو، عتوّاً، وعِتِيّاً: استكبر وجاوز الحد، ثم قال ـ وأظنه حاكياً عن الأزهري ـ : والعاتي الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل موعظة)) انتهى.**

دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ

وهذا المعنى عندي أحسن في تفسير (العتو) أي شدة الإمتناع والإصرار فهو يقارب عتو الهَرَم، وعتو الريح التي أهلكت عاداً، فعتو ثمود: شدة امتناعهم عن أمر ربهم، بحيث أنهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [القصص:٩٦-٩٧].

﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كفراً منهم بقوله: ﴿وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وكفراً برسالته.

﴿٧٨﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ زلزلة الأرض وكانت شديدة فأهلكتهم، وكان سبب الرجفة صيحة لعلها صيحة ملك شديدة رجفت منها الأرض رجفة شديدة، فأهلكتهم الصيحة بواسطة الرجفة، أو كانت الرجفة نفسها صيحة لقوة صوتها، والأول أقرب عندي، إلا أن يكون صوت الرجفة أهلكهم ـ والله أعلم.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ تصوير لحالهم في الصباح الذي كان وقت الخروج والحركة والإقبال على الأعمال ﴿جَٰثِمِينَ﴾ لسقوطهم هلكى على الأرض كالقاعدين، يقال: جثم الطائر إذا قعد ولطيءَ بالأرض، وفي (لسان العرب): ((الجاثم: القاعد مكانه لا يبرح ـ ثم قال ـ : وقال أبو العباس: أي أصابهم البلاء فبركوا فيها، والبارك: الجاثم على رجليه)) انتهى.

وقوله: ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ أي في بلدهم، بدليل قوله تعالى في (سورة هود): ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ [آية:٦٧] يقال للبلد: دار، ألا ترى أنهم يقولون: دار حرب، ودار هجرة، قال الراغب: ((ثم تسمى البلدة داراً..)) إلخ.

أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ نبيهم ﴿عَنْهُمْ﴾ لعله غاب عنهم في الثلاثة الأيام بعد ما قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥] ثم عاد إليهم بعد هلاكهم لينظر كيف هلكوا فتولى عنهم ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ أبلغتكم أني رسول من الله لأنذركم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ فلم آلُ جهداً في طلب صلاحكم ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾:

فبيّن بذلك: أنها لم تبقَ لهم حجة، وأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم؛ لأنهم أهملوا عقولهم وجدّوا في اتباع أهوائهم إلى حدّ أنهم لا يحبون الناصحين؛ لأنهم يدعونهم إلى خلاف ما تهواه أنفسهم، وكلامه معهم في صورة الخطاب لهم لأنه أبلغ في موعظة السامع، أو هو كخطاب الرسول ص لأهل القليب الذين قتلوا في بدر.

﴿٨٠-٨١﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ أي ولقد أرسلنا لوطاً وأغنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ عن قوله إلى قومه ﴿إِذْ قَالَ﴾ أي أذكر إذ قال: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ﴾ سؤال توبيخ وإنكار عليهم ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ دلالة على سبقهم في الخبث والفجور حيث ابتدعوا فاحشة لم يسبقوا إليها.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ هذا تفسير للفاحشة المذكورة، ومعنى تأتون الرجل إتيان الرجال في أدبارهم ﴿شَهْوَةً﴾ لزيادة إيضاح المعنى، وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي بينكم وبين النساء، أي

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ

تجعلون ذلك أقرب من إتيان النساء، وهو يفيد: أنهم لا يصلون إلى النساء، كقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء:١٦٦] وذلك مخالفة للفطرة، والنساء زيادة في الحجة عليهم.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال الراغب: ((السرف: تجاوز الحدّ في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر)) انتهى، والمعنى ﴿مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون في الباطل الحدَّ المعهود من غيركم، أو متجاوزون الحق إلى الباطل في هذا الأمر وغيره.

﴿٨٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ فقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ قام مقام الجواب، ولم يجيبوا كما أجاب قوم نوح، أو قوم هود، أو قوم صالح، فجعل قول قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُم..﴾ إلى آخره جواباً على طريق المشاكلة، لوضعه موضع الجواب وجعله بدله.

وقولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أي أخرجوا لوطاً وآله، وقولهم: ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ جعلوها قريتهم كأنها لهم وحدهم، لعدم اعتبارهم مشاركة لوط وآله، استخفافاً بحقهم، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ تعليل لإخراجهم، والمعنى: أن يتنزهون عن قذارة اللواط.

قال في (الكشاف): ((وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القذارة، كما يقول الشُّطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعدوا عنا هذا المتقشف، وأريحونا من هذا المتزهد)) انتهى.

﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ لأنهم كانوا مؤمنين ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ وكانت مسلمة، لكنها خانت نبي الله فـ﴿كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ الماضين الهالكين.

﴿٨٤﴾ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ أي مطراً غير المعهود وهو الحجارة ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ففيهم عبرة لمن يعتبر لينجو من الهلاك الذي يسببه الإجرام.

﴿٨٥﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ تدل على أن لا إله إلا هو وأني رسول منه، وأن عليكم أن تعبدوه.

﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أمرَهُم أن يوفوا الكيل؛ لأن المطفف قد ينقص في الكيل وإن كان المكيال وافياً، وفي موضع آخر ذكر الله أنه أمرهم أن يوفوا المكيال؛ لأن المطفف ينقص بواسطة نقص المكيال، وذلك يدل على أن شعيباً × أمرهم: أن يوفوا المكيال ويوفوا الكيل، وأمرهم: أن يوفوا الميزان؛ لأن التطفيف في الوزن قد لا يتهيأ إلا بالنقص في الميزان، بجعله مائلاً أو بنقص ما يوزن عليه؛ لأن المشتري يراقب استواء الميزان مراقبة تبعّد التطفيف بغير نقص الميزان.

تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ

وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم ما هو لهم، أو لا تظلموهم شيئاً من أشيائهم وهو يعم الأموال وغير الأموال ، قال الراغب: ((البخس: نقص الشيء على سبيل الظلم)) انتهى.

﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بعد إصلاح الأرض بمرافقها وأموالها وطرقها ومساكنها ومياهها، ونحو ذلك من إصلاح منافع الأرض، فالإفساد فيها تغيير صلاحها، بمثل: إغوار الماء، وقطع الطريق، وحرق المحتطب والمرعى والزرع، وقطع الأشجار المثمرة بالفواكه.. ونحو ذلك، وتخريب الدور، وإفساد الهواء بالدخان أو غيره، ويدخل في ذلك بالأولى إبطال التربة وإماتتها بالقنابل الذريّة وغيرها من وسائل الفساد.

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من قوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ..﴾ إلى ﴿..إِصْلَاحِهَا﴾ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في دينكم ودنياكم؛ لأن صلاح المجتمع بانتشار العدل، وعدم الغش والخيانة، والإفساد في منافع الناس، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن قبلتم مني، وذلك يتوقف على إيمانكم بالله، ورسله، و اليوم الآخر.

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ الصراط: الطريق الواضح، والقعود به الجلوس فيه لانتظار من يمر فيه من المؤمنين، أو من يخافون أن يؤمن بشعيب، وقوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي توعدون بالقتل أو غيره مما يُخاف للتحذير من الإيمان أو من الإستمرار عليه.

وَطَآئِفَةٌ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ

﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تمنعون عن دين الله ﴿مَنۡ ءَامَنَ﴾ بالله ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ تبغون سبيل الله عوجاً، بذكر الشبه والتغرير، لتجعلوا في سبيل الله عوجاً، وتنسبون إلى دين الله أنه غير مستقيم على الصواب، مثل ما يقول المحاولون في إفساد المسلمين: أن الدين يؤخر الناس عن التقدم والحضارة، ويبقيهم في الضعف والجمود والجهل بأسباب القوة، فيجعلون سبب ضعف المسلمين هو الإسلام، وهذا باطل، فإن سبب ضعفهم التفرق والتنازع، كما قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وقوله: ﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗا﴾ معطوف على ﴿تُوعِدُونَ﴾ و﴿تَصُدُّونَ﴾ فمعنى ذلك: تقولون لمن آمن، أو تخشون أن يؤمن شبهاً لتغووهم عن سبيل الله بالقدح في استقامة سبيل الله وكونها صواباً، وذلك كله في حال قعودكم بكل صراط.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡ﴾ فاشكروا هذه النعمة، أو الدعوة إلى ذكرها، كنايةٌ عن الدعوة إلى شكرها وهو أقرب، والكثرة نعمة عظيمة؛ لأنها قوة يستطاع بها غلبة العدو، والدفاع عن الأنفس والأموال والدين ودفع المفسدين، ولكن الخلاف والتنازع يفوّت هذه الفائدة، والمسؤول عن ذلك المفسدون لذات البين.

﴿وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فاعتبروا بمن قبلكم من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط؛ لتنجوا من العذاب الذي سببه الإفساد.

﴿٨٧﴾ ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ من آيات الله ووحيه ﴿وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ

ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا

ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ اصبروا على انتظار حكم الله بيننا، ولا تعجلوا على الشر، فإن الله ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وانتظار حكمه يكفيكم؛ لأن الله خير الحاكمين، فحيث كل فريق يدعي أنه على حق، فعليه أن يرضى بحكم الله؛ لأن الله خير الحاكمين، ولن يكون حكمه ضد المحقِّ من الفريقين، فهذا أصلح من عجلة الكفار على التعدي على المؤمنين وعلى الرسول؛ لأن ذلك يؤدي إلى تعجيل عذابهم، وفي التأني السلامة لكنهم أبوا.

﴿٨٨﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ لم يقبلوا نصح نبيهم بأن يصبروا، وهددوه ومن معه بإخراجهم من قريتهم إن لم يعودوا في ملتهم، ولم يكترث نبيُّهم بالوعيد بإخراجهم له من قريتهم فلم يجب فيه، وأجاب عن قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾..

﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾؟! أي أنعود في ملتكم ولو كنا كارهين، ثم قال:

﴿٨٩﴾ ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ لأنا إن عدنا في ملتكم قلنا على الله ما تقولون من إثبات الشركاء لله، وغير ذلك من كذبكم على الله، وقد علمنا حين هدانا الله ونجانا من ملتكم، أن ما تقولونه على الله كذب، فلو رجعنا في ملتكم كنا قد تعمدنا الكذب على الله.

لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى

وليس في هذا إثبات: أن شعيباً كان مشركاً؛ لأن قوله: ﴿إِنْ عُدْنَا﴾ فيه حرف الشرط فهو فرض وتقدير، لا يلزم منه أنه كان عليه، بل هو في حقه متوقف على فرض أنه كان فيه، ففرض العود فرض لما يتوقف عليه العود، أي فرض لما يتوقف عليه كون الدخول في ملتهم عوداً فيها، وكأنه ترك الجدال في أنه كان معهم؛ لأن المهم بيان أن ما هم عليه باطل يجب تركه، سواء كان معهم أو لم يكن.

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ ما يليق بحالنا ولا يناسب ما نحن فيه من اليقين بالحق وكراهة ما أنتم عليه من الباطل، فهو شبه المستحيل منا، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ لأن الهدى والصلاح ليس ذاتياً لنا، إنما هو بلطف الله وعصمته، وهو أعلم بحالنا في المستقبل، يعلم إن كنا نتغير ونستحق الخذلان في المستقبل، أو أنا نثبت على دينه بعصمته ولطفه.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فلن نترك دينه لوعيدكم؛ لأنا في طاعتنا له وكَلْنا أمرنا إليه ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ ربنا احكم ﴿بَيْنَنَا﴾ وافصل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ سواء لنا أو علينا، وأنت خير الحاكمين؛ لأنك لا تحيف ولا تخطئ، وفي قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في جوابه على قومه دلالة على أنه واثق أنه على الحق، وأن الحكم من الله بالحق هو له لا عليه.

﴿٩٠-٩٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ كبراءُ الكفار من قوم شعيب: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ يقولون لأصحابهم أو لقومهم تثبيطاً

وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ

وصداً عن الحق، فلم يكفهم إصرارهم على الكفر، بل أضافوا إليه إصرارهم على الصد عن سبيل الله، كأنهم لم يسمعوا نصيحة نبيهم.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ * ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ أخذتهم الرجفة كلُّهم الذين استكبروا، والذين استضعفوا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ كأن لم يسكنوا في قريتهم، حيث هلكوا كلهم كبيرهم وصغيرهم، قال الراغب: ((وغنيَ في مكان كذا، إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ معناه: لم ينزلوا فيها ولم يعيشوا)) ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا مَن اتبعه كما زعموا.

﴿٩٣﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿ءَاسَىٰ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أحزن وأتوجع)) انتهى، وقد مر تفسير مثلها، وفي هذه زيادة جمع رسالة رسالات، ولعل السبب: أنه بلغ أكثر؛ لأن بعض قومه قد كانوا آمنوا فكان قد بلغهم كل ما أرسل به.

﴿٩٤﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ﴿أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أصبناهم بالبأساء والضراء بحيث غلبتهم البأساء والضراء، وسيطرت عليهم، ولم يستطيعوا التخلص من البأساء والضراء، والبأساء مثل: الجدب، والجوع، والفقر الشديد، والضراء مثل: الأمراض.

بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ تعريضاً لهم على التضرع إلى الله والتذلل له، إذا أذلهم الفقر والضر وذهبت سكرة النعمة، وهو تأديب لهم كما يؤدب الصبيَّ أبوه ولكن لم يتضرعوا.

﴿٩٥﴾ ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ مكان السيئة مكان ما كان يسوؤهم من البأساء والضراء جعلنا بدله الحسنة الرزق والعافية ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ قال في (لسان العرب): ((وفي التنزيل: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي كثروا، وعفا النبت والشعر وغيره يعفوا فهو عافٍ: كثر وطال..)) إلخ، وفي (الصحاح): ((وعفا الشَعر والنبت وغيرهما: كثر، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي كثروا)) انتهى، وفي هذا دلالة على طول مدة الخير.

﴿وَّقَالُواْ﴾ لطول مدة الخير ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ لم يعتبروا البأساء تأديباً ليتضرعوا، ولا الخير نعمة ليشكروا، بل جعلوا ذلك مجرّد عادة من عادات الدهر بزعمهم جاءت فيهم كما مسّت آباءهم ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنه الهلاك حين بغتهم وهذا عذاب عاجل بتكذيبهم لرسلهم وعصيانهم لربهم، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بآيات الله وآمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾

أسباب العذاب أي أطاعوا الله واجتنبوا العصيان وتابوا إلى الله مما مضى منهم من المعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

قال بعض المفسرين ـ ونعم ما قال ـ : ((فيه استعارة بالكناية، فقد شبهت البركات بمجاري تجري منها عليهم كل ما يتمتعون به من نعم الله لكنها سُدَّت دونهم، فلا يجري عليهم منها شيء، لكنهم لو آمنوا واتقوا لفتحها الله سبحانه، فجرى عليهم منها بركات السماء من الأمطار والثلوج والحرّ والبَرْد وغير ذلك، كل في موقعه وبالمقدار النافع منه وبركات الأرض من النبات والفواكه والأمن وغيرها، ففي الكلام استعارة المجاري للبركات، ثم ذكر بعض لوازمه وآثاره، وهو الفتح للمستعار له)) انتهى.

قلت: وفيه فائدتان:

الأولى: سهولة ذلك، حتى كأن البركات موجودة إذا فتحت فاضت على العباد؛ لأن إنزالها ليس فيه أي عسر على الله؛ لأنه على كل شيء قدير.

الثانية: أن إفاضة البركات على العباد هي الأصل، ففيض البركات عليهم كالطبيعي، كما أن من طبع الماء أن يفيض إذا فتح، وإنما تسد عليهم لذنوبهم إذا اقتضت الحكمة تأديبهم بالبأساء والضراء، ففي ذلك تنبيه على كرم الله، وإرادة الخير واليسر لعباده لولا أنهم يظلمون أنفسهم.

ويؤكد ما ذكره من الإستعارة قول (صاحب لسان العرب): والفَتْح: الماء المفتَّح إلى الأرض ليسقى به، والفَتْح: الماء الجاري على وجه الأرض عن أبي حنيفة، الأزهريُّ: والفَتح: النهر، وجاء في الحديث: ((ما سقى فَتْحاً وماسقي بالفَتْح ففيه العشر)) انتهى المراد.

بَيَٰتًا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢] وقوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يفيد أن سبب الأخذ معاصيهم كلها التي استمروا يكسبونها.

﴿٩٧﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ بعد أهل القرى الماضين ﴿أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتًا وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ ﴿بَيَٰتًا﴾ أي أن نبيِّتَهم بالعذاب بياتاً، والبيات: الهجوم على العدو لقتلهم في الليل، فيأتيهم ﴿بَأۡسُنَا﴾ كالرجفة والصيحة ﴿وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ وفي ذلك شدة الفزع إذا أيقظتهم المصيبة النازلة بهم.

﴿٩٨﴾ ﴿أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ ﴿ضُحٗى﴾ أول النهار حين تشرق الشمس وتبياض وقتَ خروجهم من بيوتهم، وأخذهم في أفعالهم من أعمال الدنيا ولهوهم، وسمى ذلك لعباً لانقطاع فائدته كاللعب فائدته وقته، فإذا انتهى ذهبت لذته، وفي التعبير باللعب دلالة على أنهم مستحقون للعذاب القاطع للذات المبطل للأعمال، فاشتغالهم بدنياهم في حال أن قد تعرضوا لعذاب الله اشتغال بما لا فائدة له، وتلهٍّ بما لا ثمرة له إذا تعقبه الهلاك انكشف أنه كاللعب، لأنه كان ينبغي لهم بدلاً منه أن يتلافوا أنفسهم بالإيمان والتوبة إلى الله، فكان اشتغالهم بدنياهم ولهوهم كالإشتغال باللعب.

﴿٩٩﴾ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ استدراجه لهم، أي أفأمن أهل القرى ﴿مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ وقد تعرضوا لغضبه ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ

الذين عاقبتهم الخسران المبين؛ لغفلتهم عن الله وإعراضهم عن هداه حتى نسوا أو جهلوا أنهم متعرضون لبطشه بالتمرد عليه والإصرار على الباطل.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أفلا يجعلهم مهتدين كونهم معرضين لعذاب الله كالأولين ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما أصبنا مَن قبلهم، والسؤال بمعنى النفي، فالذين ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ كيف لا يعتبرون بهم، وقد بيَّن لهم إهلاك من قبلهم، أن لو يشاء الله لأهلكهم كما أهلك من قبلهم.

﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ معطوف على ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ لأنه بمعنى: قد هدي لهم، أي بيّن لهم، ونطبع على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بياناً يهديهم لِما فيه نجاتهم، لأنهم قد خذلوا؛ بتمردهم.

﴿١٠١﴾ ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ القاطعة للعذر ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ فما كانوا ليؤمنوا، أي ما كان يناسب حالهم أن يؤمنوا، فهو نفي مؤكد مثل: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ [الحجر:٣٣] لأنهم قد ﴿كَذَّبُوا۟﴾ بالآيات ﴿مِن قَبْلُ﴾ فما كانوا ليؤمنوا بها من بعد؛ لأنهم قد خذلوا من أجل التكذيب بها، فما كانوا مع خذلانهم ليؤمنوا بما كذبوا من الرسل، والآيات البينات من قبل.

لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ

والراجح: أن هنا إيجازاً، وأن المعنى: فكذبوا الرسل بعدما رأوا الآيات البينات، وأصروا على ذلك واستمروا، ولم ينتفعوا بعد ذلك بإنذار ولا موعظة ولا نصيحة ليؤمنوا؛ لأنهم قد كذبوا الرسل من قبل فخذلوا، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل.

قلت: هنا إيجاز لأن قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ﴾ يدل على أنهم قد كذبوا من قبل وذلك يستلزم أنهم أصروا على التكذيب حتى خذلوا فما كانوا ليؤمنوا.. إلخ.

﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي منعهم من الإيمان وباعدهم عنه ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهو أي الطبع يكون بسبب تكذيبهم ﴿مِن قَبْلُ﴾ من بعد ما جاءتهم البينات فتبين لهم الحق، فتمردوا وكفروا فاستحقوا الخذلان، وإرسال الشياطين عليهم، حتى تصير قلوبهم كالمختوم عليها، لا يدخلها الإيمان أبداً.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ فأكثرهم يكونون قد عاهدوا عند إصابتهم بالضراء وخوفهم الهلاك بذنوبهم ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢] ثم نكثوا وأضاعوا العهد كأن لم يكن ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ فجَّاراً خبثة، يتركون الحق تعمداً وتمرداً، و يتعمدون الباطل خبثاً وفجوراً.

﴿١٠٣﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل المذكورين سابقاً وأممهم ﴿مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أصحابه الذين هم معه في الباطل والظلم وزراء ومعينون ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ فاستهزءوا بها وكذبوا بها.

يَـٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٥﴾

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أنا دمرناهم أجمعين، فصاروا عبرة لمن بعدهم من الأمم، وكانوا مفسدين بالشرك، والظلم لبني إسرائيل، والتكذيب بآيات الله.. وغير ذلك.

﴿١٤﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي مرسل إليك من مالك الخلق أجمعين، كان يقال لملوك مصر: الفراعنة، كما يقال لملوك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: يا ملك مصر)) انتهى المراد.

وقد تضمن قوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ﴾ حجة على فرعون، وهي أنه عبد لمرسل موسى، فعليه أن يمتثل أمره، ويتبع رسوله، وأن بني إسرائيل عباد الله، فعليه أن يرسلهم لموسى، وأن مرسله رب العالمين، فهو مالك الملك وله الحكم فيهم لا لغيره.

﴿١٥﴾ ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على قراءة نافع ﴿حقيق عليّ﴾ بإدخال (على) على (ياء المتكلم) أي: واجب علي أن لا أقول على الله إلا الحق، وعلى قراءة غيره: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ بدون (ياء المتكلم) ذكر فيه (صاحب الكشاف) وجوهاً: أحدها: أن ضمّن (حقيق) معنى حريص فعدي تعديته، وهذا أقرب الوجوه عندي، فمعناه: إني حقيق وجدير بأن لا أقول على الله إلا الحق؛ لأنه أرسلني رب العالمين، وهو لا يرسل من يقول غير الحق، وإني حريص على ذلك.

قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى

﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على أني رسول رب العالمين وأني حقيق أن لا أقول على الله إلا الحق ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ليتخلصوا من ظلمك ويهتدوا باتباع الرسول.

﴿١٠٦-١٠٨﴾ ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ﴾ فأظهرها لنا ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ وهذا دليل على آية عظمى، وهي أن الله صرفه عن قتله فتشاغل بطلب الآية والجدال بالباطل. ﴿فَأَلْقَىٰ﴾ موسى ﴿عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: وهو الذكر من الحيّات)) انتهى.

وفي (المصابيح): ((والثعبان: الحية الضخم الذكر في قول جمع ـ كذا ـ أهل اللغة)) انتهى، ومعنى ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن واضح أنه ثعبان ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ تعجبهم بجمالها، وفي التعبير بالنزع إشارة لضيق الثوب الذي أخرجها منه، كقوله تعالى: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص:٣٢].

﴿١٠٩-١١٠﴾ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ بالسحر ماهر فيه، أي قالوا: إن موسى إنما جاء بتخييل لا حقيقة له، فلا ثعبان، ولا بياض ليده، بعد ما تبين لهم الثعبان الذي لا شك فيه، والبياض الذي رآه الناظرون، ولكنهم خافوا أن يتحرر بنو إسرائيل ويكونوا قوة ضدهم، فتآمروا في مدافعة الآية البينة، فقالوا:

ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ يقول ذلك بعضهم، وهذا مما يحقق الآية العظمى، التي هي صرف الله لهم عن قتله؛ لأنه لو كان ساحرا كما زعموا يريد ما زعموا لكان قتله أيسر وأنفع من كل رأي للتخلص منه، ولكن الصارف عن قتله أمر رباني لأجله لجأوا إلى الجدال، وقرروا: أن الرأي أن يعارضوا الآيات بالسحر، وذلك وإن كان مظنة أن يظهر الفرق بينه وبين الآية البينة، فهو عندهم يكون مجالاً للجدل ومجالاً لدعوى أن سحرهم قد غلب الآية، أو على الأقل دعوى التشابه بينه وبين ما جاء به موسى، ودعوى أن الكل سحر، جدالاً ومدافعة بالباطل تطويلاً لمدة المدافعة للحق، وظنوا أنهم في ذلك قد أصابوا الرأي الآخر فاتجهوا إلى فرعون.

﴿١١١-١١٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أخّرهما ولا تقتلهما وهذه للجدال في الآية العظمى الواضحة الجلية التي هي صرفهم عن قتل موسى، وقد دل عليها بقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان:٢٠] فلا إرجاء منه، بل هو ملجأ إلى تأخيرهما وترك قتلهما، وليس تركه لقتلهما من أجل قولهم: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ وقد عرفوا ذلك، ولكن أرادوا التغطية على الحق والتغرير على أتباعهم ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ يحشرون إليك السحرة من كل مدينة ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ﴾ بالسحر ماهر فيه، ومضى على هذا الرأي، فأرسل ﴿فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ للسحرة.

﴿١١٣-١١٤﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ لموسى وهارون، وهذا عرض عليه ليعِدَهم الأجر، أو هو استفهام ﴿قَالَ نَعَمۡ﴾ إن لكم لأجراً ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ تصيرون وزراء، أو نحو الوزراء.

ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ

﴿١١٥﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ﴾ ما أعددت للمغالبة ﴿وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ لما أعددنا، وظاهر الحصر: أنهم يظنون أنهم إن ألقوا لم يلق موسى، ولا ينافي هذا قولهم: ﴿وَإِمَّآ أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه:٦٥] لأنهم في ظاهر كلامهم يعرضون عليه أن يبدأ أو يبدءوا بالإلقاء، وهنا زيادة أنهم إذا بدأوا عجز موسى عن الإلقاء، تأثراً بسحرهم أو انبهاراً منه.

﴿١١٦﴾ ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ ما أنتم ملقون ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ فخيل إليهم أن حبالهم وعصيهم تسعى، فالسحر: تأثير في أعين الناس بوسيلة يعرفها السحرة، والتأثير في الأعين هو وسيلة التخييل ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ قال في (الكشاف) في تفسير ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾: ((وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم)) انتهى.

قلنا: لما كانت الرهبة وقعت بحيلة السحر، جعل السحر استدعاء للرهبة، ففائدة (سين الطلب): أن لا يوهم الكلام أنهم أرهبوا الناس بمواجهة بنار أو سلاح أو نحو ذلك، وإنما حيلة أوقعت الخوف في القلوب ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ولعله عظم لكثرتهم مع شدة عنايتهم.

﴿١١٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فإذا هي دليل المفاجأة بسرعة التلقف لما يأفكون، فالعصا أخذت ما يأفكون كأنها جذبته إليها وأبطلته، و﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ هو السحر الذي سحروا به الأعين؛ لأنه إفك من حيث هو تخييل خلاف الحقيقة، وتزوير بتخييل قلب حقيقة حبالهم وعصيهم.

هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَا فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ ثبت في الأرض واستقر ورسخ وانتصر ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من السحر الذي طالت مدة عنايتهم به والإعداد للمغالبة به ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ غلب فرعون وقومه ﴿وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ﴾ ببطلان كيدهم وسقوط حجتهم وافتضاح عنادهم، و(الصَغَار): الذلة.

﴿١٢٠-١٢٢﴾ ﴿وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ لله خرُّوا سجداً، كأنهم ألقوا على الأرض لسرعة هويهم إلى الأرض، مبالغة في الخضوع لرب العالمين ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ تصريح بإيمانهم بالله الذي هو مالكهم ومالك العالمين كلهم، فطاعته واجبة عليهم كلهم، ولا طاعة لمن كفر به، وقولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ لزيادة التحقيق وللإيمان بموسى وهارون، حيث جاء سَبب الإيمان على يديهما.

﴿١٢٣-١٢٤﴾ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَا﴾ ﴿ءَامَنتُمۡ﴾؟! إنكار منه عليهم لأنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم، بناء على أن الأمر له وقد ضل وتاه عن الحق؛ لأن الأمر لله وحده والحكم له؛ ولهذا ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ [طه:٧٢].

ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

وقولُــه: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أراد بــه عــدوُّ الله أن السحرة اتفقوا هم وموسى على أن يغلبهم ليبطل أمر فرعون ويستولي موسى على المدينة فجعلوا سحرهم ضعيفاً بحيث يغلبه موسى، وكذب عدو الله لقد ﴿جَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ ولكن غلبه أمر الله الغالب على أمره.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ما يصيبكم بسبب مكركم، وإيمانكم قبل أن آذن لكم ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ مــن خلاف اليد من جانب، والرجل من الجانب الآخر، كاليد اليمنى والرجل اليسرى، والصَّلب: تعليقهم في النخل، وهذا مما يدل على الآية الأولى التي هي صرفه عن قتل موسى وهارون، فقد كان إيمان السحرة بهما من أعظم ما يبعثه على قتلهما قبل وعيده للسحرة ولو بدعواه المكر الذي ادعاه.

﴿١٢٥﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فرجوعنا إليه وهو راضٍ عنا هو الذي نرغب فيه، ولانبالي بفراق الحياة الدنيا؛ لأنه لابد منه ﴿وَالۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [الأعلى:١٧].

﴿١٢٦﴾ ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ﴾ لا دعوى لك علينا ﴿إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَا﴾ هذا منهم تكذيب لفرعون في دعواه المكر، وبيان أن السبب هو إيمانهم لا غيره ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾ لنثبت على الإيمان ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ﴾ لك وجوهنا وأنفسنا لا نشرك بك أحداً، وهذا الثبات منهم على الإيمان مع الوعيد دليل على صدق إيمانهم، وكذب فرعون في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ..﴾ وقد كان ينبغي لقومه أن يؤمنوا بموسى وهارون؛ لوضوح الحجة وتبيّن الحق، ولكن أهملوا عقولهم.

وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ

﴿١٢٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فقد بطلت حيلة السحر، ولم يبق وسيلة لإبطال أمره قبل أن يميل الناس معه، إلا أن تبطش به وبقومه، وهذا يؤخذ منه: أن الذين آمنوا بعد السحر قد صاروا من قومه، وانضموا إليه، خلاف ما يروى: أن فرعون فعل ما أوعدهم؛ ولأنه لو كان يفعله لكان الفعل يغني عن التهديد، ولبادر جلاوزته لأخذهم حين سجدوا.

وقولهم: ﴿لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرادوا أن انتشار الإيمان بموسى فساد في الأرض تبريراً لقتل موسى وقومه ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ ﴿يَذَرَكَ﴾ يتركك فلا يطيعك في أمر ولا يتبعك في طريقة ﴿وَءَالِهَتَكَ﴾ ويذر آلهتك يتركها، وهذا منهم إثارة لحميته ليقتل موسى، وهذا يدل على أن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] ليس عن اعتقاد إنما هو افتراء، ولا حاجة إلى تنزيهه عن المناقضة، على أنه لا يبعد أن قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] إنما قاله على طريق المشاكلة لقول موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦] وأراد إلزام قومه طاعته، مقابل دعوة موسى إلى طاعة رب العالمين، فهو مشاكلة تقديرية.

قال الشرفي في (المصابيح) في عبادة فرعون لآلهته: ((وهذا يؤيد قول القاسم × : أنه لم يدّعِ أنه ربٌّ خلاّق ولا إله رزّاق، وإنما أراد ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] أي مليككم الأعلى)) انتهى.

قلت: أما قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨] فهو يعني: أن عليهم أن يعبدوه بطاعته، وأنه مالك لهم، ولا مانع من أن ينقض كلامه

لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ

حيث يقول ذلك ويتخذ آلهة، أو أنه جعل آلهته فوقه وهو من تحتهم إله قومه في زعمه وطغيانه الجنوني.

﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ﴾ هذا جوابه على ملأْئه، يدل على عجزه عن قتل موسى، وإنما عبر به عن قهره لموسى وقومه دعوى يدعيها، وقد عجز عن إبطال دعوة موسى، وعجز عن قتله فلم يحصل مطلوبهم.

﴿١٢٨﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ هذا درس من موسى لقومه، يعلمهم فيه أسباب النصر، فأمرهم أن يستعينوا بالله، أي يسببوا لمعونة الله لهم ويتوصلوا إليها؛ لأنه الغالب على أمره، و﴿ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ فإذا أراد نصرهم على أعدائهم وأورثهم الأرض، وهذا ليثبتوا معه على مقاومة فرعون، ولا يتأثروا من وعيده مع قوته.

ثم بين لهم وسيلة الإستعانة، فقال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فدلهم على تقوى الله؛ لأن ﴿حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] وقد أمرهم أن يصبروا على مقاومة فرعون بالحجة، وعلى الثبات مع موسى؛ لأنهم لو ضعفوا لوعيد فرعون وإرجافه عليهم فتركوا موسى وتفرقوا عنه، أو رجعوا إلى فرعون لفاتهم النصر، وأيضاً الإستعانة بالله لا تتم إلا مع الصبر؛ لأنه لابد من الصبر على تقوى الله، وأيضاً الصبر على مقاومة العدو هو من الإستعانة بالله؛ لأن الله ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣] وأيضاً الصبر على مقاومة العدو في الله صبر على نصر دين الله، والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ﴾ [الحج:٤٠].

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ

﴿١٢٩﴾ ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ عجلوا على الفرج من شدتهم، وأرادوا أن يكون الفرج على يدي موسى عاجلاً من دون مجاهدة ولا مصابرة، فهم يشكون إلى موسى تأخر الفرج، وكأنهم قد أحسوا بخيبة أمل، وقد كانت الحال تستدعي أن يتركوا خائفين راجين، ليلجأوا إلى الله ويصبروا ولا يستغنوا عن ذلك لو أخبرهم أن الفرج قريب، وأن الله يغرق آل فرعون قريباً.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿عَسَىٰ﴾ أي يقرب أن يهلك ربُّكم عدوَّكم، فهذا تشجيع لهم؛ لأنهم قد علموا أنه رسول من الله غالب بالحجة، وتلك للمؤمن كافية لرجاء النصر، وأكدها بقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

ثم قال: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ ليكونوا مستعدين لطاعة الله حين يستخلفهم في الأرض، ولا يظنوا أن نجاتهم من فرعون نهاية المقصود برسالة موسى × ، فلم يجبهم موسى بما يغني عن الإستعانة بالله والصبر وإخبارهم أن العاقبة للمتقين، بل أشار إلى أنه لابد لهم من طاعة الله؛ لأنهم مختبرون عباد من عباد الله ليسوا خِيَرة منهم، بحيث يأتيهم النصر ولا يحتاجون إلى الصبر، فقال: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الهادي × : إن *قال قائل*: كيف يستعان بالله؟ وما يقول المستعين؟

قيل لـه: الإستعانة بالله: هي العمل لا المقال من كل مستعين من النساء والرجال، وهي العمل بطاعة الله، والأمر بأمره، والنهي عن نهيه، والوقوف

عن معاصيه، فمن عمل ذلك من النسا[ء والرجال] فقد استعان بالواحد الرحمن، وفي ذلك ما يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨] ومن كان الله معه فقد قهر أمرُه وقوي، ومن لم يكن الله معه فقد عجز في أموره وغوي.

والله سبحانه فلا يكون إلا مع من ذكر من المتقين والمحسنين، وإذا لم يكن إلا مع المتقين فهو لا شك خاذل للفاسقين، ومن خذله الله فقد هلك وهوى، ومن وفقه الله وأعانه قهر أمرُهُ وعلَى، ألا ترى كيف يدل آخر الآية التي سألتَ عن تفسير أولها على جميع ما عنه سألتَ منها، حين يقول: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهذا دليل لمن عقل وفهم واستضاء بنور كتاب الله فعمل على ما قلنا به من تفسير الآية وشرحنا)) انتهى.

قلت: لو قال: (استعينوا اللهَ) لكان معناه: اسألوا الله الإعانة، لكنه قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ فاختلف المعنى؛ لأن الإستعانة بالله: التوسل لأن يكون الله معيناً، وذلك باستعمال أسباب الإعانة، وقول الإمام الهادي × : ((ومن كان الله معه فقد قهر أمرُه)) تنبيهٌ منه على أن هذه معيَّةُ حسنِ الرعاية بمصالح من هو معهم، وهي واضحة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا..﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨] وكذلك (قصة في طالوت): ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩] وفي (سورة طه): ﴿قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا..﴾ [آية:٤٦] وفي (سورة التوبة): ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [آية:١٢٣] فهذه معيَّةٌ خاصة غير المعية العامة، ومعناهما مختلف.

ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا

﴿١٣٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ففي مدة دعوة موسى لهم وإتيانه بالآيات البينة أصابهم الله ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهي سنين الجدب والجوع، وانقطاع الأمطار وانقطاع الينابيع ونحوها، أو نقصها بسبب انقطاع الأمطار ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ شديد يذكِّرهم ليرجعوا إلى الله ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ تعريضاً لهم على التذكُّر، لكونهم مجرمين يستحقون التشديد وسوء الحال، وأنهم إذا رجعوا إلى الله أغاثهم، ولكنهم أبوا أن يتذكروا.

﴿١٣١﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الخير من الرزق وسعة الحال ﴿قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ﴾ نحن نستاهل هذه الحسنة ونستحقها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ كالسنين والنقص الشديد من الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي يتشاءمون بموسى ومن معه، يزعمون أن سبب ذلك النحس وجودُ موسى ومن معه على ما هو عليه هو ومن معه؛ ولعلهم يجعلون ما وقع من الهلاك على الأمم الماضية بنحس أنبيائهم قلباً للحقائق ولبساً للحق بالباطل.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه لأنهم جاهلون في بُعْدٍ عن ذكر الله، إنما شؤمهم عند الله؛ لأنه الذي قضى عليهم بسوء الحال بسبب ذنوبهم ليذكروا، فطائرهم الذي عند الله هو علمه بأعمالهم، وحكمته التي اقتضت إصابتهم لعلهم يذكرون، وصح استعمال ﴿عِندَ﴾ هنا كما صح في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الملك:٢٦] فليس ذلك بشؤم ممن زعموا.

بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا

﴿١٣٢﴾ ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَقَالُوا۟﴾ **أي فرعون وقومه:** ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ **لنؤمن لك وما يكون إيمانهم له لو اتبعوه إلا وهم مسحورون بها بزعمهم** ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ **فلا تتوقع منا أن نؤمن لك، ولو جئت بكل آية.**

﴿١٣٣﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ **فبعد تمردهم وإعلانهم أنهم لن يؤمنوا أرسلنا عليهم أشد مما سبق من السنين والنقص من الثمرات.**

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : الطوفان: فهو العذاب الذي طاف بهم، والجراد والقمل فهما معروفان، أما الجراد فأرسله الله عليهم لهلاك ثمارهم، وأما القمل: فهو البرغوث بلغة الحجاز، جعله الله نقمةً عليهم يُؤَرِّقهم ويذهب بنومهم، والضفادع ـ أيضاً ـ فهي معروفة تكون في المياه، قال الشاعر:

عين مطلحبة الأرجاء طامية ... فيها الضفادع والحيات تصطحب

وإنما أرسل الله الضفادع عليهم لينتقم بها منهم، وتضيق بها صدورهم ويعذبهم بها ويغمهم، وأما الدم: فهو علة من العلل، ويمكن أن يكون على ما رُوي: من أن الله ـ عزَّ وجل ـ عذبهم بأن جعل شرابهم وأغذيتهم دماً عبيطاً..)) الخ، وفي (تفسير الإمام زيد إ): ((الطوفان، معناه: الموت الذريع، ويقال: الماء، فأمطرنا عليهم مطراً دائماً ثمانية أيام بلياليها)) انتهى.

رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ آي دلائل وعلامات على صدق موسى، واستحقاقهم العذاب بكفرهم، وهذه الخمس هي من التسع الآيات التي كانت لموسى × حجةً عليهم، وقبلها ثلاث: انقلاب العصا ثعباناً مبيناً، وبياض يد موسى، وضمه جناحه إليه من الرهب، والتاسعة: تلقف العصا لسحر السحرة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ يدلُّ على إبائهم من الإيمان وأنَفَتِهم منه في حال الشدة المذكورة، ترفعاً لما في صدورهم من الكبر، وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ بمنزلة الجملة المعترضة، أي وكانت عادتهم من قبل ذلك الإجرام، كقول الشاعر:

فمضى وقدّمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت إقدامها

وقول الشاعر:

رأيت رؤيا ثم عبرتها وكنت للأحلام عبّارا

وهي كثيرة في القرآن في أواخر الآيات.

﴿١٣٤﴾ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ العذاب بهذه الأمور المذكورة في الآية قبل هذا أبوا أن يؤمنوا، ولكن لشدة الأمر عليهم وعَدُوا موسى إن كشف عنهم الرجز أن يؤمنوا له، وقولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي ادع بما أوصاك به وعلمك أن تدعو به، ليجيبك ويعطيك ما سألت.

إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي إ): ((﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ معناه: بما أوصاك به)) انتهى، وهذا اعتراف منهم بوحي الله إلى موسى، وكأنهم ظنّوا أن الله أوصاه أن يدعو بألفاظ مخصوصة تكون سبباً لإجابة دعائه، وقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ﴾ ولم يقولوا: (كشف الله) لأنهم أرادوا أن يكشف موسى الرجز بالدعاء، فعلقوا الوعد بالإيمان على دعائه الكاشف للعذاب، ترغيباً له في الدعاء، وهم غافلون عن الله تعالى وعن اللجوء الى الله.

﴿١٣٥﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ عن آل فرعون ﴿ٱلرِّجْزَ﴾ كشفاً مؤجلا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ سيبلغونه فيعود عليهم رجز عظيم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا به موسى: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ وهذا عهد لأن معناه: نقسم لئن كشفت.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ دلالة على أنه تعالى عالم أنهم ينكثون وبعد أن ينكثوا يعذبهم، فكان كشفه للعذاب مؤجلاً لعلمه بنكثهم واستحقاقهم فيما بعد عذاباً بعد كشف العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ متعلق بـ﴿كَشَفْنَا﴾ وإنما قلت: كشفاً مؤجلاً إلى أجل تحقيقاً للمعنى، و مفاجأة نكثهم هي في حال الكشف المؤجل، ولا يجب تأخرها عنه، كما أنه لما وقع عليهم الرجز قالوا قبل نهاية الرجز وفي خلاله: ﴿يَٰمُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾.

﴿١٣٦﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ عاقبنا، (الفاءُ) تفيد: أن ما ذكر من جرائمهم سبب لهذا الانتقام.

مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٍ

وقوله تعالى: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ كالتفصيل لما أجمله في قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ كما تقول: ((توضأ فغسل وجهه، ويديه..)) الخ، وقوله: ﴿فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي في البحر العظيم، أو في البحر.

﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ فالتكذيب بالآيات والغفلة عنها سبب إغراقهم، الذي هو عقوبة التكذيب والغفلة وما ترتب عليهما من الجرائم، فلما ترتبت الجرائم عليهما صح جعلهما سبباً للعذاب، من حيث أنهما سبب، ومن حيث أنهما سبب الأسباب الأخرى، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ [الإسراء:١٨] لما كان حبُّ الدنيا رأسَ كل خطيئة جعل اختيارها سبباً مستقلاً لجهنم؛ لأنه سبب الأسباب الأخرى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي بسبب إعراضهم عنها، واشتغالهم عنها بدنياهم ومعاصيهم، وتركهم للنظر فيها والتذكر لها، كراهة منهم لها ونفاراً عنها، ويجوز أن يكون مجازاً، كما يعبر بالنسيان في مثل هذا، وهذا محل العبرة من قصتهم، هلاكهم بسبب تكذيبهم وإعراضهم، كما في الأمم الأولى.

﴿١٣٧﴾ ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ﴾

يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ موسى ومن معه، قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء:٥٤] وهذا الإيراث سببه الإيمان واتباع الرسول؛ لأنهم لو كانوا مثل فرعون وقومه لأهلكهم ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عدة ربك الحسنى إن كان وعدهم، فكانت صدقاً وعدلاً ورحمةً وفضلاً، أو نعمته التي هي في سهولتها كالكلمة وإن كانت أمراً عظيماً، فلق البحر لهم، وجعله لهم في قراره طريقاً يبساً حتى خرجوا من البحر وأهلك عدوهم بإغراقهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ دليل على أن سبب نعمتهم هي الإيمان، واتباع الرسول في حال الشدة والخوف من فرعون، وذلك كان متوقفاً على الصبر، فجعل الصبرَ السببَ، كما جعل التكذيب بالآيات والغفلةَ عنها سببَ هلاكِ فرعون وقومه، وفي هذا رد على من توهم من الإسرائيليين أنها خصوصية لعنصر بني إسرائيل سواء صبروا على الدين أم لم يصبروا، بل وحين كفروا بعيسى ومحمد ـ صلى الله عليهما، وعلى آل محمد ـ ونكثوا العهد بالإيمان بالرسول ونصره، المذكور في (سورة المائدة).

وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من عمارة الدنيا وزينتها وآثار القوة في ذلك ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ من الجنات كالكرم يجعل له عريش ينتشر وينمو عليه، وهذا يدل على أن الله دمر مداينهم وأموالهم بعد هلاكم في البحر أو معه، وأورث بني إسرائيل حين كانوا مسلمين مشارق الأرض المباركة ومغاربها، وأورثهم بعد ذلك مصر وغيرها.

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ

﴿١٣٨﴾ ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ (الباءُ) للتعدية، فقد جاوزوا البحر بتهيئة الله لهم ذلك وتيسيره، وتمكينهم منه وإقدارهم عليه ﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ يعبدون الأصنام بالعكوف عليها وحبس أنفسهم عليها خضوعاً لها ﴿قَالُوا﴾ أي بنو إسرائيل ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إله مثل آلهتهم واحداً نقنع به منك ولا نطلب أكثر منه، كما لهم آلهة عدة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ جعل طلبهم هذا جهالة ومخالفة للعقول ﴿تَجْهَلُونَ﴾ عادتُكم الجهالات، فهي تقع منكم المرة بعد المرة: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧].

﴿١٣٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ المشركين ﴿مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مُتَبَّرٌ﴾ هالكٌ ذاهب لا يبقى ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ بل لا بد أن يتركوه بغلبة أهل الحق أو تسليط الله عليهم ما يقطع منكرهم أو بهداية الله لهم إلى الإسلام ﴿وَبَاطِلٌ﴾ أي لا فائدة فيه، بل يذهب عملهم الذي استمروا عليه ضائعاً لا ثواب فيه ولا خير، فكيف ترغبون في مثله.

﴿١٤٠﴾ ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ أطلب لكم، والسؤال سؤال إنكار وتوبيخ، فالله الذي هو رب العالمين فضلكم في النعمة عليهم؛ لأنه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥] فعليكم: أن تشكروا نعمة الله ربكم ولا تعصوهُ وتسيئوا بعبادة غيره وطاعة عدوه، وفيه دلالة: على أن المنكر إذا وقع من المفضلين كان أقبح من الواقع من غيرهم.

ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا

﴿١٤١﴾ ﴿وَ﴾ اذكروا نعمة الله ﴿إِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يكلفونكم سوء العذاب ويبتغونه فيكم، قال الشاعر:

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقرَّ الذلَّ فينا

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ تفسير لـ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يستبقون في الحياة نساءكم لتعذيبهن بالحزن على أبنائهن وزيادة حزنكم بحزنهن ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿فِى ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء والخلاص من آل فرعون ﴿بَلَآءٌ﴾ نعمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وإحسان ﴿عَظِيمٌ﴾ عليكم أن تشكروه.

﴿١٤٢﴾ ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ للكلام معه في الطور ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ وأضفنا إليها عشراً، تماماً لفائدة الثلاثين وكمالاً لمصلحتها، ولعل العشر كانت في الأربعين بمنزلة العشر الأواخر في شهر رمضان، والأقرب أن الأربعين ميقات للمناجاة كلها، والميقات: الموعد الذي هو وقت محدود.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ﴾ حين أراد الذهاب إلى الطور للموعد المذكور ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ قم فيهم مقامي لهدايتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ودفع التظالم بينهم والمفاسد منهم أو عليهم ﴿وَأَصْلِحْ﴾ في سياستهم وقيادتهم.

وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ بسوء السيرة أو بالعنف أو بالإهمال والتهاون بالأمور المهمة أو بالتسوية بين المحسن والمسيء والناصح والغاش أو بالمحاباة والميل لبعضهم بغير موجب.

﴿١٤٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ ﴿جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ حضر في الطور للموعد المذكور ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ﴾ له ما أراد سبحانه أن يقوله، ولعل منه تعليمه (التوراة).

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ قيل في تفسيره: سأل ربه علماً ضرورياً خاصاً يعبر عنه بالرؤية في مثل قولك: أراني أريد كذا، وأراني أكره كذا، وأحب كذا وأبغض كذا، أي أجد وأشاهد إرادتي الباطنة التي ليست بمحسوسة ولا فكريةّ وأجد في باطن ذاتي كراهة، وكأنه أراد بهذا علماً ضرورياً في معنى العلم الوجداني.

ولكن يشكل عليه قوله: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ لأنه لا يستعمل في رؤية القلب ووجدانه، والأقرب: أنه وجد قومه مصرين على طلب الرؤية، وأذهانهم بعيدة عن فهم امتناعها من طريق النظر والتفكير، وقد سبق منهم طلب إله كآلهة المشركين، وبلغ بهم الميول إلى مشاهدة معبودهم، إلى درجة أن قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

فأراد × أن يعلموا امتناع رؤيته تعالى بطريقة يذهب بها لجاجهم وهوى أنفسهم في الرؤية، وكان طلبه لنفسه الرؤية أقوى من طلبها لهم في أنها إذا امتنعت إجابته إليها، فبالأولى أن تمتنع إجابة موسى لو سألها لقومه، فسألها لنفسه ـ وهو يعلم امتناعها واستحالتها ـ ليرى قومُه ما تكون نتيجة هذا السؤال، ليتركوا المطالبة بالرؤية، وتنصرف أنفسهم عن هواها فيها، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ﴾ فأجابه أوّلاً: بأنه لن يراه، وثانياً: بالجواب الذي ينبني عليه الجواب المسكت لقومه.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ تبين له وعرفه معرفة تامة ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي مدكوكاً، قال في (الصحاح): ((الدكُّ: الدقُّ، وقد دككت الشيء أدُكُّه دَكّاً إذا ضربته وسويته بالأرض)) انتهى.

فتبين: أن الجبل الذي يرونه على ما به من العظم والشموخ والقسوة لم يتحمل تجلي ربه له، فبالأولى أن لا يتحمل موسى وقومه الرؤية التي هي أعظم من التجلي؛ لأن ذلك التجلي كشفٌ بغير رؤية، فبالأولى الكشف بالرؤية لو كانت ممكنة، و معنى التجلي: خلق علم ضروري بعظمة الله وجلاله، كالعلم الوجداني أو كعلم أهل الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ فلعل ذلك من رجفة الجبل حين اندك، كما أن قومه صعقوا من الرجفة، وقد جاء ذكر موسى هنا وحده وهناك في قوله تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]

فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ

ذكر قومه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:١٥٥] ولعله فَصَل موسى عنهم للفرق بينه وبينهم، لأنه لم يستحق من العقوبة ما استحقوا فذكر هنا وحده، لئلا يُتوَهَّم مشاركته لهم في الذنب والعقوبة.

وصعقة موسى × غشية، بدليل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ والإفاقة: الإنتباه بعد الغشية ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه بعد طلب الرؤية، يدل به على علمه بتنزه الله عنها.

وقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ يحتمل: أنه تاب من مساعدة قومه بالسؤال، ولعله لم يكن استأذن من الله في ذلك سهواً ـ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا أقف أيماني على شرط كما فعل قومي حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ..﴾ [البقرة: ٥٥] فأنا مؤمن سابق لكل مؤمن من قومي، مع إذعاني بامتناع الرؤية.

﴿١٤٤﴾ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ هذا التذكير له بنعمة الله عليه تقدمة للأمر بأخذ ما آتاه الله من التوراة وغيرها ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على نعمة الإصطفاء والرسالة، ونعمة تعليم الدين، وغير ذلك.

﴿١٤٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ علوماً كثيرة في كل شيء يحتاج إليه ﴿مَّوْعِظَةً﴾ زجراً وتخويفاً من المعاصي ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ بياناً لكل ما يُحتاج إليه من الدين وغيره مما ينفع في الدين،

يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ

كأخبار الأولين، والتبشير بنبينا محمد ص، وأخذ الميثاق بالإيمان بالرسل ونصرهم، وذكر القيامة، وما أعد الله للمؤمنين.. وغير ذلك.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ فخُذ الألواح ﴿بِقُوَّةٍ﴾ على اتباع ما فيها والتمسك به وإبلاغه ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ وهو المحكم ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فاحذروا المخالفة، التي توجب لهم تلك الدار، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر:٦].

﴿١٤٦﴾ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ هذه الآية والتي بعدها يترجح أنهما بعد نهاية قصة موسى في الطور، وحكاية الله تعالى لها في القرآن دليل على أنه من الله، وفيها تسلية لرسول الله ص، وإعداد له لمواجهة عنادهم مع وضوح صدقه حتى لا يتعب نفسه بمحاولة إيمانهم، ولا يكبر عليه إصرارهم على الكفر، وفي هذه الآية زجر عظيم عن التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، ببيان ما يؤدي إليه ذلك من الخذلان، والميل إلى الباطل، والكراهة للحق.

وقوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ﴾ دليل على: أنه غني عنهم لا يبالي بهم، بل يملي لهم ويمدهم بالنعم الدنيوية، فينشغلوا بها ويطمئنوا إليها ويستمروا على طغيانهم، فكان إنعامه عليهم صرفاً لهم عن الآيات، وهم

بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلاً جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ

الذين اتخذوه صارفاً بإقبالهم عليه وانشغالهم به، فعبر بأنه يصرفهم للدلالة على أنه لا يبالي بهم، وأنه يفعل ما يؤديهم إلى الانصراف غير مبال بهم؛ لأنهم يستحقون ذلك؛ بتمردهم بتكبرهم في الأرض الذي هو تكبر بغير الحق؛ وبكونهم مصرين على الكفر بحيث لا يؤمنون بأي آية يرونها.

بل إن ﴿يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ﴾ الذي جاء به الرسول ودل عليه ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ لتكبرهم وإصرارهم على الكفر ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ﴾ الغواية ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ اتباعاً لهواهم واستمراراً على الكفر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الغي والإصرار والتكبر والعناد الذي صاروا عليه سببه أنهم ﴿كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله وأعرضوا عنها واستمروا على ذلك فصاروا ﴿عَنۡهَا﴾ معرضين باستمرار ﴿غَٰفِلِينَ﴾ فاستحقوا بذلك عقوبة الخذلان وإرسال الشياطين عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] وقد تكرر في هذه السورة التحذير من التكذيب بآيات الله والغفلة عنها.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ﴾ التي عملوها في الدنيا وهي ما وقع منهم من إحسان فهو حابط غير مقبول ولا ثواب لهم عليه جزاءً لهم بما كانوا يعملون من التكذيب وغيره، وقد تكرر هذا المعنى في القرآن.

ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ

﴿١٤٨﴾ ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ﴿عِجۡلاً﴾ صورة عجل من الفضة أو الذهب ﴿جَسَدًا﴾ لا روح فيه إنما هو جسد ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت كصوت العجل، لعله بواسطة ضغط الهواء فيكون مثل بعض الآلات التي تصوت عند النفخ فيها، اتخذوا هذا العجل من بعد موسى في غيابه عنهم في سفره إلى الطور وبقائه فيه، والحلي: جمع حَلْي وهو يكون من الفضة ويكون من الذهب، قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف:٣١] وقال تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلاً﴾ فاتخاذه جهالة لا سبب لها إلا طمعهم في معبود مشاهَد واستحسانهم للحلية، ولا وجه لذلك في العقل بل هو مجرد هوى مع أنه لا مطمع فيه لإجابة دعوة؛ لأنه جماد لا يكلمهم، ولا مطمع فيه لهداية إلى سبيل؛ لأنه جماد، فاتخاذه إلهاً وهم يرونه جماداً مجردَ اتباع هوى تركوا فيه عقولهم فتورطوا في أعظم المنكرات.

﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ من قبل اتخاذه؛ لأنهم مصرون على الجهل والطمع في معبود مشاهَد، وقد قال لهم موسى من قبل: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولكونهم ظالمين من قبل تورطوا في أكبر الكبائر، ولو كان الإيمان قد دخل قلوبهم ما قفزوا منه إلى أكبر الكبائر.

﴿١٤٩﴾ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ﴾ برجوع موسى إليهم وغضبه عليهم وإنكاره عليهم، يقال: سقط في يده أي ندم ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ﴾ لتحريقه عجلهم ونسفه في اليّم وتبيينه لهم أنهم قد ضلوا ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا

مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي

وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ أي طلبوا المغفرة من الله والرحمة، واعترفوا بالخسران إن لم يغفر لهم ويرحمهم لوقوع سبب الخسران منهم، وقد جاءت هذه عقيب ذكر العجل؛ لأن أكثرهم قد تابوا منه، فناسب ذلك تعجيل ذكر توبتهم، وإن كانت تأخرت حتى رجع موسى، واشتد عليهم وغضب غضباً شديداً، وبيّن لهم بطلان ما صنعوا.

١٥٠ ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ من الطور ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ لأن الله أخبره بضلالهم، فغضب وأسف عليهم؛ لأنهم أصحابه وكان مؤمِّلاً فيهم اتباعه والعمل بما في (التوراة) وقد جاء بالألواح التي كتبت فيها، والإنسان يأسف لفساد صاحبه الذي كان يظن فيه الخير ولم يكن يتوقع منه الفساد، وقد قال لهم من قبل: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فقد كان ينبغي لهم أن يخلفوه بالثبات على ما علَّمهم والتمسك بدينه؛ لأنه لهم ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وقد أتعب نفسه من أجل إصلاحهم، فخلفوه شر الخلافة بعبادة العجل ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾ لعله من التضمين، ضمن عجلتم استبطأتم فعدي بنفسه.

قال في (الصحاح): «وقوله تعالى: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾ أي أسَبَقْتُم» انتهى، وقال في (لسان العرب): «وعَجِلَهُ سَبَقه.. ـ ثم قال ـ: وفي التنزيل: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡ﴾ أي أسَبَقْتُم، قال الفراء: تقول عَجِلْتُ الشيءَ أي سَبَقْتُهُ» انتهى.

والسؤال سؤال إنكار وتوبيخ على تضمين استبطأتم، والتوبيخ على ترك انتظار أمر الله الذي يبيّنه موسى حين يرجع، فلو انتظروا بالعِجل مجيء موسى ما عبدوه، ولكن سارعوا إلى عبادته بلا تروٍّ ولا نظر لأنفسهم و﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه:٩١] وهذا إذا لم يقتنعوا بقول هارون، فكان عليهم أن ينتظروا أمر الله فيه؛ لأن الحكم لله وليس لهم أن يحكموا بما شاءوا، ويمكن تفسير (أسبقتم) بمثل هذا؛ لأنهم عجلوا على عبادة العجل وسبقوا بها بيان أمر الله في العجل وحكمه فيه على لسان موسى الذي يقتنعون ببيانه.

ويحتمل ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ عذابه، كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٢٤] فيكون المعنى: أنكم قد تعرضتم لعذاب الله بعبادة العجل، فهل عجلتم على العذاب بمسارعتكم إلى عبادة العجل؟! وهذا على تضمين (عجلتم) معنى (استبطأتم).

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ عن ظهور الحاملات لها للتخفيف عنها؛ وليتفرغ لمهاجمة قومه بالكلام والإنكار عليهم وتحريق العجل ونسفه، وما يقال: إنه كسر بعضها قول باطل، وأعتقده من أباطيل اليهود؛ لأنه لا يرجع غضبه على الألواح وفيها كتاب الله وهداه، وهو أعظم مَن يصونها ويحفظها، وإنما الإلقاء لازم لِلأحمال الثقيلة إذا طرحت عن ظهور الإبل.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ أخذ برأس هارون، وقوله: ﴿أَخِيهِ﴾ تنبيه على شدة موسى في تلك الحال، وأنه لم تمنعه عاطفة الأخوّة؛ لأنه في حال الغضب لله، ولم يتهم أخاه بالشرك، لكنه لم يعلم عذره في بقائه عندهم وهم يعبدون العجل.

﴿قَالَ﴾ أخوه يا ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ يا ابن أمي، وهذا نداء استعطاف، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ بيان لعذره في تركهم يعبدون العجل، أنه لم يتركهم وهو يتمكن من التغيير عليهم، بل كان مغلوباً.

وقوله: ﴿ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي تظاهروا عليّ حتى ضعفتُ عن مقاومتهم، أو اعتقدوني ضعيفاً لانفرادي بينهم، فتجرأوا على مقاومتي وكادوا يقتلونني، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ((كان هارون أخا موسى لأبيه وأمه، وإنما قال ذلك على عادة العرب استعطافاً بالرحم، قال الشاعر:

يا ابن أمي ويا شُقَيِقَ نفسي أنت خلفتني لدهر شديد))

انتهى، يعني × : أن هارون × استعمل الإستعطاف الذي يعبر عنه العرب بقولهم: يا ابن أم.

وقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ قال الراغب: ((الشماتة: الفرح ببليةِ مَن تعاديه ويعاديك)) انتهى، فحاصل المعنى: ولا تجعلني سبباً لشماتة الأعداء.

وقوله: ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾ تعبير عن كونه مغلوباً مقهوراً، وأنهم في إصرارهم على عبادة العجل لم يلتفتوا إلى نهي هارون وبيانه ضلالهم، بل أشرفوا على قتله من شدة إصرارهم وعنادهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تجعلني شريكاً لهم في الظلم الذي فعلوه أي عبادة العجل؛ لأني لم أرض به ولم أقصر في نهيهم، ولم أقعد معهم إلا مضطراً لانتظارك والالتزام بوصيتك.

رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

وفي توقف هارون مع وجود المنكر للضرورة عبرة وحجة للزيدية المقدمين للإمام علي × على الثلاثة، فقد قالوا: إن أمير المؤمنين اضطر إلى ترك المقاومة حفاظاً على قوة المسلمين ضد المرتدين والمشرفين على الردة؛ لأن أهل عاصمة الإسلام وهي (المدينة المنورة) يومئذ لو قاموا للقتال بينهم واشتغلوا به عن حماية الإسلام كانت قوّةً لأعداء الإسلام، وصارت شوكةُ الإسلام على خطر، فقول المخالفين: إن الزيدية قد نسبوا الإمام علي × إلى الضعف والعجز وهو البطل الكرار مجرد مغالطة، وفي قصة هارون × عبرة لهم، فقد قعد وترك قومه يعبدون العجل لما ألجأته الضرورة، ولم يكن ذلك ضعفاً من هارون عن القتال ولا جبناً، بل عملاً بالرأي الصائب ـ وبالله التوفيق.

﴿١٥١﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ وهذا يفيد: أنه قد قَبِلَ عذره ورضي عنه، وقوله: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ جعلها شاملة لهما أو ظرفاً لهما، ولعله أراد بها الجنة أو أراد أنها عامة وسعت كل شيء، وقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ لأنه لا رحمة تعادل رحمة الله؛ لأن رحمة الله فيها النجاة من النار والفوز بالجنة، وتلك السعادة الدائمة.

﴿١٥٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ سمي العذاب غَضَباً كما سميت الجنة رحمة، ومعنى (ينالهم) يُصيبُهم، إلا أن الغضب جعل طالباً لهم، فجعل إدراكه لهم نيلاً كما لو سمي إدراكاً، والذلة: ضد العزة وسببها الضعف والخذلان من الله وقوة الأعداء.

وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ ينالهم غضب ﴿وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ عقوبة عاجلة على الإفتراء وهو تعمد الكذب وظاهره: الإطلاق في الإفتراء على الله، والإفتراء الراجع إلى الإفتراء على الله، كدعوى النبوءة أو الإمامة، أو الإفتراء في فتوى أو إثبات مسألة دينية.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((فالمعنى: أن كل مفتر في دين الله فجزاؤه غضب الله والذلة في الدنيا)) انتهى، ولا شك أنه يدخل فيه الإفتراء بإثبات إله غير الله ولو لم يحكه عن الله فلا وجه لتخصيص الآية بالإفتراء على الله؛ لأن العام لا يقصر على سببه.

ولما ذكر الوعيد للذين اتخذوا العجل خصَّص من العموم مَنْ تاب، فقال تعالى:

﴿١٥٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تابوا من السيئات وآمنوا بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر إيماناً يأمرهم بالطاعة وينهاهم عن المعصية، فهم الذين يقبل الله توبتهم، فلا تكفي التوبة من الشرك مع عدم الإيمان لحصول المغفرة والرحمة من الله، وإن كفت في الخروج من الشرك وانقطاع حكم المعصية.

﴿١٥٤﴾ ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ هدأ غضبه وسكن، وعَبَّر عن ذلك بالسكوت؛ لأن الغضب كالمطالب بالبطش، فسكت برجوع قومه عن عبادة العجل وإظهارهم التوبة، بقولهم: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ونسف العجل وإظهار عقوبة السامري، ونحو ذلك ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ التي جاء بها من الطور لتعليم قومه دينهم وإبلاغ ما في الألواح.

سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّـٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَۖ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ

﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدًى وَرَحۡمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ﴾ ﴿فِي نُسۡخَتِهَا﴾ المكتوبة فيها المثبت من كلام الله لموسى وتعليمه إياه ﴿هُدًى﴾ إلى طريق الحق ﴿وَرَحۡمَةٌ﴾ سبب للسلامة من شرور عاجله وآجله، وإنقاذ من مشاق في الدنيا ﴿لِّلَّذِينَ هُمۡ﴾ يرهبون ربهم، أي يخافونه فهم الذين ينتفعون بما في نسختها، وأما (اللام) في ﴿لِرَبِّهِمۡ﴾ فقيل: هي (لام التقوية) مثل: ﴿لِلرُّؤۡيَا تَعۡبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣] وقيل هي بمعنى: لأجل ربهم، ولعل الأحسن: أنها جعلت لتفيد أن هذه الرهبة مطلوبة لهم للتقرب إلى الله، فهي لله كقولك: صلى لله.

﴿١٥٥﴾ ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ ﴿لِّمِيقَٰتِنَا﴾ موعد المناجاة لموسى × في الطور، فانتخب ﴿سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ ليكونوا معه في الطور عند المناجاة.

قالوا: الأصل (اختار موسى من قومه) فحذف (مِن) ونصب ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ بنزع الخافض وإيصال العامل إليه بنفسه، وهذا سماعي لا يقاس عليه، ويحتمل: أنهم جعلوا أي السبعين قومه؛ لأنهم نخبتهم وخيارهم ـ والله أعلم.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّـٰيَۖ﴾ أي أنت مالكنا تحيينا وتميتنا متى شئت، فلو شئت أهلكتنا قبل ما وقع من سؤال الرؤية وتعليقهم إيمانهم عليها، ولا يتوقف إهلاكنا على كونه عقوبة.

إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي حاشاك أن تهلكنا عقوبة على ما فعله السفهاء منا؛ لأنها ﴿لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام:١٦٤] فالسؤال بمعنى النفي والدلالة على أن صعقة موسى لم تكون عقوبة، وإنما العقوبة للذين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥].

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ أي التعميم بالمصيبة التي أدت إلى أن خر موسى صعقاً، فمن هداه الله يعلم أن الله لم يعاقب مَن هو بريء من سبب الرجفة، وإنما هي بلوى له فيها عوض ولله فيها حكمة، ومَن استحق الإضلال والخذلان يدعي أن الله أصابهم كلهم من غير فرق بين بريء ومذنب، أو يدعي أن الرجفة حادث طبيعي غير مقصود فيه عقاب ولا ابتلاء.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ ﴿وَلِيُّنَا﴾ تحسن رعايتنا وتدبير أمورنا فما كتبته لنا فهو خير لنا ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ولعل هذا الإستغفار بعد إحياء الذين ماتوا وتوبتهم، فاستغفر لنفسه ولهم وطلب الرحمة، وأما استغفاره لنفسه فهو كقوله: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ لأنها مغفرة تؤدي إلى خير عظيم، ومغفرة من ذنوب قد تَوَجب على أهلها ـ لولا المغفرة ـ العذابُ الأليم، فموقع مغفرتك عظيم، حيث تنجي من النار وتبلغ الجنة، فهي خير مغفرة، وأنت خير الغافرين.

﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

﴿١٥٦﴾ ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ ﴿حَسَنَةً﴾ صفة لمحذوف، ولعله في تقدير عيشة حسنة ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ حالة حسنة ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي رجعنا وتبنا، وهذا حكاية عنه وعن السبعين، فدل على أنهم قد تابوا ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ لا رادّ لأمري، ولذلك أصاب قومك ولم يدفع عنهم كونُك فيهم ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فلا تضيق عن شيء، وما عقاب العصاة لضيقها، ولكن للحكمة والعزة ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فإن اتقى قومك كتبتها لهم ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يكذبون بشيء، وهذا دليل على أنها لا تكتب لمن كفر بعيسى ـ صلى الله عليه ـ ولا لمن كفر بعيسى ومحمد ص فهو سبحانه في إجابته لموسى يذكر الشرط، كما أخذ على بني إسرائيل الميثاق: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] لأنه سبحانه عالم ما سيكون من بعض بني إسرائيل.

﴿١٥٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ أي يتبعونه حين يبعث ومعه الآيات الدالة على أنه رسول مصدق لما معهم ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ هذه من صفاته ص ذكرت لموسى في الجواب على دعائه، ومعنى ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا﴾ سواءً باسمه، أم بصفاته المعينة له.

وفي وصفه بأنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ دلالة على وجه وجوب اتباعه، ووصفه بأنه: ﴿تُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَتُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كذلك ترغيب في اتباعه ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهذا ترغيب عظيم في اتباعه، و(الإصر): الثقل الذي يحبس صاحبه مكانه لا يستطيع أن يمشي به لثقله، وفي إضافة الإصر إليهم وهو التكليف الثقيل؛ لأنهم استحقوا بعض التشديد في دينهم، أو أنهم ابتدعوه ولم يكلفهم الله إياه، ويحتمل: أنه أضيف إليهم؛ لأن ثقله عليهم تحقيقاً لنعمة وضعه عنهم.

وقوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وهي قيود، أي تكاليف كانوا يتقيدون بها فيها تضييق عليهم، فإسقاط تلك القيود التي كانت عليهم نعمة من الله عظيمة، وتسميتها أغلالاً مجازٌ؛ لأن الغُل ـ بضم الغين ـ : قيد، قال الشرفي / في (المصابيح): ((وفي (البرهان) أراد بالأغلال: المواثيق التي اتخذت عليهم فيما حرمه عليهم)) انتهى، وعلى هذا فوضع الأغلال بوضع التحريم المذكور، وفي هذا دلالة على نجاة المتبعين لرسول الله ص من بني إسرائيل.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿عَزَّرُوهُ﴾ قوّوه وعضدوه، وفي (لسان العرب): ((وعزَّره: أعانه وقوّاه ونصره)) انتهى.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ﴾ القرآن الذي أنزل معه، والفلاح: الظفر، وفي هذا حصر الفلاح عليهم، ويلزم منه هلاك المخالفين له من أهل الكتاب وغيرهم، وبهذا تمت (قصة الطور).

ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن

﴿١٥٨﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله الحكم؛ لأن له ملكَ السموات والأرض، فهو يحكم ما يشاء، ومن حكمه إرسالي إليكم جميعاً أهل الكتابين وغيرهم من العرب والعجم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ وهذا إعلان التوحيد في الدعوة لأهميته وانتشار الشرك حتى في أهل الكتابين كما في (سورة التوبة) وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ تنبيه على أن الملك لله في الإحياء، ودلالة على قدرته على كل شئ من الحياة بعد الموت وغيرها، فهو الذي تحق له العبادة لا المخلوق العاجز، فعلى الناس أن يطيعوه عبادة له، وأن يعبدوه وحده ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت.

﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي وآمنوا برسوله النبي الأمي، قال الراغب: ((والأميُّ: الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب)) انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد إ): ((﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ..﴾ [الجمعة:٢] معناه: في الذين لا يكتبون)) انتهى.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ من تمام صفات النبي ص ولعلها مذكورة في (التوراة) ودليل إيمانه بالله طاعتُه له وإخلاصه وكثرةُ ذكره له، وإيمانه بكلمات الله يعم ما أنزل الله من كتاب.

قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب

﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فأمر بالإيمان به وباتباعه وهذا ما أمره أن يأمر به فهو الحق وغيره الضلال، فلا يقبل تدين بغير اتباعه، وهو مخصص لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٦٢] فهذا في المؤمنين العاملين بالشرائع المذكورة قبل نسخها؛ لأن من الإيمان الإيمانُ بالرسل كلهم، ومنهم محمد ص فلم يؤمن من كفر به .

ومن الإيمان: الإيمانُ بكتب الله كلها ومنها القرآن فلم يؤمن من كفر به، ولو آمن بالله ورسله وكتبه ولم يتبع محمداً ص لم ينفعه عمل ولم يصلح عمله؛ لأنه غير مقبول، وذلك لأنه عاص بترك اتباع محمد ص، وقد أمر الله به في القرآن، فليس من لم يتبعه من المتقين ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وقد أخذ الله الميثاق على أهل الكتاب بما ذكر في (سورة المائدة) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ [آية:١٢].

ثم دعاهم الله في (سورة البقرة) إلى الوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [آية:٤٠] وكذلك أخذ الميثاق على النبيئين وأممهم تابعون لهم وهو ما حكاه الله في (سورة آل عمران) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آية:٨١].

﴿١٥٩﴾ ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة كقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ..﴾ الآية [آل عمران:١١٣] وهم جماعة آمنوا بالله ورسوله ص .

بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟

وقوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي وبالحق يعدلون، والعدل: ضد الجور يكون في الحكم، ويكون في المعاملة كالعدل في الوزن والكيل والقَسم، ويكون في الشهادة وغيرها، وذلك كله بالحق، والحق في القرآن قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] وقال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ﴾ [يونس:٣٢] والهدى بالحق يكون ببيان الحق، ويحتمل: أن المراد بـ﴿قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ الذين كانوا معه في حياته.

﴿١٦٠﴾ ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ وقطعنا قومَ موسى: أي قسَّمناهم ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ أمّة؛ لأن آباءهم اثنا عشر (أبناء يعقوب).

قال الشرفي / : ((وكانوا اثنتي عشرة قبيلة اثني [كتب في الأم من (المصابيح): اثنا عشر، ولعله غلط من الناسخ ـ تمت] عشر ولداً من ولد يعقوب ×)) انتهى.

ولعلهم في أول الأمر كانوا قبائل، ثم كثروا حتى صاروا شعوباً كل شعب سبط، واختصوا بهذا الإسم، والظاهر: أن سببه انتسابهم إلى الأسباط أولاد يعقوب؛ لأن القبيلة تسمى باسم جدها، كما قال الشاعر:

كانت حنيفة أثلاثاً فثلثهم ... من العبيد وثلث من مواليها

وقال بعض الشعراء:

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمةً ... عشية لاقينا جذاماً و حميرا

وأحسن من هذا القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكنهِمْ آيَةٌ﴾ [سبأ:١٥].

وقوله تعالى: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (بدل بيان) لا (بدل إلغاء) وقد ذكر (بدل البيان) صاحب البرهان، وأثبته الرضي في (شرح الكافية) حيث جعل بعض البدل من عطف البيان.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ ﴿ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ طلبوه السقيا، ولعلهم أرادوا أن يدعو الله لهم ليسقيهم الماء، أو هو كقولهم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ أي من جهالاتهم ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي حين ضرب الحجر بعصاه خرج من الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ انفجرت منه، ولعل الله جعلها اثنتي عشرة عيناً من الماء لتكون لكل سبط عين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ من قبل انفجار الماء من الحجر ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ جعلنا الغمام ظلاً عليهم يظلهم من الشمس، وذلك حين كانوا في التّيه ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهذا ـ أيضاً ـ حين كانوا في التّيه طعاماً لهم، كما مر ذكره في (سورة البقرة).

﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ إما قيل لهم زيادة في النعمة: كلوا من هذا المنّ والسلوى، وهما من أطيب الطعام لذة ونفعا وسلامة من مكاره بعض المأكولات كالرائحة غير المرغوبة في الثوم، وإما كان بذلها لهم وتيسيرها أمراً بلسان الحال كأنه قيل: كلوا.

﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بكفرهم لهذه النعم، أي لم يضرنا ظلمهم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن عقوبة الظلم كانت بسبب المعاصي التي كانت منهم، فكانوا هم جرُّوا على أنفسهم العذاب، فظلموا أنفسهم بالمعاصي؛ لأنها سببت للعذاب، وقوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدل على تكرر المعاصي منهم الموجبة للعذاب.

حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٰٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

﴿١٦١﴾ ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٰٓـَٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ واذكر ﴿وَإِذْ قِيلَ﴾ لبني إسرائيل، والظاهر: أن هذه القرية هي التي حرمت عليهم أربعين سنة، فبعد انقضاء الأربعين أُمِروا أن يدخلوها، ويظهر أن موسى كان قد توفى في مدة التيه بعد ما عصوا ودعا الله أن يفرق بينه وبين القوم الفاسقين، فقيل لهم: ﴿ٱسْكُنُواْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ خروجاً من التيه، الذي لم يكن لكم فيه مساكن من البيوت، ﴿وَكُلُواْ﴾ من هذه القرية ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ تجدوا المأكول، ولعله لخصبها في نفسها ولما يجلب إليها من حولها ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ أي حط عنا الذنوب.

ومعنى ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي ادخلوا الباب خشعاً لله ـ عزَّ وجل ـ وسيروا عند ذلك بالسكينة والوقار والخشية لله الواحد الجبار، ولم يُرِد في هذا الموضع سجوداً على الوجوه، وإنما أراد ما ذكرنا، وكذلك رُوِينا عن أئمتنا وسلفنا (عليهم السلام)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٰٓـَٔتِكُمْ﴾ أي إن فعلتم ذلك، وقوله تعالى: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي سنزيدهم خيراً إلى هذه النعم وإلى مغفرة خطاياهم زيادة على ذلك.

﴿١٦٢﴾ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ لم يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾ كما أمروا، وقالوا مكانها قولاً مخالفاً لما أمروا به و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لعلَّهم بقايا العصاة الذين عصوا موسى، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ﴾ [المائدة:٢٤] فقد خذلوا واستمروا على كفر النعم.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ من قبل دخول القرية وفي حال دخولها، كان ظلمُهم السابق كلُّه سبباً لهذا الرجز، قال الشرفي / في (المصابيح): ((فقال الحسين بن القاسم (عليه السلام): معنى ﴿رِجْزًا﴾ يريد: أنه أرسل عليهم عذاباً من السماء، والرجز: هو العذاب)) انتهى.

﴿١٦٣﴾ ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ وأسال بني إسرائيل سؤال توقيف وتذكير ليعتبروا ﴿عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ ﴿كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ فهي تصطاد الحيتان، وتعتمد عليها في معيشتها.

وقوله: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ إما بدل من ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ وإما بمعنى: اذكر ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ أي يعتدون في السبت، واعتداؤهم فعلهم ما لا يجوز لهم في السبت أن يفعلوه، والسبت محرم عليهم فيه الصيد، ولكنهم ابتلوا بمنعه عليهم في سائر الأيام وإظهار الحوت قريباً منهم.

﴿شُرَّعًا﴾ في (تفسير الإمام زيد إ): ((﴿شُرَّعًا﴾ معناه: ظاهراً)) انتهى، أي السمك ظاهرٌ في أعلى البحر، قريباً من أصحاب القرية، وهذا يوم يسبتون، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم الحيتان فيتعسر صيدها.

﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ البلاء الشديد نبلو أهل هذه القرية بما تكرر منهم من الفسق أي بسبب ما ﴿كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ

وكان تكرر تعسير صيد الحوت عليهم في أيام جوازه، وإظهار الحوت وتقريبها يوم سبتهم، أعنى تكرر البلاء المذكور، ولكنه ابتلاءٌ شاقّ وقع في حال قسوة قلوبهم وغفلتهم عن الله وعن تذكر عقابه، فاعتدوا في السبت بصيد الحوت فيه.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ واذكر ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ﴾ من أهل القرية للناهين عن المنكر الواعظين منهم للمعتدين: لأي غرض تعظون قوماً قد تمردوا على الله، واستحقوا العذاب الشديد، وصار متوقعاً إهلاكهم أو تعذيبهم لعظم جرائمهم فلا يفيد فيهم الوعظ، قال الواعظون: وَعْظُنا لهم معذرةٌ لنا عند الله ننجو بها من عذابه، أو وعظناهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.

قال بعض المفسرين: ((وفي قولهم: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ حيث أضافوا الرب إلى اللائمين، ولم يقولوا: (إلى ربنا) إشارةً إلى أن التكليف بالعظة ليس مختصاً بنا، بل أنتم أيضاً مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم)) انتهى.

قلت: هذه عادة المقصرين في دفع الفساد أن يلوموا من دافع، وذلك لغرض تبرير ما هم عليه من التقصير، وقد يكون منهم حسداً للعامل الذي يحصل له الشرف والصيت، يريدون لئلا يحصل له الشرف.

وقولهم: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي وتعريضاً لهم على التقوى، أو ورجاءَ أن يتقوا؛ لأنهم لو تابوا قبل نزول العذاب لقبلت توبتهم ونجوا من العذاب.

ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ

﴿١٦٥﴾ ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ اشتد إعراضهم عما ذكِّروا من آيات الله وتخويفه في (التوراة) وصار عندهم كالمنسي، فلا يتذكرون لوعظ الواعظين، لا تلتفت إليه أذهانُهم كأن لم يكن، بل كأنهم قد نسوه حقيقة.

﴿أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ الذين وعظوا المعتدين في السبت ﴿وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بالتعدي في السبت وبالحضور عليه وترك النهي وترك الهجرة وبالرضى ﴿بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ عذاب ﴿بَـِٔيسِۭ﴾ موصوف بالبأس أو بالبؤس، وفي (تفسير الإمام زيد ×): ((معناه: شديد، ويقال: وجيع أليم)) انتهى ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ بما تكرر منهم من الفسق.

﴿١٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ ﴿عَتَوۡاْ﴾ لم يؤثِّر فيهم النهي، بل تمردوا وأصروا بسبب ما نهوا عنه من المنكرات التي فعلوها، فازدادوا إصراراً وقسوة حتى لم يؤثر فيهم العذاب البئيس، كما لم تؤثر في آل فرعون السنين والرِّجز الذي وقع عليهم، فلما عتوا ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ﴾ أي للذين ظلموا: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي بسببه، كقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة:٣٦] أي عن الشجرة، وقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ﴾ [يس:٨٢] فالمعنى مسخناهم ﴿قِرَدَةً﴾ جمع قِرد، وهو الحيوان المعروف الذي هو قريب من مشابهة الإنسان، فجعلت صورهم مثل صوَر القردة، ومعنى ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾ مطرودين مبعدين من رحمة الله، لا تقبل لهم توبة ولا تسمع لهم شكوى.

تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال ابن عباس: أصبح القوم وهم قردة صاغرون، فمكثوا كذلك ثلاثاً يراهم الناس ثم هلكوا)) انتهى.

وذكر الشرفي في (المصابيح): ((عن ابن عباس / رواية قصتهم، وفيها: ثم قال ـ أي ابن عباس ـ : والله ما سمعت الله يقول نجا إلا الفرقة التي نهت واعتزلت، ولقد أهلك الله الفرقتين جميعاً التي عصت والتي نهت وأقامت معهم.. ثم تلى ابن عباس: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾)) انتهى المراد.

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكر إذ تأذّن، قال الشرفي / في (المصابيح): ((قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أجري مجرى فعل القسم: كعَلِمَ اللهُ، وشهد الله، ولذلك أجيب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ والمعنى: وإذ حَتَم ربك، وكتب على نفسه ليبعثن على اليهود ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾)) انتهى.

وقال في (لسان العرب): ((وتأذَّن ليفعلن: أي أقسم ـ ثم قال ـ: وقوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ قيل: تَأَذَّنَ تألّي، وقيل: تأذَّنَ: أَعْلَمَ، هذا قول الزجاج، الليث [أي قال الليث]: تأذَّنت لأفعلَنَّ كذا وكذا، يراد به إيجاب الفعل، وقد أذَنَ وتأذّن بمعنى كما يقال: أيقَن وتيقَّن، ويقال: تأذّن الأمير في الناس: إذا نادى فيهم، يكون في التهديد والنهي أي تَقَدَّمَ وأعلم)) انتهى.

قوله: قيل: ﴿تَأَذَّنَ﴾ تألَّى أي أقسم يمكن الجمع بينه وبين القول أن تأذن بمعنى أعلَمَ بأن أصل معنى تأذَّنَ: أَعْلَمَ وتوعَّد، وضمّن معنى أقسم فأجيب بجواب القسم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وعدٌ صادق وقد كانوا يسلمون الجزية، وفي هذا الزمان قويت شوكتهم في (فلسطين) بجبل من (أمريكا) ودوَل الغرب، ومع ذلك لم يسلموا من يسومهم سوء العذاب من الفلسطينيين وغيرهم، فلا يزالون في توقع للعذاب والقتل فيهم يأتي حيناً بعد حين وهم خائفون من (إيران) ومن حزب الله الموجود في (لبنان) ولابد لهم مما وعد الله به إلى يوم القيامة، وهذا الوعد كما يدل على ما ذكر يدل على أنهم باقون إلى يوم القيامة يمضى من مضى ويخلفه منهم خَلَفٌ مصحوبين في كل قرن بمن يسومهم سوء العذاب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ كالتعليل لما توعدهم به، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بيان: أن العالم كلهم يعيشون في مغفرته ورحمته وإن عاقب من عاقب، فالعقاب ضربان: ضرب بعد الإمهال والنعمة ففي الإمهال المغفرة والرحمة؛ لأنه يستحق التعجيل، قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] وضرب من المغفرة والرحمة يكون في حال البلاء الذي يأتي عقوبة؛ لأنه ليس موفياً لهم بما يستحقون في العاجلة.

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ فهم في حال بلاء السنين الواقع بسبب ذنوبهم هم باعتبار آخر في ظل مغفرة ورحمة؛ لأنهم يستحقون أكثر من ذلك البلاء، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد:٦].

ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا ۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۖ أَفَلَا

﴿١٦٩﴾ ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗا﴾ قسمناهم في الأرض فبعضهم في بلاد الإتحاد السوفيتي، وبعضهم في بلاد الغرب، وبعضهم في أقطار من الأرض متفرقة، ففي تلك النواحي أمم منهم، وفي هذا الزمان صار منهم في (فلسطين) أمم، وفي (أمريكا) أمم.

﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في الزمان الأول حين قطعهم في الأرض أمماً فجملة ﴿مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ في معنى الحال، أي قطعناهم حالَ كونهم منهم الصالحون ﴿وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون الصالحين أو دون الصلاح، أي في محل من الدين دون الصلاح.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ما محل ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾؟

قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح ونحوه ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ﴾ [الصافات:١٦٤] بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام، انتهى.

يعني أن ﴿دُونَ﴾ مع كونه منصوباً على الظرفية، هو في محل الرفع كما قالوا في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال:٤٢] أن أسفل الذي هو منصوب على الظرفية خبر المبتدأ في محل الرفع.

تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ

﴿١٦٩﴾ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الفريقين الصالحين والذين دونهم ﴿خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ هذا العاجل الدنيء البالغ في الدناءة لتحريمه الشديد وكونه عاراً عليهم، فإذا عرض لهم أخذوه ولم يتورعوا منه، مع أنهم قد ورثوا (التوراة) وعرفوا الحلال والحرام، ومن أمثله ذلك الرشوة على الباطل، قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢] وقال تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:١٦١].

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لأنا أبناءُ الله وأحباؤه ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ فهم لم يقولوا: سيغفر لنا لتوبةٍ سارعوا إليها، بل هم مصرون مستعدون لأخذ مثله متى عرض لهم، فحين يأتيهم يأخذونه طمعاً في هذا الأدنى الذي هو عار على آكله ونار.

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾ أي قد أخذ عليهم الميثاق في التوراة ﴿أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ﴾ ما في الكتاب، فقد درسوا الميثاق وعلموه، فهم قد تجرءوا على نقض الميثاق، وقالوا على الله الباطل حين قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ فجمعوا جريمةَ أخذِ الحرام، وجريمةَ قولِ الباطل على الله، وجريمةِ نقض الميثاق.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فلو اتقوا ربهم لكان خيراً لهم، ثم وجّه الخطاب إليهم لوجودهم حين نزل القرآن، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! وهو توبيخ لهم على إيثار ما تهواه أنفسهم على تقوى الله التي

عاقبتها الجنة، وما تهواه أنفسهم قليل لا يبقى ولا يبقون لـه وعاقبتـه النـار وفوات الجنة فكأنهم لا يعقلون؛ لأنهم لو استعملوا عقولهم ما أصروا علـى تلك الجرائم الموبقة.

﴿١٧٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ وهذا لكل عصر، ففي الزمان الأول كان المصلح من يتمسك بـ(التوراة) من أهل الكتاب والمفسد من يخالفها، وبعد مجيء عيسى × كان المصلح من يتمسك بـ(التوراة) و(الإنجيل) وبعد ما بعث الله محمداً ص كان المصلح من يتمسك بـ(القرآن).

وقوله تعالى: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ يفيد معنى: يتمسكون، أي يعتصمون بـه ويتبعونه، قال في (الصحاح): «أمسكت الشيء وتمسكتُ به واستمسكتُ بـه وامتسكتُ به، كله بمعنى: اعتصمت به، وكذلك مَسَّكتُ به تمسيكاً» انتهى.

ومعنى اعتصمت بِه: جعلته عاصماً لي من الهلكـة، أي منجيـاً وحافظـاً، ومنه (حديث الثقلين): « إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» فالتمسك بهما الإعتصام بهمـا مـن الضـلال، فالذين ورثوا الكتاب ودرسوا ما فيه وخالفوه هالكون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ الآية وعدٌ لمن تمسك بالكتاب علـى عادة القرآن في العطف بين الوعد والوعيد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ خبر﴿ٱلَّذِينَ﴾ والرابطُ العمومُ الذي دخلـوا فيـه دخـولاً أوّليـا، وأفاد: أن الإصلاح يكون باتباع الكتاب، خلاف مـا يـدعى الكفـار مـن أن التمسك به حَجَرُ عثرة في طريق التقـدم، إنمـا العثـرة في طريـق التقـدم هـي بالتفرق، وعدول الجماهير من المنتمين إلى الإسلام عن التمسك به، إنهم لـو لم يتفرقوا ويشتغلوا بالشقاق فيما بينهم لسادوا الأممَ.

بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ

وقد أكَّد القرآن نهيَهم عن التفرق، وفيه: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] وفيه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠] وفيه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] فالقرآن يدعو إلى إعداد القوة بأي شكل كانت، في مجال الصناعة والعلم الحديث عموماً مما فيه خدمة للإنسانية وقوة للأمة وتقدم، وليس يدعو إلى التخلي عن ذلك والإشتغال بالرهبانية، فتبين: أن الإصلاح إنما هو باتباع القرآن.

﴿١٧١﴾ ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في (لسان العرب): ((نَتَقَ الشيءَ ينتِقُه وينتُقه [بالضم] جَذَبَه وأقْتَلَعه، وفي (التنزيل): ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ أي زعزعناه ورفعناه ـ ثم قال ـ: ونتقت الغَرْبَ من البئر، أي جذبته بمرة)) انتهى المراد.

فالراجح في معناه: أنه تعالى قَلَعَه ورفعه بسرعة وجعله فوق قوم موسى، وقوله: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ كالتفسير لرفع الجبل فوقهم بمعنى أنه أمرٌ لهم أن يأخذوا ما آتاهم ربهم ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بجد وصبر وعزم صادق، ومعنى ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ أنه تعالى رفعه فوقهم كما ترفع الظله فوق المستظِل بها بقدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ تأكيد للأمر بأخذ (التوراة) بقوة بالأمر بتذكر ما فيها من البواعث على الصبر والطاعة والتمسك بالكتاب، وذلك كالوعيد والوعد والعِبَر والأمثال والحكم النافعة المقوية للعزم على الطاعة.

بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ

وقوله تعالى: ((﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون الله فتنجوا من عذابه، فرفعُه والتخويف به لمصلحتكم لتتقوا، وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ ظاهره: أن هذا غاية المراد به، ولم يذكر أنه قيل لهم: إن أخذتموه بجدٍ واجتهاد وإلا أُلقي عليكم، فالرواية ضعيفة؛ لأنه لو كان كذلك لكانوا ملجأين إلجاءً، أما إذا لم يعلموا أنه يلقى عليهم يقيناً فهو تخويف كالتخويف بالرجفة، ومعناه: الموعظة التي يفهم منها بمعونة الحال أن التزام التمسك بالتوراة ينجيهم؛ لأنه تقوى الله التي تنجي من غضبه.

فصح تفسير التخويف بنتق الجبل فوقهم، بقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم..﴾ إلى آخر الآية، وهذا مبني على أن الجبل استقر في الجو وشاهدوه مستقراً مكانه، وعلموا أن الله ممسكٌ لَه، كما علموا أن الله ممسكٌ للبحر حين مروا وهو فوقهم كالطود العظيم، فلذلك لم يكونوا ملجئين.

نعم لو ألجأهم تعالى إلى قبوله، والتزام العمل به، ثم لم يكن ذلك الالتزام عهداً يسألون عن نكثه، ولا كانوا معاقبين على إخلاف ذلك القبول والوعد، لصح ذلك إن كانت فيه حكمة ـ والله أعلم.

﴿١٧٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ واذكر يا محمد إذ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ من الدرجة الأول من بني آدم وممن بعدهم من بني آدم أخذ منهم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حين أخرجهم من ظهورهم إلى بطون أمهاتهم وكثَّرهم و ناسلهم بهذه الطريقة طريقةِ ذريةٍ من آباء، ولو شاء لخلق كل فرد

لا من أب كما خلق آدم × ، ولكن اقتضت حكمته خلقهم بطريقة التناسل، وهي آية من آياته حيث خلقهم ﴿مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة:٨] وصوَّرهم وأكمل خلقَهم، فهم يشاهدون ذلك ويعلمونه بعقولهم، دليلاً على خالقهم.

﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ بما غرز فيهم وفطرهم عليه من توحيده وبما جعل لهم من العقول وأراهم من الآيات الدالة على أنه خالقهم ومُرَبِّيهم المالكُ لهم، حتى كأنه سألهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟! وحتى كأنهم قالوا: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ أنك ربنا.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((ويؤيد هذا المعنى من قول أئمتنا عليهم السلام: قولُ القاسم بن إبراهيم × ، فإنه قال: وأخْذُ الله على بني آدم: فهو أخذه على أولهم ما أَخَذ من الإقرار به وبوحدانيته، والإقرار بفرائضه وكتبه ورسله، لا يزيله عنهم شيء إلى أن تقوم الساعة، فرضاً لازماً في الأولين والآخرين، فهذا معنى أخذ الله من بني آدم، ومعنى ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ فهو أخذه على نسلهم نسلاً بعد نسل، والظهور ما يخرج من الظهور من النسول وعلى ما يخرج منها كان الأخذ عليها، ألا تسمع كيف يقول ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؟! فأخبر بذلك أنه على الذرية التي تخرج من الظهور.

ومعنى ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ فهو بما جعل من حجج العقل الشاهد لهم وفيهم بحقائق ما أخذ الله من الإقرار بربوبيته ووحدانيته عليهم)) انتهى.

﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ أشهدناكم على أنفسكم، لئلا ﴿تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿عَنْ هَٰذَا﴾ الذي في القيامة من العقاب والثواب ﴿غَافِلِينَ﴾ لم نكن نعلم أنا نصير إلى الآخرة وإلى ما فيها من الجنة والنار؛ وذلك لأن أصل العلم من فطرة العقل وبه تعرف الكتب والرسل، وبذلك تعرف القيامة والجنة والنار، فلولا العقول لم تعلم القيامة وما فيها.

أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ

﴿١٧٣﴾ ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أشهدناكم على أنفسكم، لئلا تقولوا: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أو تقولوا: ﴿إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا﴾ فقلَّدناهم في الشرك؛ لأنا كنا ﴿ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ومن طَبْعِ الذريةِ الميلُ إلى اتباع الآباء ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ الذين اتبعوا أهواءَهم فأشرك بعضهم وتبعهم ذريتهم في الشرك.

فهذه الآيات تبيِّن أهمية الفطرة في إثبات الحجة على كل جيل، كما أن آيات (سورة الأنعام) تبين أهمية الكتاب كذلك في إثبات الحجة عليهم، انظر قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [آية:١٥٤-١٥٧].

﴿١٧٤﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التفصيل في هذه الآيات المبيِّن لفطرة الإنسان التي تدله على ربه الخالق له ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نبيِّنها بياناً مفصلاً ليفهمها المخاطبون بها ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ إلى الله، أو ليفهمها المشركون؛ ولعلهم يرجعون عن الشرك أي وتعريضاً لهم على الرجوع.

﴿١٧٥﴾ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ واقرأ على أهل الكتاب مما نوحيه إليك ﴿نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ علَّمناه آياتِنا، فقرأ (التوراةَ) مثلاً وعَلِم ما فيها ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ تخلَّى عنها وتركها كأنه كان مشتملاً عليها حين كانت في صدره، فلما

إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

تركها صار كأنه انسلخ منها كما ينسلخ الجلد من الذبيحة ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لثقته بأنه يغويه أكثر مما قد غوي ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ لم يرجع عن غوايته بل استمر عليها حتى مات؛ لأنه سلط عليه الشيطان بسبب تركه لآيات الله وإعراضه عنها.

﴿١٧٦﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ بأن شرَّفناه وفضَّلناه على غيره وذلك بأن يكون له شرف العلم والعمل فلو شاء الله لجعلها سبباً لرفعه بهداية الله وتوفيقه ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ لم يكن أهلاً لأنْ يرفعه بها؛ لأنَّه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ركَن إليها واطمأن إليها لاعتباره لها مالاً باقياً تغل مزارعها وبساتينها من الحبوب والفواكه ما يستغني به وبأثمانه فاطمأن إليها، وانشغل بها كما اطمأن صاحب الجنتين المذكور في (سورة الكهف) إلى جنتيه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ يدل على ضلاله عن الحق، ولذلك سلب التوفيق، وفي هذا تحذير زائد للعلماء.

قال الشرفي / في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم × : يريد أن يتلو عليهم خبر الذي آتاه الله معرفته إياه وعلّمه ما يحتاج إليه من بيناته فانسلخ من تلك الآيات وخرج من أوامر الله البينات وأتبعه الشيطان ليضله ويزيده عمىً إلى عماه وبعداً عن الله سيده ومولاه، لَمَّا خرج من طاعة الله واتبع هواه، وجَانَب سبيلَ نجاته وتقواه، وإنما قص الله خبره على العباد،

ليحذروا من التجاهل بعد البينات، ولا ينسلخوا مما آتاهم الله من البينات، فهم لم يقبلوا هذه الموعظة، ولم يفلحوا وأفسدوا بعد علمهم ولم يصلحوا، فصار هذا القول حجة من الله عليهم)) انتهى.

قوله: ((فهم لم يقبلوا..)) الخ أظنه يعني به علماء السوء وهو صحيح، وإن كان السبب علماء السوء من بني إسرائيل الموجودين حين نزل القران.

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ مثل هذا الذي كان من الغاوين ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ المشغول بدلع لسانه ومتابعة أنفاسه في كلتا الحالتين إن حمل عليه لضربه أو لرجمه أو ترك، فقد انشغل باللهث: الذي هو دلع لسانه ومتابعة أنفاسه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : يريد أنك إن وعظته لم ينتفع، وإن تركته لم ينتفع، فهو بمنزلة الكلب الذي يلهث إن تركته، ويلهث إن زجرته، فالزجر والترك عنده سواء لا فرق بينهما، ولا يترك طبيعته لواحد منهما.

واللهث في اللغة: هو دلع الكلب لسانه ومتابعة نسمه، ويحتمل وجها آخر أن يكون شبَّهه بالكلب لدنائته وخسته واتباعه لهوى نفسه وبغاضته والله أعز وأكرم وأجلّ من أن يعتب على الكلب وإنما عتب على من ....[هكذا في المصابيح، ولم أعرف ما هي، ولعلها تصحيف من عصا ربَّه أو معناها] ولم يستعمل ما ركب الله فيه من حجة عقله)) انتهى المراد.

وقوله: ويحتمل وجهاً آخر، الفرق بين الوجه الأول والوجه الآخر أن الأول جعل التشبيه في حالة مذمومة هي استواء الحالتين عند الكلب حالة زجره وحالة تركه.

وأما الوجه الآخر، فمعناه: أن التشبيه بالكلب لبشاعة حالته وكراهتها عند من ينظر إليه وهو لا يزال دالعاً للسانه حتى لو زجر؛ لأنه في صورة شويهة لاستمراره على إخراج لسانه وعند ذلك يسيل لعابه.

فالكلب في تلك الحالة قد شبه به هذا العبدُ العاصي لله الذي لم يستعمل عقله فأشبه البهيمة وزادت خسته باختياره طريقة الجهل والهوى مع ما قد رزقه الله من علم قد كان ينال به شرف الدنيا والآخرة، فقبحت معصيته بزيادة نعمة الله عليه وزيادة حجة الله عليه، فكان حقيقياً بأن يُشبَّه بالكلب في حالة الكلب الضعيفة التي منظرها مكروه.

وقوله: ويحتمل وجهاً آخر، هذا الوجه الآخر هو أرجح؛ لأنه يعبر عن خسة ذلك الرجل وحقارته ودناءته وسقوط همته، فحَسُنَ مقابلته لحالة الشرف التي فاتته، وصار المعنى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ فصار حقيراً دنيئاً ذميماً، فهذا الوجه انسب للسياق ـ والله اعلم.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فمثلهم كمثل الكلب المذكور؛ لأنهم أهملوا عقولهم ودفعوا هدى الله ففسدوا فاستحقوا ذلك المثل، وعلى الوجه الأول في تفسير الحسين بن القاسم: أنهم أهملوا عقولهم حين جاءتهم الآيات، وأعرضوا عنها، فاستوت حالتهم في الجهل والضلال قبل أن تأتيهم الآيات وبعد ما جاءتهم الآيات، فكانوا كالكلب في استواء حالتيه إذا زُجِر وإذا تُرِك مستمراً على لهثه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ﴾ الظاهر: أنه قصص (بلعام) لأنه عبرة لهم وتذكرة لكل من آتاه الله آياته فانسلخ منها.

وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ينظرون بأفكارهم وعقولهم كيف كانت عاقبته، وكيف خسر الشرف الحقيقي واستبدل به الحقارة واللؤم واستحوذ عليه الشيطان، فهو عبرة لمن يعتبر.

﴿١٧٧﴾ ﴿سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ أي حاله القبيحة الجارية مجرى المثل كحال الكلب، فالمثل عبارة عن الحالة، فقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ أي ما أسوأ مثلهم الذي هو كمثل الكلب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم هم أوقعوا أنفسهم في تلك الحالة القبيحة التي كانت سبباً لخسرانهم وحقارتهم، واستحواذ الشيطان عليهم، الذي يؤديهم إلى الشقاوة الدائمة والخسران المبين، فهم الذين ظلموا أنفسهم.

وهذا من أوضح الأدلة على بطلان القول بالجبر؛ لأنه لو كان الفعل ناتجاً عن فعل الله حتماً ما كان لهذا الكلام فائدة سواء نتج الفعل عن القدرة الموجبة أم عن مجموع القدرة الموجبة بشرط الإرادة، والإرادة التي هي عندهم فعل الله تعالى، فالمعنى واحد، فكيف لو كان الأمر كذلك ينسب إليهم ظلم أنفسهم، وأبلغ من هذا أنه قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١].

وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ

﴿١٧٨﴾ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هذا ترغيب في طلب هداية الله والتعرض لها بالإيمان واجتناب أسباب الخذلان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ تحذير من التعرض للإضلال بالتكذيب بآيات الله بعد وضوح الحق؛ لأن الإضلال بأي معنى كان إنما يكون عقوبة، قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:٢٦] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وقال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ يبين سوء عاقبتهم مع خسرانهم العاجل بسلب التوفيق، فهو خسرانٌ عاقبته الخسران يوم القيامة.

﴿١٧٩﴾ ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ في تفسيرها أقوال:

الأول: أن معنى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أنه تعالى يذرؤهم بالبعث بعد الموت، ولتحقيق ذلك عبَّر عنه بعبارة الماضي، كقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف:٩٩] وقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل:١] وهذا مبني على أن الآية من المتشابه، فصح تأويلها بالمعنى المجازي.

القول الثاني: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي لقد خلقنا مَن عاقبته لجهنم كقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] وهذا

لأن الله خلق الجن والإنس كلهم ليعبدوه، وقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٩] على تفسير الإشارة، أي وللرحمة خلقهم، فجعل خلقهم لجهنم مع خلقهم للعبادة، معناه: أنه خلقهم لعبادته وعاقبتهم لجهنم بسوء اختيارهم.

القول الثالث: ليس معنى ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ خلقناهم ليكونوا لجهنم، وإنما معناه: خلقناهم ونحن نعلم أنهم لجهنم، لعلمنا بما سيكون منهم من التكذيب بآيات الله، وإهمال عقولهم وأسماعهم وأبصارهم، وغفلتهم عن آيات الله بالإعراض عنها، بحيث صاروا كالناسين لها باختيارهم لسبب ذلك، وذلك أنك تقول: خيَّطت لفلان ثوباً، وليس المعنى ليكون لفلان بل المعنى أنه له، وكذلك غسلت له ثوباً، ومن هذا القبيل بنيت له بيتاً وصغت له خاتماً، فالمعنى: أن البيت والخاتم والثوب له، وليس المعنى ليكون له وذلك واضح.

وفائدة الإخبار بخلقهم لجنهم: بيان أنه تعالى خلقهم وهو يعلم أنهم لجنهم، فلم يخلقهم غلطاً بل خلقهم وهو يعلم أنهم يكذبون بآياته ويستحقون بذلك جهنم، وفي ذلك تنبيه على أنه غني عن طاعتهم، وأنها لا تنقصه معصيتهم، وأنه لايبالي بتكذيبهم وبمصيرهم إلى جهنم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر:٧] وقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ دلالة على أن الله قد أكمل حجته عليهم بعقولهم، وكذلك بأسماعهم وأبصارهم، ولكنهم أهملوها فلم يستعملوها في طلب الهدى، فكأنهم لا يعقلون بألبابهم التي ركبها في قلوبهم

فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ

وفطرتهم التي فطرهم عليها، حين أشهدهم على أنفسهم، وكأنهم لا يبصرون ولا يسمعون، كل ذلك لإعراضهم عن الهدى العقلي والآفاقي والسمعي، كما قال الشاعر:

أصم عن الأمر الذي لا أريده وأسمع خلق الله حين أريد

فكانوا بإهمالهم لطرق المعرفة ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ في جهلها بما يعرف بالعقول، ثم قال تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ لأن الأنعام لم تجهز بالعقول، فهي غير معاقبة على غفلتها، بخلاف من جعل الله له قلباً وركب فيه لُبًّا وأضاف إلى ذلك السمع والبصر، وجاءته آيات الله ورسله، فأعرض عن آيات الله وتغافل عنها، وأعرض عما سمع ورأى، كأنه لا عقل له ولا سمع ولا بصر، فهو معاقب على غفلته، خاسر بتكذيبه بآيات الله وإجرامه، فهو لذلك أضل من الأنعام.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ تسجيل عليهم بالغفلة المذمومة والجهالة الممقوتة؛ لأن سببها إعراضهم وتمردهم على الله ورسله وآياته.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الأسماء التي هي أحسن الأسماء؛ لدلالتها على الله، وعلى تسبيحه وتقديسه وتعظيمه وتحميده ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ أي فادعوه بها، قولوا: يا الله، يا الرحمن، يا الرحيم، أو يا من هو الرحمن الرحيم، أي ادعوه بكل اسم من أسمائه، لا تتركوا اسماً عن أن تدعوا الله به كما تَرَكَت الجاهلية اسمَ الرحمن، وليس المراد جمع الأسماء في الدعوة الواحدة.

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ﴾ اتركوا الذين يلحدون ﴿فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ يميلون بأن يجعلوها لغيره كفراً بها، كالذين قالوا: ما نعرف الرحمن إلا رحمنَ اليمامة، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠] والإسم الأحسن: هو الذي يفيد مدحاً عظيماً ولا يستلزم إثبات نقص، بل يفيد مدحاً عظيماً خالصاً، فهي لله سبحانه كلها بلا حصر، وهو يختص بها سبحانه لا يشاركه فيها غيره، ووصف غيره بلفظ بعض أسمائه ليس معناه إثبات ما أُثبِت لله مثل: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] بل الأسماء الحسنى على معانيها خاصة بالله وجعل شيء منها لغير الله هو من الإلحاد في أسمائه.

قال في (لسان العرب): ((ومعنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد)) وفيه أيضاً: ((وأصل الإلحاد الميل والعدول عن الشيء)) وفيه أيضاً: ((وأَلْحَدَ في الحرم: تَرَك القصد فيما أُمِر به ومَالَ إلى الظلم)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((وألحد: مال عن الحق)) انتهى المراد، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] فجعل عدولهم إلى غير الله إلحاداً إلى ذلك الرجل الأعجمي.

﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ سيجزون أعمالهم كلها التي كانوا يعملونها، أي استمروا على عملها، والأصل يجزون جزاءَها المناسبَ لها الذي يستحقونه من أجلها، فكأنه هي لَمَّا كان جزاءً لها، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٥٥] وذلك تحقيق لكونه جزاء العمل.

حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ
مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ

﴿١٨١﴾ ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾ فذروا الذين يلحدون في أسمائه واقتدوا بالأمة الهادية بالحق العادلة به فهي القدوة الصالحة، وهؤلاء هم السابقون بالخيرات، كقوله تعالى في (سوره الأنعام): ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [آية:٨٩] فراجع تفسيرها.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ منهم من كذب بالقرآن ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ يجعلهم يتقربون إلى الهلاك درجه درجة ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم يتقدمون إلى الهلاك؛ ولعل المراد بقوله تعالى: ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من جهة الإنعام عليهم؛ لأنهم يتلهون به حتى يحضرهم الموت فيُغلَق عنهم بابُ التوبة، ويصيرون إلى العذاب من حين تحضرهم الملائكة، ويوم القيامة إلى عذاب النار.

﴿١٨٣﴾ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ ﴿أُمۡلِي لَهُمۡ﴾ أمهلهم في هذه الحياة الدنيا مدة طويلة بالنسبة إلى استحقاقهم العذاب العاجل فلا أعاجلهم بعذاب وهم يغترون بالإملاء ويستزيدون من المعاصي؛ فلذلك جعله تعالى كيداً متيناً أي قويا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨] فمن حيث أن الإملاء قد جعلوه سبباً لزيادة المعاصي، فصار سبباً لزيادة العذاب، فمن هنا صار كيداً باختيارهم وكان قوياً؛ لأنه مصحوب بالنعم ومنْتَهٍ بهم إلى العذاب الشديد الدائم.

﴿١٨٤﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ أي المكذبون بآيات الله ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ محمد ص من جنون فيعرضوا عنه، ولا يلتفتوا إلى إنذاره،

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٖ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ

بل هو في غاية رجاحة العقل، فكيف لم تدعهم عقولهم إلى التفكر فيما جاء به من الآيات، وما أنذرهم حتى لا يقعوا في التكذيب بآيات الله ويستحقوا العذاب في الآخرة والخذلان في الدنيا والإستدارج والإملاء.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ ومن شأن العاقل أن يحذر ما أُنذِر، فكيف وقد أنذرهم عذاباً شديداً وصارحهم بالإنذار والتحذير، وجاءهم بالآيات الدالة على صدقِه، فهو ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ بَيِّنٌ واضح أنه نذير يستدعي إنذاره النظر، والتفكر في إنذاره وفيما جاء به من الآيات، وأن لا يعرضوا عن إنذاره كما يُعرَضَ عن كلام المجنون وهم يعلمون أنه عاقل، فكان من حقهم أن يخافوا أن يكون صادقاً في إنذاره فيصيروا إلى ما أنذرهم من العذاب الشديد، فإذا خافوا فمن حقهم إذا استعملوا عقولهم أن ينظروا في الآيات التي جاء بها دليلاً على صدقه حتى يبنوا على حقيقة فيؤمنوا إن صح الدليل أو يعلموا أنه لا حجه له إن لم يكن له آية صحيحة فيأمنوا ما أنذرهم، فأما استعجالهم على تكذيبه بلا نظر بل انقياداً للحسد والكبر والعصبية فهو جهالة وإهمال للعقول وتورط في المهالك، ولكن قلوبهم قاسية وهم مقبلون على دنياهم وأهوائهم فأعرضوا وغفلوا.

١٨٥ ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ حتى يعرفوا أن الله هو مالك السموات والأرض والمخلوقاتِ كلَّها ومالكهم، فهو رب كل شيء، فيلتفتوا بأفكارهم إلى رسوله وآياته ويحذروا عاقبة عصيانه والإعراض عنه، ويحذروا الشرك به.

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي وينظـــروا أن ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي أن من المتوقع الذي لا يبعد لأن كثيراً من الناس قد ماتوا وهم مثلهم في السن وأصغر منهم ﴿أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ أي الموت.

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ لأن هذا الحديث الذي هو القرآن قد دل على صدق الرسول بإعجازه، ومع ذلك أنذرهم القرآن وحذرهم ووعظهم وخوفهم بضروب من المواعظ، ليؤمنوا به فلم يؤمنوا، فتبين أنهم لا يؤمنون بأي حديث بعد هذا القرآن؛ لأنه لا يَبْلغ مبلغَه حديثٌ.

ولو نظرنا ما في هذه السورة وحدها لوجدنا شيئاً عجباً:

ومن ذلك: ذكرُ نعم الله ودعوته إلى الشكر.

ومن ذلك: ذكر قصة إبليس ووعيده بإغواء بني آدم وتحذيرهم من أن يفتنهم كما أخرج أبويهم من الجنة.

ومن ذلك: قصص الأمم الذين كذبوا الرسل فأخذهم الله بذنوبهم، وتفصيل قصص أنبيائهم.

ومن ذلك: قصة القرية التي كانت حاضرة البحر، وقصة الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها.

ومن ذلك: التحذير من الخذلان المتتابع في السورة في مواضع متعددة.

ومن ذلك: التذكير بالآخرة والتذكير بجهنم وكثرة أهلها.

ومن ذلك: الإحتجاجُ على المشركين في مواضع من السورة، وعلى الجملة كل السورة هدىً ونورٌ ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧].

وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا
قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَا قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا
عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا

﴿١٨٦﴾ ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ كما أن من لم يهتدِ بالقرآن للإيمان لا يؤمن لأجل حديث بعد القرآن أي بعد أن تَرَك القرآن وأعرض كذلك من فاتته هداية الله وتوفيقُه وأرسل عليه الشياطين حتى ضلَّ فلا هادي له بعد الله ولن تكون هداية من غير الله بدلاً من هدايته ﴿ونَذَرُهم﴾ نتركهم أو ﴿يَذَرُهُمۡ﴾ ـ بالياء ـ أي يتركهم الله ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾ الذي اختاروه وفعلوه، والطغيان: مجاوزة الحد ومنه التكذيب بآيات الله والإصرار على معاصي الله ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يتكرر منهم عمى البصيرة ويسترسلون فيه، وهذا من التحذير عن أسباب الضلال، كالتكذيب بآيات الله بعد وضوحها للناظر فيها.

﴿١٨٧﴾ ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ هذا من الناس الذين سمعوا رسول الله ص ينذرهم ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي القيامة، وكأنها سميت بهذا لسرعتها عند مجيئها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧] فقالوا لرسول الله ص ﴿أَيَّانَ﴾ أي متى ﴿مُرۡسَىٰهَا﴾؟ أي وصولها وحضورها، كأنها في إقبال، فإذا جاءت أرست مكانها وثبتت فلا ترجع أبداً.

﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ ﴿عِلۡمُهَا﴾ المحيط بها وبما يكون فيها وبوقتها إنما هو ﴿عِندَ رَبِّي﴾ وحده فهو الذي يعلم متى تأتي ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ لا يظهرها ويبينها حتى تتجلى للناس وتتضح عن إتيان وقتها وحلول

أجلها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي ربي الذي أرسلني نذيراً لكم من مجيئها، وإذا جلاَّها لم يكن أوان تصديقكم بها ولم يكن مجيء أمر تفرحون به أو تتفرجون عليه، إنما هو أمر ثقيل شديد.

﴿ثَقُلَتْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عند الملائكة لإيمانهم بها ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ لهولها على أهل الأرض وإشفاق المؤمنين منها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ كما قضت حكمة الله ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه:١٥] كما قضت بإخفاء أجَل الموت، فالقيامة لا تأتيكم إلا إتياناً بغتةً حين لا تتوقعونها وعلى غفلتكم عن إتيناها، قال الراغب: ((البغت: مفاجأة الشيء من حيث لا يُحتسَب)) انتهى.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معناه: حتى كأنك حريص مستقصٍ عن السؤال عنها وأنت غير حريص في البحث عن وقتها؛ إذ أنت موقن بها خائف منها.

والحفي على وجوه، أحدها: الحريص المستقصي، قال الشاعر:

فإن تسألي عني فيا رُبّ سائل حفيٍّ عن الأعشى به حيث أَصعَدا))

انتهى، وقد ذكر في (الصحاح) هذا في معاني الحفي، فقال: ((والحفي ـ أيضاً ـ المستقصي في السؤال، قال الشاعر:

فإن تسألي عني فيا رُبّ سائل حفيٍّ عن الأعشى به حيث أَصعَدا))

انتهى.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يعلمها أحد غيره لما أعاد ذكر السؤال ليرتب عليه قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أعاد ذكر الجواب لأن السؤال يستدعيه؛ ولعلهم أكثروا السؤال، فاقتضى الحال التأكيد في الجواب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يعلمون أنها ستقوم فلا يعلمون أن علمها عند الله.

وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى

﴿١٨٨﴾ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ النفع كالرزق، والضر كالمرض وملكهما اقتداره عليهما جلباً ودفعاً، فقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ إما بمعنى إلا ما شاء الله من الملك وهو ما أقدرني على سببه وعلمني طريق تحصيله ومكنني من تحصيله وتركه كبعض الرزق، وإما استثناء منقطع، وهذا أقرب؛ لأن الملك أبلغ من الإقتدار المحدود.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ فأنا لا أعلم الغيب وليس إخباري بالساعة إلا لأن الله أعلمني أنها ستقوم؛ ولذلك لا أدري متى هي؟ ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ الذي يتوصل إليه بالأسباب المقدورة للبشر، وفي هذا رد على من زعم أن بعض المخلوقين يعلم الغيب، ولا يصح تأويله بعلم الغيب الذاتي؛ لأن الإستكثار من الخير لا يتوقف على الذاتي فلو أعطاه الله قوة علم الغيب لاستكثر من الخير.

﴿وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ يحتمل أنه من جواب ﴿لَوْ﴾ على أن السوء مطلق في السوء من أي ضر كان مما يتوصل إلى دفعه بالأسباب المقدورة ، ويحتمل أن الجملة معطوفة على جملة ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فهي مما أُمِر في أول الآية أن يقوله، وعلى هذا فالمراد بالسوء الجنون بقرينة دعوى الكفار أنه مجنون.

وعلى الإحتمال الأول يكون المعنى: لو كنت أعلم الغيب ما مسني السوء، والأرجح الثاني لأنه لو كان من جواب الأول لما نفى نفياً مطلقاً كما لم يثبت الخير إثباتاً مطلقاً ولكان الظاهر أن يقال: لاستكثرت من الخير ومن

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ

دفع السوء، وذلك يتوجه إلى الممكن في قدرة البشر لو علموه؛ ولأن النفي لم يقترن بـ(لام الجواب) وكان أبلغَ في الدلالة على أنه معطوف على جواب (لو) أن يقال: ولما مسني السوء أو لاستكثرت من دفع السوء، فلأجل القرينتين ترجح أن الجملة النافية ليست من جواب (لو) بل هي مستقلة.

﴿إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ قد عرف متعلقه من غير هذه الآية أنه نذير بالنار لأعداء الله وبشير بالجنة للمتقين، فقوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ إن أريد به يؤمنون بالفعل فهم المتقون، وهو قيد لـ(بشير) متعلق به، وإن أريد لقوم شأنُهم أن يؤمنوا حين تأتيهم الآيات لأنهم يريدون الحق لا يصرفهم كبر ولا تعصب ولا غيرهما فقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ "يُؤْمِنُونَ راجع إلى جملة ﴿إِنْ أَنَاْ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ والمراد: أنهم هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير؛ لأنهم يتفكرون إذا جاءتهم البينة فيؤمنون بالفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل:٧٩] وهذا أرجح عندي ـ والله أعلم.

﴿١٨٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم﴾ إن كان الخطاب به للناس فالنفس الواحدة آدم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي وجعل لها زوجها منها أنشأها، وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ تعليل لجعل الزوج لآدم ليسكن، ويحتمل وجعل منها أنَّ زوجه منه بمعنى قوة التشابه في الصورة والقوى والطباع، كقوله ص لعلي × : ((أنت مني وأنا منك)).

شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ

وهذا حمل على المجاز، ولكن كونه أنسب للتعليل بقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لا ينافي إثبات الحقيقة وجعل التشابه في الصورة والقوى والطباع نتيجة لإنشاء زوجه منه كما يكون من التشابه بين الوالد وولده ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ الرجل الذي خلق منه المخاطبون ﴿حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ علقت بالولد وصار حملاً في بطنها خفيفاً في أول الأمر ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ مشت به تذهب وتجيء لا يثقلها ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ عالمين مؤمنين أنه هو الذي يصور الولد في رحم أمه كيف يشاء إن شاء جعله صالحاً وإن شاء جعله ناقصاً أو ضعيفاً فلذلك دعوا الله ربنا ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فالخلق خلق الله أصله ونسله، فهو الحقيق بأن يعبد لا ما يشرك المشركون من الأصنام وغيرها مما لا يخلق شيئاً لا خلق المشركين ولا غيرهم.

﴿١٩٠﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ فالمشركون كانوا يعتبرون شركاءهم شركاء لله في أنفسهم هم فيعبدونهم ويؤلهونهم لذلك ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿١٩١﴾ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا إنكار وتوبيخ للمشركين، وبيان لبطلان الشرك؛ لأنهم يجعلون لشركائهم نصيباً في أنفسهم مع أنهم لم يخلقوهم، والمشركون يُخلقون خُلِقَ آباؤهم الذين أشركوا قبلهم وخلقوا من بعد خلق آبائِهم فهم عباد لخالقهم ربِّ العالمين.

﴿١٩٢﴾ ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي شركاؤهم ﴿لَهُمْ﴾ أي للمشركين ﴿نَصْرًا﴾ وهذا دفع لتوهمهم، قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس:٧٤].

أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾

﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ أي هؤلاء المعبودون لا ينصرون أنفسهم لو حطمهم أحَدٌ كما فعل إبراهيم ص؛ ولذلك يجند المشركون أنفسهم لحماية شركائهم، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٥].

﴿١٩٣﴾ ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ هذا بيان لكون أصنامهم جمادات عاجزة، فكما أنهم لا ينصرون أنفسهم فهم أيضاً عاجزون أن يفعلوا لأنفسهم خيراً وصلاحاً، فإن تدعوهم إلى ما هو هدى ورشاد في حقهم ليتبعوكم إلى ما دعوتموهم إليه كالإنتقال إلى مكان أفضل من مكانهم أو كالإنتقال معكم حيث تنتقلون إلى مكان في طلب المرعى والماء لأنعامكم لا يتبعوكم.

أو تدعوهم إلى النزول من فوق بيت الله الذي ليس لهم فيه حق؛ لأن الله وحده هو رب البيت وهو الذي جعله نعمة لقريش أمناً في بلدهم وفي رحلتيهم، وبقاء الشركاء على بيت الله باطل، فإن تدعوهم لينزلوا ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لعجزهم سواء عليكم دعاؤهم إلى ذلك والسكوت عنه؛ ولكون السكوت عن هذا الدعاء هو الأصل ليس حادثاً بعد الدعاء المذكور قال: ﴿أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ لأنه استمرار على الحالة الأصلية.

﴿١٩٤-١٩٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ

إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ

يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ عباد لله الذي خلقهم ﴿أَمْثَالُكُمْ﴾ في أنكم عباد لله ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ لطلب شيء من حوائجكم منهم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ بتحصيل ما طلبتم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في جعلهم شركاء فيكم.

وهذا بيان آخر لعجزهم وتذكير لهم بما هم به عالمون في الأصل؛ لأنها جمادات كسائر الجمادات لا تمتاز عنها بشيء، وإنما سموها آلهة هم وآبائهم وهي ما زالت على حالتها الأصلية لم يحدث لها من التسمية قدرة ولا علم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ إهانة للمشركين وتنزيلٌ لهم منزلة من لا يفهم؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار أو تماثيل لا تمشي ولا تبطش ولا تبصر ولا تسمع فلم يسموها آلهة لشيء من ذلك، وهم يعلمون أنه لا أرجل لها تمشي بها، ولا أيدٍ تبطش بها، ولا أعينَ تبصر بها، ولا آذانَ تسمع بها، فهم يعلمون أنهم وآبائهم سموها آلهة في حال أنها لا تتميز عن سائر الجمادات بشيء من قدرة أو بصر أو سمع، فلا حجة لهم فيها ولا شبه حجة.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ وهذا بيان لعجزها بتحديها لتكيد رسول الله ص وتحدي أهلها ليدعوها تكيده معهم في أسرع وقت تهلكه وهذا مع كونه بياناً لعجزهم بيان لعلمهم بذلك، ودليل على ثقة الرسول ص بعجزها وأنها لا تستطيع شيئاً من ذلك.

﴿١٩٦﴾ ﴿إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَلِيِّۦَ﴾ الذي يرعاني ويحسن رعايتي ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى﴾ هو القادر على كل شيء والعالم

﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا

بكل شيء فهو يهديني ويحفظني ويرزقني وإذا أرادني بخير لا يمسكه غيره وإن أرادني بضر لا يكشفه غيره، ومن حسن رعايته ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ رحمة وهدى ودليلاً على توحيده وعلى بطلان الشرك وفيه الهدى والنور، فمن الله الهدى والخير كله ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فلو صلحتم لتولاكم كما تولاني.

﴿١٩٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ والنصر من أهم الحاجات، فبالأولى غيره من حاجاتكم لا يقضون لكم منها شيئاً ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ وكفى بذلك دليلاً على أنهم لا ينفعون فيُعبَدوا لطلب نفعهم ولا يضرون فيُعبَدوا لدفع ضررهم.

﴿١٩٨﴾ ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾ دعاءكم لأنهم جمادات ولو كانوا يسمعون لسمعوا إن تدعوهم إلى الهدى؛ لأهمية السمع لمن يدعو إلى الهدى، فهو حقيق أن يصغى له فيسمع.

﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ أي الأصنام ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ موجهون إليك إما أنهم تماثيل لأحياء ينظرون فإذا جئتهم كانوا أمامك كأنهم ينظرون إليك، ومعلوم أنهم ﴿لَا يُبۡصِرُونَ﴾ وإما لأنهم أحجار موجهة إلى من أتاها كأنها تنظر إليه، ومن المعلوم أنها لا تبصر فقد ذكَّرهم الله عجزَ أصنامهم وتحداهم بما يكشف عن علمهم بعجزها فهم يعبدون ما لا ينفعهم شيئاً ولا يضرهم وكفى بذلك جهلاً وغباوة وانقياداً للباطل.

وبعد تمام الإحتجاج على المشركين والكفار، والإنذار الكامل في هذه السورة التي في أولها الأمرُ باتباع ما أنزل إلينا من ربنا، واجتناب ما يصرفنا عنه، وإكمال الحجة لرسول الله ص على المشركين والمكذبين بالقرآن، وصَّى الله رسولَه في خاتمة هذه السورة، فقال تعالى:

﴿١٩٩﴾ ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ الميسور من أخلاق الناس وأدبهم لرسول ص ولا تستقصِ عليهم في حقوقك ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ وهو ما تعرفه العقول من توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقارب والجار واليتيم والمسكين، وغير ذلك ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ السفهاء الذين يجهلون عليك بالكلام المؤذي فلا ترد عليهم بمثل كلامهم مما يؤذيهم من السب، بل أعرض عنهم واشتغل بما كُلِّفتَه من الدعوة والإبلاغ والإنذار والتبشير والهداية.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ هو أدب من الله لنبيه ص فجَمَعت هذه الأحرف اليسيرة من الآداب الكثيرة ما فيه حكمة عظيمة لمن عقلها وأقبل عليها بفكره وقبلها؛ لأن قوله: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾يدل على احمال [احتمال] الشرور وستر كثير من قبائح الأمور لما في الأناة الحلم وحسن التدبير من المعونة والسلامة والبركة والخير الكثير.

ثم قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ فدل على الأمر بالخيرات والزجر عن جميع القبائح المنكرات، ثم قال: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ فدلّ بذلك على ألطف المواعظ كلها، وهي الهجرة الجميلة لسفهاء البرية وسَفَلها عند الإعراض والترك لجدالها ومكالبتها والتشاغل بها ومجالستها، فانظروا ما في هذه الكلمات من الحكمة وحسن التدبير والبركات، والسلامة من القبائح والشُّنَع المهلكات، نحمد الله على ما علمنا من كتابه، ونشكره على هدايته وآدابه)) انتهى.

قال في (المصابيح): ((وعن جعفر الصادق × : أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها)) انتهى.

يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ

﴿٢٠٠﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَإِمَّا﴾ أصله (وإن ما) وهي (أن) الشرطية اتصلت بها (ما) صلةً للكلام فأدغمت (النون) في (الميم) والنزغ من الشيطان: تحريك الشر، أو محاولة تحريكه قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:١٠٠].

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ معناه: يستخفنَّك منه خفَّة عجلة، ونَزْغ الشيطان الإفساد بين الناس)) انتهى، ونحوه في (الصحاح).

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ أي توصل إلى إعاذته لك كما مر في: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ ومن الإستعانة بالله طلب الإعاذة، ومن التوسل إلى إعاذة الله الإيمان والتوكل، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩].

ومعنى طلب الإعاذة: طلب الإنجاء للعائذ بالله، والعائذ: اللاَّجىء، فمعنى: أعوذ بالله: ألجأ إلى الله، لينجيني من الشيطان إن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ الدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستعيذ به.

﴿٢٠١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ طاف به جاءه فمعنى ﴿مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٞ﴾ أصابهم طائف أي آتٍ ووارد؛ لأن الشيطان غير ملازم للمتقين، وإنما هو عارض يعرض لهم.

قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ لعلَّ ﴿مِّنَ﴾ للإبتداء فهو بمعنى وسوسة من الشيطان ونزغ منه، وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي ذكروا الله في أنفسهم فخافوا عذابه.

وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ (إذا) هي للمفاجأة، لسرعة انتباههم لوسوسة الشيطان وغروره وسرعة حذرهم منه، أبصروا بعقولهم طريق الصواب، وقوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ جملة إسمية تفيد ثباتهم على إبصار الصواب والحذر من الشيطان، وهذا لا ينافي وقوع اللَّمم منهم؛ ولعل التعبير بمسهم من أجل أنهم ربما وقعوا في المعصية إلا أنهم لا يصرون، كما في (سورة آل عمران): ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ [آية:١٣٥].

٢٠٢ ﴿وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ وإخوان الشياطين رَجَع الضمير على الشيطان ضميرُ الجمع؛ لأنه اسم جنس عام، فكان في معنى الجمع من حيث التعدد في مفهومه ﴿يَمُدُّونَهُمۡ﴾ يمدهم الشياطين ﴿فِي ٱلۡغَيِّ﴾ في الغواية عن طريق الرشد والصواب.

ومعنى (يُمِدُّونَهم) ـ بضم الياء، وكسر الميم ـ : أن الشياطين مع إغوائهم يزيدونهم من الغواية فيسترسلون في الغواية ﴿ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ عنها بل يستمرون في الغواية، أما المتقون فهم بخلاف ذلك كله كما مر.

قال الراغب: ((وأقصر عنه كَفَّ مع القدرة عليه)) انتهى.

٢٠٣ ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ﴾ هذا عائد إلى بعض إخوان الشياطين إذا تأخر نزول آية من الله قالوا في خلال مدة التأخر:

﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ أي هلاّ اجتلبتَ آية وجئتَ بها، أو إذا لم تأتهم بآية كما يطلبون لتكذيبهم بآيات الله وزعمهم أنها ليست آيات، ويريدون آية كما يقترحون كآية ثمود ﴿قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ لتأتينا بها.

قال في (لسان العرب): واجتباه: أي اصطفاه وفي الحديث: ((أنه اجتباه لنفسه)) أي اختاره واصطفاه. ابنُ سيده: واجتبى الشيءَ اختاره، وقوله ـ عزّ وجل ـ: ﴿وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ قال معناه عند ثعلب: جئت بها من نفسك.

وقال الفراء: معناه: هلاّ اجتبيتها، هلاّ اختلقتها وافتعلتها من قِبَل نفسك، وهو في كلام العرب جائز أن يقول: لقد اختار لك الشيءَ واجتباه وارتجله، وقوله [عزَّ وجل]: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف:٦] قال الزجاج: معناه وكذلك يختارك ويصطفيك، وهو مشتق من جَبَيْتُ الشيءَ، إذا أخلصته لنفسك، ومنه: جبيت الماء في الحوض، قال الأزهري: وجباية الخراج: جمعه وتحصيله مأخوذ من هذا)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((واجتباه: أي اصطفاه)) انتهى.

قلت: الراجح: أنهم يقولون: ﴿لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَا﴾ أي لولا اصطنعتها، وهذا يناسبه الجواب: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لا أصطنع الآيات من تلقاء نفسي ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فأبلغكم ما أمرت بإبلاغه، هذا القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾ آيات ودلائل تبصر بها القلوب، فهي للقلوب بصائر إلى بصائرها إما على طريق التشبيه بالبصائر لقوة البصائر بالقرآن وتنوّرها به، أو البصائر الأصلية هي العلوم العشرة والعلوم الحاصلة من القرآن زيادة في البصائر أي في

لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ

العلوم، فهي بصائر كالأصلية، فيكفيكم هذا القرآن آيةً تدل على صدق الرسول، فهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي دلالة على طريق الخير ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لأنه سبب للنجاة من العذاب ومخرج من الظلمات إلى النور، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم الذي يهتدون به وينالون الرحمة بسببه.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ وهذا مؤكد، لكونه آيةً بيِّنة من حيث أن مستمعه المنصت له متعرض لرحمة الله بأن يوفقه للإيمان، ويهديه به للتقوى التي يبلغ بها الجنة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ أي للقرآن، وهو الصوت المتلو فلا حاجة لتقدير، فاستمعوا لقراءته، وقوله تعالى: ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ أي اسكتوا مع قراءته، لا تعارضوها بكلام.

﴿٢٠٥﴾ ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ هذا الذكر بالقلب لله ولمعاني أسماءه الحسنى ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذللاً لله تعالى ﴿وَخِيفَةً﴾ منه، أي مخافة تبعث على الذكر تقرباً إلى الله جلَّ جلاله.

﴿وَ﴾ واذكر ربك ﴿دُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ وهذا الذكر باللسان أمر الله به، وقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

قال في (الصحاح): ((جَهَر بالقول: رفع به صوته)) انتهى.

قلت: الصوت قد يكون جهراً يُعْلَن لا يُخفَى عن أحد، وقد يكون سِرًّا لا يسمعه من بجنبه، وقد يكون متوسطاً بين الجهر والإسرار، فدون الجهر: يعم السر والمتوسط.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قال في (الصحاح: ((والغدوُّ نقيض الرَّواح ـ ثم قال: وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي بالغدوات، فعبَّر بالفعل عن الوقت كما يقال: آتيك طلوع الشمس، وقال: والغُدْوَة ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس)) انتهى، وفي هذا الوقت وفضل الذكر فيه أحاديثٌ صحيحة مشهورة.

وقال في (الصحاح) أيضاً: ((والأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((والأصيل العشي)) انتهى، وعلى هذا فهو من بعد الظهر.

وفي (مصابيح الشرفي) عن (البرهان): ((﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي بالبواكر والعشيّات، وَذَكر هذين الوقتين لفضلهما)) انتهى المراد.

﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الذي لا يذكرون الله إلا قليلاً، والغفلة: ضد التذكر والإنتباه، فرجوعه إلى قوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ ظاهر، أما إلى قوله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ فيؤخذ منه إحضار الذهن عند الذكر باللسان؛ لأن الذكر باللسان قد يكون مع الغفلة عنه وعن معناه.

﴿٢٠٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ أي إن الملائكة المقربين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في قوله

تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: ((قال في (البرهان): أي عن التسبيح له، والصلاة، والخضوع، ولا يغفلون عن طاعته في أوامره ونواهيه، ويستصغرون حالهم في طاعته وعبادته، ثم قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي ينزهونه عمَّا لا يليق به ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ أي يخضعون بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين)) انتهى.

قلت: وهو تذكير للبشر بمن هو في الدين فوق المعهود من الناس؛ لأن من الحكمة أن ينظر الإنسان إلى من فوقه في الدِّين ليستصغر عمله ويستقلَّه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ حصر، فدل على أن السجود هنا هو الخضوع بالعبادة، فهم يعبدون الله وحده لا يشركون به ـ وبالله التوفيق.

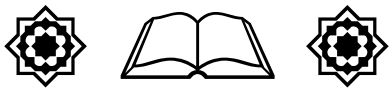

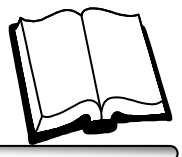

التيسير في التفسير

سورة الأنفال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

تفسير (سورة الأنفال) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ ﴿ٱلْأَنفَالِ﴾ هنا: هي الغنائم، والسائلون فيما يفيده السياق: هم من الذين مع رسول الله ص، أي ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا محمد عن حكم الغنائم لمن هي، ولعل سبب السؤال اختلافهم فيها.

﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ فالغنائم يجب تسليمها إلى رسول الله ص لأنها لله وله، وحبسها عنه غلول، وهذا لا ينافي أنهم يملكون أربعة أخماس الغنيمة حين يقسمها الرسول ص فيهم كما أن أهل الخمس يملكونه حين يعطيهم ص.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فاتقوا الله أي اتقوا الله بطاعته في شأن الأنفال وغيرها، وهو ـ أيضاً ـ توطئة لبقية الآية ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ باستعمال أسباب صلاح ذات البين من التزام العدل والإحسان، واجتناب الإساءة بينكم، وتلافي ما فرط من إساءة باستحلال المظلوم والتخلص من ظلامته وتطييب نفسه.

وذاتُ البين: هي العلاقة والحالة التي بين المؤمنين، وإصلاحُها يكون كما ذكرت بالعدل والإحسان، ومن ذلك: الكلمة الطيبة، وترك الإنقباض والحمل على السلامة، ومن أعظم فساد ذات البين: ظن السوء، والأوهام المنفرة، والغيبة، والنميمة، والإحتقار، والسخريه، وغير ذلك مما نهى الله عنه في (سورة الحجرات).

ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي في شأن الغنائم وغيرها، وهو قائم مقام جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين أطعتم الله ورسوله؛ لأن طاعة الله ورسوله من صفات المؤمنين المميزة لهم عن غيرهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٧١].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت، لتذكُّرها عند ذكره ما يوقع الخوف فيها؛ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر راسخ في القلوب، والإيمان بالرجوع إليه يوم القيامة والسؤال والحساب والجزاء على الأعمال، والإيمان بعلم الله تعالى بكل ما يفعل العبد، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فذكر الله يسبب خوفاً أسبابه في النفس إنما يذهب عند الغفلة فإذا ارتفعت الغفلة وقع الخوف.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ أي إذا تليت عليهم ءايات الله التي هي ءايات القرآن زادتهم إيمانا؛ لأن القرآن وما فيه من الآيات أعظم أسباب الإيمان لدلالته على رسالة الرسول ص وعلى اليوم الآخر وما فيه من الثواب والعقاب فسماعه عند تلاوته عليهم يزيدهم إيماناً إلى إيمانهم السابق.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي على ربهم وحده يتكلون في إصلاح أمرهم؛ لأنهم يعلمون أن ما كتبه الله لهم ناهم أو نالوه وأنهم لا يعدوهم ما كتب لهم ولا يعدون ما كتب لهم، والإتكال على الله هو في طاعته فيمتثلون أمر الله لا يمنعهم خوف من عدو أو خوف من فقر أو نحو ذلك، ويجتنبون ما نهى عنه لا يعصونه لخوف فقر أو غيره مما يخوفهم الشيطان.

يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ

وليس معنى هذا: أن الأعذار الشرعية لا تسقط التكليف إنما المراد ما ليس عذراً شرعياً لا يمنعهم من طاعة الله؛ لأنهم يطيعون الله ويكلون إليه أمرهم فيما يحتمل وقوعه في المستقبل؛ ولهذا يجاهدون في سبيل الله من دون أن يضمن للواحد منهم السلامة من القتل ومن دون أن يضمن لهم أن يغلبوا العدو على كل حال.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامة الصلوة من مميزات المؤمن عن غيره، وإقامتها إحياؤها بفعلها كاملة بفروضها، جامعة لشروطها كما أمر الله، والمحافظة عليها في أوقاتها، ولا يبعد أن من إقامتها الأذان لها والإقامة والجماعة حيث لا عذر، وذلك في حق الرجال، وقد تكرر في القرآن الدلالة على أن إقامة الصلاة من صفات المؤمن.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ مما أعطيناهم ينفقون فيما أمروا بأن ينفقوا فيه، كالجهاد في سبيل الله، والزكاة، وسائر وجوه الإنفاق الواجب.

﴿٤﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل الصفات المذكورة ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أما غيرهم فليس بمؤمن وإن ادعى الإيمان، كالمنافقين، والذين في قلوبهم مرض، والأعراب الذين ادعو الإيمان ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وكل من لم تحصل فيه هذه الصفات؛ لأنها جاءت لبيان المؤمنين حقاً بعد قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما جاءت آية (التوبة) في صفات المؤمنين، وهي قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ [آية:٧١] للتمييز بينهم وبين المنافقين، وجاءت آية (الحجرات) في صفة المؤمنين في الرد على الأعراب لدعواهم الإيمان.

ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

وجاءت في (سورة النساء): ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ..﴾ الآية [آية:٦٥] في الرد على الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، فكل ذلك يدل على: أن هذا حكم الله في الفرق بين المؤمن حقاً والمدعي للإيمان دعوى، كما لا يخفى على من تفَهَّم القرآن.

﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ رفع لقدرهم وتشريف وكأن ذلك قدّم؛ لأنه من أعظم المرغبات عند أهل الهمم العالية والنفوس الرفيعة، ومغفرة: فهم ناجون من العقاب وهذه الفائدة المهمة فذكرها من الترقي من مرغب إلى أعظم منه في الترغيب.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يفيد: رزقهم في الدنيا وفي الجنة، ووصف بالكرم لسلامته عما قد يقترن به الرزق في الدنيا من الهوان بسبب الحاجة إلى الرزق؛ ولاقترانه في الآخرة بالتكريم للمؤمن، وإعلامه أنه جزاء بما صبر في الدنيا وبما عمل، وعلى هذا فوصفه بالكرم لأنه يتجلى فيه كرم الرازق ويعَبِّر عن كرم المرزوق ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

۝٥ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ جعل الله الأنفال لله والرسول، وصادف ذلك كراهة فريق من المؤمنين لنزعها منهم وجعلها لله والرسول، وذلك يشبِه إخراج الله لك يا محمد ﴿مِنۢ بَيْتِكَ﴾ للقتال خارج المدينة المنورة في (أحد) إخراجه لك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا بالحق وذاك بالحق المشبه والمشبه به، وإن كان كلٌ منهما مع كراهة فريق من المؤمنين.

قال الشرفي في (المصابيح: قال الهادي ص هذا إخبار من الله تبارك وتعالى بما كان من خيرته لنبيه ص في خروجه إلى (أحد) وتبرّزه عن المدينة حتى كانت الحرب بـ(أحد) ولم يكن على أبواب المدينة ، فكان ذلك خيرة من الله لنبيه.

فأما قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ فقد كان رسول الله ص شاورهم أين يكون قتالهم، أيرون أن نثبت حتى يأتون المدينة فنقاتلهم على دروبها أو نخرج فنقاتلهم ناحية منها، فأشاروا عليه بالقتال في المدينة فأطاعهم، ثم بدا لهم فأشاروا بالخروج فأطاعهم، فدخل منزله ولبس لأمته ثم ركب وخرج، فلما خرج قالوا: يا رسول الله ارجع على الرأي الأول إلى القتال على أبواب المدينة نثبت لهم حتى يأتونا إلى أهلنا، فقال ص: ((ما كان للنبي إذا لبس لامته ـ يعني درعه ـ أن يفسخها حتى يقاتل)) ومضى ص نحو أحد فكرهوا ذلك وجادلوه فيه وثقل عليهم الخروج إلى قريش ورجع من الطريق عبد الله أبن أبي الأنصاري في ثلاث مائة، ومضى رسول الله ص وباقي الناس وفيهم من الهيبة والفَرَق ما قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ من لقاء القوم وحاربوهم وكان من الأمر ما كان، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا﴾ قال في (لسان العرب): ((والفريق: الطائفة من الشيء المتفرق)) انتهى. قلت: هي طائفة مفارقة مثل: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧] ومثل: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف:٣٠].

٦ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي الفريق المذكور يجادلونك ﴿فِى ٱلْحَقِّ﴾ في الخروج للقاء العدو لِيَفتِلوك عنه إلى البقاء في المدينة ليكون القتال على أبوابها ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ لهم الحق أنه الخروج بأمر رسول الله ص حيث أفاد

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ

أنه لابدّ منه فهم في جدالهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ مع أنهم قد وعدوا بالنصر إن أطاعوا الله ورسوله فلا موجب للجدال، وقوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي ينظرون محل الموت وما أعد فيه لإماتتهم.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ قبل القتال في بدر ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ من العدوّ إمَّا العِير وإما النفير، والعير كانوا راجعين من الشام بمال تجارة كثير على العير أي الإبل، والنفير عسكر قريش الذين نفروا من مكة للدفاع عن العير.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الهادي × : ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ فهم عسكر قريش الذي لقي النبي ص بـ(بدر) والطائفة الأخرى فهي العير التي أقبلت من الشام إلى مكة تحمل الطعام، فلما أن وعدهم أن يظفروا بأحدهما أحب المسلمون وودُّوا أن تكون طائفة العير والطعام الذي ليس فيها إلا الحاملين الذين لا يحاربون ولا يدافعون عنها ولا شوكة فيها، وأشفقوا من طائفة العسكر الجيش الذي فيه السلاح والخيل فأحبُّوا أن يلقوا غير هذه الطائفة فيكون أهون عليهم في المعاناة وأسلم لهم، وكان الله يريد غير ذلك من إذلال العسكر ومن فيه، وقتل أعداء نبيه، وإظهار النصرة على عدوه، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل)) انتهى.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ غير ذات السلاح والخيل وهي العير، قال الشرفي / : ((وعبارة (البرهان) في معنى ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ أي غير ذات الحرب وهي العِير، لأن

نفوسهم في لقائها أسكن، وهم إلى ما فيها من الأموال أحوج، وفي الشوكة التي كنَّى بها عن الحرب وجهان:

أحدهما: السدد (الشدة) ويكنى بها عن الحرب لما فيها من الشدة.

الثاني: أنها السلاح وشاك السلاح، فكنى بها عن الحرب لما فيها من السلاح)) انتهى المراد.

وظاهر كلام الإمام الهادي × : أن الشوكة: السلاح، وقد حكى الشرفي عن الحسين بن القاسم إ : ((أن الشوكة: هي الحد)) وهذا مأخوذ من الشوكة وحدها، وهو موافق لكلام الإمام الهادي × .

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: غير ذات الحِدَّة)) انتهى هكذا في (المطبوعة) والذي في (المخطوطة) بدون هاء أي تاء التأنيث؛ فلعل الأصل: غير ذات الحد.

وفي (لسان العرب): ((والشوكة: شدة البأس، والحد في السلاح، ثم قال: وفي التنزيل: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ قيل: معناه: حدة السلاح، وقيل: شدة الكفاح)) انتهى.

ولم يذكر في (الصحاح) إلا المعنى الحقيقي، فقال: ((الشوكة واحد الشوك، وشجر شائك أي ذو شوك..)) إلى قوله: ((..وشوكة العقرب: إبرتها)). فالراجح: أن الشوكة هي السلاح، وتستعمل بمعنى القوة بالسلاح، ولازم خوف السلاح خوف الحرب بالسلاح، فصح تفسير خوف الشوكة بخوف الحرب على هذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يثبت الحق ويقره في الأرض ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وهي آيات الكتاب وما أوحاه إلى نبيه ص ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بكلماته المحاولين لإبطالها بالقوة والشوكة، وقطع الدبر كناية عن

ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ

الهلاك الذي لا يبقي منهم كافراً وذلك بإذلال ذات الشوكة، وقتل بعضهم أوَّلاً، ثم بفتح مكة آخراً، وبما بينهما من قتل الكفار، والمراد: ويقطع دابرهم أي الطائفتين لكفرهم، فأقيم الظاهر مقام المضمر.

﴿٨﴾ ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ ليثبت الحق في الأرض، أي يقطع دابر الكافرين ليحق الحق ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي يزهقه ويذهبه، ويحتمل يحق الحق: يقضى فيه بما يليق به؛ لأنه الحق ﴿وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ يقضي فيه بما يليق به من حيث أنه الباطل أي قضى قضاء جعل به الحق حقاً وجعل الباطل باطلاً، وهو جعل الحكم التكويني بنصر الحق وإذلال الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي أنه أمر غالب قاهر للمجرمين لا يستطيعون رده لأجل كراهتهم له، والمجرمون المذنبون والمراد به هنا أعداء رسول الله ص ونصره عليهم يوم بدر وبعده.

﴿٩﴾ ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ اذكر إذ تستغيثون أي ببدر تطلبون ربكم أن يغيثكم يدفع العدو وينقذكم من بأسه بنصركم عليه ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ ﴿مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ﴾ جاعل لكم مدداً أي زيارة في الجند من الملائكة ﴿مُرۡدِفِينَ﴾ بآخرين من الملائكة فعلى قراءة (فتح الدال): متبعين بلا تراخٍ، وعلى قراءة (كسر الدال): مردِفين لآخَرين، أي جاعلين لهم رادفين لهم من غير الألف المذكور، ولو كان المراد ترادف الألف بعضه لبعض لقيل: مترادفين.

وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي الإمداد بالملائكة ما جعله الله إلا بشرى لكم تستبشرون به، وينكشف عنكم الغم من كثرة الأعداء وقوتهم مع قتلكم وقلة عدتكم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾: يذهب عن قلوبكم القلق والإضطراب بهذا الإمداد.

﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ لا من وجود الملائكة فيكم أولا من الملائكة؛ لأن الله تعالى هو الذي يلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، ويربط على قلوب المؤمنين، ويهيئ أسباب انتصار المؤمنين بعلمه وقدرته وبعزته وحكمته؛ لأن من العزة نصر دينه، ومن الحكمة ـ أيضاً ـ نصر دينه مع ابتلاء المؤمنين بالجهاد وصبرهم عليه.

﴿١١﴾ ﴿إِذْ يُغْشِيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ في هذه الآية ذكر بعض أسباب النصر فمنها: أن الله تعالى أغشاهم النعاس أي أرسله عليهم، والنعاس نوم قليل متقطع؛ لأنه يتخلله انتباه ﴿أَمَنَةً﴾ أماناً من الله، فجعل النعاس أماناً لهم، وانتصاب ﴿أَمَنَةً﴾ على الحال، أي حال كون النعاس أمنة كائنة من الله، أي سبباً منه لأمان في قلوبكم.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً لأربع فوائد:

الأولى: أفادها قوله تعالى: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ من النجاسات ومن الجنابة إن كانت وبالوضوء، وينظفكم به من أثر السفر لما يكون فيه من العرق والغبار.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وهذه الفائدة *الثانية*: إذهاب وسواس الشيطان القذر؛ لما فيه من التخويف من العدو وسبقهم إلى الماء، والتذكير بقوة العدو وقلتكم مع أنه كان العدو سبق إلى الماء قبل نزول المطر.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ يشجعكم ويمنع قلوبكم من أن تضطرب، وذلك لثقتكم بالماء للشرب وغيره، واستغنائكم عن الماء الذي كان الكفار قد سبقوا إليه، وهذه الفائدة *الثالثة*؛ ولعل في برد المطر سبباً للإحساس بالقوة والنشاط وزوال التعب فيكون بذلك من التشجيع.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي يثبت بالماء النازل عليكم أقدامكم، وثبات الأقدام يحتاجه المقاتلون؛ لأن من زلَّت قدمه ضعف وكان ذلك فرصة للعدو فأما إذا سقط فذلك أشد عليه، وانظر الدعاء بثبات الأقدام في (سورة البقرة) و(سورة آل عمران) وهذه الفائدة *الرابعة* من فوائد ذلك المطر.

وفي (مصابيح الشرفي) / : ((عن الحسين بن القاسم إ : أنه قال في تثبيت الأقدام: وذلك أن المطر إذا وقع بالأرض اللينة اشتدت والتأم بعضها إلى بعض وقويت واستمسكت بها الحوافر والأقدام)) انتهى المراد.

﴿١٢﴾ ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾: في إعانة المؤمنين ليعلم الملائكة فضل ذلك العمل، وأنه يقربهم إلى الله ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ للتثبيت طريقتان:

الأولى: تثبيتهم بالتشجيع، ليثبتوا في مواقعهم ولا يرجعوا عن القتال.

الثانية: إمساك المقاتل ليبقى قائماً لا يسقط مع مصاولة العدو، وهذا تثبيته بتثبيت قدمه وإمساكه قائماً.

﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ بشرى للملائكة بنصر المؤمنين، و﴿ٱلرُّعۡبَ﴾ قال في (لسان العرب): ((الرُّعب، والرَّعب: الفزع والخوف)) انتهى المراد.

وقال تعالى: ﴿سَأُلۡقِي﴾ وفي (سورة الحشر): ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعۡبَ﴾ [آية:٢] وذلك تصوير للرعب، كأنه جسم يلقى ويقذف في القلب، وذلك لإفادة سهولته على الله، أو لإفادة شغل قلوبهم به.

﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي قد أمكن الله منهم بتثبيت المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، فهيأ لكم أن تضربوا ﴿فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ وفوق العنق: هو المفصل بينه وبين الجمجمة، وفي هذا تعليم للمجاهد ليتحرى ذلك المفصل فهو أيسر لقطع الرأس، وهيأ لكم أن تضربوا من الكفار ﴿كُلَّ بَنَانٍ﴾ وهذا يتفق مع فشلهم واتقائهم للسيوف بأيديهم بغير روية فتقطع بنانهم.

والأمر هنا ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ واضربوا عبارة عن تسليط المؤمنين على الكفار وإغرائهم بضربهم بالسيوف؛ وذلك لأن هذا الأمر واقع في حكاية قصة المعركة، والخطاب هنا راجع إلى النبي ص لذكره في أول الآية أي أنت ومن معك، وهذا هو المناسب لتفريع (فاضربوا) على تثبيت الذين آمنوا وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، ولو كان الأمر للملائكة ما تفرع على ذلك.

وقد قالوا في تفسير قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ [آل عمران:١٦٥] قتل المؤمنين للكفار في بدر سبعين منهم، ولو كان الملائكة أمروا بضرب فوق الأعناق ما أبقوا أحداً إلا ضربوا فوق عنقه؛ لأنهم لا يعصون الله ما أمرهم وذلك يستلزم أن المؤمنين لم يقتلوا السبعين من الكفار، فظهر: أن الخطاب بقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ﴾ للنبي ص ومن معه.

بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا

﴿١٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ ذلك المذكور في الآية قبل هذه بأنهم أي الكفار شاقوا الله ورسوله: عادوا الله ورسوله وباينوه، وقد دل على أن محاربة دين الله محاربةٌ لله، كما أن نصر دين الله نصر لله، وذكر الرسول هنا في الموضعين لتأكيد الزجر عن معاداته والدلالة على أنها سبب للعقاب، وفي (سورة الحشر): ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آية:٤] للدلالة على أن العقاب على مشاقة الرسول ص بسبب أنها مشاقة لله تعالى.

فقام قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر:٤] مقام قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ..﴾ إلخ، وقام قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ مقام قوله: يعاقبه عقاباً شديداً، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ تأكيد شديد من حيث دل على أن ذلك صفة له، وأن ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ اسم من أسمائه الحسنى؛ وذلك لأنه من شأنه لعزته وحكمته، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] وعلى هذا فقد أعد للمشاقين عذاب النار مع ما أصابهم ببدر، وفي ذلك قوله تعالى:

﴿١٤﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الخطاب للكفار ﴿فَذُوقُوهُ﴾ الأمر ذلكم ﴿فَذُوقُوهُ﴾ فأنتم مستحقون له بما أجرمتم، وهذا تعبير غضب من الله عليهم، ودلالة على أنه يريد ذلك فيهم لاستحقاقهم له، وهو تصوير لحالهم في المعركة من حيث هم في حالها في غضب الله وعذابه بأيدي المؤمنين، والأمر هنا كالأمر في قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا﴾.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ

﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ عطف على ذلكم، أي أمركم ذلكم ﴿وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ كلِّهم وأنتم منهم، فكأنه قيل: أمركم ذلكم وأن لكم عذابَ النار.

﴿١٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((والزحف: الدنوّ قليلاً قليلاً، وهو الجيش يرى لكثرته، كأنه يزحف أي يدبّ من زحف الصبي على إسته دبّ)) انتهى.

وكأنه حكاية عن الزجَّاج، ونحوه في (لسان العرب) بعضه عن الزجاج وبعضه عن الأزهري، فالمعنى: إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم جيشاً زاحفاً إليكم متقدماً إليكم لقتالكم فلا تفروا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ كناية عن النهي عن الفرار ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ﴾ فلا تجعلوا أدباركم متجهة إليهم، مثل: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤] والأدبار: جمع دبر، وهو القفا أي الخلف، قال الراغب: ((دبر الشيء: خلاف القُبُل وكنِّيَ بهما عن العضوين المخصوصين)) انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم لقاء الكفار زحفاً، يولهم ﴿دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ عن المكان الذي لقي الكفار فيه إلى مكان آخر ﴿لِّقِتَالٍ﴾ أي ليقاتل في طرف آخر، وذلك لأن المكان الآخر أنسب له للقتال ﴿أَوۡ مُتَحَيِّزًا﴾ منظمّاً إلى فئة ليقاتل معهم.

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ

قال الراغب: ((والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد، قال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾)) انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): لقوله الله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ..﴾ الآية [البقرة:٢٤٩] ((فالفئة: الجماعة)) انتهى المراد.

وفي (الكشاف): ((﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ إلى جماعة أخرى من المسلمين)) انتهى المراد، وكذلك قال في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾: ((إذا حاربتم جماعة من الكفار)) انتهى.

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ﴾ رجع متحملاً غضباً ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عليه، باء مغضوباً عليه ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ ومصيره الذي ينضم إليه ﴿جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وتعريف المأوى يفيد: أن لا مأوى له غيره، فهو يفيد: الخلود في جهنم، وهذا وعيد للمسلم إذا فر من الزحف.

﴿١٧﴾ ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ بـ(بدر) ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡ﴾ أي لم تقتلوهم بقوتكم؛ لأنكم كنتم قليلاً، وعدَّتُكم دون عدتهم، فلولا الله هيأ لكم أسباب القتل لهم لما قتلتموهم، فالله قتلهم بأيديكم، كقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤] فالنفي في قوله تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ مجاز، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بِمَيْت إنما الْمَيْت ميِّت الأحياء

﴿وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ الحصباء إلى وجوه العدو فكان لها الأثرُ العظيم في هزيمتهم، فالرمية كلا رمية بالنسبة إلى العادة، ولكن الله جعلها سبباً لما حصل منها من الأثر في الكفار، فكانت رمية

شديدة بصنع الله فيها، فالنفي مجاز كما في ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ وهو هنا أوضح؛ لأن الله قد قال: ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾ فأثبتها ولا تناقض لاختلاف معنى النفي والإثبا، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بِمَيْت ...

ولعل ما ذكرت في تفسير ﴿مَا رَمَيۡتَ﴾ هو مراد القاسم × ، حيث قال ـ كما حكاه الشرفي في (المصابيح) ـ: ((معناه: ما رميت في قلوبهم بالرعب، ولكن الله رمى به في قلوبهم، أي أن الرعب الذي كان عندما رميت الحصباء لم يكن أثراً عادياً، وإنما هو صنع الله في الرمية جعلها سبباً، فالنفي والإثبات اختلف معناهما.

قال الشرفي: وقال ولده محمد بن القاسم × : أن رسول الله ص رمى في وجوههم بكفّ من حصى، ففرق الله ذلك التراب حتى أصاب أعيانهم، وكان ذلك من الله ـ عزَّ وجل ـ)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أن الله هو الذي أيّدك ونصرك)) انتهى، وهذا مثل تفسير الإمام القاسم ذكر فيه حاصل المعنى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : فكان هذا إخبار من الله عزّ وجل لنبيه ص [و] للمؤمنين بما كان من نعمته عليهم في تكثير قبضة الحصي التي رَمَى بها رسول الله ص حتى انتشرت تلك القبضة وكثرت فوقعت في أعين جميع أهل الكفر، فعمّتهم على كثرتهم، وتباعد بعضهم من بعض، فلم يبق منهم رجل بعُدَ ولا قَرُب حتى ملت تلك القبضة عينيه، فوقع الرعب عند وقوعها بهم في قلوبهم فظفر المؤمنون عند ذلك بأعداء الله فكانت هذه الرمْيَة من محمد ص والتكثير لها مع إيقاعها في أعينهم سبباً كان

من الله سبحانه أذل به الكفر والطغيان وأعزّ به أهل الفضل والإيمان، ولم يكن لينال محمد ص بالقبضة التي رمى بها ما نال إلا بفضل الله وتأييده الذي جعله في قبضته التراب حتى بلغت من النكاية لأعداء الله ما كان سبباً لهلاكهم فالحمد لله المعزّ لأوليائه أهل الحمد والتحميد والتوحيد حمد من آمن به واتقاه وآثر في الأمور كلها رضاه)) انتهى.

﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ في (لسان العرب): ((ويقال: أبلاه الله يبليه إبلاءً حسناً، إذا صنع به صُنعاً جميلاً، وبلاه الله وابتلاه اختبره، ثم قال: قال القتيبي: يقال: من الخير أبليته إبلاء، ومن الشر بلوته أبلوه بلاءً، قال: [أي القتيبي] والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً من غير فرق بين فعليهما، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥])) انتهى.

قلت: الراجح: أن المتعدي بالهمزة خاص بالخير بمعنى الإنعام، وغير المتعدي بها مشترك بين الخير والشر بمعنى الإختبار، قال في (لسان العرب): قال ابن بري: والبلاء: الإنعام، قال الله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان:٣٣] أي إنعام بيّن، وفي الحديث: ((من أُبْلِيَ فذكر فقد شكر)) الإبلاء: الإنعام والإحسان، يقال: بلوت الرجل وأبليت عنده بلاءً حسناً، وفي حديث كعب بن مالك: ((ما علمت أحداً أبلاه الله أحسن مما أبلاني)) والبلاء الاسم ممدود، يقال: أبلاه الله بلاءً حسناً وأبليته معروفاً.

قال زهير:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يَبْلُو

أي صنع بهما خير الصنع الذي يبلو به عباده)) انتهى المراد، فالمعنى: وليعطي المؤمنين عطاءً حسناً، أو نحو ذلك.

ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فقد سمع استغاثتهم وعلم صبرهم وصدق نياتهم وأنهم أهل للإبلاء الحسن.

﴿١٨﴾ ﴿ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أمركم ذلكم البلاء الحسن والنصر على أعدائكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿مُوهِنُ﴾ الوهن: ضد الصلابة و ﴿كَيۡدَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ما يعملونه ضد الإسلام والمسلمين من الاحتيال لقهر المسلمين وإبطال الإسلام فأمر المسلمين البلاء الحسن بنصرهم، وأمرهم أيضاً توهين كيد الكافرين، ويحتمل الأمر نصر أولياء الله وإيهان أعداء الله فإيهان أعداء الله الكفار مقصود مستقل، وهذا أظهر، فقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي الأمر والشأن ذلكم البلاء الحسن أن الله بقدرته وحكمته موهن كيد الكافرين لكفرهم؛ ليطهر الأرض من فسادهم.

﴿١٩﴾ ﴿إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡفَتۡحُ﴾ خطاب للكفار يروى أنهم دعوا الله أن يحكم بينهم وبين المؤمنين. إن تطلبوا الفتح فقد جاءكم ﴿ٱلۡفَتۡحُ﴾ القضاء الذي هو إعزاز المؤمنين وإذلالكم.

﴿وَإِن تَنتَهُواْ﴾ عن محاربة الرسول والمؤمنين ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ لأنهم منصورون وأنتم مخذولون ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ لقتالهم ﴿نَعُدۡ﴾ لنصرهم وخذلانكم.

﴿وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ كَثُرَتۡ﴾ ﴿فِئَتُكُمۡ﴾: جماعتكم ﴿ولو كثرت﴾، لن تغني عنكم شيئاً: لن تكفيكم بأس المؤمنين المنصورين أي لن تدفع عنكم شيئاً ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولأن الله مع المؤمنين فهو ناصرهم ومذل من حاربهم.

وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم

﴿٢٠﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ عن الرسول ص ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أمر الله بطاعته واتباعه، وتسمعون القرآن الذي أنزله الله عليه مصدقاً لـه وتسمعون ما وعظكم الله به في كتابه، وهذا تأكيد لوجوب اتباع الرسول ص ليأتمروا بأمره في كل شيء من الجهاد وغيره والتأكيد؛ لأن بعض التكاليف شاقة يحتاجون ليطيعوا ويصبروا عليها إلى تأكيد في الحث عليها ومبالغة، وكان كثير ممن قد أسلم مظنة المخالفة بمثل ما وقع منهم يوم أحد، وما وقع من بعضهم من التخلف عن الجهاد.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا تكونوا كالمنافقين الذين زعموا أنهم يطيعون الله ورسوله ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لا يقبلون كلام الرسول ص وإنما هم مراءون، فهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩].

﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وهم المخذولون الذين لا تنفع فيهم الآيات والنذر فكأنهم صم لكراهتهم سماع الحق وإعراضهم بقلوبهم عنه، والبكم تشبيه بالذين لا يستطيعون النطق، فقد شبه المنافقين بهم في (سورة البقرة) وذلك لكراهتهم النطق بالحق كأنهم لا يستطيعون الكلام وإنما أظهروا الإسلام، فقالوا: سمعنا خوفا من الرسول ص ثم قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنهم أهملوا عقولهم، وتركوا النظر والتفكر والتدبر لآيات الله فكأنهم لا يعقلون، فهم شر الدواب ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٤].

مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ بأن لطف بهم وهداهم لاستماع أمر الله ورسوله، والخير هنا حسن النية ولكنهم لا ينوون الخير ولا يريدونه ﴿وَ﴾ لذلك ﴿لَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾: وهذا يدل على أنهم قد بلغوا في البعد عن امتثال أمر الله ورسوله إلى حدٍ لا يطيعون ولو سمعوا ما يقول لإعراض قلوبهم عنه وكراهتهم له.

﴿٢٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ أجيبوا دعوة الرسول ص إجابة امتثال وطاعة وقبول لدعوته بالعمل لا مجرد القول، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ لأن الإستجابه للرسول ص إستجابة لله ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ﴿إِذَا﴾هي ظرفية بمعنى حين يدعوكم، أي أنه يدعوكم لما يحييكم فسارعوا إلى إجابته ولا تتأخروا، فحين يدعوكم أجيبوا فوراً، وحياة الأفراد حياة القلوب التي تحصل بالإيمان والطاعة والزهد في الدنيا والرغبة في طاعة الله، وحياة المجتمع عزه ونصره وانتظام أمره بالتوحُّد، وطاعة القائد في طاعة الله وجعل أمر الله فوق كل أمر وحُكْمه فوق كل حكم، وذلك يتوقف على حياة القلوب.

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ هذا تحذير من الخذلان الذي يكون بسبب العصيان، فهو كقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩] وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣]

أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم

فالخذلان يؤدي إلى فوات الانتفاع بالقلب في طريق الخير والهدى لإصراره على الباطل وتوجهه إليه وكراهته للحق، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١١٠] فهذه من المتشابه، وقد تكرر نظيرها في (سورة الأنعام).

وقد بينَّا أن ذلك راجع إلى الخذلان وترك الشياطين يزينون له الباطل ويكرِّهون إليه طريق الخير بوسواسهم ومع ذلك بسط النعمة والإملاء، وذلك حق من الله لاستحقاق العاصي المتمرد المصر بعد وضوح الحق له، وفائدة نسبة ذلك إلى الله تعالى الدلالة على أنه غني مع التحذير من معصيته التي تؤدي إلى الخذلان، الذي يترتب عليه فساد القلب وبُعْدُه عن الحق، وقد مرَّ نحو هذا في (سورة الأنعام) فراجعه إن شئت.

﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّهُۥٓ﴾ أن الله ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إليه وحده تحشرون ليجزيكم بما أسلفتم فاحذروا ترك الإستجابة لرسوله ص.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً﴾ تصيب بعضكم بسبب تركهم الإستجابه لرسول الله ص كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣].

﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾: لهم من بين المؤمنين ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ نهيٌ لهم، كقوله تعالى: ﴿لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف:٢٧] أي لا تتعرضوا لها فتصيب من سبب لها وحده دون سائر المؤمنين، والفتنة: ابتلاء كابتلاء أصحاب السبت بالحوت، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] فهي أمر يصعب على العاصي امتثاله، وقد لا يصعب على المؤمن كما يصعب على العاصي؛ لأن المؤمن يستسهل الصعب

مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ

في طاعة الله؛ لأنه يرى الطاعة أهون من العذاب وأهون من فوات الجنة، يرى الطاعة أهون من غضب الله وفوات رحمته ورضوانه، فقد استلان ما استوعره المترفون؛ لأنه عوّد نفسه الطاعة وسيطر على نفسه، والفاجر عوّد نفسه اتباع هوى نفسه وسيطرة نفسه عليه، فكان بعض التكاليف فتنةً له ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩].

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ فطاعته فيما شق على النفس وكَرِهته أهون من عقاب الله بكثير؛ لأن عقاب الله جهنم التي ليس لله فيها رحمة نعوذ بالله منها.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ أي ﴿ٱذۡكُرُوٓاْ﴾ نعمة الله عليكم فلا تقابلوها بالعصيان، فاذكروا حين كنتم قليلاً يراكم أعداؤكم ضعفاء، فهم جريئون على قتالكم لأنهم يستضعفونكم لقلَّتكم، ولما أنتم عليه من الفقر وقلَّة العُدة من الخيل وغيرها، فأنتم في تلك الحال ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ الكفار من كل جانب لكثرتهم، فهناك مشركوا قريش ومن حولهم، وهناك كفار أهل الكتابين، وهناك الدولتان العظيمتان كسرى وقيصر، فأنتم تخافون أن يأخذوكم بسرعة لاقتدارهم وضعفكم فجعل أخذ الناس لهم من كل جانب تخطفاً لسرعته لو وقع وذلك لسرعته مع كثرة الأعداء وقوتهم وقلتكم وضعفكم.

وذلك يدل على توكل رسول الله ص والمؤمنين الصادقين في إيمانهم، ويدل على أنهم كانوا في شدة ففرجها الله عنهم بأن آواهم: جعل لهم مأوى ودار إيمان هي المدينة المنورة التي كانت إليها الهجرة.

و(أيّدهم): أي قوّاهم بنصره، فعزوا بعد الذلة التي هي الضعف، والقلة في حال كثرة الأعداء وقوتهم وجرأتهم على المؤمنين.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فأغناكم عن العيش في دياركم وأموالكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ تعريضاً لكم على شكر هذه النعم العظيمة، فكيف تقابلون أنعمه عليكم بمعصية رسوله، وهذا تأكيد لحثهم على طاعة الرسول في كل شيء؛ ولعل ذلك لأنهم يستقبلون مشاق الجهاد وحالات رغبة تدعو إلى معصية الرسول ورهبةٍ كذلك فقَبْلَهم يوم (الخندق) ويوم (الأحزاب) ويوم (مؤتة) ويوم (خيبر) ويوم (حنين) فيظهر: أن هذه التأكيدات المتظاهرة من أجل ما يستقبلون لا لمجرد الخلاف على الغنيمة يوم بدر.

﴿٢٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ الخيانة لله ورسوله: مخالفة ما يظهرونه من الالتزام بطاعة الله ورسوله والنصح لله ورسوله إلى خلافه، وذلك يكون بصور:

منها: موادّة الكفار سراً.

ومنها: وعدهم بالكون معهم سراً أو بتخذيل المؤمنين أو بخذلان المؤمنين.

ومنها: التناجي بمعصية الرسول في الخفاء.

ومنها: الإرجاف بهجوم الكفار وكثرتهم وقوتهم.

ومنها: التخلف عن الجهاد عقيب إظهار العزم والوعد به كما رجع بعضهم يوم أحد من الطريق.

ومنها: كتمان ما يجب إبلاغ الرسول ص ومَن معه ليحذروه.

ومنها: الغلول.

وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو

وكلٌّ خيانة للرسول ص فهي خيانة لله تعالى؛ ولعل ذلك سبب قوله تعالى: ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي لا تخونوه بخيانة الرسول ص وذلك لأن السر والعلانية سواء عند الله، فمن أخفى منه كمن جاهر، ومن وعد ثم أخلف كمن أعلن بالخلاف من قبل، ولا تكاد تتصور خيانة لله حقيقية، فظهر أن المعنى لا تخونوا الله بخيانة الرسول ص.

ويمكن أن يدخل في خيانة الله ما صورته الخيانة له، لكنه مجاز كإفطار الصائم خفية، والصلاة بعد انتقاض الوضوء بما يخفى، وترك غسل النجاسة التي لم يعلم بها الناس، و ترك الغسل من الإحتلام، والرئاء في العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ﴾ أي لا تخونوا فيما ائتمنتم عليه من وديعة أو جوار أو صحبة في طريق أو قرض أو وصية أو رسالة أو مشورة أو مجلس قيل فيه سر ائتماناً للحاضر وغير ذلك ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك معصية لله تعالى، وتعلمون وعده ووعيده وما يوجب اجتناب الخيانة من فوائد الطاعة ومضار المعصية.

﴿٢٨﴾ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء أي اختبار، فالمؤمن يطيع الله ولا يعصيه ولا يخون الله ورسوله من أجل مال ولا ولد، لأنه يعلم أنهم فتنة له ويعلم أن الله عنده أجر عظيم خير من الأموال والأولاد، ويخشى الله ويتقيه فلا يخونه لحماية مال أو ولد، بل يطيع الله وينصح له ويتوكل عليه في شأن المال والولد، والفاجر بخلاف ذلك يغلبه حب المال أو الولد؛ ولذلك قال أمير المؤمنين × : ((أنا يعسوب المؤمنين، والمال يعسوب الفجار)).

ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ
تُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ

ولعل بعض العامة قد فتنوا بالمال ففسدت نياتهم في معاونة أهل الدين في حال إظهارهم أنهم مازالوا معهم، وذلك من خيانة الله ورسوله، وصَدَق أمير المؤمنين × : ((المال يعسوب الفجار)) وحقيقة اليعسوب: أمير النحل الذي تتبعه أينما كان أي ما يسمى (أبو النُّوب) والنُّوب اسم عربي.

﴿٢٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هذا من جملة الحث على طاعة الله ورسوله ص والترغيب في تقوى الله ليستعد المؤمنون لها تمام الاستعداد، إن تتقوا الله كما أمرتم في الآيات الماضية، فتتقوا الفرار من الزحف، وتستجيبوا لله ورسوله إذا دعاكم لما يحييكم، وتجتنبوا الخيانة لله ورسوله، وتطيعوا الله كما أمرتم، فإنه سبحانه ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ يفرق بين حالكم اليوم وحالكم في المستقبل حين تقومون بواجبكم في طاعة الله ورسوله ص، كما وعد في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور:٥٥].

فمن الفرقان: إظهار دينهم على الدين كله، وأمنهم بعد الخوف وتمكينهم في الأرض، ورزقهم، وكشف الشدة عنهم، ومن الفرقان: زيادتهم هدى إلى هداهم وعلماً إلى علمهم بما يتنزل من القرآن وسائر الوحي على رسول الله ص، ومن الفرقان: تنوير قلوبهم وتقوية بصائرهم بحيث يتبين الفرق بسبب صبرهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] فيزدادون فهماً لكلام الله ورسوله.

ومن الفرقان: جودة الرأي والتدبير بما يحصل لهم من ممارسة الحرب ومقاومة أعداء الله، ومن الفرقان: القوة على تحمل الشدائد بسبب تعود ذلك والتمرن عليه، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

فبذلك كله يحصل لهم الفرقان بين حالتهم يوم نزول هذه الآية، وحالتهم يوم يعطيهم الله ما وعدهم من الفرقان، وليس يتوقف كله على التقوى والاستمرار عليها طول حياة الرسول ص بل كلما ازدادوا ثباتاً على التقوى حصل لهم فرقانٌ، أي نوعُ فرقان، وعلى هذا فقد كان عصيانهم للرسول ص عن إنفاذ جيش أسامة ممن تحتم عليهم الوجوب كانت المعصية سبباً لفوات بعض الفرقان.

وقوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فذلك فيما تقدم قبل التقوى، وفي الصغائر التي لا تنافي التقوى، وهي عندنا الخطأ والنسيان والمكره عليه فيما قد أمكن التحفظ منه، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ زيادة ترغيب في التقوى؛ لأنها سبب لفضل الله وفي الآخرة بمضاعفة الحسنات والتفضُّل العظيم.

﴿٣٠﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ واذكر إذ يمكر، ففيه عبرة لك؛ لأن الله حفظك وسلمك من مكرهم،، ومكرُهم هذا تآمرهم على رسول الله ص ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ليقيدوك)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): وذلك أن قريشاً تآمروا في دار الندوة على رسول الله ص فقال هشام بن عمر[و]: قيدوه واحبسوه في

عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَـٰذَآ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ

بيت تتربصون به ريب المنون، وقال أبو البختري: أخرجوه عنكم على بعير مطروداً تستريحون من أذاه لكم، وقال أبو جهل: ما هذا برأي، و لكن اقتلوه بأن يجتمع عليه من كل قبيلة رجل فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد فيرضى حينئذ بنو هاشم بالدية، فأوحى الله ـ عزَّ وجل ـ إلى نبيه بذلك، فخرج إلى الغار ثم خرج مهاجراً إلى المدينة)) انتهى.

﴿وَيَمۡكُرُونَ﴾ أي مكراً غير ذلك، فلم ينالوا ما أمَّلوا بل ﴿يَمۡكُرُ ٱللَّهُ﴾ بهم حين يمكرون، فهو يملي لهم ويهيئ لهم أسباب الهلكة والكبت حتى قُتِلوا ببدر وغيرها وأذلَّهم الله ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَـٰكِرِينَ﴾ لأن مكره عدل وإحسان مع الإعذار والإنذار وإيضاح الحجة.

﴿٣١﴾ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَـٰذَآ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ قولهم: ﴿قَدۡ سَمِعۡنَا﴾ تقدمةٌ لقولهم: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَـٰذَآ﴾ أي أنهم قالوا: لو نشاء لقلنا مثل هذا بعد سماعهم له ومعرفتهم له، وهم كاذبون فإنهم لا يأتون بمثله ولو استطاعوا لكان ذلك أيسر من محاولة حبسه أو طرده أو قتله وأيسر من قتاله ببدر وأحد وحنين، وتحمل المشقة يوم الأحزاب.

وقولُهم: ﴿إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ كذب وتكذيب وإعجازه لهم يكذبهم، والأساطير: جمع أسطورة وهي ما سطر من القصص.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَإِذۡ﴾ أي واذكر إذ ﴿قَالُواْ﴾ أي

ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا

الذين كفروا: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي يا الله ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي القرآن، أو إرسال محمد ص ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ..﴾ يريدون بذلك الصدّ عنه ودعوى أنهم يعلمون أنه باطل؛ لأنهم لا يدعون على أنفسهم بزعمهم إلا وقد علموا أنه ليس الحق، وهذا لشدة حرصهم على إبطال أمره وتكذيب ما جاء به من الآيات.

﴿٣٣﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ لأن الرسول ص أرسله الله نذيراً لهم، ومعاجلتهم بالعذاب تبطل فائدة بقاء الرسول فيهم ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فمن علم الله أنه يتوب لا يعاجله بالعذاب، وهذا يشير إلى أن فيهم من يتوب.

﴿٣٤﴾ ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ فهم مستحقون للعذاب، إنما يؤخره الله عن وقت طلبهم له لحكمةٍ في التأخير، وصدُّهم عن المسجد الحرام منعُهم لرسول الله ص حيث اضطروه إلى الخروج من مكة وأخافوه في الحرم.

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانُوٓاْ﴾ أي وما كان الكفار أولياءَ المسجد الحرام، إن أولياءُ المسجد الحرام أي ما أولياء المسجد الحرام ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ وفي هذا دلالة على أن الظلمة لا ولاية لهم على الأمة الإسلامية؛ لأنهم لا يصلحون لولاية المسجد الحرام، فكيف يصلحون لولاية المساجد كلها، والمدارس والمصالح الدينية كلها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ﴾ أكثر الكفار ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قد غلب عليهم الجهل والبعد عن فهم الحق.

كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ **فكيف يكونون أولياءَ البيت وما دينهم إلا لعب** ﴿مُكَآءً﴾ **أي صفيراً ونحوه.**

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالمكاء: الصوت والصفير، والصوت يصفر كما يصفر المُكَّاءُ وهو طائر، والتصدية: التصفيق بالأكفّ)) انتهى.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ **ببدر** ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ **وهذا بَعْد خروج الرسول ص من مكة وهجرته، فبطل أمانهم بقوله:** ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ **وهو ـ أيضاً ـ في كفار لا يستغفرون؛ لأنهم قد خُذِلوا فما كانوا ليؤمنوا، ففاتهم الأمان الثاني، وقد كان ما نزل بهم في بدرٍ عذاباً؛ لأنه جمع القتل والإهانة مع الكبر المتأصل في صدورهم والإغاظة لشدة عداواتهم لرسول الله ص فغاظهم القتل والأسر والهزيمة والإذلال، وهذا عذاب عاجل** ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧].

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **كما أنفقوا يوم بدر ليقاتلوا النبي ص محاربة لدين الله ليصدوا الناس عن اتباعه.**

﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ **في المستقبل كما أنفقوها يوم بدر** ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ **لحبهم المال**

بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ

مع ظنهم خيبة الأمل حين يرون النبي ص يزداد قوة وأنصاراً ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ وذلك يوم فتح مكة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ فعاقبتهم الخسران المبين والشقوة الدائمة.

﴿٣٧﴾ ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ هذه حجة لإثبات الحشر إلى جهنم، وهي أن الله بحكمته يميز بين المسلم والمجرم، بين المؤمن والفاسق، قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ﴾ وهذا إشارة إلى كثرة أهل النار، فالله بعزته وحكمته يجعل بعضهم على بعض ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ لكثرته وتزاحمه حتى يكون ركاماً مجموعين بلا تخلل بل بعضهم مضموم إلى بعض، كما تركم الأدوات في المكان الضيق؛ ولعل هذا بعد سَوقهم إلى جهنم يحشرون حولها بهذا الشكل إهانةً لهم وتنزيلاً لهم منزلة الجمادات المركومة، فأولاً ميزهم من بين المؤمنين بسوقهم من محل الجمع، فجمعهم حول جهنم، فجعلهم في جهنم؛ لأنهم جنس خبيث.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الخاسرون الخسارة العظمى، فاتَهم كلُّ خير وصاروا في عذاب دائم.

﴿٣٨﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ هذا دفع لتوهم الكفار من قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أنها لا تقبل لهم توبة في الدنيا، فإنهم إن ينتهوا عما نهى الله عنه مما هم عليه من الباطل بأن يسلموا ويؤمنوا يغفر لهم ما قد سلف منهم من الشرك وغيره.

ويحتمل: إن ينتهوا عن محاربة الرسول ص يغفر لهم في الدنيا ما قد سلف، أي لا يُعاجَلون فيها بهلاك أو عذاب من أجل ما قد سلف منهم إمهالاً لهم لِيَنظروا حين يرون إظهار الله لدينه، وهذا مغفرة كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ..﴾ الآية [الكهف:٥٨] وهذا أقرب.

﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ لإصرارهم على باطلهم إلى قتال الرسول ص ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بإهلاك الكفار المقاتلين لأنبيائهم، فلن تجد لسنة الله تبديلا، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥] فلا بد من هلاكهم إن لم يتوبوا وإن اختلفت مدتهم، فبعضهم ببدر وبعضهم في أحد، وبعضهم في الخندق، وبعضهم في حنين، وبعضهم يوم الفتح، وبعضهم فيما بين ذلك، أو ما بعده عقاباً عاجلاً في الدنيا لكل بما يستحق من التعجيل.

وفي هذه الآية على ما ترجح من تفسير ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ دلالة على أن الحرب في أول الإسلام كانت دفاعية حتى نزلت (براءة) ولم يبق من المشركين إلا متمردٌ عدوٌ للإسلام، وقد عرف الحق أو معرض عن النظر متمرد في إعراضه عدو للإسلام أيضاً، فنزل الأمر بالقتال بقوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ..﴾ الآية [التوبة:٣-٥] فهي ثلاث مراحل:

مرحلة الكف عن القتال وهي بمكة وأول الهجرة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ..﴾ الآية [النساء:٧٧] **ومرحلة** القتال للدفاع بـ(بدر) و(أحد) و(الخندق) ونحوها، **ومرحلة** القتال بحكم الله رب العالمين من بعد (براءة).

فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ

ولا موجب لجعلها كلها دفاعية؛ لأن الله يحكم ما يريد، ويحدث من أمره ما يشاء، وقد أحدث الأمر بقتال المشركين مطلقاً في (براءة) فإن أريد بكونها دفاعية أن قتال المشركين لم يشرع إلا لعداوتهم للإسلام والمسلمين، وأنهم كلما تمكنوا قاتلوا المسلمين وليس المراد بكونها دفاعية أن المسلمين لا يُقاتِلون إلا إذا قوتلوا فيقاتِلون لمجرد الدفاع لمن قاتلهم، فإذا لم يكن هذا هو المراد بكون الحرب كلها دفاعية، فالخلاف لفظي أو قريب من الخلاف اللفظي.

فإن *قيل*: فالمشرك القوي السليم من العوائق كالعمى ونحوه لو أعلن أنه لن يقاتل المسلمين ودعا إلى السلم هل يقبل منه ذلك؟

فالجواب: أنه إن كان ممن استُثنِي وهم الرهبان المتخلون للعبادة فنعم يترك وإلا لم يصدق في دعواه ودعوته إلى السلم؛ لأنه مع شركه وإصراره على الشرك لا بد أن يكون عدواً للمسلمين، وإنما يدعو إلى السلم لعجزه، نعم من دعا إلى السلم، وهو يستطيع الحرب، فمن الرأي مصالحته صلحاً مؤقتاً إلا أن يظهر منه إرادةُ الخيانة، وذلك جائز لمصلحة الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ كما يأتي في هذه السورة، ولعله يأتي مزيد تحقيق إن شاء الله في تفسير (براءة).

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ إن لم ينتهوا ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ حتى لا يفتن مسلم ليرجع عن الإسلام كما كان الكفار يصنعون بالمسلمين في مكة ﴿وَ﴾ حتى ﴿يَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ بأن تغلبوهم فيسلموا أو يقتَلوا، وهذا فيمن بدأ بالقتال إذا لم ينته بعد نزول قوله تعالى: ﴿إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ .

﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ بعد الحرب الأولى ولم يعودوا لقتال المسلمين ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فهو يحاسبهم ويجازيهم بما أسلفوا وما يكون منهم في المستقبل وأمرهم إليه.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عما دعوا إليه من الكف عن قتال المسلمين ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي فاعلموا لتقاتلوهم كما أمرتم، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، وارجوا النصر من الله الذي هو ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ متولي أموركم ومحسن رعايتكم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنه رحيم بالمؤمنين وعلى نصرهم قدير ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لأنه الغالب على أمره.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ أمرهم بالعلم؛ لأنهم إذا علموا سهل عليهم الانقياد لحكم الله ولئلا يتهموا الرسول ص بظلم إذا أخذه ولم يقسمه عليهم مع الغنائم.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فليس سبيله أن يقسمه بين الغانمين كما يفعل بالأربعة الأخماس، بل عليه أن يخص الأربعة الأصناف فيعطيهم من الخمس، أما الأربعة الأخماس فهي وإن كانت له، لكنه يقسمها أو يضعها في مصلحة عامة، أما الخمس فهو له، وعليه أن يعطي الأربعة الأصناف، الأول ذو القربى وهو قريبه من النسب وهم بنو هاشم، وقالوا: أعطى معهم بني المطلب لاتصالهم ببني هاشم، وهذا يناسب أنه له، وإنما يعطي الأربعة بعد ملكه له.

﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ﴾ الذين قتل آباؤهم أو ماتوا وهم لم يبلغوا الحلم، فهو تأنيس لهم وجبر ليتمهم؛ ولعل سببه أن أكثرهم قتل آباؤهم في سبيل الله، ولكن العام لا يقصر على سببه ﴿وَٱلۡمَسَـٰكِينِ﴾ أضعف حالاً من الفقراء، فحاجتهم شديدة ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر فيعطى بقدر حاجته.

هذا والغنيمة ما يستفاد من أموال العدو بالقتال كما في هذه الآية، فهي في سياق القتال، وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ أي مما أخذتم من أموال العدو بالجهاد، وفي الحديث: ((وأحل لي المغنم ولم يحل لأحد قبلي، قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ..﴾ الآية)) انتهى.

رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): عن أبيه، عن جده، عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله ص.. الحديث، وخرَّجه في (شرحه) عن علي × وعن ابن عمر، وعن جابر، وعن أبي هريرة.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ فذلك كله يفيد: أن المغنم هو المستفاد من مال العدو بالجهاد، أما سائر المستفادات بالتجارة أو الإجارة أو الزراعة، فلم يكن في حلها إشكال ولم تكن محرمة على الأولين، وفي (معلقة عنترة):

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وفي (لسان العرب): ((وقد تكرر في الحديث ذكر الغنيمة والمغنم والغنائم وهو: ما أصيب من أموال أهل الحرب، وأوجف عليه المسلمون الخيلَ والركاب)) انتهى.

ولا إشكال أنه قد يستعمل (الغُنْم) ـ بضم الغين، وسكون النون ـ في الفائدة ضد (الغُرْم) لكن الراجح: أن المعنى الأصلي للغنيمة والمغنم هو ما ذكرت.

واستعمال (الغنم) في الفائدة توسُّع إما مجازاً وهو الراجح كما قيل: الصوم في الشتاء غنيمة باردة، ولو كان مجردُ الاستعمال ولو مع القرينة يصير اللفظ حقيقة لَما بقي في اللغة مجاز، وإما حقيقة في لفظ (الغُنم) ـ بضم الغين ـ خاصة لا في الغنيمة والمغنم وغَنِم، ولا ينافي هذا وجوب الخمس في غير ما أخذ من مال العدو المقاتلين كالرِّكاز؛ لأنه لا تلازم بين وجوب الخمس واسم الغنيمة ووجوب الخمس في غير الغنيمة بدليل آخر.

وأما قول الراغب: ((الغَنَم معروف.. إلى قوله: والغُنم إصابته والظفر به، ثم استعمل في كل مظفور به من جهة العِدَى وغيرهم)) انتهى، فقد خلط الحقيقة بالمجاز، كقوله في تفسير الأب: ((الأب الوالد، ويسمى كل من كان سبباً في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره أباً، وكذا قال في تفسير الإبن، ويقال: لكل ما يحصل من جهة شيء أو من تربيته أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره هو ابنه)) انتهى المراد.

فلا حجة في كلامه لإثبات أن الغنم حقيقة في كل مستفاد، ولا نكره ثبوت ذلك لو ثبت فإن أكثر الهاشميين من الزيدية في أبين الحاجة إلى خمس الأرباح؛ لأنهم قد منعوا الزكاة فصاروا لا ينالون زكاة ولا خمساً إلا نادراً لا يخلصهم من الفقر، لكن الحق عندنا أن خمس الأرباح ليس من خمس الغنائم، والحق أحق أن يتبَع، ويمكن أن يحتج عليهم بما في (الكافي) بسنده عن العبد الصالح قال: ((الخُمس من خمسة أشياء: من الغنائم، والغوص، ومن الكنوز، ومن المعادن، والملاحة)) انتهى، فجعل الغنائم غير المستفادة من الأربعة المذكورة، فظهر: أنه المأخوذ بالقتال من مال العدو.

وفي (مجمع البيان) للطبرسي في تفسير هذه الآية: ((الغنيمة ما أخذ من أموال أهل الحرب من الكفار بقتال، وهي هبة من الله تعالى للمسلمين،

والفيء: ما أخذ بغير قتال، وهو قول عطاء ومذهب الشافعي وسفيان، وهو المروي عن أئمتنا (عليهم السلام)) انتهى المراد.

ثم قال الطبرسي: ((وقال أصحابنا أن الخمس واجب في كل فائدة تحصل للإنسان..)) إلى قوله: ((..ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية، فإن في عرف اللغة يطلق على ذلك اسم الغُنم والغنيمة)) انتهى.

قلنا: قد أقر بالمعنى الحقيقي، ولم يثبت المعنى العرفي؛ لأن الإستعمال مع القرينة لا يدل على أنه حقيقة، هذا والطبرسي من الإمامية فلا يحتج بدعواه العرف.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فذوا القربى: مَن بينه وبين رسول الله ص قربى النسب؛ لأنه ذكر عقيب ذكر الرسول ص، فكأنه قيل ولذي قرباه، مع أن المفروض أن الرسول ص هو الذي يعطي ذا القربى، فإذا شرع له أن يعطي ذا القربى كان الظاهر أنه ذو القربى من رسول الله ص وهو يعم كل واحد منهم؛ لأنه اسم جنس مضاف، ولو كان خاصاً بالإمام لما كان لفاطمة منه شيء، والرواية تدل على أن رسول الله ص كان يعطي سهم ذوي القرابة قرابته ـ أي كلهم ـ فدعوى أن ذا القربى هو الإمام خلاف الظاهر، وإفراده كإفراد ابن السبيل.

وأما اليتامى والمساكين وابن السبيل فظاهر ما روي عن زين العابدين × : ((هم يتامانا، ومساكيننا، وابن سبيلنا)) محمول على إيثارهم عند الحاجة لتحريم الزكاة عليهم، فيدل ذلك على أن المراد جنس اليتامى والمساكين وابن السبيل على حسب ما يراه الرسول ص من تعميمٍ للصنف الواحد أو تخصيصٍ لبعضه كما في الزكاة.

فأما السبب في إفراد ذي القربى وابن السبيل، وجمع اليتامى والمساكين فلعل ـ والله أعلم ـ كلمة (ذي) للصنف جعل كالشيء الواحد؛ لأن ذا تصلح للفرد وللجماعة إذا أضيفت إلى ما هو للفرد والجماعة إذا جعلت الجماعة شيئاً واحداً مثل فريق وصنف وطائفة؛ ولذلك أطلق (ذات) على الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ فكأنه على هذا قيل: وللفريق ذي القربى، أو أُفرد لإثبات أن الواحد مع القربى أهل للعطف عليه بسبب القربى، أو ليلفت السامع إلى القربى الباعثة على العطف، ولا يتجه ذهنه إلى قلة أو كثرة.

وقد أفرد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى..﴾ [النحل:٩٠] وفي (سورة سبحان): ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [آية:٢٦] والظاهر أنها معطوفة على الأمر في الوالدين، وفي الوالدين: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾ [آية:٢٣] فليست في الرسول ص، فأما (آية الروم): ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [آية:٣٨] فروى في (شواهد التنزيل) بسنده عن ابن عباس: ((أنها لما نزلت دعا رسول الله ص فاطمة وأعطاها فدكاً، وذلك بصلة القرابة)) انتهى.

وأما ابن السبيل فقد أفرد في القرآن في كل موضع، ولعله لقِلَّته يوم نزولها أو لأن المنفرد هو مظنة الانقطاع بخلاف من له أصحاب في السفر.

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ هذا حث عظيم على العلم بفريضة الخمس يفيد أن من لم يعلم بها بعدما حكم الله بها فليس مؤمناً بالله؛ لأن من شأن المؤمن أن يعلم أن حكم الله هو الحق.

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي وآمنتم بما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم بدر، والفرقان هو نصر الله للمؤمنين فرَّق به بين حالهم قبل

أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ

المعركة وحالهم بعدها، وفرق به بين المجاهدين في سبيله والذين كفروا الصادين عن سبيله، وبين الحق والباطل ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ من الوحي ومن الملائكة، وفائدة ذكر الإيمان بالملائكة المنزلين ببدر تذكر تلك النعمة العظمى ليشكروا الله ويسلّموا لحكمه في الغنائم، فلولا نصره ما غنموا.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي جَمْع المؤمنين وجمع الكافرين للقتال ببدر وهو تفسير ليوم الفرقان ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فتوكلوا عليه وارجوا منه النصر والغنائم في المستقبل.

﴿٤٢﴾ ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اذكروا إذا أنتم أيها المؤمنون بعدوة الوادي ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ القريبة إلى طريق المدينة.

قال في (الصحاح): ((والعِدوة والعُدوة: جانب الوادي وحافته، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾)) انتهى المراد، وأعتقد أن المراد بجانب الوادي وحافته وشاطئه هو المرتفع عن يمين الوادي والمرتفع عن يساره كل واحد عدوة.

﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ ﴿وَهُم﴾ أي الذين كفروا في العدوَة القصوى بالنسبة إلى المدينة أي البعيدة، فقد قربوا إليكم وقربتم إليهم وتراءيتم ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ ﴿ٱلرَّكْبُ﴾ العير الذين هم إحدى الطائفتين غير ذات الشوكة، سارعتم لأخذها وسارع الكفار لحمايتها.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ للقتال من دون هذا السبب ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ والاختلاف يكون في الزمان أو في المكان أو فيهما معاً؛ لأن كلاً من الفريقين يراعي ظروفه وينظر لما يناسبه من الزمان والمكان، فمثلاً المسلمون يريدون تأخير الميعاد حتى يكثروا وتتوفر لهم العُدّة من الخيل والنفقة، والكفار يريدون التعجيل قبل أن يتقوى المسلمون.

﴿وَلَكِن﴾ هيّأ الله لقاءكم بلا مواعدة بل على الحال التي وقع عليها بسبب الركب الذين أسفل منكم ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ يوقعه ويتمه وهو الأمر واحِدُ الأمور وهو إظهار دينه ونصر نبيه وإعزاز أوليائه ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ كان واقعاً لا بد من وقوعه.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ليصير للعذاب مَن هلك بالكفر وصار مستحقاً للعذاب ﴿عن بينة﴾ للحق قاطعة لعذره فلا يبقى له يوم القيامة دعوى أنه كان غافلاً لم يأته من الله بيان.

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ توجب له صحة العقيدة وتهيئ له الثبات على الحق، وهذه الحياة حياة القلب بالإيمان الصادق، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا..﴾ الآية [الأنعام:١٢٢].

وفي (المصابيح) للشرفي / : ((عن الحسين بن القاسم إ : وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغرّ التي من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه ففيه أوضح دليل لكلّ من الفريقين على أمر دينه وذلك أنه لا شك أن عسكر الرسول ص في أول الأمر كانوا في غاية من الضعف والخوف بسبب القِلّة وعدم الأهبَة ونزلوا بعيداً من الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رمليّاً تغوص فيه أرجلهم.

أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۗ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا

وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العَدد وحصول الآلات والأدوات وأنهم كانوا قريباً من الماء؛ ولأن الأرض التي كانوا عليها كانت صالحة للمشي؛ ولأن العِير كانوا خلف ظهورهم وكانوا يتوقعون مجيء العدو ساعة فساعة، ثم إنه تعالى قلب القصة وعكَس القضية وجعل الغلبة للمسلمين والدمار على الكافرين، فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات على صدق محمد ص فيما أخبر عن ربه من وعد النصر والفتح والظفر)) انتهى المراد.

قلت: وقد كان من أسباب الضعف لولا النصر من الله غلبة العدوّ على الماء ومشاهدة المسلمين لكثرة العدو وخيلهم ونحرهم للإبل ليأكلوا، فهذا لولا النصر كان من أسباب الضعف النفسي، والآيات القرآنية توضح الآيات الكونية في بدر ومن أجل بدر ما مر من الآيات في هذه السورة ومايأتي.

﴿٤٣﴾ ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ هذه الرؤيا كان تأويلها قلة الكفار وضعفهم في جنب ما يجعل الله للمسلمين من الإمداد والنصر، فلم تكن خبراً بظاهرها؛ لأن هذا شأن الرؤيا أن يكون لها تأويل هو مصداقها، ولكن من طبيعة البشر توهم ظاهرها وتوقعه أو ما يقرب من ظاهرها لسبقه إلى الخيال قبل تأويلها الصحيح، فلذلك صح أن يري الله رسوله ص في المنام قلة المشركين.

وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ

﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ لغلبكم الخوف من كثرتهم مع قلتكم وقلة عُدّتكم ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ بسبب شدة الحال وفرط الإهتمام، فمثلاً يقول قائل: لا نلاقيهم بل نقف حتى يأتونا أو يرجعوا، ويقول آخر: لا بد من لقائهم لئلا يروا أنا قد جبنّا فيتجرءوا علينا أشد، ويقول آخر: إن لي عذراً في التخلف، ويقول آخر: إما أن نلقى كلنا وإما أن نقعد كلنا، والتنازع سبب للفشل فينضاف فشل إلى فشل.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ سَلَّم المؤمنين من هذا الفشل وهذا التنازع ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالخفية مما في الصدور، فهو يعلم أسباب قوة القلوب وأسباب ضعفها.

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ إذا التقيتم على العُدْوتين فتراءيتم وذلك قبل اختلاط الفريقين ليتشجع المؤمنون برؤيتهم للكفار قليلاً، ويتجرأ الكفار ويطمعوا في قتل المؤمنين وأسرهم ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا﴾ إذا اختلط الفريقان ينصر دينه ويحق الحق ويبطل الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ هي إراءة جملة الكفار مصغرة وليست إراءة تفصيلية تحقق كل فرد منهم بعينه، ومثل هذا يغلط فيه البصر، يرى الكبير صغيراً أو الصغير كبيراً؛ لنوع من البعد مع الشمس والسراب أو الغبار، وكما يرى في المرآة المصغِّرة للشيء والمرآة المكبِّرة لسبب في المرآة فلا تفيد الجزم والقطع بقلتهم، ولكنها تشجع المؤمنين بتخيلهم قليلاً.

ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ لأنه القادر على كل شيء والعالم بكل شيء، فشأن المؤمن أن يُرجع أموره إليه ويتوكل عليه إذا كان مجاهداً في سبيله أو كان في طاعة لربه فلا يتحول عنها لوسواس الشيطان وتخويفه، بل يتوكل على الله، فهو الذي ينبغي أن يتوكل عليه المتوكلون، وهذا من إعداد المؤمنين للجهاد في المستقبل.

﴿٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿إِذَا لَقِيتُمْ﴾ للقتال ﴿فِئَةً﴾ جماعة تريد قتالكم فاثبتوا في محل القتال، لا تفروا ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ حال اللقاء ذكراً ﴿كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تظفرون بالخير، فذكر الله يعين على القتال: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

﴿٤٦﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فذلك من أسباب النصر، والمعاصي تضعف المجاهد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥].

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وكفى بهذا تحذيراً من التنازع، وإنما ينبغي للمجاهدين إذا عرض الخلاف أن يُحكِّموا قائدهم فيما يتعلق بالقتال ويرجعوا إلى رأيه ولا يصرّ أحدهم على الخلاف، فأما التنازع في أمر آخر فيؤخر لما بعد القتال إن أمكن تأخيره وإلا قطع النزاع بحكم مَن صَلَح للحكم فيهم أو صُلْحٍ من يُصْلح بينهم وإلا فقد عصوا ربهم، والمسؤولية على من أصر على النزاع.

تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ

وقوله تعالى: ﴿فَتَفْشَلُواْ﴾ قال الراغب: الفشل ضعف مع جبن، وقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ نشاطكم للقتال وتهيئة النصر لكم؛ ولعله تشبيه بالريح المبشرة بالمطر، فيكون معنى الريح العلامات المبشِّرة بالنصر من نشاط المجاهدين وتآخيهم وتوحّدهم وقوتهم وثباتهم، وظهور خلاف ذلك من أعدائهم ـ والله أعلم.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: تنقطع دولتكم)) انتهى، ولعله يعني بالدولة إقبال النصر والغلبة ـ والله أعلم.

﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهذا من التعليم لأسباب النصر، فلا بد من الصبر وتحمل مشقة الجهاد، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ دليل على أن الله يعينهم ويهيئ لهم القوة ويقويهم، وهذا وعد مؤكد وقد مر في (قصة طالوت): ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤٩] وفي (آل عمران): ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آية:١٢٠] وفيها: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آية:٢٠٠] وفيها: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ..﴾ [آية:١٢٥] وفيها: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آية:١٤٦] وفي (سورة الأعراف): ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [آية:١٢٨] وفيها: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [آية:١٣٧].

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ قال في (الصحاح): ((البَطَرَ: الأشَر، وهو شدة المرح، وقال في تفسير المرح: شدة الفرح والنشاط)) انتهى، وهذا يناسب ما روي: أن قريشاً خرجوا إلى بدر معهم القيان والمعازف يشربون الخمور وتعزف عليهم القيان .

وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ

وقال الشرفي في (المصابيح): البطر: ((وهو الطغيان في النعمة)) انتهى المراد، وذكر (صاحب لسان العرب) خلافاً في معنى البطر ـ ثم قال ـ: وقال الزجاج: البطر الطغيان عند النعمة ـ ثم قال ـ: وبطر النعمة بطراً فهو بَطِر لم يشكرها)) انتهى المراد، وهذا يناسب طغيان قريش عند خروجهم إلى بدر في ثروتهم وقوّتهم، فالبطر قد كان منهم على المعنيين ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي ليراهم الناس فيعتزّوا بذلك عند الناس، فلا تكونوا مثلهم في خروجكم للجهاد، بل أخلصوا النية لله، واذكروا الله كثيراً.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فهم يقاتلون في سبيل الشيطان، فلا تكونوا مثلهم، وكل من قاتل في نصرة الباطل فهو يصد عن سبيل الله، أي يمنع عن دين الله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ فلا يفيدهم ما يعملون عزة ولا غلبة للحق وأهله، لأنه محاط بقدرة الله وعلمه وعزته وقهره.

قال بعض المفسرين ـ ونعم ما قال ـ: ((وقد اشتملت هذه الآيات الثلاث على أمور ستة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلامية عند اللقاء: وهي الثبات، وذكر الله كثيراً، وطاعة الله ورسوله، وعدم التنازع، وأن لا يخرجوا بطراً ورئاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، ومجموع الأمور الستة دستور حربي جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربية شيئاً..)) إلخ.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ ﴿وَإِذْ﴾ هذه وما قبلها كلها بمعنى يوم خروجهم ومصيرهم للقتال الذي كان ببدر أو متعلقة به، وتزيين الشيطان إن كان من

شياطين الجن فهو بوسوسته لهم، وإن كان من شياطين الإنس فبقوله لهم: إنهم قد أصابوا الرأي بما عملوا من جمع الناس، وترغيبهم باللهو، وتوجههم لقتال المسلمين ونحو ذلك.

ومما زين لهم قوله: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ لكثرتكم وقوتكم، قوة القلوب وقوة الأبدان وقوة السلاح، وقوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي أنكم أقوى من كل من حولكم من الناس من المسلمين وكنانة، وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ يفيد: أنه من شياطين الإنس، وأنه يجيرهم من أصحابه، فلا يقاتلونهم ليفرغوا لقتال المسلمين، ولعل هذا الشيطان هو سراقة بن خثعم، الشاعر الكناني الذي زعم بعض المفسرين أن إبليس تصوّر بصورته، لقي قريشاً وشجعهم وصحبهم.

﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ فئة المسلمين وفئة المشركين، رأى فئة المشركين فئة المسلمين، ورأى فئة المسلمين فئة المشركين ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ تأخّر عن قريش ورجع القهقرى؛ لأنه لا يريد القتال إنما أراد أن يشجع غيره ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ برئ من جواركم، فلا أصحبكم لأجل الجوار بل أرجع ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يعني فأنتم ترون محمداً وأصحابه قليلاً ضعفاء وأنا أراهم أقوياء بالله، ولا طاقة لي بحرب الله.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أبهمه عنهم؛ لأنه لا يريد أن يرجف عليهم، إنما أراد أنّ يذكر لنفسه مبرراً لتركهم ونكوصه عن القتال بأنه رأى رجال إيمان بالرسول ص صادق وعقيدة راسخة؛ لأنهم ملازمون له صابرون على الجوع والأذى والخوف والعناء، ورآهم مستميتين لا يستسلمون ولا يفرون، فليس قتالهم مما يطلب.

وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

﴿٤٩﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ الذين أظهروا الإسلام وتولوا الكفار سراً ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك في صدق الرسول ص وسوء نيةٍ في نصره، فكلا الفريقين لم يؤمنوا، وإنما نظروا إلى ظاهر قوّة قريش وقلة المؤمنين وقلة عتادهم، فقالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ لظنهم أن الغلبة لقريش، وأن المؤمنين اغتروا في مواجهتهم باعتقادهم أنهم إما أن ينصرهم الله؛ لأنهم في سبيله، وإما أن ينالوا الشهادة فهي إحدى الحسنين، وهذا لا معنى له عند المنافقين والذين في قلوبهم مرض، فزعموا أنه اغترار وأن المؤمنين قد تورطوا في مهلكة.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذا ردّ على المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بأن المؤمنين لم يكونوا مغرورين ولم يتورطوا؛ لأنهم توكلوا على الله، فكيف يخذلهم مع عزته وقدرته على نصر أوليائه المجاهدين في سبيله وحكمته التي تقتضي إظهار دينه ونصر نبيه ص وتكريم أوليائه؟! وقال في المؤمنين: ﴿أُوْلَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] فجعل رحمته لهم من شأن عزته وحكمته.

ولو اختار لهم الشهادة ما كانت ورطة كما يظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض، بل كان قد أعدّ لهم السعادة والشرف العظيم الدائم الذي لا تدانيه حياة المنافقين والذين في قلوبهم مرض..

بل حياتهم تزيدهم إثماً ثم يموتون أو يقتلون، فما نال المؤمنين من إحدى الحسنين، فهو من شأن عزة الله وحكمته ورحمته لأوليائه، وإن ظن المنافقون

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ

والذين في قلوبهم مرض الذين نسوا الله أنه لا قوة للمؤمنين ولا ناصر، وكفروا لما قالوا: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فقد كفروا بدين الله ورسوله ص وجعلوه اغتراراً.

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ هذه عامة للذين كفروا بالله ورسوله ص من قريش وغيرهم، تدل على سوء عاقبتهم من حين تتوفاهم الملائكة أي تعالج قبض أرواحهم ونزعها من أجسادهم، فتعذبهم عند ذلك وتهينهم بضرب وجوههم وأدبارهم، وتلك الورطة العظمى التي تصيرهم إلى عذاب الحريق، وهم المغترون الذين غرتهم الحياة الدنيا، فلو تراهم في تلك الحال لرأيت شيئاً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ﴾ أي نعذبكم بهذا ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ والراجح: أنه طوي ما بين موتهم ومصيرهم في عذاب الحريق، فكأن عذاب الحريق عقيب ضربهم؛ لأنهم إذا صاروا في عذاب الحريق كانت المدة الماضية كأن لم تكن، وهذا تصوير عظيم لسوء عاقبتهم.

﴿٥١﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ بما قدمتم من الجرائم كلها ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي وبأن الله ليس بظلام للعبيد، أي وبعدل الله وتقدسه عن الظلم لعبيده، فعدله سبحانه كان لأجله تعذيبهم، لإنصاف المؤمنين خصومهم المظلومين الذين حاربوهم في الدنيا، واعتدوا عليهم وآذوهم، واتخذوهم سخرياً، وكذبوهم وسبوهم وكذبوا عليهم.

فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا

﴿٥٢﴾ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تعذيب الذين كفروا بمحمد ص ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في تعذيبهم عذاباً عاجلاً، فقوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كعادة آل فرعون، كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ وهذا كقوله تعالى في (سورة فاطر): ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [آية:٤٣].

فقال: ﴿سُنَّةَ الأَوَّلِينَ﴾ والمعنى سنة الله في الأولين ـ أي العذاب العاجل ـ فقوله تعالى: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ تفسير لدأبهم؛ لأن الكفر بآيات الله وأخذهم بسبب التكذيب جزاءً على ذنوبهم كِلّها تتابع في الأمم، كما مر في (سورة الأعراف) أي تتابع التكذيب والأخذ بتتابع الأمم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كالتعليل لدأبه في الأولين واتْباع الآخرين بهم، والراجح: أن هذه الآية وما بعدها في قتلى بدر؛ لأن أكثر الآيات الماضية في هذه السورة في وقعة بدر، فأغنى وقوع المعركة ومشاهدة ما حل بالكفار عن ذكره في تلك الحال، مع أنه قد أفاده قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ..﴾ ولم يبعد العهد لسوق الآيات بعدها في وقعة (بدر).

وقد قال تعالى في الفريقين: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج:١٩] فأغنى حضور المعركة في الأذهان عن أن يقول: هذان المقتتلان ببدر خصمان، فالمعنى: أن الله تعالى عذّب هؤلاء المشركين بأيديكم، كما عذب من قبلهم من الأمم الذين كذبوا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم.

عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ

﴿٥٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ فقد أنعم على قريش بتمكين الحرم الآمن الذي تجبى إليه ثمرات كل شيء، وأنعم عليهم بئيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فلما جاءهم الرسول ص كذّبه أكثرهم وحاربوه وهمّوا بقتله تكذيباً بآيات الله، فسلبهم الله تلك النعمة، فبيَّن الله تعالى أنه لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلو لم يفعلوا ما فعلوا من الجرائم لدامت لهم النعمة بفضل الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا..﴾ الآية [الأعراف:٩٦] فكما أنعم عليهم لم يكن ليغير نعمته لو آمنوا واتقوا.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فقد سمع تكذيبهم للرسول ص وأباطيلهم وعلم ما كان منهم من تغيير ما بأنفسهم من الحال التي كانوا عليها حين أنعم عليهم من صلاح أو قلة فساد أو حسن نية أو نحو ذلك.

﴿٥٤﴾ ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مكنّاهم في الأرض ولم نسلبهم النعمة حتى ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ المالك لهم المنعم عليهم ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ لعله خصهم بذكر الغرق بعد ما كانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم آية لأهل الكتاب، بما في هذا من بيان موقع آل فرعون من الأمم المهلكة بالتكذيب.

﴿وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ مشركوا قريش المأخوذون وآل فرعون ومن قبلهم، فقد اشتركوا في سبب سلب النعمة كما اشتركوا في الأخذ.

ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ

﴿٥٥﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦] والدواب أخص من البرية وهو عام للناس وغيرهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ معناه: أنهم يبقون على كفرهم حتى يموتوا، لا تنفعهم الآيات، ولا يؤثر فيهم الإنذار والتخويف.

﴿٥٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ﴾ أي من الذين كفروا، أي من الذين عاهدتهم من الذين كفروا ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ﴾ ينكثون ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٖ﴾ عاهدتهم فيها، أي كلما عاهدتهم نكثوا عهدهم ﴿وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ﴾ الله فيما يعلمون مما به ينكثون، ومن نفس النكث ومن غيرهما، فهم في جرأة على المعاصي، فكأنه قيل: ينقضون عهدهم في كل مرة في حال أنهم يتجرءون على عصيانهم لله بذلك وبغيره، فهؤلاء شر الدواب.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ ﴿فَإِمَّا﴾ أي (فإن ما) أدغمت النون في الميم، فكتبت كما ينطق بها، أي فإن تثقفهم، و(ما) هي صلة للكلام ﴿تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ﴾ أي تظفر بهم في الحرب وتتمكن من قتلهم، فاقتلهم وشرد بقلتهم ﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ من الكفار، وتشريدهم: إبعادهم عن محاربة رسول الله ص وفرارهم لاعتبارهم بمن قتلهم، وخوفهم من أن يقتلهم مثل أولئك الذين نكثوا فقتلهم و﴿مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ﴾ من الكفار، من حولهم من الكفار ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾

مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي

أي مَن حولهم ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ أن حرب رسول الله ص ليس مثل حرب غيره، وأن لـه نصراً من الله، فكما نصره على الناكثين المذكورين، ينصره على غيرهم أو نحو هذا، المهم يذكّرون ما به يرتدعون، وهذا فيمن تحقق منه النكث، فأما من يتوقع منه ولَمَّا يقع فقال تعالى فيهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ أي فألق إليهم عهدهم، أي فأبلغهم إلغاء عهدهم وأنه ما بقي بينك وبينهم عهد، فاعتُبِر هذا الإعلان نبذاً لعهدهم، كأنه إرجاع له إليهم؛ لأنه لم يبق مقبولاً.

وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي فيما بينهم يستوون في الإبلاغ، أي يعمهم كلهم و لا تبـدأهم بقتـال قبـل النبـذ المـذكور، لأن ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ أو لا يحب الخائنين، فلا يحب تمكينهم من الخيانة بالبقاء على عهدهم وتـرك النبـذ لـه إليهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ﴾ السبق: بمعنى فواتهم ونجاتهم من أخذ الله لهـم في العاجـل ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ لا يعجـزون الله، فمتـى شـاء سلطكم عليهم فعذبهم بأيديكم، والمناسب لقوله : ﴿سَبَقُوٓاْ﴾ أن يقدر أنهم لا يعجزون الله، أي هرباً.

سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن

﴿٦٠﴾ ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾ أي لقتالهم ﴿مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ وهذا يعم قوّة القلوب، وقوة الأبدان، ويدخل في ذلك القوة التي تحصل بالتدريب، وتَعَلُّم الإصابة في الرمي، ونحو ذلك، وقوة آلات الحرب ونحوها من المال الذي ينفق في سبيل الجهاد وحاله وبعده، وفي هذا العصر يعم القوات التي تستعمل في الحرب في هذا الزمان ونحوها.

﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾ لم يقل: ومن اقتناء الخيل، فهو لا يكفي لإرهاب العدو، بل من رباط، فالظاهر أنه مرابطة الخيل أي إعدادها للقتال بأن تربط استعداداً للقتال وانتظاراً له، فتعلف حيث يتوقع لقاء العدو، ولا ترسل لتتبع المراعي حيث كانت، أو بأن تربط حيث المرعى في حبل طويل، وذلك إذا كان المرعى في موضع المرابطة.

﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي بما استطعتم ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾ ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ أي تخيفون، وعدو الله يصلح للفرد والجماعة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي﴾ [الشعراء:٧٧] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ [النساء:٩٢].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ آي وترهبون آخرين من دون الذين قد ظهرت عداوتهم من الذين كفروا، ولعلهم المنافقون؛ لأنهم أدنى إلى المسلمين من الكفار المحاربين، وفائدة الإرهاب: إما أن يتركوا قتالكم لخوفهم من قوتكم وخيلكم، وإمّا أن يقاتلوكم على رعب منكم فيضعفوا في قتالكم.

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في سبيل نصر دين الله وحماية دين الله ﴿يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ فهو بمنزلة القرض يرجع

تَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ

للمقرِض وافياً لم ينقص منه شيء، وهذا تمثيل للثواب في الآخرة على ما أنفق في الدنيا، كأنه لقي ما أنفق وهو في وقت الحاجة إليه حيث لا يمكن تحصيله بتجارة هناك ولا غيرها من أنواع الكسب.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ﴾ أي وأنتم أيها المؤمنون ﴿لَا تُظۡلَمُونَ﴾ لا تنقَصُون مما أنفقتم في سبيل الله شيئاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [الكهف:٣٣] وهذا خطاب عام للذين آمنوا، فعلى كل فرد إعداد ما استطاع، وما أنفق في سبيل الله يوفَّ إليه، والخطاب قبل هذه الآية وبعدها للرسول ص لتوليه قيادة المؤمنين.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿جَنَحُواْ﴾ مالوا للسلم، أي لتَرْك الحرب بينكم وبينهم، كأنها سميت سلماً لما فيها من السلامة، قال في (الصحاح): والسِّلم الصلح [يفتح ويكسر ويذكّر ويؤنث].

وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ أي فَمِل إلى السلم كما مالوا، وذلك يستدعي المعاهدة على الصلح ولوازمه، ويأتي في (سورة التوبة) في معاهدة المشركين تفصيلٌ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ كِلْ أمرَك إليه في تدبير نصرك وسلامتك من غدرهم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما قالوا، إذا أرادوا خيانة مثلاً أو غيرها ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما أضمروا من وفاء أو خيانة أو غيرهما، فكِلْ أمرك إليه فهو كافيك.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن تَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ ﴿تَخۡدَعُوكَ﴾ يغدروا بك في السلم، أو في طلبه، أو في التظاهر بالجنوح إليه ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُ﴾ فإن كافيك الله؛ لأنه معك.

قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿أَيَّدَكَ﴾ قوّاك، قال الشاعر:

فآتت أعاليهِ وآدَتْ أصوله وأدلى بقنوانٍ من البُسر أحمرا

﴿بِنَصْرِهِۦ﴾ بإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا، وسائر أسباب الغلبة، وأيّدك ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم أطاعوا الرسول ص وجاهدوا معه واستعدّوا لذلك للمستقبل.

﴿٦٣﴾ ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ جعل قلوبهم متفقة على الرغبة في نصر الرسول ص، وقتال أعداء الله أعداء رسوله، وعلى التعاون على ذلك، فأصبحوا إخواناً بعد عدواة كانت بين الأوس والخزرج شديدة.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لشدة العدواة التي كانت فيهم ورسوخها في قلوبهم لما سبق بينهم من القتل والقتال والظلم من بعضهم لبعض والإهانة.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بالتأليف بين قلوبهم ونزغ الغِلّ منها وإبدالها بالمحبة بينهم والتآخي على طاعة الله ورسوله، فاجتمعوا مع الرسول ص وتوحّدوا في نصره ومعاداة أعدائه، فصاروا بذلك قوة للرسول ص أيده الله بهم ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ قاهر لا يُنَال ﴿حَكِيمٌ﴾ وكان من الحكمة نصر نبيه لإظهار دينه على الدين كله وإحقاق الحق وإبطال الباطل.

﴿٦٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أيَ فحسبك أي كافيك؛ لأنه معك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ وانقاد لأمرك وحكمِك والجهادِ معك، فقاتل في سبيل الله ولا تنتظر زيادة عليهم من الأعوان في الجهاد.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ٦٥ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن

---

٦٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ قال في (الصحاح): ((التحريض على القتال: الحث والإحماء عليه)) انتهى، وقال في تفسير حمي وحميت عليه ـ بالكسر ـ غضبتُ. انتهى، وذكروا أنه يقال: ((حرّاض للذي يوقد على الأحجار لتكون نورة أو جصّاً)) انتهى، فظهر: أن التحريض حثّ يحرك الحميّة والغضب لا مجرد الحث.

وقال الراغب: ((والتحريض الحث على الشيء بكثرة التزيين له وتسهيل الخطب فيه)) انتهى المراد، فلم يجعله مطلق الحث عليه، بل جعله الحث المخصوص الذي يرغب في القتال بطريقة تزيينه وتسهيل شدته، وذلك بذكر فوائده العاجلة والآجلة، وما أعد الله للمجاهد من الثواب، وما في الشهادة من الترغيب العظيم في القرآن والحديث الشريف.

﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن تَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ﴾ من الرسول ص والمؤمنين ﴿عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ ومائة صابرة، شرط الصبر لأنه شرط النصر، فأفاد أن مع الإيمان والصبر يغلب المجاهدون مثلهم عشر مرات من الكفار، بسبب أن الذين كفروا ﴿قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾.

قال بعض المفسرين ـ ونعم ما قال ـ : ((وفقدان الفقه في الكفار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين، هو الذي أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء

مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ

المائتين من أولئك على ما بني عليه الحكم في الآية، فإن المؤمنين إنما يُقْدِمُون فيما يُقْدمون عن إيمان بالله وهو القوّة التي لا يعادله ولا يُقاومه أيّ قوّة أخرى لابتنائه على الفقه الصحيح الذي يوّصِّفهم بكل سجية نفسانِيَّة فاضلة كالشجاعة والشهامة والجُرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثِّقة بالله واليقين بأنه [أي المجاهد المؤمن] على إحدى الحسنيين إن قُتِل ففي الجنة وإن قَتَل ففي الجنة، وأن الموت بالمعنى الذي يراه الكفار لا مصداق له [يعني أنه في حق المؤمن الشهيد أو كل مؤمن إنما هو انتقال من هذه الحياة إلى حياة أفضل] وأما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس..)) إلخ.

﴿٦٦﴾ ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ أي هذا الحين الذي نزلت فيه هذه الآية خفف الله عنكم بنسخ ذلك التكليف بقتال العشرين مائتين، والمائة ألفاً من الذين كفروا ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ ولم يقل: إنكم ضعفاء؛ لأن الضعف في جملتهم لا في كل فرد، وهو الضعف الذي يصعب معه تحمل التكليف المذكور صعوبة زائدة على صعوبته في المرة الأولى؛ لأن الإنسان قد يقوى على الشيء في المرة الواحدة، ويضعف عن تكرره عليه، فقد حدث الضعف من هذه الناحية، وهذا بالنسبة إلى بعضهم لأن ما كل واحد منهم بلغ في إيمانه وزهده في هذه الحياة بل ولا في الشجاعة الأصلية مبلغ رسول الله ص وعلي بن أبي طالب × حتى تكون قوتهم على المعاودة كقوّتهم على الابتداء.

﴿فَإِن تَكُنْ مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ﴾ أي

صابر بقرينة ذكره مع المائة، والإكتفاء واقع في القرآن، قال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] أي الذاكرات الله كثيراً، وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إذنه بالغلبة المذكورة، وإن كانت مخالفة للعادة المعهودة، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يبين أن من سبب الغلبة هو الصبر الذي لأجله يكون الله معهم، فينصرهم بحيث تغلب المائة مائتين، والألف ألفين، فأما دون هذا العدد من المؤمنين مع هذا العدد من الكافرين فموجب النسخ والتخفيف أنه لا يجب عليهم القتال، بل لهم أن يحتالوا لترك مواجهتهم بأي حيلة، وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾ وهو في الحقيقة نسخ لبعض ما تضمنته، وإن سمي تخصيصاً فهو مجاز.

وما وقع يوم (حنين) من ثبات رسول الله ص وعلي × ومن معهما في حال انهزام الباقي من جيش رسول الله ص، وكذلك ما وقع من ثبات الحسين في قلة أصحابه وكثرة أعدائه هو عمل بأحد الجائزين، وهو أفضل وأشرف، وعليه جرى أئمة الهدى وسائر الأخيار من ذريتهم وشيعتهم.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي إ): ((وقال زيد بن علي إ : إذا كان الإمام في قِلَّة من العدد لم يجب عليه قتال أهل البغي، فإذا كان أصحابه ثلاثمائة وبضع عشرة عدّة أهل بدر وجب عليه وعليهم القتال، ولم يعذروا بترك القتال، فإنه ليس من الأعمال شيء أفضل من جهادهم)) انتهى.

ولعل هذا خاص في قتال البغاة، لقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ [الحجرات:٩] واختصاص الباغي بأن فساده في دار الإسلام ـ والله أعلم.

يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

﴿٦٧﴾ ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس يليق بحال النبي ص، ولا صح ولا استقام أن يكون له أسرى؛ لأن تعجُّل الأسرى لا يحصل له به قوة، وغرضه ومهمته عزة دينه ورفع راية الحق، وذلك لا يحصل إلا بالإثخان في الأرض وإضعاف الكفر وأهله بالقتل المؤدي إلى ذلتهم.

والأسرى: جمع أسير، والأسرى يؤخذون ويربطون حتى يفتدوا أو يفديهم غيرهم بمال يعطون الآسرين فيطلقونهم، وهذا لا يليق بحال النبي ص أن يكون مطلباً مقدماً قبل الإثخان في الأرض، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: يغلب ويبالغ، ويقال: حتى يظهر على الأرض)) انتهى.

قال في (الصحاح): ((وأثخنته الجراح أوهنته، ويقال: أثخن في الأرض قتلاً إذا أكثر)) انتهى.

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ ﴿تُرِيدُونَ﴾ الخطاب لأصحاب رسول الله ص الذين أرادوا فداء الأسرى، وهو ﴿عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ لأنه عارض يزول ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ﴾ إعزاز دينه الذي هو سبب سعادة ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ لمن اتبعه، وذلك بالإثخان في الأرض قبل الأسر ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يُنَال، فمن عزته إعزاز دينه ﴿حَكِيمٌ﴾ فأمره ونهيه على ما فيه الحكمة.

﴿٦٨﴾ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو حكمه أن لا يؤاخذ على الخطأ أو نحو هذا

رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ

﴿لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ﴾ أي في الأسرى ﴿عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ فقد كان تعالى قادراً على أن يجعل في الأسرى قوة ويسلطهم على المسلمين، فيقتلوهم ويضعفوا أمرهم، فيكون للمسلمين ضد ما أمّلوا في الأسرى من الفائدة التي أخذوهم لأجلها.

﴿٦٩﴾ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿فَكُلُواْ﴾ لعل (الفاء) للتفريع على العفو المفهوم من قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ فلكون الكتاب سبق بما اقتضى العفو كلوا ﴿مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ ووجه التفريع: إما أن الغنائم تفرعت على العفو، ولولا العفو لفات النصر وفاتت الغنائم، وإما أنهم كانوا يعاقبون بتحريم الغنائم لولا الكتاب، فإباحتها متفرع على العفو، فكلوا من الغنائم ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ أي هي حلال طيب، فهو حال من (كلوا) ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بطاعته في كل شيء من الغنائم وغيرها، ومن ذلك حكمه في أول السورة وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كالتعليل لقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ﴾ فهو من مغفرته ورحمته.

﴿٧٠﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ﴿خَيۡرٗا﴾ الإيمان والنية الصالحة ﴿يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ﴾ من الفدى، ويُعوضكم بخير مما أخذ منكم لإطلاقكم من الأسر، والراجح: أن هذا وعد لهم بتعجيل رزق خير مما غرموا في الفداء.

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ إن كانت المغفرة الكاملة للدنيا والآخرة، فالخير الإيمان والتوبة، وإن أريد المغفرة رفع العذاب العاجل كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] فالخير الإسلام والإقلاع عن الشرك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾: مغفرة ورحمة عاجلة، ومغفرة ورحمة عاجلة وآجلة، ولكل منهما أهل.

﴿٧١﴾ ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ ﴿وَإِن يُرِيدُواْ﴾ أي الأسرى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ أن يخونوك بعد إطلاقهم من الأسر ﴿فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ﴾ بمحاربة رسوله ص ومعاونة المشركين أو بالشرك ﴿فَأَمۡكَنَ﴾ نبيه ص ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من أخذهم وأسرهم، فهو قادر على أن يُمكن منهم مرّة أخرى إن خانوك؛ لأنهم خانوا الله بخيانتهم لك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٞ﴾ بما يكون منهم من خير أو شر، وبكل شيء ﴿حَكِيمٞ﴾ فهو لا يهمل المفسدين ولا يسوي بين المحسن والمسيء، وأحكامه موافقة لحكمته.

﴿٧٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ هذه في المؤمنين مع رسول الله ص من المهاجرين الذين تركوا بلادهم وهاجروا المشركين، أي هجروا المشركين، وهجرهم المشركون، وهجر المؤمنين للمشركين.

ومهاجرتهم: مفارقتهم لمن في بلدهم منهم بالخروج إلى المدينة المنورة دار الهجرة التي صارت دار الإسلام والإيمان، ومأوى الرسول ص ومن معه من المهاجرين والأنصار، فحكم بالولاية بين المؤمنين المهاجرين الذين جاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، والذين آووا رسول الله ص وآووا من معه من المهاجرين في وقت الهجرة، وذلك ببذل بلادهم لهم، وإمدادهم من مالهم، والجهاد معهم لحماية الرسول ص وإيوائه ومن معه، ونصروا رسول الله ص بالجهاد معه وفي نصرته.

وهذا يفيد إيمانهم؛ لأن الذين في قلوبهم مرض والمنافقين لم يكونوا كذلك، فأهل هذه الصفات من المهاجرين والأنصار أولئك بعضهم أولياء بعض، فهم إخوان في الدين متعاونون على نصرته وحمايتهم له ص، همُّهم في ذلك واحد، فبعضهم مع بعض لا يتولون الكفار، فهم مجتمعون على ذلك متحابون عليه، وذلك معنى الولاية، فكل مهاجر ولي لكل أنصاري من المؤمنين والعكس.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ فلا ولاية بينكم وبينهم؛ لأنهم ليسوا معكم في الأمر المهم الذي هو التعاون على نصر الدين وحمايته والتآخي عليه، حتى يهاجروا أو يصيروا معكم في ذلك.

﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ ﴿ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ وذلك إذا قوتلوا على الدين ليرجعوا إلى الشرك، أو هَمَّ قوم بقتالهم ليرتدوا، فعلى رسول الله ص أن ينصرهم هو ومن معه من المهاجرين والأنصار مع عدم الولاية، ينصروهم لينقذوهم منهم ويتمكنوا من الهجرة، إلا على مَن بينه وبينهم

تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ

عهد على الصلح يتمسك به المعاهدون ويثقون به في ترك الحرب، فعلى الرسول ص وعلى من معه التمسك بالميثاق، وترك نصرة هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا في هذه الحالة تمسكاً بالميثاق، وهذا حكم وسط للذين آمنوا ولم يهاجروا ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ كلكم أنتم ومن لم يهاجر ﴿بَصِيرٞ﴾ فيحكم في كل بما يليق به ولكل بما يصلح لـه.

٧٣ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍ﴾ مالكم من ولايتهم من شيء ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ إن لا تفعلوا الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار دون غيرهم، واعتبار الكفار بعضهم أولياء بعض لا يتولاهم مؤمن ولا يتولونه ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ﴾ باختلال نظام المؤمنين، وبث الخلاف والفرقة بينهم، والمعاداة، وضعف التناصح، وفي الأخير ضعفهم وقوة الكفار، وحينئذ يكون نشر الفساد في الأرض ويضعف المسلمون عن دفعه كما هو الحال اليوم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ يعني بغلبة الكفار ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ لضعف الإسلام، وأيضاً يحتمل ﴿تَكُن [فِتۡنَةٞ]فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ باختلاف الكلمة ﴿وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ بكثرة المنازعات والفتن» انتهى.

٧٤ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا﴾ لأنهم الذين تمت فيهم حقيقة الإيمان وصفاته المذكورة في أول السورة.

مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لما سلف منهم قبل الإيمان وللصغائر، ومما سلف ما وقع من الزلات فتابوا منه، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وعد بالرزق الكريم مطلق فيرجى به الرزق في الدنيا والآخرة، وكانوا في أول الهجرة في إقلال وجوع فرزقهم الله من الغنائم والفيء.

﴿٧٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ﴾ من بعد هجرة الأولين الذين هاجروا قبل نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ..﴾ الآية فهؤلاء المتأخرون آمنوا وهاجروا قبل الفتح المسقط للهجرة من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام ولكنهم تأخروا عن أولئك الذين هاجروا من قبل نزول هذه الآيات فأولئك المتأخرون منكم في ولايتكم تتولونهم ويتولونكم لصدق إيمانهم وهجرتهم بدليل الجهاد معكم.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فالولاية بين المؤمنين المجاهدين لا تبطل الولاية بين أولي الأرحام منهم، بل أولو الأرحام من المؤمنين من المهاجرين والأنصار أولو الأرحام منهم بعضهم أولى ببعض؛ لأن سبب الولاية العامة للمؤمنين المجاهدين قد حصل لهم، واختص أولو الأرحام بسبب خاص هو الرحامة الانتساب الخاص إلى رحم وُلِدوا منها فهم أولى ببعضهم من سائر المؤمنين والمهاجرين ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكم الله الذي كتبه، إما كتابة القرآن وإما كتابة إيجابه وحكمه الجازم، مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة:١٧٨].

قال الشرفي في (المصابيح): ((واحتج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ صلوات الله عليهم جميعاً ـ في كتابه إلى أبي جعفر المنصور بهذه الآية، في أن الإمام بعد رسول الله ص هو علي بن أبي طالب × ، ذكره الرازي)) انتهى.

قلت: الآية مطلقة في كل أمر راجع إلى الولاية والاختصاص، ولذلك كان أمير المؤمنين علي × هو الذي تولى غسل رسول الله ص وحراسته حتى صلى عليه الناس في يومين، وحتى دفنه ص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فقوله الحق، وحكمه الحق، وعلينا أن نمتثل أمره ونهيه، ونعلم أنه رقيب علينا في كل عمل لا يخفى عليه طاعة مطيع لله ورسوله ولا معصية عاص لله ورسوله.

فهذه الخاتمة راجعة إلى ما في هذه السورة من ذكر وقائع وتكاليف وأخبار وأحكام وهي تشير إلى الوعد والوعيد ـ وبالله التوفيق.

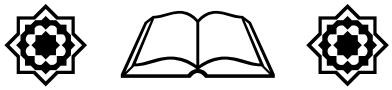

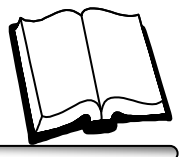

التيسير في التفسير

سورة التوبة

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي

ابتداء تفسير (سورة براءة) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين × : إن قال قائل: لِمَ لَمْ تكتب في أولها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾؟

قيل لَه: اعلم ـ هداك الله ـ أن ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مفتاح كل خير وبركة ورضى وتزكية أثبتها الله فيما كان أنزله على نبيه ص وعلى المؤمنين من القرآن، وأن (براءة) نزل في أولها مفتاح حرب وإنذار ونبذ العهد الذي كان بين الرسول وبين المشركين، وإنذار وإبعاد لهم من ذي الجلال والإكرام عن المسجد المطهر والبيت الحرام، وإخباراً لهم بأن ما كانوا يفهمون ويعرفون قد زال وتصرم وَحَالَ، وأنهم إن ثبتوا على شركهم قُتِلوا حيث ما ثُقِفوا إشادة من الله سبحانه بذكر الإسلام وإظهاراً وإعزازاً لدعوة نبيه × ، فلذلك لم يثبت فيها ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾)) انتهى.

أي هذه ﴿بَرَآءَةٌ﴾ واقعة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ موجَّهَة وبالغة ﴿إِلَى﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم﴾ أيها المؤمنون، أي براءة لله ورسوله من عهودهم فلا يلحق الرسول ص عيب ولا ذنب في رفض العهود المذكورة؛ لأنها بلاغ إلى الكفار يعلن التخلي من الصلح السابق ويؤذن بالحرب وذلك نهاية لمضمون العهد السابق، ونهاية لِحُكمهم؛ لأنه في حال يمكن فيه استعداد العدو للحرب إن شاء، فلا غدر فيه ولا نكث للعهد، وقد أرسل هذه البراءةَ رسولُ الله ص إلى المشركين لتُقرَأ عليهم أيام الحج في مكة في حال اجتماع الكثير منهم بحيث تبلغهم كلهم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): براءةٌ نزلت برفع الأمان، ونزلت سنة تسع من الهجرة فأنفذها رسول الله ص مع أمير المؤمنين علي × في الموسم بعد ما سلمها إلى أبي بكر فاستردَّها منه بأمرٍ من الله ــ عزَّ وجل ـ نزل به جبريل × وقال: (لا يبلغها إلا أنت، أو رجل منك) فسلمها رسول الله ص إليه فقرأها أمير المؤمنين × في يوم النحر على جمرة العقبة وكان قدر ما قراه عشر آيات من أولها)) انتهى.

قال الشرفي: ((ومثل هذا ذكرَ الإمام الناصر أحمد بن يحي عن أبيه الهادي إلى الحق صلوات الله عليه ـ ثم قال × ـ: وقد روت العامة هذا الخبر في رد أبي بكر، وإرسال علي ـ صلوات الله عليه ـ بالصحيفة في (مسند ابن أبي شيبة) وغيره، فلما كان يوم النحر واجتمع المشركون قام علي بن أبي طالب صلوات الله [عليه] عند جمرة العقبة فقال: (يا أيها الناس إني رسولُ [رسول] الله إليكم) وكان فيما روى أنه سمع أقصى الناس كما سمع أدناهم، فقالوا: بماذا أرسلك؟ فقرأ عليهم: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يقول: من كان بينه وبين رسول الله عهد فهو بريء منه)) انتهى.

قلت: في (مسند أحمد بن حنبل) [ج١/ ص٣]: ((حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قال حدثنا وكيع قال قال إسرائيل: قال أبو إسحاق: عن زيد بن يثيع عن أبى بكر أن النبي ص بعثه ببراءة لأهل مكة: لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول الله ص مدة فأجله إلى مدته والله بريء من المشركين ورسوله، قال: فسار بها ثلاثاً، ثم قال لعلي ت : ألحقه فرد علي أبا بكر وبلِّغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبي ص أبو بكر بكى، قال: يارسول الله حدث فيَّ شيء، قال: ((ما حدث فيك إلا خير، ولكن أمرت أن لا يبلغه إلا أنا أو رجل مني)) انتهى.

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ

وفيه من [زوائد] ابنه عبد الله: حدثنا عبد الله حدثنا محمد بن سليمان لوين حدثنا محمد بن جابر عن سماك عن حنش عن علي ت قال: لما نزلت عشر آيات من (سورة براءة) على النبي ص دعا النبي ص أبا بكر فبعثه بها ليقرأها على أهل مكة، ثم دعاني النبي ص فقال لي: (أدرك أبا بكر (رض) فحيثما لحقته فخذ الكتاب منه فاذهب به إلى أهل مكة فاقرأه عليهم) فلحقته بالجحفة فأخذت الكتاب منه ورجع أبو بكر (رض) إلى النبي ص فقال: يا رسول الله نزل فيَّ شيء، قال: (لا، ولكن جبريل جاءني فقال:لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك))) انتهى.

وفي (الدر المنثور) للسيوطي: وأخرج ابن مردويه: عن سعد بن أبي وقاص (رض): أن رسول الله ـ ص ـ بعث أبا بكر (رض) ببراءة إلى أهل مكة ثم بعث علياً رضى الله عنه على إثره فأخذها منه، فكأن أبا بكر (رض) وجد في نفسه، فقال النبي ص: ((يا أبا بكر إنه لا يؤدي عني إلا أنا أو رجل مني)) انتهى، وفي هذا روايات عديدة.

﴿٢﴾ ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ السياحة: السير الطويل في الأرض، والأمر بالسياحة كناية عن الأمان في هذه الأربعة الأشهر وهي من يوم إبلاغهم في الحج عاشر ذي الحجة إلى عاشر ربيع الأول فهي مهلة للمشركين يأمَنون فيها لينظروا لأنفسهم، فإما اختاروا الإسلام، وإما اختاروا الحرب، وقد أُمروا أن يعلموا: أنهم ﴿غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ فهو قادر على قهرهم بنصر نبيه وبغير ذلك، لا يعجزونه بقوتهم ولا يعجزونه بهرب، وأُمروا أن يعلموا: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فعليهم أن لا يتعرضوا للخزي والهوان والعار، بل أن يسلموا ليسلموا الخزي من الله الذي يجعله على الكافرين.

فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۖ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤

۝٣ ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ **الأذان: إبلاغٌ بصوت رفيع موجهٌ إلى الناس كلهم ليعلموا** ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ **بريء منهم، وهذا عام للمشركين من كان له عهد ومن لم يكن له عهد.**

و﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ **عاشر ذي الحجة يوم طواف الزيارة المسمى طواف النساء لحلِّهنَّ به، وعموم الأذان للمشركين يأتي تخصيصه قريباً، ومعنى براءته منهم إعلان الحرب بينه وبينهم، وأنه ليس لهم أمان من بعد هذا فلا يلحق الرسول ص عار من قتلهم ولا إثم.**

﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ **إلى الله أي رجعتم عن الإباق منه** ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ **في دنياكم وآخرتكم** ﴿وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ **عن الله وأصررتم على الشرك** ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ﴾ **وهذا تأكيد ليعلموا أنهم حرب لله وأنه غالبهم.**

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ **هذا إنذار بعذاب النار عبّر عنه بالتبشير تهكُّماً بهم؛ لأنهم أبوا إلا أن يعملوا ما يؤدِّيهم إليه كأنهم طالبون له.**

۝٤ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ **أي وَفَوا بالعهد وفاءً كاملاً لم ينقصوا مما عاهدوا عليه شيئاً** ﴿وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا﴾ **ولم يعينوا عليكم أيها المؤمنون أحداً** ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ **وهذا تخصيص لعموم البراءة والأذان أخرجَ منه من قد جرّبه المؤمنون موفِياً بعهده على التمام، فمن التقوى أن يبقى المؤمنون على العهد بينهم وبينه، ويبقى آمناً منهم إلى مدة الأجل الذي جُعل حداً للصلح والعهد.**

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ

۝ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ ﴿فَإِذَا﴾ تفريع على البراءة من المشركين والأذان، وبيان أن ليس مراد قتالهم في الأشهر الحرم، وهي أربعة يأتي ذكرها في هذه السورة، وانسلاخها: انقضاؤها وذهابها.

قال الراغب: ((السلخ: نزع جلد الحيوان، يقال: سلخته فانسلخ، وعنه: استعير سلختُ درعَه نزعتُها، وسلخ الشهر وانسلخ)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ﴾ يدل على قتلهم سواء في بلدهم أو في سفر أو في معركة أو أينما كانوا، مستعدين للقتال أو غير مستعدين، وفيه تخويفٌ لهم، ويحتمل: أن يعم الْحَرَم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ ويحتمل: أن هذا العموم مبنيٌّ على الخصوص في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩١].

﴿وَخُذُوهُمۡ﴾ أسرى إن شئتم، أي اقتلوا مَن شئتم وخذوا مَن شئتم ﴿وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ امنعوهم من الذهاب حيث شاءوا؛ لتقتلوهم أو تأسروهم متى ضاقوا من حصرهم واضطروا إلى الإستسلام.

﴿وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾ ﴿كُلَّ مَرۡصَدٍ﴾ كل مكان يصلح لرصْدِهم وانتظارهم حتى يأتوا عنده فيُقتَلوا أو يُؤخَذوا مثل انتظارهم على طريق يمرون منها.

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡ﴾ لأنهم قد خرجوا من الشرك الذي لأجله أمرتم بقتلهم.

ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦ كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧ كَيۡفَ وَإِن

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لمن تاب إليه ويرحمه، وتخلية سبيلهم أن لا يُعترَضوا في سبيل بل يُترَكوا ليذهبوا حيث شاءوا، وهذا تخصيص ثانٍ من عموم البراءة والأذان.

٦ ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره ممن يخاف منه القتل أو نحوه ﴿فَأَجِرۡهُ﴾ فاحمِهِ من ذلك ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ لزيادة الحجة عليه إذا سمعه؛ لأنه يعرف أنه كلام الله بكونه خارقاً في كماله ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾ مثل: بلده أو أصحابه حيث يأمن، وبذلك لا يبقى له جوار إذا بلغ مأمنه ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم بأن يجار حتى يسمع كلام الله ثم يُبلغ مأمنه ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ لعدم استعدادهم للعلم ولإعراضهم واشتغالهم بدنياهم فالآيات تمر عليهم فيعرضون عنها، ففي حالة استجارة المشرك قد يتذكر وينتبه إذا سمع القرآن، ففي هذا تخصيص مؤقت لهذه الحالة يخرجها من عموم الأذان والبراءة.

٧ ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ فَمَا ٱسۡتَقَٰمُواْ لَكُمۡ فَٱسۡتَقِيمُواْ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ﴾؟ وهذا يدل على أنهم لا يصلحون لعهد لما يأتي بيانه في الآية التي بعد هذه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمۡ﴾ استثناء لأناس مخصوصين قد مضت معاهدتهم واستقاموا عليها، وقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾

يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ

أي عند الكعبة ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ﴾ على العهد لم يميلوا ﴿فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ واستقامتكم حينئذ من التقوى.

﴿٨﴾ ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عهد ﴿وَ﴾ لا وفاء لهم بل ﴿إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ﴾ يكونوا أقوى منكم حتى يتمكنوا من قتلكم أو أخذكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلَا ذِمَّةً﴾ إما ﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ لا ينتظروا إلاَّ عهداً، أي لا ينتظروا تمام مدة عهد ولا مدة ذمة، أو لا ينظرون إلى عهد ولا ذمة ولا يلتفتون إليه، وهذا الذي أفاده في (المصابيح).

قال في (الصحاح): ((الرقيب: الحافظ، والرقيب: المنتظر، تقول: رَقَبْتُ الشيء أرْقُبُه...)) إلخ. قلت: وإذا كان في الآية بمعنى لا يحفظون فهو مستقيم؛ لأن معناه: أنهم يضيعون العهد والذمة؛ لإهمالهم لهما.

وفي (مفردات الراغب): ((وَرَقَبْتُهُ: حفظته، والرقيب: الحافظ)) انتهى، وقال الشرفي في تفسير قول الله تعالى ـ حاكيا عن هارون × ـ: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤] أي تحافظ على وصيتي في قولي لك: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف:١٤٢] ولم تعمل بموجَبها)) انتهى المراد.

وأما الذمة: فقال في (لسان العرب): ((وفي الحديث ذكر الذِّمَّة والذِّمَّام، وهما بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق)) انتهى المراد.

وفي الحديث: ((لا تعطوا القوم ذمتي ولا ذمةَ الله، فالمخفر ذمة الله لاق الله وهو عليه ساخط، اعطوهم ذمتكم وذمم آبائكم وفوا لهم، فإن أحدكم لأَنْ يُخفِر ذمته وذمة أبيه خير له من أن يخفر ذمة الله وذمة رسوله)) انتهى من (مجموع الإمام زيد بن علي إ).

عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ۝١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ

قلت: يظهر: أن الذمة هنا بمعنى الضمان، مبالغةٌ في الأمان، وزيادة في العهد لتأكيده، فالمشركون لا يرعون عهداً ولا يرعون ذمة إن ظهروا على المسلمين، وكأن عطفها على العهد من الترقي، كأنه لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا ما هو أقوى منه وهو الذمة إن أعطوكم ذممهم، وهذا خبر الله عالم الغيب بيَّن أنهم إن يظهروا على المؤمنين لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة، فقد بيَّن تعالى بذلك أنه لا عهد لهم باعتبار ما سيكون منهم أي من المشركين إن ظهروا على المؤمنين.

﴿يُرۡضُونَكُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي بكلامهم ﴿وَتَأۡبَىٰ قُلُوبُهُمۡ﴾ تمتنع قلوبهم من تطبيق ما قالوا ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فسوقاً غير الكفر والشرك خُبثٌ وتعمُّدٌ للفجور، فهم أبعد من أن يوفوا بعهد؛ لأنهم شاركوا المشركين في عقيدتهم وفي كفرهم بآيات الله وامتازوا بأنهم لا يتحرجون من قبيح.

﴿٩﴾ ﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ استبدلوا باتباع آيات الله أو بالإيمان بآيات الله ﴿ثَمَنٗا﴾ هو الأغراض الدنيوية التي يرون أنها تفوت إن آمنوا واتبعوا آيات الله ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ما أَسْوَأَ ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ما تكرر منهم من العمل الفاحش.

﴿١٠﴾ ﴿لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ ﴿لَا يَرۡقُبُونَ﴾ هذه صفتهم التي استمروا عليها واعتادوها فهم لا يردعهم عن النكث إلا الخوف منكم، فأما العهد والذمة فلا يرقبونه ولا يلتفتون إليه، وهذا خبر عن ماضيهم المتصل بالحال فلا تكرار بينه وبين الأول، وهذا من بيان خُبثهم ودفعاً لتوهم أنهم قد راقبوا العهد في الماضي ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهلُ هذه الصفات ﴿هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ﴾ لنقضهم عهد الله عليهم وإصرارهم على نقض العهود.

ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا

﴿١١﴾ ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ ﴿فَإِن تَابُواْ﴾ عن جرائمهم كلها ورجعوا إلى الله بالإيمان ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فهم إخوانكم ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ التفصيل خلاف الإجمال، نفصل: نجعل الآيات القرآنية مفصلة ليستفيد منها وينتفع بفهمها قوم يعلمون ما علمناهم بالآيات المفصلة، وبهذه الآية ختمت الآيات العشر النازلة سنة تسع لإعلان البراءة من المشركين أو بالآية التي قبلها.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم﴾ كما هو شأنهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ من بعد أن عاهدوا على الصلح، نكثوا: أي نقضوا الميثاق بعد أن عقدوا لكم اليمين على الصلح ولعله في الأصل تشبيه بنكث الشعر والصوف والوبر بعد غزله أي نقضه وإرجاعه إلى ما كان عليه قبل غزله، ونكث الأيمان بقتال المسلمين أو قتال حلفائهم.

﴿وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ طعنوا في الإسلام بكلامهم في ذمِّ الإسلام ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ أي فقاتلوهم فهم ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي المتبوعون في الكفر فقاتلوهم ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ لا عهد لهم، فكل عهد لهم ضائع ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ﴾ عن قتالكم إذا قاتلتموهم.

نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥

---

١٣ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ﴾ إنكار على المؤمنين كأنه قيل: كيف لا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بقتالكم يوم بدر ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ﴾؟ فتتركون قتالهم خوفاً منهم ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ لأن عذابه أشد من قتال القوم، وهذه الآيات يظهر أنها نزلت في الحث على فتح مكة وقتال قريش، وذلك متقدم قبل نزول العشر الآيات التي في أول (براءة).

١٤ ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ وهذا أمر وترغيب بذكر فوائد ونصر، وهو غاية الترغيب، وقوله تعالى: ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ بقتل من يقتل وغيظ قرابته منهم وأصحابه.

وقوله: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ يذلُّهم ويفضحهم بعجزهم عن الدفاع واستسلامهم بعد كبرهم وعنادهم، وقوله: ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي إن تقاتلوهم ينصركم ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ قد ظلَمَهم المشركون كثيراً ففي قلوبهم حرارات وحقد على الكفار لا يشفيها إلا قتال الكفار وإخزاؤهم والنصر عليهم.

١٥ ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ﴾ قلوب هؤلاء المؤمنين الذين غاظهم المشركون كثيراً حتى رسخ الغيظ في قلوبهم فلا يذهبه إلا ما ينال المشركين بقتال المؤمنين لهم.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ من بعد ذلك القتال وفوائده ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فباب التوبة مفتوح لهم وإن قوتلوا وعذبوا بالقتال، فمن شاء الله هداه للتوبة فأسلم وتاب، وهذا دفع لتوهمهم أنها لا تقبل توبتهم لطول تمردهم وقتالهم للمسلمين وتعذيبهم قبل الهجرة ومعاداتهم لرسول الله ص وهمهم بإخراجه وغير ذلك من عدوانهم وظلمهم وتكذيبهم لآيات الله.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بما سيكون، وهو عليم بما عليه الكفار وما قد مضى منهم وبكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ فحكمه بالقتال وتوبته من بعد على من يشاء كلٌّ ذلك مطابق للحكمة.

﴿١٦﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ﴾ غير مكلفين بالقتال ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ أي تُتركوا في حال لم يتميز المؤمن الصادق في إيمانه المجاهد في سبيله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ جاهدوا ولم يتخذوا من الكفار ﴿وَلِيجَةً﴾ بطانة يتولونهم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

قال الراغب: ((والوليجة: كلُّ ما يتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله، من قولهم: فلان وليجةٌ في القوم إذا لحق بهم وليس منهم)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((ووليجةُ الرجل: خاصته وبطانته)) انتهى.

فالمؤمنون الخلَّص جاهدوا وثبتوا على إيمانهم ولم ينافقوا، فكان التكليف بالجهاد لتمييزهم وإثابتهم، وإظهار فضلهم على غيرهم ممن تقاعد عن الجهاد ومن نافق، ولولا التكليف بالجهاد لكانوا في الظاهر سواء، ولم تحصل للمؤمن فضيلة الجهاد، وفضيلة التوكل والثبات عند الزلازل والخوف.

مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عليم بِخُبر أعمالكم كلها؛ لأنه عالم الغيب، فقوله: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ﴾ إنما هو كناية عن وقوع ما يعلم الله وقوعه، مع أنه سبحانه عالم ما سيكون قبل كونه ولكنه تشبيه للتكليف بالإختبار الذي يترتب عليه تمييز الخبيث من الطيب في حقنا، وقوله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ﴾ بمعنى بل أحسبتم، فهو إضراب من الترغيب في الجهاد بذكر فوائده إلى ذكر حق الله فيه من الإختبار الذي يريده.

﴿١٧﴾ ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِ﴾ ليس من شأن المشركين كأنه لا يتصور منهم ﴿أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ لأن أعمالهم حابطة لا تقبل فهي كلا عمل، فالمراد العمارة التي لها فائدة وتعد حسنة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام الناصر ـ أحمد بن الهادي إلى الحق × ـ: وقد جاء في الرواية أنه لما أسر بعض رؤساء المشركين أقبل ناس من المهاجرين فعيروه بالكفر وقطيعة الرحم وعون المشركين على رسول الله ص وترك الإيمان والإقامة على الكفر فقال لهم: ما لكم تذكرون مساوينا ولا تذكروا محاسننا؟ قالوا له: وهل لكم محاسن؟ قال: نعم، إن كنتم تجاهدون في سبيل الله مع رسول الله ص الأعداء فنحن أفضل منكم أجراً، قالوا: وبأي شيء؟ قالوا [قال]:نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة،ونفك العاني، ونفادي الأسير، ونسقي الحاج، ونؤَمِّن الخائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ..﴾الآية)) انتهى.

ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ

و﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ..﴾ المسجدُ الحرام وسائر المساجد الشرعية، ولعل ذكر الجنس ليتناول الكلامُ من كان من المشركين يدَّعي عمارة المسجد الحرام، ويتناول سائر المساجد الشرعية في أن عمارتها لا تتهيأ من مشرك.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ أصل العمارة ضد التخريب ولكن السياق يدل على أن العمارة هنا: بمعنى إحياء المسجد بالعبادة فيه، وعمارة المسجد الحرام بالطائفين والعاكفين والركَّع السُّجود، قال تعالى: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور:٤] وافتخارُ المشركين بعمارة المسجد الحرام يُظهر أنهم: أرادوا إحياءه بمعاونة الحجاج والعُمَّار بالسقاية ونحوها، والحماية بحيث كثر الحجاج والعمار، أو أرادوا إحياءه بأنفسهم بالطواف وبصلاتهم، أو بالمعنيين.

وفي (الصحاح): ((أبو زيد: يقال: عَمَرَ الله بك منزلك)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((ويقال: عَمَرَ الله بك منزلك: يَعْمُرُهُ عمارة وأعمره جعله آهلاً)) انتهى المراد.

فالذين يعمرون مساجد الله هم المؤمنون؛ لأن العمل لا يقبل إلا من المؤمن، والجامع للصفات الأربع هو المؤمن حقاً، فعمل الكفار لا يعد عمارة؛ لأنه غير مقبول بل هو حابط، فهو كلا شيء، ويمكن أن لا يسمى عمارة؛ لأن المشرك لا يجي المسجد؛ لأن حياة المسجد وعمارته إنما هي بالعبادة الحقيقية، وعمل المشرك فيه أشبه باللعب؛ ولكون المشرك نجساً لا يصلح للكون في المسجد، فلا يعتبر آهلاً ببقائه فيه كما لو كان فيه كلب فلا يعتبر كونه في المسجد عمارةً له بل شغلاً ونجساً.

سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ

وقوله تعالى في المؤمنين: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ أي يقرب أن يكون أهل هذه الصفات الأربع من المهتدين في بقية أعمارهم للصراط المستقيم فيختم لهم بالخير ويثابون على عمارة المسجد وسائر أعمالهم ففائدةُ ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ بيان: أنه لابد من الثبات على الإيمان والإهتداء بهدى الله لئلا يحبط العمل، وأهل الصفات المذكورة قريب منهم الثبات بسبب الإيمان وترجيح خشية الله على خشية غيره، فهم بعيد من النفاق والإنقلاب، فعسى ﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ولعل هذا المعنى هو المراد في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢] ومنه قول المصلي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

﴿١٩﴾ ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾؟ الخطاب لمن سوَّى بين ﴿سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ وبين الإيمان بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل، سؤال إنكار للتسوية بينهما وسقاية الحاج سقاية الحجاج بالماء العذب.

﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ في علمه أو في علمه وحكمه وهو أحكم الحاكمين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقد كان المشركون في ضلال حين يزعمون سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام مع شركهم عملاً صالحاً يُفتخَر به، ولو كانوا على هدى لعلموا أنه لا يقبل منهم عمل مع الشرك، وأن ذلك كسرابٍ بِقِيعة.

أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿٢٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ ولكون المراد بالكلام في العمل الكلامَ في العاملين، قال تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾ أي مَن يسقي الحاج ويعمر المسجد الحرام، ومن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، ثم زاد توضيحاً بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً﴾ فبين: أنهم لا يستوون وأوضَحَ عظمَ درجة المؤمن المهاجر المجاهد، وفي التفضيل وجهان:

أحدهما: أنه ليس معناه المشاركة في الدرجة وإنما هو لإثبات درجة عظيمة مقابل لا شيء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣] ولا كرامة للمشرك عند الله، ويؤكد هذا الحصرَ بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ فلا درجة لغير الفائز.

الوجه الثاني: أن يكون مدعي المساواة كان قد أسلم وأراد أن سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام نافعان له وإن كانا قبل الإسلام فرد الله عليه بنفي التسوية، ثم ببيان فضل المؤمن المهاجر المجاهد؛ لأنه قام بواجب الإيمان وواجب الهجرة وواجب الجهاد، وتعداد ذلك مناسب لذكر فضله وإن كان الإيمان والجهاد في تلك الظروف قد أفاد الهجرة بالنسبة لمن لم يكن من أهل المدينة ويشعر ذكرُ الهجرة هنا أن دعوى المساواة كانت بين عملِ مشرك وعملِ مهاجر كما تدل عليه الرواية.

عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُۥ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((ويقول تبارك وتعالى فيه [أي في علي ×] وفي العباس ابن عبد المطلب عندما كان من تشاجرهما على الفضيلة، فقال العباس: (أنا ساقي الحجيج) وقال علي × : (أنا السابق إلى الله ورسوله) فأنزل الله ـ عزَّ وجل ـ في ذلك: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

وكان سبب ما أنزل الله من ذلك أن العباس بن عبد المطلب / ذكر فضل ما في يده وما يظهر من عمله من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وذكر أمير المؤمنين × قديم إسلامه وهجرته واجتهاده في جهاد أعداء ربه، وبذله مهجته لله ورسوله، فقضى الرحمن بينهما وبيَّن الفضل بين فضيلتيهما بما ذكر وقال في كتابه)) انتهى ما أردت نقله هنا.

وفي (الدر المنثور) رواياتٌ حاصلها: نزول قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ..﴾ الآية، في علي × والعباس / ، وفيه: وأخرج أبو نعيم في (فضائل الصحابة) وابن عساكر عن أنس (رض) قال: قعد العباس وشيبة يفتخران..

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ

إلى قوله.. فقال علي ت : ((أنا خير منكما أنا أول من آمن وهاجر)) فانطلقوا ثلاثتهم إلى النبي ص فأخبروه فما أجابهم بشيء فانصرفوا، فنزل عليه الوحي بعد أيام، فأرسل إليهم فقرأ عليهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ..﴾ إلى آخر العشر، انتهى.

وفيه: ((وأخرج ابن أبي شيبة، وأبو الشيخ، وابن مردويه: عن عبد الله بن عبيده ت قال: قال علي للعباس ت : (لو هاجرتَ إلى المدينة) قال: أولستُ في أفضل من الهجرة ألست أسقي الحاج وأعمر المسجد الحرام؟ فنزلت هذه الآية يعني: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ قال: فجعل الله للمدينة فضل درجة على مكة)) انتهى.

وفي (مصنف ابن أبي شيبة) [ج١٢/ ص٨١ ـ الطبعة الأولى تاريخها١٤٠٢هجرية]: ((حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن الشعبي: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: نزلت في علي والعباس)) انتهى، وفي (حاشيته): ((أخرجه الطبري في (التفسير) من طريق ابن عيينة عن اسماعيل)) انتهى.

وذكره ابن كثير من طريق عبد الرزاق: أخبرنا ابن عيينة..إلخ، وفي كتاب (شواهد التنزيل) تأليف الحاكم الحسكاني روايات كثيرة تؤيد هذا، وفي النسخة المطبوعة تخريج واسع لتلك الروايات، فراجعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ كالتعليل يشير إلى سبب عظم الثواب من قدرة الله وعلمه وغناه وكرمه وغاية الرحمة والرضوان لأوليائه.

﴿٢٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ اتخاذهم أولياء إصفاء المودة لهم والكون معهم فيما يهمهم، أي النصح لهم في المعاونة لهم على الأمر المهم لهم.

تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ

وذكر الشرفي في (المصابيح) في معنى هذه الآية: ((عن الإمام الناصر أحمد ابن الهادي × قال: إنها نزلت في المسلمين من أهل مكة، فالذي وصل إلينا من الخبر أن رسول الله ص أمر الناس بالهجرة إلى المدينة فجعل الرجل يقول لأبيه والرجل لأخيه والرجل يقول لامرأته والرجل يقول لقرابته: إنَّا قد أُمرنا بالهجرة إلى المدينة فاخرجوا معنا، فمنهم مَن سارع وتعجبه الهجرة، ومنهم من يأبى على صاحبه أن يهاجر معه، فجعل الرجل يقول لزوجته ولولده ولأخيه ولقرابته إذا أبوا عليه أن يهاجروا معه: والله لئن ضمَّني [ضمَّنا] الله في دار هجرة بعد اليوم لا نفعتكم بشيء أبداً ولا أعطيكم شيئاً أبداً وصفهم [كذا] [فمنهم] من تتعلق به زوجته وعياله فيقولون: ننشدك بالله أن تَدَعَنا على غير شيء فنضيع ونهلك فيرقّ لهم عند ذلك ويرحمهم فيجلس معهم ويدَع الهجرة، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ [وَإِخْوَٰنَكُمْ] الآية)) انتهى.

قلت: ولا يشكل على هذا تأخر نزول (براءة) بعد الفتح، فإن المتأخر هو العشر الآيات في أولها وقد مر ما يفيد هذا، فأما بقية السورة فمنها ما هو متقدم أو كل بقيتها أو أكثره.

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم عصوا الله ورسوله بتوليهم، ومعصيةُ الله ظلم لأنها حيف وجور؛ لأن الحق والعدل طاعة العبد المنعَم عليه لسيده المنعِم عليه بنعَمٍ لا يحصيها، فإذا أساء إليه بالمعصية وارتكاب ما نهاه عنه فقد ظلم وجار وتعدى.

﴿٢٤﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ قال الراغب: ((فصار العشيرة اسماً لكل جماعة من أقارب الرجل الذين يتكثَّر بهم)) انتهى.

نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها فهي عزيزة عليكم بسبب اكتسابكم لها ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي أموال تجارة تخشون أن لا تَنفُقَ لكم إن هاجرتم ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ إما لإلفهم لها وإما لأن فيها أغراضَهم ومطالبهم فلا يريدون مفارقتها للهجرة .

﴿قُلْ﴾ إن كان ذلك المذكور ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي فانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بنصر نبيه والإنتقام منكم.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن أمره الخبثة الفجار، أي فأنتم حينئذ فاسقون محرومون من هدى الله؛ لأنه لا يهدي القوم الفاسقين، وهو يفيد: أنهم مستحقون لانتقام الله منهم؛ لأن الفاسق يستحق العقاب، وهذه الآية للمسلم مَخْبَر الإيمان الصحيح أو الفسق الصريح، فليتأمل نفسه ليعرف من أيِّ الفريقين هو أمن المؤمنين أم من الفاسقين؟

﴿٢٥﴾ ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ﴾ واذكروا ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ قال في (الصحاح): «والموطن الْمَشْهَدُ من مشاهد الحرب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ وقال طرَفَة:

على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترِكْ فيه الفوارسُ تُرْعَدِ»

انتهى.

وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

و﴿حُنَيْنٍ﴾ موضع وقعت فيه معركة شديدة، قال في (الكشاف): و﴿حُنَيْنٍ﴾ واد بين مكة والطائف)) انتهى ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ قال في (لسان العرب): ((وأعجبه الأمر سرَّه)) انتهى، سرتكم كثرتكم لظنكم أنكم تغلبون العدو بسبب كثرتكم ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ لم تكفكم شيئاً من عدوكم أي لم تدفع كثرتُكم عنكم شيئاً من ضر العدو لكم، وهذا يدل على أن العدو قد أصابوهم ببعض الإصابات لم يدفعوها بكثرتهم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ بعد أن لم تغنِ عنكم كثرتكم شيئا انهزمتم مدبرين، والإدبار ضد الإقبال.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ الطمأنينة وسكون القلوب وذهاب الفزع على رسوله وعلى المؤمنين، والمؤمنون في تلك الحال هم الذين ثبتوا مع رسول الله ص لم يفروا من الزحف، ويحتمل أن هذا الفرار من بعضهم لاحقٌ بالخطأ فلا يخرجهم من الإيمان وذلك فرارُ مَن رجع فوراً وكان فراره بسبب مفاجأة العدو قبل التوقع له ولمصادفته يرمي وهم غافلون ـ والله أعلم.

فهذه السكينة في وقت الخوف أضافها الله إلى نفسه هي آية من الله وأمر خارق كإنزال الجنود، فأما اطمئنان بقية الجند المنهزمين بعد تراجع المجيبين لدعوة الرسول ص فليس من السكينة المذكورة لأنه أمر غير خارق لحصول سبب الأمن الطبيعي.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : حنينٌ وادٍ بين مكة والطائف كان فيه القتال بين رسول الله ص وبين قبائل من المشركين فأُعجِب أصحاب النبي ص بكثرتهم حتى ظنوا أنهم لا يهزمون فلما التقوا بحنين حمل عليهم المشركون حملةً واحدة فخفت أقدامهم واختلفت قلوبهم وثبت رسول الله ص وأمير المؤمنين، ومعه نفر من بني هاشم فلم يبرحوا، وثبَّت الله أقدامهم ونصحوا، قال الشاعر:

خلا الناس عنه في حنين بأسرهم ... وولوا هزيماً بالرماح الشوارع
سِوى الهاشميين الكرام فإنهم ... ذوو الصبر تحت المرهفات القواطع
وفيهم عليٌّ خير من وطئ الحصا ... قريع قريش كلها في الوقائع
سنان رسول الله في كل حومة ... وكاشفها عن وجهها غير راجع

قال الشرفي: ((ومعنى قوله: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة:٢٥] أي فلم تدفع عنكم الكثرةُ شيئاً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ مع رحبها وسعتها أي لا تجدون موضعاً لمنجاتكم لشدة الخوف)) انتهى المراد.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((وفي هذه الآية وتفسيرها يقول الإمام الناصر أحمد بن الهادي × : فلما التقوا بحنين كسر العدو [جفون] سيوفهم ثم حملوا عليهم فهزموا المسلمين هزيمة شديدة ورسول الله ص على بغلته وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب يقود به وهو ابن عمه، والعباس بن عبد المطلب آخذ بالسفر [بالثفر] وانهزم الناس عن رسول الله ص إلا عشرة رجال كلهم من بني هاشم لم يخلطهم أحد من الناس منهم: العباس بن عبد المطلب ت ، وأمير المؤمنين علي × ، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ..﴾)) الآية.

فوجبت السكينة على رسوله وعلى المؤمنين..الآية، فوجبت السكينة وفضلها له ص ولمن وقف معه بحنين خاصة وبمثل هذه يعرف الحق لأهله والفضل لمن جعله الله له وفيه، وقد قال غيرنا: إن الذين وقفوا معه نحو من ثلثمائة رجل، وليس ذلك بشيء وليس الصحيح إلا عشرة من بني هاشم، وفي ذلك يقول الشاعر:

خلا الناس عنه في حنين بأسرهم ... وولوا هزيماً بالرماح الشوارع

ثم ذكر الأبيات التي مر ذكرها آنفاً.

قال × : وقد قيل في ذلك من الشواهد ما لا نحصيه ورجع رسول الله ص يناديهم: (يا معشر المهاجرين إليَّ) ويقول:(يا معشر الأنصار إليَّ) ثم يقول: (أين أصحاب السمرة)؟ فاجتمع الناس، ثم حملوا على المشركين فهزمهم الله لرسوله ص وولوا مدبرين وغُنِمت أموالهم وذراريهم، ولهم خبر يطول وأنت تجده في (كتاب المغازي) إن شاء الله تعالى)) انتهى.

قلت: قد صححت بما بين المعقوفات؛ لأن الظاهر أن خلافه تصحيف من بعض النساخ وغلطهم.

وفي (سيرة ابن هشام): ((أن رسول الله ص قال: (يا عباس أصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة))) انتهى، وهي الشجرة المذكورة في القرآن: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨] فالدعوة لهم تذكير لهم بالبيعة تحتها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بالقتل والهزيمة واغتنام أموالهم وذراريهم وما في ذلك من الغيظ والحزن، وقوله: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي تعذيبهم عقوبة عاجلة، أو التعذيب من حيث هو تعذيب جزاؤهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا ۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا

وفي (قصة حنين) تذكير بنصر الله لرسوله والمؤمنين حين لم تنفعهم الكثرة فهو تذكير لهم بنعمة الله وعبرة ليزدادوا توكلاً على الله، وليس فيها دلالة على أنهم أثموا بإعجاب كثرتهم لهم وكيف لا تعجبهم وهي في ظاهر الحال قوة للإسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] وليس العجب بالقتال مع الكثرة بل مظنة العجب القتال في حال القلة، فجعل ذلك من العجب المذموم غير صحيح عندي، وبالله التوفيق.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ القتال للمسلمين والتعذيب للكفار ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ فيهديه للإسلام وهذا دفع لتوهم الكفار أنه لا توبة لهم، فأما المسلمون فلا إشكال في قبول توبة من تاب منهم من الفرار وقد تقرر ذلك يوم أحد فجعل هذه الآية فيهم بعيد عندي مع أنهم داخلون في عمومها ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ومن مغفرته ورحمته توبته على بعض العصاة ليتوبوا.

﴿٢٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ قال الشرفي في [المصابيح]: قال في [البرهان] هم أنجاس الأبدان كنجاسة الكلب والخنزير وتنزه منهم المساجد كما تنزه من الكلاب والخنازير ﴿فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ بحج أو عمرة كما كانوا يفعلون، وقوله: ﴿بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَا﴾ وهو عام سنة تسع من الهجرة، لقول علي × : ((ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك)) انتهى.

قلت: يعني: أنه تفسير للآية، وهو واضح لأن رسول الله ص أرسل علياً إليهم بـ(براءة) وهم بمكة، فدل ذلك على أنه لم يكن سبق النهي عن دخولهم المسجد الحرام؛ لأنه لو كان قد سبق لم يحج المشركون لأن رسول الله ص قد كان فتح مكة وصارت دار إسلام، ولو كانت هذه الآية نزلت قبل سنة تسع لنهاهم رسول الله ص قبل إرسال براءة، أي سنة ثمان مثلاً، ولو نهاهم لاشتهر أنهم انتهوا أو أنهم لم ينتهوا.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ يا أيها الذين آمنوا خفتم ﴿عَيْلَةً﴾ فقراً بسبب انقطاع ما كان يأتي به المشركون مع الحج من الطعام وغيره ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الفقر ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ فعليكم أن تمنعوا المشركين على كل حال، وتوكلوا على الله وهذا فائدة قوله تعالى ﴿إِن شَآءَ﴾ لأنه لو لم يقل إن شاء لذهب الإبتلاء بمنعهم مع خوف العيلة.

فإن قيل: فما فائدة هذا الوعد المعلق على شرط المشيئة؟

قلت: فائدته: أن يرجو فضل الله، ولا ييأسوا لمنع المشركين من رزق يغني عما كانوا يجلبونه إلى مكة، وإذا اجتمع الخوف والرجاء كان شأن المؤمن التوكل على الله في امتثال أمره ونهيه وأن لا يمنعه الخوف من طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذكير لهم أنه عليم بأحوالهم فهو عليم بانقطاع ما كان يجلبه المشركون عليم بحاجة المؤمنين إلى بدله من الرزق وهو حكيم، فإذا اقتضت حكمته أن يرزقهم ويغنيهم من فضله فعل، وهذا أيضاً مما يحصل به الرجاء لفضله.

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى

وأما الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ والقصر فيه فالراجح: أن معناه: ليس المشركون صالحين لقرب المسجد الحرام؛ لأن عملهم غير مقبول وهم يطوفون عراة وصلاتهم عند البيت مكاءٌ وتصدية وفي تلبيتهم الشرك؛ لقولهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك» فليس فيهم خير يؤهلهم لقرب المسجد الحرام إنما هم نجس، فالقصر قَصْرُ القلب، مثل: ﴿لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١] وذلك لئلا يظنوا منع المشركين من قرب المسجد الحرام أنه من الصد عن العبادة في المسجد الحرام فليسوا أهلَ عبادة لله إنما هم نجس.

﴿٢٩﴾ ﴿قَاتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ واليوم الآخر؛ لأنهم وإن ادعوا ذلك غير مؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨] وقال في بعض أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٨١] فالإيمان الصحيح هو ما بَعَثَ على طاعة الله وتقواه لبعثه على الخشية من الله ومراقبته وهكذا الإيمان باليوم الآخر هو ما بعث على الإستعداد له والحذر من النار والصبر على طاعة الله وترك الإصرار على معصية الله خوفاً من النار.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ فهم أهل فساد وإفساد وإذا تُركوا فهم يبيحون الخمر والخنزير، وذلك يؤدي إلى نشرهم لفسادهم في الأرض، وقد قال تعالى في اليهود: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:٣٣] والتجربة في هذا الزمان تدل على انتشار الفساد بسبب الحرية التي تبيح الخمر والزنا واللواط، وغير ذلك من أسباب شيوع الفساد وانتشاره وانتشار الأمراض بسببه، مع انحراف أهل الأهواء عن الملل جملة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو دين الله ارتضاه لهذه الأمة وأرسل به رسوله وأنزل به كتابه وقامت الحجة على أهل الكتاب وغيرهم بالقرآن فعتوا عن الإيمان به وأصروا على الكفر، وهذا مع ما يأتي في الآيتين بعد هذه الآية من فسادهم.

وقوله: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَبَ﴾ يخص أهل الكتاب من بين سائر الكفار لحكمة وهو أحكم الحاكمين حيث شرع قتالهم حتى يعطوا الجزية بخلاف سائر المشركين الذين ليسوا أهل كتاب سماوي.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ غاية للأمر بقتالهم فلا يجب متى أعطوا الجزية ﴿عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ عن يد بسبب يد ونعمة عليهم هي أمانهم من القتل فقوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ كقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي في معنى ﴿عَن﴾ فاليد هنا النعمة ولذلك أُفردت، ولو كانت عبارةً عن العضو لجُمعت، كقوله: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة:٦٤].

وقولُه تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (الواو) واو الحال أي في حال صَغَارهم والصغارُ الذلة وذلك يفيد أن لا يبقى لهم عز بل يخضعوا لدولة الإسلام وأحكامه من غير أن يُظلَموا ولا يَنالوا كرامة المسلم.

ومن أمثلة ذلك: ما روي عن علي × في مخاصمته لكتابي ادَّعى عليه علي × درعاً لـه، فتحاكما إلى شريح فجلس علي × عند شريح، والقصة بسندها في (أمالي أبي طالب ×) في (الباب الثالث) وفيها: فقال ـ أي أمير المؤمنين علي × ـ: هيه يا شريح لو كان خصمي مسلماً ما جلست إلا معه ولكنه نصراني، وقد قال رسول الله ص: ((إذا كنتم وإياهم في طريق فصيِّروهم إلى مضائقه، وصغِّروهم كما صغر الله بهم من غير أن تطغوا)) انتهى.

والقصة في (أمالي المرشد بالله ×) في (الباب الرابع والثلاثين) [ج٢/ ص٢٣٥] بسند آخر، وفيها: فقال علي × : لولا أن خصمي ذِمِّي لاستويت معه في المجلس لكنى سمعت رسول الله ص يقول: ((أصغروا بهم كما أصغر الله بهم)) انتهى.

وفائدة الجزية: أن تعين على إدارة أمورهم مع أنه لا زكاة عليهم ولا فطرة، وفائدة التصغير بهم: تقريبهم إلى الإسلام لأنهم في مهلة الأمان قد يأنفون من أداء الجزية صاغرين ويرون عدالة الإسلام فيرغبون فيه، وقد روي أنهم كانوا في دولة الإمام الهادي إلى الحق يحي بن الحسين يسلمون بسبب عدله.

وكذلك الخصم الذي خاصمه أمير المؤمنين علي × لدى شريح في قضية الدرع قال كما في الرواية في (أمالي المرشد بالله ×): أمير المؤمنين قدَّمني إلى قاضيه وقاضيه قضى عليه، أشهد أن هذا الحق، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ومثله في (أمالي أبي طالب ×) ورواية (أمالي أبي طالب) رواها الإمام الهادي × في (الأحكام) في (باب القول فيما يجب على القاضي أن يفعله) وعقَّب عليها الإمام الهادي × في ما يفيد صحتها عنده حيث قال عقيبها: ((رحم الله علياً أمير المؤمنين، فقد جهل الحقَّ مَن جهل فضله..)) الخ.

ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرُۢ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : يعني قوماً من اليهود كانوا غَلَوا في عزير ـ صلوات الله عليه ـ لما بعثه الله بعد موته بمدة من الزمان، فقرأ لهم التوراة جميعاً وكتبها وأحاط بمعرفتها كلها وحفظها يروى أنهم صدقوه أنه مبعوث بعدما أنكروا عليه وقالوا عزير مات منذ زمن طويل، فلما رأوا ما فعل من كتابة التوراة كلها وحفظها وروايته لجميعها غَلَوا فيه حتى جاوزوا به الحد وخرجوا به من الدين والقصد)) انتهى.

قلت: ظاهر الآية: أنهم أجمعوا فلعل ذلك بقول بعضهم ورضى الباقين، وهو يحتمل أنهم كالنصارى في إثبات اللاَّهوت والناسوت، ويحتمل أنهم جعلوا عزيراً ابناً بالتبَنِّي والإتخاذ، وكلا القولين باطل وجهل بالله الغني الحميد.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام الناصر أحمد بن يحي الهادي × : قد جاء في الرواية أن بخت نصَّر لما ملك بابل وظهر على بني إسرائيل وملك بيت المقدس وهدمه وقتل من قرأ التوراة وأحرق ما قدر عليه منها، وكان عزيراً إذ ذاك غلاماً صغيراً، فاستصغره فلم يقتله ولم يرَ أنه يقرأ في التوراة، فلما توفي عزير ببابل ـ صلوات الله عليه ـ ورجعت بنو إسرائيل من بعده إلى بيت المقدس رجعوا وليس منهم إنسان يقرأ التوراة.

فمكث عزير × في موته مائة سنة ثم بعثه الله سبحانه ليجدد لبني إسرائيل توراتهم ويكون لهم آية فأتاهم فقال لهم: أنا عزير، فكذبوه وقالوا: قد حدثنا آباؤنا أن عزيراً مات ببابل فإن كنت كما تزعم عزيراً فأت بالتوراة علينا قال: نعم فكتبها لهم حتى فرغ، فقال: هذه التوراة، ثم إن رجلاً من بني إسرائيل يقال له سمحان بن لحيان، وكان من أبناء الذين سباهم بخت نصَّر وكان أبوه رجلاً صالحاً فقال: إن أبي أخبرني أن التوراة جعلت في جابية والجابية هي الجرة ثم دفنت في كرم لنا، فانطلقوا معي حتى أستخرجها لكم.

فانطلقوا معه حتى احتفرها فاستخرج الجابية وفيها (التوراة) فعارضوها بما كتب لهم عزير فلم يجدوها غادر منها آية واحدة مما كتب كله ولا سورة فعجبوا وقالوا: إن الله ـ عزَّ وجل ـ لم يقذف التوراة في قلب رجل منا بعد ما ذهبت من بيوتنا وقلوبنا إلى قلب رجل واحد إلا وهو ابنه، فهذا شركهم بالله عزَّ وجل، فعند ذلك قالت اليهود: ﴿عُزَيْرُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ جل وتعالى وتقدس عن قول كل كافر وعلا علواً كبيراً، وأما النصارى فكان شركهم بالمسيح صلوات الله عليه لَمَّا رفعه الله ـ عزّ وجل ـ إليه وحدث من بعد عيسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوم لم يكونوا أدركوه ولكنهم كانوا يقرؤون التوراة ويؤمنون بعيسى صلوات الله عليه.

فأتاهم رجل من اليهود يقال له: يونس، فغرهم في دينهم حتى لبَّس عليهم، وأتاهم بالشبهة مثل ما ترى أكرمك الله في دهرك ممن يتحيل في إدخال الجبر والتشبيه وفساد الدين والطعن على المحقِّين من الزنادقة وأهل الإلحاد ووضع الكتب المخالفة للقرآن فنعوذ بالله لنا ولك من الحيرة في دينه والجهل بكتابه والركون إلى غير مرضاته إنه قوي عزيز)) انتهى المراد.

وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ ﴿يُضَاهُوْنَ﴾ يشاكلون فهو قولهم خرج من أفواههم على كبره ونطقوا به في حال أنهم يضاهئون به ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ فهو الباعث لهم على النطق به، وذلك أن من طبع البشر الميل إلى الإقتداء، كما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨].

قال بعض المفسرين: ((إن تسرب العقائد الوثنية في دين النصارى ومِثلهم اليهود من الحقائق التي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية ﴿يُضَاهُوْنَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ وقد اعتنى جمعٌ من محققي هذا العصر بتحقيق ما تضمنته كتب القوم، أعني العهدين: القديم، والجديد، على ما حصل من مذاهب البوذيين والبرهمانيين، فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل، فلم يُبقِ ذلك ريباً لأي باحث في أصالة قوله تعالى: ﴿يُضَاهُوْنَ..﴾الآية في هذا الباب)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعبير عن الغضب عليهم بسب تلك المقالة، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] ثم قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي من أين يصرفون عن القول في الله بالحق إلى القول بالباطل الذي لا يقبله عقل ولا دين ولا تؤدي إليه حجة ولا شبهة لو عرفوا الله جل جلاله.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ أي المذكورون في الآيتين قبل هذه ولعله جمع لهم على التوزيع أي بعضهم اتخذوا ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ وبعضهم اتخذوا المسيح فنسب إلى

مجموع الفريقين لذلك، والأحبار: علماء اليهود هنا، والرهبان: عبَّاد النصارى المتفرغون للعبادة فلا يشتغلون بكسب الرزق ولا بأعمال دنيوية.

اتخذوهم ﴿أَرْبَابًا﴾ أي ملاَّكاً مالكين لهم ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم جعلوا أحكامهم تجري عليهم دون أحكام الله تعالى، فجعلوا تحريم الحلال إذا حرموه عليهم جعلوه ملزماً لهم ليس لهم أن يستحلوه بعد أن حرمه أحبارُهم ورهبانُهم، وهكذا إذا أحلوا لهم ما حرم الله جعلوا ما حرم الله حلالاً لهم فقد جعلوا أحبارهم ورهبانهم مالكين لهم يحق لهم أن يحكموا فيهم بما شاءوا؛ لأن حكمهم لا يكون حقاً إذا كانوا أحراراً مثلهم، وإنما المالك هو الذي يحكم في عبده فيلزمه حكمه، فمعنى جعل الحكم لأحبارهم ورهبانهم: جعلهم مالكين لهم، فصح: أنهم اتخذوهم أرباباً حقيقة وجعلوا لهم الربوبية أسبق إليهم من ربوبية الله لهم حيث آثروا حكمهم على حكم الله، فصح أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله.

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه رباً مالكاً لهم؛ لأنهم أوجبوا على أنفسهم عبادته والعبادة إقرارٌ بالعبودية بزعم العابد.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فلم يأذن الله لهم باتخاذ أرباب من دون الله ولا بعبادة غير الله، فتدَيُّنُهم بذلك الشرك تديُّنٌ لم يأذن الله به وإن ادعوا أنه من دين الله ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ بعبادة الله ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ ليس ثلاثةَ أقانيم ولا مؤلفاً من متعدد بل هو واحد حقيقة ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا يشاركه ابن ولا صاحبة ولا غيرهما ليس له صاحبة ولا ولد، وهو المالك لعباده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم فهو ربهم فلا يستحق العبادة إلا هو ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ بَعُدَ عن مشابهة ما يشركونه من المخلوقين الضعفاء المربوبين وتعالى عن ذلك بعزته وقهره فوق عباده.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

﴿٣٢﴾ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ هداه بالقرآن والرسول ص فهم أعداء الحق وأعداء الهدى فلا حق لهم في أن يُتركوا ليفسدوا في الأرض بل يجب أن يُقتَلوا حتى يخضعوا لحكم الإسلام في إطار الصَّغَار حتى لا يتمكنوا من نشر الفساد، ألا ترى أنهم في هذا الزمان ظهر فسادهم وانتشر بالمبشرين وبالإذاعات والتلفزيون والإنترنت وغيرها لَمَّا تمكنوا وضعف المسلمون بتفرقهم وتخاذلهم، بل وعدم الإيمان في قلوب أكثرهم وصاروا يقتلون المسلمين قتلاً ذريعاً لا يحميهم ميثاق الأمم المتحدة، ولا ما يزعمون من رعاية حقوق الإنسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧].

ولو أصلح المسلمون ما بينهم وبين الله لأصلح ما بينهم وبين الناس ولكن كثيراً منهم لا يؤمنون الإيمان الصحيح وإن ادعوا بألسنتهم أنهم مؤمنون: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٨٠-٨١] وصار الكثير منهم علْمَانِيَّةً يفصلون بين الدين والسياسة، ويرفضون تطبيق الشريعة الإسلامية فكيف لا تضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وإطفاء نور الله بأفواههم: هو التشكيك في صدق الرسول ص في أنه رسول الله، وفي أن القرآن كلام الله ونحو ذلك من الكلام المضل عن الهدى، وفي العبارة تشبيه بإطفاء السراج بالتيار الهوائي الخارج من الفم، وفي إضافة نور الله إلى الله تعظيم له ودلالة على قوته وضعف أفواههم عن إطفائه.

لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ

﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ **قد كانوا أرادوا إطفاء نور الله في وقت رسول الله ص فأبى الله ﴿إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ بإتمام الوحي وإكمال الدين وإظهاره، وقد كان ذلك في آخر عهد الرسول ص فأتَمَّ نوره والكافرون كارهون لذلك، لأن الله غالب على أمره.**

﴿٣٣﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ **هذا كالتعليل لقوله: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ﴾ فالله ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يأبى أن يطفئوا هذا النور قبل أن يظهره على الدين كله، ولا يستطيعون مغالبة الله على أمره، والهدى: ما بلغه الرسول عن الله من القرآن وسائر الوحي يهدي من اتبعه إلى الحق، ودين الحق: ما شرعه الله لعباده من عبادته والقيام به من الأعمال والمعاملات وغيرها، وهو دين العباد لربهم يدينون به أي يطيعون الله به ويعملون له.**

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي ليُعليه ويجعله فوق الأديان كلها بقوة حجته ونصره لأهله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لأن الله غالب على أمره، وفي هذه الآيات تشجيع على قتال أعداء الإسلام المذكورين حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذا تحذير من الإغترار بهم فهم فاسدون يأكلون الحرام ويصدون عن دين الله الذي ارتضاه لعباده، فلا ينبغي مع هذا النظر إلى أنهم أحبار أو أنهم رهبان فذلك مظهرُ خداعٍ وتضليل، كما أنه حث على منع تمكنهم من الصد عن سبيل الله بإذلال مجتمعهم وإخضاعه لحكم الإسلام بقتال من أمر بقتالهم في الآيات السابقة: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

﴿.. وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوۡمَ تُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ قال في (الصحاح): الكنز: المال المدفون ـ ثم قال: وفي الحديث: ((كل مال لا تؤدّى زكاته فهو كنز)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((الكنز: جعل المال بعضه على بعض وحفظه ـ ثم قال ـ:وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ أي يدّخرونها)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((الكنز: اسم للمال إذا أحرز في وعاء ولما يحرز فيه، وقيل: الكنز المال المدفون)) انتهى المراد.

وقوله: ((ولما يحرز فيه)) الصواب: وللإحراز فيه، يعني: أنه يكون مصدر كنَزَ كما يكون اسماً للمال المكنوز، وقد روي عن رسول الله ص أنه قال: ((ما بلغ أن تؤدَّى زكاته فزكّي فليس بكنز)) رواه الإمام أبو طالب × في (الأمالي) ومحله (الباب الثاني والعشرون).

ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

وفي الآية الكريمة دلالة على وجوب الإنفاق في سبيل الله وهو الإنفاق في سبيل دين الله، أي لحمايته أو نصرته أو حفظه أو نحو ذلك، وهذا واجب غير الزكاة.

والآية عامة لأهل البخل الذين يكنزون الذهب والفضة، وفيها تعريض بالأحبار والرهبان أن منهم من يكنز وأنه داخل في الوعيد المذكور، وهو دليل واضح على أن الذهب والفضة المكنوزة ﴿تُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا﴾ جباه الكانزين، والجبهة: أعلا الوجه فوق العينين، والجنوب: الضلوع، والظهر: القفا.

قال في (لسان العرب): ((والظهر من الإنسان من لدن مؤخر الكاهل إلى أدنى العجز عند آخره)) انتهى، وقال فيه: ((والكاهل: مقدم أعلا الظهر مما يلي العنق، وهو الثلث الأعلا فيه ست فقر)) انتهى.

﴿هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ يقال لهم حين يعذبون بها هذا ما كنزتم لأنفسكم ﴿فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ وهو تحقيق لخسرانهم العظيم بسبب ما كنزوا.

٣٦ ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ ﴿عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ أي شهور العام الواحد ما هي إلا ﴿ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا﴾ وهذا حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في حكمه حين كون الشمس والقمر وبروجهما يوم خلق السموات والأرض، فجعل

الليل والنهار وجعل الأهلّة وجعل القمر يمر على منازله في شهر، والشمس تمر على منازلها في سنة، فكتب هذا التوقيت بتسخيره للشمس والقمر على سيرهما المقدر المحدود، كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥] فبهما علم الناس السنين وحساب الأوقات أيام وشهور وسنين وهذا مع دورة الأرض، ولعلها ذكرت هنا لمشاركتها في تحديد الشهور، لأن الهلال إنما يكون هلالاً لموقع القمر بين الشمس والأرض ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ يفيد أنه خلق الشمس والقمر وسخرهما في بروجهما يوم خلق السموات والأرض فكانت الأشهر اثنا عشر شهراً يوم خلق السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ الأربعة: ذو العقدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، ومعنى ﴿حُرُمٌ﴾: أن كل شهر منها حرام أي لا يحل القتل فيه ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ تحديد الأشهر بهذا العدد اثني عشر وتحريم أربعة منها: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بالقتل فيها.

﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ ومع تحريم الأربعة الحرم قاتلوا في غيرها المشركين كلهم عربهم وعجمهم وأهل الكتاب وغيرهم، إلا أن قتال أهل الكتاب محدود بإعطاء الجزية، وخص من الأمر بالقتال من ذكر في أول (سورة التوبة).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) لقول الله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾: ((معناه: عامَّة)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((والكافة: الجميع من الناس، يقال لقيتهم كافة أي كلهم)) انتهى، في (لسان العرب): ((الكافة: الجماعة، وقيل: الجماعة من الناس، يقال: لقيتهم كافة:أي كلهم.

تُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَتُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

وقال أبو إسحاق في قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة:٢٠٨] قال: كافة، بمعنى الجميع والإحاطة)) انتهى المراد، وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال الفرا: معنى كافة: أي جميعاً، والكافة لا تكون مذكرة ولا مجموعة على عدد الرجال)) انتهى.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فقاتلوهم وثقوا بأن الله معكم إذا كنتم متقين لله مطيعين، وهذا تشجيع وتعبير عن قوة المتقين بالله.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قال في (الصحاح): ((وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ هو فعيل بمعنى مفعول، من قولك: نسأت الشيءَ فهو منسوء إذا أخَّرته، ثم يحوّل منسوء إلى نسيء كما يحول مقتول إلى قتيل)) انتهى.

وعلى هذا: فالمعنى: أن حرمة الشهر الحرام التي يؤجلها المشركون إلى شهر آخر من غير الأشهر الحرم هذه الحرمة المجعولة في غير الشهر الحرام هي زيادة في الكفر، لأنها تشريع لم يُشَرِّعه الله؛ ولأنها يضل بها الذين كفروا؛ لأنهم يستحلون الشهر الحرام بسبب تأجيل حرمته إلى غيره، والمعنى: أن التأجيل لهذه الحرمة إلى الشهر الحلال زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا، ولعل هذا هو السبب في تفسير النسيء بتأجيل الحرمة وتأخيرها أي بالمصدر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : كان أهل الجاهلية فيما روي إذا احتاجوا إلى القتال في الأشهر الحرم تَسَلَّفُوا منها أيَّاماً يحلونها لحاجتهم ويحرمون بعد ذلك أياماً بعددها من زمانهم ويسمونها النسيء بمنزلة نسيء الدَّين، وهو النظرة بين المتداينين، قال الشاعر:

ونحن الناسئون على معدٍّ شهورهم الحرام إلى الحليل))

انتهى المراد، وهذا يفيد: أن (النسيء) اسم للشهر الذي حرّموه بدلاً من تحريم الشهر الحرام فتسميته النسيء بمعنى أنه الشهر الحرام أخِّر عن وقته الحقيقي.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((هم قوم من بني كنانة كانوا ينسئون الشهور معناه يؤخرونها لحرب أو لأمر فيجعلون ذا الحجة في المحرم أو ذي [ذا] القعدة أو غيرها من الشهور)) انتهى نقتله من صورة المخطوطة.

وأفاد في حاشية المطبوعة بتحقيق الدكتور محمد حسن تقي: أن في بعض النسخ (ذا) في الموضعين أي بالنصب ولعله الصواب؛ لأن ذلك هو التأخير، أما جعل ذي الحجة في ذي القعدة فهو تقديم، وفائدة جعل ذي الحجة في المحرم: أن يستحلوا ذا الحجة، ولعلهم يجعلون المحرم حينئذ في صفر فتكون تلك السنة عندهم ثلاثة عشر شهراً، وقد رد الله تعالى ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهذا هو الراجح في معنى ﴿ٱلنَّسِيٓءُ﴾ أنه يستلزم أن تكون السنة أكثر من اثني عشر شهراً بشهر أو بأيام.

وقوله تعالى: ﴿يَضِلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بسببه يقعون في الضلال عن الحق لأنهم يقعون في الباطل بناء على النسيء، وقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : والمعنى: أنهم يحلونه عند حاجتهم إليه سنة، ويرمونه إذا استغنوا عن القتال فيه سنة أخرى، والعام هو السنة وهو الحول)) انتهى المراد.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا

قلت: الراجح: أنهم كانوا إذا أحلوه عاماً حرموه في العام الذي يليه حفاظاً على وقته الأصلي؛ لأنهم لو استمروا عليه نسوا الأصل فهو نوع من تبرير باطلهم بغير مبرر ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوها بتحريم أربعة أشهر وذلك لا يكفي، وأما قوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ فهو تفريع على إحلاله عاماً وهو الأصل في التفريع وعلى تحريمه عاماً لأنهم توصلوا به إلى إحلاله في العام الأول وجعلوه مبرراً له، فكانوا بإحلاله عاماً وتحريمه عاماً قد أحلوا ما حرم الله.

﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ﴾ زيَّنَتْه أنفسهم للحصول على هواها بالقتال فيه وزينه لهم الشيطان ليزدادوا كفراً وضلالاً وليكونوا من أصحاب السعير ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لأنهم يستحقون الخذلان بكفرهم، و﴿سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ قبيحُ أعمالهم.

﴿٣٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تقديم للحث على الجهاد في سبيل الله وإنكار التثاقل عنه؛ لأن من شأن المؤمن الجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٧٦] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥].

فالإنكار عليهم بقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ معناه: السؤال: ما المانع عن إجابة الدعوة إلى الجهاد؟ لأن الأصل فيهم إن كانوا مؤمنين أن يجيبوا ولا يتثاقلوا، والمراد به بعضهم، إلا أنهم غلبوا على المؤمنين لكثرة المتثاقلين في تلك الحال ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ﴾ أي اخرجوا من البلد إلى الجهاد، وفي (مفردات الراغب): ((النَّفْر: الإنزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء وعن الشيء)) انتهى المراد، فهو يشعر بالسرعة وقوة النهوض والحركة.

وقوله تعالى: ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تثاقلتم مائلين إلى القعود على الأرض أي اثاقلتم عن الخروج مائلين ﴿إِلَى﴾ البقاء في مكانكم من ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وهو يصور تباطُئَهم بتثاقلٍ يصعب معه التزحزح للخروج لأجل الثقل الحاصل بالتثاقل.

قال سيد قطب في قوله تعالى ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾: ((وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل ويلقيها بمعنى ألفاظه اثاقلتم إلى الأرض ومالها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق..)) إلخ.

﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ ﴿أَرَضِيتُم﴾ بهذه الحياة ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ على قصرها وقلة لذاتها وكثرة المنغصات فيها بدلاً ﴿مِنَ﴾ الحياة ﴿ٱلْأَخِرَةِ﴾ في جنات وسعادة دائمة، فالقاعد عن الجهاد في سبيل الله العاصي لربه بالقعود عنه تفوته الجنة وليس له متعة إلا هذه الحياة الفانية.

﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي في جنب الآخرة، أي بالنسبة إلى الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وكيف لا يكون قليلاً وهو منسوب إلى الخلود الأبدي في جنات النعيم ؟ فهو قليل في مدته، وقليل في لذته وخيره، بل هو أقل من نسبة ساعة واحدة إلى مليون سنة.

وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟

﴿٣٩﴾ ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **كُتبَت في المصحف ﴿إِلَّا﴾ بغير نون كما ينطق بها، والأصل ﴿إِنْ لاَّ﴾ وهي (إن) الشرطية و(لا) النافية.**

﴿إِنْ لاَّ تَنفِرُوا۟﴾ كما أمرتم يعذبكم عذاباً أليماً يحتمل: عذاباً عاجلاً وآجلاً، ويحتمل: عذاباً آجلاً، والأول أرجح لتقديمه على قوله تعالى ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ويحتمل: أن تقديمه لأنه أهم وأشد من الإستبدال لا لتقدمه في الوقوع.وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا﴾ أي يأتي بقوم يجاهدون بدلاً منكم.

وقوله: ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي شيئاً من الضر؛ لأنه لا تضره معصية من عصاه ولأن دينه يظهر ونبيه ينصر بغيركم إن لم تنفروا ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو قادر على تعذيبكم وعلى استبدال قوم غيركم وعلى نصر نبيه وإظهار دينه وعلى كل شيء وليس محتاجاً إلى جهادكم إنما يريد أن يبلوكم بالأمر بالجهاد وبالجهاد إن جاهدتم.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ

نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ في حال غيابكم عنه وغيابه عنكم ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي حين أخرجه الذين كفروا حين ﴿يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فقد نصره الله في حال حين انفراده عن الأنصار ليس معه من ينصره.

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ أي لرفيقه في تلك الحال ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ فهو قوي بالله واثق بالله، وصاحبه لا ينصره بل هو يطَمْئن صاحبه بقوله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ ويثبته على دينه بقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ أي لا تحزن لكونك معي، فإني وأنت في رعاية الله فلا تحزن لأجل وحدتنا أو لا تحزن لعدم من ينصرنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

والفرق دقيق فالحزن الأول سببه الصحبة، والحزن الثاني سببه اليأس من السلامة، وهذا الحزن غير الخوف فهو غير منهي عن الخوف وليس منكراً إنما المنكر الحزن لكونه لازماً لمحذور، ففي تلك الحال تبين نصر الله له واستغناؤه بالله عن الأنصار من الناس، فاعتبروا بها لتعلموا أن الله ناصر نبيه ولو قعدتم عن نصره.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ يعني النبي ص حين خرج من مكة ودخل غاراً في جبل ثور ليخفى على من خرج من قريش في طلبه والغار عميق في الجبل والغار هو الجرف من جراف [استعمال الجرف بمعنى الغار لغة يمنية ولعلها عرفية مولده] الجبال وهو الكهف وهو الكنان.

ثم قال الشرفي: والمراد من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هو أنهم جعلوه كالمضطر إلى الخروج وخرج ص أول الليل إلى الغار وأمر علياً أن يضطجع على فراشه ليمنعهم السواد من طلبه حتى يبلغ إلى ما أمر الله به» انتهى المراد.

وقوله: «جعلوه كالمضطر إلى الخروج» يعني: بتآمرهم على قتله تلك الليلة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يدل على أن الكفار طلبوه فأيده الله بالملائكة ودفع بهم أعداء الله عن نبيه ص، وقوله تعالى ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ بأن أعز نبيه وسلَّمه من أخذهم له وقتله وقد تآمروا على قتله ليبطلوا أمر الله ودينه ويبقى الشرك فأبطل الله كيدهم ونجاه منهم بما جعل له من أسباب النجاة منهم وتفويت غرضهم حتى أبطل الشرك والكفر وجعله الأسفل.

فإن قيل: فأين نصر الله له ص والآية إنما دلت على انفراده عن الأنصار، وقوله: ﴿لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾؟.

قلنا: بل أفادت نصره بقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ فنجاته وفوات غرضهم بنصر الله وإنزال السكينة عليه جعل قلبه مطمئناً ثابتاً كأنه غير مطلوب ليقتل حذراً أن يفوتهم فيكون له أنصار فيعود عليهم ويقهرهم ويبطل دينهم، فشدة الطلب وشدة حرص الطالبين من شأنه تحصيل الخوف وارتجاف قلب المطلوب مع وحدته وابتعاده عن قرابته وعدم من ينصره من الناس، فكيف لا يكون محتاجاً إلى إنزال السكينة عليه؟ فكان إنزال السكينة عليه وتخييب أمل أعدائه من النصر ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾لأنه إذا قال للشيء كن كان؛ ولأن دينه الأعلى لأنه لا بد أن يظهره على الدين كله.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ كالتفصيل والبيان للنصر وما بينهما ظرف للنصر كأنه قيل: فقد نصره الله في حال وحدته عن الأنصار ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ﴾.

خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ

﴿٤١﴾ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هذا الأمر راجع إلى ما قبله من إنكار التثاقل إذا قيل لهم انفروا، فكأنه قيل: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ﴾ ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ وقوله: ﴿إِذَا قِيلَ﴾ يدل على وجوب النفر عند القول لهم: انفروا ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولعل المراد قول من له الولاية عليهم كالرسول ص ويحتمل وجوب النفر ولو لم يكن للآمر ولاية عليهم؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِذَا قِيلَ﴾ لم يفصل، فيكون كقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة:٩] فإنه لا يشترط فيه أن تكون للمؤذن ولاية عليهم.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: ((لا يُفسِد الجهادَ والحجَّ جورُ جائرٍ، كما لا يفسد الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر غلبةُ أهل الفسق)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿خِفَافًا﴾ مطلق في سبب الخفة فتكون خفة البدن لعدم ما يثقله من نقص قوة لمرض سابق أو كثر لحم وشحم أو غير ذلك، وقوله تعالى ﴿وَثِقَالاً﴾ مطلق في أسباب الثقل إلا أنه قد خص الأعمى والأعرج والمريض وبقي من سواهم في العموم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي النفر خفافاً وثقالاً والجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله خير لهم؛ لأن ثوابه عظيم وفيه إعزاز للدين وإذلال للكفر وحماية من الفساد في الأرض.

وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ

وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون علمتم ذلك، ومعنى إن كنتم تعلمون الإطلاق ليس مقيداً بمعلوم، فكأنه قيل: إن كان من شأنكم أن تعلموا، وذلك شأن كل عاقل والخطاب للمؤمنين، فلا بد أن يعلموا ما أخبر الله به.

﴿٤٢﴾ ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ ﴿لَوۡ كَانَ﴾ ما دعوا إليه والكلام في المتثاقلين إلى الأرض ﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: غنيمة قريبة)) انتهى.

والعرض يصدق على متاع الدنيا لأنه عارض لا يبقى، قال تعالى: ﴿يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف:١٦٩] فالغنيمة منه ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ بحيث يسيرون في الطريق ولا مشقة فيه، وهذا ليس شأن المجاهدين فإنهم يجولون ويصولون ويذهبون يميناً وشمالاً على ما تدعو إليه حال المعركة فالمعنى لو كان ما دعوا إليه متاع من متاع الدنيا يسافرون له سفراً قاصداً ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ حتى ينالوه بغير قتال ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: السفر والسير)) انتهى.

وقال الراغب: ((والشقة: الناحية التي تلحقك المشقة في الوصول إليها)) انتهى، وفي (الصحاح): ((والشقة ـ أيضاً ـ السفر البعيد، يقال: شقة شاقة)) انتهى، ومثله في (لسان العرب). ثم قال فيه الأزهري: ((والشُّقَّةُ بُعد مسير إلى الأرض البعيدة قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ وفي حديث وفد عبد القيس:أَنَّا نَأتِيكَ من شُقَّةٍ بعيدة أي مسافة بعيدة، والشُّقَةُ أيضاً: السفر الطويل)) انتهى.

أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ

والمعاني متقاربة وهي تدل على أن المتخلفين عن الجهاد مع رسول الله ص تخلفوا لبعد المسافة إلى محل الجهاد وفي ذلك مشقة السفر الطويل مشقة الغياب عن الأهل والمسكن والمال وفي هذا التعبير دلالة على عدم إيمانهم لأنهم إذا تخلفوا لهذه العلة فهم غير مؤمنين، لأنهم عصوا الله ورسوله ص فراراً من مشقة السفر الطويل فبالأولى أنهم لا يجاهدون في سبيل الله مع رسول الله ص لأنهم أهل دنيا فقط.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يهلكون أنفسهم بالكذب والحلف على الكذب فقد كانوا استطاعوا، ولكن كرهوا الجهاد في سبيل الله، وفي هذه الآية رد على من قال: أن استطاعة العبد لا تكون إلاعند الفعل وهي عندهم موجبة للفعل ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في حلفهم ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾: أي غفر الله لك، مالك أذنت لهم ولم تبتليهم بما يثقل عليهم، حتى تختبرهم ويتبين لك الصادق والمنافق الكاذب منهم)) انتهى.

ويظهر: أن المتثاقلين إلى الأرض عند الأمر بالخروج إلى غزوة تبوك استأذنوا رسول الله ص في التخلف فأذن لهم، لأن المتثاقل غيابه أفضل من حضوره ولمعرفته أنهم مظنة الإنهزام لو خرجوا ولمثل هذا صرف طالوت

وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ

أكثر جنده بالنهر الذي شربوا منه فكان الأذن لهم هو الصواب في ظاهر الحال ولكن هذه الغزوة كانت مسافتها بعيدة وهي تؤدي إلى حرب الروم أهل القوة والكثرة، فكانت هيبتهم مع ضعف حال المجاهدين تمنع غير المؤمنين من امتثال أمر الرسول ص بالجهاد لهم؛ لأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض يحبون الحياة ولا يريدون طاعة الله ورسوله ص، فكانت صعوبة المعركة والسفر لها وهيبتها تحملهم على التخلف سواء أذن لهم النبي ص أم لم يأذن لهم، فكان الأذن لا موجب له بل كان تركه فرصة يتبين له ص الصادق في دعواه الإيمان والكاذب، وقد فاتت بطريقة السهو وصار الأذن لهم مجرد رفق بهم وستر عليهم، وهو ينافي الغلظة عليهم التي يستحقونها ومن هنا كان زلة غفرها الله له قبل أن نبهه عليها.

فقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ ليس سؤال توبيخ وإنما هو سؤال عن سبب الإذن ليبين له أنه كان ساهياً فيه وأنهم كانوا يستحقون تركه ليتبين له الكاذبون والصادقون بطاعة الصادقين ومعصية الكاذبين وفيه دلالة على غضب الله عليهم وإن أذن النبي ص لم يفدهم شيئاً، لأنهم متثاقلون عن الجهاد ليس لهم فيه نية والأذن لهم بترك الخروج مع النبي ص لم يكن أذناً في ترك الجهاد في سبيل الله لأنهم لا يجاهدون في سبيل الله ولو خرجوا معه وزعموا أنهم يجاهدون في سبيل الله.

﴿٤٤﴾ ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي لا يستأذنونك أي لئلا يجاهدوا، كقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بضمائرهم ونياتهم وأنهم يريدون الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فهو أخبر عنهم لعلمه بهم.

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ لا يؤمنون بالله واليوم الآخر فلا يخافون عذاب الآخرة لمعصيتهم لله ولا يرجون ثوابها لو جاهدوا في سبيل الله وارتابت قلوبهم شكَّت في صدق الرسول وقلقت فهم في ريبهم في شكهم وقلقهم يترددون بين الإيمان والكفر وبين الطاعة والمعصية.

فاحتمال صدق الرسول ص في نفوسهم يدعو إلى الإيمان والطاعة وتجويزهم كذبه يدعوهم إلى الكفر والمعصية واحتمال انتصار الرسول ص يدعوهم إلى طاعته واحتمال غلبة الكفار له في نفوس المرتابين يدعوهم إلى ترك الجهاد معه بل وإلى النفاق واتخاذ الولائج وكلا الإحتمالين مقلق لهم مخيف والجهاد لمشقته وكونه تعرضا للقتل يبعد وقوعه منهم لأنهم يحبون الحياة الدنيا ولا يوقنون بالحياة الآخرة فحرصهم على الحياة الدنيا يصرفهم عن الجهاد ويدعوهم إلى الإستئذان ليتستروا بالأذن لهم في التخلف ولا يصارحوا بالعصيان.

وهذا الإستئذان هو استئذانهم في ترك الخروج للجهاد بعد دعوة الرسول ص إلى الخروج للجهاد وهو غير الإستئذان المذكور في أواخر (سورة النور) فهناك الإستئذان من بعض المؤمنين بالله ورسوله ص الحاضرين معه على أمر جامع للرسول والمؤمنين يستأذنونه ليذهبوا عن محل اجتماعهم لبعض شأنهم وذلك مثل اجتماع لمشاورة في أمر مهم أو لموعظة أو تبليغ وحي يراد تبليغه للعموم.

أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ﴾ فتركهم للإعداد مع تمكنهم منه دليل على أنهم لا يريدون الخروج ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ سمى خروجهم انبعاثاً؛ لأنهم لا يخرجون للجهاد في سبيل الله فكأنه مجرد خروج عن البلد ليس كخروج المؤمنين وليس من الطاعة لله ورسوله إنما هو رئاء لو كان ﴿فَثَبَّطَهُمۡ﴾ حبب إليهم القعود وزادهم كسلاً.

﴿وَقِيلَ﴾ بلسان الحال: ﴿ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ﴾ المأذون لهم في ترك الخروج للعذر الشرعي كالأعمى والأعرج والمريض وهذا تحقير لهم حيث قرنوا بالعجزة.

﴿٤٧﴾ ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا﴾ بالإرجاف عليكم والتخويف من الأعداء وبانهزامهم عند لقاء العدو حين البأس ونحو ذلك من أسباب الضعف في الرأي وفي العزم، واستثناء الخبال على طريق المشاكلة التقديرية؛ لأنهم يضعون الخبال موضع زيادة القوة للمجاهدين بتسويدهم وتكثيرهم فبطريقة المشاكلة جعله من الزيادة بنفس الإستثناء المفرغ ويأتي نظيره، وهو قوله الله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقريب منه في الإستثناء وإن لم يكن من المشاكلة قول الشاعر:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

هذا والخبال: ضعف الرأي والإضطراب، قال الراغب: ((الخبال:الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر)) انتهى.

﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ قال الراغب: ((ووضعت الدابة تضع في سيرها أسرعت ـ ثم قال ـ : وأوضعتها حملتها على الإسراع)) انتهى.

فقوله تعالى: ﴿وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾ مجاز عن السعي في التفريق بين المؤمنين لأن من أوضع بعيره خلال الناس فرقهم، وقوله تعالى: ﴿يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة أن يفتنكم الذين كفروا بسبب تفرقكم واختلاف قلوبكم ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ غافلون عن كيدهم وفساد نياتهم لا يظنون فيهم الكذب والتغرير وهكذا كثيراً من الناس ولذا يتوصل الكفار بالصحافة الخائنة وغيرها من وسائل الإعلام لإفساد الشعوب الإسلامية والتفريق بينهم ويجعلون منع الصحافة ظلماً وكبتاً للحرية.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عليم بما يفعلون وعليم بما يسرون وعليم بكل أمورهم؛ لأنه عالم الغيب والشهادة فقوله فيهم هو الحق.

﴿٤٨﴾ ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ لقد ابتغى هؤلاء المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله ابتغوا من قبل هذا التخلف الفتنة للمسلمين بتدبير الكيد لهم، إما بالتحريض للكفار عليهم مع الأرجاف على المسلمين وتخويفهم من قوة الكفار، وإما بالتناجي فيما بينهم وتدبير الكيد بأي وسيلة، وإما بغير ذلك.

﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ﴾ يا رسول الله ﴿ٱلۡأُمُورَ﴾ التي حاولوا كيدك بها فاتخذوا وسائل مختلفة وآراء متعددة لإبطال أمرك بتقليب الأمور وتحويلها عن وجه إلى وجه خداعاً، والتقليب يكون بقلب الحقائق كذباً وخداعاً، ويكون بفعل ما يظهرونه طاعة، وهم يكيدون به الرسول ص مثل: خروج بعضهم مع رسول الله ص يوم (أحد) ثم رجعوعهم من الطريق، فهذا الرجوع تخذيل للمجاهدين وكان ظاهر الخروج الطاعة فانقلب مكيدة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام الناصر أحمد بن يحيى × : وتقليب الأمر: تصريفه وترديده، لأجل التدبر والتأمل فيه يعني اجتهدوا في تدبير الحيل والمكايد ودور الآراء في إبطال أمرك.

قال في (البرهان): وتقليبهم الأمور: هو معاونتهم في الظاهر، ومالات المشركين في الباطن، والثاني [كذا] توقعهم الدوائر وانتظارهم الفرص)) انتهى.

﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي أبطل ذلك الكيد وخيب آمالهم، ولعله كشف أسرارهم تارة وتفويت أغراضهم بنصر الله لرسوله ص وعصمته له من كيدهم ﴿وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ دينه الذي حاولوا إسقاطه وإضاعته ﴿وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ فهم ما زالوا أعداء الدين في الماضي وأعداءه في المستقبل.

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِنۡهُم﴾ من المتخلفين ﴿مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الهادي × هذه الآية نزلت في جَد [ضبط اسم الجد من غير (المصابيح) انتهى ـ مؤلف] بن قيس وذلك أنه أمره رسول الله ص بالخروج معه في غزوة تبوك فقال يا رسول الله قد علمت إعجابي بالنساء ومحبتي لهن وأنا أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر وأفتتن بهن، فقال سبحانه: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ

إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا

سَقَطُواْ﴾ يقول سبحانه: ألا في العذاب والفتنة، فمعناها: العذاب، فأخبر سبحانه أنه عاد وتعلل بمعنى قد وقع فيه بتخلفه عن الرسول ص)) انتهى.

فقوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي لا توقعني في الفتنة أي في الإثم إذا رأيت جواري الروم ووقعت في الزنا أو أرتددت إلى دينهن طمعاً فيهن، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ولا تأثمني ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ معناه: في الإثم وقعوا)) انتهى.

وتسمية الإثم فتنة، لأنه سبب للعذاب وهذا أرجح وقوله: ﴿سَقَطُواْ﴾ أي هذا القائل وأضرابه من المتخلفين المعذّرين.

قال سيد قطب ـ ونعم ما قال ـ : ((والتعبير يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون)) انتهى المراد.

﴿٥٠﴾ ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿إِن تُصِبْكَ﴾ يا رسول الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ مثل: نصر، وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تغمّهم وتؤلم قلوبهم يقال ساءه ضد سَرَّه ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ مثل قتل فيمن معك من المؤمنين ﴿يَقُولُواْ﴾ هؤلاء المتخلفون ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ هيأنا لنفوسنا أسباب السلامة ﴿مِن قَبْلُ﴾ بتخلفنا عن الجهاد ﴿وَيَتَوَلَّواْ﴾ إلى مقاعدهم ﴿وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ بما هم عليه من المخادعة للمؤمنين وترك الجهاد معهم وفرحون بما أصاب رسول الله ص عداوة له ورجاء لضعفه واطمئناناً إلى قوة الكفار وركوناً إليهم.

هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ

﴿٥١﴾ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ ﴿لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا﴾ هو خير لنا في العاقبة فكتبه الله لنا، لأنه خير لنا هو مولانا مدبر أمورنا ومحسن رعايتنا ومتولي مصالحنا، فقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ يدل على أنه فائدة لا خسارة علينا، ولعل هذا المعنى هو مراد الحسين بن القاسم × ، فقد قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الحسين بن القاسم × : معناه: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ من الكفار وظلمهم ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ عليه الأجر والثواب، ولكنه اختصر في كثير من متشابه الكتاب ليثيبن بذلك فضل أولي الألباب، ثم قال: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي مالكنا وناصرنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمن أن لا يتوكل على غيره» انتهى من (المصابيح).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليكلوا أمرهم إليه يدبر لهم ما شاء فلا يتركوا الجهاد حذراً من المصيبة وهذا أمر للمؤمنين أن يتوكلوا على الله لا على غيره.

﴿٥٢﴾ ﴿قُل هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ ﴿تَرَبَّصُونَ﴾ تنتظرون ﴿بِنَآ﴾ ينالنا ونصير إليه ﴿إِلَّآ إِحْدَى﴾ الخصلتين ﴿ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ وهما: النصر، أو الشهادة، فالنصر خير عظيم لظهور دين الله في الأرض وذهاب الشرك والفساد، والشهادة خير عظيم لما مر في (سورة آل عمران).

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ ونحن ننتظر بكم ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ﴾ بسبب عداوتكم للدين وتخلفكم عن

أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا

الجهاد في سبيل الله وكيدكم للإسلام فنحن نتوقع ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ﴾ يوقعه عليكم بأي سبب من أسباب عذابه أو يصيبكم الله بعذاب ﴿أَوۡ بِأَيۡدِينَا﴾ بأن يأمرنا أن نعذبكم ويسلطنا عليكم بإجرامكم.

﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ بنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ بكم وقوله: ﴿مَعَكُم﴾ هي معية الإشتراك في التربص ووقته وإن اختلف متعلقه، وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓاْ﴾ تعبير عن عدم المبالاة بتربصهم.

﴿٥٣﴾ ﴿قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي سواء أنفقتم ﴿طَوۡعًا﴾ رئاءً وتعمية على أهل الحق توهمون به النصح للدين ﴿أَوۡ كَرۡهًا﴾ عند الأمر بالإنفاق في سبيل الله الأمر للعموم؛ لئلا يظهر نفاقكم ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ﴾ لأنكم من قبل قوم فاسقون، و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وأنتم قد استمر منكم وتكرر الخبث والفجور.

﴿٥٤﴾ ﴿وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ وهذا خبث عظيم وفجور كبير، فهو من بيان فسقهم ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ﴾ لأنهم لا يرجون الثواب ولا يخافون عذاب الآخرة فهم إنما يراؤون بها رئاء؛ لئلا يقتلوا وهم كارهون لها وذلك سبب كسلهم.

تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ كذلك لعدم إيمانهم بالثواب والعقاب ولبخلهم عن الإنفاق في وجوه القرب فهم يكرهون الإنفاق في سبيل الله وللفقراء والمساكين وسائر ما يأمر الله به ورسوله وسبب ذلك عدم الإيمان الذي هو شرط في قبول الأعمال، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقد اجتمع منهم الإخلال بشرط القبول والمانع من القبول، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [النور:٣٩].

﴿٥٥﴾ ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ قال في (لسان العرب): ((وشيء معجب: إذا كان حسناً جداً)).

قلت: فإعجابه تسبيبه للسرور به أو للرغبة فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٢] فإن المعنى: ولو رغبت في حسنهن وتفسيره بالسرور غير متعين في كل موضع وإنما يتعين فيمن قد حصل له الأمر المعجب.

وقد قال الراغب في تفسير (العجب): ((ويستعار مرة للمؤنق، فيقال: أعجبني أي راقني)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((وكذلك حديث عبيد بن عمير: (ما من عاشية أشد أنقاً ولا أبعد شبعاً من طالب علم) أي أشد إعجاباً واستحساناً ومحبة ورغبة والعاشية من العشاء وهو الأكل بالليل ومن

أمثالهم: ((ليس المتعلق كالمتأنِّق)) معناه: ليس القانع بالعُلقة وهي البُلغة من العيش كالذي لا يقنع إلا بآنق الأشياء وأعجبها ويقال: هو يتأنَّق، أي يطلب ءآنقَ الأشياء، أبو زيد: أنقت الشيء أنقاً إذا أحببته)) انتهى.

وروى أبو طالب × في (الأمالي) وهو في (باب الترغيب في حسن الخُلق) بإسناده عن علي × كلاماً له ذكره في (الأمالي) منه: قوله × : ((وقعت جارية حماء حواء لعساء لمياء..)) إلى قوله × : ((.. فلما رأيتها أعجبت بها وقلت لأطلبن إلى رسول الله ص أن يجعلها في قسمي..)) إلخ.

فظاهر قوله × : ((أعجبت بها)) رغبت فيها، وفي حديث (مجموع الإمام زيد بن علي إ): عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) قال: ((كان رسول الله ص يعجبه من الحلو التمر والرطب ومن الأطعمة الثريد ومن البقول الهندبا)) فالظاهر من قوله: يعجبه، أنه كان يحبه أحسن من غيره.

فالراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ﴾ أنه تفريع على كون نفقاتهم لا تقبل فهي قليلة الفائدة كما في الحديث:((ليس لك من مالك إلا ما لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيت)) فقد فاتتهم الفائدة العظمى في مالهم فهو حقير لقلة فائدته، فلا ينبغي استحسانه لوفوره لأن نصيبهم منه قليل، كما قال أمير المؤمنين × : ((لكل امرئ في ماله شريكان:الوارث، والحوادث)) وعلى هذا فتكثير مالهم وولدهم ليس مسارعة لهم في الخير إنما هو فتنة لهم لأنهم يتعبون في خدمة المال وحراسته ويشقون بالحرص عليه والأسف على ما فات.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أن يمدهم بالمال والبنين ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: فيعيشون معيشة ضنكا بسببهما،أما الولد فيزيد الحرص على جمع

وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ

المال فيكون التعذيب به من هذه الجهة، وقد يكون عاقاً أو غير مساعد على معاونة أبيه، فيكون التعذيب بالغيظ الذي يحدث لأبيه بسبب عقوقه أو معصيته، والآية الكريمة لم تحدد التعذيب بالمال والولد وقد أراده الله فهو بصير بذلك وليس لنا أن نحدده.

﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ مستحقون للنار، وذلك أنهم يشغلون أوقاتهم بمالهم وتتوجه قلوبهم إلى الجمع والمحافظة وتزداد قسوة وغفلة حتى يموتوا على ذلك وذلك عقوبة على محادة الله ورسوله وسببه منهم فلو آمنوا لكانت أموالهم وأولادهم خيراً نافعاً في الدنيا والآخرة، وكان أولادهم سبباً لزيادة الثواب بتربيتهم على الدين والطهارة، ولكنهم أقبلوا على الدنيا واختاروها وصارت همهم ونيتهم وإرادتهم، فصارت عليهم عناء وعذاباً؛ بفساد قلوبهم بالحرص وطول الأمل، وعدم التوكل على الله، وعدم القناعة، وأراد الله أن يتركهم على ما اختاروا لأنفسهم عقوبة لهم عاجلة فأنزل عليهم الموت ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ باختيارهم فالحال التي زهقت أنفسهم وهم عليها هي منهم والله أراد إزهاق أنفسهم وهم على ما اختاروا لأنفسهم عقوبة لهم بترك التوفيق فساءت خاتمتهم باختيارهم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ حلفة المسلمين تظاهراً بالإسلام ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ على دينكم ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ فهم يحلفون على الكذب ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ فلذلك أظهروا الإسلام، ولذلك يحلفون بالله إنهم لمنكم والفَرَق ـ بفتح الراء والفاء ـ الخوف، وخوفهم من القتل بسبب كفرهم.

﴿٥٧﴾ ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ هذا تحقيق لفرقهم وبيان لشدته عليهم فـ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا﴾ يلجأون إليه من دون أن يفارقوا ديارهم وأموالهم للجأوا إليه خوفاً من رسول الله ص وخوفاً من غلبة الكفار، والملجأ ما يحميهم وينجيهم لو لجأوا إليه من قوى يجيرهم أو غيره ﴿أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ﴾ جمع مغارة وهي إما الغار على قول (صاحب الصحاح) وغيره، وقال (صاحب لسان العرب): ((والمغار، والمغارة: كالغار وفي التنزيل: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾)) انتهى، وإما منخفض من مكان كما ذكره (الراغب).

فالحاصل: مكاناً يختفون ممن يخافونه، إما كهف عميق، وإما حفرة، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾ نفقاً ضيقاً أو جحراً ضيقاً يندسون فيه ليأمنوا، قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): والمدّخل: الضيّق الذي يدخل فيه بشدة)) انتهى، وقال الراغب: ((وادَّخل: اجتهد في دخوله، قال: ﴿لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا﴾)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ﴾ أي هربوا إليه طلباً للنجاة، وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ أي يسرعون إسراعاً شديداً، قال الرغب: أصله من الفرس إذا غلب فارسه بنشاطه في مروره وجريانه، وذلك أبلغ من النشاط والمرح. انتهى، يعني الجموح أبلغ من النشاط والمرح.

قلت: فقد أحسن (صاحب الكشاف) حيث قال: ((يجمحون: يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء، من الفرس الجموح..)) إلخ.

وفي (لسان العرب): ((وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ﴾ أي يسرعون، وقال الزجّاج: يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء، ومن هذا قيل فرس جموح وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام)) انتهى المراد.

فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ

﴿٥٨﴾ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): روينا عن بعض السلف أنه قال: بينا رسول الله ص يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي، فقال له: اعدل يا رسول الله، فقال:((ومن يعدل إن لم أعدل))؟ فأنزل الله ذلك فيه رواه أبو سعيد الخدري، انتهى المراد، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: يعيبك ويقع فيك ويطعن عليك)) انتهى.

فالحاصل: يذمك في الصدقات أنك تخطئ في قسمتها أو تضعها في غير الصواب أو نحو ذلك.

﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾ بعد اللمز ﴿رَضُواْ﴾ لأن سبب اللمز إنما هو حرصهم عليها ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ على رسول الله ص لأنهم لم يعطوا والمفاجأة هنا بالنظر إلى أنهم يظهرون الإسلام فسخطهم على رسول الله ص مفاجئ؛ لأنه لا يتوقع من مسلم ومع ذلك هو ينافي الحياء والمروءة ويدل على خسة النفس لذلك فهو مفاجئ ممن لم يكن ظهر منه مثل ذلك من قبل.

﴿٥٩﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ﴾ حين منعوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ لكان خيراً لهم، ومعنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كافينا الله؛ لأنه الرزاق وهو لا يخفى عليه حالنا ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ إما راغبون عما مُنعناه، أي راغبون عنه إلى

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

الرجاء في الله وحده وانتظار فضله، وإما إلى الله راغبون أي نرغب إليه وحده أي ندعوه ليعطينا من فضله وهذا أرجح، والحصر هنا لأجل الدعاء، أي ندعوه وحده، فلا ينافي قولهم: ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ لأنه إذا أجاب دعاءهم فقد يعطيهم من طريق رسول الله ص.

﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تشريع من الله يقطع طمع الطامعين من أغنياء المنافقين والذين في قلوبهم مرض الذين يلمزون رسول الله ص في الصدقات.

والفقراء: هم المحتاجون حاجة تلجيء إلى السؤال أو الإقتراض، والمراد الحاجة الطبيعية لا حاجة النهم بجمع المال، والحاجة الطبيعية مثل حاجة القوت، حاجة اللباس الساتر، حاجة المسكن الذي يؤويه، حاجة الماء، حاجة الدفاء من البرد، حاجة الدواء، حاجة ما يخفف الحرّ في بلاد الحر الشديد، حاجة الزواج، ويدخل في حاجة القوت أو نحوه من هذه الأشياء ما يتوقف حصولها عليه كالحطب والتنور والآنية المحتاج إليها لتحضير الطعام أو حفظه، فحاجة ذلك كله من الفقر ومن كان واجداً ما يسد خلته حى يحصل دخل آخر من غلول مال أو نحوه فليس فقيراً في اللغة بل هو غني.

وقيل: الفقير من لا يملك ما تجب في مثله الزكاة فاضلاً عن المنزل والأثاث والكسوة ونحو ذلك، وذلك بناءً على أن اسم الفقر والغنى قد نُقِلا

عن معناهما إلى معنى شرعي؛ بدليل قوله ص: ((فأَعلِمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم)) انتهى.

قلت: مجرد الإستعمال في حديث لا يدل على النقل؛ لأنه قابل للتخصيص والتقييد ولا يجب أن يشمل كل من وجبت عليه الزكاة؛ لأن صدقة نكرة لا يعم كل صدقة، وعلى الجملة هذا موكول إلى بيان تفاصيل أحكام الزكاة فهي تبين من تجب عليه ونصابها الذي تجب فيه وليس الحديث بصدد بيان حقيقة الغني والفقير، ولو دل على أن من تؤخذ منه الزكاة غني لم يدل على أن من لم تؤخذ منه ليس غنياً لاحتماله التخصيص والتقييد وذلك كثير في الحديث، فلا يجب قصر اسم (الغني) فراراً من التخصيص ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : وإنما سمي الفقر فقراً؛ لأنه يفقر الظهر ويقطعه وكذا المسكين فإنما سمي مسكيناً لأنه يَذل ويستكين ويخضع للفقر ويضعف ويلين)) انتهى، وقال الراغب: ((وأصل الفقير هو مكسور الفقار)) انتهى المراد.

قال الإمام الهادي × في (الأحكام) مفسراً لهذه الآية:

((فأما *الفقراء* فهم الذين لا يملكون إلا المنزل والخادم وثياب الأبدان فهؤلاء هم الفقراء.

والمساكين: الذين يجب لهم أن يأخذوا من الصدقة فهم أهل الحاجة والفاقة والإضطرار إلى أخذها.

والعاملون عليها: فهم الجباة لها المستوفون لكيلها وأخذها من أيدي أربابها.

والمؤلفة قلوبهم: فهم أهل الدنيا المائلون إليها الذين لا يتبعون المحقِّين إلا عليها ولا غنى بالمسلمين عنهم ولا عن تألّفهم، إما للتقوي بهم على عدوهم، وإما تخذيلاً لهم وصداً عن معاونة أعدائهم كما فعل رسول الله ص ويجب على الإمام أن يتألفهم لذلك وعليه أن يُنِيلهم بعض ما يرغبون فيه.

وأما الرقاب: فهم المكاتبون الذين يكاتبون مواليهم على شيء معلوم، فيجب على الإمام أن يعينهم في ذلك بقدر ما يرى أو على قدر ضعف حيلتهم وقوّتها.

وأما الغارمون: الذين قد لزمتهم الديون من غير سرف ولا سفه ولا إنفاق في معصية، فيجب على الإمام أن يقضي عنهم ما عليهم من ديونهم ويعطيهم من بعد ذلك ما يقيمهم ويحييهم ويقوتهم ويكفيهم.

وأما السبيل [سبيل الله]: فهو أن يصرف جزء السبيل في التقوية للمجاهدين، والإستعداد بالقوة للظالمين مما يتقوى له من الخيل والسلاح والآلات عليهم، وذلك ما أمر الله سبحانه فيهم، فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

وأما *ابن السبيل*: فهو مارّ الطريق المسافر الضعيف، فيعان بما يقيته ويكفيه من قليل أو كثير يدفع إليه الإمام مما له في يده ما يقوم به في كرائه ونفقته وما يكون إن كان عارياً في كسوته حتى ينتهي ويصل إلى بلده)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي مفروضة للثمانية الأصناف فرضها الله لهم أي أوجبها وحدّها ولحقته (التّاء) لأنه قد صار اسماً مثل النطيحة.

قال في (الصحاح): ((والفرض: ما أوجبه الله تعالى، سمي بذلك لأن له معالم وحدوداً)) انتهى المراد، وقال الراغب: ((والفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتباراً بوقوعه وثباته والفرض بقطع الحكم فيه)) انتهى المراد.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ

وقوله: ((في الرقاب فواجب على الإمام أن يعينهم..)) إلخ. الراجح: أن المكاتب مصرف لمعاونته على التحرر وللإنفاق على نفسه، وهو في الحقيقة معاونة على التحرر، لكن الآية لم تخص المعاونة، وكذا قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] فيتصدق عليه لقوته وحاجاته ولمعاونته على تحرير رقبته.

﴿٦١﴾ ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ هنا جريمتان من المنافقين:

الأولى: أذيتهم للنبي ص إما بكلام فيه وإما بالتناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإما بغير ذلك فهو جريمة من حيث هو أذية للنبي ص ولا حاجة بنا لتعيينه ما هو.

والجريمة *الثانية*: قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي مسماع سموه أذنا كما سمي الرقيب عيناً.

قال الشرفي في (المصابيح): ((عن الناصر أحمد بن الهادي إ : كانوا يؤذون رسول الله، فيقولون فيه مالا ينبغي، فقال بعضهم لبعض: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع كذا بنا، فقال ابن سويد: بل نقول ما شئنا فإنما محمد أذن سامعة لمن يأتيه فنحن نأتيه فيصدقنا، فنزل عليه صلوات الله عليه ﴿وَمِنْهُمُ﴾ يعني المنافقين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يسمع من أتاه)) انتهى.

﴿قُل﴾ يا أيها النبي ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أُذُنُ خَيْرٍ﴾ سماع سماعاً هو خير لكم لما فيه من الإغضاء عن كلام المنافقين والإعراض عن جهالاتهم وإفساح المجال لمن أراد أن يتوب إلى الله ويصحح إسلامه، فاللين والرفق بكم أقرب لاستصلاحكم ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] فالتغافل عن حقيقتكم رحمة لكم بإظهار قبول أعذاركم تارة وترك كشف حقيقتكم عند اعتذاركم تارة أخرى، وأذن خير لكم من حيث أنه يسمع كلام الله فيؤمن بالله الذي أنزله عليه، ويبلغ ما أنزله الله إليه من الهدى والرحمة للعالمين.

وأذن خير يؤمن ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ فيقبل منهم قولهم: ﴿آمَنَّا﴾ ولا يردهم لاحتمال أنهم كاذبون، فيسهل عليهم الدخول في الإيمان بإيمانه لهم وهذه نعمة عظيمة على من كان منافقاً فتاب وآمن؛ لأنه لو رد عليه كلامه وقوله: (آمنت) رده عليه: بأنك قد عرف منك النفاق، والله أعلم بكلامك هذا لشق عليه وعسر الإيمان لمواجهته بالغلظة عليه، فكون رسول الله ص مسماعاً رحمة وكرم، وصفة مدح له، ومن تكلم فيه بالذم لكونه مسماعاً وآذاه بذلك أو بغيره له ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عقوبة له بأذيته لرسول الله ص عاجلة وآجلة يوم القيامة.

وقلت: عاجله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ..﴾ وقوله تعالى: ﴿أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾.

وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي

﴿٦٢﴾ ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ يتسترون بالأيمان الكاذبة ليرضوا محمداً ص والمؤمنين، ويحلفون بالله إنهم لمنكم اتخذوا أيمانهم جنة والله العالم بحقيقتهم العالم بكذب أيمانهم ﴿أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ ويرضوا رسوله ليسلموا عذابه ويفوزوا بثوابه؛ ولأنه ربهم المنعم عليهم بما لا يحصونه من النعم، فهو أحق أن يرضوه.

وقوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لأن المؤمنين يعلمون أن الله ورسوله أحق أن يرضوه، فهؤلاء المنافقون إن كانوا مؤمنين كما يدّعون فهم يعلمون ذلك.

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ فقد جاءتهم الآيات البينات الدالة على ذلك فمن حق المنافقين أن يعلموا لو استعملوا عقولهم ﴿مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: من يحارب ويشاقق)) انتهى، وهو أحسن في التعبير من تفسيره بالمخالفة؛ لأنه يستعمل في مواضع الحرب أو الشقاق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢٠-٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة:٥].

قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

قال الشرفي في تفسيرها: ((﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾ [المجادلة:٢٠] أي يخالفون أمره ويعادون ويحاربون أولياءه ويتعدون حدوده وذلك تارة بالمحاربة لأولياء الله وتارة بالتكذيب والصّد عن دين الله، والضمير في قوله: ﴿يُحَادُّونَ﴾ يمكن أن يكون راجعاً إلى المنافقين.. إلى قوله: ويحتمل سائر الكفار)) انتهى المراد.

فالأقرب في معنى المحادة: أنه المعاداة، وأنها مشتقة من الحدود التي تكون بين بلدان المتعادين المتباينين، فالآية تفيد: أن للمنافقين نار جهنم خالدين فيها؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ﴾ الفضيحة والعار ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أشد من افتضاحهم في الدنيا إذا انكشف نفاقهم وفجورهم في أيمانهم وكذبهم، وما يقولونه من تحقير النبي ص وما يتناجون به من الإثم والعدوان ومعصية الرسول وتوليهم للكفار من دون المؤمنين وغير ذلك من عيوبهم.

﴿٦٤﴾ ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ قال الراغب: ((الحذر: احتراز عن مخيف)) انتهى.

فالمراد: أنهم يحاولون إخفاء ما في قلوبهم من الغش والعداوة للإسلام وأهله لئلا تنزل فيهم سورة من القرآن تخبرهم أن في قلوبكم كذا وكذا من الكفر والبغضاء وهذا من جهلهم؛ لأن الله لا يخفى عليه ما يكتمون، ثم أن كتمانه وإخفاءه بما يظهرونه للمسلمين من دعوى الإيمان، وحلفهم إنهم لمنهم ونحو ذلك مما يقولونه، تغطية على نفاقهم وهم فيه غير جادين إنما هم

تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ

مستهزئون، كما قالوا لشياطينهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:١٤] فحذرهم بكلامهم الذي يقولونه استهزاء، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟﴾ أي لن يفيدكم الإستهزاء بترك إنزال سورة تنبؤكم بما في قلوبكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ إخراجه بكشفه لرسوله ومصارحتكم به.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عن خوضهم وتناجيتم بالإثم والعدوان ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ﴿نَخُوضُ﴾ نُفيض في الكلام ونسترسل فيه تلهياً بالخوض ﴿وَ﴾ كنا ﴿نَلْعَبُ﴾ بما نقول ليس جداً فيه.

﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ فهو في صورة السؤال عما ادعوه خوضاً ولعباً وهو استهزاء بالله وآياته ورسوله قد انكشف ولم ينفعهم كتمانه بقولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

﴿٦٦﴾ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بقولكم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ ليس مجرد خوض ولعب بل هو الكفر بعينه. ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ يوفقون للتوبة لحكمة في ذلك ﴿تعذب طَآئِفَةًۢ﴾ منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ استمروا على كونهم مجرمين وأصروا فلم يوفقوا للتوبة ولا بد من تعذيبهم في الدنيا والآخرة.

﴿٦٧﴾ ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ متشابهون في أهوائهم وسلوكهم وغشهم وعداوتهم للدين فهم: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ

هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ يبخلون، فقد كان هناك المهاجرون في سبيل الله والمحتاجون المؤمنون من الأنصار، وكان المؤمنون يتصدقون، وبعضهم يؤثرون على أنفسهم، والمنافقون يقبضون أيديهم في خلال ذلك المجتمع مجتمع المواساة والإيثار وكثرة المحتاجين؛ لأنهم يبغضون المسلمين ويكرهون معاونتهم، حتى قال قائلهم: ﴿لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧].

﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ غفلوا عنه وتوجهت قلوبهم إلى أغراضهم وباطلهم فلم يراقبوا الله ولم يخافوه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ تركهم وأهملهم عن التوفيق والألطاف والهداية، كأنه نسيهم من هذه الجهة.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ هم الخبثة الفجار بعينهم ليسوا من الإيمان في شيء.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ هذا وعد الله لا يتخلف، ولا يعارضه قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لأنه في معنى التوفيق للخروج من النفاق ومن خرج من النفاق وتاب تاب الله عليه، وذلك ـ أي قبول التوبة ـ معلوم من الدين لا يلزم استثناؤه، بل يترك الإستثناء إحالة على فهم السامع.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٤] فإنما معناه إن شاء أن يتوب عليهم بالتوفيق ليتوبوا وهو لا يعارض الوعيد؛ لأنه إنما يفيد: أن الأمر لله فيهم يحكم فيهم بما يشاء وهو لا ينافي الوعيد القاطع للتردد.

فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ

وكذا قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران:١٢٧-١٢٨] فهو لا ينافي وعيده للكفار الذين لم يتوبوا؛ لأنه ليس إلا بيان أن الحكم له فيهم يحكم فيهم ما يريد، وقد بين ما يريد بما أنزل فيهم من الوعيد إن لم يتوبوا، وأن التائب يغفر الله له بياناً واضحاً جلياً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم من رحمته، وقوله تعالى ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي باق لا نهاية له.

﴿٦٩﴾ ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هذا التفات خطاب للمنافقين أي أنتم كالذين من قبلكم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ قد مضوا وهلكوا وقد ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ في أبدانهم ﴿وَأَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ﴾ في الحياة الدنيا ﴿بِخَلَٰقِهِمْ﴾ بنصيبهم من متاعها الذي هو انتفاع محدود الوقت.

﴿وَخُضْتُمْ﴾ أيها المنافقون كالخوض الذي ﴿خَاضُوٓاْ﴾ من القول الذي بقيت تبعته وذهبت لذته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الخائضون بالباطل ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ التي عملوها من الخير كإطعام جائع أو تفريج عن ملهوف ونحو

وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

ذلك مما يظنون نفعه، فهو حابط ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ لم يدفع عنهم العذاب العاجل ﴿وَٱلْآخِرَةِ﴾ لن يدفع عنهم في الآخرة ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأن دنياهم انقضت ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد:٣٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠].

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ألم يبلغهم ﴿نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ خبر الذين من قبلهم وقصتهم فيعتبروا بهم لئلا يهلكهم الله بذنوبهم كما أهلك من قبلهم بذنوبهم وصاروا إلى جهنم وذلك الخسران المبين.

﴿وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ النمرود وأتباعه ﴿وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ﴾ قوم شعيب الذين أخذتهم الرجفة ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ المنقلبات إلى الباطل.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : ﴿ٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ هي الأمم الكاذبات على الله المجترئات الآفكات، وإنما سميت مؤتفكات لما أتت به من الإفك، والإفك فهو العجز عن لحوق الحق والتمادي في طريق الفسق، فسمى من كان كذلك مؤتفكات مما كان منها من الكذب والإفك على الله في الحالات)) انتهى.

قلت: يظهر من عطفها في الآية أنها أمم مخصوصة، ولعلهم كانوا مسلمين فانقلبوا فسموا مؤتفكات لتحولهم عن الحق إلى الباطل، وخصوا بهذا الإسم لذلك من بين الأمم المكذبة للرسل، ولم يقل: الأفكات وإن كان سبب

عقابهم إفكهم؛ ولعل ذلك ليدل المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم أن من انقلب على عقبيه لم ينفعه إيمانه الذي قدمه قبل الإنقلاب بل حبط في الدنيا والآخرة لأنها: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فكذبوا بآيات الله البينات فأهلكهم الله﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ لأنه غني حكيم فلا يصح منه ولا يستقيم أن يظلمهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بتكذيبهم بآيات الله ومحاربتهم لدين الله، وهذا من أوضح الدلائل على بطلان الجبر، وإلا فما المنفي بقوله: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ وما المثبت بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وما الفائدة من هذا النفي وهذا الإثبات وقد تبين أن المعنى أنه سبحانه وتعالى لم يكن ليظلمهم بتعذيبهم الذي عذبهم ويعذبهم به ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين فعلوا سبب استحقاقهم للعذاب، فأصابهم سيئات ما كسبوا فلو كان فعلهم من الله لما كان لهذا الكلام معنى، فليحرر فكره مَن طلب الحق وإلى الله المصير.

ولا شك أنه يستوي قول من قال:لا قدرة للعبد إنما هو كالشجرة ـ إن صح أن أحداً قال بهذا القول ـ وقول من قال:للعبد قدرة موجبة للفعل، وأنه يستوي من قال: أنها موجبة يوجد فعل العبد بوجودها فيه، ومن قال: يوجد فعل العبد بوجودها فيه ووجود إرادته، وإرادته عندهم فعل الله يخلقها في العبد، فمتى خلقها وجب عندهم حصول الفعل بالقدرة، فالقدرة عندهم موجبة للفعل بشرط إرادة العبد للفعل، وإرادة العبد للفعل هي من الله عندهم يخلقها في العبد، فإذا وجدت بقدرة الله وجد الفعل بالقدرة الموجبة بشرط الإرادة، وإنما هؤلاء محتالون للقول بالجبر بحيلة؛ لأنهم يقولون: وجد فعل العبد بقدرته وإرادته وصورة هذا القول صورة قول أهل العدل.

ولكنهم وقعوا في الجبر بجعلهم إرادة العبد من الله يوجدها في العبد وجعلهم تأثير قدرة العبد بزعمهم علة موجبة لحصول فعل العبد بشرط إرادة العبد، وجعلوا حصول هذا الشرط من الله فقد جعلوا القدرة والإرادة من الله، وجعلوا القدرة موجبة للفعل متى خلق الله الإرادة في العبد وأوجدها ولا تؤثر القدرة إلا بشرطها والشرط والمشروط والفعل عندهم كله من الله، فلم يخرجوا من الجبر، وإن أثبتوا للعبد بزعمهم قدرة وجعلوا وجود فعله متوقفاً على إرادته، فإن هذا لم يخلصهم من إثبات تعذيب الله للعبد عقوبة على ما أوجده الله فيه كما لو عذبه على السواد الذي خلقه فيه سواء سواء؛ لأن نسبة الفعل إلى العبد لمجرد قيامه به ووجوده بقدرته وإرادته ولكن هذه الإضافات لا معنى لها؛ لأن قدرته عندهم موجبة للمراد والإرادة ليست فعل العبد فلم يبق للعبد تمكن من ترك الفعل؛ لأنه على قولهم مجبور على الإرادة، وعلى الفعل وإن كان لا يسمى مجبراً ولا مكرهاً، فهذا لا يفيدهم شيئاً في إثبات عدل الله وحكمته وتنزيهه من ظلم عباده؛ لأن الله إذا عذبه بذنبه والله سبحانه وتعالى هو الذي أوجد ذنبه بخلقه للقدرة الموجبة والإرادة فيه، فقد عذبه على قولهم بما خلق فيه ولا يفيد اللفظ بأنه إنما عذبه بذنبه شيئاً من تنزيه الله عن تعذيبه بغير استحقاق، وكيف يكون ذلك الفعل سبباً لاستحقاق العذاب وذلك الفعل ناتج عن فعل الله في العبد ولا دخل للعبد في وجود الفعل أصلاً؛ لأن سببه الموجب من الله عندهم فهو من الله وحده؛ لأن فاعل السبب فاعل المسبب فنعوذ بالله من إهمال العقول.

ولما وصف المنافقين بصفاتهم ووعظهم بالوعيد وبذكر من فيه عبرة لهم من الذين من قبلهم وصف المؤمنين بصفاتهم التي تميزهم عن غيرهم، فقال تعالى:

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

﴿٧١﴾ ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ **الولاية ضد العداوة فهي الحب والكون معهم في الأمور المهمة بسبب الحب ويوافق هذا الحديث الشريف: ((لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا)).**

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ **لحرصهم على طاعة الله منهم ومن غيرهم حباً لله ولدينه؛ ولكونهم مأمورين بذلك** ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ **لأن إيمانهم يبعثهم على إقامتها أي إحيائها وإتمام فروضها وشروطها وخشوعها؛ لرغبتهم في عبادة الله؛ ولأنهم مأمورون بذلك** ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ **رغبة في ثوابها وفي مواساة مصارفها؛ ولأنهم مأمورون بذلك** ﴿وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ **لأن إيمانهم يأمرهم بطاعة الله ورسوله لخوفهم من الله وإيمانهم بالجنة والنار؛ ولذلك إذا زل أحدهم سارع إلى التوبة ولم يصر على ما فعل وهو يعلم أنه قد عصى الله.**

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ **أي أهل تلك الصفات** ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ **في الآخرة ولعل هذه الرحمة صرف عذاب النار عنهم، قال تعالى:** ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٦] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ **ومن عزته وحكمته أن يرحم المؤمنين؛ لأنهم أهل ولايته.**

وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ

---

٧٢ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في البرهان: [أي في المساكن] هي القصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر، فأما جنات عدن فمعناها جنات خلود وإقامة ومنه المعدن لإقامة جوهره)) انتهى المراد.

وكون المساكن في جنات بقاء فضيلة للمساكن؛ لأنها مع حسنها وطيبها وجودتها لا يخاف صاحبها أنه سيفارقها بل يكون واثقاً ببقائه فيها.

﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ تنكير الرضوان إما لتعظيمه أي ورضوان عظيم من الله أكبر من ذلك المذكور، وإما للدلالة على أن أي رضوان من الله فهو أكبر من ذلك النعيم؛ لأن لذته في قلب المحب لله أعظم من كل لذة إذا علم رضاه عنه وأكبر من كل غرض في الجنة في نفس المؤمن، أو لأنه يفيد أن لهم من النعيم ما يستدعيه رضا الله لكرمه وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وذلك ((ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)).

هذا ولعل نسبة الرضوان إلى الله تعالى كنسبة الرحمة، أي أنه باعتبار الغاية من دون إثبات عاطفة أو نحوها، قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال الحسين بن القاسم: قيل: إن رضوان الله عليهم أكبر من دخولهم الجنة، قال × : وأنا أقول: إن رضوان الله في ذلك اليوم هو الجنة، ومعنى أكبر أي أن رضوان الله كبير فقام أكبر مقام كبير..)) إلخ.

وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤ ۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ

قلت: لعله × تأول الرضوان بناء على أن معناه: عَرَض ينـزه الله عنه فجعل الرضوان هو الجنة، كما كانت الرحمة في قوله تعالى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّـهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٧] هي الجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي وعد الله المؤمنين والمؤمنات ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ﴾ والظفر والفلاح ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾ لأنه سعادة دائمة وسلامة من شقاوة دائمة.

٧٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ غالبهم وحاول قهرهم بضروب المغالبة فبعضها بالسلاح، وبعضها بالتخويف والإذلال، وبعضها بالحجة القوية البالغة، وإبطال الشبه والتعللات؛ بحيث يضعف المبطل ويقوى جانب الحق ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾ الغلظة ضد الرقة فهي قسوة وشدة وعدم مبالاة، كما قال الشاعر:

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿جَهَنَّمُ﴾ يأوون إليها ويصيرون فيها ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ كلمة ذم.

٧٤ ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْ﴾ هؤلاء منافقون قالوا كلام كفر،ثم صاروا

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾ خوفاً من المسلمين، فأكذبهم الله، وبين فجورهم في حلفهم، ثم قال تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ أي هموا بِعدْوَان كاغتيال رسول الله ص ولم ينالوا ذلك الذي هموا به، وهذا تحقيق لكفرهم، وقد روي: أنهم حاولوا في عودة رسول الله ص من تبوك إسقاطه وهو في العقبة، إسقاطه من فوق بغلته إلى الوادي.

﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟﴾ أي ما أنكر هؤلاء المنافقون شيئاً يبعث على الكفر والهم بالفتك ﴿إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وهذا يستدعي الشكر فوضعوا الكفر موضع الشكر وجعلوه بدله، كما مر في قوله تعالى: ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً﴾ والغنى ما كانوا ينالونه من الغنائم والصدقات قبل نزول آية المصارف الثمانية، أو بالتأليف لبعضهم، وقوله: ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي من فضل الله.

﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ وهذا بعد كشف جرائمهم دفع لتوهمهم أنه لا توبة لهم ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا۟﴾ عن الله بالإصرار على كفرهم ﴿يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فلا ينصرهم الكفار الذين نافقوا إليهم ولا غيرهم، والولي أعم من النصير؛ لأنه يتولى رعاية من يتولاه وحمايته وإصلاح أموره.

﴿٧٥﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): والمشهور في سبب نزول هذه الآية أن ثعلبة بن حاطب قال: يا رسول الله ادع الله أن

أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ

يرزقني مالاً، فقال ص: ((قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه)) فراجَعَه وقال: والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، فدعى له، انتهى، وقصة ثعلبة في (أمالي المرشد بالله): [ج١/ ص١٩٨ـ ١٩٩].

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ ﴿بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ لم يصَّدقوا كما عاهدوا الله ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن طاعة الله لم يكونوا من الصالحين ﴿وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ عما يبلغه رسول الله ص بحضرتهم من الآيات والمواعظ.

﴿٧٧﴾ ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ﴾ كان سبباً للعاقبة السيئة ذلك التولي والإعراض، أو الله على أنه من المتشابه المؤول بالخذلان ﴿نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي حباً للنفاق وإصراراً عليه، كقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣] ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ﴾ أي يموتون على ذلك ويبعثون يوم القيامة عليه ويوقفون موقف الحساب والسؤال وهم كذلك.

﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ فالعصيان بالخلف وبالكذب جرَّهم إلى النفاق، وفي الحديث: ((..والكذب يهدي إلى الفجور)) فهو موافق للآية الكريمة.

﴿٧٨﴾ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ حين عاهدوا الله كاذبين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ ما يتناجون به من الإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ ألم يعلموا ذلك فيراقبوا الله ويتقوه ويجتنبوا أسباب غضب الله عليهم، لقد آن لهم أن يعلموا.

ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ٱسۡتَغۡفِرۡ

---

٧٩ ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ هذا وصف لمن عاهد الله فقد أضاف إلى نكث العهد وإلى البخل جريمةً أخرى هي لمز المطَّوعين من المؤمنين في الصدقات.

واللمز: الذم، كما مر عن الإمام زيد بن علي إ ، ووافقه (صاحب الصحاح) فقال: ((اللمز: العيب..)) إلى قوله: ((..ورجل لماز ولمزة أي عياب)) انتهى.

وقيل: اللمز الإغتياب، وفي (تفسير القاسم ×)؛ لقوله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١] الجمع بين القولين ـ والله أعلم.

و﴿ٱلۡمُطَّوِّعِينَ﴾ الذين ينفقون رغبة وطوعاً ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ حكى الشرفي في (المصابيح): ((عن الحسين بن القاسم إ معنى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ وهم مع ذلك لا يجدون إلا جهدهم، وهو طاقتهم وقوتهم وما يقيم ويثبت أرواحهم في أجسادهم)) انتهى المراد، فقد جعل الذين لا يجدون وصفاً للمطَّوعين معطوفاً بالواو، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ولـيث الكتيبة في المزدحم

وهو قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ لأن مظنة أن يسخروا منه هو منفق القليل، فأما منفق الكثير فإنما يذمونه بدعوى أنه أنفق رياء، وليس ذلك من السخرية. والآية تفيد: أنهم جمعوا بين اللمز والسخرية، فالمطوعون يستحقون المدح والإحترام، فإذا انضاف إلى تطوعهم أنه إيثار على أنفسهم زاد به استحقاقهم للمدح والتعظيم فلمزهم والسخرية منهم ظلم على ظلم ظلمات بعضها فوق بعض.

لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟

﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي فعل بهم كفعل الساخر بهم والمستهزئ بهم؛ لأنه أعدّ لهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، وأملى لهم، وهم يتوهمون الإملاء لهم خيراً لأنفسهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على جرائمهم كلها، ومنها: اللمز، والسخرية.

﴿٨٠﴾ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، فهو تخيير بين الإستغفار وتركه لبيان أنهما سواء.

﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنه أعلم بجرائمهم وإصرارهم، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يغفر الله لهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فكفرهم بالله ورسوله جرَّأهم على الجرائم الأخر، وعلى الإصرار والبعد من التوبة لعدم الخشية من الله وعدم الخوف من عذاب الآخرة؛ لأنهم قد كذبوا الرسول الذي أنذرهم والله لا يهدي القوم الفاسقين الخبثة الفجار المتمردين على الله فلا يغفر لهم ولو أكثرت الإستغفار لهم لأن الغفران متوقف على اهتدائهم وتوبتهم، ولا يهديهم الله لأنهم فاسقون.

﴿٨١﴾ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ﴾ سرّهم تخلفهم

يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ

وقعودهم عن الجهاد مع رسول الله سروراً اطمأنوا إليه، كأنهم قد أدركوا الخير الذي لا يعقبهم شراً، وسرهم مقعدهم من حيث أنه خلاف رسول الله كراهة له ولمرافقته وللتأسي به، فهذا الفرح نتيجة كفر ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا تقديم لما يترتب عليه من الوعيد ليدل على أنهم فرحوا بما يضرهم وكرهوا ما هو خير لهم.

﴿وَقَالُواْ﴾ لبعض الناس ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ تخذيلاً عن الجهاد، ومعارضة لدعوة الرسول ص إليه، ونهياً عن المعروف ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ وأنتم صائرون إليها ولم تتّقوها فلم تنهون عن النفر في الحر وأنتم لم تتقوا نار جهنم ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ لو كان المنافقون يفهمون ليحذروا حرَّ جهنم، لكنهم قد أهملوا عقولهم فهم لا يفقهون فقه من استعمل عقله.

﴿٨٢﴾ ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ في فرحهم بالقعود وتركهم للجهاد ﴿قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿قَلِيلاً﴾ مدة في هذه الحياة الدنيا تنتهي ثم يصيرون إلى نار جهنم حيث يبكون كثيراً.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ تعبير عن حقارة ذلك وقلّته في جنب أنهم يصيرون إلى جهنم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [ابراهيم:٣٠] وأما قوله: ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ فهو يدل على أن البكاء الكثير كائن لهم وأنه مطلوب لهم أي يريده الله لهم، وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي يجعلهم باكين كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون من الآثام المتكررة العديدة.

مَرَّةٍ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا

﴿٨٣﴾ ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ من هذه الغزوة، التي فرحوا بمقعدهم عنها خلاف رسول الله قالوا وهي (غزوة تبوك) ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ من هؤلاء المنافقين، ولعل السر في قوله: ﴿طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ ولم يقل: (إليهم) أنهم لا يبقون كلهم حتى يرجع بل يموت بعضهم أو ليعم كل طائفة لأنه نكرة في سياق الشرط فكل طائفة منهم يقول لها ما أمر به في قوله.

﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ لأنكم لا تزالون منافقين أعداء للدين مفسدين، فلن تصلحوا للخروج معي أبداً ﴿وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم﴾ لأنفسكم ﴿بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ وكنتم مأمورين بالخروج للجهاد في سبيل الله فعصيتم، فكشف الله سركم، وبيّن أنكم لو خرجتم أفسدتم، وأنكم لا تصلحون للجهاد في سبيل الله، فكيف تصلحون للخروج مع رسول الله ومرافقة نبي الله وأنتم أعداؤه وأعداء دينه، وقوله: ﴿مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ﴾ تحقيق لقعودهم في المدينة، والخالفون: الباقون فيها خلف المجاهدين، أي مع غياب المجاهدين.

﴿٨٤﴾ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ هي صلاة الجنازة سميت صلاة لأنه يدعى للميت فيها، والله أعلم. وفائدة التأبيد: بيان أن من تأخر موته حتى جوز الرسول ص أنه قد تاب فلا حكم لذلك لو وقع؛ لأنهم لا يزالون فاسقين ولو عاش أحدهم سبعين سنة بعد هذا التخلف.

تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ

﴿وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ﴾ لأن ذلك تكريم له، وليس أهلاً إلا للإهانة ﴿إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فهنا علتان للنهي:

الأولى: أنهم كفروا بالله ورسوله.

والثانية: أنهم ماتوا وهم خبثة فجار متعمدون للفجور لخبثهم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡ﴾ ولا تستحسن أموالهم الوافرة وأولادهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا﴾ فتعذيبهم بها هو المراد بها لأنها تجر عليهم الهم والغم والعناء والتعب المتواصل والتشديد على أنفسهم وعلى أهلهم فبذلك ونحوه يعذبهم الله بها عذاباً عاجلاً والقصر في هذه الآية هو قصر القلب.

أي إنما يريد الله أن يشقوا بها لا أن يسعدوا ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ لاشتغالهم بالدنيا وشغل قلوبهم بها عن النظر لأنفسهم لفرط حبهم لها وغفلتهم عن الحياة الدائمة، فكأنه لا حياة إلا هذه الحياة، فلذلك جعلوها أكبر همهم، حتى ماتوا وهم كافرون، فمأواهم جهنم وبئس المصير.

قال الراغب: ((زهقت نفسه: خرجت من الأسف على الشيء)) انتهى، وفسر في (الصحاح) و(لسان العرب) زهوق النفس: بخروجها من غير قيد الأسف، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ):((﴿وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ﴾ معناه: تخرج)) انتهى.

مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ

﴿٨٦﴾ ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ كان الكلام فيمن قيل لهم: ﴿انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهنا فيمن سمع كتاب الله يأمر بالإيمان والجهاد مع رسول الله، وهو خاص بأولي الطول من المذكورين أوَّلاً، ولعل هذا كان قبل أن يبلغهم رسول الله ص ما أمر به في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِي أَبَدًا﴾ لأن هذا بعد (غزوة تبوك) وقد نزل الأمر بالإيمان والجهاد في القرآن من قبل قالوا: وكانت (غزوة تبوك) سنة تسع من الهجرة.

و ﴿أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ﴾ الأغنياء الذين لهم فضل من المال يستطيعون به الخروج للجهاد، سواء كان معنى الطول: الغنى، والسعة، أو كان معناه: القدرة ﴿وَقَالُواْ ذَرْنَا﴾ أي اتركنا ﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ كأنهم يحتجون بقعود غيرهم، مع أن القاعدين إما معذور فلا حجة به لغير المعذور، وإما عاصٍ لرسول الله ص فلا حجة فيه بل المقتدي بالعاصي عاص.

﴿٨٧﴾ ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا لأنفسهم سِيْمَا الضعف، بأن يكونوا قاعدين مع النساء؛ لأنهن لم يكتب عليهن الجهاد لضعفهن مع كفاية الرجال.

﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون الزجر والإنذار والتخويف فهما نافعاً؛ لأنهم معرضون لا يتفهمون ولا تقبل أنفسهم ما فهموه لأنهم كارهون لذلك.

وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى

﴿٨٨﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ **محمد ص** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ **أهل الإيمان الصادق المشاركون لرسول الله ص في نصرة الإسلام، والدعوة إلى الله، والإيمان الصحيح الكامل** ﴿لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾ **مكتوب لهم ومعدّ لهم الخير الكثير** ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ **أهل تلك الصفات** ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ **الظافرون بالخير لا من قعد في أهله وماله وظن أن الخير في ذلك.**

﴿٨٩﴾ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ **للرسول والذين آمنوا معه** ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ **لأنه السعادة الدائمة ومنجاة من الشقوة الدائمة فهو** ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ **قال الراغب: ((الفوز الظفر بالخير مع حصول السلامة)) انتهى.**

وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ **تنبيه على أنهم على خلاف ما عليه المتخلفون الذين تقدم الكلام فيهم وبضدها تتميز الأشياء فقوله:** ﴿لَٰكِنِ﴾ **لإفادة ذلك.**

﴿٩٠﴾ ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ **قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والفرق بين العذر والتعذير: أن العذر حق، والتعذير كذب)) انتهى.**

ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ وهم الذين غير جادّين في الأمر، يظهرون باللسان خلاف ما في القلب)) انتهى.

فالمعذرون هنا: هم الذين يدّعون الأعذار المرخصة في ترك الجهاد، أو الأعذار التي تسبب الأذن لهم في التخلف، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ﴾ أي جاءوا إلى رسول الله ص يدلون إليه بدعاوى الأعذار ليؤذن لهم في التخلف عن الجهاد.

﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ ﴿قَعَدَ﴾ عن الجهاد وتخلف فلم يخرج للجهاد ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ﴾ أي قالوا: كاذبين، إما قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ وأما أنهم يقولون لرسوله ص: سنجاهد معك، وهم في ذلك متعمدون للكذب.

﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ علق الوعيد على الكفر ليخرج من خرج من الكفر بالتوبة، ويحتمل: رجوعه إلى المعذرين والكاذبين وهو الراجح.

﴿٩١﴾ ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ﴾ ليس عليهم حرج في ترك الجهاد، والضعف قد يكون من أثر المرض، وقد يكون من شدة الكبر بحيث لا يستطيع القتال.

﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إذا صلحت نياتهم وجدّوا في معاونة الإسلام بما يقدرون عليه من القول ونحوه، فالنصح إخلاص الولاء لله ورسوله ﴿مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖ﴾ ما عليهم حجة ليصيبهم حرج؛ لأنهم محسنون، والحرج إنما هو على المسيئين.

مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو يغفر لأهل الأعذار الصحيحة، ويرحمهم مما قد يقع منهم من تقصير في النصح لغفلة أو سهو أو نحو ذلك.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ ولا حرج على الذين هم راغبون في الجهاد، لكن ليس لهم رواحل تحملهم إلى محل الجهاد وهو بعيد، فإذا ﴿أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ﴾ على إبل من عندك لم يكن عندك ما تحملهم عليه ﴿تَوَلَّواْ﴾ من عندك يبكون ﴿حَزَنًا﴾ من أنهم لا يجدون ما ينفقون ليجاهدوا، فهؤلاء ما عليهم من حرج في ترك الجهاد لأنهم راغبون فيه لم يمنعهم إلا أنهم لا يجدون ما ينفقون في رواحل أو في كراء رواحل وفي مؤونة السفر.

﴿٩٣﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُ﴾ يقدرون على تحصيل الدواب ومؤونة السفر، ولكن ليسوا مؤمنين فيرغبوا في نصرة الإسلام بل أرادوا القعود ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ مع النساء الخوالف في البلد للذين رحلوا للجهاد، أي خلفن المجاهدين، وهذه صورة للأغنياء المعتذرين دنيئة قد رضوا بها لأنفسهم بسبب كراهتهم للجهاد.

﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهذا يدل على أنهم قد تمردوا حتى استحقوا الخذلان فصارت قلوبهم كارهة للحق فكأن عليها طبعاً وختماً كالختم على الزجاجة يمنع من دخول العلم إلى قلوبهم وهذا تمثيل وقد مر تحقيقه في تفسير أول (سورة البقرة).

لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

﴿٩٤﴾ ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ يعتذرون من تخلفهم واستئذانهم لترضوا عنهم ﴿قُل﴾ يا رسول الله: ﴿لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ لن نصدقكم ولن نقبل منكم اعتذاركم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وفي هذا دليل على أن المعتذر المخادع الذي يعلم كذبه وإضراره لا يجب قبول عذره وهو مخصص لعموم الحديث: ((من لم يقبل العذر من محق أو مبطل لا ورد علي الحوض)).

فإن *قيل*: فما فائدة قوله: ((أو مبطل))؟

قلنا له فائدتان: **الأولى**: إذا كان تائباً وقد ندم على إساءته فاعتذر منها فيقبل اعتذاره لتبقى الأخوة بين المؤمنين، **الثانية**: إذا فرض أنه مبطل في الواقع لكن لا يُعلم أهو محق أم مبطل، فيقبل اعتذاره حملاً له على السلامة؛ لتبقى الأخوة بين المؤمنين، فأما هؤلاء المذكورون في الآية فهم مصرون مخادعون بدليل هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا﴾ أي أخبرنا الله وأعلمنا بعض أخباركم، وهو ما يكشف كذبكم وخداعكم وإصراركم.

﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي عملكم المستقبل سيراه الله ورسوله فإن صلحتم نفعكم وإن بقيتم على ما أنتم عليه كان أمركم مكشوفاً لرسول الله ص ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ العالم بكل ما قدمتم لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حتى لا ينفعكم كتمان ما تكتمون في الدنيا من نفاقكم وفسادكم ويكون يوم القيامة عملكم كله مكشوفاً فتجزون الجزاء الأوفى لأن الله ينبئكم به هو ولا يحتاج إلى سؤالكم ليعرف ما كنتم تعملون.

سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ

﴿٩٥﴾ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي رجعتم إليهم ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ عن تعنيفهم أو مؤاخذتهم بسبب تخلفهم عن الجهاد، أي يحلفون على اعتذارهم لتصدقوهم فيه فتتركوهم، أعيد ذكر هذا وإن تضمنه قوله يعتذرون من أجل ذكر حلفهم بالله ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ إعراض هجر وإرجاء لأمرهم لحكم الله فيهم.

﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ تترك مجالستهم وتتقي مخالطتهم لرجسهم أي فسقهم وخبثهم وفجورهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ فهي حسبهم ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ أي بكل جرائمهم التي تكررت منهم وتعددت ونعوذ بالله من غضب الله فقد ولاهم ما تولوا وتركهم وشأنهم على أنه حافظ لدينه ولرسوله ومنتقم منهم بجهنم.

﴿٩٦﴾ ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ أعيد ذكر الحلف ليرتب عليه قوله تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الفجرة: الخبيثين المتمردين على الله، فكانت لأعذارهم المصحوبة بأيمانهم ثلاثة أحكام:

الأول: ﴿قُلْ لاَ تَعْتَذِرُوا..﴾ إلى آخر الآية.

الثاني: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾.

الثالث: ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ﴾ عنهم ما داموا فاسقين، أي فرضاكم عنهم باطل.

مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

﴿٩٧﴾ ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : هم أهل البادية الجهال والكفرة والجفاة الضلال..)) إلخ.

أقول: الأعراب: البدو، وما ذكر فيهم هو من تفسير قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ كُفْرًا..﴾ الآية، قال الراغب: ((العرب: ولد إسماعيل، والأعراب جمعه في الأصل، وصار ذلك اسماً لسكان البادية)) انتهى، أي سكان البادية من العرب، وفي (الصحاح): ((العرب: جيل من الناس وهم أهل الأمصار، والأعراب منهم: سكان البادية خاصة ـ ثم قال ـ: وليس الأعراب جمعاً لعرب، وإنما العرب اسم جنس)) انتهى باختصار.

وقوله تعالى: ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أي أشد من هؤلاء الذين في المدينة الذين يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم، وقوله تعالى: ﴿كُفْرًا﴾ لعله ككفر بعض المنافقين مع إظهارهم الإسلام ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَنِفَاقًا﴾ أي أشد ولاءً للكفار مع إظهارهم الإسلام، وهذا مما يفيد أن ليس مفهوم النفاق إبطان الكفر مع إظهار الإسلام، بل الكفر شيء والنفاق شيء قد يجتمعان وقد لا يجتمعان أعني كفر الجحود بالرسول والقرآن، وذلك أن مريض القلب يعترف بالإسلام خوفاً فيشهد الشهادتين، ويكون بذلك قد أسلم كما قال تعالى: ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ثم يحمله الخوف من الكفار؛ لعدم ثقته بنصر الله لرسوله وإظهاره لدينه،لأنه غير مؤمن، فينافق ليكون له عند الكفار ما يؤمنه إن غلبوا المسلمين، فالنفاق هو موالاة الكفار سراً مع إظهار الإسلام.

عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي أقرب إلى ﴿أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ من الوحي في القرآن وفيما جاء منه على لسان الرسول ص ومن طريقة من غير القرآن فالأعراب لبعدهم عنه أجدر بالجهل لأحكام الله وشرائعه، وهكذا يكونون لبعدهم عن العلم والعلماء، إلا أنهم في هذا الزمان قد يتمكنون من المعرفة بواسطة الكتب والأشرطة التي تسمع في المسجلات، ونحوها من الوسائل التي سهلت للناس التعلم لمن أراد التعلم، وقد يزدادون جهلاً بما يلقى إليهم من وسائل الإعلام المشتملة على الشبه والتضليل، فيضيفون جهلاً مركباً إلى الجهل البسيط.

وقوله تعالى: ﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي حدود الدين المأخوذة مما أنزل الله، وحدود الدين مثل: أعداد الصلوات، أعداد الركعات، كيفية الركوع، كيفية السجود، أول وقت الصيام، أول وقت الإفطار، كم نصاب الزكاة من المزكى، وكم الزكاة: العشر، أو نصف العشر، أو ربع العشر.. ونحو ذلك، فحاصل ذلك: أنهم أقرب إلى الجهل بتفاصيل الشريعة وتفاصيل الدين.

قال في (الصحاح): ((وفلان جدير بكذا: أي خليق، وأنت جدير أن تفعل كذا)) انتهى المراد، وقال الراغب: ((والجدير المنتهى لانتهاء الأمر إليه انتهاء الشيء إلى الجدار وقد جَدَر بكذا فهو جدير وما أجدره بكذا وأجدر به)) انتهى، فمعنى الجدير على قول الراغب: الغاية في الأهليّة للشيء.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو يعلم الفرق بين الأعراب ومن بالمدينة ويعلم كل شيء وهو يحكم فيهم بما هو من مقتضى الحكمة في الدنيا وفي الآخرة.

﴿٩٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يتخذ ما ينفق مغرماً يعُده غراماً

فِي رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ

وضياع مال بلا فائدة، أي خسراناً؛ لأنه ينفق لمداراة المسلمين لا لطلب الثواب، ولا يرجو ثواباً على ما أنفق، فهو عنده تألف في غير فائدة.

﴿وَيَتَرَبَّصُ﴾ ينتظر ﴿بِكُمُ﴾ أيها المسلمون ﴿ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي دوائر الزمان وتقلب الأحوال فهو ينتظر أن تنقلب الحال فتسقط دولة الإسلام ويفنى المسلمون ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على هؤلاء الأعراب ﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ هذا دعاء عليهم بأن تدور عليهم دائرة السوء، وهو دلالة على استحقاقهم دائرة السوء، وتعبير عن الغضب عليهم، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم ولكل قول ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يخفون من تمني دائرة السوء على المسلمين أو غير ذلك ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل شيء.

﴿٩٩﴾ ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا يدل على أن قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا﴾ خارج منه بعضهم ﴿يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ﴾ أي يَعُدُّها قربات له ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لأنه مؤمن أنفقها لله وفي سبيله.

﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي دعاءه لهم عند أخذ المنفق منهم، فهم يرجون الخير بصلوات الرسول ص فإن كان ﴿صَلَوَٰتِ﴾ معطوفاً على ﴿مَا يُنفِقُ﴾ فالمعنى: ويتخذ صلوات الرسول ﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سبباً للقربة عند الله، لأن دعاء الرسول مستجاب، وهم يرجون أن يكون سبباً للتوفيق والهداية، ولأن صلوات الرسول تزيدهم رغبة في فعل الخير إذا سمعوها، فيزدادون بسببه من العمل المقرب عند الله.

لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟

وهذا الوجه أقرب من جهة التركيب، ويحتمل: أن ﴿صَلَوَٰتِ﴾ معطوفاً على ﴿قُرُبَٰتٍ﴾ أي ويتخذ ما ينفق صلوات الرسول أي سبباً لها، كأن المال يصير صلوات الرسول، وهذا ضعف من جهة التركيب فيما نرى، فإن معناه لا يحوج إلى التأويل.

والأول أرجح، ويؤكده تأنيث الضمير في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ فظاهره العود إلى ﴿صَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ولأنه أقرب من ﴿مَا يُنفِقُ﴾ فعود الضمير إلى ﴿صَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أقرب، وإن شمل ما ينفقون فبطريقة الإكتفاء، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة:١١] فأكتفى بضمير أحد الشيئين اكتفاء بفهم السامع لإرادة الحكم على كل واحد منهما.

وقوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ تحقيق لحصول القربة لهم عند الله و﴿رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الجنة، بدليل ﴿سَيُدْخِلُهُمُ﴾ فهي قرينة، فأما رحمة الدنيا فهم داخلون فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولذلك يقبل العمل الصالح ويعد عليه الثواب ويجعل ما تقدم من زلات الإنسان الصغائر غير مانعة من الثواب العظيم وكذلك ما تقدم من السيئات قبل الإيمان والتوبة يجعله كأن لم يكن.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ كأن الكلام في المؤمنين من الأعراب كان سبباً للكلام في بقية المؤمنين مع رسول الله ص، والأقرب أن إعرابه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، خبره ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وما عطف عليه، والسبق هنا هو السبق إلى الإيمان.

وقوله: ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يخرج بعض المهاجرين والأنصار وبعض السابقين منهم، لأن السبق إضافي، فكل مؤمن سابق لمن آمن بعده ولكن قد شمل الباقين الذين هم مؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ أي آمنوا بعدهم، ولا يدخل فيها التابعون بعد وفاة رسول الله ص لأن ﴿ٱتَّبَعُوهُم﴾ فعل ماض، فلا يدخل فيه إلا من كان قد آمن قبل نزول هذه الآية إيماناً مقروناً بالإحسان، والمراد به أهل الإيمان الصادق، الباعث على أن يكون صاحبه من المحسنين.

وقد فسر (المحسنين) أول (سورة لقمان) ولأن التابعين بعد وفاة الرسول ص لا ينسب اتباعهم إلى السابقين الأولين فحسب، لأنهم تابعون للصحابة كلهم سابقهم ومسبوقهم، فظهر: أن المقصود بالتابعين للسابقين الأولين المسبوقون من المهاجرين والأنصار الذين سبقهم السابقون الأولون.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ تعبير عن قبول إيمانهم وإحسانهم وأنه غير ساخط على من كان كافراً منهم لأن إيمانه وتوبته محى ما سلف منه، وقوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لأنهم بإيمانهم الصادق يرضون بقضائه، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ويتحملون التكاليف برغبة لإيمانهم بالثواب ورغبتهم في رحمة الله ورضوانه، وهذا يقابل ما مر في الأعراب والمنافقين الكارهين لطاعة الله في الجهاد والإنفاق وغير ذلك الذين نسوا الله فنسيهم.

أخرج الحاكم في (المستدرك) [ج٣/ ص١٣٧]: عن أنس قال:قال رسول الله ص :((اشتاقت الجنة إلى ثلاثة:علي، وعمار، وسلمان)) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي في (تلخيصه) وأخرجه الترمذي [ج٥/ ص٦٦٧] وقال: حسن غريب.

وأخرجه أبو نعيم في (الحلية) [١/ ١٤٢] وذكره المتقي في (كنز العمال) هكذا، أو ذكره بلفظ:((أن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي، وعمار، وسلمان، والمقداد)) وأفاد: أنه أخرجه الطبراني في (الكبير) عن أنس، وذلك في [ج١٢/ ص٢٣٣] من (كنز العمال).

وأخرج الحاكم في (المستدرك) [ج٣/ ص١٣٠] عن بريدة قال: قال رسول الله ص:((إن الله أمرني بحب أربعة من أصحابي، وأخبرني أنه يحبهم، قال قلنا: من هم يا رسول الله؟ـ وكلنا نحبّ أن نكون منهم ـ فقال: ألا إن علياً منهم، ثم سكت، ثم قال: أما إن علياً منهم، ثم سكت)) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، قال الذهبي: ما أخرج مسلم لأبي ربيعة.

قلت: يكفي في صحته على شرط مسلم أن يكون ربيعة على شرط مسلم وإن لم يخرج له، وفي (تهذيب التهذيب): ((حسَّن الترمذي بعض أفراده ـ أي أفراد ربيعة)) انتهى.

والحديث أخرجه أحمد في (المسند) [ج٥/ ٣٥١] بلفظ:((إن الله ـ عزَّ وجل ـ يحب من أصحابي أربعة، أخبرني أنه يحبهم وأمرني أن أحبهم، قالوا:من هم يا رسول الله؟ قال:إن علياً منهم، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي)).

وأخرجه الطبري في (منتخب ذيل المذيّل) المتصل بتاريخه في [المجلد الآخر منه/ ص٣٨] من صفحات (المنتخب) فقال: حدثني إسماعيل بن موسى السدّي، قال: أخبرني شريك عن أبي ربيعة الإيادي، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ص: ((إن الله تعالى أمرني بحب أربعة. قيل:يا رسول الله من هم؟ سمهم لنا. فقال: عليّ منهم، يقول ذلك ثلاثاً، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان، أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهم)).

وأخرجه الترمذي في (جامعه) [ج٥/ص٦٣٦] وحسَّنَه، وذكره المتقي الهندي في (كنز العمال) [ج١٢/٢٣٣] في فضائل الصحابة في قسم الأقوال بلفظ: ((أُمِرت بحب أربعة من أصحابي وأخبرني الله أنه يحبهم: علي، وأبو ذر الغفاري، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود الكندي)).

وأفاد: أنه أخرجه الروياني عن بريدة، وأخرجه في [ص٢٣٦] من ذلك الجزء بلفظ: ((إن الله أمرني بحب أربعة، وأخبرني أنه يُحبهم: علي منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان)).

وأفاد: أنه أخرجه الترمذي، وابن ماجة،وأفاد: أنه أخرجه الحاكم، وأنهم أخرجوه عن بريدة، انتهى.

وهو في (سنن ابن ماجة) [ج١/ص٦٦] وأخرجه أبو نعيم في (الحلية) [ج١/ص١٧٢] وأفاد ابن حجر في (الصواعق): أنه أخرجه الترمذي، والحاكم، وصححه عن بريدة، فظهر: أنه سقط من نسخة (المستدرك) المطبوعة قوله: ((وأبو ذر، والمقداد، وسلمان)) وأنه ثابت في (المستدرك).

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ قال في (البرهان): ((وهو أمير المؤمنين علي × ؛ لأنه أول من سبق إلى الإسلام من الرجال وخديجة بنت خويلد)) انتهى.

قلت: تحقيق هذا في كتب الزيدية والإمامية، وقد عقد له السيد العلامة عبد الله بن الهادي الحسن بن يحيى القاسمي باباً في حاشية (كرامة الأولياء) وحقق ذلك تحقيقاً كافياً، ونقله هنا يطول.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿أَعَدَّ﴾ إما أنه قد خلقها فأعدها للمتقين حقيقة، وإما أنها بمنزلة المخلوقة لسهولة إيجادها، فكأنها قد وجدت، وإعدادها للمذكورين بشارة

عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ

عظمى لمن لم يتحول عن خط الإحسان إلى الإساءة، ولا دلالة فيها على أنهم كلهم لا يتحول أحد منهم عن طريق الجنة؛ لأن معنى إعداد الشيء تهيأته لمن أعدَّ له، وهي قد تكون لأناس يتخلف بعضهم، ولا ينافي ذلك إعدادها لهم.

وقد أفاد القرآن أن بعض المنافقين كانوا قد آمنوا، وقد مر قوله تعالى فيهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٧] وفي (جامع البخاري) المسمى بـ(الصحيح) [ج٤/ص١٤٢ـ١٤٣]: عن ابن عباس ب ، قال: قال رسول الله ص :((تحشرون حفاة عراة غرلاً)) ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء:٤] فأول من يكسى إبراهيم، ثم يؤخذ رجال من أصحابي ذات اليمين وذات الشمال فأقول أصحابي، فيقال: ((إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم..)) إلى آخر الحديث نقلته من المطبوعة المجردة عن الشروح عن طبعة [دار الطباعة العامرة باستانبول] والحديث مخرّج من كتب وطرق عديدة، انظر: (الإعتصام) تأليف الإمام القاسم بن محمد × الجزء الأول.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ ممن حولكم ممن هو خارج المدينة المنورة ومن أهل المدينة حيث الرسول ص والقرآن يتلى وآيات النبوءة تتجدد، و﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: عتوا)) انتهى.

وقال (صاحب الصحاح): ((والمرود على الشيء: المرون عليه، والمارد: العاتي)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((المارد: العاتي ـ ثم قال ـ: والمرود على الشيء: المرون عليه، ومرد على الكلام: أي مرن عليه لا يعبأ به، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ قال الفرَّاء: يريد مرنوا عليه وجُرِّبوا)) انتهى المراد.

فالراجح: أن المعنى: عتوا على النفاق، بسبب مرونهم عليه والفهم له، فالعتو حاصل المعنى ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ صفة لقوله منافقون أي منافقون مردوا على النفاق وكلهم من أهل المدينة وممن حولهم، وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ دليل على أن الله لم يجعله يعلم الغيب، إنما يعلم ما أوحي إليه به، ولم يوح إليه بكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ يحتمل في الدنيا، ويحتمل مرة في الدنيا أو عند حضور الموت ومرة بعد الموت قبل القيامة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ هو عذاب جهنم نعوذ بالله من عذابه وفي الآية دلالة على أن ما كل من رأى رسول الله ص وسمعه صحابياً إذا كان قد شهد الشهادتين، لأن هذا الأصل يستلزم جعل المنافقين من الصحابة فإذا جعلوا من الصحابة وجعل الصحابة كلهم عدولاً نتج عنه تعديل المنافقين، وإيجاب قبول حديثهم وهم أعداء الإسلام، فالأولى أن الصحابي: من طالت ملازمته لرسول الله ص متبعاً لشرعه، ولم يثبت عنه تحول عن اتباعه، وقد حققت هذه المسألة في (تحرير الأفكار).

سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ

﴿١٠٢﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ لعله عطف على قوله: ﴿مُنَافِقُونَ﴾ فالمعنى: وممن حولكم ومن أهل المدينة آخرون غير منافقين، لكنهم ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ تارة يعصون وتارة يطيعون.

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيوفقهم للطاعة المستمرة والتوبة النصوح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن مغفرته ورحمته تعريض عباده على التوبة وتوفيق من لم يستوجب الخذلان.

﴿١٠٣﴾ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ليسوا كمن قال فيهم: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ لأن هؤلاء غير منافقين، وإنما يتقلبون لعدم رسوخ الإيمان في قلوبهم، كما قال أمير المؤمنين: ((من الإيمان ما يكون ثابتاً مستمراً، ومنه ما يكون عواري بين الصدور والقلوب)) وذلك أنها تعرض الغفلة فينسى الإيمان فكأنه كان عارية مردودة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ يشعر بأنها الزكاة؛ لأنها تجب في الأموال المختلفة، أما غيرها فيكفي الإنفاق من غير تبع لأنواع المال، بل قد يكفي من نوع واحد.

وقوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ يفيد: أن في إخراج الزكاة على الوجه المقبول تطهرة لصاحبها، فهي سبب للتوفيق، كقوله في الصلاة: ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] والزكاة الطيب والصلاح،وهذه فائدة في الزكاة عظيمة يرغب فيها كل مؤمن.

ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ

﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡ﴾ أدع لهم إن دعواتك سكن لهم، في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) لقوله تعالى: ﴿إِن صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾: ((معناه: دعاؤك سكن لهم وتثبيت)) انتهى المراد، وفي (المصابيح) للشرفي عن (البرهان) لأبي الفتح الديلمي تفسير ﴿سَكَنٞ لَّهُمۡ﴾: ((أي تثبيت لهم ورحمة)) انتهى.

والدعاء لهم ليس مقيداً بكونه عند أخذ الصدقة، إذ ليس في الآية تقييد والعطف لا يفيده ومجرد الترتيب لا يفيد أن الدعاء لهم عقيب استلام الزكاة وقد روي الدعاء لهم عند استلام الزكاة وهو مناسب ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ فهو يسمع الدعاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن ينبغي الدعاء له، وسميع لكل قول، وعليم بكل شيء.

﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾ قد آن لهم أن يعلموا، لأن محمداً إنما هو رسول الله، مبلغ عن الله، دعا الناس إلى التوبة وأكثرهم مشركون، وهو يخبرهم أنه رسول الله يدعوهم بأمر الله، فقد آن لهم أن يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ هو لا غيره ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ فيكفيهم أن يتوبوا إليه فتقبل منهم، ولو لم يكن الرسول ص قد علم توبتهم، فليس المهم أن يعلم رسول الله ص ويرضى عنهم، إنما المهم تحقيق التوبة، وليس المراد: أن يخفوها عن الرسول ص أو أن لا يبالوا به ولكن المراد: أن يعلموا أن الأمر لله وحده وهو الذي يقبل التوبة عن عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ كذلك دليل على أن النافع قبوله لها وأنه يقبلها فليرغبوا في إيتائها والمراد من التائبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا

اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فليرجع إليه كل مذنب، وليتوبوا كلما زلوا، والتوّاب: كلمة مبالغة تدل على كثرة التوبة، وهي نوعان: توبة التوفيق للتوبة، وقبول التوبة، وذلك كله كثير وكله رحمة.

﴿١٥﴾ ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقل لهؤلاء التائبين ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ في المستقبل ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ وهو الذي يجزي ﴿وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعاملونكم معاملة المؤمنين إن ثبتم على التوبة وبخلاف معاملة المؤمنين إن أسأتم وهذا تأنيس لهم؛ لئلا يظنوا أن معاملتهم ستكون على ما تقتضيه الإساءة السابقة، ولذلك قال هنا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فهم يتولون من تاب ويؤاخونه، وينسون ما سلف منه قبل التوبة، وبالأولى أن يرضى عنهم رسول الله ص لأنه على خلق عظيم.

﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهذا بعث على الإخلاص لله، لأنه هو الذي يردون إليه ليجزيهم بما عملوا من خير أو شر، وهو الذي يعلم ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ولا ينفع عنده التمظهر بالصلاح مع فساد الباطن ولو نفع عند الرسول والمؤمنين.

﴿١٦﴾ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): وهم الثلاثة الباقون من العشرة المتأخرين عن رسول الله ص في غزوة (تبوك) ولم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة، وهم: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك.

ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ

ومعنى ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي مؤخرون موقوفون لما يَرِد من أمر الله ـ عزّ وجل ـ فيهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أي يأمر بعذابهم في الدنيا إن لم يعلم صحة توبتهم إن بقوا على إصرارهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ إن تابوا)) انتهى. ومثل هذا في (تفسير ابن كثير) و (تفسير سيد قطب) وغيرهما.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما يخفون وما يعلنون عليم بنياتهم، عليم بتوبة من تاب وندم من ندم ﴿حَكِيمٌ﴾ فحكمه فيهم هو الحق، وتأتي إن شاء الله الآية في توبة الله تعالى عليهم.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا﴾ إثبات الواو قراءة (حفص) وعليها يكون المعنى أنهم من أهل المدينة أو ممن حولهم الذين اتخذوا مسجداً ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أما على حذف (الواو) وهي قراءة نافع فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ..﴾ الآية أو ما أفاده الكلام قبله مقدر.

وقوله تعالى: ﴿ضِرَارًا﴾ أي أرادوا بهذا البنيان أن يكون مسجداً لقصد المضارة للمؤمنين بتقوية جانب المنافقين ﴿وَكُفْرًا﴾ هو الباعث على اتخاذ المسجد لأن الغرض به محاربة الدين ﴿وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لينشقوا، ويصير بعضهم إلى مسجد الضرار، بحجة أنه مسجد فيتفرقوا.

﴿وَإِرْصَادًا﴾ إعداداً للمنافق، أي أعدوا هذا البيان مسجداً ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ ليأتي فيصلي فيه ومعنى حارب الله ورسوله نافق وحارب دين الله ورسوله وحرض على قتال رسول الله ص كما

يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ

حكى هذا الشرفي في (المصابيح) عن (البرهان) ثم قال: ((قال الحسين بن القاسم × : في معنى هذه الآية: يريد سبحانه أنهم بنوا مسجداً للضرر على الإسلام، وجعلوه حُبالةً وحيلة لضعفة الأنام ليصلي معهم بعض المؤمنين، ويفترقوا بذلك عن خاتم النبيئين، وجعلوه شبكة لضعفه المسلمين، ومعونة ورصداً وطريقاً لمن حارب الله ورسوله)) انتهى المراد، والحبالة، والشبكة: آلة توضع لإصطياد الصيد بها متى وقع فيها.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): أبو عامر الراهب [يعني الذي حارب الله ورسوله من قبل] هو أبو حنظلة بن الراهب، قد حزب على رسول الله ص، ثم خاف فهرب إلى الروم ومصر، واستنجد هرقل على رسول الله ص، فبنوا هذا المسجد حتى إذا عاد من [عند] هرقل صلى فيه..)) إلخ.

وقوله: ((أبو)) وفي نسخة ((والد)) وقوله: حزب، هي مهملة بغير نقط تحتمل: حزَّب، وخرب، ولأجل الغلط في الكتابة تركت نقل بقية الكلام.

﴿وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي أقسم ليحلف ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ ﴿إِنۡ أَرَدۡنَآ﴾ بذلك المسجد ﴿إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ إلا الخصلة الحسنى، أو إلا الإرادة الحسنى، مثلاً: أردنا الثواب والتوسعة للمصلين، وتيسير حضور الصلاة للمجاورين له في الليلة الشاتية واليوم المطير ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ في تلك الحلفة؛ لأنهم قد أرادوا الضرار وسائر ما ذكره الله في أول الآية.

﴿١٠٨﴾ ﴿لا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدًا﴾ لأنهم يرغبون في أن تصلي فيه أنت يا رسول الله ليحتجوا بصلاتك على أنه مسجد ثابت له حكم المسجد وحرمة المسجد، فلا تقم فيه إبطالاً لكيدهم، وتخييباً لأملهم.

خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ مسجد أسس بناؤه على تقوى الله، لأنه بني على نية العمل بما يرضي الله وإقامة الصلاة فيه جماعة وجمعة، وإحياء الدين فيه بتبليغ القرآن وغيره وجمع المؤمنين، لذلك فهو أحق أن تقوم فيه للصلاة وللخطبة ونحوها.

﴿فِيهِ﴾ أي في هذا المسجد الذي أسس على التقوى ﴿رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ لصدق نيتهم في إقامة الصلاة، فهم أحق أن تصلي بهم ومعهم، وتعلمهم وترشدهم، وفيه دلالة على تفضيل جماعة الذين يحبون أن يتطهروا.

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ للصلاة ولما وجب التطهر له، والمراد به: المتقون الذين يقبل منهم التطهر؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] كما أن المراد به التطهر المشروع، لا ما زاد عليه فلا فضل فيه ولا قربة به، ويؤخذ من الآية: أن الرجال هم الأصل في الكون في المسجد وفي الجماعة، فهم أحق من الصبيان بالمسجد، ومن النساء لو ضاق المسجد، وجماعة الرجال هي الأصل ينظم إليها الرجال والنساء؛ لأنها الأصل.

﴿١٠٩﴾ ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ هذا مثل لأهل المسجدين المسجد الذي أسس على التقوى وبنيان الضرار وتسميته بنياناً هي الصواب، لأن الذين اتخذوه مسجداً لم يقرّوا على اتخاذه مسجداً، فهو بنيان لا غير لمسجد أسس ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾

قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى

هدى لها وعلمها بما أنزل على رسوله ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ من الله بتأسيس البنيان مسجداً، فهو ثابت وحكمه الثبوت، وله الحرمة الباقية لبنائه على الوجه الشرعي، وعلى رضوان الله به، أفأهل هذا البنيان خير أن تقوم فيهم، أم المنافقون الذين أسس بنيانهم على نفاق وعداوة لله ورسوله، فهو خطر على أهله يوقعهم في نار جهنم، كأنه بني ﴿عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ فسقط بمن أسسه ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

والجرف: تكون من الأرض في جانب الوادي قد أخذ السيل أسفلها وبقي أعلاها تحته فضاوة، فهو هارٍ حين بني مشرف على السقوط أو متساقط، وشفاها هو طرف أعلاها من جهة الوادي، فالبنيان الذي أسس على فجور وسخط من الله من شأنه أن يسقط، كأنه أسس على ذلك الشفا، ومن شأنه أن يهوي بصاحبه المؤسس له في نار جهنم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لأنهم على ظلمهم لا يستحقون الهداية ولذلك كان بنيانهم باطلاً.

﴿١١٠﴾ ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ لا يزال شكاً مقلقاً لهم في صدق الرسول والقرآن، أي لا يزال سبباً لعدم الإيمان واليقين في قلوبهم؛ لأنه منكر عظيم ارتكبوه فاستحقوا به الخذلان، وما زادهم إلا بعداً من الإيمان بما نزل فيه من القرآن وبهدمه المثير لغضبهم من الحق وتعصبهم للباطل.

﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا تحقيق لالتصاق الريب بقلوبهم، بحيث لا يذهب عنها إلا أن تتقطع وتفنى، فيفنى تبعاً لفنائها فهو كالصباغ الثابت في الخرقة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عليم بقلوبهم وما فيها، وهو قد حكم فيها وفيهم بالحق الذي هو مقتضى الحكمة.

سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ

﴿١١١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ جعل أنفسهم وأموالهم لله ثمناً للجنة، ثم فسر تمليكهم لأنفسهم وأموالهم بهذا البيع، فقال تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فهذا معنى أنها ـ أي الأموال والأنفس ـ صارت لله بالجنة، أن عليهم أن يبذلوها لله وفي سبيله في القتال لنصرة دين الله وهو سبيله.

وقوله تعالى ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ تحقيق للقتال بما يترتب عليه من أن يقتلوا من أعداء الله ويقتل بعض المؤمنين في سبيل الله، ونسبة القتل إلى الجملة باعتبار كونه مصيبة لهم؛ لأنهم كالجسد الواحد، وقد مرَّ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران:١٥٤] ومنه قول الشاعر:

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها

مسبوعة، أي أصابها السبع بافتراس ولدها.

﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ وعد المؤمنين المجاهدين في سبيله الجنة ﴿وَعْدًا﴾ قد سبق في التوراة والإنجيل وهاهو في القرآن فهو وعد لكل جيل بالجنة لمن آمن منهم وجاهد في سبيل الله، ولذلك هو ثابت في الإسلام إلى يوم القيامة، وقد جاهد أئمة الهدى في سبيل الله راجين هذا الثمن الربيح، فجاهد الإمام زيد بن علي، وابنه يحيى، ومحمد بن محمد بن زيد بن علي، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية، وأخوه إبراهيم، وأخوه إدريس، والحسين بن علي بن الحسين ـ صاحب فخ ـ ومحمد بن إبراهيم أخو القاسم بن إبراهيم، والهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم، والناصر الأطروش الحسن بن علي، وغيرهم.

قال الهادي × في (الأحكام) في (باب القول في فضل يوم الجمعة): ((وعُصيتُ حين دعوتُ إلى الله فلم أطع، فقلت: رب إني لا أملك إلا نفسي فبعتها منه ومالي في جوف الكعبة البيت الحرام بما بذل لي من الثمن الربيح ذو الجلال والإكرام، حين يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ..﴾ الآية.

أتمها في (الأحكام) ثم قال × : ((ثم انتظرت أمر الله وأرصدت لذلك حتى يفتح الله، ويأذن في ما طلبت من إحياء حقه إذْنَ معونة بتسديد وتوفيق لذلك، وتأليف بين قلوب العباد..)) إلخ.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ سؤال في معنى النفي لوضوح معنى النفي عند السامع، أي لا أوفى بعهده من الله؛ لأنه لا أصدق من الله قيلاً؛ لأنه عليم قدير غني حكيم فوعده للمؤمنين المجاهدين في سبيله حق لا يتخلف وسماه عهداً، لأنه كلام موثق بتسميته بيعاً، ليدل على استحقاقهم الجنة كما يستحق المبيعَ مَن اشتراه.

﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ هؤلاء الذين بايعوا طابقوا ببيعهم بيع الله ورضوا به فأمروا أن يستبشروا ببيعهم لما لهم فيه من الربح العظيم المحقق عند كل مؤمن فيحق للمؤمن أن يستبشر به.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ الظفر والفلاح مع السلامة من كل شر ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه السعادة الدائمة في مقابل بذل النفوس والأموال في هذه الحياة الدنيا، فهي في جنب الخلود الأبدي في جنات النعيم شيء حقير تافه؛ لأنه في جنب الخلود الأبدي في النعيم العظيم والملك الكبير.

ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ

﴿١١٢﴾ ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هؤلاء الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم، هم ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ إلى الله، وهم الراجعون إليه، سواء كانوا قبل فساقاً أم كفاراً، أم هم مقبلون بقلوبهم وأنفسهم إلى الله تاركون لما يشغل عنه من أمور الدنيا، فكلهم راجعون إلى الله ومن رجوعهم إلى الله الإستغفار من الزلات الواقعة خطأً أو نسياناً.

وقوله: ﴿ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ صفة ثانية لهم وهي تشمل طاعة الله في كل شيء بقلوبهم وألسنتهم وأبدانهم، ولا ينافي ذلك ما يعرض من الزلل الذي لا يصرون عليه؛ لأنهم بالتوبة يصيرون عابدين.

وقوله: ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ صفة ثالثة، والحمد من شكر النعمة، وقيل: الحمد رأس الشكر، واستمرارهم عليه كما تفيده الجملة الإسمية يفيد أنهم يحمدون الله على كل حال يكونون فيه؛ لأنهم يعتقدونه خيراً لهم ونعمة ورحمة حتى المرض والفقر لما يرجون من حسن عاقبته، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] وحتى لو فرض أن ذلك لذنب؛ لأنه يدعو إلى التوبة والإستغفار ويكفر الذنوب فهو خير لصاحبه لحسن عاقبته.

وقوله: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ صفة لهم رابعة تفيد أنهم يؤثرون طاعة الله فيما أوجب من الجهاد الذين يخرجون لَه من ديارهم وغيره ولا يمنعهم حب الوطن

ولا حب مساكن يرضونها ولا حب تجارة يخشون كسادها ولا غير ذلك مما يرغِّب في القعود عن الجهاد أو غيره مما فيه نصر لدين الله وإعلاء لكلمته.

وهذا المعنى هو المناسب للسياق، وما روي في الصيام أنه السياحة محمول على الترغيب في الصيام بتشبيهه بالسياحة لا على أنه تفسير للآية، وما روي تفسيراً لا يستحق اعتماده في العدول عن ظاهر الآية الذي هو المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي؛ لأنه غير معلوم، وكذلك روي في تلاوة القرآن عمل الحال المرتحل، وروي في انتظار الصلاة بعد الصلاة «فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» وكل ذلك ترغيب بالتشبيه بالسياحة وبالمرابطة في سبيل الله بالإعداد للجهاد وانتظاره في مظان لقاء العدو.

نعم وجعل ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ وصفاً لازماً لتكرر السياحة بتكرر الأسباب الموجبة للخروج واستعدادهم لها بالنية والإعداد، لما يتوقع فيما بين الخروج والخروج، فكانت السياحة بذلك كالصفة اللازمة.

وقد أخرج الحاكم في (المستدرك) [ج٢/ ٧٣] بإسناده عن أبي أمامة ت أن رجلاً قال: يا رسول الله ائذن لي في السياحة، قال: «إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله» قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، وذكر السيوطي في (الدر المنثور): أنه أخرجه ابن أبي حاتم، والطبراني، والحاكم، والبيهقي في (شعب الإيمان) عن أبي أمامة فذكره.

ويناسب ما ذكرت في تفسير (السائحين) تفسير (السائحات) الذي ذكره الشرفي في (المصابيح) عن الهادي × حيث قال: «فالسائحات: فهن المهاجرات إلى الله ورسوله، التاركات لأهل الكفر والجحدان، المهاجرات إلى دار السلام والإيمان» انتهى.

﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ وهاتان الصفتان الخامسة والسادسة للمؤمنين، الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم جعلوا راكعين ساجدين لمحافظتهم على صلاتهم ذات الركوع والسجود، أي لمحافظتهم على الركوع والسجود فيها.

﴿ٱلْأَٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ وهاتان الصفتان السابعة والثامنة، والعطف بـ(الواو) من عطف الصفة على الصفة لموصوف واحد، كما مرّ في قول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

ولعل المراد بالعطف: التنبيه على أنهم يجمعون بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي يفعلون كلاً منهما على ثقل كل واحدة على النفس، من حيث أنها تسخط المأمور أو المنهي، فقاموا بالمهمتين وتحملوا الثقيلين لإرضاء الله، مع ما بينهما من التقابل المناسب للعطف بينهما، وهاتان الخصلتان من صفات المؤمنين، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ حدود الله: هي التي تُحدُّ بها العبادات، والمعاملات، والمواريث، والديات، والأروش، ومقادير الحدود: كحد قطع يد السارق وشروطه، وعدد الجلد في الزنا، والقذف وشرب الخمر، فالمحافظة عليها من شأن المؤمن؛ لأنه ملتزم بامتثال أمر الله ونهيه وتطبيق أحكامه من غير زيادة ولا نقصان.

ويحتمل (حدود الله): ما شرعه من القطع والجلد ونحوهما، فهي تسمى حدوداً، وحفظها: إقامتها على من وجبت عليه من شريف ووضيع، وغنى

لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا

وفقير، وهي ثقيلة أثقل من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو هي أثقل النهي عن المنكر؛ لأن الناس ينفرون عنها ويدافعونها ويتعصبون لمن وجبت عليه.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالثواب العظيم: «ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» لطاعتهم لله في الجهاد والتكاليف الشاقة واجتنابهم لمعصيته.

﴿١١٣﴾ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي ما صح ولا استقام، كأنه لا يتصور منهم، فالنبي تمنعه نبوءته، والمؤمنون يمنعهم إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس:١٥] وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف:٨٩].

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ لأنهم متى تبين لهم حكم الله عليهم بالجحيم حكماً حتماً، فالإستغفار عطف على من قد غضب الله عليه، وشأن النبي والمؤمنين إيثار أمر الله على العاطفة النفسية لذي القربى أو غيره.

﴿١١٤﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ والموعدة قول إبراهيم لأبيه: ﴿لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الممتحنة:٤] ولعله × كان يطمع أن يهدي الله أباه للإيمان، فاستغفر له طلباً لهدايته، أي لا يعاقبه بالخذلان وأن يوفقه للإيمان.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ مصرٌّ على الشرك معاند للحق، بعد ما وضحت له الحجة ودعاه ابنه فلم يقبل شيئاً ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ تبرأ من أبيه، وترك الإستغفار له.

وقد *يقال*: ألم يكن تبين لَه أنه عدو لله حين وجده مشركاً ؟

والجواب: أن المراد بالعداوة لله: العداوة لدينه، وهو وإن علم أنه مشرك على دين قومه وبلده فلعله لم يكن يظن فيه إلا الجهل والتقليد من دون ظنه لعداوة دين الله؛ لأنه كان جاهلاً بدين الله فحين عرّفه إبراهيم × دينَ الله وتبين لَه بالحجة الواضحة ثم عادى دين الله، فقد صار عدواً لله بهذا المعنى أي عدواً لدين الله، والظاهر: أن إبراهيم × كان يجوز في دينه الإستغفار لمن لم يحارب دين الله ليتوب بل هذا واضح والحجة فعله × .

وحكى في (المصابيح) عن الناصر أحمد بن الهادي، وعن (صاحب البرهان) تفسير ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ بموته على الشرك وإياسه من إيمانه، وذكرا أنه كان يرجو أن يُسلم، وعلى هذا لا يبعد أن يفسر قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ بمن مات مشركاً أو ثبت أنه لن يؤمن، وهما مسألتان: **مسألة**: الإستغفار لمن يرجى له التوفيق للإسلام ليسلم، **ومسألة**: الوعد لَه بالإستغفار.

فالآيتان هنا في (سورة التوبة) في الإستغفار نفسه، والآية في (سورة الممتحنة) هي في قوله: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [آية:٤] ولا يبعد اختلاف الحكم، فالإستغفار سراً بحيث لا يشعر به الكافر الذي يرجى إيمانه، لا ينافي إظهار العداوة له، أما وعده بالإستغفار فهو يعبر عن العاطفة، فهو لا يناسب إظهار العداوة، ويختص بالوالدين؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥] ـ والله أعلم.

يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾

﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ذكر من معاني الأوّاه: ((المتضرع بالدعاء، ومنها: الموقن بالخشية)) انتهى.

وفي (المصابيح) تفسير الشرفي: ((قال في (البرهان): والأوّاه: الداعي المتضرع الخاشع، وأصل الأوَّاه من التأوُّه [أي قول القائل: آه] وهو التوجع، ومنه قول العبدي:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوَّه آهة الرجل الحزين

وروي عن النبي ص أنه قال: ((الأوّاه: الخاشع المتضرع)) وقيل: معنى كون إبراهيم × أواهاً: أنه كان كلما ذكر لنفسه تقصيراً أو ذُكِر لَه شيء من شدائد الآخرة كان يتأوّه إشفاقاً من ذلك)) انتهى المراد.

والحليم: الذي لا يقابل الإساءة بمثلها عند وقوعها؛ لرجاحة عقله أو حكمته، بل يتحمل الأذى عند الإساءة إليه. وقال الراغب: ((الحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب)) انتهى المراد.

ولما كان الإستغفار للكافر الذي يرجى إيمانه من معناه طلب أن لا يضله الله بالخذلان قال تعالى:

﴿١١٥﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ﴾ ليس من شأنه مع كرمه ورحمته وحلمه أن يضل ﴿قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ﴾ بإرسال الرسول، وإنزال الكتب، والدعوة إلى توحيده وعبادته، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧].

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ

﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ يكشف لهم حقيقته ويوضحها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة:٩٠] ومن بيان ما يتقون بيان قبح المعصية وكونها سبباً للعقاب وكونها كفر نعمة ونحو ذلك من مفاسدها، فإذا تبين لهم قبح المعاصي وكونها سبباً للعذاب ثم تمردوا بعد ذلك فقد يخذلهم لتمردهم بعد البيان وهو البصير بعباده العليم بسرائرهم، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهو عليم بمن يستحق الخذلان ومن يصلح للهداية والتوفيق للإيمان.

﴿١١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فمن فيهما هم عبيده ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ متى شاء فمن أماته على الشرك لم يكن له حق في أن لا يميته الله، لأن الملك له في عباده والتصرف كيف يشاء ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من يحول بينه وبين التصرف فيكم كيف يشاء، بأن يتولى أموركم غيره ويكون أمركم إليه ليحول بينكم وبين أمر الله، أو بأن ينصركم ويدفع عنكم قضاء الله بل لله الحكم في عباده وحده.

﴿١١٧﴾ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه توبة عظمى، ولذلك قرن الله بين النبي ص و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ فهي توبة الرحمة والرضوان، وإعداد الجنات بعد الإبتلاء الشديد بغزوة العسرة (غزوة تبوك).

عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ((وهي (غزوة تبوك) قِبَل الشام كانوا في عسرة من الظَّهر [أي المركوب] كان الرجلان والثلاثة [يتعاقبون] على بعير، وفي عسرة من الزاد حتى ذكر أن الرجلين كان يشقان التمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم فيمصها أحدهم ثم يشرب عليها من الماء ثم يمصها الآخر، وفي عسرة من الماء، وكانوا في التهاب الحرّ وشدته، وروينا في الخبر: أنه أصابهم يوماً عطش شديد، فجعلوا ينحرون الإبل، ويعصرون أكراشها فيشربون ماءها، فأمطر الله عليهم السماء بدعاء النبي ص..)) إلخ.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي اتبعوه من بعد ذلك، ومعنى ﴿تَزِيغُ﴾: تميل عن الهدى والصواب إلى الباطل كادت تزيغ، ولعل ذلك لشدة وقت الغزوة ولأجل العسرة في الظَّهر والزاد ولبعد المسافة، ولكون الإتجاه فيها لحرب الروم وهم أولو قوة عظمى، فكانت الصوارف عن الطاعة كثيرة ولأجلها كاد تزيغ قلوب فريق منهم فيتخلفوا عن رسول الله ص ويقعدوا بعدما أمرهم أن ينفروا ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بلطفه وتوفيقه فلم يتخلفوا ولم تزغ قلوبهم.

﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ﴾ بالنبي ص والذين اتبعوه ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ قال الراغب: ((الرأفة: الرحمة)) وقال (صاحب الصحاح): ((الرأفة: أشد الرحمة)) انتهى، فالجمع بين ﴿رَءُوفٞ﴾ و﴿رَّحِيمٞ﴾ يحمل على الحالات المختلفة، ففي حالةٍ رأفة، وفي حالةٍ رحمة ـ والله أعلم.

﴿١١٨﴾ ﴿وَ﴾ لقد تاب الله ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ الذين قال فيهم: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّـهِ﴾ فهو تخليفهم عن حكم غيرهم من الذين تاب عليهم ومن المنافقين الذين سخط عليهم، فهؤلاء خلفوا بإرجائهم لأمر الله.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ﴾ أي برحبها أي بسعتها وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وما بعده غاية لتخليفهم ﴿ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ لأنهم ندموا على التخلف، وأقروا أنه لا عذر لهم، فتركوا لم يحكم فيهم رسول الله ص وانتظر أمر الله فيهم، قالوا: ونهى الناس عن أن يكلموهم فضاقت عليهم الأرض على اتساعها بسبب ذنبهم وما أدى إليه من إرجاء أمرهم، وضيق الأرض كناية عن سوء حالهم في محلهم، وعدم وجدانهم مكاناً غيره يتخلصون فيه من همهم وغمهم؛ لأنهم لا يريدون مفارقة رسول الله ص ولا يرون ذلك مخلصاً لهم مما هم فيه، بل يزيدهم من الله بعداً.

﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ فلم يبقَ في أنفسهم اتساع وانبساط ولا مجال لعودة الحالة الطبيعية التي لا قلق فيها، والتي يكون معها بعض السرور لبعض الأسباب، فقد صارت أنفسهم لا مجال فيها لذلك، وهذه حالة نفسية شديدة على الإنسان.

﴿وَظَنُوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ لأن الرسول ص وقف أمرهم وأرجأهم لأمر الله فيهم وأمر الله فيهم إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، فقد علموا أن التوبة إلى الله هي طريق النجاة، وهي الملجأ من عذاب الله، وفائدة التشديد هذا أن يحذر الناس التخلف عن الجهاد ولا يتهاونوا به لثقله على النفوس، والجهاد ضروري لدفع الفساد في الأرض.

فلو كفى المتخلف أن يقول عند رجوع رسول الله ص: قد تخلفت لغير عذر، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه، لكانت وسيلة لتخلف الكثير من الناس لذلك كان من الحكمة أن يتوقف قبول التوبة من التخلف على مشقة تعدل مشقة الجهاد حتى ينزجر الناس عن التخلف، ولهذا فلا يقاس على التخلف كل عصيان بل يؤدب العاصي لكل معصية بقدر ما يراه أهل الحكمة والرأي الصائب.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ

وقد روي عن أمير المؤمنين × تأديب مختلف لآكل الربا تحريق بعض حَبِّه، وللزاني في نهار شهر رمضان جلد مع الحد، ولأهل الشطرنج تحريق رقعتهم وجعل رِجل كل واحد منهم في عقال، وذلك على ما تقتضيه الحكمة، لا على قدر الشهوة والغضب.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ عطف على ﴿خُلِّفُواْ﴾ وما يتصل به أي خلفوا لتلك الحالة التي صاروا فيها، ثم بعد ذلك التخليف تاب الله عليهم فهداهم للتوبة الصادقة ليتوبوا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كثير التوب على عباده رحيم بهم، وقد مرّ أن الله هو يقبل التوبة عن عباده، فأغنى بيان توبتهم عن ذكر قبولها، وفي ذلك تنبيه على أن المهم أن يتوب الله على عبده المذنب ليتوب، وذلك يكون على ما تقتضيه الحكمة وعلى ما تقتضيه حال العاصي من استحقاق التوفيق أو الخذلان، وقد روي: ((أن رابعة العدّوية سئلت هل مَن تاب تاب الله عليه؟ فقالت:لا، ولكن من تاب الله عليه تاب)) انتهى.

وقولها: لا، إنما هو دفع للسؤال لا نفي لقبول توبة التائب، تريد: أن المهم هل يتوب الله على العاصي، فأما قبول توبة التائب فواضح.

﴿١١٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تمهيد لقوله تعالى: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ليدل على أن الكون مع الصادقين من التقوى، ومعنى هذه المعية: صدق الولاء للصادقين، ومشاركتهم في أمورهم العامة المهمة مثل: الجهاد، والنصح لله ورسوله، والدفاع عن الدين بالحجة الواضحة وبالسلاح.

بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ

والصادقون: المؤمنون الذين صدقوا في دعوى الإيمان وصدقوه بأعمالهم وجهادهم، والتزموا الصدق ولازموه حتى صار صفة لهم، فيطلق عليهم اسم الصادقين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٥-١٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] فالواجب أن نكون مع هؤلاء، ومن ضمن هذه المعية: الجهاد في سبيل الله معهم، ولذلك عقب هذه الآية بقوله تعالى:

﴿١٢٠﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ الذين فيهم رسول الله ص سيد الصادقين ﴿وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الذين هم بجوارهم للمدينة يستطيعون الجهاد مع رسول الله ص وتبلغهم دعوته إلى الجهاد، فما صح لهم ولا استقام ﴿أَن يَتَخَلَّفُوا۟﴾ لأنه القدوة وفيه الأسوة لكل مؤمن؛ ولأن عليهم فرض من الله أن يكونوا معه ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي لا يرغبوا عن مصاحبته في الجهاد حفاظاً على أنفسهم من أن تكون كنفس رسول الله ومعها معرضة للقتل، هذا حاصل المعنى، فما كان لهم أن يتخلفوا ولا يرغبوا عن كونهم معه؛ لأنهم إن تخلفوا ورغبوا عنه فاتهم الخير الكثير والأجر العظيم، مع ما ينالهم من عقوبة التخلف.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي كونه لا ينبغي لهم التخلف والرغوب بأنفسهم ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ مصحوب بأنهم أو بسبب أنهم ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا جاهدوا مع رسول الله ص إلا كتب لهم، والظمأ: العطش الذي يصيب المجاهد لعدم الماء أو تعذر الشرب، والمخمصة: المجاعة كذلك، والنصب: التعب والجُهد.

﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يطأون بأقدامهم أو أرجل خيلهم وضع الأقدام على أرضهم أو ما يغيظهم وطؤه ﴿مَوْطِئًا﴾ مصدر أي وطأً ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ لدلالته على عزة الإسلام وشجاعة المجاهدين، والغيظ: أثر في النفس لسبب مكروه، قال في (لسان العرب): ((الغيظ الغضب، وقيل: الغيظ: غضب كامن للعاجز، وقيل: هو أشد من الغضب، وقيل: هو سورته وأوله)) انتهى، أي لا يطأون ذلك الموطئ إلا كتب لهم كما يأتي بعد هذه الجمل المتعاطفة.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ ﴿لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ﴾ لا يصيبون العدو في نفس أو مال أو غرض أو نحو ذلك، فقوله: ﴿نَّيْلًا﴾ لتأكيد العموم ليعم الشديد واليسير، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ﴾ أي بما وقع من ذلك ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي كتب لهم في كتاب عملهم عمل صالح وقع منهم، ووصفه بالصلاح يفيد أنه نافع لهم متقبل منهم لم يعارضه مفسد ولا محبط وكتابته دلالة على أنه لا يضيع أجره لأن الشيء يكتب ليحفظ، فالمحافظة عليه بالكتابة دليل على الإثابة، وأنه يراه صاحبه يوم القيامة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ولذلك يكتب لهم وقوله: ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ إما للدلالة على أنه يقبل منهم لأنهم محسنون لا يعملون ما يحبطه، وإما للدلالة على أن تلك الأعمال هي من الإحسان الذي يتقبله الله ويثيب عليه، وإما للدلالة على مجموع الأمرين.

وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا يُنفِقُونَ﴾ في الجهاد أو طريقه ذهاباً أو إياباً ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهاب أو إياب وقطع المسافة بالسير من أولها إلى آخرها ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ فهو متقبل يثابون عليه.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فذلك الجهاد وما فيه من سبب الظمأ والمخمصة والنصب ووطئ موطئ يغيظ الكفار والنيل من الأعداء وما ذكر في الآية الثانية كل ذلك يكتب لهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فهو أحسن ما كانوا يعملون أو هو من أحسن ما كانوا يعملون ففائدة التفضيل بيان: أنه أحسن ما كانوا يعملون، أو من أحسن ما كانوا يعملون، ولا ينافي ذلك جزاؤهم بالحسن من أعمالهم، أو المراد بالأحسن: القُرَب كلها وتفضيلها على بقية أعمالهم المباحة وغيرها؛ لأنها كلها مما كانوا يعملون.

﴿١٢٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ﴿لِيَنفِرُوا۟﴾ ليخرجوا من بلدانهم إلى الرسول ص ليكونوا معه في المدينة، فظروفهم لا تساعدهم على ذلك كلهم وليس من لازم الكون معه مجاورته في المسكن، بل يكفي اتباعه ومصاحبته في الجهاد وفيما دعاهم له.

والأعراب الذين هم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله ونحوهم، يكفيهم أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتعلموا من رسول الله ص دينهم الذي يأخذونه من القرآن وكلام الرسول ص وأفعاله وتقريره، ولم يُذكر الرسول ص في هذه الآية ولا في التي قبلها، لأنهما غير خاصتين به، ففيما بعده يقوم المؤمنون المتقون أهل العلم النافع مقامه في وجوب الكون معهم، وفي وجوب التعلم منهم، وأن ينفر إليهم ﴿مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ بما يبلغونهم من وعيد الله لمن عصاه ولمن أعرض عن كتابه واشتغل بالمال والأهل.

فأما قول من قال: إن هذه الآية ناسخة لوجوب الجهاد إلا على الكفاية فليس عندي قوياً؛ لأن وجوب الجهاد كان تابعاً لقول الرسول ص للذين آمنوا انفروا في سبيل الله، فإن كان المراد: وما كان المؤمنون لينفروا للجهاد ولو دعاهم الرسول ص لزم أنه نسخ لوجوب طاعة الرسول ص وهذا خلاف المعلوم من الدين، وإن كان المراد: وما كان المؤمنون الذين لم يدعهم للخروج فلا نسخ؛ لأنهم في وقته ص على هذا التقدير لم يؤمروا بالنفر، لأنه إنما لا يأمرهم لأنه غير واجب عليهم، لأن ظروفهم لا تساعدهم لأنهم ضعفاء أو نحوهم.

ثم إن التعليل بقوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ لا يساعد على كون السياق في النفر للجهاد، بل هو قرينة أنه النفر لمجاورة الرسول ص ومن معه من الصادقين، ولتعلم حدود ما أنزل الله على رسوله ص فالمراد بقوله تعالى: ﴿لِيَنفِرُواْ﴾ أي إلى محل الفقه في الدين ومركز الصادقين، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ﴾ كالتعليل للإنذار.

فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿١٢٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا أمر بالقتال مطلق عام فبطل قول من زعم أنه منسوخ إلا على الكفاية، ومتى تحصل الكفاية لأن القتال مكروه للطباع، وعلى فرض: أنه فرض كفاية يتواكل الناس، ويبطل الجهاد بعد الكفاية، فالأولى أنه واجب عام، إلا أن تدبيره إلى الإمام لتحديد من يأمرهم بالنفر إما العموم وإما الخصوص.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ يدل على وجوب البدء بهم لأنهم أقرب إلى الضرر على المسلمين، وقد قيل في تفسير ﴿ٱلْكُفَّارِ﴾ الحكام الحاكمون بغير ما أنزل الله، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] وهذا واضح في المتعمدين للحكم بغير ما أنزل الله الذين يجعلون الدين تبعاً لسياستهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أمر بالشدة عليهم والعنف في قتالهم، بحيث يعلموا قسوتكم عليهم وبعدكم من الرحمة لهم. قال في (لسان العرب): ((الغلظة: ضد الرّقة في الخَلْق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك)) انتهى. والمراد الغلظة على الكفار الذين أمرنا بقتالهم، فلا يدل على قتل الأطفال، وبقر بطون الحوامل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تشجيع لهم على القتال؛ لأنه تعبير عن توليه لحسن رعايتهم فحيث يكون منها نصرهم ينصرهم، كقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

﴿١٢٤-١٢٥﴾ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ ﴿أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ أنزلَ الله سورة على رسوله ص فبلغها ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من المنافقين وإن لم يذكروا هنا فقد مر ذكرهم كثيراً في السورة ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ عبارة جدال في القرآن وفي كونه من الله وفي كونه معجزاً يجب الإيمان به والإيمان بالرسول وما جاء به من أجل القرآن الدال على صدق الرسول ص فالسورة التي هي معجزة، بدليل التحدي بها في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة:٢٣] لا بد أن تزيد المؤمنَ إيماناً لأنها معجزة كاملة جديدة توجب الإيمان وحدها فإذا نفوا زيادتها للإيمان فقد نفوا كونها تسبب الإيمان وهو نفي لإعجازها.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لما فيها من زيادة العلم لهم والهدى والشفاء ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شك وارتياب وكراهة للدين ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ لأنهم ازدادوا ضلالاً بنفي كونها معجزة وجدالهم فيها بقولهم: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا﴾ فلما كان ازديادهم رجساً وقع بسببها، قيل: زادتهم، وهم الذين ازدادوا رجساً، والرجس: قذر معاصيهم فهي نجاسة معنوية.

﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ بسبب تراكم أرجاسهم لم يوفقوا للتوبة، وقوله: ﴿وَمَاتُوا۟﴾ إما خاص بمن كان قد مات عند نزول هذه الآية، وإما عام للذين في قلوبهم مرض، وعبر بالماضي لموت بعضهم وتحققه من الباقين والمتحقق يعبر عنه بالماضي، مثل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف:٩٩] وهذا هو الصحيح لقوله تعالى:

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ

﴿١٢٦﴾ ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فلو كان الكلام فيمن قد مات لكان الأصل في التعبير أولم يروا أنهم كانوا يفتنون، والفتنة هاهنا: هي المصيبة يصابون بها، وهي تأديب وتعريض على التوبة في كل عام ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ لأن قلوبهم قد بعدت من التوبة وصارت لا ينفع فيها نافع ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فما وقع عليهم من المصائب لا يبعثهم على التذكر كما ترى كثيراً من أهل الزمان إذا وقع زلزال أو نحوه نسبوا ذلك إلى الأسباب الطبيعية ونسوا التذكر بها.

فهؤلاء المنافقون تتابعت لهم أسباب التوبة فلم تنفعهم، فالرسول ص عندهم يتلو القرآن وما فيه من المواعظ من الوعيد، وما فيه من زجرهم عن النفاق بكشف ما كشف من أسرارهم، وما فيه من التوبيخ لهم والذم لهم والأمر بالإعراض عنهم والمصائب التي تعرض لهم، ثم لا يتوبون بعد ذلك كله ولا هم يتذكرون.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ تفسير لقوله: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأنهم يفهمون من نظر بعضهم إلى بعض إرادتهم ترك الإستماع للسورة وإرادة التسلل من بين المؤمنين، فكأنهم يقولون عند التسلل: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي لا يراكم أحد فانصرفوا، فالإستفهام بمعنى: أن السامع يعلم أنه لا يراهم من أحد.

حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ بعد نظر بعضهم إلى بعض ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ دعاء عليهم يعبر عن غضب الله عليهم واستحقاقهم الخذلان الذي لأجله ينصرفون عن الهدى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الآيات والمواعظ والتحذير وغير ذلك لإعراضهم وكراهتهم للحق.

﴿١٢٨﴾ ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ خطاب للذين آمنوا ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾ أي شاق عليه، وفي كلام الإمام علي × لأخيه عقيل شعر:

يعزُّ عليَّ أن تُرى بي كآبة فيشمت عادٍ أو يساءَ حبيبُ

وقوله تعالى: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ ﴿مَا﴾ مصدرية و﴿عَنِتُّمْ﴾ بمعنى: أصابكم عنت وهو الضرر. قال في (لسان العرب): ((العنت: دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة)) انتهى.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ شديد الرغبة في المؤمنين وكثرتهم وبقائهم، لقوة رغبته في ظهور دين الله وانتشاره في الأرض ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو يشفق عليهم من كل مضرة، ويرفق بهم بقدر ما ينبغي، فهو رسول يحق اتباعه والكون معه والنصح له، ويقبح عمل المنافقين في إعراضهم عنه وتخلفهم عنه، وتثاقلهم عن طاعته، وتوليهم لأعدائه وما يصدر عنهم في شأنه.

﴿١٢٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن اتباعك يا رسول الله والإيمان بك ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ كافيَّ الله فهو معي وهو ينصرني ويظهر دينه بغيركم ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحتاج إلى غيره ولا ينصرني غيره.

﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في قيامي بأعباء الرسالة ودعوتي للناس وجهادي في سبيل الله وغير ذلك، وكلت أمري إليه وحده فما شاء قضاه لي وما قضاه لي رضيت به ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وهو الملك الذي لَه الملك العظيم، فله الأمر في كل شيء وعلى كل مخلوق ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٤٠] و﴿يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة:١] ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] فهو حسبي ونعم الوكيل.

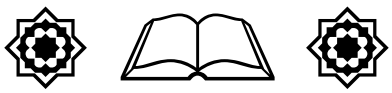

سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى

تفسير (سورة يونس)

ومواضيعها مواضيع السور المكية

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الحروف التي يتركب منها الكلام ﴿الٓر﴾ وسائرها، ومعنى أنها آيات القرآن أنه مؤلف منها ولذلك فائدتان:

الأولى: أن الله تعالى أوحاه إلى رسوله ص كلاماً ليس مجرد معناه فذكر الحروف لتحقيق أن الله أوحاه بكلماته وحروفه.

الفائدة الثانية: تعجيز العرب بهذا الكتاب الذي هو مؤلف من الحروف التي ينطقون بها فلو كانوا يستطيعون الإتيان بمثله لكان إتيانهم به أيسر من حيث أنه من جنس حروف كلامهم، فلما لم يأتوا بمثله تبين أنه كلام الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾وصف للكتاب بما يوصف به العالم الذي يدل على الصواب ويرشد إلى ما تقتضيه الحكمة؛ لأن هذا القرآن تستفاد منه الحكمة؛ لأنه ﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ولكن الكفار كذبوا به وكذبوا الرسول الذي جاءهم به، فقال تعالى:

﴿٢﴾ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ أي عجيباً، أو سبب عجب، والسؤال سؤال توبيخ لهم، ودلالة على أنه ليس عجباً؛ لأن هذا

الوحي تقتضيه الحكمة والرحمة وتستدعيه عظمة الله وعزته، فهو لم يخلق الناس عبثاً، فلا يهملهم وقبلهم الآخرة بما فيها من الجزاء العظيم، عذاب شديد تقتضي الحكمة إنذار الناس لئلا يقولوا في الآخرة: ﴿لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ [طه:١٣٤] ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وثواب عظيم يستدعي تبشير المؤمنين ليعملوا ويصبروا في السعي له على المكاره، حتى يفوزوا به فليس الوحي بهذا عجباً، وهذا الثواب بسبب أن لهم قدم صدق عند ربهم، فإذا بشرهم أن لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فهو يبشرهم بما يرغب فيه أهل الحب لله أعظم من رغبتهم فيما يترتب عليه من الجنة ونعيمها.

قال في (الكشاف) في تفسير ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ((أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة، فإن قلت: لم سميت السابقة قَدَماً؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً)) انتهى.

وأما الراغب فقال: ((وقوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي سابقة فضيلة، وهو اسم مصدر)) انتهى.

فجعل القدم نفس التقدم والزلفى والتفسير واحد، إلا أن صاحب (الكشاف) جعل القدم المعبر بها عن السعي عبارة عن المسبب الذي هو المنزلة الرفيعة.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا﴾ القرآن الذي أوحيناه ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا دليل على أن له مَزِيَّة على كلامهم تستدعي الإيمان به فجعلوه سحراً لذلك وكَذَبوا لو كان سحراً لغلب المعاند كالوليد وأبي جهل وأبي لهب ولأحس المسحور بسلب حرية الإختيار أن بقي لَه عقل أو فارق العقلاء كمن خبّله السحر وصار لأجله من المجانين؛ ولعنادهم وجرأتهم على

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ

الكذب قالوا سحر مبين، وأكدوا كذبهم بـ(إن) و(اللام) وادعوا أنه بيّن كونه سحراً لا يخفى فأضافوا كذباً إلى كذب ولم يكن ينبغي لهذا القرآن الذي هو خير لمن آمن به وإنذار وتبشير أن يقابلوه بالمحاربة له؛ لأنه الحق ولأن الناس في أشد الحاجة إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور وينقذهم من النار ويهديهم إلى السعادة الدائمة.

٣ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ هذا احتجاج على المشركين وبيان لبطلان الشرك ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ المالك لكم هو ﴿ٱللَّهُ﴾ فأنتم عباده وحده لا شريك له فيكم فكيف جعلتم له شركاء فيكم؟!

ثم قال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ فبين أن لَه الملكَ على كل شيء؛ لأن لَه الملك قبل كل المخلوقين فقد استحق الْمُلك ـ بضم الميم ـ وثَبَتَ له يوم خلق السموات والأرض.

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ يدل على قدرته العظيمة، وضلال الكافرين به الجاعلين له أنداداً، وهو الملك الحقيقي الذي معناه أن له أن يحكم ما يريد، وله الولاية المطلقة على كل شيء لأنه المالك لكل شيء؛ لأنه الخالق للسموات والأرض وما فيهما.

فترتيب استوائه على العرش على خلق السموات والأرض، يفيد: ثبوت الملك له الملك العظيم العام، وعلى سبق ملكه؛ لأنه خلق فملك فكان له

الْمُلك [بضم الميم] فتولى أمر ما خلق، وهو معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أما عطفه بـ(ثُم) فثم ليس للتراخي وإنما هو للدلالة على الترتيب مع تباين ما بين المعنيين الخلق والإستواء على العرش في علو الشأن أو لحكمة لا أعلمها.

وإذا كان لَه الْمُلك ـ بالضم ـ الملك المطلق، فله الحكم وحده ليس لأحد غيره، وهذا يثبت أن حكمه ببطلان الشرك هو الحق، وأن حكمه على عباده أن يعبدوه هو الحق فليس لمخلوق أن يشرع الشرك أو أن يتخذ لله شريكاً، وهذا نظير قول يوسف × : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠].

وبهذا ظهر ارتباط قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بسياق الآية الذي هو الدلالة على وجوب عبادة الله وحده وعلى بطلان الشرك بخلاف تفسير المخالفين له بمعنى مجهول فإنه لا يفيد في الإحتجاج على إبطال الشرك الذي كانوا عليه في الجزيرة العربية عند نزول القرآن.

أما قولهم: «الإستواء معلوم» فإنما أرادوا به: اللفظ معلوم، وله عندهم معنى مجهول وإن سموه معلوماً، فإنما ذلك بمعنى: أن الإستواء المجهول معناه الذي لا يسأل عنه هو معلوم عندهم، أي أنهم يعلمون استواء لا يفهمون معناه، وهذا يُصيِّر قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أجنبياً عن سياق الآية لإيجاب التوحيد وإبطال الشرك؛ لأنه لا معنى للإحتجاج بالمجهول جملة وتفصيلاً، وأبعد من ذلك تفسير المشبهة الذين يعترفون بالتشبيه بأنه مثل استواء الناس على سررهم أي اعتدالهم مع قعودهم عليه.

يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِي

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ يهيئ ويعد لمستقبل ما خلق على ما تقتضيه الحكمة مثل تقدير الأقوات في الأرض ليكون عاقبة ذلك انتفاع الإنسان وعيشه في الأرض فتدبير الأمر إعداده لعاقبةٍ تقتضيها الحكمة، والأمر: هو أمر ما خلق، وأمر استوائه على العرش الذي هو شأن تصرف الْمَلِك في مملكته فله الحكم وحده، وهو الذي ينبغي أن يُخشى ويُرجى ويُعبد ويُدعا ليدبر لعبده حياة طيبة في الدنيا والآخرة، وتدبيره تعالى للأمر يعترف به المشركون الذين كانوا حول الرسول ص كما يأتي ذكره في هذه السورة إن شاء الله.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ بالشفاعة لأن الملك لَه وحده لا يشاركه فيه أحد وكل من في السموات والأرض عباد له، فبطل بذلك قول المشركين: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ وحده لا شريك له في ربوبيته ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ إقراراً بأنكم عباده وأنه ربكم، وهذه عبادته وحده؛ لأنها هي التي يقبلها الله، أما مع الشرك فالعبادة لَه غير مقبولة فلا يعد صاحبها ممتثلاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه ربكم وأنكم عبيده لا شريك لَه فيكم، وأنه الذي خلق السموات والأرض ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ حتى تعبدوه وحده وترفضوا شركاءكم.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعًا﴾ ﴿إِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ يوم القيامة ﴿جَمِيعًا﴾ مجموعين في موقف العرض على الله.

جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ أي الوعد بالمرجع إليه وعده الله وعداً حقاً صادقاً لا يتخلف حقاً صواباً، ويحتمل ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ موعود الله أي المرجع إليه موعود الله حقاً ثابتاً لا يتخلف كما تقول: الموت حق، والعين حق، أي أنه أمر واقع فالوعد به صادق وإذا كان مرجعكم إليه وحده ما لكم من دونه من ولي ولا نصير فاتقوه واعبدوه وحده.

﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأنه على كل شيء قدير وقد علم الإبداء فدل على قدرته على الإعادة، فدل ذلك على صدق الوعد بالحياة الآخرة والمرجع إلى الله فيها.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل لأنهم أطاعوه فإعادتهم ليجزيهم بقدر ما يستحق كل واحد منهم مع أنه يزيدهم من فضله.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ الذين كفروا بالله إما لجحودهم وتكذيبهم بآيات الله الدالة على صدق وعده بالمرجع والجزاء، وإما لكفرهم بنعمة الله ففي هذه الثلاث الآيات ذكر الرسول والوحي إليه، ثم الدليل على أن التوحيد هو الحق، ثم ذكر الآخرة.

۝٥ ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ وهذه آية عظيمة تدل على قدرته ونعمة على العبيد تستدعي شكره عليها؛ لأنهم في ضياء الشمس يطلبون المعاش ولو استمر الليل لساءت حالتهم فجعْلُها ضياء هو من تدبير الأمر يحتج به على المشركين لإبطال الشرك ولإثبات صدق الوعد بالآخرة.

لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ يخفف ظلمة الليل لمن احتاج إلى ذلك لسفر أو غيره ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي قدر القمر ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ قدره صغيراً ثم يكبر ثم يصغر تبعاً لمنازله من البروج التي ينزل فيها فينزل في كل ليلة في منزلة حتى يتمها ويتم الشهر بتمامها ﴿لِتَعْلَمُوا۟﴾ بذلك ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي تعدادها بواسطة تعداد الشهور ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ ولتعلموا حساب الأوقات كالتاريخ الهجري والتاريخ الميلادي وغير ذلك.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لأنه مما تقتضيه الحكمة ويطابقها فليس عبثاً بل هو مخلوق لما يترتب عليه من الفوائد للإنسان وغيره ومن الثواب والعقاب في الآخرة.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على قدرة الله وأنه ربكم وحده، وأن مرجعكم إليه، والجملة حالية، كما أن قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال من قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ فهي الآيات الكونية أو ما يعمها وغيرها، وتفصيل الآيات جعل بعضها منفصلاً عن بعضها الآخر لتعدد الدلالات بتعدد الآيات وتفصيلها، وتتضح كل آية بفصلها عن غيرها، وتفصيلها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ من أجل أن يعلموا دلالاتها على الله وهم الذين من شأنهم أن يعلموا لسلامة قلوبهم من العمى المسبب عن التمرد والعناد.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ ﴿ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تخالفهما فكل واحد يخلف

الآخر ويخلفه الآخر على نظام محكم وتقدير مناسب للحيوان وغيره ففي ذلك دليل على الله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ لعل المراد به الشمس والقمر والنجوم أو أعم من ذلك لمن يطلع على الملائكة وعلى كل ما في السموات ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي وما خلق الله في الأرض من حيوان ونبات وجمادات وغيرها ﴿لَءَايَـٰتٍ﴾ إن في ذلك المذكور لآيات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ وخُص المتقون لأنهم هم الذين سلمت قلوبهم من توابع الخذلان المسبب عن التمرد والعناد، فهم يعرفون آيات الله ودلالتها على الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): ((والرجاءُ: ظنٌ يقتضي حصول ما فيه مسرة، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] قيل: ما لكم لا تخافون..)) الخ.

وهو في الآية يمكن بقاؤه على أصله؛ لأن الكلام في الذين لا يؤمنون بالآخرة فهم لا يرجون لقاء الله خيراً ولا شراً، ولعل فائدة ذكر الرجاء إفادة أنهم لا يظنون لقاء الله، وإفادة أنهم لا يظنونه خيراً لهم لعدم عملهم ما يسبب للظن، ولقاء الله: حضور موقف العرض على الله تعالى، والسؤال والحساب.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أحبوها ورضوا بها بدلاً من الآخرة؛ لأن الدنيا عاجلة والآخرة لا يؤمنون بها، وقوله ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟﴾ إليها سكنت نفوسهم إليها غفلة عن تقلبها بأهلها، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ﴾ أي غفلة الإعراض عنها والاشتغال بالدنيا فهم كالناسين لآيات الله الدالة على صدق رسله.

مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ

﴿٨﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ الذي يأوون إليه في الآخرة.

﴿ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي جزاء بما تكرر منهم في الدنيا من جرائمهم المذكورة في الآية التي قبل هذه وسائر جرائمهم فيعذبون جزاء بها كلها يضاعف لهم العذاب بقدرها.

﴿٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعد الله المؤمنين بعد وعيده للكافرين، وقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي بسبب إيمانهم أو هي (باء) الآلة مثلها في كتبت بالقلم فالإيمان سبب للهدى كما قد يكون الكفر سبباً للخذلان، والهدى للأعمال الصالحات بتعليمها وتحبيبها وتيسيرها.

وقيل: الهدى بمعنى الثواب بالجنة، وإذا كانت (الباء) سببيةً فيمكن دلالتها على الثواب بالهدى للأعمال الصالحات كما أن الخذلان يكون عقوبة عاجلة فيكون الهدى ثواباً عاجلاً، فأما جعل مفهوم الهدى هو الثواب فيحتاج إلى دليل غير هذه الآية؛ لأن احتمالها لما ذكرت يمنع الإستدلال بها على جعل مفهوم الهدى هو الثواب.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ على ما رجحت من تفسير (الهدى) أما على قول من جعل معنى ﴿يَهْدِيهِمْ﴾ يثيبهم فهو خبر ﴿إِنَّ﴾ وقوله: ﴿تَجْرِى..﴾ إلى آخرها إما خبر ثان وإما حال من الخبر.

دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ

﴿١٠﴾ ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا﴾ كلامهم الذي ألفوه واعتادوه في الجنة ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ دعاؤهم لله التسبيح ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أي يا الله سبحانك أي نسبحك وذلك لرغبتهم في الدعاء والذكر لله، كما قال تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ..﴾ الآية [الحج:٢٤] ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنة ﴿سَلَمٌ﴾ وهي التحية المباركة الطيبة والتحية كلمة تقال عند اللقاء. قال في (الصحاح): ((والمحيَّى: الوجه)) انتهى.

ولكونها كلمة طيبة تقال عند اللقاء سمى الضرب عند اللقاء تحية على المشاكلة؛ لأنه وضع موضع التحية في قول الشاعر:

تحيّة بينهم ضرب وجيع

وجاء في المنافقين: تحيتهم لعنة؛ لأنهم يجعلونها إذا تلاقوا مكان التحية فتقوم مقامها في إدخال السرور على المنافق.

﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ رغبة منهم في حمد الله الحميد لكثرة ما هم فيه من النعيم الذي يبعثهم على الحمد لله على ربوبيته للعالمين يختمون بها دعاءهم والحمد لله رب العالمين هنا مثله في آخر (سورة الزمر) ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [آية:٧٥] فهو حمد على قضائه في الآخرة والأولى في العالمين.

﴿١١﴾ ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡ﴾ ﴿وَلَوۡ﴾ (الواو) عاطفة على ماسبق ذكره من كفر الكفار واستبعادهم الوحي

قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن

إلى رجل من الناس فقد احتج عليهم وأنذرهم وهنا يشير إلى أنهم يستحقون تعجيل العذاب وهم يستعجلون الخير مع كفر أكثرهم لأنعم الله، فالمعنى: ولو يعجل الله للناس ما يستحقونه كاستعجالهم بخير الدنيا ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لمضى وانقضى أجلهم بالهلاك السريع، ولكن اقتضت حكمته إمهالهم.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وقد مر تفسيره ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ﴾ في تجاوزهم الحد من الكفر وكفر نعم الله نتركهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون عمي القلوب في حيرة لا يهتدون سبيلاً.

قال الراغب: ((العمه: التردد في الأمر من التحيّر)) انتهى.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱلضُّرُّ﴾ كالمرض ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي على جنبه ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي على أي حالة كان عليها حين مسه الضر، أي دعانا لكشف الضر عنه ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ مضى في سعيه لما يهوى غير ذاكر لنعمة الله عليه بكشف الضر ولا شاكر ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ لأنه استغنى ونسي افتقاره إلى الله حين كان يدعوه لكشف ضره فلم يعتبر بذلك بل أصر على إعراضه وتمرده.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ما استمروا عليه وتكرر منهم من العمل السيء كذلك كتركه في إعراضه ونسيانه شكر النعمة زين للمسرفين المتجاوزين للحد في كفر النعمة ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يتركونه لما يعرض لهم من التأديب.

قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا

﴿١٣﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ﴾ ﴿أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ﴾ مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود؛ لما اجتمع فيهم ثلاث خصال:

الأولى: أنهم ﴿ظَلَمُواْ﴾ بالشرك مثلاً والتكذيب بآيات الله وتكذيب الرسل.

الثانية: أنها جاءتهم الرسل القاطعة للعلة ببيان الحق وإقامة الحجة عليهم.

الثالثة: أنهم ما كانوا ليؤمنوا لو لم يهلكوا في بقية أعمارهم لإصرارهم وعنادهم وبعدهم عن الهدى فما صح ولا استقام أن يؤمنوا.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي كذلك العذاب الذي عذبنا به القرون الماضية جزاء لظلمهم وإجرامهم ﴿نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ﴾ الذين أجمعوا على الإجرام أو فشى فيهم ولم يقبلوا نصيحة الرسل وما كانوا ليؤمنوا، فهي سنة الله في الأولين والآخرين أن يهلكهم أو يعذبهم عذاباً شديداً.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ تخلفون القرون الماضية ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تتمتعون فيها ﴿لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ أي لنختبركم في الأرض وفي خلافتكم للقرون الماضية نختبركم كيف تعملون أتعملون صالحاً أم سيّئاً أي إنكم في مقام التكليف الذي يقع فيه الإحسان الذي هو سبب الثواب أو الإساءة التي هي سبب العقاب فأشبهت حالتكم حالة الابتلاء والاختبار، والله لا يخفى عليه ما سيكون منهم.

يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

﴿١٥﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هذا في الخلائف المكذبين الذين كانوا في وقت رسول الله ص إذا تتلى عليهم آيات الله حال كونها ﴿بَيِّنَـٰتٍ﴾ واضحات تدل على أن القرآن من الله دلالة بينة، قال الجاهلون أو الغافلون الذين لا يتوقعون لقاء الله في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة : ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ﴾ القرآن ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ كفراً منهم بكونه كلام الله وزعماً أنه من كلام الرسول ص وأرادوا أن يأتي بقرآن لا ينهى عن الشرك ولا ينكره، بل يقرهم عليه أو يتغافل عنه، والإتيان بقرآن غير هذا إتيان بقرآن آخر مع بقاء هذا القرآن منسياً، والتبديل: نسخه والرجوع عما فيه وكل ذلك تبديل؛ لأنهم أرادوا ترك هذا القرآن على كلا المعنيين والإتيان مكانه بقرآن آخر فردّ الله عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِىٓ﴾ كما طلبتم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ يوحيه ربي ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة الذي لا ترجونه فلا بد لي من اتباع ما يوحى إليّ فما صح ولا استقام مني ما طلبتم مع إيماني بالآخرة وخوفي عذاب يوم عظيم إن أطعتكم، وفي هذا دلالة على أن المعصية سبب للعذاب في الآخرة وإن لم تكن من مشرك.

﴿١٦﴾ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا أتلوه عليكم

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ لأنه لو شاء لم يوجه إليّ أو لم يأمرني بتلاوته عليكم لكنه شاء أن أتلوه عليكم فتلوته عليكم بأمره ليس ذلك من تلقاء نفسي وكذلك لو شاء الله ما ﴿أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ لكن قضت حكمته إبلاغكم الحجة وعرض الهدى عليكم.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ بقيت ﴿فِيكُمْ عُمُرًا﴾ نحو أربعين سنة من قبل نزول القرآن عليَّ ومُضى الشباب الذي هو وقت الطموح في مدة طويلة لو كان من شأني الإفتراء على الله لكان العمر الماضي وقتاً لَه واسعاً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتنظروا بعقولكم نظر إنصاف وتعرّف للحق وتتركوا الإعراض والمسارعة إلى التكذيب بآيات الله قبل النظر فيما جئتكم به من الآيات نظر إنصاف وطلب للحق.

﴿١٧﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ بعد قيام الحجة بهذا القرآن ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ واختلق ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ إما أنا لو بدلت هذا القرآن بكلام مني وإما أنتم فيما تدعون على الله الرضى بدينكم من الشرك وتحريم ما أحل الله، وإما أي مكلف بلغه القرآن، فلا أظْلَمَ ممن افترى على الله كذباً ﴿أَوْ كَذَّبَ﴾ بآيات الله وهي بينات واضحات الدلالة على أنها من الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ﴾ لا يظفر بالخير ولا يفوز به ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لأن الله غالب على أمره وهو على كل شيء شهيد، فكيف يترك المجرمين ينالون الخير بإجرامهم دون أن يفضحهم ويخيِّب آمالهم.

يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ

﴿١٨﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ فيعبدوه خوفاً ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فيعبدوه رغبة في نفعه لهم ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين يعبدونهم ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لمكانتهم عند الله فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله بزعمهم لئلا يعذبهم أولا يمنعهم الخير بسبب ذنوبهم، وهذا دعوى لا حجة له لا حجة لكونهم شفعاء ولا حجة لكون عبادتهم سبباً لشفاعتهم.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ سؤال توبيخ على قولهم هذا، فالله علام الغيوب الذي ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ:٣] لا يعلم لَه شريكاً ولا شفيعاً كما يدعون، ولا يعلم هؤلاء الذين يعبدونهم إلا عباداً أمثالهم لا مشاركة لهم في ملك ولا مُلك ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ عما يشركون تنزه عن أن يكونوا له أنداداً أو شركاء أو أكفاء ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ علو القهر وعلو العظمة وهذا التسبيح والتنزيه راجع إلى أول الآية ليس من مقول القول.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ جماعة مجتمعين على دين واحد هو توحيد الله ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ من بعد ذلك، فليس الشرك إلا محدثاً

مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي

أحدثه المخالفون للدين الأصلي الذي كانوا مجتمعين عليه ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بحكمته ـ جل وعلا ـ أن لا يمهل المخالف للحق إلى حين تقتضي الحكمة إهلاكه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:١٤] أو أن تكون هذه الدار دار ابتلاء واختبار والآخرة دار الجزاء ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين الناس حين اختلفوا لقضي بينهم: أي حكم وفصل ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ كله بنصر المحق وإهلاك المبطل حتى ينتفي الخلاف أو بإنهاء الخلاف بالقسر والإلجاء، وقوله تعالى: ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يعم كل ما فيه يختلفون من التوحيد وغيره.

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿عَلَيۡهِ﴾ أي على رسول الله ص ﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تدل على صدقه، فقد كذبوا بالقرآن وبسائر آيات الله ﴿فَقُلۡ﴾ لهم في مقابل كفرهم بآيات الله ﴿إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يعلم ما يحكم به بيني وبينكم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ حكمه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ وهذا لأنه قد جاءهم بالبينة الواضحة فكذبوا بها، كما مر من قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٞ﴾ فالجواب في هذه الآية إنما هو عن تكذيبهم بآيات الله التكذيب الذي عبروا عنه بقولهم: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ﴾ الرحمة بعد الضراء يكون لها وقع في النفس فتُسَرُّ بها النفوس وتكون نعمة ينتبه لها الغافل فمن

ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا

حقها أن يشكرها الإنسان، لكن الناس على خلاف الشكر يسارعون إلى المكر في آيات الله، والعمل لإبطالها في حين النعمة عليهم، وهذا أمر مفاجئ بالنسبة إلى المخلوق أن تحسن إلى الإنسان فيسارع إلى الإساءة إليك مع أنه لم يسبق منك إلا الإحسان.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًا﴾ لأنه قد جعل الملائكة الحفظة يكتبون ما يمكرون ليروه يوم القيامة فيكون حسرة عليهم وسبباً لعذاب النار، فسرعةُ مكره إرسالُ الملائكة ليكتبوا ما سيقوله الكافرون قبل أن يمكروا، وسمي مكراً لغفلة الكفار عنه، وكونه تقدمة لكتابة مكرهم التي تترتب عليها ندامتهم يوم الحساب، ومن مكره بالحق خذلانهم فهو عقوبة عاجلة.

٢٢ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ بما جعل لكم من قوة السير وما يسَّر لكم من الدواب ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَ﴾ الفلك في ﴿ٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ﴾ غاية لتسييره لكم وجرين أي الفلك، وهي: السفائن ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ أي بالراكبين فيها أي ببعضهم، وفيه التفات من فوائده: أن القصة خاصة ببعض الكائنين في الفلك فلم يحسن الإستمرار في الخطاب العام.

ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ

وقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فهي التي كانت تسوق السفينة في البحر فتجري براكبيها ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ سرتهم وأمنوا أن يغرقوا ﴿جَآءَتۡهَا﴾ أي جاءت الفلك ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة تحمل الماء وترفعه حتى يكون فوقها كالظلل وإذا نزل فيها أثقلها وغرقوا لا محالة.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ موج البحر ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي من الجهات كلها أي جهات الفلك ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي ظنوا أنهم صاروا في مهلكة لا مخلص لهم منها ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ قائلين في دعائهم لطلب النجاة ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا﴾ يا الله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ﴾ عبادك ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وهذا أبلغ مما لو قالوا: (لنشكرن) لأن الشاكرين وصف لمن شكروا وثبتوا على شكرهم والكون منهم يشعر بأن يكون الشاكر ثابتاً على شكره مثلهم من حيث أن من لم يثبت على الشكر وبدله بالكفر يخرج من اسم الشاكر.

﴿٢٣﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ نكثوا العهد بسرعة فاعتبر النكث مفاجئاً، وقوله: ﴿يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يفيد: انتشار بغيهم أو أن من شأنه أن ينتشر في الأرض ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بل هو ظلم وفساد في الأرض وكفر نعمة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إنما تبغون على أنفسكم حين تبغون على عباد الله، فقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبر ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ برفع ﴿مَّتَٰعُ﴾ خبر بعد خبر، وبنصب متاع حال، ومعنى كونه متاع الحياة الدنيا: أنه قليل يفنى وحسابه في الآخرة حيث الجزاء الدائم.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾ في الآخرة ترجعون إلى الله وحده ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ننبئكم: نخبركم، لأنه لم يخفَ علينا شيء من عملكم ولم ننس منه شيئاً ولم نهمله فهناك الحساب والجزاء الأوفى، فأي فائدة للباغي في بغيه مع أن يوم المظلوم على الظالم شر من يوم الظالم على المظلوم؛ لأن عذاب الباغي دائم وبغيه متاع قليل.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ هذه الآية الكريمة تبين قصر مدة متاع الحياة الدنيا واغترار الناس بها مع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ﴾ التشبيه ليس بالماء وحده وإنما هو بجملة ما أفادته قصة إنزال السماء وما ترتب عليه من ظهور النبات ونموّه وإثماره وذهابه حين ظن أهله أنهم قادرون عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي نبتت الأنواع المختلفة بسبب المطر واختلطت بسبب اختلاط أصولها أو بذورها وهذه عادة الأرض بعد أن تحيى بالمطر تنبت نباتات مختلطة فهو يشير إلى قوة ريّها، وقوله: ﴿مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ كالفجل، والبصل، والثوم، والكراث، والجرجير،

وكذلك ثمار الشجر الأخرى لأنها من النبات، قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا * وَعِنَبٗا..﴾ [عبس:٢٧-٢٨] وما تأكل ﴿ٱلۡأَنَعۡمُ﴾ ظاهر؛ ولحصول المأكولَين يرغب الناس فيهما.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ جمالها عند اخضرار الشجر وتفتح الزهر ويناع الثمر ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ يشير إلى تكامل النبات وظهور ما تقوى فيه رغبة الناس من الثمر اليانع الذي تزينه ألوان ينعه المختلفة الدالة على ينعه، فكأن الأرض بإنتاجه امرأة أخذت زينتها ولبستها ليرغب فيها من يراها، فقوله: ﴿أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ استعارة مكنية، قرينتها قوله: ﴿أَخَذَتِ﴾ وقوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ يدل على المقصود بأخذ الزينة الذي هو التزين لمن يرى.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ لأنها في تلك الحال تحت تصرفهم ولا يعلمون ما في الغيب.

ويعجبني قول سيد قطب في تفسيره لهذه الآية من حيث نبه على بقية المعنى، فقال: ((ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها حين يرضون بها ويقفون عندها ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى، هذا هو الماء ينزل من السماء وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر وها هي ذي الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج وأهلها مزهوون بها يظنون أنها بجهدهم ازدهرت وبإرادتهم تزينت وأنهم أصحاب الأمر فيها لا يغيرها عليهم مغيّر ولا ينازعهم فيها منازع، وفي وسط هذا الخصب الممرع وفي نشوة هذا الفرح الملعلع وفي غمرة هذا الإطمئنان الواثق ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾)) انتهى.

وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ

﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ كأن لم تكن باقية بالأمس.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التفصيل الذي بيّن صفة الدنيا وسرعة زوالها واغترار الناس بها ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ نبين الآيات بيان تفصيل ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ليؤديهم التفكر إلى معرفة ما به يهتدون.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

﴿دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ الجنة لسلامة أهلها من النار ومن كل شر فهو يدعو إليها ويبين لعباده طريقها، فمن أجاب داعي الله تسبب للهدى إلى صراط مستقيم، وقوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ دليل لمن أراد الهدى أنه من الله ليستهديه ويسبب لهداه بتقواه، فقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

﴿٢٦﴾ ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌ﴾

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ آمنوا وعملوا الصالحات لهم ثواباً عليها ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي الحسنة الزائدة في حسنها أو المثوبة الحسنى ﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وهي تفضل من الله، كقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر:٣٠] ويحتمل أن الحسنى حسنة واحدة، والزيادة تسع حسنات معها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠] والأول أظهر.

ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ

﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٞ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والقتر: سواد يعتري الوجه عند حزنٍ شديدٍ، وأصل القتر الغبار قال الشاعر:

متوّج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والكدرا))

انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ذِلَّةٞ﴾ أي لا هوان وانكسار كما يكون لأعداء الله فالذين أحسنوا لا يغشاهم قترٌ ولا ذلة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي الجنة الحسنى والزيادة فكأن هذا تفسير لأول الآية، وهنا فائدة الدلالة على أنهم فيها لا يموتون فالنعيم دائم والملك الكبير لا يذهب.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي وللذين كسبوا السيئات ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ بمثلها أي ما يقتضيه العدل وهو أن يكون عذابه في شدته على قدر سيئته وليس معنى ذلك أنه ينتهي؛ لأنه لو كان المعنى: أن مدته في النار على قدر سيئته، لكان المشرك والمكذب بآيات الله وكل صاحب جريمة لا يبقون دائماً في النار.

فإن *قيل*: إن المشرك ونحوه ذنبه عظيم لا يقاس به غيره؟

قلنا: صحيح أنه عظيم، ولكن لا دخل له في الخلود إذا كان معنى المماثلة في مدة البقاء، وكانت مدة غير الشرك تنتهي.

فإن قيل: بل قبح الشرك يقتضي الخلود؟

قلنا: إن الخلود لا نهاية لَه وشرك المشرك منتهٍ؛ لأنه كان في أثناء الحياة الدنيا فتعذيب المشرك أطول من مدة الشرك.

فإن قيل: إن العذاب على قدر القبح لا على قدر مدة المعصية؟

قلنا: فإذا جاز أن يكون قبح الشرك يقتضي الخلود جاز في غيره أن يكون قبحه يقتضي الخلود، وإنما تختلف مراتب العقاب باختلاف مقادير شدته ومسألة الخلود لا مجال للعقل فيها وإنما تظهر الحقائق يوم القيامة ووعد الله حق؛ لأنه أحكم الحاكمين وأصدق القائلين.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ والعاصم المنجي ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود:٤٣] فلا ينجيهم من الله شيء لا صنم، ولا مَلَك، ولا عيسى، ولا عزير، ولا نبي ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ لشدة حزنهم وهول الموقف عليهم اسودت وجوههم، حتى كأنها أغشيت ظلم الليل في حال خلوه عن النور فلا قمر ولا غيره مما يخفف ظلمة الليل، وذلك يكون في ليلة كَفَر النجومَ غمامُها، وفي الآية تنبيه عجيب لتضمنه استعارة مكنية وتقييد الليل بالإظلام.

قال سيد قطب في (تفسيره): ((ثم يرسم السياق صورة حسّية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعاً غشيت بها هذه الوجوه، وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته تبدو فيه هذه الوجوه ملفّعة بأغشية من هذا الليل البهيم)) انتهى.

أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

وقوله: ((ورهبة من رهبته)) صواب العبارة: أن من محاسن هذا التشبيه وهذه الاستعارة اختيار سواد الليل لاشتماله على الوحشة والخوف، والله أعلم.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ أهل الصفة المذكورة ويحتمل أن الإشارة إلى المذكورين باعتبار القترة والسواد المذكور وكذلك الإشارة إلى الذين أحسنوا باعتبار أن وجوههم لا يرهقها قتر ولا ذلة، فيكون السياق هنا كالسياق في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ..﴾ الآية [آل عمران:١٠٦-١٠٧] في إفادة: أن اللون يوم القيامة إما دليل الخلود في الجنة، وإما دليل الخلود في النار.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ ﴿نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات جميعاً مجتمعين في موقف السؤال ﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف ولعل العامل فيه ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ..﴾ الآية ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم وقفوا لا تبرحوا حتى تسألوا أنتم وشركاؤكم.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ (زيلنا) فرقنا بينهم بسؤالهم في ذلك الموقف الرهيب التفريق متعدد فتفريق بينهم وبين شركائهم، وتفريق بين الأخلاء الذين كانوا متحابين على الشرك، وتفريق بين التابعين والمتبوعين، انقطعت العلاقات وانقلبت إلى عداوات وذلك لهول الموقف.

لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مَّا كُنتُمْ﴾ تخصوننا بالعبادة لأنكم كنتم تعبدون الجن بها وهم الذين كانوا يأمرونكم بعبادتنا ويزعمون لكم أن عبادتنا حق وصواب، فالمسؤولية عليكم وعليهم، فنفى التخصيص بالعبادة تقدمة للتهرب من المسؤولية بدعوى أن عبادتهم كانت عبادة لغيرهم فلا تتعين المسؤولية على هؤلاء الشركاء، وهذه الآية تشبه آية (سورة سبأ) فتفسيرهما سواء وإذا لم تكونوا تخصوننا بالعبادة:

﴿٢٩﴾ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ فالمسؤول غيرنا ونحن براء؛ لأنا لم نعلم بعبادتكم فلا أمرنا ولا رضينا فنحن نبرأ من عبادتكم لنا وهذا تمام التنصل والتخلص من مسؤولية شركائهم.

﴿٣٠﴾ ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ في مكان السؤال والحساب يوم القيامة ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ تختبر ما أسلفت من حسن أو سيء بمشاهدتها لجزائه وتعرف خُبْر عملها الذي أسلفت أي أمضته في الدنيا ﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ أي المحشورون كلهم ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليحكم فيهم ما يريد ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ مالكهم الحق لا شركاء المشركين ولا قادة المتبوعين ﴿وَضَلَّ﴾ ضاع ﴿عَنْهُم﴾ هنالك ﴿مَّا كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يَفْتَرُونَ﴾ من الدعاوي والمبررات الباطلة والأماني الكاذبات الخادعة فلا شركاء ولا شفعاء ولا عاصم من أمر الله.

ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مَن ينزل لكم المطر من السماء، ومن ينبت لكم الثمرات من الأرض وما تأكلون وتأكل أنعامكم.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ يجعلها لمن يشاء ويفقدها من يشاء فلا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالشجر من الحب والنوى ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ كالمولود الميت في بطن أمه ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أمر المخلوقات فيجعلها مؤدية لما يؤول إليه أمرها كتدبير أمر المطر بجعله مؤدياً إلى ري الحيوان والنبات وتدبير النبات لإنتاج الثمر وتدبير الثمر لتغذية الإنسان وغيره وكذلك التدبير للخصب وللجدب وللصحة وللسُقم وللغنى وللفقر وللحياة وللموت بتهيئة الأسباب والشروط ونحوها وغير ذلك.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ الذي يرزقنا وهو الذي يملك السمع والأبصار وهو الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي وهو الذي يدبر الأمر.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله بترك الشرك وبعبادة الله وحده وقد عرفتم أنه الذي يرزقكم من السماء والأرض إلى آخر ما ذكر.

﴿٣٢﴾ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ ذلكم الذي له الصفات المذكورة ﴿رَبُّكُمُ﴾ ما لككم الحق، لا ما تعبدون من دونه فما يملكون من قطمير، فلا ربوبية لهم.

يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ

﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ لأن ما بعد الحق خلاف الحق فهو باطل، واتباعه ضلال وغواية ﴿فَأَنَّىٰ﴾ فمن أين ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ عن الحق الذي تقضي به فطرة العقول إلى الباطل الذي ليس عليه دليل.

﴿٣٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿حَقَّتۡ﴾ صدقت وكانت صواباً كما حقت على المشركين المذكورين الذين قامت عليهم الحجة الواضحة في الآيات الماضية فلم يؤمنوا؛ لأنه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون و﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إخباره أنهم لا يؤمنون في حال فسقهم للتنافي بين الفسق والإيمان فظلمة الفسق على قلوبهم تمنع دخول نور الإيمان، وذلك الفسق هو تعمد الفجور والخبث والتمرد والعناد، لا الفسق العرفي الذي هو المنزلة بين المنزلتين إذا لم يكن معه عناد للحق ومحاربة للدين.

وعلى قراءة ﴿كَلِمَات﴾ يكون المراد بها الكلمات المتعددة في القرآن المفيدة لمعنى هذه الكلمة مثل ما مرّ في أوائل (سورة البقرة) وفي (سورة الأنعام) ومثل ما في (سورة يس) و(المطففين) ومثل ما يأتي في هذه السورة وغير ذلك.

﴿٣٤﴾ ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ ﴿مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ من يخلقه أول مرة ابتداء ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾ يخلقه تارة أخرى بعد إفنائه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ﴾ أي الله وحده يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن

إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ

سواه عاجز عن ذلك ﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ فمن أين تقلبون عن فطرة العقول بإشراك من لا يخلق وجعله نِدّا للخالق.

﴿٣٥﴾ ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ وهذا احتجاج على المشركين بأن ليس في شركائهم من يهدي للحق؛ لأنها لا تكلمهم وهي جمادات لا تسمع ولا تبصر، أما الله سبحانه وتعالى فإنه ﴿يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ بجعل العقول في القلوب وإرسال الرسل وإنزال الكتب وما جعل من الآيات الكونية والآيات المسموعة.

﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ فهذه قضية تعرفها فطرة العقل أن من يهدي إلى الحق أحق أن يتبع لوجوب التوصل إلى الحق واجتناب الباطل، أما الأصنام التي لا تهتدي فضلاً عن أن تهدي فلا يفيد اتباعها والإقبال عليها والتعبد لها شيئاً من الحق، بل هي سبب للضلال، فما لكم أيها المشركون تركتم حكم فطرة العقول وانصرفتم إلى الباطل، وهذا توبيخ لهم خاطبهم الله به، ثم التفت الكلام عن خطابهم إلى خطاب غيرهم لتمام الإحتجاج عليهم وعدم جدواه فيهم:

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ﴾ أكثر المشركين ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ فهم لا يعلمون أنهم

ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

على حق وإنما يظن أكثرهم أنهم على حق لوسواس يؤدي إلى الظن مثل ما عبروا عنه بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] ومثل حسن ظنهم بأسلافهم واستبعادهم أن يتعمد أسلافهم الباطل ولكن ذلك لا يقاوم الدليل القاطع الدال على بطلان الشرك ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى﴾ أي لا يكفي شيئاً ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يدفع شيئاً من الحق، وهذا يدل على أن اتباع المعلوم هو الحق، وأن لا يعدل عن اتباعه إلى الروايات التي لا يعلم أن النبي ص قال ما روي عنه فيها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يبين أن الله تعالى أخبر أن أكثرهم إنما يتبعون الظن؛ لأنه عليم بما يفعلون فهو يعلم أنه اتباعٌ للظن أو على أي وجه وقع، وقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ لعله يُخرج المقلدين المهملين للنظر بالكلية وإنما يقلدون لمجرد الهوى في اتباع آبائهم.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الذي تسمعونه خارقاً للعادة في حكمته وإحكام بيانه، قال (صاحب الكشاف): ((ومعنى وما كان أن يُفترَى، وما صح وما استقام أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى)) انتهى.

يعني: أن هذا النفي مثله في ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [التوبة:٧٠] ونحوها مما فيه نفي الكون و(لام الجحود).

وعبارة (سيد قطب) في تفسير هذه الآية: ((فهو ـ أي هذا القرآن ـ بخصائصه الموضوعية والتعبيرية بهذا الكمال في تناسقه، بهذا الكمال في العقيدة

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ

التي جاء بها، وفي النظام الإنساني الذي يتضمن قواعده، وبهذا الكمال في تصوير حقيقة الألوهية وفي تصوير طبيعة البشر وطبيعة الحياة وطبيعة الكون لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله؛ لأن قدرة واحدة هي التي تملك الإتيان به هي قدرة الله القدرة التي تحيط بالأوائل والأواخر وبالظواهر والسرائر وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص ومن آثار الجهل والعجز.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما كان من شأنه أصلاً أن يفترى، فليس المنفيُّ هو الإفتراء، ولكن جواز وجوده هو المنفي وهو أبلغ في النفي وأبعد)) انتهى.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب وهو التوراة والإنجيل، أي ولكن كان هذا القرآن تفصيل الذي بين يديه، وكان هذا القرآن ﴿تَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي الفرض والإيجاب على عباد الله بما فيه من الأوامر وسائر أدلة الإيجاب، مثل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة:١٧٨] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦] ففي القرآن تفصيل بيّن ويحتمل شمول الكتاب لأمر الله ونهيه؛ لأن النهي يوجب الترك.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿لَا رَيْبَ﴾ في القرآن؛ لأنه الحق الواضح بالحجة المفيدة للعلم اليقين، وهذا القرآن ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم فهو يدعو عباده إلى دار السلام ويأمرهم وينهاهم؛ لأن له الحكمَ في عباده وعليهم أن يعبدوه كما علمهم.

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ بل أيقول المشركون افترى محمد هذا القرآن تمرداً منهم وعناداً ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ إن افتراه كما زعمتم ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في الحكمة وعظم الفائدة وإتقان البيان.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ليعينكم على الإتيان بسورة مثله فادعوا من استطعتم أن تدعوه لذلك ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأنكم قد زعمتم أنه من قول البشر حين قلتم افتراه محمد، فإذا كان من قول البشر فإنه لا بد أن تستطيعوا أن تأتوا بسورة مثله إن كان من قول البشر وكنتم صادقين في زعمكم أنه افتراه.

وقد بسط (قطب) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ بسط في ذكر ما يمتاز به القرآن بقدر مستطاع (سيد قطب) فليراجعه من أراد التوسع.

وذكر (الطباطبائي) في تفسير هذه الآية كلاماً مفيداً، وحاصله: أن التحدي في هذه الآية وأمثالها بما في القرآن من العلوم النافعة المهمة والمتنوعة الواسعة التي يعجز البشر عن الإتيان بها ومع ذلك وقوعه في أعلى درجات البلاغة، وهو كلام مفيد فليرجع إليه من أراد التفصيل في هذا المعنى.

وقد جمع تلك المعاني قول الله تعالى ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢] فليطالع لفهم هذه المعاني ما في تفسير (قطب) وما في تفسير (الطباطبائي) وقد جادا بكثير مما يتطلبه العصر الحاضر في تفسيرَيهما.

والتعجيز في هذه الآية وفي غيرها من القرآن يكشف بطلان زعمهم أنه افتراه؛ لأنهم لم يأتوا بسورة واحدة مثله مع شدة حرصهم على إبطاله ومع أنه بلسانهم العربي المبين جاءهم به رجل نشأ بينهم فلُغَته لغتهم ولو أطاق

﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ

اختلاقه لأطاقوا مثله، ومع أن التحدي بسورة منه مستمر في حياة الرسول ص من حين جاءهم بالقرآن، وذلك نحو ثلاث وعشرين سنة وبعده فلم يأتوا بمثله، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:٢٤].

﴿٣٩﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ استعجالاً منهم على رده وحرصاً على دفعه فكذبوا بأنه من الله، ولعلهم لو أحاطوا بعلمه على الكمال لعلموا أن قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ كلام في غير محله؛ لأنه كتاب فيه العلوم الواسعة والحكم البالغة والبيان الواضح المحكم، ومع ذلك فهو عزيزٌ لا مدخل فيه لطاعن، وسليمٌ من الإختلاف والتدافع والتفاوت الذي يكون في كلام البشر بسبب اختلاف حالتهم من قوة وضعف ونشاط وملل وانتباه وغفلة وانبساط وانقباض، كما قدمت في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

فقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ وهم يعلمون أنه رجل نشأ في بلد لا علم فيه ولا دراسة للكتب، وهو لا يقرأ كتاباً، ولا يخطه بيمينه، جهالة منهم وخبط عشواء.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ لما يأتيهم تأويله وهو مصداقه الذي يطابقه؛ لأنه عاقبة خبره عما سيكون ومآله فحين يأتيهم يؤمنون حين لا ينفعهم إيمانهم.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم كذبوا بآيات الله؛ لأنهم لم يحيطوا بها علماً؛ ولأنهم لما يأتهم تأويلها ولذلك أهلكهم الله.

مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمد أما هؤلاء المكذبون فإنهم لا يريدون أن ينظروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين سارعوا إلى التكذيب بآيات الله من دون أن يحيطوا بها علماً عجلة بالسيئة قبل الحسنة واتباعاً لأهوائهم، وأصروا على التكذيب فما كانوا ليؤمنوا حتى يأتيهم تأويلها، فأخذهم الله ولعذاب الآخرة أشد وأخزى.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ ﴿وَمِنۡهُم﴾ ومن المكذبين اليوم ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ بعد اليوم، فقوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ سؤال وليس يعم الذين لم يؤمنوا ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أبداً في دار الخيار؛ لأنهم مفسدون محاربون للدين، فاستحقوا الخذلان.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ فهو يجازيهم بكفرهم وإفسادهم وكل جرائمهم، فالكفار في أول تبليغ الرسالة كانوا فريقين فريقاً: كذبوا وهم أتباع للمفسدين مضلل عليهم، وفريقاً: كذبوا وحاربوا الرسالة بالصد عن الإيمان وإلقاء الشبهات وتعذيب بعض من آمن ونحو ذلك، فهؤلاء المفسدون مخذولون لا يؤمنون، وفائدة الإخبار بأن منهم من سيؤمن تهوين الأمر على الرسول ص لقوة رغبته في إيمان الناس وقلة من آمن به في أول الرسالة أو ذلك من فائدة الإخبار بالفريقين.

﴿٤١﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ بعد إيمانهم فتبرأ من عملهم كقوله تعالى

تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ

في (سورة الشعراء): ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [٢١٥-٢١٧] ففي إعلان البراءة والمفاصلة إظهار القوة والتوكل على الله وعدم المبالاة بهم، وإبطال لكيد من كاده بإظهار الإسلام ثم الكفر، كما ذكر الله تعالى عن بعضهم في قولهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران:٧٢].

﴿فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ فأنا ثابت عليه؛ لأنه لي ونفعه لي ﴿وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡ﴾ إما نافعاً وإما ضاراً ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ فلستم مسؤولين عن عملي ﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فلست مسؤولاً عنه ولا يضرني، وهذه كلمة متاركة ومقاطعة، ودلالة على أنهم إن كذبوه فإنما يضرون أنفسهم.

﴿٤٢﴾ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ استماع تعجب أو إجابةً لداعي حب الإطلاع الطبيعي مع إصرارهم على الفسق.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فاستماعهم كاستماع الصم؛ لأنهم كارهون للحق معرضون عن التدبر فهو يمر على آذانهم قبل أن يتدبروه؛ لأن قلوبهم غير صالحة للتدبر لأنهم أهملوا عقولهم، فكأنه اجتمع عليهم الصمم وسلب العقول.

﴿٤٣﴾ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ لأنك بينهم في مكة تدعوهم إلى الله ولكنهم مصرون على الكفر.

مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فنظرهم إليك كنظر العمي لأنهم لا ينتفعون به ولا يدعوهم إلى النظر الصحيح وطلب الصواب فلا تحرص على إيمان كل من استمع إليك أو نَظَر إليك؛ لأن بينهم وبين الإيمان مسافات بعيدة ولا تبالِ بهم.

﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فهم يوقعون أنفسهم في طريق النار، وهم يوقعون أنفسهم في حبائل الشيطان وما يترتب على الخذلان، وفي هذه دلالة واضحة لمن أنصف على بطلان دعوى أن الله هو الذي يوجد فعل العبد الذي هو المعصية التي يستحق بها النار، ففي هذه الآية نفيٌ لقولهم وإثبات لقولنا.

ولا يفيدهم تأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ بأن فعله بهم لا يكون ظلماً ولو عذبهم بلا ذنب؛ لأن عطف قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يفيد: أن المقصود لا يظلمهم بأن يعذبهم بغير استحقاق منهم أو بفعل ما يوقعهم في العذاب أي لا يفعل ذلك، ولذلك عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي هم الذين يفعلون ما يوقعهم في النار، فأثبت لهم ما نفاه عن نفسه، ودل على أنهم هم الذين يوقعون أنفسهم في أسباب العذاب فيظلمون أنفسهم بذلك، فأي دليل أوضح من هذا لمن سلمت بصيرته؟!!

﴿٤٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الظرف

ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا

منصوب بقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ﴾ أوب(اذكر) ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ في الدنيا وفي البرزخ يرون المدة قصيرة جداً؛ لأنها قد مضت، وذلك يسبب الندم على ما قدموا من أسباب العذاب ميلاً إلى الدنيا فبقيت عقوبته، فالمعنى ويوم نحشرهم مستقلين المدة الماضية ﴿كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ﴾ فيها ﴿إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي يستشعرون ذلك.

فقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ سواء كان حالاً ثانية أي نحشرهم يتعارفون، أو حالاً من يلبثوا داخلاً في المستثنى استثناء مفرغاً؛ لأن الآية على كلا التقديرين تفيد تعارفهم في الدارين.

فعلى *الوجه الأول*: يتعارفون يوم الحشر؛ فإذا تراءوا في الآخرة عرف بعضهم بعضاً لأنهم قد تعارفوا في الدنيا.

وعلى *الوجه الثاني*: كأن لم يلبثوا إلا ساعة يتعارفون فيها؛ لأنهم قد تعارفوا في الآخرة بسبب ذلك التعارف في الدنيا، فاستشعروا قصر مدة تعارفهم في الدنيا، وما كان في ذلك التعارف من أسباب العداوة في الآخرة والندم الطويل، وانقطاع الألفة في الآخرة ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ لأن دنياهم قد مضت وفاتهم في الآخرة كل خير وصار مأواهم النار ذلك هو الخسران المبين، فقد تحقق خسرانهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ في الدنيا كما كانوا يزعمون أن التكذيب هو الصواب، بل تحقق يوم حشر الله لهم أنهم كانوا ضالين.

﴿٤٦﴾ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ أي وإن أريناك بعض العذاب الذي نعدهم أريناك بأن عجلناه في حياتك وشاهدته، فقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا﴾ أصله (وإن ما) وهي (إن) الشرطية أدغمت في الميم و(ما) صلة تحسن القول.

ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا

﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نعذبهم ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ وحسبهم ذلك سواء عُجل لهم عذاب في الدنيا أم لم يعجل؛ لأن مرجعهم إلى الله وحده وهو الشهيد على ما يفعلون، والشهيد هو الحاكم فيهم، لا يفوتونه ولا يجدون منه ولياً ولا نصيراً.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ رسول من الله أرسله إليهم ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ﴾ يوم القيامة يخاصمهم بما كذبوه في الدنيا وآذوه وقاتلوه ﴿قُضِيَ بَيۡنَهُم﴾ أي بين الرسول وأمته ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي بالعدل والحق ﴿وَهُمۡ﴾ الرسول وأمته ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ بل تجزى كل نفس بما تسعى، فيثاب رسولهم وينال ما وعده الله من الخير، ويعاقب أعداؤه جزاء سيئة بمثلها كما مر.

﴿٤٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ بالعذاب الذي وعدتمونا استعجالاً لَه لظنهم أن الوعد غير واقع، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تحكم لأن المعنى إن كنتم صادقين أخبرونا متى يكون إن كنتم صادقين وإلا فلستم صادقين، وهذا كفر بالرسول وبالوعد حيث سووا بينه وبين من معه من المؤمنين فنسبوا الوعد إليهم على سواء والمطالبة لهم على سواء.

وإنما قلت: أنه تحكم لأنهم جعلوا شرط الصدق ما ليس شرطاً لأنه لا يجب إلا الدليل على صدق الوعد وقد بينه الله ورسوله فلم يقبلوا وكلامهم هذا ذكره الله في مواضع من القرآن وفي كل موضع جواب مناسب وجوابه هنا ما في الأربع الآيات التي بعد هذه.

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا

﴿٤٩﴾ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلا أملك تحصيل ما اقترحتم من تحديد وقت الوعد؛ لأن الأمر كله لله، فإن شاء حدد، وإن لم يشأ فلا يستطيع غيره أن يحدد، كما لا يستطيع أحد أن يعجل ما وعد الله به من القيامة وما فيها.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فلا تحسبوا إمهالكم وأنتم تكذبون بالآيات وباليوم الآخر إهمالاً لكم، إنما هو إملاء حتى يأتي أجلكم كما كان للأمم قبلكم، وهو أجل محدود لا تستقدمون قبله وإذا جاء لا تستأخرون، وبهذا يظهر: أن السياق في وعدهم بالعذاب من غير فرق بين أن يكون في الدنيا أو في الآخرة؛ لأنهم كافرون بالآخرة.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عذابه عذاب الله الذي وعدكم جزاء على كفركم، وهو يشير إلى شدته بإضافته إلى الله ﴿بَيَٰتًا﴾ وأنتم نائمون فهو مباغت لكم في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ فلن تقدروا على دفعه وإن عاينتموه في النهار نازلاً عليكم ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ هل فيه شيء مرغوب يستعجله المجرمون المستحقون للعذاب بإجرامهم أي أنه عذاب ليس فيه أي مرغب يدعوا إلى استعجاله فلماذا تستعجلونه بقولكم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿٥١﴾ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ أي تكفرون به وتستعجلونه ثم إذا ما وقع آمنتم به، آمنتم أنه العذاب الذي وعد الله به أو آمنتم بالرسول بسبب وقوع العذاب والأول أظهر، فهم مكذبون بالعذاب فقيل: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ بأنه حق كما وعدكم الله به.

بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ

﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ **الآن يقبل إيمانكم حين قد وقع العذاب بعدما كذبتم به وكنتم به لفرط تكذيبكم به تستعجلون به أي أنه إذا وقع لم يرفع عنهم ولم ينفعهم إيمانهم.**

﴿٥٢﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ **ثم بعد وقوع العذاب بياتاً أو نهاراً صرتم إلى عذاب الخلد، وهو العذاب الدائم الذي لا موت فيه فقيل لكم بسبب ظلمكم في الدنيا: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ وهو جرائمكم التي تكررن منكم في الدنيا فالعذاب العاجل تصيرون به إلى عذاب الخلد من أجل سوء الخاتمة لأنه أخذكم العذاب وأنتم ظالمون.**

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ ﴿أَحَقٌّ﴾ **ما وعد الله به من عذاب الخلد ﴿يَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ يسألونك أن تنبئهم، أي تخبرهم أحق هو؟**

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ **يا محمد ﴿إِى﴾ أي نعم ﴿وَرَبِّىٓ﴾ أحلف به ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ واقع بكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله أي لا تدفعونه عن أنفسكم ولا يَعجَز الله عن تعذيبكم.**

﴿٥٤﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ **فكل نفس قد ظلمت في الدنيا لو أن لها عند حضور عذاب الآخرة ما في الأرض من الأموال ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ من سوء العذاب، أي لبذلته فديةً لها من العذاب.**

حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ وذلك حين رأوه من مكان بعيد وعلموا أنه واقع بهم بما كسبوا في الدنيا فندموا وودوا لو أنهم أطاعوا الله ورسوله، فأما إسرار الندامة فلعل سببه الكبر فيما بينهم.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿بَيْنَهُم﴾ بين أهل الموقف المفهومين من كل نفس ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالحق والعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فتجزى كل نفس بما تستحق لا يزاد في عذاب أحد فوق ما يستحق ولا ينقص على المظلوم شيء من إنصافه من الظالم.

﴿٥٥﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ فهو يقضي بينهم ويحكم فيهم لا معقب لحكمه، ووعده حق؛ لأنه يتصرف تصرفاً حقاً في ملكه فلا صارف لَه عما وعد به ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لأنه قادر على كل شيء وعليم بكل شيء وغني عن كل شيء فلا أصدق منه قيلاً.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس أو أكثر المكذبين الذين فيهم السياق؛ لأنهم لا ينظرون نظر طلبٍ لمعرفة الصواب بل يعرضون.

﴿٥٥﴾ ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هو وحده ﴿يُحْيِۦ﴾ عادته الإحياء ﴿وَيُمِيتُ﴾ عادته الإماتة؛ لأنه على كل شيء قدير ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لأنه المالك لكم الذي أحياكم ثم يميتكم، ثم يحييكم تارة أخرى، يتصرف فيكم كيف يشاء، فإليه وحده ترجعون للحساب والجزاء.

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿قَدْ جَاءَتْكُم﴾ سببُ النجاة من العذاب والفوز بالجنة بما في هذا القرآن من الموعظة التي تزجر عن معصية الله وتبعث على طاعة الله، وما فيه من الشفاء ﴿لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ من الريب وسائر عيوب القلب، فهو يؤدي إلى سلامة القلب من العيوب لتسببه للإيمان، واحتقار الدنيا، والعمل للآخرة، ونهيه عن عيوب القلب ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو حقيق بأن يَرْغَب فيه الناسُ ويُقبِلوا على تعلُّمه وتدبر آياته والتمسك به وأن يتركوا الجدال فيه والمكابرة والتكذيب؛ لأنه نعمة وخير عظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد جاءكم هذا الخير العظيم ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ متلبساً بفضل الله، مثل: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] ومثل: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠] فبفضل الله على الناس ورحمته لهم جاءهم هذا الكتاب الذي هو الخير العظيم ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الذي جاءكم متلبساً بفضل الله ورحمته ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾ فهو الحقيق بأن يفرحوا به؛ لأنه ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ لأنه يهدي إلى السعادة الدائمة وإلى النجاة من الشقوة الدائمة، فالفرح به والإطمئنان إليه حق وصواب، ليس كالفرح بالدنيا الذي هو اغترار.

﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى

﴿٥٩﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمكذبين بالقرآن ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ وعطاء لتنتفعوا به ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا﴾ كما هو مذكور في (سورة الأنعام) فلم تشكروا نعمة الله فيه وتبقوه على ما جعله الله عليه.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بذلك التحكم بالتحريم والتحليل أو بذلك التحريم والتحليل ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ فتحكمون بغير ما أنزل الله افتراءً على الله واختلاقاً وذلك هو الباطل الواضح الذي أنتم متمسكون به، ثم بهذا القرآن تكذبون وهو يدعوكم إلى الحق وترك أباطيل الجاهلية.

وقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فيه لفت لأنظارهم إليه، وإعدادٌ للسؤال عنه، كأنه يقول: أخبروني عما أنزل الله لكم من رزق؟

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿مَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ﴾ ما يظنون يوم القيامة أيظنونه سهلاً عليهم؟ هيهات بل هو الداهية الدهيا والشقاوة التي ليس لها منتهى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين وإنزال الكتب تهدي إلى طريق النجاة ودعوة الناس إلى التوبة وإمهال الناس ليذّكّروا وغير ذلك من نعمه سبحانه وتعالى التي تهيئ لهم أسباب السلامة والكرامة في يوم القيامة ﴿وَلَـٰكِنَّ﴾ أكثر الناس ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ بل يكفرون نعم الله ويكذبون بالنذر.

شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ

﴿٦١﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ وأنت يا رسول الله في تبليغك لهؤلاء الذين يفترون على الله وصبرك على تحمل أعباء الرسالة والقيام بشئونها ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يا محمد ﴿فِي شَأۡنٖ﴾ أيِّ شأن ﴿إلا﴾ والله يشهد ما تكون فيه ﴿وَمَا تَتۡلُواْ﴾ يا محمد من هذا القرآن ﴿مِن قُرۡءَانٖ﴾ قليل أو كثير ﴿إِلَّا﴾ والله يشهد ما أنت فيه ﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ﴾ كلُّكم أنت ومن آمن ومن كفر أيَّ عمل صالح أو فاسد حسن أو سيئ ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ إذ تندفعون وتسترسلون فيه لا يخفى علينا منه شيء.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿مَا يَعۡزُبُ﴾ ما يبعد ولا يغيب عنه، قال في (الصحاح): ((وعَزَبَ عنّي فلانٌ، يعزُب، ويعزِب: أي بَعُدَ وغاب)) انتهى.

فالمعنى: أن الله شهيد على كل شيء حتى مثقال الذرة في الأرض ومثقال الذرة في السماء.

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿لَآ أَصۡغَرَ﴾ من مثقال ذرة إلا وقد أحاط به علم الله فلا يفوته ولا ينساه، فكل إنسان وكل عمل لا يخفى على الله ولا ينساه، وذِكْرُ الكتاب هنا تمثيلٌ للإحصاء والإحاطة والحفظ.

إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ

﴿٦٢﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ **فإحصاء أعمالهم صغيرها وكبيرها لا يضرهم؛ لأن أعمالهم صالحة، وسيئاتهم ممحوة بالتوبة، وصغائرهم مكفرة باجتناب الكبائر فـ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ يوم القيامة ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.**

﴿٦٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ **هذا تفسير لأولياء الله فلا يُقرِّب أحداً عند الله إلا الإيمان والتقوى.**

﴿٦٤﴾ ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ **﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وحدهم دون غيرهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إما بمثل رؤيا مبشرة، أو كرامة خارقة للعادة، أو بشرى الملائكة عند حضور الموت قبل خروج النفس.**

﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ من حين يبعثون ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ تأكيد لوعد الله لهم بالبشرى، ولكل وعد وكل وعيد، كما قال تعالى في (الوعيد): ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق:٢٩] **فكل ما وعد الله به أو أوعد فلن يتخلف أبداً.**

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي هو السلامة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ والكرامة التي دل عليها قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ وقد قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠] **فلهم ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ النجاة والظفر بالجنة والخير العظيم.**

إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا تحزن لتكذيب المكذبين بوعد الله وبآيات الله.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فلا بد من الجزاء الأوفى ونصر أولياء الله وإهانة أعداء الله، فتكذيب المكذبين وَبَالٌ عليهم ولن يضروا الله شيئاً ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولهم ولكل قول ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بإجرامهم وبكل شيء فلا بد لهم من الجزاء الأوفى.

﴿٦٦﴾ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فمرجعهم إليه وحده وهو يحكم فيهم ما يريد وعليهم إن يعبدوه وحده ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أيُّ شيء يتبعونه؟ وأيُّ شيء يحتجون به لشركهم؟.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ليس لهم حجة وليس لهم دليل يتبعونه ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وما هم ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ بما يقولون كما يقول خارص التمر في رؤوس النخل: «قدره كذا كيلاً» وعلى هذا فليس لهم أن يعارضوا الحق الثابت بكتاب الله بظنونهم وخرصهم.

﴿٦٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ فربكم المنعم عليكم هو المستحق للعبادة، ذَكَر هنا منفعَةَ الليل وهي السكون والراحة

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى

من أعمال الجسد والفكر لتعود القوة لليوم الثاني ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ والبصر نعمة وفائدته واضحة وهي السعي للمعاش وحاجات الحياة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في جعل الليل ليسكنوا فيه وجعل النهار مبصراً ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ عديدة ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أما من يعرض حتى كأنه لا يسمع فهو لا يهتدي بآيات الله، ففي الليل والنهار الدلالةُ على قدرة الله وعلمه والدلالة مِلكه لعباده من حيث إنعامه عليهم وتربيتهم بجعل الليل والنهار خِلفةً والدلالة على فضل الله ورحمته، وفي إقبال الليل بعد النهار آية، وفي طلوع الفجر بعد الليل آية، وفي طلوع الشمس آية، وفي الضحى آية، وفي العصر آية، وفي غروب الشمس آية، فهي آيات تدل على متصرِّف في الكون مدبرٍ لأمور عباده.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ كأنهم أرادوا أنه اتخذ الملائكة بناتٍ لا بمعنى أنه ولَدَهم، بل بمعنى التبَنِّي ليكونوا له قرة عين ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ لَه عن كل نقص وعن كل عيب ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ فلا يحتاج إلى اتخاذ الولد، وإنما يتخذ الولدَ من يحتاج، والله المنزَّه عن مشابهة المخلوق لا يحتاج.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فكلهم عبيد ليس فيهم ولد ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ ما عندكم ﴿مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ حجة ﴿بِهَٰذَا﴾ القول على الله ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ سؤال إنكار عليهم وتوبيخ.

ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ

﴿٦٩-٧٠﴾ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ﴾ يفترون الكذب يختلقونه ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا ينالون بافترائهم خيراً إنما لهم ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ في الآخرة ولا يرجعون إلى من زعموا أن الله اتخذهم ولداً ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ بأنعم الله أو يكذبون بآيات الله ويجحدون رسالاته التي قامت بها الحجة عليهم وبينت بطلان قولهم فلم يقبلوها فاستحقوا العذاب الشديد بسبب كفرهم بها.

﴿٧١﴾ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ ثقل عليكم وشق عليكم ﴿مَّقَامِي﴾ بتبليغ رسالة ربي والدعوة إلى عبادته وحده ونفي الآلهة إلا إياه ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ لكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على صدقي في دعوتي وتبليغي ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ مقابل صعوبة ذلك عليكم وبغضكم لي وكونكم تريدون التخلص مني فأنا أكل أمري إليه ليعصمني منكم إن شاء، وحسبي ذلك من الإستعداد لما تريدون من الإيقاع بي، وبعد توكُّلي عليه ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ مع شركائكم الذين تزعمون أنهم ينصرونكم.

أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ

قال الشرفي في (المصابيح): ((والواو في قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ بمعنى (مع) أي وأجمعوا أمركم مع أوثانكم واستعينوا بها في هلاكي)) انتهى.

ومعنى إجماعهم أمرهم: تقريرهم لقرارهم، وتأهُّبهم لإنفاذه واستعدادهم، كما قال الشاعر:

أجمَعوا أمرهم عِشاءً فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ

من مناد ومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل وبين ذاك رغاءُ

﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ ثم لا يغمكم أمركم الذي تقررونه وتريدون إنفاذه ولا تبالوا به وامضوا له بجد وصرامة، ومنه قول طَرَفة في معلقته:

لعمرك ما يومي علي بغمّة ... نهاري ولا ليلي عليّ بسرمد))

انتهى.

يعني: أنه ماضي العزيمة، قال (شارح القصيدة): ((وتلخيص المعنى أنه تمدّح بمضاء الصريمة وذكاء العزيمة)) انتهى.

﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾ أنْهُوا إلي، وأوصلوا أمركم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني إن استطعتم فهذه أوامر تعجيز وتحدٍّ للكفار، فهي متى عجزوا عنها كانت دليلاً على صدقهِ وكانت معجزةً تدل على نبوته.

﴿٧٢﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فلا علة لكم في التولي بأن تقولوا ثَقُلَ علينا أجرُ نوح ولولا خوف المغرم لاتبعناه

بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أرسلني إليكم ولا يفوتني أجره بتوليكم فضرر توليكم عليكم وحدكم ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ لله وجهي ونفسي فلا أعبد ما تعبدون من دون الله.

﴿٧٣﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَـٰهُمۡ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ فالمنذَرُون الذين آمنوا واتبعوا رسولهم نجاهم الله من العذاب مع رسولهم وصاروا معه خلفاء الأرض، والمنذَرُون الذين كذبوا رسولهم وكذبوا بآيات الله أهلكهم.

وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيۡنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي نجيناهم من العذاب الذي هو الغرق نجيناهم ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ أي في السفينة، وهذه آية من آيات الله، أي الفرق بين من آمن ومن كذَّب بنجاة المؤمنين وهلاك الكافرين.

﴿٧٤﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ مثل: هود، وصالح، وشعيب، وغيرهم، كما قال الله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]. أرسلهم الله إلى قومهم، وذلك أبلغ في الحجة لمعرفتهم لرسلهم من قبل الرسالة.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَـٰتِ﴾ جاؤوا قومهم بالآيات البينات في دلالتها على صدقهم، وأن الله أرسلهم فكذبوهم وكذبوا بآيات الله وأصروا على ذلك حتى خذلوا ﴿فَمَا كَانُواْ﴾ بعد الخذلان ﴿لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ﴾

وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ

ما صح ولا استقام، كأنه صار محالاً أن يؤمنوا ﴿بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ لأن تكذيبهم لرسلهم من قبل أفسد قلوبهم، وباعدهم عن الإيمان، حتى كأنه لا يتصور منهم أن يؤمنوا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الطبع على قلوبهم ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بالإفساد في الأرض ومحاربة الدين والصدِّ عن سبيل الله، فالتكذيب الأول جرّهم إلى الإعتداء، والإعتداء أوقعهم في الخذلان المعبر عنه بالطبع على القلوب، كأنه خَتْمٌ مانع من دخول الإيمان إلى القلوب؛ لأنه يترتب على الخذلان تسلط الشيطان على المخذول وتزيينه لَه الباطل وإفسادُه لقلبه بغروره وخِدَعِه حتى يصير قلبه كالمطبوع عليه.

﴿٧٥﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرسل المذكورين آنفاً ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ جماعته المعاونين له على أمره ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بعثنا موسى وهارون مصحوبَين بآياتنا ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ وأَنِفوا من قبول الحق والإيمان بهما وبما جاءا به من الآيات وكان هذا شأنهم؛ لأنهم ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أهل جرائم فـ(الواو) هنا بمنزلة (واو) الإعتراض كما في قول الشاعر:

رأيت رؤيا ثم عبّرتها ... وكنت للأحلام عبَّارا

وقد أثبتها الزمخشري في (كشافه) وإن أنكرها بعض النحاة بناء منهم على تسميتهم لها (واو) الاعتراض.

مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ

قلنا: الخلل في التسمية، أي في تسميتها (واو) الإعتراض وهو اصطلاح لا حجّة فيه مع أنه يمكن تسميتها (واو) الإعتراض لاعتراضها في بعض الحالات بين الكلام.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٌ مُّبِينٞ﴾ الحق وهو الآيات الدالة على صدقهما ﴿قَالُوٓاْ﴾ مع أنها الحق من عند الله جرأةً على الله وعناداً منهم ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي نشاهده في العصى وفي يد موسى ونحو ذلك ما هو إلا سحر وتخييل ﴿مُّبِينٞ﴾ أي بيّنٌ كونُه سحراً لا خفاء فيه، فهو أمر لا حقيقة لَه فلا عصاه صارت ثعباناً ولا يده صارت بيضاء، وهذا غاية العناد.

﴿٧٧﴾ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ ﴿أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ﴾ سؤال إنكار وتوبيخ على جرأتهم بأن يقولوا في الحق الذي جاءهم هذا القول دفعاً للحق: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾؟ سؤال بمعنى النفي أي كيف يكون هذا الحق الواضح سحراً والسحر لا حقيقة لَه إنما هو تخييل وهذا الذي جاءكم أمر حقيقي رباني تعلمون أنه ليس تخيلاً لمعرفتكم السحر ومشاهدتكم لهذا تعرفون بها أنه الحق الواقع، ولذلك تخافون الثعبان، وتعجبون في أنفسكم لبياض اليد، وإن جحدتم بألسنتكم ﴿وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ فإن كنت ساحراً فإنه لا بد أن ينكشف وتبطل دعوى الرسالة.

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ **لتحوّلنا وتصرفنا** ﴿عَمَّا وَجَدْنَا﴾ **وشاهدنا** ﴿عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ **جعلوها قضية تعصب لآبائهم، وقولهم:** ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ **يريدون أن ذلك هو الباعث لهما على دعوى الرسالة، كما قال قوم نوح:** ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون:٢٤] **وهو تجاهل وتغافل؛ لأن العمدة الدليل الصحيح وكلامهم على الإرادة والقصد من باب:**

سألتـــه عـــن أبيـــــه؟ فقـــال خالـــي شعـــيب

وهي منهم دعوى عاريةٌ عن الدليل ولا يعلمون الإرادة؛ لأنها غيب في الصدور.

وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ **تعبير عن إصرارهم على باطلهم وأنهم لا يقبلون من موسى وأخيه أيَّ دليل، فهو لطلب اليأس وترك الخوض، والراجح: أن (الهمزة) في أول الآية للإنكار عليه، وأنهم أرادوا: كيف جئتنا لطلب ما لا يكون لطلب أن تلفتنا وتحوّلنا عما نحن عليه ورثناه من آبائنا، فهم يعنون أن التحول عن الأمر المألوف ثقيل، ومع ذلك أنهم وجدوا عليه آباءهم.**

فطَمعُ موسى في تحولهم طمع في أمرٍ بعيد، وأيضاً: إن غرضه بزعمهم أن تكون لَه ولأخيه بذلك الكبرياءُ في الأرض فينقلبوا بعد سيادتهم تحت رئاسة موسى وأخيه، فكيف يتصور عندهم أن يتجشَّموا الأمر الثقيل عليهم لأجل غرضه الذي هو ضد غرضهم؟ ومع ذلك أنهم لا يؤمنون لهما، فكيف جاء موسى مطالباً فيما لا يتصور بزعمهم أن يكون؟ فهم يعيبون عليه ذلك.

فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

وجوابه واضح، ولكنه يكفيه التمسك بالحجة الواضحة والآية البينة، فأما تحولهم عن المألوف، فإنه وإن شق على أهل الجمود الذين لا يطلبون الحق فإنه سهلٌ على طالب الحق لينجو من عذاب الله ويفوز برحمة الله، وكذلك ترك التعصب للآباء؛ لأن إنقاذ النفس من النار أهمُّ، وكذلك كون الكبرياء لرسل الله لا يهمُّ مَن يتقي النار، وهذا على فرض أنه غرض الرسل وليس كذلك، وأما أنهم لا يؤمنون فإن ذلك لا يمنع من تبليغ موسى وأخيه لرسالة الله؛ لأنهما أطاعا ربهما ولا يضرهما امتناع المرسَل إليهم من الإيمان.

﴿٧٩﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ ليباري بينهم وبين موسى وأخيه ويظهر بزعمه إذا غلبوا موسى وأخاه أنهما ساحران، وهي حيلة لمدافعة موسى وأخيه في تلك الحال التي تجلَّت حجتهما وتبيَّن صدقُهما، وكأنه ظنَّ أنه سيعارض بسحر السحرة، وسيدعي أنه الغالب حتى لا تنتهي مدافعته للحق ومراوغته.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لأنهم قالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥] ليلقي عصاه في الأرض، أو يلقوا حبالهم وعِصيَّهم.

﴿٨١﴾ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ هو ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ لا ما جئتُ به؛ ولكون ما جئتم به هو السحر فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥ﴾ لأنه عمل فساد ومحاربةٍ للحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ليضلوا الناس بإصلاح عملهم؛ لأن الله يريد إظهارَ دينه فلا يصلح ما يؤدي إلى قوة الباطل ويجعله أهلُ الباطل حجةً لهم.

ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن

﴿٨٢﴾ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ﴿يُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ يثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بآياته ودلائله، سميت المعجزات كلماتٍ، إما لدلالتها كما يدل الكلام؛ وإما لأن الله يوجدها بقوله: ﴿كُنْ﴾ أي أنها تسهل عليه كما لو لم توجد إلا بمجرد قوله: ﴿كُنْ﴾ فسميت كلماتٍ كما سمي عيسى ـ صلوات الله عليه ـ كلمة من الله ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ إحقاقَ الحق؛ لأن الله غالب على أمره وقد أحق الله الحق وأبطل سحر السحرة، كما هو مذكور في غير هذه السورة.

﴿٨٣﴾ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ ﴿ذُرِّيَّةٞ﴾ أولاد من قومه ليسوا من الآباء ولا الشيوخ؛ ولعل السبب أن الكبار قد ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] وتمكنت في قلوبهم هيبةُ فرعون ومحاذرة بطشه لكثرة ما قد جربوا في الماضي من ظلمه وطغيانه ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ آمنوا مع خوف شديد ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ جماعتهم المجمعين على طاعة فرعون وهم من بني إسرائيل، فهؤلاء الذين آمنوا أفراد من الأولاد هداهم الله للإيمان والمخاطرة بأنفسهم لأجل طاعة الله ورسوله، فآمنوا على خوف من فرعون ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ يعذبهم ليرجعوا عن إيمانهم بموسى إلى الكفر وخوف من ملائهم أن يخبروا بهم فرعون فيفتنهم أي يعذبهم ليرجعوا عن إيمانهم.

﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي غالب قاهر متجبر طاغ)) انتهى. وقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يدل على انتشار علوه وطغيانه في الأرض ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المتجاوزين حد غيرهم في الظلم والفساد فلذلك خافه من آمن بموسى من بني إسرائيل.

كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ

﴿٨٤﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ للذين آمنوا له على خوف من فرعون ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وحده فإليه ارجعوا أمركم وعليه اتكلوا؛ لأنكم قد أرضيتموه بالإيمان فارضوا بما قدر لكم من نصر أو شهادة وكِلُوا أمركم إليه ليدبر لكم ما شاء ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ لَه أنفسكم ووجوهكم.

لأن شأن من أسلم نفسه لله وأخلصها لربه أن يكِل نفسه إلى مالكها ليدبر لها ما شاء وأن لا يريد لنفسه خلاف ما يريده لها ربُّه وأن يطيعه وحده لا يشرك في طاعته عدوَّه، فالإيمان بالله يستلزم معرفة قدرته، وعلمه، وغناه، وكرمه، وفضله، ورحمته، ومعرفة ربوبيته، وإحاطة ملكه بعباده وتدبيره لشؤونهم، فإذا نظر المؤمن إلى ذلك كان من شأنه أن يتوكل على ربه في كل ما كلفه؛ لأنه يعلم أنه لا يخفى عليه حالُ عبده ولا ينساه ولا يهمله، وأنه مدبر أموره ولذلك فلا يمنعه الخوف عن الإيمان.

﴿٨٥-٨٦﴾ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ﴿فَقَالُواْ﴾ لموسى تعبيراً عن طاعتهم لأمره ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ ومع ذلك دعوا ربهم أن لا يُمكِّن الظالمين من ظلمهم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم × : المعنى لا تجعلنا فتنة لهم، ولا تخلنا ولا تذرنا من نصرك وتفتنهم بنا، فيكون هلاكنا بأيديهم محنة لهم، ولكن أعنا وانصرنا عليهم، وتحتمل الآية معنى آخر» انتهى المراد، وهذا المعنى الذي نقلته هنا هو الراجح.

مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ

وقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ موافق للمعنى الأول الذي حاصله: طلب النجاة من فرعون وقومه، إلا أنَّ الأول طلب النجاة من تمكين عدوهم من ظلمهم من حيث أن ذلك غيظ على المؤمن وشديد عليه أن يسلط عليه عدو الله، فهو من معنى بغض أعداء الله وكراهة أن ينالوا غرضهم في المؤمنين.

وأما الثاني فقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ فهو طلب النجاة برحمة من الله عاجلة من حيث هي رحمة للمؤمنين بالنجاة من القوم الكافرين، وذكر الكافرين لأن كفرهم يبعثهم على الظلم والتعدي على المؤمنين.

﴿٨٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿تَبَوَّءَا﴾ اتخذا لأنفسكما مباءة بيوتاً تبوئون إليها لقومكما حيث يتعين لهم مقركما فيأوون إلى ناحيتكما بمصر حيث العدوّ إلا أن مصر واسعة المجال فهم في هذه الحالة في حالة الخوف والاستعداد لما يأمرهم به موسى وأخوه.

ومقتضى هذا الأمر: الاستقرار في ناحية معينة ثقة بوعد الله وهو قوله تعالى: ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥] وتخيرُ بيوت لا البقاء في البادية الخالية عن البيوت، وهذه طريقة تسهِّل اجتماعهم حول موسى وهارون للتعلم منهما وأخذ التربية الروحية وإقامة الصلاة معهما كما هي تغيظ فرعون وملأه من حيث يفهمون منها عدم مبالاة موسى وقومه بهم؛ ولذلك أرسل ﴿فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء:٥٣-٥٥].

فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ

﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي متجهة إلى القبلة أو متقابلة، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الفرقان:٦٢] أي متخالفَين كل واحد يخلف الآخر، وجعلُ البيوت قبلة هو أقرب للتلاقي بينهم والتوحد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أنت وقومك؛ لأن المقصود بإنقاذ بني إسرائيل وإرسالكما هو أن تعبدوا الله، كما قال موسى في دعائه: ﴿هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٠-٣٤] والصلاة محل الذكر أفضل من غيرها كما يفيده قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ترغيب في ثبات قوم موسى على إيمانهم في تلك لحال الشديدة ليثبتوا ويصبروا رغبةً في حسن العاقبة، وإبهام البشارة يدل على عظمها؛ لأنها من ملك الملوك.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ ﴿رَبَّنَا لِيَضِلُّوا﴾ قيل: هي من المتشابه فيؤوّل، وقيل: يجوز العقاب بما يؤدي إلى الضلال، وإرادة الضلال في العقاب ليست إرادة له من حيث هو ضلال، وإنما هي إرادة له من حيث هو سبب العقاب، كما قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ والله سبحانه وتعالى منزّه عن إرادة القبيح.

ويحتمل وجهاً ثالثاً: أنه × أراد أن لا يكون صورة هذا الدعاء صورة الاعتراض لو قال: فضلوا عن سبيلك، فجاء بـ(لام) التعليل ليبين أن الله أنعم عليهم وهو يعلم أن ذلك يؤديهم إلى الضلال ليس غالطاً في الإنعام عليهم، فقال: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ ليدل على أن الله تعالى أنعم عليهم، وهو غير غافل بل هو عالم أنه يؤديهم إلى الضلال، فشبه ذلك بالغرض المقصود.

والحاصل: أن التعليل مجاز، وإنما شبه ذلك بالغرض فاستعمل فيه عبارة الغرض مجازاً، تنزيهاً لله عن الغلط في التصرف، وتأدباً عن جعل الكلام في صورة الإعتراض.

وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ﴾ قال في (الصحاح): «الطموس: الدروس والإمحاء، وقد طمس الطريق يطمُس وطمِس وطمسته طمساً يتعدى ولا يتعدى، وانطمس الشيء وتطمس: أي امّحى ودرس، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أي غيّرها» انتهى المراد.

قلت: ويدل على صحة هذا قوله تعالى: ﴿**وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ**﴾ [يس:٦٦].

وقوله: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «ثم قال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي اسلب المعونة لهم فيبقون على الضلالة، فيهلكون كفاراً، وينالهم عذاب الآخرة» انتهى.

ولعل هذا حاصل المعنى، والأصل: واشدد العقد على قلوبهم، على طريق التمثيل كذكر الختم والطبع، ولذلك فرّع عليه قولَه: ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾.

قال (سيد قطب): «أما دعاؤه بأن يشد الله على قلوبهم فهو دعاء مَن قد يئس من صلاح هذه القلوب ومِن أن يكون لها توبة أو إنابة، دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاقاً حتى يأتيهم العذاب، وعندئذ لن يقبل منهم الإيمان» انتهى المراد.

سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ

﴿٨٩﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قُبلت وسيكون ما سألتما ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ على ما أُرسِلتُما لَه من الدعوة وإقامة الحجة، فلم ينتهِ عملكما بهذه الإجابة، وكذلك استقيما على طاعة الله في كل شيء، والإستقامة: ضد الإعوجاج، فهي الإيمان، والتقوى، والثبات على ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا تسأما من الثبات والصبر ولا تعجلا على ما طلبتما قبل أَجَلِه، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الذين يجهلون؛ لأن الجهل بثواب الصبر قد يؤدي إلى الجزع، والجهل سبب الضلال أو كالسبب في كل شيء لأن العلم النافع دواء لأمراض القلب وغيره.

﴿٩٠﴾ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في هذه الآية والتي بعدها ذكر نهاية فرعون وقومه بالعذاب العاجل الذي لم ينفعهم عند رؤيته إيمانٌ، والآية هذه تبيِّن سوءَ خاتمتهم بالبغي على رسولَي الله ومن معهما.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي جعلناهم جائزين للبحر حيث فرقنا بهم البحر فأتبعهم فرعون وقومه وهذا من أعجب الضلال أن يتبعوهم وقد رأوا البحر انفلق لهم، فهي آية عظمى يحق لها أن يخروا سجداً لو كان عندهم أيُّ استعداد للحق ولكنهم قد خذلوا وأجيبت فيهم دعوة موسى

وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ساروا بعدهم ليدركوهم فيأخذوهم أو يقتلوهم، وقوله تعالى: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أي البغي والعَدو عدوان وطغيان)) انتهى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ لحقه الغرق وأحاط به العذاب الأليم ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي إلا الله، وكأنه قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ليعلن أنه معهم على دينهم ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المتبرئين من الشرك.

﴿٩١﴾ ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ ينفعك الإيمان ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي قبل هذه الحالة التي أنت فيها مضطر إلى الإيمان لطلب النجاة من الغرق أي أينفعك الإيمان الآن؟! دخلت همزة سؤال إنكار على ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ لأن ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ محل الإنكار حيث أن ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ وقت الاضطرار الذي لا تنفع فيه توبة، كأنه قيل: هل الآن ينفعك الإيمان وقد عصيت ربك قبل الآن وكنت على الفساد في الأرض مكرراً له لا تتورع ولا تتقي، فكنت من المفسدين؟!

ومن محاسن النظم: حذف المسؤول عنه كأن المنكر لَه يكره ذكره لشدة إنكاره لَه، ومن هذا: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق:٢-٣] أي أئذا متنا وكنا تراباً نرجع.

﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ

﴿٩٢﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ (الفاء) للتفريع على قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ أي لا ينفعك إيمانك ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ والسياق يرشد إلى أن المراد ﴿نُنَجِّيكَ﴾ جسداً بلا روح ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ حين تكون جسداً خاوياً، فيذكرون ما كنت فيه من الطغيان وما صرت إليه من الذلة والهوان جثة هامدة مفردة عن الأتباع والأنصار.

فقوله: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من النجاة، باعتبار إنقاذ الجثة من الضياع في البحر وإخراجها للناس، وقيل: من النجوَة، أي نجعلك على نجوةٍ خارج البحر، والنجوة: المكان المرتفع، وقيل: ببدنك بدرعك.

والراجح: التفسير بالمعنى المشهور فهو الظاهر ﴿نُنَجِّيكَ﴾ ننقذك من البحر بجسدك، وقد بلغ أن جسده باقٍ اليوم في مصر في متحف للآثار القديمة، وبهذا تمت العبرة في فرعون وقومه المكذبين بآيات الله.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ فهو جسد يتعجب منه في المتحف مع الغفلة عن الإعتبار به، وهكذا يغفل كثير من الناس عن آيات الله.

﴿٩٣﴾ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ بعد أن كانوا مستضعفين يتيهون في الأرض ليس لهم وطن بوَّأهم الله مسكناً جيداً وهو فلسطين، وذلك حين كان دينهم الإسلام كما قدمنا في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [آية:٢١] في (سورة المائدة).

يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ

ولعله حين دخلوا القرية التي ذكرها في القرآن بقيادة يوشع بن نون وصي موسى × ، فعند ذلك كان لهم بلدة طيبة فيها بركات وفيها الماء والثمرات ونحو ذلك من الصفات التي يصلح بها البلد مع عزتهم في بلدهم وأمنهم الذي لا يتم الإستقرار إلا به ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ فعظمت عليهم النعمة بتيسير الدين وحاجات الدنيا.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ﴾ علم الدين وعرفوا الحق فلم يختلفوا عن جهل، بل لأجل اختلاف الأهواء كما هو شأن أهل السياسة أن يضللوا من لم يكن معهم، ويدّعوا أنهم هم أهل الحق ويتمسكوا بالشبهات والدعايات المضلِّلة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فليس بالأمر السهل ولا هو الإجتهاد والخطأ فيه، وهكذا اختلفت هذه الأمة فـ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وكما اختلف بنو إسرائيل من بعدما جاءهم العلم كتم كفارهم ما جاءهم في (التوراة) من علم رسالة محمد ص وعلاماته الدالة عليه اتباعاً للهوى.

﴿٩٤﴾ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ ﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا محمد ﴿فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن وسائر الوحي لم تتيقن أنه صدق وحق من الله، ﴿فَسْـَٔلِ﴾ القراء من أهل الكتاب وهم الذين يتلونه حق تلاوته ولا يكتمون الحق، وهذا فرض وتقدير، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥] وفائدته: بيان أن علم رسالة محمد ص وتصديق ما أنزل الله إليه موجود عندهم في الكتاب الذي يقرؤونه.

مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ

﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ والحق ما أنزل الله إلى عبده ورسوله محمد ص يقول الله لَه: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي ليس محلاً للريب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ الشاكين المترددين في أنه الحق من ربك، وفي قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ تنبيهٌ على وجوب قَبُوله واتباعه؛ لأنه من ربه المالك المنعم.

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ هذا نهي من الله لعبده ورسوله ووعيد لَه إن كذَّب وهو تعبد من ربه يؤجر ويثاب إن أطاع ويعاقب إن عصى كسائر عباد الله، وحاشا رسول الله ص من أن يعصي ربه متعمداً أو يشك فيما أنزل إليه أو يكذب بآياته لكن ذلك لا يمنع من أمره ونهيه تعبداً له كسائر عباد الله.

﴿٩٦-٩٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ ﴿كَلِمَات رَبِّكَ﴾ إما كلماته الدالة على أنهم يعذبون، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [الزمر:١٩] ﴿حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ وقعت عليهم وصدقت عليهم لأنهم مجرمون مصرون لا يتوبون أبداً، فشملهم الوعيد بالعذاب، وإما كلماته أنهم لا يؤمنون على اختلاف دلالتها المتفقة في أنهم لن يؤمنوا مثل ما مرَّ في هذه السورة ومثل ما مرَّ في (سورة الأنعام) حول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ..﴾ الآية [١١١] ومرجع المعنيين واحد، فيمكن شمول هذه الآية لهما معاً.

قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي العذاب الذي لا يُقبَل الإيمانُ عند رؤيته، وفائدة هذا الخبر أو من فائدته أن لا يشغل رسولُ الله ص نفسَه بالطمع في إيمانهم ومحاولةِ أن يؤمنوا أكثر مما قد وقع منه ص.

﴿٩٨﴾ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ﴾ كلام في القُرى الماضية الذين أهلكهم الله بكفرهم ولم ينفعهم الإيمان حين رأوا العذاب ﴿فَلَوْلَا﴾ فهلاَّ ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ في حين الاختيار وقبل نزول العذاب، ومعنى هذا أنهم أضاعوا فرصة النجاة وكانت ممكنة لهم، فهو يُعِيبُ عليهم ذلك بقوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ وفائدة ذلك تحذير الأحياء من أن يصيروا مصير الماضين.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ استثنى قومَ يونس لدخولهم في عموم ما قبله؛ لأنه في معنى النكرة في سياق النفي، لأنه يفيد أنها لم تؤمن قرية آمنت فنفعها إيمانها، فصح استثناء قوم يونس وفي استثنائهم ترغيب في إيمان الكفار الأحياء لينفعهم الإيمان النفع العاجل، وهو كشف العذاب العاجل في الدنيا مع التمتيع بالعيش ولذاته إلى حين، فأما نفع الإيمان بالنجاة في الآخرة فهو يتوقف على أن يكون الإيمان خاتمةَ الحياة فليس السياق فيه، وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مُجمَل ولعله الأجل المسمى لكلهم أو لبعضهم.

﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ لما بين تعالى أن بعض الكفار لا يؤمنون، وأفاد أن بعض الماضين لم يؤمنوا في وقتِ نفع الإيمان، وأن قوم يونس آمنوا في وقتِ نفع الإيمان فنفعهم إيمانهم بيَّن في هذا أنه لم يُعْصَ مغلوباً وأن من لم يؤمن إنما بقي على كفره؛ لأن الله أراد تركه على ما يختار لنفسه ولو شاء الله لم يتركه على ما اختار لنفسه، ولكنه اقتضت حكمته تمكين المكلفين من الطاعة والمعصية فترك كلاً على ما اختار لنفسه؛ لأنه غني عن طاعة المطيع والعاصي ولا تضره معصية العاصي؛ ولذلك تركهم مختلفين منهم من آمن ومنهم من كفر، ولو شاء لجعلهم جميعاً مؤمنين مجتمعين على الإيمان، وهذا تسلية لرسول الله ص عمن أبى الإيمان أن لا يأسف عليهم لأن الله لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لجعلهم ولكنه شاء تركهم على ما اختاروا لأنفسهم.

﴿أَفَأَنتَ﴾ مع هذا ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ على ما يصيرون به مؤمنين مختارين للإيمان موصوفين بالإيمان حقيقة هذا لا تستطيعه فهوِّن على نفسك مِن محاولة إيمان من لا يؤمن.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ أي ما استقام، كأنه لا يتصور أن تؤمن إذا لم يأذن الله أن تؤمن؛ وذلك لأن الإيمان يتوقف على النظر في آيات الله والسلامة من أسباب الخذلان.

فمن استعمل عقله بالنظر في الآيات وكان سليم الفطرة، فقد أذن الله أن يؤمن لأنه يسَّر لَه الإيمان أما من أهمل عقله وأعرض عن آيات ربه فالإيمان

تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

بعيد منه لتركه النظر في الدلائل التي يتوقف الإيمان عليها وعدم استعداده لقبول ما دلت عليه، لأنه كاره لَه تأباه نفسه وترفضه فما كان لَه أن يؤمن وإن كان إيمانه ممكناً لو اختاره بأن يستعد في نفسه لقبول الحق، وينظر في آيات الله بحيث يحصل شرط الإيمان ويذهب المانع، لكن ذلك لا يكون ولا يقع ممن خذل وسلطت عليه الشياطين عقوبة لَه بتمرده وإفساده واستحقاقه للخذلان، فبهذا يظهر خطر العناد على صاحبه، وأن الله غني عن إيمانه، وأفاد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ﴾ قذر الخذلان واعتبر قذراً؛ لأنه تحصل معه أقذار المعاصي وسلطان الشيطان.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ﴿ٱنظُرُواْ﴾ تفكروا بعقولكم ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من آيات الله ودلائل قدرته وعلمه.

﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿وَمَا تُغۡنِي﴾ حاصله: ما تدفع عنهم ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ لا تنقذهم من النار وأسبابها ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ ليس من شأنهم أن يؤمنوا لأنهم معرضون عن آيات الله فلا تنفعهم كثرة الآيات في السموات والأرض كما لا تفيد الأعمى كثرةُ الأنوار؛ لأنه ليس من شأنه أن يبصر ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ جمع نذير، فهي لا تنفعهم؛ لأنهم يكذبون بالنذر.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ حين لم تنفعهم الآيات والنذر وأصروا على تكذيبهم بآيات الله وعنادهم ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ بعد آيات الله ونُذُره ﴿إِلَّا﴾ العقاب العاجل و﴿أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أيام العذاب النازل بالأمم الماضين.

﴿١٠٤﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

وانتظارهم لذلك إما مجاز بمعنى أنهم كالمنتظرين لَه؛ لأنه متوقَّع نزوله عليهم وهم مسببون لَه، وإما مجاز بمعنى: أنهم مطالِبون به، كقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فكأنهم منتظرون لَه، ومثل هذا في مواضع من القرآن قال تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:٤٩] ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [ص:١٥].

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي إن كنتم تنتظرون ﴿مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ فانتظروا نزوله بكم، أي أنتم أهل أن تنتظروا، أو هو مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] لأن انتظارهم لَه بمعنى الاستمرار على التكذيب بالآيات والنذر والمطالبة بالعذاب إن كان النبي صادقاً ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزول العذاب عليكم الذي يخصّكم وينجو منه المؤمنون.

﴿١٠٣﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَمّا كان قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ..﴾ إلى آخر الآية تفيد: نزول العذاب على الأمم الخالية، وأن ذلك سنة الله في الذين خلوا عَطَف عليها بيان أن مِن سنة الله إنجاءُ الرسل ومن معهم من المؤمنين.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي حَقَّ علينا حقاً أن ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أن الله كتب على نفسه أن ينجي المؤمنين، وهو وعد مؤكد، ولم يذكر الرسل في آخرها؛ إما لأن العلة في النجاة هي الإيمان والرسل هم أول المؤمنين؛ وإما لأن المراد ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في المستقبل إن نزل العذاب في المستقبل وهو لا ينزل مع وجود الرسول ص فيهم.

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ

﴿١٤﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ﴾ **يا رسول الله بعد الإحتجاج الكامل على صدقك وعلى بطلان الشرك** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ **فلا أشك في بطلان دينكم** ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ **فأنا بريء من دينكم.**

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ **فلا تنجيكم آلهتكم من الموت فأي الفريقين أحق بالأمن فأنا أعبد الله الذي بيده نفوسنا، وأنتم تعبدون من دونه ما لا برهان لكم به.**

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ **فأنا في طاعته بإيماني، ولم تؤمروا بالشرك فانتبهوا لتوقنوا أنكم على باطل.**

﴿١٥﴾ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ **أي** ﴿وَ﴾ **أمرت** ﴿أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ **الذي هو الدين؛ لأنه الدين النافع.**

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ **قيل في تفسير (الحنيف): الخاشع أو الخاشع المحب، وهو أقرب من تفسيره بالمائل، وأقم وجهك للدين: اجعل وجهك قيماً مستقيماً للدين، لا يعوج عن العمل لله سبحانه أو لا يعوج عن إقباله على الدين وقبوله له وصلاحه له واستعداده له.**

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ **نهي مؤكد عن الشرك أي قل يا أيها الناس ذلك القول** ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ **بل تبرأ منهم وباينهم.**

﴿١٦﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ **ولا تطلب من دون الله لما لا يقدر عليه إلا الله كشفاء مريض، ونصر على عدو، وبركة في**

لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ

مال أو ولد، وحفظ من الأمر الغالب، والقرينة لإرادة هذا هي السياق والحال، وقوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ فكل ذلك يدل على أن المعنى لا تفعل كما يفعل المشركون الذين يدعون من دون الله شركاءهم ويرجون منهم ما يطلبون وهم لا ينفعون ولا يضرون.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ ذلك ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿إِذًا﴾ تأكيد للشرط وهذا تعبّد من الله لعبده ورسوله ص وتحذير لسائر الناس من الشرك من حيث دلالته على أن رسول الله ص لو أشرك لكان من الظالمين المستحقين للعذاب بظلمهم الذي هو الشرك.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أما شركاء المشركين فلا يكشفونه ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يجعله لك ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ لأنه الغالب على أمره، وهذا يدل على كفاية الله لعبده، وأنه لا فائدة لعبادةٍ من دونه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ..﴾ [الزمر:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بفضله ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي من الناس وغيرهم، وفيه تنبيه على أن الله يصيب بفضله من يشاء من الناس لأنهم عباده وهو ربهم الذي خلقهم والذي يرزقهم، ففيه تنبيه على بطلان الشرك.

مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لأنه يصيب بفضله المطيعَ والعاصي، فكأن الإنعام على العاصي نوع من المغفرة والرحمة، كقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كقوله تعالى: في (سبأ): ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [آية:١٥].

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿قَدۡ جَآءَكُمُ﴾ في هذا القرآن وفيما بلغتكم عن الله ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ المالك لكم الذي لَه الحكم فيكم وعليكم وبينكم ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ قَبِل الحقَّ وآمن به واتبعه فـ﴿لِنَفۡسِهِۦ﴾ اهتدى؛ لأن نفع الإهتداء لَه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ وغوي عن الحق ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ أي على نفسه؛ لأن ضر الضلالة عليه ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ﴾ فلست مسؤولاً عن ضلال مَن ضل؛ لأني لست عليكم بوكيل، فلم يوكل إليّ أمرُ هدايتكم وضلالكم ليس علي إلا البلاغ، وليس علي هداكم، وهذا في خواتم هذه السورة من أحسن ما يختم به الِحجَاج.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ يا محمد ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ من ربك ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ لحكم ربك على تبليغ الرسالة وما يكون معه من العناء والجهاد وأذى الأعداء ولطاعة ربك في كل أمر ونهي وعلى بلائه ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ بينك وبين من أرسلك إليهم.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنه يحكم بالحق لا يحيف ولا يغلط؛ لأنه العليم القدير الغني، فاصبر حتى يحكم الله فتنال الثواب العظيم والسعادة الدائمة، ويُجزَى المكذبون العقابَ الشديد الدائم، فتلك عاقبة لك وعليهم تستحق منك الصبر في هذه الحياة الدنيا، فهو قليل بالنسبة إلى العاقبة الدائمة، فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:٤٩].

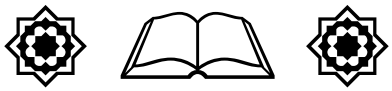

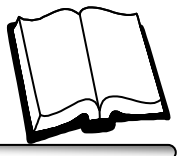

التيسير في التفسير

سورة هود

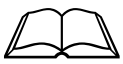

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ

تفسير (سورة هود) وهي (مكية)

۝١ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ﴿الٓرۚ﴾ قد مرَّ الكلام في هذه الحروف في تفسير (سورة الأعراف) و (سورة البقرة) ﴿كِتَٰبٌ﴾ لم ينزل من السماء مصحفاً مخطوطاً ولكن أنزل الله القرآن على رسوله الذي لا يقرأ مخطوطاً ولا يخط كتاباً، نزل به الروح الأمين على قلبه ص أنزله إليه على أنه كتاب يكتب ليحفظ وتتوارثه الأجيال فسماه (كتاباً).

﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ جعلت آياته كما تقتضيه حكمة قائله، محفوظة من كل نقص ومن كل عيب ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢] ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ دلائله الدالة على سبل الهدى، وبعد إحكام معانيها فصلت في تعبيرها فجعلت بالتفصيل وهو جعلها ذات فصول تتمايز بها جملها وكلماتها حتى يتيسر تفهمها كلمة كلمة وجملة جملة، وإن كان بعض هذا التفصيل تابعاً لكونها بلسان عربي مبين فهي بينة لمن يتدبرها سليمة من التعقيد، والترتيب بين الأحكام، والتفصيل إنما هو متأخر في الرتبة لا في الزمن.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ كالدليل على أنها أحكمت آياته وأنها فصلت لأن قائلها حكيم جعلها مطابقة لمقتضى الحكمة ومقتضى خبرته بإفهام عباده وما هو أصلح لتفهيمهم وماهم به يفهمون كما أنه خبير بالعبارات بيِّنها وغامضها وغير ذلك من شأنها.

يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ

۝٢ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ هذا من تفسير الكتاب وبيان مضمونه جملة وخلاصة معانية، وقد أجري التعبير فيه عن الرسول ص لأنه والكتاب كالشيء الواحد، فكأن ذكر الكتاب ذكر للرسول وقد مر اعتبارهما كالشيء الواحد، وهو ظاهر في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ..﴾ [الطلاق:١٠-١١] ونظير جعل التعبير عنه ص قوله تعالى في الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يفيد: النهي عن الشرك في العبادة، وتشريع العبادة لله وحده، وأتبعه بقوله: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ﴾ أي من الله ﴿نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ﴾ لأنه ينذر المشركين بعذاب شديد كما هو مبين في موضع آخر من الكتاب، بل وينذر المكذبين بآيات الله وسائر المجرمين المصرين بعذاب النار ويبشر المؤمنين المتقين بجنات النعيم، كل ذلك مبين في الكتاب وعلى المرسَل إليهم تفهم ما أوجزه هنا طلباً للنجاة مما أنذرهم، فهو أمر تدعو إليه فطرة العقول، والعبادة تشمل طاعة الله في العبادات، والمعاملات، والمواريث، والأخلاق، بامتثال أمره واجتناب ما نهى عنه، وتشمل اتباع ما أنزل على رسوله ص.

۝٣ ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ وهذا بيان معطوف على البيان الأول، وقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دعوة للمشركين وهم عامة الناس وجمهورهم يوم نزول الكتاب لم ينج منه إلا القليل وكان الفساد ظاهراً بسبب الجاهلية بالشرك على اختلاف أنواعه وبغيره من المنكرات.

فالمخاطبون بهذا محتاجون إلى طلب المغفرة من ربهم الذي لا يغفر الذنوب إلا هو، وطلب المغفرة يستلزم التخلي عما يستغفرون منه من الشرك وغيره؛ لأن الطلب الجاد الذي هو المراد شأنه ترك الإصرار على ما يستغفر منه الطالب وإلا كان لغواً وهو خلاف المراد، ولذلك رتب عليه وعلى التوبة ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَعًا حَسَنًا﴾ ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي ثم ارجعوا إليه تشبيه للعبد العاصي بالعبد الآبق، فإذا خرج عن العصيان بالإقلاع عنه والعزم على الطاعة والندم على ما مضى والشروع في الطاعة كان كالعبد الذي كان آبقاً فرجع إلى سيده مطيعاً، فظهر أن التوبة تتضمن الطاعة لله ورسوله، فأفاد الإستغفار النطق بالشهادتين في حق من كان كافراً، وأفاد ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ الطاعة لله ورسوله وذلك لفوائد:

الأولى: أفادها قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وذلك يتضمن النجاة من العذاب العاجل الذي يتعرض له الكافرون.

والثانية: الثواب على الإيمان والعمل الصالح والطاعة وذلك هو الفضل الذي به يتفاضل الناس ويؤتونه يوم القيامة بأن يوفوا أجره وهو يعم الواجب وكل قربة وهذا لأنه مع الإستغفار والتوبة يكون مقبولاً بخلاف عمل المجرم فلذلك رتب الوعد المذكور على الإستغفار والتوبة.

الثالثة: أفادها قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وإن تدبروا عن الطاعة ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ﴾ النار وهو عذاب اليوم الكبير يوم القيامة، وصف هنا بأنه كبير، وفي سورة عظيم وذلك لما فيه من القضاء الكبير بثواب لأولياء الله عظيم دائم وعذاب

كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا

لأعداء الله شديد دائم، وما فيه من الأهوال على أعداء الله والبشرى لأولياء الله، وما فيه من جمع الناس كلهم والحكم فيهم لكل نفس بما أسلفت.

۝٤ ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ هذا تمام البيان الذي بدأ بـ(أن) المفسِّرة في قوله: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾حث على الحذر من اليوم الكبير لأنهم إلى الله وحده مرجعهم لا يجدون من دونه ولياً ولا نصيراً ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فهو قدير على إعادتهم بعد الموت وعلى تعذيبهم إن لم يتوبوا وعلى كل شيء، فعليهم أن يحذروا بأسه ويطلبوا رحمته؛ لأنه يفعل ما يريد، ففي هذه الآيات دعوة ينبغي لكل عاقل أن يصغي لها سمعه ويفكر بقلبه ليؤمن بربه ويعبده وحده ويستعدّ لمرجعه إليه فقد أفادت التوحيد والقيامة والنبوة وغير ذلك من مهمات الدين كما ترى.

۝٥ ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه وكأن سببه التعجب من إعراض الكفار عن النذير الذي ينذرهم العذاب الشديد، فإن من شأن العاقل أن يحذر ما يُنذَر، ولكونه أمراً ينبغي التعجب منه أكده بقوله: ﴿إِنَّهُمۡ﴾ من حيث أن شأنه أن يكون بعيداً وقوعه يستبعده السامع.

وقوله تعالى: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ أي يردّون صدورهم مدبرين بعد إقبالهم [كذا] وراجعين عن القرآن مستخفين منه لئلا يسمعوه)) انتهى.

فجعله من ثناه، بمعنى: صَرَفه، وقال الراغب: ((ويقال لِلاوي الشيء: قد ثناه، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾)) انتهى المراد، وله معنيان: ثناه بمعنى: عطفه، وبمعنى ردّ بعضه إلى بعض، وهذا لا يتصور في الصدر، وثناه بمعنى: لواه وصرفه وحوله، وهو الراجح هنا.

وقوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ يحتمل: أن الضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للقرآن فالمعنى فيه: يتحولون بصدورهم ووجوههم ليستخفوا أي لئلا يسمعوه، أو أن الضمير للرسول ص عند تلاوته للقرآن يثنون صدورهم وهم بين الناس ليستخفوا من الرسول حتى لا يعرفهم لئلا يعلم أن قد سمعوا القرآن وقامت عليهم الحجة به، والأقرب أن المعنى أنهم يكرهون سماع القرآن فلكراهتهم لَه يحولون أعاليهم عن وجهته ليتخبئوا منه كراهة لاستماعه كما يستغشون ثيابهم لهذا الغرض.

وعلى هذا: فهم يحولون أعاليهم ويحنون ظهورهم، كما في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) وَحَنْيُ الظَّهْر يفهم من قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ وعلى هذا، فالضمير في ﴿مِنْهُ﴾ للقرآن أي ليتخبئوا من استماعه كراهة له.

﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ كما فعل قوم نوح، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وعيد لهم بسبب ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في تلك الحالة من كراهة القرآن والإصرار على الإعراض عنه، وعلى الكفر ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من ثني صدورهم واستغشاء ثيابهم.

وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ

﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿عَلِيمُۢ﴾ بما هو أخفى من ذلك ذات ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ التي لا تظهر منها إلى اللسان أو الوجه أوالجوارح بل لم تزل مخبوة في الصدور، ولعلها التي تخفى على صاحبها ولا ينتبه لها تحقيق لإحاطة علمه بكل ما يخفى وكل ما يعلن ـ والله أعلم.

﴿٦﴾ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فيها فوائد راجعة إلى ما مرَّ:

فمنها: إفادتها أنه تعالى الرازق فهو المنعم الذي يستحق أن يعبدوه شكراً على نعمه وأن لا يعبدوا غيره من شركائهم؛ لأنهم لا يرزقونهم ولا يملكون لهم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق.

ومنها: إفادتها سعة علمه بأحوال عباده فهو يعلم ما يحتاجون ويعلم إن دعوه لحاجة يعطيها أو لكشف مهمة، فهذه تناسب قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.

ومنها: مناسبتها لقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فخلقه لكل دابة وتكفله برزقها دليل على سعة علمه وقدرته، فهو قادر على البعث بعد الموت لكل فرد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فهو يعلم مستقر كل حيوان كبير أو صغير من الذرة إلى الفيل يحيط علمه بأحوالها أين تستقر من ظهر الأرض، أو بطنها، أو في الجبال، أو في الشجر، أو في أوكار الطيور، أو في الماء، كل دابة على حدة يعلم مستقرها ومستودعها.

وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ

والمستقر: المسكن الذي يسكن فيه الحيوان، أما المستودع: فالراجح أنه محله بعد وفاته من قبر أو غيره سمي مستودعاً لأنه أودع فيه ليبقى إلى يوم البعث، فعلم الله تعالى محيط به أينما كان.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((ومستودعها: حيث كانت مودعة من صلب، أو رحم، أو بيضة)) انتهى، وقد عطف المستودع على المستقر هنا وفي (سورة الأنعام) فيرجح تقدم المستقر قبل المستودع ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي معلوم لا ينسى، كقوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

قال الشرفي في (المصابيح): ((ثم قال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿كُلٌّ﴾ أي من الدواب والأرزاق والمستقر والمستودع ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي في علم الله العليم، ولكنه ضرب المثل بالكتاب المبين، كذا عن القاسم، والهادي، وغيرهما من أئمتنا (عليهم السلام)) انتهى المراد.

﴿٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ وهذه تناسب قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ من حيث دلالتها على قدرته على البعث، وتناسب قوله: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ﴾ من حيث دلالتها على قدرته وعلمه.

وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تنبيه على عظم قدرته حيث خلقها على كبرها في ستة أيام، أي مقدار ستة أيام، وحمل الأيام على أيام الأرض المعهودة أرجح لأنه المتبادر عند العرب؛ ولأنه أنسب للسياق من حيث دل على عظم قدرة الله تعالى حيث خلقها في المدة القصيرة على عظم السموات والأرض.

وكذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت:٩] خطاباً للعرب الذين ينكرون قدرته تعالى على إعادتهم بعد الموت، وتأويلها بأيام من أيام غير الأرض خلاف الظاهر، وتفسيره بمطلق الأوقات يبطل فائدة التحديد بيومين ثم بأربعة أيام، بل لا يبقى لذكر الأيام فائدة تذكر؛ لأن خلقها لا موجب لذكر وقته إذا لم يكن لَه حد محدود مفهوم يؤدي إلى معرفة عظم قدرته تعالى، وتأويله بأطوار الخلق خلاف الظاهر؛ لأن أطوار الخلق من الخلق لا من زمانه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ المعنى: كان سلطانه وأمره على الماء، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: العز والسلطان)) انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي) / : ((قال القاسم × : تأويله وكان [ظن] كل ملك الله على الماء، إذ ليس إلا الماء كما ملكه اليوم على الأرض والسماء وعلى جميع ما فيهما من الأشياء)) انتهى.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ تعليل لخلق السموات والأرض، وبيان أنه تعالى خلقهما ليبلو أي ليختبر الناس أيهم ﴿أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ويترتب على هذا الإبتلاء الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢] ولكن الجزاء للعمل الحسن والأحسن هو بالثواب عليهما، فثواب المحسنين غاية مستقلة مقصودة بخلق السموات والأرض، وذلك أي خلق السموات والأرض من دلائل البعث؛ ولذلك عطف قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ

فهم مكابرون مكذبون بالقرآن الدال بإعجازه على أنه من الله ليس سحراً، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينذرهم عذاباً شديداً، ويبين لهم دلائل قدرة الله وعلمه المحيط بكل شيء فيجحدون البعث والجزاء الذي من أجله خلق الله السموات والأرض فما أضلهم وما أبعدهم عن نفع أنفسهم.

﴿٨﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَخَّرۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ وهذه منهم حماقة عجيبة؛ لأنهم قد تعرضوا لعذاب الله ولو قد نزل لندموا حين لا ينفعهم الندم وليس بالأمر السهل.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٖ مَّعۡدُودَةٖ﴾ معناه: أجل معدود)) انتهى.

ومعنى: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓ﴾ ما يمنع نزوله وإصابتهم به؟ وهو استهزاء بوعد الله ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾حرف تنبيه ينادي بغفلتهم المهلكة لهم ﴿أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ العذاب لا يرتد عنهم ولا يصرفه عنهم صارف لا إيمان عنده ولا قوة ولا ناصر ولا شافع ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أحاط بهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ وضع يستهزئون موضع يستعجلون؛ لأن استعجالهم كان على جهة الإستهزاء)) انتهى.

ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا

﴿٩-١١﴾ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ * إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ **نعمة شأنها أن تبعثه في كل حال على رجاء الخير منا؛ لأنها رحمة مبتدأة فمن حقه لو استعمل عقله أن يرجو من ربه مثلها وأمثالها** ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ **نزعنا منه تلك النعمة فمصائب الدنيا كلها إنما هي نزع نعمة.**

﴿إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ﴾ **كثير اليأس والقنوط من رحمة الله** ﴿كَفُورٌ﴾ **لنعمة الله فهو ينساه ويغفل في حالة اليأس عن كون الخير من ربه ينعم به على عبده ابتداءً وقد كان في نعمته قبل نزعها فكيف لا يرجو منه الخير** ﴿كَفُورٌ﴾ **يحتمل كفور لنعمة ربه، ويحتمل** ﴿كَفُورٌ﴾ **بقنوطه:** ﴿**إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّـهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكَافِرُونَ**﴾ [يوسف:٨٧] **وصح بعد قوله:** ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾ **لتعدد المفهوم، فكأنه قال: يؤوس كفور بقنوطه.**

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ﴾ **قد وجد لذتها وتحققها** ﴿بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ **من فقر أو غيره** ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ **ذهب عني ما يسوءني وصلحت حالتي لا يهمه إلا نفسه، فإذا زالت عنه الضراء ووجد لذة النعماء لم يشكرها بل يفرح بها ويفخر على غيره بها فيقول:** ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ **سروراً بها واطمئناناً إليها وفخراً على من ليس لَه مثلها، وما كان ينبغي للإنسان إلا أن يصبر عند البلاء، ويشكر ربه عند الرخاء.**

يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ١٢ أَمۡ يَقُولُونَ

وقد استثنى الله المؤمنين فقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ لأنهم يصبرون على بلاء الله وتقواه ويعملون الصالحات شكراً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفات ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لخطيئاتهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ على أعمالهم الصالحات، فبشرهم بالنجاة من العقاب والفوز بالثواب وهذه الأيات تدل على أن الإنسان أقرب إلى الكفر والغرور منه إلى الإيمان والشكر ولذلك رتب على ما حكى عن الكفار من العناد قوله تعالى:

١٢ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ فثقيل عليك تبليغهم حتى كأنك تعجز عن بعضه مع شدة كتمانه عليك وضيق صدرك بحيث إنك تطلب التنفس بتبليغه من جهة ضيق صدرك عن كتمانه ويثقل تبليغهم من جهة عنادهم وبعدهم عن قبوله وكراهتك أن يقولوا كفراً وجدالاً بالباطل ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ أي على محمد ﴿كَنزٌ﴾ لأنه لا يهمهم إلا الدنيا وأغراضها ويعتبرونها الخير كله ومن قولهم الذي تحاذره ﴿أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ رسولاً إلينا احتقاراً لمحمد ص لقلة ذات يده وقلة أتباعه في أول الإسلام فيرونه ليس أهلاً للرسالة وحده ولو كان معه ملك لكان عندهم أهلاً أن يؤمنوا به لمكان الملك.

فردّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞ﴾ تنذرهم العذاب الشديد فلا تحتاج إلى كنز ولا إلى مقارنة ملك رسول معك؛ لأن الإنذار يتم بدون ذلك،

ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ

ولا تدعي أمراً يتوقف على الكنز أو المَلَك، وقد تم الإنذار بآيات الله الدالة على صدقك ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ﴾ فأمرهم إليه وإليه مآبهم وعليه حسابهم فكِل أمرهم إليه واثبت على إنذارهم وتبليغهم.

١٣ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ إضراب عن توقع قولهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ إلى السؤال أيقولون: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي افترى هذا القرآن على الله وليس من الله.

﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله فإن كنتُ افتريتُه ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ في الحكمة والإحكام ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ تفترونها أنتم وغيركم، فإنه إذا أمكن أن افتريه أمكن غيري أن يأتي بمثله مفترى، وهذا جواب مسكت؛ لأنهم أرادوا أن القرآن ليس معجزة، فإذا لم يكن معجزة فليأتوا بمثله.

وقوله ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ تعجيز لهم بأن يأتوا بحديث مثله في حكمته وإحكامه وإنما تذكر السورة والعشر لتوضيح عجزهم، وإذا عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فهم عاجزون عن الإتيان بعشر، ولا تعارُض لأنهم إذا عجزوا عن الإتيان بعشر، فقد تحداهم في موضع آخر بسورة فلو استطاعوا سورة وجاءوا بها لأبطلوا التحدي بسورة.

وإذا بطل التحدي بسورة بطل التحدي بعشر؛ لأن ما كان من مقدور البشر لا يختلف فيه السورة الواحدة والعشر في إمكان الإتيان به غاية ما في الأمر أن تحتاج العشر إلى وقت أطول أو إلى أعوان أكثر فلوا استطاعوا السورة لاستطاعوا العشر.

ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

فإن قيل: فما فائدة ذكر العشر؟

فالجواب: إن المكابر يصلح لَه ما هو أوضح في عجزه لإسكاته مع أن التحدي بالعشر صحيح؛ لأنه لو كان القرآن قول البشر لاستطاعوا العشر لأنه لم يحدد لها وقتاً ولا عدداً من الناس أو غيرهم، بل قال: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم﴾ أي ليعينكم على تحصيل العشر السور، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يطابق قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ لأنهم أرادوا ليس من الله فتحداهم أن يأتوا بعشر ليست من الله، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي في قولكم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾.

﴿١٤﴾ ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ ﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أي مَن دعوتموهم لمعاونتكم على الإتيان بعشر سور من مثله لم يستجيبوا لكم إلى الإتيان بعشر والمعاونة عليها؛ لأنهم آيسون من ذلك لعلمهم أن هذا القرآن معجز.

﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها الكافرون بوضوح الدليل القاطع أنه من الله أنزله بعلمه بالحكمة والإحكام الذي يعجز البشر عنه لقصور علمهم وعلمه تعالى محيط بكل شيء بالحكمة التي لا يحيط بها البشر والإحكام الذي يعجز عن مثله البشر ومحيط بقلوب البشر ونفسياتهم وما هو أحسن أثراً فيها من أسلوب التعبير وغيره لمن يهتدي بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي واعلموا أن لا إله إلا هو؛ لأن الله قد بيَّن في القرآن أن لا إله إلا هو، وقد صح أن القرآن كلام الله أصدق القائلين، فالحجة هذه تثبت أن القرآن كلام الله وتثبِت بطلان الشرك وأن لا إله إلا الله.

ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن

وقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي بعد وضوح هذه الحجة هل أنتم مسلمون لله وجوهكم مخلصون لَه العبادة؟ لأنكم قد دعوتم من استطعتم ليعينوكم ممن هو مظنة إسعادكم لمشاركته لكم في الكفر وحرصهم على حماية دينهم وإبطال دين محمد ص فأبَوا وهذا طبيعي أن لا يدعوا إلا من هو عندهم مظنة إسعادهم دون المؤمنين.

١٥-١٦ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ يريد أن يعيش في هذه الحياة العاجلة ﴿وَزِينَتَهَا﴾ يريد المال والبنين وسائر ما تتزين به الحياة الدنيا من شهواتها، والمراد إرادتها القوية التي تكون أرجح من إرادة الآخرة، فالمعنى من كان يختار ويؤثر الحياة الدنيا وزينتها، بدليل المقابلة بينه وبين من يريد الآخرة في غير هذا الموضع ﴿نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا﴾ نوصل إليهم ثمرة أعمالهم وفائدتها على ما جرت به سنة الحياة الدنيا تمهيلاً لهم واستغناءً عن عملهم للآخرة فإذا حرث أحدهم وبذر نال ما يناله غيره من الزرع، وهكذا سائر الأسباب وإن إختلف الناس في تحصيل مطالب الحياة بسعيهم، فليس المراد إلا أن اختياره للدنيا وزينتها لا يمنع في الغالب من تحصيل ما جرت به سنة الحياة وأسباب الرزق والمطالب، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [الشورى:٢٠] وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨] وما حصل من فائدة عمله فهو توفية عمله قليلاً كان أو كثيراً؛ لأنه ثمرته وفائدته.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون في الدنيا شيئاً من سعيهم لها، وهذا مطلق مقيد بما إذا استحق عقوبة عاجلة واقتضت الحكمة تعجيلها فهو عارض بالنسبة إلى العادة، وذلك مثل ما أصاب آل فرعون من النقص في الثمرات لعلهم يذكرون، ومثل ما أصاب أصحاب الجنة المذكورين في سورة نون، وما هو مشاهد مما يصاب به الناس في أموالهم مما ظهوره للسامع يغني عن استثنائه في الكلام.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الهادي × ﴿أُولَٰئِكَ﴾ فهم الأوَّلون المذكورون بالميل إلى الدنيا وزينتها والرضى بما فيها من زخرفها دون ما هو خير منها، فأخبر الله سبحانه أنه لا نصيب لهم في الآخرة..» إلخ.

وفي هذه الآية دلالة على أنهم لا يدخلون الجنة ولا يخرجون من النار، وقوله تعالى: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي حبط في الآخرة ما صنعوا في الدنيا فلم ينفعهم في الآخرة وإن كان من عمل الخير كالإحسان إلى الناس والأعمال الدينية التي لم يعملوها إلا للعادة والعرف وللحذر من أن يعيب الناس عليهم تركها لا للتقرب إلى الله والإخلاص لَه أو كانت مقرونة بالجرائم والإصرار عليها فلم تكن مقبولة.

وقوله تعالى: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الباطل هنا مثله في قول موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٩] فالمراد: أن عمارة الدنيا وخدمتها التي ضيعوا أعمارهم فيها وأتبعوا أنفسهم فيها قد ضاعت وصارت كأن لم تكن من حيث بطلان نفعها ومصيرها كالأحلام، وهاتان الآيتان تضمنتا وعيد القائلين: ﴿افْتَرَاهُ﴾ لأن الباعث لهم على الكفر إيثار الدنيا وزينتها.

قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قلتم فيه: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وهو على بينة من ربه بينت لَه أن القرآن هو الحق من الله ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يتبعه في أنه على بينة من ربه ﴿شَاهِدٌ﴾ بصدقه شهادة مبنية على بيِّنة من ربه، وهذا الشاهد هو الإمام علي × جعله الله لمحمد ص كما جعل لموسى هارون رداً يصدقه، ويدل على أنه الشاهد قول الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٤٣] فقد دل على أن من عنده علم الكتاب شهيد بصدقه ص وعلي × هو الذي عنده علم الكتاب جملة وتفصيلاً.

أما جملة: فعلمه أنه من الله، وأنه الحق يهدي إلى التي هي أقوم، ونحو هذا من صفاته جملة، وأما تفصيلاً: فلإحاطته بمعانية على التفصيل، أما دلالة الكفار على صدق شهادة علي × فهي سلوكه في اتباعه للنبي ص وجِدّه في نصرته، وصبره على تحمل الشدائد في ذلك في حال قلة المؤمنين وضعف حالهم، مما يدل على أنه على بصيرة من أمره، وبينة من ربه، ورسوخ في إيمانه، فهو شاهد لَه بالصدق؛ بعمله وتفانيه في نصرته، مع شهادته لَه بلسانه.

وهذا مع الروايات الواردة في أنه × هو الشاهد، وفي أنه الذي عنده علم الكتاب: ففي (الدر المنثور) للسيوطي: ((أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه.

وأبو نعيم في (المعرفة): عن علي بن أبي طالب ا قال: ما من رجل من قريش إلا نزل فيه طائفة من القرآن، فقال له رجل: ما نزل فيك؟ قال: ((أما تقرأ (سورة هود): ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ رسولُ الله ـ صلى الله عليه ـ على بينة من ربه، وأنا شاهد منه)).

وأخرج بن مرودیه، وابن عساكر: عن علي ا في الآية قال: ((رسول الله على بينة من ربه، وأنا شاهد منه)).

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن علي ا قال: قال رسول الله ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ((أنا)) ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: ((علي)) انتهى، وقد أورد روايات مخالفة بعيدة لا تناسب قوله: ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أو قوله: ﴿شَاهِدٌ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح) بعد ذكر الأقوال المخالفة في تفسير (الشاهد): واعلم أن الأقوال كلها ملفقة ضعيفة، بل هي تشكيك في معنى الآية لا بيان، والحق: أن المراد بالشاهد علي × كما مر دليل ذلك يتلو النبي ص أي يتبعه شاهد على الأمة منه، أي من لحمة النبي ص، وهذا تفسير أئمة الهدى أهل البيت (عليهم السلام)، ومروي عن علي × وغيره.

من ذلك: ما روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني في كتابه (شواهد التنزيل) بإسناده إلى المنهال بن عمرو، عن عبد الله، عن علي × : ((﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: هو رسول الله ص ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: أنا الشاهد منه)) قال الحاكم: وله طرق عن الأعمش وطرق عن المنهال والحارث عنه أي علي × .

وروى الحاكم ـ أيضاً ـ بإسناده إلى ابن عباس: ((﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قال: هو النبي ص ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ قال: هو علي بن أبي طالب ×)) ذكر الحاكم روايات كثيرة تضمّن هذا المعنى.

وقوله: ((رسول الله ص على بينة من ربه)) موافق لقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨].

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وكتاب موسى هو (التوراة) ﴿إِمَامًا﴾ قائداً متبوعاً ﴿وَرَحْمَةً﴾ نعمة وهدى فهو مصدق لرسول الله ص بالتبشير به وذكر علاماته، ويحتمل أن المراد أن الله قد أنزل التوراة على موسى ليتّبعها ويهتدي بها بنو إسرائيل، فكيف لا ينزل القرآن على محمد ص إماماً ورحمة، والعرب في أمس الحاجة إليه، أو من قبله كتاب موسى.

وهذا القرآن مصدق لذلك الكتاب، مطابق له في أصل الدين، كقوله تعالى في (سورة الأحقاف): ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [آية:١١-١٢] وهذا الوجه أقرب عندي ـ والله أعلم.

ويمكن الجمع بين الوجهين الأخيرين وهما يفيدان معنى الوجه الأول، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي من كان على بينة من ربه مؤكَّداً بالشاهد منه وبمكانة كتابه من كتاب موسى يؤمن به أي بالقرآن، وإن قال المكابرون: ﴿افْتَرَاهُ﴾.

ووجه الجمع مع كون مدلوله فرداً: أن الكلام فيه خرج مخرج الإبهام الذي يصلح للكثير والقليل، وفائدته: التعليق على الصلة وما عطف عليها من غير نظر إلى أنه محمد ص فمفهومه غير محدود بفرد، وإنما كان مدلوله فرداً لأنه الذي صدق عليه الكلام وحده فناسبه الإتيان بعبارة الجمع في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ولعل من هذا الباب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥].

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ فالنار مكانه الذي وعد الكون فيه، و ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ جمع حزب يعم أحزاب الكفار من قريش ومن معهم ومن اليهود ومن النصارى وغيرهم.

قال الراغب: ((الحزب: جماعة فيها غلظ، يعني كثرة)) وفي (الصحاح): ((حزب الرجل: أصحابه ـ ثم قال ـ : والأحزاب: الطوائف التي تجتمع على محاربة الأنبياء (عليهم السلام)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((الحزب: جماعة الناس، والجمع: أحزاب، والأحزاب: جنود الكفار، تألَّبوا وتظاهروا على حزب [كذا] النبي ص وهم: قريش، وغطفان، وبنو قريضة ـ ثم قال ـ : وحزب الرجل: أصحابه وجنده الذين على رأيه والجمع كالجمع..)) إلخ.

فظهر: أنه يستعمل مفيداً لمعنى التحزب والتعاون، أو اتحاد الطريقة.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن أي اثبت على يقينك به وإيمانك، وإن قال الكفار: ﴿افْتَرَاهُ﴾ وإن كثر الكافرون به وقل المؤمنون ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ولهذا تكون به محقاً والكافرون به مبطلين فأنت على الحق والكافرون على الباطل، فلا تلتفت إلى كلامهم في القرآن ولا إلى كثرتهم.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فسبب كفرهم عدم صلاحيتهم للإيمان لميلهم إلى الباطل واتباعهم أهوائهم لا كون القرآن محل مرية، فإعجازه المعلوم يدفع ذلك وكذا رسول الله ص لا يكون في مرية منه لأنه معصوم وهو أول المؤمنين ولكن هذا تعبد لَه يثاب على الطاعة فيه وليستفيد به غيره ـ والله أعلم.

أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ١٩ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يفيد: أنه الحق من المالك المنعم فلا خيار لعبده في قبوله أو ردّه أو في الإيمان به أو الكفر به.

١٨ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؟ سؤال في معنى النفي يفيد أنه لا أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذا الظلم ﴿يُعۡرَضُونَ﴾ يوم القيامة ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ يوم الحساب والجزاء ﴿وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ وهم الأنبياء شهود على من عرفوه في عصرهم والهداة من بعدهم في كل أمة شهيد منهم، ولعل من الأشهاد الملائكة الكاتبين لأعمال الناس وتأديتهم للشهادة تنديد بالظالمين وفضيحة لهم وتوبيخ.

﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾ مستمرة ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي طردهم من رحمة الله ففي الدنيا طردوا من رحمة الله بأن لم يوفقوا للتوبة وخذلوا حتى ماتوا مطرودين من رحمة الله وحشروا ملعونين وعرضوا على الله ملعونين لا نصيب لهم من رحمة الله.

١٩ ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ هذا تفسير للظالمين الملعونين اللعنة المذكورة ولا ينافي أن غيرهم ملعون إذا استحق مثل لعنتهم وإنما السياق في المكذبين بآيات الله الذين ﴿يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فخصهم بالذكر زجراً لهم وتحذيراً لغيرهم ـ والله أعلم.

مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠ أُوْلَٰٓئِكَ

وقوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إن كان يصدون الذي مصدره الصد فمعناه يصدون غيرهم وهو أظهر هنا؛ لأنه أوفق للسياق، وإن كان من الصدود فمعناه يعرضون، وسبيل الله دينه الذي ارتضاه لعباده.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ يتطلبون لها عوجاً والعوج ضد الإستقامة والإستواء وذلك بجدالهم فيها أي في سبيل الله وتقوّلهم فيها، ولعل تكرار الضمير في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ للتأكيد من حيث أن السياق في ذكر أسباب لعنتهم الدائمة لفتاً للسامع إليهم ليكونوا عبرة لغيرهم والله أعلم.

٢٠ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ﴾ هذه الآية الكريمة تمثل حالهم في موقف العرض على الله حين تذكّر بما كانوا عليه من كراهتهم للحق، وإعراضهم عن سماع آيات الله وإبصار دلائل الكون، بسبب كراهتهم للإيمان، واستكبارهم عنه، حتى كأنهم ما كانوا يستطيعون ولا كان لهم بصر يبصرون.

وتبيّن الآية استحضاراً لذلك الموقف أنهم لم يكونوا معجزين في الأرض فلو شاء لعجل لهم العذاب في أول كفرهم لكنه لحكمته أخرهم حتى انتهى أجلهم الذي أجل لهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ كما كانوا يزعمون في الذين اتخذوهم من دون الله أولياء فلم يكونوا في الدنيا ينفعونهم ولا هم في الآخرة ينفعونهم فاليوم يضاعف لهم

ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ

العذاب بتضاعف جرائمهم وصدهم غيرهم عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت:١٣].

﴿٢١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ وهذه الآية تستحضر حالهم يوم القيامة كالتي قبلها ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ اليوم لأنهم لم يبعثوا إلا للجزاء لا لأي متاع لهم فحياتهم وأنفسهم ليست لهم إنما هي للنار ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ ضاع عنهم ما كانوا يفترونه في الدنيا، فلا شركاء ولا شفعاء، ولا شيء مما كانوا يمنُّون أنفسهم.

﴿٢٢﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً ﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ لأنه خسران بفوات كل خير والخلود في العذاب الشديد الدائم فأي خسران أعظم من هذا مع أنهم مفضلون على غيرهم في العذاب يضاعف لهم على قدر جرائمهم ففضلوا بذلك في التعبير عن الخسران بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾ الإخبات لله شأن كل مؤمن، ولعله ذكر هنا ليقابل وصف الكافرين المعاندين المتمردين، فهؤلاء خاشعون لله متذللون وإليه متقربون، والكفار على عكس ذلك.

كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ

قال في (الصحاح): ((الخبت: المطمئن من الأرض فيه رمل، والإخبات: الخشوع، يقال: أخبت لله)) انتهى المراد، والراجح: أنه مضمن معنى الرجوع إلى الله والتقرب إليه فعدي بـ﴿إِلَىٰ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد ×): ((﴿وَأَخۡبَتُوٓاْ﴾ معناه: أنابوا وتواضعوا)).

﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ أي الكفار المذكورون سابقاً، والذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ كالذي اجتمع عليه العمى والصمم، وفائدة العطف الإشارة إلى تعدد أسباب الضلال عن الطريق على الأعمى كأنه قيل أعمى وأنضاف إلى عماه أنه أصم، ففي هذا نوع بلاغة ليس في قولك أعمى أصم، وكذلك قوله تعالى في مقابل ذلك ﴿وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ فقد تعدد سبب اهتدائه للطريق فالعطف في الموضعين، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

والعطف في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَصِيرِ﴾ عطف المقابلة بين الشيئين أي هو عطف لازم لاختلاف الأعمى الأصم والبصير السميع، فهو عطف وصفين لواحد على وصفين لواحد، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ فجعل الأعمى والأصم واحداً والسميع والبصير واحداً، والتباين بين الفريقين على هذا أوضح وأقوى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ فقوله: ﴿كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ﴾ تشبيه للكافرين بمن جمع بين العمى والصمم في عدم الإنتفاع بما

إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ

يُسمَع ويُبصَر من دلائل الهدى، وقوله: ﴿وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ تشبيه للمؤمنين بمن جمع بين الصحة [كذا] والبصر والسمع لانتفاعهم بما يُسمَع ويُبصَر من دلائل الهدى والحق)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ سؤال يفيد النفي أي لا يستويان في الصفة، فالأعمى الأصم مظنة الضلال والغلط والتيه في سيره بغير هدى، والبصير السميع سبيل الهدى ميسر له، فهكذا الكافر والمؤمن العامل الصالحات المخبت إلى ربه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تَذْكُرون بالتذكير أم أنتم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات:١٣] والتذكُّر الإنتباه لما كان منسيًّاً أو حضوره في الذهن، فأما الذكر فيكون لبقاء الشيء في الذهن مع عدم نسيانه من قبل أو بعد نسيانه.

﴿٢٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ هذا ابتداء قصص بالحق فيه عبرة للمكذبين بخاتم المرسلين ص وفيه تسلية له ص ليتأسى بالرسل الأولين الذين كذِّبوا فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصر الله ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ تفسير لما أرسل به إلى قومه وهي كلمة مهمة تلفت أنظار العقلاء وتدعوهم إلى النظر في صدقه طلباً للنجاة مما أنذرهم على تقدير صدقه وهو الواقع، فالحكمة أن يبدأهم نبي الله بها في تبليغ الرسالة، وقوله:

﴿٢٦﴾ ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ كالتفسير لما ينذرهم وهو العذاب ولسببه وهو ترك عبادة الله وحده، ووصف يوم العذاب بأنه أليم تعبيراً عن شدة ذلك وهوله العظيم.

أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ ﴿فَقَالَ﴾ **عطف على ﴿أَرْسَلْنَا﴾ قابلوا كلامه بمجرد التعبير عن الشك الذي لا تبطل به حجة النذير.**

وقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ استبعاد لإرسال بشر إليهم، أي لو أرسل الله رسولاً لجعله ملكاً، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ أي أنك لو كنت على حق لكنا أولى به فكنا أتباعك لأنا أعرف بالحقائق، كقولهم: ﴿لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [الأحقاف:١١] وقولُهم: ﴿أَرَاذِلُنَا﴾ إحتقار لهم؛ لفقرهم أو نحوه لا غير.

قال في (الصحاح): ((الرذل: الدون الخسيس)) انتهى، وقال الراغب: ((الرذل، والرُّذَال: المرغوب عنه لردائته، قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ [النحل:٧٠])) انتهى المراد، وأراذل: جمع أرذل، ففيه مبالغة لتحقير أتباع نبي الله.

وقوله: ﴿بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ﴾ أي بسبب رأي بدا لهم لا لأنهم نظروا نظراً كاملاً، وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ﴾ أي تستحقون به أن تكونوا متبوعين ونكون تابعين لكم، وهذه مبالغة في الجدل، جعلوا اتباع النبي ص اتباعاً لمن قد اتبعه بعد أن جعلوهم الأراذل ليبَعِّدوا اتباعهم للنبي ص.

وقولهم: ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ جعلوه واحداً من أهل الدعوة لهم تكذيباً منهم لَه وزعماً أنه هو والذين اتبعوه سواء ليس لَه مزية الرسالة،

فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم

وقولهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ﴾ ﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ﴾ مبالغة في الجدل بإسناده إلى مشاهدتهم وإلى قلوبهم زعماً أنهم لا يعملون صدقه بقلوبهم ويجحدونه بألسنتهم، ونظيره قول فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١].

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ هذا لفتٌ لأنظار قوم نوح وتنبيه لهم لكي يتركوا الإعراض عن النظر الصحيح ويفكروا فيما جاء به من البينات الدالة على صدقه في أنه رسول من الله ونذير لهم.

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أخبروني عن حالكم وشأنكم في إعراضكم ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ تدل على صحة ما جئت به وصدقه، افرضوا هذا وقدروا لتعرفوا ما أنتم عليه من الخطر العظيم وتعرفوا أن السبب في جهلكم من عندكم، وبسبب إعراضكم عن الآيات البينات إذا فكرتم فيها ونظرتم نظر إنصاف وطلب للحق.

﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ ربي ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ وهي هداه لي ولمن تبعني إلى طريق الحق وعبادته وحده ورفض الشرك، افرضوا هذا وقدِّروه لتعرفوا أنكم على خسارة بفوات ذلك إذا نظرتم، أو تعرفوا احتمال أنكم على خطر عظيم بسبب ترك النظر والإنصاف.

فشأن العاقل: أن ينظر ليتخلص من هذا الإحتمال؛ لأن النظر ممكن، وإنما أظلمت عليكم طريقه لفرط كراهتكم لَه المانعة من النظر والداعية إلى الإعراض، أنلزمكم رحمة الله التي آتاني من عنده حتى تعرفوا الحق وتؤمنوا بي

مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن

وتعبدوا الله وحده بإلصاق ذلك منا في قلوبكم وألسنتكم وأعضائكم ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ تأبون الإصغاء لما أقول والنظر في صحته بإنصاف، ولقد رفق بهم في هذا الجواب ودعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة فيما مضى منه وما يأتي.

٢٩ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فلا عذر لكم بخوف مغرم يثقلكم إن اتبعتموني ما أجري إلا على الله الذي أرسلني وكلفني تبليغ الرسالة.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فليس ذلك جزاؤهم في إيمانهم بي وبما جئت به من الله ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾ فأمرهم إليه وحده ليحاسبهم ويجزيهم بما عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ولا دخل لي في ذلك ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ بالإساءة التي هي من الجهالة والسفاهة وبمقابلة الآيات بالإعراض والعناد.

٣٠ ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡ﴾ لأنه لا ذنب لهم يوجب طردهم، لأن الفقر وضعف الحال لا يوجب طردهم، والإيمان لا يوجب إلا تكريمهم، فلو طردتهم لعصيت الله بظلمهم، ولم يكن لي ناصر يدفع عني عقوبته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتذكرون وإن ذكّرتم ما تقضي به العقول وتحكم به الفطرة مثل ما ذكرتكم في هذا الكلام الماضي والآتي.

يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾

﴿٣١﴾ ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ فقولكم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ لا حجة لكم فيه، لأني لا أدعي امتيازاً عليكم بأن عندي خزائن الله التي يرزق منها عباده، ولست أعلم الغيب حتى أدعي امتيازاً بعلم الغيب ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٞ﴾ حتى تعارضوني بقولكم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا﴾ إنما أمتاز بما قد ذكرت لكم من الرسالة وما إخباري لكم ببعض المغيبات لأني أعلم الغيب.

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ﴾ تحتقرهم أعينكم لضعف مظاهرهم لفقرهم وضعف حالهم لا أقول فيهم ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فالله يؤتي الخير من آمن واتقى.

ولا دخل للمال والولد والمظاهر الدنيوية في التقريب إلى الله، فلا يصح أن أقول: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ وظاهرهم الإيمان والتقوى الذي هو سبب الخير؛ لأن الله هو الذي يعلم ما في أنفسهم إن كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لو قلت: ﴿لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًا﴾ لأنه ظلم لهم وقول على الله بغير علم وبهذا تمت الحجة عليهم وانقطعت معاذيرهم.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وهذا يفيد إصرارهم على الكفر والإعراض عما ذكرهم به وعما احتج عليهم به، فركنوا إلى ما يدعو إليه الجهل والكبر من هذا التحدي ليوهموا أنهم على معرفة بأنهم على الحق فخاطروا بأنفسهم باستعجال العذاب حماقة وسوء نظر لأنفسهم ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من عذاب يوم أليم.

يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فهذا جواب عن قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وهو إنما أنذرَهم عذابَ الله، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي أنتم لا تدفعون العذاب بقوة فلا تُعجِزُوا عن تعذيبكم إذا شاء الله أن يأتيكم به، وقد يؤخذ من إطلاق قوله: ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ أنكم ما أنتم بمعجزين، سواءً أتاكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهذا جواب عن قولهم: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ يفيد: أن جداله لهم نصح لهم، لكنه لا ينفعهم إن كانوا قد استحقوا من الله عقوبة الخذلان الذي تترتب عليه غوايتهم لا محالة، حتى كأن الخذلان هو الإغواء نفسه، فهو كقول نبي الله هود لقومه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف:٧١].

إلا أن هوداً × قال: ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ **ونوحاً** × قال: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ وكيف لا يترتب على خذلان العبد غوايته، والشيطان مسلط على من اتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] فالإغواء مرتب على طاعتهم للشيطان، ومحاربتهم لدين الله بالجدال في آيات الله.

وليس إغواء ابتداء، بل عقوبة اتباع الشيطان، والتمرد على الله، خذلوا فدعاهم الشيطان إلى ما تهواه أنفسهم، فأجابوا لاتباع هواهم باختيارهم، فلذلك كانت الغواية لازمة لخذلانهم وتركهم للشيطان الذي هو عقوبة

التمرد على الله ومحاربة دينه، فلهذا لا يكون نبي الله نوحاً يدعي معارضته لمراد الله الذي أرسله إلى قومه لينذرهم، ولكنه اختصر الكلام ليبين أنه لا سبيل لنفع النصح إن كانوا قد خذلوا وعبر عن ذلك بإغواء الله ليفهموا أنه أمر لا ينفع معه نصح؛ لأنه لا سبيل إلى تخليصهم من الخذلان لأنه أمر الله الغالب على أمره.

فالحاصل: أنه أراد أن يُفهِمهم أنه لا ينفعهم نصحه إن كان الله يريد أن يغويهم ليعلموا أن السبب غوايتهم لا عدم الحجة عليهم ولم يكن بصدد بيان كيف كانت غوايتهم المنسوبة إلى الله؛ لأنهم كفار لا يقبلون منه التفصيل ولا يلتفتون إلى التطويل في التعليل لبيان أن هذا الإغواء لا ينافي عدل الله وحكمته؛ لأن الإغواء هو التسبيب للغواية والتسبيب حق لأنه عقوبة وهو مجرد الخذلان وكونه سبباً ليس موجباً للمسبب بل ترتب عليه باختيارهم لطاعة الشيطان فلذلك كان سبباً، وقد يكون الشيء الواحد سبب هدى وسبب ضلال؛ لأن المهتدي جعله سبب هدى، والضال جعله سبب ضلال؛ ولذلك قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

ومثال ذلك: النعمة يستعين بها المؤمن على طاعة الله ويجعلها سبباً للشكر، ويستعين بها الكافر على الباطل ويجعلها سبباً للطغيان والبطر، فكانت النعمة سبباً غير موجب، وصاحبها هو الذي جعلها سبباً فكذلك الخذلان وإن كان لا يصلح سبباً للخير، وليس الإغواء في اللغة إلا التسبب للغواية، كقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ [القصص:٦٣] فأما دعوى أن الإغواء خلقُ الغواية فهي مخالفة للغة العرب ولا دليل عليها ولكنه التسبيب ولا يكون من الله إلا بالحق كما بينت.

إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ

وأما قوله × : ﴿هُوَ رَبُّكُمۡ﴾ أي مالككم، فهو يبين: أنه أولى بهم من نبيه، وأنه يفعل فيهم ما يشاء من العقوبة التي استحقوها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره من شركائكم ولا غيرهم ترجعون ليجزيكم بما قدمتم فلم يترككم على غوايتكم إلا لأنه يجزيكم بعقابها فلا بد من عقابكم فلا تستعجلوه بقولكم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ فهذه قصة قوم نوح حين جاءهم الرسول وكذبوه وما دار من الجدل بينهم وبينه وإصرارهم وطلبهم تعجيل العذاب.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ بل أيقول الكافرون بك يا محمد ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي افترى هذا القصص الذي هو حق وعبرة لهم، ودليل على أن الله أوحى إليك هذا الذي قد علمته من أخبار الأمم الماضيين ورسلهم وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك بل نشأت في الأميين فلم تعلمه إلا بوحي من الله وقد رد الله عليهم فيما مر قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ أي هذا القرآن.

﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد إن افتريت هذا القصص وهذا القرآن ﴿فَعَلَيَّ﴾ وحدي ﴿إِجۡرَامِي﴾ أي ذنبي وجنايتي ليس عليكم منه شيء وأنا بريء مما تجرمون متكرراً منكم من الشرك وغيره من إجرامكم ليس علي منه شيء ولا أرضاه ولا أشارككم فيه بوجه لأني قد نهيتكم ونصحتكم وأبلغت جهدي في ذلك فلم تقبلوا مني فلا يضرني ما تجرمون.

ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن

وبعد هذا تأتي (قصة نزول العذاب على قوم نوح ×) وقد تخلل بين القصتين الفصل بقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ لأنهما قصتان كل واحدة مستقلة بفائدتها وما سيقت لَه، ولولا الفصل لكانتا قصة واحدة، فالأولى تفيد: دعوة الرسول قومه إلى توحيد الله، وإنذاره لهم من عذاب الله، وإخباره أنه رسول من الله، فهي تفيد مهمات من أصول الدين، وتفيد تسلية رسول الله ص حين كذب قومه بما جاء به، وقالوا ﴿افْتَرَاهُ﴾ بأنَّ من قبله من الرسل كذبهم قومهم، والقصة الثانية تفيد نزول العذاب بالمكذبين على التفصيل المذكور فيها، وتفيد ذكر مقدمات نزول العذاب وكيف نجا منه المؤمنون وكيف عم المجرمين.

﴿٣٦﴾ ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ فما بقي موجب أو سبب لتأخير العذاب العام لمن لم يؤمن لأنه لم يبق فيهم من يؤمن فيؤخر العذاب حتى يؤمن ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تبتئس لا تحزن حزن بائس ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ من الشرك والظلم والتكذيب الذي استمر منهم زمناً طويلاً؛ لأن الله منتقم منهم ومنزل عذابه العاجل، فقوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ تقدمة للأمر بصنع السفينة لينجوا من الغرق ويهلك من لم يؤمن.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السفينة، وقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ تحت رعايتنا وتدبيرنا لك ووحينا لك كيف تعملها، ومن أي أجناس الخشب تعملها، وكيف تجعلها ألواحاً عراضاً، وكيف تجعل غلظ كل لوح، وكيف تنظم بعضها إلى بعض بالمسامير، وكيف تجعلها حتى لا يدخلها الماء لا من تحتها ولا من أي جهة، ونحو ذلك.

تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ

﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾ الخطاب القول الموجه إلى المقول لَه، فهو يتضمن النهي عن المطالبة بتأخير العذاب أو بإنجاء بعضهم، ويتضمن النهي عن السؤال عن تعذيبهم أو تعذيب أحد منهم كيف لم يكن أو كيف لم يعجل أو غير ذلك من السؤالات، وهذه عبارة غضب ودلالة على أن الحكم لَه فيهم لا يسأل عما يفعل، وهي مقدمة لقوله: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ لئلا يخاطبه بعد قوله له: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ فليس له أن يجادله مثلاً فيهم أو في بعضهم.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ تنبيه على أن العلة في الغرق وغضب الله عليهم هي ظلمهم الواقع منهم بالشرك والتكذيب والجدال في الحق وغير ذلك الجملة كل جرائمهم فهي ظلم وجور استحقوا بها العذاب العاجل لكونها ظلماً أي حيفاً وجوراً.

﴿٣٨﴾ ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ مضارع لاستحضار الحال الماضية كأنها واقعة الآن ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ﴾ جماعة أو جماعة من كبراء قومه ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُ﴾ استجهلوه واستهزؤا به مثلاً، كما روي يقولون: صرت نجاراً وكنت نبياً؟ ويقولون: كيف تصنع سفينة عظيمة في البر بعيدة من البحر، ولا يمكن نقلها لعظمها وما تصنع بسفينة في البر حيث لا ماء.

﴿قَالَ﴾ نوح × : ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ نستجهلكم حيث تسخرون من هذه السفينة وهي

معدّة لنجاتنا من العذاب الذي ينزل عليكم وقد كتب لكم العذاب وقرب منكم وأنتم تلعبون، فأنتم أحق أن يُسخَر منكم؛ لجهالتكم، واستمرار سكرتكم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((فإن قيل: السخرية من أمهات المعاصي فكيف تليق بالأنبياء؟ قلنا: إنما سمي الثاني سخرية، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠])).

قلت: ليس تحريماً عقلياً، ويمكن أن يختلف حكمها باختلاف المسخور منه، وباختلاف سببها، فلا يجب أن تكون كلها جهالة، وحيث لا تكون جهالة ولا ظلماً يمكن أن يبيحها الله لمن يشاء كالتهكم ـ والله أعلم.

﴿٣٩﴾ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ﴿فَسَوْفَ﴾ عطف على ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ فسوف تعلمون عند نزول الغرق عليكم ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾ أنتم أم أنا، فمن أحق بالسخرية هو من يأتيه عذاب ﴿يُخْزِيهِ﴾ ويفضحه ويذله وهو اليوم يلعب ويسخر ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

قال في (الصحاح): ((وحلَّ العذاب يَحِل ـ بالكسر ـ أي وجب)) انتهى. وفي (لسان العرب): ((وحَلَّ عليه أمر الله، يحل حلولاً: وَجَبَ)) انتهى، وحكى في (لسان العرب) ـ أيضاً ـ مثل ذلك عن الزّجّاج، وجعْلُه من حلول الدين بمعنى وجوب تسليمه مستقيمٌ، حلّ أي وجب تسليمه لانقضاء أجله، فأما الحلال بالبلد فمضارعه يَحُل ـ بضم الحاء ـ فالظاهر: أنه لا يصح تفسير حلول العذاب المذكور هنا به، فقوله: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ هو العاجل المهلك.

ٱلتَّنُورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ

وقوله: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي باق وهو عذاب الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧] ووجوبه عليهم إما وجوبه حين يأتيهم ولا ينظرون، وإما وجوبه بهلاكهم عند الغرق مستوجبين لعذاب الآخرة؛ لأنهم يُعلمون بذلك عند هلاكهم ـ والله أعلم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لسخرية قومه بسبب صنع السفينة وجوابه فما زال ذلك حتى جاء أمر الله، وبدأ ظهور الماء من الأرض فنبع، وارتفع من التنور التي هي من قبل للنار فصارت منبعاً من منابع الماء ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ﴾ جواب الشرط ﴿فِيهَا﴾ أي في السفينة أي اجعل فيها ليحمله الماء ﴿مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ﴾ من الحيوان أي نوعين ذكر وأنثى ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ فردين لإنقاذهما من الغرق ﴿وَأَهۡلَكَ﴾ أي واحمل فيها أهلك.

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ إلا من كان ظالماً سبق عليه القول إنه مغرق في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ واحمل فيها من آمن ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ﴾ مع نوح ﴿إِلَّا قَلِيلٞ﴾ وفي هذا دليل على أن أهل الحق قليل وأن الكثرة لا تدل على أن الكثير هم أهل الحق.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٖىهَا﴾ فهو الذي يجريها كيف يشاء

كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ

﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾ فهو الذي يرسيها متى شاء ليس لأهلها أن يجروها ولا أن يرسوها؛ لأنهم في داخلها ومجراها ومرساها بغير فعلهم، بخلاف سفائن البحر، وهذا لا ينافي التسمية على كل نعمة من الله، فمعناها: أن السبب نعمة الله، أو إني أفعلها بأمر الله، أو نحو ذلك لكل شيء بما يناسبه، فإذا لَبست قلت: (باسم الله) لأنه الذي كساك، وإذا أكلت قلت: (باسم الله) لأنه الذي أطعمك، وهكذا سائر النعم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ولمغفرته ورحمته حملنا في السفينة، وأنجانا من الغرق ونجانا من القوم الظالمين، وهذا تعبير عن كون ذلك بفضل الله ورحمته ودفع للإعجاب بأنفسهم.

﴿٤٢﴾ ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ هذا تصوير لجريها في الموج واستحضار للحال تلك، بقوله: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ والموج الماء الكثير المرتفع فوق الماء، قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ﴾ [النور:٤٠] قال في (لسان العرب): ((الموج: ما ارتفع من الماء فوق الماء)) انتهى، وعبارة الأصفهاني في (تفسير المفردات): ((الموج في البحر: ما يعلو من غوارب الماء)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلْجِبَالِ﴾ يفيد: ارتفاع هذا الموج وعلو سمكه، فهو على ظهر الماء كالجبال، ترفعه قوة تزخر الماء على وجه الأرض واضطرابه بكثرة مصادره الغزيرة من الأرض والجو وسرعة نبوعه من الأرض ونزوله من السماء، والسفينة تجري بهم في ذلك الموج بأمر الله.

لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَنَادَىٰ﴾ دعى بصوت رفيع ليسمع ابنه مع صوت المطر والأمواج ﴿وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ أي وكان ابنه في معزل اعتزل فيه عن أبيه، ولعله كان اعتزل موافقة للكفار، ودلالة لهم على أنه غير مؤمن بأبيه، ولذلك قال أبوه: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولعله كان يوهم أباه أنه مؤمن، ولذلك قال لَه أبوه: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ﴾ ابنه ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ استمراراً على انعزاله عن أبيه ﴿قَالَ﴾ أبوه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ ﴿لَا عَاصِمَ﴾ لا جبل ولا غيره يعصم ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو إغراق أعداء الله ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ أي لكن من رحم الله ويسر نجاتهم وعصمهم بالسفينة فهم الذين ينجون، ولعل نوحاً يقول هذا لابنه ليلجأ إلى السفينة على معنى الرجوع إلى الله والتعرض لرحمته ليتهيأ له بلوغ السفينة.

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ الماء المرتفع ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ أي ﴿فَكَانَ﴾ ابن نوح ﴿مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ لم تنقذه عاطفة أبيه ولا نجَّاه نسبه، وفي هذا دلالة على أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمانُ والتقوى، وأنه لا ينفع النسب بدون الإيمان والتقوى.

﴿٤٤﴾ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ أي أَمَر الله الأرض أن تبلع ما عليها من الماء فتجعله في بطنها كما تقول: ابلَع اللقمة، وهذا الأمر

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ

لعله أمر تكوين ليس قولاً ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أوقفي واتركي إنزال الماء إلى الأرض لتنضب وتصلح لسكنى الإنسان.

قال في (الصحاح): ((والإقلاع عن الأمر: الكفّ عنه)) انتهى.

﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ غاضت الأرض الماء الذي عليها فزال عن وجهها ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ الذي هو: تعذيب قوم نوح وإهلاكهم، وإنجاء نبي الله ومن آمن بالله معه.

﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ واستقرت السفينة واعتدلت ﴿عَلَى﴾ الجبل الذي اسمه ﴿ٱلۡجُودِيِّ﴾ وذلك بتقدير الله تعالى استواءها عند نضوب الماء، وقد كان يمكن عند نضوب الماء أن تقع غير مستوية بوقوع بعضها على مرتفع وبعضها على منخفض أو تسقط متجهة إلى أسفل الجبل.

﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿بُعۡدٗا﴾ أي هلاكاً)) انتهى، ومعناه: الدعاء عليهم تعبيراً عن السخط عليهم والرضى بهلاكهم، وموافقته لغرض الداعين، كما يقال سحقاً لهذا المعنى، وفي التعليق على ظلمهم دلالة على أنه السبب في هذا القول، وأنهم بظلمهم استحقوا العذاب والهلاك.

﴿٤٥﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ﴿نَادَىٰ﴾ دعى ربه ولعله جعل دعاؤه نداء لإلحاحه في الدعاء وجدّه في الطلب لقوة الباعث عليه فهو في مشكلة دينية راجعة إلى العقيدة فطلب من ربه حلها واستهداه الهدى للصواب، فهو يرى

صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ

أن الله قد وعده نجاة أهله، وأن ابنه من أهله ولم ينجُ، وأن وعد الله حق لا يتخلف وأنه أحكم الحاكمين، ويظهر: أن سبب المشكلة تغرير ابنه وإيهامه أنه مؤمن، وأن أباه كان يظنه مؤمناً ويحمله في انعزاله على السلامة، فكان يعتقد أنه ممن وعد الله نوحاً بنجاتهم، ولو كان ابنه يصارحه بالكفر ما أشكل عليه إغراقه؛ لأن الله قد استثنى من سبق عليه القول منهم.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ ﴿عَمَلٌ﴾ مصدر عبر به في وصف ابنه مبالغة كأنه نفس العمل، فلعله كان يبالغ عند أبيه في إظهار الإيمان فكان حل المشكلة بأن يخبره أن عمله ذلك غير صالح بل هو فاسد لأنه مجرد رياء ولم يكن مؤمناً فهو ممن سبق عليه القول، وقوله: ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ لا يعني نفي النسب، وإنما المعنى ليس من أهلك الذين وعدناك نجاتهم.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ لا تطلب مني ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أهو صواب أم غير صواب مثلاً لا تسألني إنقاذ ابنك من الغرق وأنت لا تعلم إنقاذه صواب أم لا من حيث أن الله أعلم بسره وحقيقة عمله وهو لم يكن قد طلب ذلك، والنهي عنه لا يدل على أنه قد وقع.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تأكيد للنهي، قال الراغب: ((الوعظ: زجر مقترن بتخويف)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لئلا تكون من الجاهلين أي من أهل الجهالة والسفاهة، وفي هذا دلالة على أنه لا شفاعة لمن حكم الله بتعذيبه.

وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ **ألجأ إليك لتعصمني من** ﴿أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ **هي (إن لا) أدغمت النون في اللام أي وإن لا** ﴿تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

فإن *قيل*: هذا طلب للمغفرة فما هو الذنب؟

***قلنا*:** لعله استعجاله بعرض مشكلته وهو لا يخلو إما أن يكون ابنه ممن وعده الله بنجاته فهو لا بدّ أن ينجو، وإما أن لا يكون منهم فلا إشكال، فإن كان قد علم أنه لا ينجو إلا من ركب في السفينة وأن ابنه لم يركب فعلم أنه لا ينجو فهو لا يعلم حقيقة ابنه وباطنه فكيف يشكل عليه إهلاكه بناء على ظاهره، وهو يعلم أن الله أعلم بحقيقة ابنه منه، فكانت الزلة استعجاله بقوله: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي الذين وعدت بنجاتهم وهو غالط في ذلك، فاستغفر لأجل ذلك، وإن كان قد تأدب حيث لم يقل: الذين وعدتني بنجاتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا﴾ يظهر أن هذا القول كان عند إقلاع السماء وابتداء نضوب الأرض فهو هبوط السفينة تبعاً لهبوط الماء، فالأمر بمعنى الخبر عن هبوطه من ذلك الحين بشارة له بالعودة على قرار الأرض بسلام لم يلحقه بأس في السفينة ولا بهبوط السفينة على الجبل ولا بعد خروجهم منها ونزولهم في قرار الأرض فلا وَحَل يضرهم ولا وباء من أثر الماء وفرط الرطوبة ولا غير ذلك مما هو من مثل ذلك.

أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ في (لسان العرب): «عن الزجاج: البركة: الكثرة في كل خير» انتهى، فالبركات على نوح الدينية: زيادة الهدى والنور، وتيسير العبادة والقوة عليها، والبركات الدنيوية، مثل: العافية، والصحة، وزيادة القوة، وذلك يستلزم الرزق وما يحتاجه من اللباس والمسكن والفراش وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ الأمم: جماعات من ذريات من معه، أي وبركات على أمم ممن معك وهم الصالحون من ذريتهم وهي تشملهم أي من معه من باب الأولى؛ لأن العلة الإيمان وقد ثبت إيمانهم أو لأن البركة على الآباء توزعت وتفرعت على الذرية، وهذا يفيد أنهم يلدون كلهم لأن (مِن) ابتدائية فلعل من عدا أبناء نوح انقطع نسلهم من بعد ما كان لهم نسل فصارت ذريته هم الباقين.

﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَأُمَمٌ﴾ جماعات أي ممن معك ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ وإن لم يكونوا مؤمنين كالذين بارك الله عليهم فلهم متاع في الدنيا ينتهي ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم﴾ من الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة أو في الدنيا والآخرة.

﴿٤٩﴾ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ تلك الآيات الماضية التي فيها قصة صنع السفينة ونجاة نوح ومن آمن معه وهلاك من لم يؤمن من أولاده وقومه على ما فيها من التفصيل

مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ

الكامل هي من أنباء الغيب أي من أخبار الغيب المهمة أخبر الله بها وأوحاها إليك في جملة أنباء الغيب يوحيها الله إليك من أخبار الأمم الماضية والأشياء الماضية وأخبار ما سيكون.

وكلها ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ يا محمد ﴿أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ الذين نشأت فيهم وتتلو هذا القرآن عليهم أي على التفصيل وإن كان خبر السفينة التي نجا فيها نوح وهلاك قومه بالغرق مما توارثته الأجيال ما كنت تعلمها أنت ولا قومك على التفصيل من قبل هذا القرآن، وفيه دلالة على نصر الله لأنبيائه وعلى هلاك الكفار المعاندين لهم.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فمدة الصبر تنتهي بالنصر لك ولمن معك من المؤمنين الصابرين المجاهدين، وهذا يعين على الصبر، وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ كالتعليل للصبر والراجح أنها غير مخصصة بالدنيا بل إما في الدنيا والآخرة وإما في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم:٦٠] فدلالتها على النصر في الدنيا بواسطة دليل آخر، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣].

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ﴾ وأرسلنا إلى عاد ﴿أَخَاهُمۡ هُودًا﴾ فهو عطف على قوله تعالى: ﴿نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وعادٌ بعد قوم نوح، وكأنهم أحدثوا الشرك بعد طهارة الأرض منه بإهلاك المشركين من قوم نوح.

ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن تعبدوه وحده ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ نفي مؤكد بـ(مِن) ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ ما أنتم ﴿إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ مختلقون كذباً حيث جعلتم لَه شركاء، والإفتراء الكذب المتعمد، بدليل قولهم فيما حكاه الله: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَمۡ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ [سبأ:٨] قال في (الصحاح): ((وافتراه: اختلقه، والإسم الفرية)) انتهى.

﴿٥١﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ما أرسلت به من أمر الله بعبادته وحده وغير ذلك ﴿لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ لا أطلبكم ﴿عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ فاستمعوا لقولي واصغوا لما جئت به من آيات ربكم وفكروا في صحتها حتى تعلموا أني صادق فهذا احتجاج عليهم في إعراضهم وتكذيبه بدون نظر، فإنه غير متّهم بغرض دنيوي وهو ينذرهم ويعلمهم أنه لا يستحق عليهم أجراً إنما أجره على الله، وهذا تأكيد لدفع التعلل باحتمال أنه يريد منهم أجراً، وفيه فائدة أخرى وهو أنه لا عذر لهم بخوف المغرم لو كان يريد منهم أجراً.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ تنبيه لهم على أنه ليس من شأن العاقل الإعراض عن النذير المنذر بالخطر العظيم لمجرد الهوى أو الكبر أو الحسد أو الإستعباد مع إمكان النظر في صدقه والتأمل لحجته الدالة على صدقه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ اطلبوه مغفرة ذنوبكم لتنجوا من العذاب العاجل فقد تعرضتم لَه بما قدمتم من الشرك وغيره.

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ ثم ارجعوا إليه بالطاعة لَه وتقواه وهي من استغفاره ولكن بدأ بذكر الإستغفار تنبيهاً على أنهم بذنوبهم قد استحقوا العذاب بحبس المطر عنهم أو غيره، فالإستغفار لمحو الماضي المانع من الرحمة، والتوبةُ لإصلاح المستقبل تعرضاً للرحمة وهما في أول أمرهم شيء واحد ولكنه تعدد لاختلاف الإعتبار وأتى بـ(ثم) للترتيب المعنوي بين طلب مغفرة الذنوب الماضية الذي هو التخلص من ماضيهم والرجوع إلى الله الذي هو إصلاح حالهم ومستقبلهم للتعرض لفضل ربهم.

وقوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ﴾ أي من أجل الإستغفار والرجوع إلى الله بطاعته وتقواه ﴿مِّدْرَارًا﴾ كثيرة المطر متتابعته، وهذه صفة لها إذا أرسلها الله كثيرة المطر متتابعة الأمطار النافعة مستمرة على ذلك كأنها تمطر، ومن شأنها أن تمطر لأنها مدرار كالبهيمة الحلوب، وفي التعبير بالمدرار إشارة إلى أنه مطر خير وفائدة كما هو معهود من در البهيمة الحلوب ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ بنزول البركات وغير ذلك.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ عن ربكم وهذا التولي ضد الرجوع إليه، وقوله ﴿مُجْرِمِينَ﴾ تحذير لهم من عاقبة التولي؛ لأنهم مجرمون قد استحقوا العذاب فإذا تولوا على هذه الحالة فقد تعرضوا للعذاب بجرائمهم السابقة مع جريمة التولي والإمتناع من الإيمان والتقوى والإصرار على الشرك وسائر جرائمهم.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ تكذيب بالبينة التي جاءهم بها

جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ

كقول الكفار بمحمد ص: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس:٢٠] ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ صادرين عن قولك في تركنا لآلهتنا أي لا نتركها بسبب قولك، وهو يشير إلى كفرهم بأنه في قوله مبلغ عن الله فلو أطاعوه أطاعوا الله وكانوا تركوها عن أمر الله تعالى، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ نفي بليغ بـ(ما) مع (الباء) لتأكيد أنهم لن يؤمنوا برسالته.

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ ما نقول إنك رسول صادق بل نقول ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أي غشيك وأصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي بخلل في عقلك أو بضعف في عقلك.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿بَرِيٓءٌ﴾ مقاطع لها لا علاقة لي بها يعلن التبري منها تحدياً لهم ولما يشركونه أي يجعلونه شريكاً لربهم فيهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي يتخذونهم أقرب إليه من الله لغفلتهم عن الله ونسيانهم لَه.

وقوله: ﴿فَكِيدُونِي﴾ تصريح بالتحدي لقومه ولشركائهم الذين زعموا أنهم قد ضروه في عقله، وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أي مجتمعين متعاونين على كيدي أي اعملوا ما دبرتم من سوء خفي كتهيئة قتلي ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ثم لا تمهلوني، وهذا كقول نوح × السابق في (سورة يونس) فهو ينفي قولهم: ﴿ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ كأنه × قال: إن كانوا اعتروني بسوء فليفعلوا أشد منه كيدي وهلاكي وأعينوهم على ذلك فأنا هذا أعلن البراءة منهم لله ربي وأشهدكم على ذلك، ولكنهم لا يضرون ولا ينفعون كما تزعمون.

أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ

﴿٥٦﴾ ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ وكلت أمري إليه فيما بيني وبينكم، وفي تبليغ رسالته إليكم فلا يردني عن التبليغ تخويف في سبيل الله، بل أمضي لما أمرت به وأرضى بما كتَب لي وما أراد لي في طاعته، ولا ينالني إلا ما كَتَبَ لي؛ لأنه ربي وربكم مالكنا ومالك التصرف فينا.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ (الناصية): مقدم شعر الرأس، وهذا مجاز عن كون كل دابة في قبضة الله وتحت تصرفه أي فأنا وأنتم في قبضته كما كل دابة في قبضته، فلا تتصرف إلا في حدود إقداره لها وتخليته وتمكينه، فإن شاء نصرني وإن شاء غير ذلك فهو الغالب على أمره.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ طريقة قيّمة وسنة مطابقة للعدل والحكمة فما دبره لي فهو حكمة وصواب وما دبره لكم فهو حكمة وصواب ذكّرهم بالله وبأنه الذي يستحق أن يخشى ويرجى ويتوكل عليه المتوكلون.

﴿٥٧﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ فإن تتولوا يا قومي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم﴾ فقد قمت بواجبي في رسالتي إليكم فلا يضرني توليكم؛ لأنه ليس علي إلا البلاغ وليس علي أن تهتدوا.

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ويستخلف قوماً غيركم ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ لا بمعصيتكم ولا بهلاككم.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يستخلف للإيمان والطاعة غيركم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد:٣٨] فالمعنى يستخلف لطاعتي واتباعي ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ فهو يحفظني والذين آمنوا معي ولا يلحقنا عذابكم حين يهلككم ربي؛ لأنه على كل شيء حفيظ، فلا يهلك إلا ما أذن بهلاكه ولا يهلك شيء على طريق الصدفة.

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾

وهذا المعنى لقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ هو أنسب لقوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ﴾ من حيث ارتباطه بالإستخلاف، ولقوله: ﴿رَبِّي﴾ فإنه يناسبه تعلق الإستخلاف بهود، فكأنه قال: ويستخلف لي ربي قوماً غيركم، وذلك بتكثير ذرية هود والذين آمنوا معه في حياة هود فيكثر أتباعه بحيث يكونون قوماً، أو أنهم قوم من قبل هلاك الهالكين.

﴿٥٨﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ ﴿أَمۡرُنَا﴾ عذاب قوم هود ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾ أي من ذلك العذاب ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ هو العذاب النازل على قوم هود غليظ شديد، ووصفه بالغلظة إما لتضعيف الشدة فهو مثل عظيم وكبير، وإما لوصفه بالقسوة على أعداء الله، كقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣] ومن شدته وغلظته أنه عذاب يهلكهم على كفرهم فيؤديهم إلى عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ أي بسبب رحمة منا أو كأن الرحمة آلة لنجاتهم أو نجاة متلبسة برحمة منا وهي رحمته تعالى للرسل ومن آمن معهم أو رحمتهم ورحمة من يهتدي بهم من بعد هلاك قومهم واستبدال غيرهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ ﴿وَتِلۡكَ عَادٞ﴾ إشارة إلى القبيلة المذكورين ﴿تِلۡكَ﴾ مبتدأ و﴿عَادٞ﴾ خبره، وهو توطئة لوصفهم بقوله تعالى: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾ فدل على كذبهم في قولهم: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ ﴿رُسُلَهُۥ﴾ هود ومن قبله من الرسل لأن دعوتهم واحدة إلى توحيد الله وعبادته وحده عامة للناس شاملة لمن في عصرهم ومن بعدهم ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ فهذه صفتهم فقد استحقوا العذاب الغليظ.

وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ

قال في (الصحاح): ((والجبار: الذي يقتل على الغضب)) انتهى، ثم قال: ((وتجبر الرجل: تكبَّر)) انتهى، وقال الراغب: ((ويقال للقاهر غيره: جبار، قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥] انتهى.

وفي (تفسير الغريب) للإمام زيد بن علي × : ((فالجبار: المتكبر عن عبادة الله تعالى، والجبار: العظيم الفتَّاك في غير حق، والجبار: القاهر والعنيد الجائر العادل عن الحق)) انتهى.

وقال الراغب: ((والعنيد: المعجب بما عنده، والمعاند: المباهي بما عنده)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((وَعَنَدَ يَعْنِد ـ بالكسر ـ عنوداً أي خالف، وردَّ الحق وهو يعرفه، فهو عنيد وعاند)) انتهى، فظهر: أن الجبار هنا الظلوم الفتاك في غير الحق، وأن العنيد المعاند للحق ولو عرفه.

﴿٦٠﴾ ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بعد هلاكهم ﴿لَعۡنَةٗ﴾ من الله، فكان من عقابهم سوء الذكر في الدنيا لعنة من الله عقوبة في الدنيا بسوء ذكرهم، إما بلعنتهم فيما أنزل على الرسل، وإما به وبشرع لعنتهم من الملائكة والناس أجمعين ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يطردون من رحمة الله، فيصيرون إلى عذاب الأبد.

﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ جحدوه بجحدهم قدرته على كل شيء بقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] أو كفروا به بمعنى المقاطعة لَه مثل: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] وهو بعيد؛ لأن كفروا ربهم عدي بنفسه والكفر الذي بمعنى المقاطعة والمباينة يستعمل بالباء وجعله من نزع الخافض تأويل.

ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ

وقد حكى أهل اللغة: كافرني حقي، فاستعمل متعدياً بمعنى الجحد والإتيان بحرف التنبيه (ألا) في هذا السياق لعل سببه أن كفرهم يستبعد وقوعه كأنه لا يتصور أن يجحدوا قدرة الله عليهم وهو الذي خلقهم، فأتى بحرف التنبيه وأكده بـ﴿إِنَّ﴾.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ صورته دعاء عليهم بالبعد لكنه كما يقال بعداً وسحقاً وهو دلالة على استحقاقهم للعذاب الذي نزل بهم، وعبارة عن غضب الله عليهم، وقوله: ﴿قَوْمِ هُودٍ﴾ عطف بيان لإخراج عاد الأخرى، وقول (صاحب الكشاف): ((إن عاداً الأخرى هي عاد إرم)) فيه نظر؛ لأن الراجح: أن عاد إرم هي عاد الأولى قوم هود ـ والله أعلم.

والتنويه بهم بقوله: ﴿أَلَا﴾ مرتين دلالة على غضب الله عليهم وإرادة التنديد بهم حيثما بلغ القرآن وإلى آخر الزمان ما دام القرآن.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أي ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أي يا قومي بزيادة الياء ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ مرَّ تفسيره ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾ أوجدكم ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ من حيث أن الله تعالى بدأ خلق الإنسان من طين، ومن حيث أن النطفة تخلق من الغذاء، وأصل الغذاء من نبات الأرض، وفي ذلك أي خلقهم دلالة على أن الله هو ربهم لا ما يعبدونه من دونه وفي التنبيه على أن أصلهم من الأرض دفع لتكبرهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي وهو استعمركم فيها، وعمارتها إحياؤها وإصلاحها للإنتفاع بها، ومعنى استعمركم جعلها صالحة معدّة للعمارة وجعلكم قادرين على عمارتها، فأما إعدادها للعمارة فإنه جعل التربة تصلح للإنبات وتصلح للبناء فيها، وبعضها تصلح للبناء بها، ومنها يجعل الآجرّ كما أعده لذلك، وكذلك جعلها صالحة للعمل فيها للزراعة وللغرس وللبناء، وصالحة للسفر فيها للتجارة وغيرها.

وأما إعداد الإنسان فبجعل يديه معدّتين للعمل بهما بما لهما من قوة العمل وما فيهما من الكفّين والأصابع والمفاصل في الأصابع ومفصل الكف ومفصل المرفق ومفصل العضد أعلى اليد، وبجعل ظهره صالحاً للإنحناء حال العمل، وبجعل البقر صالحة للحرث ومسخرة للإنسان ليعمل بها ويسقي الحرث، وكذلك الإبل فهو الذي أعدّ للإنسان تحصيل رزقه من الأرض بعمارتها، فهو الخالق الرازق المستحق للعبادة وحده لا شريك له تعبداً له وشكراً لنعمته فقال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ تنبيهاً على وجوب عبادته وحده لا شريك له، وأن عبادة غيره ظلم عظيم.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من الشرك الماضي وغيره من الذنوب لتنجو من العقاب عليه، ثم ارجعوا في المستقبل إلى الله لتصلحوا مستقبلكم، والتوبة: الرجوع، فالطاعة كلها من التوبة ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ﴾ بخلاف ما تتوهمون من بُعْدٍ عنكم، فلا تحتاجون إلى وسائط بينكم وبينه تقربكم إليه أو تبلغه عنكم ﴿مُّجِيبٌ﴾ لدعوة الداعي، فادعوه يستجب لكم، واستغفروه يغفر لكم، وقد مر في قول هود: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ

﴿٦٢﴾ ﴿قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ **قد كنا نرجو خيراً لقومك فيك** ﴿قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ **قبل أن تدعونا لعبادة الله وحده فلما دعوتنا لهذا خاب أملنا فيك، وهو اعتراف لَه برجاحة العقل والخصال الكريمة التي معها ينفع الرجل قومه.**

وقولهم: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ **إنكار عليه بناء منهم على أن الصواب عبادة ما يعبد آباؤهم، وليس لهم في ذلك حجة ولكنهم جعلوا عبادتهم تعصباً لآبائهم وهي لا تفيد آباءهم شيئاً بل تضرهم من حيث أنهم سنوا لهم الشرك ومع أن المهم إنقاذ أنفسهم من النار.**

﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ **من عبادة الله وترك الشرك أهو حق أم باطل في شك مريب مقلق لأنفسنا لا تطمئن إليه، وقد أخطأوا وضلوا ضلالاً بعيداً لأنهم إن إردوا أنهم في شك من عبادة الله ربهم، فكيف يشك عاقل في أنها حق وهو الذي خلق ورزق، وإن أرادوا في شك من عبادة شركائهم فليس مقتضى الشك فيه أن يستمروا عليه، لأن تركه مع الشك أحوط من فعله مع الشك؛ لأن الفعل إقدام بغير دليل والترك توقف فكلامهم هذا مجرد جدل بألسنتهم.**

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ **آية بينة** ﴿مِّن رَّبِّى﴾ **تدل على أني**

أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ

رسول من الله إليكم لأنهاكم عن عبادة ما كان يعبد آباؤكم من دون الله ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بما أوحاه إليّ وعلمني من الهدى لعبادته وحده وامتثال أمره واجتناب ما نهى عنه ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من يدفع عني عذاب الله ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ إن لم أبلغكم ما أمرت تبليغه ولم أنهكم عن الشرك كما أمرت بنهيكم ولم أدعكم إلى عبادة الله وحده كما أمرت أن أدعوكم.

﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ على الكفر برسالتي ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ لي لو أطعتكم لأنها خسارة رحمة ربي ورسالته باستبدال معصيته الموجبة لعذابه.

﴿٦٤﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أضافها إلى الله لأنها عظيمة عِظماً خارقاً جعلها آية تدل على صدقه.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((يروى: أن قومه خرجوا في عيدٍ لهم، فسألوه أن يأتيهم بآية، وأن يخرج لهم من صخرة معينة أشاروا إليها ناقة، فدعا صالح ربه فخرجت كما سألوا..)).

قال الشرفي: ((واعلم أن تلك الناقة كانت معجزة من وجوه:

أحدها: أنه تعالى خلقها من الصخرة.

وثانيها: أنه تعالى خلقها حاملاً من غير ذكر.

وثالثها: أنه تعالى خلقها على تلك الصورة دفعة واحدة من غير ولادة.

ورابعها: ما روي إنه كان لها شرب يوم، وكان للقوم شرب يوم.

وخامسها: أنه كان يحصل منها لبن كثير يكتفي الخلق العظيم به، وكل واحد من هذه الوجوه معجز قوي)) انتهى.

قلت: قد دل القرآن الكريم على أنها آية ويكفينا ذلك؛ لأن الله أصدق القائلين، وقد دل القرآن على عظمها؛ لقول الله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

وقوله: ((يكتفي الخلق العظيم به)) يعني الناس الكثير، أي قومه، فقد روي أنها كانت تكفيهم لبناً في اليوم الذي تشرب فيه ماء بئرهم.

وقوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ أي اتركوها تأكل في أرض الله فهو يكفيها المرعى ولا تكلفكم مغرماً ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لا ضرب ولا جرح ولا قتل يبعثكم عليه عداوتكم للحق والرغبة في إخفاء آيته التي غاظتكم ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ إن فعلتم وهذا إنذار لهم من نذيرصادق قد دلت الآية العظمى على صدقه ولكنهم لتمردهم ومعارضتهم للحق بالجدال فيه قد خذلوا.

﴿٦٥﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي فقتلوها بفعل بعضهم وأمر ورضى الباقين.

قال الشرفي في (المصابيح): ((يحتمل: أنهم عقروها لإبطال تلك الحجة، وأن يكون لأنها ضيقت الشرب على القوم، وأن يكون لأنهم رغبوا في لحمها وشحمها)).

قلت: الوجه الأول أقرب وأنهم طمعوا في أن يقتلوها ولا يعذبون فينكشف كذب الوعد، وأنه كان مثل تحدي قوم نوح له حين قالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِنْ كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠].

أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ انتفعوا بحياتكم ومطالبها الموجودة عندكم ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ فلن ينزل العذاب في الثلاثة الأيام، وفائدة هذا أن لايتوهموا أن العذاب قد تخلف، وأن قوله: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ تخلف أي لا يسارعوا إلى تكذيبه في هذا الوعد.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ إما الوعد بالنجاة المحدودة في الثلاثة، وإما منطوق الوعد ومفهومه أي أن العذاب ينزل فوراً بعد الثلاث لا يتأخر، وقوله: ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ لعله من قولك: كذبه الحديث، كما قال الجاحظ:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب
لقد كذبتك نفسك أي ثوب ... خليع كالجديد من الثياب

وأفضل من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٩٠] قال الراغب: ((ويقال: لا مكذوبة: أي لا أكذبك وكذبتك [كذا] حديثاً)) انتهى.

فعلى هذا: يكون المعنى: لم أكذبكم الوعد المذكور، فهو نظير: صدقه الحديث، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ..﴾ [آل عمران:١٥٢] ويحتمل: أنه مصدر، بمعنى غير كذب، والأول أرجح عندي، ومؤادهما واحد.

٦٦ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ﴿أَمۡرُنَا﴾ أي عذابنا الذي أنزلناه ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ وهي تيسير سبب النجاة كالهجرة من بين قومهم ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍ﴾ ونجينا صالحا والذين معه من خزي يومئذٍ أي يوم إذ جاء أمرنا ونزل عذابنا.

فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ فهو يفعل ما يشاء من تعذيب ومن إنجاء من العذاب ومن غير ذلك فإن يشأ ينزل بقومك مثل ما أنزل بقوم صالح وغيرهم وهو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال فلا يهمل العصاة المفسدين بل لم يمهلهم حتى عصوا وعاندوا إلا لأن الجزاء معدٌّ لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

﴿٦٧﴾ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ صوت شديد، وفي (سورة الأعراف) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [آية:٧٨] فيظهر من مجموع ذلك: أنها صيحة شديدة رجفت منها الأرض فهلكوا من الرجفة، ونسب هلاكهم إلى الصيحة؛ لأنها هي ولَّدت الرجفة.

وقوله: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ قال الراغب: من جثم الطائر إذا قعد ولطئ بالأرض. قلت: هو كناية عن هلاكهم الذي أدى إلى جثومهم على الأرض.

﴿٦٨﴾ ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ كأن لم يسكنوا ديارهم أحياء فلا ترى في ديارهم حركة ولا تسمع صوتاً ولا ترى أثراً من آثار الأحياء ولا تسمع صوت دابة ولا تجد شيئاً حياً من توابع القوم كالكلب أو الهر، وقد جمع هذا قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي جحدوه)) انتهى، وهو موافق لما قدمت في قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾.

﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ دعاء عليهم تعبير عن الغضب عليهم وإرادة هلاكهم مثل سحقاً، قال تعالى: ﴿فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١١] وهذا هو البُعد

قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ

ضد القرب مثل: السحق، فأما بمعنى الهلاك فهو البَعَد ـ بفتح الباء والعين ـ كما أفاده في (الصحاح) و أما الراغب فقال: ((والبُعْد والبَعَد يقال فيه [أي في الهلاك] وفي ضد القُرب)) انتهى، ولعل الأكثر في ضد القرب البُعْد ـ بالضم والسكون ـ والأكثر في الهلاك البَعَد والله أعلم، وبُعْداً مصدر منصوب بإضمار الفعل، أي أبعدهم الله بعداً.

﴿٦٩﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ هذا الكلام في الخليل × كالتقدمة لقصة هلاك قوم لوط والبشرى لإبراهيم بإسحاق ومن وراء اسحق يعقوب، والرسل هنا ملائكة.

﴿قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((ومعنى ﴿سَلَٰمًا﴾ سَلَّمنا عليك سلاماً ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي أمري سلام)) انتهى، أي سلام عليكم.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي أسرع بالعجل ليأكلوا منه، وهذا أعني الإسراع بنُزُل الضيف من كرم الضيافة، كما قال حاتم:

فقلت لَه أهلا وسهلاً ومرحباً ... رَشِدتَ ولم أقعد إليه أسائله
فأطعمته من كبدها وسنامها ... شواءً وخير البِرّ ما هو عاجله

والحنيذ: قال الراغب: ((قال تعالى: ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي مشوي بين حجرين)) انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((حنذت الشاة أحنذها حنذاً، أي شويتها وجعلت فوقها حجارة محماة لتنضجها فهي حنيذ)).

إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا

قلت: هو فعيل، بمعنى مفعول، يقال للمذكر والمؤنث كما أفاده في (الصحاح) و(لسان العرب).

قال الشرفي / : ((﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي فما أبطأ ولا أقام حتى جاء بعجل مشوي، والحنيذ هو المشوي، والعرب تقول: حنذنا الجراد وحنذنا الشِّواء، وإنما أتاهم بالقِرى وهو يظن أنهم أضياف من الآدميين، فبادر إليهم ولم يلبث ولم يبطء بكرامتهم)) انتهى.

وعندي: أن تقديره: فما لبث عن أن جاء، أي ما تأخر عن أن جاء وما أبطأ فهو نفي للّبث ليدل على الإسراع ـ والله أعلم ـ وقد وصف العجل هنا بأنه ﴿حَنِيذٍ﴾ ليدل على الإسراع به، ووصفه في (سورة الذاريات) بأنه ﴿سَمِينٍ﴾ [آية:٢٦] ليدل على كرمه من ناحية سمن العجل.

﴿٧٠﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيم × أيدي الأضياف لا تصل إلى الطعام الذي هو العجل الحنيذ ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أنكرهم، وخطر بباله أنهم ليسوا أضيافاً وإذ ليسوا أضيافاً فلماذا أتوا وهو لما يعلم أنهم ملائكة؛ لأنهم تمثلوا له بشراً ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أضمر منهم خوفاً ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي لإهلاكهم ليفهم أنهم ملائكة وليعلم ما قضاه الله في قوم لوط.

﴿٧١﴾ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾ إما استعداداً لخدمة الأضياف، وإما لسماع المحاورة بينهم لاهتمامها بتركهم الأكل ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ (ضحكت) لعل الضحك من سرورها بالأضياف

إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ

الكرام حين علمت أنهم ملائكة قد جاءوا إبراهيم × زوجها في صورة البشر يقرِّب لهذا الترتيب بـ(الفاء).

وتفسير (الضحك): بالحيض، خلاف الظاهر، وترتبت بشارتها بالولد على أنهم ملائكة بلغوها عن الله تعالى، والبشارة بالولد تغني عن ذكر الحيض؛ لأنه أمارة للولد ضعيفة والبشارة صريحة ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ أي بشرها الملائكة عن الله تعالى أو فبشرها الله ﴿بِإِسْحَٰقَ﴾ وبيعقوب من وراء إسحاق، وما قيل من أنه سمي يعقوب لأنه عقيب إسحاق في الولادة لأنه ابنه محل نظر؛ لأن الأقرب أنه اسم أعجمي ولهذا منع من الصرف.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ استغاثة من شدة؛ لأنها تذكرت شدة الولادة من حيث أنها تتقدمها الأوجاع والخوف من الموت وهي عجوز قليلة التحمل لمشقة مقدمات الوضع، فلذلك قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ لا يولد لمثله فلم تنجني شيخوخته، ويحتمل أنها خافت عيب السفهاء من الشباب عليهما، ويحتمل الأمرين، وأما قولها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ فترتيب بغير عاطف لأنه أمر آخر ترتب على ولادتهما.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ سؤال إنكار لِعَجَبها من ولادتها وهي عجوز وبعلها شيخ؛ لأنه ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وهو قادر على كل شيء، وهذا لا ينافي العجب والذي ينافي العجب لو تذكرت أنها في محل البركات والرحمة، فلهذا

قالوا لها: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس عجباً أن ينالكم الخير الخارق للعادة بفضل الله الحميد المستحق للحمد المجيد ذي الكرم والجود والعظمة.

قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): ((المجد: السعة في الكرم والجلال)) انتهى، وقال (صاحب الصحاح): ((المجد: الكرم، والمجيد: الكريم)) انتهى.

قلت: وصفة الكرم تدل على الجود والحلم وغير ذلك، وقد قال القاسم × في (تفسير الفاتحة) ما يدل على اتفاق المجد والجود في المعنى، ولعله من حيث اتفاقهما من حيث أن المجد الكرم.

فائدة: قول القاسم × : المجد من الجود محمول على اتحادهما في المعنى لا على الإشتقاق الإصطلاحي ولم يقل مشتق منه، فهو كقول إبراهيم × : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم:٣٦] وقول طالوت × : ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [البقرة:٢٤٩].

قال (صاحب لسان العرب): ((ورجل ماجدٌ مفضال: كثير الخير شريف، والمجيد: فعيل منه للمبالغة)) انتهى، وهو أوفق لكلام القاسم × فهو أرجح؛ لأن القاسم × عربي محقق في العربية، وفي تفسير القرآن وغيره، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [البروج:٢١] فوصف القرآن به لكثرة خيره ونفعه وفوائده.

فوصف بالجود كما يوصف به البحر والسحاب، ويقويه قول زهير في (معلقته) إحدى (السبع المعلقات) يمدح هرم بن سنان، والحارث بن عوف؛ لإصلاحهما بين عبس وذبيان القبيلتين بتحمل الديات، بقوله:

ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا

وقد قلتمـــا إن ندرك السلم واسعاً ... بمال ومعـــروف من القـــول نَسلمِ
فأصبحتما منهـا على خير موطـــن ... بعيديـــن فيهـا من عقوق ومأثـــمِ
عظيمـــين في عُلْيَا مَعَـــدّ هديتمـــا ... ومـــن يستبـح كنزاً من المجد يعظمِ

فجعل الجود والمجد سببا للعِظَم.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ ﴿ٱلرَّوْعُ﴾ الفزع الذي سبق ذكره في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات:٢٨] والبشرى كذلك البشرى بابنه وابن ابنه ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ يجادل الملائكة ﴿فِى﴾ أمرنا بهلاك ﴿قَوْمِ لُوطٍ﴾ وهو جواب لما جيء به بصيغة المضارع تعجيباً من جداله فيهم.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ لا يعجل على معاقبة المسيء إليه والإنتقام من عدوه ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه حزناً إما على ما فاته مما نواه من عمل الخير ولم يدركه؛ لأن المؤمن ينوي كثيراً من الخير ويتلهف على ما فاته كما في الحديث، وإما لفساد عباد الله وطاعة أكثرهم للشيطان، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢] ﴿مُّنِيبٌ﴾ راجع إلى الله في كل أحواله.

﴿٧٦﴾ ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ أي عن هذا الجدال في قوم لوط أمره الله بتركه سواء أوحاه إليه أو بلغته الملائكة الحاضرون لديه ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أمره بعذابهم وإنهم بأمر الله ﴿ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ لا يرده شافع ولا ناصر ولا شيء.

وَقَالَ هَـٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا

---

٧٧ ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَـٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ ﴿رُسُلُنَا﴾ الملائكة المرسلون لتعذيب قوم لوط وهم في صورة البشر كما كانوا عند إبراهيم × ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ ساءه وجودهم لديه؛ لأنه ظنهم أضيافاً من البشر ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ قلّ احتماله لهذه المصيبة ولم يجد نفسه تطيقها؛ لأنه يتوقع هجوم قومه عليهم وهو لا يستطيع حمايتهم ﴿وَقَالَ هَـٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ شديد ذو شر تصعب مدافعه.

٧٨ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ جاءوا ليواجهوه بالإساءة ورفض احترامه في أضيافه ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ يسرعون كأنهم يساقون بعنف أو يسوقهم الشيطان ويهرعهم أي يسوقهم بشدة.

قال في (الصحاح): ((وجاءه قومه يهرعون إليه ، قال أبو عبيدة: يستحثُّون إليه، كأنه يحث بعضهم بعضاً)) انتهى.

﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ أي من قبل مجيئهم إلى نبيهم وأضيافه ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ المعاصي القبيحة معتادين لها مستمرين عليها فلا يتبادر إلى ذهن نبيهم حين جاءوا، إلا أنهم أرادوا عمل الفاحشة، وهذه سيئة منهم مع سيئاتهم من حيث ساءوا نبيهم، ومن حيث هموا بالفاحشة فقد بلغت الشدة على نبيهم أقصاها؛ لأنه خبير بقومه وعنادهم وخبثهم.

لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ

﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ليس عرضاً لبناته لعمل الفاحشة بهن حاشاه ولكنه إيهام يكشف لهم عن غاية اهتمامه بدفعهم عن أضيافه وشدة غمه وألمه وهمه لعلهم يراعون حاله وقد استعطفهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ وبإيهام عرض بناته عليهم وقاية لأضيافه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ بعمل الفاحشة بأضيافي، فقوله: ﴿فِي ضَيْفِي﴾ أي بذلك ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ فيعينني وينصحكم لتتركوا ما قد هممتم به.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ فكيف نرضى بهن وقاية لأضيافك، وهذا بناء على توهمهم أن قد عرضهن عليهم وهو يعرف منهم أنهم لا يريدونهن؛ لأنهم يتركون نساءهم من أجل شبقهم على اللواط لا لأنهم يتحرجون من الحرام، وقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ إيهام لتورعهم من الحرام ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إنك لتعلم أنا نريد أضيافك فلا تغالطنا بعرض بناتك.

﴿٨٠﴾ ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿قَالَ﴾ نبيهم تنبيهاً لهم على عظم المصيبة في نفسه يستعطفهم ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ ليت لي بكم طاقة أي ليتني أطيق دفعكم، كقول أصحاب طالوت: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] أي لا نطيق دفعهم عنا وغلبتهم ﴿أَوْ ءَاوِيَ﴾ أي أنظم ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ﴾ قوي ﴿شَدِيدٍ﴾ يعينني وينصرني ويكون لي قوة كالحديث الشريف ((سلام الله عليك أبا الريحانتين فعن قليل ينهدّ

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا

ركناك)) أو كما قال، وأصله من ركن البناء لأنه قوة للبناء فيجعل قوياً ليقوى به البناء ولذلك رشحه في الحديث بقوله ص((..ينهدّ..)).

قال في (الصحاح): ((ورُكنُ الشيء: جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد: أي عِزٍّ ومَنَعَة)) انتهى.

وفي الآية: ﴿إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أي ركن قوي يصعب عليكم دفعه، فالركن يفيد القوة ووصفه بالقوة يفيد قوة إلى قوة، وهذا يدل على التحسر من ضعف الحال في حال شدة الحاجة إلى القوة، وإذا بلغت النوائب حدَّها زالت.

﴿٨١﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ أي الملائكة المرسلون لتعذيبهم ﴿يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي الملائكة الذين أرسلهم ربك وهذا يشعر بأنه متوقع لنزول العذاب بقومه فالرسل بالعذاب أمر معهود في نفسه ﴿لَن يَصِلُوٓا۟﴾ أي قومك ﴿إِلَيْكَ﴾ لا بضر ولا بإخزاء ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أمروه بما هو من الإعداد لنزول العذاب على قرية قوم لوط ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أخرجهم من القرية في الليل ﴿بِقِطْعٍ﴾. قال الراغب: ((﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بقطعَةٍ)) انتهى، أي بقية من الليل أي بسَحَر.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لا ينظر إلى ما وراءه ولا يميناً ولا شمالاً بل كل واحد يقبل بوجهه إلى أمامه سارياً، لعل ذلك ليسرعوا السير ولا يصيب أحدهم نكبه بسبب الإلتفاف ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال القاسم بن ابراهيم × : معنى ﴿لَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لا يتأنّى ولا يتراخى)) انتهى.

جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾

﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ﴾ استثناء من المجرور أي لا تسر بها دعها نائمة أو عازمة على ترك الخروج أو موافقة على البقاء ولو كرهاً ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ نفس العذاب الذي أصابهم أي قومه، فلا بد أن الحاصب أدركها وقتلها بالأحجار.

﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُ﴾ أي وقت هلاكهم الموعود به ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ وهذا يناسب ضيق صدره منهم فهو يحب تعجيل عذابهم كلهم، وتعجيل هلاكهم كلهم فكأنه استبطأ الصبح فقيل له: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾؟!

﴿٨٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا﴾ أي القرية ﴿سَافِلَهَا﴾ والأقرب عندي أن الرجفة أسقطت أعالي المباني؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٣-٧٤] ولذلك بقيت آثارها، كما يفيده قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] وهذا يفيد: بقاء آثار القرية ليعتبروا بهم إذا مروا بها وذكروهم.

وقوله تعالى في (سورة الحجر): ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ..﴾ [الحجر:٧٤] يفيد: أخذهم بالحجارة، مع أخذهم بالصيحة، ولعل معنى الأخذ بالصيحة: سيطرتها عليهم، وحبسهم بشدتها أي بشدة رجفتها؛ لأنها إذا اشتدت الرجفة أزالت العقل.

ويدل على أخذهم بالحجارة أي قتلهم، قوله تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٢-٣٣] فعذابهم ثلاثة أصناف: طمس الأعين، والصيحة، والحجارة، فما يروى أن جبريل × أخذ قراهم، قالوا: وهي سبع بجناحه، وقلبها مشكل فالله أعلم بصحته، والمذكور في القرآن الكريم قرية، ولو كانت سبعاً لكان من شأنها أن تذكر في القرآن لزيادة العبرة فيها، وهي تذكر ليعتبر بها الكافرون.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ ﴿عَلَيْهَا﴾ لما عم العذاب القرية ولم يخص الأفراد ناسب إسناده إليها جملة، وقد أسند إليهم في غير هذا الموضع ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ حجارة أصلها طين مستحجر، والأقرب أن معنى ﴿سِجِّيلٍ﴾ أنها ذات خطوط امتازت بها عن بقية الأحجار.

وقوله: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أجزاء الحجر منضودة ليس فيه تخلخل ولا له تجويف بل أجزاءه مرصوصة صلب ثقيل الوزن، قال في (لسان العرب): ((ونضد الشي: جعل بعضه على بعض متسقاً أو بعضه على بعض)) انتهى.

﴿٨٣﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ ذات علامات فيها، والسمة العلامة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ جعل هو تلك السمات لتدل على معناها عند ربك، ولعله جعلها للملائكة الذين أرسلوا بها تدل على أنها جعلت لعذابهم وعلى الملائكة أن يحصبوهم بها بعينها تعبداً لهم، ويحتمل أن كل حجر كتبت لشخص تصيبه وجعل للملائكة (عليهم السلام) فهْم معنى سِمَتها.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وما تلك الحجارة ﴿بِبَعِيدٍ﴾ من الظالمين أي المجرمين الذين كذبوا رسول الله محمد ص فإنهم ظالمون مستحقون لها بظلمهم فليس إرسالها عليهم ببعيد في قدرة الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ

﴿٨٤﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى مدين، قال الشرفي / في (المصابيح): «اعلم أن مدين اسم ابنٍ لإبراهيم صار اسماً للقبيلة، قال في (البرهان): لأنهم بنو مدين بن إبراهيم فقيل: مدين، والمراد: بنو مدين، كما يقال: مضر، والمراد بنو مضر» انتهى دعاهم إلى عبادة الله وحده كما دعا من قبله قومهم.

﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ نهاهم عن الخيانة في الكيل والوزن عند البيع أو نحوه مما ينقص ماهو مستحق على صاحب المكيال والميزان ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ في نعمة ورخاء ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ لكفركم نعمة الله وتعرضكم لنقمته ﴿يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ يعمكم بعذابه ولا ينجو منه أحد منكم، والأقرب: أنه يحذرهم عذاباً عاجلاً يؤديهم إلى عذاب الآخرة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ ﴿أَوۡفُواْ﴾ تأكيد للنهي عن النقص بحيث لايكفي عدم تحقق النقص بل لا بدَّ من تحقق الوفاء بالقسط بالعدل والحق.

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾ ولا تنقصوا ﴿ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ المستحقة لهم، والنقص يكون نقص العين ونقص الصفة.

ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ

ومثال نقص الصفة: تعويض (ألف) من العملة اليمنية كان في ذمته قبل هبوط سعر تلك العملة بـ(ألف) بعد هبوط العملة إلى مستوى متدنٍّ جداً، ومن أمثلته: إعطاء الرديء بدلاً عن الجيد في وعاء مختوم أو وجهه من الجيد وأسفله من الرديء، ومن أمثلته ذم سلعة الغير لئلا تشترى مثلاً أو بنته لئلا تتزوج، وله أمثلة كثيرة، وقد يخلط الشيء بما يمحقه فيكون من نقص العين ونقص الصفة معاً، مثل مزج اللبن بماء ضار فيه سبب البلهارسيا أو نحوه، كأن يودِع رجل لبناً خالصاً فيسرق الوديع بعضه ويبدله بالماء المذكور، فيجمع بين معصيتين وخيانتين.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا تفسدوا في الأرض أشد الفساد ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ مسببين لانتشار الفساد أو ثباته، فالفساد الأشد ما يباشرونه كوقوفهم على الطرق لمنع من يريد الإسلام وإيعاده وصدهم عن سبيل الله فهو فساد يفسدون به لمنعهم من انتشار دعوة النبي ص وظهور دينه، فقد أجملت هذه الجملة ما فصّله قولُه تعالى: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦] ـ والله أعلم.

﴿٨٦﴾ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ إبقاؤه لكم ولنعمتكم ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ مما تأخذون من الحرام بالبخس والنقص في الكيل والوزن؛ لأنكم قد تعرضتكم لسخط الله وأخذه وسلبه لنعمتكم.

أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقٗا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ

قال الشرفي / في (المصابيح): ((وقال الحسين بن القاسم: معناه [كذا] بقيةُ الله خير، أي بقيته وسلامته لكم خير من إهلاكه وتدميره عليكم، قال الشاعر:

قال البَقِيَّةَ يا قيساً فقلت لَه اصبِر حذيفُ فأنت السيّد الصَّمَدُ

أي قال: استبقني بقاء ولا تهلكني)) انتهى.

﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بما قلت لكم وبرسالتي إليكم فإنكم حينئذ تعلمون ذلك، ونظيره: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِنۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١] أو إن كنتم مؤمنين فبقية الله خير لكم، أي إن بقية الله تكون لكم إن كنتم مؤمنين، فهي في حال الإيمان خير لكم مما تجمعون من الحرام، ومؤدَّى المعنيين واحد؛ لأنه إما أن يكون الإيمان شرطاً في علمهم بأن البقية خير، فإذا آمنوا فقد علموا أو إذا علموا تركوا الحرام وهم مؤمنون، وإما أن يكون الإيمان شرطاً في بقية الله التي هي خير فليؤمنوا لتكون لهم البقية، فمؤدى الكلام الدعوة إلى الإيمان على كلا المعنين؛ لأن الإيمان شرط في البقية، وشرط في العلم بأنها خير.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ ليس عليَّ حفظكم من سبب هلاككم، ما علي إلا الإنذار وهذا يؤكد تفسير البقية بالسلامة من الهلاك.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ كفروا برسالة شعيب وبدينه وتهمكوا بصلاته لله وحده، وزعموا أنه لا داعي لما يأمرهم به من ترك الشرك ونقص المكيال والميزان؛ لأنهم قالوا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ﴾ فكأنهم قالوا: لا موجب لذلك فهل صلواتك تأمرك وهم لا يرون أنها

إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن

تأمره حقيقة ولا مجازاً إنما أرادوا التهكم بها؛ لأنهم مشركون لا يرون لصلاته فائدة ولا يرون فيها ارتباطاً بينها وبين أمرهم بالترك للشرك والنقص في المكيال والميزان بل هم يجحدون ذلك، فلذلك سألوه سؤال إنكار وعيب منهم عليه، فإسناد الأمر إليها تهكم بها وبه مستندين في ذلك إلى أنهم على دين آبائهم، وإلى أن لهم الحرية في التصرف في أموالهم يتصرفون فيها كيف شاءوا من تطفيف أو غيره بزعمهم.

فقولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ الراجح فيه أنه تهكم وأنهم يعنون سفيه غاو، ولو قالوا قد كنت حليماً رشيداً فكيف تأمر بذلك لناسب حمله على الحقيقة، وكذلك لو قالوا أتأمرنا بذلك وأنت الحليم الرشيد لساغ ذلك أيضاً فأما على هذا السياق، فإنما قولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ قرار بنوه على قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ فهو تهكم مبني على تهكم وتسفيه له، كما قالت عاد: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف:٦٦] وقال قوم نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأعراف:٦٠] فقد جمعوا بين إنكارهم للحق، وبين التهكم به، ولكن مهمة الرسول بيان الحق وتبليغ الحجة، وليست مهمته الرد على التهكم إلا ببيان أنه على الحق.

٨٨ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾ على حجة بينة تدل على أنه أرسلني إليكم وعلى صدق ما بلغتكم من إبطال الشرك والتطفيف وغير ذلك فهل رأيتم إن كنت هكذا وأنتم تجحدون ذلك وتتهكمون به فما تكون عاقبتكم وقد أمعنتم في الكفر وتمردتم، وهذا لفت لأنظارهم إلى التفكير فيما جاء به من الآيات والنظر الصحيح، ليتخلصوا من الخطر الذي ينذرهم.

يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى

﴿وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي رزقني ربي رزقاً حلالاً قنعت به وكفاني ولم يشغلني عن عبادة ربي، فلا أحتاج إلى أن أحتال لأجر منكم على ما جئت به أو أن أسألكم معونة عليه، فأنتم لا تخشون مغرماً أكلفكم ولا داعي لي إليه؛ لأن رزقي يكفيني فلا أدعوكم إلى طاعتي توصلاً إلى مال.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ما أريد الفساد الذي أنهى عنه، فمن العيب على من ينهى عن الأمر المنكر أن يخالف بارتكاب ما ينهى عنه.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ بدعوتي لكم إلى عبادة الله وحده وترك الشرك والتطفيف ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ إلا إصلاحكم، وإصلاح معاملتكم، وإصلاح مجتمعكم ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ ما دمت أستطيع الإصلاح وبقدر ما أستطيع.

﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وما توفيق الله لي إلا بالله، فهو الموفق للصواب وهو مسبب التوفيق بتهيئته للتوفيق، بتحصيل أسبابه، وصرف موانعه، وبهدايتي لأسبابه التي هي من فعلي. قال الشرفي ـ / ـ: ((والمعنى: أنه طلب ربه التوفيق وفي ضمنه تهديد للكفار)) انتهى.

قلت: هو يفيد اللجوء إلى الله فيفيد الطلب، وأما التهديد فلعله في قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وحده فأنا أمضي في تبليغي لرسالته والدعوة إليه وإبلاغ حجته لتوكلي عليه فهو تهديد باستمراره على عمله، ولعل هذا مراد الشرفي / ، حيث قال في ضمنه تهديد للكفار ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع إليه وحده وأقبل على طاعته وحده.

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ خطاب يعبر

رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ

عن عاطفته عليهم ليحذرهم أن يصيبهم عذاب مثل عذاب إحدى الأمم الماضية قبلهم الذين شاقّوا وعادَوا رسل الله إليهم فأنزل بهم العذاب، والمراد بقوله ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يحملكم بسبب الجريمة ﴿شِقَاقِيٓ﴾ أي شقاقكم لي ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾ عذاب ﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ أو من بعدهم.

وأصل معنى ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ لا يكسبنكم مِن جَرَم بمعنى كَسب أي لا يكسب لكم شقاقي عذاباً من الله مثل ما أصاب قوم نوح ﴿أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَـٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي أو قوم لوط، فهم هلكوا في زمن قريب منكم مع أنهم في مكان قريب من قوم شعيب أيضاً مع قرب الزمان المعلوم عندهم قد علمتم ما أصابهم ولم تنسوه فاعتبروا بمن قبلكم لتسلموا من عذاب الله.

﴿٩٠﴾ ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي احذروا شقاقكم لي ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾ المالك لكم المستحق لأن تعبدوه وحده ليغفر لكم ما قدمتم من شرك وغيره ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ ثم ارجعوا إليه بالإيمان والطاعة ليرحمكم ويحبكم ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ الذي هو ربكم ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ أي لمن استغفره وتاب إليه، وقد مرّ معنى العطف بـ(ثم).

قال بعض المفسرين: ((وكان حق الكلام أن يقول في تعليله إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلاً ثناء على الله سبحانه وقد أثبت سابقاً أنه رب القوم أضافه ثانياً ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم وربي رحيم ودود)) انتهى المراد.

قلت: ومن فائدة ذلك تحقيق أنه عنى بقوله: ﴿رَبَّكُمْ﴾ اللهَ تعالى الذي هو ربهم لا رب لهم سواه وإن كانوا قد جعلوا غيره شريكاً في الربوبية.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ قابلوا عطفه عليهم بالجفاء، وقولهم: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ تعبير عن إعراضهم عن كلامه والإستخفاف به، ومعنى ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ ما نفهم لغموض معنى كلامك وتركنا لتفهّمه فلا نجيب عما لم نفهم، وقولهم ﴿كَثِيرًا﴾ يدل على أنه قد أطال في الإحتجاج عليهم والإنذار وبيان طريق نجاتهم لو استعملوا عقولهم وتركوا الكبر والتعصب لآبائهم ودين آبائهم.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أرادوا به أنهم قادرون على رجمه، وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي لولا قرابتك وإن كان الرهط يستعمل في القوم والقبيلة فهو يستعمل في القرابة كما في (لسان العرب) قال: ((قال أبو منضور: وإذا قيل: بنو فلان رهط فلان، فهو ذو قرابته الأدنون)) انتهى.

وهو واضح في الآية؛ لأن قوم شعيب قالوا له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ ولا يصح أن يكون معناه: ولولا قومك أو قبيلتك؛ لأنهم قومه وقبيلته فما بقي إلا أن المراد: ولولا قرابتك.

وقولهم: ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي بالحجارة أو نحوها كناية عن قتله ليستريحوا من مطالبته لهم بالرجوع إلى الله، وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي لو قتلناك ما اعتبرنا هلاكك خسارة علينا ولا بالينا به؛ لأنك غير كريم علينا، قال في (الصحاح): ((وعززت عليه ـ أيضاً ـ كرمت عليه)) انتهى، ومثله في (لسان العرب).

أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ﴾ أي شعيب ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنكر عليهم قولهم: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ لأن معناه: أنه لا يمنعنا من رجمك إلاَّ كرم قرابتك علينا، ومعنى هذا أنهم لا يبالون بمعصية الله العظمى التي هي قتل نبي الله من حيث هي معصية لله، ولكن من حيث هي تسوء قرابته فكان معناه: إن قرابته أعز عليهم من الله.

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ واتخذتم الله ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ جعلتموه منسياً لا تقبلون إليه ولا تلتفتون إليه بل اتخذتموه متروكاً، وحقق هذا المعنى بقوله: ﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾ وفي قوله: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ أنهم جعلوا ذلك طريقة لهم ومذهباً كما عليه كفار العصر الذين يقولون: إن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم وجعلوا ذلك أساساً للإعراض عن الإسلام.

والحاصل: أنهم جعلوا الإعراض عنه وترك طاعته أصلاً يبنون عليه سلوكهم، فقوله ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ كقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:١٠١].

وقوله: ﴿ظِهۡرِيًّا﴾ نسبة إلى الظَّهر وكسر الظاء من تغييرات النسب، وفائدة النسبة كفائدة الإتخاذ تفيد لزومه للوراء تعبيراً عن نسيانه، قال في (الصحاح): ((والظِّهْرِيُّ ـ أيضاً ـ الذي تجعله بظَهْرِ أي تنساه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾)) انتهى، ومثله قال الراغب الأصفهاني في تفسيره لـ(مفردات القرآن).

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لم يفت علمه شيء منه ولا يفوته أي فهو يجازيكم عليه.

تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾

﴿٩٣﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ قد مرَّ تفسيره في تفسير (سورة الأنعام) ويأتي قريباً في أواخر هذه السورة، وهو جار مجرى التهديد، ولذا رتب عليه قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾.

وقوله: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟﴾ أي انتظروا، وقوله: ﴿إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ قال في (الصحاح): ((والرقيب: المنتظر)) انتهى، وهو في هذا السياق مستقيم فهو الراجح، والمراد: انتظار عاقبة عمله وعاقبة عملهم.

وقوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ منكم أو مني يخزيه أي يهينه ويفضحه، وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ أي منكم أو مني.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا الذي أمرنا به، إما بأمره تعالى للملائكة، وإما ﴿أَمْرُنَا﴾ كناية عن العذاب لوجوده بأمره تعالى، أي قوله: ﴿كُنْ﴾ وهو تمثيل لسرعة وجوده بدون أي كلفة ﴿نَجَّيْنَا﴾ من العذاب ﴿شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ برحمة خاصة من الله خصهم بها فنجاهم بها من العذاب، ولعلها السبب الذي جعله الله لنجاتهم كأمرهم بالخروج من البلد كما أمر لوطاً.

﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ إما عبارة عن العذاب النازل المهلك كائناً ما كان، وإما صيحة

كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ

حقيقية رجفت بها أرضهم رجفة عنيفة سريعة أهلكتهم، وفي (سورة الأعراف) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف:٧٨] وهو مرجع للمعنى الثاني مع كونه الحقيقة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وإنما ذكر الصيحة بالألف واللام إشارة إلى المعهود السابق، وهو صيحة جبريل ×)) انتهى. قلت: لعله يعني بالسابق صيحة ثمود؛ لأنه ذكر أن الله عذبهم بمثل عذاب ثمود.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي لا يتحركون في الصباح كما كانوا يتحركون لحاجاتهم وأغراضهم بل هم في ذلك الوقت جثث هامدة، قال الشرفي: ((الجاثم: اللازم لمكانه الذي لا يبرح ولا يتحول)) انتهى، ومثله في (لسان العرب) ولعله خاص بلزوم المكان على الصدر أو الركب، أي المعنى الحقيقي ـ والله أعلم، وقد حكى نحو هذا عن بعضهم (صاحب لسان العرب) فهو قريب من معنى جَثَى.

﴿٩٥﴾ ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ قال في (الصحاح): ((غَنِيَ بالمكان: أي أقام وغنِي أي عاش)) انتهى، وقال الراغب: وغَنِيَ في مكان كذا: إذا طال مقامه فيه مستغنياً به عن غيره بغِنَىً، قال: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾ وهو قريب من قول (صاحب الصحاح) عاش، وهو تحقيق لهلاكهم وهلاك ما كان معهم كما قدمت.

﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ أصله دعاء بالهلاك، وهو تعبير عن الغضب عليهم، قال الشرفي في (المصابيح): ((البُعْد: بمعنى البَعَد، وهو الهلاك، كالرُّشد بمعنى الرشَد)) انتهى.

فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

ثم أفاد: أن البعد بمعنى الهلاك أصله البَعْدُ، إلا أن المراد به البُعْد الحاصل بالهلاك لا بعد المسافة أو الزمان فجعلوا ما كان بمعنى الهلاك في بَعِدَ في الماضي ليمتاز عن بعد المسافة.

قلت: ومضارعة يَبْعَدُ ـ بفتح العين ـ ونظير ما في الآية الكريمة قول الشاعر:

يقولون لا تبعَد وهم يدفنونني وأين مكان البعد إلا مكانيا

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ تحقيق وتأكيد للمعنى.

﴿٩٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي التسع الآيات ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ قوة وهيبة، كما قال تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بيِّن واضح فقد هابهما فرعون حتى بلَّغا رسالة ربهما وأقاما حجته على فرعون وملائه بتسليط الله لهما بهذا الشأن.

﴿٩٧﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي أرسلناه إلى فرعون ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وملؤه كبراء قومه المتولون لإعانته كالوزراء ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟﴾ أي ملأه ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ ولم يلتفتوا إلى ما جاءهم به موسى من الآيات والإبلاغ الكامل وقيام الحجة على فرعون وعليهم ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ نفي مؤكد بـ(ما) و(الباء) وكأنه ردّ لقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩] فهو كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩] وهو ـ أيضاً ـ تمهيد لقوله تعالى:

بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ

﴿٩٨﴾ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾

وقد قام هذا البيان مقام أن يقال: بل أمر فرعون في أقصى الغواية؛ لأنه كان سبباً في وروده النار وورود أتباعه معه وهو أوردهم النار بأمره الذي أطاعوه ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ الذي وردوه ليس فيه ريّ من ظمأ ولا برد من التهاب إنما هو عذاب النار.

قال الراغب في (تفسيره): «الورود: أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره، ثم قال: والماء مورود، وقد أوردتُ الإبلَ الماءَ ـ ثم قال ـ: والوِرد الماء المرَشَّح للورود..» إلخ. ونحوه في (لسان العرب) فالورد في الآية هذه النار، ويشهد لَه قوله تعالى: ﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾ فدل على: أن الورد هنا بمعنى: اسم المفعول، فهو النار التي يردونها.

﴿٩٩﴾ ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ في هذه الدار التي تتعاقب فيها الأجيال ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يلعنهم من بعدهم في هذه، ويلعنهم الله ويوم القيامة يُلعنون اللعنة الكبرى.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ الرفد: العطا والمعونة في الأصل، واستعماله في اللعنة تهكم بهم، وقوله: ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾ إما بمعنى أن الرِّفد نفسه مرفود؛ لأنها لعنة متواصلة يمد بعضها بعضاً، وإما بمعنى بئس الرفد الذي رفدناهم ومرجع المعنين واحد.

﴿١٠٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرَّ من قصة رسول الله نوح وهلاك قومه وقصة من بعده من رسل الله وهلاك قومهم، و﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ كناية عن أهلها الذين دمرهم الله ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ أي نقص ذلك النبأ، أي نقصه نحن فهو الحق.

ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ

﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ﴾ من القرى قائم أي بقايا بناء المساكن ﴿وَحَصِيدٞ﴾ قد سقط وتهدم شبههم بالزرع الحصيد لما كان هلاكهم جَماعِيًّا، وقد عاد الضمير إلى بقايا جدران مساكنهم لما فيها من العبرة لمن مَرَّ عليها وراءها وهو يرجح أن القرى كناية عن أهلها، والكناية استعمال الكملة في معناها الحقيقي لإفادة لازمِه، فعاد الضمير إلى المعنى الحقيقي لبقائه.

﴿١٠١﴾ ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ وهذا من أوضح الأدلة القرآنية الدالة على إبطال قول المجبرة كما قدمت في نظير هذه الآية من (سورة التوبة).

﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ﴾ ما دفعت عنهم ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ من عذاب الله لا قليلاً ولا كثيراً، وذهب دعاؤهم لها ضائعاً باطلاً.

﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَ﴾ لأنه الغالب على أمره، فلا دافع لأمره ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ ومازادهم شركاؤهم ﴿غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ خيبة وخسار؛ لأنهم كانوا سبباً في عذابهم وهو مجاز، كقوله تعالى حاكياً: ﴿أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦].

﴿١٠٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ كذلك أي كأخذ قوم نوح، فالأمم المذكورة بعدهم ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ لمن يأخذه، وبطشه بمن بطش به في هذه الدنيا، فليحذر الكافرون بك أن يأخذهم ذلك الأخذ ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿أَلِيمٞ﴾ مؤلم ﴿شَدِيدٞ﴾ قوي ليس فيه إبقاء ولا رحمة.

يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ

﴿١٠٣﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أخذه في العاجلة آية لمن يظن أن الله لا يجازي المجرمين، وذلك ظن كثير من الذين كفروا، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ﴾ أي أنهم الذي ينتفعون ويعتبرون بعذاب الأمم الخالية؛ لأن الخوف من عذاب الآخرة يبعثهم على النظر الصحيح.

فإن قيل: فما فائدة النظر إذا كانوا قد آمنوا بالآخرة؟

قلنا: إن الخوف يحصل للعاقل سليم الفطرة بمجرد الإنذار بعذاب الآخرة فيبعثه الخوف على النظر في الآيات ويعتبر بالأمم الخالية المعذبة فيعرف أن الله يعاقب المجرمين لم يهملهم ليفعلوا ما شاؤا وهو لا يجزيهم، ولو كان مهملاً لهم لما عذب القرون الخالية.

وفي قوله تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ انتقال من ذكر عذاب الدنيا إلى ذكر الآخرة وما يكون فيها فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الآخرة، وتذكير الإشارة باعتبار المعنى؛ لأنه قابل للتذكير والتأنيث ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ واليوم هنا بمعنى الحادث العظيم كما يقال: يوم الجمل، ويوم صفين، وإن كان وقته أطول من يوم واحد، فهو كناية عن حوادث يوم الحساب وأهواله.

قال في (لسان العرب): «وقال شمر: جاءت الأيام، بمعنى الوقائع والنعَم، وقال: إنما خصُّوا الأيام دون ذكر الليالي في الوقائع لأن حروبهم كانت نهاراً، وإن كانت ليلاً ذكروها، كقوله:

ليلة العرقرب حتى غامرت جعفر يُدعَى ورهط ابن شكل»

انتهى المراد.

﴿١٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ

وفي قصيدة عمرو بن كلثوم، وهي إحدى (المعلقات السبع):

وأيام لنـــا غُـــرٍّ طـــوالٍ عَصَينـــا الملـــك فيهـــا أن نَدينا

قال شارحها: ((الأيام الوقائع الغر، بمعنى المشاهير، كالخيل الغر لا شتهارها فيما بين الخيل)) انتهى، وقال في شرحها ـ أيضاً ـ ((نخبركِ بوقائع لنا مشاهير، كالغر من الخيل)) انتهى.

ويؤكد هذا المعنى في الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ فهذا اليوم بمعنى الزمان، ولا يظهر أن يكون المعنى يوم يأتي يوم بمعنى الزمان وهو ظاهر إذا كان بمعنى يوم يأتي ذلك الحدث العظيم، ويؤكده ـ أيضاً ـ أن الناس يجمعون لما في اليوم من الحساب والجزاء ونحو ذلك.

ومعنى ﴿مَّشْهُودٌ﴾ يشهده الناس كلهم والجن والشياطين والملائكة وكل من يمكن منه أن يشهده، أي يشهد ذلك الحدث العظيم والخطب الكبير الذي هو البعث بعد الموت وما يكون معه من الأهوال.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ ﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ لمدة محدودة لا يتأخر عنها ولا يتقدم قبل انتهاء الأجل، فالأجل هنا بمعنى المهلة التي منها هذه الحيوة الدنيا أو هي الحيوة الدنيا، والراجح: أن اللام في قوله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ﴾ هي (لام) التعليل أي لأجل أجل معدود قد جعلناه أجلاً وسبقت كلمتنا به فلا يأتي مادام ذلك الأجل.

﴿١٥﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ اليوم المجموع له الناس ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فليس لها في

﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا

الآخرة من الإختيار كما لها في الدنيا فجدالها عن نفسها إنما هو بإذنه، وشفاعةُ من يشفع إنما هي بإذنه ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيد﴾ الناس قسمان: شقي، وسعيد، يوم يأتي ذلك اليوم.

﴿١٠٦﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ في ذلك اليوم بما قدموا من جرائمهم فلأجلها شقوا في الآخرة، فهم في النار ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ وهو صوت يصحب خروج النَّفَس ﴿وَشَهِيقٌ﴾ صوت يصحب جذب النَّفَس، أو الزفير عند جذب النَّفَس والشهيق الصوت مع إخراج النَّفَس اختلِف في ذلك، وحاصلة: أن لهم أصواتاً كنهيق الحمير، وقيل: الزفير من أنينهم، والشهيق صوت رفيع جداً، وقيل غير ذلك.

وقد اتفقت الأقوال: أن الزفير والشهيق أصوات أهل النار من ألم العذاب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا..﴾ الآية [فاطر:٣٧] فدل على أصوات مختلفة، وقال: ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧].

﴿١٠٧﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باقين فيها لا يموتون كما هو شأن الحيوة الدنيا أن تذهب لشدة العذاب، وقوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تعبير عن طول المدة واستمرارها ودوامها، كقول الشاعر:

لن تزالوا كذلكم ثم لا زِلْـ ـتُ لكم خالداً خلود الجبال

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال القاسم بن إبراهيم × : هي سموات الآخرة وأرضها، وليست سموات هذه الدنيا ولا أرضها التي هي زائلة فانية.

وأما ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ فهو إخبار عن قدرة الله على إفنائها إن شاء، وذلك فهو كذلك إذ كان هو الذي خلق وأنشأ؛ لأنه لا يقدر أحد أن يبقي شيئاً بتخليده وإبقاءه، إلا من يقدر على أن يفنيه فلم يشأ سبحانه إفناءه ولكن يشاء تخليده وإبقاءه، وأخبر بقدرته إن شاء على الإفناء كما قدر على الإبقاء، وأن أهل الجنة بإبقائه لهم فيها باقون خالدين [كذا] فيها أبداً لا يفنون كما لا تفنى أرضهم فيها ولا سماؤهم)) انتهى.

قال الشرفي: ((ومثل هذا ذكر المرتضى × ، قال الفراء، والزجاج: إن هذا الإستثناء هو مثل قولك: أريد أن أفعل، إلا أن أشاء غيره وأنت مقيم على ذلك الفعل، والمعنى لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ولكنه أعلمهم أنهم خالدون فهو لا يخرجهم)) انتهى.

قلت: قوله إلا أن أشاء يفيد أنه جعل (ما) مصدرية غير مدِّيَّة بل بمعنى (أن) المصدرية، وهو محتمل، وإذا كانت مدِّيَّة فهو يصح الإستثناء من قوله تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ لأول يوم يأتي فالمدة المستثناة هي مدة خروجهم من القبور وسوقهم إلى موضع الحساب ووقوفهم للسؤال والعرض على الله صفّاً وحسابهم.

وقد قال تعالى: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ [المعارج:٤] وإذا لم يكن هذا المقدار إلا مقدار خمسين يوماً فهو يستحق الإستثناء ويبيِّن أن أهل النار لم يكونوا فيها من أول يوم يأتي وكذلك أهل الجنة لم يكونوا فيها من أول اليوم، وكان مقتضى السياق لولا الإستثناء أن يكون أهل النار فيها من أول يوم يأتي وأهل الجنة فيها من أول يوم يأتي، واستثناء أول المدة صحيح كما يصح استثناء وسطها وآخرها.

وعلى هذا: فأقل أحوالها أن تكون من المتشابه؛ لإجمال المدة المستثناة، والمجمل لا يعارض المبيّن، والمتشابه لا يعارض المحكم، وقد قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ..﴾ [الزمر:١٧-١٨] وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٥] وقال في (التوراة): ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف:١٤٥] ولا إشكان أن المحكم والمبين أحسن من المتشابه والمجمل وإن كان القرآن حسناً كله.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ غير مقطوع فهو بخلاف عطاء الدنيا فهو ينقطع، فالعنب والتين ونحوهما تثمر في بعض السنة ثم تنقطع، والشباب ينقطع، والقوة والصحة تنقطع، والحياة تنقطع.

فإن قيل: ما الفارق بين آية الأشقياء وآية السعداء، حيث قال تعالى في آخر الأولى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ وقال تعالى في آخر آية أهل الجنة ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؟

فالجواب: أن المشركين يقولون فيمن يعبدونهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] فرد الله عليهم، وبيّن أنه لا يتدخل أحد يومئذ لتحويل حكم الله على أعدائه، فكرر في القرآن ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:٢٧٠] ونحوها، وكرر نفي الشفاعة أو نفي نفعها، وكرر أنه تعالى ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ هنا، وفي (سورة البروج): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [آية:١٢-١٦] وفي (سورة الحج): ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آية:١٨] وقال تعالى في (سورة المعارج): ﴿..بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [آية:١-٢] وفي (سورة الطور): ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [آية:٧-٨] فأما السعادة فليس في أوهام المشركين أن شركاءهم تدفعها أو تشفع لهم في فواتها.

يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ

وأما قوله تعالى في الجنة: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٍ﴾ فهو ترغيب فيها ليرجحها العاقل على الدنيا، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا..﴾ [الرعد:٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لاَ مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة:٣٢-٣٣] فجاء في كل واحد من السياقين ما يناسبه.

فأما قول بعض المخالفين: إن قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٍ﴾ يفهم منه أن العذاب مجذوذ؟

فالجواب: أنه لا وجه لهذه الدعوى وليس هذا محل مفهوم من المفاهيم التي ذكرها أهل الأصول، ويلزمهم في فاكهة السابقين أن يفهموا انقطاعها، لأن الله تعالى قال في فاكهة أصحاب اليمين: ﴿لاَ مَقْطُوعَةٍ﴾ ولم يقل ذلك في فاكهة السابقين.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ في شك وتردد من أصنام المشركين أو من شركهم أي لا تتردد في بطلانه، وتفريع هذا على ما مر في السورة من إرسال الرسل المذكورين إلى قومهم وأمرهم لهم بعبادة الله وتدميرهم لإصرارهم على الشرك وتكذيبهم لرسلهم، فذلك يدل على أن دين الله في الأولين والآخرين هو عبادة الله وحده واجتناب الشرك وأن الشرك باطل.

أما قوله تعالى: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُ﴾ فهو يبين أنه لا برهان لهم يعتمدونه، ولا وحي من الله يتبعونه وإنما هؤلاء المشركون مقلدون لآبائهم في باطلهم.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يناسب ذكر اتباعهم لهم واقتدائهم بهم، ويبين أن قوله: ﴿يَعْبُدُ﴾ المراد به في الماضي وإن كان بلفظ المضارع ولعل سببه أن هؤلاء المشركين يستحضرون عبادة آبائهم لشركائهم في أذهانهم فيتبعونهم فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ أي إنا سنوفي هؤلاء وآباءهم نصيبهم من العذاب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ مما يستحقون بل كامل موفور وفي لفظ النصيب ولفظ منقوص تهكم بهم، مثل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ الخلاف فيه إما بين أهل الكتاب وغيرهم من أهل الديانات القديمة وإما بين أهل الكتاب أنفسهم في بعض تفاصيله بسبب ما يحدث من بعضهم من كتابة ما ليس منه ودعوى أنه منه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧٨] أو بسبب الخلاف في أنواع الكلام منه كما اختلف في الأمر مثلاً هل هو للوجوب، وفي ألفاظ العموم، وفي دلالة بعض الكلام على بعض الأحكام توصلاً إلى الخلاف في الدين لأغراض سياسية.

وعلى الأول يكون قوله تعالى: ﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ تسلية لرسول الله ص حيث اختلف الناس في القرآن فمنهم من آمن ومنهم من كفر كما اختلفوا في التوراة من قبل، فأما الثاني فهو خاص بأهل الكتاب وفيه تسلية عنهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي الحكم بإمهالهم وإمهال غيرهم لمدة الإختبار إلى أجل، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف:٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف:٢٤] ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بين المختلفين.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلق لهم؛ لأنه شك يهمّهم لتردده بين أمرين مهمين أو أحدهما مهم، قال الشاعر:

لقد رابني من عامر أن عامراً بعين الرضى يرنوا إلى من جفانيا

قال (صاحب لسان العرب): ((ورابني فلان يَريبني: إذا رأيتَ منه ما يريبك وتكرهه)) انتهى، ومثله في (الصحاح).

وقال في (الكشاف) في تفسير أول (سورة البقرة): ((وحقيقة الريبة: قلق النفس واضطرابها، ومنه: ما روى الحسن بن علي، قال: سمعت رسول الله ص يقول: ((دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الشك ريبة وإن الصدق طمأنينة)) أي فإن كون الأمر مشكوكاً فيه مما تقلق له النفس ولا تستقر وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له وتسكن ومنه ريب الزمان وهو ما يقلق النفوس ويشخص بالقلوب من نوائبه، ومنه أنه مر بظبي حاقف فقال لا يربه أحد بشيء)) انتهى.

فظهر: أن الريب: هو القلق الذي يحدث من الشك في الشيء، وأنه أظهر من تفسير الريب بالشك نفسه، فأما على تفسير الريب بالشك، فيكون المراد بقوله تعالى: ﴿شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ المبالغة في شكهم كما لو قيل: ريب مريب، وفي صحته نظر؛ لأنه يحتاج إلى تصحيحه في اللغة والمعهود في المبالغة أنها تكون مع اتفاق اللفظ في الإشتقاق مثل: ليل أليل، ومثل قول الشاعر:

مروان يا مروان لليوم اليمي

كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ

فإن قيل: فما المانع أن يكون معنى ﴿شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ شك يحدث شكاً آخر حقيقة لا مجرد مبالغة؟

فالجواب: أن الشك الآخر لم يذكر متعلقه أي لم يذكر فيماذا الشك المتولد من الشك وبذلك تقل فائدة ذكره أو يكون التعبير ضعيفاً والقرآن منزه عما لا فائدة فيه وعن ضعف التعبير فهذا الوجه ضعيف، نعم والضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ﴾ للمختلفين فيفيد: أن الكافر والمقر بالتوراة كلاهما في شك، وهذا على الوجه الأول في ذكر المختلفين.

أما على الثاني: فيفيد: أن أهل الكتاب أنفسهم في شك منه، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى:١٤] فيفيد: أنهم غير مؤمنين به إيماناً صادقاً عن يقين، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩٣] رداً على قولهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٩١] ونسبة الشك إليهم بالنظر إلى الجمهور لأن منهم المؤمنين.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿كُلاًّ﴾ أي كل المختلفين ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي جزاء أعمالهم (واللام) في ﴿لَّمَّا﴾ هي الموطئة للقسم إن كانت (إن) هي المخففة من الثقيلة (واللام) في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ لام جواب قسم مقدر أي أقسم ليوفينهم ربك أعمالهم، وأعمالهم يعم الخلاف وغيره، لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي فلا يفوته شيء من أعمالهم ولا من خُبْرها وباطنها، ولذلك فهو يوفيهم كل أعمالهم بقدر ما تستحق من الجزاء.

﴿١١٢﴾ ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾ تفريع على الوعد بتوفية الأعمال أو تفريع ما مر في السورة من القصص وغيره مما هو

ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ

باعث على الثبات على الحق، والإستقامةُ ضد الإعوجاج أي اثبت على الحق حتى لا تميل عنه أدنى ميل ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ كما أمرك الله، فهو يبين لك الإستقامة على الحق؛ لأنها هي العمل بما أوحاه الله إليه من التكاليف كلها ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ فليستقيموا كما أمروا ومن تاب هم المؤمنون، وقوله ﴿مَعَكَ﴾ أي مصاحبين لك في التوبة إلى الله ملازمين لك، فهو خاص بهم كما خص رسول الله ص بقوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ ولعل فائدته أنهم هم مظنة الثبات وأنهم الذين يفيدهم هذا الحث دون المنافقين ومن لم يؤمن ممن أسلم.

﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لا تتجاوزوا حد العبودية بظلم عباد الله أو التكبر عليهم أو نحو ذلك ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي إن الله ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ لعلمه به وبمقدار ما يستحق من الجزاء وعلمه بما هو خطأ يستحق العفو ونحو ذلك من أحوال العمل التي توجب اختلاف حكمه.

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ الركون: الميل اليسير، قال في (الصحاح): ((ركن إليه: أي مال إليه وسكن، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾)) انتهى باختصار، ومثله في (لسان العرب) وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ولا تميلوا)) انتهى.

وفي كلام أمير المؤمنين علي × : ((الركون إلى الدنيا مع ما تعاين منها جهل)) أي الإطمئنان، وفي هذه الآية دلالة على تحريم الركون إلى الذين ظلموا وإن لم يبلغ حد الموالاة، وليس من هذا مجرد المجاملة والمداراة ومكافاة

الإحسان بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة:٨] فالميل إليهم رغبة في النفس وحب لمجالسهم أو عاداتهم أو زيهم أو نحو ذلك من لوازم الرغبة في طريقتهم أو في دنياهم والإطمئنان إليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ وعيد بالعذاب؛ لأنها إذا مست أحرقت، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ حال من (تمسكم النار) أي تعذبون في حال أنه مالكم من دون الله من أوليا يتولون رعايتكم ليحولوا بينكم وبين عذاب الله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ من عذاب الله لا ينصركم أحد.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ﴿وَأَقِمِ﴾ عطف على النهي، أو على ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ و﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أوله فهو وقت لصلاة الفجر وآخره وقت لصلاة العصر، وللعصر والظهر إذا أخرت الظهر فهو وقت لهما ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ساعات منه، واحدها: زلفة)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ جمع زلفة، والزلفة المنزلة، فكأنه قال: ومنازل من الليل أي ساعات من الليل وهي ساعاته القريبة من آخر النهار من أزلفه إذا قرَّبه)) انتهى.

قلت: لعل الأصل: أو هي ساعاته، بدليل قوله: من أزلفه إذا قربه، ففي كلامه ذكر احتمالين: أنه من الزلفة بمعنى المنزلة، وأنه من أزلفه إذا قرّبه، فعلى الأول ساعات من الليل غير مقيد، وعلى الثاني ساعات من الليل قريبة ـ والله أعلم.

لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ

ولعل الأقرب الأول، وجعلت زلفاً لأنه زُلَف لمن أحياها بالقيام، أي درجات يرقى فيها وقُرَب يتقرب بها أي بقيامها وسهرها إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يحتمل يمحون السيئات، ويحتمل ينهين عن السيئات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ..﴾ [الأحزاب:٣٣] وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ..﴾ [العنكبوت:٤٥] وعلى الإحتمال الأول يخص الخطأ ونحوه؛ لأن العمد يخرج صاحبه عن كونه من المتقين فلا تقبل منه حسنة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وعلى الإحتمال الثاني يكون المعنى إن الحسنات لطف في ترك السيئات كما روي في صيام أيام البيض إنها تذهب وَحَر الصدر.

﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر والنهي، ولعل الإشارة إلى ما سبق من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ وما بعدها ﴿ذِكْرَىٰ﴾ تذكرة وموعظة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ غير الغافلين والذاكر ضد الناسي، فالذاكرون الذي يقبلون الذكرى وينتفعون بها.

﴿١١٥﴾ ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على كل التكاليف التي حملتها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأجرك لا يضيع فأنت بأعمالك تعمل لنفسك وتتجر تجارة لن تبور بل ربحها عظيم.

﴿١١٦﴾ ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ لولا بمعنى هلا، وحاصله الإنكار

عليهم حيث لم يكن فيهم بعض منهم صالحون ﴿يَنْهَوْنَ﴾ قومهم ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حتى لا يهلكوا كلهم بالعذاب العام ثم بعذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ في معناه هنا خلاف بين أهل اللغة والراجح منها الإبقاء على أنفسهم كما قال الشاعر:

قال البقيــة يا قيســاً فقلت لَه صبراً حذيف فأنت السيد الصمد

ومن جهة المعنى أنهم بنهيهم عن المنكر يبقون على أنفسهم أي ينقذونها من الهلاك، كما قال تعالى: ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف:١٦٥] فالمعنى: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي إيمان وتقى وطاعة لله ولذلك ينهون عن الفساد في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء لأجل النفي المفهوم من قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا﴾ فكأنه قيل فما كان من القرون أولوا بقية، وعمومه ينفي القليل والكثير، فاستثنى القليل لأنهم بنهيهم نجوا أنفسهم وإن لم ينقذوا قومهم كما لو كانوا كثيراً يستطيعون التغيير.

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا﴾ يدل على أنهم بعض من أنجاه الله فمَن هو البعض الآخر؟

والجواب: أنه مَن ترك النهي لعذر صحيح.

﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ من القرون لم يوجد منهم من ينهاهم عن الفساد بحيث يحول بينهم وبينه، واتبعوا أموالهم التي أترفوا فيها وشهواتهم، فجعلوها هي السعادة واستكبروا في أنفسهم بسبب إحرازها وعظمهم الجاهلون بسببها فاستحقروا الرسل وأتباعهم وأنفوا من الإنقياد لهم.

لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ﴾ معناه: ما تكبروا فيه)) انتهى، وهو تفسير بحاصل المعنى، وعلى هذا فالمراد بالذين ظلموا كبراء الأمم الماضيين وقادتهم إلى الفساد ﴿وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ فانقادوا للكبر وهوى النفوس.

قال الراغب: ((الترفه: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((التَّرَف: التنعم، والتُّرْفَة: النَّعمة)) انتهى المراد.

﴿١١٧﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ ﴿مَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ﴾ نفي مؤكد يفيد: أنه ليس من شأنه تعالى ولا يليق بجلاله أن يهلك ﴿ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ وهو تأكيد للدلالة على أن سبب هلاك القرون الأولى هو الفساد في الأرض فما أخذهم الله إلا بذنوبهم وهذا ليعتبر بهم الباقون بعدهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ غير مختلفين في الدين لكنه غني عن عبادتهم، وقضت حكمته التمكين لعباده من الطاعة والمعصية، وتركهم يختارون ما شاؤا، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] مع أنه قادر على أن يضطرهم إلى التوحد على عبادته.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ لا يزالون في المستقبل ﴿مُخْتَلِفِينَ﴾ لأنه مكنهم أن يختاروا لأنفسهم ما شاؤوا فمنهم من يتبع هواه، ومنهم من يتبع عقله.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهم لا يختلفون في الحق، بل يتوحدون على دين واحد بهداية الله لهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ..﴾ [البقرة:٢١٣] والسياق يرشد إلى أن المراد بالإختلاف ما به يكون بعضهم مطيعاً مصلحاً وبعضهم عاصياً مفسداً لامجرد الإختلاف في فروع المسائل مع تحري كل طرفي الإختلاف للحق ومع اتفاقهم على تقوى الله والإيمان الذي لا يعذر بتركه أحد، والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ..﴾ [الأحزاب:٥] وقوله تعالى حاكيا مقرراً: ﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إن كانت الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فالمعنى: وليرحمهم بالهداية والتوفيق خلقهم؛ لأنه خلقهم لعبادته وهي ملزوم الهداية والرحمة ولازمهما فلا إشكال، وإن كانت الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ فهي من المتشابه.

قال الشرفي / في (المصابيح): (قال القاسم × ـ هو القاسم بن إبراهيم ـ : فلن يزالوا كما قال الله سبحانه مختلفين؛ لأن الإختلاف لا يزال بين المحقين والمبطلين وهو خبر من الله عما يكون، وأنهم لن يزالوا يختلفون فيما يستأنفون، فالإختلاف منهم وفيهم، ولذلك نسبه الله إليهم.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ يريد من المؤمنين فإنهم في دينهم مؤتلفون غير مختلفين.

وقوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يقول سبحانه للمكنة [من] ما يجب به الثواب والعقاب من السيئة والحسنة، ولولا خلقه لذلك على ما فطرهم عليه من ذلك لما اختلفوا في شيء ولما نزل بهم أمر ولا نهي ولا كان فيهم مسيء ولا محسن ولا فيهم كافر ولا مؤمن ولكانوا كالموات الذي لا يسيء ولا يحسن ولا يفجرعند الله ولا يتقي)) انتهى.

وقد *يقال*: كيف صحت الإشارة إلى المكنة وهي غير مذكورة؟

والجواب: قد ذكر لازمها فكأنه قيل: ولكونهم لا يزالوان مختلفين خلقهم لأنه أراد أن يخلقهم ليمكنهم من التقوى والفجور وهو يعلم أن ذلك يستلزم أن يختلفوا، فالتعليل بكونهم لا يزالون مختلفين راجع إلى سببه أي لأنه مسبَّب عن التمكين، وفائدة هذا التعبير الدلالة على أنه تعالى غني لا يمنعه كونهم سيختلفون عن خلقهم كما قلت في ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:٧] ولذلك كانت من المتشابه وقد قضت حكمة الله أن يجعل القرآن منه آيات محكمات وأخرمتشابهات، ونظير التعليل بلازم العلة قولك قصَرت الصلاة لأني مسافر، فالمراد لأن المسافر شرع له القصر والمراد بالتعليل قصرت لأنه شرع لي القصر.

هذا وقد ذكر الشرفي تفسيراً آخر، فقال: ((وما أحسن قول الهادي × حيث قال: والذي أراه أنا في ذلك أنه سبحانه أراد أنه خلق المؤمنين لمخالفة الكافرين؛ لأن مخالفة الكافرين في كفرهم أعظم الطاعة لرب العالمين، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فأخبر أنه لم يخلق الخلق إلا لعبادته، فمن خالف عبادته وطاعته فمخالفته في ذلك فرض من الله على من يخالفه ولا مخالفة لأعداء الله ولا مفارقة أكبر من

وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

ضرب وجوههم بالسيف وسفك دمائهم ومجاهدتهم على مخالفتهم الحق، وهذا فهو أكبر فرائض الله على خلقه وأعظم ما افترض الله على عباده؛ ولهذا خلق الخلق لأنه أفضل عبادته، فإذا صح المخالفة للفاسقين على المؤمنين والجهاد لهم فقد صح أن لتلك المخالفة التي افترضها عليهم خلقهم وإليها دعاهم وبها [في الأم من تفسير الشرفي: وبما وهو غلط واضح تمت منه] في أعدائه أمرهم)) انتهى.

وقال في (البرهان): ((﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ من أهل الحق فلم يختلفوا ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي للرحمة خلقهم)) انتهى، قال الشرفي: ((وهذا قول ابن عباس وهو اختيار جمهور المعتزلة)) انتهى، وقد بسط الشرفي في تقوية هذا التفسير الأخير.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿تَمَّتْ﴾ من التمام ضد النقصان وهو التمام المعنوي، ومعناه: أنها حقت، أي أنها حق وصواب، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ تفسير لكلمته التي حكم لها بالتمام، وكل كلماته تعالى حق وصواب فكلها تامّة.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ حذف المضاف إليه وعوّض بتنوين العوض، وفسره قوله تعالى ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي وكل ذلك القصص المذكور، فحذف لأنه كفى عنه قوله تعالى: ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ أي أخبارهم أي الإخبار عنهم ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ﴾ أي نقصُّ ما نثبت به ﴿فُؤَادَكَ﴾ أي نثبت نطمئن قلبك على ما أوحيَ

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

إليك وما كلفته حتى لا يكون قلقاً مضطرباً مع كثرة المخالفين لك وقوّة الخلاف بينك وبينهم المؤدي إلى القتال.

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السورة ﴿ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ فكل ما في هذه السورة من القصص وغيرها هو الحق، وإن خالف في بعضها الكافرون وجاءك فيها موعظة كذكر اليوم المجموع لَه الناس وما يكون فيه، والأمر بالإستقامة، والتحذير من الطغيان ومن الركون إلى الظالمين، والوعيد المذكور في السورة كله، وقوله تعالى ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ أي تذكير للمؤمنين الذين تنفعهم الذكرى.

﴿١٢١-١٢٢﴾ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما جئت به من القرآن، أو من هذه السورة ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ إما على تمكنكم أي على ما أنتم عليه من التمكن والقوة، وإما على اتّئادكم غير معجلين، أي نترككم وشأنكم ونحيلكم إلى حكم الله فيكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ على ما نحن عليه.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ الجزاء من ربكم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ لجزائه لكم العاجل، أو منتظرون لجزائه لنا على عملنا وستعلمون من يأتيه عذاب يخزيه.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو العليم بما غاب عنا فيهما ومنهما ومن شأنهما، ويعلم موعد الجزاء لعباده، ويعلم الأعمال ظاهرة وباطنة لا تخفى عليه خافية.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ لأنه القادر على كل شيء والعليم بكل شيء فأرجع أمرك وأمر قومك إليه وإلى تدبيره لشأنك وشأنهم وإلى جزائه وحكمه بينكم.

﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ فيما بقي من عمرك كما عبدته فيما مضى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ في عبادتك لَه وطاعتك لتكاليفه من تبليغ الرسالة وغيره، أي كِل أمرك إليه فامض على ما أمرت به اعتماداً على حفظه وعونه لك وتدبيره لشأنك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنت ومن معك ومن عاداك وكذبك فاكتف بذلك في ثباتك على طاعته وعنايتك بتقواه ومراقبتك لَه وصبرك على ما كُلِّفتَ من تبليغ الرسالة، والمجاهدة لأعداء الدين وغير ذلك.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه
وصلى الله على محمد وآله وسلم.

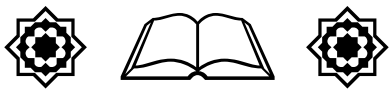

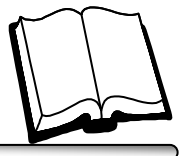

التيسير في التفسير

سورة يوسف

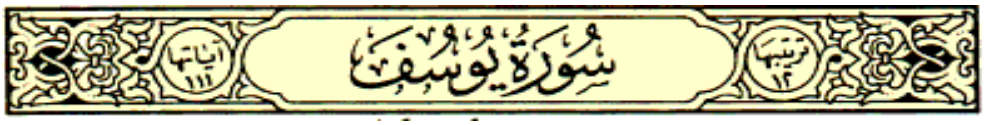

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا

ابتداء تفسير (سورة يوسف)

قال الشرفي / في (المصابيح): ((سورة يوسف × مائة وإحدى عشر آية، قال الإمام الناصر ـ أبو الفتح الديلمي ـ × : (سورة يوسف) مكية كلها)) انتهى.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓرۚ﴾ قد مرّ في تفسير أول (سورة الأعراف) بحث في هذه الحروف ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة والراجح أن المشار إليه هذه الحروف المذكورة في أوائل عدة من السور، وفي ذلك فائدتان:

الأولى: أن هذا الكتاب المعجز هو في أصله مؤلف من الحروف التي تنطق بها العرب فما عجْزُهم عن الإتيان بمثله مع أنه من جنس الحروف التي ينطقون بها إلا من أجل حكمته وإحكامه.

الثانية: الدلالة على أن الكتاب هو مؤلف من الحروف أوحاه الله لا الكلام النفسي ولا مجرد المعاني بدون ألفاظ فهو تحقيق لوحيه بحروفه وكلماته إلى رسول الله ص.

وقوله: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي الذي يبين المعاني فلا يحتاج العرب إلى ترجمته، ولا في دلالته غموض كمسائل المعاياة بل معناه بيّن، ولا ينافي ذلك أن المعنى البين يوصل من أحرزه إلى فهم معنى كان غامضاً؛ لأنه قد حصل بيان ما يبين الغامض.

ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ

ويدل هذا على بطلان قول من يدعي من الإمامية: أنه لا يفهمه إلا الإمام، وقول بعض الصوفية: أنه لا يفهمه إلا الشيخ، وقول بعض منتحلي السنة: أنه يحتاج إلى البيان بالسنة، وبنوا على ذلك قولهم: ((إن السنة حاكمة على القرآن)) وقد رددتُ عليهم في (تحرير الأفكار).

﴿٢﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿إِنَّآ﴾ أي إن الله ذو العظمة والجلال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي أنزلنا الكتاب ﴿قُرْءَانًا﴾ يقرؤه الناس لينتفعوا به ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعقلون المراد به الذي هو معناه وفوائده؛ لأنه بلسانكم فتفهموه وتحفظوه.

﴿٣﴾ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ لأنه صدق لم يختلط بكذب، وصوابٌ ليس فيه خطأ، ومفيد للعِبَر النافعة، ليس كالأقاصيص التي يضيع بها الوقت ولا تفيد فائدة نافعة، فالله جل جلاله عالم الغيب وأصدق القائلين هو الذي قصَّه عليك يا رسول الله قصه عليك ﴿بِمَآ﴾ أوحى ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي بوحي هذا القرآن، الجامع لبيان ما يحتاج إليه في الدين من أصول المسائل وكثير من فروعها وهذا القصص وغيره ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ﴾ قبل هذا القرآن ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ عما فيه من العلوم لا تدري بفرائضه وحلاله وحرامه وكثير مما يحتاج البشر إلى علمه، ولا ينافي ذلك علمه ص بالله الذي يحصل للعقلاء بالنظر في المخلوقات؛ لأن ذلك لا يكفي عما يحتاج الإنسان إلى علمه فهو غافل بالنظر إلى غير العقليات القريبة.

﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن

ويحتمل عود الضمير في ﴿قَبۡلِهِۦ﴾ إلى ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ فيكون المعنى: وإن كنت من قبله لمن الغافلين عن معناه، فالأُولى تمننٌ على رسول الله وتذكير له بنعمة الله، ويصلح دليلاً على نبوته من حيث أنه تنبيه على علمه بما لا يعلمه إلا بوحي من الله، والثاني أظهر في هذا المعنى الأخير ويشير إلى ذكر نعمة الله عليه.

﴿٤﴾ ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ ﴿رَأَيۡتُ﴾ من الرؤيا في المنام ﴿سَٰجِدِينَ﴾ اعلم أن السجود تذلُّل وتعظيم وإجلال، فإن كان على معنى الإعتراف بالعبودية فهو عبادة؛ لأن اسم العبادة تابع للعبودية، قال الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ..﴾ الآية [النساء:١٧٢] فأقام قوله: ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ مقام عن: ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا﴾ فدل على: أنهما كالشيء الواحد، وأن العبادة لازم العبودية، وإن كان السجود لمجرد التعظيم والتذلل، لا على معنى الإعتراف بالعبودية فليس عبادة.

فالسجود على المعنى الأول لا يقع من نبي الله يعقوب، ولا يرضى به نبي الله يوسف، فلا بد أن معناه السجود من أجله لله وهو سجود الشكر لله، فاللام في قوله: ﴿لِي سَٰجِدِينَ﴾ لام التعليل، وهذا تأويل لتعذر الحقيقه وإن كان السجود لمجرد التعظيم فهو بعيد أن يكون من أب لابنه؛ لأن الإبن وإن كان نبياً يستحق التعظيم، فالأب هنا نبي والحق للأب على ابنه فجعل السجود ليوسف حقيقة مشكل على كلا المعنيين.

والجواب: أنه في الرؤيا غير مشكل؛ لأن تأويلها خلاف ظاهرها فيصح هذا المعنى أي السجود لمجرد التعظيم له في الرؤيا؛ لأنه ليس على ظاهره، وتأويله تعظيم يوسف بسجود الشكر لله على نعمة الوصول إليه وعلى هذا فلا مانع أن يكون في الرؤيا على المعنى الحقيقي سجود ليوسف لمجرد التعظيم والإجلال، ولذلك تعجب منه مع صغر سنه وأخبر به أباه.

وأما في قوله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ فهو إما السجود لله شكراً أو السجود له لمجرد التعظيم تواضعاً من الأب، ويأتي مزيد تفسير عند ذكر قول الله تعالى: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾.

قال الشرفي ـ / ـ في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : المعنى في ذلك: أن الكواكب هي الأشراف من الرجال وهم إخوة يوسف، والشمس هي أمه، والقمر أبوه، وذلك أنهم سجدوا لله من أجله حين مَنّ الله عليهم بوصوله وجمع شملهم به بعد حين من الزمان)).

قال الشرفي: ((ومثل هذا ذكره الهادي × في معنى السجود مع احتمال أن يراد به التواضع كما في قوله:

ترى الأُكْمَ فيها سُجَّداً للحوافر

قال: إلا أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة)) انتهى.

أقول: الراجح في قوله: إلا أن الأصل..إلخ، أنه من كلام الشرفي ـ والله أعلم ـ ولا يبعد أن السجود للتواضع كان معتاداً من الناس للملِك كما يفعل الركوع أو قريب منه في هذا الزمان للتعظيم، فرجح ذلك استعمالَ يعقوب وأولاده لما هو معتاد مألوف تواضعاً من يعقوب وأمّ يوسف وإنصافاً من إخوة يوسف، وهذا وإن كان بعيداً في عرفنا لا يبعد إذا كان عرف ذلك الزمان؛ ولذلك جوزه الإمام الهادي × كما هوظاهر حكاية الشرفي.

أما قول الشرفي: إلا أن الأصل في الكلام حمله على الحقيقة، ففيه نظر لاحتمال أنها حقيقة عرفية حادثة بين المسلمين، والقرآن لا يجب حمله على الحقيقة الحادثة من بعده.

قال في (لسان العرب): ((ابن سيدة: سجد، يسجد، سجوداً: وضع جبهته بالأرض، وقوم سجّد وسجود، وقوله عز وجل: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ هذا سجود إعظام لا سجود عبادة ـ ثم قال صاحب لسان العرب ـ : قال الزجّاج: إنه كان من سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يُسجَد للمعظَّم.

قال: وقيل: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي خرّوا لله سجداً من أجله، قال الأزهريّ: هذا قول الحسن، والأشبه بظاهر الكتاب أنهم سجدوا ليوسف دلَّ عليه رؤياه الأولى التي رآها حين قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فظاهر التلاوة: أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له، من غير أن أشركوا بالله شيئاً، وكأنهم لم يكونوا نُهُوا عن السجود لغير الله)) انتهى المراد من (لسان العرب).

وقد فسّر غيره السجود بالتذلل وبالخضوع وهو صالح للتذلل بدون عبادة، قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤].

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ هذه الرؤيا أي لا تخبر بها إخوتك ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فيدبروا لك بحيلة سوءاً أيّ تدبير لما يقع في أنفسهم من الغيرة التي تبعثهم على أن يكيدوا لك لئلا يقع لك تأويل هذه الرؤيا.

تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي

قال الشرفي في (المصابيح): ((وكان يعقوب × شديد الحبّ ليوسف وأخيه فحسده إخوته لهذا السبب، وظهر ذلك المعنى ليعقوب × بالأمارات الكثيرة [قلت: أو بالوحي من الله قال:] فلما ذكر يوسف × لأبيه هذا الرؤيا وكان تأويلها أن إخوته وأبويه يخضعون له قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ﴾ أي لا تخبرهم برؤياك فإنهم يعرفون تأويلها ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ أي فيحتالوا لك حيلة في هلاكك)) انتهى المراد.

وقوله: في هلاكك، غير متعيّن عندي.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ يريد ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ يوسوس لإخوة يوسف بما يحرك الغيرة، ويقوي رغبتهم في الكيد لك، ويزينه لهم عداوةً منه لك ولإخوتك؛ لأنه ﴿لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ أي بيِّن العداوة، فينبغي للإنسان أن يحذره.

﴿٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿يَجۡتَبِيكَ﴾ الإجتباء: التأهيل بتزويده بالعلم والحكمة وغير ذلك مما تتطلبه المهمة المنوطة به، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: يختار)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((واجتباه: أي اصطفاه)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((واجتباه: أي اصطفاه، وفي الحديث أنه اجتباه لنفسه أي اختاره واصطفاه)) انتهى المراد.

وقوله تعالى حاكياً: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ﴾ أي كما رأيت في الرؤيا سجود الكواكب المذكورة والشمس والقمر لك يختارك ﴿رَبُّكَ﴾ ويصطفيك لشرف عظيم ورئاسة، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ كما هو شأن من اصطفاه الله أن يرزقه علماً وحكماً، لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ومن العلم علم تأويل الأحاديث، أو علم بعضه.

و﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يعم علم تأويل قصص الرؤيا وتأويل بعض الحديث كما في التفاؤل ببعض الكلام، فهو أعم من تأويل الرؤيا، ومن هذا معرفة مخبر الإنسان بكلامه، وفي كلام أمير المؤمنين علي × : ((المرء مخبوّ تحت لسانه، فإذا تكلم ظهر)) أو كما قال، ويدخل في ذلك علم تأويل كتب الله التي نزلت على إبراهيم ووحيه إليه وإلى إسحاق ويعقوب وغير ذلك، وتأويل الرؤيا: ما تؤول إليه، كأنها عبَّرت عنه فكان عاقبتها ومآلها.

وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ آل يعقوب أولاده أو هو عام ليعقوب نفسه بالتغليب، كما قدمت في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣] وهو الراجح عندي، ولعله أراد بإتمام النعمة على يوسف تمكين دينه له وبإتمام النعمة لهم تمكين دينهم وجمعهم عليه بتوبة إخوة يوسف.

وقوله: ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ أي كما أتم نعمته على أبويك من قبل أي في عهدهما بإظهار دينهما على دين المشركين ونصرهما على المشركين، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ دون (إن ربنا) أو (إن ربي) لأن ما ذكر من إتمام النعمة على آل يعقوب تابع لاجتباء يوسف، فمن حكمة الله تعالى يسَّر تمام نعمته على آل يعقوب على يدي يوسف.

يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كالتعليل لما ذكر في تأويل هذه الرؤيا، وهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتَه﴾ [الأنعام:١٢٤] فالله تعالى بحكمته وعلمه اجتبى يوسف وعلمه من تأويل الأحاديث وأتم عليه نعمته وعلى آل يعقوب.

﴿٧﴾ ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ فالآيات في يوسف مثل: تأدية صبره على البلاوي التي تتابعت عليه منذ صغره وفي شبابه إلى شرف الدنيا والآخرة، وتأدية حلمه عن إخوته إلى صلاحهم وسجودهم له، وتأدية علمه إلى خروجه من السجن، ووضوح براءته من امرأة العزيز، وتأدية علمه وعفافه، وطهارته وصدقه وأمانته إلى ما صار فيه من المنزلة الرفيعة والولاية على خزائن الأرض.

وأما الآيات في إخوة يوسف فمثل ما أدتهم إليه الغيرة والحسد من التعدي على يوسف، وعقوق أبيهم وإيقاعه في الحزن الطويل الأمد الذي لأجله أبيضت عيناه بالفراق ليوسف، ثم ما وقعوا فيه من رميه بالسرقة ومن قولهم لأبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ وقولهم: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾.

ثم ما وقعوا فيه من العناء لطلب الميرة، وما صاروا إليه من نقص المنزلة، واعترافهم ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وقولهم لأبيهم: ﴿يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ وكل ذلك نتائج الاتباع لهوى النفوس الذي قادت إليه الغيرة والحسد ففيهم عبرة كما في يوسف ص.

ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ

وتقديم هذه الآية على تفصيل قصتهم يشير إلى أن المقصود بالقصة ما فيها من الآيات والعبَر مع ما فيها من العبرة لأولي الألباب المشار إليها في آخر السورة وهي الدلالة على أن هذا القرآن وحي من الله وأن محمداً رسول الله ص.

وقوله: ﴿ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي للسائلين عن قصصهم الذين يريدون معرفته؛ لأنهم هم الذين يصغون لها دون الكفار المعرضين عن سماع القرآن.

٨ ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ﴿لَيُوسُفُ﴾ فيه تأكيد باللام؛ لأنه عندهم أمر مستبعد يحتاج مثبته إلى تأكيده، وقولهم: ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ قال الراغب: ((والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((والعُصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين)) انتهى، ومثله في (لسان العرب).

قال في (الكشاف): ((يعني: أنه يفضلهما في المحبة علينا وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، ونحن جماعة عشرة رجال كُفاة نقوم بمرافقته، فنحن أحق بزيادة المحبة منهما لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما)) انتهى، وهو صحيح.

وقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أرادوا أنه غالط مخالف للصواب كمن يمشي غاوياً عن الطريق، ومعنى ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ﴾ في غي، أي غواية، ومعنى ﴿مُّبِينٍ﴾ أي غي بيّنٌ واضح لا يخفى.

٩ ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾ ذهبت عاطفة الأخوّة بسبب الغيرة والحسد، وذهبت

بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ

عاطفة البنوة كذلك، وغلب الحسد فدبَّروا الحلّ ليستريحوا مما في نفوسهم من الغيرة والحسد، ولا يهمهم تضييع أخيهم وحزن أبيهم عليه.

وقولهم: ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أرادوا أرضاً يضيع فيها ولا يهتدي لعودة إلى أبيه أو تقتله السباع، وقولهم: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي لا يبقى فيه التفات ولا توجه إلى غيركم بل هو فارغ الإلتفات إليكم والتوجه إليكم، وقولهم: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ أرادوا من بعد يوسف أو من بعد قتله أو طرحه أرضاً ترغيب في المعصية بتمني التوبة بعدها، وكأنه لا يهمهم انكشاف أمرهم بعد تضييع يوسف فأبوهم نبي ومن البعيد أن لا يفضحهم الوحي؛ لأنهم بزعمهم سيكونون قوماً صالحين، فلا بد أن يقبل توبتهم إذا تابوا.

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَٰتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((والغيابة: ما غاب عنك، والجب: البئر الذي لم يطم)) انتهى كذا، ولعل الأصل: لم يُطْوَ، أي لأنه إذا لم يُطْوَ يكون فيه غيابات من أثر الأمطار.

وقد ذكر الشرفي قولين في تفسير الجب: أحدهما: أنه البئر البعيدة، والثاني: مالا طيَّ له من الآبار، وفي تفسير الراغب لـ(مفردات القرآن): ((﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾: أي بئر لم تُطْوَ)) انتهى، ومثله في (الصحاح).

والمراد بـ﴿ٱلسَّيَّارَةِ﴾ المسافرون الذين يسيرون في الأرض ولو ركباناً، فصاحب هذا الرأي أراد الجمع بين غرضهم وبين ترك قتل يوسف، وذلك بتضييعه في غير مهلكة.

﴿١٣﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ حث على العمل بهذا الرأي، مثل: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

﴿١١﴾ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ بدأوا مكرهم بقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ كأنهم يرون له حق الأبوة، وقولهم: ﴿مَا لَكَ﴾؟ سؤال عن سبب عدم أمنهم على يوسف كأنهم لا يعلمون سبباً ومن البعيد أن لا يأمنهم لغير سبب.

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ﴾ تغليط له في عدم أمنهم على يوسف وهي مقدمة لطلب إرساله معهم، وكأنه × مال إلى الرفق بهم وترك المصارحة لهم بأنه يخاف أن يكيدوا ليوسف؛ بسبب الغيرة منه، أو لم يكن يظن أن قد بلغت بهم الغيرة إلى أن يكيدوا ليوسف؛ لأن إقباله إلى يوسف وأخيه في حال صغرهما يبرره صغر سنهما وكون العطف على الصغير طبيعياً، وقد عطفَ على كل واحد منهم في صغره، والعطف على الصغير لا يغار منه الكبير في العادة فلذلك رجّح أن لا يردّ عليهم هذا القول.

﴿١٢﴾ ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ﴿يَرْتَعْ﴾ يأكل من شجر البرّيّة وسمَّوه رتاعاً لمشابهته رتاع الأنعام في أكله من الشجر التي تأكل منها وهذا على قراءة ﴿يَرْتَعْ﴾ ـ بسكون العين ـ فأما على قراءة ﴿يَرْتَعِ﴾ ـ بكسر العين ـ فأصله يرتعي: أي يرعى، وكلمة يرعى تصلح لأكل المرعى، وللراعي الذي يرعى الأنعام.

﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿يَرۡتَعۡ﴾ أي يفتعل في وزن الكلمة ومقدارها وهو يرعى الماشية)) انتهى.

وهو مبنى على قراءة ﴿يَرْتَعِ﴾ ـ بكسر العين ـ وقولهم: ﴿يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ﴾ تغطية على غرضهم بدعوى أن غرضهم راجع لمصلحة يوسف، وكذا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ أي نحفظه من الضياع ومن السباع ونحو ذلك.

﴿١٣﴾ ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ﴾ يشير إلى أنه يخاف إخوة يوسف عليه؛ لأنه علَّق الإحزان على ذهابهم به ولم يعلقه على مجرد ذهابه أو غيابه من عنده ولكنهم فيما أعتقد تغافلوا عن هذا فلم يجيبوا عنه جواباً مستقلاً، وقد أمعنوا في الإحتيال، وكأنهم استحقوا أن يوليهم الله ما تَوَلّوا لجرأتهم على عقوق أبيهم فلم يحذر أباهم بوحي.

﴿١٤﴾ ﴿قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ فهذا جواب غير مطابق لقوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ لأنه لم يقل: وأخاف أن يغلبكم الذئب، إنما قال: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾.

وقولهم: ﴿وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ لا يفيد أنهم لن يغفلوا عنه وخصوصاً مع ضعف العاطفة لو كانت عندهم بقية من عاطفة، فإن من الجائز عليهم أن ينشغلوا عنه فيغفلوا عنه لاشتغالهم بأغراضهم.

وقولهم: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ لعلهم أرادوا به خسران الجنة ليوهموا أباهم حرصهم على دينهم ويوهموا أنه لا يأكله الذئب إلا لتفريط منهم وهم يشاهدونه يأكله فلا يستنقذونه منه وهم يستطيعون إنقاذه؛ لأنهم عصبة فيكونوا قد أثموا واستحقوا عذاب الآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وعلى هذا فالجواب عن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ﴾ قد ضمنوه ما يُذهِب خوف أبيهم منهم إذا ذهبوا به وحزنه لذلك، وهي طريقة دهاء وعمق احتيال؛ لأنها تفيد في سياق الجواب عن قوله: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ أعني تظاهرهم بالخوف من الخسران، ولو قالوها رداً على قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وأظهروا أنهم قد فهموا أنه يخافهم على يوسف لكان ردهم بأنا نخاف خسران الآخرة، مجرد دفاع عن أنفسهم والفاجر لا يعجز عن مثل ذلك الدفاع في سبيل توصله إلى غرضه، فكان تأثير ذلك لهم بعيداً بخلاف ما إذا تغافلوا عن قوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ وكأنهم لم يفهموا أنه يخافهم فإن تظاهرهم بالدين والخوف من خسران الآخرة ليس في صورة الدفع لخوفهم على يوسف وحزن أبيهم لذهابهم به فكان تأثيره في أبيهم أقرب. كقوله تعالى ﴿حتى مطلع حتى : حرف غاية وجر ، مطلع :

﴿١٥﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَٰتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي بيوسف وهذا يفيد: أن أباهم وافقهم على إرساله معهم، فذهبوا وأجمع رأيهم أن لا يقتلوه، بل يجعلوه في الجب أي البئر ليلتقطه بعض السيارة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أي إلى يوسف ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ وهو يفيد تقوية رجائه للسلامة وصلاح حاله في المستقبل كما أفادته الرؤيا.

﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بوحينا، والراجح أنه وحيُ إخبار من الله لـه، ولذلك قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لأنه كلام لم يسمعوه، ولو كان مجرد إلهام لكان من شـأنه أن لا يشـعروا بـه، وكـان قولـه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لا موجب لـه، فلما قال: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ كان قرينة أن الـوحي هـذا كـلام، ولا يلزم منه نبوءة يوسف × في ذلك الوقت؛ لأنـه لـيس وحيـاً بشـريعة، والإشارة بقوله تعالى: ﴿هَـٰذَا﴾ إلى ما فعلـوا بيوسـف مـن جعلـه في غيابـات الجب ومقدماته، وقد أغنى قوله تعـالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ..﴾ إلى قولـه ﴿..وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أغنى عن ذكر جـواب (لَمَّـا) مـع قولـه: ﴿وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ فلم يبق موجب؛ لأن يقول فعلوا ذلك.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ﴾ ﴿عِشَآءً﴾ في ظلمـــة الليـــل ﴿يَبْكُونَ﴾ تغطية لجريمتهم وتوصلاً إلى قبوله لعذرهم وظنه صدقهم ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ ﴿ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي ذهبنا متسابقين أي ذهبنا من عند متاعنا ومن عند يوسف وقد أغنى عن هذا قولهم وتركنا يوسف عنـد متاعنا أي عند أدواتنا مثل بعض الملابس الذي يطرح عند السباق.

وقولهم: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ أي بحيث هلـك ولم يبـق منـه رأس ولا يـد ولا رجل ولا شيء؛ وهذا لأنهم لو أدركوا منه شيئاً على فرض أنهم صادقون لكان ينبغي أن يأتوا به معهم إلى أبيهم ليدفنوه وليطلعوا أباه عليه إن شك في صدقهم.

بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ

وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ﴾ أي بمصدق تصديق إذعان وقبول لكلامنا أي وذلك من سبب بكائنا، وقولهم: ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ أي ما أنت بمؤمن لنا في حال من الأحوال وفي حال لو كنا صادقين، ولعل قولهم: ﴿وَلَوۡ﴾ بدل أن يقولوا: «وإن كنا صادقين» يقرب من الإقرار أنهم غير صادقين.

١٨ ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿وَجَآءُو﴾ أي إخوة يوسف جاءوا ﴿بِدَمٖ﴾ على قميص يوسف وهو دم ﴿كَذِبٖ﴾ لأنهم جعلوه شاهداً على أن يوسف قد أكله الذئب وهو لم يأكله، فكان الدم كذباً تعبيراً عن أكل الذئب ليوسف وهو غير مطابق للواقع ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًا﴾ أي ما أكله الذئب، بل سولت لكم أنفسكم وسهلت وهوَّنت، أو زيّنت أمراً.

قال في (الصحاح): «سولت له نفسه أمراً: أي زيَّنته له» انتهى، وقال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن» انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب).

وقوله: ﴿أَمۡرًا﴾ لعله أن يغيبوا يوسف عن أبيه ليخلو لهم وجه أبيهم أو هو جعله في غيابات الجب ليلتقطه بعض السيّارة فيصير مجهول المكان، والمعنى متقارب ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الخليل: الذي أفعله صبر جميل» انتهى المراد.

دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ

وقوله: ﴿جَمِيلٌ﴾ إما لأنه صبر على ما لا سبيل إلى دفعه؛ وإما لأنه يصبر على الحزن ولا يكثر التوجع والتظلم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ أي أستعين الله ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ لأنه كلام موجع لعلمه أنه كذب منهم وفساد وهم أبناؤه كان حريصاً على أن يكونوا صالحين فيؤسفه تعمدهم للكذب لتغطية ظلمهم ليوسف وعقوقهم لأبيهم وكذلك يضجر من كلامهم؛ لأنه يعلم أنه كذب يريدون به تغطية الجريمة الموجعة المتحققة.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَجَآءَتْ﴾ الجب الذي فيه يوسف ﴿سَيَّارَةٌ﴾ مسافرون ﴿فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ﴾ الذي يرد الماء أرسلوه ليجيء لهم بماء ﴿فَأَدْلَىٰ﴾ في الجب ﴿دَلْوَهُۥ﴾ ليأخذ فيه ماء، والدلو: وعاء ينزع فيه الماء من البئر بحبل يربط به ويرسل في البئر ﴿قَالَ﴾ الوارد ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ أي وجد يوسف في الجب فقال ﴿يَٰبُشْرَىٰ﴾ تعبير عن سروره بيوسف، وإعلان لاستبشاره به ليأخذه فيبيعه ويستفيد ثمنه ﴿هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾ لعله خاطب بهذا مرافقيه الذين أرسلوه للماء، وأفاد الراغب: أن الغلام الذي طر شاربه أي ابتدأ نبات شاربه، ولعل هذا أول ما يسمى غلاماً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾ أي أخفوه حرصاً عليه لئلا يكون له أهل حول الجب ينتبهون له ﴿بِضَٰعَةً﴾ أي مجلوباً للبيع ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ حين أخذوا يوسف وأسروه بضاعة وبكل ما يعملون من أعمالهم ولو شاء لخلصه من أيديهم قبل أن يبيعوه أولم يطلع عليه الوارد.

﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ ﴿وَشَرَوْهُ﴾ أي وباعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ ناقص ﴿دَرَٰهِمَ﴾ من الفضة ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ لقلتها ﴿وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ لأنهم لا يريدون اقتناءه، ولعلهم كانوا معجلين على بيعه قبل أن يرجعوا من سفرهم، وقبل أن يطلع عليه أهله، والزهد: ضد الرغبة.

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مَثْوَىٰهُ﴾ مسكنه ومقرّه الذي يقيم فيه، وهذا الكلام يفيد أنه قد أراد اقتناءه وترغيبه بإكرامه الذي كنى عنه بإكرام مثواه أو هو حقيقة والمراد أن تجعل مقامه كريماً نزيهاً طيباً حسن التهوية مرغوباً فيه مرضياً، وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ يريد نقتنيه ونرغبه فيقرب أن ينفعنا بأعماله التي نحتاجها ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ نسرّ بحضوره ومجالسته وكانت هذه كبداية تخليصه من الرِّقّ وتمكينه في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي وكذلك التمكين مكنا ليوسف في الأرض بما جعلنا له في القلوب من الإحترام والإجلال والمحبة فكما جعلنا له المكانة في قلب الذي اشتراه من مصر مكنا له في الأرض من بعد ذلك كما يأتي في السورة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ عطف على تعليل مقدر كأنه قيل لحكمة في تمكينه هذا ولنعلمه.

﴿٢٣﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

وقد مرَّ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ..﴾ الآية بعض فوائد تمكينه في الأرض، ومر تفسير ﴿تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ فقوله تعالى ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ يفيد: أنه مكن له في مثواه عند الذي اشتراه ليعلمه من تأويل الأحاديث، وذلك أنه يعيش في بلوى رغد العيش وتكامل الفتوة، وبلوى الحاجة إلى النكاح، ومع ذلك يصبر ويشكر النعمة ويتقي ربه، فيكون من المحسنين، ويكون أهلاً لأن يؤتيه الله حكماً وعلماً، ومن ذلك علم ﴿تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ يشير إلى نجاته من شر إخوته وأن حسدهم لم يدفع ما كتب الله ليوسف من رفع الدرجات ومن كرامة المثوى وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهلهم بالله وغفلتهم عنه، فهم لا يعلمون أنه غالب على أمره، ولذلك قد يحاولون ما هو كالمغالبة لله تعالى فيُغلَبون.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي قوة بدنه وعقله ومعانيه حين شب وكبُر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: انتهاء سنّه وشبابه وقوّته من قبل أن يأخذ في النقصان)) انتهى.

وقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي علمناه الحكم وهو أعم من حكمه نفسه وحكمه بين الناس فهو يدل على إيتائه الحكمة وفصل الخطاب، وقوله تعالى: ﴿وَعِلْمًا﴾ يشمل علم النبوة وما يهدي إليه ويتفرع عنه.

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ

وأما العقليات، فلعله قد أوتيها من قبل، ولذلك كان ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم أوتي الحكم والعلم جزاء على إحسانه، وفي هذه دلالة على أن الإحسان الذي هو الإيمان والتقوى، وحسن الخلق هو من أسباب العلم، فينبغي لطالب العلم أن يتوصل إليه بالصبر والتقوى والثبات على ذلك في كل أحواله والله المستعان.

﴿٢٣﴾ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿وَرَٰوَدَتْهُ﴾ قالت: وعملت ما هو كالمطالبة بجماعها، وكأنها مأخوذة ومشتقة من الرود، قال الراغب: ((الرود: التردد في طلب الشيء بِرِفْق)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ ولم يقل هنا: (امرأة العزيز) وفيه فائدة الدلالة على عظم البلوى؛ لأنها راودته ومطلوبها متيسر له، من حيث أنه في بيتها، والصبر متعسر من حيث استمرار الخلوة بها وطول مدة البلوى، ولعل فيه إشارة إلى أنها هي فتنت به لكونه في بيتها.

وقوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ كذلك فيه دلالة على شدة البلوى؛ لأن الشهوة تقوى مع الثقة بخفاء مطلوبها والأمن من اطلاع زوجها، وقوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ كذلك دلالة على شدة البلوى بها حيث طلبته ولم تبقِ شكّاً في مطلوبها.

قال الشرفي في (المصابيح): ((ثم دعته إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي هلم وأقبل إلى ما لا يحسن ذكره ـ قال ـ : وهيت في اللغة العربية: هَلُمّ وأقبِل، قال الشاعر:

أبلغ أمير المؤمنين ... عن أخا العراق إذا أتيتا
أن العراق وأهله ... عُنُق إليك فهيت هيتا

أي فهلم هلم)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((وقولهم: هيت لك، أي هلم لك، قال الشاعر في علي بن أبي طالب ا :

أبلغ أمير المؤمنين ... عن أخا العراق إذا أتيتا
أن العراق وأهله ... سلم إليك فهيت هيتا

أي هلم وتعال ، يستوي فيه الواحد والجمع، إلا أن العدد فيما بعده، تقول هيت لكما وهيت لكنّ)) انتهى، ونحوه في (لسان العرب).

واللام في ﴿لَكَ﴾ إما للدلالة على أنه المخاطب ـ بفتح الطاء ـ وإما للدلالة أنها تريد العمل لأجله ليلتذّ به كما يقال: كل لك، واشرب لك.

وقول يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ يعني أعوذ بالله معاذاً، ومعنى أعوذ بالله: ألجأ إلى الله ليعصمني ويعينني على نفسي.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ أي إن الله ربي مالكي ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ أنعم عليَّ بتيسير هذا المثوى الذي أنا فيه الذي سخر له العزيزَ وحببه إليه، حتى قال: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَاهُ﴾ وخلَّصني به من تبادل أيدي التجار، وفيه وجهان: إما أنه يريد أرجوه أن يعصمني كما أنعم علي بإحسان مثواي، وإما أنه يريد أنه أنعم علي بإحسان مثواي فلا أكفر نعمته بمعصيته، وفيه إفادة أن الحق لله علي أعظم من حق غيره ليدفع توهمها أنه فتاها عليه أن يطيعها.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تعبير عن حذره سوء عاقبة المعصية لله؛ لأنها ظلم عاقبته وخيمة، والفلاح: الظفر بالخير والنجاة من الشر، وفيه قول الشاعر:

﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

لـــو أن حيّـــاً مدرك الفلاح أدركـــه ملاعـــب الرمـــاحِ

يريد الخلود والنجاة من الموت.

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ أي أرادته وأرادها وكانت إرادته ـ صلى الله عليه ـ إرادته [كذا] منازعة الطباع ولم يُزْمِع كما أَزْمَعَتْ هي على الجماع، وإنما خطر على باله الشهوة والهوى ولم يطع هواه إلى الدنُوّ منها)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ أي رأى يوسف حجة ربه عليه القاطعة لعذره لو ارتكب الفاحشة ولكنه رأى برهان ربه فانصرف عما همَّ به وهرب، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ لعل الإشارة إلى مدلول قوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا برهان صرفه عنها فرأى برهان ربه ثانياً كذلك، والراجح: أنها آية حدثت له ورآها.

وقوله تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ أي أريناه البرهان لنصرف عنه السوء والفحشاء، والسوء الشر وهو نوعان:

سوء المعصية وما فيها من وجوه القبح من حيث هي زنا، ومن حيث هي خيانة للعزيز في أهله وكفر لإحسانه إليه في تربيته.

النوع الثاني: تَبِعَة المعصية واستحقاق فاعلها للعقاب العاجل والآجل.

﴿وَٱلۡفَحۡشَآءَ﴾ هي البالغة في القبح مبلغاً شنيعاً وهي الزنا، وصدق عليه السوء من حيث هو شر على فاعله يسقُطُ به قدرُهُ وشرفه ويستحق به الإهانة والعقاب، وصدق عليه الفحشاء لشدة قبحه، وأيضاً الراجح: أن المراد لنصرف عنه السوء كله مدى الحياة أي المعاصي المتعمدة كلها والفحشاء كذلك، فالسُّوء يُصرَف عنه ولولم يكن فحشاء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ تعليل لعصمته من السوء والفحشاء كما يَزيد الله من اهتدى هدى، والمخلَصِين الذين جُعلوا خالصين من عيوب المعاصي وإخلاصهم منها بتوفيق الله وهدايته؛ ولأنهم استعملوا عقولهم وأكثروا ذكر الآخرة، ولعله معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦].

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ حاول كل منهما أن يسبق الباب الذي هو باب الدار، فيوسف يريد أن يسبقه ليخرج، وهي تريد أن تسبقه لئلا تتركه يفتحه ﴿وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ﴾ لتردّه في حال فراره فقدَّتْه بجذبه إليها ﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا﴾ وجدا سيدها عند الباب.

﴿قَالَتۡ﴾ لسيدها ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ تعني أنه أراد بها الزنا ﴿إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ عقوبة له على إرادته ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ فهي هنا تثبت حرمة أهله لكونها أهله، وبهذا تحاول صرف التهمة عنها، وكذلك بإيجاب جزائه بالسجن، أو العذاب الأليم، على هذه الإرادة بامرأة العزيز، أي لمكانة زوجها ووجوب احترام ساحته.

قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ٢٨ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ **يوسف** ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي﴾ **لا أنا راودتها ففي العبارة قصر قلب، وقوله:** ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ **أي قميص يوسف قُدَّ من قبله** ﴿فَصَدَقَتۡ﴾ **لأن ذلك قرينة أنه يريد رفعه وجذبته إلى أسفل لئلا يكشف عن ذكره** ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ **لدلالة ذلك أنه هرب منها، وأنها جذبت ثوبه من خلفه فقدته.**

﴿٢٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ **يحتمل سيدها ويحتمل الشاهد، والأرجح سيدها** ﴿قَالَ﴾ **سيدها** ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّ﴾ **أي من احتيالكُنَّ الضار، والضمير في** ﴿إِنَّهُۥ﴾ **إما للقَدِّ، وإما للحادث المتنازع عليه فكله مستقيم، وفي إضافته إليها وإلى عامة النساء رفق بها في الحكم عليها وتقوية للحكم بأنها مظنته من حيث هي امرأة، وقوله:** ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ **دلالة على أنها مظنته وإن عظم.**

﴿٢٩﴾ ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾ **يا** ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ **فلا تطالب بجزائها واكتمه**

ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِ﴾ يقول لامرأته: استغفري لذنبك ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾ فهذا زجره لها، وقد كان ينبغي لـه أن ينقل يوسف من ساعته إلى محلٍ لا تصل إليه امرأته لكنه قَليلُ الغِيرة وأنه قد وثق باعتصام يوسف، وأنه لا يطاوعها أبداً ولم يهمه ما يلحق يوسف من مشقة الإستعصام، والخاطئ فاعل الخِطْء ـ بكسر الخاء، وسكون الطاء ـ وهو الذنب المتعمد.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ إنكار منهن على امرأة العزيز يعنين أنها تنازلت عن درجتها في الشرف بمراودتها لعبدها، والفتى: الحَدَث الشاب، و﴿شَغَفَهَا﴾ أصاب شِغاف قلبها أي حِجابَ قلبها، وكان هذا منهن احتيال ليرَين يوسف؛ لأنه يَبْلُغها كلامُهن فيها فتطلبهن لتعاتبهن على هذا الكلام وتعتذر مما وقع منها.

﴿٣١﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ﴾ امرأة العزيز ﴿بِمَكۡرِهِنَّ﴾ أي أُخبِرت به ومكرُهُنَّ كلامُهُنَّ الذي هو حيلة للتوصل إليها ورؤية يوسف ﴿أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ﴾ ليأتينها ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ﴾ أي

وأعَدّت لهن ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ فراشاً يتكئن عليه عندها ﴿وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا﴾ ليقطعن الفاكهة من تفاح أو نحوه أو أرادت أن توهمهن أنها تأتي بالفاكهة، والأول أظهر.

﴿وَقَالَتِ﴾ ليوسف ﴿ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ يفيد هذا أنه كان في مكان داخل إما داخل في منـزلها، وإما أن متكأهن كان في حجرة المنـزل فخرج بإذن الله لـه؛ لأنه نبي ﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ عظم في نفوسهن وكُبر لجماله وكمالـه ونـور النبوة والفضل في الدين ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين غلطاً وذلك لمـا وقـع في أنفسهن عند رؤيته.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسـم × : فـروي أنهـن قطعن أيديهن، وذلك معروف في طباع الآدميين إذا اشتغلت قلوبهم وضلت من الهموم عقولهن [كذا] عبثت حينئذ وتحركت جوارحهم وقلقـت أيـديهم عند قلق نفوسهم فمنهن [كذا] من يخط في الأرض ومنهم مـن يعبـث بيـده ولحمه لما داخله من همه وزوال عقله.

ثم قال: ﴿وَقُلۡنَ حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ أي معاذ الله وهي كلمة تنـزيه الله من صفات العجز وتعجباً مـن خلـق مثلـه حتـى قلـن: ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا﴾ أي مـن جملـة البشر؛ لما شاهدْنَ من حسنه البارع، وجماله البديع، ودلائل الخـير، وأمـارات الصدق، وعلامات النبوة، وآثار الصفوة» انتهى.

قلت: الأقرب أنهن كُـنَّ يحـاولن قطـع الفاكهـة مـع اشـتغال أبصـارهن وقلـوبهن بـالنظر إلى يوسـف فقطعـن أيـديهن، فقـد بلغْـنَ مـرادهُنَّ برؤيـة يوسف، ولم يستفدن إلا الهوى فيه، والرغبـة في مثـل مـا رَغِبَـت فيـه امـرأة العزيز، والله عاصم له.

فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ﴿فَذَٰلِكُنَّ﴾ أي يوسف ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ بقولكن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ﴾ كما قال: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ فهو صادق ولا أزال في محاولة أن يفعل.

وقولها: ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ أي توصل إلى ما يعصمه أي ينجيه امتناعاً وفراراً مما أريد ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ﴾ وأيسْتُ من أن يطيعني فيما آمره ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ تهدِّده بالسجن ظنّاً منها أنه يكبر عليه بعد عيشه في المثوى الكريم ورَغَد العيش ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ لما عرفت أن من شأنه طلب العلا ظنت أن تهديده بالصغار يؤثر فيه والصَّغَار الذلّة.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ﴿أَحَبُّ إِلَىَّ﴾ لحبي لطاعتك وبغضي لمعصيتك، وقوله: ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ يفيد: أن النسوة المذكورات عاونّ امرأةَ العزيز وطلبْنَ منه أن يطيعها.

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى﴾ أصله (إن) الشرطية و(لا) النافية أدغمت النون في اللام فصار (إلا) والقياس أن تكتب (وإن لا) وقوله: ﴿أَصْبُ﴾ من الصَّبوة حذفت واوه للجزم، قال في (الصحاح): ((والصِّبا ـ أيضاً ـ من الشوق، يقال منه: تَصَابَى وصَبَا يَصْبو صَبْوَةً وصُبُوّاً، أي مال إلى الجَهْل والفُتُوَّةِ وأصْبَتْه الجارية)) انتهى.

كَيۡدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ

فالمعنى: إن لا تصرف عني أَمِل إليهن وأطاوعهن، وهذا لجوءٌ إلى الله ليعصمه، ومعناه: الدعاء أن يصرف الله عنه كيدهن واحتيالهن عليه ليفتتن.

﴿٣٤﴾ ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ وهذا مما يرغّب في الدعاء لحفظ الدين والسلامة من مضلات الفتن وإن كان لا بد من ابتلاء الله لعبده ليتبين ويظهر صبره فيكون أهلاً للُّطف والوقاية من مضلات الفتن.

﴿٣٥﴾ ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ ﴿بَدَا لَهُم﴾ تجدد لهم رأيٌ لم يكن من قبل وفسر هذا الرأيَ قولُه ﴿لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أو بدا لهم هذا القول ولعلهم أرادوا بسجنه أن يغيبوه عن امرأة العزيز للتخفيف عنها حيث اشتدت رغبتها فيه، وظهر افتتانها به مع ضغط الظروف عليها وشدة امتناع يوسف؛ لأن حضوره لديها ومشاهدتها لجماله وفتوَّته يزيد من محنتها، فأما تفسير سجنه بأنهم أرادوا المغالطة وإيهام الناس أنه هو الذي راودها فبعيد عندي بعد اشتهار الأمر الواقع.

وقوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي الآيات الدالة على براءة يوسف من مراودتها وهو يدل على أن قد كانت له من الآيات غير قدّ القميص مادل على براءته، وقوله: ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي غير دائم، وإنما هو أمد حصول الغرض من سجنه.

ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٦ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧

٣٦ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِ﴾ **دخلا معه مسجونَين مثله، وقوله:** ﴿أَرَىٰنِيٓ﴾ **هو من الرؤيا، وقولهما:** ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓ﴾ **أي أخبرنا بتأويل ما رأيناه.**

٣٧ ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ **وأنتما عندي** ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا﴾ **بتأويل ذلك الطعام، وتأويلُه إما ما يؤدي إليه، وإما ما يدل عليه، فالطعام يرزقانه من جهة مَن حبسهما وكيفيته يستدل بها على نيَّة الحابس لهما وإرادته فيهما من عفو أو عقاب أو رضى أو سخط أو تطويل حبس أو تقصيره أو تشديده أو تيسيره، ولكن هذه الدلالة يختص بها يوسف.**

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ **أي علم تأويل الطعام، وقوله** ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ﴾ **تعليل أي علمني ربي بسبب أني تركت ملة قوم.. إلى آخر الآيتين، وهذا الترغيب في علمه تقديم لدعوتهما إلى التوحيد ليصغيا إليه ولذلك أخّر الجواب عن سؤالهما عن تأويل رؤياهما وذلك من الحكمة في الدعوة.**

فقوله: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ **يبين لهما أنهم أي القوم على ملَّة باطلة لا يرضاها ربه وعدم إيمانهم بالله لشركهم أو لإنكار البعث استبعاداً للقدرة على إحياء الموتى.**

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ **﴿وَٱتَّبَعْتُ﴾ عطف على قوله: ﴿تَرَكْتُ﴾ أي علمني ربي بسبب ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ وأني ﴿ٱتَّبَعْتُ﴾ وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.**

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ﴾ نفي مؤكد، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ [يونس:١٥] **وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً﴾** [النساء:٩٢] **أي لا يليق ذلك بحالنا، وقد مرَّ نظيره في قوله تعالى حاكياً: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾** [الأعراف:٨٩].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي تحريرنا من عبادة المخلوق وأمرنا بإخلاص العبادة لله هو نعمة من الله وفضل علينا وعلى الناس ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فليس لكما أن تقتديا بالمشركين الذين أهملوا عقولهم فتركوا شكر ربهم.

﴿٣٩﴾ **﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ أي صاحبيَّ بسبب السجن الذي جمعنا ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ كما يزعم المشركون ﴿خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ﴾ خير لا شك أن أربابهم المتفرقين ضعفاء لا يقدرون على نفع ولا ضر، ولذلك كانوا متفرقين تبعاً لتفرق العابدين لهم، وكون ربوبيتهم المزعومة تابعة لجعل عابديهم لهم أرباباً، ولذلك قال بعد هذا الإحتجاج:**

وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ

﴿٤٠﴾ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله ﴿إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ وليست كما تسمونها فهي مجرد أسماء منكم بلا مسمى؛ لأن المسميات ما زالت كما كانت قبل أن تسموها أحجاراً أو تماثيل من أي جنس من نحاس أو غيره ولم يحصل لها إلا مجرد الأسماء بدون معنى الأسماء، وهذه التسمية لا صحة لها بل هي باطلة؛ لأن الحكم لله ليس لكم أن تحكموا بأنها أرباب.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وذلك لأن عباده مملوكون ليس لهم أن يحكموا في ملكه بما شاؤوا بل الحكم لله المالك لهم وللسموات والأرض فالحكم له في حال أنه ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فهو الحكم من المالك لعباده على عباده فهو الحق.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ الذي يُدِين به العبادُ ربهم ﴿ٱلۡقَيِّمُ﴾ الذي لا عوج فيه؛ لأنه الحق الذي لا يشوبه باطل ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الحق بل خيم عليهم الجهل وتصرفوا بلا علم فضلوا فلا تقتدوا بهم، وبهذا تمت دعوته لصاحبي السجن إلى التوحيد وترك الشرك واجتنابه كله بحجةٍ واضحة قريبة لفهمها ثم أول رؤياهما فقال:

فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ

﴿٤١﴾ ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ ﴿رَبَّهُۥ﴾ أي سيّده، وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ﴾ قال الراغب: ((والصلب الذي هو تعليق الإنسان للقتل)) انتهى، والأظهر: أنه شدُّ الإنسان مربوطاً إلى خشبة أو نحوها، وقد مرَّ تفصيل القول فيه في تفسير (سورة المائدة).

وقوله: ﴿فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ يظهر منه: أنه يترك مقتولاً مصلوباً حتى تأكل الطير من رأسه؛ لأنه ليس من عادة الطير أن تأكل من الإنسان قبل موته، ويظهر: أن هذا تأويل رؤيا الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

وقوله: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ أي تطلبان الفتوى فيه، وهو تأويل رؤياهما طلباً أن يفتيهما فيه ما هو، وفائدة قوله: ﴿فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ تعريفهما أن هذا هو تأويل رؤياهما؛ لأنه لو قال: قضي ذلك لما تعيَّن أنه أراد أنه تأويل رؤياهما لطول الفصل بينه وبين قصصهما للرؤيا وطلبهما أن ينبأهما بتأويل ما رأياه.

وفيما حكاه الشرفي: عن الحسين بن القاسم، أنه قال في تفسير قوله ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: ((أي قضى الملك الأمر الذي عنه تسألان، وهو هلاك أحدهما ونجاة الآخر)) انتهى، وقوله: ونجاة الآخر أي حتى يسقي ربه خمراً؛ لأن تأويل رؤياه أنه يسقي ربه خمراً لا أنه ينجو على الإطلاق.

رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الذي أفاد أنه يسقي ربه خمراً، وسبب ظنه لنجاته ظهور رضى الملك عنه، وسبب عدم القطع بنجاته احتمال أن يقتله الملك عقيب سقيه، إما لسكره، وإما لتجدد غضبه، واحتمال أن يُقتل بغير أمر الملك ولو تعدياً، فلا إشكال فيه بعد قوله: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾.

وقوله: ﴿ٱذْكُرْنِي﴾ أي قال يوسف: اذكرني ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي عند سيدك، ولعله كان عبداً للملك فقال عند ربك كما يقال: رب الدار، وقوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي تذكير ربه في شأن يوسف؛ لأنه كان السجن على أنه لمدة محدودة ريثما يحصل الغرض به وقد حصل الغرض فلو ذكر الملك لأخرجه من السجن لكنه نسي، فالمعنى: فأنساه الشيطان هذا الغرض الذي هو تذكر ربه فلم يُذكِّره، ويحتَمل: فأنساه الشيطان ذكر يوسف لربه كما أمره، فأضيف الذكر إلى ربه اختصاراً لوضوح المعنى من السياق، والأول أقرب عندي؛ لأنه غرض الشيطان حين أنساه ليبقى يوسف في السجن عداوةً له.

وقوله: ﴿بِضْعَ سِنِينَ﴾ قالوا في تفسير البضع كما ذكره الشرفي: ((من ثلاث إلى سبع، وقيل: من ثلاث إلى تسع، وقيل: من ثلاث إلى اثني عشر)) انتهى، ورجح الراغب ما بين الثلاث إلى العشر، قال: ((وقيل: بل هو فوق الخمس ودون العشرة)) انتهى، ولم يذكر غير ذلك.

ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ

فأما (صاحب الصحاح) فلم يذكر إلا (ما بين الثلاث إلى التسع) وليس على المفسر تعيين هذه المدة، فإن صح أنها سبع سنين بدليل صحيح ترجح ذلك وإلا فالوقف أولى، ويكفي إثبات البضع وقد اشتهر في تفسيره فوق الثلاث وهي مدة طويلة، ومع أن ما فوقه يسمى كل عدد بضعاً إلى السبع أو إلى التسع أو إلى العشر، فلا يفيدنا ذلك زيادة في تحديد المدة، فلا موجب للإشتغال بتحديد أكثر البضع؛ لأن ما دونه يسمى بضعاً بلا إشكال فالتردد باق.

﴿٤٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَـٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ﴿سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ أي سبع بقرات عجاف، قال في (الصحاح): ((العَجَف بالتحريك: الهزال، والأعجف: المهزول)) انتهى المراد.

و(السنبلات): جمع سنبلة وهي ما يبدو في الزرعة ويكون فيه الحب ﴿وَأُخَرَ يَابِسَـٰتٍ﴾ أي وسنابل أخر يابسات قابل بين الخضر واليابسات؛ لأن لون السنبلة من البر والشعير الخضرة حتى تيبس فإذا يبست تغير لونها.

وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ﴾ لعله يعني وزراءه، وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ لم يكلفهم ما لا يعلمون وعبر الرؤيا أي فسرها بما يناسب ظاهرها أي إن كانت عادتكم أن تعبروا الرؤيا.

﴿٤٤﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ﴾

﴿أَضْغَـٰثُ﴾ جمع ضِغث، قال الراغب: ((الضغث: قبضة ريحان أو حشيش أو قضبان)) انتهى أرادوا لفيف أحلام لا يستحق أن يُطلَب له تأويل، ثم اعترفوا بعدم العلم بتأويل الأحلام.

أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا

﴿٤٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ﴾ ﴿مِنۡهُمَا﴾ من صاحبي السجن ﴿وَٱدَّكَرَ﴾ تذكر يوسف وتذكر قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وعلمه بتأويل الرؤيا، فقال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ أي آتيكم بنبأ تأويله ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ إلى يوسف فعنده علم تأويل الرؤيا، وقوله: ﴿بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد مُدَّة.

﴿٤٦﴾ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿يُوسُفُ﴾ أي يا يوسف ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ أي يا أيّها الصدّيق أي كثير الصدق أو البليغ في الصدق وهذا الرسول قد عرف صدق يوسف بما جرب منه مما قال له في السجن، وفي الكلام إيجاز والمعنى فأرسلوه فقال ليوسف.

وقوله: ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٍ..﴾ إلى قوله: ﴿.. يَابِسَٰتٍ﴾ أي رؤيت في المنام أي أخبرنا بتأويلها، وقوله: ﴿وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ يفيد وجودها لا غير فالملك رآها موجودة أو حاضرة حوله وليس فيه أكثر من ذلك.

وقوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ترغيب ليوسف في تأويل الرؤيا ليعلمها الناس لما في ذلك من مصلحة الناس؛ لأن العلم خير من الجهل وبالعلم يطلب الخير ويُتَّقى الشر أو يستعدُّ له.

فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي

﴿٤٧﴾ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ قوله: ﴿دَأَبًا﴾ أي دائبين على أن تزرعوا في السنين لا ينقطع زرعكم لجدب أو نحوه بل يستمر في أوقاته طوال السبع السنين، وقد قيل: إنه أمرهم بترك الحب في سنبله لئلا يأكله السوس، وهذا عندي غير صحيح؛ لأن ذلك لا يمنع من السوس، وهذا معلوم من خلال التجربة والمشاهدة.

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ﴾ فما قطعتم من الثمر ﴿فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ فاتركوه في سنبله لا تخرجوا الحب من السنبلات ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في السبع وحولها، وفائدة ذلك أن يدخر بسنبله؛ إما لأن الشدة والجوع يحوجهم إلى أكل بعض السنبل وذلك معروف في سنبل الذرة؛ وإما لأنهم متى استخرجوا الحب من السنبل في وقت الشدة حافظوا على الحب من التبذير أكثر من محافظتهم عليه في وقت الخير وسعة الرزق وتساهلهم بما يتساقط منه.

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي سبع سنين شداد لا زرع فيها ولا مطر يرفع الشدة ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي تأكلون فيهن ما أحصنتم وحفظتم لهن في السنين السبع الأولى ونسب الأكلن إليهن فلعل فيهن جوعاً هو من معنى شدتهن، وذلك أن غلاء الحب قد يكون معه جوع غالب زائد على المعتاد، وقد يكون الغلاء مع السلامة من الجوع وهو أهون.

مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

﴿٤٩﴾ ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ ﴿يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾ **يرزقون وتكشف عنهم الشدة** ﴿وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ﴾ **لكثرة الفواكه التي يعصرون منها مثل العنب، أو لكثرة العنب إن كانوا لا يعصرون غيره، والمراد التنبيه على رجوع الخصب وتوفر الثمر في ذلك العام، وإثبات أنهم يعصرون زائد على تأويل الرؤيا فلا بد أنه بوحي من الله.**

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ **أي بيوسف، ولعله أراد أن يبقيه لديه لتأويل الأحلام** ﴿قَالَ ٱرۡجِعۡ﴾ **قال يوسف للرسول** ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ **إلى سيدك** ﴿فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾ **أي ما بالهن قطعن أيديهن، أو ما بالهن دعون يوسف إلى الفاحشة** ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ﴾ **ليوسف** ﴿عَلِيمٞ﴾ **وكيدهن دعوتهن له إلى الفاحشة.**

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ﴾ **قال الملك**

وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ

للنسوة: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ أي ما هو الباعث الكبير على مراودة يوسف عن نفسه ﴿قُلْنَ﴾ للملك ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ تنزيهاً لله الذي عصم يوسف ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ فليس سبب المراودة سوءاً علمناه منه كأن الغالب على المراود أن لا يراود إلا من قد سبق منه فعل الفاحشة معه أو مع غيره فيتجرّأ بذلك على مراودته فلذلك فهمنَ من سؤال الملك ما خطبكن هل قد علمتن منه سوءاً؟

﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ﴾ حال الحضور عند الملك وسؤاله وغياب يوسف ﴿حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي وضح الحق؛ لأني الآن أعترف بالحقيقة ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ لا أنه راودني عن نفسي ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في قوله هي راودتني.

﴿٥٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإقرار بالحقيقة ﴿لِيَعْلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ وهو غائب عني وأنا غائبة عنه ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ أي ولأن الله لا يهدي ﴿كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ فلا يجعل الله لهم بكيدهم خيراً خالصاً، بل يكون عاقبة كيدهم ضراً عليهم أي لا يجعل الله كيد الخائنين طريقاً إلى الخير ووسيلة له.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ﴾ عطف على قولها: ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ﴾ تأكيد لإقرارها، ورجوع عن تبرئة نفسها فيما سلف، حين قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَنْ يُسْجَنَ﴾.

قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ

وقولها ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ أي كثيرة الأمر بالسوء، بسبب ما تهواه ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ من الأنفس فعصمها عن الأمر بالسوء أو إلا مدة رحمة ربي للنفس ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فبمغفرته ورحمته يعصم النفس ويلطف بها، والمغفرة هنا إما لما قد تاب منه العبد فيعصمه بعد التوبة؛ لأنه قد قبلها وغفر الذنب، وإما للصغير الذي لا يؤدي إلى استحقاق الخذلان والحرمان من اللطف، ونعني بالعصمة هنا اللطف، وكلامها على النفس التي هي الجنس العام للنفوس تجميل لاعترافها بأن غالب البشر هكذا؛ لأن النفس أمارة بالسوء.

﴿٥٤﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فأبقيه لمعاونتي على أمري خالصاً لا يشاركني فيه أحد، وفي هذا أنه لا يرجع لخدمة امرأة العزيز، ولا يعمل لأحد غير الملك، وفيه إخراجه من السجن وإيصاله عند الملك ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ يوسف حين أتى قال له الملك ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ مكين: لك عندنا مكانة ومنزلة قريبة رفيعة، أمين لما مَرَّ عليك من التجارب التي أثبتت أمانتك.

قال الشرفي في (المصابيح): «وتقدير [وتقرير/ ظن] الكلام أن الملك عَظُمَ اعتقاده في يوسف لوجوهٍ:

أحدها: أنه عظم اعتقاده في علمه وذلك لأنه لما عجز القوم عن الجواب الموافق الذي يشهد العقل بصحته مَالَ الطبع إليه.

وثانيها: أنه عَظُمَ اعتقاده في صبره وثباته؛ وذلك لأنه بعد أن بقي في السجن بضع سنين لما أذن له في الخروج لم يسارع إلى الخروج بل صبر وتوقف وطلب أوّلاً ما يدل على براءة حاله من جميع التهم.

وثالثها: أنه عَظُمَ اعتقاده في حسن أدبه؛ لأنه اقتصر على قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وكان غرضه ذكر امرأة العزيز فستر ذكرها وتعرض لأمر سائر النسوة، مع أنه وصل إليه من جهتها أنواعٌ عظيمة من البلايا، وهذا من الأدب العجيب.

ورابعها: براءة حالة من جميع التهم فإن الخصم أقرَّ له بالطهارة والنزاهة والبراءة عن الجرم.

وخامسها: أن الساقي وصف له جِدَّه في الطاعات واجتهاده في الإحسان إلى الذين كانوا في السجن.

وسادسها: أنه بقي في السجن بضع سنين مع أنه لم يكتب إلى الملك ولم يلتمس منه تخليصه من السجن.

فهذه الأمور كل واحدة منها توجب حسنَ الإعتقاد في الإنسان فكيف مجموعها، فلهذا السبب حَسُنَ اعتقاد الملك فيه، وإذا أراد الله شيئاً جَمَع أسبابه)) انتهى.

قلت: أما الثالث، فالراجح: أنه من جودة الرأي والتدبير.

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف للملك ﴿ٱجْعَلْنِي﴾ والياً ﴿عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ الأموال المخزونة العامة، والمراد بالأرض ما تحت دولة الملك منها.

وقوله: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ بيان لكفاءته لهذه الولاية فهو يحفظ ما تحت يده، وهو عليم كيف يتصرف في المال لمصلحة الشعب، وعليم بما يحتاج من

نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ

الحساب، وعليم بالكتابة وغير ذلك، ولا إشكال أنها كانت لـه ولاية شرعية صح لأجلها أن يأخذ الولاية من الملك وصح لأجلها أن يعمـل في مصـلحة الشعب توصلاً إلى إصلاحه أو تمكين الدين فيه، ولعل ذلك كان بوحي مـن الله تعالى، يبيّن لـه تحقق المصلحة العظيمة الدينية بسـبب ولايتـه وعملـه في مصلحة الشعب، ويرخص لـــه في مباشـرة العمـل لمصـلحتهم، توصـلاً إلى إصلاحهم أو إصلاح جمهورهم، ولو من جهة التوحيد وترك الشرك، وعـزة الدين وخمول الباطل، وترك المجاهرة بالمنكرات ـ والله أعلم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ التمكين الذي هو جعل يوسف على خزائن الأرض ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بعد هذا التمكين ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا﴾ يتخذ مَباءة مقرّاً ومسكناً ﴿حَيۡثُ يَشَآءُ﴾ لتمكنه رحمة لـه.

﴿نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ ولا يسـتطاع دفعهـا؛ لأن الله غالـب علـى أمره، ولا يستفيد حاسده أو عـدوّه إلا الغـمّ ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ولذلك ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ولا تنقص عليه رحمتنا لـه بالتمكين في الأرض لا تضيع عليه شيئاً من أجره.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أجـــر الآخـــرة: الثواب في الآخـرة خـير مـن أجـر الحيـاة الأولى للـذين اسـتحقوه بالإيمـان والتقوى المتكررة في الحياة الدنيا التي ختم لهم بهـا، وهـذا في غـير المعصـوم لعموم الآية.

فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ قَالَ ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم مِّنۡ أَبِيكُمۡۚ أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمۡ

فأما المعصوم فتكرر التقوى منه بتكرر الإبتلاء والإختبار؛ لأنهم كانوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] أو كلما أذنبوا تابوا ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون.

﴿٥٨﴾ ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ عرفهم أنهم إخوته وعرَف كل واحد منهم، ولعل ذلك بزيادة ذكائه وحفظه، وكونه فارقهم وهم شباب ﴿وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ لا يخطر ببالهم أن يتأملوا فيه ويتعرفوا لمكان ملكه وتمكينه في الأرض وهم فارقوه صغيراً.

﴿٥٩﴾ ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ﴿جَهَّزَهُم﴾ يوسف للسفر بعد أن وفّر لهم الطعام الذي جاءوا له أو أن توفير الطعام من جملة الجهاز لترتب سفرهم عليه، وقوله: ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ أي الذي قد أعطاهم أو الذي يليق بحالهم ويحتاجون إليه.

﴿قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ لأعطيه مثل ما أعطيت الواحد منكم من الطعام وأنزله مثل إنزالي لكل واحد منكم، وفي تنكيره دلالة على أنه لم يسبق فيه كلام بينه وبينهم، خلاف ما تظنَّنَ بعض المفسرين؛ لأنه لو سبق بينه وبينهم ذكره ووصْف حاله كما زعموا لقال يوسف: «بأخيكم».

وقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ترغيب لهم في العودة للميرة وفي الإتيان بأخيهم ليزدادوا حِمل بعير من الحب، ويحتمل أنه اكتفى بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ ليوهمهم أنه

تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟

طلب أخاهم لهذا الغرض إيهاماً ومراده خلافه أي تخليصه من بين إخوته بإذن الله، وهذا هو الراجح، والنُّزُل: ما يُهَيَّأ للضيف من الطعام وغيره، والمنزِلون المضيفون.

﴿٦٠﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ ﴿بِهِۦ﴾ بهذا الأخ المطلوب ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ لا أكيل لكم طعاماً ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ فلا حق لكم في الضيافة بعد هذا.

﴿٦١﴾ ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ نحاول منه إرساله معنا كما راودناه عن يوسف ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ لنأتيك به كما أمرت فقد جربناه لا يمنعنا أو إذا منعنا سرقناه فجئنا به لضرورة إطعام أهلنا.

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ﴾ وقال يوسف لخدمه الشباب أو عبيده الشباب ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ﴾ التي جاءوا بها اجعلوها ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ ليَردوها معهم، و(الرحال): أقتاب الإبل وما عليه من أوعيتهم ونحوها، والراجح: أن البضاعة كانت خفيفة لا يضر الإبلَ حَملُها مع الْحَب، وذلك يُقرّب إلى معرفة أنها كانت من الجلود الخفيفة.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ أي فيعرفوا أنها ردت إليهم، وفي هذا ترغيب في العودة إن كان معهم أخوهم؛ لأنه يشير إلى سماحة عظيمة؛ لأنها كانت عوض الْحَب الذي معهم فقد أخذوه مجاناً، ويفيد أنه يعطيهم بها الحب متى

يَتَأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ

رجعوا، وفيه ترهيب من أنه لا يقبلهم إن رجعوا وليس أخوهم معهم؛ لأن إرجاع بضاعتهم يقطع أملهم؛ لأنه يدل على أنه لا رغبة في بضاعتهم.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأنه احتياط لرجوعهم إليه؛ لأنهم إذا لم يكن بقي عندهم ما يمتارون به فقد يتركون لذلك الرجوع لعدم البضاعة وليس عندهم ثمن غيرها فإرجاع بضاعتهم احتياط لئلا يعجزوا عن العودة التي رغبهم فيها بالميرة.

﴿٦٣﴾ ﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ كان اتجاههم إلى أبيهم ليراودوه عن ابنه، فهو مهمتهم مع أنهم راجعون إلى أهليهم وبلدهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا﴾ مستعطفين له بقولهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ بدأوا بالحجة التي لأجلها يطلبون إرسال ابنه ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ ونحن لا بُدَّ لنا من الطعام الضروري للحياة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ هكذا أخانا إظهاراً للعطف عليه؛ لأنه أخوهم لئلا يخافهم أبوهم على ابنه بعدما قد فرطوا في يوسف ليكتالوا وقالوا: ﴿إِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فضلاً عن أن نعتدي عليه نحفظه من الضياع ومن عدوان غيرنا.

﴿٦٤﴾ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ﴾ لا آمنكم ﴿عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ﴾ فإني لم آمنكم على أخيه

رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّا

لقولكم: ﴿إِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ إنما أمنتكم لثقتي بالله أنه يحفظه ويجتبيه فأرسلته معكم؛ لأني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا﴾ ليوسف ولأخيه ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لهما ولي ولمن أراد رحمته، وحاصل هذا الجواب أني لا آمنكم عليه لوعدكم بحفظه، بل إن أرسلته معكم فلرجائي أن يحفظه الله؛ لأني ﴿أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ۖ هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ﴿مَتَاعَهُمْ﴾ أوعيتهم التي فيها بضاعتهم المردودة عليهم ﴿وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فازداد جِدُّهم في طلب أبيهم لإرسال أخيهم ليكتالوا بالبضاعة التي ردت إليهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ما نطلب إذا لم نرجع إلى مصر إلى عزيز مصر أنطلب القوت من غيره فلن نجده أم نختار أكل الأنعام وترك الحب أم نجد سبباً غير ذلك نطلبه.

﴿هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ فلا نتكلف للعودة بضاعةً أخرى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نشتري لهم الحب ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ فالذي نطلبه خير خالص لا شَرَّ فيه ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا أي نكتال زيادة حمل بعير أي كيل حمل بعير من الحب ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل؛ لأن البضاعة نكتال بها على عدد إبلنا أحمال حب فإذا زادت الإبل زاد الحب من دون زيادة البضاعة.

ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوب لبنيه ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ﴾ أي لن أرسل أخاكم ﴿مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ما يوثق به ويعتمد عليه في حكم الله وتشريعه وهو العهد الذي جعله الله موثقاً بين عباده ﴿لَتَأْتُنَّنِى﴾ بأخيكم هذا ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي إلا تُغلبوا وتقهروا فتعجزوا عن إتياني به، ولعل أصل استعمال الإحاطة في الأمر الغالب إحاطة العدوّ بالإنسان بحيث يعجز عن التخلص منهم ثم استعمل في الأمر الغالب المهلك، قال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة:٨١].

قال في (لسان العرب): ((وأحيط بفلان: إذا دنا هلاكه فهو محاط به، قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف:٤٢] أي أصابه ما أهلكه وأفسده، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي تؤخذوا من جوانبكم)) انتهى المراد، وقال الشرفي في (المصابيح): ((أي تغلبوا على أمركم أو تموتوا)) انتهى.

وفائدة أخذ العهد عليهم: أن يأتوا به؛ لأنه لا يريد مجرد حفظه وإن بقي غائباً عنه كيوسف فهو يعلم أن يوسف محفوظ ولكنه يحزنه غيابه، ويخاف أن يغيب عنه أخوه وإن بقي في حفظ الله، كما أن فائدة العهد: إلزامهم الدفاع عنه إن عرض عدوان عليه وإن أدّى الدفاع إلى قتلهم أو أسرهم إن استطاعوا الدفاع، وهذا فائدة قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾.

شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ لم يقل موثقاً أو الموثق وأضافه إليهم؛ لأنه غرضهم للتوصل إلى إرسال أخيهم معهم، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي قال أبوهم الله على ما نقول وكيل أي على عهدكم وما قلتُ لكم فأكِلُ إليه أمركم في رعاية العهد وأمري في أخذه عليكم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ لا تدخلوا القرية من باب واحد وادخلوها ﴿مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ إن عصيتم أمري فدخلتم من باب واحد؛ لأن هذا حكم الله عليكم حيث أمركم بطاعتي، فاتقوه وراقبوه ولا تتهاونوا بأمري، وليس لكم الخيار في حكم الله، أو أن تحكموا برأيكم وتعدلوا عن حكمه، فهذا تأكيد لنهيهم عن الدخول من باب واحد، ودلالة على أنهم إن خالفوه عصوا الله وتعرضوا لعقابه.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي في إرسالي إياكم وإرسالي ابني معكم وفي كل أموري ﴿وَعَلَيْهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لأنه الذي لا يغفل عما وُكِل إليه ولا يعجز عن رعايته وهو على كل شيء وكيل.

﴿٦٨﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ﴾ امتثلوا أمره

فدخلوا من أبواب متفرقة في حال أن أباهم ﴿مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ وإن دخلوا من حيث أمرهم أبوهم فطاعته في هذا لا تكفيهم ولا بد لهم من تقواه في كل أمرهم، فلم يأمرهم من أجل أن يغني عنهم إن امتثلوا أمره من الله شيئاً لكن أمرهم لحاجة في نفسه قضاها بهذا الأمر، وقد أبهمها البارئ، فليس لنا أن نتطفل فنُبيّنها ما هي.

وقد قيل: إنها سلامتهم من العدوان عليهم والعدوان لا يختص بحال الدخول وهم مجتمعون في سفرهم وبعد دخولهم، وإذا كان في الظن إرضاء للقارئ فأظن أن حاجته أن لا يفوتهم يوسف لو دخلوا من باب واحد وخرج من الباب الآخر؛ لأن أباهم كان يعلم أن يوسف ما زال موجوداً وسيأتي أمره لهم بأن يتحسسوا من يوسف وأخيه.

وأما قوله تعالى: ﴿قَضَىٰهَا﴾ فيحتمل أن المعنى قضاها الله، وقد مر ذكر الجلالة قريباً وهذا يناسب إذا كان المراد قضى الله حاجته بسلامتهم من العين أو غيرها، ويناسبه قوله: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾ ويناسب إذا كان المراد قضى الله حاجته بوجدان يوسف ثم بالجمع بينهما.

ويحتمل: أن الضمير ليعقوب × أي قضى يعقوب الحاجة التي في نفسه بنهيهم عن دخولهم من باب واحد، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة، فالمعنى: أنه كان محتاجاً إلى نهيهم المذكور وأمرهم المذكور فقضى بالنهي والأمر حاجته، وهذا يوافق في المعنى تفسير من قال: إنه خاف عليهم العين، أي أنه احتاج إلى استعمال السبب ليحفظهم الله، ويوافق تفسير الحاجة بتحصيل يوسف، أي أنه كان محتاجاً إلى أمرهم ونهيهم لقوّة رغبته في أن يتفقوا بيوسف عند دخولهم أو في القرية.

نعم.. والمشهور بين المفسرين: أنه خاف عليهم العين، وأن الحاجة سلامتهم منها، قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول الهادي × : هذا أمر يعقوب ـ صلى الله عليه ـ لجماعة بنيه حين خرجوا عنه مسافرين فخاف عليهم من النفس، وعيون الناظرين، فأمرهم عند دخول القرية بأن لا يدخلوا جملة واحدة لما كانوا عليه من كمالهم وكثرتهم وجمالهم، وكانوا أحد عشر رجلاً لم يُرَ مثلهم جمالاً ولا كمالاً، فخاف عليهم وأشفق ـ صلوات الله عليه ـ من أن يراهم أهلُ تلك البلدة مجتمعين جماعة واحدة على ما هم عليه من كمالهم وحسنهم وجمالهم، فأمرهم أن يتفرقوا، وأن يدخلوا من أبواب متفرقة؛ شفقةً عليهم من العين والنفس، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ يخبر سبحانه أن الحذر للنفس والعيون لا ينفع إلا بدفاع الله وتوفيقه ولطفه وحفظه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ أي وإن يعقوب صلى الله عليه لذو علم لما علمه الله، ولذلك كان يعلم أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً وأن الله هو الذي يحتاج عبادُهُ أن يتوكلوا عليه فينفعهم التوكل عليه، وكان عنده من علم النبوة ما علمه الله و(اللام) في قوله تعالى ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ تحتمل لام التعليل و(ما) مصدرية، وتحتمل لام التقوية لإيصال ﴿عِلۡمٖ﴾ إلى معموله ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فأكثرهم جاهل بأن الله غالب على أمره لا ينظر إلا إلى الأسباب الظاهرة، وهو غافل عن الله، وكذلك لا يعلم وجوب التوكل على الله ونفعه للمتوكلين عليه.

إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ٧١ قَالُواْ نَفۡقِدُ

---

٦٩ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ أي إخوة يوسف ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ﴾ جعل مأواه ومقرّه إليه في مسكن يوسف، قال لأخيه من أمه وأبيه، ويقال: اسمه بنيامين ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ أي يوسف فخصه من بينهم بإيوائه إليه وبتعريفه أنه أخوه يوسف، ليطمئن قلبه على أخيه يوسف، وتسره سلامته ونعمة الله عليه، ويذهب عنه ابتئاسه، أي تأثره وغمه وضعفه بسبب ما كان إخوتهما يعملون.

وقوله: ﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ نهي عن ابتئاسه في المستقبل؛ لأنه قد زال السبب وصارا في عز ونعمة وتحرَّرا من إخوتهما ولعلهم قد ظلموهما فأراد ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إساءَتَهم إليهما إلى يوسف من قبل وإلى أخيه من بعد فيما مضى.

قال في (الصحاح): ((ولا تبتئس: أي لا تحزن، ولا تشتك، والمبتئس: الكاره والحزين، قال حسان بن ثابت:

ما يقسم الله أقبل غير مبتئس منه واقعد كريماً ناعم البال))

٧٠ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ ﴿جَهَّزَهُم﴾ أي للعودة إلى أبيهم ﴿بِجَهَازِهِمۡ﴾ الذي هو الْحَب وما يحتاجون في استعدادهم للسفر وفي السفر ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ إناء يُشرب به ويستخدم للكيل، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((وهي مكيال يكال به ويشرب فيه)) انتهى.

صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ

وهذا واضح من تسميته (صواعاً) وتسميته (سقاية) ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ في أداة السفر التي مع القتب، فهو الوعاء الذي فيه الحب ﴿ثُمَّ أَذَّنَ﴾ دعا بصوت رفيع ﴿مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ أي يا أهل العير أي الإبل الذاهبة ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ وهذا كلام يوجعهم ويحرك هممهم للتخلص من التهمة.

﴿٧١-٧٢﴾ ﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف ﴿وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم﴾ على المؤذن ومن معه ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ ما الذي غاب عنكم ولم تجدوه فزعمتم أنا سرقناه.

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ جعالة كالأجر لمجيئه بالصواع أي حمل بعير من الحبّ، والبعير يستعمل للواحد من الإبل ذكراً كان أم أنثى، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي وأنا به كفيل.

والجمع في ﴿قَالُواْ﴾ والإفراد في ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ لأن المؤذن قال عن نفسه وعمن حوله فشاركوه بالرضى فنسب القول الأول إليهم جملة، وأفرد في قوله ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ لأنه قاله عن نفسه خاصة، تأكيداً لالتزامه به وليرضي إخوة يوسف بوحدة غريمهم الملتزم بحمل بعير.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أن مجيئنا للميرة لا ﴿لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأخذ المكيال ولعله كان يحافظ عليه الملك؛ لأنه معيار للمكاييل في البلد، فإذا ضاع لم يعرف الناقص من المكاييل وكان ذلك سبباً لبخس الناس أشيائهم فهو فساد عام، وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ تنزيه لأنفسهم مما نسب إليهم.

إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي جزاء الصواع أي جزاء أخذه، أو فما جزاء سارقه ؟ ﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ بانكشاف الصدق حين نبحث عنه في متاعكم ونعرف أنه مع أحدكم.

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي الصواع أو آخذه ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ تأخذونه عبداً لكم عقوبة له ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ فقولهم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ خبره محتمل أنه الموصول أي ﴿مَن﴾ وقولهم: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي الجزاء الذي يستحقه، ويحتمل: أن ﴿مَن﴾ اسمُ شرط وهي وفعلُها وجوابها خبر المبتدأ، أي جزاء السرقة من وجدت في رحله فهو جزاؤها، والأول أظهر.

وقولهم: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي نشدد في عقوبة الظالمين أي عادتنا التشديد عليهم؛ لأننا ننكر الظلم ونحاربه.

﴿٧٦﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ ﴿فَبَدَأَ﴾ يوسف بأوعية إخوته لأبيه ففتحها يوهمهم أنه يبحث عن السقاية ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ لأبيه وأمه فتمت الحيلة لأخذ أخيه وإبقائه عنده.

والذي أعتقد أن يوسف × عرف أن أخاه كان مظلوماً بسبب غيرة إخوته وجرأتهم على أذية أبيهم، وأنهم كانوا يضربون بنيامين مثلاً ويتعللون بتأديبه أو نحو ذلك.

وكان يشق على أبيهم ظلمه جداً ولا يدري كيف يصنع؛ لأنه إن شدد عليهم في النكير ازداد حنقهم على بنيامين وخاف أن يدبروا حيلة لقتله فكان أبوهم يضطر إلى مصانعتهم فكان تخليص بنيامين من إخوته مطابق لغرض أبيهم، وكانوا يستحقون ما لحقهم من الغم بسبب التدبير من يوسف لأخذه والحيلة التي غمتهم أمداً يسيراً حتى تبين أن السقاية في رحل أخيه، أما أخوهم فقد عرف يوسف وأحب إيواءه له، فالحيلة لا تحزنه بل هي مطابقة لغرضه.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي كدنا ليوسف مثل هذا الكيد ليخلص أخاه ويبعده عن ظلم أخوته، فهذا كيد ظاهر وحيلة ضد إخوته، الذين قالوا سابقاً: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ فكادوا ليوسف، وكان كيدهم ذلك كيداً ليوسف لا عليه؛ لأن تخليصه من ظلمهم وكيدهم أصلح له، ولو بقي عندهم لكان ظلمهم له مستمراً، أو لدبروا لقتله فكان غمه عند ظلم إخوته له وإنزاله في الجب وما تبعه أقل مما يناله لو بقي عندهم؛ فلذلك كان كيدهم ذلك كيداً له لا عليه.

وكذلك كيد العزيز وامرأته حين بدا لهم ليسجننه كان له لا عليه؛ لأنه قد اختار السجن ليتخلص من كيد النساء وبقاؤه في السجن لا يهمه مع سلامة دينه، وكونِهِ سجناً خالياً عن التعذيب، ولم يفوّت عليه العمل بطاعة الله والدعوة إلى الله، وسلم من محنة مراودة امرأة العزيز مع شبابه، وكمال قوته.

فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا

فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ دبّرنا له تلك الحيلة التي بها أخذ أخاه، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ تعليل للحيلة التي تمكّن بها من أخذ أخيه أي لم يأخذه بغير حيلة ولا بحيلة يعرفها الملك؛ لأنه ما كان ذلك ممكناً؛ لأن الدولة تمنع من ذلك فاحتاج إلى الحيلة وقد هانت على إخوته؛ لأنها انتهت ببراءتهم من السرقة ولا يبالون بنسبتها إلى أخيهم، وأخوهم لا يبالي لمعرفته المراد بها، هذا في الإحتيال بجعل السقاية في رحل أخيه، فأما رميهم بالسرقة فهو قول المؤذن، ولعله بدون أمر يوسف، إنما أَمَر بالسؤال عن السقاية والبحث عنها إن كانت معهم، فظن المؤذن أنهم سرقوها، فلم يصدر الكذب من يوسف، والمؤذن مخطئ غير متعمد، وكذا قوله: ﴿نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ مع أنه صدق في حق المؤذن ومن معه، ولعل يوسف لم يكن حاضراً في تلك الحال، إنما خرج إلى إخوته حين رجعوا وبلغه رجوعهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء لحالة تقتضي الرخصة ليوسف في أخذ أخيه بحق.

وقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ فهو إشارة إلى رفع درجة يوسف وأخيه لأبيه وأمه، وقوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فقد كان يوسف ـ صلى الله عليه ـ يعلم من الوجه والحجة لأخذ أخيه ما لا يعلم الملك، ويعلم من الله بالوحي ما لا يعلم الملك ولا إخوته.

﴿٧٧﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قَالُوا۟﴾

أي إخوة يوسف لأبيه ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ أي أخوه لأبيه وأمه ﴿فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُ﴾ لأبيه وأمه أي نحن لا نسرق وليس من شأننا ولا يليق بنا؛ وإنما سرق هذا؛ لأنه على أمٍّ وحده غير أمّنا، وقد ﴿سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ﴾ من أبيه وأمه ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي لأنه كذلك ليس منا وإن شاركنا في الأب، كأنهم يعللون السرقة بانفرادهما بأم، لأن الإخوة قد يختلفون في الصلاح تبعاً لاختلاف أمهاتهم كما يُشاهد في بعض الناس.

وقد كان يكفيهم ظهور براءتهم من سرقة السقاية، ولم يكونوا محتاجين إلى هذا؛ لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ولكنهم ما زالوا ظالمين ليوسف وأخيه، وهذا يؤكد استحقاقهم لما لحقهم من الغم لأجل الحيلة لأخذ أخيهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ﴾ أي أسر كلمتهم هذه ﴿فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡ﴾ من بعد لحلمه وكرمه بل سكت عنها ولم يعاتبهم عليها مع أنها كذب على يوسف وبدون ضرورة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي قال يوسف ردّاً لكلام إخوته وإظهاراً لعدم تصديقهم فيما نسبوا إليه وإلى أخيه ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي أن حالتكم وما أنتم عليه من الفقر والعناء ومتابعة الأسفار لطلب القوت قد تحمل صاحبها على السرقة، أما أخوكم هذا فلم يشارككم في السفر إلا هذه المرة وكان في رعاية أبيه، فهو أبعد عن الحاجة إلى السرقة، وكذا أخوه لم يشارككم في حالتكم المذكورة، ولم تظهر منه الحاجة إلى أن يسرق، فأنتم شر منهما مكاناً ومنزلة وحالة ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وتدعون لأنفسكم وضد أخويكم أنتم فيه صادقون أم كاذبون.

مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ هذا يفيد أن بنيامين كان صغيراً بحيث يكون أبوه شفيقاً عليه ويصعب عليه فراقه لصغره، فكان قولهم: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا﴾ كافياً في استعطاف العزيز؛ لأنه يرى أخاهم ولا يحتاج إلى أن يصفوه بالصغر وهذا يدل على أن المدة لم تطل في غياب يوسف عن أبيه كما قيل إنها كانت أربعين سنة؛ ولعلها لا تزيد على أربع عشرة سنة على أقل تقدير؛ لأن بنيامين كان موجوداً قبل غياب يوسف فلو كان غياب يوسف أربعين سنة لكان بنيامين قد صار كهلاً.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ يوسف، فالراجح: أنهم أرادوه وهو على خزائن الأرض بقولهم: ﴿يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ ولو أرادوا الملك لقالوا يا أيها الملك ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله من ﴿أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ أي السقاية ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ لو أخذنا غيره ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ لمن أخذناه لأنه بريء ويأتي ما يدل على أنهم يقولون ليوسف: ﴿يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ لأنهم لما يعرفوه.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمُونِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ

إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ

ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ ﴿ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾ من العزيز الذي هو في الواقع يوسف أيسوا منه أن يرسل بنيامين معهم؛ لأنه لم يقبل منهم استعطافاً لأبيهم ولا فدية بواحد منهم ولعل فائدة زيادة [السين، والتاء المثناة من فوق] ولم يقل: فلما أيسوا، الدلالة على أنهم غلبهم اليأس واستسلموا لـه بعد مدافعته.

وقوله تعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ خلصوا من بين الناس وانفردوا ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين أي متسارّين يخفون ما يقولون عن العزيز وغيره ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ لإخوته ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو قوله: ﴿حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَنِي بِهِ﴾ وقال كبيرهم لهم: ﴿وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ﴾ أي وتفريطكم في يوسف من قبل، فكيف يصدقكم أبوكم ولا يتهمكم بالتفريط في بنيامين كما فرطتم في يوسف.

وقوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي لن أفارق قرار الأرض أي أني أبقى ولا أعود إلى أبي على هذه الحالة، وقوله: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تعبير عن عدم العودة، من حيث هو تعبير عن ترك ركوب البعير، فكأنه قال: لا أركب إلى أبي ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ بالعودة ﴿أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ بوحي إلى أبي أن أرجع ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ فهو يعلم براءتي في هذه المرة.

﴿٨١﴾ ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾ أي قال كبيرهم لإخوته ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ﴾ صواع الملك فغُلِبنا

﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ

عليه ﴿وَمَا شَهِدۡنَآ﴾ أنه سرق ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ ولم يكونوا عالمين أنه سرق؛ لاحتمال أن الصواع وضعه في رحل أخيهم غيرُه، أو أنهم كالوا الحب به ونسوه بين الحب، أو جعله الكيَّال فيه غلطاً أو غير ذلك، فهم لم يعلموا إلا أنه كان في رحل أخيه وأنهم هم الذين حكموا بأخذ من وجد في رحله ولم يقولوا: من سرقه؟

وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ﴾ أي أن سرقته للصواع خفيت علينا وغابت ولم نعلم بها إلا حين أخذه العزيز من متاع بنيامين فكيف نحفظ ما هو غيب ونحن لا نعلم الغيب، فلا إثم علينا بسبب العهد ولا بأخذ العزيز لبنيامين.

﴿٨٢﴾ ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ أي قولوا لأبيكم: ﴿وَسۡـَٔلِ﴾ أهل ﴿ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ فهم يعلمون أن ابنك سرق، وأهل العير ﴿ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا﴾ أي أهل الإبل الذين صحبناهم في العودة إليك ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ لم نكذب في قولنا: إنه سرق.

﴿٨٣﴾ ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ أي قال أبوهم حين رجعوا إليه وقالوا له من القول ما أمرهم أخوهم الذي تخلّف قال لهم أبوهم: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًا﴾ أي ليس الواقع ما قلتم فابني لم يسرق بل سولت لكم أنفسكم أمراً سهلته وزينته لكم.

يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾

وهذا صحيح فإنهم غلطوا في حكمهم ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ ثم أتْبَعوه التسليم بأن بنيامين سرق الصواع استمراراً في الغلط وكان هذا مطابقاً لهوى أنفسهم في بنيامين الذي ما زالوا يحسدونه على حبّ أبيهم، ولولا هوى نفوسهم لكان ينبغي لهم أن يحيلوا حكم من سرقه إلى العزيز، فيقولوا: جزاؤه ما حكم به العزيز عليه، ولا يحكموا بعبودية أحدهم وأخذ العزيز له، وهم يعلمون أن تخلف أحدهم لا يُرضِي أباهم، ولكن سولت لهم أنفسهم التظاهر بكراهة الظلم وبحب العدالة والرغبة في زجر الظالم ادعاءً منهم لأنفسهم مالا يحتاجون إليه في الإنصاف في مسألة الصواع، فقد صدق أبوهم في قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي فشأني أو فالذي يكون مني في هذه الحالة وعند هذه المصيبة صبر جميل، وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أرجوا الله أن يأتيني بالثلاثة قريباً ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين غير مفترقين وهم يوسف وبنيامين وكبيرهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو العليم بأحوالنا كلنا وبما أنا فيه من الحزن وهو الحكيم في تركنا مفرقين وابتلائنا بذلك، والحكيم في جمعنا بعد التفرق وانتهاء البلوى.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أبوهم ﴿عَنْهُمْ﴾ لانتهاء الكلام بينه وبينهم في هذا الموضوع، وقال ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ أسفاً ـ بالألف ـ بدلاً من ـ الياء ـ في (أسفي).

قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ

في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((والأسف: أشد الحزن)) انتهى، وقوله: ﴿يَٰٓأَ﴾ مثل قولك: (وا) في قولك: (وارأساه) ومنه قول الشاعر:

حُمّلتَ أمراً عظيماً فاصطبرتَ له وقمتَ فيه بأمر الله يا عُمرا

وفائدة قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ حين تولى عنهم وهم يسمعون: أن يعلموا مدى جريمتهم وأنه لم ينسَ يوسف بسبب فراق بنيامين وكبيرهم، بل لا زال الأسف عليه باقياً في شدته أشد من بنيامين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ﴾ أي ذهب سوادهما وبَصَرهما من حزنه ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ مملوءٌ بالحزن، ولا حاجة إلى أن نقول: ابيضت عيناه من البكاء؛ لأن الحزن نفسه يضر البصر كما أن السرور يقوّيه.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي أبناؤه الحاضرون عنده يتظاهرون بأنهم يريدون من أبيهم أن يُبْقيَ على نفسه ويحافظ على حياته وقوّته ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسم مثل بالله، وفيه معنى التعجب من أبيهم واستمراره على ذكر يوسف أي تذكّره ﴿تَفۡتَؤُاْ﴾ أي لا تفتؤ أي لا تزال تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي حتى تضعف وتَبلَى وتشفي على الهلاك أو تهلك حقيقة كسائر الهالكين.

وفي (تفسير الإمام زيد إ): ((فالحرض: هو البالي الفاني، ويقال: الحَرَض الذي أذَابَهُ الحُزن والشوق، والهالكون: الميتون)) انتهى.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴿قَالَ﴾ أبوهم جواباً عنهم: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي﴾ قال في (الصحاح): ((البثّ: الحال والحزن)) انتهى المراد، وقال فيه: ((بَثّ الخبر وأبثّه، بمعنى أي نشره)) انتهى.

لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ

وقال الراغب: وقوله ـ عزّ وجل ـ : ((﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِى﴾ أي غمي الذي يبثه [كذا] عن كتمان)) انتهى، وقال في (الكشاف): ((والبَثّ أصعب الهمّ الذي لا يصبر عليه صاحبه فيبثه إلى الناس)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((والبَثُّ: الحزنُ والغمّ الذي تُفضي به إلى صاحبك)) انتهى المراد.

فقد اتفق كلام (صاحب لسان العرب) والراغب، ولم يعارض كلام صاحب (الصحاح) لأن الغمّ حال فهو أقوى في التفسير لهذه الآية، وكان يعقوب × مظنة الغم لشدة شوقه إلى يوسف؛ لأنه يعلم أنه ما زال حيّاً، والشوق يؤدي إلى الغم من الحال الذي فيه المشتاق، أي من فُقْدِ ما هو إليه مشتاق، فاجتمع الغم والحزن.

وحاصل جواب أبيهم: إنما أشكو غمي أو حالي وحزني الذي أبثّه بقولي ﴿يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ إلى الله لا إليكم، وليس كلامي موجهاً إليكم حتى تجيبوه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أشكو إلى الله ليفرج عني ما أنا فيه من الحال، وأنتم بجهلكم تنكرون علي؛ وذلك لأنه بسبب علمه ببقاء يوسف، وقد طال غيابه اشتد حزنه عليه لشدة حبه له.

﴿٨٧﴾ ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ يقول نبي الله يعقوب ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ﴾ أي إلى مصر ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ في (تفسير الإمام زيد إ): ((معناه: تخبّروا)) انتهى، أي اطلبوا خبراً عنهما.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((والتحسس: طلب الشيء بالحاسة، وهو شبه التسمُّع والتبصر، والمعنى: تعرّفوا وابحثوا عنهما)) انتهى.

وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا

وقوله: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تزالوا راجين لروح الله وفرجه، وقال الراغب: أي من فرجه ورحمته ـ وهو صحيح ـ وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأنهم أساءوا الظن بالله ونسوا كرمه وفضله؛ لأنهم كفروا نعمته التي ستكون وجحدوها بناء على سوء ظنهم بربهم.

وقد مر قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود:٩] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى:٤٨] ويحتمل: أن كفره هو كفر النعمة الماضية؛ لأنه نسيها وصيرها كأن لم تكن؛ لأنه لو اعترف بها في نفسه، وذكر أنها نعمة من الله لما نفى أن يكون مثلها في المستقبل برحمة الله وكرمه.

ولعل هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ ثم قال: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ فيظهر: أن ذلك كفره لما أذاقه ربه من رحمته، فنبي الله يعقوب ينهى بَنِيه عن اليأس من رَوح الله لكونه كفراً، مع أن اليأس يثبط عن طلب الشيء المأيوس منه، كما أن رجاء تحصيله يقوي إرادة طلبه.

﴿٨٨﴾ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أرسلهم أبوهم للبحث عن يوسف وأخيه فذهبوا للميرة وكلاهما مراد لأبيهم أمّا هم فكأنه قد غلب عليهم اليأس مع قلة رغبتهم في وجدان يوسف أو عدم الرغبة؛ لأنهم قد أساءوا إليه في الماضي؛ ولأنهم يغارون منه، وفي كلامهم هذا الإعتراف بضعف الحال، والتذلل بطلب الصدقة.

يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا

وقولهم: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ هي البضاعة التي أرجعها يوسف، وكأنهم ظنوا أنه أرجعها احتقاراً لها، والمزجاة المدفوعة التي يدفعها الذي تعرض عليه لعدم رغبته فيها.

وقولهم: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ أي لا تنقص الْحَبَّ لحقارة البضاعة، والمراد بالكيل هنا الحب، أرادوا أن يوفي أحمال الإبل وإن كانت البضاعة لا تساويه، قالوا: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي بما زاد على ما تساويه البضاعة، وليس المراد أن لا يغشهم في كيل الحب، وقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ترغيب له في أن يتصدق عليهم ولا يقتصر على ما تساويه البضاعة.

﴿٨٩﴾ ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ ذنبكم هذا وعِظَمَ ﴿مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ فالسؤال عن علمهم بما فعلوا من حيث أنه جريمة عظيمة؛ لأنهم قد علموا ما فعلوا لكنه يسألهم هل علموا حقيقة ما فعلوا ومعناه من حيث هو ظلم ليوسف وأخيه وعقوق لأبيهم، وليس المعنى هل تذكرون؛ لأن ﴿عَلِمْتُمْ﴾ فعل ماض ولأن من يقدّر أنه قد نسي يقال له: هل تذكر.

ومثل هذا قول كبيرهم: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ﴾ يريد تذكيرهم بحكم العهد وقبح النكث، وأن أباهم يحملهم عليه؛ لأنهم قد فرطوا في يوسف من قبل، وليس يريد مجرد تذكيرهم بالعهد، وأما قول يوسف: ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ فهو يعني: وأنتم يوم فعلتم ذلك في سن الجهالة لم تبلغوا رجاحة العقل، وهو بهذا يؤمنهم ليأملوا منه أنه لا يعاقبهم.

يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا

﴿٩٠﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ **قد أنعم علينا بخير الدنيا والآخرة أي بخير الدنيا والدين** ﴿إِنَّهُۥ﴾ **أي الشأن** ﴿مَن يَتَّقِ﴾ **الله** ﴿وَيَصْبِرْ﴾ **على تقواه وعلى ما ابتلاه به** ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ **أي فإن الله لا يضيع أجره؛ لأنه محسن، وكأن هذا تنبيهٌ لهم أنهم لو اتقوا الله وصبروا ما نالهم من سوء الحال والذلة ما نالهم.**

﴿٩١﴾ ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ **لقد خصك بما لم يجعل لنا من النعمة والشرف والعزّ، وقولهم:** ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ **اعتراف بالجريمة فهو جواب جملي عن قوله:** ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

﴿٩٢﴾ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ **يوسف ـ صلى الله عليه ـ لإخوته** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ **قال (في تفسير الإمام زيد** إ **): ((أي لا لوم عليكم)).**

وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ **لعله يعني: أنه لا حاجة اليوم إلى اللَّوم لكم فلا ألومكم؛ لأنه قد كفاهم ما شهدوا في أنفسهم من سوء الحال وما شهدوا في يوسف من العز والشرف مع أنهم في الأصل يحسدونه فلم يستفيدوا من الحسد إلا سوء الحال والذنوب، ولم يستطيعوا رد فضل الله على يوسف،**

وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ

فحق لهم أن يلوموا أنفسهم، مع أن الحلم عنهم والإحسان إليهم أقرب لهم إلى التوبة والصلاح، وهذا غرض نبي الله يوسف، ولا غرض له في التشفِّي منهم؛ لِحِلْمه وكرمه، ورغبته في ثواب العفو.

وقوله: ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دعاء لهم بالمغفرة وتنبيهٌ لهم على حق الله عليهم وأنه لا يكفيهم عفو يوسف بل هم محتاجون إلى مغفرة الله، فعليهم أن يتوبوا إن لم يكونوا في تلك الحال قد تابوا، ولا بأس بالدعاء بالمغفرة للحي الذي يرجى صلاحه وتوبته على معنى الدعاء بالتوفيق والهداية للتوبة لا على معنى طلب المغفرة بدون توبة.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ترغيب لهم في رحمة الله العظمى التي هي قبول التوبة وصرف عذاب جهنم وإدخال التائب الجنة خالداً فيها أبداً فهي رحمة لا تعادلها رحمة ولا تُدانيها.

﴿٩٣﴾ ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال يوسف لإخوته ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ قوله: ﴿هَذَا﴾ يشير إلى قميص معيّن؛ لأن له غيره، ولعله اختار الذي هو حديث عهد بلبسه وقد لبسه كثيراً ففيه ريح يوسف.

وقوله: ﴿فَأَلْقُوهُ﴾ أي القميص ﴿عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ﴾ إلى مصر إليَّ في حال كونه ﴿بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتسكنوا هنا في مصر حيث تتوفر لكم أسباب المعيشة، وتتخلصون من الضر الذي شكوتموه، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لتأكيد العموم، ولعله لئلا يتوهموا أنه أراد إخوته وأولادهم لأجل الرحامة دون نسائهم الأجنبيات.

ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ ﴿فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ خرجت من القرية وانفصلت عنها وهي في أول سفرها إلى أبيهم ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لأجد رائحة يوسف ﴿لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ لولا أن تُخَطِّئون.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي قطعت القرية وانفصلت منها وخرجت الإبل من المدينة وبانت عنها أهبّ الله الرياح برائحة يوسف إلى أبيه، ونقلت أجزاء [في نسخة (المصابيح) أخزاء، ولعل الأصل أجزاء] من قميص ولده إليه فقال حينئذ ـ صلوات الله عليه ـ لمن حضره ومن كان معه من بنيه ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ أي لولا أن تُخَطِّئون [في الأم من (المصابيح) تحيطون وهو غلط واضح] في ذلك وتجهّلون، والفَنَد: هو الخطأ والجهل، قال الشاعر:

إلا سليمان إذ قال المليكَ لَه ... قم في البريّة فاحددها عن الفند))

انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد |): ((وجدها من مسيرة عشرة أيام)) انتهى.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ قال الموجودون من بنيه: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قسماً فيه معنى التعجب من أبيهم واستمراره على تذكر يوسف كما أنكروا عليه في قولهم: ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾.

ومعنى ﴿لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾ أي ضعف الإدراك الناتج عن كبر السن كقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وقولهم: ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ لعلهم يريدون تذكره منذ فارقه حين ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه ﴿فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾.

ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ

﴿٩٦﴾ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ﴾ بيوسف وقرب لقائه ﴿أَلۡقَىٰهُ﴾ أي ألقى القميص على وجه يعقوب ـ صلى الله عليه ـ ﴿فَٱرۡتَدَّ﴾ بعد العمى ﴿بَصِيرٗا﴾ ﴿قَالَ﴾ يعقوب × لبنيه الحاضرين ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ﴾ سابقاً ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فقد كنت أعلم أن يوسف ما زال حياً وذلك بإعلام الله لي.

﴿٩٧-٩٨﴾ ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ عند انكشاف الحقيقة لهم بوجود يوسف وإيثار الله له، وقوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بان كذبهم في قولهم: ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ وبان أنهم كادوه وعقُّوا أباهم فيه، لم يبق لهم مجال إلا أن يتوبوا ويتركوا الحسد والكيد، فقالوا توصُّلاً إلى التوبة الصادقة النصوح: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا..﴾ الخ.

وعلى هذا: فمعنى استغفار أبيهم لهم: طلب هداية قلوبهم حتى تساعدهم على التوبة النصوح بصدق الندم لأجل قبح المعصية وحق الله عليهم، وبصدق الإقلاع عن الحسد وتوابعه، والعزم على تقوى الله في كل شيء، أو توصلاً إلى قبولها ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ أي اطلب المغفرة لنا إنا كنا مذنبين، فنحن محتاجون إلى مغفرة ذنوبنا.

﴿قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ﴾ لعله يعني وقت السحر وبظهر الغيب عناية منه لقبول استغفاره لهم ورحلوا إلى يوسف.

إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ

﴿٩٩﴾ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ **تلقّاهم يوسف خارج مصر ونزل خيمةً أو منـزلاً أو نحو ذلـك لاستقبال أبويه** ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ **أي أبـواه وإخوتـه عليـه** ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ﴾ **أي ضم إليه** ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ **فهما عنده أقرب إليه من غيرهما.**

وما يقال: إن أبويه هما أبوه وزوجة أبيه وليست أم يوسف غـير مسـلّم؛ لأنه خلاف ظاهر القرآن ولا وجه للعدول عن الظاهر بـلا دليـل، مـع أنهـا الصغيرة فيما نعتقد؛ لأن ابنيها هما الصغيران فهي مظنة أنها الباقية إلى ذلك الحين دون أمّ إخوة يوسف ﴿وَقَالَ﴾ **يوسف لأبويه وإخوته:** ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ **وهذا يشير إلى أنهم كانوا قبل ذلك مكروهين عند دولة مصر بسبب اختلاف الدين سابقاً، لكنها قد تبدلت الحال بنصر الله ليوسف وحسن سياسته، فصاروا غير معادين ليعقوب وبنيه لأجـل مكانـة يوسـف، وقال:** ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ **لأنه مستقبل، ولو شاء الله لجعل سبباً لخوفهم.**

﴿١٠٠﴾ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿وَرَفَعَ﴾ **يوسف** ﴿أَبَوَيۡهِ﴾ **أباه وأمه** ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ **على السرير ولعله رفعهما عنده، كقوله تعالى:** ﴿آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾.

﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ ﴿خَرُّواْ﴾ هَـوَوْا إلى الأرض ﴿سُجَّدًا﴾ لـــه، إمـا بمعنى من أجله أي شكراً لله على أن أوصلهم إليه بعد طول غيابه وهذا هـو الذي رجحه الشرفي في تفسيره، والمشكل هـو سـجود أبويـه، فأمـا سـجود إخوته لا على معنى العبادة فغير بعيد، وقـد مـر الكـلام فيـه، وإمـا بمعنـى: تشريف يوسف، وإقرار رئاسته جرياً على عرف البلد، واتقاء لإنكار النـاس عليهم لو خالفوا العرف لا بمعنى العبادة، ووقوعه من أبيـه لضـرورة الحـال مع اختياره للتواضـع، مـع كونـه أعلـم مـن غـيره بفضـل ابنـه واسـتحقاقه للتعظيم.

ومن الجائز أن الله أمره بالسجود ليتواضع وعلـى هـذا لا ينكـر سـجوده لابنه ﴿وَقَالَ﴾ أي يوسـف ﴿يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا﴾ أي السـجود ﴿تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ وقولـــه: ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ يقـــرّب إلى أن سجودهم لـه كان بأمر الله تعـالى ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ﴾ إمـا أحسـن إلـي وإمـا مضمن أحسن لطف.

وقد قيل: إنه يقال: أحسن به كما يقال: أحسن إليه في اللغة، وقوله: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ لعله يعني إنعام الله عليه حـين أخرجـه مـن السـجن مشرفاً مبرأً من العيب لا مجرد إخراجه من السجن.

وقوله: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ جعله من إحسان الله به، والبدو: سـكان البادية أهل الأنعام الذين يتبعون بها مواضع المرعى والماء وهم خلاف أهـل القرى والمدن ولعله أراد نعمة صلاح مصر لسكناهم فيها وسـقوط وجـوب الهجرة عنها بمصيرها دار إسلام فلم يبقَ موجب لبقائهم في البدو.

قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي جمع الله بيننا هنا ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي تفرقنا بسبب أن نزغ الشيطان ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي من بعد كيد إخوتي الذي سبَّب الفراق الطويل وخفاء مكاني على أبي، وقال: ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ فراراً من التثريب عليهم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي بصير به ولو بتسبيب خفي غامض ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه تسبيب الأسباب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو يهيء ما تقتضيه حكمته وأفعاله كلها محكمة.

﴿١٠١﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ شكراً للنعمة وتقدمة للدعاء، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ لأن ملك مصر شركه في الملك بجعله على خزائن الأرض.

وقوله: ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ شكر على تعليم نفعه في السجن وسبَّب لإخراجه من السجن ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يا فاطر السموات والأرض الذي خلقها ابتداء ﴿أَنتَ﴾ يا الله ﴿وَلِيِّۦ﴾ ولي أموري ومصالحي ورعايتي أو مالكي المدبر لأموري ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا﴾ بريئاً من الشرك مسلماً لك وجهي ونفسي ﴿وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في درجات الآخرة.

وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي

ولعله × بدأ بذكر نعمة الملك وتأويل الأحاديث لئلا يكون الكلام في صورة التضجر من حالته التي هو فيها والإحتقار لنعمة الله عليه بما آتاه من الملك وعلمه من تأويل الأحاديث، ولو كان السياق لذكر نعم الله عليه لكان ذِكْرُ نعمة الهداية والعصمة أهم من غيره.

﴿١٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ القصص بالحق ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَ﴾ فهو دليل على أنك نبي يوحَى إليك وأن هذا القرآن من الله ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ﴾ لدى إخوة يوسف ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ سراً بينهم ودبروا مكيدتهم أو عزموا عليها ﴿وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ يكيدون ليوسف وأبيه فما علمت هذا القصص الكامل المفصل المشتمل على خفي الحوادث المكتومة ما علمته وأنت لم تكن تقرأ كتاباً ولا تخطه بيمينك، إنما نشأت بين الأميين ما علمت ذلك القصص إلا بوحي الله إليك.

وقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ﴾ قال الشرفي في تفسيره: ((أي أحكموه)) وقال الراغب: ((وأجمعت كذا، أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالفكرة نحو: ﴿فَأَجۡمِعُوا أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس:٧١] قال الشاعر:

هل أغزوَنْ يوماً وأمري مُجْمَع

وقال تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوا كَيۡدَكُمۡ﴾)) [طه:٦٤])) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((ويقال: أجمِع أمرك ولا تدعه منتشراً، قال الشاعر:

تُهِلُّ وتسعى بالمصابيح وسْطها لها أمـر حـزمٍ لا يفَـرَّقُ مُجْمَـع

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٌ مِّنۡ عَذَابِ

وقال آخر:

ياليت شعـري والمنى لا تنفـع هـــل أغـدون يوماً وأَمري مُجْمَعُ))

انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((قال الكسائي: يقال: أجمعت الأمرَ، وعلى الأمر: إذا عزمت عليه)) انتهى.

وفي الرواية عن النبي ص: ((لا صيام لمن لم يجمع الصيام من الليل)) والراوي عربي اللسان، والمعنيان متقاربان، ولعل جعله بمعنى العزم خاص بالفرد من الناس، كما في تعبير الكسائي ولفظ الرواية، أما إذا نسب إلى الجمع، فالظاهر: ما ذكره الشرفي بمعنى ما ذكره الراغب و(صاحب الصحاح).

فحاصل المعنى: وما كنت يا محمد لدى إخوة يوسف إذ أبرموا كيدهم عند تشاورهم، وأجمعَ رأيُهم على إنزال يوسف ﴿فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ﴾ وكان ذلك سراً فيما بينهم، فما علمته يا محمد إلا بوحي الله إليك.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ أي أن آيات الله قد دلت على رسالتك وأكثر الناس لا يؤمنون، وإن تَبَيَّنَ أنك رسول الله ولو حرصت على إيمانهم فلا تتعب نفسك بالحرص على إيمانهم.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهذه زيادة حجة عليهم أنهم لا يخافون من اتباعك مغرماً يثقلهم ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي ما هو ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ تذكير ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ لينتبهوا من غفلتهم ويتفكروا فيؤمنوا.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ﴾ وكم من آية ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مما يدل على

قدرة الله تعالى وسعة علمه وإحاطته بكل شيء كالشمس والقمر وسيرهما في بروجهما على نظام مستمر محدد كتحديد الساعة تقطعها الشمس في سنة وتقطعها القمر في شهر، وفي انتقال الشمس في منازل تأتي لأهل الأرض الفصول الأربعة صيف، وخريف، وشتاء، وربيع.

وكم من آية في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ كتجهيزها للإنسان بجعلها صالحة للسير على ظهرها والأسفار الطويلة، والبناء للمساكن والحرث، وجعل الماء فيها للناس وأنعامهم والحرث لينبت لهم الزرع وغيرهم، وغير الحرث ليكون فيه المرعى لأنعامهم، وقد نبَّه القرآن على هذا، وكشف العلم الحديث عن آيات، وكل ذلك نِعَم للإنسان، وتيسير لأسباب معيشته.

فكم من آية ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يشاهدونها في حال غفلتهم وهم معرضون عنها، ومعنى المرور عليها إما مجموع مشاهدتها مع ترك التفكر فيها والإنتقال عن مشاهدتها كمن يسير في طريقٍ فيرى شيئاً عن يمينه أو شماله ولا يقف ليتأمله، بل يمضي كأنه لم يرَه حتى يخلفه وراءه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] ويحتمل في قوله تعالى: ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ أنه سير حقيقي يشاهدون فيه آيات كثيرة فيخلفونها وراءهم كأنهم لم يروها، والأول أقرب عندي من أجل آيات السموات فالمرور عليها معنوي ـ والله أعلم.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الناس ﴿بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ بالله فهم يعلمون أن الله الذي خلقهم ورزقهم، وأنه ربهم المالك لهم، وأنه قادر على كل شيء، وعالم بكل شيء إلى آخر أسمائه الحسنى جملة أو تفصيلاً ولكن مع هذا يجعل لله شريكاً في إلاهيته أو في حكمه فيعبد غيره.

ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ؑ): ((هم قوم شبّهوا الله بخلقه فأشركوا من حيث لا يعلمون)) انتهى.

ومعنى هذا: أنهم يعبدون صورة يتوهمون أنها هي الله، وإيمان المؤمنين بالله حجة عليهم، وقد تكرر في القرآن الكريم الإحتجاج عليهم [انظر الآيات في سورة المؤمنين من آية ٤٧ إلى غاية آية ٨٨] وفي (سورة الزخرف): ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [آية:٩] وإيمانُهم قد دلَّت الآية، على أنه قاصر عن الإيمان الذي يَبْعَثُ صاحبَه على العمل بما يدعو إليه فهو مجازي، بمعنى التصديق والإقرار بالله بقلوبهم وألسنتهم.

﴿١٠٧﴾ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ أي المشركون مع إيمانهم بالله أن تأتيهم غاشية تغشاهم وتعمهم، وهي عذاب من عذاب الله العاجل في الدنيا ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة ﴿بَغۡتَةٗ﴾ فجأة فلا تُقبَل منهم توبة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ بقربها لم يشعروا إلا بمفاجأتها.

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ التي أسلكها وأمضي عليها لا أنحرف عنها ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ عبادَ الله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليؤمنوا به وينزهوه عن الشريك ويعبدوه وحده لا شريك له ويتَّقوه ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عما يصف المشركون ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ بل أنا بريء منهم.

ٱلۡقُرَىٰۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا

وقوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ أي اتبعني في ديني الذي أدعو إليه فهم يدعون إلى الله، وقوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على علم يقين بأني على الحق؛ لأني على بينة من ربي وكذلك من اتبعني في ديني الذي هو دين الله فهو على بصيرة من ربه؛ لأنه على بينة من ربه وهي هذا القرآن، فهم في دعوتهم إلى الله على بصيرة، وهي مستمرة بعد وفاة الرسول ص ممن اتبعه، وعملوا بقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران:١٠٤].

﴿١٠٩﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً﴾ لم نرسل إلى الأمم ملائكةً كما يقترح الكفار ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾ لا يعلمون الغيب بل صحت رسالتُهم وأمكنت بالوحي ﴿مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ ليكونوا معروفين بين أهل القرى، أما البدو فقد يكونون مجهولين لا يعرفهم إلا القليل من الناس.

وأما نبي الله يعقوب إن كان رسولاً فلعله كان من أهل القرية، ثم هاجر عنها لما لم يؤمنوا به كما هاجر إبراهيم × وكذلك يوسف × أرسل إلى أهل مصر بعد أن صار منهم، وأما إخوته فلم يثبت أنهم من الرسل، وإن صح أنهم صاروا أنبياء بعد توبتهم فلم يصح أنهم رسل، والله أصدق القائلين، قد أخبر بأنه لم يرسل إلا من أهل القرى.

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أفلم يسرِ المكذبون بك يا رسول الله في الأرض فيروا آثار الذين من قبلهم حيث كانوا ساكنين فينظروا كيف كان عاقبتهم بسبب تكذيبهم لرسلهم ففيهم

ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

عبرة لهم لو اعتبروا بهم لأنقذوا أنفسهم من عذاب الله ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ لأنها مأواهم فهي خير من الدنيا وأغراضها وما شغل به المكذبون من متاعها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حيث لم تطلبوا ما هو خير لكم وتتقوا سبب عذابكم، بل أنهم يعقلون ولكنهم أهملوا عقولهم، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ تبكيت لهم واحتجاج عليهم بالعقول.

﴿١١٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((﴿حَتَّىٰٓ﴾ متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام، كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأس الرسل)) انتهى المراد.

قلت: الأولى أنها كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام:٣٤] فالمعنى: وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً تحملوا الرسالة وصبروا عليها حتى إذا استيأسوا وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ أي أيسوا، وكأن زيادة الصيغة بصيغة استفعَلُوا للدلالة على أنه لم يكن من شأنهم اليأس، وإنما أوقعه بهم سببٌ موجِبٌ لليأس فاستسلموا له، وذلك مثل نزول الوحي على الرسول منهم ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُواْ﴾ فلعله ظنهم أن قومهم قد صرحوا برميهم بالكذب على الله؛ لأنهم كانوا من قبل يستحيون من الجزم

بكذبهم، ويكتفون بمثل قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود:٢٧] ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود:٥٣] ﴿وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء:١٨٦] ونحو هذا فلما طالت المدة تجرؤوا على الجزم بكذب رسلهم.

ألا ترى إلى قوله تعالى في رسوله نوح × : ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:٢٦] ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ وقوله تعالى في رسوله هود × : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء:١٣٩] وفي رسوله شعيب: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء:١٨٩] وغير هذه الآيات.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِّبُواْ﴾ يؤخذ منه أنه يجيء نصرهم عند ذلك؛ لأن قومهم قد كذبوهم وإن لم يسمعوه إلا من بعضهم أو وإن لم يسمعوه أصلاً وقد سمعه الله.

فإن قيل: فكيف بقوله تعالى حاكياً عن نوح × ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ..﴾ [الشعراء:١١٧] إلى آخر الآيات؟

قلت: يحمل على أنهم كذبوه قبل أن يسمع منهم التكذيب وجاءته عند ذلك مبادئُ النصر وأوائلُه، وأن دعاءه عليهم كان بعد ذلك حين سمع التكذيب ـ والله أعلم.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((ومن رواية القاسم بن إبراهيم × عن ابن عباس ب في قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ قال: فهو استيئاسهم من إيمان قومهم، وظنُّهم فهو ظنهم لمن أعطاهم الرضى في العلانية أنه قد كذّبهم في السر وذلك لطول البلاء عليهم ولم يستيئس الرسل من نصر الله، ولم يظنوا أن الله قد أخلفهم ما وعدهم)) انتهى.

لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

وقوله تعالى: ﴿جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي جاء الرسلَ نصرُنا بتعذيب المكذبين لهم، وقوله تعالى: ﴿فَنُنجِيْ مَن نَّشَآءُ﴾ أي من نشاء أن ننجيه، ولعله هنا بمعنى الرسل ومن آمن بهم أنجاهم؛ لأنه قادر على إنجاءهم في حال إهلاك قومهم فأنجاهم بمشيئته بأي وسيلة شاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي ولم ينجَ المجرمون من العذاب عند نزوله عليهم لا بقولهم: ﴿آمَنَّا﴾ حين رأوه ولا بأي وسيلة؛ لأنه ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

﴿١١١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ فِى﴾ قصص الرسل المذكور في القرآن عبرة لأولي الألباب أي لأهل العقول نافعة لمن استعمل عقله فاعتبر بها ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما كان القصص ذلك ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ بل هو الحق ففيه العبرة.

ولكن ذلك القصص ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتاب الذي هو التوراة أو التوراة والإنجيل؛ لأن فيه ما يصدق قصصاً فيها فذلك دليل على أنه من الله أنزله على رسوله محمد ص لأنه لم يكن يتلو من قبل القرآنَ كتاباً ولا يخطه بيمينه، وهو نشأ أمّيّاً في أمّة أُمِّيِّين، فلا يُعقَل أن يعلم قصص القرآن إلا بوحي من الله.

والأقرب: أن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ بمعنى ما كان القرآن الذي فيه القصص حديثاً يُفْترى، بدليل بقية الآية قوله تعالى:

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وتفصيل بيان كل شيء أي جعله مفصلاً لتُفهم بتفاصيله دلالاتُه.

وقوله تعالى: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كقوله تعالى في (التوراة): ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥] وقوله تعالى في مَلِكة سبأ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:٢٣] وهي عبارة تُستَعْمَل للدلالة على الكثرة وكثرة الأنواع، والمراد تفصيل كل شيء من علوم الدين التي تحتاج الأمة إلى جعلها في القرآن مفصلة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان:٣] فهم الذين يهتدون ويرحمون بالقرآن؛ لأنه ينقذهم من النار، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة يوسف) بعون الله

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم

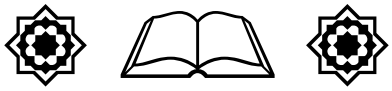

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	لاذكر لموازنة بين الحسنات والسيئات في القرآن الكريم	الأعراف	٩
٢	اسم الملك صفة وليس اسم جنس مخصوص	الأعراف	١٢
٣	فصل في معنى العرش	الأعراف	٥٤
٤	معنى ﴿تجلى ربه للجبل﴾	الأعراف	١٤٣
٥	لفتة في تفسير ﴿وألقى الألواح﴾	الأعراف	١٥٠
٦	لماذا وقف هارون مع عبدة العجل! وما العبرة في ذلك!	الأعراف	١٥٠
٧	الذلة في الدنيا عقوبة عامة للمفترين في كل زمان	الأعراف	١٥٢
٨	في تفسير ﴿ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة﴾	الأعراف	١٦٧
٩	معنى إقامة الصلاة	الأنفال	٣
١٠	﴿يجعل لكم فرقانا﴾ ما هو الفرقان!	الأنفال	٢٩
١١	مراحل المواجهة مع الكفار	الأنفال	٣٨
١٢	ستة أمور يجب مراعاتها في الحروب	الأنفال	٤٧
١٣	رد على المجبرة ونحوهم	التوبة	٧٠
١٤	تحديد النفاق	التوبة	٩٧
١٥	تخريج حديث: ﴿إن الله أمرني بحب أربعة﴾	التوبة	١٠٠
١٦	معنى قوله تعالى: ﴿كونوا مع الصادقين﴾	التوبة	١١٩
١٧	تفسير ﴿لولا نفر﴾ وكونها غير ناسخة لوجوب الجهاد إلا على الكفاية	التوبة	١٢٢
١٨	حوار في مسألة الخلود في النار	يونس	٢٧
١٩	في ﴿تفسير المجيد﴾	هود	٧٣
٢٠	في تفسير ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾	هود	١١٣
٢١	في تحقيق معنى ﴿ولا يزالون مختلفين﴾	هود	١١٨ـ ١١٩
٢٢	الفرق بين سجود العبودية والتعظيم	يوسف	٤

م	الموضـــــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
٢٣	بماذا نتوصل إلى العلم والمعرفة!	يوسف	٢٢
٢٤	لماذا عظم اعتقاد الملك في يوسف [ع]!	يوسف	٥٤
٢٥	تصور لمدة غياب يوسف عن أبيه	يوسف	٧٨
٢٦	لا نسلم موت أم يوسف قبل لقائه بمصر	يوسف	٩٩
٢٧	توضيح آخر لمسألة السجود ليوسف	يوسف	١٠٠

محتويات الجزء الثالث

رقم السورة	السـورة المفسَّـرة	الصفحات من	الصفحات إلى
٧	سورة الأعراف		١٥٣
٨	سورة الأنفال	١٥٥	٢١٩
٩	سورة التوبة	٢٢١	٣٤٧
١٠	سورة يونس	٣٤٩	٤٢١
١١	سورة هود	٤٢٣	٥٢١
١٢	سورة يوسف	٥٢٣	٦٠٢
	فهرس بأهم المواضيع والمسائل	٦٠٣	٦٠٤
	فهرس المحتويات	٦٠٤	

]

التيسير في التفسير

الجزء الرابع

= الرعد ـ الأنبياء -

تأليف

العالم الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

تحقيق

عبد الله بن حمود العزي محمد بن بدر الدين الحوثي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

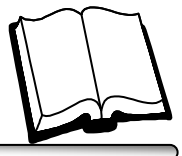

التيسير في التفسير

سورة الرعد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ

تفسير (سورة الرعد)

اختلف فيها؛ أهي مكية إلا آيتين؟ أم مدنية كلها؟أم مدنية سوى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا..﴾الآية؟ والمعاني فيها أشبه بالمعاني المكية ـ والله أعلم.

﴿١﴾ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓرٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿الٓمٓرٓ﴾ سبق الكلام في الحروف في أول (سورة المص).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى الحروف كلها الذي يتركب منها القول، فمعناه: أن الله أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً من الحروف التي يستعملها العرب في تأليف كلامهم، فهو تحقيق لإنزال الكتاب بكلماته وحروفه لا مجرد المعنى يلهمه الرسول ص ولعل فيه إشارة إلى تحدي العرب أن يأتوا بمثله إن كان كفارهم صادقين وقد مر تفصيل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ كالدليل على أن الكتاب حق بأنه أنزل إلى رسول الله ص من ربه وكلما أنزل إليه من ربه فهو الحق؛ لأن الله حكيم حميد ليس في كلماته باطل، وتسميته كتاباً مع أنه حين نزل به جبريل لم يكن قد كتب في الأرض ولكنه جعله كتاباً؛ لأن الله أنزله ليكون كتاباً يحفظ وتتوارثه الأجيال.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي (البرهان): الكتاب: هو القرآن أي أنها آيات الكتاب الذي وعد الله محمداً ص أن ينزله عليه ويجعله باقياً على وجه الدهر)) انتهى المراد.

ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ

وقوله × : ويجعله باقياً، كنت فسرت به تسميته كتاباً نظراً، فإذا قد سبقني إليه (صاحب البرهان) الإمام الناصر أبو الفتح الديلمي، والحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي ليست عادتهم الإيمان بالحق بدلائله فأي آية تأتيهم يعرضون عنها ولا يؤمنون بما دلت عليه لاشتغالهم بالدنيا وإهمالهم لعقولهم في شأن الآخرة فتركهم للإيمان بالقرآن ليس سببه إلا أنهم لا يؤمنون.

﴿٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ هذا من دلائل قدرته تعالى، حيث فصل بين الأرض والسموات بمسافات وحفظها من سقوط الأعلى على الأسفل فحفظها من التصادم ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي بغير أعمدة، والعَمَد: جمع عمود وهو في الأصل عود يعتمد عليه سقف الخيمة، وقوله تعالى ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي رفع السموات بغير عمد من جنس الأعمدة المرئية، وهذا دليل على القدرة الخارقة التي لا تقاس بقدرة المخلوقين وعلمه الذي لا يقاس بعلمهم فهو قادر على إحياء الموتى.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تعبير عن مُلكه وابتداء تدبيره لشؤون عباده المخلوقين كخلق الملائكة وأمره لهم بما شاء من أمره ثم خلق الجن وتعبُّدهم، ثم خلق البشر وأمر الملائكة بالسجود لآدم ثم تدبير شؤون البشر بإرسال الرسل وإنزال الكتب وإهلاك المكذبين لهم القائمين ضدهم المكذبين بآيات ربهم، فهذه التصرفات وأشباهُها في العالم التابعة لملكوت الله جل جلاله هي من دلائله على مُلكه [بضم الميم] المعبر عنه بالإستواء على العرش.

فالمعنى: إن لَه تعالى مُلكَ السموات والأرض وما فيهما منذُ رفع السموات على الأرض؛ ولذلك فله الحكم وحده في الدنيا والآخرة وله الملك في الدنيا والآخرة فهو يتصرف في عباده تصرف الْمَلِك في الدنيا والآخرة بالأمر والنهي والإبتلاء والإختبار في الدنيا وبالجزاء في الآخرة للمطيع والعاصي لكل بما يستحق، والإنصاف بين عباده والحكم بينهم في الآخرة.

قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): ((وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتباراً بعلوّه، قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠] ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل:٣٨] ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل:٤٢] وكُنِّيَ به عن العزّ والسلطان والمملكة، قيل: فلانٌ ثُلَّ عرشه)) انتهى المراد.

وفي (الصحاح): ((العرش: سرير الملك، وعرشُ البيت سقفُه، وقولهم: ثُلَّ عرشه أي وَهَى أمرُه وذهب عِزُّهُ، قال زهير:

تداركتما عبساً وقد ثُلَّ عرشها وذبيان قد زلت بأقدامها النعلُ))

انتهى.

وفي (لسان العرب): ((والعرش: المُلْك، وثُلَّ عرشه: هُدِم ما هو عليه من قوام أمره، وقيل: وَهَى أمره، قال زهير:

تداركتما عبساً وقد ثُلَّ عرشها وذبيان قد زَلَّت بأقدامها النعلُ))

انتهى المراد.

وقد ذكر غيره من أشعار العرب قول الشاعر:

ولقد بنت لي عمتي في مأربٍ عرشاً على كرسي مُلك متلَدِ

وقول الشاعر:

إن يقتلوك فقد ثللتَ عروشَهم بعتيبةَ بن الحارثِ بن شهـــابِ

وفي (لسان العرب) في معاني (استَوَى): ((واستوى أي استولى وظهر، وقال:

قد استــوى بشر على العراق من غـــير سيف ودم مهراق))

انتهى.

وقد ذكر معاني أُخر، ولكن العقل هو الفارق بين ما يصح تفسير القرآن به وما لا يصح؛ لأنه الفارق بين المحكم والمتشابه وبين المعاني المحتملة لتعيين المراد منها.

فأما تفسير ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ بمعنى مجهول جملة وتفصيلاً، فلا يصح؛ لأنه ورد في القرآن على وجه المدح والإحتجاج، فلا يصح تفسيره بالمجهول؛ لأنه يبطل فهم معنى المدح فيه، ويبطل فهم الحجة فيه، وذلك خلاف ما ورد لأجله فهو يبطل المراد فلا يصح، والتفسير بالمجهول جملة وتفصيلاً يخرجه عن معناه في لغة العرب كما قدمت في نظيره؛ لأن المعنى في العربية إما الحقيقي إن لم تصرف عنه قرينة، أو المجازي، أو الكناية التي يراد منها المعنيان، والمعنى المجهول جملة وتفصيلاً خارج عن ذلك كله.

ومن أمثلة الإحتجاج على المشركين والمدح ما في (سورة الأعراف) و(سورة يونس) ويمكن أن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ ونحوه كله للإحتجاج على المشركين والمدح، فليتأمله المنصف الذي لم يُعْمِ التعصُّبُ بصيرتَه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ عطف على ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ليدل على قدرته تعالى وعلمه ونعمته على عباده، وتسخيرُهُما جعلهما يجريان على نظام محكم محدود كتحديد الساعة التي هي الآلة لمعرفة الوقت.

وقوله تعالى ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إما بمعنى في أجل مسمى هو وقت سيرهما، فـ(اللام) مثلها في ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨] وعلى هذا: فهو يبين الآية في تحديد سيرهما على نظام لا يتخلف، وإما بمعنى يجري لأجل مسمى، أي ليبلغ أجلاً مسمى هو أجله عند خراب العالم وقيام القيامة؛ لأنه في جريه لا يزال يقترب من نهاية مدة سيرته فكأنه يسير ليُنهي مدته، والإحتمال الأول أظهر.

وقوله تعالى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ الراجح: أن معناه: يدبر أمر العالم ومن فيه بخلق السموات والأرض واستوائه على العرش وتسخير الشمس والقمر؛ لأنه يترتب على ذلك خلق المكلفين، وأمرهم بعبادته، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ويترتب عليه: رزق المكلفين، ويترتب عليه توابع التكليف من الثواب والعقاب، والتمييز بين المحسن والمسيء، والبعث والحساب، والجنة والنار، فهذا ونحوه هو الأمر، والتدبير لَه: هو فعل مقدماته التي يترتب عليها من رفع السماء فوق الأرض بغير عمد، والإستواءِ على العرش الذي هو ابتداء تدبير أمر الملكوت، وتسخير الشمس والقمر، الذي يترتب عليه منافع للناس وللأرض والشجر والحيوان.

وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ فالراجح أنه خبر ثان لاسم الله، وتفصيلُ الآيات جعلُها مُفصلةً متمايزة لتكون بيِّنَةً للناظرين المفكرين فيها، والآياتُ يعم الكونية ويعم القرآن الحكيم.

ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى

وقوله: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ كالتعليل لتفصيل الآيات؛ لأنها تدل على الحياة بعد الموت والجزاء للمحسن والمسيء بدلالة نصوص القرآن، وبدلالة أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض والعباد عبثاً.

وقوله تعالى: ﴿تُوقِنُونَ﴾ أي تعلمون علماً يقيناً وقوفكم في الآخرة ليسألكم عما أسلفتم في الدنيا في موقف العرض على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨] وكما قال في المنافقين ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ [التوبة:٧٧].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾: أي بسطها البسطَ المشاهد الذي لأجله صلحت للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي جعل في الأرض جبالاً ثقالاً راسيات في أماكنها ثابتات، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي جعل فيها مجاري للماء يجري فيها لينتفع به الإنسان وينفع الحيوان والشجر، وهذه المجاري بعضها في بطن الأرض يصل ماؤه إلى الآبار والعيون وبعضها على ظهر الأرض في الأودية وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي من كل الثمرات فالحبوب أنواع مختلفة، والفواكه كذلك تختلف ألوانها وصفاتها في الطعم وغيره ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الذي هو مدّ الأرض وما جعل فيها من حاجة الإنسان والحيوان لآيات تدل على قدرته وعلمه وفضله على عباده.

ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا

وقوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ إما يجعل النهار غاشياً لليل؛ لأن ضوءه يباشر سواد الليل فيدفعه، وإما يجعل الليل غاشياً للنهار لأنه يباشر ضوء النهار في آخره كأنه يدفعه مقبلاً على الناس لينامُوْا فيه ويسكنوا فيه ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من مَدِّ الأرض وما جعل فيها وإغشاء الليل النهار إن فيه كله ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ تدل على قدرة الله التي لا تقاس بقدرة المخلوقين وعلمه كذلك ونعمته الشاملة لعباده.

وقوله تعالى ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي يتفكرون وينظرون في الدلائل والآيات، فهم الذين يعرفون دلالة الآيات، ويعرفون الله تعالى بآياته المذكورة من قوله: ﴿الَّذِي رَفَعَ..﴾ فهي دليل عليه كما أن دلائله وآياته لا نحصيها عدداً.

﴿٤﴾ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ من الأرض نفسها ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ بعضها مجاور لبعض، وفيها شجر يثمر أو شيء من البقول.

وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي شجر ملتف يغطي مجموعة أرضه لنموّه وصلاحه، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ جُمع إشارةً إلى أنواع العنب الكثيرة، وقوله تعالى: ﴿وَزَرْعٌ﴾ أي جنات من زرع، وقوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ أي وجنات من نخيل جمع نخل وكأنه جمع إشارة إلى تعدد أنواعه في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ إذا كان أصل النخلة واحداً وطلع من ذلك الأصل ساقان فهما (صنوان) تثنية (صنو) وكل واحد منهما صنو للآخر، فإذا كانوا ثلاثة فهم صنوانٌ جمع صنو، والذي في الآية جمع صنو، وقوله تعالى: ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي نخيل أصل كل واحدة واحد وساقها واحد.

وقوله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ﴾ راجع إلى الكل من قوله تعالى: ﴿قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ تسقى بماء المطر مثلاً أرضان متجاورتان يسقيهما ماء المطر، أو ماء بئر واحدة أو غيل واحد فيكون أكلهما مختلفاً في الجودة إحداهما أكلها أجود من أكل الآخر، والأكل ما يؤكل من ثمرهما أو بقلهما أو غير ذلك، وهكذا في جنتين من العنب متجاورتين يكون عنب أحداهما أجود بل قد يكون عنب الكرمة الواحدة من الجنة الواحدة أجود من غيره يعرفه صاحب الأض، وهكذا في النخل المتجاور يكون تمر احداها أجود من تمر الأخرى مع أنهما متجاورتان، أو يكون ثمر بستان أجود من ثمر البستان المجاور له مع أن ماءهما واحد.

وهذا معنى قوله تعالى ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ أي بقدرة الله تعالى؛ لأنه يفعل ما يشاء، فتلك الأراضي المتجاورة والجنات والأعناب فضل بعضها على بعض فيما تفيده من المأكول دليل على قدرته وعلمه وسعة فضله وأنه يفعل ما يشاء سواء فضل بعضها على بعض بصنعه ابتداء، أو بصنعه لما ركب فيها من الطبائع المختلفة؛ لأن الطبائع لم تختلف إلا لأنها صنع الله الذي يفعل ما يشاء، فيخلق الشيء مخالفاً لغيره من خلقه، وما شأن الطبائع المختلفة إلا كشأن الوَرَشات المختلفة لم يكن لها بدّ من أن يكون وجودها أصله صنع الفاعل المختار، وهذا تمثيل للتقريب من الفهم؛ لأن الطبيعة إنما هي صفة تكون سبباً بإذن الله تعالى.

تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ أي آيات متعددة ودلائل كثيرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لأن الذين يتفكرون في الآيات المحسوسة أو المعلومة بالوجدان أو بدلائلها وعلاماتها في أيّ ذلك المذكور من أول قوله: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ﴾ يتفكرون في اختلاف أكله، فهم الذين يعلمون أنها آيات ويعلمون ما تدل عليه، فأما المعرضون فلا حجة لهم في الجهل؛ لأنهم معرضون، سواء منهم من أنكر البعث بعد الموت، أو جعل لله نداً لا يخلق شيئاً، أو جحد الخالق ونسب الحوادث إلى الطبع.

۝٥ ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ عطف على ذكر الآيات في الآيات الماضية من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ كأنه تعالى يقول ومع هذه الآيات البينات الدالة على قدرة الله تعالى الفائقة التي لا تقاربها قدرة المخلوق فضلاً عن أن تقاس بها ﴿فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ﴾ أي فهو يستحق أن تعجب منه؛ لأنهم يعترفون بأن الله خلقهم وخلق السموات والأرض وسائر ما عدده من الآيات، ومع هذا كله، ومع ما قد شاهدوا من دلائل قدرته يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ إنكاراً منهم لوعد الله أنه يخلقهم بعد ما تبلى أجسادهم خلقاً جديداً ونفياً للحياة بعد الموت.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ القائلون: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ المنكرون للنشأة الآخرة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ لأنهم جحدوا قدرته على تجديد خلقهم بعد البلى ونفوا قدرته على إحيائهم بعد أن صاروا في قبورهم تراباً فكفْرُهم بقدرته كفْرٌ به.

بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ الأغلال: جمع غُلّ ـ بضم الغين المعجمة ـ وهو قيد يُجعَل في العنق واليدين يجمعهما وهو إما حقيقة وهي الأصل إذا لم تكن مع القول قرينة فالمراد في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وهذا وإن كان حقيقة بالنظر إلى كلمة الأغلال، فهو مجاز من حيث أن معناها مستقبل عبر عنه بعبارة الموجود في الحال، وإما أن كلمة (الأغلال) مجاز عن منع الألطاف كالختم، والأول هو الراجح، وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي أهلها الذين يعذبون فيها وبها، وقوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي باقون لا يموتون.

﴿٦﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ عطف على ما في الآية التي قبل هذه الآية، كأنه قيل يقولون: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا..﴾ الآية ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي يطلبونك تعجيل السيئة، والسيئة هنا: هي العذاب العاجل الذي يسوء، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النساء:٧٨] فهم يطلبون تعجيل العذاب تعنتاً أي: إن كنت صادقاً فعجل علينا العذاب الذي تعدنا على الكفر.

وقوله تعالى: ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي قبل رحمة الله ومغفرته وهداه إلى الفوز بالجنة والنجاة من النار التي كان ينبغي لهم أن يطلبوها كما لا يخفى على من استعمل عقله ولو نزل بهم العذاب العاجل لحال بينهم وبين الحسنة وفوّتها عليهم؛ لأنه يحول بينهم وبين الإيمان في المستقبل من أعمارهم فتفوتهم رحمة الله ومغفرته.

ونظير هذا التركيب قول أمير المؤمنين × في آخر خطبته الغراء: ((الآن عباد الله والخناق مهمل والروح مرسل..)) إلى قوله × : ((قبل الضنك والمضيق والروع والزهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وأخْذَةِ العزيز المقتدر)) انتهى.

فهو × يقول: توبوا وأنتم في الدنيا قبل أن يأخذكم العزيز المقتدر وقبل الضنك والمضيق والروع أي الفزع، وأوضح منه في المعنى الذي نحن بصدده قول الله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر:٥٥] فقال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ أي لتنجوا من العذاب ويحول بينكم وبينه اتباع أحسن ما أنزل الله إلى عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ أي يستعجلونك بالعذاب وقد مضى من قبلهم من عذاب المكذبين للرسل ما هو عبرة لهؤلاء وما كان ينبغي لهم إلا أن يعتبروا بهم فيحذروا أن ينزل بهم العذاب كما نزل على المكذبين الماضين.

قال في (الصحاح): ((والمَثُلةُ [بفتح الميم وضم الثاء]: العقوبة، والجمع المَثُلات)) انتهى، ومثله في (لسان العرب).

وقال الشرفي في (المصابيح): ((عن الحسين بن القاسم × : معناه: مضت وقعات المَثْل بأشكالهم، واحد المثلات مَثُلة وهي الوقعة التي تمثل فيها بالمعذبين، والمَثْل هو التعذيب في الضرب والقتل)) انتهى.

فاستعجالهم بالسيئة سفاهة رأي وجهالة، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فهذه المغفرة ترك المعاجلة بالعقاب عند وقوع الظلم، فهو سبحانه حليم لا يعجل وكانت مغفرة بالنسبة للمدة التي لا يعاقبون فيها.

لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ

فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡ﴾ أي مع ظلمهم واستحقاقهم لتعجيل العقاب، ونظيره قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معناه مع ظلمهم يغفر ويتجاوز في هذه الدنيا عنهم بفضله ورحمته لهم، ولكن قامت [على] مقام [مَعَ]، انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أي حين يريد أن يعاقب في الدنيا والآخرة كما عجل عذاب الأمم الخالية بعد إمهالها فهو يُمهل ولا يهمل: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

۝٧ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ أي على محمد ﴿ءَايَةٞ﴾ أي علامة تدل على صدقه، أي هلاَّ أنزل عليه، وهذا من كفرهم بآيات الله يزعمون أنه لم ينزل عليه شيء من آيات الله فيقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ أي إن كان رسولاً ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞ﴾ فيكفي من الآيات ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت:٥١] فهو دليل على أنك رسول من الله ولم نرسلك لإكراه الناس وإلجائهم إنما أنت نذير لهم.

﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ لمن يريد الهدى فأنت الهادي لهم إن قبلوا منك الهدى وإن لم يقبلوا فأنت الهادي لمن اهتدى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يفيد: أن لكل قوم من يهدي حتى في القرون المستقبلة، فلا بد من وجود العلماء الهداة ليبلغوا الناس حجج الله عليهم وآياته ولو قلّوا كما قال أمير المؤمنين × : ((اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة)).

ولعل هذا معنى الحديث الذي يروى عن رسول الله ص في معنى هذه الآية: ((أنا المنذر، والهادي رجل من بني هاشم)) انتهى.

قال السيوطي في (الدر المنثور): ((وأخرج عبد الله بن أحمد في (زوائد المسند) وابن أبي حاتم، والطبراني في (الأوسط) والحاكم وصححه، وابن مردويه، وابن عساكر عن علي ا في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: ((رسول الله ص المنذر، وأنا الهادي)) وفي لفظ: ((والهادي رجل من بني هاشم)) يعني نفسه، انتهى.

وذكر السيوطي قبل هذا: عن قتادة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ لكل قوم داع يدعوهم إلى الله، ذكر السيوطي أنه أخرجه: ابن جرير، وأبو الشيخ. قال: وأخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ: عن ابن عباس ا : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قال: داع.

وفي (الدر المنثور) أيضاً: ((وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في (المعرفة) والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار، قال: لما نَزَلت: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ وضع رسول الله ص يده على صدره فقال: ((أنا المنذر)) وأومأ بيده إلى منكب علي ا فقال: ((أنت الهادي يا علي، بك يهتدي المهتدون من بعدي)).

وأخرج ابن مردويه، عن أبي برزة الأسلمي ا : سمعت رسول الله ص يقول: ((﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ ـ ووضع يده على صدر نفسه، ثم وضعها على صدر علي، ويقول ـ: ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾)).

وأخرج ابن مردويه، والضياء في (المختارة): عن ابن عباس ا في الآية قال رسول الله ص المنذر، والهادي علي بن أبي طالب)) انتهى. وفي (الغارة السريعة) زيادة على ما هنا انظر صفحة [١٧٧ـ ١٧٨] وما بعدها.

وروى الإمام أبو طالب × في (الأمالي) وهو في [الباب الثامن: ص٩٢] بإسناده عن علي × قال: قال رسول الله ص: ((إن عند كل بدعة تكون بعدي يكاد بها الإيمان، وليّاً من أهل بيتي موكّلاً يذب عنه، يعلن الحقّ وينوره، ويرد كيد الكائدين، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وتوكلوا على الله)).

وروى أبو طالب × ـ أيضاً ـ في [الباب الثامن ص١٠٠] بإسناده: عن نصر ابن حماد قال: سمعت شعبة يقول ـ حين ظهر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام: قال رسول الله ص: ((مثل أهل بيتي في أمتي مثل النجوم كلما أفل نجم طلع نجم)) انتهى.

وأخرج المرشد بالله × في (الأمالي الخميسية) بسنده: عن علي × قال: ((مثل أهل بيتي مثل النجوم كلما مر نجم طلع نجم)) انتهى.

وسقط رفعه، والنسخة المطبوعة كثيرة الغلط، فينظر إن شاء الله في نسخة صحيحة. وإن كان موقوفاً، فله حكم الرفع؛ لأنه خبر عن غيب لا يعلمه إلا من رسول الله ص، وعليٌّ × عندنا حجةٌ في كلامه لما فيه من الروايات المفيدة أنه على الحق ولو لم يكن إلا قوله ص: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأت الباب)) أو كما قال، وقد بسطت في (تحرير الأفكار) و(الغارة السريعة) في الرد على المخالفين في صحة هذا الحديث.

عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ

ومن أراد الزيادة في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ بعلي × فليطالع (ترجمة الإمام علي ×) من (تاريخ ابن عساكر) و (شواهد التنزيل) للحاكم الحسكاني، وغيرهما من كتب فضائل علي × ، وهو لا ينافي أنه لا بد لكل عصر من حملة لعلم الدين، كما أنه لا ينافي أن رسول الله ص الهادي لأمته لمن في عصره السامعين له بالسماع ولغيرهم بالتبليغ لمن لم يسمع ولمن بعده.

وقد روى الإمام زيد بن علي إ في (مجموعه): عن أبيه، عن جده، عن علي (عليه السلام) قال: قال رسول الله ص: ((يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)) انتهى، فحملة العلم في كل عصر هداة لمن يبلغونه العلم والمحمول عنهم هداة من نبي أو وصي أو إمام أو عالم.

﴿٨﴾ ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ ﴿مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ يعلمه ذكراً أم أنثى تامّاً أم ناقصاً، ويعلم صورته وحجمه وغير ذلك من أحواله المغيبة ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ أي ما تغيضه الأرحام وهو المني عند العُلوق فهو يعلم العلوق، مع أن المرأة نفسها قد لا تعلم أنها قد علقت، قال تعالى: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هود:٤٤] أي شربته الأرض ونزل في بطنها.

وقوله تعالى ﴿وَمَا تَزۡدَادُ﴾ أي ويعلم ما تزداده الأرحام، والإزدياد: أن تأخذ الرحم بعد العلوق زيادة على ما قد أخذته مع العلوق، إما لحمل تَوْأَم

تحمله مع الأول، وإما لسقي الأول فهو لا يخفى على الله تعالى مع خفائه على الناس ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يخلقه على ما تقتضيه الحكمة، فالعبد بمقدار وأعضاؤه كل عضو بمقدار وعمره بمقدار ورزقه بمقدار وغير ذلك من أحواله، وكذلك جزاؤه بمقدار، وكذلك الأرض بمقدار والكواكب بمقادير والشمس والقمر والسموات وما بين ذلك من المسافات كل شيء بمقدار محدود عنده في حكمته وعلمه وصنعه.

﴿٩﴾ ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ المعدوم مثل المستقبلات من الحوادث ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ الموجود، ولعل من الغيب مكاييل البحار وموازين الجبال والهواء وسائر المقادير الكثيرة المغيَّبة والنسب والأحكام التي تخفى على العباد، أو الغيب: ما غاب عنا وما جهلناه، والشهادة: ما نشاهده وكل ذلك يفيد إحاطة علمه تعالى وأنه لا يخفى عليه شيء، وقوله تعالى ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي العظيم الجليل بصفاته التي تدل عليها أسماؤه الحسنى فهو كبير بعظمته وجلاله، وليس معنى كبره ضخامة حسيّة؛ لأنه لا يشبه المخلوقين.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ أي المتعالي عما يقول فيه الظالمون مما لا يليق بعظمته وجلاله كاتخاذ الصاحبة أو الولد أو الشريك في ملكه وعن كل نقص وعيب كظلم العباد وخلف الوعد والوعيد والتسوية بين المطيع والعاصي والمحسن والمسيء وما لا يليق بحكمته وفضله ورحمته وكرمه ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤٣] وقال تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون:٩٢] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ

فمعنى نسبة التعالي إليه تعالى هي التسبيح لَه والتقديس والتعظيم، وهو أعم وأبلغ من عبارة التنزيه عن العيب؛ لأنه يدل على تنزيهه عما لا يليق إلا بالمخلوق وإن لم يكن في المخلوق عيباً كاتخاذ الصاحبة والولد تعالى عنه لأنه الغني الذي لا يحتاج.

﴿١٠﴾ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ السياق في ذكر علم الله سبحانه بالغيب والشهادة فالمعنى سواء في علمه من أسر القول ومن جهر به، وقوله تعالى: ﴿مِّنكُم﴾ تذكير بأنه يسمع ما نقوله من حق أو باطل ومما نثاب عليه أو نعاقب، ولعله يشير إلى ما يقوله المشركون ليعلموا أنه لا يخفى على الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ محاول أن يخفى بأن يكمن في مكان لا يرى فيه ولا يسمع وهو مع ذلك بالليل يخفيه سواد الليل، وقوله تعالى: ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾: ((سالك في سربه: معناه في مذهبه)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((السارب: الذاهب على وجهه في الأرض، قال الشاعر:

أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوب وتُقَرّبُ الأحـــلام غير قريبِ

وسَرَبَ الفحل يَسْرُبُ سُرُوباً، إذا توجه للرعي، قال الأخنس التغلبي:

وكل أناس قاربوا قيد فحلهم ونحن خلعنا قيده فهو سارب

سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والسارب: هو المنصرف الذاهب مأخوذ من السروب في المرعَى وهو بالعَشي، وهو مثل السروح بالغداة، يعني أنه يعلم من استخفى عمله في ظلمة الليل ومن أظهره بضوء النهار، والثاني يعلم ما أخفى ظلمة الليل كما يرى ما أظهر ضوء النهار بخلاف المخلوقين الذين يخفى عليهم أحوال أهلهم)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ومن هو سارب بالنهار، فهما سواء في علمه تعالى، وقد اكتفي لهما بموصول واحد، كقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦] أي والذي أنزل إليكم، وقول حسان بن ثابت:

أمَن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

أي ومن يمدحه.

والشواهد تشير إلى أن السارب: الذاهب حيث يهوى، لا يتقيد عنه بخوف أو غيره، ولعله مراد (صاحب الصحاح) [الذاهب على وجهه] ولعل هذا سبب اختيار هذه الكلمة في الآية ـ والله أعلم.

﴿١١﴾ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ في (تفسير الإمام زيد إ) ((﴿مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يريد به: الحفظة من الملائكة، حفظة الليل وحفظة النهار، ويقال: حَرسٌ دون حرسٍ)) انتهى.

فقوله: ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ الراجح: أن المراد معقبات على العبد على حفظه، فمعناه معتَقَبات أي مثلاً جماعات من الملائكة بالليل يعقبهم ملائكة النهار، ثم يعقب ملائكة النهار ملائكةُ الليل فهم يتعاقبون لحفظ الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ أي من أمامه، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ من ورائه يحفظونه أي المعقبات ذكّرهم على المعنى، وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي المعقبات هي من أمر الله؛ لأنه هو جعلهم وأمرهم أن يحفظوا العبد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ أي كما جعل للإنسان الحفظة، فهو يحفظ للقوم نعمته لا يغيرها حتى يغيروا ما بأنفسهم من الخير مثل النيات الصالحة والسلامة من التحاسد وسوء الظن، والمهم ما بهم من الخير فإذا غيروا ما بهم فقد عرضوا نعمتهم للزوال، وفسر هذه الآية قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٍ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ أي أنه تعالى هو الغالب على أمره، وإرادتُه تعالى إرادةُ حكمة وحق وعلم فلا مردّ لما أراده؛ لأنه الغالب على أمره والقاهر فوق عباده، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي من والي من دونه بينهم وبين الله يحول عن تنفيذ إرادة الله ويتولى رعايتهم ونصرهم و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن وَالٍ﴾ لتأكيد النفي.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾ هو الذي يلمع ويرى شعاعه في السحاب، فالله هو الذي يأتي به.

بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ

وقوله تعالى: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أما خوفاً: فالبرق خوف؛ لأنه قد تأتي معه الصاعقة فتُهلك أو تدمر حتى أن بعض من قد أفزعته قد يصير بعدها يفزع إذا رأى أمارات المطر خوفاً من الصواعق، فالبرق خوف لأنه يحدث معه الخوف؛ ولأنه مصدر سبب الخوف أي الصاعقة، وأما طمعاً: فلأن البرق يُطمِع عند لمعانه في المطر لأنه يأتي عنده المطر في كثير من المرات، ونسبته إلى الله لا ينافي نسبته إلى سببه؛ لأن السبب صنع الله فهو خالق الطبائع وما تولد منها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي هو الذي ينشئ السحاب الثقال وهي التي فيها ماء ينزله رزقاً لعباده وسميت ثقالاً لوجود الماء فيها، وإن كان أجزاء يحملها الهواء والريح فهو تعبير عن وجوده في السحاب، ولا شك أن السحاب التي فيها الماء تكون أثقل من السحاب التي لا ماء فيها، ويمكن وصفها بالثقل لعظم قدرها لما فيها من الماء النافع للناس كما وصف القرآن، والعترة بالثقل.

وقال تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ لأن فائدتها في إنشائها ومائها هي الأصل، أما البرق فقال تعالى فيه: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ لأن فائدته في رؤيته؛ لأنه يدعو إلى الإستعداد لنزول المطر بالدخول في البيوت والأكنان ورفع ما في مجرى السيول من المواشي وغيرها، وإرجاع المواشي من مراتعها، وكذلك يدعو البدو إلى نقل أنعامهم من محل الجدب إلى جهة البرق إذا سألوا عنها فأخْبروا بنزول المطر فيها وغير ذلك من الفوائد التي لا نعلمها.

﴿١٣﴾ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي بحمد الله أي تسبيحاً مصحوباً بحمده.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والرعد: الصوت المسموع، وقد روينا عن رسول الله ص أنه قال: ((الرعد وعيد الله ـ عزَّ وجل ـ إذا سمعتموه فأمسكوا عن الذنوب)) والناس يسبحون لَه إذا سمعوه، فنَسبُ التسبيح إلى الرعد مجاز)) انتهى.

هكذا في (المصابيح) ولعل الأصل: وعد الله، أي أنه كالوعد بالمطر، ولذلك يشبه به الوعد، فيقال:

الوعد كالرعد والإيفاء كالمطر

وقوله: ((فأمسكوا عن الذنوب)) أي لئلا تسبب منع المطر، وقوله: فنسب التسبيح ـ كَتْبَةُ (نَسْب) غيرُ واضحة وهي تحتمل (فنسبة التسبيح) ولعله الأصل لرفع كلمة (مجاز) ـ وتسبيح الرعد بحمد الله تذكيره للسامعين بقدرة الله وبنعمة الله سبحانه وتعالى، من حيث أن الله أنشأه مبشراً بالمطر، وفيه فائدة للإستعداد لنزول المطر كالبرق، وأما التسبيح بالقول فالله أعلم، والسياق سياق تعديد آيات الله الدالة على قدرته وعلمه الرادة على الكفار كفرهم المار ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ أي ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يسبحون بحمده ﴿مِنۡ خِيفَتِهِۦ﴾ أي من خيفتهم لله وخوفهم منه؛ وذلك لكمال معرفتهم بالله وكمال إيمانهم بالله وذكرهم هنا لبيان الفرق بينهم وبين الكفار الجاهلين بقدرة الله تعالى على خلقهم بعد الموت خلقاً جديداً فهو مناسب لذكره في الردّ على الكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فهو من الدلائل العجيبة خلقها ناراً شديدة سريعة الإحراق قوية النفوذ سريعة المرور تتوجه

يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ

إلى جهة معينة من الأرض من جبالها أو سهولها، فيصيب الله بها من يشاء إصابته إما في نفسه فيموت أو في بيته فتدمره أو في ماله فيخسر، وإذا لم يشأ الإصابة بها لم تضرّ ومن عَلمه الله طريق السلامة منها فلأن الله لم يشأ إصابته ولذلك عَلَّمه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي في قدرته لجدالهم في قدرته على إعادتهم خلقاً جديداً بعد أن قد صاروا تراباً؛ ولعله أيضاً من الجدال في علمه؛ لأنهم يريدون أنهم قد ضلوا في الأرض، كما حكى الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة:١٠] وعطف ذكر جدالهم في الله على ذكر دلائل قدرته وعلمه؛ ليبين أنهم ضلوا وأن إنكارهم لقدرته مع الدلائل الواضحة شيء عجيب.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ يبين أن ضلالهم وكفرهم ضره على أنفسهم وأنه تعالى يجازيهم جزاء وفاقاً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ معناه: العقوبة والمكر)) انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصفهاني) في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾: أي الأخذ بالعقوبة، انتهى.

وفي (الكشاف): المحال المماحلة وهي: شدة المماكرة والمكايدة ومنه: تَمَحَّلَ لكذا إذا تكلف استعمالَ الحيلة واجتهد فيه، ومَحَل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان، ومنه الحديث: ((ولا تجعله علينا ماحلاً مصدَّقاً)) انتهى المراد، ومثله في (الصحاح).

﴿١٤﴾ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى

ضَلَٰلٍ﴾ ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي له تعالى وحده دعاء الداعي الذي هو الدعاء الحق؛ لأنه الدعاء النافع؛ ولأنه من العبد لمالكه المستحق للعبادة بالدعاء وبغيره، فهو الحق والدعوة الواحدة من العبد لله هي الحق، ودعوة العبد لغير الله باطل والدعاء هنا بمعنى طلب الحاجة مثلاً بواسطة النداء، قال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان:٥٥] ولذلك استعمل في طلب النفس للحاجة، قال:

دعاني إليها القلب إني لأمره سميع فما أدري أرشد طلابها

فأما مجرد لفظ النداء بدون طلب، فليس من معنى الآية، بل وإن كان معه صورة الطلب وليس المقصود الطلب، كقول الخنساء:

يا عين جودي بالدمو ع المستهلات السوافح

وقول الآخر:

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف

فأما دعاء الميت فما كان لطلب حاجة من المدعوّ لا يقدر عليها إلا الله فهو شرك، ومثله دعاء المخلوق الغائب إذا كان الطلب جدّاً لا هزلاً، وما كان لطلب حاجة من جنس مقدور المخلوق فهو جهل وباطل وليس من الشرك، ما لم يصحبه اعتقاد القدرة الخارقة، أو اعتقاد علم الغيب العام لكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ فالضمير في يدعون للذين كفروا، والمراد بالذين يدعونهم أصنامهم وأوثانهم ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُمۡ﴾ دعاءهم ﴿بِشَيۡءٍ﴾ مما يطلبون منهم كنصرهم على أعدائهم وشفاء مرضاهم وغير ذلك مما يطلبون منهم.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ﴾ استثناء من ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ﴾ منقطع أي لكن كاستجابة الماء لباسط كفيه إليه ﴿لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ بمجرد بسطه يديه إليه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي وما الماء ببالغ فاه لذلك البسط، فمثله دعاء الكافرين لشركائهم في أنه طلبٌ لا فائدةَ فيه ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ ضلال عن الحق والرشاد وغواية عن طريق الخير والصواب فهو في ضياع وبطلان لا يستفيدون به إلا العذاب ومعنى (من دون الله) أنهم اتخذوهم أقرب إليهم من الله لطلب حاجتهم منهم وسماعهم لدعائهم واستجابتهم لدعائهم جهلاً وضلالاً وشركاً بالله الذي هو ربهم الحق.

ويحتمل: أن معنى ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾: أي في ضياع؛ لأنه لا يستجاب وعلى هذا يكون عاماً لدعائهم لشركائهم ودعائهم لله في حال شركهم وكفرهم بالله ولا يستثنى من ذلك إلا دعوتهم لله عند الإضطرار؛ لأنهم عند ذلك مخلصون غير كافرين بقدرة الله وعلمه، وقد جاء في أهل النار ودعائهم لله ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ وذلك في آية [٥٠ من سورة غافر] وهو يُقرّب إلى أن دعاءَهم في ضلال في الدنيا والآخرة وإن دعوا الله في غير حالة الإضطرار.

﴿١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾ العطف على ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أو ما بعده، ولله وحده يسجد يخضع وينقاد لصنعه فيهم من في السموات والأرض ﴿طَوۡعٗا﴾ وهو خضوع الملائكة والصالحين من أهل الأرض بعبادتهم لَه تعالى.

يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ

﴿وَكَرْهًا﴾ وهو استسلام المخلوقين لقضائه وتصرفه فيهم؛ لأنه الغالب على أمره فله لذلك دعوة الحق؛ لأنه القادر على إجابة الدعاء وإعطاء المطلوب لا من يدعوهم المشركون.

وقوله تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ لعل الضمير لمن في الأرض فهو المتصرف في الظلال ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أوائل النهار بعد شروق الشمس ﴿وَٱلْءَاصَالِ﴾ أواخر النهار قيل: من بعد العصر إلى الغروب، فبتصرفه تعالى في الأرض والشمس تكون الظلال أول النهار إلى جهة وآخر النهار إلى جهة، وأيضاً في الصيف إلى جهة وفي الشتاء إلى جهة أخرى فظلالهم منقاد لله يحوله كيف يشاء.

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ ﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ المالك لهن؟ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: اللهُ هو رب السموات والأرض، وهذا لا ينكره المشركون من العرب الذين كانوا في وقت رسول الله ص فإذا كانوا يقرّون بذلك فكيف اتخذوا من دونه شركاء لا يقدرون على نفعهم ولا ضرهم؟ بل لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكونه لغيرهم ؟

وقوله: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ يحتمل معنى أرباباً مالكين لكم ويحتمل ولاةً لشؤونكم ولرعايتكم مع أنهم لا يستطيعون ذلك وذلك ضلال بيِّن حيث عدلوا عن

عبادة رب السموات والأرض القادر على كل شيء إلى عبادة من هو عاجز عن خلقهم ورزقهم وتولي رعايتهم.

﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ حيث رضيتم لأنفسكم بالعمى عن الهدى والحق ولَم تبالوا بذلك مع وجود الرسول الداعي لكم إلى الهدى، كأنه لا فرق بين العمى والإبصار ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ حيث اخترتم ظلمات الجهل على نور العلم بالله، ورسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والعلم بسبيل النجاة من عذاب الله، والفوز برحمته وفضله؛ وذلك لأنكم كفرتم بالله وبرسوله وكتابه ورضيتم لأنفسكم بالبقاء في ظلمات الجهل والباطل، كأنه لا فرق بين الظلمات والنور، وقوله: ﴿أَمۡ هَلۡ﴾ إضراب عن السؤال الأول للإنتقال عنه إلى السؤال الثاني كأنه قيل: بل هل تستوي الظلمات والنور.

وقوله تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فلم يدروا أين خلق الله وأين خلق شركائهم؟ وهذا انتقال إلى السؤال الثالث للإحتجاج عليهم فهم مقرّون أن الله الذي خلق السموات والأرض وخلقهم وخلق رزقهم، وأنه لا خالق غير الله خَلَق كخلق الله، وحينئذ قررهم بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ وذلك يذكّرهم أنه ليس من يخلق كمن لا يخلق وأنهم في اتخاذهم أولياء من دونه قد ضلوا ضلالاً مبيناً، وقوله ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ تنبيه على أنه لا يقاس به شركاءهم المتعددون.

وقوله: ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ﴾ تنبيه على أن رحمته وعذابه لا يردهما شركاؤهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر:٣٨] تذكير لهم

ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ

بأن شركاءهم لا يستطيعون أن يردّوا عن العابدين لهم عذاب الله كما لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً بل الله هو القاهر فوقهم وفوق شركائهم، وقوله: ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ بصيغة المبالغة تذكير لهم بقهره تعالى للأمم الماضين وقصمه لجبابرة الأولين، ليحذروا قهره لهم.

﴿١٧﴾ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وفي هذا تذكير بقدرته تعالى ونعمته على عباده مع كونه ابتداء للمثل الآتي في الآية، وقوله تعالى ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ والأودية هي مجاري الماء العظيمة يجتمع إليها من الصبابات ﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي بقدر الأودية بما قدر لها من الماء باعتبار تقدير المطر في الغزارة والكثرة وفي خلاف ذلك، وباعتبار سعة الصبابات وضيقها، وباعتبار قوة مرور الماء لانحدار الوادي كثيراً أو خلاف ذلك، وباعتبار سعة الوادي وضيقه، فالأودية تختلف في ذلك كله بما قدر لها من الأسباب ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا﴾ لقوة مرور الماء وتلاطم أمواجه يعلوه الزبد الجافي الذي يتخلله الهواء ﴿رَّابِيٗا﴾ منتفخاً بما يتخلله من الهواء ولتراكم بعضه على بعض وعلوه على الماء.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ كالذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ ما ينتفع به من الآنية والآلات كالحديد والنحاس وغيرهما يوقد عليه لذلك الغرض وما ينتفع به من الماء والإدام فكل ذلك متاع إذا غلا كان منه الزبد مثل زبد الماء في قلة نفعه وكونه غير مطلوب ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ يجعل الله كذلك ويطبع الحق والباطل فيثبت الحق ويزهق الباطل، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١] فالمثل مأخوذ من كاف التشبيه لا من الضرب.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ﴾ ينعزل عن الماء أو يذهب يتلف ﴿جُفَآءً﴾ أي يذهب حال كونه جفاءً مرميّاً به متروكاً ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من ماء الوادي ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيبقى في الأرض لينتفع به الناس للشرب وسقي الدواب ولصلاح الأشجار والزروع.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ كذلك التمثيل للحق والباطل بالماء والزبد الذي يذهب جفاء يضرب الله الأمثال في القرآن وغيره من وحيه لما في التمثيل من الفائدة لفهم المراد كما يأتي من تمثيل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة، فكذلك يطبع الحق بجعل طبعه الصلاح للثبات والإستمرار لمناسبته لطبع الكون وصلاح العالم ويجعل طبع الباطل الإستعداد للزهوق بتهيئة أسباب زهوقه ونفار الطباع السليمة منه، فهو بذلك كالمطبوع على الزهوق؛ ولأن معناه الفساد والإفساد.

هذا وقد فسر الأكثر قوله تعالى: ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي يمثل الحق والباطل ولعله يتحصل معناه: كذلك يمثل الله الحق والباطل، فيخرج الكلام عن بيان كون الماء والزبد مثلاً للحق والباطل إلى بيان أن الله يمثل الحق والباطل بمثل الماء والزبد ـ والله أعلم.

ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

﴿١٨﴾ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ **﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ لدعوته لعباده إلى عبادته وتقواه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي لهم الفائدة الحسنى أو الحالة الحسنى، فلهم في الدنيا حياة طيبة وذكر حسن ووصف جميل ولهم في الآخرة الأمن والثواب العظيم، وكأن هذ راجع إلى قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ كالتفسير للفرق بين المؤمن والعاصي.**

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي لم يستجيبوا لربهم بل أعرضوا عن دعوته لهم وعصوا أمره سيندمون ندامة لا يعادلها ما نالوا في الدنيا وآثروه على الآخرة، بل ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾ يوم القيامة ﴿مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ أي لطلبوا أن يقبل منهم فدية لهم من سوء مصيرهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ لما فيه من ذكر فضائحهم وتخزيتهم وتبكيتهم وكونه مقدمة للأمر بهم إلى النار ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ الذي يأوون إليه ويصيرون ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي هي الجزاء لهم بما فيها من العذاب الدائم فكيف لا يتمنون أن يفتدوا من ذلك ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي مهاد ذميم على أهله وكأن تسميتها مهاداً لهم مشاكلة تقديرية؛ لأنها صارت لهم بدلاً من المهاد الذي يمهد للإنسان للنوم عليه وللصبي ليحفظ فيه.

أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ

قال الراغب في (مفرداته): ((والمهاد: المكان الممَهَّد الموطأ)) انتهى. وقال في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه:٥٣] و﴿..مِهَادًا﴾ [النبأ:٦]: وذلك مثل قوله: ﴿الأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة:٢٢])) انتهى.

﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ ﴿أَفَمَن﴾ تفريع على بيان الفرق بين الذين استجابوا لربهم والذين لم يستجيبوا، أي فإذا كان الفرق بينهما ما ذكر فهل يستوي من يعلم أن ما أنزل الله على رسوله هو الحق ومن هو جاهل بذلك أعمى البصيرة فهو لا يستجيب لربه؛ لأنه غير مؤمن بدعوته لعباده فيما أنزل على رسوله من القرآن وسائر الوحي، وأكد هذا بجعل الكلام في صورة السؤال بهمزة الإنكار في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ لأن الفرق واضح لأهل العقول معلوم عندهم إذا استعملوا عقولهم.

فكأنه قيل: كيف يكون مَن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى البصيرة جاهل معرض متمرد؟ فهو كالأعمى الذي لا يهتدي لطريق.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي الذين يستعملون ألبابهم، واللب عبارة عن العقل كأن قلب الجاهل الذي لا يستعمل عقله فارغ لا لبَّ فيه، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩] ثم بيّن تعالى المراد بـ(أُولي الألباب) فيما يلي من الآيات:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي بما عاهدوا الله عليه أو بعهد الله الذي أقسموا به وجعلوا على

وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ

أنفهسم الوفاء به بقول قائلهم عليَّ عهد الله أو بأي قسم يقسم به لغيره بالله ليثق به في صلح أو غيره، قال تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة:١٢] فإضافته إلى الله على هذا المعنى لأنه موثق منه جعله لعباده ولأن المعاهد قد جعل اللهَ كفيلاً عليه فكان الوفاء حقّاً لله عليه يوجب عليه رعاية العهد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل:٩١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ نقض الميثاق ترك الوفاء به وهو النكث كأن الموْثق عقدة بين المعاهِد ومن أعطاه العهد فإذا ألغاه ورفضه كان كأنه نقض العقدة، أو كالحبل المفتول القوي ونكثه كإرجاع الحبل إلى أصله ونقض فتله. قال الراغب في (المفردات): ((ومن نقض الحبل والعِقد استعير نقض العهد)) انتهى.

﴿٢١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ وصل العلاقة تجديدها بالإحسان أو بالحضور لصاحبها أو برعايتها بأي طريقة، والعلاقة تكون بالرحامة، وتكون بالمودة، وتكون بالعهد على الإخاء ونحوه وغير ذلك، وفي (معلقة لبيد) إحدى (المعلقات السبع):

أولَـم تكـن تدري نوار بأنني وصَّـال عقد حبائل جَذَّامُها

قال في (شرح الزوزني) عليها: ((الحبائل: جمع الحُبالة، وهي مستعارة للعهد والمودةِ هنا، الْجَذْمُ: القطع ـ ثم قال الشارح ـ : فقال: أولم تكن تعلم نوار إني وصّال عقد العهود والمودّات وقطّاعها، يريد أنه يصل من استحق الصِّلة ويقطع من يستحق القطيعة)) انتهى.

فظهر: أنهم جعلوا العلاقة بمنزلة الحبل، ورعايتها وصل، وإهمالها قطع، ومن العلاقة علاقة العبد بربه، ولذلك جاء في الحديث: ((وصِلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكره..)) الحديث.

ومن العلاقة: علاقة الأمة برسولها فاتباعها إياه وطاعته وصل، ومعصيته قطع، ومن العلاقة: علاقة الأمة بإمامها الذي تجب عليها طاعته ونصرته، ومن العلاقة: علاقة المؤمن بالصادقين الذين وجب عليه الكون معهم، ومنها: علاقته بالمؤمنين الذين تجب عليه موالاتهم؛ ولذلك جاء في الحديث: ((أفشوا السلام بينكم، وتواصلوا)).

فأما ما أمر الله بوصله فيرجع فيه إلى الأدلة السمعية، كقوله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩] وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾ [النساء:١] وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء:٣٦] وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ..﴾ الآية [محمد:٢٢-٢٣] وقول رسول الله ص: ((اللهم وال من والاه، وعادِ من عاداه)) وقوله ص: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي..)) الحديث.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): الذي أمر الله بوصله النبي ص والأئمة من ولدهم [كذا] لأن قطعهم كفر وضلال)) انتهى.

وقال الشرفي ـ أيضاً ـ: ((قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة × في (الشافي): ((إن المراد بذلك ولاء آل محمد ـ عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام ـ وإنما قلنا ذلك؛ لأن السعادة تثبت بثبات ولائهم عليهم السلام وتزول بزواله..)) إلخ كلامه.

لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ

قلت: الراجح العموم لكل ما أمر الله بوصله.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قال الراغب في (مفرداته): ((الخشية: خوف يشوبُه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ أي ليتقوا أسباب سوء الحساب أي شدته وما فيه من المناقشة والتوبيخ والسؤال عن كل كبير وصغير وغير ذلك مما يسوء العبد المحاسبة لأجله.

﴿٢٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ أي على ما تكره النفوس من الطاعة والبلاء ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي ابتغاء رضوانه؛ لأن الراضي يقبل بوجهه كما أن الساخط يعرض، وقال إخوة يوسف: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ جعلوها صلاة قيِّمةً كاملة بإخلاصها وخشوعها مع تمام شروطها وأركانها وهذا من خواص المؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كذلك من شأن المؤمنين طلباً لرضوان الله وتثبيتاً من أنفسهم ينفقون من الحلال ﴿سِرًّا﴾ حيث ينبغي إخفاء الصدقة ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ حيث ينبغي إعلانها للقدوة، والواجب من الإنفاق قد ينبغي إعلانه تجنباً للتهمة.

ومن الإنفاق ما ذكره الله في (سورة البقرة) في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [آية:١٧٧] ومنه الإنفاق في سبيل الله لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ..﴾ [البقرة:١٩٥] والآية التي نحن في تفسيرها لم تعين المصارف، والتعيين في غيرها وما نزل بعدها من الزكاة والإنفاق في سبيل الله يصدق عليه إطلاقها، وهو من تطبيقها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بالحسنة وهي خصلة من خصال الإحسان ومكارم الأخلاق يدفعون بها السيئة، أي سيئة من يسيء إليهم لو لم يحسنوا إليه، وقد تكرر في القرآن الكريم الحث على هذا لأهميته وعظم فائدته وكثرة ثوابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿أُوْلَئِكَ﴾ أهل الصفات المذكورة من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ..﴾ ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي الدار الآخرة والدار الآخرة هي الجنة ـ وعقباها: عاقبتها وهي ما جعل الله لأوليائه فيها من النعيم الدائم والملك الكبير الذي هو عاقبة المتقين، أو المراد العقبى التي هي الدار الآخرة، كما قال تعالى ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ ويحتمل ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ العاقبة التي أدتهم إليها الدار الدنيا.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾: أي عقبى دار الدنيا وهي الجنة؛ لأنها هي الدار التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا)) انتهى المراد، ومثله في (الكشاف) و(الميزان).

ودار الدنيا: دار الحياة الدنيا، وهي الأرض في حق البشر، والسماء في حق الملائكة، والراجح عندي الأول، سواء كانت الإضافة على معنى (في) أو على معنى (اللام) من إضافة الصفة إلى الموصوف.

عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿٢٣﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بيان لعقبى الدار، ومعنى جنات عدن في (تفسير القاسم ×) لـ(سورة لم يكن) قال: ((وتأويل ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ هو جنات مستقرٍّ وأمن))، انتهى.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾ والصالح: ضد الفاسد، فالصالح هو المؤمن المتقي لله؛ لأنه طيب غير خبيث وسليم من عيب المعاصي المهلكة، وقوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ يعم الأجداد الصالحين مع الآباء الأقربين ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ يدخل فيه الصالحات من الأمهات إذا كان أزواجهن من الصالحين، وقوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يعم الذرية ما تناسلوا، وهذا ترغيب باجتماعهم في الجنة، وفيه دلالة على بقاء اعتبار النسب في حق الصالحين كما تبقى الخُلة في حقهم، فهو مخصص لعموم قول الله تعالى: ﴿فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون:١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي لتكريمهم بزيارتهم وللسلام عليهم كما بينه قوله تعالى:

﴿٢٤﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي يقول لهم الملائكة ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ وهي تحية لهم وتكريم، وقولهم: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي نسلم عليكم بسبب صبركم في الدنيا على طاعة الله وبلائه ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ مدح لعاقبة الصبر التي صاروا إليها في الدار الآخرة التي هي عقبى الذين اتقوا، أو فنعم عاقبة الأرض التي كنتم فيها في الحياة الدنيا.

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ ﴿يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ **ينكثون أيمانهم ويحنثون فيها** ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ **من بعد أن وثقوا العهد وأحكموه وقوّوه، أو من بعد أن جعلوا العهد ميثاقاً لمن عاهدوه يثق بما عاهدوا عليه من أجل العهد ويركن إليه فبعد ذلك ينقضونه غدراً وخيانة** ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ **وهي العلائق التي كانت بسبب من الأسباب التي مر ذكرها والتي أمر الله أن توصل كالأرحام والوالدين والصادقين.**

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أبو الفتح الديلمي ـ وهو مؤلف (البرهان) ـ × : «﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾: هم الذين لا يوجبون محبة آل محمد صلوات الله [عليه و] عليهم، وينكرون فضلهم» انتهى المراد.

والقطع يكون بالهجر ويكون بالمباينة والمعاداة، وقطع علاقة العبد بربه: معصيته، والإصرار، والتمرد، وقطع علاقته بالرسول: الكفر، والنفاق، وبالإمام: رفضه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ينشرون الباطل في الأرض بالدعوة إليه والترغيب فيه، أو بالقوة والإرهاب، ومن ذلك مدارس أهل الباطل ومعاهدهم، ومن الفساد في الأرض: نشر الهلاك والدمار، كما فعلت التتار، وكما تفعل أمريكا وإسرائيل اليوم، ومن الفساد في الأرض: الجدال في آيات الله ونشر الشبه.

وقوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفات ﴿لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذاب الدار التي هي دار الفاسقين وهي جهنم، أو سوء الدار سوء المستقر الذين سيكون لهم داراً وهو جهنم، فالفرق أن الدار في الأول مفهومها جهنم، وفي الثاني مفهومها مبهم ومصداقه جهنم، كما لو قيل: سوء المستقر.

﴿٢٦﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ هذا إبطال لدعوى الكفار الذين بسط الله لهم الرزق حيث فرحوا بما أوتوا من الرزق وظنوا أن حظهم وما يسمى اليوم (بختهم) جيد وأنهم إن رجعوا إلى الله من بعد الموت، فسيكون لهم في الآخرة مثل ما نالوا في الدنيا لأن حظهم جيد في ظنهم، فجعلوا ما نالوا من الرزق كالأمر الطبيعي.

فبيَّن الله أن الذي أوتوه من الرزق إنما هو من الله يبلوهم به، ولو شاء لقدر عليهم الرزق لأن الله هو ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ويقدر فقد اغتروا بنعمة الله عليهم، وبعض الكفار يظن أن الله يعطيه لأنه يحبه، فهو يعتقد أنه إن رجع إليه بعد الموت فله عنده الحسنى؛ لأن الله يحبه لغير عمل، وإنما يستدل على حبه إياه بتوسيع الرزق له، وبعضهم يعتقد أن سبب كثرة رزقه علمه بطرق الكسب وهذه الآية رد عليهم، وبيان أنه هو الذي يبسط الرزق لهم ولو قدر عليهم لأعيتهم الطرق إلى الرزق، كما قال الشاعر:

كم عالمٍ عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

وقد يكون الرجل البصير في التجارة أو غيرها غنياً مدة من الزمان ثم يصير فقيراً، وهو ذلك البصير بعينه، فالله هو الذي جعل الأسباب أسباباً وهيّأها لمن أراد، وزواها عمن أراد، وتقديرُ الرزق تقليلُه بقدْرٍ تقتضيه الحكمة.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا

وقوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي الكفار سرَّتهم هذه الحياة واطمأنوا إليها فجعلوها أكبر همهم ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي بالنسبة إلى الحياة الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ إلا بُلْغَةٌ قصيرة الأمد.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : ((معنى ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ أي ما هي مع الآخرة إلا متاع إذا ذكرت معها، فقامت (في) مقام (مع) ومعنى ﴿مَتَٰعٞ﴾ أي بُلغة ومتعة إلى حين الموت ولا سلامة لأحد فيها من الفوت، وكل شيء بلّغ المَحَلّ قيل متع صاحبه إلى محل كذا وكذا)) انتهى.

وهذا لأن الآخرة دائمة لا نهاية لها أبداً، والدنيا مؤقتة محدودة فانية، فالمؤقت المنتهى بالنسبة إلى الدائم قليل جداً؛ لأنها لو قوبلت كل ساعة من ساعات العمر بمليون سنة من مدة الآخرة لانتهت ساعات العمر ولم يقابل الخلود شيء منها بعد الملايين المذكورة، فالحياة الدنيا لا تستحق أن يفرح بها الإنسان بل تستحق أن يحذر من الإ غترار بها.

٢٧ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ يريدون إن كان محمد رسولاً فلولا أنزل عليه ﴿ءَايَةٞ﴾ أي فهلاَّ أنزل عليه آية ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهذا منهم كفر برسالته وكفر بآيات الله يزعمون أنها ليست آيات وهم يسمعون هذا القرآن العظيم الخارق للعادة في حكمته وإحكامه، ومع ذلك يقولون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ﴾ وذلك التمرد والعناد والجدال في آيات الله استحقوا به أن يضلهم الله سبحانه بخذلانهم وإرسال الشياطين عليهم؛ فلذلك قال تعالى:

بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ

﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ فتكذيبكم بآيات الله ضلال وسبب للإضلال عقوبة لكم ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ﴾ فلا تضلونه بكفركم وجدالكم في آيات الله، ومعنى ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ مَن رجع إلى الله فالإنابة سبب للهدى، كما أن الجدال في آيات الله سبب للضلال.

﴿٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ هذا تفسير لـ﴿مَنۡ أَنَابَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتَطۡمَئِنُّ﴾ أي تسكن ويذهب عنها الإضطراب والقلق يذهب ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي ذكره بقلوبهم؛ لأنهم يذكرون أنه الرازق، وأنه الكافي لمن توكل عليه، وأنه مجيب دعوة الداعي، وأنه يثيبهم على ما عملوا من خير ويعوضهم بما أصبهم من ضر، وأنه لا يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأنه الرحيم بعباده فما أصابهم من فقر أو مرض أو غير ذلك من البلاء فهو خير لهم في العقبى، ونحو ذلك من الإطمئنان الذي سببه معرفة الله وذكره بالقلوب.

وقوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ تنبيه لمن غفل عن ذكر الله أنها بـذكر الله ﴿تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ إرشاداً إلى ذكر الله وحثاً عليه.

﴿٢٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ﴾ ﴿طُوبَىٰ﴾ حياة طوبى، كقوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَالِحًا مِنۡ ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ﴾ [النحل:٩٧] و(طوبى): مؤنث أطيب، مثل (حسنى) تأنيث أحسن.

أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي سرور لهم، والطوبى: هو السرور، وطيب الحياة والحبور)) انتهى المراد، وكأنه أرجع طوبى إلى طيب النفوس، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء:٤].

والراجح: أنه وصف للحياة أو العيشة أو نحوهما، كما قال: ﴿حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] وكيف لا تطيب حياة من هو مطمئن القلب بذكر الله متوكل على الله راضٍ بما كتبه الله قانع بما رزقه الله كما هو شأن المؤمن الكامل الإيمان؟

وقوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي حسن مرجع يؤوب إليه يوم القيامة فاجتمع لهم خير الدنيا والآخرة.

قال في (الصحاح): ((وطوبى: فُعْلَى من الطيب قلبوا الياء واواً للضمة قبلها، وتقول: طوبى لك، وطوباك بالإضافة ـ ثم قال ـ : وطوبى اسم شجرة في الجنة)) انتهى.

قلت: شجرة طوبى داخلة في حسن المئآب، فإن صح عن النبي ص تفسيرها في الآية بشجرة طوبى تعين، ولعل الأقرب: أنه بيان لبعض مصداق طوبى، فيكون مفيداً لطيب حياتهم في الدنيا والآخرة ـ والله أعلم.

﴿٣٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي أرسلناك به من هذه السورة وتلوته عليهم وفيه البيان الكافي لآيات الله الدالة على قدرته، وعلى أن هذا القرآن من الله، وعلى

ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ

صدقك في كل ما جئت به ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ بما أوحينا إليك كله لتتلو عليهم القرآن وقد خلت من قبلهم أمم فيهم عبرة لهم وتذكير بعقوبة التكذيب بآيات الله ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك كله ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الذي يدعوهم إلى رحمته والنجاة من عذابه فيزعمون أنه لا يقدر على تجديد خلقهم بعد أن يصيروا في القبور تراباً وعظاماً.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الرحمن ربي المالك لي؛ لأنه خلقني ورزقني ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ لأنه المتولي لأمري وأنا أرضى بما كتب لي ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ في الآخرة أي مرجعي ـ والمآب والمتاب واحد في المعنى ـ فأنا أؤمن بتوحيده وصدق وعده بالبعث من القبور والرجوع إليه في الآخرة وحده، وأنا بريء مما أنتم عليه من الشرك والتكذيب بالآخرة والكفر بالرحمن وتكذيب رسله فقد جئتكم بهذا القرآن حجةً عليكم ودليلاً على صدقي.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ..﴾ الآية، وهو في كفار مخصوصين قد تمردوا وبعدوا عن الإيمان وخذلوا

واستحوذ عليهم الشيطان، فقد كان يكفيهم آية هذا القرآن، لكنهم ضلوا فقالوا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ جحداً منهم لكون هذا القرآن آية.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقوته وعظمته وشدة خرقه للعادة لما آمنوا به، كقوله تعالى ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام:١٠٩-١١٠] وذلك أنه لم يبقَ عندهم صلاحية للإيمان فالسببُ في كفرهم ضلالهم، لا عدم الآية، فقد جاءهم القرآن وهو يكفي للإيمان لو كان عندهم إنصاف.

وقوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ فهو الذي تركهم في ضلالهم يعمهون لأنه أراد بحكمته أن يتركهم وما اختاروا لأنفسهم ولم يُعصَ مغلوباً ولو شاء لهداهم أجمعين.

﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أفلم يعلم ويتبيَّن، وهي لغة النَّخَع)) انتهى المراد.

وقال الراغب في (تفسيره): ((وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ قيل: معناه: أفلم يعلموا، ولم يُرد أن اليأس موضوع في كلامهم للعلم، وإنما قصد أنّ يأسَ الذين آمنوا من ذلك يقتضي أن يحصل بعد العلم بانتفاء ذلك، فإذاً ثبوت يأسهم يقتضي ثبوتَ حصول علمهم)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((ويئِسَ ـ أيضاً ـ بمعنى عَلِم في لغة النَّخَع، قال سحيم بن وَثِيل اليربوعي:

أقول لهم بالشِّعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ انتهى.

ونحوه في (لسان العرب) إلا أنه في تفسير الآية، حكاه عن (صاحب الصحاح). وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يريد تعالى التقرير لهم أي: ألم يوقِنِ الذين آمنوا، واليأسُ هاهنا هو اليقين، قال الشاعر:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنُهُ وإن كنت عن دار العشيرة نائيا

أي [أ]لم يوقنوا، وقال آخر:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني حريث بن جابر))

انتهى. قال في (لسان العرب): ((ويُروَى: يأسرونني من الأسْر، وذكر للبيت رواية ثالثة:

أقول لأهل الشعب إذ ييسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس لازم))

انتهى المراد.

وقد اتفقت روايات هذا البيت في إثبات الشاهد منه، وقال في (لسان العرب): ((في سحيم، وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم، بدليل قوله: أني ابن فارس زهدم، وزهدم فرس سحيم)) انتهى.

قلت: فلعل حريث بن جابر ابنه المذكور في رواية الحسين بن القاسم × ، وذكر الطبري في تفسيره البيت:

ألم ييأس الأقوام أني أنا ابنه وإن كنت عن أرض العشيرة نائياً

فتحصل: أن المعنى: أفلم يتبيَّن ويعلم الذين آمنوا سواء كان (ييأس) مفهومها يتبين ويعلم، أم كان كناية عن العلم كما قدَّمتُ عن الراغب الأصبهاني أي: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله أن يهدي الناس جميعاً

على أي حال لهداهم، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء:٣-٤] ولكنه سبحانه أراد أن لا يُلجأهم الجاء، بل يتركهم يختارون ما شاءوا من إيمان أو كفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾ أي لا يزالون في الدنيا تصيبهم بجرائمهم مصيبة عقوبة لهم، وسميت قارعة تشبيهاً لها بما يضربهم ضرباً لينتبهوا من غفلتهم عن الله والقارعة ما يصيبهم من مصائب الدنيا مثل الأمراض والخوف ونقص الثمرات وتسليط أعدائهم عليهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ أي أو تحل قارعة قريباً من دارهم أي: أو تنزل في مكان قريب من دار الذين كفروا بمن هو مثلهم في الكفر، فهو عبرة لهم، وربما لحقهم أثر تلك المصيبة كفوات بعض حاجاتهم التي كانوا من قبل ينالون من ذلك المكان ففاتهم بسبب هلاك أهله أو ذهاب ثمره أو شرَّد أهل ذلك المكان الخوف إلى هؤلاء الذين لم تلحقهم المصيبة فثقَّلوا عليهم وضيَّقوا حالهم بكثرتهم مع فقرهم كما هو معروف من كثرة اللاجئين.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ الموت أو البعث الذي جحدوه، ويحتمل: أن المراد بالذين كفروا هنا، هم الذين ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ..﴾ الآية، الذي كذبوا رسول الله ص وكذبوا بالآيات التي جاء بها و﴿وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ وعده لرسوله ص بالنصر عليهم وإظهار دينه وإزالة الشرك والكفر من دارهم بفتح بلادهم للمسلمين التي هي مكة وما حولها.

فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ يعم الوعد بإظهار دينه والوعد بالآخرة والجزاء لكل نفس بما كسبت ووعدهم بأنها لا تزال تصبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم، وهذا المعنى الأخير قريب يؤكده اتباع هذه الآية بقوله تعالى:

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي ولقد كذب رسل من قبلك واستهزأ بهم قومُهم إفراطاً في تكذيبهم، والإستهزاء أن يقولوا كلاماً موافقاً وهم غير جادِّين فيه بل مستخفُّون بالرسول كلو أوعدوه بالإيمان وهم مصرون على كفرهم، وكقول المنافقين: ﴿آمنَّا﴾وهم غير جادين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي أمهلتهم إلى أجل محدود ولم أعاجلهم بالعقاب على كفرهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أهلكتهم بالعذاب، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي فكيف كان عقابي لهم حين أخذتهم، فقد ظهر كيف كان بما بلغ الناس من خبر عقاب الله لقوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون وقومه.

﴿٣٣﴾ ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ

لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ متولّ عليها معامل لها بما هي أهله من الخير أو الشر بسبب ما كسبت من طاعة أو معصيته يعاملها في الدنيا والآخرة لإحاطة علمه بكل نفس وقدرته على معاملتها بما هي أهله وعلمه بكل صغيرة وكبيرة من عملها، فهو الذي ينبغي أن يتقيه عباده ويرجوا رحمته وثوابه ويخافوا عذابه ومع ذلك فهم يجعلون له أنداداً أحجاراً منصوبة وتماثيل مصنوعة لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع، وتقدير الكلام على هذا: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت جعلوا شركاءهم أنداداً له، مع أنهم لا يصلحون أن يجعلوا أنداداً للحيوان، فضلاً عن أن يُجعَلوا أنداداً للحي القيوم.

ويحتمل التقدير بعد قوله تعالى: ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ تجرّأوا على الكفر به وجعل الأنداد لَه والتكذيب لرسله والجحد بآياته والجدال فيها مع أنهم أحوج إلى تقواه ومراقبته في كل أمورهم؛ لأنه قائمٌ على كل نفس بما كسبت، وهذا عندي أقرب من الأول؛ لقوله تعالى ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي تمرّدوا وتجرؤا عليه وجعلوا له شركاء وهو الله الذي له الأسماء الحسنى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي سموا شركاءكم، فإنهم يسمونهم تسمية الأنثى، فقد كان ينبغي لهم أن يستحيوا من جعلهم شركاء وهم إناث عندهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا﴾ [النساء:١١٧] وهم يكرهون البنات لأنفسهم ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف:١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سؤال تقريعٍ لهم وتوبيخ على قولهم إن أصنامهم شركاء لله وتجهيل لهم وإبطال لها بطريقة أنها لو كانت شركاء حقاً لعلمها الله شركاء له لكنه لا يعلم في الأرض شريكاً له، أفتعلمون ما لا يعلم وتخبرونه بما لا يعلم؟ وهذا إنكار عليهم وتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُۥ﴾ بمعنى بل أتنبئونه إضرابٌ عن قوله سموهم إلى ما هو أبلغ في الرد على المشركين للترقي في الجواب، وقوله تعالى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي أم بسلطان من القول غالب وذلك لا يكون إلا كتاب منزل من الله أو معلوم علم اليقين من وحي الله جعله الله سلطاناً لكم غالباً لمن خالفكم، وهذا إضراب للترقي إلى ما هو واضح للمشركين لا يدّعونه، وإنما ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٣] وهذه الآية احتجاج مزعزع يحرك الضمائر ويوقض الغافل، لو كان بقي لهم ضمير وشيء من الإنصاف.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي قد وضح السبيل القاصد الحق وتبين الصواب فلم يتركوه لخفاء الحجة عليهم بل زُيِّن لهم مكرهم ضد الحق واستحسنوه لأنهم كارهون للحق فأعجبهم ما تخيروه من الإحتيال لإبطاله.

مثال ذلك: مكرهم حين اجتمعوا للتشاور على ما هو الرأي أن يقولوا في محمد ليقولوا فيه كلاماً يتفقون عليه ولا تختلف أقوالهم، فتخيروا أن يقولوا: ﴿سَاحِرٌ﴾ [ص:٤] فأعجبهم ذلك وزينه الشيطان لهم، والأولى: أنه عام لكل مكايدتهم ضد الحق كتكذيبهم بالقرآن، وقولهم: ﴿شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥] وقولهم:

ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ

﴿مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٞ﴾ [الدخان:١٤] وقولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ [النحل:١٠٣] واحتيالهم لإبطال أمر الرسول بغير ذلك مثل شكواهم عند أبي طالب ليمنعه من الكلام في شركائهم وفي شركهم لأن قوله تعالى: ﴿مَكۡرُهُمۡ﴾ عامّ لمكرهم كله.

وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أما على قراءة [فتح الصاد] فالمعنى أنهم صَدُّوا غيرهم فخذلوا بسبب مكرهم وصدهم لمن صدوه من الناس؛ لأنهم بمكايدتهم للرسول وما جاء به استحقوا الخذلان فأصروا على شركهم ولم يقبلوا أي حجة، وأما على قراءة [ضم الصاد] فالمعنى أن الشيطان صدَّهم عن السبيل بسبب أن الله خذلهم وأرسل عليهم الشياطين تؤزهم أزاً؛ فلذلك لم يقبلوا الحق والهدى.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ فهو يشير إلى أن الله أضلهم بخذلانهم الذي استحقوه بمكرهم حتى زُين لهم كيدهم وحتى صدوا عن السبيل، فقوله تعالى: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تعبير عن إضلالهم بالخذلان الذي ترتب عليه تزيين مكرهم لهم وصدهم عن السبيل على قراءة [فتح الصاد]؛ لأن إمعانهم في الكفر حتى صدوا غيرهم هو بسبب الخذلان و[على قراءة ضمها] فهو الإضلال الذي هو نتيجة الخذلان زين لهم ﴿وَصُدُّواْ﴾ [بضم الصاد] وذلك لاستحقاقهم الخذلان بمحاربتهم لدين الله، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ أي ماله هادٍ يهديه غيرُ الله، والله لم يهده فلم يكن له من هادٍ لا الله تعالى ولا غيره.

﴿٣٤﴾ ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ﴾ أي للذين كفروا المذكورين في الآية التي

وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ

قبل هذه، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي عذابهم في الآخرة إن لم يتوبوا في الدنيا أشق من عذاب الدنيا ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي مالهم مَن يقيهم من الله لأنه الغالب على أمره الفعَّال لما يريد فلا يستطيع أحد دفع عذابِ الله عنهم.

﴿٣٥﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي وصفها ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ التي وعدها الله المتقين الذين اتقوا ربهم بطاعته ولم يُصرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون، وقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ خبره إما ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وما بعده إلى قوله تعالى: ﴿وَظِلُّهَا﴾ وإما قوله ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ وما بعده إلى قوله: ﴿وَظِلُّهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جملة حالية، والأول أرجح.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : يريد تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي صفة الجنة أن فيها الأنهارَ والأكل الدائم والظل، وإنما الأصل في الأمثال أنها صفات في المقال، قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل:٦٠] وليس لله مِثْل، وإنما أراد وله الصفة العليا، فافهم أصل ضرب الأمثال، أو التوصل إلى الصفات بالمقال)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ أي ثمرها المأكول دائم ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي دائم؛ لأن أوراقها لا تسقط في الشتاء كبعض أشجار الدنيا ولا يتخلف ثمرها في وقت من الأوقات كما يتخلف ثمر بعض أشجار الدنيا.

بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا

وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ﴾ أي الموصوفة بهذا الوصف ﴿عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي عاقبتهم أي عاقبة التقوى لأهلها، وقوله تعالى: ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي عاقبتهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي نار جهنم نعوذ بالله منها.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ يترجح: أن هذه السورة مكية، فقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ﴾ يَبِينُ حالهم وموقفهم من القرآن يومئذ ولا ينافي أن بعضهم تغيروا بعد الهجرة إلى المدينة المنورة فلعل سبب ذلك كان بعد الهجرة كنسخ القبلة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص:٥٢] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] وهذا أرجح من تأويل ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بالذين فهموه تماماً واهتدوا بهداه الذي سبق لي في تفسير (سورة المائدة)؛ لأن نسبة الإيمان بالقرآن إليهم خاص بالسور المكية، وعلى هذا فهم كانوا يفرحون بما أنزل على محمد حين كان في مكة قبل هجرته إلى المدينة كما كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾ أي ينكر بعض ما أنزل الله على رسوله من المعاني كنفي الشريك لله، وإسنادُ الإنكار إلى بعض الأحزاب من حيث هم بعض الأحزاب يشعر بسبب الإنكار وأنه تعصبهم لمبادئهم التي تحزبوا عليها، كقوله تعالى في عيسى ـ صلى الله عليه ـ : ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم:٣٧].

جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا

ويحتمل: أن قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أراد به أحزاب الذين أوتوا الكتاب فيكون مخصِّصاً لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ﴾ وهذا قريب لأن أحزاب أهل مكة ومن حولهم حالهم معروف لهم لا موجب لإخبارهم به.

فالراجح: أن المراد بالأحزاب أحزاب أهل الكتاب ذكروا لتخصيص أول الاية وإن شَمَل بعمومه غيرَهم ومثله يتعين فيه المخصص بالترجيح لأنه عمومان بينهما عموم وخصوص من وجهين: عموم الذين أوتوا الكتاب للأحزاب منهم وغير الأحزاب، وعموم الأحزاب لأحزاب الذين أوتوا الكتاب وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي قل للذين ينكرون بعضه إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به، فهذا ديني فليس فيه ما يستحق أن تنكروه؛ لأن عبادة الله الخالق الرازق حق لا ينكره العقل واجتناب الشرك حق؛ لأن الله لم يأمر بعبادة غيره ولا برهان لكم بالشرك، فاجتنابه طريق الأمن ولا موجب لإنكاره.

وقوله ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ كذلك لا ينكر العقل الدعوة إلى الله وحده، وقوله ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ أي وإليه وحده مآبي أي مرجعي في الآخرة، فهو الذي يسألني عن عملي ويجزيني عليه فليس إنكار اتقائي له وحده إلا جهل منكم.

﴿٣٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أنزلنا ما في

هذه السورة من الهدى والحكم الحق ﴿أَنزَلْنَهُ﴾ أي القرآن كله ﴿حُكْمًا﴾ بالحق وأنزلناه ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي بلسان عربي مبين يفهمه العرب حين تتلوه عليهم، فقوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾ حال بعد حال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي شركهم وما هم عليه من الباطل الذي لم يتبعوا فيه حجة إنما اتبعوا أهواءهم، وقوله تعالى ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي من الوحي والبرهان المفيد للعلم بأنك أنت على الحق وأنهم على الباطل، فقد قامت الحجة بذلك عليك، فإن اتبعت باطلهم ﴿مَا لَكَ﴾ حينئذ ﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولى رعايتك وإصلاح أمرك ويرسل لك من الخير ما يمسك الله عنك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك عذابه إن اتبعت أهواءهم وحاشاه ص فهو أطوع لله ربه من أن يكون كذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : هذا خطاب للنبي ص والمراد سواه من الأنام، فقِسْ على هذا ما أشبهه من الكلام فيما لا يليق برسول ذي الجلال والإكرام)) انتهى.

قلت: إن الله تعالى تعبده كما تعبد غيره من عباده ولو عصاه لعذبه فالكلام فيه حق وصدق وإن كان الغرض به زجر غيره فليس معنى ذلك أن الرسول المخاطب بهذا الكلام لم ينهَ ولم يشمله الوعيد الذي خوطب به؛ لأنه وإن كان لا يحتاج في ترك أهواء الكفار إلى هذا الوعيد فهو يصلح له من حيث هو عبد تعبَّده الله كما تعبّد غيره ولو عصاه لعذَّبه فلا يُصرَف خطابه هذا عن ظاهره، ولكن يقال: قد تعبد الله بهذا وزجر رسوله عن مخالفته وهو أطوع الناس لَه فغيره أولى أن يكون مثله متوعَّداً إن خالف ربه، نظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣] هو زجر عما هو أشد مع أنه باق على معناه الأصلي في النهي عن قوله: ﴿أُفٍّ﴾.

بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كأن الكفار كما أنكروا بعض ما أنزل الله أنكروا أن يكون للرسول ص أزواج، كما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان:٧] وكما أنكروا أن يكون الرسول بشراً مثلهم، فردّ الله عليهم بأنه قد أرسل من قبله رسلاً وجعل لهم أزواجاً وذرية؛ لأنهم إنما أرسلهم مبشرين ومنذرين، فلا مانع مع ذلك من أن ينكحوا النساء على سنة الله للبشر، بحيث يكون لهم ذرية كما كان لنوح وإبراهيم، وقد كان لإبراهيم ـ صلى الله عليه ـ من الأزواج اثنتان، وروي أنه كان لسليمان كثير من النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رد على قولهم: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ فالآيات عند الله ينزلها على ما تقتضيه الحكمة، وهو غني عن إيمانهم ولا يريد أن يجعل لهم آية تضطرهم، وإذا أنزل آية غير ما قد أنزل ولم ينزل ما يضطرهم إلى الإيمان فهم لا يؤمنون لأنهم قد خذلوا بعنادهم وجدالهم في آيات الله، فإذا نزلت آية يجحدونها ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢].

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فلعل المراد به: آجال أمم الرسل المكذبين، لكل أمة أجل، ولكل أجل منها كتاب يحدّ الأجل، فإذا جاء أجلهم نزل بهم العذاب لا يتأخر ولا يتقدم ويدخل في عمومها سائرُ الآجال فهي تدفع توَهُّم المكذبين أنهم لو كانوا مبطلين لعذبهم الله واغترارهم بالإمهال.

﴿٣٩﴾ ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من كتاب الآجال وغير الآجال ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء يجعله كتاباً ثابتاً لا يمحى ولا ينسخ، فله الحكم يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء، وكتاب الآجال الذي صح محوه هو ما كان مشروطاً فإذا تخلف شرطه محي، وفائدة ذلك للملائكة: بمشاهدة الكتاب، ولنا: بمعرفة الكتاب بالخبر النبوي ومعرفة أسباب محوه كذلك بالخبر النبوي.

مثل: ما رواه المرشد بالله × في (الأمالي الخميسية) في هذه الآية [ج ٢/ ١٢٤] بسنده: عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: أخبرني أبي، عن جدي، عن علي × ، أنه سأل النبيَّ ص فقال: ((لأبشرنك يا علي تبشر بها أمتي من بعدي، وهي الصدقة على وجهها، وبر الوالدين، واصطناع المعروف، وصلة الرحم، تحوّل الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء)) انتهى.

ومثل: ما رواه الإمام المرشد بالله × في (الأمالي الخميسية) أيضاً [ج٢/ ١٢٩] بإسناده: عن جعفر بن محمد بن علي عليه السلام في قصة ذكرها حدثني أبي محمد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين، عن جده الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: ((إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيمدها الله ـ عزَّ وجل ـ إلى ثلاث وثلاثين سنة، وإن الرجل ليقطع رحمه وقد بقي من عمره ثلاث وثلاثون سنة فيبترها الله عز وجل إلى ثلاث سنين)) انتهى.

ومثل: ما رواه في [ج٢/ ١٢٧] من (الأمالي الخميسية) أيضاً بإسناده: عن محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة عليها السلام، قال: سمعت أبي، عن جدي

عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ

علي بن أبي طالب × ، قال: سمعت رسول الله ص يقول في قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ تفسيرها: ((الصدقة على وجهها ـ أي يريد بها ما عند الله ـ وصلةُ الرحم، واصطناع المعروف، يحول الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء)) انتهى، وبهذا تظهر فائدة الكتاب ومحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أصل الكتاب كله المثبت والممحو والناسخ والمنسوخ، وهو كناية عن علمه تعالى المحيط بكل ما كان وما يكون فهو منزّهٌ عن البَدَاء.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أي إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب سواء أريناك في هذه الدنيا بعض ما نعد هؤلاء المكذبين، أم توفَّيناك فلم ترَه.

قال بعض المفسرين: ((وفي الآية إيضاحٌ لما للنبي ص من الوظيفة وهو الإشتغال بأمر الإنذار والتبليغ فحسب، فلا ينبغي لَه أن يتبع أهواءهم في نزول آية عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغي لَه أن ينتظر نتيجة بلاغه أو حلول ما أوعدهم الله من العذاب بهم)) انتهى، وهذا جيّد.

ومعنى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أن تبلغ ما أرسلت به إليهم وإلى غيرهم ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ أن نحاسبهم على ما عملوه من تكذيب ومن كل أعمالهم.

﴿٤١﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الراجح عندي في معناها: أنهم قد رأوا وشاهدوا أمر الله الغالب على أمره حين يأتي الأرض بمصائب تنقص الأرض، بأخذ بعض ما يكون من ثمارها وبعض زروعها وفروع أشجارها، كالبَرَد إذا أصاب أشجار العنب وغيرها، وكالبرْد من الريح الشديدة البَرْد الذي يحرق الأشجار وربما شقق بعض أعواد الشجر، وكإرسال الجراد تأكل الثمر والورق، فقد شاهدوا هذه المصائب التي يأتي بها الله، ومع ذلك لا يستطيعون دفعها، وهي تأخذ أموالهم وتتلف ثمارهم، ففيها عبرة لهم تذكِّرهم بقدرة الله عليهم، كما كان في أخذ ثمر جنة أصحاب الجنة المذكورة في (سورة نون) عبرةً لهم حتى قالوا: ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [آية:٣١].

فأما إسناد المصيبة إلى الأرض فهو صحيح؛ لأن ما عليها زينة لها، وقد أسندت إليها في قول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] فقد جعل إصابتها فيما أنبتت وما تزينت به من نباتها إصابة لها.

وأفاد بقوله تعالى: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ أن أخذها كان عقوبةً لأهلها أو تأديباً بعزته وحكمته وقهره لأهلها وقدرته، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ ظاهر في أخذ أطراف أشجارها وما فيها من ثمارها، وقوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ إنذار للكافرين بأنه حين يحكم عليهم بالشقاء الدائم في عذاب جهنم لا يكون لهم من يبدّل حكمه ويبطله وإن زعموا أن شركاءهم شفعاؤهم عند الله.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعًاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ دليل أنه لا يؤخر حكمه لطلب تحقيق الإستحقاق بطول مدة حساب الجرائم وتذكّرها للإحاطة بها كلها، ومعرفة جملتها، ثم الحكم بما يناسب الجملة.

﴿٤٢﴾ ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعًاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الكفار كاليهود مكروا بعيسى، وقوم إبراهيم مكروا به فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعًا﴾ لأنه الغالب على أمره، فمكر هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ وقالوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مكرهم باطل، ومكر الله بهم هو المكر؛ لأنه أعدَّ لهم عذاباً أليماً، ومهَّلَهم في هذه الدنيا وأنعم عليهم، فله المكر كله مجتمعاً.

وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ يفيد بطلان مكر كل نفس تمكر على دين الله لإبطاله؛ لأن المكر لا يتم إلا ضد من يجهل احتيال الماكر به وتدبيره عليه ما لا يعلم، فأما مَن يعلم ما تكسب كل نفس فلا يتمُّ المكر لإبطال أمره ودفع ما أراد من إظهار دينه.

وقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ﴾ تفريع على مكرهم كأنه قيل فمكَرَ بهم المكرَ الذي هو المكر هذا، ومكره بهم هم سببه؛ لأنهم أعرضوا عن النذير وكذبوا الرسل وكذبوا بالآيات فكان إعداده لعذابهم العاجل والآجل مكراً بسبب إعراضهم عن النذير وإهمالهم لعقولهم وأسماعهم وأبصارهم، ولم يكن مكراً مثل مكر الكافرين وغيرهم ممن يمكر بتدبير الحيلة وهو يكتم ما يريد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أهي لهم أم للذين آمنوا، وهذه الآية تبيِّن أن عقبى الدار نعيم الجنة التي هي الدار الآخرة، فالإضافة هنا مثلها في قوله تعالى: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ [النساء:١٣٤] وهذا لأن عقبى الدار الأولى أكثرها كانت عذاب الأكثرين من أهلها الذين اغتروا بها، كما قال تعالى: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام:٧٠] فمن البعيد إطلاق عقبى الدنيا على نعيم الآخرة، وقوله تعالى ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وعيد للكفار.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بنعمة الله وكفروا بآياته وكفروا باليوم الآخر وما فيه من الجزاء على الأعمال يقولون لجرأتهم على الباطل وأمنهم من عذاب الآخرة ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ أي لم يرسلك الله، أي فأنت كاذب في دعواك الرسالة.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ شهيداً على أني مرسل منه قد بلغتكم آياته وقامت عليكم الحجة بها، وشهيداً على أنكم كذبتموني بعد بيان الحق ووضوح الدليل على أني صادق وأني رسول الله، ومرجعي ومرجعكم إليه يحكم بيننا فكفى به شهيداً بيني وبينكم؛ لأن الشاهد هو الحاكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فهو أيضاً شهيد بيني وبينكم، لأنه يعلم أني مرسل من الله لعلمه بالكتاب الدال على أني رسول الله فالكتاب أكبر دليل على أني رسول الله لما فيه من تحديكم بأن تأتوا بسورة من مثله، فلم تأتوا بشيء؛ لأنه كلام خارق للعادة في حكمته وإحكامه،

فمَن عنده علمه وعلم ما فيه من التحدي المتكرر في سور وعلم ما فيه من الحكمة والإحكام، فهو شهيد بيني وبينكم لعلمه بأني قد بلغتكم وقامت به الحجة عليكم، وعلمه بأنكم كذبتموني، والشهيد الذي عنده علم الكتاب الذي انطبق عليه هذا الوصف: هو علي بن أبي طالب × ، ومن شاركه في هذا الوصف بمكة، فهو ـ أيضاً ـ شهيد إن كان أحد شاركه يومئذ.

فأما علي × فلا إشكال في أن عنده علم الكتاب لتوفر أسباب ذلك في حقه وقد قال بهذا فيما رُوي ابنُ عباس ومحمدُ بن الحنفية، وفي (التعليق الوافي) تأليف عمي الحسن بن الحسين الحوثي / [ص٢٦] قال / : ((روى الحاكم ـ أبو القاسم الحسكاني ـ بإسناده إلى أبي سعيد الخدري في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: قال رسول الله ص: ((هو علي بن أبي طالب)) ورواه عن ابن عباس، وعن محمد بن الحنفية، وعن أبي صالح من طريقين، وعن أبي جعفر الصادق، وقال أبو صالح: قال ابن عباس: والله هو علي بن أبي طالب)) انتهى.

وأفاد عمي / أنه في (مناقب الإمام علي ×) تأليف ابن المغازلي عن أبي جعفر × ، وقال: ورواه الثعلبي في تفسيره عن محمد بن الحنفية، وهذا في [صفحة/ ١٦٠] من (التعليق الوافي على الشافي) و(الشافي) تأليف الإمام عبد الله بن حمزة × ، و(التعليق) ما زال مخطوطاً إلا قليل من أوله، وهو مخطوط مستقلاً عن (الشافي) ـ وبالله التوفيق.

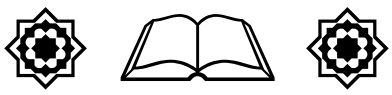

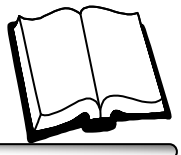

التيسير في التفسير

سورة إبراهيم

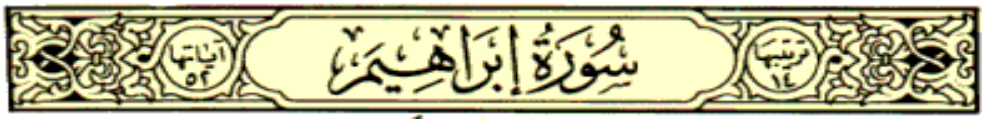

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

تفسير (سورة إبراهيم) ×

يظهر من مواضيعها أنها (مكية) ولكن الشرفي حكى عن (صاحب البرهان): أنه قال فيها: مكية إلا آيتين، قيل: هما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾ والتي بعدها ـ والله أعلم.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ﴾ **أي هو كتاب أي القرآن المؤلَّف من الأحرف التي ينطق بها العرب هو كتاب** ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ **أي جعلناه كتاباً تتوارثه الأجيال محفوظاً.**

وقوله تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ **أي أنزلناه عليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الجهل والعقائد الباطلة وسائر الباطل إلى نور الهدى، فالناس في أشد الحاجة إليه لعموم الجهل، وانتشار الشرك بأنواعه المختلفة في الأرض، وضلالات الجاهلية، وضلالات أكثر أهل الكتاب كما هو مفصل في القرآن، ولم يكونوا منفكين عن ذلك إلا برسول ووحي جديد يعلن الحق وينوره.**

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ **لأنهم يأبون الخروج من الظلمات إلى النور لتعصبهم لما ألفوه واعتادوه من التمسك بباطلهم إلا من أذن الله له أن يهتدي وهو من لا يدافع الحق وينصر الباطل ويجادل في آيات الله ويحارب**

الدين بصد الناس عنه، فلم يستحق الخذلان، وكل الناس لو سلموا أسباب الخذلان لأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، فالهدى معدّ لهم كلهم ولكن أكثرهم أبوا الاهتداء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ تفسير للنور المذكور بأنه صراط الله؛ لأنه دينه الذي ارتضاه لعباده، وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أما قوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ ففيها فائدتان:

الأولى: أن الله لعزته لا يهمل العصاة يفسدون في أرضه ويضلون عباده دون أن يقيم عليهم الحجة ويجزي من تمرد عليه بالعذاب الشديد الذي يستلزم تقديم إرسال الرسول لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

الفائدة *الثانية*: الدلالة على أنهم لا يضرونه بكونهم في الظلمات المذكورة أو امتناعهم من الخروج منها بل هو غني عن العالمين عزيز لا ينال.

وأما قوله: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ ففيه فائدتان:

الأولى: أنه بكرمه وفضله ورحمته أنزل الكتاب وأرسل الرسول ليخرج الناس من الظلمات إلى النور إنعاماً على عباده؛ لأنه الحميد المستحق للحمد على إنعامه.

الثانية: الدلالة على أنه الحميد المستحق للحمد سواء أطاعه الناس فخرجوا من الظلمات إلى النور أم أبوا؛ لأنه أنعم عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتاب ودعوتهم إلى ما فيه هداهم وسعادتهم وتمكينهم من ذلك بالعقول والقدرة، وإن أبوا وكفروا باختيارهم فالله هو الحميد على كلا الحالتين إن أجابوا وأطاعوا، وإن أبوا وعصوا.

فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ

۝٢ ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ ﴿ٱللَّهِ﴾ أما على قراءة الجرّ فهو بيان للعزيز الحميد، وأما على قراءة الرفع: فهو مبتدأ خبره الموصول، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يذكِّر بأنه أنزل الكتاب وأرسل الرسول إلى الناس؛ لأنه مالكهم له الأمر بما شاء والحكم بما شاء، فعليهم أن يطيعوه ويذكِّر بأنه مالكهم المستحق لأن يعبدوه وحده لا شريك له فلذلك أنزل الكتاب إلى رسوله محمد ص ليخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ لأن عبادته هي الحق والرشد والخير والصلاح للدنيا والدين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي الذين كفروا بالكتاب والرسول وجحدوا بآيات الله ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ في تفسير الهادي × يحيى بن الحسين؛ لقول الله تعالى: ﴿قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ [القلم:٣١] والويل فهو الغم والطويل من الهم انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ بيان لسبب الويل ومصدره، و﴿مِنۡ﴾ للابتداء أو السببية.

۝٣ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ في هذه الآية بيان بعض مفاسد الكفر:

فالأولى: بيّنها قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فإنهم لما كفروا بالآخرة اختاروا الدنيا وآثروها على الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بخير غير ما في الدنيا ولا يخافون العذاب بسبب إيثار الدنيا وترك السعي للآخرة وكانت الدنيا أحبَّ إليهم من كل شيء.

الثانية: بيَّنها قولُه تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فإنهم لما كفروا لم يخشوا ربهم في صدهم عن دين الله الذي اصطفاه لعباده بل صدوا عنه بإعراضهم عنه وتركه وصدوا غيرهم بالتضليل والتغرير اتباعاً لهواهم، ولو أنصفوا لعلموا أن ذلك فساد كبير.

والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾ فهم يتطلبون لسبيل الله العوج الذي هو خلاف الاستقامة، أي خلاف الصواب ليصدوا الناس عنها بحجة أن فيها عوجاً، وهذا إذا كان المقصود يطلبون لها العوج بما يدعون فيها كما يصنع بعض الكفار من القدح في الإسلام بأنه يوجب قطع يد السارق وهذا تشويه للسارق وضر شديد، ويعرضون عما في ذلك من الفائدة للمجتمع وللسارق إن انزجر عن معاودة السرقة.

فإن كان المقصود يبغون في سبيل الله العوج، يبغون أن يجعلوا العوج الذي هو القانون الفاسد سبيل الله، فمعناه: أنهم يرَغِّبون في غير سبيل الله بدعوى أنها سبيل الله، وهذا عندي تفسير ضعيف؛ لأن العوج صفة للأعوج والمبغي الأعوج الذي هو القانون، ويمكن أن يراد ويبغون سبيل الله العوج بأن يجعل الله ما ليس بحق من الدين بأن يشرع ما هو باطل مما يهوونه، كما طلبوا رسول الله ص أن يطرد بعض المؤمنين من عنده.

لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى

وكما روي أن رهطاً من قريش قالوا: يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سَنَة ونعبد إلهك سنة، فقال: ((معاذ الله أن أشرك بالله غيره)) فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك.. اهـ، أو نحو هذا من باطلهم، أرادوا أن يجعله من الدين فيكون عيباً في الدين وعوجاً.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي أهل هذه الصفات في ضلال أي غواية عن طريق الصواب كمن تاه في غير طريق وخفيت عليه الطريق، وقوله: ﴿بَعِيدٍ﴾ أي بعيد عن الصواب كمن ضل عن الطريق وصار بينه وبينها مسافة بعيدة لا يؤمل فيه لبعده عنها أن يهتدي لها.

﴿٤﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ كأنه عطف على قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ..﴾ الآية ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي بلغتهم، أي بلغة قومه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليبين لقومه ما أرسل به إليهم وقومه الذين هو منهم خالطهم وعرفهم وعرفوه وعرف لسانهم معرفة أصيلة لا مجرد ترجمة للغة أخرى، سواء كانوا قرابته من النسب لأبيه أم قرابته من النسب لأمه، ويدل على ذلك ما تكرر في (سورة الشعراء) من قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ [آية:١٠٦] قاله في نوح، وهود، وصالح، ولوط. فأما قوله تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت:٢٦] فالراجح: أن الضمير لإبراهيم؛ لأن السياق في إبراهيم، وإنما عرض فيه ذكر لوط.

ويحتمل ـ إن كان الضمير للوط ـ إما أنها هجرته لقومه عند نزول العذاب عليهم، وإما أنه هاجر إليهم قبل فسادهم، وأن فسادهم إنما طرأ بعد كونه فيهم، فأرسله الله إليهم حين فسدوا، وعلى هذا تكون هجرته إليهم من بلد آخر كان فيه، إما بلد قوم إبراهيم وإما غيره.

وقال تعالى في شعيب في (سورة هود): ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود:٨٤] وكذا في (الأعراف) فأما (أصحاب الأيكة) فيحتمل أنهم (مدين) ويحتمل أنهم أخوال شعيب خالطهم وعارفهم حتى صار فيهم كأحدهم، فأرسل إليهم كما أرسل عيسى إلى (بني إسرائيل) وأما إرسال موسى وهارون إلى فرعون وملئه فقد كان موسى فيهم هو وقومه، وذلك يدل على أن لغة قوم موسى هي لغة فرعون وملئه، فإرسال موسى بلسان قومه هي بلسان فرعون وملائه؛ لأنه نشأ فيهم وتربى حتى هاجر إلى مدين.

وأرسل الله محمداً ـ ص وعلى سائر الأنبياء والمرسلين ـ ﴿بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ الذين هم قريش أو كنانة كلهم، وهو لسان عربي تفهمه العرب، فبيَّن لهم ما أرسل به وفهمه من سمعه منهم، وقد كفى شيوعه في العرب وفهمهم له في تبيينه لسائر الناس الذين هم خارج بلاد العرب، لتيسر فهمه بواسطة تعلّم العربية، ولذلك كان منهم كبار المفسرين الذين تعلموا العربية وهم من بلاد العجم كالزمخشري، كما أمكن فهمه بواسطة تراجم الذين تعلموا العربية وهم من العجم، أو تعلموا غيرها وهم من العرب.

وعلى هذا: فالراجح في معنى ﴿قَوْمِهِۦ﴾: أنهم الذين هو قريب لهم من جهة أبيه أو من جهة أمه على المعنى الذي ذكرت فقد أرسل الله محمداً ص إلى الناس جميعاً بلسان قومه، ولا يصح تفسير قومه بالذين أرسل إليهم كلهم؛ لأنه أرسل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥] كما هو مبيّن في القرآن الكريم في (سورة الشعراء) و(سورة النحل).

وقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي ليبين لهم ما أرسل به إليهم فيدل على أن رسول الله ص بيّن لقومه ولم يخص أحداً ببيان ما أرسل به إليهم وكتمه عن غيره، بل بينه لهم فهو مفهوم لهم كلهم من سمعه منه ومن بلغه عنه منهم ولم يكتم منه شيئاً عن أحد ليخص به غيره، وأما ما خص به الإمام علي × من العلوم فهو إخبار عما يكون لم يكلف الناس بعلمها أو تكليف خاص لعلي × فهو أرسل به إليه وحده.

وأما قوله تعالى: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فهو الإضلال الذي سببه التكذيب بآيات الله ومحاولة إبطال دينه ولذلك ترتب على إرسال الرسول وبيانه لقومه، وقد تكرر بيان معنى هذا الإضلال وأنه عقوبة وهو واضح؛ لأنه لو كان الله يريد إضلالهم على غير هذا الوجه لما غضب عليهم ولعنهم لحصول ما أوقعه بهم وأراده فيهم كما تزعم المجبرة، فالتحقيق أن هذا الإضلال هو الخذلان الذي ترتب عليه ضلالهم الزائد على ضلالهم الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فهو الهدى للإيمان بسبب النية الصالحة والنظر في دليل صدق الرسول أو هو ومن لا تقتضي الحكمة إضلاله، وكذلك إضلال الله لمن يشاء فيحتمل: أن يعم من ذكرت وغيرهم من الظالمين.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يشير إلى أنه يجازي من كذب رسله وكذب بآياته كما هو شأنه تعالى في عزته وحكمته، فإرسال الرسل إنما هو مقدمة لجزاء المحسن بإحسانه وجزاء المسيء بإساءته، ولم يخيرهم الله بتمكينهم من الإيمان والكفر إلا لأنه يجزي كلاً بما يستحق.

ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝

۝ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كما أنزلنا إليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور أرسلنا قبلك موسى بآياتنا الدالة على صدقه ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فالدعوة واحدة إلى صلاح البشر وصلاح شأنهم وتخليصهم من ظلمات الشرك والكفر والجهل والظلم إلى نور الإيمان بالله والإخلاص له والعلم والعدل، وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ تفسير للرسالة التي أرسل بها موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أي ذكر قومك بني إسرائيل ﴿بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ ليحذروا من أن يحلَّ بهم العذاب كما حل بالأمم قبلهم، و(الأيام) هنا: أوقات العذاب النازل بالأمم، والعرب تسمي بأيام الحروب أوقاتها، أو الحروب نفسها وإن كان وقت الحرب أياماً مثل يوم صفين، ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم في (معلَّقته):

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظِرنا نخبّرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضاً ... ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيامٍ لنا غرّ طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا

وفي شرح الزوزني على (المعلقات السبع) يقول: ((نخبّرك بوقائع لنا مشاهير كالغرِّ من الخيل..)) إلى قوله: ((..الأيام: الوقائع)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ الإشارة إما إلى الكلام نفسه من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ ففيه آية تدل على صدق محمد ص حيث جاء بهذا الخبر عن رسالة موسى وتفسيرها ولم يقرأ كتاباً ولا خطه بيمينه، بل نشأ بعيداً عن معرفة ذلك لولا أن الله تعالى أوحاه إليه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ

وفيه آية تدل على أن محمداً ص ليس بدعاً من الرسل، فهي ترد على من أنكر رسالة البشر، وفيه آية تدل على تشابه دعوة موسى ومحمد ص في فائدتها وتشابه الإنذار، وفيه آية تدل على رحمة الله ولطفه بعباده من حيث إرسال رسله ليخرجوهم من الظلمات إلى النور.

وهذا الاحتمال لمرجع الإشارة أرجح عندي، وإما إلى (أيام الله) ففيها آيات، فهي تدل على قدرة الله تعالى، وعلمه بأحوال المكذبين للرسل واستحقاقهم للعذاب، وتدل على صدق الرسل، وعلى أن الله تعالى يجازي المجرمين ولا يهملهم، بل يمهل ولا يهمل.

وأما قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فالصبار: كثير الصبر، والشكور: كثير الشكر، فالصبار الشكور يطلب معرفة الحق من الله المنعم على عباده ليتبعه، ولا يصده عن ذلك خوف من أعداء الدين، أو من الفقر أو نحو ذلك؛ لأنه يخاف الوعيد فالآيات أنفع له من غيره فلذلك خص بالذكر مع أن الآيات دلائل لكل من فكر واستعمل عقله.

﴿٦﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تذكروها لتشكروها بطاعة الله واجتناب معصيته.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنجَىٰكُم﴾ ظرف للنعمة يفسرها ما أضيف إليه وهي إنجاؤه لهم من آل فرعون الجبارين الذين كانوا يستضعفون بني إسرائيل فيظلمونهم الظلم الشنيع.

وقوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ حال من ﴿أَنجَىٰكُم﴾ أي أنجاكم منهم في حال سومهم لكم سوء العذاب؛ لأنهم اتبعوكم بجنودهم ليأخذوكم فيرجعوكم إلى تعذيبكم سوء العذاب معاقبة لكم على اتباع موسى وفي حال أنهم مصرون على ذبح أبنائكم واستحياء نسائكم، كما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:١٢٧] فهم مستمرون في عادتهم الممقوتة فإنجاءُ الله لكم منهم نعمة عظمى يجب عليكم شكرها.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يعرضون عليكم أشد العذاب، قال الشاعر:

فسامَه خِطَّتا خسف وقال له اختر وما فيهما حظ لمختار

أي عرض عليه خطتين من الذل)) انتهى.

وفي (معلّقة عمرو بن كلثوم):

إذا ما الملك سام الناسَ خسفاً أبينا أن نُقِرَّ الذُّل فينا

قال (شارح المعلقات): ((الخَسف والخُسف ـ بفتح الخاء وضمها ـ: الذّل، السوم أن تجشّم إنساناً مشقة وشراً، يقال: سامه خسفاً، أي حمله وكلفه ما فيه ذله)) انتهى.

فإن **قيل**: كيف قال هنا: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ وفي (سورة البقرة): ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [آية:٤٩] بدون عطف؟

لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ

قلت: هنا يذكرهم موسى نعمة النجاة من آل فرعون في حال سومهم لهم ليأخذوهم فيعذبوهم لأجل اتباعهم لموسى، وهذه حالة يعظم فيها قدر النجاة ويعرف فيها قدر نعمة النجاة.

أما في (سورة البقرة) فاختصر الكلام، وذكر فيها الأمر العظيم العذاب المستمر الذي كانوا فيه الذي هو ذبح الأبناء، واستحياء النساء مستمراً عليهم زمناً طويلاً، فإنهم كانوا فيه يوم ولد موسى ولا أدري كم كانوا فيه قبله فهو زمان طويل والإنقاذ منه نعمة كبرى مع أن النجاة لأنفسهم من فرعون وقومه ذكرت في (سورة البقرة) في آية مستقلة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٠] وهذه معطوفة على آية الإنجاء من ذبح أبنائهم عقيبها، فأفادت هذه نعمتين والتي قبلها نعمتين.

وأما قوله تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فالبلاء يحتمل النعمة هنا كما مر في تفسير (سورة الأنفال) قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [آية:١٧] ويحتمل الاختبار لهم أيشكرون نعمة الله عليهم أم يكفرون، والأول أرجح لقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكروا إذ تأذن أي آذن وأعلن.

قال الشرفي في (المصابيح): قال الحسين بن القاسم × : ((معنى ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي تضمن ربكم وحكم بوعده ووعيده عليكم وأعلمكم بذلك وبيّنه لكم وآذنكم ولم يخفِهِ عنكم، وفي ﴿تَأَذَّنَ﴾ زيادة ليست في آذن كما أن توعد أبلغ من أوعد، كأنه قيل: وإذ تأذن ربكم إيذاناً بليغاً تنتفي

مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨ أَلَمۡ

عنده الشكوك وتنزاح الشبهة، فقال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ﴾ نعمة الإنجاء وغيرها بالإيمان والعمل الخالصين ﴿لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ نعمة إلى نعمة ولأضاعفن لكم ما آتيتكم، ثم أوعد بالعذاب على الكفر فقال: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ﴾ يعني وجحدتموها ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾ لمن كفر نعمتي)) انتهى.

قلت: في هذا كفاية في تفسير الآية إلا قوله: يعني وجحدتموها فإن كفر النعمة ليس مفهومه جحدها بل هو ضد الشكر فهو إما إخفاؤها بترك الشكر بأن يجعلها بترك الشكر كأن لم تكن، وإما إخفاؤها بالإساءة إلى المنعم فتعمد المعاصي أو ترك الطاعة كفر للنعمة وإن لم يجحدها العبد؛ لأنه بسلوكه جعل النعمة كأن لم تكن، وهذا هو المقصود بإخفائها لا جعلها خفية فهو غير ممكن، ولذلك قال عنترة:

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي والكفر مخبثة لنفس المنعم

فجعل ترك عمرو للشكر كفراً، وليس معناه: أنه جحد النعمة.

وفي (تفسير الإمام القاسم بن إبراهيم ×) لـ(سورة البينة): ((وتأويل كفروا فهو لم يشكروا؛ لأن من لم يشكر الله تبارك اسمه بترك عصيانه فكافر وإن كان مقراً ومعتقداً لمعرفة الله واتقائه كإبليس الذي ذكر الله سبحانه معرفته به وذكر كفره لما ارتكب من الكبائر بربه، وكذلك كل من ارتكب كبائر تسخط من أنعم عليه فقد كفره، ومن أتى ما يرضاه وتولى أولياءه وعادى أعداءه فقد شكره)) انتهى.

٨ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ نعم الله عليكم ﴿أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مجتمعين على كفرها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عنكم وعن شكركم وعن كل شيء ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد فما تضرون بالكفر إلا أنفسكم.

يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

﴿٩﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ **﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يترجح أنه خطاب لقريش ومن حولهم ليعتبروا بمن كفر من قبلهم؛ لأن قوم موسى كانوا قد صدقوا به أعني بني إسرائيل الذين كانوا معه فقد انتهى كلام موسى في آخر الآية التي قبل هذه، وقوله تعالى: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي علم إحاطة بهم كلهم.**

وقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ فيه تفاسير راجعة إلى النظر والترجيح، والراجح عندي أن ردهم أيديهم في أفواههم إنكار لكلام الرسل ومنع لألسنة الكفار أن تنطق بمثله أو تصدق به وبعد ذلك أعلنوا كفرهم بقولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ الذي هو عبادة الله وحده والإيمان به وبرسله وباليوم الآخر، وقولهم: ﴿مُرِيبٍ﴾ أي مقلق كما قدمت، وكذبوا بل قلقهم من التعصب لشركائهم.

﴿١٠﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا

تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ اعلم أن المشركين وإن أقروا باستحقاق الله تعالى للعبادة، فإنهم لم يقروا بذلك عن نظر في وجه الاستحقاق، وإنما أقروا به لأنه الله الخالق، هذا في الأولين منهم، فأما الآخرون فهم مقلدون في عبادة الله وعبادة شركائهم ولذلك فقد أجروا إثبات استحقاق الله للعبادة مجرى الخرافات التي قالوها بلا حجة، ولذلك ساغ عندهم إثبات أن عبادة الله حق ودعوى أن عبادة غيره حق.

فلما لم يثبتوا استحقاق الله تعالى للعبادة بناء على معرفته بل سووا بينه وبين شركائهم كان شكهم في انفراد الله باستحقاق الله للعبادة معناه الشك فيه؛ لأن من عرف الله تعالى لا يشك في أنه ينفرد باستحقاق العبادة؛ لأن آلهتهم لم تخلقهم ولم ترزقهم فلم يعبدوها اعتماداً على حجة تثبت استحقاقها للعبادة، بل هم يعلمون أنها لم تشارك الله تعالى في خلقهم ورزقهم، ولذلك رد الله عليهم بقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

تأمل كيف قال: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ﴾ ولم يقل: أفمن لا يخلق كمن يخلق، وهنا قالت لهم رسلهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾؟ حيث ارتبتم في انفراده باستحقاق العبادة، مع أنه الخالق للسموات والأرض لم تخلق شركاؤكم شيئاً منها ولا من غيرها، وأنتم لا تشكون في أنها لم تخلقكم ولم ترزقكم من السماء والأرض، فإن شككتم في الله فقد أهملتم عقولكم وقبح جهلكم.

فقول رسلهم: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ إنكار للشك في الله تعالى ودلالة على أنه ليس من شأنه أن يشك فيه لوضوح آياته الدالة عليه منها: أنه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أو هذا السؤال من رسلهم معناه نفي الشك في الله؛ لأن آياته قد دلت عليه والسامعون لا يجحدون أنه فاطر السموات والأرض وهذا أقرب.

وهو احتجاج عليهم في شكهم الذي سببه غفلتهم لا شكهم في الله، فرسلهم يذكرونهم أن شكهم في أن المستحق للعبادة هو الله تبطله المعرفة لله فاطر السموات والأرض، فإذا كانوا لا يشكّون في الله فعليهم أن لا يشكّوا في أنه المتفرد باستحقاق العبادة.

ثم كيف يكون في الله ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ شك وهو ﴿يَدۡعُوكُمۡ﴾ بإرسال رسله إليكم فيبلغونكم دعوته إليه ﴿لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ فقد تعرضتم لعذابه العاجل بإصراركم على الشرك وعبادة غيره بلا برهان من ربكم، فإن أجبتم رسله غفر لكم من ذنوبكم بكف العذاب العاجل عنكم، وأخركم إلى أجل مسمى حتى يحسن إسلامكم وتتحقق توبتكم وتموتوا على ذلك فيغفر ذنوبكم كلها ويدخلكم الجنة إن متم على ذلك، أو تموتوا على غير ذلك فيجزيكم بما أسلفتم.

والحاصل: أن دعوة رسلهم لهم إلى ترك الشرك لم يمكن أن يعدوهم فيها بمغفرة ذنوبهم كلها وذلك إما لأنه يوهم الجاهلين أنهم إن أسلموا غفرت ذنوبهم كلها الماضي والمستقبل وهذا غير صحيح، بل هم بعد الإسلام إن أحسنوا وماتوا على التقوى غفرت ذنوبهم كلها وإلا فلا، وإما لأن وعدهم بغفران ذنوبهم كلها يحتاج إلى شرط صدق التوبة، وبيان أن الذي يغفر بها هو الماضي، وأن المستقبل لا يغفر إلا بالتوبة، والمقام لا يناسبه مثل هذا التفصيل بل المهم فيه بيان نجاتهم من العذاب العاجل الذي قد تعرضوا له وتأخيرهم إلى أجل مسمى، وذلك بمغفرة مؤقتة لما قد استحقوا به العذاب العاجل، فهذا هو الراجح عندي في فائدة الإتيان بـ﴿مِّن﴾ التي للتبعيض هنا وفي (سورة نوح).

يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ أي ما أنتم إلا بشر مثلنا، وهذا كفر منهم برسالة رسلهم، ودعوى أنه لا يصلح للرسالة إلا الملائكة، وقولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ جعلوا عبادتهم لشركائهم سببها أن آباءهم كانوا يعبدونها فتمسكوا بالتعصب لآبائهم لا بحجة، ولما لم تكن لهم حجة قالوا: ﴿فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي بحجة قاهرة غالبة لنا بينة، وهم يقترحون بذلك أن يأتوا بما لا تقتضي الحكمة جعله دليلاً على صدق الرسل؛ لأن الدليل يؤتى به للدلالة على الصدق ليؤمنوا به اختياراً لا ليضطروا إلى التصديق لهم اضطراراً لأن المقصود الاختبار لا الإكراه والاضطرار.

﴿١١﴾ ﴿قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ لا ندعي أنا ملائكة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ﴾ ينعم ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يختصه بنعمته ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ من البشر أو غيرهم، فليس لكم أن تشرطوا على الله أن لا يمن على بشر أو تعترضوا عليه في إرساله لبشر ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ وليس من شأننا ﴿أَن نَّأۡتِيَكُم بِسُلۡطَٰنٍ﴾ بآية ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فما أذن لنا أن نأتي به أتينا به وما لم يأذن به فليس من شأننا، فالأمر في هذا لله لا لنا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون، فعليكم أن تؤمنوا ومن آمن منكم فليتوكل على الله، فليكل أمره إلى الله إن

ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ

شاء حفظه ووقاه شر الكافرين، وإن شاء رزقه الشهادة وما عند الله خير للأبرار، وليس لأحد أن يترك الإيمان خوفاً من الكافرين، وهذا يشعر بأنهم قد عرفوا تمرد قومهم فعرَّفوا قومهم أنهم متوكلون على الله لئلا يطمعوا في صرفهم عن إبلاغ رسالتهم بالوعيد والتهديد كما عرفوا من يريد الإيمان أن عليه إذا آمن أن يتوكل ليثبت على إيمانه.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وليس لنا أن لا نتوكل على الله ﴿وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ وقد عرّفنا سبلنا التي هي سبل نجاتنا من عذابه وفوزنا بالسعادة الدائمة سبل الله التي ارتضاها لنا لتوصلنا إلى رحمته وكرامته، فحق علينا ووجب أن نسلكها واكلين أمرنا إليه فهو يختار لنا حينئذ ما هو خير لنا.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ فهو الذي ينبغي لمن أراد التوكل أن يتوكل عليه؛ لأنه بفضله ورحمته وكرمه لا يضيع من آمن وتوكل عليه ولا ينسى من توكل عليه ولا يغفل عمن توكل عليه ولا يهمل من توكل عليه بل يتولاه بحسن رعايته ويوصله إلى ما سعى له من رحمته وكرامته، أما من توكل على غيره، فقد يهمله عجزاً أو غفلة وسهواً أو بخلاً أو غدراً ولا سيما من توكل على صنم لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنه شيئاً بل على الله وحده فليتوكل المتوكلون، فهو القدير على كل شيء، وهو العليم بكل شيء، وهو الكريم الرحيم ذو الفضل العظيم، وبعد أجوبة رسلهم المفيدة لجأ قومهم إلى الوعيد والتهديد:

لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ

﴿١٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ وعيد بطردهم من أوطانهم وفراق الوطن شديد على النفس متى كان باسم فراق الأبد ولو سهل في أوله فإن النفس لا بد تحن إلى الوطن مدة الحياة، ولذلك أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل لا يخرجون بعضهم من ديارهم.

وقولهم: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ يتضمن كذباً منهم على رسلهم يرمونهم بأنهم كانوا على ملتهم مشركين كافرين وحاشاهم ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ إلى الرسل ﴿رَبُّهُمْ﴾ الذي أرسلهم وكلفهم تبليغ الرسالة فأطاعوه وتوكلوا عليه أوحى إليهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المكذبين بآياتي المكذبين لرسلي فإنهم بذلك ظالمون مع ظلمهم بتهديد الرسل وظلمهم السابق بالشرك وسائر الجرائم، فالمعاصي كلها يجمعها اسم الظلم، والمراد لنهلكن قومكم المكذبين لأجل أنهم ظالمون وهذا هو الهلاك العاجل قبل بلوغ كل واحد أجله الذي كان يبلغه لو آمن واتقى.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ نورثكم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ فتسكنونها بعد هلاكهم وتعيشون فيها منصورين.

قال الشرفي ـ ونعم ما قال ـ : ((ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف:١٣٧] انتهى.

وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن

فليس المعنى: أنهم يسكنون نفس أرض الكافرين ولكن يرثونها ويسكنون حيث شاءوا من الأرض، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي النصر على العدو والاستخلاف في الأرض ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي المقام لي يوم يقوم الناس لرب العالمين وهو موقف الحساب.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني المقام بين يديّ فأضاف إليه لاختصاصه به)) انتهى.

والمراد لمن خاف فحمله الخوف على التقوى، ولا يبعد أن قوله تعالى: ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ كناية عمن اتقى الله، وقوله تعالى: ﴿وَعِيدِ﴾ أي وعيدي، وخوف الوعيد خوف الموعود به في الوعيد بسبب الوعيد لإيمانه بالوعيد وبصدقه.

﴿١٥﴾ ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ الراجح: أنه عطف على: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ..﴾ أي توعدوا قومهم واستفتحوا أي طلبوا أن يفتح الله بينهم وبين الرسل وذلك ليوهموا أتباعهم أنهم واثقون بأنهم على الحق ولغفلتهم عن الله وظنهم أنه لا يستجيب لهم ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ﴾ غلبهم الرسل وخاب أمل الكافرين أنهم سيخرجونهم من ديارهم، قال في (الصحاح): ((والجبار: الذي يقتل على الغضب)) انتهى، وقوله: ﴿عَنِيدٍ﴾ أي معاند يخالف الحق وهو يعرفه.

﴿١٦﴾ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ فسَّروا ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ من أمامه وقبله؛ لأن جهنم مستقبلة، وأعتقد ـ والله أعلم ـ أن العرب إنما استعملته في المستقبل بعد تخييله طالباً؛ لأن الطالب في العادة يكون وراء

الهارب، ولهذا لا يكاد يستعمل إلا في المكروه قد يعترض بقول الشاعر: يكون وراؤه فرج. وهذا سهو؛ لأن وقوع الفرج بعد وقوع الكرب حقيقة فهو وراءه أي بعده.

فالمراد بقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ الدلالة على أنها مأواه ومصيره يعذب فيها لا مجرد الإخبار أنها من قبله، وقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي ويسقى في جهنم من ماء صديد أي قيح، وعطف عليه قوله تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لأن المراد أنه صائر فيها، فكأنه قيل: يصير في جهنم ويسقى، أو عطف على فعل أفاده قوله: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي يعذب بها ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾.

قال في (الكشاف): ((فإن قلت: ما وجه قوله تعالى ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾؟ قلت: صديد عطف بيان لماء، قال ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ﴾ فأبهمه إبهاماً ثم بينه بقوله: ﴿صَدِيدٍ﴾ وهو ما يسيل من جلود أهل النار)) انتهى.

وعدّ بن هشام هذا من الوهم؛ لأن عطف البيان عند البصريين خاص بالمعارف، ثم قال: ((وهذا إنما هو معترض على قول البصريين ومن وافقهم فيجب عندهم في ذلك أن يكون بدلاً، وأما الكوفيون فيرون أن عطف البيان في الجوامد كالنعت في المشتقات فيكون في المعارف والنكرات)) انتهى.

وأظنه قد مضى ذكر كلام للرضي في هذا المعنى يرجح مذهب الكوفيين، قلت: وإن جعلناه بدلاً فهو بدل البيان، وبهذا يقول الإمام أبو الفتح في (البرهان) والإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) أعني إثبات بدل البيان وهو البدل الذي أريد به بيان المبدل.

كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ

﴿١٧﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ يشربه جرعة جرعة بشدّة لكراهته وحره لا يستمر في شرب الصديد كما يُشرب الماء البارد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ إن كان معنى يسيغه يزدرده وينزله من حلقه بسهوله فالمعنى لا يقارب أن يسيغه، وكيف يكون ذلك مع أنه صديد شديد الحر، فقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور:٤٠] واستعمال السائغ فيما ينزل بسهولة ظاهر، قال الشاعر:

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً أكاد أغص بالمـــاء الفـــرات

وعلى هذا: بنى الحسين بن القاسم × فيما رواه الشرفي في (المصابيح) حيث قال: ((معناه: لا يقارب ولا يداني أن يستلذّه ولا يجده طيباً ولا يودّه)) انتهى.

وقال الراغب في (المفردات): ((ساغ الشراب في الحلق: سهل انحداره، وأساغه [كذا])) انتهى، ومثله في (الصحاح) وإن كان معنى يسيغه ينزله من حلقه ولو بعد شدة وعناء ـ وهو الراجح ـ فقوله تعالى: ﴿لَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] أي كادوا أن لا يفعلوا، وهذا في معنى الإساغة قد حكى في (الصحاح) مثله عن العرب فقال: ((يقال: أَسِغْ لي غُصَّتِي: أي أمهلني ولا تُعْجِلني، قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ والسِّوَاغ [بكسر السين] ما أسغت به غصَّتك، يقال: الماء سِوَاغ الغُصَص، ومنه قول الكميت:

وكانت سِواغاً أن جأزْتُ بغُصَّة))

انتهى، أي أن غصصت، وهذا عندي أرجح من الأول؛ لأنه أنسب للسياق، وأن بين ساغ وأساغ فرقاً.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمۡ

وقوله تعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ أي أن أسباب الموت واقعة عليه من كل مكان إما بمعنى من كل مكان من بدنه لوجود الألم المميت في العادة في كل جزء من جسمه، وإما بمعنى من كل جهة لتضاعف الشدة التي من شأن كل واحدة منها أن تميته في العادة، وإتيان الموت له إيقاع شدة الموت عليه من الكرب الشديد وعدم تحمل الألم والنزع من دون أن يموت، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): قال في (البرهان): ((يعني من كل مكان من جسده، ويجوز ويأتيه الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ومن فوقه وتحته ومن قدامه وخلفه، ويحتمل: ويأتيه شدائد الموت وامتداد سكراته، ليكون ذلك زيادة في عذابه)) انتهى.

قلت: الراجح: أن هذا الأخير هو معنى إتيان الموت سواء كان من كل مكان أي من جسده أم من كل جهة ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ أي من وراء هذا الجبار العنيد عذاب غليظ فهو لا يزال في عذاب غليظ أي شديد، ولعله سمي غليظاً لأنه لا رفق فيه ولا رحمة ولا إبقاء؛ لأنه عذاب استحقاق، وبعزة الله عز وجل وحكمته جعله غضباً على أعدائه الجبابرة.

﴿١٨﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وصفهم باعتبار خسرانهم الذين كفروا بربهم

لجحدهم قدرته على البعث بعد الموت وجزاء الآخرة ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾ التي يرجى في مثلها النفع لعاملها ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيَاحُ﴾ والرماد ما خلفته النار من حراقة الحطب أدق من التراب وأخف منه ﴿ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيَاحُ﴾ وقعت فيه الرياح بشدة وعصف شديد فاحتملته في الهواء وطيرته فتبدد وتفرق في الهواء.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ فعصفه عام يطير ما طار في الهواء ويضيعه إذ ليست شدة الرياح خاصة بمكان الرماد ولا بساعة اشتداد الرياح به بل عصف شامل لنواحي البلد الذي فيه الرماد مستمر طوال اليوم فكيف يبقى من الرماد شيء يقدر صاحبه على إمساكه؟ فكذلك عمل الذين كفروا يصير هباء منثوراً.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): وهذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكافر في أنه لا يحصل على شيء منها بالرماد الذي هو بقية النار الذاهبة إذا اشتدت [به] الريح العاصف وهي الشديدة، فأطارته فلم يقدر على جمعه كذلك الكافر في عمله)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي الذين كفروا ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لا يقدرون على أن ينالوه أو يحفظوه لينتفعوا به؛ لأنه ذهب ضايعاً، وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي حبوط أعمالهم وخسرانهم لها ﴿هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ ضلال العاملين البعيد عن طريق الرشاد والصواب والخير؛ لأنهم بكفرهم معاقبون على سيئاتهم وخاسرون لحسناتهم، فبان بذلك غوايتهم البعيدة عن الرشد والصواب وما فيه الخير لهم، ويحتمل ذلك أي ضياع عملهم بالشكل المذكور في المثل هو الضياع البعيد الذي يبعد على صاحبه وجدانه ويتحقق فقدانه، والأول أرجح لأن أصل الكلام في الذين كفروا والمقصود بيان خسرانهم.

تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيۡنَٰكُمۡۖ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ

١٩-٢٠ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ **ألم تعلم يا رسول الله** ﴿أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ **بالحكمة لم يخلق ذلك لعباً ولا عبثاً ولا باطلاً، بل خَلْقهما حق وصواب ليجزي الله كل نفس بما كسبت، كما قال تعالى:** ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية:٢٢] **فلا بد من البعث والجزاء.**

﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ **يُعدِمكم** ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ **لأنه قادر على كل شيء** ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ **وما إذهابكم والإتيان بخلق جديد ما ذلك على الله بصعب؛ لأنه القادر الذي لا يصعب عليه شيء الغني الذي لا يصعب عليه هلاك الناس لو أهلكهم؛ لأنه غني عنهم وعن أعمالهم فلم يخلقهم لحاجة إليهم ولا لينتفع بعبادتهم، فلا بد من جزاء المحسن بإحسانه والجزاء للمسيء على إساءته، كما قال تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص:٢٧] **ففي هذه الآية تذكير بقدرة الله تعالى وحكمته وغناه وعلى معرفة ذلك يترتب الإيمان بالبعث والجزاء وعلى الجهل به يترتب الكفر بالله واليوم الآخر.**

٢١ ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ قَالُواْ لَوۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ

﴿لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ ظهروا على وجه الموقف ﴿لِلَّهِ﴾ ليسألهم عما كانوا يعملون ويحاسبهم ﴿جَمِيعًا﴾ مجموعين كلهم كبراءهم وضعفاءهم وغيرهم ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُا۟﴾ الذين كانوا في الدنيا ضعفاء مأمورين ينقادون لكبرائهم المستكبرين قالوا ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ في الدنيا: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ إنا كنا لكم تابعين في الكفر ونحوه فأنتم أضللتمونا وسببتم لعذابنا.

﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ كافون لنا أي شيء من عذاب الله تكفونا إياه عوضاً عن إضلالكم لنا ﴿قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ لم تضلوا إلا لأنا ضللنا أي بحكم اتباعكم لنا لا أنا أردنا إضلالكم دون أنفسنا، فلو هدانا الله لهديناكم تبعاً لهدانا لأنا ما أردنا إلا أن تتبعونا فيما نحن عليه، ولم يكن ضلالكم من حيث هو ضلال غرضاً لنا.

وقولهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ كذب منهم قد رد الله عليهم في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٥٧-٥٩] فالكفار لم يعتبروا ذلك هدى، ولعلهم يريدون يوم القيامة أن الهدى ردُّهم عن غوايتهم إلى الصواب بالقسر والإكراه حين لم يقبلوا الآيات البينات، ولكنها هي الهدى ولم يكن لهم حق في القسر والإلجاء، فكانوا كاذبين في نفي هدى الله لهم الذي يفهم من قولهم: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾.

هذا وأما من قال: إنه لا يقع كذب في الآخرة من الكفار، فكلامه مردود بقول الله تعالى: ﴿فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨].

إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ

ثم قال الذين استكبروا في الجواب على الضعفاء: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ سواء علينا أي على الفريقين التابعين والمتبوعين أجزعنا من عذاب الله والجَزع ضد الصبر فهو إظهار الضعف على احتمال المصيبة والقلق منها بالصياح والولولة ونحو ذلك كعض اليد من الندم، والصبر ضد ذلك وكأن الذين استكبروا يقولون للضعفاء: كلامكم لنا إنما هو جزع من العذاب ولا يفيد الجزع اليوم؛ لأنه لا محيص من العذاب أي لا مفرّ. قال في (الصحاح): ((يقال: ما عنه محيص: أي مَحِيد ومهرب)) انتهى.

﴿٢٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي لما قضي الأمر صارح الشيطان أتباعه، والراجح: أنه في موقف الحساب بعد أن حكم الله بين العباد وقضى على أتباع الشيطان بالعذاب، وهذا لأجل العطف بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ حين أنذركم العذاب وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين وكان وعد الله هو الحق الذي لا خلف له ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ في الدنيا بأنواع من الغرور، قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي كذبتكم، والخلف هو الكذب قال الشاعر:

لعمرك ما يوافقني خليلي إذا ما كان ذا خلف كنودا))

انتهى، يعني: أن المراد بهذا الوعد مثل المراد بالوعد في قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة:٢٦٨] فهو وعد الشيطان بالمغفرة من الله وإدراك أغراضهم النفسية بسبب الكفر كالعز والثروة وغلبة المسلمين، والمراد بقوله ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ على هذا المعنى: كذبتكم الوعد حين قلته، وقد قال في (لسان العرب): ((الخلْف في المستقبل كالكذب في الماضي، وهو موافق للبيت المذكور، وعلى هذا يصح اشتقاق الإخلاف من الخُلْف بهذا المعنى)) والله أعلم.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ يعني لم يكن لي عليكم قوة وقهر أجبركم على طاعتي فتطيعوني بالقهر والغلبة لأن له سلطاناً على الذين يتولونه والذين هم به مشركون لكنه ليس سلطانَ غلبة وقهر لو سلمت نفوسهم وبقيت على فطرتها وإنما سلطانه عليهم سلطان إغراء بالمعصية وتزيين وتخويف من الطاعة كالتخويف من الفقر والتخويف للمجاهد من القتل والتخويف للمسلم من غلبة الكفار، فإذا ضعفت النفس لأن صاحبها لا يريد أن يصبر على طاعة الله ولا أن يحتمل مشقة وعناء في سبيل الله فضعفت عزيمته وقويت شهوته بالتربية لها، كما تقوى سائر الغرايز بالتربية.

فمن هنا كان للشيطان عليه سلطان التغرير والتزيين والتخويف لا سلطان القسر والإلجاء، فقوله: ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ استثناء منقطع أي دعوتكم إلى معصية الله فاستجبتم لي بالمطاوعة ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ

على التسبيب لدخولكم النار ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ لأنكم إنما استجبتم لي اتباعاً لهوى أنفسكم ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ بمنقذكم حين تصرخون من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ بمنقذين لي حين أصرخ منه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ﴾ أي بمغيثكم والإصراخ: الإغاثة ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ﴾ أي بمغيثي، قال ابن الأعرابي: الصارخ: المستغيث، والمصرخ: المغيث)) انتهى المراد.

وفي (الصحاح) مثل ما حكى عن ابن الأعرابي لـ(صاحب الصحاح) وقال: ((الصراخ: الصوت)) انتهى.

وقوله: ﴿إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((يعني: برئت منكم)) انتهى، وهو تفسير بالغرض من الكلام؛ لأنه تبرأ مما أشركوه ليتبرأ منهم وإشراكهم له إما طاعته في الشرك بالله وإما طاعته أعم من الطاعة في الشرك وفي غيره، وقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي في الدنيا. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي لا بد منه كقول المستكبرين: ﴿مَا لَنَا مِنۡ مَحِيصٍ﴾ وهذا عذاب لأعداء الله بالغيظ من كلام إبليس، والعذاب أنواع منها نفسي ومنها جسدي نعوذ بالله منه.

٢٣ ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡۖ تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ لما تم ذكر الوعيد لأعداء الله ذكر الله بعده الوعد لأوليائه بإدخالهم الجنات.

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

وقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي باقين فيها لا يموتون، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ دفع لما يستبعد بالقياس على الحياة الدنيا التي تنتهي، ودلالة على أنّ خلودهم يكون لأن الله أذن به وهيّأه لهم بقدرته، واقتصر الكلام على ذكر الإذن دلالة على أنه لا يصعب على الله، فالتعبير بالإذن كالتعبير بقوله: ﴿كُنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي يُحيَّون بقول القائل: ﴿سَلَامٌ﴾ أي سلام عليكم، كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤] وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] فهي بشرى عظيمة، وليست مجرد تحيتهم لبعضهم، بل يحييهم الله بالسلام والملائكة.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ * تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يترجح أن هذه الآية تابعة لما سبق من ذكر أحوال الكفار والمؤمنين، وأن الله تعالى ضرب ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد الصادرة عن إيمان ويقين.

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي إ: ((هي (لا إله إلا الله) أصلها ثابت في قلب المؤمن)) انتهى.

وهي تفيد: فضل الكلام الطيب وعظم نفعه وثباته في الأرض بإذن الله وهو ذكر الله كله، وشهادة أن محمداً رسول الله، ونحو ذلك مما هو أصل في دين الله، فالكلمة الأصل التي هي (شهادة أن لا إله إلا الله) مثل له يقاس عليها ويلحق بها.

وقوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ طيب الشجرة يكون بنفعها ومن أطيب الشجر الموصوفة هنا النخل؛ لأن ثمرها الذي هو التمر يقتاته أهل بلده وهو فاكهة لغيرهم، وفيه منافع كثيرة في التغذية، ونواه يبل ويدقّ طعاماً للغنم، كما أن سائر أجزاء النخلة ينتفع به يصنع الحصير من ورقها ويستعمل في سقف البيوت وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي في الأرض فهي ثابتة بثبات أصلها لا يقلعها عاصف أو نحوه ﴿وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي مرتفع في الهواء وذلك أكمل لها وأطيب لثمرها وأحصن له من تناول الدواب والسراق.

وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ وهذا يدل على أن ليس المراد شجرة مما نعرف معينة لأن (النخلة) تؤتي أكلها في الخريف وكذا (التين) فإن كان هناك شجرة مما نجهل تؤتي أكلها كل حين إما (الزيتون) وإما غيره ينطبق عليها هذه الصفات صح التفسير بها، وإلا فهي شجرة مفروضة كما في المثل في (سورة النور) ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ..﴾ الآية [آية:٣٥] وهذا صحيح لأن المقصود بالتمثيل إيضاح المعنى وتقريره في ذهن السامع بكمال فهمه.

وقوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ قد يشير إلى أنها غير موجودة وأن ذلك خارق لعادة الشجر ولكنه ممكن إذا أذن الله به؛ لأنه على كل شيء قدير.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهو يبين المراد بضرب الأمثال في القرآن وغيره من كلام الله تعالى، فالمراد بها أن يتذكر الناس الصواب ويتبعوه، فالكلمة الطيبة ثابتة في الأرض بنصر الله وإعزازه لها وإن كانت للباطل صولات فهي لا تُذهِب من الأرض الكلمةَ الطيبة وثبات الكلمة الطيبة بثبات الإيمان في قلوب المؤمنين الذين يقولونها

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى

عن إيمان ويقين لأن أصلها الحق اليقين، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف:٢٨] وهي كلمة (التوحيد) باقية في عقب إبراهيم × ، وتشبيهها بشجرة ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ يفيد أن فائدة كلمة التوحيد وثمرتها تبقى وتتكرر لصاحبها كل حين في الدنيا والآخرة، فالآية الأولى تفيد بقاءها في الأرض، والآية الثانية تفيد استمرار فائدتها.

﴿٢٦﴾ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ كلمة الشرك ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ تضر الأرض بامتصاص عروقها لفائدة التربة، وبذلك تضر ما جاورها من الشجر الطيب مع أنها خبيثة كشجرة الدفلى التي هي سم أو غيرها مما يضر، ولذلك ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي بقاء في مكانها، وقوله تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: استؤصلت)) انتهى.

أي أخذت من فوق الأرض بقلع أصلها لئلا تعود، فالباطل كذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

﴿٢٧﴾ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بأن يجعلهم ثابتين على الحق لا تزل أقدامهم بعد ثبوتها، وذلك بسبب

ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟

القول الثابت الذي قالوه عن إيمان ويقين، والذي أفادت آية التشبيه بالشجرة الطيبة أن له البقاء في الأرض فهو سبحانه وبحمده يثبتهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مدة تكليفهم، ولعل هذا يفيد: أن الكلمة الطيبة والقول الثابت سبب لثبوتهم، وليس معناه: نفي المانع من ذلك إن حدث من أحدهم من المعاصي والإصرار ما يوجب الخذلان، أو أن الله يثبتهم ما داموا على القول الثابت فإذا تحولوا عنه أو عن بعضه لم يثبتهم، وهذا أظهر على معنى أن من التحول الإصرار على المعاصي؛ لأنها ضد معنى القول الثابت أو ضد ما يلزم من معنى القول الثابت.

وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يدل على سلامتهم من الزلل عند السؤال وعند جسر جهنم على القول به، وقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي عقوبة لهم على الظلم وقد مضى تفسيره، وقوله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ دليل على أنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده، وفيه تخويف للكفار من تعذيبهم وخيبتهم.

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعجيب للسامع من هؤلاء الذين عدلوا عن مقتضى الفطرة وعما يدعو إليه العقل السليم من مقابلة النعمة بالشكر إلى تبديلها بالكفر، وعن النصح لأنفسهم وقومهم إلى إدخالهم النار بما أسسوا لهم من الشرك والكفر.

وقوله تعالى: ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ فمن نعم الله: أن جعل الإنسان حراً لا يحق لغير الله أن يستعبده فجعلوا أنفسهم عباداً لشركائهم، ومن نعم الله: الأنعامُ التي أحلها للإنسان ليأكل منها وينتفع بها، فحرموا من الأنعام

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

ما ذكره الله في (سورة الأنعام) و(المائدة) فبدلوا بالتحريم الذي هو كفر من حيث جعْلِ الحكم لغير الله من حيث هو تشريع على عباد الله لم يأذن الله به، ومن حيث هو جحد لنعمة الله فيما أحل؛ لأنهم حرموه فهو كفر نعمة جعلوه بدل النعمة.

وقوله تعالى ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ أي أتباعهم من قومهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ أي دار الهلاك، وفسرها قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ﴾ من الحلول في المحل الذي هو الإستقرار فيه، قال عنترة:

حلّت بأرض الزائرين فأصبحت عَسِراً على طلابها ابنةَ مخرَمِ

وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ أي جهنم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦].

﴿٣٠﴾ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ ﴿وَجَعَلُواْ﴾ أي هؤلاء الذي أحلوا قومهم دار البوار جعلوا ﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ وأسَّسوا الشرك؛ ليضلوا أتباعهم عن سبيل الله، وهكذا أهل الأهواء المحتالون للرئاسة يقررون الباطل في أنفس أتباعهم حتى يعتقدوه ويتعصبوا له فينصرفوا بذلك عن الحق وأهله، فالإضلال لأتباعهم غرض لهم، لأنها تتوقف عليه رئاستهم وكونهم متبوعين.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهم: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ بأغراضكم الدنيوية ورئاستكم الباطلة ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فقوله: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ تهديد لهم، وبيان لحقارته من حيث أنه سبب لمصيرهم المحتوم جهنم.

وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

﴿٣١﴾ ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ أمر بما فيه كرامة عباد الرحمن ورفع درجاتهم وسلامتهم من الخسران ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) ـ ونعم ما قال ـ : ((يقيموا مقول القول أي ليقيموا، قيل: وجاز حذف اللام منه، لأن الأمر الذي هو ﴿قُل﴾ عوض منه)) انتهى المراد.

قلت: الأقرب أنه مجزوم؛ لأنه في معنى الأمر فهو قسم من المجزوم وإن لم تقدر فيه (لام الأمر) كما جزم ما دخلت عليه (لام الأمر) وليس مما جزم في جواب الأمر، ألا ترى أنه أكد أمرهم بقوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ أي ليغتنموا مهلة الأجل لصالح العمل المذكور من قبل أن يفوت الأوان في ذلك اليوم الذي هو يوم حساب ولا عمل، ولو كان المعنى: إن تقل لهم يقيموا وينفقوا، لكان زيادة قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ﴾ في غير محلها، وخَص الأمرين بالذكر إقامة الصلاة والإنفاق من الحلال لعظم فائدتهما في إصلاح الضمير والتسبيب لحسن الخاتمة ولعظم ثوابهما وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ لم يخص السر بالذكر وإن كان أفضل لمن يكثر الصدقة أو هو الواجب إذا خاف المتصدق على نفسه الرياء، وذلك لأن العلانية يدعو إلى الإقتداء بالمنفق فيكون له أجر صدقته وأجر التسبيب للصدقة من غيره ويكون ذلك أنفع للفقراء أو أنفع في نصرة الإسلام إذا كان الإنفاق في سبيل الله.

فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِ

وقوله تعالى: ﴿لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٞ﴾ أي ليس كالدنيا تستفيد ما تحتاجه بالبيع لك، وتستعين على بعض الأمر بالخليل الصالح، ذلك يوم لا ينفع فيه إلا العمل الصالح، وما يحصل من فضل الله إنما هو تابع للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر:٣٠].

﴿٣٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ في الآية الكريمة ردٌّ على المشركين الذين جعلوا لله أنداداً وعلى من اتبعهم في شركهم فهم غافلون عن الله جاهلون بعظمته وجلاله وكمال قدرته وعلمه ولذلك جعلوا له أنداداً قرنوا بين عبادتهم وعبادة الله جل جلاله فسوّوا بين الحق والباطل بين الصدق والخرافة، فهذه الآية تذكر بالله تعالى وقدرته على كل شيء، وأنه الخالق الرازق.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ يذكرهم بعظيم قدرته وعلمه وفضله على عباده من حيث أنهما أساس خلق من فيهما وما فيهما من نعمه، وقوله تعالى ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾ يذكر بنعمة الماء وذكر من فوائده إخراجَ الثمرات التي هي رزق للإنسان يعيش بها ويتمتع في هذه الحياة، وجمع الثمرات يشير إلى الحبوب والفواكه على كثرة أنواعها واختلافها في الفائدة واللذة، كما أن ذلك يذكر بقدرته وعلمه وتدبيره لأمور عباده ومنافعهم مما يدل على سفاهة من جعل له أنداداً.

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ﴾ وهي السفائن التي يسافر بها في البحر، وقوله: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ يذكر فائدتها التي هي صلاحيتها للسفر عليها، فهو سبحانه جعل الخشب الذي منه ألواحها والحديدَ الذي به تنسق ألواحها حتى تكون على شكل صالح لحمل ما عليها، وسخر لها الريح لتسوقها، وعلم الإنسان صنعتها وصنعة ما تدخله الريح لتسوقها فصلحت للسفر للتجارة ونقل حاجات الإنسان من أرض إلى أرض كما فصّل ذلك الله تعالى في آيات من القرآن في (سورة النحل) و(سورة الشورى) وغيرهما.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ جعلها مأمورة بالسير؛ لأنه سخر لها الريح تسوقها، فكأنها مأمورة مطيعة، وكذلك الريح كالمأمورة المطيعة، لأنه الذي سخرها فانقادت لتسخيره.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ فهو الذي يسوقها في بطون الأرض والجبال من مسالكها الباطنة حتى تخرج من منابعها فتجري في مجاريها الظاهرة وينتفع الناس بالماء منافعَه المعروفة، وربهم هو الذي جعل مسالك الماء الباطنة ومجاريها الظاهرة لينتفعوا به لأنفسهم وأنعامهم وحرثهم وغير ذلك.

﴿٣٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أما منافع الشمس فتدفئة الناس والمواشي، وإصلاح الأشجار والتربة للزرع والضياء، وقتل بعض الجراثيم الضارة، كما يحكى عن أهل الطب العصري وتوليد فيتامين (د) في أجساد الناس كما يقولون ولا نحصي فوائدها.

وأما فوائد القمر: فالنور لمن يحتاج السري ومن لا يجد المصباح، وهو يقتل الدَّبَا إذا جاء عليه في نصف الشهر إما غالباً وإما مستمراً، ومن فوائده: الشهور العربية فإنها محدودة بالهلال، ولولا هو ما كانت الشهور العربية، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩].

وفي الشمس والقمر آيتان عظيمتان واضحتان تدلان على قدرة الله تعالى وعلمه؛ لأن سيرهما بمقدار محدود كتحديد الساعة المصنوعة فالشمس تقطع البروج في سنة والقمر تقطعها في شهر ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ على ذلك السير المحدود في عادة مستمرة.

قال في (الصحاح): ((دأب فلان في عمله: أي جدّ وتعب)) انتهى المراد.

وقال (شارح المعلقات السبع) في شرح قول امرئ القيس:

كدأبك من أم الحويرث قبلها

((الدأْب والدأَب [بتسكين الهمزة وفتحها] العادة، وأصلها متابعة العمل والجد في السعي)) انتهى.

وقال الراغب: ((الدأب: إدامة السير، دأب في السير دأباً، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ والدأب: العادة المستمرة دائماً على حالة، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران:١١] أي كعادتهم التي يستمرون عليها)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فيهما نعمتان، فالنهار للعمل وكسب الرزق، والليل للسكون وترك عمل الدنيا والراحة منه لتعود القوة ويذهب التعب، ويخلو أولياء الله في بعضه للعبادة والاستغفار في الأسحار.

نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ

وفي الليل والنهار آيتان حيث جعلا لمنافع الناس بتحديد مناسب لحالهم مستمر دقيق، كتحديد الساعة، وطول أحدهما وقصر الآخر بنظام محدود متقن دقيق، فهما دليل على الخالق المدبر لمصالح عباده، ذلك تقدير العزيز العليم الذي سخر هذه الأشياء بقدرته وعلمه. قال الراغب في (المفردات): ((التسخير سياقة إلى الغرض المختص قسراً)) انتهى المراد.

﴿٣٤﴾ ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ نعماً كثيرة ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ فأنتم تسألون الله حاجاتكم فيعطيكم، وفي هذا إشارة إلى نعم يحتاجها الإنسان فيسأل ربه فيعطيه، فالإنسان يعلم في قرارة نفسه أن الخير بيد ربه الذي خلقه ورزقه، ولذلك يسأله كلما احتاج أو اضطر.

وقوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ أي بعض ما سألتموه وهي نعمة كثيرة وإن لم نعط كلَّ ما سألنا؛ لأن الحكمة في بعض المطلوب أن لا نؤتاه بعينه، وقد نسأل شيئاً وهو شر لنا ولكن لا نعلم، ومن ذلك بسط الرزق، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الأَرْضِ..﴾ الآية [الشورى:٢٧].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ لعلنا لا نستطيع إحصاء أنواع النعم فضلاً عن أفرادها، وهذا في النعم الظاهرة غير الباطنة، والنعم الظاهرة التي يخفى على الإنسان كونها نعمة عليه إلا إذا فكر أو درس التشريح والطب.

رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ قرار بعد تعديد النعم على الإنسان تدل على كثرة النعم وسوء تصرف الإنسان حيث يقابل نعم الله بالإساءة والعصيان، فالإنسان ظلوم لأن إساءته إلى مالكه المنعم عليه حيف وجور لأن مقتضى العدالة أن يشكر ربه ويطيعه فهو لهذا ظلوم، والإنسان كفار كثير الكفر لنعم الله تعالى، فأما كفر المشركين والكفار لنعم الله فظاهر، وأما غيرهم فأكثرهم أهل الغفلة والجرأة على الظلم وغيره الذين لا يبالون ما فعلوا، وكثير من الناس إلا النادر لا يخلو أحدهم عن المعصية إلا أن الأخيار يحاسبون أنفسهم ولا يصرون على ما تعمدوه أو انكشف لهم أنه ذنب.

وقد روى الإمام أبو طالب × في (أماليه) وهو في (الباب السابع والأربعين بإسناده: عن علي × قال: قال رسول الله ص: ((يقول الله ـ عزّ وجل ـ : يا بن آدم ما تنصفني أتحبب إليك بالنعَم وتتمقَّت إلي بالمعاصي، خيري عليك منزَل وشرّك إلي صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك في كل يوم وليلة بعمل قبيح، يا بن آدم لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تدري مَنِ الموصوفُ لسارعت إلى مقته)) انتهى، وهو في (صحيفة الإمام الرضا).

فظهر بما بيَّن الله من نعمه ظلم الإنسان وأنه كثير الظلم كثير الكفران لنعم الله تعالى، هذا وقد كان بعض أهل مكة ومن حولها يعبدون الأصنام وذلك أقبح الكفر وكانوا كلهم أو بعضهم يدَّعون أنهم على دين إبراهيم × فبين تعالى دين إبراهيم × وما أوتوا من النعمة بسبب دعائه × .

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ ﴿هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ﴾ أي ما حول الكعبة وهو الحرم المحرم، والبلد

إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ

يفسره المفسرون بمكة، ولعل مكة اليوم قد تجاوزت حد الحرم، والمقصود بالدعاء هو مكة التي في الحرم، فهي البلد الآمن بحكم الله عز وجل، وقد ذكّرهم الله بنعمة الأمن في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧] وبالأمن فيه يتهيأ الحج والعمرة والتجارة في مكة، فهو نعمة عامة لأهل مكة وغيرهم.

وقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي اصرفنا بلطفك عن أن نعبد الأصنام، قال في (الصحاح): ((وجَنَّبْتُهُ الشيء وجَنَبْتُه: بمعنى نحيته عنه)) انتهى، ومثله في (لسان العرب) ولا يبعد أن فيه معنى باعدني، والمراد ببنيه أول درجة من ذريته أي بنيه من صلبه، فهو فيهم أظهر، ولأنه حين دعا لذريته قال هو وابنه إسماعيل: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨] فجاء بـ﴿مِنْ﴾ التي للتبعيض، فظهر: أنه هنا دعا لبنيه لصلبه، أن يعصمهم الله بلطفه من عبادة الأصنام.

﴿٣٦﴾ ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((واتفق كل الفرق على أن قوله: ﴿أَضْلَلْنَ﴾ مجاز، لأنها جمادات لا تفعل شيئاً البتة)) انتهى.

قلت: يعني اتفقوا على أن المراد ضلوا بسببها، لا أنها فاعلة لإضلالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان:٣٣] إلا أن هذا نهي وكلام إبراهيم × إثبات.

ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا

وقوله ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ أي كالبعض مني له ما لي وعليه ما عليَّ وهو في الإختصاص بي كبعضي، وهذا نهاية العطف عليه والحب له، وقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرجو له من المغفرة والرحمة ما لا ينافي العزة ولا الحكمة وذلك المغفرة بترك المؤاخذة العاجلة والرحمة بذلك من حيث هو نعمة وتعريض على التوبة المؤدية إلى الرحمة في الآخرة والمغفرة المطلقة، وقد قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف:٥٨].

﴿٣٧﴾ ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ بعضهم وهو إسماعيل، ولعله كان وجد له ولد في عهد إبراهيم (عليه السلام)، فيكون داخلاً في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ أي جعلتهم ساكنين ﴿بِوَادٍ﴾ وهو مكة شرفها الله ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ فالقوت منها معدوم فدعا لهم وقدم وسيلة الدعاء بقوله: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ و(البيت المحرم): هو الكعبة شرفها الله أضافها إلى الله؛ لأنها قبلة عبادته، وإليها الحج والعمرة، فأسكنهم عنده ليقيموا الصلاة في جوار بيت الله حيث لا زرع ولا حرث يشغلهم عن إقامة الصلاة في أوقاتها أو يشغل ضمائرهم بالوسوسة حال الصلاة، فدعا لهم بالرزق ليتمّ لهم هذا الغرض الديني كما أسكنهم لهذا الغرض نفسه عند البيت.

نُعۡلِنُۚ وَمَا تَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ

وقوله: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ الأفئدة القلوب أو باطنها وذلك مركز العقل والحب وغيره نسب الهُوِيَّ إليها، لأن شوقها إلى بيت الله وأوليائه هو يبعث أهلها على هبوط مكة وذلك سبب لنشر العلم والدعوة إلى دين الله، ولولا ذلك لصاروا معزولين عن الناس لأن مكانهم ليس فيه مرغِّب دنيوي إلا إذا أهوى إليه الناس من كل بلد فإنه يصير موضع تجارة.

وقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ فجعل الدعاء لهم بالرزق ليشكروا فهو لغرض ديني من حيث هو إقامة الصلاة، ومن حيث هو الشكر أعم من الصلاة، فإسكانهم لغرض ديني يكمل ويتم بهوي الناس إليهم وبالرزق الذي لا يعيش الإنسان بدونه، وبذلك صلاح دينهم ودنياهم، وحياة مكة بعبادة الله وحده لا شريك له، ولكن المتأخرين غيروا بمكة فجعلوها مركزاً لبعض الأصنام وأشركوا بالله فكان من الضروري تجديد دعوة إبراهيم بإرسال الرسول من ذريته ودعوته إلى ما دعا إليه أبوه إبراهيم عليه السلام وهو محمد ص.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۚ وَمَا تَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿مَا نُخۡفِي﴾ أنا ومن أسكنت من ذريتي فأنت تعلم نياتنا وإخلاصنا لك وعقائدنا في توحيدك وكل ما نخفي ﴿وَمَا نُعۡلِنُ﴾ وما نظهره من صلاتنا ومناسكنا وغير ذلك ومن كل عملنا فاستجب دعاءِ ﴿وَمَا تَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ لا من الأعمال ولا غيرها لا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لأنه علام الغيوب وبكل شيء عليم، فلذلك ندعوك ونرجوك ونعبدك ونخشاك.

لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا

﴿٣٩﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ **شكراً لأنه** ﴿ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ **ليرثا ديني ويبلغا رسالتي إلى أهل عصرهما، وقوله:** ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ **أي على تقدم سنِّي وبلوغي حدّ الشيخوخة، وليس من العادة أن يولد لمثلي في الشيخوخة** ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ **فقد سمع دعائي حين قلت:** ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] **فوهب لي إسماعيل ثم إسحاق.**

﴿٤٠﴾ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى﴾ **في المستقبل** ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ **بأن تحببها إلي في بقية عمري وتيسر لي إقامتها بأركانها وخشوعها** ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ **اجعل مقيمي الصلاة؛ لأنها عظيمة في العبادة ومصلِحة للضمير ولذلك تنهى عن الفحشاء والمنكر، وعنايته × بإقامة الصلاة ينبغي لذريته أن يجعلوها سبباً لإقامتها اقتداء بأبيهم إبراهيم × بل ينبغي للناس كافة لأنه × إمامهم.**

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ **يحتمل: استجب دعائي فاعطني وذريتي ما سألت، ويحتمل: تقبل مني دعائي لتكتب لي ثوابه، فاجعله من حيث هو عبادة اجعله مقبولاً أي عبادة متقبلة يكتب لي ثوابها، وهذا أقرب ولذلك يكرر ذكر الربوبية الذي يفيد إقراره بأنه وذريته عباد لله، وبأن العبادة لا تحق إلا لله؛ لأنها اعتراف بالعبودية، فهو يكرر ذلك الاعتراف والإقرار بتكرير لازمه، فليكن لنا قدوة في عبادة الله بالدعاء.**

ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلاً عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٍ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡ ۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

﴿٤١﴾ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذنوبي ﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ ذنوبَهما، وكأنه × استمر على استغفاره لأبيه وفاء بالوعد، مع أنه قد تبرأ منه في آخر الأمر، فلا تنافي ما دام ذلك مأذوناً له من الله تعالى، ولمجرد الوفاء بموعدته كما جاز مصاحبة الوالدين المشركين معروفاً في الدنيا.

وقوله: ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطف عليهم؛ لقوله: ﴿فَمَنۡ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وحبّاً لهم في الله، وقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ طلب لهم بالمغفرة يوم يقوم الحساب أي يوم الحساب، وهي أفضل من المغفرة المؤقتة في الدنيا فمغفرة يوم الحساب لازمها دخول الجنة والنجاة من النار، بخلاف مغفرة الدنيا التي معناها ترك تعجيل المؤاخذة، كما مر في تفسير قوله: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ قيام الحساب قوّته وكثرته وظهوره مثل قيام السوق إذا تحرك البيع والشراء، وهو يشير إلى ذلك الموقف الرهيب الذي يحتاج فيه إلى المغفرة أشد من الحاجة إلى المغفرة بترك تعجيل المؤاخذة.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلاً عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٍ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ عطف كما أن قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ عطف.

والراجح: أن ذلك راجع إلى ما في سياق قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ من وعيد قومهم، فذكر الله كلام إبراهيم × رداً عليهم، ثم ذكر ما في هذه الآية وعيداً لهم على ما يعملون ضد الإسلام من المكر والمعاداة الخفية، وبين حالهم يوم القيامة وذلتهم بعد تكبرهم في الدنيا وعنادهم عند دعوة الرسول لهم إلى الله تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ الخطاب إما للرسول ص وهو تقْدِمة لذكر وعيدهم، وليس من شأن الرسول ص أن يحسب الله غافلاً فليس نهيه لذلك، بل لئلا يحسبوا هم أو غيرهم، لكن وجه الخطاب إليه لأنه العالم بأن كفرهم باطل، فهو الذي يصلح خطابه في جزائهم لماذا لا يعجل، وإما للسامع كائناً من كان.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أي لم يترك اليوم عذابهم على ما يعملون غفلةً عما يعملون من أنواع الظلم ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أي ليوم القيامة فعذابهم كاف في العدل والحكمة إن لم يرد لهم العذاب في الدنيا بعد حين، وقوله: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ كما يشخص بصر المحتضر عند الموت.

قال في (الصحاح): ((يقال: شخص بصره، فهو شاخص: إذا فتح عينيه وجَعَل لا يَطرِف)) انتهى، ومثله في (لسان العرب) وزاد: ((شخوص البصر: ارتفاع الأجفان إلى فوق وتحديد النظر وانزعاجه)) انتهى.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مهطعين إلى الداعي أي مسرعين إليه استسلاماً وانقياداً وخضوعاً وذلة ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ فسروا إقناعهم رؤوسهم برفعها ولكن الإشكال فيه أن الخوف والذلة وانحلال القوَى من شدة الخوف يستدعي إمالة الرؤوس إلى أسفل.

وقد قال في (الصحاح): ((وأقنع البعير: إذا مدّ رأسه إلى الحوض ليشرب، وأقنعت الإناءَ إذا أمَلْتَه لتصب ما فيه واستقبلت به جِرْيَةَ الماء ليمتلي، قال الراجز ـ يصف ناقته ـ : تُقْنِع للجَدْوَل منها جَدْوَلا.. شَبَّهَ فاها وحلقها بالجدول تستقبل به جدولاً إذا شربَت)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح) في قول الله تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: ((أو معناه: ناكسي رؤوسهم بلغة قريش، قال الحسين بن القاسم × : يريد خاضعين مرخين لرؤوسهم ـ قال ـ : وقد قيل إن المهطع: هو الرافع، وهذا خلاف قول السلف صلوات الله عليهم، والإقناع مأخوذ من القناع وتقنيع الرأس إنما يراد به ستره لا رفعه، وإنما يقنع رأسه مَن يريد التغطي والتذلل، وكذلك إقناعهم رؤوسهم: هو تغطية وجوههم بنكس رؤوسهم إلى الأرض)) انتهى.

وفي (المصابيح) أيضاً في تفسير (سورة اقتربت الساعة): ((عن الهادي × : ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [آية:٧] أي يوم يدع الداع تراهم خشعاً، معنى خشعاً: فهي مغضوضة لا يرفعون رؤوسهم، ولا يمدُّون أبصارهم أمامهم من الفزع والخوف والإيقان بالبلاء العظيم)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي أن أعينهم لا يغمضونها بل لا تزال مفتوحة لشخوصها، والطرف غطاء العين الذي يغطيها عند النوم وعند غمض العين، قال الراغب: ((وطرف العين: جفْنُه)) انتهى من تفسيره لـ(مفردات القرآن).

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِمْ﴾ كأن انفتاح الجفون بسبب أن الرعب والفزع قد غلب عليها وخرجت عن اختيار صاحبها فكأنها مأخوذة عليهم لأنه قد اضطرها الفزع إلى الإنفتاح.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ

وقوله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي خالية من الألباب، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ [الحج:٢] وكقوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾ [القصص:١٠] شبه اللب بالجسم مثل لب الحبّة، فاعتبر ذهاب اللب فراغاً للفؤاد، فلذلك جعلت هواء مع أنها مملوءة بالرعب والخوف.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ ذكر في الآية الأولى هول يوم القيامة وفزع الظالمين ولم يذكر فيها العذاب وإن أفادته.

ففي هذه الآية ذكر إتيان العذاب فقيل: المراد به عذاب عاجل عام ينجو منه المؤمنون، والدليل على ذلك: قول الظالمين: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ فهذا يناسب أنهم ما زالوا في الدنيا؛ لأن أهل الآخرة إنما يطلبون الردّ لا التأخير، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام:٢٧] وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ..﴾ إلى قوله: ﴿.. أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ﴾ [الأعراف:٥٣].

أما من كان في الحياة الدنيا فإنه يطلب التأخير، قال تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [المنافقون:١٠] ويشكل على هذا التفسير آخر الآية التي ترد عليهم طلب التأخير ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ لأن هذا العذاب لم ينزل في عهد الرسول ص في وقت نزول الوحي فيقال لهم ذلك الجواب، وبعد وفاة الرسول ص قد انقطع الوحي.

وظاهر الآيتين: أن الله تعالى يجيب عليهم بما ذكر في الآيتين، أما في الآخرة فذلك واقع الاحتجاج عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧] ويشكل عليه ـ أيضاً ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ فإنه إما أن يراد به ما لكم من زوال من الدنيا، أو ما لكم من زوال من بطن الأرض بعد الموت، والأول لا نعلمهم أقسموا أنهم لا يزولون من الحياة الدنيا، وكيف يقسمون وهم مقرون بالموت؟

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] فبقي أنهم أقسموا ما لهم من زوال من بطن الأرض، وهذا قد حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] ولو قال: أقسمتم ما لقوتكم من زوال لساغ تفسيره بأنهم أقسموا لا يزالون في قوة وأنهم لن يغلبوا.

فأما تفسير قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ بنفي ذهاب القوة والعزة فخلاف الظاهر؛ لأن ذلك لا يسمى زوالاً للأشخاص وإنما يقال: زالت قوتهم، فظهر أن قسمهم معناه أنهم لا يبعثون فكأنه قيل لهم ذلك لأنه تكذيب للنذير الذي جاءهم مصحوباً بالبينة، فهو يذكر جريمتهم العظيمة.

فأما قولهم: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ فيمكن أن يطلبوا تأخيرهم في الآخرة ليعملوا، ومعناه: إنظارهم بتأخير العذاب الذي قد أتاهم، وقد نفاه الله بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل:٨٥].

لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): وهذه فيمن ظهر له الحق في الآخرة فأراد أن يستدرك فارط ذنوبه، وليست الآخرة دار توبة فتقبل توبتهم، كما ليست دار تكليف فيستأنف تكليفهم)) انتهى المراد.

وعلى هذا: يكونون طلبوا الإمهال في الآخرة ليعملوا فيها يجيبوا دعوة ربهم ويتبعوا رسله كلهم بدلاً من تكذيبهم كلهم أو بدلاً من تكذيب بعضهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ وهذا خطاب لمن في عهد رسول الله ص أولهم ولمن بعدهم يذكر لهم ما شاهدوا من آثار الأمم الظالمة التي نزل بها العذاب مثل قوم لوط فمساكنهم تذكِّر بهم وبما نزل بهم، وفي ذلك عبرة لهم أي لمن في حياة الرسول ص ولمن بعدهم تدلهم على أن الله لم يهمل عباده وأنه يعاقب المجرمين، كما قال تعالى في سياق إثبات يوم الفصل ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٦-١٨].

وقوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي كيف عذبناهم، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي في القرآن وعلى لسان الرسول ص فقد بيَّن لهم ما يوجب إجابة دعوته واتباع الرسل في الدنيا ولم يقبلوا، وجاءت الأمثال زيادة في إيضاح الحق، مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت:٤١] ومثل قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ..﴾ إلى قوله: ﴿..إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس:١٣-٢٩] ومثل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر:٢٩] وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا..﴾ الآية [النحل:٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ..﴾ الآية [النحل:٧٦].

وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ تُبَدَّلُ

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ **أفادت الآيات الماضية أنهم يعملون ما يوجب عليهم العذاب في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وعطف في هذه الآية بيان بعض ما يعملون، فقال ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ﴾ أي احتالوا لإبطال أمر الرسول ص ودبروا إما قتله وإما غير ذلك من كيدهم.**

﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ لا ينساه ولا يضيع جزاه ولا يهمله بل هو محفوظ في كتاب وفي علمه تعالى ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ لشناعته وقبحه وكونه ضد الحق جملة وضدّ رسالة الرسول جملة يحق له أن تزول منه الجبال إنكاراً له وضعفاً عن تحمله، فقوله تعالى ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ كأنه قيل: وإنّ مكرهم كان لتزول منه الجبال أي أنه سبب لزوالها لولا حفظ الله لها؛ لأن ذلك هو الذي يليق به لشناعته، كقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا﴾ [مريم:٩٠-٩١].

﴿٤٧﴾ ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ **﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ هي مثل ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ وقد مرّت ﴿مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ فهو يتقدس عن ذلك، وكيف يخلف وعده بنصره رسله على أعدائه الماكرين ضد أمره، وهو عزيز لا ينال، وإهمالهم وترك جزائهم ينافي عزته لأنهم سعوا في أرضه فساداً وحاربوه فلم يتركهم يعملون جرائمهم ويمكرون برسوله إلا على شرط أنه ينتقم منهم ويجزيهم بما قدموا جزاء وفاقاً، ولولا ذلك الجزاء ما جاز في عزته وحكمته.**

ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى

فقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ تعليـل لقولـه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي لا تحسبه مخلف وعده؛ لأنه عزيز ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه أي يعاقبهم.

﴿٤٨﴾ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ ظاهر قوله تعالى ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ تبديل الأرض وجعل مكانها غيرها، وحمله على تبديل الأرض بجعل غيرها قراراً لأهلها قريب من ناحية صحة التعبير، ومن ناحية الواقع فأولياء الله يبدلون بها أرض الجنة، وأعداء الله يبدلون بالأرض جهنم، فكانت دار القرار بدل هذه الدار.

وقولـه تعـالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ أي تبـدل، ومـن الجـائز أن تبـدل بقـرار للملائكة غيرها؛ وهذا لأن معنى التبـديل جعـل شـيء بـدل غـيره، كقولـه تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان:٧٠] فقـد كـان جـزاؤهم السيئات لو لم يتوبوا فلما تابوا صار جزاؤهم الحسـنات، فكانـت الحسـنات بدل السيئات لأنها صارت مكـان السـيئات، ولا ينـافي هـذا بقـاؤهم علـى الأرض في موقف الحساب؛ لأنهم يساقون منه إلى الدارين ويحكم في موقف الحساب لكل فريق بدار غير الأرض، وهذا على فرض أن الحسـاب يكـون على هذه الأرض.

يوضح هذا: أن السموات يومئذ تمزّق وتكشط، فليس التبديل في موقـف العرض للحساب وتبديل السموات بسماوات أخرى لا بد منه، ويحتمل أنه المراد وذلك بسماوات الجنة والنار أو الجنة وحدها، أما مفهومه في الآية فهو محتمل؛ لأن تبديل السموات في الآية إن أريد به تبديلها من حيث هـي مقـر للملائكة فتبديلها بخلق مقرّ للملائكة غيرها.

وإن أريد بها تبديلها من حيث هي سماوات بالنسبة إلى الأرض، فتبديلها بسماوات للجنة، أو لها وللنار، أو لهما وللمحشر بعد تشققها وتنزيل الملائكة منها، أو للجنة والمحشر أعني الموقف وحدهما فالله أعلم أيّ ذلك يكون، ولا مانع أن السموات تبدل تبديلاً جامعاً للمعنيين فيكون البدل سماوات مقرّاً للملائكة دار ثواب لهم يصيرون إليها بعد نزولهم إلى الموقف وقيامهم بأعمالهم التي يؤمرون بها في الموقف.

وحاصل هذا الكلام في تبديل الأرض: أنها تبدل بأرض الجنة ودركات جهنم، والأولى أن تبديلها يكون بذلك وبموقف الحساب.

قال القاسم × في تفسير (إذا زلزلت): ((تأويل إخراج الأرض لأثقالها فهو طرحها لما كان عليها من أحمالها ـ ثم قال ـ : وكيف لا تكون مخرجة لهم منها وكلهم فمنتقل إلى دار القرار عنها، وأرض الحياة الدنيا فأرض بائدة فانية، وأرض دار القرار خالدة باقية، ومن أثقال الأرض من في قبورها ومن كان من الموتى على ظهورها فمِن كلٍّ ذلك طائعةً تتخلَّى من قبل أن تبيد وتبلى)) انتهى المراد.

وحاصل الكلام: أن الأرض تتخلى من أهلها بإخراجهم عن ظهرها إلى دار القرار، وفسر × بهذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشقاق:٤] قال × : ((تأويل ذلك: أوحشت الأرض من أهلها وأخلت، فنشر موتاها نشراً، وحشر الموتى إلى الموقف حشراً)) انتهى المراد، فظهر: أن تبديل هذه الأرض يكون بأرض الموقف وأرض الجنة ودركات النار.

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ أي ظهروا في موقف العرض على الله والحساب، برزوا لله ليسألهم ويحاسبهم، ويحكم فيهم بما شاء.

ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ

فإن كان الضمير للناس كلهم أي لأهل هذه الأرض الفانية فهو بيان لحالهم عند تبديل الأرض، باعتبار أولها وخروجهم من هذه الأرض، وإن كان الضمير خاصاً بالظالمين لأن السياق فيهم فهو ابتداء للكلام في إنجاز وعد الله لرسله فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ يبين أنه تعالى هو الذي يسألهم ويحكم فيهم وحده، وأنه واحد غير متعدد، وهو رد على من جعله ثلاثة وتوهم أن عيسى يومئذ يشفع له وأنه شريك لله تعالى في إلهيته، فالآية هذه تقطع طمعهم وتنفي دعواهم التثليث.

وقوله ﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾ فيه دلالة على كثرة قهره وهو غلبته وإذلاله لأعدائه، وقد تكرر منه القهر لهم في الدنيا ويكون في الآخرة أشد وهو القاهر فوق عباده عموماً قهراً مستمراً، فأما المتكرر الذي عبر عنه بمثال المبالغة فالظاهر أنه قهره لأعدائه بتعذيبهم ـ والله أعلم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الذين أجرموا في الدنيا أي فعلوا الجرائم وهم الظالمون كلهم، وقوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي يقرن بعضهم إلى بعض في صفَد واحد.

قال في (الصحاح): ((وقرنت الشيء بالشيء: وصلته به، وقرَّنت الأسارى في الحبال شدد للكثرة، قال الله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن عليه إ) للأصفاد: ((السلاسل والأغلال)) انتهى. وفي (مفردات الراغب): ((الصفَد والصِّفاد: الغل، وجمعه: أصفاد، والأصفاد: الأغلال، قال تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾)) انتهى.

وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ

فأما (صاحب الصحاح) فجعل الأصفاد القيود سواء كانت أغلالاً أم غير الأغلال، وكأنه يجعل الغل خاصاً بقيد العنق، فإنه قال: ((والصفاد: ما يوثق به الأسير من قِدّ وقيد وغُل، والأصفاد: القيود)) انتهى.

﴿٥٠﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم﴾ جمع سربال وهو القميص، والراجح عندي ـ والله أعلم ـ : أن هذا القطران عصارة تخرج من أجسادهم عند احتراقها تسود من النار، فتكون كالقطران الذي يؤخذ من الشجر بواسطة إحراقها، وقد قال تعالى: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ [الحج:١٩] وفي (معلقة عنترة) يذكر إقدامه بفرسه:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولَبانه حتى تسربل بالدم

وقوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إشارة إلى أن أيديهم مقيدة لا يتقون بها عن وجوههم النار مع أنها تغشاهم كلهم، قال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ..﴾ الآية [الأنبياء:٣٩].

﴿٥١﴾ ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي يعذب المجرمين ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ ولا يخص بالجزاء بعض الأنفس؛ لأن الحكمة تقتضي جزاء المسيء بإساءته كما تقتضي جزاء المحسن بإحسانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فلا يغفل عن سيئة ولا ينساها ولا يقصر جزاؤه لأحد على بعض ذنوبه دون بعض ولا يحتاج في علمه بجملة المعاصي ومقدار المستحق عليها إلى نظر وتفكير بل يعلم الجملة كما يعلم كل واحدة من السيئات وحدها وكذلك الحسنات لأنه علام الغيوب.

وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿٥٢﴾ ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ يبْلغهم به الإنذار والتبشير والتحذير من الشرك والضلالات التي هم فيها لتقوم به الحجة عليهم ويخرجوا من الغفلة التي لا يعذب الله أهلها إلا بعد البلاغ، ودليل على الرسول من الله وكل الهدى ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ العذاب الشديد؛ لأن الإنذار به قاطع للعلة من حيث أنه معجز يتبين بإعجازه أنه كلام الله ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ بهذا القرآن ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كذلك لأنه معجز يتبين بإعجازه أنه كلام الله أصدق القائلين، وهو مبطل لزعمهم أن الله يشاء منهم الشرك ويرضاه، وفيه الاحتجاج الكامل لإبطال شركهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ليتذكر أهل العقول ما نسوه مما يهم العقلاء من أمر دينهم وغفلوا عنه من معرفة ربهم وعبادته، فقوله تعالى ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ بيان لمقاصد قصدت بهذا القرآن وأنزله الله لأجلها لشدة حاجة الناس إليها فهو رحمة من الله وفضل على عباده وحجة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

والحمد لله رب العالمين

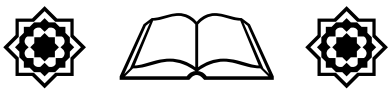

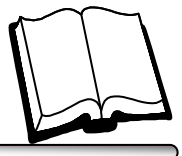

التيسير في التفسير

سورة الحجر

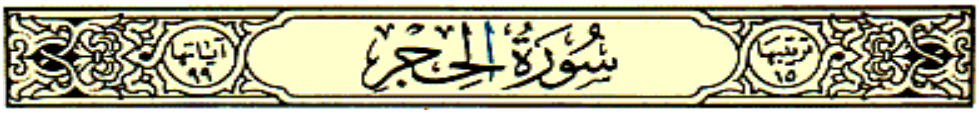

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

تفسير (سورة الحجر)

قال الشرفي: ((مكية باتفاق القراء))

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓرۚ﴾ ذكر كلام في هذه الأحرف التي في أوائل بعض السور في تفسير (سورة المص).

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ إذا كانت الإشارة إلى الأحرف فمعناه فيما أرى والله أعلم أنها أصل آيات الكتاب أوحاه الله إلى نبيه بحروفه ليس مجرد المعنى، أو أوحاه الله بالحروف التي تستعملها العرب في كلامها فليأت الكفار بمثله إن كانوا صادقين والله اعلم، وكذلك مرَّ تفسير الكتاب.

أما قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ فهو عطف صفة على صفة والموصوف واحد كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة في المزدحم

فالقرآن باعتبار أنه يقرأ ويتلى والكتاب باعتبار أنه يكتب ويحفظ بالكتابة.

وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بيِّن الدلالة واضح لا لبس فيه، فهو مفهوم للعرب الذين نزل بلسانهم، وبه تقوم الحجة عليهم في إعجازه وفي إنذاره، وتبشيره بالآخرة والعقاب والثواب.

﴿٢﴾ ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾ قال الراغب: ((رُبَّ لاستقلال الشيء ولما يكون وقتاً بعد وقت)). وقال في (لسان العرب): ((رُبَّ وضعت للتقليل)) انتهى.

﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾

﴿يَوَدُّ﴾ أي يحب ويتمنى في نفسه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالرسول والقرآن المبين الذي علموا أنه معجز يودون في بعض الحالات ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ لأنهم علموا أن الإسلام الحق ورأوا تتابع النصر للرسول ص وإظهار الله لدينه، ولكن هذا خاطر يخطر ببال الواحد منهم ويمنعه حبُّ الدنيا والتعصب للآباء، وهذا التفسير قريب مما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام، وقد تركت نقله لأن فيه غلطاً من الناسخ، فأما في الآخرة فإنهم يتمنون أن يُرَدُّوا ويكونوا مؤمنين محسنين، وودهم لو كانوا مؤمنين كثير غير قليل.

﴿٣﴾ ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ مثل دعهم واتركهم ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ ولعل هذا قبل الأمر بقتال المشركين والمراد أن لا يتعب نفسه في مطالبتهم بالإسلام، وتكرار الاحتجاج والتفكير في وسيلة تحملهم على الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُ﴾ يبين أنهم ليسوا بأهلٍ للنظر الصحيح وتدبر قول الناصح واستعمال العقول؛ لأن همهم الشهوات والأغراض الدنيوية، وليس همهم النظر لأنفسهم إذ قد جاءهم النذير، فهم في الأكل والشرب والإلتهاء بطول الأمل في الحياة وأغراضها واغترار بذلك حتى يموتوا ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ ضلالهم وسوء تدبيرهم لأنفسهم حين يرون العذاب، أو فسوف يعلمون حين يرون العذاب العاجل.

﴿٤﴾ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ من القرى التي أهلكهم الله من قوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أي كتاب لأجلها ﴿مَّعْلُومٌ﴾ حده وقدر مدته أي أن الله لم يهلك قرية قبل أن يجعل لها أجلاً فيه تقام الحجة عليهم وينذرون بالعذاب ويوعظون ويمهلون عرضاً لهم على النظر في النذير وما جاء به من الآيات فكذلك هؤلاء المكذبون المعاندون لم نؤخر إهلاكهم إلا لأجلهم، لا لأنا نهملهم يكذبون بآيات الله ويحاربون دين الله ويعاندون الحق.

﴿٥﴾ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ ما تسبق أي أمة صغيرة أم كبيرة ضعيفة أم قوية ما تسبق أجلها المكتوب لها والأجل هنا موعد هلاكها، فهي لا تسبق إلى الهلاك قبله ونسبة السبق إليها؛ لأنها هي سببت له بأعمالها، ويحتمل ما تسبقه ما تفوته، كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت:٤] وعلى هذا فالمعنى: لا تنجو أمة عند إتيان أجلها ﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ بأن يتأخر هلاكهم عن وقت أجلهم إلى وقتٍ بعده بقوة لهم أو حيلة أو أي وسيلة.

﴿٦﴾ ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ نداء مؤكد بالتنبيه مناسب لدعواهم أنه مجنون، وقولهم: ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ أي القرآن تهكم بالرسول، كقول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء:٢٧] تشابهت قلوبهم.

وقولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ دعوى مؤكد بـ(إنَّ) واللام وجعلها جملة اسمية وهي عناد واضح وجهل فاضح؛ لأنهم في كفرهم واستهزائهم متعرضون لأخذة العزيز المقتدر ومزدادون عذاباً في النار، وكلامهم واضح البطلان؛ لأنهم تكلموا به في أرجح الناس عقلاً وأكملهم حلماً، ونطقه بالحق والحكمة يبين كذبهم وعنادهم.

لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

﴿٧﴾ ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿لَّوْ مَا﴾ بمعنى هلاّ ﴿تَأْتِينَا﴾ فهو حث على أن يأتيهم ﴿بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ إن كان صادقاً في دعواه نزول القرءان عليه وكلامهم مجرد اقتراح بلا حجة؛ لأن صدقه لا يتوقف على أن يأتيهم بالملائكة إنما يتوقف العلم بصدقه على الإتيان بالحجة، وقد أتى بها ولكنهم جحدوا الحق الواضح.

﴿٨﴾ ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بأمر الله، قال تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم:٦٤] وأمر الله لا يكون إلا بما فيه الحكمة، ولم يكن من الحكمة إنزالهم لمجرد اقتراح الكفار الذين ليس لهم حق في نزولهم؛ لأنها تكفيهم الآيات الدالة على أنه صادق ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ لو نزلت الملائكة لما أنظرهم الله بل لعاجلهم بالعذاب.

﴿٩﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ إن الله بعظمته وجلاله وحكمته ورحمته أنزل ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ على محمد، فهو دليل على أن محمداً من الصادقين، وأنه غير مجنون لأن الله الحكيم أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ فهو باق لأنه حجة الله على عباده تولى سبحانه وتعالى حفظه ليكون نذيراً للأولين والآخرين ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى﴾ [البقرة:١٨٥] ولأن الله حفظه فلا يزيد ولا ينقص ولا تبديل لشيء منه ولا تحريف.

ولم يتمكن أعداء الإسلام من تغيير شيء منه بحيث يخفى على المسلمين ويبقى فيه؛ ولذلك لما كتب اليهود ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً﴾ افتضحوا

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ

بسرعة وأزيل ما كتبوه وأظهر للمطلعين عليه كذبهم، وكيف لا وهو مرجع المسلمين وإمامهم وأساس دينهم وبرهانهم.

ألا ترى أن الكعبة لو نقلت من مكانها إلى مكان آخر أو بدلت ببيت آخر ما خفي ذلك على المسلمين ولسارعوا إلى إبطاله وبيان الحق فكذلك القرآن ولم يأت أهل الباطل لتغييره بأي وسيلة، وإنما لجئوا إلى الروايات المكذوبة واتبعها أهل الجهل وتركوا القرآن فضلوا، ولو اعتصموا بحبل الله وتمسكوا بالكتاب ما ضلوا.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي أرسلنا رسلاً من قبلك يا محمد ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ الشيع: جمع شيعة.

قال الشرفي: ((والشيعة: الفرقة إذا اتفقوا على مذهب واحد)) انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): ((والشيعة: من يتقوى بهم الإنسان وينتشرون عنه)) انتهى. وقوله: ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ أي من مضى من الأمم.

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ أي يأتي الشيع ﴿يَسْتَهْزِئُونَ﴾ كما استهزأ الذين قالوا: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ بمحمد ص وهذا يفيد: أن الشيع كذبوا بالآيات النازلة على رسلهم ولم يؤمنوا بهم بل استهزءوا بهم وكذبوهم.

﴿١٢﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿نَسْلُكُهُ﴾ ندخله أي ندخل الذكر الذي هو القرآن ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذي قابلوه بالإجرام والعناد فكما أرسلنا ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ لإقامة الحجة عليهم وكذبوا رسلهم أنزلنا القرآن ونسلكه في قلوب المجرمين لتقوم به الحجة عليهم بمعرفة قلوبهم له.

وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

﴿١٣﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ نسلكه في قلوب المجرمين حال كونهم لا يؤمنون لأن كونهم لا يؤمنون به لا يمنع إقامة الحجة عليهم، كما قال تعالى في (سورة الزخرف): ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الأَوَّلِينَ﴾ [آية:٥-٨].

قال الشرفي في (المصابيح): «وفي هذه الآية يقول الهادي × : معنى ﴿نَسْلُكُهُ﴾ فهو ندخله ونثبته في قلوبهم حتى يوقنوا به ـ وتثبيته له في قلوبهم فهو الحجة النيرة البالغة نزلها مع نبيه ص حتى يثبت بها الحق عليهم وتشهد عقولهم أنه حق، فإذا كابروا بعد إثبات الحق نزل بهم العذاب، وذلك قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

وأما قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهو منهاجهم وسبيلهم، والمعنى الذي هلكوا به فهو التكذيب بآيات الله» انتهى.

وقوله: (فهو) لعل الأصل (وهو) التكذيب بآيات الله يعني أنه سنة الأولين، والأرجح: أن سنة الأولين سنة الله في الأولين؛ لأنه تعالى قد ذكر استهزاءهم برسلهم ولم يذكر هلاكهم، ولو كان المراد بسنتهم طريقتهم في التكذيب لكفى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وإذا كان المراد بسنة الأولين سنة الله فيهم كانت فيه فائدة جديدة، وهذا المعنى حكاه الشرفي عن (البرهان) أحد احتمالين: الأول: هذا، والثاني: «لا يؤمنون برسلهم» انتهى.

وعلى كون سنة الأولين إهلاكهم قرناً بعد قرن وأمة بعد أمة، تكون هذه الآيات مثل الآيات من (سورة الزخرف) ففيها تسلية لرسول الله محمد ص وتخويف للمكذبين به.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي أنهم معاندون مستمرون فلو فتح الله باباً من السماء فوقهم يقابل جهتهم ومكانهم ليصعدوا فيه ﴿فَظَلُّواْ﴾ الظلول في النهار فهم فيه يصعدون في ضياء النهار حين يرون السماء وآياتها التي لم يكونوا يرونها من الأرض، و(العروج): الصعود إلى جهة فوق.

﴿١٥﴾ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ أي لجحدوا طلوعهم في باب السماء ونفوا الرؤية له، وقالوا: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا﴾ وخيِّل لها ما يخيَّل للسكران.

قال في (الصحاح): ((والمُسَكَّر: المخمور)) انتهى.

هذا المعنى هو المناسب للسياق، وقد حكى الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم × أنه قال: ((أراد ـ عزّ وجل ـ بهذا القول أنهم كابروا عقولهم، فهم لا يوقنون حتى لو أطلعهم إلى السماء لقالوا: ما طلعنا، ولكن سكرنا حتى عميت من السكر أبصارُنا، ولكن قد خدعنا وسحرنا حتى أعمينا وسكرنا)) انتهى.

وتفسير السكر: بأنه أدى إلى تخيل غير الواقع أولى من تفسيره بأنه أدى إلى عمى البصر ونفى الرؤية بالكلية، وهو المناسب لقوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ فإن السحر يؤدي إلى تخيل خلاف الواقع، قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:٦٦] وكذلك السكر.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

قال الشاعر يصف السكر:

كـأن الديـك ديـك بني نمـير أمـير المـؤمنين علـى السـرير

﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ﴿بُرُوجًا﴾ منازل الشمس والقمر، وفيها دلالة على الخالق القادر العالم؛ لأن الشمس تنزل فيها بتوقيت وتحديد محكم لا يتغير كما تتغير الساعة المصنوعة بل هو باق على إحكامه ونظامه لفصول السنة على طول الزمان، تنـزل الشمس في البروج فتقطع كل برج في شهر، وتقطع البروج الإثني عشر في سنة، والقمر يقطعها في شهر.

وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾ أي وزينا السماء للناظرين إليها فهم إذا نظروا إلى السماء فوقهم رأوا زينتها التي هي الكواكب، وفي هذا دليل على قدرة الله وعلمه؛ لأن صنع الكواكب فيه آيات منها كثرتها وكونها مشرقة وكونها مسخرة في سيرها على نظام محدود ولا تتصادم ولا تتغير أشكالها التي بها تعرف وتسمى بأسمائها حتى تعرف بها الأوقات كما تعرف بالساعة المصنوعة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿١٧﴾ ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ أي وحفظنا السماء ﴿مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ يرجم بالكواكب إذا طلع لاستماع ما تقول الملائكة ليبلغه إلى الكاهن ليدعي علم الغيب ويعتقد فيه ذلك فحفظ الله السماء منهم برجمهم بالشهب.

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا

﴿١٨﴾ ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ الإستراق: الأخذ بخفيه لما يخطفه الشيطان، وهذا بتمكين الله لهم ولو شاء ما غفل الحرس عنهم لحظة واحدة، وفي آية: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠] فهي خطفة يخطفها بسرعة فيطرده الشهاب وهو شعلة من نار.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ يراه الناس في الليل حين ينزل بسرعة، ولعل الكواكب لا تزال مشتعلة كالشمس فتؤخذ الشعلة منها من نارها أو هي تنقدح وتؤخذ منها بالقدح والله أعلم، وفي نزول الشهاب آية تدل على فاعل الرمي بها من فوق إلى أسفل، ولولا ذلك لكان من شأنها أن تصعد كما نرى النار تصعد، ونسب الإستراق إلى السمع، لأن غرض الشيطان سمع كلام الملائكة، وحرس السماء تمنع الشياطين من دخولها ومن الحصول بحيث يسمعون الملائكة، لكن يسترق الشيطان السمع خلسة فينتبهون لَه ويرمونه بالشهاب بعد أن قد خطف الخطفة.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ أوسعنا ساحتها وأطولنا مسافاتها وكأنه تشبيه بمد البساط وفرشه تعبيراً عن سهولة ذلك في قدرته، أي جَعلها عظيمة واسعة، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ والرواسي: هي الجبال الراسيات كأنه تعالى ألقاها في الأرض إلقاء؛ لأنها متخللة للأرض راسبة أسافلها في الأرض، وإلقاء الشيء طرحه بلا إمساك لَه حتى يقع، فقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ تمثيل بطرحها مع ثقلها بحيث ترسخ في الأرض.

عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ

وقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ أي أنبتنا في الأرض من كل زوج كريم بمقدار محدود، فذكر سبحانه دلائل قدرته وعلمه بخلق السماء وبالبروج وتزيينها بالكواكب وبخلق الأرض ومدّها وإلقاء الجبال الرواسي فيها وإنبات نباتها الذي هو نعمة للإنسان وغيره وجعله بمقادير محدودة في علمه وحكمته.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ ما به تعيشون وتبقون في الحياة حتى تموتوا أو تقتلوا، وذلك الطعام والشراب واللباس والفراش والمساكن والهواء الذي يحيى فيه الإنسان بالتنفس والأدوية وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ جعلنا لكم في الأرض من لستم له برازقين والأقرب أنهم الحفظة فهم يحفظوننا ولا نرزقهم، وقد فسر بالخدم من العبيد والأولاد، ويشكل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ [النساء:٨] فالإنفاق عليهم رزق في اللغة ونفيه مجاز.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ لما ذكر سبحانه المعايش في الأرض وهي مقدرة يبتلى فيها الإنسان بالسعي وبالإقلال في بعض الحالات بيّن تعالى أن عنده خزائنها فلم يقدّرها لقلتها في خزائنه إنما قدرها لحكمة في التقدير، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧] فقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ وهذا عام لكل شيء من مخلوقاته تعالى فهو في خزائنه لا ينفد، والراجح أنه تمثيل وأن المراد أن في قدرته الزيادة على ما خلق بلا حد بدون أي مشقة حتى كأنه موجود ينزّله متى شاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي بتقدير أو مقدار معلوم على ما تقتضيه الحكمة، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى:٢٧].

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ تثير التراب فيبلغ الجو فيصير سحابا يتولد فيه الماء الذي ينزله الله من السماء، أي من الجو الذي هو في جهة فوق، قال في (شرح المعلقات السبع) في شرح قول زهير يحذر من الحرب:

فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتَلقح كِشافاً ثم تُنتَج فتُتئم

اللقح، واللقاح: حمل الولد، ثم قال (الكشاف): ((أن تلقح النعجة في السنة مرتين)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((يقال: لقِحَت الناقة، تَلْقح لقحا ولَقَاحاً، وكذلك الشجرة، وألقح الفحل الناقة، والريح السحاب، قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي ذوات لَقاح وألقَح فلانٌ النخلَ ولقّحها)) انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): ((ألقحَ الفحلُ الناقة، والريح السحاب، ورياح لواقح، ولا يقال: مَلاقح وهو من النوادر، وقد قيل: الأصل فيه ملقحة ولكنها لا تُلقِح إلا وهي في نفسها لاقح، كأن الرياح لقحت بخير فإذا أنشأتِ السحابَ وفيها خير وصل ذلك [الخير] إليه)) انتهى.

قلت: هذا تفسير لـ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جيد لا تكلُّفَ فيه، والريح اللاقح بالخير تقابل الريح العقيم، وقوله تعالى ﴿لَوَٰقِحَ﴾ مطلق يصلح تفسيره بكل ما فيها من الخير أصل المطر ولقاح الشجر أوهما وغيرهما.

تُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ

وقوله تعالى: ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ يبين نعمة المطر المهمة فهو عذب يشرب منه الناس وأنعامهم وأشجارهم ومراعيهم ففيه يعيشون من حيث أن شرب الماء ضروري للإنسان، ومن حيث أن الماء ينبت الزرع وغيره مما فيه طعام الإنسان الضروري أيضا للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ إما معناه: أن الله أنزله من خزائنه وما لكم خزائن تنزلوه منها متى شئتم فالنفي متوجه إلى ما قبل إنزال المطر، وإمّا ما أنتم له بخازنين بعد نزوله لأن الله هو الذي يخزنه لكم في بطن الأرض ويخرجه لكم ينابيع من الآبار وغيره، وهو الذي هيأ لكم آلات خزنه في الخزانات سواء منها ما بني كالسدود أو حفر في الأرض وجعل لَه ما يحفظ فيه الماء من الإسمنت وغيره، فهو الذي خلق المواد لحفظ الماء وهي الأصل في حفظه.

والأقرب عندي الوجه الأول لأن النفي في الثاني مجاز؛ لأنه في اللغة العربية ينسب إلى صاحب الخزان حقيقة إذا جعل الماء فيه ليدخره وهذه الآيات المذكورة قد أفادت دلائل تدل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله على عباده من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ فهي تدل على أن الله تعالى قادر على البعث والنشأة الآخرة وما فيها.

﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ وهذه من دلائل قدرته تعالى على الحياة الآخرة أيضا، وقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ أي لما خلقنا من السموات والأرض وغيرهما أي أن الناس سيهلكون ويبقى الله مالك العالم كله، فهو المالك للعالمين المتصرف فيهم كيف شاء لا شريك له.

خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ ﴿مِنكُمْ﴾ خطاب للأحياء فالمستقدمون منهم السابقون، والمستأخرون التابعون، والسين تناسب حمله على التقدم الإختياري والتأخر الاختياري كأن المستقدم طلب التقدم والمستأخر طلب التأخر، وهو صالح لكل متقدم في أي أمر اختياري، وكل متأخر في أي أمر اختياري، ولكن يناسب السياق المتقدم في العمل الصالح، والمتأخر فيه ليشير إلى أنه تعالى لا يضيع عمل متقدم ولا متأخر؛ ولذلك فهو يحشرهم ويجزي كلاً بقدر عمله.

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ وحده لايشاركه شركاء المشركين ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فمن حكمته أن يحشرهم: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] ولعلمه بالمحسن والمسيء وعلمه كيف يعيدهم وعلمه بالحكمة في جزائهم وعلمه بمقادير ما يستحقون من الجزاء وغير ذلك.

والضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ للناس كلهم، وبهذا تم الاحتجاج على قدرته تعالى على البعث وتقرير أنه سيكون، وبعد هذا قصة خلق آدم ومعصية إبليس ووعيد من اتبعه بجهنم وهي أيضاً من دلائل الآخرة؛ لأن الله تعالى لا يترك إبليس ليغوي الناس وهو لا يجازيه ولا يجازي من اتبعه؛ لأنه حكيم فلا بد من الجزاء كما قرره تعالى في آخر القصة.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي بدأنا خلق الإنسان من طين، فالإنسان في الجملة خلق من طين؛

لأنه أصله كله والصلصال قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالصلصال: اليابس الذي لم تصبه نار، فإذا نُقِر صَلّ أي صوّت والـ﴿حَمَإٍ﴾ الطين الأسود المتغير)) انتهى.

ويدل على صحة ما فسر به الصلصال قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن:١٤] فأصل الإنسان طين قد يبس، وهذا الطين من حمإ، والحمأ يكون في أسفل الماء يتغير لطول مكثه في الماء، ولعل سَنّه إجالته من جهة إلى جهة كأنه صب من جهة إلى جهة ليصير لازباً متيناً صالحاً لبناء جسد آدم منه كما يسن الحديد بإمراره على المسن، أوصبه بإجالته وهو رقيق من جهة إلى جهة.

قال في (شرح الشيخ محمد عبده) على قول الإمام علي × في (صفة خلق الإنسان): ((تربة سنها بالماء حتى خلصت، ولاطها بالبلَّة حتى لزبت)) قال في شرحه: ((سنّ الماء: صبُّه، والمراد صبّ عليها أو سنّها هنا بمعنى ملّسها، كما قال:

ثم خاصرتها إلى القبّة الخضراء تمشي في مَرمَرٍ مسنون))

انتهى.

والراجح: أن علياً × أراد سنّها، أي التربة أسالها بالماء من بين الحصى ونحوه، وذلك أن الماء امتزج بها فسالت معه خالصة من الحصى ونحوه، ثم صفا الماء برسوب التراب من بينه في أسفله وصار حمأ، وهذا هو المناسب لترتيب الكلام.

فأما تفسيره: بالمتغير المنتن، فلعله تفسير قوله تعالى: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي تفسير الحمأ المسنون لا المسنون وحده، فظن بعض المفسرين أنه تفسير المسنون وحده، وأنا أستبعده؛ لأن المسنون (اسم مفعول) والمتغير المنتن (اسم فاعل) فكان مظنة أن يقال: متسنن أو متسنّه، أي متغير بمر السنين تغير ونتن بمرور السنين عليه.

فالحاصل: أن الراجح: أنه مسنون بمعنى ممتَّن بسَنّه وإجالته من جانب إلى جانب، كما قال الإمام علي × : ((ولاطها بالبلَّة حتى لزبت)) وكقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِبٍ﴾ [الصافات:١١] في لَوط الجدار [أي تليوسه] بالإسمنت ـ والله أعلم.

فأما فائدة قوله تعالى: ﴿مَّسْنُونٍ﴾ فعلى الوجه الأول: ظاهر لأنه يصير متيناً بإجالته، وعلى الثاني تعبير عن ضعفه بكونه سائلاً لم يكن يستمسك قبل العمل فيه، وأما على ما روي عن أمير المؤمنين × ففائدته: بيان أنه طين خالص لا يشوبه حصى ولا غيره، ويحتمل: أنه كان يجال الحمأ وهو رقيق حتى يصير متيناً، ثم يصب في مكان نظيف لا يعلق به شيء منه، فيجعل صورة إنسان يحفظ مكانه عن أن يسيل بحيث تتغير الصورة، فإذا صلب صب الحمأ عليه مرة أخرى حتى صار ذا حجم كامل مجوف، ثم ترك حتى صار صلصالاً قوياً يرنّ رنيناً إذا نقر وأعد لنفخ الروح بالتسوية المناسبة ثم نفخ فيه الروح ـ والله أعلم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ الجانّ: مقابل الإنسان اسم للجن إلا أن الفارق أن الجن اسم جمع والجان مفرد كالإنسان، ولذلك قال: ﴿خَلَقْنَـٰهُ﴾ بالإفراد للضمير، وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل خلق الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ هي نار شديدة الحر يكون منها سموم حر شديد في الهواء المجاور لها يدخل في المسام للطافته، وذكروا أن ﴿ٱلسَّمُومِ﴾ هو الريح الحارة وهو يفيد: حر الهواء الحار أعم من أن يكون ريحاً أولا؛ لأن السبب شدة حر النار بل حر الهواء الساكن أشد من حر الريح؛ لأن الساكن أطول مجاورة للنار الشديدة الحر، والنار المذكورة في الآية هي اللهب، كما قال تعالى: ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن:١٥].

مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن

﴿٢٨﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أخبر الله تعالى الملائكة بأنه سيخلق إنساناً من الأصل المذكور، قال الراغب في (مفرداته): ((وعبّر عن الإنسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر..)) إلخ.

﴿٢٩﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ جعلته سوياً صالحاً لنفخ الروح فيه وبقائه حياً، ولعل معنى ذلك تصوير القلب والدماغ وسائر ما يعيش به كالعروق والدم والعصب ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ جعلت فيه الروح، والتعبير بالنفخ دلالة على سهولة جعله كأنه مجرد نفخ، أو أن نفخه بسطه ونشره في جسد آدم بعد بلوغه القلب، كما تنفخ النار لتنتشر في الوقود ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ وإضافة الروح إلى الله لشرفه من حيث يحصل به العقل والحواس، ويحصل فيه العلم والقدرة والإرادة وقدرة الكلام وآلة الكمال؛ ولأن الله تعالى هو المالك للروح المعطى لَه وإذا شاء أخذه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا۟﴾ (الفاء) رابطة جواب (إذا) وقوله: (قعوا) أمر من الوقوع في المكان بعد الطيران أو السير، ويقال: وقع إذا سقط فوقع على الأرض، وللوقوع معنى الحصول في غير هذا السياق.

وقوله تعالى ﴿سَٰجِدِينَ﴾ خاضعين تكريماً لآدم × من حيث هو آية الله بكمال خلقه وعلمه؛ ولذلك أنِف إبليس نعوذ بالله منه، وقال: ﴿هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء:٦٢] وهو غير سجود العبادة لآدم بل هو سجود تكريم لآدم وطاعة لله تعالى، ومن حيث هو طاعة لله تعالى هو عبادة لله، وقد مر كلام في السجود ليوسف × .

يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾

﴿٣٠﴾ ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ أي سجدوا لآدم لعلمهم أن الله حكيم وأن ذلك حق وصواب لأمر الحكيم به.

﴿٣١﴾ ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿أَبَىٰٓ﴾ امتنع بشدة، قال الراغب: ((الإباء: شدة الامتناع)) انتهى.

ولشدة امتناعه من السجود امتنع وأنف من أن يكون مع الساجدين، وذلك كان أهون عليه مما لو كان مأموراً بالسجود فسجد وحده، بل كأنه خطّأ الملائكة في سجودهم لآدم، ولذلك أبى أن يكون معهم سواء تخطئة عقلية يزعمها أو تخطئة نفسية، فالآية تبين ما في نفسه من الإباء والأنفة من السجود لآدم والرفض له.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ أي قال الله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ﴾ ما شأنك وما حالك في أن لا تكون مع الساجدين أي ما منعك من أن تكون معهم، وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ حال، أي مالك في حال كونك لست معهم وهو سؤال يستثير كامنه المانع من السجود.

﴿٣٣﴾ ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ ﴿لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ ليس ذلك يليق بشأني أي أني أكبر من أن أسجد له وأرفَعُ قدراً، وعلق ذلك على كون آدم بشراً من صلصال من حمإ مسنون، فنظر إلى أصل آدم وتناسى أنه قد شرف بخلقه ونفخ الروح فيه، وما صار لَه من العلم وأنه بذلك قد صار خلقاً آخر، فقد صرح باستكباره ومعصيته لربه واعتراضه على حكمه.

قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ

﴿٣٤﴾ ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ أخرج منها فهي مسجد الملائكة: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣] والراجح: أنه كان في السماء فطرد منها ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ترجم بالشهب كلما حاولت البقاء أو الرجوع فيها.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ اللعنة هنا: الطرد من الرحمة بسلب التوفيق للتوبة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٨٨] فهو يبقى في كبره وإصراره إلى يوم الدين يوم الجزاء الذي هو يوم حساب ولا عمل، فلا تقبل فيه توبة ولا تنال رجعة إلى التكليف بالتوبة ولا إنظار للتوبة والعمل.

والحاصل: أنه يوم الدين لا يكون إلا للدين الذي هو الجزاء، ومعنى ذلك: أنه يصير في يوم الدين وهو ما زال في معصيته مستحقاً لجزائها الأوفى، وقد مر بيان: أن إبليس قد كان صار من الملائكة، وإن كان أصله من الجن وأنه لا تعارض بين ذلك.

﴿٣٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ تفريع على اللعنة إلى يوم الدين، فيترجح به قول القاسم بن علي العياني × : إنه طلب الإنظار بمعنى تأخير العذاب عنه إلى يوم الدين.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام القاسم بن علي العياني × : وإنما سأل إبليس بالنظرة بالعذاب الذي علم أنه قد استحقه فأنظره الله جل اسمه إلى يوم البعث ولم يكن استنظارُ اللعين من موت؛ لأن الجن معمرون خلقهم جميعاً ويميتهم إذا شاء جميعاً)) انتهى.

يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لإبليس: ﴿فَإِنَّكَ﴾ تفريع على سؤال لا إجابة له إلى ما طلب بسبب دعائه ولكن تفريع لإخباره بأنه ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ وفي (سورة الأعراف): ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [آية:١٥].

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ أي أنه يوم مؤجل يكون في وقت معين في علمه تعالى لا يتأخر عنه وليس مؤجلاً بدون حد معين ولذلك فأجله تنقصه الأيام والليالي بمرورها، كما قال طرفة:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ وما تنقُصِ الأيام والدهر ينفَدِ

وقد قال بعض المفسرين إن المراد بالوقت المعلوم وقت ظهور الحق في الأرض وامتلائها عدلاً كما ملئت جوراً، فهو عنده في ذلك الوقت قد انتهى إنظاره وأطاع الناس كلهم، وهذا عندي بعيدٌ؛ لأن الظاهر أن اليهودية والنصرانية باقيتان إلى يوم القيامة، لقول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة:٦٤] وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة:١٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧] ولا موجب للتأويل؛ لأن الظاهر من العدل العدل بين العباد، كما أن الظاهر من الجور الجور بينهم، مع أن الظاهر في الحديث من الضمير في ((يملأها عدلاً)) غير محقق؛ لاحتمال أن المراد بلاد الإسلام أو بلاد العرب أو المسكونة في وقت الرسول ص ولو سلم أنها الأرض كلها، فظهور الحق بغلبة أهله وقهر أعدائه، وتسليم أهل الكتاب للجزية، وحكم الإمام بينهم بما أنزل الله ـ والله أعلم.

وعلى هذا: فإنظار إبليس إن كان تأخير عذابه فإلى يوم القيامة، وإن كان تأخير موته فاليوم المعلوم يوم هلاك العالم أول القيامة أو بعده قبل إحياء الموتى ـ والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

﴿قَالَ﴾ إبليس يا ﴿رَبِّ﴾ بسبب أن ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ أقسم ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ في قوله: ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ احتمال: أنه يعني أن الله أغواه لأنه كلفه السجود وهو يعلم أنه لا يسجد فكأنه يقول حملتني على الغواية حين أمرتني بما لا أستطيع لأن نفسي تأباه ولا تطاوعني عليه فهو قريب من المستحيل وكذب عدو الله فهو لو عرف ربه وأذعن لحكمته وأذعن لربوبيته لسهل عليه الأمر ولكنه استكبر واعترض على حكمة الله فغوي هو، ولو كان أمرَه بما لا يستطيع لما استطاع الملائكة السجود لآدم.

فقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ..﴾ إلى آخره، كالوعيد بالانتقام من آدم وذريته؛ لأنهم بزعمه كانوا سبب غوايته أو كالوعيد بصرفهم عن عبادة الله التي خلقهم لها وعن شكرهم لنعمة الله الذي يريده الله منهم كأنه يقول: بما أغويتني لأفسدن عليك عبادك، ولأصرفنهم عن عبادتك وشكرك، كأن عدو الله يتخيل أنه بذلك يفوّت على ربه حاجة فيهم، وذلك غاية المحادة لله والعناد الذي يستطيعه، وهو بذلك يحقق اللعنة عليه، واحتمال أنه يعني الإغواء بلعنته إلى يوم الدين أو بمجموع ذلك؛ لأن غوايته استمرت من حين استكبر عن السجود لآدم وعزم على الإباء منه، فهي غواية مستمرة دخل في أولها ويبقى فيها إلى يوم الدين.

وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الأولى حمله على ظاهره فإن بني آدم يقتتلون تارة على الأرض الحرث، وتارة على الأرض التي هي مرتع للأنعام، وتارة على المحاجر التي فيها حطب أو غيره، وذلك تابع لحبّهم

صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ

للأراضي، وهو تابع لتزيين الشيطان لهم، وقد حملت على الظاهر قول الله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٧٦] بل قد قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ..﴾ إلى قوله: ﴿.. وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران:١٤] فظهر: أن تفسيره بالظاهر أرجح.

وقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي لأغوين آدم وذريته أجمعين.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناهم لأنه يعرف عجزه عن إغوائهم، والمخلصون: هم الصالحون الثابتون في الإيمان والتوكل، بدليل قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٩٩] أخلصهم الله بهدايته، فذهبت عنهم أسباب المعاصي التي هي العيوب الباطنة، كالحسد الشديد، والكبر، والبخل، وسائر العيوب التي يدخل بها الشيطان على الإنسان، فإبليس يقسم ليغوينهم إلا المخلصين الذين هم عباد الرحمن الذين عبّدوا أنفسهم لله وأذعنوا بالعبودية وعلى زعمه لا يكاد ينجو منه إلا المعصومون.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ ظن أن له سلطاناً عليهم كلهم إلا المخلصين، فردّ الله عليه أوّلاً بأن عجزه عن إغواء المخلصين طريقٌ حكم الله بها وكتبها على نفسه؛ لأنهم بصبرهم وإيمانهم وإحسانهم استحقوا من ربهم الألطاف، والتوفيق، وزيادة الهدى، فلا سبيل عليهم لإبليس، وثانياً ردّ الله عليه توهمه أن له سلطاناً على سائرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي كلهم المخلصين وغيرهم.

لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ

﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فالناس ثلاثة أقسام ذكر الله له قسمين: قسم المخلصين أفاده بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ وقسم المتبعين لإبليس من الغاوين فله سلطان عليهم، وطوى القسم الثالث الذين ليس لإبليس عليهم سلطان ولا هم من المخلصين، وهم الذين ﴿لَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا خلاف قول إبليس؛ لأنه جعلهم قسمين: المخلصين، وغير المخلصين، فأقسم ليغوين غير المخلصين، وكأنه توهم أن له سلطاناً على غير المخلصين كلهم، وهو إن أغوى بعضهم فتابوا ليس له سلطان إلا على المتبعين له الذين لا يتوبون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ * وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١-٢٠٢] فجعل إخوان الشياطين هذا القسم الأخير.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ موعد الغاوين المتبعين لإبليس أي المكان الذي وعدهم الله أن يجعلهم فيه، وقوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ يشير إلى كثرتهم وتنوعهم في اتباع إبليس.

﴿٤٤﴾ ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ لجهنم ﴿سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ ويجزّئ الله أهلها أجزاء ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بقسمة الله تعالى ويدخله من باب معين له وذلك يشعر باختلاف شدة العذاب في جهنم وأنه تابع لاختلاف الأبواب.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿جَنَّاتٍ﴾ في الجنة وهي البساتين التي أشجارها تغطي أرضها وعيون ماء يسقي الجنات فهي خضراء أبداً، ويجتمع جمال الجنات وجمال الماء الجاري تحتها، ويحتمل عيون ماء وغيره.

سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ

﴿٤٦﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ كأنه يقال: لهم ادخلوها، أي الجنات ﴿بِسَلَـٰمٍ﴾ مصحوبين بسلام، أي سالمين من كل شر وكل منغص و﴿ءَامِنِينَ﴾ لكل شر وكل منغص.

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾

﴿وَنَزَعْنَا﴾ حاصل معناه: أخرجنا وأذهبنا، وعبارة (النزع) تشعر بتمكن ما في صدورهم حين كانوا في الدنيا من غل. في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: من عداوة)) انتهى، وهي: الحقد، والبغض الشديد الباعث على ضر المبغوض. وفي (الصحاح): ((والغِل ـ بالكسر ـ الغِشّ والحقد ـ أيضاً ـ وقد غَلَّ صدره يغِل بالكسر غِلاً، إذا كان ذا غش أو ضِغْن وحقد)) انتهى.

قلت: والراجح: هوا لمعنى الثاني؛ لأن المؤمنين لا يغشّون أما الحقد فيمكن أن يقع وهو يؤذي صاحبه فصدور أهل الجنة سليمة منه ليستريحوا منه، وهو يحتمل الحقد على الظلمة أهل النار. ﴿إِخْوَٰنًا﴾ متآلفين لا متنافرين ولا متقاطعين، ولعلها الأخوّة في الله ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ على سرر متكئين على سرر متقابلين يُواجه بعضهم بعضاً، وهذا مرغوب بين المتحابين ليرى بعضهم بعضاً.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : يتقابلون الدهر جميعاً، وإنما هذا عند زيارتهم لإخوانهم ومجالستهم لأصحابهم)) انتهى.

قلت: الراجح: أن لهم سرراً معدة للتقابل، فأما التحول عن السرر، فلا مانع منه لغرض آخر، ويمكن أن لهم سرراً للتقابل، وسرراً لغيره من أغراضهم، فالآية لا تمنع من ذلك؛ لأن سرراً نكرة لا تعم السرر، وكذلك يتحولون إذا مشوا أو ركبوا أو نحو ذلك.

﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ

﴿٤٨﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿نَصَبٌ﴾ أي تعب من العناء، وهذا بخلاف جنات الدنيا فأهلها قد يصيبهم تعب من العمل فيها لإثارة الأرض مثلاً؛ لأنهم إذا لم يعملوا فيها فقد تضعف ويقل ثمرها وفي الأخير لا تثمر.

وقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ أبلغ من: لا يصيبهم فهي تنفي أدنى تعب يلحقهم ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي باقون فيها أبداً وهذا النفي مؤكد بـ(ما) و(الباء).

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أمر الله رسوله ص أن ينبئ عباده بهذا النبإ العظيم، قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): ((النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن..)) الخ.

فتحصل: أن النبأ: هو الخبر المهم، ومنه قول امرئ القيس:

تطاول ليلك بالإثمد وبات الخلي ولم ترقد

إلى قوله:

وذلك من نبأ جاءني وخُبِّرته عن بَني الأسود

وقوله تعالى: ﴿عِبَادِيٓ﴾ يعم الجن والإنس، والمراد أن يبلغهم أن الله تعالى يرحم أولياءه ويقبل التوبة عن عباده ليتوبوا ولا يقنط مَن قد أسرف في العصيان، وأن يبلغهم أن عذاب الله ﴿هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ ليتقوه وليعلموا أن رحمته لا تنافي عذابه؛ لأن رحمته لها أهل وعذابه له أهل وهم المجرمون الذين ماتوا مصرين.

أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا

﴿٥١﴾ ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أضيافه الذين هم الملائكة الذين قرب لهم العجل الحنيذ.

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ هنا اختصر الكلام، وقد مر في (سورة هود) تفصيل القصة، وأنه أجاب سلامهم، وأنه نَكِرَهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى العجل، فيؤخذ من هذا أن الشيء قد لا يذكر وهو واقع فلا يدل عدم ذكره على عدمه، وقوله: ﴿وَجِلُونَ﴾ أي خائفون؛ لأنه لم يكن قد عرف أنهم ملائكة، وأنكر تركهم للأكل من ضيافته.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ أي رسل من الله ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ يولد لك ﴿عَلِيمٍ﴾ يبلغ درجة العلم وهو غلام وعليم يفيد كثرة علمه؛ لأنَّ صيغته من المثال.

قال الشرفي في (المصابيح): «إنا نبشرك بغلام عليم عظيم العلم» انتهى، هو يفيد: أن إبراهيم × يعيش حتى يبلغ ابنه أن يكون غلاماً، قال الراغب في (المفردات): «الغلام: الطارّ الشارب» انتهى، يعني الذي قد نبت شاربه.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ سؤال عن تبشيرهم له بغلام فهل هذه البشارة على ما هي عليه من تبشيره مع كبره؟ أو هم يبشرونه بالتحول عن هذه الحال التي جرت عادة الإنسان أن لا يلد وقد صار فيها ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾؟ مع تبشيري بالغلام، أتبشروني برجوع القوة؟ أم بماذا تبشرونني حتى أصلح لأن يكون لي غلام؟

ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا

فحاصل سؤاله × عن البشرى: أهي على حاله هذه مجردة؟ أم يضاف إليها بشارة أخرى تصيره صالحاً لأن يكون منه ولد؟ومعنى هذا: استبعاد أن يكون لَه ولد وهو على حالته هذه، فأجابوه: بدفع الاستبعاد، وهو قرينة أنهم أرادوا أنه يكون له ابن وهو على حالته هذه من الضعف بسبب الكبر.

﴿٥٥﴾ ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ فهو الحق أنه يلد لك وأنت على هذه الحال رحمة من ربك، فلا تقنط من رحمته.

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ فلا أقنط لأني قد عرفت الله وعلمت أنه على كل شيء قدير، وأنه الرحيم ولا يقنط من رحمة ربه إلا الضالون عن طريق الحق.

﴿٥٧﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم × ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وما مهمتكم التي أرسلتم بها.

قال الراغب في [تفسيره (للمفردات)]: ((والخطب: الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب)) انتهى.

قد عرف إبراهيم × أنهم جاءوا لمهمة عظيمة لا لمجرد البشرى، فسألهم عن ذلك الأمر العظيم ما هو؟

﴿٥٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ قال الملائكة (عليهم السلام): ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يفعلون الجرائم لنعذبهم، أي إلى قوم لوط.

﴿٥٩﴾ ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ لوط وأهله.

ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾
قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ

﴿٦٠﴾ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ﴿قَدَّرۡنَآ﴾ قدر الله أي كتب وحكم عليها بالهلاك مع الهالكين والغابرين هنا بمعنى الماضين في الهلاك، والإتيان بضميره تعالى في ﴿قَدَّرۡنَآ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه:٥٣] ولعل سببه أن كلام الملائكة عليهم السلام عن الله تعالى، فناسب أن يأتي الله بالضمير؛ لأن الحاكي هنا يحكي حكايتهم عنه.

وأما (صاحب الكشاف) فجعل الضمير في ﴿قَدَّرۡنَآ﴾ للملائكة قال: فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا: قدَّر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك دبرنا كذا أو أمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصَهم، وأنهم لا يتميزون عنه)) انتهى.

والراجح عندي: هو الأول، وأن الأصل قدر الله إلا أن الله حكاه، فناسب أن يقول: ﴿قَدَّرۡنَآ﴾ بضميره تعالى؛ لأن المثال الذي ذكره يبعد تطبيقه على الملائكة عليهم السلام؛ لأن شأنهم التعبد لله، لا رفع أنفسهم إلى درجة الوزراء له تعالى.

﴿٦١-٦٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾
﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ الملائكة المرسلون لتعذيب قوم لوط، قال لوط لهم ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وكانوا في صورة بشر، ومعنى ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ضد المعروفين والإنكار نفار قريب من الوحشة.

﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود:٧٠] وهو قد يتفرع على عدم المعرفة، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩] فجعل انتفاء المعرفة سبباً للإنكار، أما لوط × فلعل سبب إنكاره لهم أنه رأى في وجوههم علامة الغضب بسبب أنهم مرسلون لتعذيب قومه وعازمون عليه؛ ولعلهم ـ أيضاً ـ لم يأكلوا عنده كما لم يأكلوا عند إبراهيم × .

﴿٦٣﴾ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ فسبب الإنكار أنا أرسلنا لهلاك قومك الذي ﴿كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون وجئناك به لنبشرك به ونعدك له بإخراجك وأهلك من بينهم.

﴿٦٤﴾ ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ بالحق إما تعذيبهم أي أنه الحق من الله تعالى؛ لأنه حكم به عليهم وإتيانه به إتيانه مصحوبين به أو إتيانه بخبره ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما نقول لك وفي غيره.

﴿٦٥﴾ ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((والقِطع ـ بالكسر ـ ظلمة آخر الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ قال الأخفش: بسواد من الليل، قال الشاعر:

افتحي الباب وانظري في النجوم كم علينا من قطع ليل بهيم))

انتهى. قلت: الأول هو الراجح، فهو قطعة باقية من الليل، كما قال تعالى: ﴿إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر:٣٤].

إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أي قدّمهم أمامك في سيركم، وسر بعدهم قريباً منهم لا تفارقهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لعله ليُسرعوا في السير إن كانوا مشاة. وقال الشرفي في (المصابيح): «عن القاسم بن إبراهيم × قال: وتأويل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لا يُعَرّج منكم أحدكم تلبيثاً، وسيروا كلكم سيراً حثيثاً، وليس تأويل ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ﴾ ما يظن الغمر الميّت من الإلتفات في النظر إلى وراء الظهر أو إلى ما على الميامن والمياسر، ولكنه استحثاث واستعجال كما يقول الرجل المستحث المعجال إذا أبدر الرجل أحداً وأرسله فاستحثه واستعجله: لا تلتفت إلى شيء ولا تعرّج عليه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي انفذوا في سيركم، واذهبوا ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ فسوف تؤمرون أين تذهبون، وإلى أي جهة تتوجهون؛ لأن الملائكة تدلكم وتأمركم في سيركم.

﴿٦٦﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أبلغناه أي أبلغنا لوطاً × أن قومك هالكون كلهم في الصباح، فقوله ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ كناية عن عموم العذاب لهم كلهم صغيرهم وكبيرهم فلا يبقى لهم دابر أي خالف يخلفهم بل هو ﴿مَقْطُوعٌ﴾ بإهلاكه و﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح أي وقت الشروق كما يأتي إن شاء الله.

﴿٦٧﴾ ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ قوم لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ جاء أهل المدينة لوطاً يستبشرون بوجود الأضياف عنده، وما تمنيهم أنفسهم من غلبتهم لنبيهم على أضيافه، وذلك لسكرتهم في سفاهتهم كأنهم قد بلغوا حدّ الجنون.

ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن

﴿٦٨-٦٩﴾ ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾ كأن هذا عند وصول الملائكة عنده بصورة آدميين قبل معرفته أنهم ملائكة؛ وذلك ليعظم أجره على ما ينال من الغم بسببهم ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ لا تفضحوني في أضيافي، وارعوا حرمتي ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ واتقوا عذاب ﴿ٱللَّهَ﴾ فاتركوا الجرائم، وتوبوا وآمنوا ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ لا تهينوني بإهانة أضيافي.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي قوم لوط لنبيهم ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾ أي قد نهيناك سابقاً عن ضيافة أي أحد من العالمين فأنت لم تنته وأضفت هؤلاء.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ فداء لأضيافي ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ النكاح لهن، قال هذا وقد علم أنهم لا يقبلون بناته ليبين لهم إفراطهم في أذيته وشدة اهتمامه بدفعهم عن أضيافه ليرجعوا عن مطالبته بتسليم أضيافه.

﴿٧٢﴾ ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ قسم لتأكيد ما بعده لأنه مستبعد أن لا يؤثر فيهم ما قاله نبيهم، إما لخوف عقوبة عاجلة، وإما لمروءة، وإما لرحمة وعطف ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ إهمالهم لعقولهم وإصرارهم على جرائمهم كأنهم سكارى لا يفهمون ما يقال لهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون لا يتخلصون من حيرتهم.

﴿٧٣﴾ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ إما صيحة ملك، وإما بمعنى العذاب المهلك أو الفزع، أخذتهم: أهلكتهم، وفي (الصحاح): «والصيحة: العذاب، وأصله من الأول» انتهى، أي من الصوت، وفي التعبير بالأخذ تحقير لهم.

سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾

وقوله تعالى: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي حين طلعت عليهم الشمس، قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق، وهو بزوغ الشمس)) وفي (مفردات الراغب): ((شرقت الشمس شروقاً: طلعت)) انتهى.

﴿٧٤﴾ ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾

﴿فَجَعَلْنَا﴾ تفريع على الصيحة، فيظهر: أنها صيحة حقيقية أي صوت شديد رجفت منه أرضهم، وتساقطت رؤوس قريتهم في أسافلها ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً﴾ أرسلناها عليهم كأنها مطر في غزارتها وسرعتها، وقوله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يفيد أنهم خرجوا من البيوت عند الصيحة فأمطر الله عليهم الحجارة، وقوله ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ بيان لنوع الحجارة، ولعل معناه من مسجل بالخطوط، كقوله: ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود:٨٣].

وفي (مفردات الراغب): ((والسجيل: حجر وطين مختلط، وأصله فيما قيل فارسي معرّب، والسجِلّ: قيل حجر كان يكتب فيه ثم سمي كل ما يكتب فيه سجِلاً، قال تعالى: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] أي كطيّه لما كتب فيه حفظاً له)) انتهى.

وقوله: حجر وطين، صوابه: حجر أصله طين، كما قال تعالى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣] قال الشرفي / : ((واعلم أن هذه الآية تدل على أنه تعالى عذّبهم بثلاثة أنواع من العذاب:

أحدها: الصيحة الهائلة المنكرة، *وثانيها*: أنه جعل عاليها سافلها، *وثالثها*: أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل)) انتهى.

وقد ذكرت فيما مضى أن الراجح عدم صحة الرواية في حمل سبع قرى إلى حول السماء وقلْبها؛ لأنه يفوت به وقوع الحجارة عليهم، والمذكور في القرآن قرية واحدة لا سبع، ولو كانت سبعاً لذكرت لما فيها من العبرة ولَمَا ذكرت واحدة وأخفيت ست.

﴿٧٥﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال في (الصحاح): ((وقد توسمت فيه الخير: أي تفرست)) انتهى. وقال في الفراسة: ((والفراسة وهو يتفرس: أي يتثبت وينظر)) انتهى.

فالتفرس: التعرف بالعلامات بالنظر فيها والتفكير؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ فالمتوسم يعرف بالآيات، وليس معنى التوسم علم الغيب بغير استدلال بما يدل على الأمر المغيب أي في إهلاك قوم لوط بما وقع عليهم آيات للناظرين الذين يعرفون بالنظر في الآيات ما تدل عليه، فقصة قوم لوط تدل على الخالق القادر العالم، وتدل على أنه لم يهمل عباده بل يرسل إليهم رسلاً، وأنه لم يهمل العصاة بل ينتقم.

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي بقايا قرية قوم لوط للاصقةٌ بسبيل أو في سبيل أي بطريق ﴿مُّقِيمٍ﴾ باق مسلوك لم يهجره الناس.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ في جعل آثارهم بسبيل مقيم آية من حيث أنها على ممر المسافرين في الليل وفي الصباح تذكر المؤمنين، وتدل على أن الله يجعل لعباده العبر ليحذروا مثل ما نزل بمن قبلهم، وأنه تعالى جعلها بالسبيل ليراها الناس ويعتبروا.

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أرسل الله إليهم شعيباً، وكأنهم غير مدين أو بعض منهم ساكنون في غير قريتهم، قال في (الصحاح): ((الأيك: الشجر الكثير الملتفّ، الواحدة: أيكة)) انتهى.

فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ

ولعل محلتهم سميت (الأيكة)؛ لأنها كانت شجراً كثيراً ملتفّاً فصارت بلداً لهم وبقي اسمها، وقوله تعالى: ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ أي بتكذيب الرسل وغيره، وقصتهم في (سورة الشعراء).

﴿٧٩﴾ ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ قوم لوط وأصحاب الأيكة أو آثارهما، قال الشرفي في (المصابيح): «وأما الهادي × فقال: هما قريتان هلكتا ودمّرتا لما طغتا وعصتا، فكانتا على طريق قريش في الرحلتين، في رحلة الشتاء ورحلة الصيف، والإمام: فهو الطريق الواضح والأعلام التي يستدل بها على مسالكها ومياهها..» إلخ، ونحو هذا يروى عن ابن عباس ب .

والراجح عندي ـ والله أعلم ـ : أن المعنى ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي قوم لوط وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في كتاب مبين لا يُنسى منهم أحد ولا يضيع ليبعثوا يوم القيامة ويعذبوا في الآخرة، وهو كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢] وقول موسى صلى الله عليه: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢] ولو كان الإمام هنا الطريق إحداهما في طريق الشتاء والأخرى في طريق الصيف لقيل: لبإمامين، مع أنه قد كفى في قوم لوط قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ فإعادة ذكرها مع قرب العهد بعيد، فكان يكفي أن يقول: وإنهم لبإمام، أو وإنها ـ أي الأيكة ـ لبإمام، والله أعلم.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿ٱلْحِجْرِ﴾ سد بُني بالحجارة لحفظ الماء، ولعل أصحاب الحجر بَنَوه ليحفظ لهم ماء أو ماشية أو غير ذلك أو كانوا يمرون عليه إذا كان في الوادي ماء يجري.

مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): وهو بين الحجاز والشام على مرحلة من وادي القرى، روي أن آثارهم فيه وبيوتهم)) انتهى المراد، وذكر الشرفي أن ﴿ٱلْحِجْرِ﴾: وادٍ كان يسكنه ثمود، ويناسب هذا قول الله تعالى: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر:٩].

﴿٨١﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أعطيناهم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ نِعَماً لأنها بها يهتدون فهي نعَم من الله آتاهم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩] ﴿فَكَانُوا۟ عَنْهَا﴾ عن آيات الله ﴿مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها ليهتدوا بها.

﴿٨٢﴾ ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ ينحتون الجبال، بحيث يجعلون لهم فيها تجاويف واسعة بيوتاً يسكنونها، وقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي آمنين في البيوت لقوّتها. قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿ءَامِنِينَ﴾ من تهدّمها، أو من نقب اللصوص، أو من حوادث الدهر، أو من عذاب الله يحسبون أنها تحميهم)) انتهى.

قلت: قوله: أو من عذاب الله هو الأقرب؛ لأن قوم عاد قبلهم دمرتهم الريح، فكان ثمود يرون مساكنهم تحميهم من الريح إن جاءتهم كما جاءت عاداً.

﴿٨٣﴾ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ الراجح: أنها صيحة ملك رجفت منها أماكنهم بشدة فائقة فأهلكتهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ داخلين في الصباح.

﴿٨٤﴾ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ فما دفع عنهم وكفاهم العذاب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من أسباب القوة والسلامة كالبيوت في الجبال.

بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ

﴿٨٥﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة والصواب فلذلك أرسلنا الرسل مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الله ومبلغين عنه لأمره ونهيه وهداه كله من تعليمهم لعبادته وغيرها، فالمكذبون للرسل معارضون لهذا المبدأ الكريم.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ وفيها جزاء المكذبين الأوفى ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ اعرض عن قومك المكذبين لك الإعراض الجميل. قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : ومعنى ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ العفو عن المجرمين عفواً جميلاً حسناً، والصفح: هو العفو، قال الشاعر:

صفوح عن الإجرام حتى كأنه من العفو لم يعرف من الناس مجرما))

انتهى.

قلت: الراجح: أن ﴿ٱلصَّفْحَ﴾ هو الإعراض تكرماً، إما لعفو، وإما لحلم، وإما لغير ذلك، والدليل على تغاير العفو والصفح، قول الله تعالى ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩] وقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة:١٣] ولعله × أراد أن الصفح كناية عن العفو، كما قال الراغب: ((الصفح: ترك التثريب وهو أبلغ من العفو)) انتهى.

قال في (الكشاف): ((فاصفح: أعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء)) انتهى، وقال في (الصحاح)): ((وصفحتُ عن فلان إذا أعرضتَ عن ذَنْبه، وقد ضربت عنه صفحاً إذا أعرضتَ عنه وتركتَه)) انتهى. و﴿ٱلْجَمِيلَ﴾: ما ليس معه شكاية.

ٱلۡعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ

﴿٨٦﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فلا يعجز عن الإتيان بالساعة التي فيها إثابة الرسول ص على تبليغه وصبره وصفحه وعقاب الكفار على تكذيبه وسائر جرائمهم.

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ برهاناً يدل على صدقك ونعمة عظمى ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ إما سبع آيات كما روي أنها فاتحة الكتاب، وإما سبع سور.

﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ الذي يثنى ويكرر لحكمة في ذلك وزيادة في البيان وإيقاظ للغافلين مثل ما في (سورة الرحمن) و(سورة المرسلات) وغيرهما ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ إما كل القرآن وإما الفاتحة أيضاً إن صحت الرواية.

﴿٨٨﴾ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ لا تنظر نظر تأمل وتحقق، كما هو شأن المعجب بالشيء المستحسن له؛ لأن النظرة قد تزرع الشهوة؛ ولأن زهرة الحياة الدنيا حقيرة فشأن الصالحين الإعراض عنها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم × : هذا تأديب للناس والمخاطَب رسول الله ص والمعنى سواه، وإنما هذا نهي من الله للعباد أن يمدوا أعيانهم طول الدهر وأنفسهم إلى متاع الناس وحطامهم ويكثروا و[يـ]شتغلوا بالتمني عن ذكر الله وسؤاله، ولعل الله لو رزقهم ذلك أن يكون سبب هلاكهم وسلماً إلى ذهابهم، والله أبصر بعباده وبما ينفعهم، وهو أولى بالخيرة لهم.

﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

وأما قوله: ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ فمعناه أصنافاً من الكفار، والزوج في اللغة الصّنف، والحاصل قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ نهي لَه عن الإلتفات إليهم وأن يحصل لهم في قلبه قدر ووزن ـ ثم قال ـ: ولا تحزن عليهم حيث لم يؤمنوا فيقوى بهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ تقليل لما عند الكفار من حاجات الدنيا وأغراضها من حيث التنبيه على أنه متاع لا يبقى، وأنه مع ذلك شاغل عما يبقى من الثواب.

وقوله: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ يحتمل اعتبارهم أصنافاً بكون بعضهم تاجراً وبعضهم صاحب أنعام وبعضهم صاحب حرفة مفيدة لَه وبعضهم حارث، فمتاعهم قليل بالنظر إلى نعمة الدين والهدى بالقرآن وغيره وبالنظر إلى أنه فتنة لأهله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ يحتمل النهي عن الحزن بسبب هلاكهم ومصيرهم إلى عذاب الله، وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تواضع لهم ولِنْ لهم.

﴿٨٩﴾ ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ وأنذر الكفار مع إعراضك عما متعوا به، وقل للناس ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ بالعذاب الشديد ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البيّن في إنذاره لتبليغه وتبيينه وإيضاحه بالحجة الدالة على صدقه.

﴿٩٠-٩١﴾ ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ * ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ أي أنذركم مثل ما أنزل الله ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ وفسر

المقتسمين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ فهم من الكفار نزل بهم العذاب العاجل، ولعلهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ فأنذر الباقون مثل ما نزل بهم وكلهم من الكفار بالقرآن، فأما سبب تسمية المقتسمين ـ فالله أعلم.

والذي أفهم: أنه إذا كان المعنى: أنذركم كما أنزلنا على المقتسمين كما يرشد إليه كون السورة (مكية) فالذي أفهم: أن هذا الإقتسام كان جريمة هي سبب تعجيل العذاب عليهم، فإما أنهم اقتسموا القرآن فجعل كل منهم لقسمه تكذيباً بدعوى مثلاً جعل أحدهم قسمه سحراً، والآخر شعراً، والآخر تعلمه من بشر ونحو ذلك مما حكاه الله في القرآن من أقوال الكفار، وإما أنهم اقتسموا طرق مكة وجعلوا لكل طريق واحداً منهم يقف عليها ويحذر المارة من تصديق محمد ص أو غير ذلك مما كان معروفاً معهوداً عند نزول هذه الآية.

وحكى الشرفي في (المصابيح): ((عن الهادي × : أنهم الذين اقتسموا بالأزلام وهو قريب إذا كان المقتسمون جعلوا ذلك تكذيباً للرسول وعناداً وصداً عنه، مثل أن يكونوا اقتسموا جزوراً بالأزلام وتصدق بها الذي غلب في القمار تصدق بها على الفقراء، ليدعي أن دينهم خير من دين محمد ص)).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ ففيه تفاسير أقربها عندي وأوفقها للسياق أنهم جعلوه أعضاء موزعة بين سحر وبهتان وأساطير ، وأما قول بعضهم: إنهم جعلوه أعضاء، أي أجناساً مختلفة فجعلوا بعضه سحراً، وبعضه شعراً، وبعضه كهانة، وبعضه أساطير الأولين، فهو جيد إن صح أنهم فعلوا ذلك.

وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ

فأما قول الكفار: تارة (سحر) أي القرن جملة، وتارة (شعر) ونحو ذلك، فهو كلام مختلف فيه كله وليس تفريقاً للقرآن، بل كلامهم فيه هو المفترق ـ والله أعلم. ومعنى ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ﴾ ادّعوا وقالوا فيه: هو (عضون) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام:١٠٠].

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لنسألن الناس أجمعين، أو لنسألن هؤلاء الكفار الذين فيهم السياق، لنسألن الماضين منهم المهلكين والباقين، لنجزيهم بما عملوا في الدنيا.

﴿٩٤﴾ ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أصل الصدع الشق وهو هنا بمعنى إبلاغ الكفار ما أرسل به ص وإن شق عليهم وكرهوه امتثالاً لأمر الله الذي أمره أن يُبلغه، وكذلك ما يشق عليهم من توحيد الله وإخلاص العبادة له، فهو ص مأمور بإخلاص العبادة والدعوة إلى قول لا إله إلا الله، ومأمور بتبليغ ما أرسل به ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلا تشتغل بجدالهم ولا تجالسهم ولكن بلغهم ما أمرت بتبليغه ثم ذرهم واحتج عليهم بآيات الله ثم اتركهم.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ قال في تفسير الإمام زيد بن علي إ لـ(غريب القرآن): «وهم سبعة نفر من قريش: الوليد بن المغيرة بن خالد المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، وأبو زمعة الأسود ابن المطلب، والأسود بن [عبد يغوث] الزهري، والحارث بن قيس السهمي وهو الحارث بن عَيطَلَة وهي أمّه، وهبار بن الأسود الأسدي، وعبد يغوث بن وهب الزهري» انتهى.

صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

وقيل: هم خمسة أهلكهم الله جميعاً قبل يوم بدر لاستهزائهم، كل منهم أصيب بمصيبة أهلكته، ذكر هذا الشرفي في (المصابيح) وتفصيل القصة في (حاشية الكشاف) تخريج أحاديثه.

﴿٩٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ فأهلكهم الله لجمعهم بين الشرك والاستهزاء إما بالرسول ص وإما بما أُرسل به أو بعضه وفي إهلاكهم تقوية لرسول الله ص على الصدع بما أمر به، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي حين يرون العذاب يوم القيامة.

﴿٩٧﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ لأنهم يكذبون بما أنزل الله وبالرسول وباليوم الآخر وذلك منكر عظيم يضيق به صدره ص أي يضيق بسببه لشدة الغم منه ومن مبالغتهم في التكذيب باستهزائهم.

﴿٩٨﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إما نزهه وبعّده عن كل نقص تنزيهاً وتبعيداً مصحوباً بحمده، وإما سبحه بنفس الحمد فحمده تسبيح لَه؛ لأنه يدل عليه باللزوم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((أي قل: سبحان الله وبحمده)) انتهى.

﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أي الذين يكثرون السجود، ويتكرر منهم على الدوام، والسجود يكون في الصلاة، ويكون في غيرها كسجود الشكر.

﴿٩٩﴾ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ بالصلاة وبكل ما أمرت به فكله عبادة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ في (تفسير الإمام زيد ×): ((معناه: الموت)) انتهى.

فالمعنى: اعبد ربك ما دمت حياً، وربط الأمر بالتسبيح وما بعده بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ لأن ذلك من الصبر على ما يقولون؛ أو لأنه يعين على تحمل مشقة الرسالة، كقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] أو بمعنى: قابِل ما يقولون بذكر ربك، وعبادتك له، اشتغالاً به عما يقولون، وإعراضاً عنهم، واشتغالاً بمهمتك ـ والله أعلم.

وبهذا تم تفسير (سورة الحجر) والحمد لله رب العالمين

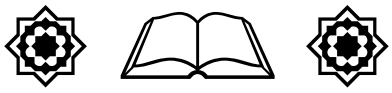

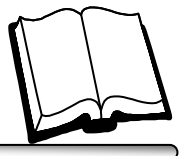

التيسير في التفسير

سورة النحل

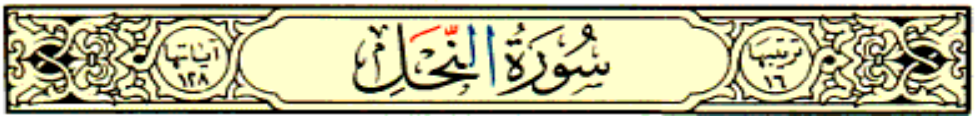

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا

تفسير (سورة النحل)

وأكثر مواضيعها يظهر بها أنها (مكية) وفيها آيات يظهر أنها (مدنية) وقيل: ((كلها مكية))

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَتَىٰٓ﴾ قرب حتى كأن قد أتى مثل قد قامت الصلاة و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ القيامة فهي الأمر العظيم الذي يأتي به الله ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ لأنه أمر عظيم قريب ليس لكم فيه إلا الجزاء الأوفى، وليس فيه مرغب للمجرمين فيستعجلوه من أجله ماذا يستعجل منه المجرمون وهو آتٍ لا محالة ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تكذيباً، كقولكم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تنزَّه وارتفع شأنه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فشركاؤهم عاجزون لا يستطيعون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، أما الله فسبحانه عن أن يقاس بهم، وتعالى عن أن يُقرَن بهم؛ لأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم فوعده بالقيامة حق وصدق.

﴿٢﴾ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ تشير هذه الآية إلى إثبات الرسالة وعلى القيامة وإلى التوحيد، فقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ تثبت رسالةَ الملائكة ينزلهم الله إلى الرسل من الناس ينزل الله إليهم الملائكة فنزلت ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ بحياة القلوب وحياة الدنيا والدين ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ من وحيه بيان للروح، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ

﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ فهو الذي يختار للرسالة من الناس من يشاء وكلهم عباده يختار منهم من يشاء ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ تفسير للروح لأنه يتضمن الإنذار ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاتقوني أي اتقوا عذابي فسبحانه وتعالى عما يشركون، فالله يهدي للحق ويدعو إلى دار السلام ويرسل الرسل وينذر ويجزي كل نفس بما تسعى وشركاؤهم لا يكون منهم شيء.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ أي أَعلِموا وأخبروا وبلّغوا أيها الرسل الناسَ أنه لا إله إلا أنا فاتقون، وفيه وجوه: إما أنَّ الإنذار هنا بمعنى الإخبار، كما قال (صاحب الكشاف).

وإما أنه إنذار حقيقي ليحذروا الشرك، ويعلموا أن الله يعذبهم عليه، ولا ينفعهم شركاؤهم بشفاعة ولا غيرها، فقوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ يبيِّن للمشركين أنهم على خطر، وإما أنه إنذار مضمن للأخبار؛ لأنه خبر بأنه لا إله إلا الله ليتقوه أي ليتقوا عذابه كما أمر، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ واتقاؤه: بعبادته التي هي طاعته فيما أمر وفيما نهى عنه، وإخلاص العبادة له وترك الشرك، وذلك المنجي من عذابه، فهو إنذار من حيث إفادته: أنه يعذبهم إن لم يتقوه.

﴿٣﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالخلق بالحكمة فليس عبثاً ولا لعباً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ..﴾ الآية [الدخان:٣٨-٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص:٢٧].

فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ

وقوله: ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فشركاؤهم لم تخلق شيئاً وهي أضعف من ذلك، فالله تعالى عنها بجلاله وقدرته وعلمه، فالمشركون بها الذين جعلوها أنداداً لله تعالى قد ضلوا ضلالاً بعيداً.

﴿٤﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهي آية عظيمة تدل على قدرته وعلمه وعلى أنه قادر على إحيائه بعد الموت، والإنسان ﴿خَصِيمٌ﴾ مخاصم مجادل في قدرة الله تعالى على إحيائه بعد الموت وهو نفسه حجة عليه فناسب ذلك الإتيان بـ(إذا) التي للمفاجأة، لأنه لا يحتاج في معرفة قدرة الله على إعادته إلا أن يتذكر أنه خلقه من نطفة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٧-٧٨] فهو ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّن الخصومة لخالقه، فقَدَ كفر نعمة الله عليه بخلقه، وكفر نعمة الله عليه بما جعل له من النعم في السماء والأرض.

﴿٥﴾ ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾ آية ونعمة آية تدل على قدرته وعلمه ونعمة للإنسان ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالدفء: ما استدفئ به من أوبارها)) انتهى.

وليس الدفء خاصاً بأصوافها وأوبارها وأشعارها فإن الحليب يحصل به نفع من البرد وكذلك اللحم والمرق، وقوله تعالى: ﴿وَمَنَافِعُ﴾ يأتي في السورة هذه تفصيل لبعض منافعها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهذه آيات ونعم.

﴿٦﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ جمال في الرواح إذا أرجعوها من مراتعها لتبيت، فهي جمال لأهلها من حيث هي مال نافع

وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩ هُوَ ٱلَّذِيٓ

﴿مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون:٢١] ومنفعتها في حال الرواح أظهر لتوفر درّها وشبعها وريها وجمال في حال السرح حين تبرز ماشية إلى مراتعها.

٧ ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وهذا في الإبل يركبها الناس وتحمل لهم الأثقال من البضائع للتجارة وغيرها، وقوله تعالى: ﴿لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ﴾ أي لولا الأنعام تحمل أثقالكم لما كنتم بالغيه بقوّتكم إلا بمشقة الأنفس ولم يكن من شأنكم أن تبلغوها ﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: بمشقتها)) انتهى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ولذلك يسَّر لكم ما يحمل أثقالكم فذلك دليل مع كونه نعمة على أنه رءوف رحيم ومع كونه دليلاً على قدرته تعالى وعلمه، والجمع بين الوصف بالرأفة والرحمة لعله لاختلاف مواقعهما.

قال في (لسان العرب): ((والرأفة: أخص من الرحمة وأرق)) انتهى، والمراد: أنه يفعل للناس ما يفعله الرءوف الرحيم، فهو يدل على نعمته على الإنسان بذلك.

٨ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَٱلۡخَيۡلَ﴾ عطف، أي وخَلَق الخيلَ، وهي آية عظيمة ونفعها كبير في الجهاد ﴿وَٱلۡبِغَالَ﴾ وهي أقوى من الحمير، فهذه الثلاثة الأنواع خلقها ﴿لِتَرۡكَبُوهَا﴾ وهي نعمة عظيمة وتكريم للإنسان، وقوله تعالى: ﴿وَزِينَةٗ﴾

أي خلقها زينة وهي زينة لمالكها عند ركوبها وهي في حال قوتها وسلامتها من تشويه خلقها بالجوع والإهمال فإنها في حال قوتها ونشاطها جمال لصاحبها.

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قد كشف بعض المخلوقات التي لم تكن معلومة آلةٌ حديثة تكبّر الأشياء الصغيرة فيرى بها مخلوقات لم تكن معلومة، واكتشف الطب العصري أدوية وموادَ لم تكن معروفة فقدرته تعالى واسعة لخلق ما نعلم وما لا نعلم وعلمه كذلك فكذلك يعيد الإنسان بعد الموت وإن لم يكن يعلم.

﴿٩﴾ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: بيان الهدى)) انتهى.

فالتقدير: وعلى الله بيان قصد السبيل، أي الطريق المستقيم الذي يوصل إلى السعادة الدائمة، والقصد: بيان الطريق القاصد بحيث يصل السائر فيه إلى المطلوب، ولذلك قابله بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ ويحتمل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ عليه إيجادَ قصد السبيل أي أن يجعل للإنسان سبيلاً يوصله إذا سار فيه إلى سعادته والفرق دقيق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ أي ومن السبيل جائر غير قاصد وهي الطرائق التي أحدثها أهل الباطل فما كل طريق قاصداً، وعلى العاقل أن يعرف القاصد ليختاره لنفسه وينجو من السير في الجائر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي هو قادر على ذلك لكنها اقتضت حكمته أن يمكن الإنسان ليختار لنفسه السبيل القاصد أو الجائر، هذا فأما تيسير الطرق في الأرض وجبالها فهو يهدي له البَرَّ والفاجر ويسلكاه كلاهما، ولعل ذلك غير مراد في هذه الآية، ويأتي قوله تعالى: ﴿وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ

﴿١٠﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ **هو المنعم عليكم بإنزال الماء من السماء ولولا إنزاله ما لحقتموه بعد وجوده في السحاب ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ لأنه عذب يروي معدّ للشرب والسقي، ومنه ينبت شجر من منافعه أنكم ﴿تُسِيمُونَ﴾ أي ترعون إبلكم فيه وينبت منه المرعى للبقر والغنم.**

﴿١١﴾ ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ﴾ أي بالماء المذكور ﴿ٱلزَّرْعَ﴾ الذي يكون منه الحب الذي هو طعام الإنسان المهم ﴿وَٱلزَّيْتُونَ﴾ الذي يثمر فيؤكل من ثمره ويعتصر منه زيت الزيتون الدهن الجيد والإدام.**

﴿وَٱلنَّخِيلَ﴾ بأنواعها ﴿وَٱلْأَعْنَـٰبَ﴾ بأنواعها كل ذلك نعم من ربكم عليكم ودلائل على قدرته وعلمه ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المختلفة منها: المأكول فاكهة، ومنها فوائد أخر فيه كالجلجلان يعتصر منه السليط، ومنها المأكول: كالجلجلان، والعدس، ومنها أدوية ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله الدالة عليه وعلى قدرته وعلمه وسعة فضله لعباده الدالة على أن الله ربَّهم المستحقُّ لأن يعبدوه ولا يشركوا به.

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟

﴿١٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((كلَّفه عملاً بلا أجرة، ثم قال: والتسخير: التذليل)) انتهى باختصار، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): ((التسخير: سياقة إلى الغرض المختص قهراً)) انتهى.

ولعلَّه جمع الحقيقة، والمجاز: أي هو الذي يأتي لكم بالليل لتسكنوا فيه والنهار لتبغوا من فضله وذلَّلهما لهذا كل يجري في وقته لا يتخلف وسخر الشمس لمنافع الناس تأتي بقدر ثم تغيب عنهم وعليها حساب السنين الشمسية، والقمر عليه حساب الشهور والسنين القمرية.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ كأنه يأمرها أن تسير على نظامها المحدد وعلى قراءة (رفع) النجوم ومسخرات، قد عدل بها عن سياق ما قبلها ولعله للنص على أنها مسخرة مذللة بأمر الله خلاف ما يزعم عباد النجوم، أما على (النصب) لهما فزيادة مسخرات الدالة على أنها مذللة منقادة لأمر الله ترد على المنجمين والعطف على الليل والنهار وما بعدهما يفيد تسخير النجوم للإنسان، فكأنه تعالى يقول وسخر لكم النجوم في حال أنها مسخرات بأمره لا تمتنع من تسخيره لها بأمره؛ لأنه ربها المسخر لها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من تسخير الليل والنهار وما بعدهما للناس ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلائل على أن الله ربَّ العالمين المستحقُّ للعبادة وعلى قدرته وعلمه وغير ذلك من صفاته وعلى فضله على الناس وعظم نعمه عليهم.

مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

﴿١٣﴾ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ ففيه آية ونعمة، أما الآية فلأنه يدل على أنه صنع فاعل مختار جعل له ألواناً مختلفة كما يشاء، ولو كان أثر علة لكان سواء؛ لأن تأثير العلة تأثير إيجاب، وأما النعمة فلما في اختلاف الأنواع والألوان من زيادة النعمة ومطابقة الأغراض المختلفة لأن منافع الثمرات تختلف وكل ثمرة تمتاز بلونها.

والتذكر: الانتباه لما كان قد نسي فهي آية يعرف بها الخالق عند تذكر الإنسان لاختلافها، وأن الاختلاف أثر فاعل مختار، ويعرف بها نعمة الله على الإنسان وأن الله ربه لا ما أشرك به المشركون.

﴿١٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ ذلَّله ليمكن الانتفاع منه وبه ولو كان شديد التموج والاضطراب لما تهيأ الانتفاع به فلتسخيره يسبح السمك فيه فيمكن اصطياده ليؤكل ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ لذيذاً بطراوته، لأن الذي تقادم عهده يتغير ريحه ويكره وخصوصاً قبل وجود الثلاجات التي تحفظ بعض خصائص الطري، وبتسخيرٍ يُمكِّن الغواصين استخراج أنواع الحلية البحرية وهي المرجان واللؤلؤ.

قال في (الصحاح): والدرَّة: اللؤلؤة، فأفاد أنهما شيء واحد، والصدف كأنه من أخبية الدر والودع ولا أدري إن كان غير ذلك من حلية البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفائن مواخر فيه أي في البحر وهي آية ونعمة لأن نفعها بتسخير البحر وإرسال الريح الطيبة تسوقها وتشق بها الموج على البحر، فإن كان المخر هو كما قال (صاحب الصحاح) ((مخرت السفينة تمخَرُ وتمخُرُ مَخراً ومُخُوراً: إذا جرت تشق الماء مع صوت، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ يعني جواري)) انتهى، أو كان معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾ خالية كما في كتاب (الدليل الكبير) للإمام القاسم [ص٦٠/ خ].

وحكاه الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم عن الإمام القاسم بن إبراهيم، ولفظ كتاب (الدليل الكبير): ((وحمل سبحانه على ظهورها ـ أي البحار ـ مع خلافه بينها في أمورها الفلك المشحون السائر وردها بعد التفريغ فيه مواخر ليعلم من عجيب تدبيرها وباختلاف الحال في مسيرها، إذ تسير شاحنة ماليَة كما تسير ماخرة خالية، وإذ تسير بحاليهما جميعاً في أجاج البحار كما تسير بهما في فرات الأنهار إن لها لمسَيِّراً لا تختلف في قوته الأشياء، ومدبّراً قوياً لا تساويه الأقوياء..)) الخ.

وهو كلام مفيد ويقرّب له في تفسير المخر قول (صاحب لسان العرب): ((ومخر البيت يمخره مخراً: أخذ خيار متاعه فذهب به ومخر الغُرْز ـ كذا ـ الناقةَ، إذا كانت غزيرة فأكثِر حلبها وجهدها ذلك وأهزلها)) انتهى.

وعلى هذا يكون معنى ﴿مَوَاخِرَ﴾: ممخورات، كأنه على النسب أي ذوات مخر، والراجح الأول هنا وإن كان صحيحاً في اللغة، وذلك لأمرين:

الأول: أن الآية الظاهرة في جري الفلك؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلاَمِ﴾ [الشورى:٣٢].

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

الثاني: أن ذكر فراغها لا يفيد أنها تجري لأنها مع فراغها قد تقف لانتظار حمولة أو راكبين، ولو قال: وترى الفلك تجري مواخر لصح ذلك؛ ولأن الله تعالى قال: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ والإبتغاء من فضله بجري الفلك في البحر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ وهي السفن التي تشق الماء شقّاً ذاهبة وجائية)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ ابتغاء الحاجة: التوصل إليها وهذا يفيد نعمة تيسير السفر لتحصيل الحاجات وهو يدل على شرعية السفر لغير الثلاثة المساجد، وأن الحديث في شد الرحال إنما هو في السفر للصلاة في المسجد الذي يسافر إليه فلا تشد الرحال لهذا الغرض إلا إلى الثلاثة المساجد، فأما لغير الصلاة فلا مانع، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ أي تشكرون هذه النعمَ فتعبدوا الله وحده، أو هذه النعم وسائر نعم الله عليكم.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ وهو الذي ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ الإلقاء: الطرح بقوة، وفي هذا تمثيل لقدرة الله تعالى أي بيان لعظمها، كأنه ألقى الجبال في الأرض وطرحها، وهو يناسب جعل الجبال راسخة في خلال الأرض.

وقوله ﴿رَوَٰسِيَ﴾ أي جبالاً رواسي ثابتات في أماكنها، وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ أي لئلا تميد بكم، قال الراغب في (المفردات): ((الميد: اضطراب الشيء العظيم كاضطراب الأرض)) انتهى.

﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا

﴿وَأَنۡهَٰرٗا﴾ ألقى في الأرض أنهاراً مجاري للماء أو المراد الماء الجاري في الأنهار ﴿وَسُبُلٗا﴾ طرقاً في الأرض ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ في تنقلكم في الأرض بواسطة السبل فتبلغوا ما قصدتم من النواحي وتسلموا التيه والضَّياع.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ﴾ من الجبال ونحوها يهتدي بها المسافرون، والعلامات يعرفها من قد سافر فيتخذها علامات لنفسه ويَعرفها غيرُه بتعريفه.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فالنجم يتخذونه علامة في الليل يعرفون به الجهة، والنجم: إما مطلق يصدق بأي نجم، وإما خاص بالثريا لكثرة الاهتداء بها في الشتاء؛ لأنهم كانوا يسافرون في الشتاء إلى الحبشة فيركبون البحر الأحمر وفيه يحتاجون العلامات من النجوم، والثريا تكون أول الليل في جهة المشرق فيعرفون بها الجهات.

﴿١٧﴾ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ﴾ وهو الله الذي خلق ما مرّ ذكره في السورة وغيره مما هو آية ونعمة وهذا إنكار على المشركين الجاهلين بالله الذين جعلوه كشركائهم وألحقوه بخرافاتهم، ولذلك نزلوه منزلتها وجعلوها أنداداً له سبحانه وتعالى ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ من غفلتكم عن الله فتتفكرون في آياته وتعبدونه وحده.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ أي نعم الله كثيرة جداً لا نستطيع احصائها بعدٍّ، وهذا يوجب شكره وإخلاص العبادة له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لأنه ينعم على عباده حتى في حال كفرهم لأنعمه ولا يعاجلهم بالهلاك أو قطع الرزق، وذلك مغفرة في العاجلة ورحمة.

تَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم

﴿١٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فهو الذي يرجى ويخشى؛ لأنه يسمع الدعاء ويقضي الحاجات ويعلم بكفر من كفر نعمته فهو الذي ينبغي أن يعبد خوفاً وطمعاً.

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ والذين يدعوهم المشركون أي يعبدونهم بالدعاء ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ فكيف رجوا منهم النفعَ أو دفع الضرر وليس لهم دليل على أنهم يقدرون على نفع أو دفع ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يُصنَعون تماثيل أو أنصاباً يُنحَتون منها حتى تصير مستوية.

والخلق هنا بمعنى التقدير، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة:١١٠] لأن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ الفعل فيه يفيد التجدد والتكرار ولو كان المعنى خلق الله لهم لكان التعبير عنه: وهم مخلوقون أو خلقهم الله، والتعبير عنهم بعبارة العقلاء لا يدل على ذلك، وإنما هو من لغة العرب، وليس معناها أنهم يعلمون؛ ولعل السبب اعتقادهم أنهم يعلمون فجعلوا لها ضمير من يعلم، وليس الضمير هذا معبِّراً عن العلم، ولكنه في الأصل ـ والله أعلم ـ خاص بمن يعلم ثم صار لمن يعلم ولأصنامهم التي لا تعلم.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ شركاؤهم أموات لأنها جمادات أحجار أو من المعادن أو نحوها ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فهي لا تسمع دعاءهم ولا تعلم ما يصنعون لها ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ﴾ أي متى

مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ

﴿يُبْعَثُونَ﴾ أي يبعث العابدون لها لأنها لا تعلم شيئاً فضلاً عن أن تعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قال الشرفي في (المصابيح): ((وفيه تهكم بالمشركين)).

﴿٢٢﴾ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ كالنتيجة التي أفادها ما سبق من الاحتجاج من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ وما بعدها من تعداد النعم وذكر الرزق وآيات قدرته، فأفاد أن الله رب الناس الخالق لهم الرازق لهم وأنه المستحق لأن يعبدوه، فأفاد أنه الإله وأن شركاءهم إنما هم عباد أمثالهم ليس لها فيهم شرك ولا تستحق عبادة، فتبين أن إلههم وإلَهَنا إله واحد هو الله ربنا.

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ تفريع على قوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي أن قلوبهم منكرة هذا القول وهم مستكبرون من أن يقال هذا القول، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥] والراجح في معنى الإنكار هنا: أنه إما انقباض من هذا الكلام، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود:٧٠] وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩] وقول الشاعر:

وأنكرتني وما كان الذين نكرت ... من الحواث إلا الشيب والصلعا

قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدۡ مَكَرَ

وإما ﴿مُّنكِرَةٌ﴾ تظنه منكراً فتكرهه، وفي كلام أمير المؤمنين علي × في (نهج البلاغة): ((أيها المؤمنون إنه من رأى عُدواناً يعمل به ومنكراً يُدعى إليه فأنكره بقلبه..)) الخ، وسبب جرأتهم على الباطل أنهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فأعرضوا عن النذير واستكبروا.

﴿٢٣﴾ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ في (تفسير الإمام زيد ×): ((أي حقاً)) انتهى. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ ما يسر المشركون من كراهة الحق وسوء العقائد والنيات وغير ذلك من المنكرات وغيرها ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ من الكفر والشرك وغيره، وهذا في معنى الوعيد بعقابهم، ولذلك علل بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ والمستكبر: المترفع عن الحق؛ لأجل الكبر الذي في نفسه.

﴿٢٤﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي إذا سئلوا ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۙ قَالُوٓاْ﴾ إنما هذا القرآن ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي لم ينزله الله تعالى ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أسطرة، وإضافتها إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لينسبوها إليهم أي سطرها الأولون أي كتبوها.

﴿٢٥﴾ ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۙ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ﴾ اللام لام العاقبة فهم لا بد أن يحملوا ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾ يوم القيامة، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: آثامهم)) انتهى.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوۡمَ

وأصل معنى الوزر: الثقل والذنب يشبَّه به، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡ﴾ [الأنعام:٣١] وقوله: ﴿كَامِلَةً﴾ دليل على أنه لا يحمل عنهم بعضها أو يسقط عنهم بالعفو مثلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾ يحملها المضلون؛ لأنهم سببوا لها فكانت من آثارهم وهذا من غير أن ينقص شيء عن المضلين من إثمهم، وقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أي اتبعوا المضلين بغير علم بل تقليداً كما هو شأن الأتباع.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ حرف تنبيه لما بعدها و﴿سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي ﴿سَآءَ﴾ ما يحملون من الأثقال، وفيه إشارة إلى أن الأصل في الحمل أن يحمل لفائدته للحامل، مثل: حب، أو فاكهة، أو بضاعة، أو أي متاع، كما مر في قوله تعالى: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ ولكن هؤلاء الكفار يحملون ثقلاً ضاراً لهم غير نافع، فما أسوأ ﴿مَا يَزِرُونَ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ احتالوا في الكيد ضد نبيهم ولعلهم قوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكروا حين ألقوه في النار.

وقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي من قبل هؤلاء الكفار ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ أي دمره الله ﴿مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ﴾ أي قواعد البنيان، وهي الأسس أي المواثر، وقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر:٢] فأتيانه فِعْلُهُ.

ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي فسقط فوقهم سقف بنيانهم ﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ العاجل ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مفاجئاً لهم من بحث لا يعلمون لأنهم لم يكونوا يتوقعون سقوطه عليهم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة × : وكان نمرود هذا معاصراً لإبراهيم × وهو الذي حاجّ إبراهيم في ربه تعالى، فلما غيّر الله ما به وفارقه إبراهيم × مهاجراً إلى ربه أتى الله عز وجل بنيانهم هذا العظيم من القواعد في يوم غيم ومطر وفي برد ورياح، جمعهم بذلك من كل ناحية تدبير الله تعالى إلى ملجأهم هذا الذي اتخذوه من دونه سبحانه عناداً، فخرّ عليهم السقف من فوقهم، التأكيد لكونهم تحته إذ قد تسقط ـ في الأم سقط ـ بنيان القوم فلا يكونون تحته، فيقال: انهدم عليهم بنيانهم، ولا يقال: من فوقهم حتى يكونوا تحته فتأمل))!! انتهى.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي بعد عذابهم العاجل ﴿يُخْزِيهِمْ﴾ يهينهم ويفضحهم ويذلهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ بزعمكم مالهم لا يدفعون عنكم ﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ﴾ من الشقاق ﴿فِيهِمْ﴾ أي من أجلهم فلم يعرفوا لكم مشاقتي فيهم ولم يكافئوكم عليها وهذا توبيخ للمشركين شديد ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ في الدنيا فعملوا بعلمهم واستعدوا ليوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ﴾ الذلة والهوان والفضيحة ﴿ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟

قال الشرفي في (المصابيح): ((والمراد: أنهم يشمتون بهم؛ لأنهم كانوا يدعو[نـ]ـهم إلى الإيمان فلا يجيبون)) انتهى.

﴿٢٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم وهم على كفرهم لم يتوبوا فهم ظالمون لأنفسهم بذلك؛ لأنهم سببوا لعذابهم في الآخرة، وفي هذا دلالة على أن كفرهم فعلهم واقع منهم لأنهم لو لم يكونوا هم أوقعوه لما كانوا ظالمين لأنفسهم ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي استسلموا وانقادوا لهم وذلوا قالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ لم يجدوا ملجأ إلا جحد ما عملوا، وهذا عند التوفي كقول الآخرين لما قالت لهم الملائكة فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴿بَلَىٰٓ﴾ ردٌّ لكلامهم أي بل عملتم سوءاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم جحده.

﴿٢٩﴾ ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ قالت لهم الملائكة ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ طويت مدة مابين موتهم وبعثهم، كأنها لم تكن وكأن كلامهم لهم في الآخرة متصل بكلامهم لهم عند الموت وذلك لقصر المدة حيث لم يعلموا بعد موتهم بمرور السنين فلذلك وصل به في السياق، ولعل ذكر ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ لإفادة كثرة أهلها أو اختلاف عذابهم في شدته على قدر اختلاف سببه ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أي مستقر

مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟

﴿ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين ترفعوا في الدنيا عن عبادة ربهم وطاعة رسله، ولعل التصريح بالخلود لئلا يتوهموا أنهم يموتون حين يُلقون في النار كما هو شأن من يلقى فيها في الدنيا.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ٱتَّقَوْا۟﴾ آمنوا وأطاعوا ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون فبذلك اتقوا عذاب الله، سُئلوا ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟﴾ أنزل ﴿خَيْرًا﴾ وفسروا الخير بقولهم: للذين أحسنوا آمنوا واتقوا لهم في هذه الدنيا حسنة، كما وعد الله تعالى في قوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ فحياتهم طيبة في العاجل.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ وهي الجنة ﴿خَيْرٌ﴾ للذين اتقوا لأنها مأواهم ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مدح لها، ثم فسر الدار المذكورة بقوله تعالى:

﴿٣١﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فالدار المذكورة تشتمل على ﴿جنات﴾ بساتين عدن مستقر وأمن ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ من تحتها من تحت أشجارها الأنهار، فهي كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥] ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ولما كان الوعد المذكور للذين آمنوا برسول الله محمد ص وبالقرآن، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ كلهم في كل عصر من الأولين والآخرين.

ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم

﴿٣٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ **﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ لأنهم ثبتوا على الإيمان والتقوى حتى ختم لهم بذلك ﴿يَقُولُونَ﴾ أي الملائكة لهم عند قبض أرواحهم ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ تبشير لهم برضوان الله تعالى ورحمته ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقولون في الآخرة ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون وكأنه كلام واحد لقرب المدة لأن مابين موتهم وبعثهم كلا مدة.**

﴿٣٣﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ **﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هل ينتظر الكفار المذكورون في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي لا ينتظرون بإيمانهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فتخبرهم بصدق الرسول وأن القرآن من الله ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهو العذاب ليؤمنوا حين يرونه.**

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي الكفار من الأمم الماضين الذين عذبهم الله بكفرهم ولم ينفعهم إيمانهم حين رأوا عذاب الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتعذيبه لهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأنهم هم الذين سببوا لأنفسهم العذاب بكفرهم وجرائمهم فاستحقوا العذاب فلم يكن ظلماً، بل كانوا هم الذين كانوا يظلمون أنفسهم بفعل ما يستحقون به العذاب، وهذه الآية من أوضح الدلائل على بطلان قول المجبرة كما قدمت في تفسير مثلها من (سورة التوبة).

مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾

﴿٣٤﴾ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمۡ﴾ أي الكفار من الماضين ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ الإضافة في قوله تعالى: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ إما بمعنى السيئات أي العقوبات التي ساءتهم التي سبّب لها ما عملوا من الكفر وغيره، وإما على معنى السيئات مما عملوا أي أصابتهم جرائمهم نسَب العذاب إليها وجعلت موقعة له بهم لأنها سببه.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي وقع بهم وأحاط بهم بحيث لم يجدوا سبيلاً للفرار منه والمراد غلبهم وقهرهم ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي الحق الذي كانوا يسخرون منه في الدنيا عذبوا اقتصاصاً وإنصافاً من أجله، فكأنه هو أصابهم بالعذاب أو حاق بهم العذاب الذي كانوا به يستهزئون حين يكذبون به والاستهزاء بالحق الذي جاءهم في الدنيا أظهر ولا أذكر أو أعلم أنهم كانوا يستهزئون بالعذاب نفسه فينظر إن شاء الله.

﴿٣٥﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ احتجاجاً على أن الله رضي منهم بالشرك قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ لأنه قادر على أن يمنعنا ولو قسراً حتى لا نشرك﴿نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ فلما تركنَا على الشرك دل ذلك على أنه لا يكرهه.

وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦ إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ

ومثل الشرك: تحريم البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحامي، فقالوا: لو شاء الله ما ﴿حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ لأنه لو شاء ما تركنا نحرم ذلك ولكان يمنعنا ويمنع آباءنا من الشرك والتحريم من دونه؛ لأنه يعلم ما نفعل.

والجواب: أن هذا الاحتجاج مبني على الكفر؛ لأنه مبني على دعوى أن الله لم يمنعكم وقد منعكم بما بلغته الرسل ولكنكم كفرتم بهم وليس على الرسل أن يمنعوكم بالقسر وهم لا يستطيعون ما عليهم إلا أن يبلغوكم عن الله آياته ونهيه عن الشرك وتحريم ما أحل الله.

٣٦ ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فقد نهى الله عن الشرك وعن اتباع الطاغوت، فبطل قول المشركين: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] لأنه قد بين بالرسل وبما أرسلهم به أنه لا يرضى ذلك ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي يقول كل رسول عن الله: اعبدوا الله ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ والطاغوت كل داعي ضلالة وطغيان من شياطين الجن والإنس واجتنابه أن لا يُقرب ولا يسمع كلامه ولا يتبع.

قال الشرفي في (المصابيح): ((روي عن القاسم بن إبراهيم × أنه قال: الطاغوت: كل ما أطغى وأضل عن الحق)) انتهى.

هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ ۙ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ

فلو اجتنبوا الطاغوت ما أشركوا ولا حرموا من دون الله من شيء فما بقي حجة للمشركين ولا لآبائهم، وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ حق عليه الخذلان؛ لتمرده وجداله في آيات الله فحق عليه أن يخذل حتى يضل.

﴿٣٧﴾ ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾ يا رسول الله على أن يهتدوا وتشتد رغبتُك في ذلك ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّ﴾ لأن الله لا يضل إلا من هو مستحق بفسقه، فإذا أضله الله بخذلانه تسلطت عليه الشياطين وفي قلبه قابلية للضلال واستعداد فلم يبقَ عنده استعدادٌ للهدى بالأسباب العادية فلا يستطيع الرسول ص أن يهديه.

وبهذا تبين أن ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف:١٨٦] هذا على قراءة ﴿يُهْدَى﴾ ـ بضم الياء، وفتح الدال ـ أما على قراءة ﴿يَهْدِي﴾ ـ بفتح الياء، وكسر الدال ـ فالمعنى: أن الله قد أضلهم فهداهم في حال إضلالهم خلاف الحكمة؛ لأنه تناقض، وكذلك هداهم وقد أضلهم الله برفع الضلال وجعل الهدى مكانه لا يصح؛ لأن الله إنما أضلهم لأن ذلك مقتضى الحكمة فلا يهديهم ما داموا تحق عليهم الضلالة وليس من الحكمة هداهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يهدونهم بالقوة أو ينقذونهم من عقاب ضلالهم، قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ دالٌّ على أن المراد بالإضلال: الخذلان، الذي هو نقيض النصرة)) انتهى.

حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا

﴿٣٨﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ حلف الكفار أيماناً ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ بالغوا في أيمانهم وتغليظها بقدر طاقتهم ليُضِلوا من يصدقهم أو ليبطلوا بذلك خبر الله بذلك لجهلهم، فقال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ وهذا إبطال لنفيهم أي بلى إن الله يبعث من يموت، وعد بذلك ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ أن يفي به وعداً ﴿حَقًّا﴾ صدقاً لا يتخلف وصواباً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعده الحقَّ أو لا يعلمون أنه يبعث من يموت ولا يبطل الحق جهل الجاهلين به.

﴿٣٩﴾ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ أي يبعثهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ في الآخرة ﴿ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي الحق بأن يبينه وينصر أهله فيبين بذلك الحق أنه الحق، ويبين لهم به خُبْر الحق وفضله على الباطل ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ حين تكشف الحقائق ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ كاذبين في حلفهم لا يبعث الله من يموت، وكاذبين في تكذيب الرسل، وكاذبين في نفي إنزال الله الآيات، وكاذبين في غير ذلك فيعلموا أنهم كانوا مستمرّين على الكذب.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فبعث من يموت سهل ليس فيه أي صعوبة على الله سبحانه إنما هو كأمره أن يكون فإذا قال له: ﴿كُن﴾ فعند ذلك يكون ـ والله أعلم.

ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا

﴿٤١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ أي من أجل الله لطاعته ونصرة دينه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ في بلاد الكفر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في المهاجرين، الذين عُذِّبوا بمكة، منهم: عمار بن ياسر ا ، وصهيب، وخباب بن الأرت، وبلال، وسميّة أم عمار..)) إلخ.

قلت: الأولى: أن لا تعد سمية، لأنه ذكر أنه قتلها أبو جهل، فلا تعدّ في المهاجرين وإن كانت من المعذبين في الله، وقد ذكر أنها أول شهيد استشهد في الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ﴾ لنجعلن لهم في الدنيا مباءة حسنة أو تبوأه حسنة، وهي إما مسكنهم الذي يهاجرون إليه يجعله الله حسناً لهم، وإما حالتهم بعد الهجرة يجعلها حالة حسنة بعزة الإيمان والنصر على أعداء الله والرزق ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ من المباءة الحسنة أو التبوأة الحسنة؛ لأنه نعيم الجنة وملكها الدائم.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ الضمير إما للذين ظلموهم فيكون المعنى لعلموا أنهم سببوا لهم السعادة الدائمة، أو الضمير للذين هاجروا أي لو كانوا يعلمون أجر الآخرة على التفصيل لهان عليهم ما وقع عليهم من الظلم ومن مشقة الهجرة.

رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ

﴿٤٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿صَبَرُواْ﴾ على التعذيب والظلم بأن ثبتوا على الإسلام، وصبروا على مشقة الثبات على الإسلام وعلى مشقة الهجرة ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيهاجرون لا يمنعهم خوف الجوع، ويثبتون على الدين لا يمنعهم خوف غلبة الكفار لأنهم على ربهم يتوكلون، فقد وكلوا أمورهم إليه ورضوا لأنفسهم في طاعة الله بما كتب لهم من فقر أو غنى أو أمن أو خوف أو حياة أو قتل.

﴿٤٣﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فإرسال الرجال إلى الناس سنة الله في الذين خلوا، فمطالبة هؤلاء الكفار بإرسال الملائكة واستبعادهم لإرسال رجل منهم إنما هو جهل منهم ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ﴾ العلم القراء للذكر عن هذا، هل كانت الرسل رجالاً أو ملائكة، فهي من أوضح وأظهر ما ينقل من التاريخ يعرفه الكفار من القراء ومن قد أسلم، وسؤالهم للكفار في هذا الذين يجيبون فيه بالحق وهو إقرار منهم بالصدق مع كفرهم بمحمد ص لا مانع منه، وليس المراد بسؤالهم في غير هذا.

فأما تفسير أهل ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ بآل محمد ص فهو من التطبيق، لا أنه المفهوم بل بطريق القياس، قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وهذا خطاب لمشركي قريش أنه ما بعث رسولاً إلا من رجال الأمة، وأنه ما بعث إليهم ملكاً» انتهى.

يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا

﴿٤٤﴾ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ **﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي ما أرسلنا إلا رجالاً بالبينات ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي الكتب، فالبينات الآيات الواضحات في دلالتها على صدقهم وعلى ما جعلها الله بينات له، والزبر يحفظ ما أراد الله حفظه بها من العلم والدين والحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن الدال على أنك رسول من الله ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتبلغهم بلاغاً بيّناً ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من القرآن وسائر الوحي ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إذا سمعوا آيات الله فيعلمون أنه الحق من الله فيؤمنون.**

﴿٤٥﴾ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **﴿أَفَأَمِنَ﴾ سؤال توبيخ للذين مكروا ضد الرسول ص وضد الذكر الذي أنزله الله إليه أي ءأنزلناه إليك فأمِن ﴿ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ﴾ المكرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ كإقسامهم بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت احتجاجاً بذلك على كذب الرسول في دعوى الرسالة.**

وكقولهم: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ:٧-٨] **وكمكرهم في (دار الندوة) المذكور في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾** [الأنفال:٣٠] **أفأمنوا بعد وضوح الحق بهذا القرآن الذي هو معجزة كبرى ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ عقاباً عاجلاً.**

هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ﴾ من الله ﴿ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ من حيث لا يعلمون بإتيانه كما أتاهم يوم بدر وهم كثير وافروا العُدة من الخيل والسلاح والمؤمنون قليل في عددهم مع قلة عدتهم من الخيل والسلاح فنصر الله رسوله وهزمهم وقتل بعضاً وأسر بعضاً ورد الله الذين كفروا بغيظهم وقمع كبرهم وخيَّب أملهم وأذلهم بعد أن كانوا يظنون أنه لا غالب لهم من الناس فكان ذلك عذاباً من حيث لا يشعرون.

﴿٤٦-٤٧﴾ ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ * أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ ﴿أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ﴾ أو أمنوا أن يأخذهم ﴿فِي تَقَلُّبِهِمۡ﴾ في البلاد في بعض أسفارهم ﴿فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لله أن يأخذهم في أي حال من أحوالهم شاء فهو على كل شيء قدير لا يعجز سبحانه عن شيء ﴿أَوۡ﴾ أن ﴿يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ﴾ وحذر من أخذه؛ لأن الله غالب على أمره لا يدفعه حذرهم إذا أتاهم عذابه ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ حيث أمهلكم وأنتم تمكرون برسوله وكتابه ولم يعاجلكم بالعذاب فوراً حين مكرتم وقد ارتكبتم منكراً عظيماً تستحقون به العذاب العاجل والآجل.

﴿٤٨﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أمكروا السيئات ولم يروا ما يدلهم على قدرة الله وقهره لما خلق بل رأوا ذلك ولكنهم معرضون عن آيات الله وعن التفكر فيها فما أجهلهم لأنهم قد وقعوا في الخطر وهم في سكرتهم يعمهون.

مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ

وقد ضمن ﴿يَرَوْاْ﴾ معنى ينظروا فعدي بـ﴿إِلَىٰ﴾ أي ينظروا إلى ذلك في حال أن تلك المخلوقات ساجدة لله داخرة صاغرة ذليلة تحت قهره تعالى وسلطانه وملكوته.

وقوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ﴾ التفيؤ: التردد من فَاءَ إذا رجع لأن الظل يأتي ويذهب ثم يرجع في اليوم الثاني حيث كان في اليوم الأول، أو حيث كان وَحَوله فهو يرجع ويتكرر منه الرجوع.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ تذكير بالظل الذي يكون أول اليوم والذي يكون في آخر اليوم، وظِلاله: جمع ظل، والشمائل: جمع شِمال، وإفراد اليمين مناسب لإفراد كلمة ما خلق الله من شيء، وكذا إفراد الضمير في ظلاله، وأما جمع الشمائل فعلى المعنى لتعدد الظلال، ولعل فائدة الإفراد أن كل فرد آية كاملة، وفائدة الجمع التذكير بتعدد الآيات.

و﴿سُجَّدًا﴾ أي خاضعات حالٌ من شيء لتخصصه بالوصف بجملة يتفيؤ ما بعده، ولعل ذكر الظلال لإفادة أنها تضربه الشمس أول اليوم وآخره لإصلاح الأرض والشجر والجبال والحيوان تضربه الشمس عن يمينه وشماله، فهو يتصرف فيها وهي خاضعة لتصرفه، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي أذلاء صاغرون، والجمع بالواو مناسب لنسبة السجود إليهم لله.

﴿٤٩﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده خضعت كل دابة، وذلك لأنه يتصرف فيها كيف يشاء لا تمتنع من تصرفه فيها، كتصرفه بالمرض بعد الصحة، والهرم بعد الشباب، والحياة بعد الموت.

وهذا السجود غير خاص بالدواب إلا أن الجماد قد أفادته الآية الماضية، وقوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لعله عبارة عن النيرات فهي خاضعة لتسخير الله لها وتصرفه فيها.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي يسجدون لله وخضوعهم لله بعبادتهم لله ربهم وباستسلامهم لصنعه فيهم وتصريفه لأحوالهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء:١٧٢] وفيه تعريض بالمستكبرين من الناس واحتجاج على الذين يعبدون الملائكة.

﴿٥٠﴾ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿يَخَافُونَ﴾ فمصدر خوفهم أنه من فوقهم بالقهر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٨] في إثبات الخشية وهي خشية منه أن يعصوه أي خوف من عذابه لأجل خوفهم من أن يعصوه كقول رسول الله ص: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام:١٥] ولعل خوفهم من الله هو سبب عصمتهم من الذنوب، فلا يقال: كيف يخافون وهم معصومون؟

وذلك لأن العصمة ليست جبراً إنما هي تيسير أسباب التقوى، والخوف من أعظم أسبابها، فأما إسناد خوفهم إلى ربهم، فلأنهم يذكرونه كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢] وذكرهم لعزته وحكمته وقهره فوق عباده يسبب خوفهم من عقابه أن يقع عليهم لو عصوه فهو خوف من ربهم؛ لأنه يعذب فخوفهم من ربهم يبعثهم على اجتناب ما نهى عنه واجتناب دعوى ما ليس لهم بحق كدعوى الإلهية التي يدعيها بعض المشركين.

إِلَـٰهُ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ

﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ وهذا يعم مثل ما أمر به ملك الموت من قبض الأرواح وما يؤمر به خزنة جهنم من تعذيب أهل النار وغير ذلك ولعله زيدَ قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ للتنبيه للمشركين على ذلك أو للتصريح بطاعتهم لله في الأمر كما يطيعونه في النهي؛ لأن ذكر الخوف في الدلالة على اجتناب المنهي أوضح ـ والله أعلم.

﴿٥١﴾ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عطف، ولعله عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وإن طال الكلام؛ لأنه طال في الردّ عليهم والاحتجاج على بطلان الشرك ونحو ذلك ﴿إِلَـٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ تحقيق للنهي عن التثنية ولا يتضمن النهي عن إثبات إله واحد؛ لأن الحكم على المثنى قد يتضمن تشريك الواحد في الحكم من حيث أنه بعض المثنى كما إذا قلت: أطعم الزيدين، فإنه يتضمن الأمر بإطعام زيد بحيث لو وجد أحدهما دون الآخر لزمه إطعامه، بدلالة التضمن.

فقوله ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ يدفع توهم النهي عن إثبات إلهين أو إله واحد، وعلى أقل تقدير أن يكون التعبير حسناً من حيث وضوح المراد به كما لو قال تعالى:لا تشركوا، ولعل ذكر الاثنين لزجر من اتخذ النور والظلمة، ومن اتخذ يزدان وأهرمن، ومن اتخذ مع الله إلهاً واحداً، وبالأولى من اتخذ أكثر من اثنين؛ لأنه قد تضمن الاثنين، وزاد ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إنما الإله إله واحد، أو الضمير مبهم يفسره إله واحد، مثل: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] ﴿فَإِيَّـٰىَ﴾ التفات يبين أن المراد بالإله الواحد الله تعالى.

﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي فارهبوني وحدي، وفيه دلالة على وجوب عبادته من حيث تقدير أنه الإله تعالى، وذكر الرهبة إما لأن عبادته عبادة رهبة من عذابه أي أن الرهبة تبعث على عبادته طلباً للنجاة من عذابه، والحصر؛ لأن غيره من شركائهم لا يضر ولا ينفع ولذلك فلا يُرهب.

فالحاصل: أن المعنى الأمر بإخلاص العبادة له، ويحتمل فإياي فارهبون فاتركوا الشرك حذراً من عذابي تفريع على إبطال الشرك، ويمكن حمل الجملة على المعنيين؛ لأنه لا تنافي بينهما والتفريع صحيح لكل منهما والرهبة معناها الخوف أو خوف مخصوص.

قال الراغب: ((الرهبة والرهب: مخافة مع تحرز واضطراب)) انتهى.

ولعله يعني بالاضطراب القلق وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز الخوف ممن يعتقد فيه أنه يضر من دون الله بما لا يقدر عليه إلا الله، وأن الواجب دفعه بالإيمان.

﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾

﴿وَلَهُۥ﴾ أي لله ما في السموات فالملائكة عباده والأرض، فكل من يعبدهم المشركون من دون الله هم عباد لله وهو ربهم، فالمشركون عبدوا من دون الله عباداً أمثالهم في العبودية ليس لهم شيء من الربوبية ﴿وَلَهُ﴾ أي ولله ﴿ٱلدِّينُ﴾ العبادة فهو الذي يستحقها، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّـهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] وهو الذي تنفع العابد عبادته بخلاف شركاء المشركين فلا تنفع عبادتهم بل تضر مع أنها باطل لا حق لهم فيها.

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((يعني دائماً)) انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): ((ومعنى الواصب: الدائم أي حق الإنسان أن يطيعه دائماً في جميع أحواله كما وصف به الملائكة، حيث قال: ﴿لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦])) انتهى.

ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): و﴿ٱلدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص ﴿وَاصِبًا﴾ أي واجباً خالصاً يدوم ولا يزول)) انتهى.

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ فتشركوا به اتقاء لضره، وهذا يشير إلى الحجة التي آتاها إبراهيم على قومه، حيث قال: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٨٠-٨١].

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي وحده فهو المستحق للعبادة شكراً على نعمه التي لا يحصيها العبد ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ مثل المرض والجوع والخوف من غرق أو زلزلة أو نحو ذلك ﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ أي فإليه تلجئون بالدعاء أو نحوه بصوت رفيع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ ترفعون أصواتكم)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((جَأَرَ يَجْأَر جَأْراً وجُؤَاراً: رفع صوته مع تضرع واستغاثة)) انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): ((الجؤار مثل الخوار، يقال: جأر الثور يَجْأر أي صاح وقرأ بعضهم عجلاً جسداً له جؤار ـ بالجيم ـ حكاه الأخفش، وجَأر الرجل إلى الله ـ عزَّ وجل ـ أي تَضَرَّع بالدعاء)) انتهى.

قلت: ولعله عُدّي بـ(إلى) لتضمنه معنى التضرع.

وقال في (الكشاف): ((والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والإستغاثة، قال الأعشى يصف راهباً:

يراوح من صلوات المليـ ـك طوراً سجوداً وطوراً جُؤارا)) انتهى

لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم

وقد شاهدت جؤار الناس في بلادنا حين وقعت الرجفة الشديدة في يوم السبت خامس عيد الأضحى سنة ١٣٥٩هجرية، فارتفعت الأصوات الكثيرة بالتهليل والتكبير وفي تلك الأيام رجع الناس إلى الله وشاع الصلاح وتلاوة القرآن.

﴿٥٤﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ الذي هو سبب اللجوء إلى الله فاجأ الشرك من بعض الناس ولم يكن من حقه أن يشرك بعد ما جاءته الآية المسببة للجؤار ولا إشكال في نسبة الشرك إلى فريق إذا كان الخطاب عامّاً للمكلفين من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

﴿٥٥﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أي يشركون ليكفروا بما آتاهم الله من نعمه وآياته ويستمروا على طريقتهم في اتباع هواهم وما ألفوه من الإقبال على الدنيا والإعراض عن الشكر وعن التقيد بطاعة الله في أي شيء مما تهواه أنفسهم وما اعتادوه من باطلهم وكفرهم، ثم خاطب الله هؤلاء الكفار المشركين بقوله: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ وهو تهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] وكذا قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تعلمون عاقبة ما اخترتم من الشرك والكفر والباطل كله.

﴿٥٦﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ لشركائهم لأنهم يجعلون لآلهتهم نصيباً كما ذكره الله تعالى في (سورة الأنعام) في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ

وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا..﴾ [آية:١٣٦] فجعلوا لآلهتهم ﴿نَصِيبًا﴾ بناءً منهم على أنهم آلهة وهم لا يعلمون أنهم آلهة وقد علموا أن الله الخالق لذلك الذي جعلوه لشركائهم أنعم الله به، فكفروا نعمته بجعله لشركائهم، وجمعهم بين الشرك ومعصية الله بنفس نعمته.

ثم توعَّدهم الله تعالى على ذلك بقوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ﴾ وهو قسم فيه تعجيب من حالهم وغفلتهم عن مصيرهم وجرأتهم على أسباب العذاب ﴿لَتُسْئَلُنَّ﴾ أي يوم القيامة ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ كله كافترائهم الشرك وافترائهم بإثبات نصيب من رزق الله لشركائهم، وهذا السؤال يترتب عليه الحكم عليهم والجزاء الأوفى.

﴿٥٧﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ فكانوا مبطلين بإثبات الولد لله، وبجعل الملائكة إناثاً، وبجعل ما يكرهون لله، فجمعوا بين ثلاثة أقوال باطلة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه له تعالى عما جعلوا له لأنه سبحانه الغنى وكل المخلوقين عباده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي ولهم البنون نعمة من الله عليهم فقابلوا نعمته بكفرهم المذكور وهذا على فرض أن (الواو) للحال في قوله تعالى: ﴿وَلَهُم﴾ وهو أرجح من جعلها للعطف، وإدخال البنين في جعلهم لأن جعلهم البنين لأنفسهم هو صدق وحق، كما قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى:٤٩] فمن البعيد أن يعد من جهالاتهم إثبات البنين لأنفسهم.

ويمكن أن يجاب عن هذا بأن حكاية جعلهم لأنفسهم ما يشتهون ليس على معنى تجهيلهم في هذا وإنما هو على معنى الإحتجاج عليهم، كأنه قيل:

بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

يجعلون لله البنات مع أنهم يجعلون لأنفسهم البنين؛ لأنهم يشتهون البنين، ونظيره: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] ليس إنكاراً للأمر بالبر، وإنما هو احتجاج عليهم في نسيانهم لأنفسهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿بُشِّرَ﴾ بالأنثى أُخبِر بها ـ أي بولادتها ـ وقيل له: وُلِدت لك أنثى ولعل سبب جعل إخبار الوالد بالمولود تبشيراً لأنه كان يُسَرّ به الوالد ثم صار عبارة عن إخباره بالمولود وإن كان لا يستبشر به.

وقال في (الصحاح): ((والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير، وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾)) [آل عمران:٢١] انتهى.

وقوله تعالى: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ كناية عن غيظه أو غضبه أو كراهته الشديدة لما بشر به التي اسود وجهه من أجلها، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي شديد الغيظ أو الحزن أو نحو ذلك كأن قلبه مملوء بذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): الكظيم الحزين المغموم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من الغم مأخوذ من الكظامة وهو سدّ فم القربة)) انتهى، وعبارة (الراغب): ((وكَظْمُ السقاء شَدّهُ بعد مَلئِه مانعاً لنَفَسه)) انتهى.

﴿٥٩﴾ ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يكون حيث

ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِمۡ مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا

لا يرونه، ولعل ذلك يفعله فراراً من ضحكهم وسخريتهم بسبب البنت المولودة له، فهو توارى من القوم من سوءها في اعتقاده.

قال الراغب في (المفردات): ((السُّوءُ: كل ما يَغمُّ الإنسان من الأمور الدنيوية والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مال وجاه وفقد حميم)) انتهى.

﴿أَيُمۡسِكُهُۥ﴾ أي يفكر في حال تواريه أيمسكه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾ على هوان وذلّة لعله لخوف الفقر من زيادة النفقة؛ أو للخوف من كلام السفهاء وسخريتهم منه؛ أو للخوف من أن تنهب عليه في حرب فتسبى ويكون ذلك عار عليه؛ أو للخوف من أن يضطر إلى تزويجها من غير كفؤ أو نحو ذلك مما يخوفه الشيطان ليدسها في التراب أي يدفنها لتموت في التراب ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ﴿أَلَا﴾ تنبيه للسامع ليصغي للقرار بعدها ﴿سَآءَ﴾ قَبُح ﴿مَا يَحۡكُمُونَ﴾ حيث جعلوا لله ما يكرهون، أي جعلوا له البنات وهن عندهم سوء.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي لهؤلاء الذين جعلوا لله البنات لأنهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فكان عدم إيمانهم بها سبباً لتجريهم على الجرائم من الشرك وجعل البنات لله سبحانه ووأد البنات وغير ذلك، فلو كانوا يؤمنون بالآخرة لردعهم الخوف من عذاب الله، فلهم ﴿مَثَلُ ٱلسَّوۡءِ﴾ فهم المستحقون له، أو هو عام لكل من لا يؤمن بالآخرة، والمثل هنا بمعنى قول الواصف الذي يضيف إلى من يقول فيه أمراً.

يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ

والسَّوءُ: مصدر ساء ضد سَرَّ، كما أفاده في (الصحاح) فمثل السوء: المثل الذي يسوء، فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم المستحقون أن يقال فيهم القول الذي يسوءهم لاستحقاقهم الذم والإهانة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فهو الذي يستحق التحميد والتكبير والتسبيح والتهليل وكل ما تفيده أسماؤه الحسنى ينسب إليه في السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُنال ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فلا يتخذ ولداً لا ذكراً ولا أنثى؛ لأنه الغني.

﴿٦١﴾ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿يُؤَاخِذُ﴾ فعل مضارع للحال، وقد يكون هذا الحال مدة طويلة؛ لأنه يعبر عن العادة المتكررة التي هي غير محدودة، مثل: ((الحسد يأكل الحسنات)) ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥] فقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ أي لو كانت عادته في هذه الدنيا أن يؤاخذ الناس بظلمهم وظلمهم هو المعاصي كما حققته فيما مرّ ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أي على المسكونة ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ فكان يهلك الناس أينما كانوا من الأرض ويهلك ما حولهم من الدواب، وهذا يشعر بعذاب يعم الناس والدواب كلها فهو عذاب شديد، كالغرق لقوم نوح أو غيره، والدواب لها أعواضها فيما لحقها من ذلك العذاب وكذلك الأطفال ولكن يؤخرهم هذا في العادة الغالبة، وقد يهلكهم في حالات نادرة إذا كذبوا الرسل وحاربوا الدين كما دل عليه في القرآن في سور متعددة ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ في العادة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وهو الموت أو العذاب الذي أخرَّ عنهم وأُمْهلوا قبله ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً﴾ في الحياة ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الموتَ قبل أجله لأن الله غالب على أمره؛ ولذلك يموت الأطباء الكبار والملوك الذين تجتمع الأطباء للتوصل إلى دفع المرض عنهم حرصاً على حياتهم.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ إما البنات وأعيد ذكره ليرتب عليه ما بعده، وإما كل ما يكرهون مما حرموه على أنفسهم فلم يجعلوها لله إلا لأنهم يكرهونها وهذا من لؤمهم وبعدهم عن شكر نعمة الله ﴿وَ﴾ مع هذا ﴿تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾ الوصف ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ أي يقولون في أنفسهم الكذب الذي لا أصل له، إنما هو اختلاق ألسنتهم له وهو دعواهم أن لهم الحسنى أي أنهم يستحقون الحسنى وأنهم أهلٌ لأن يؤتيهم الله الحسنى، كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] وقوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦].

﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ حقّاً أن لهم النار، فهي التي يستحقونها، قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿لَا جَرَمَ﴾ يعني قطعاً ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ وحقاً أنهم يعذبون بها، ثم قال: وقال الحسين بن القاسم × : معناه ـ كذا ـ لا جرم أي لا شيء ألزم من أن لهم النار)) انتهى المراد. وفي (تفسير الإمام زيد ×): ((﴿لَا جَرَمَ﴾ أي حقاً)) انتهى.

ومحل هذا التفسير ﴿لَا جَرَمَ﴾ الماضية في هذه السورة، والحاصل: أن لا جرم تفيد تأكيد ما بعدها ﴿وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ ـ بكسر الراء ـ مسرفون، ـ وبفتح الراء ـ مقدمون إليها قبل أتْباعهم، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩] فالمعنى مع ـ فتح الراء ـ وأنهم مفرطون إليها أي إلى النار.

أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى

قال الشرفي في (المصابيح): ومنه قول النبي ص: ((أنا فرطكم على الحوض)) أي متقدمكم، انتهى المراد.

﴿٦٣﴾ ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ مخالفة الرسل ومعصية الله، وهو أعم من الشرك ومن تكذيب الرسل ﴿فَهُوَ﴾ أي الشيطان ﴿وَلِيُّهُمُ﴾ قد حرموا ولاية الله لهم وخذلوا فتولاهم الشيطان ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٤] فهو وليهم في حياتهم، واستمر حكم الولاية بعد موت من قد مات منهم، لأنه لم يخرج من طاعة الشيطان ولم يبدل بولاية الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] فلا ولي لهم إلا الشيطان وهو لا يفيدهم شيئاً، وإنما بقي عليهم حكم ولايته هذا فيمن قد مات منهم، أما من لم يزل حياً من أهل الكتاب وغيرهم فظاهر، فقوله تعالى: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ معناه أنهم تحت ولاية الشيطان حتى اليوم نعوذ بالله منه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وهذا تسلية للرسول ص فيما كان يناله من الغم بسبب جهالات القوم)) انتهى، قلت: وفيه تحذير من معصية الرسول ص.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيان لنتيجة ولاية الشيطان وعصيان الرسول ص فهي عذاب جهنم، ففيهم عبرة لمن أرسل الله إليهم محمداً ص.

ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ٦٥ وَإِنَّ

---

٦٤ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا رد على المكذبين بالقرآن الذين قالوا أساطير الأولين فما أنزله الله إلا نعمة ورحمة وهدى لمن آمن، فما كان ينبغي لهم لو استعملوا عقولهم محاولة ردِّه وإبطاله؛ لأن ذلك جهالة وحماقة إذ عَرَض عليهم الخير فلم يقبلوه واستبدلوا به طاعة الشيطان وولايته والذي اختلفوا فيه شيء معروف معهود عندهم؛ ولذلك جعل صلة الموصول قولَه: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ ولعله البعث، قالوا: كانت العرب مختلفة فيه منهم من يثبته ومنهم من ينفيه، وبيانه فيه إنذار وتبشير، فهو مطابق لقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ إما بمعنى: من شأنهم أن يؤمنوا؛ لأنهم منصفون طالبون لمعرفة الحق وما تبين لهم من الحق آمنوا به، وإما بمعنى: مؤمنين، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت:٤٤] والأول أقرب هنا ـ والله أعلم.

٦٥ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ﴾ المطر ففيه آية تدل على قدرته وعلمه وعلى أنه الرزاق لعباده، وعلى أن الحياة بعد الموت حقّ بقدرة الله تعالى وعلمه فكما أحيى الأرض بعد موتها يحيى الأجساد بعد موتها وهذه الآية احتجاج على الكفار؛ لأنهم يقولون: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل:٦٧] وقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ يفيد: أن الآية هذه واضحة إذا أصغى لها الكفار أسماعهم كفتهم ولكنهم يعرضون.

لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ

---

٦٦ ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ آية تدل على قدرة الله تعالى على ما يستبعده الإنسان، وهذه العبرة فسرها قوله تعالى: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ فاللبن يتكون من غذاء الأنعام سواء كان من الفرث قبل أن يتكون منه الدم أم كان من الفرث بعد أن يتكون منه الدم، ويتكون اللبن من الدم، فكل ذلك عبرة تدل على قدرة الله تعالى على ما يستبعده الإنسان؛ لأن اللبن خالص ليس فيه شائبة فرث ولا دم مع مرور أصل اللبن من بين الفرث والدم، فإذا عرف الإنسان هذا وفكر فيه فليعرف قدرة الله على إحياء الموتى، وليعرف أن مجرد الاستبعاد لا ينافي قدرة الله القدير العليم لما شاهد من صنعه لما استبعده الإنسان.

٦٧ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ ﴿وَ﴾ نسقيكم ﴿مِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ﴾ كما نسقيكم اللبن الخالص نسقيكم عصير العنب ونبيذه وكذلك لب الرطب ونبيذه ﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا﴾ مسكراً محرماً عليكم ﴿وَرِزۡقًا حَسَنًا﴾ حلالاً طيباً، ومنه الخل يجعل في الإدام، وروي فيه الحديث عن النبي ص : ((نعم الإدام الخل)). وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((السَّكر الحرام والحسن الرزق الحلال)) انتهى.

إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × في تفسيره لهذه الآية ما لفظه: هذا إخبار من الله تبارك وتعالى بما رزقهم من ثمرات الأشجار التي يتخذون منها الأرزاق ويدخرونها من التمر والزبيب وغير ذلك من الحبوب التي هي معيشة لهم وحياة، ويتخذون ـ أيضاً ـ السكر الذي نهاهم الله عنه وحرمه عليهم فوقفهم هاهنا في هذه الآية على كفر من فعل ذلك لِنِعَمِهِ إذ صرفوا رزقه في السكر الذي حرمه.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فأخبر أن فيما فعل وفعلوا من حسن رزقه وجميل فعله بهم واتخاذهم له سكراً وصرفهم عن الطاعة إلى المعصية ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾)) انتهى. آية لأهل العقول الذين يستعملون عقولهم تدلهم على قدرة الله تعالى وعلمه وكرمه وسعة فضله وحلمه.

﴿٦٨﴾ ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ﴾ ﴿وَأَوۡحَىٰ﴾ علمها وهداها لاتخاذ بيوت كما هدى سائر الطير لاتخاذ بيوت، ولكن هدى النحل لاتخاذ بيوت تناسب إنتاجها للعسل فلو اتخذت بيوتها في الأرض كالنمل لاختلط العسل بالتراب عند التماسه، وكذلك لو صنعت لها أعشاشاً من جنس أعشاش الطير لكان يختلط بأعشاشها ويسيل خلالها، ويمتزج بالخيوط والريش والأعواد ونحوها، وهذا مع ما جعله تعالى لها من تدبير اجتماعها واتباعها ليعسوبها حتى تتعاون على إنتاج العسل في بيوتها.

مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٦٩ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي خلايا النحل التي تجعل على العريش، وجعلها سبحانه مأمورة لأنه جعل لها رغبة لوظيفتها فهي تقْبل عليها إقبال المأمور، وذلك لتحصل فائدتها للإنسان فتسخيرها لنفعه كالأمر.

٦٩ ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كُلِي﴾ أيها النحل من كل الثمرات وهذا هو الأصل في طلبها لرزقها وبه يكون العسل جيداً، أما إذا جعل لها نوع مخصوص كانت جودة العسل ونقص جودته تبعاً لذلك ﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ سبله إلى الثمرات وسبله إلى الخلايا وإلى الماء فهي ملهمة لأرزاقها ومائها ملهمة للعودة إلى بيوتها ﴿ذُلُلٗا﴾ قد ذلَّلها الله وسخرها لذلك، فهي في خدمة الإنسان عاملة مستمرة.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ اختلف السياق فلم يجعل هذا مما أمرت به؛ لأنه يخرج من بطونها اضطرارياً ﴿شَرَابٞ﴾ كما جعل من الثمرات شراباً ومن الأنعام شراباً ﴿مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ بعضه أبيض وبعضه أحمر وبعضه أسود وذلك بتدبير الخالق البصير ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِ﴾ وهذا واضح بالتجربة.

قال بعض الأطباء: «العسل سيد الأدوية» وقد صنف بعضهم كتاباً في منافع العسل، فهو نعمة عظيمة للإنسان ولم يذكر لذته لأنها معروفة، ونعمة الشفاء به أهم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ آية تدل على الله الذي خلق النحل وعلمها وظيفتها وسخرها لنفع الإنسان وإنتاج ما فيه شفاء للناس فهي آية كالآيات التي التي سبق ذكرها يهتدي لها ويعرفها الذين يتفكرون في آيات الله ودلائله، والإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذكر في الآية من أولها وهو تهيئة أسباب حصول العسل للإنسان نعمة من الله عليه وآية له.

عِلۡمٍ شَيۡءًۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ٧٠ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ

---

٧٠ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٞ قَدِيرٞ﴾ فخلقنا دليل على علم الخالق وقدرته، وقد نبه تعالى على ذلك بهذه الآية، وبقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] فقليل من تفكُّرِ الإنسان في خلقه يحصل له به العلم بقدرة الخالق وعلمه، بل تفكره في عضو واحد من أعضائه يكفيه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ كذلك دليل على قدرته تعالى وعلمه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت ولو كان ملكاً أو طبيباً ماهراً؛ ولأن الموت مقدّر بين الناس على ما تقتضيه الحكمة حيث يموت القرن من الناس في أوقات يموت فيها فرد منهم ثم في وقت آخر فرد آخر حتى يذهب القرن وقد خلفه قرن آخر من دون أن يهلك القرن كله في وقت واحد، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة:٦٠] ولأن الموت تختلف آجاله فمن الناس من يموت طفلاً ومنهم من يموت في شبابه إلى غير ذلك وذلك بتقدير الله تعالى للحياة والموت.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ﴾ يرد إلى حالة الضعف الشديد في أرذل عمره وأدناه وأخسه لاجتماع الهرم وشدة ضعف البدن وذهاب العقل وكون أكثرهم مكروهاً ليس كالطفل يحبه أبواه وتنظفه أمه برغبة ليدل نكس خلقه على أن مراحل وجودة كانت بصنع الخالق الذي حدد نموه وجعل لنموه مقداراً مختلفاً كما أراد خالقه الفعال لما يريد العليم القدير.

سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٧١ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ

---

٧١ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ ﴿فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾ جعل لبعضكم من الرزق أكثر مما رزق البعض الآخر لحكمة، فالرزق نعمة وآية، وعلى المفضَّل أن يشكر، وعلى المفضَّل عليه أن يشكر على ما رُزق ويرضى بقسمة الله تعالى، ويصبر على الإقلال إن كان فقيراً، وهذا فيه رد على من قال بالإشتراكية وعلى من ادعى أن الله تعالى ساوى بين عباده في الرزق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ الراجح: أنه كقوله تعالى: في (سورة الروم): ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨] فهي ردّ على المشركين تبين أن الله العزيز الحكيم لم يجعل لنفسه شركاء في عباده؛ لأنه نقص من العزة منافٍ للحكمة، فبيّن تعالى في قوله: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ أي في الرزق ﴿بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ﴾ بجاعلين له لعبيدهم يملكونه كما تملكه سادتهم فهم في ملكه سواء؛ لأن هذا من سوء التدبير والتصرف الذي لا يرضاه لنفسه عاقل، فظهر بهذا: أن الله تعالى عدد نعمه في هذه السورة ليشكره عباده ويعبدوه وحده.

ألا ترى إلى الآيات في أوائل هذه السورة التي فيها تعداد كثير من نعم الله كيف عقبها بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟

واحتج كذلك في أثناء السورة هذه فقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ..﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فكذلك سياق الآيات التي نحن في سياق تفسيرها من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً..﴾ إلى قوله فيما يأتي: ﴿.. أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا..﴾ الآية، فبان بذلك صحة تفسير قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟..﴾ الآية، بأنه احتجاج على المشركين بأنا لا نرضى أن نجعل مماليكنا شركاء لنا في رزقنا بحيث نصير نحن ومماليكنا سواء في ملكه وولاية التصرف فيه، فالله تعالى العزيز الحكيم لا يرضى أن يجعل لنفسه شركاء في عباده.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ينكرون ما هو معلوم، يبين أن عليهم أن يشكروا، أفبنعمه يجحدون حين كفروا وعبدوا غيره؟ فإن كانوا يقرون بنعمة الله عليهم فكيف لا يشكرون فيعبدونه وحده.

﴿٧٢﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : ومعنى ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني من بعضكم)) انتهى المراد.

أي جعل للناس من جنسهم أزواجاً للذكور من الإناث وللإناث من الذكور وبذلك يسكن الزوج إلى زوجه ونعمة الزواج عظيمة للذكر والأنثى

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ﴾ وهي نعمة، قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] وإذا كانوا أبراراً فالنعمة بهم أعظم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَفَدَةً﴾ هم أبناء الأبناء القائمين على خدمة أجدادهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((الحفدة الخدّام والأعوان)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((حفدة: جمع حافد، وهو المتحرك المتبرع بالخدمة أقارب كانوا أو أجانب)) انتهى.

وهذه نعمة عظمى، وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ لعل الضمير للآباء والأبناء والحفدة فهو سبحانه الرازق لهم كلهم، وكون الرزق من الطيبات نعمة عظيمة؛ لأن الإنسان لا يعيش إلا به فلو لم يكن من الطيبات لكان أكله شاقاً ومع ذلك ضرورياً فالحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ كإيمانهم بمن جعلوهم شركاء لله وبما جعلوا لهم من رزق الله كما مر في سورة الأنعام، وبتحريم البحيرة وغيرها كما مر في سورة المائدة، وقوله تعالى: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ بمعصيته وتكذيب آياته وإيمانهم بالباطل.

﴿٧٣﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ﴾ ليس بيده شيء من رزق صادر من السموات والأرض كالمطر من السماء والنبات من الأرض فيرزقهم إياه ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ملك شيء.

قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الأخفش: جعل قوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ بدلاً من قوله: ﴿رِزْقًا﴾ والمعنى: لا يملكون رزقاً قليلاً ولا كثيراً)) انتهى المراد.

لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ

﴿٧٤﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ﴾ الفاء للتفريع على ما سبق من الاحتجاج على المشركين والخطاب لنهيهم عن ضربهم لله الأمثال، وضرب المثل تحصيله ولعلهم احتجوا لبعض باطلهم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فالمثل قوله: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وضربه: صياغته وتحصيله فردّ الله عليهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقوله تعالى هو الحق، ومَثَلُهم جهل وتضليل.

ولعل المثل الذي ضربوه لتبرير شركهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:٣] فهم مبطلون وعليهم أن يؤمنوا بالله وحده ويكفروا بشركائهم، ولا يفيدهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا﴾ لأن الله علام الغيوب فقوله الحق، وهم لا يعلمون فمثلهم الباطل.

﴿٧٥﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا المثل يبين ضلال المشركين في جعلهم شركاءهم أنداداً لله سبحانه فأصنامهم كالعبد المملوك؛ لأنها لله مملوكة لأنه خالقها وهي مع ذلك كالعبد العاجز الذي ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ فلا يعمل ولا تحصل منه أي فائدة.

ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ

والله تعالى هو المالك لكل شيء القادر على كل شيء وهو الذي يرزق عباده الخير كله، فكيف جعلوا شركاءهم أنداداً له ـ جلَّ جلاله ـ مع أنهم يعلمون أنه لا يسوى بين العبد العاجز وبين من هو حرّ رزقه الله رزقاً حلالاً ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا﴾ لرغبته في فعل الخير وحبه للإحسان لا لأجل سمعة في الناس، وينفق ـ أيضاً ـ ﴿وَجَهْرًا﴾ كما ينفق سراً لكثرة إنفاقه، فالحمد لله الذي منه الخير كله، والذي هدى عباده إلى توحيده وإلى طريق مستقيم ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لإعراضهم عن الحق وكراهتهم له فليس عندهم استعداد لعلم بالصواب.

﴿٧٦﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في (الصحاح): ((الأبكم: الأخرس)) انتهى باختصار، وفي (مفردات الراغب): ((أبكم وهو الذي يولد أخرس، فكل أبكم أخرس وليس كل أخرس أبكم)) انتهى.

ومثله في (مصابيح الشرفي): ((قال: الذي ولد أخرس فلا يفهم ولا يُفهِم لعدم السمع والنطق)) انتهى.

فهذا مثل كالمثل الأول في إفادته، مُثِّل شركاؤهم برجل جمع صفات:

الأولى: أنه ﴿أَبْكَمُ﴾.

الثانية: أنه ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ فهو عاجز عن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره.

الثالثة: أنه ﴿كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾.

إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ

في تفسير (الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: عَيَال عليه)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الكَلّ: العيال والثِقْل، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾)) انتهى، وفي (الصحاح): ((وعيال الرجل: مَن يعوله)) انتهى فهو مع عجزه ثقل على مولاه.

الرابعة: أفادها قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ أينما يوجهه مولاه لتحصيل نفع لا يأت بخير؛ إما لعجزه، وإما لكسله عن تحصيل أي فائدة يتوصل لها بإشارة أو غيرها، وبذلك يثقل على مولاه وييأس من نفعه لنفسه أو لغيره.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هل يستوي ذلك العاجز ومن هو كامل في عقله ونطقه وسلوكه، فهو لكماله يأمر بالعدل الذي هو ضد الجور والظلم وهو على صراط طريق واضح مستقيم حق لا عوج فيه، هذا سؤال لا شك في أن جوابه: (لا يستويان) فكيف جعل المشركون أصنامهم التي لا تفيدهم شيئاً، بل هم لها جند محضرون لحمايتها؟! يجعلونها أنداداً لله العزيز الحكيم هذا منهم ضلال مبين.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ما غاب فيها فلا تعلمه الملائكة ولا غيرهم من الخلق ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غاب في الأرض فلا يعلمه أهلها ولا غيرهم من الخلق، فالله يعلمه وحده؛ لأنه علام الغيوب فهو الرقيب على أهل السموات وأهل الأرض لأنه بكل شيء عليم.

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ من لمح البصر في سهولته وسرعته، وأمرها إيجادها والأمر هنا، إما بمعنى الشأن وهو الراجح، وإما بمعنى قوله: كوني الذي هو تمثيل لإيجادها.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين ابن القاسم × : يعني بذلك المثل بلمح العين، ويريد ـ تعالى ـ أن سهولة قيام الساعة كسهولة النظر بالعين عند المخلوقين)) انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): ((لَمَحَهُ وألمحه، إذا أبصره بنظر خفيف، والاسم اللمْحةُ)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُ﴾ أي أقرب من لمح البصر و(أو) هنا للترديد لا للشك؛ لأن الله علام الغيوب لا يجوز عليه الشك، وفائدتها: بيان السرعة والسهولة بالنسبة لأفهامنا وتصورنا، أي أنه في غاية السهولة وغاية السرعة؛ لأنا لا نتصور فرقاً بين لمح البصر وبين أقرب منه، وإنما نفهم غاية السرعة والسهولة وهو المراد منا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تعليل للسهولة أي عدم المشقة وللقدرة على تحصيل الساعة في مثل لمح البصر أو هو أقرب؛ لأنه لا يصعب عليه شيء لأن كل شيء مقدور له من غير فرق بين ما هو سهل بالنظر إلى قدرتنا وما هو صعب، أو لا نستطيعه أصلاً، فلا فرق بين الممكنات في قدرته عليها بلا كلفة ولا عناء ولا مشقة لأنه قادر لذاته وقدرتُه غير محدودة فهو قادر على الممكنات على سواء لا فرق بينها في قدرته تعالى.

وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ

﴿٧٨﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ هذه آيات تدل على قدرته تعالى وعلمه وسعة فضله وعظم نعمه علينا وهذه نعم وهبها لنا تعريضاً لنا على شكره ليثيبنا على شكره في دار كرامته ورحمته، والأفئدة محالّ العقول سواء كان الفؤاد باطن القلب أم هو القلب فالمراد أنه جعل لنا آلة الفهم والعلم.

قال الراغب في تفسيره [لمفردات القرآن]: الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤُّد أي التوقد..إلخ ونحوه في [لسان العرب].

﴿٧٩﴾ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ بتسخير الله لها ولعله اعتبر تسخيراً من حيث جعلها الله تطير لتكون آية ودليلاً على قدرته، حيث يمسكها في الجو دون الدواب، والجو الهواء أو ما ارتفع من الهواء، وإضافته إلى السماء تدل على ارتفاعه في الهواء.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لأنه خالق الطير على صفة تصلح لذلك، فجعل له الريش الخفيف الذي يبسطه في الهواء وجعل رئتيه مخالفتين لرئات الدواب وكذا كليتاه وجعل الهواء صالحاً لحمل الطير سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ إما يؤمنون بالقوة أي من شأنهم أن يؤمنوا إذا رأوا آيات الله، وإما يؤمنون بالفعل لأنهم يتفكرون في آيات الله فيزدادون إيماناً.

ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ

ففي هذه الآيات حجة على المشركين في جعلهم أندادا لله ولم يفكروا فيعرفوا أن لا يستوي من يخلق ومن لا يخلق بل ومن هو عاجز عن كل نفع، وحجة عليهم في استبعادهم القدرة على إحياء الموتى.

﴿٨٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ﴿سَكَنًا﴾ تسكنون فيها لفوائد المساكن من ضر البرد والشمس وغيرهما، فهي نعمة عظيمة، ولم يمكن الحيوانات من بناء البيوت كما مكن الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ هي الجلود المدبوغة تجعل قباباً وخياماً للبدو والمسافرين ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تنتفعون بخفتها حين تعتبرونها خفيفة لنقلها عند الظعن وهو الانتقال إلى ناحية أخرى كما يفعل البدو حين يطلبون لأنعامهم مواضع المرعى والماء، فينتقلون له من موضع إلى موضع فيسهل عليهم حمل بيوتهم على دوابهم، بخلاف البيوت التي تبنى من الطين أو من الأحجار، فهذه نعمة خفة البيوت التي من جلود الأنعام لنقلها معهم ولضربها حيث يقيمون بأن يضعوها فتحصل بسرعة بواسطة أعواد تحتها تنصب في الأرض وحبال في أطرافها تمد وتمسك بأوتاد في الأرض فيكتفون بها عن بناء بيوت بطين أو بأحجار.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ أي وجعل لكم من أصوافها، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : الصوف:

ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ

هو شعر الضأن، والوبر: هو شعر الإبل، والشعر: هو شعر المعزا، وهذه عبارة مني وبيان، فأما العرب فلا تجيز أن يسمى الوبر والصوف شعراً..)) إلخ.

وقوله تعالى: ﴿أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا﴾ أي جعل لكم من هذه الثلاث أثاثاً كالفراش واللباس والغرائر والحبال، وهذه نعم لحاجة الإنسان إلى ما يقيه البرد من هذه وإلى سائر منافعها، وفيها تكريم للإنسان حيث جعل له ذلك من الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعًا﴾ أي نفعاً محدوداً في هذه الدنيا ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهو ينتهي بالموت أو غيره كما أن الجلود والأصواف والأوبار والأشعار تبلى حتى يذهب نفعها ويحتاج الإنسان إلى تبديلها، فما أعظم نعم الله على الإنسان وأكثرها!!

﴿٨١﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ ﴿مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ يظلكم من الشمس والمطر وذلك كالشجر التي تظل الإنسان والكهوف التي في الجبال وما يظل الإنسان من الجلود والأشعار والثياب.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ تُكِنُّ من المطر وفيها منافع أخرى كالوقاية من القنال والصواريخ التي تكون في الحروب، كالكهوف والبيوت المنحوتة في الجبال.

نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ لباساً من القطن وغيره ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ لأن جلد الإنسان إذا باشره شعاع الشمس آلمه وقد يضره؛ لأن الإنسان ليس له شعر كالدواب ولا ريش كالطيور فجعل له اللباس وفيه نفع من البرد إلا أن السورة مكية ومكة حارة فكان المناسب تذكيرهم بنعمة ما يقي من الحر.

وقوله تعالى: ﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ هي ملابس من الحديد تصنع لتقي من سلاح كانوا يستعملونه في الحرب سيوف ورماح وسهام ترمى بالأقواس، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فهو يدل على نعم غير هذه النعم المذكورة مثلها يتم بها علينا نعمته وتفضله وإحسانه.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ تعريضاً لكم على أن تسلموا وجوهكم لربكم شكراً على نعمه، فمن حق العاقل إذا عرف النعمة أن يشكرها ولا يكفرها، وإسلام الوجوه: إخلاص العبادة لله، واجتناب الشرك.

﴿٨٢-٨٣﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أبوا الإسلام بعد هذا الاحتجاج الكامل والتذكير بنعم الله والإنذار ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ليس عليك أن يهتدوا والمبين البلاغ الواضح المبين لما بلغه بحيث يُسمع تماماً ويفهم فهماً كاملاً ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ آياته التي هي نعمة لإنقاذها لمن آمن بها من الضلال وما يؤدي إليه من العذاب وإخراجها لمن آمن بها من الظلمات إلى النور، فقد سمعوا هذا القرآن العظيم، وعرفوا أنه

رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا

معجز خارق لا يأتون بمثله ثم ينكرون هذه النعمة ويقولون: ما نزل الله من شيء ﴿وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ لنعم الله بعبادة غيره، وتحريم بعض ما أحل الله وجعله نعمة لهم من الأنعام وغيرها وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال فيه الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا الدلالة على [أن] إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة؛ لأن من حق مَن عرف النعمة أن يعترف بها فلا ينكرها» انتهى، وآخر الكلام ملتبسٌ خطه إنما صححته أنا. قلت: ونظير هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة:٢٢].

﴿٨٤﴾ ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ﴾ واذكر ﴿يَوۡمَ نَبۡعَثُ﴾ بعد تعداد النعم والآيات الماضية اذكر لهم الموعظة ذكر يوم البعث وحالهم فيه ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا﴾ أي نبعث شهيداً عليهم منهم، وهو يكون النبي على من كان في عصره ورآه فعلم بإيمانه أو كفره، وأما بعد وفاة النبي فمن كل أمة خيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣] يشهد على من شاهده وعرف عمله، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «أي لا يقال لهم: ارضوا ربكم» انتهى، فالمعنى: لا يستتابون؛ لأنها لا تقبل منهم توبة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إما الذين كفروا وأصل الكلام وإذا رأوا لتقدم ذكرهم إلا

نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

أنه ذكر الظلم؛ لأنه سبب العذاب؛ لأن الكفر ظلم وحيف وجور وكذا سائر المعاصي المتعمدة كلها ظلم، وإما الذين ظلموا عام لكل من ظلم سواء بالكفر أم بغيره، والعذاب: ما يعذبون به في الآخرة وهوا لنار فلا يخفف عنهم بتخفيف حرّها مثلاً.

﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يمهلون وإنما يحاسبون ويسألون فإذا انتهى السؤال والحساب وقضي عليهم بالعذاب لم يمهلوا، وهذا على فرض أنهم يسألون وهم يرون الجحيم، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٦-٨] فأما إذا كانوا لا يرونها إلا بعد فصل القضاء فظاهر.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ كأنهم يدعون الله بهذا ليجعل بعض عذابهم على شركائهم فيخف عنهم، أو أرادوا أن يعذب شركاءهم بغضاً لهم منهم، وقولهم: ﴿ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ﴾ هو دعاءهم الذي لم يكن ينفعهم وكان عبادة لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلۡقَوۡاْ﴾ أي شركاؤهم ﴿إِلَيۡهِمُ﴾ إلى المشركين ﴿إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي ما كنا شركاء لله كما زعمتم أو ما كنا وحدنا شركاءكم لأن الشياطين أمروكم بعبادتنا فأطعتموهم فصاروا شركاء في إثم شرككم وفي عبادتكم لنا بالأمر والرضى، كقولهم: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٦٣].

وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدًا عَلَيۡهِم مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ

﴿٨٧﴾ ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ﴿وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ﴾ يوم القيامة وقد رأوا أهوالها ألقوا ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ إلى الله كأنه شيء كانوا يأبون أن يسَلموه، فلما رأوا أهوال القيامة ألقوة لشدة الباعث عليه ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾ يعني الذين ظلموا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي الاستسلام والانقياد لأمره وحكمته، بعد الإباء والاستكبار في الدنيا)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أي ضاع عنهم فلم ينفعهم ولم يدفع عنهم ﴿مَّا كَانُواْ﴾ يفترونه من شفاعة شركائهم وغير ذلك من الأماني التي كانوا يقولونها كاذبين مختلقين أمانيهم بلا مستند، كقول بعضهم: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ونسبة الضلال إلى ما كانوا يفترون والمراد معناه كقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٨٠].

﴿٨٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صدوا غيرهم عن دين الله الذي شرعه لعباده، ومعنى صدهم لهم إغواؤهم لهم بأي أسباب الغواية ﴿زِدۡنَٰهُمۡ﴾ أي يوم القيامة ﴿عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ الذي استحقوه بكفرهم ومعاصيهم الأخرى ﴿بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ﴾ غيرهم فالإفساد سبب للعذاب مع السبب الأول.

وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ

﴿٨٩﴾ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ **﴿وَيَوْمَ﴾ واذكر يوم ﴿نَبْعَثُ﴾ أي يوم الخروج من القبور والسوق للحساب ﴿نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي مع كل أمة بينهم ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قد رآهم في الدنيا وشاهد ما كانوا يعملون من خير أو شر في الجملة بحيث ميز المطيعين من العاصين وهي كالأولى إلا أن في هذه زيادة تحقيق أنه يبعث فيهم الشهيد عليهم، والتصريح بأنه من أنفسهم.**

فقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ﴾ أي جئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء الموجودين حولك من قريش أو منهم ومن كنانة ولم يقل على أمتك لا هنا ولا في سورة النساء، وهذا يوافق قول عيسى × : ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ..﴾ الآية [المائدة:١١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي هذا القرآن ﴿تِبْيَٰنًا﴾ أي نزلناه ﴿تِبْيَٰنًا﴾ إما منصوب على الحال، وإما مفعول مطلق أي لنبين كل شيء من الدين وأصوله والإنذار والتبشير وما يتعلق به من القصص والحجج، ونحو ذلك كقوله تعالى في (التوراة): ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٤] **فالعموم هنا ما دل عليه السياق والقرائن، كما أن العموم في قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾** [النمل:٢٣] **المراد به: توابع الملك ولوازمه من الثروة والآلات والسلاح ونحو ذلك.**

وحكى الشرفي في (المصابيح): ((عن القاسم × أنه قال بعد تفسيره لـ(سورة الفلق): فليعلم من قرأ تفسير هذه السور الثلاث وما بعدها من التفسير أن كلما فسرنا من ذلك كله فقليل من كثير، وأن كل سبب من كلمات الله فيه فموصول بأسباب عند من خصه الله بعلمها من أولي النهى والألباب لا ينتهي فيه إلى استقصائه ولا يوقف منه على إحصائه)) انتهى المراد.

ونحو هذا في مقدمة تفسيره × التي هي (مديح القرآن الصغير) ذكرها الشرفي في (المصابيح) قبيل تفسير (فاتحة الكتاب) وهذا أولى من تفسير تبيانه لكل شيء بإحالته على سائر الأدلة أنه لا يسمى تبياناً لكل شيء على طريق الوصف للكتاب وإلا لزم قولنا: الأدلة أربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس تبياناً لكل شيء، ويلزم أنه يصح أن تقول ألّفت كتاباً بينت فيه كل شيء وأنت إنما كتبت الإحالة على الأدلة.

فإذا كان هذا لا يسمى تبياناً لكل شيء صح أنه لا يصح تفسير الآية الكريمة بذلك وأن الله وصف كتابه بهذا الوصف أي تبياناً لكل شيء مدحاً له ودلالة على عظم فائدته لمن تعلم منه الدين وتفهم ما فيه من الهدى، فلا مجال من إبقاء النص على ظاهره وحمل خفاء ما خفي علينا بأنه بسبب قصورنا عن بلوغ الغاية في فهمه، من حيث أن بعض الأحكام يتوصل إلى فهمه من القرآن بضم آية إلى آية أو إلى أكثر، كما حصل لنا أن أقل الحمل ستة أشهر من ضم الإمام علي × آية إلى آية، وذلك يتوقف على عنايةٍ بالقرآن كاملة، وعلى كمال الإستعداد لفهمه بكمال معرفة اللغة العربية، وكمال الزهد في الدنيا والورع، وكمال اللجوء إلى تفهم القرآن عن شعور بشدة الحاجة إلى فهمه، كما هو المناسب لعزته أن لا يهتدي به من يرى أنه مستغن عنه بغيره.

والله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت:٤١] فهو لا ينال بجرح أو تنقيص أو تحقير فكذلك لا ينال بتقليل فائدته؛ لأنه من التحقير المنافي لعزته وقد وصفه الله بالبركة في أربع آيات، وقال فيه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] كل ذلك يفيد إحاطته بأحكام الله تعالى.

ويناسب هذا ما رواه الإمام أبو طالب × في (الأمالي) وهي في (الباب الثالث عشر) وهو الحديث الخامس عشر، فيه حديث عن علي × فيه بعض الطول قال فيه: قال رسول الله ص: ((دار بلاء وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن..)) إلى قوله ص: ((وهو الدليل الذي يدل على خير سبيل، وكتاب تفصيل وبيان وتحصيل، والفصل ليس بالهزل، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنارات الحكمة، والدليل على المعرفة لمن عرف الطريقة، فليُولج رجل بصره، وليُبلغ الطريقة نظره، ينج من عطب، ويتخلص من أشب، فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور بحسن تخلص وقلة تربّص)) انتهى.

وفيها في الباب المذكور وهو (الحديث التاسع) أسنده عن عبد الله ـ وهو ابن مسعود ـ قال: قال رسول الله × : ((إن هذا القرآن مأدُبة الله فتعلموا مأدبة الله ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله المتين، وهو النور المستنير، والشافع، والدافع، عصمة من تمسك به، ونجاة من تبعه، لا يعوجّ فيقوَّم، ولا يزيغ فيثبّت، ولا تنقضي عجائبه..)) الحديث.

وفي هذا الباب المذكور بإسناده: عن معاذ بن جبل قال: ذكر رسول الله ص الفتنة فعظمها وشددها فقال علي بن أبي طالب × : ((فما المخرج منها))؟ قال: ((كتاب الله فيه حديث ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم..)) إلى قوله: ((..وهو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم..)) الحديث.

وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣] ويناسب قوله في الحديث: ((وهو حبل الله المتين)) قوله ص في (حديث الثقلين): ((كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به لا تزلوا ولا تضلوا)) و(حديث الثقلين) دليلٌ واضح على ما نحن فيه؛ لأن قوله: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي)) يفيد: إحاطة القرآن بعلوم الدين فتأمل!

يؤكد ذلك ما رواه الإمام أبو طالب × في (الأمالي) في (الباب السابع) في فضل الإمام زيد بن علي × بإسناده: عن أبي هاشم الرماني [/] تعالى يقول: طلب زيد بن علي من أخيه × كتاباً فأُغفِل عن ذلك أبو جعفر × ثم ذكره فأخرج إليه الكتاب، فقال له زيد بن علي إ : قد وجدتُ ما أردتُ منه في القرآن، فقال له أبو جعفر × : فأسألك؟ فقال له زيد × : نعم سلني عما أحببت. فقال أبو هاشم: ففتح أبو جعفر الكتاب وجعل يسأله ويجيبه زيد بجواب عليّ × كما في الكتاب، فقال له أبو جعفر × : بأبي أنت وأمي يا أخي، أنت والله نسيج وحدك بركة الله على أمٍ ولدتك، لقد أنجبت حين أتت بك شبيه آبائك عليهم السلام أجمعين)) انتهى.

وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟

هذا والسنة هي الدليل الثاني، وقول أمير المؤمنين علي × ، وإجماع آل رسول الله ص وبيان علة الحكم في أحد الأدلة، وإجماع الأمة كل ذلك من دلائل الدين عندنا، وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يحتمل أن قوله: ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي الذين أسلموا وجوههم لله وأخلصوا دينهم لله وتجنبوا الشرك راجع إلى قوله: ﴿تِبْيَٰنًا﴾ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾ كلها وهو الراجح عندي، ويحتمل تعلقه بالأخير وحده.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أنه تعليل لقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وأنه ابتداء كلام، وكل ذلك صحيح، والعدل: ضد الجور والظلم، والإحسان ضد الإساءة، والأمر به لا ينافي كونه إحساناً غير مستحق كاستحقاق الدين، ولعل حده ما تقتضيه المروءة ويكون تركه نقصاً في التارك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي إعطاء القريب من النسب وحده بقدر حاجة القريب الضرورية وما تقتضيه المروءة وقد مر ترجيح وجوبه وأنه غير خاص بالوارث إلا أن الوارث يجب عليه قبل سائر القرابة فإن غاب وتعذر منه الإنفاق أو تمرد وتعذر إجباره فعلى غيره من القرابة أن ينفق ومع عدم الاضطرار يصله صلة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾ هي الفعلة الفحشاء الزائدة في قبحها وقد استعمل اسم الفحش في بعض القول، وفي قصيدة النابغة:

لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جار

وفي (لسان العرب): وفي الحديث:((إن الله يبغض الفاحش المتفحش)) فالفاحش: ذو الفحش والخنا من قول وفعل، والمتفحش: الذي يتكلف سب الناس ويتعمده، وقد تكرر ذكر الفُحْش والفاحشة والفاحش في الحديث وهو كل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي، قال ابن الأثير: وكثيراً ما ترد الفاحشة بمعنى الزنا. انتهى من (لسان العرب).

قلت: وحيث ورد بمعنى الزنا فهو على حذف الموصوف كناية عن الزنا؛ لأن الله تعالى قال في (الزنا): ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء:٣٢] فليس مفهوم اسم الفاحشة وإنما اسم الفاحشة وصف له.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ وهو ما تنكره العقول، قال الراغب في (تفسيره): ((والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول فتحكم بقبحه الشريعة)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْيِ﴾ أي ينهى عنه، وهو التعدي على عباد الله، أو محاولة الظلم لهم، وقال الشرفي في (المصابيح): ((والبغي: طلب التطاول بالظلم)) انتهى المراد. وفي (الصحاح): ((البغي: التعدي، وبغى الرجل على الرجل: استطال)) انتهى المراد.

وفي (أمالي المرشد بالله × الخميسية) [١/١٥٣]: أن عمرو بن شعيب لما أسقط عمر بن عبد العزيز من الخُطَب على المنابر لعن أمير المؤمنين ×

ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا

قام إليه عمرو بن شعيب وقد بلغ إلى الموضع الذي كانت بنو أمية تلعن فيه علياً × فقرأ مكانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فقام إليه عمرو بن شعيب ـ لعنه الله فقال ـ : يا أمير المؤمنين السنّةَ السنَّةَ، فقال عمر: أسكت قبَّحك الله تلك البدعة تلك البدعة لا السنة، وتمم خطبته)) انتهى، وقد سقط من المطبوعة تكرار ((تلك البدعة))وهو ثابت في (الأمالي) مصحح.

وفي أمالي أبي طالب × رواية خطبةٍ عن علي × في آخرها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ..﴾ إلى آخر الآية، وهي في الباب الرابع عشر من (تيسير المطالب).

وقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ أي بأمره ونهيه المذكورَين أو بنهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تعريضاً لكم على التذكُّر وهو الانتباه من الغفلة المسبب لاجتناب ما نهى عنه؛ لأن تذكر نهي الله تعالى يصرف المؤمن عن المعصية.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس المراد منه الترجي والتمني فإن ذلك محال على الله تعالى فوجب أن يكون معناه أنه تعالى يعظكم لكي تذكروا طاعته، وذلك يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل خلاف ما افتراه المجبرة)) انتهى.

﴿٩١﴾ ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ عهد الله: ما عاهد اللهَ به المعاهدُ والعهد القول الموَثَّق المؤكد، ومثاله: أن يقول أعاهد الله على كذا، هذا مثال عهد الله المذكور هنا.

وكذا لو قال: أقسم بالله لأطيعن الله أو نحو هذا، فهو من عهد الله.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): وهذه الآية نزلت في بيعة رسول الله ص الناس على الإسلام، وهي عامة في كل عقد عقده الإنسان في يمين على نفسه مختاراً فإنه يجب الوفاء به ما لم تدع ضرورة إلى حَله)) انتهى.

فجعل الآية تعم ما بين العبد وربه وما بين الناس من بعضهم لبعض، ويمكن تخصيص عهد الله بما عاهد العبد ربه عليه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة:٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ﴾ [الأحزاب:١٥] وغير ذلك، فأما ما بين الناس، فيشمله قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ وقوله تعالى في (سورة الإسراء): ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ..﴾ الآية [٣٤].

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي تقويتها ليوثق بها وتوكيدها بقصدها وتعمدها المخرِج لها عن يمين اللغو التي تجري على اللسان بغير قصد الحلف، وتوكيدها مع القصد بكونها قسماً بالله يوجب لها حكم اليمين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ أي حين حلفتم به ليكون ذلك عهداً جعلتم الله كفيلاً عليكم بالوفاء؛ لأنكم جعلتموه ملزماً لكم بالوفاء من أجل الحلف به كما يطلب الكفيل الغريم بالوفاء بل أشد منه؛ ولأنكم جعلتم اليمين بالله موثقاً لمن عاهدتموه، كما تجعلون الكفيل موثقاً له وذلك من جهة إيمان المعاهِد والمعاهَد بعزة الله وتعرض الناكث لليمين لعقوبته، فصار التوثيق بالعهد راجعاً إلى التوثيق بالتعرض لعقوبة الله إن نكث فبهذا يكون قد رضي على نفسه في العهد بعقوبة الله له إن نكث، ومعنى ذلك: أنه قد جعل الله عليه كفيلاً بالوفاء.

تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي أوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان إن الله يعلم ما تفعلون فهو يجزي بالوفاء ويعاقب على النكث.

﴿٩٢﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ إما بالنكث للعهد وإلغائه، وإما بإحباط أعمالكم بسبب الغدر، والأول معناه التنفير من النكث بالتشبيه للناكث بالتي نقضت غزلها، ولا يصح هذا بمجرده، والأولى حمله على معنى: أن العهود يحتاج إليها الناس لتحصيل الثقة بينهم في الصلح حيث يعاهد عليه بعضهم بعضاً فيتم الصلح ويستمر الأمن في مدة الصلح، وفيه نفع لمعايشهم ولمن يضعف عن الحرب، فإذا نكثوا العهد بطلت الثقة وصار العهد قليلَ الفائدة وكذا العهد في سائر الأمور.

وبهذا المعنى يستقيم التشبيه على معنى إبطال المنفعة من العهد فيفيد التشبيه للناكث بالتي نقضت غزلها؛ لأنها أبطلت فائدة الغزل ﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ في الخيوط حصلت بالغزل فحين نقضت غزلها الذي فتلته وحولته إلى أنكاث أي غير مغزول بعد غزله من الصوف أو غيره أبطلت فائدة غزله.

وفي (تفسير الإمام زيد إ): ((فالقوة: الكُبَّة، والأنكاث: المنقوضة منها)) انتهى. وأما تفسير التشبيه بالتي نقضت غزلها أنه لإحباط العمل فظاهر لكن لم أجد أحداً فسرها به مع أنه مناسب للتحذير من نكث العهد ـ والله أعلم ـ ويمكن تفسيره بالمعنيين لعدم التنافي بينهما.

وقوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ فهو تفسير للمنهي عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ﴾ أي باتخاذ أيمانكم دخلاً بينكم، والدخل في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((هو الفساد)) انتهى، أي يتوصلون بها إلى الغدر.

وفسر (صاحب الصحاح) (الدخل): بالعيب والريبة، وقال: ((وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أي مكراً وخديعة)) انتهى [وفي كتابة الآية في (الصحاح) غلط مطبعي] أما في (مفردات الراغب) فقال: ((والدخل كناية عن الفساد والعداوة المستبطنة كالدَّغَل)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((﴿دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أي دغلاً ومفسدة، بمعنى: غشاً وخديعة)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ الراجح فيه: أنه بمعنى (لئلا) كما في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ [البقرة:٢٨٢] وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦] فالمعنى لا تتخذوا أيمانكم دخلاً كراهة أن تكون أمة هي أربى من أمة، ولئلا تكون التي تغدرون بها أربى من أمة أخرى كثيرة العدد فتنكثوا عهدكم، رغبة في بقاء الأمة التي عاهدتموها قليلة العدد بالنسبة إلى الأمة الأخرى، فهذا لا يبرر نكث العهد، ويمكن في مثل هذه الحالة إبلاغ المعاهَدين نهاية الصلح بغير غدر بهم كما نزلت براءة لإعلان حرب المشركين بعد أربعة أشهر من البلاغ.

يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي بحذر أن تكون أمة هي أربى من أمة أو خوف ذلك أو بمثله مما يرغب في نكث العهد فهو ابتلاء من الله واختبار يتميز به من يثبت على عهده ومن ينكث، وقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وقد مرَّ، وبيانه يوم القيامة بالتمييز بين الحق والباطل والمحق والمبطل فيما كانوا فيه يختلفون، وقوله: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ أي أقسم ليبينن.

﴿٩٣﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ﴾ بالجبر أو القسر ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ غير مختلفين؛ لأنه على كل شيء قدير فلم يُعصَ مغلوباً ولكن لم يشأ ذلك، ولكن أراد أن يجعل التكليف مع اختيار العبد، حتى يتميز الخبيث من الطيب، وتبع ذلك أن استحق الإضلال بعضهم بمحادته لله وتمرده فأضله أي خذله وتركه للشياطين فأضلته، واستحق الهدى بعضهم بإجابته دعوة الله وصلاح نيته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ﴾ أي يوم الحساب ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من حق أو باطل ليثيب الله أولياءه ويعاقب أعداءه ليجزي الله كل نفس ما كسبت.

وفائدة التعليق على المشيئة في قوله تعالى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أو من فائدته: الدلالة على أنه القاهر فوق عباده الغالب على أمره الذي يفعل ما يريد لا ينازعه منازع ولا يعارضه أحد، وفي هذا ترغيب في اللجوء إليه للهداية وترهيب من إضلاله ليحذر العبد أسبابه.

وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا﴾ لا تتخذوا العهود خداعاً لمن تعاهدونه وسيلة إلى الدَغل والفساد عليه، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أي في المعاملة بينكم مثل الصلح إذا عاهدتم على ترك القتال بينكم أو غير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ هذا مَثَل لخروج فاعل ذلك من طاعة الله إلى معصيته ومن استحقاقه الثواب إلى استحقاقه العذاب، وزلولُ القدم زوالُها من مكانها لأجل زَلَق في المكان مثلاً أو غيره مما يسبب سقوط الإنسان الذي زلت قدمه.

وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ أي بعد كونه على الحق والصواب وسبب الهدى والثواب، وتلك حالة ينبغي للعاقل أن يكون حريصاً على أن يبقى عليها؛ لأنها سبب سعادته الدائمة إذا بقي عليها حتى يموت، وقوله تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العقاب تذوقونه تجدون ألمه، والسوء الشر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي العذاب في الدنيا)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ﴾ إن كان من الصدود أي بما أعرضتم عن سبيل الله أي عن دينه وشريعته فالمعنى أن اتخاذكم أيمانكم دخلاً بينكم هو من الإعراض ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فتذوقوا السوء بسبب الإعراض عن سبيل الله، وإن كان صددتم هو الذي مصدره الصّدُّ فمعناه: بصدكم غيرَكم عن سبيل الله بما سننتم لهم نكث العهد واتخاذه دخلاً، والأول أرجح، وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي في الآخرة، أو فيها وفي غيرها.

وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً

﴿٩٥﴾ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ﴾ ولا تستبدلوا ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ عوضاً من أغراض الدنيا تجعلونه بدلاً من حفظ العهد والوفاء سواء كان البدل رشوة تنالونها بنكث العهد أو غلبة لعدوكم تظفرون بها أو غنائم تحرزونها أو غيره، فأغراض الدنيا كلها قليل بالنسبة إلى ما عند الله من الخير لمن أوفي بعهد الله.

وهذا الخير يعم فوائد كثيرة؛ لأنه قد ينال المتمسك بالميثاق نصراً من الله في حين يكون قتال العدو حقاً لا نكث فيه فينال غنائم وعزّاً وإعلاءً للحق وأهله وإخمالاً للباطل وأهله، كما أن المتمسك بالميثاق قد يرزقه الله رزقاً حلالاً غير الغنائم التي يؤمل أن ينالها بنكث العهد وثواب الله خير من ذلك كله لمن يعلم وشأنه أن يعلم، فأما من أعمى حبُّ الدنيا بصيرَته وغفل عن الله ورجاء فضله فالأعمى عن ذلك غافلٌ عن العلم بذلك وبغيره من العلم النافع.

﴿٩٦﴾ ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من عرض الدنيا ﴿يَنفَدُ﴾ ينتهي وينقضي فلا يبقى منه شيء ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب ﴿بَاقٍ﴾ لا ينفد؛ لأن نعيم الجنة لا ينقطع أبداً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ [بالنون أو بالياء المثناة من تحت] أي نُثِيبَنَّ ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على الوفاء بالعهد وعلى مشاق التكاليف كلها من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك وصبروا على بلاء الله تعالى ﴿أَجْرَهُم﴾ وهو يعم أجر الصبر وأجر كل سبب للأجر، وهذا الجزاء هو خير وأبقى؛ لأن ما عند الله باق.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى

وهذا مبني على أن قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعم الواجب وكل قربة؛ لأن ذلك أحسن أعمالهم لأن بعض أعمالهم ليس واجباً ولا مستحباً، ويحتمل أن المراد بالأحسن أفضل أعمالهم الصالحة كالجهاد فيكون هذا الوعد نصّاً في الثواب عليه ويدخل ما دونه؛ لأنه دون أجره بمفهوم الأولى أو بدليل آخر، والأول أظهر، وتأكيد الوعد بالقسم في قوله تعالى: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّ﴾ أي أقسم ليجزين زيادةٌ في الترغيب في الصبر.

﴿٩٧﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من واجب أو مستحب صالحاً غير فاسد ولا محبط بمخرج من التقوى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لأن الإيمان لا يجتمع مع اقتراف الكبائر وتعمد المعاصي، وقوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ لا فرق بينهما في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في قبول العمل؛ لأن الفاجر يُحبِط عملَه الفجورُ، وقد تكرر هذا الشرط فتقدم في (سورة النساء) في [آية:١٢٤] ويأتي في (سورة الإسراء) في [آية:١٩] وفي (سورة الأنبياء) في [آية:٩٤] وذلك يدل على أنه لا ينفع العمل إلا مع الإيمان، كما قال تعالى في المجرمين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣] وقال تعالى في الذين كفروا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٢٨] وقال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فعلى الإنسان أن يكون مؤمناً تواباً ليحفظ عمله الصالح.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةً مَّكَانَ

وقوله تعالى: ﴿فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وعدٌ غير مقيَّد فهو صالح للحياة الدنيا وللآخرة، وطيب الحياة الدنيا القناعة والرضا بما كتب وكونها مزرعة للآخرة سليمة من رجس المعاصي، وطيب الآخرة السلامة من الفزع الأكبر ومن سوء الحساب ومن عذاب النار ومقدماته ومع ذلك رضوان الله والفوز بالجنة فهي تمام طيب الآخرة، وهذا يجمع طيب الحياة.

ويمكن اعتبار أبعاضه طيباً كالقناعة في الحياة الدنيا والسلامة في الآخرة من كل شر فتفسير الحياة الطيبة بالحياة الدنيا صحيح وتفسيرها بالآخرة صحيح، ولا بد من التفسير بهما؛ لأن الآية لم تعين أحدهما ولا ينافيه قوله تعالى:﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأن الأجر أكثر من طيب الحياة الآخرة، وبه تطيب الحياة أكثر.

﴿٩٨-١٠٠﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ ﴿فَإِذَا﴾ تفريع بـ(الفاء) على الوعد بالحياة الطيبة والجزاء بأحسن العمل؛ لأن القرآن يبين العمل الصالح ما هو فيقرن المعرفة بالعمل الصالح، فكان الحث على العمل الصالح حثاً على تعلمه، فكان حثاً على قراءة القرآن؛ ولأن قراءة القرآن هي من العمل الصالح، وفي الحديث الصحيح: «قراءة القرآن في صلاة أفضل من قراءة القرآن في غير صلاة، وقراءة القرآن في غير صلاة أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الصدقة، والصدقة أفضل من الصيام، والصيام جنة من النار..» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أمر بطلب الإعاذة من الشيطان بأسبابها ليس بمجرد قول القائل: أعوذ بالله من الشيطان، وأسبابها الإيمان والتوكل والدعاء، وذلك لأن قوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ معناه توسَّل إلى أن يعيذك الله، كأنه قيل: اجعل الله معيذاً لك بفعل سبب ذلك؛ لأنه قال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فأتى بـ(الباء) ولو قال: فاستعذ الله لكان معناه أطلبه أن يعيذك، ونظير (الباء) هنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ في (سورة الأعراف) [آية:١٢٨] وعلى هذا فالإستعاذة بالله هي معها في ظرفها كله غير مختصة بوقت ابتداء القراءة.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ أي الذي يرجم بالشهب دفعاً عن سماع الملأ الأعلى؛ لأنه شرير يستمع توصلاً إلى أن يفسد في الأرض؛ لأن الخير قد يستعمل وسيلة للتغرير والإفساد، كما قال تعالى: ﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٣] فهم يتوسلون به ليقبل كذبهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي ليس له قوة ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فليس له قوة على إغوائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ بيان للوسيلة الثانية إلى دفع الشيطان، والإيمان الوسيلة الأولى، فالإيمان يسبب الانتفاع بالقرآن واتباع محكمه والإيمان بمتشابهه، ويسبب الإيمان عطف الهوى على القرآن لا عطف القرآن على الهوى؛ لأن التعلق بالمتشابه دون المحكم وعطف المحكم على الهوى هو شأن أهل الزيغ، فالمؤمن ينتفع بالقرآن لذلك.

والوسيلة الثانية: التوكل على الله، فهو يدفع الشيطان عند تخويفه من أوليائه وعند تخويفه من الفقر وعند تخويفه من مشاق التكليف، فالمؤمن

ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى

يتوكل على الله عند ذلك كله فيعزم على طاعة الله وامتثال أمره ونهيه والعمل بالقرآن والتمسك به في العسر واليسر؛ فيتقبل ما في القرآن بنية صالحة ويذهب عنه وسواس الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ﴾ يتخذونه ولياً بأن يطيعوه ويتركوا الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:٢٧] وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٣٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾ أي مشركون بطاعته إما في كل ما سوّل لهم من الباطل، وإما في الشرك، والأول أظهر، وهو قول الناصر × في (البساط).

﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ ۙ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ﴾ جعلناها في التكليف بدل آية؛ ولذلك قال: ﴿مَّكَانَ ءَايَةٖ﴾ لأنه صار المشروع العمل بالآية الثانية بدلاً من العمل بالأولى، فكانت مكانها في التكليف والتشريع، ولا يجب أن تكون مكانها في التلاوة؛ لأن اعتراض الكفار إنما هو على تبديل الحكم لا على تبديل التلاوة، كقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢]

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ فهو أعلم بالحكمة في ذلك.

وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ

وقول الكفار: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أرادوا تفتري الكذب أي كاذب عمداً لاختلاف كلامك حيث دلَّ أولاً على شيء ودل آخراً على خلافه، فرد الله عليهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم أهل جهل ليس من شأنهم أن يعلموا، ولذلك حملوا اختلاف التشريع على الافتراء ونسوا أن التشريع من الله لا مانع من اختلافه لاختلاف الحكمة فيه مع اختلاف الوقت والحال، ومن الواضح: أنه يجوز أن يأمر الله بإكرام زيد اليوم لأنه مؤمن ثم يأمر بإهانته غداً لأنه فاجر غير مؤمن، فهكذا تختلف الأحكام لاختلاف الأسباب.

﴿١٠٢﴾ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿نَزَّلَهُ﴾ أي نزل القرآن الذي زعمتم أنه افتراء على الله أفتريه أنا فقد كذبتم إذ كذَّبتموني؛ لأنه نزل القرآن على قلبي روح القدس من الله، وروح القدس: روح الطهارة أو روح البَركة وهو جبريل الأمين × .

وقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ أي هو الذي قاله فـ﴿مِن﴾ للإبتداء كقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (من) الثانية للإبتداء، وقوله ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إشارة إلى أنه اختارك لإنزاله عليك وخصك بهذه الكرامة العظمى.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ [الإسراء:١٠٥] ومعنى قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥] أو كليهما فإنزاله الحق ومعانيه الحق.

﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ

وقوله تعالى: ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إشارةً إلى حكمة اختلاف التشريع فهو التثبيت للذين آمنوا على الهدى، فقد تكون الحكمة في التشريع الأول للتخفيف عليهم فيه لقلة تحملهم لما هو أشق ففي ذلك تثبيتهم بالتخفيف حين كان سبباً لتثبيتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ هدى لهم يهتدون به إلى الحق، وبشرى لهم بالثواب وبنصر الله لدينه وغير ذلك، وقوله ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يحتمل للذين أسلموا أنفسهم لله فدخلوا في السلم كافة انظر[آية:٢٠٨] وتفسيرها، وهو أظهر ليوافق قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وغيرها، ويحتمل: للذين خرجوا من الشرك بالشهادتين، فهو هدى لهم إن اهتدوا به وبشرى لهم ان اتبعوه، والأول أظهر.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي الكفار ﴿يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ أي محمداً ﴿بَشَرٌ﴾ وأرادوا بهذا البشر من غير الأميين الذين لا يحسنون الحكمة وتعليم الدين لأنهم نشئوا في جاهلية جهلاء فأرادوا رجلاً متعلماً، ولكنه ﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ اللسان قيل: هو (سلمان الفارسي).

وأجيب عنه: بأن الآية (مكية) وسلمان لم يأت إلى رسول الله ص إلا بعد هجرته فآمن به سلمان في المدينة والذي يلزم المفسر أن يبين أن الكفار أرادوا رجلاً أعجمي اللسان فأما تعيينه فلا يلزم؛ لأنه لا حاجة إليه في فهم معنى الآية الذي هو ذكر كذبهم والرد عليهم بالحجة الواضحة، وهي قوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((﴿يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ معناه: يعدلون إليه)) انتهى، ونحوه في (مفردات الراغب).

وقوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا﴾ أي القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي يبين المعاني للعرب أو مبين بيِّن العروبة لا يشتبه بأعجمي وإذا كان عربياً فلا يستطيعه الأعجمي، فتبين بطلان دعوى الكفار أنه تلقن القرآن من بشر فقد كذبوا.

﴿١٠٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عادتهم أن لا يؤمنوا ومن خُلُقهم وشأنهم أن لا يؤمنوا عناداً وتمرداً، فأي آية شاهدوها لم يؤمنوا بها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ لأنهم لا يستحقون إلا الإضلال، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ وقالوا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾.

﴿١٠٥﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ يتعمده ويختلقه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنه لا وازع لهم من الكذب يمنعهم بالتخويف من الله فهم الذين يفترون الكذب لا رسول الله ص فهو معصوم.

فقولهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ باطل هم أهله وأولئك الذين لا يؤمنون بآيات الله وبسبب عدم إيمانهم بآيات الله ﴿هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ كذباً مستمراً لأنهم يكذبون ويصرون على الكذب فهم الكاذبون باستمرار.

مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿١٦﴾ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ إما بالكفر بدينه أي برفضه والبراءة منه كقوله تعالى: حاكياً عن إبراهيم والذين معه ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة:٥] فجعل البراءة من دينه كفراً به تعالى وبراءةً منه كما جعل محاربة دينه محاربةً له، وإما بالجحد به ككفر الطبائعية، أو الجحد بقدرته مثل كفر من جحد البعث استبعاداً لقدرة الله عليه من بعد إيمانه أي ارتد عنه إلى الكفر.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ على النطق بكلمة الكفر ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ غير متردد في الإيمان فهو ثابت عليه فلا ريب فيه ولا قلق فاطمئنان القلب سلامته من الريب، فذلك سكون القلب المعبَّر عنه بقوله تعالى: ﴿مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ وهذا الاستثناء يخرج المكرَه من عموم ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ لأنه أكره على النطق بالكفر فنطق به لينجو من تعذيب الكفار له أو قتله، فكان إكراهه مع سلامة قلبه عذراً له.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ أي رضي بالكفر وطابت به نفسه فهو المراد بالوعيد ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي غاية الغضب وهي لعنة الله لهم وخذلانه لهم وحكمه عليهم بكلمة العذاب وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الراجح: أنه جواب الشرط المذكور في أول الآية.

قال بعض المفسرين: ((وقوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي بسط صدره للكفر فقبله قبولَ رضا ووعاه، والجملة استدراك من الاستثناء فيعود إلى معنى المستثنى منه، فإن المعنى: ما أريد بقولي من كفر بالله من بعد إيمانه من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن أريد به من شرح بالكفر صدراً، وفي مجموع الاستثناء والاستدراك بيان كامل للشرط وهذه هي النكتة لاعتراض الاستثناء بين الشرط والجزاء وعدم تأخيره إلى أن تتم الشرطية)) انتهى.

هذا هو الراجح في معنى الآية، وإذا كان حذف جواب الشرط ضعيفاً فيمكن جعل (مَن) الثانية موصولة أي: ولكن أعني من شرح، أو ولكن مَن شرح هو المعنيّ ـ والله أعلم ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مناسب لعظم الجريمة.

﴿١٧﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إما إلى غضب الله عليهم ووعدهم بالعذاب العظيم، وإما إلى سببه الذي هو شرح صدورهم بالكفر بعد إيمانهم وهو أرجح عندي، فهم إنما ارتدوا لإيثارهم الغرض الدنيوي وهو استبقاء الحياة والسلامة من مشقة الثبات على الإيمان والراحة من عنائه في ذلك الظرف، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ..﴾ الآية [الحج:١١].

فهو قد آثر الحياة الدنيا والراحة ورضا قومه عنه وهما من أغراض الحياة الدنيا، وحبها هو الباعث على ترجيح جانب السلامة من الفتنة والمؤدي إلى ترجيح رضا قومهم الذين خافوهم، وكل نفس في الأصل تحب الحياة الدنيا، إلا أن المؤمن لا يكون حبها في نفسه أرجح من حب الآخرة وحب تقوى الله بل العكس.

وهؤلاء ﴿ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي جعلوا الحياة الدنيا أرجح في الحب من الآخرة، واختاروا ترجيح حب الحياة العاجلة على حب الآخرة. فـ(السين) تفيد: أنهم اختاروا ذلك الحب ورضوه راجحاً على حب الآخرة وذلك لأن تصديقهم بالآخرة ضعيف فلم يكونوا مؤمنين عند أن رجحوا الردة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي وبأن الله لا يهدي أي وبسبب أن الله لا يهدي ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والكفر هنا على الوجه الثاني الذي رجحته هو كفر نعمة الدخول في الإسلام والإيمان وذلك بالمعاصي التي كانوا فعلوها قبل الردة، فقد كانوا فارقوا الإيمان الصحيح فلم يستحقوا من الله الهدى والتثبيت على الإيمان، ولو كانوا ثبتوا على الإيمان والصدق فيه ما رجحوا الحياة العاجلة على الآخرة، فظهر: أن قلوبهم قد كانت مريضة من قبل الردة، وأنهم كانوا كافرين لنعمة الله بترك التمسك بالدين وإيثار تقوى الله. قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): ((الكفر في اللغة: ستر الشيء)) انتهى.

قلت: التعبير بالتغطية أنسب؛ لأن الستر يستعمل لتغطية ما يعاب أو ما يعاب كشفه، ولعله السبب في ترجيح كلمة كَفَر على كلمة سَتَر، وكافر على كلمة ساتر مع اتفاقهما في الوزن، كما في قول لبيد:

في ليلة كفر النجومَ غمامُها

أما الكفر فهو ظاهر في تغطية النعمة وإخفائها بالمعاصي.

قال الراغب: ((وكُفْر النعمة وكُفْرانها: سترها بترك أداء شكرها، قال تعالى: ﴿فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء:٩٤] وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوءة، والكفرانُ في جحود النعمة أكثر استعمالاً)) انتهى.

وصواب العبارة: في تغطية النعمة وإخفائها أكثر؛ لأن الواقع من كفار النعمة هو هذا لا النطق بجحود النعمة ـ ثم قال الراغب ـ : ((والكفر في الدين أكثر)) أي أكثر من الكفران.

ثم قال الراغب: ((والكفور فيهما [أي في كفر الجحود للدين، وكفر الجحود للنعمة] جميعاً أي يستعمل هذا المصدر في كفر الجحود وكفر النعمة، ثم قال: ويقال منهما كفر فهو كافر..)) إلخ، أي من كفر الجحود ومن كفر النعمة.

فالحاصل من هذا: أن المرتد ارتد واستحق بذلك غضب الله ووعيده بالعذاب العظيم لإيثاره الحياة الدنيا على الآخرة وكفره بنعمة الله فالمعاصي تجرُّ العاصي إلى ما هو أكبر منهما، كما قال تعالى في أهل الكتاب: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١] ولا يبعد أن إيثار الحياة الدنيا بالحب كان سبباً من حيث هو معصية أيضاً مع كونه سبباً مباشراً من حيث أن الباعث الكبير على الردة هو الخوف من الكفار.

أما إذا كانت الإشارة إلى غضب الله تعالى والعذاب العظيم فالمعنى ذلك الغضب والعذاب بأنهم استحبوا الحياة الدنيا فهو عقوبة عليه؛ وبأن الله لا يهدي القوم الكافرين فلم يهدِهم للتوبة فاستحقوا الغضب والعذاب، ويمكن على هذا الوجه ذلك الغضب والعذاب بأنهم استحبوا الحياة فوقعوا في سببهما، وعلى هذا يتحد المعنيان معنى ذلك الارتداد ومعنى ذلك الغضب والعذاب.

ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي من شرح بالكفر صدراً هم ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلا يدخلها الإيمان، وقد مر تفسير الطبع في تفسير أول (سورة البقرة) ﴿وَسَمْعِهِمْ﴾ أي ختم عليه ﴿وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي سد عليها فلا يهتدون لسمع الحق ولا لطريقه.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ لأن أسباب الانتباه مقطوعة عنهم لإقبالهم على الدنيا ورفض ما يشغل عنها ورين المعاصي على قلوبهم وإظلامها بها وعظم أسباب خذلانهم وإرسال الشياطين عليهم، فالهدى عندهم والسعادة تحصيلهم أغراض الدنيا، والشقاوة عندهم فوات بعض أغراض الدنيا بالفقر أو بالمرض أو بالخوف ولا ينظرون إلى غير الأغراض الدنيوية، فهم مستمرون على غفلتهم المطبقة عليهم.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون؛ لأنه فاتهم فيها كل خير ومع ذلك صاروا إلى عذاب عظيم دائم وذلك الخسران الذي لا يقاس به ضعف حال المؤمنين في الدنيا حين كانوا مستضعفين خائفين من الكفار مقهورين يؤذَون في الله ويفتنون فذلك ليس من الخسران بل هو في الحقيقة خير لهم؛ لأنه سبب للسعادة الدائمة بالنجاة من النار وللثواب الدائم في جنات النعيم والملك الكبير الدائم.

إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ

﴿١١٠﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الوعيد الشديد أن باب التوبة ما زال مفتوحاً لمن أكره على الكفر فكفر فراراً من الفتنة لقلة صبره لا لانشراح صدره بالكفر وكذا من فتن واتقى بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فكلاهما، ربُّ رسول الله غفورٌ رحيم لهما، إذا هاجروا الكفارَ وجاهدوهم، وصبروا على مشاق الهجرة والجهاد، حتى ماتوا على ذلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ من بعد تكامل الشروط ﴿لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يغفر لهم ما سلف منهم بسبب الفتنة.

والراجح: أن هذه الآية هي فيمن كفر ولم ينتبه للتقية بكلمة الكفر بل حمله التعذيب على الكفر مع أنه غير منشرح الصدر له ولكنه كفر تقية وغفل عن المحافظة على الإيمان بقلبه؛ لأنه ظن أنه قد كفر بمجرد النطق، والحاصل: أن المفتونين ثلاثة أقسام:

قسم: شرح بالكفر صدراً وفيه الوعيد الشديد.

وقسم: أكره وقلبه مطمئن بالإيمان فهو باق على حكم السبق إلى الإيمان وفيه [آية:٤٠،وآية٤١] من هذه السورة كمن صبر على الفتنة حتى قتل.

وقسم: كفر فراراً من الفتنة ثم تاب وهاجر وجاهد وصبر وفيه هذه الآية، فهذا هو الراجح.

أما دخول عمار في هذه الآية فهو لدخوله في عمومها؛ لأنه فتن وإن صبر واتقى ولم يكفر؛ ولأنه هاجر من بعد ما فتن ثم جاهد وصبر؛ فلذلك هو داخل في الوعد بالمغفرة والرحمة وذلك خير عظيم.

ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ

وقد دخل فيه بعمومها وفرق واضح بين عمار وبين من تغفّل فكفر جاداً في الكفر، إلا إنَّه غير منشرح الصدر بالكفر، فراجع في عمار [آية:٤٠،وآية ٤١].

﴿١١١﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ هو الآخرة الذي يخسر فيه الكافرون كلهم المرتدون منهم وغيرهم، ولعل ﴿يَوْمَ﴾ هنا بيان لقوله تعالى: ﴿لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ﴾ [هود:٢٢] ﴿تَأْتِي كُلُّ﴾ تأتي موقف السؤال والحساب وهي ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ لا تلتفت إلى النظر في حال غيرها أو إلى الجدال عن غيرها، وهو يشير إلى من ارتد من أجل أهله الذين أبوا أن يسلموا معه فغلبته العاطفة فارتد، ويشير إلى من لم يسلم لأن أهله لم يسلموا، وإلى أشباههم ممن آثر طاعة المخلوق على طاعة الله.

فلشدة الهول من عذاب الله المتوقع أن يحكم الله به عليهم ﴿تُجَٰدِلُ﴾ كل نفس ﴿عَن نَّفْسِهَا﴾ خاصة لأنه موقفٌ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه الآيات ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يظلم المجرمون بزيادة في العذاب ولا ينقص المتقون مثقال ذرة من الثواب فهو يوم يستحق أن يجعله العاقل أكبر همه في هذه الحياة الدنيا.

﴿١١٢﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ في هذه الآية تحذير من العقوبة العاجلة في الدنيا بعد التحذير

من سوء المصير يوم الحساب، فيبين: أن كفر النعمة بالكفر بالله ورسله أو بغيره يسبب تغير الحال، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣] فضرب الله مثلاً ليعتبر بها أهل القرى ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا خائفة ولا قلقة، والسلامة من الخوف والقلق من أهم مطالب الإنسان في هذه الحياة.

ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ واسعاً رافهاً ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ ولعل ذلك من أجل التجارة فيها فيجلب إليها رزقها من الأقطار الكثيرة ليباع فيها فهي نعمة الرزق مع نعمة الأمن ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ اتباعا للهوى وانقياداً لأكابر مجرميها فانقلبت حالها عقوبة عاجلة ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (أذاقها) جعلها تحس بألم الجوع والخوف كما يحس من ذاق المأكول طعمه وجعلها بتأثرها من الجوع والخوف قد زال عنها أثر النعمة، وظهر على إبدالها أثر الجوع والخوف من صفرة الألوان وكدرها وهزال الأجساد فكان الجوع والخوف بظهور أثرهما عليهم كأنهما لباس على أجسامهم لاشتمال أثر الجوع والخوف على ظاهر أجسامهم كما يشتمل اللباس؛ ولعله قدم الجوع هنا لأنه في الواقع وقع عليهم قبل الخوف إما لأن عدوهم طمع فيهم لظهور ضعفهم بما أصابهم من الفقر فأغار عدوهم عليهم أو لغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ أي جزاء لهم بما كانوا يعملون؛ ولعله سماه صنعاً لأنه كان عملاً دبروه لمحاربة الدين وأهله وكادوا به أهلَ الحق فدبروا ذلك وحاولوا إتقانه كما يتقن الصانع صنعه ليؤدي إلى غرضهم الباطل.

وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا

﴿١١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ أرسله الله إليهم ليطيعوه فتبقى لهم نعمتُهم فكذبوا رسولهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ العاجل ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيب رسولهم وغير التكذيب من ظلمهم وبطرهم.

﴿١١٤﴾ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فكلوا واشكروا، واحذروا مثل ما حلّ بالقرية التي كفرت بأنعم الله ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ ولا تحرموا منه شيئاً افتراءً على الله وكفراً لنعمته ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ عليكم بما رزقكم من المأكول الذي كانت الجاهلية تحرمه ومن غيره من المأكول وغيره.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إن كنتم تعبدونه وحده لا تشركون بعبادته أحداً فإن من عبادته وإخلاصها جعلَ الحكم له وحده لا يحرم غيرُه حلالاً ولا يُحِل حراماً لأن الله هو المالك للناس ولما رزقهم فليس لغير الله حكم فيهم ولا فيما رزقهم، وجَعْلُ الحكم لغير الله شركٌ في العبادة.

﴿١١٥﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ الحصر إضافي أي: لا ما حرمته الجاهلية من الأنعام التي هي حلال كالوصيلة، وقد مر تفسير هذه في تفسير (سورة البقرة).

حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ

﴿١١٦-١١٧﴾ ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **لا تقولوا الكذب لما تصفه ألستكم أي فيما تصفه ألستكم وتتكلمون فيه بغير حجة لا تقولوا فيه الكذب ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ أي لا تقولوا القول الكذب الذي هو قولكم: هذا حلال وهذا حرام.**

فقوله: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدل من الكذب أو بيان له، وقوله تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُواْ﴾ أي أنكم إذا حللتم الحرام وحرمتم الحلال كنتم قد افتريتم ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ لأن الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله، فمعنى ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ﴾ أحله الله، ومعنى ﴿وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ حرمه الله فهو افتراء للكذب على الله. و(اللام) قال الزمخشري: ((من التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض)) انتهى.

وهي غير (لام العاقبة) أراد الزمخشري أن ما بعدها معلل بما قبلها؛ لأنه سبب له لا لأنه غرض فيه، أما (لام العاقبة) فالمراد فيها: إفادة العاقبة، والفرق بينهما دقيق، ولعل (لام العاقبة) داخلة في عموم التعليل الذي لا يتضمن معنى الغرض.

وقوله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي للذين يفترون متاع قليل في الدنيا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والعذاب يعجل بعضه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] **فالمتاع القليل لا ينافي تعجيل الذلة في الحياة الدنيا، ولتعجيل الذلة لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة.**

هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ

﴿١١٨﴾ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وعلى اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا﴾ تحريمه من قبل في (سورة الأنعام) في [آية:١٤٦] وما أفاده في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران:٩٣] ولعله لحوم الإبل، ولكن التحريم الذي هو عقوبة لهم تحريم ما ذكر في (سورة الأنعام) فهو المراد هنا بقرينة قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وقد يقال تحريم ذلك عليهم ليس ظلماً ولو لم يكن عقوبة؛ لأن الأنعام ملكه واليهود ملكه فله أن يحرم عليهم ما يشاء؛ لأن تحليل ما أحل لهم إنما هو نعمة وتفضل عليهم.

والجواب: هذا صحيح ولكن وقوع التحريم عقوبة لهم يستدعي استحقاقهم للعقوبة لما فيه من الإهانة لهم؛ ولذلك جحدوا كونه عقوبة، فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٩٣-٩٤] وبقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام:١٤٦] فهم الذين ظلموا أنفسهم ببغيهم الذي كان سبباً للتحريم.

﴿١١٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ السوء القبيح، وقوله تعالى: ﴿عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ يبين أن عمل السوء الموجب للعقوبة هو جهالة وسفاهة؛ لأنه مخالفة لمقتضى عقولهم، فإذا تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ما قد أفسدوا بعمل السوء، كبيان ما قد كتموا ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ﴾ بعد التوبة والإصلاح ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ورجع الضمير إلى التوبة؛ لأن الإصلاح هو جزء من التوبة.

إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ

وقوله تعالى: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وعد بالمغفرة والرحمة مؤكد بالدلالة على أنه من صفة الله تعالى فمن تاب وأصلح من الذين هادوا وغيرهم غفر له ورحمه وأحل لهم ما كان حرمه عليهم.

﴿١٢٠-١٢٢﴾ ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): وسمي أمة لقيامه بأمر الأمة كلها» انتهى، أي أنه عمل عمل أمة في جهاده للمشركين وإرشاده لمن اتبعه.

وقوله تعالى: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ أي مطيعاً حنيفاً خاشعاً ﴿وَلَمْ يَكُ﴾ ولم يكن ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإن زعم بعض المشركين أنهم على دين إبراهيم ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ أي كان إبراهيم شاكراً لأنعم الله ﴿ٱجْتَبَىٰهُ﴾ اصطنعه لنفسه أو اختاره للرسالة ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فثبت على دين الله حتى توفاه الله ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ التفاتٌ من الجلالة وضميرها إلى اسم القائل الذي يعبر به عن نفسه، ولعل الحسنة في الدنيا ذكره بالخير في الأولين والآخرين وهو لسان الصدق.

وكذلك أنه تعالى جعل في ذريته النبوة والكتاب والإمامة ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لا يفوته شيء من ثواب الصالحين بما نال في الدنيا فله الجنة والثواب العظيم ودرجته فيها بقدر سبقه إلى الخيرات وسبقه فيها.

إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ

﴿١٢٣﴾ ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ في هذا الزمان المتأخر عن زمان إبراهيم × وبعد أن اجتباه الله وهداه إلى صراط مستقيم ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد ﴿أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ والملة الشريعة.

وفي الحديث: ((لا يتوارث أهل ملتين)) فالملة أصول الدين التي تتمايز فيها وبها الملل، وهي دين الأنبياء كلهم لا تختلف فيها أديانهم، قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ حال يبين: أنه أمر محمداً باتباعه، لكونه ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لا كما يدعي المشركون.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ ﴿ٱلسَّبۡتُ﴾ ما وجب على اليهود في يوم السبت تبعاً لذلك اليوم من تعظيمه واجتناب ما نهوا عنه فيه من الأفعال، فهو لم يجعل أي لم يشرع إلا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ وهم اليهود فليس من ملة إبراهيم × ولا من دين محمد ص.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ كما ذكر في غير هذه الآية أنهم تفرقوا، وأنه تعالى سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ولعل اختلافهم في السبت كان في أحكامه بين تشديد وترخيص، وفي عقوبة من تعدى فيه، ونحو ذلك مما يتعلق بالسبت.

وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ

وقيل: اختلافهم فيه ما ذكره الله عن القرية التي كانت حاضرة البحر، وفيه نظر لأن الذين اصطادوا الحوت اصطادوه جرأة على التعدي فيه لا بناء على أنه لا إثم في التعدي، والذين اختلفوا في عظتهم اختلفوا في فائدتها أو في وجوبها لا في السبت، فلم يظهر منهم اختلاف في السبت إلا أن يكون الاختلاف بالصيد فيه وتركه، ولكن فيه إشكال وهو أن السبت قد جعل عليهم وشرع لهم من قبل ذلك التعدي، فالأولى أن الخلاف فيه نوع مما حكاه الله عنهم في غيره هذه، كقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧].

ويحتمل: أنهم اختلفوا في تشريع السبت عند نزول حكمه عليهم فمنهم من قبله، ومنهم من رده بعد ما جاءهم العلم بشرعه، وهذا أقرب لأجل الحصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ فيدخل فيه اليهود كلهم ولا يختص بأهل الخلاف العارض في أحكام السبت ـ والله أعلم.

﴿١٢٥﴾ ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ ﴿ٱدۡعُ﴾ يا رسول الله ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ إلى دينه الذي هوا لهدى، ادع إليه ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ بالعلم النافع الذي تفيده الحجة البينة التي تبينها لمن تدعوه إلى سبيل ربك أو المعنى ادع بالحكمة بموجب الحكمة وما تقتضيه الحكمة من حسن البيان للحجة وجعل الخطاب بقدر احتمال من تدعوه في الإيجاز والتطويل والإجمال والتدقيق، وباستعمال ما يدعو إلى إجابتك وهو أولاً ما

يلفت المدعو إلى الإستماع، ثم ما يدعوه إلى النظر والتفكير في الحجة، ثم ما يدعو إلى الإجابة من الترغيب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ﴾ وهي بالتخويف من عذاب الله، وقوله ﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ وذلك بإحسان أسلوب التخويف، كما فعل (مؤمن آل ياسين) في قوله: ﴿أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِي الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ﴾ [يس:٢٣] أو كذكر الوعيد والوعد بصورة العموم، أو غير ذلك من حسن الحوار الذي لا يثير غضب المدعو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فالجدال المغالبة بالحجج وإبطال الشبه ببيان الدليل على بطلانها، وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن مثل أن تستمع لما يقول الخصم حتى ينهي كلامه ثم ترد عليه في كلامه بنقض أوله وأثنائه وآخره إذا كان يستدعي النقض، وتحسن الحوار بحيث لا تثير غضبه بل تستدعيه إلى تأمل ما تقول، وقد كفى في الموعظة أن تكون (حسنة) ولم يكف في الجدال إلا أن يكون ﴿بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ لأن الموعظة تدعو إلى غرض واحد هو حسن النية، أما الجدال فيدعو إلى طلب الاستماع مع حسن النية ثم التفكير فيما تقول مع حسن النية ثم القبول منك ودفع ما يمنع القبول من التعصب وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي لا يقبل ولا يهتدي ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الذين يقبلون الدعوة الحسنة فلعلمه سبحانه أمر باتخاذ أسباب قبول الدعوة ليهتدي من يقبل ويهلك من هلك عن بينة.

وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿١٢٦﴾ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ مَن اعتدى عليكم أو ظلمكم ﴿فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ أي ما ظلمتم به، وعبر بالمعاقبة إما لوقوع المبادلة بالعدوان والإساءة كالنوبة في الركوب التي يقال لها عقبة، وإما للمناسبة للفظ (عاقبتم) والمعنى: اقتصروا على الحق ولا تزيدوا عليه؛ لأن الزيادة باسم المعاقبة قبيحة ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ﴾ عن المعاقبة ﴿لَهُوَ﴾ أي الصبر ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي خير لهم من المعاقبة وأفضل لما في الصبر من الثواب للصابرين.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الله على مشاق الرسالة والجهاد للأعداء وسائر ما كلفت به وما ابتليت به ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ بمعونة الله وتوفيقه، وهذه جملة معترضة ليستعين بالله على الصبر لمشقة الصبر لعظم ما كلف به وما يعرض له من البلاوي، فالأمر بالصبر هنا مطلق وقع في خواتم السورة لمناسبة ما مضى فيها من التكاليف وما حكي فيها من خلاف الكفار وفتنتهم لمن أسلم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تحزن على الكفار حيث لم يؤمنوا برسالتك إما لاستحقاقهم العذاب العظيم الدائم فليسوا أهلاً لأن يُحزن عليهم لأنهم أعداء الله ورسوله وهم الذين أوجبوه على نفوسهم، وإما لفوات كثرة المسلمين في الحال وحرصك على سرعة قوة الإسلام بكثرة أهله فالله معك وسينصرك ويظهر دينه على الدين كله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ﴾ أي ولا تكن في ضيق ﴿مِّمَّا يَمۡكُرُونَ﴾ الضيق ضد السعة أي لا تكن في حال ضيق أي لا تبال بما يمكرون بالإسلام وأهله وما يمكرون بك أي يكيدون بك وبمن معك؛ لأن الله معكم فهو ناصركم ومبطل لكيدهم.

﴿١٢٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ فالله معك ومع المؤمنين بك لأنكم اتقيتموه بطاعته، والله معكم لأنكم ﴿مُّحۡسِنُونَ﴾ وإذا كان الله معكم فلا يضركم مكرُ الماكرين؛ لأنكم المنصورون الغالبون، أو لأن الله يدبر لكم ما هو خير لكم، فتوكل عليه ولا تبال بمكر الماكرين.

تم تفسير (سورة النحل) والحمد لله رب العالمين

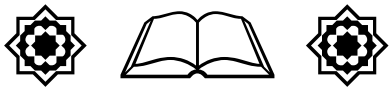

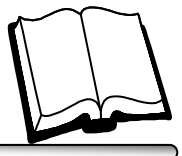

التيسير في التفسير

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن

تفسير (سورة الإسراء) وهي (سورة بني إسرائيل)

قال الشرفي في (المصابيح): ((مكية إلا ثلاث آيات من قوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ..﴾ إلى قوله ﴿.. سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [٧٢-٨٠] قال: قال في (البرهان) وهو قول ابن عباس)) انتهى.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ تسبيح وتنزيه للذي ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ وهو الله جل جلاله سبحانه عما يقول الظالمون كما يأتي في السورة، فالمشركون جعلوا لَه أنداداً لا تقدر على شيء والله منزه عن ذلك؛ لأنه القادر على كل شيء؛ ولذلك أسرى بعبده محمد ص الذي عبّد نفسه لربه وأخلص لَه العبادة فكرَّمه الله بهذا الإسراء وجعله عرْضاً لآيات يطلع عليها في هذا الإسراء.

وإسراؤه به: نقله ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ الأبعد، وهو مسجد بيت المقدس، فقوله تعالى: ﴿لَيْلًا﴾ يحقق أن قطع المسافة كلِّها كان في الليل.

قال الشرفي في (المصابيح) عن الناصر أحمد بن الهادي إلى الحق إ من كلامٍ ذكره الشرفي: ((وأما قوله ﴿لَيْلًا﴾ فإنه يعني: قدرته وتعجيل بلوغه إلى الشام من مكة، والمسجدُ [الحرام] مسجدُ مكة، والمسجدُ الأقصى مسجدُ بيت المقدس المبارك الذي بارك الله فيه وفيما حوله وأعظَمَ النعمةَ على خلقه والإحسانَ إلى بريته، ويعني بقوله: ﴿لَيْلًا﴾ ليلة واحدة؛ لأن قريشاً لم تفقد رسول الله إلا ليلة واحدة)) انتهى.

قلت: فكانت مشاهدتهم له في اليوم الثاني دليلاً على قطع المسافة كلها في ليلة واحدة.

وفي (المصابيح): عن الحسين بن القاسم من كلام ذكره الشرفي: «وروي أنه أتى إلى أهل مكة بأخبار من سافر منهم إلى الشام فلما وصل أصحابهم سألوهم عن ذلك فوجدوه حقاً» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (البركة): الخير الخفي ولعل المراد بركات الرسالة والوحي في عهد إبراهيم وموسى وعيسى وبركات الأرض هناك لما فيها من الثمرات والماء، وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ تعليل للإسراء به أي أنه أسرى به ليريه بعض آياته، فهو تثبيت لقلبه وزيادة في إيمانه.

وهنا التفات لأن أول الكلام كان ذكرَ آيةٍ تدل على القادر على كل شيء بعبارة الإبهام الذي يفسره الواقع؛ لأنه لا يقدر على ذلك في ظرف إسراء رسول الله ص إلا الله القادر على كل شيء، أما التعليل بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ﴾ فهو خبر لعلَّة الإسراء بعد تمام ذكره من حيث هو آية، ففائدة الإلتفات واضحة جلية؛ لأن الآية قد انتهى ذكرها من حيث هي آية ودليل على الله، وبعدها ذكر التعليل لتلك الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رجوع إلى أسلوب الآية لأنه تابع لها، من حيث أن الإسراء آية ترتبت على أن الله هو السميع البصير؛ ولعل ذلك يشير إلى ما كان قبل الإسراء من طغيان الكفار وتجبرهم على المسلمين واستضعافهم فقد سمع الله أقوالهم وأقوال رسوله لهم وذكره لله، ولعله أيضاً كان يدعو الله فأشار بذلك إلى أنه سمع دعاءه قبل الإسراء.

دُونِي وَكِيلاً ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ

وكذلك قد رأى سبحانه ما لحق بالرسول ص والمؤمنين من الأذى من الكفار وما هم فيه من الضعف، فكل ذلك كان سبباً للإسراء هذا، وسمعه تعالى أنه يتجلَّى لَه المسموع بغير حاسة، وبصره أنه يرى المبصَر بغير حاسة، ولعل علم الغيب للمسموع سمع وللمبصر بصر؛ لقول الله تعالى: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ لأن إحاطة العلم بالمعلوم على أكمل وجه يكون مشاهدة للموجود،.

وقد فسر السمع والرؤية: بالعلم، ولعل الأولى في التعبير أن العلم المحيط بكل شيء وبظرفه وكل أحواله هو رؤية وسمع للمرئي والمسموع فليس المراد أن مفهوم الرؤية والسمع هو العلم بل المراد أن العلم تحصل به الرؤية والسمع أعني أنه رؤية للمرئي وسمع للمسموع؛ لأنه يتجلى به المرئي والمسموع، ولذلك صح الجمع بين الوصف بالعلم والسمع في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آية:٤] في (سورة الأنبياء).

۝٢ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ عطف على ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ لأن الإسراء آية، وأراه الله فيه من آياته، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة، أو هي وسائر صحف موسى ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ لا تشركوا بي غيري تكلون إليه أموركم أي تتوكلون عليه.

وقوله تعالى ﴿مِن دُونِي﴾ نهي عما يقع من المشركين من اتخاذ آلهة من دون الله كالوسائط بينهم وبين الله، أو يتوسلون بها لتقربهم إلى الله؛ لأن كلمة ﴿مِن دُونِي﴾ تفيد: اعتبارهم أن شركاءهم أقرب إليهم من الله، فهي عندهم بينهم وبين الله.

عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا

وجعل ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ﴾ مفسرة للكتاب؛ لأن حاصله الأمر بعبادتهم لله وحده وما هو راجع إلى الدعوة هذه من المواعظ والوعد والوعيد والأحكام في المعاملات والعبادات وغير ذلك؛ لأن اتباعها في ذلك كله عبادة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ..﴾ الآية [البينة:٦].

﴿٣﴾ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ ﴿ذُرِّيَّةَ﴾منصوب على الإختصاص وهذا إما من تمام تفسير الكتاب فيكون هذا مذكوراً في التوراة، وإما راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وقد وعد الله تعالى نوحاً بالبركات عليه وعلى أمم ممن معه؛ فلعل ذكرهم تنبيه على أن الله أنزل البركات على بني إسرائيل كما وعد بذلك نوحاً ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ يشير إلى أن شكره كان سبباً لحمله وحمل من آمن معه في السفينة لينجيهم من الغرق وإن كان سبب حملهم معه إيمانهم فلا تَنافي إذا كان سببُ إيمانهم رسالةَ نوح إليهم مع الآية من ربه، وسبب رسالته كونُه عبداً شكوراً، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] وبعد هذه الآية بيان اختلاف حال بني إسرائيل في الصلاح والفساد وبيان أن الجزاء يتبع العمل.

﴿٤﴾ ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أنهينا إليهم وبلغناهم ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ أي بلغناهم هذا الخبر عما سيكون من الفساد والطغيان، والفساد في الأرض الفساد المنتشر في الأرض ﴿وَلَتَعْلُنَّ﴾ تتكبرُنَّ وتتجبرُنَّ ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ تكبراً وتجبراً عظيماً.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ ﴿وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ موعود أولاهما أي المرة الأولى من المرتين الموعود بهما في التوراة، أي فسادهم في الأرض المرة الأولى وطغيانهم ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ أثرنا أي سلَّطنا عليكم ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ لعله سماهم عباداً لَه تعالى، لأنهم ذهبوا لما سلطهم عليه ذهاب العبد الممتثل، أو لأنهم في حال قوتهم وقهرهم لبني إسرائيل تحت قدرة الله تعالى وقهره، وقوله تعالى: ﴿أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أهل شر شديد وهو شر قتلهم وقتالهم لبني إسرائيل.

وقوله تعالى ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ أي خلال دياركم أي دخلوا بلدكم وتخللوا دياركم وجاسوا خلالها، قال في (الصحاح): «أي تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أي يطلبها» انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): يعني قتلوهم بين الدور والمساكن» انتهى. وفي (الكشاف): «وأسند الجَوس وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم» انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناه: قتلوا و﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ معناه: بين الديار» انتهى.

والجمع بين المعاني: تخللوا الديار تخلل إفساد، فطلبوا بني إسرائيل ليقتلوهم وقتلوهم بين ديارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ أي كان ذلك الموعود بوقوعه في المرة الأولى وعداً مفعولاً أي موعوداً به مفعولاً فعله بنو إسرائيل وهو فسادهم وطغيانهم، وفعله المسلطون عليهم أي وقع من بني إسرائيل المرة الأولى الذي هو فسادهم وطغيانهم ووقع التسليط على بني إسرائيل كما وعدوا على ما هو مفصل في الوعد.

لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ

فقوله تعالى ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء:٤] أي قضينا ووقع ما قضينا، أي أخبرناهم بما سيكون منهم وما سيعاقبون به في العاجل فوقع ذلك كما أخبرنا بأنه سيكون.

﴿٦﴾ ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ يظهر أن هذا من حكاية ما قضاه الله إلى بني إسرائيل في الكتاب؛ لأنه خطاب لهم، فقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ جملة معترضة والكَرَّة الرجوع بعد التأخر عن العدو أو بعد الإنهزام وهي من التكرار، وحاصل المعنى نصرناكم عليهم.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناه: أعقبنا لكم الدولة» انتهى، وهذا بالنصر من الله لهم حين ذلوا فرجعوا إلى الله فأعاد لهم عزهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ يحتمل قبل النصر لترجع لهم شجاعتهم ويعزموا على القتال كما في (قصة طالوت) ولم يكن النصر فيها بكثرة المقاتلين انظر الآيات من (سورة البقرة) من قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلاَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة:٢٤٦].

ولعل هذا أي كون ردِّ الكرة لبني إسرائيل لم يكن بكثر المال ولا كثرة النفير قدَّم في الذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ وعطف عليه قوله تعالى ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم﴾ أما إذا كان المراد وأمددنا بعد رد الكرة علهيم فهو تقوية لهم للمستقبل واختبار لهم أيشكرون أم يطغون كما طغوا أول مرة، وقد كان ذلك مقدمة لقوتهم التي عندها وقعوا في المرة الثانية.

ٱلۡأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَا

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا﴾ أي أكثر جنداً ينفرون للقتال، وظاهره أكثر من العدو الذي سلط عليهم في الماضي.

﴿٧﴾ ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأَخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ﴾ حين ترجع لكم قوتكم ﴿أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ﴾ لأن النعمة تبقى مع الشكر كما أن عاقبة الإحسان ثواب الآخرة ﴿وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ فأفسدتم في الأرض فلأنفسكم تضرون أنفسكم ويكون العقاب الموعود به عليكم، هذا بالنظر إلى السياق والجملة صالحة لما قبل رجوع قوتهم ولما بعده ولكل حين ما دام التكليف، فهو داخل في عموم الجملة أعني في عموم قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَا﴾ والمعنى الأول الخاص بحال قوتهم المردودة داخلٌ دخولاً أوّلياً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأَخِرَةِ﴾ أي الموعد به الذي هو المرة الآخرة من المرتين الموعود بهما في الكتاب، وقوله تعالى: ﴿لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ يحتمل أنه متعلق بـ﴿جَآءَ﴾ وأما جواب (إذا) فهو محذوف لدلالة المذكور عليه تقديره: وقع ذلك الجزاء أو نحوه، وهذا من التعليل بغير غرض بل لمجرد التسبيب. وقال في (الكشاف): «التقدير: بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، حذف لدلالة ذكره أولاً عليه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَسُۥٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أي يظهر على وجوهكم أثر هجومهم عليكم وتأثيره في قلوبكم الهم والغم والحزن، ومعنى (ساء) ضد معنى (سر).

وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ

﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾ أي الأقصى ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولعل الضمير لعبادٍ لله سلطهم من غير تعيين العباد الأولين، كما قدمتُ عند قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام:٦٠] وهذا هو الراجح، ولا نعلم أحداً قال إن المسلطين في المرة الثانية هم المسلطون في المرة الأولى. وقوله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ليدمروا)) انتهى.

قلت: ويستعمل في تدمير الناس أي إهلاكهم، قال تعالى: ﴿وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٩] وكذلك التدمير، والراجح في معنى ﴿مَا عَلَوْاْ﴾ أنه ما داموا عالين عليكم لا يقتصر بأسهم على يوم دخولهم أرضكم واستيلائهم عليها فهي مصيبة طويلة الأمد على شدتها نعوذ بالله.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فيفرج عنكم بعد الشدة ويرفع عنكم دولة المسلَّطين، وهذا إطماع لهم ليرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه ليفرج عنهم كربهم وقام هذا مقام الوعد الصريح، بدليل قوله تعالى ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ولا يكون العود إلا وقد ذهب العذاب الأول وعادوا إلى الطغيان.

تنبيه: هذا الوعيد لبني إسرائيل غير خاص لليهود لأن بني إسرائيل انقسموا في وقت عيسى × فآمنت به طائفة وكفرت طائفة وصاروا نصارى ويهوداً، والآيات في بني إسرائيل لم تخص اليهود منهم فإذا عادوا للفساد في الأرض والعلو الكبير أو كان ذلك قد وقع فلا بد من تحقق ما وعد الله به من بَعْث عبادٍ عليهم أولي بأس شديد.

وكذلك لا يؤمن أن يسلط الله على الإسلاميين إذا أفسدوا وعلوا، لأن الله تعالى قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٢] وقد سلط الله في المرة الأولى على الإسلاميين التتار ولا يؤمن أن يسلط الله عليهم مرة ثانية والعياذ بالله، ودفع ذلك إنما هو بتمسكهم بالدين وتحكيمه في كل شيء وترك الفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أي جعلناها لهم سجناً يحصرهم ويحبسهم أبداً وهذا لئلا يتوهموا أن العذاب العاجل بدل من العذاب الآجل بل لا بد للكافرين لنعمة الله من جهنم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ يهدي للسبيل التي هي أقوم، وهي سبيل الله التي هي أقوم السبل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣] وأقوَمُ تفضيلٌ يدُلُّ على أنه لو كان غيره قيما لكان ما يهدي إليه القرآن أقوم، وهذا يتصور في المنسوخ فالناسخ في وقته أقوم، فأما قوانين المخلوقين المخالفة للقرآن فهي غير قيمة أو أنها لو كانت قيمة باعتبار ففيها عوج أعظم يوجب طرحها فتعتبر غير قيمة، والتفضيل عليها ناظر إلى جهة المصلحة المرجوحة.

وقوله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ وهم الذين صدق إيمانهم فبعثهم على التقوى وامتثال أمر الله فكانت أعمالهم صالحة، وقوله: ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ إذا حمل على العموم فهو عموم الواجبات عليهم، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ثواب الآخرة كما هو مفصل في غير هذه الآية.

ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ

﴿١٠﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي هم مستمرون على ترك الإيمان بالآخرة لاستمرارهم على الكفر بدلائلها ﴿أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هو عذاب النار، فحصل من الآيتين أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، ويبشر وينذر لتقوم به الحجة على الناس، وينتفع بذلك المؤمنون، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

قال في (الكشاف): «فإن قلت: ﴿﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ علامَ عُطف؟ قلت: على أن لهم أجراً كبيراً على معنى أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين: بثوابهم، وبعقاب أعدائهم» انتهى المراد.

﴿١١﴾ ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلۡخَيۡرِۖ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾

فالإنسان محتاج إلى ما يهديه للتي هي أقوم وإلا ساءت أحواله فقد يدعو بما يتوهمه مصلحة لنفسه أو للمجتمع وهو غلط، من ذلك: مطالبة بعض الجهال بالقوانين المخالفة للقرآن وهي في الواقع شر، وإنما زيّنها لهم شياطين الإنس والجن كمن يطالب بترك المرأة للحجاب، وبأن تبدي زينتها للأجانب وتخالطهم كمخالطة الرجل لهم.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ كثير العجلة التي معها يقل التثبت في الأمور ويكثر الغلط، فالملتزم لهدي القرآن المتمسك به في كل حال هو الذي يهتدي للصواب ويوفق للخير.

ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

ومن الدعاء بالشر: دعاء العبد على نفسه أو أهله أو ولده أو نحو ذلك عند الغضب أو الضجر، وقد يكون ذلك شراً له، وهذا في دعائه لله تعالى، وكذلك قد يطلب من الله حاجة هي شر لَه وهو يظنها خيراً.

وقوله تعالى: ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي كدعائه بالخير فهو يجدّ في الطلب كما لو كان يطلب خيراً، وقد يَعْجَل على قضائها ولو عجلت له لكانت شراً له، فهذا تذكير للإنسان ليترك العجل على قضاء ما دعا اللهَ به وليتثبت في الأمور ويهتدي بهدى القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم ولا يطاوع نفسه عند غضبٍ أو هوى.

﴿١٢﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الواو لعطف آية كونية على ما تقدم من ذكر الهداية بالتوراة والقرآن، ففي الوحي آيات سمعية وفيه ذكر آيات كونية، وهنا ذكر تعالى آيتين ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ تدلان على قدرة الله تعالى وعلى فضله وإنعامه على عباده، فالليل راحة للإنسان من الأعمال واستعادة بالنوم لقُواهُ الفكرية والجسدية بعد تعب النهار، أما النهار فللإبتغاء من فضل الله لطلب الحاجات الدينية والدنيوية كطلب العلم والحرث والتجارة وغير ذلك من الأعمال.

وقد جمع تعالى ما تفرق في آيتين في (سورة يونس) [آية:٥، وآية:٦] جمعه في هذه الآية، إلا أن هناك زيادة ما خلق الله في السموات والأرض.

وفي هذه الآية التي نحن في تفسيرها أوجز بذكر الليل والنهار وهناك زيادة ذكر اختلافهما وقد أفادته هذه الآية؛ لأنها تذكر الليل والنهار وهما معهودان بتحديدهما اللازم لاختلافهما، والمراد بآية الليل الآية التي تظهر في الليل التي هي القمر ومحوها نقص نور القمر حتى لا يبقى إلا الهلال، كقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس:٥] وجعل السواد فيه، وآية النهار الشمس، فالليل والنهار آيتان، واتصل بذكرهما ذكر الآيتين اللَّتَين فيهما.

ولعل هذا مراد الناصر بن الهادي إ فيما حكاه عنه الشرفي في (المصابيح) حيث قال: «يعني بذلك ـ عزَّ وجل ـ ما خلق من الشمس والقمر وما جعل الله بينهما من الفرق الواضح، وما فضل به ضوء النهار على ظلمة الليل، وما أتقن به من الصنع والتدبير لعمارة الدنيا ومصالح الخليقة، وذلك قوله: ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني تصرفهم في طلب المعاش وقوام الحياة.

﴿وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فهذا ما لا يخفى على أحد من عدة الأيام والشهور والسنين نعمة منه ـ عزَّ وجل ـ ورحمة ليعرفوا الأوقات والمُدد والحساب والعدد والصيام في وقته والحج في وقته والآجال بينهم في معاملاتهم وأحكامهم وأعيادهم ونكاحهم وجمعهم وديونهم وأسفارهم ومزارعهم والأسباب التي لا غنى بهم عنها ولا قوام لهم إلا بها» انتهى.

وهو واضح حيث كان المراد بآية الليل القمر لقول الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٥] راجع تفسيرها في أوائل (سورة يونس).

وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ هو عام في كل المخلوقات وكلها آيات مفصلات أي مميَّزات بما يبين دلالتها على الله القدير العليم.

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ ﴿وَكُلَّ﴾ هو عطف على ذكر هداية الناس بالقرآن وغيره وبالآيات الكونية يبين أن الإنسان إن اهتدى أو أبى فعمله لازم لَه لا يفارقه ما مات عليه حشر عليه ليس يفارقه وهو ﴿طَـٰٓئِرَهُۥ﴾ أي سعده أو نحسه؛ لأن عمله سبب سعده إن كان صالحاً أو نحسه إن كان سيئاً، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٣١] أي يتشاءموا، وكان بعض يتشاءم بالطير إذا طار إلى جهة اليسار ويتيامن بالطير إذا طار إلى جهة اليمين ثم صار التطير اسماً للتشاؤم أو للتفاؤل كله.

قال الراغب في تفسيره (مفردات القرآن): «أصله التفاؤل بالطير، ثم يستعمل في كل ما يُتفاءَل به» انتهى، ونحو هذا في (مصابيح الشرفي) وقال في (الصحاح): «وطائر الإنسان: عمله الذي قُلِّدَه» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ ترشيح لجعل عمله لازماً له لا يفارقه، قال في (الكشاف): «والمعنى: أن عمله لازم لَه لزوم القِلادة أو الغُل ومنه مَثَلُ العرب: تقلّدها طوقُ الحمامة، وقولهم: الموت في الرقاب..» إلخ.

وقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أي نحضره له ونظهره له ليقرأه فيكون حجة عليه؛ لأنه يرى عمله فيه ويتذكره ويقرؤه كل إنسان سواء كان في الدنيا قد عرف الكتابة أم لا.

ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ

ولعله ـ والله أعلم ـ يكون كـ(السينما) و(التلفزيون) يرى نفسه ويسمع كلامه فيه ليكون حجة عليه كنطق جوارحه، وأما الله سبحانه فهو غني عن الكتاب لا يضل ربي ولا ينسى، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ والمنشور خلاف المطوي لأنه ينشر ليرى ما فيه ببسطه لقارئه.

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ خطاب موجَّهٌ يوم القيامة إلى الإنسان الذي لقي كتاب عمله ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ لترى عملَك فتحاسِب نفسك وتقرر منه مالك أو ما عليك بعلمك بذلك، وقوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي لا تحتاج لمحاسب غيرك بل أنت تكفي محاسباً لنفسك، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي يوم القيامة؛ لأنه لو جحد الحق ما نفعه الجحدان ولأن المراد الإحتجاج عليه بما يعرف به عمله وما يستحقه من الجزاء فإذا عرف حصل المراد.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ أي عليك محاسباً بذنوبك، فأما الحسيب بأعماله الصالحة فهو بالأولى أن يكفي لأنه لا يحتاج فيه إلى تقريره والإحتجاج عليه لإثباته.

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ هذا تفصيل لما أجمله في الآيات الثلاث التي قبله ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ انتفع بالهدى فاتبع سبيل ربه ومن ضل أي غوي عن سبيل ربه فاتبع غيرها ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ نفع اهتدائه لَه لا لله ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ﴾ على نفسه لا على ربه فلا يضره شيئاً بل ضره على نفسه.

قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل حاملة ذنب أخرى سمي الذنب وزراً لثقله على صاحبه، ورشح بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١] فدلت على أن ذنب الإنسان لا يعذَّب به غيره، فلا يعذب الطفل بذنب أبيه، وأما وقوع العذاب العاجل على الكفار ووقوعه على أولادهم فليس عقوبة للأولاد وإنما هو كالأمراض والموت الذي يلحق أولاد المؤمنين فما لحق أولاد الكفار فلهم عوضه يوم القيامة، ونظيره ما يلحق أولاد المؤمنين من الأمراض والمصائب فلا يضيع عليهم شيء من كل ضر نالهم في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ أي نبعث رسولاً لينذر أهل العقول ويبشر، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وقوله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

﴿١٦﴾ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ بجرم أهلها واستحقاقهم للهلاك العاجل لفسادهم ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أمراً فيه اختبارهم وابتلاؤهم، فكان هذا الأمر سبباً لفسقهم؛ لأنهم يستكبرون عن طاعة هذا الأمر أو يغلبهم هواهم، والمترفون هم أبناء الدنيا المتنعمون المتبعون للشهوات ورفاهية العيش، قال الراغب في (المفردات): «الترفُّه: التوسع في النعمة، يقال: أترف فلان فهو مترف» انتهى.

وذلك أن المترفين لم يتعودوا الصبر على مشقة بل تعودوا الراحة والتلذذ فإذا أمروا بما يشق عليهم ثقل عليهم، وأيضاً المترفون يكونون أهل ثروة يعظمهم الضعفاء من أجل حاجتهم إليهم ولذلك إذا جاءهم الرسول أو الداعي إلى الله خافوا على مكانتهم في قومم أن تذهب ويصيروا مثل ضعفائهم في قومهم فلذلك يكون المترفون هم أسرع إلى العصيان والفسق ويكون الضعفاء لهم تبعاً.

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقُواْ﴾ أي أجرموا وخبثوا وأعلنوا معاندة الحق والفساد في الأرض وهذا الأمر لعله مثل أمر أصحاب القرية بواسطة الصالحين منهم بترك التعدي في السبت مع أن حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فالأمر هذا ليس الأمر السابق عند دعوتهم وإقامة الحجة عليهم ولكنه أمر ابتلاء بسبب المعاصي السابقة، كما قال تعالى في (أصحاب السبت): ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] وكما أمر (قوم صالح) بترك ناقة الله تأكل في أرض الله: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥] وهذا أمر يغيظم لأنها آية مبصرة لصدق نبيهم وهم لا يريدون أن تبقى له آية بينة مستمرة.

وكأمر فرعون بالإيمان بموسى حين بطل سحر السحرة بإلقاء موسى عصاه فغضب فرعون ولم يبقَ لَه حجة فعدل إلى تهديد المؤمنين وحشَر قومه لإهلاك موسى وأصحابه، فهذا الفسق ظاهر زائد على فسقه الأول وكذلك فسق الذين عقروا الناقة، ومن أمثلة ذلك أمر لوط قومه بتقوى الله وأن لا يخزوه في أضيافه فازداد عنادهم وقالوا أولم ننهك عن العالمين، وأصروا على المطالبة بتسليم أضيافه حتى عاجلتهم عقوبة طمس أعينهم، فهذا هو الراجح في معنى الأمر المذكور هنا.

خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ

وقوله تعالى: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ فجروا فجوراً زائداً وخبثوا خبثاً استحقوا به مع فسقهم السابق تعجيل العذاب لهم كعقر الناقة والعدوان في السبت ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ الوعيد السابق واستحقت تطبيقه واقتضت ذلك الحكمة، وقوله تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكنا أهلها ودمرنا مساكنهم وما فيها وما في القرية تدميراً ساحقاً لا يبقي على أحد.

﴿١٧﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي كثيراً من القرون أهلكنا، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ يشير إلى كثرتهم وأنهم لم يعتبروا بمن قبلهم، وقد سمى الله تعالى في القرآن بعضهم وأفاد أنه لم يسمِّهم كلَّهم، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [إبرهيم:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي أنه العليم بها كلها وبخبر كل عمل ومقداره في القبح، وأنه البصير بها في المجازاة عليها بتعجيل أو تأجيل، وعلى كل ذنب بقدره فأي قرية استحقت الإهلاك فلن تخفى عليه، وفي هذا تحذير للكفار نبيئنا محمد ص. قال في (الصحاح): «والذنب: الجرم» انتهى.

﴿١٨﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ يختارها ويؤثرها، والعاجلة الحياة العاجلة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود:١٥].

وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

وقوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ أي من أغراض الحياة العاجلة ومطالبها، وقوله تعالى ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من قوله: ﴿لَهُ﴾ أي عجلنا لمن نريد أن نعجل له. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ﴾ أي جزاء ﴿يَصْلَاهَا﴾ يباشرها وقوله تعالى: ﴿يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ حالين حال بعد حال أي يصلاها حال كونه مذموماً بعصيانه لربه وكفر نعمته عليه وحال كونه مدحوراً مبعداً ملعوناً لا يُرحم.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ آثر الحياة الآخرة وهي حياة الناجين من عذاب الله الفائزين برحمة الله ورضوانه، فإرادته لها أن تكون في نفسه أرجح من أغراض الدنيا، بل وأرجح من الحياة الدنيا بحيث إذا تعارضا لم يرجح العاجلة بل يؤثر طاعة ربه وتقواه، فمتى وجب عليه الجهاد في سبيل الله بنفسه وماله جاهد في سبيل الله بنفسه وماله ولم يمنعه خوف القتل ولا خوف الفقر وهكذا كلما تعارض غرض دنيوي وطاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي وسعى للآخرة سعيها الذي هو التقوى والعمل الصالح، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ شرط في قبول السعي للآخرة فلا قربة لكافر ولا لفاسق مصر على فسقه؛ لأنه غير مؤمن ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: أهل الصفات الثلاث ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ يشكره الله بكرمه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨] وهذا تعبير بليغ لإفادة نفع هذا السعي للساعي.

ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴿٢١﴾ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ

﴿٢٠﴾ ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ ﴿كُلاًّ﴾ أي كل الفريقين من كان يريد العاجلة ومن أراد الآخرة ﴿نُّمِدُّ﴾ نعطي العطاء بعد العطاء لا يمنع فضلَ الله عصيانُ العاصي ولا اشتغال الساعي للآخرة بسعيها، وقوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿كُلاًّ﴾ أي للمضاف إليه المعوض بالتنوين، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ أي ما كان ممنوعاً لأنه لا مانع لما أعطى ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر:٢].

﴿٢١﴾ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ ﴿ٱنظُرۡ﴾ أيها الإنسان ﴿كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ بعض مَن أراد الدنيا وبعض من أراد الآخرة فضلنا بعضهم ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ في الرزق لم يمنع من التفضيل أحد لا حاسد ولا غيره؛ لأن الله غالب على أمره وهو ابتلاء للفريقين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾ فهو واقع ما وعد الله به أولياءه كما وقع التفضيل في الدنيا إلا أن التفضيل في الآخرة تابع للعمل يخص من أراد الآخرة، ولعل سياق الآية ـ أيضاً ـ للترغيب في درجات الآخرة وتفضيلها ببيان أن الناس يعظم في نفوسهم ما فضل الله به بعضهم على بعض في الدنيا فليعرفوا بذلك عظم تفضيل درجات الآخرة وتفضيلها فإنه أكبر، وقوله: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾ هي منازل الثواب وهي تشريف وتعظيم تابع للعمل، فأهلها مفضلون بها على قدر أعمالهم، وبقية النعيم في الجنة فيه تفضيل تابع للدرجات ولما شاء الله من الأسباب.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ ﴿لَّا تَجْعَلْ﴾ يا رسول الله ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ نهيٌ لَه عن الشرك وهو نهي لكل أمته ﴿فَتَقْعُدَ﴾ لو أشركت ﴿مَذْمُومًا﴾ يذمك المؤمنون لارتكاب القبيح ويذمك الكافرون لتلوُّنك وزعمهم أنك افتريت على الله قبل أن تشرك ثم رجعت إلى الشرك ولو كنت صادقاً ما رجعت عندهم عن دعواك وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ في التعبير بالقعود إشارةٌ إلى أنه يضعف لو أشرك.

وقوله تعالى: ﴿مَّخْذُولاً﴾ أي لا يبقى لك ناصر يخذلك الله وملائكته والمؤمنون، وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ إما تامة بمعنى فتضعف وتذل ولا يبقى منك أمر ولا نهي ولا عمل في سبيل الله بل تبقى متخلياً عن العمل منقطع الأسباب، وعلى هذا يكون ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ حالَين مترادِفَين، وإما ناقصة بمعنى فتصير، فيكون ﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾ خبرَين لها.

وهذا الذي اختاره (صاحب الكشاف) في تفسير هذه الآية، واختاره الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ ولم يذكر الأول والأول مجاز والثاني غريب، وقد قال بعض النحاة: لا يستعمل إلا في محل سماعه، وهو قول الأعرابي:

أرهف شفرته حتى قعدت كأنها حَرْبة

وقال ابن الحاجب: «وإن قلنا بالطرد فإنما يطّرد في مثل هذا الموضع، قال الرضي في شرحه: فلا يقال قعد كاتباً بمعنى صار، بل يقال: قعد كأنه سلطان، لكونه مثل: قعدت كأنها حربة» انتهى.

وقال الزمخشري في (المفصل): «وقد جاء جاء بمعنى صار في قول العرب: ما جاءت حاجتك، ونظيره: قعد في قول الأعرابي:

رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ

أرهف شفرته حتى قعدت كأنها حَرْبة»

انتهى، قال شارحه ابنُ يعيش: ولا عهد لنا بـ(جاء) في معنى (صار) إلا في هذا المثل، يعني قول الخوارج لابن عباس: ما جاءت حاجتك، فقول صاحب المفصل: ونظيره قول الأعرابي يفيدُ غرابته، مثل: ما جاءت حاجتك أو قريباً منه.

ولذلك فالراجح في قول الله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾: هو التمام، كما بينته، وقد جاء في المدح: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران:١١٣] والقيام ضد القعود فصح الذم أو نحو الذم بالقعود بل قد جاء الذم به في قول الشاعر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ حكَم عليكم وأوجب ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ولعله أعيد بعد قول الله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ليكون دافعاً لما يتوهم من قوة الحث على بر الوالدين أنه يجوز طاعتهما في الشرك أو في معصية الله تعالى كطاعة أهل الكتاب لرهبانهم وأحبارهم.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي قضى أن تحسن أيها الإنسان بالوالدين إحساناً، وهذا عام لكبيرهم ومَن دونه ولمسلمهم وكافرهم.

وأكد تعالى التوصية بالكبيرين، فقال تعالى ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ أي إن يبلغ ﴿عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ أي إن يبلغ أن يكبر في السن ويصير في الضعف والشيبة ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ وقول القائل: أفٍّ كلمة تضجر، كقول إبراهيم × : ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء:٦٧] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تزجرهما بمغالظة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ يوجب تكليمهما فيحرم السكوت، ويوجب قولاً طيباً كريماً والكرم ضد اللؤم، فهو قول يحمد عليه قائله لأنه إحسان إليهما من جنس إحسان أهل الكرم.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد الناصر ـ يعني ابن الهادي ـ × : هذه وصية من الله تعالى سبحانه في الوالدين أن لا يقطعا ولا يجفَى بهما، وأن يُحسن إليهما جزاءً بما أحسنا، وأن يُحفظا كما حَفظا ويُكرما كما أكرما، ويُربَّيا كما رَبَّيا، رحمة منه ـ عزَّ وجل ـ وتأديباً لخلقه، وتنبيهاً على الصواب، ليجزيهم على ذلك الجنة، ويوجب لهم الكرامة ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ والأف: فهو التأفيف في لغة العرب المعروفة، وهو: التأذّي والإستثقال» انتهى المراد، وقوله: وهو التأذي والإستثقال، يعني: التعبير عن التأذّي والإستثقال بقولهم: ﴿أُفٍّ﴾.

وقوله تعالى:﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع وتذلل لهما من رحمتك لهما بسبب ضعفهما من الكبر، و﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ الجناح المعبّر عن الذل لهما، كأنه قد جعل للذل أي للدلالة عليه والتعبير عنه وذلك بخفضه، والخفض ترشيح لإثبات الجناح، وقوله تعالى ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أي ارحمهما جزاءً عني ﴿كَمَا رَبَّيَانِى﴾ كما أحسنا إلي بتربيتي ﴿صَغِيرًا﴾ أي حال كوني صغيراً في ضعف الصغر.

فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم × : معناه: كما غذواني طفلاً، والتربية: هي الغذاء، والكفالة، والحضانة في لغة أهل الحجاز، وهي البزاية في لغة أهل اليمن، والمراد: ادع لهما بالرحمة الباقية من الله جزاءً لرحمتهما عليك في صغرك» انتهى.

﴿٢٥﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ كله مما يتعلق بالوالدين مثل المعرفة بحقهما ونية برهما أو خلاف ذلك، ومن غير ذلك مما في نفس المكلف، فهو سبحانه أعلم، وهو الذي يحاسب ويجازي، فأما الوالدان فقد يخفى عليهما ما في نفس الولد، فيظنان من يحبّانه بَرَّاً بهما وليس كذلك، وقد يغضبان على ولد فيظنانه عاقاً وهو برّ بهما محسن إليهما خافض لهما جناح الذل من الرحمة، فالآية تدل على: أن حكم الولد عند ربه، وأنه إذا كان صالحاً فلا يضره سوء ظن والدَيه؛ لأن ربه أعلم بما في نفسه فضلاً عن أقواله وأفعاله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ الأواب: هو التواب وهو مثال مبالغة يقال: آب بمعنى رَجعَ والمعنى الأوابين إلى الله أو الأوابين إلى الله الرجاعين إلى الوالدين فهم لا يصرون على معصية لربهم لا في حق الوالدين ولا في حق الله تعالى.

﴿٢٦﴾ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وهو ما أمر الله به، وقد أمر بإيتاء ذي القربى وقد مرَّ القول في دلالة ذلك على وجوب الإنفاق عليه إلا أن الوجوب على الوارث قبل غيره.

وهذه الآية خطاب عام لأنها معطوفة على ما قبلها وهي عامة، بدليل قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا﴾ فليست خاصة برسول الله ص ولكنه داخل في عمومها.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): روينا عن آبائنا عن علي بن الحسين × أنه قال: الآية خاطب الله بها رسوله ص أن يؤتي ذوي قرباه حقوقهم من الخمس، والغنيمة، والفيء، والخطاب بعده يتوجه إلى الأئمة القائمين مقامه العاملين بسيرته» انتهى.

وفي (شواهد التنزيل) عند ذكره لهذه الآية من (سورة بني إسرائيل) بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال: «لما نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أعطى رسول الله ص فاطمة فدكاً، رواه بعدة طرق عن أبي سعيد الخدري، وفيه: بإسناده عن جعفر ابن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي (عليه السلام) قال: لما نزلت ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله فاطمة إ فأعطاها فدكاً» انتهى.

وأخرج الطبري في تفسيره لهذه الآية بإسناده إلى علي بن الحسين إ : «أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأتَ القرآن ؟

قال: نعم.

قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾؟

قال: وإنكم لَلْقَرابة التي أمر الله ـ جلَّ ثناؤه ـ أن يؤتى حقُّه؟

قال: قال: نعم» انتهى.

وفي (تفسير ابن كثير): «وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التميمي، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن

أبي سعيدن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله ص فاطمة فأعطاها فدك، ثم قال [البزار]: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التميمي، وحميد بن حماد بن أبي الخوار» انتهى.

قلت: رواه الحسكاني في (شواهد التنزيل) بإسناده عن حسن بن حسين العرني، قال: حدثنا أبو معمَّر سعيد بن خثيم، وعلي بن القاسم الكندي، ويحيى بن يعلى، وعلي بن مسهر، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد، ورواه بإسناد عن علي بن هاشم، عن داوود الطائي، عن فضيل بن مرزوق به، ورواه بإسناد: عن معاوية بن هشام القصار، عن فضيل بن مرزوق به، وغيرهم.

وفي تخريجه: أنه أخرجه: ابن عدي في (ترجمة علي بن عابس) من كتاب (الكامل) [٥/ ١٨٣٥] قال أخبرنا القاسم بن زكريا، حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا علي بن عابس، عن فضيل ـ يعني ابن مرزوق ـ ..إلخ» انتهى.

فهؤلاء المذكورون مع من ذكرهم ابن مردويه، وهذا كله يدل على أن هذه الآية الكريمة مدنية، ويبطل قول من زعم أنها (مكية) فإن السورة المكية يأتي بعض آياتها (مدنية) كما لا يخفى، وفي المصحف [طبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه] عد آيات من هذه السورة أنها (مدنية) منها هذه الآية.

وقد روى الحديث في (فدك) في (شواهد التنزيل) عن غير مَن تقدم، وخرج المحمودي روايته في (حاشيته) تخريجاً كاملاً، فراجعه أو راجع (الغدير) [٧/ ١٩٠]، [ج٨/ ١٣٧-١٣٨] كما أفاد في تخريج (شواهد التنزيل).

هذا وقد قدمت أن رسول الله ص داخل في عموم هذه الآية، فقد أمر أن يؤتي ذا القربى حقه، فالروايات موافقة في الجملة للقرآن.

وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمِسۡكِينَ﴾ فله حق في الزكاة وحق في الخمس وحق في الإنفاق من المؤمن، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٧٧] وقوله تعالى ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: المسافر المحتاج.

وقال الشرفي في (المصابيح): «وابن السبيل: فهو مارُّ الطريق المسافر المنقطع» انتهى.

قلت: ومثل المنقطع، مَن هو مظنة أن ينقطع إذا لم يُعطَ ما يبلّغه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا﴾ فالتبذير قسمان: إتلاف المال في غير منفعة ولا فائدة كما يفعل بعض الأغنياء في الضيافات من إلقاء بقية الطعام في محل القمامة، والقسم الثاني: إنفاق المال في معصية الله كإنفاقه في الخمر أو الميسر أوا لرشوة أو الربا أو غير ذلك كمعاونة الظلمة، وسواء أنفق المال بنفسه في أحد القسمين أو آتاه سفيهاً أو فاسقاً ينفقه في أحدهما أو كليهما فكل ذلك تبذير.

﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ ﴿٢٧﴾ أما التبذير بإنفاق المال في معصية الله، فلأنه مع كونه معصية من حيث التسبيب للمعصية أو المشاركة به فيها فهو معصية قبيحة من حيث أن المال نعمة من الله على عبده فاستعماله في معصية الله كفر للنعمة قبيح قبحاً زائداً، مع أن كل المعاصي هي استعمال لنعمة الله في معصيته وذلك طاعة للشيطان ومؤاخاة له في معصية الله.

وأما إضاعة المال وإتلافه في غير فائدة فلأنه استخفاف بالنعمة وتحقير لها وذلك مطابق لغرض الشيطان؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧] فالشيطان يحب تحقير النعمة وإهانتها، والمتلف للمال في غير فائدة مطابق لغرض الشيطان، فهو مؤاخ للشيطان على كفر نعمة الله، ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ أي كفوراً لنعمة ربه والمبذر أخوه على كفران نعمة ربه، ألا ترى لو أن إنساناً أعطاك ثوباً جيداً لتلبسه فأحرقته، لكان ذلك استخفافاً بالثوب وتحقيراً لَه، وكفراً لإحسان الذي أعطاك، يغضب منه إذا كان حاضراً.

﴿٢٨﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ أي وإن تعرض ﴿عَنْهُمُ﴾ أي عن ذي القربى، والمساكين، وابن السبيل ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ أي لأجل ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ والإعراض عنهم ابتغاء رحمة قسمان:

القسم الأول: إذا كانوا فجاراً، فهو يعرض عنهم تقرباً إلى الله.

القسم الثاني: إذا كنت مشغولاً بصلاة أو قراءة وأنت إذا أعطيتهم تفوت عليك الجماعة أو الدرس أو نحو ذلك ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

أما القسم الأول: فلئلاَّ يكون الإعراض قطيعة ورفقاً بالمسكين وابن السبيل وهذا مع إعطائهم ما يحسن إعطاؤهم إياه أو مع منعهم لعذر، وهذا إذا لم يكن قوله: ﴿تُعْرِضَنَّ﴾ كناية عن ترك إعطائهم، فإن كان كناية عن منعهم للعذر الديني كإيثار من هو أحق فالقول وحده.

والقول الميسور: هو الإعتذار والعدة لحال الفراغ من الشاغل إن أمكن ذلك أو نحوه، ومعنى ابتغاء الرحمة: طلبُها، والتوصل إليها بالإعراض عنهم أو بلازم الإعراض، والميسور: ضد المعسور، فالميسور الذي جعل يسراً للمخاطب وتخفيفاً من عسر حاله.

تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ

وفي (مصابيح الشرفي): «عن الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: والميسور هاهنا: اليسر من القول، وهو القول الحسن اللطيف المقبول» انتهى.

وفي (المصابيح) أيضاً: «قال في (البرهان): إن الله أكد على نبيه في هذه الوصاية بذوي قرباه فقال: إن أعرضت عنهم ابتغاء رزق ونعمة ترجوها من عند الله، فعدهم خيراً ورد عليهم جميلاً» انتهى.

وهذا التفسير قد بين وجهه في (الكشاف) بما يفيد: أنه خلاف الظاهر، وعلى هذا: فلا يصار إليه إلا لقرينة صارفة، وقد فسر في (البرهان) الميسورَ بما ترى، وجعله صفة للقول صحيحٌ، سواء كان مصدراً أم صفة كما تقدم في جعله صفة؛ لأنه إذا كان مصدراً كان معناه قولاً تيسيراً وقولاً يسراً، والمعنى واحد فيهما لأن المراد يسر للمخاطب أو تيسير له.

﴿٢٩﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تبخل تشبيه للبخيل بمن يده مغلولة فهو لا يستطيع أن يمدها بعطاء: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] وكأن ذلك مجاز عن البخل وزيادة ﴿إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ تأكيدٌ وترشيح إن كان الغل اسماً للقيد مطلقاً، فإن كان خاصاً بالقيد إلى العنق فهو ترشيح فقط، وهو الراجح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ لا تعطِ مالك كله، بل ابقِ لنفسك وعيالك ما تحتاجونه، وقوله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ يلومك الناس على إنفاق مالك كله لما يتبع ذلك من الحاجة والإعسار الذي يسبب اللوم، واللوم: ضد الحمد، إلا أنه خاص بخطاب الملوم باللوم، قال في (الصحاح): «اللوم: العذل» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَّحْسُورًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ عند الناس ﴿مَّحْسُورًا﴾ من المال: أي خالياً منه» وفي (مفردات الراغب): «والحاسر: الْمُعيَى، ويقال للمُعيَى: حاسر، ومحسور» انتهى.

فعلى هذا: جعل فاقد المال كفاقد القوة الذي أتعبه المشي، وهذا يناسب تفسير ﴿فَتَقْعُدَ﴾ بأنه مجاز عن ضعف حاله وانقطاع أسبابه الباعثة على القيام والتحرك للعمل والذهاب للحاجات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ هذه الآية تعليل للنهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ كأنه قيل لا تبخل ولا تنفق ما تحتاجه أنت أو عائلتك لأن رزقك ورزق غيرك محدود حده ربك بحكمته، فما كل ما أنفقته يأتيك خلفه فوراً حتى لا يكون رزقك محدوداً مثلاً رزق اليوم المحدود لليوم كله أو الأسبوع أو الشهر إذا أنفقه بقي معدماً في بقية يومه أو أسبوعه أو شهره، فأما الإيثار للمضطر مع تحمله وتحمل عائلته أي أنهم غير مضطرين فليس من هذا إذا كان لا يظن اضطرارهم في المستقبل بالنظر إلى العادة.

وقوله: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي يكثره ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يقلل قال تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق:٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ تعليل للبسط والتقدير، فالمؤمن قد تكون مصلحته في البسط؛ لأنه يشكر النعمة ويفعل الخير ويقوم بواجب المال، وقد تكون مصلحته في التقدير لرزقه لينال ثواب الصبر على الإقلال ويفرغ لعبادة ربه وذكره؛ ولذلك أكرم الله نبيئه ص بالإقلال.

خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى

وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ أي عليم بخُبرهم ومستور أمرهم، وقوله تعالى: ﴿بَصِيرًا﴾ أي بصيراً بتدبير أمورهم في بسط الرزق أو تقديره وفي غير ذلك من الصحة والسقم وغيرهما، وكذا في ابتلائهم بأنواع الإبتلاء، ومنها التكاليف العقلية والشرعية.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ ﴿أَوْلَٰدَكُمْ﴾ يعم الذكور والإناث، وكان أهل الجاهلية يقتل بعضهم بنتَه بدفنها وهي حية، ويحكى عن بعض النساء: أنها زنت فولدت فقتل المولود، ولعل ذلك من خوف الفضيحة والنفقة عليه.

وقوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ يَذْكُرُ باعثاً على قتلهم ليبطله وهو خشية الإملاق، والخشية: خوف، والإملاق: الإقلال والفقر، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: فقر وفاقة)).

وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ لدفع الخوف على الولد من أن يملق، وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ لدفع الخوف من أن يملق الوالد فتثقل عليه كلفة الولد والإضطرار إلى الإنفاق عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والخطأ: العدول عن الصواب بعمد)) انتهى، ومثله في (مفردات الراغب).

وقال في (الصحاح): ((الخطأ: نقيض الصواب ـ ثم قال ـ : والخِطْأُ: الذنب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ أي إثماً)) انتهى.

وفي (لسان العرب): «وخَطِئَ الرجل يَخْطَأ خِطْأً وخِطْأة على فِعْلةٍ، إذا أذنب» انتهى، وهذا هو الراجح في الآية لوصفه فيها بالكِبَر، ولو كان مفهومه العدول عن الصواب لكان من شأنه أن يوصف بالبُعد ـ والله أعلم.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ النهي عن قرب الزنا نهي عن مقدماته المؤدية إليه من الخلوة والتقبيل ونحو ذلك ومنها النظر لشهوة إذا أدى إليه.

وفي (الجامع الصغير): عن النبي ص: «العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرِّجْلان تزنيان، والفَرج يزني» أفاد أنه أخرجه أحمد في (مسنده) والطبراني في (الكبير) كلاهما عن ابن مسعود، وقال: «صحيح».

قلت: هو موافق للآية، ولا ينافي إرادة النهي عن الزنا لأن الكناية يراد فيها المعنى المجازي والحقيقي معاً وهو الفارق بين الكناية والمجاز.

قال في (شرح التلخيص) للبرقوقي [ص٣٣٨]: «قال الشيخ الإمام [لعله يعني السكاكي يعني معنى الكناية في مصطلح النظار من علماء البيان] أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومي به إليه ويجعله دليلاً عليه» انتهى.

فأما من قال في تفسير الكناية: لفظ أريد به لازمُ معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ فهو قول ضعيف؛ لأنه لا ينطق بالجواز ولا بد في النطق من أحد الجائزين، والأصل: إرادة المعنى الحقيقي مع عدم القرينة الصارفة عنه، فإن أراد اللازم والملزوم فهي الكناية بالإتفاق، وإن أراد اللازم وحده فهو المجاز الذي علاقته الملازمة، ولا فائدة لإخراجه من حقيقة المجاز بقولهم مع قرينةِ عدمِ إرادته.

وقد مثلوا للكناية بقول امرئ القيس:

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فكيف جاز أن امرأ القيس ما أراد إثبات الصفات الثلاث ليدل على ترفها إنما أراد إنها مترفة، فظهر أن المراد في الكناية هو اللازم والملزوم، وإنما الملزوم هو السبب في الكلام والمراد الأصلي وذِكرُ اللازم تبعٌ له، هذا ولا إشكال أنه لا قرينة في الآية صارفة عن إرادة المعنى الحقيقي بل إرادته أبلغ في النهي عن الزنا، أما إرادة النهي عن الزنا فلا تدل على أن النهي عن المقدمات غير مراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً﴾ أي فعلة قبيحة عظيمة القبح، وقوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ قَبُح الزنا سبيلاً أي بئس الطريق لقضاء الشهوة الزنا؛ لأن قضاء الشهوة بالزواج يغني عن الزنا الذي هو الفاحشة، ومن القبيح استبدال الحرام بالحلال، فإذا لم يكن مراد الزاني اتخاذ الزنا سبيلاً وعادة فعليه أن يصبر وينتظر الحلال؛ لأن الزنا مرة مثلاً لا يكفيه لأن يقضي شهوته وإنما يقع في الفاحشة ثم تعاوده الشهوة فهو إما أن يتخذ الزنا سبيلاً وإما أن يتزوج، والحرام فيه مفاسد مع كونه سبباً للنار ووجوب الحد على فاعله، منها: الإفتضاح إذا اطلع الناس على الزاني وقد يُقتَل، ومنها: انتشار بعض الأسقام بسبب الزنا، ومنها: إتلاف المال في أجور البغايا إتلافاً متكرراً، بخلاف غرامة الزواج فهي مرة واحدة.

وفي (مصابيح الشرفي): «قال الإمام أحمد بن يحيى × ـ يعني: الناصر بن الهادي ـ يعني سوء السبيل: إلى النار، وقد روي عن رسول الله ص أنه قال: «في الزنا ست خصال: ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة.

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى

أما اللواتي في الدنيا: فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، ويقطع العمر، وأما اللواتي في الآخرة: فيوجب سخط الرحمن، وسوء الحساب، والخلود في النار » انتهى، وهذا الحديث بإسناده في (أمالي أبي طالب ×) في (باب التحذير من الزنا).

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي جعلها حراماً ليس لأحد أن يستحلها ولا يقتلها، وقوله تعالى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي قتلها بالحق كالقصاص.

قال الشرفي في (المصابيح): «يعني إلا من قَتَل بحق في جميع الأسباب التي يحل بها القتل من بين قودٍ أوحدٍّ من حدود الله عز وجل مما ـ كذا ـ أوجب الله عز وجل قتله ممن عاند المسلمين من المشركين وغيرهم من الباغين والظالمين والمرتدين وأهل الكتابَين، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ذكره أحمد بن يحيى × » انتهى.

يعني بأحمد بن يحيى: الناصر بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (عليهما السلام)، وقد ذكر الهادي × في (الأحكام) الأسبابَ التي يجوز بها قتل صاحبها عشرة أسباب، ومحله أوائل (كتاب الديات).

وقوله تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي مظلوماً بقتله ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ﴾ وليُّه هو وارثه بالقوة ولو لم يرث بالفعل لاستغراق الدين للتركة، وقوله تعالى: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ أي أحللنا لَه قتل القاتل وسلطناه عليه بالحجة.

هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٤﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِ﴾ أي لا يسرف وليُّ الدم في القتل أخذاً بالثأر كما تفعل الجاهلية، فلا يقتل غير القاتل لا زيادة مع القاتل ولا بدلاً من القاتل، فكل ذلك إسراف في القتل؛ لأنه كله تجاوز للحق إلى الباطل، ومن الإسراف القتل بطريقة تعذيب بشرطين:

الأول: أن لا يكون المقتول ظلماً قتل بطريقة تعذيب.

الثاني: أن يمكن القصاص بغير تعذيب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا﴾ الراجح: أن الضمير لـ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ فهو منصور على القاتل ظلماً فولي الدم قوي جريء، والقاتل ضعيف مرعوب لا ينافي ذلك أن القاتل قد يكون لَه من الظالمين من يحميه، أو يقال: إن ولي الدم منصور في الدنيا أو في الآخرة، أو هذه الحالة مخصوصة بالعقل أي بالمشاهدة والتجربة المفيدة لعلم السامع للعموم أنها غير مرادة فيه.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا﴾ ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ كناية عن النهي عن أخذ مال اليتيم، والإستثناء راجع إلى المعنى لقوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ لمعناه الحقيقي؛ لأنه يعم قربه لأخذه لنفس الآخذ، وقربه لمصلحة اليتيم أو للواجب في ماله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي بالإصلاح لأمر اليتيم أو إصلاح ماله أو تسليم الواجب فيه، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى يبلغ مبالغ الرجال رشده، وهذه الغاية ترجع إلى قوله تعالى: ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ حيث أفادت تولي مال اليتيم لمصحلته وللواجب فيه، فالولاية على مال اليتيم تنتهي ببلوغه أَشُدَّه.

وقوله تعالى ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ﴾ يعم العهد الذي لله كبيعة إمام الحق والعهد بين الناس كعهد الصُّلح، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ ظاهره أن العهد يطلب من صاحبه؛ لأن (سَأَلَ) المتعدي إلى مفعولين معناه المطالبة بالشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء:١٥٣] ومنه الحديث: ((سلوا الله السداد)) ولذا فسرها في (الكشاف) بما لفظه: ((أي مطلوباً يطلب من المعاهِد أن لا يضيعه ويفي به، ويجوز أن يكون تخييلاً كأنه يقال للعهد: لم نكثت وهلاَّ وُفِي بك تبكيتا للناكث، كما يقال للموءودة: ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير:٩] ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسؤولاً)) انتهى.

ومعنى الوجه الأول: ﴿مَسْئُولاً﴾ في الدنيا، ومعنى الوجه الثاني، والثالث: ﴿مَسْئُولاً﴾ في الآخرة، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): وقوله تعالى: ((﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ معناه: مطلوب)) انتهى.

والراجح في تفسير هذه الآية ـ والله أعلم ـ : ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ يسأله الناس بعضهم من بعض كعهد البيعة وعهد الصلح وعهد الوصي؛ ولكون المجتمع يحتاج إلى العهد، فمن الواجب الوفاء به لئلاَّ تبطل فائدته ويؤدي شيوع نكثه إلى عدم الثقة به وبالتالي ترك التعامل بالعهد وفوات وثيقةٍ نافعة للناس يحتاجون إليها ما دامت وثيقةً يوثق بها للسلم والأمن وغيرهما من الفوائد.

وعلى هذا: فالمعنى: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ يسأله بعضكم من بعض وتحتاجون إليه في أمور كثيرة ولأغراض مهمة، ومن ذلك حاجة من خاف الموت وله ولد صغير يخشى عليه الضياع فإنه يوصي به وقد يطلب من الوصي العهد أنه لا يهمله ويتركه للضياع، ولعل هذا هو سبب عطف الأمر بالوفاء بالعهد على النهي عن قرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ـ والله أعلم.

وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا

﴿٣٥﴾ ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ هذا تحذير من الغش في الكيل والغش في الوزن.

قال الشرفي في (المصابيح): «واعلم أن التفاوت الحاصل بسبب نقصان الكيل والوزن قليل والوعيد الحاصل عليه شديد عظيم، فوجب على العاقل الإحتراز منه، وإنما عظم الوعيد عليه لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء، وقد يكون الإنسان غافلاً لا يهتدي إلى حفظ ماله فالشارع بَالَغَ في المنع من التطفيف والنقصان سعياً في إيفاء الأموال على الملاك ومنعاً من تلطخ النفس بسرقة ذلك المقدار الحقير، والقسطاس في معنى الميزان [أي آلة الوزن المعهود] إلا أنه في العرف أكبر منه؛ ولهذا اشتهر في ألسنة العامة أنه القبّان وهو مأخوذ من القسط وهو الذي يحصل فيه الإستقامة والإعتدال..» إلخ، وقال الراغب في (المفردات): «والقسطاس: الميزان» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «القِسطاس والقُسطاس أعدل الموازين وأقومها، ثم قال: والقِسطاس هو ميزان العدل أيّ ميزان كان من موازين الدراهم وغيرها وقول عدي:

في حديد القسطاس يرقبني الحا رسُ والمرؤ كلَّ شيء يلاقي

قال الليث: أراه حديد القبّان» انتهى.

فظهر: أن القسطاس: الميزان الصحيح، والمستقيم: غير المائل.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ إشارة إلى إيفاء الكيل والوزن بالعدل خير من التطفيف وإن ظن الجاهل أن التطفيف خير؛ لأن الحلال مبارك والحرام ممحوق؛ ولأن السلامة من ذنب التطفيف وعاره أفضل مما يأخذ المطفف؛ ولأن الأمانة تجلب الرزق والخيانة تجلب الفقر كما جاء في الحديث وكما هو مجرب، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أحسن إعداداً للمآل وللرجوع إلى الله تعالى.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً﴾ ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا تتبع ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أنه حق وصواب، وهو يدل على تحريم العمل بما لم يثبت عن الله ورسوله، فكيف يجوز العمل بأخبار الآحاد في العمليات الفرعية؟

والجواب: أنه إذا ثبت الدليل العملي على وجوب العمل بالخبر الآحادي في ذلك فقد صار مما للعامل به علم متى تكاملت شروطه.

فأما المعلوم من كتاب الله وسنة رسوله فيعمل بظاهره لوجوب اتباعه، بدليل قول الله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٣] ولأنه طريقة فهم في لغة العرب، فأما الإستدلال على وجوب العمل بالظن على الإطلاق في الظنيات بالدليل العقلي، وهو أن من ظن طعاماً مسموماً فأكله استحق الذم، وذلك دليل على أنه قد وجب عليه العمل بذلك الظن؛

فالجواب: أنه قياس غير صحيح؛ لأن هذه الآية وغيرها تدل على أن لا ضرر عليه بترك اتباع الظن وليس كذلك الطعام المذكور، فالقياس فاسد بوجود الفارق، وليس المراد ترك ما ثبت اتباعه شرعاً إنما المراد أن الظن ليس دليلاً شرعياً.

إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكۡرُوهٗا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا

فأما ما ثبت شرعاً وجوبُ العمل به مع أنه لا يفيد إلا الظن فيعمل به لدليل العمل به لا لأن الظن دليل، وذلك كتقويم جزاء الصيد وكالقِبلة مع تعذر اليقين بدليل قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:١٤٤] وقِسْ على هذا سائرَ ما ثبت العمل به، وعلى هذا فالعمل بخبر فاسق التأويل وكافره يحتاج إلى دليل غير مجرد إفادته للظن ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ الفؤاد: القلب أو باطن القلب، والمراد آلة العلم، والسؤال عن هذه الثلاثة إذا أهملها العبد من حيث أنها حجة عليه، ويدخل السؤال عنها إذا استعملها في معصية الله وكفر نعمة الله بها عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ قال في (الصحاح): «المرح: شدة الفرح والنشاط» انتهى المراد، وفي (لسان العرب): «المرح: شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره، ثم قال: وقيل المرح التبختر والإختيال، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبختراً مختالاً، وقيل: المرح الأشر والبطر، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر:٧٥]» انتهى المراد.

قال الشرفي في (المصابيح): «والمراد من الآية: النهي عن أن يمشي الإنسان مشياً يدل على الكبر والعظمة» انتهى.

والذي يتحصل عندي: أنه نهي عن أن يمشي في الأرض مَشيَ معجبٍ بنفسه متكبر، يحركه الفرح بنفسه والنشاط لإعجابه بكماله الموهوم.

تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي بضرب الأرض بقدميك لأنك ضعيف، وقوله تعالى: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ لأنك صغير، وهذه تذكير له بحقيقة نفسه ليمشي على الأرض هوناً.

﴿٣٨﴾ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ الذي نهى الله عنه في الآيات الماضية في هذه السورة من قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أو ما بعد قوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ ﴿فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ ﴿وَلاَ تُبَذِّرْ﴾ ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾.. إلى آخر الآيات.

وقوله تعالى على قراءةٍ ﴿سيئةً﴾ أي سيئة مكروهاً عند ربك، وإذا كان عنده سبحانه سيئة مكروها فهو سيئة حقاً حقاً؛ لأن الله أحكم الحاكمين وهو العالم بكل شيء ولا يكره إلا الباطل والفساد.

وعلى قراءة ﴿سَيِّئُهُۥ﴾ فهو مكروه عند الله والإشارة إلى المذكور في الآيات الماضيات إما بمعنى السيء منه لإخراج ما ذكر وليس نهياً، مثل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ وإما إضافة الصفة إلى الموصوف أي المذكور السيء كان عند ربك مكروهاً.

﴿٣٩﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ الحكمة التي تفيد مصحلة الفرد والمجتمع وسداد الرأي وحسن التدبير والإنسانية الكاملة، وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ﴾ الإشارة إلى الآيات الماضية في السورة.

ويحتمل: أنه من قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّـهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أو من قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أو من أول السورة، وأعاد قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ليرتب عليه الوعيد بعذاب الآخرة؛ لأنه في المرة الأولى رتب عليه سوء الحالة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿مَلُومًا﴾ مرَّ تفسير الملوم، وأما المدحور، فقال الشرفي في (المصابيح): «أي مطروداً من رحمة الله» انتهى.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ﴾؟ سؤال إنكار على المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى (أصفاكم) خصكم بالجيد وترك لنفسه من هو عندكم ولد مكروه بزعمكم، ينكر عليهم قولهم الشنيع المشتمل على باطل جعل الملائكة إناثاً رجماً بالغيب وباطل تشبيه الخالق بالمخلوق في عدم الغنى عن الولد وباطل نسبة الغلط في الإختيار لنفسه على رأي الكفار حيث اختار لنفسه الولد الدون عندهم فلزمهم أنهم جعلوه مخطئاً للصواب.

وفي هذه الآية وأمثالها دلالة على الإلزام وإثبات الحكم باللازم، وقد منع بعض الناس التكفير باللازم، وهذه الآية ترد عليهم من حيث دلت على إثمهم؛ لأنها لا تنسب إلى المخاطبين أنهم جعلوا الله والداً للملائكة وإنما عندهم أنه تبناهم بخلاف قول بعض النصارى في عيسى × .

ويدل على أن المخاطبين في هذه الآية لا ينفون أن الملائكة مخلوقون قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف:١٩] فلو كانوا يزعمون أنهم مولودون له لما ذكر خلقهم، وأنهم لم يشهدوه، ويقال: إنها وإن أثبتت الحكم هنا باللازم، فلم تثبت الكفر به لكن ترد على من لا يؤثم باللازم، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ أي شديدَ القبح إثماً كبيراً لما فيه من الإفتراء على الله والجهالات.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ حولناه في التذكير من نوع إلى نوع مثلاً من إنذار إلى بيان الدلائل، ومن إنذار تعجيل العذاب إلى إنذار عذاب النار، ومن الترهيب إلى الترغيب في الإيمان وذكر نعيم الجنة، ومن ذلك إلى ذكر أن الإيمان والتقوى سبب للخير والبركات في الدنيا، ومن ذلك إلى ذكر فساد عقائد الجاهلية.

وقوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي ليعرفوا الحق ويتبعوه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما يزيدهم التصريف المذكور إلا نفوراً وكراهة للحق وابتعاداً منه.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال × ـ يعني الناصر بن الهادي إ ـ ولقد بيَّنا لهم من كل شيء فيه منفعة وهدى ولهم فيه نجاة ورحمة فأعلمناهم بما كان قبلهم وما هو كائن بعدهم فأبوا» انتهى.

﴿٤٢﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿قُل﴾ يا رسول الله للمشركين في مكة وحولها ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ أي لو كان مع الله تعالى ﴿ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي آلهة من دون الله يقربونكم إلى الله وشفعاءكم عند الله والله مالك لهم ولما ملكوا كما تقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريكٌ هو لك تملكُه وما ملك ﴿إِذًا﴾ أعادة للشرط للتأكيد ﴿لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إلى مالك الملك الذي بيده ملكوت كل شيء لابتغوا أي لطلبوا إليه ﴿سَبِيلًا﴾ للتقرب إليه وحده وطلب رحمته ورضوانه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧] لأنهم عباد له مملوكون لله تعالى وحده، فكيف تأبون أيها المشركون أن تعبدوا الله وحده؟

سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ

هذا الراجح في معناها، لأنهم لا يدَّعون آلهة قدماء قادرين قدرة ذاتية حتى يحتج عليهم بدليل التمانع، مع أن قوله تعالى: ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ نظير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل:١٩] ومعناه: سبيلاً للتقرب منه وطلب رحمته ورضوانه، ولو كان المراد ابتغاء المقاومة والمغالبة لكان التعبير: لابتغوا على ذي العرش سبيلاً، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء:٣٤] والله أعلم.

مع أنه ـ جلَّ جلاله ـ كان يأمرهم بعبادته كسائر عباده فإن أبوا عذبهم؛ لأنه قادر على ذلك وخوفهم من عذابه، فكان يبعثهم على عبادته والتقرب إليه كما تفيده الآية، وكما يفيده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام:١٨] فلو كانوا آلهة لكان هو الأعلى عليهم، وبالله التوفيق.

﴿٤٣﴾ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له تعالى وتبعيداً عما يقولون ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ ترفع عن أن يجعل لنفسه شريكاً أو يتخذ ولداً؛ لأنه عزيز حكيم، وليس من الحكمة أن يجعل لنفسه شريكاً من عباده في عباده؛ ولأنه غني عن اتخاذ الولد؛ ولأنه العلي العظيم الذي ليس له ند، وكيف يكون لرب العالمين ندٌّ من عباده؟

﴿٤٤﴾ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ تسبيح له بلسان الحال بدلالتها على

وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا

عظمته وجلاله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وغناه عن كل شيء، فهي تنزهه تعالى وتبعده عن كل نقص وعن أن يكون لَه ندّ بدلالتها العقلية، فلو نظر الجاهلون المشركون في خلق السموات والأرض ومن فيهن وتفكروا بعقولهم لعلموا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ لأن المخلوقات كلها من الجبال والشجر والدواب التي لا تعقل وغيرها تدل على ذلك، وقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي تسبيحاً مصحوباً بحمده والثناء عليه لإنعامه الواسع المستمر على عباده بما سخر لهم في السموات والأرض وأسبغ عليهم نعمه، فالنعم كلها تسبِّح بحمده، بمعنى: تدُلُّ على ذلك دلالة بمنزلة النطق بالتسبيح والتحميد، هذا هو الراجح في معنى هذه الآية لتكون احتجاجاً على المشركين ودليلاً على أنهم يقولون قولاً عظيماً لأنكم لا تنظرون في الآيات الدالة على الله المسبحة بحمده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ولذلك لم يعاجل المشركين بالعقوبة على إعراضهم عن التفكر في آياته وإصرارهم على الجهل المذموم وزادهم الإحتجاج بالقرآن الحكيم وإرسال النذير المبين.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾ يا رسول الله ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ ليهتدوا به أعرضوا عنه وكرهوا سماعه لإصرارهم على التكذيب بآيات الله وتمردهم لعدم إيمانهم بالآخرة فهم لا يخافون العقاب ولا يرجون بالإيمان والإستماع للقرآن الثواب فأصروا واستكبروا، ولذلك خذلناهم فجعلنا بخذلانهم ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ وهو

عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴿٤٦﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرۡ

كراهتهم أن يروك وإعراضهم عنك حتى كأن كراهتهم لرؤيتك في تلك الحالة حجاب بينك وبينهم، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود:٢٠] وكقولهم: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥] وهذا من المتشابه.

والمعنى: أنهم عاندوا الحق فاستحقوا الخذلان وإرسال الشياطين عليهم حتى تزين لهم الباطل وكرهوا الحق، ووجه إسناد الحجاب إلى الله تعالى كالوجه في إسناد الختم على قلوبهم وقد مرَّ.

﴿٤٦﴾ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ ﴿أَكِنَّةً﴾ أغطية تمنعها من فهم معنى القرآن، وهذا تمثيل لأن الله أنزل القرآن بلسانهم ليفهموه ولكن هؤلاء الكفار المعاندون كارهون له معرضون عن فهمه وعن استماعه ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي صمماً؛ لأنهم يكرهون سماعه فكأنهم صم ولو كانوا صماً حقيقة ما احتاجت قلوبهم إلى أكنة، وقد حقق هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ نَفَروا من توحيد الله وتعظيمه دون شركائهم ولَّوا عن النبي ص حين ذَكَر الله وحده انصرفوا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ يفيد: أنهم نكصوا على أعقابهم، أي رجعوا القهقرى ـ والله أعلم. و﴿نُفُورًا﴾ مصدر مفعولٌ من أجله أو مفعولٌ مطلق أي قائم مقام المفعول المطلق، أي نفروا من سماعك نفوراً فراراً من سماعك وانزعاجاً من ذكر ربك.

كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً

﴿٤٧﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ﴿يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ من كراهتهم للحق وعداوتهم لَه فإذا استمعوا إلى الرسول ص استمعوا بذلك ليتطلبوا في القرآن شيئاً يعيبونه به مثلاً ولم يستمعوا ليعرفوا الحق ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ في حال استماعهم في حال اجتماعهم ﴿إِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ يتناجون أي يتساررون يخفون كلامهم، فهم في استماعهم عند المناجاة بينهم يستمعون برغبة وإصغاء وتطلب لما يعجبهم من الخوض في آيات الله والتكذيب بها.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي إذ يقولون لأنهم ظالمون ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون ﴿إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ يعنون محمداً ص يريدون النهي عن اتباعه والقدح فيه بضعف الذهن، فالمعنى إن اتبعتموه فما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً تغير ذهنه فلا يصيب في كلامه، وكذبوا بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿٤٨﴾ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد كيف قالوا فيك الأقوال الباطلة ليشيعوها دفعاً للحق ﴿فَضَلُّواْ﴾ بسبب جدالهم بالباطل لإبطال الحق ضلوا عن سواء السبيل ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ تحصيل سبيل حق بل لا يزالون في تيه واضطراب لعمى بصائرهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

﴿أَءِذَا﴾ سؤال إنكار، وقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ أرادوا إذ بليت أجسادنا في التراب حتى لم يبقَ إلا عظام ورفات أي وفتات عظام بالية قد

أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ

حطَّمها البِلى أنا حينئذ وبعد مصيرنا عظاماً ورفاتاً مبعوثون مخرجون أحياء بعد تلك الحالة ﴿خَلۡقًا﴾ مخلوقين خلقاً ﴿جَدِيدًا﴾ بعد البِلى إنكاراً منهم للبعث وتكذيباً للرسول، وكأنهم اتخذوا ذلك القول حجة لتكذيب الرسول فيه وفي الرسالة جملة.

﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا﴾ ردّ على قولهم: ﴿إذا كنا﴾ أي لو كنتم حجارة أو حديداً لبعثكم الله خلقاً جديداً.

﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ ﴿أَوۡ خَلۡقًا﴾ أو كونوا خلقاً ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ وتستعظمونه كالجبال الشامخات فكذلك لو كنتم جبالاً أو نحوها لأعادكم خلقاً جديداً، فقوله تعالى: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ يذكر الجنس الذي يستبعد إحياؤه بالنظر إليه من غير نظر إلى صغره أو كبره.

وقوله تعالى: ﴿أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ يذكر ما يُستبعَد إحياؤه لضخامته، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡ﴾ يشير إلى صغر الإنسان، وإنه لصغره يستعظم من الخلق ما هو صغير في قدرة الله وإذا كان صغيراً، فلا يستبعد أن يعيده من هو قادر على إعادته ولو كان جبلاً.

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ استبعاداً للإعادة، كقوله: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أي أنشأكم أول مرة

بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا

فقد علمتم النشأة الأولى ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ قال الراغب في (المفردات): ((الإنغاض: تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: يحركونها استهزاءً منهم)) انتهى. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ استمراراً منهم في الجدال أي إن كنت تعلم أنه سيكون فأخبرنا متى هو ؟ وليس بينهما تلازم لأنه يمكن أن يُعلمه الله أن البعث سيكون ولا يُعلِمه متى هو؛ ولكون هذا الجواب واضحاً لأن الرسول ص لا يدعي أنه يعلم الغيب إنما يدعي أن الله أرسله نذيراً وأوحى إليه القرآن، فهو يبلغ ما أرسل به أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وسؤالهم هذا تكرر ذكره في القرآن الحكيم وذكر في كل موضع له جواب مفيد، وفي (سورة الملك): ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [آية:٢٦] ولعله أول جواب.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾

﴿يَدْعُوكُمْ﴾ لحضور موقف السؤال والحساب وذلك حين تكون الصيحة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ولا مانع من أن الصيحة دعوة وإن كانت الإجابة اضطرارية، ومثل هذه الآية في إثبات الدعوة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ فيحتمل أن المراد أن لله الحمد على بعثهم فلا يكون المراد حامدين لَه، يؤكد هذه قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ سواء حمل على الحقيقة أم على المجاز، والإحتمال الثاني: حامدين لله ذلةً وخضوعاً.

﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي في بطن الأرض أو فيه وفي الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٣].

﴿٥٣﴾ ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ ﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الكلمة أو الفعلة التي هي أحسن، يحتمل: أنه أمرٌ للعباد الصالحين أن يقولوا التي هي أحسن في دعوة الناس إلى الله وفي جدال المخالفين ومحاورتهم ترغيباً لهم في الإجابة إلى الحق ودفعاً لنزغ الشيطان وإثارته للتعصب المؤدي إلى استمرار المخالفين على الخلاف وتشددهم فيه.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ * ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩٥-٩٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى ﴿..وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٣-٣٤] ويحتمل: أنها عامة للصالحين الدعاة إلى الله وغيرهم إلا أن الدعاة إلى الله داخلون فيها دخولاً أوّلياً ليكون الناس أقرب إلى إجابتهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ اسم تفضيل يقتضي أنه لا يكفي الكلمة الحسنة التي ليست أحسن من غيرها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ تعليل لإيجاب الكلمة التي هي أحسن، أي لدفع نزغات الشيطان.

بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناه: يُفسِد ويُهيج» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «النزغ دخول في أمر لإفساده» انتهى المراد، وفي (لسان العرب): «ونزغ بينهم ينزَغ ويَنْزِغُ نَزْغاً أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي عداوة الشيطان للإنسان قديمة فهو منذ عصى ربه ما زال عدواً للإنسان ﴿مُّبِينًا﴾ أي بَيِّنَ العداوة كيف لا يكون بين العداوة، وهو إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، وقد أضل من الناس أمماً كثيرة، فعلى عباد الله أن يحذروه بأن يلزموا الكلمة التي هي أحسن ليدفعوا نزغاته وعليهم أن يحذروا نزغاته.

﴿٥٤﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعلم المتقي والمطيع للشيطان وهو القادر على جزاء المتقي والعاصي لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، فعليكم أن تتقوه وتحذروا غرور الشيطان ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ يا محمد إلا نذيراً لم نرسلك ﴿وَكِيلًا﴾ عليهم تتولى عقابهم وثوابهم أو تضطرهم إلى الطاعة.

﴿٥٥﴾ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلهم فهو أعلم بالأخيار ومن دونهم وبالملائكة وعبادتهم وبالأشرار على اختلافهم في الفجور وهو أعلم بمن هو أهل للتفضيل ومن يشكر النعم ولذلك فضلناك يا محمد وخصصناك بالرسالة لعلمنا بك.

ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ لعلمنا المحيط بكل صفاتهم وأسرارهم ومستقبلهم ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ كتاباً عظيماً لعلمنا به أنه يتلوه حق تلاوته وينتفع به وينفع ويشكر النعمة عليه به وبالنبوءة.

﴿٥٦﴾ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ ﴿قُلِ﴾ للمشركين ﴿ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ﴾ زعموهم من دون الله، أي زعمتموه آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ إجابة دعائكم ولو دعوتموهم لكشف الضر ما استطاعوا كشفه ولا تحويله، أي صرفه من أحد إلى غيره، فلا خير لكم في دعائكم وقد جربتم أنهم لا ينفعون ولا يضرون.

فالمعنى: قل ادعوا الذين زعمتم إن كانوا يملكون كشف الضر عنكم أو أي تحويل أو جرِّبوا دعاءهم إن شككتم في أنهم لا ينفعون ولا يكشفون الضر، أو هو تهديد مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] وهو خطاب لمن يزعم الملائكة آلهة، ومن يزعم عيسى ونحوه آلهة.

﴿٥٧﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الملائكة وعيسى ونحوه ﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الله ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون الوسيلة إلى ربهم أي ما يقربهم منه ويوصلهم إلى رحمته ورضوانه ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ يتسابقون في التقرب إلى الله، وكل يسعى لأن يكون أقرب من غيره بالعمل الأفضل والنية والتعبد لله، فقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ كما لو قيل يتسابقون أيهم أسبق أي كل واحد يريد أن يكون أسبق ـ والله أعلم.

قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ رد على المشركين لأن رجاءهم وخوفهم دليل على ضعفهم وأنهم لا يملكون لأنفسهم أن يرحمهم أو أن ينجوا من عذابه كما يتوهم المشركون أنهم شفعاؤهم عند الله، وأن لهم مكانة عند الله تخولهم أن يشفعوا لمن شاؤوا ويقربوا من الله زلفى من شاؤوا، فهم لا يدّعون لأنفسهم ذلك بل هم مقرّون بأنهم عباد لله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي إنه عذاب شديد يحذره الملائكة وغيرهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ ﴿قَرْيَةٍ﴾ كناية عن أهلها ﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لأنها تظلم فيهلكها كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩] وقوله تعالى: ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي دون الإهلاك العام ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا﴾ مقدراً مكتوباً أو هو في علمه تعالى.

﴿٥٩﴾ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

قيل: اقترحوا أن يأتي رسول الله ص بآيات كما كان للأولين من الآيات العظيمة ويأتي في السورة: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا..﴾ الآيتين.

جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ

فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ﴾ أي نرسل محمداً بالآيات أي التي اقترحوها ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ فكان تكذيب الأولين بها كافياً في الدلالة على أنها لا تفيد هؤلاء المتعنتين، وإنما تكون سبباً لهلاكهم كما أهلكنا مَن قبلهم؛ لأن هؤلاء مثل أولئك ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٦] وما كانت الحكمة تقتضي هلاك هؤلاء هلاكاً عاماً مثل هلاك أولئك.

قال الشرفي في (المصابيح): «وعن علي × : أمهلوا لعلم الله سبحانه أن فيهم من يؤمن أو يلد مؤمناً» انتهى.

قلت: هذا قريب، لأن الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس:٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي آية مبصرة أي منيرة بينة ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي كذبوا بها مع أنها آية عظيمة، وهذا مثال للآيات التي كذب بها الأولون ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ إما من العذاب العاجل فالمراد الآيات التي من مثل الناقة، وإما تخويفاً أي إنذاراً من العذاب في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فالمعنى: وما نرسل بالآيات إلا إنذاراً لا تلاعباً بإجابة لاقتراحات المتعنتين، فالمعنى راجع إلى أن إرسال الرسل بالآيات ليس إلا لاقتضاء الحكمة لذلك.

وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ واذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ يارسول الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ فهم في قبضته وهو ناصرك عليهم ومظهر دينه ومجازيهم بأعمالهم، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ * وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج:١٩-٢٠] فإذا أحاط بالناس فانتظر منه أن ينصرك عليهم، وهذا فيما يترجح عندي، كقوله تعالى في الغنائم: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح:٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ الرؤيا: مفسَّرة بأنها رؤياه فتح مكة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ..﴾ الآية [الفتح:٢٧] فكانت فتنة للناس وعلى هذا: فالرؤيا كانت في المدينة مثلاً، والآية هذه (مدنية) وإن كانت السورة (مكية).

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن الهادي × ، أنه قال: ومعنى ﴿أَرَيْنَاكَ﴾ فهو التي أخبرناك بها وأعلمناك فهو[ما] وعده من فتح مكة» انتهى المراد.

ومعنى الفتنة: أن الرؤيا تقدمت قبل الفتح بمدة طالت على بعض من سمع الخبر بها وانتظر الفتح فتأخر حتى كانت فتنة للذين في إيمانهم ضعف وشك بعضُ الناس في صدقها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ أي جعلناها فتنة للناس؛ لأنها إن كانت شجرة الزقوم، فالفتنة بالنسبة إلى من لم يؤمن؛ لأنها ﴿شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ فمن لم يؤمن استبعد أن تكون شجرة تنبت في جهنم؛ لأن النار تحرق الشجر في العادة فضلاً عن أن تنبت فيها، والمؤمن يعلم أن الله على كل شيء قدير وإن كانت الشجرة الملعونة في القرآن بنوا أمية فالفتنة في تمكينهم من أخذ الملك وجعل المال بأيدهم فافتتن بهم من يميل إلى الدنيا.

والقول: بأن الشجرة الملعونة في القرآن هي (بنوا أمية) حكاه الشرفي في [المصابيح] عن الهادي × وعن ابنه الناصر × ، أما القول: بأن الشجرة الملعونة في القرآن هي (شجرة الزقوم) فهو في (تفسير غريب القرآن) للإمام زيد بن علي إ .

وحكى الشرفي في (المصابيح): «عن الناصر بن الهادي ﷺ أنه قال: وقد اختلف الناس في الرؤيا وقالوا فيها بأقاويل، غير أن إجماعنا وإجماعهم في الرواية على أنه × رأى رجالاً من قريش ترقا منبره يتداولونه بالظلم كما يتداول الصبيان الكرَة، وهذا الخبر فقد رواه الجميع إلى قوله.. والشجرة الملعونة في القرآن فهم بنوا أمية لعنهم الله تعالى» انتهى.

وعلى هذا: تكون الشجرة مجازاً ولعنهم في القرآن لعن الظالمين وطردهم من رحمته كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [يس:٨-١٠] أما على القول إن الشجرة الملعونة هي الزقوم فإسناد اللعن اليها مجاز وهو لمن يأكلها، ونظيره ﴿فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] والراضي صاحبها.

ففي كلا التفسيرين الحمل على المجاز لكن التجوز في إسناد اللعن الى الشجرة والمراد به صاحبها بعيد لانفصاله عنها بخلاف إسناد الرضى إلى العيشة؛ لأنها صفة لصاحبها والمجاز المرسل إنما يكون بين متلازمين، وقد يقال: شجرة الزقوم وآكلها متلازمان عند أكله لها ومصيرها في بطنه، فإسناد اللعنة على اعتبار حال أكله لها صحيح.

وهناك إشكال آخر وهو أن الذي في الآية الكريمة هو أن الله تعالى جعل الشجرة الملعونة فتنة للناس ولم يخص الظالمين، وشجرة الزقوم فتنة للظالمين فقط، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات:٦٣] أي عذاباً لهم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ..﴾ [الذاريات:١٣-١٤] وعموم الفتنة في ذكر شجرة الزقوم في القرآن هو أمر آخر غير الذي في الآية؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ ولم يقل: وذكر الشجرة فهذا يضعّف تفسير الشجرة الملعونه بالزقوم ويرجح أنها بنو أمية لعموم فتنتهم واحتياج من تركهم إلى الصبر على الفقر أو عليه وعلى الخوف على نفسه أو ماله أو عليهما لقوة سلطانهم وشدتهم وعموم دولتهم على بلاد الإسلام هذا حين جاءت دولتهم.

أما في وقت نزول القرآن فكانت الفتنة بهم؛ لأنهم عادوا رسول الله ص وكانوا يعذبون المسلمين إن لم يكن لمن أسلم جوار فيهم، وبعد أن هاجر رسول الله ص حاربوه حتى نصره الله عليهم وغلبهم يوم الفتح، وفي تفسير الشجرة الملعونة بهم مناسبة لتفسير الرؤيا برؤيا دخول المسجد الحرام، أما إذا كانت الرؤيا رؤياهم يتداولون منبر رسول الله ص فهذا أوضح وتسميتهم فتنة مناسب أيضاً لقوله الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان:٢٠].

هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً

أما قوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ فالتخويف ضربان: تخويف بعذاب الآخرة وهو ظاهر في القرآن، وتخويف للكفار بنصر الله لرسوله وإظهاره لدينه وأنه سيفتتح مكة، وكلا التخويفين ما ﴿يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا﴾ حيث استمروا على عنادهم وحاربوا رسول الله ص في بدر وأحد وحنين وغزوة الأحزاب، وكذلك قالوا فيه الأقول الباطلة مثل مجنون شاعر مسحور ساحر.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ ذكرت قصة إبليس بعد ذكر طغيان الكفار وتكذيبهم لآيات الله وشركهم ولعل ذلك ذُكِرَ موعظةً للناس وتحذيراً من هذا العدو الذي ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦] وقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ﴾ سؤال إنكار أي كيف أسجد لمن خلقت طيناً؟ تعبير عن تكبره واستحقاره لآدم × لأن الله خلق آدم من طين تجاهلاً لنفخ الروح ومصيره بذلك خلقا ءاخر كاملاً في العلم.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ تحقير لآدم واعتراض على الله العزيز الحكيم في تكريمه على إبليس بأمر الملائكة وإبليس بالسجود لَه، وقوله: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تحقير لآدم ووصف لَه بالضعف؛ لأن طبعه وطبع ذريته متشابه، فإذا كانت ذريته موصوفة بالهلع فهو قريب منهم وتهديد لذريته بالإحتناك معناه التهديد بأنه يستحوذ عليهم ويصيرون في يده يقودهم كما يقود الإنسان بعيره ويستولى عليهم.

مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): «وقوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يجوز أن يكون من قولهم حَنَكْتُ الدابة أصبت حنكها باللجام والرسن ـ ثم قال ـ : ويجوز أن يكون من قولهم احتنك الجراد الأرض، أي استولى بحنكه عليها فأكلها واستاصلها» انتهى المراد.

وقال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ يعني لأقتطعنهم، قال الشاعر:

شكوا إليك سنة قد أجحفت جهد إلى جهد بنا فأضعفت

واحتنكت أموالنا وجلفت

وقيل: معناه: لأقودنهم إلى المعصية كما تقاد الدابة بحنكها إذا شُدَّ فيه حبل يجذبها» انتهى.

وقال (صاحب الصحاح): «حنكت الفرس أحنُكه واحْنِكه حنكاً إذا جعلت فيه الرسن، وكذلك احتنكته واحتنك الجراد الأرض أي أكل ما عليها، وأتى على نبتها، وقوله تعالى: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الفراء: يريد لأستولين عليهم» انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناها: لأستميلنهم، والإحتناك معناه الغلبة والقهر والإستيلاء» انتهى.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إلا قليلاً منهم، وهم المؤمنون المتوكلون على ربهم.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾

﴿قَالَ ٱذْهَبْ﴾ أي قال الله تعالى لابليس لعنه الله ﴿ٱذْهَبْ﴾ أي امض لشأنك، وهذا من التهديد، بدليل اقترانه بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾.

إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ أي الجزاء الأوفى، قال الشاعر:

لقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان لَه وفر

قال في (الصحاح): «الوفر: المال الكثير ـ ثم قال ـ : والموفور الشيء التام» انتهى، وفي (لسان العرب): «الوفر المال الكثير وفي (التهذيب): المال الكبير الوافر الذي لم ينقص منه شيء وهو موفور، وقد وَفَرناه فِرَةً ـ ثم قال ـ: وفي الحديث: «الحمد لله الذي لا يَفِره المنع» أي لا يكثره من الوافر الكثير، يقال: وَفَرَهُ يَفِرُهُ، كوعده يعده» انتهى.

فظهر منه: أن كلمة ﴿مَّوْفُورًا﴾ تفيد إتمام الجزاء وكثرته ـ والله أعلم.

﴿٦٤﴾ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ واستفزز: بمعنى استخف واستجهل، والصوت: الغِناءُ وشبهه، وخيله: كل دابة سارت في معصية الله تعالى» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «ورجل فَزٌّ أي خفيف، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال الفَرّاء: أي استخفّ بصوتك ودعائك» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أي ازعج ـ ثم قال ـ : والفزّ: ولد البقرة، وسمي بذلك لما تصور فيه من الخفّة كما سمي عجلاً لما تُصورّ فيه من العجَلة» انتهى.

فظهر: أن معنى الإستفزاز: الإستخفاف للإنسان والإستجهال، أي تحصيل الخفَّة فيه والجهالة سواء كان ذلك بطريقة الغضب أم الحمية أم الحسد أم الكبر أم الشهوة أم الخوف، وأنه غير خاص بالخوف.

وقوله تعالى: ﴿بِصَوْتِكَ﴾ يترجح: أن الغناء والملاهي المحرمة نسبت إلى إبليس لدعوته إليها وتسبيبه لوقوعها، وهذا أظهر من تفسيره بالقول الباطل؛ لأن ذم الصوت من حيث هو صوت لا يتوقف على تعبيره عن معنى باطل، ولو أريد القول الباطل لكان التعبير بقولك أوضح من التعبير بصوتك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ مجاز بمعنى إجهد جهدك في التسلط عليهم ومحاولة السيطرة عليهم، والرَّجل المشاة من الناس في السفر ونحوه وأصل أجلب عليهم بخيلك سُقْها أو نحوه بعنف.

قال في (الصحاح): ((وجلب على فرَسه يجلب ـ بالضم ـ جَلْباً: إذا صاح به مَن خلفه واستَحثَّه للسبق وأجلب عليه مثله)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : هذه أمثال كلها ضربها الله لا أن ثَمَّ خيلاً ولا ركاباً، والعرب يقول بعضها لبعض إذا اختصمت وتحاججت وتناظرت قالت لمن لا خيل لَه ولا رجال: اجلب علينا بخيلك ورجلك، يريد اجهَد علينا بغاية طاقتك، فعلى هذا يخرج معنى قول الله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي اجهد فيهم جهدك)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ فمشاركته لهم بتزيين جعلها في معصية الله مثل قتل المشركين لأولادهم ومثل خدمة الأصنام إذا جعلوا لها بعض أولادهم ومثل جعل بعض المال من الأنعام والحرث لأصنامهم، ومثل: تحريم البحيرة، والسائبة، ومثل: إنفاق المال في الخمر والغناء، أو الزنا، أو معاونة ظالم.

فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْهُمْ﴾من الوعد ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ لأنه لا يفي بوعده، بل يخلفه بعد اغترار الإنسان به، والوعد منه بالوسواس أو بالوسوسة لأوليائه أن يعدوا من يريد خدعهم، مثل ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر:١١].

﴿٦٥﴾ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ هذا رد على قول إبليس المذكور آنفاً، فقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ إما بمعنى ليس لك أن تقهرهم بقوة حتى يطيعوك كما سيعترف به الشيطان يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ..﴾ [إبراهيم:٢٢] فقول إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ غير صحيح، إلا على المجاز أنه يغر ويخادع ويزين ويمني حتى يطيعه الإنسان مختاراً.

وإما بمعنى: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ المخلصين ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ لأنهم أقوياء بالإيمان والتوكل كما مر في (سورة النحل) ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ يكلون إليه أمورهم فيبطلون بذلك تخويف الشيطان إذا خوفهم من العدو أو خوفهم الفقر أو غير ذلك، فالله كافٍ لهم ونعم الوكيل.

﴿٦٦﴾ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ﴿يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ يسوق لكم إلى الأمام السفائن بالريح الطيبة التي تسوق السفائن على البحر ليسافر عليها الإنسان لتبتغوا من فضله ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ بالسفر على السفائن أي لتطلبوا بالأسباب

﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ إما للتجارة بأن يسافروا بالبضاعة من أرض إلى أرض، وإما لغير ذلك من أسباب الرزق أو غيره كمن يسافر لقربة من حج أو عمرة أو صلة رحم أو طلب علم أو زيارة رسول الله ص أو أحد أهل بيته فكل ذلك ابتغاءٌ من فضل الله.

وما يروى عن رسول الله ص: «لا تشد الرحال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد..» محمول على السفر للصلاة في بقعة من الأرض أو الإعتكاف أو الذكر أو التلاوة، فهذا لا يسافر لَه إلا إلى الثلاثه المساجد، فالحصر إضافي بالنسبة إلى المساجد أي ليس لمسجد فضل يصلح لأجله شد الرحل إليه إلا الثلاثة المساجد، فأما السفر للإبتغاء من فضل الله فالقرآن يقرر الناس عليه وما زالوا عليه من عهد الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله عليهم ـ إلى اليوم فلا يحظر من الإبتغاء من فضل الله إلا السفر إلى مسجد للصلاة فيه أو نحوها غير الثلاثة المساجد.

ألا ترى أن المسلمين يسافرون للتجارة والإجارة وطلب العلم وبر الوالدين وصلة الرحم واللذات النفسية التي يستعاد بها الصحة والقوة فلو كان ذلك كله محرماً أن يسافر إليه لما جرى عليه عمل الصحابة فمن بعدهم إلى اليوم أعني على السفر إلى غير الثلاثة المساجد على اختلاف أغراضهم وذلك كله من الدلائل القرآنية وعمل الأمة الإسلامية قرينة أن المراد في الحديث الحصر الإضافي لا الحصر العام.

والحصر الإضافي واقع في القرآن العربي المبين، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها لأنها تكسب لنفسها بعض النفوس في الكسب الديني وكل النفوس في الكسب الدنيوي، وقال تعالى:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] أي يجوز عليه من الموت ماجاز على الرسل وليس في فضله فوق ذلك، وليس حصراً لوصفه في الرسالة حتى لا يوصف بسائر الفضائل فهو رسول وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، وغير ذلك من صفاته ص وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود:١٢] والكلام فيه كالكلام في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤] ومسألة الحصر والقصر واختلاف معانيهما في علم البيان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ أي أن من رحمته تيسير الإبتغاء من فضله وأنه يسره لأنه كان بنا رحيماً وعادته الرحمة لنا.

﴿٦٧﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ هذا احتجاج على المشركين ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ﴾ مثل ريح عاصف رَفَعَ الأمواج حتى صارت تدخل السفينة وخافوا الغرق، ومثل سكون الريح ووقوف السفينة لذلك حتى خافوا الإنقطاع في مكانهم من البحر حتى يتضرروا من الجوع وحر الشمس وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ﴾ أي ضاعوا في تلك المهمة وأنتم في أمسّ الحاجة إلى إنقاذ من ينقذكم فلم ينفعوكم بأي نفع، فتبيَّن لكم أنهم لا ينفعونكم، وإنما ينفعُكم الله تعالى فيهدِّئ العاصف أو يرسل الرياح بعد سكونها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ أي نجاكم من مخاطر البحر وصيركم إلى البر حيث أمنتم بعد الخوف ﴿أَعۡرَضۡتُمۡ﴾ عن الله فلم تعبدوه شكراً على نعمه التي لا تحصونها ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كثير الكفران لنعم الله ينسى نعم الله عليه ويسيئ إلى المنعم عليه باستعمال نعمه في معصيته.

أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ هذا إنكار عليهم أمنهم من مكر الله بعد أن نجاهم من البحر؛ لأنهم أمنوا فأعرضوا مع أنهم على خطر بسبب إعراضهم لأنهم إن نجوا من البحر فيمكن هلاكهم بخسف الأرض من تحتهم بحيث تهوي بهم إلى باطنها بأمر الله تعالى، ويمكن أن يرسل الله عليهم ريحاً ﴿حَاصِبًا﴾ ترمي بالحصباء أي الحجارة تهلكهم كما أرسل على قوم لوط.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ أي لا تجدوا من تتكلون عليه في إنقاذكم من العذاب لأن الله غالب على أمره.

﴿٦٩﴾ ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾ ﴿أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ﴾ أي في البحر ﴿تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ مرَّةً أخرى ﴿فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ ﴿قَاصِفًا﴾ ريحاً شديدة.

قال الراغب: «وهي التي تقصف ما مرّت عليه من الشجر والبناء» انتهى ﴿فَيُغۡرِقَكُم﴾ بالريح القاصف؛ لأنها ترفع الموج فيدخل السفينة فتهوي لثقلها بالماء وذهاب الهواء منها ﴿بِمَا كَفَرۡتُمۡ﴾ بسبب كفركم لنعمة الله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ عَلَيۡنَا بِهِۦ تَبِيعٗا﴾.

ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ

قال الشرفي في (المصابيح): «قال × ـ يعني الناصر بن الهادي إ ـ: يقول: نصيراً، والعرب تسمي طالب الثار تبيعاً» انتهى، ويعني بالنصير: من ينتصر لهم بعد هلاكهم، وفي (الصحاح): «والتبيع: التابع، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾ قال الفراء: أي ثائراً ولا طالباً، وهو بمعنى: تابع» انتهى.

﴿٧٠﴾ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ ﴿كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ بالعقل والبنية التي استطاعوا بها من تحسين ما أذن الله به لهم من أحوالهم من نسج الثياب وتحصيل الفراش وبناء البيوت والأكل والشرب باليد والتطهر من الأوساخ والتنزه منها وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ على الدوابّ، وفي هذا العصر على السيارات المصنوعة ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ على السفائن التي تدفعها الرياح وفي هذا العصر صارت تدفع بواسطة الوقود، وفي هذا العصر ـ أيضاً ـ نعمة الطائرات في الهواء المصنوعة فهي من نعم الله؛ لأن موادها من صنعه، وهو الذي ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٥] ويسَّر له تطوير علمه حتى استطاع صناعتها وصناعة الكهرباء وغيرها من الحاجات الدنيوية، ولعله لم يلتفت إليها الوحي بتبشير؛ لأنها دنيويه.

وقد أشار إلى إعداد قوة النصر لدينه والدفاع لأعدائه، وأطلق القول في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] حتى صدق على

كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ

كل مستطاع ولو الطائرات الحربية وغيرها من آلة الجهاد في سبيل الله، وهذا كاف عن ذكرها في الوحي بالتفصيل، ولا يبعد أن قد أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت:٢٢] وقد فسر بعضهم كثيراً من القرآن بما توصل إليه العلم الحديث من التطور الصناعي والعلمي، وبعض ذلك التفسير ضعيف، وبعضه تكلف ودعوى مجردة، وبعضه قريب ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ واضح وفيه عمومٌ للبر والفاجر والمؤمن والكافر، فهو رد على المطرفية النافين لرزق الكافر، وقوله تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ لعل هذا بحفظهم بالحفظة وتمكينهم من إظهار ما خفي من آيات الله تعالى ونعمه في مثل ما توصلت إليه العلوم الحديثة من الإختراعات لما فيه خدمة للإنسان ـ والله أعلم.

فأما تفضيل الإنسان على البهائم والسباع والأسماك ونحوها فظاهر، ويمكن ـ والله أعلم ـ أن المراد: تفضيلهم على الجن؛ لأنه تعالى قال: ﴿مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ ومَن لمن يعقل، وقوله تعالى ﴿تَفْضِيلًا﴾ تحقيق التفضيل وتأكيده، والمراد: تفضيلهم بما هو نعمة عليهم.

﴿٧١﴾ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ اذكر ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ﴾ وهو يوم القيامة ندعو كل أناس من البشر كلهم يُدعون إلى موقف السؤال والحساب وفصل القضاء.

وقوله تعالى ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي بمتبوعهم مصحوبين به ليروا نتيجة اتباعهم لَه إن كان محقّاً أو مبطلاً، كما قال تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي × - : يريد بهذا جميع الخلق، فليس من أحد إلاَّ وله إمام إمَّا إمام هدى وإمَّا إمام ضلالة.

قال الحسين بن القاسم × : ((معنى قوله: ﴿بِإِمَامِهِمْ﴾ أي مع إمامهم فمن كان مع إمام جائر حشر معه إلى العذاب، ومن كان مع إمام عادل حشر معه إلى الثواب وحضر معه في موقف الإمام عند الحساب، ثم جعل كل في منزله وراح إلى موضعه ومحله)) انتهى المراد.

قوله: ((ومن كان مع إمام عادل)) يعني متبعاً له في الدين كله، هذا وقد زعم بعض المفسرين: أن الإمام اسم شرعي خاص بإمام الهدى، وهو معترف أن الإمام في عرف اللغة يصدق على المحق والمبطل، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة:١٢].

فقوله: إن الإمام في الشرع خاص بإمام الهدى غير مسلَّم؛ لأن مجرد الإستعمال لايدل على النقل من المعنى اللغوي إلى معنى شرعي وقد استعمل في القرآن في إمام الباطل كما ترى، وفي الحديث استعمل بكثرة في إمام الصلاة؛ لأنه يقتدى به في الصلاة، واستعمل في أئمة الضلال مثل: ((إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين)) أخرجة الدارمي في (سننه) [ج١ص٧٠] وهو في (سنن أبي داود) [ج٤ص٩٨] من حديث طويل.

وفي (الكافي) [ج١ص٢١٥]: عن أبي جعفر قال: لما نزلت هذا الآية ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ قال المسلمون: يا رسول الله ألست إمام الناس كلهم أجمعين ؟ قال: فقال رسول الله ص «أنا رسول الله إلى الناس أجمعين، ولكن سيكون من بعدي أئمة على الناس من الله من أهل بيتي يقومون في الناس فيُكذَّبون، ويظلمهم أئمة الجور..» إلخ.

وفيه [ج١ص٢١٦]: «عن أبي عبد الله × قال: إن الإئمة في كتاب الله ـ عزَّ وجل ـ إمامان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣] لا بأمر الناس يُقدّمون أمر الله قبل أمرهم وحكم الله قبل حكمهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١] يقدمون أمرهم قبل أمر الله وحكمهم قبل حكم الله ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله ـ عزَّ وجل ـ» انتهى.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام من حديثٍ: «وأيما إمام لم يحكم بما أنزل الله فلا طاعة لَه».

وفي (مسند أحمد بن حنبل) [ج٣ص٢٢]: عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ص: «إن أحب الناس إلى الله ـ عزَّ وجل ـ يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشده عذاباً: إمام جائر».

وفي (سنن الدارمي) [ج١ص٧٠]: عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ص: «إن أخوف ما أخاف عليكم الأئمة المضلين».

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ فمن أوتي من الأئمة والمأمومين كتابه كتاب عمله بيمينه وهي بشرى باليمن والخير؛ لأن كتابه تضمن ماينفعه.

وقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ﴾ يتذكرون به ما قدموا من الأعمال الصالحات فيفرحون به ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي لاينقصون من ثوابهم فتيلاً أي قليلاً، والفتيل مَثَلٌ للقليل، كالنقير وكالقطمير.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام أحمد بن يحيى ـ يعني: الناصر بن الهادي ـ × : والفتيل في لغة العرب والمعروف عندها من كلامها وخطابها والنقير والقطمير، فكل ذلك في النواة موجود، والنواة: فهي العجمة التي تكون في جوف التمر، فالشق الطويل الذي يكون في بطن النواة اسمه عند العرب الفتيل، والنقير: فهو ذلك النقير الذي يكون في وسط ظهر النواة مثل الخردلة، ومنه يكون انتشار نباتها إذا نبتت، وأما القطمير: فهو الذي يكون على النواة غلافاً لها، وهي قشرة بيضاء رقيقة شديدة الرِّقة فذلك القطمير)) انتهى المراد.

ولعل في الرواية عن الناصر × سقطاً؛ لأن الفتيل هو الذي يكون في الشق الذي في بطن النواة مثل الخيط، قال في (الصحاح): ((والفتيل مايكون في شَقِّ النواة)) انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) في تفسير (سورة النساء): ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء:٤٩]: ((معناه: لا ينقصون ولا يظلمون نقيراً، فالفتيل: الذي في شق النواة، والفتيل: مايخرج بين الإصبعين إذا فتلتهما السبابة والإبهام)) انتهى المراد.

وفي ترتيب كتاب الخليل بن أحمد المسمى (كتاب العين): ((والفتيل: سَحَاةٌ في شَقّ النواة)) انتهى، ومثله في (لسان العرب)، وقال الراغب الأصبهاني في (تفسيره) للمفردات: ((والفتيل: المفتول، وسمي مايكون في شق النواة فتيلاً لكونه على هيئته)) انتهى المراد.

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ

﴿٧٢﴾ ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم × : معناه: من كان في هذه الدنيا أعمى عن الحق فهو في الآخرة أشد عمىً وأضل سبيلاً، ولهذا الوجه أكرم الله الجنة عن الفاسقين وطهّرها عن سبيل الظالمين، ولو أدخلهم الجنة لما ازدادوا إلا بطراً، ولكن الله أحسنُ تدبيراً ونظراً» انتهى.

وحكى الشرفي عن الناصر بن الهادي إ ، أنه قال مثل قول الحسين بن القاسم هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي أضل منه حين كان في الدينا، فهو أبعد عن الحق إنما تهمّه نفسه، وهو بعيد عن ذكر حق الله عليه بقلبه والإيمان به.

وفي (تفسير الحسين بن القاسم) أفاده صحة استعمال اسم التفضيل من العمى مع القرينة؛ لأنه لا يلتبس بالوصف؛ ولأن معنى العمى الذي هو عمى البصيرة متفاوت ـ والله أعلم.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ ﴿وَإِن كَادُوا۟﴾ الضمير للكفار، فقد مرَّ ذكر المعرضين بعد أن نجاهم من خطر البحر وتخويفهم.

ويحتمل: أن الضمير لـ﴿مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى﴾ أي لمن حَوْل الرسول منهم، وأنهم قد كادوا أن يفتنوه أي يضلوه لشدة عنايتهم في محاولة صرفه ص عما أوحى الله إليه من الدعوة إلى التوحيد وتقوى الله بضربٍ من

ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا

خداعهم ووعودهم المرغبة في موافقتهم وحاشاه ص من أن يوافقهم على ذلك، ولكنه لا يمتنع عليه المقاربة، كما قال يوسف ـ صلى الله عليه ـ : ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣] فالمقاربة من حيث هو بشر جائزة ولكن لايكون موافقاً لهم؛ لأنه محفوظ بألطاف الله تعالى وعصمته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ أي لو ضللتَ وافتريت علينا غيره، أي غير الذي أوحينا إليك لاتخذوك خليلاً، والخليل المحبوب البليغ الصداقة، وقوله تعالى: ﴿لَّٱتَّخَذُوكَ﴾ فيه زيادة تأكيد الخلة من حيث دل على أنها كانت تصدر عن قرار منهم واختيار لا أنها عرضت لهم بغير قصد.

﴿٧٤﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾ ثبتناك على التقوى والتمسك بما أوحينا إليك، والركون هو الميل اليسير، وقوله تعالى: ﴿شَيْـًٔا قَلِيلاً﴾ تقليل للقليل، فهو تأكيد للدلالة على قلة الميل، وتقليل له قلة مضافة إلى قلة، وقوله: ﴿شَيْـًٔا﴾ تقليل مع ذلك.

﴿٧٥﴾ ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ أي لو ركنت إليهم شيئاً من الركون قليلاً لأذقناك عذاباً مضاعفاً في الحيوة الدنيا أو الحيوة الدنيا والحيوة الآخرة ﴿وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ ضعف عذاب الممات وقد فسر بعذاب الآخرة، والأقرب عندي: أنه عذاب البرزخ الذي يلحق الروح بعد ممات الجسد، فهو أظهر أن يقال له: عذاب الممات.

قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ **ليُزعجونك لينفوك من الأرض كما يُنفَى المحارب لله ورسوله ص ولا موجب لتفسير الأرض بمكة وإن كان ذلك وقع؛ لأنه لم يكن غرضهم مجرد إخراجه من مكة، ولكنه لما هاجر إلى طيبة عجزوا عن طرده منها.**

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَلْبَثُونَ﴾ لا يبقون ﴿خِلَٰفَكَ﴾ أي بعد إخراجهم لك ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ من اللبث أو قليلا من المدة، أي إن استفزوك من الأرض ليخرجوك منها لم يلبثوا في الحيوة بعدك إلا قليلا، والإستفزاز الإزعاج بالتخويف أو بأي وسيلة تضطره إلى الخروج.

﴿٧٧﴾ ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾

﴿سُنَّةَ﴾ أي عادة ﴿مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ إهلاك قومهم متى حاولوا قتلهم أو طردهم ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ وهي سنة الله أضيفت إلى الرسل لتعلقها بهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ لا تجد لسنتنا صرفاً عن طريقتها الماضية إلى طريقة مخالفة لها.

﴿٧٨﴾ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ **﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وقت (دلوك الشمس) مستمراً أو مكرراً ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ ودلوكُ الشمس زوالُها عن وسط السماء إلى جهة الغرب وهو أول الظهر، وغسق الليل: إظلامه، وإظلامه بعد دخوله.**

فأول الليل ابتداء الظلمة بحيث تمكن رؤية بعض كواكب الليل، وإظلامه قوة ظلمته، ولعلها أول وقت العشاء عند مغيب الشفق الأحمر، ولو كان المراد أول الليل لكفى أن يقول إلى الليل.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي إ): «سمعت الإمام الشهيد أبا الحسين زيد بن علي × وقد سئل عن قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا﴾ فقال × : دلوك الشمس: زوالها، وغسق الليل: ثلثه حيث يذهب البياض من أسفل السماء، ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار» انتهى.

وإقامة الصلوة إما من القيام بمعنى إحيائها بالجماعة في أوقاتها مثل قيام السوق وقيام الحرب، وإما بمعنى أن تكون قَيِّمة لا عوج فيها بمعنى إخلاصها في أوقاتها بخشوعها وأذكارها وأركانها وشروطها وحضور الذهن وذلك داخل في قيامها، فالمعنيان متقاربان، وإقامة قرآن الفجر أي القراءة في صلاة الفجر سلامتها من الغلط وتأديتها تأديةً مناسبة لمعانيها وحضور الذهن بحيث يعلم ما يقول، والجهر المسمع للمؤتمين، وإكمال الواجب من القراءة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودًا﴾ ترغيب في القرآن ودلالة على عظم شأنه حيث تحضره الملائكة لتسمه أو لترفعه أو لتكتبه لقارئه مع ذلك، ويحتمل أن من شهوده حضور الذهن في تلك الحال وحسن الفهم لمعانيه لكونه بعد راحة الذهن بالنوم أو بعد تنوُّر القلب بعبادة آخر الليل وسلامته من تشويش حوادث النهار، فيكون هذا من شهود القارئ نفسه أي حضوره تشبيها للغافل بالغائب، ولعل منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧] والله أعلم.

يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ

﴿٧٩﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ تنبَّه بعد النوم متعبِّداً به أي بالقرآن ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ زائداً على الفرائض المأمور بها ﴿لَّكَ﴾ أي فائدته لك.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام أحمد بن يحيى - يعني الناصر بن الهادي - × : معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ يقول: فضيلة لك، وقد قال غيرنا إن ذلك فريضة، وليس ذلك عندنا إلا نافلة فضَّله بها ودلَّه على الرشد فيها)) انتهى المراد.

قال الشرفي: عن الحسين بن القاسم × : ((وإنما خُصَّ × بالترغيب فيها ليسبِق إلى حيازة فضلها لاختصاصه بكرامته)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تعليل للتهجُّد أوْ له ولإقامة الفرائض وقرآن الفجر أي متوقعاً أن يبعثك ربك يوم القيمة ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ مقاماً قائم مقام المفعول المطلق ليبعثك؛ لأن فيه معنى يُقيمك.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال فى (البرهان): والمقام المحمود: فهو ما أعطاه الله - عزَّ وجل - من الدرجات الرفيعة، والمنازل السنية، والشفاعة للمؤمنين)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ تحمده ويحمده المؤمنون من الأولين والآخرين لما يكون منك من الشفاعة لهم.

فأما ما يروى من الشفاعة لأهل الكبائر المصرين عليها فهو غير صحيح؛ لأنه مخالف لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٤٨] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:١٢٣] وهذا في الشفاعة المنجية من شر ذلك اليوم، فالرواية المخالفة لذلك مردودة.

فأما الشفاعة للمؤمنين فهي غير الشفاعة المنفية، لأنها شفاعة في زيادة نعيم إلى نعيم لا لدفع شر ذلك اليوم لأنهم آمنون بإيمانهم، لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧] وقوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

﴿٨٠﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى ـ يعني الناصر بن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ـ × : وقد جاء في الرواية أنه عَنَى بـ(المدخل الصدق) مكة، يدخلها بالعز والفتح والقوة والقدرة والسلطان والحجة البالغة على جميع من عانده × ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ من مكة، يقول: لا ألقى إلا مؤمناً ولا ألقى مشركاً ولا كافراً» انتهى.

وهذا يستقيم إذا كانت الآية مدنية ويناسبه الآية التي بعد هذه، بل وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ والراجح في السلطان: أنه التسليط على من عاداه، وقد قيل الحجة ولكن الحجة قد جاءت من أول الرسالة وهي القرآن المعجز.

ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا

﴿٨١﴾ ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ انتصر الحق وغلب دين الله وظهر أمر الله ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ انهزم وذل أو اضمحل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾ أي كان كثير الزهوق لا يثبت ويدوم بل عادته أن يزهق، وهذا تشجيع لأهل الحق ليصبروا عند مقاومة الباطل ويتوقعوا زهوقه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ ﴿وَنُنَزِّلُ﴾ في الحين بعد الحين ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ بعضاً من القرءان ﴿مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ أي كلاماً هو شفاء ورحمة، أو الكلام الذي هو شفاء ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالقرآن يتنزل مفرقاً وفي كل وقت من أوقات نزوله أو في بعضها يتنزل منه ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴿شِفَآءٞ﴾ من داء الجهل ومن كل أشكال المرض ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ زيادة هدى وصلاح وتقوى ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ خاصة، فهم الذين يكون لهم شفاء ورحمة، وهذا الوصف لأبعاض من القرآن في كل واحد منها شفاء ورحمة، ولعله المحكمات من آياته.

ويحتمل: أن المراد كل بعض منه نزل فهذه صفته، ويشمل المحكم والمتشابه أما المحكم فظاهر، وأما المتشابه فهم ينتفعون به من جهة غير جهة التشابُه ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] فمثلاً قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] ينتفعون به من حيث يتفكرون أنهم أي التسعة عشر يعذِّبون أهلها فيكون ذلك من موعظتهم، وإن تشابه عليهم ما هم قبل نزول البيان.

عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠] فيتعظون به من حيث هو تأكيد لكونهم يبايعون الله بمبايعتهم لرسوله ص وهكذا في سائره وفي بعض المتشابه إذا كان بعضهم لاينتفع به؛ لأنه لايفهم المراد بذكره فهو ينتفع به من يفهمه من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أما الكفار والمنافقون فقد حقق الله زيادتهم خساراً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥] وهذا كما تكون النعمة زيادة خير للمؤمنين؛ لأنهم يشكرون وسبباً لزيادة رجس الفجار؛ لأنهم يكفرون النعمة ويبطرون ويظلمون، فالشيء الواحد من الخير يكون خيراً للمؤمن وشراً للكافر والمنافق؛ لأنه يجعله سبباً لفساده فهو يفسد من حيث يصلح المؤمن، وفي هذه الآية التي نحن في ذكرها دلالة على ذلك بيِّنة والحمد لله.

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ النعمة هنا هي المعهودة عند أكثر الناس فهي العافية والقوة والأمن وزيادة الرزق، أو هي زيادة الرزق وحدها، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧] وأطلق الإنسانَ هنا لأنه الأغلب، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣] ولأن أصل الإنسان هكذا، وإنما يصلح من صلح فيخرج عن هذه الطبيعة بالمعرفة

واتباع العقل لأن أصل الإنسان الجهل والغفلة والهلع، وإنما يخرج من الجهل بالنظر والتعلم ويخرج من الغفلة بإجابة داعي العقل إلى التذكر، فلجهله وغفلته يعرض عن ذكر ربه عند النعمة ويشتغل بها.

والنأي: البعد وهو تمثيل لزيادة إعراضه وبعده عن الهدى، وجانبه: شقه كأنه مال بشقه عن إقباله إلى ربه ميلاً إلى الإدبار عنه، كأنه استغنى عن ربه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ مثل فقر ومرض وخوف ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ من فرج ربه وإتيانه باليسر بعد العسر، واليأس: ضد الرجا، فلم يلجأ إلى ربه ليكشف عنه العسر، وهذا في غير حالة الإضطرار والخوف من الهلاك كما مرَّ فيمن مسهم الضر في البحرفإنهم يلجأون إلى الله اضطراراً.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ قال في (لسان العرب): «والشاكلة: الناحية والطريقة والجديلة، ثم قال: وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ أي على طريقته وجديلته ومذهبه» انتهى المراد. وقال في الجديلة: «والقومُ على جديلةِ أمرهم أي على حالهم الأول، وما زال على جديلة واحدة أي على حال واحدة وطريقة واحدة وفي التنزيل العزيز: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال الفراء: الشاكلة: الناحية والطريقة والجديلة، معناه: على جديلته، أي طريقته وناحيته» انتهى.

وعلى هذا يكون الراجح ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ على طريقته التي ألِفها وصار يهواها لإلفه لها، وليس ألفها من مفهوم الشاكلة ولكنه لازمه، قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى × : يقول: كل يعمل على طريقته وما يشتهيه» انتهى المراد.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ

فحاصل المعنى: قل يا رسول الله: كل مكلف يعمل على طريقته التي اختارها لنفسه من حق أو باطل ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ وهو الْمُجازي بما عملوا، فهي من التهديد بالنسبة لأهل الباطل، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت:٤٠] وكقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا..﴾ الآية [الكهف:٢٩].

وقوله تعالى: ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ﴾ يفيد: إحاطة علمه بالمهتدي وبالأهدى، والأهدى: رسول الله ص، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وسائر أهل الكساء، ثم أئمة الهدى عليهم السلام أجمعين.

﴿٨٥﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال الإمام أحمد بن يحيى × : والروح عندنا على معنيين:

أحدهما: جبريل × ، وقد قال غيرنا: إنه ملك أعظم من جبريل، ونحن نقول: إنه جبريل × ، لقول الله ـ عزَّوجل ـ : ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٥] والذي كان ينزل عليه بالوحي فهو جبريل × دون غيره.

والروح *الأخر*: فهو الروح الذي تقوم به الأبدان، وهو قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥] ولم يفسره» انتهى.

عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا

وهذا هو الراجح: أن اليهود سألوا رسول الله ص عن الروح الذي يحيى به الناس وغيرهم من الحيوان ما هو؟ أي سألوه عن حقيقته، فقال تعالى لنبيئه ص: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ من شأن ربي، والأمر هنا واحد الأمور وأضافه إلى الله، لأنه هو الذي أنشأه وهو الذي يعلم حقيقته لا نحن.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ الخطاب إما لأهل الكتاب، وإما عام للناس كلهم، أي ما آتاكم الله ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ بالنسبة إلى مالم يؤتكم، وهذا القليل خير كثير نحمد الله على ما آتانا منه فهو نعمة كبرى امتاز بها الإنسان وتفاضل فيها، وفضل على سائر الحيوان، واستطاع بها أن يدخل الجنة وينجو من النار.

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ ﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ لكن لا نشاء ﴿لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من القرآن وغيره لنأخذنهن حتى لا يبقى عند أحد منكم لا قليل ولا كثير ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ﴾ أي بما أوحينا إليك أي بالمطالبة به واسترجاعه ﴿عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ تكل إليه هذا المهمة فيقوم بها ويسترجع لك ما فات لوشئنا ذلك.

﴿٨٧﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ لكن رحمة من ربك حفظه لك ولم يذهب به ولن يذهب به ﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ إن فضله عليك بما أوحى إليك وبحفظه لك وبكل أنعمه عليك كان عليك كبيراً فضلاً كبيراً وإنعاماً عظيماً.

ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

﴿٨٨﴾ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ هذا يبين عجز الناس عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأنهم لو اجتمعوا هم والجن ليأتوا بمثله ما أتوا بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولو تعاونوا على محاولة ذلك.

قال في (الكشاف): «﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جوابُ قسم محذوف، ولولا (اللام) الموطئة لجاز أن يكون جواباً للشرط، كقوله:

يقول لا غائب مالي ولا حَرِمُ

لأن الشرط وقع ماضياً» انتهى المراد.

وهو يعني : أن (اللام) في قوله تعالى: ﴿لَّئِنِ﴾ هي اللام الموطئة للقسم الدالة على إرادته، وقوله: لجاز أن يكون جواباً للشرط: الشرط (إن) وقوله: ﴿ٱجْتَمَعَتِ﴾ فعل الشرط، وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ دليل جواب الشرط، ولولا (اللام) في قوله تعالى: ﴿لَّئِنِ﴾ التي لأجلها كان ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواباً للقسم المحذوف، لجاز أن يكون جواباً للشرط وإن كان ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ مرفوعاً، لأن فعل الشرط الذي هو ﴿ٱجْتَمَعَتِ﴾ وَقَع فعلاً ماضياً، وإذا كان فعلاً ماضياً جاز رفع جواب الشرط، كقول الشاعر:

وإن أتاه خليل يوم مَسْغَبَة يقول لا غائب مالي ولا حرم

والظهير: إما العون فهو صفة مشبهة، وإما الْمُظَاهر أي المعاون، فلو ﴿ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ لما أتوا بمثله، سواء تعاونوا أم لم يتعاونوا، وحاول كل فرد أن يأتي بمثله؛ لأنه في حكمته وإحكامه فوق ماتطيقه الإنس والجن.

﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ

﴿٨٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ ﴿صَرَّفۡنَا﴾ مثل تصريف الرياح فهو جعل ما في آيات القرآن من الحكمة أنواعاً وأصنافاً يتنقل الفكر فيها من نوع إلى نوع مثل من وعد إلى وعيد إلى عبر الأولين إلى برهان إلى تعليمٍ لطرق النجاة وهدايةٍ لأسبابها إلى تعليمٍ لبعض التكاليف الشرعية، من النظر، والتفكر، والإسلام، والإيمان، وإقامة الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وأحكام في النكاح في الطلاق، وحلال وحرام في المعاملات، وغيرها أصنافاً بديعة فائقة في أحكامها وتفصيلها، فكانت جارية مجرى الأمثال، وسميت أمثالاً فما كان ينبغي لعاقل أن يتردد في الإيمان به واتباعه؛ لأنه هدى ونور وحكمة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ امتنعوا أشد الإمتناع من أن يؤمنوا به، ولم يرضوا إلا بأن يكفروا به.

﴿٩٠﴾ ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أي الذين أبوا إلا كفوراً، ولعل القائل بعضهم ورضي الآخرون، والله أعلم. ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ﴾ لن نصدقك ونقبل منك دعواك أنك رسول من الله بهذا القرآن ﴿حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا﴾ تخرج لنا ﴿مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا﴾ ماءً نابعاً من العيون أو من عين واحدة، ولعل هذا قول كفار مكة ومن حولها.

﴿٩١﴾ ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا﴾

﴿أَوۡ تَكُونَ﴾ عطف على قولهم: ﴿حَتَّىٰ تفجِّر﴾ ومعنى ﴿خِلَٰلَهَا﴾ بَيْنَها متخلِّلاتٍ لها، وهذا من تعنتهم وتعظيمهم لمطالب النفس الدنيوية، وقوله: ﴿تَفۡجِيرًا﴾ تحقيق للشرط الذي تعنتوا به.

تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ

﴿٩٢﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ﴾ **علينا تعجيلاً لعقوبتنا** ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ **لعلهم أرادوا قوله تعالى في (سورة سبأ):** ﴿**إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ**﴾ [سبأ:٩] **وقوله:** ﴿كِسَفًا﴾ **أي قطعاً، قال الراغب: ((والكَسَفَة: قطعة من السحاب والقطن، ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة الحائلة)) انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي** إ **): ((**﴿كِسَفًا﴾ **معناه: قِطَع)) انتهى.**

وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ **تأتي بهم إلينا حال كونهم قبيلاً أي مقابلين لنا نعاينهم أمامنا، مثل:** ﴿**لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا**﴾ [الفرقان:٢١].

﴿٩٣﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

الراجح: أن الزخرف هنا: هو الذهب؛ لأن الزينة جارية مجرى الصفة، فيبعد أن يقال: بيت من زينة، قال الراغب: ((الزخرف: الزينة، ومنه قيل للذهب: زخرف)) وفي (الصحاح): ((الزخرف: الذهب، ثم يُشبَّه به كلُّ مُمَوَّهٍ مُزَوَّر والمزَخرف المزيَّن)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال مجاهد: كنا لا ندري ما الزخرف حتى رأينا في قراءة عبد الله ﴿أو يكون لك بيت من ذهب﴾)) انتهى المراد.

بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا

وقوله: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ﴾ أي تصعد وتطلع ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ أي لطلوعك في السماء ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ﴾ منها ﴿عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ لأنه مخطوط في رق ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تنزيهاً لَه وتبعيداً عما تقولون ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا﴾؟ فلا أقدر على ما تطلبون من المعجزات، إنما أقدر على ما يقدر عليه البشر وهل كنت إلا ﴿رَّسُولاً﴾ ليس لي من الأمر ما شئت، وإنما أبلغ رسالات ربي.

﴿٩٤﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ من ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ عدم الآيات الدالة على صدق الرسول فلم يقترحوا تلك الخوارق لعدم الآيات إنما لم يؤمنوا وتعنتوا لأنهم ﴿قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ أي لأنهم أنكروا ذلك وقالوا كيف يكون الرسول بشراً، أي أن ذلك غير معقول، والحصر والقصر هنا إضافي أي بالإضافة إلى آيات صدق الرسول ص لأن من الموانع حب الرئاسة الدنيوية وحب الدنيا والحسد والكبر والتعصب للأباء ولدين الآباء ونحو ذلك، فلهذا قلت إن الحصر إضافي كما حققته وقد مرَّ الجواب عليهم في (سورة الأنعام) في [آية ٨ وآية ٩].

﴿٩٥﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «﴿يَمْشُونَ﴾ على أقدامهم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي قارِّين في الأرض كالإنس لا يطيرون بأجنحة إلى السماء فيعلموا ما يجب علمه ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ يهديهم إلى الرشد؛ لأن من حق رسول الأمة أن يكون من جنسهم؛ لأنهم به آنس» انتهى المراد.

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا

وقوله: فيعملوا ما يجب علمه، لعل الأصل: فيعلموا أي من السماء إذا طاروا إليها يعلموا هناك ما يجب علمه، فيغنيهم ذلك عن إرسال رسول إليهم إلى الأرض لو كانوا يطيرون إلى السماء.

﴿٩٦﴾ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فهو يعلم أني قد بلغتكم وأقمت عليكم الحجة كما أمرني، والشهيد هو الحاكم بيني وبينكم يحكم بيننا يوم القيامة بالحق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا﴾ عليماً بخبره كل واحد منهم ﴿بَصِيرًا﴾ بهم في الدنيا والآخرة، فهو يقضي فيهم بالحق والصواب ولا يعي عن شيء من ذلك.

﴿٩٧﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي قد تبين الحق بالآيات البينات فما بقي بعد ذلك إلا أن يختار لنفسه الإنسانُ طريق الهدى أو طريق الضلالة فمن اختار الهدى هداه الله، أو من كانت نيته اتباع الحق والصواب هداه الله، ومن عاند الحقَّ وجادل فيه أضله الله بتركه للشياطين فأضلوه، وحينئذ ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ للحق والصواب المؤمن بما جاء به الرسول ص وبإيمانه يزيده الله هدى.

وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ

﴿وَمَن يُضۡلِلۡ﴾ يتولَّه الشيطان ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ يهدونهم من دون الله؛ لأنه فاتهم هدى الله ولا بديل لَه ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ضُلاَّلاً كما كانوا في الدنيا ضلالاً، فنحشرهم ﴿عُمۡيٗا﴾ عن الحق ﴿بُكۡمٗا﴾ عن الإيمان به الإيمان الإختياري ﴿صُمّٗا﴾ عن قبول الحق اختياراً ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ مصيرهم الذي يأوون إليه ويرجعون جهنم ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ﴾ خمد وَقُودُها ﴿زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ فعذابهم مستمرٌ دائم.

حكى الشرفي في (المصابيح): ((عن القاسم بن ابراهيم × أنه قال: تأويل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ فهو على صورهم التي فارقوا الدنيا عليها وهيئاتهم يحشرون وعلى ما كانوا عليه في الدنيا من الهدى والضلال يبعثون، وليس تأويل ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ ما يذهب إليه أهل الجهالات من تبديل الله يوم القيامة للخلق والهيئات التي كانوا عليها في الدنيا بديا)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ﴾ محمول على سرعة الزيادة بحيث لا يتخلل فتور حرها؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف:٧٥] وقال: ﴿فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾ [البقرة:٨٦] ومع سرعة تجديد النار تكون كأنها لم تخبُ، كما تجدد نار السيارة مع احتراق وقودها كلما احترق بدِّل، فهي مستمرة لاستمرار إمدادها بالوقود فكذلك نار جهنم.

﴿٩٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ حشرهم على الحالة التي ذكرها وإيواءهم إلى جهنم في عذاب مستمر ﴿جَزَآؤُهُم﴾ بأنهم كفروا بآيات الله

فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ

الدالة على قدرته تعالى وعلمه وآياته الدالة على صدق رسوله ص أو بآياتنا الدالة على صدق الرسول ص وجحدوا قدرة الله تعالى على بعثهم خلقاً جديداً، وكذَّبوا الرسول في إنذاره لهم عذاب الآخرة، وجعلوا إنذاره بالآخرة وسيلة لتكذيبه في دعوى الرسالة.

﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ هذا يبطل جِدالَهم في بعثهم خلقاً جديداً ﴿أَوَلَمۡ﴾ يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ على عظم خلقها وبعد مساحتها وتجهيز الأرض للإنسان ليعيش فيها ألم يعلموا أن الذي خلقها ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ﴾ أشخاصاً ﴿مِثۡلَهُمۡ﴾.

وهذا الإستدلال يشبه قوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا..﴾ إلى قوله: ﴿..مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:٢٧-٣٣] وقوله تعالى: ﴿مِثۡلَهُمۡ﴾ يشير إلى صغر أجسامهم بالنظر إلى السموات والأرض، أي قادر على أن يخلق من كان في حَجْمه أصغر من السموات والأرض بكثير، فقوله تعالى: ﴿مِثۡلَهُمۡ﴾ كناية عنهم كقولهم: مثلك لا يبخل ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ فهم يعلمون أن حياتهم الدنيا مؤقتة تنتهي لأجل لا ريب فيه، فلولا أن الله يعيدهم لكان الخلق الأول عبثاً؛ لأن الأمم تحيى ثم تموت أمة بعد أمة ولا توجد أمة لتبقى بل كلها تحيى لأجَلٍ لاريب فيه، والله أحكم الحاكمين فلا بد من البعث والجزاء الذي به تظهر الحكمة.

تِسۡعَ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ

وقوله تعالى: ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا﴾ أي جحداً بالبعث مع وضوح دليله ودليل قدرة الله تعالى عليه وذلك الكفور؛ لأنهم ظالمون لا يتحرجون من الباطل وجحود الحق.

﴿١٠٠﴾ ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَـٰنُ قَتُورٗا﴾ ﴿قُل﴾ هذه الرسالة رحمة من ربي الذي هو رب العالمين أرسلني رحمة لي ولهم؛ لأن بيده الخير ومنه الخير لا منكم، فأنتم في تحكمكم واشتراطكم لإيمانكم بي تلك الشروط لا تبطلون رحمةَ ربي؛ لأن رحمة ربي لا تملكون خزائنها الواسعة، وأنتم لو تملكونها ﴿لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ﴾ أن تنفد ولا يبقى لكم منها شيء، وهذا لأن الشح قد سيطر على أنفسكم ـ والله أعلم.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَـٰنُ قَتُورٗا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): معناه: مقتّر انتهى، ولعل ﴿قَتُورٗا﴾ فيه دلالة على كثرة التقتير أي تضييق وإقلال النفقة؛ لأن فَعُولاً من أمثلة المبالغة مثل ضَرُوب. ووصفُ الإنسان بالإقتار إما باعتبار الأكثر والغالب، وإما باعتبار الأصل في طبيعة الإنسان، لقوله تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء:١٢٨] فالسخي إنما يطبع على قليل من السخاء لا يخرجه عن الإقتار، ولكنه لميله إلى السخاء أو إلى الشرف يربي غريزة السخاء حتى تغلب غريزةَ الشح، وهذا نظير وصفه بالهلع ثم استثناء أهل الصفات التي لا يجمعها إلا المؤمن الذي يتخلص من الهلع بقوة إيمانه.

﴿١٠١﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٖۖ فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ فالتمرد على الرسول

محمد ص غير عجيب، والتعنت من الكفار هو شأنهم، فقد أرسل الله موسى × في ﴿تِسْعَ ءَايَـٰتٍ﴾ لعلها:

الأولى: سلطانه وهيبته العجيبة التي صرفت فرعون عن قتله وقتل أخيه، مع أنه جبار عنيد لايتحرج من قتل نفس كيف وقد كان يذبح أبناءهم، وقد أشار موسى إلى هذه الآية بقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان:٢٠] ودل عليها قول الله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥].

الثانية: ضمه إليه جناحه من الرهب فيذهب الرهب ولا يخاف سطوة فرعون، ويحتمل أنها من الأولى هيبته وأمنه وحفظه هو السلطان.

الثالثة: تحول العصى حين قال لَه فرعون: ﴿إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:١٠٦-١٠٧].

الرابعة: نزعه ليده من جيبه فإذا هي بيضاء من غير سوء.

الخامسة: الطوفان.

السادسة: الجراد.

السابعة: القمل.

الثامنة: الضفادع.

والدم هو *التاسعة*، وقد مر تفسير هذه في تفسير (سورة الأعراف).

وتلقف عصى موسى لسحر السحرة آية، ولعل تلقف العصى لسحرهم هو التاسعة، والأُولى هي السلطان المستلزم لحفظه وأمنه.

وقد فرق القرآن بين هذه الآية وبين انقلاب العصى ثعباناً، تأمل الآيتين في (سورة الشعراء) [آية ٣٢، وآية ٤٥] ففي العصى آيتان: آية انقلابها ثعباناً، وآية تلقفها لسحر السحرة، بحيث انكشف للناظرين حبالهم وعصيهم، وإنما ينشأ الغلط في حساب التسع من جعل آيتي العصى واحدة.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا ﴿١٠٣﴾ وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ

وعلى هذا: فلا موجب لجعل فرق البحر آية من التسع، فقد كان فرقه عند هلاك فرعون وقومه، ولوكان من التسع لأمهلوا بعده كما هي العادة أن لاتقترن آية الرسول وهلاك قومه، وكذلك نتق الجبل فهو كان بعد هلاك فرعون وقومه وكان هو وفلق البحر آيتين لبني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ معناه أن هذا معلوم عند بني إسرائيل، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهُمۡ فَقَالَ لَهُۥ فِرۡعَوۡنُ﴾ أي اذكر إذ جاء بني إسرائيل وهم تحت سطوة فرعون فقال لَه فرعون عناداً وكفراً بالآيات البينات ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسۡحُورٗا﴾ وقد ناقض الكافرُ حيث قال مرة مسحوراً ومرة: ﴿**إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحۡرَ**﴾ [طه:٧١].

﴿١٠٢﴾ ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ ﴿مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الذي خلقهن القادر على ما يعجز عنه العباد المالك للسموات والأرض ما أنزل هذه الآيات إلا هو ﴿بَصَآئِرَ﴾ أي آيات بينات يبصر بها أهل العقول الحقَّ ويعلموا أني صادق فكأنه قال ما أنزلها إلا الله بصائر، فقوله: ﴿بَصَآئِرَ﴾ من جملة المستثنى بإلا ما أنزلها لعباً كما يكون من السحرة من السحر لعباً وباطلاً.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا﴾ مُهلَكاً لأنك تمردت على الله وكذبت بآياته وجادلت فيها بالباطل، فلذلك أنت مظنة أن تصير في عذاب جهنم في الويل والثبور؛ لأنه مصير المخذول الذي لا يتوب قبل نزول العذاب.

إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿١٠٥﴾ وَقُرۡءَانٗا

﴿١٠٣﴾ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسۡتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ ﴿يَسۡتَفِزَّهُم﴾ يزعجهم ليخرجهم من الأرض ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعٗا﴾ مجتمعين، فهذه عبرة للكفار بمحمد ص وبآياته المتعنتين عليه.

﴿١٠٤﴾ ﴿وَقُلۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱسۡكُنُواْ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ جِئۡنَا بِكُمۡ لَفِيفٗا﴾ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد فرعون، أي من بعد هلاكه مكّنّا لبني إسرائيل في الأرض أوّلاً حيث صاروا بعد فرارهم من فرعون ثم في مصر وغيره ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ما وعد الله به من أمور الآخرة التي عند البعث ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ﴾ إلى موقف العرض على الله ـ عزَّ وجل ـ والسؤال والحساب ﴿لَفِيفٗا﴾ جَمْعاً مختلفاً، مثل: مؤمن وكافر، وعزيز وذليل، وغني وفقير، وأمير ومأمور، وتابع ومتبوع، فتمكين بني إسرائيل في الأرض اختبار لهم وتقدمة ليوم الحساب، كقول موسى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩].

﴿١٠٥﴾ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ أنزلنا هذا القرآن؛ لأن إنزاله حق وصواب اقتضته حكمة الله رحمة للعالمين وهدى للناس، وإنذاراً لبأس شديد يكون منه للظالمين وتبشيراً للمؤمنين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وقد كانت العرب قبله في ضلال مبين.

وقوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ أي معانيه حق وصواب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ تبشر المتقين وتنذر الظالمين لست عليهم بمصيطر وليس عليك أن يهتدوا.

فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾

﴿١٠٦﴾ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بيّناه بتفصيل معانيه ﴿لِتَقْرَأَهُۥ﴾ يا محمد ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ من حضر لديك من أي أمة كانوا ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ على تأنٍّ في التلاوة وترتيل وتفصيل، لتبينه للسامعين ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ مفرَّقاً في أوقات متفرقة ﴿تَنزِيلًا﴾ من الله إليك.

﴿١٠٧﴾ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لقومك الذين تعنتوا في شروطهم ليؤمنوا ﴿ءَامِنُوا۟﴾ بهذا القرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ فإنه الحق الواضح الذي آمن به أهل العلم فلا تضرون بترك الإيمان إلا أنفسكم، وهذا تحقير للكفار من قريش ومن حولهم، ودلالة على أنه لايعتد بإيمانهم أو كفرهم؛ لأنهم إنما هم جهال معاندون فسواءٌ آمنوا أم لم يؤمنوا لا يضرون الله ولا يبطلون كتابه بكفرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي آتاهم الله العلم في قلوبهم ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل إنزال هذا القرآن، وعرفوا أن محمداً هو الرسول المبشر به من قبل، وأن هذا القرآن هو من الله أنزله على محمد ص فـ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ لله لظهور هذه الآية العظيمة وتبين صدق وعد الله به.

وقوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي يتساقطون على أذقانهم، والذقن مجمع اللحيين أسفل الوجه.

وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾ لعله بمعنى: خاشعين لله متذللين، كقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] إلا أن سجود هؤلاء العلماء سجود إيمان وتذلل اختياري، وعلى هذا فلا إشكال في ذكر السجود على الذقن، فلو كان من دينهم السجود على الذقن صح حملة على السجود المعهود ولكن لم أجد ذلك فيما عندي من التفسير.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ أي الذين أوتوا العلم يسبحون الله وينزهونه عن أن يخلف وعده حينما شاهدوا الرسول الموعود به وسمعوا القرآن الدال عليه.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ﴿يَبْكُونَ﴾ جملة حالية،يخرون للأذقان في حال بكائهم ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ ذلة، وهذا من خشية الله والتأثر بآيات القرآن، ويعجبني هنا تعبير سيد قطب حيث قال: ((وهو مشهد مُوْحٍ يلمس الوجدان مشهد الذين أوتوا العلم من قبله وهم يسمعون القرآن فيخشعون، ويخرون للأذقان سجداً.. إنهم لا يتمالكون أنفسهم فهم لايسجدون ولكن يخرون للأذقان سجداً ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله وصدق وعده سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا، ويغلبهم التأثر فلا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر..

تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

إلى قوله.. إنه مشهد مصوِّر لحالة شعورية غامرة يرسم تأثير هذا القرآن في القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه العارفة بطبيعته وقيمته بسبب ما أوتيت من العلم قبله، والعلم المقصود هو ما أنزله الله من الكتاب قبل القرآن فالعلم الحق هو ماجاء من عند الله» انتهى.

﴿١١٠﴾ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

﴿قُلِ﴾ يا رسول الله ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي سواء هذا الدعاء وهذا الدعاء؛ لأن الرحمن هو الله الأحد ﴿أَيًّا مَّا﴾ أي الدعائين ﴿تَدْعُواْ فَلَهُ﴾ أي فلله وحده ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذان الإسمان وأسماء حسنى غيرهما والمسمى بها واحد ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءتك في الصلاة أي لاترفع الصوت بها رفعاً زائداً، والجهر: هو رفع الصوت قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندا ... فلم يستجبه عند ذاك مجيب
فقلت ادع أخرى وارفع الصوت جهرة ... لعل أبي المغوار منك قريب

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ أي لا تخفِها بحيث لايسمع المصلون معك ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ بين الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً.

قال الشرفي في (المصابيح): «وقال الإمام أحمد بن يحيى ـ يعني بن الهادي × ـ والسبيل: فهو الأوسط من الأمر الذي لا يعلي صوته ولا يسرّ، يكون بين ذلك وسطاً حسناً لا رفعاً شديداً ولا خفضاً غامضاً، مثل قوله في

(سورة الأعراف): [﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [آية:٢٠٥] وأمره لَه] بالذكر الخفي وأمره في (سورة بني إسرائيل) بأن يتوسط بالصلاة بين الأمرين كما وصفنا» انتهى، وأما الهادي × فجعلها صالحة لهذا المعنى وللإسرار في بعض الصلوات والجهر في بعضها، وكأنه حملها على المعنيين.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿وَقُلِ﴾ عطف على ﴿وَلَا تَجْهَرْ﴾ يظهر به أن هذه الآية لها علاقة بالصلاة فيحمل قوله تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ﴾ على التكبير الواجب الذي هو أول الصلاة، وما تقدم قبله استعداد للصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ أي أن الملك لله وحده، فالحكم له وحده ومن ملَّكه ـ بتشديد اللام ـ فهو ملك للعبد لا يخرج به عن العبودية لله فلا مشاركة لَه في مُلك الله؛ لأن العبد إنما يكون لَه ملك نسبي، والملك المطلق لله وحده، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ أي أنه القاهر فوق عباده الغني عن الولي. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناه: لم يكن لَه حليف ولا ناصر» انتهى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله وسلم

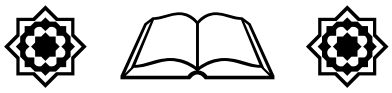

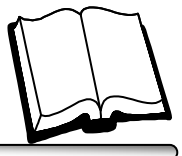

التيسير في التفسير

سورة الكهف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ

تفسير (سورة الكهف)

حكى الشرفي في (المصابيح): ((عن ابن عباس: أنها مكية إلا آيتين وعن قتادة: أنها مكية)) انتهى.

۝١ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي القرآن، حكى الشرفي في (المصابيح): ((عن المرتضى بن الهادي إ أنه قال: معنى ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فهو الحمد والثناء على الله بما أولى، ومعنى ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وعبده فهو محمد ص والكتاب [فهو] الذي فيه النور والشفاء والحق والهدى وجميع ما يحتاج إليه من حلال وحرام ونازلة من نوازل الأيام)) انتهى.

فلله الحمد يستحقه لنعمته علينا بهذا الكتاب، فالكلام مسوق لبيان أن الكتاب هذا نعمة من الله بذكر استحقاقه للحمد عليه ولذلك فعلينا أن نستمعه ونتفهم معانيه ونتمسك به.

﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ فسّروه: بأنه تعالى لم يجعل في القرآن عوجاً، وهو مشكل؛ لأن التعبير فيما أرى لو أريد ذلك: لم يجعل فيه عوجاً كقوله تعالى: ﴿لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ [طه:١٠٧].

فأما بـ(اللام) فقد استعمل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِي لاَ عِوَجَ لَهُ﴾ [طه:١٠٨] وليس معناه: نفي العوج عن الداعي بل عن المدعوين.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ

وأيضاً لو كان المراد أنه لم يجعل فيه عوجاً لكان قوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ كافياً إذا كان معنى ﴿قَيِّمًا﴾ سليماً من العِوج كما هو الراجح، فالراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ أنه تعالى لم يجعل له عوجاً في إنزاله بل أنزله بإرسال جبريل الأمين الذي بلغه كما هو من دون زيادة ولا نقصان ولا تبديل ولا تحريف ولو أنزله بإرسال الشياطين إلى الكهنة لكان في تبليغه تغيير منهم بسبب إنزاله بواسطتهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف:٥١] والله أعلم.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أنزل على عبده الكتاب ﴿قَيِّمًا﴾ سليماً من العوج: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

حكى الشرفي في (المصابيح): ((عن المرتضى × : معنى ﴿قَيِّمًا﴾ فهو الثابت المصيب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكل ما فيه نور وحجة ولمن عقله أكبر الدلالة قيم جميع أحواله قاهر لمن ناظره..)) إلخ.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أنزله على عبده لينذر كل من لم يؤمن ويعمل الصالحات ﴿بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ فقوله تعالى: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ أي شراً عظيماً وعذاباً أليماً يبيِّن أهمية الإنذار ليحذر البأس من أراد السلامة وليكون الإنذار حجة على من أبى ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا

وقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي من عنده أي هو الذي يعذب المنذَرين إذا أبوا وأصروا، وهذا بيان أهميَّة أن ينذرهم؛ لأن حكمته تقتضي أن لا يعذب قبل أن ينذر بخلاف البأس الذي ليس من لدنه فلا يجب أن ينذر الناس قبل وقوعه على كل حال، بل قد تقتضي الحكمة تسليط بعض الناس على بعض وترك المسلط عليهم غافلين عمن يهجم عليهم بعينه وفي وقته وإن كان ينذرهم التسليط منه عقوبة على المعاصي في الجملة.

وقوله تعالى: ﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الجنة وما فيها من الدرجات والنعيم بدليل ما بعد هذه.

﴿٣﴾ ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ باقين فيه أبداً لا يخرجون منه ولا يفارقونه ولا يموتون.

﴿٤﴾ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا إنذار خاص بهم لأجل شركهم، واتخاذ الولد غير الولادة، ولعلهم اليهود؛ لأجل قولهم: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠] وبعض النصارى في عيسى صلوات الله عليه لا جاهلية قريش، فقد قال الله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ..﴾ [الصافات:١٥١-١٥٢] ولعله قولهم في الملائكة.

﴿٥﴾ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ أي بقولهم: ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ فقد قالوا على الله ما لا يعلمون ﴿وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ الذين قلدهم الأبناء فهم لا يعلمون ذلك الباطل، بل هو قول عظيم.

وقوله تعالى ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي هذه الكلمة التي هي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وفيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أكبرها كلمة إعظاماً لتجاسرهم على النطق بها..)) إلخ.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ تشنيع وتقبيح للكلمة وتسجيل عليهم بخروجها من أفواههم وتحملهم مسؤوليتها وعارها بذلك، وقوله تعالى: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً؛ لأن الله جل جلاله ما اتخذ صاحبة ولا ولداً سبحانه هو الغني وكفى في بطلان قولهم أن الله قال فيه: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ مع أن الدعوى يبطلها عدم الدليل عليها وكون المدعي لم يقلها إلا جزافاً بغير علم.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ مهلك نفسك، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((معناه: قاتل نفسك ومهلكها، وقوله تعالى ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ معناه: ندم)) انتهى.

وهذا إما تشبيه له ص في فرط أسفه بمن يخشى عليه إهلاك نفسه بالأسف عليهم، ونظيره في التشبيه قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩] أو هو للمخاطب كأنه قيل: يُتوقَّع أن تبخع نفسك، كقوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] وهذا أقرب وأظهر.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي آثار أقدامهم في الأرض حين مشوا متولين عنك، وقوله تعالى: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ شرط دليل جوابه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي إن لم يؤمنوا يتوقع أن تقتل نفسك على آثارهم أسفاً أو لعلك إن لم يؤمنوا تبخع نفسك وهذا أرجح.

عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ

وهذا الأسف إما لحبه لله ورغبته في ظهور دينه وذهاب الشرك فهو يأسف لمن لم يؤمن لهذا السبب، وهذا أقرب بدليل ما بعد هذه، ولعله معنى ما حكاه الشرفي في (المصابيح) عن المرتضى بن الهادي إ ، وإما إشفاقاً عليهم من عذاب الله، وإما للأمرين.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ دليل على شدة الأسف حيث جعل مظنة إهلاكه في ذلك الوقت بعد انصرافهم قبل أن تذهب آثار أقدامهم.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فلا يحزنك كفرهم، فإن الله ـ جلَّ جلاله ـ أراد أن يبلو أهل الأرض بزينتها، ولم يرد أن يضطرهم إلى الإيمان، بل أراد أن يبلوهم أي يختبرهم، وذلك يلزم منه تمكينهم من اختيار ما شاءوا دون أن يضطرهم إلى الإيمان

﴿٨﴾ ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ ﴿مَا عَلَيْهَا﴾ ما على الأرض كله مما جعله الله زينة لها ومن غيره ﴿صَعِيدًا﴾ تراباً على وجه الأرض ﴿جُرُزًا﴾ لا نبات فيه، فزينة الدنيا لم تخلق للبقاء بل هي ذاهبة كلها بعد انقضاء مدة اختبار الناس بها وقرب يوم الحساب أو ذلك كائن أول يوم البعث.

﴿٩﴾ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ تجويف في الجبل، يُكنُّ من المطر ويكون فيه ظل من الشمس وأصحاب الكهف هم الذي أووا فيه وناموا سنين عديدة كما يأتي في قصتهم.

ويروى أن سبب نزول قصتهم سؤال اليهود عنها، فارتباط قصتهم بما قبلها من حيث أن السائلين: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ولم يؤمنوا برسول الله ص ولا بالقرآن مع علمهم أنه من الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ فالراجح أنه: ما رقم فيه أسماؤهم، أي المرقوم فعيل بمعنى مفعول، ولا يجب أن المرقوم أسماؤهم، بل يحتمل: أن يكونوا هم رقموه وأن يكون في الصخرة كلمة التوحيد وذكر الله جل جلاله أو غير ذلك فلا يتعين إلا أنه معهم مرقوم من غير تعيين، فحاصل معنى الآية: بل أحسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من بين آياتنا عجباً دون غيرهم، فإن عجائب آيات الله كثيرة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × [أي محمد بن الهادي إ] معنى ﴿كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ يقول سبحانه إنهم لم يكونوا من أعظم الآيات، بل كان في آياتنا ما هو أعجب وأعظم من هؤلاء، وإن كان فيهم العجب العجيب لمن فكر وعقل واعتبر وازدجر أن يكون ممن خلقهم الله كخلق الآدميين، وركب فيهم من الأكل والشرب والروح ما ركب في جميع المخلوقين، ثم أقاموا بلا أكل ولا شرب ثلثمائة سنة وتسع سنين، لم تتغير لمرّ السنين أمعاؤهم ولم تذهب بطول المدة لحومهم، ولم تؤثر الأرض في أبدانهم، فهذا من أوضح دلالة لمن أبصر وأبين حجة لمن تفكر وآمن بالله واعتبر، فكان الناس يتعجبون من بقائهم وسلامة أبدانهم مع طول هذه المدة، فأخبرهم الله أن من آياته التي ترون ما هو أعظم من ذلك)) انتهى.

رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ

﴿١٠﴾ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ هذا أول موجز قصتهم، ويظهر أنهم صاروا إلى الكهف ليختفوا من قومهم ولما في الكهف من ظلال أو كنان أو دفء، فهو قائم مقام بيت لهم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ لأنهم يحتاجون إلى الأمن وإلى الطعام والشراب فطلبوا من ربهم حل مشكلتهم.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ التهيئة للشيء: إعداده وجعله صالحاً لما أعد له، وقولهم: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي هو مفارقة قومهم ومساكنهم واعتزالهم في الغار أي اجعل لنا من ذلك ﴿رَشَدًا﴾ وهدى لما فيه لنا الخير فقد توكلوا على ربهم وطلبوا منه أن ييسر لهم أمرهم ويصلح شأنهم.

﴿١١﴾ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ ﴿فَضَرَبْنَا﴾ الفاء للتفريع أي أجبنا دعاءهم بالضرب على آذانهم سنين، و(في تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ معناه: بالنوم)) انتهى، ومعنى الضرب على آذانهم: منعها أن تسمع، فهو كناية عن جعلهم نياماً، واستغنوا عن الطعام والشراب، وذهب عنهم الخوف ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾.

﴿١٢﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم وأقمناهم أو أيقظناهم فخرجوا من الكهف وأظهرناهم كما يأتي في تفصيل قصتهم، وهذا أظهر، لأنه تعالى عللـه بقولـه: ﴿لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ أي لنبتلي بقصتهم، فيظهر من يصيب في ذكر مدة لبثهم في الكهف، وهو يفيد: أن الناس اختلفوا في مدة لبثهم وصاروا في خلافهم حزبين كما اختلفوا في عددهم.

هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا

وقوله تعالى: ﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ أي أحصى أمداً للبثهم في الكهف، أي كم لبثوا فيه، قال في (الصحاح): ((قال: ما أمدك: أي منتهى عمرك)) انتهى، فالأمد: مدة طويلة إذا أضيفت أريد بها مقدارها باعتبار غايتها.

قال الراغب: ((الأمد والأبد يتقاربان، لكن الأبد: عبارة عن مدة الزمان التي ليس لها حد محدود ولا يتقيد، لا يقال: أبد كذا، والأمد: مدة لها حد مجهول إذا أطلق وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد كذا)) انتهى المراد.

﴿١٣﴾ ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × [يعني محمد بن الهادي إ] يقول: نخبرك عن أمرهم على صحة لأن أهل الكتاب كانوا يكذبون ويقولون ما لا يعلمون من أمرهم، فقال ـ عزَّ وجل ـ: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك يدخله ولا باطل يخالطه، ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ فذكر سبحانه أنهم آمنوا بربهم فأطاعوه فيما افترض عليهم فزادهم عند ذلك عوناً وتوفيقاً وهداية وتسديداً.

ثم قال: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ومعنى الربط منه سبحانه فهو التقوية والتسديد لهم والتوفيق حتى تثبت قلوبهم على الحق فارتبطت به فلم تزل عنه؛ لأن العرب تسمي من ثبت قلبه مرتبط الجنان مرتبط القلب، فلما وفقهم الله عز وجل ارتبطت قلوبهم وثبتت على الحق عزائمهم ولم تزغ مع من زاغ من قومهم، فكان ذلك من الله ـ عزَّ وجل ـ نوراً إلى نور وخيراً إلى خير)) انتهى.

﴿١٤﴾ ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ في (المصابيح) يقول الشرفي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [آية:١١] من (سورة الأنفال): ((قال الحسين بن القاسم × : روي أن الله ـ عزَّ وجل ـ نزل عليهم مطراً خفيفاً ليطهرهم به من نجاسة الشيطان ومقاربته وملابسة دخوله بينهم ورائحته وليربط على قلوبهم ويثبتهم ويخفّوا بالماء المبارك من ثقلهم لما جعل الله فيه من الحكمة والرحمة لهم والثبات لقلوبهم وأقدامهم..)) إلخ .

فالراجح: أن المعنى: قوَّينا قلوبهم حين قاموا بحضرة قومهم أو بعض قومهم فأعلنوا كلمة التوحيد وقومهم مشركون، فلم يمنعهم الخوف من القيام بالقسط.

وقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ احتجاج على إبطال دعوة إله من دون الله؛ لأن الله ربهم المالك لهم فعبادة غيره باطل؛ لأن العبادة اعتراف للمعبود من العابد بالعبودية، وهم إنما هم عبيد لله وحده لا شريك له، وقولهم: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى أن الله رب كل شيء؛ لأن السموات والأرض فيما يظهر معظم العالم.

وقولهم: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ أي لن نشرك بالله بعبادة شيء من دونه بالدعاء، وقولهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي لو دعونا من دونه إلهاً لكنا قد قلنا شططاً أي بعيداً من الحق والصدق أي قولاً شططاً.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي |): ((﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي جور)) انتهى. وفي (تفسير المرتضى محمد بن الهادي |) الذي حكاه الشرفي في (المصابيح): ((والشطط: فهو المحال من القول المهلك فعله الباطل في نفسه)) انتهى.

وفي (تفسير الراغب الأصبهاني): ((الشطط: الإفراط في البعد..)) إلخ.

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا

﴿١٥﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٍۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ ينكرون على قومهم الشرك.

وقولهم: ﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ﴾ أي هلاّ يأتون أي قومهم ﴿عَلَيۡهِم﴾ أي على آلهتهم ﴿بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٍ﴾ أي بحجة بينة تسلطهم على الشرك وتحملهم عليه، وقولهم: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ سؤال في معنى النفي أي لا أظلم ممن افترى على الله كذباً، وافتراء الكذب اختلاقه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : والإفتراء فهو الكذب وقول ما لم يكن من ذلك أنهم كانوا يزعمون أنهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله سبحانه، ويقولون: إن ذلك له رضى سبحانه، وكان ذلك منهم افتراء على الله وكذباً، فلذلك سأل الفتية البرهان إذ نسبوا ذلك إلى الله سبحانه، فسألوهم تصديق قولهم؛ لأن الله ـ عزَّ وجل ـ إذا أمر بأمر أو تعبد به كانت معه شواهد تصدقه وعلامات تؤكده وحجج تبهر عقول الخلق وتبينه)) انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ﴾ أي وحين اعتزلتم قومكم المشركين وما يعبدون واعتزلتم ما يعبدون مجتنبين للشرك ﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ أي فاذهبوا إلى الكهف وكونوا فيه؛ لأنكم

غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ﴿١٧﴾ وَتَحۡسَبُهُمۡ

تحتاجون إلى مأوىً وتحتاجون إلى مرتفق أي ما تنتفعون به من القوت وغيره ولعل الله أن ﴿يُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾ وجزموا بذلك فقالوا ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً لقوة رجائهم في الله؛ لأنهم مهاجرون إليه بدينهم فاعتقدوا أنه لا بد أن ينشر لهم من رحمته؛ لأنهم في طاعته لأن فراقهم لقومهم ولما عند قومهم من حاجاتهم ورزقهم كان ضرورياً لحفظ دينهم فتوكلوا عليه في هجرتهم إليه، واهتدوا لذلك بهدى الله المذكور في قوله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

ومعنى ﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ يوسع لكم والنشر خلاف الطي كما أن البسط خلاف القبض، قال الراغب: ((نشر الثوب، والصحيفة، والسحاب، والنعمة، والحديث: بسطها)) انتهى.

فقولهم: ﴿مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أرادوا به تيسير أمرهم وحل مشكلتهم بحيث يأمنون ويثبتون على دينهم، وقولهم: ﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم﴾ التهيئة إعداد الشيء للغرض المطلوب منه، فالمعنى: يجعل لكم من شأنكم ما به يحصل لكم ما ترتفقون به، وأمرهم هو هجرتهم وذلك الذي أملوه أن يهيء لهم من هجرتهم سبباً لمعاشهم وإن كانوا لا يتصورون ما هو هذا السبب، وإنما ذلك توكل على الله وثقة به ومع ذلك دعوا الله تعالى كما مر فأجيبوا.

﴿١٧﴾ ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ تتحرف، وفي (معلقة عنترة) يذكر فرسه:

فازور من وقع القنا بلَبَانِه وشكى إلي بعبرة وتحمحم

يعني انحرف من وقع الرماح في صدره، قال شارحها: ((الأزورار: الميل، والتحمحم من صهيل الفرس، ما كان فيه شبه الحنين ليَرِقّ صاحبه له)) انتهى.

وما قيل: من أن الأزورار الإنقباض، فلا ينافي هذا؛ لأن المنقبض يعرض فينحرف، فلعل الإنقباض سمي أزوراراً بهذا المعنى كما يسمى المنقبض منحرفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي يراها الرائي الموجود هناك عند طلوعها ووقوع شعاعها في الكهف تزاور عنه ذات يمين الكهف أي إلى جهة الجنوب كما هي عادتها، وهذا مبني على أن الكهف بجملته متجه إلى الشمال شرقاً، ذات يمينه شرق إلى الجنوب، وذات شماله شمال إلى الغرب، فذلك صنع الله تعالى في الكهف حيث صنعه على هذا الشكل يوم خلقه أو هيّأه ليكون كهفاً يسكنون فيه لا تضرهم الشمس فيه ولا يحرم هواؤهم منها عند شروقها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ فقبيل غروبها يبلغهم شعاعها ضعيف الحرارة كما هي عادتها عند الغروب فتقرضهم بغروبها عنهم أي تقطعهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه تقطعهم وتجاوزهم)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : فأخبر سبحانه بلطفه لهم في الشمس في طلوعها وغروبها؛ لأنها لو دخلت عليهم لأحرقت أجسادهم وغيّرت ألوانهم فكانت إذا طعلت تزاور عن كهفهم كما قال سبحانه: ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي تدخل [في] من الكهف دخولاً قليلاً، والقرض منها لهم: هو دخول يسير منها عليهم.

والعرب تقول: قرضنا بلد كذا وكذا، يريدون أنهم لم يتوسطوا فيها وأنهم ساروا في جانب يسير منها)) انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): ((قال أبو عبيد: القرض في أشياء فمنها القطع ومنها قرض الفأر لأنه قطع، وكذلك السير في البلاد إذا قطتها ومنه قوله:

إلى ظُعُن يقرضن أجواز مُشْرفٍ

ومنه: قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ وقوله: أجواز مشرف يروى أقواز مشرف، حكاه في (لسان العرب) [بالقاف والزاي]:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شِمالاً وعن أيمانهن الفوارس

وفي (الصحاح): ((القَوز [بالفتح]: الكثيب الصغير عن أبي عبيدة وجمعه: أقواز وقيزان، وأنشد لذي الرمّة:

إلى ظعن يقرضن أقواز مشرف شِمالاً وعن أيمانهن الفوارس))

انتهى.

قال في (لسان العرب): ((حيث رواه بلفظ: أجواز ومشرف والفوارس موضعان، يقول: نظرت إلى ظعن يجُزن بين هذين الموضعين)) انتهى.

قلت: وعلى ما حكاه عن أبي عبيدة يقطعن أجواز مشرف، وفي (لسان العرب) قال: ((الأجْوَاز: الأوساط، وجَوْز كل شيء: وسطه)) انتهى، وإنما ذكرت كلام أبي عبيدة هنا لمقاربته كلام المرتضى × .

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي فجوة من الجرف فهو كبير أعني الكهف، وفيه مكان متسع في جانب منه والراجح: أنه تجويف واسع.

قال في (الصحاح): ((الفجوة: الفُرجة والمتسع بين الشيئين)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((الفجوة والفرجة: متسع بين الشيئين ـ ثم قال ـ : والفجوة في المكان فتح فيه)) انتهى.

وعلى هذا: فالفجوة: متسع في جانب الكهف ذو فتحة إلى الخارج ـ والله أعلم ـ ويكفينا أن نعرف: أن الله سبحانه تولى حفظهم وأحسن رعايتهم في كهفهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أعتقد أن الإشارة إلى هدى الله لهم حيث وحدوه وفرّوا بدينهم وتوكلوا عليه فلجأوا إلى الكهف؛ لأن إيمانهم غلب وسواس الشيطان وتخويفه لهم من الجوع والضياع وتخويفه لهم من قومهم فهو إيمان قوي في سرعة عجيبة تطور ورسخ، وذلك دليل على أن هدى الله يبعث على ذلك وأمثاله، كما بعث السحرة على الإيمان بموسى وترك الحذر من خطر فرعون، فلنتعرض لهدى الله بحسن النية والإخلاص ثم بالطاعة والتقوى.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ كالتفسير لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ يبين أن الهدى ليس له مصدر غير الله فمن فاته هداه حتى ضل فلن يكون له هدى من غير الله يتولاه بحسن الرعاية، ويرشده إلى سواء السبيل.

نعم الهدى من الرسل والأئمة الهادين وغيرهم ليس إلا من هدى الله فمن لم يهده الله لم يهتدِ بالهداة، كما قال تعالى لرسول الله ص: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ۖ ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ

﴿١٨﴾ ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ **﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ هم كالأيقاض، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾** [الإنسان:١٩] **فهم فاتحوا أعينهم في هيئة الأيقاض لو رأيتهم حسبتهم أيقاضاً.**

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ معناه ظاهر وكأن الله تعالى ألقى عليهم النوم حين استقروا في الكهف لتطمئن قلوبهم وتنحلّ مشكلتهم قبل أن يشتد عليهم جوع أو غيره من حالات الإنسان الداعية له إلى الطلب، فكان النوم فرجاً عاجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ من كمال ذكر قصتهم كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ ولعله من حفظهم ليدفع عنهم السباع مع الهيبة التي جعلها الله لهم، وليس في الآية أنه نام فلعله عاش على الصيد ولكن إلى متى ـ الله أعلم. و(الوصيد): خلف الباب من الداخل، ولعلهم أغلقوه بصخرة.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((الوصيد: الفناء، والوصيد: الباب)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الوصيد: الفِنَاء، وأوصدت الباب، وآصدته: أغلقته)) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((الوصيد فِنَاء الدار والبيت، قال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ قال الفراء: الوصيد والأصيد لغتان، مثل: الوِكاف والإكاف، وهما الفناء قال: قال ذلك يونس، والأخفش)) انتهى.

قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ

فترجح: أنه الفِناء، وهو المقدم في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) ولعلهم سموه وصيداً لإغلاق الباب عليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨] لإغلاق أبوابها عليها ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ يفيد أن الله تعالى حفظهم برعب من اطلع عليهم، ويفيد: أنه رعب شديد غالب، ولو اطلع عليهم أشجع الناس لولى منهم فراراً وامتلأ منهم رعباً، وقد احتج بذلك بعض الناس لإبطال (حديث البساط) ونحن نرحب بالعرض على الكتاب إذا صح العرض، ولكن ليس في (حديث البساط): أن علياً × اطلع عليهم لا هو ولا أصحابه، فإذا صح (حديث البساط) فيحمل على أن علياً × ومن معه سلموا عليهم، وكلمهم علي × من خارج الكهف من عند الباب.

قال في (الصحاح): ((الرعب: الخوف)) انتهى، وقال الشرفي: ((أي خوفاً وفزعاً لما ألبسهم من الهيبة)) انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ قال الشرفي: ((أي كما أنمناهم كذلك بعثناهم)) انتهى، أي فبعثهم بعد النوم الطويل المستمر ثلاثمائة وتسعاً من السنين آية تدل على قدرته تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي ليسأل بعضهم بعضاً، وقوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يفيد: تأكيد أن السؤال وقع من بعضهم لبعض.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ تفسير لسؤال بعضهم لبعض أي كم لبثتم في هذا المكان نائمين ؟أو كم لبثتم في نومكم هذا؟ واللبث: هو البقاء في المكان أو نحو المكان مما يكون في المكان ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لم يشعروا بطول المدة؛ لأنهم كانوا نياماً لا يعلمون شيئاً وكأنهم رأوا علامة أنهم قد لبثوا أكثر من ذلك ولا يدرون كم لبثوا، فـ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فأحالوا أمرهم ذلك إلى علمه تعالى.

وأرادوا القوت فانتقلوا إلى تدبيره فقالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي اخرجوه إلى المدينة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فليبحث عن المكان الذي فيه الطعام الذي هو أطيب طعاماً فهو حلال طيّب ولظنهم أن أهلها ما زالوا قومهم المشركين خافوا أن يشتري رسولهم شيئاً مما يعرف المؤمن أنه خبيث؛ لأن المشرك لا يتجنبه كالخمر والخنزير والميتة والمغصوب، وهذا الشيء يعتبره المؤمن خبيثاً إذا عرف أنه مغصوب وعرف مفاسد الخمر والخنزير، فذلك غير زكي أو على الأقل لا يثق أنه زكي فضلاً عن كونه أزكى، وهذا إن لم يكن عندهم بقايا دين سماوي فأما إن كان عندهم شيئ من ذلك فظاهر، والورق الفضة أرادوا أن يشتروا بها طعاماً.

وقولهم: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي فليأتكم بقوت تقتاتونه لأيام من رزق الله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يحاول إخفاء نفسه وأن يبقى غامضاً لا يعرف الناس أنه منَّا ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ﴾ ولا يُعْلِمْ بكم ولا يطلع عليكم ﴿أَحَدًا﴾ كائناً من كان من قريب أو بعيد، لأن سركم يجب أن لا يظهر.

يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ

﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ يقول أهل الكهف: ﴿لْيَتَلَطَّفْ﴾ رسول الطعام لئلا يعرفوا مكانكم، إنهم أي قومهم المشركون ﴿إِن يَظْهَرُواْ﴾ يطَّلعوا ﴿عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ لخروجكم من ملتهم وإسلامكم إن لم ترجعوا إلى دينهم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ إن أطعتموهم ﴿وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا﴾ أي إن أعادوكم في ملتهم ﴿أَبَدًا﴾ لأنكم إن كفرتم بعد الإسلام خوفاً منهم يغلبكم الخوف فلن تجرؤوا على الإسلام بعد ذلك أبداً.

﴿٢١﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أنمناهم وأيقضناهم بعد المدة الطويلة ﴿أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أطلعنا عليهم قوماً آخرين غير قومهم على طريق الصدفة؛ لأن قومهم قد هلكوا وجاء دين آخر فلم يكن عليهم بأس من اطلاع المطلعين عليهم بل ظهرت لهم آية الله في أصحاب الكهف وظهرت لأصحاب الكهف؛ لأنهم ما كانوا يعلمون بطول مدتهم في نومهم، فقد علموا آية الله فيهم وأنه نجاهم من قومهم وحفظ لهم دينهم وحفظهم في مدتهم الطويلة في الكهف وأحسن رعايتهم لما آمنوا بالله.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وهو وعده بالحياة الآخرة بعد الموت؛ لأنهم عرفوا ذلك إما من دين عيسى الذي بعثوا بعده وفي ظهور دينه في بلدهم وكان بعثهم بعد نومهم المدة الطويلة آية لهم ليعلموا إمكان بعثهم بعد الموت ويعلموا صدق الخبر بالساعة من رسول الله عيسى × ويعلموا أن الساعة التي عندها البعث والحساب والجزاء لكل نفس بما تسعى آتية لا ريب فيها، فيكمل لهم الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ببعثهم من نومهم وبلوغهم رسالة عيسى × ، وما جاء به في الجملة من أسباب الإيمان بالرسل واليوم الآخر والجنة والنار لطف لهم ورحمة من الله، وبعد ذلك توفاهم الله تعالى مؤمنين مسلمين.

واختصر القرآن قصتهم لكفاية ذكر موضع العبرة من قصتهم، والدلالة على لطف الله بالمؤمن وحسن رعايته له، والدلالة على إمكان الحياة بعد الموت، وأنه مثل بعثهم بعد نومهم، وانتقل القصص إلى من بعدهم، فقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي يتنازع من بعد أصحاب الكهف أمرهم أي أمر أصحاب الكهف ﴿فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ لحفظهم وليكون البنيان علامة لمحلهم لأجل قصتهم العجيبة ورغبة الناس في الإطلاع عليهم ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ فالبنيان هذا يكفي لأنا لا نعلم هل كانوا مشركين على دين قومهم أو كانوا مسلمين على دين عصر بعثهم من نومهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾: بل كانوا مسلمين فضلاء فـ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ إكراماً لهم وحفظاً وعلماً لمحلهم وتبركاً بهم، وقوله: ﴿عَلَيْهِم﴾ يحتمل: فوق كهفهم، ويحتمل على باب الكهف، وهو الذي رواه الشرفي في (المصابيح) عن الحسين بن القاسم إ .

رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا

﴿٢٣﴾ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾.

هذه الآية الكريمة تشير إلى أن أهل الكتاب سألوا رسول الله عن أهل الكهف وليس عند اليهود حقيقة خبرهم لأنهم متأخرون عن نزول التوراة، فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي أصحاب الكهف ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ لأنه قول بلا مستند، أما القول الأول فلعله مبني على أنه قد اشتهر عنهم أنهم جماعة وأقل الجمع ثلاثة فلم يكن قولهم: ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ رجماً بالغيب؛ لأنهم قد أثبتوا أقل الجمع أي المتحقق ولم يزيدوا عليه؛ لأنهم لم يعلموا عددهم على التحقيق.

وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولعلهم استندوا في ذلك إلى رواية صحيحة فلم يكن قولهم رجماً بالغيب، وقوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أي ليس لكم علم بعدتهم، فلا تخوضوا فيما لا تعلمون.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ فهذا القليل يعلم عدتهم، والله أعلم من هم ذلك القليل.

قال الشرفي في (المصابيح): «وأما الهادي × فقال: هذا أمر لم يُطلع الله نبيه عليه؛ لأنه لم يحتاج [كذا] إلى علمه ولم يفترض الله على أحد من العباد علمه، ولم يتعبد به فلسنا نحتاج لتكليف [كذا] ما كفينا فيه، وقد تقحم في ذلك غيرنا بغير معرفة، ولا نحب أن نتقحم فيما نذم فيه ولا نحمد ـ والله أعلم بذلك وأحكم.

فأما القليل الذي ذكر الله أنهم يعلمونهم فإنما هم قليل ممن عرف مخرجهم وعددهم وقت ما خرجوا من القرية هاربين وأووا في ذلك اليوم إلى الكهف منحازين وليس القليل العالم بعد استيقاظهم من رقدتهم وإنما القليل الذي علموهم قبل رقدتهم وعند خروجهم من قريتهم وقد نهى الله سبحانه نبيه عن المماراة في عدتهم والقول بما لم يطلعه الله عليه، وما نُهِي عنه ص فنحن [عنه] منهيُّون وما أمرَ بتركه فيهم فالخلق بذلك مأمورون..)) إلخ.

قلت: وما روي عن ابن عباس ا أنه قال: أنا من ذلك القليل هم سبعة وثامنهم كلبهم، رواية لا تفيد العلم والإستناد إلى أن زيادة (الواو) في هذا القول دون القولين الأولين وإلى أنه لم يقل فيه رجماً بالغيب ليس اعتماداً على دليل، ودعوى أن ذلك قرينة دعوى بلا دليل، أما أنه لم يقل فيه رجماً بالغيب فلعل سببه أنه ليس رجماً بالغيب، بل استناداً إلى رواية وليس خروجه عن كونه رجماً بالغيب يستلزم أنه صحيح؛ لأن من الممكن أنه ليس رجماً بالغيب وليس صحيحاً؛ لأنه مستند إلى رواية يظنها صحيحة وهي غير صحيحة في الواقع، وأما الواو فلا تدل على صحة ذلك القول؛ لأن الواو لا تعبر عن صحته، وقد تكون لملاحظة أهل القول بأنهم سبعة كونَ الكلب مغايراً لأهل الكهف كما زيدت الواو في الشهادة الخامسة في اللعان لمغايرتها للأربع في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي لا تجادل من تحادثه في الكهف إلا جدالاً ظاهراً بالحجة غالباً للخصم المنصف، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم﴾ أي في أهل الكهف ﴿مِّنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ لأن الحقيقة عندك لا عندهم.

تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ **عطف على قوله تعالى:** ﴿فَلاَ تُمَارِ..﴾ **إلى آخر الآية، وقوله تعالى:** ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ **أي: لا تقولن في شيء، مثل قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١] **وقوله تعالى:** ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ **هو القول المنهي عنه، وقوله تعالى:** ﴿فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ **كناية عن الفعل الذي يَعِد به مثل أن يقول: إني مسافر غداً فليس خاصاً بلفظ فاعل.**

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ **إن كان الإستثناء من النهي فالمعنى إلا أن يشاء الله أن تقول بأن يوحي إليك أن تفعله وتَعِدَ بفعله، وعلى هذا لا يكون معناه الأمر بالشرط بأن يقول إن شاء الله، ولا يجب جعل الآية بمعنى الشرط، وفائدة ذلك: أن لا يعد الرسول بأمر وهو لا يعلم لعل الله يدلّه على ما هو أولى وهو في الرسالة مشغول بتكاليفها، وتكاليف الجهاد، وتكاليف إصلاح أمر المسلمين والحكم بين الناس، فلا يدري إذا وَعَدَ لعلها تعرض حالة ضيقة تمنعه مما وعد به، وهو لا يليق به خلف الوعد ولو لعذر حيث يكون فيه تشويه أو مطعن للكافرين.**

فكان النهي عن الوعد الجازم المؤكد بـ(إن) والجملة الإسمية أو بأي تأكيد مثله هو الأولى في حقه ص وهذا الوجه هو المتعين؛ لأن جعل الإستثناء من المنهي يستلزم النهي عن الإستثناء، وهو معنى غير صحيح.

كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ

فأما التقييد بالشرط فيؤخذ من الوجه الأول؛ لأنه حين يقول سأفعله إن شاء الله لم يحصل منه الوعد المنهي عنه؛ لأنه غير جازم بل هو متردد بين أن يشاء الله وبين أن لا يشاء الله.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ على مقتضى ما رجحت يكون المعنى: إذا وعدت قبل أن يأذن الله لك نسياناً منك ثم تذكرت فاذكر ربك واستغفره وارجع عن حتم الوعد بأن تقول لمن وعدته، أو قلت له: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا الذي وعدت به أو قلته لعله يهديني ويَقْرُب أن يهديني لأقرب من هذا رشداً أي لما يكون رشده أقرب مما وعدت به أو قلته.

﴿٢٥﴾ ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ هذه مدة بقائهم في الكهف من حين دخلوه حتى خرجوا منها، وهو يفيد أنهم بعد أن قاموا من النوم خرجوا منه، ولعل ذلك حين رجع صاحبهم من المدينة وأخبرهم باختلاف الحال وأنه لا خوف عليهم من قومهم أو في حال انتظارهم له، فهذه المدة ثلاثمائة سنة قمرية وتسع سنين.

وقوله: ﴿سِنِينَ﴾ بيان للثلاثمائة جار مجرى التمييز، ولا ينافي هذا الحساب زيادة أشهر أو أيام أو ساعات لأن الكلام في السنين فقط، وقوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُواْ﴾ يظهر منه أنها كانت مصلحتهم في زيادة التسع كأنهم طلبوها بل كانت في الواقع من جملة ما طلبوه، حين قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله هذا البيان لمدة لبثهم هو الحق؛ لأنه من الله وهو ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ فلا التفات إلى ما خالفه ولا سماع له؛ لأنه خلاف خبر الله الذي ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه خالق السموات والأرض وما فيهما ما هو مشاهد لنا وما هو غيب عنا فهو ملكه، ولذلك فهو القائم عليه المدبر لأموره، فكيف يغفل عنه وهو يرى ويسمع كل ذلك؟!

وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ دلالة على إحاطة رؤيته بكل خفي وكل ظاهر وكل كبير وصغير لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وإحاطة سمعه بكل صوت وكل سر.

وفي (مجموع الإمام القاسم ×) في كتاب (العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد) [ص٦١/خ]: ﴿وأما قوله: ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٦١] فمعنى ذلك: أنها لا تخفى عليه الأصوات ولا اللهوات ولا غيرها من الأعيان، أين كانت وحيث كانت في ظلمات الأرض والبر والبحر، ليس يعني: أنه سميع بصير بجوارح أو شيء سواه)) انتهى.

وفي كلام الإمام الهادي × في كتاب (الديانة) وهي من (المجموعة الفاخرة) [ص ١٥٥]: ((﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ليس سمعه غيره ولا بصر سواه، ولا السمع غير البصر، ولا البصر غير السمع، ولا يوصف بسمع كأسماع المخلوقين، ولا ببصر كأبصارهم ـ تعالى الله عن ذلك ـ

نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن

ولكنه سميع لا تخفى عليه الأصوات ولا الكلام ولا اللغات، بصير لا تخفى عليه الأشخاص ولا الصور ولا الهيئات، ولا مكان شيء من الأشياء وموضعه ولا يغيب عليه شيء من أمره وحاله لم يزل سميعاً بصيراً)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ مالهم من دون الله من ولي يتولى رعايتهم في الدنيا وجزائهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ رد على المشركين الذين يزعمون آلهتهم وسائط بينهم وبين الله تقربهم إليه وتشفع لهم عنده أو يتخيلونها أقرب إليهم من الله وأن الله تعالى بعيد عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ رد على المشركين الذين اتخذوا من دون الله شركاء وظنوا أن لمن شاء أن يتخذ من دونه إلهاً الخيار في ذلك يختار لنفسه ما شاء فيتخذه إلهاً كما أنه رد على كل من جعل لغير الله حكماً من اتباع القوانين المخترعة واتباع الظلمة واتباع الأحبار والرهبان.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ ﴿وَٱتْلُ﴾ اقرأ كما ﴿أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ما أوحاه الله إليك ﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ وهو القرأن ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا مبطل لها وجاعلاً غيرها بدلاً منها بل هي الحق الثابت الذي لا مغير له والحكم الماضي لا معقب له ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ لو عصيته أي لن تجد ملجأ منه ولا مهرباً فاقرأ ما أنزل إليك كما أنزل لتبلغه للناس وفي صلاتك وفي غير ذلك.

ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ

﴿٢٨﴾ ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ صبر النفس حبسها، فقوله تعالى ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ معناه: اثبت معهم ولازمهم؛ لأنهم ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾ وهي الصبح ﴿وَٱلۡعَشِيِّ﴾ وهو من الظهر إلى المغرب، ودعاؤهم ربهم في الصلوات وبعدها وسائر الأوقات في طرفي النهار، وفي فضل الدعاء والذكر بعد صلاة الفجر إلى الشروق أحاديث كثيرة عن رسول الله ص منها:

في (أمالي أبي طالب ×) في (الباب التاسع عشر): بإسناده عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده، عن علي × ، قال: قال رسول الله ص ((والذي نفس محمد بيده لَدعاء الرجل بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس أنجح في الحاجة من الضارب بماله في الأرض)) انتهى، وفي الباب روايات كثيرة من مظانها (شرح مجموع الإمام زيد بن علي إ).

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ أي تقرباً إلى الله تعالى وتعرضاً لرضاه؛ لأن الراضي في المخلوقين يقبل بوجهه على من هو راضٍ عنه كما أن الساخط يعرض عمن سخط عليه ولا ينظر إليه، ونظير ذلك في ضد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ لا تتجاوزهم عيناك نبواً عنهم إلى غيرهم ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ فليس أهلاً أن يطاع، لأنه ضال عن طريق الحق.

وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي سبب نزول هذه الآية: يقول الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة × : إن رسول الله ص كان يجلس بين ضعفة أصحابه، يعلمهم معالم الدين، ويزهِّدهم في الدنيا، ويصغِّر عندهم البلا، حتى قال عيينة بن حصن الفزاري: يا رسول الله إنك رسول الله وإن العرب أهل أنفة ورياسة، فإذا رأوك مع هؤلاء المساكين نفرت نفوسهم عن الدين فلم يقبلوه، فلو نحيت هؤلاء عن مجلسك، فإن كان لا بدّ منهم فاجعل لهم مجلساً ولنا مجلساً، فكاد كلامه يؤثر في رسول الله ص في إثر المجلس من حيث زخرفه عدو الله بالتقرب إلى الدين لكبار الناس، فانتظر الوحي من الله تعالى فنزل قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ..﴾ الاية إلى قوله ﴿..وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ وهو عيينة بن حصن و ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ عقوبة له إذ لا يجوز غير ذلك، وقد كان منافقاً في حياة النبي ص أحمق مطاع [كذا])) انتهى.

قال الراغب في (المفردات): ((﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: أي إسرافاً وتضييعاً)) انتهى، وفي (مصابيح الشرفي) / : ((عن المرتضى × : والفُرُط هو الإفراط في الشي المجاوز للقدر والإغراقُ فيه، بما لا يجوز وما يخرج من القصد إلى الإسراف والإغفال، فهو الخذلان بما استوجب عند المخالفة والعصيان مثل من كان من قريش وغيرها من أهل الكتاب)) انتهى المراد.

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿وَقُلِ﴾ عطف على ﴿لاَ تُطِعْ﴾ وذلك إنذار لهؤلاء المستكبرين.

فكأنه قيل: اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم وإن أنف المستكبرون وتجنبوا مجلسك ﴿وَقُلِ﴾ لهم ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ المالك لكم فلا خيار لكم يخلصكم من المسؤولية، ولا حق لكم في اشتراط تجنب الفقراء، فإن شئتم آمنتم مع هذا، وإن شئتم كفرتم فما تضرون إلا أنفسكم إن الله أعد لكم إن كفرتم ولكل ظالم ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((السرادق: حجرة تطيف بالفسطاط، وهي سرادق من نار)) انتهى.

ومثله في (الكشاف) ولعل هذا السرادق: ركام من الجمر الملتهب، يحيط بهم وهم في سواء الجحيم، قال تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ﴾ يطلبوا إغاثتهم من الحرِّ ومما يلزم الحرَّ ويلزم شدة الألم من العطش ﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٍ﴾ أي يجابوا فيما طلبوا بضده؛ لأنه ماء ﴿كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ أي دردي الزيت أو نحوه الذي يكون في أسفل الزيت والسليط مادة سوداء غليظة.

وقوله تعالى: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ خص الوجه هنا لأنه إغاثة من العطش يلزم من أجلها تقريبه من وجوههم ليشربوه فعند ذلك يشوي الوجوه، أما إذا شربوه فإنه يقطع الأمعاء ويذيب ما في البطون ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ ذم لهذا الشراب ولعله سمي شراباً وإغاثة تهكماً بأعداء الله، وقال تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي ساءت جهنم مرتفقاً، وهو تهكم بهم؛ لأن أصل المرتفق: ما ينتفع به، ومرتفقهم جهنم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : ومعنى يغاثوا في هذا الموضع مجاز معروف عند العرب، وليس بغياث على الحقيقة، والعرب تقول ذلك على سبيل الذم والوعيد والتهديد والمجاز..

أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

قال المرتضى × : المهل فهو صفو القطران فيستعون [كذا] من ذلك عند عطشهم فيشوي وجوههم ويقطّع أمعاءهم ويتضاعف عند ذلك بما هم فيه من شدة ألمه، ومعنى ﴿سَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فهي جهنم فأخبر سبحانه أن جميع ما فيها من مائها وطعامها وأرفاقها كلها من شيء شديد متعب لا منفعة فيه لطالبه ولا راحة لمستنفع به عند حاجته)) انتهى.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ﴾ أي لا نضيع ثوابه وهي جملة معترضة بين اسم (إنَّ) وخبرها.

﴿٣١﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أي الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ في هذه الآية، قال تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ﴾ فهو يبين جمال المنظر باجتماع الخضرة والأنهار الجارية سواء كان المعنى من تحتهم وهم في القصور أو من تحتهم على الإطلاق، فهي من لذة أعينهم وأسباب سرورهم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): في تفسير (سورة لم يكن): ((عن القاسم بن إبراهيم إ : وتأويل ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ [آية:٨] هو جنات مستقر وأمْن)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ يحلون من الحلية التي يلبسونها زينة لهم، والأساور جمع سوار وهو الذي يلبس في اليد وهو في الدنيا خاص بالنساء إلا أن يكون لملوك العجم وأمور الاخرة تخالف أمور الدنيا ففي الجنة رفاهية تناسبها الحلية.

وقوله تعالى ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ الظاهر: أن السندس والإستبرق كلاهما من الحرير، لقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣] وهو عام يشمل السندس والإستبرق.

قال في (لسان العرب): ((قال المفسرون في السندس: إنه رقيق الديباج ورفيعه، وفي تفسير الإستبرق: إنه غليظ الديباج ولم يختلفوا فيه)) انتهى المراد. و قال في (الديباج): ((وهي الثياب المتخذة من الإبريسم)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مُّتَّكِينَ فِيهَا﴾ أي في الجنات دلالة على راحتهم وسلامتهم من الكدّ، وقوله سبحانه: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ اختلف علماء اللغة في تفسير الأرائك والراجح أنها من السرر أو من الفراش وحده تعد في البيوت أو الخيام للإتكاء عليها وللنوم عليها وإذا كانت من السرر فعليها الفراش وكلها من الحرير، كما ذكره الإمام الهادي × في تفسير (سورة هل أتى) وهي في (المصابيح) تأليف الشرفي / .

وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ مدح لذلك المذكور، وقوله تعالى ﴿وَحَسُنَتْ﴾ أي الجنة أو الجنات ﴿مُرْتَفَقًا﴾ موضعاً لما ينتفعون به من مساكنها ومآكلها ومشاربها وملابسها وفراشها وكل ما ينتفعون به فيها فهو شيء بالغ في حسنه مبلغاً عظيماً.

وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ

---

٣٢ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ﴾

الراجح: أن الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ للمتكبرين الذين ذكرهم الله بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ..﴾ الآية. ففي قصة الرجلين عبرة لهم بل جعل الرجلين مثلاً لهم وأصلاً يقيسون عليه أهل الحق المؤمنين وأهل الباطل المشركين ﴿جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ﴾ جعلنا له رزقاً واسعاً من جنتين شجرة العنب المتنوعة ومن النخل المحيط بالجنتين ومن الزرع الذي بين الجنتين، فهو رزق واسع ومنظر جميل تطمن به نفسه.

٣٣ ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ ﴿كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ﴾ كل واحدة من الجنتين ﴿ءَاتَتۡ أُكُلَهَا﴾ أثمرت وأينع ثمرها أو صلح لقطفه يوم حصاده.

﴿وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ لم تظلم من ثمرها المعتاد شيئاً بل آتته موفوراً كاملاً، وسمي النقص ظلماً لأن المعتاد المألوف يكون عند صاحب المال كالمستحق الواجب، ولذلك يكون النقص مصيبة عنده، قال تعالى: ﴿وَنَقۡصٖ مِنَ الأَمۡوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:١٥٥].

وقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا﴾ أي خلال الجنتين ﴿نَهَرٗا﴾ يسقيهما، ولذلك توفرت ثمراتهما بتوفر السقي السهل على صاحبهما حيث لا يكلِّفه نزعاً بالدلى ولا مؤونة نقل إليهما.

تُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ وكان في حالة من الحالات تنوعت الثمار وحضرت له على ما يرام فداخله الطغيان الذي يدعو إليه الغنى وثراء المال ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ المذكور معه في أول القصة ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ وكأنه يلومه على بعض تصرفاته ومخالفته له في الطريقة فيقول له: أنا أكثر منك مالاً، لأنك لم تعمل في كسب الرزق مثل عملي ﴿وَأَعَزُّ﴾ منك ﴿نَفَرًا﴾ لأني ومن معي حصلت لنا بالغنى عزة في قومنا وبلدنا أما أنت فأنت ذليل من أجل فقرك، أو ليس لك من العز مثل مالي ولمن معي.

وهذا الكلام لا يعتبر دلالة على سعادة؛ لأنه إنما هو افتخار بعرض دنيوي قريب الزوال ولذلك فهو لا يهم صاحبه لأن صاحبه مؤمن ينظر إلى الدنيا بعين الإحتقار ولا يعظم في نفسه إلا الإيمان والتقوى والعمل الصالح.

﴿٣٥﴾ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ ﴿وَدَخَلَ﴾ هذا المغتر بالعاجلة دخل ﴿جَنَّتَهُۥ﴾ ينظر ما فيها من الثمر ويفتخر به ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالبطر.

ثم بالغ في افتخاره ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أي تفنى ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ الجنة ﴿أَبَدًا﴾ بل هي باقية أبداً؛ لأن الماء يحفظها، لأنه لا يزال يروي عروقها فتبقى خضرتها وحيوتها أبداً، ثم أضاف نفي ظنه لقيام الساعة التي عندها تهلك جنته وتتغير الأحوال ويفنى كل شيء تأكيداً منه لظنه أن جنته باقية أبداً فقال:

وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهُمَا مُنقَلَبًا﴾ ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ كفراً منه بوعد الله ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ بعد الموت ﴿إِلَىٰ رَبِّى﴾ الكريم الذي أنعم علي بالجنتين ﴿لَأَجِدَنَّ﴾ في الآخرة من ربي ﴿خَيْرًا مِّنْهُمَا﴾ أي من الجنتين، أو منها أي من الجنة التي هو فيها حين قال هذا الكفر، وقوله: ﴿مُنقَلَبًا﴾ أي مرجعاً ومصيراً أرجع إليه في الآخرة وأصير إليه.

يحتمل أنه قال هذا الكلام، أعني قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ معاندة لصاحبه، ورداً لتحذيره له من سوء المنقلب في الآخرة، ويحتمل أنه ظن أن الله إنما أعطاه في الدنيا لأنه يحبه وذلك يلزم منه أن يعطيه في الآخرة مثله أو خيراً منه، ويحتمل: أنه ظن أن الجنتين أعطاه الله لحسن حظه فهو في الآخرة يعطى مثله أو خيراً منه لحسن حظه وكون الخير مقبلاً إليه إقبالاً طبيعياً؛ لأنه من شأنه، وعلى كل حال فقد غرَّته الحياة الدنيا وأطغاه الغنى، فكفر نعمة ربه واستحق تغيير حاله.

﴿٣٧﴾ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ حيث استبعدت قيام الساعة أظننت أن الله لا يقدر على إحياء الموتى وإخراجهم من القبور وظننت أن وعد الله بها غير صدق فكفرت بقدرة ربك الذي خلقك ﴿مِن تُرَابٍ﴾ فهو قادر على أن يخلقك من تراب تارة أخرى، خلقك من تراب

قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

﴿ثُمَّ﴾ خلقك ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ﴾ بعد تطوير خلقك في بطن أمك سوَّاك ﴿رَجُلًا﴾ ولو شاء جعلك أنثى ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؟ [القيامة:٤٠].

و(خلقه من تراب) يحتمل: أنه عنى به خلق أبيه آدم من التراب فهو دليل على قدرة الله تعالى، ويحتمل: أنه أراد أن أول خلق النطفة من التراب؛ لأنها من الغذاء والغذاء من الحبوب والشجر والحيوان الذي أصله من غذاء وأصل غذائه من الشجر وأصل الشجر ما تمتصه بعروقها من الأرض من الماء الممزوج بالتراب الذي يتحول إلى شجر يؤكل ثم إلى دم ثم إلى مني وهو النطفة، فكيف كفرت بالذي خلقك أليس من قدر على خلقك في المرة الأولى قادراً على أن يخلقك في المرة الثانية ؟.

﴿٣٨﴾ ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾ أي لكن أنا ﴿هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ مثل هو الله أحد أؤمن بربي فأنا عبده ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ﴾ المالك لي ﴿أَحَدًا﴾ فانفصلت عنك وباينتك بديني وبرئت من دينك، وفي تكريره لكلمه ربي تذكير بقبح الكفر به وقبح الشرك به؛ لأنا عباده لا شرك لغيره فينا بل كل أحد عبد له.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ أي هلاّ

حين ﴿دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي لولا قلت: ما شاء الله، أي هذه الجنة ما شاء الله، فلولا مشيئته ما كانت هذه الجنة لكنه شاءها نعمة وابتلاء لصاحبها أيشكر أم يكفر ولم تكن لصاحبها بمجرد الصدفة.

﴿لَا قُوَّةَ﴾ بما فيها من الرزق وما تأتي به من الثروة والغنى ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ إذا شاء أن يكون لصاحبها ومن معه قوة بها فيكون لهم بها عز بإذن الله، وإن شاء لم يكن لهم بها قوة ولا عز بل يسلط عليهم من يطمع في مالهم مثلاً وهو أقوى منهم فلا تبقى لهم قوة ولا عز، أو يسلط على صاحبها ومن معه الرعب والخوف من الظلمة الطامعين فيخضعون لهم ويُدَارُونهم ويَذِلُّون لهم أو غير ذلك مما تذهب به قوتهم وعزتهم ويخلفهما الذلة والضعف.

وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ..﴾ إلى آخره هذا توبيخ من المؤمن لصاحبه على تركه لهذا القول الذي هو اعتراف بأن النعمة من الله وبمشيئته لعبده، وأن القوة بالله، وأن عليه أن يشكر النعمة ويذكر ربه الذي قواه بها ثم ابتدأ المؤمن بعد احتجاجه على صاحبه وتوبيخه لَه يُبَيِّن لصاحبه أن الإيمان والعمل الصالح هو الذي يؤمل به حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿إِن تَرَنِ أَنَاْ أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ فإني أرجو من ﴿رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الآخرة التي هي السعادة الدائمة للمؤمن وأرجو أن يرسل ربي على جنتك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ شيئاً من السماء مقدراً لخراب جنتك محسوباً حساباً مناسباً لجريمتك.

قال الراغب الأصبهاني: قيل ناراً وعذاباً وإنما هو في الحقيقة ما يحاسب عليه فيجازَى بحسبه، وفي الحديث أنه قال ص في الريح: ((اللهم لا تجعلها عذاباً ولا حُسباناً)) وقال: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق:٨] انتهى.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ٤٣ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ

فالمؤمن قد عبر عن توقعه بقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ والمتوقع بسبب البطر زوال النعمة إما بأن يرسل الله عليها ما يدمرها ﴿فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا﴾ قاعاً ليس فيه شجر ﴿زَلَقًا﴾ تزل فيه الأقدام، لعله تصور النازل عليها مطراً شديداً تجحفها سيوله وتبقى بعده أثراً بعد عين وطيناً خالصاً تزل فيه الأقدام.

٤١ ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا﴾ ﴿غَوۡرًا﴾ أي يصبح غائراً قد غار في الأرض وذهب وفات ﴿فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ﴾ أي لمائها ﴿طَلَبًا﴾ لأن الله غالب على أمره، فإذا أغوره عقوبة وسلباً للنعمة لم تستطع طلبه لبعده وعجز العبد عن إدراكه.

٤٢ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ حيل بينه وبين ثمره وفات عليه، ويظهر من هذا: أن مصيبته عجلت قبل قطف الثمر ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ﴾ نادماً ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ فقوله: ﴿يُقَلِّبُ﴾ كفيه إما كناية عن كونه نادماً، وإما مجاز عنه ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ أي جنته ساقطة فاقدة حيوتها، فالمصيبة قد عمت الثمر والجنة ﴿وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا﴾ ندم على جنته فندم من الشرك لما علم أنه سبب هلاكها.

٤٣ ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا﴾ ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ﴾ لم يكن أعز نفراً عند أمر الله. قال الراغب: ((والفئة: الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد)) انتهى، فلم تتدخل فئة بينه وبين الله لنصره ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ بنفسه ليدفع عن نفسه المصيبة ولا ليسترجع شيئاً مما فات.

خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا

﴿٤٤﴾ ﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبًا﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ حين تلفت جنته وتحققت مصيبته تبين وتحقق له ولغيره أن ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّ﴾ فمن تولاه الله فهو الذي يصلح شأنه وتطيب حاله وتحسن عاقبته ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] يحسن رعايتهم ويلطف بهم ويدبر لهم ما فيه الخير، فأما المشركون فما لهم من دونه من ولي؛ لأن الله هو الحق رب العالمين، وإلههم الواحد الذي لا إله إلا هو، أما معبودات المشركين فهي الباطل، لا تنفع ولا تدفع ولا تسمع.

﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا﴾ أي الله خير ثواباً لمن آمن وعمل صالحاً ﴿وَخَيۡرٌ عُقۡبًا﴾ وخير عاقبة لمن آمن به واتقاه، فقد تبين بهذه القصة أن الإيمان والعمل الصالح أفضل ما يؤمل فيه حسن العاقبة، وأن الدنيا لا يوثق بها، وأن الركون إليها اغترار وجهل ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:١٣٣].

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾ لأولئك المتكبرين ﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ ضرب المثل إنشاؤه وصياغته، و﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ هذه الحياة العاجلة التي يغتر بها الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ هو المثل، أي وصف الحياة الدنيا بهذا التشبيه لها بنبات الأرض الأخضر الذي أنبته الماء ويسرع إليه أن ييبس ويتهشم أي يتكسر وتطير به الرياح وينتهي، كذلك الدنيا تنتهي بعدما تزينت لأهلها.

وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟

وقوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ نبت النبات متنوعاً مختلطة أنواعه كما يشاهد بعد الأمطار حين ينبت النبات، وقوله تعالى ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ كناية عن كونه قيد يبس فهو يتكسر بالأسباب المختلفة من الرياح وغيرها، ومعنى ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تطيِّره.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × وكان هذا مثلاً عظيماً منبِّها موقظاً من الغفلة، فأخبر الله [عزَّ وجل] سبحانه أن حال الدنيا وأهلها في تزيُّنها لهم وزينتها لهم كالماء النازل من السماء ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: خضرة الأرض وحشيشها حتى يرى مخضرَّاً ناضراً حسناً ويصبح من بعد ذلك ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ يابساً مغيَّراً فكذلك الدنيا وما فيها زائل كزوال هذه الخضرة، فنهاهم الله عن الإغترار بها والركون إليها)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ يفيد أنه قادر على الإبداء وإنشاء الحياة والإفناء لها والإعادة لها بعد الموت وجعل الآخرة باقية وعلى كل شيء.

﴿٤٦﴾ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهما للإنسان معرضان للفناء أو لأن يموت فيفارق المال والبنين، فهي فائدة تنتهي إلا أن البنين من شأنهم أن يجهزوا أباهم بالغسل والتكفين والدفن وبعد ذلك لا ينفعونه في قبره ولا يوم حشره، والأعمال الصالحات مع الإيمان هي الباقيات لصاحبها تنفعه عند الموت وبعده ويوم الحساب.

فلذلك قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ﴾ أي ليوم القيامة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ المقبولات الصحيحات ﴿خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا﴾ عند ربك في حكمه هي خير ﴿ثَوَابٗا﴾ جزاء يثوب إليه الإنسان ويرجع إليه في الآخرة ﴿وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ وهي خير أملاً، فالأمل في المال والبنين نفع ينتهي وهو قليل في جنب المؤمل في الباقيات الصالحات؛ لأن المؤمل فيها النجاة من النار والفوز بالنعيم الدائم والملك الكبير الباقي فالأمل فيها خير من الأمل في المال والبنين؛ لأن الأمل في فائدة المال والبنين قد يكون اغتراراً والمؤمل بهما حقير.

وقد ورد عن النبي ص: ((أن ﴿ٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)) وفي بعض الروايات هذه وزيادة..((ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

والراجح عندي: أنه لم يرد على وجه تفسير للآية، وإنما هو ترغيب في هذه الأذكار، والحصر في الحديث إضافي أي بالإضافة إلى أعمال الدنيا وأغراضها، فمعنى الحديث: إن هذه الأذكار هي التي تبقى لصاحبها فتنفعه في الآخرة، ولا إشكال أن الإيمان والعمل الصالح كله يبقى للمؤمن وينفعه في الآخرة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : وقد قيل: إن الباقيات الصالحات: التسبيح وهو عندي ـ والله أعلم ـ التسبيح وغيره من الأعمال الصالحة التي تبقى للعبد عند فنائه وتنفعه في يوم بعثه)) انتهى.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ وَحَشَرۡنَٰهُمۡ فَلَمۡ نُغَادِرۡ مِنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ واذكر ﴿يَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ﴾ أي يوم القيامة حين تدكّ الجبال فتطير غباراً وتسير في الهواء كالغمام ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ﴾ عند ذلك ﴿بَارِزَةٗ﴾ ظاهرة

عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

مكشوفة قد ذهب ما كان يغطي بعضها من الجبال والأبنية والشجر ونحو ذلك ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ الضمير إما للظالمين السابق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ..﴾ الآية وإما لهم ولسائر الكافرين ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ﴾ لم نترك منهم ﴿أَحَدًا﴾ ميتاً لم نحشره، بل نبعث ونحشر كل نفس وكل واحد.

﴿٤٨﴾ ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم إ : معناه ظهروا لَه صفوفاً ترى جماعتهم كما ترى كل واحد منهم لا يحجب أحد أحداً شُبِّهوا بالجند المعروضين على السلطان، قال المرتضى × : والصفّ فهو اصطفاهم في يوم حشرهم ووقوفهم في آخرتهم أي أحضروا للحساب والعقاب والثواب، ويقال لهم: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ لأن الإنسان يخلق فرداً لا يملك مالا ولا ولداً وكذلك يأتي يوم القيامة واحداً مفرداً)) انتهى.

وقوله تعالى لهم يوم القيامة: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أعتقد والله أعلم أنه تذكير لهم بصدق وعد الله لهم بأنه سيلقونه وأنه يعيدهم كما خلقهم أول مرة فقد صدق وعده سبحانه وتعالى؛ ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ أي في الدنيا ﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي ما وعدناكم به من البعث والنشور والوقوف والسؤال والفصل بين العباد بالحق والعقاب والنار كل ذلك زعمتم أن لن نجعله لكم، وقوله تعالى ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ خطاب للكفار.

وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا

﴿٤٩﴾ ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ عطفت هذه الآية على التي قبلها، فهي من تفصيل ما يلاقي المجرمين في القيامة.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ﴾ ووضع عند المجرمين الكتاب الذي هو كتاب أعمالهم الذي ذكره الله تعالى في قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩].

﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ مشفقين ظاهر في وجوههم وحركاتهم أو سكونهم أنهم قد خافوا مما في الكتاب من جرائمهم، ولعل من معنى الإشفاق محاولتهم النجاة منه بأي وسيلة ﴿وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا﴾ يا هلاكنا ويا ورطتنا ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾ من سيئاتنا ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ هل يريد أن نجزى على كل واحدة ألا يغفر لنا صغير ولا ينسى من أعمالنا قليل ولا كثير لماذا هذا التدقيق، نعم إنه لأمر عظيم لا تدعو اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً.

﴿وَوَجَدُوا۟﴾ جزاء ﴿مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ قريباً منهم وجعلوا كأنهم عملوا الجزاء لأنفسهم بأنفسهم تحقيقاً لتسببهم له ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بل هو الحق الذي استحقوه بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦] وبالكتاب نفسه ومشاهدتهم لأعمالهم وتذكرهم لها كلها يعرفون أنهم إنما يجزون ما كانوا يعملون.

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ المخلوقين من نار فاستكبروا لذلك؛ لأن أصله من نار ﴿فَفَسَقَ﴾ حمله الكبر والإفتخار بأصله على أن فسق ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ خرج عن أمره خروج فسق فجور وخباثة، أي عصى أمر ربه.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ تتخذون هذا المستكبر الفاسق ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ يحتمل أنهم تفرعوا منه فكانوا ذريته لذلك وإن لم يكن تفرعهم كتفرع البشر، والمراد بهم الشياطين الذين هم مع إبليس أعداء لبني آدم؛ لأن العاصي من بني آدم يتولاه الشياطين بمعنى أنهم يسلطون عليه لا أنهم يتولونه لإصلاح شأنه بما يستطيعون فأنكر الله عليهم اتخاذ إبليس وذريته ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ من دون الله؛ لأن ولاية الله هي الخير والحفظ وحسن الرعاية ففاتتهم ولاية الله واستبدلوا بها ولاية الشياطين، فهذا معنى ﴿مِن دُونِى﴾ كأن اتخاذهم الشياطين أولياء حال بينهم وبين ولاية الله لهم ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ ذم لاتخاذهم الشياطين أولياء من حيث هو بدل ولاية الله لهم التي هي حسن الرعاية لهم؛ لأن ولاية الشياطين شر وقيادة إلى عذاب السعير وولاية الله خير وهداية إلى الجنة.

﴿٥١﴾ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ما أشهدت الشياطين ﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنه تعالى يعنى ما أطلعتُهم على الغيب؛ لأني ما أشهدتهم خلق هذه

زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ

المشاهدات ﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب المخلوقات إليهم فكيف أطلعهم على الغيب، ويظهر أن أهل الجاهلية كانوا يعتقدون أن الجن يعلمون الغيب ويتوصلون إليه منهم بالكهنة فيسألونهم عن بعض المغيبات، فلعل هذا رد عليهم.

وقوله تعالى ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ فالشياطين مضلون ويظهر أن هذا ردّ على الكفار، كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير:٢٥] حيث جعلوا القرآن من الكهانة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء٢١٠-٢١٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤١-٤٢] فالمعنى إني ما كنت جاعلاً الشياطين المضلين مبلغين عني هذا القرآن مرسلين به، والعضد المعين وهو سبحانه القادر على كل شيء الذي لا يستعين بأحد ولكن المخلوق إذا أرسل رسولاً كان قد استعان به فجرى الكلام في النفي على هذا لبيان أنه ليس يليق بالله جل جلاله أن يرسل الشياطين بالقرآن ـ والله أعلم.

﴿٥٢﴾ ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ واذكر يوم يقول الله للمشركين ﴿نَادُواْ شُرَكَآءِىَ﴾ ادعوهم بصوت رفيع ليسمعوكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي، ولعل هذا في العرب الذين كانوا يجعلون الملائكة آلهة لهم أو فيهم وفي النصارى.

صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ وهل استطاعوا رفع الصوت بهذا الدعاء أم ضعفوا في حال أنهم قد ضلوا عنهم ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأنهم عباد أمثالهم لا يملكون من الأمر شيئاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] فسواء سمعوهم أم لم يسمعوهم لا يستجيبون لهم بل هم رافضون لشركهم متبرئون منه.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي بين المشركين ومن زعموا أنهم شركاء الله سبحانه ﴿مَّوْبِقًا﴾ أي مهلكاً، ولعل هذا كقوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣].

﴿٥٣﴾ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ وهم في موقف الحساب أو قبل أن يدخلوها ﴿فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أنها واقعة عليهم حين تأتيهم وهم واقعون فيها، وهذا الظن لا ينافي علمهم أنهم يصيرون إليها لأن هذا الظن سببه رؤيتها فهو ظن قرّب وقوعهم فيها ووقوعها عليهم في القريب العاجل ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ يصرفها عنهم ويصرفهم عنها لا شركاء ولا شفعاء ولا غير ذلك.

﴿٥٤﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ أول هذه الآية قد مر مثله في (سورة الإسراء) وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ المجادلة مغالبة في القول فيما اختلف فيه أو نوزع فيه وكثرة جدال الإنسان إما لهواه وإما لجهله وتردده بين الحق والباطل ولو بالدعوى أنه على الحق أو يريد الحق ولعل الجن كانوا دون الإنسان في الجدل لمخالفتهم للإنسان في بعض الأسباب.

إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ

﴿٥٥﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا﴾ وهذا من جدلهم بعد وضوح الحق ما منعهم ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرآن والرسول فالقرآن المعجز دليل واضح وهدى يدعو إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالرسول، فلم يمنعهم عدم الدليل الذي يهدي إلى الإيمان، وإنما هو الجدل وانتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين أي عذاب مثل عذاب الأولين الذي هو سنة الله في الذين خلوا؛ لأنه إذا أتاهم آمنوا لكن لا ينفعهم الإيمان حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ يبين أنهم في حاجة إلى الإيمان؛ لأن ذنوبهم قد أوجبت لهم العذاب إن لم يؤمنوا فامتناعهم من الإيمان ﴿إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ﴾ إذا جاءتهم ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أو أتاهم عذاب النار امتناع من الإستغفار مع أن عذاب النار هو العذاب فكأن سنة الأولين في جنبه ليست عذاباً إنما هي هلاك، أما عذاب النار فهو الشديد الباقي، وقوله تعالى: ﴿قُبُلٗا﴾ أي مقابلاً لهم يرونه مواجهاً لهم فعند ذلك يؤمنون ولكن لا ينفعهم يومئذٍ إيمانهم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ هذا ردّ عليهم؛ لأنهم علقوا إيمانهم على مجيء العذاب، والإيمان بالرسول يجب أن يكون قبل لينفع المؤمن لأن الله تعالى ما يرسل ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن

فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾

﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن أبى فمثلهم مثل قوم جاءهم نذير بهجوم عدوهم فقالوا: ننتظر حتى يأتي إن كنت صادقاً، أو لا يأتي إن كنت كاذباً، فقد فوَّتوا على أنفسهم فائدة الإنذار، حيث توقفوا عن قبول الإنذار فلم يستعدوا لدفع العدو ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم وتعرضهم للعذاب، والإدحاض أصله الإزلاق في الزلق الذي تزل فيه القدم ويسقط فيه من زلق، فالمعنى ليسقطوا الحق ويبطلوه بجدالهم بالباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ أي جعلوها للهزؤ أهلاً وموضعاً، وليس مجرد استهزائهم بها مرة عارضة فهم يسخرون منها ويضحكون مبالغة منهم في التكذيب بآيات الله.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : معنى ﴿ءَايَٰتِي﴾ فهو ما جاءت به الأنبياء ـ عليهم السلام ـ من المعجزات والآيات الباهرات هزواً ولعباً وينسبونها إلى السحر والحيل فلم يعتبروا بعظيم ما فيها من الرشد والهدى، وما أبان الله فيها من الدلائل لمن آمن واتقى، وما أنذروا من العقاب والعذاب الشديد، وكان كل ذلك عندهم هزؤاً يهزؤون به ولا ينتفعون بشيء منه)) انتهى.

﴿٥٧﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ أي لا أظلم ممن أعرض عن آيات

وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ

ربه بعد أن ذكِّر بها فتبيَّن له الحق فأبى أن يؤمن به وأصر على الإعراض عنه، وآيات ربه: القرآن المعجز وكل دليل يهدي إلى الحق تركها ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ من الجرائم التي يحتاج إلى أن يتوب منها لينجو من عقوبتها التي هي النار، وقد أنذر فلم يسمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي قلوب المعرضين عن آيات ربهم المالك لهم الذي هو أولى بهم وأحق أن يشكروه ويعبدوه ويتقوه ﴿أَكِنَّةً﴾ قال في (الصحاح): ((والأكنة: الأغطية ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام:٢٥] الواحد كنان)) انتهى، ومثله في (مصابيح الشرفي).

وقوله تعالى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي أن يفهموه أي القرآن الذي أفاده قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال الراغب في (المفردات): ((الوَقر: الثِّقَل في الأذن)) انتهى.

وهذا من المتشابه، وهو نظير قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:٧] وقد مرَّ تفسيره، ولو كان على معنى الحقيقة لكان قد سقط التكليف عنهم بتعذر الفهم، لقول الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ لخذلانهم وإرسال الشياطين عليهم ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد للنفي ودلالة على دوام الخذلان.

﴿٥٨﴾ ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي أرسلك إليهم فكذبوك هو ﴿ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾.

أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ

ثم فسّر هذا الغفران وهذه الرحمة، فقال تعالى: ﴿لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَ﴾ لأنهم قد استحقوه فهنا مغفرة تشمل إمهالهم ورحمة كذلك، وإنها لمن النعم الكبرى؛ لأنهم في مدة الإمهال تقبل منهم التوبة إن تابوا، فتغفر ذنوبهم مغفرة في الدنيا ويوم يقوم الحساب، ويصرف عنهم عذاب يومئذ، و﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام:١٦].

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ﴾ وهو يوم الحساب والجزاء ﴿لَّن تَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ﴾ بينهم وبينه ﴿مَوۡئِلٗا﴾منجاً يلجأون إليه فينجيهم منه، وفي كلام أمير المؤمنين × : إذا فررتُ فَلاَ وَأَلْت، قال في (الصحاح): ((الموئل: الملجأ)) انتهى.

﴿٥٩﴾ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾

﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ عطف على ذكر الإمهال، فالإمهال إما إلى الموت وإما إلى نزول عذاب عاجل كما نزل على الأمم المكذبين والإشارة إليهم بقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ تفيد: أنهم معلومون للسامعين كالمشاهدين، والقرى تفسير للإشارة، والمراد مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، ونظير هذه الإشارة قول أمير المؤمنين × فيما رواه (صاحب القاموس):

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا ولا ظفروا

وقوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي بسبب ظلمهم ففيه إنذار للمكذبين بمحمد ص وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾ يفيد أن التأجيل لا يجب أن يكون إلى الموت بل قد يكون إلى العذاب المهلك.

بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ هذه الآيات في قصة موسى وطلبه للعلم وقعت بعد إنذار المكذبين دلالة على صدق الرسول ص لإخباره بما هو مطابق لما عند أهل الكتاب، واذكر يا رسول الله هذه القصة ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ مملوكه أو خادمه ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ سائراً ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي لا أزال فهي من أخوات (كان) حذف خبرها لدلالة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ ومجمعُ البحرين: ملتقاهما بإزاء البلد المسمى البحرين.

وفي (تفسير الشرفي) عن الإمام الهادي × عند قول الله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن:١٩] نحو هذا في إفادة أن البحرين ملتقيان كل واحد منها متصل بالآخر ممنوع عن مخالطته، وهذا قد أخبرني به رجل من البحرين ووعدني بإيصال وثائق تفيده، وغرض موسى كما روي، وكما يفيده قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أن يحصِّل عبداً من عباد الله الصالحين يفيده علماً.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ أي سنين كثيرة لأبلغ مجمع البحرين، قال في (الصحاح): ((والحُقُب: الدهر، والأحقاب: الدهور)) انتهى.

﴿٦١﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ﴿بَلَغَا﴾ أي موسى وفتاه بلغا ﴿مَجْمَعَ﴾ بين البحرين محل الإجتماع ﴿بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ هنالك وذهبا ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ لأنه عاد حيًّا فرجع في البحر في سبيله الذي أتى منه اتخذه سرباً أي طريقاً.

أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((يعني مسلكاً ومذهباً)) انتهى، وهنا بديع تتابع التثنية في ضمنها تثنية ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ واتفاق تتابع السينات في شأن الحوت.

﴿٦٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ ﴿جَاوَزَا﴾ مكانهما الذي كانا فيها حول مجمع البحرين وتجاوزاه إلى غيره ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ آتنا غداءنا لنأكله لقد لقينا من سفرنا هذا تعباً وشدة، أراد أن يأكلا ويستريحا قليلاً من ذلك النصب.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ ﴿قَالَ﴾ الفتى لموسى ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ حيث كنا عند مجمع البحرين ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ هناك يذكره المكان الذي نسي فيه الحوت؛ لأنه مكان حادثة عجيبة ﴿وَٱتَّخَذَ﴾ الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي أمراً عجباً.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ يقول الفتى وما أنساني الحوت وما فيه من الآية العجيبة إلا الشيطان أن أذكره لعله أراد أن أذكره لك، أي أنسانيه الشيطان كراهة أن أذكره لك أو لئلا أذكره لك، ولعل الفتى قد علم سابقاً أن الآية التي تكون وتحدث هي علامة للغرض الذي يطلبه النبي موسى × فأراد أن الشيطان أنساه لئلا يذكر هذه الآية لنبي الله موسى ليبقى في سفر ونصب والله أعلم، فهنا نسيان أول أتاح الفرصة للحوت ليرجع إلى البحر، ونسيان ثان سبب تأخير الفتى لذكر هذه الآية لموسى × حتى قال: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ و﴿ٱلصَّخْرَةِ﴾ حجر عظيم.

ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ

﴿٦٤﴾ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمر الذي هو إحياء الحوت ورجوعه في البحر هو الذي ﴿كُنَّا نَبْغِ﴾ أي نبغي أي نطلب؛ لأن فيه الدليل على العبد الذي نريد أن نأخذ منه علماً، فنحن نطلب هذا الدليل لأجل المدلول ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي رجعا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ يقصّانها ليرجعا حيث كانا لا يغلطا، فرجعا من حيث أتيا يقصان آثارهما قصصاً.

﴿٦٥﴾ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ﴿فَوَجَدَا﴾ حين رجعا عند مجمع البحرين ﴿عَبْدًا﴾ من عباد الله ليس مملوكاً للبشر ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ هدى يوصله الجنة وينجيه من النار ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ من لدنا إما بوحي وإما بوراثة من نبي قبل موسى ومع ذلك علم العقليات وما يستفاد من الحكمة بالعقل والتجربة، وكل ذلك من عند الله، وعلمه هو الذي بعث موسى على طلبه، ولعله سافر إليه من بعيد بحيث تعب في طلب العلم من عند هذا العالم، وفي هذا رد على من يحتج بحديث: ((لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة...)) على منع السفر إلى غير الثلاثة المساجد.

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فالمطلوب: أن ترشدني بتعليمك لي ليس لي غرض في التعلم مخالف لطلب الرشد الذي هو إصابة الحق الذي ينال به الخير.

مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا

﴿٦٧﴾ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ وهذا اعتذار إلى موسى من مصاحبته لَه، ولكن موسى × لم يكن يدري لماذا لن يستطيع معه صبراً، ولعله ظن أن في صحبته مشاقاً معتادة مثل طول السفر وتحمل الجوع والسهر، وهو × يرى أنه يستطيع الصبر على ذلك.

﴿٦٨﴾ ﴿وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا﴾ إفادة أنه مظنة أن لا يصبر من حيث أنه سيواجه مشاكل لا يدري ما حلها وكيف كانت فقد أشار له إلى ما سيلاقي، ولكن رغبة نبي الله موسى في علمه حملته على الوعد بالصبر كما يلي:

﴿٦٩﴾ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ هو × يجد من نفسه الجَلَد ويرجو أنه يصبر فهو عازم على الصبر، وعلق قوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾ على قوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأن هذا أمر مستقبل لا يدري ما الله قاض فيه، وقوله: ﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ يفيد عزمه على الصبر حتى على ما أمره به لا مجرد الصبر على مشاق الصحبة وذلك ليأذن له في صحبته.

﴿٧٠﴾ ﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ ﴿قَالَ﴾ العالم لموسى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي﴾ على هذا الأساس ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ يفيد: أنه سيلاقي أشياء مشكلة وأنه سوف يحدث له منها ذكراً يحل الإشكال وينهاه أن يسأل عن شيء منها بل ينتظر حتى يبين له، وعلى هذا تم الإتفاق بينهما.

لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ

﴿٧١﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا﴾ **قال موسى للعالم: أخرقت السفينة** ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾**؟! إنكاراً منه لخرقها؛ لأنه في الظاهر منكر وتعريض لمن في السفينة للغرق** ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ **أي أن خرق السفينة إمر [بكسر الهمزة].**

قال الشرفي في (المصابيح): ((أي عجباً مبتدعاً منكر [كذا] مأخوذ من الإمر وهو الفاسد الذي يحتاج إلى إصلاح، وقيل: الإمر الداهية العظيمة، عن أبي عبيدة، وأنشد:

لقد لقي الأقران منه نكرا داهية دهياءَ إدًّا إمرا))

انتهى، وفي (الصحاح): ((قال الأخفش: يقال أيضاً أمِر أمرُهُ يَأمَرُ أَمَرَاً أي اشتدَّ والإسم الإمر ـ بكسر الهمزة ـ قال الراجز:

لقد لقي الأقران مني نكراً داهية دهياء إدًّا إمرا

ومنه: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ ويقال: عَجَباً)) انتهى.

وفي (لسان العرب) مثل هذا إلى قوله..عجباً، إلا أنه لم يذكر الآية، ثم قال: وأَمْرٌ إِمْرٌ عجب منكر، وفي التنزيل العزيز: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ قال أبو إسحاق: أي جئت شيئاً عظيماً من المنكر، وقيل: الإمر بالكسر الأمر العظيم الشنيع، وقيل: العجيب، انتهى المراد.

ويظهر من التفاسير: أنه أراد ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ تصرفاً غريباً شديداً والله أعلم.

إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ذكَّره ما سبق إليه منه ليعرف أنه لن يستطيع معه صبراً فيعذره عن مصاحبته.

﴿٧٣﴾ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ فقد نسي موسى ـ صلوات الله عليه ـ حين شاهد العالم خَرَق السفينة لم يذكر قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْرًا﴾ ويكفي نسيانه في تلك اللحظة في صحة قوله: ﴿بِمَا نَسِيتُ﴾ ولا حاجة إلى جعله من الأعاريض، ولذلك فهو اعتذار بالنسيان صحيح.

وقوله: ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ يريد لا تمنعني أن أصحبك إلا بتحمل أمر عسر، أي عاملني بالرفق والتيسير وهذا لرغبة النبي موسى × في علم هذا العالم. قال الراغب في تفسيره لـ(مفردات القرآن): ((رهقه الأمر: غشيه بقهر)) انتهى.

﴿٧٤﴾ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ في (المصابيح): ((قال المرتضى × : وقد قيل إن الغلام كان صبياً صغيراً وليس ذلك عندنا بشيء بل كان الغلام كبيراً بالغاً، والعرب تسمي ابن العشرين والثلاثين السَّنَة غلاماً)) انتهى. ومثله حكى في (المصابيح) عن الإمام الهادي × والحسين بن القاسم إ .

وقد يشكل عليه أن العالم جعل سبب قتله غير استحقاقه، فعدوله عنه يوهم أنه لم يكن منه موجب لاستحقاقه القتل.

سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ

والجواب: أنه عدل عنه إلى ذكر الغرض الباعث على قتله وأنه لم يقتله عن أمر نفسه، أي بل عن أمر الله وذلك كافٍ في حل الإشكال لأنه إذا كان عن أمر الله فهو حق؛ لأنه إن كان كبيراً مستحقاً للعقوبة بالقتل فظاهر، وإن كان صغيراً فقتله بأمر الله كذبح الأنعام بأمر الله تعالى، ولا جور فيه؛ لأنه تعالى يوفيها يوم القيامة عوض ما لحقها في الدنيا من الضرر، وكذلك ذبح الغلام، والنفس الزاكية: السليمةُ من الذنوب الموجبة للقتل، والنكر ما تنكر النفس.

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ذكَّره مرة ثانية ما سبق منه إليه ليعذره عن ترك صحبته، وزاد قوله: ﴿لَّكَ﴾ عناية في الإعتذار إليه من صحبته.

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ قال في (لسان العرب): ((وعذره يعذره فيما صنع عُذْراً)) انتهى، فأفاد أنه يستعمل مصدر عَذَرَ، وعليه يكون المعنى: قد بلغتَ من لدني أن عذرتك أي بصحبتك لي بعد أن خالفت شرطك عليَّ مرتين وحتى خالفته المرة الثالثة، وهذا من موسى × إسعاد للعالم، أعني قوله: ﴿فَلَا تُصَـٰحِبْنِى﴾ ولذلك قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ فلم يكره موسى صحبته ولكن لم يجد إليها سبيلاً لا يخالف المروءة والحياء.

﴿٧٧﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ ﴿فَٱنطَلَقَا﴾ سارا في الأرض حتى حصلت لهما أمور إتيان أهل قرية صفتها

صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ

أن أهلها أبو ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ مع أنهم قد ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ فلم يتركوا إطعامهما غفلة عنهما بل لؤماً مع أنهما جائعان، فمقتضى حالهما أن يطلبا الطعام بالثمن أو نحوه؛ لأنهم إنما أبوا أن يضيِّفوهما لا أن يطعموهما بالثمن، وهذا الأمر الثاني، وفي هذه الحالة وجدا ﴿فِيهَا جِدَارًا﴾ مشرفاً على الإنقضاض والإنهدام والسقوط ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ العالم بلا أجر وهذ الأمر الثالث، فكانت صورة هذا العمل مخالفة للرأي ولمقتضى حاجتهما إلى الطعام.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ لنشتري به طعاماً، وهذه المخالفة الثالثة لأن معناها: لماذا بنيت الجدار بدون أجر؛ لأنه اعتراض يطلب به بيان السبب كالأول، والثاني.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿قَالَ﴾ العالم لموسى: ﴿هَٰذَا﴾ السؤال الثالث أو هذا الذي قد آن وحضر وقته ﴿فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ سأخبرك بتأول الأمور التي لم تستطع عليها ﴿صَبْرًا﴾ وتأويلها هو ما تؤول إليه الذي هو السبب الذي لأجله حسنت ولأجله آلت إلى أنها حق وصواب، أو لكونها تؤول إليه كانت حقاً وصواباً.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لينالوا رزقاً مثل أن ينقلوا فيها بضاعة أو رُكَّاباً من الفلك الكبير إلى الشاطئ أو من الشاطئ إلى الفلك ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ في حال أنه ﴿كَانَ وَرَآءَهُم﴾ مقبلاً إليهم ﴿مَّلِكٌ﴾ ظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أي لتنجو من الملك خرقتها فكان خرقها أهون عليهم وأصلح لهم من أن يأخذها الملك الظالم غصباً.

أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى

﴿٨٠﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ يغشيهما ويلحقهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ أي خشينا أن يصيرهما طاغيين كافرين فكانت مصلحتهما في قتله لينجوا من نار جهنم.

﴿٨١﴾ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ﴿زَكَوٰةً﴾ أي طيباً وصلاحاً يناسب إيمان والديه ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ في (تفسير الشرفي) / : ((عن الحسين بن القاسم إ : ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي رحمة وعطفاً)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ ديناً ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ مودة)) انتهى. قال الشرفي:((والمراد: براً بوالديه وأوصل للرحم)) انتهى.

وقد *يقال*: كيف توقف وجود الولد الصالح على هلاك الأول حتى يكون الثاني بدلاً من الأول ؟

والجواب والله أعلم: أنه لولا هلاك الأول ما صلح الثاني؛ لأن الصغير من الأولاد يقتدي بأخيه الكبير، أما إذا هلك الأول لم يكن للثاني قدوة إلا والديه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ لصلاح أبيهما ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ قوتهما وقدرتهما على حفظ مالهما ﴿وَيَسْتَخْرِجَا﴾ عند ذلك ﴿كَنزَهُمَا﴾.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ ما فعلت الذي سألت عنه إلا عن أمر الله لا ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ وفي قوله: ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ مشاكلة تقديرية، لأن المراد ما فعلته عن رأيي، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي قوله: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ..﴾ إلى قوله: ﴿..عَنْ أَمْرِي﴾ ذلك كله تأويل ما لم تستطع عليه صبراً، ولعل في قوله ﴿صَبْرًا﴾ إفادة أنه لم يستطع قليلاً من الصبر وحذفت (التاء) من تستطع للتخفيف، ونظيره قول طرفة:

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وهنا *سؤال*: كيف قال في قتل الغلام: ﴿فَأَرَدْنَا﴾ وفي إقامة الجدار ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ وفي خرق السفينة ﴿فَأَرَدْتُ﴾؟

والجواب ـ والله أعلم ـ : أن قوله: ﴿فِي السَّفِينَةِ﴾ بيان لغرضه في خرقها وهو أنه أراد أن يعيبها لا أن يغرق أهلها، فأما فائدة أن يعيبها فلم يصرح بإرادة فيها وهي بقاء السفينة لأهلها، وقد فهمت من قوله: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وأما قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ ففيه إرادة لهذا العالم الباعثة على القتل وإرادة لله تعالى، فقال: ﴿فَأَرَدْنَا﴾.

وأيضاً: فإنه في خرق السفينة فهمت الإرادة فيه للغرض بذكر الملك الذي يتوقع أن يأخذها غصباً إن لم يجدها معيبة، فأغنى ذلك عن ذكر الإرادة.

وأما قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ فذكر إرادة الله تعالى لتوقف ما بعدها عليها لا على مجرد إقامة الجدار ليفيد / باليتيمين بسبب صلاح أبيهما وتيسير رزقهما عند كبرهما، وقد أفاد حسن رعاية الله لأبوي القتيل بقوله: ﴿يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ ـ والله أعلم.

وهنا *سؤال* آخر: كيف طلب موسى هذا العالم ولقي من سفره نصباً في البحث عنه ثم لم تتهيأ له صحبته التي أرادها، وهلا جاءه الوحي بذلك قبل أن يتعب في طلبه؟!

والجواب والله أعلم: أنه ينال أجراً كبيراً لتعبه في طلب العلم وبحثه عنه، وقد روي عن علي × أنه قال في العلم: «والبحث عنه جهاد» فلم تبطل فائدة السفر، وأيضاً قد حصلت له فائدة علمية وهي التثبت في المشكلات إذا تذكر تلك القصة التي تفيده أنه قد يغلط إذا عجل ولم يتثبت.

وهنا *سؤال*: كيف كرر ذكر أهل القرية ولم يقل: حتى إذا أتيا قرية، أو حتى إذا أتيا أهل قرية استطعموهم ؟

فالجواب والله أعلم: أما ذكرهم أول مرة فليتوجه الذهن إليهم من أول الكلام لقوة علاقتهم بالمشكلة وذلك أوضح لدلالة الكلام وسهولة فهمه، وإما ذكرهم ثانياً فليصرح بتعليق الكلام على كونهم أهل القرية؛ لأن الضيافة كانت حقاً عليهم من حيث أنهم أهل القرية الذين هم كانوا مظنة أن يضيفوهما لولا لؤمهم لأن ضيافة ابن السبيل تكون على أهل البلد الذين جاءهم من حيث أنهم أهل البلد لا غرباء مثله ـ والله أعلم.

وهنا *سؤال*: كيف قيل: ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: استضافا، أو قيل: استطعما فأبوا أن يطعموهما ؟

والجواب والله أعلم: لعلهما مع شدة حالهما وجواز السؤال لهما في تلك الحالة لم يصرحا بطلب الضيافة إنما عرَّضا بالسؤال هل عندكم طعام فجاء الكلام على الواقع، وأما قوله: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فقد مرّ بيانه.

ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا

﴿٨٣﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): روينا عن أمير المؤمنين علي × أن (ذا القرنين) لم يكن نبياً، ولكنه كان عبداً صالحاً أحب الله وأحبه الله وناصر الله فنصره الله، فضربوه على قرنه فمكث ما شاء الله ثم دعاهم إلى الهدى فضربوه على قرنه الآخر، وإنما سمي ذو [كذا] القرنين لأنه المضروب على جانب رأسه، على ما روينا عن أمير المؤمنين)) انتهى.

وقال الشرفي: ((قال المرتضى × : وذو القرنين: هو رجل من الروم كان عبداً صالحاً، واسمه: الإسكندر)) انتهى.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ما قصته، أو من هو ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم﴾ سأقرأ عليكم متبعاً لما يوحى إلي أتلو عليكم ﴿مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ عليكم أيها السائلون ذكراً منه أي من شأنه، ومعنى ﴿ذِكْرًا﴾ شيئاً من القرآن وهو ما يأتي:

﴿٨٤﴾ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ ﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ جعلنا له في الأرض سلطاناً وولاية وأمراً ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ من كل شيء من أدوات التمكين ﴿سَبَبًا﴾ وسيلة سواء كانت آلة أم نصراً وهيبة أم غير ذلك مما يتوصل به إلى أغراضه.

﴿٨٥﴾ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ اتبعه واعتمده في سفره لقطع المسافات.

ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ

﴿٨٦﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ سافر في الأرض بوسيلة اتبعها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ وهو الذي تغرب عنه ويقع شعاعها عليه عند غروبها عن الأرض المسكونة في عصره. قال سيد قطب في (تفسيره): ((والظاهر من النص: أن ذا القرنين غرَّب حتى وصل إلى نقطة على شاطيء المحيط الأطلسي، وكان يسمى بحر الظلمات، ويظن أن اليابسة تنتهي عنده فرأى الشمس تغرب فيه)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ والحمئة ممزوجة بالحما كدِرَة، والحمأ قد مر تفسيره في (سورة الحجر) وهو خُلُب غيّره المكث في أسفل الماء، ولعل هذه العين كانت واسعة تمتزج بالحمأ لنزول بعض الأنهار إليها بقوة، وكانت متصلة بالبحر ولذلك غربت الشمس فيها، وقيل: البحر نفسه هو العين.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ أي عند العين ﴿قَوْمًا﴾ يذكر شأنهم في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ القوم لكفرهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ حسن معاملة، ليؤمنوا إن أفاد الإحسان.

﴿٨٧﴾ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ ﴿ظَلَمَ﴾ أبى الإسلام ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ زجراً له ولغيره ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ لا تعرفه النفوس ولا تألف نوعه لشدته وخرقه للعادة.

وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إما على قراءة رفع ﴿جَزَآءٌ﴾ وإضافته إلى الحسنى فالحسنى المثوبة الحسنى وهي الجنة أضيفت الصفة إلى الموصوف، وأما على نصب ﴿جَزَآءً﴾ وتنوينه فكذلك، والمعنى: فله الحسنى جزاءً على إيمانه وعمله الصالح وقدم ذكر هذا الجزاء لأنه الذي يهم المؤمن طلبه، وقوله: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ أي نقول له قولاً يسراً أي تيسيراً لا نشدد عليه.

﴿٨٩-٩٠﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ﴿بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ أول الأرض المسكونة من جهة المشرق فهو يرى منها الشمس عند طلوعها على أول المسكونة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ حالتهم غريبة؛ لأنهم تطلع الشمس عليهم وليس ﴿لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ يظلهم أو يقيهم شعاعها، ولعلهم كانوا أهل شعر كثير كالدواب فأغناهم مع تخلفهم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : يقول: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم﴾ ما نجعل لغيرهم من الأكنان والبيوت واللباس، وهؤلاء قوم في مطلع الشمس في طرف الأرض)) انتهى.

فلا بد أن اليابسة هناك انتهت في اعتقاد الأولين واعتبروا طرف الأرض حيث انتهت وليس بعدها إلا بحر مثل الذي في مغرب الشمس، فالحاصل: أن مطلع الشمس أول ما تطلع عليه من المسكونة في ذلك العصر.

سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا

﴿٩١﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التمكين الذي مكنا له حتى بلغ مغرب الشمس مكنا له حتى بلغ مطلع الشمس ليس تمكينه خاصاً بجهة ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من القوة والعُدَّة ﴿خُبْرًا﴾ علماً بها ظاهرها وباطنها؛ لأنا نحن جعلناها ليتمكن بها من قطع المسافات والتملك على البلدان.

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ﴿ٱلسَّدَّيْنِ﴾ يحتمل: أنهما سدان يحفظان الماء للقوم، إما خِلْقَتَان حفرتهما السيول، وإما بناء على قول من جعل السُّد [بالضم للسين] في الخلقة والمصنوع، ويحتمل أنهما جبلان يعسر على من خلفهما صعودهما.

وقوله تعالى ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا﴾ أي بين ذي القرنين والسدين ﴿قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ إما لغبائهم وغفلتهم لقلة مخالطتهم للناس واشتغالهم بالحرث مثلاً فلم يتعودوا من المحاورة إلا قليلاً، وإما لا يكادون يفقهون من ذي القرنين قولاً لمخالفة اللغة، والأول أقرب لأن ﴿قَوْلًا﴾ نكرة في سياق النفي ولم يقل: يفقهون منه قولاً.

﴿٩٤﴾ ﴿قَالُواْ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ اسمان لقبيلتين كما يقال: همدان وخولان)) انتهى المراد.

مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا

وقوله: ﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يفيد أنهم كانوا يهجمون عليهم فيظلموهم إما بنهب ثمرتهم وإما بغير ذلك، ورغبوا ذا القرنين في أن يعينهم بقولهم: ﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وقولهم: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ أي مالاً مقابل ﴿أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ نخرجه لك ولعل المراد في كل ثمرة جزءً حتى يستوفي بمقابل السد.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : معنى ﴿خَرْجًا﴾ أي مالاً نسلمه إليك وعطاء نجزله لك على أن ترفع عنا ضررهم وتكفينا ما قد أحاط بنا من شرهم)) انتهى.

فأرادوا أن يبني سداً يمنع ياجوج ماجوج من الخروج إليهم؛ لأن هناك جبلين سادين بينهم وبين ياجوج وماجوج وبينهما فتحة إذا سدت لم يبقَ لهم طريق إليهم من تلك الجهة وغيرها بعيد عليهم جداً.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين لا حاجة لي في مالكم ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ منه، ويحتمل: ما مكني فيه ربي من القوة خير من أن أبني لكم سداً فقط لأني أستطيع بناء ردم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أبدانكم وأيدي العاملين ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ﴾ وبين أعدائكم ﴿رَدْمًا﴾.

قال الشرفي: ((قال في (البرهان): الردم: الحجاب الشديد)) انتهى، وحكى مثله عن الحسين بن القاسم إ ، وفي (لسان العرب): ((وقيل: الردم: أكثر من السد)) انتهى.

قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ

﴿٩٦﴾ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ ﴿زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ **قطع كبار من الحديد** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ﴾ **أي الردم من الزبر حتى إذا ساوى** ﴿بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ **في (مصابيح الشرفي): «أي جانبي الجبلين؛ لأنهما يتصادفان أي يتقابلان، قال المرتضى × : والصدفان فهما الجبلان فردم رحمة الله عليه الحديدَ بعضه على بعض حتى سدَّ ما بين الجبلين وبلغ بناؤه بالحديد رؤوس الصدفين.**

ثم ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ **والنفخ: فهو إلهاب النار فيه ونفخهم عليه** ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا﴾ **يقول حتى إذا صار ناراً يتوقد** ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ **والقطر: النحاس المذاب، فلما أن سكبوا النحاس فيه انسبك هو والحديد معاً وصار الردم قطعة واحدة لا يتزحزح من مكانه ولا يطيق أحد طلوعه» انتهى.**

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «﴿بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ يعني: بين الجبلين» انتهى، قال (صاحب لسان العرب): «وقال الله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ﴾ أي سوى بينهما حين رفع السد بينهما، ويقال ساوى الشيء الشيءَ إذا عادلَه» انتهى المراد.

ويحتمل ـ ولعله الأقرب ـ : أن المعنى حتى ساوى الردم الصدفين بينهما فحذف الصدفين وجعل الفاعل بين الصدفين كما جعل بين فاعلاً في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ لأن الذي بين الصدفين هو الردم، فلما كان المعنى ساوى بين الصدفين الصدفين حذف المفعول لإغناء المضاف إليه عنه هنا؛ لأن معنى مساواة بين الصدفين مساواته لهما إذا جعل فاعلاً.

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾

ويحتمل: سوى ذو القرنين بين الصدفين في السد، بأن جعلهما فيه سواء باتصاله بكل منهما، ولكن المعنى هنا خلاف الأول، مع أنه مستغنى عنه باسم السد، ويحتمل أن الفاعل ضمير الردم المفهوم من السياق والمفعول محذوف أي ساواهما حال كونه بينهما.

فأما تفسير (ساوى) بـ(سوَّى) من غير إضافة إلى شيء أي سوى الردم فلا يصح؛ لأن ساوى يستعمل بمعنى سوّى بين الشيئين لا بمعنى سوّى جعله سَوِيًّا، وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾ حذف المنفوخ فيه اختصارٌ، لدلالة قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ فالمعنى انفخوا في الفحم أو في الحطب لتنتشر النار فيه، وقوله: ﴿ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أي آتوني قطراً حذف لدلالة الثاني عليه.

﴿٩٧﴾ ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ فما استطاعوا أي لتمام الردم وقوته وارتفاعه ما استطاعوا أي ياجوج وماجوج ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ أي يعلوا فوقه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ في ذلك العصر وإن نقب بعد عصرهم، فالكلام لا يدل على أنه لن يفتح بعد ذلك العصر ولا أنه سيفتح إلا إذا جاء وعد ربي.

وأما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فهو فتح بلدهم والإستيلاء عليها، ويمكن أن يفتح باب في السد أو قد فتح أو عند سقوط الردم تفتح يأجوج ومأجوج.

﴿٩٨﴾ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَٰذَا﴾ الردم ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ لأنه هو

يَسَّر بناءه وخلق المادة من الحديد وغيره فهو رحمة من ربي لأهل هذه البلدة لأنه نجاة لهم من ياجوج وماجوج.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ دكاً أي مدكوكاً تذكير بأوائل أمور الآخرة وتعليم للسامعين أن الله وعد بخراب ما على الأرض من الجبال وغيرها، وهكذا يكون المصلحون ينشرون المعارف الدينية حيث كانوا.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ عند أوائل أهوال الآخرة قبل هلاك العالم تركنا بعض الناس ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ يختلطون الجموع بالجموع كأمواج البحر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معناه: تركنا ياجوج وماجوج وغيرهم من جميع الناس يموجون في الفتن والمصائب والمحَن والجور وسفك الدماء وذلك عند نزول اقتراب النفخة الأولى، ثم قال: وإن لا يكن ذلك فالتفسير أنه يفتح عليهم السد يوم القيامة حتى يختلط الناس ويموج بعضهم في بعض)) انتهى.

قلت: الأرجح الأول، فالسد ينهدم وياجوج وماجوج يختلط بهم الناس في حروب لا حد لها ولا وازع منها؛ لأنه يشكل على القول الثاني عطف ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم إذ يندك الردم، ويناسب هذا الراجح قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ * وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ..﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هذ النفخة الثانية أي الصيحة التي عندها يخرجون من الأجداث بدليل قوله تعالى: ﴿فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ وهو جمعهم ليوم الجمع.

ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا

﴿١٠٠﴾ ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((يعني: أبرزت حتى رأوها)) انتهى.

وفي (المصابيح): ((عن المرتضى × قال × : وعرضها لهم هو معاينتهم لها ومحاضرتهم إياها وإيقانهم بها، فذلك يجري مجرى عقاب الكفار لما يداخلهم من الغم العظيم)) انتهى المراد.

﴿١٠١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفة للكافرين ﴿كَانَتۡ﴾ أي في الدنيا ﴿أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ﴾ عليها غشاوة ﴿عَن ذِكۡرِي﴾ عن آياتي سماها ذكراً كما سمى القرآن ذكراً؛ لأنها تعبر بدلالتها على الله كأنها ناطقة ذاكرة لله، أو المراد عن آياتي الموصلة إلى ذكري ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ لما جاءت به الرسل والمبلغون عنهم لبغضهم لذلك وشدة نفورهم عنه، كانهم لا يستطيعون.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : يعني أنهم كانوا لا يقدرون من البغض للحق والتكذيب له استماعاً وكانوا يبغضون استماعه للذي كانوا عليه من الصدود عن الحق وقلة استماعهم له وكان يفعلون من ذلك كفعل من لا يستطيع أن يسمع والسمع هاهنا فهو الطاعة لله ولرسوله، وهذا في لغة العرب موجود يقول الرجل للرجل اذهب معي إلا فلان فيقول لست أستطيع انظر إليه من بغضه وهو يستطيع أن ينظر إليه، فلما كان مبغضاً له شانئاً لأمره، جاز أن يقول: لا أستطيع)) انتهى المراد.

جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

وهذه الآية من المتشابه في ذكر الغطاء، وفي قوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ والغطاء كراهيتهم للنظر في آيات الله والقول فيه كالقول في عدم استطاعة السمع، وقد فسر السمع بالطاعة وهو محمول على أن ذلك كناية لتوقف الطاعة على السمع.

﴿١٠٢﴾ ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ هذه الآية من أولها وعيد للذين كفروا (والهمزة) في أولها للسؤال التوبيخي، وقوله تعالى: ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هو ساد مسد مفعولين لحسب والمعنى أن يتخذوا ولا يعاقبوا، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾ أي أحسبوا شركهم لا عقاب عليه، وقوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾ احتجاج عليهم وتقبيح لشركهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾ يفيد: أنها موجودة معدة لهم أو كالموجودة سواء؛ لأن تحضيرها في وقتها لا يصعب على من هو على كل شيء قدير، وقوله ﴿نُزُلاً﴾ أي جزاءً ومصيراً ولعله سمي نزلاً كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ﴾ [آل عمران:٢١] إذا كان أصل النزل ما يُقَرّب للنازل.

قال الراغب: ((والنُّزُل: ما يُعَدّ للنازل من الزاد، ثم قال: وأنزلت فلاناً أضفته)) انتهى. ونظير هذا التهكم قول الشاعر: ـ

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القِرا أن تشتمونا

وأراد بالقرا: القتال لهم.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنٗا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَـٰتِي وَرُسُلِي

﴿١٠٣-١٠٥﴾ ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَـٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنٗا﴾.قال الراغب في تفسيره (لمفردات القرآن): ((النبأ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم، أو غلبة ظن، ولا يقال للخبر: نبأ، حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة)) انتهى.

﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَـٰلًا﴾ بالذين هم أشد خسراناً لأعمالهم ثم فسر الخسران هذا، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي ضاع سعيهم في الحياة الدنيا أي ما عملوا وجدّوا فيه في حيوتهم أي حال كونهم في الحياة الدنيا أو سعيهم في أمور الحياة الدنيا وأغراضها، والأول أرجح وأعَمّ، ووجه رجحانه أنه لا يحوج لتقدير مضاف إلى الحياة ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ لجهلهم.

ثم نبأهم من هم الأخسرون المذكورون، فقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ فالكفر بالآيات جحد كونها أو جحد كونها آيات، والكفر بلقاء الله فهو كفرهم بالآخرة وما فيها من العرض على الله تعالى والوقوف ليسألهم عما كانوا يعملون.

وقوله تعالى: ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ﴾ أي بطلت ولم تنفعهم في الآخرة أي نفع، وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ لأن الذي يوزن هو الأعمال الصالحة التي لم تحبط وهؤلاء ليس لهم عمل صالح غير حابط وذلك الخسران المبين، والوزن قد مر الكلام في معناه في تفسير (سورة الأعراف).

هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا

﴿١٠٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً﴾ وقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ أي جزاء هؤلاء الذين ضل سعيهم، ثم بين المشار إليه بقوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾ أو هو بدل للبيان.

ويحتمل: أن الإشارة إلى كفرهم بآيات الله ولقائه أي ذلك الكفر جزاؤهم جهنم عليه، وأغنى عن ذكر الرابط قوله تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُواْ﴾ فهو كإعادة المبتدأ بضميره أو لفظه أو هو دليل تقدير الضمير، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [الشورى:٤٣] ولعله ذكره لئلا يتوهم أن جزاءهم حبوط أعمالهم فقط ـ والله أعلم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : والهزوا [كذا] فهو الإستخفاف والإطراح والتكذيب)) انتهى المراد، يعني: أن هزؤهم كان على معنى التكذيب والترك لآيات الله ورسله.

﴿١٠٧-١٠٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : الفردوس فهو اسم لفاخر الجنان وعظيم منازلها وأكرم محلها، والنزل فهي العطية والكرامة التي ينزلهم الله بها ويحلهم فيها، ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ والخالدون فهو الدائم الباقي الذي لا يزول عنها أبداً، ومعنى ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ فهو لا يطلبون بها بدلاً قد عظم سرورهم فيها)) انتهى المراد.

لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن

قال في (الصحاح): ((والتحول: التنقل من موضع إلى موضع، والإسم الحِوَل، ومنه قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ انتهى.

فأصل المعنى لا يبغون عنها تحوُّلاً، وهو لازم كونهم لا يطلبون بها بدلاً، وهو صحيح لأنه لا يتصور طلب التحول إلا إلى بدل.

﴿١٠٩﴾ ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى﴾ فكتبت به ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى﴾ بحيث تكون كلها قد كتبت، وذكر سبحانه وتعالى في (سورة لقمان) أكثر من هذا، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ فهذه الكلمات إما أنها من جنس ما ينطق به الناس ويفيد معنى سواء كانت حرفاً واحداً مثل قِ في الأمر، أو حرفين أو أكثر، وإما أنها الجمل لا مفردات الكلم التي يتألف منها الكلام وحدها، وإما أن الكلمات كل آيات الله؛ لأنها ناطقة بدلالتها على ما تفيده بلسان الحال، وإما أن الكلمات قوله سبحانه ﴿كُنْ﴾ كما سمى عيسى × كلمة، يرجح الأول أنه الحقيقي ولكنه مستبعد، ومثله الثاني وهو أبعد.

وأما الثالث ـ فهو الأقرب ـ لحصول فائدة تكثير آيات الله، وأما الرابع فهو راجع إلى الثالث؛ لأن المخلوقات كلها آيات لله تدل عليه، وقوله سبحانه: ﴿كُنْ﴾ تعبير عن إيجاد المخلوق، وقد يرجح الثاني بأن الجملة الواحدة تفيد كلمات كثيرة، وبذلك تكثر الكلمات بالتسلسل.

كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾

ولعل هذا مراد الإمام القاسم × في تفسيره لهذه الآية حيث قال: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ والكلمات فقد تكون المحكمات، وكلمات الله سبحانه لا ينفدها منفد ولا يقدر على إحصائها كلها واحد..)) إلخ حكاه الشرفي في (المصابيح) والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ أي لو جئنا بمثل البحر مدداً له يزيد فيه مثله.

﴿١١٠﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ في البشرية لا أقول لكم إني ملك ولا أعلم الغيب ولا أملك خزائن الله ولكنه ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ يوحي ربي إلي ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فأبلغ عن الله ما يوحي إلي.

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ في (تفسير الإمام زيد ×): ((معناه: ثواب ربه)) انتهى، فالمعنى: يرجو لقاء ربه وهو راض عنه أو نحو هذا من تخصيص اللقاء باللقاء المحبوب الذي يسند إليه الرجا.

وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ فليعمل عملاً سليماً من المفسدات والمحبطات، ويخلص عبادة ربه لربه لا يشرك فيها أحداً من الناس ولا غيرهم، والإشراك بالعبادة جعلها لله ولغيره من المخلوقين المعبر عنهم بقوله: ﴿أَحَدَۢا﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال × ــ يعني المرتضى × ــ يقول سبحانه: لا يشرك في طاعة ربه أحداً من خلقه، وقد يكون ذلك بالطاعة والرياء)) انتهى.

قال الشرفي / : قال الإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش × في كتابه (البساط) : أخبرنا محمد بن منصور، قال: حدثني سفيان بن وكيع يرفعه عمن سمع مجاهد [اً] يقول: جاء رجل إلى رسول الله ص فقال: يا رسول الله أتصدق بالصدقة ألتمس بها وجه الله وأحب أن يقال فيَّ خير، فنزلت: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ وقال ص: ((اتقوا الشرك الأصغر)). انتهى.

وله شواهد في (أمالي المرشد بالله ×) فظهر: أنها تشمل الشرك في العبادة بالرياء، ولو فرض أن مشركاً قرَّب قرباناً لله ولمعبوده لكان أيضا من شرك العبادة ولكنه من الشرك الأكبر ـ وبالله التوفيق.

تم تفسير (سورة الكهف) والحمد لله

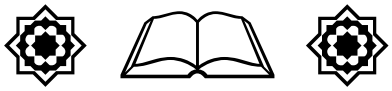

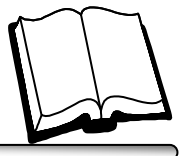

التيسير في التفسير

سورة مريم

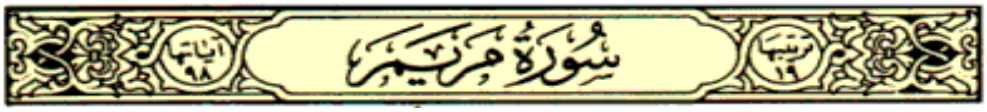

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ

تفسير (سورة مريم) عليها السلام، وهي (مكية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ كٓهيعٓصٓ﴾ مرَّ الكلام في الحروف وهي باقية على معانيها المعروفة عند العرب فمن ادعى فيها النقل فعليه الدليل، ولكن مع ذلك هل هي مقسم بها، أو هي رموز مع بقائها على معناها، أو هي تحد للعرب، أو هي تنبيه على أن القرآن أوحي كلاماً مؤلفاً من الحروف لا مجرد معناه.

أو هي تحريك لهمم الأميين لتعلمها حتى يتعلموا الكتابة والقراءة؛ لعظم فائدة ذلك، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] الأولى الجزم بأنها ذكرت لحكمة فأما تعيين الفوائد بغير قطع بأنها مقصودة في ذكرها بعينها فيتعين فيه التعبير بعبارة عدم القطع مثل لعل ويحتمل ـ والله أعلم ـ ولا بأس بذلك لدفع توهم أنه لا فائدة فيها، أو توهم أنها إلغاز وخطاب للمكلف بما لا يفهم.

﴿٢﴾ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ هذا عنوان لذكر قصته × كما يأتي في السورة من العناوين، حيث يقول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهكذا في ذكر عدد من الأنبياء (عليهم السلام).

﴿٣﴾ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أو ذِكْرُ إذ نادى على أن تكون القصة بدلاً من العنوان، وأصل النداء الدعاء بصوت رفيع.

قال الراغب: ((النداء: رفع الصوت وظهوره)) انتهى المراد، وقال (صاحب الصحاح): ((وناداه، مناداة، ونداء: أي صاح به، ويناسب هذا قول الشاعر:

بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ

أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ

من مناد ومن مجيب ومن تصـ ـهال خيل وبين ذاك رغاءُ

وعلى هذا: فاستعمال النداء في دعاء زكريا، لعله لجده فيه وعنايته، ليستجاب له، ولأن الله سميع الدعاء كله: ﴿سَوَآءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد:١٠] فشبه دعاؤه بالنداء والجامع الجدّ والعناية.

ثم قال تعالى ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ فدل على إسراره ومثل ذلك يسر فيه الدعاء لكبر السن مع أن الأصل الغالب في الدعاء هو الإسرار؛ لأنه سبحانه يعلم السر وأخفى فلا فائدة في الجهر إلا حيث يشرع.

﴿٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ وهنُ العظم ضد صلابته، فهو قد ضعف بذهاب صلابته التي كانت فيه مع الشباب وإن بقي قليل من الصلابة لا ينافي نسبة الوهن إليه.

وقوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي أسرع فيه الشيب، كما قال الشاعر:

واشتعل المبيضّ في مسودّه مثل اشتعال النار في جزل الغضى

فهي في الآية استعارة مكنية، شبّه فيها إسراع الشيب باشتعال النار، ودل عليه بذكر الإشتعال، وفائدة ذكر الحالتين: أنه متوقع لوفاته.

وقوله ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ يعني قد جربت الدعاء فيما مضى ينفعني الله به ولم يكن شقاوة لا يفيد شيئاً، فهذه مقدمة للدعاء شكوى خوفه من اقتراب الأجل مع أنه مهتم بأمر أمته وذكر رجائه إجابة دعائه لرحمة أمته من بعده.

﴿٥﴾ ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ الموالي: عصبته من الأعمام أو بني العم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((الموالي: العصبة من بني العم)) انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) و(الصحاح) لم يذكرا العم، وذكر في (الكشاف) إخوته وبني عمه.

وفي (مصابيح الشرفي): ((والموالي: هم الأقارب، والموالي بني [كذا] العم)) انتهى، وفيه عن الإمام الهادي × : ((الموالي: فهم العصبة الوارثون)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((والمولى: العصبة، وذكر فيه عن بعضهم أنه جعل الموالي العصبات كلهم حتى الإبن)) انتهى، هذا بالنسبة إلى اللغة، فأما موالي زكرياء × فلعلهم لم يكونوا إلا بني عمه أو إخوته وبني عمه.

وقوله: ﴿مِن وَرَآءِي﴾ أي من بعدي إذا مت، وكان خوفه منهم دينياً ليس راجعاً إلى تركته، فالراجح: أنه خاف أن يتولوا التوراة وسائر كتبه ويتمكنوا بذلك من التحكم على الناس والتغرير عليهم بدعوى أنهم ورثة زكريا × وعندهم كتبه؛ ولذلك يرغب في ابنٍ رضي يحيى الدين ويحميه.

وقوله: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي لا تلد ولذلك فليس لي ولد، وقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ هذا هو المقصود من المقدمات المذكورة قبله، وقوله: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ أي من عندك، كأنه يقول: إن الولد لمثلي في الكبر مستبعد لكنه من عندك غير مستبعد؛ لأنك الخلاق العليم.

وقوله: ﴿وَلِيًّا﴾ يعني ابنا أو ابنا طيباً، وقد أفاد صلاحه كونه هبة من الله لنبيه زكريا لينال به غرضه الذي لأجله طلب الولد، كما دل عليه السياق، وقول الله ـ عزَّ وجل ـ: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران:٣٨].

رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ

﴿٦﴾ ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ هذه من صفات الولد تبين أن من الغرض فيه أن يرثه ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ لأنه إذا ورث زكريا تعذر على الموالي الإفساد بدعوى أنهم ورثة زكريا، فالتوراة وما كان عند زكريا من كتب الله قد صار عند ابنه، وقوله: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ لعل أمه منهم فأراد في ميراثها مثل الذي أراد في ميراثه، وقوله: ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي اجعله مرضياً صالحاً بعلمه وعمله ورجاحة عقله وطهارته حتى يقوم مقام أبيه وحتى يكون معه في الجنة.

﴿٧﴾ ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ إجابة لدعاء نبي الله زكريا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾ قال في (مفردات الراغب): ((الغلام: الطارّ الشارب)) وعلى هذا: فالتبشير به تبشير بأنه يدرك أباه حتى يكون غلاماً لا يموت أبوه إلا وهو غلام يثق به لقيامه مقامه.

﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ سماه الله كما سمى نبيه عيسى (عليه السلام)، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ يعني: مثلاً وشبهاً)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((أي لم يُسمَّ به أحد قبله، أو لم يكن له مثل في أنه لم يعص الله ولم يهم بمعصية)) انتهى، وقال (صاحب الصحاح): ((وتقول هذا سمي فلان: إذا وافق اسمُه اسمَه)) انتهى. قلت: إذا كان اسم يحيى أعجمياً فلعل معناه وصف ليحيى يستحقه بطهارته فيصح تفسير ﴿سَمِيًّا﴾ بالمثل، وقد رجح صاحب [الكشاف] في تفسير (سورة آل عمران) أن اسم يحيى أعجمي.

بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ

﴿٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ لم يعتقد نبي الله حين بشر بغلام أنه يخلق له من غير ولادة كما خلق آدم × ولذلك فمن أين يولد له غلام وامرأته عاقر لا تلد أصلاً وهو في حالة الهرم لا يتوقع أن يكون منه نسل، فقوله × : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ﴾ سؤال من أن يكون لا إنكار ولا استبعاد بل يريد أن يعلمه الله كيف يكون له ولد ومن أين مثلاً هل يتزوج امرأة أخرى ليولد له منها ؟ وهل يوجد له وسيلة لإزاحة الهرم حتى يصلح للإنجاب؛ لأنه قد بلغ من الكبر عتياً أي شديداً مستمراً في نكسه في خلقه وإضعاف بدنه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال محمد بن القاسم: العتي: القديم الذي قد بلغ صاحبه غاية ما يكون من قسوته ويبسه وشدته عند الهرم)) انتهى.

﴿٩﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ يكون لك غلام وكانت امرأتك عقيماً وقد بلغت من الكبر عتياً يكون الولد منك وأنت هكذا ويكون من امرأتك وكانت من قبل عاقراً ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ سهل ليس فيه أي صعوبة ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ فكما أن الغذاء يصير منياً ثم إنساناً مع أن ذلك مستبعد عند التأمل فكذلك هذا.

ويحتمل: أن قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ راجع إلى خلق الروح فيه لا من شيء تحول روحاً، وعلى الأول يكون المعنى: ولم تك شيئاً يذكر لحقارة أصله وقلته سواء أريد به المني أم مادة الغذاء من الماء والتراب.

أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا

﴿١٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ لا يتصور أن نبي الله لم يطمئن قلبه بوعد الله المؤكد المقرون بقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ فالراجح: أنه طلب آية يعرف بها أنه قد صلح للجماع الذي يكون منه النسل عنده وتعلق امرأته؛ لأن المفروض أنه يكون منهما الولد وهو بحاله في الهرم وهي التي كانت عاقراً فهو يريد آية يعرف بها أن قد صلحا لذلك ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي تذهب منك قدرة تكليم الناس ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ في حال أنك ﴿سَوِيًّا﴾ لم تذهب منك قدرة الكلام بذكر الله ونحوه، وهذه آية يعرفها من نفسه حين لا يستطيع التكليم للناس.

﴿١١﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ المكان الذي كان يخلو فيه للعبادة وجد الآية من نفسه قد وقعت لَه ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي أشار لهم أو كتب لتعذر النطق إذا كانت الكتابة رمزاً عند الأميين كما هي عندهم وحي؛ لأن المعنى الدلالة بطريقة خفية ﴿أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ لوقوع هذه الآية العظيمة والبشرى بالنعمة الكبرى وبكرةً الصباح، وعشياً من الظهر إلى المغرب، والنعمة وجود الخلف الصالح لنبي الله زكرياء.

﴿١٢﴾ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ فقد ولد يحيى وعظمت به النعمة على أبيه وقومه ووهبه الله قوة لأخذ كتاب الله بقوة على فهمه والعمل به كله أي بمحكمه كله.

بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا

ولعل الأمر هنا كناية عن إيجاده وجعله آخذاً للكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ قوة فهم وحفظ وعمل، ويحتمل: أن الله أمره أن يأخذ الكتاب بقوة؛ لأنه قد جعل له القوة ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ الحكم العلم بأحكام الله تعالى بحيث يعلم كيف يحكم بين الناس بحكم الله وهو صبي.

قال الراغب: ((الصبي: من لم يبلغ الحلم)) انتهى، ولعل هذا حده باعتبار غايته، فأما ابتداؤه فقال الشرفي في (المصابيح): ((وهو ابن سبع سنين، وقيل: ثلاث سنين)) انتهى، ويقوي أنه الصغير قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ وذلك يفيد: أنه صبي قبل أن يبلغ سن التكلم، وقال الشاعر:

يا ليتني كنت صبياً مرضعا ... تحملني الذلفاء حولاً أكتعا

وفي (لسان العرب): ((والصبيُّ: من لدن يولد إلى أن يفطم)) انتهى.

﴿١٣﴾ ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ ﴿وَحَنَانًا﴾ وآتيناه حناناً من عندنا رحمة يرحم الضعيف وكل من شأنه أن يُرحَم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ معناه: رحمة)) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((الحنان: الرحمة، والحنان: الرزق، والحنان: البركة، والحنان: الهيبة، والحنان: الوقار)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الحنان: الرحمة)) ولم يذكر الرزق وما بعده.

وقوله تعالى: ﴿وَزَكَوٰةٗ﴾ جعلناه زاكياً طيباً صالحاً ﴿وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ أي وكان يحيى تقياً من المتقين مؤمنا مطيعاً لربه فيما أمره وفيما نهاه.

﴿١٤﴾ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا﴾ ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ محسناً إليهما ولعله ضمن معنى اللطف فلذلك عدي بـ(الباء).

وقال الشرفي في (المصابيح): ((﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أي لطيف بهما رحيماً شفيقاً عليهما كثير المراعاة في جانبهما)) انتهى.

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ فلم يُطغِه سعةُ علمه مع صغر سنِّه لأنه راجح العقل شديد الورع، قال في (لسان العرب): ((والجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقاً)) انتهى، يعني في وصف المخلوق، وفي (مفردات الراغب) معناه ـ ثم قال: ((ويقال للقاهر غيره: جبار، نحو: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٤٥])) انتهى.

قلت: ومثله: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة:٢٢] ومن هذا المعنى قول (صاحب الصحاح): ((الجبار: الذي يقتل على الغضب)) انتهى.

ويناسب هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَامُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:١٩]. وقول الشاعر:

ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ففرق بين الجبروت وبين الكبرياء.

و﴿عَصِيًّا﴾ مثال مبالغة من (عصى) فلعله الذي عادته العصيان، قال الشرفي في (المصابيح): ((والعصيّ: المتكبر عن طاعة الله، الذي عصى أمره، ولم يطع خالقه، ولم يتب من ذنبه، وقال ـ أيضاً ـ : ﴿عَصِيًّا﴾ أي بليغ العصيان وهو الذي يفعل ما يشاء من الظلم ولا ينظر في العواقب، قال: وقيل: الجبار القتّال، والعصيّ: كثير المعصية لله تعالى)) انتهى.

ولعل ﴿عَصِيًّا﴾ صفة لـ﴿جَبَّارًا﴾ لأن من شأن الجبار أن يكون عصياً فذكر ليفيد: أن اجتناب يحيى للجبروت سببه اجتنابه لمعصية الله، أو أنه يجتنب الجبروت؛ لأنه يجتنب معصية الله بالجبروت وبغيره ـ والله أعلم.

﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ

﴿١٥﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ وسلم الله عليه سلاماً ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ لأنه مولود زكي رضي، ولعل هذا السلام أبلغ إلى والديه بشرى لهم بصلاحه ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ دلالة على أمنه من عذاب الله ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ كذلك ولعل هذا التسليم كله كان عند ولادته بدليل أنه قيل: ﴿وُلِدَ﴾ بالفعل الماضي ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ بالمضارع ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ كذلك فكله بشرى.

﴿١٦﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا رسول الله فيما تتلوه من الكتاب ﴿مَرْيَمَ﴾ حين ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ قال الراغب: ((وانتبذ فلان: اعتزل اعتزال من لا يقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس، قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾)) انتهى.

قلت: لأن الأصل في نبذ الشيء: إلقاؤه وطرحه، فهو يشير إلى أن المكان الذي طرحت نفسها فيه غير مرغوب من الناحية النفسية ولكن لم تبال بنفسها لأن مهمتها الإعتزال، فقوله: من لا يقل مبالاته، صوابه: من تقل مبالاته، بدون (لا) ولعلها زيدت غلطاً.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ في معنى اعتزلت من أهلها، إما على التضمين، وإما على أنها تكفي (من) الإبتدائية في إفادة الاعتزال لهم، وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا﴾ ظرف وهو المكان الذي صارت فيه، و﴿شَرْقِيًّا﴾ تعيين لجهته لخصوصية في كونه شرقياً بالنسبة إلى أهلها تناسب اعتزالها فيه، واعتزالها من أهلها لا يعني اعتزالها من الناس، فيمكن أنها اعتزلت في

رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً

مسجد لا تخلو فيه بإنسان بل يجمع الناس في كل وقت أو نحو ذلك، وهذا الاعتزال من أهلها إما للعبادة لتتفرغ لها فراغاً تاماً، وإما بوحي من الله إعداداً لها للحمل والولادة.

﴿١٧﴾ ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ﴾ أي بينها وبين أهلها ﴿حِجَابًا﴾ فسره الإمام الهادي × في (المنتخب) ببعدها عنهم، فالحجاب هنا: البعد المانع لهم من مجالستها ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا﴾ في حال احتجابها من أهلها ﴿رُوحَنَا﴾ جبريل × ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ تمثل لها جبريل × بشراً سوي الخلق، وفي ذلك فائدتان:

الإبتلاء لها لتحقيق عفتها وشدَّة إبائها من معصية الله فهو حين ذكر الله قصته وعفتها عنه من جمله الردّ على اليهود الذين اتهموها.

الثاني: أن جبريل × لو جاء إليها في صورته الأصلية لفزعت منه إذا رأته، فكان جعله في صورة بشر إيناساً لها من هذه الناحية.

﴿١٨﴾ ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ ﴿أَعُوذُ﴾ أستجير فهي تدعو الله أن يجيرها وتخاطب هذا الشخص في ظنها زجراً له عنها، وقولها: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ إن كنت متقياً لله فشأنك أن تردعك الإستعاذة بالله، وهذا تأكيد لزجرها له، وعلقت العياذ باسم الرحمن عناية في الدعاء ليرحمها الله بدفعه عنها.

﴿١٩﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فهنا تبلغ المصيبة بها مبلغاً عظيماً حين يذكر أنه رسول ربها ليهب لها غلاماً وهي لا تعلم أنه جبريل، وذلك تمام البلوى.

لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرًا مَّقۡضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ

﴿٢٠﴾ ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ﴾ من أين يكون لي غلام ﴿وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ﴾ فيكون الغلام منه ﴿وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا﴾ لم أكُ زانية، ألهمها الله السؤال والتأني في تحقق المقصود.

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ ﴿قَالَ﴾ جبريل × ﴿كَذَٰلِكِ﴾ يكون لك غلام من دون أن يمسك بشر في الماضي ولست بغياً بل بطريقة خارقة وليكون آية للناس مع كونه هبة لك من الله فهو دليل على قدرة الله تعالى وعلمه، وفيه آية للناس بكلامه في المهد يتجلى بكلامه في المهد أنه ولد من غير أب، وقوله: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ لأنه يكون رسولاً يهدي إلى الله وينقذ بهداه كثيراً من الناس من النار، وقوله: ﴿وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ أي هذا المولود منك ﴿أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾ قضاه الله وحكم به فلا بد منه.

﴿٢٢﴾ ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ فحملت مريم في بطنها الولد المبشر به ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ﴾ عن الناس لتسلم جدالهم في حال الحمل والولادة ﴿مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ أي بعيداً منهم لتأمن اطلاعهم عليها.

﴿٢٣﴾ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ ﴿ٱلۡمَخَاضُ﴾ حالة إعداد الحمل للخروج من بطنها حركة في أسفل البطن ووجع فيه وفي أسفل الظهر وأجاءها: ألجأها ﴿إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ جذع النخلة: ساقها، ولعلها أرادت أن تعتمد بظهرها عليه.

رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي

وقوله تعالى: ﴿قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ اشتد عليها الهم لما سيقول الناس فيها مع براءتها، أي مت قبل هذا الأمر الذي هو الحمل والولادة.

وقولها: ﴿وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ قال في (الصحاح]): ((والنِّسي ـ أيضاً ـ ما نسي وما سقط في منازل المرتحلين من رذال أمتعتهم)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((فالنسي: أصله ما يُنسى كالنّقض لما ينقض، وصار في التعارف اسماً لما يقل الاعتداد به)) انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي): ((والنسي [بكسر النون] عامّ في كل حقير يستحق أن يطرح وينسى لحقارته)) انتهى.

قلت: الأرجح أنه هنا على معناه الأصلي، وأنها أرادت بالتمني أنها قد ماتت منذ دهر بحيث أنها قد صارت منسية، وعلى هذا فقولها: ﴿مَّنسِيّٗا﴾ تأكيد، ويحتمل: أنها تمنت أنها كانت سقطاً مبالغة في إظهارها للخوف مما سيقال فيها، وهذا أرجح على معنى أنه شكوى إلى الله وطلبٌ للفرج منه.

﴿٢٤﴾ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ المولود ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ يا أماه ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ وقوله: ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾ (أن) هي المفسرة تدل على أن ما بعدها هو معنى كلام ابنها، ومعنى ﴿سَرِيّٗا﴾ سيداً شريفاً يسود الناس.

قال الشرفي في (المصابيح): ((فقال محمد بن القاسم × : هاهنا الولد الذي وهبه الله لها البر التقي، ومَن أسر وأنبل وأتقى من عيسى ×))؟! انتهى المراد، وقال الشاعر:

نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ

لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم ولا سـراة إذا جهالهم سادوا

وفي (الصحاح): ((والسروُ: سخاء في مروءة..)) إلى قوله: ((..وسَرُوَ يسرو سراوة، صار سريًّا، وقال:

وترى السـري مـن الرجال بنفسه وابن السريّ إذا سرا أَسْراهما))

انتهى.

وقد قيل: السري ها هنا: النهر، وإذا نظرنا أن سياق الكلام لرفع حزنها ورفعه بالبشارة بالسيد من الرجال أوضح من البشارة بالماء؛ لأن السيد يشرف ويبطل بشرفه دعاية اليهود عليها وعليه، أما الماء فلا دخل له في ذلك، والرافع للحزن هو ما يبطل دعاية اليهود؛ لأن حزنها سببه خوفها لما يقال فيها، وإظهار النهر وإن كان آية فهو آية لها تدل على كرامتها عند الله وكذلك السيد آية لها يدل على كرامتها عند الله؛ لأنه سيدافع عنها في حال سيادته، وليس في كون النهر آية لها تسلية باعتبار سبب الحزن؛ لأنه خاص بها وهي عارفة ببراءة نفسها، وبأن ابنها خلقه الله في بطنها من غير أب، والحاصل: أن تسليتها بما ترجو به نصرها وإظهار براءتها أقوى.

﴿٢٥﴾ ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ ﴿وَ﴾ قال لها ابنها من تحتها ﴿هُزِّى إِلَيْكِ﴾ أي هزي ﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ بجرِّه إليك، أي هزي النخلة بجر جذعها إليك ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ والرطب: ثمر النخلة الذي طاب ولان ولم يجف، والجني حديث العهد بجنيِهِ أي أخذِهِ من النخلة.

﴿٢٦﴾ ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى﴾ كلي من الرطب

الجني ودعي الحزن واشربي وطيبي نفساً، ولعلها كانت قد كرهت الأكل كما هي عادة الحزين، والأكل مع الحزن لعله يضره، فأمرها بالأكل والشرب كناية عن أمرها بطيبة النفس ثقة بنصر الله لها وتحقيق براءتها بما لا مجال عنده للشك فيها ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أمر لها بالسرور فضلاً عن إزالة الحزن؛ لأن الله رفع قدرها وشرفها وأنعم عليها بالولد العظيم الذي قد وعدت فيه بأن الله يعلمه التوراة والإنجيل ويرسله إلى بني إسرائيل ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين.

وقوله: ﴿تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ لا تجيبي أحداً يسألك عن عيسى أو يقول فيك باطلاً، واعتذري بالنذر للرحمن بالصوم المانع لك عن تكليم كل إنسي، أي كل فرد من الناس.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ ﴿فَأَتَتْ﴾ بإبنها ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ لا تتبرأ منه بل تحمله حمل الأم لابنها ﴿قَالُوا۟﴾ مبادرين بالقذف ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ ولعلهم كانوا يحسدونها من قبل فكانت هذه الحالة عندهم فرصة، ولذلك لم يبدءوا بسؤال أنى لك هذا الولد؟ متى تزوجتِ؟ لا نعلم أنكِ قد تزوجتِ في الماضي، بل بادروا إلى القطع بأنها قد أتت فاحشة وأكدوا ذلك بـ(اللام) و(قد).

أما تعبيرهم بالفري، فأرادوا أنها ابتدعت ما لم يكن من شأنها ولا من شأن أهلها، فهو منها عجيب.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ معناه: عجبٌ)) انتهى، وقال في (مصابيح الشرفي): ((الفري: البديع)) انتهى المراد.

أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي

وفي (الصحاح): ((أي مصنوعاً مختلقاً)) وقال الراغب في (المفردات): ((قيل: معناه: عظيماً، وقيل: عجيباً، وقيل: مصنوعاً، وكل ذلك إشارة إلى معنى واحد)) انتهى، يعني إلى ارتكاب الفاحشة.

﴿٢٨﴾ ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ زادوا في توبيخها بتنزيه قرابتها ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ الرجل الصالح ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ فتكوني اقتديت بأبيك، وكذلك قولهم: ﴿وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ والبغي الزانية،قال في (الصحاح): ((وبغَتِ المرأة بِغَاءً [بالكسر والمد] أي زنت فهي بَغِيٌّ، والجمع: بغايا)) انتهى.

﴿٢٩﴾ ﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ لم يستفزها توبيخهم لها؛ لأنها كانت واثقة بنصر الله لها فسكتت وأشارت إلى ابنها ليكلموه فالجواب عنده ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ أرادوا أنه لا يفهم إن كلموه لصغره، والمهد الفراش الذي يمهّد للصبي ويوَطّأ وهو تعبير عن صغره بحاجته إلى المهد ﴿صَبِيّٗا﴾.

وكأنهم أرادوا بقولهم: ﴿مَن كَانَ﴾ العموم أي كيف نكلم الصبيان الذين هم في المهد كأنهم قد رابهم ثبات مريم وقلة مبالاتها وخطر ببالهم أن أمرها لهم بأن يكلموه لأمر يوضح براءتها فتجاهلوا خصوصية هذا الصبي وجعلوه صبياً كسائر الصبيان، فلذلك عدلوا إلى تعميم الصبيان، فكأنهم قالوا: أنكلم كل من كان في المهد صبياً.

نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ

وبهذا يظهر السرّ في ﴿كَانَ﴾ وأنها صلة موصول مضمن معنى الشرط، كما في: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [محمد:١٤] وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾ الآية [السجدة:١٨-١٩].

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ تكلم الصبي فظهرت براءتها فهذا الفضل العظيم لا يكون لابن زناءٍ كما لا يخفى عليهم، وقوله: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ آية عظيمة تبطل قول الغلاة فيه فكانت أول ما كلم قومها به، وقوله: ﴿ءَاتَنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يتناول التوراة وغيرها، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ يدل على أنه في تلك الحال قد أوحي إليه بما سيكلف به هو وأمته، كما أن قوله: ﴿ءَاتَنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يدل على أن الله تعالى قد آتاه الكتاب والله على كل شيء قدير.

﴿٣١﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «أي هادياً مهدياً» انتهى، فهي البركات الدينية؛ لأنه طبيب القلوب بحكمته وبأمثاله العجيبة التي تؤثر في النفوس، وقد اشتمل كتاب (الاعتبار وسلوة العارفين) على كثير من الحكم المؤثّرة المنسوبة إلى عيسى × ، ولا يبعد صحتها كلها أو أكثرها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْصَنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ الصلاة هي ذات السجود لله، والزكاة هي الإنفاق لله للفقراء ونحوهم.

وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا

وقوله: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يعني أنه أمر بالدوام عليهما ما دام حياً، والمراد بذلك مع القدرة وعدم المانع كالنوم والإعسار، ولعل فائدة التعبير بقوله: ﴿أَوْصَنِى﴾ أنه أمر لحين القدرة على ذلك ليس لحالته تلك كما أن فيه تأكيداً للتكليف بهما.

﴿٣٢﴾ ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وجعلني ﴿بَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ وفي إعلانه لقومه أن الله جعله براً بوالدته إشارة إلى براءتها مما رموها به؛ لأن ذلك لا يتعلق بهم بل هو خاص به وبها، فذكره لهم دلالة على براءتها وإلا كان ذكره لهم غير مهم بحيث يتكلم به في المهد.

ولا بد أنه قد صرح لهم ببراءتها؛ لأن المقام لا تكفي فيه الإشارة بل هم محتاجون إلى التصريح ، وإنما لم يذكر تصريحه في هذا السياق لأن الكلام هذا مسوق لبيان أن عيسى عبد من عباد الله تَعَبَّده الله بالصلاة والزكاة كما تعبد غيره فترك ذكر تصريحه ببراءتها ـ والله أعلم ـ كما في سائر القصص في القرآن يذكر بعض القصة ويترك بعضها؛ لأن الكلام مسوق لما ذكر في القصة لا لكل نواحي القصة وأول القصة دليل واضح على براءتها، فيكفينا ذلك.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وعد للناس بحسن السيرة فيهم وترك الجور، وقد مرَّ ذكر معنى الجبار، والشقي صفة للجبار، كأنه قال: ولم يجعلني جباراً فأكون شقياً، فأفاد أن الله عصمه من الجبروت لئلا يكون شقياً؛ لأن الشقاوة لازمة للجبار فذكرها هنا، كقوله في يحيى: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ يذكر الوصف للدلالة على أن السلامة منه هي الغرض بذكر الجبار.

﴿٣٣﴾ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ﴾ إما أنه يسلم على نفسه، وإما أنه يحكي ذلك عن الله، فإن كان حكاية

قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ

عن الله تعالى فهو كالسلام على يحيى وقد مر قريباً، وإن كان هو سلم على نفسه فهو الحق؛ لأن الله أنطقه بذلك فكأنه من الله لأن إنطاقه في المهد من الله فـ﴿يَوۡمَ وُلِدتُّ﴾ لأنه يبشر بولادة النور والهدى ﴿وَيَوۡمَ أَمُوتُ﴾ لأنه يومَ يموت مختوم له بالسعادة بتقوى الله وعبادته ويوم يبعث كذلك.

﴿٣٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموصوف في الآيات الماضية هو ﴿عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ فهو عبد لله متعبَّد أنعم الله عليه آتاه الكتاب إلى آخر الآيات المفيدة لكماله في عبادته لله وطهارته وشرفه بذلك، هذه حقيقة عيسى بن مريم لا ما يدعيه الغلاة، وهذا ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي يشكون لجهلهم بالله وبعيسى × .

﴿٣٥﴾ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ ليس من شأنه ولا يصلح منه ولا يليق بعظمته وجلاله وغناه عن كل شيء أن يتخذ ولداً أيَّ ولد، وهذا نفي مؤكد كما أن من لتأكيد العموم؛ لأن (ولداً) نكرة في سياق النفي، فهو نفي لكل ولد، ثم أكد العموم بـ(مِن) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ﴾ تنزيه له تعالى من اتخاذ الولد ومن كل نقص؛ لأن اتخاذ الولد لازم الضعف والحاجة ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ لا يعسر عليه خلق مولود من غير أب ولا غيره فلا حجة للغلاة في زعمهم أنه ابن الله لئلا يكون ابناً بلا أب؛ لأن آدم خلق من غير أب، وعيسى إنما هو ابن لمريم، وكان في قدرة الله أن يخلقه من غير أم.

كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ رجع كلام عيسى وهو حجة على المشركين به و ﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي عبادة الله وحده؛ لأنه ربنا كلنا ﴿صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ طريق واسع قويم لا ينقطع بسالكه دون بلوغ الجنة ولا عوج فيه؛ لأنه الحق.

﴿٣٧﴾ ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَٱخۡتَلَفَ﴾ تفريع على كلام عيسى × وهو في المهد، فمن الأحزاب من آمن بأن الله خلق عيسى من غير أب وأنه عبد الله ونبيه، ومنهم من كفر بعد الآية البينة.

وقوله تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ﴾ يدل على أن قوم مريم انقسموا إلى أحزاب وغير أحزاب، فالأحزاب يجمعهم قول يعتمدونه وينصرونه لكل حزب طريقة، وغير الأحزاب لم يذكر رأيهم، ولعلهم سكتوا عن قضية عيسى، أو آمن بعضهم وسكت بعضهم ـ والله أعلم.

﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ اليوم العظيم ومشهده مجمع العالم فيه ومشاهدتهم لما يكون فيه وحضورهم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود:١٠٣] فويل لهم من مشاهدتهم لما يكون في ذلك اليوم من فصل القضاء، والحكم بين العباد فيما فيه يختلفون.

﴿٣٨﴾ ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ما أسمعهم وما أبصرهم بعد عنادهم اليوم فسوف يخضعون وينقادون حين لا ينفعهم ذلك: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يحضرون موقف السؤال والحساب عند رب الأرباب ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الظالمون إما عام لكل ظالم، وإما خاص هنا بالذين كفروا بعيسى، أي لكنهم اليوم في ضلال أي من إقامة الظاهر مقام المضمر ليفيد أن سبب ضلالهم عن الحق أنهم ظالمون وهذا أرجح.

﴿٣٩﴾ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ يا رسول الله أنذرهم ﴿يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ بدل من يوم الحسرة قضي الأمر بحكم الله على أهل النار بالخلود في النار ولأهل الجنة بالخلود في الجنة فهنالك الحسرة العظمى للظالمين، في (مفردات الراغب): ((الحسرة: الغم على ما فاته والندم عليه)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الحسرة: أشد التَّلَهُّف على الشيء الفائت)) انتهى.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عن مصيرهم الرهيب، وهم في غفلة أي وهم اليوم في غفلة ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإعراضهم عن الحق وخذلانهم.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿إِنَّا﴾ أي الله ذو العظمة والجلال ﴿نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ فهو تعالى هو الباقي بعد فناء أهل الأرض والمالك للأرض بعدهم كما هو المالك لها من قبل ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ إلى الله وحده يرجعون يوم القيامة، وفي موقف السؤال والحساب فلا عيسى ولا غيره من أهل السموات والأرض يشارك يوم القيامة في الملك، أو يتدخل في الحكم: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا

﴿٤١﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ يا رسول الله اذكر ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وذكره لإبراهيم بتلاوة ما أنزل الله فيه، فهو كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء:٦٩].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا﴾ ﴿صِدِّيقًا﴾ كثير الصدق قوال بالحق، وقد جاء في الحديث: ((إن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً)) ولكن وصف الأنبياء والأوصياء ومريم بنت عمران يفيد درجة عالية؛ لاختصاصهم بهذا الوصف من بين المؤمنين، مع أن كل مؤمن تقي صديق، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد:١٩].

﴿٤٢﴾ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ اذكر ﴿إِذۡ قَالَ﴾ إبراهيم ﴿لِأَبِيهِ﴾ ناصحاً له داعياً إلى عبادة الله وحده: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ﴾ بهذا الرفق وبهذا الأدب لم تعبد ﴿مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ لا يسمع فهو لا يسمعك حين تعبده بدعائه، ولا يبصرك حين تعبده ﴿وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ لا يكفيك شراً من الشرور أي لا يدفع عنك شيئاً.

قوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ إما مفعول به بمعنى لا يدفع عنك شيئاً تحذره، أو قائم مقام مفعول مطلق أي شيئاً من العَنَاء أي لا يدفع عنك شيئاً من الدفع، والمعنى متفق، وهذه حجة عظيمة، وقوله: ﴿لِمَ﴾ مطالبة بحجة لا وجود لها، فأول الكلام مطالبة بالحجة وبقيته احتجاج على أبيه.

﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾

﴿٤٣﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ **﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ عناية بالأدب والإستعطاف ﴿إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي﴾ كلام مؤكد ليلتفت إليه ويطلب منه الحجة إن أراد الحق ﴿قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بهداية الله للنظر وبوحيه للرسالة ﴿مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ وهذا تأدب لم يصف أباه بالجهل المطلق ولكن أفاده أن عنده من العلم ما لم يأت أباه ليطلبه إن أراد الرشد ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ﴾ فالغرض من طلب اتباعه أن يهديه ﴿صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾ طريقاً واضحاً لا عيب فيه ولا عوج لينقذه من الضلال وعواقب الضلال.**

﴿٤٤﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾
﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أي إن الشرك عبادة للشيطان؛ لأن الشيطان يدعو إلى الشرك ويزيِّنه ليضل الناس فلا تشرك ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ مستمراً على معصيته للرحمن فكيف تعبد عدو الرحمن وتترك عبادة الرحمن الذي منه الخير.

﴿٤٥﴾ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ **﴿أَخَافُ﴾ أن تموت على الشرك فـ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ فهو يخاف على أبيه من قليل العذاب، فضلاً عن كثيره ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ قريناً في جهنم مجاوراً له فيها، أو أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن عاجل فيغلق عنك باب التوبة وتموت وأنت من أولياء الشيطان وتحشر وأنت ولي للشيطان يلحقك خزي أولياء الشيطان وعذابهم.**

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾

وفي قوله: ﴿عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ من البديع، احتراس أن يوهم أن الله تعالى مصدر شر فأفاد أنه الرحمن، ولكنه يجزي كل نفس بما كسبت؛ لأنه عزيز حكيم.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ ﴿قَالَ﴾ أبو إبراهيم.

والراجح: أن آزر إنما هو عمه سمي أباه كما سمي العم أباً في قول الله تعالى حاكياً: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣] ألا ترى رفق إبراهيم بأبيه هنا وهناك قال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٧٤] قال أبوه: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : يريد ءأنت زاهد في آلهتي يا إبراهيم، والرغبة عن الشيء: هو الزهد فيه)) انتهى.

وظاهره: أن الرغبة عن الشيء عدم الحب له أو قلة الحب له، وعبارة (الصحاح): ((ورغبت عن الشيء: إذا لم ترده وزهدت فيه)) انتهى، والسؤال في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ﴾ سؤال إنكار وفيه مبالغة إذا كان الرغوب عنها هو الزهد فيها فهو ينكر عليه الزهد فيها فضلاً عن عداوته لها.

وقوله: ﴿يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ ترك فيه التعطف فلم يقل يا بني كما قال إبراهيم: ﴿يَاأَبَتِ﴾ لأنه قد غضب على إبراهيم ولذلك توعده ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ وقوله: ﴿تَنتَهِ﴾ إما عن الكلام في آلهته أو عن الزهد فيها، والظاهر أنه توعده بالرجم بالحجارة إما ليقتله وإما ليجرحه.

وقوله: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ أي ابتعد مني ولا تقربني بعد كلامك هذا، وقوله ﴿مَلِيّٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : ومن الناس من يذهب إلى أن الملي مشتق من الإملاء والترك زماناً وهو حسن ـ والله أعلم)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه دهر، وقيل: حين)) وقال في (الصحاح): ((الملي: الهوي من الدهر، يقال: أقام ملياً من الدهر، قال تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ أي طويلاً)) انتهى، وهو في لسان العرب) كذلك.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أظهر الإنقياد لذلك الأمر بقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَ﴾ سلام توديع ومتاركة)) انتهى.

وقوله: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ الراجح عندي: أن استغفاره طلب أن لا يعاجله الله بعذاب لاحتمال أن يبدو له في المستقبل أن يسلم ولم يعده بأن يستغفر له من عذاب الآخرة؛ لأن هذا تشجيع له على الإستمرار في الشرك.

وقد مر في (سورة الكهف): ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الكهف:٥٨] فهي تدل على أن الإمهال مغفرة ورحمة، ويحتمل ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ﴾ سأدعو لك بالهداية إلى الإسلام ليغفر لك الشرك، وهذا صحيح على معنى سأطلب لك المغفرة كائنة بواسطة الإسلام أي بالهداية له.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((الحفي: اللطيف)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((والحفي: البَرّ اللطيف قوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾)) انتهى.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ

وقال في (الصحاح): ((والحفاوة ـ بالفتح ـ المبالغة في السؤال عن الرجل والعناية في أمره وفي المثل: مأربَة لا حَفَاوَة تقول منه: حفِيت به [بالكسر] حفاوة وتحفَّيت به أي بالغت في إكرامه وإلطافه)) انتهى.

فحاصل المعنى: أنه × يرجوا إجابة دعائه، لأن ربه كان به حفياً، وفي هذا تذكير لأبيه بالفرق بين دعاء إبراهيم لربه ودعاء أبيه لما لا يسمع.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أعتزلك وقومك وأعتزل ﴿مَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهجرته هجرة للمشركين وللشركاء وللشرك ﴿وَأَدْعُواْ رَبِّى﴾ أطلب منه حاجاتي فلا أحتاج إلى غيره ﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ أتوقع أن لا أكون بدعاء ربي شقياً، وذلك قريب منه.

وهذا أيضاً تعريض بالمشركين ودعائهم لشركائهم الذي هو سبب لشقوتهم ولعله استعمل عبارة الرجاء لأنه يجوِّز أن يكون بعض ما طلبه لا تقتضيه الحكمة ولكنه قاطع بأنه لا يشقى بالدعاء، فالأولى أن هذا الكلام لمجرد التعريض بالمشركين مع الرفق في التعبير بذكر أقل أحواله أنه يرجو أن لا يشقى بدعاء ربه والله أعلم، وهو قريب من الاحتجاج عليهم بالأمن في قوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾ [الأنعام:٨١].

﴿٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ ﴿فَلَمَّا﴾ اعتزل أباه وقومه واعتزل ﴿مَا يَعْبُدُونَ﴾ لأنهم كانوا يعبدون أصنامهم بالدعاء لها وبغيره فجادل أباه في الدعاء وغيره ثم

صِدۡقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن

اعتزلهم وما يدعون وما يعبدون بغير الدعاء فقد كانوا يعبدونها بالعكوف لها، ولعلهم كانوا يعبدونها بغير ذلك، ولعله تعالى ذكر إسحاق ويعقوب دون إسماعيل؛ لأن الخطاب من أول السورة احتجاجٌ على بني إسرائيل في غلوهم في عيسى ومريم وفي تكذيب اليهود بعيسى فكان ذكر أبويهم أنسب لبيان النعمة عليهم، وفي ترتيب النعمة على الهجرة دلالة على فضلها وأن الله تعالى ييسر أمر من هاجر إليه ويعينه.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي وكلاً منهم أو منهما جعلنا أي وكل واحد جعلناه ﴿نَبِيًّا﴾.

﴿٥٠﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ وهبنا لهم لإبراهيم وابنيه ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ذكراً حسناً صدقاً ﴿عَلِيًّا﴾ رفيع القدر ومن هذا الذكر ذكرهم في القرآن والذكر الحسن لهم صدق كل ما جعل الله لهم فائدة وصفة بالصدق أن ينزه ذكرهم عن كونه كذباً؛ لأن غيرهم من الملوك ونحوهم يمدحون بالكذب وهذا موافق لدعوة إبراهيم × : ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤].

﴿٥١﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ ﴿مُخْلِصاً﴾ بكسر (اللام) عمله خالص لله تعالى و﴿مُخْلَصًا﴾ بفتح اللام أخلصه الله بعصمته من الذنوب المتعمدة، وقوله تعالى: ﴿رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ جمع بين الوصفين لأنهما مختلفين فهو رسول من حيث أن الله أرسله كغيره من الرسل ونبي أنباه الله بما أوحى إليه من الرسالة وأوحى إليه من الشريعة.

رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ

﴿٥٣﴾ ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ﴾ بإنشاء النداء ﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ في ميقات ربه الذي كان أربعين ليلة و﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صفة من اليُمن: وهو ضد الشؤم، والأيمن صفة لجانب، بدليل قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ [طه:٨٠] وفي هذا دلالة على تفضيل بعض البقاع كما فضل بعض الزمان، وهو يبطل قول من قال: لا تفضيل إلا بالعمل، قال الشرفي: ((والطور: جبل بالشام بين مصر ومدين)).

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا﴾ تقريب اصطفاء الله له لكلامه، وقوله تعالى: ﴿نَجِيًّا﴾ حال أي قربناه في حال أنه نجِيّ، والنجي هنا: الذي ناجاه الله والمناجاة كلام خفي عن غير المخاطب به، فجمع له المناداة والمناجاة، ولعل الله تعالى ناداه أولاً ثم ناجاه لحكمة فيهما.

﴿٥٣﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا﴾ وهبنا له أخاه كما طلب، حيث قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه:٢٩-٣٢] وقوله تعالى: ﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ يفيد: أن الله تعالى أعطاه أخاه هارون رحمة له؛ لأنه يعينه ويصدقه وينصح له في المعاونة فهو رحمة لموسى من رحمة الله، وفي هذه الآية ذكر لهارون أغنانا عن ذكره لنا مستقلاً.

﴿٥٤﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ ﴿صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ يعم وعده مع ربه ووعده لأبيه وغير ذلك إن كان له وعد غير ذلك فما أخلف وعداً.

رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ

قال الشرفي في (المصابيح): ويمكن أن يكون المراد [الوعد] فيما بينه وبين الناس؛ لأنه المشهور من خصاله، عن ابن عباس أنه وعد صاحباً له إلى مكان فانتظره فيه سنة، وناهيك وعده من نفسه الصبر على الذبح فوفى به)) انتهى.

قلت: إن صحت الرواية عن ابن عباس فالمكان واسع فيه مرافِقُهُ مثل بلد انتظر فيه سنة، وقوله: فوفى به، يعني بتسليم نفسه للذبح، وإن لم يذبح.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا﴾ ﴿يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ ليقيهم العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا..﴾ الآية [التحريم:٦] ولعله جمع بين الصلاة والزكاة ليفيد: أمرهم بالعبادة البدنية والعبادة المالية؛ لأن ذلك أبلغ في العبادة؛ لأن الإنسان قد تثقل عليه الصلاة لكسله ولا تثقل عليه الزكاة لسلامته من البخل، ومن الناس من تسهل عليه الصلاة وتشق عليه الزكاة لشح نفسه، فإذا جمع بين العبادتين كان أبلغ في العبادة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا﴾ دليل على كماله في التعبد لربه؛ لأن الإنسان خلق للعبادة فإذا كان كاملاً فيها كان عبداً مرضياً عند ربه رضيه فجعله رسولاً نبيئاً؛ لأنه عبد كما يحب ربه ويرضى، وقد ذكره هنا مستقلاً؛ لأنه لم يذكره مع إسحاق مع أن الله تعالى وهب لإبراهيم إسماعيل قبل إسحاق، كما يفيده الترتيب في قوله تعالى حاكياً عنه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] ثم قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات:١٠١-١١٢].

ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ۞

﴿٥٦-٥٧﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ ﴿صِدِّيقًا﴾ كثير الصدق فاضلاً في ذلك، وقال الشرفي في (المصابيح): ((أي كثير التصديق بكتب الله ورسله)) انتهى، والتصديق: هو من الصدق فإذا امتنع بناء صديق من الرباعي صح من صَدَق بتخفيف الدال، وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ قالوا: رفعه الله في إحدى السموات، وهو ظاهر المكان العلي أنه في السماء، فلا مانع من ذلك.

﴿٥٨﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون وهم زكرياء ويحيى وعيسى وإبراهيم وإسحاق وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بالهدى الفائق ومن هداهم النبوءة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا﴾ أي من ذريتهم ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يحتمل ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي إسماعيل وإسحاق ويعقوب وهو إسرائيل ومن ذرية إسرائيل وهو زكريا ويحيى، وإن أريد ومن ذرية كل من إبراهيم وإسرائيل لم يدخل فيه إسماعيل وإسحاق، فالأول أرجح.

وقوله تعالى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ (مِن) للتبعيض وفي مدح المذكورين بانتسابهم إلى من ذكر دلالة على شرف النسب إلى الأخيار، ويوافقه حديث الاصطفاء لنبينا محمد ص من بني هاشم، ثم من قريش، ثم من كنانة، الذي أخرجه: أحمد، ومسلم، والترمذي، وغيرهم.

فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ إذا سمعوا آيات الرحمن حين تتلى عليهم وآيات الرحمن ما أنزل من آياته على الأنبياء ﴿خَرُّواْ﴾ هووا في أمكنتهم ﴿سُجَّدٗا﴾ لله خاضعين ﴿وَبُكِيّٗا﴾ من خشيته، وأضاف الآيات إلى الرحمن لأنها من رحمته؛ ولأن عذابه لمن عصاه وتمرد عليه لا ينافي وصفه بالرحمة؛ لأنها قد سبقت لهم الرحمة في الدنيا فلم يقبلوها.

﴿٥٩﴾ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا﴾ قال في (الصحاح): ((والخَلْف: القَرْن من بعد القرن، يقال: هؤلاء خَلْفُ سَوْء لناس لاحقين بناس أكثر منهم، قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب))

انتهى. وقوله تعالى ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ قال الراغب: ((يقال لمن خلَف آخر فسدَّ مسدّه: خَلَفَ)) انتهى.

وعلى هذا: فمعنى خلفه: قام مقامه، وعليه يحمل الحديث: ((لا نالت شفاعتي من لم يخلفني في عترتي)) وعلى هذا يكون معنى خلف من بعدهم خلف أنهم قاموا مقام أولئك في أمر مثل قيادة الأمة وإحراز ما بعد الأولين من الكتب، فهم مذمومون بتصدرهم لأمور ليسوا أهلاً لها، ويحتمل ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ جاءوا من بعدهم وزيادة ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ ليفيد: أنهم بعد ذهابهم بالموت أو الرفع في السماء، وفيه تذكير بالفرق بين السلف والخلف.

وقوله: ﴿أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يحتمل تركوها، ويحتمل: أماتوها وتركوها أو أماتوها فقط، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ يفيد: أن شهواتهم تقودهم في سلوكهم، ولذلك فهم يقعون في الحرام.

يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وعيد لهم بسوء العاقبة وبجزاء غوايتهم، قال الراغب: ((وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي عذاباً، فسماه الغي لما كان الغيّ هو سببه، وذلك كتسمية الشيء بما هو سببه، كقولهم للنبات: ندى)) انتهى.

قلت: وفي جعل الغي جزاءهم لطيفة تشير إلى أن انقيادهم للشهوات أغواهم عن سبيل الله فسوف يلقون غوايتهم أي جزاءها.

﴿٦٠﴾ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ استثناء من عموم المتوعدين بجزاء الغي لـ﴿مَن تَابَ﴾ منه إلى ربه ﴿وَءَامَنَ﴾ بما وجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَـٰلِحًا﴾ عملاً حسناً صحيحاً غير فاسد مقبولاً غير حابط ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ تفسير للاستثناء فهم ناجون من الغي ومع ذلك يدخلون الجنة، وأغنى ذكر دخولهم الجنة عن ذكر نجاتهم من النار لتلازمهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقصون شيئاً من ثواب الإيمان والعمل الصالح، ولعله دفع لتوهم النقص مقابلاً لما سلف منهم من الغي فهو كأن لم يكن منهم.

﴿٦١﴾ ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ ﴿جَنَّـٰتِ﴾ بدل من الجنة؛ لأنها تشتمل على جنات كثيرة، وقوله: ﴿عَدْنٍ﴾ استقرار وأمن، وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي في حال غيابهم عنها حين كانوا في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ إنه أصدق القائلين فوعده لا يزال مأتياً يأتيه من وعده الله ويبلغه ويصل إليه لا يتخلف.

بُكۡرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا

﴿٦٣﴾ ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً وَعَشِيًّا﴾

اللغو: الكلام الذي ينبغي أن يلغى ويترك فيعم فضول الكلام ومالا طائل تحته ويعم قبيح الكلام، فالجنة منزهة عن ذلك كله، وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع لبيان أن السلام ليس من فضول القول؛ لأنه إحسان وتكريم إذا كان من الله جل جلاله أو من الملائكة أو من الأنبياء والصديقين وهو إحسان إذا كان من أهل درجة واحدة من بعضهم لبعض.

﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةً﴾ في الصباح ﴿وَعَشِيًّا﴾ من بعد زوال الشمس إلى الغروب، وفي هذا دلالة في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ﴾ على أنهم يملكون ذلك أو يصير حقاً لهم، وفي قوله تعالى: ﴿بُكۡرَةً وَعَشِيًّا﴾ دلالة على أن الجنة لها ليل ونهار وإن فُرِض أنهم لا ينامون ففي اختلاف الحالات تجديد للّذات إذا اختص النهار بشيء واختص الليل بشيء ولا يلزم أن تكون مظلمة لأن الأنوار تكفي في الليل كما يكفي اليوم ضوء الكهرباء فلا موجب لتأويل هذه الآية.

﴿٦٣﴾ ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿تِلۡكَ﴾ الموصوفة هي ﴿ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ﴾ أو تلك الجنة الموصوفة بالصفات المذكورة هي التي نورث ﴿مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ والفرق: أن الأول تعظيم للجنة، والثاني وعد للمتقين سيق له الكلام، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [الرعد:٣٥] وهو أرجح لأنه قد جمع مدح الجنة بالإشارة إلى صفاتها وتجديد الوعد بها للمتقين تأكيداً للوعد السابق؛ لأن الإنسان في غفلته يحتاج إلى التأكيد وتجديد التذكير، وجعلُ الجنة ميراثاً لهم إشارة إلى أنهم نالوها بسبب أعمالهم.

كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ أي نورثها، ظاهره: أنها كلها للمتقين فليس لغيرهم فيها نصيب وليس للفجار إلا النار، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ [هود:١٦].

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ هذه من الله تعالى حكاية عن الملائكة (عليهم السلام)، وهي تبين أنهم عباد لله متعبدون له مطيعون لأمره واقفون عند حدوده، فهم لا يتنزلون إلى الأرض إلا بأمره، وفيه دفع لتوهم المشركين أن محمداً إن كان رسولاً، فلماذا لا تصحبه الملائكة أو تتنزل متى شاء، كما أنه رد على المشركين في زعمهم أنهم ولد للرحمن سبحانه.

وقوله: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي له وحده لا شريك له ما بين أيدينا ما قدّامنا من السموات وما خلفنا منها وكذلك من غيرهما، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الأمكنة التي نحن فيها ونحن أيضاً فهو المالك لنا ولأمكنتنا ولكل السموات والأرض، ويحتمل له ما بين أيدينا من أحوالنا التي نستقبلها وما خلفنا من أحوالنا الماضية وما بين ذلك أحوالنا التي نحن فيها أي هو المالك المدبر لأحوالنا كلها ونحن تحت تصرفه وأمره، فهو مثل الأول تعليل لكونهم لا يتنزلون إلا بأمر ربهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ قال في (لسان العرب): ((والنَّسِيّ: الكثير النسيان يكون فعيلاً وفعولاً وفعيل أكثر ـ ثم قال ـ : وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لا ينسى شيئاً)) انتهى.

وهو سبحانه لا يجوز عليه النسيان، ولعل هذا مرتبط بقول الملائكة ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ أي أن تخلفنا سببه أنا واقفون تحت أمر الله وليس سببه نسياناً من ربنا، وهذا على ما يروى أن سبب نزول الآية تأخر نزول الوحي، وإذا لم يكن سببها فلا يتعين ذلك ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ فسره الإمام زيد بن علي إ : ((بالآخرة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ بالدنيا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ النفختان)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((وقال الحسين بن القاسم × : ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ من القيامة ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ من الدنيا وزوالها ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ من خروج الأرواح وانتقالها)) انتهى.

قال الشرفي: ((وفي (البرهان): ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ وهو الدنيا ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ هو الآخرة ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ هو إحياء الموتى ونفخ الصور، وقال الهادي × : أما قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ فهو أمامُنا وقدَّامُنا من يوم الحشر وما ذكر من الثواب والعقاب.

وأما قوله: ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ فهو ما تركنا وراء ظهورنا وما يحدث من بعد مماتنا من أحداث الدنيا، وأما قوله: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فمعناه سِوَى ذلك مما كان قبل خلقهم وخلق آبائهم وما كان في وقت إحيائهم وما يكون بعد مفرهم [كذا ولعله تصحيف حشرهم] من دار بؤس أو دار سرور ونعمة للنفوس)) انتهى.

ويشكل قوله: وخلق آبائهم، وقوله: من دار بؤس فإنه لا يناسب جعل الآية حكاية عن الملائكة؛ لأن الإمام الهادي × ينفي التوالد بين الجن، وقد قيل: إن بعض المفسرين يجعلها حكاية عن أهل الجنة، ويشكل قوله: ﴿نَتَنَزَّلُ﴾ ولا يناسبه كلام الإمام الهادي × في قوله: أو بؤس ـ والله أعلم.

أُخۡرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذۡكُرُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا

﴿٦٥﴾ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ إن كان هذا من حكاية كلام الملائكة أو الحكاية عنهم، فهو كالتعليل لقولهم: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ وإن لم يكن من الحكاية بل هو ابتداء، فالمعنى هو أي ربك رب السموات والأرض وما بينهما أي أنه المستحق للعبادة؛ لأنه المالك للسموات والأرض وما بينهما وحده ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ أي أخلص عبادتك له؛ لأن العبادة مع الشرك لا تقبل فهي كلا عبادة ولأن ترتيب الأمر بعبادته على كونه المالك وحده يفيد ذلك، وقد تكرر الأمر بالعبادة بمعنى عبادته وحده في قصص الرسل (عليهم السلام).

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ أي احتبس أي احبس نفسك لعبادته واثبت عليها، ولعل الأصل أن يقال: على عبادته، فلعله قيل: ﴿لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ لإفادة أن يكون الصبر لإرادة العبادة.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ فيه تفاسير ولعل أقربها ﴿سَمِيّٗا﴾ أي مشاركاً لله في اسمه، أو في اسم الربوبية؛ لأنه رب كل شيء وحده لا شريك له في الربوبية، وهذا مناسب لأول الآية ومناسب للأمر بالعبادة؛ لأنها تعبير عن العبودية.

﴿٦٦﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيّٗا﴾ ﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾ من حيث إفادته؛ لأنه خالق كل شيء وذلك يفيد أن قدرته لا تقاس بها قدرة مخلوق ومع هذا يقول الإنسان..الآية أي يستبعد البعث والحياة بعد الموت، وقوله: ﴿أُخْرَجُ﴾ أي من بطن الأرض يُبَعِّد القدرةَ على ذلك بأنه يكون قد مات وبأنه يكون في القبر فكيف يكون ذلك البعث محقَّقاً.

﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ

﴿٦٧﴾ ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أيقول ذلك ولا يذكر أي لا يتذكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ أي أقد نسي فهو لم ينس ولكنه يعرض عن النظر الصحيح، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ يحتمل شيئاً يذكر، ويحتمل خلق روحه أنه اختراع وهذا قريب لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون:١٤].

﴿٦٨﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أي إن زعموا ذلك ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أقسم الله أصدق الصادقين أن البعث والحياة حق، ودل على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أي لنحشرن الكافرين بالآخرة ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ المضلين لهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ فهم حولها يرونها ويسمعون صوتها جثياً على ركبهم ولعلهم من شدة الخوف ضعفوا عن القيام فجثوا على الركب.

﴿٦٩﴾ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ لعله عبر بالنزع لأن أخذه من بينهم نزع لكونهم مزدحمين متراكمين ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ من كل جماعة متشايعين يجمعهم أمر من الباطل يتعاونون عليه ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ أيهم هو أشد ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي تمرداً وإصراراً على الباطل، قال في (لسان العرب): ((عتا يعتوا عتوّاً وعتيّاً استكبر وجاوز الحد)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيه على شناعة العتي عليه؛ لأن الرحمن دعاهم في الدنيا إلى رحمته وفضله إلى النجاة من الشقوة الدائمة وإلى الفوز

رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ

بالسعادة الدائمة وأبلغ في الدعوة، وجعلها مع الحجج والآيات الدالة على صدقها، فأبى عدو الله إلا طاعة الشيطان والإعراض عن دعوة الرحمن والمبالغة في ذلك فاستحق أن يقدم إلى جهنم قبل أصحابه الذين نزع من بينهم تعجيلاً لعذابه قبلهم.

﴿٧٠﴾ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ ﴿أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ﴾ أن يصلوها، والراجح: أن الضمير للكل أي للكافرين والشياطين، وعلمه تعالى بهم علمه بتفاصيل عصيانهم ومقاديره ومقادير عتوهم، فهو سبحانه لا يغلط في نزع من ينزع من بينهم، أو نحن أعلم بالذين هم أحق بالمسارعة إلى جهنم لأنهم أحق بالعذاب من غيرهم مع اشتراكهم في استحقاق العذاب.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ للترقي من بيان إلى بيان لا لتراخي كونه أعلم سبحانه وتعالى، وصلي جهنم مباشرة النار بأجسادهم.

﴿٧١﴾ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ خطاب للذين أحضرهم حول جهنم، وبقوا هناك بعد الذين نزعهم من بينهم ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ وما منكم أحد ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وارد جهنم، أو خطاب للناس كلهم ﴿كَانَ﴾ الورود ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ على ربك يا رسول حتماً محتوماً حتمه على نفسه أي أوجبه ﴿مَّقْضِيًّا﴾ واقعاً مفعولاً، فإن كان الخطاب للذين أحضروا في أولها فخطاب الرسول ص بآخرها مناسب؛ لأنهم كفروا به وبما أنذرهم، وإن كان الخطاب للناس كافة فخطاب الرسول ص لأنه المبلغ والرسول بذلك.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : يريد عز وجل أنا إذا نزعنا من كل شيعة أشدهم عتيّاً لم نذر منكم يا من بقي من الأدناس والسفل أحداً ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فلا تحسبوا أنا إذا عذبنا المتكبرين تركنا الهمج من النار وعذابها فلا تطمعوا أيها الضعفاء أن تسلموا من جهنم ولهبها بل نعذبكم جميعاً ونخلدكم فيها وتكونون لكفركم من حطبها، ثم قال ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ أي أمراً واجباً مفروغاً منه؛ لأن الحكيم ـ عزَّ وجل ـ إذا وعد بشيء كان واجباً عليه لأنه صادق لا ينسب الإخلاف إليه.

ثم قال × : وقيل ـ أيضاً ـ إن تفسير الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إن الورود ورودان: ورود بالإبدان، وورود بالأعيان، فأما الفاسقون فيردون بأبدانهم، وأما المؤمنون فيردون بأعيانهم لينظروا ما نزل بأعدائهم، وليشكروا الله على السلامة من الهول الذي نجوا به منه بأعمالهم، والقول الأول أحسنهما وكلاهما حسن والله أعلم)) انتهى.

قلت: استعمل الورود في القرب من الماء للشرب مثل: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص:٢٣] وقول الشاعر زهير:

ولَمَّا وردْنَ الماءَ زُرقاً جِمَامُهُ وضعن عِصِيَّ الحاضر المتَخيِّم

واستعمل لدخول النار في قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨] واستعمل لوقوع الموت، قالت:

اخوتي لا تبعدوا أبداً وبلى واللَّه قد بعدوا
كل ما حي وإن أمروا واردوا الحوض الذي وردوا

قال الراغب: ((الورود: أصله قصد الماء، ثم يستعمل في غيره)) انتهى.

ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا

﴿٧٢﴾ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب في الوقوع أو في الترقي من حال إلى حال فإن كانت للترتيب في الوقوع كما هو الأصل فيها، فالمعنى على الأول: لنفعلن بالكافرين والشياطين ما ذكر ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ بإدخالهم الجنة أو ضرب سور بينهم وبين أهل النار، وعلى القول بورود الكل من المؤمنين والكافرين بعد نزع الأشدِّين عتياً ننجي الذين اتقوا ونصيِّر الظالمين كلهم فيها جثياً، وعلى هذا لا يستقيم جعل نَذَر إلا بمعنى نترك التي هي بمعنى نصيِّر لا بمعنى نترك ندعهم لا ننجيهم منها لأنه لم يسبق ذكر لإدخال النار بقية الظالمين، ومن هنا يبطل التمسك لدعوى أنهم قد حضروا حولها كلهم المؤمنون والكافرون بقوله تعالى: ﴿نَذَرُ﴾ و﴿جِثِيًّا﴾ جمع جاث والجاثي المعتمد على ركبتيه بين الانتصاب والقعود، أما من قال واردها داخلها فلا حجة لهم لأن الورود قصد الماء والوصول حوله لا الشروع فيه، هذا الحقيقة وخلافه كناية.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الناس لمرور ذكر الكافرين والمتقين، أو على منكري البعث ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بآياتنا ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن أم أنتم يعنون الكفار أم المهتدون بآيات الله المؤمنون بكتابه ورسوله ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ محلاً ولعلهم عبروا عن المحل بالمقام لأنهم أهل قيام بسبب أعمالهم الدنيوية وتحركهم لدنياهم بخلاف الفقراء الذي لا يجدون شغلاً فهم قاعدون، كما قدمت في قول الله تعالى: ﴿فَتَقْعُدَ﴾.

وقولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ الراجح: أن الندي هنا محل اجتماعهم للمشاورة يريدون أنهم فيه أهل ثياب جديدة أو جيِّدة وزينة تناسب حالهم في الثروة بخلاف المؤمنين لأن أكثرهم فقراء، فهم يريدون أن يحتجوا بأنهم أحسن حالاً في دنياهم مع أنهم كافرون بآيات الله، يعنون أنهم لو كانوا على باطل ما حسنت حالهم، أو يعنون أن إنذار الرسول ص لهم بالنار غير صحيح؛ لأن الله لو كان غاضباً عليهم ما وسع لهم الرزق وقد ردَّ الله عليهم فقال تعالى:

﴿٧٤﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ الأثاث، قال في (الصحاح): ((متاع البيت)) انتهى، وقال الراغب: ((الأثاث: متاع البيت الكثير، من أثّ أي كثر وتكاثف)) انتهى.

فقولهم: متاع البيت يعم ما ينتفع به ويتمتع به من الفراش ونحوه من الحاجات التي تعدّ في البيوت لاستعمالها فيها، فقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾ أي أجود وأجمل متاعاً في البيوت، وذلك دليل الثروة وسعة الحال.

وقوله: ﴿وَرِءْيًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والري إن هُمِز فمن الرؤية وهو المنظر الحسن والهيئة، وإن لم يُهمَز فكذلك إلا أنها خففت الهمزة أو من الرِيّ بمعنى الترفه والنّعمة من قولهم: رَيَّان من النعيم)) انتهى.

ومثله في (الصحاح) ولفظه: ((وقوله تعالى: ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾ مَن همزه جعله من المنظر من رأيت وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة سنيّة ـ ثم قال ـ : ومَن لم يهمزه فإما أن يكون على تخفيف الهمز أو يكون من رَوِيَتْ ألوانهم وجلودهم رِيًّا أي امتلأت وحسنت)) انتهى.

حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا ٧٥ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى

وهذا دليل على أن سعة الرزق وكثرة المال لا تدل على رضوان الله تعالى عمن أعطاه، ولا على أن حاله في الآخرة ستكون مثل حاله في الدنيا؛ لأن القرون الماضية عذَّبهم الله وغيَّر حالهم من الخير إلى الشر بما كفروا.

٧٥ ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ عن سبيل الله والغواية عنها ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ فليمد له في الحياة الدنيا مَدًّا ويُمْلي له أي يُمهّله ولا يعاجله بالعقاب فهو أهل لذلك؛ لأنه زيادة في الحجة عليه، وإذا كان يتوب في المستقبل فإمهاله رحمة له والله أهل لأن يَرحَم، كما مرَّ في قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨].

والراجح: أن إخراج الكلام مخرج الطلب للدلالة على أنه أهل لا وعد عام إلا بما تقوم به الحجة من العمر ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ﴾ أي الضلاَّل ﴿رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ﴾ عاجلاً ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي القيامة ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ﴾ عند معاينة العذاب أو الساعة ﴿مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ هم أم المؤمنون ومن هو ﴿وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ هم أم الله الذي له جنود السموات والأرض، وحينئذ تنكشف الحقيقة ويتبين لهم أنهم كانوا هم الخاسرين.

قال (صاحب الكشاف): ((فإن قلت: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه ما هي؟

قلت: هي التي تُحكَى بعدها الجمل، ألا ترى الجملة الشرطية واقعة بعدها)) انتهى.

وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ

قلت: فهي مثلها في قوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ..﴾ الآية [النساء:٦] وهي ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الابتدائية، وهنا يمكن تقدير: يؤخر عنهم العذاب حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون، وقد بسط (صاحب مغني اللبيب) في ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هذه.

﴿٧٦﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ﴾ أي إذا تتلى عليهم آياتنا ﴿يَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ لأنهم يزادون علماً وإيماناً وذلك خير مما يجمع الكافرون من المتاع.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ﴾ أي الأعمال الصالحات التي تبقى فائدتها لأهلها فتنفعهم في الآخرة ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ يا رسول الله ﴿ثَوَابًا﴾ أي جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي مرجعاً يردُّون إليه في الآخرة فذلك خير مما افتخر به الذين كفروا من حسن النديّ والمقام.

وقوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في حكمه أو ثواباً عند ربك، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] ومن الباقيات الصالحات للمؤمن ((سبحان الله، والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)).

﴿٧٧﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ تفريع على ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ..﴾ إلى آخر الآيتين، والهمزة للسؤال عن رؤيته تعجيب منه في كفره ودعواه الكاذبة أنه يؤتى في الآخرة ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ يعني كما أوتي في الدنيا.

ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً

﴿٧٨﴾ ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ **الهمزة للسؤال لأنه أخبر عن مغيب بلا حجة من الله فلماذا أخبر به؟!**

﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ **أعلم الغيب بعد جهله به!** ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ **بأنه سيؤتيه مالاً وولداً؟!**

﴿٧٩﴾ ﴿كَلَّاۚ سَنَكۡتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ **زجر وردع عن الكذب والتكذيب** ﴿سَنَكۡتُبُ مَا﴾ **يقوله من هذا القول وغيره من باطله** ﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ **بدل المد من المال** ﴿مَدًّا﴾ **فعذابه متواصل كلما خبت زدناهم سعيراً.**

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : والْمَدّ من العذاب: هو طول الإقامة الذي لا ينقطع أبداً)) انتهى.

﴿٨٠﴾ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا﴾ ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ **الراجح: أن معناه ونرثه ما يفتخر به؛ لأن قوله:** ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ **فرع على أن له مالاً في الدنيا وولداً، فهو امتداد لقولهم:** ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ **لأنه يعني:** ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ **كما أوتيت في الدنيا مالاً وولداً، فلما كان مرجع تمنيه إلى افتخاره بالمال والولد صح أن يقال ونرثه ما يفتخر به ويتمنى مثله في الآخرة.**

والمعنى: سيموت تاركاً لماله وولده ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا﴾ **كقوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام:٩٤].

لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ

وعلى هذا: فقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ ويؤيد أن المراد في قوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ ما يفتخر به من المال والولد أنه حكى عنه كلمة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ بصيغة الفعل الماضي، أما قوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ فهو يشير إلى قول مكرر، لأنه مضارع يعبر به عن ما يعتاد ويتكرر، فظهر: أنه غير راجع إلى تلك الكلمة الواحدة بعينها، وقوله تعالى ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ ليس له ناصر من ولد ولا غيره.

﴿٨١﴾ ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ واتخذ الذين كفروا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ عبدوهم من دون الله ليكون شركاؤهم ﴿لَهُمۡ عِزّٗا﴾ إما لينصروهم وهم يعنون، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٧٤-٧٥] ولا مانع أن يردّ قولهم هذا بنفي نصرهم لهم في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة:٣-٤] لأن رجاءهم لعزهم غير مقيد بكونه في الدنيا، بل هم لا يؤمنون بالآخرة، فلا يصح أن نقول: أرادوا في الدنيا لا في الآخرة بل هو مطلق، وإمَّا ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا﴾ ليكونوا لهم شفعاء عند الله فيكون لهم بشفاعتهم عز.

﴿٨٢﴾ ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدّٗا﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن اتخاذهم آلهة وعن تمنيهم أن يكونوا لهم عزاً ﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ يوم القيامة يتبرؤون منها ولا يشكرونهم عليها، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس:٢٨-٢٩].

عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ إما خصماء لهم، وإما مضادِّين معارضين لهم مخالفين لهم، قال الراغب: ((وقوله تعالى ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ إي منافين لهم)) انتهى.

﴿٨٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ الإرسال ضد الإمساك، فالمعنى: خلينا الشياطين وهذا معنى تسليطهم عليهم؛ لأن الشياطين أعداء لهم، فتخليتهم لإضلالهم وإزعاجهم إرسال وتسليط، وقوله تعالى: ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): معناه: ((تزعجهم إزعاجاً)) انتهى.

وفي (المصابيح): ((عن الحسين بن القاسم إ : أي تحثّهم وتعجلهم إعجالاً)) انتهى المراد، وقال (صاحب الكشاف): ((الأزّ، والهزّ، والإستفزاز أخوات، ومعناها: التهييج وشدة الإزعاج)) انتهى، فظهر: أن معنى ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ تستفزهم وتحثهم على الشرك وغيره من الباطل والإعجال عليه.

﴿٨٤﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على هلاكهم لتمردهم وطاعتهم للشياطين ومعارضتهم بالكفر والتكذيب والجدال بالباطل لإدحاض الحق ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ فأيامهم محصورة تنتهي، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال محمد بن القاسم × : المعنى: أن ليس بينك وبين هلاكهم إلا أياماً محصورة وأنفاساً معدودة تُعَدّ لقلّتها)) انتهى.

﴿٨٥-٨٦﴾ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ اذكر يوم نميز بين المتقين والمجرمين.

عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا

ولعل هذا متصل بقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هذا الحشر لعله عند صدور الناس عن موقف الحساب فيُحشر منه المتقون إلى الجنة عند الرحمن ﴿وَفْدًا﴾ يفدون إليه تعالى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة × : الوافد الضيف والزائر المكرم، وأصل الوفد والوفادة: الهدية لا فرق عندهم بين قولك: أوفدت إليه وقولك: أهديت إليه، فلما كان الضيف عند العرب يشرف نفوسهم ينزل منزلة الهدية في السرور به سَمَّوه وافداً معناه هدية أهديت إلينا)) انتهى.

قلت: من سمى الهدية وفداً لعله سماها وفداً باعتبارها دفعاً لها إلى المُهدَى إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ×): ((يعني: عَطَاشى)) انتهى.

فهو على التشبيه بالواردين لأن من شأنهم أن يكونوا عَطشى، ولعل في العبارة تهكم بهم؛ لأن الوارد يَرد إلى الماء ليروي به عطشه، وورود المجرمين إلى ضده، فهو كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١].

﴿٨٧﴾ ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ إما راجع إلى كل المحشورين بمعنى لا يملكون ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ من المتقين أي لا يملكون أن يشفع أحد ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ والإستثناء منقطع لأن ملك الشفاعة لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤] وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فأمر الشفاعة إلى الله وحده.

﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ يحتمل: الفرض والتقدير، أي إن كان أحد اتخذ عند الرحمن عهداً بأن يشفع شفع، كقوله: ﴿قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ [البقرة:٨٠] وهذا على فرض أن اتخاذ العهد هو يكون في الدنيا فأما الشفاعة للأبرار بإذنه تعالى فلا إشكال فيها ولكن الإذن بالشفاعة لفلان إنما هو يوم القيامة ولو وقعت لما نفعت؛ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣].

وأما الضمير في ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾ للمجرمين أي لا يملكون أن يأتوا بشفاعة شفيع فيكون رداً على جعلهم أصناماً شفعاء واعتقادهم أن لهم أن يتخذوا آلهة غير الله فجعلوا لأنفسهم اختيار شفعاء لهم، وعلى هذا فالإستثناء كالأول، وفائدته بيان أن أمر الشفاعة إلى الرحمن، فأما التعليق على اسم الرحمن، فهو كقوله تعالى: ﴿اطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ وفائدة ذلك: بيان أن المانع من رحمته هو من ظلم العبد نفسه، لا لأن الرحمة ليست من شأن ربه سبحانه وتعالى.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ أضافوا باطلاً إلى اتخاذهم آلهة من دون الله ليكونوا لهم عزاً، وهم يعنون أن الملائكة (عليهم السلام) وَلَدٌ لله سبحانه وتعالى، ومعنى الاتخاذ التبني وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله:

﴿٨٩﴾ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ ﴿جِئْتُمْ﴾ التفات للتشنيع عليهم والإهانة لهم بخطابهم وهو زجر مع ما يأتي، وقوله تعالى: ﴿إِدًّا﴾ أي منكراً عظيماً.

﴿٩٠﴾ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ خلقت هذه الأجرام ليُعبَد اللهُ في السموات والأرض، وقول المشركين هذا وعبادتهم غيرَ الله معارضة منهم للمقصود من خلق السموات والأرض والجبال وأهلها فيحق له أن يتهدم العالم ويهلك من فيه لولا حكمة الله في التأجيل.

فقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ..﴾ إلى آخر الآية دليل على أنه يحق لشرك المشركين وما قالوا في الله من ذلك أن يقع الأمر العظيم غضباً من الله سبحانه وإنكاراً لتلك الجرائم التي يستحق أهلها تعجيل القيامة أو أن يقع ذلك الأمر العظيم ضعفاً من السموات والأرض والجبال عن تحمل ذلك القول والشرك، لكونها إنما خلقت لعبادة الله، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ..﴾ الآية [الأحزاب:٧٢] وهذا عندي أقرب.

﴿٩١﴾ ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ أي لأن دعوا للرحمن ولداً أي قالوا له ولد وسموا الملائكة ولداً، وهذا يدلّ على أن الضمير في منه راجع إلى قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ وحده لا إليه وإلى اتخاذ المشركين آلهة، وفيه دلالة على قبح القول فيه سبحانه بما لا يليق به ولا ينبغي له لمنافاته الحكمة والغنى وكمال العزة ومثل هذا قول المجبرة إن الله تعالى يخلق المعاصي في العباد ويوجدها فيهم دون أن يوجدوها ثم يعذبهم عليها في أنه منافٍ للحكمة وللغنى، فهو قريب من قول المشركين.

﴿٩٢﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾ أي لا يتأتى له؛ لأنه كاره له لا يريده أبداً؛ لمنافاته الحكمة فهو كالمستحيل، فأما الولادة فمستحيلة، لكن السياق في الإتخاذ الذي هو التبنِّي.

﴿٩٣﴾ ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ معنى ﴿إِن﴾ النفي أي ما ﴿كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ما فرد منهم ﴿إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ مملوكاً لله يحكم فيه بما شاء، وهذا يبطل دعوى المشركين أنهم يشفعون لهم، ويبطل قولهم: إنهم ولَد للرحمن، وكذلك دعوى النصارى في عيسى × ، ودعوى اليهود في عزير.

وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ

﴿٩٤﴾ ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ ﴿أَحْصَىٰهُمْ﴾ أحاط بهم علماً.

قال في (لسان العرب): ((وأحصى الشيءَ: أحاط به)) انتهى المراد.

فالإحصاء: حصر مجموعهم فلا يفوته منهم أحد ﴿وَعَدَّهُمْ﴾ عد كل فرد أي علم به وبنسبته في العدد أي كونه واحداً من الجملة المعلومة وبنسبته من كل بعض من أبعاض الجملة، وقوله تعالى: ﴿عَدًّا﴾ تحقيق لعده إياهم وتأكيد فكل فرد منهم معدود لله تعالى راجع إليه عبداً.

﴿٩٥﴾ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ ﴿ءَاتِيهِ﴾ يحضر في موقف السؤال والحساب ليسأله ربه ويحاسبه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يوم الهول العظيم وفي مواقف الهول يحتاج العبد إلى من يعينه أو ينصره أو يؤنسه، ولكن ذاك يوم تنقطع فيه العلائق بين المخلوقين إلا روابط الإيمان والتقوى التي يأذن الله بها، وإنما تكون بعد الموقف بدليل هذه الآية.

﴿٩٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ ﴿وُدًّا﴾ حبّاً، قال الراغب: ((الود: محبّة الشيء وتمنّي كونه ويستعمل في كل واحد من المعنيين)) انتهى، ومثله أفاده (صاحب الصحاح) أي يحببهم ويجعل لهم حباً في قلوب بعض عباده، كما لأمير المؤمنين علي × حب في قلوب المؤمنين.

وقد قيل: إن هذه الآية نزلت فيه × ، ولا يقصر العام على سببه. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((محبة في قلوب المؤمنين)).

لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

﴿٩٧﴾ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ الضمير للقرآن؛ لأن هذا الكلام منه، ولأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧] والتيسير التسهيل فهو سهل التلاوة سهل البيان يفهمه العربي بسهولة؛ لسلامته من التعقيد، وكمال فصاحته، وقوله: ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي بلغتك التي هي لغة العرب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤].

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ﴾ يا محمد ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بإعلامهم وَعْدَه، وفي قوله تعالى ﴿بِهِ﴾ تنبيه على لزوم الحجة، من حيث أن التبشير بالقرآن الذي هو كلام الله تعالى، وكذا قوله تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ فهو إنذار قامت به الحجة عليهم لوضوح أن القرآن كلام الله أصدق القائلين قد تبين لهم أنه كلام الله بعجزهم عن الإتيان بمثله، وقوله: ﴿لُّدًّا﴾ جمع ألدّ.

قال الراغب في (المفردات): «الألد: الخصيم الشديد التأبّي، وجمعه: لُدّ» انتهى، وفي (الصحاح): «ورجل ألَدّ بيِّنُ اللَّدد وهو الشديد الخصومة، وقوم لُدّ» انتهى. فالإنذار دواء اللدد؛ لأن العاقل ينظر لنفسه فيترك اللدد.

﴿٩٨﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ قبل القوم اللُّد المذكورين ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي قروناً كثيراً.

قال الراغب: «والقرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون» انتهى. فالقرن مثل عاد، ومثل ثمود، أهلكهم الله تعالى بذنوبهم، وهذا تخويف للقوم اللُّد.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزًا﴾ بعد هلاكهم وقد صاروا جثثاً هامدة قد ضاعت في التراب ولم يبق إلا آثارها، فلا تحس أجسادها بشيء من الحواس الخمس؛ لأنها قد ضاعت، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزًا﴾ أي صوتاً خفياً فضلاً عن الصوت الظاهر، فالصوت الظاهر يكون من الإنسان القوي وكلما ضعف خفي صوته بقدر ضعفه، أما الميت فلا يبقى له أي صوت.

قال الشرفي في (المصابيح): ((المعنى: هل تبصر منهم أحداً، أو تسمع لهم صوتاً أو حسّاً ـ ثم قال ـ : والركز: الصوت الخفي)) ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي إ).

انتهى بحمد الله تفسير (سورة مريم)

وصلى الله على محمد وآله وسلم

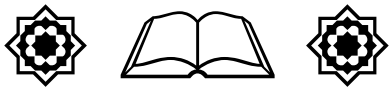

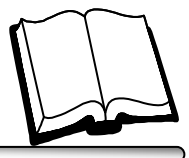

التيسير في التفسير

سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ

ابتداء تفسير (سورة طه)

قال الشرفي في (المصابيح): ((مكية)) انتهى. قلت: هوالظاهر من مواضيع السورة

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾

﴿طه﴾ الظاهر: أن (الطا) و(الهاء) في هذا الموضع مثل الحروف في أوائل السور التي بدئت بحروف مثلها.

وفي قول للإمام زيد بن علي × : ((أنه فاتحة للسورة، وعلامة لها)) انتهى، ومعناه: اسم للسورة.

ونقلت من (البرهان) في هامش مصحفي قبل سنين كثيرة نسيت عددها، وذلك على (سورة يس) قال: وروينا عنه ص أنه قال: ((إن الله سبحانه سماني في القرءان بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزمل، والمدثر، وعبد الله)) انتهى.

وعلى هذا: يكون المعنى: يا ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ والشقاء ضد السعادة، وذلك لو كان تحميله مشقة الرسالة لا ثواب فيه ولا مصلحة، ولكن الأمر الواقع أنه يسعد به ويتذكر ويُذكِّر غيره لمصلحتهم.

﴿٣﴾ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ ﴿تَذْكِرَةً﴾ من الغفلة وإيقاظاً لأفكار الذين يخشون صدق الإنذار، فينظرون فيؤمنون به، ذكر الله المصلحة وأحال معرفة الثواب على ذلك على غير هذا الموضع، وعلى العقل.

﴿٤﴾ ﴿تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ قال في (الكشاف): «في نصب ﴿تَنزِيلاً﴾ وجوه: أن يكون بدلاً من ﴿تَذْكِرَةً﴾ إذا جعل حالاً لا إذا كان مفعولاً له، لأن الشيء لا يعلل بنفسه، وأن ينصب بنزل مضمراً..» الخ، وذكر من الوجوه نصب تنزيلاً على المدح والإختصاص، وأرى هذا الوجه أحسن الوجوه.

وقوله تعالى ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ فيه دلالة على قدرته تعالى التي لا تقاس بها قدرة، وعلمه المحيط بكل شيء، وفي ذلك إيقاظ وتنبيه للناس لئلا يعرضوا عن القرآن؛ لأنه كتاب الله ـ جلَّ جلاله ـ القادر على كل شيء العالم بكل شيء.

وفيه براعة استهلال للسورة؛ لأنه تعالى يرد في هذه السورة على المشركين الذين اتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون، ويخوف بالحشر وموقف السؤال، وخشوع الأصوات للرحمن، واستسلام العباد، وهذا اليوم كانت الجاهلية أكثرهم لا يؤمنون به ويستبعدون ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦] ففي ذكر خلق الله تعالى للسموات والأرض رد عليهم، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلْعُلَى﴾ مزيد دلالة على القدرة التي لا تقاس بها قدرة لتباعد ما بين الأرض والسموات العلى سواء أريد بها السموات كلهن لارتفاعهن كلهن بالنسبة إلى الأرض في عرف البشر، أو أريد بقوله: ﴿ٱلْعُلَى﴾ العلا من السموات السبع فضلاً عن السماء الدنيا.

ٱسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ

۝٥ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ تعبير عن ملكوته، لا إخبار بقعود على سرير، فهو يتعالى عن مشابهة المخلوقين سبحانه، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: علا وقهر و﴿ٱلْعَرْشِ﴾ العزة والسلطان)) انتهى، وقد مر مزيد بيان في مثل هذه الآية.

۝٦ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ هذا كالاحتجاج على أن له ملكوت كل شيء؛ لأنه إذا كان هو المالك فأمر مماليكه إليه، فله الأمر والنهي والتصرف فيما هو مالكه وحده لا شريك له، فهي دليل على أنه تعالى ذو العرش أي: له المُلك بضم الميم.

قال في (الصحاح): ((الثرى: التراب الندِي ـ ثم قال ـ : ويقال: إلْتقى الثريان، وذلك أن يجيء المطر فيرسخ في الأرض حتى يلتقي هو وندى الأرض)) انتهى؛ ولعل ذكر الثرى تنبيه على ملك الأرض بتخومها وبكل جرمها، لأنه لو قيل والأرض ما توجه الذهن إلا إلى ملك ظاهر الأرض، أوللتنبيه على ما في باطن الأرض من الكنوز والبترول والماء وغيرها أنه المالك لذلك كله.

۝٧ ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ هذه متصلة بما قبلها تقرر أن الله لا إله إلا هو، فإن تجهر بالقول سواء في الدعاء أو في غيره فهو الله سميع الدعاء، والرقيب على كل قول وكل سر ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ من القول كما يعلم الجهر، ويعلم ما هو ﴿أَخْفَى﴾ من السر إما ما أضمر، وإما ما لم يخطر بالبال من أحوال الإنسان وأعماله وأقواله المستقبلة وغير ذلك، و الآية تعمهما.

ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ

﴿٨﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود عبادة حقاً إلا هو ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ التي تدل على أنه الإله الذي لا ند له ولا ضد ولا شريك، والأسماء الحسنى: الله، الرحمن، الرحيم.. إلى آخرها، وهي في القرآن مفرقة وبعضها في آخر (سورة الحشر) و (سورة الإخلاص) وأول (سورة الحديد) و (آية الكرسي) ومنها: القدير على كل شيء، العليم بكل شيء، الغني، الحميد، السميع، البصير، العزيز، الحكيم، الحي، القيوم، وقد جَمَعْتُ في كتيب واحداً وستين اسماً وفسرتها، وينبغي معرفتها بمعانيها؛ لأن ذلك من تمام الإيمان بالله تعالى.

﴿٩﴾ ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ وهل أتاك حديث موسى كالعنوان لذكره، وفيه التوحيد والرسالة والقدوة في الصبر لنبئنا محمد ص.

﴿١٠﴾ ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ اذكر ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ في سفره راجعاً من مدين إلى بلده بتقدير من الله، فإن من العجيب أنه فرّ خوفاً من آل فرعون حين ائتمروا به ليقتلوه، ثم هو من بعد هذا يسافر راجعاً إليهم كأنه غلبه الشوق، وأمله أن سيخفى على فرعون وهو لا يدري ما قدّر له، ففي الليل ﴿رَءَا نَارٗا﴾ وكأنه قدر الله له أن يقف بأهله هنا حيث رأى النار، قد ضلت عليه الطريق واحتاج أهله إلى النار لبردٍ أصابهم ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أي ابقوا هاهنا، وأذهب أنا إلى النار ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا﴾ أي من النار ﴿بِقَبَسٍ﴾ بجمرة توقدون بها حطباً، والقبس بعض من النار يؤخذ لتحصل ناراً ﴿أَوۡ﴾ لعلي ﴿أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ إلى الطريق، بأن يدلني أهل النار أو أرى الطريق هناك في ضوء تلك النار.

ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ

﴿١١﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ ولعله خطر بباله حين أتى النار وسمع النداء ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ من هذا المنادي الذي قد عرف موسى؟

﴿١٢﴾ ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠﴾ المكلم لك، المنادي لك باسمك ﴿رَبُّكَ﴾ الله ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ بناء على البقى لتبقي لتستمع لما يوحى ﴿إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ المطهر من العيوب المسمى ﴿طوًى﴾ ولكونك فيه فلا تعجل إلى الرجوع منه، فاخلع نعليك.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾ لأمرٍ أوحي إليك بيانه ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ أعلمه أول الدين توحيده تعالى، وأمره بعبادته وحده أمراً مفرعاً على أنه لا إله إلا هو، فلا يستحق العبادة إلا هو، وهو المستحق لها ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِى﴾ لتذكرني في الصلاة القيمة، وهي من العبادة خصها بالذكر لعظمها.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ في المستقبل ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ فهي لا تأتي إلا بغتة، فهي آتية ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ بما تعمل، وأصل السعي المشي السريع، فبين له من أصول الدين أن الساعة آتية، وأن الجزاء لكل نفس آت يوم القيامة، فدل على الثواب والعقاب.

بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلۡقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٞ تَسۡعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذۡهَا وَلَا

﴿١٦﴾ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ﴾ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ لا يصرفنك ولا يحولنك ﴿عَنۡهَا﴾ عن ذكرها والإشفاق منها والإستعداد لها ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ لو صدك أي فتهلك أي تعذب.

وقوله تعالى: ﴿مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا﴾ يعم الكفار الجاحدين والفساق الذين ليس في قلوبهم من التصديق بها والإقرار بها ما يبعثهم على الإستعداد لها والحذر من النار، والعمل للجنة؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين بها لبعثهم الإيمان على الإستعداد خوفاً من النار ورغبة في الجنة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى:١٨].

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤال يلفت نظره إلى العصى ليوقن حين تكون حية أنها هي عصاه تحولت حية ـ والله أعلم.

﴿١٨﴾ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ﴾ ذكر جواباً مفصلاً عن العصى، فقد تحققها، وقوله ﴿أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا﴾ أي أعتمد عليها مع المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أضرب ورق الشجر لتسقط أوراقها لتأكلها غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ﴾ حاجات أبهمها تأدباً، ومنها: إذا عرضت له حية أن يقتلها أو كلب أو نحو ذلك دفعه بها.

﴿١٩﴾ ﴿قَالَ أَلۡقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿أَلۡقِهَا﴾ اطرحها أي اطرح العصى من يدك.

تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى

﴿٢٠﴾ ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ فإذا العصى حية تمشي بسرعة بقدرة الله تعالى، فكانت تلك معجزة يعلم بها أن الله تعالى هو الذي يكلمه، فقد فَقَد العصى التي كان يعدها لمثل هذه الحالة، وصارت هي المخوف.

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿خُذْهَا﴾ إيماناً بأنها لا تضرك، وأني أعيدها عصى، قال في (المصابيح): ﴿سِيرَتَهَا﴾ طريقتها، فهي تعود نافعة منافعها الأولى، أو صالحة لها كما كانت قبل أن يلقيها.

﴿٢٢﴾ ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى ضلوعك تشبيه لها بالجناح جناح الطائر، لكون الجنبين في الإنسان مكان الجناحين من الطائر، وذلك أن يدخل يده في جيبه متجهة إلى جنبه.

وقوله تعالى: ﴿تَخْرُجْ﴾ أي من جيبك ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ من غير برص، بل بيضاء جميلة ﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ مع الآية الأولى التي هي جعل العصى حية حقيقية.

﴿٢٣﴾ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ لتزداد إيماناً، وتثق بقوة حجتك.

﴿٢٤﴾ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ﴿ٱذْهَبْ﴾ رسولاً من ربك إلى فرعون، إن فرعون طغى، فكان من الحكمة إنذاره، فإما تاب وإما لم يكن له حجة يوم القيامة، وهذا تكليف شاق؛ لأنه أرسله إلى من قد فر منه أولاً، وهو طاغية لا يتحرج من القتل ظلماً، مع أن موسى قد قتل منهم نفساً، ولكنه عزم على طاعة ربه واستعانه.

﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ

﴿٢٥-٣٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي * وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ ﴿ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ اجعله واسعاً لأحتمل ما كلفت، ويكون شرحه عوناً لي على احتمال الرسالة وتكاليفها.

وقوله: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ أمره طاعته لربه، وصبره على الشدائد، وفي قوله: ﴿لِي﴾ تأدب يعبر فيه عن كمال الإمتثال، وأن قيامه بالتبليغ وتكاليف الرسالة قد جعلها حاجة لـه، وهي حاجة لـه من حيث أنه عبد مطيع يريد تسهيل طاعته لربه.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ ﴿عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي﴾ شَبَّهَ عسر النطق ببعض الحروف بالعقدة في اللسان، والمراد: سهّل لي النطق بحيث يفهمون كلامي حين أبلغهم رسالة ربي.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي﴾ ﴿وَزِيرٗا﴾ معيناً على تبليغ الرسالة، وتحمل مشاقها، قال في (الصحاح):((والوزير الموازر، كالأكيل المواكل؛ لأنه يحمل عنه وزره، أي ثقله)) انتهى.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ قال في (الصحاح) و(الكشاف): ((الأزر: القوة)) وفي (مفردات الراغب): ((والأزر: القوة الشديدة)) انتهى.

فالمعنى: اشدد به قوتي، ولعل المراد احفظ به قوتي وثبتها، أو قوّ به قوتي ليكون قوة إلى قوة ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ فيما كلفتني من التبليغ للرسالة وتوابعه ولوازمه.

نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا

وقد احتج بهذه الآية الإمام الهادي إلى الحق × على ثبوت ولاية أمير المؤمنين علي × ؛ لأن من توابع الرسالة ولوازمها وجوب طاعة موسى على من أرسل إليهم، بدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤] ومن وجبت طاعته على العموم فهو إمام لهم، فكل رسول إمام، فالإمامة من أمر موسى الذي سأل ربه أن يشرك هارون فيه، وقد قال رسول الله ص لعلي × : ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) انظر أول كتاب (الأحكام) للإمام الهادي × .

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ لعله طلب ذلك لعلمه × أن تكليف الرسالة يشغل القلب لما يلاقي الرسول من التكذيب والتخويف والأذى، فإذا شرح الله صدره ويسر أمره وأعانه بأخيه سهلت عليه التكاليف وتفرغ قلبه ولسانه للتسبيح والذكر لله، فطلب × ذلك الشرح لصدره وما ذكر معه ليذكر الله كثيراً.

وخص التسبيح لله بكونه غرضاً مستقلاً وصدره في التعليل، فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ مع أن التسبيح قد دخل في الذكر في قوله: ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ والتسبيح لله نطق معناه: التنزيه من كل ضعف ومن كل نقص ومن كل عيب، والتبعيد من ذلك لله العزيز الحميد، ولعله اهتم للتسبيح، لما سوف يلاقي من المشركين من العناد والجهل بالله والشرك به والله أعلم؛ ولأنه ينبغي للمؤمن ذلك في كل حال، قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] لأنه من العبادة ومن شكر النعمة، ومن الباقيات الصالحات.

إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ فلا تعي بإجابة دعائي وحسن التدبير لأمري وأمر أخي.

﴿٣٦﴾ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ سؤلك ما سألت في هذه الآيات أي أجيب دعاؤك وأعطيت مطلوبك.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ ولقد أنعمنا عليك مرة أخرى قبل هذه المرة فتدبرها لتعلم أنك في رعاية الله تعالى منذ صغرك، وأنك أعددت لهذا التكليف بالرسالة منذ صغرك.

﴿٣٨﴾ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ﴾ هذا أول تفسير المنّة المذكورة، ولا مانع من الوحي إليها بما أوحي إليها لأنه ليس شريعة تعم العبادات والمعاملات أو تبلغها قومها، إنما هي كلمات قليلة، كما كلمت مريم عليها السلام أمر وخبر ووعد تعرف به سبيلاً لنجاة مولودها من الطاغي الجبار العنيد الذي يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فأوحى إليها ما يوحى؛ لأنه أمر عظيم إعداد لرسول إلى فرعون وملائه، وإعداد لإنقاذ بني إسرائيل من ظلم ذلك الجبار العنيد، وإعداد لإزهاق الباطل ونصر الحق.

﴿٣٩﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ﴾ المصنوع من الخشب إعداداً لإلقائه في البحر ونجاته من الغرق.

فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا

﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ فاطرحيه ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ البحر العظيم، ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ فهو مأمور بذلك أمراً تكوينياً: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠] فالأمر للبحر خبر عن امتثاله، وإلقائه موسى بالساحل أي في طرف البرّ الذي يلي البحر المجاور له.

﴿يَأْخُذْهُ﴾ جواب الأوامر كلها، أو جواب الأمر الآخر؛ لأنه نزل منزلة الأمر القولي، فأعطي حكمه ﴿عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ صفتان لموصوف واحد هو عدو الله فرعون الذي هو عدو لصبيان بني إسرائيل، إلا أنه يأخذه وهو لا يعلم من أين أتى ولا ممن هو ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ﴾ يا موسى ﴿مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ كانت سبباً لنجاتك ولعودتك إلى أمك بإذن الله تعالى، فهذه المنة الأخرى مننا عليك بها.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ كأنه قيل: لننقذك من ذبح فرعون، ونردك إلى أمك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ ولتغذى وتربّى تربية كاملة صالحة، تكون إعداداً لطهارة منشئك وطيب سلوكك، وصلاح ضميرك، وقوة بدنك وغرائزك، ورباطة جأشك ﴿عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ على حسن رعايتي، مطابقاً لمراقبتي لأحوالك وتدبيري لأمرك.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ﴾ لتبحث عنك فوجدتك في حضانة امرأة فرعون، لا تقبل ثدياً

ترضع منه، وقد أعياها وأعيى فرعون أمرك؛ لأنه مع حبهم لك ورغبتهم أن تنفعهم أو يتخذوك ولداً قد خافوا عليك الموت من الجوع والعطش، وشق عليهم صياحك الذي لا يسكته عرض الرضاع لـه؛ لأنه لا يقبل رضاعاً، ففي حال رغبتهم في التخلص من هذه المشكلة جاءت أختك فقالت: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾ فيكفيكم مؤنته، فوافقوا على ذلك، وكان ذلك سبباً رددناك به إلى أمك وهم لا يشعرون أنها أمك.

﴿فَرَجَعۡنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ بعودتك إليها في سلامة وأمن عليك أي كي تسر بذلك، فكانت هذه نعمة على أمك وعليك؛ لأن النعمة عليها نعمة عليك؛ ولأن تربيتك عند المرأة المؤمنة التي تربيك على الطهارة والصلاح نعمة عليك من ربك ﴿وَلَا تَحۡزَنَ﴾ أي ولكي لا تحزن أمك لو هلكت أو لو لم ترجع إليها.

﴿وَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا﴾ كما هو مذكور في (سورة القصص) ﴿فَنَجَّيۡنَٰكَ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾ إذ نجيناك من آل فرعون بالخروج من المدينة إلى مدين ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ ابتليناك ابتلاءً شديداً محصك وزادك استعداداً لتحمل الشدائد عند تحمل أعباء الرسالة وقيامك بما كلفت فيها، فخوف بعد قتل القتيل، ثم سفر بلا مركوب ولا معرفة بالسبيل حيث صرت مفرداً عن أهل وعن مسكن وعن طعام وعن فراش، فقلت: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] فلبثت سنين ثمانياً أو عشراً في أهل مدين، قال الشرقي في (المصابيح): ((و﴿مَدۡيَنَ﴾ قرية شعيب × على عشر مراحل من مصر)) انتهى.

وقوله تعالى ﴿ثُمَّ جِئۡتَ عَلَىٰ قَدَرٖ﴾ على تهيئة وإعداد لك للرسالة، وتهيئة وإعداد للمجيء من مدين إلى هنا ليس مجرد صدفة، بل على ما

فِي ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾

اقتضته الحكمة وتقدير العزيز العليم ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكريم لموسى وتقوية لإيمانه بالوحي من الله علام الغيوب، فقد ناداه باسمه وذكر له جملة من تاريخه وإنعام الله عليه وإعداده للرسالة، وكل ذلك مع المعجزة انقلاب العصى حية والأخرى بياض يده، فكل ذلك سبب لإيمان قوي لا تزعزعه الشدائد، ولا توهنه المخاوف التي يستقبلها في رسالته.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ صنعتك صنعة خاصة إعداداً لنفسي أي لي، وذلك بإكماله له وجعله صالحاً للرسالة قوياً على مقاومة الشدائد، شجاعاً حريصاً على هداية عباد الله، صبوراً واسع الصدر، رحيماً بالمؤمنين، شكوراً زاهداً في الدنيا أميناً على تبليغ الرسالة، كريماً كما وصفه الله تعالى في (سورة الدخان).

﴿٤٢﴾ ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾ آياتي دلائلي التي تدل على أني أرسلتكما إلى فرعون وملائه، وهي التسع الآيات، أي مصحوباً بآياتي أنت وأخوك ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ الوني: الضعف.

قال في (الصحاح): ((الوَني: الضعف والفتور والكلال والإعياء)) انتهى والمعاني متقاربة إلا أن من الضعف ما يزول بتذكر المرغب للمؤمن في العمل، فهذا الضعف يسمى فتوراً أو كلالاً، وما يستطيع أن يتخلص منه هو المنهي عنه، ولاختلاف الضعف في هذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج:١٩-٢٢] فكان الهلع مذموماً؛ لأن المؤمن يتخلص منه بإيمانه وبواعث العمل.

قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ ليترك الطغيان، ويرسل معكما بني إسرائيل فيتخلصوا من طغيانه ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ القول الليّن يعين الخصم على قبول الحجة، ويقربه إلى الإنصاف في كثير من الحالات، بخلاف القول القاسي والخطاب الغليظ الجافي، فإنه يبعث على إصرار الخصم ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ أي قولا له قولاً ليناً رجاء أن يذّكر ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أي راجين بالرفق واللين أن يتذكر أن له خالقاً هو ربه، أو يخشى عذاب الله عند سماعه للإنذار فيحمله ذلك على النظر والإنصاف.

﴿٤٥﴾ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ هذه شكوى مشكلة يريدان حلها ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ يسبق تبليغ الرسالة علينا بقتلنا أو نحو القتل مما يحول بيننا وبين تبليغ الرسالة، أو أن يطغى بعد إبلاغ الرسالة بأن يغضب منها فيطغى علينا بالقتل أو التعذيب.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لموسى وهارون ﴿لَا تَخَافَآ﴾ أي لا بأس عليكما من فرعون ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ أحفظكما وأراقب ما يكون منكما ومنه، من كلام وغيره ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يقول ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما يصنع، وما تقولان وما تصنعان، وليست معية مقارنة؛ لأن معية المقارنة تكون بين الأجسام أو الأعراض وفي كلام أمير المؤمنين × : ((ومع كل شيء لا بمقارنة)).

وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا

﴿٤٧﴾ ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ ﴿رَسُولَا رَبِّكَ﴾ تذكير لـه بأنه عبد مملوك أرسلهما إليه مالكه الذي لـه أمره ونهيه وتعبده ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا﴾ دعهم يذهبون معنا لنحررهم من عذابك ﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ فإن ذلك منك ظلم لعباد ربك ﴿قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَ﴾ المالك لك الذي أنت عبد من عباده، والآية تبين لك صدقنا أنا رسولاه ﴿وَٱلسَّلَٰمُ﴾ أي الأمان والسلامة ﴿عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ فاتبع الهدى تسلم.

﴿٤٨﴾ ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فكما أن ﴿السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ فالعذاب ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وقولهما: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾ تحقيق لصدق هذا الوعيد ببيان أنه من عند الله لم يقولاه من أنفسهما، فالمعجزة المصدقة لهما فيما بلغاه من كلام المرسِل لهما، ومعنى ﴿مَن كَذَّبَ﴾ من كذب بالصدق إذ جاءه، وكذب بآيات الله، ومعنى ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ تولى عن طاعة ربه وأدبر عنها، كناية عن ترك الطاعة.

﴿٤٩﴾ ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ كان عدو الله مُعَبِّداً لبني إسرائيل فلعله حين قالا: ﴿رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ ولم يقولا: ربنا طمع في أن يقولا: أنت ربنا أي مالكنا، ليقول لهما: فاتركا ما تدعوان إليه، ولكنه خاب أمله.

﴿٥٠﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ﴿رَبُّنَا﴾ الله الذي صور كل شيء فأعطاه صورته الخاصة به المميزة لـه عن غيره على اختلاف الأشياء وكثرتها.

عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ عباده أنواع الهدى، هداهم إلى معرفة أنه ربهم الذي خلقهم، وهداهم بإرسال الرسل إلى ما جاءت به الرسل، وهدى الحيوانات إلى أسباب معيشتها، وبهذا البيان عرف أنه يريد أن ربهما وربه هو الله.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((فقال محمد بن القاسم × : يعني بكل شيء: جميع ما أنعم الله به عليهم وأعطاهم من عطايا النعم..)) الخ، يعني: ربنا الذي أعطى خلقه كل شيء، وخص موسى بالخطاب إما لعلمه أن في لسانه ثقلة فأراد أن تظهر للسامعين ليحتج بها بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥٢] وإما ليسهل عليه الجدل لكونه مع واحد فقط، والأول أظهر.

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ قد فهم من قولهما: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ أو منه ومن زيادة طويت على عادة القرآن في الإختصار، فهم أنهما ينذرانه عذاب الآخرة ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ما زالت في بطن الأرض لم يحيها، وقد مرت عليها مئات السنين فلم تبعث، فكيف تدعيان أنا سنبعث بعد الموت.

﴿٥٢﴾ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ﴿عِلْمُهَا﴾ أي علم القرون الأولى ﴿عِندَ رَبِّي﴾ أي هو عالم بها لا تخفى عليه، وعلمه بها باق كما لو كانت ﴿فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ لا يغلط ربي في بعث أمة ببعث غيرها ﴿وَلَا يَنسَى﴾ أمة من الأمم، ولا فرداً من أمة، فلم يترك بعثها نسياناً لها، وإنما أخرها لأجلها، أو علمها عند ربي جعل علمها في كتاب؛ لأن أعمالها مكتوبة فضلاً عن كتابتها هي.

مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَـٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ

﴿٥٣﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ لما أنذره عذاب الآخرة بيَّن له دليلاً من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه بكل شيء؛ لئلا يظن أن الحيوة الآخرة بعد الموت متعذرة على الله تعالى، فقال: الذي جعل لكم نعمة منه عليكم، الأرض ممهدة معدة لعيشتكم فيها، فجعل تربتها مناسبة لكم، من حيث صلاحها للبذر فيها والإنبات لطعامكم وطعام أنعامكم، ومن حيث جعلها بالنسبة لكم مسطحة يمكنكم المشي عليها، والحرث والبناء، ومن حيث جعلها لا تؤلم الإنسان مباشرتها لقدميه إذا مشى عليها ونحو ذلكن فهي مهاد للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ بجعلها صالحة للسفر فيها من أرض إلى أرض، سليمة من الحواجز الجبلية أو الخنادق أو غيرها، فأمكنت التجارة بنقل البضائع في البر والبحر، فالحبوب والكسوة وغيرها من حاجات الإنسان تنقل من أرض إلى أرض، وذلك دليل على أن الله تعالى قادر عالم؛ لأنه لو لم يكن قادراً ما مهد الأرض وسلك فيها سبلاً، ولو لم يكن عالماً لما علم كيف يجعلها مهاداً، وكيف يجعلها سليمة من الحواجز.

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ فيه ذكر آية عظيمة؛ لأن الماء يكون في السحاب بأي طريقة يجتمع، ثم ينزل بقدر ماءً عذباً صالحاً للحيوان والنبات، فهذا لا يكون إلا من قدير عليم مدبر لحاجات عباده.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ بيان لأدلة قدرته وعلمه وإنعامه، فلو لم يكن قادراً لما خلق النبات، ولو لم يكن فاعلاً مختاراً ما نوع النبات وجعله ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أي أصنافاً من النبات ﴿شَتَّىٰ﴾ مختلفة؛ لأن الطبيعة الواحدة أو أي شيء من أسباب الوجود المفروضة فرضاً لو كان لما كان أثره إلاّ واحداً ما لم يصرفه فاعل مختار يخالف بين الأنواع، فأما الطبائع المتعددة التي تختلف منتجاتها باختلافها فهي دليل على خالق قادر عالم، أعني الطبائع دليل على فاعل مختار أوجدها ونوعها ليتنوع ما تنتجه.

وفي تحويل الضمير من السياق الذي يسمى التِفاتاً في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فائدة جلية؛ لأنه لو قال: فأنبت لاحتمل عود الضمير إلى الماء، فلما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ كان أوضح فيما سيق له الكلام من الدلالة على قدرته تعالى وعلمه، ليعلم بذلك قدرته على البعث بعد الموت، وأنه لا يضل ولا ينسى.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾ تمام الدليل فأنزل الماء، وأنبت بالماء أزواجاً من نبات لفائدة معروفة، هي تحصيل طعام الإنسان والأنعام، فالتفكير في هذا يؤدي إلى معرفة خالق قادر عالم منعم على عباده مدبر لمعيشتهم في هذه الحيوة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ تنبيه على تعدد الأدلة فيما ذكره سبحانه، ومن أوضحها أن صنعة النوع الواحد من النبات دليل على الخالق القادر العالم، انظر صنعة الورقة الواحدة ومجاري الماء فيها ثم انظر كيف يحصل ثمرها بعد أن كانت لا تنمو إلا أغصاناً وأوراقاً ثم في النهاية تبدو ثمرتها، وكيف تغذى ثمرها حتى كمل وأينع.

وهذا مثل واحد لتعدد الآيات ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ أي لأهل العقول الذين يستعملون عقولهم، فينظرون في آيات الله، وتحصل لهم العلوم بواسطة التفكير في آيات الله.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ يعني لأولي العقول واحدها نُهْيَة)) انتهى.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ ﴿مِنْهَا﴾ أي من الأرض ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ إما بخلق أصل الناس الذي هو آدم المخلوق من الطين، وإما كل واحد خلقه الله من الطين، لأن أصله المني، وأصل المني الغذاء، وأصل الغذاء النبات، وأصل النبات من الماء وما يمازجه من الأرض والله أعلم.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ عند الموت، وهي نعمة على الإنسان ستره في بطن الأرض، والمراد أن هذه عادة للجنس البشري، ولا ينافيه أن بعض الأفراد لا يدفن في الأرض؛ لأن ذلك معلوم للسامع فهو خارج من العموم بعلم السامع، وكذلك لو هلك إنسان في الفضاء فهل يكون خارجاً من العموم على فرض العموم، أم لابد أن يعيده الله إلى الأرض؟ لابد من أحد الأمرين، أو أنه لا عموم؛ لأن الضمير في ﴿نُعِيدُكُمْ﴾ للمخاطبين ويمكن تخلف العادة في المستقبل بعد هذا الخطاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ دليل على إعادة الإنسان بتجديد جسمه الذي كان في قبره، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الإنفطار:٤] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٨٤] وقوله تعالى: ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ يقوي أن كل فرد أخرجه الله منها في النشأة الأولى.

أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن

﴿٥٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ بعموم كل الآيات وليس المراد خصوص كل آية إلا في جملة العموم، مثلاً خلق الأرض آية، إنزال المطر آية، إنبات النبات آية، حتى عم المخلوقات، أراه الله أي أرى فرعون، ويحتمل: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ التي أرسلنا بها موسى أي العصى، وضم يده إلى جناحه من الرهب، وخروج يده من جيبه بيضاء من غير سوء.. الخ ﴿فَكَذَّبَ﴾ بكونها آيات وكذب موسى وهارون ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يؤمن امتنع.

وقوله تعالى: ﴿أَرَيْنَٰهُ﴾ يحتمل أظهرناها له فرآها بعينيه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات:٢٠] ويحتمل: أريناه عرفناه حتى عرف أنها آيات ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] ﴿فَكَذَّبَ﴾ الرسول، وكذب بالآيات ﴿وَأَبَىٰ﴾ أن يطيع الله ورسوله.

﴿٥٧﴾ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ قال فرعون تكذيباً لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾ وفي هذا تحريك لتعصب أصحابه للوطن، وقوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ يعنى الآيات التي أراه، وقد علم أنها آيات صحيحة سماها سحراً تمهيداً لمعارضته لها بالسحر الحقيقي توصلاً إلى تضليل قومه وتطويل النزاع.

﴿٥٨﴾ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سِوًى﴾ ﴿مَوْعِدًا﴾ لنحضر السِّحر وتحضر الآيات ليُعلم أنها سحر بزعمه مثل الذي نأتي به.

تُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ

وقوله: ﴿مَوْعِدًا﴾ يصلح مصدراً واسم زمان واسم مكان، وقوله: ﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ ينظر إلى أنه مصدر، وقوله:﴿مَكَانًا﴾ ينظر إلى أنه اسم مكان، والمراد تعيين المحل للموعد، وفي هذا دليل على استعمال المشترك في معنييه ﴿سِوًى﴾ مكاناً معتاداً يستوي الناس في استحقاقه.

﴿٥٩﴾ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ ﴿يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يوم عيد لهم فقد وافق على الموعد، وزاد تعيين الزمان باليوم والساعة، ولعلهم كانوا في عيدهم يجتمعون في مكان معين؛ فلذلك استغنى بذكر يوم الزينة، والضحى من بعد شروق الشمس وانبساط شعاعها، وجعل في الموعد أن يحشر الناس ليروا الحقيقة، ويتعسر أو يتعذر على فرعون التغرير عليهم.

﴿٦٠﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ تولى: انصرف من عند موسى ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ بجمعه للسحرة من المدائن ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ فرعون بما قد جمع من كيده، أي بالسحرة فأحضرهم في الموعد يوم الزينة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ يشعر بأن موسى سبقه إلى المكان، فجاء فرعون فكان مجيئه لمكان الموعد إتياناً لموسى وهارون، ويحتمل ثم أتى الموعد.

﴿٦١﴾ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أنذرهم بقوله: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ وفسره بقوله: ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ كأنه توقع من السحرة أنهم يُتْبِعُون سحرَهم: دعوى أن الله أرسلهم ليضللوا على الناس بأمر فرعون، فحذرهم أنهم إن افتروا على الله كذباً أهلكهم الله.

هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن تُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني لا تكذبوا عليه ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أي يستأصلكم ويهلككم)) انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: يستأصلكم)) انتهى، واستئصالهم إهلاكهم كلهم.

وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ أي يهلككم بعذاب، فأنذرهم مجموع الأمرين هلاكاً وعذاباً، وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ قال الراغب: ((الخيبة: فوت الطلب)) انتهى، يعني: فوت المطلوب، ولعله يعني أن ذلك الموقف يفوت فيه مطلوب المفتري؛ لأنه موقف تنكشف فيه الحقيقة.

﴿٦٢﴾ ﴿فَتَنَـٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ كأنهم كانوا مصممين على دعوى الرسالة لهم ليعارضوا بذلك دعوى موسى، وقد علم فرعون ومن شاهد آيات موسى أنه رسول من الله؛ فلذلك اضطربوا لما أنذرهم وتنازعوا بينهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أخفوها من موسى ومن معه، لعلهم أخفوها لئلا يعرف أن السحرة قد خافوا، واحتاجوا إلى تقوية عزمهم على الإتيان بسحرهم.

﴿٦٣-٦٤﴾ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن تُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ * فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾ ﴿قَالُوٓا۟﴾ في نجواهم ﴿هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَانِ﴾ وهذا من تشجيع السحرة، أي ليسا رسولين من الله.

﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ

وقولهم: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم﴾ تحميس لهم وتحريك لحميتهم، وكأنهم قد كرهوا الإتيان بالسحر لولا أن فرعون أكرههم وشجعهم وحمسهم.

وقولهم: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ أي يبدلا دينكم، ووصفوا دينهم بأنه أمثل أي حق وصواب، وقولهم: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ﴾ أي اجمعوا سحركم ليقوي بعضه بعضاً، ويكون باجتماعه سحراً عظيماً.

قال الراغب: ((وأجمعت كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل إليه بالفكرة)) انتهى، وقولهم: ﴿ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗا﴾ لعله لإظهار كثرتهم وليلقوا سحرهم في دفعة واحدة ولا يتخلف أحد، وقولهم: ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ إطماع للسحرة في أن يفلحوا ويصيروا من المقربين عند فرعون.

﴿٦٥﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ سحرك بزعمهم أي تطرحه أمام الناس ليشاهدوه، وإما أن نلقي سحرنا أولاً قبلك، وفي هذا التخيير احتيال ليبدأ هو ليكون أول من ألقى، ولذلك قدموه فقالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ﴾ لأنهم يظنون أنه يلقي شيئاً خفيفاً لعدم علمه بعظم سحرهم، ليغلبوه إذا ألقوا ما لم يكن في احتسابه.

﴿٦٦﴾ ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْ﴾ ثقة بالله وبحجته الصادقة، واستعمل طريق التكرم؛ لأنه قابل تخييرهم له باختيار أن يبدؤوا.

﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ

ولا يشكل أنه أي السحر منكر؛ لأن من الجائز في تلك الحال أن الله تعالى أذن به ليبطل كيدهم بإبطال سحرهم، وقوله تعالى: ﴿تُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى موسى أنها أي الحبال والعصى تسعى تسير مسرعة، وذلك خيال لا حقيقة.

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ أوجس في نفسه: أضمر في نفسه خوفاً من أن تقوى شبهتهم ويخفى الحق على بعض الناس بتضليل فرعون ومن معه، وفي (مصابيح الشرفي): «عن الحسين بن القاسم × : ومعنى أوجس وجد وأدرك في نفسه خوفاً» انتهى المراد ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ذلك ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾ الغالب.

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي واطرح ما في يمينك أي العصى ﴿تَلْقَفْ﴾ تأخذ ﴿مَا صَنَعُوا﴾ فيبطل وهو السحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ كتب في المصحف ﴿إِنَّمَا﴾ مخلوطة (إن) و(ما) والقياس فصل (ما)؛ لأنها الموصولة أي إن الذي صنعوه ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ والدليل على ذلك رفع كيد، والكيد الاحتيال لمضرة الغير أو نحوها ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ لا يظفر بخير باق.

قال في (أساس البلاغة): «وهب الله لك الفلاح والفَلَح وهو البقاء في الخير» وفي (مفردات الراغب): «والفلاح الظّفر وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيوي، وأخروي، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها حياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز..» الخ.

وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا

وقوله تعالى: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ دليل على أنه لا يفلح لا في تلك الحالة ولا في غيرها أينما صار، ولعله يشير إلى أن الإنسان قد يفلح في بعض الأماكن إذا أتاها، لكن الساحر لا يفلح حيث أتى.

﴿٧٠﴾ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ هووا بوجوههم ساجدين على الأرض؛ ولسرعة ذلك الهويّ جعل التسبيب لـه إلقاء كأنهم شيء واحد ألقي ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأن تلقف العصى للسحر كان آية عرفوا بها صدق موسى وهارون فآمنوا بالله، وقولهم: ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ لأن الآية كانت على أيديهما؛ ولأن فرعون كان يدعي الربوبية، فلو قالوا آمنا بربنا ما فُهم أنهم أرادوا آمنا بالله.

﴿٧١﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ﴾ قال فرعون للسحرة حين آمنوا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾ أي لموسى؛ لأنه ألقى العصى فتلقفت سحرهم ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ يعتبر نفسه مالكاً لهم؛ ولذلك لا يرى لهم حرية الفكر والعقيدة إذا تبين الحق لهم، وتجنب أن يقول: ءآمنتم لـه من دون تعليق الإنكار على أنه قبل أن يأذن لهم؛ لأن إيمانهم قد قامت لهم به الحجة الواضحة، فلو أنكره لمجرد أنهم اتبعوا الحجة الواضحة كان في مقام ضعف.

مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ

والحاصل: أنه لجأ إلى المغالطة بإيهام أنهم قد أساؤوا بمبادرتهم إلى الإيمان قبل إذنه، واستحقوا بزعمه أن يعاقبهم، فهو قد تشاغل بالتهديد لهم، وفي الواقع أنه قد غُلِب وانقلب صاغراً.

وقوله: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي اليد اليمين والرجل اليسرى، أو اليد اليسرى والرجل اليمين، وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ يريد أنه سيجعلهم مربوطين إلى جذوع النخل ربطاً شديداً، وذلك في عرض الجذوع ليس فوقها، فقامت في مقام إلى أو مقام على، باعتبار أن الجذوع حاملة لهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أينا يعنى نفسه وموسى، وهنا يشير عدو الله إلى أنهم خافوا من موسى لما غلب سحرهم فآمنوا له خوفاً منه لا لأن الحق معه فهو يهددهم بأنه يعذبهم، ولأجل عذابه يعلمون أنه أشد من موسى عذاباً ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ عذاباً.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ جواباً عن قوله: ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ ونقدمك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ﴾ الآيات ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي لن نجعل طاعتك آثر وأقدم من البينات التي جاءتنا من الله ربنا، ومن ربنا ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ أي الذي خلقنا، فهو ربنا لا أنت ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ مما توعدنا به، فلن يردنا ذلك عن الإيمان؛ لأنه وعيد بما غايته إنهاء الحيوة الدنيا وقضاؤها، وليس كعذاب الله، فقد قابلوا بين عذاب فرعون وعذاب الله، كما قابلوا بين طاعة فرعون واتباع آيات الله طاعة لله.

ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا

﴿٧٣﴾ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ إنما آمنا بربنا لننجوا من عقابه لنا على خطايانا التي فرطت منا، وعلى السحر الذي أكرهتنا عليه، وجعلوه جريمة؛ لأنه محاربة للحق، أو لذلك ولأنه طاعة لمخلوق في معصية الخالق؛ أو لذلك ولأن السحر نفسه إثم كبير.

وقولهم: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ أرادوا به أنه خير لهم من طاعة فرعون، وأبقى لهم؛ لأنه الحي الذي لا يموت، وخيره لهم في الدنيا والآخرة، وخير الآخرة عظيم دائم.

﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ هذا من حكاية جوابهم على فرعون، بينوا فيه أن عذاب الله أشد من عذاب فرعون، وأن عذا ب الله لكل من يأتي ربه مجرماً أي يوم الحساب يحضر موقف سؤال الله له، وهو مجرم أي مذنب ﴿فَإِنَّ لَهُۥ﴾ جزاء على إجرامه ﴿جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ﴾ فيستريح من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حيوة سليمة من الأسباب المميتة لو كانت في هذه الحيوة، فالمعذب فيها بين الحيوة والموت يعاني شدة الموت ولا يموت، ومع ذلك لا نهاية لهذا العذاب، فأين منه عذاب فرعون لو وقع بهم.

﴿٧٥﴾ ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾ يأت ربه يوم القيامة ﴿مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في الدنيا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين هم أهل الصفة المذكورة ﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ الدرجات الرفيعة، ثواب لإيمانهم وعملهم الصالح.

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتۡبَعَهُمۡ

﴿٧٦﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل بيان للدرجات العلى، والعدن قيل: هو الإقامة والبقاء، وفي (تفسير الإمام القاسم ×): هو الإستقرار والأمن، ولعله تطبيق لمفهوم العدن؛ لأن البقاء في المحل لا يكون إلا مع الأمن؛ لأن الخوف في المحل يزعج الخائف عنه، ويبعثه على الرحيل منه، وذلك الدرجات العلى التي هي ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ باقين فيها لا يموتون ﴿جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أصلح نفسه وطيبها بالإيمان والتقوى، وفي هذا إشارة إلى التمييز في الآخرة بين الخبيث والطيب، وفي جوابهم هذا غاية الرد على فرعون، وهل فعل بهم ما توعدهم به؟ قيل ذلك.

والراجح: أنهم لما آمنوا صاروا من قوم موسى، وفي أمل فرعون أنه يهلكهم كلهم، ولكن نجوا منه.

﴿٧٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ ﴿أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ ارحل بهم في الليل، وقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِي﴾ أي بالمؤمنين معك فدخل فيهم السحرة إن كانوا باقين حين الوحي ﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي فاجعل لهم طريقاً في البحر بواسطة الضرب ﴿يَبَسٗا﴾ جافاً سليماً من الوَحَل والبلل، وذلك أن فرعون سيتبعهم عند شروق الشمس، فبادر موسى بالسُّرى لئلا يدركهم فرعون وقومه قبل بلوغهم عند البحر ﴿لَّا تَخَٰفُ﴾ أي حال كونك آمناً ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا﴾ أن يدركك فرعون وقومه ﴿وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ من المرور في الطريق شيئاً مثلاً لا تخشى أن تغرق برجوع البحر بعضه إلى بعض.

فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ

وفي هذا الموضع يظهر الفرق بين الخوف والخشية، والراجح: أن الفارق أن الخشية خوف مع محاذرة، فهو يمر في البحر لا يخاف ولا يحاذر شيئاً من مروره في هذا الخط الغريب الذي لم يسبق له نظير فالبحر عن يمينه ويساره، كل فرق منه كالطود العظيم، وهو يسير في الخط آمناً مطمئناً، لا يحتاج إلى محاذرة من شيء.

وأما الخوف فلا يعتبر في مفهومه المحاذرة فهو أعم من الخشية، فناسب ذكر الخوف ذكر الدرك أي إدراك فرعون لموسى وقومه؛ لأنه لم ينتف عن موسى المحاذرة منه بالفرار، وضرب البحر بالعصى، فهو في تلك الحال محاذر وإن ذهب عنه الخوف ـ والله أعلم ـ وظاهر هذه الآية أن الله تعالى أوحى إلى موسى بضرب طريق في البحر، أوحى ذلك عند أمره له بالسُّرَى وهو في الليل أو قبله، ولا ينافي ذلك ما في (سورة الشعراء) لإمكان أن الله أوحى إليه مرتين، مرة في الليل ومرة عند وصوله شاطيء البحر، ولعل الأول مجمل والثاني مفصل أي أن الله تعالى أمره أولاً بضرب طريق في البحر، ولم يخبره كيف يصنع، وفي المرة الثانية أوحى إليه أن اضرب بعصاك البحر.

﴿٧٨ـ٧٩﴾ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ سار في أثرهم طالباً لإدراكهم ﴿فَغَشِيَهُم﴾ أي فرعون وقومه غشيهم من اليم شيء عظيم، ومن العجيب سيرهم في قرار البحر الذي سار فيه موسى وقومه، لم يمنعهم خوف البحر، لعله ظن أن البحر لا ينطبق عليه وعلى قومه إلا وينطبق على موسى وقومه، فهو كقوله: اقتلوني ومالكاً، أو أنهم لم يشعروا أنهم سائرون في قرار البحر؛ لأنه ييبس.

ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ

وما بين الفرقين مسافة بعيدة، أو أن خيل السابقين منهم تشمست بإذن الله تعالى، فلم تدعهم يفكرون أين هم، ومن بعدهم تابعون لهم لا يفكرون كما تبعوهم في دينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أغواهم عن طريق رشدهم ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ كما زعم في قوله: ﴿**وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾ [غافر:٢٩] أو وما هدى لشيء من الحق.

﴿٨٠﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ هذه دعوة لبني إسرائيل إلى الإيمان بالقرآن والرسول كما في أوائل (سورة البقرة) من تذكيرهم بنعم الله عليهم ليشكروا نعمته ويتقوه ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وكانوا له مستعبدين ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ بمواعدة نبيكم ومعه سبعون رجلاً منكم جانب الطور الجبل المبارك وجانبه ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ الميمون المبارك المفضل على بقية الجبل في بركته، فهذا شرف عظيم ونعمة كبرى، يجب عليكم شكرها ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وهي نعمة خصصتم بها.

قال الشرفي في (المصابيح):((﴿ٱلْمَنَّ﴾ التَّرَنْجَبين كالملح، وقيل كالسكر، وكذا طعمه، ينزل لهم على الشجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، والسلوى طائر كالحمام، [يسمى] السمانى)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((وأما المن في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ فقد قيل: المن شيء كالطل، فيه حلاوة، يسقط على الشجر، والسلوى طائر)) انتهى المراد.

هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ

وقال في (القاموس): ((والمن: كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر، ويحلو وينعقد عسلاً، ويجف جفاف الصمغ، كالشِّيرَخْت، والترنجبين، والمعروف بالمن ما وقع على شجر البلوط)) انتهى.

﴿٨١﴾ ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ ﴿كُلُواْ﴾ إما أمر إباحة أو تعبير عن الحال في إعطائهم، كأنه يقول لهم كلوا، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾ أي لا تحملكم النعمة على الطغيان؛ لأن الواجب شكرها، والطغيان فيها كفر نعمة.

والضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ أي فيما رزقناكم؛ وذلك لأنه كان واسعاً فطغوا فيه كما هو مذكور أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ويعلون علواً كبيراً، وقوله تعالى: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي إن طغيتم فيما رزقناكم حلَّ عليكم غضبي.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم ص ويحِل بكسر الحاء هو يجب ولا يحرم، وإنما يحرم عذاب الله ـ كذا ـ بأعدائه ولا يحل له أن يعذب أحداً من أوليائه، وليس هذا من الحلول الذي هو المقام بالموضع والنزول، ولو كان كذلك لكان الحاء مرفوعاً)) انتهى.

قلت: أراد أنه من الحل ضد الحرمة، فالمعنى: فتستحقوا غضبي، وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ كناية عن هلاكه وتورطه في العذاب، وأصل الهُوِي: السقوط في مهواة من جبل أو غيره.

﴿٨٢﴾ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ﴿لَغَفَّارٌ﴾ كثير المغفرة بكثرة المعاصي التي يغفرها كلما تاب عبد من عباده ﴿لِّمَن

إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ

تَابَ﴾ رجع من إباقه من سيده ﴿وَءَامَنَ﴾ بما وجب عليه الإيمان به، فهو من تمام التوبة، ولا يغفر لمن تاب من كل عصيانه إلا الكفر بمحمد ص والقرآن فلم يثبت منهما.

فأما قول من قال: بجواز التوبة من بعض الذنوب دون بعض فلعله عنى أنه يخرج بالتوبة من الإصرار على ما تاب منه، فأما الغفران فهذه الآية دليل على أنها لا تغفر له؛ لأنه لم يؤمن ولم يهتد.

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي عمل ما أوجب الله عليه، لم يصحبه بمفسد له ولا محبط يمنع من قبوله؛ وذلك لأن التوبة هي الرجوع والعمل الصالح منه، وإنما الندم والعزم على الطاعة أول الرجوع، فإذا لم يصدق عزمه على الطاعة بفعلها خرج من التوبة والمغفرة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق في دينه وفي هذا وعد بالمغفرة لمن تاب، وأتم الأربع الخصال لبني إسرائيل وغيرهم.

﴿٨٣-٨٤﴾ ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ * قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ وهذا يفيد أن المواعدة كانت لموسى وقومه جملة، فاختار منهم سبعين رجلاً وسبق هو وهم إلى جبل الطور، وهو يظن أن بقية قومه لاحقون بعده ﴿قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي تابعين لي، والأثر أثر قدميه، وليس المراد إلا أنهم تابعون له في سرعة، كما قال الشاعر:

القوم في أثري ظننت فإن يكن ما قد ظننت فقد ظفرت وخابوا

يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي لأن المسارعة إلى الفضيلة قربة كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء:٩٠] وسؤال الله تعالى لموسى ليجيب بما أجاب به، وهو تعالى عالم بذلك قبل أن يسأله، ولعله ـ أيضاً ـ تقدمة لإخباره بأن قومه قد ﴿أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

﴿٨٥﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ﴿فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ خذلناهم وتركناهم وشأنهم، وهذا من شرف القرآن، لا يخرج الخبر مخرج الشكوى، بل مخرج أنه وقع الباطل؛ لأنه أراد تخلية أهله وشأنهم ليدل على أنه غير مبال بهم، ولا نقص عليه بمعصيتهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ بالعِجْل الذي صنعه فعبدوه، وهم كانوا يحبون أن يكون لهم إله مشاهد، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوا يَامُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] ولعل ذلك سبب خذلانهم، والراجح: أن الله أطلع موسى على فتنة قومه في آخر مدة المناجاة؛ ولذلك قال تعالى:

﴿٨٦﴾ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ من الطور إلى قومه الذين عبدوا العجل ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والأسف: أشد الغضب والندامة والحزن..)) الخ، وقال الراغب في تفسيره (مفردات القرآن): ((الأسف: الحزن والغضب معاً، وقد يقال لكل واحد منهما على الإنفراد)) انتهى.

وفي هذه الآية الراجح: إما الجمع بين الحزن والغضب، وإما الحزن وحده؛ لأن الغضب قد ذكر، وأسفه على قومه لحرصه على إيمانهم وصلاح شأنهم؛ ولأنه قد تحمل العناء الشديد في إنقاذهم من ظلم فرعون وتحريرهم من استعباده؛ لحسن ظنه أنهم يؤمنون، فإذا خاب ظنه فيهم كان ذلك مؤسفاً؛ لأنه لا يهمه إنقاذ مشركين: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ ولعله استخلافهم في الأرض، لقوله تعالى: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [الأعراف:١٢٩] وهذا يفيد: أن تمكينهم في الأرض بناءً على أنهم مسلمون، فالشرك يفوّت عليهم هذا الوعد ما داموا مشركين، فهو بهذا يذكرهم الوعد الحسن ليسلموا.

وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي بعد بياني لكم أن من الجهالة عبادة غير الله، وأن لا إله إلا الله، فهل طال عليكم العهد حتى نسيتم ذلك؟ أي لم تطل المدة، بل العهد قريب، وقوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن تَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأن أخلفتم موعدي؛ لأن إرادتكم لسبب حِلِّ الغضب عليكم كالإرادة للغضب، وهذا سوء اختيار.

وقوله: ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ أي باشتغالكم بعبادة العجل أخلفتم موعدي عن أن تتبعوا أثري إلى الطور فتحضروا معي ميقاتي من ربي، ولعلهم أخلفوا موعده قبل عكوفهم على العجل؛ لأنهم لو سارعوا في السفر ولم يتوقفوا لما كانت للسامري فرصة أن يصنع العجل ويعرضه عليهم ليعبدوه، فإخلافهم لموعد موسى كان هو السبب، أو لازم إرادة العجل، وبالتالي عبادته، فالمعصية تجر إلى المعصية، والحاصل: أن إخلافهم الوعد معصية ذكرهم بها ودلهم على كبرها بقوله: ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن تَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ

﴿٨٧﴾ ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ﴿بِمَلْكِنَا﴾ أرادوا لم نملك أنفسنا بل غلبنا، فأخلفناه لضعفنا؛ ولهذا قالوا: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا﴾ أي أحمالاً من زينة القوم أي من زينة آل فرعون، وهذا مما يؤكد أن السحرة لم يقتلوا بل كانوا من جملة قوم موسى؛ لأنهم هم مظنة أنه كان عندهم الحلية ليتجملوا بها يوم عيدهم، وليعظم أمرهم عند ملاقاتهم لموسى.

فأما موسى والذرية من بني إسرائيل الذين آمنوا به على خوف من فرعون وملأهم أن يفتنهم فهم بعيد عن آل فرعون منعزلون مع موسى، فيبعد أن يكون عندهم شيء من زينتهم قبل اختلاطهم بالسحرة المؤمنين وجعلوها أوزاراً ليعتذروا بثقلها في السفر أنه حملهم على إلقائها، فقالوا: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا﴾ لنتخفف عنها ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ ما حمل من زينة القوم، فعند ذلك بدا له أن يصوغها عجلاً لبصره بالصياغة، وبدا لهم أن ينتظروه لينظروا العجل حين يتم السامري صنعه أو ليعبدوه، فهو يحتمل: أنه وهم اتفقوا على أن يصوغه عجلاً ليعبدوه فانتظروه لذلك.

ويحتمل أنه بعد ما أتم صنعه بدا لهم أن يعبدوه؛ لأنهم قد حصلوا على غرضهم الذي كان في أنفسهم من قبل، حين قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وحاصل اعتذارهم: أن الحلية ثقلت عليهم فطرحوها وانتظروا موسى عندها.

وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ

﴿٨٨﴾ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ ﴿فَأَخْرَجَ﴾ السامري من مكانه الذي صاغ فيه العجل، أو ﴿فَأَخْرَجَ﴾ أي أظهر لهم بصياغته وصنعه في الحلية، وهذا أظهر، وقوله ﴿لَهُمْ﴾ يظهر منه: أنه صنعه لهم عن تراض بينه وبينهم، فلم يقذفوا الزينة رفضاً لها ورغوباً عنها، بل بزعمهم ليتخلصوا من ثقلها فقط، وفي الواقع أرادوا أن يصنعها لهم عجلاً؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عِجْلًا﴾ أي صورة عجل؛ لأن الصورة تسمى باسم ما هي صورة له، وقوله تعالى: ﴿جَسَدًا﴾ أي أنها لا روح فيها ولا حيوة، وإنما هو جسد، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ [الأنبياء:٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي صوت كصوت البقر عند حاجتها للطعام أو الشراب أو نحو ذلك، وذلك أنه احتال لصوت فيه بواسطة نافخ فيه ينفخ الهوى بتصويت كما في لعبة الصبيان التي توجد في هذا الوقت ينفخون فيمتلئ هواء، ثم يرسلونه فتصوت، وأعانه على ذلك رنين العجل؛ لأنه فضة أو ذهب.

وقال الشرفي في (المصابيح) : ((عن الحسين بن القاسم × : ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ أي صاغ لهم عجلاً ﴿جَسَدًا﴾ والجسد في اللغة: هو الجسم وهو الشخص وهو الجرم وهو الشبح، وله أسماء كثيرة، والمعنى واحد، ثم قال: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ كما تخور العجاجيل أي له صوت مثل صوت التبيع من البقر، وهو على صورته، وذلك أنه جعله أجوف مخرَّقا، ثم أقبلت الرياح فتولد منه صوت مثل الخوار)) انتهى.

رَبُّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾

﴿فَقَالُواْ﴾ أي قوم موسى ﴿هَٰذَآ﴾ أي العجل ﴿إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أي موسى أن هذا إلهه، وهذا من سفه القوم وتلعبهم، وإلا فهم يعلمون أن الميقات لموسى من ربه خالق السموات والأرض، وهم يعلمون أن العجل لم يخلق السموات والأرض، ولم يخلقهم ولا خلق موسى، لكن مثل هذا السفه يصدر من السفهاء على طريق اللعب والمبالغة في المجون.

﴿٨٩﴾ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ هذا رد على قولهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ﴾ ﴿أَفَلَا يَرَوۡنَ﴾ أنه ضعيف جماد ﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾ لأنه جماد لا يقدر على الكلام ﴿وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ وذلك من أوضح الواضحات؛ لأنه جماد لم يمنع عن نفسه صياغة السامري له ولا إذابته في النار، فليس له قدرة على نفع فيعبد طمعاً في نفعه، ولا على ضر فيعبد خوفاً من ضره، فباطلهم واضح البطلان لا شبهة لهم فيه، وإنما اتبعوا أهواءهم.

﴿٩٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ قَالَ لَهُمۡ هَٰرُونُ مِن قَبۡلُ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ استعطاف لهم ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ بحصوله مطابقاً لأهوائكم وغرضكم الذي طلبتم سابقاً؛ ولذلك خذلتم به ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ﴾ الذي يستحق العبادة هو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ وحده لا شريك له؛ لأنه الذي خلقكم ورزقكم وحرركم برحمته ﴿فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ لتتركوا عبادة العجل ولتعبدوا الله وحده.

أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا

﴿٩١﴾ ﴿قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فتنوا بحبه وهم يعلمون أن موسى لا يتركهم يعبدونه، فأصروا على أن يعكفوا عليه حتى يرجع إليهم موسى، وهذا العكوف عبادة منهم له؛ لأنهم حبسوا أنفسهم عليه خضوعاً له واعترافاً بإلهيته، فقد جعلوه مالكاً لهم يستحق منهم العكوف عليه والتذلل له، وعبادة الأصنام كلها أمر عجيب من العقلاء، لكن قوم موسى كانوا في بيئة عبادة الأصنام.

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ هذا إختصار حسن؛ لأنه ربطه بقولهم: ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ليرتب عليه قوله لهم حين رجع اكتفى به عن أن يقول فرجع إليهم موسى فقال لهارون: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ﴾ بالشرك أن ترفضهم وتتبعني إلى الميقات ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ حين لم تفعل.

﴿٩٤﴾ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ وهنا اختصار لم يقل: أخذ برأس أخيه وأفاده في الجواب من هارون، فقد غضب موسى وأظهر غضبه حين بدأ بأخيه، واستعطفه هارون بالجواب والإعتذار: بأنه إنما بقي عندهم عملاً بوصية موسى؛ لأن الرأي والإصلاح انتظار رجوع موسى حتى يجتمع بنوا إسرائيل تحت أمره، وقد خشي هارون لو تركهم أن لا يبقى عليهم يد لموسى، وهذا معنى تفريقهم إذا كانت فرقة مع السامري، وفرقة مع موسى، وهم السبعون الذين كانوا معه في (الطور).

خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ

أما مع بقاء هارون فهم لم يرفضوا طاعة موسى متى رجع، وهارون عندهم ممثل لموسى، فاحتفظ هارون بالبقية من العلاقة بموسى، وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ من مقول قول موسى الذي خشي هارون أن يقوله موسى أنه لم يراقب قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢].

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى للسامري: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ أي ما شأنك؟ وما الباعث لك على ما عملت؟

﴿٩٦﴾ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ ﴿بَصُرْتُ﴾ حصلت لي بصيرة بالصياغة والصناعة ليس للقوم مثلها، فكانت سبباً للصياغة لإظهار المهارة والقدرة الفائقة ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ الذي عُلِّمناه، وتعليمه لنا في الدين قبضة ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ولم أنبذه كله ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ سهلت لي نفسي هذا الصنيع وطوعته وزينته.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي (البرهان) ﴿سَوَّلَتْ﴾ أي حدثت وزينت)) انتهى، وفي (أساس البلاغة): ((سول له الشيطان ونفسه أمراً: سهَّل له وزيَّن)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((عن الحسين بن القاسم إ المعنى فيه: بصرت بما لم يبصروا به من الإحتيال وعمل الصنعة والإعتمال ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي من علمه وخبره: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي طرحتها ولم أعمل بها)) انتهى المراد، فهو كقوله تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠١].

فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا

﴿٩٧﴾ ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ **﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ تعبير عن تركه على الحالة التي يصير إليها ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ عقوبة عاجلة في الحياة الدنيا.**

قال الشرفي: ((أي لا تخالط أحداً، ولا يخالطك، فلا يماسه أحد إلا حُمَّا معاً فتحاموه وصار في الناس أوحش من القاتل)) انتهى باختصار، وقوله: حما، أي أصابتهما الحمى اللامس والملموس معاً، وهذا باعث للسامري على أن يقول لمن لقيه لا مساس أي لا تمسّني ولا أمسك خوفاً من الحمى وتحذيراً منها، والآية الكريمة لم تذكر الحمى، ولكن قد أفادت حذر السامري من المساس، وذلك يدل على ضر سواء كان الحمى أم غيرها.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ لهلاكك موعداً أو لعذابك في الآخرة، والأول أظهر عندي، فهو لا يؤمنه من العقوبة العاجلة بل دل على هلاكه في موعد محدود، فأما الآخرة فلعله غير مؤمن بها، وقد بلغه موسى ما بلغ غيره من إنذار الكافرين عذاب النار.

وقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أي ستعرف أنه عاجز لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ حتى تذهب صورته ويذوب ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى﴾ البحر ﴿نَسْفًا﴾ وذلك دليل واضح على أنه ليس إلهاً.

﴿٩٨﴾ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : لما استبك من التحريق أمر به × فبرد بالمبارد وهي المساحل حتى صار تراباً، ثم طرح في البحر)) انتهى المراد، وقوله: استبك، أي صار سبيكة بواسطة ذوبانه.

﴿٩٨﴾ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ إلى آخر الآية، تمام كلام موسى لقومه ليكفروا بالعجل لا يطمعوا مرة أخرى في إله مصنوع ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ فراقبوه واعبدوه؛ لأنه هو الذي يعلم عبادة من عبده ولا يفوت علمه شيء من المعلومات.

﴿٩٩﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ القصص في بني إسرائيل المفصل الدال على أن الله تعالى أوحاه إليك يا محمد؛ لأنه يحكي ما هو غائب عنك، ولم تقرأ كتاباً قبله ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ كما في (سورة الشعراء) و (سورة الكهف) و (سورة الأنبياء) ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ مع القصص يذكر من الغفلة، فقد آتيناك القرآن الذي يدل على صدقك ويهدي للتي هي أقوم.

﴿١٠٠﴾ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يعم الكفار وكل من لم يتبع القرآن واشتغل عنه بغيره ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ ذنباً ثقيلاً، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] لأن المعرض عن القرآن يجتمع عليه إثم الإعراض وإثم المخالفة، فيحضر موقف الحساب حاملاً لذنب ثقيل.

وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴿١٠١﴾ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا ﴿١٠٣﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا

﴿١٠١﴾ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باقين ﴿فِيهِ﴾ لا يموتون ولا يفارقهم بل لا يزالون حاملين له، فالعذاب لا يطهرهم منه ﴿وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا﴾ ما اسوأه حملاً ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يوم الجزاء؛ لأنه يجر عليهم عذاباً دائماً يواقعونه ذلك اليوم.

﴿١٠٢﴾ ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ﴾ ابتداء تفسير ليوم القيامة، ووصف لبعض هوله ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ الراجح: أنه عبارة عن صوت شديد يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] والصور في الأصل: آلة تولد وتكبِّر الصوت فيبلغ بعيداً.

قال في (الصحاح): «الصور: القرن، قال الشاعر:

لقد نطحناهم غداة الجمعين نطحاً شديداً لا كنطح الصورين

ومنه قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قال الكلبي لا أدري ما الصور، ويقال هو جمع صورة مثل: بسرة وبسر، أي يوم ينفخ في الصوَر أرواح الموتى، وقرأ الحسن: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي الصُوَرِ﴾» انتهى المراد.

﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي من قبورهم إلى موقف الحساب ﴿زُرۡقٗا﴾ لعله كقوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤٠-٤١] فاجتماع الغبرة والسواد لعله الزرقة، والله أعلم.

وقيل: معنى ﴿زُرۡقٗا﴾ زرق العيون.

يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ

﴿١٠٣﴾ ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ﴾ يقولون سراً ﴿بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ ما لبثتم في القبور إلا عشر ليال بأيامها.

﴿١٠٤﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ فاختلفت أقوالهم، والله أعلم بما يقولون حين يقول أشفهم طريقة وأقربهم للصواب في طريقته لا في قوله: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي ما لبثتم إلا يوماً؛ وإنما كان أمثلهم طريقة لأنه أثبت المحقق عنده ولم يزد عليه ما لا يعلم، وهذا يدل على أن النزاع كان في مدة لبثهم في الأرض بعد موتهم حتى بعثوا.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ في (أساس البلاغة): نسف الحبَّ بالمِنْسَف وهو الغربال الكبير عند الفاميين [لعل الأصل في أساس البلاغة عند الفوميين، أي عند عمال البرّ تمت منه] ومن المجاز نسفت الريح التراب الخ، فنسْف الجبال دكها بالزلزال الشديد وإطارتها عن مواقعها إما بالزلزلة وإما بالرياح ـ والله أعلم.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي فيتركها أي يترك الأرض بنسف الجبال ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ في (معلقة امرئ القيس):

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حبُّ فلفل

قال شارحها: ((قيعان جمع قاع وهو المستوي من الأرض)) انتهى المراد.

ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ

وقال في (الصحاح): ((والقاع: المستوي من الأرض)) انتهى، وفي (أساس البلاغة): ((وقاع صفصف: أملس)) انتهى، أي أنه بليغ الاستواء لا ينبو منه شيء، وقد فسر بعضهم الصفصف: بالقاع المستوية، وعلى قولهم: فصفصفاً تأكيد ليفيد استواءها البليغ.

﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ هذا توضيح لاستواء الأرض، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال محمد بن القاسم × : العوج في الأرض الإلتواء والإرتفاع والإنخفاض الفاحش، والأمْت القليل..)) الخ، يعني القليل من الإختلاف بالإرتفاع والإنخفاض، فقد نفى تعالى القليل من الإختلاف مع نفي الكثير، وأفاد أنها تصير يومئذ مستوية استواء كاملاً.

﴿١٠٨﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي ننسف الجبال يتبعون إما الناس جملة، وإما السائلون عن الجبال كفراً بالبعث، أي هم وغيرهم مثلهم يتبعون ﴿ٱلدَّاعِيَ﴾ الذي يدعوهم إلى موقف الحساب، أو يدعوهم من قبورهم إلى المحشر ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ كما هم في الدنيا متمردون فهم في الآخرة منقادون، قد ذهب العوج لهيبة الموقف ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ ذلت وضعفت ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

قال الراغب:((الهمس: الصوت الخفي، وهمس الأقدام: أخفى ما يكون من صوتها، قال تعالى: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾)) انتهى، ومثله في (أساس البلاغة) إلا أنه قال: همس الكلام ـ ثم قال ـ : ((وسمعت همس الأقدام)) انتهى، وقد فسروه بهمس الأقدام، والراجح: أنه الكلام الخفي، وصوت الأقدام لقوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

﴿١٠٩﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ بالشفاعة، هي إما مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فمعناها: أن الملك لله وحده فلو شفع شافع قبل أن يأذن الله ويرضى بشفاعته لما نفعت، وفي هذا رد على المشركين لقولهم: ﴿هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وفي بعض القرآن ينفي الشفاعة إلا بإذنه، فلا تكون أصلاً فضلاً عن أن تقع ثم لا تنفع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلاَئِكَةُ صَفًّا لاَ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨].

وعلى هذا فالمعنى: لكن من أذن له الرحمن ورضي له قولاً تنفع شفاعته، والقول هنا الشفاعة فلا بد من اجتماع الأمرين في الشافع: الأذن له والرضى بما يقول، وفي هذا تحقيق أن الملك يومئذٍ لله وحده ليس لأحد أن يتدخل في الحكم يومئذ، ونظائر هذا السياق كثير في القرآن يظهر: أنه رد على المشركين، وحملها على هذا المعنى أظهر لكثرة نظائره، ومطابقته لمقتضى تلك الظروف التي نزلت فيها السور (المكية) و (المدنية) وإما أن تكون بمعنى إلا من أذن للشافع بالشفاعة له ورضي للمشفوع له قولاً، أو ورضي للشافع له قولاً وعاد الضمير إليه لإفهام ذكر الشفاعة فاعلها؛ ولم يترجح عندي هذا الإحتمال لأن ظاهر.

قوله: ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ أن المعنى أذن للشافع، وجعله للمشفوع له يحوج إلى تقدير: بعد أذن للشافع، وتقدير أن يشفع له ليتعلق قوله ﴿لَهُ﴾ بالشفاعة.

وقد يجاب: عن هذا بأنه يصح تعليق له بأذن، ويكون الضمير للمشفوع له، والجواب لا إشكال في الصحة مع القرينة، أما مع عدمها فلا نسلم إذ ظاهر الأذن للفاعل فظاهر إتباعه بقوله: ﴿لَهُ﴾ أنها للفاعل المأذون له، وأن الضمير له في الغالب.

وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ

ولهذا فالراجح: المعنى الأول لكثرته في القرآن، واقتضاء وقت نزول القرآن له كما مر؛ ولأن الظاهر اشتراط اجتماع الأذن والرضى للشافع ليدل على أنه لا مكانة لعبد توجب له الأذن فيما ليس مرضياً عند الله، أما على التفسير وعلى قولهم أن المعنى ورضي للمشفوع قولاً يكون قوله ورضي له قولاً كالفضلة؛ لأن قوله: ﴿أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ كاف في المقصود؛ لأنه لا يأذن لمن لم يرض له قولاً؛ ولأن القول هنا يكون مبهماً صالحاً لأي قول، ولو لم يكن واجباً فيكون التعبير ضعيفاً إن أريد قولاً مخصوصاً؛ لأن العبارة قاصرة عن إفادته.

﴿١١٠﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ تكرر مثل هذه الآية بعد نفي الشفاعة لمن لا يأذن له الله، ففي (آية الكرسي): ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥] وفي (سورة الأنبياء): ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [آية:٢٨] فالراجح في هذه الآية: أن الضمير راجع إلى من نفى شفاعتهم، و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ المستقبل من أمورهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي من أعمالهم وأمورهم إن عنى به الملائكة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ لا يعلمون إلا ما علمهم بآياته الدالة على عظمته وجلاله.

﴿١١١﴾ ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ العاني: الأسير، جعلوا كالأسرى لذلتهم وانقيادهم وخضوعهم، أو هو حقيقة.

ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ١١٣ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ

قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ﴾ أي صارت عانية أي ذليلة خاشعة من عنى يعنو إذا خضع..)) الخ، وفي (الصحاح): ((عنى يعنو: خضع وذل ـ ثم قال ـ : والعاني: الأسير)).

وقوله تعالى: ﴿لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾ دلالة على أنه القائم بأمور الآخرة كما هو القائم بأمور العالمين في الدنيا، فهو في الآخرة يسألهم ويحكم فيهم، ويعاقب من شاء، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه ﴿وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ تحققت خيبته من ملك الملوك الذي لا يرد أمره، وخيبته تحقق عذابه وبطلان رجائه السلامة.

وقوله تعالى ﴿مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا﴾ أي كان ظلمه على ظهره لم يفارقه كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] وليس يحمل وزره من تاب في الدنيا؛ لأنه قد فارقه وتخلص منه بالتوبة، فإن كان المراد من حمل في الدنيا، فالتائب مخرج منه كسائر الوعيد.

١١٢ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا﴾ ﴿ظُلۡمًا﴾ نقصاً من ثوابه ﴿وَلَا هَضۡمًا﴾ تصغيراً لقدره وهتكاً لعرضه، بل يوفى أجره وكرامته التي استحقها بإيمانه وعمله الصالح، وتشريفه هو من ثوابه، واستعمال الهضم في هتك العرض هو من المجاز، ومن فوائده أن المؤمن لا تُظهر معاصيه التي كان في الدنيا قد تاب منها، بل تستر عليه، ولعل أقرب من هذا أن الظلم النقص من الثواب، والهضم: الظلم الذي هو الجور في الحكم.

بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا

فالمعنى: أنه يوفى أجره ولا يخاف أن يظلم بعذاب أو نحوه، بل هو آمِن، ويدخل في هذا أمنه من هتك عرضه وإظهار سيئاته بغير حق، فكأنه قيل لا يخاف نقصاً من ثوابه ولا جوراً عليه، وهذا هو الراجح.

﴿١١٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي مر في هذه السورة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أنزلنا هذا الكتاب ﴿قُرْءَانًا﴾ يقرؤه الناس ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلسان العرب ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ أتينا به أنواعاً نصرفه من نوع إلى نوع، كالتذكير بهول يوم القيامة تارة وبعذاب النار تارة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ يخافون فيتقون ذلك المتوعد به بالإيمان والطاعة ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ﴾ الوعيد ﴿ذِكْرًا﴾ تذكراً فنظراً في صدق الرسول فإيماناً.

﴿١١٤﴾ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ ﴿فَتَعَٰلَى﴾ من العلوِّ تعالى بإنزال الكتب وإرسال الرسل وإقامة الحجة على العباد وهدايتهم إلى الرشاد والسعادة الدائمة، والنجاة من العذاب إن آمنوا، فتعالى عن كل نقص وعن كل خلاف للحكمة والتفضل والرحمة.

﴿وَلَا تَعْجَلْ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْقُرْءَانِ﴾ بقراءة القرآن ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ فكلما نزل عليك منه قرآن فانتظر تمام الوحي ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ فاحرص على زيادة الوحي، واطلب زيادته، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني لا تعجل بتلاوته من قبل أن يفرغ جبريل × من إبلاغه)) انتهى المراد.

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ

﴿١١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ عهدنا إلى آدم الإنذار والتحذير إن أطاع الشيطان، وأنه عدو له ولزوجه ﴿فَنَسِيَ﴾ نسي التحذير هذا ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ قيل: لم نجد له عزماً على المعصية، والأقرب عندي: لم نجد له قوة إرادة وثبات عزم، أي أنه ضعفت إرادته عند تغرير الشيطان، فالعزم هنا مثله في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥] والله أعلم، ونحو هذا حكاه الشرفي عن (البرهان).

﴿١١٦﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ واذكر ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ وهذا يدل على أن هذه الصيغة تفيد الوجوب، إذا كانت من الله أو من رسوله ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ كما أمروا ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أي امتنع أن يسجد.

﴿١١٧﴾ ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ أي لا تقربا هذه الشجرة المحرمة فتُخرجا من ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ بسبب إغواء إبليس ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ إن خرجت منها، لحاجتك إلى الحرث وصناعة اللباس وبناء المسكن.

﴿١١٨﴾ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ ﴿إِنَّ لَكَ﴾ ما دمت في الجنة ﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ لتوفر الطعام فيها ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾ لوجود اللباس فيها، أو ما يقوم في الستر مقامه.

إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ

﴿١١٩﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ ﴿لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا﴾ لتوفر الماء فيها ﴿وَلَا تَضۡحَىٰ﴾ تبرز للشمس للحاجة إلى العمل فيها، ففي هذه الجنة أكل بغير تعب وشرب وظلال لا يحتاج إلى الخروج منه والتعرض للشمس، أما إذا خرج منها فاتته هذه الأشياء فقد يجوع وقد يعطش وقد يعرى، كل ذلك لتأخر حصول هذه الحاجات، ويضحى للحاجة إلى العمل في الشمس، والعرى لعله كان حتى حصل له كسوة من عمله من ورق الجنة، وليس بعيداً مع تحمله لذلك وقوته، ومع أنه خال من الناس لا يراه منهم إلا زوجه.

﴿١٢٠﴾ ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ ﴿ٱلۡخُلۡدِ﴾ البقاء فلا تموت إذا أكلتها ﴿وَمُلۡكٖ﴾ تصير ملكاً لذريتك حيث تعيش أبداً ﴿لَّا يَبۡلَىٰ﴾ ملكك أي يبقى جديداً لا يملك قومك ملالا ولا تمله أنت فتبقى آمراً ناهياً مطاعاً أبداً.

﴿١٢١﴾ ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ ﴿فَأَكَلَا مِنۡهَا﴾ فأكلا من الشجرة بعد التحذير، وظاهر السياق أنهما أكلا منها بسبب وسوسة الشيطان، فأقل أحوال آدم × أنها عرضت له شبهة في تعيين الشجرة المنهي عنها فعجل على الأكل منها ولم يتثبت ويعدل عن المشتبه إلى غيره، لأنه نسي تحذير الله له من إبليس، ورغب في الشجرة فلم يبالغ في الحذر من الشجرة فأكل منها على سبيل الغلط.

﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ تحققت منه المعصية ﴿فَغَوَىٰ﴾ الغواية ضد الرشد، وهي هنا سوء الحال وما صار فيه من الخروج من الجنة والشقوة بمصيره، حيث يحتاج إلى الكد والتعرض للشمس والصبر على حرها، فالشقوة لما كانت بسبب غوايته صح تسميتها غواية، كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

﴿١٢٢﴾ ﴿ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ﴾ قال في (الصحاح): ((واجتباه: أي اصطفاه)) انتهى، ولعل معناه: أنه وفقه وأرشده للتوبة بتذكيره له بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف:٢٢] ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ إما قبل توبته وهو أظهر، وإما تاب عليه ليتوب وهدى لطاعته.

﴿١٢٣﴾ ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ ﴿ٱهۡبِطَا مِنۡهَا﴾ من الجنة ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((فالمراد به: آدم وذريته، وإبليس وذريته)) انتهى، ونظيره في خطاب المفرد والمراد هو وغيره قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ﴾ [يوسف:٢٨] وهذا بعد وجود الذرية، أما قبله فإبليس عدو لآدم وحواء، وآدم عدو لإبليس؛ لأنه يبغضه، ولعله يدعو عليه باللعنة، وحواء مثله.

وقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ إما هي إن الشرطية، أو أدغمت نونها في الميم، والمعنى: إن يأتكم ﴿مِنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ بكتب الله ورسله ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ﴾ عن طريق الحق ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا

ويحتمل لا يشقى في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن ما ناله في الدنيا من عنائها وباسها وبؤسها كله خير لـه؛ لأنه يعوض على المصائب والأوجاع، ويثـاب على الصبر، فما ناله خير لـه من السلامة منه، فليس شقاوة، وهذا أرجح.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ ﴿ذِكۡرِي﴾ هداي، وهو وحيه النازل على الرسل وآياته الدالة على صدقهم وعلى البعث وغيره من الأصول ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ﴾ في الدنيا ﴿ضَنكٗا﴾.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((ضنك: معناه: ضـيق)) وقـال الشرفي في (المصـابيح): ((الضـنك: وصـف يسـتوي في الوصـف بـه المـذكر والمؤنث، ومعناه: الضيق والشدة، والمعيشة: ما يعاش به، والمعنى حياة ضيقة في الدنيا)) انتهى.

قلت: لا يشكل كثرة أموال بعضهم؛ فإن الله تعـالى يقـول: ﴿فَـلاَ تُعْجِبْـكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا وَتَزْهَـقَ أَنفُسُـهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبـة:٥٥] وكم من غني يصاب بمرض يحتاج معـه إلى تـرك كـثير من اللذات، فمنهم من يصاب بالسكر، ومنهم من يصـاب بارتفـاع الضـغط، ومنهم من يشتد الخلاف بينه وبين أولاده فيتجرع الغـيظ، ومـنهم مـن يخـاف عدواً يغرم في مقاومته، ولا يدعه الخـوف يسـتريح، ومـنهم مـن اشـتد عليـه الحرص فلا يزال في عناء السعي والطلب، ومنهم مـن يصـاب بمـرض أهلـه، وعلى الجملة قد أخبرالله أن لـه معيشة ضنكاً وهو أصدق القائلين، ولا ينـافي ذلك كثرة المال والولد ﴿وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ﴾ أي أعمى البصيرة.

فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ

﴿١٢٥-١٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾ لا أجد لنفسي طريقة للنجاة ولا وسيلة للتخلص من العذاب، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: عمى عن الحجة)) انتهى.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ أعرضت عنها وتركتها ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ تترك في العمى وإظلام الحال كما عميت في الدنيا عن آياتنا.

قال الشرفي في (المصابيح): ((عن الناصر الأطروش × أنه قال لأنه لما أعرض عن ذكر ربه فضلَّ في الحيوة الدنيا وعمي عن أمر ربه وعن التقوى، حشر يوم القيامة على ضلاله الذي هو أعمى [كذا] عن الهدى، ثم بين ذلك ــ جلّ ذكره ـ فقال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ معنى ذلك: قد كنت أعطيتك بصراً تبصر به وعقلاً تعقل به أمري وتعرف به آياتي وأمري، ومعنى نسيت تركت ذلك فعاقبتك بأن تركتك من لطفي ورحمتي، وحشرتك على ضلالك وكفرك لنعمتي)) انتهى.

ومراده: ونحشره يوم القيامة أعمى، أي ضالاً عن الحق لا يبصر ببصيرته كما كان في الدنيا، والمعنى متقارب.

﴿١٢٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الجزاء الذي هو حشره أعمى ونسيانه ﴿نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أسرف في العصيان بالغ فيه أو أكثر من الكبائر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ له ﴿أَشَدُّ﴾ من حشره أعمى ونسيانه.

﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا

﴿١٢٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ قال في (الكشاف): ((فاعل لم يهد الجملة بعده، يريد ألم يهد لهم هذا بمعناه ومضمونه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٧٨-٧٩] أي تركنا عليه هذا الكلام، ويجوز أن يكون فيه ضمير الله أو الرسول، ويدل عليه القراءة بالنون)) انتهى.

فأما تعديه (يهد) باللام فلتضمينه معنى: (يبين) وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي أمماً كثراً، وقوله: ﴿يَمْشُونَ﴾ أي قريش يمشون ﴿فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ فيرون آثارهم المذكرة بهم، ففيهم عبرة لهم ليحذروا الهلاك فيؤمنوا بالله ورسوله.

قال بعض المفسرين: ((وهم يمشون في مساكنهم كما كانت تَمُر أهل مكة في أسفارهم بمساكن عاد بـ(أحقاف اليمن) ومساكن ثمود وأصحاب الأيكة بالشام، ومساكن قوم لوط بفلسطين)) انتهى.

وقوله تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي إهلاكنا للأمم الكثيرة التي ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ ﴿لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي لأهل العقول الذين يستعملونها ويفكرون، قال في (الصحاح): ((والنُهْيَة ـ بالضم ـ واحدة النَهى، وهي العقول؛ لأنها تنهى عن القبيح)) انتهى، وفي إهلاك الأمم بالعذاب النازل بهم آيات، منها: أنها تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه غير غافل عما يعمل الظالمون ولا مهمل لهم، بل يعاقبهم عقاباً شديداً.

وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ

﴿١٢٩﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ الراجح: أن الكلمة قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وهي مؤجلة إلى أجل مسمى عنده أي مدلولها، فهي كافية في تعذيب الكفار، وهي سبب إمهالهم في الدنيا؛ ليكون الإمهال في الدنيا حجة عليهم في يوم القيامة ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ أي عذاب هؤلاء كما عذبنا القرون الأولى ملازماً لهم كلما كفر كافر عذّب في العاجل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي وأجل لهؤلاء الكفار مسمى أي لولا كلمة سبقت من ربك يا محمد وأجل مسمى لهم لكان عذاب هؤلاء الكافرين بك لزاماً لهم أي ملازماً عاجلاً لا يفارقهم، فقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أنهم لا يتركون في العاجلة بل يهلكون بعد أجل لهم مسمى كما لكل أمة أجل من الأمم المهلكة قبلهم.

﴿١٣٠﴾ ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب والباطل المؤذي واثبت على أمرك فلهم نهاية محدودة وأجل مسمى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وأما قوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ فهو كقوله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥] قلت: هذا غير بعيد، ومثله في آخر (سورة الحجر): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [آية:٩٧-٩٩].

والأرجح: أنه أمر لـه بالعبادة التي تخصه غير الإشـتغال بهـم تعبـداً لـه ص لينال أجر ذلك في الآخـرة؛ ولـذلك قـال: ﴿وَاعْبُـدْ رَبَّـكَ حَتَّـى يَأْتِيَـكَ الْيَقِينُ﴾ ومثله ما نحن فيه.

قال الشرفي / : ((وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ في موضع الحال أي فسبح ـ في (نسخة المصابيح) سبح ـ وأنت حامد ربك على أن وفقك للتسبيح وأعانك عليه)) انتهى.

قال: ((والمراد بقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ يعنـى صـلاة الفجـر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ الظهر والعصر ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته أي ومن ساعات الليل فسبح أي فصل المغرب والعشاء الآخرة)) انتهـى، والأولى أن التسـبيح علـى حقيقته، وأن المراد به في الصلوات المذكورة؛ لأنه في غيرها تطوع وهنا مأمور به، وجعل الظهر من الصلوات المذكورة في هـذه الآيـة محـل النظـر، ولعـل صلاة الظهر لم تجب إلا بعد نزول هذه الآية، وإن كانت متقدمة في الإسـلام قبل الهجرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أوائله وأواخره، وليس هذا تكراراً فالأمر الأول ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وقتـه محـدود، والثـاني ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ وقته غير محدود؛ ولعل هذا من التطوع لأن فرض صلاة الليل كان قد سبق في (سورة المزمل) فيحمل التسبيح هنـا: علـى أنـه مـن بعـد صـلاة الفجر، وأواخر النهار فوقتـه أطـراف النهـار ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ في أوله وآخره وأثنائه عند القيـام للتهجـد ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي رجـاء الثـواب الذي يرضيك في الآخرة، كقولـه تعـالى: ﴿وَلَسَـوْفَ يُعطِيـكَ رَبُّـك فَتَرْضَـى﴾ [الضحى:٥].

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ

وقد يقال: إن وقت التسبيح محدود بقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾.

قلت: الأطراف وقت ممتد يختلف اعتباره طرفاً باعتبار أوله أو باعتبار آخره، وذلك يناسب التطوع، بخلاف التحديد بطلوع الشمس وغروبها فهو معين يناسب الفرض، وقوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ كقولنا أوائله وأواخره، وفائدة ذلك أن لا يتوهم أول جزء وآخر جزء فقط ليكثر التسبيح.

ولا يقال: إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ [هود:١١٤] في الفريضة وليس المراد به آخر جزء؛ لأنا نقول: إن الطرف الأول قد فهم من غيرها وكذا الطرف الثاني، والفريضة محدودة، فلا يفهم من هذه الآية إلا توسيع وقت صلاة الفجر وصلاة العصر لا تكثير الفريضتين، نعم وقول الشرفي: أي سبح وأنت حامد ربك مستقيم، والحمد على كل نعمة، غير خاص بنعمة إلهام التسبيح والتوفيق له.

﴿١٣١﴾ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تنظر نظر استحسان وإعجاب ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أصنافاً من الكفار؛ ولعل تنويعهم باعتبار تنويع نعمتهم، أو باعتبار تنوع كفرهم، وقوله تعالى: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي ما متعناهم به زهرة الحيوة الدنيا فهو متاع قليل، فالآية هذه كقوله تعالى: ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٧].

فأما نصب ﴿زَهْرَةَ﴾ فقال في (مغني اللبيب) [ص ٥٢٢ ـ٥٢٣ طبعة دار الفكر]: ((والصواب: إن ﴿زَهْرَةَ﴾ مفعول بتقدير جعلنا لهم أو آتيناهم، ودليل ذلك التمتيع، أو بتقدير أذم؛ لأن المقام يقتضيه، أو بتقدير أعني بياناً لما أو للضمير..)) الخ، وإذا كان زهرة الحيوة الدنيا فهو فتنة.

وقوله تعالى ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أي لنبتليهم فيه، وهذا المعنى غير معنى قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ففي هذه الآية الإبتلاء فيه، وفي الثانية الإبتلاء به، فالفتنة هنا الأمر بالإيمان والطاعة لله ورسوله في ثروتهم المطغية لهم التي هي سبب كِبْرهم وامتناعهم من الإيمان والطاعة، والله أعلم، وفيها مأخذ أن المال الذي بأيديهم من الله، وقد حكى عن المطرفية الخلاف في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي رزق ربك لك خير؛ لأنه لا يشغلك عن ذكر الله ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ لأنه في الدنيا والآخرة.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿أَهْلَكَ﴾ قرابتك ونساءك، كما قال تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم:٦] وقد جاء في (حديث الكساء) تفسير أهل البيت بأهل الكساء، وعندي أن الأهل وأهل البيت يختلف.

وأما تفسير ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ﴾ أي قومك، فلعله من التطبيق بناء على أنه يفهم منه أمر القوم بطريق الأولى ـ والله أعلم ـ ومن البعيد أمر القوم بالصلاة في حال نزول هذه السورة؛ لأنها مكية، وكان أكثر قومه ص مكذبين، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام:٦٦].

أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ

وقد جاء في الروايات: عن أنس أن رسول الله ص كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول: ((الصلاة يا أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣])) انظر (الإعتصام) [الجزء الأول ص ٦٩] وما بعدها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾ أي صبر نفسك عليها، وكأنه أبلغ من اصبر لزيادة تاء الإفتعال المقلوبة طاء، فهو مطاوع صبر فهو مشعر بانقياد النفس للصلاة والله أعلم ﴿لَا نَسْئَلُكَ رِزْقًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٧] ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ فلم نخلقك إلا للعبادة ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ فهي خير من متاع الكفار الذاهب.

﴿١٣٣﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ تكرر في هذه السورة ذكر إنزال القرآن وإفادته مرات، فأولها: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ وفي أثناء السورة: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ وفي أواخرها ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ ومع كون السورة كلها قرآناً، وتأكيداً لكونه من الله.

فالراجح: أن قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ﴾ عطف على معنى ذلك، أي أنزلنا عليك الذكر ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه تدل على أنه رسول، فأجاب الله عن قولهم بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ فهم يعلمون أن قد جاءت الآيات التي تبين ما في

وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

الصحف الأولى كقصة إبليس وآدم، وقصة موسى وفرعون، وهم يعلمون أن محمداً أمي لا يقرأ الخط ولم يدرس؛ لأنه في بلد الأميّين نشأ حتى نزل الوحي، فدل إتيان ما في الصحف الأولى على أنه من الله أوحاه إلى عبده محمد ص.

﴿١٣٤﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ أي قومك الجاحدون فهم كانوا في ضلال مبين، في حروب وأنواع من الظلم والفساد والشرك، فهم في أمس الحاجة إلى نذير من الله ينقذهم من الضلالة ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ الدالة على صدق الرسول، وجميع آياتك ﴿مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالعذاب ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾ به أي نفتضح بنزول العذاب علينا، العاجل الذي يعلمه الناس كما علموا بعذاب الأمم الأولى، فقد زالت علتهم وانقطعت حجتهم بهذا القرآن.

﴿١٣٥﴾ ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿كُلّٞ﴾ مني ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾ لموتي ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ تهديد مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] لأنهم يتربصون أن يموت الرسول ص فتنتهى دعوته، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور:٣٠-٣١].

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ فستعلمون حين ترون العذاب ﴿مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ الذي لاعوج فيه

وهو دين الله، نحن أم أنتم في كفركم وشرككم، أي فسوف تعلمون أن ديننا هو الصراط السوي، ونحن أصحابه ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ نحن أم أنتم، أي ومن اهتدى للصراط السوي نحن أم أنتم أي سوف تعلمون أنا نحن الذين اهتدينا للصراط السوي، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة طه) والحمد لله

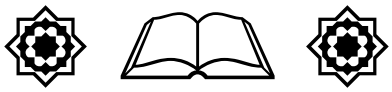

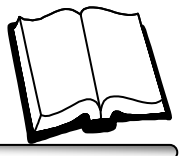

التيسير في التفسير

سورة الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا

بدء تفسير (سورة الأنبياء) عليهم السلام

وهي (مكية) كما يظهر من مواضيعها

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((يعني مشركي قريش أطلق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم، وهو ما يتلوه من صفات المشركين)) انتهى.

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ الراجح: أنه مثل تقرَّب إليهم، يفيد: إقباله إليهم، وأنه في تقدمه إليهم قد قرب، وهذا من أجل (التاء) فأما تعديته بـ(اللام) حيث قال: ﴿لِلنَّاسِ﴾ ولم يقل: (إلى الناس) فلعله مثل: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النساء:١٣٨] ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران:٢١] كما لو قيل: اقبل له مكان أقبل عليه.

فهو تهكم بالمعرضين الذين هم خطر عظيم، والأقرب: أنها (لام التعدية) أتي بها لأنه طالب لهم ﴿حِسَابُهُمْ﴾ الذي يترتب عليه جزاؤهم فأضيف إليهم وهو حساب أعمالهم، فقد اقترب منهم الخطر العظيم ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عنه ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن المذكِّر لهم يأبون إلا البقاء على الغفلة، وهذا سوء اختيارهم لأنفسهم.

﴿٢﴾ ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ الذي يدعوهم إلى رحمته والنجاة من عذابه، وكفاهم أنه من ربهم المالك لهم ليصغوا إلى تذكيره ولا يعرضوا عنه، فما أبعدهم من التعقل ومن النظر لأنفسهم، كلما أتاهم ذكر من ربهم استمعوه بدون تفهم وبدون إقبال عليه بقلوبهم، بل مع اشتغال باللعب.

ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣ قَالَ رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٤ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ

۝٣ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمۡ﴾ لأنها متوجهة إلى اللعب أو الأغراض الدنيوية، أو النظر في حيلة يردون بها الحجة الواضحة، فهي لاهية بذلك أي منشغلة به، وكأن المراد باللعب: ما هو أعم من المعنى الحقيقي من كل أمر شاغل لا فائدة لـه تطلب، وإنما يدعو إليه هوى النفس.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي وأسر الناس الذين ظلموا، فهو بـدل بعض من كل؛ لأن المجادل في آيات الله والمكـذب للرسـول ظـالم أظلـم مـن الغافل الذي لم يجادل ولم يكذب، وإسرارهم للنجوى دليـل علـى أنهـم قـد عرفوا الحجة وعجزوا عن دفعها فأسروا التكذيب لعل إسرارهم محاذرة لأن يواجههم الرسول بحجة أخرى أو نحو هـذا الغـرض، وقـولهم ﴿هَلۡ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ واستعمال هل لوضوح المنفي وعلم السامع به، وجعلوا ذلك حجة على أنه غير رسول ولا حجة لهم به.

وقولهم: ﴿أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ﴾ تذهبون لسماع القرآن وقبوله، وهوترتيب بـ(الفاء) والإستفهام الإنكاري على ما زعموه حجـة وأضـافوا دعـوى أنـه سحر لقوة أثر القرآن في القلوب لما فيه من الإعجاز.

وقولهم: ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾ مبالغة في العنـاد يـدعون أنهـم يشـاهدون الحقيقة التي يخيِّل السحر خلافها.

۝٤ ﴿قُـــل رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء المكذبين ﴿رَبِّي يَعۡلَمُ ٱلۡقَوۡلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾

بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ

أحاط علمه بأقوال أهل السموات والأرض فهو يعلم ما تقولون ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي من شأنه أن لا يخفى عليه صوت ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بما يُخفى وما يُعلَن وبكل شيء وهو يحكم بيني وبينكم ويجزيكم بظلمكم.

﴿بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ ترقَّوا في الباطل إلى القول بلا مستند ولا شبهة حيث جعلوا الإنذار والتبشير ونحوه استناداً إلى أحلام كثيرة لا حكم لها ولا تأويل، ثم ترقّوا إلى دعوى أنه ﴿شَاعِرٞ﴾ مع أنهم يعرفون الشعر له أوزان مخصوصة متعارف عليها بينهم، وليس القرآن عليها بل هو ـ أي القرآن ـ مخالف للشعر في أسلوبه وفي حكمته وإحكامه، ونزاهته عن خرافات شعراء الجاهلية، فدعواهم أنه شاعر مجرد عناد وتغرير على البُله.

وقولهم: ﴿فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ تجاهل للآية التي أتاهم بها، ودعوى أن القرآن الذي أعجزهم ليس بآية، وقولهم: ﴿كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ أي أن الرسل الأولين أتوا قومهم بآيات فليأت محمد بآية كما أتوا بآيات إن كان صادقاً.

﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ جواب عظيم يشتمل على وعيد، نعم أرسل الأولون بآيات ولكن الآيات لم تمنع المتمردين من الكفر ولم تبعثهم على الإيمان، ما آمنوا وقد أتتهم الآيات أفأنتم تؤمنون وأنتم مثلهم، بل أنتم متعرضون للهلاك مثلهم، فكيف تؤمنون وأنتم مثلهم متعرضون للعذاب.

ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقۡنَٰهُمُ ٱلۡوَعۡدَ فَأَنجَيۡنَٰهُمۡ وَمَن نَّشَآءُ

فقوله: ﴿أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي أفهؤلاء المكذبون لك يا محمد يؤمنون دون الأولين وهؤلاء معاندون مجادلون في آيات الله بالباطل لا يريدون الحق ولا ينصفون؛ لأنهم لو كانوا منصفين لآمنوا بالقرآن، وفي هذا الجواب شبه قلب الدليل.

﴿٧﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ قد أقر هؤلاء المكذبون أن الرسل الأولين قد أرسلوا فكان هذا حجة عليهم يبطل تعلقهم بأن محمداً ما هو إلا بشر مثلهم فقد أرسل الأولون وهم بشر رجال يوحي إليهم ربهم، بل لم يرسل إلى الأمم إلا رجالاً يوحى إليهم، فبطل تعلقهم في تكذيبهم لمحمد بأنه بشر مثلهم، وكونهم رجالاً معلوم عند أهل الكتب السابقة فاسألوهم عن هذا، فإنهم يخبرونكم به ﴿إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنهم كانوا رجالاً.

وليس المراد: أن يقلدوا أهل الكتاب، ولا أن يقبلوا خبرهم في غير هذا، ولكن المراد: أن يقبلوا خبرهم في أن الرسل كانوا رجالاً وهو الحق ليقطع ذلك جداهم، وفيه مأخذ لسؤال أهل العلم عند الجهل، وجعل هذه في أهل البيت عليهم السلام من التطبيق أي بالنظر إلى دلالتها على وجوب السؤال على الجاهل، وبالنظر إلى أنهم أهل الذكر من حيث أنهم قرناء القرآن بدليل (حديث الثقلين) وغيره.

وعلى هذا: يحمل ما رواه الحاكم الحسكاني بإسناده عن الحارث، قال: سألت علياً × في هذه الآية: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾؟

وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا

قال: والله إنا لنحن أهل الذكر، ونحن معدن التأويل والتنزيل، ولقد سمعت رسول الله ص يقول: ((أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأته من بابه)) انتهى المراد.

﴿٨﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ وما جعلنا الرسل ﴿جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بل جعلناهم بشراً يأكلون الطعام، وهذا رد على قولهم: ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ باعتبار أنه يأكل كما يأكلون، كما قال بعضهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ [المؤمنون:٣٣] لتحقيق المماثلة، فرد الله عليهم أنهم امتازوا بالوحي لا بأنهم ليسوا بشراً ولا بأنهم لا يأكلون الطعام، قال في (الصحاح): ((الجسد: البدن)) انتهى المراد.

فالرسل بشر يأكلون الطعام كلهم، وليس ذلك مانعاً من رسالتهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ فهم يموتون كما يموت سائر البشر، ورسالتهم لا تنافي ذلك ولا ينافيها.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ثم بعد إرسال الرسل بالوحي والآيات وبعد تكذيب قومهم لهم صدقنا الرسل الوعد الذي وعدناهم بنجاتهم ومن آمن معهم، وهلاك أعدائهم المسرفين فأنجيناهم من العذاب الذي أهلكنا به قومهم وأنجينا معهم من نشاء أن ننجيه ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ الذين كذبوهم وجادلوا في آيات الله وعادوا رسلهم، وفيهم عبرة لكم أيها المكذبون لمحمد ص.

ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا

﴿١٠﴾ ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ﴾ أيها المكذبون بالقرآن ﴿كِتَٰبٗا﴾ يبقى مع الأجيال لهدايتهم ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ يبقى لكم مع الأجيال المستقبلة إن آمنتم به واتبعتموه تُذكَرون في كل جيل فيبقى لكم الشرف إلى يوم القيامة ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ حين خالفتم ما هو الخير لكم وجادلتم فيه وحاولتم إبطاله ما هذا بشأن أهل العقول لو استعملتم عقولكم لآمنتم به، فقوله تعالى: ﴿فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ أي تذكرون بسببه أي فيه شرفكم ورفع قدركم، كما ذُكِرَ علي × ، وأبو ذر، وعمار.. وغيرهم.

﴿١١﴾ ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : القصم في اللغة: هو الكسر والحطم)) انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((قصمت الشيء قصماً: إذا كسرته حتى يبين)) انتهى.

فالمراد في الآية كم دمرنا من قرية تدميراً كاملاً، وقوله تعالى: ﴿كَانَتۡ ظَالِمَةٗ﴾ يبين أن المراد القرية مع أهلها أو الأهل مع القرية كما في (سورة الإسراء) ﴿فَدَمَّرۡنَاهَا تَدۡمِيرٗا﴾ [آية:١٦] وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾ أي خلائف لنبلوهم.

﴿١٢﴾ ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ ﴿أَحَسُّواْ﴾ رأوه أو سمعوه، أي أهل القرية الظالمة ﴿إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ﴾ يهربون فراراً من العذاب الذي هو بأس الله.

قال الشرفي / : ((قال الحسين بن القاسم × : ومعنى الركض الإنكاص والهرب، وأصل الركض تحريك الرجل على الدابة أو على الأرض معروف ذلك في لغة العرب)) انتهى المراد.

قلت: التعبير عن الفرار بالركض هو ركض الدابة بعقب القدم لتسرع في سيرها، فأهل القرية حين أحسوا العذاب يركضون وهم ركبان هاربين من العذاب، فأما قول الله تعالى: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص:٤٢] فهو ركض في مكانه ليس سيراً، لأنه مريض، ضرب برجله فظهر ماء عذب كما قال تعالى: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:٤٢].

وفي تفسير (الإمام زيد بن علي إ): ((﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ وَجَدوا ﴿يَرْكُضُونَ﴾ معناه: يسرعون)) انتهى.

﴿لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ ﴿لَا تَرْكُضُواْ﴾ خطاب لهم ليتركوا الفرار، ولعله تهكم بهم كقوله تعالى: ﴿وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من الدور وما فيها من الأثاث والنعم المتوفرة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ راجين أن تسألوا أي ارجعوا لعلكم تسألون، أما ما هو السؤال عن أي أمر فيحتمل لعلكم تسألون كما كنتم تسألون ما هو رأيكم في كذا، والخدم ما نعمل، والمحتاجون هل تتفضلون علينا، وكل ذلك لا يكون وإنما هو تهكم بهم لاشتغالهم بطلب النجاة وفرار الكل من أهل القرية.

ويحتمل: لعلكم تسألون كيف صارت وماذا نزل بها، وهو أيضاً تهكم بهم؛ لأنهم مشغولون بأنفسهم يريدون نجاتها، والخطاب هنا والله أعلم إنما هو بلسان الحال كما في نظائر هذا الموضوع من القرآن.

كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ

﴿١٤﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ قد حضر هلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فهو سبب نزول العذاب.

﴿١٥﴾ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ أي تلك الكلمة وهي قولهم: ﴿يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ما زالت ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ يكررونها ويرددونها ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ كالزرع المحصود ﴿خَٰمِدِينَ﴾ وسميت دعوى لأنها قامت مقام الدعوى؛ لأن من واجه العقوبة يدعي ما يخلصه منها كمن يدعي الخطأ أو السهو أو الغلط أو الإكراه أو الإضطرار، وهؤلاء لم يجدوا دعوى إلا الإقرار على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين وأن ذلك سبب العذاب حتى هلكوا، ويؤكد هذا قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [آية:٤-٥] وهذا أحد معنيين رواهما الشرفي عن الحسين بن القاسم، حيث حكى عنه أنه قال: ((معنى ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي علتهم وما يدّعون من ركاكة حجتهم)) انتهى المراد.

قال الشرفي: ((والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت)) انتهى، وقال الراغب: ((جعلناهم حصيداً خامدين كناية عن موتهم من قولهم: خمدت النار خموداً طفئ لهبها)) انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ هذا من الرد على الكفار الجاحدين للآخرة المكذبين للرسل الذين يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون:٣٧] فلو كان الأمر كما زعموا لما كان في خلق

أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ

السموات والأرض فائدة، حيث يترك من فيهما لا أمر من الله ولا نهي، ولا اختبار، ولا وعد ولا وعيد، ولا فرق بين المحسن والمسيء، ولا إنصاف للمظلوم من الظالم، لكان خلق العالم لعباً؛ لأنه عارٍ عن الحكمة حينئذ.

تفكر كيف يهلك جيل فيخلفه جيل، ثم يهلك هذا فيخلفه جيل وهكذا تهلك الأجيال وتخلفها أجيال لا لتبقى بل لتموت، فلولا الجزاء في الآخرة والفرق فيها بين المحسن والمسيء ولولا إرسال الرسل وأمر المكلفين ونهيهم ولولا الإنذار والتبشير لكان خلق العالم وإهلاكه لا لفائدة ولا لحكمة ولكان ذلك لعباً ـ تعالى الله عن ذلك ـ بل هو أحكم الحاكمين.

﴿١٧﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قال الراغب: ((اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ـ ثم قال ـ : ويعبر عن كل ما به استمتاع باللهو)) انتهى المراد.

وفي (الصحاح): ((ولهوت بالشيء ألهو لهواً، إذا لعبت به وتلهّيت به مثله)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((اللهو ما لهوتَ به ولعبت به وشغلك من هوى وطرب ونحوهما)) انتهى، وهاهنا اللهو بمعنى اللعب، أو شامل له؛ لأن السياق يقتضي ذلك. قال الشرفي في هذا الموضع: ((واللهو واللعب بمعنى)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ أي غير خلق السماء والأرض وما بينهما؛ لأن اللعب يكون مما يشتهيه الناظرون أو يلتذ به السامعون أو نحو ذلك، وقدرته تعالى وعلمه لو صدر اللعب واللهو من عنده يناسبهما أن يكون ما يتخذه سبحانه وتعالى في غاية الإتقان يفوق في لذته كل لهو؛ لأنه قادر على كل شيء، وعليم كيف يتقن الصنع.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ

فحاصل المعنى: أن السموات والأرض وما بينهما لا بد أن يكون خلقها لحكمة؛ لأنه سبحانه حكيم، ولم يخلق هذه الدار للهو؛ لأنه لو أراد أن يتخذ لهواً لأتقن صنعه ليكون لهواً فائقاً لكل لهو لا كصنع السموات والأرض وما بينهما الذي ليس من اللهو، فلا بد أن هذا العالم خلق لحكمة وعلى الكفار أن لا يجحدوا الحكمة ولا يعتبروه لهواً ولعباً ﴿سُبۡحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١].

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تأكيد للشرط الذي هو ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ﴾ للدلالة على أن هذا مجرد فرض وتقدير لا يكون أبداً؛ لأنه لا يليق بحكمته وغناه عن كل شيء.

﴿١٨﴾ ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي نرمي به الباطل فيبطله، شبه بإلقاء الحجر أو نحوه في رأس إنسان أو غيره ﴿فَيَدۡمَغُهُۥ﴾ يصيب دماغه ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ﴾ هالك ميت كذلك ينزل الحق فيظهره ويبطل الباطل، وقوله: ﴿بَلۡ﴾ إضراب عن فرض اتخاذ اللهو، أي سبحانه بل يحق الحق ويبطل الباطل ﴿وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وعيد للكفار لجحدهم البعث وإرسال الرسول.

﴿١٩-٢٠﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ..﴾ فهو المستحق لأن يعبدوه والملائكة المقربون ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ لأنهم يؤمنون به ويعلمون أنه ربهم المستحق للعبادة ﴿وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ﴾ لا يقطع عبادتهم تَعَبٌ، بل ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾.

ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ

قال في (الصحاح): ((وحسر البعير يحسر حُسُوراً: أعيى واسْتحسَر وتحسَّر مثله)) انتهى، قال في (لسان العرب): ((الإعياء: الكلال)) انتهى، وعبارة الراغب: ((الإعياء: عجز يلحق البدن من المشي)) انتهى.

ولعل زيادة (السين) لأنهم لا يطلبون الإنقطاع لو تعبوا ولا يريدونه؛ لأنهم يسبحون برغبة دائمة، فأما (صاحب الكشاف) فقد جعل زيادة الحروف تدل على زيادة المعنى، قال: ((فإن قلت: الإستحسار مبالغة في الحسور، فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور قلت: في الإستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وأنهم أحِقَّاء لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ﴾ أي الليل كله ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾ أي كله، وهذه فائدة إسناد الفعل إلى الليل والنهار بدون في، ولو قال في ما أفاد ذلك العموم لليل كله والنهار كله وكأن العموم جاء من التعريف بأل؛ لأن المنكر لا يفيده نحو: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء:١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس:٥٠].

﴿٢١﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا..﴾ إلى قوله ﴿..وَلاَ نُشُورًا﴾ [الفرقان:٣] فالمعنى: أن المشركين اتخذوا آلهة لا تنشر أي لا يحيون ميِّتاً ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ﴾ بل أاتخذوا ﴿ءَالِهَةً﴾ مصنوعة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ هم يحيون الموتى فتكون لهم شبهة في عبادتهم؟!

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَـٰنَكُمۡ ۖ هَـٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي ۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ ۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن

﴿٢٢﴾ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ﴾ في السماء والأرض ﴿ءَالِهَةٌ﴾ كما يزعم المشركون ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أي لفسدت السماء والأرض لما يكون بينهم من التنازع والإختلاف على العبيد الذين لم يخلقوهم ولا رزقوهم، وشأن كل متعددين يدعون الولاية على ما ليس لهم وليس لهم فيه حق أن يختلفوا؛ لأن استيلاءهم على ما ليس لهم يدعوهم الداعي إليه إلى محاولة الإستيلاء على غيره فيؤديهم ذلك إلى الاختلاف والتنازع والتناهب لما تحت أيديهم مما يسبب لفساد المتنازع فيه واختلال نظامه.

وقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فسبحان الله أي بعُد وتنزه عما يصفون في جعلهم له شركاء فهو منزه عنهم من حيث ادعوهم ولداً للرحمن، ومنزه عنهم من حيث ادعوا أن الله شاء من المشركين عبادة شركائهم، ومنزه عن أن يقرن في إلهيته بخرافة شرك شركائهم، ومنزه أن يكون له ند كما زعموا له أنداداً، و﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ الملك، فمعناه: مالك الملك سبحانه عن أن يجعل له عباده شركاء، وهو مالكهم ومالك الملك كله.

﴿٢٣﴾ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ﴾ ﴿لَا يُسۡـَٔلُ﴾ لأنه مالك الملك، وكل من سواه عبد مربوب ﴿وَهُمۡ﴾ أي العباد أو الذين اتخذهم المشركون آلهة من الملائكة وغيرهم ﴿يُسۡـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عما قدموا في الحياة الدنيا؛ لأنهم عباد الله مربوبون.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَـٰنَكُمۡ ۖ هَـٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِي ۗ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ ۖ فَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ ﴿أَمِ﴾ إضراب

قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ

عن إثباتهم آلهة أهو إثبات لآلهة ينشرون إلى سؤال آخر بل ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله رب العرش ﴿ءَالِهَةً﴾ ومعنى ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ وسائط بينهم وبين الله يعتبرونهم أقرب إليهم من الله ليكونوا لهم وسيلة إلى الله أو لينفعوهم وينصروهم، لا بمعنى أنهم أنداد لله ـ عزَّ وجل ـ.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ إن كنتم صادقين؛ لأنه منكم اتباع هوى الأنفس بلا دليل وهاتوا برهانكم على زعمكم أن الله شاء منكم عبادتهم ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ هذا القرآن ذكر من معي تذكير من معي يهتدون به إلى توحيد الله ونفي الشركاء ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ من الأمم ذكَّرتهم به أنبياؤهم أي معنى هذا القرآن ذكر من قبلي فالإشارة إلى القرآن باعتبار معانيه ودلالاته.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ لإهمالهم عقولهم ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن هذا القرآن لا يلتفتون إليه ليعلموا الحق ويتذكروا للنظر، ولو استعملوا عقولهم فنظروا في الآيات الكونية، لعرفوا الله وعدله وأنه حكيم، وأنه ليس من شأنه إهمال عباده، وتركهم بلا رسول ولا إرشاد ينظم مجتمعهم وكيف يتعاملون ويتخلصون من التناهب والتظالم وفساد المعيشة، ولو عرفوا ذلك لما أعرضوا عن الرسول حين جاءهم بالقرآن الحكيم، وفي هذه الآية أن علم الحق هو بالنظر واستعمال العقول حتى لا يعرضوا عن الوحي عند نزوله.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ ﴿نُوحِيٓ إِلَيْهِ﴾ يوحي الله إليه ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي الشان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ وحدي لا تشركوا، فالتوحيد دين الله ورسله كلهم أجمعين.

بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ

وقوله: ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ يفيد: أنه لا عبادة لله إلا عبادة من أخلص عبادته لله لم يشرك معه غيره؛ لأنه تعالى فرع الأمر بالعبادة له على توحيده، فدل على أن المراد عبادة الإخلاص وأنها هي عبادته.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي المشركون من أهل مكة ومن حولها الذين يعبدون الملائكة زعموا أنهم أولاد لله سبحانه، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي تنزيهاً وتبعيداً له عن اتخاذ الولد؛ لأنه الغني، وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ أي بل هم أي الملائكة عباد لله مملوكون ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بالهداية لتقوى الله وعبادته والعصمة من معصيته.

﴿٢٧﴾ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ لا يسبقون الرحمن بالقول لا يبادرون قوله بقول، بل لا يقولون إلا ما علمهم ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ لا يعصون الله ما أمرهم كائناً ما كان، ولو كان تعذيب من يعبدهم.

﴿٢٨﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُ﴾ أي الله يعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يستقبلونه من أعمالهم وأحوالهم ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الماضي من أعمالهم وأحوالهم، فخبره عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، خبر عن علم؛ لأنه علام الغيوب.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ ردّ على المشركين الذين يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله وهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله وهم المؤمنون.

مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا

كما قال تعالى في بعض الأنبياء: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم:٥٥] وهو إسماعيل × ، وقال تعالى حاكياً عن زكريا: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٦] والمرضي عند الله هو المتقي، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة:٧-٨].

والشفاعة للمؤمنين من الملائكة لحبهم لهم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر:٧-٨].

وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ قال الراغب: ((الخشية: خوف يشوبه تعظيم)) انتهى، ومن حيث أن الخشية خوف والإشفاق مسبَّبٌ عنها فلا بد أن الإشفاق المحاذرة ومحاولة النجاة لا مجرد الخوف، قال الراغب: ((الإشفاق: عناية مختلطة بخوف)) انتهى، وقال في (الصحاح): ((وإذا قلت أشفقت منه فإنما تعني حذِرته)) انتهى.

قال الشرفي: ((﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ خائفون حذرون من أن يفرط منهم فرطة)) انتهى المراد.

٢٩ ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَمَن يَقُلۡ﴾ أي لو قال ﴿مِنۡهُمۡ﴾ أحد؛ لأن مَن حرف شرط لا يدل على وقوع شرطه في المستقبل ولا في الحال.

وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا

وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الملائكة ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله ﴿فَذَٰلِكَ﴾ القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ يعذب فيها ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سماه ظالماً لأن الشرك ظلم عظيم، ومن قال ﴿إِنِّيٓ إِلَٰهٌ﴾ قد أشرك بجعل نفسه شريكاً لله سبحانه في الإلهية.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ تقدمة لذكر آية عجيبة لا لإثبات الرؤية ولا للتوبيخ على عدم الرؤية ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بالآخرة استبعاداً لإحياء الجسد بعد موته ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ مخلوطتين كالشيء الواحد، أو كانتا شيئاً واحداً.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: كانت السموات والأرض واحدة ففتق من الأرض سبع أرضين، ويقال: فتق السماء بالمطر والأرض بالنبات)) انتهى.

ويمكن على ما روي من قول الإمام زيد × : كانت واحدة أن السموات والأرض كانت شيئاً واحداً هو الماء، كما روي عن الإمام علي × في (نهج البلاغة): ((فأحرق الله بالنار زبده بعد مخضه بالرياح، فخلق السماء من دخانه والأرض من حراقته الباقية)) وهذا يناسبه قوله تعالى في الآية هذه عطفاً عليه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ فالسماء من الماء والأرض من الماء، وكل حي من الماء، ويناسب كون السماء والأرض مخلوقتين من الماء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧].

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: العز والسلطان)) انتهى، فعزه وسلطانه تعالى على الماء، بولايته عليه ونفوذ أمره فيه.

وقد حكى الشرفي في (المصابيح): ((عن الهادي يحيى بن الحسين × تفسيراً لقول الله تعالى: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ وحكى فيه عن أمير المؤمنين علي × أنه قال: فلما خلق الله تبارك الله وتعالى الماء والرياح أوحى [إلى] الرياح بأن [تقصف] تصقف [كذا] وتهيج غوارب الماء وأمواجه فهيجت أمواجه وزعزعت ساكنه فارتعدت غواربه فتراكم زبده وعظم أمره، ثم أوحى الله إلى النار فأحرقت ذلك الزبد فثار منه دخان فصعد في الهواء وبقي حراقة الزبد على ظهر الماء حفا [لعل الصواب: جفاء بجيم وفاء وهمزة ـ تمت منه] فخلق الله تبارك وتعالى الأرض من تلك الحُراقة حُراقة الزبد وخلق السموات من ذلك الدخان كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت:١١].

فقد يمكن أن يكون معنى قوله: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ هو ميّزناهما من أصل واحد وخلقناهما فجعلنا السماء من دخان ذلك الشيء والأرض من حثالته، وهذا عندي من أحسن ما أرى فيه من القول والله سبحانه [أعلم] وبذلك أحكم ولا أتوهم أنه يصح قول خلاف هذا يثبت [في نسخة (المصابيح) خالية من النقط، والراجح: أنه غلط، وأن الصواب: يثبت] على المطالبة ويمكن في المناظرة)) انتهى.

قلت: لعله نظر إلى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١] فرأى أن هذا التفسير هو الذي يوافقها، فأما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي خلقنا من الماء كل شيء حي، أي كل دابة، وكل طائر، وكل سمك، ويحتمل: عموم الآية للشجر أو جعل أصل كل شيء حي الماء.

قال الشرفي: قال في (البرهان): ((يعني كل حيوان يدب على الأرض أو يتحرك بشيء من الأشجار من الماء، وجعل حياته منه وحفظ صحته)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي أفلا يؤمنون بالله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء، وهذه آياته الكونية تدل عليه وآياته القرآنية تدل عقولهم عليها، أفبعد هذا لا يؤمنون ينكر عليهم ترك الإيمان به بعد وضوح الدلائل عليه.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿رَوَاسِيَ﴾ أي جبالاً رواسي ثابتة في أماكنها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالرواسي: الجبال الثوابت)) انتهى.

وقوله: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي لتحفظها الجبال الرواسي من الميَدَان أي من التحرك حركة اضطراب وتزلزل، قال في (لسان العرب): ((وقال أبو العباس في قوله: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥] فقال: تحرك بكم وتزلزل)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه مسالك، واحدها: فج)) انتهى، والضمير هنا للجبال تتخللها الفجاج لتكون ﴿سُبُلًا﴾ قال في (الصحاح): ((الفج: الطريق الواسع بين الجبلين)) انتهى.

والفج قد يكون في الجبل إذا كان فيه منخفض منه متسع بين مرتفعين فلذا جوزت أن الضمير للجبال؛ لأن الفج فيها أو بينها إذا كان بين جبلين، وكلام الإمام زيد × يعمهما، ويحتمل: أن الضمير للأرض كقوله تعالى: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا﴾ [نوح:٢٠] والراجح هنا: هو الأول، ليدل على الآية في خلق الجبال تتخللها الفجاج التي تصير سبلاً؛ لأن الجبال لو اتصل بعضها ببعض وكانت أعاليها مرتفعة كلها على شكل واحد لتعسَّر الخروج

ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلۡنَا لِبَشَرٖ

من أرض إلى أرض خلف الجبل، ولم تتعين جهة منه للسالك، فكانت كل ناحية منه يمكن الصعود فيها والنزول منها تصلح أن تجعل سبيلاً، وبذلك تصعب معرفة السبيل في الجبل، فقال تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ يعرفون من أين يسلكون لوجود الفج الذين يتعين الخروج منه لسهولته، ويحتمل: لعلهم يهتدون لمعرفة الله تعالى بما يرون من آياته ونعمه في الجبال.

﴿٣٢﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾

﴿سَقۡفَۢا﴾ للأرض كسقف البيت في أنه سقف، أما السماء فهي سقف للأرض من كل جهاتها، فأينما صار الإنسان من الأرض فالسماء فوقه، فهي محيطة بالأرض وبما بينهما، وقوله تعالى: ﴿مَّحۡفُوظٗا﴾ الراجح أن معناه محفوظاً من كل شيطان رجيم ﴿وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيها لأنهم مهملون لعقولهم، والراجح: أن من آياتها البروج التي هي منازل الشمس والقمر؛ لأن الإنسان يعتبرها في السماء فهي مضافة إلى السماء في اعتبار الإنسان.

﴿٣٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾

﴿خَلَقَ ٱلَّيۡلَ﴾ قدره بما يناسب الإنسان والحيوان والشجر فجعله لا يطول حتى يضر ذلك طوله، ولا يقصر حتى تقل فائدته أو تعدم، وكذا تقدير النهار والشمس جعلها بمقدار ما يحتاجها لشعاعها وضيائها، والقمر بمقدار يصلح انقسامه أهلة فما فوقها حتى يتم، ثم ينقص حتى يغيب فيكون ذلك لمدة شهر، وبالقمر وسيره يتحدد الشهر، وبالشهور تتحدد السنة.

مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فالشمس تسبح أي تجري في منازلها، وكذا القمر، والليل والنهار يتخالفان على جهات الأرض، فيكون النهار في جهة يسبح، والليل في جهة أخرى يسبح، ثم يخلف الليل النهار، وهكذا كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، وكل منهما يعقب الآخر حيث كان، ولا حاجة لجعل الضمير للشمس والقمر دون الليل والنهار، ولا لتقدير النجوم مع الشمس والقمر بل كل الأربعة تسبح.

قال (صاحب الكشاف): ((وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة)) انتهى.

وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ إما خبر للمبتدأ الذي هو ﴿كُلٌّ﴾ فقوله: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ متعلق بـ﴿يَسْبَحُونَ﴾ وإما حال من ﴿فِي فَلَكٍ﴾ والخبر: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ أي كل في فلك حال كونه يسبح، وإما خبر بعد خبر، والراجح الأول، والأفلاك مجاريها التي قدرها الله لها فللشمس فلك وللقمر فلك ولليل فلك وللنهار فلك، وكل واحد يسبح في فلك.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ يا رسول الله ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ أي البقاء في الحياة ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ لعل هذا رد على الكافرين في قولهم: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور:٣٠] كأنهم لا يموتون ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ منك ومنهم ومن غيركم ﴿ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تجد ألمه، شبَّه وجدان ألمه بذوق الشيء المر.

إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ﴾ في هذه الحياة من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وسائر الشر كالوباء والفيضان في البحر وشدة الحر التي تضر بعض الناس وشدة البرد كذلك، وخلق الأشياء السامة والضارة لبعض الناس، فكل هذا ﴿فِتْنَةً﴾ أي اختبار أيصبر العقلاء أي شبه الإختبار؛ لأن الله تعالى عالم في الأزل بمن يصبر ومن لا يصبر، وكذلك الخير بأنواعه وهو اختبار أيشكرون؟ أم يكفرون؟

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ راجع إلى الآية كلها فيرجع العباد إلى الله وحده لتجزى كل نفس بما تسعى من ثواب أو عقاب، وكذلك ليجزي الصابر وغير الصابر والشاكر والكافر ففي ذلك تسلية لرسول الله ص من أجل ما يلاقي من شدائد بسبب النبوءة وما قام به من أمر الله، فله أجره عند الله، وللكافرين جزاؤهم.

ولعل في قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ رد على الكفار الذين يزعمون أن الله تعالى وسع لهم الرزق، لأنه يحبهم كما يفيده قولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] فبيّن الله تعالى: أن الخير الذي هم فيه فتنة لهم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا رَءَاكَ﴾ يا رسول الله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ ما يتخذونك إلا مهزوءاً به استخفُّوا بك واتخذوك مستخَفّاً به أي جعلوك محلاً لاستخفافهم المتتابع

فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَو يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ

﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ يصغرونه ويعظمون ذكره لآلهتهم ويعدونه تكلم بما لا يناسب حقارته بزعمهم.

﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان:٦٠] جحداً لاسم الرحمن ورفضاً لتسميته الرحمن وهو كفر انفردوا به عن كفار أهل الكتاب لجهلهم مع أن الله جل جلاله واسع الرحمة هو أهل أن يسمى الرحمن، وإنما عاندوا في ذلك وكابروا ولم ينظروا إلى أنه ربهم الذي خلقهم ورزقهم ولا يحصون أنعمه عليهم، وهذه غاية السخافة أن يعيبوا الكلام في آلهتهم التي لا تنفع ولا تضر ولا يعيبون على أنفسهم كفرهم بالرحمن الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير وهم مع ذلك يستحقرون من هو منتهى الكمال البشري ص ويسخرون منه.

﴿٣٧﴾ ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَـٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ قال الشرفي: قال في (البرهان): ((والفرق بين العجلة والسرعة، أن العجلة تقديم الشيء قبل وقته، والسرعة تقديم الشيء في أول أوقاته)) انتهى.

قلت: العجلة التسرع في الأمور أو الميل إليه، ولكن المعيب ما خالف مقتضى العقل، والإنسان أي الأكثر كالمطبوع على العجلة حتى كأنه خلق منها إلا أن جعل الإنسان خلق من عجل مجاز عن كونه طبعه أو عن كثرته منه، قال في (مغني اللبيب) في (من) اتصلت بها (ما) الكافة، كقول أبي حية:

وإنا لما نضرب الكبش ضربة ...

ثم قال: والظاهر أن (ما) مصدرية، وأن المعنى مثله في ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾.

وضنت علينا والضنين من البخل ...

فجعل الإنسان والبخيل مخلوقين من العجل والبخل مبالغة)) انتهى.

ويظهر: أن قوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ تهكم بالكفار الذين يستعجلون بالعذاب؛ لأن العذاب ليس مما يميل إليه الطبع ويستعجله العجول، وإنما هم يستعجلونه كفراً به وإظهاراً للثقة بأنه لن يكون، هذا إذا كان السياق في استعجالهم بالعذاب، وكذا إذا كان استعجالاً بالأمر الخارق الذي يترتب عليه العذاب إذا لم يؤمنوا فهو كالإستعجال بالعذاب، لأنهم لا يؤمنون، فمعناه الإستعجال بالعذاب.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ يدل على هذا الأخير، ولعل المراد بالآيات ما أصيبوا به فهلكوا فهي آيات ومصائب عجلت عليهم لاستهزائهم، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] فهو تهكم بهم أيضاً، كقول الشاعر:

نزلتم منزل الأضياف منا فعجلنا القِرى أن تشتمونا

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي لا تستعجلوني أي لا تطلبوني تعجيل العذاب أو الآيات، وهذا لأن طلبهم الآيات كفر بما قد جاءهم به الرسول ص فاستحقوا العذاب.

﴿٣٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي الكفار المستعجلون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي القيامة التي وعد الله بها ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في قولكم: أنها ستكون، أي مالها لا تقوم.

ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةً فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن

فقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ تعبير عن كونهم قد استبطأوها، فكان معناها الإستعجال بها إن كانوا صادقين، وقد أجاب عليهم بقوله تعالى:

﴿٣٩﴾ ﴿لَوۡ يَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمۡ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ فلا يحسن الإستعجال بها من أناس يعذبون فيها، وهذا الجواب مثله في (سورة يونس) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٥٠] والجواب لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ محذوف أي لما قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أو لما استعجلوه أو نحو ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي ولا يدفع عنهم العذاب غيرهم ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] لا آلهتهم ولا غيرها.

﴿٤٠﴾ ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ إضراب من قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ أي لا يعلمون حين تأتيهم ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾ وهم لا يتوقعونها في تلك اللحظة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ توقعهم في حيرة لا يدرون ما يقولون.

قال في (لسان العرب): ((وقال الزجاج في قوله [عزَّ وجل]: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ قال: تحيرهم حين تفجأهم بغتة)) انتهى.

ونحو هذا في (مصابيح الشرفي) إلا أن في النسخة غلطاً من الناسخ، وعندي أن أصل نصه هكذا: فتبهتهم أي تغلبهم، يقال للمغلوب في المحاجة: مبهوت، ومنه ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨] أو لبغتة الفجاءة..انقطع كلامهم بالرعب..إلخ.

قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلۡ مَن يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أي لا يستطيعون دفعها جملة عن أنفسهم، وهو غير معنى: ﴿لاَ يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلاَ عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ لأن هذا يشير إلى أنهم مغلولة أيديهم فتلفح وجوههم النار، ولا يدفعونها عن ظهورهم كما يدفع الحر والبرد، بما يقيهما عن الظهر من لباس أو نحوه ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ عند إتيانها لهم أي لا يمهلون، ولو كان لطلب الإمهال مجال لطلبوه، فأين صاروا بعد استعجالهم بالعذاب.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ الإستهزاء والسخرية واحد، وهو كلام أو إشارة يراد به الإستخفاف والإحتقار، ولعل منه قولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:٦٧] فلا يشترط فيه أن يكون تهكماً، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ تحذير للمستهزئين برسول الله ص من أن يحيق بهم ما يستهزئون به، وتسلية له؛ لأن الرسل أسوة له.

وقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ﴾ قال في (الصحاح): ((حاق به الشيء يحيق، أي أحاط به، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣] وحاق بهم العذاب أي أحاط بهم ونزل)) انتهى، ومعنى أحاط بهم الرسل الذين كانوا بهم يستهزئون أو الحق الذي ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أنه أحاط بهم عذاب الإستهزاء به، كأنه هو عذبهم وغلبهم وقهرهم.

﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿يَكْلَؤُكُم﴾ قال في (مفردات الراغب): ((الكلاءة حفظ الشيء وتبقيته)) انتهى، أي من يحفظكم من الرحمن الغالب على أمره، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تنبيه على أن تعرضهم لبأسه ليس لأن شأنه البأس، وإنما هو عملهم يعذبون بسببه ، ولولا عملهم لكانوا في رحمة الله حتى يأتيهم الموت.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ تخويف من نزول العذاب عليهم ليلاً، وقوله ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ كذلك فهو تعالى قادر على إنزال عذابهم وهم نائمون، وقادر على إنزاله نهاراً وهم يلعبون ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يذكرون الله بقلوبهم، فلا يتذكرون بأسه ولا يخافون بطشه لغفلتهم عنه.

﴿٤٢﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ بل ألهم آلهة؟ انتقال من السؤال الأول ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ﴾ إلى سؤال آخر يبطل شركهم بهم ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم﴾؟ تحميهم من عذاب الله وتقيهم بطشه العاجل بقوّتها؟! وجواب هذا السؤال ظاهر لأن شركاءهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن نصر من يعبدهم.

قال الراغب في (منع): ((ويقال في الحماية، ومنه مكان منيع، وقد منع، وفلان ذو منَعَة أي عزيز)) انتهى، ومثله في (لسان العرب): ((وظاهر أن كلمة منع مشتركة بين المنع بمعنى الحماية والمنع ضد الإعطاء)).

ٱلۡعُمُرُۖ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا

أما الزمخشري في (أساس البلاغة) فقال: ((ومن المجاز: فلان يمنع الجار يحميه من أن يضام..)) إلخ، وسواء كان مشتركاً أم مجازاً في الحماية فالسياق في الآية يدل على أنه بمعنى الحماية، وقوله تعالى: ﴿مِّن دُونِنَا﴾ أي مستقلة بحمايتهم دون أن تحميهم بحماية الله، والسياق في الحماية من عذاب الله فلا يتصور حماية من حماية الله.

﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي لا يصحبهم الله بنصر وتأييد، قال: قال في (البرهان): يعني لا يجارون يقال: إن لك من فلان صاحباً أي مجيراً أي لا صاحب من الله يمنع من عذابه)) انتهى.

ويحتمل: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ لا يجيرهم من الله مجير، فآلهتهم لا تنصر نفسها ، ولا يجيرها من الله مجير إن كان الضمير راجعاً إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُم﴾ وإن كان الضمير راجعاً إلى المشركين فالمعنى: ولا هم أي المشركون يجارون من الله كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود:٦٣].

وفي (أساس البلاغة): ((وصحبك الله تعالى وصاحبك وأحسن الله تعالى صحابتك وامض مصحوباً ومصاحَباً بمعنى مسَلَّماً معافى، ومنه: ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ﴾ أي يعافَون ويحفظون..)) إلخ، وسواء كان الضمير في ﴿وَلَا هُم﴾ راجعاً إلى ﴿ءَالِهَةٌ﴾ أم إلى المشركين، فالمعنى راجع إلى أن آلهتهم لا تحميهم، إما لأنها لا تستطيع أن تنصر نفسها ولا لها مجير من الله يحميها منه؛ وإما لأنها لا تستطيع نصر أنفسها ولا المشركون يجارون من الله كائناً من كان المجير.

﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۗ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَآۚ أَفَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ﴿بَلۡ مَتَّعۡنَا﴾ إضراب

عن سؤال المشركين إلى ذكر السبب في إعراضهم عن الله وغفلتهم عنه وعدم خشيتهم منه ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ أنعمنا عليهم في هذه الحياة القصيرة وعلى آبائهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ طال عليهم مدة حياتهم في التمتيع وهي حياة جماعتهم، فغلب عليهم الإشتغال بالدنيا وما متعوا فيه من الأرزاق ونسوا الله.

وقوله تعالى: ﴿طَالَ عَلَيْهِمُ﴾ يشير إلى أن طول الحياة في النعمة والتمتع بها فتنة يحتاج صاحبها إلى استعمال عقله حتى لا تغلبه الغفلة والإشتغال بالدنيا، وقوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي قريشاً أو إياهم ومن حولهم.

قال بعض المفسرين: ((وكذلك كان مجتمع قريش فإنهم كانوا بعد أبيهم إسماعيل قاطنين في حرم آمن متمتعين بأنواع النعم التي تُحمَل إليهم، حتى تسلطوا على مكة وأخرجوا جرهماً منها فنسوا ما هم عليه من دين أبيهم إبراهيم وعبدوا الأصنام)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ الراجح في معناه: أنهم قد شاهدوا ما ينزل من المصائب التي تنقص منها الأشجار والثمرات ومع ذلك لا يستطيع أهلها دفع المصيبة ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ إن أراد الله إهلاكهم بكفرهم، وما ينزل بالأشجار ينسب إلى الأرض، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] فقوله تعالى: ﴿نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا﴾ [يونس:٢٤].

وقوله تعالى ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ يناسب أن المراد به الشجر والزروع التي تنزل عليها المصائب مثل البَرَد الذي تظهر إصابته في الأطراف من الشجر والزروع.

مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَلِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ

وقوله تعالى: ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي أنهم لا يستطيعون دفع ما ينزل على الأرض من المصائب أفهم مع عجزهم عن دفعه هم الغالبون لله كلاّ.

﴿٤٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم﴾ يا قومي ﴿بِٱلْوَحْىِ﴾ من الله الذي لا يبدّل إنذاره ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ فلا زلتم معرضين عن الإنذار؛ لأنكم صرتم كالصم الذين لا يسمعون دعاء من ينذرهم أي مخوف؛ لأنكم خذلتم بسبب تكذيبكم بآيات الله بعد سماعكم لها، فصرتم لا تسمعون الإنذار، أي كمن لا يسمع لأنكم صرتم تكرهون سماعها وتعرضون عن استماعها.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَلِمِينَ﴾ لأنهم قد عرفوا الحق وتركوه عناداً ولا يعترفون إلا إن مستهم نفحة من عذاب الله فعند ذلك يقولون: ﴿يَوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَلِمِينَ﴾ ومعنى ﴿نَفْحَةٌ﴾ قليل من عذاب الله.

قال في (الكشاف): ((وفي المس والنفحة ثلاث مبالغات [أي في تقليل العذاب] لأن النفح في معنى القلة والنزارة يقال نفحته الدابة وهو رَمح [أي ركض] يسير)) انتهى المراد.

فإن قيل: فأين الثالثة؟ قلت: أراد أن (التاء) تفيد: التقليل، من حيث أنها للمرة مثل ضربة فهي الثالثة، فهؤلاء الكفار إن مسهم قليل من عذاب سارعوا إلى الإعتراف بأنهم كانوا ظالمين أي بالتكذيب بآيات الله والإعراض عنها..وغير ذلك.

نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا

﴿٤٧﴾ ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ **أعمال العباد تحسب يوم القيامة وتحقق مقاديرها لتجزى كل نفسي بقدر عملها ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾ وضع الشيء طرحه في الأرض مثلاً، ووضع الموازين أعدادها للوزن يوم القيامة، والتعبير بالوضع يفيد أنها ثقيلة وطريقة الوزن بها لا تتوقف على تعليقها ولا حملها في اليد، ولا مانع أن تكون هذه الموازين آلات يعرف بها مقادير الأعمال كما قد وجد في هذا العصر من ميزان الحرارة ونحوه.**

فإن قيل: **إن الأعمال قد فنيت في الدنيا ولا تعاد بعينها إنما يعاد ذكرها أو صورتها أو نحو ذلك ؟**

قلت: **يمكن أن توزن باعتبار حالة وجودها، والله على كل شيء قدير، مثاله: أن يكون في ذمة الإنسان درهم وقد عرف وزن الدرهم فأنت تستطيع أن تبين وزن الدرهم وإن كان قد عدم بوضع ما يوافقه في الثقل، ويعرف به مقدار ثقله باعتبار مفصل له ومحقق بالمشاهدة، فكما يمكن وزن الدرهم فكذلك ما يمكن وزنه بطريقة أخرى لا نعلمها، ولا إشكال أن الوزن يكون باعتبار حسن الحسن وقبح القبيح إن كان القبيح يوزن.**

والحاصل: **أن المراد التمثيل لتحقيق مقادير الأعمال، فإن كان اسم الوزن يشمله حقيقة فظاهر، وإن كان مجازاً فهو أقرب للحقيقة وأرجح، وأئمتنا يقطعون بأنه تعبير عن العدل بناء على أن الوزن الحقيقي مستحيل؛ لأن الوزن إنما يكون للأجسام الثقيلة نوعاً من الثقل والأعمال حركات ونحوها لا يتصور فيها الوزن، والذي رجحته احتمال وزن غير هذا الوزن المعهود، بل بيان مقدار العمل بطريقة لا نعلمها، وهذا المعنى غير الذي نفاه أئمتنا عليهم السلام.**

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ

ووصف الموازين بأنها ﴿ٱلْقِسْطَ﴾ مبالغة في أنها تحقق القسط، و(اللام) في ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إما (لام التوقيت) مثل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨] وإما (لام الإختصاص) بمعنى: أن يوم القيامة يستدعي وضع الموازين، من حيث أنه يوم الجزاء بالعدل والحق فتوضع له الموازين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ تفريع على الوزن الذي يفهم من وضع الموازين، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي إن كان العمل قليلاً لا يوازن إلا حبة خردل من قلته وحبة الخردل صغيرة وخفيفة.

وقوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ أي لم نضيعها بل نثبتها، فيثاب بها صاحبها بقدرها أو يعاقب بقدرها إن كانت القبائح توزن، وقد فهمت من هذه الآية أنها توزن، أي يحقق مقدارها ليجزى صاحبها بقدرها، ولكن هذا لا يفيد الموازنة بين الحسنات والسيئات فليتأمل.

﴿٤٨-٤٩﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الراجح: أن ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ عبارة عن (التوراة) باعتبار أنها تفرق بين الحق والباطل كما وصف القرآن بهذا الوصف، وكذا قوله تعالى: ﴿وَضِيَآءً﴾ أي نوراً للبصائر كالضياء للبصر.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ موعظة وتذكيراً من الغفلة فهذه الآية في التوراة، كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بمعنى المتقين بالفعل ليزدادوا تقىً وليثبتوا على التقوى، وهذه الآية تذكر قريشاً أن سنة الله إنزال الكتب، وأن إنزال القرآن ليس بدعاً من إنزال الكتب.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ تفسير ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ وبيان لأساس التقوى الذي هو الخشية من الله والإشفاق من القيامة بسبب صحة إيمانهم بالله واليوم الآخر، والخشية من الله تعم الخشية من خذلانه وعذابه في الآخرة والعقوبة العاجلة وتفيد المراقبة له، والإشفاق من الآخرة محاولة السلامة من هولها وعذابها، ومعناه الحذر منها والإستعداد لها، وتفيد: محاسبة النفس، وملازمة التوبة، والحذر من المعاصي ومنه اجتناب الشبهات.

﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ ﴿وَهَـٰذَا﴾ القرآن ﴿ذِكْرٌ﴾ تذكير من الغفلة أو ذكر للدين وتعليم، كقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل:٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا..﴾ إلى قوله: ﴿..أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهذا المعنى أعم من الموعظة والتذكير من الغفلة وهو أرجح؛ لأن سياق هذه الآية وما قبلها كسياق الآيات من (سورة الأنعام): ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آية:١٥٤-١٥٥] فهو كتاب هدى وتعليم ودلائل، يعم أصول الدين والجمل من فروعه وتفاصيل كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿مُّبَارَكٌ﴾ يفيد: كثرة فوائده وعظم منافعه وغزارة علومه ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ الآية [المائدة:٢٦] وغيرها.

ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا

وقد أجاد الإمام القاسم × في وصفه فراجعه في (مجموعه) وفي مقدمة (المصابيح) تفسير القرآن للشرفي. وقوله تعالى ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ تعظيم للقرآن بأن الله العلي العظيم العزيز الحكيم رب العالمين أنزله على رسوله، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ سؤال إنكار عليهم؛ لأن إنزال الكتب من الله هدى لعباده ليس أمراً ينكر، قد أنزل الكتب على الأولين وأنزل (التوراة) على موسى، فكيف ينكرون نزول (القرآن) على محمد ص هدى ورحمة للمتقين.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ وهذه الآية هي من تقرير أن رسالة محمد ص وإنزال القرآن عليه ليس أمراً لم يسبق له نظير، وتبين مع ما سبق قبلها وما يأتي في السورة أن سنة الله في الأولين إرسال الرسل وإنزال الوحي عليهم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ آتيناه هداه الذي حصل له وامتاز به من بين الأمم واستحق به أن اتخذه الله خليلاً، والرشد إصابة الصواب ضد الغواية، وذلك بهداية الله تعالى له، وما آتاه من الدلائل العقلية والسمعية حتى صار في الدرجة القصوى في عبادته لله وإخلاصه ومقاومة الشرك والنصح لله تعالى في تبليغ رسالته والصبر العجيب. وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل ما آتى موسى وهارون ما مر ذكره، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ إما بصبره وعنايته في مقاومة الشرك كما تفيده الآيات التي بعد هذه، وإما بشكره على نعمة إيتائه رشده، كقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣] وإما بالمعنيين، وكلما تحويه كلمة ﴿رُشْدَهُۥ﴾ ويحتمل: عود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ إلى ﴿رُشْدَهُۥ﴾ تقدمة لذكر قصته مع المشركين.

عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ

﴿٥٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾ أي اذكر قصته التي فيها دلالة على رشدٍ من رشده ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ ما حقيقتها حتى أنكم تعبدونها، والتماثيل جمع تمثال وهي ما يصنع على شكل إنسان أو حيوان ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ أنتم لها عابدون بعكوفكم لها وحبسكم أنفسكم عليها خضوعاً لها وتقرباً إليها بالعكوف لها.

﴿٥٣﴾ ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ لم يجدوا لها صفة توجب عبادتها؛ لأنها مجرد تماثيل مصنوعة، فلم يجيبوا بجواب مطابق لسؤاله حيث قال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾؟ وعدلوا إلى التقليد لآبائهم، وكأن الشيطان وسوس لهم بها حتى تصير قضية تعصب لآبائهم وغضب من تخطئة آبائهم، ولم يكن بد من تخطئة آبائهم لبيان ضلالهم في تقليدهم لآبائهم.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ جواب قاطع لاحتجاجهم بآبائهم؛ لأنهم إنما يتبعونهم تقليداً بلا حجة، وعنده × الحجة على ضلال المقلِّد والمقلَّد.

﴿٥٥﴾ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ سؤال معناه طلب الحجة على أن ما جاءهم به هو الحق؛ ولذلك أجابهم ببيان الحجة:

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ الله الذي هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو المالك لكم كما هو المالك للسموات والأرض.

فأنتم عباده وحده لا شريك لـه فيكم، وأنتم تجعلون أنفسكم عباداً للتماثيل وليسوا أربابكم؛ لأنهم لم يخلقوكم كما لم يخلقوا السموات والأرض، وهذه حجة من أوضح الواضحات في إبطال الشرك؛ لأن قومه لم يدعوا لتماثيلهم أنها تخلقهم، وذلك لو ادعوه واضح البطلان، فالمالك لهم إنما هو خالقهم، وأبهم الجواب لم يقل: (ربكم الله) في قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن الإحتجاج عليهم بالربوبية فاكتفى بذكر رب السموات والأرض؛ لأنه أوضح في الاستدلال بربوبية الله لهم دون خلقه.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي على أن ربهم رب السموات والأرض أي أني أعلم ذلك يقيناً، فأقول لكم ذلك عن يقين، فهذا هو الحق جاءهم به، ووقع في القرآن الإحتجاج على المشركين بمثل هذا الإحتجاج في مواضع؛ لأنهم يعبدون مخلوقاً لا يملك منهم شيئاً، ومعنى عبادتهم للمخلوق أنهم جعلوا أنفسهم عباداً له، فلذلك تكرر الإحتجاج عليهم بأن من عبدوه ليس رباً لهم، كما صرح بنفي ملكهم في (سورة فاطر) في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣] وصرح بالإحتجاج عليهم بالخلق الذي يترتب عليه الملك ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣] ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧].

أمّا أنهم يجعلون أنفسهم عباداً لهم، فالدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ..﴾ [النساء:١٧٢] فدل على أن العبادة معناها: أن يجعل العابد نفسه عبداً للمعبود، وبذلك اتضح الإحتجاج عليهم بأن الله ربهم وحده، وهم لا ينازعون في ذلك، وإنما غفلوا وأعماهم التعصب لآبائهم، واتكلوا على تقليدهم.

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ

وقد مضى مثل هذا الكلام في تفسير العبادة، والإحتجاج عليهم بالربوبية، ولكن دعى إلى إعادة ذلك قصد بيان صحة احتجاج إبراهيم × ووضوحه وقربه للأفهام.

﴿٥٧﴾ ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ وهذا يؤكد أنه على يقين في إنكاره عليهم، ونفي شركائهم، وفيه احتجاج جديد؛ لأنه يتوعدها فلا تضره، وقوله ﴿لَأَكِيدَنَّ﴾ أي لأمحقن ﴿أَصْنَـٰمَكُم﴾ أو لأبطلنها بطريقة خفية، وقوله: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ دليل ثالث على بطلان إلهية أصنامهم؛ لأنها لا تحمي نفسها، وإنما المشركون يحمونها، فإذا ولوا عنها مدبرين استطاع كيدها؛ وذلك لأنها جمادات لا تنفع ولا تضر فضلاً عن أن تخلق وترزق.

وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ قسم صدّقه بالفعل، قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿وَتَٱللَّهِ﴾ قسم، واختار (التاء) لمعنى التعجب من تسهيل الكيد على يده)) انتهى، ومعنى هذا: أن القسم بـ(التاء) يكون في موضع التعجب من المقسم عليه، والمراد: أنه اختار ما ترجمته التاء في قسمه.

﴿٥٨﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أي جعل أصنامهم ﴿جُذَٰذًا﴾ أي قطعاً مجذوذة أي مقطوعة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] أي غير مقطوع بل دائم، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعل قومه وأباه يرجعون إلى الذي لم يقطّعه فينكرون عليه تكسير أصنامهم إن كانوا يعتقدونه قادراً على ذلك، ولكن انكشف أنهم يعلمون

لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ

أنه عاجز عنه فلم يرجعوا إليه، أو لعلهم إليه يرجعون فيسألونه: من الذي حطم الأصنام؟ فإذا لم يجبهم عرفوا أنه لا ينفع ولا يضر ـ والله أعلم.

﴿٥٩﴾ ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال المشركون حين رأوا أصنامهم مكسرة ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؟ استمروا على جهالتهم وشركهم، وقد كان تكسيرهم دليلاً على عجزهم حيث لم يدفعوا عن أنفسهم، فهم أعجز عن نفع غيرهم أو الدفع عنهم، ولكنهم أصروا فسألوا: من فعل هذا التكسير بآلهتنا؟ جعلوه ظلماً؛ لأنه بآلهتهم دلالة على هوانها وعجزها أي هتك لحرمتها؛ ولأنها آلهتهم مضافة إليهم فكأن الواقعة بأصنام المشركين عدوان على المشركين فقالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ ﴿يَذۡكُرُهُمۡ﴾ أي يذكر الأصنام حين عاب عليهم عبادتها، وقال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾؟

﴿٦١﴾ ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ ﴿فَأۡتُواْ بِهِۦ﴾ أي بإبراهيم لتسألوه ﴿عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ وتعاقبوه على ما صنع ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ أي لعل الناس يشهدون ذلك فيكون ذلك تحذيراً لغيره أو ليروا تعظيمكم لأصنامكم ويعرفوا غضبكم لها.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ أرادوا أن يقر بذلك أو يشهد عليه الشهود بما قال سابقاً لينتقموا منه.

يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾

قال إبراهيم × ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ أي كبير الأصنام ﴿فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ عن ذلك ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ وفيها وجهان: إما أن الكلام من قوله: ﴿بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ﴾ مشروط بقوله: ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ فهو معلق على محال فانتفى، وإما أنه تهكم بكبيرهم؛ لأنهم يعلمون عجزه عن ذلك، وفائدة الإحتجاج عليهم بمعرفتهم عجزه.

﴿٦٤﴾ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ سألوها كيف عبدوا جمادات لا تنطق ولا تدفع عن نفسها ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لأنفسهم ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعبادة الأصنام أو الظالمون بتظليم إبراهيم مع أن الصواب معه، وهذا أقرب لأنه في مقابلة قولهم: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ولأن تظليمهم أنفسهم بعبادة الأصنام يتوقف على معرفتهم لله ومعرفتهم أن الواجب عليهم عبادته وحده لا على مجرد بطلان إلهية أصنامهم؛ لأنهم في حالة جهلهم يعرفون بطلان عبادتهم؛ لا أنها ظلم.

﴿٦٥﴾ ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾

﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ مجازاً عن إضلالهم وإرجاعهم إلى الباطل كأن الشيطان نكسهم فجعل أعلاهم الأسفل، وأبلغ من ذلك أنه طرحهم على رؤوسهم قائلين: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ تجاهلاً منهم لكون عجزهم عن الكلام وعن الدفع عن أنفسهم، دليلاً واضحاً أنهم ليسوا قادرين على نفع ولا ضر، وأنهم إذا كانوا كذلك لا يُعبَدون لطلب نفع منهم ولا لدفع ضر، وقد قدم إبراهيم × قوله: ﴿بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ فما بقي لهم عذر في عبادة الأصنام.

أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ

﴿٦٦-٦٧﴾ ﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ * أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ﴾ أتعرفون عجزها فتعبدونها وتجعلونها أقرب للعبادة من الله أو وسائط بينكم وبين الله وهي لا تنفعكم شيئاً ولا تضركم ﴿أُفّٖ لَّكُمۡ﴾ كلمة تضجر منهم لإهمالهم عقولهم وعنادهم بعد وضوح الحق ﴿وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تحقيراً وإعلاناً لبغضها من حيث أنهم يعبدونها من دون الله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ حيث تفعلون فعل من لا يعقل، وهذا توبيخ وتقريع لهم لعنادهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ انقطع جدالهم؛ لأنه × قهرهم بالحجة فرجعوا إلى طلب أن يحرقوه، ومحاولة تحريقه ليتخلصوا منه ولينصروا أصنامهم تعصباً لباطلهم، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ حث على ذلك وتهييج.

﴿٦٩﴾ ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أبطل الله كيدهم ونجى خليله إبراهيم × بأن حول النار برداً وسلاماً، فهي برد غير ضار لإبراهيم، فكان ذلك نصراً لإبراهيم × ، وجعل قومه الأخسرين والأسفلين والتعبير بقوله تعالى: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾ دلالة على سهولة ذلك التحويل، وأنه ليس فيه أي مشقة، كما لو أمرها فكانت امتثالاً لأمره برداً وسلاماً.

وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

﴿٧٠﴾ ﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ أرادوا بإبراهيم كيداً لإبطال دعوته بأن يحرقوه فيزعموا أنه أصيب من قبل آلهتهم وأنها عاقبته على كسرها، أو يزعموا أنه لو كان صادقاً لأنجاه الله منهم ولما مكنهم من إحراقه هذا لأن الكيد محاولة ضر الغير بطريقة خفية، ونفس الإحراق أمر واضح، فظهر: أن الكيد غير الإحراق كان غرضهم بالإحراق.

﴿فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ خاب أملهم في إحراقهم له وأملهم في إبطال دعوته، وبطلت حجتهم واستحقوا العذاب العاجل والآجل، ولعل الله عز وجل أهلكهم بعد هجرة إبراهيم × ، ويقال: إنهم المراد بقول الله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢٦] والله أعلم، وقد جرت سنة الله بإهلاك الأمم إذا بلغتهم الحجة وتمردوا وهموا برسولهم ليأخذوه، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

﴿٧١﴾ ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ﴾ أي إبراهيم من شر قومه ﴿وَلُوطًا﴾ بأن هاجرا ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المباركة، أو نجيناهما حتى بلغا الأرض المقدسة، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ الراجح: أنها البركات الدينية، بإرسال الرسل فيها صار فيها الهدى للعالمين؛ لأن البركات الدنيوية لا تعم العالمين وهي في بلد مخصوص، والراجح: أن هذه الأرض المباركة هي (فلسطين) وقد غلبت عليها إسرائيل بجبل من أمريكا وتخلية وتمكين من الله، نسأل الله أن يعجل لها يوشعاً من هذه الأمة وجنداً صالحين.

بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى

ولوط إنما صار إلى الأرض التي أرسل إلى أهلها بعد أن بلغ مع إبراهيم إ الأرض المقدسة؛ لأنه مدلول الآية أعني أن لوطاً بلغ الأرض المباركة، قال الشرفي في (المصابيح): ((ولوط هو ابن أخت إبراهيم، وهو أول من آمن له حين رأى النار لم تحرقه، وقيل: هو ابن أخيه ـ قال الشرفي ـ : وهذا قول محمد بن القاسم ×)).

﴿٧٢﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم ﴿إِسْحَٰقَ﴾ ابناً ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ بن إسحاق وهبناه لجده ﴿نَافِلَةً﴾ وقد دعى إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات:١٠٠] فوهب له إسماعيل وإسحاق ووهب له يعقوب زائداً على المطلوب ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ أي كلاً منهم جعلنا صالحين إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فهي نعمٌ ترادفت لإبراهيم × بما صبر.

قال سيد قطب: ((لقد ترادفت لإبراهيم × وطناً وأهلاً وقوماً فعوّضه الله الأرض المباركة وطناً خيراً من وطنه، وعوضه ابنه إسحاق وحفيده يعقوب أهلاً خيراً من أهله، وعوض من ذريته أمة عظيمة العدد قوماً خيراً من قومه..)) إلخ.

﴿٧٣﴾ ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ ﴿أَئِمَّةً﴾ جمع إمام فكل واحد إمام أما إبراهيم فإمام للناس كافة، وأما إسحاق ويعقوب فالله أعلم كانت إمامتها كإمامة أبيهما أم لأهل عصرهما، والإمام القدوة المتبوع.

وقوله تعالى: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يحتمل: بأمرنا لهم أن يهدوا الناس ويعلموهم دين الله؛ لأنهم رسل يهدون الناس بأمر الله الذي أرسلهم وأمرهم بتبليغ الرسالة، ويحتمل ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾: أي يبلغونهم أمرنا ويعلمونهم أمرنا حتى يهتدي من اهتدى بما بلغه من أمر الله، وعلى هذا فجعلهم أئمة وإرسالهم شيء واحد، اختلف اسمه باختلاف الإعتبار، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

وإذا فرض أن إمامتهم أفضل من النبوة فلا يلزم في كل إمامة أن تكون كذلك وإن لم تكن رسالة مع أنا لا نسلم أن إمامتهم أفضل من حيث هي إمامة، وإنما تكون أفضل من حيث هي رسالة، وكونها لم تكن لإبراهيم × إلا بعد النبوة قلنا: إن صح فالرسالة بعد النبوة، فيوحى إلى النبي شريعة لتعليمه الدين الذي يوحى إليه ليعمل به ثم يرسل إلى من أمر بتبليغهم فيكون إماماً لهم.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ ظاهر في الأمر الحقيقي الذي يقتضي الوجوب وتفسير بعضهم له بالأمر التكويني خلاف الظاهر؛ لأنه مجاز، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يترجح: أن هذا الوحي هو هدايتهم لذلك وإلهامهم وتحبيبه إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل:٦٨] وفعل الخيرات فعل أنواع الخير وأصناف البر عموماً هداهم الله لذلك كله.

وقوله: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ يفعلون الخيرات تعبداً لله واعترافاً بالعبودية له جل جلاله، وتقديم ﴿لَنَا﴾ يفيد الإختصاص بمعونة السياق فيفيد إخلاصهم لله وبراءتهم من الشرك وهو مناسب لما في السورة من إبطال الشرك.

كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ

﴿٧٤﴾ ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ يحتمل أنه معطوف على إبراهيم، وهكذا من يأتي ذكره آتاهم رشدهم، وفسر رشد لوط بقوله: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ فالحكم أن يحكم بين الناس بالحق، كما قال تعالى في داود وسليمان بعد ذكر حكمهما في الحرث: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ والعلم معرفة الله ومعرفة ما يجب العلم به ومعرفة الدين والشريعة التي أوحيت إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ الراجح أن فائدة الإسناد إلى القرية أن يعم نجاته من بطشهم ونجاته من أذاهم ونجاته من جوارهم ونجاته من عذابهم الذي عذبوا به بسبب عملهم للخبائث حين أمره الله أن يسري بأهله، فالحاصل نجاه الله من شرهم ومن الشر الذي نزل بهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ تعليل لما يفهم من إنجائه من تعذيبهم أو تعليل لإنجائه من قريتهم بأنهم كانوا قوم سوء فاسقين لو لم ننجه لهلك معهم، فقام قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ مقام أنهم عذبوا، والخبائث التي كانوا يعملونها ذكر بعضها في القرآن وجاء في الحديث الشريف ذكر عشر من عمل قوم لوط رواه في (مجموع الإمام زيد بن علي إ).

وقوله تعالى: ﴿قَوۡمَ سَوۡءٖ﴾ قوم قبيح والإضافة تشعر بأصالتهم في القبيح كأنه صفة لازمة، كما قال حاكياً: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امۡرَأَ سَوۡءٖ﴾ [مريم:٢٨].

فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ

﴿فَاسِقِينَ﴾ أهل خبث وفجور، ففي هذه عبَّر عن قوم لوط بقوله: ﴿الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ كأنه صفة مميزة لهم من بين الأمم، ثم سماهم قوم سوء، كأن السوء صفة لهم، ثم وصفهم بأنهم كانوا ﴿فَاسِقِينَ﴾ وهي كلمة ذم شديد، كما لو قيل: فجرة خبثاء.

﴿٧٥﴾ ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ لعلها هنا الفوز بالجنة والنجاة من النار بتوفيقه لحسن الخاتمة وتوفيه مرضياً، فكان ذلك إدخالاً له في رحمة الله بعد إنجائه من عذاب قومه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ تعليل لما قبله.

﴿٧٦﴾ ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿وَنُوحًا﴾ عطف على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾ اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي نادى ربه، ونداؤه مفسر في (سورة نوح): ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [آية:٢٦] وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إبراهيم ولوط وموسى وهارون ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ بإغراق قومه ونجيناه من الكرب العظيم الذي أصاب قومه وهو غم الغرق عند الإشراف عليه وحاله، وقد مرت قصته مفصلة في (سورة هود).

﴿٧٧﴾ ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ على قومه بإنجائه منهم في السفينة ونزول الغرق على قومه بسبب تكذيبهم له وتكذيبهم بآيات الله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ قبيح تمرد على نبيهم وإصرار على الشرك والعدوان وهمّ بأخذ نبيهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقصة الإغراق لهم مفصلة في (سورة هود) وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ كالتفسير لنصر نبيهم.

وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ

﴿٧٨﴾ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ﴾ ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ عطف على ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ فالمعنى آتيناهما رشدهما ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ اذكر قصتهما إذ يحكمان ﴿فِى ٱلْحَرْثِ﴾ ظاهره أن الحكم في الحرث نفسه وهو الأرض المحروثة، والمفسرون يذكرون: أن الحكم كان في ثمر وزرع ونحو ذلك وقرينة ذلك. قوله تعالى: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ لأن الغنم لا تطمع في الحرث الخالي من النبات.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالنفش: أن تدخل في الزرع ليلاً فتأكله، ولا يكون إلا بالليل)) انتهى، ومثله حكى الشرفي عن الحسين بن القاسم إ ، وقال الشرفي ـ أيضاً ـ : ((فالنفش: انتشار الغنم بالليل ترع[ا] بلا راع، قاله ابن السكيت وابن قتيبة)) انتهى.

فأما الزمخشري في (أساس البلاغة) فقال: نفشت الغنم بالليل: انتشرت ولم يذكر الرعي، ولكنه ذكر الرجز:

اجرس لها يا ابن أبى كباش فما لها الليلة من إنفاش
غير السرى وسائق نجّاش

ولعل سبب التعبير بالحرث؛ لأن دعوى صاحبه أن أهل الغنم أهملوها فدخلت الحرث وفيه الزرع فأكلته ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ﴾ أي حاضرين لم نغب عنه، قال الشرفي في (المصابيح): ((أي عالمين لم يغب عن علمنا)) اهـ.

وهو تأويل لأن الله تعالى لا تحويه الأمكنة، وجمع الضمير في ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ لأنه متناول للخصمين مع داود وسليمان، وقوله تعالى:

وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

﴿٧٩﴾ ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ﴾ ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا﴾ أي القضية ﴿سُلَيۡمَٰنَ﴾ أعلمناه ولعل الفهم يختص بما فيه غموض، وفيه تفضيل لحكم سليمان كأنه هو الحكم، قالوا: وسبب ذلك أن حكم سليمان كان فيه مع العدل الرفق بالخصمين، ولم يخطئ داود × بل كان حكمه عدلاً.

﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ ﴿حُكۡمًا﴾ بين المتنازعين بالحق ﴿وَعِلۡمًا﴾ بالله تعالى وما شرع علمه ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾ لعله كان إذا سبح الله كان صدى صوته في الجبال فسمع التسبيح منها، وقوله تعالى ﴿وَٱلطَّيۡرَ﴾ أي سخرنا معه الطير، ولعل الواو هي واو المعية كما في (سورة سبأ) فيفيد: أنه كان إذا سبح سبحت الجبال معه ومع الطير في وقت واحد، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ أي نفعل ما نشاء.

﴿٨٠﴾ ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُمۡ مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ﴾ ﴿صَنۡعَةَ﴾ علمناه عمل الدروع بمهارة، قال الراغب: الصنع إجادة الفعل، فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعاً، واللبوس هنا: الدروع كما في (سورة سبأ): ﴿أَنِ اعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِ﴾ [آية:١١].

وقوله تعالى: ﴿لِتُحۡصِنَكُمۡ مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ أي ليحصنكم بالدروع على قراءة نافع، ولتحصنكم الدروع على قراءة حفص أي تحفظكم وتقيكم ﴿مِّنۢ بَأۡسِكُمۡ﴾ من السلاح في الحرب أو غيره.

وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ

والدروع التي يصنعها داود من الحديد: حلق مسرودة كالسلوس، بمقدار متوسط بين أن تكون غليظة أو رقيقة لتحفظ لابسها ولا تثقل عليه أكثر من ثقل هذه الدروع.

قال الشرفي في (المصابيح): ((كانت صفائح فهو [أي داود] أول من سردها)) انتهى المراد، وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ﴾ أي نعم الله عليكم، ومنها هذه الدروع أو نعمة الله عليكم بهذه الدروع.

﴿٨١﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح فهو عطف على قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ﴾ وقوله تعالى ﴿عَاصِفَةً﴾ أي قوية بحيث تحمل سليمان وجنده.

وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي بأمر سليمان ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أرض (فلسطين) ويقال: (الشام) وهو اسم جامع: لـ(سوريا) و(الأردن) و(فلسطين). وقال الشرفي في (المصابيح): ((﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض بيت المقدس وغيره من البلاد المباركة بكثرة الأنبياء والخصب والسعة)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ علمه تعالى بكل شيء يدل عليه حسن تدبيره للأنبياء (عليهم السلام) بما مرّ ذكره كما هو دليل على قدرته تعالى، فقال تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وهنا قال: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ﴾ لدلالة تدبيره على علمه تعالى بكل شيء.

عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ

﴿٨٢﴾ ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ وسخرنا لسليمان ﴿مِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في الماء العميق، ولعل ذلك ليجلبوا له الدر والمرجان والعنبر من البحر، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ لعله يفسره قول الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ [سبأ:١٣] فهذا عمل دونه حول سليمان أقرب من الغياصة، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ﴾ إذا كان الضمير للشياطين المذكورين فحفظهم بمعنى قهرهم وإبقائهم في سلطة سليمان لا يستطيعون الفرار منها أو يغلبهم الخوف من سليمان فيمنعهم من الفرار.

﴿٨٣﴾ ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿وَأَيُّوبَ﴾ آتيناه رشده، اذكر ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ دعاه دعاء كالنداء، ولعله شبه بالنداء لأن المنادي يرفع صوته ليسمع المدعو فيجيب، وهذا الدعاء فيه عناية لإجابته، وقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ تفسير الدعاء شكوى من الضر الذي مسه، وقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ طلب لرحمة الله له بالشفاء من مرضه.

ومعنى ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أن رحمته أفضل رحمة وأبلغ رحمة؛ لأنه يرحم عبده المؤمن فينجيه من النار ويدخله الجنة فيسعد أبداً ويرحم عبده في الدنيا بما لا يقدر عليه إلا هو ورحمته وسعت كل شيء.

لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ

﴿٨٤﴾ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ﴿فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ﴾ وهذا شفاء عام وعافية تامة ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ﴾ يفيد: أنهم كانوا قد فارقوه فإما أنهم كانوا قد ماتوا فأحياهم كما يروى، وإما أنهم كانوا قد هجروه بسبب مرضه، فلما عوفي رجعوا له ﴿وَمِثۡلَهُم﴾ في عددهم وصفتهم مثلاً زوجات وبنين ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ كشف الضر وإعادة الأهل وإتيانه مثلهم معهم كل ذلك رحمة ليس فتنة كما يكون للفجار، كما قال تعالى فيهم: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا..﴾ الآية [التوبة:٥٥]. وقال تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ..﴾ الآيتين [المؤمنون:٥٥-٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ تذكرهم برحمة الله وتبعث في قلوبهم الأمل في رحمة الله إذا صبروا وتذكرهم بفضل الصبر كما صبر أيوب × فكانت عاقبة صبره رحمة عاجلة ورحمة آجلة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ آتيناه رشده ﴿وَإِدۡرِيسَ﴾ كذلك ﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾ كان نبياً من أنبياء الله ﴿كُلّٞ﴾ منهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ومن صبر إسماعيل استعداده لذبحه ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢] ويكفينا خبر الله تعالى ﴿كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «وأما ذو الكفل فكان نبيئاً كفل بأمر وَفَى به فضُعِّف ثوابه، قاله في (البرهان)»ولعل الله تعالى وصفهم بالصبر لنقتدي بهم، كما قال في أيوب: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾.

مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ

﴿٨٨﴾ ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآ﴾ لعلها الرحمة الكبرى في الآخرة أدخلناهم فيها بالعصمة وحسن الخاتمة فصاروا من أهل الدرجات الرفيعة في الجنة، وذلك بسبب صلاحهم السابق.

﴿٨٧﴾ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ آتيناه رشده اذكر قصته ﴿إِذ ذَّهَبَ﴾ من عند قومه مهاجراً لهم ﴿مُغَٰضِبًا﴾ لهم، وهو يونس × ، ومغاضباً صيغة مفاعلة، فالغضب منه على قومه إذ عصوه ومنهم عليه إذ دعاهم إلى الخروج من الكفر الذي ألِفوه.

﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ هو × لا يخفى عليه أن الله على كل شيء قدير ولكن ظن أن قد أدى ما عليه حين بلّغ قومه الرسالة وأنذرهم وأقام عليهم الحجة وحذرهم من عذاب الله فظن أن ذلك غاية ما كلفه الله فهاجر من بينهم ظاناً أن الله لا يؤاخذه؛ لأنه هاجر غضباً لله، فكأنه ظن أن الله لا يقدر على عقابه حين ظن أنه لا حجة لله عليه؛ لأنه قد قام بما كلف في ظنه، وقيل في تفسير ﴿لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ لن نضيِّق عليه عيشه كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧] والله أعلم.

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نادى ربه في ظلمات بطن الحوت وهو النون ، وبه سمي يونس ذا النون؛ لأنه التقمه حين ألقي في البحر ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أن يكون لك شريك أو سبحانك من ذلك ومن كل نقص.

ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ

وفي هذا مع قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ..﴾ الآية [الصافات:١٤٣-١٤٤] مأخذان: التهليل من التسبيح؛ لأنه تنزيه لله تعالى من أن يكون لـه شريك، والتسبيح تنزيه من حيث أنه تبعيد من كل نقص ومن كل عيب.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتراف بالخطيئة تذكَّر أنـه غـالط في ظنه، وأنه كان يجب عليه البقاء في قومه حتى يأذن الله لـه بالتولي عـنهم، فكان توليه عنهم قبل الأذن معصية، ومعصية المالك المـنعم ظلـم أي حيـف مخالف للعدل.

﴿٨٨﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه ذلك ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ يشمل الغم في بطـن الحـوت وغـيره، مـثلاً الغـم مـن المعصـية بإبلاغـه أن الله قـد غفـر لـه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي سنة الله أن ينجي المؤمنين إذا وقعوا في غـم ورجعـوا إلى الله وسألوه الفرج، وذلك حيث تقتضي الحكمة تعجيـل الفـرج بسـبب الـدعاء منهم، فإن اقتضت الحكمة إجابة الدعاء وتأخير الفرج فلا بد منه لو لم يكـن إلا بالشهادة أو الموت إلى رحمة الله.

﴿٨٩﴾ ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ﴿وَزَكَرِيَّآ﴾ آتيناه رشده، وإيتاء الرشد في هذا السياق هو مثل الهدى في (سورة الأنعام) من قوله تعالى في إبراهيم × : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ..﴾ الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [٨٤-٩٠].

وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا

﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ دعى ربه قائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ لا تذرني لا تتركني فرداً بلا ولد ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أي وأنا أعلم أنك خير الوارثين لكني أحب أن يكون لي ولد يرثني ويرث من آل يعقوب، ومعنى ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ أنك تخلفني بأحسن الخلافة، وكذلك كل مؤمن، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله تعالى في (سورة الكهف): ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف:٨٢].

﴿٩٠﴾ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ لزكريا لم نذره فرداً ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ يحتمل عطفه؛ لأنه المطلوب على أكمل وجه فكأنه زيادة على المطلوب أو هو كالتفسير لاستجابة دعائه، ولعل هذا الإرتباط بقوله: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ هو سبب تأخير قوله تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ لأنه غرض غير متعين في دعاء زكريا، فكان نعمة زائدة مترتبة على دعائه.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ أي زكريا ويحيى وأم يحيى ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ في الأعمال الصالحات، فكان لهم فضيلة المسارعة وفضيلة الخيرات، فاستحقوا النعمة المذكورة ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا﴾ رغبة في فضل الله ورحمته ﴿وَرَهَبٗا﴾ رهبة من عذابه ومن أسباب عذابه، وكذلك رغباً في نصر دينه ورهباً من غلبة المفسدين ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ متذللين منقادين مسلِّمين تسليماً.

فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ

﴿٩١﴾ ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي مريم حفظت فرجها من العصيان، وفي الإحصان دلالة على صيانتها لنفسها وابتعادها عن مظان العصيان آتيناها رشدها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ لتحمل عيسى × وترتيب ذلك على إحصانها فرجها؛ لأن ذلك من أسباب شرفها بالنفخ وجعل عيسى × ابناً لها بدون أب، وفيه رد على اليهود الذين بهتوها ‘ ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن ذلك دليل من دلائل قدرة الله تعالى فيها وفي ابنها.

والراجح في النفخ المذكور: أنه كان سبباً لوجود جسد عيسى × ، ثم نفخ الروح في الجسد لأن النفخ فيها أسند إليها لا إلى الحمل، وفي بعض الآيات أسند إلى فرجها فهو نفخ غير النفخ في جسد عيسى × ، أو أن النفخ في جسده امتداد للنفخ السابق قبل العلوق به، وأضافه الله تعالى إليه حيث قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ لأنه جعله أمراً خارقاً للعادة في كونها علقت بعيسى × ، وتم خلقه في بطنها من غير أب، بل لذلك الروح المنفوخ فيها، فأضافه تعالى إليه كما أضاف روح آدم × إليه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر:٢٩] لأنه كان خارقاً تحول الطين إلى بشر يسمع ويبصر بسبب أمر من عند الله كانت به حياته، وعلى هذا فتسميته روحاً من حيث أنه في بطنها سبب بركة ووجود حمل ثم حي فسمي روحاً كما سمي القرآن روحاً، وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ

ولعله ـ أيضاً ـ معنى تسمية روح آدم إلا أنه صار اسماً للروح الخاص الذي به حياة البدن والفرق بين المعنيين أن أحدهما أعم من الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي دليلاً من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه، فعيسى × ولد من غير أب، وتكلم في المهد بكلام حق وصواب، وخاطب بخطاب حكيم مر ذكره في (سورة مريم) وأمه حملت من غير نكاح، فكانا آيتين خارقتين للعادة، تدلان على قدرة جاعلهما كذلك وعلمه.

﴿٩٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الأمة التي مر ذكرها من موسى وهارون وإبراهيم (عليهم السلام) وختم ذكرها بمريم وابنها كلها ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ تعبد الله وحده وتدعو إلى عبادة الله وحده، فعليكم أن تتبعوهم وتقتدوا بهداهم فهم قدوتكم؛ لأنهم رسل الله ما خلا مريم، دعوتهم واحدة ومريم صديقة هي معهم أوتيت رشدها، وكلهم قدوة للبشر الموجودين والماضين في عصرهم وبعدهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ أي مالككم ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ ولا تشركوا بي ما لا يملك منكم شيئاً.

﴿٩٣﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ فمقتضى ذلك لو استعمل الناس عقولهم أن يتوحدوا في دينهم على ما جاءت به الرسل وعلى مقتضى عبوديتهم لله، ولكنهم تقطعوا ﴿أَمْرَهُم﴾ الذي جاءت به الرسل ودعتهم إليه، فأخذت كل فرقة قطعة منه وتركت غيرها من أمرهم الذي كان ينبغي أن تأخذ به كله، وقوله: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ دلالة على تفرقهم فيما هو في الأصل مشترك بينهم.

أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ

قال بعض المفسرين: ((فقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ استعارة بالكناية والمراد به أنهم جعلوا هذا الأمر الواحد وهو دين التوحيد المندوب إليه من طريق النبوة وهو أمر وحداني قِطَعاً متقطعة وزعوه فيما بينهم أخذ كل منهم شيئاً وترك شيئاً..)) الخ.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ كل المتفرقين إلينا إلى ملك الملوك راجعون وسيحكم بينهم، وجملة ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ حالية فيما يترجح عندي، أي تفرقوا في حال أنهم إلينا راجعون كلهم.

﴿٩٤﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ تفريع على ذكر التفرق ورجوع الكل إلى الله، أو على ذكر الرجوع إلى الله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ما أوجب الله عليه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يبعثه إيمانه على اجتناب الإصرار على المعاصي ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ لا يلغى بلا ثواب، والكفران هنا مقابل الشكر فنفيه إثبات للشكر؛ لأن العامل هذا مؤمن تقي ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ فلا يضيع، يحتمل ﴿كَٰتِبُونَ﴾ معنى: أنا نحفظه ولا ننساه كما لا ينسى المكتوب، ومعنى أنا نأمر الحفظة أن يكتبوه.

﴿٩٥﴾ ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لا يصح لهم أن هلاكهم في الدنيا وعذابهم العاجل يكفي من عذابهم ويغني عن رجوعهم في الآخرة للحساب والجزاء حرام عليهم ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ بل رجوعهم محتوم لا بد منه ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ من عجل عذابه، ومن لم يعجل.

هذا المعنى هو ظاهر التركيب بدون تأويل، وقيل في تفسير هذه الآية: حرام عليهم أنهم يرجعون إلى الدنيا، وتحتمل بالنظر إلى السياق: وحرام ذلك أي الشكر على السعي الحسن وكتابته بل عملهم حابط ولكن في هذا تقدير ضمير: وهو حرام أو وحرام هو، والأصل عدم التقدير.

وأما قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيصح على هذا المعنى الأخير أنه تعليل لقوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي لأنهم لا يرجعون إلى الله من كفرهم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ قال بعض المفسرين: ((﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ قبيلتان همجيتان كانت تسكنان شمال شرقي قارة آسيا)) انتهى.

﴿حَتَّىٰ﴾ يترجح أنها غاية أي ما بعدها غاية لهلاك القرى المحرم عليها حرام على قرية أهلكناها حتى فتح ياجوج وماجوج واقتراب الوعد الحق ﴿إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ فتحت بلدهم قهراً ودخلها قوم غيرهم، وقد فسر بفتح السد وهو خلاف الظاهر؛ لأن السد إنما وضع لمنعهم عن الخروج إلى من طلب ذا القرنين أن يبني السد ففتحه لا يعتبر فتحاً على ياجوج وماجوج بل هم الفاتحون له، فكان مقتضى ذلك أن يقال: إذا فتحت ياجوج بالبناء للفاعل، وأيضاً فتحه لا يعتبر فتحاً لبلد ياجوج وماجوج ودخولاً عليهم؛ لأنه يمكن أن يفتح وهم في منعة من عدوهم، فمن البعيد جعل فتح السد فتحاً لياجوج وماجوج جملة، وأيضاً يمكن فتح ياجوج وماجوج في هذا العصر لو كان السد لم يفتح بواسطة الطائرات وجند المظلات، مع أنه يقال: إنه قد فتح اليوم ولكن ياجوج وماجوج كانوا قبيلتين.

أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

وفي هذا العصر يمكن أن قد صاروا شعبين ولا يحتاجون إلى الخروج على زرع من حولهم وصاروا قبائل متعددة بأسماء مختلفة غير اسمي ياجوج وماجوج، وقد نسي هذان الإسمان لطول المدة وكثرة الذراري.

فظهر أن المراد: فتح بلاد ياجوج وماجوج وأن ذلك من علامات قرب الساعة، وأن عند ذلك تهلك قرى، وحرام عليهم أنهم لا يرجعون، فهي حروب عالمية مدمرة يكون هلاك القرى فيها هو نهاية الهلاك للقرى وغايته وليس بعده بناء قرى أي مدن بل تقوم القيامة قبل أن يتهيأ ذلك ـ والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فالحدب المرتفع من الأرض، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناه: من كل نشز وارتفاع و﴿يَنسِلُونَ﴾ معناه: يعجلون في مسيرهم» انتهى، ونسولهم من كل مرتفع يناسب ذلتهم بعد فتح بلادهم وخوفهم لأجل قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ ولم يقل: في كل حدب، فهم إذا صاروا في مرتفع خافوا أن يراهم أعداؤهم فنسلوا ـ والله أعلم.

﴿٩٧﴾ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ الذي هو القيامة عند فتح ياجوج وماجوج وهلاك القرى ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ففاجأتهم القيامة وأهوالها فشخصت أبصارهم صارت متجهة إلى جهة كالمحتظر قائلين: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ حين رأوا أنهم قد صاروا في الآخرة، وأنهم صائرون إلى العذاب: ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ولكن ليست غفلتهم لعدم الإنذار، فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنه قد جاءهم النذير، فكذبوا وقالوا: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك:٩].

أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿٩٨-٩٩﴾ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المشركون ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ كلكم حصب جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ظاهره في الجمادات وفيما يلحق بها من العقلاء الراضين بعبادتهم مثل فرعون.

وقوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال في (الصحاح): ((والحصب: ما يحصب به في النار أي يرمى، قال أبو عبيدة في قوله تبارك وتعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ كل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × معنى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي بمنزلة حصبها وحجارتها والحصب هو الحصى، قال الشاعر:

حلقوا [الرؤوس] وحصّبوا كل الجمر بالسبع والسبع و[بـ]ـالسبع الأخر))

انتهى، وحكى الشرفي بعد هذا: أنه قال الإمام الهادي في تفسير هذه الآية ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: ((فهو حطبها ووقودها)) انتهى.

وفي (لسان العرب): والحصب: كل ما ألقيته في النار من حطب وغيره، وفي التنزيل: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال الفراء: ذكر أن الحصب في لغة أهل اليمن: الحطب، وروي عن علي كرم الله وجهه أنه قرأ: {حطب جهنم} وكل ما ألقيته في النار فقد حصبتها به، ولا يكون الحصب حصباً حتى يسجر به، وقيل: الحصب: الحطب عامة)) انتهى، وهذه الأقوال كلها ترجع إلى أنهم في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ صائرون إليها وداخلون فيها كقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم:٨٦] قال الراغب: ((الورود: أصله قصد الماء ـ ثم قال ـ : واستعمل في النار على سبيل الفضاعة)) انتهى، لعله يعني على سبيل التهكم بأهلها.

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ﴾ خطاب لأهل النار المشركين، والإشارة إلى أصنامهم ونحوها لو كانوا آلهة ما وردوا جهنم ﴿وَكُلٌّ فِيهَا﴾ أي في جهنم ﴿خَالِدُونَ﴾ أي باقون العابدون والمعبودون، ويحتمل: أن الإشارة إلى من اتخذوهم آلهة من الأحياء بل هو الراجح، لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [هود:١٠٦].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : أولئك المتجبرون على الله الفراعنة والطواغيت والكفرة العفاريت، الذين أضلوا عباد الله واتخذوهم خولاً، واستمالوهم إلى عبادتهم بزخرف الدنيا، والعبادة هاهنا: هي الطاعة، فأخبر الله أنه من مات من أولئك فإنهم خالدون في جهنم لهم فيها زفير، والزفير: فهو إلقاؤه والتوجّع والكرب والتألم للعذاب)) انتهى.

وقد بسط لتحقيق هذا المعنى الذي ذكره الإمام الهادي × الناصر في (البساط) واحتج له، أعني لإثبات أن الطاعة للشيطان ولأعداء الله شرك غير شرك العدل بالله تعالى.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((والزفير: اغتراق النفس للشِّدة، والزفير: أول صوت الحمار، والشهيق: آخره)) انتهى المراد.

سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ فالراجح: أنه عبارة عن شدة صوت النار؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] فكيف إذا صاروا فيها، فإن صوتها يشغل أسماعهم حتى لا يسمعوا إلا ما شاء الله أن يسمعوه في بعض الحالات بأمر خارق كسماعهم لنداء أصحاب الجنة لهم المذكور في (سورة الأعراف) فهو خارق للعادة، ولذلك قال في الذين سبقت لهم من الله الحسنى: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ لبعدهم عنها.

﴿١٠١-١٠٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ سبقت لهم منا الكلمة الحسنى أو العِدَة الحسنى أو نحو هذا كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ وقوله تعالى في (سورة النجم): ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [آية:٣١] وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة:٦-٧] وسبق الوعد لهم عند خروج آدم من الجنة: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ في مكان بعيد عن جهنم، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ لا يسمعون حسيسها لبعدهم عنها، وحسيسها صوتها الذي يكون من اشتعالها.

ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ

قال الشرفي: ((أي صوتها الذي يحس بالسمع)) انتهى، فجعله (فعيلاً) بمعنى (مفعول) فأما (صاحب الصحاح) فجعله اسماً للصوت الخفي ـ ثم قال ـ: ((وقال الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ كأنه يعني أنه استعمل في مطلق الصوت)). وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ باقون لا يموتون ولا يفنى ما اشتهته أنفسهم، لأن ما أتلفوه أبدل فالجنس باق أبداً.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:١٠١]: ((قال الهادي × : يعني وجب لهم منا الحكم بالحسنى في دار الدنيا، وتقدم منا في حياتهم الدنيا وجوب [في نسخة (المصابيح): وجواب وهو غلط ـ تمت] الوعد بالحسنى والحسنى فهي الثواب والرحمة ووجوب المغفرة ورفع الدرجة)).

ثم قال الشرفي: ((قال × ـ يعني الإمام الهادي × ـ : يخبر أن هؤلاء الذين قد وجب لهم من الله في الدنيا ما وجب من الحسنى عنها مبعدون فهي النار نعوذ بالله من النار، والذين سبق لهم من الله الحسنى هذا في الدنيا والآخرة فهم المؤمنون بالله العارفون به المثبتون لعدله وتوحيده القائلون [في نسخة (المصابيح): القائمون، والراجح أنه غلط ـ تمت] بصدق وعده ووعيده والعارفون بفضل الجهاد في سبيله الموالون لأوليائه والمعادون لأعدائه والمؤدّون لجميع فرائضه القائمون بطاعته التاركون لمعصيته المستقيمون على واضح سبيله رحمة الله عليهم، ونسأل الله أن يجعلنا في حكمه كذلك، وأن يرزقنا برحمته ذلك، وأن يفعل بنا ما يفعل بأولئك إنه ولي حميد)) انتهى.

نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ أي أهوال القيامة لا يحزنون من أجلها لوثوقهم بالسلامة وتبشير الملائكة لهم بالجنة، وقوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لعلها تلقاهم عند خروجهم من قبورهم وعند سوقهم إلى الموقف وعند بلوغهم الموقف فلأجل تكرر اللقاء قال تعالى: ﴿تَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ ولم يقل: تلقاهم ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي تتلقاهم الملائكة قائلةً لهم: هذا يومكم الذي كنتم توعدون وهو نصركم ويوم عزكم ويوم سعادتكم الذي كنتم توعدون؛ لأنه اليوم الآخر الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١] وقال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤] وغير ذلك.

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ إما ظرف منصوب بقوله تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ﴾ أو ﴿تَتَلَقَّاهُمُ﴾ وإما مفعول به لمحذوف أي: اذكر ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير:١١].

وقوله تعالى: ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ أي كطي الورق من القراطيس للكتاب المسطور)) انتهى.

ولعل أصله المسطور فيه، ومعناه: أن السجل هو الورق المكتوب فيه، والكتاب هو المكتوب في الورق، ومعنى ذلك: أن طي السموات سهل عليه كطي الورق لما فيه من المكتوب، فـ(السجل) فاعل (طي) أضيف المصدر إلى فاعله، و(اللام) في ﴿لِلْكِتَابِ﴾ (لام التعدية) فالمعنى: أن الورق يطوي ما فيه بانطوائه عليه، قال الراغب: ((والسجل، قيل: حجر كان يكتب فيه، ثم سمي كل ما يكتب فيه سجلاً)) انتهى.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ حجة لوقوع ذلك اليوم؛ لأن طي السماء أوله فالمعنى أنا قادرون على الإعادة كما نحن قادرون على الإبداء، ثم قال تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْنَا﴾ تأكيداً للخبر بوقوعه أي موعوداً علينا الوفاء به، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي من شأننا وعادتنا أن نفعل ما نشاء.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ ﴿الزَّبُورِ﴾ هو الكتاب الذي آتاه الله نبيه داود × ، وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي كتبنا الذكر أولاً ثم كتبنا: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ فما هو الذكر الذي كتب من بعده؟

الراجح: أنه ذكر الله ـ والله أعلم ـ كتبه في الزبور كما كتب في القرآن (سورة الإخلاص) وغيرها من ذكر الله، وقوله تعالى: ﴿يَرِثُهَا﴾ إن كان فعل العادة الذي يفيد التكرار، فالأرض هي هذه التي نحن فيها، فكثيراً أهلك الله الأمم الظالمة وأورث بعدهم الأنبياء ومن آمن معهم، مثل: قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأهلك فرعون وقومه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا..﴾ الآية [الأعراف:١٣٧] وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص:٥-٦].

لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ..﴾ الآية [النور:٥٥] وقال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

فعلى هذا: تكون هذه بشرى لداود × ، ولنبينا محمد ص، بالتمكين في الأرض في حال أنه بمكة ومن معه مستضعفون، وهذه السورة (مكية) وإن كان فعل (يرث) بمعنى الإستقبال احتملت معنيين: البشارة بالتمكين في هذه الأرض لداود × ولمن بعده من الصالحين، وذكرت لشمولها نبينا ص وشمولها للصالحين من أمته، واحتملت: البشارة بالجنة بأرض الجنة، والأول عندي أقوى أي أن يرث هو فعل العادة ـ والله أعلم.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا﴾ البيان للحق من أول السورة ﴿لَبَلَٰغًا﴾ إما بلاغاً للحجة على المشركين وإما كفاية في إبطال الشرك وإثبات الرسالة وسائر فوائد السورة، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ أي عابدين لله وحده، فهم الذين ينفعهم هذا البلاغ، أو فهم الذين نفعهم هذا البلاغ، وهذا أرجح لأن بعضهم كانوا مشركين فآمنوا حين سمعوا كلام الله وانتفعوا بما فيه من الحجج.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ لتدعوهم إلى النجاة من النار والفوز بالجنة وتخرجهم من الظلمات إلى النور لتعلمهم الكتاب والحكمة وتزكيهم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فمن عند نفسه أُتِي؛ لأنه جاءته الرحمة فلم يقبلها.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

﴿١٠٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا غير هذا مما يخالفه ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فهل أنتم مسلمون وجوهكم لله تعبدونه وحده، فإنه لا دين لله خلاف هذا.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ عن دعوتك لهم إلى إسلام أنفسهم لله ﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أي أعلمتكم، كما قال الشاعر:

آذنتنا ببينها أسماء رُب ثاوٍ يُمل منه الثَّواء

يعني: أعلمتكم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي كلكم قويكم وضعيفكم، وغنيكم وفقيركم، فقد أعلمتكم ما توعدون، ولم يبق لكم عذر ﴿وَإِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ﴾ ما توعدون من العذاب ﴿أَم بَعِيدٌ﴾ وهذا لأن القرب والبعد إضافي، ولعل المراد: إن أدري أقريب يعجل في الدنيا أم بعيد يؤجل في الآخرة فهو بعيد بالنسبة إلى الدنيا.

﴿١١٠﴾ ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الله ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومنه جهركم بالكفر والتكذيب بآيات الله أيها الكافرون ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ سواء في صدوركم أو عن الرسول ص والمسلمين فهو مجازيكم عليه كله.

﴿١١١﴾ ﴿وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ ﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ﴾ لعل تأخير ما توعدون، وهذا التأخير قد فهم من قوله: ﴿أَقَرِيبٌ أَمۡ بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ﴾ اختبار لكم أو إمهال تزدادون فيه إثماً ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ لكم ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي إلى أجل محدود، ثم يأتي ما أنذرتكم أو ينقطع المتاع إلى غير رجعه.

﴿١١٢﴾ ﴿قُلۡ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله على قراءة: ﴿قُلۡ﴾ بضم (القاف) أمر بالقول، وعلى قراءة ﴿قَٰلَ﴾ أي قال الرسول: ﴿رَبِّ ٱحۡكُم﴾ بيني وبين قومي ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أو احكم بيني وبين من كذبني من قومي أو من غيرهم، وحكمه سبحانه حق، وإنما هو وصف لحكم الله أنه بالحق، أي قيد واقعي فكأنه قال: احكم بحكمك الذي هو حق، وكأن هذا الدعاء يُسمع به قومه، ولذلك عطف عليه خطابهم بقوله: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ فقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فأبيتم إلا التكذيب والإستهزاء.

﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هو الذي نستعينه ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ من أقاويلكم الباطلة، فرحمته لنا بإعانتنا على الصبر، وبالتعجيل للنصر هي التي نرجوها؛ لأنه قريب مجيب لدعوة الداعي، كيف لا وهو الذي أمره بهذا الدعاء؟! وبالله التوفيق.

تمت (سورة الأنبياء) وتفسيرها بعون الله تعالى

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم.

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	العلاقات وأنواعها ووجوب الحفاظ عليها	الرعد	٢١
٢	تفسير [يمحو الله ما يشاء ويثبت]	الرعد	٣٩
٣	الجن معمرون	الحجر	٣٦
٤	تفسير [تبياناً لكل شيء]	النحل	٨٩
٥	عاقبة من يتخذ العهد وسيلة للمكر	النحل	٩٤
٦	معنى [فاستعذ بالله]	النحل	٩٨ – ١٠٠
٧	معنى النسخ في القرآن	النحل	١٠١
٨	معنى [سميع عليم]	الإسراء	١
٩	في تفسير التبذير ومعنى [إخوان الشياطين]	الإسراء	٢٦
١٠	[ولا تقف ما ليس لك به علم]	الإسراء	٣٦
١١	الدليل على إثبات الحكم	الإسراء	٤٠
١٢	ترجيح كون الشجرة الملعونة في القرآن بني أمية	الإسراء	٦٠
١٣	دليل على تحريم الغناء والملاهي	الإسراء	٦٤
١٤	تأويل [لا تشد الرحال]	الإسراء	٦٦
١٥	اسم [إمام] غير خاص بأمام الهدى	الإسراء	٧١
١٦	لفتة رائعة في الدلالة على أهمية التسبيح ومعناه	طه	٣٣- ٣٤
١٧	تفسير الوحي لأم موسى [ع]	طه	٣٨
١٨	من يشفع يوم القيامة!	طه	١٠٩
١٩	كيف نتأول لآدم في أكله من الشجرة	طه	١٢١

محتويات الجزء الرابع

رقم السورة	السـورة المفسّـرة	الصفحات من	الصفحات إلى
١٣	سورة الرعد	٥	٦٣
١٤	سورة إبراهيم	٦٥	١٢١
١٥	سورة الحجر	١٢٣	١٦٥
١٦	سورة النحل	١٦٧	٢٦٣
١٧	سورة الإسراء	٢٦٥	٣٦٠
١٨	سورة الكهف	٣٦١	٤٣٦
١٩	سورة مريم	٤٣٧	٤٨٩
٢٠	سورة طه	٤٩١	٥٥٣
٢١	سورة الأنبياء	٥٥٥	٦٢٢
فهرس بأهم المواضيع والمسائل		٦٢٣	
فهرس بمحتويات المجلد		٦٢٤	

]

التيسير في التفسير

الجزء الخامس

= الحج ـ الروم -

تأليف

العالم الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

تحقيق

عبد الله بن حمود العزي محمد بن بدر الدين الحوثي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

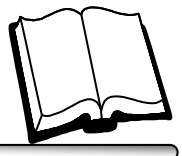

التيسير في التفسير

سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ

ابتداء تفسير (سورة الحج)

والراجح: أن بعضها (مكي) وبعضها (مدني)

وفي (مصابيح الشرفي): ((مكية غير ست آيات ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ..﴾ إلى ﴿..صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾)) انتهى. قلت: ومن قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ مدنية، ويترجح: أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والآيتين الأخيرتين في السورة كل ذلك مدني، وقد قيل: إن السورة (مدنية).

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ اتقوا ربكم بالإيمان والطاعة لله، وقوله: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ﴾ تعليل يبين حاجة الناس إلى التقوى التي تنجي من فزع يوم القيامة، وتنجي من عذاب الله.

و﴿زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ إن حمل على الحقيقة فهي ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤] ولكن حمله على المجاز قريب وهو أن المراد بزلزلة الساعة: أهوالها التي تكون قبل البعث وأهوالها التي تكون بعده، كما قال تعالى في (الأحزاب): ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [آية:١١] فقال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ والمعنى في الفزع من اجتماع الأحزاب ضدهم لا برجفة الأرض.

وقوله تعالى: ﴿شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾ يدل على أنها أهوال لا تحتمل والفزع فوق ما يتصور فينبغي لكل عاقل أن يستعد لها بتقوى الله.

حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾

﴿٢﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ سواء كان الضمير للساعة أم لزلزلتها؛ لأن الفزع من الساعة باعتبار زلزلتها وعذاب الله؛ ولأن الفزع من زلزلتها من أجل ما يكون من أهوال القيامة أعم من رجفة الأرض وتحطم الجبال ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ تذهل تنسى من شدة الهول ما أرضعته كأنها ليس لها ولد، وتضع كل ذات حمل في بطنها حملها من الفزع، وهذا في أول أهوال القيامة قبل هلاك الناس من الصيحة الأولى، فأما جعله مجرد تمثيل لا حقيقة فهو بعيد لأن أسلوب الكلام لا يناسبه، وعلى هذا فزلزلة الساعة أهوالها، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ أي في أول أهوال القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ يراهم الرائي سكارى رؤية البصر، فهم في شكل السكارى في حركاتهم بلا شعور ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ لأن أذهانهم باقية، ولكنها متجهة إلى شيء واحد هو عذاب الله كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فالخوف منه هو الذي جعل الناس سكارى، وهذا في غير المتقين، لأن الله تعالى أمر بالتقوى؛ لأن التقوى تنجيهم من الفزع الأكبر ومن العذاب، بدليل قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ﴾ فدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ﴾ على التعليل، وبدليل قوله تعالى: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] وغيرها.

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ

﴿٣﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على الأمر بالتقوى، وذكر زلزلة الساعة وعذاب الله الشديد، فكأنه قيل: ومع أن الأمر كذلك من الناس من يجادل في الله بغير علم لا يستعد للآخرة ولا يتقي ربه ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ كانوا يجادلون في الله بجدالهم في قدرته وقياسهم لقدرة الله تعالى على قدرة المخلوق ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الاسراء:٤٩].

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لا يجادل بحجة يحصلها العلم إنما يجادل بالجهل، ومجرد الإستبعاد الذي لا يعتمد على علم ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ﴾ فأي شيطان دعاه إلى الباطل اتبعه سواء كان من شياطين الإنس أم من شياطين الجن، فيتبعه بلا حجة بل لهوى نفسه، وقوله: ﴿مَّرِيدٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي عاتٍ خارج عن طاعة الله تعالى عارٍ عن الخير من قولهم: شجرة مرداء)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((والمارد: العاتي، وقد مَرُد الرجل بالضم مرادة فهو مارد ومريد)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((والمارد والمريد من شياطين الجن والإنس المتعري من الخيرات من قولهم: شجر مرد إذا تعرى من الورق)) انتهى.

﴿٤﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي على الشيطان المذكور كتب عليه حكم عليه حتى لا

ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ

ينفك عنه وصفه الذي هو ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ الشيطان هذا أو كتب عليه جعل عليه سمة يعرف بها ولا تنفك عنه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ومعنى تولاه الشيطان: استحوذ عليه وسيطر عليه ﴿﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ عن سبيل الله ﴿وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ بدلاً من هداية الله له إلى الجنة فالتعبير بالهداية مشاكلة تقديرية مع لطف الجمع بين يضل ويهدي.

۝ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب للبشر كلهم لضرورة أن يعلموا بالبعث ويعرفوا دلائل قدرة الله تعالى على كل شيء ﴿إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ في شك وقلق من أن البعث سيكون فهذه الآيات تفيد العلم اليقين بقدرة الله تعالى على البعث الذي هو إحياء الموتى وإخراجهم من القبور، وتدفع استبعاد ذلك ﴿فَإِنَّا﴾ أي فإن الله ﴿خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ﴾ وذلك إما خلق آدم الذي

هو أبو البشر، وإما خلق آدم وذريته؛ لأن المني من الغذاء والغذاء أصله من الشجرة والشجر تنشأ من الماء والتراب، فهذا دليل قدرة خارقة لا تقاس على قدرة المخلوقين أن يتحول التراب إلى إنسان يسمع ويبصر، فكيف لا يقدر على النشأة الآخرة.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وكذلك خلق الإنسان من النطفة التي هي المني السائل وتحويل النطفة إلى إنسان له صورة ومفاصل وأعصاب وعروق وغير ذلك ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي الدم الجامد تحولت النطفة دماً جامداً ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ والمضغة كقطعة لحم ممضوغة مخلقة ببعض صورة الإنسان قبل تحولها إلى عظام، وغير مخلقة لم تتخلق إلا عند استحالتها إلى عظام فتصير إنساناً مجهزاً بأعضائه ومفاصل وصور أعضائه المختلفة وقلبه وكبده وغير ذلك مما فيه من دلائل قدرة خالقه ومصوره ومحييه، فهذا هو الدليل الأول.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ يحتمل أنه تعليل لخلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، أي أنه خلقه من هذا ليكون دليلاً على قدرة خالقه وعلمه ولو شاء لخلقه اختراعاً أو من شيء واحد من غير تطوير لخلقه، وهذا أظهر الإحتمالين، والإحتمال الثاني: أنه تعليل لإخبار الله تعالى بذلك، وذكره للناس ليبين لهم حتى يذهب عنهم الريب من البعث.

والدليل الثاني على قدرة الله تعالى على البعث وعلمه: قوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يبقي الله في أرحام النساء ما شاء من الحمل من ذكر أو أنثى ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو نهاية مدة الحمل ﴿مُّسَمًّى﴾ محدود بحد مسمى إما مسمى في الكتاب، وإما مسمى يعرفه

الناس ويسمونه، وهو في الغالب (تسعة أشهر) تضع في التاسع أو تزيد قليلاً، فإقرار الحمل في الرحم آية بينة لأن النطفة سائلة من شأنها أن تسقط من الرحم لولا أن الله تعالى أبقاها لتكون إنساناً، فحفظه في البطن آية تدل على قدرة الله وعلمه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي نخرجكم من الأرحام حال كونكم طفلاً قد كمل خلقكم وتصويركم واستغنيتم عن البقاء في أرحام النساء، وصلحتم للعيش بعد الخروج منها، فإقرار الحمل في حال كونه نطفة أو علقة آية عظمى، ثم إخراجه وقد كبر وتمكن في البطن بكبره وضيق مخرجه آية عظمى تدل على قدرته تعالى وعلمه ولطف تدبيره وقدرته على البعث.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ نخرجكم طفلاً لتبلغوا أشدكم أي لتنموا أجسادكم وقواكم حتى تبلغوا أشدكم أي كمال قواكم ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ قبل بلوغ أشده أو بعده ﴿وَمِنكُم مَّن﴾ يبقى و ﴿يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ﴾ إلى حال الضعف الشديد وزوال العقل ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ فتصريف حالات الإنسان من حمل إلى طفولة إلى شباب إلى هرم إلى مصيره خرفاً لا يعلم شيئاً بعد أن كان ذا علم دلائل على مصرِّفه ومدبر أحواله، ودليل على أنه كما صرفه في الدنيا في حالاته المذكورة قادر على أن يصرفه من الموات إلى حي بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗا﴾ أي يرد إلى أرذل العمر وأفسله، لكي تذهب عنه قوة العلم ويصير كالطفل الصغير لا يعلم شيئاً، فتكون في ذلك آية تدل على الفعال لما يريد الذي وقّت حمله، ووقّت طفولته، ووقّت شبابه، ووقّت علمه.

ولو كان صانعه ما يتوهم من الطبيعة لكان على حالة واحدة لا يتحول عنها، ولو كان نموه وقوته للطبع في المأكول ونحوه لما زال ينمو ولما رجع إلى الضعف بعد القوة وإلى الجهل بعد العلم، ولكن صانعه الفعال لما يريد دبره لحياته على ما يريد وصرف أحواله كما يريد، وكذلك يحييه بعد الموت ويعيده كما بدأه.

والدليل الثالث: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فترى الأرض إذا أبطأ عنها الماء هامدة كأنها ميتة؛ لأنها لا تصلح لإنبات نبات ونباتها يابس ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا﴾ أنزل الله ﴿عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ قال سيد قطب: ((وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام، فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز وهي تتشرب الماء وتنتفخ)) انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي) / : ((أي تحركت بالنبات واهتز نباتها، واهتزازه شدة حركته..)) إلى أن قال: ((..ومعنى قوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ أي انتفخت)) انتهى، ويحتمل ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: أنه اهتزت من وقع المطر؛ لأنها مُعدَّة لشرب الماء، والله أعلم، وقوله: ﴿وَرَبَتْ﴾ صارت لتداخل الماء بين أجزائها وارتفاعها كأنها منتفخة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ فهو يحقق أن حالة الأرض تحولت من كونها هامدة إلى كونها مُنبِتة فكأنها صارت لها حياة بعد موت، فذلك دليل على قدرة الله تعالى على بعث الموتى.

وأما قوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ فهو يذكر بتمام حيوية الأرض حيث صلح؛ لأنها صلحت لإنبات أنواع النبات المختلفة لم تقتصر على نوع من الأنواع ولا على زوج من الأنواع.

ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا

وهو كذلك يذكر بقدرة الله تعالى حيث خلق الأزواج كلها على اختلافها الواسع الذي يدل على سعة قدرته تعالى وسعة علمه مما يدل على قدرته على البعث وهو كذلك يذكر بنعمة الله على الإنسان بما خلق له ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ بَهِيجٖ﴾ جميل المنظر وبعض النبات يكون قوتاً وبعضه فاكهة وبعضها يجمع بين الأمرين، وبعض الفواكه يجمع لوناً يلتذ به الناظر ورائحة لذيذة للشم وطعماً لذيذاً وشكلاً جميلاً، مع نفعها في التغذية، فسبحان القادر على كل شيء العليم بكل شيء، وما أكفر الإنسان يجحد قدرة الله على إعادته وهو يرى هذه الآيات، وتذكره بها الآيات القرآنية وتذكره بنعم الله عليه فيأبى إلا العناد.

﴿٦-٧﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَاكُمۡ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..بَهِيجٖ﴾ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ وقع ذلك بسبب أن الله هو الحق، فلولا الله لم يكن شيء من ذلك، فذلك دليل على الله يعرف به أن الله هو الحق، وأن الكفر به هو الباطل؛ وبسبب ﴿أَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ولذلك أحيى الإنسان بعد أن كان تراباً...الخ وأحيى الأرض بعد أن كانت هامدة؛ وبسبب ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلقدرته على كل شيء خلق الإنسان والنبات؛ وبسبب ﴿أَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ أي القيامة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.

هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ

﴿٨﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على ذكر الدلائل ومدلولها، فكأنه تعالى قال: ومع ذلك ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ﴾ استناداً إلى جهله أو تجاهله، لا بحجة من عقل حصل له بها العلم، ولا بهدى إلى الحق حصل له من مصدر هداية محقق مثل: النبي والوصي، ولا بكتاب من كتب الله تعالى منير للبصيرة تبصر به الحق كما يرى البصر بالنور، وفي هذه الآية الكريمة إشارة إلى ما يحتج به أو يعمل به.

﴿٩﴾ ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿ثَانِيَ عِطْفِهِۦ﴾ معناه: متكبر متجبِّر)) انتهى.

وهذا لأنه يقال في المعرض: ثنى عِطفه، وإعراض الكافر عن الرسول ص تكبر وتجبر، والعِطف: قال الراغب: ((عِطفا الإنسان جانباه من لدن رأسه إلى وركه)) ومثله في (الصحاح).

وثَنيُه: تحويله عن مواجهة الرسول ص وسائر الدعاة إلى الله ﴿لِيُضِلَّ﴾ من يتبعه ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ليتبعوه في باطله ويقتدوا به في الإعراض والتكبر ﴿لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ﴾ عقاب عاجل بإهانته وفضحه ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ أي ندخله جهنم خالداً فيها، وذكر يوم القيامة لأن الحكم عليه وإدخاله النار يكون في يوم القيامة.

﴿١٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والخزي ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أي يقال له ذلك.

فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ فالعذاب بسبب ما قدمت يداه، وبسبب أن الله ليس بظلام ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ فلم يخل في الدنيا الظالمين والمفسدين إلا لأنه يجزيهم في الآخرة، فالتعذيب في الآخرة عدل وإنصاف للمظلومين الذين أغواهم الجبارون والذين كانوا يعذبونهم لأنهم أسلموا وليرجعوا إلى الكفر والشرك.

﴿١١﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ معناه: على شك)) انتهى، وأصل الحرف الطرف فجعل الشاك كأنه على حرف معَرَّضٌ للسقوط لأنه غير ثابت في دينه ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ سكنت نفسه على ما هو عليه من الدين رغبة في الخير الذي ناله ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ ضر من الكفار أو أذى أو تخويف ابتلي بذلك واختبر بتخلية الظالم أو الفتنة بمعنى التعذيب وهو أظهر هنا؛ لأن الكفار كانوا يعذبون بعض من أسلم ليرجع إلى الشرك والكفر ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي ارتد إلى الكفر ليتخلص من فتنة الناس، كأنه سقط على وجهه، وهذا يناسب تشبيهه أنه في عبادته على حرف.

﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا﴾ لأن حياته صارت وَبَالاً عليه؛ لأنه كلما عاش زاد في أسباب عذابه في الآخرة، فقد فاتته الحياة الدنيا التي يتمتع فيها المؤمن ويعمل لآخرته وهي الحياة الطيبة، وأيضاً الكافر في معيشة ضنك لحرصه على الدنيا وتأسفه على ما فات من مطالبها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ لأنه اجتمع عليه ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ حيث فاتته الجنة وصار من أهل النار.

يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٣﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ

﴿١٣﴾ ﴿يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ ﴿يَدۡعُواْ﴾ هذا المنقلب ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ما يتخذه إلهاً وهو لا ينفعه فلا يفيده دعاؤه شيئاً ومعبوده لا يضره فلا يحتاج إلى أن يدعوه ليأمن ضره ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدعاء الذي هو الشرك ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ لأنه بُعْد عن سبيل الحق وغواية صيرته بعيداً عن الحق كمن ضل عن الطريق وصار بينه وبين الطريق مسافة بعيدة لغير فائدة من المعبود ولا ملجأ من ضر يناله إن لم يعبده لا ذا ولا ذاك.

﴿١٣﴾ ﴿يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ ۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ الراجح أن ﴿يَدۡعُواْ﴾ إعادة للأولى ليرتب عليها قوله: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ﴾ كما أعاد في (سورة التوبة) ﴿كَيۡفَ﴾ ورتب عليه ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ [آية:٨] بعد قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [آية:٦].

وقوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ مبتدأ خبره ما دل عليه قوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ أما قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ فهو إسناد مجازي والمراد: الضر الحاصل بسببه أقرب من نفعه لمن يدعوه ففي الدنيا يخافه ولا فائدة له في خوفه، ويتلف له مالاً بلا فائدة، وبعضهم قتل ولده تقرباً وذلك ضرر عظيم، وأما في الآخرة فضرر الشرك عذاب شديد دائم ولا يشفعون للمشرك بل يكونون له أعداء ويكفرون بعبادته.

وأما قوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ فهو جواب قسم مقدر، أي أقسم لبئس المولى هو، وسماه مولى تهكماً بالمشرك الذي اتخذه إلهاً مالكاً له.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ

وقوله تعالى: ﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ﴾ كذلك فالعشير الصاحب الذي تعاشره وتجالسه وهذه الأصنام لا تسمع معاشرها ولا تراه ولا تدري ما يقول لها، ولا تعلم أنه عاكف عليها.

وإعراب قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ اللام (لام الإبتداء) مؤكدة للجملة، و(مَن) اسم موصول مبتدأ، وقوله: ﴿ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦ﴾ مبتدأ وخبر، وهما صلة الموصول، والعائد الضمير في ضره، ومن نفعه جار ومجرور متعلق بأقرب، وهو (اسم تفضيل).

وقوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ﴾ (اللام) جواب القسم، و(بئس) كلمة ذم فاعله المولى والعشير، والمخصوص بالذم ضمير مقدر أي هو، أي الصنم الذي يدعوه المشرك، وخبر المبتدأ الذي هو الموصول قد دل عليه جواب القسم وأغنى عنه لقيامه مقامه.

وحاصل قوله تعالى: ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ إلى آخر الآية الذم للصنم والتهكم بمن اتخذه مولى وعشيراً وهو لا ينفع ولا يضر وهو يسبب الضر لا النفع.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مقابلة بين المؤمن والمشرك، فالمؤمن ينفعه إيمانه وعمله نفعاً دائماً في الجنات في الآخرة في دار رحمة الله وكرامته، والمشرك عكسه، والجنات هنا بساتين عظيمة متعددة مذكورة في (سورة الرحمن) وتشتمل عليها جنة الخلد التي وعد المتقون، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ تأكيد للوعد المذكور.

بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿١٥﴾ ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿مَن كَانَ﴾ من الكفار يرجو أن يبطل أمر الرسول ص بكيده ويظن أن لن ينصر الله رسوله ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ بعلاقة ووسيلة إلى السماء ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ من هناك ما ينزل على الرسول ص بواسطة الملائكة إن قدر على ذلك.

﴿فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ يغيظ الكفار الحاسدين للرسول ص وهو الوحي، فهذا أشد الكيد إن قدر عليه قطع الوحي النازل من السماء بواسطة الملائكة بأن يتفق هو مع الملائكة على أن لا ينزلوا بوحي الله على رسول الله ص وحاشاهم لكنه لو وقع ذلك فلينظر هل يذهبن كيده أمر الرسول ص وإرسال الله له ووحيه إليه، والجواب: لا يذهبه؛ لأن الله غالب على أمره، فلا بد أن يرسل رسوله برسالاته ويوحي إليه ما أراد، ولو انقطع الوحي من السماء بأي طريقة شاءها؛ لأن الله يفعل ما يشاء.

وهذا التفسير مبني على أن الضمير في ﴿يَنصُرَهُ﴾ للرسول ص وهو ظاهر كما عاد عليه في ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن:١] ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١] لأن القرآن أنزل عليه والأذهان حين يبلغه موجهة إلى المبلغ والخوض فيه في ذلك الظرف كالخوض في القرآن، وقد عاد الضمير إلى القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وهذا في الرسول المبلغ للقرآن.

ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمۡ تَرَ

والمعنى: أن الله تعالى ينصره ويظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون، وهذا موافق لتفسير الإمام الهادي × الذي حكاه الشرفي، ولولا ما في النسخة من الغلط من بعض النساخ لنقلته هنا، وكذلك تفسير الحسين بن القاسم × الذي حكاه الشرفي في (المصابيح) وعلى هذا فمفعول (يقطع) مقدر يدل عليه ﴿مَا يَغِيظُ﴾ أي فليقطع ما يغيظه.

﴿١٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي مضى من هذه السورة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أي القرآن ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ أي حال كونه آيات بينات، أي دلائل واضحات؛ ولأن ﴿ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ﴾ أنزلناه.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الكامل الذي منه الإيمان بما أنزل على محمد والذي هو الإيمان الباعث على الطاعة لله ولرسوله ﴿وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ اليهود ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ فرقة خرجت من دين إلى دين قيل إن أصلهم من النصارى وعبدوا النجوم ـ والله أعلم.

وقال في (الكشاف): ((جعل الصابون مع النصارى لأنهم نوع منهم)) انتهى، وقد مر تفسير أكثر من هذا ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ المنتمين إلى دين عيسى ﴿وَٱلۡمَجُوسَ﴾ أهل ملة مخالفة للإسلام أظن من دينهم عبادة النار، ومن دينهم نكاح البنت والأخت والأم وسائر القرائب.

أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾

﴿وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ اختصوا بهذا الإسم مع أن في غيرهم من الملل مشركين لكن المشركين من العرب ليس لهم دين يجمعهم إلا الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين المذكورين من أول الآية يحكم بينهم ويميز بينهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فهو شهيد على أعمال أهل الملل كلهم وعقائدهم وأقوالهم لا يغيب عنه شيء من ذلك، فهو حاكم عليهم وشهيد على ما عملوا لا يغيب عنه شيء منه.

قال الإمام علي × فيما رواه في (نهج البلاغة): ((اتقوا معاصي الله في الخلوات، فإن الحاكم هو الشاهد)) أو كما قال.

﴿١٨﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ﴿يَسۡجُدُ لَهُۥ﴾ ينقاد له على ما سخره له ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لا يمتنع من قضاء الله فيه، ألا ترى أن الشباب يهرم فلا يستطيع دفع الهرم، وكذلك يمرض فلا يستطيع دفع المرض بالقوة، ولكن قد يستطيع بما جعل الله من الدواء أو نحوه من الأسباب التي جعلها الله أسباباً، فالإنسان خاضع لتصرف الله فيه وتصريف الله لأحواله.

﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ على ما سخرهما الله تعالى تجريان، وكذلك ﴿ٱلنُّجُومُ﴾ وأرسى ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾ فاستقرت في أماكنها، وصرف حال

هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ

﴿ٱلشَّجَرُ﴾ كما صرف حال الإنسان ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ ومن ذلك سيرها في وظائفها كالديك يسبح والهر يصطاد وغير ذلك ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ينقاد ويخضع لله اختياراً ﴿وَكَثِيرٌ﴾ أي من الناس ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ وهو لا يستطيع أن يخالف إلا في الأمور الإختيارية دون الإضطرارية.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال الحسين بن القاسم × : معنى سجود الناس فهو خضوعهم بالإتضاع، ومعنى سجود هذه الجمادات وغيرها من الحيوانات فهو بالطباع، فكلها ذليل مقهور خاضع بقدرة الله مجبور، قال الشاعر:

بجيش تظل الخيل في حجراته ترى الأُكم منها سُجَّداً للحوافر»

انتهى.

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ ومن استحق العذاب بتكبره عن السجود الإختياري فلا يستطيع أحد أن ينقذه من عذاب الهون، وإن ظن المشركون أن شركائهم سيشفعون لهم فهو أمل خائب؛ لأن الله يفعل ما يشاء.

﴿١٩-٢٠﴾ ﴿هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ * يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ ﴿هَـٰذَانِ﴾ إشارة إلى فريقين: فريق مؤمن يدعو إلى الله، وفريق كافر يحارب الدعوة إلى الله.

وقد روى المحدثون أن هذه الآية نزلت في ثلاثة من المؤمنين وهم: علي × ، وحمزة، وعبيدة بن الحارث، وثلاثة من المشركين: الوليد بن عتبة، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، برز الثلاثة من المشركين فبرز لهم الثلاثة من المؤمنين، وذلك في أول (وقعة بدر) ونزول الآية فيهم رواه البخاري في جامعه المسمى (الصحيح) في [ج٥/ ص٧] من نسخة خالية عن الشروح في (كتاب المغازي) ومن ألفاظه بعد السند: ((عن قيس سمعت أبا ذرّ يقسم قسماً: إن هذه الآية ﴿هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ﴾ نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة)) انتهى.

وروى أبو داود في (سننه) في [المجلد الثاني ص٥٢ـ٥٣] عن علي [×] قال: تقدم ـ يعني عتبة بن ربيعة ـ وتبعه ابنه وأخوه فنادى من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار، فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم إنما أردنا بني عمنا، فقال رسول الله ص: ((يا حمزة قم، يا علي قم، يا عبيدة بن الحارث)) فأقبل حمزة إلى عتبة، وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم ملنا على الوليد فقتلناه واحتملنا عبيدة، انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال في (البرهان): هذه الآية نزلت في ثلاثة من المسلمين قتلوا ثلاثة من المشركين يوم بدر، ومنهم أمير المؤمنين علي × قتل الوليد بن عتبة، وحمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة،، وعبيدة بن الحارث قتل شيبة بن ربيعة)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿خَصْمَانِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ [ص:٢١] في إطلاق الخصم على الجمع، وقوله تعالى: ﴿ٱخْتَصَمُواْ﴾ جاء ضمير الجمع على المعنى، وقوله تعالى: ﴿فِي رَبِّهِمْ﴾ اختصم المؤمنون والكافرون في ربهم؛ لأن قتال المؤمنين للكافرين المقصود به إعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والقتال من المشركين سببه التعصب للشرك والتكذيب للرسول ص والتكذيب بالقرآن فهم رادون لأمر الله، وشاكون في قدرته على البعث، وقائلون: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك:٩].

وقوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ﴾ تشبيه بتفصيل القميص فمعناه أعدت لهم ثياب ﴿مِّن نَّارٍ﴾ شبهت بالثياب لاشتمالها عليهم كما تشتمل الثياب بل أشد، وقوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ يفيد نزوله عليهم من فوقهم، وبذلك يعظم وقعه على رؤوسهم.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ ﴿يُصْهَرُ﴾ يذاب ﴿بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ ولذلك يقطع أمعائهم، فقد خرق الرؤوس إلى البطون وأذيب به ما في البطون، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجُلُودُ﴾ لعله عند وقوعه على رؤوسهم، ينزل بعضه على خارج أبدانهم فيذيب الجلود، وهذا أظهر، وقد مر في (سورة الكهف): ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩].

﴿وَلَهُم مَّقَمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿مَّقَمِعُ﴾ آلات ضرب يضربون بها، قال الراغب: ((جمع مقمع وهو ما يضرب به ويذلل)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((المقمعة: واحدة المقامع من حديد كالمحجن يضرب بها رأس الفيل، وقد قمعته إذا ضربته بها)) انتهى، وقال (صاحب القاموس): ((المِقمعة كمِكنسة العمودُ من حديد، أو كالمحجن يضرب بها رأس الفيل، وخشبة يضرب بها الإنسان على رأسه)) انتهى المراد.

أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ

فقد اتفق الراغب و(صاحب القاموس) على: أن كلمة (المقامع) تستعمل في الحديد والخشب وهو الراجح؛ لأن الله تعالى وصف المقامع بأنها من حديد، ولو كان الحديد من مفهوم المقامع لكان الوصف بأنها من حديد كالتكرار، والمعنى: أن الكفار المذكورين يضربون بمقامع من حديد فهو عذاب ثالث.

﴿٢٢﴾ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ كلما حاولوا بالتحرك من أماكنهم ﴿أُعِيدُواْ﴾ ليبقوا ﴿فِيهَا﴾ والإعادة باعتبار ردّهم في أماكنهم التي تزحزحوا منها في محاولتهم للخروج، وهذه المحاولة يؤدي إليها غم شديد لا تجويز منهم للخروج بعد قول مالك لهم: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

ويحتمل: أن ينسوا ويجوِّزوا الخروج إذا لم تكن أبوابها في جهة فوق، والآية هذه إن كانت صفة للمقامع، فالمعنى أعيدوا في النار بها أي بالمقامع لكن ذلك يتوقف على قرينة، وإذا لم توجد فالظاهر استقلال هذه الآية، وأن المذكور تعذيب نفسي كقوله تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي وقيل لهم: ذوقوا عذاب الحريق، وكآية (السجدة) ﴿الم﴾.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ﴾ هنا الفعل مضارع، والآية التي في الكفار قطعت فعل ماضٍ.

ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا

ولعل السر في ذلك: أن الذين كفروا قتلوا في هذه الخصومة فاستحقوا العذاب حتماً، والذين آمنوا بقي منهم اثنان يحتاجان إلى الإستمرار في الإيمان والعمل الصالح، فناسب حالهم ذكر وعد الله وحكمه في الذين آمنوا وعملوا الصالحات الماضين منهم والباقين منهم جملة ليفهم الباقون أنهم محتاجون إلى الثبات على الإيمان والعمل الصالح.

وقوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ السوار ملبوس للمعصم ويحتمل للعضد مع المعصم، وقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ معطوف على محل ﴿أَسَاوِرَ﴾ أو محل الجار والمجرور، أي ويحلون فيها لؤلؤاً، ويحتمل أن تطرز به ثيابهم أو يكون منه أسورة أو غير ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ هذا اللباس الحقيقي يقابل لباس الكفار المجازي وما تفيده الآية من النعيم يقابل ذلك العذاب لينظر الإنسان ويميز بين عاقبة الكفر وعاقبة الإيمان.

﴿٢٤﴾ ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ﴿وَهُدُوٓاْ﴾ أي أهل الإيمان والعمل الصالح ﴿هُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ وهو زيادة في نعيمهم حيث لا يسمعون فيها لغواً ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فهم يرغبون في العدل والإحسان ويرضون بقسمة الله بينهم لا حسد ولا غل فيهم.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ لعل هذه في الذين لم يقتلوا في يوم (بدر) والأُولى في الذين قتلوا في (بدر) أو هذه عامة للفريقين إن كانت متقدمة في النزول.

وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يمنعون عن دين الله بتعذيب من آمن مثلاً ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي ويصدون عن المسجد الحرام؛ لأنهم يضطرون المؤمنين بتعذيبهم يضطرونهم إلى الهجرة من مكة فهاجروا أولاً إلى الحبشة وثانياً إلى المدينة المنورة، والمسجد الحرام هو الكعبة المشرفة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقيل: المراد بالمسجد الحرام (مكة) والأظهر أن المراد به: الكعبة)) انتهى.

وأقول: يمكن الجمع بين القولين بأن المراد بالصد عن المسجد الحرام إخراج المؤمنين من مكة للهجرة، فهو كناية والقول بأن المراد به الكعبة فهو صحيح أن المراد بالمسجد الكعبة لكن الصد عنها وقع بإخراج أهلها من مكة، وقوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ يفيد تكرر الصد بطول مدته؛ لأن هذا الفعل المضارع هو فعل العادة المتكررة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ﴾ بيان أن إخراج أهله منه ظلم لهم؛ لأن المسجد هذا جعله الله للناس كافة للعبادة فليس لأحد أن يختص به، فأما منع المشركين منه حين نزل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨] فهو ناسخ سببه العلة المذكورة وهو ناسخ في حقهم دون غيرهم، ويسمى تخصيصاً من العموم.

وقوله تعالى: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ﴾ أي في هذا المسجد ﴿وَٱلْبَادِ﴾ الذي ليس من أهل مكة، وأصله البادي ولعل العاكف فيه الذي هو العاكف في الكعبة قد يظن أنه أولى من الوارد إليها لكن لعل ذلك كناية أريد فيها الحقيقة ليدل على ساكني مكة بالأولى، فهم سواء هم والبادي.

قال الشرفي: ((والبادي: من كان من أهل البادية)) انتهى، وهو موافق لما في (الصحاح).

لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ

وإن أريد به الساكن في البادية فأهل القرى البعيدة مثله، فالراجح: أنه كناية عن الوافد إلى مكة سواء كان بدوياً أم حضرياً، ولعل البدوي خص بالذكر لأنه يستضعف، وفي الآية رد على من يدعي من الشيعة في عصرنا أن البيت ميراث أهل البيت ولا يجوز عنده الحج إلا بإذنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ﴾ أي في المسجد الحرام ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ أي بعدول عن الحق ﴿بِظُلۡمٖ﴾ أعم من الشرك فيه فهو يعم كل معصية متعمدة ويعم الجور وسب أولياء الله ومدح الظلمة وغير ذلك، وهو يتناول المشركين الذين نصبوا أصنامهم على الكعبة.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((﴿وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ﴾ معناه: بعدول عن الحق)) انتهى.

قال في (الكشاف): ((وقوله ﴿بِإِلۡحَادِۭ﴾ حالان مترادفتان ومفعول ﴿يُرِدۡ﴾ متروك ليتناول كل متناول كأنه قال: ومن يرد فيه مراداً مَّا عادلاً عن القصد ظالماً ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ قال: يعني أن الواجب على من كان فيه أن يضبط نفسه ويسلك طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده)) انتهى المراد.

ولعل فائدة ﴿بِظُلۡمٖ﴾ تحقيق المراد بالإلحاد؛ لأنه في أصل اللغة الميل أو العدول، قال في (لسان العرب): ((ومعنى الإلحاد في اللغة: الميل عن القصد)) انتهى.

﴿٢٦﴾ ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ﴿وَإِذۡ﴾ واذكر ﴿إِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ قال الراغب: ((وبوأت له مكاناً: سويته له)) انتهى.

رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ

وقال (صاحب الصحاح): ((وبوأت للرجل منزلاً وبوّأته منزلاً، بمعنى: أي هيأته ومكنت لـه فيه)) انتهى، فالمعنى: هيأنا لإبراهيم مكان البيت ليبنيه فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ﴾ أَنْ مفسِّرة لبوأنا بمعنى أن تهيئة مكان البيت هي النهي عن الشرك وأمره بتطهير البيت.

قال في (الكشاف): ((فإن قلت: كيف يكون النهي عن الشرك والأمر بتطهير البيت تفسيراً للتبوئة؟ قلت: كانت التبوئة مقصودة من أجل العبادة فكأنه قيل تعبدنا إبراهيم قلنا لـه: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ من الأصنام والأوثان والأقذار أن تطرح حوله)) انتهى.

ويحتمل: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ في بناء البيت ولا في غيره، فكأنه قيل: أن ابنِ لي بيتاً خالصاً لي وأخلص العبادة لي، والمعنى: أن تهيئة مكان البيت كانت على أساس أن يبني إبراهيم بيتاً خالصاً لله، ويعبد الله وحده فيه، ولا يشرك به شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أي هذا البيت الذي بوأنا لك مكانه البيت الخالص لي طهره من كل رجس، أي لا يدخله رجس ولا يلحقه ولا يجاوره، طَهِّره ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ به ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ للصلاة أو أي عبادة فيه أو حوله ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ المصلين، فهذه الآيات تفيد أن المشركين جعلوه على خلاف ما أسس له، فجعلوا عليه الأصنام وهو لله وحده ونجسوه بالشرك وغيره وقد أمر الله بتطهيره لعبادته الخالصة له، ولعل المشركين كانوا ينجسونه بدماء ما يذبحونه للأصنام ويجعلون عليها من دمه ـ والله أعلم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ هذا من كلام الله تعالى لخليله إبراهيم × أمره أن

ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ

يدعو الناس إلى الحج بدليل (واو العطف) في أول الآية، وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي بينهم ليبلغ الشاهد الغائب.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ أي يأتوك وأنت بمكة رجالاً أي مشاة ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي ركباناً على كل ضامر أي خفيف اللحم سريع في مشيه وهو يصلح للإبل والخيل، ولكن الراجح: أنه هنا للإبل إذ هي أوفق للسفر تحمل الزاد وترعى من الشجر كالطلح والأثل وتصبر من شرب الماء، أو هو عام للإبل والخيل، وقوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ أي كل ضامر يأتينك أو نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والفج: الطريق بين الجبلين، ثم يستعمل في سائر الطرق اتساعاً، والفج ـ أيضاً ـ مكان واسع، والعميق البعيد، وقال الراغب: الفج شقة يكتنفها جبلان ويستعمل في الطريق الواسع)) انتهى.

وفي الآية دلالة على قوة الرغبة في الحج بحيث يسافر له مشياً على الأقدام وبحيث يسافر إليه من بعيد، وعلى كثرة السفر إلى البيت؛ لأن الطرق لا تتسع إلا من كثرة المارة، فهي تدل على أن الله تعالى وعد خليله إذا دعى الناس أن يجعل في قلوب كثير من الناس الرغبة في إجابة دعوته، وهذا شيء باق إلى اليوم حتى أن بعض من اعتاد الحج إذا تخلف يبكي حين يسمع الملبين في (الراديو) أو يشاهدهم في (التلفزيون) شوقاً إلى الحج.

﴿٢٨﴾ ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ ﴿لِّيَشْهَدُوا۟﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ وكانت المنافع التي يشهدونها في

الحج في عهد إبراهيم × والله أعلم، منها: تعليمه لهم مناسك الحج وغيرها، وتذكيرهم بآيات الله ليعرفوا الله ويصح إيمانهم بالله وباليوم الآخر وغير ذلك ـ والله أعلم ـ ولعل منها: آراءً اجتماعية، ونصب إسماعيل خليفة لـه مع كونه رسولاً وغير ذلك، وأما بعد إبراهيم × فلكل زمان منافع تناسبه، ففي عهد رسول الله محمد ص شهدوا في (حجة الوداع) تعليمه لهم مناسكهم، و(خطبة عرفة) و(خطبة منى).. وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ ذكر الله هذا هو ذكره عند نحر البدن وذبح غيرها ﴿مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ والأنعام هي الأزواج الثمانية المذكورة في (سورة الأنعام) فحاصل المعنى: يذبحوا وينحروا لله وحده ذاكرين اسمه، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم﴾ يشير إلى دليل واضح لإبطال ما كان يفعله المشركون من النحر لغير الله والذبح مع أن الله رزقهم الأنعام فاستعملوها لغيره كفراً لنعمته.

وقوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) من حديث: ((..والأيام المعلومات أيام العشر)) انتهى، يعني من ذي الحجة، وهذا يدل على فضل هذه الأيام حيث اختارها الله ـ عزَّ وجل ـ لذكر اسمه على النحائر والذبائح مع أن النحر والذبح في الحج إنما يكون في اليوم العاشر منها، ولولا هذا الحديث عن علي × لكان الراجح: أنها (أيام النحر) التي هي اليوم العاشر من ذي الحجة ويومان بعده.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِنْهَا﴾ أي من الأنعام التي تذكرون اسم الله على نحرها وذبحها، وهي هدايا تهدى إلى البيت يهديها القارن وغيره فلا بأس أن يأكل منها من أهداها ﴿وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ ﴿ٱلْبَآئِسَ﴾ صاحب البؤس أي شدة الحال من الإعدام و﴿ٱلْفَقِيرَ﴾ المحتاج.

﴿٢٩﴾ ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾

﴿ثُمَّ﴾ بعد ذكر اسم الله على بهيمة الأنعام يوم النحر أي بعد النحر ومثله الذبح ﴿لۡيَقۡضُواْ﴾ (اللام) لام الأمر، بمعنى قد حل لهم قضاء التفث الذي كان محظوراً لأجل الإحرام، ويفيد (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((أن معنى قضاء التفث: الأخذ من الشارب، وقص الأظفار، وحلق الرأس والعانة، ونتف الإبط)) انتهى.

قال في (الصحاح): ((التفث في المناسك: ما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق الرأس والعانة ورمي الجمار ونحر البدن وأشباه ذلك، قال أبو عبيدة: ولم يجئ فيه شِعر يحتج به)) انتهى، وقوله: ((ونحر البدن))؛ بعيد لأن الآية معطوفة على الآية التي تفيد نحر البدن بـ(ثم).

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قالوا: التفث في كلام العرب كل قاذورة تلحق الإنسان فيجب عليه نقصها، قال القفال: قال نفطويه سألت أعرابياً فصيحاً ما معنى قوله: ﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ قال: ما أقرأ القرآن ولكنا نقول للرجل: ما أتفثك وما أذربك والمراد: قضى إزالة التفث)) انتهى.

وفي (القاموس): ((التَفَث ـ محركة ـ في المناسك الشعث وما كان من نحو قص الأظفار والشارب وحلق العانة وغير ذلك)) انتهى، ولم يذكر فيه الرمي ولا النحر.

وفي (مفردات الراغب): ((﴿ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ﴾ أي أزالوا وسخهم يقال: قضى الشيء يقضي إذا قطعه وأزاله، وأصل التفث: وسخ الظفر وغير ذلك مما شأنه أن يزال عن البدن)) انتهى، وهو موافق لما حكاه الشرفي.

وقوله تعالى: ﴿وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ﴾ النذر هو الإيجاب على النفس لله ومثال هذا الوفاء بهديٍ نذر به لله أو صدقة أو صلاة.

ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ

وقوله تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي الطواف الضروري في الحج الذي لا يتم الحج بدونه، وهو يسمى طواف النساء؛ لأن الحاج إذا فعله حل له النساء، ونحن نسميه طواف الزيارة، ونسمي الأول طواف القدوم، والبيت العتيق: الكعبة شرفها الله، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: طواف النحر، وهو طواف الزيارة، وسمي البيت عتيقاً لأنه أعتق من الجبابرة فلم يدعه جبار أنه له، و﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾ الكريم)) انتهى.

وفي (المصابيح): ((وقال الحسين بن القاسم × معنى: ﴿بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ أي البيت الرفيع المجيد الكريم، وكل ما كان جيداً كريماً يسمى عتيقاً)) انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((العتق: الكرَم، يقال: ما أبيَن العتق في وجه فلان، يعني الكرم)) انتهى.

وهذا أرجح في تفسير الآية؛ لأن العتق بالمعنى الأول أصله في ما كان مملوكاً ثم حرر، وكرم البيت: أنه بني للعبادة والطواف حوله، وأنه قبلة لأهل الأرض لصلاتهم، وأن الصلاة فيه أفضل منها في غيره كما في الحديث الشريف، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة:٩٧].

٣٠ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ قال (صاحب الكشاف): ((أي الأمر والشان ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال: هذا وقد كان كذا)) انتهى.

والإشارة إلى ما ذكر من شأن البيت وما يتعلق به، وعطف عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ لتعظم حرمة الله في البيت والحرم ومواضع مناسك الحج وغيرها، فلا تغيّر عما جعلها الله، ولا يقتل فيها نفس، ولا تجعل فيها أصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما ذكره الله في القرآن يتلى على الناس ويسمعونه، وقد كان نزل تحريم الميتة والدم وما أهل به لغير الله في (سورة الأنعام) ثم نزلت آية (المائدة) فأفادت تحريم المقتولة بالأسباب المذكورة فيها، ولعل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ للحال والإستقبال فهو شامل لما في الآيتين ونحوهما.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ والرجس النجاسة، قال الراغب: ((الرجس: الشيء القذر)) انتهى، وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ قالوا ﴿مِنَ﴾ للبيان، قال في (الكشاف): ((بيان للرجس وتمييز له، كقولك: عندي عشرون من الدراهم؛ لأن الرجس مبهم يتناول غير شيء كأنه قيل: فاجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان)) انتهى، ولم يترجح هذا، ولو قيل: فاجتنبوا الأوثان من الرجس لصح جعلها للبيان، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ﴾ [المائدة:٩٠] فالراجح في (مِن) أنها للإبتداء، ليفيد: أن ﴿ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ مصدر رجس وهو أعم من عبادتها والتبرك بها وعبادتها أعم من العكوف عليها والنذر لها والدعوة إليها والتعصب لها والقتال لحمايتها، وعلى الجملة كل باطل بسببها وجعلها سبباً، كقول إبراهيم × الذي حكاه الله ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:٣٦] وعلى جعل مِن للبيان لا يكون متناولاً إلا لقرب الأوثان والعكوف عليها ولمسها.

مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن

وقوله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ قال في (الصحاح): ((الزور: الكذب)) انتهى، ومثله أفاد الراغب وغيره، فإضافة قول إليه على معنى أن تقولوا الزور وهذا يعم زور المشركين وسائر الكفار وزور غيرهم وفي الكذب، عن النبي ص: ((إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)) أخرجه الإمام أبو طالب في (أماليه) ومحله (الباب الثاني والثلاثون) وعنه ص: ((الكذب مجانب للإيمان، وإن العبد ليهبط إلى أسفل درك في جهنم بالكذب)) أخرجه المرشد بالله × في (الأمالي) [ج/١ ص١٨].

﴿٣١﴾ ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ في (تفسير الإمام القاسم ×) الذي حكاه الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة لم يكن): ((والحنيف: هو الطائع المستقيم الخاشع)) انتهى، فالمعنى: واجتنبوا قول الزور مستقيمين خاشعين لله غير مشركين به، ولعله أعاد قوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ كقوله تعالى في إبراهيم × : ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥] وقول إبراهيم × : ﴿حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٧٩] ولعله لدفع توهم العرب أن من حج واختتن فهو حنيف وإن كان مشركاً ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي سقط وهوى من السماء ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ تأكله متخطفةً له وهو يهوي في الهواء، قال الراغب: ((الخطف والإختطاف: الإختلاس بالسرعة)) انتهى، فالخطف أخذ بسرعة.

تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ أي في حال هويه وخروره تعصف به الريح حتى تصيره في مكان سحيق هوت به إليه، ومعنى سحيق: بعيد، وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَهْوِى﴾ عطف على (تخطفه) فالتشبيه بمن خر من السماء فيعرض له أحد أمرين: أن تخطفه الطير ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ولعل هذه خطاب للمسلمين، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ..﴾ الآية [آل عمران:٨٦].

ووجه التشبيه: أن من أشرك بالله لا يبقى له وسيلة نجاة بل يخذل ويترك للشياطين، فهو صائر إلى النار لا محالة كما أن الذي خرّ من السماء لا يبقى له وسيلة نجاة من الهلكة بل تغلبه الطير، أو الريح التي تصيره في مكان سحيق فلا يدفنه الناس بل تأكله السباع، سواء كان البعد في مهواة من الجبل لا يستطيع الناس بلوغها، أو كان البعد في قفر لا يبلغه الناس وقعت له مهلكة الخرور من السماء وأدته إلى إحدى المهلكتين، وكذلك من أشرك بالله فتولاه الشيطان فأضله وهداه إلى عذاب السعير.

﴿٣٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مثل الأولى أداة انتقال من موضوع إلى موضوع ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿يُعَظِّمْ﴾ أي يُجلّ وينزِّه معالم دين الله انتهى، فشعائر الله: أعلام عبادته: كالكعبة، وعرفات، والمشعر الحرام، فـ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ احترامها وصيانتها عن الشرك وعن اتخاذها لغير الدين وكذلك المساجد، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ﴾.

وقال بعض المفسرين: ((والشعائر: جمع شعيرة، وهي العلامة، وشعائر الله: الأعلام التي نصبها الله تعالى لطاعته، كما قال: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] وقال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ..﴾ الآية [الحج:٣٦] والمراد بها [أي هنا] البدن التي تساق هدياً..)) إلخ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ إن كانت الشعائر هنا عامة لأعلام الدين فتعظيمها من تقوى القلوب وأنث الضمير كما في قول الشاعر:

وما حب الديار شغفن قلبي .....

وإن كانت الشعائر هنا هي هدايا الحجاج التي تهدى إلى البيت وتشعر بشق سنامها في الجانب الأيمن حتى يدمى ليُعلم أنها هدي لتحترم فيصح عود الضمير إليها بمعنى أن إهدائها ونحرها من تقوى القلوب، أي تبعث عليه تقوى القلوب لطلب المغفرة والرحمة، ولا حاجة إلى تقدير مضاف أو أكثر لأنه قدر رجع الضمير إليها باعتبارها من شعائر الله؛ على أن معنى مِن السببية أو الإبتداء وهذا الوجه هو الراجح، أعني أن الشعائر هنا خاصة بالبدن ونحوها.

﴿٣٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): ((عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: في البدنة تُنتَج؟ قال: لا يشرب من لبنها إلا فضلاً عن ولدها.. إلى قوله: ..فإن لم يجد ما يحمل عليه ولدها حمله على أمه التي ولدته وعدله غير باغ ولا عاد ولا متعد. حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام: من اعتل ظهر عليه فليركب بدنته بالمعروف، ورأى رسول الله ص رجالاً يمشون فأمرهم فركبوا هديه ولستم براكبي سنة أهدى من سنة نبيكم ص)) انتهى.

بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ

ففي هذا بيان المنافع في البدن، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالمنافع: شرب ألبانها، وجز أوبارها، وركوب ظهورها)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى حين نحرها إلى يوم النحر أو في اليومين ثانيه وثالثه ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ﴾ اعلم أن محل يصلح مصدراً واسم زمان واسم مكان فجعل غايتها البيت يدل على أنه عبارة عن مكان حِل نحر الهدايا، وأنه مجاور للبيت العتيق منتهٍ إلى البيت العتيق إذ لا يصح جعل البيت غاية للمصدر ولا للزمان إلا بتأويل.

أما جعله غاية لمكان حلها فواضح ليفيد أنه الحرم وهذا هو مذهب الناصر × وعلى هذا فالنحر في منى لأنه من الحرم والحجيج يصيرون إليه يوم النحر لرمي الجمرة ويحتمل تعينه لفعل النبي ص ولصيانة مكة عن الدماء الكثيرة أن تراق حول الكعبة وإن كان الحرم كله مكاناً عند الضرورة كما هو كله مكان حل في العمرة مطلقاً ﴿ٱلْعَتِيقِ﴾ قد مر تفسيره، ويحتمل: أنه القديم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران:٩٦].

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ ﴿مَنسَكًا﴾ موضع نسك كما جعل لنا الحرم ومنى موضع نسك ننحر أو نذبح فيه لله وحده ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ جعل لكل أمة منسكاً ليتقربوا إلى الله بذكر اسمه على ما ينحرون أو يذبحون أي بالنحر والذبح له وحده، فهذا قد جعله الله لكل أمة.

وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا

وظاهره من عهد آدم × لا يخص إبراهيم × وذريته فالمشركون بنحرهم لغير الله وذبحهم عدلوا عن الحق الذي شرعه الله للأمم كلها ﴿فَإِلَٰهُكُمْ﴾ أي إله الموجودين والأمم كلها ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ غير متعدد ولا مركب ﴿فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْ﴾ بعبادته وحده بالنحر والذبح وكل عبادة اجعلوا وجوهكم وأنفسكم له وحده ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

قال الشرفي في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾: ((المتواضعين لله من الخبت، وهو المطمئن من الأرض، يعني المطيعين الخاشعين)) انتهى.

وقال الراغب: ((ثم استعمل الإخبات استعمال اللين والتواضع.)) إلى قوله: ((..﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ أي المتواضعين نحو ﴿لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف:٢٠٦])) انتهى، ثم فسر تعالى ﴿ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فهذه صفات المخبتين المتواضعين لله ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ﴾ أي خافت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ لأنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر فهم يخافون عذاب الله ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ لأنهم يرضون بما ابتلاهم الله به فيصبرون أنفسهم عما ينافي الرضى به من قول أو فعل.

في الحديث النبوي: ((تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب)) وفي حديث آخر: ((ليس منا من حلق، ولا من سلق، ولا من خرق، ولا من دعى بالويل والثبور)) انتهى، وسواء كانت المصيبة في النفس كالمرض أو في أهل أو نحو ذلك أو في المال أو كانت خوفاً أو جوعاً أو نحو ذلك، فالمخبتون صابرون على كل ما أصابهم.

وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا

﴿وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فهذه الخصلة العظمى من صفاتهم كما أنها من صفات كل مؤمن، وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ كما قال تعالى في صفة الأبرار: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧] وهذه صفات المخبتين الباعث عليها الإيمان الصحيح الباعث على تقوى الله وعلى الرغبة في التقرب إليه.

﴿٣٦﴾ ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ﴿وَٱلۡبُدۡنَ﴾ هي الإبل، وسمي بدناً لأنه مُبَدَّنة بالسِمَن)) انتهى، وفي (الصحاح): ((والبدنة ناقة أو بقرة تنحر بمكة، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها)) انتهى، وكذا في (لسان العرب): ((ناقة أو بقرة)) انتهى.

وقال في (الكشاف): ﴿ٱلۡبُدۡنَ﴾ جمع بدنة سميت لعظم بدنها وهي الإبل خاصة؛ ولأن رسول الله ص ألحق البقر بالإبل حين قال: ((البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة)) فجعل البقر في حكم الإبل صارت البدنة في الشريعة متناولة للجنسين عند أبي حنيفة وأصحابه، وإلا فالبدن هي الإبل وعليه تدل الآية)) انتهى.

وأفاد الإمام الهادي × في (الأحكام): ((أن البدنة من الإبل فقط)) انتهى. وأفاد في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): أن البدنة من الإبل؛ لأنه قال: ((حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ قال: معقولة على ثلاث ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ أي

فإذا نحرت ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال: ﴿الْقَانِعَ﴾ الذي يسأل ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض ولا يسأل. حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) في رجل ضلت بدنته فأيس منها فاشترى مثلها مكانها أو خيراً منها قال: ثم وجد الأولى قال × : ينحرهما جميعاً، حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) في البدنة تُنتَج قال: لا يشرب من لبنها إلا فضلاً عن ولدها، فإذا بلغت نحرهما جميعاً)) انتهى.

فقوله: ((معقولة)) يدل على: أنها من الإبل لأنها هي التي تُعقَل، أي تُربَط يدها معطوفة على شكلها حين تكون باركة، وكذلك قوله: فإذا نحرت، وقوله: ينحرهما، وقوله: نحرهما، كل ذلك يدل على أنها من الإبل لأن البقر تذبح ولا تنحر، وكذلك قوله: ((حدثني زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام): من اعتل ظهر عليه فليركب بدنته بالمعروف)) انتهى، فالحاصل: أنها الإبل، والمراد: الإبل التي تهدى إلى البيت.

﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ﴾ أوجدناها لكم وسخرناها لكم وشرعنا لكم إهداءها فبذلك جعلناها لكم؛ لأن الركوب إنما هو للإبل أما البقر فلا تركب في العادة، وقوله تعالى: ﴿مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ قال الشرفي: ومعنى ((﴿مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلام الشريعة التي شرعها الله وأضافها إلى اسمه تعظيماً لها)) انتهى.

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يحتمل خير الدنيا بإصلاح الضمير ومعاونة الفقير وبمعاونته يصلح المجتمع وخير الآخرة الثواب، وأيضاً من الخير منافع أهلها بشرب لبنها وركوبها والأكل منها ويحتمل أن فيها من الخير ما لا نعلمه ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ فاذكروا الله عند نحرها وهي ﴿صَوَافَّ﴾ جمع (صافة) إن أريد صف قوائمها الثلاث في قيامها.

ويحتمل: جمع (صافات) إن أريد أن تصف الإبل صفاً مثل صف المصلين متجهة إلى القبلة فتنحر في حال صفها، وهذا أرجح وحكاه الشرفي عن (صاحب البرهان).

قال الشرفي في (المصابيح): وقال المفسرون: الذكر هو أن يقول عند النحر: (الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، اللهم منك وإليك) وقوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ كناية عن الأمر بنحرها لله وحده لا شريك له، والكناية يراد فيها المعنيان الحقيقي والمجازي، هذا الراجح عندي.

وإن قيل في الكناية تحتمل إرادة المعنيين ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ سقطت جنوبها لأنها تنحر قائمة، وهذا دليل على أن البدن: هي الإبل، وهو ما عناه (صاحب الكشاف) فيما نقلته فيما مر.

وفي كلام حكاه الشرفي عن محمد بن القاسم × : ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ يعني فإذا خرَّت سقوطاً إلى الأرض)) انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ معناه: ((سقطت)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الوجبة: السقطة مع الهدة)) انتهى المراد.

﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ اختلف تفسير (القانع) و(المعتر) قال (صاحب القاموس): ((القُنوع ـ بالضم ـ السؤال والتذلل والرضى بالقسم ضِدّ)) انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): ((القنوع: السؤال والتذلل في المسألة ـ ثم قال ـ : وقال الفراء: هو الذي يسألك فما أعطيته قَبِله ـ ثم قال ـ : وقال بعض أهل العلم: إن القنوع قد يكون بمعنى الرضى، والقانع بمعنى الراضي وهو من الأضداد)) وأنشد:

وقالوا قد زُهِيتَ فقلت: كَلاَّ ولكني أعزَّني القنوع))

انتهى المراد.

وفي (أساس البلاغة) للزمخشري: ((العز في القناعة، والذل في القنوع وهو السؤال، وفلان قنع بالمعيشة وقنيع وقنوع وقانع، أنشد الكسائي:

فإن ملكت كَفَّاك قَوطاً فكن به قنيعاً فإن المتقي الله قانع))

انتهى المراد.

ولكونه من الأضداد وقع الإختلاف فيه من حيث هو في الآية الكريمة، ففي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي ؛ .. إلى قوله:.. ((﴿فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ قال: ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ الذي يسأل ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض ولا يسأل)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): فـ﴿ٱلْقَانِعَ﴾ السائل، وقال: الجالس في بيته ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ الذي يأتيك ولا يسألك، وفي (أحكام الإمام الهادي) × : ((﴿ٱلْقَانِعَ﴾ المتعفف لا يسأل مع الحاجة، ﴿وَٱلْمُعْتَرَّ﴾ السائل)) ورواه فيها عن جده القاسم ومثله في (أمالي أحمد بن عيسى إ) عن القاسم × .

وقد أفادت الآية الكريمة: الأمر بإطعامهما، سواء كان (القانع) السائل أم الذي يتعفف عن السؤال وهو محتاج، والمعتر الذي يتعرض ولا يسأل أم الذي يسأل، قال في (لسان العرب): ((والمعتر الفقير..)) إلى أن قال: ((.. عراه واعتراه وعرَّه يعُرُّه عَرّاً واعتَرَّه واعتَرَّ به إذا أتاه فطلب معروفه..)) إلى أن قال: ((.. قال جماعة من أهل اللغة: القانع الذي يسأل، والمعتر الذي يطيف بك يطلب ما عندك سأل أو سكت عن السؤال)) ثم قال: ((وأصله من قولك: عررته عَرّاً فأنا عار إذا أتيته تطلب معروفه، واعتررته بمعناه)) انتهى، فوجه تفسير الإمام القاسم × : أنه قد فسّر (القانع) بالمتعفف الذي لا يسأل مع الحاجة، فاستلزم ذلك تفسير (المعتر) بالسائل لمقابلته بـ(القانع) مع صلاحية لفظ (المعتر) لـه.

لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ

﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ﴾ كذلك التسخير للبدن المهداة سخرنا لكم الإبل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي تشكرون نعمة الله عليكم إما مطلقاً وإما نعمته بالإبل.

﴿٣٧﴾ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا﴾ لأنه يطعِم ولا يطعَم ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ إشارة إلى ما يفعل المشركون بأصنامهم حين يضمخونها بدم ما يذبحون لها، ولأن الدم نفسه ليس المقرب إليه ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ والتقوى اجتناب معاصي الله والتوبة إلى الله.

فإن قيل: التقوى غير الهدايا أو الهدايا جزء من التقوى متى كانت واجبة فما علاقة التقوى هنا بالهدايا؟

فالجواب: إن التقوى أساس قبول العمل؛ لأن الله تعالى قال فيما حكاه مقرراً له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فالمعنى: يناله التقوى والهدايا متى كانت من التقوى، ونظير هذا قوله تعالى في الصلاة إلى بيت المقدس قبل النسخ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ مشاكلة لقوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ﴾ والمعنى لن يتقبل ولكن يتقبل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ التسخير ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ قال في (الكشاف): ((اختصر الكلام بأن ضمن التكبير معنى الشكر وعدِّي تعديته)) انتهى.

يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ

يعني: أنه عدي التكبير بـ﴿عَلَىٰ﴾ لأجل تضمينه معنى الشكر، ثم قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فأفاد: أن نحر البدن لله من عمل المحسنين وتفسير ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مذكور في أول (سورة لقمان). انتهى موضوع (الحج) وتوابعه ويأتي موضوع (الجهاد).

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿يُدَٰفِعُ﴾ فعل مضارع يصلح للحال والإستقبال، والمدافعة عن جملة المؤمنين لا يلزم منها الدفع عن كل شخص ولكن معناها يدل بالإلتزام على النصر متى كانوا جنداً متوحداً متمسكاً بشروط النصر ومنها الصبر، نعم ومن النصر التأليف بينهم حتى يتوحدوا ويصبروا، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ تعليل للدفاع عنهم بأنه تعالى لا يحب أعداءهم الخونة الكفرة.

قال بعض المفسرين: ((وإنما كانوا مكثرين في الخيانة والكفران، لأن الله حملهم أمانة الدين الحق، وجعلها وديعة عند فطرتهم لينالوا بحفظه ورعايته سعادة الدارين وعرفهم إياه من طريق الرسالة، فخانوه بالجحد والإنكار وغمرهم بنعمه الظاهرة والباطنة فكفروا بها ولم يشكروه بالعبودية)) انتهى.

قلت: ومن نعمة الله على قريش إنزال الكتاب فيهم وإرسال الرسول منهم فكفروا هذه النعمة إلا من آمن وحاربوا رسول الله ص بعد إخراجه من بلده وصدوه عن المسجد الحرام، فلعل الله سماهم ﴿كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ لكفرهم هذه النعمة وكذلك خيانتهم بالمؤامرة ضد الرسول.

﴿٣٩﴾ ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿أُذِنَ﴾ أَذِن الله للذين يقاتلهم الكفار أن يقاتلوا الكفار، وقد كان المؤمنون

بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

قيل لهم: كفوا أيديكم، فلما كانوا في وقت وقعة بدر أذن لهم ووعدهم إحدى الطائفتين أنها لهم، وأشار إلى علة للأذن ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ ظلمهم الكفار بإخراجهم من ديارهم وتعذيب بعضهم وغير ذلك ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ تشجيع لهم على الجهاد بأن يكونوا راجين للنصر وإن كانوا أذلة قليلي العدد والعدة كثيري الأعداء.

﴿٤٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دِفَاعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ﴾ من صفات الذين أذن لهم ﴿أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ اضطروا إلى الهجرة أولاً: إلى (الحبشة) وثانياً: إلى (طيبة) أخرجوا ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي بغير حق للكفار الذين أخرجوهم لم يكن لهم حق في أن يخرجوهم ﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطع والمعنى ليس لهم سبب لإخراجهم إنما أخرجوهم لئلا يقولوا ربنا الله أي لئلا يوحدوا الله ويعبدوه وحده ويبرؤوا من الشرك؛ لأن ربهم الله أي المالك لنا هو الله وحده ونحن عباده وحده، فعبادة غيره باطل؛ لأن كل من سوى الله عبد مربوب.

﴿وَلَوْلَا دِفَاعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي بالجهاد ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ﴾ يعبد الله فيها حين كان الترهب غير مذموم ﴿وَبِيَعٌ﴾ للعبادة يعبد الله فيها النصارى قبل نسخ شريعتهم ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ تركت خوفاً من الكفار، وبعض المفسرين فسر الصلوات بمواضع صلاة ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ هدمت كل ذلك لولا الجهاد لبطل دين الله بغلبة الكفار ومحاربتهم له، وهذا ـ أيضاً ـ تعليل لتشريع الجهاد يبين أنه ضروري لحماية دين الله وإحياء ذكر الله كثيراً.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ﴿مَن﴾ عبارة عن الجند والحزب؛ لأن السياق في الذين يقاتلون الذين أذن لهم وكانوا جنداً، فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات:١٧٣] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٦] وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ..﴾ الآية [الأنفال:٦٥-٦٦] وهذا في المجاهدين في سبيل الله، والنصر ـ أيضاً ـ يشرط فيه طاعتهم لقائدهم وترك التنازع والتوبة إلى الله واجتناب الغلول والتزام طاعة الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران:١٥٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ تأكيد للوعد بالنصر ودلالة على أنه لا يستبعد نصر الأقلين المستضعفين؛ لأن الله تعالى إذا أراد نصرهم فهو قوي عزيز، وأكد ذلك بـ(إن) و(اللام) ليذهب استبعادهم للنصر، ويقوى رجاؤهم له.

﴿٤١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من صفات الذين أذن لهم في القتال ﴿إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بنصرهم على أعدائهم ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهذه من صفة المؤمنين الثابتين على الإيمان في حال أن قد تمكنوا في الأرض.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ

﴿وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ لأن مهمتهم إقامة دين الله ودفع الباطل ودفع التظالم ودفع الفساد في الدين فبهم يحيى الحق ويخمل الباطل؛ ولذلك فهم أهل لأن يأذن الله لهم في القتال وينصرهم ويمكن لهم في الأرض ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ يقدر فيها ما يشاء ويهيئ لها ما يشاء، فمتى أراد أن تكون العاقبة النصر هيأ لها أسبابه.

قال سيد قطب في سياق تفسير هذه الآية: ((هؤلاء هم الذين ينصرون الله، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة، معتزين بالله وحده دون سواه، وهؤلاء هم الذين يعدهم الله بالنصر على وجه التحقيق واليقين فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته المشروط بتكاليفه وأعبائه والأمر بعد ذلك لله يصرفه كيف يشاء، فيبدل الهزيمة نصراً، والنصر هزيمة عندما تختل القوائم أو تهمل التكاليف ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

إلى قوله: ((..وهو نصر له سببه وله ثمنه وله تكاليفه وله شروطه فلا يعطى لأحد جزافاً أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه)) انتهى.

﴿٤٢-٤٤﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ يا محمد ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أمم كذبوا رسلهم وكذبوا بآيات الله التي جاءتهم بها رسلهم، وقد مرت قصصهم مفصلة في سور منها: (سورة الأعراف)، و(سورة هود)، و(سورة النحل).

عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ عدل به عن أسلوب المذكورين قبله هنا وفي (سورة الشعراء) ولعل شعيباً أرسل إلى قبيلتين إحداهما قومه والأخرى بينه وبينهم علاقة ومعرفة بسبب أنهم مثلاً أخواله أو صهوره فكان بعض أصحاب مدين قومه وبعضهم غير قومه ـ والله أعلم، وكذلك قال تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ لأن موسى من بني إسرائيل وأرسل إلى فرعون وملائه وهم من القبط، ففي هذه الجملة تسلية لرسول الله ص في تكذيب قومه له.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ تسلية أيضاً لرسول الله ص في الإملاء لقومه حيث أمهلهم الله نحو ثلاث عشرة سنة بل أكثر، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ دلالة على أن الإمهال ليس معناه الإهمال وإنما هو لحكمة ثم يأخذهم، ولعله تعالى قد أخذ بعضهم في خلال المدة المذكورة لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] ثم أخذ منهم سبعين يوم بدر ثم عدداً منهم يوم أحد، ثم في بقية المعارك بينه وبينهم وبينه وبين اليهود ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي أنه كان شديداً على الكافرين، وفسره في الآية التي بعد هذه، وفي هذا فائدتان: التسلية لرسول الله ص بأن لهم نهاية تكون فرجاً له، والإنذار للمكذبين.

قال الشرفي في تفسير هذه: ((أي كيف إنكاري عليهم بالعذاب وتغييري)) انتهى المراد، وقال (صاحب الصحاح): ((والنكير والإنكار: تغيير المنكر)) انتهى.

﴿٤٥﴾ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ ﴿فَكَأَيِّن﴾ أي فكم ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ وهذا تكثير للقرى التي أهلكها.

تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن

وقوله تعالى: ﴿قَرْيَةٍ﴾ كناية يريد فيها الحقيقة والمجاز فليس كقوله: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] فمن حيث أراد تعالى أهلها قال: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ومن حيث أراد الحقيقة، قال تعالى ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة حيطانها على سقوفها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أي وكم من بئر معطلة أي متروكة لا يؤخذ من مائها؛ لأن أهلها قد هلكوا لم يبقَ منهم أحد ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ أي وكم من قصر مشيد معطل غير مسكون.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: مزيَّن بالشِّيد، وهو الجص والجيّار)) انتهى، أي معنى ﴿مَّشِيدٍ﴾ وقال في (الصحاح): ((والجيّار: الصَّاروج، قال الأخطل يصف بيتاً:

كأنها بُرْجُ رومِيٍّ يشيِّده ... لُزَّ بطين وآجُرٍّ وجيَّار

انتهى، وقال في (الصحاح): ((الصاروج: النورة وأخلاطها فارسي معرب)) انتهى، قال الشرفي في (المصابيح): ((أي وكم من قصر مشيد أي أخلينا عن ساكنه فترك ذلك لدلالة ﴿مُّعَطَّلَةٍ﴾ عليه)) انتهى، ومثله في (الكشاف).

﴿٤٦﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ أي هؤلاء الكافرون الذين أذن الله لرسوله بقتالهم، والسؤال بمعنى النفي، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح:١] و(الفاء) للتفريع على قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي قد ساروا في الأرض ورأوا آثار القرى أو بعضها التي أهلكها الله.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ منصوب في جواب السؤال أي إن من شأنهم إذا ساروا في الأرض وشاهدوا آثار القرى المهلكة أن يعتبروا بهم ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ فيفكرون في آيات الله الدالة على صدق رسول الله في إنذاره لهم وفي كل ما جاء به عن الله ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ آيات الله سماع تفهُّم وطلب لمعرفة الحق بأن مشاهدة آثار قرى المهلكين تثير الإعتبار في القلوب السليمة الباقية على فطرتها، أما إذا كانت القلوب لا يؤثر فيها ذلك لفسادها وتحولها عن فطرتها، فإنها لا يفيدها شيء، فكأن من لا يعتبر بشيء من تلك القرى كالأعمى الذي لا يبصر، بل هو أسوأ حالاً لأن أعمى البصر يستعين بمن يهديه من قائد أو غيره وبما يهديه من عصى ولمس وسمع، أما أعمى القلب فهو معرض عمن يهديه ولا يتطلب الهدى بأي وسيلة.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ قال (صاحب الكشاف): «فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار [أي مجازاً] احتاج هذا التصوير إلى زيادة وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار كما تقول: لبس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته للسانه..» إلى قوله: «..وكأنك تقول: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبتَّه للسانك فلتة ولا سهواً مني، ولكني تعمدت إياه بعينه تعمداً» انتهى.

قلت: وهذا يبطل القاعدة التي تقول: علامة المجاز صحة نفيه، ومثله قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً ... كاسفاً بالُه قليل الرجاء

قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

ومنه الحديث الشريف: ((ليس المسكين هذا الطواف عليكم تردُّه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان)) قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: ((الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس)) انتهى.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ عطف على بيان أنهم عمي القلوب فكأنه تعالى قال: ومع ذلك يستعجلونك يا محمد ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ يطالبونك بتعجيل العذاب تكذيباً منهم بوقوعه أي عجِّله إن كان واقعاً ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ فالعذاب واقع بهم لا محالة سواء عجله الله أم أخره ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ﴾ أي في قدرته وعلمه ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ فلو شاء لعجل لهم العذاب.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وأما الهادي × فقال: المعنى في ذلك أنه إخبار من الله سبحانه عن نفاذ قدرته وإمضاء مشيته وسرعة فعله يخبر سبحانه أنه ينفذ في يوم واحد ما ينفذه جميع الخلق إذا اعتونوا عليه في ألف سنة..)) الخ، وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ تحقيق للسنين المذكورة، بأنها هذه السنون التي هي اثنا عشر شهراً.

﴿٤٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذه من الرد على استعجالهم بالعذاب تفيد: أنهم متعرضون للعذاب العاجل كما عذب الله القرى قبلهم وتبين أن الإملاء ليس معناه أنه لا يعذب المكذبين، فعلى هؤلاء المكذبين أن يحذروا ولا يستعجلوا تكذيباً بالرسول فالماضي تجربة لهم إن عقلوا.

لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٢﴾ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يذكر بالجزاء بالآخرة وأن هلاكهم العاجل لم يكن نهاية أمرهم، بل لا بد من مصيرهم إلى الله في موقف الحساب والجزاء، وتلك المهمة العظمى التي يقول عندها الشقي: ﴿يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة:٢٧].

﴿٤٩-٥١﴾ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ * فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ * وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للناس كافة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ ليس علي إلا إنذاركم إنذاراً بيناً بالحجة الواضحة وليس علي أن أكرهكم على الإيمان ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما جئت به من الآيات وبما أنذرتهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كما بلغتهم ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾للذنوب الماضية قبل الإيمان من الشرك وغيره ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فهم نفعوا أنفسهم والرزق الكريم في الجنة الباقية أبداً ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ بالجدال فيها كفراً بها فما ضروا إلا أنفسهم فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ قال الشرفي: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي مغالبين)) انتهى.

﴿٥٢﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦۗ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ عطف على الكلام في المكذبين، أو على آخر آية فيهم التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أي من قبلك يا محمد فلك فيهم أسوة، وقوله تعالى: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يترجح أن فيه اختصاراً والمعنى: ولا نبأنا من نبي؛ لأن النبي الذي ينبأ بالوحي إليه بشريعة والرسول الذي يرسله الله إلى أمة بشريعة كما يفيده معنى الكلمتين في اللغة.

فالنبي إذا أرسل صار رسولاً لأن كل رسول نبيء فيكون عطفه على رسول مشكلاً، فلذلك ترجح تقدير: نبأنا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة:٢٤٦] أي وأبعدنا من أبنائنا.

قال في (مغني اللبيب) في أقسام العطف: ((والثاني عشر: عطف عامل، حذف وبقي معموله على عامل آخر مذكور، يجمعهما معنى واحد كقوله:

وزججن الحواجب والعيونا

أي وكحلنا العيون، والجامع بينهما التحسين)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ قيل في تفسير ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾: قرأ، وقيل: تمنى على حقيقته فقوله تعالى: ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ الملقى محذوف، والمعروف من فعل الشيطان الوسوسة والتضليل، فالمعنى ألقى وسوسة في صدق ما قرأه النبئ وإن كان تمنى ذكر أمنية كتمني النصر للدين، فكذلك يوسوس الشيطان فيما ذكره أنه لن يكون، والتمني هنا إظهار الرغبة في تعجيل ما يرجوه لا تمني المستحيل، ومنه قول محمد بن عبد الله النفس الزكية × :

متى ترى للعدل نوراً وقد ... أسلمني ظلم إلى ظلم
أمنية طال عذابي بها ... كأنني فيها أخو حلم

فالوسواس في مثل هذا وسوسة الشيطان في صدق رؤيا رسول الله ص ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ..﴾ الآية [الفتح:٢٧] وفي مثل ما يروى عنه ص أنها ستفتح لـه كنوز كسرى وقيصر.

فأما رواية (الغرانيق) فأكتفي فيها بكلام الإمام القاسم بن محمد × نقله الشرفي في (المصابيح) فقال: ((وما أحسن قول إمامنا المنصور بالله القاسم بن محمد × بن رسول الله ـ رحمة الله عليه ـ جواباً لمن سأله ما صحة ما في (الكشاف) فقال × ما هذا لفظه: اعلم أن التمني مصدر والأمنية واحدة الأماني وهي اسم من التمني وهو مشترك، وكذلك الأمنية لأنها فرعه والمراد بهما في الآية الكريمة القراءة إذ هي أحد معانيها، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:٧٨] أي إلا قراءة من دون فهم ما أراد الله به، وقال كعب بن مالك:

تمنى كتابَ الله أوَّل ليله ... البيت

أي قرأ [في الأم اقرأ وهو غلط.تمت منه] وبذلك فسر كثير غير جار الله ومن وافقه [وبعضهم] فسروه بالتمني المعروف الذي هو محبة النفس لشيء غير حاصل والصحيح الأول وسأبين لك وجهه في أثناء جوابي إن شاء الله تعالى.

ثم اختلفوا في تأويل ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ فذهبت الحشوية وتابعهم جار الله إلى أن الشيطان لعنه الله ألقى على لسان رسول الله ص وحاشاه عن ذلك بعد تلاوته في (سورة النجم) قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [آية:١٩-٢٠] ما اخترصوه زوراً وتَجَارياً على الله تعالى من قولهم: تلك الغرانيق العلى..الخ، قالوا: كان ذلك في حال سهو من رسول الله ص واعتذر جار الله بقوله: وكان تمكين الشيطان محنة من الله ، عزَّ وجلَّ ـ وابتلاء زاد المنافقون به شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً

وإيقاناً [انتهى] وذلك باطل؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وقال تعالى: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت:٤٢] ويقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] ﴿[إِنَّهُ] لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل:٩٩-١٠٠].

فإذا كان كما يفترون وقد تمكن إبليس ـ لعنه الله ـ من صرف قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾ [النجم:١٩-٢٠] عن إحكامها إلى أبطل الأباطيل لمّا جعله لعنه الله صدر مدح [بزعمهم لها] الأصنام على لسان نبيه سيد الأنام طهرهما [أي الآية والرسول ص] الله عن ذلك، ومن أين لا سلطان له على المؤمنين وقد تمكن [بزعمهم] من رسول [الله] رأس المؤمنين وزعيمهم، ثم العجب من اعتذار جار الله حيث جعل كلام إبليس شبيهاً بسورة [من] القرآن حيث ازداد المنافقون شكاً وظلمة والمؤمنون نوراً وإيقاناً، ولا يعلم شيئاً كذلك إلا ما يقول الله تعالى: وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ(١٢٤)وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

وإذا كان كلامه [لعنه الله] نوراً للمؤمنين فقد صار صديقاً لهم لما منحهم منه من اليقين الحاصل بسببه، وإذا كان صديقاً فما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦] فليس هو عدواً إلا لحزبه خاصة، ولو في وقتٍ مَّا فيالَله من أمة ضلت عن هداتها.

وذهبت أئمة أهل البيت ـ صلوات الله عليهم وعلى جدهم ـ إلى أن معنى الآية غير ذلك؛ لأن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ لا يجوز عليهم السهو والغلط في مثل ذلك وإلا لم نأمن وقوعه في سائر الشرائع، وقد وقفت على تفسير لبعضهم (عليهم السلام) مجملاً ولم أقف على تفسير حال رقمي هذا الجواب مفصلاً لأحد منهم..)) الخ.

وذكر الشرفي في (جواب للقاضي عياض) يذكر فيه أن رواية الغرانيق باطلة، وأنه لم يروها أحد من (أهل الصحاح) ورد عليه ابن حجر في (حاشية الكشاف).

قلت: الرواية سواء كانت موضوعة بالنسبة إلى سندها أم كانت ضعيفة أم قوية عند من يقبل المرسل فهي باطلة لا تُلْجِئ إلى التأويل الذي ذكره (صاحب الكشاف) وإنما يحتاج إلى التأويل فيما كان ثابتاً، وفي القرآن كفاية لإبطال الرواية وغنية عن التأويل للتمكين المزعوم!

﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِى ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾ أي يبطله ويذهب مثل: نسخت الشمس الظل، فإن كان التشكيك في القراءة فهو مثل التشكيك في صدق الوعيد بـ﴿سَقَرَ..﴾ ﴿...عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر:٣٠] وأحكام الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً﴾ الآية [المدثر:٣١] وغير ذلك، وإن كان بالتشكيك في الأمنية التي هي مثل النصر على كسرى وقيصر ومثل دخول ﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ..﴾ الآية [الفتح:٢٧] فنسخ التشكيك بتكرر النصر بما فيه عبرة بحيث لا يستبعد نصر الله لرسوله، وإظهاره لدينه حتى ينتصر المسلمون ويدخلوا المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، ويغنموا كنوز كسرى وقيصر.

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بجعلها واضحة لا سبيل للشيطان إلى التشكيك فيها، وهذا يشير إلى أن ما ألقى الشيطان فيه كان من المتشابه الذي يتبعه الذين في قلوبهم زيغ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فجعل المتشابه وهو عليم بما يلقي الشيطان فيه وهو حكيم بذلك وفي كل شيء من أقواله وأفعاله سبحانه وتعالى.

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ مكن الشيطان من إلقاء وسوسته في الأمنية أو في القراءة ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من وسواسه ﴿فِتْنَةً﴾ واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك في صدق الرسول ص فيظهر به أمرهم.

﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ الذين لا تتأثر قلوبهم من سماع آيات الله تتلى عليهم وما فيها من الوعيد لا يفيدهم خوفاً فيظهر منهم الجدال في آيات الله أو في صدق رسول الله في أمنيته لأن المتشابه يكون عندهم فرصة للجدال به ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ فبظلمهم لا يتحرجون من الشقاق لله ولرسوله بعيدين من الإيمان والطاعة بل يشاقون بالجدال في آيات الله والتشكيك في صدق القرآن وصدق الرسول ظلماً وانقياداً للشيطان.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومكن

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ

الشيطان من إلقاء وسواسة في قراءة الرسول أو أمنيته ثم نسخه وأحكم آياته ﴿لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الذين هداهم الله للنظر الصحيح فعلموا أن الرسول حق وأن القرآن حق، فقالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران:٧] وعلموا أن وسواس الشيطان باطل وأن كلام الله وكلام رسوله هو الحق وما قرأه الرسول وما تمناه كله حق من رب الرسول الذي آتاه القرآن وأرسله بالحق ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ بالقرآن أو بما قرأه وما تمناه ويرفضوا وسواس الشيطان ويدفعوه بالنظر الصحيح في دلائل صدق الرسول ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج:٥٤] ولذلك لا يرتابون عند عروض الأسباب التي يرتاب لأجلها الذين في قلوبهم مرض بل يزدادون إيماناً وتسليماً أن هدى الله هو الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ قال في (الصحاح): ((والإخبات: الخشوع، يقال: أخبت لله وفيه خَبْتَة أي تواضع)) انتهى.

وفي (مصابيح الشرفي): ((أي تخشع وتواضع لذكر الله وتلين لا كالمشركين القاسية قلوبهم من ذكر الله)) انتهى، وقوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ﴾ أي للذي يؤمنون به.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هنا كافرون معينون تمردوا وقست قلوبهم فخذلوا وبعُدُوا عن اليقين بالقرآن، وهذا يرجح أن الضمائر للقرآن في الآية الماضية في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ﴾ والمرية: الشك، والساعة البعث وما بعده، فهم يبعثون على ما ماتوا عليه.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ

فإذا شاهدوا أهوال القيامة أو إذا أتاهم عذاب يوم عقيم آمنوا حين لا ينفع الإيمان، فاليقين منهم يحصل بإتيان الساعة أو إتيان عذابهم، وليس في هذا تكرار؛ لأن الساعة أولها البعث، فإذا بعثوا فقد أتتهم الساعة، والعذاب عذاب جهنم وهو لا يقارن البعث.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال الحسين بن القاسم × : العقيم: هو المعقوم الممنوع من رحمة الله الكريم)) انتهى المراد. وهذا في حق أعداء الله يكون يوم الحساب والجزاء عقيماً عليهم لا يفيدهم خيراً قط، بل هو شر خالص دائم.

﴿٥٦-٥٧﴾ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِۚ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ﴾ يوم إذ تأتيهم الساعة ويأتيهم عذاب يوم عقيم الملك ﴿لِّلَّهِ﴾ وحده لا ينازعه أحد فالأمر لله وحده والحكم له وحده ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بين المؤمنين والمرتابين الكافرين ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا بيان الحكم للمؤمنين والذين كفروا بيان الحكم عليهم فهو حكم يلزمه وقوع المحكوم به ماله من دافع؛ لأن الملك يومئذ لله وحده، أو هو نفس الحكم إثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين وإهانتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يحتمل: كفر النعمة لأن كفر الجحود قد دل عليه التكذيب بالآيات، ويحتمل: الجحود لأنه مقابل الذين آمنوا، ولا ينافيه ذكر التكذيب بالآيات لأن الجحود باليوم الآخر وبالرسول استلزم التكذيب بآيات الله، كأنه قيل: جحدوا لأنهم كذبوا بآياتنا، وهذا أوفق للسياق من أول السورة فهو أرجح.

ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ

﴿٥٨-٥٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ * لَيُدۡخِلَنَّهُم مَّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ هذا ترغيب في الهجرة لئلا يمنع المؤمن خوف القتل أو الموت، فالقتل والموت ليس نهاية أمرهم بل يستقبلون رزقاً حسناً من الله ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه كريم لا يصعب عليه الكثير من الرزق لأنه على كل شيء قدير وهو بكل شيء عليم، فلا يخفى عليه كيف يجعل الرزق حسناً.

﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مَّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾ وهو الجنة أو إدخال الجنة، وكيف لا يرضونه وينسون به ما لحقهم في الدنيا من مشاق الهجرة والقتل أو الموت ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ فهو يعلم ما يرضيهم ﴿حَلِيمٞ﴾ فهو يغفر لهم ما سبق منهم فتابوا منه وما هو صغير لا ينقص من نعيمهم لأجله.

﴿٦٠﴾ ﴿ذَٰلِكَ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مر الكلام فيها وحاصله أنها تقال لأن ما بعدها كلام في موضوع خلاف موضوع ما قبلها، وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ..﴾ إلى آخر الآية تشجيع على إعادة العقاب وتكراره كلما تكرر العدوان إلا أن السياق في الذين هاجروا فالعطف بقوله تعالى ﴿وَمَنۡ﴾ متعلق بالمهاجرين؛ لأن الكفار كانوا قد ظلموهم بمكة قبل الهجرة، وقوله تعالى: ﴿بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ أي بمثل ما اعتدي عليه به.

فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمۡ تَرَ

وقوله تعالى: ﴿عُوقِبَ﴾ مشاكلة أو سمي الكل من الإبتداء وما تعقبه كله معاقبة؛ لأنه مداولة ومناوبة كالمعاقبة بين المسافرين يمشي أحدهم عقبته في المشي ويركب تارة وهكذا غيره، والأول أوضح فهو أرجح، فمن اعتدى عليه المشركون فعاقبهم بمثل عدوانهم ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ وعد مؤكد بـ(اللام) و(نون التوكيد) فهذا كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] في أنه ترغيب في الإنتصار، ولعل ذلك ليحافظ المؤمن على عزته، فأما العفو فهو أفضل لكن عند قوة المظلوم وضعف الظالم فالإنتقام حينئذ سهل لكن العفو عند القدرة أفضل؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فأما الطغاة الظالمين فلا يستحقون العفو عنهم؛ لكونهم مصرين على ظلمهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تعليل للنصر فهو للمؤمن عفو ومغفرة، كما قال نوح × : ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١] لأن الله تعالى لو شاء منعه النصر لأجل زلاته كما أن الكبائر تمنع النصر.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ النصر بقدرة الله الذي ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فيقلب الحالتين وهو تصرف عظيم لا يقدر عليه غيره وفيه إشارة إلى تبديل حالة المؤمنين من الضعف إلى القوة وحالة أعدائهم من القوة إلى الضعف بواسطة نصر المؤمنين والله أعلم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ فلا يخفى عليه حال المظلوم والظالم.

أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى

﴿٦٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل بسبب أن ﴿ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأن ذلك دليل عليه وعلى قدرة لا تماثلها قدرة مخلوق فهو الخالق الرازق الذي يستحق العبادة وأن ما يدعو المشركون من دون الله ﴿هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لعجز شركائهم عن النفع والضر وكونهم عباداً مملوكين لله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ لأنه قادر على كل شيء عليم بكل شيء ولذلك خالف بين الليل والنهار بمقادير محدودة محكمة على نظام دقيق في الشتاء والصيف.

﴿٦٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وفي ذلك دلائل على قدرته وعلمه وإنعامه على عباده فهو ربهم المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وفي قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي بالنبات دلالة على قدرته على إحياء الموتى كما أحيى الأرض بعد موتها، ففي هذه الآية رد على المشركين بتقرير أن الله هو القادر العالم الخالق الرازق وبتقرير إمكان البعث وأنه غير بعيد في قدرة الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ لما يشاء يكونه من حيث لا يحتسب المخلوق ﴿خَبِيرٌ﴾ عليم بخبر المخلوقين من صلاح وفساد، فلا بد من البعث للجزاء.

﴿٦٤﴾ ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ فالملائكة له عباد وما في الأرض كله له، فأصنام المشركين

فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ

ومعبودوهم كلها عباد لله ليس لها شيء من الربوبية ولا الإلهية ولا الملك والله هو رب من في السموات ومن في الأرض فهو المستحق أن يعبدوه ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن عبادتهم ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد لإسباغه النعم على عباده، سواء شكروا أم كفروا.

﴿٦٥﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه وإنعامه على الناس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من جبالها ونباتها وحيوانها لكل حيوان منفعة للإنسان وغير ذلك.

﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾ سخرها لنا ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ للرياح أن تسيرها ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ ولو أذن لهما لتصادمتا، وهكذا الأرض والنجوم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ حيث يسر لهم المعيشة في الأرض بتيسير حاجاتهم في الأرض وتيسير سفرهم في البحر وسلامتهم من وقوع السماء عليهم فكل ذلك رأفة ورحمة، والرأفة أبلغ من الرحمة، وهو تعالى منزه عن الرقة ولكنه يفعل بعباده ما هو رأفة ورحمة.

فائدة: قال بعض المفسرين: ((وقد اختصت هذه الآيات بخصوصية لا توجد في جميع القرآن الكريم إلا فيها فهي ثمان آيات متوالية ختمت كل منها باسمين من أسماء الله الحسنى وراء لفظ الجلالة..)) الخ.

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن

قلت: وهي وآخر (سورة الحشر) لا تكاد تتوافق إلا في ﴿عَلِيمُ﴾؛ لأنه في آية الحشر: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ [آية:٢٢] وإلا في اسمه تعالى ﴿الرحيم﴾ فأما اسم الجلالة فهو في كل آية هنا وهناك، فالأسماء الواضحة في هذه الآيات خمسة عشر وفي آخر (الحشر) خمسة عشر، تكون تسعة وعشرين والجلالة توفيها ثلاثين، وفي سائر القرآن أسماء مفرقة ففي أول (سورة الحديد) اختصت بخمسة و (سورة الصمد) اختصت باسمين، واختصت (آية الكرسي) بثلاثة، وأسماء الله تعالى في القرآن كله كثيرة، وقد جمعت منها في كتيب جملة مفسرة ـ والحمد لله.

﴿٦٦﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ﴾ ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] هذا رد على المشركين في شركهم وفي تكذيبهم بالبعث استبعاداً لقدرة الله تعالى عليه مع أنه قد أحياهم أول مرة، وهو المتصرف فيهم كيف يشاء بحياة أو موت لا دافع لأمره من شركائهم ولا من غيرهم فله الخلق وله الأمر، والإنسان كثير الكفر، لأن الآيات البينات كثيرة آيات الكون وآيات القرآن المعجز، وذلك كله لا يمنع أكثر الناس من الكفر.

﴿٦٧﴾ ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ ما أنت يا محمد بدعاً من الرسل ولا شريعتك بدعاً من الشرائع فقد جعلنا ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ ﴿مَنسَكًا﴾ أي عبادة وشريعة وكلها دين واحد تحت عنوان (الإسلام) ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عاملون

جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧٠﴾ وَيَعۡبُدُونَ مِن

به فاعمل بمنسكنا الذي جعلنا لك فلا تترك للكفار فرصة ليجادلوك في الأمر الذي جاءك من الله ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ غير مبال بهم ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا ينحرف عن الحق أبداً.

﴿٦٨﴾ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ أي الكفار ﴿فَقُلِ﴾ لهم بدلاً من جدالهم ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو يحاسبكم ويجازيكم.

﴿٦٩﴾ ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾ بينك وبينهم أو الله يحكم ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ أيها الناس كلكم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ في الدنيا فيتجلى الحق لكم أجمعين ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠].

﴿٧٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ قد علمت ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو على كل شيء شهيد وهو يحكم بين عباده فيما قدموا لا ينسى شيئاً منه ولا يغلط وهذا معنى ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ﴾ مجاز أي إنه محفوظ لا ينسى منه شيئاً ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لأنه واجب له العلم بكل شيء فلا يتكلف علماً ولا حفظاً.

دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

﴿٧١﴾ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ﴾ ومع أن الله يحكم بين عباده يوم القيامة ومع أنه يعلم ما في السماء والأرض ولا ينسى شيئاً مع ذلك كله يعبد المشركون من دون الله ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ يحتجون به ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ يفيده نظر صحيح فيما يعبدون أو في الكون لم يعتمدوا على سمع ولا عقل، فشركهم ظلم عظيم؛ لأنهم يعلمون أن الله الذي خلقهم ورزقهم فتركوا موجب هذا بدون مستند فما لهم من نصير لا شركاؤهم تنصرهم ولا غيرها.

﴿٧٢﴾ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ مع جهلهم واعتمادهم على هوى أنفسهم وعبادة شركائهم بدون حجة فهم في أشد الحاجة إلى سماع آيات الله لتنقذهم من شر جهلهم ومن شفا حفرة من النار، فإذا تتلى عليهم آيات القرآن الذي هو من الله آيات ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ الدلالة يفهمها السامع الذي يريد أن يفهم وينتفع إذا تتلى عليهم استكبروا وغضبوا حتى يعرف في وجوههم الغضب والعداوة للقارئ عليهم ﴿يَكَادُونَ﴾ من الغيظ ﴿يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ لأنهم يجدون الآيات الكريمة تبين بطلان شركهم ويخافون أن يتبعها الناس ويتركوا الشرك الذي يتعصبون له.

تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ

قال في (الصحاح): ((السطوة: القهر بالبطش)) انتهى، وعلى هذا فهم يكادون يبطشون ليقهروا القارئ حتى يسكت عن النكير عليهم والدعوة إلى الله.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ إذا كرهتم هذا القرآن وشق عليكم ما تسمعون منه أنبئكم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ تصيرون إليه إن بقيتم على كفركم ﴿ٱلنَّارُ﴾ هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ لمن صار إليه هي أي تلك النار.

﴿٧٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ كثر في القرآن الحكيم نسبة الضرب إلى المثل، قال الراغب: ((وضرب المثل هو من ضرب الدراهم)) انتهى، فمعنى ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ صنع وصيغ دلالة على إحكام المثل، قال الراغب: ((وهو أي المثل ذكر شيء أثره يظهر في غيره)) انتهى.

والحاصل: من تتبع الآيات القرآنية أن المثل يعم ما فيه دلالة أو عبرة وما يحتج به احتجاجاً صحيحاً أو غير صحيح أو تشبيه يحتج به ولعله الأصل في اسم المثل، ولأهمية المضروب مثلاً باعتبار أنه يكون حجة أو عبرة أو نحو ذلك فرّع تعالى عليه قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الأصنام التي يدعوها أهل مكة ومن حولهم من العرب ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ ليتعاونوا على خلقه ويخلقوه، وهذا مثل واضح للمشركين وغيرهم فيه عبرة لهم لدلالته على ضعفهم عن الخلق على الإطلاق.

﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ مما جعل لهم المشركون من الطعام أو نحوه فأخذه الذباب على ضعفه ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾ لا يحاولون إنقاذ ما يسلبه الذباب لعجزهم عن المحاولة فضلاً عن الإنقاذ، والمثل هذا مناسب لضعف الأصنام وحقارتها لأن الناس في عادتهم يطلبون بثأر قتيل أو مال مسروق أو مغصوب.

فأما قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ فهو يفسر المثل أنه بيان لضعف شركائهم فإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يطلبون إنقاذه من الذباب ضعف الطالب حينئذ وهو طالب الإنقاذ والمطلوب الذي هو الذباب ليسترجع منه ما سلب وهذا على فرض أنهم طلبوا الذباب ليستنقذوا ما سلبهم.

فقوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ متصل تمام الإتصال بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُ﴾ فهو من تمام جواب الشرط داخل في حيز فرض ما يكشف ضعف الأصنام، وقيل ضعف الطالب الذباب والمطلوب الصنم وهو قول ضعيف لأن الذباب لا يطلب الصنم حقيقة ولا حكماً إنما يطلب ما يأكله.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((عن الهادي × قال [الله]: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ يريد تعالى ضعف وسخف فلم يعقل من طلب من غير الله تعالى طلبةً وأشرك مع الله غيره في العبادة، وقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ فمعناه: ضعف المطلوب إليه والمرغوب إليه والمعبود دون الله على أن يعطي سائله أو يجازيَ بخير عابده أو يقضي له حاجة لعجزه عن ذلك وقِلتِهِ أن يكون كذلك)) انتهى.

ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ

وما ذكره × هو ما سيق لإفادته الكلام وهو موافق جواباً لما حكى الله عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ لأنهم كانوا يعبدونهم بدعائهم أي يطلبهم أن يقضوا لهم بعض حاجاتهم مثل شفاء مريض أو بركة في أنعام أو حفظ للمسافر أو غير ذلك، فمعنى دعائهم لهم طلبهم لبعض الحاجات منهم.

﴿٧٤﴾ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي المشركون ما قدروا الله ﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ حيث جعلوا أصنامهم العاجزة الذليلة شركاء لله القوي العزيز، قال الشرفي: ((يعني ما عظموه حق تعظيمه ولا عرفوه حق معرفته)) انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ معناه: ما عظموه حق عظمته ولا عرفوه حق معرفته ولا وصفوه حق وصفه)) انتهى.

﴿٧٥﴾ ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ ﴿يَصۡطَفِي﴾ يختار صفوة وخيرة ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ مثل جبريل × اصطفاه الله رسولاً إلى محمد ص ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ ولذلك اصطفى محمداً رسولاً ص ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ تعليل للإصطفاء للرسل يتضمن أن الله تعالى يسمع ما يقول الناس من الحق والباطل والخلاف بينهم والتنازع على أغراض الدنيا ومطالبها وكذلك يرى ما يفعلون من طلب الحاجات والخلاف عليها والحروب، فيصطفي رسلاً

وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾

ليعلموهم حسن التعامل بينهم ويوقفوهم على الحق وكذلك يردوهم عن طاعة الشيطان إلى طاعة ربهم وينذروهم ويبشروا المتقين محتجين عليهم بالمعجزات وما أنزل الله من آياته.

﴿٧٦﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الضمير للرسل المصطفين من الملائكة ومن الناس فهو سبحانه وتعالى اصطفاهم؛ لأنه تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ما بين أيديهم مستقبلهم من أعمالهم وشكرهم للنعمة وتبليغهم للرسالة وما يلاقون من مشقة في التبليغ أو تكذيب من الناس أو نحو ذلك، وما خلفهم ماضيهم الذي يدل المخلوقين على أنهم أهل للإصطفاء عند من يستعمل عقله ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فهو أحكم الحاكمين وهو أعلم حيث يجعل رسالاته، فإليه يرد الحكم في اختيار الرسول وفي اختيار زمانه ومكانه وغير ذلك، وكذلك إليه ترجع أمور الخلائق كلهم فهو ربهم ومدبر أحوالهم؛ ولذلك فعليه يتوكل المتوكلون.

﴿٧٧﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟﴾ الراجح أنه كناية عن الصلاة مرادٌ فيه المعنى الحقيقي ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أعم من الركوع والسجود؛ لأنه يعم كل طاعة خالصة لله، والراجح أن معناه اعبدوه وحده لا تشركوا به ﴿وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ﴾ الراجح: أنه هنا نفع المخلوقين.

قال الشرفي في (المصابيح): ((ابن عباس الخير صلة الأرحام ومكارم الأخلاق)) انتهى.

وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨

﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ افعلوا هذه الأربع لعلكم تفلحون رجاء أن تفلحوا في الآخرة بالنجاة من النار والفوز بالجنة، وفعل الخير ظاهره عموم الواجب والمندوب، فالأمر به دلالة على سبب التوفيق للفلاح كما في حديث: ((أربع تحول الشقاء سعادة، وتقي مصارع السوء..)) وحديث: ((من يضمن لي واحدة أضمن له أربعاً..)) أحد الأربع: يدخل جنة ربه.

٧٨ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ قال في (لسان العرب): ((وجاهَد العدوّ مجاهدة وجهاداً قاتله ـ ثم قال ـ: الجهاد محاربة الأعداء وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل)) انتهى.

فالمراد غالبوا العدو؛ لأن الجهاد صيغة مفاعلة مثل القتال والضراب وسواء كان من الجُهد بضم الجيم بمعنى المغالبة في الجهد والمشقة مثل المغالبة في الصبر أم من الجَهد بالفتح بمعنى الطاقة بمعنى المغالبة في القدرة فهو يفيد قتال العدو.

وقوله تعالى: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ أي لنصره وإعلاء كلمته؛ لأن ﴿فِي﴾ تفيد السببية كقول الشاعر:

يلومونـني في اشـتراء النخيـ ـيل أهلـي فكلهـم ألـومُ

أي بسبب اشتراء النخيل.

قال في (مغني اللبيب) في معاني (في): ((والثالث التعليل نحو ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف:٣٢] ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ [النور:١٤] وفي الحديث: أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها)) انتهى.

فتحصل: أن ﴿جَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ قاتلوا في الله من أجل الله، فأما استعمال الجهاد في مدافعة هوى النفس فالراجح: أنه مجاز وإن صح المعنى لكن لا يقصر عليه الجهاد في الله؛ لأن القتال هو الحقيقة وهو مصرح به في آيات عديدة.

وقوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ ما استطعتم؛ لأنه يحق لله بذل النفس لأنها له وبذل المال لأنه له من قبل أن يشتريهما من المؤمن، ثم قد اشتراهما من المؤمن بأن له الجنة وتلك تجارة رابحة توجب إبلاغ الطاقة فيه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ هيأكم وأكملكم لهذا الشأن للجهاد في الله؛ فلهذا جعل الرسول منكم وأنزل القرآن فيكم؛ لأنكم تجاهدون في الله ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحرج: الضيق، والمراد الحرج الزائد على الدين من حيث هو تكليف واختبار ومنه الجهاد كما هو مصرح به في أول الآية، لكنه لم يكلفنا قتل أنفسنا إذا تبنا ليغفر لنا ووضع عنا الإصر الذي كلف به بنوا إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧] وكذلك يسره لهم أي للمخاطبين بأن القرآن أنزله الله بلسانهم والرسول أرسله منهم، كما قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ [البقرة:١٥١].

وأيضاً قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فهو دين تركه لكم أبوكم إبراهيم لم نكلفكم اتباع دين لم نكلفه أباكم إبراهيم الخليل فلكم فيه أسوة حسنة فاجتمع لكم تيسير هذا الدين، والخطاب للأمة المسلمة التي دعى الله بها إبراهيم وإسماعيل إ : ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً..﴾ إلى قوله: ﴿..رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

قال الشرفي في (المصابيح): ((والحق الذي عليه أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم ي أن المراد بهذه الآية أهل البيت (عليهم السلام)) انتهى.

قلت: لا بد من المجاز إما بجعل الخطاب خاصاً في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وإما بجعل ﴿أَبِيكُمْ﴾ مجازاً عن المتبوع، لكن قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ يوافق قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] و(حديث الإصطفاء) فيه زيادة توضيح، ويناسبه الواقع حيث كان رسول الله ص وعلي × وحمزة، وجعفر، وعبيدة، مفضلين في الجهاد، وفي شجاعتهم وبذلهم أنفسهم لله، كما لا يخفى على من عرف جهادهم فهم أحق بقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ فهذه قرينة ترجح أن أباكم هو أب حقيقي أبو النسب وذلك أبلغ في التأسي المعلق على أبوّته × أبوة النسب.

وعلى هذا: فقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خاص بهم كما نزل قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ فيهم وفي عدوهم، إلا أن جعفر كان في الحبشة يوم بدر، فلم يذكر في الرواية التي مر ذكرها.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أي الله تعالى الذي أمركم بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ﴾ هو سماكم المسلمين من قبل أي من قبل نزول القرآن، ولعل ذلك في بشارة سبقت لأبيهم إبراهيم، أو أحد الأنبياء من بعده ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي هَـٰذَا﴾ أي سماكم المسلمين في هذا القرآن أي المسلمين أنفسهم لله بعبادتهم له وحده لا شريك له إسلاماً صادقاً مقبولاً، فطبِّقوا هذا بالجهاد في الله ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة ويشهد بما شاهده منكم من الجهاد في الله كما هو شهيد على من شاهدهم في عصره كلهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] وغيرها ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بما شاهدتم منهم من طاعة أو معصية، وهذا لا ينافي شهادة الرسول عليهم، فإذا جاهدتم في الله كنتم الخيرة من الناس الموجودين فكنتم شهداء عليهم، فقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُواْ﴾ أو للجهاد المأمور به.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ وما بعدها إما باعتبار أنه شكر للنعمة المذكورة وإما للإستعانة على القيام للجهاد ودعوة الناس إليه كما يؤيده قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ إلى آخرها وإما للأمرين معاً.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي اجعلوه عاصماً لكم في استعمال أسباب ذلك من التوكل عليه والإخلاص له وصدق النية، وهذا للقيام بالواجب والسلامة من العصيان ومن غلبة العدو؛ ولذلك قال تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ فهو متولي أموركم ومحسن رعايتكم، فاعتصموا به ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ لأنه العليم بكل شيء القدير على كل شيء الكريم الرحيم فاعتصموا به لذلك ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ لأنه الغالب على أمره فاعتصموا به لينصركم على عدوكم، وهذا الختام لهذه الآية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُواْ﴾ يرجح أن ما بينهما راجع إلى الحث على الجهاد في الله.

وبالله التوفيق

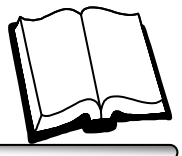

التيسير في التفسير

سورة المؤمنون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

بدء تفسير سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وهي (مكية) كما يظهر من مواضيعها

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿قَدْ﴾ تؤكد تحقق الفلاح لهم، والفلاح الظفر بالخير الدائم، وقال في (الصحاح): ((الفلاح: الفوز والنجاة والبقاء)) انتهى المراد.

وفي (أساس البلاغة): ((هو البقاء في الخير)) انتهى، وهذا المعنى هو المناسب للآية، وقد يستعمل الفلاح في الظفر بالبغية، كقول الشاعر:

أفلح من كانت له قوصَرَّة ... يأكل منها كل يوم مرة

ويستعمل في الخلود كما قال الشاعر:

لو أن حياً مدرك الفلاح ... أدركه ملاعب الرماح

وتحقيق الفلاح للمؤمنين إما مجاز مثل: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف:٩٩] وإما لأنهم صاروا بالإيمان والتقوى في أول الفلاح من حيث أن حياتهم الدنيا طيبة نافعة لهم بما يعملون فيها للآخرة، وطيبة بما يرزقون فيها من القناعة، وطيبة لسلامتها من مفاسد المعاصي، فعاشوا حياة طيبة وعاقبتهم في الآخرة الجنة، ويرجح أن المراد: أفلحوا في الآخرة، تعقيب صفاتهم بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ..﴾ الآية؛ لأنها تبين فلاحهم.

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ هذه صفة من صفات المؤمنين لأن الخشوع الذي هو ذلة المصلي لله هو من إقامة الصلاة وإقامة الصلاة من صفات المؤمنين كما في آية التوبة.

﴿٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ وهذه الصفة الثانية، اللغو من الكلام: هو الذي ينبغي أن يترك من فضول الكلام كالسب والكذب والغيبة والنميمة، وإعراضهم عن اللغو نوعان: أحدهما: إعراضهم عن التكلم به عند عروض سبب له، والثاني: إعراضهم عنه إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه لا يكافئون سفيهاً ولا يدخلون مع الخايض في الباطل بل يعرضون عنه بمرور عن صاحبه، قال تعالى في صفة الجنة: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ [مريم:٦٢].

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ وهذه الصفة الثالثة، قال الشرفي في (المصابيح): «أي مؤدون للتزكية التي هي فعل المزكي؛ لأن الزكاة اسم مشترك بين ما يخرج من النصاب وبين فعل المزكي وهو المراد هنا.

قال الشرفي: وقيل ﴿فَٰعِلُونَ﴾ للتزكية، وهو ما يكونون به زاكين عند الله من أفعال الخير عند الله» انتهى المراد.

ويرجح هذا القول: أن الزكاة هنا لم تقرن بالصلاة كما قرن إيتاء المال، بل فصل بينهما بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وأيضاً أسند إلى الزكاة هنا ﴿فَٰعِلُونَ﴾ وفي غيره ﴿يُؤْتُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] وأيضاً السورة (مكية) قالوا: ولم تشرع الزكاة من الأنصباء إلا في المدينة، ولذلك يترجح: أن هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩] وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى:١٤].

حَـٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ

وعلى هذا: فتعم إنفاق المال وغيره من مكارم الأخلاق، ويؤكد ذلك أن بقية الآيات في هذا السياق لا تفيد هذا المعنى وهو من صفات المؤمنين لأن أول الصفات المذكورة وآخرها في الصلاة وما بينهما هذه الآية والآيات في حفظ الفروج ورعاية الأمانة والعهد، وذلك مما يؤكد أن معناه: تزكية النفس، الذي أفادت الآيتان في (سورة الشمس) و(سورة الأعلى) أنه سبب الفلاح، وهذه الآية واقعة في سياق: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وسياق صفاتهم، وهذه الزكاة هي غير الطهارة، بدليل قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣] لأن العطف يقتضي التغاير، فهي الطيب والصلاح المعبر عنه بكرم الأخلاق فهو معنى إيجابي.

﴿٥-٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ هذه من صفات المؤمنين أنهم حافظون حفظاً مستمراً لفروجهم كما تدل عليه الجملة الإسمية ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ وحقيقة الزوجة في اللغة: ما مُلّكها الرجل لتكون قرينة حياته تمليك العلاقة المعبر عنها بالزواج لا ملك المال؛ ولذلك جعل لهما اسم النوعين المتقابلين من المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ [النجم:٤٥] وهذا الذي قد ثبت في اللغة ولم يثبت غيره، وكلام الزمخشري في تسمية المتعة زواجاً عند تفسيره لهذه الآية غير مسلم، ولعله ذهب إلى أن اسمه (نكاح) أما اسم (الزواج) فلا نسلم له إن عناه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي الجواري المملوكات إذا ملك الرجل الجارية كلها حلت له كما تحل له الزوجة، وفي ذلك فائدتان:

الأولى: إغناؤها وتحصينها من الحرام.

الثانية: أن ذلك قد يؤديها إلى الحرية إذا علقت من سيدها وكان لها منه ولد، فإذا مات سيدها صارت حرة على الخلاف بين أهل الفقه في اشتراط بقاء الولد بعد أبيه وعدم الإشتراط.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تفسير للإستثناء أي غير ملومين في مجامعتهم ونحوها لا الزوج ولا الزوجة، ومن فوائد هذا التفسير: ألا يخرج الكلام مخرج الحث على ترك حفظ الفروج على الأزواج، لو قيل: إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم لا يحفظون فروجهم، مع أن الإكثار المؤدي إلى الضرر مذموم والإقتصاد ممدوح لحفظ الصحة وحفظ القوة للحاجة إلى القوة في الجهاد وغيره وفي الأعمال النافعة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ذلك المستثنى وهو يعم الزنى واللواط والإستمتاع في غير الفرج الحلال ونكاح اليد والمتعة عندنا؛ لأنها مبنية على عقد إجارة وليس من الزواج عندنا، وهو عند الإمامية من الزواج.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾ أي طلب ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «المتناهون في العدوان، وقال (صاحب الصحاح): والعدوان: الظلم الصراح، وقد عدى عليه وتعدى عليه واعتدى كله بمعنى» انتهى، وقال قبل هذا: «والعداء ـ أيضاً ـ تجاوز الحد والظلم يقال: عدى عليه عدواً..» إلى قوله: «..ومنه قوله تعالى: ﴿**فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا**﴾ [الأنعام:١٠٨]» انتهى.

وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

ومنه قول الله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس:٩٠] وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ﴾ [البقرة:١٧٣] فظهر: أن العدو تجاوز الحد ظلماً، وفي الآية تأكيد حيث أفاد التحذير من الإبتغاء الذي هو مقدمة المعصية.

﴿٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ رعاية العهد والأمانة المحافظة على الوفاء بالعهد واجتناب النكث للعهد، والمحافظة على ترك الخيانة في الأمانة، وهذه من صفات المؤمنين.

﴿٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وهذه من صفات المؤمنين يحافظون على صلواتهم كلها في أوقاتها، فمن لا يحافظ على كل الصلوات المفروضة فليس منهم، والراجح: أن الذي يتلهى في الليل ويؤخر النوم حتى يسبب ذلك لفوت صلاة الفجر وهو يعلم أن ذلك يؤدي إلى فوت صلاة الفجر وقد جربه مراراً ثم لا ينتهي عن تأخير النوم ولا يحاول سبباً للقيام من النوم في وقت صلاة الفجر فليس من الذين هم على صلواتهم يحافظون؛ لأن الشمس تطلع وهو لم يصلِّ الفجر، وأعظم منه يضيع المغرب والعشاء في لهوه حتى يصبح أو يتلهى أكثر الليل ثم ينام وهو لم يصلِّ المغرب والعشاء فيرقد إلى الصباح عمداً؛ لأنه مكلف في حال يقضته بالمحافظة على الصلاة ولم يرخص له في التحيل لترك الصلاة بالنوم.

﴿١٠-١١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون المتصفون بالصفات المذكورة ﴿هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ لأنهم

أخذوا ما أعد لغيرهم لو آمنوا واتقوا فلم يدخلوا الجنة؛ لأنهم لم يكونوا لها أهلاً، فأخذ المؤمنون المتقون ما كان لمن فاتته الجنة لسوء اختياره، أو هو مجاز لأنهم استحقوها كما يستحق الميراث ـ والله أعلم.

قال في (الكشاف): ((ثم ترجم (الوارثين) بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾ فجاء بفخامة وجزالة لإرثهم لا تخفى على الناظر)) انتهى، ولعله يعني ما في الأولى من الحصر والإبهام وفي الثانية من التفصيل والبيان لما أبهم.

قال (صاحب الصحاح): ((الفردوس: البستان، قال الفراء: هو عربي والفردوس حديقة في الجنة، ثم قال: وكرْم مُفَرْدَس أي مُعَرَّش)) انتهى، وقال الشرفي في (المصابيح): ((وفي (البرهان) الفردوس حضائر العنب)) انتهى المراد، وفي (أساس البلاغة): ((هو البستان الواسع الحسن)) انتهى، ولعله أخذ اعتبار الحُسْن من قولهم: كرم مفردس.

وفي (لسان العرب): ((الفردوس: البستان، قال الفراء: هو عربي، قال ابن سيده: الفردوس: الوادي الخصيب عند العرب كالبستان، ثم قال: والفردوس الروضة عن السيرافي: والفردوس خضرة الأعناب، ثم قال: والعرب تسمي الموضع الذي فيه كرْم فردوساً، وقال أهل اللغة: الفردوس مذكّر، وإنما أنّث في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لأنه عنى به الجنة)) انتهى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾ [الكهف:١٠٧] يقوي أن الفردوس: العنب وغيره، لأن الجنات فيها من كل فاكهة زوجان.

ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ

﴿١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ آية عظيمة تدل على قدرته على إعادة المؤمنين وإعطائهم الفردوس؛ لأن الإنسان محكم الصنعة فيه أعضاء محكمة الصنع لما يراد بها كالسمع والبصر والفؤاد واليدين والرجلين واللسان والشفتين، ومن عجائب صنعه قدرة الكلام والنطق بالحروف، والسلالة: هي المني فكيف تحولت إنساناً سميعاً بصيراً إن ذلك لدليلاً على الخالق القدير على كل شيء العليم بكل شيء، وقوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ﴾ يترجح في معناه: أن السلالة أصلها الغذاء والغذاء أصله النبات أو ما أصله النبات والنبات أصله من طين تمتصه أصوله مع الماء.

﴿١٣﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهذه آية عظمى تدل على الخالق المدبر حيث دبر للنطفة وهي المني قراراً تستقر فيه مكيناً ثابتاً يتحمل وجود النطفة فيه وكبرها حتى يكمل خلق الإنسان ولا يضعف عنه.

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ تصرف الخالق في النطفة وهي في سبيل أن تكون عظاماً فحولها علقة دماً جامداً، ثم حول العلقة مضغة لحماً كقطعة لحم، ثم جعل المضغة عظاماً مصورة صوراً مختلفة محكمة الصنع.

فالجمجمة فيها فتحات للسمع والبصر ومكان لمواصلة العنق، وكذلك العنق فيه مفصل للإلتفات وهو عظام متواصلة متصلة بسلسلة الظهر وفيها

﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ

مفصل للإلتفات وتنتهي إلى الحوض المصنوع صنعة عجيبة وفيها محل لمفصل أحد الفخذين من جهة ومحل لمفصل الأخرى من جهة، وطريق بينهما لمخرج البول والغائط، ثم عظام الرِّجلين واليدين وفيها مفاصل تدل على الخالق المدبر، فلولا مفاصل الرجلين ما استطاع الإنسان القعود والقيام، ولولا مفاصل اليدين ما استطاع الأكل والشرب بهما.

وقوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾ في هذا اللحم مع تجميله للإنسان آيات، في شبكة العروق المقسمة إلى ضاربة يحركها ضخ الدم وساكنة وفي الأعصاب من الرأس إلى الظهر، ثم الرجلين واليدين، وفي كل عضو آية تدل على الخالق المدبر الحكيم، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بقلبٍ وسمع وبصر ورئتين ومعدة وأمعاء منفوخ فيه الروح ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ فجلَّ جلاله وعظم شأنه ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ لإتقانه صنعه وإبقاء مصنوعه لأجله.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فالخالق تصرف في الإنسان من أول وجوده إلى نهايته وأحياه وأماته لأجله، ثم يعيده يوم القيامة كما بدأه في هذه الدنيا، فالنشأة دليل على قدرته على الإعادة، وأنه غير بعيد في قدرته البعث كما بدأ خلقه من طين، وبذلك يتضح فلاح المؤمنين الذين أعدوا للآخرة أسباب الفلاح.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾ ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ المتبادر منه سبع سموات كما صرح بها في آيات من القرآن، فأما تسميتها طرائق، فيحتمل: أنها من أجل أنها متطابقة، بعضها فوق بعض فكانت كل واحدة طريقة.

لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ

قال الراغب: ((وجمع طريقة: طرائق، قال: ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١] إشارة إلى اختلافهم في درجاتهم، كقوله: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٣] وأطباق السماء يقال لها طرائق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ انتهى.

وفي (لسان العرب): ((وكل ما وضع بعضه على بعض فقد طورق ـ ثم قال ـ : وقوله عزَّ وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ قال الزجاج: أراد السموات السبع، وإنما سميت بذلك لتراكبها، ثم قال: وقال الفرّاء: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ يعني: السموات السبع كل سماء طريقة)) انتهى، وفي (مصابيح الشرفي) نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس:٨١] فلا يخفى عليه كيف يخلق في إعادة الخلق كما لم يخفَ عليه الخلق في المرة الأولى، ولا تجوز عليه الغفلة لأنها نسيان وفقدان علم، وهو سبحانه واجب له العلم.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ في هذا دلالة على قدرته تعالى وعلمه وعلى إنعامه على عباده، والماء من أعظم النعم بل هو ضروري للحياة، وقوله تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي بتحديد لنزوله على قدر الحاجة بغير ضرر فهو ينزل كأنه ينزل من غربال متتابعاً حتى يحصل الكفاية، ولو أنزله دفعة لهدم البيوت والأموال.

وقوله تعالى: ﴿مَآءًۢ﴾ أي ماء معروفاً أنه عذب يروي الناس والأنعام والشجر والزرع وقوله تعالى: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جعله باقياً في الأرض في الأنهار والآبار يجري إليها من مجارٍ في بطن الأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٖ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ تنبيه على النعمة في إسكانه في الأرض أن ذلك لأنه لم يرد ذهابه ولو شاء لذهب به بأي سبب أو بغير سبب، وأسباب ذهابه متعددة مثل تكثير مجاريه بحيث ينتشر في بطن الأرض، ومثل سد المجاري بحيث يحتبس في بطن الأرض حتى تبلعه، والله على كل شيء قدير، ومن شأن الأرض أن تبلع الماء ويذهب في بطنها متفرقاً لكن الله أراد نفع الإنسان بإسكانه فيه فهيأ السبب لبقائه نعمة للإنسان.

﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماء الذي أسكناه في الأرض ﴿جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ لولا الماء ما وجدت، وجمع الأعناب لتعدد أنواع العنب، والنخيل يكون أنواع من الرطب والتمر.

وقوله تعالى: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ من أنواع العنب والزبيب وأنواع الرطب والتمر، ويحتمل فيها فواكه أخر وهي تدل على قدرته تعالى وعلمه وعلى إنعامه على عباده وهم يغفلون عن هذه الآيات من حيث هي آيات ومن حيث هي نعم ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ وهذه آية عظيمة؛ لأن ذلك تابع للتناسب بينها وبين الإنسان بحيث صلحت له واستلذها وتغذى بها، مع أنها مخلوقة من الماء والتراب ومع أنها أنواع كثيرة، فالذي خلق أعضاء الإنسان أدوات الأكل، وأدوات الهضم، وأدوات التغذية، وجعله مُعَدًّا لأكل ما ينتفع به من الفواكه والتغذي به من جهة.

لِّلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ

وجعل الفواكه معدّة للإنسان صالحة لأن يأكلها صالحة لأن يلتذ بها وتنهضم له وتغذّيه من الجهة الأخرى، إن ذلك لدليلاً على الخالق الرازق القادر العالم المدبر لشأن الإنسان، وذلك دليل على أنه قادر على البعث.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على جنات، أي وأنشأنا لكم به شجرةً ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أي تخرج من الجبل الذي كلم الله موسى من جانبه فهي شجرة مباركة وهي شجرة الزيتون ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ الذي هو (زيت الزيتون) يعتصر من الزيتون الذي هو ثمر هذه الشجرة، والإنسان يحتاج إلى الدهن لجلده وشعره، وفي (تذكرة داود) في زيت الزيتون: ((والإدِّهان به كل يوم يمنع الشيب، ويصلح الشَعر ويمنع سقوطه، ويقطع العفن، ويشدُّ الأعضاء)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ يصبغ الآكل لقمته من هذا الزيت فيكون إداماً جيِّداً مشهِّياً للأكل، وفيه منافع كثيرة قال في كتاب (الغذاء لا الدواء) في زيت الزيتون: ((فهذا الزيت يمتاز عن غيره من الأدهان والزيوت بصفات كثيرة تعود على الإنسان بالصحة والعافية فهو أسهل هضماً من جميع الزيوت الأخرى..إلى قوله.. فإن امتصاصه وهضمه أسهل على الجسم من امتصاص وهضم أي مادة أخرى..الخ، وذكر من فوائده زيادة القدرة على التفكير والذكاء وأنه من خير الأدوية الكبدية)) انتهى.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُمْ مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿لَعِبْرَةً﴾ دلالة تعرفون بها سعة نعم الله عليكم وفضله

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ

وقدرته وعلمه، والأنعام: الإبل هنا، مع أن في البقر والغنم نعماً كثيرة ﴿نُسْقِيكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ وذلك اللبن النافع الخالص الذي لم يؤثر فيه شيء مما في بطونها من الفرث والدم الجاري في جدران المعدة والأمعاء ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ وهي مفصلة في (سورة النحل) فارجع إليها.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فهي نعمة عظمى على الإنسان حيث أحل له أكلها وهي حيوان مثله تحب الحياة وتنفر من أسباب الموت ولكنه سبحانه سيجعل لها في الآخرة عوضاً مما لحقها في الدنيا من مشاق تسخيرها للإنسان.

﴿٢٢﴾ ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ وفي هذا تذكير للإنسان بنعمة الله عليه ودعوة إلى شكر نعمة الله بعبادته وحده والإيمان برسوله وكتابه، وفيه دلالة على حسن تدبيره لحاجات الإنسان وعلى قدرة الله تعالى على ما يشاء وعلى علمه بكل شيء، فقد صنع الإبل صنعة تناسب تسخيرها لنفع الإنسان فالجمل يبرك حتى يحمله الإنسان أثقاله ويركب عليه ثم يقوم الجمل ويسافر المسافة البعيدة بحمله وراكبه.

وكذلك ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ التي هي السفائن في البحر، يحمل عليها الإنسان وتسافر به المسافة البعيدة أياماً كثيرة تسوقها الرياح وهي من الخشب المؤلف بالمسامير، والله صانع الخشب وصانع الحديد ومجري الرياح ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى:٣٣] وهو سبحانه علم الإنسان صنعتها لتصلح لذلك، فهذه كلها آية تدل على قدرة الله تعالى على كل شيء وعلمه بكل شيء، وأنه قادر على البعث بعد الموت وأن وعده الحق.

أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ هذا ابتداء ذكر آيات وعبر للمكذبين الآخرين ليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين الأولين، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي غير الله ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وقد أشركتم به بغير حق ولا حجة من الله إنما هو هوى أنفسكم دعاكم إلى الظلم العظيم.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ أي من قوم نوح ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي ما نوح ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ليس ملكاً بناءً منهم على أن لا يصلح أن يرسل الله رسولاً من البشر بدون حجة لهم في ذلك ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي لو شاء الإرسال إلينا لأنزل ملائكة، وهذه دعوى بلا حجة.

وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بإرسال بشر في آبائنا الأولين، ولعل سبب ذلك أن آبائهم الأولين لم يشركوا وكانوا على دين آدم، أما آدم فكان موجوداً وعنده الهدى من الله فيعلم أولاده ويربيهم عليه لم يكن بشكل رسول بعث إلى قومه لينهاهم عن الشرك ويدعوهم إلى الله، فمضى آدم والأولون من ذريته على التوحيد؛ فلذلك لم يسمع قوم نوح برسول بعث إلى قومه، وهذا على فرض أن نوحاً أول الرسل بعد آدم ـ والله أعلم.

حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى

أما (صاحب الكشاف) فقد جوز أنهم تعمدوا الكذب، وهذا إنما يستقيم لو كان الخبر بالرسول السابق خفياً يمكن جحده تغريراً على من لم يسمع؛ لأنه إذا كان معلوماً عندهم كلهم فلا فائدة في نفيه فيما بينهم، كما يفيده سياق الكلام أنهم يقول ذلك بعضهم لبعض.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ ﴿إِنۡ﴾ أي ما ﴿هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ﴾ مجنون أو دخلت ﴿بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ فحولته عن حالته الأصلية فادعى أن الله أرسله إليكم ولم يرسله مبالغة منهم في الكفر، وقولهم: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي لا تعجلوا على تصديقه وانتظروا حتى يذهب عنه الجنون ويرجع إلى حالته الأصلية، ومثل هذا لا ينطلي على من يريد الهدى لأنه يميز بين السليم من الجنون والمجنون بسهولة وأوضح رد عليهم أنه جاء بالحق وغاية الجنون خلاف ذلك.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ﴿ٱنصُرۡنِي﴾ على قومي بسبب تكذيبهم لي أي اهلكهم، وهذا إجمال لما فصل الله في (سورة نوح).

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۖ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ ﴿فَأَوۡحَيۡنَا إِلَيۡهِ﴾ إلى نوح إجابة لدعائه ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ أي السفينة لتنجو فيها أنت ومن

ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ وَإِن كُنَّا

معك من الغرق ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ برعايتنا لك ﴿وَوَحْيِنَا﴾ تعليمنا لك لتصنعها صالحة مثلاً كيف تأخذ ألواحاً من الشجر المناسب للغرض المطلوب ، وكيف تبنيها من الألواح وتضم بعضها إلى بعض بالمسامير، وتجعل اتساعها بقدر الحاجة، وتجعل ارتفاعها بقدر الحاجة، وتجعلها طبقات لتتسع للحيوان من كل زوجين اثنين..إلى غير ذلك من التعليم.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بعد إكمال صنعتها ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ بالماء ليكون علامة لمجيئ أمر الله الذي هو إنزال العذاب بالغرق ﴿فَٱسْلُكْ﴾ فأدخل ﴿فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ذكر وأنثى ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ فردين مثل زوجين من الإبل وزوجين من البقر وزوجين من الضأن وهكذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي واسلك في السفينة أهلك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ الحكم من الله بغرقه وهم الذين ظلموا ﴿مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ لا تطالب بنجاة أحد منهم أو تسأل لماذا عذبته ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ فلا تنازع في غرقهم؛ لأنه أمر محتوم.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ ركبتم على حال الإستواء مثلاً قاعدين غير مائلين إلى جهة ولا منكوسين فذلك علامة أن قد هلك قومك ونجوت أنت ومن معك ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاشكر نعمة الله عليكم بحمده.

لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن

﴿٢٩﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ ﴿وَقُل﴾ عطف على: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى﴾ من السفينة ﴿مُنزَلاً مُّبَارَكًا﴾ فيه خير كثير يحيى فيه الدين ويتيسر فيه الرزق وتصلح الحالة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ المنزل للأضياف الذي يعطيهم النزل أي الضيافة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ لسعة فضلك وأنت الأكرم الذي لا ينقصه البذل والجود، فهو عند نزوله من السفينة وخروجه إلى الأرض يكون كالضيف النازل، لكنه نازل هو ومن معه يرجون من ربهم الرزق وتيسير أمرهم؛ وهو خير المنزلين لأنه خير الرازقين، ولعل نوحاً أمر بهذا الدعاء ليرتبط به أصحابه وبنوه عند خروجهم من السفينة، ويعتقدوا أن الله أحسن نزلهم بسبب دعاء نبيئهم صلى الله عليه وسلم.

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ دلائل تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، وأنه لا يهمل عباده بل يحسن تدبير أمورهم بإرسال الرسل وإظهار دلائل صدقهم ونصرهم ونصر من معهم وإهلاك أعدائهم، وفي السفينة نفسها آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله ونعمته حيث نجى فيها رسوله والمؤمنين به ويسر نزولها على جبل مستوية ثابتة في مكان نزولها حتى يخرجوا منها آمنين وما معهم فيها من الأنعام وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي وإن كنا مبتلين نبتلي عبادنا بما يميز بينهم فيظهر بالإبتلاء المؤمن وغيره والثابت على الإيمان وغيره لتجزى كل نفس بما تسعى، ابتلى قوم نوح بنبيئهم فما آمن معه إلا قليل، وابتلاه بقومه فصبر على البلوى حتى جاء الفرج له ولمن صبر معه بنجاتهم وهلاك عدوهم.

قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ

﴿٣١﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم أنشأ الله من بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ بعد زمان تناسل فيه ذرية بعدهم حتى كثروا.

قال الراغب: ((والقَرن: القوم المقترنون في زمن واحد)) وهذا السياق يوضح فيه تتابع القرون وتتابع الرسل على طريقة واحدة في دعوتهم إلى عبادة الله وحده، وترك الشرك، فكفى ذكر القرن وذكر الإرسال إليهم وذكر تكذيبهم له وإهلاكهم وأنشاء قرن بعدهم وإرسال رسول وهكذا كما أفاده قوله تعالى فيما يأتي قريباً: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ فأتبعنا بعضهم بعضاً فلهذا لم يذكر اسم هذا القرن، ولا اسم رسوله، وقد قيل: إنهم عاد قوم هود ـ والله أعلم.

﴿٣٢﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنُ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿فِيهِمْ﴾ أي في القرن المذكور ﴿رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾ يعرفونه فلا ينكرونه ﴿أَنُ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية تفسير لإرسال الرسول، فقد أمر الرسول أن يقول لهم: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تتقون عذاب الله وأنتم على الشرك فتتوبوا إلى الله وتعبدوه وحده.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ﴾ أكابر القوم الذين توحد رأيهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالرسول وآياته ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ﴾ فلم يخافوا الله بل تجرأوا على تكذيب الرسول وجادلوا في رسالته، ولقاء الآخرة: اللقاء في الآخرة أي لقاء الله في يوم الحساب.

أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ

﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وسعنا لهم في الرزق وشهواتهم فجعلوا النعمة سبباً للكفر؛ لأنهم بسببها استكبروا عن اتباع الرسول واستحقروه حيث لم يكن معدوداً من عظمائهم الذين يعظمونهم لأجل كثرة مالِهم، فأنِفوا من اتباعه وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فلا يصح أن يكون رسولاً من الله إليكم، وكأنهم نسوا أن الله أرسل نوحاً وهو بشر مثل قومه فقالوا ما هذا إلا بشر مثلكم في أنه بشر وحققوا أنه بشر مثلهم بقولهم: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ وهو لم يدع أنه من جنس آخر غير البشر وإنما ادعى أن الله أرسله إليهم وجاءهم بالبينة.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ ﴿أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ فتركتم الشرك من أجله ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ تخسرون أصنامكم ودينكم.

﴿٣٥﴾ ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ هذا منهم جدال في صدقه في دعواه الرسالة ينكرون عليه الوعد بالبعث بعد أن صاروا تراباً وعظاماً، ويجعلون هذا الوعد حجة لهم على أنه غير رسول، وليست حجة صحيحة إنما هي مجرد استبعاد والإستبعاد لا تبطل به حجة الرسول الدالة على صدقه أعني المعجزة التي جعلها الله دليلاً على صدقه.

﴿٣٦﴾ ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ ﴿هَيْهَاتَ﴾ أرادوا بَعُدَ ما توعدون وكرروها تأكيداً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ما أبعَدَ ذلك)) انتهى. وهذا من جدالهم في الرسالة.

هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ

﴿٣٧﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أنكروا الوعد بالبعث ثم استبعدوه ثم جزموا بأنه غير واقع كل ذلك جادلوا به تكذيباً للرسول ونفياً للرسالة، وقولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي الجنس يموت بعضه ويحيى بعض آخر، وهذا جهل منهم بالله أحكم الحاكمين، المنزه عن العبث وعن الإهمال جعلوه يحيي أمة ثم يميتها، ثم يحيي أخرى ثم يميتها، وهكذا من غير فائدة أو حكمة في الإماتة وتعاقب الأمم في الحياة والموت، من غير نظر إلى أنه يكون فيهم الظالم والمظلوم، والمحسن والمسيئ، وأن قولهم هذا يؤدي إلى أن الله مكن الظالم من ظلم المظلوم ثم أماتهما، وأمات المحسن والمسيئ بلا جزاء ولا إنصاف للمظلوم سبحان الله وتعالى عما يصفون.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لما احتجوا بدعواهم واستبعادهم للبعث عقبوا ذلك بتصريحهم بتكذيب الرسول وإصرارهم على ترك الإيمان به وترك التصديق له جاعلين هذا التكذيب كالنتيجة لاحتجاجهم بنفي البعث الذي يعدهم به، وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ أي لا رسول، استمراراً في زعمهم أن البشر لا يصلح للرسالة فقد جادلوا في الرسالة بأنه بشر وبأنه وَعَد بالبعث عناداً وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا له.

﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ ﴿قَالَ﴾ رسولهم الذي جادلوا في رسالته ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِي﴾ لأنه لم يبقَ أمل في إيمانهم فانصرني بسبب تكذيبهم لي.

ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۚ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم

﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ فيكشف ندمهم على ترك الإيمان أنهم كانوا يعلمون أنك رسول من الله صادق، وأنهم إنما كذبوك معاندين للحق متمردين على ربهم.

﴿٤١﴾ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ العذاب المهلك، قال في (الصحاح): ((العذاب وأصله من الأوّل)) انتهى، يعني: أصله من الصوت، ومثله في (لسان العرب)، وقوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أخذاً بالحق أي اقتضاه الحق.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗ﴾ قال (صاحب الكشاف): ((شبههم في دمارهم بالغثاء وهو حميل السيل مما بَلِيَ واسوَدّ من العيدان والورق)) انتهى، ولعله يشير إلى تغيرهم بما يقع عليهم من الشمس والأمطار والرياح حتى بليت أجسادهم كما يبلى الغثاء ﴿فَبُعۡدٗا﴾ تعبير عن بغضهم والغضب عليهم مثل: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج:٤] لأجل ظلمهم بالتكذيب والجدال بالباطل وغيره.

﴿٤٢﴾ ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ من بعد القوم المهلكين أنشأ الله قروناً أمماً يرسل إليهم رسلاً فيكذبونهم فتكون النهاية هلاكهم بالعذاب.

﴿٤٣﴾ ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ ﴿أَجَلَهَا﴾ أجل هلاكها لأن الله تعالى لا يعاجلها بالعذاب قبل أن يمهلها مدة محدودة فيها تبلغها فيها حجة الرسول وتدعى إلى التوبة، ويبتلى بها الرسل والمؤمنون، وتترادف الحجج على أمته حتى تبلغ أجلها المحدود فتهلك بما كذبت بآيات الله وجادلت بالباطل وهمت برسولها لتأخذه وبظلمها كله.

بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ
وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟

﴿٤٤﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ قال في (الكشاف): ((﴿تَتْرَا﴾ فَعلى الألف للتأنيث لأن الرسل جماعة)) انتهى، والمعنى: متواترين يتبع بعضهم بعضاً مع فاصل زمني محدود، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني متواترين يتبع بعضهم بعضاً بين كل اثنين [دهر] وهو [كذا في المصابيح] طويل)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ لأن الله ينشئ القرن ثم يرسل إليهم رسولاً لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ اغتراراً بالحياة العاجلة وانقياداً للكبر والحسد واتباعاً للهوى ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أي أهلكناهم كما أهلكنا من قبلهم أتبعناهم في الهلاك.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: يُتمَثل بهم في الشر ولا يقال ذلك في الخير، وفي (مفردات الراغب): أي أخباراً يُتَمَثَّل بهم)) انتهى، ولعل حاصل هذا المعنى: جعلناهم مثلاً يُعتبَر بهم، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦] ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ تعبير عن السخط والغضب عليهم وأصله دعاء عليهم بالهلاك قال تعالى: ﴿أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٥].

﴿٤٥﴾ ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ مصحوبين بآياتنا التسع ﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾ هيبة ونصر ﴿مُّبِينٍ﴾ كما قال تعالى:

وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص:٣٥] وكقوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحشر:٦].

﴿٤٦﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ كبراء قومه أو وزرائه ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أنفوا عن قبول الحق واستحقروا موسى وهارون واستعظموا أنفسهم.

﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ متطاولين على [في المصابيح: عن، وهو غلط تصحيف] الناس، قاهرين لهم بالبغي والظلم)) انتهى.

وقد وُصِف فرعون بالعلو المذموم في هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ﴾ [يونس:٨٣] وقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص:٤] و(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ﴾ هي واو تسميها النحاة واو الإعتراض ولكنها تأتي في خلال الكلام وفي أول الكلام الأخير.

﴿٤٧﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ أي فرعون وملائه ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي لو كانا رسولين ما كانا بشرين، كما قال فرعون: ﴿فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف:٥٣] ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ أي بنو إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ أي مطيعون خاضعون مسخرون.

لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): لأن بني إسرائيل كانت تعبد فرعون وفرعون كان يعبد الأصنام)) انتهى، أي وموسى وهارون من بني إسرائيل فكيف نؤمن لهما، بل لنا الفضل عليهما كما لنا الفضل على قومهما.

﴿٤٨﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ فكذب فرعون وملؤه الرسولين موسى وهارون ﴿فَكَانُواْ مِنَ﴾ جملة الأمم ﴿ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ بسبب تكذيبهم لرسلهم؛ لأنه تعالى أغرق فرعون وقومه كبرائهم وأتباعهم وأنجى موسى وهارون ومن معهما من المؤمنين.

﴿٤٩﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ لعل بني إسرائيل الذين هم قوم موسى وهارون ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ بما في الكتاب من الهدى، والكتاب هو (التوراة).

﴿٥٠﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ ﴿ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ أي عيسى × وكل منهما آية تدل على قدرة الله تعالى وعلمه، قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): فآيته أنه خلق من غير ذكر، وآيتها أنها حملت من غير فحل، ثم تكلم في المهد فكان كلامه آية له وبراءة لها)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ﴾ معناه: ضممناهما، أي عيسى وأمه إ و﴿رَبۡوَةٖ﴾ مكان مرتفع، ويقال: رَبوة بالفتح، والمعين: الماء الظاهر)) انتهى المراد.

تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرۡهُمۡ فِي

أي جعلنا لهما مأوى ربوة موضع من الأرض مرتفع ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ صالحة للقرار فيها بالأمن وتيسر الرزق ﴿وَمَعِينٍ﴾ للشرب والطهور وسائر ما يحتاجان له الماء، وفي (الصحاح): «وماء معين: أي جار» انتهى، فهي بلدة طيبة يفرغان فيها للذكر والعبادة ولا تضرهما بوخامة لارتفاعها.

﴿٥١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ أحل الله لهم الطيبات لم يحرم عليهم ما حرم على الذين هادوا بظلمهم ولا ما حرم المشركون على أنفسهم بغير حق ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ عملاً صالحاً فهم بشر لا تنافي رسالتهم أكلهم من الطيبات، وهم مكلفون بعبادة ربهم ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ فلا أضيع عمل عامل منكم.

﴿٥٢﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ ﴿وإِنَّ﴾ بكسر الهمزة استئناف، وأما بفتح الهمزة فعلى تقدير لام التعليل أي فاتقون لأن هذه الملة ملتكم حق وصواب ليس فيها باطل ﴿وَٰحِدَةً﴾ لا تفرق بينكم ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ﴾ الخالق لكم الرازق.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال محمد بن القاسم × : الأمة في (لسان العرب) القصد [أمَّ] يؤم [قصد] يقول الله سبحانه: إن قصدكم الذي تقصدون وأمتكم التي تؤمّون واحدة، يعني سبحانه طريقاً واحداً غير اثنين إذ كلهم [أي الرسل] مأمور بعبادة الله وحده والسلوك في سبيله وقصده وخلع الأنداد من دونه والشهادة له بوحدانيته وأنه لا إله ولا رب غيره فربهم الله..» الخ.

غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم

وقال الشرفي في (المصابيح) أيضاً: ((قال الحسين بن القاسم × : يقول عز وجل: إن دينكم دين واحد وهو التوحيد والعدل [أي توحيد الله وإثبات عدله] وإثبات الوعد والوعيد [أي التصديق والإقرار بوعد الله ووعيده] والنبوءة والإمامة، فهذا دين واحد ليس فيه اختلاف بين أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم وغيرهم من المسلمين، والأمة هاهنا هي الدين والملة والمذهب)) انتهى.

﴿٥٣﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ الفاء للتفريع أي أن الله أرسل رسله بملة واحدة هي عبادته وحده وأمرهم أن يتقوه لأنه ربهم فاقتطع الناس أمر الرسل الذي كانوا عليه أو الذي أمروهم به تقطعوه بينهم ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ أخذ قطعة اقتطعها لنفسه ﴿زُبُرًا﴾ إما كتباً وإما قطعاً كقطع الذهب والفضة ﴿كُلُّ حِزْبٍ﴾ أي كل قوم ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ لاختصاصهم به وانتمائهم إليه تعصباً له؛ لأنه دينهم والمعنى أنهم لم يتبعوا الرسل اتباعاً كاملاً ليتقوا الله بل اكتفى كل حزب منهم ببعض منه في حين لا يكفي ولا يقبل منهم.

﴿٥٤﴾ ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا رسول الله اترك هذه الفرق التي تقطت أديانها ﴿فِى غَمْرَتِهِمْ﴾ في جهلهم وغفلتهم واشتغالهم بدنياهم تشبيهاً لهم بمن غمره ماء.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إما ذرهم حتى حين الجهاد في سبيل الله، وإما حتى حين تنتهي دنياهم التي هي متاع قليل، ويمكن الجمع بين الأمرين لأن الجهاد مستقبل وهلاكهم به وبغيره مستقبل، وهذا هو الراجح، وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩].

مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ

﴿٥٥-٥٦﴾ ﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿أَيَحْسِبُونَ﴾ سؤال توبيخ على هذا الحسبان أنما يمدهم الله به أي يعطيهم ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ أيحسبون أن ذلك مسارعة من الله لهم ﴿فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ والمؤجل منها مثلها، والخيرات الخير، فهذا الحسبان غلط ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أن هذا المعجل فتنة والمؤجل عذاب بكفرهم وإجرامهم.

﴿٥٧-٦١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ قال في (لسان العرب): ((وإذا قلت: أشفقت منه، فإنما تعني حذرته)) انتهى.

وعلى هذا: فالمعنى: أن الخشية بعثتهم على الحذر من عذاب الله، هذا إذا كان المعنى مشفقون منه، فإن كان المعنى: مشفقون على أنفسهم، فقال في (لسان العرب): ((ابن سيده: وأشفق عليه حذر)) انتهى، وفي (الصحاح): ((وإذا قلت: أشفقت منه فإنما تعني حذرته)) انتهى، وفي (القاموس): ((وشفق وأشفق حاذر أو لا يقال إلا أشفق)) انتهى، والحذر هنا هو التقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يصدقون بها وبما دلت عليه تصديقاً باعثاً على العمل بها واتباعها وذلك لأنهم لا يعرضون عنها ولا يجادلون فيها بل ينظرون فيها نظراً صحيحاً فيعلمون صحتها ويعرفون ما تدل عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ فلا يتبعون حكماً مخالفاً لحكمه، ولا يجعلون لغيره حكماً، ولا يعبدون غيره؛ لأنهم مؤمنون بأن ربهم الله وحده فلا حكم فيهم إلا له وحده، ومن حكمه طاعة رسوله واتباعه وطاعة أولي الأمر في الحق الذي لا يخالف طاعة ربهم.

﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ قال الراغب: «الإيتاء: الإعطاء» انتهى، قال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] أي اعطوهم واستعماله في القرآن كثير، روى الناصر الحسن بن علي الأطروش × في (البساط) [ص/٧٨]: قال: حدثنا وكيع، قال: حدثنا مالك بن مغول، عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة، قالت: قلت لرسول الله ص: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ فقال: «لا يا ابنة أبي بكر، ولكن هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق وهو يخاف ألا يقبل منه» انتهى.

فمعنى: ﴿يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ يتصدقون ويؤتون الزكاة وغيرها من الحقوق ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ خائفة، وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ أي قلوبهم خائفة من أنهم إلى ربهم راجعون، أو لأنهم إلى ربهم راجعون، وفي تكرار كلمة ﴿رَبِّهِمْ﴾ دلالة على كثرة ذكرهم لله من حيث هو ربهم المالك لهم، وقوة تعبّدهم لله.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي أهل هذه الصفات الأربع يسارعون في كسب الخيرات لأن تقواهم وإيمانهم وأعمالهم وإنفاقهم كلها حسنات مضاعفة لهم في الآخرة، فمسارعتهم في أسباب الثواب مسارعة في الثواب وهو الخير الكبير ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ أي الخيرات ﴿سَٰبِقُونَ﴾ لأنهم يسبقون الجنة وتفوت غيرهم.

نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ

وحاصل المعنى: يسارعون في خيرات الآخرة بمسارعتهم في الطاعة ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ لأنهم هم الذين يفوزون بالخيرات في الآخرة فسبقوها بسبقهم إلى طاعة الله.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ لا نكلفها ما تضيق عنه ولا تتحمله؛ ولذلك فالجنة تنال بأسباب ممكنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ لعله ما يكتبه الحفظة، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية:٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقص عليهم شيء من حسناتهم، وهذا ترغيب في العمل للخيرات بأنه في وسع الإنسان وبأنه لا يضيع منه شيء.

﴿٦٣﴾ ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ أي الكفار ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ في غفلة شاملة للقلوب كأنها في غمرة من الماء ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ إما مِن هذا الوعد والوعيد، وإما من هذا المذكور في الآيات الماضية، فهم غافلون عن الآخرة وعن الجنة والعمل لها لأنها غارقة في التوجه إلى الدنيا وإلى الأغراض الدنيوية والأهواء ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ تحول بينهم وبين الطاعة والمسارعة في الخيرات لأنها ذنوب تفسد القلوب وشواغل دنيوية يؤثرونها على الطاعة لإيثارهم الحياة الدنيا على الآخرة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ كلمة إضراب عن الترغيب لهم في المسارعة في الخيرات.

أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ

﴿٦٤﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لأعمالهم التي تحول بينهم وبين المسارعة في الخيرات ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ﴾ فهم لا ينفكون معرضين عن الحق مصرين على الباطل حتى يأخذ الله مترفيهم بالعذاب.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((يعني بالمترف: الموسع عليه في الدنيا حتى بغوا وكفروا، والعذاب بالسيف يوم بدر، وقوله: ﴿يَجْـَٔرُونَ﴾ معناه: يرفعون أصواتهم)) انتهى.

فعبيد الدنيا الذين توفرت لهم الأرزاق ووسعت لهم النعمة هم الطغاة المجادلون في آيات الله الدعاة إلى عصيان الله ورسوله فكانوا أحق بتعجيل العذاب لدفع فسادهم، ويحتمل: أن المراد بالعذاب عذاب الآخرة؛ وخصهم بالذكر لأنهم مقدمون إلى النار قبل الضعفاء.

﴿٦٥﴾ ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟﴾ أي لا يفيدكم الجؤار لأنه لا ناصر لكم ينصركم حين يسمع جؤاركم ﴿إِنَّكُم مِّنَّا﴾ أي من الله ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ لأن الله غالب على أمره، وأنا أفهم من قوله ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أنه يوم القيامة.

﴿٦٦﴾ ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ ﴿قَدْ كَانَتْ﴾ حين جاءكم الرسول ﴿ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ وهذا مما يرجح أن المراد بالعذاب: عذاب الآخرة، فقد قامت عليهم الحجة ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾.

قال الراغب: ((النكوص: الإحجام عن الشيء)) انتهى، يعني: التأخر عن الشيء فراراً منه، فالمعنى: أنهم كانوا يتجنبون اتباع الآيات أو استماعها فراراً من الحق، فهم ظلموا أنفسهم بامتناعهم من تصديق النذير.

﴿٦٧﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من ﴿تَنكِصُونَ﴾ مستكبرين بالنكوص كأنكم تتأخرون عما القرب منه عار عليكم ودناءة ﴿سَمِرًا﴾ تتحدثون الليل فيما بينكم ﴿تُهْجِرُونَ﴾ أي حديث هجر على قراءة ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بفتح (التاء) وضم (الجيم) أو حديث أهجار على قراءة ﴿تُهْجِرُونَ﴾ بضم (التاء) وكسر (الجيم).

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : السامر هم الذين يسمرون ويتحدثون في أمر القرآن بالليل خاصة لأن السمير عند العرب وفي لغتهم لا يكون إلا بالليل، قال الشاعر:

وباتوا بشعب لهم سامراً إذا ما خبت نارهم أوقَدوا))

انتهى، وقال في (الصحاح): ((والسامر أيضاً السُّمَّار وهم القوم يسمرون كما يقال للحُجّاج حاج)) انتهى، وفي (لسان العرب) مثله، وفي (أساس البلاغة): ((وباتوا سُمَّاراً وسامراً)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ أما على قراءة فتح التاء وضم الجيم، فمعناه: أنهم يتكلمون بكلام يشبه الهذيان؛ لأنهم يسترسلون في القول الباطل بغير تثبت ولا تورع كأنهم لا عقول لهم، وأما على قراءة ضم (التاء) فمعناه: أنهم يتكلمون بالكلام الفاحش.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وكانوا يجتمعون في الليل حول البيت يسمرون وعامة سمرهم ذكر القرآن والطعن فيه بأنه شعر وسحر وسب الرسول ص)).

جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآن الذي سمعوه ووجدوه حكيماً محكماً يعجزون عن الإتيان بمثله، بل قد تدبروه حتى علموا عجزهم عن الإتيان بمثله ولكن منعهم الكبر عن الإيمان به ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بل قد جاء آباءهم الأولين الرسول والكتاب، كما قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ..﴾ الآية [البقرة:٢١٣] وهذه الجملة كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بل قد عرفوه وعاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاماً فما أنكروه، وهذا من نعمة الله عليهم ومن تمام الحجة عليهم أنهم يعرفون رسولهم فلا تنكره أنفسهم.

﴿٧٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((والجِنة: الجِن ـ ثم قال ـ : والجنة: الجنون)) انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) والمعنى واحد، أي يقولون: به جن يخبلونه فهو مجنون بسبب دخولهم فيه على قولهم، أو﴿يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ وهم زعموا أن به جنة من أجل أنه جاءهم بدعوى الرسالة والقرآن وذلك حق لا يدل على أنه مجنون، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ هنا وفي (سورة الصافات) أو لأن المجنون يخلط في كلامه الحق والباطل بما يظهر أنه به مجنون ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ فلذلك تَقَوَّلوا فيه الأقاويل الباطلة مجنون، شاعر، ساحر..

فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ

﴿٧١﴾ ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ أهواء المشركين الذين يهوون أن يبقى الشرك والكفر باليوم الآخر وأن يموت الرسول ويبطل الإسلام ويكون الحكم لهم يحكمون في عباد الله كيف شاءوا ويكون الملائكة أرباباً لهم وشفعاء إلى غير ذلك من أهواءهم، فلو اتبعها الحق وجعل أمره تبعاً لها لما كان في بقاء العالم حكمة تقتضي بقاءه بل كانت الحكمة تقتضي إعدامه؛ لأنه حينئذ يكون قد فسد ولم يبق فيه مجال للحق أن يحكم هو وأن يكون هو المتبوع لا التابع لأن الحكم قد صار لأهوائهم، فأهمل العالم وفسد أهله كلهم.

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ﴾ بشرفهم الذي به يذكرون في العالم؛ لأن الذكر والشرف والعز هو في اتباع القرآن والتمسك به وهو الحق الذي به قامت السموات والأرض من حيث أنه حكم الله في عباده ﴿فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ وهذا غاية السفه أن يعرضوا عما فيه صلاح أحوالهم وعزتهم وشرفهم لأجل هوى أنفسهم، وقد شهدت بذلك تجربة أحوال العرب في الماضي والحال فقد كان لهم العز والقوة حين أسلموا، وكان اعتماد الجمهور على القرآن والحكم للقرآن حتى غلبوا كسرى وقيصر، وحين أعرضوا عن القرآن في هذا الزمان اختل نظامهم وذهبت عزهم وقهَرَهم الكفار، ولن تعود لهم قوتهم إلا إذا رجعوا إلى الله.

﴿٧٢﴾ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ خَرۡجٗا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيۡرٞۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ﴿خَرۡجٗا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: غَلَّة)) انتهى، وفسره في (الصحاح) بالإتاوة، وذكر قول الشاعر:

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ

أفي كل أسواق العراق إتاوةٌ وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم

وحاصل المعنى: أم تسألهم مالاً أجراً على الرسالة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ أي رزقه ﴿خَيْرٌ﴾ من خراج منهم، وقوله: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ مشاكلة، وقول الشاعر:

اعطوه خَرْجاً واتقوا بضريبة فعل الذليل وبيعةً لم تربح

يفيد: أن الضريبة تسمى خرجاً، وفي (لسان العرب): ((والخرج والخراج واحد: وهو شيء يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ثم قال الأزهري: والخرج أن يؤدي إليك العبد خراجه أي غلته، والرعية تؤدي الخرج إلى الولاة)) انتهى المراد.

﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي إن الله يرزقك خير من خراجهم، ومعنى ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ﴾ أي أنك لا تسألهم خرجاً حتى يعتذروا بخوف المغرم لأن معنى بل وهمزة السؤال الذي معناه النفي، مثل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح:١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه يبتدئ عباده بالإحسان ولا يطلب منهم مكافأة ويستمر فضله لعباده طول حياتهم مع عصيان أكثرهم له.

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَإِنَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَتَدْعُوهُمْ﴾ لتدعوا قومك ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى الحق الذي لا غواية فيه، بل هو أشبه بالطريق الواضح المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انقطاع فهم في عصيانك فوتوا رشدَهم.

يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ النشأة الآخرة وما فيها من الحساب والجزاء هي وعد الله الذي لا يتخلف؛ لأنه أصدق القائلين، فالطريق إلى إثباتها طريق واضح والإنسان بأهوائه وطمع الشيطان في إغوائه لا يصلحه إلا الإيمان بالآخرة وما فيها من الحساب والثواب والعقاب ليردع الإنسان عن الظلم وعن اتباع الباطل خوفه من النار ويحمله على الإحسان رغبته في الثواب.

فإذا لم يؤمن بالآخرة فقد الوازع عن الظلم والباطل، وفقد الباعث على الإحسان إلى من لا يرجو منه نفعاً ولا يخاف منه ضراً، ولذا قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣] فهو ناكب عن الصراط عادل عن طريق الحق والصواب، يقال: نكب عن الطريق أي مشى جانباً خارجاً عن الطريق.

في (أمالي أبي طالب) في (فضائل الحسن والحسين): قال سعد [بن أبي وقاص] للحسن × يا أبا محمد إن المشي قد ثقل على جماعة ممن معك والناس إذا رأوكما تمشيان لم تطب أنفسهم بأن يركبوا فلو ركبتما، فقال الحسن × : ((لا نركب قد جعلت على نفسي أن أمشي ولكن أتَنَكّب الطريق فأخَذ جانباً)).

﴿٧٥﴾ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ﴾ في هذه الدنيا ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي ما بقومك الذين لا يؤمنون بالآخرة من ضر وهذا يدل على أنهم في ضر.

قال الشرفي في (المصابيح): ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ أي الهزال والجوع والقحط الذي أسنتهم وسائر مضار الدنيا ﴿لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ أي أكثروا وبالغوا في ظلمهم بعداوة رسول الله ص. ثم قال الشرفي: وفي (البرهان): قيل إن النبي ص دعى عليهم فقال ((اللهم اجعل عليهم سنين كسني [في نسخة (المصابيح): كسنين وهو غلط من الناسخ.تمت] يوسف ×)) انتهى.

ولفظ الحديث في (الكشاف) في تفسير (سورة الدخان): ((اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف)) انتهى.

والعمه: قال فيه الراغب: ((العمه: التردد في الأمر من التحيّر)) انتهى.

﴿٧٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم﴾ هو القتل والأسر في بدر انتهى، قال (صاحب الصحاح): ((والإستكانة: الخضوع)) انتهى، وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾ أي لم يخضعوا راجعين إلى ربهم منقادين له ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وما يدعون الله دعاء تذلل لله.

قال في (الصحاح): ((وتضرع إلى الله: أي ابتهل، قال الفراء: جاء فلان يتضرع ويتعرض بمعنى إذا جاء يطلب إليك حاجة)) انتهى.

﴿٧٧﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية لقسوتهم وإصرارهم بانتقالهم إلى الإبلاس ﴿إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لعله الصحو المستمر وعدم المطر بحيث تجف بلادهم وتيبس مراعيهم وأشجارهم ويفقدون الزرع وحتى يشتد عليهم حالهم بالجوع المميت للأنعام وبعض الناس فمثل هذه الحالة يدعو إلى التضرع، ولكن هؤلاء القوم لا يتضرعون بل يسكتون سكوت حيرة ويأس من الفرج. قال في (الصحاح): ((والإبلاس ـ أيضاً ـ الإنكسار والحزن، يقال: أبلس فلان، إذا سكت غمّاً)) انتهى.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ

﴿٧٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ آيات تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ونعم توجب شكر العبد لربه الذي أنعم عليه بهذه النعم العظيمة، وفضله بالعقل على البهائم، والله تعالى هو المنعم بها علينا ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أنعمه عليكم، وأين الشكر ممن عبد غيره وكذّب رسوله وجادل في آياته؟ أما شركاؤهم فلم ينعموا عليهم بهذه النعم وهم يعلمون، والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب أو باطن القلب والمراد ما فيه من العقل.

﴿٧٩﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ قال الراغب: ((يقال: ذرأ الله الخلق، أي أوجد أشخاصهم)) انتهى، فالله تعالى هو الذي أوجدكم في الأرض التي مهّدها لكم دون شركاء المشركين وهم مقرّون بذلك ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ من القبور إلى موقف السؤال والحساب والحكم بين العباد فالله وحده هو الذي يسألكم ويحكم فيكم وبينكم لا شريك له ولا معقب لحكمه، وذرء الخلق أولاً دليل على حشرهم.

﴿٨٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ﴾ لا يقدر على الإحياء إلا هو ﴿وَيُمِيتُ﴾ لا يقدر أحد على تأخير الموت إذا قضاه ﴿وَلَهُ﴾ وحده ﴿ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كل منهما يخلف الآخر بتدبير الله وتقديره لمدة كل منهما، ولا يقدر على ذلك إلا الله ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ فتؤمنوا بأنه قادر على أن يحييكم بعد موتكم وتحذروا مما أنذركم.

ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿بَل قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ * قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ **ما عقلوا** ﴿بَل قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ **إنكار البعث بعد أن يموتوا ويكونوا تراباً وعظاماً، ثم قالوا:** ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ **فغالطوا مع أن الوعد حجة عليهم وعلى آبائهم، ثم جحدوا فقالوا:** ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ **القرآن الذي أنذرهم بالآخرة** ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ **وأساطير: جمع أسطورة.**

قال في (أساس البلاغة): ((وهذه أسطورة من أساطير الأولين مما كتبوا من أعاجيب أحاديثهم)) انتهى، وقد علم الكافرون أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله في الحكمة والإحكام أفلا أتوا بأسطورة من مثله إن كان أساطير، لقد علموا الحق، ولكنهم عاندوا لأنهم عرب جاءهم القرآن بلسان عربي مبين.

﴿٨٤-٨٥﴾ ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ **أفلا تتذكرون أنه ربكم فتعبدوه وحده، وتتركوا شركاءكم الذين ليس لهم شيء منكم ولا من رزقكم، وإنما هم مملوكون عباد أمثالكم.**

﴿٨٦-٨٧﴾ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ **الذي له الملك العظيم** ﴿سَيَقُولُونَ﴾ **السموات والملك العظيم** ﴿لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ **الله الذي له الملك وله السموات السبع فتؤمنوا بكتابه ورسوله وتطيعوه وتعبدوه وحده.**

مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا

﴿٨٨-٨٩﴾ ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): «﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي مِلكه ومِلك التصرف فيه، وزيادة (التاء) و(الواو) للمبالغة» انتهى، وقال الراغب: «والملكوت مختص بملك الله تعالى، وهو مصدر مَلَك أدخلت فيه التاء نحو رحموت ورهبوت» انتهى.

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ من شاء ممن شاء فلا ينال من أجاره الله بل من أجاره الله فهو محفوظ ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ بل من شاء الله أن يعذبه أو يهلكه أو يصيبه فلن يجيره من الله أحد ولا ملجأ له من الله ﴿سَيَقُولُونَ﴾ هذه الغلبة والقهر كلها ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ فمن أين تسحرون من أين تخدعون عن عبادة الله وحده وعن توحيده؟ إنه من اتباع الظن وما تهوى الأنفس وهو أيضاً طاعة الشيطان، فمن هنا انخدعتم كأنكم مسحورون لا تميزون بين الحق والباطل والرشد والغواية.

﴿٩٠-٩٢﴾ ﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو توحيد الله ونفي الشريك وتقبيح الشرك، وكذلك

تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ

أنهم يبعثون يوم القيامة وغير ذلك مما جاء به الرسول والقرآن ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ في زعمهم إثبات الشركاء لله وزعمهم إثبات الولد ﴿لَكَٰذِبُونَ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ نفي مؤكد بـ(ما) وبـ(من) ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ فحقق بهذا كذبهم في دعوى اتخاذ ولد، وأضاف الإحتجاج على نفي الشريك.

فقال تعالى: ﴿إِذًا﴾ أي لو كان معه إله ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ لأنه لا يكون إله إلا لو كان رباً مالكاً، ولا يكون رباً مالكاً إلا لو كان خالقاً ففرض تعدد الآلهة يستلزم فرض تعدد الخالِقين حتى يكون لكل إله مخلوقين يختص بهم وذلك يؤدي إلى أن يذهب كل إله ناحية بما خلق ليمتاز بما خلق ويعبدوه وحده ولا يعبدوا غيره، فلما كان لا يوجد من يدعي بعض المخلوقين أنه هو خالقهم دون الله تبين أنه لا يوجد خالق غير الله، وتبين أنه لا رب إلا الله، فتبين أنه لا إله مع الله ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من دعواهم عليه اتخاذ الولد وهو الغني ودعواهم الرضى بشريك والله هو العزيز الحكيم.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يبين أنه هو الذي يعلم مَن عَبَده ومن لم يعبده وتنفع عبادته العابدين ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الذين قال تعالى فيهم: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:١٤] فتعالى عنهم أن يكونوا له أنداداً أو يقرنوا به سبحانه وتعالى.

﴿٩٣-٩٥﴾ ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ﴾ ﴿قُل﴾ يا رسول الله

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ

داعياً لربك ﴿رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ أي إن أريتني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من فتح باب ذي عذاب شديد أو غيره من العذاب ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أخرجني من بينهم كما أخرجت لوطاً وغيره حتى لا ينالني ما نالهم من العذاب ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ بأن نعجله في حياتك إن كان العذاب المعجل، فإن كان عذاب الآخرة فكذلك هو تعالى قادر على بعثهم وبعث الرسول وإراءته العذاب الذي يعذبون به؛ لأنه على كل شيء قدير.

﴿٩٦﴾ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿ادْفَعْ﴾ يا رسول الله سيئة الكافرين بك وغيرهم ادفعها بالكلمة التي هي أحسن أو الصنيعة التي هي أحسن أو الفِعلة التي هي أحسن، والتي هي أحسن يعم ذلك على سبيل البدل، والدفع ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أبلغ من دفع الإساءة بالإحسان؛ لأن التي هي أحسن مفضلة على الحسنة ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ كقولهم شاعر وساحر ونحو ذلك من كلامهم الباطل، فاجعل أمرهم إلى الله؛ لأنه أعلم بما يقولون، وكذلك قولهم الباطل على الله كِل أمرهم إلى الله فيه وفي كل ما يصفون من الباطل؛ لأن الله أعلم بما يصفون، وهو يجازيهم عليه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وهذا وإن كان خطاباً للنبي ص فالمراد به جميع الأمة)) انتهى.

﴿٩٧-٩٨﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾ ألجأ إليك ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ قال الشرفي في

رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ

(المصابيح): ((وهمزاتهم اغواءهم بالمعاصي وحثهم عليها من همز الرائض الدابة إذا نخسها بالمهماز [كذا] حثاً لها)) انتهى المراد.

وهذا معطوف على قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ﴾ فالراجح أنه تعوذ من إغراء الشياطين وخطراتهم الداعية إلى الظلم ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ أي من أن يحضروني، فظاهره أن حضورهم شرّ يدعو الإنسان إلى الباطل، فهو حجة للهادي × في طريقة إغواء الشيطان للإنسان.

﴿٩٩-١٠٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ راجع إلى ما تفيده الآيات من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من متاركة الكفار.

كأنه قيل: تاركهم فغايتهم الندامة عند الموت ﴿إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ أنتَ وملائكتك الحاضرون لقبض روحي ارجعوني إلى حالتي التي كنت فيها حالة العيش بسلام ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا﴾ أي ارجعوني لهذا الغرض ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ﴾ من أهل ومال فأصلح أهلي بدعوتهم إلى الإيمان وأنفق على ضعفاء المؤمنين وفي معاونة الإسلام ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن هذا الطلب ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ طلب الرجعة للغرض المذكور ﴿هُوَ قَآئِلُهَا﴾ في حال أن ﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ هو وأمثاله ﴿بَرۡزَخٌ﴾ حاجز عن العودة إلى الحياة والعيش ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ ليرجعوا إلى الله فيسألهم ويحكم فيهم ويعذبهم.

أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ

﴿١٠١﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ يوم يسمعون الصيحة وبعثوا كلهم من تقدم موته ومن تأخر ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ لأن الأنساب لم يبقَ لها معنى فقد ألغيت ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦] ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل:١١] ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسأل والد ولده ولا أخ أخاه ولا زوج زوجه مثلاً كيف صرت بعدي، فالمراد سؤال العطف ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧] وهذا السياق في الكفار.

فأما المؤمنون فهم يتساءلون، كما قال تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور:٢٥-٢٦] وقال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات:٥٠] فالتساؤل بينهم مذكور في السور (المكية) و(سورة المدثر) من أقدمها.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿فَمَن﴾ تفريع على ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ فالمعنى: يبعثون ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بعد البعث عند الحساب، وثقل الموازين كناية عن العمل الصالح مع الإيمان ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ كما قال تعالى في أول السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿١٠٣﴾ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ ﴿خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ لفقدانه الحسنات المقبولة، فلم يكن له ما يرجح موازينه بل كانت فارغة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ فحياتهم ليست لهم إنما هي لجزائهم بما يستحقون؛ لأنهم ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يموتون.

﴿١٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ

﴿١٤﴾ ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ معناه: تشويه حتى تقلص شفته العليا وتبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى)) انتهى.

وفي (أساس البلاغة): ((لفحته النار: أحرقت بَشَرتَه)) انتهى، وفي (الصحاح): ((لفحته النار والسموم: أحرقته)) انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ مكشرون أسنانُهم مكشوفة، قال في (الصحاح): ((الكلوح: تكشر في عبوس)) انتهى.

﴿١٥﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ أي قد كانت ﴿ءَايَتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والسؤال سؤال تقرير على قيام الحجة عليهم وعلى تكذيبهم بآيات الله.

﴿١٦﴾ ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ لم يجحدوا مجيئ آيات الله تتلى عليهم ولا أنهم كانوا بها يكذبون واعترفوا أنها غلبت عليهم شقوتهم، ولعل المراد غلبت عليهم أسباب شقوتهم من هوى أنفسهم وحسدهم وكبرهم ونحو ذلك، فهي التي حملتهم على التكذيب بآيات الله فشقوا بسببها، ونظيره في الإعتذار قول قوم موسى: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه:٨٧].

ويحتمل: أنهم أرادوا أن حظهم كان هو الشقاء أمراً طبيعياً كما يزعم الجاهلون كما يجعلون الغنى من حسن الحظ ولكن هذا لا يستقيم؛ لأنهم يعترفون كما في قولهم ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ فلا يستقيم إلا أن يكونوا أرادوا أن شقوتهم بعثتهم على التكذيب بآيات الله وغيرها من أسباب النار،

عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾

فيعود إلى الإقرار وكان كالمعنى الأول، وهو الموافق لما في (سورة الملك): ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ كَبِيرٍ﴾ [آية:٩] وقولهم: ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ أي غاوين عن طريق الحق.

﴿١٠٧﴾ ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ من النار ﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾ إلى التكذيب ﴿فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ نستحق التعذيب.

﴿١٠٨-١١١﴾ ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ﴿ٱخْسَـُٔوا۟﴾ زجر لهم عن طلب الخروج وإهانة لهم.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وهذه كلمة تستعملها العرب للكلاب خاصة، ثم يستعيرونها للناس)) انتهى، وقال الراغب: ((خسأْتُ الكلبَ فخسأ، أي زجرته مستهيناً به فانزجر، وذلك إذا قلت له: اخسأ)) انتهى.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ﴾ تعليل لهذا الزجر بأنهم كانوا يسخرون من أولياء الله ويضحكون بسبب أنهم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فالسخرية منهم من أجل هذا محاربة لدين الله ومحاولة للصد عن سبيل الله، وكذلك الضحك منهم.

قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾

فعظمت الجريمة من حيث هي ظلم لأولياء الله من أجله نسوا ذكر الله وخذلوا وعظمت من حيث هي استخفاف بدين الله، وعظمت من حيث هي محاربة لدين الله فاستحق أعداء الله أن يقول لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ أي في النار ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ﴾ أي المؤمنين ﴿بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على الإيمان والتقوى، وتحملوا أذى الكفار في سبيل الثبات على دين الله ﴿جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ ﴿أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ لأنهم هم الذين يزحزحون عن النار ويدخلون الجنة دونكم، قال الراغب: «الفوز: الظفر بالخير مع حصول السلامة» انتهى.

﴿١١٢-١١٤﴾ ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ قال الله لأهل النار: ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الحياة الأولى ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ فالسؤال عن عدد المدة من السنين ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ إما أنهم قد نسوا، وإما أرادوا تقليل المدة؛ لأن المدة الطويلة إذا مضت كانت كأنها قليل، ويحتمل: كم لبثتم في بطن الأرض بعد الموت.

والأول أظهر لقوله تعالى: ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ بمعنى: أنهم اغتروا بالحياة الدنيا وما كانت ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ لأنهم يرون الأموات منهم ويعلمون أنهم يموتون، فلو كانوا يعلمون ما اغتروا بها لكنهم يأبون أن يسمعوا أو يعقلوا، ففاتهم العلم الذي كان ينقذهم من الإغترار بالدنيا.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ

﴿١١٥﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ التفات من خطاب أهل النار إلى خطاب من وعظهم الله تعالى بالموعظة الماضية، وهي تأكيد للإنذار وتبكيت على حسبان أنما خلقهم الله عبثاً لغير حكمة قال في (الصحاح): ((العبث: اللعب)) انتهى.

وقال الراغب: ((العبث: أن يخلط بعمله لعباً ـ ثم قال ـ : ويقال لما ليس له غرض صحيح عبث)) انتهى.

﴿وَأَنَّكُمْ﴾ وحسبتم أنكم ﴿إِلَيْنَا﴾ إلى ملك يوم الدين ﴿لَا تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث والسوق إلى موقف الحساب حيث يسألهم رب العالمين الذي يرجعون إليه وحده لا شريك له.

﴿١١٦﴾ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ ﴿فَتَعَٰلَى﴾ تفريع على ما مر في السورة من الإحتجاج والرد على المشركين والمكذبين للرسل والمكذبين بيوم الدين (تعالى): ترفع وتنزه عن كل ضعف وعن كل نقص وعن كل عيب ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ الذي له الأمر والتصرف في عباده ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لأنه المالك لكل شيء، فولايته على كل شيء هي الحق، ولا شريك له في الملك؛ لأن كل من سواه مخلوق مربوب غير خالق.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ لا إله إلا هو كما دل عليه ما مر من الإحتجاج؛ لأن هذه الآية كالنتيجة لما مر، رب العرش الكريم مالك الملك الكريم، ووصْف الملك بأنه كريم يفيد: أنه مُلك عدلٍ وتفضلٍ ورحمةٍ وإحسانٍ وإنعامٍ وكلِّ معاني الكرم.

إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

﴿١١٧﴾ ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَمَن يَدۡعُ﴾ **عطف على (آية التوحيد) الذي ثبت بالحجج الماضية** ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ **يبين دليلاً آخر على بطلان الشرك وهو أنه** ﴿لَا بُرۡهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ﴾ **يوم القيامة** ﴿عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ **المالك له الذي استحق عليه أن يعبده ولا يشرك به ولا حساب له عند معبوده الذي دعاه مع الله ولا يفيده شيئاً بل يكفر بعبادته** ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ **لأنعم الله بعبادة غيره وباستعمال نعمه في معصيته، فلا يظفر بما رجى في عبادة غير الله من النصر أو الشفاعة أو أي نفع أو دفع بل يخيب رجاؤه وتتحقق خسارته.**

﴿١١٨﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ ﴿وَقُل﴾ **عطف أي** ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ **عبادةً لربك وشكراً لنعمته عليك بما نزل لك من الهدى والنصر بالحجة على الأعداء، وفي هذا الدعاء مشابهة لقول نوح × :** ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١] **في أنه تذلل لله تعالى وابتعاد من العجب.**

والحمد لله رب العالمين،،،

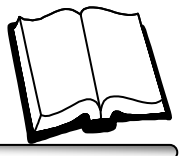

التيسير في التفسير

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا

مبتدأ تفسير (سورة النور) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ هذه الآية تدل على أهمية استماع المخاطبين لهذه السورة واتباعها وتنفيذ أحكام الله تعالى فيها؛ لأن الله جل جلاله أنزلها وهو أحكم الحاكمين ومالك العالمين يحكم ما يريد ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ إما فرضنا أحكامها وأوجبناها، كقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ [مريم:٨٠].

قال الشرفي في (المصابيح): ((وأصل الفرض القطع، أي جعلناها واجبة مقطوعاً بها، أو فرضنا عليك تبليغها وعليك قبولها وتصديقها)) انتهى.

وقال الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ [القصص:٨٥]: ((أي أوجب عليك تلاوته والعمل بما فيه وحمَّلك تأديته وتبليغه)) انتهى.

وإما فرضنا السورة أوجبنا تعلمها وتبليغها وحفظها، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ آيات هي آيات السورة كلها ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مفهومات بسهولة واضحة الدلالة ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين تفهمونها فلا تغفلوا عن التمسك بها.

﴿٢﴾ ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا

طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلزَّانِيَةُ﴾ المرأة الزانية التي جامعها أجنبي عنها ليس بينهما زواج ولا هو مالك لها ﴿وَٱلزَّانِى﴾ الرجل الذي واقعها ﴿فَٱجْلِدُواْ﴾ هذا أمر موجّه إلى المسلمين، فعليهم أن يعينوا من يقيم أمر الله في هذه الآية وفي سائر آيات الحدود ﴿كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ من الزانية والزاني ﴿مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فالزاني يجلد مائة جلدة، والزانية تجلد مائة جلدة.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ لا تأخذكم لا تغلبكم رأفة بهما ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ لا تأخذكم في دين الله في طاعته وامتثال أمره، والرأفة رحمة ورقة فلا يجوز التقصير في طاعة الله لأجل الرحمة لهما بل على المسلمين إقامة الحد كاملاً كما أمر الله، والجلد: ضرب يؤلم الجلد ولا يكسر عظماً ولا يتجاوز الجلد إلى الجرح في اللحم خلف الجلد، وقد قدر بأن تكون العصى التي يجلد بها في غلظ الإبهام ويضرب الضارب ملصقاً عضده بضلعه.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ تأكيد للحكم وأن لا تأخذ المسلمين بهما رأفة إن كانوا يؤمنون، والمعنى الحث على امتثال أمر الله في هذا الحد والدلالة على أن من تغلبهم الرأفة بهما ليسوا مؤمنين؛ لأن الإيمان بالله يبعث على طاعته، والإيمان باليوم الآخر يبعث على الحذر من النار وطلب الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ دلالة على أنه لا يجوز أن يقام الحد في السِّر؛ وذلك ليجتمع على المحدود العذاب البدني والعذاب النفسي، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لعيتبروا بعذابهما، ولعله أيضاً لأن افتضاحهما عند المؤمنين أشد عليهما من حضور الفساق والله أعلم وأحكم، وهذا الحكم عام للبكر والمحصن.

يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ

---

٣ ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا أدب للزاني والزانية وتنزيه للمؤمنين من تزوج أهل هذه الرذيلة، فلا تحل الزانية لمؤمن ما لم تتب إلى الله، ولا يحل الزاني لمؤمنة ما لم يتب إلى الله.

٤-٥ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿يَرۡمُونَ﴾ يقذفون ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ أي يقولون فيهن إنهن زنين، شبه هذا الكلام فيهن برميهن بحجر أو نحوها؛ لأنه موجع، والمحصنات المصونات المحفوظات والعفيفات اللاتي يحصن فروجهن بالعفة واجتناب مواقع التهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يشهدون عليهن بالزنا، وهذا يدل على أن المراد في قوله تعالى: ﴿يَرۡمُونَ﴾ الرمي بالزنا؛ لأن الزنى هو الذي لا يحكم به إلا بشهادة أربعة أو إقرار أربع مرات.

وقد سبق في القرآن اشتراط الأربعة في قوله تعالى: ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ..﴾ الآية [النساء:١٥] وأيضاً هذه الآية معطوفة على حكم الزانيين فالعطف قرينة تعيّن أن المراد بالرمي الرمي بالزنا.

وقوله تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ فحد القاذف ثمانين جلدة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ زجر عن القذف كما أن الحد زجر، فلا تقبل شهادة القاذف ولو ظن صدقه؛ لأن الله تعالى سلب أهليته لقبول شهادته ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفاجرون؛ لأن القذف ظلم من حيث أنه موجع للمقذوفة، ومن حيث أنه يجر عليها محاولة الزناة لأن يزنوا بها، ولذلك فالقذف مفسدة عظمى، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ فقد خرجوا من الفسق بالتوبة.

قال الشرفي في (المصابيح): ((ومذهب أهل البيت عليهم السلام أن رد شهادة القاذف معلق بنفس القذف، والتأبيد ينصرف إلى كونه قاذفاً، فإذا تاب عن القذف قبلت شهادته)) انتهى.

وقد يقال: في هذا نظر؛ لأن في (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: ((لا تجوز شهادة متهم، ولا ظنين، ولا محدود في قذف، ولا مجرب في كذب..)) إلخ، والمحدود في القذف لا تخرجه التوبة عن كونه محدوداً في قذف؛ لأن المراد بالمحدود الذي قد حد في قذف.

ويؤكد هذا أن الآية فيها تأبيد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ ولو كان مثل غيره من الفساق ما كان للتأبيد فائدة، ولا كان في ذكره في الآية مزيد زجر؛ لأن القاذف يرجو التوبة فتعود له مكانته في قبول الشهادة، فأما الإستثناء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ فليس راجعاً إلى النهي عن قبول شهادته، بدليل أن الله تعالى فسر الإستثناء بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ والرحمة والمغفرة تخرجه من اسم الفسق وعذابه، ولا يلزم أن تعود له المكانة في المجتمع كما كان قبل القذف.

وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ

ألا ترى أن القاتل عمداً لا يرث ولو تاب، أو لا ترى أن آدم × تاب وقبل الله توبته ولم يلزم من ذلك أن لا يخرجه من الجنة مع أن الله تعالى قد غفر له ورحمه، وأيضاً يمكن أن يظهر التوبة وهو غير تائب، فلو شرع الله قبول شهادته لأدى إلى قبول شهادة من لم يتب؛ لأن الأحكام تتبع الظاهر، وهو ضرر عظيم لإمكان أن يشهد بالزنى كما قذف أولاً ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾ من الإصلاح أن يبرئ المقذوفة ويعلن بتبرئتها عند كل من بلغه القذف.

﴿٦-٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنْ لَعْنَتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي والرجال الذين يرمون أزواجهم أي الزوجات بالزنا فيقول إن زوجته زنت ﴿وَلَمْ يَكُن﴾ له ﴿شُهَدَآءُ﴾ أي الأربعة الشهداء على الزنا ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي يشهد الزوج لنفسه.

﴿فَشَهَـٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَـٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ﴾ أي يقول أشهد بالله إني لمن الصادقين ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةُ﴾ أي والشهادة الخامسة لفظها: ﴿أَنْ لَعْنَتُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ أي هذه الشهادة تجزي عن أربعة شهداء، إلا أن من شرط قبولها في حد المرأة أن تنكل عن الأيمان على أنها بريئة، وأما سقوط حد القذف عن الزوج فقد سقط بأيمانه.

ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو

قال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((فإن نكل الزوج [أي عن الشهادات الخمس أو الأربع] ضرب ثمانين وخلِّي، وذاك حد القاذف، وإن نكلت هي [أي زوجته نكلت عن الأيمان أنه كاذب] رجمت)) انتهى المراد.

﴿٨-٩﴾ ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنۡ غَضِبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿وَيَدۡرَؤُاْ﴾ يدفع ﴿عَنۡهَا﴾ عن المرأة المقذوفة ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ الحد المحكوم به على الزانية ﴿أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ فتقول هي: أشهد بالله ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ في رميه لي بالزنا ﴿وَٱلۡخَٰمِسَةَ﴾ الشهادة الخامسة ﴿أَنۡ غَضِبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إن كان زوجها من الصادقين في قذفه لها بالزنا، أي دعت على نفسها بغضب الله إن كان زوجها صادقاً في رميه لها بالزنا.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فضل الله ورحمته بما أنزل لكم من الحكمة والهدى، وحذف جواب ﴿لَوۡلَا﴾ لفهمه من السياق فقد شرع الله حد الزانيين لتطهير المجتمع من هذه الرذيلة، وشرع حد القاذف بلا بينة له على ما رمى به المقذوفة.

وكان أمر الزوجين مهمّاً إن شرط على الزوج أربعة شهداء فكيف يستطيع أن يصبر عند عدم الشهداء لا يقتل ولا يقذف، وإن حكم بتصديق دعواه عليها بدون شهداء فقد يكون كاذباً، فكان اللعان حلاً للمشكلة؛ لأن الزوج يشتفي به حيث قد دعت على نفسها بغضب الله وعرضت نفسها لعذاب الآخرة على كذبها إن كانت كاذبة أو يشتفي بالحد إن نكلت عن الأيمان، وهي تشتفي إن كان كاذباً عليها بأنه قد دعى على نفسه بلعنة الله وهو كاذب، وهي مباهلة عظيمة يتوقع فيها على الكاذب عذاب شديد.

بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ أي ولولا أن الله تواب حكيم فكان من حكمته تعريض العاصين للتوبة فأمهلهم ولم يعاجلهم بعذاب من عنده وأحالهم على العقوبة المشروطة بالبينة أو بالإقرار، وجعل القاذف كاذباً إذا لم تكن له بينة، كل ذلك تعريض على التوبة بالإمهال فضلاً ورحمة؛ ولأنه سبحانه ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ ومن حكمته هذا التشريع الخاص بالزوجين المناسب لما بينهما من الحق الخاص.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ الإفك قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: الكذب والبهتان)) انتهى.

﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ جماعة منكم أو خاص بالجماعة المتعاضدة، قال الراغب: ((والعصبة: جماعة متعصبة متعاضدة)) انتهى، وفي (الصحاح): ((والعُصْبة من الرجال ما بين العشرة إلى الأربعين)) انتهى.

﴿لَا تَحْسِبُوهُ﴾ أيها المؤمنون البريئون ﴿شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لعواقبه الحميدة التي جاءت بسببه من تعظيم الإفك والتشنيع على أهله وتبرئة من نسب إليه، والزجر عن العودة إلى الإفك وغير ذلك ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم﴾ أي من الذين جاءوا بالإفك ﴿مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ بقدر ما اكتسب يلحقه الإثم.

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ معظمه من حيث ابتداه وأكده وأغرى به الآخرين ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ولم يسم القرآن من قيل فيه، ولا كلفنا معرفته

لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى

فلا حاجة إلى اعتماد رواية الزهري وأتباعه في قولهم: إنها عائشة، وإن كانت هذه الرواية قد اشتهرت، ولم يشتهر أنها مارية القبطية، فإن سبب الشهرة ليست كثرة الأسانيد إلى من يوثق به إنما سببها نشر الرواية في الكتب الكثيرة، وقد يحتمل أن لبني أمية غرضاً في جعلها عائشة ـ والله أعلم ـ بالحقيقة فلنقف ولا نتكلف ما لا نعلم.

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿لَّوْلَآ﴾ قال (صاحب مغني اللبيب) في ﴿لَّوْلَآ﴾: ((الثالث أن تكون للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي)) انتهى المراد.

﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ حين سمعتم الإفك ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فكان على المؤمنين حين سمعوا الإفك أن لا يظنوا صدقه ولا يشكوا بل يرجحوا كذبه لظنهم الخير فيمن قيل فيه الإفك لإيمانه؛ لأن على المؤمنين أن يظن بعضهم في بعض خيراً فضلاً عن أن يظن سوءاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطف على ﴿ظَنَّ﴾ أي لولا قالوا إذ سمعتموه ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فجزمتم بكذب قائله وحكمتم أنه إفك مبين استناداً إلى ما تعرفونه من إيمان المقول فيه الإفك، فكان هذا هو واجبكم إذ سمعتموه، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي بيّن أنه إفك.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ يترجح أن هذه الآية من حكاية مقول: ﴿قَالُوا هَٰذَا

ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ

﴿إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أي حكموا بأنه إفك، واحتجوا لذلك بأن (أهل الإفك) لم يأتوا بالشهداء، وبدأوا بقولهم: ﴿لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ يريدون: أنه لو كان صدقاً لجاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون أنهم رأوا ما زعموه، فإن كان صدقاً فهلاً جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴿فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ إنما تناقلوا الكلام بينهم بدون بينة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه ﴿هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ تنزيهاً للمؤمنين من التهمة فضلاً عن تصديق قول الزور.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ **﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بالإمهال والتعريض على التوبة والرحمة في الآخرة لمن تاب والفضل له ﴿لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ﴾ أفضتم: خضتم بغير تقيّد ولا تحرز من الإثم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ عذاب عظيم عاجل صيانة للمجتمع الإسلام من ذلك الخوض.**

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((﴿فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ﴾ معناه: خضتم فيه)) انتهى، وقال (صاحب الصحاح): ((وأفاضوا في الحديث، أي اندفعوا فيه)) انتهى.

﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ **﴿إِذۡ﴾ إما متعلق بقوله تعالى: ﴿لَمَسَّكُمۡ﴾ أي لمسكم عذاب عظيم حين تلقون الإفك بألسنتكم، وإما متعلق بقوله تعالى: ﴿أَفَضۡتُمۡ﴾ فيه تفصيل لمعنى الإفاضة.**

بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾

وقوله تعالى ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾ أي الإفك ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ أصل تلقي الكلام أن يكون بالسمع والقلب، ولكن المخاطبين يتلقونه ليحدثوا به فكأنه لم يصل إلى أسماعهم إنما انتقل من لسان تكلم به إلى لسان حكاه من غير نظر في صحته أو أنه غير صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بأفواهكم وحدها ليس للقلب به علم، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي الإفك ما ليس لكم به علم، أي القول الذي ليس لكم به أي بمعناه علم ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ﴾ ذلك القول ﴿هَيِّنًا﴾ سهلاً لا بأس به ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لما فيه من المفاسد:

فمنها: أن تقبله وحكايته يعطي المنافق وسيلة لسوء القول في المسلمين وبالتالي لسوء القول في الإسلام بناء على صدق الخبر، فمتى شاء المنافق قذف امرأة فشاع كلامه بين المسلمين، وإذا تكرر ذلك وظن الناس أن الإفك صدق عابوا على المسلمين وظنوا أن لو كان الإسلام حقاً ما كان أهله بهذه الحالة:

ومنها: ظلم المقذوفة والإغراء بها.

ومنها: تهوين الزنا في نفوس ضعفاء الإسلام إذا اعتقدوا انتشاره بين المسلمين فيجرِّيهم ذلك على الزنا، فكان تطهير المجتمع عن القذف وسيلة لتطهيره عن الزنا أو تقليله كما أن حد الزاني وسيلة لذلك.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ مر الكلام في لولا أنها تنديم وتوبيخ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ

﴿قُلْتُم﴾ هلا قلتم حين سمعتم الإفك: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا﴾ لأن قبحه معروف من قبل نزول هذا الزجر من حيث أنه ظلم للمقول فيه من حيث أنه تسرع إلى هتك عرض مؤمن.

فقد كان اللائق بالسامعين أن يقولوا لمن كلمهم به ما يكون لنا أن نتكلم بهذا بدلاً من أن تسارعوا إلى نقله ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا﴾ نفي بالغ؛ لأن معناه أنه لا يليق بحالنا كأنه لا يتصور وقوعه منا، وهو أبلغ مما لو قالوا: لن نتكلم بهذا، وللفرق بينهما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِۦ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فجمع بين نفي الوقوع وما هو قريب من نفي الإمكان.

﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ قال (صاحب الصحاح): ((والعرب تقول: سبحان مِن كذا إذا تعجّبت منه، قال الأعشى:

أقول لما جاءني فخره ... سُبحانَ مِن علقمة الفاجر

يقول العجب منه إذ يفخر)) انتهى.

وحكى الشرفي في [المصابيح] عن بعضهم أن سبحانك تحتمل التعجب والتنزيه، قلت: فيحتمل التعجب من حلم الله تعالى حين لم يعاجل أهل الإفك، ويحتمل: التعجب من جرأتهم على هذا البهتان العظيم.

قال الراغب: ((بُهت أي دَهِش وتحيّر، ثم قال: ﴿هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ﴾ أي كذب يُبهَت سامعه لفضاعته)) انتهى، وقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ يدل على زيادة قبحه على قبح بعض البهتان.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ يحذِّركم ويزجركم، قال الراغب: ((الوعظ زجر مقترن بتخويف)) انتهى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

﴿أَن تَعُودُوا۟﴾ أي يعظكم من أن تعودوا أو لئلا تعودوا ﴿لِمِثْلِهِۦٓ﴾ لمثل هذا الإفك الذي قد وقع ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي أنكم إن عدتم لمثله فلستم بمؤمنين.

﴿١٨﴾ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ فهي حجة عليكم ونعمة.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ عليم بكل شيء ومنه الحكمة في التكاليف، ومنه علمه تعالى بمن يمتثل ومن يخالف، حكيم فقوله حق وصواب ليس فيه شيء خارج عن الحكمة، وكذلك حكيم في إمهال بعض العصاة ثم تعذيبهم وغير ذلك، فكل قوله وحكمه وفعله مطابق للحكمة، ومن ذلك زجره وتحذيره من الإفك.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ﴾ مثل الزنا يحبون أن يشيع ينتشر ويتعدد وقوعه ويكثر فاعلوه ممن هم في الأصل من الذين آمنوا، وهذا الحب سببه عداوة أهله للإيمان ورغبتهم في أن تسوء سمعة المؤمنين ليزهد الناس في الدخول في الإسلام، فهؤلاء هم الكفار والمنافقون ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بمثل حد القذف إن قذفوا وغيره مما ينال المنافقين ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عذاب النار ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يترجح: أن (الواو) في ﴿وَأَنتُمْ﴾ للحال أي أن الله يعلم الشيء في حال أنكم لا تعلمونه، فهو يعلم مَن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة؛ لأنه ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾.

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿لَوْلَا﴾ جوابها محذوف يدل عليه السياق فالله سبحانه يعلم أسرار العباد كلها ومعاصيهم الكثيرة ومنها الزنا والقذف ومحبة أن تشيع الفاحشة، فلولا فضل الله على المؤمنين بفتح باب التوبة والإمهال والدعوة إليها ورحمته بذلك وبالتعليم والمواعظ.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ معطوف على ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ لولا ذلك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بالعباد، والرأفة رحمة عظيمة، والله تعالى منزّه عن الرقّة ولكن يفعل لعباده فعل الرؤوف الرحيم بالدعوة إلى ما ينجيهم من عذابه والتحذير من أسباب عقابه، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠] وكذلك بنعم من الحلال تغني عن الحرام وغير ذلك.

﴿٢١﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الخطوة: اسم مصدر خطا يخطو ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ المعاصي التي يتبعه فيها العصاة واحدة بعد واحدة، كأن الشيطان يمشي في طريقه خطوة فيتبعه العاصي فيزيد خطوة وهكذا حتى يصير بعيداً من الحق.

ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ

وعلى هذا: تفيد الآية وجوب المسارعة إلى التوبة عند كل زلة، وأن لا يؤخر التوبة حتى تقع زلة ثانية، بل وأن يحذر الذين آمنوا من الوقوع في الزلة الأولى لأنها أول خطوة من خطوات الشيطان ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾ أي الشيطان ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فاتباعه يؤدي إلى الفحشاء والمنكر وهما من المعاصي إلا أن الفحشاء يفهم منها مثل: الزنا واللواط، والمنكر مثل: عقوق الوالدين، وظلم اليتيم.. ونحوه مما تنكره قلوب الناس.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ بإرسال الرسول وإنزال القرآن وغير ذلك من أسباب الهدى وبالألطاف ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ لأن الإنسان يجتمع عليه الجهل وحب العاجلة وهوى النفس والشيطان فيكون أقرب إلى الخبث ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ بالهداية إلى التعلم وإلى استعمال العقل وغير ذلك وعلى هذا فينبغي الإعتصام بالله بالعزم على طاعته وتقواه والجد في طاعته ومدافعة هوى النفس والإخلاص لله والدعاء بطلب التوفيق والتسديد والثبات على الطاعة وحسن الخاتمة.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ يسمع من يتبع خطوات الشيطان ويعلم ما يصنع وما يخفي وما يعلن، وكذلك يسمع من يذكر الله ويدعوه ويقول الحق ويجتنب القول الباطل ويعلم توبته وصلاح نيته.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿يَأۡتَلِ﴾ يستعمل بمعنى يقصر كقول امرئ القيس:

ألا رب خصم فيك الوى رددته نصيح على تعذاله غير مؤتلي

أي غير مقصر في النصح والعذل، ويستعمل بمعنى: يحلف، والسياق يترجح فيه الأول؛ لأن الأغنياء مظنة التقصير في إيتاء أولى القربى واليتامى والمساكين وليسوا مظنة أن يحلف الواحد منهم أن لا يؤتي المذكورين كلهم لبعد أن يغضب عليهم كلهم إذا كان سليماً من النفاق، فالحث على ترك التقصير في الإنفاق هو المتوقع.

فإن **قيل**: ما المانع أن الخطاب للأغنياء المنافقين وهم مظنة أن يحلف الواحد منهم لبغضهم للمؤمنين كلهم؟

قلنا: إن قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وكذلك قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ دليل على أن الخطاب للذين آمنوا كما هو في أول الآية.

﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ الواجدون لما يفضل عن حاجتهم وحاجة من ينفقون عليه ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾ أي الواجدون للرزق الواسع الذين لم تضيَّق عليهم الحال ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ أي يعطوا، وفي كلام الراغب: أن الإيتاء أخص من الإعطاء؛ لأنه قال: ((الإتيان: مجيء بسهولة)) انتهى.

و﴿أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أعم من الأقربين قالوا: هم مَن ولَدَه جدًّا أبويه ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كانوا محتاجين وكان إعطاؤهم من الإنفاق في سبيل الله؛ لأنه معاونة لهم على الثبات على الهجرة في سبيل الله كما أن منعهم مما دعى إليه المنافقون لينفضوا من عند رسول الله ص وهو يعم المهاجرين في سبيل الله في أي عصر كانوا.

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ عمن آذاهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ يستعملوا الحلم ويعرضوا عما وقع ممن آذاهم كأنه لم يقع، قال في (الصحاح): ((وصفحت عن فلان، إذا أعرضت عن ذنبه)) انتهى.

لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معناه: أليس تحبون أن يغفر الله لكم، فإذا كنتم تحبون ذلك فتقربوا إليه بالعفو عمن أساء إليكم)) انتهى المراد.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فتعرضوا لمغفرته ورحمته.

﴿٢٣-٢٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ * ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ ﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ المحفوظات من الزنا بصيانتهن وعفتهن ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ عن وسائل خداع الرجال وحيل ميلهم إلى الزنا ﴿لُعِنُواْ﴾ طردوا من رحمة الله ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ومن لعنهم في الدنيا جلدهم ثمانين، ولعل منه سلب التوفيق للتوبة؛ لأن هذا فيمن يعتاد القذف لا فيمن فرطت منه مرة قبل نزول القرآن بالزجر العظيم عن القذف، لأن قوله تعالى: ﴿يَرۡمُونَ﴾ ظاهره فيمن يكرر ذلك ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ في الآخرة.

بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ الراجح: أن الجملة متعلقة بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي يعذبون يوم تشهد عليهم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ﴾ بالقذف، وهذا خاص بهم والله أعلم ﴿وَأَيْدِيهِمْ﴾ تشهد عليهم ﴿وَأَرْجُلُهُم﴾ تشهد عليهم، الثلاثة الشهود ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من القذف وسائر معاصيهم.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم تشهد عليهم الثلاثة أي يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ﴾ أي جزاءهم ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي يستحقونه بجرائمهم ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ يومئذ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ لذلك يلجأون إليه حين تقطعت بهم الأسباب، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا﴾ [السجدة:١٢] ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦] ﴿ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ الحق البيّن؛ لأنه حاسبهم وحكم عليهم ووجدوا ما وعدهم حقاً، فعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ﴾ من الكلمات ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ فهم المستحقون لها ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ﴾ أهل ﴿لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ الكلمات الطيبات ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ فهم المستحقون لها ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ﴾ أهل ﴿لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ ألا ترى أن الفاجر يستحق أن يقال له: فاجر، وخبيث، وفاسق، وأشباه ذلك من الذم الصادق، والمؤمن يصلح أن يقال له: طيب، زكي، تقي، صالح..ونحو ذلك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الطيبون ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ مما يقول القاذفون الخبيثون ﴿لَهُم﴾ أي للطيبين ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي ينجون من النار بمغفرة ذنوبهم ويدخلون الجنة يرزقون فيها رزقاً كريماً، رزقاً مصحوباً بالتكرمة لهم فيه وبه كما يكرم الأضياف.

لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ

﴿٢٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ابتداء موضوع يناسب الموضوع الماضي؛ لأنه يعين على العفة وعلى السلامة من التهمة ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ تطلبوا الأنس فتأمنوا من أن يكون صاحب البيت غير آذن وتأمنوا من التهمة في الدخول وتأمنوا من الوقوع في الفاحشة، وتأمنوا من الخلوة بالأجنبية.

﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ أي تقولوا لأهلها: ((السلام عليكم)) ليأنسوا بدخولكم عليهم؛ لأن السلام إعلان أمان، ولئلا تبغتوهم بالدخول فجأة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأدب ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي أن لا تدخلوا حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها أي على أهل البيوت خير لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تنتبهون لفائدة هذا الأدب إذا عملتم به فالعمل به يبين لكم فوائده ـ والله أعلم.

﴿٢٨﴾ ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ ۖ﴾ لم يأذنوا لكم في الدخول بل قالوا لكم: ارجعوا ﴿فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أطيب لكم فلا تأنفوا من الرجوع حين يقال لكم ارجعوا ولا تراجعوا في ذلك ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فإن رجعتم علم وإن عصيتم هذا الأمر علم؛ لأنه بكل ما تعملون عليم.

فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ

﴿٢٩﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ﴿جُنَاحٌ﴾ قال في (الصحاح): ((والجناح: الإثم)) انتهى ﴿أَن تَدْخُلُوا۟﴾ أي في أن تدخلوا؛ أو لأن تدخلوا أو نحو ذلك ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ ظاهره أن يكون المتاع فيها قبل الدخول، وذلك مثل أن يكون في البيت بضاعة أو علف أو يكون البيت مخزناً للداخل هذا الظاهر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ﴾ أي منفعة كالإستكنان من الحر والبرد وإيواء الرجال والسلع والبيع والشراء، وفي [البرهان] متاع لكم يعني عروض الأموال التي هي متاع التجار)) انتهى.

والأولى أن الآية تصدق على كل متاع حتى الظل، فأما المتاع الحاصل بالدخول كراحة المسافر فيدخل بالقياس؛ لأن ذلك مجاز، فأما المساجد فقد دل على دخولها للصلاة قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ..﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة:١٠٨] وغير ذلك، وأما القباب التي فيها الصالحون فالزيارة فيها بمنزلة الإستظلال؛ لأن الزيارة منفعة للزائر.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فلا يخفى عليه المقاصد الصالحة في الدخول والمقاصد الفاسدة وهو يجزي كلاً بما عمل.

﴿٣٠﴾ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أبلغهم هذا الأمر

وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا ۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾

﴿يَغُضُّواْ﴾ الراجح: أنه جزم؛ لأنه في معنى الأمر، كأنه قيل: قل لهم غضوا، أو قيل ليغضوا، وعلى قول بعض النحاة: إن تقل يغضوا وهو مستقيم هنا لأن المؤمنين يطيعون الله ورسوله ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ ﴿مِنۡ﴾ للتبعيض والمعنى مفهوم من السياق.

وفي الحديث: ((يا علي إن لك كنزاً في الجنة وإنك ذو قرنيها فلا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الأخرى)) أخرجه الطحاوي في (شرح معاني الآثار) [ج٣/ ص١٥] وأخرجه ابن أبي شيبة في (المصنف) [ج١٢/ ص٦٤] وأحمد بن حنبل في (المسند) [ج١/ ص١٥٩] وأفاد في حاشية (المصنَّف) أنه أخرجه الحاكم [ج٣/ ص١٢٣] والمفهوم من الآية غض البصر عن النظر لشهوة وعن النظر الذي هو مظنة إثارة الشهوة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تحذير من الإشارة بالعين ومن النظر كلاهما لغرض فاسد.

﴿٣١﴾ ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا ۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا

يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

﴿يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي معنى هذه الآية من أولها يقول الهادي × ما لفظه: ((الغض من البصر: هو أن لا ترفع بصرها إلى من لا يجوز لها النظر إليه، وحفظ الفرج فهو حفظها عما حرم الله عليها، وما ظهر من الزينة فهو ما لا بد منه من الكحل والخاتم، فهذا ما لا يقدر[ن] أن يسترنه، والضرب بالخمر على الجيوب فهو إرخاء الخمر على الوجوه حتى تبلغ الصدور وتستر الوجوه كلها، والخُمر: فهي المقانع.

وأما قوله: ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ﴾ فيقول: أهل ملتهن من النساء المسلمات لا من الذميّات والمشركات، وهذه الآية تحرِّم على المسلمة إظهار زينتها والتبذل للذمية ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ فهن الذميات المملوكات فيقول لا جناح عليها أن تبديها للذمية إذا كانت مملوكتها دون الحرة منهن ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾ فقد قيل: إنهن العنانة الذين لا يأتون النساء ولا يقدرون عليهن ولا يرغبون فيهن ولا بهن أرب [لهم] في مجامعتهن، والطفل فهو الصغير من الغلمان أبناء الخمس والست والسبع.

﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ فهم الذين لا يعلمو[ن] ما يكون بين الرجال والنساء ولم يفهموا ذلك ولم يقفوا عليه بعد، والضرب بالأرجل الذي نهين عنه كان المتبرجات في الجاهلية يفعلنه حتى يتحشتحش [كذا] الحلي ويصلصل الخلخال في أرجلهن فيسمع الرجال فيعلمون لا [كذا] أن في أرجلهن حلياً، فأمر الله سبحانه أن لا يفعلن من ذلك شيئاً)) انتهى.

قوله: الخمار المقنعة ما تلبسه المرأة على رأسها تغطيه به، والخمار: ثوب يصلح إرساله من على الرأس إلى فوق الجيب بحيث يكون بعضه على الرأس وبعضه على الجيب [الجيب: هو ما يسمى في لهجتنا: الفِقرة ـ تمت].

وقوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ﴾ الراجح: أنهم الضعفاء في البدن والفكر فهم محتاجون إلى من يقوم بأمورهم؛ ولذلك فهم تابعون لمن يقوم بحاجاتهم يوجههم كيف شاء فيتبعون توجيهه فيما فهموا أو أطاقوا وهم ثلاثة أصناف: صنف معاتيه ما بين المجانين والعقلاء وهم مع ذلك ضعفاء من أصل خلقهم، وصنف مجانين ضعفاء كذلك، وصنف شيوخ في أرذل العمر.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ لضعف أبدانهم وأفكارهم وعدم الشهوة للنساء فيهم كلهم؛ ولذلك فهم كالأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء لم يعرفوا عورات النساء ولم يطلعوا عليها، والراجح في معنى عورات النساء هنا أنها مثل عورات البيوت وعورة الفارس أي جهات ضعفهن التي يدخُل من طريقتها عليهن من آرائهن ويعبر عنها بنقاط الضعف، فهؤلاء غافلون عن ذلك معرضون عنه كما لا يخفى من إعراض الطفل الصغير.

وفي تفسير الإمام الهادي × جعلهم أبناء سبع سنين فما دون وهو أحوط، وقوله: يتحشتحش لعله غلط، ولعل الأصل: يتحسحس بدون (تاء) بعد السين وبـ(سين) مهملة مكررة من الحسيس الصوت ـ والله أعلم.

وهذا الحجاب صيانة للنساء والرجال، وإبعاد لهم عن الفاحشة، كما أن تركه يسبب كثرة اغتصاب النساء، وهو أمر شنيع يجعل الناس كالحمير.

وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٣٢﴾ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا

﴿٣٢﴾ ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ ﴿وَأَنكِحُواْ﴾ لعله يصدق على الزواج والملك الذي يحصل به النكاح، و﴿ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾: غير المزوجات من النساء وغير المزوجين من الرجال.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَـٰمَىٰ﴾ وهن النساء اللاتي لا أزواج لهن، والأيامى من الرجال أيضاً)) انتهى، يعني: الرجال الذين لا نساء لهم. وفي الصحاح): ((الأيامى: الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء)) انتهى.

وظاهره الوجوب على أولياء النساء الأيامى أن يزوجوهن، وعلى من خطب إليه الكفو المرضي خلقه ودينه أن يزوجه إذا كان أيِّماً، وكذلك الوجوب على الإمام أن يزوج الأيِّم المعسر من بيت المال، فالأمر للجميع يتوجه إلى الإمام مثل آيات الحدود، وإنما خصصت للولي حيث يخطب عنده المستطيع؛ لأنه لا يتكلف كلفة تحوج إلى السلطة، والأمر الموجه إلى الكل يتوجه إلى من يختص به، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ﴾ [البقرة:٢٢١] ﴿وَلاَ تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:٢٢١] ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١] وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ الراجح أن المراد به: الصالحين للإنكاح وهو الصلاح المتعلق بالنكاح ببلوغهما سن النكاح وسلامتهما من الموانع عن النكاح من المرض والعيوب التي يفسخ بها النكاح، وكون كل منهما مأموناً على الآخر إن لم يرغب فيه وفي حال الغضب ونحو ذلك من وجوه الصلاح للنكاح للعبيد والإماء من القيام بالحقوق الزوجية ونحوها.

تَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ وَمَثَلٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۡ

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ﴾ أي إن يكن الخاطب فقيراً فلا يتركوا إنكاحه لفقره، وقد روي عن جعفر بن محمد عن أبيه إ ، أنه قال: ((من ترك التزويج مخافة الفاقة أساء بربه الظن، إن الله ـ عزَّ وجل ـ يقول: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾)) رواه محمد بن منصور المرادي في (أمالي أحمد بن عيسى إ) بإسناده، وكم من غني ينقلب فقيراً وكم من فقير يستغني، فحبس البنت عن الفقير انتظاراً للغني غلط، ومخالفة للآية الكريمة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ واسع الرحمة واسع النعمة، عليم بأحوال عباده وبالمطيع منهم والعاصي وبكل شيء، وتزويج الأيامى من أسباب الصيانة عن الزنا.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا تَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ﴾ (اللام) للأمر، والعفة: الكف عما يعاب، وفي قصيدة عنترة إحدى (المعلقات السبع):

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وروي عن أمير المؤمنين علي × بعد قتله لعمرو بن ود:

وعففت عن أثوابه ولوَ انَّني كنت المقطَّر بَزَّني أثوابي

وأما في الآية الكريمة فالمراد ـ والله أعلم ـ العفة عن الزنا ونحوه، قال الشرفي في (المصابيح): ((والسين للطلب، كأن المستعفف [في نسخة المصابيح: كأن المستضعف وهو غلط وما أثبته يرشد إليه السياق] طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه)) انتهى.

فيطلب العفاف من نفسه بالتخويف لها من عذاب الله واجتناب جلساء السوء وشغل الأوقات بعمل أو مطالعة أو كتابة واجتناب ما يثير الشهوة من مأكول أو نظر أو رائحة أو سماع أو تفكير ويعمل لتقريب الزواج بالدعاء وتلاوة يس في كل ليلة وتحصيل المال ولو قرضاً ويحافظ على رجاء الزواج قريباً ويحذر القنوط ويصمم على الصبر؛ لأن العزم الصادق يعين على العفاف وإذا خطب مراراً ولم يرضوا فليخطب في امرأة من أهل بلدِه وعند من يرغب فيه لعقيدة أو مذهب أو غير ذلك كحسن الخلق.

فإن كان السبب فقره خطب عند أهل الدين، وإن كان السبب عيباً في بعض أخلاقه أصلح نفسه، وإن كان السبب حبسه لقريبته عن الزواج زوَّجها ولا يمسكها لتصنع له الطعام، أو كان السبب حبسها عن زوجها أرسلها لزوجها، ولا يظلمها لئلا يعاقب بتأخير زواجه، ويستعين بالله بتقواه وبالدعاء.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي يصبروا على حاجة النكاح فيثبتوا على العفة حتى يغنيهم الله بزواج أو ملك من فضله فيرجوا فضله؛ لأن فضله واسع.

﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ الكتاب المكاتبة بين العبد ومولاه على قدر من المال معلوم يدفعه العبد لسيده على أنه حرّ متى أوفى بالمال المذكور، وقوله تعالى: ﴿إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ شرط في وجوب الكتاب، والخير الدين والعقل الراجح والنية الصالحة، ولكن العلم إنما يتعلق بالمشاهد كالصلاة والصدق وطاعة السيد ونحو ذلك مما يدل على الخير الباطن فيحمل الخير عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ ظاهر الخطاب بهذا الأمر أنه للسيد المكاتِب لعبده فيعينه ولو بالإنفاق عليه، وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام): أنه كان يستحب أن يحط من المكاتب ربع الكتابة، ويتلو ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ انتهى.

وهذا يدل على أن الأمر موجَّه إلى السيد المكاتب كما يفيده السياق، وقوله تعالى: ﴿مِّن مَّالِ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى الترغيب بأن الله أعطاكم وأنتم عباده فاعطوهم كما أعطاكم ربكم، ونظير: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور:٢٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ دليل على أن معنى مال الله هو ما رزق السادة؛ لأنه مال الله آتاه المكاتِب لعبده، فأما تفسيره بمال الله من الغنائم أعني سهمه فيبعِّده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ﴾ و﴿فَتَيَٰتِكُمۡ﴾ يعم الإماء المملوكات والبغاء: الزنا من المرأة، يقال للزانية: بغي، وفي القرآن الكريم: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨].

وفيه أيضاً: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠] والفتاة: الشابة، ولا يبعد أنه يعم الجواري المملوكات والبنات؛ لأن بنت الرجل تضاف إليه كما تضاف المملوكة.

وقد حكى الشرفي في (المصابيح: ((عن الحسن بن أحمد الناصر بن يحيى الهادي عليه السلام أنه قال: ومعنى هذا أن يقول الرجل: لا أزوِّج حرمتي إلا من ذي شرف ومال ويسار وحسن حال، فيدعوها المنع من التزويج إلى ما حرم الله عليها فنهاه عن تعريضها للفتنة وأمره بتزويجها، والفتاة المرأة التي لم تزوّج الحَدَثة والإحسان إليهن والتأديب بآداب الله خير من حمية الجاهلية، والبغاء: الزنا المشتهر بعلامة تكون لصاحبته)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فيه تشنيع بالمكره لهن لأن من حقه أن ينهاهن عن البغاء فضلاً عن أن يأذن به لهن فضلاً عن أن يكرههن عليه، فإذا أكرههن عليه وهن يردن التحصن كان ذلك دليلاً على لؤم شنيع.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((وإنما أدخل ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن)) انتهى، ونظيره قولك: إن لقيت فلاناً فأبلغه السلام، أي: إنه لترتيب الطلب عليه لا أنه شرط.

وقال الشرفي ـ أيضاً ـ : وكان لعبد الله بن أبَيّ ـ رأس المنافقين ـ ست جوار يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت منهن معاذة ومسكة إلى رسول الله ص فنزلت)) انتهى، يعني نزلت الآية، وفيها: ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ أو نزلت هذه الجملة، وقوله: وضرب عليهن ضرائب، أي على جواريه كلفهن أن يدفعن له الضريبة لأنهن يأخذن من الزناة أجراً على الزنا، وقوله: ومسكة في (الكشاف): ومسيكة.

وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ

وقوله تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تكرهوهن لهذا الغرض الدنيء عرض الحياة الدنيا، وليس شرطاً وإنما هو لمنع الإكراه على كل حال، ولو كان لهذا الغرض، وبالأولى إذا لم يكن إلا لمجرد السفاهة أو للتوصل إلى الزنا عوضاً عن الزنا وذلك أقبح ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر للمكرهات إذا لم يفعلن البغاء إلا للإكراه، وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ﴾ تأكيد وتحقيق لهذا الشرط في الغفران للمكرَهات والرحمة.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ هي آيات القرآن ومنها ما سبق في هذه السورة من الآيات فهي بينات قاطعات لعلة الراجعين إلى أعمال الجاهلية ورجسها والباقين على الجهل بما أنزل الله من الدين ﴿وَمَثَلًا﴾ هي صفة ثانية للقرآن باعتبار ما فيه من العبر أو هي بمعنى أنزلنا مثلاً أي في القرآن.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ كذلك صفة للقرآن، أو بمعنى في القرآن، والموعظة: الزجر والتخويف، وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ خصهم تعالى لأنهم هم الذين ينتفعون بالموعظة فيتركوا أسباب العذاب، فالحجة بينة بالغة على من أبى والنفع عظيم لمن اتبع.

ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ

﴿٣٥﴾ ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الآية الكريمة كالتعليل للآية التي قبلها.

فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى في نبيئه: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] إنها استنارت ببيانه وإلهامه وبما جعل من العقول والبصائر والحاصل بهداه لأهل السموات وأهل الأرض، ألا ترى أنه تعالى سمى القرآن نوراً، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢] فالبصائر نور، والرسل نور، والكتب نور، وكل ذلك من الله تعالى.

وقد نبَّه على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ وقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ﴾ والشيء لا يضاف إلى نفسه، فتبين أن المراد: أنه منوِّر السموات والأرض، والمراد: النور الذي ترى به البصائر، ولذلك شبهه بنور المصباح ليدل على ما نعقله بما نحِسه، أما نور الأبصار فهو من الشمس وغيرها، فهو لا يمثل بنور المصباح، والمصباح: نار يستضاء بها في الظلمة، والمشكاة: كوّة غير نافذة وهي تجمع الضوء ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ تحفظه لا يطفأ وتجمع نوره وتقوِّيه ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ أي يشع منها نور ينضاف إلى نور المصباح، والدري: من الكواكب.

قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ وهي من النجوم التي تجري، والدري: المضيء)) انتهى المراد، والمعنى: المضيء بالنسبة إلى الكواكب أي أن ضوءه أقوى، ولعله سمي دريِّاً على التشبيه؛ لأن الدر يرى في الظلام كأنه ينير، وفي (معلقة لبيد):

وتضيئ في وجه الظلام منيرة كجمانة البحري سل نظامها

يعني كالدرة، وفي (صحاح الجوهري): ((والكواكب الدّريّ: الثاقب المضيء، نسب إلى الدُّر لبياضه، وقد يكسر (الدال) فيقال: دِرّي، مثل سُخري وسِخري)) انتهى المراد.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ﴿يُوقَدُ﴾ المصباح ﴿مِن﴾ زيت ﴿شَجَرَةٍ مُّبَرَكَةٍ﴾ بارك الله فيها، فكان من بركتها الزيت الذي فيه فوائد، منها: أنه يوقد به المصباح، ومنها: أنه دهن نافع، ومنها: أنه صبغ للآكلين، وقد مر في (سورة المؤمنون): ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ..﴾ الآية [آية:٢٠].

﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ مواجهة للشمس في النهار كله فثمرها الزيتون صالح ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي أنه قوي الصلاحية للإنارة به في المصباح حتى يكاد ينير ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يوقد بها.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ لأنه اجتمع نور المصباح ونور الزجاجة كما مر، واجتمع النور في الزجاجة في المشكاة، وهذا يدل على أن نور الله عظيم، وإنما تعمى عنه قلوب الجاهلين والغافلين لإعراضهم عنه.

﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيهتدون به ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليفهموا فهماً كاملاً كما في هذه الآية الكريمة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فضَرْبُه للمثل وتمثيله هو الصواب، كما قال تعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٧٤].

فإن سأل سائل فقال: لماذا شبه نور الله سبحانه بهذا النور المذكور ولو شبه بضوء الشمس كان أدل على قوة نور الله؟

قلنا: إن مركز نور الله ضمائر أوليائه، كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ..﴾ [الحديد:٢٨] وقال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا..﴾ [الأنعام:١٢٢] فالتشبيه بهذا الإعتبار يناسبه المثل المذكور في الآية الكريمة، ويؤكد هذا تعقيب الآية بذكر المساجد وعمارها للدلالة على مواقع هذا النور في الأرض، وعلى هذا فمن أعظم مواقع هذا النور رسول الله ص وعلي والحسنان وفاطمة صلى الله عليهم وعلى آلهم وسلم.

وقد روى الطبراني في (الكبير) [ج١٢/ ص٣١٧] بإسناده: عن عبد الله بن عمر في قوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ قال: جوف محمد، والزجاجة: قلبه، والمصباح: النور الذي في قلبه.. إلى آخره. ومن شعر الإمام الناصر الحسن بن علي الأطروش، رواه الإمام المنصوربالله في (الشافي):

فاجهد لكل الذي يرضى الإله ... وحبل عمرك بالإمهال موصول
فأنت من دَوْحَةٍ زيتونة وقدت ... فيها لنور إله الخلق تمثيل
نور إذا غشي الأنوار مشرقه ... أضحى لها فيه تغسيق وتأفيل
نور يقل بهذا الناس عارفه ... له لدى علماء الحق تأويل
أتى بشعيانه في سفره وأتى ... بذكر أوصافه موسى وحزقيل
محمد وعلي والبتول ومن ... قد كان يأتيهم وبالوحي جبريل
وعترة المصطفى بالرسِّ عنصرنا ... الطاهرين المقاديس البهاليل))

انتهى المراد، ولعله سقط من القصيدة بيت قبل هذا البيت أو أبيات.

تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم

وقوله تعالى: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يرغِّب في طلب الهدى لنوره، وقوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي من هو أهل لأن يهديه الله بزهده في الدنيا وورعه وتقواه وتفرغه لعبادته، وقوله تعالى: ﴿وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي ليفهموا المعاني بضرب الأمثال، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ إما متعلق بما قبله أي هذا النور في بيوت، أو يهدي الله لنوره في بيوت، فأما تعلقه بمشكاة فبعيد؛ لأن المثل قد انتهى وعقب بقوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ وإما خبر مقدم والمبتدأ مؤخر، وهو قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ وهو غير خارج عن السياق؛ لأنه يبيّن رجالاً جعل الله لهم نوراً هو المعرفة الكاملة المؤدية إلى الإيمان القوي.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ وحقيقة البيت هو ما يصلح لأن يبات فيه، والمساجد يبيت فيها العاكفون والمسافر الذي لم يجد مأوى.

وقوله تعالى: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ﴾ أي يرفع شأنها باحترامها وتطييبها واجتناب إدخال ما ينفر فيها كرائحة الثوم وتجنيبها النجاسات، وقد فسرها الإمام الهادي × في (الأحكام) بالمساجد في باب الإعتكاف أعني ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ وذكر الآية هذه والتي بعدها مما يفهم منه ارتباطهما.

وقول الله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يرشد إلى إكثار الذكر في المساجد لفضله على الذكر في غيرها، والذكر النافع ما توافق عليه القلب واللسان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

وقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ * رِجَالٌ..﴾ يشعر حيث قال تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ ولم يقل أناس أن المحمود هو ملازمة الرجال للمساجد دون النساء، وكذلك قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة:١٠٨] حيث خصهم بالذكر، ولم يقل: مصلون أو أناس ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ التجارة مبايعة في طلب الربح، وقوله تعالى: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ لعله خصه بالذكر؛ لأنه قد يكون ليس لغرض التجارة بل للحاجة إلى بيع السلعة، ولأن المتَّجر يحرص على البيع أكثر إذا وجد المشتري، فهؤلاء الذين حبب الله إليهم الذكر والتسبيح لا يصرفهم عنهما تجارة ولا بيع.

وقال تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ إشارة إلى أن الإشتغال بالأغراض الدنيوية يعتبر لهواً وشغلاً يضيع به الوقت لغير فائدة تستحق إضاعة الوقت عند عمار المساجد الذين يحيونها بالذكر والتسبيح، وإشارة إلى أن المهم اجتناب ما يلهي القلب عن إحضاره للذكر؛ لأن التجارة والبيع يمكن أن يصحبهما في أكثر الوقت الذكر والتسبيح باللسان لا بالقلب؛ لأنه ينصرف إلى التجارة والبيع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ يفهم منه: أنه لا يصرفهم عن إقامتها تجارة ولا بيع فما هي الإقامة؟!

الراجح: أنها الجماعة في أفضل الوقت، وإحضار الذهن والإخلاص والذلة لله مع إتمام أذكارها وأركانها، فهذا إقامة للصلاة مثل إقامة السوق إذا كثر فيه الناس وتحرك البيع والشراء.

مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ

وقوله تعالى: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ يفيد أنهم يؤتون الزكاة ولا يشغلهم عن إيتائها تجارة ولا بيع، وأن ذلك لا ينافي تفرغهم للعبادة؛ لأن إيتاء الزكاة من العبادة.

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ فالخوف: هو المحرك لهم خوف اليوم العبوس القمطرير، الذي تتقلب لهوله القلوب والأبصار.

قال الشرفي في (المصابيح): ((أي تَغَيَّر فتضطرب فيه القلوب من الهول، وتشخص فيه الأبصار فلا تقرّ في أماكنها من الفزع)) انتهى المراد، وهذا موافق لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم:٤٢] ولو فسر تغير القلوب: بفراغها من العقول، لكان موافقاً لقول الله تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى..﴾ الآية [الحج:٢].

﴿٣٨﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ يسبح له ولا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة كل ذلك يفعلونه ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ وأحسن ما عملوا هو القُرَب؛ لأن من الأعمال ما هو مباح أو مكروه ومنها الزلات التي يتوبون منها، والمعاصي إن كانت قد سبقت منهم قبل صلاحهم وتابوا منها فلا يجزونها، ولكن يجزون أحسن أعمالهم أي يثيبهم الله على أحسن ما عملوا.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ زيادة على جزائهم تفضُّلاً، وهذا يدل على رغبة في الثواب مع الخوف من هول يوم القيامة وسوء الحساب ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ رزق الدنيا ورزق الآخرة ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ على الرزق، وفيه إشارة إلى أن الله يرزقهم لتفرغهم لعبادته واشتغالهم بها عن كسب الرزق إلا أنه قد يقدر في الدنيا عليهم رزقهم لحكمة في ذلك.

ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ إما حسنة كإطعام الجائع وقرى الضيف وإغاثة الملهوف فهذه ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ أي لا يجزونها في الآخرة، بل هي يومئذ كسراب، والسراب: شيء يرى في النهار في الحر يرى من بعيد كأنه ماء، وقوله تعالى: ﴿بِقِيعَةٍ﴾ أي بقيعان إن كان جمعاً مثل جار وجيرة، وإلا فهو: القاع المستوي من الأرض، كما قال في (الصحاح) و(مفردات الراغب).

﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ الظمئان العطشان، أي يحسب السراب ماء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي جاء الظمئان السراب ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ لأنه إنما يرى من بعيد، وهكذا أعمال الكافر كعمارة المشركين للمسجد الحرام وكذا ما عمل الإنسان ولو لم يكن كافراً في حال العمل ثم كفر بعده فقد حبط بالكفر، فهو وإن زعموا أنه قربة لهم لا يفيدهم في الآخرة شيئاً.

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ عنده حيث صار في المفازة، وهذا من المثل، وإن طابق الممثل في إثبات جزاء كفره وتوفيته حسابه اللائق به، فهو أبلغ في التمثيل، ومعنى أيقن بالله من بعد فوات الأوان وذلك عند الوقوف بين يديه يوم القيامة.

قال سيد قطب في (تفسيره): ((والتعبير يرسم لحال الكافرين ومثالهم مشهدين عجيبين حافلين بالحركة والحياة، في المشهد الأول يرسم أعمالهم كسراب في أرض مكشوفة مبسوطة يلتمع التماعاً كاذباً فيتبعه صاحبه

الظامئ وهو يتوقع الريّ غافلاً عما ينتظره هناك، وفجأة يتحرك المشهد حركة عنيفة فهذا السائر وراء السراب الظامئ الذي يتوقع الشراب الغافل عما ينتظره هناك يصل فلا يجد ماء يرويه، إنما يجد المفاجأة المذهلة التي لم تخطر له ببال المرعبة التي تقطع الأوصال وتورث الخبال ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ الله الذي كفر به وجحده وخاصمه وعاداه وجده هنالك ينتظره، ولو وجد في هذه المفاجأة خصماً له من بني البشر لروّعه وهو ذاهل غافل على غير استعداد، فكيف وهو يجد الله القوي المنتقم الجبار ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ هكذا في سرعة عاجلة تتناسق مع البغتة والفجأة)) انتهى.

ولا يقال: يلزم من هذا تشبيه الخالق أي من قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ لأنه لم يذكر له مكاناً محيطاً أو مقِلاً، ولا قال إنه وجده بالرؤية أو بحاسة، والوجدان لا يتوقف على ذلك، وأيضاً التشبيه لا يستلزم أن يكون المثل واقعاً بل قد يكون مفروضاً مقدراً متخيَّلاً، كما قال الشاعر:

فكأن محمرّ الشقيق إذا تصوب أو تصعَّدْ
أعلام ياقوت نُشِرْ نَ على رماح من زبرجد

وأما قوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ..﴾ الآية [المجادلة:٧] وفي كلام أمير المؤمنين × : ((ومع كل شيء لا بمقارنة)) انتهى.

ويمكن اعتبار المعية والعندية من حيث أنه لا مسافة بينه تعالى وبين عباده؛ لأنه ليس له مكان، والبعد يتوقف على كونه في مكان بعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إما بمعنى إحاطة علمه بكل شيء جملة وتفصيلاً من غير نظر ولا تأمل، وإما بمعنى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ الآتي يوم القيامة أي حسابه للكافرين؛ لأن كل آت قريب، والأول أرجح.

بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ

وتقدم قولي: أعمالهم إما حسنة.. الخ، فأقول: وإما قبيحة كالشرك ووأد البنات وغير ذلك، وفيه المثل بقول الله ـ عزّ وجل ـ:

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فأعمال الذين كفروا توقع في قلوبهم الظلمات المتراكمة لأنها تعمي بصائرهم وتبعدهم عن معرفة الحق، ومع كثرة القبائح والإستمرار عليها تتراكم ظلماتها في قلوبهم، فهي كما لو اجتمع وتراكم طبقات من الأمواج، والأمواج: هي ما يجتمع بقوة الرياح عليه إذا تموج البحر طلعت الأمواج على ظهره، والبحر اللجي، قال فيه الإمام زيد بن علي إ : ((بحر لجّيّ مضاف [أي منسوب] إلى اللجّة، وهي معظم البحر)) انتهى.

فهذه الظلمات في البحر اللجي من قبل أن يطلع موج فوقه، فإذا طلع تضاعفت الظلمة؛ لأن الماء البعيد القعر في أسفله ظلمة، فإذا علاه موج اشتدت الظلمة وتضاعفت، فإذا علا الموج موج آخر زاد تضاعف الظلمة، فإذا كان فوق هذه الأمواج سحاب تضاعفت هناك الظلمة، كما قال تعالى: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ مَن في تلك الظلمة ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ لشدة الظلمة، فبين الكافر وبين نور الهدى مثل ما بين من في هذه الظلمات وبين ضوء النهار في النهار وما بينه وبين ضوء النجوم والقمر في الليل.

قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي لم يقارب أن يرى يده، فضلاً أن يراها لشدة سواد الظلمة)) انتهى.

صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي

ويحتمل: أنها كقوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:٧١] أي كادوا أن لا يفعلوا، وفائدة ذلك: الإشارة إلى أنه إنما فقد النور الذي يعطيه الله أولياءه، فأما البصيرة فقد بقي له منها ما تقوم به عليه الحجة والله أعلم، ولا نعلم من المثل أنه يفيد: عدم الضوء بالكلية في النهار ولم يذكر فيه الليل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ معناه: أن الله تعالى هو واهب النور لأوليائه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾ هو الكافر ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد:٣٣].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : النور هاهنا فهو زيادة الله للمهتدين هدى في هداهم وما يؤتيهم الله سبحانه من تقواهم فأخبر الله سبحانه أن من لم يقبل الهدى المبتدأ لم يجعل له نوراً بزيادة في الهدى، فالذين لم يجعل لهم نوراً فهم الذين لم يقبلوا هدى الله ودينه وهم المستوجبون للخذلان المتكمهون في الضلال، وهم الذين ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ أنه لم يجعل لهم نوراً)) انتهى.

وقال الشرفي ـ أيضاً ـ حاكياً عن (البرهان): ((فالظلمات: ظلمة الشرك، وظلمة الشك، وظلمة المعاصي)) انتهى المراد.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ كلمة تعجيب مما يذكر بعدها ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ﴾ ﴿مَن﴾ كلمةٌ تستعمل فيمن يعلم، فأما الملائكة والجن فظاهر.

وأما الطير فنزلت منزلة من يعلم لما عندها من معرفة الله تعالى؛ ولذلك تسبحه ولا مانع من ذلك، لأن (الهدهد) قد أفاده بقوله فيما حكى الله عنه: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٥-٢٦] وخاطبه نبي الله سليمان × خطابه للعقلاء: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل:٢٧] فقال: ﴿مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وهو جمع عقلاء، فدل ذلك على: أنه ممكن غير بعيد في سائر الطير، فحمله على الحقيقة هو الظاهر.

وقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ حال أي تسبح حال كونها صافات لأجنحتهن فهي آية عظيمة قدرتهن على صف الأجنحة في الهواء أي بسطها لتطير ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ﴾ [الملك:١٩].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ كل من في السموات والأرض والطير قد علم بما وهبه الله من النور ﴿صَلَاتَهُۥ﴾ أي دعاءه أي أنهم يدعونه وهو الذي علمهم الدعاء وعلمهم التسبيح ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أعم من الدعاء والتسبيح؛ لأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] فخبره عنهم أنهم يسبحونه صدق وحق.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ الملك: ولاية الأمر والنهي، والتصرف في عباده كيف يشاء من إعزاز وإذلال ورفع ووضع وتكريم وإهانة وغير ذلك ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩] يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد في السموات والأرض إلا أنه كرم أهل السموات لأنهم مطيعون ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٧].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ ليحكم بين عباده وفيهم بما يشاء وله الملك يومئذ وحده ولذلك إليه المصير وحده، والعطف في أول الآية على ذكر التسبيح له.

سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ

﴿٤٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ **﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من دلائل ملكه ومن تصرفه في مملكته ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ يدفعه ليجتمع ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ يضم بعضه إلى بعض ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ متراكماً بعضه فوق بعض.**

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ الودق: في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿ٱلْوَدْقَ﴾ المطر وخلاله بين السحاب)) انتهى ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ أي ينزل من برد أي قليلاً بالنسبة إلى قدرته على أكثر منه بكثير ينزله ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ أي في السماء، قيل: الجبال: السحاب على التشبيه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وقال محمد بن القاسم × : السماء هنا السحاب، والجبال ـ والله أعلم ـ ما كثف من السحاب وعظم، وقد زعم بعض من يقول من العامة أن في السماء جبالاً من برد، والتأويل الأول ـ والله أعلم ـ أشبه بالصواب والقصد، قال الشرفي: ومثل هذا ذكر الحسين بن القاسم ×)) انتهى المراد.

وقال سيد قطب في (تفسيره): ((إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم تؤلف بينه وتجمعه فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا

ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة فيها قطع البَرَد الثلجية الصغيرة، ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ما ركبوا الطائرات)) انتهى.

ولو قال: إن قدرة الله تزجي لكان أفضل وأسلم، وفي جمع السحاب بالتأليف بينه آية عظيمة؛ لأن الرياح لا تكفي لو استرسلت من جهة واحدة إلى جهة واحدة بل كانت تجري به مفرقاً أو تلاشيه فضلاً عن أن يجتمع وتسوقه إلى بلد ثم يبقى حتى يمطر ما يغيث أهل البلد.

وما اختاره محمد بن القاسم إ قبل سيد قطب هو الراجح؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِنْ بَرَدٍ﴾ راجع إلى قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ ولو كان بياناً لجبال ما بقي ذكر للمنزَّل.

وقوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بالبرد المنزل ﴿مَن يَشَآءُ﴾ لا يمنعه مانع؛ لأن الملك له في عباده وبلاده والله غالب على أمره: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء:٤٤] ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ رحمة لهم ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ أي ضوءه حين يلمع ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ لقوته وسرعته.

قال الراغب في (المفردات): ((السنا: الضوء الساطع)) انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ضوء برقه)) انتهى، كقوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة:٢٠] وفي ذلك دليل على قدرته تعالى وعلمه وجعله ذلك من مصدر الماء ومركزه مثل جعله النار من الشجر الأخضر.

وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾

﴿٤٤﴾ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ وهذا من تصرف الملك في مملكته فهو من دلائل ملكه، فالليل والنهار كل منهما تتقلب أحواله بالطول تارة والقصر تارة، والحر والبرد جاريان مجرى الصفة لهما، وكذلك تختلف بالإقبال ثم الإدبار كل ذلك دلائل على مقلب الأحوال ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ ومن عبرتها أنها تدل على تقليب أحوال الإنسان بين العز والذل، والغنى والفقر، والصحة والسقم وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي البصائر تشبيه بالأبصار التي ترى بها المرئيات.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وهذا من تصرف الملك في مملكته ﴿خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖ﴾ الراجح: أنه المني وهو ماء متشابه فيخلق منه دواب مختلفة، منها ما ﴿يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ﴾ كالحنش يمشي على بطنه بسرعة عجيبة.

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ﴾ كالطير والإنسان ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖ﴾ كالأنعام، وهذا كالمثل للأنواع المختلفة لا حصر لأقسام المختلفات، فمن الحيوان ما يمشي على أكثر من أربع ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ولعل هذا إشارة إلى ما لم يذكر من أنواع الدواب.

﴿٤٦﴾ ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ﴿ءَايَٰتٖ﴾ من القرآن ﴿مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ ولذلك يفهمها العرب ومن تعلم العربية.

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ

ففي هذه الآيات الدلالة على الآيات الكونية الدالة على الله تعالى كما مر ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، وقد فسرهم سبحانه بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨] فهو تعالى يهديهم بهذا القرآن ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عطف على ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾ أي ومع هذه الآيات المبينات يقولون أي بعض من حول الرسول الذي يتلوها عليهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ﴾ وما جاء به من الله ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ عن الرسول وعما أمر به يتولى ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي من هؤلاء الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا﴾ ﴿مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ من بعد أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ وأطعنا فأخلفوا ما وعدوا وانكشف للمؤمنين كذبهم في دعوى الإيمان ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الكاذبون المخلفون لما وعدوا ما هم ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نفي مؤكَّد يبين كذبهم في دعوى الإيمان، فقابلوا الآيات البينات بخلاف ما هو الواجب.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إن الإيمان يدعو المؤمن إلى طلب حكم الله في المتنازع فيه؛ لأن حكم الله ورسوله هو الحق لكن هؤلاء المدعون للإيمان إذا ﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ لا يريدون حكم الله ورسوله فأين دعواهم الإيمان.

﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ﴿يَأْتُوٓاْ﴾ إلى رسول الله ﴿مُذْعِنِينَ﴾ منقادين لحكم الله ورسوله لا لأنهم مؤمنون بل لأنهم قد عرفوا أن الحكم لهم، فالمحاكمة إلى الرسول يحصل بها غرضهم الدنيوي، يدل على ذلك إعراضهم حين لا يكون الحق لهم.

﴿٥٠﴾ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ تغير عما تقتضيه فطرتها ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ شكوا فيما قد ادعوا أنهم آمنوا به ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي يجور في الحكم ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم لم يؤمنوا وزعموا كذباً أنهم آمنوا ووعدوا بالطاعة وأخلفوا الوعد وأعرضوا عن حكم الله ورسوله وهو الحق وهربوا من الحق فهم الظالمون لا المؤمنون، ومثل هؤلاء أكثر أهل زماننا، ولعلها ضربت عليهم الذلة والمسكنة من أجل ذلك، فلن تعود لهم العزة إلا برجوعهم إلى الله.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بالجنة الناجون من النار؛ لأنهم أهل الإيمان الصحيح الصادق؛ ولذلك يريدون الحق من الله ورسوله سواء كان لهم أم عليهم في الدنيا، فهم المفلحون لا المدعون للإيمان كذباً.

۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ﴾ يشير إلى أن ذلك قول المؤمنين فيما مضى وفي الحال وعلى الإستمرار المتجدد كلما ﴿دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

﴿٥٢﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ فيما أمر وما نهى عنه ويطع رسوله فيما أمر به وما نهى عنه ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ يخفه مع تعظيم كما مر عن الراغب ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ وقد مر تفسير المتقين في (سورة آل عمران) في قول الله تعالى: ﴿..أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آية:١٣٣-١٣٥].

﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((الفائز: هو المبعد من عذاب الله والصائر إلى رحمته)) انتهى المراد، وفي (الصحاح): ((الفوز: النجاة والظفر بالخير)) انتهى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان:٥١-٥٧] وقال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥] فدل ذلك على استعمال الفوز في الظفر بمجموع الأمرين كما ذكره الشرفي.

﴿٥٣﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَأَقْسَمُواْ﴾ عطف على الكلام في المعرضين عن حكم الله تعالى.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

ومعنى ﴿أَقْسَمُوا۟﴾ حلفوا ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ قال الراغب: ((أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم)) انتهى.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((أي حلفوا أشد قسمهم وأكبره)) انتهى المراد، وقد حقق في (الكشاف) معناه بالنسبة للعربية، ولكن حاصله ما ذكره الشرفي.

قوله: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ هذا جواب القسم، وهو كقولهم: ﴿أَطَعْنَا﴾ إلا أن هذا تأكيد ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟﴾ لأنه لا معنى للقسم ولأنه كذب وفجور. ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ الراجح أن معناه: قسمكم طاعة معروفة أي معروفة حقيقتها، وأنها قول بلا عمل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بكل ما تعملون ومنه هذا القسم وما يؤول إليه من إخلاف.

﴿٥٤﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله عن الله ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فإن توليتم عن طاعة الله ورسوله ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ أي على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ أي ما كلف من التبليغ ونحوه ومن التكاليف الخاصة به ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ ليس مسؤولاً عما حملتم وأنتم المسؤولون المجزيون بعقوبة التولي عن طاعته ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ للصراط المستقيم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ليس عليه أن يطاع بل يكفي منه من حيث هو رسول تبليغ الرسالة تبليغاً مبيناً موضحاً لما أرسل به.

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ

﴿٥٥﴾ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ **﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ أيها المنتمون إلى الإسلام فالوعد خاص بالذين آمنوا منكم، وقد مرت صفات المؤمنين الصادقين في إيمانهم ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهي طاعة الله وعبادته المشروعة المتقبلة كما مر ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ تفسير للموعود به ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بتمكين دولتهم.**

﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بني إسرائيل أو كل من آمنوا برسولهم فأنجاهم الله مع الرسل، وهذا أظهر لعموم ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي المؤمنين العاملين الصالحات من قبلهم، فالأمم المكذبون يهلكون وينجي الله رسله والذين آمنوا ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ بجعل الحكم حكم الله ورسوله والحرية لمن تمسك بالدين الذي ارتضى لهم الله ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ من بعد خوفهم من بعد أن قد خافوا من الكفار، فحين تكون الدولة دولة الإسلام يذهب ذلك الخوف ويبدلون به أمناً.

﴿يَعْبُدُونَنِى﴾ في ذلك الأمن ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ أي يخلصون لي العبادة ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾ لا شرك الحكم لغير الله ولا غيره من أنواع الشرك، وهم في ذلك آمنون يعبدون الله عبادة ظاهرة لا يتقون الكفار بترك شيء منها.

ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ التمكين وسائر الموعود به في الآية ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الخبثة الفجار؛ لأنهم كفروا نعمة الإستخلاف والتمكين المذكور واختاروا الكفر بدون ملجئ إليه بل لمجرد الخبث واتباع الهوى المردي في حال أن الإيمان والعمل الصالح أسهل من الكفر بالنسبة إلى المجتمع؛ ولعل هذا الإستخلاف والتمكين أوله في السنة التاسعة التي هي عام الوفود؛ ولذلك حج رسول الله ص ومعه الألوف الكثيرة من المسلمين ـ والله أعلم ـ وفي (المصابيح) يرجح: أنها في المهدي المنتظر، ويمكن الجمع بينهما.

﴿٥٦﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ﴾ إما عطف على معنى ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ لأنه في معنى النهي عن الكفر فكأنه قال: لا تكفروا بعد ذلك ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ [الحج:٤١].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ في كل شيء حتى في الأمور السياسية فلا مخصص ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ فيبقى لكم التمكين في الأرض وترحمون في الآخرة، وإما عطف على الكلام في الذين يعرضون عن حكم الله تعالى، كما عطف قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..﴾ من قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ فيكون من مقول القول، أي من المأمور به في قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ وهذه الآيات من قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ﴾ تؤكد وجوب طاعة الرسول في كل شيء.

لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا

﴿٥٧﴾ ﴿لَا تَحْسِبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا مما يؤكد أن وعد الله بالنصر والتمكين وقع مصداقه لنبيه محمد ص فقوله: ﴿لَا تَحْسِبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى اعلم أنهم سيغلبون، كما في (سورة آل عمران) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا..﴾ الآية [١٢-١٣] فأفاد أنه سينصر نبيه ص كما نصره يوم بدر.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فليس غلبهم الذي هو عذاب عاجل ليس دافعاً عنهم العذاب في النار ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنم فهم صائرون فيها بكفرهم وجرائمهم كلها.

﴿٥٨﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها تأديب للذين آمنوا وصيانة لهم من مفاجأة المماليك لهم والغلمان وهم في حال يستحي المؤمن من أن يرى عليها، فقال تعالى:

﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي من العبيد والجواري علموهم ومروهم أن يستأذنوكم إذا أرادوا الدخول إليكم في أحد الثلاثة الأوقات، وكذلك ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ أي من الأحرار مروهم أن يستأذنوا فلا يدخلوا حتى يؤذن لهم دفعاً لهم عن المفاجأة لكم في حالكم الخاص بين الزوجين، والإستئذان هذا يكون ثلاث مرات:

المرة الأولى ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي في بقية من الليل يمكن أن يكونا فيها مختلطين ليغتسلا عند التأهب لصلاة الفجر، بل وفي أول جزء من النهار في حق من لم يقم إلى صلاة الفجر قبل الفجر، المرة الثانية: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم﴾ هذا الحين ﴿مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ يضعون ثيابهم بسبب الحر؛ ولأنهم وحدهم أي الزوجان والوقت هذا قبل صلاة الظهر يمكن فيه أن يختلطا ليغتسلا عند القيام لصلاة الظهر.

قال الراغب: ((والظهيرة: وقت الظهر)) وفي (الصحاح): ((الظُهر بالضم بعد الزوال، ومنه صلاة الظهر، والظهيرة: الهاجرة، يقال: أتيته حدَّ الظهيرة وحين قام قائم الظهيرة)) انتهى.

وعلى هذا: فالظهيرة من قبل الظهر في وقت الحر، قيل: وليس في الشتاء ظهيرة.

والمرة الثالثة: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ فهذه الثلاثة الأوقات فيها ﴿ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ﴾ للذين آمنوا لأن الزوجين فيها يكونان خاليين غير متحفظين من اطلاع غيرهما إذا لم يلزما المماليك والأطفال الإستئذان واعتبرت حالتهما في هذه الأوقات عورة لأنها مظنة كشف العورة ومظنة اختلاط الزوجين.

ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ

قال في (الصحاح): ((العورة: سوأة الإنسان، وكل ما يُستحيَى منه، ثم قال: والعورة كل خلل يتخوف منه في ثغر أو حرب)) انتهى المراد، ولعل هذا الثاني استعمل في الآية مجازاً أو هي من الأول، فكل ذلك صحيح في المعنى ـ والله أعلم.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي بعد الثلاثة الأوقات، وهذا يفيد أن قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ أمر للأحرار وعبيدهم وإمائهم، فأما الأطفال فالجناح عليهم من الأولياء، وليس معناه الإثم ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ تعليل للترخيص فيما بعد الثلاثة الأوقات يطوفون عليكم لحاجتكم وحاجاتهم ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طواف ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لأنهم يخدمونكم وتنفقون عليهم وتقومون بحاجاتهم التي تلزم السادة لعبيدهم وإمائهم وتلزم الوالدين لأولادهم ونحوهم.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي كذلك البيان في هذه الآية يبين الله لكم الآيات إما آيات القرآن، وإما آياته، والآيات الكونية التي يحتاجها العبد لمعرفة الله سبحانه، فكل ذلك سنة الله تعالى أن يبينه ليهتدي به من يهتدي ويكون حجة على من أبى، وكما قال تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] وفي هذا رد على الباطنية، وكل من زعم أن القرآن رموز يختص بمعرفتها الإمام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فلعلمه وحكمته يبين الآيات للذين آمنوا فالخطاب لهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿مِنكُمُ﴾ أي الأحرار، بلوغ ﴿ٱلْحُلُمَ﴾ بلوغ الإحتلام والإمناء

جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ

﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وذلك في الثلاثة الأوقات وسائر الأوقات؛ لأنهم أمِروا بالإستئذان أمراً مطلقاً.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أضاف آياته إليه لينبه على أنه هو الذي جعلها آيات كما أنه بيَّنها وذلك رحمة للمؤمنين ونعمة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ومنه سرائرهم وغرايزهم وما يصلحهم من التكليف ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما شرع وحكم به وفي كل أفعاله وفي كل شيء منه.

﴿٦٠﴾ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾ عطف على آية الإستئذان والترخيص فيها في غير الثلاثة الأوقات، والقواعد: العجائز قعدن عن الحيض والحمل وعن العمل لكبرهن وضعفهن بسبب كبر السن ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لعدم رغبة الرجال فيهن لنكسهن في الخلق فهن غير راجيات للنكاح بل قد أيسن منه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ حرج في ﴿أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ اللاتي أمر الله بها المؤمنات في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ..﴾ فرخص الله للقواعد إذا لم يكشفنها عن زينة تستميل الرجل؛ لأن وضعهن للثياب أبعد لهن عن ميل الرجل، ولأن ضعفهن يناسبه الترخيص لهن، وقد يغتر الرجل بالتستر، كما قال الشاعر:

عجوز ترجى أن تكون فتيّة ... وقد سقط الثديان وانحدب الظهر

إلى قوله:

وما غرني إلا خضاب بكفها ... وكحل بعينيها وأثوابُها الصفر

حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ قال في (الصحاح): ((والتبرج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال)) انتهى ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ لعل معنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾ يتركن ما يستميل الرجال طلباً لعفتهم عنهن وذلك ببعض التستر، فالترخيص لهن لضعفهن، وليس المراد به أن يبدين زينتهن، ولا أن يتعرضن للرجال، وليس ترخيصاً في غيره من نظرها إلى الرجال أو الخلوة بالأجنبي أو ملامستها لجسمه أو نحو ذلك، فهي باقية فيه على الأصل من حكم المرأة، لأنها مع كبر سنها تستطيع الجماع وتلتذ به.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يسمع كلامها ويعلم ما تسره في نفسها.

﴿٦١﴾ ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا

دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

رخّص الله تعالى للأعمى والأعرج والمريض في ترك الجهاد ولذلك لا ينفرون مع المؤمنين للجهاد بل يتخلف في بلده فإذا أعطي طعاماً من أحد هذه البيوت فلا يتحرج منه لأن صاحب البيت غائب، ليس عليه جناح أن يأكل منه، والحرج: الضيق، والعم هو أخو الأب سواء لأبويه أو لأحدهما، والخال أخو الأم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ وذلك بيت العبد إذا أعطي سيده منه طعاماً فليأكل وإن كان لا يدري من أين حصل للعبد أو لأهل العبد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فإذا أعطي الإنسان طعاماً من بيت صديقه سواء كان أعمى أو أعرج أو مريضاً أو صحيحاً سوياً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ فالرخصة للكل في الطعام من البيوت المذكورة؛ ولعل السبب أن الظاهر: رضا صاحب البيت في الأرحام والصديق وأن الطعام أصله من مال السيد إذا أعطي من بيت عبده، ولم يذكر الولد، وإذا كان باراً محباً لأبيه فهو مقيس على الصديق بطريق الأولى، وإن كان عاقاً نافراً من أبيه فلا يأكل من طعام أعطيه من بيته.

وكذلك الرخصة في الأكل لا تسري إلى غير الأكل من النقل إلى محل آخر أو ادخار الطعام أو أخذ غير المطعوم أو الأكل من الطعام المخبو الذي لم يعطه، فكل ذلك لم يدخل في الرخصة لأنه لم يدخل فيها إلا الطعام الآتي من البيوت المذكورة.

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا

وقوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الطعام ﴿أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ متفرقين يأكل هذا الأعمى وحده وهذا الصديق وحده ونحو ذلك، وهذا الإجتماع فيمن يجمعهم سبب للرخصة، كأن يكون أحدهم ابنه، والثاني أخوه، والثالث عمه، وإلا تفرقوا بتفرق الأسباب إلا أن يعرفوا الأذن لهم في جمع طعام والإجتماع على أكله فلا بأس، وهذا كله في الطعام الصادر من البيت إلى غيره، فأما الدخول للأكل في البيت فلا ينبغي للأجنبي أن يدخل على نساء صديقه أو أخيه أو نحوه إذا لم يكن له قريبات محارم، فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا﴾ ليس ترخيصاً في الدخول على الإطلاق إنما هو حيث لا يستلزم خلوة بأجنبية ولا لحوق تهمة وصاحب البيت آذن فلا مانع من الدخول.

﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي قولوا لهم: ((السلام عليكم)) وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ اعتباراً لهم شيئاً واحداً كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَاقَكُمۡ لاَ تَسۡفِكُونَ دِمَاءَكُمۡ وَلاَ تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُمۡ مِنۡ دِيَارِكُمۡ..﴾ [البقرة:٨٤] ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الله هو شرعها لكم فهي تحية ﴿مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗ﴾ تدعو إلى حسن استقبالكم وصلاح ذات بينكم، ولعل فيها من البركة والطيب أكثر من ذلك لأنها من حسن الخلق؛ ولأنها من عند الله اختارها للمؤمنين ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي مثل هذا التبيين يبين الله للذين آمنوا يبين لهم الآيات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تفهمون وتعلمون ما تدل عليه الآيات فهي نعمة يجب شكرها وحجة لله على عباده.

ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم

﴿٦٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

﴿ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمد أنه رسول الله إلى الناس جميعاً، فأما إذا لم يؤمنوا به فليسوا بمؤمنين، وكذلك ليسوا مؤمنين إلا إذا كانوا منقادين لأمره ودعوته لا يخالفونه، فإذا ﴿كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ على مشاورة في مهمة مثلاً أو أمر جمعهم له الرسول ص ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟﴾ من عند الرسول ص بل يبقون حتى تنتهي المهمة إلا أن تعرض لهم مهمة تستدعي الذهاب فلا يذهبون من عنده ص ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ دون أن يتسللوا ليذهبوا بدون إذن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ ولا يتسللون.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأنها بعثتهم الخشية من الله والخوف من عذابه على طاعة الرسول ص وأن لا يذهبوا حتى يستأذنوه؛ لأنهم مؤمنون أنه رسول الله إيماناً صادقاً أوجب الله تعالى طاعته واتباعه ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فقد أذن الله له أن يأذن، فإذا أذن كان الذهاب جائزاً وكان الذاهب على بصيرة من أمره ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ للذين استأذنوا اسأل الله أن يغفر لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ولعل استغفاره لهم ليطمئنوا ولا يرتابوا في الإستئذان لخشية الغلط وتجويز أن الباعث على الإستئذان لا يستدعيه في الواقع وأن اعتقاده أنه يستحق الإستئذان اعتقاد غلط فاستغفار الرسول ص يمحو الشكوك ـ والله أعلم.

بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ

﴿٦٣﴾ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ **إذا دعاكم لأمر من الأمور لا تجعلوه** ﴿بَيْنَكُمْ﴾ **باتفاقكم وتوافق رأيكم أن تجعلوه** ﴿كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ **يكون المدعو من بعض منكم مخيراً وإن بعثه الإحترام له على الإجابة فهو إذا شغله أمر من أغراض الدنيا يعتذر عن الإجابة، فلا تجعلوا دعاء الرسول بينكم هكذا، فتعتبروا المدعو إن شاء أجاب وإن شاء اعتذر، بل اعتبروا المخالف عاصياً لله ورسوله، واعتبروه على منكر يجب نهيه عنه.**

وقد ظهر أنهم كانوا متهاونين أعني الأكثر ولذلك شاركوا في معصية المخالفين من الرماة يوم أحد، وإنما ذلك بترك النهي وعدم الكراهية لما وقع منهم من بعض والرضى من بعض، وكذلك تنازعهم يوم الخميس بعد ما قال لهم ص: ((ائتوني بدواه وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده)) أو كما قال.

ففي الرواية أنهم انقسموا فريقين فريق مع الرسول ص وفريق مع عمر في قوله: ((حسبنا كتاب الله)) وتنازعوا حتى نهاهم، وقال: ((لا ينبغي عندي تنازع)) أو كما قال، فكانت حالتهم تستدعي الزجر المذكور هنا، وفي (سورة الأنفال): ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ الآية [آية:٢٤].

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ يتسللون يخرجون من بين المجتمعين بخفية ﴿لِوَاذًا﴾ استتاراً مما يلزم الحاضرين عند الرسول ص وذلك من المتسللين تهاون بدعاء الرسول لهم للإجتماع مثلاً ليبلغهم شيئاً مما أرسل به أو يأمرهم بجهاد أو يشاورهم في أمر فيتسللون لئلا يسمعوا ما يأمرهم به حتى يتهيأ لهم الإعتذار بأنهم لم يعلموا ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ﴾ قد تكررت منهم المخالفة ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ عن أمر الرسول ص وهي تعم مخالفة ما أمر به ومخالفة ما دعى إليه ومخالفة ما يريده ويرتضيه، هذا إذا كان أمره بمعنى الأمر الذي يدعو إليه أو يرتضيه فإن كان أمره ضد نهيه فالمعنى يخالفون عما أمر به أي لا يفعلونه مخالفين للذين يفعلونه.

وقال في (الكشاف): ((ومعنى ﴿ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ الذين يصدّون عن أمره دون المؤمنين وهم المنافقون، فحذف المفعول، لأن الغرض ذكر المخالف والمخالف عنه)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ من مضلات الفتن، أي ليحذروا أن تصيبهم عقوبة على مخالفة النبي ص، وهي إما فتنة لأن الفتنة قد تصيب العاصين عقوبة كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣] وعلى هذا: فالذين يخالفون ليسوا هم المنافقين، لأن المنافقين قد أصابتهم الفتنة، كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:١٠] وإنما هم الذين يخالفون تساهلاً وتهاوناً بخلاف الرسول كأنهم يدلون بأنهم قد أسلموا وهاجروا مثلاً وأنهم في سبيل الطاعة وإنما الخلاف عارض نادر تساهلاً بموضوع الخلاف كتخلف بعضهم عن حفر الخندق اكتفاء بمن يعمل فيه ـ والله أعلم.

لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٦٤

﴿أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عاجل أو آجل فليحذروا التهاون بدعاء الرسول ص.

٦٤ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ هذه الآية الكريمة خاتمة السورة يظهر أنها تؤكد أحكامها وتحث على العمل بها وبكل أحكام الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿أَلَآ﴾ حرف تنبيه يناسب غفلة الناس وقلة جدهم في طاعة الله وكثرة المعرضين عن أحكام الله وكذا التأكيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يبين أن أحكامه فيهم هي الحق؛ لأن المالك له أن يحكم في ملكه كيف يشاء من التكليف بما تقتضيه الحكمة وإن شق على العباد كالحدود واللعان.

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ من طاعة المطيع ومعصية العاصي ومن كل أحوال المخاطبين ﴿وَيَوۡمَ يُرۡجَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ كما يعلم ما أنتم عليه في الحال يعلم يوم يرجعون إليه أهل السموات والأرض ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ فهو يعلم شقيهم وسعيدهم، وينبئهم يومئذ بما عملوا من خير أو شر لا ينسى مثقال ذرة ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ فعلينا أن نراقبه ونتقيه ونطيعه فيما أمر ونهى؛ لأنه يجزي كل نفس بما تسعى.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم

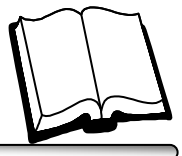

التيسير في التفسير

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ

ابتداء تفسير (سورة الفرقان)

قال الشرفي في (المصابيح): ((مكية إلا ثلاث آيات)) انتهى المراد

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ **حكى الشرفي / في (المصابيح): ((عن الهادي × أنه قال في تفسيره لـ(سورة الملك): معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ هو تعالى وتقدس وجل وعظم من كل ما يقول فيه المشركون وينسب إليه الملحدون)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((وتبارك الله: تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم)) انتهى المراد.**

والمناسبة في هذا المطلع واضحة؛ لأن المشركين يكذبون بآيات الله ويكذبون الرسل كما يأتي في هذه السورة، وهو سبحانه لم يترك عباده هملاً ونسبة ذلك إليه نفي لحكمته ولم يتركهم بلا نذير ينذرهم عذاب الآخرة والعذاب العاجل، وهو يتعالى عن تركهم بلا نذير بل قد أرسل الرسل ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] ومن ذلك إنزاله لهذا القرآن على عبده محمد ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

و﴿الْفُرْقَانَ﴾ هو الحجة القاطعة الفارقة بين الحق والباطل وهي هذا القرآن الذي عجز فصحاء العرب عن الإتيان بسورة من مثله، أنزله ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ من حيث أنه دليل على صدقه، ومن حيث أن فيه الإنذار الكامل في سوَره وآياته، مثل: (سورة القارعة) و(سورة الغاشية) و(سورة الحاقة) و(سورة الواقعة) و(سورة ق~) وآيات الوعيد في القرآن كثيرة.

فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فله التصرف فيهما كيف يشاء، وله الأمر والنهي والحكم على أهلهما بما يريد، وإنزال القرآن وإرسال الرسول حق لـه على عباده لملكه عليهم ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما زعم المشركون، فكان إعلام عباده بالحق وإخراجهم من الباطل وبيان تنزهه وتعاليه عن اتخاذ الولد وعن الشريك من أسباب إنزال هذا القرآن.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فليس لأحد أن يحكم بخلاف حكمه بل الحكم لله وحده؛ لأن ﴿ٱلْمُلْكِ﴾ ـ بضم الميم ـ لـه وحده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ كما يشاء فهو المالك لكل شيء وكل من في السموات ومن في الأرض عباد لـه وحده لا شريك لـه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ جعل لكل مخلوق مقداراً حسناً محكماً وذلك يدل على قدرته وعلمه ومِلكه ومُلكه؛ لأن في ذلك دلائل القدرة والعلم والدلالة على الملك من حيث خضوعها لتقديره، والملك من حيث دلت على أنه المالك فله الحكم والأمر والنهي.

﴿٣﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ عطف على الآية التي قبل هذه، فالمعنى: أنهم خالفوا مقتضى كونه تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ إلى آخر الآية، وصاروا في ذلك إلى

هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا

الباطل، فاتخاذهم للآلهة باطل من حيث أن الاتخاذ تحكم في ملك الله ومملوكه مع أنهم عباد ليس لهم أن يحكموا بشيء ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف:٤٠] وأبطلوا من حيث جعلوا ما ليس إلهاً جعلوه إلهاً، وأبطلوا حيث جعلوا لآلهتهم شركاً في أنفسهم مع أنهم عبيد الله وحده؛ لأنه الذي خلقهم ورزقهم وما أشركوا به لم يخلقوا شيئاً لا عابديهم ولا غيرهم.

بل معبودوهم ﴿يُخْلَقُونَ﴾ ـ بضم (الياء) وفتح (اللام) ـ سواء كان معناه: أنهم عباد لله كسائر خلقه؛ لأن الله هو الذي خلق الحجارة التي يعبدونها مثلاً، أو كان معناه: أنهم أي المشركون هم يصنعون لهم آلهة ينحتونها حتى تكون تماثيل أو يصوغونها من النحاس أو غيره كذلك، وهي بعد أن صنعوها لا تصير آلهة، وإنما هي أسماء سموها بلا حقيقة ولا حجة، فهي كما لو لم يصنعوها لا تزال عاجزة لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ فضلاً عن أن يملكوا للعابدين لا يملكون لأنفسهم ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا﴾ لحي ﴿وَلَا حَيَوٰةً﴾ لجماد ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ إحياءً لميت فلا وجه لاتخاذهم آلهة بل هو باطل من جهات عديدة ومخالف لمقتضى أنهم عباد الله الذي خلق السموات والأرض الذي له وحده ملكهما ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً، فالواجب عليهم أن يعبدوه وحده ويشكروه على نعمه كلها ولا ينسبوا شيئاً منها لشركائهم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿وَقَالَ﴾ عطف إما على قوله تعالى:

﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ فمقتضى ملكه أن ينقادوا لأمره ويصدقوا رسله، وإما على ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ..﴾ الآية، فخالفوا مقتضى هذه الآية لأنهم في أمس الحاجة إلى نذير فلما جاءهم كذبوه، وكذبوا الفرقان الذي نزله الله عليه فقالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ أي كذب وتغرير ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ محمد بزعمهم ﴿فَقَدۡ جَآءُو﴾ بقولهم هذا ﴿ظُلۡمٗا﴾ للرسول بقولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ ﴿وَزُورٗا﴾ بقولهم: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤].

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) : ((فالإفك: البهتان، وافتراه: اختلقه)) انتهى، قال في (الصحاح): ((الزور: الكذب)) انتهى، وكيف لا يكون صدقاً وقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله وهم جمع كبير لو كانوا يستطيعون التعاون على ذلك لفعلوا، وهيهات ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ وهذا منهم ظلم وزور كالذي قبله، ومعنى ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ اتخذ كاتباً يكتبها له؛ لأنه لا يكتُب ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ ليحفظها ﴿بُكْرَةً﴾ في أول الصبح ﴿وَأَصِيلاً﴾ في آخر النهار، قال في (الصحاح): ((والأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب)) انتهى، إن كان صدقاً فلماذا لا يستعملون نفس الطريقة ليأتوا بمثله؟!! وقد تحداهم ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥].

ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا

﴿٦﴾ ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿ٱلسِّرَّ﴾ **الخفي المكتوم فهو أعلم حيث يجعل رسالاته** ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ **ولذلك يدعوكم ليغفر لكم وأرسل رسوله رحمة للعالمين.**

﴿٧-٨﴾ ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ **كقولهم:** ﴿**مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ..**﴾ [المؤمنون:٣٣] **فقولهم:** ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ **تهكم به.**

وقولهم: ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ **إشارة إلى أنه يحتاج ما يحتاج البشر؛ ولذلك يمشي في الأسواق، فقولهم:** ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ **تنازل من اشتراط أن يكون الرسول ملكاً إلى أن يكون مصحوباً بملك، وقولهم:** ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ **انتقال إلى أنه يصح أن يكون الرسول بشراً وحده إلى أن يكون ذا ثروة بأن يلقى إليه كنز عند إرساله حتى لا يكون رسولاً فقيراً وحتى يستغني عن المشي في الأسواق باتخاذ خدم يمشون في الأسواق ويأتونه بحاجته منها.**

وقولهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ **تنازل من اشتراط الكنز إلى اشتراط جنة يأكل منها، فهي ثروة خاصة بالأكل بخلاف الكنز؛ لأنه هنا من ذهب أو فضة أو منهما معاً، ثم انتقل المكذبون الظالمون، فقال**

يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ

﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنهم ظالمون لا يتحرجون من الكذب ولا من التكذيب بآيات الله والتكذيب لرسوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ غلب عليه السحر فهو يتوهم أن جبريل يأتيه ويتلو عليه قرآناً، وهذا منهم باطل واضح البطلان يبطله أنه تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فإذا عجزوا وهم غير مسحورين فالمسحور أضعف وأعجز عن أن يأتي بمثل هذا القرآن، وهذا واضح، وإنما قالوا إنه مسحور عناداً منهم وظلماً.

﴿٩﴾ ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ ﴿ٱنظُرْ﴾ يا رسول الله ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ التي جادلوا بها في الحق، وهي قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ..﴾ إلى قولهم: ﴿..لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ..﴾ إلى قولهم: ﴿..مَسْحُورًا﴾ سميت أمثالاً؛ لأنها جعلت لتكون منتشرة انتشار الأمثال ليُظلوا بها الناس ﴿فَضَلُّواْ﴾ عن الحق وخذلوا عن طلب الحق ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ لأن الهداية إلى السبيل تتوقف على النظر الصحيح في دليل الحق وهم أعرضوا وجادلوا فلم يستطيعوا سبيلاً إلى الحق ولا يستطيعون سبيلاً؛ لأنهم خذلوا عقوبة لهم.

﴿١٠﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى وتقدس فهو لم يرسلك فقيراً إلا ابتلاء لهم ولم يكن ذلك لأنه لا يريد إكرام رسوله ولا لأن رسوله أرسل فقيراً غلطاً كما يزعمون سبحان الله وتعالى إنما حكمته قضت بإرساله بشراً فقيراً مع أنه أهل للكرامة في الآخرة، فأما هذه الدنيا فتكريمه فيها بأنها زويت عنه، وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ﴾ معطوف على ﴿جَعَلَ لَكَ﴾.

وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

﴿قُصُورًا﴾ أي دوراً عالية البناء فهو تعالى قادر على ذلك غير غافل عنه ولكنه اختار لرسوله في هذه الحياة الدنيا ما هو خير له.

﴿١١-١٤﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ليس الأمر كما اقترح المكذبون وكما جادلوا ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ أي بالقيامة فتجرئوا على التكذيب والعناد مع وضوح الحق؛ لأنهم لا يخافون الآخرة.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيأنا ﴿لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ ناراً تلتهب؛ لأن التكذيب بالساعة جريمة عظيمة وتترتب عليه جرائم ويقترن به التكذيب بقدرة الله والجهل بالله ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾ النار ﴿مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عنهم ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ صوتاً شديداً يدل على تغيظ عليهم ﴿وَزَفِيرًا﴾ صوتاً لقوة التهابها، ووصفُها بالغيظ يدل على حياتها فلا مانع أن ترى أهلها وتنطق فتنادي: إليّ بأهلي.

ويدل على نطقها قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:٢١] وكما تنطق الجلود بغير لسان يصح أن تنطق النار بغير لسان وترى بغير عينين، ولا مانع إلا قياسها على نار الدنيا وهو قياس ضعيف؛ لأن نار الدنيا لم تعدم الحياة لمجرد أنها نار بل لو شاء الله لأحياها؛ لأنه على

كل شيء قدير هو يحيي ويميت، وقد وصف الله النار بأنها: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك:٨] وخبره صدق، وأمور الآخرة تخالف أمور الدنيا بدليل أن الجوارح تشهد على العصاة، وليست في الدنيا تنطق، قال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥] ولا موجب للتأويل، فكذلك النار ترى العصاة وتتغيظ عليهم فيسمعون لها دليل التغيظ هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَزَفِيرًا﴾ أي وسمعوا لها زفيراً، قال في (لسان العرب): ((وقال الزجاج: الزفر من شدة الأنين وقبيحه)) انتهى، وقال في (لسان العرب): ((الزفر والزفير: أن يملأ الرجل صدره غماً ثم هو يزفر به)) انتهى، وقوله: ثم هو يزفر به، يعني: يئن أنيناً يعبِّر عنه، ومن كلام الإمام علي × : ((في نار لها كَلَب ولَجَب ولهب ساطع وقصيف هائل)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ألقوا رميَ بهم في النار وقذفوا فيها، والإلقاء إسقاط الشيء في مكان، وكأن أبواب جهنم نعوذ بالله منها هي في جهة فوق فيلقى أهلها فيها من فوق ـ والله أعلم ـ وقوله: ﴿مِنْهَا﴾ أي من السعير المذكورة وهو بيان لما يلقون فيه بأنه منها ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ ولعل ضيقه بوقوعه في زحمة أهلها، أو بوقوعه بين صخور منها.

وقوله تعالى: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ إما أن يقرن بشيطانه مثلاً فيكونا في قيد واحد، وإما أن يقرن رأسه إلى قدميه في قيد واحد، والأول عذاب نفسي وجسدي، والثاني تضييق شديد ـ والله أعلم.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((تقرن أيديهم إلى أعناقهم: أي تربط)) انتهى، والأظهر بالنسبة إلى اللغة العربية: أن المقرنين قرن بعضهم إلى بعض؛ لأن قرن الأيدي والأعناق ينسب إليهم على الحقيقة أعني إلى الأعضاء، وكذا قرن الرأس إلى القدمين.

قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ﴿١٥﴾ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا ﴿١٦﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ

والحاصل: أن قرن الأعضاء ينسب إليها في الحقيقة، وإن نسب إلى الجملة مجازاً كما يقال قطع السارق، أي قطع يده، فالظاهر الحقيقة وأن قرن المكذبين بالساعة أن يقرن بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا﴾ قالوا: يا ثبوراه، كما يقال: يا ويلاه، والثبور: الهلاك؛ لأنهم شاهدوا هنالك العذاب الشديد وقعوا فيه، وقوله تعالى: ﴿لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا﴾ لأن أسباب هذا الدعاء كثيرة، فالويل والثبور يقع عليهم من جهات عديدة بتعدد أنواع العذاب وتكرره على الدوام ﴿وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا﴾ فأنتم واقعون فيه، وأنتم في أوان الدعاء للثبور الكثير الذي لا نهاية له، وهذا بيان لوقوعهم في أنواع العذاب الشديد، ولا يفيدهم الدعاء شيئاً.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا * لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للمكذبين الذين استحقوا ذلك العذاب بسوء اختيارهم ﴿أَذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ وهذا توبيخ لأعداء الله وبيان لعظم خسرانهم؛ لأنهم خسروا الجنة وفاتهم كل خير مع ذلك العذاب الشديد، ولو اتقوا ربهم وتابوا فازوا بما يفوز به المتقون، وجنة الخلد جنة البقاء التي لا ينالهم فيها مكروه ولا موت، جمعت لهم الخلد بمعنى السلامة من الآفات والخلد بمعنى السلامة من الموت.

أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ

وقوله تعالى: ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ التي وعدوها لأجل التقوى فمن اتقى الله فقد وعدها وهي جنة النعيم التي عرضها السموات والأرض ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً﴾ على التقوى والطاعة والأعمال الصالحات، وكانت لهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ في الآخرة يصيرون فيها.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ وهذا عام لكل ما تشتهيه الأنفس وما تلذ الأعين ولكل غرض مراد ﴿خَالِدِينَ﴾ حال كونهم خالدين، فالنعيم خالص لا يعارضه منغص والسعادة دائمة أبداً ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ تأكيد للوعد وجعل للموعود به بمنزلة الواجب الذي تستحق المطالبة به، وهو تأكيد للوعد ليرغب من يؤمن بوعد الله.

﴿١٧-١٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فهو وعيد عليهم بما يلاقون يوم الحشر من الإحتجاج والتوبيخ

وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ

﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يحشر معهم ﴿فَيَقُولُ﴾ الله لمعبوديهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى﴾ فصرفتموهم عن سواء السبيل الذي هو عبادة ربهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين المحضرين مع شركائهم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ من دون أن تضلوهم أنتم؟

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ تنزيه لله وتعجب من قول المشركين ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ لا يليق بحالنا ولا نستطيع لفرط بغضنا للشرك ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يتولون رعايتنا ونكل إليهم أمرنا فضلاً عن أن ندعو المشركين إلى عبادتنا، فما نحن أضللناهم ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ بالنعم ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ الذين أشركوا من قبلهم ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ الذي أنزلته على الرسل ذكراً لعبادك ليعبدوك ولا يشركوا بك فأقبلوا على ما متعتهم به وتركوا الذكر حتى كأنهم نسوه لفرط إعراضهم عنه واشتغالهم بالنعم من المال والبنين ونحوهما ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكين بالشرك وغيره من جرائمهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ أيها المشركون كذبكم من كنتم تعبدون واعترف أنه عبد لله ما ينبغي له أن يتخذ من دونه ولياً ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ﴾ ما يستطيع المعبودون ﴿صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لكم ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ والراجح عندي أنه التفات عام للمخاطبين بالقرآن لأن الوعيد قبله خاص فيمن كذب بالساعة، فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ فجاء الإلتفات إلى المخاطبين إنذاراً بالعذاب لكل من يظلم أيَّ ظلم كان ـ والله أعلم.

وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا

﴿٢٠﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ **يا محمد** ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ **أحداً** ﴿إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ **فبطل قول المكذبين:** ﴿**مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ**﴾ **فالرسل كلهم كذلك.**

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ **اختباراً** ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ **قال الشرفي في (المصابيح): ((وفي تفسير هذه الآية الكريمة يقول محمد بن القاسم × : يعني سبحانه أنه جعل المرسلين والمرسل إليهم أجمعين فتنة بعضهم لبعض، والفتنة هاهنا: اختبار ومحنة، فامتحن صبر المؤمنين وطاعتهم بأداء الرسالة وتبليغها، وامتحن الذين أرسل إليهم بالإيمان والتصديق برسالته وما جاءوا به من الحجج البينة الدالة على النبوة وبما امتحنهم مع رسله وعلى أيديهم من فرائض دينه وطاعته والانتهاء عما نهى عنه من معصيته)) انتهى المراد.**

فالحاصل: أن الله تعالى ابتلى بعض عباده ببعض من ذلك ابتلاء الرسل بأممهم وابتلاء الأمم برسلهم، فالرسول يحتاج إلى الصبر على أمته ليبلغهم الرسالة ويقيم عليهم الحجة وإن كذبوه وآذوه، والأمم تحتاج إلى الصبر على طاعة رسلهم، ومن ذلك ابتلاء الرسل بالجهاد حيث أمروا به، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤] **﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ في اختبار عباده وجزاء كل عامل بما هو أهله وفي كل شيء.**

﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ **﴿وَقَالَ﴾ عطف إما على قولهم السابق، وإما على ذكر ما أعد الله لهم من العذاب ونحوه ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الكفرة الفجرة المعرضون الذين لا يؤمنون ولا يتقون فليس في قلوبهم رجاء في لقاء الله كما يلقاه أولياؤه؛ لأنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا فلم يكن منهم سبب يرجون من أجله ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾** [النمل:٦٦] **قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ رسلاً من الله إلينا إن كان الله يريد أن يرسل إلينا، ومعنى ذلك نفي رسالة البشر ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ فيأمرنا بما يريد من دون رسول فلا حاجة إلى إرسال محمد بزعمهم.**

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أضمروا في أنفسهم كبراً ما هم ببالغيه ﴿وَعَتَوْ﴾ عن الحق وتمردوا ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والعتو: السرف في الظلم والتجبر والعصيان والنفور عن الهدى)) انتهى المراد.

﴿٢٢﴾ **﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ وهو يوم القيامة ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا بشرى لهم؛ لأنهم مجرمون تسوقهم الملائكة إلى موقف الحساب، ثم تسوقهم إلى أشد العذاب، فليس لهم خير في إنزال الملائكة عليهم.**

وقد فاتتهم البشرى التي تتنزل بها الملائكة على أولياء الله، كما قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠] فالمكذبون تفوتهم البشارة عند نزول الملائكة ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً، وهي كلمة إما يقولها المجرمون تعوذاً على ما عهدوا في الدنيا أن يتعوذوا بها إذا خافوا عدواً يقول قائلهم: حجراً محجوراً أي حجرت عني حجراً وحرمت عليك حراماً، وإما يقولها الملائكة بدلاً من البشرى أي حراماً محرماً عليكم ما يبشر به المتقون.

قال في (الصحاح): ((والحجر: الحرام ـ ثم قال ـ : ويقول المشركون يوم القيامة إذا رأوا ملائكة العذاب: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً يظنون أن ذلك ينفعهم كما كانوا يقولونه في الدار الدنيا لمن يخافونه في الشهر الحرام)) انتهى، ومثله في (مفردات الراغب) فعلى هذا يتعوذون من ملائكة العذاب بعد أن قالوا في الدنيا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ والله أعلم.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي أحبطنا يوم القيامة ﴿مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ﴾ ظنوه نافعاً كإغاثة لهفان أو عمارة المسجد الحرام، فلا ينفعهم؛ لأن العمل إنما يتقبله الله من المتقين، وإحباطه يوم القيامة الحكم ببطلانه وعدم نفعه، وهذه الآية الكريمة تصور إبطاله بصورة إتلاف جسم مزق وتبددت أجزاؤه حتى صار ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ في الهواء كما مثل في (سورة النور) بالسراب.

قال الراغب: ((والهباء: دقاق التراب وما نبت في الهواء، فلا يبدو إلا أثناء ضوء الشمس في الكوة)) انتهى، وقوله: ما نبت، الراجح أنه غلط، وأن الأصل: ما انبثّ، وقال الراغب: ((نثر الشيء: نشره وتفريقه)) انتهى.

أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٖ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ﴿٢٤﴾ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلٗا ﴿٢٥﴾ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ﴿٢٦﴾ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ

﴿٢٤﴾ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٖ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾ يوم يرون الملائكة وكان على أعداء الله ما ذكره يقابله يومئذ أن أصحاب الجنة ﴿خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا﴾ لأن الجنة خير من النار ﴿وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا﴾ ولعل مقيلهم عقيب وصولهم الجنة فهم في ظلال على الأرائك متكئون فهو مقيلهم إذا كان مقيلاً اسمَ المكان الذي يقيلون فيه، فإن كان المصدر أي القيلولة فقيلولتهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس:٥٥-٥٦] والله أعلم، أما مقيل المجرمين ففي جهنم نعوذ بالله منها، أو في موقف الحساب، وليس ذلك لهم مقيلاً حقيقياً، ولكن على المشاكلة التقديرية.

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلٗا * ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ ﴿وَيَوۡمَ﴾ عطف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ﴾ وإما على الكلام في أهل النار وأهل الجنة جملة، فعلى الأول ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلاَئِكَةَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ﴾ لا بشرى يومئذ للمجرمين، وعلى الثاني فيه وجهان: الأول: واذكر يوم تشقق، الثاني: الملك يوم تشقق السماء، فالظرف متعلق بالملك وأعيد يومئذ تأكيداً، وتشقُّق السماء تمزقها عند فنائها.

وقوله: ﴿بِٱلۡغَمَٰمِ﴾ كأنها تنحل مع تمزقها إلى غمام ﴿وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ من السماء إلى موقف العرض والحساب ﴿تَنزِيلٗا﴾ تحقيق لتنزيلهم ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ﴾ الملك الحق لله لأنه المالك ولأنه يومئذ يحكم بين عباده بالحق،

يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ﴿٢٨﴾ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ

ويحكم فيهم بالحق ويثيب ويعاقب بالحق، وقوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ يبين أن أصل قضائه الرحمة، وإنما يؤتى المجرمون من جهة أنفسهم ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ العسر: ضد اليسر وعسره عليهم شدته من أوله عليهم حتى يدخلوا جهنم ويستقروا فيها، فالسوق إلى المحشر عسير والحساب عسير وسوقهم إلى جهنم عسير وإلقاؤهم فيها عسير.

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا * يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا * لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ﴾ إما عطف على ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ يبين ما يكون في ذلك اليوم، وإما عطف على ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ﴾ وإما عطف على كل الكلام في الآخرة ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ بأضراسه ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ من الندم.

فقوله تعالى: ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ كناية أريد فيها المعنيان، أي عبر به عن المعنى الحقيقي للعض وعن الندم ﴿يَقُولُ﴾ من الندم: ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ﴾ إلى ربي ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ لأنجو من العذاب ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ﴾ كدعاء الثبور ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ أي أني لو لم أتخذه خليلاً لآمنت واتقيت فلم أعذب.

﴿لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ﴾ عن القرآن الذي هو الآية النافعة المنقذة من النار لمن اهتدى به ﴿أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي﴾ حين جاء به

مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

الرسول ومن يتلوه من بعده ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ فقد خذله شيطانه الذي اتخذه في الدنيا خليلاً؛ لأنه في الآخرة انقلب عدواً له وهي عادة كل شيطان من شياطين الإنس والجن أن يخذلوا من أضلوه حين يحيط به سوء عمله.

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي يوم القيامة يشهد عليهم الرسول ص فيقول: ﴿إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أي جعلوه أمراً يجب هجرانه والابتعاد عنه كما فعل الملحدون الذين قالوا: إن القرآن حجر عثرة في طريق التقدم، فقد سبقهم المشركون، فاتخاذهم له ﴿مَهْجُورًا﴾ ليس مجرد أنهم هجروه، بل هو أنهم اجتنبوه وحذّروا منه واستمروا على ذلك، وهنالك يحكم الله عليهم ويجزيهم بما قدموه.

﴿٣١﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أن هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ﴾ أعداءٌ لرسول الله ص خلاهم الله ومكنهم وأرسل عليهم الشياطين فأضلتهم وحرضتهم على معاداة الرسول ص كذلك كل نبي من أنبياء الله جعل له عدواً من المجرمين بالتمكين والتخلية والترف وسعة الحال حتى عادوا نبيهم ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ﴾ يا رسول الله ﴿هَادِيًا﴾ فلا يضلك الأعداء ﴿وَنَصِيرًا﴾ فلا يقهرك الأعداء فلا تُبالِ بعداوتهم.

جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ **﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ﴾ أي محمد ﴿ٱلْقُرْءَانُ﴾ وهذا استهزاء منهم؛ لأنهم لم يؤمنوا بنزوله عليه مفرقاً، وأرادوا أنه إن كان من الله فهلا نزل ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ غير مفرق أجاب الله تعالى عليهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي على الوجه الذي ينزل عليك أي مفرقاً مع تفرق الأسباب ننزله عليك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ وثبات القلب ثباته على الحق واطمئنانه به، فهو يثبت بتجدد الوحي عند كل سبب ويرسخ فيه ما نزل لفظاً ومعنى لوجوده عند الحاجة إليه فيطمئن به القلب أكثر.**

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((وأصل الترتيل في الأسنان وهو تباعدها، فمعنى الترتيل في الكلام: أن يأتي بعضه على إثر بعض على تؤدة وتمهّل)) انتهى، فنبه الله على ما هو الأهم من تنزيله جملة وهو نزوله على ما تدعو إليه الأسباب، ومفرقاً يتجدد بنزوله تعَهُّد الرسول ص بالوحي متعدداً مكرراً ثانياً أنه مرتل مفصل يسهل فهمه على السامعين ترتيلاً كاملاً وذلك بنزوله مرتلاً وأمر الرسول ص بترتيله فكملت به الحجة البالغة.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ﴿بِمَثَلٍ﴾ كلام يحتجون به، كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] وهذا تأنيس للرسول ص لئلا يهمه جدالهم بالباطل،

وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ

فالله تعالى يكفيه مؤونة الرد عليهم، كما رد على قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وعلى قولهم: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] رد عليهم وجاء رسوله ص ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في معناه، ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ في التعبير وحل شبهتهم. قال في (أساس البلاغة): ((كل ما ترجم عن حال شيء فهو تفسرته)) انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من مكان محمد عندكم، وذلك أنهم كانوا يضللون سبيله ويحتقرون مكانه، فقيل: لو علمتم أنكم تسحبون على وجوهكم لعلمتم أنكم شر مكاناً وسبيلكم أضل)) انتهى.

فهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ لأنهم أسوأ حالاً؛ لأن مكانهم جهنم ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ لأن سبيلهم أداهم إلى جهنم أي طريقتهم التي كانوا عليها في الدنيا أدّتهم إلى عذاب جهنم، وفي حشرهم على الوجوه إهانة لهم قبل إهانتهم بالعذاب في جهنم، ويترجح أن هذه الآية من الجواب على قولهم: ﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ لما تشير إلى دعواهم أنه فقير ـ والله أعلم.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة كما آتيناك القرآن فلست بدعاً من الرسل ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ﴾ رسولاً ﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ معيناً ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ أمر لموسى

أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا

وهارون أن يذهبا ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ [يونس:٧٥] ﴿إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ حين جاءهم بها موسى ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أهلكناهم إهلاكاً بسبب تكذيبهم بآياتنا.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ أي أرسلناه معه ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾ [يونس:٧٥] ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا﴾ تفريع على قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ لا على إيتاء موسى الكتاب، فالسياق لبيان سنة الله تعالى في إنزال الكتب وإرسال الرسل وسنة الله تعالى في تعذيب المكذبين، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الموضوع الأول وما بعده في الموضوع الثاني.

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هذه الآية جمعت الكلام في الموضوعين: الإرسال للرسل، والتعذيب للمكذبين باختصار، وقوله تعالى: ﴿لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ إما أنهم كذبوا بالرسالة للبشر فكان معناه أنهم كذبوا الرسل كلهم لأنهم بشر، وإما أنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤] وكانت قد خلت من قبلهم رسل إن كان كذلك الأمر والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ كان إهلاكهم بالإغراق آية للناس تدل على أن الله تعالى لم يهمل عباده بل إنه يجازي كلاً بعمله كما أنها كانت من دلائل قدرة الله تعالى وعلمه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ إما أقيم الظاهر مقام المضمر أي أعتدنا لهم، وفائدته التعليقُ على الظلم كله لا مجرد التكذيب، وإما أعتدنا للظالمين كلهم قوم نوح وغيرهم فهم داخلون في العموم دخولاً أولياً والكل معذبون على التكذيب وسائر ظلمهم.

لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَل كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ **قوله تعالى:** ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ **قال فيه الشرفي في (المصابيح):** ((قال الحسين بن القاسم × : معناه: أصحاب البئر الذين قتلوا نبيهم ـ صلوات الله عليه ـ في الرس وهي البئر القليلة الماء إذا حفرت ولم تطوَ فهي الرس، قال زهير:

بكرن بكوراً واستحرن بسُحْرةٍ فهن وواد الرس كاليد في الفم

انتهى، والبيت في (المعلقات السبع) بلفظ: ((كاليد للفم)) وفي (أساس البلاغة): ((ووقع في الرس في البئر التي لم تطو)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ قال الراغب: ((القرن: القوم المقترنون في زمن واحد، وجمعه: قرون)) انتهى، فهم أمم سبيلها سبيل عاد وثمود، وقوله: ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي بين المذكورين ﴿كَثِيرًا﴾ ولعلهم من بعد ثمود، وقبل فرعون وقومه ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ هديناهم للحق بالكتب والرسل التي بينا بها الحق ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا﴾ أهلكنا ﴿تَتْبِيرًا﴾ إهلاكاً، قال في (لسان العرب): ((والتبار: الهلاك وتبّره تتبيراً أي كسّره وأهلكه)) انتهى.

﴿٤٠﴾ ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَل كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ﴾ هي قرية قوم لوط، قال الشرفي في (المصابيح): ((هي سدوم)) انتهى ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ مطر الأحجار الذي عذبوا به، فقريش قد أتوا على هذه القرية في سفرهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا﴾ بل قد كانوا يرونها وفيها عبرة لهم ولكنهم غافلون ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ لا يرجون حياة بعد الموت فلا يخافون النار ولا يرغبون في الجنة؛ ولذلك فهم غافلون في طلب حاجات دنياهم، قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾: ((أي لا يأملون ولا يظنون النشور)) انتهى المراد.

والحاصل: أنهم لا يخافون الآخرة، ويمكن إبقاء الرجاء على حقيقته لأن الذي يخاف الآخرة هو الذي يرجو رحمة ربه، وهو صاحب الضمير الحي والفطرة السليمة، فيكون قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ﴾ كناية عن فسادهم بنفي صلاحهم.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾ أي الذين مر ذكرهم من أول السورة واتخذوا من دونه آلهة، وإذا رأوك يا رسول الله ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ﴾ ما يتخذونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾ كفراً منهم ومعاندة للحق، فيقولون: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً﴾ تحقيراً له وادعاء أنه ليس أهلاً لذلك ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ وهم يتظاهرون بالإنصاف وعدم التعصب والعناد ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا﴾ أي حبسنا أنفسنا على آلهتنا لنبقى على عبادتها، وهم في هذا يوهمون أنه قد اتضح لهم أنه ليس رسولاً فيقال لهم: لماذا؟ ما الذي أوجب هذا

أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ

الكلام؟ هل تخلف عن صفة الرسالة؟ أم نزل عليكم وحي؟ أم ماذا؟ بل هو العناد والتضليل والكذب لا غير، ولذلك فمصيرهم العذاب ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ وهم هم أضل سبيلاً؛ لأنهم عدلوا عن سبيل الله ولو آمنوا بالرسول واتبعوه لنجوا من العذاب.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ ﴿اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عبد هوى نفسه؛ لأنه اتخذ إلهه ما يهواه لأنه يهواه لا لحجة ولا شبهة بل لمجرد هواه ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ لترده عن باطله وتهديه إلى الصواب، مع أنه لا يتقيد بحجة ولا يلتفت إلى طريق حق؛ لأنه لا يلتزم بشيء إلا هواه، فلا سبيل لهدايته فلا تكون عليه وكيلاً لتهديه.

﴿أَمْ﴾ بل أتحسب ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أكثر هؤلاء الكفار ﴿يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ أي أكثرهم لا يسمعون؛ لأنهم يكرهون سماع الحق فهم معرضون عن استماعه ولذلك لا يسمعون ولا يعقلون؛ لأنهم لا ينظرون ليعرفوا الحق بل هم معرضون عن النظر مهملون لعقولهم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ لإهمالهم أسماعَهم وعقولهم، فكأنهم لا يسمعون ولا يعقلون كالأنعام ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أضل من الأنعام سبيلاً؛ لأن الأنعام لا إثم عليها ولا يقبح منها عدم السمع للحق ولا عدم العلم به؛ لأنه لا عقول لها، أما هؤلاء الكفار فإن لهم عقولاً ولكنهم أهملوها فقبح منهم الإعراض فكانوا أضل من الأنعام عن سواء السبيل.

كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿ٱلظِّلَّ﴾ يحصل مع وقوع شعاع الشمس على الأرض، فكل منتصب يكون له ظل، وهذا الظل يكون في أول النهار ممدوداً ومتحركاً ينحرف قليلاً وينقص قليلاً قليلاً ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ الله الذي أطلع الشمس ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ بإسكان حركة الشمس وحركة الأرض، فهذا دليل على قدرة الله؛ لأنه تصرف في الأرض والشمس مع ما بينهما من البعد، وعلى علمه تعالى؛ لأن الظل يتحرك بنظام محدود تحديداً محكماً حتى يكون وسط النهار منقبضاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ بعد كون الظل ممدوداً بمهلة يكون حر الشمس على ما يقع عليه شعاعها، وهذا الحر يبعث الإنسان وغيره على الاستظلال فتكون فائدة شعاع الشمس للأرض والشجر ومع ذلك يكون الظلال نعمة للإنسان وغيره، فكأن الشمس هي التي تقول للإنسان اذهب إلى الظل فكانت دليلاً للإنسان على الظلال أي باعثة عليه ﴿ثُمَّ قَبَضْنَـٰهُ﴾ أي الظل ﴿إِلَيْنَا﴾ بقدرتنا حين يقوم كل منتصب في ظله ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ سهلاً محدوداً لا تطول مدته، بل يبقى مقبوضاً قليلاً ثم يفيء الفيء فيزداد إلى آخر النهار، فالظل خاضع لتصرف الله فيه بالمد والقبض وتحديدهما وهو نعمة، فقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تعجيب من صنع الله تعالى في الظل ونعمته وهو يذكّر بتدبيره تعالى في الأرض والشمس وفي تسهيل القبض بتقليل مدته حكمة ليستريح الإنسان من الكد إلى القيلولة ـ والله أعلم.

وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى

﴿٤٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿لِبَاسًا﴾ **يستر الأبدان من شعاع الشمس ويحفظ لها رطوبتها** ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ **قطعاً للأعمال فتكون به راحة جسدية وفكرية يستعيد بها الإنسان ما نقص من قوته بالكد في النهار والأعمال الفكرية** ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ **ينتشر الناس فيه لطلب المعاش، فهو الذي جعل هذه الثلاث نعمة للإنسان ورحمة.**

﴿٤٨-٥٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ نُشُرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿نُشُرًۢا﴾ **النشر ضد الطي، قال تعالى:** ﴿**وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ**﴾ [الطور:٢-٣] **والرياح تثير في الجو سحاباً، كما قال تعالى:** ﴿**اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ**﴾ [الروم:٤٨] **فإما أن يكون معنى** ﴿نُشُرًۢا﴾ **أنها تنشر السحاب في الجو، وهذا أقرب إلى الحقيقة، وإما أن يكون معنى** ﴿نُشُرًۢا﴾ **أنها تسبب للمطر وبذلك تنشر الرحمة، والأول أرجح عندي، وقوله تعالى:** ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ **أي بين يدي المطر الذي هو رحمة أي قبل المطر فهي تبشر به، هذا على قراءة** ﴿نُشُرًۢا﴾ **بـ(النون) فأما على قراءة** ﴿بُشْرًۢا﴾ **بالموحدة من أسفل فمعناه سبب بِشر؛ لأنها تبشر، كما قال تعالى:** ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ**﴾ [الروم:٤٦] **أي بالمطر.**

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ فمعناه: أن الله جل جلاله تولى إنزاله؛ لأنه ينزل بقدر محدود لا يختلط في الجو فيضر ما وقع عليه بل ينزل كأنه من غربال، ولا ينزل قبل بلوغه سماء الأرض التي يريد تعالى سقيها، وقوله تعالى: ﴿طَهُورًا﴾ أي بليغ في نظافته وسلامته من الغبار إلى حد بعيد مع أن أصل السحاب من الغبار، وكل ذلك إرسال الرياح بقدر وإنزال المطر بقدر دليل على قدرة الله تعالى وعلمه وفضله على عباده.

وقوله تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ والبلدة اسم لما يسكنه الناس ويكون في العادة لهم فيها حرث وأنعام تحتاج إلى المرعى فيحييها ربها بالمطر فينبت الزرع وتخضرُّ الشجر وينبت المرعى، وقد كانت قبل ذلك كالميتة لا تنبت شيئاً من النبات، وهذا يشير إلى قدرته تعالى على البعث للموتى، ففي هذه الآيات إبطال لجحد الكفار للبعث وبيان لقدرة الله تعالى عليه، وتفيد: أن الله هو المنعم على عباده فهو المستحق للعبادة لا أصنام المشركين، فهي لا تفيدهم شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ فيفيد الدلالة على قدرته ونعمته على الأنعام التي تشرب منه وعلى أهلها وعلى كثير من الناس لا يجدون ما يشربون إلا من ماء المطر، فأنزل المطر عليهم ليسقيهم نعمةً منه ورحمةً، ولم يكونوا يقدرون على إنزاله من السحاب لا هم ولا أصنامهم التي هي أعجز منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ الراجح أن الضمير للماء الطهور وأن يبين لعباده أنه هو أنزله لا الطبيعة ولا النجوم؛ لأن تصريفه بإنزاله مرة على هؤلاء من الناس دون غيرهم ثم على آخرين كذلك ثم على آخرين

كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ

كذلك، وفي بعض الحالات يعم بالأمطار بلداناً كثيرة، فاختلاف أحواله في نزوله دليل على أنه تابع لإرادة الله جلَّ جلاله.

ولقد يكون السحاب على بلد محتاج إلى المطر فيتوقعون نزوله عليهم ثم لا يلبث أن ينصرف عنهم دون أن ينزل عليهم، وذلك يدل على أنه لا الطبيعة ولا النجوم ولا السحاب، بل الله ينزله بإرادته سقيهم متى شاء وتصريفه يذكرهم بالله ليشكروا نعمته، ويقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، وليسألوه المطر متى رأوه ينزل على غيرهم ولا ينزل عليهم، وليتوبوا ويستغفروا إذا ذكروا أن سبب تأخيره عنهم ذنوبهم، فهذا كله من معنى قوله تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فإذا نزل المطر نسبوا نزوله إلى النجوم أو الطبيعة غير شاكرين لله، وإذا منع المطر عنهم اشتغلوا بطلب الرزق من غير بلدهم وتفرغوا للكد في طلبه دون أن يذكروا الله تعالى ويرجعوا إليه، وبعضهم لأجل قنوطهم من رحمة الله يسخرون من الناس الخارجين في الإستسقاء، ولكثرة الكفر وانتشاره في الناس احتاجوا إلى إرسال الرسل مبشرين ومنذرين فأرسل الله رسله بالآيات الدالة على صدقهم وعلى صدق إنذارهم، فعجب الكفار من إرسال محمد ص وليس ذلك عجيباً في قدرة الله تعالى.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ فضلاً

أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

عن إرسال نذير واحد إلى القرى كلها، فليس ذلك عجيباً في قدرة الله تعالى ولا بعيداً في قدرته وحكمته وفضله على عباده ورحمته ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بترك إنذارهم على شركهم وأعمال جاهليتهم وتكذيبهم ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن الذي فيه الإنذار والاحتجاج عليهم ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ يفيده الصبر والجد واليقين بأنك على الحق، فلا يصدنك بتكذيبهم وأذاهم وتخويفهم، وفي الآية دلالة على الجهاد بالحجة إذا كان بمثابرة ومصابرة فهو جهاد كالجهاد بالسلاح وله فضل الجهاد إلا أن فضل الجهاد متفاوت.

﴿٥٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ حكى الشرفي في (المصابيح) في تفسير (سورة الرحمن): ((عن الهادي × أنه قال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن:١٩] معناه: خلقهما وجعلهما وبعثهما وأجراهما وأساحهما على وجه الأرض..)) إلى قوله: ((والبحران فهما البحر المالح والبحر العذب، وهو الذي يسمى دجلة والبحر المالح الذي بمصر إلى فارس، وهما يلتقيان بموضع يقال لـه رأس نهر السد عند مقصاه من البصرة، ومعنى ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ فهو جعلهما يلتقيان ويصطدمان فقدّرهما سبحانه على ذلك من الشان فيلتقي البحران حتى ينظر إليهما الناظر بالعينين، وتقف السفن على ملتقاهما، فينظر شق السفينة هذا أخضر وشقها هذا أبيض، تشرب من يمينها مالحاً ومن يسارها عذباً، ليس بينهما سبب يحجزهما)) انتهى المراد.

وكنت أظن أن (مجمع البحرين) عند البلدة المسماة (البحرين) فوصل إليَّ رجل من أهلها فسألته عن (مجمع البحرين)؟ فأفادني أنه مقابلها بإزائها وأنهما ملتقيان لا فاصل بينهما كما حققه الإمام الهادي × .

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ فيما حكاه الشرفي عن الإمام الهادي × في تفسير (سورة الرحمن) أنه قال: ((والبرزخ، فهو فعل الله تبارك وتعالى فيهما وتقديره لالتقائهما واصطدامهما وما حجرهما به من قدرته سبحانه عن اختلاطهما)) انتهى المراد، فالبحر حائل معنوي، والحجر المحجور، الحجر بفتح أوله وسكون ثانيه: هو المنع، أي أن الله ـ جلَّ جلاله ـ جعل بينهما مانعاً من اختلاط العذب بالملح الأجاج بقدرته، وقوله تعالى: ﴿مَّحْجُورًا﴾ تأكيد ودلالة على بقاء المنع واستمراره، كأنه ممنوع من الذهاب ـ والله أعلم.

قال الراغب: ((﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي منعاً لا سبيل إلى رفعه ودفعه)) انتهى.

وقال (صاحب الكشاف): ((فإن قلت: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ما معناه؟ قلت: هي الكلمة التي يقولها المتعوذ [وقد فسرناها عند قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾] وهي هاهنا واقعة على سبيل المجاز، كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له: حجراً محجوراً، كما قال: ﴿لاَ يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن:٢٠] أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي ثمة كالتعوذ هاهنا، جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه، وهي من أحسن الإستعارات وأشهدها على البلاغة)) انتهى، وقوله: ((جعل كل واحد في صورة الباغي)) لعله يعني: إن خالطه فقد بغى عليه.

﴿٥٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ الماء هنا المني، وخلق البشر منه آية عظيمة تدل على قدرة الله تعالى وعلمه ويبطل بذلك جعل المشركين له شركاء لم يخلقوا فلا نصيب لهم في المخلوق ولا ينبغي لعاقل أن يجعلهم أنداداً لله جل جلاله، وبطل به استبعاد الكافرين لبعث الموتى؛ لأن من قدر على الإبداء قدر على الإعادة.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ بيان لنعمة عظيمة للإنسان، فلو خلقه من الأرض كما يخلق الزرع ما كان له أب ولا أخ ولا غيرهما من القرابة، والأنساب تنفع الناس بالمعاونة ولا سيما تربية الأبوين، وكذلك الصهارة علاقة نافعة للإنسان، والأصهار: أهل الزوجة أصهار لزوجها، وقد يسمى الزوج صهراً لأهل زوجته، قال شاعر بني العباس:

فالصهر ليس بوارث والبنت لا ترث الإمامة

يعني بـ(الصهر): علياً ـ صلوات الله عليه.

وفي (لسان العرب): «والأصهار: أهل بيت المرأة، ولا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان، ومن العرب من يجعل الصهر من الأحماء والأختان جميعاً يقال: صاهرت القوم إذا تزوجت فيهم» انتهى المراد، وقد قيل: الصهر في أعم من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ﴾ أي ربك يا رسول الله ﴿قَدِيرًا﴾ وهذا يشير إلى أنه الصادق في إنذاره بالبعث؛ لأن الله تعالى أرسله مبشراً ونذيراً ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي قادراً على كل شيء ومنه البعث بعد الموت، وفيه تعريض بمن اتخذهم بعض المشركين أرباباً فرب محمد قدير، ومن اتخذوهم أرباباً عاجزون؛ وهذا لأن السياق من أول السورة في الرد على المشركين في شركهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم بدليل الرسالة وبالرسالة.

مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ

﴿٥٥﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ **عطف على دلائل قدرة الله تعالى وعلمه وإنعامه على عباده، فذلك يقتضي أن يعبدوا الله وحده ولكنهم مع ذلك على خلافه يعبدون** ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ **فيشكروه ويزدادوا بعبادته نفعاً منه لهم** ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ **فيعبدوه اتقاء ضره بل لا يحتاجون إلى عبادتهم مع كونها باطلاً من حيث أن ربهم الله وحده، ومن يعبدونهم عباد أمثالهم لا يملكون منهم شيئاً.**

﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ **معيناً لأعدائه من شياطين الجن والإنس؛ لأن الكافر يجحد الحق ويدّعي الباطل، وهو ما يدعو إليه أعداء الله؛ ولأن الكافر يكفر نعمة الله وهو ما يريده إبليس، حيث قال:** ﴿وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ **يا محمد** ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ **للأبرار بالجنة** ﴿وَنَذِيرًا﴾ **للفجار بالجحيم ليس عليك أن يهتدي المشركون.**

﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ﴿قُلْ﴾ **يا رسول الله لهؤلاء المكذبين** ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ **على ما جئتكم به من عند الله** ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ **قليل أو كثير لكن** ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ **أسأله أن ينفع نفسه باتخاذه السبيل إلى ربه ليتقرب إليه بعبادته، وهذه الآية تفيد معنى قوله تعالى:** ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور:٤٠] **فليس لكم ما تَعَلَّلون به في دفعكم لما جئت به.**

بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۞ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يبين أن سؤاله منهم المودة في القربى ليس إلا لينفعوا أنفسهم؛ لأن ذلك يعينهم على التمسك بكتاب الله وعترة رسول الله ص.

﴿٥٨﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ فهو نعم الوكيل، فبلغ الرسالة توكلاً على الحي الذي لا يموت ولا تضعف عنها أو تقصر لأجل كثرة المكذبين وعداوتهم لك وغضبهم من دعوتك كما تفيده هذه السورة؛ لأنك تتوكل على ربك الحي الذي لا يموت لا كالمشركين الذين يرجون النصر من أصنامهم التي هي جماد لا تسمع ولا تبصر.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ ذكراً له وشكراً وتنزيهاً له عما يقول المشركون ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ عليماً بظاهرها وباطنها وبمقاديرها في قبحها؛ لأنه بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء فهو يعلم ما يقول المشركون وما يكسبون من الذنوب من الشرك والتكذيب والظلم.

﴿٦٠﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَـٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾

﴿ٱلَّذِى﴾ مبتدأ خبره الرحمن ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ هو الدليل الذي يعرف به الرحمن؛ لأنه إنما يعرف

بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ

بآياته فخلقه للسموات والأرض وتصرفه المحكم فيهما وتدبيره لشأنهما وشأن ما فيهما وما بينهما من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار هو الدليل على أن خالق السموات والأرض ومدبر الأمور هو ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي له الخلق والأمر؛ لأنه دليل على قدرته وعلمه وحكمته وغناه ورحمته التي تجلت في إنعامه على عباده بما خلق ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ اسأل عنه واطلب معرفته من خبير عالم به وبما هو خفي من مدلولات أسمائه ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ بالرحمن خبيراً بما تحتاج إلى معرفته، فالله هو العليم الخبير يعرف بما بيّن في كتابه ثم بتعليمه للرسول وأعلام الهدى من آله ليدلك الخبير الذي تسأله على الرحمن بآياته ويبين لك طرق المعرفة ووجوه الاستدلال الذي به تستفاد المعرفة الكافية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ للمشركين المكذبين للرسول ص إذا قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ واعدلوا عن عبادة الأوثان ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؟ كما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:٢٣]؟ تجاهلاً منهم وهم جاهلون بالله محتاجون لمعرفته ليؤمنوا برسوله ويتركوا الشرك ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ زادهم الأمر بالسجود للرحمن نفوراً إلى نفورهم من الآمر الذي ينهاهم عن الشرك، ويقول: لا إله إلا الله.

والدليل على أنهم لا يعرفون الله جحدهم للبعث بعد الموت ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فمن لم يعلم أن الله على كل شيء قدير فلم يعرفه، وكذلك من لم يعلم أن الله تعالى لم يخلق السموات والأرض باطلاً ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك.

خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾

﴿٦١-٦٢﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا * وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ جل جلاله وعظم عما يتوهم فيه الجاهلون الذين لم يعرفوه بآياته ولم يشكروه على ما ابتدأهم به من النعم برحمته.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ منازل محدودة للشمس وللقمر، فهي من أدل آياته عليه؛ لأن الشمس تنزل في كل ثلاثة عشر يوماً في منزلة منها حتى تتم المنازل في سنة شمسية، والقمر ينزل في المنازل كلها في شهر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس:٣٨-٤٠] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ هو الشمس ينعَم بضوئها الناسُ وينتشرون لمعاشهم ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ ينتفع بنوره في الليل، فهذه نعم من الرحمن.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ كل واحد منهما يخلف الآخر يتناوبان على الناس ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ بأن يفكر في صنع الله ويعرف ربه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ للرحمن على نعمة الليل بعد النهار ونعمة النهار بعد الليل، فآيات الرحمن ونعمه على عباده تدل من أراد معرفته عليه.

﴿٦٣﴾ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ العابدون للرحمن المؤمنون بالرحمن أولياؤه الفائقون في عبادته صفاتهم ما ذكره سبحانه منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال (صاحب الصحاح): «الهون السكينة والوقار» انتهى، فهم منزهون عن التكبر والخيلاء.

وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : هذا ذكرٌ من الله تعالى لأوليائه الذين خاطبهم الجاهلون بقبيح القول وسمج اللفظ والإفحاش في الكلام قالوا سلاماً فهو القول الحسن السالم من القبيح والعيب المسلم من غضب الله، فذكر سبحانه أنهم لا يقولون إلا سلاماً وحسناً جميلاً)) انتهى.

وقد يرجَّح حمل ﴿سَلَـٰمًا﴾ على التسليم أي قالوا نسلم عليكم سلاماً ولكنه يرجح قول المرتضى × أن لفظ هذه الآية يخالف قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥] فهنا لم يقل عليكم ونصب ﴿سَلَـٰمًا﴾ فجعْلُهُ وصفاً للقول أقرب من تقدير جملة وحذف المسلم عليهم مع أن المعنى مستقيم؛ لأنه يفيد أنهم لم يردوا على الجاهلين بمثل خطابهم، والجاهلون القائلون بالجهالة والسفاهة، كقول عمرو بن كلثوم في الجهالة:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين

﴿٦٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا﴾ هذه من صفات عباد الرحمن، قال الشرفي في (المصابيح): ((ومعنى ﴿يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ﴾ أي يكونوا في لياليهم مصلين، قال: والظاهر: أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره ـ ثم قال ـ : قال الحسن: يبيتون لله على أقدامهم، ويفرشون له جباههم، وتجري دموعهم على خدودهم خوفاً من ربهم)). قال الشرفي: ((وهو كقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦])) انتهى، قلت: وهذا هو الراجح.

مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا

وقوله تعالى: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ كناية عن الصلاة لأن القيام المشروع في الليل على الإطلاق ليس إلا في الصلاة، وكلام سيد قطب في تفسير الآية مثل هذا، وفي (لسان العرب): ((الفراء: بات الرجل إذا سهر الليل كله في طاعة الله أو معصيته)) انتهى، ولعله يستشهد له بقول امرئ القيس:

وبات وباتت له ليلة كليلة ذي العائر الأرمد

وقول آخر:

فبتّ كأني ساورتني ظئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

والأولى أن هذا أحد معاني (بات)؛ لأنه يقال: باتوا بمزدلفة سواء ناموا أم لم يناموا إلا أنهم يكونون فيها أكثر الليل.

وفي (مجموع الإمام زيد بن علي): عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام)، قال: ((لا يصلي الإمام المغرب والعشاء إلا بجمع، حيث يخطب الناس يصليهما بأذان واحد وإقامة واحدة ثم يبيتون بها..)) الحديث.

﴿٦٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ لخوفهم من النار الناتج عن إيمانهم بالجنة والنار يدعون ربهم أن يصرف عنهم عذاب جهنم، كأنه طالب أو بناء على أنها يوم القيامة ستطلب أهلها. ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ خسراناً لازماً لهم ملحاً، قال في (الصحاح): ((الغرام: الشر الدائم والعذاب، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ قال أبو عبيدة: أي هلاكاً ولزاماً لهم)) انتهى.

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ هذا من دعاء (عباد الرحمن) حكاه الله عنهم، لأنه تعليل للدعاء بصرفها، ولعلها جعلت مستقراً باعتبار بقائهم فيها وإن كانوا لا يستقرون؛ لأنهم صاروا فيها وفاتتهم الجنة التي هي المستقر ﴿وَمُقَامًا﴾ محل إقامة وبقاء.

يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا

﴿٦٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ في الإنفاق إما بإضاعة المال في غير فائدة ومنه الإنفاق الكثير الذي يزيد ويتلف الزائد في غير فائدة، وإما بإنفاقه في المعاصي لأنه إضاعة لـه في غـير فائدة وإن كانت عند العاصي فائدة ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ لم ينفقوا أقل من المحتاج إليه.

قال الراغب الأصبهاني: ((القتر: تقليل النفقة)) انتهى، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ أي كان إنفاقهم بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا﴾ ما تقوم به الحاله، وقال في (الصحاح): ((القوام: العدل)) انتهى.

﴿٦٨-٦٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾

﴿لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذه من صفات عباد الرحمن فهم لا يعبدون إلا الرحمن أو لا يسمون مع الله إلهاً والأول أرجح ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ والحق قتلها بحكم الله كالقصاص ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ والزنا: إتيان النساء غير الأزواج والذكر والأنثى فيه زانيان، ويستثنى مع الأزواج المملوكات للمجامع وحده فليس جماعهاً زنا؛ لأنها حلال شرعاً.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ دعاء إله مع الله، وقتل النفس المحرمة بغير الحق، والزنا ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ قال الشرفي: ((والأثام: العقوبة)) انتهى، وقد فسره قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ..﴾ الآية، وقال في (الصحاح): ((والأثام جزاء الإثم)) انتهى، ومثله في (لسان العرب).

مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ أي في العذاب وتضعيفه؛ لأنه اجتمع عذاب الشرك وعذاب القتل وعذاب الزنا فتضاعف عذابه، فأما عذاب السيئة الواحدة فلا يضاعف ما لم تكن في معنى سيئتين أو سيئات كمن ضرب أمه فاحتمل: إثم الظلم، وإثم العقوق، والمهان: الذي يجعل هيناً حقيراً ذليلاً؛ لأنه في عذاب الخزي.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ الراجح في ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: أنها عذابهم، كما قال تعالى في آل فرعون ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٣٠-١٣١] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [النساء:٧٨] فالعذاب يسمى سيئة يسوء المعذَّب وهو سيء طبعاً، فتبديل سيئاتهم تبديل عذابهم المضاعف حسنات في الجنة أكلها وشربها ولباسها وأزواجها وغير ذلك لأنها حسنات طبعاً وعقلاً.

ولا يصح تفسير تبديل السيئات بتحويلها حسنات؛ لأنه لو فرض إمكانه غير متعين، لأن التبديل يستعمل في جعل شيء بدل شيء آخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا﴾ [الأعراف:٩٥] وقال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ..﴾ الآية [سبأ:١٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ..﴾ وقال تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ [الكهف:٥٠] أي ولاية إبليس وذريته بدل ولاية الله تعالى، ويرجح هذا أن التبديل فيه من الله حقيقة.

يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: يجعل ذلك في الدنيا بالشرك إيماناً وإخلاصاً، وبالسيء من العمل الصالح منه وبالفجور عفافاً وإحصاناً)) انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): ((وقال الحسين بن القاسم × : هذا من الاختصار؛ لأن السيئة لا ترجع حسنةً أبداً، وإنما المعنى: يبدل الله مكان سيئاتهم حسنات فعلوها بعد توبتهم)) انتهى.

وقال الشرفي: قال الإمام الناصر × في كتاب (البساط) في معنى (التبديل) : ((أعلمنا الله سبحانه أن العبد إذا تاب رد عليه ما بطل من عمله وجعل بدل سيئاته حسنات، قال الشرفي: ومثل هذا ذكر الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة × ، فإنه قال: إن سقوط ما يستحقه من الثواب كان [يـ]ـسوءه فسمي سيئة، فلما تاب رجع له فسمي حسنة، فهذا معنى التبديل ـ والله أعلم)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ومن مغفرته ورحمته تبديل السيئات حسنات لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً.

﴿٧١﴾ ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ أي متاباً كريماً، والتوبة تنجي من العذاب فإذا أضيف إليها العمل الصالح أدى إلى أن يرجع إلى الله مرجعاً عظيماً مرجعاً مخصوصاً ليس كمرجع أكثر الأمم، والتنكير هنا مثله في قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الأعراف:٨٤] فهو مطر غير المطر المعهود كذلك المرجع إلى الله مرجعاً مخصوصاً يخالف مرجع الأمم الكثيرة، ولكثرتها كان مرجعها كأنه الأصل في مرجع الإنس والجن، وفسرته بالكريم، لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا﴾ [النساء:٣١] وغيرها من الوعد لأوليائه كما فسر مطر قوم لوط آيات من القرآن.

صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا

فإن قيل: ما فائدة هذه الآية ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ ..﴾ بعد قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؟

فالجواب: أن هذه الآية تشير إلى ثواب عظيم، بخلاف قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ لأن الحسنات تصدق على القليل والكثير، وما كل تنكير يفيد التعظيم، ففي هذه زيادة ترغيب عظيم، كما أن في قول الشاعر:

فلا وأبي الطير المربة بالضحى على خالد لقد وقعتِ على لحم

مدحاً كبيراً.

﴿٧٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ ﴿لَا يَشْهَدُونَ﴾ لا يحضرون ﴿ٱلزُّورَ﴾ بحيث يسمعونه، والزور مثل قولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ..﴾ الآية [النساء:١٤٠] وهذا أوفق لسياق هذه السورة من تفسيرها بأنهم لا يشهدون الشهادة الزور.

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ اللغو هنا سب المؤمنين يقوله الكفار لهم ﴿مَرُّواْ كِرَامًا﴾ لا يسافهون السفهاء، بل أعرضوا عن كلامهم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ..﴾ الآية [القصص:٥٥] وهذه من صفات عباد الرحمن.

﴿٧٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ربهم الذي يؤمنون به ويخشونه ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ نبّهوا من غفلة أو ذُكِر لهم ما يتذكرون به من وعظ أو دليل حكم إذا ذكروا به تذكروا؛ لأنهم يفتحون أسماعهم وبصائرهم لمن يذكرهم ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّوا﴾ أي لم يسقطوا كما يسقط المنافقون ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ولعله ذكر الخرور؛ لأن عباد الرحمن ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم:٥٨] فهم لم يخروا عليها ﴿صُمًّا﴾ عن استماعها ﴿وَعُمْيَانًا﴾ عن النظر ببصائرهم، ولا يجب أن يكون المنافقون يخرون صماً وعمياناً، بل يكونون عند سماع الآيات صماً وعمياناً.

فأما الإكباب على الوجوه فلم يفسر به (الخرور) (صاحبُ الصحاح)، ولا الراغب، ولا في (لسان العرب) ومثّل فيه للآية هذه بقول الشاعر:

بأيدي رجال لم يشيموا سيوفهم ولم تكثر القتلى بها حين سُلَّتِ

أي تشبيه النفي في الآية بالنفي في البيت، والأولى: أن الذي في هذه الآية تعريض بالمنافقين ومرضى القلوب.

وأما قول الشرفي / : ((والخرور: هو السقوط على الوجه للسجود)) فلعله خرّجه من كلام (الكشاف) حيث فسره بالإكباب، وهذا عندي غير صحيح، وإنما يفسَّر الخرور للسجود بأنه الهبوط للسجود ليس سقوطاً حقيقياً، فأما المعنى الحقيقي: فهو السقوط من غير قيد، إلا أن الراغب قيده بالسقوط مع صوت الساقط، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج:٣١] وقال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦] ولعل (صاحب الكشاف) لم يقصد تفسير الخرور من حيث اللغة، إنما أراد أن هذا الخرور لا يكون سقوطاً حقيقياً، وإنما هو هبوط لغرض الإكباب على الوجوه.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ٧٤ الأقرب: أنهم أرادوا اجعل لنا ﴿مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ من يكون لنا في الآخرة ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ لأن قولهم: ﴿وَذُرِّيَّاتِنَا﴾

صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

يفيد الحاضر إن كان حاضراً والمستقبل الذي يوجد بعد موت الداعي فقد علموا أن المؤمنين يدخلون الجنة ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الطور:٢١] فأرادوا الدعاء بالصلاح، وأن يدخلوا هم ومن صلح من أزواجهم وذرياتهم الجنة تقر أعينهم بمن دخل معهم من أزواجهم وذرياتهم، ولا مانع من أن يراد قرة أعين في الدنيا بالنسبة للموجودين معهم وفي الآخرة، وهذا لأن المؤمن تقر عينه بصلاح زوجه وأولاده، وقرار العين كناية عن السرور.

وقولهم: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا قدوة لهم بأن نكون من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير حتى نكون متبوعين في التقوى قادة إلى الخير لننال أجر ذلك، وبأن نكون في التقوى فائقين بالزهد والورع والصبر والشكر ونحوه، حتى يرغب المتقون في الإقتداء بنا، كما قال:

أئمة خير يقتدَى بفعالهم وتؤمن منهم زلة العثرات

والحاصل: ربنا أصلحنا حتى نكون قادة للمتقين أو قدوة لهم، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أئمة في الخير يقتدى بنا، وقال مثال)) انتهى.

﴿أُوْلَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾: ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ إشارة إلى (عباد الرحمن) أهل الصفات المذكورة من

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..إِمَامًا﴾ وقوله تعالى: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ هي من غرف الجنة، قال تعالى: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر:٢٠].

قال الشرفي / : ((والغرفات: هي العلالي المرتفعة في الجنة، والغرف هي الخلوات في لغة أهل اليمن، وهي العلالي في لغة أهل الحجاز)) انتهى المراد، وقال الراغب: ((والغرفة: عُلِّيَّة من البناء)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ يصدق على صبرهم في الجهاد وفي طاعة الله كلها، وعلى صبرهم على البلاء من المرض وغيره كالفقر، وقوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا﴾ أي في الغرفة ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ وأطلق هنا، فيشمل تحية الملائكة لهم والسلام المذكورين في قول الله تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ..﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] لأنها تفيد التحية بالسلام، ويحتمل: أن التحية تحية المُلك ـ بضم الميم ـ قال في (الصحاح):: ((والتحية: الملك، قال زهير بن جناب الكلبي:

ولكلّ ما نال الفتى قد نِلته إلا التحية

قال في (الصحاح ـ أيضاً ـ : ((وقال عمرو بن معديكرب:

أسير به إلى النعمان حتى أنيخ على تحيته بجند

أي على ملكه)) انتهى، وهو هنا غير بعيد؛ لأن السياق لذكر كرامتهم وشرفهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ خالدين في الجنة، والمستقر باعتبار الأمن والرغبة في البقاء، والمقام باعتبار طول المدة والبقاء.

﴿٧٧﴾ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للكفار ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ ما يبالي بكم في إرساله إليكم الرسول وإنزاله القرآن بما فيه من الآيات البينات والمواعظ وذكر الجنة ونعيمها وغير ذلك ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ لولا دعاؤه لكم إلى ما هو خير لكم الذي تقوم به الحجة عليكم إن كفرتم وتسعدون به إن آمنتم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الداعي والدعاءَ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾ لكم لا ينفك عنكم أبداً، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣].

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : يريد لا يعبأ بهم لولا دعاؤه لهم إلى ما هو خير لهم ـ ثم قال فيما حكاه عن الحسين بن القاسم × ـ : والعرب تقول: فلان أحمق لا يعبأ به ولا يلتفت إليه ولا يحفل به، ثم قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ هذا الدعاءَ الذي أتاكم من الله ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي لزاماً لكم وعقوبة ونقمة تحل بكم)) انتهى، ونحوه حكاه عن المرتضى × ، وفسّر اللزام بلزوم التنكيل لهم برفضهم لدعوة الله تعالى.

تم تفسير (سورة الفرقان) والحمد لله رب العالمين

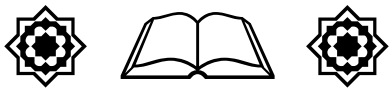

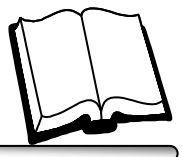

التيسير في التفسير

سورة الشعراء

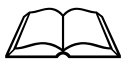

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا

ابتداء تفسير (سورة الشعراء)

وهي (مكية) كما يظهر من مواضيعها

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓمٓ﴾ هذا ثلاثة أحرف من حروف المعجم، و الحكمة في جعلها أول السورة ـ والله أعلم ـ أن يشار إليها وإلى سائر حروف المعجم بقوله تعالى:

﴿٢﴾ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي أن الكتاب الذي هو القرآن الحكيم كلام أصله هذه الأحرُف التي يتكلم بها العرب، ولعل هذا إشارة إلى أنهم عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله مع أنهم ينطقون بهذه الأحرف في كلامهم، أو إشارة إلى أن الله تعالى أوحاه إلى عبده ورسوله ص كلاماً مؤلفاً من الأحرف ليس الوحي مجرد المعنى دون ما نسميه اللفظ تحقيقاً لكونه أوحاه بلفظه وحروفه، وأنه كلامه لا كلام الرسول ص، إلا أنه ينسب إليه مجازاً لأنه هو الذي يبلغه، ويتلوه على قومه، أو إشارة إلى المعنيين، أو إليهما وإلى غيرهما فحكمة الله لا تحصى و ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البين الواضح لأنه نزل كما يأتي في السورة هذه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

﴿٣﴾ ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: قاتل نفسك ومهلكها)) انتهى. وفي (الصحاح): ((بخع نفسه بخعاً أي قتلها غَمًّا، قال ذو الرمة:

خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمۡ

ألاَ أيُّهذا الباخع الوَجـد نفسَـه بشيء نَحتْه عن يديـه المقـادر))

انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ لعل للتوقع من المخاطَب كقوله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ [طه:٤٤] أو بمعنى أنك في أسفك عليهم بحيث يُظن بك أنك باخع نفسك عليهم أن لا يكونوا مؤمنين لأن الإيمان سبب نجاتهم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، فهو لخوفه عليهم آسف عليهم ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ قال الشرفي: ((أي لامتناع إيمانهم أو خيفة أن لا يؤمنوا)) انتهى. وهذه عادة الأنبياء أن يخافوا على قومهم عذاب يوم عظيم في أول التبليغ وقبل هلاكهم.

﴿٤﴾ ﴿إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أي إنا تركناهم وشأنهم ليختاروا لأنفسهم الإيمان أو الكفر لنجزيهم بما يستحقون فلا تحزن لكفرهم لأنا تركناهم عليه لحكمة، ولو شئنا لقهرناهم بآية غالبة تلجئهم إلى الخضوع، وترك العناد، وإن نشأ ذلك نفعل فننزل من السماء مثل أن تنزل عليهم الملائكة ويرونهم، أو تتهاوى النجوم أو غير ذلك مما يؤدي إلى أن يضلوا له ﴿خَٰضِعِينَ﴾ يتجلى خضوعهم في أعناقهم منكسين رؤوسهم قد مدوا أعناقهم، ونسبة الخضوع إلى الأعناق لظهوره فيها، كما نسب الخشوع إلى الأبصار في قوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ [القلم:٤٣] وكما نسب إلى الوجوه وأهلها في (سورة الغاشية).

يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ

﴿٥﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ ذكر من الرحمن يدعوهم به الرحمن إلى رحمته فكلما جاءهم ذكر كانوا عنه معرضين مستمرين في الإعراض، فالآيات القرآنية تتلى عليهم يتلوها الرسول ص، وكلما نزلت آية وتليت عليهم أعرضوا عنها غافلين عن قدرة الله عليهم وعما أعد لهم من العذاب الذي أنذرهم الرسول والقرآن، وتكرر نزوله عليهم.

﴿٦﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كذبوا الرسول ص، وكذبوا بالذكر، وبما جاءهم من الآيات فسيأتيهم الوعد الذي وعدوه في الذكر الذي كانوا به يستهزئون، أي يأتيهم مدلول النبأ لأنها قد وقعت منهم الجريمة الكبرى، جَرَّهم الإعراض عن الذكر إلى التكذيب فوقعوا في التكذيب المؤدي إلى العذاب، كما أداهم إلى الاستهزاء بالذكر الاستهزاء المؤدي إلى العذاب.

﴿٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ من كل نوع لأن الأغذية من الحبوب والفواكه يكون الجنس منها صنفَين أو أكثر، كما نشاهده في أصناف الحبوب وأصناف الأعناب وغيرها، فكل صنف زوج، والكَرَم الزيادة المحمودة في صفة الشيء، قال الراغب: ((وكل شيء شَرُف في بابه فهو يوصف بالكرم)) انتهى.

فالكرم فضل شيء على شيء، وهكذا أنواع النبات وأنواع الثمرات متفاضلة، وهذه الأزواج في الأرض نعم من الله على عباده توجب شكره، واتباع رسله، والحذر من الإعراض عن آيات الله، والتكذيب بها.

وكذلك تدل على رحمة الله بعباده، فهي تدل على أنه لا يبعد منه إرسال الرسول رحمة للعالمين فتدعو المنصفين إلى النظر في الذكر الآتي من الرحمن، ثم العلم بصدق الرسول ص، وكذلك تدل على إبطال ما يتعللون به لتكذيب الرسول ص من قولهم: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥] لأن النبات وما فيه من الصفات تدل على قدرة خالقه على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وكذلك تدل على تنزيه الله سبحانه عن أن تكون شركاؤهم أنداداً له سبحانه.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كل زوج كريم على كثرته وكثرة أنواعه أنواع الشجر ومالها من صفات باعتبار السوق والفروع والورق والثمر، كل ذلك مختلف يدل على الفاعل المختار، وكثير جداً في الأرض يدل على سعة قدرته وعلمه ونعمته على عباده ورحمته، ففيه آية تدل على ما ذكرت مفصلاً ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي أكثر المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وهم في وقت نزول السورة على أنها مكية أهل مكة والطائف ومن حولهم من العرب، وما كان أكثرهم مؤمنين لإعراضهم عن النظر في الآيات، واشتغالهم بما تهوى أنفسهم، وإذا لم يفكروا في الآيات التي يرونها فيؤمنوا بما تدل عليه فهم أهل لئلا يؤمنون بالرسول الصادق الأمين، ولا بذكر الرحمن.

﴿٩﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فما كان الله تعالى ليهمل عباده بلا جزاء يفرق بين المحسن والمسيء كما هو شأن عزته، وما كان ليتركهم بلا نذير وبشير كما هو من رحمته، وما كان إمهاله لإهمال منه لهم وإنما هو رحمة لينظروا فيما جاء به الرسول ويؤمنوا فلا يعجل لهم العذاب بحيث لا تبقى مدة للنظر ومراجعتهم للتوبة، وذلك كله لأنه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ وإذ نادى بصوت ظاهر لا بمجرد وحي خفي ﴿أَنِ ٱئۡتِ﴾ تفسير للنداء من قوله: ﴿أَنِ ٱئۡتِ..﴾ إلى آخر الآيتين، وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لتنهاهم عن الظلم.

وقوله تعالى: ﴿قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ يبين أن رسالته إليهم وإلى زعيمهم فرعون، وقد بين رسالته إلى فرعون في غير هذه الآية، وقوم فرعون هم القبط لأنهم أعوانه على الظلم، فكانت الرسالة إليهم كما هي رسالة إلى فرعون وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يعيب عليهم ترك التقوى من عذاب شديد هم متعرضون له، وفيه حث لموسى على الإتيان إليهم لعله ينقذهم من العذاب الذي هم على شفا حفرة منه.

وقال (صاحب الكشاف) وغيره: ((هو تعجيب من حالهم التي شنعت في الظلم والعسف، ومن أمنهم العواقب، وقلة خوفهم وحذرهم من أيام الله)) انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): ((أجرى ذلك في تكليم المرسل إليهم بمعنى إجرائه بحضرتهم وإجراءه في مسامعهم لأنه مبلغهم ومنهيه إليهم وله فيه لطف وحث على تأدية التقوى)) انتهى المراد، وهذه أقوال في حكمة توجيه قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إلى موسى ويمكن جمعها إذا كانت كلها صحيحة فحكمة الله لا تحصى لأنه يعلم ما لا نعلم.

﴿١٢-١٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ * وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ ليس هذا اعتذارا ولكنه

بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا

شكاية إلى من هو القادر على حَلّ المشكلات، وهو الغالب على أمره ﴿رَبِّ﴾ يا رب ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ فهم مظنة أن يكذبوني لجرأتهم على الباطل، وممارستهم للظلم العظيم والكثير ـ بالثاء ـ وإذا كذبوني لم يحصل رجوعهم عن الظلم الذي هم فيه فكأنه لم يحصل المقصود بالإرسال، بل لا يكون حاصلاً لو كان المقصود إنقاذهم لا غير، فهو × نظر إلى قصد إنقاذهم فذكر أنه يخاف أن لا يتم ذلك، لأنه يستبعد قبولهم منه مع ما هم فيه من الطغيان، والتكبر، فهذه *الأولى* من الشكاوي.

والثانية: قوله × : ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ يضيق صدري من تكذيبهم، ولا ينطلق لساني من أجل ما فيه من الخلل المانع من قدرة اللسان على الانطلاق بالكلام، وهذه حالة شديدة إذا ضاق الصدر من الباطل، وتعسّر التعبير بما يبطله، ورتب على هذه الشكوى طلب إرسال أخيه هارون معه ليعينه.

والشكوى الثالثة: قوله × : ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾وهو قتل القبطي المذكور في (سورة القصص) أنه وكزه فقضى عليه، وقوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ هو حاصل هذه الشكوى الأخيرة.

﴿١٥﴾ ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ قال الله: ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن خوفه أن يقتلوه ﴿فَٱذْهَبَا﴾ أنت وأخوك اذهبا ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الدالة على أنكما رسولا ربكما ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ فنسمع كل ما قلتما لهم، وما قالوا لكما، فلا تخافا لأنا معكما وكفاكما قوة على التبليغ.

وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا

وهو سبحانه لا يحتاج إلى استماع ليسمع ولكن جرى الكلام على التمثيل كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] وهو سبحانه لا يشغله شأن عن شأن، فكما أن هذا تخويف، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ سبب لاطمئنانهما.

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ الراجح في إفراد رسول أنه جرى مجرى التشبيه بالرسول الذي يرسله ملك إلى بعض رعيته لكن المرسِل هنا ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ المالك لفرعون وقومه ولموسى وهارون.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تفسير لما أرسلا ليبلغاه إلى فرعون ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ليتحرروا من قهرك ويتخلصوا من ظلمك لهم.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ كيف صرت رسولاً وأنت ذلك الرجل الضعيف الذي عاش بدون أسرة تؤويه وتربيه، إنما ربيناك نحن، وتفضلنا عليك في صغرك وليداً ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ تحت دولتنا وقهرنا، وفعلت فعلتك التي هي قتل القبطي، وهنا يتجلى لموسى × أن الله تعالى قد جعل له سلطاناً وهيبة تمنع فرعون الجبار العنيد عن قتله، ولذلك قال: ﴿وَفَعَلْتَ﴾ ولم يقل: (قتلت) ولم يصدِّر في جوابه ذكر القتل بل بدا بغيره.

وقوله: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ أي فعلت ذلك في حال أنك من الكافرين لنعمتي لأنك لو شكرتها لم تقتله، وهو قبطي نصرة للإسرائيلي عليه، وإنما هو من الطائفة الذين يستضعفهم فرعون. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((كان خبازاً لفرعون)) انتهى. فإذا كان خبازاً لفرعون فذلك أبلغ عند اللعين في كفر نعمته.

خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ

﴿٢٠﴾ ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال موسى × : ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ أي فعلتي التي هي القتل وأنا في تلك الحال كنت ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين يقع منهم مثل ذلك لجهلهم بالشرائع، وفي هذا تحذير من الجهل، ودعوة إلى الخروج منه إلى نور العلم، كما أن فيه تحقيق معجزة حفظ موسى من ذلك الجبار العنيد حيث يصرح بالإقرار بها بلا مبالاة وإنما يبين أنها كانت قبل الرسالة فلا يعترض بها على الرسالة ثم لا يقتله عقيب هذا الإقرار.

﴿٢١﴾ ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿فَفَرَرْتُ﴾ فما كانت نجاتي منكم إلا بالفرار منكم لما خفتكم، وهذا يحقق المعجزة لأنه فرّ من الخوف، وهو هذا يذكر فراره منهم فما عودته إليهم إلا لأنه واثق بأنه رسول من الله، وأنه يحفظه.

وقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ معرفة العدل وكيفية الحكم بين الناس ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فعليكم أن تؤمنوا بي وترسلوا معي بني إسرائيل، فهو × ثابت في ذلك المقام الذي حاول فيه فرعون شغله عنه بقضية قتله للقبطي، فقد أجاب فيها ولم يسكت على ذلك بل وصله بقوله: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جعله الله رسولاً من رسله الذين يرسلهم إلى الأمم مبشرين ومنذرين، وهداة إلى دينه لا أنه مجرد رسول يبلغ الأمر بإرسال بني إسرائيل فقط.

﴿٢٢﴾ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وتلك التربية لي وليداً مولوداً صغيراً تمنها عليّ لأن ﴿عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ جعلتهم عبيداً لك، فأرسلهم معنا فقد طالت مدة ظلمك لهم، ولولا ذلك لم تلجأ أمي إلى أن تجعلني في التابوت وتقذفني في البحر.

﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ

فالحاصل: أن سببها الظلم الكبير منك لبني إسرائيل، فهي مغمورة بالظلم والعدوان الذي هو سببها، فلا يصلح لك أن تمنها علي بل مَنّها باطل.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ولم يكن بالحقيقة لفرعون على موسى نعمة لأن الذي رباه بنو إسرائيل بأمر فرعون لاستعباده لهم، فأبطل موسى نعمته لبطلان استرقاقه، والتعبد الاسترقاق سمي بذلك لما فيه من الإذلال من قولهم: طريق معبّد)) انتهى المراد. ولعل أصله والتعبيد: الاسترقاق..الخ.

وكلام (صاحب البرهان) قريب لأن الله تعالى يقول: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ..﴾ الآية [القصص:١٢] فلم تقع له تربية إلا عند أمه، فالنعمة منها لا من فرعون، وإنما مَنّها لأنها بأمره لاستعباده لبني إسرائيل، فهو يمن عليه ما هو ظلم، والحاصل على كلام (صاحب البرهان): وتلك التربية نعمة ليست منك إنما تمنها لأنك أمرت بها أمي في إطار تعبيدك لبني إسرائيل، وهذا المعنى أرجح وبعد أن قالا لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تجاهل عدو الله فقال ما حكاه الله تعالى:

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سؤال عن جنسه والله تعالى هو الذي خلق الأجناس لا يجانس شيئاً فأجابه بذكر الدليل على ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فالله يُعرف بآياته الدالة عليه، ولا يعرف بذكر جنس أو عين تشاهد هي أو نظيرها سبحانه وتعالى.

إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِى لَأَجۡعَلَنَّكَ

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ معناه: الدليل هذا يفيد: اليقين بالله لمن شأنه أن يوقن سواء أيقنتم أم لم توقنوا لإعراضكم وإهمالكم عقولكم.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ﴾ تعجب من كلام موسى؛ لأنه كلام غريب على مسامعهم، وعلى قلوبهم فاستغلّ ذلك ليعرض عنه هو وقومه من حيث دلالته على الله ويتشاغلوا بالتعجب منه.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ زاد موسى دليلاً على الله هو نفس خلق فرعون وقومه وآبائهم الأولين وعبر عنه بالربوبية التي هي لازمه ليذكرهم بوجوب طاعتهم لله لأنه المالك لهم ولآبائهم الأولين، لأنه الذي خلقهم.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ قال فرعون ذلك عناداً وتمرداً وكذباً متعمداً لعجزه عن رد الحجة، وقوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ استهزاء به، وكذلك قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ يعني أن المجنون لا يكون رسولا.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تابع موسى لفرعون ذكر الدلائل على الله إجابة على قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ولكن عدو الله أعرض عن ذلك كله ودلالة المشرق والمغرب على الله من أوضح الدلالات؛ لأن للصيف مشرقاً وللشتاء مشرقاً،وهي مواضع شروق الشمس، وهي مرتبة على طريقة محكمة لأن الشمس تكون في المنزلة ثلاثة عشر يوماً إلا منزلة واحدة في السنة تكون أربعة عشر يوماً نظام مستمر لا يتخلف ترتيبه، وذلك دليل على العليم القدير، الذي قدر المشارق على ذلك النظام المرتب.

مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿٣٢﴾

وكذلك مغارب الشمس: للصيف مغرب ينقسم إلى مغارب، وللشتاء مغرب ينقسم إلى مغارب، وتنقّل الشمس في مشارقها يشاهد في الصيف والشتاء، ففي الصيف تكون مشارقها في شمال المشرق، وفي الشتاء تكون في جنوب المشرق، وفي الصيف تكون مغاربها في شمال المغرب، وفي الشتاء تكون مغاربها في جنوب المغرب، والمشارق متواصلة فلذلك يصح اعتبارها مشرقاً واحداً بهذا الاعتبار، ومشرقين باعتبار الصيف والشتاء،ومشارق باعتبار تعدد منازل الشمس وتعدد مشارقها تبعاً لذلك، وكذلك المغارب، وقوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ أي ما بين المشرق والمغرب مالكه هو الله الذي خلقه، وقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي إن ذلك دليل على الله رب العالمين لا يخفى على من نظر بعقله، فالمخاطبون إن نظروا عرفوا الله رب العالمين، وإن أعرضوا فاللوم عليهم، والحجة قائمة عليهم.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ انقطع عدو الله ولجأ إلى الوعيد والتهديد لأنه لم يجد جواباً عن الدلائل، ولكنه في تهديده تجاوز الحد في طغيانه فقد كان يكفيه للرد والمكابرة إنكار الرسالة لا أمره برفض رب العالمين، واستبداله بفرعون اللعين، ولكن موسى × لم يتركه بل أوقعه في مضيق لم يجد منه ملجأ.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ فهو في هذه الحالة إن قال: ولو جئتني بشيء مبين اعترف بالعناد والمكابرة، فلم يجد بداً من طلب هذا الشيء المبين الموضح لصدق موسى في دعوى الرسالة.

وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾

﴿٣١﴾ ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿فَأۡتِ﴾ بهذا الذي تقول إنه: ﴿مُبِيْن﴾.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالثعبان الذكر من الحيات)) انتهى. وفي (الصحاح): ((والثعبان ـ أيضاً ـ ضرب من الحيات طوال)) انتهى. وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٞ﴾ أي بين واضح أنه ثعبان.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي من جيبه من عند ضلعه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ جميلة المنظر، يرغب الناس في النظر إليها لبياضها الخلقي الذي أوجده خالق اليد.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ * يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ قال فرعون لكبراء قومه، ولعلهم الوزراء: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعني موسى ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ أي بالسحر ماهر فيه فهلا قتله إن كان ساحراً، وهلا قطّع الثعبان قطعاً إن كان سحراً حتى يتبين أنه عصى وليس ثعباناً، فكيف يؤكد دعواه بـ(إن) واللام والجملة الاسمية، ويزيد وصفه بأنه عليم، وهو لو كان يعلم ذلك لقتله فوراً ليستريح منه.

وقوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم﴾ أي لو سلمنا له بني إسرائيل لتوحدوا معه وأخرجونا من أرضنا فهو يطالب بإرسالهم معه لهذا الغرض، فما بال فرعون إن كان يعلم ما يدعيه فما باله لم يقتله، ويقول:قتلته لئلا يخرجنا من أرضنا بسحره.

يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي فماذا تأمرون به بناء على أنه ساحر، فهل يأمرون بقتل من يزعمون أنه ساحر، فالقتل عندهم لم يكن بعيداً لولا أن الله تعالى صرفهم.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿أَرْجِهْ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أخره)) انتهى. وقال (صاحب الصحاح): ((أرجيت الأمر: أخّرته يهمز ولا يهمز)) انتهى.

أي أخره وأخاه لا تقتلهما وابعث ﴿حَٰشِرِينَ﴾ يحشرون إليك السحرة، قال الراغب: ((الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها)) انتهى، وهذا طمع في أن يظهروا سحرهم ثم يدعي فرعون أنهم غلبوا موسى وأن سحرهم أعظم من سحره بزعم فرعون.

﴿٣٨﴾ ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والميقات: ما وقّت به أي حدد من زمان أو مكان ومنه مواقيت الإحرام)) انتهى. فالمعنى: جمع السحرة لوقت الموعد المحدد وهو ضحى يوم الزينة.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ ﴿مُّجْتَمِعُونَ﴾ أي في محل الموعد المذكور لعلنا نتبع السحرة أطمعوهم في أن تكون السحرة هم الغالبين ليجتمعوا.

ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ

ولعل طلب اجتماعهم ألجأه إليه الكِبْر لأن موسى × طلب أن يحشر الناس ضحى، أو أراد فرعون أن يُجمِعوا على أن سحر السحرة أعظم خوفاً من فرعون فيقوى جانبه بإجماع أتباعه معه، وتصير غلبة موسى محل نزاع، وفي قوله:﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ بيان لقومه أن لا يحدثوا أنفسهم باتباع موسى إن كان هو الغالب، لأن فرعون إنما جمعهم ليتبعوا السحرة ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ فقط.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ * قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ فلما جاء السحرة محل الاجتماع طلبوا الوعد من فرعون بأن يعطيهم أجراً إن كانوا هم الغالبين، وكان في قلق عظيم، فوعدهم الأجر وزادهم الوعد بأنهم إذا غلبوا من المقربين إليه.

﴿٤٣﴾ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ لأنهم ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف:١١٥] فأجابهم والحق معه ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ لأنهم لا بد أن يلقوا حبالهم وعصيهم سواء اختار أن يسبقهم أو أن يسبقوه أولم يختر أحد الأمرين فالأمر في الحقيقة إنما هو بأن يتقدم إلقاؤهم قبل إلقائه أي بالترتيب على هذا الشكل ألا ترى أنه قال: ﴿مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ وهو رسول من الله يأمر بإذن الله لأن في تقدمهم إبطالاً لسحرهم بصورة مفاجئة.

﴿٤٤﴾ ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ظنوا أنهم الغالبون؛ لأنهم سحروا أعين الناس وجاءوا بسحر عظيم، لأنهم يخيل إليهم أنها تسعى سعياً لا مجرد حركة.

﴿٤٥﴾ ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ فإذا للمفاجأة قال في (الصحاح): ((لقفت الشيء بالكسر ألقفه لقْفًا وتلقفته أيضاً أي تناولته بسرعة عن يعقوب)) انتهى. وقال الراغب: ((لقِفت الشيء، ألقَفه، وتلقفته: تناولته بالحذق سواء في ذلك تناوله بالفم أو اليد)) انتهى.

وفي (لسان العرب): ((اللقف: تناول الشيء يرمى إليك ثم قال ابن سيده: التلقف سرعة الأخذ لما يرمى إليك باليد أو باللسان ـ إلى قوله ـ : وتلقفه: تناوله بسرعة ـ إلى قوله ـ : وفي (حديث الحج): (تلقفت التلبية من في رسول الله ص) أي تلقيتها وحفظتها بسرعة)) انتهى.

وقوله ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((الإفك الكذب، إلى قوله: ورجل أفاك: أي كذاب ـ ثم قال ـ : والأفك ـ بالفتح ـ مصدر قولك: أفكه يأفكه أفكا، أي قلبه وصرفه عن الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:٢٢])) انتهى المراد.

وجعل الراغب (الإفك) أعم من (الكذب) فقال في قوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤]: ((أي يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصدق في القول إلى الكذب ومن الجميل في الفعل إلى القبيح.. ثم قال: وقوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف:٢٢] فاستعملوا الإفك في ذلك لما اعتقدوا أن ذلك صرف من الحق إلى الباطل فاستعمل ذلك في الكذب لما قلنا)) انتهى.

فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ إن كانت (ما) مصدرية وهو الراجح، فيحتمل: تلقف السحر نفسه بحيث تظهر الحبال ساكنة، والعصي حال إلقائها.

ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ

ويحتمل: اعتبار الحبال والعصي في تخيلها تسعى هي الإفك لتعلقه بها، وهذا هو الموافق للرواية فأما جعل الحبال والعصي مأفوكة فهو بعيد لأن المأفوك أعين الناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذريات٩-٨] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦] فالمأفوك: هو المسحور لا ما يتخيل مقلوباً عن حقيقته لأنه غير مقلوب في الواقع، فلا يصح تقدير ما موصولة والعائد عليها ضمير مقدر، كأنه قيل: ما يأفكونه مع أن الأصل عدم التقدير، فكان جعلها مصدرية هو الصحيح.

﴿٤٦-٤٨﴾ ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ألقتهم الآية العظمى التي لأجلها عرفوا الحق فخضعوا له، وخروا لله سجداً في وقت واحد كأنهم ألقوا أي رمي بهم في الأرض، وطُرحوا طرحاً لسرعتهم في خرورهم ساجدين ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأنه الذي جاء بالآية على يدي موسى، وجعل عصاه تلقف ما يأفكون، وقالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ زيادة بيان في وقت يدعي فيه اللعين الربوبية، وفي قولهم: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إشارة إلى الإيمان بهما رسولين من رب العالمين.

﴿٤٩﴾ ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ كأن فرعون جعل الرجوع إلى السحرة وسيلة لتطويل النزاع وفتح باب الجدل،

لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ

وقد علم أن ما جاء به موسى آية سماوية، ولكنه أصر على دعواه أنه سحر، وحين علم أن السحرة سيُغلبون، أو أنه يمكن أن يغلبوا أعد لنفسه هذا الجدل، ودعوى أن السحرة اتفقوا مع موسى على أن يجعلوا سحرهم ضعيفاً ليغلبه موسى لكنهم لو اتفقوا لبلغ فرعون خبرهم، وطردهم ولم يقبلهم، ويعدهم أجراً وتقريباً لديه، لأنهم كثير من بلدان مختلفة، ومثل ذلك لا يخفى على فرعون، ولأن الحاشرين لهم لا بد أن يكونوا معهم حتى يوصلوهم محل الاجتماع يوم الزينة، فكيف لا يبلغون فرعون لو وقع ما زعم.

ويدل على جرأته على الكذب في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ إن موسى كان غائباً عن بلد فرعون هارباً من بعد قتله للقبطي، وكان غيابه نحو (ثمان سنين) على أقل تقدير، ولم تظهر على يده آية العصى إلا بعد رجوعه من غيابه، فمتى علم السحرة.

وقوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي ما ينالكم من أجل ما صنعتم، وفسره بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم..﴾ إلى آخره. قال الشرفي في (المصابيح): ((الصلب: أن يمدّ الرجل على خشبة حتى تتناثر عظامه)) انتهى.

﴿٥٠-٥١﴾ ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في (مصابيح الشرفي) أظنه عن الحسين بن القاسم × ، معناه: ((لا ضير في ذلك عندنا ولا مساءة في ظلمك لنا إن أطعنا خالقنا وسيّدنا، قال الشاعر:

أبرق وأرعد يا يزيد فما وعيدك لي بضائر))

انتهى.

هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ

﴿لَا﴾ ضير نفي الضير أي نفي الضر هنا، ليدل على أن وعيد فرعون لا يردهم عن الإيمان لأنهم منقلبون أي راجعون إلى ربهم وحده ليدخلهم الجنة وينقذهم من النار، فالقتل المؤدي إلى ذلك لا بأس به، والتعذيب المؤدي إلى النجاة من عذاب الله لا بأس به لأنه ينتهي، ويؤدي إلى السعادة الدائمة بسبب الصبر عليه والثبات على الإيمان، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ نحب ﴿أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ﴾ الماضية؛ لأن ﴿كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فلذلك لا ضير علينا فيما أصابنا منك، هذا وأنا أرى أن الله أنجاهم مع بني إسرائيل، أو أنهم كانوا من بني إسرائيل، وما ذكره الله عن أجوبة فرعون ورجوعه إلى الوعيد يدل على عجزه وأنه لا يزال يجادل، ولا حد لجداله إلا نزول العذاب به وبمن معه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ ﴿أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ﴾ أي بالمؤمنين معك، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان:٦٣] وهذا يعم السحرة، فلا يصح ما يروى أن فرعون فعل بهم ما أوعدهم به ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ سيتبعكم فرعون وقومه ليقتلوكم أو يأسروكم ويعذبوكم، فانج بمن معك من المؤمنين.

﴿٥٣-٥٦﴾ ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ * إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ﴾ ﴿حَـٰشِرِينَ﴾ يحشرون قومه إليه ليهجم بهم على موسى ومن معه ﴿وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ﴾ قد غاظونا بما طلبوا منا، وبهزيمتهم لنا بالحجة ﴿وَإِنَّا﴾ أي فرعون وقومه ﴿لَجَمِيعٌ﴾ مجتمعون ﴿حَـٰذِرُونَ﴾ من عواقب ترك موسى ومن معه أن يقوى أمرهم ويتبعهم الناس، ويغلبونا بالقوة في الأخير.

وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾

قال الراغب: ((الشرذمة جماعة منقطعة، قال: شرذمة قليلون، وهو من قولهم: ثوب شراذِم أي مقطع)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((معناه: طوائف وجماعات والشرذمة كل بَقيّة قليلة)) انتهى.

وعلى هذا: فقد أمر الحاشرين أن يقللوا موسى ومن معه بقولهم: (شرذمة) وبقولهم: ﴿قَلِيلُونَ﴾ فهو تقليل للقليل ليشجعوهم على قتالهم كما يشجعونهم بمدح فرعون وقومه بأنهم مجتمعون متحدون فهم أقوياء بذلك، وبأنهم حذرون فالدافع لهم على القتال قوي فهم لا بد بزعمهم أن يغلبوا موسى ومن معه.

﴿٥٧-٥٩﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فأخرجنا فكان همهم بموسى ومن معه ليقتلوهم أو يأسروهم كان ذلك هو وجدالهم في آيات الله سبباً لإخراج فرعون وقومه من دنياهم إلى الغرق، كما قال تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٥].

وقوله تعالى: ﴿مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي عيون ماء فجناتهم خضراء وقوله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي من الذهب أو الفضة أو منهما أو منهما ومن غيرهما أي أموال مجموعة محفوظة معدّة لوقت حاجتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ومقام محل قيامهم بشؤون عيشهم كريم بما فيه من القصور المشيدة، ولعلهم كانوا يملكون الخيل ونحوها مما هو تكريم للإنسان يبتليه الله به.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ كذلك الأمر كذلك فقد كانوا في نعمة فاكهين، فخرجوا منها إلى الهلاك، أو كذلك نفعل بالمجرمين، وأورثناها بني إسرائيل بعد تمكنهم حين أورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها، كما قال تعالى في (سورة الأعراف): ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف:١٣٧] الآية.

ويشير إلى هذا التمكين قوله تعالى: ﴿ونريدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [القصص٥-٦] وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ [الإسراء:٤] ولا يجب في تفسير الآية أن يجعل معناها أن موسى وقومه في عهده أورثوا مصر.

﴿٦٠﴾ ﴿فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ..﴾ إلى آخر الآيات، وإنما تخلل ذكر إخراجهم؛ لأنه كان الذي دعاهم إليه فرعون هو إخراجهم للهلاك، فأتبعوا موسى ومن معه ﴿مُّشۡرِقِينَ﴾ صائرين في وقت شروق الشمس؛ لإسراعهم إلى الهجوم على موسى ومن معه.

﴿٦١﴾ ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ ﴿تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ جمع فرعون وجمع موسى كل رأى عدوه فظن أصحاب موسى أن فرعون وقومه سيدركونهم لقربهم، فقالوا مؤكِّدين: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لأنهم لا يرون مفراً لأن البحر أمامهم وفرعون خلفهم.

﴿٦٢﴾ ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿كَلَّآ﴾ لا تقولوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ لستم مدركين ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ فهو ينصرني على عدوي ﴿سَيَهْدِينِ﴾ لوسيلة النجاة من عدوي.

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم

﴿٦٣﴾ ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ أي فضرب البحر ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ صار فلقتين أي انفرق صار فرقين ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ﴾ من الفرقين ﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ كالجبل، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((فالطود: الجبل)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((الطود: هو الجبل العظيم، ووصفه بالعظيم لكونه فيما بين الأطواد عظيماً لا لكونه عظيما فيما بين سائر الجبال)) انتهى. وفي (الصحاح): ((الطود: الجبل العظيم)) انتهى.

ومثله في (لسان العرب) العظيم: أي أن الفرق من البحر الذي هو بعض منه انفصل عن البعض الآخر، فكان كل واحد من الفرقين كالجبل العظيم أو الجبل الذي هو أعظم من الجبل العظيم، لأن الله حفظه مكانه فكان ما بين الفرقين طريقاً لبني إسرائيل ليفروا فيه من عدوهم، وما روي: أنه صار اثني عشر طريقاً خلاف ظاهر القرآن؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ ولم يقل: فتفلق، وكذلك قال تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾ [طه:٧٧] ولم يقل: (طرقاً).

﴿٦٤﴾ ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ﴾ ﴿أَزْلَفْنَا﴾ قربنا ﴿ثَمَّ﴾ هناك حول البحر ﴿ٱلْءَاخَرِينَ﴾ فرعون وقومه.

﴿٦٥﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ بمرورهم في الطريق الجديد بقي البحر مفروقاً حتى خرجوا منه.

﴿٦٦﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ بإرجاع البحر عليهم.

مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في فلق البحر لموسى ومن معه، وإغراق فرعون ومن معه (آية) لرحمة الله لأوليائه ورسوله ونصره لهم على أعدائهم، ولقدرة الله على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ هو الذي لا يُنال فهو غالب لا يُغْلب، ولا ينال بسوء سبحانه وتعالى وقد مر تفسير الأولى.

﴿٦٩﴾ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ واقرأ عليهم نبأ إبراهيم الذي أنزل إليك عليهم، أي على المشركين من قومك الذين لم يؤمنوا، والنبأ الخبر بالأمر المهم، أو الخبر مطلقا.

﴿٧٠﴾ ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ سؤال عن حقيقتها فكان الجواب المطابق أن يقولوا: نعبد تماثيل من نحاس مثلاً وفي ذلك كفاية لبطلان عبادتهم لها، لكنهم عدلوا عن الجواب المطابق للسؤال.

﴿٧١﴾ ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ فنظل لها عابدين، والظلول في النهار، وقوله: ﴿لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ تفسير العبادة لها أنها بالعكوف لها أي حبس أنفسهم عندها مدة طويلة في النهار خضوعا لها بمعنى الإقرار منهم بالعبودية لها.

﴿٧٢﴾ ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ﴾ إذ تدعونها حال العكوف وهو عبادة أخرى وهذا احتجاج عليهم واضح؛ لأنهم إن ادعوا أنها تسمع كان عليهم بيان دليل على صدق دعواهم، ومجرد الدعوى لو ادعوها كذب واضح لأنها مجرد تماثيل مصنوعة لا تسمع ولا تبصر، وإن أقروا أنها لا تسمع لزمهم بطلان الدعاء لها.

﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ

﴿٧٣﴾ ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ وهذه حجة عليهم لا يستطيعون ردها لأنهم إن ادعوا النفع أو الضر كان عليهم إيراد دليل تصح به دعواهم، وإلا فهي كذب واضح لأن التماثيل المصنوعة من النحاس مثلاً لا تستطيع أن تفعل شيئاً بل هي جماد كسائر الجمادات، وإن اعترفوا أنها لا تنفع ولا تضر بطلت عبادتها لكنهم عدلوا عن الجواب المطابق للسؤال لعجزهم عن أي جواب مخلص.

﴿٧٤﴾ ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ فلم يكن لهم حجة، واعترفوا بتقليدهم لآبائهم بأنهم وجدوهم يعكفون لها ويدعونها.

﴿٧٥-٧٧﴾ ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ * فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ توجيه لأذهانهم وتنبيه ليسمعوا ما يقول في أصنامهم التي قد استمروا على عبادتها وعبدها آباؤهم الأقدمون ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ هم ضد حياتي لا أستطيع أن أعيش على تركهم يعبدون، كقول الإمام الهادي × : ((لكل شيء ضد وضد حياتي المعاصي)) لأن إبراهيم × يعبر بهذا للدلالة على أنه سيعمل على إزالتهم أو يهلك دون ذلك، وهذه غاية العداوة بينه وبينهم.

وفي هذا تنبيه لهم على أنه لا يخاف ضرهم، كقوله: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام:٨٠] وكقول (هود) جواباً على قومه إذ قالوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ﴾ [هود:٥٤-٥٥] فحينئذ لا بد لقوم

﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا

إبراهيم وقد أعلن عداوة أصنامهم واثقاً أنها عاجزة عن ضره من أن يرجعوا إلى الحق لعلمهم بعجزهم عن إبطال حجة إبراهيم، أو يرجعوا إلى دفعه بالقوة التي تدل على عجزهم عن الدفع بالحجة، ولا يثبت بها ما يزعمون ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يحتمل: أن الاستثناء مما يعبدون متصل وأنهم كانوا لا يجحدون الخالق ولا يستغنون عن دعائه في بعض الحالات، ويحتمل أن الاستثناء منقطع بمعنى لكن رب العالمين المالك لهم المستحق لئن يعبدوه ليس عدواً لي بل أنا محتاج إليه في كل حال.

﴿٧٨-٨٢﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ لمنافعي، ويرشدني إلى الدين الحق، ويريني الباطل باطلاً لأجتنبه، فأنا محتاج إليه لذلك، وهو ﴿ٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ فأنا محتاج إليه لأعيش، ولولا إطعامه لي وسقيه لي لما عشت، فنعمة الخلق والهدى والإطعام والسقي يجب علي شكرها، وعبادته لأجلها ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وهذه حاجة شديدة يحتاجها المريض، فإذا شفي وجد لذة العافية، وعرف نعمتها في مرضه وشفائه فهي من أسباب عبادة الله لا عبادة الأصنام التي لا تشفي مريضاً، ولم يقل: والذي يمرضني لأنهم لا يعتبرون المرض نعمة، ولا يعتبرونه إلا مصيبة، فلم يخاطبهم بما لا يفهمون، وإنما تظهر نعمة المرض عند نيل الثواب على الصبر، والعوض على المرض، ومعرفة تكفيره للخطيئات.

وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾
وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾

وإذا عرفنا أن الشفاء من الله تعالى فينبغي استعمال أسباب الشفاء التي وردت في الأحاديث النبوية كالاستغفار والصدقة والدعاء وقراءة فاتحة الكتاب واجتناب ما عُرف ضره، ومن الخطأ الاتكال على العلاجات دون الرجوع إلى الله، والتماس الشفاء منه ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ وهذا يدل على حاجتي إلى عبادته ليوم يحييني أقدمها وهو دليل على قدرته على كل شيء، فهو القادر على الثواب على عبادته، والعقاب على الشرك به، بخلاف أصنامكم ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء على الأعمال الحسن منها والقبيح، وهذا يدل على شدة الحاجة إلى عبادته وحده.

﴿٨٣﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ وهذا من العبادة لله يصارحهم بها، ويذكرهم بأن ربه هو القادر على أن يهب له حكماً ويلحقه بالصالحين قال (صاحب الكشاف): ((الحكم الحكمة، أو الحكم بين الناس بالحق)) انتهى.

وقد قال تعالى في موسى × : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [القصص:١٤] وقال في يوسف × : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾ [يوسف:٢٢] وليس معناه الحكم بين الناس، وإنما معناه الحكمة بمعنى رجاحة العقل، ووضع الأشياء مواضعها، وحسن الرأي، والعدالة والإحسان والمروءة، فأما العلم فهو معين عليها، ومتمم لها، وقد عطف عليها في الآيتين كما ترى، فلا يصح تفسيرها بالعلم وحده.

وقوله تعالى حاكياً عن إبراهيم × : ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يعني في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة، فإلحاقه في الآخرة أن يكون معهم في موقف الحساب، وفي الجنة، ونحو ذلك ينال ما نالوا، وإلحاقه بهم في الدنيا الحكم له بأنه من الصالحين، وقد أجيبت دعوته قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل:١٢٢].

﴿٨٤﴾ ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ لسان صدق ذكراً بالخير صادقاً سمي لساناً كما سميت اللغة لساناً، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ ولعله رغب فيه تبعاً لرغبته في بقاء دينه في الآخرين، ولأنه نصر له على المشركين والله أعلم.

﴿٨٥﴾ ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ جعلت الجنة ميراثاً لأهلها ولعله مجاز لمشابهتها الميراث لوقوعها بعد الموت، وسببها قبل الموت ـ والله أعلم.

فأما ما قيل: إن أهل الجنة يأخذون ما كان يأخذه أهل النار لو آمنوا واتقوا، ففيه إشكال أن أهل الجنة أخذوا ما هو مُعَدّ لهم، وإذا صح أن لأهل النار نصيباً فيها فاتهم وأخذه أهل الجنة، فذلك لا يستدعى أن يجعلوا وارثين للجنة كلها لأن الموروث على هذا المعنى إنما هو بعضها، وأيضاً ذلك مجاز ليس ميراثاً حقيقة، ولا يجري مجرى إيراث الدنيا أهلها بعد الماضين، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لأن آل فرعون كانوا فيها فتركوها ثم ورثها بنو إسرائيل أما أهل النار فلم يكونوا في الجنة.

﴿٨٦﴾ ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ هذا الاستغفار وفاء بوعده ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة:١١٤].

وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴿٩١﴾

﴿٨٧-٨٩﴾ ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ * يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ الإخزاء: إهانة وفضيحة، وهو ـ صلى الله عليه ـ في هذا يدعو الله وقد استجاب له، وكلامه توحيد وإيمان بالبعث، ودعاء لله وحده فأمر الله نبيه محمداً ص أن يقرأه على قومه وقد كان أكثرهم مشركين لا يؤمنون بالبعث، وهم يزعمون أنهم على دينه × .

وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ يبطل زعم الجاهلين القائلين: ﴿لَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ونحوه.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ﴾ أي عند الحساب ﴿بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ أي من الشرك، ومن كل اعتقاد محظور، ومن كل إصرار على كبيرة، فشمل هذا سلامة القلب التي ليست إلا للمؤمن التقي.

﴿٩٠﴾ ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ أي قربت الجنة للمتقين، وتفسير المتقين في (سورة آل عمران) حيث جعلهم أهل درجتين من التقوى، فقال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ..﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً..﴾ إلى آخر الآيات الثلاث [آل عمران:١٣٣-١٣٥] وهذا هو الظاهر؛ لأن المتقين لم تخص اتقاء مخوف من العذاب دون مخوف، ولا درجة منه دون درجة، والاتقاء في اللغة استعمال ما يقي المستعمل كالمجن في الحرب، فيقال: اتقى السيف بالمجن، وفي معلقة عنترة:

إذ يتقون بي الأسنّة لم أخِم عنها ولكني تضايق مقدمي

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾

وقال آخر:

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه فتناولتـــه واتقتنـــا باليـــد

وإنما خصه بعضهم باتقاء الشرك بناء على عقيدتهم في الفساق من أهل القبلة والفساق غير طيبين، والله تعالى يقول في (سورة النحل): ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل٣١-٣٢].

﴿٩١﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أظهرت لهم بحيث يرونها ويسمعون صوتها، ولعله قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ بصيغة التكرير ليدل على تكرر إبرازها بحيث تقرب منهم بعد بروزها بعيداً، أو يدل على كبرها وتعدد التقريب لأبعاضها بحيث يقرب بعض بعد بعض، والعطف للوعيد على الوعد، بقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ..﴾ إلى آخرها، والآيتان في وصف يوم يبعثون.

﴿٩٢-٩٣﴾ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للغاوين العادلين عن طريق رشدهم وهم هنا المشركون ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ لا نراهم معكم يدفعون عنكم جهنم هل ينصرونكم بشفاعة أو بأي وسيلة فيدفعوا عنكم أو ينتصرون هم من دخول النار.

قال الشرفي: ((وهذا سؤال توبيخ)).

قلت: أو في معنى النفي ويترجح أن المراد بمن كانوا يعبدونهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله، ويزعمون باطلهم حقاً.

﴿٩٤﴾ ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ الكبكبة: متعددة لتعدد المعبودين، والضمير لهم، والغاوون هنا هم الغاوون المشركون كما في الآية السابقة، قال الراغب: ((والكبكبة تدهور الشيء في هوّة)) انتهى. وقال في (الصحاح): ((وكبكبه: أي كبه، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾)) انتهى.

وفي (لسان العرب) ذكر القولين، وزاد في قول الله تعالى: ﴿فَكُبۡكِبُواْ﴾ قال الليث: ((أي دُهوِروا وجمعوا ثم رمي بهم في هُوّة النار، وقال الزجاج: كبكبوا طرح بعضهم على بعض، وقال أهل اللغة: معناه دُهوِروا، وحقيقة ذلك تكرير الانكباب كأنه إذا ألقي ينكبّ مرة بعد مرّة حتى يستقرّ فيها، نستجير بالله منها)) انتهى المراد.

وقال الشرفي / في (المصابيح): ((ومعنى قوله: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا﴾ أي طرحوا في النار على وجوههم بعضهم على بعض منكسين على رؤوسهم، قال الشاعر:

ينـــاديهم رســـول الله لمـــا طرحناهم كباكب في القليب

أي طرحنا بعضهم على بعض في البير)) انتهى.

وفي (الكشاف): ((والكَبكَبة: تكرير الكبّ جعل تكرير اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي فيها ينكبّ مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها، اللهم أجرنا منها يا خير مستجار. انتهى. وهذا أوضح الأقوال؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل:٩٠] وقول (صاحب الكشاف): ((جُعل تكرير اللفظ)) يعني: أنه وإن لم يكن مشتقاً منه فهو موافق له ـ والله أعلم.

﴿٩٥﴾ ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ أَجۡمَعُونَ﴾ أي كبكبوا كلهم أجمعون، كبت وجوههم في النار، ﴿وَجُنُودُ إِبۡلِيسَ﴾ أنصاره من الجن والإنس الدعاة إلى سبيله.

قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا تَخۡتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٢﴾

﴿٩٦-٩٨﴾ ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا تَخۡتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ * إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿قَالُواْ﴾ أي التابعون لقادة أهل الشرك من شياطين الجن والإنس ﴿إِن كُنَّا﴾ أي إنا كنا في ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ حين ﴿نُسَوِّيكُم﴾ في طاعتنا لكم ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهذا على أن شركاءهم هم متبوعوهم الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله فيعبدونهم بذلك من حيث جعلوا طاعتهم حقاً في الشرك، وفي إثبات البحيرة، والسائبة، والحامي.

وقد جعل الناصر × في (البساط) طاعة الشيطان شركاً من غير نظر إلى أنها جعل الحكم لغير الله تعالى، لكنه جعل شرك الطاعة دون شرك العدل بالله، والمشركون في طاعتهم لكبرائهم قد جمعوا بين المعنيين شرك الطاعة لشياطين الإنس والجن، وشرك جعل الحكم لغير الله في البحيرة ونحوها إذ حرموها عليهم، وفيما جعلوه لشركائهم ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام:١٣٦] ونحو هذا مما حكاه الله عنهم في (سورة الأنعام).

﴿٩٩﴾ ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ الذين حملونا على طاعتكم من أخلاء السوء وقرناء الباطل الذين زينوا لهم ذلك، ألا ترى إلى قول إبراهيم الخليل × لقومه ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ [العنكبوت:٢٥] فهذا بين الأخلاء والقرناء فأما المطاعون فهم سادتهم وكبراؤهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [الأحزاب:٦٧].

﴿١٠٠-١٠٢﴾ ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ * فَلَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هذا مما حكاه الله عن المشركين قالوا وهم في النار قد أيسوا

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا

من شفاعة الشافعين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ﴾ (الفاء) للتفريع على إضلال المجرمين لهم ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ لانقطاع العلاقات ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف:٦٧] ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:٢٥٤] والحميم في (تفسير الإمام زيد بن علي |): ((معناه: شفيق)). انتهى.

وقال الراغب في قوله تعالى: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج:١٠] فهو القريب المشفق.. الخ. وقال (صاحب الصحاح): ((وحميمك: قريبك الذي تهتم لأمره)) انتهى.

وقولهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي فليت لنا رجعة إلى الدنيا والتكليف ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أقروا بالحق حين لم ينفعهم الإقرار.

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن في ذلك المذكور من قول إبراهيم × وقصته مع قومه؛ لأنه × ذكر الدليل عليهم كما مر وذكر قصة أهل النار آية سمعية فيها زجر عظيم.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وإن ربك الذي أرسلك وأنزل عليك القرآن ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فلا يترك العصاة بدون عقاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فلا يعذبهم قبل إرسال النذير، فمن رحمته أرسلك وأنزل عليك القرآن.

﴿١٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لعل تكذيبهم لنبيهم نوح × كان تكذيباً للمرسلين كلهم؛ لأنهم استندوا في تكذيبهم له إلى أنه بشر مثلهم، فكان معنى كلامهم أن لا رسول بشر، أو أنهم كذبوا المرسلين نوحاً ومن قبله، لأنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٤] فنفوا تقدم رسول قبل نوح، والأول أرجح أنه المراد ـ والله أعلم.

تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي

﴿١٦-١٨﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿إِذْ قَالَ﴾ إما اذكر: إذ قال، وإما كذبت قوم نوح إذ قال، وقوله: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يدعوهم إلى التقوى برفق، ومعنى ذلك أنهم معرّضون لعذاب الله لأنهم مشركون، فهم محتاجون إلى التقوى لأجل ذنوبهم.

ثم بين لهم كيف يتقون، فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فبين لهم أن التقوى بأن يطيعوه ليمحوا ذنوبهم الماضية، لأنه رسول أمين يبين لهم طريق النجاة ثم أمرهم بالتقوى ثانية تفريعاً على كونه رسولاً يجب عليهم الإيمان به واتباعه وطاعته، فتكذيبه ومعصيته خلاف التقوى من هذه الجهة فتجدد عليهم وجوب التقوى مع وجوبها عليهم من قبل بسبب ما هم عليه.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا تنبيه لهم لئلا يتوهموا أن الباعث له على دعوى الرسالة حب المال، وطلب الأجر، فإذا لم يكن له مصلحة منهم وتحمل مشقة إنذارهم مع توقع تكذيبهم، فذلك يدعوهم إن أنصفوا إلى النظر بعقولهم فيما جاء به من دليل رسالته، حتى يعلموا أنه دليل صحيح، وقد قامت عليهم الحجة لينظروا بإنذاره لهم مع عدم طلب أجر منهم على الرسالة؛ لأن ذلك زيادة في لفت النظر، ودعوة المنصف إلى النظر في آيته فلذلك عقب بقوله:

﴿١١٠﴾ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لأنهم إن كانوا قد نظروا سابقاً وعلموا صدقه فما بقي إلا أن يأمرهم بتقوى الله وطاعته، وإن كانوا لما ينظروا فأمرهم بتقوى الله لينظروا فيطيعوه إيمانا بآيته.

بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوۡ تَشۡعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿١١٥﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ

فإن **قيل**: فما كانت المعجزة التي أظهرها الله على يديه لتدل على صدقه؟

قلنا: قد أخبرنا الله أن الرسل جاءوا قومهم بالبينات فتبين أن قد جاءهم بآية وإن لم نعلم نحن ما هي فكم نجهل من الواقع، فلا يدل جهلنا بها على عدمها، وهو × يفيد: أن قد جاءهم بآية في قوله: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود:٢٨].

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ تعلل لترك الإيمان منهم واعتذار بالكبر عن مجالسة الفقراء الذين اعتبروهم أراذل لفقرهم، أرادوا أنهم فسال، قال الراغب: ((الرذل، والرذال: المرغوب عنه لرداءته)) انتهى. وقد أجاب عنهم نبي الله وردهم إلى الصواب.

﴿قَالَ وَمَا عِلۡمِي بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ فبين لهم أن الرذل من أرذله عمله لا من يصغر عندهم لفقره، وما علمي سؤال بمعنى النفي، بمعنى: أني لا أعلم ما يعتادون من الأعمال أي غير الإيمان وتوابعه، والمراد الأعمال القبيحة، فمعناه: أنه لا يعلم لهم عادة قبيحة.

وقوله: ﴿إِنۡ حِسَابُهُمۡ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ يفيدهم أنه لا يعاملهم إلا على الظاهر، فأما باطنهم فأمره إلى الله وحده وهو الذي يحاسبهم يوم القيامة، وقال: ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ لأنهم جاهلون بأن الله هو الذي كتب على نفسه أن يحاسبهم ومعنى ﴿لَوۡ تَشۡعُرُونَ﴾ لو تعلمون.

يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى

﴿١١٤-١١٥﴾ ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ المؤمنون أي الذين اتبعوا نوحاً وليس له أن يطردهم، وكيف يطرد من آمن به ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما أنا إلا نذير مبين ليس لي أن أتسلط على عباد الله بغير حق، ومعنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أنه بين واضح أنه نذير لأنه قد جاءهم بآية بينة.

﴿١١٦﴾ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ لما غلبهم بالحجة وأبطل تعللهم رجعوا إلى التهديد لئن لم تنته عن الدعوة إلى الله ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ أي لَتُرجمَنّ بالحجارة لنتخلص منك، انقطع الخوض بينه وبينهم في دعوته؛ لأنه قد بلغهم وأقام الحجة عليهم وقطع جدالهم حتى لم يجدوا إلا التهديد.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما كذبوني حكما أي حكم ترضاه ﴿وَنَجِّنِى﴾ مما تحكم به عليهم في تكذيبي ونجّ ﴿مَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿١١٩-١٢٠﴾ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ ﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ﴾ تفريع بالـ(فاء) على تكذيبهم ودعاء نوح × و﴿ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة، و﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوء أو هو خاص بالسفينة ونحوها.

قال في (القاموس): ((شحن السفينة، ثم قال: والمدينة ملأها)) انتهى.

ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا

وفي (الصحاح): ((شحنت السفينة ملأتها، قال الله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ وشحنت البلد بالخيل ـ ثم قال ـ : ويقال: مرّ يشحنهم أي يطردهم أفاده في (لسان العرب) شحْنا أي يطردهم ويَشُلّهم ويَكْسَؤُهم)) انتهى.

فلكل استعمال موضع خاص وسفينة نوح × امتلأت لكثرة ما حمل من الحيوان، لقول الله تعالى: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ..﴾ [هود:٤٠]﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي بعد إنجاء نوح ومن معه أغرقنا ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ أي الذين لم يركبوا مع نوح، فالمراد بـ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ من عدا نوحاً ومن آمن معه، قال في (الصحاح): ((وبقي من الشيء بقيّة)) انتهى.

فظهر: أن ﴿ٱلْبَاقِينَ﴾ بمعنى البقية الذين لم يدخلوا السفينة، لم ينجهم الله.

﴿١٣١-١٣٢﴾ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِى﴾ إهلاك المكذبين برسولهم وإنجاء المؤمنين ﴿لَأَيَةً﴾ تدعو إلى الإيمان بالرسل، واجتناب تكذيبهم، ومن عزة الله تعالى أنه عذب المكذبين، ومن رحمته أنه أنذرهم، وأنه أنجى المؤمنين.

﴿١٣٣﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هذه الآية نظيرها في قوم نوح، ولكن عاد بعد قوم نوح كذبوا رسولهم هوداً × ، وكذبوا نوحاً، ومن قبله من المرسلين، فأما من بعدهم، فلعله لزمهم من إنكارهم رسالة البشر على الإطلاق.

تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا

﴿١٢٤-١٢٦﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ **تفسير هذه الآيات مثل تفسير نظيرها في (قوم نوح).**

﴿١٢٧﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **نظير الآية في (قوم نوح) والمراد: أنه لا يسألهم مالاً، كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾** [الطور:٤٠] **وكما صرح به نوح فيما حكاه الله تعالى في (سورة هود) فهو لا يسألهم مالاً ولا أجراً حقيقياً كعمل يعملونه له أجراً على الرسالة، والأجر الحقيقي لا يكون إلا أحدهما أي مالاً أو عملاً جارياً مجرى المال كالبناء والحرث، وحفر الآبار.**

﴿١٢٨-١٣٠﴾ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ **أنكر عليهم الرسول هذه الخلال الثلاث، الأولى: قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أي بكل مرتفع آية أي علامة تعبثون أي لا فائدة لها، وإنما هي عَبَث معيب، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ معناه: بكل مرتفع من الأرض)) انتهى المراد. وفي (مفردات الراغب): ((الريع: المكان المرتفع الذي يبدو من بعيد)) انتهى.**

وفي (الصحاح): ((والريع: المكان المرتفع من الأرض، وقال عمارة: هو الجبل الصغير ـ إلى قوله ـ : ومنه قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ والريع ـ أيضاً ـ الطريق)) انتهى.

وقوله تعالى حاكياً: ﴿ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ لعلهم كانوا يبنونها لمجرد إظهار قوتهم وغناهم يفخرون بذلك، فكان عبثاً لأنه لا يستحق أن يكون سبباً للبناء لما في البناء من التكلف والعناء، وغرامة المال، فإذا فعل لمجرد ذلك الغرض الحقير الذميم كان عبثاً.

والثانية ـ مما عاب عليهم ـ أفادها قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((والمصانع: الحصون)) انتهى، وبه فسره الشرفي في (المصابيح).

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: بروج الحمام وكل بناء فهو مصنعة)) انتهى. وقال الراغب: ((وعبر عن الأمكنة الشريفة بالمصانع، قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾))انتهى. وقال الراغب: ((الصنع إجادة الفعل)) انتهى المراد.

والذي يناسب قول الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ﴾ أنها الحصون أما قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ﴾ أي لعل اتخاذ المصانع سبب في خلدكم ظناً أنها تقيكم الآفات، ولعلهم أرادوا أن تحميهم من الأعداء إن كان لهم أعداء، وإلا فمن السباع والهوام والحَرّ والوباء، وهذا من استعمال الخلد في السلامة من المصائب، كقول امرئ القيس:

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي ... وهل يعمن من كان في العُصُر الخالي

وهل يعمن إلا سعيد مخلد ... قليل هموم ما يبيت بأوجال

قال الراغب: ((الخلود: هو تبرئ الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها))انتهى. فهما معنيان للخلود: الأول: التبري من اعتراض الفساد.

والثاني: بقاؤه ومن الأول قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان:١٩] وقوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق:٣٤] ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ والأول خاص بأهل الجنة، والثاني لهم ولأهل النار.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ [الجن:٢٣] وقال الشرفي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ﴾: ((كأنكم تخلدون في هذه الحياة لا تموتون)) هذا معنى كلامه.

والثالثة ـ مما عاب نبي الله هود على قومه ـ أفادها قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ قال (صاحب الصحاح): ((البطشة السطوة والأخذ بعنف)) انتهى. وقال الشرفي: ((والبطش ـ أي هنا ـ الضرب والقتل بغير حق)) انتهى المراد.

والبطش هنا يفسره قوله الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ [القصص:١٩] فالسياق يفيد: أنه أراد أن يدفع عدوهما بالضرب أو نحوه، فالبطش الضرب الموجع ونحوه وقد يكون قتلاً، وقد يكون أشد من ذلك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان:١٦].

وقوله: ﴿جَبَّارِينَ﴾ قال في (الصحاح) في معنى (الجبار): ((والجبار: الذي يقتل على الغضب)) انتهى. والمعنى: أنه لا يتقيد إذا غضب بحد يليق بالعاقل بل يكون بطشه على قدر غضبه، ولا يبالي بالظلم ولا يرحم المظلوم.

﴿١٣١﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فأنتم معرّضون لعذاب الله إن لم تطيعوني فأطيعوني اتقاء لله.

تَعْلَمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

﴿١٣٣-١٣٤﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ قال في (الصحاح): «المادّة: الزيادة المتصلة» انتهى. يذكرهم رسولهم بنعم الله عليهم النعم المتلاحقة المتواصلة فالأنعام تنتج ويتكرر دَرّها ونفعها والبنون يتكرر السرور بهم ونفعهم، والجنات تثمر ويتكرر ثمرها، والعيون يستمر الانتفاع بها للشرب وسقي الأنعام والجنات.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: كيف قرن البنين بالأنعام؟ قلت: هم الذين يعينونهم على حفظها والقيام عليها» انتهى. فرسولهم يذكرهم بنعم الله عليهم ليشكروه ولا يكفروا نعمه لأنهم إذا كفروها وهم كافرون لها تعرضوا لعذاب الله فلذلك قال:

﴿١٣٥﴾ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم عظيم يحتمل أنه عنى عذاب يوم القيامة وهو الراجح، ومحتمل: أنه أراد يوم الهلاك العاجل الذي يعظم عليهم هوله، ويعمهم عذابه وينقلهم إلى نار جهنم، كما قال تعالى في (أصحاب الأيكة): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٨٩].

﴿١٣٦-١٣٨﴾ ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ لا نبالي بما تقول، ولا نتأثر به بل هو وعدمه سواء علينا، وهذه مبالغة في رده وأسلوب لجعل اليأس في نفسه ليسكت عنهم.

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ

﴿إِنْ هَـٰذَآ﴾ الذي نحن عليه وتنكره علينا وتخاف علينا لأجله عذاب يوم عظيم ليس أمراً منكراً إنما هو شيء مألوف، ورثناه من الأولين، وكان من خلقهم وعاداتهم التي استمروا عليها، والخلق يستعمل في الطبيعة التي هي ميل النفس إلى عادة من العادات، ويستعمل في نفس العادة التي أدت إليها الطبيعة كما قال الشاعر:

يا أيها المتحلّي غير شيمته ... ومن خلائقه الإقصاد والمَلَق
ارجع إلى خيمك المعروف ديدَنُهُ ... إن التخلق يأتي دونه الخُلُقُ

وقال الإمام القاسم × في عدّ الركعات بالأصابع والحصى: ((خُلُق حَسَن)) أي عادة حسنة، وقال الشرفي في تفسير هذه الآية: إن هذا إلا خلق الأولين أي طبع الماضين وسِيرتهم..الخ. وقد ورد الترغيب في حسن الخلق ومكارم الأخلاق بمعنى العادات الحسنة كإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ردّ على رسولهم في قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿١٣٩-١٤٠﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبت عاد رسولهم هودا ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ وذلك مفصل في سور، منها: (الحاقة) و (الأحقاف) إن في إهلاكهم بسبب تكذيبهم لآية ودليلاً يُعرف به الله الذي أرسل الريح العقيم حتى دمرتهم فلم تنصرهم آلهتهم ولا غيرها، ودل ذلك: على أن الله قادر عالم، وعلى أنه العزيز.

أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فلعزته أرسل إليهم رسولاً ولم يهملهم ولعزته عاقبهم، وقوله: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ومن رحمته أرسل إليهم رسولاً يدعوهم إلى ما ينجيهم من عذابه، وجعل معه الآية الدالة على صدقه حتى كذبوه عناداً.

﴿١٤١﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ قد مر وجه كونهم كذبوا المرسلين جملة في قوم نوح.

﴿١٤٢-١٤٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قد مر تفسيرها في نظائرها الماضية.

وقوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه تنبيه لهم أنهم عباد مملوكون لله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فعليهم أن لا يشركوا به غيره بل يخلصوا له العبادة لأنها تعبير عن العبودية للمعبود.

﴿١٤٦-١٤٩﴾ ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ يذكر رسولهم قومه بنعمة الله عليهم ويحذرهم من زوالها بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ أي فيما أنتم فيه من النعمة التي فصلها بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ إلى آخر الآيات.

والسؤال في قوله: ﴿أَتُتْرَكُون﴾ في معنى النفي، أي الإنكار الإبطالي فالمعنى إن هذه النعم العظيمة لا تتركون فيها إلا إذا آمنتم والاستثناء مأخوذ من السياق لأنه يدعوهم إلى الإيمان لينجوا، فكأنه قال: ﴿أَتُتْرَكُون﴾ وأنتم على ما أنتم عليه من الشرك، وسائر كفران النعم التي أنتم عليها، وقوله: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ طلعها ثمرها الصّغار البيض هضيم حباته متزاحمة في أخبيتها متراصة، ولذلك تأتي الحبة الواحدة ضامرة فهو عبارة عن كثرته لصلاح النخل وريّه، قال في (الصحاح): ((ويقال للطلع: هضيم ما لم يخرج من كُفُرّاهُ لدخول بعضه في بعض)) انتهى.

فظهر من هذا: أن الطلع هنا هو الثمر الذي في خبائه، لا الخِباء بما فيه، وهذا هو الذي فسر به في مصابيح الشرفي في سورة (ق) وقال الراغب: ((قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ أي داخل بعضه في بعض كأنما شُدخ)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ معناه: قد ضُمّ بعضها إلى بعض)) انتهى المراد.

وفي (لسان العرب) قال: ((وطلعه ـ أي النخل ـ كُفُرَّاه قبل أن ينشق عن الغريض، والغريض يسمى طلعاً أيضاً وحكى ابن الأعرابي عن المفضل الضبي، أنه قال: ثلاثة تؤكل فلا تسمِن، وذلك: الجُمّار، والطلع، والكمأة، أراد بالطلع الغريض الذي ينشق عنه الكافور، وهو أول ما يُرى من عذق النخلة)) انتهى.

فحقق بهذا أن الثمر طلع والخباء بما فيه طلع، ولعل هذا مراد (صاحب القاموس) حيث قال في الطلع: ((ومن النخل شيء يخرج كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود والطَّرَف محدّد أو ما يبدو من ثمرته في أول ظهورها، وقِشره يسمى الكُفُرَّى، وما في داخله الإغْرِيض لبياضه)) انتهى.

في (أساس البلاغة) ما معناه: تشبيه الأسنان بالإغريض لبياضه، وصِغَر حبّاته، ولفظه: ((وتقول: كأن ثغرها إغريض ـ ثم قال ـ: الإغريض ما ينشق عنه الطلع من الحبيبات البيض)) انتهى.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ الراجح: أن نحتهم هذا هو لاتخاذ بيوت في الجبال، ولعل الباعث عليها خوف الريح التي جاءت على عاد، فنحتوا الجبال حتى صار لهم فيها بيوت، والبيوت جمع بيت وهو الغرفة الواحدة التي يبيت فيها الإنسان، يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف:٧٤] ولعلهم مع هذا بنوا بيوتاً بالأحجار التي تؤخذ من الجبال، وذلك غير المعنى هنا.

وقوله تعالى: ﴿فَٰرِهِينَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((أي أشرين بطرين غير حامدين ولا شاكرين، هذا روي عن المرتضى × ـ ثم قال الشرفي ـ: وقال محمد بن القاسم × : الفرهون: كلمة عربية تقوم مقام فرحين، والفَرَ[هُ] الفرح المفرط في فرحه..)) الخ.

ويؤكد هذا ما في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) على ما أظنه الصواب في النسخة: ((معناه: بنحتها)) انتهى. ويؤكد ما روي عن المرتضى × قول (صاحب الصحاح): ((وفَره ـ بالكسر ـ أشِر وبطِر، وقوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فرِهِينَ﴾ فمن قرأه كذلك فهو من هذا، ومن قرأه فارهين فهو من فرُه بالضم)) انتهى.

وفي (مفردات الراغب): ((الفَره: الأشر)). انتهى المراد. وقال: ((الأشر شدة البطر ـ ثم قال ـ: فالأشر أبلغ من البطر والبطر أبلغ من الفرح، ثم قال: والأشر لا يكون إلا فرَحا بحسب قضية الهوى)) انتهى.

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا

وهذا يفيد أن الخلاف لفظي بين (تفسير المرتضى) و (تفسير محمد بن القاسم عليه السلام) وفي (الصحاح): ((البطر: الأشر، وهو شِدة الفرَح)). انتهى المراد.

فظهر: أن الذم لقوم صالح لأجل شدة فرحهم بدنياهم وهي لا يوثق بها، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦] وسياق كلام رسولهم يفيد: أنهم لن يتركوا في ذلك ولا في جنات وعيون ونخل طلعها هضيم لأنهم قد عَرَّضوا نعمتهم للزوال.

﴿١٥٠-١٥٢﴾ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ * ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ ذكرهم رسولهم بنعمة الله تعالى ليشكروها وحذّرهم زوالها وأكد ذلك بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وجعله تقدمة لقوله: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أي كبراءهم الذين يصدونهم عن طاعة رسولهم، كقوله تعالى في (عاد): ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود:٥٩] وهكذا سائر أهل الباطل يتبعون كبراءهم المترفين، وحذرهم رسولهم من اتباع المسرفين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ففي اتباعهم تمكين فسادهم في الأرض، وهو ضرر عظيم، لأنه سبب هلاكهم وسوء عاقبتهم في الآخرة، وقوله: ولا يصلحون يبين أنه لا فائدة في اتباعهم تدعوا العاقل إلى اتباعهم بل فسادهم خالص عام.

﴿١٥٣-١٥٤﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ * مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ الذين قد تكرر عليهم

شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ

السحر بأن سُحروا مراراً حتى غلب السحر على عقولهم، واستمر زوالها هذا الظاهر الذي جرت به عادة بعض الأمم واشتقاقه من المصدر أظهر من اشتقاقه من اسم جامد الذي هو السَّحَر بمعنى الرئتين مع أن الاشتقاق منه سماعي يحتاج إلى إثباته عن العرب، مع أن اشتقاقه من السَّحر يقلب المعنى ويصير مثل رآه أصاب رئته فيكون المعنى ممن أصيبت رئاتهم، والسياق في الآية يبطل هذا والأول أرجح مثل: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ [الفرقان:٨] ﴿إِنِّي لأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:١٠١] ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٣٩] ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٤] وكذلك جعلوا المعجزات سحراً ولا يمكن فيها التأويل بالسّحر بمعنى الرئتين، وقالوا: ﴿مَجْنُونٍ﴾ والمجنون والمسحور متقاربان فلا موجب للعدول عن هذا المعنى.

وقال الشرفي: ((أجابوه بأن قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ الذين سُحروا كثيراً حتى غلب عليهم السحر، فالمسحَّرين مبالغة في المسحورين)). انتهى. على ما هو الصواب، وفي النسخة غلط واضح.

وقولهم: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ احتجاج منهم على نفي صدق رسولهم كما جرت به عادتهم في تكذيب الرسل، واتصل بقولهم: ﴿من المسحرين﴾ لأنهم جعلوه مبررا لدعواهم أنه من المسحرين، وبهذا الاعتبار صح ترك العطف، وفي بعض الآيات: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ﴾ لاعتبار غير ما ذكرت وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ﴾ الراجح: أنه من كفرهم يعتبرون الآية التي جاء بها ليست آية، ولذلك أجيبوا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القمر:٢٧].

يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ

﴿١٥٥-١٥٦﴾ ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿هَٰذِهِ نَاقَةٌ﴾ آية لكم؛ لأنها ناقة معينة عظيمة ﴿لَّهَا شِرْبٌ﴾ تشرب الماء كله في يومها، فجُعل لها الماء في يوم ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ كما لها شرب يوم معلوم، قالوا: وكانت تكفيهم لبناً في اليوم الذي تشرب فيه الماء ـ والله أعلم ـ فالحجة في عظمها واقترانها بأن أخذ مائها أو منعها منه أمر محذّر ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس:١٣] وبأنهم إذا مسوها بسوء أخذهم عذاب يوم عظيم يعمهم بالهلاك.

﴿١٥٧-١٥٩﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقروا الناقة ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ إما أصبحوا في اليوم الذي بعد وقت عقرها كما روي أن صالحاً جعل لهم علامة العذاب تغير ألوانهم في الثلاثة الأيام التي بين عقرها ونزول العذاب، وعلى هذا فالندم لتيقنهم أنهم بعقر الناقة قد تورطوا في الهلكة، أو ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ يوم نزول العذاب حين رأوه قبل هلاكهم به وهو الرجفة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي أخذ العذاب لهم آية أو في الناقة وأخذ العذاب لهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وذلك تسلية لرسول الله محمد ص بأن الرسل قبله قد كُذِّبوا ففيهم أسوة له ص.

﴿١٦٠﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا رسولهم لوطاً ومن قبله ومن بعده من المرسلين لعله بدعوى أن الرسالة لا تكون للبشر.

﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ

﴿١٦١-١٦٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ **قد مضى تفسير هذه الآيات عند ذكر نظائرها من هذه السورة.**

﴿١٦٥-١٦٦﴾ ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ ﴿أَتَأْتُونَ﴾ **إنكار عليهم وتوبيخ لهم بإتيانهم للذكور أي نكاحهم وقوله:** ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ **وصف للذكران يدل على أنهم كانوا يشيعون هذه الفاحشة فيمن قدروا عليه من ضيف أو غريب أو عابر سبيل أو غيرهم من أي قوم كانوا، ولذلك نهوا نبيهم عن العالمين أي عن إضافة أي فرد من أفراد العالمين أو إدخالهم بيته فهم لا يحترمون أحداً ولا يستحيون من أحد، ولذلك راودوا نبيهم عن ضيفه في آخر أيام حياتهم وهم لا يعلمون أنهم الملائكة الذين نزلوا عند نبيهم لتعذيبهم.**

وقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾ **أي تتركون نكاح نسائكم التي خلقها الله لكم، وأعدّها لكم للنكاح فتتركون الحلال النزيه إلى الحرام القذر، وفي (تفسير الإمام زيد ×): ((معناه: ما أصلح لكم يريد به الفرج)) انتهى.**

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ **معتدون متجاوزون للحق إلى الباطل لستم أهلاً للنزاهة ولا للعفاف.**

إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾

وهذه الرذيلة معارضة لسنة الله في طريقة التناسل الإنساني فلو تركوا وشأنهم حتى طبقت الأرض فاحشتهم وعمت الناس طريقتهم لانقطع الجنس الإنساني، وفي بلاد الكفر حيث تباح الفواحش باسم الحرية انتشر مرض يقال له: (الإيدز) بسبب هذه الفاحشة.

﴿١٦٧﴾ ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن الكلام الذي تقوله لنا وتتركنا وشأننا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من قريتنا المطرودين عن بلدهم، وظاهر هذا أنه كان منهم نسباً لا مجرد صهارة.

﴿١٦٨﴾ ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ قال الراغب: ((القِلى شِدّة البغض)) انتهى المراد، والسياق يفيد هذا.

﴿١٦٩﴾ ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من شر ما يعملون فعملهم سبب للعذاب فكأنه هو الهلاك، والدليل على أن المراد النجاة من عذاب ما يعملون قوله: ﴿وَأَهْلِى﴾ فعمّ بناته، فظهر أنه أراد نجيي ونجِّ أهلي من شر سببه ما يعملون.

﴿١٧٠-١٧١﴾ ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ العجوز امرأته وهي وإن كانت مسلمة فقد كانت خائنة للرسول والراجح أن خيانتها له إبلاغ قومها أو بعضهم بما هو سر كإخبارهم بوجود ضيفه وبذلك تجر عليه المصيبة فاستحقت العذاب معهم؛ لأنها خائنة لنبي، ولكونها شريرة، ناسب السياق ذكر أنها عجوز وذلك لأن الحجة عليها أعظم من حيث أن الذنب

ممن قد كبر وصار مظنة اقتراب أجله هو أحوج إلى تقصير الأمل، والاستعداد للموت ومن حيث أنها امرأة لا يليق بها إلا معاونة النساء في الحق فعاونت الرجال على الباطل لأن حاجتها الجنسية قد ضعفت فلم تبال بغيرها من النساء، وكل ذلك لأنها شريرة بعيدة من الصواب.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ إن كان معنى الغابرين الماضين فمعناه أنها في الهالكين المعذّبين قد حكم بذلك عليها ربها، وإن كان معنى الغابرين الباقين فالمعنى أنها لا تنجو مع أنها بين الناجين فتؤخذ وحدها دونهم وهذا لشرارتها مع أنها كانت بين الصالحين فلم يكن يليق بها إلا الاقتداء بهم، والسير على طريقتهم فحين لم تكن إلا شريرة هلكت مع قومها، ولكن المعنى الثاني أي في الباقين لا يستقيم في قوله تعالى: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر:٦٠] فترجح المعنى الأول، ويناسبه الآيات فيها، ومنها قوله تعالى: ﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود:٨١] لأن أكثر الآيات بـ(من) وبعضها بـ(في) قال في (الصحاح): ((والغابر: الباقي، والغابر: الماضي، وهو من الأضداد)) انتهى.

نعم يحتمل أن يكون ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ بمعنى: الذين لا يخرجون من القرية بل يبقون فيها ليهلكوا، وهذا الاحتمال عندي غير قوي، والله أعلم لأن الباقين في القرية هم الأكثر لا يصح أن يعتبروا بقية كما يقال بقية للشيء الباقي مما تلف مثلاً لأن البقية تكون القليل، ولأن الله تعالى قال في آية: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر:٦٠] وهذا التأكيد باعتبار أنها مهلكة مع القوم وهي امرأة نبي فلو أريد الباقين بمعنى الذين لا يَسرون مع (آل لوط) لما كان إلا كناية عن هلاكها فتفسير الغابرين بالماضين أقرب في الكناية عن هلاكها أو هو صريح فيه ـ والله أعلم.

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ

﴿١٧٣-١٧٢﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنجاء لوط وأهله إلا العجوز ﴿دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ الذين هم قوم لوط وامرأته عند تدمير قريتهم بجعل عاليها سافلها كما في (سورة هود) قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [آية:٨٢] وفي (سورة الحِجر) قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [آية:٧٤] فيظهر أنها ريح شديدة أو رجفة دمرت قريتهم واقترن بها مطر الحجارة، فكان هلاكهم بدمار قريتهم عليهم وبالحجارة.

فالحاصب: رميهم بالأحجار والريح أو الرجفة دمرت قريتهم ولا يصح أن نقول إن الله أهلكهم بدون رميهم بالحجارة لأن الله تعالى قال في (سورة الأعراف): ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [آية٨٣-٨٤] فدل على أنه أهلكهم بهذا المطر لأنه رتب عليه قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٤] أي الهلاك بهذا المطر وكذلك في (سورة هود): ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [آية:٨٣] أي أن تصيبهم الحجارة كما أصابت قوم لوط، وكذا في (سورة الحجر): ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [آية:٧٣-٧٤] فدل على أنه أهلكهم بالحجارة وبجعل عاليها سافلها.

وفي (سورة الفرقان) ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ [آية:٤٠] فدل على أنه أهلك القرية بالمطر المذكور.

وكذلك في (سورة النمل): ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [آية:٥٧-٥٨] فدل على أنه تعالى أهلكهم بالمطر المذكور الذي هو الحجارة، وكذلك في (سورة العنكبوت): ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [آية:٣٣-٣٤] وهذا الرجز هو المطر المذكور أو المطر والريح أو المطر والرجفة، والقرية باق أثرها، وبعضها لقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥] ولذلك قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت:٤٠] وهم قوم لوط كما في (سورة اقتربت) وفي (سورة الذاريات): ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [آية:٣٢-٣٤] فدل ذلك على أن الله أهلكهم بالحجارة المذكورة، واحتج بها الإمام الهادي × في (الأحكام) على رجم الزاني.

وقد دلت هذه الآيات على إهلاكهم بالحجارة فأما الريح فلم تذكر في شيء منها إلا أن يكون الحاصب يدل عليها فقد ذكر في القرآن مرتين ولكنه يقال: حصبه، بمعنى رماه بالحصباء وليس من مفهومه إرسال الريح في الهواء، قال الشرفي في تفسير (سورة اقتربت): ((قال الهادي × : الحاصب هو الرمي الذي وقع بهم والرجم الذي نزل من السماء عليهم)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) لـ(سورة اقتربت) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [آية:٣٤]: ((معناه: حجارة)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((وحصبت الرجل: أحصبه ـ بالكسر ـ أي رميته بالحصباء ـ ثم قال ـ : والحاصب: الريح الشديدة التي تثير الحصباء)) انتهى. ولم يذكر الريح إلا لإثارتها الحصباء لا لأنها لازمة لاسم (الحاصب).

والحاصل: أن الحاصب: هو المطر الذي به أصابتهم الحصباء أي الحجارة الصغار، وأن الصيحة التي أخذتهم يحتمل أنها الريح مع الحجارة، ويحتمل: أنها رجفة، ويحتمل: أنها صيحة حقيقية أي صوت شديد رجفت منه أرضهم حتى صار أعلا بيوتهم في أرضهم وهذا هو تدميرها المشارك للحجارة في إهلاكهم هذا فأما تفسير هلاكهم بقلب أرضهم وجعل عاليها الذي هو الدور والأشجار سافلها أي تحت الأرض، فهذا لا يساعد عليه القرآن، وإن كان قد روي والذي يدل عليه القرآن بقاء خراب القرية يشاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً﴾ [العنكبوت:٣٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ..﴾ الآية [الفرقان:٤٠] وقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الذاريات:٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ..﴾ [الأعراف:٨٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٣] وغير ذلك.

فدل ذلك: على بقائها ظهر الأرض، وأن الله تعالى جعلها باقية عبرة لمن يمر عليها ولم يصيرها تحت الأرض، أو في جوف الأرض، واتباع القرآن هو الصواب، وتأويله لأجل الروايات غلط، لأن الروايات تستلزم أن الله تعالى لم يعذب قوم لوط بالحجارة التي أرسلها عليهم ولم يهلكهم بها فكيف يعتمد ما يستلزم مخالفة القرآن ويفسر به القرآن.

وقوله تعالى: ﴿فَسَآءَ﴾ ما أسوأ مطر المنذرين الذين كذبوا النذير ولم يقبلوا إنذاره فهم عبرة لغيرهم وتفسير ساء بصيغة التعجب ذكره الزمخشري في تفسيره لقول الله تعالى في (سورة المائدة): ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [آية:٦٦].

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا

وموقعها في القرآن يناسبه، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٦] وقوله: ﴿سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف:١٧٧] وفي الآية إشارة إلى أن المطر في العادة يكون نعمة ورحمة، لكن هذا المطر نقمة وغضب وعذاب.

﴿١٧٤-١٧٥﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي﴾ إنزال هذا العذاب على قوم لوط ﴿لَآيَةً﴾ تدل على صدق الرسول وعلى قدرة الله تعالى، وعلمه وأنه يمهل ولا يهمل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال، وهذا العذاب من دلائل عزته، وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فقد أرسل الرسل وقدم الإنذار ودعا إلى التوبة وفتح باب المغفرة لمن تاب وغير ذلك من رحمته.

﴿١٧٦-١٧٩﴾ ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ نسبوا إليها، ولا ندري لماذا، فأصل الأيكة: الشجر الملتف، ولعلهم جعلوا صنمهم في ظلها، قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ قوم شعيب أرسل إليهم وإلى مدين، قال الحسين بن القاسم × : والأيكة: اسم لمعبودهم وصنمهم ويمكن أن يكون اسما لبلدهم وقريتهم ودارهم ومحلهم ومسكنهم)) انتهى.

قلت: لا يبعد ما ذكره الحسين بن القاسم فقد يغلب اسم الشجرة على المحل الذي كانت فيه أو هي فيه، قال في (الصحاح): ((الأيك: الشجر الكثير الملتف الواحدة أيكة، ومن قرأ ﴿أَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ فهي الغيضة ومن قرأ ﴿أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾ فهي اسم القرية)) انتهى المراد.

عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ

ولا يبعد أن أصله الأيكة فتصرف فيه بنقل حركة (الهمزة) على (اللام) فحَذْف الهمزة فاستغنى عن ألف الوصل، وصار ليْكة لكثرة استعماله، وتكذيبهم المرسلين مثل تكذيب من سبقهم.

وقوله: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يفيد: أنه لهم لو أطاعوه لنفعهم ودلّهم على طريق نجاتهم من العذاب العاجل والآجل، وهكذا سائر الرسل، وقد مر تفسير نظائر هذه الآيات وشعيب وإن لم يكن من أصحاب لئيكة فلا بد أنها كانت لهم به معرفة كاملة تقوم مقام كون رسولهم منهم، بسبب أنهم كانوا أخواله أو أصهاره أو سكن فيهم مدة طويلة ـ والله أعلم.

﴿١٨٠﴾ ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في ﴿مِنۡ﴾ تأكيد للنفي أي ما أسألكم أي أجر لا كثيراً ولا قليلاً ولا مالاً ولا خدمة، وقوله: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأنه الذي أرسل عبده شعيباً إلى بعض عباده.

﴿١٨١﴾ ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ قال لهم مثل قوله لمدين، ولعلهم كانوا على طريقة مدين مطففين، مخسرين.. الخ، والمخسر يعم منقص الكيل والوزن عن القدر المستحق.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ استعملوا الميزان الذي لا يجور بل يزن بالعدل والحق، وقد مر تفسير (القسطاس) فقد مر في (سورة الإسراء) وأما الراغب فقال: ((القسطاس: الميزان، ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان)) انتهى. وإذا كان القسطاس هو الميزان فالمعنى زنوا بالميزان المستقيم أي الذي يعدل ولا يجور، وقد كفى قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمِ﴾ عن تعيين نوع الميزان.

فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ

قال الشرفي في (المصابيح) في تفسير (القسطاس): ((أي العدل الثابت من الأشياء وهو عربي، وأصله من القسط، ومنه قوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [آل عمران:١٨] أي بالعدل، ميزان كان بالشام من أعدل الموازين، فأراد الله من المخلوقين أن يقتدوا بعدل ذلك الميزان في جميع مابه يتعاملون، قال: ومثل هذا ذكره المرتضى × في (الإيضاح))) انتهى. ولعل الأصل وميزان بالواو العاطفة فينظر إن شاء الله في نسخة من (المصابيح) أو في (الإيضاح).

﴿١٨٣﴾ ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي لا تنقصوا عليهم قال الشرفي: ((والبخس: هو النقص، والنهي عام لكل نقص في ملك أو حق)) انتهى.

قلت: ولكل نقص في عين أو وصف وقد مر فيه بسط، وقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أي لا تشيعوا الفساد وقد قدمت أن كلمة في الأرض تفيد: إشاعة الأمر بحيث ينتشر في البلدان، وقوله: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حال مؤكدة لقوله: ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ وجاز لاختلاف اللفظ وليس ذلك شرطاً في قبح الفساد، ولكنه قال ذلك لأنه أقبح وأضر ولعلهم كانوا كذلك فنهاهم عما هو عادتهم.

﴿١٨٤﴾ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ معناه: والخَلق)) انتهى. ولعلهم كانوا يقلدون في باطلهم آباءهم الأولين، فقال لهم ذلك أي اتقوا الله الذي خلقكم وخلق الأولين، فهو ربكم عليكم أن تعبدوه وحده، فإن أشركتم كنتم أنتم مثل آبائكم في ضلال مبين، وقد أفاد الحسين بن القاسم إ أنهم كانوا مشركين.

ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم

﴿١٨٥-١٨٧﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ * وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ المسحورين الذين كرر عليهم السحر، وما أنت إلا بشر أرادوا أن البشر لا يكون رسولا لله، وهذا منهم احتجاج لقولهم : ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ورتبوا على تكذيبهم لرسولهم طلبهم للعذاب إن كان من الصادقين، مبالغة في الجدال كأنهم يقولون لولا اعتقادنا أنك كاذب ما قلنا ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أي أسقط علينا قطعا من السماء نعذب بها إن كنت من الصادقين في دعواك أنك رسول.

﴿١٨٨﴾ ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قال رسولهم ربي أعلم بما تعملون من الشرك أو غيره ومن التكذيب والعناد وطلب العقوبة تمرداً فهو إذا شاء عذبكم.

﴿١٨٩﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعد أن خوفهم من الله ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أخذتهم الرجفة فأظلهم غبارها، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((نشأت لهم سحابة فاستظلوا تحتها، فأخذتهم الرجفة وأخذهم عذاب يوم الظلة)) انتهى.

ولم يذكر أنها أمطرت عليهم ناراً، ورواية أنها أمطرت عليهم ناراً بعيدة لأن القرآن لم يذكر ذلك، وقد سَمّى الله عذاب الأمم المذكورة في القرآن لتخويف المكذبين وإنذارهم أن يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم.

مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن

وقد جمع لذلك في آية واحدة أنواعاً من العذاب فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا..﴾ [العنكبوت: من الآية٤٠] ولم يذكر إمطارَ نار في شيء من القرآن والتخويف به أعظم من الأنواع التي قد ذكرها فلو كانت الرواية صحيحة لكانت مظنة أن يذكرها الله تعالى كما ذكر غيرها بل هي أولى بالذكر فظهر أن رواية أنها أمطرت عليهم ناراً غير صحيحة ـ والله أعلم.

﴿١٩٠-١٩١﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ التعذيب يوم الظلة ﴿لَآيَةً﴾ تدل على الله، وأنه لم يهمل عباده بل أرسل إليهم الرسل، وجعل لهم دلائل صدقهم وعذب من ذكر أنه عذبهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال، ولذلك يعذب ولا يهمل، وهو ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فمن رحمته أرسل الرسل، وبين الهدى لمن يهتدي.

﴿١٩٢-١٩٥﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي هذا القرآن ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي هو مالكهم وملكهم وهم كلهم عباده فلم يكن ليهمل عباده ويترك هدايتهم إلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم الدائمة لأنه حكيم عليم عزيز رحيم ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ﴾ وهو جبريل × ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ الذي بلغه بكامله لم ينقص ولم يزد ولم يغير شيئاً منه على قلبك يا محمد أنزل القرآن على قلبك

يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ

فوصل إلى قلبك ﴿لِتَكُونَ مِنَ﴾ الرسل ﴿ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ الذين أرسلهم الله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ كما هي سنة الله في إرسال كل رسول بلسان قومه ليبين لهم، وفي هذا حجة على من يزعم أن القرآن رموز خفية لا يعلمها إلا الإمام.

﴿١٩٦-١٩٧﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ * أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي هذا القرآن ﴿لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ﴿لَفِي﴾ كتب ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إما بمعنى أنه مخبر به فيها فهو مذكور فيها جملة، كقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] وإما بمعنى أنه مصدق لكتب الأولين مطابق لها في أصول الأديان التي هي متفقة فيها كالأمر بتوحيد الله تعالى والتحذير من الشرك والتبشير والإنذار بالجنة والنار وغير ذلك من الأصول، ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ﴾ أي لقومك يا محمد ﴿ءَايَةً﴾ دليل على أنه في زبر الأولين، وأنه من الله أن يعلمه من الله ﴿عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وتقريره: أن جماعة من علماء بني إسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع في التوراة والإنجيل ذكر فيها الرسول ص بصفته ونعته، وقد كان مشركوا قريش يذهبون إلى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر)) انتهى المراد.

والأولى ما أفاده كلام محمد بن القاسم إ وهو: أن العرب كانوا يسمعون ذكره من علماء بني إسرائيل قبل مبعث محمد رسول الله ص حكاه الشرفي في (المصابيح) وهو تقرير للاحتمال الأول، فأما الثاني وهو وجود أصول الديانات، فقد دل عليه القرآن في مواضع وأنه مصدق لما بين يديه من الكتاب ولو كان معارضاً لها لما صح أنه مصدق لها.

ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾
فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿١٩٨-٢٠٠﴾ ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ **الأعجم: من لا يفصح، وكانت العرب تسمي المخالفين لها في اللغة أعاجم لأنهم لا يفهمون كلامهم، وفي (معلقة عنترة):**

تأوي له قلص النَّعام كما أوت حزق يمانية لا عجم طِمطم

قال شارحها: ((وأراد بالأعجم: الحبشي)).

وقوله تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ﴾ أي ﴿بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ﴾ قرأ هذا القرآن ﴿عَلَيۡهِم﴾ أي على الكفار من العرب في (مكة) وما حولها ما كانوا به أي بالقرآن مؤمنين مع أن المرسل به في هذا التقدير بعض الأعجمين لأن الكفار المذكورين معاندون لا يريدون الحق فهم معرضون لا ينفع فيهم شيء مع بقائهم على اختيارهم ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي كما هو في قلوب هؤلاء المجرمين مكروه مرفوض لا تقبله ولا يؤمنون ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ أي أدخلناه ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ كلهم من هؤلاء الذين حول الرسول ص ومن غيرهم لأن إجرامهم يسبب لضيق قلوبهم عنه، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ﴾ [الحجر:١٢-١٣].

﴿٢٠١-٢٠٣﴾ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ * فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ﴾ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ **أي المجرمون**

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فعند رؤيتهم للعذاب يؤمنون فلا ينفعهم الإيمان ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ إما عاجلاً وإما آجلاً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قبل أن يبغتهم ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ عند مجيئه ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ لنكون من المؤمنين المحسنين وهيهات.

﴿٢٠٤﴾ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ السؤال للإنكار عليهم والتوبيخ لهم على استعجالهم بعذاب الله لأنه عذاب أليم شديد كما عذب الأولون إن كان المراد العذاب العاجل، وإن كان المراد الآجل فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، فكيف يستعجله عاقل سواء جدَّ في ذلك أم أراد به الجدال لأنه خطر يفوق كل خطر.

﴿٢٠٥-٢٠٧﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ سؤال تعجيب من حال الكفار إن متعهم الله سنين ﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ وقد كانوا طلبوا الإنظار فما أغنى عنهم الإنظار وبدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون إنها حال سيئة ويجتمع شدة العذاب والخزي والهوان والندم بلا نهاية لشيء من ذلك فما أسوأ حالهم يكذبون وهذا مصيرهم، هذا بالنسبة إلى السؤال فأما الفاء فهي للتفريع على قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ فكأنه أضيف تقدير التمتيع سنين أي الإنظار سنين في نعمة ثم مجيء العذاب الذي كانوا يوعدونه إلى تقدير سؤالهم الإنظار عند مجيء العذاب.

فكأنه قيل: ولو أنظرناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم الإنظار، وفائدة هذا التقدير وإضافته إلى التقدير الأول الموعظة البليغة والإنذار بسوء عاقبتهم وإن متعهم الله سنين والتمتيع هو الإمهال والإنعام مدة قصيرة واعتبرت السنين المحدودة مدة قصيرة لأنها قليل بالنسبة إلى الخلود الذي تقل في جنبه هذه الحياة الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ أي العذاب، فإن عجل لهم العذاب بعد أن جاءهم ثم كشف صدق على العذاب العاجل ما كانوا يوعدون وكذا إن لم يجيء ويكشف بل جاءهم بعد التمتيع سنين لأن هذه الآيات الثلاث لا تختص بحال الإنظار بعد مجيء العذاب بل هي صالحة لكل حالة.

فإن *قيل*: فكيف صح تفريعها على طلبهم الإنظار؟

قلنا: صح لأن الإنظار إن كان سنين فليس بأكثر من تمتيعهم سنين من دون أن يأتيهم العذاب قبلها إنما جاءهم الإنذار المقرون بالدليل على صدقه، فكأنه قيل: ليس الإنظار بأكثر من تمتيعهم سنين بعد الإنذار البالغ المقرون بالحجة أفرأيت إن متعناهم إلى آخر الآيات، ومن هنا كانت هذه الآيات موعظة لهم ولكل عاقل سواء كان كافراً أم عاصياً غافلاً قد غره الإمهال.

وحاصل معنى ﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾ ما دفع سواء كان من الغِنى أم من الغَناء بفتح الغين، قال تعالى حاكياً: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر:٤٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا..﴾ [الطور:٤٦] ونظير استعمال (أغنى) في هذا المعنى استعمال (كفى) فيه قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر:٩٥] وقال تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب:٢٥] وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٣٧].

مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾

فقوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ المراد به: ﴿مَآ﴾ دفع العذاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ سواء كان بواسطة جعله بمعنى أجزى أم من دون ذلك، قال في (الصحاح): ((وأغنيت عنك مغنى فلان، إذا أجزأت عنك مُجْزَأه ويقال: ما يُغني عنك هذا أي ما يجزي عنك وما ينفعك)) انتهى.

وتفسير المتعدي إلى مفعولين أحدهما بواسطة (عن) بالدفع أوضح من تفسير بالنفع، وإن صح اعتبار النفع أنه بالدفع وهذا فيما تتبعه كلمة (عن) فقط مثل: ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه﴾ [الحاقة:٢٨]﴿يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان:٤١] ﴿إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس:٣٦].

﴿٢٠٨﴾ ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أي ﴿مُنذِرُونَ﴾ قامت بهم الحجة على أهل القرية.

﴿٢٠٩﴾ ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ لأهل القرية تكشف عنهم الغفلة، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١] ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ بتعذيبهم قبل أن نقيم عليهم الحجة.

﴿٢١٠-٢١٣﴾ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ﴾ أي بهذا القرآن ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس:٦٩] فهم لا يتهيأ لهم.

وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ

ولعل ذلك من جهة مخالفته للغتهم وعجزهم عن حفظه لو سمعوه، كما لو سمع العربي كلاماً أعجمياً لتعسر عليه حفظه كما هو ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي وما يستطيعون التنزل به ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ فهم يرمون بالشهب كلما حاولوا استراق السمع ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠] فأين الشياطين من الآيات القرآنية وأخذ السور.

﴿٢١٣﴾ ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿فَلَا تَدْعُ﴾ التفريع على ما مر في السورة من بيان أنه رسول من الله، وأن القرآن من الله، فقد تبين الحق فاثبت يا محمد على ما أنت عليه من عبادة الله وحده، واجتناب الشرك والوعيد هذا تعبد له ص وتحذير لغيره، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥].

﴿٢١٤﴾ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وهم بنو عبد المطلب وقد زاد بعض الرواة غيرهم ولعلها مساعدة لبني أمية كما هي عادة كثير من الناس من الميل مع الأمراء والملوك.

وقد روى الطبري في (تاريخه) الحديث في بني عبدالمطلب، ولم يغير لفظه ((أيكم يؤازرني على أن يكون وصيي ووارثي)) أو نحو هذا اللفظ لأن النسخة ليست عندي، وفي تفسيره تجد الرواية مغيرة بلفظ وكذا وكذا.

عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ

وفي (شواهد التنزيل) تأليف أبي القاسم الحسكاني الذي ترجم له الذهبي في (التذكرة) بسنده وخرجه المحقق عليه المحمودي من عدة كتب: ((أنه لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ص بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العسّ فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال: ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ثم دعا بقعب من لبن فجرَع منه جرعة ثم قال لهم: اشربوا بسم الله فشرب القوم حتى رووا، فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما أسحركم به الرجل، فسكت النبي ص يومئذ فلم يتكلم ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب، ثم أنذرهم رسول الله ص فقال: يا بني عبد المطلب إني أنا النذير إليكم من الله ـ عزَّ وجل ـ والبشير بما لم يجئ به أحد جئتكم بالدنيا والآخرة فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ومن يؤاخيني ويوازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني فسكت القوم وأعاد ذلك ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي: أنا فقال: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب أطع ابنك فقد أمرّه عليك)) انتهى.

﴿٢١٥﴾ ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ واخفض جناحك تواضع لهم تواضع رحمة وعطف ولعله مأخوذ من خفض الطائر جناحه لفراخه ـ والله أعلم.

﴿٢١٦﴾ ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ صارحهم ولا تداهن واستغن بالله عنهم إن خالفوك.

﴿٢١٧﴾ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ..﴾ إلى آخر الآية [التوبة:١٢٩] فإذا توكلت عليه استغنيت عن العاصي

ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ

لأنك تلجئ أمرك إلى الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ الذي لا يخذلك وأنت في طاعته بل هو بك أرحم منه بغيرك.

﴿٢١٨﴾ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ لعله القيام في الصلاة بقرينة ما بعده أو القيام لإنذار الناس وتبليغهم الرسالة أو هما معاً وهو تعالى يراه في كل حال لكن ذكر سبب الرحمة.

﴿٢١٩﴾ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أي يرى تقلبك ﴿فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ المصلين تسجد وتقوم وتقعد معهم قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني قائماً وجالساً وعلى سائر حالاتك في الصلاة والركوع والسجود)) انتهى المراد، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ...﴾ [البقرة:١٥٣] حيث ذكر هنا سبب الرحمة والنصر ـ والله أعلم.

﴿٢٢٠﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فهو يسمعك حين تدعوه وكل ما تقول، ويعلم ما أنت عليه في كل أحوالك من الصبر والإخلاص وغير ذلك.

﴿٢٢١-٢٢٣﴾ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ تأكيد لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ببيان أن محمداً ص ليس ممن تنزل عليه، وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ بيان للفرق بين محمد ص وبين من تنزل عليه الشياطين ببيان من تنزل عليه الشياطين وهو كل كذاب يقول الزور، والصد عن الحق إلى الباطل أثيم ذو إثم واضح الفجور وليس كذلك محمد ص فهو من تعرفونه بالصدق والأمانة والعفة والطهارة.

وقوله: ﴿يُلْقُون﴾ أي الشياطين حين يتنـزلون على الأفاك الأثيم ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ وهو ما سمعوه من الملائكة وهم لا يسمعون شيئاً ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠] وهذه الخطفة نادرة تكون فيها فتنة للكاهن الذي يلقونها إليه ولمن يسأله لأنها أساس الكهانة لأنهم يجعلونها سبباً لتصديق الكهان، وسؤالهم لأنه قد جرّب فيها صدقهم فيقبلون بها كذبهم في غيرها، وكذب شياطينهم ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((والضمير للشياطين)) انتهى.

قلت: هو صحيح لأنه راجع إلى قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ فهو الظاهر لئلاً تختلف الضمائر في سياق واحد بدون قرينة، أي وأكثر الشياطين كاذبون فيما يلقونه إلى ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ هذا والسياق يقتضي جعل قوله تعالى: ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خاص هنا بالكهان الذين يخبرون ببعض ما سيكون فيكون بعضه صدقاً والقرينة السياق والحال، أي الجملة الحالية وهو قوله: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ فلا ينبغي أن يذكر معهم من لا تلقي إليه الشياطين السمع لأن الحال قيد للعامل، وهو﴿تَنَزَّلُ﴾ وصف للصاحب وهو ضمير الشياطين.

فإن **قيل**: فلم جعلت الجملة حالية؟

قلنا: لأن الضمير معرفة والجمل بعد المعارف أحوال، وفي مثل هذا يكون الحال هو الظاهر إذا قلت: جاءني زيد يضحك، ولو كانت الجملة صفة للشياطين لكان المعنى واحداً، لأن المعنى يكون كما لو قيل تنزل الشياطين الذين يلقون السمع.

فإن قيل: فلم لم تجعل الجملة مستأنفة، كأنه قيل: ما تنزل به عليهم، فقال: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ وهو كذلك يقتضي تخصيص الكلام بالكهان كما لو كان حالاً أو صفة لأنها تصير الجملة ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ خاصة

بالكهان لأنهم الذين تنزل إليهم الشياطين بالخطفة التي يسمعونها من السماء، والظاهر: أنها حالية أو صفة على قول لأن الكلام يستقيم معها أحسن لأن السياق في الرد على الكفار بقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ أما جعلها مستأنفة فهو بعيد، لأنها لا تكون قيداً بل بياناً بدون تقييد وبذلك يكون البيان أخص من المبيّن ـ بفتح الياء ـ لأن ﴿كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ يكون عاماً للكهنة وغيرهم وقوله: ﴿يُلْقُونَ﴾ خاصاً بهم، فصح أن ﴿يُلْقُونَ﴾ قيد للجملة قبله، وبالله التوفيق.

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فحاشا رسول الله ص أن يكون كما قال الكافرون هو شاعر وهو إنما يدعو أهل مكة ومن حولها وسائر الناس إلى التوحيد لله تعالى، وعبادته وحده، واجتناب الشرك وإلى ترك تحريم ما أحل الله وأنعم به على عباده من الأنعام، وإلى ترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وإلى طاعة الله تعالى، والحذر من الشيطان وغير ذلك، فكيف يدعو الناس كلهم إلى ذلك ويريد أن يطيعوه ويتبعوه في دينه، ثم لا يجد حجة لصدقه إلا الشعر، وهو يعرف أن الشعر لا يتبعه أهل العقول الراجحة إنما يتبعه الغاوون الذين ينقادون للتغرير ولا يتثبتون في أمورهم هذا في شعر الجاهلية الذي هو المعروف في أول دعوة الرسول ص حين كان بمكة، وهو المتبادر في وصفهم له ص بأنه شاعر، وكان الشعر عمدته التخييل وتصوير الكذب في صورة الصدق والباطل في صورة الحق، وتحريك الفتن بواسطة التحريض، وتحريك الغضب بما لا يوجب أو بواسطة المدح الذي أكثره كذب ومغالاة والهجاء كذلك وإثارة غير الغضب كالحزن والسرور والخوف والأمن مع أن رسول الله ص يعرف الشعر في ذلك الزمان والشعراء ومن يتبعهم ومن لا يتبعهم فكيف يقوم يدعو الناس وليس له حجة إلا الشعر

يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

مع أنه ص هو المعروف برجاحة العقل والحكمة وسداد الرأي فهذا يبين أنهم إنما نسبوه إلى الشعر جدلا بدون توهم ولا غلط، وهذا أيضا يلفت أنظار الكفار إلى أن يراجعوا أفكارهم وينظروا ليعرفوا الفرق بينه ص وبين الشعراء فليسمعوا إلى قول الله تعالى في الفرق بينهما:

﴿٢٢٥-٢٢٦﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: في كل فَنّ يجورون)) انتهى المراد. قال الشرفي في (المصابيح): ((وهذا تمثيل لحالهم بحال من ظل عن الطريق وتاه في أودية مشعبة)) انتهى المراد.

فهم يطوّلون في أمر لا طائل فيه كوصف ناقة لهم أو فرس أو امرأة أو نحو ذلك أو مدحهم أنفسهم أو غيرهم فيسترسلون فيما لا يفيد، أنظر (معلقة امرئ القيس) وغيرها من (السبع المعلقات) وغيرها مما يتقنون فيه الكلام ويجيدون التشبيه، وفنون المجاز، ويعجب سامعه لبلاغة المنطق، وقدرتهم على الكلام مع كونه شعراً يصعب فيه حسن البلاغة مع تكلف الوزن الواحد ومع تكلف القافية الواحدة فهم في ذلك كمن يمشي في الأودية المتعددة لغير قصد صحيح أو غلطاً لضياع الطريق عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ إما بمعنى يقول القائل في مدح نفسه ما لم يفعل فلتكرر ذلك قال: ما لا يفعلون، ليفيد: استمرار العادة وليعم الماضي والمستقبل.

وإما بمعنى: أنهم يقولون سوف نفعل كذا ثم لا يفعلون فيكون المعنى هنا مثل قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ..﴾ الآيتين [الصف:٢-٣].

والأرجح: أنهم يجمعون الوصفين فيقولون ما لم يفعلوه وما لن يفعلوه، وهذا من الفرق بينهم وبين رسول الله ص فهو ص الصادق المصدوق المنزه عن اللغو وعن الكذب، الذي إذا قال صدق، وإذا وعد أوفى يعرفه قومه بهذا ولم يجربوا منه إلا الصدق والأمانة وكذلك هو ثابت على دعوته حكيم فيها لا يتلون ولا يغالي فالفرق بينه وبين الشعراء واضح لا يجهلونه وإن قالوا بل هو شاعر.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم رسول الله ص ومن آمن به وبما جاء به واتبعوه فليس من شأنهم اللغو ولا الكذب ولا خلف الوعد، ولا الغفلة والتلهي عن ذكر الله كثيراً، وهذا مما يفيد: الفرق بين رسول الله ص وبين الشعراء الذين رموه بأنه منهم فاتباعهم الغاوون، واتباعه أهل الصدق والحكمة والوفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] إلا أن رسول الله ص والمؤمنين معه قد ظلموا فناسب حالهم أن يقول: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ بدل (إذا ظلموا) وفيه وعيد لأعدائهم بمكة وحولها الذين كانوا يظلمونهم بالتكذيب والسب وبتعذيب بعضهم وبتشريد بعضهم أن المؤمنين سينتصرون منهم ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ وهؤلاء داخلون في عموم الذين ظلموا دخولاً أوّليّاً.

وهي عامة للظلمة من الكفار وممن ينتمي إلى الإسلام من حكّام الجور وغيرهم، فالكل سيعلمون مرجعهم ومصيرهم الذي هو عذاب النار نعوذ بالله من عذابه، ونسأله التوفيق وصلى الله على محمد وآله وسلم، والحمد لله رب العالمين.

تم بعون الله ما كتبت من تفسير (سورة الشعراء)

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

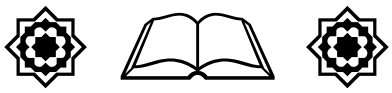

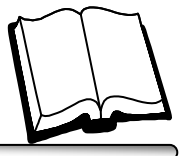

التيسير في التفسير

سورة النمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ

ابتداء تفسير لـ(سورة النمل)

قال الشرفي في (المصابيح): ((مكية)) انتهى

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قد مر تفسيرها في أول تفسير (سورة الفاتحة) من (الجزء الأول) ﴿طسٓ﴾ وكذلك سبق الكلام في الحروف المذكورة في أول بعض السور.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة، والراجح: أنها إلى الحروف، ومعنى أنها ﴿ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ أنها مادة بنائه سواء كان مقروءاً أم مكتوباً، وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بين واضح المعاني للعرب لا يحتاجون إلى ترجمة له، وليس مثل الألغاز تحتاج إلى من يحلها؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢] وغير ذلك، وقد بسطت في هذا في (تحرير الأفكار) في الرد على من زعم من المخالفين: أن السنة حاكمة على القرآن.

وتفسير ﴿مُّبِينٍ﴾ بالبين مأخوذ من لغة العرب. قال في (أساس البلاغة): ((وبَان لي الشيء، وتبيّن، وبيَّن، وأبان، واستبان)) انتهى. وقال في (الصحاح): ((وبان الشيء بياناً: اتضح فهو بيّن، وكذلك أبان الشيء فهو مبين)) انتهى المراد، ومثله في (لسان العرب) وفي (القاموس): ((وضحته وعرّفته فبان وبيّن وتبين وأبان واستبان كلها لازمة متعدية)) انتهى.

﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ

هذا ويصح أن يكون ﴿مُّبِينٍ﴾ من أبان الشيءَ بمعنى بيَّنه، ولكنه مجاز هنا؛ لأن فاعل البيان هو الله تعالى، قال تعالى:﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ..﴾ [آل عمران:١١٨] وفي عدول قوله تعالى:﴿وَكِتَابٍ﴾ عن التعريف بـ(أل) إلى تركها تعظيم للقرآن، ودلالة على أنه أنفع وأهدى ما يقرأ أو نحو هذا المعنى.

﴿٢﴾ ﴿هُدًى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿هُدًى﴾ بيان لطرق الحق والنجاة، قال تعالى:﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ..﴾ [المائدة:١٥-١٦] فأما تفسير ﴿هُدًى﴾ بأنه يهدي فهو عدول عن الحقيقة إلى المجاز، ولكنه صحيح بمعنى أنه مصدر في معنى (اسم الفاعل) وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كله بشرى لهم بمعنى أنهم يفرحون به، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤] أو بشراً بمعنى مبشراً لهم بالجنة وغيرها، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٩] وهذا من المجاز من حيث نسبت البشرى إلى جملته وهي في بعضه.

قال الراغب: ((ويقال للخبر السارِّ: البشارة، والبشرى)) انتهى.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ هذه صفة المؤمنين تحقق أن مَن ليس كذلك فلا يستحق اسم الإيمان كما تفيدها نظائرها من صفات المؤمنين؛ وهذه لأن المؤمن الصادق الإيمان يبعثه

يقينه بالآخرة وما فيها من الجنة للمتقين والنار للمجرمين، يبعثه يقينه بذلك على إقامة الصلاة سواء كانت الإقامة بمعنى إحيائها مثل: قامت السوق، أم بمعنى التسوية بجعلها كاملة، فكأنها بذلك سليمة من الاعوجاج، فمرجع المعنيين واحد وهو أنها كاملة في أوقاتها.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): في إقامتها وجهان: أحدهما: إقامة شرائطها واستيفاء فرائضها وسننها، والثاني: المحافظة على مواقيتها)) انتهى.

قلت: هما لا بد أن يجتمعا في المؤمن يحافظ على صلاته في أوقاتها ويتمها بشروطها وفروضها، ومرجع المحافظة على أوقاتها إلى إحيائها واجتناب إماتتها؛ فلذلك قلتُ: مرجع المعنيين واحد؛ لأن من ترك الصلاة في وقتها لا يوصف بإقامتها وإن قضاها؛ لأن القضاء غير الأداء فقد فوتها بتركها في وقتها وهو أبلغ ممن جعلها عوجاء في وقتها؛ ولذلك فتسويتها تستلزم فعلها في وقتها، هذا والراجح في إقامتها هو إحياؤها من قامت السوق؛ لأن الإقامة بالمعنى الثاني إنما هي حقيقة في الأعيان فيما كان أعوج فسوّي بعد العِوَج أو أقيم بعد السقوط أو القعود، مثل: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ [الكهف:٧٧].

فأما ما جعل قيماً من أول تحصيله فلا يقال أقامه، إنما يقال: سوّاه، فكذلك في المجاز، والصلاة لا توجد عوجاء وتصير بعد ذلك قابلة للتعديل والتسوية بل تذهب إلى غير رجعة، فظهر أن إقامة الصلاة هي إحياؤها بجعلها كاملة بشروطها وفروضها في أوقاتها كما أمر الله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ **الإيمان بالآخرة**

يستدعي الإعداد لها؛ فلذلك لا يزال المؤمن خائفاً وإن خادعته الغفلة والأمل في الحياة، فهو يدافع الغفلة ويدافع الأمل ويفيق تارة ويغفل أخرى لا يستمر على الغفلة؛ لأن الخوف في قلبه يطالبه بالإنتباه والإستعداد.

وعلى هذا: ينبغي لمن لا يحذر الآخرة أن يعلم أنه غير مؤمن بها وإن أقر بها ومن البعيد أن يدعي الإيمان بها، فما أسوأ حال كثير من الناس قد رفضوا التمسك بالدين وتفرغوا للدنيا لا غير وإن قاموا ببعض أعمال الدين فهو فرار من أن يقول الناس فيهم وجري على العادة؛ ولذا لا يقبلون من الدين شيئاً غير ما اعتادوه وإن دعاهم إليه القرآن، وعلى هذا فهم داخلون في هذه الآية الكريمة: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فهم يسيرون في تصرفهم سير الأعمى الذي لا يهتدي للطريق ولا يقوده قائد؛ لأن بصائرهم قد عميت نعوذ بالله، وهذا معنى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ وتزيين أعمالهم أنها قد صارت كما يحبون ويهوون في حال أن غرضهم هو ما تهواه أنفسهم، فالدنيا تشغلهم بأعمالها ومطالبها لا يتفرغون للدين أصلاً في حال أن ذلك هو الذي تهواه أنفسهم قد تزين لهم؛ لأنه لا مطلب لهم في غيره وكيف يطلبون الثواب وهم غير مؤمنين بالآخرة أو يعملون للنجاة من النار وهم غير مؤمنين بالآخرة بل هم عنها غافلون؛ لأن تصديقهم بها لم يبلغ درجة الإيمان فلا مطلب لهم إلا الدنيا، هذا فأما نسبة التزيين إلى الله فهو من المتشابه وهو حق وصدق ولكن ليس بمعنى تزيين الباطل أنه من الله تعالى من حيث هو باطل، بل المزين له بهذا المعنى هو الشيطان ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر:٣٩].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ سوءه شدَّته وخزيه، نعوذ بالله، وهذه الكناية عن العذاب السيء أجمل من قول عنترة:

لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ

فتركتــه جَــزَرَ الســباع ينُشــنَه يَقْضُــمن حُســنَ بَنَانــه والمعصــمِ

﴿وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ قد خسروا أنفسهم وأهليهم وفاتهم كل خير وصاروا في عذاب الله خالدين، فأيّ خسارة أشد منها، وقد جرت عادة القرآن بإتباع الوَعد بالوعيد أو الوعيد بالوعد، وهذا يرجح أن معنى قوله تعالى: ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه يبشرهم بالجنة والفوز في الآخرة.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ تُلقّى يلقى إليك القرآن فتأخذه مثل تلقّن ﴿لَّدُنْ حَكِيمٍ﴾ هو الله جل جلاله؛ ولحكمته فكلامه محكم؛ ولذلك وصف القرآن بقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس:٢] وهو كله مطابق للحكمة محكمه ومتشابهه، وكل ما فيه حق وصدق لا يأتيه الباطل من جهة سهو ولا غلط؛ لأن قائله علام الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء ولا ينسى، فوعده حق وصدق ووعيده حق وصدق، وما فيه من القصص حق وصدق، وكل ما فيه من خبر صدق، وكل ما فيه من إنشاء حق؛ لأنه كلام الحكيم العليم.

﴿٧﴾ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر هذه القصة التي وقعت لموسى في مرجعه من مدين أو مسيره من مدين، ومن العجيب سفره ذلك إن كان ابتدأه بقصد الرجوع إلى مصر بعد أن خرج منه خائفاً من القتل وفيه فرعون وقومه، إن ذلك دليل على رغبة غالبة خارقة للعادة أو دافع للخروج من مدين شديد اقترنت به الرغبة في العودة.

وقوله: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ﴾: قال (صاحب الصحاح): ((وآنسته: أبصرته)) انتهى، وكذلك قال في إيناس الصوت: ((سماعه)) انتهى، وفي (معلقة الحارث بن حلّزة):

آنسَت نبأة وأفزعها القنا ص عصراً وقد دنا الإمساءُ

قال في شرحها: ((النبأة الصوت الخفي يسمعه الإنسان أو يتخيَّله)) انتهى. وفي (أساس البلاغة): ((وآنست ناراً، وآنست فزعاً، وآنست منه رشداً)) انتهى. ومثله في (لسان العرب).

وهذا يترجح منه أن مفهوم آنست أبصرت أو أبصرت شيئاً خفيَّاً، ولم أجد في مفهوم آنس بمعنى أبصر اعتباراً أن يكون المبصَر مما يؤنَسُ به، فلعل الشرفي / ذكره على طريقة التفسير للآية؛ لأن موسى × أبصر ما يأنس به لظنه تحصيل نار لدفع البرد أو خبر عن الطريق ـ والله أعلم.

والشهاب قال فيه الراغب: ((الشعلة الساطعة من النار الموقدة ..)) إلخ.

وفي (الصحاح): ((والشهاب شعلة نار ساطعة)) انتهى.

وقوله: ﴿قَبَسٍ﴾ على قراءة تنوين (قبس) يكون قبس بدل في معنى البيان، أو عطف بيان على القول بصحته في النكرة.

قال الراغب: ((القبس: المتناوَل من الشعلة)) انتهى، وموسى × أراد أن يأخذ من النار ما يوصله إلى أهله ليوقَد عندهم ليدفئهم.

وقوله: ﴿تَصۡطَلُونَ﴾ أي تقربون عند النار للدفئ منها، وهذا يفيد أنهم كانوا في حاجة إلى النار من أجل البرد.

رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ

﴿٨-١٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ **فلما جاء النار التي آنسها** ﴿نُودِيَ﴾ **قيل له بصوت رفيع.**

وقوله تعالى: ﴿أَنۢ بُورِكَ﴾**إلى آخر كلامه لموسى تفسير للندى الذي نودي به، بورك أصله دعاء بالبركة وهي ثبات الخير في الشيء ونموه، قال الشاعر:**

بورك الميّت الغريب كما بو رك نضح الرمان والزيتون

وفي (الصحاح): ((والبركة: النماء والزيادة)) انتهى، وقال الراغب: ((والبَركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ **لعلهم الملائكة الذين أوقدوا النار** ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ **موسى وكان محتاجاً إلى النار لدفع البرد في ذلك المحل ليبقى مدة استماعه للوحي فهي تفيده دفئاً ونوراً، فلا موجب للتأويل بأنها ليست ناراً حقيقة وإنما هي نور؛ لأن الله تعالى قد أخبر أنها نار في قوله تعالى:** ﴿**إِذْ رَأَى نَارًا**﴾ [طه:١٠] **وهنا لا بد أن موسى قد خوطب بما ترجمته في العربية نار** ﴿**فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا**﴾ [طه:١٠] **أي ابقوا مكانكم منتظرين لي حتى أذهب إلى النار وأرجع .**

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ **أي المكلم لك الله، وأنا تسمى ضمير المتكلم، وأنا أرجّح أن لا ينسب إلى الله تعالى صيغة التفعّل فليس في القرآن كلمة التكلم ولا فيما صح من كلام رسول الله ص بل يقال المكلم بدون (تاء) والقائل وقال ونحو ذلك لا تقل تكلم، فهذا أحوط.**

لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ فِي تِسۡعِ

وقوله: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تعليم لموسى بعزة الله وحكمته؛ ولعله يشير إلى أن الوحي إلى موسى تابع لعزة الله وحكمته ليعرف أهمية ما يؤمر به ويستعد لطاعة ربه ــ والله أعلم ـ فأما الإبتداء قبل هذا بالتسبيح فلعله ليعلم أن كل ما يوحى إليه حق وصواب؛ لأنه منزه عن كل نقص وكل عيب أو لتنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد؛ لأنه قد شاع الشرك في الأرض والله أعلم.

أما قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو مناسب ليكون مقدمة لأمره وإرساله إلى فرعون وقومه؛ ولذلك قال له موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] كما مر.

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَ﴾ أمره أن يطرح عصاه ليجعلها معجزة تدل على أن الوحي من الله وأنه هو أرسله وهو أهون على موسى مما لو حولها حية وهي في يده كما أن تحويلها حية في ضوء النار أوضح للمعجزة وأهون على موسى مما لو كانت الظلمة باقية، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا﴾ أي العصى ﴿تَهۡتَزُّ﴾ قد أحياها الله وجعلها حية تسعى.

قال في (الصحاح): ((هززت الشيء فاهتزّ حركته فتحرك، يقال: هزّ الحادي الإبل هزّاً فاهتزّت هي إذا تحركت في سيرها لحُدائه)) انتهى.

وقول الشاعر:

وإني لتعلوني لذكراك هزّةٌ كما انتفض العصفور بلله القطر

يفيد: أن الإضطراب يسمى اهتزازاً، وقد قيد التحريك صاحب [لسان العرب] فقال: الهزّ تحريك الشيء كما تُهَزّ القناة فتضطرب انتهى المراد. ولعله إشارة إلى قول الشاعر:

كهَزّ الرديني تحت العجاج جرى في الأنابيب ثم اضطرب

فالراجح: أن الهزّ تحريك الشيء في مكانِه في جهتين أو في سيره، والإهتزاز بزيادة التاء منه ـ والله أعلم.

وقوله تعالى:﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((وهي جنس من الحيَّات)) انتهى. وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): والجان الحية الصغيرة سميت بذلك لاجتنانها واستتارها)) انتهى. وقال في (الصحاح): ((والجانّ أيضاً حية بيضاء)) انتهى.

وقوله تعالى:﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرًا﴾ أي هرب وفر؛ لأنه استوحش منها، وقوله تعالى: ﴿مُدۡبِرًا﴾ يفيد أنه هرب وخلّف العصى وراءَه ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ استمر في الفرار ولم يلتفت أو لم يرجع.

قال الشرفي في (المصابيح): ((يقال: عقّب المقاتل، إذا كرّ بعد الفرار، قال:

فما عقبوا إذْ قيل هل من معقِّبٍ ولا نزلوا يوم الكريهة منزلا))

انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) معناه: ((لم يرجع، وقال لم يلتفت)) انتهى. وفي (الصحاح): ((وتقول ولى فلان مدبراً ولم يعقب: أي لم يعطف ولم ينتظر)) انتهى.

ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَـٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ

والحاصل: أنه استمر في الفرار حتى نودي ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ليفيده أنه رسول ويذهب خوفه بقوله:﴿لَا تَخَفۡ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ أي عند أن أوحي إليهم لا يخاف من البقاء في ذلك الموضع؛ لأنه ليس موضع خوف بل موضع رحمة وكرامة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء بمعنى لكن من ظلم فخاف ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا﴾ بالإستغفار ﴿بَعۡدَ سُوٓءٖ﴾ أي بعد ظلمه أي معصيته، وهذا يشير إلى زلته بقتل القبطي واستغفاره منها، وفيه استدراك إلى أن الخوف من المعصية أمر آخر غير الخوف من الحضور لمكان الوحي.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال بعض علماء أهل البيت عليهم السلام: أما إخوة يوسف فمعصيتهم كبيرة وكانت وهم غير أنبياء وقد اختلف في نبوتهم من بعد التوبة، وأما معصية غيرهم من الأنبياء عليهم السلام فلا تكون إلا على جهة التأويل لا التعمد فلا يجوز عليهم صلوات الله عليهم عصيان الله سبحانه. قال الشرفي: وهذا قول كثير من أئمتنا عليهم السلام وقد مر للهادي × شيء من ذلك..)) إلخ.

وقوله تعالى:﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تأمين لموسى لئلا يخاف العقاب على زلته المذكورة، فهي له زيادة على تأمينه من الحية.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ ﴿فِي جَيۡبِكَ﴾ الجيب للقميص مدخل رأس لابسه وهو في لغتنا الفِقرة.

ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ

وفي (معلقة طَرَفة بن العبد):

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجسّ النـدامَى بضّـةُ المتجـرّدِ

قال شارحها: ((قِطاب الجيب: مخرج الرأس منه)) انتهى.

﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ تخرج يدك بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ ليس بياضها برصاً ولا غيره مما هو عيب في الجسد بل هو بياض جميل ﴿فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ﴾ هاتان الآيتان انقلاب العصى حية، وخروج اليد من الجيب بيضاء من غير سوء هما في جملة تسع آيات أرسلك بها إلى فرعون وقومه، ولعل التسع هاتان الآيتان وصرفهم عن قتله الذي عبّر عنه بقوله: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان:٢٠] والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وتلقف العصى لسحر السحرة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ فهم محتاجون إلى نذير ينذرهم، ويخلص بني إسرائيل من ظلمهم، والقصة هنا موجزة.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ نيّرة لأهل البصائر فهي تبصّرهم إن قبلوها ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي بالآيات التي جاءتهم، فزعموا أنها سحر ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ تيقّنت أنفسهم أنها آيات تدل على صدق موسى، ولكنهم كتموا هذا اليقين وأخفوه في أنفسهم ﴿ظُلْمًا﴾ حيفاً وجوراً ومخالفة للعدل والإنصاف ﴿وَعُلُوًّا﴾ ترفعاً واستكباراً عن الإيمان بها ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا رسول الله ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي فرعون وقومه الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فقد عرفت كيف كانت عاقبتهم أنا أغرقناهم أجمعين جزاء عاجلاً على إفسادهم فهلكوا وهم على ظلمهم، فهذا الجزاء عجّلهم إلى النار.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿عِلۡمًا﴾ أي خصصناهما بعلم فضلناهما به، فهو علم نافع؛ ولعل منه علم داود بصناعة الدروع وتقدير سرد حِلَقها وتعليمه الحكمة وفصل الخطاب وسليمان الحكم ومنطق الطير وغير الطير مع علمه بالحكمة الدينية كأبيه فهما مشتركان في علمه ﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي فضلناهما على كثير من عبادنا المؤمنين بالعلم وغيره، فقالا الحمد لله أي فشكرا النعمة التي فضلا بها؛ وخصّا المؤمنين لأن نعمة المؤمنين كلهم أفضل مما متع الله به الكافرين وسائر المجرمين مما هو فتنة لهم، وقد أنعم الله على سليمان وداود بما خصهما به وفضلهما به على كثير من عباده المؤمنين فهو نعمة كبرى.

﴿١٦﴾ ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ حدّث سليمان بنعمة الله، وأما ميراثه لأبيه فهو كميراث يحيى بن زكرياء لأبيه إلا أن ميراث داود مملكة مع زهده في الدنيا، لكنها قوة في الحق ونصر على الأعداء مع الحكم بها لهما، ففائدة ميراث سليمان لها مع زهده في الدنيا كفائدة ملك داود لها وكفائدة ما أوتي سليمان من الزيادة عليها مما يعمله الجن وما يغوصون له.. وغير ذلك.

فإن قيل: إن الملك الحقيقي هو نفس الولاية على الأمم كما مر في تفسير قول الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران:٢٦] فالجواب أن إيتاء الولاية المذكورة يكون بالحكم من الله بها كإيتاء طالوت الملك ويكون

لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا

بالحكم والتمكين في الأرض الذي به ينفذ الأمر والنهي ويقوم الجهاد في سبيل الله بالمال والجيوش المطيعة والسلاح، فكل ذلك من إيتاء الملك فلا تعارض بين ما هنا وما مر.

وأما تعليمه منطق الطير فهو تعليمه معنى ما تعبر به من أصواتها عما تريد من المعاني التي تقدر على التعبير عنها مثل منطق الهدهد الذي تأتي ترجمته في هذه السورة.

وقوله: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍ﴾ فهو يعني كل شيء من الأشياء المحتاج إليها في الملك والتي بها تمكينه في الأرض وقهره لأعداء الله كما قال الهدهد: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِنۡ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾: أي البين الواضح وهو الفضل في النعم، وهذا من التحدث بنعمة الله ومن الدعوة إلى طاعته.

﴿١٧﴾ ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ ﴿وَحُشِرَ﴾ قال الراغب: ((الحشر: إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((وحشرت الناس احشِرهم واحشُرهم حَشراً جمعتهم ومنه يوم الحشر)) انتهى. ومثله في (القاموس).

فالأولى أن الحشر يستعمل بالمعنيين، وتفسير الآية بجمعهم لسليمان أظهر لتفريع: فهم يوزعون عليه، أي يُنَظَّمون حتى لا يضر بعضهم بعضاً بسبب الإزدحام، والوزع: المنع، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾: ((معناه: يُدفَعون ويجئون)) انتهى.

تَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ

كذا في (المطبوعة) ولعل الصواب: (ويحثون) والنسخ المخطوطة كثير منها يقل فيه العجم أي النقط فضلاً عن الإعراب وكذلك تحذف الهمزة حيث تثبت؛ فلذا زيدت في المطبوعة لظنهم أنها يجيئون، والصواب: يحثون أي ليجتمعوا يحث المتأخر ليلحق الجند ويدفع المتقدم عن التقدم ليبقى مع الجند.

وفي (مصابيح الشرفي): ((قال في (البرهان): ﴿يُوزَعُونَ﴾ يعني: يردّ أولهم إلى آخرهم مأخوذ من وَزَعَه عن الظلم أي كَفَّه عنه، وقيل: لا بد لله من وَزَعَةٍ يعني ممن يمنع الناس، ومنه قول النابغة:

على حين عاتبتُ المشيب على الصِّبا فقلت ألَمَّا تصحُ والشيبُ وازع))

انتهى.

كتبته على الصواب، والذي أحفظه ((ألما أصحُ)) كما في (مغني اللبيب) والذي في (المصابيح) فيه بعض تصحيف من الناسخ وفي (مغني اللبيب). وقلت: ولعل الصواب ما في (المصابيح)؛ لأنه كالتفسير لعَاتبت، والحاصل: أن حشر جنود سليمان له جمعهم له.

﴿١٨﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ﴾ حشروا لسليمان حتى إذا أتوا، فحتى غاية لحشرهم، والأقرب هنا: أنه الحشر بمعنى الإخراج، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا﴾ [الحشر:٢].

وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ

وعلى هذا: فسليمان وجنوده في الأرض ليسوا في الهواء؛ لأنه الأصل وليس في الآية دليل أنهم ركبوا البساط وحملتهم الريح في هذه المرة، وهو أظهر للناس ليروا كثرتهم حين يرونهم في الأرض، فالمعنى أخرج جنده ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ أي بلغوا حول واد النمل من جهة أعلى الوادي ولا يجب أنهم فوقهم في الهواء؛ لأن الله تعالى قال في (الأحزاب): ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [آية:١٠] وهم حول (المدينة المنورة) في الأرض، فسليمان وجنوده أشرفوا على الوادي وظنت النملة أنهم يمرون منه.

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يكسرنكم فتهلكوا ﴿سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي لا يعلمون أنهم يحطمونكم لصغركم في الأرض وعدم تأملهم، وهذا يفيد أنها عرفت عدل سليمان وأنهم لا يتعمدون حطم النمل لعدالتهم.

﴿١٩﴾ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ ضحك ولم يقهقه بل أبدى أسنانه من الضحك، وهذا أدب كريم وهو من إقلال الضحك، وسبب هذا الضحك سروره بكلامها حيث عرفت عدله ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾ ويحتمل: أنه × تعجب من قولها، من حيث بادرت بنداء النمل مما يدل على عنايتها بمجتمعها.

مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ

وقال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): يعني: تبسم من حذرها بالمبادرة واستبقائها للنمل فوقف سليمان بجنوده حتى دخل النمل مساكنه)) انتهى. والأول أرجح لعطف قوله: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ﴾؛ لأن نعمة الهدى للعدل أعظم النعم وهو × مظنة أن يلاحظ ذلك قبل غيره.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: سدّدني للشكر))انتهى، وقد مر قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ بمعنى: يكفّون عن التقدم إذا كان الحشر بمعنى الجمع وبمعنى يكفون عن الإضرار بسبب كثرتهم وازدحامهم فلا يضر بعضهم بعضاً ولا يضرون ما مروا عليه إذا كان الحشر الإخراج، وتفسير يوزعون بالتسديد هو المناسب لمعنى الوَزع أي الكف والمنع؛ لأن التسديد يستلزم أن يزع نفسه عن الميل عن الحق والصواب، وهنا يزع نفسه عن الميل عن الشكر إلى الكفر وعن العمل الصالح إلى السّيئ .

وفي قوله: ﴿ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ دلالة أن النعمة على الوالدين توجب على الولد شكرها إما لأنه برّ للوالدين وإما لأن الإحسان إليهما إحسان إليه من حيث أنه غرض له، والإنسان يعرف هذا في الإحسان إلى الولد فيعتبره الوالد إحساناً إليه نفسه. وقوله:﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي اجعلني منهم في الآخرة.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ نظر إليها ليعرف حالها أو إن كان شيء منها فقد أو لئلا يفقد ﴿مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ سؤال لمن حوله جرى فيه على الحكمة

وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى

والعدالة حيث لم يكن أول سؤاله ما للهدهد قد غاب ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ إضراب عن السؤال الأول إلى سؤال أهو كان من الغائبين دخل في جملة الغائبين وصار منهم من وقت سابق قبل انتباهي لغيابه ثم فرع على غيابه المفروض المقدر من دون أن يجزم به.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كنتف ريشه الذي يقيه الحر والبرد أو غيره من أنواع العذاب، فالكلام مطلق ليس فيه تعيين عذاب ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ وهذا لأنه × مخير بحكم الله تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص:٣٩] وفائدة هذا الكلام: تخويف من سمع لئلا يخالف أمره؛ لأن الملك لا يستقيم إلا بالخوف من معصية الملك.

وقوله: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجة تدل على براءته من المخالفة الموجبة له العقوبة وتسلّطه على ما صنع.

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ

ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ * أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ السياق في الهدهد فالضمير له أو لسليمان إلا أنه يترجح جعل الضمير للهدهد لئلا تختلف الضمائر؛ لأن الضمير فاعل قال هو للهدهد وعلى كون فاعل مكث هو ضمير الهدهد قيل في تفسيره فمكث غائباً غير بعيد أي زمناً غير بعيد أي لم تطل مدة غيابه.

والراجح عندي: ﴿فَمَكَثَ﴾ الهدهد عند سليمان ﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ منه لوثوقه بعدله، وحرصه على تطهير الأرض من الشرك، ووثوق الهدهد بأن له عذراً نافعاً فلم يبعد عن سليمان بعد الخائف من مبادرته قبل سماع عذره ولا وقع وقوع الخائف الذي يعجله الخوف بل مكث عند سليمان يبيّن له عذره وهو مطمئن، وهذا المعنى أنسب من حيث الترتيب بالفاء على كلام سليمان × .

أما الغياب فهو من قبل كلامه فلا يناسب مكث مرتباً على كلام سليمان، وأيضاً إذا جعلنا مكث أي عند سليمان ناسبه ترتيب قوله تعالى:﴿فَقَالَ أَحَطتُ﴾ إلى آخره.

أما ذكر قوله في سياق ذكر غيابه دون إشعار بحضوره فإنه يكون ترتيب قوله: ﴿فَقَالَ﴾ على غيابه وهو غير مناسب ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ أي علمت يقيناً ما لم تعلم، بدأ اعتذاره بما يلفت انتباه سليمان ويبعثه على سماع قصته وبإفادة أن عنده خبراً بقوله: ﴿وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾ ﴿مِن سَبَإِۭ﴾ من بلد بعيد هي (سبأ) مدينة في (مأرب) باليمن.

وكل هذا الكلام يدعو سليمان إلى استماع النبأ أي الخبر المهم فليقل الهدهد آمناً مطمئناً ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ وهذا خبر عجيب لأن المرأة ضعيفة فحالتها تبعد بها عن الملك ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ حاجات الملك وتوابعه في ثروة وتمكن من تحصيل ما طلبت ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ سرير ملك تواجه الناس عليه كبير مزخرف، وهذا لا يهم سليمان إنما هو من تمام الخبر العجيب.

ولكن المهم قوله: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فالشرك عندهم دين الدولة والرعية ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فصارت أنفسهم تهواها وتكره العدول عنها وتكره التفكير في تركها ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ الشيطان بذلك ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي من سلك غيره تاه في غير سبيل ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأنهم قد تاهوا في غير سبيل لإعراضهم عن النظر والتفكير الذي يفيدهم معرفة الصواب؛ ولاتباعهم ما تهوى أنفسهم ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ إما صدهم لئلا يسجدوا، وإما لا يهتدون أن يسجدوا مثل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ﴾ [الأعراف:١٢].

﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ يخرج المخبوء الذي لا يعلمه الناس أو لا يقدرون على إخراجه، والخبأ ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفسر بالمطر، ويحتمل أنه الوحي بما كان من الهدى في السموات، فإخراجه إعلام البشر به ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ مثل الكنوز وأول نبت الزرع والبترول، فالله هو الذي يهدي عباده لما كان محجوباً عنهم في السموات والأرض، فهو الذي يعلم عبادةَ من عبده ولا يخفى عليه دعاء من دعاه ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى﴾ [يونس:٣٥].

هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ

وكذلك الله يعلم ما يخفون وما يعلنون، فهو الذي ينبغي أن يرجى ويخشى ويدعى ويعبد دون المخلوقات كلها ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا الشمس ولا غيرها من المخلوقات؛ لأن الله هو رب كل شيء، والعباد عباده وحده ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ملك الملوك الذي له الملك العظيم في الدنيا ويوم الدين، فهو الذي يستحق أن يطاع ولا يطاع غيره في معصيته.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ * ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿سَنَنظُرُ﴾ لم يعجل على تصديقه لاحتمال أنه لفق له عذراً كذباً من الخوف من سليمان، وهذا يدل على أن كلام الهدهد كلام اختياري؛ ولذلك احتمل الصدق والكذب، ولو كان الله أنطقه كما أنطق عيسى في المهد لكان ذلك معجزة من الله تدل على صدقه وإن كانت بلغة الطير فلم تكن تخفى على سليمان، لأنه قد عُلم منطق الطير فمن شأنه أن يكون عارفاً ما هو في قدرتها من الكلام وما يتهيأ لها من الفهم والعلم وما لا يكون من شأنها الذي أعدت فطرتها له حتى يفرق بين المعتاد والأمر الخارق المعجز.

﴿فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ ارم به إليهم، وكأنه × لم يعترف للمرأة بالملك فلم يقل إليها ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لا تنتظر جواباً ولا تتأخر لتنظر ما يقولون بينهم ﴿فَٱنظُرْ﴾ بعد ذلك ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يرجعون إلينا وما يردون به على كتابنا ﴿يَرْجِعُونَ﴾ أي يرجعونه.

ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ

﴿٢٩-٣١﴾ ﴿قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٞ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ ﴿قَالَتۡ﴾ ملكتهم ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ﴾ تعني وزراءها وأكابر قومها ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٞ كَرِيمٌ﴾ وصفته بالكرم لما فيه من تواضع سليمان وجعله الأمر لهم باسم الله، فهو مبلغ عنه لم يذكر ملكه وقدرته عليهم في هذا الكتاب وذكر أنه يدعوهم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهو يدعوهم إلى رحمة الله، واكتفى بنهيهم عن العلو والتكبر عليه بدلاً من أن يأمرهم بالإنقياد له والطاعة لأوامره ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ لله وجوهكم غير مشركين به، هذا الكتاب حمله الهدهد لأنه أوجز فيه.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَتۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أهمّها الكتاب؛ لأنه من سليمان فلم يكن لها بدّ من النظر فيما هو الرأي فقد دعاهم إلى الإسلام وهو أمر ثقيل عليهم ومعصية سليمان أمر ثقيل لما قد اشتهر من قوّة ملكه؛ ولذلك اكتفى بقوله: ﴿مِنۡ سُلَيۡمَانَ﴾ دون أن يذكر لها قوّته، فأرادت أن تشاور قومها، وقالت لهم:﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ أي تحضروني وتروا وتسمعوا ما أقطع وأجزم به، وهذا يفيد أنها طلبت حضورهم؛ لتقول لهم ذلك، وقولها: ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ﴾ يفيد أنها مستعدة للقطع في هذا الأمر وأنها لم تطلبهم أن يفتوها لعجزها عن الرأي والبتّ في الأمر، بل إن كان عندهم رأي أتوا به وإلا فالرأي عندها تبيّنه لهم وتقطعه بحضرتهم.

نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ

﴿٣٣﴾ ﴿قَالُواْ نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ ﴿أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ في الأبدان والعدة ﴿وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أهل قتال شديد أي نحن أبطال مجربون للحرب، وهذا غاية التشجيع لها لتثق بقومها إن أرادت أن يقاتلوا ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ فالفتوى من عندك لا منّا ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ وما أدّى إليه نظركِ فأمرينا به، وهذا ـ أيضاً ـ تشجيع من حيث دلالته على الطاعة الكاملة بلا تردد؛ لأن القتال يحتاج فيه إلى القوة ثم إلى الشجاعة والصبر متى كانوا في المعركة ثم إلى الطاعة الكاملة فلا تخاذل ولا تواكل ولا تردد، وجوابهم هذا: الأمر إليكِ تخلص من القطع في القضية وإحالة الأمر إليها تلجئها إلى التثبت في الأمر؛ لأنها إن غلطت كانت هي المسئولة في اعتقادها، وصواب الرأي هو المقدم قبل الدخول في أمر بغير بصيرة، كما قال الشاعر:

الـرأي قبـل شـجاعة الشـجعان هــو أول وهــي المحــل الثــاني

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ﴾ تشير إلى ترجيح ترك القتال في أول الأمر؛ لأن الملوك ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً﴾ أي إذا فتحوها فدخلوها ﴿أَفْسَدُوهَا﴾ بالجيش الذي يقتل ويهدم وينهب ويفعل ما أراد لا يمتنع أهلها من ضرهم.

خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ تذكر لهم أمراً خاصاً بالملأ فهي لا تلاحظ سقوطها عن عرشها بل ما يصير إليه الملأ كلهم ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي سليمان وجنده إذا قاتلونا فعلوا ما هو عادة الملوك إذا دخلوا قريتنا فقد رأت رأياً يرضاه الملأ للتثبت في أمرهم؛ ولعله يكفيهم أي سليمان وقومه أن نكون لهم صديقاً لا نعارضهم ولا ننازعهم ونبقى على ما نحن عليه وهو ﴿إِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ﴾ أي فأنظر ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بالهدية من قبول للهدية ورضى أو من رد لها وسخط ثم نرى رأينا بعد ذلك.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي جاءه المال الذي أهدته الملكة، ذكّر الضمير على المعنى ﴿قَالَ﴾ سليمان لرسول أهل سبأ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ ينكر عليهم ويوبخهم؛ لأنه لا يريد المال إنما يريد إسلامهم وهو غني عن مالهم ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ فالذي آتاني الله من المال وغيره ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ وهذا تحقير لهديتهم ليعرفوا أنه لا قيمة لها عنده ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ بل ظننتم أن هديتكم تدفع عنكم وتبقيكم على شرككم فأنتم بها تفرحون، يقول هذا لرسول الهدية ليبلغ أهل سبأ.

ثم يقول له: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ هكذا يأتي باسم الجمع لا يذكر الملكة من أول الكلام إلى آخر هذه الآية تحقيراً لها، كأنها غير معترف لها بالملك ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم﴾ أي إن أصروا ﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ لا طاقة لهم بدفعها.

ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ

قال الشرفي: ((أي لا طاقة لهم بها أي بمحاربتها، وحقيقة القِبَل المقاومة والمقابلة يعني لا يقدرون أن يقابلوهم)) انتهى.

وقال الراغب ـ في (قِبَل) بكسر القاف وفتح الباء ـ : ((ويستعار ذلك للقوة والقدرة على المقابلة أي المجاراة، فيقال: لا قِبَل لي بكذا أي لا يمكنني أن أقابله، قال:﴿بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي لا طاقة لهم على استقبالها ودفاعها انتهى. وفي (الصحاح): ((ومالي به قِبَل أي طاقة)) انتهى.

قلتُ: لا قبل لهم بها في سياقه مثل: ﴿لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] في نفس السياق، وقوله:﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ﴾ أي من سبأ التي هي عاصمتهم ﴿أَذِلَّةً﴾ كما قالت: ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ أي قد بطلت دولتهم وقوتهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ من الصَّغار بفتح الصاد فهم مع الذلة في هوان لا كرامة لهم.

قال الراغب: ((والصاغر الراضي بالمنزلة الدنيَّة)) انتهى. ومثله في (الصحاح) وهذا الرضَى سببه الخوف من القتل أو التعذيب فيرضى الإنسان بالضيم مقابل سلامته.

﴿٣٨﴾ ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

نبي الله سليمان لعله جاءه الوحي بأن ملكة سبأ وقومها يسلمون، وبناء على أنهم يأتونه مسلمين أي ليسلموا قال لملائه:﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا﴾ الذي وصفه له الهدهد وأراد × أن يكون سبقه أي العرش لها آية تدل على أنه رسول من الله من حيث أنه أمر خارق بالنسبة إلى البشر وبالنسبة إلى الجن؛ لأنهم لا يتمكنون من مثل ذلك إلا بأمر خارق أي تخلية خارقة للعادة.

﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

﴿٣٩﴾ ﴿قَالَ عِفۡرِيتٌ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّى عَلَيۡهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قال الشرفي: ((والعفريت: هو المارد القوي)) وقال الراغب: ((هو العارم الخبيث)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((قال أبو عبيدة: العفريت من كل شيء المُبَالغ، يقال: فلان عفريت نفريت)) انتهى المراد؛ فلعل الراغب بنى على أنه المبالغ في طريقة الشياطين.

وقوله: ﴿قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قال الشرفي: ((أي من مجلسك وسمي مقاماً لإقامة صاحبه فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان:٥١] وكان سليمان يجلس للقضاء من غدوه إلى نصف النهار)) انتهى المراد، والقرينة قوله:﴿تَقُومَ﴾.

فظهر أن قوله:﴿مِن مَّقَامِكَ﴾ أي من المكان الذي أنت فيه مقيم.

﴿٤٠﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّى لِيَبۡلُوَنِىٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ هذا القائل لا بد أنه من جند سليمان من الملأ الذين قال لهم سليمان: ﴿أَيُّكُمْ﴾ وعمدة هذا القائل هي علمه وليس علمه قدرة على المجيء بالعرش فقيل: كان يعلم (الإسم الأعظم).

وهذا بعيد؛ لأنه قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ ولو كان إنما يدعو الله أن يأتي بالعرش فيستجيب له لكان الله هو الذي يأتي بالعرش، فكان الجواب الصحيح إنما يأتي به الله، وأيضاً الدعاء يحتاج إلى وقت والإجابة بعد الدعاء وذلك يستوعب المدة المضروبة للإتيان بالعرش قبل أن يرتد إليك طرفك فظهر أنه غير ذلك، وأنه ربما كانت لديهم علوم عظيمة يستطيع الإنسان بواسطتها أن يحقق كثيراً من الأمور التي لا يقدر على تحقيقها بقدرته الطبيعية.

وهذا الفارق بينه وبين العفريت أن العفريت إنما قال نظراً إلى قوته واعتقاده أنه يقدر عليه بقوّته الطبيعية فليس كمن قال ذلك لعلمه الحاصل له من الكتاب والله أعلم.

أما قوله: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ فمعناه إذا نظرت إلى جهته أو جهة سبأ أتيت به قبل أن يرجع نظرك إليك بأن تغمص مثلاً بعد أن نظرت، وهذا بناء على الظاهر؛ لأن مجرد الإستبعاد لا يوجب التأويل للقرآن.

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ﴾ أي سليمان × رأى العرش عنده ﴿مُسْتَقِرًّا﴾ غير متحرك لأثر نقله من سبأ إلى القدس ﴿قَالَ﴾ سليمان × ﴿هَـٰذَا﴾ أي التمكين للملك إلى هذا الحد ﴿مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي إنه من الله اختبار ليتبين به ءأشكر الله عليه أم أكفر نعمة الله فيه، وهكذا كل خير دنيوي فهو ابتلاء أي اختبار، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ نفع الشكر لنفسه؛ لأن الله غني عنه ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ أي عن شكره أو عن كل شيء من شكره وغيره ﴿كَرِيمٌ﴾ يستحق الحمد والشكر ولو لم يشكره أحد.

قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي

﴿٤١﴾ ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾

﴿نَكِّرُواْ لَهَا﴾ **غيِّروا بعض التغيير في العرش بحيث يمكنها إنكار أنه عرشها كما يمكنها الإيمان أنه عرشها باختيارها.**

وهذه فائدة التنكير لتؤمن بهذه الآية العظيمة مختارة لا مضطرة ﴿نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ﴾ بأن تؤمن أنه سريرها جاء بأمر خارق من حيث أنه على يد نبي الله ﴿أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ فتأبى الإيمان أنه سريرها.

﴿٤١-٤٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ **﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِ﴾ على هذا الشكل والعظم والزينة.**

﴿قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ نظرت إلى ما فيه من التغيير فسوَّغ لها نفي أنه سريرها ودعوى أنه مثله، واتبعت في هذا هوى نفسها ﴿وَصَدَّهَا﴾ عن الإيمان بأنه عرشها ﴿مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي حب ما كانت تعبد، فكرهت المسارعة إلى الإيمان ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ بما جاءت به الرسل من التوحيد، فبقي أثر الكفر في قلبها وبعَّدها عن الإيمان.

وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ

﴿٤٤﴾ ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ **﴿قِيلَ لَهَا﴾ بعد أن رأت عرشها وسئلت عنه وأجابت، وهذا يفيد أنها كانت خارج الصرح الذي فيه سليمان، وكان القائل لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ غير سليمان، و كذلك كان القائل لها ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ غيره.**

قال في (الصحاح): ((الصرح: القصر، وكل بناء عال)) انتهى. وقال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: القصر)) انتهى.

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ﴾ قبل أن تدخل ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ ماء كثيراً، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ماء)) انتهى. وفي (الصحاح): ((ولُجّة الماء ـ بالضم ـ معظمه، وكذلك اللجّ)) انتهى.

﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ لئلا تبتل ثيابها ﴿قَالَ﴾ سليمان ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ صرح من قوارير أي من زجاج، قال الراغب: ((ممرد: أي مملس من قولهم: شجرة مرداء، إذا لم يكن عليها ورق، وكأن الممرّد إشارة إلى قول الشاعر:

في مجدل شيّد بنيانه يزلّ عنه ظُفُر الطائرِ))

انتهى.

وهذا القصر لا بد أن الزجاج كان يصب صباً فيجمد ومع ذلك لا يظهر فيه أثر سيلان الزجاج في خارج البناء، وكذلك ساحة هذا القصر فهو شيء غريب.

تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ

وكذلك كثرة الزجاج إلى هذا الحد، ولم يكن في ذلك الزمان يعرف منه إلا القوارير، فحصوله لسليمان بهذه الكثرة وهذا الشكل خارق؛ فلذلك أسلمت عند أن رأت هذه الآية وعظم شأنها بإسلامها، فذكر إسلامها دون ذكر إسلام قومها لأنهم تبع لها؛ ولعل سبب ذكر إسلامها أنه بعد النظر في الآية ليس لمجرد غرض سياسي، أما قومها فهم تبع لها؛ ولعل إسلامهم لمجرد التبعية فلم يذكر في القرآن.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ آمنت من ثمود طائفة وكفرت طائفة أو أسلمت طائفة وكفرت طائفة، وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تفسير لما أرسَل تعالى به صالحاً، أي اعبدوا الله وحده، واختصموا لتعصب الكفار ضد الرسول والمؤمنين أو المسلمين كما هي عادتهم.

﴿٤٦﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ رسولهم للكفار من قومه ﴿يَٰقَوْمِ﴾ رفقاً بهم وتذكيراً بأنهم قومه ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ حيث قمتم ضد من أسلم وضد رسولكم قبل أن تنظروا وتفكروا فيما جاء به من دليل صدقه لتؤمنوا به إن كان صادقاً، ويترجح عندي أنه قد جاء بينة تدل على صدقه قبل الناقة، وإنما الناقة فتنة لهم لتمردهم، والوجه في هذا: قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود:٢٨] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القمر:٢٧] وذُكِرت الناقة لكونها سبب هلاكهم وليعتبر بها من بعدهم، كما

أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُواْ

يفيده قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩] ولعل الناقة كان ذكرها باقياً قبل نبيئنا ص فالتذكير بها مناسب جداً.

وقول رسولهم: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ غاية الرفق مع بيان حاجتهم إلى الإستعجال بالحسنة؛ لأنهم بالشرك وغيره قد تعرضوا لغضب الله فهم على خطر عظيم وفي أمس الحاجة لطلب المغفرة والرحمة قبل أن ينزل بهم عذاب يعجلهم إلى النار.

﴿٤٧﴾ ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ تشاءمنا بك وتنحّسنا فأرادوا أن يكف عن إنذارهم؛ ولعل سبب التشاؤم أن نوحاً وهوداً هلك قومهما فجعلوا السبب وجود الرسول إليهم؛ لأنهم قوم يفتنون بالتغرير والدعاية الكاذبة يفتنهم الشيطان وكبراؤهم، ولو فكروا لعرفوا أنهم إنما هلكوا لمعصية الله وتمردهم وهمهم برسوليهما؛ فلذلك أجابهم رسولهم ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي شؤمكم وعذابكم عند الله فمتى شاء أنزله بكم وجعله عند الله؛ لأنهم قد استحقوه وصار تعذيبهم حقاً وصواباً في حكم الله، فعليهم أن يستغفروا الله رجاء رحمته.

﴿٤٨-٤٩﴾ ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ﴿رَهْطٍ﴾ أي قرابة، قال تعالى حاكياً: ﴿وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود:٩١-٩٢].

قال في (الصحاح): ((رهط الرجل: قومه وقبيلته، يقال: هم رهط دنية، والرهط ما دون العشرة من الرجال لا تكون فيهم امرأة)) انتهى، فمفهوم الرهط ليس العدد وإنما العدد شرط أي لا يقال: رهط للقرابة إلا إذا كانوا دون العشرة ليس فيهم امرأة، فالتسعة المذكورون في الآية الكريمة متقاربون بينهم فهم عصبة. قال الراغب: ((الرهط العصابة)) انتهى. وفي (لسان العرب): ((رهط الرجل: قومه وقبيلته)) انتهى.

وإنما خصصت الرهط هنا بأنهم قرابة؛ لأنهم قد خصهم الله تعالى بأنهم رهط مع أن الكل قوم صالح، فكلهم رهط بالمعنى العام لكل واحد منهم فظهر أن الرهط هنا أخص كما في رهط شعيب × المذكور في (سورة هود) وقد أفاده (صاحب الصحاح) حيث قال: ((يقال: هم رهط دنية، أي قريبة)).

﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عادتهم أن يفسدوا في الأرض من قبل تآمرهم على رسولهم، وهكذا المعاصي تورط أهلها المعتادين لها ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ قال بعضهم لبعض وهم يدبرون لهذا الفساد الأخير ﴿تَقَاسَمُواْ﴾ أي ليحلف كل منا ﴿بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي لنبيتنه أي ليهجمن لنقتله في الليل وأهله.

قال الشرفي: ((والبيات: القتال في الليل، وقال الراغب: والبيات والتبييت قصد العدوّ ليلاً)) انتهى. فجعل البيات الهجوم على العدوّ، وفي (الصحاح): ((وبيّت العدوَّ: أي أوقع بهم ليلاً والاسم البيات)) انتهى.

﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ ثم بعد أن نقتله فيطلب وليه أي قريبه كابن عمه بدمه نقول له: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي نجحد بذلك قتله وقتل أهله.

مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

قال الشرفي في (المصابيح): ((والضمير لوليه)) انتهى، يعني نقول لوليه: ما شهدنا مهلك أهلك أي أهل وليه، قال الراغب: ((الشهود والشهادة: الحضور مع المشاهدة إما بالبصر أو بالبصيرة)) انتهى.

وقولهم:﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ من مقول القول لوليه تأكيد للجحد، فحاصل المعنى: نقول لولي صالح ما حضرنا قتل أهلك، سواء كان هذا كناية عن جحد قتل صالح وأهله من حيث نفي الحضور وإن كان كذباً أو كان كناية عن الجحد من حيث نفي الحضور مع المشاهدة؛ لأنهم كانوا في ظلمة الليل لا يشاهدونهم بالبصر على معنى أنهم احتالوا للجحد من دون أن يكذبوا، ولا حاجة إلى هذا في التفسير إلا إذا جعلنا قولهم:﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ حالاً من فاعل ﴿لَنَقُولَنَّ﴾ لا من مقول القول، لكن كونه من مقول القول أظهر، فقد اتكلوا في دفع وليه على جحد القتل وأن وليه لا يجد بينة على القاتل لكونه بيتهم والناس نيام.

﴿٥٠-٥٢﴾ ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ * فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ * فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَمَكَرُواْ﴾ بتدبيرهم لقتل صالح وأهله، ولا بد أنه كان يوم عقروا الناقة بل بعده ﴿وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا﴾ شديداً عليهم؛ لأنه تعجيلهم إلى النار فهو تدبير شقوتهم المؤبّدة ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لجهلهم وكفرهم.

وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ

﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها السامع، أو يا رسول الله والمراد لأجل غيره من كفار قريش ومن حولهم؛ لأن في قوم صالح عبرة لهم، وقراءة ﴿إِنا دَمَّرْنَـٰهُمْ﴾ بكسر (الهمزة) على استئناف بيان عاقبة مكرهم، أما قراءة ﴿أَنَّا﴾ بفتح (الهمزة) فالجملة خبر كان أي فانظر كيف كان عاقبة مكرهم تدميرهم، وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمَهُمْ﴾ أي دمرنا التسعة الرهط وقومهم لاشتراكهم في السبب الذي هو المكر المذكور، أما مشاركة قومهم فبالرضى، أو بالأمر والرضى.

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ بيان لأثر تدميرهم ليعتبر بهم، ومعنى ﴿خَاوِيَةً﴾ خراب، وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ يفيد أن بقايا الخراب باقية يشاهدها من مر عليها في وقت نزول القرآن ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي هلاك الكفار بسبب كفرهم وعدوانهم ﴿لَءَايَةً﴾ تدل على أن الله عليهم قدير وأنه يمهل ولا يهمل، بل يجازي الظالمين، فكذلك يجازيهم في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين يتدبرون الآيات ويعلمون ما تدل عليه؛ لأنهم من شأنهم أن يعلموا ما علّمهم الله.

﴿٥٣﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من قوم صالح ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الله بطاعته أنجاهم الله من عذاب قومهم.

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ أرسلناه ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر قصته ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ منكراً عليهم

لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ

وموبخاً لهم بما لم يستطيعوا إنكار قبحه ولا دعوى حسنة ﴿أَتَأْتُونَ﴾ سؤال توبيخ ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة الفاحشة في قبحها ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ والمبصر يميّز بين الذكر والأنثى فلا يجامع الذكر غلطاً، فكأنه أراد أنهم يتعمدون الفاحشة، أو أراد وأنتم تبصرون الذكر والأنثى فتميزون بين ما هو صالح للجماع وما هو غير صالح.

ثم كرر التوبيخ؛ ليفسر الفاحشة ما هي؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي لأجل الشهوة تبعثكم على إتيانهم ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ التي خلقها الله وأعدها للجماع، فتأتون ما لا يصلح بل إتيانه الفاحشة، وتذرون ما يصلح ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ قوم عادتكم الجهالة والسفاهة بهذه الفاحشة وبغيرها.

﴿٥٦﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ بذكر مبرّر أو دعوى عذر بل إنما قالوا ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ فهنا حصر وقصر لكنه إضافي بالإضافة إلى أنهم لم يجيبوا بجواب مخلص من سبب التوبيخ والإنكار عليهم، فلا ينافي هذا الحصر أنهم أجابوا مع هذا الجواب بقولهم: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] ونظير هذا الحصر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها فلا ينافي أنها تكسب بعض الأنفس لها عملاً صالحاً ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي لوطاً وأولاده ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ أي لأنهم أناس يتنزهون من قذارة اللواط فيجتنبون قذرها، أو يتطهرون من القبائح، وهذا استهزاء منهم وسخرية بآل لوط حيث يجرّون على أنفسهم بالتطهر المصيبة الكبرى التي هي إخراجهم من قريتهم.

﴿٥٨﴾ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿٥٧﴾ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أي لوطاً ﴿وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ أنجيناهم ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا﴾ كتبناها وحكمنا عليها بأن تهلك مع قومها ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ وقد مر الكلام في معنى ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ في تفسير (سورة الشعراء) فراجعه.

﴿٥٨﴾ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم﴾ على قوم لوط ﴿مَّطَرٗا﴾ مطراً مخصوصاً هو رميهم بالحجارة ﴿فَسَآءَ﴾ فما أسوأ ﴿مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ الذين أنذر رسولهم فكذبوه، ففيهم عبرة للمنذرين الذين أنذرهم رسول الله محمد ص وكذلك في ثمود قوم صالح.

﴿٥٩﴾ ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الذي أنعم على عباده بالرسل المبشرين المنذرين ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ أي اصطفاهم واختارهم للرسالة إلى قومهم فبلغوا الرسالة وأقاموا الحجة على قومهم وصبروا على المشاق في سبيل الله والمشاق اللاحقة بهم تبعاً لإبلاغ الرسالة وإقامة الحجة.

والخطاب بقوله: ﴿قُلِ﴾ لرسول الله محمد ص وبقية هذه الآية من مقول القول وما بعدها إلى آخر الإحتجاج على المشركين بقوله مبلغاً عن الله تعالى ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ﴾ الهمزة للسؤال يسأل المشركين وهم يعلمون أن الله خير بيده الخير ومنه الخير، فقوله: ﴿أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ وهم يعلمون أنه لا يقاس بالله شيء من خلقه ولكن تعصبوا للباطل، ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا بل ما نشرك خير، ولو قالوا لكانوا عالمين بأنهم كاذبين، فما أوضح هذه الحجة!

مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ

﴿٦٠﴾ ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ ﴿أَمَّنۡ﴾ سؤال وإضراب إلى الإنكار على المشركين الذين جعلوا لله أنداداً بل أمَن ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جعلتم له أنداداً لا يخلقون شيئاً ولا يملكون نفعاً ولا ضراً جعلتموهم أنداداً لمن خلق السموات والأرض ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ وقال ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾؛ لأنه أوضح في الدلالة على أن المراد فأنبت الله، ولو قال: فأنبت لاحتمل الكلام أن الضمير الذي هو فاعل أنبت عائد على المطر وهو وإن صح بمعنى لكن ليس المراد هنا بل المراد بيان أن الله أنبت لعباده بالمطر نعمة عليهم ﴿حَدَآئِقَ﴾ بساتين فيها الأشجار النافعة كالنخل والعنب.

قال (صاحب القاموس): ((والحديقة: الروضة ذات الشجر أي جمعها حدائق أو البستان من النخل والشجر أو كل [أعرب كل بالرفع، ولعل الصواب الجر عطفاً على النخل ليكون وصفاً للبستان تمت مؤلف] ما أحاط به البناء أو القطعة من النخل)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ معناه: جنات واحد[تها] حديقة وذات بهجة ذات حُسْن ويراد بها النخل)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((والحديقة: الروضة ذات الشجر، وقال تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ [عبس:٣٠] ويقال: الحديقة كل بستان عليه حائط)) انتهى، وفي (القاموس): ((البهجة: الحسن)) انتهى.

خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ

﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ ما صح ولا استقام أن تنبتوا، أي ليس من شأنكم كما نقول: لا يتصور منكم أن تنبتوا شجرها؛ لأنه ليس في قدرة المخلوقين وإنما يقدرون على التسبيب بالبذر أو الغرس مع السقي بالماء إن حصل الماء ولا يحصله إلا الله تعالى، أما شركاء المشركين فلم يخلقوا سموات ولا أرضاً ولا شيئاً ولم ينزلوا من السماء ماء ولم ينبتوا شجراً.

وقوله تعالى:﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ عدل به عن ضمير الغيبة؛ لأن الحاكي للفظ الغيبة فيما قبله هو الفاعل فناسب ذلك العدول عن ضمير الغائب كقول امرئ القيس:

جاءت لتصرعني فقلت لها اقصري إني امرؤ صرعي عليكِ حرام

فقال: صرعي عدولاً عن صرعه.

وقوله تعالى:﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سؤال للمشركين في معنى النفي بالتوبيخ لإثبات أنه لا إله مع الله بهذه الحجة ﴿بَلۡ هُمۡ﴾ أي المشركون ﴿قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ﴾ عادتهم العدول عن الطريق إلى التيه.

﴿٦١﴾ ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

﴿أَمَّن﴾ انتقال إلى احتجاج آخر في صورة الإضراب ثانياً عن قوله تعالى: ﴿أَٱللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تأكيد للإضراب الأول ﴿جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ جعلها قراراً للإنسان بأن مهدها له وجعل فيها ما يعيش به من الأوكسجين للتنفس، والماء للشرب والسقي، والطعام للإنسان وأنعامه.. وغير ذلك.

وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ﴾ في بطنها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ مجاري للماء تجري فيها حتى يبلغوا منابعه من ظهر الأرض والآبار ونحوها؛ لينتفع به الإنسان ولا يتلف عليه في بطن الأرض ﴿وَجَعَلَ لَهَا﴾ أي للأرض ﴿رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً راسيات في أماكنها راسخات في الأرض لئلا تميد بأهلها ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ يحجز كل واحد منهما عن البغي على الآخر وخلطه بنفسه وهما حول البلد المشهور المسمى البحرين، والحاجز الذي بينهما معنوي خفي، فهما يلتقيان ولا يختلطان، وهذه دلائل عظيمة تدل على الله تعالى وعلى أنه قادر على كل شيء وعليم بكل شيء عز وجل عن أن يكون له ندٌّ أو عديل ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي المشركين ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم مهملون لعقولهم لا ينظرون بها ولا يتفكرون في الآيات والدلائل المفيدة للعلم.

﴿٦٢﴾ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿أَمَّن﴾ إضراب يؤكد الإضرابين الأولين ﴿يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ الله الذي يجيبه، أما شركاء المشركين فلا يدعونها عند الضرورة الملجئة إنما يدعون الله مثلاً إذا خافوا الغرق في البحر اضطرتهم حالتهم إلى أن يلجئوا إلى الله فيدعونه؛ ولعله خص المضطر بالذكر لأنه الذي يدعو الله من المشركين دعاء خالصاً بالله بحضور ذهن وخضوع لله؛ فلأجل تجربة المشركين في هذه الحالة ذكرهم بها ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ عن المضطر إذا دعاه ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ تعمرون وتتصرفون لحاجتكم فيها بالحرث والغرس واستخراج ما أودع لكم فيها من النعم لما لا يتهيأ لكم إلا مع العافية والسلامة من حالة الإضطرار لكشف السوء.

ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ سؤال للمشركين بعد إقامة الحجة على أنه لا إله إلا الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه؛ لأن شركاءهم لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، فسؤالهم تبكيت لهم وتوبيخ، وقوله تعالى:﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ لأنه تعالى قد ذكرهم بما جربوه في حالة اضطرارهم من إجابة دعائهم فقليلاً ما يتذكرون؛ لكثرة إعراضهم وإصرارهم على الشرك.

﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ بما جعل من النجوم التي تنير بعض الإنارة وتُتّخذ علامات للجهات يعرف بها جهة شرق وجهة غرب وكذلك الشمال والجنوب فيهتدَى بها للجهات التي يريدها المسافرون في الليل سواء في البر أم في البحر، ونور القمر في أول الشهر لأول الليل، وفي آخر الشهر للمسافرين في آخر الليل، ويعرف بالقمر أيضاً الجهات فالله تعالى هو الذي خلق النجوم وقدر لها أماكنها في فلكها وقدر لها سيرها بنظام محدد، وهو الذي خلق القمر وقدره منازل بنظام محدد، أما شركاء المشركين فلا تهديهم أيَّ هداية في أيِّ حال من الأحوال.

وقوله تعالى:﴿وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ أي متقدمة للمطر يرسل الرياح فتثير سحاباً تنشره في الهواء ويأتي الله بعد الرياح بالمطر، وقرئ بشراً بالباء أي مبشرات بالمطر، وشركاء المشركين لا يفعلون شيئاً من ذلك ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ تعالى بما أظهر من دلائل عظمته وجلاله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وفضله على عباده ورحمته لهم.

وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ

﴿تَعَالَىٰ﴾ بذلك وبغيره ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من الأوثان التي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر فعزّ وجلّ عن أن يكون له ند أو عديل أو شريك.

﴿٦٤﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ يخلقه أول مرة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في النشأة الأخرى، وقدرته على الإعادة يدل عليها أنه قدر على الإبداء وخلاف المشركين في ذلك ليس الشرك مبنياً عليه بمعنى أنهم رتبوا الشرك على نفي البعث بل كل واحد من الشرك ونفي البعث مستقل عن الآخر، فيمكن أن يثبتوا البعث مع إصرارهم على الشرك، أو يقروا بوحدانية الله وبطلان الشرك مع إصرارهم على نفي البعث، فصح الاحتجاج عليهم ببدء الخلق وقدرة الله تعالى على إعادته وأنه سيعيده في إبطال شركهم بمن لا يقدر على بدء ولا إعادة، سواء أقروا بالإعادة أم جحدوا؛ لأن قدرته على الإبداء بإقرارهم دليل على قدرته على الإعادة؛ وبذلك قد احتج عليهم في القرآن في مواضع متعددة، وليس من شرط الاحتجاج أن يكون بما يثبته الخصم ويقر بصحته، بل إما بذلك وإما بما قد لزمه الإقرار به؛ لثبوت الحجة عليه وعدم المعارض لها عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حجة واضحة على أنه المنعم على عباده مع أن شركاءهم لا يرزقونهم لا بكثير ولا قليل لا من السماء ولا من الأرض، والله تعالى هو الذي ينزل المطر رزقاً لهم وينبت لهم به الزرع وغيره كما فصله في (سورة النحل) وغيرها من القرآن، وهم يعلمون ذلك، فالله هو ربهم الخالق الرازق، فعليهم أن يعبدوه وحده.

يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ تذكير لهم بأنه لا برهان لهم على ما يدعون من الشرك وقد قام البرهان الواضح على بطلانه، فما بقي إلا أن يرجعوا إلى الحق أو يعاندوا الحق بلا حياء من الكذب ولا خوف من عذاب الله.

﴿٦٥-٦٦﴾ ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ * بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ﴾ إعادة الأمر بالقول لرسول الله ص ليحتج ثانياً على المشركين ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي لا يعلم أحد الغيب ونص على من في السموات؛ ليعلم المشركون بالملائكة أنهم ليسوا أنداداً لله، وكذا من في الأرض ممن يشرك به نوع من المشركين لا يعلمون الغيب، ولما كان المراد بقوله تعالى: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ﴾ لا يعلم أحد الغيب جاء الاستثناء منه على المعنى برفع الجلالة؛ لأنه سواء عند العرب الذين يفهمون من عموم ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ كل أحد، فسواء قيل من في السموات والأرض أو قيل لا يعلم أحد، وإن شئت قلت: لا يعلم من في السموات والأرض مضمن معنى لا يعلم أحد، فجاء الاستثناء على المعنى المضمن؛ لأن المقصود التعميم وبالله التوفيق.

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي من في السموات والأرض ﴿أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ وهذه خصلة من الغيب تشير إلى أنهم عباد مربوبون يرجعون إلى الله ليجزيهم بما كانوا يعملون.

لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَـٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ

﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ وقع الخروج من الاحتجاج على المشركين لنفي الشرك إلى إنذارهم في نفيهم للبعث، وهذا الخروج يسمى في علم البيان تخلصاً، وذلك بواسطة قوله تعالى:﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾.

فقوله تعالى:﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ﴾ إضراب مع الرد عليهم في الشرك إلى بيان جهلهم بالآخرة، وذلك يفيد: أن جرأتهم على الشرك وعلى الإعراض عن آيات الله والتكذيب بها بسبب جهلهم بالآخرة؛ لأنهم لو علموا أنهم يسألون يوم القيامة ويعذبون لخافوا واستمعوا للنذير ولم يعرضوا عن آيات الله ولا تجرؤوا على التكذيب بها، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً * كَلاَّ بَلْ لاَ يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ [المدثر:٤٩-٥٣].

فقوله تعالى:﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ نظير هذا تدارك علمهم تتابع في التهافت والسقوط ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ فليسوا عادمين العلم فحسب، بل أشد من ذلك أنهم في شك، ففاقد العلم قد يكون معتقداً اعتقاداً جازماً أو ظاناً ظناً قوياً، لكن هؤلاء المشركون أسوأ حالاً من فاقد العلم.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا﴾ تردد هل هي حق أو لم تكن ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ عميت بصائرهم لاستحقاقهم الخذلان فهم لا يهتدون للعلم بها كالأعمى لا يهتدي للطريق، وهذا أبلغ من الشك؛ لأن الشك يرفعه العلم إذا كانت البصيرة سليمة ونظر في الدليل، أما إذا عميت فهو لا يزال في شك.

أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عميت بصائرهم وشكوا في الآخرة فتجرؤوا على الجدال بالباطل في الآخرة وفي صدق الرسول وفي القرآن.

وقالوا في جدالهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أي في القبور قد استحالت عظامنا تراباً ﴿وَءَابَآؤُنَآ﴾ قد تربت أجسادهم كذلك ﴿أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ من القبور ونحن تراب فيها، فجعلوا هذا الإستبعاد حجة لهم بنفي البعث ولتكذيب الرسول؛ لأنه أبلغهم أنهم يبعثون في الآخرة؛ ولتكذيبهم بالقرآن؛ لأنه أنذرهم الآخرة، وقد أبطل الله تعلقهم بهذا الإستبعاد بقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء:١٠٤] وقوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس:٨١] وغيرهما، فلم يرد عليهم هنا إلا بالوعيد.

نعم تعلقوا بذلك، وأكدوه بقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾ على لسان الرسل الماضين أي فلم يقع ما وعدنا به كأنهم قالوا: قد جربنا هذا في الوعد الماضي لم يقع ما وعدنا به وآباؤنا، فكذلك هذا الوعد في القرآن سيكون مثل الوعود السابقة، وهذا الأسلوب في إيراد الشبهة شديد على من يريد الجواب؛ لأنهم طووا في كلامهم ما هو شبهتهم واقتصروا على ذكر الوعد الماضي.

والجواب لإبطال شبهتهم يكون أولاً بالتصريح بما طووه، ثم بإبطاله، لكن القرآن أعرض عن جدالهم؛ لأنهم لا يريدون الحق، وبطلان شبهتهم واضح؛

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى

لأن الوعد بالبعث غير محدد بسنين معدودة أو مدة معينة، فلا يصح قولهم: لم يقع؛ لأنه سيكون ما وعد به الأولون أو الآخرون وعند ذلك يعلمون صدق الوعود كلها فيقولون هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعنون به ما هذا أي القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ﴾ جمع أسطورة وهي ما سطر من أخبار الماضين وأرادوا ما هذا من عند الله ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان:٥].

﴿٦٩﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا۟﴾ أي قل يا رسول الله لهؤلاء المكذبين الذين لا يخافون الآخرة ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتروا آثار المكذبين قبلكم الذين دمرهم الله فانظروا كيف كان عاقبتهم أهلكهم الله؛ لأنهم كانوا مجرمين كذبوا رسلهم وعادوهم فاحذروا العذاب العاجل أن ينزل بكم كما نزل بهم.

﴿٧٠﴾ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تحزن عليهم فهم ظلموا أنفسهم وتعرضوا لعذاب الله ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تكن في ضيق بأن تخاف على دين الله أن يضيع بما يمكرون بما يدبرون من المكائد ضدك وضد ما جئت به لا تخف بل توكل على الله فهو مظهر دينه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

﴿٧١﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي أخبرونا ﴿مَتَىٰ﴾ اليوم الموعود به الذي هو يوم القيامة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم أنه سيكون.

ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ

وهذا منهم إما على توهم أن من يعلم أنه سيكون فيلزم منه أن يكون عالماً متى يكون؛ لأن الأمرين كلاهما مغيب، فمن يعلم الغيب يعلم اليوم إن كان واقعاً ويعلم متى يكون، وجوابه: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الملك:٢٦] لا أدعي علم الغيب إلا ما علمني الله وإما تعنُّتٌ منهم ليجعلوا هذا الإقتراح وسيلة لتكذيب الوعد بالقيامة، وليس لهم حق في هذا؛ لأنه تحكم على الله تعالى.

﴿٧٢﴾ ﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ لحقكم قريباً. قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي ردفكم بعضه وهو عذاب يوم بدر، واللام مزيدة للتأكيد؛ لأن معناه تبعكم ولحقكم، أو ضمن ردف معنى دنى لكم)) انتهى. وفي (الصحاح): ((وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه)) انتهى.

فأما الترجي بقوله: ﴿عَسَىٰٓ﴾ فصحيح؛ لأن الكلام الذي هو مقول القول كلام الرسول فإذا أمره الله أن يقول:﴿عَسَىٰٓ﴾ وهي للترجي فقد أمره أن يرجوَ، والآية هذه مثل قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء:٥١] إلا أن المترجَّى هنا يوم البعث، وفي آية ﴿رَدِفَ﴾ بعض ما يستعجلون أعم من العذاب العاجل أو الآجل، وقوله: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ يفيد: أنهم قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ استبطاء له بمعنى طلب تعجيله إن كان حقاً كقول قوم صالح: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

﴿٧٣﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ إنعام ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بالرسول والقرآن وبكل الآيات،

مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى

فنعمة الهدى أعظم النعم لمن اهتدى وكذلك فضل على الناس بتأخيرهم إذا عصوا حتى يراجعوا أنفسهم ويتوبوا إن شاؤوا، ومع ذلك لا يمنعهم فضله بل يمتعهم إلى آجالهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فالمسئولية عليهم في كفرهم وله الحمد والشكر وإن لم يشكروا وهو الغني الحميد.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي أرسلك ﴿لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفي صدورهم وهو ما يضمرون من عقيدة باطلة أو من نية سيئة أو من غير ذلك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يظهرونه لك أو لغيرك فهو عالم بذلك كله ومجازٍ لهم بما يستحقون ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ﴾ وهي ما غاب عن المخلوقين أو ما أخفي عن بعضهم فغابت عنه في السماء غابت أو في الأرض، فكل ذلك لا ينساه الله، بل لا يزال عالماً به، فأعمالهم وسرائرهم لا ينسى منها شيئاً.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × : معناه في علم الله [أي في كتاب مبين] والكتاب مثل من الأمثال يستدل به على حفظ الله ذي الجلال)) انتهى.

﴿٧٦-٧٧﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ معجزة أنزله الله ودل على أنه منه بوجوه:

بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا

منها: إعجازه للعرب تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يفعلوا كما أخبر تعالى أنهم لن يفعلوا.

ومنها: إخباره بمغيبات مثل أن الروم سيغلبون، ومنها: قصص الحق المطابق لما في كتب أهل الكتاب.

ومنها: القصص بالحق فيما قد اختلف فيه بنو إسرائيل فبين القرآن الحق في المختلف فيه بينهم، مع أن محمداً ص لم يقرأ الكتب ولم يخط كتاباً مع أن هذا لا يمكن مثله بل يحتاج من يستعرض أقوال المختلفين وينتقدها ثم يختار أصحها وأوفقها للحق وأسلمها من النقد يحتاج من يفعل هذا إلى اطلاع كامل في الكتب وتمكن من تحصيل الكتب التي يحتاجها للبحث، وبعد البحث الكامل يحتاج إلى أن يكون له علم بسنن الله في الكون وعلم بنفسيات الناس؛ ليستطيع التفوق على المختلفين فيما يختاره ويعينه من قوله في موضوع الخلاف، ونبيئنا محمد ص ليس له شيء من ذلك إلا العلم بسنن الله في الكون والعلم بنفسيات الناس إن كان يعلم ذلك قبل نزول القرآن، فما جاء في القرآن من بيان الحق في المختلف فيه يتبين بلا شك أنه من الله علام الغيوب.

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿لَهُدًى﴾ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وهو هدى للمؤمنين إلى صراط مستقيم، ورحمة؛ لأنه شفاء يؤدي إلى سلامة القلب من كل عيب فيؤدي إلى السلامة من عذاب يوم عظيم.

﴿٧٨﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول ﴿يَقْضِى بَيْنَهُم﴾ أي بين بني إسرائيل فيما كانوا فيه يختلفون، يحكم

مُدۡبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةً

بينهم يوم القيامة فينصر المؤمنين ويعاقب المخالفين للحق بعدما جاءهم العلم؛ لأنهم لم يختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم، وقوله تعالى: ﴿بِحُكۡمِهِۦ﴾ اما حكمه على المبطل بأنه مبطل لا عذر له وأنه مستحق للعقاب وحكمه للمحق بأنه اتبع الحق واستحق الثواب، وإما بحكمه الذي هو الجزاء بما يستحقون ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فلعزته يجزي أعداءه بالعذاب العظيم ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ العليم بما قدموا في الدنيا من الجرائم وبكل شيء فيجزيهم الجزاء الأوفى.

﴿٧٩﴾ ﴿فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ توكل على الله في قيامك بما يجب عليك من تبليغ الرسالة في حال تكذيب المكذبين وعناد المعاندين وعداوة المعادين ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ﴾ وأعداؤك على الباطل فَكِلْ أمرك إلى الله واثبت على ما أنت عليه، فمن حق المحق أن يثبت على أمره وأن لا يبالي بمن خالفه، ومن حق المؤمن وبالخصوص الرسول ص أن يكل أمره إلى الله فيما كلف به فيطيعه مفوضاً أمره إلى الله إن شاء نصره وقهر أعداءه وإن شاء ابتلاه بالكفاح بينه وبينهم وإن شاء رزقه الشهادة، فهذا معنى التوكل على الله، وفائدته الثبات على طاعة الله، وأن لا يصرفه عنها تجويز قهر الأعداء واحتمال أن يقتلوه وفي ذلك أجر عظيم، والتوكل واجب على الرسول ص وعلى كل مؤمن.

﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ تشبيه للمكذبين بالموتى، وهذا فيمن خذل واستولى

عليه الشيطان فهو كالفاقد للحياة الذي لا يسمع من دعاه؛ لأن قلبه قد فقد الصلاحية لقبول الإنذار أو قبول النصح أو قبول الحق، فهو لا يتأثر بإنذار ولا بحجة واضحة كأنه ميت.

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ لا تُسمِعهم إذا دعوتَهم إلى الهدى؛ لأنهم صم وقد ولوا عنك لا يريدون سمعك، فاجتمع فيهم ثلاثة موانع: الصمم، والإدبار؛ لأن الأصم إذا واجه من يكلمه يفهم كلامه بحركة شفتيه، فربما سمعه لانضمام الرؤية إلى السمع، فأما المدبر فقد فاتته هذه الوسيلة، والثالث: أنه لا يريد أن يسمعه؛ لأنه في هذه الحالة يعرض عن استماعه، فيكون أبعد عن سمعه، وقد شبه المكذبون بأهل هذه الموانع، وفائدة هذا أن ييأس الرسول ص منهم فلا يتعب نفسه في محاولة إيمانهم بعد أن قد بلغهم وقامت عليهم الحجة ولم يبقَ له سبيل إلى جعلهم مؤمنين باختيارهم.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ﴾ أي لا تجعلهم مهتدين للطريق في حال ضلالتهم عنها، وهؤلاء المكذبون مثلهم، لأن بصائرهم قد عميت فضلوا ولن تهديهم ﴿عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾ لأن بصائرهم قد عميت عن الهدى.

وقوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ﴾ أي لا تسمع ﴿إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ حين يسمعها؛ لأن نيته قبول الحق، ليس متكبراً ولا حاسداً ولا متعصباً، فمتى سمع آيات الله آمن بها؛ لأنه ما زال على فطرة سليمة ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ وجوههم وأنفسهم لله لا يشركون به شيئاً؛ لأنهم قد آمنوا بآيات الله، فبعثهم الإيمان إلى الإسلام، ولا يدل هذا على أن الإسلام يتوقف على الإيمان؛ لأن إسلام الوجه والخروج من الشرك قد يكون لسبب سابق قبل الإيمان كما يكون بسبب الإيمان ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا

﴿٨٢﴾ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ صدق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وتعينوا في دلالته عليهم، والقولُ: الوعيد مثل: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ..﴾ الآية [الأعراف:١٨] وذلك بما ظلموا وأصروا على الإعراض عن آيات الله وترك الإيمان بها حتى صار بينهم وبين الإيمان بُعْد، وعلم الله أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا خارق للعادة؛ لأن الدواب إنما تحصل بالتناسل وإذا ماتت لم تخرج إلا أنها ستخرج يوم البعث فهي آية عظيمة تدل على قدرة الله تعالى على البعث، فهي من مصداق قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ..﴾ الآية [فصلت:٥٣] وأعظم من ذلك أنها ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ فالدواب لا تتكلم، فإذا كلمت الدابة كان تكليمها أمراً عظيماً وهائلاً لمن كلمته، وكفى بهذا الكلام دلالة على هذا الأمر المغيب الذي سيكون قبل يوم القيامة وعند وقوعه بهاتين الصفتين: الخروج من الأرض، والتكليم للناس فعند ذلك يعلم أنها هي ما وعد الله به في القرآن، فتكون دليلاً على أن القرآن كلام الله كما هي دليل على إمكان البعث.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تعليل لهذه الآية العظيمة التي تضطرهم إلى العلم بإمكان البعث وبأن القرآن كلام الله سواء أقروا أم جحدوا، فهي كناقة الله لقوم نبيه صالح × .

نعم.. هذه الدابة الله أعلم بها أهي دابة واحدة، أم هي جنس يخرج منه في كل قطر دابة أو أكثر، كقوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ:١٤] فإن الظاهر: أن الذي أكل منساته جنس دابة الأرض أي عدد كثير اجتمع فأكلها حتى انكسرت وخر سليمان × .

جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا

﴿٨٣﴾ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ الراجح في هذا الحشر: أنه حشرهم إلى جهنم، كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٦٩] والفوج: الجماعة الكبيرة، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١] فالأكابر من الأمم يقدمون قبل الأتباع وهذا تحذير من التكذيب بآيات الله، وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ كقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت:١٩] والوزع: المنع، ولعله هنا ـ والله أعلم ـ وزعهم عن محاولة العدول عن التوجه إلى النار يميناً أو شمالاً في المحشر ـ والله أعلم ـ فأما تفسيره: بحبس أولهم حتى يلحق آخرهم أو برد أولهم إلى آخرهم فهو بعيد.

﴿٨٤-٨٥﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ حيث حشرهم إلى جهنم فالراجح أنهم جاؤوا جهنم قبل الوقوع فيها أو بعده.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾ توبيخ لهم واحتجاج عليهم يبين أنهم قد وقع القول عليهم، وقوله تعالى:﴿وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ يبين أنهم كذبوا بها مع إعراضهم عنها وترك النظر في صحة دلالتها تكبراً وظلماً، وقوله تعالى:﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي حين كذبتم بها من دون أن تنظروا فيها وتسمعوا قول النذير الذي جاء بها أيّ عمل شغلهم عن النظر والتفهم للآيات وهم قد أنذروا جهنم، فلم يكن لهم عمل يستحقوا الإشتغال به عن النظر في آيات الله.

ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن

﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم﴾ صدق عليهم الوعيد ﴿بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ..﴾ الآية [فصلت:٢٠] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ...﴾ الآية [يس:٦٥].

﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ احتجاج بقدرة الله تعالى التي لا تقاس على قدرة المخلوقين وبنعمته على عباده التي تستدعي منهم الشكر والإيمان بآياته الدالة على الآخرة وعلى صدق الرسول الذي بلغهم الآيات الماضية التي تنذر المكذبين عذاب الآخرة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في جعل الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً لمعاشهم ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ دلائل تبطل شركهم بمن لا يقدر على شيء ولا ينعم عليهم بشيء، وتبطل تكذيبهم باليوم الآخر لمجرد استبعاد القدرة على بعث الأموات وتبطل احتجاجهم بهذا الإستبعاد لتكذيب النذير، كما أن آيتي الليل والنهار تدل على قدرة الله تعالى وعلمه بكل شيء ورحمته وفضله لعباده بتسخير الشمس لهم وتيسير تحديد مواجهتها للناس بحيث لا تضرهم بحرها ولا تجفف أشجارهم وغيرها ولا يتعبهم طول النهار عليهم، وكذلك تحديد غيابها عنهم حتى لا يطول عليهم الليل فيحاصرهم عن طلب المعاش ويشتد الجوع والبرد..

وغير ذلك من الآيات في تصرف الخالق في الأرض والشمس مع بُعد المسافة بينهما ومع استمرار هذا التصرف لحاجة الإنسان إليه.

شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم هم المنتفعون بالآيات دون المعاندين المكذبين سواء كان المراد يؤمنون بالآيات إذا جاءتهم أي شأنهم أن يؤمنوا أم يؤمنون بالفعل.

وقد جاءت هذه الآية بعد الوعيد كما هي عادة القرآن في ذكر الدلائل بعد الوعيد مثل سورة الواقعة.

﴿٨٧﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أُعيدَ ذكرُ الوعيد بعد ذكر الآية على صدقه كما يؤتى به في القرآن في بعض المواضع بعد ذكر الآيات مثل (سورة عم) وتجديد لذكر الآخرة ليتذكر الإنسان كما وقع في (سورة الروم): ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [آية:١٢] ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [آية:١٤].

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ الراجح: أنها عبارة عن الصيحة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لثقل الساعة وخوف المخلوقين منها ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن لا يفزعوا فهم لا يفزعون، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾.

﴿وَكُلٌّ﴾ أي وكلهم أي أهل السموات والأرض ﴿أَتَوْهُ﴾ ليسألهم ويجزي كل نفس بما تسعى، فلا بد من حضورهم في موقف السؤال.

مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ

وقوله: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ قال فيه في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((أي صاغرين خاضعين)) انتهى. ومثله في (مصابيح الشرفي) قال (صاحب الصحاح): ((الدخور: الصغار والذل)) انتهى.

﴿٨٨﴾ ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ ﴿وَتَرَى﴾ عطف على ﴿فَفَزِعَ﴾ وما بعدها ترى الجبال يوم القيامة في حال كونك ﴿تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ على أصلها ﴿وَهِيَ تَمُرُّ﴾ في الجو ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ لأنها قد صارت غباراً يحمله الهواء، وفسروا ﴿جَامِدَةٗ﴾ بأنها ساكنة، ويحتمل: أن المراد به أنها باقية على أصلها غير متفتتة مجاز من جمود السوائل.

ولعل بعضهم أخذ التفسير بسكونها من مقابلته بقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ ولكن مرورها لازم تحطمها ومصيرها غباراً والله أعلم، ويمكن أخذ الجمود للسكون مجازاً؛ لأن الجامد يسكن والسائل يتحرك، وقوله: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ﴾ قال الراغب: ((الصنع: إجادة الفعل، فكل صنع فعل وليس كل فعل صنعاً)) انتهى المراد.

فالعبارة تدل على أن تسيير الجبال فعل محكم لا مجرد تخريب، كما أن تشقق السماء وتساقط النجوم وتغيير الشمس والقمر كل ذلك مطابق للحكمة ﴿ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ لأنه حكيم فكل صنعه في الدنيا والآخرة محكم ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ فلذلك جاء بالقيامة لتجزى كل نفس بما تسعى.

﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا

﴿٨٩-٩٠﴾ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَن جَآءَ﴾ موقف السؤال والحساب ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ مصحوباً بالحسنة أو أحضرها معه؛ لأن عمله لازم له ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أضعافها، فله عشر حسنات أو أكثر ﴿وَمَن جَآءَ﴾ ذلك الموقف بالسيئة، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:١٣].

وقوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ جعلت وجوههم أسفل مباشرة لجهنم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨] والسيئة هذه هي التي خرج بها من التقوى تعم الشرك والجرائم التي أصر عليها صاحبها حتى مات، كما أن الحسنة هي الإيمان والعمل الصالح الذي هو شأن المتقين؛ لأن هذه الآية فسرها القرآن في مواضع كثيرة، فالإجمال فيها على وجه الإحالة على غيرها من القرآن، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يكون مع تعذيبهم إخبارهم أنهم إنما يجزون ما كانوا يعملون، وذلك تعذيب بالإهانة وإدخال الندم عليهم.

﴿٩١﴾ ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي قل يا رسول الله ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ الله أي وحده لا شريك له؛ لأنه ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ وهي مكة حرم الكعبة ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ فلا يجوز القتال فيها.

يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٣﴾

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ ليس ملكه خاصاً بهذه البلدة بل له كل شيء، فأنا عبده وكل الناس له ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:١٦٤] فهو المستحق للعبادة لا غيره ﴿وَأُمِرۡتُ﴾ أي أمرني ربي ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أسلم نفسي له لا أشرك معه غيره.

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ﴾ عطف على ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أمرت أن أتلو القرآن على الناس ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ لسماعه المعجزة الكبرى والهدى والنور ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ﴾ لينقذها من عذاب الله ويفوز بثوابه، فالنفع له ولا يزيد في ملك الله شيئاً؛ لأنه غني عن عمله ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عند سماع القرآن فلم يؤمن ﴿فَقُلۡ﴾ لهم ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ بعذاب الله لمن ضل ولستُ مكلفاً بإجباركم على الإيمان.

﴿٩٣﴾ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَقُلِ﴾ عطف على أمره بالقول الماضي المقدر في تلقينه بقوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ أي قل: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فقد عظمت نعمته بما نزل من الهدى وأوضح من البينات ﴿سَيُرِيكُمۡ﴾ أيها الكافرون ﴿ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَا﴾ آيات ودلائل تدل على صدق وعده ووعيده وصدق رسوله وكتابه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((في قول الله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تهديد لهم بما يريد من آيات الآخرة الملجئة لهم إلى المعرفة حين لا تنفعهم في الآخرة، فيعرفونها على ما قال في الدنيا)) انتهى المراد. وعند ذلك يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فليس بغافل عما تقوله للمشركين، وما يجيبون بـه، ومـا تـبلغهم، وما يقابلونك به من التكذيب وغيره وكل ما تعملون هو عالم به، فهو يجزي كلاً منكم بعمله.

والحمد لله رب العالمين

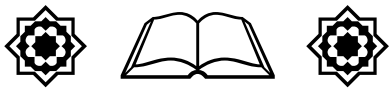

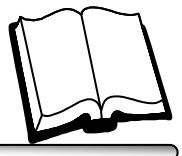

التيسير في التفسير

سورة القصص

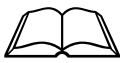

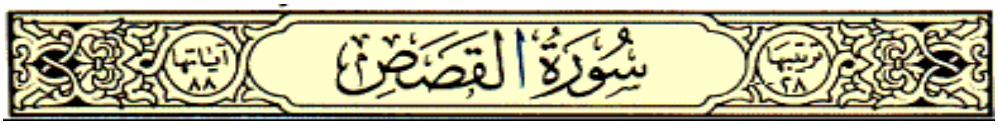

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

ابتداء تفسير (سورة القصص)

قال الشرفي في (المصابيح): ((مكية، قال في (البرهان): إلا آية منها نزلت بين مكة والمدينة وقيل: بـ(الجحفة) وهي: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾)) انتهى.

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ الإشارة إلى الحروف التي تألّف منها القرآن، والدليل على ذلك أن هذه الإشارة إنما تأتي في أوائل السور بعد الحروف، مثل: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ..﴾ [البقرة:١-٢] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف:١] ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ..﴾ [الرعد:١] ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:١] ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء:١-٢] ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:١] ﴿طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص:١-٢] ﴿الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان:١-٢] ﴿حم * عسق * كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى:١-٣] ولا نعلم سورة أولها الإشارة بدون ذكر الحروف، فظهر أن الإشارة إلى الحروف يبين أن القرآن مؤلف منها، وأوحي كلاماً مؤلفاً منها فهو وحي للكلام حقيقي بلفظه وحروفه لا مجرد وحي المعنى.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يصفه بأنه يبين للناس الهدى وبينات من الحق في أنواعه من أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص وأمثال وغير ذلك، أو هو كتاب مبين بمعنى بيِّن واضح الدلالة على معانيه، والأول أرجح وإن كان مجازاً في الإسناد فهو قريب.

وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ

وقد تكرر إسناد (البيان) إلى القرآن مثل: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ..﴾ [الإسراء:٩] ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ..﴾ [المائدة:٤٨] وغير ذلك، وقد مر أبسط من هذا.

﴿٢﴾ ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ﴾ خطاب لرسول الله ص الذي أنزل الله عليه هذا القرآن ﴿نَتْلُواْ﴾ نقرأ ﴿عَلَيْكَ﴾ والتعبير بالتلاوة لعله باعتبار أن جبريل × متبع في قراءته لما علمه الله فكان تالياً له على محمد ص؛ وأسنده إلى الله لأنه بأمره أرسل به جبريل إلى محمد فهو تلاوة من الله تعالى على عبده ورسوله محمد ص.

وقوله: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ أي من خبرهما العظيم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ راجع إلى قوله: ﴿نَتْلُواْ﴾ أي نتلو بالحق، ليس فيما نتلو خلاف الحق؛ لأنه الحق الذي هو صدق، والإخبار به مطابق للحكمة ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ نتلوه بالحق لقوم يؤمنون وهم رسول الله ص وسائر المؤمنين الذين بلغهم، فالتلاوة لهم؛ لينتفعوا بها من حيث دلالتها على أنك رسول الله؛ لأنك جئت بهذا القصص الكامل المفصل مع أنك لم تقرأ كتاباً ولم تكتب ولا تعلمت من أهل الكتاب كما هو واضح لقومك؛ لأنك باق في مكة لا تغيب عنها مدة يحتاجها المتعلم، فهذه التلاوة نافعة لقوم يؤمنون بآيات الله ودلائله؛ لأنهم مقبلون عليها بقلوبهم.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ طغى طغياناً منتشراً في الأرض ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ جعل

ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ

أهل الأرض ﴿شِيَعًا﴾ أحزاباً كل حزب يشايع بعضه بعضاً، ونسبة هذا إلى الأرض جملة قيل: المراد به مصر فقط، وهو خلاف الظاهر.

ويمكن أن فرعون جعل أهل مصر أحزاباً وجعل مَن عداه دولاً متفرقة كما يفعل طغاة هذا الزمان؛ فيقوي الدولة الضعيفة لتبقى ضد دولة أخرى، فالأَولى حمل الكلام على ظاهره وهو أن فرعون طغى في الأرض عموماً كطغيان أمريكا في هذا الزمان وجعل أهل الأرض شيعاً كل حزب يشايع بعضه بعضاً في حال كونه ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ من أهل الأرض وهم بنو إسرائيل، واستضعافهم ظلمهم في حال ضعفهم وبسبب ضعفهم؛ لأنه تمكن من ظلمهم فظلمهم.

قال في (لسان العرب): ((واستضعفه، وتَضَعَّفه: وجده ضعيفاً فركبه بسوء الأخيرة عن ثعلب)) انتهى.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ طغياناً وفساداً ﴿وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ يتركهن لا يقتلهن؛ ولعل غرضه في النساء تحميل أهلهن كلفة الإنفاق عليهن؛ ليبقوا فقراء ضعفاء خدماً ولِيخْدِمنَ إذا كبرنَ ـ والله أعلم ـ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي فرعون ﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فاستضعافه لبني إسرائيل جزء من فساده الذي هو عادته.

۝ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ﴿نَّمُنَّ﴾ ننعم نعمة زائدة على النعم الأولى التي كانت في حال استضعافهم في الأرض، وهذه عامة فمثلاً منَّ على آل إبراهيم بتمكين يوسف، ثم منَّ على بني إسرائيل بتمكينهم، ثم منَّ على العرب بتمكين الإسلام في عهد الرسول ص وبعده.

تَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ

ونرجو أن يمنَّ على ذرية الرسول المستضعفين في هذا الزمان، فقد استضعفوا في عهد الأموية وبعض عهد العباسية ثم مكنوا في اليمن والمغرب وبعض إيران، ثم استضعفوا إلى اليوم شهر ربيع الثاني من عام ١٤٢٤هـ.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ متبوعين يقتدى بهم لعزتهم بعد الذل ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ للأرض بدولتهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ..﴾ الآية [الأعراف:١٣٧] وفي تمكين آل رسول الله ص تجديد للدين، وتمكين للإسلام، فقد استُضعف المسلمون وقامت أمريكا بإفساد الإسلام والتعدي على المسلمين والتغيير عليهم في الدين والدنيا، فنسأل الله تعجيل الفرج.

﴿٦﴾ ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الحسين بن القاسم × ـ أي في ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ـ: ونمكنهم بالأمر والنهي ونحكم لهم بالخلافة والإمامة ونورثهم الأرض من بعد أهلها، يعني بذلك كل من يستحق الإمامة من بني إسرائيل الذين كانوا يستضعفون)) انتهى.

﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ أي من المستضعفين ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من غلبة المستضعفين وهلاك فرعون وقومه على أيديهم، ففرعون في جبروته وطغيانه يسعى في تقوية ملكه وضعف بني إسرائيل والله تعالى يدبر لذهاب ملكه وهلاكه ونصر بني إسرائيل.

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ

﴿٧﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾ ظاهره أنه وحي من الله ولو بواسطة الملائكة فيه أمرها بإرضاع موسى وإلقائه في البحر إذا خافت عليه من فرعون وفيه نهيها عن الخوف، بمعنى أنه لا بأس على موسى ونهيها عن الحزن عليه؛ لأنه لا موجب له لأن الله يرده إليها، وفيه بشارة بذلك وبجعله من المرسلين.

فظهر: أنه وحي حقيقي تفهمه وتوقن به وتوقن بأنه حق؛ ولذلك امتثلت فجعلت مولودها في تابوت وقذفته في اليم.

﴿٨﴾ ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ التقطه آل فرعون أخذوا موسى من الساحل حيث كان البحر قد ألقاه وانحسر عنه ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ التقطوه لينجوه من القتل ويعيش حتى يكون لهم عدواً وحزناً، أي أخذوا موسى وهم لا يعلمون أنه موسى ولا أنه سيكون لهم عدواً وحزناً، ولكن الله دبّر له ذلك وهم لا يريدونه، فكان لهم عدواً حين أرسله الله إليهم وكذبوه وحزناً حين خافوا ذهاب ملكهم وحين هلكوا في البحر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أي وزير فرعون ﴿وَجُنُودَهُمَا﴾ عسكرهما الذين هم أنصارهما وأعوانهما ﴿كَانُوا۟﴾ كلهم ﴿خَٰطِـِٔينَ﴾ مذنبين مستحقين ليكون لهم عدواً وحزناً.

ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٠

۝٩ ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ﴾ أي هذا الوليد قرة عين سبب لسرورنا ﴿لِّي﴾ أُسرُّ به ﴿وَلَكَ﴾ سبب لسرورك وذلك لأنهما أحباه فرؤيتهما له سبب لسرورهما.

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ﴾ فيذهب قرة العين ﴿عَسَىٰٓ﴾ إذا بقي ﴿أَن يَنفَعَنَآ﴾ بالخدمة ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ نسرُّ به وبحضوره عندنا ويكون قوة لنا ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ لا يعلمون بعاقبة أمره، أما امرأة فرعون فكانت مؤمنة وكانت نجاة موسى تسرها على كل حال.

۝١٠ ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿فَٰرِغًا﴾ لا لبّ فيه من خوفها على ابنها، كقوله تعالى: ﴿وَأَفۡئِدَتُهُمۡ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] فقد غلبها الخوف وغيّر ذهنها ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ لتظهر سر أمره وتخبر به خطأ وانقياداً لداعي النفس إلى إظهار الحزن والخوف ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ فانتبهت وحفظت سرها، والربط على القلب تقويته بحيث تحمَّلت فقده وتقوّى رجاؤها لسلامته وتذكرت وعد الله لها بردّه إليها وجعله من المرسلين، فآمنت بوعد الله لها ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لتؤمن بوعد الله في تلك الحالة فتكون من المؤمنين الذين يؤمنون بوعد الله ويعلمون أنه الحق.

وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى ﴿لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ ابحثي عنه بطلب أثر له تعرفينه به وتعرفين حاله. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: اتبعي أثره)) انتهى، ولعلها تريد أن تنظر لعلها ترى خِرقة من خرقه قد غسلت وجعلت في الشمس فتعرفه بها أو نحو ذلك ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ﴾ أخته علمته بطريقة فطنت لها بذكائها ﴿عَن جُنُبٍ﴾ بصرت به بواسطة مكان مجانب لمكانه بعيد عنه وقعت فيه فرأت موسى وعرفته حياً، قال في (الصحاح): ((وبصرت بالشيء: علمته)) انتهى ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تبحث عنه وأنها قد علمته.

﴿١٢﴾ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ جعلناه يأبى الرضاع ولا يطاوع عليه؛ لأنا منعناه المرضعات بصرفه عنهن ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن تطلع عليه أخته؛ ولعله من حين التقطوه فلم يرضع عندهم أصلاً حتى خافوا عليه الموت من العطش والجوع ﴿فَقَالَتْ﴾ أخته لعلها احتالت بعدما علمته لتصل عنده، مثلاً أهدت لامرأة فرعون هدية حتى وصلت عندها فوجدتهم في مشكلة من امتناعه من الرضاع.

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ كأن أصل الدلالة على الشيء أن تكون لطالبه كدلالة المسافر على الطريق ودلالة المريض على الدواء؛ فلكون آل فرعون في مشكلة وخوف على موسى من عدم الرضاع قالت أخته: هل أدلكم لحل مشكلتكم ﴿عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ يحفظونه ويحضنونه ويرضعونه.

عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ

قال في (الصحاح): ((والكافل الذي يكفل إنساناً يعوله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران:٣٧]))انتهى ونحوه في (لسان العرب) و(القاموس).

وقولها: ﴿لَكُمْ﴾ في سياق السؤال؛ لأنهم يريدون من يكفله لهم لحل مشكلتهم ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ فلا يقصرون في كفالته ولا يفرطون في حفظه.

قال الشرفي في (المصابيح): ((والنصح: إخلاص العمل من شوائب الفساد)) انتهى. وقال الراغب: ((النصح: تحري فعل أو قول فيه صلاح صاحبه..)) إلى قوله: ((وهو من قولهم: نصحت له الودّ أي أخلصته)) انتهى.

﴿١٣﴾ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَرَدَدْنَٰهُ﴾ بواسطة سعي أخت موسى، وهذا من أفعال الله تعالى التي تكون بواسطة فعل العبد بخلق الرغبة في الفعل ومنع الصارف عنه ليقع، وقد تكررت هذه النسبة ولها حكمها، فالله تعالى يحمد عليها ويشكر، وذلك دليل صحة إسنادها إليه تعالى.

والمراد أن الفعل الواحد في بعض الحالات يكون له نسبة إلى العبد بحيث يمدح على الفعل ويثاب عليه ونسبة إلى الله تعالى بحيث يحمد عليه ويشكر، وقد يكون من آيات الله تعالى وإن كان فعل العبد، نحو قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المرسلات:٢١] فهو آية باعتبار نسبته إلى الله تعالى، وهو من فعل العبد قد يثاب عليه، قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧] فلا تنافي بين النسبتين؛ لأن المراد بهما جهة استحقاق المدح والحمد وتعلق

أحكام الفعل بالفاعل مع أنه استعمال عربي، يقولون: مثلاً بنَى الملك المدينة، مع أن أفعال البناء من الرعية، وقال الشاعر في ملك قد خافه:

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

ويقولون: ((بنى المسجد)) لمن أعطى تكاليف البناء، وفي الحديث الشريف:((من بنى مسجداً لله بنى الله له بيتاً في الجنة)) وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ..﴾ [الكهف:١] وقال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] فلا تنافي بين كونه تعالى أنزله، وكون جبريل × نزل به؛ لأن جهة النسبة وسببها قد صح تعدده؛ لأنه غير خاص بالمباشرة ولا بالإختراع، ومما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ..﴾ [التوبة:١٤] وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا..﴾ [التوبة:٥٢].

وفي القسم الثاني من (مجموع رسائل الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ×) في الرد على من قال في أفعال العبيد إنها لا تعدوهم ولا توجد في غيرهم قال × : ((والدليل على بطلان قوله إن هذا الفعل يحمد عليه العبد ويذمّ ويثاب ويعاقب ويتعلق به الأمر والنهي، وهذه حقيقة إضافة الفعل إلى الفاعل، وقد ذكر ذلك جدنا الإمام القاسم بن إبراهيم × في كتاب (رده على المجبرة) في قوله × : ولو لم تكن الشجّة في رأس المشجوج من فعل الضارب الشاجّ لما أمر الله الحكّام أن يدعوا في رأس الضارب الشاجّ شجّة مثلها)) انتهى.

وعلى هذا: ينبني وجوب شكر نعمة الله في إنزال كتابه وغير ذلك من نعَمه كشفاء المرض بواسطة الدواء ورجوع بصر نبي الله يعقوب بواسطة إلقاء ثوب يوسف × على وجهه، والحمد لله على كل نعمه.

وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦ

وقوله تعالى: ﴿كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا﴾ أي تُسرّ، فقرار العين كناية عن السرور، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنَ﴾ على موسى لأنه قد نجا من فرعون وصار عند أمه ﴿وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ بصدق وعده لها بقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] لأن رده سبب لتذكر صدق وعد الله وذلك سبب للنظر في أن وعد الله لا بدّ أن يكون صدقاً؛ لأنه غني عن الكذب وعالم أنه غني وعالم أن الكذب قبيح ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أن وعد الله حق، أو لا يعلمون أنا رددناه إلى أمه، أو لا يعلمون أنا رددناه إلى أمه للحكمة المذكورة أي يجهلون الرد وحكمته، وهذا أرجح.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ أي موسى ﴿أَشُدَّهُ﴾ قال في (الصحاح): وقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ..﴾ [الأنعام:١٥٢] أي قوّته، وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين، وهو واحد جاء على بناء الجمع)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال في (البرهان): ((الأشد: ثلاثة وثلاثون سنة، وقيل: عشرون سنة، وقيل: أربعون سنة ﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ يعني اعتدال القوة وانتهاء الشباب واستحكام عقله)) انتهى، وتفسير ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ يحتمل أنه من الشرفي لا من الحكاية عن (البرهان) وهو صحيح.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾ أي علمناه حكماً وعلماً فهو يعلم الحكم بالحق يستطيع أن يحكم بين الناس بالحق، والعلم علمه بما يجب الإيمان به وعلمه كيف يطيع الله وكيف يهدي غيره وغير ذلك من علوم الدين.

فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما جزينا موسى بأن آتيناه حكماً وعلماً نجزي المحسنين فنؤتيهم حكماً وعلماً، وهذا يفيد أن موسى × من المحسنين؛ ولذلك آتاه الله حكماً وعلماً، والإحسان: الإيمان والطاعة لله ومكارم الأخلاق، وقد دل على ذلك أول (سورة لقمان).

﴿١٥﴾ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ لا ينتبهون لمن دخل في ذلك الحين مثل حين قيلولة أو أكل أو راحة عن الأعمال وشرب، وهذا يشير إلى أنه كان خائفاً من انتباه آل فرعون له.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا﴾ أي في المدينة ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من أصحابه وأعوانه ومحبيه فهو من المستضعفين من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا﴾ الآخر ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ﴾ طلبه أن يغيثه وينقذه ﴿عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ بأن يعينه على الذي من عدوه ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ قال الشرفي: ((والوكز: الدفع بأطراف الأصابع)) انتهى.

وقال الراغب: ((الوكز: الطعن والدفع والضرب بجميع الكف)) انتهى، وفي (الصحاح): ((الأصمعي: وكزه مثل نكزه أي ضربه ودَفَعه، ويقال: وكزه أيضاً ضربه بجمع يده على ذقنه)) انتهى، وفي (الصحاح): ((وقال الأصمعي: نكزه أي ضربه ودفعه)) انتهى، وفي (أساس البلاغة): ((وكزه وكزة شديدة ضربه بجمع كفه)) انتهى.

إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي

والذي يترجح: أن موسى دفعه ولكزه بيده، بحيث أنه لم يتعمد قتله ولا ظن أن اللكزة تقتله ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ قتله بتلك الوكزة ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي القتل هذا من عمل الشيطان باطل من العمل الذي يدعو إليه الشيطان ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ﴾ أي الشيطان عدو للإنسان ﴿مُّضِلٌّ﴾ له ﴿مُّبِينٌ﴾ بين العداوة والإضلال، ويحتمل: أن قوله ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ يعني به القتل والوكز.

﴿١٦﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بادر إلى التوبة؛ لأنه تعمد الوكز ولم يؤذن له في القتل والأصل تحريمه؛ ولعله يؤخذ منه أن تعمد سبب القتل يعتبر تعمداً للقتل أعني أن تعمد سبب القتل تعمد لما أدى إليه، ولا يشترط قصد القتل، وهذا إذا كان السبب غير مأذون فيه؛ لأن الطبيب البصير إذا جرح بما يظن أنه لا يقتل فهو غير قاتل وإن أدى الجرح إلى الموت، وعلى هذا فلا بد أن موسى × اعتبر الوكز معصية؛ لأن دفع القبطي كان يكفي فيه أقل من الوكز، لكنه خطأ لأنه لم يتذكر غير الوكز أقل منه لتضيق الحادثة.

﴿١٧﴾ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالهداية لطاعتك وبالقوة ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ معيناً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ فلن أستعمل نعمتك في معصيتك؛ لأن معاونة المجرمين إجرام، فقد أعطى من نفسه ميثاقاً على أن لا يكون ظهيراً للمجرمين سواء كانوا من القبط أم من غيرهم، وعزم أن لا يستعمل قوته في معصية الله، وذلك العزم والعهد شكر على نعمة الله عليه بهدايته لطاعته واجتناب معصيته في حال أن المجتمع الذي هو فيه مجتمع ضلال.

ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ

وقد امتاز موسى من بينهم بنوع من الهداية؛ ولذلك عرف أنه قد عصى وبادر إلى التوبة، وهذا لا ينافي قوله: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء:٢٠] لأن ضلاله كان بالنسبة إلى حال النبوءة، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:٧] وقد امتاز مع ذلك بأن الله آتاه حكماً وعلماً وعرف نعمة الله عليه بما قد آتاه من الهدى.

﴿١٨﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۖ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفًا﴾ من آل فرعون؛ لأن القتل لا بد أن يظهر.

﴿يَتَرَقَّبُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: ينتظر، وقال: يتلفت، وقال: كان خائفاً ليس معه زاد)) انتهى.

ولعل هذا كان في حالة تردد هل يخرج من البلد فليس معه زاد للسفر أو يبقى فهو يتوقع الطلب بالقتل، وفي هذه الحالة فاجأه صراخ الإسرائيلي الذي استغاثه بالأمس وطلب أن ينصره على القبطي فهو اليوم في مشكلة أخرى يطلبه الإنقاذ منها ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ لوقوعك اليوم في مشكلة بعد مشكلة أمس، فذلك يدل على غوايتك في معاملتك ومخالفتك لطريق الصواب التي هي أصلح لك وأقرب إلى سلامتك من العدوّ، فأنت بيِّن الغواية، وهذا زجر للإسرائيلي عن الدخول في المشاكل.

أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ

﴿١٩﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ﴾ موسى ﴿أَن يَبْطِشَ﴾ بخصم صاحبه الذي ﴿هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لأنه من القبط أعداء بني إسرائيل.

﴿قَالَ﴾ القبطي ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ وهذا يزيده خوفاً؛ لأنه يدل على أن قتله القبطي بالأمس قد ظهر وعرفه هذا الخصم الذي أراد أن يبطش به ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض تقتل من غضبت عليه ولا تبالي، وهذا يزيده خوفاً من ظهور قتله للقبطي وتفسيره بأنه يريد أن يكون جباراً في الأرض، ويظهر أن مشكلة اليوم قد انتهت بتحول القبطي إلى خطاب موسى ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ فقد كان ينبغي لك أن تسعى في الصلح بيني وبين خصمي دون أن تريد أن تبطش بي ولا بد أن موسى تركه لانقطاع الخصومة وتركه للإسرائيلي.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ﴿يَسْعَىٰ﴾ يسرع، قال الراغب: ((السعي: المشي السريع وهو دون العَدْو)) انتهى. لينذر موسى قبل أن يدركه طلب آل فرعون ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ منذراً له ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾ كبار القوم ﴿يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ ولعل هذا الإئتمار تشاور بسبب أن موسى كان

قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ

محبوباً عند بعضهم فلم يعزموا على قتله بدون تشاور، ولكن الغرض من هذا الإئتمار هو قتله؛ فلذا قال ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ﴾ هارباً منهم ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لتنجو منهم.

﴿٢١﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة ﴿خَآئِفًا﴾ لم يأمن بمجرد الخروج بل هو يتوقع أن يدركه الطلب من الملأ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لجأ إلى الدعاء الذي هو سلاح المؤمن فنجاه الله منهم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: نحو مدين)) انتهى.

قال الشرفي: ((أي قصدها ونحوها وهي قرية شعيب سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن في ملك فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمان ليال، ولم يكن موسى يعرف الطريق إلا حسن ظن بربه)) انتهى. وقال (صاحب الصحاح): ((وجلس تلقاءه: أي حِذاءه)) انتهى.

فالحاصل: أن موسى توجه مقابلاً لمدين ومستقبلاً لها ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ أرجو ربي ﴿أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي يرشدَني لسواء الطريق.

قال الشرفي في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: ((أي أخطأ وسط طريق الحق)) انتهى المراد.

فالمعنى على هذا: عسى ربي أن يهديني وسط الطريق، والمراد أرجو ربي أن يهديني؛ ولعله قال ذلك في نفسه وقد حقق الله تعالى له ما رجا.

عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ أتاه ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جماعة كبيرة ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ دوابَّهم أو أنعامهم، حذف المسقيَّ؛ لأنه لا موجب لذكره ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ فيما بينه وبين الأمة ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعان غنمهما عن التقدم إلى الماء، وهذا يلفت النظر، الناسُ يسقون وهما يذودان فسألهما لما في قلبه من الخير ورحمة الضعيف ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنكما المهم الذي لأجله تذودان؟ ﴿قَالَتَا﴾ عادتنا أن ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ أنعامَهم عن الماء ﴿وَأَبُونَا﴾ ضعيف عن تولي السقي؛ لأنه ﴿شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ فمفهوم هذا تعذر السقي عليهما مع الناس؛ لأنهما يتجنبان مزاحمة الرجال.

﴿٢٤﴾ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ إحساناً ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ﴾ عنهما ﴿إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ وقد عرف قربه من مديَن أو أنه قد بلغه فانتهت مهمة السفر وبقيت حاجة المأوى والطعام وغير ذلك، فدعا الله دعوة جامعة ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ إني فقير لما أنزلت إلي من خير أيّ خير، والدعاء سلاح المؤمن.

تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ

﴿٢٥﴾ ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿فَجَآءَتْهُ﴾ الفاء تفيد التفريع على دعائه ﴿تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ لأنها من أهل الدين والحياء من الإيمان ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ بالتأكيد لئلا يرتاب في صدقها وبكلام نزيه مجرد حكاية عن أبيها تبلغها ﴿يَدْعُوكَ﴾ وهي الدعوة إلى الطعام.

قال في (الصحاح): ((الدَّعوة إلى الطعام ـ بالفتح ـ يقال: كنا في دَعوة فلان)) انتهى المراد.

﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ تحقيق لصدقها فيما حكت عن أبيها فلولا هذا التعليل لكان صدقها مستبعداً من حيث أنه غريب، قال الشرفي: ((يعني ليكافئك على ما سقيت لنا)) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي جاء موسى أباها ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ عن سبب إتيانه إلى مدين ﴿قَالَ﴾ أبوها ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فكانت هذه أهم الحاجات قضيت له.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أبوها شيخ كبير ومثله يحتاج إلى التنبيه لحاجته، ووجود القوي الأمين فرصة خافت فواتها بأن يذهب موسى من عند أبيها فلم يكن لها بدّ من المبادرة بالكلام ليستأجره أبوها فيكفيهما مؤونة السقي الذي كانتا عليه ونبَّهت أباها على ما قد عرفته بذكائها من قوّة موسى وأمانته، فأما القوة فقد ظهرت عند سقيه لهما فكان ذلك الإحسان مفتاح الخير؛ لأنه كان سبب الدعوة وما ترتب عليها.

إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا

---

٢٧ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿قَال﴾ **شعيب × لموسى ×** ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ **وكان هذا تمهيداً لاستئجاره ثماني حجج أو عشراً ليبقى عنده أجيراً خاصاً، فالنبي شعيب × قد عرف حاجة موسى للمأوى وللزواج ولسبب نفقته على نفسه وأراد سد خلته من الجهات كلها يبقى عنده ثماني حجج أو عشراً ويقوم بعمل قد عرفاه جملة.**

قال الشرفي / : ((وفي (البرهان) أسقط ذكر العمل واقتصر على المدة؛ لأنه مفهوم بينهما، والعمل رعي الغنم، وهذه الثماني حجج هي شرط للأب والمهر غيرها)) انتهى.

قال الشرفي: ((قال الحسين بن القاسم × : إن قال قائل أو سأل عن الإجارة سائل: هل يجوز النكاح على الأجرة وهي غرر، وقد حرم الله الغرر بين المسلمين، فالجواب في ذلك وبالله نستعين أن ذلك لا يجوز ولا يكون من أخلاق الصالحين، ولكن المعنى في ذلك ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي لتأجرني ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ فقامت (على) مقام (اللام) وذلك جائز في اللفظ والكلام؛ لأنه إنما زوّجه رغبة في الإقامة ولا يصبر أحد على طول الإقامة إلا مع الأهل والمقام وذلك معروف عند أكثر الأنام، ولم يدخل ذكر الصداق في شيء من هذا الخطاب دليل آخر أن المستأجر هو الشيخ × وليس له الصداق وإنما الصدقات للنساء دون الرجال نحلة من الله ذي الجلال)) انتهى.

وهذا صحيح؛ لأن كلام أبيهما ليس عقداً إنما هو ابتداء مواعدة، والدليل أنه قال: ﴿إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ﴾ ولا يصح العقد على متردد محتمل، ولو كان عقداً لقال: زوجتك دون ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ﴾ وعلى هذا فلا موجب لجعل الأجر صداقاً، ويصح أنه أراد أن يأجره موسى ليقوم بما كانت بناته تعمله خارج البيت وتبقى البنات في البيت وأراد أن يزوجه لما في ذلك من المصلحة لموسى وللبنت التي يتزوجها؛ وليمكن بقاء موسى عنده بدون مشقة حيث يصير من الأسرة قد تزوج إحدى البنتين والأخرى يرجى لها الزواج عن قريب.

فقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ بيان لعمل موسى؛ لأنه يريد أن يجعل له سبباً ويريد أن يكون السبب معه ليغني بناته عن الخروج، فرأيُ شعيب × جامع مفيد لبنتيه ولموسى، وكلامه هذا مع موسى يعرف به أن دعوته قد أجيبت حين دعا ربه ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤] لأنه مع قوته وشبابه محتاج إلى الزواج، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي على أن تكون أجيراً لي ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ﴾ ثماني سنين قمرية لأنها هي الحجج.

وقوله: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾ فائدة لموسى إن أراد البقاء مع كونها تفيد زيادة العمل من موسى، وقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ ترغيب له في الأجر معه، وعلى هذا الترغيب يمكن أنه أجير خاص لم يعين له العمل قبل العقد، وإنما عينت له المدة كما هو شأن الأجير الخاص وإن كان قد فهمه من حيث أن شعيباً × محتاج لمن يعمل له الرعي ونحوه من أعمال خارج البيت، وقوله: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ترغيب آخر.

عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ذَٰلِكَ﴾ المؤاجرة ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ معاملة بيني وبينك لا تدخل فيها البنتان، والتزويج عقده بيني وبينك، وقوله:﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ إما ثماني حجج وإما عشراً ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾ لأن الخيار لي بينهما إن شئت أتممت عشراً وإن شئت ثماني حجج ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾ بإلزامي زيادة على ما اخترت منهما ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ أنا وأنت ﴿وَكِيلٞ﴾ نكل إليه الأمر فيه، فهو يحكم فيه بحكمه وهو شهيد عليه.

﴿٢٩﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ ﴿ٱلۡأَجَل﴾ سواء كان ثماني حجج أو عشر المهم أنه قضى ما عليه، وقد أبهم القرآن أي الأجلين قضاه فلا نتكلف معرفته، والقصص هذا مبني على ذكر ما تقتضي الحكمة ذكره دون غيره ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ يظهر أنهم أسرة مؤلفة من زوج وأولاد ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ من جانب الجبل المبارك، ولا بد أنه من أسفل الجبل ليكون موسى عند وصوله إليها بالواد المقدس طوى ﴿ءَانَسَ﴾ أي أبصر ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ ابقوا في هذا المكان منتظرين لي.

ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا﴾ أي من النار التي أراها ﴿بِخَبَرٍ﴾ من أهل النار الموقدين لها؛ ولعله كان محتاجاً إلى خبر عن الطريق أو عن أحوال مصر أو غير ذلك مثل مكان يبيتون فيه وينامون ليلتهم فهم في ظلمة الليل وفي البرد.

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ قال الشرفي: ((والجذوة ـ بالحركات الثلاث على الجيم ـ وقرئ بهن: العودُ الغليظ كانت في رأسه نار أم لا وأراد هنا ما فيه نار)) انتهى. وقد أوضحها بقوله:﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ يعني نجعل لكم هنا ناراً تقربون منها لتدفئكم.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أتى النار التي آنسها ﴿نُودِىَ﴾ دعي بصوت رفيع: يا موسى ﴿مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ قال الراغب: ((شاطئ الوادي: جانبه)) انتهى، ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) وفي (الصحاح): ((وشاطئ الوادي: شطّه وجانبه)) انتهى.

فقوله: ((شطه)) أي حافته أي المرتفع عن الوادي من أحد الجانبين، وجانبه أي جزء من الوادي يمينه أو شماله، والراجح: أن المراد في الآية جزء من الوادي؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات:١٦] فكان موسى في الجانب من الوادي نودي هناك من الشجرة.

﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ من اليُمْن ضد النحس ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ قال في (لسان العرب): ((والبَقْعة والبُقْعة والضم أعلى قطعةٌ من الأرض على غير هيئة التي بجنبها)) انتهى المراد. ومثله في (القاموس) والمباركة: باركها الله، قال الراغب: ((والبَركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء)) انتهى.

أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي

﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ **نودي من الشجرة:** ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ **تفسير للنداء** ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ **نداء أنشأه الله وسمعه موسى كما نسمع الكلام في الراديو يقول لموسى هذا القول ليستعد لسماع ما يأمره به رب العالمين.**

﴿٣١﴾ ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ ﴿وَأَن﴾ **ابتداء تفسير لما بعدها؛ لأن الوحي كان غير عربي، وإنما تفسيره بالعربية ما حكاه الله تعالى** ﴿أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ **اطرحها من يدك، فألقاها فصارت حية بقدرة الله؛ لتكون آية لموسى يعلم بها أن الكلام الذي يسمعه من الله** ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ **متحركة** ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ **حنش كما مر تفسيره** ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ **لأنه خاف منها** ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ **بل استمر في الهرب، فناداه الله** ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ﴾ **أي إلى جهة الكلام** ﴿وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ **الذين لا خوف عليهم؛ لأنك من أولياء الله.**

﴿٣٢﴾ ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ **أدخل يدك في جيبك، والجيب من الثوب: مدخل رأس اللابس له** ﴿تَخۡرُجۡ﴾ **يدك** ﴿بَيۡضَآءَ﴾ **أي**

هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا

تخرج من جيبك بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ بل بياضها جميل ليس بياض برص ولا غيره من المرض، فهذه آية من الله لموسى يعرف بها أنه صادق ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يدك ضمها إليك ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ وهو الخوف، فيزول عنك الخوف إذا ضممتها إلى جانبك، وهذه آية أخرى.

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارة إلى الآيتين ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ أي دليلان وحجتان يُعرف بهما أنك رسول من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أكابر قومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ قد استمروا على فسقهم، فأنت نذير لهم من الله.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ عرض لمشكلة لحلّها ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ لأن موسى كان في لسانه خلل فأراد أن يرسل معه أخاه هارون؛ ليبين لفرعون وقومه، ولكن فرعون كان يوجه السؤال إلى موسى ليجيب هو حتى يظهر ضعف كلامه، وقدح فيه بقوله: ﴿وَلَآ يَكَادُ يُبِينُ..﴾ [الزخرف:٥٢] فأراد موسى أن يعينه هارون.

وقوله: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدا﴾ وفي قراءة:﴿رِدْءًا﴾ قال في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: معين)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((الردء: الذي يتبع غيره معيناً له)) انتهى، وفي (الصحاح): ((تقول أردأته بنفسي، إذا كنت له ردءاً وهو العون)) انتهى، ومثله في (لسان العرب) لم يخصاه بالذي يتبع غيره، وزاد في (لسان العرب) فقال: ((الردء: العون والناصر)) انتهى.

يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ

قال في (الكشاف): ((وقرئ ﴿رداً﴾ على التخفيف كما قرئ ﴿الخب﴾)) انتهى، يعني أن أصل (رداً) أن يقرأ بالهمز، ولكنه حذفت منه الهمزة للتخفيف كما حذفت في (الخب) للتخفيف.

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ الله لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ أي سنقويك ﴿بِأَخِيكَ﴾ وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: سنقوّيك به ونُعينك عليه)) انتهى.

وقوله: ((عليه)) مشكلٌ؛ ولعله تصحيف أو زيد غلطاً، أو أراد على فرعون فاستجاب لموسى دعاءه بذلك.

وقوله:﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ أي نجعل لك ولهارون سلطاناً على فرعون وملائه، بمعنى غلبة وقهراً، وذلك بالهيبة والرعب منهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ﴾ تفريع على السلطان لا يصلون بقتل أو نحوه ﴿إِلَيۡكُمَا﴾ وهذا لئلا يخاف فهو جواب على قوله: ﴿إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣].

وقوله تعالى:﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أفادهما أنهما ومن معهما سيغلِبون فرعون وملأه لكن بالآيات، فكانت عصى موسى وغيرها من الآيات سبباً لغلبة موسى بالحجة، فأما هلاك فرعون وملائه فلم يذكر هنا؛ ولعله ليبقى موسى راجياً لإسلام فرعون وملائه.

ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ

﴿٣٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ **فهي آيات لا تحتمل أنها سحر بل هي بينات أنها آيات بحيث علموا أنها آيات، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ..﴾** [النمل:١٤] **﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾** [الإسراء:١٠٢].

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ﴾ **أي ليس آيات وإنما هو سحر ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ أي مكذوب بدعوى أنه آيات، كقوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ..﴾** [يوسف:١٨] **وقولهم: ﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ الإشارة إما إلى الآيات الخارقة فأرادوا أنهم ما سمعوا بآيات لرسول، أو إلى الرسالة من الله فأرادوا ما سمعوا بأن الله أرسل رسولاً في الأولين، فهو تكذيب للرسل الماضين سواء كانت الإشارة إلى المعجزات أم إلى الرسالة.**

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ **ربي أعلم بي أني لست من أهل السحر ولا الكذب على الله؛ ولذلك أرسلني فجئت بالهدى من عنده، وهذا لا ينافيه تكذيبهم له؛ لأنهم قد علموا أنه صادق وعلم موسى أنهم قد علموا فكلامه لهم مبني على ما قد علموا.**

وقوله: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي وربي أعلم من تكون له عاقبة الدار الذي يرثها وتكون له العاقبة فيها، وهذا إشارة إلى أن العاقبة ستكون لموسى ومن آمن معه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ

ولا يفيد أعداءهم التكبر والتكذيب والجدال بالباطل ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا تكون عاقبتهم الفلاح والظفر بالخير والفوز بل العاقبة للمتقين وعاقبة الظالمين الهلاك.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ جحود منه بالله الذي خلقه ودعوى أن قومه يعبدونه بالطاعة، وليس يعني الإلهية الحقيقية وإنما هذا كقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٤] جحود بالله ودعوى قيامه مقام الرب ومقام الإله فهي مشاكلة لقول موسى وهارون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:١٦] ودعوتهما له إلى عبادة الله وحده.

وقوله: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا﴾ تفريع على نفي علمه بالإله وأنه يريد صرحاً قصراً عالياً ليصعد حتى يبحث عن إله موسى أهو موجود أم لا؛ ولعل غرضه الحقيقي أمران:

الأول: التضليل على قومه بإظهار القوة؛ لأن البناء يصف الغنى ليقابلوا بينه في ملكه وبين موسى وهارون في فقرهما.

الثاني: تطويل المدة بينه وبين موسى؛ لعجزه عن إبطال حجة موسى ورغبته في البقاء على الكفر، فهو يصور أنه ما زال في مقام البحث والنظر في صدق موسى، وختم قوله بدعوى أنه يظن أنه من الكاذبين لئلا يتوهم قومه أنه قريب من الإيمان.

إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أماكن شتى نشروا استكبارهم بتصرفات تعبر عن استكبارهم مثل: بناء الصرح، وجمع السحرة، استكبروا ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأنهم عباد مربوبون ليس لهم من القوة إلا ما مكنهم الله فيه وبقدر ما مكنهم وفي حدود تمكينه وعن قريب تنتهي وينكشف ضعفهم وعجزهم، فاستكبارهم إنما هو عن توهم وتخيّل ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة لظنهم أنه لا حياة بعد الموت، فلا مرد إلى الله في ظنهم الكاذب.

﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عاقبة استكبارهم عن الإيمان بموسى وإصرارهم على الظلم أخذهم الله فنبذهم أي طرحهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر، فالكبرياء لله وحده، أخذ فرعون وجنوده فألقاهم في اليم، أخذهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤٢] كأنهم قليل من الدود أخذهم آخذ بيده وألقاهم في الماء فهلكوا.

وفي تفسير (سورة الذاريات) من (تفسير الشرفي): ((عن الحسين بن القاسم إ : والْيَمّ: فهو البحر المالح الأعظم)) انتهى، ولعله عنى البحر الذي أغرق الله فيه فرعون وجنوده دون مفهوم اليم في اللغة، وقد فسره الشرفي في (سورة القصص) بالبحر من غير زيادة.

وقوله تعالى:﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تنبيه على أن في ذلك عبرة فيتوقع من أجلها هلاك أعداء رسول الله محمد ص المكذبين له ويتوقع بها أن النصر سيكون لرسول الله ص بهلاك الظالمين.

ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ

﴿٤١﴾ ﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾

﴿وَجَعَلْنَـٰهُمْ﴾ الضمير إما لفرعون وجنوده، وإما لفرعون وملائه ﴿أَئِمَّةً﴾ أي قادة متبوعين بتمكينهم، وكان ذلك فتنة للمتبوعين والتابعين، أي اختباراً أدى إلى أن كانوا أئمة حين أطاعهم التابعون، ونسبة ذلك إلى الله تعالى من المتشابه؛ ولعل من فوائدها الدلالة على أنه تعالى غني عنهم غير مبال بهلاكهم؛ لأنها لا تضره معصية العاصين، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أي إلى أسباب النار؛ لأنهم ومن تبعهم يصيرون إلى النار ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ لا ينصرهم أتباعهم الذين كانوا جنوداً لهم؛ لأنه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧] ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل:١١١].

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ وأتبعنا الدعاة إلى النار ﴿لَعْنَةً﴾ من الله ومن الأجيال بعدهم والملائكة ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ قال في (لسان العرب): «أبو زيد: قبح الله فلاناً قبحاً وقبوحاً، أي أقصاه وباعده من كل خير» انتهى المراد.

أما الراغب فأرجعه إلى القبح ضد الحسن، فقال: «وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من الموسومين بحالة منكرة..» الخ وهو خلاف المشهور في تفسير قبح ـ بتخفيف الباء ـ والذي في (الصحاح) و(أساس البلاغة) و(القاموس) نحو ما في (لسان العرب) وقد يقال: يمكن الجمع بأن الراغب أراد أن حالته المشوهة هي إقصاؤه من كل خير، ولكنه فسر الحالة المشوهة بغير ذلك وهو لازم الإقصاء من كل خير.

مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةً لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةً لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يظهر: أن هذه الآية تشير إلى أول السورة ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فعند تمام المتلو من نبأ موسى وفرعون جاءت الآية في إنزال التوراة على موسى، وذلك دلالة لقريش على أنه ليس بِدعاً إنزال القرآن هدى للناس فقد أنزل الله قبله التوراة، ونظير هذا في (سورة الأنعام) ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ...﴾ وفي (سورة الأحقاف): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ [١٠-١٢].

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ وهم المكذبون للرسل الذين همُّوا بهم ليأخذوهم فنبه الله عباده على شدة بطشه بأعداء الرسل ليحذر قريش ومن حولهم من تكذيب القرآن والرسول.

وقوله تعالى:﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي تنويراً للقلوب يبصر بها المؤمنون بعقولهم ﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةً لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهي في نفسها بصائر وهدى ورحمة ولكن ذلك معَدّ في التوراة للناس معروضاً عليهم فمن قَبِله وآمن أبصر به واهتدى به ونال الرحمة من الله به، ومن أبى فالعمى من عنده، ونظير هذا في القرآن ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ..﴾ [البقرة:١٨٥].

مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ

ومع ذلك قال تعالى في القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..﴾ [فصلت:٤٤] فلا تنافي بين كونه هدى للناس كافة وكون الذي يهتدي به المؤمن خاصة.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا رسول الله محمد ﴿بِجَانِبِ﴾ الجبل ﴿ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ وأتممناه بإنزال التوراة عليه، قوله:﴿وَمَا كُنتَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

و(جانب الغربي): محل المناجاة بإنزال التوراة في الميقات الذي هو أربعون ليلة، والأمر إما بمعنى التكليف بما في التوراة وبإبلاغها، وإما بمعنى الشأن العظيم الذي هو إنزال التوراة ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ الحاضرين المشاهدين لتلك المناجاة، فقد أخبرت بما أنت غائب عنه وما ذلك إلا بوحي من الله إليك.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ من بني إسماعيل وغيرهم ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ فتطاول عليهم بسبب بُعدهم من عهد الوحي والنبوة العمر المدة التي عاشوها في زمن الفترة وانقطاع الوحي؛ ولذلك احتاج الناس إلى رسول فأرسلناك يا محمد فأنت تبلغهم الأخبار عن موسى التي كنت غائباً عنها.

لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا

﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ فتخبر بما كان من موسى في مدة الأجل الذي كان فيه أجيراً فأتمه ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾ التي أنزلناها على شعيب، ومعنى﴿ثَاوِيًا﴾: مقيماً؛ ولعل المراد: أنه ص لو كان ثاوياً في أهل مدين ما بقي إلا معلماً لهم ما تعلمه من نبي الله شعيب؛ لأن هذا شأن الصالحين أن يكون همهم إرشاد الناس وتعليمهم كما شأنهم تعلم العلم والمعرفة بآيات الله إذا حضروا عند من عنده العلم.

فلو كان محمد ص ثاوياً في أهل مدين لكان قد تعرف آيات الله من نبي الله شعيب وصار يتلوها على أهل مدين نيابة عن نبي الله شعيب لضعفه بكبر السن أو معاونة له ومشاركة في الإرشاد ـ والله أعلم.

﴿وَلَـٰكِنَّا﴾ أرسلناك كما سنتنا إرسال الرسل إلى الناس فأخبرت بخبر موسى × حين كان في مديَن؛ لأنا أوحيناه إليك.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَمَا كُنتَ﴾ يا محمد ﴿بِجَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ حيث آنس موسى ناراً فأتاها فناداه ربه وأرسله إلى فرعون وملائه كما مر في هذه السورة ومر الجمع بين كون النار بجانب الطور وكون النداء بالواد المقدس، فأخبر محمد رسول الله ص بذلك مفصلاً مع أنه لم يكن حاضراً؛ فما ذاك إلا لأن الله أوحاه إليه؛ لأن الله أرسله رحمة للعالمين وخصوصاً بني إسماعيل.

رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ وهم قريش ومن حولهم ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فهم في أمسّ الحاجة إلى نذير ينقذهم من النار؛ لأنهم في جاهلية جهلاء يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويأكلون الميتة ويحرمون بعض نعم الله ويقتتلون على غير موجب، وعلى الجملة في ضلال مبين، فأرسل الله إليهم رحمة لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما هو مخزون في فطرتهم من توحيد الله والإيمان بما أخبر به واجتناب الظلم.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ واستحقوا عليه العذاب؛ لأنهم أجرموا به بدون عذر كالشرك ووأد البنات وقتل الأبرياء وغير ذلك ﴿فَيَقُولُواْ﴾ عند إصابة المصيبة لهم ﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾ لترفع عنهم المصيبة ويكون لهم حجة، فولا ذلك لصح تركهم بلا رسول إما مطلقاً وإما مؤقتاً إلى حين؛ لأن جواب لولا حذف لدلالة السياق عليه جملة، ولكن الله أرسل إليهم ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سَاحِرَان تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو القرآن والرسول محمد ص ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ من عند ملك الملوك رب العالمين لم يقبلوا الحق الذي هو من

فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ

عند الله بل ﴿قَالُواْ﴾ جدالاً ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ﴾ محمد ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الآيات الدالة على صدقه كقلب العصا ثعباناً مبيناً لنؤمن به، وليس لهم حق في اشتراط ذلك بل قد كفى وضوح الحق بالقرآن.

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ إتيان رسول الله إليهم ﴿قَالُواْ سَٰحِرَانِ﴾ موسى وهارون ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تعاونا فعظم السحر بتظاهرهما ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ بعد ذلك: ﴿إِنَّا بِكُلٍّ﴾ من محمد وموسى ﴿كَٰفِرُونَ﴾ فهم متمردون لا يريدون الحق.

﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ غير التوراة والقرآن ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أهدى من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ﴾ إن أتيتم به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في كفركم بمحمد وموسى، فإذا لم يكن عندكم شيء فأنتم تدفعون الحق بغير حجة وتزعمون أن الله أهمل عباده بلا نذير.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ﴾ يا رسول الله لم يؤمنوا بك وبالقرآن ولم يأتوا بكتاب من عند الله فقد بان أنهم ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ فاعلم ذلك؛ لأنهم يدافعون الحق بمجرد الكذب والتعلل ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾

ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم

حال كونه ﴿بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ينقذه من ضلاله بل هو متروك في ضلاله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بمدافعة الحق وترك الإنصاف وباتباع هوى النفس والإعراض عن آيات الله والتكذيب بها والجدال بالباطل، فهو تعالى لا يهديهم بعد أن قامت عليهم الحجة بل يتركهم في ضلالهم يعمهون.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ﴾ إما أن يراد هذا القول الماضي في هذه السورة أتبعنا بعضه بعضاً متصلاً بعضه ببعض، فجئنا بنبأ موسى وفرعون متصلاً غير مفرق في أوقات متباينة ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أن هذا القصص الكامل المفصل ما هو إلا من عند الله؛ لأن محمداً لم يقرأ ولم يكتب وإنما قرأ ما أوحاه الله إليه، وكان في بلد لا يقرؤون بل يرون القراءة في كتب أهل الكتاب أمراً بعيداً؛ لأنهم عرب وهي أعجمية وهم لا يؤمنون بها ولا يرونها إلا خاصة بأهل الكتاب، فإتيان رسول الله ص وهو بينهم نشأ أمّياً لا يقرأ ولا يكتب إتيانه بهذا القصص مفصلاً آية لمن يتذكر تدل على أن الله أوحاه إلى محمد ص ليكون رسولاً إلى أم القرى ومن حولها ثم إلى كافة الأمم.

﴿٥٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قبل هذا القرآن فيرون هذا القرآن مطابقاً لها ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ لمطابقته ما عندهم مع أن الذي بلغهم أمّي، والذين آتيناهم هنا بمعنى العلماء من أهل الكتاب الذين علمهم الله معاني كتبهم.

والكتاب يطلق على الجمع؛ لأن أصله مصدر وليس المراد الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها من جهلتهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨] وإيمان علمائهم بهذا القرآن كان في حال كون رسول الله ص في مكة يبلغهم عنه بعض القرآن فيعلمون أنه الرسول الموعود به في التوراة، فأما حين هاجر رسول الله ص فلعل بعض من كان آمن غلبهم الحسد فكذبوه، وهذا في علمائهم فأما غيرهم فلا إشكال في شيوع الكفر فيهم، وقد فصل الله القول فيهم في (سورة البقرة).

﴿٥٣﴾ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ لأنه ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل نزوله ﴿مُسْلِمِينَ﴾ أنفسنا لله ربنا فلا نشرك به ولا نتعصب لأحد، ولا يمنعنا حسد؛ لأنا مسلمون أنفسنا لله لا يهمنا إلا أن نطيعه.

قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): في سبب نزولها قولان:

أحدهما: نزلت في عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي وسلمان الفارسي أسلما [كذا] فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها.

والثاني: أنها نزلت في أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين بالنبي ص قبل مبعثه، اثنان [كذا] وثلاثون [كذا] رجلاً من الحبشة أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب وقت قدومه وثمانية قدموا من الشام منهم بحيرا وأبرهة والأشرف وعامر وإدريس ونافع، فأنزل الله فيهم هذه الآية» انتهى. وهذه الأسماء في (الميزان) إلا عامراً فبدله أيمن.

مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الصفات التي مرّ ذكرها:

منها: أن الله تعالى آتاهم الكتاب فهم علماء ليسوا كمن قال تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٢٣].

ومنها: أنه إذا يتلى عليهم القرآن قالوا آمنا به بمجرد تلاوته عليهم، آمنوا به لأنهم عرفوا أنه الحق من ربهم.

ومنها: أنهم كانوا من قبله مسلمين لأنفسهم لله، فأهل هذه الصفات يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا قبل نزول القرآن، وبما صبروا بعد ما يتلى عليهم لم يمنعهم من الإيمان به خوف أذية السفهاء أو عدوان المتعصبين من أهل الكتاب.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يدفعون بالحسنة من كلمة طيبة أو فعل حسن أو عطاء يدفعون بذلك إساءة من كان لولا الحسنة يسيء إليهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ من مالهم الحلال ينفقون في وجوه الخير مثل: إطعام الفقراء المهاجرين في سبيل الله وغير ذلك ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ﴾ من السفهاء، واللغو: الكلام الذي ينبغي تركه مثل: سبهم من أجل أنهم آمنوا ﴿أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ فلم يجيبوا بل ولم يصغوا أسماعهم لقائله.

مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ

﴿وَقَالُواْ﴾ رداً لسفاهتهم ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ فإيماننا لنا، وبقاؤكم على دينكم لكم، فلا يضركم إيماننا ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ لا نجيب على سبكم ولا نقابل إساءتكم بمثلها.

قال الشرفي: ((وهو ـ أي هذا التسليم ـ عبارة عن التوديع؛ لأن من عادة المودع أن يسلم على من يودعه)) انتهى.

قلت: ففي عرفنا يقال: مع السلامة أو خاطرك، وقولهم: ﴿لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي لا نطلب الجاهلين الذين يجهلون علينا، أي لا حاجة لنا فيكم.

قال الشرفي: ((قال بعضهم: نسخ ذلك بالأمر بالقتال، وهو بعيد لأن ترك المسافهة مندوب وإن كان القتال واجباً)) انتهى.

والمسافهة ـ بالسين المهملة ـ ولا تنافي بين الإعراض عن اللغو والقتال؛ لأن القتال لدفع إفساد المشركين لا جزاء على سفاهتهم بالكلام.

﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴿لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ أي لا تجعله مهتدياً؛ لأنك تحبه فتشاء أن يهتدي، أي ليس اهتداء أحد تابعاً لمشيتك أن تهديه أو إرادتك بل هو تابع لمشيئة الله، فإذا شاء أن يهتدي هداه؛ لعلمه أنه أهل لذلك، وكون هداه له حسن في الحكمة؛ لأنه لم يستحق الخذلان بل هو أهل للألطاف، وجعله محباً للإيمان ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ الذين آمنوا وصدق إيمانهم كما أنه أعلم بمن يدعي الإهتداء وقلبه لم يدخله الإيمان.

شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا

روى مسلم وغيره عن أبي هريرة وغيره: أن هذه الآية نزلت في أبي طالب أبى أن يقول: لا إله إلا الله عند موته فنزلت، وقد رد هذه الرواية علامة عصرنا عبد الله بن الهادي الحسن بن يحيى القاسمي في كتابه (حاشية كرامة الأولياء) رداً مفيداً فليراجع.

﴿٥٧﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الشرفي: ((قال في (البرهان): نزلت هذه الآية في الحارث بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي ص: نحن نعلم أنك على الحق لكنا نخاف إن خالفنا العرب واتبعناك ونحن قليلون أن يتخطفونا [في الأم يتخطفون وهو غلط واضح تمت] من أرضنا لاجتماعهم على خلافنا، وقال الحسين بن القاسم × : هذا نفاق حكاه الله من بعضهم فأسكتهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ ألزمهم الله الحجة بأنه مكّن لهم في الحرم الذي أمنه وأمن سكانه بحرمة البيت)) انتهى المراد، وبقيته في (المصابيح).

قال الراغب: ((الخطف، والاختطاف: الاختلاس بالسرعة)) انتهى. وفي (لسان العرب): ((الخطف: الاستلاب، وقيل: الخطف الأخذ في سرعة واستلاب)) انتهى، والتخطف يفيد: تكرر الاختطاف باعتبار تعدد أهل الحرم، وقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تجلب إليه وتجمع فيه.

وفي (مصابيح الشرفي): عن الحسين بن القاسم: ((﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي تجلب إليه وتحمل عبارة عن الكثرة)) انتهى. أي كل شيء عبارة عن الكثرة، فلا خوف على أهل الحرم لا من القتل ولا من الجوع.

وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا

وقوله تعالى: ﴿رِّزْقًا﴾ أي هذه الثمرات جعلناها رزقاً، ولعل ذلك إجابة لدعوة إبراهيم × ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم:٣٧] وقوله تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي من عندنا أي نحن أعطيناهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها منا؛ لأنهم لا ينظرون بل هم غافلون عن الله سبحانه.

﴿٥٨﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ قال الشرفي: ((واعلم أنه تعالى لما بين تلك النعم أخبرهم أن الإصرار على عدم قبول الإيمان هو الذي يزيل النعم لا الإقدام على الإيمان)) انتهى.

والبطر: تعريض النعمة للزوال بكفرها، وأصله كما قال الراغب: ((دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها، ثم قال: ويقارب البطر الطرب وهو خفة أكثر ما يعتري من الفرح)) انتهى المراد، فقد أفاد: أنه السفه من سوء احتمال النعمة؛ لأن الدهش نقص في العقل. قال في (الصحاح): ((دهِش الرجل بالكسر يدهش دهشاً تحير ودهش أيضاً فهو مدهوش، وأدهشه الله)) انتهى.

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي بعد هلاكهم ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال الشرفي: ((قال ابن عباس: لم يسكنها إلا المسافر ومار الطريق يوماً أو ساعة)) انتهى. قلت: هذا خلاف الظاهر؛ لأن السكنى لبث وبقاء وأما اليوم والساعة فلا يسمى سكنى، والأولى أن البلدة بعد المهلكين تغيرت مرافقها فلم تصلح للسكنى ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي لتلك البلدة كما أن الله تعالى يرث الأرض كلها.

ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ

﴿٥٩﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ لأجل بطرها ﴿حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا﴾ وهي القرية التي تؤمها القرى وهي مكة تؤمها القرى التي حولها ﴿رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على القرى ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ فتقوم عليهم الحجة بالنذير الذي يتلو عليهم آياتنا فيعلمون بالآيات أنه رسول من الله، فإذا تمردوا استحقوا الهلاك.

﴿وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ لأنهم إذا سمعوا آيات الله فآمنوا بالرسول لم يهلكهم الله، وفي هذه الآية دلالة على أن المراد بإهلاك القرى تدميرها بحيث يهلك أهلها لا هلاك أهلها دون تدمير القرى، فأهل القرى يهلكون بالموت سواء آمنوا أم لم يؤمنوا، فظهر أن إسناد الهلاك إلى القرى ليس على حذف مضاف أي أهلها.

﴿٦٠﴾ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ لعل هذا من الجواب على قولهم: ﴿إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ﴾ فالجواب *الأول*: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ *والثاني*: أن هذه الثمرات ونحوها إنما هي متاع ﴿ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فلا يتوقف الإسلام عليها؛ لأن الإسلام أهم من كل متاع الدنيا ﴿وَزِينَتُهَا﴾؛ لأن ما عند الله من الثواب لمن آمن واتقى ﴿خَيۡرٞ﴾ من متاع الدنيا ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ لأن متاع الدنيا قليل بالنسبة إلى الثواب في الآخرة؛ ولأن متاع الدنيا يفنى أو يقطعه الموت وما عند الله يبقى أبداً، فاتباع الهدى أهم من كل متاع الدنيا وزينتها، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ خطاب لمن يؤثر الدنيا على الآخرة كأنه لا يعقل الفرق بين المتاع القليل الفاني وبين النعيم العظيم الدائم.

لَقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ

﴿٦١﴾ ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ ﴿أَفَمَن﴾ آمن فشمله وعد الله لمن آمن بالجنة فهو لاقي ما وعده الله كمن عاقبته أن يحضر للحساب والعقاب وهو في الدنيا قد متعه الله بنعم تنتهي بالموت، فهل يساوي هذا الممتع ذلك الذي يصير في الجنة.

إن العقل يحكم بالفرق بينهما وإن السعيد من يصير في الآخرة إلى ثواب الله وإن كان في الدنيا فقيراً في شدة، وإن الشقي من يصير في نار جهنم وإن كان في الدنيا ملكاً مترفاً.

﴿٦٢﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ لعله عطف على ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وإن كان يوم يناديهم هو يوم القيامة؛ لأن هذا مثل عطف الصفات لموصوف واحد، فالذي أبى الإسلام وبقي على الشرك يوم القيامة ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ وهو من المحضرين يوم يناديهم ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ في الدنيا ما بالهم لا ينصرونكم اليوم، وهذا توبيخ للمشركين وتذكير بجرمهم العظيم لهم ولمن يسمع يوم يناديهم.

﴿٦٣﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ شملهم الوعيد وصدق عليهم، وصاروا من أهل النار، وكانوا في الدنيا متبوعين.

فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا

﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأتباع ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ في الدنيا ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ لأنهم كانوا تابعين لنا فكانت غوايتهم تبعاً لغوايتنا، ولو كنا مهتدين لهديناهم ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم لا ننفعهم ولا نحمل عنهم بعضاً من عذابهم ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ ما انفردنا بإغوائهم وطاعتهم بل أطاعوا الشيطان.

﴿٦٤﴾ ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَقِيلَ﴾ للفريقين ﴿ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين كنتم تزعمون ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ فلم يجدوا من ينصرهم منه، وتمنوا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يَهْتَدُونَ﴾ حين يدعوهم الهداة إلى الله وحده.

﴿٦٥﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ينادي المشركين كما يفيده السياق وعلى هذا فالنداء هذا وإن كان موجهاً إلى المشركين فهو يهم السامعين الذين أرسل إليهم كلهم هل أطعتموهم أو عصيتموهم.

﴿٦٦﴾ ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿ٱلْأَنۢبَآءُ﴾ الأخبار لم يجدوا جواباً لهذا النداء يحل المشكلة؛ لأنهم كلما تذكروا جواباً عمي عليهم، فكل جواب لا يبصر لهم حلاً لمشكلتهم، بل كل جواب أعمى عن الإفادة إن قالوا في الجواب: آمنا بهم واتبعناهم، فهذا غير صحيح ولا يفيدهم الكذب يومئذ، وإن قالوا: (كنا مكرهين) فهو غير صحيح، وإن قالوا: (شغلتنا أموالنا وأهلونا..) فهذا غير صحيح، ولا يفيد الكذب.

فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخۡتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ

وكذلك إن قالوا: ما بلغتنا دعوة المرسلين، وإن قالوا:كذبناهم فهذا لا يفيدهم، فكل جواب لا يهتدي إلى طريقة إفادة لهم ولا يجد لهم جدوى ليجيبوا به، فاعتبر أعمى، كأن الأجوبة لو كان فيها جواب فيه إنقاذهم لقال لهم: أنا الجواب المفيد؛ ولعل فائدة إسناد العمى إلى الأنباء أنه لا جواب مفيد، فلو قيل: فعموا عن الأنباء لاحتمل الكلام أن بعضها مفيد لكنهم عموا عنه.

وقوله:﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يفيد تعليق العمى على يوم القيامة، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولا يفيدهم الجحد، ولا يفيدهم الكذب، ولا يفيدهم الإقرار، بخلاف هذه الدنيا فإن الحاكم قد يغتر لأنه لا يعلم الغيب، أما الآخرة فالحاكم فيها علام الغيوب.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لأنهم مع حاجتهم إلى السؤال عما يجيبون به هذا النداء ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧] أو لأن كل واحد منهم يعلم أن الآخرين مثله قد عميت عليهم الأنباء؛ أو لهول الموقف وشدة الخوف؛ أو لأنهم لا يكلم أحد أحداً إلا بإذن من الله ولم يؤذن لهم في التساؤل؛ أو لأجل هذه الموانع كلها ـ والله أعلم.

﴿٦٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ في الدنيا من الشرك أو أي معصية مما كان فيه من المهلكات ﴿وَءَامَنَ﴾ بالمرسلين وبكل ما يجب الإيمان به حتى جاء يوم القيامة وهو مؤمن ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ كذلك في الدنيا حين ينفع العمل ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ في يوم يناديهم فهو قريب من أن يكون من

المفلحين بدخول الجنة والنجاة من النار الظافرين بالسعادة الدائمة، وهذا النداء في موقف السؤال والعرض على الله؛ فلذلك يكون المؤمن قريباً من الفلاح باعتبار أن الفلاح نيل الثواب وتحقق النجاة من العذاب والنداء قبل ذلك.

﴿٦٨﴾ ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا رسول الله الذي أرسلك لتنذر المشركين ربك ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، والمشركون يشركون ما لا يخلق ولا يقدر، وربك ﴿يَخْتَارُ﴾ من يشاء ليرسله إلى عباده أو لما شاء؛ لأن له الملك؛ لأنه المالك لمن في السموات والأرض، فاختياره لك رسولاً هو الحق ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ ما كان للمشركين أو لشركائهم الخيرة؛ لأنهم عباد مربوبون، فليس لهم الإختيار، فبطل اعتراضهم بقولهم: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] أو قولهم: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨].

﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهاً بليغاً لله جل جلاله ﴿وَتَعَـٰلَىٰ﴾ ترفع عما يشركون، فلا يرضاه كما يزعمون، بل يتنزه عنه ويتعالى كما هو شأن عزته وحكمته؛ لأنه لا يليق بجلاله وملكوته أن يكون له شريك ولا يليق بحكمته وعزته.

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إن كانت (ما) موصولة أي عما يشركونه فالمعنى تنزيه الله وتعاليه أن يكون له شريك ما يشركونه من الأصنام والمخلوقين كلهم؛ لأنهم عباد ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فلا يليق بعظمته وجلاله أن يكونوا له أنداداً، وإن كانت (ما) مصدرية أي عن شركهم الذي يقع منهم ومنه دعوى أن لهم الخيرة إن ادعوا ذلك المعنى أنه يتعالى عن شركهم ويتنزه؛ لأنه لا يليق به ولا يصح بل هو أبطل الباطل، فسبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن

﴿٦٩﴾ ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ صدور المشركين هؤلاء المكذبين، أي ما تخفيه أي ما يضمرونه كله من عقيدة باطلة أو نية منكرة أو غير ذلك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ما يظهرونه من قول أو فعل، فكل أمرهم إليه، فهو المجازي لهم وتوكل عليه فهو ناصرك عليهم ولا يضرك ما أضمروا ولا ما قالوا فيك، ومن ذلك قولهم: ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [ص:٨] ونحو هذا.

﴿٧٠﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وربك هو ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه رب العالمين ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ وهو مستحق الحمد في النشأة الأولى بما أنعم على عباده من كل النعم وأعظمها الهدى إلى الصراط المستقيم الموصل إلى السعادة الدائمة، وهو بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وغير ذلك من أسباب الهدى ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي وفي الآخرة فهو المستحق للحمد في الآخرة كما دل عليه آخر سورة الزمر، فهو المحمود على حكمه في عباده بما هو الحق والعدل والرحمة لأوليائه والفضل وسوف يتجلى في الآخرة أن له الحمد على حسن قضائه وحكمه بين عباده وجزائه لكل مكلف بما استحق من ثواب أو عقاب.

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وحده؛ لأنه المالك للعالمين فالحكم له ليس لغيره شيء من الحكم؛ لأن العبد لا يستحق الحكم في ملك سيده؛ ولذلك فليس للمشركين أن يحكموا لأصنامهم بأنها آلهة بل الحق حكم الله أنها ليست آلهة بل هي مملوكة لله ولمن ملكه الله.

جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۗ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة أنت يا رسول الله وهؤلاء المشركين وكل العالمين ترجعون إليه؛ ليحكم بينكم ويحاسبكم ويحكم لكل مكلف أو عليه بما يستحق، فلا معقب لحكمه ولا معارض لقضائه ولا دافع لأمره ولا ناصر لمن قضى عليه؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

﴿٧١﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ قال في (الصحاح): ((السرمد: الدائم)) انتهى، قال الشرفي في (المصابيح): ((فقال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي دائماً متصلاً إلى آخر الدهر، والسرمد: الذي لا ينقطع)) انتهى.

قلت: يعني لا يتخلله انقطاع بل يستمر دائماً وإن كان لدوامه حد كما في الآية، وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي خبروني: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾؟ وهذا احتجاج على المشركين يبين لهم عجز من زعموا أنهم آلهة عن إصلاح حال عابديهم ونفعهم عند اضطرارهم، فهم يعلمون أنهم عاجزون عن ذلك فلِمَ يدّعون لهم ما ليس إلا لله فيزعمون أنهم آلهة شركاء في ملكهم بدون حجة وهم يعلمون عجزهم عن الخلق، وهذا احتجاج يكفيهم إن كانوا يسمعون؛ ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؟ فإنه يكفيهم أن يسمعوا هذه الحجة إن أنصفوا.

فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ

﴿٧٣﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؟ سؤال يبين أنه لا إله غير الله يقدر على الإتيان ﴿بِلَيْلٍ﴾ فالآية هذه والتي قبلها بيان لقدرة الله تعالى على الإتيان بالنهار والليل، والمشركون في وقت نزول القرآن من العرب لا يجحدون ذلك، والآيتان كما تذكران بقدرة الله تعالى تذكران بعجز شركاء المشركين وأنهم مبطلون في جعلهم أنداداً لله تعالى.

وقوله تعالى:﴿يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ تنبيه على حاجة الناس إلى الليل؛ لأنهم لولا أن الليل يجمعهم لطلب الراحة من الأعمال والسكون بعد الحركة، وكانوا في نهار دائم لما انتظم لهم السكون بل كانوا يتعارضون فمنهم من يريد الحركة ومنهم من يريد السكون الذي يكون في النوم ويستعاد به القوة بعد التعب، ونحن نرى هذا التعارض في نهار شهر رمضان حيث يطلب البعض النوم والصبيان يطلبون اللعب والصياح، وكذلك من سهر الليل فحاول أن ينام النهار فيأتي من له به حاجة فيدعوه؛ وبذلك تبين حاجة الناس إلى الليل ليجمعهم على النوم والسكون، وفي البلاد الحارة عكس ذلك؛ ولعله سر قوله: ﴿بِضِيَاءٍ﴾ ولم يقل: بنهار، فالنهار قد يجمع الضياء وحر الشمس مما يؤدي إلى الراحة بالنهار.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إن أريد به إبصار العيون فالمعنى أن من له بصر يميز بين الليل والنهار ويعرف الحاجة إلى كل منهما وأن كل واحد منهما نعمة ورحمة إذا نظر.

شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ

فقوله: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ سؤال لهم إذا لم يعرفوا الفرق بين الضياء والليل في الفائدة؛ لأنها تترتب على إبصار الأعين، فكأن من لا يعرف نعمة الضياء والليل لا يبصر، فكان أهلاً لأن يقال له: ألا تبصر؟

وإن أريد بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؟ إبصار البصيرة بالقلب إذا نظر العاقل وتذكر فعرف نعمة الله ورحمته فهو يبصر ببصيرته، ومن لم ينظر فلم يعرف كان أهلاً لأن يقال له: ألا تبصر بل أنت أعمى القلب، فالمعنيان صحيحان والأول أرجح ـ والله أعلم.

﴿٧٣﴾ ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي ومن رحمة الله الرحيم بعباده ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ خلفة، فجمع بين النعمتين لعباده: نعمة النهار ونعمة الليل ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ بالنهار بضيائه وبدفئه وبحر الشمس لتجفيف ما يطلب تجفيفه من الثمرات وغيرها وغير ذلك ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ نعمته فتعبدوه وحده ولا تشركوا به، وقد يدخل في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ شكره تعالى على نعمة الهداية إليه والدلالة عليه بآياته في الليل والنهار والتخالف بينهما على نظام محكم ومناسب لحاجة الإنسان فيهما وفي تناوبهما.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ * وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ﴾ إلى آخر

مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ

الآية جاءت هذه الآية مرتين، فرتب عليها في المرة الأولى ذكر براءة المتبوعين من التابعين مما يدل على شدة الحال عند ذلك النداء.

وفي المرة الثانية رتب عليها قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي شهيداً على الأمة، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فالشهيد يشهد بما عاينه أو سمعه من الأمة التي هو شهيد عليها، وفي هذا إشارة إلى حالة المشركين الذين يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وأفادت أنه لا يفيد الجحود من جحد ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما كنتم تزعمون في الدنيا من دعوى الشرك وغيرها ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ فيهم وفي كل مخلوق، فهم عباده وحده لا شريك له فيهم ولا حق لغيره فيهم مستقلاً ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ضاع عنهم في ذلك الموقف ما كانوا يفترونه من أن شركاءهم شفعاء لهم عند الله يوم القيامة أو أنهم سينصرونهم في الشدائد أو نحو ذلك، فقد تبين في ذلك الموقف أنهم كذبوا فلم ينفعهم شركاؤهم ولا غيرهم.

﴿٧٦﴾ ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ ﴿كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ من بني إسرائيل أو أقرب إلى موسى كأن يكون من السبط الذي منه موسى ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ على قوم موسى؛ ولعل هذا في أيام احتجاج موسى على فرعون فكان قارون مع فرعون كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٣-٢٤] فبغى قارون على قومه

معاوناً لفرعون على قومه، كما قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس:٨٣] فكان قارون من ملائهم ومعاونة قارون لعلها كانت بإبلاغ فرعون أسرار بني إسرائيل كإسلام من أسلم ووجود مولود ونحو ذلك كما تراه اليوم من بعض عملاء الظالم، وهذا يبعد ما يروى أنه خرج من البحر مع موسى بل الأقرب أنه كان مع فرعون حتى خسف الله به وبداره الأرض وإن كانت الروايات تخالف هذا؛ لأنها لا تبعد أنها جاءت من اليهود، وليس في القرآن ما يفيد صحتها.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ أعطيناه من المال الذي كان يكنزه لكثرته، قال الشرفي: ((هي الأموال المدخرة)) انتهى. يعني الكنوز.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ قال في (الصحاح): ((والمفتاح: مفتاح الباب وكل مستغلق، والجمع: مفاتيح، ومفاتح أيضاً)) انتهى. فأفاد أن مفاتح: جمع مفتاح، وقال الشرفي في (المصابيح): ((جمع مفتح ما يفتح به)) انتهى، والمعنى واحد فقد اتفقوا على تفسير المفاتح: بالمفاتيح.

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ قال في (أساس البلاغة): ((نؤت بالحمل: نهضت به، وناءَ بي الحمل: مال بي إلى السقوط)) انتهى، وفي (الصحاح): ((ويقال: ناء بالحمل: إذا نهض به مثقلاً، وناء به الحمل: إذا أثقله)) انتهى، وقال الشرفي: ((أي لتثقل العصبة وتميل بهم ـ ثم قال ـ : أي لتثقلهم من نا[ءَ] به الحمل إذا أثقله)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْعُصْبَةِ﴾ قال (صاحب الصحاح): ((والعصبة من الرجال: ما بين العشرة إلى الأربعين)) انتهى، وقد دلت الآية على كثرة الخزائن التي كنز فيها الأموال؛ لأن كثرة المفاتيح تابعة لكثرة ما يفتح بها ودل على كثرة المفاتيح كونها تثقل العصبة أهل القوة إذا اجتمعوا لحملها.

وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ اذكر قصته إذ نصحوه حين أطغاه الغنى، قال في (الصحاح): ((فرح به سُرّ والفرح أيضاً البطر)) انتهى. ومثله في (القاموس) فالفرح هنا: إما السرور المفرط الذي هو لازم الثقة بدوام الغنى والاطمئنان إلى الدنيا، وإما البطر، قال الراغب: ((البطر: دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها)) انتهى.

﴿٧٧﴾ ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿وَٱبْتَغِ﴾ واطلب الدار الآخرة وهي الجنة اطلبها ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من المال، فالدنيا مزرعة الآخرة إذا عمل فيها بطاعة الله كانت سبباً للجنة، فإذا أنفقت لله فيما يرضيه الإنفاق فيه نلت الجنة بالمال الذي آتاك الله، فجمع الله لك خير الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ فليس لك من الحياة الدنيا إلا نصيب محدود ينتهي فتموت وتفارق المال والقوة وينكشف أنه قد غرك طول الأمل ونسيان نصيبك من الحياة الذي لا تبقى بعده فاذكر هذا ولا تنسه ليقل حرصك على المال وفرحك به إذا تذكرت أن الفاضل للوارث لا ينفعك أي نفع.

﴿وَأَحْسِن﴾ فتصدق على المساكين وأطعم الجائع وفرج عن المكروب وغير ذلك من الإحسان شكراً لله على إحسانه إليك بما آتاك ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولا تحاول الفساد المنتشر في الأرض؛ ولعلهم أرادوا نهيه عن معاونة فرعون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فاحذر ذلك.

عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ

ويترجح: أن هذا كان في أيام فرعون؛ لأن موسى × لم يذكر في القصة من أولها إلى آخرها في القرآن الكريم؛ ولأن مدة موسى × في النبوة مع قومه بعد خروجهم من البحر ما كانت مظنة التعمير بل صاروا إلى العيش في غير مصر بل في التيه حتى توفي موسى × .

فلا بد أن قصة قارون كانت قبل خروجهم من مصر، أو أنها كانت بعد وفاة موسى × وبعد دخولهم القرية وتمكنهم، ولكن معنى هذا أنه أسلم مع موسى وخرج معه من البحر وعاش حتى دخلوا القرية واكتسب الأموال وبنا داره فكيف لم يكن نصحه من يوشع ولم يذكر في قصته وإسلامه بعيد في عهد فرعون وضعف موسى وقومه ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣] ولأن القرآن قرنه بفرعون وهامان ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٤] فكون القصة وقعت في عهد فرعون أقرب وعهده أقرب لتمكن قارون من ظلم قومه بخلاف عهد موسى × ويوشع × .

فالراجح: أن النصح من قومه كان في عهد فرعون في أيام أنهم مستضعفون ونصحوه لكونهم يدلون بقربه؛ ولأن ظلمه لهم بعثهم على نصحه، وقد يشكل على جعل القصة متقدمة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ..﴾ الآية؛ لأن عهد فرعون ليس مظنة أن يكون فيه أولوا علم لا من بني إسرائيل ولا من غيرهم، فالجواب أن هذا مجرد استبعاد، وقد حكى الله تعالى في (سورة غافر) ما يفيد: أن مؤمن آل فرعون أوتي علماً.

﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿قَالَ﴾ قارون جواباً على نصح قومه الذين نصحوه بشكر نعمة الله ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ أي المال ونحوه ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فعندي من العلم بطرق كسب المال وجمعه ما لأجله أوتيت هذا المال والقوة؛ ولعله أراد أنه كان له الإقبال والحظ بسبب علمه، ونظير هذا ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر:٤٩] ولذلك رد الله على الإنسان بقوله تعالى: ﴿..بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ [الزمر:٤٩-٥٠].

فالحاصل: أنهم يظنون أنه حظهم وإقبالهم بسبب ما عندهم من العلم والخبرة والبصيرة فكفروا بأنه نعمة من الله بجعل نعمته إنما حصلت لهم بالإقبال والحظ والعلم لا أنها نعمة من الله.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ عطف على مقدر، أي أعلم ما زعم ولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً، بل قد علم ذلك فكيف لم يتذكر ذلك ويعلم أنه لو كان بالحظ والإقبال بسبب ذلك العلم لاستمر الحظ والإقبال ولما تعقبه الهلاك وسلب النعمة، لكنها من منعم يفعل ما يشاء إن شاء بسط وإن شاء أمسك.

أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أي سؤال تعرف عند إنزال العقوبة؛ لأن الله تعالى رقيب عليهم ولا ينسى ذنوبهم بل ينبؤهم بما عملوا ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة:٦].

﴿٧٩﴾ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ ﴿فَخَرَجَ﴾ بعد النصح له وجوابه المشئوم خرج من داره ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ التي هي تعبر عن ثروته، فعند ذلك ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ لجهلهم وغفلتهم عن الآخرة: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ معجبين به مستعظمين له؛ ولذلك قالوا: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي قارون ﴿لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ لذو إقبال وجد وفي لغتنا: بخت عظيم نسبوا ما أوتي قارون إلى البخت كما فعل قارون.

﴿٨٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ يفيد: أن الذين يريدون الحياة الدنيا لا يُعدّون من الذين أوتوا العلم؛ لأن جهلهم قد غلبهم فصار علمهم كلا علم ﴿وَيۡلَكُمۡ﴾ زجر للذين تمنوا واستعظموا ما أوتي قارون؛ لأنهم معرضون بسبب ذلك للويل والهلاك كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ..﴾ [الإسراء:١٨] الآية ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فيمكنكم أن تسعوا لما هو خير مما أوتي قارون بالإيمان والعمل الصالح، فلا تفوتوه بحب الدنيا.

مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ فاصبروا لتكونوا من أهل الإيمان والعمل الصالح فتفوزوا بثواب الله، وقولهم:﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ لا يوفق لها ويهدى إليها ﴿إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾ لأن من لا يصبر يتبع هوى نفسه فلا يكون أهلاً للتوفيق سواء كان الضمير للجنة المفهومة من قولهم: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ أو للخصلة التي هي سبب الجنة، فمن كان يريد الجنة فعليه أن يصبر على الفقر وعلى ما ابتلي به وعلى تقوى الله.

﴿٨١﴾ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ ﴿فَخَسَفْنَا﴾ محقنا الأرض التي تقله وتقل داره فهَوَتْ بهما وهلكا.

قال الشرفي: ((قال الحسين بن القاسم × : معناه: هَدمنا به وبداره، وأهبطنا موضعه في بعض الأرض بعد قراره)) انتهى المراد.

وفي (الصحاح): ((وخسف الله به الأرض خَسْفاً: أي غاب به فيها)) انتهى.وعبارة الحسين بن القاسم × أجود.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ يشير إلى أنه كان له أتباع وأعوان لكثرة ماله، ولكن لما جاء أمر الله لم يكن له أنصار يحولون بينه وبين عذاب الله.

قال الراغب: ((والفئة الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد)) انتهى. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ من الخسف بأي قوة وبأيّ وسيلة.

لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي

﴿٨٢﴾ ﴿وَأَصۡبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَقُولُونَ وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَأَصۡبَحَ﴾ عطف على ذكر الخسف بقارون وداره.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَمَنَّوۡاْ مَكَانَهُۥ﴾ أي مثل ثروته، فالمكان كناية عن الحالة؛ ولعل الخسف كان في الليل فلما أصبحوا رأوا مكان داره قد هوى وعلموا أن الله قد خسف بقارون فكان عبرة لهم وتذكرة وحمدوا عاقبة الفقر أصبحوا يتعجبون مما بدا لهم من أمر الله وكانوا يظنون أن غِنى قارون من الحظ والبخت، فعلموا أو ظنوا أن الغنى من الله وتقدير الرزق من الله.

قال في (الصحاح): ((وَيْ: كلمة تعجّب، ويقال: وَيْك ووَي لعبد الله، وقد تدخل وَي على كأن المخففة والمشددة، تقول: وَيْ كأَنْ ووَيْ كأَنَّ. قال الخليل: هي مفصولة تقول: وَيْ ثم تبتدئ فتقول كأن قال الشاعر:

وَيْ كأن مَّن يكن له نَشَبٌ يحبب ومن يفتقر يَعش عيش ضُرِّ))

انتهى. وقال الراغب: ((وي: كلمة تذكر للتحسُّر والتندُّم والتعجُّب، ثم قال: وقيل: ويك كان ويلك فحذف منه اللام)) انتهى.

قلت: فهي كلمة (ويل) اختصرت بخلاف (وي) التي للتعجب، وفي (القاموس): ((وي كلمة تعجب، تقول: ويك ووي لزيد، وتدخل على كأن المخففة والمشددة، وقوله تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ زعم سيبويه أنها وي مفصولة من كأنَّ، وقيل: معناه ألم تر، وقيل: ويلك، وقيل: اعلم)) انتهى.

ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟

وقول من قال: معناه: ألم تر هو قول من قال: (وي) للتعجب؛ ولعله أشكل على بعضهم وصلها في المصحف، وفي المصحف مخالفات لقاعدة الكتابة.

وفي (الكشاف): «(وي): مفصولة عن (كأن) وهي كلمة تنبُّه على الخطأ وتندُّم، ومعناه أن القوم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم، وقولهم: ﴿يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ وتندموا، ثم قالوا: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي ما أشبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح، وهو مذهب الخليل وسيبويه» انتهى المراد.

وجعل في (مغني اللبيب) من معاني كأنَّ: الشك، والظن، وهو معنى مستقيم؛ لأن الذي بعث عليه حادثة واحدة بكافر واحد، فصح منهم تظنن القاعدة الكلية، ولا يجب أنهم أرادوا القطع وهم عقيب الحادث قبل النظر المؤدي إلى العلم.

وحكى في (الكشاف) عن الكوفيين: أن معنى﴿وَيْكَأَنَّ﴾ ألم تعلم وأن أصله: ويلك فحذفت اللام، وهذا ذكره الشرفي في تفسيره للآية.

وقولهم: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ قطعوا بذلك؛ لأنهم تمنوا مثل ما أوتي قارون وشاهدوا أن ما أوتي قارون أدّى به إلى الخسف، وليس كذلك قولهم: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لأنها عامة للكافرين على اختلاف أنواع الكفر، مع أنه يجوز عليهم أن يتظننوا ثم يقطعوا، ولو صح استعمال كأن للقطع لكان التفسير به محتملاً.

﴿٨٣﴾ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ﴾ هي الجنة، كما قال تعالى:

يَعۡمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٖۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ

﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا..﴾ [يوسف:١٠٩] والإشارة إليها لعلها لسبق ذكرها في حكاية قول الذين أوتوا العلم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ..﴾ الآية، وأما جعلها الإشارةَ إلى البعيد فلتعظيمها كما هو محقق في علم المعاني أو لبُعدها من حيث هي في الآخرة والإشارة في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿نَجْعَلُهَا﴾ أي ندخلهم ونملّكهم إياها، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يختارونه ويؤثرونه، كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ..﴾ [الإسراء:١٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ..﴾ [الإسراء:١٩] والعلو في الأرض: التفوق على الناس بغير الحق أو إرادة العلو؛ لأنه رئاسة وارتفاع، أي لهوى النفس فيه لا لغرض صحيح بل من حيث هو علوّ في الأرض، وهذا أرجح.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي ولا فساداً في الأرض أي لا يريدونه، فالجنة لمن سلم من الأمرين واتقى ربه بدليل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فكأنه قيل للمتقين الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، فقوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:٤٠] مع قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات:٤٠] وفائدة ذكر إرادة العلو أو الفساد: التحذير منهما، والدلالة على أنهما يمنعان من دخول الجنة، فأما التعبير هنا عن الجنة بالدار الآخرة فلعله في مقابلة الخسف بدار قارون.

﴿٨٤﴾ ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ ﴿مَن جَآءَ﴾ موقف الحساب مصحوباً

بالحسنة كأنَّ الناس يوم القيامة يأتون موقف الحساب بأعمالهم حاملين لها، كما قال تعالى في الكفار: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام:٣١] فمن جاء الموقف أو الآخرة ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ لأنه مؤمن تقي عمل صالحاً مقبولاً ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ لأنها تضاعف له أضعافاً كثيرة ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لا يزاد عليه، فعذاب كل واحد في شدته على قدر سيئاته لا يزاد عليه ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

﴿٨٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ﴾ إن الله الذي فرض عليك ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبه عليك حتماً لتقرأه على الناس فتقيم به الحجة عليهم من حيث أنه الآية الكبرى التي يعرفون بها صدقك ولتؤمنوا به وتتبعوه فلأنه فرض عليك هذا القول الثقيل الذي يشق عليك تبليغه إلى المكذبين بك وبه ويشق العمل بتكاليفه والاستقامة عليه ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ عظيم تنال فيه ثواب ما قمت به من تحمل ما حُمّلت ويحكم الله فيه بينك وبين المكذبين.

وقد أبهم هنا هذا المعاد، لكن كلمة الرد تشعر بالعودة إلى أمر كان فيه وكذلك كلمة المعاد تدل على العودة، فهي العودة إلى الحياة بعد الموت والردّ إلى ما فيها من الجزاء العظيم المسبب عن فرض القرآن على رسول الله المخاطب بهذا الخطاب والموعود بهذا الوعد ليصبر على تحمل هذا الواجب ويسهل عليه لما يرجوه من المعاد ص قل لقومك المكذبين لك: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فهو يثيبه في الآخرة ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فربه يجزيه؛ لأن مردنا إلى ربي فهو يحكم بيني وبينكم.

أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٨٧ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨

---

٨٦ ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ في هذه الآية الدلالة على أن القرآن وإن كان ثقيلاً فهو رحمة ونعمة ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ﴾ هذه النعمة العظمى والدرجة الرفيعة ﴿أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ هذا ﴿ٱلۡكِتَٰبُ﴾ الذي يكتب وتتوارثه الأجيال بعدك ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ لكن رحمة من ربك ألقاه إليك فرحمته في الآخرة أعظم؛ لأنها دار الثواب على العمل ورحمة الدنيا تفضل ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالقرآن والرسول لا تكونن معيناً لهم، بل عليك أن تشكر هذه النعمة العظمى وتقوم بواجبك من التبليغ والمجاهدة لهم بهذا القرآن والثبات على الدعوة إلى الله وإلى ترك الشرك بالله.

والراجح أن معنى هذا النهي: هو النهي عن التخلي عن أمر الله وعما حمل من الرسالة؛ لأنه لو تخلى عنها لكان قد أعان المكذبين له الكافرين بالقرآن؛ لأن غرضهم من الكفر به أن يتخلى عن دعوته ويتركهم على دينهم.

٨٧ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾ احذرهم أن يصدوك عن هذا القرآن الدال على أن الله أرسلك و ﴿عَنۡ﴾ سائر ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على ذلك فهم جادّون في التحيل لصدك بالترغيب والترهيب وكل ما يستطيعون كالجدال بالباطل فاحذرهم لتثبت على آيات الله.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ دلالة على أنها نعمة عظمى قد نالها، فلا يليق به إلا المحافظة عليها والثبات على التمسك بها ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ غير مبال بالكافرين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فهم على الباطل وأنت على الحق فلا تترك الحق وتكن من أهل الباطل، ومن فوائد النهي هذا أن يسمعه المشركون وغيرهم فيكون زاجراً لهم عن الشرك، وهو أيضاً تعبّد لرسول الله ص كسائر التكاليف التي يطيع فيها ربه وله فيها ثواب.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ لعله أعيد النهي ليرتب عليه بيان بطلان الشرك بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فدُعاءُ إله مع الله باطل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فالأصنام وغيرها مما يعبده المشركون كلها هالكة، وذلك من أوضح الدلالة على أنها عباد مملوكة يبقيها خالقها متى شاء ويفنيها متى شاء، فعبادتها لا تفيد عابدها شيئاً، بل هي ضر من حيث أنها باطل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ رضوانه ورحمته، فإذا عبدته وحده فزت برضوانه الدائم.

فالوجه كناية عن الرضوان، كقول أولاد يعقوب × : ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا..﴾ إلى قولهم: ﴿.. يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٨-٩] أرادوا أن لا ينظر إلا إليهم؛ لأجل أنه يحبّهم وحدهم لا يجد من يحبه غيرهم، فالوجه كناية عن الحب؛ لأن المحب يكثر النظر إلى من يحب، فكما قال تعالى في أعدائه: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:٧٧] أفاد في أوليائه أنه ينظر إليهم أي يحبهم ويرضى عنهم؛ ولذلك يذكر الوجه عند القرَب مثل: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩] ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:٥٢] ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [الروم:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ دليل على إبطال الشرك كما قال يوسف × : ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ..﴾ الآية [يوسف:٤٠] فالمشركون يجعلون آلهة هم سموها آلهة مع أن حكمهم ليس له معنى ولا حجة فيه بل هو باطل؛ لأنهم ليس لهم أن يحكموا؛ لأنهم عباد مملوكون، والحكم في عباد الله إنما هو لله؛ لأنه مالكهم ولكن المشركين لجهلهم يجعلونها آلهة لحكمهم بذلك حين سموها وجعلوها، فهذا وجه لإبطال الشرك بقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ والوجه الثاني: أن الله تعالى قد أبطل الشرك وحكم بأن لا إله إلا هو وهو الذي له الحكم؛ لأنه رب العالمين، فحكمه الحق وحكم العباد الباطل.

وقوله تعالى:﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة ترجعون إلى الله وحده فيحكم فيكم بما شاء لا ترجعون إلى غيره، فدعواهم أن شركاءهم سيشفعون لهم دعوى باطلة؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده، فالمشركون هم الخاسرون والعابدون لله وحده هم الفائزون.

والحمد لله رب العالمين،،،

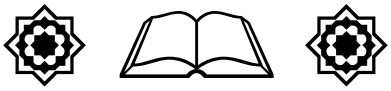

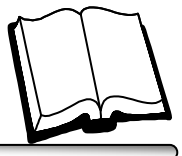

التيسير في التفسير

سورة العنكبوت

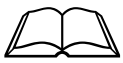

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا

ابتداء تفسير (سورة العنكبوت)

ويظهر من مواضيعها أنها نزلت بعضها في (مكة) وبعضها في (المدينة) فأما الغالب فالله أعلم

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ من حروف المعجم، وقد مضى في تفسيرها كلام مكرر فنكتفي بما مرّ ﴿أَحَسِبَ﴾ (الهمزة) للسؤال، بمعنى إنكار الحسبان، وعيبه على أهله، وسماها (صاحب مغني اللبيب): (همزةَ الإنكار التوبيخي) ومعنى (حسب): ظن، وظاهر قوله تعالى: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ أنها نزلت وقد كثر المسلمون، وذلك بعد هجرة رسول الله ص ومعنى ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ أن يتركوا على قولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ دون أن يفتنوا.

والحاصل: أحسبوا أنهم لا يفتنون بالنسبة لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ ومعنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يختبرون بما يميز الصادق في قوله: آمنت، والكاذب الذي يدعي الإيمان وقلبه غير مؤمن، فإنكار حسبان عدم الفتنة يؤكد الخبر بأنه لا بد منها.

﴿٣﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تأكيد أنه لا بد من الفتنة، فيدل على أن سنة الله في الماضين لا تبدل كما قال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [فاطر:٤٣].

ومن فوائد التأكيد: أن يهتم المؤمن ويقوى عزمه على الثبات متى وقعت الفتنة، ويحذر أسباب الإفتتان، ويدعو الله أن ينجيه من مضلات الفتن، ومن أسباب الإفتتان: المعاصي، والميل إلى الدنيا، ومن أسباب الثبات: التقوى، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والصدقة، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ﴾ بمعنى فليفتننهم حتى يثبت الصادقون، ويفتتن الكاذبون من قبل الفتنة أو من حين جاءت، فيعلم الله من ثبت، ومن افتتن، فيعلم هذا ثابتاً، وهذا مفتوناً، وهو سبحانه علام الغيوب، لكن الإخبار بعلمه هذا بالثابت والمفتون دلالة على أنه يجزي كلاً منهما بما يستحق.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : سألت أبي الهادي إلى الحق ـ صلوات الله عليه ـ عن الفتنة؟

فقال: هي أربعة وجوه، فوجه منها: العذاب، وهو كما قال تعالى في حديث ابن قيس: ﴿أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩] يريد في العذاب وقعوا، ومن ذلك قوله تعالى في أهل الأخدود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج:١٠] يريد عذبوهم بالنار في الأخدود. والوجه الثاني هو: الإعجاب بالشيء والمحبة له، تقول العرب: فلان مفتتن بصاحبه مفتتن بزوجه [في نسخة (المصابيح): بزوجته، ولعل الصواب: بزوجه] مفتتن بماله، محب له معجب به.

والوجه الثالث فهو: الحرب، تقول العرب: بين بني فلان فتنة شديدة تريد حرباً شديداً، والوجه الرابع فهو: على معنى المحنة، وذلك قوله تعالى: ﴿الم* أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ..﴾ يقول: امتحنا الذين من قبلهم)) انتهى المراد.

تَحۡكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ

﴿٤﴾ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ ﴿أَمۡ حَسِبَ﴾ إضراب عن السؤال الأول إلى سؤال الذين يعملون السيئات، أي بل أحسب ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾ والسيئات: المعاصي القبيحة، ومعنى ﴿أَن يَسۡبِقُونَا﴾ أن يفوتونا فلا نتمكن من أخذهم إن حسبوا ذلك فذلك الحسبان أقبح من حسبان من آمن أن لن يفتنوا، وهذا الحسبان مقرون بحكمهم لأنفسهم بالنجاة؛ لأن الواحد منهم يقول: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ فهو حكمٌ سيء ما أسوأه! لأنه باطل وغرور خادع لهم يوقعهم في جهنم؛ ولأجله يسألون، أحسبوا أنهم يفوتون الله حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة لأنه لا حجة لهذا الحكم فلماذا يحكمون به ألأنهم يحسبون أنهم يسبقوننا؟!.

﴿٥﴾ ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿مَن كَانَ﴾ مؤمناً ﴿يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة لإيمانه بالآخرة إيماناً صادقاً فإن رجاءه غير خائب بل هو واقع، وإن أجله الله فإن أجله ﴿لَأٓتٖ﴾ لا يتخلف، وبذلك يبلغ المؤمن ما أمله من لقاء الله ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقول من آمن ولكل قول ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بإيمانه ورجائه وبكل شيء فهو يجزي المؤمن ولا يضيع عليه مثقال ذرة؛ لأنه لا يخفى عليه إيمان المؤمن ولا شيء من أقواله وأعماله.

﴿٦﴾ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ أي قاتل أو أعم من ذلك مهما كان مشروعاً فإنما يجاهدهم لنفسه؛ لأنه وإن جاهد لله وفي سبيله فنفع الجهاد للمجاهد؛ لأن ثوابه له.

أَحۡسَنَ ٱلَّذِی كَانُوا۟ یَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّیۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ بِوَ ٰلِدَیۡهِ حُسۡنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِی مَا لَیۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ فَلَا تُطِعۡهُمَاۤ ۚ إِلَیَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِینَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ

أما الله ـ جلَّ جلاله ـ فهو غني عن جهاد المجاهد وعن أعماله كلـها، فـإن الله غني ﴿عَنِ ٱلۡعَـٰلَمِینَ﴾ لا تزيد ملكَه طاعتُهم ولا تنقصه معصيتُهم، وهـذا حث على الجهاد مفسر في آخر آية من هذه السورة.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلَّذِینَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَیِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِیَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِی كَانُوا۟ یَعۡمَلُونَ﴾ ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَیِّـَٔاتِهِمۡ﴾ نغطيها يوم القيامة ولا نظهرها حتى لا تسوءهم في الآخرة؛ وذلك لأن من لوازم الإيمان التوبة من المعاصي، وترك الإصرار عليها، والعزم على اجتنابها، والحب للطاعة، والكراهة للمعصية ﴿وَلَنَجۡزِیَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِی كَانُوا۟ یَعۡمَلُونَ﴾ أحسن الذي كانوا يعملون يخرج به السيئ ويخرج المباح؛ لأنه حسن غير قبيح فالإيمان والعمل الصالح أحسن الذي كانوا يعملونه، وجعل ثوابه إياه لأنه سببه، وهذا وعد عام بعد الوعد الخاص للمجاهد والمجاهد داخل في هذا على جهاده، وعلى سائر عمله وعلى إيمانه.

﴿٨﴾ ﴿وَوَصَّیۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ بِوَ ٰلِدَیۡهِ حُسۡنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِی مَا لَیۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ فَلَا تُطِعۡهُمَاۤ ۚ إِلَیَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَوَصَّیۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ﴾ عطف على الوعد للمؤمن العامل صالحات؛ ولعله باعتبار أنه حث على الإيمان والعمل الصالح ومعنى التوصية من الله تعالى الأمر كذا قالوا؛ ولعل جعله وصية باعتبار انقطاع الوحي بموت الرسول ص لأن الإنسان مأمور بذلك إلى آخر الحياة الدنيا حين انقطاع التكليف، وقوله تعالى: ﴿حُسۡنًا﴾ أي إحسانا أو حسن المحاورة والمعاملة والمرافقة وغيرها.

لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا

وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ بمعنى شددا في المطالبة لك بالشرك وتحملا الجهد والعناء في ذلك وتحملت الجُهد في دفعهما والإمتناع من طاعتهما في ذلك فلا تطعهما بعد ذلك وبالأولى أن لا يطيعهما لمجرد الأمر بدون عناء وكفاح، والحاصل أنه لا يجوز له أن يطيعهما وإن غضبا من امتناعه وهجراه أو ضرباه، أو حبساه، فأما دفع ضرهما بالتقية بإيهام الموافقة مع اطمئنان القلب بالإيمان فيجوز من ذلك ما يجوز بسبب الإكراه، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالأِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦].

وقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي إليّ لا إلى أحد غيري فاحذروا عذابي لأن مرجعكم للحساب والجزاء إليَّ، ولا تطيعوا والديكم في معصيتي، وقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ أي حين ترجعون إليّ يوم القيامة أنبئكم وأخبركم أو أعلمكم ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ في الدنيا ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ لأني علمته كله ولم أنسَ منه شيئاً، وأنا أجزيكم به.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وإن هجرهم والدوهم وجاهدوهم على أن يشركوا ولم يطيعوا مخلوقاً في معصية الخالق، وهذا من الإيمان والعمل الصالح؛ لأن العمل الصالح لا يصلح إلا مع التقوى ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُم فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لندخلنهم في جملة الصالحين الذين يدخلون الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً﴾ [النساء:٦٩].

كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ

وهذا ترغيب في الثبات على الإيمان وإن قطعه الوالدان فضلاً عن غيرهم، فهو يصير في جملة الصالحين رفيقاً لهم وهم خير له من الوالدين المشركين، فلا يبالي بمن هجره في الدنيا من المشركين.

﴿١٠﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ قولاً بلسانه بدون إيمان في قلبه؛ لأنه لو آمن قلبه لثبت على الإيمان وصبر على الأذى في الله، ولكنه قال: آمنا قولاً بلسانه ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾ من أجل أنه أظهر الإيمان بالله وإخلاص الدين لله ضعف ولم يصبر على الأذى وخوف التعذيب بل ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ له ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة، ففر من فتنهم له إلى الكفر وترك الإيمان، وارتد كما يفر المؤمن من عذاب الله فيفر مما يؤدي إليه ويحذره.

﴿وَلَئِن جَآءَ﴾ المؤمنين الثابتين على الإيمان ﴿نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ يا رسول الله ينصر به دينك الذي بلغته ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ أي المرتدون ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ أي لم نرتد عن الإسلام، بل كنا معكم وإن أظهرنا للكفار الردة ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا يفيدهم دعوى أنهم كانوا معكم يضمرون الإيمان في صدورهم ويظهرون الردة تقية؛ لأن الله تعالى أعلم بما في صدورهم وأنهم قد شرحوها بالكفر.

﴿١١﴾ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ الراجح: أن هذا عطف على قوله تعالى: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا..﴾ الآية بمعنى أنه

ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ

لا بد من الفتنة المميزة بين المؤمن والمنافق، والفرق بين الآيتين أن الكاذب في قوله: آمنا قد لا يكون منافقاً؛ لأن المنافق يتولى الكفار سراً، وقيل: المنافق يضمر الكفر وليس كذلك من يقول آمنا ولم يتول الكفار، ولا أضمر الكفر كما حكاه تعالى في قوله: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤].

﴿١٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ أراد الذين كفروا أن يرتد الذين آمنوا واستعملوا هذا التغرير ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ وهكذا يفعل المبطلون ليخدعوا أتباعهم، وقد أبطل الله هذا الخداع بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ وأبطله ـ أيضاً ـ بقوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر:١٨] فأفاد تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أن الولد لا يحمل ذنب والدته ولا ذنب أبيه ولا ذنب ابنه فضلاً عن ذنب أخيه.

وأفاد بقوله: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ العموم فلا يحمل رئيسٌ ذنب عسكره ولا ذنبَ جلاده أو قتّاله أو صاحب حبسه أو قيده، كلهم خطاياهم عليهم، ولا يحمل عنهم منها رئيسهم شيئاً وإن زعموا لهم أنهم الحاملون فهم كاذبون لكنه شريكهم من حيث أنه أمرهم بالظلم.

وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَصْحَـٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ

﴿١٣﴾ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ﴾ أي هؤلاء الذين قالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ..﴾ فهذا قول الله ـ جل جلاله ـ أنهم يحملون ذنوبهم ﴿وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي صدهم عن سبيل الله وإفسادهم، فهم يحملون خطاياهم التي هي كفرهم وشركهم وغير ذلك وخطاياهم التي هي إفسادهم كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨] وليس معنى ذلك أنهم يحملون ذنب غيرهم، وإنما المراد أنهم يحملون ذنبهم بفسادهم، ومع ذلك ذنبهم المضاف إلى ذنبهم بإفسادهم من غير أن ينقص من ذنوب غيرهم شيء.

﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فيحاسبون على كذبهم بقولهم: ولنحمل خطاياكم؛ لأن من معناه إمكان ذلك وجوازه، وأنهم إن اتبعوهم حملوا خطاياهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿..إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيسألون يوم القيامة عن هذا الافتراء وغيره من افترائهم كل ما كانوا يفترونه في الدنيا.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ في هذا إنذار للكفار الذين أرسل الله إليهم محمداً ص كما أن فيه تسلية له ص بأن نوحاً × كذّبه قومُه مع طول لبثه فيهم وصبره عليهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَبِثَ﴾ أي بقي بينهم مبلغاً ومحتجاً وواعظاً ومنذراً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ والعام: هو السنة

﴿١٥﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ وهو الماء الذي أغرقهم لكثرته عليهم كما بيّنه الله في (سورة هود). قال في (الصحاح): «والطوفان: المطرُ الغالبُ، والماء الغالب، يغشى كل شيء» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ أي أخذهم في حال أنهم ظالمون لم يتوبوا من ظلمهم، فحقت عليهم الخسارة العظمى والشقوة الدائمة؛ لأنهم بذلك يصيرون في جهنم خالدين فيها أبداً.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ﴾ أي نوحاً أنجيناه مما عذبنا به قومه ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ وأصحابه في السفينة أنجيناهم، فقوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ كقوله: ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ..﴾ [يوسف:٣٩] وعلق نجاتهم على صحبته في السفينة؛ فلعل ذلك لأنها كانت عَلَماً للإيمان من ركبها فهو مؤمن ومن تجنبها غرق؛ لأنه ليس مؤمناً.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ كانت سفينة نوح آية للعالمين؛ لأنها دليل على صدق نوح في رسالته كما أنها دليل على الله الذي دبّر نجاة نوح ومن معه بها من بين قومه، وكذلك هي دليلٌ على أن الله تعالى ينجي المؤمنين، وقوله: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ لأن الأمم توارثت ذكرها.

﴿١٦﴾ ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾ أرسلناه ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ﴾ مبلغاً للرسالة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ فلا تشركوا به، ولا تفعلوا ما يوجب عليكم

إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾

عذابه ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ العبادة والتقوى ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ علمتم أنه خير لكم؛ لأنه يؤديكم إلى السعادة الدائمة والنجاة من الشقوة الأبدية، وقبل ذلك الحياة الطيبة، وقد قامت الدلائل على أنه خير لكم فانظروا لتعلموا إن كنتم ممن يعلم بواسطة النظر في الآيات فمن شأنه أن يعلم.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في (مفردات الراغب): ((الوَثَنُ: وَاحِدُ الأوثانِ، وهو حجارةٌ كانت تُعْبَدُ)) انتهى. وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أصنام من حجارة، واحدها وثن)) انتهى.

أما (صاحب الصحاح) ففسر الوثن: بالصنم، والصنم بالوثن، فكأنه لا يخص الوثن بالحجارة، أما (تفسير الإمام زيد بن علي إ) فيحتمل أنه فسر الأوثان بالحجارة؛ لأنه يعني أوثان قوم إبراهيم لا لمجرد تسميتها أوثاناً، ويظهر من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] يظهر منه: أن أوثانهم من الأحجار صنعت تماثيل؛ لقوله: ﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾؟ [الأنبياء:٥٢] فإبراهيم × ينكر عليهم الشرك ويحتج على أنهم مبطلون ببيان ما يعبدونه أنه لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، بل هو جماد.

وقوله: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تختلقون وتفترون ﴿إِفْكًا﴾ قولاً باطلاً كذباً؛ ولعله × يعني دعواهم أن أصنامهم آلهة وما ادعوا لها من نفع أو ضرّ وبين لهم أنها لا تملك لهم رزقاً وهو أعظم ما يهمهم.

وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١٩﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ

ثم قال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي لأنه الذي يرزق عباده، ثم قال: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي لأنه الخالق الرازق فهو ربكم المالك لكم فهو المستحق للعبادة ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ نعمه عليكم بالعبادة والإقرار بأنه المنعم ﴿إِلَيۡهِ﴾ وحده ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ اضطراراً ليجزيكم بما قدمتم ولا ترجعون إلى أصنامكم ولا تفيدكم يوم القيامة نفعاً ولا دفعاً.

﴿١٨﴾ ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يقول إبراهيم × لقومه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ رسولكم ﴿فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾ رسُلَهم فانظروا كيف كانت عاقبتهم.

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أن يبلغ الرسالة بلاغاً مبيناً إما بيناً في نفسه، وإما مبيِّنا والمعنى واحد؛ لأن المراد بلاغ يبين ما أرسِل به، وهذا دليل على أن قد مضى قبل قوم إبراهيم أمم، وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩] فلا يجب أن نعلمهم كما كان قوم إبراهيم × يعلمونهم.

﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ أو لم ير الذين كفروا وقالوا: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فجحدوا رسالة الرسول ص؛ لأنهم اعتمدوا في تكذيبهم بالرسالة على استبعاد النشأة الآخرة التي أخبر بها الرسول ص مع أنهم يرون بعقولهم كيف ينشئ الله النشأة الأولى، وهي بدء الخلق كخلقهم أنفسهم في بطون أمهاتهم.

ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي

فإذا عرفوا ذلك فكيف يخفى أن الله يعيده تارة أخرى؛ لأن ﴿ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ كما دل عليه بدء الخلق، فقوله: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ عطف على جملة الكلام من أول الآية كما يأتي قريباً في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ ويحتمل كيف يبدئ الله خلق بعض المخلوقات وهو المرعى ثم يعيده بالمطر بعد أن يبس وتكسر فبدأ المرعى خلقه أول ما خُلق، وإعادته في عرف العرب واعتبارهم إعادة المرعى بعد أن ذهب.

وقد احتج الله عليهم بهذا في (سورة الحج) فقال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥] وفي (سورة الروم): ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٢٤] وفيها: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [الروم:٥٠].

﴿٢٠﴾ ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ﴿قل﴾ يا رسول الله للمكذبين بالآخرة ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتروا صنعاً من صنع الله غير الذي ترونه في بلدكم ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ فيه ﴿كَيۡفَ بَدَأَ﴾ الله ﴿ٱلۡخَلۡقَ﴾ بقدرته التي لا تقاس على قدرة المخلوقين ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن بدأ الخلق ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو على كل شيء قدير الذي دلت عليه مخلوقاته ﴿يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ كما بدأ الخلق، ودل بدء الخلق على أنه على كل شيء قدير ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ولذلك بدأ الخلق وهو يعيده.

ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ

﴿٢١﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ لعل هذه كالنتيجة لتقرير النشأة الآخرة، ففي الآخرة ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أو هو من الاحتجاج على النشأة، أي أن الله سيعيد الخلق؛ لأنه يعذب من يشاء ويرحم من يشاء كما في الدنيا ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ في الآخرة أي ترجعون إليه دون غيره؛ فاتقوه لأنه غالب على أمره.

وفي تفسير ((الإمام زيد بن علي إ)): ((﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ معناه: ترجعون)) انتهى. وقال الراغب: ((والإنقلاب: الإنصراف)) انتهى.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لا تفوتون الله إن فررتم منه لا تفوتونه حال كونكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا﴾ حال كونكم ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لو فررتم في السماء؛ ولعل هذا يشير إلى الطائرات التي هي اليوم أسرع وسائل الفرار من بلد إلى بلد والذي يكون فيها في الهواء يكون بعيد المنال.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يتولى أموركم، ويحسن رعايتكم فتكتفون به عن ولاية الله، أو فيدفع عنكم عذابه بالشفاعة، وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي يكون بزعمكم أقرب إليكم من الله أو متدخلاً بينكم وبين الله، فهذا لا يكون ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم كذلك.

﴿٢٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ راجع إلى الذين قالوا: ﴿ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ من حيث

حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ

أنهم كفار، تقدم أولاً الرد عليهم باعتبار كذبهم من حيث قالوا: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ ثم هذا الوعيد على كفرهم بآيات الله حيث جحدوا كونها آيات من الله، وعلى كفرهم بلقاء الله الذي هو الحضور في موقف العرض والسؤال والحساب؛ لأنهم كفروا بالبعث بعد الموت.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى﴾ يئسوا من رحمة الله في الآخرة التي هي الجنة فهم في الدنيا يئسوا منها؛ لأنهم يئسوا من الآخرة وهم يوم القيامة ييأسون من رحمة الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ففاتت عليهم الجنة وعاقبتهم العذاب الأليم في الجحيم، وهذه الآيات دخلت بين قصة إبراهيم × من قول الله تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا..﴾ لأنها ناسبت قول إبراهيم من حيث هي تنذر المشركين وتحتج لصدق الإنذار، ولأن ذلك المراد من حكاية قصة إبراهيم لقوم رسول الله ص.

﴿٢٤﴾ ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا راجع إلى احتجاج إبراهيم على قومه ونصحه لهم فما أجابوه بجواب حسن، إنما أجابوه بقولهم: اقتلوه أو حرقوه ثم تموا على إحراقه ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ حيث كانت برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن في إنجاء إبراهيم من النار ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ لأنه دليل على الله الذي جعل النار برداً وسلاماً، ودليل على علمه وقدرته ونصره لرسله وإخسار أعدائه.

ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ

وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي يؤمنون إذا جاءتهم الآيات التي تدل على الحق لأنهم ينظرون فيها نظر من هو طالب للحق، ولا يعرضون عنها ولا يستكبرون من الإيمان بها فكان من شأنهم أن يؤمنوا؟

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ وقال إبراهيم، ولعل هذا بعد خروجه من نارهم لأنه أُخّر بعد ذكر إنجائه ولم يذكر مع احتجاجه وقوله: ﴿مَّوَدَّةَ﴾ أي اتخذتم أوثاناً من أجل المودة بينكم تحابيتم على اتخاذ الأوثان فتم بينكم اتخاذها لأنكم تعاونتم على الإثم وتآخيتم على الباطل، ويحتمل: جعلتم أوثاناً سبباً للمودة بينكم تعصباً لها، فمن كان معكم أحببتموه لحبها ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ تعرفون أنكم أهلك بعضكم بعضاً، بتسبيبه للشرك، فتنقلب المودة عداوة، فيكفر بعضكم ببعض، كقوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] ﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ عداوة وبغضاً وغيظاً، وقد حكى في (لسان العرب) تفسير الكفر بالبراءة في بعض المواضع فلا يبعد هنا، وفي قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أنه بمعنى برئنا منكم، وقد قال الشرفي بعد أن فسرها بغير هذا قال: ((والمعنى أنكرناكم وقطعناكم)) انتهى.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي بشرككم وما اكتسبتم من أسبابها، وقوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾ تحذير من توهم أن أصنامهم سينصرونهم إن بعثوا.

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ

﴿٢٦﴾ ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فآمن له لوط تفريع على إنذاره لقومه آمن له أجابه إلى الإيمان وأطاعه وصدقه ولعله آمن له حين كلم قومه بما حكاه الله عنه فأظهر لوط إيمانه لأن من البعيد أنه كان مشاركاً لقوم إبراهيم في محاولة إحراقه، فلا بد أنه كان يكتم إيمانه ثم أظهره في آخر الأمر حين أنجا الله إبراهيم من النار، وبطل أمر قومه، وصاروا الأسفلين.

وقال إبراهيم × : ﴿إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ لأنه قد أذن له بفراق قومه فهاجرهم ولم يبق بينهم مع إصرارهم على الشرك، وكانت هجرته إلى ربه لأنه يريد أن يعبد ربه حيث لا يرى المنكر، ولا يسمعه فكانت هجرته في طاعة الله إلى الله.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فهو الذي من شأنه أن يعز من هاجر إليه، ويحفظه أو فهو الذي لا يرضى لأوليائه بالبقاء حيث يعصى الله دون أن يخرجوا إليه لأن بقاءهم بين المشركين وهم مستضعفون ينافي عزتهم بالإيمان وذلك لا يناسب عزة ربهم، ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] كما أن بقاءهم بينهم في غير المعصومين مظنة ضعف إيمانهم لأن مشاهدة المعاصي وسماعها على الاستمرار يقلل نفار النفس منها ويقرب من الرضى بها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:٦٩] فمن الحكمة الأمر بالهجرة من بينهم وأن لا يكون البقاء بينهم مرضياً عند الله.

﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ

وهذا في غير المعصوم فأما المعصوم فإنما بقاؤه بينهم ينافي مباينتهم ومعاداتهم لأن فيه إيناساً لهم حيث يشركون وهو يرى ويسمع ويكذبون بآيات الله وهو ساكت فإن بقي مقاوماً لهم ومعارضاً فذلك مشقة عليه بغير موجب حيث قد جازت له الهجرة، وانتهت مهمته معهم، فليس من الحكمة بقاؤه بينهم حيث لا يستطيع الانكار أولا ينكر إلا بقوله، وهم لا يبالون بقوله، وقد أنكره بما يكفي لإبلاغ الحجة، وإنما يعارضونه بالتكذيب والسخرية، فبقاؤه فيهم ليس من الحكمة، فمن الحكمة إيجاب الهجرة عليه صيانة له وإكراماً انظر إلى قول الله تعالى لعيسى × : ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران:٥٥].

﴿٢٧﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم × ﴿إِسْحَـٰقَ﴾ ابناً له ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابن ابنه إسحاق، وهذا في حال أن قد هاجر، فحمد الله على ذلك وعلى أن وهب له إسماعيل كما في (سورة إبراهيم) ولعل ذكر إسحاق ويعقوب هنا لمناسبة دعوة رسول الله ص لبني إسرائيل في المدينة المنورة.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ في البطنين بعد إسماعيل وإسحاق، فكانت نعمة لأبيهم إبراهيم وفضيلة لذريته على غيرهم فبطل بذلك إنكار العنصرية الإنكار المطلق، فأما العنصرية التي لم يدل عليها القرآن ولا السنة أو الغلو في العنصرية التي أصلها ثابت فذلك غير صحيح.

وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى

وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لعل ذلك ما جعل له في الدنيا من الفضل مثل اتخاذه خليلاً، ولسان صدق في الآخرين جعله له ومثل زيادة الهدى والنور والحياة الطيبة وجعله إماماً للناس، والله أعلم ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ينال من الثواب والكرامة والنعيم ما نال الصالحون وهو مفضل فيه على قدر فضله، قال الشرفي: في أرفع الدرجات في الجنة.

﴿٢٨﴾ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ﴿وَلُوطًا﴾ وأرسلنا لوطاً ﴿إِذْ قَالَ﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ هذا خبر مؤكد وبعده سؤال توبيخ ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ تعدد إنكاره عليهم تارة بالخبر، وتارة بالسؤال الموبخ لهم، و ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: الزائدة في قبحها البالغة في القبح مبلغاً شنيعاً، يعني إتيانهم للرجال شهوة وقوله: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ دعوة إلى تركها كما لم يفعلها من قبلهم فتركها مع عدم القدوة فيها أهون، وليس لهم سلف يتأسون به، فهي منهم أقبح، ولأنهم سنوا سنة سيئة، وذلك زيادة في قبحها.

﴿٢٩﴾ ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ تنكحونهم ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وقطع السبيل: ظلم لمن مرّ واعتدوا عليه، ولمن ترك المرور خوفاً منهم ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ محل اجتماعكم ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾.

قال في (الصحاح): ((والنديّ على فعيل مجلس القوم ومتحدثهم، وكذلك الندوة والنادي والمنتدى، فإن تفرق القوم فليس بنديّ، ومنه سميت دار الندوة بمكة التي بناها قُصَيّ لأنهم كانوا يندون فيها أي يجتمعون للمشاورة)) انتهى. وقال الشرفي: ((والنادي: مجتمع القوم ما داموا فيه فقط، وإلا فهو مجمع ومجلس)) انتهى المراد.

وذكر ذلك (صاحب لسان العرب) والمنكر هنا ما تنكره العقول، وكونه في ناديهم دلالة على تراضيهم به، وتوافقهم عليه، فلا ينكرون المنكر، ولا يعيبون المعيب، وفعله في حال حضورهم ومشاهدتهم دليل عدم المبالاة بالعار، وعدم الحياء، وخبث نفوسهم.

وقال الشرفي: ((يعني ما كفاكم قبح فعلكم حتى تضموا إليه قبح الإظهار)) انتهى، والذي في نسخة (المصابيح): قبيح فعلكم، ولعله غلط بزيادة الياء، وإنما هو: قبح فعلكم ـ بضم القاف وسكون الباء.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ تكذيباً لرسولهم ومبالغة في تكذيبه وإصراراً على باطلهم، ومبالغة في عنادهم، والحصر إضافي فلم يجيبوا بالموافقة والطاعة ولا بطلب حجة بل قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، ونظيره في كون الحصر إضافياً قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:١٦٤] أي لا على غيرها، وليس المراد العموم لأن الصالحين يكسبون لأنفسهم، ومعنى قولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ نفي صدقه والمبالغة في نفيه بطلب عذاب الله إن كان صادقاً، بمعنى أنهم لا يطلبون عذاب الله إن كان صادقاً إلا لأنهم واثقون أنه غير صادق.

ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ

﴿٣٠﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ رجع إلى الدعاء بعد إقامة الحجة عليهم وعنادهم وجدهم في فسادهم وإفسادهم، فإذا نصره الله نصر الحق، وزهق الباطل والدعاء سلاح المؤمن، ولم يكن له طاقة بقهرهم لعدم الأنصار معه مع أنه إنما أرسل لإنذارهم فكذبوه، وحاولوا أن يفضحوه في ضيفه فلم يكن له سلاح إلا الدعاء.

﴿٣١﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿رُسُلُنَآ﴾ الملائكة الذين جاءوا ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ × فبشروه بإسحاق ويعقوب ﴿قَالُوٓاْ﴾ لإبراهيم × : ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ التي هي قرية قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ قد استحقوا العذاب بظلمهم وظلمهم هو المعاصي التي فعلوها كلها ظلم لأنها تعدٍّ في حق ربهم وحيف وجور في معاملتهم لربهم لأن مقتضى العدل أن يعبدوه وحده ويشكروه، ويطيعوه، فإذا تركوا ذلك فقد جاروا وظلموا.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ إبراهيم × مجادلاً في قوم لوط ﴿إِنَّ فِيهَا﴾ أي في القرية ﴿لُوطًا﴾ ليس من الظالمين، فإذا وقع العذاب على القرية وقع على من لم يظلم مع الظالمين ﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ وهو لوط وأهله إلا امرأته ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ كانت ممن لا ينجون من العذاب بل يصيبها ما أصابهم، وقد مر الكلام في معنى ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ مبسوطاً فراجعه.

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ **الملائكة الذين يهلكون أهل القرية وكانوا ممثلين بشراً** ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ **ساءه مجيئهم ومعنى** ﴿سِيٓءَ﴾ **ضد سرّ لأنه ظنهم أضيافاً من الناس وخاف أذية قومه على أضيافه، كما وقع منهم انظر قصته معهم في (سورة هود) و (سورة الحجر)** ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ **فهم لن يصلوا إلى ما حاولوه من المنكر بأضيافك، وإنما نحن رسل ربك بإهلاكهم** ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ **من عذابهم** ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ **كانت من الماضين بالعذاب، المهلكين الذين لا ننجيهم.**

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ **هذا مما قال الملائكة للنبي لوط** × **حكاه الله عنهم والرجز الحجارة التي تنزل عليهم مع الحاصب فهي عذابهم الذي تكرر ذكره في القرآن، انظر (سورة الذاريات) وغيرها.**

﴿٣٥﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿مِنْهَآ﴾ **أي من القرية التي أمطرت مطر السوء كما مر في (سورة الفرقان) قال الشرفي في (المصابيح): ((ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ﴾ أي من القرية ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ أي عبرة ظاهرة لمن يعتبر هو آثار منازلهم الخربة)). انتهى.**

يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾

ومعنى ﴿ءَايَةً﴾ دليلاً وعلامة تذكر بأهل القرية المهلكين، فتكون عبرة لمن بعدهم فهي بقية من جدرانها لو لم يكن إلا القاعدة التي هي الأساس الظاهر لمن مر بها، وقوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡقِلُونَ﴾ أي يستعملون عقولهم فيعقلون الآية التي فيها عبرة لهم فيعتبرون بها.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ وأرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ قال الشرفي: ((وهي قرية شعيب سميت بمدين ابن إبراهيم)) انتهى، والمراد: أهل قرية شعيب، ولذلك قال: سميت بمدين بن إبراهيم، لأن القبائل تسمَّى بأسماء جدودها.

﴿فَقَالَ﴾ ــ عطف على ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ ــ ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وحده ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ بالإيمان والتقوى، لأن المؤمن المتقي يرجو رحمة ربه في اليوم الآخر وهذه خاصة للمؤمن ليست لغيره، وبها تسهل عليه مصائب الدنيا وفراق الحياة الأولى، ويمكن أنه أراد حصلوا الرجاء بالإيمان والتقوى ليحصل لكم المرجوّ ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ بإفساد المعاملة بالخيانة في المكيال والميزان وغير ذلك، وقد مرت قصته مبسوطة في (الأعراف) و(هود).

﴿٣٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوه فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فكذبوا شعيباً فأخذتهم رجفة أرضهم بهم، ولعلها رجفت بهم لصيحة ملك لأن الصوت الشديد ترجف منه الأرض، ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ﴾ لعلها عبارة عن بلدهم، حيث قال: ﴿دَارِهِم﴾ ولم يقل: دورهم، ويقال لبلاد الإسلام: دار الإسلام، وبلاد الكفر: دار الكفر.

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ وَقَٰرُونَ

قال الشرفي: ((وقوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أي باركين على الركب مكبين ميتين، وعلى وجوههم وأيديهم ساقطين)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((جثم الطائر: أي تلبّد بالأرض، يجثم ويجثُم جثوماً وكذلك الإنسان، قال الراجز: إذا الكماة جثموا على الركب)) انتهى المراد.

٣٨ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ أهلكناهم أو أرسلنا إليهم فكذبوا فأهلكناهم؛ لأنه عطف على قصة مدين ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ الخالية وآثارها الباقية: إما تبين لكم إهلاكهم تبين لكم من مساكنهم أي دلتكم مساكنهم على هلاكهم، وإما تبين لكم بعض مساكنهم أي الخالية منهم التي هي عبرة لكم أيها المكذبون لمحمد ص.

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فأصروا عليها ﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي سبيل الله الذي هو الإيمان برسلهم واتباعهم ﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ أي أغواهم الشيطان عن الطريق وكانوا قادرين على إبصارها وسلوكها، أو على جعلها مبصرة بالنظر فيها أو طالبين للبصيرة فلما جاءتهم صدوا عنها.

قال الراغب: وقوله ـ عزَّ وجل ـ : ((﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ أي طالبين للبصيرة، ويَصحُّ أن يُستَعَارَ الاستبصارُ للأبصار، نحو استعارة الاستجابة للإجابة)) انتهى.

وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟

قلت: يفسر هذه الآية قوله تعالى في (عاد): ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦] فالمعنى في هذه الآية صدهم عن السبيل وكانوا أهل بصائر لكنهم لم يستعملوا بصائرهم فلم تنفعهم. وقال الشرفي: ((﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي عقلاء متمكنين من النظر أو مستبدين برأي أنفسهم مستغنين بجهلهم والعرب تقول: فلان مستبصر برأي نفسه)).

﴿٣٩﴾ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ أهلكناهم أو أرسلنا إليهم فكذبوا فأهلكناهم والثاني أرجح؛ لأنه أوفق للسياق ﴿جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالة على صدقه وأنه رسول من الله ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استكباراً منتشراً شائعاً ذائعاً أظهروه في قومهم ولم يخصوا به أنفسهم.

ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف:٥١ -٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ ما كانوا فائتين لنا بل أدركناهم فأخذناهم.

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ

﴿٤٠﴾ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿فَكُلا﴾ من المذكورين من قوم نوح إلى هامان أخذناه بذنبه أخذاً حقاً مستحقاً؛ لأنه جزاء على ذنبه وبسبب ذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً وهم قوم لوط، والحاصب الذي يرمى بالحصباء، وهي الحجارة الصغار، وقد أهلكتهم وشبهت بالمطر لنزولها عليهم، وإرسال الحاصب بأمر الله تعالى، وفعل الملائكة، أو الملائكة رموهم بها في خلال الحاصب، أو هم الحاصب نفسه لقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٢-٣٣] فكانوا في صورة ريح شديدة ترمي بالحصباء قوم لوط، ومنهم من أخذته الصيحة التي أدت إلى الرجفة وهذا عذاب مدين وثمود، ولعله أيضاً عذاب قوم إبراهيم، لأنهم قد ذكروا في هذه السورة بعد قوم نوح.

وقال تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦] قالوا: هم قوم إبراهيم، فترجح أن عذابهم كان بالرجفة التي سببها صيحة رجفت تحت بنيانهم فسقط فوقهم ومنهم من خسفنا به الأرض، وهو قارون ومنهم من أغرقنا، وهم قوم نوح وفرعون وهامان، ولعله خصهما بالذكر هنا مع أن الله أغرقهما وقومهما ليكونا عبرة للمستكبرين من قريش، وهذا السياق في الذين كذبوا الرسل فأخذهم الله بسبب تكذيبهم رسلهم وقد أهلك الله غيرهم لسبب آخر، مثل أصحاب الفيل، فلم يذكروا في هذا السياق.

لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ تأكيد لنفي ظلمهم ودلالة على أنه ليس من شأنه تعالى، كأنه لا يتصور منه، ونفي أنه ظلمهم تأكيد لكون هلاكهم بذنوبهم تحذيرا للمكذبين بمحمد ص، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ لأنهم أوقعوا أنفسهم في استحقاق العذاب بذنوبهم، فوقع عليهم العذاب بتسبيبهم فكانوا هم ظلموا أنفسهم بالذنوب الموجبة ولعله جاء التعبير بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ لتكرر أسباب العذاب منهم ليدل الكلام على ذلك، وهذه الآية وأمثالها في القرآن دليل واضح على بطلان القول بالجبر بأي صورة كان القول به.

﴿٤١﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۘ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾ مثل المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء يتولون أمورهم ويحفظونهم وينصرونهم أي شركاء يعبدونهم ليتولوهم فمثلهم في اتخاذ شركائهم أولياء ﴿كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ﴾ وهي دويبة تصنع أرق من القرطاس وأضعف بيتاً لها فهو بيت ضعيف مثل به شركاءهم لضعفها عن نفع الذين اتخذوها وجعل أي العنكبوت مثلاً للمشركين لأنهم أشبهوا العنكبوت، وهذا تحقير لهم وتسفيه لعقولهم أما العنكبوت فإنها تستفيد بنسجها صيداً لها لأنها تصيد به الذباب، بخلاف المشركين فلا تفيدهم أصنامهم شيئاً والتمثيل إنما هو في اتخاذ الضعيف ﴿وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ﴾ الوهن: ضعف ضد الصلابة، وقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ أي المشركون لو كانوا يعلمون لو كان من شأنهم أن يعلموا لعلموا أن مثلهم مثل العنكبوت.

يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي جعل الأصنام مثل بيت العنكبوت ﴿مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ من أي جنس كان من حجارة أم من نحاس أم من ذهب أم من غيره فهو عالم به وبضعفه عن نفع المشركين، ولم يمثله بالعنكبوت غلطاً بل هو الحق الذي ضربه مثلا بعلمه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فلا يرضى الشرك ولا يأذن به للمشركين كما زعموا.

﴿٤٣﴾ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ الإشارة إلى المثل المذكور قريباً في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ..﴾ وإلى غيره من الأمثال المذكورة في القرآن والأمثال تصور الأمر بما يوضح حكمه أو فائدته أو قبحه أو نحو ذلك، زيادة توضيح سواء كان فيها أداة تشبيه أو كلمة مثل أم لا، مثل قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..﴾ إلى آخر الآية [البقرة:٢٦٦] فقد بينت قبح إحباط العمل ومضرته على الإنسان، فقوله تعالى: ﴿نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ بيان لفائدة ذكرها وهي أنها تضرب للناس ليفهموا ويعقلوا فينتفعوا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ وما يحفظها ويعقلها عقل رعاية ويعقل بذلك فائدتها إلا من يعلم لأنه فكر واستفاد بالنظر في آيات الله المعرفة لمعانيها لا من هو معرض عن كتاب الله لا يتفهم ولا يتدبر فبقي على جهله فهو لا يعقل الأمثال، كما لا يعقل غيرها من آيات الله ومعنى يعقلها يفهمها.

قال الراغب: ((العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ثم قال: وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير)) انتهى المراد. وفي (لسان العرب): ((وعقل الشيء يعقله: فهمه)) انتهى.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : الأمثال فهي ما ضربه الله لعباده من الأمثال في كتابه مثل قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥] ومثل قوله: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦].

ومثل قوله: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿.. لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم:٢٨] وغير ذلك مما يطول شرحه، ويكثر في الكتاب ذكره، فلا يعلمه ولا يعقله إلا العالمون بغامضها الراسخون في تفسيرها، ومن عَقْلِها العلمُ بما كان فيه أمر أو نهي منها والرجوع إلى حكمها والتصديق بكل ما فيها)) انتهى.

وفي نسخة (المصابيح): ((ومن عقلها بالعلم)) وعندي أنه غلط، وأن الصواب: العلم بدون باء، وهو مبتدأ خبره من علقها، ولعله يعني أن من عقل أمثال الله فهم ما تدل عليه من أمر أو نهي مع الإيمان به، والتصديق به والعمل به، فلا يختص بعلم غامضها ـ والله أعلم.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالحق بالحكمة والصواب ليس باطلاً ولا عبثاً، وهذا يشير إلى أنه خلقها ليسكنها عباده ثم ليبتلي عباده بالأمر والنهي فيعبدوه، ويترتب على ذلك أنه لا بد من الجنة والنار، انظر ما حكى الله عن أولي الألباب: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١] ولذلك لا بد من الرسل والكتب، فالمشركون المكذبون للرسل في جهل وغواية عما خلقوا لأجله وعما خلق الله السموات والأرض لأجله.

ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومعنى آية علامة ودليل، فالمؤمنون يعرفون بها خالقهم وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، إلى غير ذلك.

﴿٤٥﴾ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿ٱتْلُ﴾ يا رسول الله على الناس ﴿مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو القرآن ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أتمها بأركانها وفروضها وشروطها هذا هو معنى إقامة الصلاة المفهوم من قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء:١٠٣] وذلك لأنه عطف على ذكر صلاة الخوف فالمعنى فإذا اطمأننتم فلا تصلوا مثل صلاة الخوف، بل أتموا الصلاة وهذا هو المعنى الجامع لتفسير إقامة الصلاة بجعلها قيمة لا عوج فيها يكون بمخالفتها للمشروع، وجعلها غير ميتة بل يحييها المصلون من قولهم: قامت السوق، والحمد لله.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ هو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤] وتفسير الإذهاب بالنهي عنها حتى لا تقع هو الظاهر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ..﴾ [الأحزاب:٣٣] فالصلاة تنهى عن الفحشاء من حيث هي حسنة تذهب السيئات، وذلك لأنها طاعة لله مشتملة على حسنات من الخشوع والذكر والركوع والسجود وغير ذلك.

يؤكد أن الحسنات تمنع السيئات ما جاء في الإنفاق: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥] وفي الجهاد: ﴿وَالَّذِينَ قاتلوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد٥:٤] وفي الصيام: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

أما قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فيحتمل ولذكر الله في الصلاة أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، ويحتمل ولذكر الله أكبر في الصلاة وغيرها أكبر من جملة الصلاة نهياً عن الفحشاء والمنكر، ويحتمل ولذكر الله بذكره للناس وتعليمهم توحيده وعدله وصدق وعده ووعيده أكبر.

قال الشرفي في (المصابيح): ((وما أحسن قول الهادي × فإنه قال: الذكر ها هنا الدعاء إلى الله وفي ذلك ما حدثني أبي عن أبيه أنه كان يقول في قوله الله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ هو الدعاء إلى الله، قال × [لعله الهادي ×]: ويدخل مع ذلك من ذكر الله شغل القلب في التفكر في جلال الله وقدرته وعظمته وسلطانه والذكر له بما ذكر به نفسه من توحيده وعدله وصدق وعده ووعيده. ذكره في الأحكام)) انتهى من (المصابيح).

وهذا القول لم يذكر فيه المفضل عليه بقوله تعالى: ﴿أَكْبَرُ﴾ ولعلهم أرادوا أكبر من الصلاة لأن الخطاب للرسول ص بقوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فالمعنى: اتل ما أوحي إليك وأقم الصلاة واذكر الله لأمتك فذكر الله أكبر من الصلاة وأعظم لأنه أساس الدين لأن أول الدين معرفة الله تعالى، والقول الأول هو أرجح عندي من حيث هو تفسير للآية، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه:١٤] فهو ترغيب في الصلاة بأن ذكر الله فيها أكبر من كونها تنهى، والله أعلم ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من صالح أو غيره فارغبوا في ثوابه.

أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ **التي هي أحسن الكلمة المفيدة بالحجة الواضحة والتعبير اللين.**

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ وهم المعاندون الطاعنون في الإسلام فهم أهل للغلظة قال تعالى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة:٧٣] **﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ قولوا لهم في جدالكم لهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿مُسۡلِمُونَ﴾ أي مخلصون أنفسنا ووجوهنا أي عبادتنا لله وحده، فقوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القرآن ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ التوراة والإنجيل آمنا بالكل، وأنتم لم تؤمنوا به ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾ فلم نتخذ غيره، وأنتم اتخذتم عيسى وعزير والأحبار والرهبان في جعل الحكم لهم كما هو لله يحلون ويحرمون، ونحن أسلمنا لله وحده.**

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت:٤٧] **﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثل ذلك الذي قرأناه عليك يا رسول الله هنا مثله في أنه آيات بينات توجب على أهل الكتاب وغيرهم الإيمان به ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على هذه الصفة ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ رزقناهم علمه كلامه ومعناه.**

تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ

فهم علماء قد عرفوا ما فيه من التبشير بك وعلاماتك حتى عرفوا هذا القرآن كما يعرفون أبناءهم فهم يؤمنون به ﴿وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين حولك ﴿مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن، والراجح: أن الإشارة إلى أهل مكة أو إليهم وإلى من حولهم، وعلى هذا تكون هذه الآية مما نزل بمكة.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بأنعم الله لأن الله أنعم عليهم بالرسول والقرآن وتبين لهم بالآيات صدق الرسول وأن القرآن كلام الله فكفروا تلك النعمة، وسائر نعم الله تعالى عليهم ولو شكروا لنالوا نعمة الهدى التي هي أعظم النعم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ من قبل هذا القرآن ما كنت تتلو من قبله أي ﴿كِتَٰبٍ﴾ صغير أو كبير ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾ أي لا تكتب أي كتاب صغير أو كبير ﴿إِذًا﴾ لو كنت تقرأ مكتوباً أو تخطه ﴿لَّٱرْتَابَ﴾ في صدقك ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الذي لم يؤمنوا بالقرآن ولا بالرسول، فكان يحصل لهم ريب بسبب القراءة المتقدمة أو الكتابة لو كانت لأنهم يجوزون حينئذ أنك تعلمته من كتب متقدمة، وهذا في المبطلين الذين لم يؤمنوا بهذا الكتاب من أجل عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فأما أهل الحق الذين نظروا في القرآن أنه لو لم يكن من الله لاستطاعوا أن يأتوا بمثله فآمنوا بأنه من الله فهم لا يرتابون لو كنت تتلو الكتاب أو تخطه لأن القرآن قد كفاهم آية بينة فسواء كنت كاتباً أم لم تكن.

بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَـٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا

﴿٤٩﴾ ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ﴿بَل هُوَ﴾ أي هذا الكتاب ﴿ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٞ﴾ لا ريب فيه؛ لأنه اشتمل على سور، وكل سورة آية تدل على أنه من الله لعجز العرب عن أن يأتوا بمثلها، وكذلك هو آيات بما فيه من القصص الحق المفصل المطابق لما في الصحف الأولى، وكذلك هو آيات بما فيه من الإخبار بالغيب، وصدق الإخبار مثل: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم:٣] ومثل: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا..﴾ [البقرة:٢٤] فغلب الروم كما أخبر ولم يأتوا بسورة من مثل القرآن وعلى الجملة كل ما في القرآن من الدلائل على أنه من الله آيات بينات لمن نظر وطلب الحق.

وقوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إما بمعنى أن الذين أوتوا العلم يحفظونه غيباً وهم رسول الله ص وعلي × ، وعبد الله بن مسعود I ، في وقت نزول هذه الآية، ويمكن أن أبا ذر منهم وغيره ولا يجب أن يكون في كل عصر كذلك بل يكفي أنه كذلك في وقت نزول الآية مع أن كثيراً من العلماء يحفظونه في صدورهم وإما بمعنى بينات في صدور الذين أوتوا العلم أي بينات لهم.

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ أهل الحيف والجور فهم يجحدونها مع علمهم أنها آيات الله ظلماً منهم وعلواً.

﴿٥٠﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَـٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ وقال الجاحدون الظالمون: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى

على محمد ﴿ءَايَٰتٌ﴾ تدل على صدقه ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهذا نفي لكون القرآن آيات نزلت عليه من ربه فأرادوا أنه لم ينـزل شيء كفراً منهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فهو الذي يأتي بها، فأما أنا فلا أستطيع أن ينـزل الله عليَّ ما لم يشاء أن ينـزله هو سبحانه لا شريك له في ملكه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذر المكذبين عذاباً شديداً وذلك لا يوجب لهم حقاً في اقتراح آيات من الله غير ما قد أنزل بل يوجب عليهم الحذر من العذاب وطلب الحق سعياً في نجاتهم والنظر فيما قد أنزل الله من الآيات والإيمان بها لينجوا من عذاب الله.

وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ إما بمعنى يبين ما أنذر لأنه قد فصل ما أنذرهم أنه نار تلظى وأنه جهنم لا يموت فيها ولا يحيى، وأنهم خالدون فيها أبداً، وإما بمعنى بيّن أنه نذير صادق لما قد جاء به من الآيات الدالة على صدقه وكلا المعنيين صحيح.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ﴾ صدقناك يا محمد بأن ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فيسمعونه ويعلمون أنه خارق ليس من كلام البشر، فذلك يكفي من طلب الحق ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ في إنزاله عليك يتلى عليهم ﴿لَرَحْمَةً﴾ من رحيم أنزله رحمة للعالمين ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ موعظة تذكر بالحق وبالجزاء للمكذبين والجزاء للمؤمنين مما ينتفع به من شأنه أن يؤمن إذا سمع الآيات البينات، فأما المعاندون فلا حق لهم بعد آيات الله المنـزلة.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ

﴿٥٢﴾ ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗاۖ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ ﴿قُل﴾ يا رسول الله للمكذبين لك ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ شَهِيدٗا﴾ يشهد أني قد بلغتكم ما أرسلت به، وأقمت عليكم الحجة ويشهد أنكم كذبتم بآيات الله فذلك يكفيني، ولا يهمني بعد ذلك تكذيبكم لأن الله تعالى يحكم بيني وبينكم يوم القيامة فيثيب المحق ويعاقب المبطل، لأنه ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فهو يعلم ما كان بيني وبينكم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ بدون حجة ﴿وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ مع قيام حجته عليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لا من آمن بالله وبما أنزل وبالرسول فلن يكون خاسراً لأنه ينجو من عذاب الله أما المؤمنون بالباطل الكافرون بالله، فإنهم يخسرون يوم القيامة أنفسهم فلا يبعثون لحياة أنفسهم ولنعمة الحياة إنما يبعثون ليعذبوا في جهنم خالدين، فهم الخاسرون وذلك هو الخسران المبين.

﴿٥٣﴾ ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ ويطلبون منك تعجيل عذابهم لزعمهم أنك كاذب وإذا كنت صادقاً فعجل عذابهم وأنت صادق، فقد استعجلوك بالعذاب وتكرر منهم استعجالك بالعذاب ﴿وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ أجَّل الله العذاب بحكمته فلو جاءهم لزعموا

بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ

أنهم كانوا يؤمنون لو لم يجئهم لأنهم في هذه الحياة التي دعوا فيها إلى الإيمان فأما في الآخرة فإنما يطلبون العودة إلى دار العمل ولا يتهيأ لهم دعوى أنهم فيها، وكذلك أجل الله تعالى عذابهم العاجل الذي ليس دائماً إنما هو مهلك لهم أجله بحكمته ليفسح لهم المجال لينظروا ويتوبوا إن كانوا تائبين، ولتزداد الحجة عليهم وتتأكد بالإمهال والذي طلبوا تعجيله هو العذاب الذي أنذرهم الرسول وهو عذاب الآخرة، لأن السياق فيه، ولذلك قال تعالى:

﴿٥٤-٥٥﴾ ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ * يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فالعذاب آتيهم لا مجال لهم منه وإن أُجِّل وإن جهنم لمحيطة بالكافرين كلهم هؤلاء وسائر الكافرين فهي واسعة تحيط بهم كلهم ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ﴾ لعل يوم متعلق بمحيطة أي تحيط بهم في ذلك الموعد يوم يغشاهم ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ يشتمل عليهم كل واحد يشتمل عليه لهب جهنم من فوقه وجمرها من تحته: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ..﴾ [الزمر:١٦] ﴿وَيَقُولُ﴾ العذاب لهم ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملون.

﴿٥٦﴾ ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ هذا إرشاد لعباد الله أرشدهم إليه برحمته ليتخلصوا من عذاب المشركين ويحفظوا دينهم فقال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٌ﴾ فاخرجوا من بين المشركين في أرض الله الواسعة فإنكم تجدون فيها منجاة من المشركين وحفظاً لدينكم.

ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا

﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ لا تشركوا غيري في عبادتكم فهاجروا لتعبدوني، ولئلا تشركوا وفي ذلك سعادتكم في الآخرة أرشدكم الله إليه برحمته.

﴿٥٧﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ فلا يمنعكم من الهجرة خوف الموت في الغربة وذلك أن الشيطان يخوفهم لئلا يهاجروا فذكرهم الله أن كل نفس ذائقة الموت فهم لا بد أن يموتوا وإن لم يهاجروا.

وإذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تكون جبانا

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ فنثيبكم ثواباً عظيماً دائماً إذا كنتم قد هاجرتم وصبرتم في المحافظة على عبادته وحده وتقواه.

﴿٥٨-٥٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي منها الهجرة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ لنجعلن لهم مباءة مرجعاً ومصيراً من الجنة ﴿غُرَفًا﴾ خيراً من بيوتهم التي هاجروا منها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وذلك خير من أوطانهم التي فارقوها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها أبداً لا يموتون بخلاف أوطانهم لو بقوا فيها لماتوا وتركوها قسراً ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ في الدنيا على مفارقة الدور والأوطان والأهلين والعشائر، وصبروا على طاعة ربهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيهاجرون وإن خوفهم الشيطان الموت أو الجوع توكلاً على ربهم.

تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿٦٠﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم ﴿مِّن دَآبَّةٍ﴾ في الأرض من السباع وغيرها ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ معها حيثما صارت فلا يترك المؤمن الهجرة لخوف الفقر، لأن الله قد تكفل بالرزق ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا﴾ أي الدواب ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ يرزقكم فكيف يمنعكم الرزق إذا هاجرتم إليه.

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فهاجروا إليه واسألوه أن يرزقكم وتوكلوا عليه فهو يعلم ما أنتم فيه من هجرتكم وما تكون عليه حالكم، وهذا كقوله تعالى: ﴿لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

﴿٦١﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ رجع الكلام في المشركين وهذا احتجاج عليهم يقول الله لرسوله ص ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ أي ولئن سألت المشركين ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ تجريان بحسبان ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ في الجواب على سؤالك: ﴿ٱللَّهُ﴾ أي هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ مع إقرارهم بهذا فمن أين يؤفكون يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره، ويجعلون له أنداداً عاجزة من الجمادات فيجعلونها أنداداً لمن خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر، ويحتمل يؤفكون أنه تشبيه لهم بالمأفوك في عقله بسحر أو غيره.

بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٣﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ

﴿٦٣﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فهو الذي يستحق العبادة لأنه الخالق الرازق وليس الرزق دليلاً على أن الله لا يعذب من يرزقه كما يزعم الكافرون أنهم لن يعذبوا إن رجعوا إلى ربهم، لأن الرازق هو الله لمن يشاء على ما يشاء من بسط للرزق، أو تقدير خلاف البسط وليس الرزق بالحظ والبخت حتى لا يفارقهم في الآخرة كما هو في الدنيا، وقد يرزق الله العبد فيبسط له الرزق، ثم يقدر عليه الرزق فلو كان الرزق بالبخت وكان لا يفارق البخت صاحبه في الدنيا والآخرة لما اختلفت حالة بعض المرزوقين تارة غني وتارة فقير، لكن ذلك بفعل فاعل بكل شيء عليم يفعل ما يشاء ولعلمه بكل شيء يرزق عباده كما تقتضيه الحكمة من بسط أو تقدير.

﴿٦٣﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ ﴿وَلَئِن﴾ سألت هؤلاء المشركين ﴿مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ هو المطر ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ فأنبتت النبات ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا﴾ بالجدب وعدم المطر ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الذي أنزل الماء فأحيى به الأرض من بعد موتها، أقروا بالحق ولم يدّعوا لأصنامهم شيئاً من ذلك.

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ فقد تبين أن الله هو الرزاق لعباده كما أنه الخالق لهم فهو المالك لهم المستحق للعبادة دون شركائهم ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ أي أكثر هؤلاء المشركين ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ لا يعلمون ما تدل عليه الآيات الربانية التي يشاهدونها لأنهم لا يستعملون عقولهم ولذلك يشركون.

لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ

﴿٦٤﴾ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ اللهو: ما يتلهى أي يشتغل به الإنسان من أغراض نفسه ولذاته قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:١] قال الراغب: ((اللهو: ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه)) انتهى. وقال الشاعر ـ وهو امرؤ القيس ـ :

فألهيتها عن ذي تمائم محول

واللعب: معروف مثل اللعب بالكرة، قال تعالى حاكياً: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾ [يوسف:١٢] فقوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ..﴾ [العنكبوت:٦٤] بمعنى أنها تشغل الإنسان عما هو أهم منها وهو الإعداد للآخرة لأن اللهو واللعب فائدتهما لذة وقتية تنتهي في الغالب فتنتهي اللذة ولا تبقى فائدة بعدهما فكأن الحياة الدنيا من حيث أنها تشغل عن الآخرة وتذهب فائدتها بالموت إذا اشتغل الإنسان بها كأنها كلها لهو ولعب، والدنيا تشغل عن الآخرة فتفوت على من اختارها الدار الآخرة التي هي الجنة بما فيها من النعيم الدائم والملك الكبير.

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((معناه: الحياة والبقاء)) انتهى. وقال (صاحب الصحاح): ((والحيوان خلاف الْمَوَتان)) انتهى. وفي (لسان العرب): ((وفي التنزيل ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي دار الحياة الدائمة)) انتهى، وقال الشرفي: ((أي ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها فكأنها في ذاتها حياة)) انتهى.

قلت: إذا كانت قد جعلت حياة فالأظهر أنه أعم من إفادة الخلود فهي حياة السعادة، وحياة النعيم، وحياة القوة، وحياة السرور، وحياة اللذة، كلها وحياة الملك لأن الأشياء المطلوبة توصف بالحياة إذا ظهرت وقويت مثل العلم فيقال: أحيى العلم وأحيى الدين وأحيى النار وغير ذلك.

وهذا لعله مراد الإمام زيد بن علي × حيث قال: ((الحياة والبقاء)) ولم يقل: هي بقاء الحياة، فلعله أراد البقاء في الجنة باعتبار بقائه في نعيمها.

وقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ الراجح أن معناه: لو كانوا يعلمون لعلموا ذلك بخبر الله أي لو كان شأنهم أن يعلموا وكانوا ممن يعلم في الجملة لعلموا أن الدار الآخرة هي الحيوان ولكنهم ليسوا ممن يعلم لأنهم لا ينظرون في دليل ولا يفكرون في طريقة علم بل هم معرضون مستمرون في جهلهم.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((لو كانوا يعلمون صحة ما قلنا لآثروا الآخرة ولم يؤثروا الدنيا ولرغبوا عن الفاني إلى الباقي)) انتهى.

﴿٦٥﴾ ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ﴾ مع شركهم وإصرارهم على الشرك مع احتجاج القرآن عليهم بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ..﴾ فأبوا فإذا ركبوا في السفائن أو في السفينة، لأن الفلك يكون للفرد من السفائن وللمتعدد المجموع ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ خوفاً من الغرق ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ الذي هو الدعاء لا يدعون إلا الله ولا يدعون أصنامهم وهذا دليل على أنهم يعلمون أنها لا تنجيهم من الغرق لا تسمع دعاءهم ولا تقدر على إنقاذهم فدعوا الله وحده.

ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ فخرجوا من البحر بنعمة الله وصاروا في البر فأمنوا من الغرق ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي أنه لم يكن عندنا متوقعاً رجوعهم إلى الشرك بعد أن أخلصوا لله في البحر وعلموا أنه لا ينجيهم من الغرق إلا الله ففاجئوا بالشرك بعد ذلك حين خرجوا من البحر وصاروا في البر مسرعين إلى الشرك وإلى كفر نعمة الله.

﴿٦٦﴾ ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ليكفروا إن كانت لام الأمر فهو تهديد للمشركين مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ..﴾ [فصلت:٤٠] وهو الظاهر على قراءة ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بسكون (اللام) فأما على قراءة كسرها فهي تحتمل التعليل لشركهم المفاجئ ليكفروا بما آتيناهم من النعم، ولكن قوله: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ لا يظهر فيه التعليل للشرك، فالأرجح: أن اللامين كلاهما للأمر وأنه تهديد لهم لعنادهم، وأكده بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي يوم الجزاء وعند معاينة جهنم، ومفعول (يعلمون) محذوف، فهم سيعلمون ظلمهم لأنفسهم بالشرك وأن الشرك باطل وأن الحق لله وحده ولكن حين لا ينفعهم علم ذلك.

﴿٦٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي قد رأوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا﴾ للكعبة ﴿ءَامِنًا﴾ يتمتعون فيه بالأمان؛ لأنه حرم الكعبة يعترف العرب بحرمته، وأن القتال فيه حرام فهو آمن أي ذو أمن أو آمن أهله مثل: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ﴾ أي يقتّلون بأخذهم أخذاً سريعاً ﴿مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ خارج الحرم.

جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

قال الشرفي: ((كان العرب حول مكة ـ أي خارج الحرم ـ يغزو بعضهم بعضاً ويتغاورون وأهل مكة قارون آمنون مع قلتهم وكثرة من حولهم)) انتهى. فهذه نعمة عظيمة على من في الحرم ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو الشرك وغيره ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بدون حجّة ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ وهذا السؤال توبيخ لهم شديد.

﴿٦٨﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؟ سؤال في معنى النفي أي لا أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ وهم قد افتروا على الله كذباً في دعواهم: أن الله رضي منهم بالشرك، وأنه حرم ما حرموا من الأنعام ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ وهم كذبوا بالقرآن والرسول وما أنذرهم من الآخرة ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بأي كفر من الافتراء على الله أو التكذيب بما أنزل الله أو غير ذلك من الكفر فحسبهم جهنم مثوى لهم.

والراجح: أن تنكيره لتعظيمه فهو مثوى أي مثوى لهم، والمثوى محل الثواء أي البقاء قال الشاعر:

آذَنَتْنَا ببينها أسماء ... رب ثاو يُمَلّ منه الثواء

قال شارحه: ((رب مقيم تمل إقامته)) انتهى من (شرح المعلقات السبع).

وقوله: ﴿فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ وهي مثواهم هو من التجريد، مثل الصيد في الفرا وهو نوع من البديع وفيه مبالغة وتأكيد، وقد قال تعالى:﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢] فإذا كانت مثواهم فهي حسبهم جزاء على كفرهم وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ﴾ تأكيد لذلك كقول الشاعر:

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

فإنه أبلغ مما لو قال: أنتم خير من ركب المطايا.

﴿٦٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ أي في الله وهذا الضمير يفيد العظمة والجلال مما يحرك الغضب في المؤمن على أعداء الله الذين جعلوا له أنداداً أوثاناً وافتروا عليه الكذب وكذبوا بآياته فالجهاد في الله شأن المؤمن دفعاً للشرك به والكذب عليه والتكذيب بآياته وهو نوع من الجهاد في سبيل الله رفيع القدر عظيم الشأن وعد الله أهله الهدى لسبله، وهي ما يقرب إلى الله ويوصل إلى رحمته والسبل جمع سبيل، وهي الطريق وأفادهم أنه معهم لأنهم من المحسنين فإذا كان معهم فليثقوا بالنصر على أعداء الله ما كان جهادهم في الله.

والجهاد الحقيقي: هو المغالبة بين جهد وجهد، كما يفيده مادة الجهاد وإفادته المغالبة بصيغته، فهو القتال وغيره يسمى جهاداً مجاز، ولم يذكر في الصحاح إلا الجهاد في سبيل الله يعني الكفاح المسلح، فظهر: أنه الحقيقة مع أن الله تعالى قد أمر بالقتال ومعناه واضح.

تم تفسير (سورة العنكبوت) والحمد لله

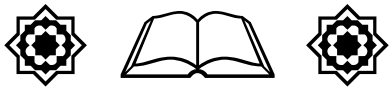

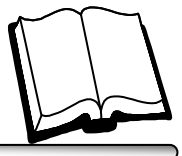

التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ

ابتداء تفسير (سورة الروم) وهي (مكية)

قال الشرفي: قال في (البرهان): اتفاقاً

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿الٓمٓ﴾ من حروف التهجي ومعناها مسمياتها المستعملة في الكلام وإنما وقع الخلاف في معناها باعتبار الحكمة في جعلها في أول السورة، فقيل: أقسم الله بها، وقيل: تحدى بالقرآن، فأوردها لتحقيق ذلك، وقيل: الله أعلم بمعناها، وقيل: غير ذلك.

فإذا عرفنا أن معناها الأوّلي معروف وإنما الخلاف في المقصود من ذكرها صح أن نقول: إنها من المتشابه، ولا يصح أن نقول: إنها خطاب بما لا يعلم كما لو خوطب العربي بالفارسي، وأريد منه أن يفهمه قبل الترجمة فإن هذا لا يصح من الحكيم؛ لأن الحروف المذكورة قد فهم معناها في نفسها، وإنما التبس المقصود من إيرادها مع أنها مفهومة في نفسها، وكثيراً ما نجهل حكمة الله في بعض مخلوقاته ولا يقدح ذلك في حكمة الله، فكذلك جهلنا بالحكمة في إيرادها إن جهلناها وقد تقدم بعض ترجيح لمعنى أن الله أوحى القرآن بلفظه وحروفه في بعضها لا مجرد وحي المعنى وحده دون اللفظ.

وأتبع هنا هذه الحروف بذكر غلبة الروم ليبني على ذلك الخبر بالمغيب أن الروم من بعد أن غُلبوا وضعفوا سيغلبون، وتكون الدولة لهم في المستقبل، وذلك في بضع سنين، والروم كانوا نصارى فغلبوا في أقرب بلادهم إلى العرب، وكانت بلادهم الشام وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ بيان لموعد الغلبة التي ستكون. قال في (الصحاح): «وبضع في العدد بكسر الباء وبعض العرب يفتحها وهو ما بين الثلاث إلى التسع». انتهى المراد.

فإن *قيل*: كيف حدد الله تعالى تاريخ الغلبة المستقبلة بهذا التحديد مع أنه علام الغيوب قادر على أن يحدد بأعظم من هذا مثل سبع سنين؟

قلنا: هذا يكفي في المقصود لأنه مدة قريبة وإن لم تحدد بأعظم من هذه فهو دليل على أنه وحي الله حين يقع الغلب ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ وهو أيضاً يعارض فرح المشركين إن كانوا فرحوا كما قيل لأن الفرس مشركون يعبدون النار، والروم أهل كتاب، وإذا كانت المعجزة أعني دليل الوحي من الله على عبده ورسوله محمد ص قد تحققت بذكر البضع فهو كاف، ولعله لو حدده الله بالحد الأقصى الدقيق لوجد الكفار سبيلاً إلى تكذيب خبر الله بأن يقولوا إن الغلبة وقعت قبل الموعد بيوم مثلاً، أو بعده بيوم، وأنه لم يطابق الواقع فأما البضع فلا يجدون سبيلاً إلى تكذيبه، وعلى الجملة الله أحكم سواء علمنا أم جهلنا وجه الحكمة، ولم يذكر الفرس في الآية وهم فيما يقال: كانوا هم الغالبين للروم، وهم الذين صاروا مغلوبين في بضع سنين على ما يقال في التفسير.

﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ أي من قبل الغلب ومن بعده فلو شاء لما غلِبت الروم ولو شاء لما غلبت فارس، لكنه يسلط على أعدائه كيف يشاء ومتى شاء على ما تقتضيه حكمته في التعذيب العاجل أو في الفتنة والاختبار أو غير ذلك، وهو أحكم الحاكمين، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي يوم تغلِب الروم عدوهم يفرح المؤمنون وهذا خبر آخر بمغيب وهو فرح المؤمنين بنصر الله ينصر من يشاء، فهذا وعد لهم وإنما جعل تاريخه غلبة الروم المستقبلة على عدوهم فأما فرحهم فقد بين ما هو الذي يفرحون به؟ فقال:

﴿٥﴾ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فبين أنهم يفرحون بنصر الله لهم إلا أنه جعل في الكلام بعض إيهام لحكمة حيث لم يقل لهم، ولكن أشار إليه بقوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فبين أنه نصر لمن يشاء الله أن ينصره وهم المؤمنون فأما تفسير فرحهم أنه بغلبة الروم فهو ضعيف:

أما أولاً: فإن الفرح بالأمور الدنيوية مذموم فبعيد أن يبشر به المؤمنون.

وأما ثانياً: فإنه كان يكفي أن يقول: ويومئذ يفرح المؤمنون ويقتصر عليه فيفهم منه فرحهم بغلبة الروم على عدوهم.

وأما ثالثاً: فمن البعيد أن يزيد في الكلام قوله بنصر الله ليفيد أن الروم سينصرهم الله، والنصر إنما هو لأوليائه فأما أعداءه فإنما يسلطهم لحكمة وقد أفاد قوله تعالى: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ فائدة أن غلبة الروم في المستقبل إنما هي بتسليط الله، ولو شاء لما غلبوا فكفى ذلك عن زيادة ذكر نصر الله للروم.

وأما رابعاً: فإن من شأن المؤمنين أن يُسروا بقهر المشركين إذا غلبهم الروم من حين نزلت البشارة بذلك لأنهم مؤمنون بخبر الله فلا يؤجل فرحهم لحين وقوع المخبر به.

وأما خامساً: فليس للإخبار بفرحهم بغلبة الروم أهميّة تقتضي ذكره في القرآن لأن الحال التي كانوا فيها كما زعم بعضهم أن المشركين فرحوا حين غلبت الروم لأن الفرس مشركون فهذه الحال تدل على أن المؤمنين سيسرون حين تغلب الروم فارس، ولا موجب لذكره فتبين أن الذي أخبر الله به هو فرح المؤمنين بنصرهم وأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فالمناسب لعزة الله تعالى هو نصر المؤمنين فأما تغليب أعدائه فهو لحكمة ولا تقتضيه العزة بالنسبة إلى الغالبين لأنهم أعداؤه، فأما المغلوبون فلم يذكروا حتى نقول قهرتهم عزة الله، وتفسيره بما يناسب المذكور أولى كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] وكذلك المناسب لرحمة الله نصر المؤمنين فأما تغليب الكفار بعضهم لبعض فإنما هو فتنة ولا يسمى رحمة من الله أعني ليس من الحكمة جعله رحمة كما ليس من الحكمة جعله نصراً بخلاف نصر أوليائه فهو رحمة فهذه إشارات تحقق أن المراد وعد المؤمنين بنصر الله، ولذلك قال تعالى:

﴿٦﴾ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أن الله تعالى وعد بنصره وعداً، فلما كان الكلام الماضي بمعنى أنه وعد بنصره نصب وعداً وحين لم يصرح بالعامل أضاف وعداً المنصوب إلى الله فأفاد أن الخبر بالنصر وعد الله، وهو للمؤمنين لأن الكلام ليس موجهاً إلى الروم حتى نجعله وعداً لهم لأنهم كفار بعيد عن موضع الرسول ص لا يخاطبهم بهذا الكلام بخلاف كونه وعداً للمؤمنين فهم عنده يستمعون القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه وعد الله لا يخلف الله وعده، أو لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلف وعده وهذا أقرب لغفلة أكثر الناس، وجهلهم بالله تعالى، والأول مبني على أنهم لا يعلمون وعد الله فهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلفه وقوله تعالى: ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ يعم وعده بالنصر ووعده باليوم الآخر والحساب والجزاء فيه، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأرجح أنه ابتدأ تحويل الكلام من ذكر النصر إلى ذكر الآخرة والمراد أنهم لا يعلمون أن الله تعالى لا يخلف وعده بالآخرة وهذا يسمى عند أهل المعاني والبيان حسن التخلص وهو من البديع كما أنه اشتمل على الادماج وهو من البديع أيضاً وليس من مهمة المفسر ذكر ذلك لكني أعجبت هنا، وفي (سورة المطففين) بحسن الانتقال في الكلام.

﴿٧﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من أغراض الحياة الدنيا فعندهم خبرة وبصر بالظاهر هذا لعنايتهم به وإقبالهم عليه، فوجهوا له أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم فصاروا فيه أهل خبرة وبصر كالتجارة وصنعة الثياب وغيرها من الصناعات في ذلك العصر.

ولعل قوله تعالى: ﴿ظَٰهِرًا﴾ إشارة إلى باطن من الحياة، وهو ما أدركه الناس في هذا العصر من اكتشاف الكهرباء، ووسيلة إبلاغ الصوت في الراديو.. وغير ذلك كثير، لكنه من الحياة الدنيا يذهب نفعه بزوال الحياة أي بالموت، والأمر الأهم هو العلم بالآخرة وما وعد الله به فيها وأوعد لأن الاستعداد لها هو المهم لدوام نعيمها ودوام عذابها، فالغفلة عنها مذمومة شأن من لا ينظر في العواقب فهو يعد من السفه فأما غفلة الكفار فأقبح وأضر، ولعلها هي المراد هنا بدليل ذكر الدلائل على أنها حق بعد هذه الآية.

يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ

---

٨ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ أغفلوا ولم يتفكروا وهم يرون ويعلمون أن الله تعالى خلق السموات والأرض وما بينهما من القمر والنجوم النيرات والشمس إن كانت بينهما أغفلوا مع ذلك ولم يتفكروا فكراً ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف:٢٠٥] أي في ضمائرهم بعقولهم.

وقوله تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ أي يتفكروا تفكراً معناه أو فائدته قولهم في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى، فأما السؤال فهو بالنسبة إلى الكثير من الناس أو الأكثر سؤال الإنكار التوبيخي على ترك النظر مثل قول إبراهيم × : ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] وقول الله تعالى: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء:٢٠] فهو توبيخ على استمرار الغفلة وترك النظر، وهو إهمال للعقول وبقاء على الجهل، ما خلق الله الحكيم السموات والأرض عبثاً ما خلقها إلا خلقاً بالحق اقتضاه الحق أو صحبه الحق، وبأجل مسمى مصحوبة بأجل ومقترنة حين خلقها به فكأنه شرط في خلقها لولا هو ما صح في الحكمة ولا استقام فإذا كان العالَم لا بد أن يفنى فليس فناؤه كافياً في الحكمة، إنما الحكمة في فنائه تقدمة للآخرة لأن هذا العالم يترك الناس فيه يفعلون ما شاءوا ففناؤهم من دون جزاء للمحسن على إحسانه ولا إنصاف للمظلوم من الظالم يكون خلاف الحكمة فلا بد من الإعادة بعد الفناء ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١] ويميز بين المحسن والمسيء.

فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ ﴿رَبِّهِمۡ﴾ الذي خلقهم ورزقهم فلم يشكروه بل كذبوا رسله الذين أنذروهم لقاء ربهم وعقابه لهم على ظلمهم وجاءوهم بالآيات البينات فكفروا بها وبلقاء ربهم وسؤاله لهم وحسابه وجزائه كفروا بالبعث فأداهم الكفر به إلى الكفر بما في القيامة.

٩ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ أكفروا بلقاء ربهم ولم يسيروا أي بل قد ساروا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فرأوا آثار ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الذين كفروا بلقاء ربهم ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كيف هلكوا ودمر الله عليهم فيعتبروا بهم، ويحذروا أن ينزل بهم مثل ما نزل على من قبلهم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ من هؤلاء الكافرين بمحمد وبإنذاره لهم فلم تدفع عنهم قوتهم بأس الله ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ في عمارتهم لها بالحرث والبناء ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ أحيوها بالحرث والبذر والغرس والسقي والبناء وغير ذلك ﴿أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أي مما عمرها هؤلاء المكذبون لمحمد ص الذين هم بواد غير ذي زرع إنما معظم عيشهم في التجارة والإجارة على الخدمة ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ كما جاءكم محمد بالبينات فكذبوا رسلهم ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بإنزال العذاب عليهم وإهلاكهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ لأنهم أكثروا الفساد وكذبوا الرسل وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق كما صنع الكافرون بمحمد وبالقرآن.

ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ

﴿١٠﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن أثاروا الأرض وعمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴿كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟﴾ بأن ﴿كَذَّبُوا۟﴾ رسلهم وباليوم الآخر وغير ذلك كانت عاقبتهم العاقبة السيئة بل ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ وهو أبلغ من السيئة لأن ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ تأنيث الأسوأ وذلك كان لأن ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فالتكذيب بآيات الله أساس الفساد كما أن الإيمان بها أساس الصلاح، فلذلك كانت جريمتهم عظيمة، التكذيب بها والاستهزاء بها الذي هو مبالغة في التكذيب وإهانة لما عظم الله، فلذلك كانت عاقبتهم السوءا بسبب التكذيب والاستهزاء وما ترتب على التكذيب من الجرائم ولما كان كفرهم بالرسول واليوم الآخر وغيره من جرائمهم من الشرك وتحريم ما أحل الله والتظالم وغير ذلك لما كان ذلك كله أصروا عليه تبعاً لتكذيبهم بآيات الله صح جعل التكذيب سبب العاقبة ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ لأنه سبب مستقل من جهة وسبب السبب من جهة أخرى فصح جعله السبب من الجهتين فهذا تحذير من التكذيب بآيات الله، والاستهزاء بها وتذكير بالمهلكين لأجلهما ليعتبر بهم الآخرون.

﴿١١﴾ ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي هو القادر على كل شيء العليم بكل شيء ﴿يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ كما خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كما بدأه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فهو الذي بدأ الخلق ثم إليه في موقف العرض والسؤال والحساب والحكم بين العباد ترجعون يرجعكم إليه ولا ترجعون إلى غيره.

يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾

فالملك له وحده يومئذ وكل المخلوقين يرجعون إليه، فيسألهم كما قال عزَّ وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٣] وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم:٩٣] فإذا كانوا إليه يرجعون فماذا يكون؟ قال تعالى:

﴿١٢-١٣﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿يُبْلِسُ﴾ قال في (الصحاح): «أبلس من رحمة الله: أي يئس ـ ثم قال ـ : والإبلاس ـ أيضاً ـ الإنكسار والحزن، يقال: أبلس فلان: إذا سكت غمّاً» انتهى، وفي (لسان العرب): «أبلس الرجل: قطع به عن ثعلب، وأبلس سكت، ـ ثم قال ـ : والمبلس: اليائس، ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أبلس ـ ثم قال ـ : والمبلس: الساكت من الحزن أو الخوف والإبلاس: الحيرة» انتهى المراد.

فقد ذكروا له ثلاثة معان: اليأس، والسكوت من الغم أو الخوف أو الحزن، والحيرة، وكل الثلاثة تحصل في المجرمين يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى..﴾ الآية [الحج:٢] وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ [طه:١٠٨] وقال تعالى: ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦] وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾ [العنكبوت: ٢٣] وإبلاسهم: بمعنى السكوت؛ لانقطاع الحجة لعله في موطن الحساب، ثم في جهنم بعد قول الله تعالى: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ

وعند سكوتهم تجتمع الثلاثة المعاني، فسكتون دهشة، وحيرة، ويأساً من الفرج، وعلى القول بحمل المشترك على معانيه لا إشكال في تفسير الآية بالمعاني كلها إذا عدم المرجح.

وقال الشرفي: «الإبلاس: السكوت بتحير، ففسرها به ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم﴾ أي للمجرمين ﴿مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ وهذا رد على المشركين الذين قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] ﴿وَكَانُواْ﴾ أي المجرمون ﴿بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ حين لا ينفعهم الكفر بهم وإنما أيسوا منهم أشد من يأسهم في البحر وعلموا أن عذابهم هو من أجل الشرك بهؤلاء الشركاء، وغيره من جرائمهم فكيف يطمعون في شفاعتهم وكيف لا يكفرون بهم وهذا مثل ﴿كفرنا بكم﴾ في معنى الكفر.

﴿١٤-١٦﴾ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ عطف على ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ لتعدد المعنى الواقع فيه أو عطف على ما عطف عليه الأول ﴿وَيَوْم﴾ ظرف لتفرق الناس وأعيد لعله لأنه كالسبب لتفرقهم لأنهم لم يتفرقوا في الدنيا مثل ذلك التفرق، لكنهم ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ﴾ لأنه يوم الجزاء ويوم التفريق بين المؤمنين والكافرين وفسر التفرق أو فرع عليه بما يفسر التفرق بأنه افتراقهم بين شقي وسعيد.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ﴾ إما أن الروضة وهي محل النبات الذي يجري فيه الماء إما أنها عبارة عن الجنة سميت كلها روضة كما سميت جنة أو أنهم في رياضها كل مؤمن في روضة والأول أظهر، قال الشرفي: ((والروضة عند العرب: كل أرض ذات نبات وماء)) انتهى. ومثله في (تفسير الإمام زيد بن علي إ)) وعبارة الراغب: ((الروض: مستنقع الماء والخضرة)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ يسرون سروراً قوياً يظهر أثره في وجوههم، قال تعالى: ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ قال الراغب: ((وقوله: ﴿فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ أي يفرحون حتى يظهر عليهم حبار نعيمهم)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿يُحۡبَرُونَ﴾ أي هذه عادتهم المستمرة فهذا الفعل يفيد التكرار، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الراجح: أن هذا كفر النعمة عطف عليه تكذيبهم بآيات الله ولقاء الآخرة، لأن الأمرين سبب لعذابهم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ محضرون بقدرة الله تعالى عليهم وقهره لهم لم يدفعوا عن أنفسهم حضورهم للعذاب، ولم يجدوا ناصراً فأحضروا فيه كما يُحضر الجاني عند الحاكم ليعاقبه.

قال الشرفي: في تفسير (سورة الصافات): ((عن الهادي × تفسير قوله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [٥٥-٥٧] فأطلعه الله على أمره وأراه محله من النار وسوء القرار، وذلك قوله عزو جل: ﴿ فَاطَّلَعَ﴾ بمعنى: أشرف فرآه في سواء الجحيم أي في وسط النار فعند ذلك قال المؤمن لقرينه توبيخاً له: تالله إن كدت لتردين، يقال: كدت أن تهلكني بما كنت تغويني في الدنيا وتأمرني أن أكفر بربي ﴿وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أي فلولا رحمة الله ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب معك)) انتهى المراد.

ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ

﴿١٧-١٨﴾ ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ * وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الراجح: أنه تلقين لنا نقوله في الأوقات المذكورة وذكر مصيرنا فيها قرينة أن المراد التلقين لنا مثل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] ولو كان المراد إنشاء تسبيح من الله جل جلاله لنفسه لما كان وقته إلا حين أنشأه.

فإن **قيل**: المراد الخبر.

قلنا: فالخبر معناه إثبات مسبح غير مذكور وإذا كان مقدراً فهو العبد يسبح الله في الأوقات المذكورة ويكون الخبر بمعنى الأمر، كأنه قيل: تقولون: سبحان الله وهذا لأن كلمة سبحان الله تستعمل إنشاء للتسبيح ولا يعرف استعمالها خبراً، وهذا الخبر في معنى الأمر لأنه لا معنى لإخبارنا بذلك مع أن بعض الناس لا يقولها في الأوقات المذكورة كلها.

فالمعنى قولوا: سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وحين تظهرون، وفي تعيين هذه الأوقات ما يرجح: أن المراد به: التسبيح في الصلاة وقد فسر بالصلاة نفسها وهو محمول على أن الأمر بالتسبيح في الصلاة أمر بالصلاة.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ فيه قولان أحدهما: معناه فسبحوا الله ﴿حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ والثاني: معناه فصلوا.. إلى قوله: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ عنى به صلاة المغرب والعشاء ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ عنى به صلاة الصبح» انتهى المراد.

تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «التسبيح في هذه الآية الصلوات الخمس فـ﴿حِينَ تُمۡسُونَ﴾ صلاة المغرب وصلاة العشاء الآخرة ﴿وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ صلاة الفجر ﴿وَعَشِيّٗا﴾ صلاة العصر ﴿وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ صلاة الظهر» انتهى.

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ لا يصح تفسيره بالصلاة لأنه معين لقول سبحان الله، ولو كان فسبحوا الله لصح تفسيره بالصلاة على معنى أنه كناية عن الصلاة بذكر لازمها، فظهر أن تفسيره بالصلاة ليس بمعنى إخراجه عن ظاهره وإنما هو بمعنى إفادة الصلاة ووجوبها من حيث وجوب قولنا: سبحان الله في الصلاة بقرينة ذكر أوقات الصلاة، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ وجملة قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جملة معترضة لعل اعتراضها إشارة إلى أن التسبيح يجعل مع حمده وله الحمد هو مستحقه بإنعامه على أهل السموات والأرض، فاستحق الحمد فيهما وقوله تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ الفاء تفريع على ما قبلها من الوعد والوعيد الموقت بيوم تقوم الساعة، فهو أمر بالعمل الصالح استعداداً لذلك اليوم.

﴿١٩﴾ ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ هذه دلالة على قدرة الله تعالى على إقامة الساعة فقوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ فسّره قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام:٩٥].

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ

وأما إخراج الميت من الحي فهو المولود الميت يخرجه من بطن أمه لأنها عاجزة عن إخراجه وهو ميت لا قدرة له على الخروج فما أخرجه إلا الله، وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بالمطر بعد موتها بالجدب ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ يوم القيامة لأن الله على كل شيء قدير فكما أخرج المرعى بعد أن يبس كذلك يخرج الناس من قبورهم ومن بطن الأرض أحياء بعد موتهم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ وهو خلق أبينا آدم × ، وأصله التراب، ثم سواه وجعل فيه الحياة فصار بشراً وذريته بشراً وأصلهم التراب، فهذا دليل على إحياء الموتي بعد أن يصيروا عظاما وتراباً، وقوله تعالى: ﴿تَنتَشِرُونَ﴾ أي بالتناسل تكثروا في الأرض في آفاق متباينة أو تنتشرون بالسير في الأرض أحياء، وإنما أصلكم التراب، والمفاجأة في قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنتُم﴾ بالنسبة إلى أن أصلنا التراب ويحتمل قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أن أصل كل إنسان المني، وأصل المني الغذاء، وأصل الغذاء من النبات، وأصل النبات من التراب تمتصه عروقه مع الماء ـ والله أعلم ـ وكل ذلك آية على الإحياء بعد الموت.

﴿٢١﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ دلائل قدرته ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ فالبنات يخلقهن الله من الرجال، ثم تصير البنت زوجة لإنسان وهذه باعتبار خلق الإناث من الذكور والذكور من الإناث دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه، لأن بذلك يتم تناسل الإنسان ويستمر حتى تنتهي الحياة الدنيا على البشر كلهم.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ

فكان خلق الزوجين الذكر والأنثى تقدمة لجعل الأزواج التي بها يسكن كل من الزوجين إلى الآخر وإذا فقده شعر بالعزلة والانفراد وشق عليه فقده ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ فتدوم المؤانسة بواسطة الحب بينهما ويساعد كل منهما الآخر رحمة له إذا آلمه شيء، أو شق عليه، وذلك نعمة من الله على الزوجين وآية وبذلك تم التناسل بين البشر وكثروا في الأرض حتى يقدرون على الأعمال العظيمة بواسطة التعاون فهذه دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه يعرفها من تفكر فيها.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ ومن دلائل قدرته على إحيائكم بعد الموت ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على عظمهما واتساعهما لأهلهما ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتكم التي تتفاهمون بها فألهم الله أهل كل لغة لغتهم ليتفاهموا في تعاملهم بينهم ويقول بعضهم لبعض ما يريد أن يفهمه فيفهمه بواسطة إلهامهم اللغة ولولا ذلك ما تمت نعمة المفاهمة بالكلام، واختلافها دليل على أنه بفعل فاعل مختار علَّم كل جيل من الناس لغتهم كما يشاء، وكذلك اختلاف ألوان الناس آية ودليل على أن خالقها فاعل يفعل ما يريد كاختلاف صور الناس.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾ بفتح (لام) (العالمين) وكسرها، فأما الفتح فمعناه أنها آية لكل عاقل، فمن تفكر عقلها، ومن لم يتفكر فجهله بسبب إعراضه عن التفكر لا لعدم الآية وأما كسرها فمعناه أنها آية يعلمها من تفكر فعلم فهو الذي يهتدي بالآية، فكأنها ليست إلا له بل هي له وحده من حيث أنه الذي يهتدي بها فانفراده بها بهذا المعنى.

ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ

﴿٢٣﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ ﴿مَنَامُكُم﴾ فالنوم يشبه الموت ثم الانتباه بعده يشبه الحياة بعد الموت، فالإنسان في حال نومه كالميت خارج من اختياره وإرادته وعلمه وسمعه وبصره فإذا انتبه رجع ذلك له ليبتغي من فضل الله، ففي النوم آية، وفي الانتباه آية، ويسّر للنوم الليل كما قدمت في تفسير (سورة القصص) وللانتباه النهار، وأشار إلى ذلك بذكر الليل والنهار مع أن النوم آية وإن كان في النهار.

والابتغاء من فضله آية وإن كان في الليل فقد يسر النجوم والقمر وعلم الإنسان كيف يبتغي من فضله بالليل كما في البلاد الحارة، فلا يجب هنا أنه من اللف والنشر، وأن أصل الكلام منامكم وابتغاؤكم من فضله بالليل والنهار على أن الليل راجع إلى منامكم والنهار راجع إلى ابتغائكم من فضله، لأن الآية في النوم لا تختص بكونه في الليل وكذلك الابتغاء من فضله والسياق في القرآن يختلف لحكمة مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام:٩٥] فعدل هذا السياق عن المعهود لحكمة فكذلك هنا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ بمعنى يستمعون القول الذي تذكر فيه الآيات فيسمعون هذا إذا أريد أنهم هم الذين ينتفعون بذكر الآيات، ويحتمل: يسمعون لهم قوة السمع ففي ذلك آيات لهم فإن استمعوا انتفعوا وإن لم يستمعوا فسبب جهلهم ترك الاستماع لا عدم الآيات.

﴿٢٤﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

﴿يُرِيكُمُ﴾ بأن أنشأ لمعان ﴿ٱلْبَرْقَ﴾ فترونه مبشراً بالمطر لمن يطمع فيه ومنذراً به لمن يخافه كالمسافر ومن له شيء معرَّض للغرق كالغنم في مجرى السيل والبضاعة في موقع المطر أو في مجرى السيل ففي البرق حكمة ونعمة ورحمة فهو من الآيات؛ لأن المسافر يسرع إلى مكان يطلبه في جبل أو بناء أو شجرة، والبدوي يرفع غنمه من الوادي، وصاحب البضاعة يكفتها كل ذلك بسبب رؤيتهم للبرق، فذلك دليل وآية، فأما خوف الصاعقة فإن كان الخائف لها يتخذ وسيلة لصرفها صح تفسير الآية بالصاعقة، وبما ذكرت وإلا فلم يظهر صحة التفسير بها وإن كانت مما يخاف بسبب البرق.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطر وفيه آية ونعمة لأن الله تعالى يسوق السحاب الذي فيه الماء حتى يكون على البلد الذي يريد إنزال المطر لأهله فيقف السحاب عليه في حال نزول المطر منه حتى يتم سقياه.

﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ففي ذلك آية للبعث بعد الموت من جهتين جهة دلالته على قدرة الله تعالى وعلمه من حيث أنه تصرف عظيم لا يكون إلا من قادر عالم ألا ترى أنه عند إنزاله ينزل مفرقاً ولو اختلط في الهواء لضر ثم أنه ينزل وهو عذب صالح للإنسان يشرب منه وللحيوان كذلك وللنبات فيحيي به الأرض ولو كان ملحاً أجاجاً ما أحيى الأرض والجهة الثانية: أن الأرض تكون إذا طال عليها الجدب قد يبست وصارت كأنها لا تصلح للحياة فإذا أرواها المطر نبتت في منابتها الأولى ورجعت لها الحياة بعد موتها فهذا يعارض استبعاد الجاهل للحياة بعد الموت.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾ تدل على الخالق وعلى أنه قادر عالم، وعلى أنه المنعم الرازق لعباده، وعلى أنه قادر على الإحياء بعد الموت آيات من ابتداء

ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ

مقدمات المطر إلى وقوعه نافعاً مرويا محييا للأرض بعد موتها آيات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ الآيات إذا فكروا فيها بعقولهم والراجح هنا: أن المراد بهم الذين ينظرون ويفكرون فيعقلون الآيات؛ لأنهم الذين يعرفون هذه الآيات.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ القيام الوقوف وهو وقوف الأرض على حالها فهي غير متحركة إلى السماء ووقوف السماء فهي غير ساقطة إلى الأرض، ولولا وقوفهما بأمر الله لهما لربما تصادمتا أو صادمتا النجوم في الجو، فكان ذلك سبب الخراب وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ ثم بعد خلقكم وخلق ما تحتاجون له في معاشكم بعد ذلك إذا دعاكم للبعث بعد الموت ﴿دَعْوَةً﴾ للخروج من الأرض ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ بقدرته التي دل عليها في الآيات التي مرَّ ذكرها من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ وهو تمثيل لايقافهما، كأنه أمرهما بالوقوف، والدعوة يمكن أنها الصيحة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] وهذا البعث هو الذي ذكرت له دلائل قدرته تعالى لنعلم إمكانه في قدرته تعالى، ونؤمن بخبره تعالى بوقوعه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ﴾ ﴿وَلَهُ﴾ أي ولله عطف على قوله تعالى: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ فأهل السموات وأهل الأرض

ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي

كلهم عباد له مملوكون فيحضرون القيامة مملوكين كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم:٩٣] وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم:٢٦] منقادون مستسلمون لقدرته يتصرف فيهم كيف يشاء فلا يمتنعون مثل الإحياء والإماتة والبعث ويحتمل أن الواو في أول الآية للحال أي إذا أنتم تخرجون وكل من في السموات والأرض عباد له قانتون فلا ملك يوم القيامة إلا لله، وهو مثل معنى العطف إلا أن واو الحال أظهر فيه وهي تفيد الرد على المشركين بالملائكة أو بغيرهم فيوم القيامة تنكشف الحقيقة فيحضرون موقف السؤال والحساب في حال أنهم عباد له كلهم العابد والمعبود منهم.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ وهذا رد على المشركين ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ لا يبدأه غيره ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لا يعيده غيره فلا ند له؛ لأن كل شركاء المشركين عاجزون عن ذلك، وقوله: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ أي الخلق المعاد أهون عليه لأنه عبد ضعيف لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فلا يستطيع خلق أن ينازعه في حكمه على عباده يوم القيامة بل لا يستطيع أن يدفع عن نفسه قضاء الله تعالى، وهذا من الرد على المشركين الزاعمين أن شركاءهم شفعاؤهم عند الله فبين أن الأمر يومئذ لله.

وقد فَسَّروا هذه الجملة بأن الإعادة أهون من الإبداء ولو قال تعالى: وهي أهون عليه لتعين ذلك لكنه تعالى قال: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ﴾ فرجع الضمير إلى الخلق المعاد.

مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم

فصح تفسيره: بأنه أهون من أن يشاركه في ملكه أو ينازعه في حكمه، بل هو مملوك لله يحكم فيه بما شاء فكانت كقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَرْداً﴾ [مريم:٩٣-٩٥] ويصح أن يكون تفضيله على نفسه في الدنيا فهو في الآخرة أهون ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل:١١١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الشرفي: «أي الوصف الأعلى» انتهى. أي أنه المستحق له في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف:١٨٠] فله الوصف الأكمل مثل: هو على كل شيء قدير، بالنسبة إلى عبد هو قادر على الصلاة من قيام أو على السير، أو نحو ذلك من إثبات قدرة محدودة للعبد وهو العزيز الحكيم، فعزته تنافي أن يرضى لنفسه شريكاً وحكمته تنافي أن يأذن بالشرك، فلا يرضى بالشرك ولا يأذن به لأنه ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وبذلك بطل دعوى المشركين أنه قد شاء منهم الشرك.

﴿٢٨﴾ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من عبيدكم وجواريكم كأن ملكهم خاص باليمين، لأنه حصل في الغالب إما بالغلبة واسترقاقهم في الحرب، وإما بصفقة البيع ودفع الثمن هل لكم ﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾ من عبيدكم وجواريكم في مالكم الذي رزقكم الله.

بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ

يبين أن العبد لا يكون شريكاً لسيده؛ لأن عبوديته وكونه مالاً لسيده تنافي كونه شريكاً لسيده في ماله كما يشاركه الحر فيخاف منازعة عبده له في ماله كما يخاف شريكه الحر فإذا كان هذا لا يمكن ولا يرضاه سيد لنفسه فكيف يرضاه الله تعالى وهو المالك الملك الحقيقي الكامل لكل من في السموات والأرض وهو الرازق لهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تفريع على المشاركة المقدرة أي فالسيد وعبده سواء في ملك ماله واستحقاق التصرف فيه بحيث ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ على نصيبكم من مالكم كخوفكم من شركائكم الأحرار أن يتعدوا ويتجاوزوا نصيبهم إلى بعض نصيبكم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ المثل المضروب وكذلك التفصيل والبيان ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ نبينها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يفهمون ما يقال لهم من الحق الواضح المبيّن فينتفعون به، فقد تمت الحجة البالغة على المشركين في هذه السورة الكريمة، فإن الآيات الدالة على قدرته تعالى على البعث دالة أيضاً على أنه لا شريك له مما يدعيه المشركون شريكاً لله سبحانه وتعالى، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٢٩﴾ ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ﴿بَلِ﴾ إضراب فالمشركون ليسوا بصدد حجة على الشرك أو على بطلانه؛ لأنهم اتبعوا أهواءهم بجهل ومن كان همه مع جهله إتباع هواه فلا يقبل إلا ما وافق هواه وإن خالف الحق لأنه متبع لهواه يقوده إلى

ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً

ما قاده إليه لا يتبع غيره وإن كان الحق، وهذا هو الضلال المبين الذي استحقوا به أن يخذلهم الله ويتركهم للشياطين فلا يهديهم بعد ذلك أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يدفعون عنهم عقوبة الضلال، عقوبة هذا الظلم العظيم.

﴿٣٠-٣٢﴾ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ ﴿فَأَقِمۡ﴾ فلا تتبع أهواءهم بل أقم ﴿وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ الحق وهذا تفريع بـ(الفاء) على بطلان الشرك وكون المشركين لا حجة لهم إنما يتبعون أهواءهم ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ اجعله قيما غير معوج اجعله مهيّا ومعدًّا.

وقوله: ﴿لِلدِّينِ﴾ أي لطاعة ربك فحاصل المعنى: أقم وجهك لطاعة ربك فالوجه الذي لا يستعد لإخلاص العبادة له وطاعته كما أمر يعتبر وجهاً غير قيم، والمراد التوجه بالوجه لعبادة الله وحده، وقال الشرقي: «﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي قوّم وجهك له وعدّ له غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً» انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿حَنِيفٗا﴾ قد سبق عن الإمام القاسم × تفسير (الحنيف): بالمحب الخاشع، وسبق ترجيحه على تفسير (الحنيف بالمائل عن كل دين، قال الشرقي: «وفي (البرهان) وغيره: ﴿حَنِيفٗا﴾ أي مستقيماً مخلصاً معتدلاً خاشعاً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على معرفة أنه ربهم وحده، قال تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: من الآية١٧٢] ففطرة الناس تعرف أنه الذي خلقهم ورزقهم وأنه لذلك ربهم المالك لهم فمقتضى ذلك أن يعبدوه وحده اعترافاً بأنهم عباده لا شريك له فيهم فتسميته فطرة الله باعتبار انه الذي تقتضيه فطرة الله التي فطر الناس عليها حيث جعلهم يعلمون أنها الحق.

فقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى أن عقولهم تعرف هذا ولا تتبدل عقولهم بل هي في البشر كلهم موحدهم ومشركهم تعلم ذلك أو مُعَدَّة لعلمه، ولا تزال كذلك إلا في المجانين ونحوهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ أي دين الله الذي أمر بإقامة الوجه له هو الدين القيم الذي لا عوج له لأنه أمر به الحكيم العليم وطابق العقول ولكن أكثر الناس لا يعلمون لأنهم لا ينظرون بعقولهم فيبقون على جهلهم ويتبعون أهواءهم، وقوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي راجعين إليه أي أقيموا وجوهكم للدين منيبين إليه وهذا لأن أمر الله لرسوله أمر لأمته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: من الآية٦٨] الآية، ثم قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾ [النساء: من الآية١٤٠] وهذا لأن أمته مأمورة باتباعه.

فقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أمر للرسول ثم لأمته ولكون أمته مأمورة بذلك الأمر جاء قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ بصيغة الجمع للرسول وأمته، واتقوه أي واتقوا الله باجتناب معاصيه.

إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أمر ونهي للأهميّة في تقوى الله إقامة الصلاة واجتناب الشرك، أو تخصيص الصلاة من بين أعمال الإنابة لله وتخصيص اجتناب الشرك من بين التقوى وهو اجتناب الكون من المشركين.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ يعني: المشركين، فهو بدل البيان يبين أن المشركين فرقوا دينهم فكل فرقة مثلاً اتخذت إلهاً غير إله الفرقة الأخرى لأن دينهم تابع لأهوائهم ولو اتبعوا عقولهم لتوحدوا ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من دينهم أو إلههم ﴿فَرِحُونَ﴾ وهذا يفيد: أن الحزب يشايع بعضه بعضاً أي يتعاون على نصرة دينه، وهم بما لديهم فرحون لأنهم يهوونه ويحبونه فهم به مسرورون مطمئنون إليه وهذه غاية الضلال إنهم مع كونهم في أشد الباطل فرحون به، فعلينا أن نحذر من أن نكون منهم لأنهم في غاية البعد عن الحق.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ لا يخص عبَّاد الأصنام؛ لأن تفريق الدين قد يكون من أجل الأصنام وقد يكون بسبب اختلاف العقائد وقد يكون باختلاف السياسة فالآية عامة للذين فرقوا دينهم من العرب وللذين فرقوا دينهم من أهل الكتاب المشركين بعيسى وعزيز والأحبار والرهبان.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٤] ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ أحسوا بألمه لأنه باشرهم

﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ

المرض ومسهم الوجع ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ يطلبون منه العافية ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين إليه ليكشف عنهم الضر، وهذا الرجوع ترك الشرك وإخلاص الدعاء لله ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ بأن كشف الضر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ فاجأوا بالشرك بدل الشكر على كشف الضر؛ لأنهم إنما ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ اضطراراً اضطرهم الوجع، فلما ذهب اضطرارهم رجعوا إلى شركهم اتباعاً لما تهوى أنفسهم فبادروا إلى الشرك ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ من النعم قال الشرفي ـ ونعم ما قال ـ: «اللام للتعليل المجازي، كأنهم أشركوا للكفر بماء آتاهم من نعمة الخلاص» انتهى المراد.

والأولى أن التعليل ليكفروا بما آتيناهم من النعم كلها لا بمجرد نعمة الخلاص من الضر، ولذلك رتّب عليه قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ أي تمتعوا بما آتيناكم من النعم كلها فسوف تعلمون سوء عاقبتكم على الشرك وذهاب ما آتيناكم في الدنيا فقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ يشير إلى أنها متاع ينتهي عما قليل ثم يصيرون إلى العذاب الشديد وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد عظيم والأمر بقوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ إشارة إلى أنه لا يفيدهم هذا التمتع نجاة من العذاب وأنه شيء قليل، فإن كان المراد فتمتعوا بالشرك فهو أمر تهديد.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ إضراب، وسؤال بل ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنًا﴾ برهاناً يسلطهم على الشرك؛ لأنه برهان غالب وحجة واضحة لا يصح دفعها، وهذا السؤال توبيخ بمعنى النفي، ويفيد: أن الشرك لا حجة له ولا برهان، وأنه لا ينبغي بدون إذن من الله المالك لهم المنعم عليهم الذي هو ربهم فحيث أشركوا بلا إذن منه تعالى فهم مبطلون.

وقولـه: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تفسـير للسـلطان المنفـي إنزالـه ﴿بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾ يتكلم بما استمر وتكرر شركهم به من أصنامهم يتكلم به أي بأنـه إله وسبحان الله وتعالى عن إنزال ذلك، ولكنه تعالى يوبخهم على الشرك بمـا لا برهان لهم به.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا﴾ وهذا من السفه أنهم بادروا إلى الفرح بها عند أول حصولها، كأنهم ذاقوها بأفواههم قبل أن تنـزل في بطونهم والفرح سرور مع اطمئنان إلى النعمة وبقائها الذي يتخيلونه، وقد جربوا أن الأحوال تنقلب وإنما كان ينبغي لهم المسارعة إلى الشكر، قال الشرفي: ((والفرح هنا: هو البطر الذي لا شكر فيه)) انتهى.

والراجح: أن هذا في الآية كلام على الإنسان الذي هو يتخيل حالته الـتي هو فيها أنها تدوم فإذا كان في خصب تخيل أنه يبقى وإذا كان في جدب تخيل أنه يبقى فلذلك يفرح بالنعمة ويقنط في الشدة إلا المؤمنين الذين يسـتعملون عقولهم ويتـذكرون أن الله تعـالى يقـبض ويبسـط ومـن عـدا المـؤمنين كـأن طبيعتهم البشرية تتوهم استمرار ما هم فيه من خير أو شر أو سـعة أو فقـر، فالغني لا يتصور أنه يفتقـر والفقـير لا يتصـور أنـه يصـير غنيـاً، وقـد سـبق للشرفي تفسير الفرح بالسرور مـع الاطمئنـان، ولكـن هـذا المعنـى ذكـره في (الصحاح) فقال: ((فرح به: سُرّ والفرح أيضاً البطر، ومنه قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦])) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ السيئة ما يسوءهم مثل الجـدب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وما أصابهم هو بسبب ذنوبهم.

وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَقۡنَطُونَ﴾ يفاجئ سريعاً منهم القنوط بعد أن كانوا في نعمة وهذا؛ لأنهم يتخيلون ما هم فيه من السيئة يبقى، ولا ينظرون بعقولهم إلى رحمة الله أنها تجئ بعد الشدة، لأنهم نسوا الله، والقنوط: اليأس من رحمة الله، قال في (الصحاح): «القنوط: اليأس» انتهى. وفي (تفسير الراغب): «القنوط: اليأس من الخير» انتهى.

﴿٣٧﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ هذا رد على القانطين فقد علموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ لمن يشاء، فإذا كانت الشدة فيمكن أن يكشفها بفضله كما بسط الرزق لمن شاء ويمكن أن يكشفها بالتوبة؛ لأن سبب سوء الحال الذنوب، فإذا كان سبب الفرج التوبة فما بقي وجه للقنوط، بل عليهم أن يتوبوا فإذا لم يتوبوا فقد سببوا لتأخر الفرج إن تأخر مع أنه يمكن الفرج وإن لم يتوبوا لكنهم ينسون الله وفضله على عباده.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ في بسط الرزق وتقديره على ما شاء الله آيات ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات:٥٨] هو الذي إن شاء كشف الشدة لأنه يفعل ما يشاء ويبتلي بالخير وبالشر، والقنوط إما نسيان لله وإما سوء ظن بالله وهو جريمة كبرى.

﴿٣٨﴾ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي أعطه

﴿حَقَّهُۥ﴾ عليك، فهو يستحق أن تعطيه إذا احتاج لأن الله تعالى قد أمر بإيتائه فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ [النحل:٩٠] وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة:١٧٧].

ويمكن أن منه الخمس، إذ يمكن أن تكون السورة (مكية) وفيها آيات (مدنية) وقد روى الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) قال: ((ومن (سورة الروم) فيها قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ [وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ] أخبرنا عقيل بن الحسين ـ وساق السند ـ عن عطاء عن ابن عباس قال: لما أنزل الله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الإسراء:٢٦] دعا رسول الله ص فاطمة وأعطاها فدكاً وذلك لصلة القرابة...)) الخ.

ولعل هذه الآية هي آية (الإسراء) لأنها هي التي أولها (واو العطف) أما آية (الروم) فهي بـ(الفاء) وفي بعض المصاحف أن (سورة الإسراء) مكية، إلا آية (٢٦) وغيرها وآية (٢٦) هي قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ فترجح: أن الآية هي (آية الإسراء).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمِسْكِينَ﴾ أي آته حقه، وله حق في الخمس وفي الزكاة وإذا كانت الآية مكية فحق المسكين غير محدد في القرآن وكذا ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ له حق من الخمس ومن الزكاة وحقه في أول الإسلام غير محدد، ولكنه مفهوم بسد خلتهما أو المستطاع منه، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الإيتاء خير للذين يريدون به أو به وبغيره وجه الله التقرب إلى رحمته ورضوانه، فلهم ثوابه بخلاف من أنفق للرياء والسمعة فلا ثواب له بل هو آثم وكذا من أنفق لا يريد به التقرب إلى الله بل لمجرد العاطفة فلا ثواب ولا عقاب، إذا لم يكن سبب العاطفة الخوف من الله.

عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الإنفاق لوجه الله خير من الإمساك أي هو خير للذي أعطى فلا يتوهم أن الإمساك خير له ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فذلك الإنفاق سبب للفلاح والفلاح الظفر بالخير في الآخرة فهو دخول الجنة والنجاة من النار.

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ هذه مقابلة بين إعطاء الربا والصدقة، فالربا لا يضاعف بل هو إثم والصدقة إذا كانت لوجه الله تضاعف.

ولعل هذه الآية (مكية) ولذلك ليس فيها زجر عن الربا لأن الحكمة كانت في تأخير الزجر عنه حتى يقوى الإسلام، وهي تفيد: أن مؤتي الربا يعطي ماله في غير فائدة له لأنه لا ثواب له فيه فلا ينال عوض ما أعطى لا مضاعفاً ولا غير مضاعف، أما الصدقة التي يُراد بها وجه الله فهي التي يكون صاحبها هو المضعف الذي ينال أضعافها فقوله ﴿فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: لا تثابون عليه فيضاعف لكم بل هو ضائع فما لكم ترضون به ولا ترضون بالصدقة، أو المعنى: لا يضاعف لكم ما أعطيتم لتربوا في أموال الناس، وعدم الإثابة بالمثل مسكوت عنه، لأن معطيه لا يطمع في ثوابه ولا بالمثل وإنما نفيت الأضعاف للمقابلة بينه وبين الصدقة لوجه الله لتتجلى فائدة الصدقة وبضدها تتميز الأشياء.

هذا الذي يترجح مع تحرير الفكر، فأما (صاحب الكشاف) فقال: ((هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: من الآية٢٧٦])) انتهى.

هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ

ولا يخفى أن قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا﴾ هي في أخذ الربا وهذه الآية هي في إيتاء الربا ليربوا في أموال الناس، وقوله تعالى: ﴿لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ﴾ تشويه لإيتاء الربا في مقابلة الزكاة لأنها لسد خلة المسكين وإيتاء الربا ليزيد في أموال الناس، وهو غرض ضعيف أن تتلف مالك ليزيد مال غيرك ويكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ﴾ أي صدقة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ فأولئك أهل هذه الصفة هم المضعفون الذين ينالون أضعاف ما أعطوا فالإشارة هنا للتعظيم فأما الإلتفات من الخطاب إلى الغيبة فلعل السر فيه أن المخاطبين ليسوا أهل ذلك بل غيرهم، ونظيره تحويل الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس:٢٢] لأنه صار الكلام في فريق من المخاطبين هم المشركون ولكن الآية التي نحن فيها خلافها من حيث أن أول الكلام خطاب للمشركين وغيرهم، وتحول في فريق من المؤمنين يريدون وجه الله.

﴿٤٠﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ احتجاج على المشركين عظيم يدل على أن الله هو المالك للخلق لا شريك له فيهم، وهو المتصرف فيهم كيف يشاء دون شركاء المشركين فهي لا تخلق ولا ترزق ولا تميت ولا تحيي، سبحان الله وتعالى تنزيه لله عن أن تكون شركاؤهم أنداداً له يقرن بها وتقرن به، وهي عاجزة لا تملك شيئاً ولا تقدر على شيء وتعالى عنها علواً كبيراً فإن إثباتها مجرد خرافة من خرافات الجاهلية يتعالى عنها الله الخالق الرازق المحيي المميت الذي يعيد الخلق ويجزي كل نفس بما تسعى.

لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ

﴿٤١﴾ ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿ظَهَرَ﴾ غلب ﴿ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ سواء فساد بعض الزروع أو الثمار أو الأراضي بقلة الأمطار وغير ذلك، وفساد الصيد في البحر بتعسره، وفساد الريح التي تدفع السفن وغير ذلك، أو فساد حال الناس بظهور الجور من السلطان بتمكين الله والرشوة والتظالم والحروب وتعطيل شريعة الله، كل ذلك وقع ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بمعاصيهم من الشرك وغيره ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ فلو صلحوا لتنـزلت لهم البركات قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: من الآية٩٦] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً﴾ [الجن:١٦] وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾ [نوح:١٠] الآيات.

وكذلك في تمكين الظلمة قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء:٤-٨] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩] ولكن بجرائمهم سلط عليهم ليذيقهم بعض الذي عملوا.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي يذيقهم بعض العقوبة أو عقوبة البعض وهو أرجح؛ لقوله تعالى في (سبأ): ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي لا يغير نعمته بسبب بعض المعاصي التي تقع من بعضهم ولا توجب تعجيل النقمة وتغيير النعمة على كلهم بل يعاملهم تعالى بحلمه.

وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ

فإذا أعرضوا واستحقوا التأديب وكانت الحكمة في تعجيل الأدب لعلهم يرجعون عند ضعف حالهم وذهاب أسباب البطر، وتذكرهم أنهم كانوا في نعمة وأنها زالت بسبب ذنوبهم فيرجعون إلى ربهم ويتوبون إليه عجل لهم الأدب لعلهم يرجعون، فصح أن بعض المعاصي لا يعجل عقابها، وهو ظاهر قوله تعالى:

﴿٤٢﴾ ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله لقومك العاصين لك ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتروا آثار عقاب المجرمين ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ عند ذلك ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُ﴾ كيف تغيرت نعمتهم أو هلكوا بإجرامهم ﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾ مثل المشركين منكم، فاحذروا أن ينزل بكم مثل الذي وقع عليهم وتوبوا إلى الله.

﴿٤٣﴾ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ اجعله قيما غير معوج وذلك بجعله منقاداً صالحاً ﴿لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ الذي هو عبادة الله وحده فهي الدين أي الطاعة القيم الذي لا عوج فيه لأنه الحق، قال الشرفي: «يعني: استقم للدين المستقيم بصاحبه إلى الجنة» انتهى.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من قبل أن يأتي يوم عظيم شديد على العصاة لا مرد له لا مرجع له عن نفوذ أمره على أعداء الله لأنه من الله الغالب على أمره القاهر فوق عباده فلا مرد لذلك اليوم حال كونه من الله ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ﴾ ينقسمون أي الناس يصيرون قسمين بحكم الله فيهم وقضائه عليهم أو لهم.

يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

قال الراغب: «الصدع: الشق في الأجسام الصلبة كالزجاج والحديد ونحوهما، ثم قال: وعنه استعير صدع الأمر: أي فصله، قال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] ثم قال: «وتصدع القوم: أي تفرقوا» انتهى. ونحوه في (الصحاح) وقال فيها: «والتصديع: التفريق» انتهى.

﴿٤٤﴾ ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ ﴿مَن كَفَرَ﴾ في الدنيا ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ في الآخرة ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ في الدنيا ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ في الآخرة، فهذا تصدعهم في الآخرة، قال الراغب: «المهد: ما تهيئ للصبي ـ يعني فراشه أو ما فيه فراشه ـ والمهد والمهاد المكان الممهد الموطأ» انتهى، فقوله تعالى: ﴿يَمْهَدُونَ﴾ أي يصلحون مكانهم في الآخرة إصلاحا بليغاً كما يمهد للصبي مكانه.

﴿٤٥﴾ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أي يمهدون ليجزيهم الله تعالى من فضله أي من عطائه جزاء على الإيمان والعمل الصالح قال الراغب: «وكل عطية لا تلزم من يعطي يقال لها: فضل» انتهى. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا يجعلهم مثل المؤمنين الذين يحبهم بل يفصل بينهم ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧].

﴿٤٦﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومن آيات الله الدالة على أنه هو رب الناس المنعم عليهم المستحق لأن يعبدوه وحده:

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ

﴿أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ بإثارتها للسحاب وإنزال المطر منه ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ﴾ السفائن في البحر ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ للرياح أن تسيرها على الماء وذلك بجعلها ريحا غير عاصفة فلو سكنت تعطل السفر، ووقفت السفن على الماء، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى:٣٣] ولو عصفت لاطلعت الماء على السفائن فدخل فيها فنزلت في البحر مغرقة لأهلها ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ سخر الرياح لتبتغوا بالسفر في البحر من فضله من فضل الله رزقاً أو علماً وذلك بتسخير الرياح ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ نعم الله عليكم فتعبدوه وحده وتجتنبوا الشرك.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ يا محمد ﴿رُسُلاً إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾ فكذبهم بعض قومهم وآمن بعض ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ ذلك الإجرام المذكور في (سورة غافر) ونصرنا المؤمنين برسل الله وأنبيائهم.

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فثقوا بنصر الله لكم أنت يا رسول الله ومن معك، وهو نصر القضية التي قمتم بها والدين الذي دعوتم إليه، ونصر حزب الله وجنده فلا يمتنع أن يقتل بعضهم شهداء وينتصر جند الله جملة بحيث صارت كلمة الله هي العلياء وصار المؤمنون أقوياء غالبين آمنين هذا نصرهم في الدنيا فأما في الآخرة فينصرهم الله بالحكم لهم على أعدائهم وبمعاقبة أعدائهم وإثابة المؤمنين.

قال الشرفي: «قال في (البرهان): يعني نصر الأنبياء والأئمة عليهم السلام بإجابة دعائهم على المكذبين لهم من قومهم» انتهى.

قلت: يعني أن قوله تعالى: ﴿نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عام للمؤمنين من الرسل وقومهم والأئمة وأنصارهم، وهذا إذا أخذوا بأسباب النصر المبينة في القرآن، وهي:

أولا: أن يكونوا جنداً وحزباً مؤمنين إذا بلغوا في الكثرة إلى حد يصيرون جنداً وحزباً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٤].

ثانياً: أن يتوحدوا ولا يتنازعوا لقول الله تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

ثالثاً: أن يلزموا تقوى الله ولا يعدلوا عنها بمعصية متعمدة ما داموا في المعركة.

رابعاً: أن يصبروا على القتال.

خامساً: أن يدعو الله بأن يقولوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٥٠] والدعاء من قبل القتال.

سادساً: أن تكون نيتهم في القتال نصر دين الله أو الدفاع عن دين الله.

فهذه ستة أسباب مأخوذة من القرآن، ودفع الكافرين إذا هجموا على المسلمين واجب على كل مسلم، سواء كان في سبيل الله أو لمجرد الدفع لقول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران:١٦٧] ومن الواجب في القتال أن يعلموا أن الله مع المتقين، بمعنى: أن الله معهم ضد أعدائهم أعداء الله لأن الله تعالى قد أمر بهذا العلم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: من الآية١٢٣] وهذا عارض لمناسبة الإعداد لقتال الكافرين.

ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ

﴿٤٨﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ **وما بعده يفعله إلى إنزال المطر الله الفاعل لذلك وحده لا شريك له فعليكم أن تعبدوه وتعرفوا قدرته على كل شيء وتشكروا نعمته.**

وقوله تعالى: ﴿فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي فيبسط السحاب في الجو ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ فقد يكون كثيراً وقد يكون قليلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قال الشرفي: ((أي وتارة يجعله قطعاً)). انتهى. وقال غيره: ((﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ بتجميعه وتكثيفه)) انتهى، يعني ليس مبسوطاً رقيقاً بل هو عبارة عن قطع كثيفة مجموعة ومثل هذا قول آخر: ((يجعله قطعات متراكبة متراكمة)) انتهى. وهذا لأن أصل السحاب رقيق فإذا كثر وتزاحم صار كأنه قطع إسفنج مركومة وقد رأيته في (الطائرة) وهو تحتها كأنه ركام من القطن. والله أعلم.

وقد أفاد هذا القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ [الطور:٤٤] فأفاد أن السحاب المركوم كسف مركومة ولذلك يشبهون بها الكسف من السماء، بل يدعون أنه هي إن يروه ساقطاً، وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ﴾ أي المطر يخرج من بين السحاب، فهذه آية تدل على قدرة الله وعلمه وفضله على عباده.

﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ

وقد فصّل تعالى في هذه الآية المطر، ومقدمته من إرسال الرياح المثيرة للسحاب، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ﴾ أي بالمطر ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أي من يشاء الله إنزال المطر عليه ﴿إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ لأنهم يعلمون أنه يحيي بلدهم بالنبات والزرع وغيره فهو نعمة من الله عليهم ورحمة فأسرعوا باستبشارهم وفاجأوا به بعد أن كانوا في غم من الجدب.

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾ قانطين من الفرج بعد شدة الحال عليهم ولكنه تعالى لكرمه لا يمنعه قنوطهم من إنعامه عليهم بالمطر وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ بمعنى وإنهم كانوا من قبل أن ينزل عليهم وهم في حال الجدب فصاروا به بعد إبلاسهم مستبشرين مسرورين وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم فيروه قد نزل عليهم كانوا من قبل هذا الودق الذي قد أصابهم آيسين، فقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ يفيد أنهم كانوا آيسين؛ لأنهم ما زالوا في حال الجدب والشدة لم يروا ما يكشفها عنهم.

وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ يفيد: أن سبب زوال إبلاسهم هو الماء الذي يحيي بلادهم الموجود عندهم حين أصابهم، فقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ يبين سبب بقاء إبلاسهم، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ يبين سبب زوال إبلاسهم السبب الحقيقي الذي هو الماء الذي يحيي أرضهم، والفارق بين قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾ وقوله ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ هو اختلاف الاعتبار، فالأول باعتبار بقاء سبب الإبلاس، والثاني باعتبار سب زواله لأن معنى من قبله من قبل الودق أي من قبله موجوداً عندهم.

ونظير استعمال (قبل) بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ استعمال (بعد) في ضده قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف:١٤٨] وقال الشاعر:

وشـــريت بـــرداً ليـــتني مـن بعـد بـرد كنـت هامـه

وهذا استعمال لا يحتاجون فيه إلى تقدير مصدر بل كفى فيه إفادة قوله تعالى من بعد موسى أنه قد غاب عنهم وإفادة قول الشاعر من بعد برد أنه قد غاب عنه لأنه باعه، ومثله قبل قال تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ أي ومن قبل هذا القرآن، وكذلك قبل في هذا الموضع في قوله من قبله أفاد أنه قد حصل فلا حاجة إلى تقدير قبل نزوله أو قبل إنزاله، وعلى هذا فلا تكرار في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ وقوله: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾.

وأما قول الزمخشري / أنه تكرار للتأكيد فبعيد؛ لأن المحل ليس محل تأكيد لوضوح الفرق بين الحالتين قبل المطر وبعده في تسبيب القنوط وإنما يؤكد وجود القنوط عندهم من حيث أنه لم يكن ينبغي القنوط من العقلاء بعد أن قد جربوا فضل الله عليهم في الماضي فهو منهم كالمستبعد الذي يحتاج إلى تأكيد الإخبار به ومن السهو تمثيله للتكرار بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ [الحشر:١٧] فقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَالِدَيْنِ﴾ فلا تكرار؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ﴾ لم يصرح بالخلود، نعم التكرار للتأكيد في القرآن كثير في تركيب آخر مثل ما في (سورة الرحمن) و (سورة المرسلات).

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ حياة الأرض بعد موتها بالجدب.

مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾

وقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تفسير راجع إلى قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ﴾ كأنه قيل: فانظر كيف يحيى الله الأرض بعد موتها فكما أن أهلها قد أيسوا من المطر كذلك يحييهم بعد أن أيسوا من الحياة بعد الموت، لأن يأسهم من الحياة بعد الموت استبعاد لما ليس بعيداً في قدرة الله تعالى مثل استبعاد نزول المطر بعد الجدب، وهو غير بعيد في قدرة الله تعالى وفضله فتبين أن الاستبعاد لا حكم له في نفي الواقع ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي أحيى الأرض بعد موتها ﴿لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فلا يصح استبعاد الحياة بعد الموت لأن الله على كل شيء قدير، وقد وعد به وهو أصدق القائلين.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ﴾ ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا﴾ تذهب خضرة الزرع والمرعى وتميل به إلى اليبس ﴿لَّظَلُّواْ﴾ أي هؤلاء الذين قنطوا ثم استبشروا ﴿لَّظَلُّواْ﴾ من بعد أثر رحمة الله ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ يقنطون وقد جربوا فضل الله وإنزاله المطر وإنعامه عليهم لكنهم يسرعون إلى القنوط بغير نظر ولذلك حين اصفر الزرع والمرعى بادروا إلى القنوط واليأس من فضل الله الذي هو عادة الكفار ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

﴿٥٢﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ ﴿فَإِنَّكَ﴾ يا رسول الله في محاولتك لهداية هؤلاء الكفار ﴿لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ

فهم كالموتى في بعدهم عن سماع ما تقول؛ لأنهم كارهون له معرضون عنه وقد خذلوا فلم يبق في قلوبهم حياة ليستعدوا لقبول الحق ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وهم كالصم إذا ولوا مدبرين والأصم المدبر أبعد عن سماع الدعاء من الأصم المقبل وهذا تشبيه عجيب لأن الكفار مولون عن سماع ما يقول لهم الرسول مدبرون عنه بقلوبهم فشبههم بالصم المدبرين.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ كما شبههم بالصم شبههم بـ﴿ٱلْعُمْىِ﴾ الذين قد ضلوا الطريق وهؤلاء الكفار ضلوا عن الحق بكفرهم وصاروا كالعمي لخذلانهم وضيق قلوبهم عن قبول الحق حتى ذهب استعدادهم لإبصار الحق وللنظر في الآيات نظر من يريد الحق.

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أي لا تسمع إلا من يؤمن بآياتنا يؤمن بأنها من الله وبمعناها الذي تدل عليه من أن القرآن كلام الله ومحمداً رسول الله والبعث حق والجنة والنار حق ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ تاركون للشرك مخلصون عبادتهم لله مسلمون وجوههم وأنفسهم لله ربهم فهؤلاء الذين تسمعهم لا الكفار المجادلون في آيات الله المكذبون والحصر بالإضافة إليهم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ ليس في الآية الكريمة أنه تعالى خلق الضَّعف بل خلقنا من الضعف؛ لأنا في حال الطفولة ضعفاء، وقبلها حين كنا في بطون أمهاتنا عظاماً، وقبلها حين كنا مضغة،

ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ

وقبلها حين كنا علقة، وقبلها حين كنا نطفة، فنحن من الضعف بهذا المعنى، وهو مجاز مثل: ﴿خُلِقَ الأِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء:٣٧] وفيه دلالة على أصالتنا في الضعف ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ وهي قوة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ لأنه تعالى حدد قوة الشباب كما شاء فجعلنا أقوياء بعد الضعف دليل على الله وعلى أنه قدير عليم ثم تحولنا عن حالة الشباب وقل استمرارنا في النمو بعد كثرته دليل على الخالق المدبر لأحوالنا فإن مقتضى الصحة فيما نتخيل أن يستمر النمو والقوة من الغذاء ما دامت أعضاء التغذية وتصريف الغذاء في البدن بل في خيالنا مقتضى ذلك أن يتطور النمو والقوة فلما شاهدنا تحديدها بوقت الشباب ثم تميل إلى النقص بتقدير وتدريج دل ذلك على خالقنا المدبر لأحوالنا وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ﴾ لم يقل خلق بل جعل لأن ذلك نقص وسلب قوة وقوله تعالى: ﴿وَشَيۡبَةٗ﴾ أي بياض الشعر.

وقوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تحقيق لأنه الفاعل لما يريد ليس ذلك طبيعة مجردة لأن اختلاف أحوال المخلوق وفق تدبيره تعالى دليل على أنه مخلوق بقدرة القدير العليم أما الطبيعة فإن كانت واحدة لم يصح أن تنتج أشياء مختلفة وإن كانت متعددة كان تعددها المخصوص على وفق نظام محدود دليل على أنها هي مخلوقة لخالق قدير عليم، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ بيان لما دل عليه الدليل في الآية، وبذلك بطل استبعاد الكفار للبعث بل هو القريب في قدرته الواجب في حكمته.

﴿٥٥﴾ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ﴾ يستقل الكفار ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة فيقسمون

فَهَـٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَـٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ

أي يحلفون ما لبثوا ما بقوا بينهما غير ساعة من الزمان وهي مدة قليلة كما قال في (سورة الإسراء) ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء:٥٢] ولكنهم أقسموا على الظن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في اعتماد الظن والاغترار به ﴿كَانُواْ﴾ في الدنيا ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يصرفون عن الحق لأنهم لا يتثبتون.

﴿٥٦﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَـٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ فَهَـٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَـٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ العلم اليقين بالله وقدرته وعلمه وحكمته وعزته وسائر معرفته تعالى واليقين بالرسل والكتب واليقين باليوم الآخر وما وعد الله به من الحساب والجزاء وكل ما يجب العلم به والإيمان به أوتوه بالهدى من الله قالوا للمجرمين: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فيما كتب الله من الأجل الذي قضاه بين الدنيا والآخرة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ بعد الموت الذي وعد الله به ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فكنتم به تكذبون فقد صدق وعد الله، واستعمل اسم الكتاب فيما كتب الله مثل استعماله فيما كتب من العمر والرزق، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧] وقد ذكر الله أجل الفرد وأجل مجيء الآخرة أو ذهاب الدنيا في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام:٢].

﴿٥٧﴾ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ قد قامت الساعة ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ﴾ لو أذن لهم في الاعتذار فلا ينفعهم ما كانوا يعتذرون به لأنه ليس عذرا صحيحاً، ويحتمل: معذرتهم التي ليست معذرة وإنما اتخذوها كالاعتذار مثل قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون:١٠٦].

فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ولا يطلب منهم إزالة غضب الله عليهم وإرضاءه بالتوبة والإيمان كما كان يطلب منهم في الدنيا لأنه في الآخرة لا يقبل منهم لأنها دار جزاء وليست دار عمل، ولأنهم لو فعلوا ذلك فعلوه اضطراراً لمشاهدتهم القيامة فلا ينفعهم لأن الله تعالى لو شاء أن يؤمنوا اضطراراً لاضطرهم في الدنيا بحيث لا يكفروا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣].

﴿٥٨﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ كلهم ﴿فِي هَذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي هو أعظم حجة ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ حجة بالغة وحكمة جامعة وقد سمى الله ما احتج به الكافر مثلاً فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فالمثل ما استعمل لينطبق على أفراد متماثلة يستعمل في كل منها ومنه أمثال العرب لكلماتهم المتداولة بينهم مثل قولهم المرء بأصغريه لسانه وجنانه وقولهم القتل أنقى للقتل، وليس خاصاً بالتشبيه وكذلك ما هو حجة وما هو موعظة قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ [الكهف:٥٢ـ٥٤].

يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

وقال تعالى في تسمية الحجة مثلاً: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الأِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ [الإسراء:٨٨-٨٩] وقال تعالى في الموعظة: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بمعنى من كل حجة، وكل موعظة، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ فالهدى في القرآن بما فيه من الحجج والمواعظ يكفي عن الآيات التي يقترحها الكافرون وعن المزيد من الآيات على ما قد جاء فيه ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾ أي هؤلاء المكذبين لئن جئتهم ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ زائدة عما قد جاء في القرآن أو كما يقترحون ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وكذبوا بهذا القرآن ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ أي لا تنفع عندهم الآيات ولو جئتهم بأي آية لاستمروا على كفرهم فقالوا بالحصر والقصر إن أنتم إلا مبطلون، لستم بمحقين في شيء مما أنتم عليه، وذلك لأنهم يقولون ما شاءوا لا يحجزهم إيمان ولا دين.

﴿٥٩﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كما أنهم لا يؤمنون بل يبالغون في التكذيب إن جئتهم بآية لأنهم قد طبع على قلوبهم بسبب عنادهم واعتمادهم على هوى أنفسهم وظنهم وإعراضهم عن قبول الحق الواضح كذلك يطبع الله على قلوبهم وقلوب أمثالهم حتى أنهم لا يؤمنون، ولو جئتهم بكل آية وذلك لأنهم لا يريدون إلا ما تهواه أنفسهم فاستحقوا الخذلان وإرسال الشياطين عليهم فما بقي في إيمانهم مطمع لك يا رسول الله.

﴿٦٠﴾ ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ يا رسول الله على تكذيبهم وعنادهم حتى يأذن الله لك بهجرتهم وتركهم وحتى يأذن بقتالهم ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ﴾ لا يخرجوك عن الصبر والثبات والحكمة واتباع العقل بأن يحملوك على تركهم قبل أن يؤذن لك في الهجرة، وقوله: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ فقد وعد بإظهار دينه على الدين كله، وكذلك وعد بالآخرة وثوابك على الطاعة والصبر وعقاب المكذبين لك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ فكل من لا يوقن بالثواب والعقاب لا يخشى عقوبة الجرائم ولا يبالي بالظلم والأذى للرسول ص وإنما يصلح الإنسان يقينه بالجزاء يوم القيامة، ولكن عليك أن تصبر لحكم ربك ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

تم بحمد الله تفسير (سورة الروم)

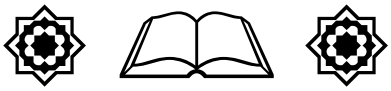

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	تفسير ﴿فليمدد بسبب إلى السماء﴾	الحج	١٥
٢	شروط النصر	الحج	٤٠
٣	الفرق بين النبي والرسول	الحج	٥٢
٤	معنى ﴿إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته﴾	الحج	٥٢
٥	رد الإمام القاسم بن محمد على رواية الغرانيق	الحج	٥٢
٦	ثمان آيات متوالية ختمت كل منها باسمين من أسماء الله الحسنى	الحج	٦٥
٧	بيان مهم حول المتعة	المؤمنون	٥-٧
٨	حكم من يسهر الليل فتفوته صلاة الفجر	المؤمنون	٩
٩	فائدة زيت الزيتون	المؤمنون	٢٠
١٠	تفسير ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة﴾	المؤمنون	٥٢
١١	رسائل المحافظة على العفاف	النور	٣٣
١٢	تفسير ﴿الله نور السماوات والأرض﴾	النور	٣٥
١٣	لفتة لطيفة في معنى إقامة الصلاة	النور	٣٦-٣٧
١٤	الطير تسبح الله بالمقال	النور	٤١
١٥	وصف جهنم بالغيظ يدل على حياتها ونطقها	الفرقان	١١ – ١٤
١٦	الدليل على أن الجهاد بالحجة جهاد في سبيل الله	الفرقان	٥١- ٥٢
١٧	قول الناصر والمنصور بالله إن التوبة ترد ما بطل من العمل	الفرقان	٧٠
١٨	الراجح في معنى إقامة الصلاة	النمل	٣
١٩	من لا يحذر الآخرة غير مؤمن	النمل	٤ – ٥
٢٠	لا يقال عن الله ﴿تكلُم﴾ بصيغة ﴿تفعَّل﴾ بل بدون ﴿تاء﴾	النمل	٨- ٩

م	الموضـــــوع	اسم السورة	رقم الآية
٢١	معنى تعليم منطق الطير	النمل	١٦
٢٢	[وجعلنا في ذريته النبوة] رد على الإنكار المطلق للعنصر	العنكبوت	٢٧
٢٣	كون الجهاد حقيقة في القتال مجازاً في غيره	العنكبوت	٦٩
٢٤	معنى [ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله] استدلال قوي	الروم	٥
٢٥	أسباب النصر مأخوذة من القرآن	الروم	٤٧
٢٦	معنى [الذين أوتوا العلم]	الروم	٥٦

محتويات الجزء الخامس

رقم السورة	السـورة المفسَّـرة	الصفحات من	الصفحات إلى
٢٢	سورة الحج	٥	٧٣
٢٣	سورة المؤمنون	٧٥	١٢٣
٢٤	سورة النور	١٢٥	١٨٥
٢٥	سورة الفرقان	١٨٧	٢٣٢
٢٦	سورة الشعراء	٢٣٣	٣٠٤
٢٧	سورة النمل	٣٠٥	٣٦٣
٢٨	سورة القصص	٣٦٥	٤٢٨
٢٩	سورة العنكبوت	٤٢٩	٤٧٤
٣٠	سورة الروم	٤٧٥	٥٢١
	فهرس بأهم المواضيع والمسائل	٥٢٢	٥٢٣
	فهرس بمحتويات المجلد	٥٢٣	

]

التيسير في التفسير

الجزء السادس

= لقمان ـ القمر -

تأليف

العالم الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

تحقيق

عبد الله بن حمود العزي محمد بن بدر الدين الحوثي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

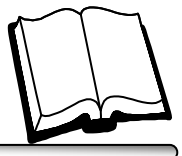

التيسير في التفسير

سورة لقمان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

ابتداء تفسير (سورة لقمان) مكية

قال الشرفي: ((أربع وثلاثون آية في العراقي والحجازي، وقيل: ثلاث في المصحف الحجازي والمكي)) انتهى. نقلت هذا لأفسر قوله: ((في العراقي)) أي في المصحف العراقي والخلاف في عدد الآيات ليس معناه الخلاف في كلام السورة وإنما الخلاف في العدد باعتبار أن بعض المصاحف يعد آية لما هو في بعض آخر بعض آية، فيزيد عدد الآيات في مصحف وينقص في آخر، مثلا يعد (الم) آية والآخر يعدها بعض آية.

ألا ترى أن من عد (الم) آية يكون عدد السورة عنده (أربعاً وثلاثين) وأن الذي جعلها بعض آية يكون عددها عنده (ثلاثاً وثلاثين) فهذا هو المراد بالخلاف في عدد بعض السور، وليس بين المصاحف خلاف في الكلام بزيادة ولا نقص فالبسملة ثابتة فيها، أي في المصاحف وإن اختلفوا أهي آية أم لا و(الم) ثابت فيها سواء عد ذلك آية أم بعض آية وقد حقق هذا في (البسملة) وفي (الم) وغيرها (صاحب الكشاف) في أوله.

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ قد رجحت فيما مضى أن قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى الحروف التي يبنى منها الكلام ومعناه إن شاء الله أن آيات الكتاب بنيت منها، فكأنه قيل : تلك مادة آيات الكتاب الحكيم تحقيقاً لوحيه بحروفه وللتعجيز به فالإسناد مجاز كقول زهير: لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

﴿٣﴾ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حال من المشار إليه مثل: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود:٧٢] فآيات الكتاب مبنية من حروف كلام العرب، حال كونها ﴿هُدًى﴾ يهتدي بها المؤمنون لمعرفة الحق إلى الصراط المستقيم، وهي لهم رحمة لأنهم بها ينجون من النار.

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا

وقوله: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ أي للمتقين فالمتقون اتقوا الله باجتناب السوء والمحسنون ضد المسيئين، ولذلك صح تفسير المحسنين بالمتقين، يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢] وتقارب نعتهم فقال تعالى:

﴿٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بل التفسير متوافق لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لا تقبلان إلا من المؤمن لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤] وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً﴾ [النساء:١٢٤] وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فصح أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قد أفاد أنهم مؤمنون باللزوم.

وقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ من صفاتهم الفارقة بينهم وبين غيرهم لأن إيقانهم بالجنة يحدث الرغبة في أسبابها وإيقانهم بالنار يحدث الخشية من عذاب الله وضمير الفصل بين المبتدأ يفصل بينهم وبين غيرهم ممن يدعي اليقين بالآخرة دعوى لا يصدقها العمل فهو يفيد أن المحسنين هم الذين يوقنون بالآخرة فالقرآن الحكيم بما فيه من الحكمة هدى ورحمة لهم ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢].

﴿٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هذا القرار للمحسنين بعد ذكر صفاتهم، مثل القرار للمتقين في أول (سورة البقرة)

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

فالمحسنون ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ لأنهم يهتدون بالكتاب الحكيم في عقائدهم وأعمالهم ومعاملاتهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالخير الظافرون برحمة الله يوم القيامة الخالدون في جنة النعيم وهذا هو الذي ينبغي أن يعمل له كل عاقل ناصح لنفسه.

﴿٦﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾: ((معناه: الغناء، والمغنيات)) انتهى.

وفي (تفسير الشرفي): ((وفي تفسير هذه الآية يقول الهادي × : هذا إخبار من الله سبحانه عن ﴿مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ولهو الحديث هو الغنا، والملاهي كلها من شطرنج أو نرد أو وتر يضرب به أو شيء من الملاهي التي حرمها الله على عباده ومعنى ﴿يَشْتَرِى﴾ فهو يختار ويؤثر ويجتبي هذا اللهو على غيره من الخير ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معناه يشتغل ويشغل بذلك نفسه وعباد ربه [في نسخة (المصابيح): وعبادة ربه ـ وهو غلط] عما سوى اللهو من سبيل الله، وسبيله فهي طاعته واتباع مرضاته فأخبر الله سبحانه أن من الناس من يؤثر الشر على الخير يطلب بذلك التلهي في أرض الله بما يصده وغيره عن سبيل الله)) انتهى.

وقوله × : ((بما يصده وغيره)) هو تفسير على قراءة أهل المدينة: (ليُضِل) بضم الياء، وتفسير ﴿يَشْتَرِى﴾ بما ذكره × ينطبق على من اشترى مغنيتين من حيث أنه اختار غناءهما وآثره وإلحاقه الشطرنج والنرد والوتر بما هو لهو الحديث؛ لأن المعنى واحد.

وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ عطف على كون القرآن الحكيم ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ وكونهم ﴿عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧] ويبين الفرق في الجزاء بين من يهتدي بكتاب الله ومن يؤثر الغناء ليضل عن سبيل الله، وقد شاع في هذا العصر الغناء وغيره من اللهو في وسائل الإعلام المختلفة وخاصة في هذا العصر، وأصله من الكفار ولا يبعد أن مهمتهم فيه هي إفساد المسلمين فالمسلمون كانوا منصورين على الكفار غالبين في كثير من الأرض فحاول إفسادهم الكفار بطرق مختلفة مثل إشاعة الربا والخمر والملاهي وبكثير من تزيين عادات الكفار التي يسمونها ثقافة حتى انحرف جمهور المسلمين عن كتاب الله وآثروا لهو الحديث وهوى النفوس فضعفوا وقوي عليهم الكفار وفي تصدير ذم الغناء في هذه السورة والتمييز بين أهله وبين المحسنين ما يشير إلى شدة فساد الغناء وأنه ليس سهلاً.

وقد وافقه الحديث الذي رواه الإمام زيد بن علي إ في (مجموعه) عن أبيه عن جده عن علي × قال: قال رسول الله ص: ((من تغنى أو غنِّي له، أو ناح أو نيح له، أو أنشد شعراً أو قرضه وهو فيه كاذب، أتاه شيطانان فيجلسان على منكبيه يضربان صدره بأعقابهما حتى يكون هو الساكت)) وروى × عن أبيه عن جده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ص: ((إياكم والغناء، فإنه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الشجر)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بجهله بسبيل الله، وقد كان ينبغي له لو استعمل عقله أن لا يحاول الصد عن سبيل الله قبل أن يعلم أنها حق أو باطل، لأنه أقدم على خطر عظيم لا يعتمد فيه إلا الجهل والهوى، وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي يتخذ سبيل الله هزؤاً، والاتخاذ أكثر وأشد من إحداث السخرية.

وكذلك على قراءة ﴿ليَضل﴾ بفتح (الياء) فليس يليق بالعاقل أن يتخذ اللهو وسيلة للضلال عن سبيل الله اعتماداً على جهله بأنها سبيل الله، وجهله بعاقبة ذلك وعلى قراءة الفتح في يتخذها يكون المعنى أنه يتخذ اللهو وسيلة ﴿ليَضل﴾ هو وليتخذ سبيل الله هزؤا وكون اللهو يستعمل وسيلة واضح لأن نفوس أهل الضلال تهوى اللهو وتكره الدين، فعند مناظرتهم بينهما يسخرون من الدين لأنه لا تهواه أنفسهم بل تنفر عنه، والغناء الذي يطربهم ويحدث لهم الفرح، فكان ذلك سبب سخريتهم من الدين لجهلهم بفائدة الدين وعاقبة الغناء.

أما على قراءة رفع ﴿يتخذ﴾ فهو معطوف على يشتري وهي لا تجعل اتخاذ سبيل الله هزءا متفرعاً على اشتراء ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ بل تجعله قريناً له قد يكون بسبب المناظرة المذكورة، وقد يكون لأي سبب آخر، فاتخاذها هزءا شأن أهل الفسق لأي سبب ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ أهل الصفتين على قراءة الرفع، وأهل اشتراء الحديث وما ترتب عليه على قراءة النصب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يهينهم وذلك مناسب لسخريتهم من سبيل الله.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي على ﴿مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ فالوعيد في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾على اشتراء ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ لما ترتب عليه وعلى اتخاذ سبيل الله هزءا على قراءة الرفع والوعيد في هذه الآية بشكل وعيد الغاضب هو وعيد على التولي عن آيات الله حين تتلى عليه، والاستكبار عنها أو عن تلاوتها عليه.

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يتناول تلاوتها عليه احتجاجاً عليه بها ويتناول تلاوتها عليه موعظة، وتخويفاً أو لغير ذلك من وجوه النصح

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ

﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ لكراهته لسماع آيات الله ولاستكباره، وقوله: ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ يتناول المستكبر عن آيات الله، فهو يرى نفسه فوق أن يتبعها أو يؤمن بها، ويتناول المستكبر عن تلاوتها عليه لأنه يرى نفسه فوق أن تتلى عليه احتجاجاً عليه أو تذكيراً له أو تخويفاً أو ترغيباً في الطاعة لله أو نحو ذلك، كل ذلك وأي ذلك وقع يأنف منه ويستكبر.

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ بيان لفرط إعراض هذا المستكبر وعدم مبالاته بآيات الله.

ومثل ذلك: قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ أي ثقلاً أو صمماً وفيه زيادة فائدة أن سبب عدم سماعه المثل به علته كونه كالأصم الذي لا يسمع أي كلام ولكن ذلك بالنسبة لتلاوة آيات الله عليه لا ضعف صوت التالي ولا مجرد إدباره عن التالي بل بغضه لسماعها حتى كأنه أصم ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ [النساء:١٣٨] لأن فيه الوعيد وأضاف إليه التهكم بالمنذرين فدل ذلك على زيادة الغضب عليهم لأن الوعيد وحده يدل على الغضب، فإذا انضاف إليه التهكم دل على أن الغضب أشد أي أن عذابهم أشد.

﴿٨-٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ * خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنهم آمنوا بآيات الله فآمنوا بما دلت عليه من وعد الله ووعيده وغير ذلك مما يجب الإيمان به، فهم ضد المذكورين في قوله تعالى:

رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا﴾ فقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ وعد الله لهم بالثواب ودل على بقاء الثواب لهم أبداً بقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لتعظيم الرغبة في الإيمان والعمل الصالح لأن ثوابهما سعادة أبدية.

وأكد تعالى وعده بقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ فهو لا يتخلف لأن الله لا يخلف الميعاد لأنه عالم بما وعد به وأنه سيكون لأنه غني عن الكذب والتغرير سبحانه وتعالى مع أنه قادر عليه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ومن عزته إكرام أوليائه، ولذلك قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] وكذلك هو من حكمته.

﴿١٠-١١﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هاتان الآيتان تردان على المشركين، وتدلان على بطلان الشرك من حيث دلتا على قدرة الله تعالى على كل شيء وعلمه بكل شيء وأنه خالق الناس وكل دابة فهو رب كل شيء لا شريك له في عباده.

ولذلك فالشرك باطل واضح البطلان لأن شركاء المشركين لم يخلقوا شيئاً باعترافهم فلا يملكون شيئاً لا من السموات والأرض والجبال ولا من الناس والدواب، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:١٣].

وكذلك الله الخالق الرازق المستحق على عباده أن يعبدوه ويشكروا أنعمه، بخلاف شركاء المشركين باعترافهم أن الله هو الذي ينزل الماء وينبت في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وأن شركاءهم لا يرزقونهم فما بقي لهم عذر في عبادتهم وهذا في المشركين من العرب أهل الأصنام بل الظالمون في ضلال مبين لأن ظلمهم يعدل بهم عن سواء السبيل لأنهم لا يخافون الله بل يتجرؤون على الضلال لأنهم لا يتمسكون بالعدل ولا يتقيدون بطلب الحق كما هو شأن كل ظالم.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي ليس لها أعمدة تمسكها حتى لا تقع على الأرض لأن الله يمسكها بقدرته حيث خلقها مستقلة بقدرته وقوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ يبين أنه تعالى خلقها مستقلة ليس لها أعمدة فلو كان لها أعمدة لرأوها كما يرون السواري وأعمدة الخيام ولو فرض أن قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قيد وأنه تعالى خلقها بأعمدة ليست من جنس الأعمدة التي ترى لكان ذلك دليلا على القدرة الخارقة لما يعرفه المخلوقون من قدرتهم مع دلالتها على أن أصنامهم العاجزة لا ينبغي لعاقل أن يجعلها أنداداً لله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ تشير إلى دلائل منها أن النباتات أزواج أي أصناف وأنواع كل صنفٍ زوجان أو أكثر مثل أزواج الحبوب، وأزواج العنب، وأزواج التمر، وأزواج الرمان، وأزواج الخوخ.. إلى غير ذلك، وذلك دليل على أن الذي أوجدها جعلها أزواجاً بقدرته وعلمه، وذلك من إنعامه على عباده:

ومنها: أن كل زوجٍ منها كريم باعتبار نفعه للعباد ولذته، فالغذاء من الحبوب والفواكه مثلاً يكون فيه حاجة الإنسان للتغذية، ومع ذلك لذته بحيث يأكله بلذة ورغبة وذلك من كرم معطيه وهي مع ذلك ذات صور جميلة وأكثرها ذات رائحة مرغوبة.

ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ

ومنها: أن كل صنف يفيد الدلائل كلها، وذلك لما فيه من دلائل القدرة والعلم والنعمة، وما في كل زوج منه من الخصائص مثل زيادة تغذية أو زيادة لذة أو خفة للبطون الضعيفة أو قوة شجرته على تحمل العطش إذا أبطأ المطر.. أو غير ذلك.

ومنها: أن الأصناف مقسمة بين البلدان فبلاد يصلح فيها التمر وبلاد يصلح فيها الرمان وغير ذلك.

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هذا إشارة إلى المذكور من قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ﴾ إلى آخر الآية ﴿فَأَرُونِى﴾ اجعلوني أراه إن كانوا خلقوا شيئاً ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي شركاء المشركين ماذا خلقوا وهم يعلمون أنهم لم يخلقوا شيئاً ولا يدعون لهم خلق شيء لأنها أصنام عاجزة فكيف تقدر على ما عجز عنه الأحياء المخلوقون ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بالشرك وغيره ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الصواب غواية عن الحق وقوله ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بين أنه ضلال.

﴿١٢﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ لقمان × قد عرف بهذه الآية وما بعدها من حكاية بعض حكمته وأغنى ذلك عن ذكر نسبه، وذكره الشرفي قال: ((ابن أخت أيوب، أو ابن خالته)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ فسره قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي..﴾ إلى آخر الآية [النحل:٦٨]. فإيتاؤه الحكمة هدايته لها لا مجرد قول ونزل ذلك منزلة القول كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن

﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ أي نفع الشكر للشاكر لأن الله تعالى غني عن طاعة المطيع ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لا يحتاج إلى شكره ولا ينقصه كفره ﴿حَمِيدٞ﴾ مستحق للحمد يحمده الملائكة والمؤمنون من غيرهم قال الشرفي ـ ونعم ما قال ـ : ((حميد مستحمد إلى خلقه، أي حقيق بأن يحمد وإن لم يحمده أحد)) انتهى.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ واذكر يا رسول الله ﴿إِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ قال الراغب: ((الوعظ: زجر مقترن بتخويف)) انتهى المراد.

﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾ الشرك بالله إثبات شريك لله في ربوبيته أو في ملكه بضم الميم أو حكمه أو في إلهيته، فأما شرك الرياء فهو خارج عنه وكذا شرك الطاعة إذا لم يكن من شرك الحكم.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ حكم على الشرك بأنه ظلم عظيم؛ لأن الله تعالى هو الخالق الرازق فالمخلوق عبده المنعَم عليه يجب عليه طاعة ربه وعبادته وشكر نعمته، فإذا جعل غير الله هو الذي يجب عليه طاعته وشكره، أو هو المستحق للاعتراف بأنه عبده أو جعل غير الله شريكاً في ذلك كان ذلك حيفاً وجوراً عظيماً.

وقد جعل بعضهم هذه الآية دليلاً على أن الظلم اسم للشرك وهو غلط فاحش، لأنه يصير معناها إن الشرك لشرك عظيم، وذلك يبطل الوعظ بها والتعليل للنهي عن الشرك وهو أيضاً مجرد دعوى.

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ

---

١٤ ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أمرناه فيهما بما فسره تعالى بقوله: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ فالشكر لله واجب قبل واجبهما لأنه الذي خلقهما وأنعم على العبد بهما وبعطفهما عليه وبما أعطياه ولذلك لا تجوز طاعتهما في معصية الله لأن حق الله على العبد أعظم.

وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ تذكير بنعمتها على الولد وبعظم نعمتها حيث ربته في بطنها وأشركته في غذائها وفي بعض قوّتها حين كان ينمو في بطنها مستمداً منها بعض أعضائه ونموّه، فكلما عظم في بطنها زادها ضعفاً على ضعف لأنه ينقص من مادة عظامها فقد حملته حملاً وهنا لها على وهن ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾ أي فطامه ﴿فِي عَامَيۡنِ﴾ ترضعه فيهما، قال الشرفي: ((أي هذه المدة غاية الرضاع)) وهو مشكل لأن هذه الآية الكريمة تفيد أنهما آخر الفطام، فالأولى أنها حكاية للواقع من الأم حين كانت تفصله في عامين.

أما قوله تعالى: ﴿وَالۡوَالِدَاتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِ..﴾ [البقرة:٢٣٣] فهي بيان لحكم الله وشرعه ومقتضاها أن يكون الفصال عقيب الحولين لا فيهما، وقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ حث على طاعة الله فيما وصى به، لأنه يحاسب العبد حين يصير إليه ويجزيه بشكره إن شكر أو كفره إن كفر.

١٥ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ﴾ أي وإن شدد الوالدان

فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ

عليك في إلزامك ﴿أَن تُشۡرِكَ﴾ بالله ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ فعدم العلم به كاف لقبح الإقدام عليه مع الجهل سواء كان الجهاد مشتقاً من الجهد بمعنى الطاقة أم المشقة فمعناه: المغالبة ومحاولة أن يغلباه حتى يضعف عن التمسك بالتوحيد والإخلاص ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ لأن حق الله عليك أعظم من حق الوالدين فاستمسك بدين الله ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ فأحسن إليهما وعاملهما بالرفق واللين في الدنيا فهي تنتهي عما قليل.

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ من رجع إليّ أي إلى الله وهذا تذكير بالقدوة في الدين أهل الرجوع إلى الله بعد الشرك لأن أكثر المنيبين إلى الله كانوا مشركين فبالأولى أن لا تشرك بعد الإسلام ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مرجعك ومرجع والديك ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ فأعلمكم أو فأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ يعني سبحانه وتعالى أنه عليم بما كانوا يعملون لا ينسى منه مثقال ذرة، فإذا كانوا قد نسوه فهو ينبئهم ويحاسبهم ويجازيهم يوم يفر الولد منهما ويفران منه وهذه الآية تبين للولد أنّ حق الوالدين عليه في الشكر لا يجوز طاعتهما في الشرك بل الواجب طاعة الله والإعداد للرجوع إليه فهو الذي ثوابه الجنة، وعقابه النار بخلاف الوالدين بل هما محاسبان ومجزيان وهذه الجملة في الوصية بالوالدين وبالشكر لله ثم لهما تخللت بين حكاية كلام لقمان × لمناسبة عطفه على ابنه، وتوصيته له بالتوحيد وبما ينبغي له أن يتبعه فيه.

١٦ ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ إنها إن تقع سيئة أو حسنة ﴿مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ﴾ هذا على قراءة الرفع لـ﴿مثقال﴾ تك مضارع كان وأصله تكن وأما على قراءة نصب ﴿مِثۡقَال﴾ فقال في (الكشاف):

مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى

((الضمير للهنة من الإساءة أو الإحسان)) انتهى، فهي ضمير مبهم يفسره ما بعده مثل ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] قال في (الكشاف): ((ومن قرأ بالرفع ـ أي رفع مثقال ـ فالضمير للقصة)) انتهى، وضمير القصة في معنى ضمير الشأن إلا أن ضمير القصة مؤنث وضمير الشأن مذكر.

وقوله ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ﴾ أي الحسنة أو السيئة المفهومة من السياق وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧] فإن كانت ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ حجر عظيم تعبير عن خفائها بكونها ﴿فِى صَخْرَةٍ﴾ لا سبيل للعلم بها إلا لله علام الغيوب ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فإذا كانت على حقارتها في السموات أي ظرفها السموات، فإذا **قيل**: أين هي؟

قيل: في السموات فهي خفية لاتساع السموات وكذا قوله: ﴿أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفها الأرض ذات الطول والعرض ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة إذا أحضرت الأعمال علمت كل نفس ما أحضرت ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ [آل عمران:٣٠] فالإتيان بها إحضارها للحساب أي إظهارها في الكتاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ لطيف لما يشاء لا يصعب عليه شيء وإن صغر أو خفي خبير عالم بباطن كل شيء وخُبره.

﴿١٧﴾ ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ هذا التعليم الثالث من لقمان لابنه أمره بإقامة الصلاة أي إتمامها بأركانها وشروطها في دينه وعلّمه وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهما من النصح لله والحب له والرحمة بعباده وأمره بالصبر على ما أصابه عموماً سواء كان بسبب الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، أو بأي سبب.

فمن الصبر: الثبات على الدين، وإن أوذي في الله، ومن الصبر: الصبر على الخروج من البلد لحفظ الدين، ومن الصبر: الرضى بالبلوى من الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦] وقد مر تفسيرها.

ومن الصبر أن لا يترك ما شرع فيه من أمر بالمعروف أو نهي عن المنكر لدفع أذية المأمور أو المنهي أو غيرهما فأما تركهما لخوف الأذية فهو ترك للصبر من حيث أنه ترك لسبب سببه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي من معزومها، فإن كان المراد مما عزمه الله على عباده فالمعنى من واجب الأمور، وإن كان المراد من فوائد العزم وقوة الإرادة كما هو شأن أولى العزم فالمعنى من ثمرات عزم الأمور (من) في التفسير الأول للتبعيض، وفي الثاني للابتداء، وعزم الأمور في التفسير الثاني العزم فيها.

وفي قوله ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ إما إفادة أنه واجب أي إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على المصيبات فيفعل لوجوبه وإما إفادة أنه مستطاع وإن ثقل على العبد إنما يحتاج فيه إلى قوة الإرادة وثبات العزم فعلى العبد أن يوطن نفسه على العزم.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ قال في (الصحاح): ((الصَّعَر: الميل في الخد خاصة، وقد صعَّر خده وصاعره أي أماله من الكِبر)) انتهى المراد. والخد: شق الوجه الأيمن، وشقة الأيسر، كل واحد خد، وفي (تفسير الإمام زيد) ((معناه: تعرض عنهم تكبراً)).

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ يتناول الكبير والصغير والقوي والضعيف، واللام بمعنى أن شق الوجه إذا صعره يكون موليا لمن يكلمه وموجه إليه ومثل المكلم من هو بمنزلته.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ قال في (الصحاح): ((المرح: شدة الفَرَح والنشاط ـ ثم قال ـ وفرس ممراح ومَرُوح: أي نشيط ـ ثم قال ـ وقال الأصمعي في قول أبي ذؤيب:

مصـــفَّقَةٌ مصـــفَّاة عقـــار شـــئامية إذا جُليـــت مَـــرُوح

أي لها مراح في الرأس وسَورة يمرَح من يشربها)) انتهى.

وهذا البيت يُذَكِّر بقول الصاحب بن عبّاد في أرجوزته :

يَمـــرَح مـــن تُـــروى لـــه مـــن غـــير ســـكر وتَمـــل

وهو يفيد: أن السكران يمرح، أي يفرح فرحاً شديداً وينشط في سكره وظاهر (الصحاح): أنهما معنيان شدة الفرح والنشاط، ولم يذكر الراغب إلا شدة الفرح والتوسع فيه.

أما في (لسان العرب) فقال: ((المرح: شدة الفرح والنشاط حتى يجاوز قدره ـ ثم قال ـ : وقيل: المرح التبختر والاختيال وفي التنـزيل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متبختراً مختالاً)) انتهى المراد.

وهذا تفسير المشي مرحاً سواء كان المرح شدة الفرح أو إفراط النشاط لأنه يبعث على المشي مرحاً، سواء كان مرحاً بمعنى الحال أي ذا مرح ومرِحاً ـ بكسر الراء ـ أو كان بمعنى لأجل المرَح، لأنه إذا كان الباعث على المشي شدة الفرح، أو إفراط النشاط كان الماشي متبختراً، وهي مشية المتكبر المعجب بنفسه.

وقد يجاب عن هذا بأن مرَحا مصدر، فالظاهر أنه مفعول مطلق وذلك دليل لمن فسر المرح بالتبختر لأنه من صفة المشي ولكن لا يدل على تفسيره بمجموع التبختر والاختيال، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((يعنى بَطَراً وكبرا)) انتهى.

مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

قال في (الصحاح): ((البطر: الأشر وهو شدة الْمَرَح وقد بطر بالكسر يبطر وأبطره المال)) انتهى، وحكى الشرفي: ((عن الهادي × أنه قال: فهو: لا تمش في الأرض أشراً وبطراً ساهياً لا هياً)) انتهى.

فظهر: أن تفسير الإمام زيد × مقارب لتفسير غيره للمرح إلا من فسره بالتبختر ووافقهم في ذكرهم الاختيال بقوله × وكبراً ومثله تفسير الشرفي، فإنه قال: ((﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي مختالاً)) انتهى.

ولا بد أن المرح من صفة المشي لأنه لو كان مجرد الكبر لما بقي لذكر المشي في الأرض فائدة، والتفسير بشدة الفرح له علاقة بالمشي من حيث أنه يستدعي التبختر فيكون مشيه معيباً وشدة الفرح قد اتفق عليه أكثر التفاسير ومنها التفسير بالبطر ولا بد من تفسير المرح بما يجعل المشي معيباً فهو المعبر عن الكبر والإعجاب بالنفس.

فأما قوله: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلعله إشارة إلى صغره بالنظر إلى نسبته من ظهر الأرض وذلك يقلل مرحه كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ..﴾ [الإسراء:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي كل متكبر كثير الفخر بأي سبب يفتخر به، والمختال مناسب لقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ ولقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أما الفخر الكثير فهو من شأن صاحب الكبر والإعجاب بنفسه فهو أيضا مناسب لهما.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ وما بعده هو من توصية لقمان ×

نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا

والقصد في المشي: التوسط بين الإسراع والتثاقل، ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ بترك رفعه رفعاً شديداً.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ وإنكاره بسبب شدته على سمع الحاضر لديه، وهذا في غالب الأحوال، حيث لا حاجة لشدة رفع الصوت، فأما مع الحاجة فيحسن، مثل نداء العباس (يوم حنين): ياأصحاب الشجرة، للذين بايعوا رسول الله ص في الحديبية تحت الشجرة وكانوا في حنين قد فروا فلما سمعوا النداء رجعوا وقاتلوا، وكذلك الأذان للصلاة حيث لا يوجد مكبر الصوت والأصل رفع الصوت بالأذان وكذلك في الخطبة لقوة الإنذار والتخويف عند الحاجة.

وقوله ﴿مِن﴾ للتبعيض ومثل ما قلت في رفع الصوت يصح في سرعة المشي للحاجة في طلب أو هرب وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾: ((معناه: تواضع فيه)) انتهى، فالإسراع عند الحاجة لا ينافي التواضع.

وقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أراد أن لا يرفع صوته كما ترفع الحمير وصور له شناعة الرفع الشديد لغير الحاجة، فأما الحمار فهو يحتاجه لأنه إذا ضاع على صاحبه في مرتع دله عليه صوته، وكذا إذا أخافه سبع نهق فنبه صاحبه ليدفع عنه، وكذا ينبهه ليعلفه أو يسقيه، وقد يكون في مكان مغلق ليس فيه منفذ فلولا قوّة صوته لما سمعه صاحبه، وغير ذلك من فوائده وقد أعطاه أحكم الحاكمين فلا يذم عليه ولأنه لا يعقل بحيث لا ينهق إلا في الحالات التي يحتاج فيها إلى الصوت الرفيع.

هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ

﴿٢٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ **﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ خطاب إما عام للناس كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ..﴾** [الحج:٣] **وإما خاص للكفار المشار إليهم في أول السورة.**

والأول أرجح: أن الله أنعم عليكم بتسخير ما في السموات لمنافعكم، فالشمس نفعها ظاهر والقمر ينتفع به الساري وفيه حساب الشهور والسنين، والنجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، والجو للمطر، فالكل مسخر للإنسان يجري على ما سخره الله بحساب دقيق، فهو دليل على الله المنعم به على الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾ أتمها وجعلها شاملة لمواضعها واسعة قال في (الصحاح): ((وسبغت النِّعمة اتسعت وأسبغ الله عليه النعمة أي أتمها وإسباغ الوضوء إتمامه)) انتهى.

وقال الراغب: ((درع سابغ: تام واسع، قال الله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ..﴾ [سبأ:١١] **وعنه استعير إسباغ الوضوء وإسباغ النِّعم، قال: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ﴾)) انتهى.**

وفي (أساس البلاغة): ((ثوب سابغ، وخرج وعليه سابغة، وهو صَنَع السوابغ.. ـ إلى قوله ـ: وكميّ مسبغ عليه سابغة ومن المجاز أسبغ الله علينا النعم..)) الخ.

﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا

وقوله تعالى: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ كالمشاهدات من الماء والطعام والثياب والبيوت ﴿وَبَاطِنَةً﴾ خفية تدل عليها منافعها كالحواس والقوى الباطنة وكدفع المصائب مثل الرعب في قلوب الأعداء والنعم لها أصول وفروع ولا يطاق حصرها وهي تدل على المنعم وعلى قدرته وعلمه وكرمه، وغير ذلك من صفاته تعالى.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ كالملاحدة الجاحدين للخالق، وكالجاحدين لقدرة الله تعالى على البعث ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس:٧٨] فهذا من جداله في الله ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ يستفيده بالنظر في آيات الله ﴿وَلَا هُدٗى﴾ من وحي الله وإلهامه ﴿وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ من كتب الله المنزلة على النبئين التي فيها النور لبصائرهم، فهو يجادل في الله بغير دليل لا عقلي ولا سمعي، مع أن دلائل الله نعمه على عباده وفي أنفسهم دلائل كافية لمن ينظر ويفكر والدلائل على الله لا تحصى ولكنهم يعرضون عنها.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فهو الدليل الثابت بالعقل وفيه الهدى والنور للبصائر ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿بَلْ نَتَّبِعُ﴾ إضراب عما دُعُوا إليه إلى التعصب للآباء ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان ذلك طاعة للشيطان يدعوهم بتزيين الشرك وغيره من أسباب النار ليورطهم في عذاب السعير، هذا سؤال لهم وإجابتهم نعم فعاقبتهم عذاب السعير وذلك هو الخسران المبين إن لم يتوبوا في دار الخيار.

مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ

﴿٢٣﴾ ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ﴾ عطف على وعيد المتبعين لما وجدوا عليه آباءهم وهم مشركون ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ﴾ يخلصه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ توجها إلى الله ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ فلا تكفي سلامتهم من الشرك بل لا بد مع ذلك من الإحسان وقد مر تفسيره عند ذكره في أول هذه السورة ﴿فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ تمثيل بمعنى فقد استمسك بسبب النجاة والعروة الوثقى تكون في الحبل ونحوه في شكل دائرة.

و ﴿ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ التي لا تنفصم ولا تنقطع بمسكها وهذا لأنه تمسك بإخلاص عبادته لله وإحسانه والسبيل إلى ذلك التمسك بالثقلين كتاب الله وعترة رسوله ص ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ ترجع ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ فالأمر فيها لله وحده وعاقبة الأمور ثوابها أو عقابها، فأمرها إليه وحده لا شريك له، ولذلك فهو يثيب ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ..﴾ [البقرة:١١٢].

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓ﴾ لا تخف ضعف دين الله وغلبة أعداء الله حتى يحزنك كفر من كفر، لأن الله تعالى سيظهر دينه ويعاقب أعداءه ﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ إلى الله العلي العظيم العزيز الحكيم مرجعهم يوم القيامة لا إلى غيره ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ فنعلمهم يوم الحساب ﴿بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾ في الدنيا لأنه لم يخف علينا ولا نسينا منه شيئاً.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوۡ أَنَّمَا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ﴾ بأخفى الأعمال الذي تخفيه ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ من العقائد ومن النيات وغير ذلك، وهو مكتوم في الصدور لا يتجاوزها إلى الألسنة أو غيرها فلا موقع لها إلا الصدور فهو تعالى عليم بها وسوف يحاسبهم بها بعد أن ﴿نُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا ﴿قَلِيلًا﴾ في محل الاختبار والمتاع نفع قليل وقد وصف بأنه قليل فهو أقل من القليل، وذلك لأن الدنيا تفنى فتصير كأن لم تكن كأنما كانت حلماً ثم الآخرة باقية يقابل الساعة في الدنيا أكثر من آلاف السنين في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ﴾ [الرعد:٢٦] فكيف لا يكون متاع الدنيا قليلاً وعاقبته الخلود في النار.

﴿ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ﴾ نلجئهم ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ولعل هذا الاضطرار يكون بأن يساقوا إلى جهنم سوقاً عنيفاً أو بكثرة تخزيتهم على رؤوس أهل المحشر من الملائكة وغيرهم وكثرة الاحتجاج عليهم والتقريع لهم ببيان قبح ما قدموه من الجرائم وما تجرءوا عليه من كفر نِعم ربهم التي لا تحصى، وما عاملوا به ربهم الكريم العلي العظيم الغني الحميد سبحانه وتعالى حتى يرغبوا في التخلص من ذلك الموقف ولو إلى النار نعوذ بالله منها، فاضطرارهم إليها عذاب يخزيهم قبل عذاب جهنم، ولعل وصف عذابها بالغلظة لأن عليها ملائكة غلاظاً شداداً، ولأنه ليس لله فيها رحمة إنما هي دار غلظة وغضب، فلذلك وصف عذابها بالغلظة كما وصفت عيشة أهل الجنة بأنها عيشة راضية.

﴿٢٥﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فهم معترفون له بأنه خالقها فهو ربها المالك لها،

فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ

وأصنامهم لم تخلق شيئا فلا تملك شيئاً ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ على اعتراف هؤلاء المشركين بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لأنهم لا يتفكرون فلا يحصل لهم علم بأن الله ليس له ند وأن ما يعبدون من دونه لا يملكون شيئاً لأنهم لا يخلُقون.

﴿٢٦﴾ ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ ﴿لله مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنه خالقهم فهو ربهم لا يستحق غيره عبادة لأن العبادة خضوع يعبر عن عبودية الخاضع لمن يخضع له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ الغني عن كل شيء ومنه عبادة العباد وكل ما سواه محتاج إلى الله وهو الحميد المستحق للحمد والشكر سواء حمدوه أم لم يحمدوه فلا نقص عليه من كفرهم، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم:٨].

لكن هنا الحصر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ إشارة إلى أن غيره ليس غنياً على الإطلاق ولا حميد على الإطلاق، فكل من سواه محتاج فلا يستحق العبادة، لأنه عبد ضعيف، ولذلك قال في عيسى وأمه إ : ﴿كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] احتجاجاً على من يعبدهما، فهما محتاجان ضعيفان فهما مخلوقان مملوكان.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ لو بريت كل قطعة من كل شجرة فجعلت كل قطعة قلماً

فكم تكون الشجرة الواحدة أقلاماً؟!! وهذا يشير إلى كثرة ما يكتب بها وإلى كثرة الكاتبين بها ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ وهي مداد فكتبت به كلمات الله وهي آياته القولية وآياته الكونية الدالة عليه المسبحة بحمده الدالة على سعة علمه وإحاطته وعظم قدرته وقهره لكل شيء فكتب كل فرد من ذلك لنفد المداد قبل أن تنفد كلمات الله، لأن كل جزء من الكون آية واسمها أكثر من الجزء نفسه والمداد من الآيات والأقلام منها وأجزاء الأقلام حتى الخليَّة الواحدة آية وحتى أجزاء قطرات البحار آيات، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف:١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ عزيز غالب لا ينال حكيم يفعل ما هو حكمة وصواب ولا يفعل خلاف ذلك.

والراجح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ﴾: أن الضمير لما في الأرض من شجرة على فرض أنه أقلام والبحر مداده.

قال في (لسان العرب): ((وأمَدّ الدواة ومَدّها: زاد في مائها ونقسها [أي ومدادها] ومدّها وأمدها جعل فيها مدادا وكذلك مَدَّ القلم وأمَدّه)) انتهى المراد، وهو يستفاد من غير (لسان العرب) إلا أنه صرح بالقلم وهو المراد.

فصح أن الضمير في يمده لما في الأرض من شجرة وهو أقلام وفي هذا فائدتان:

الأولى: التصريح بمد البحر وإفادة أنه مداد في نفسه بخلاف جعل الضمير للبحر.

الثانية: فائدة قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ كأن تفسيره مسكوتاً عنه، وكنت فسرته بقولي من ورائه، لأنا إن فسرناه من بعده أي من بعد ذهاب البحر كان اعتبار السبعة الأبحر مدداً له وهو معدوم لا يصح في اللغة،

وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ تَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى

ولكن تفسيره بقولي من ورائه لم أقتنع به؛ لأنه قليل الفائدة، أي ذكر من أين تمد البحر بل هو لا فائدة له، فالحمد لله الذي ألهمني جعل الضمير لما هو أقلام فاتضح به معنى من بعده، فقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ أي من بعد ذهاب البحر سبعة أبحر فهو قد أفاد أنها مداد تمد الأقلام من بعد البحر.

ألا ترى أنك لو قلت: مشى فلان من بعده فلان، أو شرب زيد من بعده عمرو لفهم اشتراكهما في المشي وفي الشرب، وقد قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَاهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِنۡ وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١] على قراءة رفع ﴿يَعۡقُوبُ﴾ فقد أفاد أنه مبشر به، ولذلك قرئ بالنصب لأنها بشرت بهما.

قال الشرفي: ((قال الحسين بن القاسم × : وهذا القرآن جزء من كلمات الله نزّله إلى عباده رحمة منه لهم وعائدة بالفضل عليهم فليس يدرك باطن أغواره ولا يحاط بعجائب أسراره ـ في نسخة (المصابيح): إمراره وهو غلط واضح ـ لأن تحت كل كلمة كلام متصل لا يحصى وعجائب عظيمة لا تستقصى فنحن على كل حال مقصرون عن أغوار بحوره منحسرون عن غايات أموره إلا أنا سنستجهد بقدر طاقتنا ونتكلم على قدر مبلغ عقولنا)) انتهى، ومثل أول هذا الكلام كلام الإمام القاسم × في معاني القرآن.

﴿٢٨﴾ ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ﴾ أيها الناس ﴿وَلَا بَعۡثُكُمۡ﴾ بعد الموت ﴿إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍ﴾ خلقها الله ـ عزَّ وجل ـ ويبعثها أي الكل مثل الفرد في قدرة الله تعالى على خلقه وعلى بعثه وفي علمه به وتدبير أموره وغير ذلك من علمه بأحواله وأفعاله وأقواله وأسراره في ضميره.. وغير ذلك.

وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي

فلا بد من بعثكم، لأن الله تعالى يسمع ما تقولون ويرى ما تفعلون من حق أو باطل أو عدل أو ظلم أو إيمان أو كفر وليس في الحكمة أن يجعل المسلمين كالمجرمين والذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمسيء فلا بد من بعثكم ليجزي الله كل نفس ما كسبت.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فتبدأ ظلمة الليل خلال ضوء النهار ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ فيبدأ ضوء النهار خلال ظلمة الليل.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾ تجري في بروجها ﴿وَٱلۡقَمَرَ﴾ كذلك ﴿كُلٌّ﴾ من الليل والنهار والشمس والقمر ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ أجله الله له بقدرته وعلمه ورحمته وفضله لأنها غير موجودة لذاتها فلا تبقى إلا بإبقاء الله لها في آجالها التي سماها لها.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء:٣٣] وفي هذا الزمان اتضح أن الليل والنهار يجريان على الأرض، ولذلك يكون بعض الوقت ليلاً عندنا وهو في (أمريكا) نهار، والعكس حين يكون بعض الوقت نهاراً عندنا في (اليمن).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لأنه بكل شيء عليم، وقد دل على ذلك بآياته السمعية والعقلية فهو خبير بما نعمل عليم به وبخبره ومقدار حسنه أو قبحه ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الآيات ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ القدير العليم

ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا

المدبر لأمور ما خلق ﴿هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا ريب فيه كما دلت عليه هذه الآيات ﴿وَأَنَّ مَا تَدۡعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي من دون الله ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ ليس إلها ولا ربا ولا مدبرا للأمور وإنما عبادته باطل مبين، و ذلك بـ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ القاهر فوق عباده الغالب على أمره ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ المستحق للعبادة والتعظيم لا أصنامهم العاجزة الحقيرة فالله هو الحق وقوله الحق ووعده الحق.

﴿٣١﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفائن ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ لأنه سخر البحر والرياح التي تسوق السفائن على البحر فيسافر بها للتجارة ونقل حاجات الناس من بلد إلى بلد بنعمة الله على عباده فنعمته تعالى بتسخير البحر والرياح هي التي لأجلها أمكن السفر في الماضي، وفي الحال سخره بتعليمه للإنسان استعمال الديزل أو نحوه من المحروقات في إجراء السفائن وغيرها.

كل ذلك ﴿بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ﴾ وتيسيره لمواد السفائن ﴿لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ الدالة على أنه الخالق المدبر لأمور عباده ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ جري الفلك، أو هو وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتسخير الشمس والقمر ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ فالصبار على بلاء الله وعلى طاعته والشكور على نعم الله عليه ومنها نعمة الهدى بآيات الله هو الذي يتفكر في آيات الله ويتفهم كتابه فيعرف دلائل آيات الله.

نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ﴾ غشى أهل الفُلك الموج الماء الكثير الذي يتموج بعواصف الرياح ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ حين يغشى أصحاب السفينة فيطلع على جانب السفينة أو على جوانبها من كل مكان، فحينئذ خافوا الغرق خوفاً شديداً، لأنهم في البحر إذا كثر الماء في السفينة أو امتلأت هوت في الماء وغرق أهلها، فلذلك اضطروا إلى الدعاء لله وحده ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي المعاملة بالطاعة والدعاء ونسوا إذا كانوا مشركين نسوا شركاءهم لعلمهم أنها لا تنقذهم ولا ينقذهم إلا الله إن شاء فلذلك دعوا الله ونسوا ما كانوا به يشركون.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ﴾ أنقذهم فخرجوا من البحر وصاروا في البر ﴿فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ﴾ آخذ لقصد السبيل تارك للعدول عنه إلى الشرك والجرائم ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ كل غدّار كفور لنعم الله عليه.

قال الشرفي: ((قال الحسين بن القاسم × : ختار: أي غدار خسيس لا وفاء له بعهده ولا تمام له في عقده قال الشاعر:

وبالملك الرحمن أحلف صادقاً وأقسم أني ما خترت من العهد

وقال آخر:

وما أنا بالخَبّ الْخَتُور ولا الذي إذا استودع الأسرار يوماً أذاعها))

انتهى.

مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ﷺ): ((﴿كُلُّ خَتَّارٍ﴾ معناه: غدار)). انتهى، وقال الراغب: ((وكفر النعمة سترها بترك أداء شكرها ثم قال: والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً والكفر في ـ جحود ـ الدين أكثر والكفور فيهما جميعاً ـ ثم قال ـ : ولما كان الكفران يقتضي جحود النعمة صار يستعمل في الجحود)) انتهى، وهذا يدل على أن الأصل في معنى الكفر كفر النعمة ـ ثم قال الراغب ـ : ((والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو ثلاثتها)) انتهى.

﴿٣٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ بطاعته والتوبة إليه ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ هو يوم القيامة يوم الجزاء لكل نفس بما كسبت ﴿لَّا يَجْزِي﴾ أي لا يجزي فيه ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ قال الشرفي: ((قال في (البرهان): يقال: جزيت عنك أي أغنيت عنك، والثاني لا يحمل قال الداعي:

وأجزيت أمر العالمين ولم يكن ليُجزي إلا كامل وابن كامل))

انتهى

قلت: البيت شاهد في الإجزاء وهو غير الجزاء، لأن أجزى فيه زيادة الهمزة ولعل الإمام (صاحب البرهان) يرى أن المعنى لا يختلف بالهمزة إلا في التعدية. قال الشرفي: ((وقال الحسين بن القاسم × : معنى ﴿لَّا يَجْزِي﴾ لا يفدي عنه العذاب، قال الله سبحانه ﴿فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥] أي فداء مثله)) انتهى المراد.

وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

وفي (الصحاح): ((وجزى عنّي هذا الأمر أي قضى، ومنه قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨] انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿لَّا تَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ يعني: لا يغني)) انتهى، وهذا الذي صدره في (البرهان) والمعاني متقاربة والإغناء: هو كفاية أحدهم للآخر ما أهمه قال تعالى حاكيا: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر:٤٧].

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فقد وعد عباده بالجزاء يوم الحساب لتجزى كل نفس بما تسعى، فالتجاهل به أو جحده أو الغفلة عنه ليس من شأن العاقل لأنه خطر أعظم من كل خطر ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وقد غرت أمما أحبوا العاجلة وتركوا الآخرة ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ والغرور ـ بفتح الغين ـ كثير الغَر لغيره، لأن فعولاً من أمثلة المبالغة مثل ضروب، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: الشيطان)) انتهى.

وغُروره بالله: أن يمني الإنسان المغفرة من الله والرحمة أو يزين له المعصية أو يملأ قلبه غيظاً وغضباً بوسواسه وإغراءه أو أي وسيلة يخدعه بها، قال في (الصحاح): ((وغَرّه يغره غُرورا خدعه، يقال: ما غرّك بفلان أي كيف اجترأت عليه ومن غرّك من فلان أي من أوطاك عشوة فيه)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((غرّه يغرّه غَراً وغروراً ـ ثم قال ـ : قال الأصمعي: ما غرّك بفلان أي كيف اجترأت عليه)).

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ تعليل للتحذير الماضي، لأن الله يعلم كل خفي،

حتى أنه يعلم متى الساعة أي القيامة، وهو الذي أعلم الناس أنها ستكون، وأعلمهم ما يكون فيها من الحساب والثواب، فعلمها شامل لكل شيء من أمرها عنده تعالى.

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وذلك يدل على علمه بكل دقيق، لأن الغيث ينزل بقدر لا يسرع حتى يضر ولا يتفرق حتى تبطل الإغاثة به، وكذلك ينزل كأنه من غربال وكذلك يكون عذباً صالحاً للشرب وسقي المراتع والحرث، فصانع قطراته ومدبر إنزالها للإغاثة عليم بكل خفي وكل صغير وكبير.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلاَ تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت:٤٧] وعلمه بما في الأرحام شامل له ولكل أوصافه قال الشرفي: ((﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى ناقص أم تام أمعمر أم لا أشقي أم سعيد)) انتهى.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ لأنه مستقبل ومحاط بقدرة الله وتدبيره لأموره فلو عزم على شيء فإنه لا يعلم العبد أيفعله أم لا، ولذلك يقول القائل: إن شاء الله وشرع لنا ذلك فلا يعلم الغيب مخلوق إنما الغيب لله ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ لأن هذا غيب لا يعلمه إلا الله علام الغيوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأسراركم ولا من غير ذلك ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم خُبر كل شيء، وما بطن من أمره قال تعالى حاكياً: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف:٦٨] فعلينا أن نراقب الله تعالى في كل تصرف وفي كل فعل لا نعلم أحق هو أم باطل، وفي كل ترك كذلك كما قال أمير المؤمنين × : ((وامسك عن طريق إذا خفت ضلالته)) وقال × : ((من التوفيق الوقوف عند الحيرة)) وبالله التوفيق.

تم بحمد الله تحرير ما تيسر من تفسير (سورة لقمان)

والحمد لله على كل حال

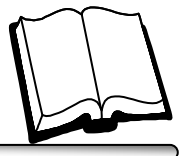

التيسير في التفسير

سورة السجدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى

ابتداء تفسير سورة الجرز (الم السجدة) وأكثرها (مكي)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ﴾ قد مر في أول (سورة البقرة) وغيرها ما يكفي في شأن هذه الأحرف.

﴿٢﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الراجح: أن (تنزيل) مبتدأ أخبر عنه تعالى بقوله: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما في (سورة الزمر) و(غافر) و(الجاثية) و(الأحقاف) في الإخبار بأن تنزيل الكتاب من الله.

و الراجح ـ أيضاً ـ أن قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر أول ينفي عن القرآن كونه مما يرتاب فيه أي يشك ويقلق منه أي ليس من شأنه ذلك، لأنه حق واضح لمن نظر في الدليل على ذلك، وهو أنه كلام الله أصدق القائلين، فهو كله صدق وحق.

ثم تلاه الإخبار بأنه ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم الذي له الحكم وحده عليهم والذي هو رحيم بهم والذي هو عالم بحاجتهم إلى هداه والذي يريد أن يعبدوه وأن يدعوهم إلى الحذر من إضلال إبليس وذريته وأن يقيم عليهم الحجة به في إثبات رسالة محمد ص وفي الإنذار بالآخرة وما فيها من الجزاء وبغير ذلك لأنه ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي يرجعون إليه يوم الدين، فأنزل القرآن بيانا للناس ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٨].

﴿٣﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ إضراب إلى التعجيب من القائلين

سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى

افتراه مع أنه الحق المبين، بل هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي بل القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الذي أنزله عليك يا محمد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ أم القرى ومن حولها ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ينذرهم عذاب الآخرة فهم في أشد الحاجة إلى هذا القرآن لينقذهم من النار لتنذرهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلال مبين هم فيه، أما (لعل) فيمكن أنها راجعة إلى قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ أي راجياً أن يهتدوا.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ليس شركاؤهم فعلوا شيئاً من الخلق ولا من تدبير أمر العالَم ومن فيه بل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من النيرات أو من النيرات وغيرها ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي في مقدار ستة أيام يبين سرعة خلقه لذلك ليبين قدرته وأنه لا ند له، وذلك يبطل قول من زعم أنها أيام من أيام الله بزعمه وأن أيام الله كل يوم منه مقداره ألف سنة، أو نحو هذا الكلام.

وهذا خلاف ما تفهمه العرب من قوله تعالى: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولا نسلم أن ما ذكره هو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وقوله تعالى في هذه السورة ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ كما يأتي بيانه إن شاء الله.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بمعنى: ثم دبر أمر الخلق أو ثم تولى تدبير أمر ما خلق أو ثم أمر بما شاء أو نحو هذا مما هو شأن الملك وولاية التصرف، لأنه لما خلق كان إليه الأمر، لأنه له الخلق والأمر، كما قال تعالى في (سورة الأعراف) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [آية ٥٤].

يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ﴾ الولي: الذي إليه تدبير أمورهم وحياتهم وموتهم وأرزاقهم وغير ذلك، فهو الله وحده وليّ ذلك ليس لهم من دونه ولي فلا معنى لعبادة غيره بالدعاء والرجاء ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ أي ما لكم من دونه من شفيع بمعنى ما لكم من شفيع له الحق في أن يشفع أو يستطيع أن يشفع ولو بدون رضى من الله بالشفاعة ولا إذن، فهذا معنى ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾.

بل لله الشفاعة جميعاً فلا تكون إلا برضاه وإذنه، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] فإذا كان أمر الشفاعة إلى الله وحده لا شريك له فلا معنى لطلبها من غيره أو رجاها إلا: بإذنه ١ـ لمن يشاء ٢ـ ورضاه ـ ٣، أي من بعد تمام الشروط الثلاثة، فرجاؤها من دون ذلك أمل خائب، ولذلك فلا معنى لعبادتهم لشركائهم وقولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله بل ذلك من ضلالهم المبين، ولذلك قال تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ سؤال توبيخ لأنه قد ذكرهم بما كفى.

۝٥ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ من أموره تعالى يقضيه بحكمة في عاقبته يقضيه وينزل به ملائكة، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢].

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ الأمر، وأفاد إنزاله قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ولكن في الكلام إيجاز والذي يعرج إليه هو ما تعرج به الملائكة في

رجوعها من الأرض إلى السماء من أمر، مثل طاعتها لله في رجوعها، ومثل إخبارها بما شاء سبحانه ونقلها له إلى السماء من الأرض كإخبارهم بتبليغ ما بلغوا، وإخبارهم بأن الرسول من الناس قد بلغ ما أرسل به، وإخبارهم بمن آمن، أو بأن بعضهم قد آمنوا بالرسول، أو نحو ذلك من الأمر الذي أمروا أن يعرجوا به والنزول والعروج ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ بالنسبة إلى النزول والعروج ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ لأنه اتسع لبلوغ مسافة خمسمائة في النزول ومثلها في الصعود أي الطلوع إلى السماء.

ولو كان المراد أنه ينزل ويطلع في ألف سنة، لكفى أن يقول: في ألف سنة مما تعدون مع أن جبريل × ينزل على الرسول ويرجع إلى السماء مرات عديدة في مدة رسالة الرسول من الناس ولم يكن مدة رسالة محمد ص إلا نحو ثلاث وعشرين فلو كان جبريل × لا يرجع إلا بعد نحو ألف سنة لمكث في الأرض إلى ذلك التاريخ من أول ما نزل، وهذا لا نعلم أحداً يقوله، مع أن الله تعالى قد أفاد تنزل الملائكة من كل أمر في ليلة القدر كل عام فلا بد أنهم يرجعون في كل عام وإلا امتلأت الأرض بالملائكة، وأيضا قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ [الإسراء:٩٥].

فلو كانوا باقين في الأرض ألف سنة لنزل لهم رسول على مقتضى معنى هذه الآية، وإن كان بقاؤهم في الأرض لأمر الله لهم بالبقاء لا لأنهم يمشون مطمئنين، لأن المعنى واحد هو طول غيابهم عن السماء، لأن عمر الواحد من أمة محمد ص أقل من ألف سنة واحتاجوا إلى رسول، فكيف لا يحتاج إليه من يمكث في الأرض نحو ألف سنة لأجل ما يستجد من الأمور لأن الشرائع تختلف باختلاف الأزمان والأحوال.

فظهر: أن ليس المراد إلا بيان سرعة نزول الأمر ورجوعه في يوم واحد وأن تقديره بألف سنة إنما هو تقدير معناه باعتبار ما وقع فيه.

قال الشرفي: ((من ذلك قول الهادي × ـ حيث قال ـ : معنى ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو ينفذ ما يريد من الأمور من السماء إلى الأرض مع جبريل × إلى أنبيائه (عليهم السلام) في أرضه ثم يعرج جبريل إليه من بعد إنفاذ ما أمر به في مقدار يوم فيقطع في مقدار ذلك اليوم ما لو كان مبسوطاً في الأرض لم يقطعه العالمون إلا في مسير ألف سنة ومعنى يعرج، فهو يصير إلى الموضع الذي بعث منه، وهو محل جبريل × وموضعه الذي يعرج إليه جبريل راجعاً)) انتهى.

وجبريل × يعرج في طاعة ربه، وإلى حيث ينتظر ما يأمره به ربه، ولذلك كان عروجه إلى الله، كما قال إبراهيم × : ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي..﴾ [الصافات:٩٩] لأنه ذاهب إلى حيث يعبد ربه، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ..﴾ [النساء:١٠٠].

وقوله تعالى: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾من السنين التي تعدونها وهي السنون القمرية، كل سنة اثنا عشر شهراً، كل شهر ثلاثون يوماً أو تسعة وعشرون.

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ..﴾ إلى آخر الآيتين هو ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وقد دل على ذلك إحكام صنعه وتصرفه في السموات والأرض وتدبيره لأمورهما ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده ومن عزته ورحمته إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يهمل عباده ومن عزته إقامة الحجة وإنذارهم بالجزاء في الآخرة.

طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ

﴿٧-٩﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي أحسن صنع كل ما صنعه وأحكمه فهذا دليل على قدرته القاهرة التي لا تقاس بها قدرة المخلوقين وعلى علمه بكل شيء فقد أتقن صنع كل حيوان على ما يناسب عيشته وصنع أجزاء أعضائه وشبكة عروقه المصرفة لدمه إن كان ذا دم من باطنه وظاهره وطوله وعرضه بين عروق واسعة وعروق دقيقة تؤدي وظائفها إلى دماغه وسمعه وبصره وغيرها، كشبكة مواصير الماء التي تصل في المدن إلى كل بيت وإلى بعض المواضع من كل بيت، وكما قال الزمخشري / :

يا من يرى مد البعوض جناحه ... في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها ... والمخ في تلك العظام النحل

وكل حيوان قدر له رزقه الذي يوافق صنعه وعيشتة وهداه له وغير ذلك من لطيف إحكامه تعالى لما خلق وإتقانه لتدبيره، وكذلك صنعه سبحانه وتعالى للشجر وكثرة أجناسها وكثرة أنواع كل جنس وتدبيره لها تغذيها بما تمتصه عروقها من الأرض من الماء وما فيه من مواد غذائها، وجعله للمجاري في عروقها إلى أعوادها الغليظة ثم إلى أعوادها الدقيقة ثم إلى أوراقها وثمارها وفي الورقة الواحدة مجاري لغذائها.

وكذلك في الثمرة، وفي إتقان صنع الأعواد، وإتقان صنع الأوراق وإتقان صنع الزهور، وإتقان الثمار والفرق في الثمار عند ظهروها قبل طيبها وعند وقت اقتطافها حين تطيب، فتكون طعاماً: كالحبوب، والفواكه، أو دواء: كبزر السماق وهو (العثرب) في لغتنا وبزر قطونا وهو بزر قطنة في لغتنا والثوم وغير ذلك وبعض الشجر تكون ثمرته في بطن الأرض كالزنجبيل وغيره فسبحان الله الذي أحسن كل شيء خلقه وأحاط علمه بكل صغير وكبير، وهذا مثال لأن آياته يصعب حصرها في كل ما في الأرض فضلاً عن النيرات وما في السموات وما في البحار وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ وهو خلق آدم × وذلك من أوضح الدلائل على البعث ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ وهو ذريته من ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو المني خال عن الصورة والأعضاء بل هو ماء سائل وهي ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ تنسلُّ من العروق وغيرها أي تنفصل عند نزولها إلى الأنثى، وقوله: ﴿مَّهِينٍ﴾ صفة لهذا الماء أي حقير لأنه ضعيف كالمخاط وتغسل عنه الثياب إذا وقع فيها شيء منه والمهين مشتقة من المهانة لا من الهوان والذي من الهوان يقال فيه مهان، والمهين الحقير كما في الصحاح وغيرها.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ أي سوى الإنسان بإتمام أعظائه الظاهرة كالرأس واليدين والرجلين والباطنة كالقلب والكبد والدماغ والعروق والعصب والمعدة و الأمعاء الدقيقة والغليظة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أي نشر فيه الحياة في أعضائه وأجزائها ومركزها القلب، قال الشرفي: ((﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ عبارة عن إحيائه ودل بإضافة الروح إلى ذاته إنه خلق عجيب لا يعلم حقيقته إلا هو، كأنه قال: ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه)) انتهى.

هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ

وقد قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي..﴾ [الإسراء:٨٥] فأضافه إليه، ولم يقل: من ربي.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ كناية عن العقول التي في الأفئدة، والأفئدة جمع (فؤاد) ونعمة الثلاثة كل واحد منها تساوي مملكة فكيف وقد جمعها الله للإنسان، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ واضح ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] ومنهم: من يجحد بآيات ربه، ويكذب رسله، وينكر القيامة ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة:٥].

﴿١٠﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ مع وجود آيات قدرة الله وعلمه قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سؤال منهم في معنى الاستبعاد والإنكار إذا ضلوا أي ضاعوا، بأن تحولت عظامهم تراباً وأجزاء صغيرة ضائعة في التراب أو تربت عظامهم تماماً فضاعت في بطن الأرض سألوا ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ بعد أن ضللنا في الأرض نسوا أن الله خلقهم وخلق آباءهم من تراب ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ في موقف السؤال والحساب يوم القيامة بل هم به ﴿كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون لا مجرد سؤال واستبعاد.

﴿١١﴾ ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ ﴿مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ جنس من الملائكة أو فرد، لأن التوفي قد نسبه الله إلى الملائكة، قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٧]

عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ

ولا تنافي لأن اسم الفرد يعبر به عن الجنس، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤] ﴿ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ليتوفاكم وتوفيهم أخذ أرواحهم لله، وكذلك لا ينافي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] لأنه بأمر الله وتمكينه يتوفاهم، فصحت النسبة إلى الله وإلى الملك، كقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ إلى ربكم المالك لكم الذي حكم عليكم بأن ترجعوا إليه ليحاسبكم ويجزيكم وتكون حالكم يومئذ كما يأتي في الآية التي بعد هذه، وهذا لأن الاحتجاج على قدرة الله وعلمه قد قطع عذرهم فما بقي إلا زجرهم بالوعيد.

﴿١٢﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ حال المجرمين الذين كانوا يكذبون بلقاء ربهم، لو ترى حالهم يوم يلقونه لرأيتهم في خوف شديد وغم شديد وذلة شديدة وخضوع لا يفيد يقولون: (ربنا أبصرنا) (ما كنا نجحد) (وسمعناه..) ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ يقولون ذلك وهم ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾ وهم في موقف حساب ربهم لهم أو بعده قد حطمهم الخوف فنكسوا رؤوسهم قد أيقنوا بما وعد الله به لكن لم ينفعهم اليقين.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ هذا يفيد: إبطال سؤال المجرمين الذين طلبوا

يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا

أن يرجعهم الله ليعملوا صالحاً، لأنهم قد أيقنوا وكذبوا إنما طلبوا ذلك لأن الخوف قد اضطرهم ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١] باضطرارهم إلى الهدى في الدنيا، وأغنى ذلك عن اضطرارهم بإبصار ما وعدوا وسمعه وإحضار جهنم وتقطيع السماء ونسف الجبال.

﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهو الذي قضت به الحكمة، لأن الله تعالى مكنهم من الهدى باختيارهم وأرسل الرسل وأنزل الكتب، فما استحقوا جهنم إلا باختيارهم لأسبابها وبعد قطع العذر بإنذارهم فكذبوا النذير وتمردوا على الله.

﴿١٤﴾ ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أيها المجرمون سوء مصيركم هذا ﴿بِمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ﴾ فلم تستعدوا له بالإيمان والعمل الصالح، بل أطعتم عدوكم وعصيتم ربكم ﴿إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ﴾ تركناكم ترك الناسي لكم في سوء العذاب ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الذي لا موت فيه بل بقاء لا نهاية له ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاء لكم بما كنتم تعملون من الجرائم وفي هذا الإنذار ما يكفي من عقل.

﴿١٥-١٧﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ

رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أهل الصفات المذكورة، لا الذين يقولون: ﴿افْتَرَاهُ﴾ فليس من شأنهم أن يؤمنوا، فقد مر في السورة ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ومر ذكر الآيات الدالة على قدرة الله تعالى وعلمه لتحقيق صدق وعد الله بالآخرة فما كان المتمردون ليؤمنوا بها إنما يؤمن بها وبغيرها من آيات الله، إنما يؤمن بها المستعدون للإيمان بنية صالحة وسلامة من الإصرار على القبائح، فقلوبهم سليمة من الرين، فإذا سمعوا آيات الله خضعوا لها فخروا خاضعين لله، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

وقد مر في تفسير (سورة الإسراء) إنه سجود بمعنى السقوط خاضعين لله، ليس بمعنى السجود الشرعي؛ لأن السجود الشرعي ليس على الذقن واستعمال السجود في القرآن لغيره كثير، مثل: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:٥٨] ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل:٤٩] ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج:١٨] وقال تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٢٠] لعله من هذه، لأنهم لم يكونوا قد تعلموا السجود الشرعي.

فظهر: أن الذي في قوله تعالى: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ من هذا بمعنى سقطوا خاضعين لله إيماناً بآيات الله، وبما تضمن ذكره التذكير بها من الآخرة وما فيها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا..﴾ إلى آخر الآيتين، ففيها تذكير عظيم للذين ﴿قَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ولكن المؤمنين هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾.

أما هؤلاء فلا يخضعون إذا ذكِّروا بها، فهم لا يؤمنون بها خضوعا لله ربهم الذي يذكرهم بما يلاقونه يوم يلقونه، ولعل هذا في العرب الذين إذا سمعوا القرآن فهموه وفهموا أنه خارق للقدرة البشرية فبهرهم فسقطوا خاضعين كما ﴿أُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٢٠] والله أعلم، أو الحصر إضافي، كما بينت في أول تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بعثهم الإيمان على ذلك فسبحوا نزهوا الله عما يصف المشركون أهل الضلال في الجاهلية وأصحبوا التسبيح بحمد الله على نعمة الهدى بآيات الله وعلى سائر النِّعم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإيمان ولا عن غيره من طاعة ربهم كما استكبر القائلون: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ فلم يؤمنوا بآيات الله فهذه ثلاث صفات للمؤمنين بآيات الله:

الأولى: خضوعهم ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا﴾.

الثانية: أنهم ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

الثالثة: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: تتنحى، وترتفع)) انتهى.

ولعل هذا تفسير بالمطابق لأن الجفاء أقله إعراض ونبوّ عن المجفوّ يدل على الكراهة له أو لعله أراد وتترفع لعلو همتها، قال في (الصحاح): ((الجفاء: خلاف البر ـ ثم قال ـ : فتجافى جنبه عن الفراش: أي نبا)) انتهى.

وفي (أساس البلاغ): ((جفاني فلان: فعل بي ما ساءني)) انتهى.

وفي (أمالي أبي طالب ×) في (باب فضل أهل البيت عليهم السلام) في قصة وفاة محمد بن جعفر بن محمد عليهما السلام: ((فقال المأمون: تلك رحم مجفوَّة منذ مائتي سنة)) انتهى.

وقال في (الصحاح): ((نبا الشيء عني ينبو، أي تجافى وتباعد ـ ثم قال ـ: وفي المثل: (الصدق ينبي عنك لا الوعيد) أي إن الصدق يدفع عنك الغائلة في الحرب دون التهديد، قال أبو عبيدة : هو ينبي غير مهموز)) انتهى. يعني ليس من النبأ.

وفي (لسان العرب): ((وجفا جنبه عن الفراش: نبا عنه ولم يطمئن إليه، ثم قال: وفي الحديث إنه كان يجافي عضديه في السجود أي يباعدهما وفي الحديث إذا سجدت فتجاف وهو من الجفاء البعد عن الشيء)) انتهى.

فتحصل: أن قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ﴾ يفيد رغوبهم ﴿عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ بخلاف من يميل إليها، وفي الحديث: ((ألا وإن من علامات العقل: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود)) ومعناه: الرغوب عن دار الغرور والإعراض عنها، فالتجافي فعل مقترن بأمر نفسي هو الرغوب عن المضاجع والمراد أنهم يقومون لعبادة الله في الليل، كما قال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا﴾ أي من عذابه فالخوف يحركهم للدعاء بالمغفرة والنجاة من النار ﴿وَطَمَعٗا﴾ في رحمته وتوفيقه لحسن الخاتمة وللجنة ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ مما أعطيناهم ﴿يُنفِقُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ يخص الحلال، ويبعث على الإنفاق، كقوله تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور:٣٣] وذلك أن المنفِق ينفق لله مما آتاه الله، وخصوصاً ما كان في سبيل الله، ومن الباعث على الإنفاق كونه وسيلة للتثبيت على صراط الله، وكون ثوابه مضاعفاً أضعافاً كثيرة، وخصوصاً الإنفاق في سبيل الله فالخوف يبعث على الإنفاق والطمع يبعث على الإنفاق.

كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي من ثواب تقر به أعينهم أي يسرهم وذلك في الآخرة وفي الجنة ينالون من الثواب ما ينتظرونه من الله، وما لا يخطر على قلوبهم في الدنيا، قال الشرفي: ((قال في (البرهان): روينا عن آبائنا عن رسول الله ص أنه قال: ((قال الله تعالى: إني أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ما أطلعتهم، فأقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ..﴾ الآية)) انتهى، وقوله: (الآية) لعله من تصرف بعض الرواة.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ تمام الترغيب فيما ذكره الله ورغب فيه، لأن تذكر الثواب العظيم يبعث المؤمن على الصبر على العمل الصالح.

﴿١٨﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ فالمؤمن يفعل الخير ويترك الشر يوالي أولياء الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر مع إخوانه المؤمنين، ويقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويطيع الله ورسوله، وأما الفاجر الخبيث فلا يتوقع منه ذلك، ولذلك اختلف جزاؤهم في الآخرة فلا يستوون في الدنيا فلا يستوون في الآخرة.

﴿١٩﴾ ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ جمع جنة أعدت لتكون مأوى يأوي إليها أولياء الرحمن وهذه الجنات في الجنة كل جنة مجهزة بالمسكن الطيب والحور كما أفادته (سورة الرحمن) مع ما فيها من الفواكه والنعيم العظيم انظر (سورة الرحمن) ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أصل النزل ضيافة النازل كما قال:

فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ

نـزلتم منـزل الأضـياف منـا فعجلنـا القِـرى أن تشـتمونا

قال في (الصحاح): ((النُّـزل: مـا يُهيـأ للنـزيل)) انتهـى. وقـال الراغـب: ((والنُّزل: ما يعد للنازل من الزاد.. إلى قوله: وأنزلت فلانـاً أضـفته)) انتهـى. ولعل تسمية الجنات ﴿نُزُلاً﴾ ليدل على إكرامهم لأن الضـيافة يقصـد فيهـا إكرام الضيف، فأما جعل الزقوم والحميم نزلا فهو تهكم بأعداء الله كمـا في البيـت الـذي جعـل فيـه قتـال النـازلين قـراهم، وقولـه تعـالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي بسبب ما كانوا يعملون؛ لأنه جزاء به.

﴿٢٠﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿فَمَأۡوَىٰهُمُ﴾ أي في الآخرة ﴿ٱلنَّارُ﴾ فهو جمر جهنم ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ﴾ كلما حاولوا ﴿أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ﴾ بتزحزحهم من أماكنهم مع ثقل السلاسل وشدة التحرك من جمر إلى جمر ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ في أماكنهم ليبقوا فيها ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وهذا عذاب نفسي إرجاعهم والقول ذوقوا عذاب النار ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يحقق لهم أنه جزاء على جرائمهم التي سبب لهم الإصرار عليها تكذيبهم بالجزاء ومن جرائمهم التكذيب فهو سبب العذاب من الجهتين وفيه تحقيق أنه العذاب الذي وعدهم الله به فكذبوا وعده، كقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن:٤٣] فبين لهم صدق وعد الله تعالى.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ ﴿ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ عذاب في الدنيا (أدنى) أي أقل من عذاب

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ

جهنم ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ قبل العذاب الأكبر فيما بينهم وبين العذاب الأكبر وهو عذاب جهنم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تعريضاً لهم على الرجوع إلى الله حيث يقبل منهم إن رجعوا فجعل التعريض رجاء لأن الراجي يفعل السبب رجاء حصول المسبّب، كأنه قيل: رجاء أن يرجعوا، والمقصود أنه كفعل الراجي.

فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ مجاز، ومن هذا العذاب ما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [المؤمنون:٧٦] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٣٠].

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ سؤال في معنى النفي، يفيد: أنه لا أظلم ﴿مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ لأن عبداً ذكره الله بآياته يدعوه إلى رحمته إلى السعادة الدائمة في جنة الخلد وإلى النجاة من عذاب شديد دائم وأمر الله رسوله والمؤمنين بدعوته إلى ذلك فأعرض عن التذكير، وأعرض عن آيات ربه التي تبين له صدق الإنذار ووعد الله، فلا أظلم منه؛ لأنه عبد كفر نعمة ربه وكذب بآياته.

﴿إِنَّا﴾ أي الله ذو العظمة والجلال العزيز الحكيم ﴿مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ إنا منتقمون من المجرمين كلهم بعذاب جهنم أو من المجرمين المذكورين، كأنه قال تعالى: إنا منهم منتقمون، فأقام الظاهر مقام المضمر ليفيد: أن سبب الانتقام إجرامهم لأن الإجرام سبب العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف:٧٤] والانتقام: العقاب.

إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ فليس محمد بدعاً من الرسل ولا القرآن بدعاً من الكتب ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن﴾ يا رسول الله ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ في أنه نازل من عند الله، وأنك تتلقاه منه ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾ أي الكتاب ﴿هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يهتدي به منهم من آمن به وتمسك به فكذلك آتيناك القرآن هدى للناس.

﴿٢٤﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أي من بني إسرائيل بعد موسى ﴿أَئِمَّةٗ﴾ متبوعين في الدين ﴿لَمَّا صَبَرُواْ﴾ على تحصيل العلم بالكتاب ومعانيه والعمل به ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر على تعليم الناس وإرشادهم ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ كلها الكونية والسمعية ﴿يُوقِنُونَ﴾ يقيناً حملهم على العمل الصالح وعلى الصبر عليه وعلى ما يلقون من الأذى من أعداء الدين، فلذلك كانوا أهلاً للإمامة في الهدى، فكذلك جعل الله من آل محمد كما جعل من بني إسرائيل رحمة للعباد يدعونهم إلى التمسك بكتاب الله، كما دعاهم الله ورسوله ص، لأن حاجة هذه الأمة إلى الهداة بأمر الله مثل حاجة بني إسرائيل.

وقد قال تعالى في (آية القبلة):﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] وقال تعالى لإبراهيم × : ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي..﴾ [البقرة:١٢٤] فعم ذريته ولم يخص بني إسرائيل.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا رسول الله ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ﴾ فلا

يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ

عزير ولا عيسى يتدخل في الفصل بينهم يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ من أجل الأهواء وحب الرئاسة مع وضوح الحق، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الجاثية:١٧] فكذلك هذه الأمة المخالفة لآل محمد القائمة ضد الأئمة الهداة منهم، سيحكم الله بينهم وبين آل محمد ص، ومن هنا رجع الكلام في كفار قريش ومن حولهم.

﴿٢٦﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ ﴿أَوَلَمۡ﴾ يبين لهم صدق وعد الله لهم بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ أي كثرة من قد أهلكنا من قبلهم ﴿مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ قال في (الصحاح): ((والقرن من الناس: أهل زمان واحد، قال:

إذا ذهب القرن الذي أنت فيهم وخلفت في قرن فأنت غريب))

انتهى، فالقرون مثل: قوم نوح، وهود، وصالح.

وقوله تعالى: ﴿يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ﴾ أي يمشي قريش ومن حولهم في مساكن قرون كثيرة أهلكها الله فيرون آثارهم وفيهم عبرة لهم، لأن سبب إهلاكهم هو تكذيبهم بآيات ربهم وما اتصل به وتبعه ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ﴾ هذا التذكير وما تضمنته هذه السورة من الإنذار والآيات الدالة على صدقه.

﴿٢٧﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ فَنُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡۖ أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أي قد رأوا ﴿أَنَّا﴾ أي

صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

أن الله العظيم ﴿نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ﴾ في السحاب حتى يصل في الجوّ فوق ﴿ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ فننزله إليها، و﴿ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ﴾ خالية من النبات لتأخر المطر عنها، قال الشرفي: «أي الأرض اليابسة» وقال في (الصحاح): «أبو زيد: أرض جرز لا نبات بها، كأنه انقطع عنها أو انقطع عنها المطر» انتهى.

﴿فَنُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ أي بالماء ﴿زَرۡعٗا تَأۡكُلُ مِنۡهُ أَنۡعَٰمُهُمۡ وَأَنفُسُهُمۡ﴾ وأنفسهم قدمت الأنعام ليحسن سياق الكلام مع الإيجاز، ولأن الأنعام تأكل قبل الناس من الزرع ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ ببصائرهم لأجل ما قد أبصروه بأعينهم أو ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ﴾ ذلك الذي يبصرونه وهذا بعيد لأنه تكرار؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ فالصواب أنه ببصائرهم، وهذه الآية احتجاج على الكفار المنكرين للبعث، لاستبعادهم إحياء الموتى، فاحتج الله عليهم بنعمته عليهم الدالة على قدرته وعلمه وعلى أن الاستبعاد يبطل بقدرة الله تعالى.

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ * قُلۡ يَوۡمَ ٱلۡفَتۡحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾ أي الفصل بين العباد وهو الحكم بالحق أي يوم القيامة استبعاداً منهم واحتجاجاً على المؤمنين بأنهم لا يعلمون متى الساعة أي أنهم لو علموها لعلموا وقتها، وهذا منهم باطل لأنه لا تلازم بين العلم بأنها ستكون والعلم بوقتها لأن الله أفادنا أنها ستكون ولم يخبرنا بوقتها وأرادوا بالجدال أن يبقوا على كفرهم قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة:٥-٦].

وسؤالهم هذا تكرر في القرآن ذكره وأجوبته متعددة منها هذا الجواب: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَـٰنُهُمْ﴾ كما أفاده تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا..﴾ الآيتين، لأنه إيمان اضطرار فإذا أرادوا أن ينتظروه ليؤمنوا به حين يرونه فلا ينفعهم إيمانهم إنما ينفع الإيمان في حال الاختيار في الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ بل يحكم عليهم بالعذاب دون أن يمهلوا لحظة واحدة، وقد فسر يوم الفتح بفتح مكة وهذا بعيد؛ لأن من آمن عنده نفعه إيمانه لو لم يكن إلا في الدنيا وأمهلوا أي انظروا فلم يعاجلوا بالعذاب بل أجل إلى يوم القيامة.

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا رسول الله ﴿عَنْهُمْ﴾ لا تقعد معهم بعد إبلاغهم وإقامة الحجة عليهم ﴿وَٱنتَظِرْ﴾ يوم الفتح ليحكم الله بينك وبينهم ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ ليوم الفتح ، وإن اختلف انتظارك وانتظارهم ؛ لأنهم ينتظرون لينظروا هل الوعد صدق وأنت تنتظر إيمانا بوعد الله.

انتهى بحمد الله تفسير (سورة السجدة)

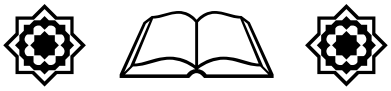

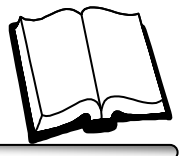

التيسير في التفسير

سورة الأحزاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ

ابتداء تفسير (سورة الأحزاب) وهي (مدنية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تمهيد لما بعده من النهي والأمر، كالتمهيد بهذا في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ والتمهيد به يفيد: أن العمل بما بعده من التقوى، فمن التقوى أن لا يطيع النبي ص الكافرين والمنافقين، لأنهم أهل كذب وخداع يأمرون بالباطل، وينهون عن المعروف، كما قال تعالى في المنافقين: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة:٦٧] وهذا تشجيع لرسول الله ص على خلافهم ويبين أنه لا يحتاج إلى وفاقهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يدعوه إلى الثبات على أمر الله لأن الله يعلم أن الحكمة في ذلك وكذلك نهيه عن طاعتهم وأمره بما يأتي مبني على علم الله وحكمته التي اقتضت أن ينهاه ويأمره بما نهاه وأمره.

﴿٢﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ أمر له ولأمته باتباع ما يوحى إليه، ومنه القرآن وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تنبيه لئلا ننساه فهو رقيب علينا إن اتبعنا أو لم نتبع.

ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ

۝٣ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في أمورك وفي اتباعك لما يوحى إليك، ومخالفتك للكفار والمنافقين ومعنى توكل على الله اتخذه وكيلاً تكل إليه مهماتك لحفظك وتأييدك ونصرك، ونحو ذلك يفعل من ذلك ما يشاء، فقد وكلت أمرك إليه ونعم الوكيل ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أعيدت للجلالة تنبيهاً على أن الوكيل هو الله الأعز الأكرم العليم القدير، فلا يخذلك وأنت عبده ورسوله قائم بأمره، ونظير هذا قول الشاعر:

على حالة لو أن بالقوم حاتماً على جوده لضن بالماء حاتم

۝٤ ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ كانت الجاهلية فيها جهالات منها هذه الثلاث زعمهم أن ﴿لِرَجُلٍ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ وحكي ذلك عن اليهود وعن المنافقين، أنهم قالوا ذلك في رسول الله ص، وزعمهم أن الزوجة التي ظاهر منها زوجها قد صارت أمّه لأجل قوله: «أنت علي كظهر أمي» وزعمهم في الدعي أنه ابن للذي يُدعى ابنه، وليس من ولده، فأبطل الله تعالى جهالاتهم كلها، وفصل الحكم في الظهار في (سورة المجادلة) وزاد تحقيقاً لنفي بنوّة الدعي.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ أي لا حقيقة له ولا صحة، ويحتمل ـ أيضاً ـ أنه لا تعتقده قلوبكم ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ فالحق أنه ما جعل لرجل من قلبين في جوفه، وأن المظاهر منها ليست أما للمظاهر، وأن الدعي ليس ابناً لمن يدعي ابنه، ولم يلده والهدى هدى الله سبحانه وله الحمد على ما هدى.

فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ۝٥ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ

۝٥ ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ ادعوا أدعياءكم لآبائهم لا لمن تبنّاهم لأنه ربّاهم هو أي دعاؤهم لآبائهم الذين ولدوهم أقسط أعدل وأحق عند الله فقولوا يا فلان ابن فلان للذي ولده لأنه الحق والصدق ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ فادعوهم إخوان وموالي، فهو يميزهم عند دعائهم مع أنه حق وصدق.

قال الشرفي: ((قال في (البرهان): كما فعل المسلمون فيمن عرفوا نسبه وفيمن لم يعرفوا فالمقداد بن عمرو كان يقال له: المقداد بن الأسود بن عبد يغوث الزهري، فرجع إلى المدينة، وممن لم يعرف له نسب سالم مولى أبي حذيفة فنسب إلى ولاء أبي حذيفة)) انتهى.

وصواب العبارة: كذلك فعل المسلمون لأنهم اتبعوا حكم الله، واشتهر استعمال الولاء لكثرة الموالي الذين كانوا عبيدا أو كان أب لهم عبداً فأعتقوه فصار ينسب إليه بالولاء أو إلى من ينسب إليه المعتِق، مثل فلان الهاشمي مولاهم أي مولى بني هاشم لمن أعتقوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾ ﴿جُنَاحٞ﴾ أي إثم فلا إثم في الخطأ سواء كان قبل نزول الحكم أو بعده سبق به اللسان سهواً بسبب العادة عند الأولين مثلاً.

ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ

والآية عامة وإن كان سبب الحكم فيها دعاء الأدعياء، ولكن يلزم في بعض الخطأ تكليف مثل دية أو أرش وفي ذلك حكمة أنه يؤدي إلى مزيد من الحذر حفظاً للنفوس فيما يفيد فيه الحذر من القتل أو الجرح، وقد كثر الخطأ في هذا الزمان من أهل السيارات المسرعين بها، ومن الجهل إهمال حكم الله فيه على الإطلاق، لأن من السواقين من لا يردعه عن الإسراع إلا خوف غرامة الدية، فإذا لم يخف كان تحميل قرابته أفضل ليردعوه، وكذلك إسقاط نصيب أم القتيل أو أطفاله بغير حق ظلم، والإسقاط لمجرد السمعة وحب الفخر غير محمود، ولا يبعد أنّ له حكم الرياء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي من مخالفة حكم الله فهو الذي فيه الحرج على المخالف، والحرج في الأصل الضيق، سمي به الإثم لأنه ضيق على الآثم، وهذا لا يمنع المجاز إذا فهم أن المراد بتسمية الولد أو الابن مجرد اللطف به والعطف عليه، أو تسمية الأب الاحترام والتعظيم بمعنى أنه كالولد أو كالأب فهذا معنى آخر غير الممنوع، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تأكيد لحكم الخطأ.

﴿٦﴾ ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ له الأمر عليهم على الإطلاق،

وليس لهم خيار فيما أمر به بل عليهم طاعته ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ محرمات عليهم كما يأتي في السورة إن شاء الله وهذا تشبيه بالأمهات لا يعم كل صفات الأم ولذلك لا يجوز النظر إليهن، ولا الدخول عليهن، والتشبيه يكفي فيه صفة ظاهرة مثل زيد أسد، زيد حاتم زمانه، زيد سيبويه زمانه، فلذلك لا يعم صفات الأم.

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ﴿مِنَ﴾ للبيان، وتقييد أولي الأرحام بكونهم من المؤمنين والمهاجرين لأن الكافر تنقطع الصلة بينه وبين المؤمن، وظاهره أن المهاجر لا ولاية بينه وبين قريبه الذي لم يهاجر، وهذا حين تكون الهجرة واجبة، ويكون الذي لم يهاجر باقياً في دار الكفر، وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال:٧٢] وهذه الأولوية بين أولي الأرحام أي القرابة في النسب تخرج الأخ بالمؤاخاة والحليف وسائر المؤمنين، وتعم التوارث وغيره، إلا في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله وطاعة ولي أمر المسلمين.

قال الشرفي: قال في (البرهان): ((سبب نزول الآية أن النبي ص لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالخروج معه فقام قوم منهم فقالوا: نشاور آباءنا وأمهاتنا ونستأذنهم فأنزل الله ذلك فيهم، وبين لهم أنه أولى بهم منهم وكذلك من قام مقامه من خيار عترته فهم أولى بأمته)) انتهى.

والدليل قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] وليست ولاية أولي الأرحام ولاية أمر لأن ذلك يؤدي إلى تدافع الإمرة فيكون كل من الأخوين أميراً على أخيه، وذلك ليس المقصود في الآية هنا وفي (سورة الأنفال).

وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في القرآن حكم الله به وهذا تأكيد للحكم، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ يدل على أن الحليف قد بطل إرثه فلا يرث بالحلف بينه وبين المؤمن الميت وإنما له ما أوصى به له بالوصية إذا كانت معروفاً بأن تكون من ثلث ماله أو الثلث إذا لم يوص بغيره، والحكم في الحليف الذي كان الميت عاقده، وقال في محالفته: ترثني وأرثك قد نسخ بهذه الآية إذا لم يوص له الميت بشيء.

وأكد النسخ قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾ وما كان في الكتاب فهو الذي يبقى وينسخ ما ليس فيه، ولعل سَطْره سبق في أم الكتاب عند الملائكة (عليهم السلام).

﴿٧-٨﴾ ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا * لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ ﴿مِيثَٰقَهُمۡ﴾ على التبليغ للشرائع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ليسأل الصادقين يعم الصادقين من الأنبياء والصادقين ممن آمن بهم في إيمانهم وسؤالهم عنه بسؤالهم هل بلغ النبي وهل آمن المبلَّغ واتبع صدقهم لأن النبيئين بلغوا والمؤمنين الصادقين آمنوا واتبعوا ﴿وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بالأنبياء ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾.

﴿٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ﴾ تذكروها ولا تنسوها فهي نعمة عليكم عظمى تستوجب الشكر.

ثم بيّن تعالى هذه النعمة بقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فنعمة إرسال الريح والجنود حتى رجعوا وكفى الله المؤمنين القتال، ونعمة رجوعهم خائبين لأن ذلك تجربة تثبطهم في المستقبل حتى لا يعودوا أو حتى لا يثقوا بكثرتهم إن رجعوا.

قال الشرفي: ((فنعمة الله على المؤمنين دفع الأحزاب من غير قتال وما ذكر من إرسال الريح والإمداد بالملائكة وكانت قريش قد أقبلت في عشرة آلاف وقائدهم هو أبو سفيان، وغطفان في ألف، ومن تبعهم من نجد وقائدهم عيينة بن حصن، وعامر بن الطفيل في هوازن وصاقبهم ـ صاقبهم قاربهم ـ من اليهود قريظة والنضير، وخرج ص في ثلاثة آلاف، وكان قد أشار عليه سلمان بالخندق، فجعله ص بينه وبينهم، ومضى على الفريقين قريب من شهر ولا حرب بينهم إلا الترامي [بالنبل والحصار] حتى نزل النصر إلا [في نسخة (المصابيح): إلى ـ وهو غلط] ما كان من قتل عمرو بن عبد ود قتله علي × [مبارزة] وقتل معه رجلان رمي أحدهما بسهم والآخر رضخ بحجار ـ كذا ـ بعد أن وقع في الخندق)).

قال الشرفي: ((وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ إشارة إلى ما فعل الله بهم من إرسال الريح عليهم وهي الصَّبا ريح باردة في ليلة شاتية فأبردتهم وسفت التراب في وجوههم، وقلبت الخيام، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور، فانهزموا من غير قتال. انتهى. وقوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ قال الشرفي: ((ألفاً من الملائكة)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فهو بصير بأعمال الكفار، ونياتهم فيها وبصير بأعمال رسول الله ص والمؤمنين معه وبصير بما يعمل المنافقون والذين في قلوبهم مرض، كل أعمالهم يجعل ما يليق بها لأهلها.

فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا

﴿١٠﴾ ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ أي الجنود الأعداء ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلا بلدكم ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قال الشرفي: «﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي حين جاءوكم، يعني: غطفان من أعلا الوادي، من قِبَل المشرق.

قال في (البرهان): جاء منه عوف بن مالك في بني النضير، وعيينة بن حصن في أهل نجد، وطلحة بن خويلد الأسدي وبنو أسد، وأبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب اليهودي في يهود بني قريظة [في (المصابيح) بالضاد ـ وهو غلط] مع عامر بن الطفيل، من وجه الخندق، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ يعني من أسفل الوادي من قِبَل المغرب، وهم قريش، قالوا: ستكون حملة واحدة حتى نستأصل محمداً» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ عدلت عن حالتها الأصلية من شدة الخوف، وهذا في بعضهم، وكذا قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أي من شدة الخوف، وهذا في معظم المسلمين ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ بسبب ما شاهدوا من كثرة الأعداء الذين أقبلوا من فوقهم ومن أسفل منهم فظنوا ظنوناً مختلفة منهم من ظن أن الله قد سلطهم على النبي ص ومن معه كما قتل الأنبياء من قبله، ومنهم من ساء ظنه بالله كما يأتي عن المنافقين، ومن المسلمين من ظن أن الله ابتلاهم بكثرة المهاجمين لهم ليبتليهم أيصبرون أم لا، أو نحو هذه الظنون.

فأما رسول الله ص فرجاءه في الله أن ينصره وإن كان لا يدري كيف يكون النصر لأن الله قد وعده أن يظهر دينه، ومثله في الرجاء أخوه الإمام علي × وخاصة خلص المؤمنين معه، وكانت نيتهم صالحة لم تتغير وهمتهم الصدق في القتال وإنما يشق عليهم غلبة الخوف على من حولهم وتغير نيات بعضهم واضطرابهم وروي أن رسول الله ص أرسل رسولاً لينظر حال الأعداء في حالة الريح الشديدة وقال له لا تحدث شيئاً فصار بينهم في الليل كواحد منهم، فسمع أبا سفيان يذكر حالهم من شدة الريح عليهم ويأمر بالرحيل، فرآه وقد ركب بعيره معقولاً فسدد الرجل قوسه ليرميه فتذكر قول رسول الله ص لا تحدث شيئاً فتركه وهو يرى أن قد أمكنه قتله.

قلت: وتبين بذلك حسن سياسة الرسول ص فإن هذا الرسول لو رمى أبا سفيان وقد هموا بالرحيل وفيه خلاص المسلمين من المهمة العظمى لو رماه سواء قتله أم لم يقتله لأضربوا عن الرحيل وحملهم الغضب على مباشرة القتال، وفي هذا من درس السيرة أن الواجب على المجاهدين الثبات على أمر قائدهم وفيه أن من الأصحاب من يُفسد على القائد أمره إذا لم يلتزموا طاعته.

قال الشرفي: ((وقوله: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ كناية عن غاية الشدة والحنجرة: رأس الحلقوم.. قالوا: إذا انتفخت الرئة لفزع أو غضب أو غمّ ارتفعت فيرتفع القلب بارتفاعها إلى الحنجرة)) انتهى المراد.

وفي (مفردات الراغب): ((الحناجر: جمع حَنْجَرة وهي رأس الغلصمة من خارج)) انتهى. وفي (الكشاف): ((الحنجرة رأس الغلصمة وهي منتهى الحلقوم والحلقوم مدخل الطعام والشراب)) انتهى، ولعل في ذلك غلطاً من النساخ، والأصل ـ والله أعلم ـ وهي منتهى الحلقوم مدخل الطعام والشراب، لأن مدخل الطعام والشراب هو المري.

شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ

وفي (الصحاح): ((الغلصمة: رأس الحلقوم وهو الموضع الناتئ في الحلق)) وفي (الصحاح) أيضاً: ((وتقول هو مريء الجزور والشاة للمتّصل بالحلقوم الذي يجري فيه الطعام والشراب، والجمع مُرُء، مثل: سرير وسرر)) انتهى.

ولعل هذا سبب غلط من ظن أن مجرى الطعام والشراب هو الحلقوم توهم أن الضمير له في قول (صاحب الصحاح) وهو مدخل الطعام والشراب، وإنما يعني المريء لأن السياق في تعريفه بالمريء وذكر الحلقوم عارض، والحُلقوم﴾ هو مجرى الهواء في التنفس إلى الرئتين يفريه الذابح ويفري المريء.

ولفظ (لسان العرب): ((والمريء: مجرى الطعام والشراب، وهو رأس المعدة والكرش اللاصق بالحلقوم الذي يجري فيه الطعام والشراب، ويدخل فيه ثم قال: وفي حديث الأحنف يأتينا في مثل مريء نَعام المريء مجرى الطعام والشراب من الحلق)) انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): ((الحلقوم: الحلق. ابن سيده: الحلقوم مجرى النفَس والسعال من الجوف.. إلى قوله: وطرفه الأسفل في الرئة، ثم قال التهذيب: قال في الحلقوم والحنجور مخرج النفس لا يجري فيه الطعام والشراب المريء وتمام الذكاة قطع الحلقوم والمريء والودجين)) انتهى.

فقوله تعالى: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ يوافقه في المعنى قول الشاعر:

صارت نفوس القوم عند الغلصمت وكادت الحرة أن تدعى أمت

﴿١١﴾ ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ حيث اجتمعت الجنود وحيث المسلمون متوقعون لقتالهم ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اختبروا وامتحنوا.

فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ١٣ وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ

﴿وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا﴾ قال الشرفي: «أي أزعجوا وحرّكوا ازعاجاً شديداً، وذلك أن الخائف يكون قلقاً ومضطرباً لا يستقر في مكانه..» الخ. قلت: ينبغي أن يكونوا قدوة لكل مسلم فيثبت ولا تزل قدمه من أجل الزلزال.

١٢ ﴿وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ قد أيسوا من النصر وساء ظنهم بالله فقالوا: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ﴾ حين وعد بإظهار دينه على الدين كله ﴿وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا﴾ خدعاً لنا ليس صدقاً فقد قالوا كلمة الكفر، وهذا من أسباب الشدة على المؤمنين، ومثل المنافقين الذين في قلوبهم مرض لأنهم غير مؤمنين بل هم شاكون مرتابون في الرسول ص والقرآن فقالوا مثل ما قال المنافقون، فدلّ ذلك على أنه لم يثبت إلا المؤمنون الصادقون في الإيمان وأنه لا يوثق بغيرهم.

١٣ ﴿وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ المنافقون والذين في قلوبهم مرض يجمعهم مرض القلوب واليأس من النصر فقوله تعالى: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ راجع إلى الجملة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض ﴿يَٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ أي يا أهل المدينة يخص بالدعوة أهل المدينة، لأنه يعتبرهم أصحابه ولأنه يريد فصلهم عن الرسول ص والمهاجرين ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ هنا حيث قد خرج الرسول ص والمؤمنون خارج المدينة والخندق بينهم وبين العدو وقولهم: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ فيه قراءة بفتح (الميم) وقراءة بضمها.

ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٰتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا ﴿١٤﴾ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلۡفِرَارُ إِن

قال الشرفي: «لا مَقام ـ بفتح الميم ـ المكان الذي يقام فيه، والْمُقام الإقامة ـ بضم الميم ـ يعني: لا مقام لكم على القتال» انتهى.

ومثله في (الصحاح) في تفسير ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾: وأرادت أن يرجع أهل يثرب وأن مكانهم ليس مكان بقاء أو مكان وقوف، أو أن إقامتهم هنالك غير واقعة لأنهم يعتقدون أن العدو سيحولهم عنه إما طرداً وإما قتلاً ﴿فَٱرۡجِعُواْ﴾ واتركوا محمداً والمهاجرين.

﴿وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ﴾ من المنافقين والذين في قلوبهم مرض يستأذن النبي ص في العودة إلى المدينة ومغادرة موقع النبي ص والمؤمنين يقولون معتذرين ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ﴾ غير حصينة نخشى أن يدخلها داخل من ظهورها إما سارق وإما مفسد وإما ناهب من العدو، فبين الله علام الغيوب كذبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۛ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا﴾ عن محل الاستعداد للجهاد فرارا من الجهاد.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ عَلَيۡهِم مِّنۡ أَقۡطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ لَأٰتَوۡهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرٗا﴾ ﴿وَلَوۡ دُخِلَتۡ﴾ يثرب عليهم على المنافقين والذين في قلوبهم مرض، أو على الذين يستأذنون النبي ص دخلها العدوّ ﴿مِّنۡ أَقۡطَارِهَا﴾ من جوانبها ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلۡفِتۡنَةَ﴾ في المدينة وإثارة الحرب منها ﴿لَأٰتَوۡهَا﴾ لطاوعوا العدو فيما سألهم، لأنهم يكونون قد انقلبوا معه وصاروا مطيعين له لخوفهم منه، وعدم مبالاتهم بالإسلام، وهذا يدل على أن من كره القتال مع أهل الحق فتركه خوفاً من العدوّ سيقاتل أهل الحق خوفاً منه.

فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ

وقراءة ﴿لَأَتَوْهَا﴾ معناه: أنهم يثيرون الفتنة طوعاً للعدوّ أما قراءة ﴿لآتَوْهَا﴾ بمد الهمزة فمعناها: لآتوا العدو ما سألهم وأعطوه ما طلبهم من إثارة الفتنة وخدمة أهل الباطل بها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ﴾ أي بالفتنة أو بيثرب ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ لأن الله يحفظ رسوله ص وينصره عليهم فيقتلهم أو يجليهم عن المدينة، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ [الحشر:١٢].

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ ﴿عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ﴾ توليهم هذا ﴿لَا يُوَلُّونَ﴾ العدوّ ﴿ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ أدبارهم فقد نكثوا العهد لأنهم كانوا في مواجهة العدوّ مع رسول الله ص والمؤمنين المنتظرين للقتال وهم يرون العدو ويراهم العدوّ ففرّ هؤلاء الذين كانوا عاهدوا برجوعهم عن ذلك الموقف إلى بيوتهم.

﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ يوم القيامة لأنهم أضاعوه ولم يحفظوه فيطالبون به كما يدعون إلى السجود فلا يستطيعون فهو تقريع لهم وإظهار لنكثهم في موقف الحساب.

﴿١٦﴾ ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ..﴾ في إفادته أنهم فروا.

﴿قُل﴾ للذين فروا وفائدة هذا لهم إن أطاعوا ولغيرهم ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ﴾ لن ينجيكم ﴿ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فهو سواء الفرار من الموت والفرار من القتل، فالفرار لا يمنع الموت بل لا بد منه.

لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً

وهذا لأن الفرار يكون الباعث عليه خوف الموت وحب الحياة من غير نظر إلى أن الفرار لقليل من الحياة بقي من العمر يحافظ عليه الهارب فهو لا ينوي ذلك فمن أجل أن فراره لحب الحياة وكراهة أن يفارقها أمر الله رسوله ص أن يقول لهم لن ينفعكم لأنه لا بد لكم من الموت.

وأما قوله: ﴿وَإِذًا﴾ أي وإن فررتم ﴿لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ إذا نجوتم من القتل لأجل الفرار ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ لا يستحق الفرار من أجله لأن من فرّ ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦] ثم هو عما قليل ميت، فقد أساء على نفسه الاختيار بل لو كان يعيش إذا فر آلاف السنين ثم يموت لكان قد أساء الاختيار لنفسه لأنه يصير إلى جهنم خالداً فيها أبداً وتلك السنين قليل بالنسبة إلى الخلود الدائم.

﴿١٧﴾ ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من ذا الذي ينجيكم منه من ولي يتولى رعايتكم وحفظكم فينجيكم أو نصير ينصركم فينجيكم منه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ أو يرد رحمته إن ﴿أَرَادَ بِكُمْ﴾ ربكم ﴿رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يغنيهم عن الله ويعصمهم منه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم من الله فأنتم إنما تقلبون في قبضة الله فإن فررتم من القتال فلن تجدوا مهرباً من الله.

وفائدة قوله تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ التنبيه على أن باب التوبة مفتوح لهم ما داموا في الحياة الدنيا في مقام الاختيار فلم يغلق عنهم باب رحمة الله تماماً بل هم في دار الخيار بين أمرين إما سوء وإما رحمة.

عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ

فإن تابوا أراد بهم رحمة ولا يمنعها عنهم أحد، وإن لم يتوبوا فمصيرهم سوء العذاب لأنهم في قبضته وأمرهم إلى الله وحده لأن أمر رسوله ص إنما هو تابع لأمر الله ومن أمر الله، وفي هذه الآية وعيد شديد.

﴿١٨﴾ ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾ المثبطين عن القتال وعن حضور موقف الاستعداد للقتال.

قال في (الصحاح): ((عاقه عن كذا يعوقه عوقاً واعتاقه أي حبسه وصرفه ـ ثم قال ـ : والتعويق: التثبيط)) انتهى.

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ قد يعلمهم الله، وهذا وعيد، ويظهر من السياق أن إخوانهم من الأنصار وهؤلاء القائلون من المتخلفين عن رسول الله ص من أهل المدينة يقولون لإخوانهم المرابطين مع رسول الله ص عند (الخندق) يقولون لهم بواسطة رسول أو عند لقاء من يدخل لحاجة من المدينة ويرجع إلى رسول الله ص يقولون لهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ في المدينة أي تعالوا إلينا ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ هؤلاء القائلون ﴿لَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ ثم يتخلفون عنه.

وقولهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ يريدون به صرف المرابطين مع الرسول ص ليتركوا المرابطة معه ويرجعوا إلى بيوتهم، فشأن القائلين هو التخلف عن البأس إلا قليلاً وفي حال تخلفهم يدعون غيرهم إلى التخلف.

أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ

﴿١٩﴾ ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ **﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاء عليكم بأنفسهم وبأموالهم يكرهون أن يعينوكم ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ﴾ يا رسول الله ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ مما في أنفسهم من الكراهة لك، لأنهم يعتقدون أنك سبب الخوف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾** [النساء:٧٨] **﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ من أثر الموت عند معالجته وسكراته فيغمى عليه بسببه.**

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ﴾ هتكوا أعراضكم وذموكم ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذات قدرة على الذم وصفت بأنها حداد لأنّ هتك العرض يشبه السلخ فناسبه ذكر حدة اللسان، وذلك لأنهم كالشاكين لما وقع بهم من الخوف وبزعمهم أن سببه رسول الله ص ومن معه فيذمونهم بغضاً لهم وعداوة لهم وللدين مثبطين بذلك عن نصرتهم.

وقوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ الذي هو نصر دين الله وجهاد أعداء الله الذي عاقبته خير الدنيا والآخرة لكن أعداء الله المنافقين والذين في قلوبهم مرض بخلاء على ذلك لا يجودون له ولا بكلمة من النصر والمعاونة فضلاً عن أن يجودوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ وهذا هو السبب الأصلي في كل عيوبهم وبخلهم بأنفسهم وأموالهم ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لم يتقبل منهم حسنة واحدة لأن الإيمان شرط في قبول العمل، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه الحق والحكمة في إحباط أعمالهم، ولعلهم كانوا مع تظاهرهم بالإيمان قد صلوا وأنفقوا قليلاً وقاتلوا قليلاً وذلك كله محبط.

﴿٢٠﴾ ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يَحْسَبُونَ﴾ أي ﴿..الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ لأنهم تخلفوا في المدينة وربما كان تخلفهم في بيوتهم فلم يشاهدوا الأحزاب حين ذهبوا راجعين إلى بلدانهم فهم يحسبون الأحزاب ﴿لَمْ يَذْهَبُوا۟﴾ لأن ذهابهم قبل أن يقاتلوا النبي ص ومن معه أمر خارق بالنسبة إلى كثرة الأحزاب وقوتهم المادية وشدة عداوتهم لرسول الله ص.

﴿وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مرة ثانية ﴿يَوَدُّوا۟﴾ أي المنافقون والذين في قلوبهم مرض يودوا ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ وهذا من خوفهم من الأحزاب، وكراهتهم للجهاد فيتمنون أنهم خارج المدينة بادون ساكنون في البدو يسألون وهم في البادية عن أنبائكم كيف حالكم مع الأحزاب، وهذا من جملة ما يتمنونه.

فقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ جملة حالية عاملها وصاحبها بادون الفعل وفاعله، أي بادون يسألون لأنهم يخافون ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟﴾ الأحزاب ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لكراهتهم للقتال والقليل إما لضرورة الدفاع عن بلدهم وإما لخوفهم من نزول القرآن في المتخلفين ومن عار التخلف عند المسلمين.

يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ

﴿٢١﴾ ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في (الصحاح): ((ولي في فلان أسوة: أي قدوة وائتمام)) انتهى، فجعل من يتأسى به المتأسي هو الأسوة.

وفي (لسان العرب): ((والأسوة والإسوة: القدوة، ويقال: ائتسِ به أي اقتد به، وكن مثله، الليث: فلان يأتسي بفلان أي يرضى لنفسه ما رضيه ويقتدي به وكان في مثل حاله، والقوم أسوة في هذا الأمر أي حالتهم واحدة إلى قوله: وتآسوا أي آسى بعضهم بعضاً قال الشاعر:

وإن الألى بالطف من آل هاشم تآسوا وسنوا للكرام التآسيا))

انتهى، وهذا البيت في (الصحاح) أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿حَسَنَةٌ﴾ ترغيب في التأسي به، لأن الأسوة قد لا تكون حسنة وقوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ بدل من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لأن من لا يرجو الله ليس يجب التأسي بل يكرهه، فالمعنى الخبر أن كل من ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ يتأسى برسول الله، لأن كل مؤمن لا يرى نفسه أعز من نفس رسول الله ص بل يجب أن يفديه بنفسه ورجاء الله تعالى رجاء فوائد الجهاد من الله مثل الهداية والنصر والثواب ورجاء اليوم الآخر رجاء رحمة الله فيه وثوابه والمراد المؤمن المتقي الذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه لتقواه لا المتمني بلا عمل ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وهذه صفة المؤمن، والذكر النافع هو الذكر في النفس وبالقول كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ..﴾ الآية [الأعراف:٢٠٥].

إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ

وكثرة الذكر عند المؤمن بسبب تعدد الأسباب وكثرتها فكلما زل ذكر الله وكلما تردد في أمر ذكر الله فتورع وفي الصلاة وفي الدعاء وغير ذلك.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ الأحزاب هم أعداء الله ورسوله الذين اجتمعوا حول المدينة، وقد مر ذكرهم قريباً لما رآهم المؤمنون ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا﴾ أي مجيئهم هو ﴿مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ والآية هذه تدل على أن الله قد وعد المؤمنين من قبل أن الأحزاب سيجيئونهم ليقاتلوهم وفي الوعد فائدة لئلا يفجأهم مجيء الأحزاب، وليستعدوا استعداداً نفسيا وماديا، ومن ذلك حفر الخندق حول المدينة حتى لا يدخلوها من كل جانب.

وقالوا ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ لما رأوا الأحزاب ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ مجيء الأحزاب ﴿إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ لأنهم عزموا عزماً صادقاً على جهادهم وأن لا يفروا منهم ووطنوا على ذلك أنفسهم تسليماً لأمر الله وانقياداً لحكمه، وذلك خلاف قول المنافقين ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً.

﴿٢٣﴾ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إما عهدهم في منى في العقبة أن ينصروا الله ورسوله، ويحفظوا رسول الله ص مما يحفظون منه أنفسهم، وإما عهدهم بقولهم: سمعنا وأطعنا، قال تعالى: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة:٧].

وقد دخل في هذا العهد القتال مع رسول الله ص فصدقوا القتال معه من ذلك قتال أمير المؤمنين وحمزة يوم أحد، ومن ثبت معهما يوم بدر ومعهما عبيدة بن الحارث وغيره، وصدق ما عاهدوا الله عليه هو الثبات مع رسول الله ص وصدق القتال حيث تناول العهد القتال وصدق الثبات يوم الأحزاب، فالصدق تحقيق ما عاهدوا الله عليه بالثبات عليه و الجد فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ ذكروا للنحب معاني منها: الحاجة ذكره في (لسان العرب) ولعل منه قول الشاعر:

ألا تسألان المرء ما ذا يحاول أنحب فيقضى أم ضلال وباطل

فمن هذا نيلهم للشهادة في سبيل الله لأنها كانت حاجتهم قال في (لسان العرب): ((وفي التنزيل العزيز: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ وقيل: معناه: قتلوا في سبيل الله فأدركوا ما تمنّوا فذلك قضاء النحب ـ ثم قال ـ : وروى الأزهري عن محمد بن إسحاق في قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ فرغ من عمله، ورجع إلى ربه هذا لمن استشهد يوم أحد ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ ما وعده الله تعالى من نصره أو الشهادة على ما مضى عليه أصحابه)) انتهى.

فأما تفسير (النحب) بالموت، أو الشهادة، فإن تفسيره بالشهادة أقرب، من حيث أن المجاهد يراه واجباً عليه حتى النصر أو الشهادة وقد عد في (الصحاح) من معاني النحب الواجب.

ويناسب كون المراد بـ﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ استشهد ما رواه الحاكم الحسكاني: عن أبي إسحاق عن علي × قال: فينا نزلت ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ..﴾ الآية، فأنا والله المنتظر وما بدلت تبديلاً، وذكر الحاكم الحسكاني مثله عن ابن عباس.

ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟

والحاصل: أن الشهادة أرجح المعاني في الآية يؤكد أن المقصود الشهادة كون السياق في فضل الذين صدقوا فالشهادة هي الفضيلة أما الموت فليس فضيلة ولو كان المراد الموت على ذلك لكان مقتضى السياق أن يقول: فمنهم من قضى نحبه على ذلك كما تقول مات على ذلك فيكون مدحاً أما مات وحدها فلا.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ لثباته على عهده فهو يريد أن يثبت على ما عاهد الله عليه حتى يقضي نحبه فهو ينتظر قضاء نحبه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ تحقيق لثباتهم على العهد فلم يبدلوا أي تبديل، لا قليل ولا كثير بخلاف غيرهم ممن قد سارع إلى التبديل في وقعة الأحزاب في السنة الخامسة والقرآن ينزل والرسول حاضر.

﴿٢٤﴾ ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تعليل لهذا الابتلاء العظيم للمؤمنين وغيرهم وهو تمكين الكفار وتركهم يجتمعون لقتال المسلمين جموعاً كثيرة فكان هذا ابتلاء ليجزي الله الصادقين لما عاهدوا الله عليه ثواباً عظيماً بصدقهم ويعذب المنافقين بنفاقهم وجرائمهم كلها في الآخرة عذابا عظيما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] إن شاء أن يعذبهم، وذلك إذا ماتوا على نفاقهم، فأما إن تابوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فهو لا يعذبهم، فقد بيّن تعالى ما يشاءه في (سورة النساء) [آية ١٤٥، وآية ١٤٦].

خَيۡرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿غَفُورًا﴾ كثير المغفرة ﴿رَّحِيمًا﴾ شأنه أن يرحم وهذا فتح لباب التوبة لئلا يقنط المنافقون، وقد بين تعالى رحمته في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤].

﴿٢٥﴾ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ﴾ ردهم عن قتال المؤمنين فرجعوا إلى بلدانهم، والمراد بالذين كفروا الأحزاب المتقدم ذكرهم ﴿بِغَيۡظِهِمۡ﴾ باقياً غيظهم في نفوسهم من بعد بدر وأحد ﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرًا﴾ إنما حملوا مشقة السفر وغرمه وعناء الرياح وتخريب الخيام، ونحو ذلك كل ذلك لم يوصلهم إلى خير إنما حملوا ذنوبهم ورجعوا خائبين لم يبلغوا أملهم.

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾ بالريح والملائكة والرعب الذي دخل قلوبهم حتى ضعف عزمهم ورجعوا، ومن أسباب رعبهم قتل أمير المؤمنين علي × لعمرو بن عبد ود الذي كان فارسهم البطل، ومن بطولته اقتحم بفرسه الخندق، وتحدّى المؤمنين فقتله أمير المؤمنين مبارزة.

قال الشرفي: ((وقال الهادي: [﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾] بأخيه ووصيه علي بن أبي طالب × ، أفضل المستشهدين فقتل عمرو بن عبد ود وكان عماد المشركين وفارس المتحزبين فانهزم بقتله جمع الكافرين، وفل الله حدّ المبطلين)) انتهى.

فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ تشجيع للمجاهدين في سبيل الله لأنه جعل نصرهم ورد أعدائهم مما تقتضيه قوته وعزته، فهو كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة:٧١] وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

﴿٢٦﴾ ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ الذين عاونوا الأحزاب من أهل الكتاب فكان حضورهم مع الأحزاب وانضمامهم إليه في استعدادهم لقتال الرسول ص والمؤمنين مظاهرة، لأنها معاونة ولو شاء الله لذكرهم بأسمائهم ولكن القرآن درس للآخرين كما هو للأولين يذكر محل الاعتبار، وما تبنى عليه الأحكام، فقال ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لم يبق لهم حرمة مع عداوتهم لله ولرسوله ص والمؤمنين وإن كانوا من أهل الكتاب، بل كان ذلك أبلغ في الحجة عليهم أنزلهم ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ التي كانوا متحصنين فيها لم تنفعهم حصونهم كما قال تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ ولذلك تسمى صياصي من حيث امتناعهم بها من عدوهم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ حتى ضعفوا عن القتال ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ لأن رسول الله ص حاصرهم حتى نزلوا على حكم سعد بن معاذ، وحكَم سعد بحكم الله فيهم قتلهم، قال الشرفي: ((قال في (البرهان): حتى نزلوا على حكم رسول الله ص الذي نزل به جبريل × بقتل مقاتليهم وسبي ذراريهم وعلى أن عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وأرسل بهذا الحكم سعد بن معاذ، ولم يكن لسعد فيهم حكم)) انتهى.

ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

يعني ليس صحيحاً أنه حكم من نفسه وهو لا يعلم حكم الله، وإنما كان سعد قد عرف حكم الله ورسوله فحكم به وأما نزول اليهود الذين هم (بنو قريظة) وهذا الكلام فيهم خاصة فالمشهور أنهم لما أرعبهم الحصار نزلوا على حكم سعد بن معاذ.

وقال الشرفي في قول الله تعالى: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ قال: ((هم الرجال البالغون ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ هم النسوان والصبيان)) انتهى. ولم يذكر الشرفي في الذين ظاهروهم من أهل الكتاب إلا بني قريظة، وقد ذكر الله قصة بني النضير في (سورة الحشر) لكن قيل: إنها كانت في سنة أربع قبل (وقعة الخندق) فصح: أن الذين ظاهروهم المراد بهم: (بنو قريظة) فقط دون (بني النضير).

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ ﴿أَرۡضَهُمۡ﴾ بلدهم التي فيها ديارهم ﴿وَدِيَٰرَهُمۡ﴾ جمع دار وهي الجامع للبيوت، فالبلد تحتوي على دور، والدار يشتمل على بيوت ﴿وَأَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ يعم المنقول وغيره من النخل والحرث سواء في بلدهم أم في خارجها، وأورثكم ﴿أَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾ بتسليطكم على بني قريظة أو به وبرجوع الأحزاب عنكم لأنكم قويتم وقويت هيبتكم في قلوب أعدائكم بنصر الله لكم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ فهو قادر على أن يورثكم أكثر من ذلك وأكثر وهذا تشجيع وإفادة لهم زيادة في رجاء التمكين في الأرض أكثر مما ظنوا.

وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ ﴿تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾ **الإرادة اختيارها على الآخرة بأن يكون المهم عندهن مطالب الدنيا وزينتها لا الدين والصبر عليه** ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾ **بنفقة العدة** ﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ﴾ **بالطلاق** ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ **مصحوباً بالإحسان والمجاملة والتسريح إرسالهن إلى أهليهن ضد الإمساك.**

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ﴾ **رضاه ورحمته** ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ **طاعته والبقاء معه** ﴿وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ **بإيثار السعي للآخرة على أغراض الدنيا** ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ **سواء كن المحسنات كلهن أو بعضهن وقد مر معنى الإحسان في أول (سورة لقمان) وفائدة هذا القيد أن يعلمن أنه لا يكفي اختيارهن لله ورسوله والدار الآخرة بل لا بد من الإيمان والاستمرار على ذلك حتى يختم لهن بالإحسان فبذلك يكون اختيارهن لله ورسوله والدار الآخرة صادقاً وفائدة أخرى أن الثواب في الآخرة جزاء الإحسان لا لمجرد اختيارهن للرسول ص وصبرهن معه، ولا لكونهن نساء النبي.**

﴿٣٠﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ **تحذير من الفاحشة فأي واحدة قامت عليها بينة** ﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾ **وقعت منها فإنه** ﴿يُضَٰعَفۡ﴾ **عذابها، وظاهره في**

صَٰلِحًا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ

الدنيا والآخرة ففي الدنيا تجلد ثلاثمائة جلدة وفي الآخرة يضاعف لها عذاب جهنم إن لم تتب ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي تعذيبها عذاباً مضاعفاً ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لأنه لا يرحم أهل الكبائر من أن يعذبهم، والمضاعفة للشيء أن يزاد عليه ضعفه أو أضعافه أو ضعفيه وضعفه مثله في المقدار.

﴿٣١﴾ ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحًا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ [النساء:٣٤] قال الراغب: ((القُنوت لزوم الطاعة مع الخضوع)) انتهى. وهذا هو الظاهر من السياق لأنه في القنوت جعله ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فهو طاعة مستمرة مع الخضوع ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا﴾ ثوابها ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ فهو مضاعف ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فينفق عليهن الرسول ص ويأتيهن رزقهن من دون أن يخدمن الناس بل وهن باقيات في بيوتهن وقد كانت نفقتهن أو بعضها تجري لهن مما ترك رسول الله ص بخيبر وإنما منعت منه بنته، ومنع عصبته، وفائدة وعدهن بالرزق بعد رسول الله ص: أنهن قد حرم نكاحهن لغيره بعده، فإذا وثقن بالرزق ذهب عنهن وسواس الشيطان.

﴿٣٢﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تأكيد للنداء الأول وتنبيه لهن وتوجيه لأذهانهن إلى ما يقال لهن من نهي الله وأمره.

ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

وبيانه: أنهن لسن كغيرهن من النساء أي الزوجات لأنهن زوجات الرسول ص لا بد لهن من صيانة أنفسهن والتحفظ على عرض الرسول ص من المنافقين الطامعين في هتك عرضه الشريف، فهنا تحذيرهن بالوعيد وبالترغيب في طاعة الله ورسوله ص وتحذيريهن من سبب طمع المنافق وإلزامهن بالبقاء في بيوتهن، كل ذلك صيانة لهن من الفاحشة لعظم الخطر فيها على المسلمين.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ نهي عن القول الذي فيه خضوع للمخاطب مثل أن تقول: نفسي لك الفداء، أو أي خدمة تطلبها مني ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ليس فيه خضوع ولا هو مستنكر عليكن بل هو كلام مألوف معروف ليس فيه لين ولا تهمة.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مثل: ﴿إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..﴾ [النساء:٥٩] ومثل: ﴿وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] فالمعنى أن التقوى إن اتقين تبعثهن على رعاية الفرق بينهن وبين غيرهن والعمل بموجبه.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ ﴿وَقَرْنَ﴾ (الواو) للعطف على الأمر الماضي والنهي.

وقوله تعالى: ﴿قَرْنَ﴾ أمر مثل (خفن) ومثل (قلن) أي اجلسن في بيوتكن صيانة لهن عن مخالطة الرجال، وتحصيناً عن أطماع المنافقين ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التبرج: ظهور المرأة بزينتها وبدون حجاب.

﴿ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ قال الشرفي: ((﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ﴾ ما بين آدم وبين نوح)) انتهى حكاه عن (البرهان) ولعل هذا إنما هو تقبيح للتبرج، وتذكير بما كان في الجاهلية الأولى بسبب التبرج من جعل المرأة معرضة للفساد غير مصونة عنه لغلبة الجهل على أهل ذلك الزمان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أمر تأكيد لما أفاده قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ كُنتُنَّ تُرِدۡنَ..﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ﴾ وإيجاب بالأمر لطاعة الله ورسوله في الصلاة والزكاة وفي كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ التفات إلى أهل البيت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ هذه التوصيات الكثيرة من قوله: ﴿قُلۡ لِّأَزۡوَٰجِكَ..﴾ ﴿لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ صيانة لكم من الرجس؛ لأن عرض نساء النبي عرضكم أهل البيت بيان للمخاطب ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾ كاملاً محققا وقد دل حديث الكساء على أن أهل الكساء الخمسة مخاطبون بهذا الخطاب أو هم المخاطبون في آية التطهير من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ وعلى طهارتهم من الأرجاس و(حديث الكساء) مشهور برواية المحدثين وغيرهم.

وقد أورد الطبري في (تفسيره) جملة من أسانيده، والطبراني أكثر منه رواية، وجمع الحاكم الحسكاني رواته من الصحابة ومن بعدهم في (شواهد التنزيل) وزاد المحقق عليه في (حاشيته) تخريجاً.

وقد أورد الإمام القاسم بن محمد × من ذلك ما فيه الكفاية، وكذا ابنه الحسين بن القاسم عليه السلام في (شرح الغاية) فنكتفي بذلك لأن (الاعتصام) مطبوع وكذلك (شرح الغاية) و(شواهد التنزيل) ويؤكده تذكير الضمير في الآية، وإفراد البيت بخلاف ما قبلها وما بعدها.

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿٣٤﴾ ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ أي تذكرن ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ لتثبتن على تقوى الله، لأنهن يسمعن في بيوتهن تلاوة رسول الله ص أو غيره أو يتلون هن في بيوتهن بعضهن على بعض ﴿مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ من دلائله ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ التي تدعو إلى مكارم الأخلاق، واجتناب ما يعاب وإلى رجاحة العقول واجتناب السفاهة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ ومن لطفه بعباده أنزل الآيات والحكمة في كتابه الذي يتلى عليكن ﴿خَبِيرًا﴾ بأعمال العباد وباطن أعمالهم وبغير ذلك فراقبنه في كل عمل، فهذا التأكيد عليهن سببه مكانتهن من الرسول ص وهذا يؤكد أن المراد بالبيت بيته إلا أن الخطاب لما كان نازلاً عليه عدل عن صيغة الغيبة فلم يقل عن أهل بيت الرسول إلى خطاب الرسول وأهل بيته فقال: ﴿عَنْكُمُ﴾.

وبين المخاطبين بقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فإن كن من أهل بيت الرسول دخلن وإن لم يكن من أهل بيته خرجن، وقد احتج بحديث الكساء على خروجهن واختصاص الخمسة أهل الكساء باسم أهل البيت مع أن كلام زيد بن أرقم يفيد أنهن لسن من أهل بيت رسول الله ص حقيقة بل مجاز بقوله: ((ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده)) وهو عربي اللسان.

وحديث بريرة ـ وهي مولاة عائشة ـ يفيد: أنها لا تحرم الصدقة عليهن؛ لأنها لو حرمت عليهن حرمت على مواليهن كما تحرم على الهاشميين

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ

ومواليهم تبعا لهم؛ لأن الولاء لحمة كلحمة النسب، فأما السياق فلا يتعين فيه كونهن من أهل البيت، لأن سبب ذكر أهل البيت ومخاطبتهم هو تعليل ما ورد من تحذير الزوجات لأن (إن) تكون للتعليل مثل: إنها ليست بسبع.

وقد قال الإمام القاسم بن محمد × إنها تعريض بالزوجات مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ..﴾ [الأنعام:٣٦] وكان السياق في الكفار حتى قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥] ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ..﴾ الآية [الأنعام:٣٦].

نعم احتج المخالفون بقول الله تعالى حاكياً لقول امرأة إبراهيم × : ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾؟[هود٧٢: ٧٣].

والجواب: أنه لم يقل أهل بيت إبراهيم، ويحتمل: أن المراد البيت الذي هما ساكنان فيه ليس معهما غيرهما فلم يحتاجوا إلى بيوت متعددة ولو قال أهل بيت إبراهيم لكان حجة ظاهرة، وقد بسط الشرفي الردّ عليهم.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ

وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذا حث وترغيب للرجال والنساء ونساء النبي ص داخلات فيه دخولاً أوّلياً فهو تأكيد لطيف لما مر فيهن ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ قد قررت فيما سبق أن المراد بالإسلام عبادة الله وحده، واجتناب الشرك.

انظر الآيات من (آل عمران) [آية: ١٨و١٩] ومن (سورة البقرة) [آية:١٣١، وآية ١٣٢، وآية ١٣٣] ولا خلاف أن من شهد الشهادتين يقال له: مسلم قبل أن يقوم بفرائض الإسلام، وذلك لأنه تبرأ من الشرك بقوله: ((أشهد أن لا إله إلا الله)) ودخل في عبادة الله وحده بقوله: ((وأشهد أن محمداً رسول الله)).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ مر تفسيرهم ودل القرآن في مواضع منه على أن المجرمين ليسوا مؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ القنوت المستمر: هو الطاعة والخضوع، فهو أنسب لاسم الفاعل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ إما الصادقين في إيمانهم، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥] ﴿وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ من كان إيمانها يدعوها إلى الجهاد في سبيل الله لو أُمِرت به كما أمر الرجال، وإما الملتزمين للصدق، والأول أرجح.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على طاعة الله وعلى ما ابتلاهم به ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ لله تعالى المتذللين له، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٩٩] ومن الخشوع المستمر الخشوع في الصلاة.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ يصدق على الفريضة والنافلة وروي أن رسول الله ص وعظ النساء فقال: ((تصدقن تصدّقن فإن أكثركن حطب جهنم)) فأفاد أن التصدق من أسباب التوفيق، كما أفاده قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:٢٦٥].

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ بالفرض والتطوع بصيام أيام البيض أو غيرها، وهذا لأن الصائمين ظاهره الاستمرار وقد روي في صيام شهر رمضان وستا من شوال أنه صيام الدهر أي أنه مثله في كثرة الثواب، وكذا روي في صيام شهر رمضان، وأيام البيض من كل شهر، والله أعلم، والتخريج للحديثين في (الاعتصام) تأليف الإمام القاسم بن محمد × وهو مطبوع. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي من غير الأزواج والمملوكات لقول الله تعالى: ﴿إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٦].

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بالقلب واللسان، ويدخل فيه الذكر باللسان إذا غفل القلب ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يحتمل لأهل الصفات المذكورة الجامعين لها، ويحتمل أهل كل صفة، وهو مقيد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] وغيرها كما مر.

وقال الشرفي في (المصابيح): ((وروي أنه لما نزل في نساء النبي ص ما نزل، قال نساء المؤمنين: فما نزل فينا شيء، فقال تعالى في الجامعين والجامعات لهذه الطاعات ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾)) انتهى.

ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ **أوجبه وحكم به فليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيار إن شاءت عملت بأمر الله وإن شاءت خالفت، ولا حق لهم في الخيار، بل إن أطاعوا فهو الواجب عليهم، وإن خالفوا عصوا فضلوا ضلالاً مبيناً، لأن ﴿مَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ غوي عن الصواب غواية بينة، وعدل عن الهدى، ومن ضل فإنما يضل على نفسه.**

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء:٩٢] **فهو نفي المناسبة لإيمانه ونفي لكونه يستقيم منه، فكذا في قوله تعالى: ﴿يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ كأنه لا يتصور أن يكون له الخيار، وهذا نفي للخيار مؤكد.**

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ **واذكر ﴿إِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالهدى للإيمان وتيسير ملازمة رسول الله ص وهو**

زيد بن حارثة كما قد ذكر الله اسمه وذكر الوصف هنا دون الاسم يبين كرم رسول الله ص حيث لم يسكت عنه ليطلق امرأته مع أن رسول الله ص أنعم عليه بالتربية له والهداية إلى الحق، وهي أعظم نعمة فلولا أنه ص فوق الناس في الكرم لكان يكفي منه أن يسكت ويترك زيداً وما اختار لنفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ يفيد: أنها قد خطرت ببال رسول الله ص إذا طلقها زيد، وقضى رغبته فيها أن يتزوجها رسول الله ص لكنه يخشى الناس لأنهم ما زال في أنفسهم أثر اعتقاد الجاهلية أن المتبنى ابن فيكون في رأيهم كأن رسول الله ص تزوج امرأة كانت زوجة ابنه، فحاذر كلام الناس فيه وإن كان باطلاً.

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فتطيعه، وتترك محاذرة الناس، فأما ما يروى: من أنه كان قد رآها وهي في عقدة زيد بن ثابت فأعجبته حتى شغل قلبه في ذلك الحين، فهذا لا يفيده القرآن، ولا يؤمن أن يكون مما يُروى لبني أمية في بني هاشم وإن كان هذا عند أهل العقول لا يعاب عليه، إذا لم يتعمد النظر إليها أو لم يكن قد حرم النظر إلى الأجنبية غير المخطوبة؛ لأن أثر النظر ليس اختيار حينئذ لكن ما يحتاج إلى الاعتذار فالسكوت عنه أولى إذا لم يكن في القرآن، واحتمل أن يكون مكذوباً على رسول الله ص لغرض منافق، مع أن من البعيد المخالف للمروءة والحياء أن ينظر رسول الله ص إلى امرأة أجنبية متعمداً وهو يعلم أنها مزوجة، ولو كان قبل تحريمه.

والذي يترجح أن الله تعالى أخطر زواجه بها بباله ليبطل عادة الجاهلية في اعتبار المتبنّى ابناً وليس ابنا في نفس الزواج؛ لأنه ما كان يذهب أثرها من نفوس المسلمين إلا بوقوع ما ينافيه من رسول الله ص فقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تكرماً وحذراً من كلام الناس إذا طلقها وتزوجها هو ص.

كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ حين قد طلقها زيد وذهبت عنه الرغبة فيها ولم يبق له فيها حاجة، والوطر: الغرض، والحاجة. في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الوطر: الحاجة والأرب، وزيد هو زيد بن حارثة الكلبي ـ رضي الله تعالى عنه ـ مولى النبي ص)) انتهى، وقال له: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فعليك أن تنفذ حكم الله، ولا تخشى الناس.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ أي من زينب ﴿وَطَرًا﴾ أي حاجة ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ لاستغناء زيد عنها حين لم يبق له فيها وطر، ثم ذكر الحكمة في ذلك، فقال تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ بشرط ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ فهذا لإعلاء كلمة الله، وإبطال كلمة الجاهلية، فبعد رسول الله ص لا يرى مسلم في مثل ذلك الزواج عيباً أو سبباً لقالة المسلمين، فأما أعداء الإسلام فلا يهم المؤمن كلامهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ عند رسوله والمؤمنين، وأمره حقيق أن يُفعل، ومن شأنه ذلك، ويحتمل: أن المراد وتم ما أمر الله به من زواج زينب والأول أرجح.

﴿٣٨﴾ ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾ من ضيق فلا إثم عليه ولا عار ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ فيما أوجب الله له وحتمه، لأن الله تعالى لا يفرض إلا ما فيه الحكمة وهو الصواب، لأنه أحكم الحاكمين.

وَتَخْشَوْنَهُۥ وَلَا تَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ سنة الله سنها في الذين خلوا من قبل سنها من قبل فيهم فكل نبي لا حرج عليه فيما فرض الله، وهذا يعم كل ما فرض الله له مثل زواج تسع وزواج نبي الله سليمان × فيما حكي أكثر من ذلك بكثير.

قال الشرفي: ((وقد كان لداود × مائة زوجة وثلاثمائة سِرّيّة [أي جارية مملوكة مخصصة للنكاح] ولولده سليمان ثلاثمائة مهيرة وسبعمائة سرّيّة)) انتهى. قال في (الصحاح) : ((والمهيرة: الحرة)) انتهى.

فهي هنا الزوجة الحرة بل ولعل الزواج من مفهومها، وهي مشتقة من المهر، والله أعلم. فليس على أنبياء الله ولا غيرهم من حرج فيما فرض الله لهم، وإن كان شيئاً غير مألوف من قبل، قال الشرفي: ((قال في البرهان: والسنة الطريقة المعتادة)) انتهى.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ مثل: ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [البقرة:٢٣٦] في قراءة ـ فتح الدال ـ فأمر الله قدر محدود ليس فيه إفراط ولا تفريط، بل مقدّر تقديراً محكماً ففي التكاليف ذلك، ومنها: تشريع نكاح طليقة المتبنى، ومنها: تزويج النبي ص بتسع، ومنها: تكليف الرجال بالجهاد، والتشريع للنساء بالحضانة للأطفال في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣] وغير ذلك.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ في تبليغ الرسالات، وفيما كلفوا به فلا يخالفون حكمه.

شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ

﴿وَلَا تَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ فيبلغون رسالات الله على رغم الكفار والمنافقين، لا يمنعهم خوف أحد ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ يحاسب عباده فيخشونه لأنه حسيبهم ولا يبالون بغيره ولا يرضون حسيباً غيره يراقبونه في تصرفاتهم وأعمالهم.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ لا زيد بن حارثة ولا غيره من رجال المخاطبين، فأما الأطفال فقد كان ص أبا ابنه إبراهيم، وأبا الحسن والحسين من ابنته فاطمة، كما كان عيسى × من ذرية إبراهيم × وقد كتبت في هذا الموضوع كتاباً فيه تسعة فصول في تثبيت أن الحسنين أبنا رسول الله ص عنوان الكتاب (الذرية المباركة) ففيه كفاية لمن أنصف فليراجع.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ولكن كان محمد رسول الله ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فهو رسول وهو نبيء لا نبي بعده، فلا بد من أئمة هدى تقوم مقام الأنبياء يجددون الدين كلما أشرف على الضياع ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ فتشريعه حق ليس يغيره غفلة ولا نسيان لأن الله بكل شيء عليم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بقلوبكم وألسنتكم ﴿ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ وكلمات الذكر لله كثيرة ومنها الدعاء والاستغفار وتذكير الناس بالله وذكر الدلائل على الله، والتحميد والتكبير والتهليل وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله عند البلوى، والحمد لله عند النعمة، وأستغفر الله عند الزلة، وغير ذلك.

ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا

وخصّ الله تعالى من ذلك التسبيح فقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ في أول النهار ﴿وَأَصِيلاً﴾ في آخره، ومن الذكر: (سبحان الله) تقولها ثلاثاً وثلاثين (والحمد لله) ثلاثا وثلاثين، (والله أكبر) أربعاً وثلاثين بعد كل فريضة وعند النوم، وكذلك قراءة (آية الكرسي) بعد كل فريضة وغير ذلك، وكثرة الذكر لله شكر على نعمة الدين كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿٤٣﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ معناه: هو الذي يرحمكم وتدعو لكم ملائكته وقال معنى ﴿يُصَلِّى﴾ يبارك عليكم)) انتهى.

وكل هذا صحيح فهو تعالى يرحم المؤمنين بما ينزل من آيات القرآن لهدايتهم وإرشادهم ويبارك عليهم بإنزال آيات القرآن المبارك الموصوف بالبركة في أربع آيات ولعل هذه الآية تلفت أنظار المؤمنين إلى ما مضى في هذه السورة من إرشاداتهم وفي غير هذه السورة ليشكروا نعمة الهدى ويتمسكوا بما تنزل لهم من الرحمة والبركات التي تخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهدى.

﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ كل المؤمنين من الأولين والآخرين فمن رحمته الإرشاد والهدى ومن رحمته الألطاف ومن رحمته الدفاع عن الذين آمنوا إذا قاموا لنصر دينه وغير ذلك.

وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ

﴿٤٤﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من ربهم ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ أي عليكم أو لكم، أي أمان فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ تكريماً لهم بما صبروا وهو الثواب.

﴿٤٥-٤٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا * وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ﴿شَٰهِدًا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فهو شاهد يوم القيامة على ما شاهده من جرائم العصاة ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بالثواب ﴿وَنَذِيرًا﴾ لأعداء الله بعذابه.

﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ تدعو العالمين إلى طاعة الله وتقواه والهدى إليه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بمعونته وتيسيره لذلك العمل الشاق بسبب محاربة أعداء الله لدعوته ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ لبصائر من يؤمن ويتبع وهذا تشبيه بالسراج الذي ينير للبصر ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ عطاء جزيلاً وخيرا كثيرا وهو يعم الثواب والتفضل في الآخرة، والنصر في الدنيا وما فيه من النعم من التمكين لهم والغنائم وغير ذلك.

﴿٤٨﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تأكيد لما مر في أول السورة، ولعله ليترتب عليه الأمر بالتوكل وعدم المبالاة بهم وأنهم لا حاجة له في طاعتهم لأن الله حافظه وناصره عليهم.

ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ

وقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص:٥٥] وقد أمره الله بجهادهم في (سورة التوبة) و (سورة التحريم) لدفع الكفر، ولدفع الطعن في الدين.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تأكيد للدلالة على فائدة التوكل على الله، وهذه السورة تفيد أن قد استعد رسول الله ص لجهاد الكفار.

﴿٤٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ تزوجتم بالعقد ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ قبل أن تجامعوهن ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ لأن مهمة العدة حفظ النسل فتعتد ليتبين إن كانت حاملاً منه قبل أن تتزوج غيره، فإذا لم يكن جامعها لم يحصل فيها هذا المعنى فحكم الله أن لا عدة عليها، فأما الخلوة فلا توجبها وإنما تعتد احتياطاً لحق الله لئلا يكون قد جامعها، ولم يكف إقرارها بعدم الدخول لاحتمال أنها تدعيه لتسارع إلى التزوج بدون عدة ولا كفى إقراره لاحتمال أنه يريد التخلص من نفقة العدة، فلذلك لا يكفي إقرارهما بعدم الدخول بل تؤمر بالعدة احتياطاً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ بمتاع مثل بدلة كسوة بقدر حال الزوج كما مر في (سورة البقرة) وقوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ بترك الجفاء وحسن القول وإذا كان أهلها ببلد بعيد جعل لها مركوباً وأصحبها من يحفظها وذا رحم لها وبذلك يكون إرسالها حسناً.

أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ

﴿٥٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال الشرفي: «قال في (البرهان): وهذا من أدل الدليل على أن هذه الآية ناسخة؛ لأنه لما نزل: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ ولم يكن عنده يومئذ في حباله من بنات عمه، ولا من بنات خاله امرأة فلما جاء إحلال من ذكرنا كان ذلك حكماً مستجداً ناسخاً لنهي تحريم النساء له» انتهى.

قلت: هو نسخ في محل التخصيص فقط، وهو مؤكد لتحريم غير المخصص لأنه لو كان ص قد حل له بعد التحريم أن ينكح من النساء ما شاء كما روي لما كان في تخصيص المذكورات فائدة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قيد للتحليل يخرج من لم تهاجر معه فهي باقية على أصل التحريم، وقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً﴾ أي وأحللنا لك امرأة مؤمنة معينة.

قال الشرفي: ((قال في (التجريد): وفي المرأة التي ﴿وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أقوال أحدها: أنها أم شريك، والثاني: أنها خولة بنت حكيم، ولم يدخل النبي ص بواحدة منهما، وذكروا أن ليلى بنت الحطيم وهبت نفسها له فلم يقبلها وعن ابن عباس أنها ميمونة بنت الحارث وعن الشعبي أنها زينب بنت خزيمة، وقال الهادي × : هذه الهلالية وهبت نفسها للنبي ص فأجاز الله ذلك له من دون المؤمنين)) انتهى المراد.

قال الشرفي: ((قال في (البرهان): وروينا عن آبائنا عن زين العابدين × أنها أم شريك بنت جابر وهبت نفسها للنبي ص فتزوجها من وليها)) انتهى. فظاهره: أنها حلت له ص بالهبة بشرط إن أراد النبي ﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ فإن لم يرد ذلك لم تحل له.

وقوله: ﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ لم يقل: أن ينكحها وأصل المعنى يطلب نكاحها والمفروض أنها تحل له بالهبة فالراجح: أن المعنى أن يطلب نكاحها من وليها تطييبا لنفسه وبدون مهر ولا جهاز كما مر في الرواية عن زين العابدين × ، فالتخصيص للنبي ص بحل الواهبة نفسها باق لكن بشرطه.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ مما حصل لك غنيمة بالجهاد، ولعل مارية قد صارت من أزواجه كصفية في كونها صارت من أزواجه وقوله ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي هذه التي وهبت لا تحل لأحد من المؤمنين بالهبة امرأة ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من المهور وتحديد أكثر الزواج لهم بأربع وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من الإستبراء وخلوص الأمة لمالك واحد، وأن لا يتزوجها حر إلا بشروط مذكورة في (سورة النساء) والله أعلم، وقال الشرفي: ((يعني: يحللن من غير عدد محصور [أي بالملك] ولا قسم مستحق)) انتهى.

ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا تَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ

وقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أحللنا لك ما ذكر في هذه الآية لكي لا يكون عليك ضيق، ولعل ذلك من أجل قوله تعالى: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ..﴾ الآية [الأحزاب:٥٢] فرفع الحرج بتأكيد إحلال التسع وإلحاق بنات عمه وبنات عماته ومن ذكر بعدهن ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ قال الشرفي: ((ثم قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ للواقع في الحرج إذا تاب رحيما بالتوسعة على عباده)) انتهى.

﴿٥١﴾ ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا تَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ قال في (الصحاح): ((أرجيت الأمر أخرته)) انتهى المراد.

فمعنى ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ تعزلها عنك ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ تضم إليك في مبيت أو قيلولة، قال الشرفي: ((قال الهادي × : معنى ﴿تُرۡجِي﴾ فهو تترك وتقصي من شئت منهن ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾ أي تضم إليك من تشاء أي تدعو وتخلو بمن أحببت منهن ذلك أن الله أمره أن ينحيهن كلهن عنه إلى دار معتزلة عنه، ويكون هو في داره على حدة فإذا أراد منهن واحدة أرسل لها فدعاها، وإذا لم يرد واحدة أرجاها وكان ذلك أحب إليهن، وأقرّ لأعينهن من أن يغشى واحدة إلى منزلها أكثر مما يغشى منازلهن فعرفه الله سبحانه ما فيه الرشاد له ولهن)) انتهى.

بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا

وما روي: ((أنه ص كان إذا تزوج بكراً أقام عندها سبعاً وإذا تزوج ثيباً أقام عندها ثلاثاً)) محمول على حالة الأعراس، أو كان ذلك قبل تحريم النساء عليه، وما روي: ((أنه كان يطاف به في مرضه في نوبة كل واحدة ثم استأذنهن وهو في بيت عائشة مريض أن يبقى فيه فأذن له)) محمول على حالة المرض خاصة ليمرضنه ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ فتشريعه هذا أوفق للقلوب وأرفق ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ عليماً بكل شيء ومنه الحكمة في التشريع حليماً لا يعجل بالعقوبة.

﴿٥٢﴾ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ أي زيادة على ما أحل لك.

وظاهر كلام (البرهان): أن هذه الآية متقدمة على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ..﴾ فإذا كان كذلك، فقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ..﴾ إلى آخرها فيها نسخ تخصيص، أما إذا كان (آية التحريم) هي المتأخرة، فالمعنى: لا يحل لك النساء من بعد أن أحللنا لك أو ما أحللنا لك من نسائك وبنات عمك.. إلى آخرها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ فلو ماتت واحدة أو طلقها لم يكن له ص أن يبدلها إلا بإذن جديد، كما يفيده قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ..﴾ [التحريم:٥] إلى آخرها.

أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ هو استثناء في الآيتين للجواري السريات، وفي هذه الآية أطلق ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ولم يقيده ولعل قوله تعالى: ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ..﴾ ليس تقييداً إنما سببه أن الجواري التي كانت عنده هن مما أفاء الله عليه، والتكليف هنا خاص برسول الله ص وهو أعلم بمراد الله منه.

فأما تكليفنا فقد أحل الله لنا المملوكات على الإطلاق أي غير مقيد بالفيء ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ فلا يخفى عليه من أطاع ولا من عصى، فعلى العباد أن يراقبوه.

﴿٥٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ البيوت التي هي ملكه، ومنها بيوت أزواجه تضاف إليهن

لأنهن ساكنات فيها نهى الذين آمنوا عن دخولها إلا على شرط محدود صيانة لها عن سفاهة السفهاء نهوا من أجل النساء صيانة لهن، وفي ذلك إبطال لمكر المنافقين ومحاولتهم الإفساد بينه وبين بعض نسائه أو إدخال الشر عليه من طريقتهن ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ﴾ في الدخول والإذن مصدره الرسول ص وإنما يكفي أن يبلغ عنه مبلغ ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ ليس الإذن إلى غيره.

﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾ غير منتظرين ﴿إِنَىٰهُ﴾ نضجه وصلاحه للأكل بل لا تدخلوا إلا عند حضوره صالحاً للأكل، وفائدة هذا أن لا يطول بقاؤهم في البيت إذا دخلوا قبل وقت الأكل للطعام ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ لتأكلوا، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا..﴾ [الجمعة:١٠] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا..﴾ [المائدة:٢].

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾ عن بيوت النبي ص وجوباً ﴿وَلَا﴾ تبقوا ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ يحدثكم به الرسول ص أو غيره، والاستئناس هنا محاولة ما يأنسون به للبقاء شبه رخصه بإذن أو قرينة فهو مثل مستأذنين في البقاء إلا أن مستأنسين أعم من المستأذنين لأنه يدخل فيه القرينة وهي قد تكون بسوط الحياء أو غلطاً منهم مثل أن يجعلوا ترك الأمر بالخروج قرينة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ البقاء المفهوم من ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ﴿كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ لأن الوقت ليس وقتكم ولكم وقت آخر يخرج فيه إليكم، فبقاؤكم يؤذيه لأي سبب من أسباب بقائكم.

وقد فسّروه بأنه كان يريد أهله قبل أن يحين وقت الصلاة فإذا بقوا فوتوا عليه ذلك وقد أبهم القرآن السبب غير بقائهم لأن المهم كونه يؤذي النبي لا معرفة لما يؤذيه بقاؤهم ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾ أن يخبركم أنه يؤذيه أو يأمركم بالخروج ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أن يأمر به فقد أمركم بذلك لأن الحق خروجكم وترك اللبث.

ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ توضيح لبقاء النهي عن الدخول ولو سألوهن متاعاً بل يسألونهن من وراء حجاب بينهن وبين السائل، والمتاع: الحاجة مثل شربة ماء أو شيء من الماعون أو طعام لجائع مسكين.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي ترك الدخول إلا بإذن على شرطه المذكور وترك السؤال لمتاع إلا من وراء حجاب أو الإشارة إلى الأخير أطهر لقلوبكم من خطور الشهوة لهن وإضمار السوء وقلوبهن كذلك.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بمخالفة هذه التكاليف أو بغيرها أو بغير سبب، وهذا يمنع أذية المنافقين تعللاً بهذه التكاليف ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي حين يكون ص قد فارق الحياة الدنيا فهن حرام على أمته، ولعل السر في ذلك أن الذي يليق بالمؤمن أن تكون رغبته في بقاء الرسول ص حياً وحرصه على ذلك شديداً والرغبة في نكاح أحد أزواجه من بعده تعارض ذلك والله أعلم. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ النكاح المذكور ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ وهو أحكم الحاكمين كان عنده وفي حكمه عظيما شديد القبح من أكبر الكبائر.

﴿٥٤﴾ ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا﴾ مما في نفوسكم من حديث نفس أو عزم على أمر أو ظن أو تردد أو أي أمر كان في النفس فأظهرتموه ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ فلم تظهروه يعلمه الله فيحاسبكم به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ فلا يخفى عليه شيء، ولعل الآية تشير إلى ما وقع في نفوس المنافقين تجاه الأحكام المذكورة المتعلقة بنساء النبي ص.

مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ

﴿٥٥﴾ ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ **نهى الله تعالى عن دخول بيوت النبي ص وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ وكان ذلك صيانة لنسائه وحفظاً لدينهن، لأن الأجنبي إذا دخل عليهن وليس مؤمناً قد يزين لهن الباطل والنساء ضعاف العزم.**

ثم استثنى من الآية التي مضت أفرادا معينين، فقال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ أي أن يدخلوا بيوتهن ﴿وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾ كذلك ﴿وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ وهي تعم الأخ لأبوين، والأخ لأب، والأخ لأم ﴿وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ﴾ وهي كذلك في عموم الإخوان ﴿وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ وهن المسلمات، وهذا يؤكد أن الحجاب كان لحفظ الدين مع صيانة النساء عن التهمة والمرأة الكافرة أضر على المسلمة من الرجل وأقدر على التأثير فيها بتزيين الباطل أي نوع منه، وبرمي الإسلام بالتضييق على المرأة وأنها لا تستطيع الاستمرار على الحجاب وغير ذلك مما يوحي إليها الشيطان.

قال الشرفي في (المصابيح): ((قال المرتضى × : فدل على أن ثم نساء ممنوعات أن يبدين زينتهن لهن فحظر عليهن أن يبدين زينتهن عند غير نسائهن، ومعنى نسائهن فهو أهل ملتهن)) انتهى المراد.

ولعل كلام المرتضى × في تفسير (آية النور) حيث قال تعالى: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ [آية:٣١] فأما (آية الأحزاب) التي نحن في سياقها فلم يذكر فيها إبداء

وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ

الزينة، بل منع الدخول عليهن والضرر فيه كما ذكرت ونساء النبي ص كن قدوة للنساء، فلو فسدن أثر ذلك في غيرهن ونساء النبي ص مأمورات بالبقاء في بيوتهن والمسلمات يخرجن فنهى المسلمات عن إبداء زينتهن سواء في الطرقات أم في بيت من البيوت، ولهذا فينبغي التفهم للفرق بين الآيتين مع أن حكم نساء النبي ص في تحريم إبداء الزينة حكم سائر المؤمنات لأنهن داخلات في عموم (آية النور).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ قال الشرفي: ((عن المرتضى × ـ ثم قال ـ: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء اللواتي لسن من أهل ملتهن ولم يسلمن بعد)) انتهى المراد.

وقوله: ((ولم يسلمن)) يعني إماء المسلمات فقد دخلن في عموم نسائهن والأولى أن الآية عامة للكافرات والمسلمات من الإماء لا تخص الكافرات لأن دخول المؤمنات في نسائهن لا يمنع دخولهن في عموم ما ملكت أيمانهن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فحافظن على طاعته فيما ظهر وما بطن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ فهو شهيد على ما تفعلن والشاهد هو الحاكم.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعليل للأوامر التي مر ذكرها لنساء النبي ص وغيرهن والتكاليف المتعلقة بهن، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الراجح أنها من الله وملائكته صلاة زائدة على الصلاة على المؤمنين.

وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ﴾ فهي من الله تعالى رحمة وبركات مستمرة كثيرة تدخل فيها ألطاف وعصمة وتشريف له ولكل ما يتصل به وتستمر في حياته وبعد وفاته، ومن ذلك ما كان من بركاته في الطعام لأهل الخندق وأصله قليل، وفي الماء الذي نبع من بين أصابعه، وغير ذلك فأما صلاة الملائكة عليه فالراجح: أنه دعاؤهم بذلك فذكر الله نفسه وملائكته قدوة للمؤمنين فرتب عليه أمره للذين آمنوا فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ وفي ذلك تعظيم للصلاة عليه، وتعظيم له ص.

وقوله: ﴿وَسَلِّمُواْ﴾ أي عليه حذف؛ لأنه قد دل عليه ذكره في المعطوف عليه، مثل: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ ولو كان المراد غير ذلك لذكر، فقيل: وسلموا لأمر الله تسليماً فأما تقدير ما لا يدل عليه السياق فهو خلاف الظاهر.

وفي (أمالي المرشد بالله ×) [ج١/ص١٢٣] أسند إلى عنبسة بن سعيد، عن الإمام الشهيد أبي الحسين زيد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن علي عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ جاء رجل فقال: يا رسول الله قد عرفنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ فأخذه بيده ثم قال: ((اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد)) فذكر الخمس صلوات ـ ثم قال ـ: ((خذها يا علي خمساً فإنك من أهلها)) انتهى.

ورواية ((قد عرفنا السلام عليك فكيف نصلي عليك))؟ مشهورة، رواها البخاري في (جامعه) وغيره من المحدثين، وهي تدل على أنهم فهموا من الآية: وسلموا عليه تسليماً.

وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن

وأما تخريج الحديث وفيه قولوا: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد» فقد بسط فيه الشرفي في (المصابيح) عند ذكره لهذه الآية، وكذلك جمعت منه جملة وافرة في كتيب عنوانه (أحاديث مختارة) وظاهره: أن الصلاة على آله معه جزء من الصلاة عليه.

﴿٥٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ قال الشرفي: «قال في (البرهان): ومعنى ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ يؤذون رسوله فجعل أذى رسوله أذى له تشريفاً لمزيته [تحتمل لمنزلته] وتشييداً لكلمته» انتهى باختصار.

قلت: لما كان رسول الله رسولاً بدين الله كان الطعن فيه طعناً في رسالته وردا لآيات الله الدالة على صدقه، لأن تحقيره تحقير لما جاء به عن الله فأذاه راجع إلى ما جاء به من عند الله، فصح اعتباره أذى لله تعالى، وهو سبحانه يستحيل عليه التأذي وجعل عذابهم مهينا مناسب لتكبرهم.

﴿٥٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بالكذب عليهم ونسبة ما لم يفعلوا إليهم، يدخل فيه قذف المحصنات بما لم يفعلن، ويدخل فيه رمي النواصب للإمام علي × بقتل عثمان، وقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾ بالكذب على المؤمن أو المؤمنة ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ بيناً؛ لأنهم آذوا المؤمن أو المؤمنة بغير حق فقد احتملوا جريمتين معا.

جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي

﴿٥٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ قال الشرفي عن (البرهان): ((والجلباب: هو ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها)) انتهى.

وقال في (لسان العرب): ((والجلباب: القميص، والجلباب: ثوب أوسع من الخمار دون الرداء تُغطي به المرأة رأسها وصدرها، وقيل: هو ثوب واسع دون الملحفة تلبسه المرأة، وقيل: هو الملحفة، قالت جنوب أخت عمرو ذي الكلب ترثيه:

تمشي النُّسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلابيب

وقيل: هو ما تغطي به المرأة الثياب من فوق كالملحفة، وقيل: هو الخمار ـ ثم قال ـ: وفي التنزيل العزيز ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ قالت العامرية الجلباب الخمار، وقيل: جلباب المرأة ملاءتها التي تشتمل بها واحدها جلباب، والجماعة جلابيب، وقد تجلببت وأنشد:

والعيش داج كنفا جلبابه ...البيت.

وقال آخر:

مجلبب من سواد الليل جلباباً ...البيت.

ـ ثم قال ـ: والجلباب ـ أيضاً ـ الرداء)) انتهى.

فالأظهر: أن الجلباب أكبر من الخمار، فقوله تعالى: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أي يسترن بها أعالي أبدانهن مع ستر أسافلها بالأزر أو غيرها

ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا

﴿ذَٰلِكَ﴾ التستر ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهن مسلمات ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بتعرض الفساق من المنافقين والذين في قلوبهم مرض وغيرهم لهن، ولعلهن قبل ذلك كن يجعلن الجلابيب على رؤوسهن فأمرن بإرسالها على أبدانهن فاعتبر تقريباً للجلابيب على أبدانهن.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أنهن مسلمات بتسترهن الذي لم يكن معهودا وهذه صيانة للمسلمات وإبعاد لهن عن التهم إذا خرجن لحاجتهن.

﴿٦٠-٦٢﴾ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن النفاق وما يتفرع عليه من الإفساد بين المسلمين ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عن هذا المرض وما تفرع عليه من الإفساد بالإرجاف وغيره ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ عن الإرجاف فيها ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنسلطنك عليهم حتى يخافوك ويتشردوا.

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم يخرجون هاربين ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مطرودين مبعدين من الخير ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ﴾ أينما ظفرتم بهم أخذوا ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ لأنهم قد استحقوا النفي والقتل؛ لأنهم محاربون لله ورسوله ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ عادة الله ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ من المنافقين ﴿مِن قَبْلُ﴾ في

عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا

الأديان الماضية والذين في قلوبهم مرض منهم والمرجفون ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فعقوباته في الأولين تقع على الآخرين هي أو مثلها والمرجفون أهل الكلام الذي يخوفون به المسلمين من عدوهم ويضعفون به عزم بعضهم على الجهاد.

قال في (لسان العرب): ((الرجفان: الاضطراب الشديد، ثم قال الليث: أرجف القوم إذا خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهم الذين يولدون الأخبار الكاذبة التي يكون معها اضطراب في الناس)) انتهى. ثم قال في (لسان العرب): ((وأرجفوا: خاضوا في الفتنة والأخبار السيئة)) انتهى. وفي (القاموس): ((في رجف وأرجفت الناقة .. إلى قوله: والقوم خاضوا في أخبار الفتن ونحوها)) انتهى.

والحاصل: أنهم أهل الأخبار المسببة للاضطراب يفتنون الناس بالتخويف ولعله مأخوذ من ارتجاف القلوب، أو على تشبيه اضطراب نياتهم بالارتجاف.

﴿٦٣﴾ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى هي بالتحديد ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ علمها كله ما يكون فيها ومتى تكون، وكل شأنها ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ لأنك لا تدري متى هي فلعلها تكون قريباً وأنت لا تدري، وفيه إشارة إلى قربها لأنها أمر عظيم تأتي بأمر عظيم فقربها وبعدها بالنظر وبالنسبة إلى عظمتها ألا ترى أنه يقال أن القمر تقترب من الشمس، وليس المراد مثل اقتراب أحدنا من الآخر.

نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ﴿لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ طردهم وأبعدهم من رحمته بسلب التوفيق والألطاف وإرسال الشياطين عليهم، قال في (الصحاح): ((اللعن: الطرد والإبعاد من الخير)) ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً ملتهبة في جهنم.

﴿٦٥﴾ ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ باقين فيها أبداً لا يموتون ولا يخرجون ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولى صلاح أمرهم وإنقاذهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويخلصهم بالنفوذ والقدرة الغالبة سبحان الله.

﴿٦٦﴾ ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ لعله ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر:٤٨] فهي تمر على أمكنة مختلفة غير مستوية فتقلب وجوههم عند المرور عليها يميناً وشمالاً ووسطاً على جمرها ﴿يَقُولُونَ﴾ عند تقليب وجوههم: ﴿يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ لأن النجاة من ذلك كانت في طاعة الله ورسوله يتمنون ذلك نادمين لفواته.

﴿٦٧﴾ ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ ﴿سَادَتَنَا﴾ أشرافنا الذين كان لهم فينا سيادة وشرف مثل من ساد بالسخاء وإكرام الضيف وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف، وتفريج كربة المكروب ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ أهل العزة بكثرة الأعوان إما لكثرة المال وإما لمنصب ويطلق اسم السيد على من ساد قومه بالملك أيضاً ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ الذي هو سبيل النجاة أضلونا عن سبيل الله فأضللناه بسبب طاعتنا لهم.

رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا

﴿٦٨﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ من أجل إضلالهم لنا ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ﴾ واطردهم وباعدهم من الخير طرداً وإبعاداً كثيراً وهذا لغضبهم على المضلين لهم لأنهم كانوا سبب دخولهم النار.

﴿٦٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ﴾ لا تؤذوا نبيئكم بالكذب كما آذى موسى قومُه بالكذب عليه.

وقد أبهم القرآن ماذا قالوا في موسى، فلا نتعاطى تفسيره بنقل غير صحيح لعله من أخبار اليهود، أما الهادي × فحكى عنه الشرفي ما حاصله: ترجيح أنهم آذوا بقولهم في العجل: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه:٨٨] وليس بعيداً.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ أي برأ الله موسى ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾ فيه ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ (الواو) ليست (واو العطف) وإنما هي مثل (واو الاعتراض) وهي كثيرة في القرآن الكريم والخلل في تسميتها واو الاعتراض وهي غير خاصة بالاعتراض وكان موسى عند الله وجيها له جاه وشرف عند الله فهو مجاب الدعوة وأذيته جرم كبير.

عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾

﴿٧٠-٧١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿سَدِيدًا﴾ مصيباً للصواب غير عادل عنه في شيء من معناه ومحله ووقته بل هو سليم من كل عيوب الكلام الراجعة إلى معناه أو مكانه أو زمانه أو ما يقترن به سواء كان خبراً أو إنشاء ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يعنكم على أداء ذكره وشكره وحسن عبادته فحفظ اللسان إلا من السديد مما يذهب السيئات، كالصلاة والصدقة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ قال الشرفي: ((الكبائر بالتوبة والصغائر باجتناب الكبائر)) قلت: قد تضمن الدلالة على التوبة باللزوم قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ لأن صلاح العمل يتوقف على التوبة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فلا يصلح العمل مع الإصرار على الكبائر فسداد الكلام من أسباب التوبة كما هو سبب لصلاح العمل، وفي الحديث الشريف ((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه)) ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ فاز بالجنة والنجاة من النار وذلك الفوز العظيم.

﴿٧٢﴾ ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾ ما أودعه الإنسان من قدرة العلم والإيمان والقدرة على اختيار الهدى على الضلال، وذلك بالعقل الفارق بينه وبين الحيوان وبه يقدر على إصلاح أمره

لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

بخلاف المجنون فهو نعمة على الإنسان عظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣] لكنه مع كونه نعمة عظيمة يُعجب بها الإنسان ويُحبها خطر عظيم لما ترتب عليها من التكليف الذي يترتب عليه الجزاء.

فبيَّن الله له هذا الخطر بقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ خفن منها خوفاً كان سببا لامتناعهن عن قبولها، وهذا تمثيل لبيان الخطر وهو أنه أمر لا تتحمله اختيار السموات والأرض والجبال، وهذا كقوله في بيان عظم قدرته وكونه لا تقاس على قدرة المخلوق ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ الآيات [فصلت:٩-١١].

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لحبه لقوة المعرفة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا﴾ لغفلته عما يترتب عليها من الجزاء وإعراضه عن شكرها وعن القيام بحقها ﴿جَهُولاً﴾ لغفلته عما يترتب عليها وجهله بعاقبتها في حال قبوله لها وهذا بالنظر إلى أكثر الناس، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧] ويدل على تخصيص المؤمن من هذا قوله تعالى في تعليل هذا: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾.

﴿٧٣﴾ ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ جزاء على كفرهم لنعمة الله، ولولا العقل ما صح تكليفهم ولا وجب عليهم الإيمان ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ولولا العقل ما صح وجوب الإيمان عليهم، ولا صاروا به إلى الثواب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ﴾ أي وليتوب الله إما بالألطاف والتوفيق لحسن الخاتمة حتى صاروا إلى الثواب، وإما بإدخالهم الجنة، وسمي الثواب توبة عليهم كما سمي رحمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فلذلك كتب على نفسه الرحمة، وقبول التوبة منذ حملهم الأمانة من أول التكليف ويبقى ذلك ما بقي التكليف.

انتهى تفسير (سورة الأحزاب) والحمد لله رب العالمين

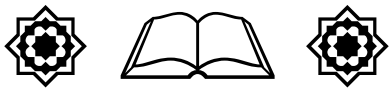

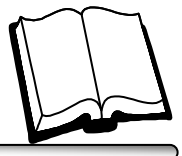

التيسير في التفسير

سورة سبأ

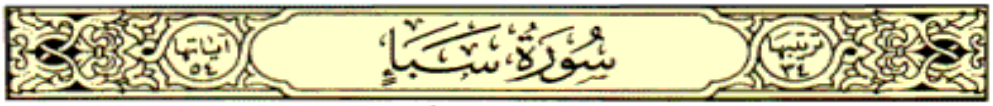

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ

ابتداء تفسير (سورة سبأ) وهي (مكية)

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ على مِلكه، قال الشرفي: ((قال في (البرهان): يعني الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض ومَلَكه)) انتهى، وفي نسخة (المصابيح): ((ومليكه)) وعندي أن الصواب: ومَلكه أي أنه ملَكه؛ لأنه خلقه، فهو محمود على أن مَلَكه بخلقه له، وهو محمود في ربوبيته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يفيد: أنه ربهم وحده ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كذلك فبطل بذلك شرك المشركين كما يأتي إن شاء الله بيانه في تفسير (سورة فاطر) ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ كما قال تعالى بعد ذكر سَوق أهل النار إليها وأهل الجنة حتى صاروا فيها: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥] فهو الحمد على قضائه يومئذ بين عباده، وذلك يدل على أن القيامة حق.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ فكل ما يكون منه حكمة، فهو حق وصواب وليس فيه غلط في التدبير فخلقه لعباده حق واستعبادهم حق وإرسال الرسل حق وكتب الله كلها حق ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ فلا يخفى عليه نفس عند البعث ولا يخفى عليه عمل عامل ولا قوله ولا اعتقاده ولا نيته فلا يعجز عن حساب عباده على ما كان منهم من كبير أو صغير أو ظاهر أو باطن ولا يعجز عن إعادة أحد ولو كان من الأولين من عهد آدم لخفائه فلا يعجز عنه لاستحالته تراباً وضياعه في الأرض كما لا يعجز عن خلق أي نفس لأنه على كل شيء قدير.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٣ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ

۝٢ ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ ﴿مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **ما يدخل فيها فلا يخفى عليه لغيابه فيها بل هو سواء هو** ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ **فلا تخفى عليه زرعة نبتت في قفرة** ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ **من ملك أو مطر أو غير ذلك** ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ **وما يطلع** ﴿فِيهَا﴾ **من ملك أو جنّي يختطف خطفة أو غير ذلك** ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ **فهو يمهل عباده ويرزقهم مع علمه بأعمالهم، كما قال تعالى:** ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨].

۝٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ ﴿وَقَالَ﴾ **عطف على أوصاف الله تعالى، فكأنه قيل: ومع هذا قال** ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ **لأنهم كفروا بالله** ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ **فلجهلهم بالله جزموا بأنها لا تأتيهم ولو عرفوا الله ما استبعدوها فضلا عن الجزم بنفيها.**

﴿قُلْ﴾ **يا رسول** ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ **الساعة لأنه** ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ **لا يبعد ولا يغيب عنه، قال في (تفسير الإمام زيد بن علي** إ **): ((معناه: لا يغيب عنه)) انتهى.**

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ

ومثله في (مصابيح الشرفي) وغيره أي أن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أي في علمه سبحانه ﴿لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢] فبطل بذلك استبعاد الكفار بقولهم: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ [السجدة:١٠] واستبعاد فرعون بقوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه:٥١] وكذلك استبعادهم لإحاطة علم الله سبحانه بكل صغير وكبير من أعمال البشر.

قال الشرفي: ((قال القاسم بن إبراهيم × : لا يتوهم أن الحفظ منه تعالى في كتاب من الكتب، وأن اللوح لوح من خشب، فإنما يراد بها وبمثلها: إحاطة الله بعلمه كله؛ لأن حفظ ما يحفظ الآدميون ما يوقعون في الكتب ويكتبون، فمثّل الله ذلك لهم من علمه وحفظه بما يعرفون)) انتهى المراد.

﴿٤﴾ ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لتأتينكم الساعة بما فيها من ثواب للمؤمنين وعقاب للكافرين ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنه ﴿لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة:١٢٠] وهم يموتون قبل أن يجزيهم فلا بد من الساعة ليجزيهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم لأنهم توابون لا يصرون على كبيرة ولهم ﴿وَرِزْقٌ﴾ في الجنة ﴿كَرِيمٌ﴾ فيه تكريم لهم، وقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يفيد تعليق الثواب على إيمانهم وعملهم وأنه السبب.

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

﴿٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ سارعوا بالجدال في آيات الله لئلا يؤمن بها أحد فهم مكذبون بها ومفسدون لغيرهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذا الباطل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من جنس عذاب مخزٍ ﴿أَلِيمٌ﴾ فهو مهين لهم ومؤلم ألماً شديداً.

﴿٦﴾ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ علماء بني إسرائيل علموا أن هذا القرآن هو الحق، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧] وفي هذه الآية توضيح أنهم علموا أنه الحق لأنه أنزل إلى محمد ص من ربه، فعلموا أولاً أنه أنزل إلى محمد من ربه.

ولذلك علموا ثانياً أنه الحق ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ لأن كلام الله حق وصدق وهدى إلى الصراط المستقيم ﴿صِرَٰطِ﴾ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا ينال بل هو القاهر فوق عباده الغالب على أمره الفعال لما يريد ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ المستحق للحمد المحمود في السماء والأرض.

﴿٧﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مبالغة من الذين كفروا في تكذيب النذير الذي أنذرهم ناراً تلظى فجعلوا كلامه من العجائب الغريبة ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بعد أن تمزقوا في بطن الأرض كل ممزق لشدة البلاء ومصيركم تراباً وعظاماً قد قطعكم البلاء فحينئذ تصيرون في خلق جديد.

بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞

﴿٨﴾ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ **كأنه أنذرهم مستحيلاً غير ممكن في قدرة الله تعالى فرددوا أمره بين أن يكون تعمد الكذب على الله وبين أن يكون به جنّة فهو يخلط في كلامه ويخبر بما لا يكون. فقد أمعنوا في الكفر بالآخرة، وردّ الله عليهم بقوله:** ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾.

فأفاد أنهم ضالون فكلامهم هذا من ضلالهم، وأفاد أن سبب ضلالهم تركهم الإيمان بالآخرة فلو آمنوا بها لبعثهم الإيمان بها على النظر وترك الإعراض وعلى ترك التكذيب للرسول ص وعلى العمل الصالح؛ لأن الخوف من النار الذي يحصل للمؤمن بها يبعث على الحذر من أسبابها فتبين أن ترك الإيمان بالآخرة سبب للضلال البعيد لأن الفاجر والظالم لا يخاف عقوبة فيتجرأ على العظائم كتكذيب الرسول والجدال في آيات الله.

وأفاد أن ترك الإيمان بالآخرة سبب للعذاب مستقل وما يترتب على ترك الإيمان بها أسباب أخر، ولعل هذا هو السّر في تقديم ذكر العذاب قبل ذكر الضلال ليدل على أنهم في العذاب لأجل تركهم الإيمان؛ لأنه علق الوعيد عليه، ومعنى كون الضلال بعيداً أنه بعيد عن الهدى للحق بينهما مسافات ومراحل.

﴿٩﴾ ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ **هذه الآية الكريمة ردّ آخر على المكذبين بالآخرة**

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ إلى ما يدلهم على قدرة الله تعالى من خلق الله لـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تحت قدرة الله تعالى إن شاء أبقاه صالحاً وإن شاء خسف بهم الأرض أو أسقط عليهم قطعاً من السماء فقد استحقوا ذلك فهوت بهم الأرض أو طحنتهم قطع من السماء تتساقط عليهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ تدل على أن الله قادر على إعادة المخلوقات بعد إفنائها يعرف ذلك كل ﴿عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجع إلى الله تائب إليه فقلبه صالح لمعرفة آية الله سليم من رين الكفر والجرائم.

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ * أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فضلاً تفضلنا به عليه عطاء منا غير واجب له، وفسر هذا الفضل فقال تعالى: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ رَجِّعي معه الصوت حين يقرأ (الزبور) أو حين يدعو الله ويستغفره، أي جعلنا الجبال ترجِّع معه الصوت ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ معه ﴿وألنّا له الحديد﴾ جعلناه له ليِّناً يعمله ولا يحتاج في عمله إلى النار.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ﴾ تفسير للمقصود بتليين الحديد له لأنه تعبير عن حكمة في إلانته له وهي أن يعمل دروعاً سابغات أي شاملات للبدن تحفظه من السيوف وغيرها ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ تقديراً يحصل به المقصود الذي هو حفظ البدن من السلاح في ذلك الزمان ومقصود آخر وهو أن لا تثقل بسبب كونها حافظة فهي جامعة للوصفين الحفظ والخفة بالنسبة للدروع التي كانت تعمل.

قال الشرفي: ((قال في (البرهان): وإنما كانت قبل ذلك صفائح)) قال الشرفي ـ أيضاً ـ : ((وقال الهادي × : معنى ﴿مِنَّا فَضْلاً﴾ فهو نبوتنا التي آتيناه ووحينا وما جعلنا في الجبال والطير من التأويب في الجبال ومقارنة الطير له، وما ألنّا له من الحديد، وما علمناه من عمل السابغات وهديناه له من التقدير في السرد حتى عمل جُنَناً تقيه البأس وتَفُل عنه حَدّ بغاة الناس، ومعنى ﴿أَوِّبِي﴾ فهو ما جعل الله في الجبال من التأويب وهو الذي تسميه العرب ـ أيضاً ـ الصدى شيء لم يكن قبل داود × ، وأن الله جعله في ذلك الوقت وقدّره لكرامة داود ثم أبقاه إلى اليوم فيها، ليكون ذلك ذكراً لما أكرم الله تعالى به داود × والله أعلم بذلك وأحكم.

ومعنى ﴿وَالطَّيْرَ﴾ فهو رَدّ على الأمر [قوله: ردٌّ على الأمر: لعله يعني عطف على ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾] والمعنى [ومعنى] أمره الطير فهو إلهامه إياها ما أراد من مقاربة داود واحتواشها عليه وكينونتها قربه كل طائر يصوت بصوته الذي جعله الله له مع صوت داود ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان داود يبكي ويدعو الله ويناجيه ويناديه والجبال فتأوب وتردّ مثل صوته وكلامه عليه والطير يصوت من حواليه حتى بلغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إرادته من رضى ربه، وإخلاص التوبة إلى خالقه، ورجوع كرامة الله إليه وحلولها من الله سبحانه لديه.

ومعنى ألنّا الحديد له، فهي خاصة كان الله خصه بها، فكان الحديد يلين له كما يلين الشمع بلا نار ولم يكن الحديد يلين لأحد قبله إلا بالنار فلان له بلا نار ثم هداه لعمل السابغات، والسابغات فهي الدروع الطوال الساترات، ومعنى في السرد أي قدر في تأليف الحِلَق بعضه إلى بعض وتسويته وتقدير ثقبه وسَمره فكان × أول من عمل الدروع وهدي إلى عملها ووفق لتقديرها)) انتهى ما نقله الشرفي هنا من تفسير الإمام الهادي × .

ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ

وقوله تعالى ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ لعل الخطاب له ولأهله ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أثيبكم عليه بقدره لعلمي به وبمقداره في الحسن وكثرته ونحو ذلك.

﴿١٢﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾ أي وسخرنا لسليمان ﴿ٱلرِّيحَ﴾ عطف على المعنى من تسخير الجبال والطير لداود ﴿غُدُوُّهَا﴾ سفرها أول النهار ﴿شَهْرٌ﴾ أي مسافة شهر ﴿وَرَوَاحُهَا﴾ سفرها من بعد الظهر ﴿شَهْرٌ﴾ تسافر بسليمان ومن معه ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾جعلنا له معدن القِطر أي معدن النحاس سائلاً كما يسيل الماء فكان عيناً جارية، قال الشرفي: ((في (البرهان): أسال له عين القطر من صنعاء ثلاثة أيام كما يسيل الماء)) انتهى

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ وسخرنا لسليمان من الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه بتمكينه وإقداره لهم ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ أي من الجن ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عن أمر الله جل جلاله ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذاب النار المسعرة وهي نار جهنم فهي تصلح لتعذيب عصاة الإنس والجن ولو عصى ربه الملك لعذب بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩].

﴿١٣﴾ ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي

الجن ﴿لَهُۥ﴾ أي لسليمان ﴿مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ مواضع عباده ينفرد فيها، كما قال تعالى في زكريا: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ..﴾ [آل عمران:٣٩] وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم:١١] ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ جمع تمثال، ولعلها تماثيل أشجار أو غيرها وهو مجمل في حقنا، لأن الله تعالى قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ ولا ندري ما يشاء من التماثيل.

﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ قال الشرفي: ((قال الهادي × : والجفان فهي هذه الجفان المعروفة التي فيها الماء والطعام فكانت تنحتها له من الصخور وتعملها من الصفر [أي النحاس] على ما ذكر الله من العظم والكبر)) انتهى المراد.

وقوله تعالى: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي أنها واسعة، فهي في اتساعها كالجواب، إما كالحياض الواسعة التي يجمع فيها الماء لتشرب منه الأنعام، وإما كالحفر في الأرض الواسعة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي يعملون له ما يشاء من قدور راسيات، قال الشرفي: ((قال الهادي × :فالقدور هي البرام التي يطبخ فيها فكانت تعملها من الصفر على غاية ما يكون من العظم حتى كانت راسيات، والراسيات هي التي لا يحركها لكبرها إلا الخلق الكثير فهي لثقلها راسية على أرضها ثابتة في مكانها قائمة بأثافي مفرقة [الأثافي:أحجار يجعل عليها القدر ليوقد النار تحته] فيها توقد النار من تحتها ومن حولها إذا أريد أن يطبخ فيها شيء، فلثباتها مكانها سميت راسيات إذ كانت في المكان لثقلها متروكات)) انتهى

وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ أي اعملوا صالحاً شكراً على نعم الله عليكم فالعمل هو الذي خلقتم له ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ وقد كان داود وسليمان إ من الشاكرين، و(الشكور) من صيغ المبالغة مثل (الشكّار) قال الشرفي: ((وهو دليل على أن العبادة تؤدي للشكر)) انتهى

مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى

﴿١٤﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ **قال الشرفي: ((فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ أي أوقعناه على سليمان وألزمناه إياه وحتمناه عليه)) انتهى، قال الراغب: ((القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً)) انتهى.**

﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أي أخفينا موته لحكمة في إخفائه حتى أظهرته دابة الأرض، وهي الأرضة التي تأكل الخشب ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ عصاه التي يضرب بها، قال في (الصحاح): ((والمنسأة: العصى، يهمز ولا يهمز وقال في الهمز:

أمن أجل حبل لا أباك ضربته ... بمنسأة قد جر حبلك أحبلاً))

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي سقط لأنه كان معتمداً على العصى فانكسرت العصى، وقد لبث ميتاً معتمداً عليها فلم تعلم الجن أنه ميت إلا حين خَرّ ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.

قال الشرفي في (المصابيح): ((﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي تبينت الجن عند ذلك أنهم لو كانوا يعلمون شيئاً من الغيب لعلموا بموته فلم يلبثوا في العذاب من العمل والكد منذ مات إلى أن خَرّ حتى قطعت الدابة منسأته، والمنسأة: فهي العصى التي كان متكئا عليها قائما إليها مستنداً من الجدار إليها قد وضعها في صدره وشد عليها بكفّه [لعل أصله بكفيه، والله أعلم] وهو قائم في محرابه ثابت في مقامه، فأتاه الموت وهو على تلك الحال فلم يزل حتى كان ما ذكر من الخبر عنه ذو العزة والجلال ذكره الهادي ×)) انتهى.

مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ

لأنهم إنما استمروا في الكدّ والعمل أو في الحبس لهيبة سليمان وجهلهم بموته. فلذلك لبثوا أي بقوا في العذاب المهين المذل لهم فرحم الله سليمان لقد كان شاكراً لنعمة الله عليه حتى قبضه الله إليه.

١٥ ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ ﴿لِسَبَإٖ﴾ أي ذرية سبأ ﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ التي في مأرب ﴿ءَايَةٞ﴾ تدلهم على ربهم ليعبدوه وحده ويشكروا نعمته، والآية التي في مساكنهم هي ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖ﴾ لعله بمعنى عن يمين مساكنهم وشمالها تشرب من سد مأرب فتثمر لهم ثمرات ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾ كأن الله تعالى حين يعطيهم يقول لهم: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ﴾ يخرج نباتها صالحاً مثمراً بإذن ربه فاشكروا له﴿وَرَبٌّ غَفُورٞ﴾ لا يعاجل على الزلات فيغير نعمته على أهل البلدة.

١٦-١٧ ﴿فَأَعۡرَضُواْ﴾ عن ذكر ربهم وعن طاعته وعن شكره واتبعوا إبليس فاستحقوا تغيير نعمتهم، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣] فغير الله تعالى نعمتهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ * ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ هو عرم سد مأرب ـ والله أعلم ـ تهدّم فنزل ماء السد

ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ

بقوّة فدمر عليهم ولم تبق لهم الجنتان، بل بدّلوا بهما أشجاراً من الأراك والأثل ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وسمي (جنتين) مشاكلة، والأكُل هو ثمر بعض الراك، والسدر: يسمى في اليمن عِلْباً وعَرْجاً، قال في (الصحاح): «الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل» انتهى

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم﴾ بإرسال سيل العرم ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ النعمة ﴿وَهَلْ نُجَـٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ فلو لم يكفروا لما غير الله نعمتهم.

﴿١٨-١٩﴾ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ * فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لما ذهبت نعمتهم التي كانت في مساكنهم صاروا يطلبون الرزق من بلاد فلسطين أو الشام كله، وجعل الله بين بلدهم وبين الشام قرى ظاهرة وقدر فيها السير لتقارب القرى.

﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ في القرى الظاهرة ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ سواء ساروا فيها ليلاً أو نهاراً فلا يخافون وإن كرروا السير فيها فالسفر سهل من هذه الناحية، ولكنهم ما كانوا يألفون الأسفار وكانوا متنعمين في مساكنهم فكبر عليهم حالهم وتتابع أسفارهم ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ باعد بين رحلاتنا بتحصيل الرزق في الرحلة لما يكفي مدة طويلة نستريح فيها من السفر ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ فلم يتوبوا إلى ربهم وإنما جدوا في الكسب وطلب الرزق.

ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ يتحدث الناس بقصتهم ﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ تفرقوا في البلدان العديدة تبعاً لطلب الرزق ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ من ذلك دلالتها على الخالق الرازق المتفضل على عباده، ودلالتها على أنه يجازي متى شاء ويمهل ولا يهمل، وقوله تعالى ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ لأنه أسلم قلباً من الرين فهو أقرب إلى معرفة الآيات لأنه صبار على طاعة الله تعالى وعلى ابتلائه شكور على أنعمه.

﴿٢٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كان ظنه أنه يغويهم فصدق ظنه فيهم فأغواهم فاتبعوه ﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لم يتبعوه، والذين صدق عليهم ظنه هم غير الفريق المستثنى، والإستثناء إنما هو من قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾.

﴿٢١﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ فلم يتمكن من إغوائهم بالقوة والقسر وإنما مكنه الله من إغوائهم بالاختيار ليتميز ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فلا يطيع الشيطان، لأنه يخاف عذاب الله ممن هو من الآخرة في شك فلا وازع له من طاعة الشيطان ليجزي الله المؤمن ثواباً والمتبع للشيطان عقاباً، ﴿وَرَبُّكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ فلا يضيع أجر المؤمنين ولا يترك مثقال ذرة من جزاء الظالمين.

﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن

﴿٢٢﴾ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله للمشركين من قومك ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أمر تهديد، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩] وقال الشرفي: ((على سبيل التهكم)) انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي زعمتموهم آلهة من دون الله، ثم بين وجه التهديد فقال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا يدل على أن المشركين جعلوهم مالكين لهم مع الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤].

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ وما للذين زعمتم من دون الله ﴿مَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي في السماوات ولا في الأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ فهم لا يملكون مثقال ذرة خالصاً ولا مشاركين فيه ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ ما لله منهم من ظهير أي معين سبحانه وتعالى فكل شيء محتاج إليه ولا يحتاج إلى شيء.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ هذا رد على المشركين الذين قالوا في شركائهم أنهم شفعاؤهم عند الله، فإذا لم يأذن الله بالشفاعة للعبد لم تنفع العبد الشفاعة، فأمر الشفاعة لله وحده ليس لأحد أن يتدخل فيها، ولو فرض أن عبداً تدخل بالشفاعة بدون أذن لما نفعت شفاعته، وعلى هذا فلا معنى لاتخاذ المشركين الشفعاء لأن أمر الشفاعة ليس إلى العبد حتى يجعل شفيعاً من شاء، وإنما هو ضلال مبين.

وقولـــه تعـــالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡ﴾ لأن الحكم لله يومئذ وحده فلا يتساءل الملائكة عن قول أحد غير الله إنما يتسائلون: ماذا قال ربكم؟ ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ أي قال الحق لأنه يقضي يومئذ بالحق ولا شفاعة يترك بها الحق.

فأما قوله تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: أُزيل الفزع عن قلوبهم، فإنهم لا يتسائلون إلا بعد زوال الفزع عن قلوبهم، والراجح: أن الضمير للملائكة الذين كان بعض المشركين يعبدونهم، وهاهنا *سؤال*: كيف يفزع الملائكة وهم لا يعصون الله؟

قلنا: قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ..﴾ الآية [النمل:٨٧] فالفزع طبيعي عند أهوال القيامة، ولكن أولياء الله ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢] ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:١٠٣] ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل:٨٩] ففزع المؤمن يعقبه الأمن سريعاً.

وهاهنا *سؤال* آخر: كيف صح في عدل الله؟

قلنا: كما صح الموت.

وسؤال آخر: كيف صح الابتلاء في الآخرة وهي ليست دار عمل ؟

قلنا: ليس ابتلاء ولكنه مثل الموت وقد صرح القرآن بفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ما تقولون في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ لمن الضمير؟.

إن قلتم: للملائكة أو للمؤمنين، أو قلتم: الضمير للمشركين، فكيف يزال الفزع عن قلوبهم وهم حطب جهنم؟!

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ القاهر فوق عباده ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ العظيم جلاله.

يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ

﴿٢٤﴾ ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا سؤال ﴿مَن يَرۡزُقُكُم﴾ ومشركوا العرب مقرون أن الله هو الذي يرزقهم وأن شركاءهم لا ينزلون لهم مطراً ولا ينبتون لهم زرعاً فالحق لله تعالى وحده.

وقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ أي أن أحدنا ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ إما نحن وإما أنتم، فانظروا لأنفسكم فقد جاءتكم الآيات الدالة على أنكم في ضلال مبين، وليس الأمر بالسهل بل هو صدق النذير والعذاب الكبير، ومثل ذلك يمنع العاقل ويزجره عن الإعراض وعدم المبالاة.

وهنا *سؤال* عن الرزق من السماوات إن كان المطر فهو من الجو، فكيف قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟

والجواب: أن المطر ينزل لكل بلاد من سمائها فالجمع بهذا الاعتبار ـ والله أعلم ـ كما يجمع الماء إذا كان اعتبار يستدعي جمعه فيقال أمواه.

وسؤال: كيف قال: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ ولم يقل: (وإياكم) مع أن كلاً من الفريقين يصح أن يقال فيه: أنه إما على هدى أو في ضلال؟

والجواب: إن ﴿أَوۡ﴾ تفيد أحد الشيئين، فهي أنسب لأن الكلام في فريقين مختلفين ولو قال وإنا و إياكم بالواو لأوهم عدم الخلاف، ونظيره قول الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها ..البيت

عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ

وهو جواب على من قالت فيه: أنه فاجر، فكان معنى جوابه: لنفسي تقاها: إن كنت تقياً، أو عليها فجورها: إن كنت فاجراً، ولو قال: لنفسي تقاها وعليها فجورها ما أفاد الترديد بين الأمرين.

وسؤال: لماذا قال: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ ولم يقتصر على أن يقول وإنكم لعلى هدى أو في ضلال مبين؟

والجواب: أنه لا يفيد فائدة ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾ يفيد أن أحد الفريقين بسبب محل النزاع بيننا، وجعل الفرض في أحد الفريقين بدون تعيين غاية الإنصاف والحث على النظر.

وقوله تعالى ﴿مُّبِينٍ﴾ يدل على تعيين الضال في الواقع، لأنه إذا كان مبيناً كان صاحبه متعيناً لا تردد فيه.

﴿٢٥﴾ ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ فاتركونا وشأننا فإنكم غير مسئولين إن أجرمنا عما أجرمنا كما أنا غير مسئولين عما تعملون، والموصول إسمياً أو حرفياً هنا بمنزلة (اسم الشرط) أعنى: أنه إنما يفيد الفرض والتقدير لا وقوع صلته كـ(اسم الشرط) في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ..﴾ [الأحزاب:٣٠] وكان المشركون قد غضبوا من التوحيد فخطابهم بهذا في أول الإسلام هو المطابق لمقتضى الحال.

﴿٢٦﴾ ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ المالك لنا في موقف السؤال والحساب يوم القيامة كما

ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣١] ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ ثم يحكم بيننا ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لأن قوله الحق ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ الذي يحكم بين عباده لأن له الملك فيحكم بينهم ليجزي الله المحق ثواباً والمبطل عقاباً ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ فلا يغلط في الحكم ولا ينسى.

﴿٢٧﴾ ﴿قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ﴾ وهذا تحقير لهم وتنبيه على أنه لا وجه لإلحاقهم بالله ﴿شُرَكَآءَ﴾ وإنما هي مجرد أسماء سموها، ثم قال: ﴿كَلَّا﴾ أي قل: كلا ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كلا زجر لهم عن الشرك ﴿بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي لعزته لا يرضى أن يكون عباده شركاء له ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يحكم بما هو خلاف الحكمة وليس من الحكمة جعل عباده شركاء له سبحانه وتعالى بل هو رب العالمين وحده لا شريك له.

﴿٢٨﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ يا محمد إلا رسالة كافة للناس تكفهم عن الشرك والضلال كله،بشيراً للمؤمنين نذيراً بعذاب شديد للكافرين، فكيف يزعم المشركون أن الله تعالى يشاء الشرك ويرضاه.

قال الشرقي: ((وحق البناء على هذا أن يكون للمبالغة كالراوية والعلامة)) انتهى، وهو بنا على أن ﴿كَآفَّةٗ﴾ حال من المفعول به وصاحبه ضمير الرسول ص أي أن الرسول كافة، والمعنى: وما أرسلناك إلا كافاً لكن زيدت (التاء) للمبالغة.

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا

وعندي: أن الآية مرتبطة بما قبلها في سياق واحد ونظيره ما في (سورة الزمر) وغيرها من الرد على المشركين، وكذلك في (سورة الأنعام) و (سورة النحل) إلا أن الكلام هنا موجز.

ولا فرق بين أن يكون كافة وصفاً للرسالة أو للرسول ص ولا حاجة إلى إخراج الآية عن سياق ما قبلها وجعلها بمعنى تعميم رسالته ففي ذلك آيات غير هذه مثل ما في (سورة الأعراف) من قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [١٥٦-١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أنا ما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً، فبعضهم كافرون بالرسالة وبعضهم جاهلون بحكمة الرسالة المذكورة.

﴿٢٩﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الذي ينذرنا محمد أي القيامة وقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يريدون إن كنتم صادقين في إنذارنا هذا الوعد فأخبرونا متى؟ كأنهم يقولون: من علم أنه واقع لا بد أن يعلم متى هو؟ وهذا منهم باطل لأن علمنا بوقوعه إنما هو لأن الله وعد بوقوعه ولم نعلم متى هو لأن الله تعالى لم يخبرنا متى هو فلا تلازم.

﴿٣٠﴾ ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ هو واقع بكم وإن جحدتم وله موعد عند الله لا يتأخر عنه ولا يتقدم قبله، وقد أجاب عنه في (سورة الملك).

بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ **عناداً** ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ **وقد علموا أنه معجز، وإلا فلماذا لم يأتوا بسورة من مثله وهو يتحداهم وإنما اكتفوا بقولهم:** ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ **ولا بالكتاب الذي بين يديه الذي هو مصدق له. أعرض عن الإجابة على عنادهم، ووجه الخطاب إلى رسول الله ص فقال:** ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ **هؤلاء المعاندين في موقف السؤال في القيامة وقد عظم الأمر عليهم، وعلموا أنه لا ينج إلا المؤمنون فأراد المستضعفون أن يحمل المستكبرون بعض عذابهم فجادلوهم قائلين:** ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ **جاحدين لدعواهم** ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ **رددناكم وحولناكم** ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ **وهذا سؤال إنكار وجحود أرادوا أن الهدى وهو القرآن قد جاءهم فلو كانوا صالحين لآمنوا كما آمن المؤمنون لأنه الهدى لا يكفر به إلا المجرمون** ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ **فنبرأ من إجرامكم.**

بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ **﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ غلبهم المستكبرون بقوة مال وأنصار فانقادوا لهم واتبعوهم وقد كان يمكنهم التخلص منهم بهجرة أو غيرها فقالوا لهم يوم القيامة ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ بل مكركم المستمر في الليل والنهار وخداعكم لنا هو الذي صدنا عن الهدى ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ فبأمركم ضللنا ﴿إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ وذلك بجحد قدرته على البعث ﴿وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗا﴾ نعبدها من دون الله، وهذا معظم الجدال وله بقية ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾** [غافر:٤٨].

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ لفرط العداوة بينهم ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ فهي ندامة شديدة ولكن لفرط العداوة أسر المستضعفون الندامة في موقف الحساب، كما قال الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ يحتمل أن الضمير للمستضعفين ويحتمل أنه لهم وللمستكبرين معاً، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الأغلال القيود في الأعناق ﴿هَلۡ يُجۡزَوۡنَ﴾ أي لا يجزون ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ إلا انه سؤال بمعنى النفي.

قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿مُتْرَفُوهَآ﴾ **أهل الثروة الذين بسط الله لهم النعمة فصاروا أهل رئاسة وأتباع وصاروا أهل كبر في صدورهم فإذا جاءهم الرسل قالوا:** ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ **استكباراً** ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ﴾ **من الرسل وأتباعهم** ﴿أَمْوَٰلاً وَأَوْلَٰدًا﴾ **كأنهم ظنوا أنهم أولى بالرسالة من الرسل الفقراء** ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ **كما أنا أكثر أموالاً وأولاداً فلو بعثنا لما عذبنا لأنا أهل حظ وبخت جيد دائم.**

﴿٣٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿قُلْ﴾ **يا رسول الله** ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ **الذي أرسلني** ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ **لمن يشاء فلو شاء بسط لي ولو شاء قدر عليكم رزقه فالبسط والتقدير تبع مشيئته لا تبع البخت** ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **فكم غني لا يعلم أن الله هو الذي بسط له رزقه.**

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا﴾ **نحن أهل حظ ونحن لا نعذب**

لأنه لو كان يعذبنا ما أعطانا أكثر مما أعطاكم، أجاب الله عنهم في الأولى بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي..﴾ وفي الثانية بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾.

وقوله: ﴿زُلْفَىٰٓ﴾ بمعنى قربة،وفيه تعميم لنفي التقريب، كأنه قيل وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا أي تقريب ـ والله أعلم ـ ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ لكن من آمن وعمل صالحاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ فبين الفرق بأن صاحب المال والولد لم يعمل ما يستحق به الجزاء فلا معنى لماله وولده بخلاف من آمن وعمل صالحاً فإنه يستحق الجزاء فتقريبه جزاء لعمله ولذلك فله جزاء الضعف.

قال الشرفي: ((أي جزاء المضاعفة الكبيرة وليس المراد أن يكون الجزاء مثل المجزي فقط، قال الزجّاج: معناه جزاء الضعف الذي عرف الحسنة بعشرة أمثالها، ومثل هذا في (البرهان)) انتهى

قلت: الراجح أن المعنى جزاء ضعف ما عملوا، لأن الحسنة بعشر أمثالها فالمؤمن يجزى على الحسنة جزاء عشر حسنات. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي المؤمنون العاملون صالحاً ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ أي يجزون بما عملوا جزاء الضعف ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ وهذه سعادة خارجة عن الجزاء مضافة إليه لأنهم آمنون من كل شر لأن الشر يختص بمن عمل سوءا ولم يغفر له فالمؤمنون لهم غرف وهو من الثواب، وإنما الخارج عنه سلامتهم من الخوف، ولهذا قال تعالى في السابقين: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة:٢٤] بعد ذكر ثوابهم، ثم قال: ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة:٢٥] فلم يجعله من الجزاء. و﴿ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ الغرف.

فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ يجادلون في آيات الله ليغلبوا المؤمنين بأن يعجزوا عن إبطال شبهتهم فمعنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مغالبين من العجز. ﴿يَسْعَوْنَ﴾ يسارعون بالجدال في آيات الله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذا المنكر ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ محضرون في جهنم لا يغيبون عنها.

﴿٣٩﴾ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ المؤمنين وغيرهم كلهم عباده ليس الغنى خاصاً بالكفار ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أي لمن يشاء وتقدير الرزق خلاف البسط.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فهو الذي يرزقكم خلفاً مما تلف ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ خيرهم رزقاً يعطي ولا يملّ ولا يخشى نفاد ما عنده، وعطاؤه من الحبوب يكون في جدّتها، وهكذا الفواكه وغيرها من الثمرات من المأكولات وغيرها، والمعادن، وكل ما أخرج لنا من الأرض، وكذلك ماء المطر وغيره يكون طهوراً، أما ما يعطي المخلوق فقد يكون ناقصاً، وهو بخلاف ما وصف به عطاء الله، مع أنه من عطاء الله أجراه على يده.

بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ

﴿٤٠-٤٢﴾ ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ * فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾

﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ يحشر المشركين ﴿جَمِيعٗا﴾ مجتمعين ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ نقول للملائكة ليجيبوا بالتبرئ من عبادة المشركين كسؤال عيسى × : ﴿أَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ..﴾ الآية [المائدة:١١٦] ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين ﴿إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ لا يعبدون إلا إياكم.

﴿قَالُواْ﴾ أي الملائكة ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ عن أن يكون لك شريك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ أنت معبودنا ومحبوبنا من دونهم فنحن منهم براء ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ إبليس وذريته فيطيعونهم بعبادة غير الله ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم﴾ بالجن ﴿مُّؤۡمِنُونَ﴾ يعبدونهم بالتقريب إليهم ويعتقدون فيهم علم الغيب والنفع أو الدفع من دون الله، يؤمنون بهم أي بأنهم على ما يعتقدون فيهم.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ أي يوم نحشرهم وهو يوم البعث ﴿لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا﴾ لا يملك الملائكة للمشركين ولا المشركون للملائكة نفعاً ولا ضراً،لا يقدر على نفع ولا على ضر حتى الشفاعة لا يملكون النفع بها،ونفي الملك نفي لما كان المشركون يعتقدونه فيه من أن لهم مكانة يستطيعون بها من التدخل بنفع أو دفع لمن عبدهم من دون اعتقاد أن ذلك لهم إن مكنهم الله وأذن لهم.

إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٢﴾

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ للذين ظلموا يعم المشركين الذين ظلموا بالشرك وغيرهم، كما قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩] وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر:١٦-١٧].

﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ جزاء لظلمكم ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩] أن يعذبوا بالنار ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فذوقوا جزاء تكذيبكم بها، وهذا يؤكد أن قوله تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يعم كل ظالم بأي جريمة كانت، مع أن المشركين دخلوا في هذا السياق والمكذبون بآيات الله فلذلك كذبوا بالآخرة دخولاً أوليّاً.

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾ عطف على ذكر عذابهم وقصتهم التي يصيرون إليها يوم القيامة، ومقتضاها أن يطلبوا النجاة من ذلك المصير بالنظر في آيات الله عند سماعها حتى يعلموا أنها الحق ويؤمنوا بها ولكن أمرهم خلاف ذلك فإذا تتلى عليهم آيات الله التي تتحداهم أن يأتوا بسورة من مثلها فلا يفعلون.

بل ﴿قَالُواْ مَا هَـٰذَآ﴾ أي محمد ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ دخل لهم الشيطان من طريقة التعصب لآبائهم فسارعوا إلى طاعته، ولم يفكروا أن المهم إنقاذ أنفسهم من عذاب النار.

وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى

﴿وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ ما صدكم عما كان يعبد آباؤكم ودعوتكم إلى عبادة الله وحده ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ صرف وتحويل عن الحق إلى الباطل ﴿مُّفْتَرًى﴾ على الله، وقد سمعوا آيات الله لكنهم ﴿جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بآيات الله قالوا ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فعاندوا الحق عناداً مبيناً فقد سمعوا القرآن وعلموا أنه خارق بحكمته وأحكامه، وأنهم لن يأتوا بسورة من مثله، لأنهم عرب والقرآن عربي لكنهم لم يجدوا ما يقدحون فيه به فقالوا: سحر يأخذ القلوب بطريقة السحر، وزادوا مبين أي بيّن واضح أنه سحر عناداً منهم وكذباً وظلماً.

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ حجة دامغة لمكابرتهم فهم أميون في ضلال مبين يعبدون الأحجار ويعبدون الجن ويحرمون بخرافات من عندهم كما بين الله تعالى في (سورة الأنعام) ويدفنون البنات وهن في الحياة بلا ذنب وقد فصل الله تعالى في كتابه ما كانوا عليه من الضلالات.

ثم مع ذلك قد طال عهدهم بالنبوة نبوة إبراهيم وإسماعيل فغلب عليهم الجهل واستحوذ عليهم الشيطان، ومع ذلك يكابرون فيكذبون رسول الله ويكذبون بآيات الله وهم في أشد الحاجة إلى كتاب ورسول ليخرجوا من الظلمات إلى النور فلا كتب عندهم من الله إلا القرآن وهم مكذبون به ولا رسول قبل محمد لينذرهم عذاب جهنم وينقذهم من جاهلية جهلاء.

فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ **قال الشرفي:** ((**فقال تعالى:** ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ **كعاد وثمود فهذا إخبار من الله تبارك وتعالى لنبيه ص بما كان من الأمم كان قبل قريش ممن بعث الله إليهم الرسل فكّذب كما كذبت قريش فنزل بهم من نقم الله ما نزل بهم فأخبر عنهم سبحانه تخويفاً وإعذاراً وإنذاراً إلى قريش ليحذروا ما نزل بغيرهم قبل أن ينزل بهم.**

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ **أي الأمم الماضية من طول الأعمار وقوة الأجساد يريد بذلك بأن [قوله بأن لعل الأصل أن] قريشاً لم تنل في المقدرة والجدة وسعة الأموال والطاعة معشار ما أوتي الذين أُخِذوا بتكذيب رسلهم. ذكره الهادي ×)) انتهى، قال الراغب: ((ومعشار الشيء: عشره)) انتهى ومثله في (الصحاح).**

﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ **فكيف كان نكيري على المكذبين لرسلي من الذين كانوا من قبل قريش.قال في (الصحاح): ((والنكير والإنكار تغيير المنكر)) انتهى، وقال الراغب: ((ونَكَرْت على فلان وأنكرت، إذا فعلت به فعلاً يردعه)) انتهى، ولعل كلام الصحاح أصح، وإنما جعل النكير إنزال العذاب مجازاً، كقول حاتم:**

هكذا فزدي أنه يعنى نحر الإبل

يعني هكذا فصدي أنا، لأنهم كانوا يفصدون عرقاً من الإبل إلى إناء ينزل فيه الدم، ثم يجعلونه على النار، ثم يأكلونه. ويحتمل: أن النكير تغيير المنكر ولو بإنزال العذاب فيكون حقيقة والمعنى واحد أو متقارب.

يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ

﴿٤٦﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للكفار الذين إذا تتلى عليهم آياتي بادروا إلى التكذيب ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ عن هذه المبادرة بالتكذيب ﴿أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ بخصلة واحدة هي ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إذا سمعتم آياته تنهضوا وتتجهوا لله وحده لا تقوموا لغيره وهذا بالنية والعزم ﴿مَثۡنَىٰ﴾ اثنين اثنين يتناجيان بما يتفكران به ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فرد فرد ليتفكر وحده لا ينازعه أحد.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في هذه الحالة فيما سمعتم من آيات الله فقد علمتم أنها خارقة لا يقدر البشر على مثلها فتفكروا فيها أنه لا بد أنها من الله لأنها لو كانت من محمد لقدر البشر على مثلها فإذا كانت من الله فلا بُدّ أنه أنزلها بالحق فالخير لنا أن نتبعه.

﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ الذي تعرفونه معرفة تامة ما به ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ بل هو كما تعلمون راجح العقل، فإنما الذي يستحق الإعراض عما يقول هو المجنون فأما العاقل المنذر لكم فلا أقل من أن تتفكروا فيما جاء به حتى إذا بان لكم صدقه آمنتم به لتتقوا العذاب الشديد ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ عذاب جهنم ففكروا مثنى وفرادى. وفائدة الإنفراد أن لا يراقب المجتمع الذي يدعوا إلى الكفر فتكون مراقبته مانعة من القيام لله.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ ﴿مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡ﴾ إن سألتكم مالاً فهو لكم، كناية

ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٥١﴾

عن كونه لا يسألهم مالاً مع بقاء المعنى الحقيقي كما هو شأن الكناية،فما سألتكم من أجر فهو لكم من ذلك المودة في القربى نفعها لكم لأنها تلازم التمسك بهم والإقتداء بهم بعد إخراج الجاهل والفاجر لأنهما غير مقصودين في آية المودة وإنما هي في الصالحين ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ لأنه الذي أرسلني ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ فهو شهيد علي وعليكم بما يعمل كل منا.

﴿٤٨-٤٩﴾ ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ * قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ يلقيه إلى الأنبياء وهو الوحي والآيات فيدمغ به الباطل ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ إن ربي علام الغيوب فلا ينسى ولا يخطئ، بل كل قوله حق ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ من الله فالحق يغلب الباطل، لأن الحق هو الخير والعاقبة له ﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ خيراً ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ خيراً، الإبداء: تحصيل الشيء ابتداء، والإعادة تحصيل الشيء عائداً بعد الفناء.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿إِن ضَلَلۡتُ﴾ كما تزعمون ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ لا أضر إلا نفسي ولا أضركم ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ﴾ فبما يوحي إلي ربي، فهو الذي هداني ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ﴾ سميع فهو يسمع ما أقول مما أطلب به هداه ويسمع ما تقولون، قريب يجيب دعائي حين أدعوه، أما من تدعونهم من دون الله فلا يسمعون ولا يجيبون دعاءكم، ولعل قوله: ﴿إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ تعريض بهم؛ لأنهم ضالون فضلالهم على أنفسهم.

وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبٖ ﴿٥٤﴾

﴿٥١﴾ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ يوم القيامة ولعله عند الحكم عليهم في موقف الحساب ومحاولة الملائكة لأخذهم إلى النار ﴿فَلَا فَوۡتَ﴾ لا يفوتون بهرب أو غيره ﴿وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ قبل أن يبعدوا في الفرار،فلو تراهم في ذلك الفزع لرأيت أمراً عظيماً.

﴿٥٢﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ باليوم الآخر لأنا أبصرنا وسمعنا ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ﴾ من أين لهم ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناول لمطلوبهم وهو النجاة من النار بهذا الإيمان ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ لأنهم في الآخرة في محل الجزاء لا في محل التوبة المقبولة فتناول التوبة لا سبيل إليه.

﴿٥٣﴾ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۖ وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ باليوم الآخر ﴿مِن قَبۡلُ﴾ حين كانوا في الدنيا يضرهم الكفر وينفعهم الإيمان لو آمنوا ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يرمون بالكلام الغيب الذي لا علم لهم به ولا سبيل لهم إلى العلم به يقذفون به ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ عن معرفة الحقيقة ليس بمكان إطلاع على مغيب بل هو بعيد عنه كقولهم لا تأتينا الساعة.

﴿٥٤﴾ ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبٖ﴾ هذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ..﴾

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ فهم يشتهون أن تقبل توبتهم ويشتهون أن يرجعوا إلى حالة التكليف والعمل، ويشتهون أن يقبل منهم عذر ولكنه حيل بينهم وبين ما يشتهون على الإطلاق، فقد فاتتهم النجاة وفاتتهم الجنة وفاتهم كل خير حتى شرب الماء البارد، وهذا السياق في الكافرين بمحمد ص وبما جاء به.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ من الماضين الذين كفروا برسلهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ بسبب أنهم كانوا في شك مريب مقلق لا تطمئن معه أنفسهم فسهل لهم اتباع هواها والإعراض عن هداها،فقد كانوا في شك مريب من صدق النذير الذي كان ينذرهم عذاب الآخرة،وكان هذا الشك يريبهم، لأن نفوسهم تكره أن يكون صادقاً فأقلقهم الشك فيه،ولكنهم استحقوا به عذاب الآخرة وان يحال بينهم وبين ما يشتهون؛ لأنهم حين شكوا لم ينظروا في صدق النذير، بل أعرضوا وقد سمعوا آيات الله تتلى عليهم، فنعوذ بالله من الضلال، والحمد لله الذي هدانا للإسلام.

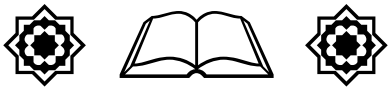

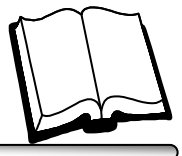

التيسير في التفسير

سورة فاطر

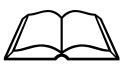

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **الحمد لله على أن خلق السموات والأرض لما خلقهما له من الحكمة والنعمة على أهلهما** ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ **بوحيه إلى الأنبياء، فهي نعمة عظمى لأن الهدى للبشر، أو للبشر وغيرهم بواسطة الوحي بإرسال الملائكة، ونعمة الهدى أكبر النعم.**

﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ **وصف لقوله:** ﴿رُسُلًا﴾ **فكأن الله تعالى جعل لهم أجنحة ليُعدهم للرسالة إلى الأنبياء** ﴿مَّثْنَىٰ﴾ **اثنين اثنين وهذا لعدد من الملائكة، لكل واحد جناحان اثنان** ﴿وَثُلَٰثَ﴾ **لعدد آخر من الملائكة لكل واحد ثلاثة أجنحة** ﴿وَرُبَٰعَ﴾ **لكل واحد أربعة أجنحة** ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ **إما زيادة عدد الأجنحة وإما غير ذلك** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **فخلق الملائكة كيف شاء وجعلهم أصنافا لأنه على كل شيء قدير، وهذا من الغيب الذي يؤمن به المؤمنون أعني إثبات الملائكة، وصفتهم المذكورة ورسالتهم.**

﴿٢﴾ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ **أي رحمة** ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ **فقد أرسل رسله رحمة فلم يستطع المكذبون رد رسالتهم،**

هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ

وأنزل الكتب فلم يقدروا على إبطالها، وهدى أولياءه فلم يقدر المبطلون أن يضلوهم ونصرهم فلم يدفع نصره أحد، وكذلك أنزل الأمطار وأصلح النبات ونزل البركات ولا حصر لنعمه الله، وهي تكون رحمة وابتلاء، وتكون ظاهرة وتكون باطنة كشرح الصدر والقناعة والرضا بضيق الحال.

وقد تكون النعمة عذابا لأهلها لأنهم كافرون، قال تعالى: ﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥] ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ فالخير كله من الله رحمة لعباده، ولا خير من غيره إذا لم يكن منه أرسله على يد عبده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

وقد مر الاحتجاج على أن الخير من الله وإن كان فعلاً من العبد، ولا تنافي على ما حققته عند قول الله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [آية:١٣] من (سورة القصص) ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فهو الغالب على أمره لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وكله العطاء والمنع بحكمة الله ليس شيء منه خارجاً عن حكمة الله تعالى، فهو الذي يرجى ويخشى بحق، ولا إله إلا هو يدعى لكشف المهمات وإنزال الخيرات هو الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

﴿٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ فاعبدوه وحده شكراً على نعمته ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ سؤال في معنى النفي، لأن المخاطبين مقرون أنه لا خالق إلا الله، ينزل المطر وينبت به ما يحتاجه الإنسان من النبات وما تحتاجه الأنعام، كما فصله تعالى في (سورة النحل) وغيرها.

تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه الخالق لكم الرازق لكم، وكل ما سواه عباد أمثالكم لا يخلقون الناس ولا يخلقون أرزاقهم ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين تؤفكون وأنتم تؤمنون بهذا فتشركون به من لا يخلق ولا يرزق، من أين تصرفون عن الحق إلى الباطل؟ لأن الإله من يستحق العبادة، وبعبارة أخرى المعبود بحق والعبادة هي الخضوع على معنى الاعتراف بالعبودية والاعتراف بالعبودية لا يحق إلا للخالق الرازق فلهذا لا معنى لعبادة غير الله بل هي الباطل الذي لا شك في بطلانه ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧].

﴿٤﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ حين تقول لهم ما أمرت أن تقوله يا رسول الله ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فتأسّ بهم ولا يحزنك كفرهم.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فارجع أمرك إليه وتوكل عليه لأنه لا يخفى عليه صغير ولا كبير من حالك ولا يغفل عنك طرفة عين وهو يرعاك أتم الرعاية، وعلى كل مؤمن أن يُرجع أمره إلى الله لأنه في رعايته، وهو اللطيف بعباده، الرؤوف الرحيم ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:١٢٠] ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

فعلى عباده أن يرجعوا أمورهم إليه لأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وهذه مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم:١٢] أو هذه أعم فيرجع المؤمن أمره إلى الله في حاجاته كلها ومنها المتنازع فيه يرجع إلى حكم الله فيه.

إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝٧

۝٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ قد وعد الله بالحياة الآخرة وما فيها من الجزاء للمؤمن والفاجر وهنا يعظ الناس عن الاغترار بالعاجلة حتى يمضي العمر على غير إعداد عمل صالح وتوبة نصوح، فتكون العاقبة عذاباً وندامة، ويحذر من الشيطان بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ قال الشرفي: «أي الشيطان وغيره من كل ما يغر ويخدع..» إلخ.

والحياة الدنيا تغر بمطالبها وأغراضها التي تستميل المحب للحياة العاجلة، ويهوى أغراضها، فإذا اغترّ بها أقبل عليها وترك الإعداد للآخرة، ولعل الاغترار كله ينحصر في ما سببه الحياة الدنيا، وما سببه الشيطان، لأن طول الأمل سببه الأمران ويحتمل: أن يعتبر طول الأمل سبباً ثالثاً داخلاً في الغرور، فحذر الله من الدنيا ومن الغرور لأن وعده حق أي وعده بالعقاب والثواب لأن الاغترار يوقع في العذاب ويفوت الجنة، والخسران فوات الجنة، وأعظم منه الخلود في النار.

۝٦ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فاحذروه ولا تصدقوه في غروره ووسواسه ووعده وأمانيه بل عاملوه معاملة العدو، وعوذوا بالله منه لأنه ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾ الذين يطيعونه، وهم كثير يتشايعون على الباطل، ويتعاونون على الإثم والعدوان ﴿لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهذه أشد العداوة فالعدو الذي يريد أن يوقع الإنسان في سبب من أسباب الموت هو دون هذا العدو الذي يريد أن يورط الإنسان في سعير جهنم.

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ هذا القول الفصل فلا تقبلوا من الشيطان أمانيه بل اعملوا لإنقاذ أنفسكم من العذاب الشديد والفوز بالمغفرة والأجر الكبير.

﴿٨﴾ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ هذه الآية كالتفريع على الآيات التي قبلها من أول السورة من الحجة والإعذار إلى الناس والإنذار والموعظة، أولها سؤال إنكار في معنى النهي ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ فآثره على هدى الله تحزن عليه وقد استحب العمى على الهدى، لا تحزن عليه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ فلو شاء الله لهدى الناس جميعاً ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ وقد تركهم وشأنهم لأنه لا يريد الجاء أحد إلى الإيمان إنما يريد أن يؤمن به من آمن اختياراً ولا يشاء الله إضلال إلا من اختار الضلال فيخذله عقوبة له.

﴿٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ إن إرسال الرياح دليل على مرسل أرسله وعين نوعه لأن الرياح قد تكون من الجنوب إلى الشمال أو من الغرب إلى الشرق أو على عكس ذلك ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ أصل الكلام فأثارت سحاباً لكن جاء على حكاية الحال، وهذا اختصار والأصل فتثير غباراً ترفعه فيجعله سحاباً.

إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن

﴿فَسُقْنَـٰهُ﴾ أي فساقه الله جاء بضمير القائل العظيم ولا أرى أن يقال في الله المتكلم وإن صح المكلم لأنه ليس في القرآن ولا أعلمه في السنة المتكلم بعبارة التفعل ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ قد أماته الجدب وتأخر المطر ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي بمائه ﴿ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وهذا إيجاز عجيب لا يكاد يشعر به السامع ويحتمل به بالسحاب نفسه بعد جعله ماء أي بعضه وذلك بأن يكون صنع الماء من أجزاء السحاب في بعض الحالات كما أنه يكون من البحر في بعضها ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإحياء للأرض ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ للأموات يوم القيامة فهذا تقريب لفهم إمكان النشور مع أنه دليل على قدرة الله تعالى.

﴿١٠﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ وهي ضد الذلة ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ مجتمعة لا يشاركه فيها أحد وإنما يعتز المؤمنون المجاهدون في سبيل الله بعزة الله يجعل لهم عزة بنصره ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ يتقبله من المؤمن هو لا يتقبله غيره و﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ ذكر الله وتلاوة كتابه ومن ذكر الله توحيده وتسبيحه وتنزيهه من الظلم ومن كل نقص وغير ذلك من الواجب والمستحب والعمل الصالح يرفع المؤمن يرفع قدره، والعمل الصالح المتقبل هو ما كان مع التقوى وأهمه الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، ولا يقبل الجهاد مع ترك الصلاة وهي ممكنة أو غيرها من الفرائض فهذا يبين للمؤمن طريقة العزة الممكنة.

تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ المكرات ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ومنها مكر الكفار والمنافقين ضد المؤمنين ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة أو في الدنيا والآخرة ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يبطل.

قال الراغب: ((البوار: فرط الكساد ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد، كما قيل: كسد حتى فسد عبر بالبوار عن الهلاك)) انتهى.

وهذه السورة (مكية) نزلت قبل الأمر بالجهاد، ولو صرح بالجهاد فيها لكان دعوة إليه قبل وقته، فلعل هذا هو سبب تركه مع أنه بعد تشريعه وفرضه على المؤمنين من العمل الصالح كما أن الذين يمكرون السيئات من المنافقين في عهد الرسول ص في المدينة وبعده في كل مكان وكل زمان داخلون في الذين يمكرون السيئات قد شملهم الوعيد في هذه الآية.

﴿١١﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ في هذه الآية الدليل على قدرة الله تعالى وعلمه وهي ترد على منكري البعث ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلق أولكم الذي تناسلتم منه، ويخلق غذاءكم من تراب تمتصه الزروع والنباتات مع الماء ثم يكون الغذاء دما ثم يكون نطفة ـ والله أعلم.

وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ

ثم خلقكم من نطفة علقة وطوّر خلقكم حتى ﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكوراً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ فهو يعلم الحمل في أول علوقه ويعلم الوضع أينما كان على سعة الأرض وكثرة أهلها ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي في علم الله سبحانه لا ينسى تاريخ ولادته ولا عدد أيامه طالت مدته أم قصرت.

قال الشرفي: ((وفي (البرهان): يعني أن زيادة العمر ونقصان عمر الآخر عند الله يسير)) انتهى، ولعل فيه سقطاً، والأصل علمه عند الله أو إحصاؤه عند الله يسيراً ونحو هذا.

وهنا *سؤال*: كيف رجع الضمير في عمره إلى المعمر؟

والجواب: أن الأشكال نشأ من جعل معمر بمعنى طويل العمر فأما إذا قلنا معمر أي أعطى العمر سواء طال أم قصر فلا إشكال.

قال الراغب: ((والعَمر والعُمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة ـ ثم قال ـ: والتعمير إعطاء العمر بالفعل أو بالقول على سبيل الدعاء)) انتهى، وعلى هذا للمعمر معنيان، وقد جمع بين المعنيين في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ فلعل النقص قلة مدة العمر بالنسبة إلى المعمر، ويحتمل: النقص بالخرم والأول أرجح فكل ذلك لا يقع إلا وهو في كتاب أي في علم الله سبحانه لا ينساه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لأنه عالم الغيب لا يحتاج إلى تفكير ولا بحث.

تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ

﴿١٣﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى﴾ **عطف آيات تدل على الخالق المنعم على آيات و ﴿ٱلْبَحْرَانِ﴾ الملتقيان حول البلدة المسماة البحرين وهما مختلفان في الذوق لأن خالقهما خالف بينهما لأنه يخلق ما يشاء ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: أعذب العَذْب ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ معناه: أملح الملوحة)) انتهى.**

ولعله سقط منه، والأصل: أملح ذي الملوحة فيه مرارة مع الملوحة، وهو الراجح؛ لأن وصف العذب بالعذب يدل على زيادة العذوبة، كما أن وصف العذاب بأنه أليم يدل على زيادة في الألم ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ من العذب والملح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ مع اختلافهما يعيش السمك في كل منهما فنأكل من السمك لحماً طرياً. قال الراغب: ((أي غضّا جديداً)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((وطراً: إذا تجدد)) انتهى، فالطري: حديث عهد باصطياده، وهو لذيذ غذاء نافع ما دام جديداً، وإذا تأخر تغير ريحه وصار يعاف إذا لم يجعل في ثلاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ قال الشرفي: ((وهي اللؤلؤ والمرجان)) انتهى، ولا يتعين أن يكون اللؤلؤ من كل منهما والمرجان من كل منهما بل يجوز أن يكون من أحدهما حلية ومن الآخر حلية أخرى كأن يكون المرجان من أحدهما واللؤلؤ من الآخر.

ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

وقوله تعالى: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ يدل على أنها لا يختص بها النساء، ولا يتعين أن كلاً من اللؤلؤ والمرجان ليس خاصاً للنساء، بل من كل يستخرج حلية يلبسها الرجل وهي غير متعينة إذا كان اللؤلؤ والمرجان يستخرج كل منهما من البحرين، فإن كان أحدهما يستخرج من كل دون الآخر تعين الذي يستخرج من كل أنه الذي يلبسه الرجال ـ والله أعلم.

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفائن ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ تشق الماء في جريها عليه لثقلها وحفظها من النزول المغرق لأهلها، ولذلك تهيأ السفر بها في البحر مع ثقلها سواء كان ثقلها وهي فارغة أم هي مشحونة أثقلها ما فيها ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ بالسفر في السفائن لتطلبوا من فضل الله الرزق وغيره، وهذه تدل على أن حديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة..» ليس الحصر فيه إلا إضافياً أي لا تشد للصلاة أو الاعتكاف أو نحوه، ومع هذه الآية نظائرها، كقوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ..﴾ [النحل:٧] الآية ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله في البحر فالنعم تعريض على الشكر؛ لأنها اختبار للعبد أيشكر أم يكفر، وهي مع ذلك آيات تدل على الخالق المنعم وعلى أنه قادر على البعث.

﴿١٣﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ يدخل الليل ﴿فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ فترى في آخر النهار السواد يطلع من المشرق كأنه يشق ضوء النهار، ويطلع الفجر كأنه يشق ظلام الليل ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ تجري في منازلها فيكون الصيف والشتاء.

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

وسخر ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ تقطع منازلها فتكون الشهور ﴿كُلٌّ﴾ من الليل والنهار والشمس والقمر ﴿تَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إما يوم القيامة وإما آجال الليل والنهار فالليل يجري لأجَل ينتهي فيه ويعقبه النهار والنهار يجري لأجل ينتهي فيه ويعقبه الليل، والشمس تجري في كل منزلة لأجل مسمى وتنتقل منها حتى يكون الصيف لأجل والشتاء لأجل، كل ذلك تقدير العزيز العليم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي دلت عليه هذه الآيات التي هي: خلقكم من تراب، ثم من نطفة.. وما ذكر بعدها إلى آية الليل والنهار، ذلكم الله ربكم المالك لكم ولكل شيء﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ يحكم ما يريد له وحده الملك دون غيره، لأنه رب كل شيء، وما سواه مملوك له﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أيها المشركون ﴿مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ أي ما يملكون شيئاً والقطمير في الأصل: غشاء نواة التمر أرق من القرطاس، وهي كناية تقليل فقد جعلتموهم شركاء فيكم وهم لا يملكون شيئاً.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنهم جماد لا يسمع، فالذي يعبده أهل مكة ومن حولهم جماد فإن كان الملائكة مرادين في الآية فهم لا يسمعونهم لبعدهم عنهم وكراهتهم لدعائهم ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأنهم لا يقدرون على ما تطلبون منهم سواء جمادهم وغيره، ومنهم من هو بريء من شرككم.

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ لا يشكرونه بل يتبرؤون منه، فليس لكم في الشرك فائدة، إنما هو ضلال مبين ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ والله هو الخبير بكل شيء قد نبأكم في الذين تدعونهم نبأ كافيا للمنصف والخبير بالشيء إذا نبأك عنه هو الذي لا يخطي الصواب بخلاف الجاهل.

﴿١٥-١٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ * إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأن خيركم منه حياتكم وصحتكم وقوتكم ورزقكم وغير ذلك فاستشعروا حاجتكم إليه لتقربوا إليه، وتحذروا ما يسخطه وتدعوه ولا تنسوه ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ هو الغني على الإطلاق، فهو الغني عنكم وعن عبادتكم وهو الحميد المستحق للحمد فاشكروه واذكروه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ لأنه غني عنكم قادر على إذهابكم فاخشوه وتوبوا إليه ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فهو قادر على أن يستبدل منكم بخلق جديد كما أهلك الكافرين من الأمم الأولى واستبدلهم بخلق جديد ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ما إهلاككم صعباً عليه، لأنه غني عنكم فدعوتكم إليه إنما هي كَرَم ورحمة ونعمة وتفضل، ولا الخلق الجديد صعباً عليه، ولا الجمع بين الأمرين عزيز.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ قال في (الصحاح): «والوِزر: الإثم، والثقل، والكاره، والسلاح، قال الشاعر:

وأعـددت للحـرب أوزارهـا رماحاً طوالاً وخـيلا ذكـورا»

انتهى. وقال: «والكاره: ما يحمل على الظهر من الثياب» انتهى.

وقال الراغب: «والوزر: الثقل.. ـ إلى قوله ـ : ويعـبر بـذلك عـن الإثـم كما يعبر عنه بالثقـل» انتهـى، وهـذا أرجـح، قـال تعـالى: ﴿وَهُـمْ يَحْمِلُـونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١] ولعل الشاعر عـبر عـن تكـاليف الحـرب بأوزارها لثقلها وصعوبة إعدادها، ولذلك عد منها الخيل.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ أي لا تحمل ثقلا هو الذنب ﴿وَازِرَةٌ﴾ حاملة ثقلا ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ثقل أخرى الذي هو ذنوبهـا لا يحمـل منـه شـيء، والثقـل معنوي، لأن الذنب يثقل على المذنب يوم القيامة لخوفه من العـذاب بسـببه فيعتبر الذنب ثقلاً عليه لأنه كاره له يود لو أن بينه وبين الذنب أمداً بعيداً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ لو كان الداعي إلى حمله ذا قربى أو المدعو ذا قربى كالوالد والولد وكالأخوين ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إنما تنذر الذين يخشون ربهم أي إنما يقبل الإنذار وينتفع به الذين يخشون ربهم، لأن الخوف يبعثهم على النظر والتفكير، فيتبين لهم إذا فكروا فيما جاء به من الآيات يتبين لهم صدقه، فيؤمنون، ويقيمون الصلاة اتباعاً للنذير.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ عمله لنفسه لا يعمل لغيره، ولو كـان ذا قربى، والتزكي: أن يكون طيّبا أي متقياً لله.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مصـير حامـل الـوزر ومصـير المتزكـي إلى الله يـوم الحساب لتجزى كل نفس بما عملت.

ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ

﴿١٩-٢٣﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ **قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي إلى الحق × : هذه أمثال ضربها الله تعالى للحق والباطل والدين والكفر، فجعل الباطل والمبطل كالأعمى والظلمات والحرور والأموات، وجعل الحق والمحقين كالبصير والنور والظل والأحياء؛ ليعتبر بذلك المعتبرون)) انتهى. قال في (الصحاح): ((والحَرور: الريح الحارة)) انتهى.**

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ وهو ـ أيضاً ـ تشبيه للمؤمن والكافر، لأن المؤمن فيه حياة الإيمان والعلم بالله ورسوله واليوم الآخر والكافر فاقد لذلك أو كالفاقد للعلم، وقد قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢] أي بالهدى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يهدي من يشاء فيسمع سماع قبول وإيمان ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من في القبور مجاز وهو على تشبيه الكفار المصرين المعرضين الذين بعدوا عن الإيمان وغلب عليهم الخذلان بمن في القبور الذين لا يُسْمِعُهُم لأنهم أموات، ومحجوبون بالتراب، وفائدة هذا أن ييأس الرسول ص من إيمانهم فلا يتعب نفسه في محاولة إصلاحهم أو هذه من فوائده.

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ * وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿إِنَّآ﴾ الضمير لله ـ عزَّ وجل ـ وفيه إشارة إلى أنه الغالب على أمره العزيز الحكيم، فإرساله لمحمد لا يغيره كفر من كفر، ولا إعراض من أعرض ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ رسالة بالحق، لأنها بالحكمة من رب العالمين الذي له الحكم في عباده لرسول أمين يبلغ الرسالة، ويصبر على تكاليفها، ويشكر نعمة الله عليه، كما قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ﴾ ثم قال: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء:١٠٥].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فالأمة في أشد الحاجة إلى إرسالك ليهتدي بك من يهتدي وتكون قاطعة لعلة من كفر ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وما من أمة إلا أرسل الله لهم نذيراً حتى توفى بينهم، والأمة مثل العرب ومثل بني إسرائيل وعاد وثمود وغيرهم، ولا يشكل أن الأمم قد تهلك قبل رسولها مثل قوم نوح وعاد وثمود؛ لأن الهلاك يخص المكذبين وينجو منه الرسول والذين آمنوا، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٢-١٠٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ عطف على ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فليس تكذيب الرسل دليلاً على بطلان الرسالة، لأنهم جاءوا بالبينات الدالة على صدقهم ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾.

قال في (الصحاح): «الزَّبر الكتابة ـ ثم قال ـ : والزَبور ـ بالفتح ـ الكتاب، وهو فَعول بمعنى مفعول، من زَبَرتُ، والزبور كتاب داود × » انتهى. وفرق الراغب بين الزبور والكتاب، فقال: «وكل كتاب غليظ الكتابة يقال له: زبور» انتهى.

﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة:٤٨] أي من الكتب فعبر بالكتاب عن الجمع قالوا: لأن أصل الكتاب مصدر، فكذلك هنا، قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:٢١٣] أي الكتب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فلعله معنى الكتاب المنير، لأنه جامع لما يحتاج إليه فهو ينير للناس أي يهديهم، فأما تفسير الكتاب المنير: بالتوراة، فهو بتوهم أن الكتاب مفرد والراجح: أنه عام للكتب، وأفرد ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ كما أفرد الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ..﴾ [البقرة:٢١٣] فقال: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ ولعل السبب: أن الكتب جنس واحد، أو أن لفظ الكتاب مفرد، أو لكونه عاماً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أهلكتهم وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناه: عاقبتهم» انتهى، وهو أنسب للسياق؛ لأن الإهلاك قد لا يكون عقوبة ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري للمنكر وتغييري له وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إما أنه سيق له الكلام من قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ فيكون معنى ذلك: وإن يكذبوك فإني أعاقبهم كما عاقبت الذين كفروا قبلهم وإما أن يكون سياق الكلام لتسلية الرسول ص بذكر أن الرسل الماضين أسوة له في ذلك.

ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ﴿٢٨﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذۡتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جاء تبعاً لذكر تكذيب من كذب بالرسل، وإن يكذبوك فتأس بمن كذب قبلك، ولا يؤثر في رسالتك تكذيبهم كما لم يؤثر في رسالتهم تكذيب قومهم، فذكر العقاب لهم لئلا يتوهم متوهم أنهم أهملوا، وهو نوع من البديع يسمى الإدماج.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تعجيب من صنع الله ومعنى ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ألم تعلم، وهي تستعمل في الشيء العجيب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ ماء واحداً هو المطر.

﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ الضمير لله الذي أنزل هذا القرآن ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء النازل من السماء ﴿ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ كالعنب مختلفا أسود وأبيض وأحمر والتمر وغيرهما ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ﴾ خطوط ذوات ألوان مخصوصة وهي أجزاء من الجبال بيض كالمرو وحمر مختلف ألوانها، مختلف ألوان البيض وألوان الحمر ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ وهي خطوط من الجبال أجزاء شديدة السواد بصنع الله الفعال لما يريد.

قال في (الصحاح): «وإذا قلت: غرابيب سود، تجعل السود بدلاً من الغرابيب؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم» انتهى، ومثله في (لسان العرب) وقد

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ

قال في الصحاح: ((تقول: هذا أسود غربيب، أي شديد السواد)) انتهى. ومثله في (لسان العرب) وزاد: ((والغربيب عنب بالطائف شديد السواد انتهى)). وقال الراغب: ((وغرابيب سود، قيل: جمع غربيب، وهو المشبه للغراب في السواد)) انتهى.

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه جبال سود، والغرابيب: هي السود، ويقال: أسود غربيب)) انتهى. وقال في (لسان العرب): ((وفي الحديث ((إن الله يبغض الغربيب)) هو الشديد السواد، وجمعه غرابيب، أراد الذي لا يشيب وقيل: أراد الذي يُسَوِّدُ شيبه)) انتهى.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ مختلف ألوانه ﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ بيض وحمر وغرابيب سود ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وهو حث على التفكر في آيات الله لتحصيل العلم بالله واليوم الآخر وتحصيل الإيمان الراسخ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ فيخشاه العلماء لأنه عزيز يعاقب المجرمين ﴿غَفُورٞ﴾ يغفر لأهل الخشية يخشونه فيتوبون ويستغفرونه فيغفر لهم.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ ﴿يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يقرؤونه لأن فيه الهدى والنور يهدي للتي هي أقوم، وفي تكرار تلاوته كل يوم تذكر ما فيه من الهدى والمواعظ.

ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ

وقد روي عن الإمام القاسم بن محمد × : ((أنه أوصى أولاده بتلاوة القرآن كل يوم لو لم يقرأ الواحد إلا جزأين في اليوم)) هذا معناها.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ كانت صلاتهم كاملة بفروضها وشروطها وفي أوقاتها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ من الحلال ﴿سِرّٗا﴾ لأنهم مخلصون لله يطلبون فضل الإنفاق في السر ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾ حيث يحتاجون إلى إعلان الإنفاق لأسباب كتسليم الواجب إلى الإمام أو نائبه، وكالتصدق الذي يتعاون فيه المتصدقون ويقتدي بعضهم ببعض ﴿يَرۡجُونَ﴾ أن يتجروا بأعمالهم الصالحة ﴿تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ لن تبطل ويخسر أهلها بل هي ﴿تِجَٰرَةٗ﴾ رابحة أي يرجون أن أعمالهم سبب للثواب المضاعف فهم راغبون فيها، و ﴿لَّن تَبُورَ﴾ تجارتهم بل سيوفون أرباحهم ورأس مالهم.

﴿لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ ﴿أُجُورَهُمۡ﴾ يحتمل: أنه الثواب على الحسنة بعشر أمثالها، ويزيدهم من فضله نعيما زائدا على الثواب، وهذا أقرب، ويحتمل: أجورهم الحسنة بمثلها ويزيدهم تضعيفها حتى يتم لهم على الحسنة عشر أمثالها أو أكثر إلى سبعمائة ضعف، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس:٢٧] ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٞ﴾ لهم فلا ينقص عليهم بسبب سيئاتهم المغفورة ﴿شَكُورٞ﴾ فلذلك يثيبهم ثواباً عظيماً.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾ عطف على الترغيب في تلاوة كتاب الله

وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأن الله أوحى كتباً إلى من قبله، وهذا كتاب أوحاه إلى محمد ص.

فمن الكتب (التوراة) أوحاها إلى موسى، ومنها (الإنجيل) أوحاه إلى عيسى، ومنها (القرآن) أوحاه إلى محمد ص فهو الذي أوحاه إلى محمد منها ص ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فتلاوته ممن يتدبر آياته تهدي إلى الحق، فهو ترغيب في تلاوته لأنه الحق مصدقاً لما قبله من كتب الله تعالى تأكيد لأنه الحق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ فأنزل القرآن يبين لهم الحق لأنه خبير بأنفسهم وقلوبهم خبير بها وبكل شيء وبما يهديهم ويفهمونه بصير بهم في تعليمهم وإرشادهم وفي تدبير أمورهم.

﴿٣٢﴾ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ الراجح: أنه عطف على قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو القرآن ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ لوراثة الكتاب؛ لأنهم أصلح له من غيرهم فمنهم من ينصره على المكذبين به بالسيف ويتبعه ويتمسك به في كل شيء، ويجعله حاكما على غيره، ومقدماً في الاستدلال على غيره.

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر أو غيره، وقدمه لعله ليشرح ثواب السابق بالخيرات قبل شرح عقاب الظالم لنفسه، وليبين أن ليس معنى إيراث الكتاب إلا إنزاله فيهم قبل غيرهم، لا أن كل من أورث الكتاب متبع له، وذلك أن القرآن نزل أوّلا بمكة والسورة هذه بمكة.

والذين اصطفاهم قد بينه الحديث المشهور في كتب الحديث «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

ومعنى هذا الاصطفاء: اختيارهم لجعل الرسالة فيهم فكان بنو هاشم الصفوة من الصفوة، وبنو هاشم: هم الذين أخذوا الكتاب بقوة، فقاتلوا الكفار وكانوا أول من برز يوم بدر، وقتل منهم عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر يوم مؤتة، وقتال علي × بقوة في بدر، وأحد، وخيبر، والأحزاب، وحنين، أشهر من نار على علم.

وبنو هاشم قد صدق عليهم قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ بلا إشكال لأن الرسول منهم ص ودعوى غيرهم يحتاج إلى دليل مع بعد إرادة غيرهم لأنهم كانوا أول أعداء الإسلام، وأشدهم عداوة له مع كثرتهم، ولو كانوا مرادين لكانوا هم الظالمون لأنفسهم، فلا فضل لهم إنما الفضل للسابق بالخيرات، والمقتصد. والمقتصد اتبع قصد السبيل، ولم يبلغ درجة السابق.

والسابق بالخيرات بإذن الله بهدايته وألطافه ومعونته المجاهد في سبيل الله الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر، الصابر على الشدائد في نصر دين الله من أول الإسلام أولهم رسول الله ص ثم الإمام علي (عليه السلام) ثم حذا حذوه في السبق بالخيرات أئمة الهدى من ذريته فأما قول من قال: إنهم أمة محمد فلا حجة له إلا أن الأمة مكلفة باتباعه، وهذا يعم الكافر والمسلم ولا يبقى المصطفى منه، والآية تفيد الاصطفاء الذي هو اختيار الصفوة من الأمة، وحكى الشرفي وغيره إجماع أهل البيت (عليهم السلام) على: أن الآية هذه فيهم، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الإشارة إلى السبق بالخيرات فهو الفضل الكبير باعتبار ثوابه.

﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَۖ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا

﴿٣٣-٣٥﴾ ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ * وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ * ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ ﴿جَنَّٰتُ﴾ بدل اشتمال من الفضل الكبير يبين معناه لأن السبق سببها ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إقامة وأمْن ﴿يَدۡخُلُونَهَا تُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ كثيرة ﴿مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗا﴾ حلية لعلها تكون في أيديهم وأمور الآخرة تخالف أمور الدنيا فيصلح في الجنة ما لا يصلح في الدنيا، ولذلك فيها خمر لذة للشاربين.

وذكر تعالى الحلية هذه هنا وفي (سورة الحج) وهي في (سورة الحج) بعد قوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الحج:١٩] وسياقها يرشد إلى أن السابقين بالخيرات مقدمون في هذا الوعد ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ وهو ـ أيضاً ـ صلح لأهل الجنة ولا يصلح للرجال في الدنيا وخصت هذه الآية من نعيمهم الحلية واللباس، ولعل السرّ في ذلك ـ والله أعلم ـ أن أيديهم ضربت بالسيف في سبيل الله، وأجسادهم تعبت في سبيل الله، ومنها ما غشيه دم الشهادة في سبيل الله، فكان كما قال الشاعر:

تردّى ثياب الموت حمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهي من سندس خضر

﴿وَقَالُواْ﴾ وهم في الجنة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ وكانوا في الدنيا لحقهم حزن ألا ترى إلى ما لحق الإمام علياً من الحزن والأسف من تثاقل أصحابه عن الجهاد حتى صاروا يُغزون ولا يغزون وحتى قال لهم : ((لقد ملأتم صدري قيحاً)).

تُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ

وكذلك ما نال الحسن والحسين إ بذلك السبب بعينه، وكذلك ما نال أئمة الهدى بعدهم، بسبب تغلب أهل الباطل المفسدين في الأرض، وتخاذل المسلمين عن نصرة الحق، وقلة أهل الجد والصدق، وظهور الباطل والجور، فلما صاروا في الجنة استراحوا وذهب الحزن، وتحقق نصرهم بتعذيب أعدائهم في جهنم.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ غفر لنا؛ لأنه غفور ﴿شَكُورٌ﴾ فأثابنا على القليل النعيم والملك الكبير الدائم ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ جعلها لنا وطناً نبقى فيها أبداً ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ وإحسانه وكرمه ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ عناء ومشقة في عمل وكد، وقد فسروا (النصب) بالتعب ولعله باعتبار مشقة العمل، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح:٧] تحمل مشقة العمل بالعبادة، واللغوب: التعب باعتبار الفتور والضعف عن العمل، وأثر مشقته.

﴿٣٦﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا تُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنعمة الله نعمة الهدى الذي أنزله فيهم وكل نعمة عليهم أو كفروا بالكتاب الذي أورثناه المصطفين أو المعنيان معا هما المراد، وهذا في الظالم لنفسه لأن الله تعالى قد ذكر ثواب السابق بالخيرات وهذا عقاب الظالم لنفسه، وكان في ذلك الوقت أبا لهب، والدليل على أن المراد الظالم لنفسه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ فدل على أن الذين كفروا ليس المراد به كل كفور بل خاص لحق بكل كفور.

نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ

وقوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ﴾ لا يحكم عليهم بالموت فيموتوا أو لا يقضى عليهم ينهى لهم أجل فيموتوا والأول أقرب لأنه يفيد أن الحياة والموت بيد الله، وقد جعلهم لا يموتون في جهنم ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بأيّ طريقة يحصل بها التخفيف ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ يخلد في جهنم لا يموت فيها ولا يخفف عنه من عذابها.

﴿٣٧﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ من الصراخ وفيه دلالة على شدة الاعتمال فيه، قال في (الصحاح): ((الصراخ: الصوت)) انتهى.

ويدل على أن الصراخ: الصياح قول الشاعر:

كشفت لهم عن ساقها وبدا من القوم الصراخ

قال الشرفي: ((وهو الصياح بجهد وشدة)) انتهى.

قلت: الدلالة على الجهد والشدة من جهة الدلالة على المبالغة في الصياح ومحاولة أقصاه لقوة السبب الباعث على الصياح ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ أي من نار جهنم إلى دار عمل ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ لأنهم كانوا يدعون أن ما هم عليه صالح فلم يقتصروا على قولهم نعمل صالحاً لأنهم لا يريدون ما كانوا يزعمون أنه صالح ولأن ما عملوا قد حبط وهذا يقرب إلى أن معنى كفرانهم كفران نعمة الله أعم من الجحد لآيات الله لأنه لم يقل هنا مثل ما حكى تعالى في (سورة الأنعام): ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧] وفائدة ذلك: أن تعم آية الظالم لنفسه الكافر والفاسق بغير الكفر.

ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ أي قد عمرناكم عمراً يمكنكم فيه أن تتذكروا؛ لأنها مدة واسعة ولكنكم أعرضتم وجاءكم النذير ينذركم عذاب جهنم فأعرضتم فلم يبق لكم عذر فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير فما لهم من نصير يدفع عنهم بأي وسيلة.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ما هو غيب في السموات غيب عند أهلها وغيب فيها عن أهلها ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ وما هو غيب في الأرض غيب في حق أهلها وغيب فيها محجوب فيها عنهم فهو سبحانه عالم بما سيكون من عذاب وثواب وغير ذلك، وعالم بمقدار ما يستحق الظالم وما يستحق المؤمن ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الخفي في الصدور، الذي يكتم فيها ولا يظهره قول ولا دليل فهو عالم بنيات عباده وعقائدهم وظنونهم لأنه علام الغيوب.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ قال الشرفي في (المصابيح): «قال في (البرهان): والخلف: هو التالي للمقدم» انتهى المراد، فمعنى ﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ كل أناس خلف لمن قبلهم والخطاب للناس، أي الله الذي جعل هذا القرن خلفاً لمن قبلهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فعليكم أن تعبدوه وتشكروه على نعمه في الأرض التي أعدها لأهلها ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ نعمة الله أو كفر بالله ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ لأن إثمه عليه وحده.

خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ **لا يزيدهم عند ربهم** ﴿إِلَّا مَقۡتٗا﴾ **قال في (الصحاح): ((مقته مقتاً: أبغضه)) انتهى المراد، قال تعالى: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾** [غافر:١٠] **وفسره الشرفي بالعقاب انتهى. لأن العقاب غاية البغض كما أن الجنة رحمة الله لأوليائه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾ لأنه يفوتهم في الدنيا الحياة الطيبة ويفوتهم في الآخرة كل خير.**

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ **﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ﴾ تقدمة للكلام فيهم والسؤال عنهم ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ فما كانوا يدعون لهم خلق شيء من الأرض بل يقرون أن الله خلقها وخلق السموات ﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم شاركوا في خلق السموات فهم شركاء فيها، وكذلك يقرون أن الله هو الذي خلق السموات فليس لهم شرك لا في الأرض ولا في السماء وهذا تذكير لهم أن شركاءهم إنما هم عباد أمثالهم ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا﴾ نأذن لهم فيه بالشرك فهم على بينات من كتاب من الله وهذا لا يدعونه بل هم مقرّون أن لم يؤتوا كتابا من الله، وإنما يقولون وجدنا آباءنا لها عابدين بل وعد بعضهم بعضاً أنهم لن يبعثوا فلم يخافوا عقاباً من الله ﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ خادعاً له أي ما يعد بعضهم بعضاً إلا غروراً لهم وهذا من الظلم ولكونهم ظالمين ارتكبوا ظلماً إلى ظلم.**

يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ **هذه حجة على المشركين، فالله هو الذي يمسك السموات والأرض كلاً في مكانه ﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ من أمكنتهما ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ لا شركاءهم ولا غيرهم لأن الله ـ جلّ جلاله ـ هو القادر على ذلك وعلى كل شيء، وليس لعباده إلا قدرة محدودة قدرها لهم أما شركاءهم التي هي الأصنام فلا تقدر على شيء فضلاً عن إمساك الأرض والسموات ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ فلذلك لم يعجل بإزالة الأرض بسبب ظلم الأكثر من أهلها بل أمسكها لهم وهم يعصونه لأنه حليم غفور ومن مغفرته أن لا يعاجلهم بالعذاب كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾** [الكهف:٥٨].

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ **قال الشرفي: ((قال في (البرهان): هم قريش أقسموا قبل أن يبعث الله رسوله ص حين بلغهم أن أهل الكتب كذبوا رسلهم فلعنوا من كذب نبيه منهم، وحلفوا بالله جل اسمه يميناً ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي نبي ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي ممن كذب الرسل من اليهود والنصارى وغيرهم، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً ص ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق وبعداً منه)) انتهى.**

ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

قال في (لسان العرب): ((قال] ابن عرفة: الجُهد بضم الجيم الوسع والطاقة والجَهد [بفتح الجيم] المبالغة والغاية ومنه قوله عز وجل ﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي بالغوا في اليمين واجتهدوا فيها)) انتهى.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ لم يقسموا بغيره لأنهم كانوا كالموجهين كلامهم في هذا إلى الله تعالى، فكان المناسب لذلك أن يحلفوا به ولا يحلفوا بشركائهم والله أعلم. والنفور من الشيء: الانزعاج منه، واعتبر نفورهم زيادة لأنهم على باطل من الشرك وغيره فأضافوا إلى باطلهم النفور من النذير والتكذيب بآيات الله.

﴿٤٣﴾ ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ عن الإيمان بالنذير استكباراً أظهروه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ المكر بالنذير وبما جاء به وهو مكر سيء لأنه باطل ومدافعة للحق بتدبير ما يبطله بحيلة، قال الراغب: ((المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة)).

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ سؤال يتضمن النفي أي ما ينتظرون بتركهم للإيمان ومكرهم السيئ ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي سنة الله في الأولين، وهي إمهالهم إلى أجل ثم إهلاكهم ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لن يبدل الله سنته بمعاملة مخالفة لها كترك الكفار يعملون ما شاءوا ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ بجعل الهلاك لغير المجرمين الذين كذبوا بآيات الله وإنزاله بمن لا يستحقه لأن الله تعالى عزيز حكيم.

فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

﴿٤٤﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ **﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ﴾ سؤال بمعنى النفي بمعنى أنهم قد ساروا ورأوا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾** [الصافات١٣٧ :١٣٨] **فقد رأوا آثار المهلكين قبلهم، وكانوا أشد من قريش قوة لم يدفعوا عن أنفسهم بقوتهم.**

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنه الغالب على أمره القاهر فوق عباده ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٗا﴾ على كل شيء، ومن جملة ذلك: إهلاك من أراد إهلاكه.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرٗا﴾ **﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾ من الجرائم أي يعاجلهم بالهلاك ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ أي الأرض التي هم عليها ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾ لا من البشر ولا من الدواب على اختلاف أنواعها وهذا يفيد: أن وجود الحيوانات تابع لوجود البشر.**

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو أجل إنزال العذاب بمن يعذبه في الدنيا، وأجل الكل ليوم الحساب ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فقد كان بصيراً بإهلاك الأمم وإنجاء الرسل والذين آمنوا وما زال ولا يزال بعباده بصيراً، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير (سورة فاطر) بحمد الله

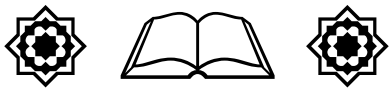

سورة يس

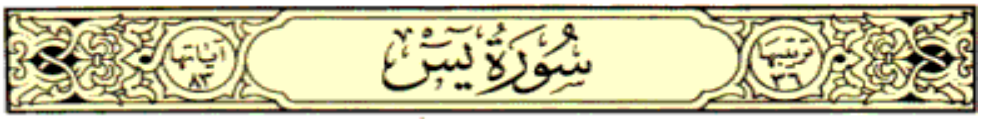

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يس﴾ (الياء) و(السين) من حروف المعجم سواء كانا من أسماء النبي ص كما روي، أو كانا مثل بقية الحروف في أوائل بعض السور، وهذا الأظهر إذا لم تصح الرواية.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لأن وجه إعجاز القرآن حكمته الخارقة، لأنه فائق في حكمته وإحكامه، فأقسم بالقرآن الحكيم الدال على رسالة النبي ص.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أكد أنه من المرسلين لأن الجاهلية استغربوا دعوى الرسالة، فأفاد أنه واحد من المرسلين، وأن الله قد أرسل قبله رسلاً فلا وجه لاستغرابهم، و(اللام) تأكيد.

﴿٤﴾ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا خبر ثان أي إنك على صراط مستقيم فمن اتبعك فقد اهتدى.

﴿٥﴾ ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أي نزله العزيز الرحيم، لأن عزته ورحمته تقتضي إنزال القرآن لإقامة الحجة على الناس، وأن لا يهملهم فيفسدوا في الأرض ويتظالموا، فكان من مقتضى عزته الإنذار والوعد بالعقاب لمن ظلم، وهذا ما تضمنه القرآن الكريم.

﴿٦﴾ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ ﴿لِتُنذِرَ﴾ يا رسول الله ﴿قَوْمًا﴾ هم ومن حولهم ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ما أرسل إلى آبائهم

أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ

المشركين نذير، لأن هؤلاء أحوج من آبائهم الأولين الذين ابتدعوا الشرك؛ لأنهم ورثوا الشرك من آبائهم، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام:٩٢] فهو يبين أنهم أحوج إلى النذير، ولا ينافي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] لأن الأمة ليست عبارة عن القرن الواحد.

ألا ترى أن أمة محمد ص كفاها نذير واحد وهو رسول الله ص ﴿فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ في أشد الحاجة إلى النذير واقتضت الحكمة إنذارهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

﴿٧﴾ ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ هذا في المتمردين الذين استحقوا الخذلان وصاروا في بعد عن الإيمان بسبب تمردهم وعنادهم ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لبعدهم عن الإيمان بسبب عنادهم وإعراضهم عن النظر وتمردهم فكان من الضروري إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسول ص وإنقاذ الآخرين الذين ليسوا مثلهم.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ الأغلال: جمع غُل وهو القيد، وقوله تعالى: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ أي الأغلال عريضة تبلغ الأذقان أو متعددة تملأ العنق وترفع الذقن إلى فوق ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أي مستمرون في رفع الأذقان إلى جهة فوق، والراجح في هذا: أنه تمثيل، كأنه قد جعل بينهم وبين الإيمان حواجز كمن كان في عنقه غل أو أغلال تمنعه عن النظر إلى الطريق عند رجليه، هذا من الموانع والمانع الثاني قوله تعالى:

عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ لأن السد حايل بينهم وبين الرؤية لما أمامهم وما خلفهم وقوله: ﴿فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ﴾ أغشيناهم: جعلنا عليهم غشاء من فوقهم، وكل هذا مجاز عن خذلانهم وبعدهم عن طريق الحق فهو من المتشابه، كقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:٧].

وحكى الشرفي في (المصابيح): عن الهادي × أنه قدر في الآية همزة الإنكار، وقال: إن المعنى: أإنا جعلنا في أعناقهم، إنكار لما زعموا من قولهم.

وحكى الشرفي عن الحسين بن القاسم أنه قال: ((أن معناه: أنا سنجعل في أعناقهم أغلالاً، كما قال ـ عزَّ وجل ـ حاكياً: ﴿وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] وهم لم يقولوا ذلك بعد وإنما أراد سيقولون: يا مالك)) انتهى [المصابيح ج٤ ص٩٧].

والمقصود: أن قلوبهم لا تهتدي إلى الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

﴿١٠﴾ ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إن العاقل المستعمل لعقله إذا سمع النذير خاف أن يكون صادقاً فحمله ذلك على النظر في صدقه فيما يكون معه من الآيات فأداه ذلك إلى الإيمان، أما هؤلاء المخذولون فإنهم لا يخافون أو لو خافوا لم يزالوا معرضين يمنعهم الكبر والحسد فكان الإنذار وعدمه سواء عندهم.

نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾

﴿١١﴾ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ إنما تنذر الإنذار الذي يفيد وينفع من اتبع الذكر القرآن ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ بالغيب وهو غائب عن الآخرة وما يكون فيها، لأنه قد آمن بالآخرة وما فيها من الجزاء، فهذا الذي نفعه الإنذار، وما أحسن هذا النظم قال: ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ ليدل على أن شأنه الرحمة وإنما يعذبهم بذنوبهم.

وقال: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ لأن الآخرة وما فيها غائب عمن هو في هذه الحياة الدنيا، ولكن من آمن بوعد الله خشي الرحمن ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ وهذا من حسن النظم أيضاً لأنه يدفع الوهم أن يكون الإنذار لنهيه عن اتباع الذكر مغفرة لذنوبه التي ارتكبها قبل الإيمان، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ على إصغائه إلى النذير ونظره في صدقه وإيمانه ﴿كَرِيمٍ﴾ لأنه أجر عظيم يدل على كرم الله.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي أن الله سبحانه وتعالى هو القادر على ذلك دون غيره، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ وهو العالم بما فعلوا ولا ينساه، وعبر عن ذلك بالكتابة والمقصود أنه لا ينسى ما قدموا كقوله تعالى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢].

﴿وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ لأنها من سعيهم سواء كانت آثارا حسنه أو آثاراً سيئة، والمقصود هنا: ما فعلوه وبقي بعد موتهم مثل كتاب نافع أو كتاب ضار مفسد وما سَبَّبَ له ذلك الكتاب من هدى أو ضلال فهو من آثارهم قد علمه الله ولا ينساه ليجزيهم به يوم القيامة ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي في كتاب بين واضح.

إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم

﴿١٣﴾ ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ **اذكر لهم قصتهم ليعتبروا بها.**

﴿١٤﴾ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ﴾ **اذكر** ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ **كذبوا الرسولين فعززنا برسول ثالث، معناه قوينا أمرهم برسول ثالث.**

﴿١٥﴾ ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ **كذبوا رسلهم واحتجوا لذلك بقولهم:** ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ **يعني أنهم لا يصلحون للرسالة وليسوا إلا بشرا، ولا يصلح عندهم للرسالة إلا الملائكة، كما قال قوم عاد وثمود:** ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ [المؤمنون:٢٥] ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ **جحد للرسالة ونفي لما جاءت به الرسل** عليهم السلام ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ **وهذا تطور منهم إلى التصريح بتكذيب رسلهم.**

﴿١٦﴾ ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ **لم يقابلوا كلامهم بالجفاء بل حققوا لهم بأنهم رسل كما قالوا أول مرة:** ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ **وأكدوا في هذه المرة بقولهم:** ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ **وقولهم:** ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ **بمنزلة القسم، لأنهم لو كانوا كاذبين لكانوا قد كذبوا على الله في قولهم:** ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ **أي إذا لم تؤمنوا لم يضرنا كفركم لأنه ليس علينا إلا إبلاغكم وليس علينا أن تؤمنوا** ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾ **البين الواضح حتى لا يكون لهم عذر.**

مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ

﴿١٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ حاولوا إسكاتهم بالقوة لما فقدوا الحجة.

﴿١٩﴾ ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أي شؤمكم معكم وهي ذنوبكم وجرائمكم وشرككم فالنحس عليكم من أنفسكم ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمۚ﴾ (الهمزة) للإنكار عليهم كيف يتطيرون بأن ذكروا بالله ليرجعوا إلى الحق، وهذا هو الهدى لا يستحق التطير والتشاؤم به ﴿أَئِن ذُكِّرْتُمۚ﴾ تطيرتم بمن ذكركم ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ ولذلك تطيرتم بمن دعاكم إلى الخير.

والإسراف: إكثار المعاصي.

﴿٢٠﴾ ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ سارع إلى أمرهم باتباع الرسل، أي سارع بحث الخطى بسرعة لشدة إيمانه بالله، ولخطورة الحال ومعرفته بالواجب المتحتم عليه في الأمر بالمعروف، فلم يستجز التأخر ولرغبته في طاعة الله سارع، والسعي هو الإسراع في المشي، وأقصى المدينة: أبعدها. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ سارع إلى أمرهم باتباع الرسل.

﴿٢١﴾ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ ما عليكم من اتباعهم لأنهم لا يطلبون منكم أجرا فيثقل عليكم الإيمان بسبب الغرم ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي الرسل مهتدون فإن اتبعتموهم اهتديتم.

أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ كيف لا أعبد الذي فطرني خلقني فهو ربي المالك لي الذي يستحق أن أعبده ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بمعنى: أنهم لا يرجعون إلا إليه يوم القيامة.

﴿٢٣﴾ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ الهمزة للإنكار بمعنى كيف أتخذ آلهة من دونه لا يدفعون عني بشفاعتهم شيئا ولا ينقذوني بقوتهم من ضر أراده ربي، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لأن من شأنه الرحمة لولا أن العبيد يستحقون الضر لعصيانهم وتمردهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إن اتخذت من دونه آلهة والمعنى يبين لهم أنهم في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا من الأساليب الحسنة في الدعوة حيث لم يصرح بضلالهم مباشرة بل وجه اللوم لنفسه، والمقصود قومه ليفهموا أنهم في ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ وهنا صرح بإيمانه وأظهر عدم مبالاته بما يمكن أن يجلبه ذلك عليه من الويلات، وأكد لهم ذلك بقوله: ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ إعلاناً لإيمانه، وهو يريد أن يسمعوا أنه قد آمن.

﴿٢٦﴾ ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ المعنى خلى الباري بينهم وبينه فقتلوه ففاز بالشهادة ودخل الجنة ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾.

۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

﴿٢٧﴾ ﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ وهذا يدل على فضل الشهادة وعظمة الشهيد أنه لا يزال حياً، وقد تمنى أن يعرفوا مصيره لكي يؤمنوا أو ليغيظهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ لأنهم أحقر من أن ينزل عليهم جندا من السماء وما كنا منزلين أي ليس من شأننا إنزال جند عليهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ إن كانت العقوبة إلا صيحة واحدة رجفت الأرض بهم مثل صيحة ثمود ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ قد هلكوا وذلك بسبب جرمهم في حق المؤمن الذي قتلوه وما قدمت أيديهم من الجرائم.

﴿٣٠﴾ ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ قال في (المصابيح): ((قال محمد بن القاسم : وقول الله: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ كلمة من وعيد الله منبئة عن شدة الوعيد مفزعة؛ لأن العرب إذا أخبرت عن الأمر المفزع المخوف العظيم فلم يفهمه من تخبره عنه أو كذب به قالوا في التنبيه بأبلغ الوعظ والتكليم: يا حسرة عليك، ويا ندامة لك إذا ما حل بك ما كذبت به مما حذرناك فرأيته بالمعاينة)). إلى آخر كلامه في [المصابيح ج٤/ ص١١٠].

قوله: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بيان لسبب حسرتهم يوم القيامة لأنهم لم يكتفوا برفض الإيمان بل أضافوا التكذيب للرسل ولا اكتفوا بالتكذيب بل زادوا الاستهزاء فعظمت عليهم العقوبة فاستحقوا العذاب العظيم وهو سبب حسرتهم وندامتهم.

أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٥﴾

﴿٣١﴾ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ في الدنيا ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ أي أنا قد أهلكنا قرونا كثيرة قبلهم لأن إهلاك القرون دليل على البعث والجزاء، لأنه لم يخلقهم عبثا ولا خلقهم ليكونوا حشواً للقبور، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦] معناه: حشواً لبطن الأرض.

وقوله ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ دليل على أن الموت ليس بعده رجعة وإنما ينتظر بأول الناس آخرهم.

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ كل المذكورين مجموعون ﴿لَّدَيۡنَا﴾ في موقف الحساب ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ للسؤال.

﴿٣٣﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ دليل على قدرته تعالى على البعث ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ وقد تكرر في القرآن الكريم الاحتجاج على الكفار المنكرين للبعث أحتج عليهم في سور عديدة بإحياء الأرض بعد موتها، ليدلّل على إحيائهم بعد موتهم، كإحياء الأرض بعد موتها ﴿وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبًّا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ﴾ دليل على قدرته ودليل على نعمته فما كان يليق بحالهم أن يكذبوا رسله ويكفروا نعمته.

﴿٣٤﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعۡنَٰبٍ﴾ وجعلنا أي وجعل في الأرض بعد أن أحياها بالمطر الجنات من النخيل والأعناب، وخص بالذكر

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾

النخيل والأعناب؛ لاحتوائهما على مواد طبية مهمة وضرورية للجسم أكثر من غيرها كما هو مذكور في كتب الطب، إضافة إلى كثرتها وانتشارها في معظم البلدان العربية، مع ما فيهما من الآيات العجيبة الصنع الدالة على قدرته تعالى ونعمته ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ﴾ تسقى الجنات فتخرج الثمر.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لم تعمله أيديهم بل الله أوجد تلك النعمة ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ لأن فطرتهم تدلهم على قبح كفر المنعم، وأن ترك الشكر يعاب، فلما ذكرهم نعمته وبخهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

﴿٣٦﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ سبحان تنزيه لله سبحانه عمَّا قالوا، وهذا التنزيه في مقابل استبعاد الكفار لقدرته على الإحياء بعد الموت ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أصناف المخلوقات كلها على كثرة المخلوقات وتعدد أنواعها، فهو الذي نوعها بقدرته تعالى كلها الجمادات والحيوانات والشجر فلا يستبعد منه إحياء الموتى ولا تقاس قدرته على قدرة المخلوق ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ من البشر الذي خلقهم وجعلهم أزواجا ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ من المخلوقات التي لم يعرفها الأولون الذين كانوا في وقت نزول القرآن.

﴿٣٧﴾ ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ هذه آية عظيمة فيها دلالة على قدرة الله العظيمة على الإتيان بالليل وسلخ النهار، إي إزالة النهار وفصله عنه بتغييب الشمس عن المكان الذي يأتي فيه الليل.

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي وآية لهم الشمس فهي من دلائل قدرته حيث تجري في منازلها التي تأتي عليها في عام واحد وكل منزلة ثلاثة عشر يوما عدا الذراع فهو أربعة عشر يوما، وهكذا تجري على الدوام حتى تصل إلى مستقر لها تنتهي إليه عند القيامة ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ لأن تقدير مرورها بمنازلها في أوقاتها المحددة، تبقى في كل منزلة العدد المحدود لا تتخلف تقدير عظيم يدل على قدرة عظيمة، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا ينال، ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ بكل شيء لأن هذا دليل على علمه، من إحكام الصنع وإتقانه فهو دليل على أنه عليم بكل شيء، لأن مثل ذلك لا يكون إلا من عليم، كما أن إجادة الكتابة لا تكون إلا من عليم بالكتابة.

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ وهذه أيضاً آية عظيمة وتدل على قدرة كبيرة حيث يزيد الهلال حتى يتم، ثم ينقص حتى يكون ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ والعرجون القديم: هو عذق التمر الذي تقادم عهده بعد قطعه من النخلة حتى تغير لونه حتى صعبت رؤيته.

﴿٤٠﴾ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ لأن القمر تقطع المنازل الثمان والعشرين في شهر، والشمس لا تقطعها إلا في سنة، فقدر الباري سير الشمس على هذا التحديد ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ كذلك لأن الله سبحانه جعل النهار يأتي بعد الليل والليل بعد النهار، ولا تسبق الليلة الثانية فتأتي قبل أن يمر نهار بين الليلتين هذا تقدير من الله محكم لا يتخلف إلى يوم القيامة.

لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ الشمس والقمر والليل و النهار حيث تشرق الشمس على ما يقابلها من الأرض فيكون النهار على ذلك المقابل والليل على الجهة الثانية ثم تنعكس المسألة بدوران الأرض، فيكون الليل والنهار كما قال تعالى: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثاً﴾ [الأعراف:٥٤] في تتابع كل واحد يخلف الآخر، أما الشمس والقمر فهما يسبحان في فلكيهما إلى يوم القيامة، فينعكس ذلك على الأرض بما فيه مصلحة للإنسان في كل أمور الحياة.

﴿٤١-٤٢﴾ ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ قال في (المصابيح): ((عن محمد بن القاسم إ : وكذلك فهو الله الذي حمل البشر في الفلك والبحر وعلى مثل ذلك من الدواب الحاملة لهم في البر وقد قيل في الخبر: إن الذي مثل بالفلك هي الإبل، وقد تسميها العرب سفن البر ولتشبهها بها قرنها الله عز وجل بالسفن في ذكرها فقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر:٨٠] فهذا فيما ذكر الله من قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

وما نرى ـ والله أعلم ـ أن الله أراد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إلا ما حمل وأقل من الدواب كلها الإبل وغير الإبل غير أن للآبال مالها في الحملان من الفضل و﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ فهو المملوء المثقل، وهو الله المنعم المفضل الحامل لذرياتهم، والذريات ـ والله أعلم ـ فهي الذرء والمذروء والمكثر من جماعتهم، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك:٢٤] يعني بـ(ذرأكم): كثَّركم ونشركم.

مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا

وكذلك إذا قيل: ذرية فإنما يراد جماعة مكثرة مذرية والواحدة من الجماعة المكثرة المذرية ذَرْيَةٌ، والثنتان: ذريتان، والثلاث: ذريات فكان هذا ـ والله أعلم ـ دليلا لمن يعقل ويفهم على أن الذريات هي الجماعات منكم الذريات المكثرات، لأنه لو كان مخرجها في الذكر إنما يراد بها الذراري دون الآباء لكنا نرى أكثر من يركب السفن إنما هم الأكابر لا الذراري الأصاغر الضعفاء)) انتهى المراد [المصابيح ج٤/ ص١٢١].

ويمكن ـ والله أعلم ـ أن المراد بحمل الذرية حمل الأولين الذين نجوا من الغرق في سفينة نوح؛ لأن نجاة الآباء من الغرق سبب بقاء الذرية واستمرارها فكأنه حمل الذرية في الفلك المشحون فالآية كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف:١١].

﴿٤٣﴾ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ تذكير بنعمة الله وبيان أنه حملهم في البحر بقدرته ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ الصريخ: المغيث للصارخ، ولعله يشير سبحانه وتعالى إلى شركاء المشركين ليذكّرهم أن شركاءهم لا ينقذونهم إذا أراد الله أن يغرقهم، ليدل على أنهم ليسوا بآلهة.

﴿٤٤﴾ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ نحملهم في البحر ولا نغرقهم ﴿وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ نمتعهم إلى حين انتهاء آجالهم، فهذه آيات عظيمة تدل على قدرته سبحانه وتعالى ونعمته.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ اتقوا شر ذنوبكم المستقبلة والماضية فليتوبوا من الماضي، وفي المستقبل كلما أذنبوا تابوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ توسلا وتوصلا إلى رحمته.

مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ معرضين عنها من حين تأتيهم لا ينظرون فيها أصلا فهو إعراض مستمر عن كل آية، يعني: أنهم لا يفكرون أولاً ثم يعرضون بل يبادرون للإعراض من حين تأتيهم، وهذا شأنهم لأنهم يكذبون الرسل كما أفاده في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ..﴾ الآية.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ ولعلهم كانوا يؤمرون بالإنفاق من أجل حاجة الضعفاء والمساكين إلى الطعام. قال الشرفي في (المصابيح): عن محمد بن القاسم إ : ((فأجابوا فيما دعاهم الله إليه من إطعام الفقير والإنفاق جواب اللئام البخلاء الجاهلين مثلهم، واحتجوا على النبي ص ومن دعاهم إلى ذلك من المؤمنين بلا حجة لهم فيه فقالوا: ﴿أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ﴾ وجهلوا أنما دعاهم الله إلى إطعام الفقراء محنة لهم بذلك واختبار وبلوى ليجزيهم الله في إطعامهم والإنفاق في ذلك مما رزقهم الجزاء الأوفر، الذي هو أطيب وأعظم مما أنفقوا وأزكى وأكبر، وقد علم النبي ص والمؤمنون ـ إذ هم لهم إلى الإنفاق داعون ـ أن الله أقدر القادرين على إطعام الفقراء المعسرين فذكر الله ما كان من ترك الإنفاق من جواب الكافرين ليكون المؤمنون لمثل معصيتهم فيما أقروا به حذرين)) انتهى من [المصابيح: ج٤/ ١٢٦].

صَيۡحَةً وَٰحِدَةً تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ

﴿٤٨﴾ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي هذا الوعد الذي هو القيامة والجزاء بالجنة والنار أخبرونا متى يكون ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنه سيكون؟ فهم يرون المدعي لذلك إنما يدعي علم الغيب،ولم يلتفتوا إلى أنه إنما أنذرهم بالوحي من الله تعالى ولم يدع علم الغيب.

﴿٤٩﴾ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ ما ينتظرون بهذا الإعراض والتكذيب بالقيامة بعد وجود الآيات إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يختصمون على أمور دنياهم ويتشاجرون عليها غافلين عن اليوم الآخر.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً﴾ لأن الصيحة أخذتهم فأبطلت نطقهم وقوتهم فلا يستطيعون الكلام، وهكذا نلاحظ أن المشرف على الموت يكون في نفسه أشياء تهمه يجب أن يوصي بها فلا يتمكن حينئذ. كذلك هؤلاء لا يستطيعون توصية لأن الصيحة أخذتهم بسرعة، ﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ﴾كذلك لأن الصيحة قد أخمدتهم فلا عودة بعدها إلى الأهل.

﴿٥١﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾وبعد أخذهم بالصيحة المذكورة التي أهلكتهم ذكر الصيحة الثانية التي تأتي لإخراجهم من القبور ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ يسرعون إلى موضع الوقوف والسؤال حيث يسألهم الله تعالى، ويحاسبهم ويحكم فيهم ويأمر بهم إلى الجنة أو إلى النار.

ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ

﴿٥٢﴾ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جعلوا بقاءهم في القبور -حيث لا يسألون ولا يحاسبون- كأنهم في رقدة ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾؟ استنكروا بعثهم من القبور وفزعوا، فقالوا: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ ثم تذكروا أنه الوعد الذي كانوا يوعدون، وكانوا لا يؤمنون به، فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أي الذين كانوا ينذرونهم لكنه تصديق لا ينفعهم.

﴿٥٣﴾ ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة أخرجتهم من القبور وأحضرتهم في موقف العرض والسؤال والحساب والفصل بين العباد وهو معنى قوله: ﴿لَّدَيۡنَا﴾ ويعتبر حضوره سبحانه بوحيه وسؤاله وفصله بين العباد فهو يعتبر حاضراً في ذلك الموقف.

﴿٥٤﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ لا تظلم أي لا ينقص عليها شيء تستحقه من الثواب يزاد عليها شيء من العقاب بل يجازى كل بما عمله.

﴿٥٥﴾ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ اليوم يعني أنه يسارع بهم إلى الجنة في ذلك اليوم، مشغولون بالتنعم في الجنة، ولا مكان للفراغ عندهم فهم طوال الوقت يتنقلون بين نعيمها فمن نعيم إلى أسنى منه. ﴿فَٰكِهُونَ﴾ في حديث مؤنس، وسرور وتنعيم فهذا هو ما به يشتغلون.

وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ

﴿٥٦﴾ ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ وهذا يدل على وجود الشمس إلا أنها لا يباشرهم شعاعها لكثرة الأشجار وكبرها فهم في ظلال ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ الأريكة: هي المكان الممهد الموطأ. وقيل: السرر في الخيام.

﴿٥٧﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ لهم في الجنة فاكهة، وهي هنا اسم جنس يطلق على جميع أنواع الفواكه، ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يستدعون ويطلبون.

﴿٥٨﴾ ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ لهم ما يدعون ﴿سَلَٰمٌ﴾ سليم من كل عيب ومن كل مضرة، فهي لذيذة لا يتبعها ضر ولا يوجد فساد في الفاكهة فهي سلام من كل محق، لأنه وصف للنعيم خالص ﴿قَوْلًا﴾ مفعول مطلق أي أقوله قولاً قائم مقام الفعل أي قلنا هذا الوعد قولاً ﴿مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾.

﴿٥٩﴾ ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ انعزلوا عن المؤمنين في جانب حتى يكون المؤمنون وحدهم والمجرمون وحدهم، أهل الجرائم وهي الذنوب قال في قصيدة زهير:

تُغفَّى الكُلُومُ بالمئين فأصبحت ... يُنَجِّمُهَا مَن ليس فيها بمجرم

أي يسلم الدية من ليس فيها بمذنب.

﴿٦٠﴾ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ ألم أعهد أي أقدم إليكم في الدنيا والتقديم في القول يسمى عهدا، يقال: عَهِدَ إليه بكذا ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ إما طاعته مطلقاً، حيث جعلت طاعته بدلا من عبادة الله، وإما

جِبِلاًّ كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ

طاعته في الشرك، والأول أرجح، ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا ينبغي أن يطاع ويعبد، وقد أخبرنا في الدنيا أنه لنا عدو مبين بيّن العداوة أشد من كل عدو، لأنه يريد إدخالنا النار ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

﴿٦١﴾ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ قَيّم لا عوج فيه.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾هذا من بقية الاحتجاج والتوبيخ للمجرمين﴿جِبِلاًّ﴾ خلقاً كثيراً.

قال في (المصابيح): عن محمد بن القاسم إ : ((وأهل اللسان فلا يمترون في أن الجِبِلَّ: القرون)) انتهى.

فالجبل كثير وكثَّر الكثير بقوله تعالى: ﴿جِبِلاًّ كَثِيرًا﴾ ثم احتج عليهم بالعقول، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ وتتبعون عهدي وتؤمنون بكتبي ورسلي.

﴿٦٣﴾ ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ دلالة على أنها قد أحضرت حيث يرونها، وهم في موقف الحساب، كقوله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] حيث يرونها ويسمعون صوتها ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا توعدكم الله وحذركم منها وأنذركم.

﴿٦٤﴾ ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بمعنى جزاء على الكفر، وهو هنا محتمل أن يكون كفر النعمة، أو كفر الرفض لله ولرسوله، لأنه هنا قد عم المجرمين، حيث قال: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ
عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ
لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٦٥﴾ ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ حين يجيئون إلى جهنم يختم على أفواههم في حال ويتكلمون في حال أخرى ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ﴾ تشهد عليهم، ﴿وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون من المعاصي التي كانوا يفعلونها في الدنيا.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ هذا عائد إلى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ للدلالة على أن جدالهم في شأن الآخرة جرم عظيم ﴿لَطَمَسۡنَا﴾ ما حول أعينهم عليها حتى يغطي أعينهم. ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ حرصاً على أن يصلوا إلى الصراط ليهتدوا به؛ لأن أبصارهم قد حجبت، أما الصراط فعندهم أنهم يحسونه بأقدامهم؛ لأن الصراط: هو الطريق المعبد، قال الشاعر:

دعسنا أرضهم بالخيل حتى تركناها أذل من الصراط

﴿فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ وقد طمس الله على أعينهم.

﴿٦٧﴾ ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ﴾ لمسخناهم حَوّلْنا خلقهم إلى خلق قبيح عقوبة لهم ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ﴾ حيث هم مجادلون في الآخرة، لأن المسخ يجعلهم عاجزين عن المشي إلى أي جهة، أو يميتهم أو يجعلهم جماداً ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا﴾ إلى أي جهة كانوا يريدون ﴿وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾ إلى أهليهم، فقد أخمدهم المسخ مكانهم.

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ

﴿٦٨﴾ ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ ننكسه: نحول جسده عن حالته التي كان عليها في شبابه إلى حالة الضعف والكبر، لأنه كان في حالة شباب وقوة عالية ثم انتكس إلى حالة دنية وضعيفة، دلالة على أن الله سبحانه وتعالى متصرف في الإنسان يتصرف فيه كيف شاء، فالمعمر كان في البداية طفلاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، قال الشاعر:

فمن عاش شب ومن شب شاب ومن شاب شاخ ومن شاخ ماتا

فالباري سبحانه وتعالى الذي يتصرف في الإنسان من بداية خلقه طفلا ثم شاباً ثم كهلاً ثم شيخاً ثم يميته، كذلك هو الذي يتصرف فيه بعد الموت لأنه على كل شيء قدير، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنه قادر على بعثكم بعد الموت، وهذا رد على القائلين ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ وهذا من جملة الرد على القائلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأنهم كذبوا بالقرآن وقالوا: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء:٥] أي الرسول، ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ لأنه لا يستطيعه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ هذا القرآن الذي زعموا أنه شعر ما هو إلا ذكر تذكرة لمن يخشى ﴿وَقُرْءَانٌ﴾ يقرأه الناس ﴿مُّبِينٌ﴾ بيّن واضح مفهوم المعاني، وهذا يرد على من زعم أنه رموز لا يفسرها إلا الإمام أو الشيخ عندهم.

﴿٧٠﴾ ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ يعني هذا القرآن لتنذر من كان حياً حي القلب، لا تزال فيه القابلية للإيمان والهدى، بخلاف قلوب الكفار المعاندين المتمردين الذين يستحقون الخذلان، فقلوبهم كأنها ميتة لكثرة ذنوبهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤].

أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ

﴿وَحَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ تحق عليهم كلمة العذاب؛ لأنها قد قامت عليهم الحجة بالقرآن المبين فحقت عليهم كلمة العذاب وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ هذا من جملة الرد على القائلين: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أولم يروا حين جادلوا في الحياة بعد الموت واستبعدوا قدرة الله عليه، بين أن لهم في الأنعام آية تدل على قدرته التي لا تقاس على قدرة المخلوقين، لئلا يستبعدوا البعث بعد الموت، وبين لهم فيها نعمته عليهم، ففيها منافع كثيرة، وأعدها وذللها وجعل منها ركوبهم كالإبل التي جعلها مهيأة للركوب والسفر الطويل وتتحمل شدة الحرارة والبرودة والصبر عن الماء وقتا طويلاً وغير ذلك من التهيئة، وكل هذا التذليل حيث جعلها مخالفة للسباع، ومنافعها متعددة ففي سورة النحل بين كثيراً منها، مثل نعمة اللحوم والجلود والأصواف والأوبار وغيرها، فكفروا نعمة الله بتكذيب رسله، والجحد بآياته والإشراك به وغير ذلك.

﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولينا صنعه وإتقانه بأيدينا وهذا تحقيق لكونه تولى صنعه بقدرته، وهو دليل على أنه قادر على كل شيء، لأنه خلقها وخالف بينها وبين صنع الحيوانات الباقية لتكون نعمة للإنسان ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾أنعم الله تعالى بل كفروا حيث كذبوا رسله وجحدوا آياته.

ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا

﴿٧٤﴾ ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ واتخذوهم من دون الله آلهة لعلهم ينصرونهم على أعدائهم.

﴿٧٥﴾ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ هذه فيها رد عليهم، بأن آلهتهم عاجزون لا ينفعون ولا يضرون، ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ المشركون قد جندوا أنفسهم لحماية آلهتهم فكيف تنفعهم بينما هم محضرون حولها لحمايتها لعجزها عن أن تدفع عن نفسها أي سوء.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ من تكذيبهم بالآخرة، وشركهم وجحدهم بآيات الله، وتكذيبهم لرسله، فلا يحزنك قولهم، بل كِلْ أمرهم إلى الله، لأنه يعلم ما يسرون وما يعلنون، ومرجعهم إليه.

﴿٧٧﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ هذه الآية تجمع أمرين أولاً: الدلالة على أن الله رب الإنسان ومالكه، لأنه الذي خلقه فهو إلهه لا إله له غيره، ثانيا: الدلالة على أنه سبحانه قادر على إحياء الإنسان وخلقه النشأة الآخرة كما أنشأه المرة الأولى، ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ بيّن الخصومة لأنه مجادل في توحيد الله تعالى، ومجادل في قدرته على بعث الإنسان بعد الموت.

﴿٧٨﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ ﴿ضَرَبَ﴾ وهذا المثل في استبعاد الإعادة بعد الموت ﴿وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ أنه خلقه في النشأة الأولى، وهي دليل على قدرته على إعادته بعد الموت.

ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿٧٩﴾ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ هـذا رد على قولهم: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ وهو رد عظيم وبأسلوب حكيم.

﴿٨٠﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ وهـذا رد أيضاً لأنه دليل على أنه لا يستبعد في قدرة الله تعالى شيء، فهو يرد على استبعادهم قدرة الله على البعث بعد الموت حيث بين أنه جعل من الشجر الأخضر والذي ليس مظنة أن تشتعل منه النار التي هي ضد الماء، ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ توقدون النار متى شئتم.

﴿٨١﴾ ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كذلك فيه رد على استبعادهم البعث بعد الموت؛ لأنه بين فيه أنه قدر على خلق السموات والأرض، فكيف يستبعد منه أن يقدر على إعادة مثل الإنسان في الصغر والقلة بالنسبة للسموات والأرض ﴿بَلَىٰ﴾ إنه قادر على أن يخلق مثلهم ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ الذي خلق كل شيء ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء فلا يخفى عليه كيف يخلق.

﴿٨٢﴾ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((عن محمد بن القاسم إ : هذا خبر من الله ـ جلَّ جلاله ـ وإفهام لعباده، وتبيين أنه لا يعاني من أراد خلقه من الخلق والصنع والأمور

بمعاناة كلفة ولا مزاولة كف ولا بنان، إذ هو متعال عن أن يوصف بأعضاء، وغير شبيه بالإنسان وإنما أمره إذا أراد خلقاً أو شيئاً أن يقول له في أسرع من لمح البصر: كن، فيمتثل كائناً)) انتهى من [المصابيح: ج٤/ ص١٤٨].

يعني أن إيجاده له إذا أراد شيئاً أوجده بلا كلفة ولا عناءٍ بأيسر ما يكون حتى كأنه أمره أن يكون فكان، فعبر عن إيجاده بأمره أن يكون.

﴿٨٣﴾ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ سبحانه عما يقول المشركون وعما يقول المنكرون للبعث والمبطلون؛ لأن بيده ملكوت كل شيء، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وحده لا ترجعون إلى غيره دليل على أنه لا شريك له، فيرجع إليه المشركون الذين يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨].

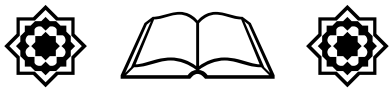

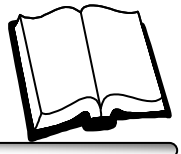

التيسير في التفسير

سورة الصافات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ قال الشرفي / في (المصابيح): ((قال الهادي × : ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ الملائكة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ ومعنى (صافون) فهو وقوف صفوفاً لله تعالى عابدون)) انتهى.

وقال ـ أيضا ـ: ((قال الهادي × في: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ الملائكة أيضا الزاجرات للخلق عن معاصي الله الخالق بما تنزل به من أمر الله ونهيه ومؤكدات فرضه)).

وقال ـ أيضا ـ في (المصابيح) في قوله تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾: ((قال الهادي × : فهي الملائكة أيضا التي تتلوا وحي الله على أنبيائه وتنزل بزواجر آياته لأنبيائه)) انتهى المراد.

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب القسم.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه أوائل السور بعضها يكون تفسيرها مشكلاً، لأنها تأتي بشكل الإبهام الذي هو لتعظيم الأمر مثل هذه ومثل: (المرسلات) و(النازعات) ونحوها والعرب يستعملون هذا الإبهام لتعظيم المقسم به فقال: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ وهي هنا الملائكة على ما فسرها به الإمام الهادي، وقال الله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾.

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ ذكر الله تتلوه على الأنبياء حين تبلغه يمكن أن يكون أخص، أو حين تتلو الذكر أعم حين تتلوه في السماء، وذكره يكون بمعنى القرآن، ويكون بمعنى الكتب كلها المنزلة ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾ قسم يمين من الله أن الإله واحد، وهذا يرد على النصارى لأنهم جعلوا الإله ثلاثة فرد عليهم أنه واحد.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ كذلك هو الذي خلق السموات وخلق الأرض وجعل المشارق لا يقاس به أحد من عباده ويُجعلون أندادا له لأن هذا خطأ كبير في جعل أنداد لا تقدر على شيء ويجعلونها آلهة، وهو الذي خلق السموات على عظمها وكبرها وبُعدها، وكذلك الأرض وخلق ما بينهما النجوم والشمس والقمر..

الشمس والقمر تأتي في أوقات محدودة وأماكن محدودة ونسبها محدودة من الأرض حتى جاءت المشارق تبعاً لذلك ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾ المشارق هذه آية عظيمة لأن الشمس تشرق في الصيف من أماكن والشتاء من أماكن.

ولها حدود محدودة لا تختلف على ما قدر لها الباري سبحانه وتعالى لأنها تأتي في ثمان وعشرين منزلة كل ثلاثة عشر يوما في منزلة، كل يوم درجة من المنزلة لا تختلف، تشرق منها، فكانت المشارق هذه آية عظيمة، وكذلك مواقعها وهذا من دلائل قدرته، ودلائل إلهيته يعني هو الرب سبحانه.

فإذا كان هو الرب فهو الإله لأن الإلهية معناها أنّا عباد له، نعبده اعترافا بأنا عباده، نخضع له اعترافا بأنا عباد له مملوكون له، فكانت العبادة مترتبة على الربوبية، والربوبية سببها أنه الذي خلقنا ورزقنا فهو المالك لنا.

زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠

۝٦ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ السماء الدنيا هي أدنى السموات إلى الأرض بمعنى: أقربهن إلى الأرض ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ لأنها تنير في أقطار السماء.

۝٧ ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ وجعلنا الكواكب حفظاً من كل شيطان مارد لأنه إذا حاول استراق السمع من السماء يرمى بشهاب من الكواكب، وشيطان مارد مَرَدَ على الشر ألفه واعتاده.

۝٨ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ بسبب هذا الحفظ ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وهم الملائكة ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ يرمون بالشهب من كل جانب من جوانب السماء، فكلما حاولوا استراق السمع رمتهم الملائكة بالشهب.

۝٩ ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ ويقذفون من كل جانب دحوراً أي طرداً لهم عن استراق السمع، والدحور: الدفع بعنف ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي وللشياطين عذاب السعير وواصب أي دائم.

۝١٠ ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ استثناء من قوله تعالى: ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَى﴾ يبين أنهم لا ينالون مما يحاولون إلا الشيء القليل النادر من كلام الملائكة ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ رمي به، ثاقب الثقب: الخرق يثقب الظلام بنوره أو يثقب الشيطان بناره.

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ

﴿١١﴾ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ أي فاسألهم أهم أشد خلقا قال الشرفي في (المصابيح): ((قال الهادي × : معنى ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يقول من الملائكة والجن وغير ذلك ممن خلقناهم أشد خلقا وأعظم أمرا وأبين في القدرة من خلق الإنسان ثم أخبر سبحانه بالذي خلق منه الإنسان من هذا الطين اللازب فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ واللازب فهو الطين العلك الشديد الملتصق)) انتهى المراد.

﴿١٢-١٣﴾ ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ بل عجبت يا رسول الله من تمردهم وعنادهم وتكذيبهم بآيات الله مع وضوحها ويسخرون يستهزؤون بالمؤمنين ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟﴾ بالإنذار بالآخرة ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لأن قلوبهم قاسية، وآذانهم غير صاغية.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يطلب بعضهم من بعض السخرية والاستهزاء بالآيات.

﴿١٥﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما هذا أي القرآن إلا سحر مبين بين في زعمهم أنه سحر.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ إنكار على رسول الله ص حين أنذرهم بالوحي إنهم لمبعوثون أنكروا هذا القول توصلا إلى تكذيبه في الرسالة جملة، وليس في هذا القول فحسب، فقالوا

﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾

هذا القول: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ لأنه إذا طالت المدة على الميت بين التراب استحال بعض عظامهم إلى تراب فعندهم أن هذا بعيد، وفي الحقيقة أنهم خلقوا من التراب ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وهذا إنكار منهم ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ يعني إما نحن أو آباؤنا فقولهم: إن الرسول ص يقول تارة أنهم يبعثون، وتارة أخرى آباؤهم يبعثون، وهذا من التكذيب الذي يضللون به.

﴿١٨﴾ ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ قل يا رسول الله نعم أي نعم أنتم تبعثون أنتم وآباؤكم ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ صاغرون أذلاء راغمون.

﴿١٩﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ الزجرة: الصيحة، واحدة مثل: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ قد خرجوا من قبورهم أحياء.

﴿٢٠﴾ ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا﴾ وهنا دلالة على أنهم قد صاروا إلى الويل وإلى الهلاك والعذاب الشديد ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي يوم الجزاء وقد قدموا لأنفسهم السيئات وهذا يوم الجزاء يجزون بما قد أساؤوا.

﴿٢١﴾ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي يقال لهم هذا يوم الفصل، الفصل بين العباد ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي في الدنيا.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ احشروا يؤمر الملائكة بحشرهم إلى صراط

بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾

الجحيم أي طريقها، والذين ظلموا هم المجرمون وأزواجهم نساؤهم اللاتي على طريقتهم ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ أصنامهم يعذبون بها؛ لأنها تنقلب جمراً كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي سوقوهم في الصراط المؤدي إلى الجحيم.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ وقفوهم عند وصولهم إلى جهنم والله أعلم، وهذا السؤال مفسر بقوله تعالى:

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ وهذا سؤال تبكيت وبيان أنهم لم ينفع بعضهم بعضاً ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ وهو إضراب عن السؤال إلى الإخبار بأنهم مستسلمون ذلة وخضوعاً.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ لأنهم قد أيقنوا بالعذاب فالمتبوعون يتبرؤون من التابعين لئلا يحملوهم بعض عذابهم، والتابعون يريدون أن يحملوهم بعض العذاب.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ قال الشرفي في (المصابيح): ((عن الهادي × : ومعنى ﴿تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي تأتوننا عن الأمر الميمون المبارك الذي فيه لو اتبعناه اليمن والنجاة كنتم تأتوننا دونه أي تغوروننا في تركه فهذا معنى إتيانهم عنه أي دونه يصرفونهم منه وينأون بهم عنه)) انتهى المراد. ومعنى هذا: أنهم يمكرون بهم بالتغرير عليهم.

﴿٢٩﴾ ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ لأنكم لو كنتم مؤمنين لما اتبعتمونا ولا قبلتم منا.

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ **أي ما كان لنا في غوايتكم من سلطان أي لم نغوكم بالقهر والغلبة بل كنتم قوما طاغين، يريدون أنهم طاغون من أنفسهم.**

﴿٣١-٣٣﴾ ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ * فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ * فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ﴿فَحَق عَلَيْنَا﴾ **وجب علينا** ﴿قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ **كلنا الطرفان التابع والمتبوع فأغويناكم لأنكم اتبعتمونا فغويتم كما غوينا، كما قال في (سورة القصص):** ﴿**أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا**﴾ [القصص:٦٣].

﴿٣٤﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ **الطرفان** ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ **أي يوم يدخلون جهنم** ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ **فلم ينج التابعون.**

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ **كذلك يجازيهم ربهم ذلك الجزاء.**

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ **أي يأنفون من التوحيد لشدة حبهم لأصنامهم.**

﴿٣٦﴾ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ **هذا من أسباب عذابهم** ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ **بمعنى: كيف نترك آلهتنا لأجل النبي ص ويسمونه شاعراً، يريدون أن القرآن ليس إلا شعراً وهذه دعوى فقط، وتارة يقولون: مجنون، لا يوجد**

ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي

توافق بين الجنون والقرآن المحكم الذي عجزوا عن الإتيان بسورة من مثله، فهذا من أسباب عذابهم، حين سموا النبي ص شاعراً، وحين سموه مجنوناً، وهو ما جاء إلا بالحق، وردَّ الله عليهم:

﴿٣٧﴾ ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جاء بالحق المطابق لما جاء به المرسلون من قبله.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ يقول هذا للمشركين أنهم لا بد أن يذوقوا العذاب الأليم، عقوبة الشرك، عقوبة الجرائم الكبيرة، الكفر بالرسول، الكفر بالقرآن، الكفر باليوم الآخر، الكفر بلقاء الله، كلها أسباب لعذابهم -نعوذ بالله-

﴿٣٩﴾ ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هذا العذاب الذي لا بد منه ليس إلا بسبب أعمالهم التي عملوها في الدنيا.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فليسوا بمعذبين لأن الله نجاهم؛ لأنهم مخلَصون، ما عملوا الجرائم التي توجب العذاب.

﴿٤١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ عباد الله المخلصين، حين يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي أهل هذه الصفة المخلصين لأنهم طاهرون من الجرائم ﴿لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾ في الآخرة، في الجنة رزق معلوم، كأنه بمعنى: شيء مقسوم محدود معلوم لهم في الجنة يكونون عالمين به وعارفين له.

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾

﴿٤٢﴾ ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ الفواكه هذه رزق عظيم، فواكه الجنة لا يقارن بها فواكه الدنيا، فالفارق كبيرٌ جداً فواكه الدنيا تعجب الإنسان بالأخص إذا كانت قد أينعت وهي ـ أيضاً ــ متفاضلة بعضها أفضل من بعض، فكيف بفواكه الجنة التي أعدها الله ليَلتذ بها أولياؤه فتلك نعمة كبيرة لأهل الجنة ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ لهم كرامة تشريف وتعظيم مقابل طاعتهم لله.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كأن الغرف لها أبواب كبيرة واسعة يرى الواحد صاحبه في غرفته كل واحد في غرفة على سرير، ويرى صاحبه على سرير في غرفته متقابلين حتى يفرح الواحد بمكان صاحبه، لما يراه فيه من النعيم العظيم.

﴿٤٥﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾ لهم خدم يخدمونهم يقربون لهم كل شيء يطوف عليهم هؤلاء الخدم ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ﴾ هذه الكأس خمر ﴿مِّن مَّعِينٍۭ﴾ ليست صنعة يد، ولا تخمير بل عين تنبع في الجنة، عين تجري.

﴿٤٦﴾ ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ﴿بَيْضَآءَ﴾ في لونها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ ما فيها ما يكره بل يتلذذ بشربها كأنها إشارة إلى أنها نزيهة من معائب خمر الدنيا، ولا فيها ضر.

﴿٤٧﴾ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ ما فيها غائلة مهلكة أو ضارة مثل خمر الدنيا قد تسبب لمرض مهلك حين تقطع الكبد ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ما تأتي بنزيف إما دم أو غيره، بمعنى: منزّهة من عيوب خمر الدنيا.

وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن

﴿٤٨﴾ ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ هذه الحور ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لا تنظر إلا إلى زوجها تحبه وترغب فيه، لا تنظر إلى غيره، ﴿عِينٌ﴾ جمع عيناء، والعيناء: واسعة العينين، وذلك من محاسن النساء.

﴿٤٩﴾ ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ﴾ في بياض أجسادهن ﴿مَّكْنُونٌ﴾ مصون ليس عليه غبار ولا غيره يغطي بياضه.

﴿٥٠﴾ ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ عندما استقر أهل الجنة في سعادتهم وراحتهم وسرورهم أقبلوا يسأل بعضهم بعضاً، وقد فسر في (سورة الطور) سبب فوزهم بالجنة في قوله: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ..﴾ [آية:٢٥] إلى قوله: ﴿.. إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [آية:٢٨].

﴿٥١﴾ ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ﴾ يعني في الدنيا كان معي قرين صاحب يقول:

﴿٥٢﴾ ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ هل صدقت أنّا سنبعث بعد الموت.

﴿٥٣﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أيجازينا ربنا ونحن قد صرنا تراباً وعظاماً؟ مدينون من الدين بمعنى الجزاء على الأعمال.

﴿٥٤﴾ ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ عرض على أصحابه في الجنة أن يطلعوا معه لينظروا مصير ذلك القرين السيئ.

كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ

﴿٥٥﴾ ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ رأى صاحبه الذي كان يقول: أءنك لمن المصدقين وإذا به في المكان المستوي من الجحيم.

﴿٥٦﴾ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ﴾ هذا يمين فيها تعجب ﴿إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ قد كنت أوشكت على غوايتي في الدنيا يوم كنت تقول لي: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ ﴿كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ أي لترديني وتهلكني معك.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ لأنه هداني وثبتني ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ معك في جهنم ويستمر في خطابه يقول له:

﴿٥٨-٥٩﴾ ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ يعني هل اتضح لك الآن بطلان هذا الكلام وأنه ليس بصحيح، الآن تكشفت الحقائق.

﴿٦٠﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ النجاة من النار، والمصير إلى الجنة جنة النعيم.

﴿٦١﴾ ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ لمثل هذه السعادة التي صار فيها أهل الجنة والتي وصفها بهذه الصفة هي التي تستحق أن يعمل لها الإنسان ويتعب وينشط ويجد ويجتهد للوصول إليها لأنها هي التي تستحق التعب والعناء.

﴿٦٢﴾ ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا﴾ النزل هو ما يقدم للضيف عند وصوله من الأكل والشراب ونحوه ﴿أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ نعوذ بالله هي طعام أهل النار.

ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأٓكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ

﴿٦٣﴾ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ عذاباً للظالمين (الفتنة) هنا العذاب قال: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾.

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ بقدرة الله سبحانه القادر على كل شيء أنبتها في أصل الجحيم بين الجمر والنار المتوقدة جعلها تنبت.

﴿٦٥﴾ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ طلعها ثمرها قبيح في شكله مثل رؤوس الشياطين التي يتصورها الإنسان غاية في القبح وسوء المنظر مثل قول امرئ القيس يصف سهامه:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

﴿٦٦﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أهل النار ﴿لَأٓكِلُونَ مِنْهَا﴾ من هذه الشجرة شجرة الزقوم ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ نعوذ بالله يعتقد واحد أنه إذا ذاقها مرة فلن يعود إليها مرة أخرى لشدة مرارتها لكن لا.. لابد أن يأكل ويأكل حتى يملأ بطنه وهي تغلي في بطنه كما يغلى الماء الساخن.

﴿٦٧﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يشرب على الزقوم جرعات من الحميم تنزل الزقوم، والشوب خلط يمازج ويخالط الزقوم مع الحميم في البطن كما يشرب الإنسان الماء على الخبز، والحميم يقطع الأمعاء نعوذ بالله.

﴿٦٨﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ يرجعون حينما يفرغون من ذلك الطعام الأليم يعودون إلى العذاب ليس المعنى انتقالاً من مكان لآخر بل هو انتقال من حالة إلى حالة.

ءَاثَـٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا

﴿٦٩﴾ ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ﴾ في الدنيا.

﴿٧٠﴾ ﴿فَهُمۡ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ﴾ يهرعون: يسرعون في اتباعهم من غير أن يعرفوا أهم على حق أم على غير حق لم يبالوا باتباعهم الباطل، فأشركوا ووقعوا في الجرائم العظمى التي استحقوا بها العذاب.

﴿٧١﴾ ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على هذه الطريقة قبل هؤلاء الضالين ضل قبلهم أكثر الأولين.

﴿٧٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أرسل الله رسلا ينذرونهم، فليس لهم يوم القيامة حجة يقولون أنه ما نبَّههم ولا حذرهم فقد حذر وأنذر.

﴿٧٣﴾ ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ عاقبة شديدة لأنه قد أنذرهم سبحانه وقطع حجتهم فصاروا في جهنم.

﴿٧٤﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أما هم فقد نجوا من العذاب، وصاروا في سعادة دائمة لأنهم أخلصوا لله دينهم وعبدوه ولم يشركوا به.

﴿٧٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ﴾ حين نادى ربه قال: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر:١٠] دعا الله بعد مدة طويلة بقي فيها ينذر قومه يحذرهم ويجادلهم ويتوسل بكل الوسائل لهدايتهم فلم ينفع معهم كل ذلك ولم يستجيب له إلا قليل ثم دعا الله أني مغلوب فانتصر.

﴿٧٦﴾ ﴿وَنَجَّيۡنَـٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لأنه كرب عظيم حين نزل الغضب ـ نعوذ بالله من غضبه ـ أمطرت السماء بماء منهمر من فوقهم وتفجرت الأرض عيونا من تحتهم فالتقى الماء وغرقوا.

عَلَيْهِ فِي ٱلْأَخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ

﴿٧٧﴾ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ ذرية نوح ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ من بني آدم، كما قال في آية آخرى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣] قالوا: إنهم ستة أنفار آمنوا معه ثلاثة من أولاده، وثلاثة من غيرهم.

﴿٧٨-٧٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْأَخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تركنا على نوح هذه الكلمة في الآخرين كرامة له وهي: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾يسلم عليه كل العالمين.

﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ جزاء عاجل في الدنيا وجزاء آجل في الآخرة، وتمثل إحسانه في طاعة الله وإحسانه في دعوته لقومه عندما بقي ينذرهم ويخوفهم، وصبر عليهم صبرا جميلاً، وهذا إحسان كبير لو ساعدوه وسوف يظهر لهم في الآخرة أنه كان محسناً إليهم عندما كان يدعوهم إلى الله ولم يطيعوه.

﴿٨١﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا السبب الأول الذي به استحق الجزاء وهو أساس الخير كله: الإيمان.

﴿٨٢﴾ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ﴾ قومه الذين لم يكونوا معه في (السفينة).

﴿٨٣﴾ ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ إبراهيم الخليل من شيعة نوح، لأن دعوتهم واحدة ودينهم واحد، وإن لم يلتقوا لأنه تأخر إبراهيم عن زمن نوح وسمي (شيعة) لأنه سائر على خطه وداعي إلى دعوته.

لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا

﴿٨٤﴾ ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ اذكر إذ جاء، كأنه حين هاجر، أو حين توفي، والله أعلم. كلمة سليم تعني: أنه طاهر سليم من كل عيب.

﴿٨٥﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ اذكر إذ قال لأبيه وقومه﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ما الذي تعبدونه يسألهم سؤال المنكر لأنهم يعلمون أن معبوداتهم لا تنفع ولا تضر وأنها ليست بشيء.

﴿٨٦﴾ ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ إفكاً: يعني قلباً للحقائق، قلباً لها من الحق إلى الباطل.

﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لأن رب العالمين كاف لعباده ولا يحتاجون لغيره ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] فما ظنهم به حين اتخذوا غيره لماذا؟!

﴿٨٨﴾ ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ كأنه احتال عليهم لأجل لا يذهب معهم للمشاركة في المناسبة التي قيل أنها ما يشبه العيد أو نحوه كانوا منطلقين لإحيائها، فأوهمهم أنه مريض حينما نظر إلى النجوم كما يعمل المنجم ليعرف حالته فتمظهر بأن قد عرف حالته.

﴿٨٩﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ كأن التنجيم كان رائجاً في ذلك الزمان بكثرة، ويمكن أنه كان يعاني من مرض ما، أو أن المرض كناية عما يعانيه في قلبه من الأسى والغيظ على الأصنام وعبادتهم لها.

﴿٩٠﴾ ﴿فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ تركوه وذهبوا، وهنا لاحت له الفرصة لتنفيذ خطته.

تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾

﴿٩١﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ راغ: تسلل إلى بيت الأصنام بطريقة خفية وكأنهم كانوا قد حضروا لها طعاماً مع علمهم أنها لا تأكل إنما تغفل وعدم تعقل.

﴿٩٢﴾ ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ﴾ اشتدَّ غضبه عليهم حين كانوا يعبدونهم من دون الله.

﴿٩٣﴾ ﴿فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾ راغ بطريقة خفية يكسرهم بقوة يمينه.

﴿٩٤﴾ ﴿فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ﴾ يزفون مسرعين من شدة غضبهم واقتدارهم عليه؛ لأنه ليس إلا فرداً واحداً ولكن كان ـ بتوفيق الله وعونه ـ قوياً ومقداماً لم يأبه لكثرتهم ولم يبال بهم.

﴿٩٥﴾ ﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ ينكر عليهم لأنهم الذين صنعوها بأيديهم أصناما ثم يعبدونها هذا تغفل عجيب، يجعلونها آلهتهم المالكة لهم أو لبعضهم.

﴿٩٦﴾ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ الله خلقكم وخلق هذه الأحجار أو نحوها التي تعملونها هو الذي خلقها فكيف تعبدونها.

﴿٩٧﴾ ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾ رأوا أن يبنوا بنيانا ويملئوه ناراً ويلقوه فيها بصورة جماعية ليشارك كل منهم في نصرة آلهتهم.

﴿٩٨﴾ ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ ربما أن كيدهم هذا يتمثل في محاولتهم إحراقه بالنار التي كان في دعوته لهم يحذرهم منها ويدعوهم لما ينجيهم منها، وغاية قصدهم أن يفتنوه عن دينه، أو أنه تدبيرهم لقتله وإهلاكه بالنار وهو أشد قتله وأعظم نكاية، فأنجاه الله منها.

وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن

﴿٩٩﴾ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ مهاجر إلى الله من بينهم لأنه قد بذل جهده وهم قد تبين منهم أنهم قد بلغوا الغاية في الكفر، وأنهم لن يؤمنوا، يعني أنه قد يئس من هدايتهم وقد وجب عليه هجرتهم.

﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ دعا الله أن يرزقه ولدا لأنه كان قد طعن في السن ولّما يولد له ولد.

﴿١٠١﴾ ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ إسماعيل صلوات الله عليه. ركز على صفة الحلم كأنها كانت صفة بارزة فيه مثل أبيه فأشبه والده في حلمه.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ بلغ درجة الاستطاعة على السعي ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ رأى نفسه في المنام وهو يذبحه، فأعتقد أنه سيؤمر من الله تعالى بالذبح، ويمكن أنه ليس مقصوده ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ إلا بعد أن تصدق الرؤيا، فكأن الرؤيا ليست إلا دليلاً على أن الله سيأمره بذبحه، ولكنه لابد من أمر من الله آخر غير الرؤيا يصدقها.

ولهذا لم ينطلق إلا من بعد ما أمره بتصديق الرؤيا، الأمر بتصديقها فقط وليس بالذبح، ولهذا قال ابنه: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ ولم يقل: (افعل ما رأيت في المنام) فكان تصديقها بتلك الهيئة أنه يضجعه، ويضع السكين في يده على هيئة من يريد الذبح فعلاً.

يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذا هو الإسلام الصحيح التسليم لأمر الله الذي تجلى في أبهى صوره أب لا يتردد في ذبح فلذة كبده وبيده هو، وولد يضطجع للذبح قائلا: افعل ما تؤمر، وكل ذلك استسلام لأمر الله وانقياد له.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ الولد والأب سلما لأمر الله وأخلصا وانقادا له ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أضجعه للجبين طرف الجبهة.

﴿١٠٤-١٠٥﴾ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ بعد ما أضجعه للجبين ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ ليس مأمورا إلا بتصديق الرؤيا، قد أتيت بما أمرت به ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ رفع عنه ذلك الابتلاء وخفف عنه، وذلك التخفيف جزاء لامتثاله للأمر، والتصميم على ذبح ولده دون توان.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ الاختبار العظيم الذي بين وكشف حقيقة ما لدى إبراهيم الخليل وابنه من التسليم المطلق لله سبحانه.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ﴾ فدينا إسماعيل ﴿بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ كبش للذبح سمين وكبير.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ الناس الآخرين.

﴿١٠٩﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يسلمون عليه.

﴿١١٠﴾ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذا من الجزاء وهو ثواب عاجل مع الثواب الآجل.

مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِمَا

﴿١١١﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ **إنه الإيمان أساس الخير كله.**

﴿١١٢﴾ ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ **بعد هذه البلوى** ﴿بِإِسۡحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ **يدل على أن إسماعيل أكبر في السن من إسحاق.**

﴿١١٣﴾ ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ﴾ **على إبراهيم لأن الكلام في إبراهيم** ﴿وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ **من ذرية إبراهيم ومن ذرية إسحاق** ﴿مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ **إنه شرف عظيم الانتساب إلى إسحاق وإلى إبراهيم، ومع هذا منهم محسن وظالم لنفسه لم ينفعه مجرد نسبه.**

﴿١١٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ **نعمة عظيمة إنزال التوراة عليهما ونصرهما على فرعون وقومه.**

﴿١١٥﴾ ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُمَا وَقَوۡمَهُمَا مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ **من غم فرعون وظلمه، وقومهما بنو إسرائيل.**

﴿١١٦﴾ ﴿وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ **النصر بهذه الطريقة بأن نجاهم وأهلك آل فرعون.**

﴿١١٧﴾ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا﴾ **أي موسى وهارون** ﴿ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ﴾ **التوراة البينة الواضحة.**

فِي ٱلْأَٰخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا

﴿١١٨﴾ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ وما أعظمها من فضيلة لموسى وهارون وهذا يرد على (السامرية) الذين انضموا إلى السامري وتركوا هارون.

﴿١١٩﴾ ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا﴾ على موسى وهارون ﴿فِي ٱلْأَٰخِرِينَ﴾ في الناس الآخرين يسلمون عليهما.

﴿١٢٠-١٣١﴾ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة.

﴿١٢٢﴾ ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أساس الخير كله الإيمان.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ نبي من الأنبياء من المرسلين أرسله الله إلى قومه.

﴿١٢٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ يخوفهم من الله كيف لا يتقون عذابه.

﴿١٢٥﴾ ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ كيف تدعون صنمكم هذا الذي يسمى بعلا، وتتركون الله أحسن الخالقين.

﴿١٢٦﴾ ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ اعبدوه هو الذي خلقكم ورزقكم، هو المالك لكم أما بعل فلا يملك فيكم شيئاً.

﴿١٢٧﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ لماذا وكيف يكذبونه؟ وهو إنما دعاهم إلى الله الذي خلقهم، وهم يعلمون أنه الذي خلقهم، وأن صنمهم هذا لا يعمل لهم شيئاً!! ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يوم القيامة.

عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ

﴿١٢٨﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ الذين آمنوا بالله ورسله فلا نجاة من عذابه إلا بالإيمان.

﴿١٢٩-١٣٠﴾ ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ فعلى قراءة نافع ﴿آل يَاسِينَ﴾ يمكن أن إلياس من آل ياسين وعلى قراءة حفص كأنه جمع إلياس والمعنى تركنا عليه أي على إلياس والمؤمنين به: سلام على إل ياسين.

﴿١٣١﴾ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جزاء الخير بالخير الثواب بالحسنات لفعل الخير وهذه من حكمة الله وعدله أنه يجزيهم، ولهذا أنه جعل الآخرة دار الجزاء لأجل يكافئ المحسنين.

﴿١٣٢﴾ ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ولذلك استحق في الآخرة الثواب والذكر الحسن في الدنيا.

﴿١٣٣-١٣٥﴾ ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ *إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ اذكر إذ نجيناه هذه عبرة لأنه أهلك قومه ويسر له الخروج من بينهم في وقت السحر لينجوَ هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع القوم.

﴿١٣٦-١٣٧﴾ ﴿ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ * وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ﴾ في أسفاركم لأنهم حين يسافرون إلى الشام يمرون بقرية قوم لوط ويرون آثارهم، آثار القرية. وهذا خطاب لقريش وعبرة لهم يعتبرون بهم حين كذبوا رسوله.

﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞

﴿١٣٨﴾ ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ تمرون عليهم أي أنكم تمرون عليهم ليلاً ونهاراً فلم لا تعتبرون بمصيرهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ حتى تعتبروا بهم وتحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم.

﴿١٣٩﴾ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ كذلك أرسله الله إلى قومه.

﴿١٤٠﴾ ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ اذكر ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ كأنه مشبه بالعبد الآبق على سيده في هذه الحالة لأنه استعجل بمهاجرة قومه قبل الإذن له من الله وذلك أن قومه عصوه ورفضوا دعوته فغضب وتركهم وذهب، وهو يرى أنه قد قام بالواجب فأبق إلى الفلك السفينة المشحون: الممتلئة بالركاب، ولزيادة الشحن فوق طاقتها كان لابد من تخفيف حمولتها وليس من خيار إلا التضحية بعدد من الركاب لسلامة الباقين.

﴿١٤١﴾ ﴿فَسَاهَمَ﴾ اتخذوا القرعة لتحديد من يضحي بروحه ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ من جملة الذين أدحضوهم، كأنهم كانوا يخرجونهم عن طريقة الزلق يدفعونه إلى البحر.

﴿١٤٢﴾ ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ مستحق للّوم لأنه لما يتب من خطيئته المتمثلة في خروجه من بين قومه وتركهم من غير إذن من الله.

﴿١٤٣﴾ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ حين قال ـ وهو في بطن الحوت ـ: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧].

فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾
وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

﴿١٤٤﴾ ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ إلى يوم القيامة وما أعظم رحمة الله ورعايته حيث كان من المعلوم أنه يموت فور وصوله إلى بطن الحوت، إلا أنها حصلت له رعاية من الله لأجل أن لا يهلك، ولكي يستطيع أن يدعو الله ويسبح ويتوب من ذنبه ثم أتم عليه النعمة إذ أخرجه من بطن الحوت وهنا إشكال عند النظر إلى قوله: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وفي آية في (سورة ن): ﴿لَوْلاَ أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [آية:٤٩] هذه قال: ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وتلك ﴿لنبذ بالعراء﴾ ويمكن الجمع بينهما بأن نقول: لنبذ بالعراء، بأن يخرج الحوت نفسه إلى العراء هو ويونس ويبقيا هناك إلى يوم يبعثون.

﴿١٤٥﴾ ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾ قذفه الحوت إلى العراء وكأنه شاطئ البحر حيث لا يوجد ظل ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مريض ربما من آثار حرارة بطن الحوت وانعدام الأكسجين فيه.

﴿١٤٦﴾ ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ من الدبَّاء، وهي القرع الذي يؤكل وليس النوع الآخر الذي يتخذ منه آنية. وفيها فائدتان: فائدة أن ورقها الكبار تمتد عليه وتظلله، وفائدة ثانية يأكل من ثمرها وهو في خاصيته بارد يسكن الحرارة وربما ذلك هو ما تتطلبه حالته بعد المكث داخل بطن الحوت.

﴿١٤٧﴾ ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ بعد أن تماثل للشفاء بلطف الله وعنايته أرسله الله إلى قومه والمقدر عددهم بـ﴿مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ وهذه ﴿أَو﴾ لا تعني الجهل من الله تعالى أهم مائة ألف أم هم يزيدون على مائة ألف.

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾

بل هي على الترديد أي مرة يكونون مائة ألف ومرة يزيدون، فحين يكثر المواليد وتقل حالة الوفيات يتكاثرون، وأحيانا يكون العكس فهي على الترديد بين الحالتين.

﴿١٤٨﴾ ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قومه آمنوا فنجوا من العذاب ومتعهم الله إلى حين يعني أن الدنيا ما هي إلا مؤقتة للإنسان فالذي يسلم مهما بقي لا بد أن يموت.

﴿١٤٩﴾ ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ هذا الخطاب للنبي محمد ص يقول له: أسأل هؤلاء المشركين ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ حين قالوا إن الملائكة بنات الله كيف أنه سيختار لنفسه البنات بينما هم -كعبيد مملوكين لله- لا يريدون إلا البنين ويدسون البنات في التراب، فكيف جعلوا لله البنات واختاروا لأنفسهم البنين، هذا جور في القسمة كما قال: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢٢] ثم يوجه لهم سؤالاً آخر:

﴿١٥٠﴾ ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ على أنا خلقناهم إناثا لأنه من الذين أخبرهم أن الملائكة إناث حتى يقولوا إنهم بنات الله؟ لم يشاهدوهم لم يعرفوهم.

﴿١٥١-١٥٣﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُم﴾ أي الكفار ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ قلبهم للحقائق ﴿..لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ هذا من أساليب تغريرهم ولبسهم كي يحولوا الناس إلى الباطل يقولون: أن معه ولداً، لأجل يسوغوا

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ

عبادة غير الله على أساس أنها مادامت عبادة ولد هو ابن الله أو بنته فلا مشكلة ولا حرج حينئذ، وهذا أقرب عندهم لتقبل الناس للفكرة، لقرب الولد من الوالد، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿١٥٣﴾ ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ هذا سؤال، بمعنى أأصطفى أي هل اختار، حين جعلوا الملائكة بنات الله سبحانه.

﴿١٥٤﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي أنه حكم مقلوب.

﴿١٥٥﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حين نذكركم فترجعون عن باطلكم.

﴿١٥٦﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ هذه ثالث حجة عليهم أنهم يتكلمون بغير سلطان ما معهم حجة من الله.

﴿١٥٧﴾ ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إذا كان معكم قرآن من الله أخبر فيه أن معه بنات على ما تدعون فهاتوه.

﴿١٥٨﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ كذلك لأنهم جعلوا له من الجن أولاداً، ولعل ذلك اعتقاد طائفة من العرب، قال سبحانه: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ:٤١].

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ هؤلاء الجن الذين عبدوهم وهم يعلمون أن لابد من بعثتهم وإحضارهم يوم القيامة للجزاء وبهذا ينفي كونهم آلهة، وهذا يؤكد أن طائفة من المشركين كانوا يعبدون الجن حقيقة.

﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ

﴿١٥٩﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من أن له أولاداً وأنداداً بل هو منزه عن هذا لأنه لا يشبه المخلوقين.

﴿١٦٠﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ فهم لا يصفونه بهذه الأوصاف بل ينزهونه عن هذه الخرافات التي يقولها المشركون.

﴿١٦١﴾ ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ هذا خطاب للمشركين.

﴿١٦٢﴾ ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ يعني أنكم لا تضلِون ولا تغرون بأباطيلكم هذه أحداً.

﴿١٦٣﴾ ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ممن هو أهل للضلال والانحراف عن طريق الحق من المعرضين عن دين الله أما المؤمنون فلن يقبلوا منكم هذه الخرافات.

﴿١٦٤﴾ ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ هذا حكاية كلام الملائكة يصفون عبادتهم لله أي لكلٍ منا وظيفة مخصوصة كذلك كل نوع أو كل فرد معه وظيفة.

﴿١٦٥﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في عبادة الله نصف صفوفاً في عبادة الله.

﴿١٦٦﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ التسبيح له شأن عظيم وهو من أفضل الذكر لله، ولهذا فالملائكة يلازمون التسبيح كما قال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠] وهذا يرد على المشركين الذين عبدوا الملائكة.

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ

﴿١٦٧﴾ ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ المشركون كانوا قبل نزول القرآن يقولون:

﴿١٦٨-١٦٩﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وحين نزل ماذا حصل؟!

﴿١٧٠﴾ ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كفروا بالذكر القرآن فسوف يرون نتائج كفرهم.

﴿١٧١-١٧٢﴾ ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ إن الله ينصر رسله فهو سبحانه يبتليهم ويبتلي بهم وفي الأخير يكون النصر لهم، لكن بعضهم قد يتأخر النصر الميداني ليوم القيامة، قد يكون منتصراً بانتصار قضيته وانتشار المبادئ التي دعا إليها من خلال أنصاره حتى ولو كان هو قد استشهد فلا تنافي بين النصر والشهادة. وفي التاريخ نماذج كثيرة من هؤلاء الأنبياء المرسلين وغيرهم ممن نهج نهجهم من أئمة الهدى.

﴿١٧٣﴾ ﴿وَإِنَّ جُندَنَا﴾ وهم المجاهدون في سبيل الله ﴿لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ الذين قاموا لنصر دين الله هم جنده لا بد أن يغلبوا أعداء الله إذا جدّوا وصبروا.

﴿١٧٤﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ رخص له في أن يخرج من مكة ويترك قريشا ويتولى عنهم لأنه قد أبلغهم وأقام الحجة عليهم ولم يزدادوا إلا عنادا و تمرداً ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تول عنهم إلى حين ترجع مرة ثانية وتفتح مكة إن شاء الله في المستقبل.

فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿١٧٥﴾ ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ أبصرهم حين تفارقهم وتهاجر عنهم، أبصر حالتهم التي سيصيرون إليها بعد هجرتك ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ يرون تلك الحالة المخالفة للحالة التي هم عليها الآن أي سوف ترى ما سيحل بهم وهذا تهديد مبطن.

﴿١٧٦﴾ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا في إنكارهم للقيامة حين قالوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] ليس عذاباً سهلاً قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس:٥٠] أي شيء يستعجلون منه لأنه ليس إلا شراً مستطيراً.

﴿١٧٧﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ عذابنا العاجل ﴿بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يعني ما أسوأه من صباح، ولأنه قد سبق الإنذار القاطع للعلة استحقوا صباحاً شديداً.

﴿١٧٨﴾ ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ حتى حين إن شاء الله تفتح مكة بعد الهجرة.

﴿١٧٩﴾ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ في المستقبل من غير تخصيص لحالتهم ما سيكون نتيجة هجرته؛ لأنه قال: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠] ستكون أحوالاً ثانية، أموراً جديدة، نصر وقوة للإسلام، فهي تأكيد وزيادة ليست تخصيصاً بما سيحل بهم ﴿وَأَبْصِرْ﴾ ما ستكون النتيجة حين تهاجر ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ كذلك ما ستكون النتيجة.

﴿١٨٠﴾ ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ تنـزيه لله سبحانه ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾ الذي له العزة العزيز حين جعلوا له بنات وبنين يعبدون من دونه شركاء كل هذا ينافي الاعتراف بعزة الله لأن عزته تقتضي أنه لا يرضى أن يُعبَد إلا هو لأنه المالك والرازق فعبادتهم لغيره باطلة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الكلام في شركهم وخرافاتهم.

﴿١٨١﴾ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ الذين قد بلغوا وأنذروا وجاهدوا وصبروا وأقاموا الحجة على أعداء الله.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على ما قد أنزل من الهدى وعلم الناس وأنزل من الكتب والرسل ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم فهو الذي يجعل لهم هداة ودعاة إلى الهدى وأعلاما، وينزل الكتب والرسل، لأنه المالك لهم المتولي شؤونهم، لأنه لّما كان ربهم فأمرهم إليه يقيم عليهم الحجة ويدعوهم إلى الطاعة ويدعوهم إلى التقوى.

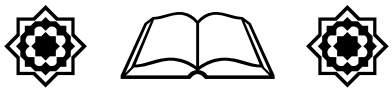

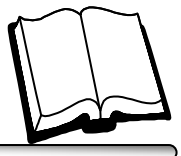

التيسير في التفسير

سورة ص

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن

۝١ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ قوله: ﴿صٓ﴾ هو من الحروف، وقد مر الكلام في حروف المعجم التي في أوائل السور.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ الأقرب: أنه قسم بالقرآن لأن له شأناً عظيماً يستحق أن يقسم به كما يقسم بآيات الله وهو من أعظم آيات الله وسيأتي جواب القسم إنا لنجازين أو لنعاقبن، أو أنه لا إله إلا الله، أو إنك لمن المرسلين المهم ما تستدعيه الظروف وتدل عليه، وكانت الظروف في النزاع بينه وبين الكفار على التوحيد وعلى البعث وعلى الرسالة، فالقسم يتوجه إلى ما فيه النزاع في ذلك الوقت.

وأقسم بالقرآن لأن القرآن هو معجزة الرسول ص، الدال على أنه رسول من الله صادق، والدال على أن هذا القرآن من الله وحي صدق لا يتبدل، فالقسم به مناسب جداً من حيث دلالته على صدق الرسول في دعوته إلى التوحيد، وفي دلالته على صدق الرسول في إنذاره باليوم الآخر والعذاب لأعداء الله المشركين وغيرهم، فكأنه أقسم بالقرآن الدال على أنك رسول من الله صادق فيما تنذرهم به، وفيما تدعوهم إليه، إن هذا لهو الحق، أنه لا شريك له، وأنه لا بد من البعث، ولهذا أضرب إلى قوله بعدها.

۝٢ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ فحين وصف القرآن بالذكر كأنه على طريقة المجاز جُعِلَ هو أي القرآن مذكراً يُذَكِّر ويَذْكُر للسامعين ما يأتي في اليوم الآخر، ويعلّم ويهدي، فكأنه متكلم كما نقول: نطق القرآن بكذا.

جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أضرب عن هذا القسم لماذا؟ لأنهم في عزة وشقاق لا ينفع فيهم شيء ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ فلم يعد ينفع فيهم القرآن ولا يؤثر لأنهم في عزَّة: كِبْر في نفوسهم، وشقاق لا يريدون الحق وهم في عناد.

﴿٣﴾ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ هذا يرجع إلى التخويف لأنه الوسيلة المناسبة في التعامل مع المعرضين عن آيات الله أن يخوَّفوا بالإنذار لأمرين:

أولاً: إقامة الحجة عليهم بأن قد سبق الإنذار.

ثانياً: أن العاقل إذا سمع التخويف يؤثر فيه ويبعثه على النظر في الآيات حتى يعلم أنها صدق وحق ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ هذا تخويف بالعقوبة العاجلة بذكر من مضى ممن أهلكهم الله فنادوا عند نزول العذاب للفرار من العذاب نادوا ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ ليس الحين حين فرار من عذاب الله لأنه ما منه محيص، إذا نزل لا يدفعه دافع، ولا يمكن معه الفرار.

﴿٤﴾ ﴿وَعَجِبُوٓا۟﴾ يعني الكفار عجبوا ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ وهذا عكس الصواب، لأن الصواب في المنذر أن يكون منهم؛ ليعرفوه ولا ينكروه ولا يستوحشوا لأنه لو جاءهم جني أو مَلَك لاستوحشوا منه.

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا تفريع على إنكارهم للرسول الذي هو منهم، قالوا: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ لأنه يجذب القلوب ويؤثر فيها بالآيات القرآنية التي تدل على الحق، الإنسان المنصف إذا سمع القرآن تأثر منه، وآمن.

وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ

فما رأوا ما يصفونه به إلا أنه سحر يأخذ القلوب بطريقة سحرية، لكن لا يصح أن يكون سحراً، لأنه لو أمكن أن يكون سحراً لاستخدموا السحر هم وسحروا الناس، ولتعاونوا مع السحرة وجمعوا قرآنا يسحر القلوب.

٥ ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ ينكرون وهذا الإنكار عجيب؛ لأنه ليس بشرط أن تكون الآلهة متعددة وليس لذلك معنى من أساسه لأن الإلهية تتفرع على الربوبية والربوبية هي الملك، يعني كونه مالكا لنا وليس المالكون لنا متعددين، المالك لنا هو الله وحده الذي خلقنا ورزقنا، فالأصل في الملك أنه يكون للذي خلق وما من خالق إلا واحد.

٦ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ كبراؤهم أهل الكبر والعناد ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ امشوا في عنادكم ومقاومتكم لهذه الرسالة ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ اثبتوا عليها لا تتأثروا بهذا القرآن ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ الصبر على آلهتهم لشيء يراد أي من شأنه أن يراد ويطلب، وليس أمراً مما لا ينبغي أن يراد ولا أن يثبت عليه، حسب دعواهم.

٧ ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مقصودهم ما سمعوا بالتوحيد، لم يسمعوا إلا بالشرك في كل بلاد ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ الذي هو توحيد الله وعبادته وحده ما سمعناه ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ما سمعنا إلا الشرك، فهذا قول خارق لأقوال الناس التي نعهدها قول ما أحد قال به في هذا الزمان يريدون تشويهه بأنه قول لم يقل به أحد ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ اختلاق من القول أي كذب متعمد، ولكن هم الذين كذبوا وصدق الله ورسوله.

مِّن ذِكۡرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِى ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ

۝٨ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ همزة إنكار مقصودهم أنه لو كان شيئا أنزله الله لكنا أحق لأننا كبار قريش وأشرافها أما محمد فليس إلا يتيماً فقيراً لا ينظر إليه لأنه كان الشرف عندهم بالقوة والمال لا بالكمال في الأخلاق والعقل والطهارة ومكارم الأخلاق ﴿بَلۡ هُمۡ فِى شَكٍّ مِّن ذِكۡرِى﴾ من ذكري، الذكر لله، لأنهم لا يريدون أن يذكروا الله وإنما يريدون ذكر أسماء أصنامهم ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ فهم معاندون لا ينتهي عنادهم إلا حين يذوقون العذاب فهو الذي سينهي عنادهم.

۝٩ ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ حتى يقسموها هم ويكون الأمر بأيديهم ينزلوا الوحي على من أرادوا، لأن خزائن رحمة الله بأمره هو يجعلها حيث يشاء ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ العزيز سبحانه ومن عزته أن يضع رسالته حيث يشاء هو وليس حيث يشاءون، وحيث يشاء هو: حيث تقتضيه الحكمة وليس على ما تهوى أنفسهم ﴿ٱلۡوَهَّابِ﴾ كثير المواهب لعباده فلا تختص هباته لناس دون ناس هو واسع الرحمة.

۝١٠ ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ هؤلاء المعاندون حين يقولون: أأنزل عليه الذكر من بيننا يعني هل يملكون حق التصرف في السموات والأرض حتى يكون لهم حق الاختيار لمن ينزل عليه الذكر؟ إذاً ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِى ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ يطلعوا في أسباب السموات إذا كانوا هم الولاة وكان الملك ـ بضم الميم ـ والأمر لهم.

قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا

﴿١١﴾ ﴿جُندٌ مَّا﴾ يعني هم جند أيّ جند يعني ضعيف قليل وهذا تحقير لهم وليس تعظيماً ﴿هُنَالِكَ﴾ في مكة في بقعة حقير قليل في جزء من الأرض ﴿مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ سيهزمون يوم بدر وينتهي الكبر.

﴿١٢﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ سبقوهم في التكذيب وجرّوا على أنفسهم العذاب ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ هو فرعون وصف بذلك إما لأنه كان يعذّب بالأوتاد يوتّد المعذَّب بالوتد الحديد، أو أنها الجبال يشبّه الأهرام بأنها جبال أوتاد.

﴿١٣﴾ ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الذين أرسل إليهم شعيب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أهل الكثرة والقوة وعمروا الدنيا فأهلكهم الباري عندما كذبوا الرسل.

﴿١٤﴾ ﴿إِن كُلٌّ﴾ كل من الأمم هذه ﴿إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ حق عقابي عليهم استحقوه.

﴿١٥﴾ ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هؤلاء المكذبون، يحقرهم بقوله: هؤلاء الذين عندك يا رسول الله ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ قد استحقوها لأنهم معاندون لا يجدي معهم شيء فليسوا منتظرين إلا عقوبة عاجلة ﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ لا تهدأ ثم تعود مرة أخرى بل صيحة واحدة تقضي عليهم بسرعة.

قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ

﴿١٦﴾ ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾هذا لا يصح أن يكون معناه: عجّل لنا قسطنا يعني نصيبنا من العذاب لأنه ليس أمراً مرغوباً ولا مطلوباً حتى يطلب تعجيله، ولا هو من أساليب التكذيب، أسلوب التكذيب، مثل قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] فكيف يدعون الله يعجل لهم قسطهم من العذاب هذه بعيدة أن يكون معناها التكذيب بالعذاب، فالأقرب أنهم يعنون أنهم سيدخلون الجنة إذا رجعوا إلى الله يوم القيامة، مثل قوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] وحين قال: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٦] فمقصودهم تكذيب الإنذار وأنهم لابد لهم في الآخرة من الجنة وأنهم يطلبونه أن يعجل لهم قسمهم من الجنة الآن قبل يوم الحساب، وبذلك الطلب يعبرون عن كونهم واثقين بذلك المصير وأنه ما تبقى إلا أن يعجله لهم.

﴿١٧﴾ ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من التكذيب والسخرية والاستهزاء والأذية ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ حينما صبر فهو قدوة في الصبر ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القوة في دينه ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى الله إذا زل فإنه يرجع.

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ كلما سبح داود سبحت الجبال معه ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾ وهو من الظهر إلى آخر اليوم ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ مع شروق الشمس،وتسبيح الجبال هو ترديدها صوت النبي داود بالصدى، وكلام الإمام الهادي يحكي بأنه لم يخلق الصدى إلا في زمن داود × وان الله جعله تكريماً له ثم أبقاه إلى اليوم ذكراً لما أكرم الله به نبيه داود × .

وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ سخرناها تسبح ﴿مَحْشُورَةً﴾ كلما سبح تحشر تكثر حوله تجتمع وتسبح ﴿كُلٌّ﴾ من الطير ﴿لَّهُۥٓ﴾ لداود ﴿أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إليه يرجعون إليه حين يسبح.

﴿٢٠﴾ ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ قوينا ملكه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ العلم ووضع الأشياء في مواضعها، والحكم بالعدل وكمال العقل ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ الخطاب الذي هو فصل، يفصل في القضايا لأنه يكون صوابا يبين الحق قاطعاً مثل الفصل بين الخصوم، والمواعظ وكل خطاباته تكون خطاب فصل مقنع.

﴿٢١﴾ ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ هذه فيها عبرة في شأن الصبر حينما يضعف الإنسان كيف يكون حاله ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾كانوا متخاصمين بمعنى متشاجرين ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟﴾ طلعوا من فوق سور المحراب ونزلوا فجأة بين يدي داود وهو في المحراب.

﴿٢٣﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ لدخولهم من غير المكان المعهود وتسلقهم جدار المحراب المعبد الذي كان يدخل فيه لينفرد للعبادة. والفزع هذا هو ما أدى للعجلة على صرفهم عنه ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾ فأمنوه: لسنا إلا خصمين ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ يريدون أن يخلصهم من بغي بعضهم على بعض كما زعموا ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ لا تبعد عن الحق ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ يدعونه إلى أن يهديهم إلى سواء الصراط ترغيباً له لأن يحكم بينهم بالعدل.

هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ اجعلني كافلاً لها؛ لأنها نعجة واحدة تشغلك، وأنا لديَّ تسع وتسعون نعجة نرعاهن ونشتغل بهن، فالأفضل أن تضم نعجتك إليهن لكي أكفيك أعباءها فأكفلنيها ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ غلبني في الخطاب ما استطعت أن أجيب عليه لم أدر ما أقول لأن هذا العرض إنما هو إحسان وتفضل منه على أخيه يريد به إسعاده وبره، ولذا لم يحر جواباً. وهذه القضية ليست مهمة تستدعي التقاضي، ولكنها اختبار لداود، كأنه شيء من الباري تعالى أراد أن يبتليه بها.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ ظلمه بالسؤال فقط مع أنه لم يكن قد أمره ولا أوجب عليه ولا غصبه إنما سأله ضمها له وكفالتها له!

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هذه تكملة الحكم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أما هم فلا يبغون. وهنا انتبه داود أنه قد غلط ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾ وعلم أن هذه القضية بكلها ليست إلا اختباراً جعله الباري له، وأنه غلط في الحكم والغلط هو حينما استعجل بالحكم للمدعي ولّما يسمع جواب الثاني على تلك الدعوى، إضافة إلى تسمية طلب الكفالة ظلماً مع أنه ليس إلا إحساناً ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ من الحكم هذا ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ لله ركوع استغفار، وسمى السجود هنا ركوعاً؛ لدلالته على الخضوع ﴿وَأَنَابَ﴾ إلى الله رجع إليه.

إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ

﴿٢٥﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ الذنب ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ زلفى: مقرب إلى الله ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن مرجع في الآخرة.

﴿٢٦﴾ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حينما مكنه الله في الأرض ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أمره الباري أمراً جازماً أن يحكم بالحق ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ هوى نفسك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ حين تتبعه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا تتبع هواك فيضلك عن سبيل الله هذا الخطر العظيم اتباع الهوى؛ لأنه يؤديك إلى أن تضل عن سبيل الله تغوى عن طريق الحق الذي جعله الله لعباده ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ عذاب الآخرة ويمكن أن يعذبهم أيضاً في الدنيا عذاباً معجلاً بسبب أنهم نسوا يوم الحساب، لم يستعدوا له حينما ضلوا عن سبيل الله لأن من شأن من يستعد للآخرة وليوم الحساب أن لا يضل عن سبيل الله بل يحاول أن يتحرى الطريق الذي يرضي الله ويوصله إلى النعيم الأبدي.

﴿٢٧﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ يعني: ما خلقها إلا لحكمة، ولم يخلقها عبثاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الذين يرون أنه خلقها لغير غرض صحيح، ولم يفكروا أنه أحكم الحاكمين لا يخلقها إلا لحكمة وغرض صحيح ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأنهم كفروا بالله كأن الذين كفروا هنا إما أنهم كفروا نعم الله بسبب أنهم لم يؤمنوا بالرسول ولا بالقرآن، أو كفروا بالله بمعنى تركوه، مثل قوله: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] أي تركناكم.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ

﴿٢٨﴾ ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا رد على الكفار الذين يجحدون الآخرة، فقال كيف يصح أن نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض يعيشون في هذه الحياة ثم يموتون ولا يبعثون بل كانوا سواء لم نفضل المطيع على العاصي والمصلح على المفسد؟!

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ هل يصح أن نجعل المتقين الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معصيته نجعلهم كالفجار العصاة المتمردين؟! فلا بد إذاً من القيامة ولا بد من الجزاء، ولا بد من البعث،ليتميز المحسن من المسيء، وينتصف للمظلوم من الظالم، ويجازى كل بعمله، وهذا ما تقتضيه العدالة الإلهية.

﴿٢٩﴾ ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ هذا القرآن الذي هو حجة الله عليهم ﴿مُبَٰرَكٞ﴾ فيه بركة ولو أنه بالنسبة إلى حجمه صغير وليس مجلدات كثيرة ففيه علوم غزيرة، وفوائد عظيمة، وبركة وهدى لمن يتفهمه ويتبعه ويتمسك به ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هذا هو المقصود من إنزاله (ليدبروا آياته) يتفكروا في معانيها وما تؤول إليه مثل الوعد والوعيد كيف مآلها كيف أدبارها،ونهايتها وأنها تدل على أمور في العاقبة أمور كبار تدفعهم للتوبة والإنابة حينما يعلمون أنه لابد من أن يرجعوا إلى الله ويتقوه وإلا فإن الله سيعذبهم ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أهل العقول يتذكروا لا يكونوا غافلين بل يتذكروا ما يبعثهم على طاعة الله وتقواه.

عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ

﴿٣٠﴾ ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ قد مضت قصة داود وصبره ووهبنا له سليمان ابنه ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي سليمان مطيع لله وخاشع لله لم يطغه الملك الكبير. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رَجَّاع إلى الله مثل أبيه.

﴿٣١﴾ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ اذكر إذ عرض عليه بالعشي الصافنات وهي الخيل، كانت الصافنات تعد من أجود الخيل، وأصل الصفون أنه عندما ينهض يقوم على ثلاث والرابعة تكون برأس الحافر، والجياد: جمع جيِّدة، المقصود بها: الخيل النفيسة التي تميل إليها النفوس.

﴿٣٢﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ إني اشتغلت بها عن ذكر ربي حين عرضت عليه وأقبل بذهنه إليها تألم وتحسر على ذلك الموقف، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ إما أن المقصود حتى توارت الشمس بالحجاب غربت أي أني غفلت هذه المدة كلها عن ذكر ربي فتأسف حين غفل عن ذكر الله بسببها فكأنه كرهها أي الخيل لكونها سببت له الغفلة عن ذكر الله الذكر المطلق، أو أن يكون المقصود:توارت أي الخيل توارت لكن الأول أقرب.

وهل يلام على حبه الخير؟ نعم حينما يصل حب الخير أي حب الدنيا إلى درجة أن يشغلك عن ذكر الله ولو كان ذلك الخير حلالاً.

﴿٣٣﴾ ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي الخيل وكأنه قد كان كرهها وغضب منها ولم يعد يرغب فيها ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ البعض يقول: أنه قطعها بالسيوف وقتلها، والبعض يقول:بل إنما مسح سوقها وأعناقها على ظاهر اللفظ مسح الغبار منها أو نحوه، والسوق جمع (ساق) والأعناق ظاهر.

أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ

والأقرب: أنه لو كان المسح هنا عبارة عن القطع لما عدي بالباء فالأقرب أن المسح هنا عبارة عن إمرار يده على أعناقها وسوقها لإلصاق ما في يده من ماء أو غيره ولعل في ذلك تقوية لها لأنها معدة للجهاد في سبيل الله، والله أعلم.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ كرسيه موضع ملكه الذي كان باقياً عليه جعل عليه جسداً لعله لإيهام الحراس ومن حوله أنه لا زال سليمان موجوداً فوق الكرسي، وربما كان الكرسي خلف ستار لا يرى من خلفه إلا شبحاً غير واضح. ولعله لئلا يتفرق جنده، فضلوا يتوهمون أنه سليمان وهو في الواقع قد كان خرج.

قال في القصة في كتاب الإمام الهادي × التي رواها ما حاصله: إن ملكه كان في خاتمه ونزعه عندما كان يتوضأ على شاطئ البحر فسقط الخاتم والتقمته السمكة فذهبت هيبته ولم تبق له المعنوية تلك، وأصبح كواحداً من الرعية كأنها هذه هي الفتنة، ثم أنه أشترى له سمكة أو اصطادها وما أن بقر بطنها حتى وجد خاتمه فيها فأخذه وأعاد الله عليه ملكه. هذا ملخص ما أورده الإمام الهادي × حول الموضوع ـ والله أعلم.

﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله وتاب، كأن سببها معصية وزلة وقعت منه، وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:١٠٢] حين رد على اليهود لّما قالوا إنه كفر في آخر عمره، لكن رد الله عليهم فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:١٠٢].

أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى

﴿٣٥﴾ ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ استغفر الباري وطلب منه ملكا عظيما كبيرا لا يأتي لأحد بعده وليس ذلك حسداً منه لمن بعده وإنما قد علم الله بما سيكون لدى الناس الذين بعده من القوة والملك، فطلب ملكا فوق ما يعلمه الله أنه سيأتي لمن بعده ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ الذي تهب الخير الكثير.

﴿٣٦﴾ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ رخاء: رخية لا تزعزع البساط ومن عليه كأنه مثل سير الطائرة في الجو، يكونون على البساط وتحملهم وتذهب بهم حيث أصاب: حيثما أراد من الجهات أي أنها تجري كذلك إلى أي مكان ذهب وصار إليه هو وجنوده وعتاده.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ والشياطين سخرناهم له كل بناء وغواص، شياطين يبنون وشياطين يغوصون له في البحر يستخرجون له من خيرات البحر ما أراد.

﴿٣٨﴾ ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ سخرناهم له مقرنين في الأصفاد القيود وهم العصاة استطاع أن يقيدهم.

﴿٣٩﴾ ﴿هَٰذَا﴾ الذي أعطينا سليمان ﴿عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ﴾ يا سليمان ﴿أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ امنن تعط أو تمسك ما عليك حساب.

﴿٤٠﴾ ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ كأنها تشير إلى أن الغنى ليس مظنة الصلاح فجاءت الآية كالاحتراس عند أهل البديع، فلهذا كأنه نزَّهه

مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ

مما هو مظنة الغنى، بقوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ في الآخرة يعني أن هذا الملك لا يكون على حساب نعيمه في الآخرة، ومستوى درجته عند الله، وهذا يرد على اليهود أيضاً الذين قالوا إنه كفر في آخر عمره ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ حسن مرجع وهو الجنة.

﴿٤١﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ كذلك له درجة رفيعة عند الله، اذكر: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ أضاف العذاب إلى الشيطان لأنه السبب في مرضه قالوا: أنه وسوس له إلى أن أحرق دمه، وهو أعني التمكين والتخلية من الباري بلوى له ولغيره ﴿بِنُصۡبٖ﴾ أي تعب ﴿وَعَذَابٍ﴾ وهو ألم المرض الذي أصابه وطالت مدته فاستجاب الله دعاءه حينما شكا أمره إليه، فقال:

﴿٤٢﴾ ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾هكذا يجعل الله سبحانه أسباباً، مثل قوله لموسى: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣] ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة:٦٠] فهذا إنما يركض برجله الأرض وخرج ماء نبع ﴿مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ﴾ اغتسل به ﴿وَشَرَابٞ﴾ يشرب منه فكان فيه الشفاء وزال منه النصب والعذاب الذي اشتكى منه.

﴿٤٣﴾ ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ هذا دليل على أن قد شفاه الله وأزال منه المرض ووهب له أهله أعاد أهله الذين كانوا قد تركوه وتخلوا عنه نتيجة لشدة مرضه، حيث لم يستطيعوا أن يجالسوه.

صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾

بل قالوا: إن زوجته فقط كانت توصل له طعامه إلى مكانه خارج المحلة ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أهل كثير ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ ليتذكروا أن الله يعيد اليسر بعد العسر ويهب الكثير ويعود على عباده الصابرين برحمته وهذه عبرة للناس.

﴿٤٤﴾ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ ومن رحمة الله له أن دله على حل للمشكلة التي أحرقت دمه فقال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ قَبْضة من الحشيش أو نحوه ﴿فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ يضرب زوجته ضرباً غير موجع لكي تطيب نفسه وتزول عنه وسوسة الشيطان ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ في يمينك، كأنها عطف على إضرب كأن المعنى واحد وأنه إذا ضرب لم يحنث. لأنه قد كان أقسم أن يضربها مائة جلدة فرحمه الله تعالى وشرع له حلاً لبر قسمه فضربها بالضغث فطابت نفسه حينما علم أنه قد بر يمينه ولم يظلم زوجته.

﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا﴾ هذا هو الشرف العظيم إنا وجدناه بعد الاختبار العظيم وجدناه صابرا صبر للابتلاء ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ وهذا شرف عظيم أيضاً عندما يقول الباري ملك الملوك يقول فيه هذا القول: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاع إلى الله، وفي ذكره بعد سليمان تحقير للدنيا.

﴿٤٥﴾ ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ الأيدي كأنها ما قدموه من الأعمال في طاعة الله، والأبصار أهل بصائر هداهم الباري هدى عظيماً.

وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ

﴿٤٦﴾ ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم﴾ كانوا مخلَصين خالصين طاهرين من المعاصي ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بالذكرى الخالصة، ذكرى الدار الآخرة خالصة كأنه يعني أنهم لا يشوبونها بذكر الدنيا وأغراضها وأهوائها بل إنما يشغل أفكارهم هو ذكرى الآخرة خالصة فأخلصتهم لله أخلصتهم من كل معصية لأن أصل المعاصي كلها راجعة إلى حب الدنيا وملذاتها، الخلاصة أنهم لا يفكرون إلا في الآخرة.

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ عندنا أي في حكمنا وعلمنا لمن المصطفين الأخيار لهم ثواب الأخيار والمصطفين الذين اخترناهم صفوة.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ﴾ ابن إبراهيم ﴿وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ ذا اليسع من أنبياء الله، وذا الكفل ذا الحظ العظيم.

﴿٤٩﴾ ﴿هَـٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي حكاية وحديث عن أولياء الله الذين صبروا والسياق كأنه سياق في الصبر وفوائده، والحديث عنهم كان ابتداء من داود حين قال: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ فهذا أي ذكرنا لداود ومن بعده ذكر لك نذكّرك به أنت ومن سمع القرآن ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ حسن عاقبة ومرجع، المتقين عموماً هؤلاء الذين ذكرناهم وعددناهم من الأنبياء وغيرهم، فهم قدوة لك فاصبر كما صبروا. وحسن المآب هذا فسره بقوله:

﴿٥٠﴾ ﴿جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ أبواب الجنة، وهو شامل لأبوابها عموماً الخارجية والداخلية.

كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ
وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا

﴿٥١﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ معنى: أنهم لا يحتاجون إلى كد وعناء مثل ما في الدنيا بل هم في راحة في حالات يكونون متكئين على سرر ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ يعني معهم خدم ومعهم من يقرّب لهم ما يريدون، ما عليهم إلا أن يطلبوا ذلك.

﴿٥٢﴾ ﴿وَعِندَهُمْ﴾ هؤلاء المتقين ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ الحور التي تقصر طرفها على زوجها ليس لها هوىً إلا فيه ﴿أَتْرَابٌ﴾ كلهم في سن واحد؛ لأنه يكون للواحد عدة أزواج، فهن في سن واحد لا توجد كبرى وصغرى بل كلهن أتراب.

﴿٥٣﴾ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المتقون ﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ هذا النعيم هو الذي كنا وعدناكم في الدنيا كأنه يقال لهم يوم القيامة وهم في الجنة.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا﴾ في الجنة ﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ لا ينقطع أبداً.

﴿٥٥﴾ ﴿هَٰذَا﴾ هذا ذكر في شأن المتقين، ثم انتقل إلى ذكر الطاغين فقال: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ شر مرجع نعوذ بالله.

﴿٥٦﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ يباشرونها بأجسادهم ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ هذا تهكم بهم مثل قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ [النساء:١٣٨] مثل ما يمهد الإنسان تحته من الفراش ونحوه، وهذا إشارة إلى أنه كان ينبغي لهم أن يمهدوا لأنفسهم ما داموا في الدنيا لكن لم يمهدوا لها إلا جمر جهنم.

فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا

﴿٥٧﴾ ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ أي هذا حميم وغساق فليذوقوه يشربه هؤلاء أعداء الله.

﴿٥٨﴾ ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ كلها أنواع من الحميم كأنه ألوان وأنواع.

﴿٥٩﴾ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ إلى جهنم قد لحق أي دفعة جديدة وهم من الأتباع الذين كان غرر بهم وخدعوا كأنه يصف المتقدمين واللاحقين ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ الأولون قالوا لا مرحبا بهم باللاحقين ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ إنهم من أهل النار قد حصل بينهم عداوة بعد أن كانوا في الدنيا أصدقاء ومتعاونين على الباطل.

﴿٦٠﴾ ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ أنتم الذين سببتم لنا هذا المصير والعذاب الأليم. ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ لنا ولكم صاروا أعداء قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

﴿٦١﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ أي المستضعفون: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ صاروا يدعون الله أن يزيد أولئك عذاباً ويضاعفه عليهم، لكنه أجاب: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٨].

نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّارُ ﴿٦٦﴾

﴿٦٢﴾ ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ يتساءلون أين أولئك الناس الذين كانوا فقراء في الدنيا مساكين؟ يظنون أنهم ـ بسبب قلة ذات اليد ـ من الأشرار لأنهم لو كانوا جيدين لكانوا أهل ثروة وممتلكات لأنه ليس المقياس عندهم الإيمان والتقوى وإنما الدنيا فقط.

﴿٦٣﴾ ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ في الدنيا كنا نسخر منهم ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بل الحقيقة أنهم اتخذوهم سخريا، كما قال الله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون:١٠٩-١١٠].

والهمزة في قوله: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾ هي همزة السؤال، ولا ينبغي أن يقال همزة الاستفهام، والأصل: (أأتخذناهم) وسقطت الهمزة الثانية لكونها همزة وصل للتخفيف ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ هل سخرنا منهم وما كانوا من الأشرار ولا أهلاً لدخول النار؟ ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أم أن أبصارنا زاغت عنهم فلم ترهم هنا وهم معنا الآن في النار؟

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ يعني: أنه لا بد أنهم سيتخاصمون وينقلبون أعداء لبعضهم البعض بعد ما كانوا في الدنيا متحابين متناصرين متعاونين على الباطل.

﴿٦٥﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ لكم ليس عليَّ أن أهديكم قسراً ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ليس له شريك، يخاطب بهذا المشركين.

قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن

﴿٦٦﴾ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ المالك لها ما له شريك لأنه كل ما في الأرض وما فيها له والسماء وما فيها له ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ العزيز الغالب الذي لا يُنَال، والغفار لمن رجع إليه وتاب.

﴿٦٧﴾ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ﴾ نبأ الآخرة هذا الذي بيناه لكم وقرأناه عليكم ﴿عَظِيمٌ﴾ لأنه أمور كبيرة ومهمة وخطيرة أمر الجنة العظيم التي لا ينتهي نعيمها ولا ينفد، وأمر النار العظيم التي لا أشد من عذابها ولا أفدح من مصابها وهو عذاب لا ينفد ـ أيضاً ـ ولا يخرجون منها، هذه أمور كبار تستحق الاهتمام.

﴿٦٨﴾ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لكنهم معرضون عن هذا النبأ كأنه غير حقيقة ولا صدق.

﴿٦٩﴾ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ قبل نزول القرآن لولا أن الله أنزل عليَّ القرآن وبين لي قصتهم ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ الملائكة وإبليس وكان بين الملائكة ومن جملتهم.

﴿٧٠-٧١﴾ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبُّكَ..﴾ اذكر ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ يخبرهم أنه سيخلق آدم، هذا ممهد لبيان الخصومة التي ذكرها عندما سجد الملائكة لآدم ورفض إبليس السجود.

رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

﴿٧٢﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أمرهم بالسجود عندما يوجد آدم من حين تنفخ فيه الروح فليسجدوا سجدة تكريم، فلهذا غضب إبليس وحسده، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ..﴾ [الإسراء:٦٢] هذا السجود تعبير عن التكريم، وليس سجوداً بمعنى العبادة.

وهنا ندرك أنه بالإمكان أن يكون سجود ولا يكون عبادة؛ لأن العبادة معناها: خضوع على معنى الاعتراف بالعبودية، فإذا لم يكن على معنى الاعتراف بالعبودية فليس عبادة حتى ولو كان خضوعاً، ولهذا لم يكن سجود الملائكة لآدم عبادة له ولا سجود أبوي يوسف وإخوته عبادة له لأنه ليس على معنى الاعتراف بالعبودية، والدليل على هذا قول الله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ [النساء:١٧٢] فقال عن عبادته أقام كلمة عبادته مقام قوله أن يكون عبدا، دل هذا على أن العبادة معناها الاعتراف بالعبودية فمن هنا لم تكن عبادة لآدم بل هي عبادة لله وتكريم لآدم.

﴿٧٣﴾ ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ امتثلوا أمر الله من حين نفخ فيه الروح سجدوا له.

﴿٧٤﴾ ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ لّما كان من الجن ولكون أصله من النار اعْتَقَدَ أنه فوق أن يسجد لمخلوق من الطين فاستكبر نعوذ بالله ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ كفر بالله وقاطع الباري إما على معنى قولهم: كفرنا بكم، أي تركناكم لأنه تعمد معصيته وقطع الصلة بينه وبينه، أو بناءً على أنه كفر بنعمة الله عليه فيما قد أنعم عليه في الماضي.

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿٧٥﴾ ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ **أنا الذي خلقته هو الخالق له فكيف يأنف من السجود له مع أن الله هو الذي أبدعه وصوره، ويؤكد كونه الذي خلقه حين قال:** ﴿بِيَدَيَّ﴾ .

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ **أي منعك من السجود الكبر** ﴿أَم كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ **العالي الذي ترفع، كأنه متقارب مع معنى الكبر، إنما قد يكون التعالي هو الترفع وترك السجود لآدم، والاستكبار اعتقاده في نفسه أنه كبير.**

﴿٧٦﴾ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ **هذا الجواب على قوله:** ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾؟ ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ **عدو الله ورسوله ليس خيرا منه لأن آدم قد نفخ فيه من روحه إذ يمكن في الروح هذه أن تكون فيها مزّية، على غيرها، ولكن اعتقدَ أنه لا يمكن أن يسجد له مادام خيراً منه في اعتقاده، وهو غالط فقد سجد الملائكة كلهم ولم يقولوا: أنهم خير منه.**

﴿٧٧﴾ ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ **أبهمها في القرآن في (سورة البقرة) وفي كل موضع تذكر فيه، وربما أنها السماء موضع عبادته حيث كان يعبد الله مع الملائكة، طرده منها مثل ما يطرد الإنسان من المسجد عندما يعمل ما يتنافى مع حرمة المسجد وقدسيته فكذلك السماء فهي موضع عبادة فطرده منها لأنها ليست مكاناً للعصاة، يؤكده قوله:** ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ **لأن الجن حين يقتربون من السماء لاستراق السمع يرجمون بالشهب.**

وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

﴿٧٨﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بسبب المعصية والكبر والتعالي.

﴿٧٩﴾ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾ الله سبحانه هو عالم أنه سيقول ذلك وهو عالم بما في نفسه، وكأنه يريد أن يعمل حيلة على الباري حتى ينظره إلى يوم الدين وعندما ينظره يقول أنا سوف أغويهم، وهذا يدل على أن فيه جهالة رغم طول عبادته، قالوا قد كان عبد الله ستة آلاف سنة ولكنه ما عرف الله ﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾ فأنظرني في الحياة لا أموت ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لأجل أن يغويهم.

﴿٨٠﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ إخبار له بأنه منظر.

﴿٨١﴾ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ يمكن أن يكون يوم القيامة لأن لها أجلاً محدوداً.

﴿٨٢﴾ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم أنه سيغويهم أجمعين ذرية آدم أو نفس آدم وذريته.

﴿٨٣﴾ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الرافضين له الذين أخلصهم الله طهرهم وقوى إيمانهم.

﴿٨٤﴾ ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ كل كلامه حق سبحانه.

﴿٨٥﴾ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا هو جزاؤكم لقد تصور إبليس أنه بإفساد عباد الله سوف يلحق الضرر بالله سبحانه حينما لا يشكره العباد ويعبدوه، وهو إنما ضر نفسه لأن كل ذلك هو مما يزيد في عذابه.

قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿٨٦﴾ ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ انتهت القصة هنا ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ حتى تعتلوا بأنه سيلحقكم غرم بدفع الأجرة لي ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ما أنا من الشعراء الذين يتكلفون المعاني ويتكلفون الألفاظ إنما أقرأ عليكم ما أوحى الله إلي.

﴿٨٧﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ هذا القرآن ذكر للعالمين كلهم يتذكرون به ويتبعونه ويهتدون به.

﴿٨٨﴾ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ نبأه يعني إنذاره ستعلمونه سواء آمنتم به الآن أو لم تؤمنوا به سوف تعلمون بما أنبأكم به من الآخرة ومصيركم هناك مهما تماديتم الآن في العناد والكفر والإعراض.

وهذا هو ما عناه تعالى بقوله: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ستعلمونه بعد حين يوم القيامة.

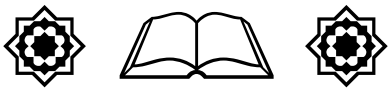

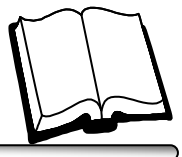

التيسير في التفسير

سورة الزمر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هذا تنزيل والله هو الذي أنزله قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الخبر يبين: أن القرآن هو من الله هو الذي أنزله، وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ يبين أن هذا راجع إلى عزته، لأن من عزته أن لا يترك عباده مهملين يفسدون في الأرض ويتظالمون، دونما إرشاد، ولا ما يقيم الحجة على الظالم ولا إنذار، ولا تبشير بما سيكون في الآخرة، فعزته اقتضت هذا، وكذلك حكمته اقتضت أن يقيم الحجة على عباده وأن ينذر ويبشر، ويدعوهم إلى الهدى لإصلاحهم ولسعادتهم إذا قبلوا، فهي حكمة عظيمة في إنزال القرآن.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّآ﴾ الله سبحانه العظيم لأن في هذه ﴿إِنَّآ﴾ دلالة على العظمة التي هي من شأنه لحكمته وعلمه وقدرته وكماله سبحانه، فهي كأنها تشير إلى أسمائه الحسنى ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أنزله بالحق ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ﴾ لأن ما في القرآن من الدعوة إلى عبادته هو الحق ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ تخلص له دينك لا تشرك به.

﴿٣﴾ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ هو الذي يستحق الدين الخالص، وهو الذي له الدين الخالص، أما غيره مما يدّعيه المشركون من الشركاء، فليس لهم

سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

من هذا شيء ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ من دون الله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ شركاء اتخذوهم شركاء أي هم الذين قرروا أن يجعلوهم أولياء كأن يتولون إصلاح شئونهم ولكنهم لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً. قائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾ هذا اعتذار عن اتخاذهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ يقربونا إلى الله قربة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ هذا خبر المبتدأ وهو: ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ لأنهم كاذبون في شركهم كاذبون على الله في إثبات الأولاد وكاذبون فيما حرموا مما لم يحرم الله، وكم كذبوا على الله، وكذلك هم لنعمة الله كافرون فهم ليسوا أهلاً للهداية.

﴿٤﴾ ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ هذا رد عليهم في دعواهم اتخاذ الولد لا في دعواهم الولادة، واتخاذ الولد لا يتوقف على الولادة، قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١، القصص:٩] واتخاذ الولد أنه يقرب شخصاً ويتبناه وكان عندهم التبني هذا شايعاً، يقولون: فلان بن فلان، فينسب إليه مع أنه ليس ولده.

فالمعنى: لو أراد الله أن يتخذ ولداً ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لكان اصطفى هو ما يشاء وليس ما يشاءون وينسبون إليه من البنات.

وهذا إشارة إلى الأولاد، أي لكان اصطفى له أولاداً يكونون صفوة بأن يكونوا ذكوراً، وكاملين في أوصافهم لا إناثاً على ما يدعي الكفار ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد لنفسه، لأنه سبحانه هو الغني لا يحتاج إلى التبني، لأن الذي يتبنى إنما لأجل أن يستأنس به حين لا يكون معه ابن

كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ

ويستريح به بعض الراحة، وهو سبحانه غني لا يحتاج إلى الولد ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ ليس معه شريك ولا ابن ليس معه مشارك له في ربوبيته ولا في ألوهيته ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب على أمره القاهر فوق عباده لا يحتاج إلى من يعينه من ولد أو غيره.

﴿٥﴾ ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ما خلقهم عبثا فخَلْقُهُم هو مقدمة للآخرة لأنه خلقهم لكي يكونوا مقراً لمن يعبد الله، لأن العبادة هي الغاية من الخلق، قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يبين قدرته العظيمة أنه قدر على خلق السموات والأرض وقدر على تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل يهجم الليل على النهار ويهجم النهار على الليل، وكل واحد يغطي الآخر.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ على طول الدهر ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ الشمس تجري والقمر تجري إلا أن الشمس تقطع المنازل في سنة والقمر تقطعها في شهر ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محدود عند الله وهو يوم القيامة الذي فيه ينتهي سيرهما.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا ينال، الغفار لمن تاب إليه ورجع إليه حين يذكر عزته، يشير بهذا إلى أنه سيجازي ويعاقب لكن يفتح الباب للتوبة لا يسد الباب عليهم يقول: ﴿الْغَفَّارُ﴾ كثير المغفرة لمن رجع إليه.

لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ

﴿٦﴾ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو أبونا آدم صلوات الله عليه ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ آية ثانية، كل هذه دلائل قدرته سبحانه وفيها أمران: *أولاً*: أنه لا ينبغي أن يُجعل له أنداد التي قد تكون من الحجارة التي لا تسمع ولا تبصر، *ثانياً*: أنه قادر على البعث والنشور وهم أخطئوا في الاثنتين، فهو قادر على إعادتهم بعد الموت، ولهذا قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ فكيف لا يقدر أن يخلقنا مرة ثانية ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا﴾ من النفس الواحدة ﴿زَوْجَهَا﴾ كأنه خلق حواء من جزء من أجزاء آدم كأنها نبتت وتكونت فيه مثل ما يتكون بعض الحيوان في جسم الإنسان فأنشأها منه لا بطريقة الولادة.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ كأنه حين أنعم الله بها وأعطانا إياها كأنه اعتبره إنزالاً لكونه من عنده فسمى العطاء إنزالاً ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ فصّلها في (سورة الأنعام) ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يخلقكم بقدرته أنتم والأنعام ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ خلقا من بعد خلق حينما يكون عظاماً من بعد ما كان مضغة، ومضغة بعد ما كان علقة، وعلقة من بعد ما كان منياً، خلقاً متطوراً في ظلمات ثلاث هي: ظلمة الجلد، وظلمة الرحم، وظلمة ما بينهما هذه ظلمات ثلاث يصورنا كيف يشاء سبحانه، وهذه قدرة عظيمة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ ذلكم الله الذي خلقكم، والذي كور الليل على النهار والذي سخر الشمس والقمر، والذي خلق السموات والأرض هو الله ربكم المالك لكم لأنه الذي خلقكم فإذا كان هو ربكم فلا تعبدوا غيره لأن معنى العبادة هو الاعتراف بالعبودية، لأنا لسنا عباداً لغير ربنا الذي هو مالك لنا.

وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا

فالجاهلية الكفار المشركون جانبوا الصواب عندما جعلوا شركاءهم مالكين لهم بغير حقيقية فهم لم يخلقوهم، كما أنه ليس لهم حق أن يحكموا بأنهم شركاء فالحكم لله وحدْه ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فله إذاً ولاية الأمر والنهي، والثواب والعقاب، هو المَلِك له هذه الولاية ليس لغيره فيها نصيب، فإذا كان الملك له وحده فيوم القيامة يكون مرجع العباد إليه وحده، هو الذي سيحكم فيهم يجازي ويثيب ويعاقب لأن الملك له وحده أما مُلك غيره في الدنيا فليس إلا نسبياً إذا كانت له ولاية شرعية، وليس ملكاً مطلقاً.

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ فمن أين تصرفون عن الحق إلى الباطل وأنتم تعلمون أنه الذي خلقكم وأنه الذي خلق هذه الأشياء بقدرته، فلماذا تقولون أن هذه الأصنام ستشفع لكم يوم القيامة وليس لهم نصيب من الملك لا يوجد يوم القيامة شفعاء يكون لهم نصيب من الملك فالأمر لله وحده.

﴿٧﴾ ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ بعد ما بين الحق قال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ نعمة الله هدايته وإنزاله القرآن ودعوتكم إلى السلامة إن تكفروا نعمته ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ﴾ ليس به حاجة إليكم ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ لا يرتضي لكم أن تكونوا كفاراً لنعمه؛ لأن كفر النعمة نقص فيكم وعيب عليكم، وذلك ما لا يرتضيه لعباده لكونه صفة نقص وهو يريد لكم الكمال وعلى قدر عظم النعمة يكون قبح كفرانها.

﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ وإن تشكروا نعمة الله يرض الشكر لكم لأنه سعادة لكم في الدنيا والآخرة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ الوازرة التي تحمل حملاً ثقيلاً، فهي لا تقدر أن تحمل وزر واحدة غيرها بل كل واحدة تحمل وزرها فقط.

خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم﴾ وحده ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة يحاسبكم ويجازيكم ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنه عالم بما تعملون من صغير وكبير وقديم وحديث هو عالم به لا ينسى سبحانه، ويوم القيامة ينبئكم به ويجازيكم ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عالم بالمكنون الخفي في الصدور.

﴿٨﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ عندما يصيبه الضر يلجأ بالدعاء إلى الله فالشرك ليس إلا ظاهرة تعصب وقولاً بالألسنة وإلا فليس له حقيقة في وجدان الإنسان ولهذا فإنه إذا مسه الضر الشديد يرجع إلى الباري ولا يرجع إلى الأصنام ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ مَلَّكه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ لأنه كان يقول: ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢] ثم نسي حينما عادت النعمة نسي أنه يشكر الله ونسي ذلك الذي كان قد وعد به من قبل ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ كأنها طبيعة في الناس غير المؤمنين، الإقتداء بأهل الأنداد، والأنداد هم هؤلاء الأصنام الذين يجعلونهم شركاء لله ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ما كفاه أنه يضل لوحده هو بل يريد أن يضل غيره.

﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهذا الذي جعل لله أندادا ليضل عن سبيله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾ هذا الكلام تهديد مثل: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت:٤٠] ﴿قَلِيلًا﴾ ليس أمدك في الحياة إلا قليلاً وينتهي، ثم تصير إلى الله ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ثم تصير إلى النار.

قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ

﴿٩﴾ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ هذا احتجاج على الكفار الذين ينكرون الآخرة أمن هو قانت بمعنى خاضع لله خاشع آناء الليل: في أوقات من الليل في أوله وفي آخره أوفي أوله وآخره وأثنائه، ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يعبد الله ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وحذره للآخرة أنه يحاول أن ينال المغفرة من الله يستغفر ويتوب ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ بسبب أنه قد رجع إليه وعبده وأطاعه، فهل هذا يستوي هو وأولئك الكفار والظلمة الذين لا يعبدون الله بل جعلوا لله أندادا؟

كلا.. لا يستوون فإذا لم يكونوا سواء فكيف لا تكون الآخرة للتمييز بين المؤمن المطيع وبين الكافر بنعمة الله؟ قال تعالى: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ**﴾ [ص:٢٨] ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا كأنه يذكرهم في إعراضهم حين لم يتفكروا ولم ينظروا في آيات الله فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أنكم حين أعرضتم لا تعلمون بشيء فكنتم جاهلين فكيف يكون سواء من يعلم ومن لا يعلم ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذين ينفع فيهم التذكير وهو من يستعمل عقله، اللب: العقل.

﴿١٠﴾ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ قل يا رسول الله عن الله: ﴿يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ يعني: أن المؤمن عليه أن يتقي الله يطيعه ويتوب إليه إذا ما زلَّ.

أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ إذا أطعتم الله فسيكون لكم في هذه الدنيا حسنة أي تصلح حالتكم وتسعدون في الدنيا، كما في الآية: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ..﴾ [الطلاق:٢-٣] والإحسان من الإنسان: طاعة الله وتقواه والتوبة إليه، والعفو عن الناس وكظم الغيظ وكل الفضائل وهي كثيرة ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ لمن أراد الإحسان لأنها إذا ضاقت عليه بين الكفار فليخرج في أرض الله ويهاجر لكي يتمكن من الإحسان وطاعة الباري فلا يكفيه أن يؤمن ويقعد بين الكفار، حتى ولو لم يتأثر بأجواء الكفر إذا كان يتعذر عليه إكمال دينه، والقول بكلمة الحق.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الصابر على دينه لأنه يكون في وقت غلبة الكفر والباطل فالصابر على دينه يكون في مشقة يحتاج إلى التزود المستمر بالصبر، حتى لا يضعف صبره عن القيام بطاعة الله والهجرة وتحمل مشاقها، والهجرة وإن كانت شاقة فإنها عادة تصلح أموره وتستقيم معيشته فيما بعد كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء:١٠٠] ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ثوابهم بغير حساب، لأنه دائم لا يدخل في حساب لا يستطيع أحد أن يحسبه.

﴿١١﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للمشركين: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لا أشرك به أحداً.

﴿١٢﴾ ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المسلمين لله الذين أسلموا أنفسهم لله وأخلصوها له وأخلصوا له وجوههم لا يعبدون غيره، هذا الإسلام يكون

ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ

بمعنى إسلام النفس لله، كما قال: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ لأن السَّلَم هو الخالص، وأسلم: أخلص نفسه لله لم يرتض أن يجعل فيها شركاً لغيره.

﴿١٣﴾ ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لابد أن أبلغ رسالاته وأقوم بما أمرني به وأبين لكم بطلان الشرك وبطلان أمور الجاهلية كلها التي أنتم فيها هذا تكليفي من الله أخاف إن توانيت فيه عذاب يوم عظيم.

﴿١٤﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ قلها مرة ثانية تأكيداً أني لا أعبد إلا الله وحده مخلصاً له عبادتي.

﴿١٥﴾ ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ ستصيرون إليه فيجازيكم ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾هذا يبين أنكم إذا عبدتم غيره فإنكم ستكونون يوم القيامة خاسرين تخسرون أنفسكم أي لا تبقى حياتكم ملكاً لكم يوم القيامة فالمجرم يوم القيامة لا يعاد خلقه إلا ليعذب فقط وهذه هي خسارته لنفسه، كما أنه يخسر أهله لأنه لا يكون بينه وبين أهله أية علاقة فلا يبقى له أهل ولا أولاد ولا زوجة انقطعت العلاقة، وافترقوا فراقاً أبدياً، فهذه خسارته لأهله، كما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٥] ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ألا.. حرف تنبيه استدعاها إعراضهم وجهلهم، ذلك الخسران البين لأنه دائم وقد خسر نفسه ولم تعد حياته له بل لجهنم نعوذ بالله.

تُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾

﴿١٦﴾ ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ لهب النار من فوقهم ومن تحتهم مثل الظلل ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب المذكور ﴿تُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ يصفه لهم لأجل يحذروا ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ يأمرهم الباري بالتقوى، لأن عذابه شديد لا أشد منه، قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥].

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا﴾ المؤمنون الذين اجتنبوا الطاغوت الأصنام والشركاء مهما كانوا بشراً أو غيرهم أن يعبدوها ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ رجعوا إلى الله ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أما هم فهم بخلاف ما عليه أهل النار، هؤلاء لهم البشرى ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ معناه بشر عبادي المؤمنين لأنهم اختصوا بمزية العبودية، مثلما قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] وقد بيّن من هم فقال:

﴿١٨﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ أي القرآن وكلام الرسول ص ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ هذا لأنهم لا يريدون إلا الحق فهم يستمعون له ويصغون له بصدق ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ ما أحسن هذه الآية في سلاستها وتركيبها حين قال: ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ فكان مناسباً ذكر الإتّباع بعد ذكر الاستماع ﴿فَيَتَّبِعُون أَحْسَنَهُۥ﴾ وهو المحكم منه الذي اتضح أنه الحق.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ هؤلاء الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هداهم حينما سعوا للهداية أولاً ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هم أهل العقول لأنهم هم الذين استعملوا عقولهم.

لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ

﴿١٩﴾ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ الذين استحقوا كلمة العذاب، وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وهي تعني أنه قد حكم عليه بالخلود في النار قد صار من أهلها، والجواب محذوف تقديره: فليس سواء هو والمؤمن المتقي الذي يستمع القول فيتبع أحسنه ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ الرسول ص لا يقدر على إنقاذه؛ لأن الحكم لله وحده لا يستطيع أحد يوم القيامة أن ينفع أحداً كما قال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] لا الرسول ولا غيره.

﴿٢٠﴾ ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذا يبين: أن القيامة هي الحق، حين جعل لكل ما يستحق على ضوء ما قدم لنفسه، فالمؤمنون ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في الجنة ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ مسقوفة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ منظر جميل حين يرى الأنهار وهي جارية من تحته ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ وَعَدَ الله وعدا لا بد منه لا يتخلف وعده هذا للمتقين.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هذا من نعم الله وقدرته؛ لأنه جمع بين الدلالة على قدرته وعلى نعمته ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فالماء هذا سلكه، جعل له مجاري في بطن الأرض ليكون ﴿يَنَابِيعَ﴾ أي عيوناً نابعة.

فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ

وهذه آية من آيات الله حين صرّفه كذلك حتى لا يضيع بين طبقات الأرض وتشربه ويتبدد، بل جعل له مجاري مثل العروق في الجسد قنوات في بطن الأرض، ثم تظهر بشكل ينابيع لأجل منفعة الناس ﴿ثُمَّ تُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ بعد ما يتكون ينابيع يظهره في الأرض فيخرج به زرعا مختلفا ألوانه هذا من دلائل قدرته لأنه يجعله مختلف الألوان لأنه فاعل مختار يفعل الشيء كيفما أراد وليس علة ولا طبيعة لأن الطبيعة تكون بطريقة واحدة لا تختلف وليس لها إرادة.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ هم يفسرون ﴿يَهِيجُ﴾ بمعنى (ييبس) ولا أراه كذلك، بل كأنه يهيج يعني يتم صلاحه وينعقد ويحين وقت حصاده ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ حين بلغ الغاية المقصودة منه وهو حصول الثمر المطلوب فيه، فلم يمكث مثل ما كان قبل في نمو وخضرة؛ لأنه قد طاب وحان وقت صرمه، وهذا هو الموافق لكلام الراغب الأصفهاني في (مفرداته) حيث قال: ((يقال: هاج البقل يهيج: اصفر وطاب، قال عز وجل: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾)) اهـ.

يعني: أنه يعرف أنه قد أحصد حين يرونه قد اصفر لا من عطش ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ محطماً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لأولي العقول.

٢٢ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ شرح الله صدره وسعه ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ يكون راغباً فيه ومحباً له يسلم نفسه لله ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ النور هو الهداية؛ لأنه قال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥].

رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الذين إذا ذكر لم تخف ولم تخشع لأنها لا تتأثر من ذكر الله فهم بخلاف هؤلاء الذين شرح الله صدورهم للإسلام ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأن مقتضى استعمال العقول والهدى أنه إذا عرف الله أنه يخاف منه لكن هؤلاء ما عرفوا الله ولا ذكروه حتى يذكروا عظمته وقدرته لغفلتهم وقسوة قلوبهم فهم في ضياع.

﴿٢٣﴾ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ الله سبحانه هو نزل القرآن هذا على هذه الصفة ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ لأن فيه الهدى والنور وكتاب مبارك وأوصاف كلها جميلة جدا فهو أحسن الحديث ﴿كِتَـٰبًا﴾ جعله كتابا لأجل تتوارثه الأجيال ﴿مُّتَشَـٰبِهًا﴾ في جماله وصدقه وإتقانه ﴿مَّثَانِىَ﴾ يتكرر فيه المواعظ ويتكرر فيه القصص لأجل ترسخ في القلوب ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من المواعظ العظيمة النافعة المفيدة بحيث أن الذين يخشون الله تقشعر جلودهم من بعض المواعظ فيه ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بسبب تأثرها من المواعظ فيه تلين: ترغب إلى ذكر الله ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ المهتدون هم الذين يتأثرون بالقرآن وتلين قلوبهم وجلودهم من ذكر الله ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حين لا يهديه الله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ لا أحد يهديه لأن الهدى من الله سبحانه.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الذي قد ضل عن سبيل الله وصار إلى جهنم ويداه مغلولتان لا يجد ما يتقي العذاب به إلا بوجهه ليس معه ما يتقي به سواه.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لأن سببه الظلم في الدنيا ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ ذوقوا لأن هذا جزاؤكم العادل، والجواب محذوف، كأنه يقول: هل يستوي هو ومن يأتي آمناً يوم القيامة؟ كلا.. لا سواء وهي موعظة عظيمة.

﴿٢٥﴾ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الأمم الأولة التي كذبت رسله ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ حين أصروا على التكذيب ولم تنفع فيهم الآيات كذبوا بآيات الله ورسله وكذبوا باليوم الآخر.

﴿٢٦﴾ ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ لأن العذاب لّما كان بسبب ذنوبهم كان خزياً عليهم وهو فضيحة وعار عليهم يستحيون منه ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُ﴾ من عذاب الدنيا هذا الذي ذكره ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ حتى يحذروه.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ آيات فيها أنواع من المواعظ، وأنواع من الزواجر، وأنواع من الإنذار ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كفعل من يرجو أن يتذكروا.

﴿٢٨﴾ ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فهو نعمة على العرب وواضح مفهوم ﴿غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾ ليس فيه شيء يخالف الحكمة بل كله حق وصواب ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ حين جعله عربياً لكي يفهمه العرب لعلهم يتقون الله يؤمنون به ويتبعون هديه.

مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِي جَآءَ

﴿٢٩﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ﴾ هذا المثل رد على المشركين: يعني عبداً مملوكا لأناس مشتركين فيه وهم ﴿مُتَشَـٰكِسُونَ﴾ متعاسرون فيما بينهم في هذا العبد المشترك ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ عبداً مملوكاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ واحد ليس معه مشارك، فأيهم أحسن حالاً؟! ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ليسوا سواء فكيف يرضى الله سبحانه وتعالى ـ على حسب دعوى المشركين ـ أن يكون له شركاء في عباده وهو حكيم ومن الحكمة والعزة أن يكون الملك له وحده ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على هدايته وتعليمه ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حين لم يستمعوا وأعرضوا عنه ولم يستعملوا عقولهم فما علموا.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ ستنتهي الخصومة فيما بينك وبينهم في الدنيا لكن ويوم القيامة تختصمون عند الله وهو عالم الغيب والشهادة الذي هو على كل شيء شهيد فهو عالم بالحقيقة يحكم بينكم بالحق.

﴿٣٢﴾ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا أظلم منه ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ نسب إليه، إما قال: أنه أوحى إليه ولم يوح إليه بشيء، أو أي افتراء على الله، كما نقل عن الرئيس الأمريكي (بوش الابن) قوله: ((إنه يتلقى توجيهات مباشرة من الله كل يوم)) فتعمّد الكذب على الله دونما حجة ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ حين جاءه القرآن الذي هو الحق الواضح كذب به.

بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ

فلا أظلم ممن كذّب به؛ لأنه الكتاب الذي فيه نجاة الأمة يدفع عنهم عذاب النار ويبلغهم إلى السعادة الدائمة، فتكذيبه أمر كبير وخطر عظيم فلا أظلم منه ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ هي تكفيه جهنم مكاناً وموئلاً، هي حسبه جزاء كذبه وافترائه على الله.

﴿٣٣﴾ ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ رسول الله ص ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ الذي جاء بالصدق والذي صدق به كلها تعني النبي ص ما أظن إلا أنه النبي؛ لأنه موصول واحد، لم يقل: والذي صدق به، ولا حجة للمخالفين الذين يقولون: إنه بمجرد التصديق يصير مؤمناً يستحق الجنة ولو لم يعمل بمقتضى الإيمان ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ هو الذي اتقى الله حق التقوى.

﴿٣٤﴾ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذه كلمة جامعة لكل نعيم ولكل خير ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ هذه الجنة التي لهم فيها ما يشاءون.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ كأنه في يوم القيامة يكفر عنه سيئاته بحيث لا تذكر في حساب كأن لم يعمل شيئاً، يعني يغطي ما وقع منه من سيئة أو زلة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ والأحسن هنا هو العمل الصالح، وهذا عائد إلى المحسنين.

﴿٣٦﴾ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ هذا رد على المشركين الذين جعلوا مع الله إلهاً آخر وهم معترفون بالله، ولكن مع اعترافهم بالله يريدون أن يجعلوا

﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى

معه غيره، فقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فلماذا يحتاج مع الله إلى إله غيره فهو يكفيه؛ لأنه الذي يسمع دعاءه وهو الذي سيستجيب، وهو الذي يرزقه، وهو الذي ينفعه ويدفع عنه الضر، لا يحتاج إلى غيره أبداً وخصوصاً أولئك الشركاء الذين ليس منهم أي فائدة.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ يا رسول الله ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الشركاء الذين اتخذوهم شركاء أنهم سيضرونك ولكن ليسوا بضارين لأحد إلا الذي يعبدهم لأنه يدخل النار بعبادته لهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الذي رفض هدى الله كيف يهتدي بهدى غيره؟ بمعنى أنهم ضلوا ضلالاً لا أحد يهديهم.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ مثل رسوله حين كانوا يخوفونه لأجل أن يضلوه لا يستطيع أحد أن يضله ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب قاهر فوق عباده لا ينال ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم ممن تمرد عليه وعصاه فهو كالوعيد لأولئك الذين يخوفونه.

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ هؤلاء المشركين ولئن سألتهم يا رسول الله ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ هم معترفون بالله مقرون به ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ شركاءكم هؤلاء ﴿إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ هل يدفعونه عني.

عَـٰمِلٌ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ

﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ لا يستطيعون أن يدفعوا ضرا قد أراده الله ولا يردون منفعة قد أرادها فتبين أنهم عاجزون لا يملكون ضراً ولا نفعاً ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾ سيكفيني لا أحتاج إلى غيره ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ عليه لا على غيره وهو الكافي لعباده.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ هذا متاركة لهم ﴿إِنِّي عَـٰمِلٞ﴾ سأعمل على ما أنا عليه وأنتم على ما أنتم عليه أترككم وتتركونني ﴿..فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ * مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ يوم القيامة يوم الجزاء يبين لكم الصدق من هو الذي سيعذبه الله ومن هو الذي يسلم من العذاب، وهل تنفعكم أصنامكم أو تشفع لكم أو أنها لا تملك شيئاً.

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّآ﴾ أي إن الله جل جلاله لعظمته وحكمته وعزته وقدرته وعلمه ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿لِلنَّاسِ﴾ ليهتدوا به رحمة للعالمين ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ إنزاله بالحق لأن ملك الملوك رب العالمين هو الذي أنزله الأمر له عليهم يأمرهم وينهاهم ويعلمهم ويهديهم ويتولى شئونهم هو ربهم الله فإنزاله هو الحق ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ اتبع القرآن لأن فيه الهدى والنور ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ نفع نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ عن الهدى أبى أن يستمع إلى القرآن وأعرض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ ضر نفسه ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ لست ملزما أن تهديهم ما أنت إلا نذير تبلغهم وتنذرهم.

يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ

﴿٤٢﴾ ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ عند نهاية الأجل سواء حتماً أو خرما فالخرم نفسه أجل مسمى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ﴾ يتوفاها ﴿فِى مَنَامِهَا﴾ وفاة النوم بمعنى أنها في قبضة الله ليس لها عمل اختياري.

﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ لا يردها إلى الدنيا ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ التي توفاها بالنوم ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن ينتهي أجلها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن هذا النوم آية عظيمة حينما يجعله الباري قاطعاً للعمل، فالنائم يكون مثل الميت ثم ينتبه ويستعيد قواه التي فقدها حال النوم، فهو آية وعبرة لمن تفكر لأنه يشبه الموت والحياة بعد الموت ويذكر بهما كل يوم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ أعندهم أنهم سيشفعون لهم ويسلمون من العذاب هذا المذكور في قوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ..﴾ الخ [هود:٣٩].

﴿أَمِ﴾ في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ بمعنى (بل) و(الهمزة) للإضراب كأنهم قد علموا أنهم على الباطل لكن هم معتمدون على الشفعاء أنهم سيشفعون لهم ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ أتتخذونهم شفعاء يشفعون لكم وهم لا يملكون شيئا ليس لهم شيء من الملك، إنما هم عباد أمثالكم ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يعلمون ماذا تفعلون.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ

﴿٤٤﴾ ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ لله وحده أمرها إليه ليس لأحد أن يشفع ليس لأحد شرك في الملك الشفاعة لله لا يشفع أحد إلا بإذنه ورضاه فالأمر له فيها، وإن لم يأذن ولم يرض فلا شافع ولو كان أكبر ملك ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الملائكة ومن في الأرض كلهم عباده لا أحد شريك في الملك ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ كلكم يا عباد الله ترجعون إليه، يسألهم لأنه ربهم المالك لهم يسألهم ويحاسبهم ويجازيهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تحقير لكفرهم لما كانوا مشركين، كانوا إذا ذكر الله وحده لا إله إلا الله اشمأزت قلوبهم: نفرت من هذا الكلام لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لخافوا فأنصفوا واستعملوا عقولهم حتى يعلموا أنه لا إله إلا الله ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يرتاحون عندما تذكر أصنامهم التي ليس لهم عليها حجة وإنما تعصب أعمى بغير حجة وهوى وعناد.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلِ﴾ يا رسول الله ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ قد علمت ما وقع مني وما وقع من هولاء المشركين أنت عالم بكل شيء عالم الغيب والشهادة ﴿أَنتَ﴾ الذي أنت عالم بما قد وقع فأنت الشاهد والحاكم ﴿تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ أنا وإياهم وكل عبادك تحكم بيننا يوم القيامة ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هذا يوم القيامة يوم عسير على الذين ظلموا في الدنيا يتمنون ويرغبون في أن يفتدوا لو كان مع الواحد منهم ملك الدنيا كله ومثله معه لدفعه فداء لنفسه من نار جهنم لو كان يقبل منه لأنه عذاب شديد نعوذ بالله.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ ما لم يكونوا يتوقعون ولا كانوا ينتظرون ولا يؤملون فكانت مفاجأة عظيمة عند السؤال وعند الحساب والجزاء كل ذلك كان على خلاف ما تصوروه، لفرط غفلتهم وإعراضهم عن النذير فرأوا من الهول عندما صدر الحكم عليهم بجهنم وعندما يساقون إليها وعندما رأوا أن الأمر جد حينما زج بهم داخل جهنم ولا شفيع حينها يشفع، فكانت المفاجأة شديدة نعوذ بالله.

﴿٤٨﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ حينما نبأهم الباري بما كانوا يعملون وقرؤوا صحائف أعمالهم فرأوا سيئات كبيرة وكانوا متهاونين بها لا تشكل عندهم خطورة وهناك ظهر لهم عظمها ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ صار حجة عليهم ذلك الذين كانوا يستهزئون به وهو القرآن والرسول ص كان حجة عليهم يوم القيامة فرأوا نتيجة استهزائهم وإذا بها قد أحاطت بهم.

عِلۡمٍۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةُۢ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ

﴿٤٩﴾ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ هذا في الدنيا ﴿دَعَانَا﴾ على عادته أن يدعو عند الشدة ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ هذه من جهالته بالله أنه إذا خوله الباري: ملّكه نعمة منه من الله لم ينتبه أنها من الله وأنه يجب عليه أن يشكره ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ إنما حصلت عليه ببصيرتي وحنكتي وحسن تدبيري! ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةُۢ﴾ الخير والشر، فإذا أغدق عليه النعمة فهي فتنة له لأنها اختبار لمدى شكره أو كفره ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لجهالتهم وإعراضهم عن الله.

﴿٥٠﴾ ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هؤلاء الأولون مثل قارون قالوها تباهوا بذكائهم وفطنتهم وخبرتهم في كسب الأموال وجمع الدنيا ولكن حينما جاءهم العذاب، ضاعت البصيرة وتلاشت قوتهم أمام عذاب الله فما استطاعوا دفعه ولم يغن عنهم ذلك شيئاً.

﴿٥١﴾ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أصابهم عقاب تمردهم وعنادهم ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين عندك يا رسول الله الذين حولك هم كذلك ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ كأن هذا التهديد بعقوبة عاجلة مثل ما أصاب الأولين لأن هؤلاء تمردوا وعاندوا وأفسدوا فلا بد أن يصيبهم مثل ما أصاب الأولين وهذه سنة الله في الذين خلوا من قبل.

يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟

﴿٥٢﴾ ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ليس يكسب المال بالذكاء والدهاء ولكن الله هو الذي إن شاء بسط الرزق وإن شاء قدره أي نقصه، فإذا جاءت النعمة فهي منه لا دخل لعلم الإنسان وخبرته فيها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ بسط الرزق وتقديره ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا صدق وحق، والواقع دليل عليه، حيث نرى بعض الناس تتسهل له أسباب الرزق وبأدنى سبب نرى أمواله تجتمع وتكثر بغير عناية كبيرة ولا بصيرة، وبعض الناس خبير وحاذق ومدبّر ولكن لا تتيسر له أسباب الرزق فتتعثر خطواته عن بلوغ آماله ولا يحصل إلا على قدر يسير من المال، فهو دليل على أن هناك يداً متصرفة وقدرة مدبرة تبسط وتقدر وهذه من آيات الله.

﴿٥٣﴾ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ هذا ابتداء كلام وهو دعوة إلى التوبة والرجوع إلى الله من قبل الذين قد أسرفوا، سواء المشركين الذين قد أسرفوا ووأدوا البنات وفعلوا جرائم كثيرة، أو غيرهم من مرتكبي الذنوب مهما عظمت فلا يجوز أن يقنطوا من رحمة الله لأنه يقبل التوبة يقبل من رجع إليه ولو كانت الذنوب كثيرة وكبيرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ برحمته حين يرجع إليه لا تمنعه كثرة الذنوب من المغفرة ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كثير المغفرة والرحمة لكن ليس الغفران والرحمة بغير رجوع إليه وتوبة، بل هي مثل قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] ثم فسرها بقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤] فكذلك هنا، ولهذا نراه أردفها بقوله تعالى بعدها مباشرة:

إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى

﴿٥٤﴾ ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ ارجعوا إليه لأجل يغفر لكم الذنوب التي كثرت ولو كانت مثل الجبال ﴿وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ أسلموا له أنفسكم أخلصوها له لا تجعلوا فيها شركاً لغيره ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لأنه إذا قد جاءكم العذاب فلا توبة حينئذٍ ولا إنابة ولا تسليم ينفع، ولا ناصر يدفع.

﴿٥٥﴾ ﴿وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وهو الذي يكون الاهتمام به مؤدياً للتوفيق والهداية لبقية الأعمال كالجهاد في سبيل الله قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[العنكبوت٦٩] وهكذا التوحد وترك التفرق والانفاق في سبيل الله ونحو ذلك ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بياغتكم في حالة وأنتم لا تشعرون بمجيئه.

﴿٥٦﴾ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ احذروا أن تصلوا إلى هذه الحالة التي قد تقولون فيها هذا القول، فاحذروا لئلا تقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أي في شأنه في أمره حين عصيته في الدنيا ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أقر على نفسه بأنه كان مستهزئاً بآيات الله وساخراً منها.

﴿٥٧﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ احذر أن تصل إلى حالة سيئة تقول عندها كذلك، هذا المجرم حين يرى أولئك المؤمنين

كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

الذين اهتدوا بهدى الله واتقوه وسلموا من عذابه ينقلب مدعياً على الله أنه السبب في عدم هدايته مثلهم، لكنه سبحانه قد هداه وجاءه بالآيات الواضحات، وإنما هو الذي عاند وأعرض عنها وأبى أن ينصت أو يفكر أو ينتبه بل مضى في إعراضه وتكبره حتى وصل إلى هذه الحالة والآن يريد أن يكون مع أولئك المهتدين!

﴿٥٨﴾ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ لم يتذكر إلا في هذه الحالة ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ مثل قولهم حين قالوا: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام:٢٧] وكذلك هذا قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً﴾ عودة إلى دار الخيار ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لو تتاح لي العودة مرة واحدة فسوف أعمل حتى أكون من المحسنين، أعلى درجة في التقوى والإنابة.

﴿٥٩﴾ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ هذا رد على قوله: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بلى قد هداك وإنما أنت الذي رفضت هدايته أما هو فقد علمك الطريق ودلك عليها ودعاك إليها وأرسل الرسل وبين لك كل شيء، ولكنك أعرضت وتكبرت.

﴿٦٠﴾ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ هم المشركون وقد يكون من جملتهم المجبرة الذين يقولون: إن الله الذي خلق المعاصي وأوجدها فيهم؛ لأن هذا من أشد الكذب على الله سبحانه، فيعرفون يوم القيامة بهذه العلامة.

وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بمعنى أليست تكفي مقراً لهم؟! بلى.. إن فيها مثوى كافيا في تعذيبهم تنهي كبرهم وعنادهم وتخزيهم، مثل قوله: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ [المجادلة:٨] هي عذاب كافي ومقر مناسب بقدر معاصيهم وتمردهم وتكبرهم عن الحق.

﴿٦١﴾ ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ ينجيهم بموضع نجاتهم وظفرهم بالخير العظيم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أيّ سوء ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لأنه لا يوجد ما يحزنهم ليسوا مثل أهل النار في حزن وبلاء.

﴿٦٢﴾ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الإله لا إله غيره ولا فائدة أو معنى في الرجوع إلى غيره لأنه على كل شيء وكيل يعني: ليس متخلياً عن العالم أو معرضاً عنه، بل هو المدبر لشئون كل شيء.

﴿٦٣﴾ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ﴾ مفاتيح ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وإذا كانت المفاتيح بيده فهو بلا شك المالك لها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الذين دلهم على الخير وبين لهم الحق فرفضوا هدايته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم تعاموا عن معرفة طريق نجاتهم وطريق سعادتهم.

﴿٦٤﴾ ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ قل أفغير الله الذي هو القادر على كل شيء الذي قدر على خلق السموات والأرض وهو على كل شيء وكيل، فكيف تأمرونني أن أعبد غيره وهو لم يخلق ولم يرزق.

أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هذا دلالة على قبح الشرك وكونه ظلماً عظيماً بحيث أنه لو أشرك حتى وهو رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله لو أشرك لحبط عمله، وكذلك الذين من قبله من الرسل والأنبياء لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون تضيع كل أعمالهم التي كانوا يعملونها.

﴿٦٦﴾ ﴿بَلِ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿فَٱعْبُدْ﴾ لا تعبد غيره ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ له على نعمه ومن جملة نعمه الهدى بالكتاب وما أوحى إليك.

﴿٦٧﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ هؤلاء المشركون والكفار من أهل الكتاب وكل من شبهه بخلقه ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ لأنهم يشبهونه بخلقه ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فالعظمة له سبحانه حيث أن الأرض جميعا أي كلها - يمكن أن تكون السبع الأرضين - قبضته يوم القيامة يعني في قبضته تحت تصرفه وولايته دون غيره. ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ واليمين هنا بمعنى القدرة، وهذا كما قال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤] تطوى كما تطوى الورقة ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذه التي جعلوها أندادا له هو منزه عن أن يكون له ند وشريك.

هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ

﴿٦٨﴾ ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا يوم القيامة حين قال: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ نفخ في الصور الصيحة الأولى، وهي تكون لهلاك الناس وغيرهم إلا من شاء الله ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ الصيحة الثانية، وهي قوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦].

﴿٦٩﴾ ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ حين جاء موقف الحساب، موقف العدل والحق حيث لا باطل ولا ظلم ولا فساد وليس للمشركين والمجرمين أي حركة في الباطل ما هنالك سوى هدى وخير وحق وعدل ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ كتاب الأعمال ليشاهد كل عمله، كأنه ـ والله أعلم ـ تعرض الأعمال عرضاً حياً فيشاهد نفسه وهو يعمل الأعمال في الدنيا كما يشاهد التلفزيون، ولا أرى أنه كتاب حروف لأن الحروف تحتاج إلى تعليم بينما كثير من الناس عامة لا يكتبون ولا يقرؤون.

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ لأنه موقف محاكمة بين النبيئين وأممهم والشهداء الذين يشهدون على أعمال من عايشوهم في الدنيا كما قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فالأنبياء يشهدون والأوصياء يشهدون ومن كل أمة شهيد ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ حكم بينهم يوم القيامة في موقف الحكم موقف الحساب موقف السؤال موقف العرض على الله هذا الموقف قضي بين العباد بالحق وهم لا يظلمون لا يظلم أحد ما حصل له من خير أو ثواب فهو له، وما كان عليه من ذنب فلا يزاد عليه مثقال ذرة.

نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا

﴿٧٠﴾ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ ما عملته من الخير يسلم لها لا ينقص عليها شيء ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ سبحانه لأنه عالم الغيب والشهادة علمه محيط لا يُضيِّع شيئاً ولا يُنقّص شيئاً ولا ينسى شيئاً.

﴿٧١﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ بعد أن حكم بينهم سيقوا زمراً: جماعات وأفواجاً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ حينما وصلوا إليها فتحت أبوابها ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ احتج عليهم خزنتها لأن هذا أمر عظيم وورطة كبيرة وقعتم فيها دخول جهنم ألم يكن قد جاءكم إنذار من قبل لتحذروها ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ منذرين بحجة واضحة مقنعة لا مجال للتردد في تصديقه ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حقت عليهم حين كفروا لأنهم رفضوا، والكلمة هذه هي كلمة العذاب: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ..﴾ [هود:١١٩].

﴿٧٢﴾ ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ قال الزبانية لهم ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها في جهنم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ بئس: ما أسوأ هذا المقر مقر المتكبرين، ولكنه موافق للمتكبرين.

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿٧٣﴾ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ وهم كذلك جماعات وإن لم يكونوا مثل جماعات أهل النار بل هم قليل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ لا يصلون إلا وقد فتحت لهم الأبواب من قبل، كما قال: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ﴾ [ص:٥٠] استقبال كريم، لأن فتح الأبواب من قبل وصول الوفد يدل على الحفاوة وكرم الضيافة ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لأنهم قد عرفوهم أنهم أخيار وأنهم إلى خير ﴿طِبْتُمْ﴾ عرفوهم أنهم طيبون منذ أن توفتهم الملائكة طيبين ﴿فَٱدْخُلُوهَا﴾ ادخلوا الجنة ﴿خَٰلِدِينَ﴾ باقين فيها دائماً.

﴿٧٤﴾ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ أهل الجنة يحمدون الله الذي وعدهم الجنة فصدق وعده ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ حيثما أراد أن يسكن هنا أو هنا لديه متسع كبير، ولديه قصور جاهزة أينما أراد أن يسكن ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ هذا الأجر العظيم الكبير للذين تعبوا في الدنيا وصبروا حصل لهم ما يستحقونه.

﴿٧٥﴾ ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ في ذلك اليوم ﴿حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ من حول مكان صدور الوحي، أعتقد أن العرش هو الموضع الذي يصدر عنه الوحي يصدر عنه الأمر والنهي والحكم والسؤال كلها مصدرها

يسمى العرش والملائكة حافون من حوله، مثل ما يحف الحجاج بالكعبة، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ على وظيفتهم تلك يعني حتى وهم في الجنة، لأن قلوبهم تحب الله وتحب ذكره والتسبيح بحمده وفيه نعيمهم وسرورهم ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ بين العالمين كلهم ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على هذا القضاء العادل وعلى هذا الجزاء الوافر لعباده المؤمنين.

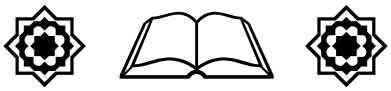

سورة غافر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ **﴿حمٓ﴾ هي حروف مثل: ﴿الم﴾ ﴿المر﴾ وقد مرّ الكلام فيها وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ مثلما قلنا في ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾** [الجاثية:٢] **إلا أنه هنا: ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ لأنه أنزله بعلمه وهو عليم، والعليم لا يخفى عليه شيء حتى يغلط أو ينقص ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ بعض الذنب يكون خطأ أو نسياناً ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ كذلك يقبل التوبة، والتوب: الرجوع إلى الله، فهو يقبله من العبد، ولو كان قد طال به الزمن وهو منهمك في المعاصي.**

﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ الغني المالك الواجد الذي عنده الخير الكثير والنعم الجسام خزائن السموات والأرض بيده ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ هذه جمعت التوحيد وإثبات القيامة وكون أمورها إليه لا إلى غيره، فهذا يرد على المشركين في إثبات الشفعاء، لأن المصير إليه وحده لا إلى غيره.

﴿٤﴾ **﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كفروا بنعمة الله وكفروا بالله ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ ولو تقلبوا الآن في التجارة والسفر آمنين متمكنين فذاك أمد قليل وينتهي، ويصيرون إلى النار.**

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا

﴿٥﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ وكانوا في قوة كذلك ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح، الأحزاب جمع حزب أي جماعة متشايعين متعاونين.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ما كفاهم أن يكفروا به بل اندفعوا ليأخذوه لشدة غضبهم وفرط تعصبهم ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ لكي يبطلوا الحق ويسقطوه حتى لا يبقى له دور في الحياة ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فكذلك هؤلاء سيلقون مصير أولئك لأن منهجهم واحد في الصد عن سبيل الله.

﴿٦﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وكذلك كما عذبناهم في الدنيا نعذبهم في الآخرة ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ كلمة العذاب حقت عليهم، وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩].

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ هؤلاء الملائكة المقربون ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ويبين لنا كيف يستغفرون للذين آمنوا قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى

معنى ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أن رحمته واسعة كما قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] والعرش إذا أثبتنا عرشاً فليس بمعنى (سرير). وإنما عرش بمعنى (مصدر الوحي) حتى ولو كان مكاناً مثل بيت الله في الأرض الكعبة، التي هي قبلة للناس فهو كذلك يكون مصدراً للوحي مقدساً عند الملائكة، وهو يعني: رمز الملك، وتكون عبادتهم لله تتمثل في حمل هذا الرمز.

﴿٨﴾ ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لأنه من عزته وحكمته أن يعز أولياءه ويكرمهم، مثل ما قال في (سورة التوبة) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ..﴾ إلى قوله: ﴿.. إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية:٧١].

﴿٩﴾ ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قهم ما يسوءهم من كل أهوال القيامة وأفزاعها وكل ما يسوء ينجيهم منه ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ يوم القيامة فقد رحمته، يعني: قد وضعت له علامة أنه من أهل الجنة وأنه آمِن.

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ رحمة الله في الآخرة لأنه من يصرف عنه عذاب جهنم فقد رحمه فهو فوز عظيم، لأن فيه النجاة من النار ولو لم يدخل الجنة فضلاً عن أن يجتمع له النجاة من النار والفوز بالجنة.

ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ ينادون كأنه يوم القيامة: لمقت الله: غضبه عليهم في تلك الحال أكبر من مقتهم لأنفسهم حين مقتوا أنفسهم في الآخرة؛ لأنه ﴿يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان:٢٧] من الندم، فكأنه قال: إن الله يمقتكم ويغضب عليكم أكبر من غضبكم على أنفسكم يوم القيامة ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ لا يحتاجون على الكفر دليلاً ولا حجة، وإنما هو هوى يعاندون به الباري الذي خلقهم ورزقهم.

﴿١١﴾ ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ كأنه الموتة الأولى قبل إحيائهم في بطون أمهاتهم كما في قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة٢٨] والموتة الثانية خروج الروح من الجسد والله أعلم ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإحياء بعد الموت، وحياتهم الأولى قبل الموت وكلامهم هذا يفيد أن غضب الله قد أشتد عليهم وهم يريدون أن لا يغضب عليهم لأنه قد أماتهم مرتين وأحياهم مرتين وقد اعترفوا بذنوبهم.

﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ هل هناك أي طريقة للخروج وهذا يشير أنهم قد دخلوا النار وليس في المحشر.

﴿١٢﴾ ﴿ذَٰلِكُم﴾ العذاب وغضب الله عليكم ﴿بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ حين تكفرون بالتوحيد توحيد الله في العبادة بغير حجة وإنما هوى وعناد ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ أما الشرك فأنتم تقبلونه وتؤمنون به من غير حجة ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ فهو العلي الكبير قد حكم بحكم الحق.

يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ

﴿١٣﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ فهو الإله الحق أما تلك الأصنام فهي لا شيء، لا تسمع، ولا تهدي إلى شيء هو سبحانه الذي يهدي إلى الحق ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ المطر ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بآيات الله حتى يعرف الحق ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ من يرجع إلى الله أما من يعاند ويتكبر فلا يتذكر.

﴿١٤﴾ ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ اعبدوه بالدعاء ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مخلصين له العبادة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ لا تبالوا بهم.

﴿١٥﴾ ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ عظيم الشأن ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ ملك الملوك ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ ينزل الملائكة على الرسل بالوحي الذي فيه الهدى والنور بما يحمله من رعاية لشؤون عباده ويلقيه ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ على الأنبياء والمرسلين على من يشاء فالأمر له يختار من يشاء ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ لأهمية الإنذار فهو ينزل الوحي على من يشاء لينذر يوم التلاق يوم القيامة، يوم تتلاقى الأمم وتجتمع.

﴿١٦﴾ ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ﴾ كلهم قد حشروا ما بقي أحد مختبئاً في بطن الأرض قد حشروا وعُرضوا على الله في موقف العرض صفاً ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ لا يخفى على الله منهم أي عمل صالح أو أي زلة قد وقعت منهم في الماضي كل شيء من أمورهم لا يخفى على الله.

لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ هذا سؤال يلقيه عليهم وقت اجتماع العالمين كلهم حين رأوا وتأكدوا أن الحكم له وحده لا شريك له ولا شفيع معه ولا دخل لملك ولا لنبي ولا لشركاء المشركين ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ الملك له وحده الواحد القهار الغالب على أمره القاهر فوق عباده.

﴿١٧﴾ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يوم القيامة ﴿تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ بعملها الصالح أو الطالح ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ لا يظلم أحد بنقص من ثوابه، ولا يظلم أحد بزيادة في عذابه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ لا يغلط على أحد ولا يحتاج إلى أن يفكر في الحساب.

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ﴾ يوم القيامة لأنها آزفة، أي قريبة، قال: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ [النجم:٥٧] بمعنى قربت ﴿إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ﴾ من شدة الخوف قد انتفخت الرية وزاحمت القلب فطلع القلب إلى الحنجرة من شدة الخوف ﴿كَٰظِمِينَ﴾ الخوف الشديد ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ﴾ يعاونهم أو يعطف عليهم والحميم الصديق الخالص ﴿وَلَا شَفِيعٖ﴾ ولا معهم شفيع يشفع لهم ﴿يُطَاعُ﴾ يتدخل ويكون له مشاركة في الملك.

﴿١٩﴾ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ الباري سبحانه يعلم لحظ العين عند الإشارة السريعة بها ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ ما تضمره القلوب ولا يتكلم به اللسان فهو عالم به سبحانه وهو عالم بكل شيء هو قادر على القيامة لأنه عالم بكل شيء من الأشخاص وأجزائهم وأعمالهم كبيرها وصغيرها قديمها وحديثها وهكذا الأمم الأولون كلهم هو عالم بهم.

وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ يحكم بالحق سبحانه بين عباده يوم القيامة ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وهم الذين يدعوهم المشركون ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ لأنهم عاجزون وليس لهم حكم ولا أمر ولا شيء إنما هم عباد مملوكون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ أما شركاؤهم فلا يسمعون ولا يبصرون ولا يحكمون بشيء.

﴿٢١﴾ ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الأمم الذين قبلهم الذين كذبوا رسلهم ولم يصغوا إلى الإنذار ما زالت آثارهم باقية ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ الأمم الماضية هم عبرة لهم يعتبرون بهم ويحذرون مصيراً مثل مصيرهم لأنهم كانوا أهل قوة وما نفعتهم قوتهم ﴿وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كان لهم آثار في الأرض حين كانوا يحرثون ويبنون وينحتون كان لهم آثار بسبب تمكنهم ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ﴾ ما بقي من يقيهم لا أصنامهم ولا غيرها.

﴿٢٢﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والأخذ ﴿بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فقامت الحجة عليهم ﴿فَكَفَرُواْ﴾ والحجة قائمة عليهم وقد أنذرهم وحذرهم ولم يبق لهم عذر ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بذنوبهم عقوبة لهم فهؤلاء ممن بعدهم عليهم أن يعتبروا بهم ﴿إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ سبحانه.

أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ لست أنت بأول رسول ولست بدعا من الرسل قد أرسلنا قبلك موسى بآياتنا وسلطان مبين لأنه كانت له الآيات التسع، وكان له السلطان: هيبة لا يقدرون على الاعتداء عليه وقد قتل منهم نفساً وحين وصل إليهم لم يستطيعوا من الهيبة أن يعتدوا عليه لأنه مرسل بسلطان مبين: بين واضح أن معه هيبة من الله.

﴿٢٤﴾ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ هذا قارون أصله من قوم موسى لكن كان مع ثروته وغناه كأنه مقرب عند فرعون فالرسالة إليهم كلهم ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ما آمنوا بالآيات وهي آيات واضحة من الله قال ـ أي موسى ـ : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

﴿٢٥﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ عاندوا لما جاءهم بالبينات الواضحة التسع ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أبناء من قد آمن معه من (بني إسرائيل) عقاباً لهؤلاء الذين آمنوا.

﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ استبقوهن للخدمة ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ هم يريدون أن يكيدوا الإسلام الدين الذي جاء به موسى ولكن كيدهم في ضياع بطل كيدهم كله.

رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ يزعم أنهم هم الذين منعوه من قتله حين قالوا: (ارجه وأخاه) لكن الأصل أنها هيبة شديدة لموسى حالت دون قتله ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ دليل على أنه يعرفه وأن له كرامة وشأناً عند الله عظيماً حين قال: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ ولتبرير قتله قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ هكذا الطغاة في كل زمان يقلبون الحقائق يجعلون المصلح مفسداً والمفسد مصلحاً.

﴿٢٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لأصحابه لئلا يخافوا ﴿إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لجأت إليه يحفظني ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ مثل فرعون.

﴿٢٨﴾ ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ قال هذا بعدما كان سمع فرعون يقول ذروني أقتل موسى فعزم على أن ينصح قومه، لأنه قد علم أن عاقبة قتله هي هلاكهم حسب سنة الله في الأمم الأولى، فأحب أن ينصحهم: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ كيف تقتلونه لأنه قال: ربه ﴿ٱللَّهُ﴾ لا عليكم من كلمته هذه.

﴿وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ كيف يكون كاذباً وقد جاء بالبينات ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾ وعلى فرض أنه كاذب فليست التبعة عليكم

فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ

﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ حينما تقتلونه وهو صادق فيما جاء به ستهلكون، وقد حاول أن يهوِّن العبارة عليهم بقوله: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ لتسوغ عندهم وتقبل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ يشير بهذا إليهم حين يكون موسى مصيباً فيردون الحق وقد علموه حقاً لأنه جاء بالبينات وردوها، ورفضوا أن يؤمنوا فهم مسرفون كذابون.

﴿٢٩﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يذكرهم بالقوة التي هم فيها ﴿ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ غالبين ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أما الباري فلا نستطيع إن جاءنا عذابه أن يرد عذابه ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ يعني لا أغرر عليكم إنما أنصحكم وأدعوكم إلى شيء عندي أنه الرأي والصواب ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أريد رشدكم لأن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم حين نسلم إليه بني إسرائيل، ثم تبين أن فرعون لم يدعهم لما يرشدهم حين غرقوا في البحر، قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:٧٩].

﴿٣٠﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أولاً تحذيرهم من العذاب العاجل في الدنيا، وأن يعتبروا بمن مضى من الأمم الماضية.

﴿٣١﴾ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ والأمم الذين من بعدهم كلهم أهلكهم الله بسبب تكذيبهم لرسلهم وهمهم بأن يأخذوهم ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ وإنما هم الذين يجرون الوبال على أنفسهم فهم الذين ظلموا أنفسهم.

عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾

﴿٣٢﴾ ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ وهذه الثانية، الأولى التخويف من العذاب العاجل وهذه يخوفهم من العذاب الآجل عذاب الآخرة ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ التناد الذي أخبر به في (سورة الأعراف): ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [آية:٤٤] ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ [آية:٤٨].

﴿٣٣﴾ ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ وهذا يوم القيامة قال: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ [سبأ:٥١] يهمون بالفرار، كأنه حين يؤمر بهم إلى النار، ولكن ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ [القيامة:١٠] ولا من منقذ أو ناصر.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ لا أستطيع أن أهديكم إذا قد أضلكم الباري لأنكم قد تمردتم عليه وعصيتموه وعاندتموه، فاستحققتم الضلال والخذلان.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ وأنتم تعلمون أنه رسول ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ بغير حجة من الله وإنما لا تريدون الرسل ولا تريدون الهدى ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ فلا يهتدي للحق لأنه لا يريد الهدى بل يريد الباطل.

ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ

﴿٣٥﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ هؤلاء يستحقون الضلال والخذلان لأنهم يجادلون في آيات الله لكي يبطلوا الحق بعدما تبين لا لحجة عندهم ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ممقوتاً يَغضَب الله منه والمؤمنون لأنها كبيرة جداً حين يحاول إبطال الحق والهدى والنور الذي فيه الخير للأمم وفيه سعادتها ونجاتها من النار ودخولها الجنة يحاول إبطال الحق وتضييع طريقه ليرجع الناس إلى الباطل ويدخلوا في طاعة الشيطان فيصيرون إلى النار هذه أمور كبيرة، الجدال في آيات الله ليس بالأمر السهل ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٖ﴾ يختم عليه لأنه المتسبب في خذلان نفسه لتكبره وظلمه لعباد الله وتجبره.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحًا﴾ وهذا من تكبره قال لهامان وزيره: ابن لي صرحا قصرا يكون مرتفعاً عالياً ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي الطرق كأنه يتصور أنه إذا طلع وارتفع كثيرا في الهواء فإنه سوف يبلغ إلى طريق في السماء ومنها يصل إلى الله جل وعلا؛ لأنه يعتقد أنه في السماء ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ ليسأله ويتأكد هل فعلاً أنه أرسل موسى؟! متجاهلاً كل الآيات البينات التي دلت على أنه صادق

﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا ۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾

وهذه غاية التكبر ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ يعني: أظن موسى في دعوته الرسالة كاذباً، وقد رد عليه موسى حين قال: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ في باطل لا ينفعه ولا يحصل مقصوده وإنما ضياع، هذا التكبر والكيد ليضل به قومه ويضل في نفسه، زين له هذه الطريقة طريقة التكبر يزعم أنه متمكن وأنه قوي ليضلل على قومه.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ رجع إلى كلام المؤمن الذي نصحهم، فقد وعظهم مواعظ جليلة ونصحهم نصيحة كاملة: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إني أدعوكم إلى الذي ينقذكم من النار.

﴿٣٩﴾ ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ ما هي إلا غرور متاع يتمتع فيها الواحد أمداً يسيراً، المتاع: عبارة عن شيء قليل منتهي ﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ هي دار البقاء التي تستحق أن يعمل لها الواحد بكل جد واجتهاد.

﴿٤٠﴾ ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ بقدرها لا يضاف عليها شيء بغير حق ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ رزق كثير واسع لا ينتهي، وهنا أظهر لهم إيمانه لأن الأمر استدعى أن تنتهي حالة العمل السري وكتمان الإيمان، وأضاف ناصحاً لهم:

تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ

﴿٤١﴾ ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ لأنه يدعوهم إلى الإيمان الذي فيه النجاة من النار إذا آمنوا بموسى واتبعوه ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى الشرك وإلى التكذيب للرسول وفسره بقوله:

﴿٤٢﴾ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ الكفر بالله هنا إما بمعنى معصيته ومباينته، أو بمعنى الكفر بقدرته من حيث التكذيب بالآخرة لأنه متفرع على التكذيب بقدرة الله على البعث ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ الشرك بالله بدون دليل على الذين يجعلونهم مع الله شركاء وإنما من عند أنفسهم، وهذا يقطع حجتهم لأن الحق لله سبحانه الذي خلق ورزق، وكل ما سواه عبيد له والحكم ليس إلا لله ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ أدعوكم إلى الله العزيز الذي يعاقب من عصاه، الغفار الذي يغفر لمن تاب ورجع إليه.

﴿٤٣﴾ ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ من الشرك وطريق النار ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ما ينبغي لأحد أن يدعو إليه، لا يستحق أن يدعا إليه لا في الدنيا ولا في الآخرة، فكله باطل لا ينفع في الدنيا ولا في الآخرة إنما هو عذاب أليم.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة المرد إليه وهو الذي يحكم في عباده أما الشركاء فلا يعملون يوم القيامة أي عمل ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الذين أشركوا بالله مصيرهم النار.

ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي

﴿٤٤﴾ ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ لّما أبلغ لهم في البيان وأكمل لهم النصيحة وهم مصرون على الشرك والتكذيب قال: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡ﴾ يعني يوم القيامة حينما يعاينون الجزاء سيذكرون أنه نصحهم لو اتبعوه لكانت نجاتهم فيه ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأنه قد خاطر بنفسه في هذه الحال حين صارحهم وأعلن بما يدل على إيمانه، وهم كفار مشركون فرد أمره إلى الله إن شاء نجاه وإن شاء رزقه الشهادة فما اختاره الله له فهو راضي به ومفوض إلى الله أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فهو أحكم الحاكمين فما قضاه في أمري فهو الحق والصواب.

﴿٤٥﴾ ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ هذا يدل على أنهم كانوا قد مكروا به، وحاولوا إما قتله أو حبسه فنجاه الباري مما مكروا ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ حين لم يؤمنوا وكذبوا الرسول وعملوا ضده وهموا بأخذه هو وقومه فعذبهم الباري أولا بالغرق المؤدي إلى عذاب الأرواح لأنهم غرقوا وهم مذنبون لم يتوبوا من ذنوبهم فكان أخذا وبيلا يؤديهم إلى العذاب.

﴿٤٦﴾ ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ الثاني أنها تعرض عليها أي على النار أرواحهم الصبح والعشي وهو من بعد الظهر إلى غروب الشمس ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ هذه عاقبتهم لكفرهم وظلمهم.

ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ **اذكر إذ يتحاجون أي آل فرعون فيما بينهم لما صاروا في الآخرة بعد ما كانوا في الدنيا متعاونين على الكفر والباطل صاروا في الآخرة متعادين** ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ **اتبعناكم في الكفر** ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ **تتحملون عنا نصيباً من النار تدفعونه عنا.**

﴿٤٨﴾ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ **نحن وإياكم** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ **ما بقي إلا ما حكم به.**

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ **الذين في النار ليس خاصا بآل فرعون بل عام** ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ **لم يطلبوا إلا يوماً يخفف عنهم.**

﴿٥٠﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ **قال الخزنة** ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ **ألم يأتكم النذير في الدنيا وقد جاءكم بالبينات على أنه الحق أي الإنذار وأن العذاب لا بد منه لمن كذب الرسل وكفر بنعمة الله** ﴿قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ **أنتم** ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ **في ضياع ليس ينفعهم.**

يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّا﴾ الله العظيم لعظمته وعدله وحكمته ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ في الدنيا لأنها رحمة للمؤمنين إذا أنتصر الرسل ومن آمن معهم في الدنيا لأنه إذا نصرهم كانت رحمة لهم يتقوون في دينهم ويتمكنون من نشر هدى الله ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ننصرهم أيضا لأننا ننتقم ممن ظلمهم.

﴿٥٢﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ يوم القيامة حين يعتذرون: إنا كنا في غواية وجهل، وما كنا عارفين ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الطرد من رحمة الله ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنم دار الفاسقين أصبحت مقراً لهم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ في التوراة وفي الصحف قبل ما تنزل التوراة ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة.

﴿٥٤﴾ ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيها هدى وفيها ذكرى تذكرهم الآخرة، وتذكرهم عواقب الأمور، وتعظهم، ففيها ذكرى لأولي الألباب الذين يستعملون عقولهم وهذا يظهر منه أن في التوراة الإنذار بعذاب الآخرة، وليس كما قال في (شرح ابن أبي الحديد) قال ما معناه: إن الله لم يخوفهم بعذاب الآخرة وإنما يرغبهم ـ إذا آمنوا واتقوا ـ بالنصر، وإذا لم يؤمنوا وعصوا ينذرهم بسوء الحال والعقوبات العاجلة قلنا: لا يمكن إلا أن ينذرهم لأنها جهنم مصير شديد، وهذه المواعظ لا تنفع مثل الموعظة بالآخرة وعذاب جهنم، فلا بد أن ينذرهم جهنم كما قال عن أهل النار:

وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ

﴿بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك:٩] وقال: ﴿قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يعني قد جاء النذير لكل أهل النار وإلا فلن يدخلوا النار إذا لم يكن قد أنذرهم.

﴿٥٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ يا رسول الله على القيام بما كلفت ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وعده بالجنة للمؤمنين بك والسعادة العظيمة والثواب الكبير، ووعيده للكفار الذين كفروا بك بعذاب شديد ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ استعداداً للآخرة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ﴾ آخر اليوم من بعد الظهر ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أول اليوم، ويمكن أن يكون التسبيح هذا في الصلاة ومن بعد الصلاة يسبح أول اليوم وفي آخر اليوم مثلا من بعد صلاة الفجر إلى أن تشرق ومن بعد العصر إلى أن تغرب.

﴿٥٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الكفار الذين يجادلون في آيات الله يقولون ما هي إلا أساطير الأولين ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ ليس معهم سلطان يردها ويدل على أنها ليست من الله ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ هذا هو السبب أنّ في صدورهم كبر يأنفون من اتباع الحق وهم لا يبلغون الدرجة التي في نفوسهم، إذ يعتقدون في أنفسهم أنهم أكابر، لكن ليسوا على ما يعتقدون، ولا يصلون إلى ما يعتقدون في أنفسهم من العظمة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من الكبر وما يؤدي إليه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لمن استعاذ به ولمن دعاه؛ لأن هذا من الدعاء وهو الذي يستجيب الدعاء.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ

﴿٥٧﴾ ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ الذي قدر على خلق السموات والأرض كيف لا يقدر على أن يخلقهم يوم القيامة مرة أخرى واحتج عليهم بذلك لأنهم كانوا مقرين أنه الذي خلق السموات والأرض كما قال: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥] ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وفي ذكره خلقهم مع ذكره لخلق السموات والأرض تصغير لهم حين استكبروا ناسب كبرهم أن يصغرهم بذلك.

﴿٥٨﴾ ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ فالمعرض رضي لنفسه بالعمى، والبصير الذي يتفكر ويؤمن أداه نظره وتفكيره إلى الإيمان فلا سواء، ذاك لم يعرف الحق فهو مثل الأعمى، وهذا بصير ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ﴾ كذلك ليسوا سواء فلا بد من الآخرة لكي تجزى كل نفس بما تسعى ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ لم يتفكروا لأجل أن يعرفوا أن الله لا بد أن يجازي كلا بعمله وأنه لا بد من الآخرة.

﴿٥٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ رتبها على الآيتين قبلها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لم يؤمنوا بها لأنهم معرضون عن الآيات فالباري سبحانه لأنه حكيم لا بد من أن يأتي بها لعزته وحكمته.

دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾

﴿٦٠﴾ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ يقول لعباده: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ يدعون الأصنام وهي على الدوام لا تستجيب لهم ولا تنفعهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ الذين يستكبرون عن عبادة الله ليعبدوا أصنامهم سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء.

﴿٦١﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ الله المنعم عليكم ومن نعمه هذه أن جعل الليل لتسكنوا فيه لأنه لولا ذلك لكانت الحياة مجهدة والجسم والدماغ بحاجة لنوم الليل لأن الله جعله للسكنى وهو يختلف كثيراً عن نوم النهار وهكذا لفائدة انتظام حياة الناس الاجتماعية والمعيشية وغيرها من الفوائد، وفي نفس الوقت جعل النهار مبصراً يصلح للعمل والابتغاء من فضله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ منعم بنعم لا تحصى ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعم الله.

﴿٦٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ المنعم عليكم الذي نعمه لا تحصى ﴿رَبُّكُمْ﴾ المالك لكم الذي يستحق أن تعبدوه ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ خلق كل شيء فهو رب كل شيء، وكل شيء ملكه، وكل شيء عبد له ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ من حيث أنه المالك لكل شيء فلا إله إلا هو، وكل شيء عبد له فأنتم عباده ليس لكم إله إلا هو ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ من أين تصرفون عن الحق لأن ما هناك أي حجة ولا شبهة لمن يعبد تلك الأصنام التي يدعونها.

كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا

﴿٦٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ لأنهم يكونون في ضلال وضياع فهم في أمر مريج مضطربين ليس معهم مستند في شيء فأصبحوا عرضة للأفكار المنحرفة تتخطفهم لأنهم غير معتمدين على حجة ولا على دليل ولا على استعمال عقولهم.

﴿٦٤﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ الله لعظمته وقدرته جعل الأرض قرارا لهم ومهدها لتصلح أن تكون سكنى للإنسان وزودها بالماء والأوكسجين والتربة الصالحة للإنبات وللمشي عليها، فهي ممهدة للإنسان معدة له ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفاً فيها الشمس والقمر والنجوم.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فضل الإنسان على الحيوانات في صورته ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الحبوب والفواكه وجعل لنا أرزاقاً كثيرة طيبة كما فضلهم على الحيوانات لأنه مكنهم أن يزرعوا ومكنهم أن يستخرجوا خيرات الأرض في البر والبحر وأن يتسببوا للحصول على الرزق ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ عظم وجل ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم المنعم عليهم فهو الذي يستحق العبادة وليس غيره لأن غيره لم يخلق ولم يرزق ولم ينعم.

﴿٦٥﴾ ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ ليس مثل الأصنام التي هي أحجار ليس لها حياة ولا سمع ولا بصر ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ العبادة لأن

جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا

الدعاء عبادة حينما تدعونه وحده لا تدعون معه غيره، مخلصين له الدين المعاملة التي هي العبادة والطاعة أخلصوها له لا تدينوا لغيره ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فهو المنعم المستحق للحمد والثناء لأنه المنعم أنعم عليكم بالهدى وأنعم عليكم بالرسول والكتاب ودلكم على طريق النجاة وطريق العبادة الخالصة له وحده.

﴿٦٦﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله للمشركين ﴿إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾ لأنه قد جاءني البينات من ربي في القرآن فقد نهاني أن أعبد غيره فلن أعبد إلا هو ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أمرت أن أسلم نفسي وأخلصها لله رب العالمين لا أجعل فيها شركاً لغيره.

﴿٦٧﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ هذا من دلائل قدرته سبحانه أن خلقنا من تراب أوله خلق آدم ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ ذريته من النطفة ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ يخلقها بعد النطفة علقة وبعد العلقة مضغة ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ من بطون أمهاتكم هذه آيات عظيمة، ثم حين تم خلق الإنسان في بطن أمه أخرجه بقدرته وليس لها قدرة أن تخرجه هي ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ يربيكم في الحياة إلى أن تبلغوا القوة تكونون أقوياء حين تبلغون حد التكليف يتكامل العقل وتتكامل القوة.

قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ يعيش الإنسان ـ بعضهم ـ حتى يكون شيخاً فيتحول إلى الضعف بعد القوة، هذه آيات تصرفه فينا منذ أن كنا في بطون أمهاتنا ثم من بعد تكامل قوة الإنسان ثم من بعد تدهور حالته حين يصير شيخا يتصرف فينا سبحانه كما أراد فهو الذي يعيدنا في الآخرة كذلك.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُ﴾ قبل أن يصير شيخاً ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ يجعل لكم العيش في الحياة الدنيا لتبلغوا نهاية الأجل المسمى لكم وهو الموت، أو ليبلغ جنس الإنسان بكله يبلغ أجله فيظل يتناسل إلى قيام الساعة؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام:٢] والأجل المسمى هو القيامة ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ نعقل عجيب خلقنا، وإبداع تصويرنا فهي آيات في أنفسنا إذا تفكرنا فيها نعرف قدرته وعلمه وعظيم إنعامه علينا.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ الذي يحيي يهب الحياة بعد ما كان الإنسان في بطن أمه ليس بشيء ثم يهب له الحياة، ويميت كذلك هو الذي يميت فإذا قدر الله إماتته عجز العالم كله عن إنقاذه من الموت. فلا يموت إلا حينما يقدر له الباري الموت هذه قدرة عظيمة فهو يبين أن أصنامهم ليست بشيء لا تحيي ولا تميت.

﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هذا مثل ضربه لنفهم مدى سهولة الأمر عليه بأنه مثل لو قال للشيء: كن.. فكان، ولا يعني أنه يحتاج إلى قول: كن وإنما متى أراد شيئاً أن يكون كان.

رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى

﴿٦٩﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ **تعجيب منهم لأنهم يجادلون في الحق لا لأجل شبهة لديهم أو لأن معهم حجة بل جهالة وعمى** ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ **من أين يصرفون من الحق إلى الباطل وليس لهم مستند على ما هم عليه ولا يوجد معهم ما يعارض الآيات البينات.**

﴿٧٠﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ **لأنهم جادلوا فيها ثم كذبوا بالكتاب الذي أنزله (الكتاب) اسم لجنس كتب الله التي ينزلها على الرسل، وبما أرسل به الرسل: الوحي كله كذبوا به ونفوا أن يكون من الله** ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ **وعيد بمعنى أنهم سيعلمون أنه صدق بعدما كانوا في الدنيا مكذبين به.**

﴿٧١-٧٢﴾ ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ **الأغلال القيود التي في الأعناق تشد بها أيديهم إلى رقابهم نعوذ بالله** ﴿..وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ..﴾ **كأنها كذلك في الأعناق مع الأغلال، كأن الأغلال حلقة كبيرة تجمع اليدين والعنق، والسلسلة قد تكون في الغل مشدودة ليسحب بها في الحميم كأنه يجعل له حوضاً يستحمّ فيه من الحميم وهو الماء شديد الحرارة،** ﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ **مثلما يسجر الحطب يوقد، يصير وقوداً هو بنفسه يشتعل.**

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ..﴾ **إهانة لهم أين ما كنتم تشركون لم ينفعوكم في هذه الحالة** ﴿قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ **أقروا عندها أنهم ضلوا عنهم وضاعوا ما نفعوهم** ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ **أضربوا وأنكروا عبادة الشركاء بعدما أقروا.**

ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟

﴿٧٥﴾ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذا العقاب الشديد بسبب أنكم كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق لأنهم كانوا يفرحون حينما ينتصر الباطل، كما قال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر:٤٥] أما الفرح بالحق فلا بأس به، والمذموم فرحهم كأنه عبارة عن سرور واطمئنان إلى الباطل ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ في الدنيا المرح سرور يصاحبه نشاط وحركة كما يفعل السكران.

﴿٧٦﴾ ﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ في جهنم ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ما أشنعه مثوى المتكبرين موضع مثواهم أي مقرهم، هؤلاء المتكبرون الذين كانوا يتكبرون عن قبول الحق في الدنيا.

﴿٧٧﴾ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فاصبر يا رسول الله على القيام بما كلفت ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي نعذبهم وأنت موجود ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن نعذبهم ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ هم سيرجعون إلينا ولا بد لهم من الجزاء سواء عذبناهم وأنت موجود أو بعد وفاتك.

﴿٧٨﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ فاقتد بهم في الصبر لأنهم صبروا على دعوة أممهم.

مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بإرادة الباري فهو الذي يجعل الآيات، الدالة على صدق الرسول وهي المعجزات، فليست من عند الرسول نفسه، فالرسول لا يستطيع أن يأتي بها، وليست صناعته وإنما الباري هو من يأتي بالآيات والكفار يطالبون النبي نفسه يقولون: هات لنا آية..﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ نزل العذاب أو الهلاك ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ قضى الله بالحق في أولئك الكفار، أهلكم بالحق لأنهم قد استحقوا ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ وكانت خسارة كبرى عندما جاء أمر الله خسروا حياتهم في الدنيا والآخرة.

﴿٧٩﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذه نعمة عظيمة وفوائد الأنعام متعددة في لحومها، وفي ألبانها، وفي أصوافها وأوبارها، وفي ركوب الإبل منها، فهي نعم كثيرة.

﴿٨٠﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ وقد فصلها في سورة النحل ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ حين تسافرون على الإبل فهي تبلغكم حاجاتكم التي تحتاجون إليها كالتجارة أو غيرها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ الفلك السفائن فسخر له المركب في البر والبحر هذه نعم عظيمة عند ما تسخر للإنسان دون غيره.

﴿٨١﴾ ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ فهذه من نعمه لأن الآيات هدى، وتدعو إلى الهدى ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ لا توجد آية ينكرها المنصف بحيث يراها لا تدل على شيء.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمۡ

﴿٨٢﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ لو اعتبروا بمن قبلهم لأنهم قد ساروا وسافروا ورأوا بعض آثار الأمم الأولى الذين كذبوا رسلهم فأهلكم الله فلو اعتبروا بهم فهم عبرة لهم ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ كانوا أكثر من هؤلاء وأشد قوة من قريش ومَن حولهم فما دفع عنهم ذلك عذاب الله مثل قوم عاد الذين قالوا: من أشد منا قوة فما نفعتهم قوتهم ما أغنى عنهم ما جمعوا من المال ومن الدنيا هلكوا وتركوها.

﴿٨٣﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ كانوا يرون أنهم أذكياء ومثقفون فهم قادرون على الجدال والمعارضة للرسل حين جاءتهم رسلهم بالبينات وكان الأحرى بهم أن ينتهزوا الفرصة لمعرفة الحق ويقتبسوا منهم المعرفة والهدى لأن الرسل قد جاءتهم بما ينجيهم من النار بما يبلغهم السعادة الدائمة، ولكن لسوء تدبيرهم انبروا يعارضون ويجادلون لاغترارهم بما عندهم من العلم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ سبب لهم سخريتهم بالآيات والرسل العذاب العاجل فأحاط بهم هلكوا ولم يجدوا لهم ناصراً ولا معيناً.

﴿٨٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ لّما رأوا العذاب ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ﴾ مثل فرعون حين قال - والأمواج تتقاذفه -: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ [يونس:٩٠] ﴿وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ﴾ قالوها الآن لأنهم مضطرون ملجئون.

يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَاۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿٨٥﴾ ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ **لأنه إنما ألجأتهم رؤية بأس الله أي عذابه** ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ **أنه لا ينفع الإيمان حين يكون ملجأً إليه وذلك عند حلول بأس الله** ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ **قد حلت بهم أفدح الخسائر؛ لأنها انتهت دنياهم وفارقوا كل خير كان معهم في الدنيا ثم صاروا إلى عاقبة أليمة وشقوة مقيمة، وهذه هي الخسارة العظيمة ـ نعوذ بالله منها.**

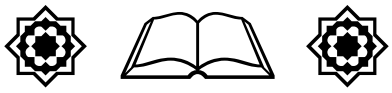

سورة فصلت

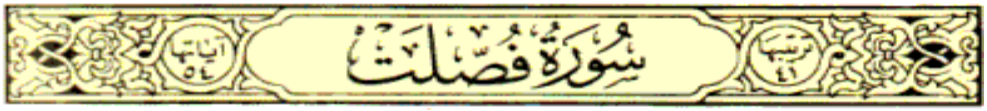

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿حمٓ﴾ حرفان من حروف المعجم التي تأتي في أوائل السور، وقد مر الكلام فيها في أول (سورة البقرة).

﴿٣﴾ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي هذا كتاب فصلت آياته بمعنى بينت ووضحت للسامعين ليفهموها ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ فصلت وجعلت قرآنا عربيا يقرأ باللسان العربي ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لقوم يعلمون يفهمون ويدرون بمضمون الآيات؛ لأنهم مؤمنون بالقرآن، والمؤمنون يهتدون به ويعلمون معناه.

﴿٤﴾ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ هذا القرآن جاء بشيراً، يعني: فصّلناه، وجعلناه مفهوما مفصلا لقوم يعلمون مع كونه ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ بشيراً بالخير والثواب العظيم للمؤمنين، ونذيراً لأعداء الله الظالمين بالنار بالعذاب والجزاء هذا القرآن يبشر وينذر، ولكن أعرض الجهلة عنه بسبب الكبر والحسد والتعصب لآلهتهم ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بسبب الإعراض لا يستمعون له كي يقع في آذانهم موقع المسموع الذي يقبل كأنهم صم.

﴿٥﴾ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ في أغشية وأخبئة ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ لا يصل إليها ما تدعون إليه من توحيد الله وعبادته وحده، وترك الشرك،

إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ

وترك ما وجدنا عليه آباءنا ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ صمم خفيف لا نسمع الذي تقول جيداً ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يحجب عن أفهامنا ما تقول ﴿فَٱعْمَلْ﴾ بما أنت عليه ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ بما نحن عليه يعني هذا إصرار على الكفر والعصيان.

﴿٦﴾ ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لا أدعي أني ملك ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الله الذي يوحي إليه ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ استقيموا إلى ربكم راجعين إليه كأنهم عوج لما كانوا معرضين عن طاعة الله وعن الآيات التي أتى بها ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ من ذنوبكم من الشرك ومما قد وقع منكم من ضلالات ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وعيد لهم بالعذاب.

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأنهم مع شركهم ما قبلوا كتاب الله، ولا قبلوا هدى الله، فلذلك لا خير فيهم لأنهم لا يرجون ثوابا ولا يخافون عقابا، ولهذا لا يؤتون الزكاة لأنها مخصصة للفقير وسد خلته وهم قساة لا رحمة فيهم ولا شفقة، فبالإضافة إلى انعدام الإيمان لديهم انعدمت حتى الإنسانية وهذا منتهى السقوط والدناءة.

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ بسبب أنهم أعرضوا عن آيات الله فحين كذبوا بآيات الله كفروا باليوم الآخر فاجتمعت منهم الجريمتان جريمة الكفر بآيات الله وجريمة الكفر باليوم الآخر.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ هذا في مقابل أولئك المؤمنين الذين عملوا العمل الصالح لهم أجر ما يمن عليهم، بل يقال: هذا جزاء بما كنتم تعملون.

ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ

﴿٩﴾ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ لأن كفرهم بالآخرة يكون مبنياً على استبعاد القدرة على إعادة الأجسام بعد تبددها في الأرض وضياعها بين التراب، فمعناه إذاً: الكفر بقدرة الله، فمن هنا كانوا كافرين بالله سبحانه حين كفروا بقدرته، ومع أنه سبحانه لا يقاس بالمخلوقين في قدرته، فقد خلق الأرض في يومين على ضخامتها وكبرها وهذا دليل على قدرة عظيمة.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ كذلك هنا اجتمعت فيهم جريمتان جريمة إنكار الآخرة وجريمة أنهم جعلوا له أندادا بسبب جهالتهم جعلوا المخلوقات الضعيفة التي لا تنفع ولا تضر أندادا لله سبحانه ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الذي خلق الأرض في يومين القادر على كل شيء هو رب العالمين المالك لهم فليس له أنداد.

﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ عطف على خلق الأرض في يومين، الرواسي هذه الجبال الثابتة الراسخة في أماكنها ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ الأرض جعل فيها ما يحتاج إليه الإنسان في حياته وجهزها له ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ كأنه يعني بذور الحبوب الفواكه يعني أصولها جعلها في الأرض في ذلك الوقت إعداداً للإنسان ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ خلق الجبال في أربعة أيام وخلال هذه الأيام لم يشغله شأن عن شأن ﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ هذه الأيام مستوية لأن الأيام تختلف أحيانا تطول وأحيانا تقصر فهذه أربعة أيام سواء مستوية.

كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ

﴿١١﴾ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ هذا تمثيل للقصد إليها فحين خلق الأرض في يومين خلق السموات في يومين كأنها نفس اليومين اللذين خلق الأرض فيهما والمراد مقدار يومين لأنه لم تكن الشمس والقمر إلا حين خلق الأرض والسماء.

و ﴿ثُمَّ﴾ ليست للترتيب، وإنما للترقي في البداية لم تكن سماء وإنما ماءً، ثم أن الرياح مخضت الماء مخضاً شديداً حتى أزبد، فاحترق الزبد فكان منه الدخان، ومن الدخان هذا خلق السموات، وهذا معنى كلام أمير المؤمنين × كما مر في تفسير (سورة الأنبياء).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ ائتيا بمعنى: كونا، وهذا كأنه تمثيل ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ السموات والأرض الجميع انقاد لقدرته لا معاند لها لأنها قدرة غالبة.

﴿١٢﴾ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ قدرة عظيمة خلق في يومين السبع السموات الواحدة من السبع يمكن أن تكون أكبر من الأرض بكثير ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ خلق فيها الملائكة يعبدونه وهيأها لهم ونظم أمرها ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ السماء السفلى التي هي قريبة منا بالنسبة إلى الست العليا زينها بالنجوم ﴿وَحِفْظًا﴾ من الشياطين لئلا تطلع إلى السماء في أول الأمر ثم لئلا تسترق السمع في وقت رسول الله ص ﴿ذَٰلِكَ﴾ كله خلق الأرض والسموات وتجهيز الأرض بالجبال وحاجات أهلها وتجهيز السموات وتزيينها بالنجوم وإعداد أمرها كل هذا ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ جلّ وعلا.

وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ

﴿١٣﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ بعدما بينا لهم قدرة الله وأصروا على أن يجعلوا له أندادا وعلى إنكار الآخرة ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ مهلكة ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ هذا بمعنى مهلكة وليس يعني التشابه في الشكل والكيفية وإنما في الغاية من حيث أنها مهلكة فقط.

﴿١٤﴾ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ رسل متعددة جاءتهم فكذبوا، قالت لهم الرسل: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ هم يعتقدون أن الله في السماء وإذا أرسل رسولا فلابد أن يكون ملكاً ينزل من عنده، هذا تحكم على الله لا دخل لهم في هذا فهو الذي يرسل من أراد ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ صرحوا بالكفر بما أرسل به الرسل وهو توحيد الله، ثم فصلها فقال:

﴿١٥﴾ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ لأنه ليس لهم حق في أن يستكبروا بسبب قوة أبدانهم ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتروا بقوتهم، ونسوا قوة الله وعزته وقدرته ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ يعني قد علموا أن الله أقوى منهم وأنه الذي خلقهم ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ كلما جاءتهم آية جحدوا بها وأنكروا أنها آية، وقالوا: ما جئتنا ببينة .

عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا

﴿١٦﴾ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ شديدة البرد ﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أيام هلاك وشر ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ نعذبهم فيها في سبع ليال وثمانية أيام ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾هذا العذاب في الدنيا ليس بديلاً عن عذاب الآخرة إنما هذا عذاب عاجل ولهم عذاب آجل.

﴿١٧﴾ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ بالآيات والدلائل على صدق الرسول ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بالإعراض عن الآيات ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ كذلك أخذتهم الرجفة لأنهم كانوا متوقعين أنه إذا جاء عذاب أن يكون رياحاً مثل عاد، وقد اعتقدوا أن بيوتهم المنحوتة في الجبال ستحميهم من الرياح العاتية لكن الباري جاءهم بالرجفة فأهلكتهم، عذاب الهون عذاب الذلة والصغار والإهانة ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بذنوب كثيرة وليس فقط لإنكارهم القيامة واتخاذ الأنداد.

﴿١٨﴾ ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ الذين كانوا آمنوا بنبي الله صالح وكانوا يتقون الله.

﴿١٩﴾ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾هذا تذكير بالآخرة، كأنه بعد أن يحاسبوا في موقف الحساب ويسألوا، يحشرون إلى النار حين يؤمر بهم إليها ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ كأنه بمعنى: يدفعون مع كثرتهم، الوزع: المنع كأنهم يحاولون الفرار حين يساقون إليها يحاول يفر إلى هذا الاتجاه أو ذاك فيوزع: يرد إلى الخط الموصل إلى النار.

جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ

﴿٢٠﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾ جهنم نعوذ بالله ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ معاصيهم في الدنيا - الله أعلم- إذا كانت أصواتاً تصدر عن أسماعهم وأبصارهم وجلودهم قد يكون كذلك، لأنهم قد قالوا: أنطقنا الله .

﴿٢١﴾ ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ كأن العار كان فيها أعظم في الجلود بسبب العورة ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ هو مكنهم من النطق وأمرهم أن ينطقوا بالحق ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ يحتجون عليهم بالخلق أول مرة في الدنيا ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وخلقكم في حال أنكم إليه ترجعون فلم تستعدوا للرجوع إليه.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ﴾ في الدنيا ﴿أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ﴾ الخلل فيكم أنتم الذين فضحتم أنفسكم ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ لفرط جهلكم بالله.

﴿٢٣﴾ ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ أوقعكم في الهلاك ﴿فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ بسبب ظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون.

فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعَتَّبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا

﴿٢٤﴾ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ليس صبراً على أمر سهل بل هو صبر على النار فهو سواء الصبر وعدمه، لأن النار قد صارت ﴿مَثْوًى لَّهُمْ﴾ مقراً لهم ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ وإن يطلبوا من الله أن يجعل لهم التوبة ويقبل منهم التوبة ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعَتَّبِينَ﴾ قال الشرفي في المصابيح: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟﴾ ببنائه للفاعل يطلبون أن يُرضُوا ربهم فَيرضَى عنهم ويقبل العتبى وهي الرجوع لهم إلى ما يحبون ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعَتَّبِينَ﴾ اسم مفعول، أي لم يعطوا العتبى ولم يجابوا إليها.

﴿٢٥﴾ ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ في الدنيا خذلاناً لهم وزيادة في العقوبة لهم على إجرامهم يسلط عليهم قرناء من الشياطين شياطين الإنس والجن ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ زينوا لهم معاصيهم المستقبلة ومعاصيهم الماضية حسّنوها وزينوها لهم حتى لا يرجعوا عنها ولا يتوبوا ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ من جملة من مضى قبلهم من الجن والإنس الذين حقت عليهم كلمة العذاب ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ استحقوا أن تشملهم كلمة العذاب.

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذا من شدة عنادهم قال بعضهم لبعض ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ يريدون أن لا يقع في قلوبهم فيتأثروا به ﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ قولوا فيه الكلام اللغو يعني أي كلام المهم أن تجادلوا فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ حين لا تسمعون له مع زيادة اللغو فيه تقولون ما هو إلا أساطير الأولين ونحو ذلك.

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ **لأنهم لا يملكون حجة وإنما مجرد معاندين ومعارضين لآيات الله ليبطلوا الهدى ويطفئوا نور الله في الأرض فهم يستحقون عذابا شديداً** ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ **العمل الذي كانوا يعملون من المعاصي والجرائم.**

﴿٢٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾ **ذلك الجزاء الشديد هو النار جزاء أعداء الله الذين عملوا ضد حكمه وضد هداه** ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ **دار البقاء في جهنم** ﴿جَزَآءًۢ﴾ **هذا العذاب عذاب النار** ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ **وهم يعلمون بأنها آيات الله وينكرونها وقد علموا أنها آيات الله وأنها من الله.**

﴿٢٩﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ **هكذا يقولون في جهنم لشدة غيظهم على الذين أضلوهم وأوقعوهم في النار.**

﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ **أولئك الذين كانوا يقولون لنا: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه الآن يبحثون عنهم لأجل يجعلوهم تحت أقدامهم من شدة الغيظ عليهم** ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ **في جهنم.**

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا

﴿٣٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هذا عن الطرف الآخر الفائز بالجنة، ليسوا سواء هم والذين كذبوا بآيات الله وجحدوا بها، قالوا ربنا الله عبارة عن التوحيد وعبادته وحده ما نعبد إلا هو لقناعتهم بأنه لا إله إلا هو ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ على عبادة الله وحده ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تبشرهم ويمكن أن يكون هذا عند الموت ويوم القيامة في أولها عند تنزلهم من السماء حينما تتمزق السماء ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ (أن) مفسرة لقول الملائكة: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا في القرآن.

﴿٣١﴾ ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الملائكة يتولون رعاية أولياء الله فهم محبون لهم، وهم يعينونهم في شئونهم بما شاء الله متولون لهم في الحياة الدنيا ولو لم يكونوا يرونهم ولا يسمعونهم ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يوم القيامة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ ما تطلبون لأن معهم خدماً يأتونهم بما يطلبون.

﴿٣٢﴾ ﴿نُزُلًا﴾ النزل كأنه ما يجعل للوافد عند وصوله، وهذا كأنه نزل عند وصولهم إلى الجنة ﴿مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ من الله الغفور الرحيم الذي غفر لهم ذنوبهم ورحمهم هذه الرحمة العظيمة.

﴿٣٣﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا أحسن قولا ممن دعا إلى الله ليرجع الناس إلى الذي خلقهم ورزقهم لأن الخير كله في الرجوع إلى الله

تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا

والطاعة له والتقوى، فلا أحسن قولاً ممن دعا إلى الله، وهذا في مقابل دعوة المشركين الذين يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن...الخ ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ليس دعوة بلا عمل ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أسلمت نفسي لله، أخلصت نفسي لله.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ هناك فرق بين الكلمة الطيبة والإحسان، وبين الإساءة والكلمة الخبيثة المؤذية ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ادفع إساءة غيرك إليك بالتي هي أحسن بالفعلة أو الكلمة التي هي أحسن وليس فقط بالتي هي الحسنى يعني أنها أفضل من غيرها ادفع الإساءة بإحسانك ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ مفاجأة تكون إذا دفعت الإساءة بالتي هي أحسن تتفاجأ بأن الذي بينك وبينه عداوة قد انقلب كأنه ولي: قريب، حميم: صديق خالص.

﴿٣٥﴾ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ هذه الكلمة: الدفع بالتي هي أحسن؛ لأنها شاقة على النفوس ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ الذين صبروا يستطيعون أن يصبروا ويكظموا غيظهم ويدفعوا بالتي هي أحسن ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ يلقنها هذه الكلمة التي هي أحسن ﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ ذو ثواب عظيم في الآخرة نصيب عظيم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ نَزْغُ الشيطان: وساوسه ونخسه في القلب بما يسول من المعاصي مما يفسده على أصحابه، ونَزَغَ الشيطان: ألقى الشر والإغراء وأفسد، وحملك على الغضب لئلا تدفع بالتي هي أحسن.

تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ

والمعنى: أنه يحرضك على أن تقول الكلمة المؤذية﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ فلا ترض له واستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمعك ويعلم إذا استعذت به ورجعت إليه وطلبته أن يجيرك من الشيطان.

﴿٣٧﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ من آيات الله ﴿ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ دلائل قدرته؛ لأنه قد قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم عاد ليذّكر بشيء من آياته الليل والنهار ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ آيات عظيمة الشمس والقمر لأن الشمس تقطع المنازل في سنة والقمر تقطعها في شهر ولهما نفع لكثير من المخلوقات بحيث أن الحياة لا تصلح بدون الشمس والقمر. هذه آيات عظيمة ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ أي خلق الكل الشمس والقمر والنجوم والنيرات كلها وليس يعني الشمس والقمر وحدهن، وهذا مثلما قال لزليخاء: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨] أي كيد النساء فألحق معها غيرها ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فلا تسجدوا إلا له لا تسجدوا لغيره إذا كنتم تعبدونه وحده ولا تعبدون غيره.

﴿٣٨﴾ ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي الكفار من عبادة الله وحده ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فهناك غيرهم يعبدون الله الملائكة المقربون يسبحون لله الليل والنهار يسبحون باستمرار ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ لا يسأمون من ذكر الله وعبادته لا يملون.

ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا

﴿٣٩﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ **من آيات الله سبحانه** ﴿أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً﴾ **عندما يتأخر المطر ويحل الجدب تراها في حالة من الضعف والإنكسار والذلة كأنها ميتة لأنها لا تصلح للإنبات** ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ **كأنها نشطت للإنبات لما عادت فيها الحياة فكأنها ارتاحت ونشطت لتنبت الشجر** ﴿وَرَبَتْ﴾ **تربوا كأنها تزيد** ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ **أحياها بالمطر أبهم المحيي هنا لأن إحياءها دليل على قدرته على إحياء الموتى كما قال:** ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس:٧٩] **حين أبهمه، تعليق على الوصف الذي هو دليل أغنى عن ذكر الفاعل باسمه** ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **لا يعجزه شيء.**

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ **يميلون إلى الباطل ليبطلوا كونها آيات مثل قولهم:** ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف:١٧] **ويمكن أن يكون من جملة الإلحاد في الآيات تحويل معناها إلى معنى غير صحيح، كالذين يجادلون في كرامات الأئمة والمجاهدين التي تدل على فضلهم وأن الله معهم، فإنه إذا حولها وحاول أن يبطل كونها آيات فقد يكون داخلا في قوله:** ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾.

﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ **نحن عالمون بهم وسنعذبهم وهذا قد تضمنه قوله:** ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ **فليختر له العاقل أي الطريقتين** ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ **هذا تهديد ووعيد شديد** ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **سيجازيكم بما يناسب عملكم.**

جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى

﴿٤١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ الذي هو القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ قالوا ليس من عند الله ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ لا ينال.

﴿٤٢﴾ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ هذا معنى عزته، بمعنى أنه لا يأتيه الباطل يدخل عليه من أي جهة لا من قدام ولا من وراء لأنه ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ فهو بصير أحكم آياته.

﴿٤٣﴾ ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ يا رسول الله ﴿إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ﴾ بمعنى أنه ذو مغفرة للمتقين وذو عقاب أليم لأعداء الله المعاندين، فلا مغفرة بدون توبة وعمل صالح، ولا عقاب بدون ذنب.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ مثل التوراة ﴿لَّقَالُواْ﴾ هؤلاء العرب الذين حولك ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ لولا بينت ﴿ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞ﴾ كيف يكون الكلام أعجمياً والمخاطب عربي؟! ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هذا القرآن ﴿هُدٗى﴾ يهديهم إلى طريق الحق ﴿وَشِفَآءٞ﴾ لما في القلب من الريب والشكوك.

ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ لبعدهم عن الإيمان صاروا كأنهم لا يسمعون القرآن لأنهم كارهون للاستماع ومعرضون. ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ لأنهم ينظرون إليه نظرة الجدال والتلبيس والتشكيك فتضيع عليهم الفائدة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ لأن بينهم وبين الحق مسافة بعيدة فإذا دُعُوا إلى الحق كأنهم دُعُوا من مكان بعيد لا يسمعون.

﴿٤٥﴾ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قبلك، التوراة ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ اختلف فيه اليهود كأنهم اختلفوا فيما بينهم يمكن أن السامرية أنكروا صحة التوراة حين رجع بها موسى، لأنهم أتباع السامري .

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف:١٨] فترتب على ذلك أنه يتركهم يعملون في الدنيا ما شاءوا ويؤخر الفصل بينهم ليوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ لحكم بينهم في الدنيا لكن قد اقتضت حكمته أنه يؤخرهم ليوم القيامة ويملأ جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ﴾ من التوراة ﴿مُرِيبٖ﴾ شك مقلق حين لا ينظرون نظراً صحيحاً لأنهم كارهون للحق فكانوا في شك.

﴿٤٦﴾ ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ الجزاء يوم القيامة على هذا ﴿﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ وحده، ومن عمل سيئاً فعلى نفسه لا يضر غيره ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ بل يجازي كلا بما يستحق.

ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ

﴿٤٧﴾ ﴿إِلَيْهِ﴾ لأنه علاّم الغيوب، فإليه ﴿يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ متى تكون وكيف تكون لأنه عالم بها على التفصيل ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ لا يكون شيء من هذه الأشياء إلا بعلمه، خروج الثمرة من كُمِّها مثل التمر حين يخرج من أكمامه هذا لا يكون إلا بعلمه سبحانه لا يخفى عليه شيء والناس قد لا يعلمون أنه قد خرج.

وكذلك حمل الأنثى تعلق وقد يكون الناس لا يعلمون هل هي عالق أم لا بينما الباري عالم كذلك الوضع هو عالم به سبحانه حين تضع كل أنثى ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يوم القيامة يبين لهم أن شركاءهم، ما نفعوهم بشيء فيقول: ماذا عملوا لكم؟ ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمناك وأبلغناك ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يشهد أنهم آلهة لا علاقة ولا صلة لنا بهم نحن بريئون منهم.

﴿٤٨﴾ ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ ضاع ولم ينفعهم ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أيقنوا أنهم للنار وظنوا قرب العذاب وأنهم في القريب العاجل سيقعون فيها، كما قال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] ظنوا أنهم سيصيرون إليها ولم يجدوا منها محيصاً أي ملجأ ومفراً.

﴿٤٩﴾ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ لا يمل من طلب الخير ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ يعتقد ما بقي إلا تلك الحالة، مثلاً: إذا جاء جدب اعتقد أنه لا يأتي مطر، وإذا جاء مرض اعتقد استمراره.

بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى

﴿٥٠﴾ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ هـذا بالنسبة إلى بعض الجهلة من البشر إذا أذاقه الله رحمة منه عافاه بعد المرض أو أنعم عليه بعد الفقر ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أنا أستحقه، ولم يقل كذلك بالنسبة للضراء وهي التي يستحقها لأنه قد عصى الله ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ ينكر القيامة ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يقول ذلك بعد أن صار في خير، ونسي حالة الضراء، فأغتر بالنعمة حتى وصل به طمعه إلى اعتقاد أن الله لن يعذبه في الآخرة، وأن له الحسنى ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يوم القيامة لا ينفعه كبره وكفره.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ﴾ على طبيعة البشر يستغرق في النعمة وكأنه في سكر فيعرض عن ذكر الله وعن طاعته ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تكبر ولا يكتفي بالإعراض فقط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ رجع يدعو الله، يا الله.. يا الله، تلاشى ذلك الكبر.

﴿٥٢﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ﴾ هـذا الإنذار ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وهو من الله يعني أمر عظيم وكبير، لأنهم يدّعون عدم تأكدهم أنه من عند الله فقال لهم: افرضوا أنه من الله، فكيف حينما يكون من الله وقد كفرتم به يعني أمر عظيم وشقاق بعيد.

ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

هذا تنبيه لهم ليحثهم لينظروا ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ الكفر بعد ما تبين أن القرآن من الله و﴿ثُم﴾ للترقي لا للترتيب والمهلة في قوله: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مثل قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [السجدة:٢٢] يعني بعد ما تبين أنها من الله أعرض عنها هذه حالة بعيدة وغريبة ما كان يتصور ولا يليق أن تقع.

﴿٥٣﴾ ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ هؤلاء الكفار ﴿ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ آيات في الآفاق وآيات في أنفسهم قد تكون مصائب تحصل لهم بسبب كفرهم بالله وآياته ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي هذا الإنذار وهذا القرآن، فتكون تلك الآيات في الآفاق وفي الأنفس مؤديةً إلى الإيمان بأنه الحق ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وهو عالم بما يقولون وعالم بأنك قد أنذرتهم وبذلت الجهد في محاولة هدايتهم وعالم بما قد وقع منكم كلكم فهو شهيد على كل شيء سيثيبك على عنايتك وإبلاغك للرسالة، ويعاقبهم على تكذيبهم وإصرارهم على الكفر.

﴿٥٤﴾ ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم لّما لم يعرفوا أنهم سيلاقونه لم يراقبوه، ولا استعدوا للقائه، بل كذبوا بالرسل ولم يبالوا وعندهم أنها قضية بسيطة؛ لعدم إيمانهم بأنهم سيرجعون إلى الله يوم القيامة ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ محيط بأعمالهم وأقوالهم ومحيط بهم، ومحيط بكل شيء، لا يفوته شيء ولا ينسى شيئاً؛ لأنه العليم الخبير سبحانه وتعالى.

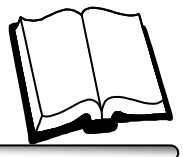

التيسير في التفسير

سورة الشورى

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ هذه الحروف من حروف الهجاء مثل ما تقدم في أوائل السور، ويظهر من بعضها أن الله جعلها ليبين أن القرآن أنزل بألفاظه وحروفه أعني ليس الوحي وحي معنى فقط بحيث أن النبي ص هو الذي يعبر عنه، بل الوحي نزل به تماماً بمعناه وألفاظه وحروفه؛ فلهذا رتب عليه قوله:

﴿٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ﴾ فهو الوحي هكذا بمعنى يوحي إليك وحيا كاملا بألفاظه وحروفه ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والمرسلين كذلك أوحى إليك مثل ما أوحى إليهم ﴿ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ سبحانه لعزته جعل الرسل وأنزل الكتب وأوحى إلى الرسل لهذا المعنى وهو أنه عزيز لا يريد إهمال عباده وهم عباده المملوكون له لا يريد أن يتركهم يتظالمون ويفسدون من دون إنذار ولا تعليم ولا هدى ولا عَرْضٍ على الخير إن هذا ينافي عزته حين يتركهم يفسدون في أرضه من دون إنذارٍ ولا وعد ولا وعيد ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فعزته وحكمته اقتضت أن يوحي إلى الأنبياء والمرسلين يوحي إليهم الوحي الذي فيه الهدى والإنذار والتبشير؛ لأنه يترتب عليه الجزاء يوم القيامة، لأنه لا جزاء للعصاة إلا وقد تقدم الإنذار.

﴿٤﴾ ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ هو المالك لها كلها ما في السموات وما في الأرض هو الإله وحده لا إله غيره ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ العلي علو الشأن والعظمة، فالعلو له، والقدرة والغلبة، والعظمة كذلك له سبحانه؛ لأنه قادر على كل شيء، وعالم بكل شيء، ووسعت رحمته وعلمه كل شيء، هذه عظمة لا يقاس بها عظمة.

تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦

۝٥ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أعتقد والله أعلم أنه لعظمة الله وعلوه أنه يكاد أن يتفطرن خاشعات من خشية الله يتفطرن من فوقهن ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ تذللاً لعظمته يعبدونه سبحانه ويخضعون له ويخشعون له ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأن من في الأرض ما قدر الله حق قدره في معاملتهم لله فالغالب منهم الإعراض والكفر والشرك فهم مظنة أن يتنزل عليهم العذاب.

لكن كأنهم ـ والله أعلم ـ إما أنهم يستغفرون لمن في الأرض لكي لا يعاجلهم الله بالعذاب ولكي يمهلهم ويعرضهم على التوبة ويهدي من يهتدي منهم للتوبة، مثل قول إبراهيم الخليل صلوات الله عليه: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم:٣٦] ومثل قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] فعلى هذا يكون الاستغفار لكل من في الأرض جملة، أو لمن في الأرض أي للمؤمنين منهم مثل ما تقدم في (سورة غافر) ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهي دعوة لعباده إلى مغفرته ورحمته بأن يرجعوا إليه ويؤمنوا به ويتبعوا رسله.

۝٦ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ المشركون الذين اتخذوا من دون الله أولياء ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ليسوا فائتين عليه هم في اليد ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ ما أرسلناك وكيلا عليهم تضطرهم للهدى، ما عليك إلا أن تبلغهم وتنذرهم وتبشر.

وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ

---

٧ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ على هذا الوصف الذي أوحينا إليك ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مكة لأنهم أحوج الناس للهدى، وأصلها مقر نبي الله إسماعيل وفيها الكعبة فهي تستحق أن يكون فيها الهدى والنور ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ عسى أن يهتدوا ويرجعوا، ولأنه لا يوجد معهم من قبل كتاب ولا رسول ﴿وَتُنذِرَ﴾ أي وتنذر البشر كلهم تنذرهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ﴾ يوم القيامة يوم مجتمع الناس يجمعهم الله ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ ما فيه شك ولا ريب، الريب: أصله القلق من الشك.

﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ بعد ما يجتمعون يفصلهم يجعلهم فريقين فريق في الجنة وفريق في السعير فهو يوم عظيم، فهو يستحق الإنذار أن تنذرهم لعلهم يرجعون ويهتدون إذا كانوا سيقبلون الإنذار، وإلا فهو حجة عليهم يوم القيامة.

٨ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ﴾ الجمع كلهم الفريقين ﴿أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ على طريقة واحدة مؤمنين كلهم بأن يضطرهم إلى الإيمان قسراً ﴿وَلَٰكِن﴾ أراد أن يجعلهم في خيار يختارون لأنفسهم ومن هنا ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ الذي هو أهل لأن يهديه الله ويوفقه إلى الإيمان والتوبة ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المعاندون المصرون الذين لم يقبلوا من الله هدى ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يتولى شئونهم ويحسن رعايتهم؛ لأنهم متولون لشركائهم الذين لا ينفعونهم بشيء، والله سبحانه إنما يتولى الصالحين، قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ۝١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

۝٩ ﴿أَمِ﴾ بمعنى (بل) والهمزة (أم) المنقطعة ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ لأنه قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ فقال: بل ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ لكن ليسوا أولياء حقيقة ولو اتخذوهم أولياء؛ لأنه لا فائدة منهم ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ الذي ينبغي أن يتخذ وليا لأنه الذي هو عليم بكل شيء وقادر على كل شيء وكريم ورحيم، وولايته نافعة مفيدة ﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فالولاية له التي ينبغي أن تطلب ويرغب فيها، دون ولاية المشركين التي لا جدوى منها.

۝١٠ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ لأن الملك له والأمر له والنهي له والحكم له وحده لأنه المالك فكل ما اختلفنا فيه فحكمه إلى الله مردود إليه يحكم فيه بما شاء ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ هذا على لسان الرسول ص ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ الذي الحكم له وهو الولي وهو على ما تقدم من الصفات ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ عليه وحده توكلت، وكلت أموري إليه اتخذته وكيلا في أموري ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع وأتوب.

۝١١ ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مخترعها موجدها بعد العدم ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ جعل الزوجين الذكر والأنثى ﴿وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ﴾ كذلك الثمانية الأزواج من الضأن والمعز والبقر والإبل ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ ينشركم في الأرض ويكثركم في الأرض بطريقة التناسل ﴿فِيهِۚ﴾

وَٱلۡأَرۡضِۚ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ

في هذا الزواج، المزاوجة بين الذكر والأنثى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ لا يقاس به شيء من الأصنام ولا غيرها سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل كلام ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ وبصير بكل شيء لا يخفى عليه شيء من المرئيات.

﴿١٢﴾ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ المملكة له مفاتيحها له كأنه تمثيل لأن من يملك المفاتيح فالخزائن له ومعنى هذا أنه المالك للسموات والأرض وما فيهن فالكل عباده، ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ لمن يشاء على ما أراد من الرزق ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ من أحوال المكلفين وغيرها فقد تكون المصلحة للإنسان في بسط الرزق وقد تكون المصلحة له في التقدير، فهو بكل شيء عليم يجعلها على ما تقتضيه الحكمة.

﴿١٣﴾ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ من قبلنا ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ يعني شرع لكم الذي أوحينا إليك وهو ما في القرآن والسنة ﴿وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ كله شرع واحد ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ أقيموا دين الله بإحيائه والعمل به واجتناب الميل إلى الباطل حتى يكون الدين قيما لا عوج فيه ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ فهذان أمران شرعهما للأنبياء جميعاً نبينا ص ومن قبله، وهما إقامة الدين، وترك التفرق فيه، لأنه دين واحد دين الله، فالتفرق فيه يستدعي العدول عن الطريق المستقيم من قبل البعض، ولعل من التفرق في الدين ما عليه الناس اليوم من تعدد المذاهب واختلاف العقائد.

سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من توحيد الله وعبادته وحده أمر عظيم كبير ثقيل عليهم جداً ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يختصه بفيض من رحمته ونعمه يهديه ويبارك فيه ويؤهله ويكمله حتى يصلح للإصطفاء للرسالة، يجعله كأنه جلبه إلى نفسه واصطنعه لنفسه مثل ما قال لموسى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١].

أو يجتبي إليه من يشاء حتى يهتدي لطاعته وعبادته ولو لم يكن رسولا، لكن الأول أظهر لأنه عَطَف عليه قوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ فالاجتباء يكون للرسل، والهداية لهم ولأتباعهم، المنيبين إلى الله باتباع الرسل.

﴿١٤﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ هؤلاء الأولون بنو إسرائيل وغيرهم ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ في التوراة وغيرها قد جاء هم العلم، فصار الحق واضحاً بيناً ولكنهم تفرقوا كأنه بسبب السياسات والطمع في الملك وبسبب تطويع الفكر حتى يصبح تبعا للملك وبما يستقيم به الملك وليس جهلاً بالطريقة لأن الحق واضح ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ مثل ما حدث من معاوية وخروجه وبغيه على الإمام علي × .

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] اقتضت أن يخلي سبيلهم من أراد أن يؤمن ومن أراد أن يكفر ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ لكان حكم بينهم وهم في الدنيا إلى أن يرجعوا عن غيهم ويتبعوا الطريق الصحيح.

وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ الوارثون هم: أهل التوراة الذين جاءوا بعد الأمم المتقدمة الذين لم ينص عليهم من هم، مثلما قال: ﴿يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:٣٠] أي كفار من قبلهم يشبهونهم.

الخلاصة: أن بعض أهل التوراة يشكون في صدق التوراة.

١٥ ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ﴾ لإقامة الدين وترك التفرق، هذا الدين الذي شرعه الله لك ادع إليه ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ استقم على ما أمرك الله في تبليغ الرسالة بما أمرك الله به وفي الدين كله.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ أهواء أهل الكتاب هؤلاء المضلين وغيرهم من المخالفين ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ﴾ القرآن وما قبله من الكتب ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ أمرني الله أن أعدل بينكم، وأمرهم أن يطيعوه، قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

كما أمره أن يقول لهم هكذا: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ﴾ نحن عباده كلنا على كلمة سواء بيننا وبينكم ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾ في طاعة الله ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ﴾ إذا اتبعتم أو عاندتم أعمالكم لكم ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ لا جدال بيننا وبينكم ولا محاججة ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ﴾ يوم القيامة ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مصير الكل وهو الذي سيحكم.

عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ

﴿١٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما نزل القرآن وقامت الحجة على عباد الله وبعد ما استجاب له المؤمنون، وبعد أن تجلى الحق، فهؤلاء الذين يحاجون في الله ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ساقطة باطلة لا تنفعهم يوم القيامة ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ نعوذ بالله من غضبه.

﴿١٧﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الكتب كلها لأنه يطلق هذا الاسم على الكتب جملة لأنه مصدر ﴿بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ إنزاله حق، والميزان كأنه الهدى الذي به بيان العدل، وكيفية العدل، مثل ما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥] ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ ما يدريك يا رسول الله لعل الساعة ـ التي ينكرها الكفار ويستعجلون بها ـ قد اقترب وقتها.

﴿١٨﴾ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ حينما يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] وغيرها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ حذرون خائفون، الإشفاق: حذر يسببه الخوف، ومقتضى هذا أن الذي لا يشفق منها لا يكون مؤمنا لأن الإيمان يكون إيماناً بالجنة وإيماناً بالنار وهذا ما يبعث على الخوف من النار، والرغبة في الجنة، فهذا يستدعي الحذر من النار؛ لأنها عذاب شديد.

ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ الذين يمارون يجادلون ويشككون في الساعة ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ في تيه وغفلة شديدة، فلابد أن يعلم الإنسان أن الساعة حق ليحذر من النار، لأنها أمور عظام عظام، من المفروض أن يسهر الليل، ولا يتهنأ بطعام ولا شراب، ولا يستقر ولا يهدأ له بال من خوف النار، لكن الإنسان في غفلة شديدة، فكيف بمن يشكك فيها لكي يضل الناس حتى لا يؤمنوا بها فهي غواية بعيدة.

﴿١٩﴾ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ ولهذا يجعل لهم الإنذار والتحذير والرسل رحمة بعباده لئلا يدخلوا النار إذا قبلوا وإن عاندوا فهم من جنوا على أنفسهم ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ هو الرزاق سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي القادر على كل شيء، العزيز الغالب الذي لا ينال.

﴿٢٠﴾ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ وهو طاعة الله وتقواه ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ نزده هدى ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ غرضه الدنيا لا يبالي بالآخرة ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نؤته منها ما أردنا من قليل أو كثير مثل ما قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء:١٨] ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لأنه كان يريد الدنيا فما بقي له في الآخرة ثواب.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ حين لم يقبلوا شرع الله ﴿أَمْ﴾ بمعنى بل والهمزة وهو إضراب وسؤال إنكار ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ لا شيء من هذا، لم يشرعوا شيئاً، ولم يقولوا شيئاً.

تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ

وهؤلاء الطغاة الذين يشرعون ما لم يأذن به الله يسمون شركاء حين جعلوهم شركاء لله في الحكم أشركوا بهم لكن لا أعتقد أنه المقصود في الآية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ وهي قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٩] ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جزاء ما ظلموا لا يتركهم في الدنيا يظلمون إلا لأنه سيعذبهم، فلا يصح أن يمكنهم ثم لا يجازيهم لأنه خلاف العدل والحكمة.

﴿٢٢﴾ ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾ هذا يوم القيامة حين تكون النار أمامهم صاروا مشفقين منها لكنهم أصبحوا في حيرة من أمرهم ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمْ﴾ ليس لهم منها مفر، واقع عليهم العذاب ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ هذا في الآخرة نعيم عظيم، وسعادة كبيرة.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في الجنة كأنهم مثل الضيف عنده كما قال: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] لأنه الذي يدبر في الجنة نعيمهم وثوابهم ويتولى رعايتهم وتكريمهم في الجنة ليس فقط يوجد لهم الجنة ويطرحهم فيها ولا دخل له في شأنهم بل مثلما يهتم المضيف بضيفه ويحتفي به ويكرمه وهنا سر عظمة الجنة وسر عظمة رضوان الله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الجنة هي الفضل الكبير الذي يستحق أن يعمل له الإنسان وليس هذه الدنيا الفانية المنتهية.

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ

﴿٢٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ النعيم في الجنة هو ﴿ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ على هذا التبشير للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا أسألكم عليه أجراً ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ المودة لأهل القربى، قرابتي تودونهم؛ لقرباهم مني؛ لأنها أنفع لكم وأقرب إلى هدايتكم، وذو القربى: هم ذرية الرسول ص، والحكمة في ذلك أن الناس إذا أحبوهم اتبعوهم فتعلموا منهم واهتدوا بهداهم، بخلاف ما إذا أبغضوهم فإنهم يتباعدون عنهم ويتنكرون لإرشاداتهم ويتركون الاقتداء بهم، بل قد لا يكونون عارفين لهم شخصياً ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات في مودة ذوي القربى وغيرها ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾ نضاعفها له ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لعباده الراجعين المؤمنين ﴿شَكُورٌ﴾ يجازيهم على عبادتهم وطاعتهم له يشكرهم عليها بكرمه وفضله.

هذا يبين لنا: أن الآية خطاب للمؤمنين حين قال: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ لأن السياق قبلها وبعدها في المؤمنين، فقد قال قبلها: ﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ثم قال بعدها: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا ۚ﴾ فالمعنيون هنا: هم المؤمنون، أما الكفار فليسوا أهلاً لأن يقال لهم: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

وهذا يرد على المخالفين الذين يريدون تحويلها عن أهل البيت (عليهم السلام) لأنهم زعموا أنها في الكفار وقالوا: إن المعنى: لا أسألكم إلا أن تودوني في قرابتي والرحامة التي بيني وبينكم ولا تؤذوني في حال خلافكم لي وكفركم بي.

يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾

قلنا: السياق ينافي هذا القول؛ لأن السياق في المؤمنين وليس في الكفار، ثم أنه لا يصح أن يطلب من الكفار أن يودوه وهم أعظم المبغضين له ص. وقد رددت عليهم في كتابي المسمى (الغارة السريعة) رداً شافياً.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ هذا إضراب ثاني يعني: بل أيقول المشركون هؤلاء الذين قال عنهم أولاً: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ..﴾ أيقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى النبي هذا الشرع الذي قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا..﴾ أم يقولون افترى هذا الكلام على الله كذباً.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ لو افتريت عليه كذبا فإنه يختم على قلبك فلا تفهم شيئاً ولا تدلي بأي كلام باطل ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ وهذا من محو الباطل حينما بين لهم الحقيقة لأنه رقيب عليه في رسالته ولم يرسله إلا وهو يعلم أنه سيبلغ الرسالة ولا يفتري على الله أي كلمة كذباً ﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ﴾ يبينه ويوضحه ويقرره ﴿بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ﴾ بآياته وهداه الذي في كلماته ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فهو الخبير بما من شأنه أن يوضح الحق ويبطل الباطل.

﴿٢٥﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ هو سبحانه يقبل توبة من تاب إليه وهذا دعوة إلى التوبة ليتوبوا إلى الله ويرجعوا إليه ليقبلهم ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعفو عمن تاب ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ العباد كلهم المطيع والعاصي فهو الذي سيجازيهم لأنه عالم بما يفعلون لأن القيامة مبنية على هذا وهو أنه عالم بما يفعلون، وأنه سيغفر للتائبين ويثيب المؤمنين ويعاقب الكفار والمجرمين.

وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ

﴿٢٦﴾ ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ كأن معناه يستجيب إذا طلبوه الهدى وطلبوه الخير يستجيب لهم، يقبل منهم مطلبهم ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ يضاعف لهم الحسنات ويزيدهم من فضله زيادة فوق ما طلبوا ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الذين كفروا بالله، بآياته وكفروا بلقائه بالآخرة لهم عذاب شديد.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لأنه قال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:٣٠] وهنا يبين أنه لو بسط الرزق لعباده كلهم لبغوا في الأرض، وهو واضح في كثير من الناس الذين يبسط لهم في الرزق أنهم يبغون ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ من الرزق ومن الهدى ومن غيره كله بقدر ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ﴾ بضمائرهم وما تكنه قلوبهم وعالم بنياتهم وما الذي يؤثر فيهم ﴿بَصِيرٌ﴾ بعباده وما يؤدي لهدايتهم ولتعليمهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ هذا يبين فضله على عباده فهو ينزل المطر في الوقت الذي كان الناس يستحقون العذاب بسبب القنوط من رحمته، لكنه بكرمه ينزل لهم الغيث لا يمنعه قنوطهم من رحمته ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ بالمطر ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد المحمود في ولايته لعباده.

عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ

﴿٢٩﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ **دلائل قدرته ودلائل فضله** ﴿خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ **في السموات والأرض** ﴿مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ﴾ **يوم القيامة** ﴿إِذَا يَشَآءُ﴾ **حين يشاء** ﴿قَدِيرٞ﴾ **لا يعسر عليه جمعهم مع أنهم كثير وقد مضت أمم تلو أمم، والأمة الحالية، والمستقبلة لكنه قدير سبحانه على جمعهم يوم القيامة.**

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ **كل المصائب لأنه سبحانه كريم ورحيم بعباده لكنهم يتسببون في جلب المصائب على أنفسهم، وقد يكون ذلك تأديباً لهم ليرجعوا** ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ **لا يعاقبهم على كل شيء.**

﴿٣١﴾ ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ **أي العصاة ما هم بفائتين على الله** ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ **يتولى شئونكم ورعايتكم** ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ **وليس لكم نصير من دونه ينصركم من الله لا ملجأ لكم منه ولا منجى.**

﴿٣٢﴾ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ﴾ **ومن آياته السفائن** ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ **يراها الرائي من بعيد كأنها علم راية حينما تكون في حال سيرها وتحركها والرياح تدفعها، والآية فيها هي جريّها على وجه الماء ولهذا قال: الجواري ولم يقل: السفائن هذه آية باعتبار أنه سخر الرياح تسوقها على حسب مراد أهلها، إلى الجهة التي يريدون.**

لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ

﴿٣٣﴾ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ لو شاء أن يسكن الرياح ـ وهي التي تسوقها ولم تكن يوم ذاك محروقات تدفعها ـ لظلت راكدة في النهار حين قال: ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ لأن الظلول يكون في النهار ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ على ظهر الماء، وهذا مشقة شديدة حيث تنقطع بهم السبل وتصهرهم الشمس بحرارتها ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ تسخيرها لتطفو على وجه الماء مع ثقلها، وتسخيرها لتدفعها الرياح لتقطع المسافات البعيدة ﴿لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ للذين يعقلون ويفهمون الآيات ويؤمنون بها، وينتفعون بها، الصبارين على طاعة الله وعلى بلائه، الشاكرين له على نعمه.

﴿٣٤﴾ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ لو أراد أن يوبقهن أي يهلكهن، وليس فقط يظللن رواكد على ظهر البحر ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ بذنوبهم ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ مما يكونون مستحقين له أكثر من إهلاكهن.

﴿٣٥﴾ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾ حين تأتيهم المصيبة هذه يعلمون ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ ليس لهم ملاذ ينفعهم لا شركاؤهم ولا الذين يدّعون أنهم ينفعونهم.

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ هذا ابتداء كلام.. ما أوتيتم في هذه الدنيا ﴿فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ليس إلا متاعاً قليلاً وينتهي لأنه متاع، قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] لأنه قليل بالنسبة إلى الآخرة ولأنه مؤقت محدود ينتهي بالموت.

يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ الثواب العظيم في الآخرة ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ لأنه دائم ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يكلون أمرهم إليه، ويطيعونه في السراء والضراء والأمن والخوف لا يردهم راد من طاعته وتقواه لأنهم متوكلون عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهذه من صفاتهم أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش لأنهم مؤمنون ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ إذا ظُلِمُوا وتمكنوا من العقاب قد يغفرون لمن كان قد ظلمهم في الماضي ليثابوا على الغفران.

﴿٣٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ﴾ اتقوه وأطاعوه في كل ما أمر ونهى في الدين كله ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صلاتهم قيمة كاملة بشروطها وفروضها لا ينقصونها ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ المشترك بينهم ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ لا يستبد به واحد دون واحد بل يتشاورون في أمورهم عامة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الحلال ﴿يُنفِقُونَ﴾ في طاعة الله وفي سبيل الله لأن الإنفاق مهم يترتب عليه الجهاد في سبيل الله الذي فيه عزة المسلمين.

﴿٣٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ هم ينتصرون من الباغي لا يتركونه يفسد في الأرض ويظلم المؤمنين.

﴿٤٠﴾ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ الحق أنه إذا اعتدى عليهم معتدي وأرادوا الاقتصاص منه أن تقابل السيئة بمثلها بقدرها ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ

يبين بهذا أن قوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ لا يعني وجوب ذلك، ولكنه خلق وسجايا المؤمنين العفو عند المقدرة، وفي هذا أجر كبير وفضل عظيم، وكل ذلك لابد أن يكون في إطار المصلحة العامة للإسلام والمسلمين ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلذلك لا بأس بالجزاء والاقتصاص من المعتدي.

﴿٤١﴾ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بعد ما ظلم إذا انتصر على الظالم فما عليه من جناح أو مؤاخذة حين يقتص ممن بغى عليه.

﴿٤٢﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هؤلاء هم الذين قامت عليهم الحجة حجة الله لأنهم ظلموا وبغوا وأفسدوا في الأرض فهم الذين يستحقون أن يعاقبوا أو يقتص منهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿٤٣﴾ ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ عفى عن الضعيف ومن تقتضي المصلحة العفو عنه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ من الأمور المعزومة الشاقة والتي تحتاج إلى عزم وقوة إرادة وصبر، وهي فضيلة عظيمة لا تنال إلا بإرادة قوية مثل ما قال المتنبي:

ذريني أنال ما لا ينال من العلاء فصعب العلا في الصعب والسهل في السهل

﴿٤٤﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بأن يستحق الخذلان وتركه للشيطان يغويه ﴿فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ما بقي له من ولي يتولاه ويحسن رعايته ويهديه،

عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ

وإنما يبقى ألعوبة في أيدي الشياطين ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ في الآخرة حين يرون العذاب حيث جهنم قد تراءت لهم ﴿يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ مرجع إلى دار الخيار حتى نؤمن ونتبع الرسول لكن لا جدوى.

﴿٤٥﴾ ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ على جهنم، لأنها في المحشر تكون قبالهم يرونها ويسمعون صوتها قبل دخولها ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذللين منكسرين ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّ﴾ ينظرون إلى النار من طرف خفي، نظرات خفية لأنه منظر مهيب ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في الآخرة قالوا: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ هذا هو الخسران الذي خسروه ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ دائم لا ينقطع وكلمة ﴿أَلَآ﴾ هي كلمة إعلام لأجل لفت الانتباه لما بعدها لأهميته والظلم من أعظم الذنوب وهو يعم المعاصي كلها، وهذا إعلام للظالمين وتقرير لمصيرهم في الآخرة وهو جهنم نعوذ بالله منها.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة لا يوجد معهم من ينصرهم من دون الله ينجيهم من عذابه ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ يخذله ﴿فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٖ﴾ ليس معه طريق بل قد ضاعت عليه الطريق ولا يجد من يرشده ويدله عليها.

أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا

﴿٤٧﴾ ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم﴾ مادمتم في دار الخيار في هذه الدنيا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يوم القيامة لا أحد يرد أمر الله فيه ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ لا ملجأ لكم تلجئون إليه، ولا من نكير يعترض ويستنكر على دخولكم النار أي ليس هناك من يدافع عنهم.

﴿٤٨﴾ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ رفضوا الاستماع للآيات ولم يقبلوا الإنذار ﴿فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ ليس عليك أنك تحفظهم حتى لا يدخلوا النار ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ تبلغهم ما أوحينا إليك من الإنذار وأسباب الهداية إذا قبلوا ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ طبيعة الإنسان عندما تغمره نعم الله أن يفرح بها ويطمئن إليها ويتخيل أنها كذلك باستمرار ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ إما مرض أو عرض ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يقنط ويئيس من رحمة الله سمى القنوط كفراً لكنه هنا لا يعني أنه كافر جاحد لله.

﴿٤٩﴾ ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلها لله وحده لا شريك له فيها ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ هذه واضحة أنه يجعل له أولاداً إناثاً أو يجعل له أولاداً ذكوراً.

وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿٥٠﴾ ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾ أو يجعل له ذكورا وإناثا معاً ﴿وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ لا يلد أصلاً ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٞ﴾ بكل حالة وبكل شيء، فهو أعلم بما تقتضيه الحكمة في جعل الإناث أو جعل الذكور أو تزويج الذكور والإناث ﴿قَدِيرٞ﴾ على كل شيء، فلهذا يخلق الزوجين الذكر والأنثى في كل زمان لا ينقطعون، لا ينقطع الإناث، ولا ينقطع الذكور حتى يتناسل الإنسان إلى الحد الذي يريده الله له وهو الأجل.

﴿٥١﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ إما بأن يوحي إليه مثل ما أوحى إلى موسى حين سمع الصوت في الشجرة ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ يسمع الصوت فقط، مثل ما قالوا: إن رسول الله ص سمع الوحي من وراء حجاب ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ﴾ إلى المرسل إليه ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ بإذن الله ﴿مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾ والعرب يسمون خفي الدلالة وحياً، حتى سموا الكتابة وحياً، كما قال:

كما ضمن الوحي سلامها.. أي حجارها.

﴿٥٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ بواسطة جبريل × ﴿رُوحٗا﴾ القرآن كله روح؛ لأنه حياة للقلوب وهدى ونور ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ من أمر الله وشأنه ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾ قبل نزوله عليك ﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ لم تكن تعرف

القرآن ولا تدري قبل نزول الوحي ما الإيمان ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ هذا الروح الذي أوحينا إليك من أمرنا القرآن، جعلناه ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ المؤمنين الذين يقبلون الهدى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إذا قبل منك هؤلاء الذين حولك فأنت ستهديهم لأنك تهدي إلى صراط مستقيم.

﴿٥٣﴾ ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هو دين الله فأنت تهدي إليه وهم باتباعهم لك سيهتدون ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ كلها ترجع إليه؛ لأن الأمر له في كل شيء، والحكم له في كل شيء، ومصير العباد إليه في الآخرة، والحكم له يوم القيامة يجازي كلا بعمله.

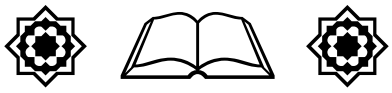

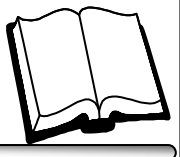

التيسير في التفسير

سورة الزخرف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أقسم الله بالقرآن لأن له شأناً عظيماً وهو آية من آيات الله العظمى، والباري يقسم بآياته الدالة عليه ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ معنى (مبين) بين أنه كتاب واضح، آياته ودلائله مفهومة للناس ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ إن الله الذي أنشأه جعله قرآنا عربيا بلسان العرب ليفهموه ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تعقلون معناه وتفهمونه وتتبعونه.

﴿٤﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كأنها هناك في السماء نسخة من القرآن ﴿لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ﴾ عليٌّ له شأن رفيع لأنه حاكم ومتبع ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه محكم أحكمه الباري.

﴿٥﴾ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ بمعنى: أنه لا بد أن يأتيكم الهدى ونعرضه عليكم حتى ولو كنتم قوما مسرفين لن نترككم لأنكم مسرفون بل لا بد أن نقيم عليكم الحجة.

﴿٦﴾ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أولئك الأولون المسرفون كنا نرسل إليهم الرسول لنقيم عليهم الحجة ونعرض عليهم الهدى.

بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى

﴿٧﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ **لم يمنعه استهزاؤهم بالرسل من متابعة إرسال الرسل.**

﴿٨﴾ ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ **يعني: أشد من هؤلاء الذين في زمن النبي ص** ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ **قوماً جبارين** ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ **القضايا الواقعة على الأولين وقصصهم قد مضوا وصاروا مثلاً للآخرين.**

﴿٩﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ **هؤلاء قريشاً ومن حولهم** ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ **مقرين أن الله الذي خلقهن.**

﴿١٠﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ **مهدها وجهزها للإنسان حتى كأنها مهاد، المهاد أصله الفراش للصبي** ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ **طرقاً** ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ **تتمكنون من السفر من بلاد إلى بلاد لقضاء حاجاتكم ونحو ذلك؛ ولأن كل بلاد تختص بشيء من المنتجات دون الأخرى فيسافر الآخرون لجلبها إلى بلادهم.**

﴿١١﴾ ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ **بقدر أي بمقدار يكون إنزال المطر بحيث لا يضر في نزوله، ويحصل به المقصود يسقي البلاد التي ينزل إليها ويرويهم ويشربوا ولأنعامهم وأموالهم، وهو ينزل** ﴿بِقَدَرٍ﴾**مثل ما ينزل من الغربال** ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ **مثل ما أحيى الأرض بعد موتها كذلك يُحيي الموتى يبعثون بعد الموت.**

خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ

﴿١٢﴾ ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الذي خلق الأصناف كلها أصناف المخلوقات وجعلها أنواعا بقدرته لأنها بفعل فاعل مختار يفعل الشيء كيف ما شاء ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾ السفن في البحر ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ في البر ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ نعمة للإنسان دلائل قدرة الله سبحانه ونعمته الذي هيأها تصلح للركوب والسفر هذه الإبل، و هيأ السفائن بالرياح.

﴿١٣﴾ ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ الإبل والسفائن ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكروا حين أنعم عليكم بهذه التي تركبونها في التنقل لحاجاتكم؛ لأنها نعمة عظيمة تحمدون الله عليها ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ إما الأنعام أو السفن ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ ما كنا له مطيقين الإبل لا نستطيع تسخيرها بقوتنا لنركبها ونسافر عليها لو لم يسخرها الباري وكذلك السفن لا نستطيع أن نسيّرها في البحر لو لم ييسر الباري الرياح تسوقها.

﴿١٤﴾ ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ لأجل يعوض هذه الإبل التي نركبها في الآخرة مقابل ما تحملت في الدنيا من المشقة.

﴿١٥﴾ ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ هؤلاء المشركون جعلوا لله من عباده جزءاً وهو القادر على كل شيء والمنعم عليهم والعالم بكل شيء ما له نديد لكن جعلوا له من عباده جزءاً، لأنهم جعلوا أنفسهم وفيما ذرأ من

ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ

الحرث والأنعام شركا بعضها للأصنام وبعضها لله حين قال: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام:٩٤] ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾ بيّن الكفر للنعمة لأن تلك الأصنام ما خلقت ولا رزقت والباري الخالق الرازق فالكل له.

﴿١٦﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ على ما تقولون، كيف تفكرون حين تقولون: اتخذ له البنات وأنتم يصفيكم بالبنين يهب لكم البنين، لَمَّا زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿١٧﴾ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا﴾ بالبنات التي قد جعلها لله ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾ حين يقولون له: قد ولدت امرأته وجاءت ببنت ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظاً.

﴿١٨﴾ ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ كأنه يقول: هل ولد له من ينشأ في الحلية المرأة التي تنشأ في الحلية ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾ وهي امرأة فيها عيٌّ ليست مثل الرجل في الخصام.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ هذه جهالة كبيرة بغير مستند أصلاً، لم يستحيوا أن يجعلوهم إناثاً بغير مستند، وهم يكرهون الإناث ولا يريدون أن يأتي لهم إناث، ولكنهم يجعلون لله إناثاً.

ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا

﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ هل مكنهم الله أن يعاينوا كيف خلق الملائكة؟ كلا.. لم يروهم ولم يدروا كيف هم ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ حين جعلوهم أناثاً ﴿وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عن هذه الدعوى.

﴿٢٠﴾ ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡ﴾ مقصودهم إن الله تعالى راضي بعبادتهم للشركاء، وإلا لكان منعهم قسراً عن عبادتها، لكن حكمة الله لا تتعدى إقامة الحجة عليهم بالكتاب والرسول وتركهم مخيرين ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ أنه راضي لهم بتلك العبادة للشركاء ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ تخمين وظن.

﴿٢١﴾ ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ هل معهم كتاب من قبل هذا القرآن يستغنون به عن هذا القرآن ويكون فيه ما يدّعون لله من البنات، أو من الأصنام، يعني من الشركاء

﴿٢٢﴾ ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ هذه حجتهم أنهم قالوا وجدنا آباءنا على أمة على طريقة مأمومة مقصودة ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ نحن سوف نتبعهم ونقتدي بهم وهذه ليست حجة وإنما تقليد.

﴿٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ الأمم الأولون كذلك

وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا

لا تكون معهم حجة على باطلهم، وإنما بسبب الترف الذي يستدعي أن يعارضوا أنبياءهم ويكذبوهم لا يحتجون إلا بأنهم وجدوا آباءهم على طريقة وأنهم بعدهم متبعون لهم.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ هل ستصرون على تقليدهم في الشرك والباطل بينما أنا جئتكم بالهدى من الله ربكم فكيف تتبعونهم وتتركون الهدى الذي من الله الذي هو (أهدى) هذا اسم التفضيل لا يشترط فيه المشاركة، هذا هو الهدى وذاك هو الباطل ليس فيه شيء من الهدى، واسم التفضيل قد يكون فيه المشاركة وزيادة، وقد يكون فيه الزيادة خاصة بدون مشاركة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ من التوحيد وعبادة الله وحده والقرآن فنحن بالكل ﴿..كَٰفِرُونَ * فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ..﴾ من الأولين والآخرين، سننتقم منهم إذا لم يؤمنوا ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا رسول الله ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لم نهملهم، ولم نتركهم يكذبون ويتمردون على الله ويهمون بأنبيائهم، بل نأخذهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ وهذا حجة على العرب المشركين لأنهم ينتمون إليه ويدعي بعضهم أنهم على ملته وهو غلط؛ لأن إبراهيم قال لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ من شركائكم.

كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ

﴿٢٧﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الله الذي خلقني المالك لي هو ربي فأنا سأعبده وحده ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ لعبادته.

﴿٢٨﴾ ﴿وَجَعَلَهَا﴾ التوحيد وإخلاص العبادة لله والبراءة من الشرك وأهله ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إبراهيم أوصى ذريته بذلك وذريته أوصوا من بعدهم.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين حول النبي ص من الكفار ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ من قبلهم أنعمت عليهم فكان لهم رحلة الشتاء والصيف، يأكلون ويتنعمون آمنين لحرمة وقداسة الكعبة ﴿..حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ * وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ..﴾ بعدما قد أنعمنا عليهم في الماضي إلى الآن ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ القرآن ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جحدوا آيات الله.

﴿٣١﴾ ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ لأنهم كانوا يحتقرون النبي ص لأنه فقير، وليس الكمال والشرف عندهم إلا بالمادة وبالسطوة مهما تحلى بالأخلاق الكريمة والصفات الشريفة فلا يعتبرون ذلك كمالا، فاقترحوا أن تكون الرسالة لغيره من كبار القوم إما من مكة أو من الطائف.

بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ

﴿٣٢﴾ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ هذا إنكار عليهم أي لا يحق لهم التدخل في تحديد من يرسل الله هو الذي يختار له رسولا كيف يشاء، وذلك فضول منهم ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كما أنه الذي قسم بينهم معيشتهم فهناك منهم الأغنياء وهناك الفقراء قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا فكذلك هو الذي يتولى وضع الرسالة في محلها.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ رفعنا بعضهم بالمال والقوة ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ يستقوي الظالم على الضعيف منهم يسخره بجعله يخدمه مجانا استرضاء له وتقرباً إليه لأنه عظيم في نظره لما يملكه من المال والثروة، فهم لا يستحقون الكرامة لأنهم كفار لهذا تركهم الباري هكذا القوي يسخر الضعيف.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الرحمة التي أنت فيها يا رسول الله وفي أسبابها وطريقتها أفضل مما يجمعون من الدنيا مما يعدونه شرفا وعظمة.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يبين أن المال لا قيمة له ولا كرامة له عند الله فالغني ليس له عند الله مزية، بل لو لا أن الناس سيفسدون وينحرفون كلهم لجعل للكفار لبيوتهم في الدنيا ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ مصاعد أو نحوها تكون من فضة يصعدون من فوقها.

﴿٣٤﴾ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن

﴿٣٤﴾ ﴿وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أبوابا كذلك من الفضة وسررا من الفضة، عليها يتكئون.

﴿٣٥﴾ ﴿وَزُخۡرُفٗا﴾ لجعلنا لهم زخرفاً زينة عظيمة، أو زخرفاً بمعنى الذهب ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ ليس إلا متاع الحياة الدنيا لا قيمة له عند الله ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ في الجنة عند ربك حيث يكون المتقون ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] فهي مخصصة للمتقين، للذين يستحقونها وهي أشرف وأفضل من كل نعيم.

﴿٣٦﴾ ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يتعامى عنه، شبّهه بالذي فيه عشوة لا يبصر جيداً ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾ عقوبة له نرسل الشيطان ونسلطه عليه ولا نمنعه من التسلط عليه، كما يسلط الذئب على الغنم ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ ملازم له حتى يغويه.

﴿٣٧﴾ ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الشياطين يصدونهم عن السبيل عن سبيل الله عن طريق الحق ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ يعتقدون أنهم سائرون في الطريق الصحيح، والواقع عكس ذلك.

﴿٣٨﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يوم القيامة هو وقرينه ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ هكذا كانت النتيجة لما شاهد العذاب ورأى أنه قد أغواه

يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن

وسبّب له عذاب جهنم، فقال لقرينه الذي كان في الدنيا قريناً سيئاً: يا ليت بيني وبينك بعد ما بين المشرقين مثل ما بين المشرق والمغرب ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أنت.. قرين سيء أورده جهنم.

﴿٣٩﴾ ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يوم القيامة ليس بنافع لهم سيعذبون كلهم لا أحد ينقص من عذاب أحد كل له عذابه وافياً.

﴿٤٠﴾ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لأنهم كالصم والعمي لا يقبلون منك أي نصيحة ولا تستطيع أن تهديهم يا رسول الله.

﴿٤١﴾ ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ الباري سينتقم منهم حتى ولو بعد وفاة رسول الله ص.

﴿٤٢﴾ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ يعذبهم في حياة الرسول ص ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ هو مقتدر يعاقبهم في حياته أو بعد وفاته.

﴿٤٣﴾ ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ استمسك بالقرآن وبكل ما أوحى الله إليك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لأنك في الطريق الواضح، فاثبت عليه.

قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ المقصود القرآن ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ القرآن شرف ورفعة لهم هذا الوحي الذي أوحى الله إلى رسوله لأنهم يخلّفون الهدى لمن بعدهم، ومن بعدهم يخلفونه كذلك لمن بعدهم فكان شرفا لهم عظيماً.

﴿٤٥﴾ ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ بمعنى: أن الرسل كلهم كانوا يدينون بعقيدة التوحيد لله والدعوة إلى عبادته وحده ولا يوجد رسول يدعو إلى الشرك.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ التسع ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ وزرائه وأعوانه من الكبراء ﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول لهم أنا رسول الله المالك للعالمين كلهم وهو المالك لكم أنتم وأنا رسوله.

﴿٤٧﴾ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ كذبوا بكونها آيات وادعوا أنها سحر وصاروا يضحكون منها استهزاء بها وسخرية.

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ لا تأتي الآية الثانية إلا وهي أكبر من الأولى آيات عظيمة ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وبالسنين ونقص من الثمرات ليرجعوا إلى الله ولم يجد نفعاً فيهم.

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لّما جاءهم العذاب وعدوه بأنهم سيهتدون إذا كشفه عنهم ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ يتصورون أن معه دعاء

عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ

معينا قد علمه الله به، به يستجيب له في أي لحظة ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ إذا كشفت عنا هذا العذاب.

﴿٥٠﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ نكثوا العهد، وأخلفوا الوعد فلم يؤمنوا بعد كشف العذاب.

﴿٥١﴾ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ استمر في طغيانه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يريد أنه أفضل من موسى، لأنه كان المقياس عنده هو المادة، وأضل قومه حينما حول أفكارهم إلى المادة، ومضى يقارن بين نفسه وما يملكه من الدنيا وبين موسى. موسى ذلك الرجل المسكين لأنه ظهر كما قيل وكانت عليه جبة من الصوف وفي يده عصا مثل البدوي، فكيف يتساوى هو مع فرعون الذي له ملك مصر، وهذه الأنهار في مصر تجري من تحته كأنه النيل وجداول ماء ربما كانت هناك في مصر ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني أنني في ملك عظيم، أفلا أكون أشرف منه لأن الشرف عنده بالمادة.

﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ﴾ بمعنى (بل) والهمزة إضراب ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أنا أفضل من هذا الذي هو مهين يقصد موسى × ، يريد أن الفقر منقصة وضعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ لأنه كان في لسانه رته أي عقدة لا يطاوعه لسانه في الكلام حسب مراده، لكن كان معه أخوه هارون يعبر ويوضح إذا احتاجوا للتوضيح.

أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا

﴿٥٣﴾ ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ هلا كان معه ـ إذا كان رسولا صادقاً ـ أساور من ذهب تزين معصمه، أو تأتي الملائكة معه يشهدون له ويقولون إنه رسول من الله.

﴿٥٤﴾ ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ جعل فيهم الخفة خفة العقل بتغريره عليهم بهذا الكلام حصل فيهم الخفة والخفة تكون عبارة عن خفة العقل ﴿فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ كانوا خبثه وفجرة من قبل.

﴿٥٥﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ فلما أغضبونا بتمردهم على الله، ومحاولتهم أن يقضوا على موسى ومن معه ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أغرقناهم في اليم كلهم عجلنا لهم العقوبة.

﴿٥٦﴾ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ يعتبر بهم من بعدهم ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ مثلاً يضرب لمن بعدهم كذلك يكونون آية لمن بعدهم.

﴿٥٧﴾ ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ جعله الله آية ومثلاً لبني إسرائيل للدلالة على قدرة الله سبحانه في الخلق والإنشاء؛ لأنه وجد من غير أب ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ من هذا المثل ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضم الصاد: يعرضون عن هذه الآية أو ﴿يَصِدُّونَ﴾ بالكسر: من الضجيج.

﴿٥٨﴾ ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي عيسى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ لأنه إذا قال عيسى خير لزمه ـ حسب زعمهم ـ الإقرار بإلوهية أصنامهم مشاركة لعيسى بزعمهم ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أهل جدل وخصام.

عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى

﴿٥٩﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ ليس إلهاً ولا رباً بل هو عبد ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالهداية التي هي أكبر النعم ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في الدلالة على قدرة الله حين خلقه من غير أب.

﴿٦٠﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ بدلاً عنكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ يخلفونكم ونرسل إليهم ملكاً من جنسهم؛ لأنهم استغربوا حينما أرسل الله إليهم رسولاً من البشر من جنسهم، واقترحوا أن يكون ملكاً.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ القرآن ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ لأنه بين أنها كائنة وأنه لا بد منها وبين ما يكون فيها من الجزاء والحساب فأعطى عنها معلومات كافية ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ لا تشكوا في القيامة ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ اتبعوا رسول الله ص هذا على لسانه ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ اتباع القرآن واتباع الرسول.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لا ترضوا للشيطان أن يصدكم ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ عدو بيّن العداوة لا يريد إلا أن تدخلوا النار.

﴿٦٣﴾ ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لما جاء بالبينات الواضحة الدالة على أنه رسول من الله ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وقال لهم:

وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ

﴿٦٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ **على ما أمره الله أن يقول حين قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾** [المائدة:١١٧].

﴿٦٥﴾ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ **من بين بني إسرائيل كان فيهم أحزاب مختلفة كل فرقة على طريقة يتعصبون لها ويدعون إليها ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر والتكذيب لعيسى وأمه ويلهم ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وعيد لهم بالعذاب يوم القيامة.**

﴿٦٦﴾ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ **كأنه قد رجع الكلام إلى زمن النبي ص بعد ما جاء التوضيح لهم في هذه السورة وغيرها ولم يقبلوا صاروا وكأنهم منتظرين القيامة ليتأكدوا هل هي حقيقة أم لا وعندما تقوم القيامة سيتأكدون من أنها صدق وحق!**

﴿٦٧﴾ ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ **الذين كانوا في الدنيا أخلاء في يوم القيامة يصيرون ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ كما قال إبراهيم: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾** [العنكبوت:٢٥] **﴿إِلا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أما هم فتبقى أخوتهم لا تضعف ولا تتغير.**

﴿٦٨﴾ ﴿يَٰعِبَادِ﴾ **خطاب للمتقين يوم القيامة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ صاروا آمنين مطمئنين.**

أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا

﴿٦٩﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ هذا تفسير للمتقين الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وصدقوا بأنها آيات من الله ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ أسلموا أنفسهم لله لم يجعلوا فيها شركاً لغيره.. يقال لهم:

﴿٧٠﴾ ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ أزواجهم اللاتي كن معهم في الدنيا إذا كن صالحات ﴿تُحْبَرُونَ﴾ تسرون سرورا يظهر على الوجوه.

﴿٧١﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ بصحاف الفواكه ونحوها من النعيم مما يشتهون ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ كذلك من ذهب ﴿وَفِيهَا﴾ في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ معدّ لهؤلاء المتقين ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ برؤيته والنظر إليه لذة للعيون مناظر جميلة جداً ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون دائماً ولا يفنى نعيمها ولا تفنون.

﴿٧٢﴾ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ هي ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقال لهم: إن هذه الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون، أي إنها جزاء لكم بما كنتم تعملون فتزداد سعادتهم عندما يشعرون بأنها جُعلت جزاء لعملهم في الدنيا.

﴿٧٣﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ أنواع كثيرة ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ هذا يحقق أنهم متنعمون بأبدانهم مع الأرواح مثل ما كانوا في الدنيا وفيه رد على اليهود الذين قالوا: لا تتنعم في الآخرة إلا الأرواح.

يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ

﴿٧٤﴾ ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ هذا يوم القيامة مقابل ما وضحه من حال المتقين وما صاروا إليه من النعيم العظيم، فالمجرمون على الضد من ذلك وهم أهل الجرائم المعاصي الكبائر في عذاب جهنم خالدون باقون فيه أبداً.

﴿٧٥﴾ ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ فضلا عن انقطاعه بل لا يفتر لا يخفف ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ حائرون سكوت حيرة غالب على أحوالهم لأنه ليس معهم حجة ولا ما يقولون وإنما عذاب شديد نعوذ بالله.

﴿٧٦﴾ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ لأنهم كفروا بنعمة الله أجرموا جرائم كبيرة وهي ظلم عظيم خلاف العدل بل حيف وجور في معاملتهم لله، وكذلك ظلموا أنفسهم لما جروا عليها هذا العذاب الشديد، وهذه الآية وأمثالها من القرآن كثير يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١] في سور متعددة، فهي حجة على المجبرة من أعظم الحجج؛ لأنه ليس هنا إلا إثبات ونفي، فلو لم يكونوا هم الذين أوجدوا المعاصي وفعلوها باختيارهم لما كانوا هم الظالمين لأنه يكون هو الذي خلقها ـ حسب زعم المجبرة ـ فإذا كان هو الذي خلقها فلا يمكن أن يقول إنهم هم الظالمون.

﴿٧٧﴾ ﴿وَنَادَوْا﴾ في النار أهلها نادوا ﴿يَا مَالِكُ﴾ خازن النار ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ اطلب منه أن يقضي علينا يميتنا ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ إنكم باقون في العذاب يرفض طلبهم يخبرهم أنهم باقون وأنه لا سماع لهذا الكلام.

جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟

﴿٧٨﴾ ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ رجع الكلام يخاطب قريشاً ومن معهم ﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الإنذار لأعداء الله، والتبشير لأولياء الله ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ لم تصغوا للحق حتى تعلموا أنه حق.

﴿٧٩﴾ ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ بل كادوا كيداً للإسلام وللرسول ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ فإنا نكيد لهم كيداً أعظم من كيدهم.

﴿٨٠﴾ ﴿أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ مما يقولونه في الرسول وفي آيات الله هؤلاء المكذبون الكفار ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ فيما بينهم حين يتناجون في مؤامراتهم ضد الرسول ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ونعلم بكل شيء ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما يتلفظون به.

﴿٨١﴾ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ لأني عابد لله وحده فعبادة الله هي أولى من عبادة الولد، يعني حتى لو كان له ولد فلست مخطئاً بعبادتي لله بل أنا أول العابدين السابق إلى العبادة حين أعبد الله وحده.

﴿٨٢﴾ ﴿سُبْحَـٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا تنزيه لله عن أن يكون له ولد لأنه رب من في السموات ومن في الأرض وهو رب السموات والأرض مالك لها ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ رب الملك ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما يقولون وينسبون له من الولد.

وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ

﴿٨٣﴾ ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ يقول لرسول الله ص اتركهم يخوضوا ويلعبوا بمعنى لست أنت الوكيل عليهم تكمم أفواههم حتى لا يقولوا شيئا، اتركهم وشأنهم في الخوض في الآيات وتناجيهم بالباطل وتلاعبهم وغفلتهم عن الآخرة ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يوم القيامة يوم الجزاء.

﴿٨٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَـٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾ الله سبحانه كل أهل السموات يدعونه إلهاً، وأهل الأرض يدعونه إلهاً، لا ينكرون أنه إله وإنما يدعي بعضهم شريكاً له ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أموره مبنية على الحكمة ليس فيها ما هو مخالف للحكمة ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ لا يخفى عليه شيء فدعواهم أنه راضي لهم بالشرك غير صحيحة؛ لأنها تنافي الحكمة.

﴿٨٥﴾ ﴿وَتَبَارَكَ﴾ عظم وجل عن أن يكون له نديد من هذه المخلوقات الضعيفة كما يدعي المشركون ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه المالك للسموات والأرض فالأمر والنهي والولاية والتصرف له فيها وحده دون غيره ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ما بين السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم وكل ما بينهما ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مع سعة ملكه هناك سعة علمه بكل شيء في الكون حتى الحبة في ظلمات الأرض، وكذلك عالم سبحانه بالقيامة متى تكون وعالم بكل تفاصيلها ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإليه وحده ترجعون يوم القيامة لا ترجعون إلى غيره فلا نديد له ولا شريك.

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

﴿٨٦﴾ ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ شركاؤهم الذين يدعونهم من دون الله لا يملكون الشفاعة ليسوا إلا عباداً مثل غيرهم مملوكين لا حق لهم أن يشفعوا عند الله ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى: لكن، أي سيكون هناك يوم القيامة من يشهد عليهم بما رأوهم يعملونه من الأعمال السيئة، مثل قول عيسى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة:١١٧] وكذا شهادة الملائكة، الذين قال عنهم: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الإنفطار:١١-١٢].

﴿٨٧﴾ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ كذلك هؤلاء الذين يجعلون لله شركاء لئن سألتهم من خلقهم لقالوا: الله الذي خلقهم، فإذا كان هو الذي خلقهم فهو المالك لهم فلماذا يجعلون لغيره فيهم شركاً وهم لم يخلقوا حتى جزءا منهم فهذا باطل لا معنى له ولا أصل ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ فمن أين يؤفكون وقد أقروا أن الله الذي خلقهم ثم يجعلون لغيره شركاً فيهم.

﴿٨٨﴾ ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ أرى أنه عطف على قوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فهو يملك أن يقول: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ يشهد عليهم أنهم ما كانوا يؤمنون وهو عكس الشفاعة ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ وبقيله ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ وعلى قراءة الفتح ـ يكون المعنى: إلا من شهد فهو لا يملك إلا القول: يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

﴿٨٩﴾ ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ قد تمت الحجة عليهم تم البيان الواضح الكافي فما بقي إلا الإعراض عنهم ﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞ﴾ لا تقسو عليهم، كأن هذا كان في بداية البعثة في مكة والوضع حينئذ يستدعي اللين معهم ولم تكن الحرب قد قامت بينه وبينهم ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ فسوف يعلمون بالحقائق كلها سوف تنكشف يوم القيامة ويتبين لهم من هو المحق ومن هو المبطل ومن هو الصادق ومن هو الكاذب.

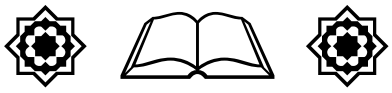

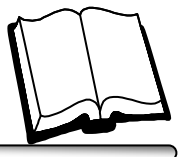

التيسير في التفسير

سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ هذا قسم بالكتاب المبين الكتاب هو القرآن، باعتبار أنه يُكتب لتتوارثه الأجيال ﴿الْمُبِينِ﴾ يعني معانيه بينه واضحة.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ هذا جواب القسم ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ إن الله أنزله ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ وهي ليلة القدر فيها بركات ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر:٣] ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ إن هذا شأننا وسنتنا الإنذار للأمم وليس أن نهملهم ونتركهم بغير نذير فمن هنا نزلنا الكتاب للإنذار.

﴿٤﴾ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾ هذا وصف لليلة القدر: فيها يفرق يفصل يُبيَّن ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾ من تدبير الباري لشئون الخلق من الأرزاق والآجال ونحو ذلك كأنه للسنة حتى تأتي ليلة القدر في السنة المقبلة. وقوله: ﴿حَكِيمٍ﴾ على ما اقتضته الحكمة.

﴿٥﴾ ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ هذا القرآن من أمور الله ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ هكذا سنتنا إرسال الرسل فأنزلنا القرآن إليك لإرسالك إلى أمتك.

﴿٦﴾ ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ انظر كيف خاطب الرسول ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أنزلناه رحمة للأمة للعالمين مثل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فإنزال القرآن عليه رحمة لأنه هدى ونور، وإذا اتبعه الناس صلحت دنياهم وسيدخلون الجنة وينجون من النار.

بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا

﴿٧﴾ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا ابتداء كلام في توحيد الله سبحانه أي الله سبحانه رب السموات والأرض مالكها ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ هو مالك ما بينهما ما بين السموات والأرض ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ تفكرون بعقولكم وتوقنون لأن فيها آيات بينات تدل على الباري وعلى أنه ربهم رب العالمين.

﴿٨﴾ ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ترتب على كونه رب السموات والأرض المقصود هو أنه ربهما ورب من فيهما حين قال: وما بينهما فكلها مملوكة له ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله يعبد يستحق العبادة إلا هو ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وجه الخطاب إلى من في زمن الرسول ص فقال: ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي هو المالك لكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين تقتدون بهم في الشرك هو ربهم المالك لهم فالعبادة لا يستحقها إلا هو لأنه المالك.

﴿٩﴾ ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ﴾ إضراب بل هم في شك مع الآيات البينات الدالة على توحيد الله ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يلعبون مع كونهم في شك من الإيمان ولم يعرفوا الحق مع هذا فإنهم يلعبون لا يفكرون ولا يطلبون معرفة الحق وإنما هم غافلون معرضون.

﴿١٠﴾ ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ هذه من الآيات التي تكون عقوبات عاجلة ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ﴾ ينزل من السماء يمكن أن يكون المعنى من جهة علو لا نفس إحدى السبع السموات ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّنٌ كونه دخاناً لا إشكال فيه بحيث لا يحتمل أنه غبار أو ضباب بل هو بين أنه دخان.

ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ

ولا أظن أن ذلك قد حصل، لأنه لو كان قد حصل لاشتهر بين الأمة، وبعضهم قالوا إنه قد حصل أيام كان النبي ص في مكة، وأنه دعا على قريش وجاء عليهم سنون شديدة وعمهم هذا الدخان ونسبوا الخبر إلى ابن مسعود.

وقوله: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ مثل قوله: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ يصح أن يرتقب ولو لم يدركه، بل يحتمل: أن يدركه وأن لا يدركه، ولا يعني ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ سوى الدلالة أنه أمر مستقبل.

﴿١١﴾ ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يصف هذا الدخان أنه ﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ ويقولون: ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لأنه يضايقهم جداً.

﴿١٢﴾ ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ حينها لجئوا إلى الباري على عادة البشر إذا جاء أمر عظيم يلجئون إليه ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ إما في تلك الحال صاروا يدعون أنهم مؤمنون لكي يكشف عنهم العذاب وإما في المستقبل القريب سنؤمن فاكشفه عنا.

﴿١٣﴾ ﴿أَنَّىٰ﴾ من أين ﴿لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لأنهم قد كانوا خذلوا وأوصدت دونهم أبواب الهداية ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ﴾ جاءهم وجاء أسلافهم الذين في وقت الرسول ص وهم على طريقتهم في التكذيب والكفر، فالآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٩١] ﴿مُّبِينٌ﴾ بين واضح أنه رسول بما يحمله من الآيات، ولكنهم كذبوه قالوا ساحر ومجنون.

ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٌ كَرِيمٌ

﴿١٤﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ﴾ وأعرضوا ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجۡنُونٌ﴾ إنما هو معلم يتكلم بالكلام الذي علمه الآخرون ومجنون لا يعقل، ولكن كيف يكون مجنوناً وهو قد جاء بالحق لأن من شأن المجنون أن يخلط بين الحق والباطل!

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ هذا بعد ما ينزل العذاب عليهم وبعد أن يطلبوا أن يكشف عنهم ويعدوه بالإيمان قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ سنكشف هذا الدخان ﴿قَلِيلًا﴾ مدة قليلة في هذه الحياة الدنيا ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ لأنكم سوف ترجعون إلينا ونجازيكم الجزاء الأوفى.

﴿١٦﴾ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ يمكن أن يكون المقصود أنه ظرف للعودة أي عائدون في ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ في القيامة البطشة الكبرى حين تملأ جهنم من الجنة والناس هذه البطشة الكبرى، قالوا في حديث: ((إن الله يقول لآدم: اخرج بعث النار من ذريتك فيقول كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون)) بعث النار: بمعنى لا ينجو من النار إلا واحد من كل ألف من ذريته، هذه بطشة كبرى، وقد بين القرآن كثرة أهل النار، انظر إلى سورة الواقعة كيف جعل الناس ثلاثة أقسام والقسم الثالث لم يقل فيه ثلة ولا قليل بل كل الباقين، قال في السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤] وقال في أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ﴾ [الواقعة:٣٩-٤٠] أما أصحاب الشمال فهم من تبقى فبين أنهم أمم كثيرة ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ ينتقم ممن تمرد عليه في الدنيا وعاداه لأن معاداة دينه معاداة لله.

﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ﴾ قبل هؤلاء الذين معك المكذبين لك قد فتنا قبلهم ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ حين كذبوا الرسول وهموا به ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ موسى صلوات الله عليه.

﴿١٨﴾ ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مضمون الرسالة: أولاً: أن يسلموا إليه بني إسرائيل لأنهم عباد الله وليسوا عباد فرعون ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ من رب العالمين أرسلني إليكم لتسلموهم إليّ ولا تظلموهم.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هذا الثاني مما تضمنته الرسالة: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا تترفعوا على أمره وعلى رسوله وهداه وما جاء به أنتم لستم إلا عبيد الله ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ لأنه جاءهم بسلطان من الله جعل له هيبة وقوة في نفسه وأماناً لا يخاف، مع أنه قد قتل منهم نفساً، ومع أن فرعون جبار عنيد، هذا السلطان يعد آية لوحده، ومعه الآيات التسع.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ وإني قد دعوت الله أنه ينجيني وهو ربي وربكم المالك لنا كلنا، عذت به أن ترجموني، حين قال: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص:٣٣] ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ* قَالَ كَلاَّ..﴾ [الشعراء:١٤-١٥] سبق من الله أن أمّنه.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي﴾ وقد جاءتكم الآيات البينات ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ اتركوني وأنا أترككم.

بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ

﴿٢٣﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ حين تمردوا عليه وتوعدهم فرعون بقتل الأبناء واستحياء النساء، وحين تجبر وتكبر، وقال: ساحر كذاب، وهنا لجأ موسى × إلى الدعاء دعا ربه ﴿أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ ليسوا سوى ظلمة فجرة متمردين يطلب من الله أن يعذبهم ويفصل بينه وبينهم.

﴿٢٣﴾ ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ أمره الله تعالى أن يسري بأصحابه ليلاً لأن خطة فرعون ضدهم ستنفذ في الصباح.

﴿٢٤﴾ ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ اضربه بالعصا حتى يفترق فرقتين ليغرق فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾وعده الله أنه بمجرد أن يضرب البحر يجعله فرقين تلتقيان في الأخير على العدو فيغرق.

﴿٢٥-٢٧﴾ ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾ حين أغرقهم الله، ولأن فرعون كان قد جمعهم من كل مكان ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء:٥٣] فأغرق الله هذه الجموع كلها، وبقي ما خلفوه من الجنات مع توفر الماء الكثير للري إضافة إلى المقام الكريم بما يعنيه ذلك من وسائل العيش والرفاهية والنعيم.

﴿٢٨﴾ ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ هلكوا وتركوها فأورثناها قوماً آخرين من غيرهم، وليس المقصود أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون، لكنهم لما تمكنوا في الأرض تمكنا كبيراً كانت مصر من جملة ما ورثوه، واستولوا عليه سواء دخلوا مصر أولم يدخلوا.

عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞا مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا

﴿٢٩﴾ ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ السياق في آل فرعون حين أهلكم الله ما أسفت عليهم السماء ولا الأرض أي ليسوا ممن يؤسف عليهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ حين جاءهم الغرق ما أنظرهم الباري ليتوبوا، ولم يمهلهم ويؤخر العذاب حتى يؤمنوا ويرجعوا إلى الله فقد مكث موسى يدعوهم فترة طويلة دون جدوى.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾ رجع الكلام في نجاة بني إسرائيل كان فرعون يعذبهم عذابا مهيناً إهانة شديدة حين يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم وغير ذلك.

﴿٣١﴾ ﴿مِن فِرۡعَوۡنَ﴾ تفسير للعذاب المهين أنه من فرعون هو الذي كان يعذبهم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا﴾ مترفعاً على عباد الله ﴿مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ مسرف في القتل، مكثر في الباطل.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ﴾ بني إسرائيل ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ على علمنا ببني آدم لكن من بني آدم اخترناهم ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بإنزال الكتب عليهم وإرسال رسلهم منهم.

﴿٣٣﴾ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الهدى والنور والخير لينتفعوا ويهتدوا آيات كثيرة مثل التوراة وغيرها ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞا مُّبِينٌ﴾ فيه إحسان عظيم بيّن والبلاء هنا يعني الإحسان.

نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ هذا ابتداء كلام في المشركين الذين حول النبي ص.

﴿٣٦﴾ ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ يتحكمون على الله بهذا الاقتراح: أنه إذا كان صادقاً بأنهم سينشرون بعد الموت فان عليه الآن أن يأتي بآباءهم.

﴿٣٧﴾ ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَـٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ يعني أن هؤلاء أهل لأن يعذبوا بكفرهم هذا وتمردهم على الله كما عذب من قبلهم فليسوا بأفضل من قوم تبع والذين من قبلهم فقد أهلكهم الله لأنهم كانوا مجرمين.

﴿٣٨﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ هذا احتجاج يرد عليهم حين قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الأُولَى﴾ قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ فخلقهما ليس إلا مقدمة وبداية للآخرة لنجازي كلا بعمله ولو كانت المسألة هي مجرد أن يخلقوا ويموتوا لما كان هناك فائدة من هذا العمل كله بل يكون عبثاً ولعباً.

﴿٣٩﴾ ﴿مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة والحق والصواب ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا يفكرون بعقولهم، بل يستمرون على جهلهم، ثم صرح بالهدف من الخلق فقال:

يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة الذي سيفصل بين عباده يحكم بينهم بالحق في كل ما كانوا يختلفون فيه من الأديان والحقوق وغير ذلك ﴿مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ميقات العالمين كلهم موعدهم.

﴿٤١﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ لأن الأمر فيه لله وحده فحينئذ لا ينفع القريب قريبه ولا المولى مولاه لا أحد ينفع أحدا كل واحد يبحث عن الخلاص لنفسه.

﴿٤٢﴾ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ لكن من رحم الله فهي الأصل رحمة الله فقط في ذلك اليوم ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الغالب القاهر فوق عباده الذي لا ينال، الرحيم لمن تاب إليه ورجع إليه.

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ بعد الحديث عن ذلك اليوم يوم الفصل، بدأ الحديث عن المصير الأليم في جهنم مقر ذلك الأثيم صاحب الإثم الذي كان في الدنيا مشركاً أو صاحب جرائم فهذه شجرة الزقوم طعامه.

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿كَٱلْمُهْلِ﴾المهل: حثل الزيت، آخره الذي يكون أسفل الإناء أسود ﴿..يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ مثل غليان الماء الحار.

﴿٤٧﴾ ﴿خُذُوهُ﴾ يؤمر الملائكة أن يأخذوه ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ خذوه وجروه إلى نار جهنم بعنف وإهانة وذلك عند مجيئهم إلى جهنم ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ كأنه أسفل سافلين لأنه قد يكون فيها سهول وجبال، فالمستوي منها يكون هو الأسفل وهو الأشد عذاباً. نعوذ بالله.

أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ

﴿٤٨﴾ ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ﴾ كأنه من عالي لينزل على رأسه بقوة ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ من الحميم المعذب لهم وإضافته، مثل قول عنترة:

فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

يعني: يقضمن بنانه الحسنة والمعصم.

﴿٤٩﴾ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ يقال له ـ زيادة في الإهانه ـ: ﴿ذُقْ﴾ العذاب ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ هذا تهكم به أنه كان يزعم في الدنيا أنه عزيز وأنه كريم.

﴿٥٠﴾ ﴿إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾هذا العذاب هو ما كنتم تشكون فيه لأنهم من حيث شكوا في الآخرة شكوا في العذاب بل يطمعون في الجنة إن صاروا إلى الآخرة.

﴿٥١﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ يوم القيامة مقر إقامتهم أمين من كل شر لا ينالهم أي شر فهم آمنون من عذاب الله ومن كل مكروه.

﴿٥٢﴾ ﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ تجري الأنهار بين الأشجار فتظل خضراء باستمرار لا تتساقط ورقها ولا ينقطع ثمرها.

﴿٥٣﴾ ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ هذا من الحرير وكأنه نوعان: غليظ ورقيق، السندس يمكن أن يكون الرقيق والإستبرق: الغليظ ـ والله أعلم ـ ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ الإخوان المتآخون في الله يوم كانوا في الدنيا، كل يرى في الجنة أخاه لأنه من تمام النعمة أن يرى كل واحد صاحبه في نعيم فيكون في الجنة في مكان يقابله فيراه وهو على سريره لأن الغرف تكون فيها النوافذ كبيرة.

فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿٥٤﴾ ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ إضافة إلى ذلك النعيم زوجناهم بحور عين، الحُوْر: جمع حوراء والحَوَر في العين: شدة بياض الأبيض، مع شدة سواد الأسود فيها، والعيناء: واسعة العين.

﴿٥٥﴾ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يدعون الخدم فيقربون لهم ما يطلبون من كل فاكهة ﴿ءَامِنِينَ﴾ ليسوا كما في الدنيا يتناول الإنسان الفاكهة وهو خائف من ضرها أحيانا، بل هم آمنون من ضرها ومن كل بلاء.

﴿٥٦﴾ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾بعد دخولهم الجنة لم يبق موت.

والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ منقطع، بمعنى: لكن الموتة الأولى لابد منها، مثل قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:١٨٥] بمعنى أن المؤمنين حتى هم لابد أن يموتوا، وأجرهم إنما هو في الآخرة وليس في وقايتهم من الموت ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ الفائدة الكبرى في الجنة أنهم نجوا من عذاب الجحيم.

﴿٥٧﴾ ﴿فَضْلًا﴾ هذا فضل عظيم لما هداهم للجنة وبلغهم إليها فضل كبير ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ يا رسول الله الذي أرسلك لتهدي الناس إليها ويدخلها المؤمنون ويتنعمون فيها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ دخول الجنة والنجاة من النار لأنه سعادة دائمة.

٥٨ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ هذا القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ العربي الذي يفهمه قومك ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ينتفعون به ويهتدون ويستعملون عقولهم ليؤمنوا ويتركوا الشرك.

٥٩ ﴿فَارْتَقِبْ﴾ الآخرة ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ ليروا هل يكون الوعد بالقيامة صدقاً.

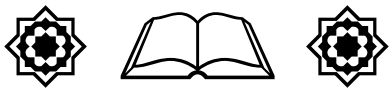

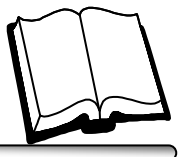

التيسير في التفسير

سورة الجاثية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ..﴾ الكفار ينكرون أن القرآن من الله، وهذا يبين أنه من الله سبحانه، ودليل صدقه عجزهم عن أن يأتوا بسورة من مثله، وهذا دليل على أنه ليس من قول البشر لأنه لو كان من قول البشر لأمكن أن يتعاونوا على الإتيان بمثل أقصر سورة منه ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وهذا يبين أن عزته وحكمته تقتضي أن ينزل الكتاب لعباده لينذر ويبشر ويهدي وليس من حكمته أن يهملهم ويتركهم يفسدون في أرضه دونما إنذار بالعقاب والجزاء فالعزة والحكمة تدل على أنه سبحانه لا بد من أن ينزل الكتاب ويرسل الرسول لينذر الناس ويبشرهم ويعلمهم الخير ويهديهم إذا قبلوا فنفعه لهم هم.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الدلائل على قدرته سبحانه وعلمه وعلى أنه الخالق الرازق المنعم على عباده في السموات والأرض، فمثلاً: النجوم يهتدون بها والشمس تنفع للتدفئة وللتربة وللشجر وغير ذلك من المنافع، والأرض كذلك فيها منافع كثيرة للبشر شجرها وثمرها وأرزاقهم فيها متوفرة وأشياء كثيرة لا يسع المجال لذكرها وهي آيات عظيمة لمن تفكر.

﴿٤﴾ ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ﴾ لأنه كما قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢١] خلق الإنسان آية عظيمة لأن الجهاز الواحد منه إما جهاز البصر،

فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٖ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا

أو جهاز السمع، أو جهاز النطق كلها آيات عظيمة في خلق الإنسان تدل على قدرة وعلم وإنعام على عباده ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ﴾ كذلك ما يبث من دابة في الأرض وينشرها ويكثرها إنها آيات عجيبة لأنها مختلفة في صنعها بقدرته وحكمته ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ يستعملون عقولهم حتى يحصل لهم اليقين بقدرة الله وعلمه فإذا تبين أنه القادر على كل شيء والعالم بكل شيء والخالق لكل شيء تبين أنه هو الإله، لأن هذه الأصنام لا تقدر ولا تعلم وليست بشيء، ولا يعقل أن تكون أندادا لله سبحانه.

۝٥ ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كل واحد يخلف الآخر كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢] باعتبار أنها آية، وباعتبار أنها نعمة الليل يسكنون فيه، والنهار يسعون لأرزاقهم يبتغون من فضله ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وهكذا من آياته المطر الذي أنزله بِقَدَر يسوق السحاب إلى الأرض التي هي بحاجة إلى المطر وينزله بقدر فأحياها وأنبت فيها الحب والفواكه وغيرها من حاجات الإنسان ليأكلوا من ثمره، وهي آيات دلائل على أنه الخالق المنعم الرازق ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ شرقية وغربية وجنوبية وشمالية ليس هذا إلا بفعل فاعل مختار صرفها كل هذه ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم.

۝٦ ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ من القرآن هذا ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنها جاءت بالحق حين تبين الآيات الكونية، وتبين أن الله الخالق المنعم الرازق القادر على

كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ ۖ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

كل شيء، وأنه هو الإله وحده وأنه الذي ينشرهم يوم القيامة ويحاسبهم ويجازيهم فهو الحق الذي جاء به القرآن ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ الذي هو أحكم الحاكمين الحكيم الحميد الذي أنزل هذا القرآن نعمة لعباده فإذا لم يؤمنوا بآياته هذه التي أنزلها فبأي شيء يؤمنون بعدها.

﴿٧﴾ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ كذاب يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً أثيم يتحمل إثماً كبيراً وكثيراً.

﴿٨﴾ ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يسمع آيات الله فيعرض عنها هذا الإعراض جريمة كبيرة لأن الآيات تهدي وهو يرفض الهدى ويرده ﴿ثُمَّ يُصِرُّ﴾ على الإعراض ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ يتمادى في الكبر والإعراض لئلا تبطل عليه عبادة الأصنام ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ لعدم تأثره بها نتيجة إعراضه عنها وكراهته لها ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ جزاء على هذا الإعراض والإصرار.

﴿٩﴾ ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ يتطور في كفره وعناده ليصل إلى مستوى أنه إذا سمع من آيات الله شيئا وعلم بها يستهزئ بها وهو يعلم أنها من آيات الله، هذه جرأة كبيرة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يناسب كبرهم ويهينهم.

﴿١٠﴾ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ كأنها طالبة لهم تطردهم ولابد أن تدركهم، هذا أوضح من تفسيرهم للوراء هنا بقدام؛ لأنها جعلت كالطالب لهم مثل قول

هَـٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا

أمير المؤمنين: ((وأنك طريد الموت الذي لا ينجو منه هاربه)) ﴿وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذه أموالهم التي كسبوها واشتغلوا بها وأحبوها وجعلوها الخير كله لا تنفعهم يوم القيامة، ولا تدفع عنهم أي شر وكذلك ما اتخذوا من دون الله آلهة.

﴿١١﴾ ﴿هَـٰذَا هُدًى﴾ هذا القرآن هدى لمن اهتدى به للمؤمنين الذين يقبلونه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ يردون الهدى ولا يقبلونه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من أقذار، زقوم وغسّاق وغيرها ﴿أَلِيمٌ﴾ شديد الألم.

﴿١٢﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ المسخر هو الله، يبين لنا أنه المنعم علينا وأنه الإله وأنه الذي يبعثنا ونرجع إليه، هذه قضيتان يمضي السياق لإثباتهما وهما: كونه الإله الواحد، وأنه الباعث لنا الذي نرجع إليه، لأن المشركين منكرون للبعث وكان السياق في ذكر دلائل قدرته ونعمته لإثبات الأمرين.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ فهذه نعمة عظيمة ودليل على قدرته حين أن البحر يتحرك ويتموج ولكن لا إلى حد يمتنع السفر فيه على السفن، والتي تسوقها الرياح فيه بقدرة الله.

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ تسافرون لحاجاتكم من أرض إلى أرض للتجارة أو غيرها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمته حينما تعلمون أنه المنعم عليكم فتعبدوه وحده.

مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا

﴿١٣﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ كذلك سخرها مثل الشمس والقمر والنجوم كل واحد منها له دور معين في نفع البشر ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وكذلك سخر ما في الأرض من النباتات والحيوانات والمعادن كلها مسخرة للإنسان على اختلافها في منفعتها للإنسان، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الذين يتفكرون بعقولهم فيفهمونه وينتفعون ويهتدون.

﴿١٤﴾ ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ هذا في أول الإسلام حينما كان المسلمون لا يزالون قلة ومستضعفين أمرهم بالتروي والتحمل عندما يسئ إليهم الكفار حتى لا يدخلوا في حرب وهم غير مؤهلين ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يجزي الكفار بما أساءوا ويجزي المؤمنين بما صبروا وأحسنوا.

﴿١٥﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ طاعة الله وتقواه ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفع نفسه بها؛ لأنه سيذهب إلى الآخرة وقد فاز بالجنة ونجا من النار ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ فعلى نفسه كذلك الضر عائد عليه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وحده ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لا ترجعون إلا إليه ويسأل ويحاسب ويجازي.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ فلست بأول إنسان ينزل عليه، وليس القرآن أول كتاب، فقد أنزلنا على بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة، فكان فيهم أنبياء متعددون.

ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ حين أعطاهم المن والسلوى وغيرها ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بإنزال الكتب وإرسال الرسل وجعل الأنبياء منهم في الماضي.

﴿١٧﴾ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ في التوراة وغيرها من الكتب، من أمر الله وتشريعه ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ اختلفوا بغياً بينهم بعد ما قد علموا بالحق، ورأوه واضحاً في التوراة وغيرها فاختلفوا بسبب اختلاف الأهواء والسياسات السائدة ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ إن الله الذي يحكم بينهم يوم القيامة وينصر الحق ويعاقب على الباطل.

﴿١٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ بعد ما آتيناهم الكتاب والحكم في الزمان الأول، فأنت يا رسول الله في هذا الزمان قد جعلناك على شريعة من الأمر بإنزال هذا الكتاب والوحي إليك.

الشريعة: طريقة واضحة واسعة، كأن أصلها شريعة الماء، طريقه الواسعة ﴿فَٱتَّبِعۡهَا﴾ اتبع هذه الشريعة التي جعلناها لك من الله ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهم هؤلاء المشركون الذين لا يعلمون بشيء وإنما هم جاهلون.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ لن يكفوا عنك شيئاً من عذاب الله لو عذبك ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾ هم الذين يتآخون ويتآزرون على الباطل.

هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ المتقون فقط هو وليهم أما الظالمون فهم خارجون عن ولاية الله إنما يتولون بعضهم البعض في الدنيا ويوم القيامة يتعادون كما قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا..﴾ [العنكبوت:٢٥].

﴿٢٠﴾ ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ لأنه ينور قلوبهم ويهديهم إلى الحق، يهدي للتي هي أقوم، فهو بصائر للناس لكافة الناس لأنه ميسر وهذا يدل على إمكانية فهمه للجميع، ولا يختص بفهمه أفراد معينون ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فهو هدى ورحمة لمن يوقنون بآيات الله ويوقنون بأنه من الله ويؤمنون به وبالآخرة فهو هدى لهم يهتدون به ورحمة ينجون به من عذاب الله ويدخلون الجنة.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ هؤلاء الذين ينكرون القيامة وينكرون الجزاء، سؤال يوبخهم هل يظنون أن الله سوف يجعلهم كالمؤمنين سواء بأن يموتوا ولا يبعثوا ليجازوا على ما اجترحوا من السيئات كلا.. لا بد من الجزاء يجزي المؤمنين بالجنة ويجازي الكفار الذين اجترحوا السيئات بالعذاب فلابد من البعث ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا سيء لأنه خلاف الحق والعدل، لأن من عدله أن الله يجزي المؤمنين بالخير والكفار بالعقوبة ولا يجعلهم سواء.

بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لم يخلقهما عبثا لأن نتيجة إنكارهم للبعث والجزاء أن يكون خلقهما لغير فائدة، وهو ما خلقهما إلا لأجل عبادته يعبدونه ثم يجازي كلا بما يستحق المطيع والعاصي.

﴿٢٣﴾ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ هؤلاء المشركون الذين اتخذوا آلهتهم أهواءهم على خلاف ما يقتضيه العقل والحكمة بل على هواهم. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ باستحقاقه الإضلال، علم سبحانه أنه لا يريد الحق ولا يريد الهدى، وأنه مستحق للخذلان ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ لأنه يكره الحق فكأن سمعه مختوم عليه لا ينفذ إليه القرآن وقلبه كأنه مختوم لا يدخله الهدى والنور ولا يقبل إلا الباطل فقط ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ كأن على بصره غشاوة لا يرى طريق الحق ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ كيف لأحد أن يهديه وقد خذله الله وسلط عليه الشياطين فلم يبق مجال للهدى وقد فاتته هداية الله.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ مع إشراكهم بالله كذلك أنكروا القيامة ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يموت جيل ويحيى جيل آخر ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ أنكروا كون الآجال بيد الله وأضافوا ذلك إلى الدهر ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لا علم لهم في إنكارهم للقيامة، وكون الآجال بيد الله، وإنما تخمين.

حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا

﴿٢٥﴾ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ **حينما يسمعون آيات الله وهي تبين لهم أنه لا بد من القيامة وأن الله يبعث من في القبور وأنه يجازي كلا بعمله لا يجدون حجة للرد على ذلك إلا قولهم:** ﴿ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ **أعيدوهم إلى الحياة الآن، يريدون أن يتحكموا على الله سبحانه.**

﴿٢٦﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ **في الدنيا** ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ **ولا شك فيه ولا بد منه** ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ **أن الله سبحانه القادر على كل شيء.**

﴿٢٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ﴾ **وحده** ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **فالمرجع إليه يوم القيامة وحده يرجعون إليه فيحاسبهم ويجازي كلا بعمله** ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ **حين تقوم الساعة ويرجع الناس إلى الله وحده لا تنفعهم لا الشركاء ولا غيرهم قد خسروا أنفسهم وأهليهم.**

﴿٢٨﴾ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ **كأنه حين تصرخ جهنم لأنه قال في حديث في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) ما معناه: «إنها تصرخ جهنم صرخة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه» فكأنها تبطل القوة من شدة الفزع.**

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ الكتاب المتضمن كل ما كانوا يعملون في الدنيا يدعون إليه ليشاهدوا أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٤] كل واحد يقرأ كتاب عمله ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ليس مجرد حساب إنما حساب يتبعه الجزاء.

﴿٢٩﴾ ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كل ما تضمنه كتابنا هو حق لا مغالطة فيه، فقد كنا نأمر بتسجيل ما كنتم تعملونه في الدنيا، ثم ينتقل الكلام إلى تقرير المصير فيقول:

﴿٣٠﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ في جنته ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الفوز البين الواضح لأنه سعادة دائمة لا يموت المؤمن ولا ينقطع عنه الثواب ولا يخرج من الجنة فهو فوز بين واضح لا أوضح ولا أبين منه فوز.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ احتج عليهم يوم القيامة بأنه قد جاءهم الرسل، وقد تليت عليهم آيات الله التي فيها الحجة القاطعة المقنعة لو أرادوا الحق يقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبولها، يستكبرون على الله سبحانه الذي خلقهم ورزقهم فيأنفون من أمره ومن وحيه وهو ربهم المالك لهم ليسوا إلا عبيداً له ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أهل جرائم عظيمة.

إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ

﴿٣٢﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أي في الدنيا ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ كان القرآن وكان الرسول يقول لكم إن وعد الله حق وأنه سيأتي بالقيامة ويأتي بالجزاء ويأتي بالجنة والنار ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أنكرتم ورفضتم الإيمان بها ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ قلتم نظن، وذلك معاندة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ والسبب أنهم معرضون رافضون لأن يتأملوا أن الله أصدق القائلين لا يمكن أن يقول ذلك في القرآن إلا وهو الحق لأن القرآن منزل منه سبحانه والدليل عجزهم عن أن يأتوا بمثل سورة منه.

﴿٣٣﴾ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ أي جزاء ما عملوا، وسوءه ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كل ما كانوا يستهزؤون به من العذاب الموعود به والقرآن والرسول لأنهم عذبوا بسبب استهزائهم به ولم يجدوا لهم منه مخرجاً كأنه أحاط بهم.

﴿٣٤﴾ ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ في العذاب كأنهم منسيون حينما يتركون في العذاب دون التفات إلى دعائهم وشكواهم ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ في الدنيا ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ لقاء الله في الآخرة فاليوم ننساكم النسيان هذا كأنه من يوم المحشر حينما يتركون هناك لا ينظر إليهم أحد ولا تقضى لهم حاجة فصاروا كالمنسيين ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ تدخلونها وتأوون إليها لا مأوى لهم إلا هي ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ لا ينصركم أصنامكم ولا غيرهم.

ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿٣٥﴾ ﴿ذَٰلِكُم﴾ سببها ﴿بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ لم تنظروا في الآيات نظر اعتبار وطلب للحق لتهتدوا بها وإنما اتخذتموها هزءا كلما علمتم شيئا من آيات الله اتخذتموه هزءاً ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بما أقبلتم عليها ونسيتم الإعداد للآخرة ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ من النار ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يقال لهم: توبوا إلى الله، أو لا يطلب منهم أن يتوبوا إلى الله.

﴿٣٦﴾ ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على هذا القرآن وعلى هذا الهدى وعلى إرسال الرسل ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ المالك لها الذي لا إله إلا هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ المالك لهم كلهم.

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ العظمة والجلال ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأنه قادر على كل شيء وعالم بكل شيء وله الملك على كل شيء، فعظمته لا تقاس بها عظمة ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عزته وحكمته اقتضت أن يرسل الرسل وينزل الكتب فله الحمد على عباده لأنه المنعم عليهم.

الحمد لله رب العالمين

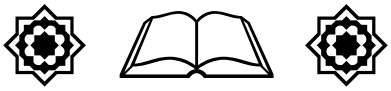

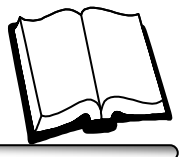

التيسير في التفسير

سورة الأحقاف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القرآن ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ لا بد من تنزيل الكتاب، وعلى ما تقتضيه الحكمة، وتقتضيه عزة الباري أنه لا يترك عباده يفسدون في الأرض ولا ينذرهم ولا يجازيهم، والعزيز هو الذي لا ينال.

﴿٣﴾ ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فهذا دليل على أنه لا بد من الآخرة، ولا بد من الجزاء، الثواب للمؤمنين والعقاب للمتمردين على الله أعداء الله، لأنه ما خلق السموات والأرض هكذا لعبا يعيشون ثم يموتون دونما بعث ولا جزاء بل خلق السموات والأرض وما بينهما ليعبدوه، قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

والأمر بعبادته وحده هو الذي يترتب عليه الجزاء الثواب والعقاب فمن الجهتين: جهة الحكمة في أمرهم بعبادته، وجهة الحكمة في الجزاء، من هاتين الجهتين دل على أنه سبحانه واحد لا شريك له في ملكه، ودل على أنه لا بد أن يبعثهم ويجازيهم، فخلق السموات والأرض بالحق لهذين الأمرين لعبادته وللجزاء ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ما خلقهم للبقاء هذا الخلق ليس إلا مؤقتاً، سماه الباري وحدده وعينه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ مع أنهم أنذِروا أمراً عظيماً لكنهم معرضون عن التفكر والاستماع للإنذار بالأمرين: توحيد الله سبحانه والإنذار بالآخرة فكفروا لأنهم لم يخافوا.

ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥

---

٤ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء أصنامكم ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنه لا تصح عبادتهم إلا إذا كانوا مالكين لكم أو لبعضكم وكيف يكونون مالكين لكم أو لبعضكم وهم لا يخلقون شيئا ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ هل خلقوا من الأرض بعضها؟ هل خلقوا من السموات بعضها؟ كلا.. لا قدرة لهم على شيء.

﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ انتقال من سؤال إلى سؤال: هل لهم شرك في السموات بأن خلقوا بعضها فكانوا مشاركين فيها ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ القرآن تستغنون به عن هذا القرآن، ويدلكم على صحة عبادة غيره ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ بقية من علم بعد الأنبياء الأولين تفيد علما يقينا وليس مجرد ظن ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ولكن ليس معهم شيء من العلم وإنما يقولون وجدنا آباءنا على أمة فيقلدونهم فقط.

٥ ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فبين ضلالهم في عبادتهم للأصنام بأنهم يدعونهم وهم لا يستجيبون لهم في الدنيا، وفي يوم القيامة يكفرون بعبادتهم، فهذا ضلال كبير لأنه ضياع ليس معهم فيه أي فائدة ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ هذا المدعو الذي يدعونه لا يعلم أنهم يدعونه؛ لأنه لا يسمع، قال الله تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر:١٤].

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ٧ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٨ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ

---

٦ ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يوم القيامة ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ صارت تلك المعبودات معادية للمشركين يكفرون بعبادتهم لهم في الدنيا غير شاكرين لهم عليها، بل يتبرؤون منها، مثل قول الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢] وفي بعض التفاسير ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ يعني: أن العابدين كانوا أعداءً للأصنام، على عكس الأول، لكن الأرجح هو الأول.

٧ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ ما كفاهم أنهم أعرضوا عن تفهم تلك الآيات ليعرفوا أنها الحق بل زادوا على ذلك أنهم كانوا إذا تتلى عليهم الآيات يقولون: ما هذا إلا سحر مبين بيّنٌ أنه سحر.

٨ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون هذا انتقال ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ افترى القرآن هذا على الله تقوّله ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ لو افتريته لعذبني أو ختم على قلبي، لأنه لا يصح أن يتركني أكذب عليه وقد جاء بالمعجزة على يديّ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ من الأقوال في شأن القرآن، كقولكم مرة: أنه سحر، ومرة: أنه شعر.. وغير ذلك، كل أقوالكم فيه هو عالم بها.

إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ يشهد أنني قد بلغتكم القرآن الحق، وأنكم أنتم الذين أعرضتم بغير حجة وجادلتم وافتريتم بغير حجة ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذا رجعتم إليه سيقبلكم ولن يسد باب التوبة في وجوهكم وليس الإنذار هذا كله إلا لكي ترجعوا إليه وتتوبوا.

۝٩ ﴿قُلۡ﴾ يا رسول الله ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ لست أول رسول يرسله الله فلماذا تستنكرون رسالتي وتستغربونها وتتعجبون منها لا معنى لذلك لأنه قد أرسل من قبلي رسلاً إلى الأمم الماضية فلست بأولهم ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ في المستقبل لأني لا أعلم الغيب، الغيب لله وحده، وهو الذي يثيب ويعاقب أما أنا فلا أعلم ماذا سيفعل بي وبكم ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فلست أعلم الغيب إنما اتبع القرآن وما أوحى الله إليّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ لا أدعي شيئاً غير أني رسول من الله أنذركم.

۝١٠ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ بهذا يزجرهم عن الإعراض حتى يعلموا أنه من الله وأنه الحق ويؤمنوا يعني أنه أمر عظيم وشقاق بعيد أن تعارضوا الباري ربكم الذي خلقكم ورزقكم تعارضوه في حكمه، في قرآنه ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ شهد هذا الإسرائيلي في عهد النبي محمد ص على أن هذا الذي في القرآن يوجد مثله عندهم في التوراة، فهو مصدق لما عندهم، من البعث والتوحيد وكل ما فيه من الأصول ﴿فَـَٔامَنَ﴾ هذا زجر عن الإعراض، معناه: أن الحق واضح، وأن هذا الشاهد حين أنصف وفكر في الحق عرف أنه الحق من الله

لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ

﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ استكبر المشركون ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هؤلاء المستكبرون غلب عليهم الكبر، فلم يكونوا يستحقون الهداية، وإنما يستحقون الخذلان.

﴿١١﴾ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ هكذا قال الكفار لأنهم مستكبرون، يحتقرون المؤمنين بالذات لكونهم فقراء مستضعفين وقالوا في الذين آمنوا: لو كان هذا القرآن وهذا الإيمان، واتباع الرسول لو كان خيراً لما كانوا أول المؤمنين به، بل لو كان خيراً لكنا قد سبقناهم إلى الإيمان به، لأننا أكثر ذكاء وفطنة من هؤلاء كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣] ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ لم يهتدوا بالقرآن واستمروا على عنادهم فلا أمل في تراجعهم عن موقفهم لأنه قد مضى عليهم وقت طويل منذ سماعهم له ولم يرجعوا.

﴿١٢﴾ ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ مثل ما قال: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ فكذلك هذا القرآن ليس أول كتاب بل من قبله كتاب موسى ﴿إِمَامًا﴾ متبوعاً مأموماً ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن اتبعه ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ مصدق لما بين يديه من الكتاب ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال كونه لسانا عربيا تفهمونه إذا كنتم جادين في مسألة الإيمان ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ لأنه لما كان بلسانهم صار منذراً لكونهم يفهمونه، فهو منذر لكل ظالم بالعذاب الأليم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ بالجنة.

رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ هذا كناية عن كونهم قالوا: لسنا عابدين إلا له، ولا إله إلا هو فنحن مسلمون له مخلصون له عبادتنا لأنه ربنا الذي خلقنا المالك لنا فهذا كناية عن هذه المقالة ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ على عبادة الله وحده ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لا يُخاف عليهم من العذاب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿١٤﴾ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الطريقة ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ثواباً على ما قدموه من الأعمال الصالحة.

﴿١٥﴾ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا﴾ أن يحسن إليهما ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ وهذا يدل على أن الأم أولى من الأب، يعني هي أحق بالزيادة في البر والإحسان لأنها حملته كرها ووضعته كرها لأن حملها يكون على مراحل كل مرحلة أصعب من التي قبلها، ابتداء بمرحلة العلوق والتي فيها يتغير مزاجها وتعاف الكثير من المأكولات وغيرها. ثم مرحلة الثقل ومتاعبها، إلى وقت الوضع ومشاقه، دع عنك ما بعد ذلك من الحضانة والرضاع وما يليها..

عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ الحمل والرضاع ثلاثون شهراً كأن الرضاع سمي فصالا باعتبار أنها تستمر في الرضاع حتى تفصله ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قوته، في مرحلة الشباب، وهو يبدأ منذ أن يبلغ النكاح، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يستمر في شبابه حتى سن الأربعين، وفي سن الأربعين يتكامل عقله فهو أقرب إلى أن يهتدي وينيب إلى ربه.

﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ بمعنى اهدني لشكر نعمتك ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ شكر النعمة علي وعلى والديّ أشكرها لأن النعمة على الوالدين نعمة على الولد لأنهم أصله ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ وأوزعني أن أعمل صالحا ترضاه ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ لأني قد أوشكت على بداية الضعف والحاجة إلى الأولاد لخدمتي فأصلح لي فيهم ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فاستجب دعائي.

﴿١٦﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الطريقة ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ وهو العبادة لأنها أحسن ما عملوا عبادة الله وحده ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لأنهم قد تابوا لما قال: ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ هم ضمن أصحاب الجنة ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ هذا الوعد الذي وعدهم الله، حين قال: ﴿فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ هو وعد لا يختلف أبداً ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ كانوا في الدنيا يوعدون به سيتحقق في الآخرة.

وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ هذا الولد العاق لوالديه يتأفف تضجراً منهما قائلاً لهما: ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ كيف تعداني بأني سأخرج من قبري ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ القرون الأمم الماضية ما خرجوا من قبورهم فلماذا أنا سأخرج ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ من هذا الكلام المقلق لهما كأنهما قد خافا عليه من أن يعجل له العذاب جزاء كلامه هذا، فيقولان له: ﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء عليه، ولكن القصد منه الحث الشديد له ليؤمن ﴿ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ آمن بالآخرة لأن الله قد وعد بها وبالبعث بعد الموت.

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أي الوعد الذي في القرآن ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كفر بالقرآن إضافة إلى كفره بالآخرة ـ نعوذ بالله ـ هذه طريقة عاق والديه.

﴿١٨﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الطريقة ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ كلمة العذاب قد صدقت عليهم ودخلوا فيها، وهي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ضمن أمم قد دخلوا فيها ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ إنهم كانوا في الدنيا خاسرين لما كفروا.

﴿١٩﴾ ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من المؤمنين والكافرين كلهم لهم ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ كل يجازى بقدر عمله من ثواب أو عقاب ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ﴾ حينما يجعل لكل على قدر درجته يوفيهم ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ الصالحة والسيئة ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقص على أحد مما يستحق شيء.

حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا

﴿٢٠﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ لأنهم في الحشر يجاء بجهنم قال سبحانه: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] كما قال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] فكأنهم سوف يرونها ويسمعونها، وكما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] كأن هذا هو العرض عليها قبلَ دخولهم فيها.

فيقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ التي كان بالإمكان أن تحصلوا عليها لو آمنتم واتبعتم الرسول لكن أذهبتموها وأنتم لا زلتم ﴿فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ لما كفرتم فما بقي لكم شيء ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ بحياتكم الدنيا ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ عذاب الهوان والذلة والصغار ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تستكبرون ولستم كباراً لستم إلا عبيداً لله، فأنتم الآن تستحقون الإهانة وهذا عذاب الهون يهينكم في مقابل الاستكبار ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ تخرجون عن طاعة الله إلى معصيته، وإلى الخبث والفجور.

﴿٢١﴾ ﴿وَٱذْكُرْ﴾ يا رسول الله ﴿أَخَا عَادٍ﴾ هو نبي الله هود ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ الأحقاف: المحل الذي أنذرهم فيه، والأحقاف: جمع حقف من الرمل الذي تجمعه الرياح فيتكون كثباناً مستطيلة متعجرةً ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ قد مضت عليهم نذر متعددة وليس هو فقط لعله لطول أعمارهم ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ من قدامه ومن ورائه لعله إلى غيرهم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا حاصل الإنذار: أن يعبدوا الله وحده وأن لا يشركوا بالله ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ بسبب الشرك.

لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ جئتنا لتقلبنا وتحولنا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من شدة الإصرار على عبادتها والتعصب لها صارت دعوته لهم بالتحول عن عبادتها في نظرهم جريمة كبيرة فتحدوه بذلك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ فأت بالعذاب الذي تعدنا به.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ هو وحده من يعلم متى يأتي العذاب،ويعلم مقدار ما تستحقونه ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ أما أنا فليست وظيفتي إلا أن أبلغكم ما أرسلت به وليست المجيء بالعذاب ﴿وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لأن هذه جهالة كبيرة أن يطلبوا منه أن يجيء بالعذاب.

﴿٢٤﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ فلما رأوا العذاب وهو عارض كأنه معترض في الجو شبه السحاب الغليظ ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ مقبلاً إليهم ﴿قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ ظنوا أنه سحابة ممطرة ففرحوا بها لما يعانونه من الجدب ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ العذاب الذي استعجلتم به ﴿رِيحٌ﴾ شديدة ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هي في نفسها عذاب إلا أنه على التجريد وهو نوع من البديع ولأنها استمرت عليهم وكأنها كانت باردة جداً وقوية جداً.

﴿٢٥﴾ ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ البيوت والشجر كل شيء من شأنه أن يدمر ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ بعد ثمانية أيام ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ خراباً.

مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ نعذبهم لا نهملهم وإنما نؤجلهم نمهلهم مدة وبعدها نعذبهم هذا إنذار لمن في زمان رسول الله ص يخبرهم أنها سنة الله سبحانه أن يعذب الكفار المتمردين عليه إذا استمروا في التمرد ولم يجد فيهم الإنذار وحينما يهمون برسولهم أن يأخذوه.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ أي الأمم الماضية مثل قوم عاد وغيرهم مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا لم نمكنكم فيه (إن) نافية يعني مكناهم أكثر مما مكناكم، فكانوا أقوى منكم ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ مع قوتهم المادية كان لديهم قوة إدراك ومعرفة لو استعملوها ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ ما نفعتهم لأنهم عطلوها لعدم استعمالها ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لجحودهم بقدرة الله ضاعت الحكمة والبصيرة وحسن التدبير ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وحاقت بهم الآيات التي كانوا يستهزءون بها، وعذبوا بسببها.

﴿٢٧﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ التي تمرون بها وترونها على طريقكم مثل قرية قوم لوط ونحوها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ صرفنا الآيات لهم للأولين لما حولكم من القرى، يعني: أهلكناهم بعد ما صرفنا لهم الآيات فما قبلوها.

ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ

﴿٢٨﴾ ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۖ﴾ بهذا يبين للكفار الذين في وقت الرسول ص أنها لا تنفعهم أصنامهم كما لم تنفع أولئك الأولين أصنامهم فهلا حين نزل العذاب دفعته عنهم إن كانت تنفع ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ﴾ ضاعوا عنهم لم يعملوا لهم أي شيء كأنهم غير موجودين ﴿وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ وضاع إفكهم ذلك الذي كانوا يقولون به من خلال كفرهم وعنادهم انتهى وتلاشى.

﴿٢٩﴾ ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أذكر يا رسول الله إذ صرفنا: هذا الكلام يدل على عظمة القرآن ومدى تأثيره حتى على هؤلاء النفر من الجن ممن أنصتوا له وتفهموه فأصابوا الطريق الصحيح ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ عند النبي ص ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ لا يتكلم أحد لكي يستمعوا جيداً ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ انتهت تلاوة القرآن ﴿وَلَّوۡاْ﴾ عن الرسول ص ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ لقومهم.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾ هو القرآن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ كأنهم ما كانوا متبعين لعيسى ولا كانوا مؤمنين به، ربما لم يكونوا يعلمون إلا بموسى وبالتوراة ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ من الكتاب لا يتعارض معه بل ما في الكتب السابقة من الوعد والوعيد والتوحيد هذه الأصول، يوجد في القرآن ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا عوج فيها.

بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣

٣١ ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ القرآن أو الرسول الداعي إلى الله بهذا القرآن لا فرق ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ بالرسول وبالقرآن ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ فائدة الإيمان: أن يغفر لكم من ذنوبكم التي ارتكبتموها في الماضي ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ لتسلموا من عذاب النار.

٣٢ ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من لا يجب داعي الله فلن يفوت على الله لا مفر له منه ومن عذابه ﴿وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُ﴾ ليس له من دون الله أولياء ينفعونه ويحسنون رعايته وينقذونه من النار ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ ضياع بيّن لمّا صدوا عن الحق وعدلوا عن طريق السعادة إلى طريق الشقاوة هذا ضياع بيّن.

٣٣ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ﴾ أن الذي خلق السموات والأرض ما عيي في خلقهن لم يتردد بل خلقها بقدرته مع ضخامتها واتساعها وكبرها لم يشق ذلك عليه أو يتردد في كيفية خلقها ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ فكيف لا يكون من كان كذلك قادراً على أن يحيي الموتى فالعملية هذه أسهل من خلق السموات والأرض كما قال: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات:٢٧] ﴿بَلَىٰٓ﴾ أي أنه قادر سبحانه ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ قدير على كل شيء، وليس فقط خلق الإنسان بعد الموت.

وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿٣٤﴾ ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ العرض على النار تقدم الكلام في تفسيره.. وفي ذلك الموقف يقرون أنهم كانوا منكرين له فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ هذا العذاب الذي أنذرناكم في الدنيا ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أقروا به بل صاروا يقسمون بالله أنه حق.. ربما تصوروا أن ذلك سينفعهم ﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ لا محيص عن العذاب الذي كانوا في الدنيا يكفرون به.

﴿٣٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ﴾ الخطاب لمحمد ص ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أهل الثبات والصبر، وقوة الإرادة، مثل نبي الله نوح، ونبي الله إبراهيم ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ العذاب لقومك ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ هذا تعبير عن قرب العذاب المعد لهم في الآخرة، وحين يرونه يتصورون أنهم ما لبثوا في بطن الأرض أي من بعد موتهم إلا ساعة من نهار.

﴿بَلَـٰغٌ﴾ هذا القرآن بلاغ وإنذار لهم يبلغهم ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ بعد هذا البيان، وهذا الإنذار، وهذه الحجج الواضحة ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الفجرة الخبثة البعيدون عن قبول الحق.

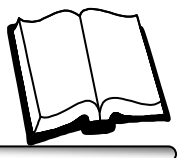

التيسير في التفسير

سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أبطل فائدتها، وهذا قد يعم الأعمال التي يقدّر أن فيها ثواباً مثل إطعام الجائع وإغاثة الملهوف، وكذا الأعمال التي يعتقدون أنهم سينتصرون بها مثل الإنفاق في الحرب، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال:٣٦] فالإنفاق هذا باطل ما انتفعوا به أي أن قوله: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أعم من مجرد الإحباط.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بهذا القرآن الذي أنزل على محمد ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ القرآن الحق من ربهم ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ يعني: أنها مغفورة وكأنها مغطاة لا يرونها ولا تذكر لهم يوم القيامة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ إما بمعنى حالهم التي يكترث بها ويهتم بها، وإما حالهم بمعنى ضميرهم ليكون ضميرهم صالحاً أي نياتهم ويقينهم مثل ما قال في الدعاء: ((اللهم بلغ بإيماني أكمل الإيمان وأجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيتي إلى أحسن النيات)).

﴿٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ هذا هو السبب في إحباط عملهم أنهم اتبعوا الباطل، والسبب في

ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ۝٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ

تكفير سيئات المؤمنين أنهم اتبعوا الحق من ربهم ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَالَهُمۡ﴾ الأمثال هنا يعني كأنه يجعل لهم قواعد وقوانين يبينها للناس فمثلاً: الذين كفروا لّما بين سبب إضلال أعمالهم فإن هذا يشمل كل من وقع منه الكفر والصد عن سبيل الله، وكذلك الذين آمنوا يشمل كل من وقع منه الإيمان والعمل الصالح والإيمان بما نزل على محمد، كأنها قواعد كلية نافعة، وكلمات جامعة.

۝٤ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ كأنه تفريع على إبطال أعمال الكفار. فعند المبارزة والقتال اضربوا رقابهم ضرباً ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أبطلتم قوتهم وانهاروا كالمريض المثخن ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ قد حان وقت الأسر ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ﴾ بعد الأسر هذا الذي هو بعد الإثخان ﴿مَنَّۢا﴾ تمنون عليهم بإطلاقهم بدون فداء ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ أن تطلقوا سراحهم مقابل فدية يدفعونها. تقبلوا منهم فدية وتطلقوهم بها ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ هذا الشأن كله ابتداء من الأمر بضرب الأعناق حتى يثخنوهم ثم الأسر يطبق هذا القانون مادامت الحرب قائمة، لأنه قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم هكذا فيهم بسبب أن الله أراد ابتلاءنا بعضنا ببعض ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ لأهلكهم بغير حرب ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾ يبلوكم بالقتال ويبلوهم كذلك ليكون عقاباً عاجلاً لهم، لعلهم

عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ

يرجعون؛ لأنه قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:١٤] ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القتال فائدة لكم لأن الذين قاتلوا في سبيل الله لن يضل أعمالهم لا يضيعها عليهم بل ستحفظ لهم وتنفعهم يوم القيامة وكذلك تنفعهم في الدنيا، وهذا التفسير يتناسب على القراءتين، أما ﴿قَاتَلوا﴾ فواضح، وأما ﴿قُتِلُوا﴾ فالمعنى: أصيبوا بقتل بعضهم.

﴿٥﴾ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ هداية في الدنيا بسبب الجهاد؛ لأنه قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩] ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ يمكن أن الأقرب في هذا إصلاح ضمائرهم باليقين والإخلاص أو يصلح بالهم يصلح حالهم بمعنى يعيشون حياة طيبة.

﴿٦﴾ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ هذا بسبب أنهم جاهدوا في سبيل الله ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أحد المعنيين إما عرفها لهم بمعنى: أنه يدخل وهو عارف لمتلكاته وجناته وقصوره وكل ما أعد الله له. وإلا عرفها لهم من العَرْف لأن عَرفها طيب قالوا ريحها يوجد من مسير خمسين سنة، والإمام الهادي فسر العرف في ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ بهذا من العرف أي الطِّيْب قال: بمعنى طيبها لهم، ولكنه فسر الطيب مرة ثانية بإكمال ما فيها من النعيم ولم يخصه بالرائحة الطيبة.

﴿٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ هذا حث على الجهاد ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ بأن تجاهدوا في سبيله لإحياء دينه وحماية دينه، فهو سينصركم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في الجهاد يعني يثبت أقدام الإنسان مثل ما قال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢] لأن الإنسان إذا ثبت كان أقرب إلى السلامة من بأس العدو، وإذا تعثر وسقط كان مظنة أن يقتل في الحال.

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ

﴿٨﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ هذا دعاء عليهم بالتعس، أي بالهلاك اللازم دلالة على غضب الله عليهم ﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أبطل عليهم منفعتها وفائدتها.

﴿٩﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لأنهم كرهوا القرآن الذي أنزله الله ﴿فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ لما كرهوه، فهذا سبب لضلال أعمالهم، وكفرهم، لأنهم لو أحبوه لآمنوا به واهتدوا.

﴿١٠﴾ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الذين كذبوا رسلهم وكفروا بما أنزل الله كيف كان عاقبتهم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ لأن آثار الدمار لبيوتهم وقراهم لا تزال باقية على الطرق بعضها على طرقهم حين يسيرون في الأرض ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ هؤلاء الكافرون سيحل بهم ما حل بأمثالهم من الأولين، كما قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٢].

﴿١١﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إهلاك الأعداء ونصر المؤمنين ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذي يتولى رعايتهم الحسنة ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ لأنه وان كان مالكا لهم لكنه قد تركهم من حسن الرعاية، لأن المولى هنا من الولاية التي هي حسن الرعاية مثل ما قال في الدعاء: ((اللهم أهدني فيمن هديت، وتولني فيمن توليت)) ومثل ما قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦] أي يحسن رعايتهم ويتولى شئونهم لإصلاحها.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ هذه السعادة الأبدية التي ينبغي أن يسعى لها الإنسان لأنها جمعت بين سلامة من النار ونعيم دائم في الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في هذه الدنيا ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ بما أنعم عليهم وهو متاع قليل يعني عجالة تنتهي هذا شأن المتاع يكون عجالة تنتهي عن قريب ﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ لأنهم لا يدرون ما يفعل بهم لجهلهم بما يصيرون إليه من العذاب الشديد فأشبهوا الأنعام التي تأكل ولا تعلم أن السكين ينتظرها لتذبح ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ هم منهمكون في التمتع بالمأكل والمشرب في الدنيا غافلين عن الآخرة بينما مقرهم ومثواهم المعد لهم هو النار فهذه حالة سيئة جداً حينما لا يتلافون أنفسهم ويتوبون إلى الله.

﴿١٣﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ بمعنى وكم من قرية ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ أشد من مكة ومن قوة أهل مكة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أهلكناهم حين كذبوا الرسل وهموا بهم، وقد قامت عليهم الحجة ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ ما بقي معهم ناصر لا من شركائهم ولا غيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ ليس سواء المؤمن الذي على بينة من ربه، وهي القرآن الذي جعله

وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ

الله بينة تدل على طريق الحق وتهدي الإنسان، فالإنسان المتبع له يكون على بينة من ربه ليس ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لأن الشيطان زين لهم ذلك العمل السيئ، ولأنهم يهوونه اتبعوه دونما دليل ولا حجة على صحة عملهم ذلك، فلا يستوي هو ومن كان يعمل ما يعمل وهو على بينة من ربه، هذا يدل على أن الإنسان لا ينبغي إلا أن يكون على بينة من ربه فيما هو عليه من دينه لا ينبغي أن يكون لمجرد الهوى أو العصبية.

﴿١٥﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ هذا وصفها وسماه مثلاً ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ في كثير من الآيات القرآنية يقول: أعدت للمتقين، جعلها للمتقين، وقد وصف المتقين في (سورة آل عمران) حين قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا..﴾ [آية:١٣٣-١٣٥] إلى قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ..﴾ [آية:١٣٥-١٣٦] إلخ.

هؤلاء المتقون الذي لا يصرون على المعاصي وإذا زلوا تابوا، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] هذا وعد الله للمتقين ﴿فِيهَآ أَنْهَرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ ليس فيه رائحة سيئة أو تغير شيء من أوصافه ﴿وَأَنْهَرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ كذلك لازال طرياً على أصله.

إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ

﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ الذي يشربها يجد فيها لذة ليست كريهة فيشربها للتلذذ بشربها﴿وَأَنْهَرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ خالص من الشمع ومن الشوائب ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أنواع الثمرات وهي كثيرة جداً الفواكه وغيرها ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ ولهم فيها مغفرة من ربهم وهي أفضل ما هنالك، فبها ينجون من العذاب ويخلدون في الجنة لأنهم صاروا في رضوان الله ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ أهم سواء، هذا وصف للجنة التي وعد المتقون فهل يستوي حال من هو خالد في النار مع حال من هو خالد في الجنة؟ كلا.. لا يستوون ـ نعوذ بالله ـ الخلود في النار أمر عسر جداً، لو لم يمكث فيها المعذب إلا يوماً واحداً لكان ينبغي أن يحذره طول عمره فما بالك إذا كان مئات السنين وآلاف السنين ملايين السنين ـ نعوذ بالله ـ ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ مقابل شراب أهل الجنة الأنهار المذكورة.

﴿١٦﴾ ﴿وَمِنْهُم﴾ هؤلاء الكفار ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ حين تقرأ القرآن وحين تأتي الناس بالهدى من عند الله تبلغهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ ماذا قال قبل قليل ؟! بينما لم يخرجوا من عنده إلا قبل لحظات، هكذا يكون حال الواحد منهم لأن قلبه غافل، ولا اتساع فيه للموعظة ولا رغبة لديه في الهداية بل يمر على مسامعه ولا يفهمه أو ينسى بسرعة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ختم عليها فلا يدخلها الهدى هذا تمثيل فقط ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ هذا هو السبب في ذلك اتباع الهوى هو الذي أضلهم كما قال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴿١٨﴾ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ﴾ حين يستمعون إليك ﴿زَادَهُمۡ﴾ الله بسبب الاستماع ﴿هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ كأنه بمعنى آتاهم إما هداهم للتقوى في الدنيا، أو آتاهم ثواب تقواهم في الآخرة.

﴿١٨﴾ ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةً﴾ لأنهم يستمعون إليك ولم ينتفعوا بالقرآن الذي هو الحجة الواضحة والآية البينة فظلوا فقط ينتظرون القيامة ليتأكدوا من صدق مجيئها!! ﴿فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَا﴾ هي قريب؛ لأنه قد جاء أشراطها الشروط التي لا يمكن أن تجيء إلا بعد تحققها وهي الإنذار والتبشير وإقامة الحجة على العباد، كما قال: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ فأشراط قيام الساعة قد وقعت ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ﴾ فكيف يصح أن يتذكروا ويهتدوا بعد قيام القيامة؟ فالتفكير حينئذ لا ينفع، والتوبة غير مقبولة.

﴿١٩﴾ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ يا رسول الله ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كما أنزل الله في القرآن ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ والإستغفار من الصغائر التي تجوز على الأنبياء واستغفاره للمؤمنين سكنٌ لهم ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ والله يعلم ما أنت عليه وما عليه الكفار فهو يعلم أين تتقلبون وأين تصيرون في الدنيا ويعلم مثواكم في الآخرة، الذي هو المثوى الحقيقي الدائم، ويمكن أنها عامة مثواهم في الدنيا ومثواهم بعد الموت ومثواهم في الآخرة لكن من الغلط قولهم: ((شيع الميت إلى مثواه الأخير)) هذا كفر بالآخرة لأنه ليس بالأخير، وقد تكون هذه العبارة مأخوذة من كلام الكفار.

مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ٢١ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن

---

٢٠ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ **لأنهم يزدادون هدى وإيمانا فهم يكونون راغبين في نزولها** ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ **الذين في قلوبهم شك ممن هم فاقدون للإيمان، لكراهتهم للقتال في سبيل الله عند ما تنزل آية يذكر فيها الأمر بالقتال فمن شدة كراهتهم للقتال ينظرون إليك كما ينظر المغشي عليه من الموت الذي يشخص ببصره إلى جهة واحدة لا يتحول عنها وذلك غضب منهم على الرسول ص** ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ **دعاء عليهم بمعنى: كيد لهم.**

٢١ ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ﴾ **كأنه بمعنى أنهم يعدون بالطاعة ويظهرون الطاعة والقول المعروف خداعاً** ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ **فهم إنما يتمظهرون بالطاعة والقول المعروف لكن وقت الجد والصدق في مواقع الجهاد تتبخر تلك المظاهر الزائفة ويتلاشى ذلك الحماس ويلوذون بالفرار، مع أن الأفضل لهم أن يصدقوا مع الله ويثبتوا وقد رفع قوله:** ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ﴾ **على أنه الخبر والمبتدأ محذوف تقديره: شأنهم أو أمرهم طاعة معروفة وقول معروف. هذا احتمال والاحتمال الثاني أن يكون معنى قوله:** ﴿فَأَوْلَى لَهُمْ﴾ **أي أحق لهم وأحسن وأفضل لهم طاعة وقول معروف لكن على هذا الاحتمال لا يصح أن يترتب عليه قوله:** ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ

﴿٢٢﴾ ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أيها المنافقون أمور الناس وصارت مقاليدها بأيديكم ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ وهذا السؤال كأنه سؤال تقرير، على أنهم إن تولوا سعوا في الأرض فساداً، وقد كانوا كذلك عندما تولوا، والكل يعرف تاريخ (بني أمية) وظلمهم لأهل البيت عليهم السلام.

﴿٢٣﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل هذه الصفة الذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ أي طردهم من رحمته فخذلهم وأضلهم بالخذلان فلا يسمعون الحق سماع انتفاع ولا يبصرونه كذلك.

﴿٢٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ دليل على أن القرآن معد ليفهموه لو تفهموا لكنهم معرضون عنه ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ كأن على قلوبهم أقفالاً ما تتفتح ليدخلها القرآن وتفهمه ربما لشدة كراهتهم للقرآن.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾ هؤلاء المنافقون كأنهم ارتدوا عن الإيمان مع أنهم قد رأوا الهدى في القرآن وبان لهم أنه من الله وبعد هذا ارتدوا ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ﴾ سهل لهم الردة وهون أمرها عليهم ﴿وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ الإملاء الإمهال كأنه مد لهم في الآمال بمعنى مناهم طول العمر.

لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ

﴿٢٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي للكفار ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وبهذا صاروا مرتدين ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ يعلم إن كانوا أسروا هذا القول للكفار.

﴿٢٧﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ عقوبة عاجلة إذا توفتهم الملائكة يعذبونهم عند الوفاة.

﴿٢٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ أي بسبب أنهم اتبعوا ما اسخط الله أي أغضبه ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ وكرهوا ما يرضيه ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ التي كانوا عملوها قبل ردتهم.

﴿٢٩﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أم بمعنى بل والهمزة: بل أحسب الذين في قلوبهم مرض النفاق وسوء النية ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ الضغن الحقد لعلها أحقادهم على الرسول وعلى المؤمنين هل ظنوا أن لن يظهر الله تلك الأضغان.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أريناك المنافقين هؤلاء واحداً واحداً بطريقة واضحة ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾ بعلاماتهم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فلتات اللسان التي تدل على نفاقهم من الكلام الذي يبدي ما يضمرون من الشر، كما قال أمير المؤمنين: ((ما أضمر أحد شيئا إلا ظهر على صفحات وجهه وفلتات لسانه)) ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ كلكم المؤمن والمنافق وغيره.

مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ

﴿٣١﴾ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمر بالجهاد في سبيل الله ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ حتى يبين خبركم، فيعرف المجاهد الصابر، ويتميز عن القاعد غير المجاهد ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ كأن معناه: نعلم سرائركم لنجازي عليها، وإما بمعنى: ما أُخْبِرَ به عنكم، أو ما تخبرون به عن أنفسكم وهو الأظهر، لأنهم يقولون: طاعة وقول معروف، فتوعدهم بالتمحيص ليتبين الصادق من الكاذب.

﴿٣٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أعرضوا عن سبيل الله أو صدوا غيرهم ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ عارضوه وعاندوه وكأنهم من المنافقين ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ في القرآن لأن فيه الحجة البينة ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ ليسوا مبطلين لدينه ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فهذا يظهر أن المعنيين بذلك هم المنافقون، حيث قال: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لأنهم كانوا قد أسلموا مثل ما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

﴿٣٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ احذروا أن تبطلوا أعمالكم بالنفاق ومشاقة الرسول كما فعل هؤلاء المذكورون.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ يحذرنا من أن نحذو حذو هؤلاء الذين كفروا وصدوا، أي أعرضوا عن سبيل الله بعد ما كانوا قد آمنوا ﴿ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ ما رجعوا بل أصروا على ما هم عليه حتى ماتوا ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنهم ما توا قبل أن يتوبوا.

ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿٣٥﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾رجع الأمر إلى الجهاد حين حث على الجهاد في قوله: ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ ﴿فَلَا تَهِنُوا۟﴾ الوهن: اللين ضد الصلابة، أمرهم بأن يستمروا في صلابتهم في دين الله وضد أعداء الله ﴿وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ الصلح ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ والحال أنكم الأعلون بنصر الله، وكونه معكم لأنه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون وفي هذا نهي واضح عن طلب الصلح حتى ولو كانوا ضعفاء في العدة والعدد لكون الله معهم، والقصد النهي عن طلب السلم وليس نهياً عن قبوله إذا عرض عليهم، كما قال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ الله غير مضيع لأعمالكم، والموتور هو الذي يُقتَل قريبه يسمونه موتوراً والذي يحبط عمله ويبطل عليه يشبّه بالموتور.

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هذا ترغيب في الجهاد لكون الدنيا ليست بشيء وإنما هي متاع قليل ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ إذا آمنتم واتقيتم الله يعني لا يسألهم أموالهم كلها، بل المطلوب أن ينفقوا بعضاً منها .

﴿٣٧﴾ ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يستقصي عليكم في تسليمها كلها ﴿تَبْخَلُوا۟﴾ بها وترفضوا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ أي بسبب طلب المال كله يقع ضعنكم على الرسول ص.

تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿٣٨﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **فبين أنه بالنسبة للإنفاق في سبيل الله فإنهم مدعوون إليه لكنه لا يستقصي عليهم بإنفاق المال كله** ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ **يرفض الإنفاق** ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ **لأن الإنفاق فائدته لنفسه، والجهاد كذلك منفعته عائدة عليه في الدنيا عزة وتحرراً، وفي الآخرة ثواباً وأجراً عظيماً.** ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ﴾ **ليس بحاجة إلى إنفاقكم** ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ **إليه، المحتاجون إليه.**

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾ **عن الطاعة** ﴿يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ **البدل لا يكونون أمثالكم يبخلون إذا دعوا إلى الإنفاق في سبيل الله، ويتثاقلون عن الجهاد إذا دعوا لمقاتلة أعداء الله بل يجاهدون وينفقون في سبيل الله.**

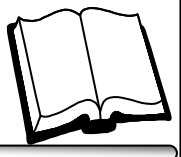

التيسير في التفسير

سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا﴾ إن الله جل جلاله وعظمته وقدرته وعلمه ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ فتح لرسوله ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ فتحاً بيناً كما وعده.

واختلف المفسرون في الفتح هذا قال بعضهم: إنه فتح الحديبية، وبعضهم قال: إنه فتح مكة، وهو الأقرب: أنه فتح مكة، وهو الذي قد كان رأى أنه ص فتحها كما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ﴾.

والحديبية هي كانت قبل، حيث كان النبي ص وصل الحديبية وهي حول الحرم يريد دخول مكة للعمرة ومعه جيش كبير، فعلم المشركون بمقدمه، واعتبروا دخوله بذلك العدد مجرد عرض قوة، فأخذتهم الأنفة وحمية الجاهلية، وهموا بقتاله إذا أصر على الدخول، ولحرص النبي ص على قداسة الحرم، وأمله أن يفتحها بأقل قدر ممكن من القتلى لحرمة الحرم، ولأنه منذ البداية لم يأت لقتال فقبل بالمصالحة على أن يعود هو ومن معه هذه السنة ثم يدخلوا في السنة القادمة ومعهم السيوف في أغمادها ويعتمروا ويبقوا في مكة ثلاثة أيام ثم يعودوا، وتحقق كل ذلك.

ثم إن قريشاً نكثت عهدها مع النبي ص حينما أعتدت على قبيلة خزاعة المتحالفة مع النبي ص فقرر ص دخول مكة وفتحها عنوة ففاجأهم بالهجوم بقوة كبيرة وكان الفتح المبين وبقليل من القتلى كما كان يطمح ص فهذا هو الفتح المذكور في الآية ـ والله أعلم.

نَصۡرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

۝٢ ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ لأن المجاهد يغفر له كما قال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ [الصف:١٢] ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بتمكين دين الله وكثرة المسلمين وقوتهم ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ زيادة على ما قد هداه من قبل يضيف له هداية في بقية عمره إلى الصراط المستقيم.

۝٣ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ لأنه بالفتح فتح مكة انتشر الخبر في أرجاء الجزيرة العربية وشكل خطوة كبيرة للدعوة الإسلامية ارتفعت به معنويات المسلمين وتحطمت شوكة المشركين المعاندين.

۝٤ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يمكن أنه أنزلها وقت دخول مكة لتهدأ نفوسهم دون الأخذ بالثأر ممن كان قد ظلمهم من كفار قريش قبل الهجرة أو أنه أنزلها في الحديبية، لأنه تحول الموضوع إلى قصة الحديبية، حيث نزلت السكينة ليطمئنوا إلى الرضا بالصلح، لأنه حصل امتعاض كبير لدى المسلمين بسبب الصلح واعتبروه مذلاً لهم فأنزل السكينة عليهم لتسكن نفوسهم إليه ويرضوا به والأول أقرب.

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۗ﴾ لرضاهم بحكم الله ورسوله، لأنه من خصال الإيمان ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جنود السموات الملائكة، وجنود الأرض المؤمنون المجاهدون ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليما بما تقتضيه الحكمة عليماً بكل شيء وحكيما في أفعاله وأمره وتصرفاته.

خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ

﴿٥﴾ ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الذين جاهدوا معك ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كأنه تعليل للفتح أي كان الفتح ليغفر لك وليدخل المؤمنين..الخ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بفضل الجهاد ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ هو الفوز العظيم لأنها السعادة الدائمة أما الدنيا فلو نال الإنسان منها ما نال فهي إلى زوال.

﴿٦﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ هذا في مقابل قوله: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ..﴾ إلخ ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ يعذبهم في الآخرة يدخلهم النار وقد يعذبهم كذلك في الدنيا عذاباً عاجلاً ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ كأنهم لم يكونوا مصدقين بأن الله سوف ينصر رسوله، ويعز دينه وكانوا متربصين بالإسلام والمسلمين. وينتظرون غلبة الكفر.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ حلت عليهم هم لا على رسول الله ص والمؤمنين وهذا دعاء عليهم ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ على المشركين والمنافقين ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ طردهم من رحمته كأن ذلك من جملة عذابهم في الدنيا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ نعوذ بالله ما أسوأها من مصير.

﴿٧﴾ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعز بهم دينه ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ هو عزيز حكيم وهذه صفة لازمة له جل وعلا وليس بحاجة إلى جنود السموات والأرض ليعتز بهم.

وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَۚ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝١٠ سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا

۝٨ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ على من رأيت من قومك، لأنه قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] يشهد يوم القيامة على من رآه بما رآه إما خيراً وإما شراً ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تبشر المؤمنين بالجنة، ونذيراً تنذر أعداء الله بالنار.

۝٩ ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أرسلنا الرسول لهذا الغرض لتؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ تعضدوه، وتنصروه، وتقووه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ تعظموه أي الرسول ص، كأن الضمائر هذه عائدة للرسول ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ تسبحوا الله التسبيح هو التنزيه لله سبحانه عن كل نقص ﴿بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ بكرة أول اليوم من الصباح، وأصيلا من بعد الظهر إلى وقت المغرب، والتسبيح هو من أفضل الذكر لما يعنيه من التقديس والتنزيه والتعظيم له جل وعلا، وقد خصه الله بالذكر في قوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢].

۝١٠ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ هذا الكلام عن (بيعة الحديبية) ومعنى مبايعتهم لله التمثيل لتحقيق أنها له، وكانت مبايعة على الثبات في القتال مع الرسول ص حتى النصر أو الشهادة ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ العهد هذه البيعة ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ ضرها عليه ﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ﴾ أن يثبت ولا يفر ﴿فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وعندما هرب بعضهم ناداهم العباس بأمر النبي ص في يوم حنين كما روي: يا أهل الشجرة، ذكَّرهم العهد فقالوا: لبيك.. لبيك، ورجعوا مسرعين.

فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ

﴿١١﴾ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ المخلفون: الذين آثروا البقاء في بيوتهم وتخلفوا عن الخروج للقتال مع المجاهدين ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ اعتذروا بأنهم كانوا منشغلين عن الخروج بالأموال والأهالي فتخلفوا لذلك ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ هم ليسوا حريصين على أن يستغفر لهم وإنما يريدون تغطية نفاقهم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾ حين يطلبون أن يستغفر لهم ﴿مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ وهو عدم المبالاة بنتيجة تخلفهم ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ يخوفهم من الله، أي من هو الذي سيدفع عنكم عذابه إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا؟ الأمر له فيكم ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ رد على اعتذارهم، فهو عالم بخُبْرِكم، وما تكنه صدوركم، وبكذبكم في دعوى الاشتغال بالأموال والأهلين.

﴿١٢﴾ ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ أظهر العليم الخبير ما تكنه صدورهم وبين السبب في تخلفهم عن الخروج للجهاد، وهو أنهم قد اعتقدوا أن تلك المعركة ستستأصل شافة المسلمين، ويقتلون عن آخرهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ لكراهتكم للإسلام ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ وهو أن دين الله سينتهي ونوره سينطفئ ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وكنتم قوما هالكين فاسدين في دينكم لستم أهل دين أصلاً.

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى

﴿١٣﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بل نافق وأظهر خلاف ما يبطن ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ سواء نافق، أو أظهر كفره.

﴿١٤﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك له في العالمين كلهم ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذا أراد أن يعذبكم فالأمر له، ومشيئته على الحكمة، وليست اعتباطا أو مجرد صدفة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب إليه ورجع إليه، هو يفتح باب التوبة لمن عصاه.

﴿١٥﴾ ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ هؤلاء الذين تخلفوا أول مرة، سيقولون في المستقبل وحينما تكونون قد وعِدتم بغنائم في معركة ما ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ دعونا نخرج معكم نجاهد لننال من الغنائم ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الذي قال: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة:٨٣].

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ هو كلام لا يتبدل يعني في منع الخروج معه ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ لا تريدون أن ننال من الغنائم حسداً لنا ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأنهم قد سمعوا أنه قد قال قبل: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا..﴾ الخ، وعلموا أنها عقوبة على قعودهم.

بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٦ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٧ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ

---

١٦ ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ﴾ **قل يا رسول الله لأولئك الذين قالوا:** ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡ﴾ **ستدعون في المستقبل** ﴿إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ **فإن أسلموا كفيتم مؤنة القتال** ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ **يقال: إنه جيش أسامة الذي دُعُوا أن ينفذوه في مرض رسول الله ص، فتخاذلوا رغم إلحاح النبي ص في تنفيذه وتحذيره من التخلف عنه.**

١٧ ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ **في عدم الخروج للقتال، لكن بذلك الشرط المذكور في (سورة التوبة):** ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٩١].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ **بأن يجاهد في سبيله ويقوم بواجبه إذا قد وجب عليه الجهاد** ﴿يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ **ليست مسألة الجهاد مسألة مزاج، بل من يجاهد يدخل الجنة، ومن يتول يدخل جهنم بدون تأويلات ولا تعليلات لأن الدين لم يقم إلا على الجهاد ولولاه لكان الإسلام أثراً بعد عين كما قال الله تعالى:** ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا

﴿١٨﴾ ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذه تسمى (بيعة الرضوان) لما بايعوا النبي ص تحت الشجرة، لكن الرضا من الله إنما هو عن المؤمنين، وليس عن كل المبايعين على ما يظهر؛ لأنه قال: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من النية على الثبات والصبر في الجهاد ومن كانت نيته كذلك فهو مؤمن مرضي عنه ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ للرضا بحكم الله ورسوله في القبول بالصلح، والعودة من الحديبية واطمأنوا إلى هذا، مع شعورهم بقوتهم وتمكنهم من اقتحام مكة وفتحها. ولكن الأمر أمر الله ورسوله فاطمأنوا إليه وسلموا تسليماً حينما نزلت السكينة ﴿وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أعقب تلك الحادثة فتح مكة.

﴿١٩﴾ ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ كأنها غنائم يوم حنين وكانت كثيرة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ عزيزاً لا يُنال، وحكيماً في أفعاله وأقواله وتصرفاته كلها على ما تقتضيه الحكمة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وعد المسلمين مغانم كثيرة وتحقق الوعد في فتوح الشام، فحصل لهم مغانم كثيرة جداً جداً ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِۦ﴾ غنائم حنين ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ في وقعة حنين وقد كانت تجمعت قبائل كثير ضدهم يقال: إنهم كانوا أربعة وعشرين ألفاً، كانوا قد تجمعوا ليحاربوا النبي ص فنصره الله عليهم، وكانوا قد جلبوا إلى المعركة غنمهم وبقرهم وأنعامهم ليقاتلوا قتال المستميت دون ماله، فكانت غنائم للمسلمين.

قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان هذا النصر وهذه الغنائم التي حصلت على ما وعدهم به..آية وعبرة للمؤمنين ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ كمال الإيمان وطاعة الرسول.

﴿٢١﴾ ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ ووعدكم مغانم أخرى مما لم تقدروا عليه حينئذ ولكن قد أحاط الله بها تعبير عن تهيئة أسبابها حتى كأنها في اليد ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فثقوا بوعده.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ الراجح أنه يوم الحديبية حين تصالحوا كان الكفار قد أظهروا أنهم سيقاتلون إذا لم يرجع النبي ص، فلو قاتلوكم لولوا الأدبار، لكن الرسول ص لا يريد أن يكثر القتلى في مكة ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لو قاتلوكم لقتلوا وهربوا وشردوا ولا من ناصر ولا ولي لهم.

﴿٢٣﴾ ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾ في نصر الله لأنبيائه ورسله، كما قال: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ**﴾ [غافر:٥١] سنته نصر الرسل والمتبعين لهم ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لا تتبدل أبداً.

﴿٢٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هو الله سبحانه بحكمته وألطافه كف أيديهم عن قتالكم

ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥ إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ

حيث قذف الرعب في قلوبهم حتى سارعوا إلى الأمان، حين قال لهم النبي ص: ((من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن)).

وكل ذلك بحكمة الله سبحانه، وكف أيديكم عن مقاتلتهم بعد أن أعلن أحد من كان مع النبي ص اليوم يوم الملحمة، فرد عليه النبي ص: كلا.. اليوم يوم المرحمة، وأعلن الأمان على ما سبق وحين اجتمعوا عنده قال لهم: ما أنتم قائلون؟ قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢] اذهبوا فأنتم الطلقاء، والقصد من هذا كله أن النبي ص أراد أن لا يكثر القتل عند الكعبة احتراماً لها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ يدبر لأعمالكم ما يناسبها وما يليق بها من الجزاء ونحوه.

٢٥ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ﴾ صدوكم عن العمرة (يوم الحديبية) وصدوا الهدي حال كونه ﴿مَعۡكُوفًا﴾ محصراً وقد كان موجوداً مع النبي ص ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ منعوه من بلوغ محل نحره وكأنه بعد إبرام الصلح تم الإتفاق على السماح بنحره في طرف من الحرم، فنحروا وتحللوا من الإحرام ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ﴾ في مكة ﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ لم تعلموا بأنهم قد آمنوا فيما لو دخلتموها بالقوة والحرب ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ تدوسهم أقدامكم، كناية عن هلاكهم بمعرة الجيش

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لأنه ضرر عليكم حين تقتلونهم إما لأنهم نقص من المؤمنين، أو لأجل السمعة حين يقولون قتلهم وهم قد آمنوا فيشوهون بذلك سمعة الرسول والمسلمين عموما فهذه هي المعرة كما يظهر، وهناك من يقول أن المعرة هي الدية، ولكن لا نستطيع أن نجزم بلزوم الديه وهم لا زالوا قاطنين بين الكفار ولما يتميزوا عنهم ـ والله أعلم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ حين فتح مكة بالطريقة تلك التي كف أيديهم عنكم ليهتدي ويسلم من هداه الباري للإسلام ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ أي أولئك الذين كانوا قد آمنوا لو تميزوا عن الكفار بحيث لا يكون قتلهم خطأ وارداً ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لسلطناكم على الكفار لتقتلوهم شر قتلة.

﴿٢٦﴾ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ﴾ بسبب أنفتهم من أن يدخل النبي ص مكة في تلك الكثرة والقوة، قد أمتلؤا حمية وغضباً ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لتطمئن قلوبهم إلى الصلح والرضا به ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وهي (بسم الله الرحمن الرحيم) بعد أن رفض الكفار إثباتها في عريضة الصلح لعدم إيمانهم بالرحمن، ولكن المؤمنين لزموا هذه الكلمة (البسملة) حتى وإن لم تثبت خطاً في وثيقة الصلح ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ على مقتضى علمه بالحكمة من الصلح حتى لو بدا مؤلماً للمؤمنين في بعض بنوده فوفقهم سبحانه لالتزام كلمة التقوى فكانوا أحق بها وكانوا أهلاً لها دون الكفار المعاندين.

صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾

﴿٢٧﴾ ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ هذه الرؤيا لما كان قد رأى النبي ص من قبل أنهم يدخلون مكة إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين بعد الإحرام ﴿فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ﴾ علم مما تقتضيه الحكمة ما لم تعلموه أنتم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحًا قَرِيبًا﴾ فجعل من دون ذلك الفتح الذي هو تصديق للرؤيا وهو الفتح البين جعل من دونه فتحاً قريباً يمكن أن يكون (فتح الحديبية) باعتبار أنه كان بمثابة خطوة أولى في طريق الفتح الكبير كونه طرح قضية دخول مكة -ولو في العام القادم- كأمر واقع حيث تنازل الكفار قليلاً عن تكبرهم لما ظهر لهم من قوة المسلمين وأذعنوا للأمر الواقع وهو الدخول في العام المقبل والله أعلم.

﴿٢٨﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ فالرسول ص، صادق في رؤياه لأن الله أرسله بالهدى ودين الحق، كأن هذا رد على الذين كانوا قد تشككوا في صدق الوعد بالدخول لما قالوا: كيف يمكن أن نرجع من الحديبية وقد وعدنا أننا سوف ندخل المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسنا ومقصرين؟

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يظهر دين الإسلام على الأديان كلها - حسب تسمية أهلها لها دينا وإلا فلا يوجد دين حق إلا دين الإسلام.

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

أما بالنسبة لإظهاره على الأديان فقد أظهره الله واستمر على قوته وظهوره فترة من الزمن حتى قامت الحجة على أهل الأرض حين بلغهم القرآن الكريم ولا يلزم لصدق وعد الله بإظهاره أن يدوم كذلك ولكن تبقى فيه القابلية للظهور والغلبة متى ما جاء من يؤمن به فكراً ويطبقه عملاً ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على الرسول والمؤمنين وعلى الكفار.

﴿٢٩﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ هذه صفتهم وأرى أن قوله: محمد مبتدأ وقوله: رسول الله ليس إلا صفة لمحمد، والخبر هو: أشداء على الكفار والذين معه هم المؤمنون القائمون معه المجاهدون ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أصحاب غلظة وقوة على الكفار، وهذه وما بعدها هي من الصفات المهمة التي يجب التأسي بهم فيها ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ لان ذلك من أعظم القوة التي يتحقق بها النصر على العدو وبدونه تتصدع قوتهم مهما توفرت الإمكانيات.

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أهل صلوات وتهجد وعبادة وليس فقط الصلوات المفروضة ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ بعبادتهم لله ﴿سِيمَاهُمْ﴾ علاماتهم ﴿فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ السجود لله، إما نور الوجه، وإلا أثر السجود يتبين ويظهر في الجبهة ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ﴾ وصفهم

الذي وصفوا به ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ هكذا على ما ذكر الله أنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً ﴿وَمَثَلُهُمْ﴾ ووصفهم ﴿فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أخرج فراخه، بعض الزرع مثل القمح (البر) حين تنبت الزرعة تكون وحدها ثم ينبت بجوارها فروع تقوم معها هذا الشطأ يعني الزرع الذي ينبت بجواره ويقوم معه من عروقه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾زاده قوة بتجمعه وتكاثفه كأنه يمتص غذاءه من الأرض بقوة ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ تكاثف وكثر ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ جمع ساق، هذا الزرع استوى كمل وتم نموه ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ هذا الزرع ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ يغيظ بهم بالرسول والمؤمنين يغيظ بهم الكفار لما تكاثفوا وتقووا إلى ذالك الحد. قوله ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قد يكون تعليلاً لقوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ وإنما القصد: يعجب الزراع تمام الوصف وصف الزرع.

وقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ قد يكون عائداً إلى الموصوف وهو محمد ص والذين معه، الذين شبههم بـ(الزرع) لأنهم بتكاثرهم وتكاتفهم صاروا قوة تغيظ الكفار ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ أي من رسول الله ص والذين معه وعدهم ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ و(من) هنا للبيان وليست للتبعيض ولا للكل ويجهل الذين يقولون: إذا كانت للبيان فيلزم أنهم كلهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن المقصود ليس إلا بيان أن من كان منهم بهذا الوصف فهو من أهل الجنة سواء كلهم أو بعضهم.

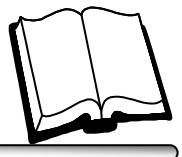

التيسير في التفسير

سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا أول الآداب التي يجب التزامها لتعاملهم مع الله ورسوله أن لا يقدموا لا يسبقوا بكلام بين يدي الله ورسوله إذا كان هناك موقف حضر فيه الرسول ص وحضروا عنده للبحث في موضوع ما، أن لا يسبقوا الرسول بالكلام بل يدعوه هو الذي يتكلم ص ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اتقوه بامتثال أوامره ونواهيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ما تكلمتم به وسبقتم به الرسول فهو سوف يسمعه لا يخفى عليه، هذا تخويف وتحذير بأنه سبحانه العالم ﴿يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل:١٩].

﴿٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ وهذا أدب ثاني إذا كانوا يتحدثون عند الرسول ص أن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته حتى لو جرى هذا الكلام فيما بينهم حين يكلم بعضهم بعضا بحضرته بل يلتزموا الأدب ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ إذا كلمتموه فلا ترفعوا الصوت بالمستوى الذي يكون منكم عند حديثكم لبعضكم البعض يعني اخفضوا أصواتكم عنده حين تكلموه وتأدبوا ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي لئلا تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون؛ لأنه قد يسبب قلة الأدب لحبوط عملهم هذه قالوا: نزلت في أبي بكر وعمر، رواها الناصر × في (البساط) ورواها غيره.

ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ **هؤلاء الذين يغضون أصواتهم بمعنى يخفضونها ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ تأدباً واحتراماً له وإجلالاً، فهؤلاء أهل التقوى الذين اختبر الباري قلوبهم وامتحنها للتقوى.**

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ **وهذا من قلة الأدب الذين ينادون الرسول ص من وراء الحجرات: يا محمد، يدعونه ليخرج إليهم، الحجرات أسوار تمنع الداخل وتستر أبواب البيوت ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ لأن من اللازم احترام الرسول ص، وأن ينتظروه إلى أن يخرج تلقائياً.**

﴿٥﴾ ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ﴾ **تركوا الاستعجال ﴿حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ﴾ يخرج الرسول تلقائياً ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ أفضل من قلة الأدب هذا ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فليستغفروا ويتوبوا وهو سيغفر لهم لا يعتقدوا أنه ذنب وخطيئة غير مغفورة لهم.**

﴿٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ **إذا جاء فاسق بخبر مهم فلا نقبله مباشرة بل نتبين هل هو صدق؟ أم كذب؟ لئلا نصيب قوما بجهالة حين نصدقه فنصيب قوما بسبب خبره الذي انكشف كذبه فقبول الخبر دونما تأكد من صدقه جهالة ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ حين ينكشف أنه كذب أو خطأ.**

ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى

﴿٧﴾ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ هذا مقدمة لقوله: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فيكم رسول الله ليس كغيره لأنه يتنزل الوحي عليه، وعنده نظر ثاقب ورأي صائب فلو كان يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم لأصابكم العنت، العنت شدة الضر ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ جعله محبوباً تأنسون به، لأن المؤمن يحب الإيمان ليدخل الجنة وينجو من النار ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ جعله حسنا جميلا في قلوبهم وهذا شأن المؤمن الذي يؤمن بالجنة والنار.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ الكفر: مثل كفر النعمة والجحود بالرسول أو بالقيامة كل هذا الكفر مكروه عندهم تنفر منه قلوبهم ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ كذلك الخروج عن طاعة الله إلى حد الخبث والفجور ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ عصيان الرسول فيما دون ذلك فهذه كلها قد كرّهها الباري لديهم وهذه نعمة من نعمه يتمنن عليهم ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ بسبب هذه النعمة قد صار الإيمان سهلاً، وإذا جاءت منهم زلة يتوبون.

﴿٨﴾ ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ فضلاً من الله حين أنعم عليهم بأسباب الجنة وما يؤدي إليها ونعمة عاجلة في الدنيا تصلح بها دنياهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور في مواضعها ويهدي من كان مظنة أن يهتدي على ما يعلم هو وعلى ما تقتضيه حكمته.

حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ

۝٩ ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ **طائفتان سواء كانتا جماعة في مقابل سلطة، أو طائفتان فئتان اقتتلوا فأصلحوا بينهما ليتركوا القتال، ويرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله على ما أمر كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾** [النساء:٥٩] **نمنعهم من القتال ونصلح بينهم بإرجاع قضيتهم إلى كتاب الله وسنة رسوله.**

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ فإن بغت بعد ما يتضح الحق لها وقد علمت أن الحق للطرف الآخر ورفضت ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ لأجل تترك البغي ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ حتى ترجع ﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلى الحق الذي في كتاب الله وسنة رسوله ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ فإن رجعت إلى الحق وتركت البغي ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ أصلحوا قضيتهم وحلوا مشكلتهم لئلا يرجعوا مرة ثانية إلى القتال ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ بمعنى اعدلوا يمكن أن يكون الأمر بالقسط عائد إلى الكل من المتنازعين والمصلحين فالكل مأمورون بالإقساط وهو العدل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ وهذا مرغب عظيم في الإقساط.

۝١٠ **﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ هذا ترغيب في الإصلاح إذا كان بين فئتين من المؤمنين بين طائفتين من المؤمنين اختلفوا في أي أمر أدى إلى القتال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ اتقوا الله رجاء رحمته، ورحمته هي دخول الجنة والسلامة من النار.**

وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿١١﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ لا يسخر رجال من رجال، هذه من الآداب التي أدب الله بها المؤمنين لكي يستمروا على المؤاخاة ويتوحدوا ولا يتفرقوا لأن الله قد نهاهم عن التفرق لأنه من أهم أسباب الضعف وإذا ضعفوا قوي عليهم عدوهم، ولهذا لا بد من ترك كل ما يؤدي إلى التفرق ولو كانت تبدوا أموراً بسيطة يتساهل الناس فيها مثل السخرية والغيبة، فهي تؤدي إلى التباغض، والتباغض يؤدي إلى التفرق ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ قد يكون يعني يقرب أن يكون الذي تسخر منه خيراً منك.

﴿وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ لا يسخر نساء من نساء ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّ﴾ عسى يقرب أن تكون تلك المسخور منها أفضل ممن تسخر منها قد تكون أحب إلى الله إذا كانت تقية مطيعة لله ورسوله ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ لا تطعنوا في أعراض بعضكم البعض لا يسب أحدٌ أحداً وعبر بالنفس لكون المؤمنين كالنفس الواحدة﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ نهي عن أن يدعو احد الآخر باللقب السيئ المذموم لأنه يعد إساءة إليه، وهو مما يؤدي إلى التفرق حتى ولو كان صاحبه قد استساغه لأن القرآن قد نهى عنه.

﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ كأنه يحذرنا أنا إذا لم نجتنب ذلك سينطبق علينا اسم الفسوق بعد ما كنا مؤمنين ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ من هذه الأشياء ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فقد ظلم وبهذا نعرف أنها ليست سهلة بل هي ظلم لكونه معصية.

ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿١٢﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ **لأن أغلب الظن يكون خطأ بعيداً عن الصواب** ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ **لأنك قد تظن به سوء وهو بريء فهذا إثم لأنه برئ.**

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ **لا تفتشوا عن الأمور التي لا يحب المؤمن أن يطلع عليها أحد** ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ **ولا يغتب المؤمن صاحبه المؤمن، هذه كلها تؤدي إلى فساد ذات البين بينما صلاح ذات البين هو مما أمر الله به في القرآن كما قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾** [الأنفال:١] **فالغيبة ربما أن النمام سمعك فمضى ينقل ذلك لمن اغتيب فيؤدي للشحناء ثم التفرق.**

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ **هذا تشبيه للمغتاب بمن يأكل لحم أخيه ميتا، كأنه يأكل لحم أخيه ميتا حين يهتك عرضه** ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ **هذا طبعاً أنكم تكرهون أن يأكل لحم أخيه ميتا، فكيف لا تكرهونه بينما هما سواء الغيبة وأكله لحمه ميتا، يعني يحق للمؤمن أن يكره اغتياب أخيه المؤمن كما يكره أكل لحمه ميتاً، وذلك من أبشع الصور التي قد يتصورها الإنسان فهو والمغتاب سواء لا فرق في البشاعة بينهما.**

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ **اتقوا الله توبوا إليه واتقوه باجتناب هذه الأشياء المنهي عنها وتوبوا إليه إنه تواب رحيم.**

عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

﴿١٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أصلكم واحد آدم وحواء ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ لأنه يعرف الإنسان بكونه من شعب كذا، ثم بكونه من قبيلة كذا، فهي طريقة للتعارف بين الناس ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ كانوا يتفاخرون بآبائهم الكفرة لكونهم ظلمة يسفكون الدماء، أو كانوا مطعمين الطعام يتفاخرون بهم وهم حِمم جهنم، بينما الفخر الحقيقي هو في الفضل والكرامة عند الله فمن كان أتقى فهو أكرم عند الله ولا يصح أن يستدل بها على نفي التفاضل لأن التفاضل في النعمة قد نص عليه القرآن قال الله تعالى في (بني إسرائيل): ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٤٧] فضلهم في النعمة حين جعل الرسالة والنبوة فيهم، بالنسبة للتفاضل بالأنساب هو من طريقة التفاضل بالنعمة فبعض الأنساب فيهم الكرم وفيهم الشجاعة وفيهم محاسن الأخلاق وفيهم الوفاء فتبرز فيهم هذه الصفات الحميدة أكثر من غيرهم من الأنساب فهذا إنما هو تفاضل في النعمة، بالنسبة لفضل (أهل البيت) هو فضل في النعمة من حيث أنهم مظنة الهدى والتقوى فيهم أكثر من غيرهم، يعني إذا نسبنا الفضل إلى جملتهم فهو فضل النعمة، وإن نسبناه إلى الأفراد منهم فعلى قدر التقوى يكون الفضل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ عليم بالمتقين وخبير بما في ضمائرهم.

﴿١٤﴾ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ هذا بداية بحث في تحديد مفهوم الإيمان، فهؤلاء الأعراب كانوا قد أسلموا وشهدوا بالشهادتين غير أنه لم يكن قد دخل الإيمان في قلوبهم، فرد الله عليهم: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ قد

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا

أسلموا حين شهدوا بالشهادتين يعني قد خرجوا من الشرك فتكون معاملتهم كمعاملة المسلمين والإسلام درجات أولها النطق بالشهادتين ثم درجة إسلام النفس لله بالقيام بالواجبات واجتناب المحرمات، ثم إسلام النفس لله أن يجعل كل أعماله وكل نياته على ما يرضي الله هذه الدرجة العليا، وهي تعم حتى المباحات لأنها بالنسبة له تكون تبعا للطاعات في نيته.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ هذه عبارة جميلة ليس فيها ما يؤيسهم من الإيمان أي أنه لحد الآن لم يدخل الإيمان في قلوبكم ويمكن أن يدخل فيما بعد، لأنهم كانوا حديثي عهد بالإسلام ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ بأن تؤمنوا وتتقوا ﴿لَا يَلِتۡكُم﴾ لا ينقص عليكم من أعمالكم شيئاً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ إذا رجع العبد إليه يوفر له أعماله ولا ينقص منها شيئاً ولا يمنعه ما قد سبق قبل التوبة من توفية الثواب.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ هذا رد على الأعراب حين قالوا: ﴿ءَامَنَّاۖ﴾ يحدد فيه مفهوم الإيمان ومن هم المؤمنون حقيقة، ويبين صفاتهم، وأنها الإيمان الراسخ في القلب الثابت الذي لا يخالجه شك ولا ريب، ثم جاء بالصفة الثانية، فقال سبحانه: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فالجهاد مقياس دقيق لمعرفة الإيمان، به يتميز المؤمن الصادق، فالمجاهد في سبيل الله تدفعه معرفته بالله ورسوله للغيرة على الدين فيجاهد لذلك، كما يدفعه إيمانه باليوم الآخر إلى الرغبة فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة والخوف مما توعد به العاصين من عذاب جهنم مما يجعله يجود بماله ونفسه في سبيل الله للفوز بالجنة والنجاة من النار.

فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، إذا قالوا آمنا فهم الصادقون أهل هذه الصفة ولا يعذر الإنسان عن الجهاد، إلا أولئك الذين استثناهم الله من الضعفاء والمرضى، بشرط النصح لله ورسوله، ومن لا يجد الأنصار عليه أن يعمل ويجد في توفيرهم، وتوفير الإمكانات اللازمة للجهاد، لكي ينجو من عذاب الله.

١٦ ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ وما تكنه صدوركم حينما قلتم ﴿ءَامَنَّاۖ﴾؟ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ أطيعوه وأصلحوا أنفسكم واتقوه فهو يعلم بكل شيء لا يحتاج إلى أن تخبروه بدينكم.

١٧ ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ الخطاب لرسول الله ص وقالوا قد أسلمنا يعتقدون أن عليه أن يرى لهم فضلاً باعتبارهم قد أحسنوا إليه ﴿قُل﴾ يا رسول الله لهؤلاء الذي منوا عليك: ﴿لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم قد آمنتم حين قلتم أنكم آمنتم أي حتى لو كان الأمر كذلك فالمنة لله لأنه الذي يهدي للإيمان فالفضل والمنة له سبحانه وتعالى، فضلاً عن أن إيمانكم لما يثبت في قلوبكم.

١٨ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هذا عائد إلى السورة كلها، كأنه ملخص لما تحدثت عنه فما هو في علمه سبحانه مثل ما وقع من القتال

بين الناس، وما وقع من تنابز وغيبة وسخرية، إضافة إلى سوء الأدب ورفع الصوت عند رسول الله ص إلى آخر ما تعرضت له السورة هذه فهو عالم به كله وبغيره من غيب السموات والأرض ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ يجازي على كل شيء بما يناسبه من كبير أو صغير، يعني هو بصير بكل عمل سبحانه وتعالى.

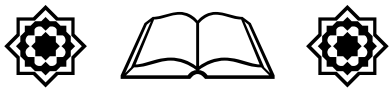

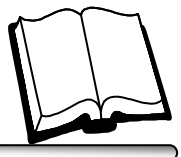

سورة ق

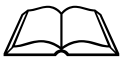

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قٓ﴾ ﴿قٓ﴾ عندي أنه من حروف المعجم التي تأتي في أول السور، إما من التحدي بالقرآن الذي هو حروف معدودة ينطقون بها، وإلا إشارة إلى أن الله أوحى القرآن بألفاظه وحروفه ـ والله أعلم.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أقسم بالقرآن المجيد وجواب القسم محذوف تقديره: إنك لمن المرسلين حذف للاكتفاء بالظروف التي نزل القرآن خلالها وهي التي كان الناس بين مصدق ومكذب برسالة الرسول وقد أظهر جواب القسم في قوله تعالى: ﴿يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس:١-٣] لأن القرآن هو الآية الدالة على أنه رسول من الله وهو المعجزة الكبرى، فأقسم به لذلك ولهذا رتب عليه قوله:

﴿٢﴾ ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ هؤلاء الكفار ﴿أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنه ليس بدعاً من الرسل ولم يكن هناك ما يدعو للعجب بعد ما تبين أنه آية من الله أنه كلام الله لا كلام البشر فلا مبرر للاستغراب هذا لأنه قد جاء بالبينة معه إضافة إلى كونه منهم يعرفونه تمام المعرفة ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ جعلوا الإنذار بالآخرة شيئاً عجيباً.

﴿٣﴾ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ كيف نعود أحياء بعد أن متنا وقد تحولت أجزاءنا إلى تراب فالعود إلى الحياة أمر بعيد مقصودهم أنه لا يمكن، فهذا احتجاج منهم لإبطال النبوة، والتكذيب بالقرآن، لأنه أنذر بالبعث بعد الموت، حتى ولو كان قد تبددت أجزاؤهم وضاعت بين التراب، أو صارت تراباً.

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ

﴿٤﴾ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ هذا رد عليهم بأن ذلك ليس بعيداً لأن الله عالم بالأجزاء كلها التي قد تحولت إلى تراب ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ يعني: لا ننسى شيئاً، مثل ما قال موسى: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥٢] والكتاب كناية عن كونه محفوظاً في علمه سبحانه، لا ينسى جزءاً من الإنسان فضلاً عن أن ينسى إنساناً، وكذلك لا يغلط في شيء، فلا معنى إذاً للعجب.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هذا هو السبب في العجب أنهم كذبوا بالقرآن لما جاءهم وهو الآية الكبرى الواضحة البينة التي قد عرفوا أنهم عاجزون عن الإتيان بسورة من مثله ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ فصاروا في أمر مضطرب مختلف كل مرة يروجون لدعاية ضد الرسول ص، فمرة يقولون: ساحر، ومرة: شاعر، وأخرى: مجنون.

﴿٦﴾ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ لأنهم استبعدوا البعث بعد أن تكون قد أكلتهم الأرض، استبعدوه بالنسبة إلى قدرة البشر، فلينظروا إلى قدرة الله إلى خلق السموات فوقهم كيف بناها الباري ووسعها وزينها بالكواكب والشمس والقمر، وهي على كبرها واتساعها لا توجد فيها فطور أو نحوها، بل هي محكمة البناء.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ ولينظروا إلى الأرض كيف وسعناها للبشر ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً راسيات في أماكنها ثابتة ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ أنواع الثمار والأشجار والفواكه الحسنة النظرة التي نوَّعها بقدرته، هذه كلها دلائل قدرته ونعمته على عباده.

﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾

﴿٨﴾ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ هذا الخلق خلق الأرض والسماء وما أنبت في الأرض ﴿تَبْصِرَةً﴾ ليبصروا ببصائر العقول يبصروا الآيات فيعرفوا قدرة الله سبحانه﴿وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وتذكيراً لكل عبد منيب راجع إلى الله غير مصر على الكفر، فالراجع إلى الله هو الذي يهتدي إلى الحق أما المعاند فهو بعيد من الهداية.

﴿٩﴾ ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ وهذه آية عظيمة إنزال الماء من السماء وفيه بركة لأنها تنبت به الأشجار وتحيا به الأرض بعد موتها ويأتي منه رزق للعباد فهو رحمة لهم.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ﴾ زروعاً وبساتين وغيرها تحيا بالماء هذا الذي أنزلناه ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ الحب من الزروع التي تحصد.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلنَّخْلَ﴾ وأنبتنا به النخل ﴿بَاسِقَـٰتٍ﴾ عاليات في الجو طوالاً ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطلع: هو الثمر في بداية نموه يكون في أكمامه، نضيد: كثير متزاحم متداخل بعضه في بعض بقدرة الله.

﴿١١﴾ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ فهو آية وفي نفس الوقت ليذكرنا نعمه بالآية والنعمة على عباده الذي حق عليهم أن يشكروه ولا يكفروه ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بالمطر هذا ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ كانت قد ماتت حينما لم تعد تنبت شيئاً لأن تربتها غدت مثل الرماد، فأحياها فأنبتت ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ خروجكم من الأجداث من القبور هكذا مثل إحياء الأرض بعد موتها.

وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ

﴿١٢﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ هذا انتقال إلى الوعيد لأنه إذا لم ينفع عرض الآيات على العقلاء ليتفكروا فلابد من الوعيد لكي يخافوا فينظروا فأخبر: أن هذه الأمم كذبت رسلها وكذبت بالآخرة.

﴿١٣﴾ ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ كذلك كلهم كذبوا بالرسل.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ الأيكة: شجر ملتف وهم الذين أرسل لهم نبي الله شعيب ونزل عليهم عذاب يوم الظلة ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ من اليمن، القوم هم الذين كذبوا أما تبَّع فقد قالوا إنه كان مؤمنا ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ فسر بهذا قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي أنهم كذبوا الرسل وتبع تكذيبهم بالرسل تكذيبهم باليوم الآخر ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ حق عليهم وعيدي وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة:١٣].

﴿١٥﴾ ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ هذا رد عليهم حين قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا..﴾ الخ، يعني: ما تعايينا في خلقهم أول مرة فإذا كنا قد قدرنا على خلقهم أول مرة، فكذلك نحن قادرون في المرة الثانية ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ملتبس عليهم مسألة الخلق مرة ثانية، ولهذا تمردوا على الله لأنهم ما خافوا الآخرة.

﴿١٦﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هذه كلها من دلائل قدرته سبحانه على الإعادة بعد الموت:

أولاً: خلق الإنسان وهو آية كبرى.

ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى

ثانياً: إحاطة علمه سبحانه بكل شيء بكل خفي حتى ما توسوس به نفس الإنسان، كما أنه سبحانه أَقْرَبُ إلى الإنسان مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وهذا تمثيل لكونه لا يخفى عليه شيء من أمر الإنسان، وأنه ليس بعيداً عنه.

﴿١٧﴾ ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ كأنه بمعنى اذكر حين يتلقى.. وفيه لفتة إلى ضرورة الإعداد لليوم الآخر، والمتلقيان هما الملكان الكاتبان لأعماله ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ عن اليمين ملك وعن الشمال ملك مهمتهما تسجيل كل قول نطق به وكل عمل عمله من خير أوشر ﴿قَعِيدٌ﴾ يبقى معه أينما حل وارتحل مثل الجليس.

﴿١٨﴾ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ لكون الإنسان معد للآخرة وسيحاسب يوم القيامة فالحافظان موجودان يرقبان كل كلمة وحركة ﴿عَتِيدٌ﴾ أي حاضر معدّ لكتابة ما سمع.

﴿١٩﴾ ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ لكون الإنسان أيضا معَد للآخرة لابد أن يموت، فالسكرة جاءت الإنسان بالحق لأنها حق من الله سبحانه أحكم الحاكمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أيها الإنسان ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ما كنت تهرب منه من قبل كأنه ليتذكر الإنسان مدى هوانه وذلته حين يشعر بأنه أصبح فريسة للموت ولا يقدر أن يدفع الموت عن نفسه.

﴿٢٠﴾ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هذه النفخة الثانية كأنه يعني الصيحة في قوله: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ اليوم الذي وعد الله به وتوعد العصاة.

غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى

﴿٢١﴾ ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ مجيئهم إلى موقف الحساب كل نفس معها سائق يسوقها إلى محل الحساب، وموقف العرض على الله، ثم إلى النار إذا كان من أهلها، أو إلى الجنة إذا كان من أهلها فلكل نفس سائق يسوقها وشهيد يشهد عليها بعملها.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ رأيت الحقائق الآن في الآخرة وتجلت الأمور التي كنت في غفلة منها ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ اليوم صرت تبصر جيداً. كما عبروا حين قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢] لما عاين ما وعد الله به أصبح بصره ثاقباً لكن لا فائدة له في الإبصار حينئذ، مادام لم يستخدم سمعه وبصره يوم كان في الدنيا.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ كأنه يعني الملك الحافظ له: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ هذا كتاب عمله وكل ما أحصيته عليه حاضر مسجل فيه، كأنه يسلمه إلى العبد في موقف العرض.

﴿٢٤﴾ ﴿أَلْقِيَا﴾ كأنه أمر للحافظين أن يلقيا هذا المجرم ﴿فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ كأن الإلقاء عندما يوصلانه إلى باب جهنم فيؤخذ بناصيته وهي مقدمة شعر الرأس أو بالأقدام أو بهما جميعا فيرمى به في جهنم نعوذ بالله، كما قال: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١].

﴿٢٥﴾ ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ ما كان عنده رغبة لفعل الخير لأنه غير مؤمل في ثواب ولا خائف من عقاب فهو مناع للخير الذي أمر الله به، مثل: إطعام المسكين

ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا

يمنع لا يعطي أحداً شيئاً ﴿مُعْتَدٍ﴾ يعتدي على عباد الله يظلمهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ إما مرتاب في نفسه أي صاحب ريب، أو مريب يقلق منه المجاور والمصاحب لـه لا يؤمَن شره بل هو مريب لا يأمنه جليسه ولا صاحبه ولا جاره.

﴿٢٦﴾ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ هـذا في المشرك خاصة أنه يلقى في العذاب الشديد، لأنه جعل مع الله إلها آخر فيلقى في العذاب الشديد أي أن عذاب المشركين اشد بالنسبة إلى غيرهم. وهذا رد على من قال إن الذي لا يؤمن بأن عيسى إله سيدخل جهنم، بل العكس هو الحق، فالذي يقول إن عيسى إلهاً هو الذي يستحق أن يدخل جهنم.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هذا قرينه الذي كان في الدنيا يضله. وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] وقال ـ أيضاً ـ في شأنه: ﴿يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:٣٨] وهو إما من شياطين الإنس أو من شياطين الجن ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يريد أن يتنصل منه لئلا يحمل شيئاً من ذنوبه إضافة إلى حمله هو ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ هو نفسه في ضلال بعيد أي بعيد عن الطريق.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ قد قدمت إليكم في الدنيا بالوعيد فالمستضعف غير معذور كان عليه أن يسمع كلام الله، ويتبع هدى الله، ويرفض تضليل أولئك الذين كان يعتقد أنهم كبار وعظماء من الطغاة والمستكبرين الذين خضع لهم وأطاعهم.

يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ

﴿٢٩﴾ ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ في كل ما تقدم من الوعيد في الدنيا، لا تراجع عنه﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ إنما بالحق نعذبكم التابع والمتبوع.

﴿٣٠﴾ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ لأنه قد أقسم أنه سوف يملؤها من الجنة والناس فكأنه يدل على اتساعها حين يقول لها ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ لكثرة من قد دخلها من أمم ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ بمعنى أنها واسعة وفي نفس الوقت حريصة على دخول أعداء الله فيها.

﴿٣١﴾ ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ قربت فهي غير بعيدة عنهم لأنهم أهلها المستحقون لها فكأنها لما خلقت لهم كانت قريباً منهم.

﴿٣٢﴾ ﴿هَٰذَا﴾ خطاب للمتقين ﴿مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ لكل أواب رجّاع إلى الله تواب من الذنوب ﴿حَفِيظٍ﴾ كأنه يعني حافظاً لحدود الله، محافظاً على طاعة الله.

﴿٣٣﴾ ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ كلها من صفات المتقين من خشي الرحمن وهو في الدنيا، ولا يزال كل شيء غائباً عنه، لم ير الجنة ولا النار ولا رأى الآخرة وأهوالها بل لا تزال كلها غائبة عنه ولكنه رغم ذلك كان مؤمنا بها فخشي الرحمن في الغيب ﴿وَجَآءَ﴾ يوم القيامة إلى موقف العرض على الله ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بقلب راجع إلى الله طاهر سليم من الدنس والذنوب.

فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا

﴿٣٤﴾ ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ ادخلوا الجنة ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ كأنه يسلّم عليهم خزنتها يقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣] تكريماً لهم ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ الخلود هنا كأنه بمعنى السلامة من كل آفة ومن كل شر، مثل ما قال امرؤ القيس:

وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل هموم ما يبيت بأوجال

﴿٣٥﴾ ﴿لَهُم﴾ للمتقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ما أرادوا فهو موجود في الجنة ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ عند الله مزيد أكثر مما تطلبه نفوسهم كأنه من أنواع النعيم الذي لا يعرفون عنه شيئاً بعد، كما قال: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

﴿٣٦﴾ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ رجع الكلام إلى هؤلاء الكفار الذين قالوا: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أشد من هؤلاء الذين في وقت النبي ص في البطش كانوا جبارين ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ بحثوا عن أي ملجأ أو مفر من عذاب الله فما وجدوا من ملاذ ولا من محيص.

﴿٣٧﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ تعذيب الأمم الماضية، أو إن في ذلك: الكلام الذي قلناه من أول السورة واحتججنا به عليهم ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ لأنه احتجاج نافع مفيد لأهل القلوب الواعية ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ يستمع للقرآن ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قلبه حاضر.

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ عودة إلى الاحتجاج على قدرته سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، الأرض في يومين، والسماء في يومين، ويمكن أنها نفس تلك اليومين؛ لأنه لا يشغله شأن عن شأن، وما بينهما هي الجبال والنجوم والشمس والقمر ونحوها في أربعة أيام، ويمكن أن تكون الشمس والقمر خلقتا مع السماء والأرض.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ما أصابنا أي تعب في خلقها وإن كان خلقها في ستة أيام على عظمها وسعتها، وهذا كأنه رد على اليهود حين قالوا: إنه أكمل خلقها يوم الجمعة، ويوم السبت استراح من التعب وأسبت ـ تعالى الله عن ذلك ـ

﴿٣٩﴾ ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبهم بالرسالة ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ في صلاة الفجر و يمكن من بعد صلاة الفجر وقبل الغروب صلاة العصر ومن بعدها التسبيح هو مهم وعبادة مهمة لها شأن عظيم انظر كيف قال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٣٣-٣٤] فأفرد التسبيح بالذكر.

﴿٤٠﴾ ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ في أثناء الليل ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ روى في (مجموع الإمام زيد بن علي إ): ((أنها الركعتان بعد صلاة المغرب يصلي سنة المغرب، وأدبار النجوم: سنة الفجر)).

يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

﴿٤١﴾ ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ يوم القيامة ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ كأنها الصيحة لقوتها يسمع كل واحد الصوت من مكانه.

﴿٤٢﴾ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ الصيحة دعوة الناس ليخرجوا من القبور ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ لأنها حكم الله والأمر له وله الملك فهي بالحق حين دعاهم ليخرجوا من القبور إلى موقف الحساب والجزاء ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ يوم الخروج من القبور.

﴿٤٣﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ هذا قرار بعدما بين الرد على هؤلاء المنكرين للبعث أنه سبحانه الذي يحيي ويميت فهو القادر على كل شيء ومصير العالمين كلهم عائد يوم القيامة إليه وحده فيسألهم ويجازي كلا بعمله.

﴿٤٤﴾ ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أكد الخروج إنها تشقق الأرض وتلقيهم من بطنها ﴿سِرَاعًا﴾ يخرجون مسرعين مستسلمين لأمر الله منقادين بدون عناد ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ حشرهم من القبور إلى موقف الحساب ثم إلى موقف الجزاء علينا يسير سهل على الله ليس بشاق عليه.

﴿٤٥﴾ ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ حين ينكرون البعث وينكرون الرسالة وكل أقوالهم الباطلة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ما أنت إلا منذر تبلغهم ولا عليك أن تجبرهم.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فذكر بالقرآن من يخاف وعيدِ، من يخاف وعيد الله، يعني: هم الذين سوف ينتفعون بالقرآن فذكرهم به، أما أولئك المعاندون فلا تبال؛ لأنهم مصرون على الإعراض عن هدى الله.

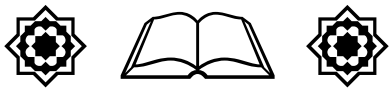

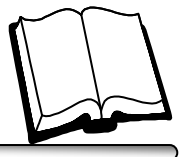

التيسير في التفسير

سورة الذاريات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالذَّارِيَاتِ﴾ هذا قسم بالرياح ﴿الذَّارِيَاتِ﴾ التي يرسلها الباري بقدرته، ويصرّفها كيفما شاء، وقوله: ﴿ذَرْوًا﴾ تأكيد لكونها تذروا التراب الغبار وتذروا بعض هشيم النبات الخفيف مثل: الحشيش والأشياء الخفيفة، بمعنى: تطير بها في الهواء.

﴿٢﴾ ﴿فَالْحَامِلَاتِ﴾ وهذا قسم أيضا بالحاملات ﴿وِقْرًا﴾ وهي السحاب التي قال الله: ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد:١٢] ﴿وِقْرًا﴾ موقرة بالماء.

﴿٣﴾ ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ كذلك قسم بالسفن الجاريات على وجه الماء تسيرها الرياح بقدرة الله تجري بها جرياً ﴿يُسْرًا﴾ بسهولة على الركاب.

﴿٤﴾ ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ﴾ الملائكة قالوا: إنها تقسم ما أمر الله به أن تقسمه بين العباد مثل تقسيم الأرزاق، ولكنه قال: ﴿أَمْرًا﴾ فأبهمها فنتركها على إبهامها.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ هذا جواب القسم ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ إما من النعيم أو من العذاب ﴿لَصَادِقٌ﴾ بمعنى: عذاب صادق في كونه عذاباً، شديداً ليس سهلاً أو نعيم صادق كذلك، هذا إذا تركناها على ظاهرها ويحتمل ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي الوعد نفسه ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي صدق.

﴿٦﴾ ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الجزاء يوم القيامة يديننا ربنا مثل ما دناه بالطاعة يديننا بالجزاء لأن الدين أصله المعاملة ندين لله ويدين لنا، ندين له بالطاعة، ويدين لنا بالجزاء قال الشاعر:

ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ

ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا

فالدين في الدنيا طاعة الله، والدين في الآخرة جزاء المطيع، أو العاصي ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لا بد من الجزاء كأن السموات والأرض إنما خلقت لأجل الجزاء.

﴿٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ هذا قسم ثاني والحبك الصنعة المحكمة المتقنة المحبوكة.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ وهذا جواب القسم أي تتكلمون في الرسول وفي القرآن بأقوال مختلفة لا يشد بعضها بعضاً، بل أقوال مختلفة مرة يقولون: شاعر، ومرة يقولون: ساحر، ومرة يقولون: مجنون، ليست أقوالاً متفقة على معنى واحد.

﴿٩﴾ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ يغتر به وينقلب عن الحق إلى الباطل ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ من اغتر وانقلب.

﴿١٠﴾ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ هذا شبه لعن ليس على المعنى الأصلي وهو الدعاء عليهم بالقتل وإنما صار في معنى قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] إما ذم، أو على معنى: لُعِنَ، أو نحوها، والخراصون: جمع (خرّاص) قال الإمام الهادي × في (تفسيره): ((الكذابون)).

﴿١١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ﴾ في جهل ﴿سَاهُونَ﴾ لا يفكرون ولا ينظرون مع كونهم في جهل لكنهم لا يطلبون المعرفة.

﴿١٢﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ مع جهلهم وسهوهم يَسْأَلُونَ ويجادلون في اليوم الآخر ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ مثل قولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨، وغيرها] أيان بمعنى متى يوم الدين لنرى مدى صدق المنذر.

تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾

﴿١٣﴾ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ هذا جواب ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ هو ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يعذبهم الله في جهنم.

﴿١٤﴾ ﴿ذُوقُوا۟﴾ يقال لهم: ﴿فِتْنَتَكُمْ﴾ بمعنى عذابكم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ حين كنتم تقولون: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ وتستعجلون به مبالغة منكم في التكذيب به.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ في مقابل ما أخبر به من مصير الكافرين ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين تجن الأرض أي تغطيها، ﴿وَعُيُونٍ﴾ جداول الماء تسقيها.

﴿١٦﴾ ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ منتفعين به يأكلون ويتلذذون بما أنعم الله به عليهم من كل شيء، وليس كما في الدنيا قد يكون الإنسان غنياً ولكنه يضطر للحمية من كثير من الملذات خوفاً من المرض إذا كان يعاني من مرض السكر أو نحوه، أما الجنة فلا يضرهم شيء ولا ينقص عليهم شيء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ هذا هو السبب في نعيمهم وهذا الجزاء الكريم وهو أنهم كانوا قبل ذلك في الدنيا ﴿مُحْسِنِينَ﴾ جادين في طاعة الله، واجتناب الظلم لعباد الله، والإحسان إلى من هو أهل للإحسان.

﴿١٧﴾ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ مثلا يقوم الثلث الأخير أو نحوه، فيكون نومه قليلاً بالنسبة إلى مقدار عادة عامة الناس في النوم لأنه قال: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:٢] فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استثنى القليل، ثم قال: ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل:٣] فجعل القليل نصفه تقريباً، فهو قليل بالنسبة إلى عادة معظم الناس في النوم، ومعنى ﴿يَهْجَعُونَ﴾ ينامون، كأن الهجعة رقدة خفيفة، ولعل هذا في وقت وجوب القيام في أول الإسلام فنسخ كما تفيده (سورة المزمل).

وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟

﴿١٨﴾ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ وقت السحر وبدايته عندما تطلع نخلة الفجر وهي الضوء العمودي المنبعث من جهة المشرق، فالمتقون يداومون على الاستغفار في هذا الوقت لأنهم يكونون خائفين من ذنوبهم.

﴿١٩﴾ ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ يجعلون فيه جزءاً معيناً للسائل وهو من يجرؤ على السؤال وللمحروم وهو الفقير الذي يستحي أن يسأل، ولا يلتفت أحد لمعرفة وضعه المادي.

﴿٢٠﴾ ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ بعد ذكر الوعد والوعيد بدأ يذكر الدليل على قدرة الله عليه ليصدقوا أنه كائن لا بد من وقوعه فأخبر سبحانه أنه قادر على كل شيء ودليل ذلك ما نراه في الأرض من عجيب الخلق وبديع الصنع مما لا يحصى.

﴿٢١﴾ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وفي أنفسكم كذلك آيات عظيمة في خلق الإنسان وما ركب منه من أجهزة جهاز البصر، جهاز السمع، جهاز النطق، جهاز الأكل وغيرها، آيات عظيمة وفي كل جهاز منها آيات عظيمة إذا تفكر الإنسان.

﴿٢٢﴾ ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مكتوب لكم رزقكم وما توعدون في المستقبل في الآخرة، كأنه في السماء بمعنى مكتوب.

﴿٢٣﴾ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ بعد ما ذكر الآيات التي تدل على قدرة الله على البعث والجزاء الذي وعد به أقسم أن ذلك الجزاء حق متيقن مثلما هم متيقنون من الكلام الذي تنطق به أفواههم.

عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ

﴿٢٤﴾ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ الملائكة الذين وفدوا على إبراهيم الخليل ـ صلوات الله عليه وعليهم ـ وحين دخلوا عليه توهمهم رجالاً فأضافهم وأكرمهم وإن لم يأكلوا ففيما فعله من تقريب العجل لهم وحسن الاستقبال غاية الإكرام.

﴿٢٥﴾ ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ﴾ سلموا عليه بالنطق ﴿قَالَ سَلَٰمٞ﴾ رد السلام عليهم وقال: ﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ يعني لا سابق معرفة لي بكم.

﴿٢٦﴾ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ قبل أن يعرفهم، راغ إلى أهله: بمعنى أنسلّ بصورة خفية لكي لا يعرفوا أنه بصدد الذهاب للذبح لهم وهذه من عادات الكرماء ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ كأنه جاء به من المطبخ وهو حينئذ جاهز للأكل.

﴿٢٧﴾ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ لما لم يمدوا إليه أيديهم.

﴿٢٨﴾ ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ لما لم يأكلوا أنكرهم لأنه لم يكن قد عرفهم من قبل وآثر قبل التعرف عليهم أن يكرمهم ويعجل قراهم كما هي عادة الكرماء قال حاتم الطائي:

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... رشدت ولم أقعد إليه أسائله
فأطعمته من كبدها وسنامها ... شواء وخير البر ما هو عاجله

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ وأخبروه أنهم ملائكة ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ عليم صاحب علم يمنحه الله إياه من لدنه.

فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُ هُوَ
ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا إِنَّآ
أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً
عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا

﴿٢٩﴾ ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ صيحة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أنا عجوز وأيضاً عقيم لا تنجب أصلاً، ولعل تصرفها بهذه الطريقة الصاخبة لتعرف ما إذا كان الولد منها أو أنه سوف يتزوج من جديد فيولد الغلام من ضرتها، كما هي عادة النساء حيال مثل هذه الأمور.

﴿٣٠﴾ ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ﴾ ستنجبين ولداً حتى وأنت عجوز وكنت عقيماً أيضاً ﴿قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قد وعد الله بذلك.

﴿٣١﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ ما الأمر المهم الذي جئتم من أجله؟ وفي هذا لفتة لطيفة فحواها: أنه لا يتصور أن الذي جاء بهم مجرد البشارة بالغلام وإن كان الأمر عنده هو عظيماً لكن باعتبار مستوى هؤلاء الرسل وعظمهم.

﴿٣٢﴾ ﴿قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ نحن منطلقون إلى (قوم لوط).

﴿٣٣﴾ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ حجارة أصلها من طين ولكنها قد تحجّرت.

﴿٣٤﴾ ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ فيها علامات كالخطوط تتميز بها عن غيرها من الحجار وهي معدة من عند الله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أولئك (قوم لوط) الذين أسرفوا في المعاصي.

وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى

﴿٣٥﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في القرية التي قد فهم من السياق أنها قريتهم ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لينجوا من العذاب وهم آل لوط.

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ القرية هذه ﴿غَيْرَ بَيْتٍ﴾ واحد ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهو بيت لوط × وبقية البيوت محكوم عليهم بالعذاب، ولعل في قوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: (من المؤمنين) إشارة إلى أن زوجته لم تكن مؤمنة وإنما كانت قد أسلمت بالنطق بالشهادتين.

﴿٣٧﴾ ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ القرية ترك فيها ﴿ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ بقايا خراب تذكر الناس ما وقع على قوم لوط، ولا يتذكر وينتفع بها إلا الذين يخافون العذاب الأليم من الله تعالى.

﴿٣٨﴾ ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ آية كذلك ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ﴾ لأنه قد كان فر منهم وخاف أن يقتلوه بعدما قتل منهم نفساً، ولكنه جاء إليهم بسلطان هيبة منحه الله إياها ليتسنى له تبليغ الرسالة دون أن يجرؤ أحد أن يمسه بسوء فألبسه رداء الهيبة ﴿مُّبِينٍ﴾ بيّن وواضح أن معه سلطاناً من الله سلطه وقوّاه.

﴿٣٩﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ بمعنى أعرض ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ قال إن موسى ساحر لما رأى الآيات العجيبة، أو مجنون، وفي كلامه هذا منتهى السخف، لأنه لا تناسب بين ما ادعاه من السحر أو الجنون فأين المجنون من الساحر وخداعه ومكائده العجيبة؟!

ٱلۡيَمّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ

﴿٤٠﴾ ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ في البحر اختصر القصة فأخبر أنه أهلكهم ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ وهو لا يزال حاملاً لذنبه وما يستحق الذم عليه، ولم يتب منه، هذه المصيبة الكبرى، إنه أخذ وبيل إنه أخذ يؤديهم إلى عذاب دائم.

﴿٤١﴾ ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ وهم كذلك فيهم آية عظيمة حين جاءت تلك الرياح المدمرة، أرسل عليهم الريح العقيم أي التي لا تبشر بخير بل بالشر، لأن الرياح تكون مبشرة بالمطر.

﴿٤٢﴾ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ تدمر كل شيء من الشجر والمباني، والناس والدواب، وكل ما أتت عليه دمرته، وقوله: ﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ كأنه العظم الرميم المهشم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ كذلك الآية العظيمة حين أخذتهم الصاعقة بسبب كفرهم، ومعاندتهم لرسول الله، وعقرهم للناقة ﴿إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ﴾ بالإيمان آمنوا بالله ورسوله، ولا تقربوا الناقة لتسلموا من العذاب ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾ حتى تنتهي آجالكم.

﴿٤٤﴾ ﴿فَعَتَوۡاْ﴾ تمردوا وعاندوا ﴿عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ فرفضوا ولم يقبلوا أمر ربهم ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ الرجفة العظيمة.

﴿٤٥﴾ ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ﴾ بل بقوا جاثمين ما استطاعوا أن يقوموا ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ عجزوا عن أن يدفعوا عن أنفسهم العذاب،

قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ

هذه آيات للذين يخافون العذاب الأليم، العاجل في الدنيا، وهو تحذير للموجودين في وقت رسول الله ص ولمن بعدهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي عذبناهم من قبل قوم موسى، وقبل هؤلاء الذين عددهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ خبثة عصاة.

﴿٤٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ هذا حديث عن قدرة الله تعالى وأنه الذي بنى السماء بأيد: بقوة (الأيد) القوة، قال:

فآتت أعاليه وآدت أصوله وأدلى بقنوان من البسر أحمرا

كأنه في وصف نخل آدت أصوله بمعنى قويت ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ جعلها واسعة؛ لأن السماء مشتملة على الأرض والنجوم والشمس والقمر والمجرات بكاملها.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ مهدناها للإنسان جهزناها له بحاجاته التي يحتاجها من الماء والأكسجين والتربة التي تصلح للزراعة والمشي عليها مهدها أي فرشها كما يمهد ويفرش للصبي.

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ هذه قدرة عظيمة تنوع المخلوقات وجعل زوجين من كل شيء لنعرف أنه فاعل مختار يخلق ما يشاء كيف ما شاء ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لأجل أن تذكروا فتعرفوا الله وتعرفوا نعمته عليكم، لتشكروه.

إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ

﴿٥٠﴾ ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ يخاطب أهل المعاصي والشرك والجرائم ويدعوهم إلى التوبة إلى الله والفرار من عذابه، ويؤكد لهم أنه نذير ﴿مِّنْهُ﴾ من الله لهم.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ لا تشركوا به ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لتجتنبوا الشرك.

﴿٥٢-٥٣﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما كذب هؤلاء وعاندوا كذب الذين من قبلهم ﴿..مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ..﴾ ولأنهم يتوارثون هذا القول، وهو قولهم: ساحر، أو مجنون، فكأنهم تواصوا به ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل توافقت قلوبهم على الطغيان فاتفق كلامهم لأنها تشابهت قلوبهم.

﴿٥٤﴾ ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هاجر من مكة لا داعي لأن تبقى عندهم قد بلغت وأديت واجبك ولم يجد معهم شيء ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ ما عليك من ملامة في الخروج والبعد عنهم لأنك قد بلغت الرسالة، وقمت بالواجب عليك.

﴿٥٥﴾ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا تعتقد أن الهجرة تعني نهاية الدعوة بل استمر في التذكير والتعليم.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فلهذا لابد من الاستمرار في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، واستمر أنت على عبادة الله.

مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿٥٧﴾ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أنا ما خلقتهم لأجل أن يرزقوني، ولا لأجل أن يطعموني، سبحانه هو يطعم ولا يطعَم.

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق عباده ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ القوي سبحانه لا يثقل عليه شيء ولا يشق عليه شيء ﴿ٱلْمَتِينُ﴾ ذوا الاقتدار والشدة كأنه مشابه لمعنى القوي لا يوجد كثير فرق بين المتين وذو القوة فهو تأكيد.

﴿٥٩﴾ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي قسمهم من العذاب ونصيبهم منه والذَّنوب: هو الدلو الممتلئة حينما يجتمع الناس على بئر الماء، فينتظر كل واحد نوبته ليدلي بدلوه ويحوز نصيبه من الماء، كما قال:

لكم ذنوب ولنا ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

فهذا تمثيل لقسمة الماء بالدلو، يعني أن هؤلاء المشركين سينالهم نصيبهم من العذاب مثل ما جاء لمن قبلهم ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ فلا يستعجلوني بالعذاب.

﴿٦٠﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة فهو أشد من العذاب العاجل ﴿فَوَيْلٌ﴾ دعاء عليهم بالهلاك من ذلك اليوم العظيم الذي يأتي بعذابهم، لأنه ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر:٩-١٠].

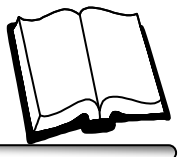

التيسير في التفسير

سورة الطور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالطُّورِ﴾ الظاهر: أنه الطور المعهود الذي واعد موسى ربه للميقات فيه أقسم الباري سبحانه به.

﴿٢﴾ ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ هذا الكتاب يمكن أنه من كتب الله سبحانه، إما القرآن أو غيره.

﴿٣﴾ ﴿فِي رَقٍّ﴾ (الرق) الذي يكتب فيه وهو جلد رقيق كما الورقة ﴿مَنْشُورٍ﴾ إما ليكتب وإما ليُقرأ.

﴿٤﴾ ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ عندي أنه الكعبة التي هي معمورة بالحج والعمرة، هذا هو المتبادر عند العرب أن البيت المعمور هو الكعبة.

﴿٥﴾ ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ السماء.

﴿٦﴾ ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ كأنه ما قاله الله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] حين تسجر البحار يوم القيامة وعندي أن تسجيرها إشعالها ناراً حتى تنتهي، لأن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء ولأن في باطن الأرض براً وبحراً كثير من البترول، فإذا جاءت الزلزلة تفجر البترول بين البحار وأمكن أن تحرق، وقد تكون كذلك البراكين التي تتفجر بالنار بين البحار.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم أي الذي قد وعد الله به أعداءه لا بد من وقوعه.

لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾

﴿٨﴾ ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ وهذا يرد على المشركين الذين قالوا إن شركاءهم سيشفعون لهم عند الله فيدفع عنهم العذاب.

﴿٩﴾ ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ كأنها تضطرب حين تتمزق وتتفتح أبواباً مثل قوله: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك:١٦] تتموج مع تمزقها.

﴿١٠﴾ ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ كذلك لأنها قد طُحِنَت وصارت غباراً يحمله الهوى فهذا ظرف لوقوعه حين قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ في هذا اليوم يوم القيامة.

﴿١١﴾ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ دعاء عليهم بالويل والهلاك، أو هو وعد لهم بالهلاك بمعنى العذاب الشديد المكذبين الذين كذبوا بآيات الله وكذبوا باليوم الآخر، وهو مترابط إذا كذبوا بآيات الله كذبوا باليوم الآخر.

﴿١٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ﴾ يخوضون في آيات الله بأقوال مختلفة مرة يقولون أساطير الأولين وكل مرة ولهم دعوى مخالفة للأولى. ﴿يَلْعَبُونَ﴾ غير جادين لمعرفة حقيقة الأمر فلم ينظروا أو يفكروا ولم يستعملوا عقولهم حتى يعلموا أنه الحق.

﴿١٣﴾ ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ أذكر يوم يدعون، الدَّعُّ: هو الدفع بعنف وقت سوقهم إلى نار جهنم.

أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ۖ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا

﴿١٤-١٥﴾ ﴿هَـٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ ..﴾ أي القرآن هل هو سحر، بحسب ما كانوا يقولون ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أم أنكم لا تبصرون أنه حق وصدق وليس سحراً، والآن يعرفون الحقيقة حين يقال لهم:

﴿١٦﴾ ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ سواء الصبر وعدمه لأنه عذاب شديد كما قال: ﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [فصلت:٢٤] يعني ليس صبراً على شيء ينفع فيه الصبر لأنها جهنم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنها جزاء بما كانوا يعملون في الدنيا.

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ هذا في مقابل ما ذكر عن أهل النار.

﴿١٨﴾ ﴿فَـٰكِهِينَ﴾ فرحين مستبشرين ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ من النعيم والجنات ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ نجاهم منه وهذا أكبر فائدة حين نجاهم من النار.

﴿١٩﴾ ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هنيئا لكم هذا النعيم الذي أنتم فيه وهو لكم جزاء على ما كنتم تعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ كأن الغرفة نفسها يكون فيها سرر مصفوفة يتكئ على أيها شاء ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الحور العين نساء أهل الجنة ذات الحَوَر في الأعين، والعِيْن واسعات الأعين.

بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ

﴿٢١﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من أهل الجنة ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ كذلك كان ذريتهم مؤمنين مثلهم ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في الجنة لتقر بهم أعينهم حين يجتمعون معهم في الجنة ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ ما نقصنا عليهم ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ مقابل أنَّا قد قربنا أولادهم منهم ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ كل واحد محضر بعمله، فعملهم لهم لا ينقص عليهم منه شيء الآباء وأولادهم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ أهل الجنة كلهم مدداً يكون مستمراً ﴿بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ قدمت الفاكهة قبل اللحم كأنه المناسب في أكل الفاكهة أن تكون الأولى وتفتح الشهية للحم، واللحم بعدها يكون مكملاً للغذاء.

﴿٢٣﴾ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ الكأس من الخمر كأنه يأخذه واحد والثاني ينازعه ليأخذه هو تنازع مزاح لا تنازع شقاق ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ هذه الخمر عند شربهم لها لا يصحبها كلام سيئ كما هي عادة خمر الدنيا يصحبها شتم وكلام شنيع ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ كأن يقول يا عدو الله يا فاجر يا خبيث، كعادة السكارى في الدنيا يتلاعنون، يؤثم بعضهم بعضاً هذه خمر الآخرة لاشيء فيها من هذه الأمور السيئة.

﴿٢٤﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لخدمتهم ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ مملوكون لهم ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ نفس الغلمان لشدة بياضهم وصفاء أجسادهم مثل اللؤلؤ المكنون المغطى في أخبيته بعيداً عن الغبار أو نحوه فهو محتفظ بصفائه ورونقه.

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ

﴿٢٥﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كأنه يتساءلون في أسباب دخولهم الجنة، ولعله لما يرون من قلة أهل الجنة، فيسأل كل واحد صاحبه: كيف جئت وكيف توصلت إلى هذا النعيم المقيم؟

﴿٢٦﴾ ﴿قَالُوٓاْ﴾ أجابوا أن السبب هو: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا﴾ في الدنيا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ كنّا في حذر من عذاب الله، حذرين متورعين.

﴿٢٧﴾ ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أنعم علينا ووفقنا فدخلنا الجنة ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ نجانا من عذاب النار التي فيها السموم، كأنه الهواء الحار الشديد الحرارة الذي يدخل في المسام أو داخل الأنف مع التنفس.

﴿٢٨﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ هذا كأنه السبب الأول مع الحذر أننا كنا ندعو الله أن يوفقنا ويحسن خاتمتنا وينجينا من النار، كنا ندعوه ونحن في الدنيا ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿ٱلْبَرُّ﴾ المحسن المتفضل الرحيم بعباده المؤمنين الذين يرجعون إليه.

﴿٢٩﴾ ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا رسول الله إذا كانوا يريدون أن يدخلوا الجنة ويسلموا من النار، ذكرهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ما أنت بكاهن ولا مجنون كما قال الكفار، بل إنك رسول من الله فذكرهم فأنت بنعمة ربك كامل العقل راجح العقل.

تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ

﴿٣٠﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الكفار ﴿شَاعِرٌ﴾ إن هذا النبي ليس إلا شاعراً ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ ننتظره حتى تأتي منيته ويموت وتنتهي قضيته.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ انتظروا فإني معكم من المنتظرين للموت.

﴿٣٢﴾ ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ الكلام حين يقولون: شاعر أو كاهن أو مجنون ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي بل هم قوم طاغون، هذه هي الحقيقة، فالطغيان يحملهم على هذا الكلام، وقد تبين لهم أن القرآن كلام الله.

﴿٣٣﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ تقوّل هذا القرآن قاله هو ونسبه إلى الله ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ليسوا أهلاً لأن يؤمنوا، فقد عرفوا أنهم عجزوا عن الإتيان بمثل سورة منه.

﴿٣٤﴾ ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ بمعنى في درجته في الحكمة والإحكام، وهم غير قادرين ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه إنما تقوّله فليتقولوا إذن مثله.

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ بمعنى أن الله هو الذي خلقهم وهو ربهم المالك فهو الإله الذي يستحق أن يعبدوه وحده لا أن يعبدوا الأصنام التي هي لا شيء ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أم هم الذين خلقوا أنفسهم أو خلقوا شيئا غيرها حتى يتحكموا على الله.

عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ

﴿٣٦﴾ ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ حتى يتكبروا هذا التكبر ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ لا يقبلون الأدلة التي تفيد اليقين.

﴿٣٧﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ تكون قسمة رحمته بأيديهم بأن يكونوا هم الذين يقسمونها كيف ما أرادوا، حين قالوا: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١] غير محمد، لكن الأمر لله ورحمته بيده يختص بها من يشاء ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الأرباب الذين يدبرون أمر الربوبية في كل شيء.

﴿٣٨﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يصعدون فيه إلى السماء يستمعون إلى الملائكة مباشرة وليسوا بحاجة إلى هذا القرآن ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ إذا كان الأمر كذلك فليأت مستمعهم الذي يستمع إلى الملائكة ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بدليل بين واضح على ما يدعيه من أنه قد استمع وسمع كلام الملائكة.

﴿٣٩﴾ ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ أم له البنات على ما تدعون سبحانه ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ يستهجن كلامهم ويبين أنهم على غير الطريق المستقيم.

﴿٤٠﴾ ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ حين تدعوهم إلى الإيمان هل تسألهم أجراً مقابل الرسالة ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ قد ثقل عليهم المغرم فاعتلوا عن الإيمان بسبب غرامة تركوا الإسلام خشية دفعها لثقلها عليهم.

﴿٤١﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ فليسوا بحاجة للرسالة ولا هم بحاجة للرسول ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا جواب يدلل على أنهم لا يعلمون الغيب لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لما احتاجوا إلى الكتابة ليحتفظوا بالمعلومات.

سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

﴿٤٢﴾ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بتقولاتهم هذه على الرسول ﴿كَيْدًا﴾ للنبي والرسالة لكي يبطل أمره، مثل قولهم: ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم كادوا أنفسهم، لأنهم بذلك يسببون لها جهنم.

﴿٤٣﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يتجهون إليه بالعبادة ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يشركون به من هذه الأحجار التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، ولا ينبغي ولا يليق أن تجعل أندادا لله سبحانه.

﴿٤٤﴾ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ من شدة عنادهم لو كان العذاب نازلاً عليهم قطعاً من السماء لقالوا إنه ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ وليس عذاباً مثل ما قال قوم عاد: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤].

﴿٤٥﴾ ﴿فَذَرْهُمْ﴾ على ما هم عليه لست مكلفاً بأن تضطرهم إلى الإيمان غصبا، ذرهم أتركهم ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يوم القيامة الذي يصعقون فيه لشدة أهوالها، والصعقة: هي الغيبوبة التي تأخذهم من شدة الخوف والهول.

﴿٤٦﴾ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ كلما كادوا به في الدنيا وعملوا من المكر لا ينفعهم يوم القيامة، أو يدفع عنهم العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ليس معهم من ينصرهم لا أصنامهم ولا غيرها.

عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

﴿٤٧﴾ ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي لهم وأمثالهم كل طاغية وظالم ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا معجلاً تأديباً لهم وتنبيهاً ليرجعوا إلى الله وهو نعمة عليهم لأن فيه تذكيراً لهم من غفلتهم لينجوا من النار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه عذاب من الله.

﴿٤٨﴾ ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ حتى لو تعبت على تبليغ الرسالة ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تحت مراقبتنا لا يغيب عنا من أمرك شيء، ثوابك لك وعملك لك، وأجر تعبك لك لا يضيع عليك منه شيء ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ كأنه القيام في الصلاة.

﴿٤٩﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ كذلك ربما أنه في صلاة الليل أو في غير الصلاة ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ في الحديث في (مجموع الإمام زيد بن علي ﷺ): ((إن إدبار النجوم: يعني سنة الفجر ـ أي الركعتين قبلها)).

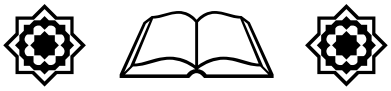

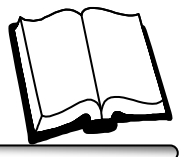

التيسير في التفسير

سورة النجم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٖ

(سورة النجم) يظهر منها أنها من أول ما نزل في (مكة)

بدليل وصف نزول جبريل × لتعليم النبي ص واستعمال الاسم النكرة، أعني كأن العرب ما كانوا قد عرفوا بجبريل ×

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ والنجم: قسم بالنجم، قال الإمام الهادي × : إنه عام لكل نجم مثل: ﴿وَالْعَصْرِ* إِنَّ الإِنسَانَ..﴾ عام لكل إنسان ليس المقصود به نجماً معيناً، أقسم به إذا هوى إذا غرب من حيث دلالته على أنه مسخر من الله سخره للطلوع والأفول وسيّره فهو دليل على ملكوت الله أي أن هذه النجوم كلها مملوكة لله وجواب القسم قوله:

﴿٢﴾ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ الخطاب لقريش ومن حولهم يؤكد لهم أن صاحبهم الذي يدعوهم إلى توحيد الله وترك الشرك والباطل الذي هم عليه أنه ما ضل فيما أتاهم به وبلغهم، ما ضل عن الطريق ولا عن الصواب ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ يمكن أن معناه: ما خاب بل رشد بالتبليغ والإنذار.

﴿٣﴾ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ فيما يبلغكم وفيما يقوله لكم لا ينطق عن هوى نفسه.

﴿٤﴾ ﴿إِنۡ هُوَ﴾ هذا القرآن وهذا الكلام الذي يبلغكم عن الله ﴿إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ إليه إلى النبي ص من الله تعالى، وسمي الوحي وحيا كأنه باعتبار أنه خفي، والعرب تسمي الدلالة الخفية وحياً.

فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

﴿٥﴾ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ يعني علم النبي ملك شديد القوى، ونحن لا نعرف تفاصيل عن قوة جبريل × إلا أن منها قوة النزول وقوة الطلوع وقوة التعليم.

﴿٦﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ المرة، قالوا: إنها القوة العظيمة ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ استوى جبريل وظهر للنبي على الهيئة المناسبة للنبي.

﴿٧﴾ ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استوى وهو لا يزال في الأفق الأعلى في الهواء.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ بعد ما استوى وتهيأ للنزول ﴿دَنَا﴾ قرب من الأرض ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ إلى جهة النبي ص ليصل إلى حوله.

﴿٩﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قرب منه مقدار مسافة قوسين فالمسافة فيما بين جبريل ومحمد ص مثل مسافة القوسين، أو مثل مسافة ما يبلغ القوس الأول ثم القوس الثاني عند الرمية بهما ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ من قاب قوسين يعني أو أقرب، وهذا الترديد لا يعني الشك في المسافة بل قد يعني أنه تارة يقرب فيصير أقرب من قاب قوسين، وتارة يبعد فيصير قاب قوسين مقدار قوسين.

﴿١٠﴾ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ رجع الكلام إلى الوحي؛ لأنه قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأوحى الله بواسطة جبريل ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ وهو ما يبلغه الرسول إلى أمته.

﴿١١﴾ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ﴾ فؤاد النبي ص ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ لأنها رؤية بصر وقلب، ما كذب فيها ليست خيالية بل هي رؤية حقيقية لأن البصر قد يخدع مثل أن يرى السراب ويظنه ماء، فهذا ما كذبه البصر بل هي رؤية حقيقية.

أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا

﴿١٢﴾ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ هذا إنكار عليهم حين انطلقوا يمارونه ويجادلونه ويشككون عليه في شيء قد تيقنه ورآه رؤية حقيقية ببصره وقلبه.

﴿١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ هذه ليست هي النزلة الأولى، بل قد نزل إليه جبريل × مرة أخرى.

﴿١٤﴾ ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ رآه عند ﴿سِدْرَةِ﴾ والسدرة: شجرة العلب يسمى ثمرها الدوم أو النبق ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ لعله منتهى جبريل حين نزل إلى الأرض هذا أقرب عندي، وكأن الآخرين من المفسرين اعتمدوا روايات غير موثوقة حين جعلوا سدرة المنتهى شجرة فوق السبع السموات؛ لأنه قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فصرح بالنزلة، وكذلك اعتمدوا في تحديد مكان السدرة على روايات في تفسير قوله:

﴿١٥﴾ ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ فجعلوا الجنة حقيقة هناك فوق السبع السموات، لكن الجنة عرضها السموات والأرض فكيف يمكن تحديدها بأنها هي عند سدرة المنتهى، لا أن سدرة المنتهى عندها! هذا بعيد، وعندي أن المقصود أن هذا الوحي الذي جاء به جبريل حين نزل فكأنه جاء بالجنة لأنه جاء بتعريف طريقها وتعليم أسبابها مثل ما قال في الحديث: «الجنة تحت ظلال السيوف» «الجنة تحت أقدام الأمهات» بمعنى سبب الجنة، كما يبعد أن تكون بمعنى بستان في مكان ما في الدنيا، وكذا كونها جنة مؤقتة في السماء تستقر فيها أرواح الأنبياء والشهداء لأنه قال جنة المأوى ولا من جنة مأوى إلا المعهودة التي قال في (سورة النازعات): ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [آية:٤١] والله أعلم.

زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

﴿١٦﴾ ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ اذكر.. وذلك عند نزول جبريل × وحين غشي السدرة من البركات والخير والهدى والنور شيء عظيم مع نزوله على السدرة على ضخامته وعظمه.

﴿١٧﴾ ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ ما زاغ بصر الرسول، مثل قوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ يعني: ما زاغ بصره حتى يرى الشيء على غير حقيقته، ولا طغى، مثلاً بأن يكبّر الشيء الصغير مثلما يرى بالمجهر.

﴿١٨﴾ ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ رأى آيات كبرى عظيمة لعلها نفس جبريل لأنه من آيات ربه وقد يكون جبريل عند نزوله أراه آيات من آيات ربه ليعلم أنه رسول من الله.

﴿١٩-٢٠﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ بعد ما بين أنه رسول حق من الله سبحانه عاد إلى ذكر أصنامهم التي يعبدونها: اللات والعزى ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ أصنام مؤنثة معددة يعددونها، ويعينون لكل أناس إلهاً هذا ضلال كبير.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ حين جعلوا الملائكة، وكذلك هذه الأصنام أنثوها كأنهم جعلوها رمزاً للملائكة احتج عليهم كيف يجعلون لله ما يكرهون وهي الإناث ولهم الذكور فقال:

﴿٢٢﴾ ﴿تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾ بمعنى جائرة بعيدة عن الصواب فاسدة.

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن

﴿٢٣﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ ما هي بشيء، بل هي مثل ما كانت قبل التسمية سواء فكما أنها قبل التسمية لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر، وليس منها أي فائدة إلا إذا بنوا بها بنيانا فبعد التسمية هي كذلك لم يحدث شيء إلا الاسم قلدتم آباءكم في ذلك ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ما أنزل بها من حجة تدلكم على عبادتها.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ لا يوجد سلطان ليس معهم إلا ظن وتخمين لاستمرارهم وآبائهم من قبل على عبادتها ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما تهوى أنفسهم لما اعتادوها وألفوها صارت أنفسهم تهواها وصاروا يتعصبون لها.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ هذا الذي جاء به الرسول ص وجاءت به الرسل من قبله ـ صلوات الله عليهم ـ وهو إبطال الشرك والإنذار بالآخرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ كلا.. لأن الحكم ليس إلا لله وحده، وهم إنما يمنون أنفسهم بالجنة إذا رجعوا إلى الله كما قال: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] وهذا غير صحيح إنما هو أماني.

﴿٢٥﴾ ﴿فَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فإذا كانت الآخرة والأولى له وحده فهو الذي يعطي من يشاء ويمنع من يشاء وليس على ما تمنوا.

يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

﴿٢٦﴾ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أملاك كثيرة جداً لو شفعوا في واحد فإنها ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ لا تدفع شيئاً ولا تنفع أحداً ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ لا تغني إلا من بعد أن يأذن لمن يشاء، وأيضاً من بعد أن يرضى بشفاعته وليس فقط بجامل أو يحرج حتى يوافق جل سبحانه بل لابد أن يكون قد رضي به، حتى يجتمع الإذن والرضا.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ رجع الحديث إلى هؤلاء المشركين الذين يقولون في الملائكة أنهم بنات الله سموهم تسمية الأنثى.

﴿٢٨﴾ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ ليس معهم أي علم وإنما خرافات جاهلية ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ الظن لا يدفع الحق ولا يبطل الحق مثل قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾ [غافر:٤٧] تكفوننا وتحملون عنا نصيبا من النار.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي تولى عن القرآن، لأنه الحجة على الرسالة، الذي جاء ليدلل على أنه رسول، وقد عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله.

ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ

والذكر هو القرآن قال سبحانه: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [طه:٩٩-١٠٠] والآية الثانية ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٦] فبين أن الذكر هو القرآن وفي آيات (فصلت): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [آية:٤١] فأعرض عن من تولى عن ذكرنا الذي هو حجة على أنك رسول من الله، وتولى عنه لئلا يؤمن بأنك رسول ولا يؤمن بما جئت به.

﴿..وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ..﴾ لأنهم في غفلة عن الآخرة لم يعلموا بالجنة ونعيمها وما فيها من الملك العظيم لا يفكرون إلا في الدنيا فصارت مبلغهم من العلم غاية ما يعرفونه ويريدونه ويرغبون فيه مثل البهائم التي لا تعرف ولايهُمها إلا المرعى والماء وحاجاتها تلك ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ يبين لك أنهم ضُلَّال وأنهم جُهال لا يعلمون بشيء لأنه يقول ذلك وهو عالم بالناس كلهم من ضل عن سبيله ومن اهتدى.

﴿٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الجن والإنس والملائكة وكل ما في السموات والأرض هو لله وحده ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ ما خلقهم إلا لهذا الشأن ما خلقهم عبثا ولعبا ثم فسر ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ فقال:

أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمۡ لَمۡ

﴿٣٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ يجتنبونها كلها ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ الزلات التي تأتي ولا يصرون عليها مثل ما قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥] فهذا عندي أنه اللمم بمعنى أن تلك الزلة إذا تابوا منها ولم يصروا عليها فإنها لا تخرجهم عن جزاء الإحسان هذا الذي قد وعدهم به.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ يقبل التائب ولو تاب من ذنوب كثيرة، فهو واسع المغفرة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ من التراب ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ الإنسان في بطن أمه يسمى جنيناً لأنه مخفي مستجن لا يُرى ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ لا يمتدح الإنسان نفسه أنه مؤمن متقي لا يعصي الله ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ لأنه يكفينا علمه إذا كنا مؤمنين فالباري هو العالم بنا لا يحتاج إلى التزكية.

﴿٣٣﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ تولى عن الحق هذا كأنه قصة لشخص ما.. تولى.

﴿٣٤﴾ ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا﴾ كأنه أعطى عطية لواحد على أن يحمل عنه ذنوبه، جهالة منه ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾ وأخيراً أكدى أي قطع ومنع ما كان يعطي من القليل، يقولون شاة مُكدِيَة حينما ينقطع لبنها.

﴿٣٥﴾ ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ هل هو عالم بأن غيره يمكن أن يحمل ذنوبه عنه حين يعطيه ذلك العطاء.

يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ
أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ
﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ
أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ بلّغ الرسالة، وأدّى ما كلف به، والمعنى: أم لم ينبأ بما في تلك الصحف؟ بلى.. قد نبئ بها، ولكنه ما قبلها، والذي في تلك الصحف هو:

﴿٣٨﴾ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ كأنه نبئ ألا تزر وازرة وزر أخرى نبأه الرسول ص، ولكنه تولى قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ ما قبل كلام الرسول ص.

﴿٣٩﴾ ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ما عمله من عمل فهو لنفسه أو ما سعى فيه يعني تسبب فيه أما أن يحصل على شيء مما عمله الغير فلا.

﴿٤٠﴾ ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ وأن سعي الإنسان سوف يرى يوم القيامة حين تنشر الصحف.

﴿٤١﴾ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ يوم القيامة يجزاه الجزاء الأوفى يجزى عمله الجزاء الأوفى لا يحمل أحد عنه ذنوبه.

﴿٤٢﴾ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿الْمُنتَهَىٰ﴾ ينتهي إليه العالم يوم القيامة في موقف العرض للسؤال والحساب والجزاء ويحكم الله فيهم.

﴿٤٣﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ هو قادر على كل شيء سبحانه.

﴿٤٤﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ كذلك بقدرته يحيي ويميت، أحيانا بعد أن كنّا أمواتا ثم يميتنا ثم يحيينا مرة ثانية.

وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ

﴿٤٥﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ هذا من دلائل قدرته ودلائل عظمته.

﴿٤٦﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ نطفة مستوية في رأي العين نطفة الذكر ونطفة الأنثى لا يوجد تمييز ولا فرق، ثم ميّز بينهما الباري وخلقهما، وجعل هذا ذكراً وتلك أنثى.

﴿٤٧﴾ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ﴾ على الله ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، البعث بعد الموت.

﴿٤٨﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ الوهاب المعطي المنعم على عباده ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ هو مثله القَنِي الذي يتقناه الإنسان من غنم أو بقر أو نحوها. فهي من الله.

﴿٤٩﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ أي الله الذي هو ربنا ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ النجم الذي يعبده بعض الجاهلية، فالله هو رب هذا النجم الذي هو مثلهم مملوك لله، سبحانه.

﴿٥٠﴾ ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ أهلكهم سبحانه بذنوبهم حين كذبوا الرسل، يقولون: أن هناك عاد إرم وعاد شداد فلعَل عاداً الأولى هي عاد إرم التي ذكرها في (سورة الفجر).

﴿٥١﴾ ﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ﴾ كذلك أهلكهم فما أبقى عليهم يعني استأصلهم وقضى عليهم ولم يبق على أحد منهم.

﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا

﴿٥٢﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أهلكهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ كلهم كذبوا الرسل وهمت كل أمة برسولهم فأهلكهم الباري ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ قوم نوح كانوا أظلم وأطغى من هؤلاء الذين ذكروا قبلهم.

﴿٥٣﴾ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ كذلك ﴿أَهْوَىٰ﴾ بمعنى أهلكها، المؤتفكة كأنهم أناس كانوا على حق ثم انقلبوا إلى الباطل لأنه سماهم المؤتفكة ولا يصح عندي أنهم قوم لوط كما يزعم من بنى على أنها كانت سبع قرى وحملها جبريل على جناحه إلى عنان السماء ثم قلبها.

فهذه القصة مخالفة لما في القرآن الذي صرح بأن عذابهم كان بالرجم بحجارة من سجيل وأخبر أن آثارهم باقية حين قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨] يعني أنه بقي منها من نفس بيوتهم بقايا تدل على تعذيبهم، وعلى قولهم: إنه حملها فوق جناحه وقلبها لا يمكن أن يبقى لها أثر، كما أن القرآن أخبر أنها لم تكن إلا قرية واحدة حين قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل:٥٦].

﴿٥٤﴾ ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ من العذاب ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ مثل قوله في قوم فرعون: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨].

﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ فبأي نعم الله عليك ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي تشك، لأن نعم الله على رسول الله ص نعم عظيمة ومن أعظمها هذا الهدى الذي جاءه من الله.

مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

﴿٥٦﴾ ﴿هَـٰذَا﴾ القرآن ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ مطابق للنذر الأولى مما جاء به الرسل الأولون.

﴿٥٧﴾ ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ قربت القيامة؛ ولأنها أمر عظيم فينبغي الحذر والاستعداد لها مادام قد أخبر سبحانه بأنها قد قربت.

﴿٥٨﴾ ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ لا يقدر أحد أن يردها من الله، سيأتي بها الباري ولا من أحد يردها.

﴿٥٩﴾ ﴿أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ القرآن العظيم الذي هو خارق في حكمته وإحكامه بحيث ما استطاعوا أن يأتوا بسورة من مثله ﴿تَعْجَبُونَ﴾ فقط يتعجبون منه ولا يؤمنون به.

﴿٦٠﴾ ﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ ما كان ينبغي لكم إلا أن تبكوا على أنفسكم لأنكم سائرون على طريق النار نعوذ بالله، فما يحق لكم إلا أن تبكوا على أنفسكم لا أن تضحكوا.

﴿٦١﴾ ﴿وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ﴾ لاهون لاعبون مثلما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:٢].

﴿٦٢﴾ ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ إيماناً به وبرسوله وبكتابه، ولا تسجدوا للأصنام ﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ اعبدوا الله، أو: واعبدوا لله عبادة خالصة.

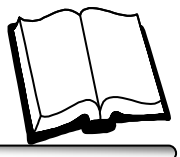

التيسير في التفسير

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ اقتربت القيامة، لأنها أمر كبير وعظيم جداً، فقُرْبُها على قدر عظمتها وأهميتها ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ انشقاق القمر منصوص عليه أنه قد انشق، وظاهره أنه قد وقع، ولا يبعد أن الشامة التي في القمر هي من أثر الانشقاق ـ والله أعلم.

وأما في (تفسير الإمام الهادي) فهو جعل انشقاق القمر مثل ونفخ في الصور ونحوها يعني أنها من أهوال القيامة وأنها ستأتي عند القيامة، لكن عندي أن انشقاق القمر أمر لا يصل إلى حد أن يكون من أهوال القيامة لأن أهوال القيامة قد يمكن أن تتصادم الشمس والقمر، كما قال: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة:٩] لعله يعني تدمر كلها.

﴿٢﴾ ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ من آيات القرآن من كتاب الله، أو آية من معجزات الرسول ص من بقية المعجزات من غير القرآن لأن القرآن مسموع لا مرئي فيمكن أنه يراد آية من آيات النبوة المعجزات الأخرى مثل فيضان الماء من بين أصابعه ص، وقالوا إن انشقاق القمر من معجزاته، وإذا كان من المعجزات فهو مناسب لقوله ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ يعني يروا هذه المعجزة: انشقاق القمر ﴿يُعْرِضُوا۟﴾ لا يفكرون فيها حتى ينظروا ما تؤدي إليه وما تدل عليه ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ لما كان القرآن يتنزل شيئا فشيئا فلعل المعجزات تأتي تباعاً كل مرة تأتي معجزة، فلهذا قالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يعني يتكرر إنزال الآيات كل يوم.

جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ

۝٢ ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ لما كذبوا بالآيات كذبوا بما تدل عليه من القيامة والنبوة وكون القرآن من الله كلها كذبوا بها ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ ليس معهم دليل ولا حجة يعتمدون عليها وإنما اتباع للأهواء ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ كل أمر مما قد قالوا به أو فعلوه مستقر ثابت لا يفوت على الله بل هو محفوظ لأنه بكل شيء محيط لا يفوت عليه شيء.

۝٤ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ النذر التي تنذرهم عذاب الله ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أصل النبأ الخبر المهم، وهذه الأنباء: أنباء القيامة، وأنباء الجنة والنار، وأنباء الأمم الماضية، وما قد وقع عليهم بسبب تكذيب الرسل، هذه كلها فيها ﴿مُزۡدَجَرٞ﴾ أي ما يدعوهم إلى الإنزجار.

۝٥ ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ القرآن الذي جاءهم هو ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ من الله تعالى ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ فهي إنذارات عظيمة ينبغي أن ينزجروا لها لكن لم تجد نفعاً لإصرارهم وتكذيبهم وإعراضهم، المهم أنها ما أثرت فيهم النذر.

۝٦ ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ يا رسول الله حينما لم ينصفوا ولم ينظروا ولم يفكروا في الآيات بل ظلوا معرضين مصرين فتول عنهم لا تجادلهم ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ انتظرهم لهذا اليوم، إحالة الأمر ليوم ﴿يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ يوم القيامة تنكره نفوسهم؛ لأنه يوم عسير على الكافرين غير يسير فيه أهوال مفزعة.

تَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ

﴿٧﴾ ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾ من الخوف قد بدت آثار الذلة عليها ﴿تَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ من القبور ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ لكثرتهم وانتشارهم في الأرض وقت خروجهم، ذاهبين إلى موضع الحساب، والعرض على الله.

﴿٨﴾ ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ قال الإمام الهادي في (تفسيره): مسرعين، وهو مناسب لقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣] مع أنه في أمر مخوف جداً جداً لكن من الذلة قد انقادوا واستسلموا فانطلقوا مسرعين في مشيتهم ﴿إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ الذي يدعوهم إلى محل العرض على الله ﴿يَقُولُ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ قد عرفوا أنه يوم القيامة وقد جاءهم الإنذار في الدنيا وعرفوه أنه يوم الأهوال العظيمة فهو ﴿عَسِرٌ﴾ عليهم ليس معه يسر، وإنما عسر خالص.

﴿٩﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبل هؤلاء الذين في زمن الرسول محمد ص كذبوا بالآيات ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ كذبوا نوحاً × وهو عبد الله كأنها تفضيل له بهذا الاسم، مثل قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣] يعني: أن له شأناً عظيماً وهو مقرب عند الله، والتكذيب جريمة كبيرة ﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ ما كفاهم أن يكذبوه حتى قالوا: إنه مجنون ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ زجروه وحملوه على أن يمتثل الزجر يعني يترك الدعوة.

أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي

﴿١٠﴾ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ لا أنصار معي يدفعونهم وأنا ضعيف وهم أقوياء ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ انتصر لدينك يا رب.

﴿١١﴾ ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ﴾ كناية عن نزول الماء من كل آفاق السماء ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ أي غزير.

﴿١٢﴾ ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ تنبع من كل مكان حتى من تنور نوح نبع الماء ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ قد قدر الباري أن ينبع الماء من الأرض وينزل من السماء ليغرقوا ﴿قُدِرَ﴾ بمعنى (كتب) كقوله:

واعلم بأن ذا الجلال قد قدر ... في الصحف الأولى التي كان سطر

أمرك هذا فاجتنب منه التبر

﴿١٣﴾ ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ نبي الله نوح ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ على سفينة ذات ألواح ﴿وَدُسُرٖ﴾ كأنها مسامير تضم اللوح إلى اللوح، وتضم بعضها إلى بعض.

﴿١٤﴾ ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ تحت رقابتنا تحت رعاية الله تجري فوق الماء لم تكن واقفة في مكانها إنما جرت حيث أراد الباري أن يوصلها ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ نجاته ومن معه في هذه السفينة كان جزاء لنبي الله الذي كان كفره قومه، جحدوا نبوته وكفروا إنعامه عليهم وإحسانه إليهم والسعاية في نجاتهم من النار، وإنقاذهم من عذاب الله ولم يترك وسيلة إلا وعملها فهو أحسن إليهم إحساناً عظيماً، وصبر عليهم زمناً طويلاً، ألف سنة إلا خمسين ولم يجد ذلك نفعاً فهذا جزاء لنبي الله نوح نصره عليهم.

وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى

﴿١٥﴾ ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَهَآ﴾ هذه السفينة ﴿ءَايَةً﴾ لأنها بقيت على الجودي زمناً طويلاً ويقال إنه بقيت أجزاء منها إلى اليوم في أحد المتاحف كأنه في روسيا كما قيل فبقيت كذلك آية تذكر بعذاب الله على قوم نوح ونجاة نوح ومن آمن معه ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كأن كلمة ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ افتعال للمطاوعة، أعني أنه فعل المطاوعة من قولهم: ذكرناه فادّكر أصله أذتكَر، ثم تصرف فيها فصارت ادّكر، وهو يفيد: أنه تذكر مطاوعة وقبولاً لتذكيرنا وإيماناً به.

﴿١٦﴾ ﴿فَكَيْفَ﴾ انظروا وفكروا كَيْفَ ﴿كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ التي قد تقدمت إلى قوم نوح هل كانت سهلة أم كانت شديدة فليحذروا أن يقع عليهم مثلها، وهو تحذير لكل المكلفين وليس لمن في زمن النبي ص فحسب.

﴿١٧﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ ليذكر به الناس وتهتدي به قلوبهم ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هل من قابل للتذكير ينتفع به .

﴿١٨﴾ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ جعلهم عبرة لمن بعدهم حين كذبوا بآيات الله ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى﴾ عليهم ﴿وَنُذُرِ﴾ نذري التي تقدمت إليهم كيف آلت بهم.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ فسَّر الإمام الهادي (الصرصر) بالباردة، وهو ظاهر لأن من شأنها إذا كانت رياحاً شديدة أن تكون باردة ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ يوم شؤم عليهم يعني: يوم تعذيبهم، وهو يومهم الذي وُعِدوا به لما كذبوا وسماه يوماً، مثل قوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:٥].

وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾

فهو يسمي وقت العذاب الشديد يوماً، وكذا وقت الحرب كما يقال: (يوم صفين) (يوم الجمل) مع أنه عدة أيام، فكذلك هذا ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ وهو أيام استمرت الرياح عليهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾ [الحاقة:٧].

﴿٢٠﴾ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ يصف قوتها أنها تنزع الناس من الأرض ترفعهم في الهواء وترمي بهم كأنهم أعجاز نخل لضخامتهم مثل النخلة حين تنقعر أي تقلع بجذورها.

﴿٢١﴾ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ما كان سهلاً بل كان أمراً عظيماً فاحذروه.

﴿٢٢﴾ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ هذا تأكيد لما سبق من أن الله قد يسره وسهله لفهمه والتذكر به لينتفع به الناس ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فهل من أحد يتذكر ويقبل هذا التذكير ويؤمن وينتفع به.

﴿٢٣﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بعد عاد.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ نبي الله صالح، ليس إلا وحده يريد أن يفرض نفسه علينا ، كأنهم اعتبروها دكتاتورية، ولكن لم يلتفتوا إلى أنه ليس إلا مبلغاً عن الله، والباري قد ارتضاه لرسالته لأنه خير من يؤديها وليس بخائن لرسالته، كما أنه ليس طالبا للسلطة والملك وإنما جاء برسالة يبلغها عن الله ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ إذا اتبعناه فإننا حينئذ في غواية عن الحق وعدول عن الصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ عذاب كأنهم يقولون ذلك محاكاة له لعله كان يخبرهم بأنهم في ضلال وسوف يصيرون إلى سعر إلى نار الله المستعرة.

أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ

﴿٢٥﴾ ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ كيف يصح أن يلقي الذكر عليه من بيننا، يعنون أنهم أفضل منه وأولى بأن يلقى إليهم الذكر لو كان هناك ذكر ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ فيه أشر والأشر كأنه أخو البطر أو شدة البطر.

﴿٢٦﴾ ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾ أي يوم القيامة وعبر بغدٍ للدلالة على قربها ﴿مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ هو أم هم، بل هم الكذابون الأشرون.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ آية وهي كذلك فتنة لأنهم مكلفون بأن يتركوها ترعى وتشرب الماء في يومها المعين لها، فهي فتنة لهم إن صبروا عليها وآمنوا بها كآية من الله نجوا، وإلا فهي سوف تؤدي إلى هلاكهم ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ انتظر أمرهم مع الناقة ﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾ اصبر على ما أنت عليه في شأنهم.

﴿٢٨﴾ ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ بينهم وبين الناقة، كما قال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥] يوم لها ويوم لهم، وقالوا أنها في اليوم الذي يكون الماء مخصصاً لها فيه يكتفون بلبنها عن الماء ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ كل من الناقة والقوم يَحضُر في يومه المعين للاستئثار بالماء فيه.

﴿٢٩﴾ ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ الشقي أشقى ثمود ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تناول ما ليس له فيه حق واجترأ على هذا الأمر العظيم ﴿فَعَقَرَ﴾ عقر الناقة.

وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾

﴿٣٠﴾ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ يقول الله فكيف كان عذابي سؤال يبعث على التفكير والنظر في كيف كان هل كان سهلاً أم كان شديداً لأنه أمر عظيم حينما تجاهلوا الإنذار حتى عمهم العذاب الأليم.

﴿٣١﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ على ثمود صيحة شديدة الصوت كأنها أدت إلى رجفة شديدة هلكوا منها ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ قال الإمام الهادي × : ((والعذاب الذي نزل بهم فهو ما ذكر الله من الصيحة الواحدة، والصيحة فهو الأمر الذي نزل بهم فأهلكهم، وهشيم المحتظر فهو دقاق ما قد بلي من الشوك والعيدان الذي احتظر به المحتظر على نفسه وغنمه ثم طال عنده فبلي وتفتت، وهو شيء كانت العرب تفعله يجمع الرجل منها الشوك والعيدان فيحظره حظيرة على غنمه حتى لا يخرج منها شيء، فشبه الله هؤلاء الذين أهلكهم بهشيم ذلك الشوك الذي جعل حظيرة بعد فنائه وبلائه)) انتهى من (تفسير أهل البيت) [ج ٢/ ص٢٥٧].

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هو يكرر هذا الآية لأن الإنسان في غفلة يحتاج إلى التكرار مثلما النائم الذي لا يستيقظ بسهولة.

﴿٣٣﴾ ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ كذلك مثل ما كذب من قبلهم ومن بعدهم بالنذر، جعل التكذيب بنبوة رسولهم لكونه بشراً تكذيباً للرسل جميعاً.

﴿٣٤﴾ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ هذا يدل على أن عذابهم كان بالحاصب وهو ريح شديدة تحمل تلك الأحجار المسومة وتقذفهم بها وتساقط أعالي بيوتهم وتجعلها أسافلها لشدتها ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ أخرجهم من القرية وقت السحر.

وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٌ مُّسۡتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ

﴿٣٥﴾ ﴿نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا﴾ **النجاة هذه** ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ **ننجيه من العذاب إذا عذبنا غيره نخرجه من بينهم وننجيه لأنه شكر نعمة الله.**

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم﴾ **أنذر قومه** ﴿بَطۡشَتَنَا﴾ **بطشة الباري** ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ **فتماروا: شكوا ولم يصدقوا بالنذر.**

﴿٣٧﴾ ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ **هذه جريمة كبيرة آذوه أذية عظيمة، وقد كان الملائكة جاءوه في صورة أضياف** ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ **ردها إلى داخل رؤوسهم فصارت مطموسة لا تبصر** ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ **كان هذا بداية العذاب تلاه الحاصب، وهو قوله:**

﴿٣٨﴾ ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾ **عند شروق الشمس** ﴿عَذَابٌ مُّسۡتَقِرٌّ﴾ **عذاب ثابت؛ لأنه يصيرهم إلى عذاب الله الدائم فمِن عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.**

﴿٣٩﴾ ﴿فَذُوقُواْ﴾ **الخطاب لقوم لوط ذوقوا** ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ **أي نتيجة تكذيبهم النذر.**

﴿٤٠﴾ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ **هل من أحد يقبل هذا التذكير ويؤمن به ويتأثر به.**

﴿٤١﴾ ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ **كذلك جاءهم الرسول المنذر.**

أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ﴿٤٤﴾ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ﴿٤٧﴾ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ

﴿٤٢﴾ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ لأنه جاءهم موسى بتسع آيات فكذبوا بها كلها ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ أخذ العزيز المقتدر يكون أليماً وشديداً لمكان العزة والقدرة.

﴿٤٣﴾ ﴿أَكُفَّارُكُمۡ﴾ هذا خطاب للذين في وقت النبي ص من الكفار ﴿خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ الذين قد أهلكناهم من الأمم الماضين حتى يأمنوا أن يحصل لهم مثل ما حصل لأولئك قبلهم من العذاب ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ هل في الكتب براءة لكم من عذاب الله وسخطه.

﴿٤٤﴾ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ هؤلاء الكفار ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ﴾ جيش كبير مجموع ﴿مُّنتَصِرٞ﴾ سوف ننتصر وندفع العذاب عنا.

﴿٤٥﴾ ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ يهربون كأنه يشير إلى وقعة بدر التي كسرت كبرياءهم ودمرتهم.

﴿٤٦﴾ ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ إضراب عن الحديث في العذاب العاجل وانتقال إلى تهديد بعذاب آجل أشد قد وعدوا به ولا بد أن يصلوا إليه ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ﴾ داهية دهيا مهلكة ﴿وَأَمَرُّ﴾ أشد مرارة من العذاب العاجل.

﴿٤٧﴾ ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أهل الجرائم الفجار أعداء الله ورسوله ﴿فِي ضَلَٰلٖ﴾ ضياع عن الحق ﴿وَسُعُرٖ﴾ عذاب النار، هذا السعر يأتي عليهم في:

شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾

﴿٤٨﴾ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ حين يسحبون بالسلاسل، ويقال لهم ـ زيادة في إهانتهم ـ: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ حين تمس أجسادكم تباشرها، سقر جهنم.

﴿٤٩﴾ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ خلقنا كل شيء بحكمة وليس لعباً ولا عبثاً فالحكمة هي في الجزاء جزاء كل نفس بما عملت.

﴿٥٠﴾ ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ حين نأمر بالقيامة أن تقوم، يعني ليس ثقيلاً عليه ولا يحتاج إلى زمان طويل، بل في لحظة يأمر فتقوم ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في سرعتها.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ الأمم الماضين الذين هم مثلكم سواء في طريقتكم في الشرك والتكذيب ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ هل تتذكرون بما جرى عليهم.

﴿٥٢﴾ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ كل ما قد فعلته تلك الأمم الذين أهلكناهم هو مكتوب ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ سيلقونه يوم القيامة.

﴿٥٣﴾ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ كل عمل صغير أو كبير أمرنا به أن يسطر في الصحف.

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا الله في الدنيا يكون مصيرهم في الآخرة ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهار تروي الجنات وتزينها فتكون الشجر خضراء مثمرة باستمرار.

﴿٥٥﴾ ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ جيد مطابق لما وعدهم الله، فهو مقعد صدق تكاملت فيه كل معاني الكرامة والتكريم لأنهم هناك حلوا ضيوفاً نزلوا ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ فهم ضيفانه في رحمته وفي محل فضله وإحسانه، وهو ملك الملوك المقتدر على كل شيء فكل شيء سهل عليه، فيعطيهم من فضله ما لا يحصر، أضف إلى ذلك النعيم المادي شرف هذا المقعد لكونه عند مليك مقتدر، فيتسنمون ذروة الشرف والعزة والكرامة لكونهم ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ وفضله وإحسانه كبير على قدر عظمته وجلاله وكرمه ويخلدون هنالك عنده تحفهم رعايته وينعمون برحمته وإحسانه فهم في نعيم دائم وملك كبير.

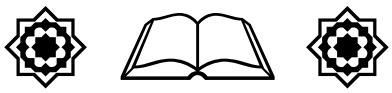

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	تفسير [إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت..]	الأحزاب	٣٣
٢	اختصاص التسبيح من بين الأذكار	الأحزاب	٤١ – ٤٢
٣	معنى الصلاة على محمد ﷺ	الأحزاب	٥٦
٤	معنى [المرجفون]	الأحزاب	٦٠-٦٢
٥	بيان [الذي اصطفينا من عبادنا]	فاطر	٣٢
٦	معنى حضوره سبحانه في موقف الحساب	يس	٥٣
٧	معنى [حافين من حول العرش]	الزمر	٧٥
٨	تفسير [يلحدون في آياتنا]	فصلت	٤٠
٩	تفسير [البطشة الكبرى]	الدخان	١٦
١٠	الخطأ الفاحش في قولهم [شيع إلى مثواه الأخير]	محمد	١٩
١١	معنى [ليظهره على الدين كله]	الفتح	٢٨
١٢	[إن أكرمكم عند الله أتقالكم] تدل على نفي التفاضل	الحجرات	١٣
١٣	معنى [سدرة المنتهى وجنة المأوى]	النجم	١٤ ، ١٥

محتويات الجزء السادس

رقم السورة	السورة المفسَّرة	الصفحات من	الصفحات إلى
٣١	سورة لقمان	٥	٣٤
٣٢	سورة السجدة	٣٥	٥٦
٣٣	سورة الأحزاب	٥٧	١١٧
٣٤	سورة سبأ	١١٩	١٥٢
٣٥	سورة فاطر	١٥٣	١٨٤
٣٦	سورة يس	١٨٥	٢١٠
٣٧	سورة الصافات	٢١١	٢٤١
٣٨	سورة ص	٢٤٣	٢٦٨
٣٩	سورة الزمر	٢٦٩	٣٠١
٤٠	سورة غافر	٣٠٣	٣٣٢
٤١	سورة فصلت	٣٣٣	٣٥٢
٤٢	سورة الشورى	٣٥٣	٣٧٥
٤٣	سورة الزخرف	٣٧٧	٣٩٩
٤٤	سورة الدخان	٤٠١	٤١٤
٤٥	سورة الجاثية	٤١٥	٤٢٨
٤٦	سورة الأحقاف	٤٢٩	٤٤٤
٤٧	سورة محمد	٤٤٥	٤٦٠
٤٨	سورة الفتح	٤٦١	٤٧٦
٤٩	سورة الحجرات	٤٧٧	٤٨٨
٥٠	سورة ق	٤٨٩	٥٠٢
٥١	سورة الذاريات	٥٠٣	٥١٥
٥٢	سورة الطور	٥١٧	٥٢٧
٥٣	سورة النجم	٥٢٩	٥٤٢
٥٤	سورة القمر	٥٤٣	٥٥٦
	فهرس بأهم المسائل والمواضيع		٥٥٧
	فهرس بمحتويات المجلد		٥٥٨

]

التيسير في التفسير

الجزء السابع

= الرحمن ـ الناس -

تأليف

العالم الكبير فقيه القرآن

السيد/ بدر الدين بن أمير الدين الحوثي الحسني

تحقيق

عبد الله بن حمود العزي محمد بن بدر الدين الحوثي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

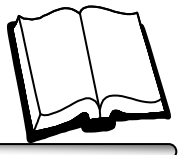

التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ

(سورة الرحمن)

كأنها نزلت في تحقيق أن الله هو (الرحمن) وتوثيق أن اسم الله ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ وأنه هو (الحق) لأن الكفار أنكروه قالوا: ﴿وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٦٠]

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ هذا من أوائل الأدلة على رحمته سبحانه، فالقرآن رحمة للعالمين يدلهم على طريق الجنة، وعلى طريق النجاة من النار، فيه الهدى والنور فهو أعظم الرحمة لأن الهدى أفضل الرحمة لكونه طريق السعادة الدائمة و ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ يعني أنزل القرآن ويسر علمه للناس.

﴿٣﴾ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ هذه من آياته ومن رحمته خلقه للإنسان لينعم عليه.

﴿٤﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وهذه رحمة عظيمة؛ لأنه فضله بها على الأنعام وعلى سائر الدواب في الأرض لأنه ينطق عما في ضميره، يعبر عما في نفسه، ينظم الحروف يضم حرفاً إلى حرف بسهولة فتوجد كلمة، فيضم كلمة إلى كلمة بسهولة فيوجد كلام فصيح مفهوم، وكل هذا بإلهام من الباري تعالى، وهذا عجيب جداً جداً وهذه الحروف لها مخارج في اللسان وفي الشفتين وفي الحلق وأعلى الفم، فمخارجه مختلفة وبعضها متباينة والكلمة الواحدة تضم حروفاً متباينة، ويستطيع أن يجمعها بسرعة لا يحتاج أن يفكر كيف يضم حرفاً إلى حرف بسهولة، هذا إلهام من الله الرحمن الرحيم.

رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ

۝٥ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ وهذه الشمس والقمر بحسبان من آيات الله، فآياته كلها الدالة عليه هي من الرحمة والنعمة للإنسان، الشمس هذه من الآيات العجيبة تجري في مجاريها في بروجها بحسبان، لأنها تقطع كل يوم درجة وكل ثلاثة عشر يوما منزلة، وتنتقل بعد ثلاثة عشر يوماً إلى منزلة ثانية وهكذا حتى تكمل ثماني وعشرين منزلة في سنة وتتمها، والقمر تتمها في شهر واحد ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ دقيق مثل حساب الساعة.

۝٦ ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ فسروا النجم بأنه الشجر الذي لا ساق له، وهو غريب تفسيره، ولعل تفسيره بأنه نجم من نجوم السماء أظهر وخصوصا بعد ذكر الشمس والقمر فالأولى أن يكون المقصود به النجم الحقيقي المفهوم المتبادر، وإن عطف عليه الشجر ﴿وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ فكل النجوم مسيّرة مسخرة على ما سخرها الباري في مجاريها، ومعنى السجود هنا الخضوع لله والانقياد لتسخيره.

۝٧ ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ بالنسبة إلى الأرض مرفوعة بقدرته كأنه جعلها سقفاً للأرض ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ تعليم العدل لأن الميزان يكون آلة تستعمل للتوصل إلى العدل لمعرفة الصواب والتساوي في الأشياء المطلوب التساوي فيها، فلما كان (الميزان) هذا الذي هو آلة موضوعاً لهذا الغرض صح استعمال اسم (الميزان) في تعليم العدل كيف يعدلون في معاملتهم فيما بينهم وبين الله وفيما بينهم هم.

وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ

﴿٨﴾ ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ كأن (أن) مفسرة للميزان نفسه، أن لا تطغوا في الميزان بزيادة على الحق، عندما تزن لنفسك من مال الغير لا تزد على ما هولك.

﴿٩﴾ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ بالعدل ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ لا تنقصوا في الميزان عما يستحقه المشتري.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ وضعها جعلها مبسوطة مفروشة ممهدة صالحة للسكن للأنام أي للخلق كلهم الذين في الأرض.

﴿١١﴾ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ هذه كلها من رحمة الله لعباده مهدها وجعل فيها أرزاقاً لهم مثل الفاكهة والنخل ذات الأكمام وهي آية من الباري حين جعل التمر في البداية يكون في أكمام أخبية، وإذا كبر التمر انفتح الخباء الكُمَّ.

﴿١٢﴾ ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ جعل الله للإنسان الحب هذا رزق عظيم وهو من رحمته بعباده ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ العصف: التبن والقصب، وهو رزق لأنعامنا كما قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:٣٣] قال الإمام الهادي × : ((العصف: القصب)) لكن يمكن أنه يريد بالقصب قصب الذرة وقصب الشعير والبر ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ هذا هو آخرها، أنعم الله به على الإنسان، وفضله على الأنعام والسباع بهذه النعم الأشجار ذات الروائح الطيبة وهي كثيرة ومنوعة في شكلها ورائحتها، هذه نعمة عظيمة للإنسان، وتفسير الريحان بما قلنا: هو عندي أقوى من تفسيره بالرزق.

ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ

وإن كان يصح استعماله في الرزق، فاستعماله في ذات الروائح الطيبة أقوى وأظهر، ولأنه ذكره سبحانه بعد ذكر الفاكهة والنخل والحب، ولو كان معناه الرزق لقدمه، كما أنه قد أغنى عن ذكر الرزق ما عدده من الحب وغيره.

﴿١٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله عليكم ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الإنس والجن يعني ليس هناك نعمة يمكن أن يكذبوا بها؛ لأنها نعم ظاهرة واضحة.

﴿١٤﴾ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ الصلصال: الطين الذي قد يبس واشتد جفافه حتى صار يصلصل ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾ والفخار: هو الخزف الذي يصنعون منه الأواني ونحوها.

﴿١٥﴾ ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ المارج: هو اللهب على تفسير الإمام الهادي × واللهب هو الأجزاء التي تنفصل عن بعضها في الهواء عند اشتعال النار، هذا هو الذي خلق منه الجان.

﴿١٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذه الآيات كلها لأن الآيات نفسها نعم وهي تبين بداية خلق الإنسان.

﴿١٧﴾ ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ وهذه من آياته العظيمة لأنه جعل للشتاء مشرقاً من الجهة الشرقية الجنوبية ، وللصيف مشرقاً من الجهة الشرقية الشمالية، وكذلك المغرب فكانت مشرقين ومغربين وهو ربها الذي سخر الشمس تجري في منازلها حتى تتمها، لأنها تبدأ من أقصى منازلها في جهة الشمال وتعود إلى جهة الجنوب حتى تنتهي منازل الصيف، ثم بعدها منازل الخريف، ثم منازل الشتاء، ثم منازل الربيع، ثم تبدأ في منازل الصيف

يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

وهكذا باستمرار، وكل ذلك بتسخير الله وقدرته سبحانه، فهذه آية عظيمة لأنها محكمة بدقة، كل يوم لا تختلف عن عادتها تلك كل يوم درجة في منزلتها ولأنها بذلك النظام وبتلك الدقة وبذلك الإحكام كانت دليلاً على الخالق المدبر العالم بكل شيء.

﴿١٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ نعم ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الجن والإنس.

﴿١٩﴾ ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما حين خلق الماء أرسل البحر العذب والبحر الملح الأجاج ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حقق الإمام الهادي × في تفسيره في (سورة الرحمن): أنه التقاء حقيقي إذ لا يوجد بينهما حاجز مادي وإنما حاجز معنوي بقدرة الله سبحانه.

﴿٢٠﴾ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ بينهما حاجز لا يبغي أحدهما الآخر.

﴿٢١﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾ نعم ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ إما بمعنى أنه يخرج من كل واحد منهما اللؤلؤ والمرجان، أو من أحدهما اللؤلؤ، ومن الآخر المرجان، أو يخرج من كليهما لأنهم قالوا أن السحاب تأخذ من البحر العذب وتمطره على البحر المالح وإذا أمطرت هذا العذب تحول إلى لؤلؤ، وكذلك المرجان قد يكون مثله.

﴿٢٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ كلها نعم على الإنسان.

﴿٢٤﴾ ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ وله هو الذي أجراها في البحر السفن التي تجري على وجه الماء تجري بسرعة بسبب الرياح التي تسيرها ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ التي

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ
فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ

في البحر ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ فسّروا (الأعلام) بالجبال، وعندي أنه بعيد تشبيهها بالجبال لأنها إذا كانت بعيدة تكون صغيرة في رأي العين حتى تتوارى عن الأنظار، والأقرب: أن الأعلام هنا يقصد بها الرايات، وأن المراد: أنها في حال جريها على الماء وحركتها تشبه الأعلام أي الرايات التي ترفرف وتتحرك عند هبوب الرياح والمشي بها.

﴿٢٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ﴾ نعم ﴿رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وهذه السفن فيها نعمة كبيرة يسافر الناس فيها لأرزاقهم وحاجاتهم.

﴿٢٦﴾ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ من على الأرض ﴿فَانٍ﴾ فلا ملجأ إلا إلى الله وحده سبحانه الذي ينبغي أن يتوكل عليه ويطلبه ويدعوه كل الناس.

﴿٢٧﴾ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ هو الحي الذي لا يفنى كما قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] و (الوجه) هنا يعني: رحمته؛ لأن السياق في رحمة الله لعباده لأن الوجه يستعمل في الرحمة وفي الرضوان، وفي الرضاء والحب كما قال: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ وقال في أعدائه: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٧٧] أي لا يرضى عنهم، ولا يرحمهم، فهو كناية عن رحمته لعباده ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ يُجَلُّ ويُعَظَّم ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ هو ذو الإكرام لعباده المؤمنين يكرمهم.

﴿٢٨-٢٩﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كلهم يسألونه لأنهم عباده كلهم أهل السموات وأهل الأرض يلجئون في جميع حاجتهم إليه ويدعونه لحاجاتهم.

﴿٣٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٣﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كل يوم وله شأن فهو يشفي مريضاً، أو يمرض صحيحاً، أو ينصر مؤمناً، أو يكبت ظالماً، وهكذا شئون العباد هو المتصرف فيها كيف يشاء؛ لأنه فعال لما يريد.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعمه ﴿..تُكَذِّبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هذا تهديد لكي نعد أنفسنا لذلك اليوم، كما قال: ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] لأنه حساب دقيق، يسألنا عما قدمنا ويجازينا فهو يذكرنا لننتبه جميعاً الجن والإنس.

﴿٣٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ لأن هذا الإنذار هو من جملة النعم علينا لأننا إذا قبلنا الإنذار وكنا مستعدين للآخرة فزنا برحمة الله.

﴿٣٣﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ كأنه يقول لأهل السموات وأهل الأرض الذين هم في قبضته كلهم لا يقدر أحد أن يهرب من قبضته سبحانه يقال لهم ذلك، وأقطار السموات جهاتها ونواحيها ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ لا يقدرون على الخروج منها بالكلية إلا بسلطان من الله بأن يجعل لهم قدرة ويجعل لهم تمكيناً.

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعم الله ﴿..تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ هذا خاص بأعداء الله سبحانه يوم القيامة.

ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾

﴿شُوَاظٌ﴾ لا دخان فيه لهب من نار ﴿وَنُحَاسٌ﴾ فسروه بالدخان وهذا الدخان قد أشار إليه في (سورة المرسلات) حين قال: ﴿انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلاَثِ شُعَبٍ * لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات:٣٠-٣١] ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا يستطيع أحد أن يرد عذاب الله .

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ..﴾ يوم القيامة ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةً﴾ انقلب لونها إلى الحمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ كأنها تتحول إلى سائل تذوب مثل الدهان، في (تفسير الإمام الهادي ×): ((الدهان: حثالة الدهن)) فسروه حين قال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج:٨] قالوا: مثل حثالة الدهن.

﴿٣٨-٤٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوۡمَئِذٖ..﴾ في حالة من أحوالهم وهو عند وصولهم إلى أبواب جهنم حينئذ ﴿..لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا يقولون: أيش ذنبك؟ أيش فعلت؟ لأنه قد جعل الله فيهم السيماء والعلامات التي توضح أنهم مجرمون، وهو قوله:

﴿٤١﴾ ﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ فالخزنة خزنة جهنم عندما يرونهم لا يسألونهم عن شيء، وليس المقصود أنهم لا يسألون سؤال تبكيت واحتجاج وقت الحساب ﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ قالوا إنهم يأخذون بنواصي النساء، وأقدام الرجال، وهذا عند وصولهم إلى أبواب جهنم، أما قبل ذلك فإنهم يساقون كما قال الله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ وقال: ﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٣﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ

﴿٤٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الجن والإنس.

﴿٤٣﴾ ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾كأنه يقال لهم هذا حينما يصلون إلى أبواب جهنم.

﴿٤٤﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يعذبون بالماء الحار، يغمسون فيه ويسحبون فيه لأنه قال: ﴿إِذِ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاَسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧١-٧٢] فمرة بين الحميم ومرة بين الجمر واللهب ﴿ءَانٍ﴾ حار شديد الحرارة قد بلغ في الحرارة أقصاها.

﴿٤٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعمه ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ لأن الحديث عن هذا رحمة للناس لأنه إنذار فهو نعمة.

﴿٤٦﴾ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ المؤمن الذي خاف مقام ربه وهو لا يزال في الدنيا خاف الموقف في ذلك اليوم يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم العرض على الله، واستعد له في الدنيا، هذا يكون له في الجنة جنتان لأن الجنة مشتملة على جنات كثيرة بساتين متعددة.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿..تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ الأفنان قد تكون بمعنى جمع فَنَن وهو الغصن، وقد تكون بمعنى فن وهو النوع من الشيء، وأنا أرجح في هذا الموضع أن المقصود به الأغصان؛ لأنها جمال للشجرة، كما أن جمال الشجرة في الورق كذلك الأغصان لأنها زينة لها

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ

أما (الأفنان) بمعنى الأنواع، فستأتي في قوله: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ فأغنى ذلك عن تفسير (الأفنان) هنا بالأنواع.

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعمه ﴿..تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ في كل واحدة عين جارية مثل ما قال في (سورة الغاشية): ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [آية:١٢] عين ماء تروي الشجر فتبقى مثمرة ومخضرة باستمرار كما قال: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥].

﴿٥١﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الثقلان.

﴿٥٢﴾ ﴿فِيهِمَا﴾ في الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفان بقدرة الله وفضله ورحمته.

﴿٥٣﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ أيها الثقلان.

﴿٥٤﴾ ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ يقولون: إن البطائن هي المباشرة للأرض فيدخلون في إشكال لا يجدون إلا أن يقولوا: هذه البطائن فكيف بالظاهر؟! وعندي أن البطائن هي وجه الفرش المباشرة للجالس؛ لأن الحديث عن وصف ما يتكئون عليه، وأنه الإستبرق وهو غليظ الديباج ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الثمر الذي قد نضج وطاب يكون دانياً قريباً للمتناول.

﴿٥٥﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ

﴿٥٦﴾ ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ حور قاصرات الطرف على أزواجهن فلشدة حبها له ورغبتها فيه لا تريد إلا هو ولا تنظر إلا إليه ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أبكار لم يفتضهن قبلهم أحد لا جن ولا إنس.

﴿٥٧-٥٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ نعم الله ﴿..تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ شبه هؤلاء الحور باليواقيت وهو أحمر اللون ﴿وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ قالوا: صغار اللؤلؤ وهو أبيض شديد البياض، فيكون بياضها مشرباً بحمرة زائدة في بعض الأجزاء من الجسد مثل الخدود.

﴿٥٩-٦٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ ليس جزاء طاعته لله وتقواه في الدنيا إلا الإحسان في الآخرة من الله، وهذا أمر عظيم جداً حق أن يطرب له الإنسان حين يقول ملك الملوك لعبده: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ يعني: حين يعتبر إحسان العبد الحقير مقابل إحسانه هو، وكأنه بعمله للطاعات قد أحسن إلى الله!! سبحان الله ما أكرمه.

﴿٦١-٦٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ومن دون الجنتين بقي له جنتان أقرب من تلك إلى قصره فهي حينئذ أربع اثنتان بجوار قصره، واثنتان أبعد منهما.

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ

﴿٦٣-٦٤﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ﴾ يعني لصلاح الشجر صار الورق لشدة اخضراره وصلاحه يضرب في خضرته إلى سواد.

﴿٦٥-٦٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ قوية النضخ، قوية الجري ولقوتها صار الماء يترشش على جوانب المجاري مما يدل على غزارة الماء وقوة اندفاعه.

﴿٦٧-٦٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ في الجنتين فاكهة ونخل ورمان النخل والرمان فيهما زينة جميلة عندما يخضر ورق الرمان وتتفتح أزهاره وتتدلى أثماره يكون بديع المنظر، وهكذا النخيل منظرها غاية في الجمال.

﴿٦٩-٧٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ في الجنتين ﴿خَيْرَاتٌ﴾ نساء خَيِّرَات ذوات أخلاق طيبة تحب الإحسان وتحب ترغيب الزوج، والأدب والطاعة يعني الخير كله والحسان من الحسن أي الجمال.

﴿٧١-٧٢﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ فسر الخيرات هنا أن المقصود بهن الحور ﴿مَّقْصُورَاتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ مصونات رغبتهن في البقاء في الخيام لا تحب أن تغادر خيمتها وهذه من الصفات الحسنة في المرأة. والخيام هذه روي أنها من اللؤلؤ والزبرجد.

إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ جعلهن أبكارا مثل ما قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة:٣٦].

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ..﴾ فراش ﴿رَفْرَفٍ﴾ وكأن الرفرف هو ذو خمل ومن شأنها أن ترف يعني تتحرك حينما يجلس عليها، وهذه الخمل في لونها ﴿خُضْرٍ﴾ جميلة لخضرتها ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ جميل فيه زينة عظيمة بديعة، والعرب تسمي الشيء البديع المتقن عبقريا وهو وصف للفرش ـ أيضاً.

﴿٧٧-٧٨﴾ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أنعمه ﴿..تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ عظم وجل اسم ربك الرحمن ﴿ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذي العظمة والجلال، والإكرام لعباده المؤمنين سبحانه وتعالى.

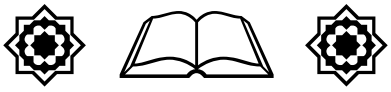

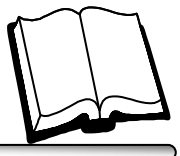

التيسير في التفسير

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ الواقعة: هي التي لا بد من وقوعها، إذا وقعت كان أمراً عظيماً، يدل عليه سياق الكلام في السورة.

﴿٢﴾ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ كل ما أخبر الله به عنها وعن ما فيها من الأحداث والوقائع فهو صدق لا يتبدل.

﴿٣﴾ ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خافضة لأعداء الله المتكبرين في الدنيا، رافعة لأولياء الله ترفع درجاتهم.

﴿٤﴾ ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ هذا تفصيل وتفسير للواقعة مثل قوله: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١] وقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة:١] وقوله: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة:١٤].

﴿٥﴾ ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ فُتَّتْ حتى صارت أجزاء إلى حد أنها تصير هباء منبثا كما قال:

﴿٦﴾ ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا﴾ الهباء أجزاء صغار ترى في شعاع الشمس الداخل من النافذة.

﴿٧﴾ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الخطاب إما للأحياء الموجودين في وقت الرسول ﷺ، أي أنت ومن آمن بك ومن لم يؤمن بك، أو الخطاب للبشر كافة، مثل ما قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف:٢٨] يعني النساء كافة.

وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ

﴿٨﴾ ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أصحاب اليُمْن والخير والبركة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ سؤال عنهم كأنه تقديم للجواب عنهم من هم، أو تعظيم لأمرهم، وشأنهم الذي سيصيرون إليه.

﴿٩﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ كذلك أصحاب الشؤم والنحس والعاقبة السيئة ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ الأقرب عندي والله أعلم أنه سؤال عن حالهم التي يكونون عليها، سؤال تقدمة للجواب الذي سيجاب به عنهم، وتفصل به أحوالهم.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ هذا الصنف الثالث السابقون، السابقون في طاعة الله، السابقون إلى الثواب العظيم، والدرجات العلى، كأن المعنى: السابقون في الدنيا السابقون في الآخرة.

﴿١١﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ لأن لهم قربى وزلفى ومكانة عظيمة، فهم مقربون عند الله سبحانه وتعالى، ويمكن أنهم المعنيون في قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:٦٩] والله أعلم.

﴿١٣﴾ ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ إما خبر بعد خبر لأولئك، وإلا: المقربون في جنات النعيم، كله مستقيم.

﴿١٣﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يبين مقدارهم من الأمم ﴿﴿ثُلَّةٌ﴾ أي جماعة ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا

﴿١٤﴾ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ﴾ كأنه قد قل الخير فيهم ليس السابقون منهم إلا قليلاً، والثلة قالوا: هي تعبير عن جماعة كبيرة.

﴿١٥﴾ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ هذه السرر موضونة أي منسوجة محكمة النسج مضاعفة النسج.

﴿١٦﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ الاتكاء الميل بالجانب، والاعتماد على شق ﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ لأنهم متحابون في الله متآخون، فالإنسان يحب أن يرى صاحبه، وصاحبه يحب أن يراه، وكأن كلا يرى صاحبه في غرفته، مع سعة وكثرة نوافذ وأبواب الغرف يقال: إنه يكون للغرفة الواحدة خمسمائة باب.

﴿١٧﴾ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ يخدمهم ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ خدام غلمان يقربون لهم ما يطلبون ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ عندي أن معناه ـ والله أعلم ـ مخلدون لا يصيبهم مرض، بل يكونون أصحاء سالمين من كل ما ينفر مثل الزكام والسعال ونحوه مما يستقذر فيمن يلي خدمة الإنسان.

قال امرؤ القيس:

وهل يعمن إلا سعيد مخلد قليل هموم ما يبيت بأوجال

﴿١٨﴾ ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ يقربون لهم الأكواب التي يشربون منها وهي جمع كوب وصفها في (سورة هل أتى) بأنها ﴿قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ [آية:١٦] جمع من الفضة والزجاج ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ جمع إبريق كأنه يصب من الإبريق في الكوب ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ خمر من عين نابعة.

يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا

﴿١٩﴾ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ لا يصيبهم صداع بسببها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لا يحصل لهم نزيف، النزيف قد يكون إسهالاً، وقد يكون دماً، تتقطع الكبد وتنزف دماً، فهذه الخمر لا ينزفون عنها أي بسببها، ليست مثل خمر الدنيا تأتي بمضار، مثل ما قال في (سورة الصافات): ﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [آية:٤٧].

﴿٢٠﴾ ﴿وَفَٰكِهَةٍ﴾ يطوف بها الولدان ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ هؤلاء السابقون يكون لهم من الفاكهة مما يتخيرون، وينتقون ويحبون.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ كذلك ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ قدمت الفاكهة على اللحم لأنها تفتح شهية اللحم، كما قدمها في (سورة الطور) قبل اللحم.

﴿٢٢﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ رفعها، لأنها ليست مما يُقَرّبه الخدم، وهي إما معطوف على ولدان ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ﴾ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ يطوف عليهم حور عين، أو ولهم حور عين، حور: جمع حوراء، وعين: جمع عَيناء واسعة العين، الحَوَر: شدة سواد الأسود في العين مع شدة بياض الأبيض فيها، ويمكن أن تكون مكحلة من أصل الخلقة.

﴿٢٣﴾ ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ في صفاء البشرة ونعومتها وبياضها كأنها ﴿ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ المصون الذي لا يزال في أخبيته.

﴿٢٤﴾ ﴿جَزَآءًۢ﴾ لهؤلاء السابقين ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً

﴿٢٥﴾ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أنظر من حكمة الله سبحانه لم يجعل هذا من الجزاء لما أخره بعد قوله: ﴿جَزَاءً﴾ لأنه ليس إلا مجرد سلامة من أذى ومن ضر واللغو هو الكلام التافه والتأثيم: كأن يقال يا فاجر يا خبيث ونحو ذلك مما في الدنيا، ففي الآخرة لا شيء من هذا.

﴿٢٦﴾ ﴿إِلَّا﴾ لكن ﴿قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾ لا يسمعون من بعضهم الآخر إلا كلاماً طيباً، يسلمون على بعضهم البعض.

﴿٢٧﴾ ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ هذا القسم الثاني بدأ يفسره و﴿ٱلْيَمِينِ﴾ هي رمز اليُمْن كما أوتي كتابه بيمينه.

﴿٢٨﴾ ﴿فِى سِدْرٍ﴾ السدر: هو هذا النبق العلب، ﴿مَّخْضُودٍ﴾ لا شوك فيه يستظلون به؛ لأن ظلاله جميل.

﴿٢٩﴾ ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح المنضود، قالوا: هو الموز ﴿مَّنضُودٍ﴾ لما كانت أوراقه من أسفله إلى أعلاه مرصوص بعضها على بعض.

﴿٣٠﴾ ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ ظل أشجار كبيرة ظلها واسع ممدود، وفي الحديث: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

﴿٣١﴾ ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ عين جارية، أو كما قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان:٦] يفتحونه ويفجرونه هم متى أرادوا.

﴿٣٢﴾ ﴿وَفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ لأصحاب الميمنة.

﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ

﴿٣٣﴾ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ عنهم لأنها مثمرة في كل وقت ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ليسوا ممنوعين عنها بل يقطفون منها متى أرادوا، وتلاحظ أنه لم يذكر أن مع هؤلاء أصحاب الميمنة خدماً مثل السابقين الذين قال عنهم: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ..﴾ لأن أولئك بمثابة الملوك.

﴿٣٤﴾ ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ ولهم فرش مرفوعة على السرر.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ يمكن أن الضمير هنا مبهم فسره بقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ كما قال: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ البعض يقول إن الفرش هنا عبارة عن الحور نفسها، لكن بالإمكان أن تبقى الفرش على حقيقتها، ويفهم من ذلك من على الفرش وهي الحور ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ كل ما أتاها وجدها بكراً.

﴿٣٧﴾ ﴿عُرُبًا﴾ عروبة متحببة إلى زوجها تكلمه بكلام لطيف جميل مرغّب ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات في السن.

﴿٣٨﴾ ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ إما بمعنى جعلهن ﴿أَتْرَابًا﴾ لأصحاب اليمين بحيث يتساوين هن وأصحاب اليمين في السن، أو بمعنى أن كل هذا لأصحاب اليمين الحور وكل ما ذكره.

﴿٣٩﴾ ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أصحاب اليمين هم جماعة من الأولين يمكن أنها جماعة كثيرة.

﴿٤٠﴾ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ كذلك.

ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ

﴿٤١﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ هذا هو القسم الثالث بدأ يفسره ويحكي وضعهم السيء.

﴿٤٢﴾ ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ السموم قد يكون هواء حاراً جداً يدخل من مسامه مع التنفس ويصل إلى رئتيه، والحميم الماء الحار.

﴿٤٣﴾ ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ كأنه ظل من دخان أسود.

﴿٤٤﴾ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ليس ظلاً بارداً ولا يفيدهم وإنما يزيدهم ضيقاً كما قال تعالى: ﴿لاَ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات:٣١].

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ هذا هو السبب الترف أدى إلى أن يستكبروا فعصوا رسلهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الجريمة الكبيرة، أو القسم العظيم، اليمين الغموس.

﴿٤٧﴾ ﴿وَكَانُوا۟﴾ ينكرون البعث ﴿يَقُولُونَ﴾ استنكاراً ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ قد تحولت أجزاؤنا بعضها قد صارت تراباً، وبعضها لازال عظاماً ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾هل نبعث بعد هذا ونجازى.

﴿٤٨﴾ ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ أيضا ـ وهو الأغرب عندهم ـ هل سيبعث آباؤنا الأوائل الذين قد بليت أجسامهم بين التراب.

مِيقَـٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ

﴿٤٩-٥٠﴾ ﴿قُلۡ﴾ هذا رد عليهم ﴿إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ..﴾ لابد أن يبعثوا ويجمعوا كلهم الأولون والآخرون ﴿إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ ميعاد محدود.

﴿٥١﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ يشير إلى هؤلاء الذين في الدنيا الضالين عن الحق المكذبين بلقاء الله المعرضين عن كتابه.

﴿٥٢﴾ ﴿لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ هذا نوع من الجزاء يدل على غيره.

﴿٥٣﴾ ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ يضطر لمواصلة الأكل حتى يملأ بطنه رغم حرارتها وشدة كراهتها.

﴿٥٤﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ كذلك يشرب على الزقوم.

﴿٥٥﴾ ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ يستمر في الشرب لا يمنعه شدة حره من شربه، حتى يقطع أمعاءه و﴿ٱلۡهِيمِ﴾ الإبل التي تصاب بمرض يسمونه (الهيام) إذا أصابها تظل تشرب باستمرار حتى تموت كما يقال.

﴿٥٦﴾ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ﴾ ضيافتهم ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ فور وصولهم إلى جهنم تقدم لهم هذه المائدة من الزقوم والحميم نعوذ بالله، ولما كان قد توعدهم بهذا المصير في الآخرة، بعد أن حكى تكذيبهم جعل يحتج عليهم فقال:

﴿٥٧﴾ ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ قد صار خلقكم دليلاً على أنه ممكن بعثكم، وأن لا وجه ولا حجة لكم في استبعاده حين قلتم: ﴿أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا..﴾.

ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ

﴿٥٨﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ المني هو الماء الدافق ليس فيه صورة ولا عظام ولا مفاصل ولا عروق وخلق سبحانه منه إنساناً.

﴿٥٩﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ هم يعلمون أن الله سبحانه هو الذي يخلقه.

﴿٦٠﴾ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ فهو بقدرة الله الإحياء والممات ، كذلك جعله على مقادير محدودة هذا يموت في وقت، والثاني في وقت آخر، والثالث كذلك في أوقات متفرقة على صفة محكمة، لأنه لو جعل الموت للجيل الواحد في لحظة واحدة لأختل نظام الحياة وكان هولاً شديداً لا يطاق ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لستم بفائتين علينا.

﴿٦١﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ نجعل خلائف في الأرض غيركم وننشئكم في حالة لا تعلمونها، بأن نغير هذه الحالة التي أنتم فيها إلى حالة ثانية مثل المسخ أو غيره.

﴿٦٢﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ لما خلقناكم أول مرة ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فهلا تذكرتم قدرتنا على إنشائكم بعد الفناء.

﴿٦٣﴾ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الحرث الذي تحرثونه من الأرض، تبذرون فيه البذر.

﴿٦٤﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ الله الذي زرعه أنبت الزرع وأحياه ونماه حتى جاء منه الثمر، لا دخل للمخلوقين في هذا إلا عملية البذر بالبذور التي خلقها هو سبحانه.

﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ

﴿٦٥﴾ ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾ لأن جعله للزرع هذا إنما هو من تفضله ورحمته ونعمته على عباده، وإلا لو شاء لجعله ﴿حُطَٰمٗا﴾ مفتتاً مكسراً ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ ظللتم تفكهون بالحديث قائلين:

﴿٦٦﴾ ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾ حدثت لنا غرامة وخسارة لما جعله حطاماً.

﴿٦٧﴾ ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ من الثمرة في المستقبل.

﴿٦٨﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ﴾ لا يحتاج إلى وصف الماء لا في كونه يروي، ولا في كونه يبرد، أو أنه لذيذ طعمه وعذب هم يعرفون كل هذا فاكتفى بقوله: ﴿تَشۡرَبُونَ﴾.

﴿٦٩﴾ ﴿ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ من السحاب كلا.. الباري هو من أنزله.

﴿٧٠﴾ ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ ليس من الضروري أن يكون عذباً بل لو أراد لجعله أجاجاً شديد الملوحة وإنما رحمة منه وتفضل.

﴿٧١﴾ ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ تشعلونها.

﴿٧٢﴾ ﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ﴾ شجرة المرخ والعفار أعرف شجرة العفار وهو شجرة في طعمها نكهة الكبريت وورقها أبيض، وكذلك عيدانها ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ الله الذي أنشأها بقدرته.

بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم

﴿٧٣﴾ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ النار هذه ﴿تَذْكِرَةً﴾ للناس لأنها تذكر بنار الآخرة ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ الذين قد صاروا في القواء أي القفر مسافرين فهم بحاجة إلى نار للتدفئة والطبخ ونحو ذلك من الفوائد التي لا تخفى.

﴿٧٤﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ نزهه عما يقول أعداء الله الكافرون، حينما أنكروا قدرته على البعث بقولهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا...﴾ فهو العظيم القادر على كل شيء، العالم بكل شيء.

﴿٧٥﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ هذا قسم من الله ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ ولعل المقصود بمواقعها مواضعها في بروجها ومجاريها التي لا تختلف عنها؛ لأن فيها حكمة وإتقاناً عجيباً، ودلالة على الخالق.

﴿٧٦﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لأنه آية عظيمة لكنهم لا يفكرون ولا ينظرون في آيات الله.

﴿٧٧﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ هذا القرآن هذا جواب القسم ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ فيه الخير والهدى والنور والنفع للمؤمنين الذين يتفهمونه، ويتبعونه ويتمسكون به.

﴿٧٨﴾ ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ كأنه كتاب في السماء أول ما أنزل للملائكة ليقرؤوه وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] فهو أم الكتاب ربما هو يعني الكتاب المكنون قال الإمام القاسم بن إبراهيم × في وصفه: « سماويٌّ أحله الله برحمته أرضه».

﴿٧٩﴾ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ ذلك الكتاب المكنون لا يمسه إلا الملائكة المطهرون، الذين طهرهم الله من الذنوب.

مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ

﴿٨٠﴾ ﴿تَنزِيلٞ﴾ أنزله الله على رسوله ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المالك وهم عباده، يدعوهم إلى الهدى ويحتج به على أعداء الله.

﴿٨١﴾ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ هذا القرآن الذي هو بهذه الصفة من الحكمة والإحكام والإتقان العجيب، والذي قد سمعوه وعرفوا أنه أمر خارق ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ متساهلون فيه متهاونون به ترون أنه من السهل تكذيبه.

﴿٨٢﴾ ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بسبب أنكم تكذبون، الراجح عندي في معناها أنهم كانوا يستدلون على كونهم المحقين بما هم عليه من التكذيب بآيات الله مغترين بنعم الله عليهم كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣] استدلوا على أنهم أهل الحق بما أعطاهم ووسع عليهم من الدنيا حتى جعلوا التكذيب سبباً للرزق، وهذه أظهر عندي من الاعتماد ـ في تفسيرها ـ على رواية أنهم كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا..

﴿٨٣﴾ ﴿فَلَوۡلَآ﴾ حين ينكرون الآخرة والبعث والجزاء ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس ﴿ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ طلعت الروح ووصلت إلى الحلقوم وأوشكت على مغادرة الجسد.

﴿٨٤﴾ ﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ إلى هذا الذي أشرف على الموت أو ﴿تَنظُرُونَ﴾ أي تنتظرون خروجها.

﴿٨٥﴾ ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ﴾ ملائكتنا الذين يتولون إخراجها ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ لا ترونهم.

إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ

﴿٨٦﴾ ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ كرر ﴿فَلَوۡلَآ﴾ ليرتب عليها قوله ﴿إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ يعني: غير مجزيين في الآخرة ترون أن هذا المشرف على الموت وما يعانيه ليس إلا لأسباب بسيطة ومجرد وعكة صحية طفيفة يمكن أن يستعمل لها الأدوية، إذاً فعالجوه بأي علاج لعلكم.

﴿٨٧﴾ ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ أي الروح ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعوى أنكم غير مدينين ولكن هذا الموت أمر الله لا يمكن رده عندما ينزل.

﴿٨٨-٨٩﴾ ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا الذي قد خرجت روحه ﴿..مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ * فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ رَوْح استراحة من عناء الدنيا وتعبها وبلائها وما عاناه من مشاق في صبره على طاعة الله، وعلى الجهاد في سبيل الله فاستراح.

كما قال في الحديث: أنه مر على رسول الله ص بجنازةٍ، فقال: ((مستريحٌ أو مستراح منه)) قلنا: يا رسول الله ما مستريحٌ أو مستراح منه؟ قال: ((العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد العاصي يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)) (تيسير المطالب) [ج١/ ص ٤٢٩].

فهذا معنى (رَوْح) أي راحة وخروج من عناء الدنيا إلى حياة أفضل ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾ يفسره البعض بالرزق لكنه في الريحان هذا الشجر الذي تكون رائحته طيبة أظهر، فحمله عليه أظهر وأقوى من تفسيره بالرزق، لأنه بعدها قال: ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ وفيها ما تشتهيه الأنفس.

ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا هُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

﴿٩٠-٩١﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ﴾ هذا الميت ﴿..مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ هذا عندي أنه بشارة له بأنه من أصحاب اليمين ليأمن ويطمئن أنه ناج من النار، أي سلام لك حال كونك من ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أو سلام لك أنت من ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ المهم أنه بشارة أنه من أصحاب اليمين، هذا عندي أقرب.

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أعداء الله الذين ضلوا عن الحق عن سبيل الله.

﴿٩٣﴾ ﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ ضيافة وقرىً له معجل من حميم.

﴿٩٤﴾ ﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ حين يدخل جهنم، ويباشرها بجسده، والجحيم النار المتأججة.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ القرآن ﴿هُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ فإذا كان هو الحق اليقين فما وعد به فهو حق وصدق من أنه لا بد من لقاء الله، ولا بد من الجزاء للمؤمنين، ولا بد من الجزاء لأعداء الله.

﴿٩٦﴾ ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ نزهه عما يقول المكذبون بالقرآن، الذين أنكروا أنه من الله لأنهم بذلك جعلوه كأنه قد أهمل عباده وتركهم وكأنه ما خلق السموات والأرض إلا عبثاً، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً.

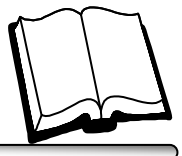

التيسير في التفسير

سورة الحديد

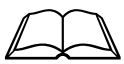

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الراجح فيها: أن معنى تسبيحها دلالتها على تنـزهه من كل نقص ومن كل عيب لأنها تدل على قدرة عظيمة وعلم محيط بكل شيء، وأنه غني عن كل شيء، فدلت على أنه منـزه عن كل ما ينسب إليه الجاهلون ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ بعزته وحكمته هو غني عن تسبيحهم.

﴿٢﴾ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلها مملكة له السموات بما فيها من الملائكة، والأرض بما فيها من البشر وغيرهم، كلها ملكه ﴿يُحْيِۦ﴾ هذا تحقيق لمعنى الملك وأنه، ملك يختص به، بحيث أنه يحيي يوجد أحياء ﴿وَيُمِيتُ﴾ يميت أحياء، لأن له الخلق والأمر وحده.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أحاطت قدرته بكل شيء، لا يفوته شيء، ولا يعجز عن شيء.

﴿٣﴾ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ قبل كل شيء ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ بعد كل شيء ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بآياته ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ عن أن يدرك بالحواس ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ علمه محيط بكل شيء، هذه الآيات أثبتت عزته وحكمته وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء.

ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ

﴿٤﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ خلق الأرض والسماء في يومين ، وجهز الأرض بالجبال وغيرها في أربعة أيام ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كان له الملك والولاية على كل شيء والأمر والنهي والتصرف.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما يدخل فيها مثل البذور وغيرها ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من الأرض مثل النبات و غيره ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾الملائكة والمطر وغير ذلك ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ما يصعد، الملائكة ـ أيضاً ـ والكلم الطيب وكل أعمال العباد وأرواح المؤمنين وأما أرواح الكافرين فلا؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف:٤٠] فهو عالم بكل شيء.

وقوله: ﴿فِيهَا﴾ يظهر منه: أن المعنى بالسماء نفس جهة علو حين قال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي في جهة علو ولم يقل: إليها بل أبهمها، يصعد فيها في جهة علو بما فيها السبع السموات، ومن تحت السماء الدنيا كله سماء ﴿وَهُوَ﴾ الله سبحانه ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ لأنه قد قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ نبهنا على أنه ليس مثل استواء المخلوق الذي يقعد على العرش ويتحيز في جهة معينة، بل لا يقاس بالمخلوقين في شيء وكذلك فهو معنا لا بالمقارنة، قال أمير المؤمنين: ((مع كل شيء لا بمقارنة)).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سبحانه بصير بأعمالنا يجازي على كل عمل بقدر ما يناسبه صالحاً كان أو سيئاً قليلاً أو كثيراً.

تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم

﴿٥﴾ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أعادها كأنه لأجل يرتب عليها قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فله ملك السموات، وإليه المرجع عند المشاكل والحاجات والمهمات؛ لأنه على كل شيء وكيل ليس متخليا عن عباده.

﴿٦﴾ ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بقدرته ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تنبيه على قدرته العظيمة ﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كذلك ينبه على إحاطة علمه بكل شيء حتى ما تخفيه الصدور.

﴿٧﴾ ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ لأن الإيمان بالرسول ص يستلزم الإيمان بالرسل كلهم والكتب كلها ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ لأن الإنسان إذا أطاع الله في هذا الإيمان والإنفاق فسيوفق لطاعته في غيرها ومعنى مستخلفين أي أننا نخلف غيرنا في المال فكأنه للناس عامة إنما اللاحق يخلف السابق ويحوزه ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ الأساس هو الإيمان لأجل يقبل الإنفاق.

وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ كأنه يعني مضاعفة الأجر للأولين لأنهم السابقون الذين قام الإسلام على إنفاقهم وتضحياتهم فهم المؤسسون وبجهودهم استقوى الإسلام وتمكن وتوسع فيما بعد، واستمر حتى وصل إلى الأجيال من بعدهم فما وصل إلينا إنما هو من آثار الأولين.

مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ

﴿٨﴾ ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾ بمعنى كيف ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ لستم مهملين بل معكم رسول يدعوكم إلى الإيمان ﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ بما ركب فيكم من العقول التي تدلكم على أن الله ربكم كما قال: **﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾** [الأعراف:١٧٢].

﴿٩﴾ ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ وهي تدلنا على الإيمان فكان قد زودنا بالعقول وبالآيات التي ينزلها القرآن وكذا بالأعلام من أهل بيت النبوة عليهم السلام ﴿لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ ظلمات الجهل والشرك والكفر ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى نور الإيمان والهدى ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ حين يعلمكم الإيمان لتنجوا من النار وتدخلوا الجنة وهذا من رأفته ورحمته بكم.

﴿١٠﴾ ﴿وَمَا لَكُمۡ﴾ وليس لكم ﴿أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأن الملك لله، والمال لله، وقد أمر بالإنفاق، فكان من الواجب الإنفاق في سبيل الله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو الوارث بعد كل أحد ومن بخل بالمال تركه للوارث ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَ﴾ بَيَّن الفرق تفاوتهم في فضل الإنفاق بين من أنفق وقاتل قبل الفتح وبعده.

ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ

ويمكن أنه قبل الفتح عموماً فتح مكة والحديبية، فيكون ذلك الإنفاق في وقت متقدم عند حاجة الإسلام إلى الإنفاق وإلى الجهاد يوم كانوا فقراء وقلة فكان للأنفاق في ذلك الزمن وكذلك الجهاد كان له فضل كبير﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْ﴾ مثل الإمام علي × الذي تميز بكثرة الإنفاق والمصابرة على والجهاد من أول الإسلام فهؤلاء أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ الفريقين من المؤمنين وعدهم المثوبة الحسنى بمعنى الجزاء الحسن على عملهم كلاً على قدر عمله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ خبير بأعمالكم عالم بخبرها وحقيقتها.

﴿١١﴾ ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أعاد الكلام في الترغيب في الإنفاق، وهو الإنفاق في سبيل الله، ويمكن أنه يشمل الإنفاق في سبيل الله وغيره، لكن الإنفاق في سبيل الله قد صرح به في قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ يكون إنفاقه بطيبة نفس، ومن الحلال فشبهه كأنه قرض لأنه يعود له يوم القيامة لا ينقص عليه شيء ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ يضاعف له في العمل وفي الأجر فما بالك بالأولين المؤسسين فأعمالهم تتضاعف بسبب ما يترتب عليها من الفوائد وما يتفرع عليها من المصالح مع مرور الزمن فهي تضخم بقدر ما يترتب عليها من الفوائد، هذه مضاعفة العمل نفسه ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ الثواب بعد ما يكون العمل قد كثر وكبر يضاف له أجر كبير بقدره مضاعفٌ كريم طيب يدل على كرم المعطي.

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ

﴿١٢﴾ ﴿يَوۡمَ﴾ يحتمل: أنه ظرف لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي يحصل له أجر كريم في ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بمعنى يوم القيامة، ويحتمل أن يكون بمعنى اذكر ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ بعد خراب هذا العالم وفنائه حيث لا شمس ولا قمر ولا نجوم يعم ظلام دامس، لكن يبقى مع المؤمنين نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم،لأنهم أوتوا كتبهم بأيمانهم فكان النور فيها نور حقيقي يستضيئون به ﴿بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يبشرهم الملائكة بالجنة ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ لا أعظم منه فوز لأنه سعادة عظيمة دائمة.

﴿١٣﴾ ﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ كأن المؤمنين في تلك الحالة ذاهبون إلى الجنة فيناديهم المنافقون: انتظرونا نقتبس من نوركم، توهموا أنه مثل نور الدنيا يمكن أن يقتبسوا منه ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ كأن الملائكة هم الذين أجابوا عليهم ويتهكمون بهم بقولهم: ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ بينما المؤمنون ماضون في الطريق إلى الجنة لم يلتفتوا إليهم، والملائكة يذودونهم عن اللحاق، ولكنهم يلحون في المحاولة ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾ ما أوقفهم عند حدهم إلا السور الذي حجز بينهم وبين المؤمنين، وحال دون اللحاق بهم ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ باطن السور، أو باطن الباب مما يلي المؤمنين ﴿فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ والسلامة من العذاب ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ مما يلي المنافقين.

قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ

﴿١٤﴾ ﴿يُنَادُونَهُمۡ﴾ هؤلاء المنافقون ينادون المؤمنين من خلف السور قائلين: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ حين منعوا من الدخول معهم وأوصد الباب في وجوههم ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ قد كنتم مسلمين في البداية ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ فيما بعد بالنفاق ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ قد كنتم تتربصون بالإسلام وجاهدين في أن يبطل ويظهر الكفر ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ شككتم في صدق الوعد والوعيد، وكنتم مترددين ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ كنتم تمنون نفوسكم أنكم إذا رجعتم إلى الله سوف يغفر لكم ويثيبكم من غير عمل ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ فما بقي إلا الصدق والحقيقة ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ الشيطان غركم بالله حولكم عن الله سبحانه.

﴿١٥﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ هذا يوم القيامة ﴿لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ أيها المنافقون ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كذلك لا يؤخذ منهم فدية ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ تأوون إليها هي مستقركم ومكانكم الدائم ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ هي التي تتولاكم أرى أن المعنى هكذا يعني ما بقي لكم مولى، لأن الله تعالى لما قال: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة:١٤] يعني: أنه أهملهم وتركهم لما غضب عليهم فلم يعد هنالك من يتولاهم كما قال: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:١١] فما بقي إلا جهنم تتولاهم، وهذا من المشاكلة مثل: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٣٨] وقد قالوا في تفسير ﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ أي هي أولى بكم وهو مستقيم ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ مصير بائس تصيرون إليه ـ نعوذ بالله ـ

لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٧ إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ

---

١٦ ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ **قد قرب الوقت لهذه القلوب لأن تخشع إذا ذكر الله وذكرت عظمة الله وجلاله وقدرته على كل شيء، وعلمه وإحاطته بالإنسان وبعمله ومصيره، وأنه القادر على تعذيبه ليس له مهرب منه، فإذا فكر فمن حقه أن يخشع قلبه ويذل لله سبحانه، وكذلك تخشع لذكره ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ أي القرآن، لأنه قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾** [الحشر:٢١] **فحقهم وحقنا نحن أن تخشع قلوبنا جميعاً لذكر الله وما نزل من الحق ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾ أهل الكتاب كأنه التوراة والإنجيل، أو قبلهم ﴿فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ﴾ طال عليهم الوقت وهم متغافلون عن التذكر مع وجود الكتاب بين أيديهم لكنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ﴿فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ فكانت القسوة نتيجة لعدم التذكير، والفسق نتيجة للقسوة نعوذ بالله.**

١٧ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ **كأن هذا دواء لقسوة القلوب أن يتذكر الإنسان ويعلم أن الله على كل شيء قدير لأنه يحيي الأرض بعد موتها، ويحيي الموتى بعد موتهم يعيدهم، فكذلك القلوب تحيا بذكر الله فيمدها الله بالهداية، وهذا مما يزرع الأمل في نفس الإنسان في إمكانية التوبة والرجوع إلى الله، لأنه مع قسوة القلب قد يقنط الإنسان من رحمة الله. قال الإمام علي × في وصيته لأبنه ((أحي قلبك بالمواعظ وقرره بالفناء)) ﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ تعقلون ما تدل عليه.**

قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ

﴿١٨﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ أعاد الكلام في الحث على الإنفاق ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ جعله قرضاً، باعتبار أنه سيوفّاه يوم القيامة ﴿يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ مثل ما قال سابقاً: ﴿فَيُضَاعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ يضاعف لهم نفس العمل وكذلك يحصل لهم أجر كريم.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ هذا عودة إلى الترغيب في الإيمان وأنا أرى أن كل مؤمن داخل في اسم الصديقين، وداخل في اسم الشهداء، يعني الشهداء الذين يشهدون على الناس يوم القيامة؛ لأنه قد قال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١] فالمؤمن شهيد على من رأى من أهل زمانه.

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ على الإيمان ﴿وَنُورُهُمْ﴾ يوم القيامة، ويمكن أن المقصود النور الحقيقي الذي ذكره سابقاً ففي قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الذين كفروا بالآخرة، وكذبوا بآيات الله الدالة على صدق الرسل ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ هذا هو مصيرهم في مقابل مصير الذين آمنوا بالله ورسله.

مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن

---

٢٠ ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ لما كان الناس يتكالبون على الدنيا ، ومن أجلها كفروا بالرسل وحاربوهم حفاظاً على مناصبهم بين أنها ليست إلا شيئاً حقيراً تافها لا يستحق كل هذا العناء وأن يفوت الجنة ويدخل النار من أجلها وأمرنا أن نعلم ذلك ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ أهلها في لعب ولهو، اللعب ظاهر معناه، واللهو الانهماك فيما يلهيهم عن طاعة الله، وعن العمل الصالح ﴿وَزِينَةٞ﴾ مما يعجب المرء التزين به من الأزياء والحلي وغيرها ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ يتفاخرون بكثرة الممتلكات ﴿وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ كل واحد يسعى للتفوق على الآخر في المال والولد.

﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ وكل هذا الذي من أجله يستحسنها الإنسان ويميل إليها إنما هو مثل مطر أحيا النبات ﴿أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ لأنهم لا يريدون إلا الدنيا ولا يفكرون إلا فيها فهم يعجبون بها أكثر من غيرهم، والأولى حمله على ظاهره لكون الكفار لا يؤمنوا بالآخرة فالدنيا لها وقع شديد في نفوسهم وهي عظيمة عندهم، مثل ما قال ذلك الجاهلي: ﴿يَالَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٣] يريد الغنيمة سماها فوزاً عظيماً.

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أنا أرجح في معنى ﴿يَهِيجُ﴾ على ما تقدم أنه بمعنى يتناهى في الصلاح ويتكامل ويحين وقت حصاده ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ من بعد ذلك ينتهي، تمثيل لأمور الدنيا وملذاتها مما يتفاخر ويتكاثر فيه الناس، وأنه ليس إلا مؤقتا عما قريب يكون حطاماً.

رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ

وكل ما تقدم عن الدنيا من الأوصاف فإنما ينطبق على أهلها الذين جعلوا منها غاية ولم يستغلوها كمزرعة للآخرة أما المؤمن الواعي فإنه يسخر ما يملكه من الدنيا ـ مهما كثر وعظم ـ في طاعة الله وفي سبيل الله، فهي دار صدق لمن صدقها كما قال أمير المؤمنين × في جوابه على الذام للدنيا.

﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أمور عظيمة وأهوال شديدة تستحق أن يشغل الإنسان فكره ووقته في الدنيا بما ينجيه من عذاب الله ويبلغه مغفرته ورضوانه ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ كذلك كما أن فيها عذاباً شديداً فيها أيضاً مغفرة ورضوان لمن سار في طريق الجنة واستقام عليه حتى النهاية والبداية هي من هنا من الدنيا ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ليست إلا متاعاً يستمتع به فترة قصيرة ثم ينتهي؛ لأن المتاع انتفاع قصير غير مستمر بل لأمد يسير، فلهذا سمي متاعاً إضافة إلى كونه ﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ يغتر به عن الآخرة.

﴿٢١﴾ ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يأمرنا الله أن نسابق إلى المغفرة، لأن الإنسان إذا لم يسابق قد يخترمه الموت والمسابقة إلى المغفرة يكون بالمبادرة إلى التوبة والتخلص مما يجب التخلص منه ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ عندي أنه حين قال كعرض السماء والأرض أنها كروية كما هي السماء والأرض ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه الجنة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ ترغيب في الإيمان، والمقصود به الإيمان الكامل الذي يبعث على طاعة الله وتقواه، وعلى الحذر من النار والرغبة في الجنة.

أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجنة هذه العظيمة الواسعة ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بالهداية والتوفيق أي أن نفس الهداية لها والتوفيق إنما هو بفضل الله يؤتيه من يشاء فلا ينالها أحد إلا بفضل الله ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ عنده الفضل العظيم يلتمس منه، ويرتجى منه، ويطلب منه؛ لأنه عنده لا عند غيره.

﴿٢٢﴾ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مثل ما يصيب الأشجار من البَرَد أو الجراد وغيرها من الآفات والمصائب التي تأتي على الأرض ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مثل الأمراض والموت ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ كلها مقدرة لم تات صدفة بل قد قدره الله لنا ولأرضنا من قبل أن يخلق الأرض ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ تقديرها كلها على كثرتها.

﴿٢٣﴾ ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ أخبرناكم بأن هذا كله مقدر من عندنا لكيلا تأسوا إذا علمتم أنه كله مقدر الضر في أنفسكم أو في الأرض لا مهرب منه ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ كذلك لأنه شيء مكتوب فلا ينبغي الفرح به يعني الفرح الذي يصحبه سرور واطمئنان، تطمئن النفس إلى الشيء، كأن الدنيا قد استقامت للإنسان إذا حصل له شيء منها، بينما في الواقع أنه لا يصفو للإنسان عيش فيها لأن المنغصات كثيرة ولا فرحة إلا وبعدها هم ولا صحة إلا وتبعها سقم هذا ما يجب أن نفهمه عن الدنيا، وأما السرور بغير اطمئنان وركون إليها فهو ضروري جبل عليه الإنسان وليس مذموماً ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ صاحب الخيلاء المعجب بنفسه، الفخور الذي يفخر على غيره، فهذا ليس محبوباً عند الله، ثم مضى في وصفه أيضاً:

يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

﴿٢٤﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ **كأنه سبب جهله، وفرط تغفله وصل إلى حالة الخيلاء والفخر وأداه ميله إلى الدنيا وتشبثه بها إلى أن يبخل بماله فسلب التوفيق وتمادى في غيه حتى صار يأمر غيره بالبخل، كما قال تعالى عن أولئك المنافقين ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾** [المنافقون:٧] ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ **عن الله تعالى وعن طاعة الله، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ليس بحاجة إلى أحد فهو غني وحميد يستحق الحمد.**

﴿٢٥﴾ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ **وهم كثير آخرهم محمد ص ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدلائل البينات التي تدل على أنهم رسل ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الرسول ومعه كتاب فيبين لهم ما في الكتاب ويتركه لهم بعد أن يموت ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ﴿وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ والميزان يبدو أنه هنا تعليم العدل كيف يعدل الناس في معاملتهم لبعضهم الآخر ، ويتمثل ذلك بالأحكام التي في القرآن الكريم وما جاء عن الرسول ص ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ فيه بأس شديد حين يستعمل في الحرب، ومنافع للناس فيه كثيرة ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أما هذه ففائدة عظيمة حين يستخدم في الجهاد في سبيل الله لأن السلاح بأنواعه قديما وحديثا مصنوع من الحديد فوفر سبحانه هذه المادة لتستخدم في**

وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا

مجالها الصحيح من قبل من ينصره ورسله بالغيب، يعني وهو لما يشاهد ما أعد الله لأوليائه المجاهدين في الجنة، وكانت قوة الإيمان بذلك هي الدافع الأساس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ فلهذا اختار للمؤمنين أن يجاهدوا في سبيله، واقتضت قوته وعزته أن ينصرهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ هما من ضمن الرسل حين قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا..﴾ وإنما خصهما بالذكر ليرتب عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الأنبياء منهم والكتب تنزل عليهم ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ من تلك الذرية من اهتدى بهدى الله، وآمن بالرسول والكتاب ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لأنهم مالوا إلى الدنيا وهم من ذرية نوح وإبراهيم.

﴿٢٧﴾ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ ثم أتبعنا ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ على آثار هؤلاء الذين هم من ذرية إبراهيم ونوح أتبعنا على آثارهم برسلنا، فالرسل كثير ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أتبعنا به وهو من أواخر الرسل المبشرين بمحمد ص وخصه بالذكر ليرتب عليه ما بعده من الحديث في الذين اتبعوه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ آتى عيسى الإنجيل كما آتى موسى التوراة والأنبياء الكتب، فليس الكتاب الذي جاء به محمد ص بدعاً كما تقدم.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ الذين استقاموا على دينه من الحواريين كأن المقصود هم ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ الرأفة أبلغ في الرقة والعطف من الرحمة فجعل ذلك في قلوبهم فكانوا يهتمون بالمريض وباليتيم وبالطفل ويسعون في مواقع الرحمة ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ تخلياً للعبادة ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ يعني الرهبانية هذه ابتدعوها هم وهي زائدة على الذي كتب عليهم ومن أجلها تصوفوا وتركوا الزواج رغبة عن الملذات ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ يمكن أنه استثناء منقطع أي لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ لأن فيها مشقة لما كانت تعني التفرغ الكامل للعبادة وترك أمور الدنيا ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ لأن الأساس هو الإيمان لا يقبل العمل إلا بالإيمان فالمؤمنون منهم آتاهم الله أجرهم على العبادة ﴿وَكَثِيرٞ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ لم يكن عملهم مقبولاً عند الله. لأنه قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧].

﴿٢٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ رجع الكلام في الإيمان والحث عليه؛ لأنه في البداية قال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ في الموجز الذي في أول السورة، ثم قال بعده: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يذكرّ بأهمية ووجوب الإيمان بالرسول ص وهذا الإيمان الذي يأمر به ليس مجرد التصديق باللسان بل هو الإيمان الراسخ في القلب الباعث على اتباعه ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ نصيبين يمكن أنه نصيب مقابل الإيمان، ونصيب مقابل التقوى حين قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ ويمكن أن يكون أحد الكفلين في الدنيا ثواباً عاجلاً، والثاني في الآخرة ثواب آجل

ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ نوراً في قلوبكم بصيرة وهدى تتنور قلوبكم مثل ما قال: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢] قد يعني أن هذا النور توفيق وهداية وزيادة بصيرة لا يميل مع أهل الدنيا ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ﴾ لأن التقوى تستلزم التوبة التي بها تغفر الذنوب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ كثير المغفرة والرحمة.

﴿٢٩﴾ ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ يمكن أن المقصود ليعلم يقال: أن (اللام) زائدة حتى أن الإمام الهادي في (الأحكام) مَثَّل بهذه الآية في الاستدلال على أن العرب تثبت (لا) وهي لا تريدها ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ﴾ ليعلم ﴿أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ لما مَنّ الله على أهل الكتاب بإرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم استحكمت في كثير منهم الأنانية حتى أنفوا أن يجعل الله الرسالة في غير (بني إسرائيل) فكانوا ألد الأعداء للرسول محمد ص فنبههم في هذه الآية إلى كون الأمر بيده والفضل بيده يؤتيه من يشاء، وليس لهم أن يتحكموا أو يتدخلوا في مسألة اختيار من أراد الله من عباده رسولاً ﴿وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ لأن الملك له، والأمر له وهو أعلم حيث يجعل رسالاته ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فيطلب منه سبحانه الفضل العظيم بالإيمان والإنفاق والطاعة، والانقياد لأمره.

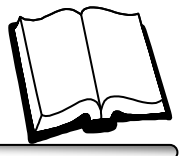

التيسير في التفسير

سورة المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ هذه التي قالت: ((اللهم إن أوساً طلقني حين رق عظمي ونثرت له كنانتي، وقَلَّتْ حاجة الرجال مني)) يعني شكت إلى الله، لأن النبي ص لما يكن لديه جواب في هذه المسألة وظلت تجادله فيما أقدم عليه زوجها من الظهار، وهي تطلب حكما شرعياً في المسألة وإلا فهي تعلم أن الجاهلية كانوا يجعلونه طلاقاً ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ اتجهت بشكواها إلى الله ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ تحاور النبي ص والمرأة هذه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ما يخفى عليه شيء من الأصوات، ولا شيء من المرئيات كلها متجلية له.

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ أولاً أنكر الظهار عليهم وأن زوجته لا تصير أمه بسبب الظهار ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱللَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ هن أمهاتهم حقيقة ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ الذين يظهرون ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ كذباً فيه ميل إلى الباطل أي أن جعلها مثل ظهر أمه ليس حكم الله، وإنما حكم جاهلي ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عما مضى في الجاهلية لا يحاسبهم عليه مثل قوله في قتل الصيد: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة:٩٥] لما كانوا يقتلون الصيد في الحرم أيام الجاهلية، فنهى عنه الإسلام وعفا عما مضى من قتلهم له في الجاهلية وهدد من عاد إليه في الإسلام بالانتقام.

ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ

---

٣ ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ من عاد إلى الظهار بعد ما نهى الله عنه في الإسلام وبعد ما بين أنهم إنما يقولون منكرا من القول وزورا ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ شرع حلاً للمشكلة إذا كان قد جعلها على نفسه مثل ظهر أمه فيحرر رقبة يعتق رقبة من قبل أن يطأها ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ هذا الكفارة موعظة وزجر لكم لتتركوا الظهار.

٤ ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ عتق رقبة ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ﴾ كذلك حل المشكلة يلزمه عند عجزه عن العتق صيام شهرين ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ وهو كذلك لا يمسها إلا بعد أن يكمل صيام شهرين متتابعين ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ صيام شهرين فالحل قوله: ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ يعطي لكل واحد نصف صاع من بر مثلا أو صاعاً من غيره والأقرب: أنه لا يلزمه الامتناع عن المماسة في مسألة الإطعام إذا عجز عن الإطعام. لأنه الخيار الأخير، وإذا لم يجد فلا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴿ذَٰلِكَ﴾ هذا التعليم والأحكام الشرعية هذه ﴿لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي حددها لكم عتق رقبة أو إطعام ستين مسكيناً أو صيام شهرين متتابعين ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بأحكام الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٥ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ

۝٥ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾ هذا ابتداء كلام كأنه في المنافقين والكفار يحادونه أي يعادونه ويباينونه ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ كبتوا: أذلوا وأخزوا مثل ما أذل وأخزى الذين من قبلهم ﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ﴾ تهدي من أراد أن يرجع إلى الهدى ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لأنهم أهل للإهانة في مقابل كبريائهم.

۝٦ ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ يمكن أن المقصود يبعثهم جميعاً المنافقين والكفار ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ سبحانه أحصاه ما فات عليه منه شيء من أعمالهم، بينما هم قد نسوا تلك الأعمال لعدم اهتمامهم بمستقبلهم الأخروي ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أعمال الإنسان كلها هو شهيد عليها، وهذه فيها موعظة عظيمة لأنه حين يأتي يوم القيامة وظهرت الأعمال التي ما كانوا متوقعين أن لها ذلك الأثر السيئ وأنها توجب لهم النار، والنار قد برزت أمام أعينهم، هذا أمر كبير، وورطة مهمة عظيمة.

۝٧ ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ كأنه تعجيب من هذه الحالة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أحاط علمه بها كلها السموات وما فيها، والأرض وما فيها

وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ هذا تمهيد للكلام في النجوى للدلالة على أنه رقيب على كل متناجين شهيد عليهم بما قالوا لا يخفى عليه شيء من كلامهم ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ حتى لو اختفوا في أي مخبأ في الدنيا فهم تحت رقابته لا يخفى عليه كلمة من كلامهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهذه هي النتيجة أنه يوم القيامة ينبئهم بما عملوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من عملهم لأن علمه محيط بكل شيء.

﴿٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ هذا تعجيب منهم لأنهم ارتكبوا خطأ عظيماً حين عادوا إلى النجوى، وخصوصا وقد تقدم النهي عنها ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ نفس الذي نهوا عنه لا يزالون يتناجون به، الإثم وكأنه فيما يخصهم، والعدوان: الاعتداء على غيرهم، وكذلك يتناجون بمعصية الرسول قد يكون هذا بناء منهم على الكفر، وأنهم غير مؤمنين بأنه رسول ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ تحية اختلقوها هم معهم فيها نية فاسدة ولعلها قولهم: السام عليكم، السام: يعني الموت ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ جعلوها وسيلة للكفر حيث أضمروا في نفوسهم هذا القول، ومعناه: لو كان محمد رسولاً حقاً لعذبنا الله بما نقول لكونه يعلم سرنا ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ رد عليهم بما قالوا في أنفسهم ﴿حَسْبُهُمْ﴾ بمعنى تكفيهم جهنم لا يشترط أن يعذبهم في الحال فجهنم هي المصير السيئ الذي لا أسوأ منه ـ نعوذ بالله منها ـ

تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٠ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَـٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَـٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝١١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

۝٩ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ **هذا يشير إلى الإذن منه سبحانه بالمناجاة لكن بشرط أن لا يتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما فعل الكفار ﴿وَتَنَـٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ لا بأس في التناجي بالبر والتقوى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فراقبوه لأن مصيركم إليه.**

۝١٠ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ **هو الذي يغري أولئك المنافقين بها لأجل يحزن المؤمنين عندما يرون المنافقين وهم يتناجون ويتآمرون ضد المؤمنين ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فأمّنهم من ضرر أولئك مهما تناجوا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ليتوكلوا على الله ويعلموا أنه لا يضرهم شيء إلا بإذنه، أي بتخليته بينهم وبين عدوهم.**

۝١١ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَـٰلِسِ﴾ **تفسحوا لا تتزاحموا عند النبي ص وربما كذلك عند الهداة من أهل بيته، وكل المجالس التي يجتمع الناس فيها للاستماع للعلم والحكمة والموعظة، فأمرهم بأن يفسحوا ليتسع المجلس لأكبر عدد ممكن من الناس لتعم الفائدة وينتفع الجميع .**

ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞

فإذا قيل لكم ذلك أياً كان القائل ﴿فَٱفۡسَحُواْ﴾ امتثلوا لأن فيه أجراً وثواباً ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ قد يكون في الدنيا والآخرة ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ أي قوموا وانصرفوا ﴿فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ لامتثالهم للأوامر في التفسح والنشوز بدون أنفة، والمقصود بالذين أوتوا العلم هنا أولئك الذين قد استفادوا أكثر من غيرهم من المؤمنين الجدد وذلك لمدوامتهم على مجلس الرسول ص واستماعهم لتعاليمه بقلوب واعية حتى منحهم الله الهداية والعلم والحكمة ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم شيء.

﴿١٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ قدموا صدقة قبل المناجاة، ولعل الهدف من ذلك هو التخفيف على النبي ص من كثرة المناجاة لأن الكثير يريدون مناجاته ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ تقديم الصدقة لأن الصدقة تطهرة من الذنوب ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ﴾ ما تتصدقون به ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لا يضطركم إلى الصدقة ولا لترك المناجاة مع الإعدام، كما قال سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق:٧].

﴿١٣﴾ ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ﴾ بخلتم عن تقديم الصدقة قبل المناجاة ، لأنه لم يعمل بهذه الآية غير أمير المؤمنين علي × أما الباقون فقد تركوا مناجاة الرسول خشية تقديم الصدقة.

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ لم تطبقوا أمر الله بالتصدق قبل المناجاة ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أسقط عنكم هذه الفريضة وهذا الحكم ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لأن المهم أن تكون الصلاة قيمة كاملة بشروطها وفروضها وكذلك الزكاة لا ينقصون منها شيئاً ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في كل ما أمركم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ أطعتم أم عصيتم.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ نعوذ بالله، هذا التولي كأنه أشد الكبائر وأقبحها؛ لأن عقوبته هي الدرك الأسفل من النار والظاهر أن المقصود بهم المنافقون الذين تولوا اليهود المغضوب عليهم ﴿مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ هؤلاء المنافقون الذين تولوا اليهود ما هم منكم أيها المؤمنون لأنهم خرجوا عن دائرة الإيمان بتولي اليهود فأنتم لا تثقون بهم، كما أنهم غير مقبولين لدى أوليائهم من اليهود فهم لا يثقون بهم فصاروا مذبذبين، وهذا من جهة الثقة بهم ليسوا من اليهود أما في الإثم ووحدة المصير فهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١] يعني في الإثم والعذاب ﴿وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ﴾ مثلا يحلفون بالله إنهم ما قالوا إلا كلام حق وصواب لكي يغطوا نفاقهم وجرائمهم ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون متعمدون اليمين الفاجرة الغموس ـ نعوذ بالله ـ

﴿١٥﴾ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فهم أهل للعذاب الشديد في الدرك الأسفل من النار لأجل توليهم للكفار، ولأجل الأيمان الفاجرة، وسائر معاصيهم لله ورسوله.

فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٦﴾ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ

﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ كلمة ﴿كَانُواْ﴾ تدل على التكرار في الماضي، وأنه قد طال أمدهم في معاصي الله وليس فقط هاتين الجريمتين المذكورتين.

﴿١٦﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ﴾ كأنه يعني صدوا غيرهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بسبب أيمانهم الكاذبة التي اتخذوها وسيلة للتضليل والخداع؛ لأنه يظهر أن بعض المؤمنين كانوا يغترون بكلامهم كما قال سبحانه: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٧] ﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ دلالة على أنهم قد ارتكبوا جرائم كبيرة.

﴿١٧﴾ ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ لا يغتروا بأموالهم ولا بأولادهم التي أنعم الله بها عليهم في الدنيا فهي لا تدفع عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في الدرك الأسفل من النار.

﴿١٨﴾ ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا﴾ المنافقين والكفار ﴿فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ﴾ في محاولة يائسة للتغطية على جرائمهم ﴿كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ مثل ما يحلفون لكم في الدنيا الآن ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ يحتمل: أن المقصود في الدنيا أو في الآخرة ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ والباري سبحانه عالم بهم ولا يمكن أن يغتر بكذبهم سبحانه.

ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

﴿١٩﴾ ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ سيطر عليهم ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ لأنهم ظلوا غافلين عن الله غفلة شديدة لا هم لهم إلا الدنيا وعمل النفاق وكل الجرائم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أهل هذه الصفة هم حزب الشيطان الذين انظموا إليه وصاروا في قبضته يدير شئونهم كيف يشاء ﴿أَلَآ﴾ هذه (ألا) أداة إعلام للتنبيه على أهمية القضية ﴿إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم سيخسرون يوم القيامة أنفسهم وأهليهم وما يملكون ولم يبق لهم إلا العذاب الأليم.

﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ يباينون ويعادون الله ورسوله، يمكن أنها في الكفار والمنافقين جميعاً فهم يعتبرون محادين لله ورسوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ لأن الله أعز رسوله وأعز المؤمنين وأذل أعداءهم.

﴿٢١﴾ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ هذا لأن الله سبحانه هو الغالب على أمره والقاهر فوق عباده كتب ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ حكم بهذا وأوجبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ فهو الغالب على أمره القاهر فوق عباده.

﴿٢٢﴾ ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ هذا تحذير عام لكل الناس بعد ما بين شدة غضبه على الذين

يوادون قوما غضب الله عليهم، وفيه: يبين أن المؤمنين الصادقين لا يوادون الكفار لا تجد أيَّ مؤمن يواد من حاد الله ورسوله سواء كانوا من الكفار أو كانوا محسوبين على المسلمين كالمنافقين ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ فلا تراهم يوادونهم فالمؤمنون قلوبهم لا تقبل موادة أعداء الله بعد أن علموا أنهم محادون لله ورسوله، بل تكون قلوبهم نافرة عنهم كما قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة:٨١] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ ثبَّت الإيمان في قلوبهم حتى لا يتولوا ولا يوادّوا أعداء الله ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ قواهم ﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ بروح من الإيمان، أو بروح من الله أي حياة الإيمان في قلوبهم، ثم وعدهم الجزاء العظيم، في الآخرة فقال: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ باقين فيها أبداً ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ وهذا هو الفوز العظيم إذا رضي الله عنهم، فما بعد الرضا إلا نعيم مقيم وخير عميم ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ لما رأوا فضله وإنعامه وصدق وعده ازدادوا حباً له ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء الذين لا يوادون أعداء الله، وهم المؤمنون الذين ثبّت الله الإيمان في قلوبهم هم حزب الله الذين سيجاهدون في سبيله بأموالهم وأنفسهم ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، عسى الله أن يجعلنا منهم آمين.

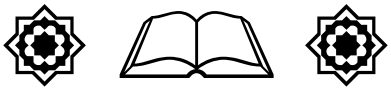

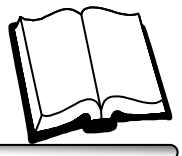

التيسير في التفسير

سورة الحشر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ ۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ سبح له نزهه سبحانه من كل نقص ومن كل عيب كل ما في السموات وما في الأرض وكلها دلائل على أنه منزه عن كل نقص وهذا يعم العقلاء وغيرهم أعني بالدلالة إما دلالة لفظية وإلا دلالة عقلية ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الذي لا ينال، والحكيم الذي أفعاله وأقواله لا تخرج عن الحكمة.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ الله سبحانه هو الذي أخرجهم من ديارهم لأول الحشر، والآية العظيمة هي في إخراجهم أول الحشر؛ أي بداية إخراجه من (المدينة المنورة) لأنه لم يكن هناك من يأمل في إخراجهم في ذلك الوقت، كما قال: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ﴾ والحشر يعني إخراجهم من بيوتهم ومن بلادهم وهؤلاء المعنيون هم يهود بني النضير حينما نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين فحكم الله بجلائهم من المدينة المنورة والقصة في كتب السيرة والتاريخ.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هؤلاء اليهود كانت لهم حصون منيعة ظنوا أنه لا يمكن لأحد أن يزعجهم منها ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ من حيث لم يتوقعوا ولم يظنوا.

ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من شدة الرعب كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فالمؤمنون يخربونها نكاية بهم، وهم يخربونها ربما لأخذ بعض الأشياء النفيسة معهم، وحسداً من أن يستفيد منها المؤمنون ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ اعتبروا كيف يأتي النصر من الله وفي الأوقات التي لم يكن أحد يتوقع النصر فيها.

﴿٣﴾ ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ من بلادهم والخروج منها ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ لما سلموا من العذاب في الدنيا فكان لا بد لهم من عذاب إما الجلاء أو غيره فلما أن كتب عليهم الجلاء كان هو عذابهم العاجل ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ بقي لهم عذاب النار لم يسقطه عنهم عذاب الدنيا.

﴿٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ كله من الإخراج والجلاء والعذاب العاجل، والعذاب الآجل كله ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ باينوا الله وعادوه، ومن يباين الباري ويعاديه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿٥﴾ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿مَا قَطَعْتُم﴾ من النخل ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ وهي نوع من النخيل غير البَرْنيَّة والعَجْوة وهما من النوع الجيد في النخيل، وبقية الألوان يسمونه لينة، فما قطعوا أو تركوا من الألوان الباقية فهو بإذن الله، أي إباحته ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ بما أباحه للمؤمنين من قطعها أو استبقائها ليستفيدوا منها.

رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ

﴿٦﴾ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ أي من أهل الكتاب يعني ما أرجعه وأعاده أرى أنه سمي الفيء فيئاً لأن الله أرجعه لنفسه سبحانه لأنه المالك فأخذه من أهل الكتاب لنفسه وجعله لرسوله والفيء هو الرجوع ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ لأنه أفاءه من دون حرب ولا إيجاف، والإيجاف: سرعة السير، فالمعنى: أن هذا الفيء منحة من الله لرسوله لأنه حصل بدون حرب ولا قتال وإنما هيبة اليهود من رسول الله جعلتهم يهربون مخلفين ذلك وراءهم، وهذا تبيين للمؤمنين لتطيب نفوسهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بقدرة الله سبحانه وقعت الهيبة والرعب في قلوبهم حتى ذهبوا وأخلوا البلاد.

﴿٧﴾ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ الأول فيما أفاء الله على رسوله من بني النضير وهذا فيما أفاء الله على رسوله من أهل القرى وهي من قرى أهل الكتاب القرى التي حول المدينة المنورة ﴿فَلِلَّهِ﴾ كلها لله وحده ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ أنظر هذا (لام) لله أي كله لله، وليس المعنى أنه قسمان قسم لله وقسم للرسول، بل كله لله، وكله للرسول، ولا ينافيه جعله كله للرسول ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هؤلاء الآخرين خصص لهم (لاماً) وحدهم ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هنا لم يقل ولليتامى وللمساكين ..الخ.

وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

والمعنى: أنه للرسول يعطيهم جميعاً مما أفاء الله عليه، ولعل اليتامى معظمهم من يتامى الشهداء ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ فجعله الله بأمر الرسول يتصرف فيه كيفما أراد، وهذا الحكم لأجل أن لا يبقى هذا المال متداولا بين الأغنياء يتبادلونه بيعاً وشراء، ويحرم منه المحتاجون، ولا فرق بين هذا الفيء والذي ذكره في الآية قبلها وإنما هذا مفصل، والخلاصة أنه جعله إلى الرسول لأنه هو الذي سيضعه في مواضعه.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ من هذا الفيء ﴿فَخُذُوهُ﴾ لا يقل الواحد أنا لست من الفقراء أو المساكين لأنه قد صار للرسول وله الأمر فيه ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ كذلك لأن الأمر له فيه ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فلا تأخذوا ما ليس لكم فيه حق، فهو عالم سبحانه بما يأتي في المستقبل هو عالم بدخائل النفوس ومدى طمع البعض الذين استولوا بالقوة على هذا الفيء بعد وفاة الرسول ص والتاريخ يحكي (قصة فدك والعوالي) والله ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ توجيه للرسول ص ليعطي هؤلاء الفقراء الذين قد هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، وهم من المساكين والمحتاجين وإنما هاجروا لنصرة دين الله، ورسوله، وليحافظوا على دينهم ويتقربوا إلى الله بالجهاد بين يدي الرسول ص، فهم الصادقون في إيمانهم والصادقون في هجرتهم، فيعطيهم الرسول من هذا الفيء، لأنهم محتاجون إليه، وفيهم فائدة عظيمة ونصرة للإسلام.

هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ

۝٩ ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ **ويعطي الفقراء الذين تبوؤوا الدار أي المدينة المنورة تبوؤها استمروا في سكناهم لها لكونها قد صارت بلاد الإيمان والإسلام فتبوؤها لهذا، ولو كان النبي ص في غير بلادهم لهاجروا إليه وهؤلاء هم الأنصار.**

﴿يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ﴾ **لأنهم أحبوا الله ورسوله، وأحبوا الإسلام فما كان فيه نصرة للإسلام وزيادة في قوته أحبوه، فلأن هؤلاء المهاجرون جاءوا ليجاهدوا مع الرسول ص أحبوهم بحب الإسلام.**

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ **مهما أوتي المهاجرون من المال لا يجد الأنصار في صدورهم أي شيء من حسد أو غيرةٍ، بل يفرحون بذلك.**

﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ **بل حازوا الدرجة الرفيعة، وهي: أنهم يؤثرونهم على أنفسهم يؤثرون المحتاج ﴿وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ﴾ حاجة شديدة.**

﴿وَمَن يُوقَ﴾ **من يقه الله ﴿شُحَّ نَفۡسِهِۦ﴾ بأن أعانه على نفسه حتى أنفق في سبيل الله وفي مرضات الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ فشح النفس خطر على المؤمن، وقد فاز من وقاه الله شره.**

ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ

﴿١٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ الفقراء الذين جاؤوا من بعدهم، ولا يعدون مهاجرين، كأنه قد خرج وقت الهجرة بعد فتح مكة لأنها صارت دار إسلام فمن هاجر منها بعد فتحها لم يكن له حكم المهاجر وربما كان مجيؤهم رغبة في مجاورة الرسول ص ليتعلموا منه دينهم ويجاهدوا معه فكذلك يعطون من الفيء ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ لأنهم محبون للسابقين الذين جاهدوا في سبيل الله ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دعوا الله أن تسلم قلوبهم من الغل على السابقين من المؤمنين بسبب ما وقع من القتل لأنه في الحروب الماضية ربما كانوا قد قَتَلوا من أقاربهم أو نحو ذلك مما يدعو للحقد على المؤمنين مثل ما كان عليه معاوية وأبو سفيان وغيرهم من المنافقين ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ فاجعل فينا حباً لهم ولا تجعل في قلوبنا غلاً عليهم، واغفر لنا ولهم برأفتك ورحمتك.

﴿١١﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ هذا تعجيب من حال هؤلاء المنافقين الذين كانوا يحرضون إخوانهم اليهود على عدم الانصياع لأمر الرسول لهم بالخروج بعدما نقضوا العهد، بل وعدوهم بالتضامن والخروج معهم وهو تحريض مبطن على عدم الخروج ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا﴾ لا نطيع محمداً فيما كان ضرراً عليكم ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ إذا قاتلكم المسلمون فسنقاتل في صفكم ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ وكفى بالله شهيداً، ثم فسر كذبهم ما هو فقال:

وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ

﴿١٢﴾ ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بل يفرحون بالسلامة لأنفسهم لأنهم قد تستروا بالإسلام ظاهراً ولأنهم قوم يفرقون ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على فرض لو حظروا الحرب لكي ينصروهم ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ يهربون من الحرب ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ حين يولون الأدبار بل سيقتلون أو يشردون.

﴿١٣﴾ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم﴾ في صدور هؤلاء المنافقين ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لأنهم لما لم يفكروا في آيات الله ما عرفوا الله، ولا عرفوا الآخرة فخوفهم من المؤمنين أشد من خوفهم من الله.

﴿١٤﴾ ﴿لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ وهم مجتمعون ﴿إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ يعني إلا حينما يكونون داخل القرى المحصنة وأنتم خارجها ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ لا يجرؤون على مواجهتكم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ لأنهم عبيد الدنيا تتفرق أغراضهم وأهواؤهم فيقتتلون فيما بينهم على الدنيا ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ في الصورة يظهرون متآخين متحابين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة متباينة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم وإنما تبعاً للأهواء.

﴿١٥﴾ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ هؤلاء المنافقون في معاضدتهم للكفار من أهل الكتاب ينطبق عليهم مثل الذين من قبلهم قريباً من

ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ

المشركين يوم بدر، لما كان رأي البعض ترك القتال فحرضهم الآخرون على القتال، فكان المصير سيئاً جداً ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ حينما عزموا على قتال المسلمين بعد التردد في قرار القتال فكان وبالاً عليهم وذاقوا وخامة ما عزموا عليه من القتال ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ نتيجة لسوء التدبير كانت العاقبة القتل والأسر والقهر ولهم عذاب أليم في الآخرة.

﴿١٦﴾ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ مثلهم كمثل الشيطان لما قالوا: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ يحاولون بذلك تشجيع اليهود ﴿إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ ورّطه حتى كفر ثم تخلى عن نصرته وأسلمه للعذاب، واصطنع لنفسه عذراً فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ وهو كاذب في ذلك.

﴿١٧﴾ ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَا﴾ الشيطان والإنسان ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الحسين بن القاسم: ((إن هذا الشيطان هو من شياطين الإنس؛ لأن شيطان الجن لا يراه أحد وهو قريب)).

﴿١٨﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ هذه بداية لموعظة عظيمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ ولتحملكم تقوى الله والحذر من عذابه على أن تنظروا ماذا قدمتم لغد ليوم القيامة هل ينفعها ما قدمت ويوصلها إلى الجنة، أو أنه عمل غير صالح يسبب لها عذاب جهنم، يعني الأمر مهم جداً وينبغي الاستعداد له ومحاسبة النفس ومراجعة الماضي والتخلص مما يلزم التخلص منه.

كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ حين تحاسبون أنفسكم وتنظرون ما قدمتم لغد فاتقوا الله ولا تتساهلوا حينما يرى الإنسان أنه قد أذنب ويرى صفحات ماضيه ملطخة بالآثام فعليه أن يتقي الله، ويُجِدّ في التوبة والتخلص من حقوق المخلوقين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فحق علينا أن نتقيه لكونه مطلعاً على كل أعمالنا الصالحة والسيئة وهو الذي يحاسبنا وهو الذي يجازينا.

﴿١٩﴾ ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ لا تنسوا الله مثل هؤلاء المنافقين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، كما قال ـ أيضاً ـ: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧] سلبهم التوفيق والهداية، فلم يوفقوا لتلافي أنفسهم من عذاب الله وإنقاذها من النار وهم لا يزالون في دار الخيار، فظلوا مشغولين بالدنيا واتباع الأهواء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الذين غفلوا عن ذكر الله واتجهوا إلى الدنيا.

﴿٢٠﴾ ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ هذا تنبيه للغافلين لأن أكثر الناس على هذا أهل غفلة يحتاجون إلى خطاب وإنذار قوي بهذا الشكل لتوضيح أنه يوجد فارق كبير بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ لأنهم صبروا على طاعة الله واجتناب معاصيه ففازوا بالجنة.

﴿٢١﴾ ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ يعني جدير بكم أن تتقوا الله وترجعوا إليه، لأنه قد أعطاكم هذا القرآن الذي لَوْ أنزله عَلَى جَبَل على

إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ

ضخامته وصلابته وعقل الجبل هذا القرآن ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ لأن القرآن شيء عظيم، فيه مواعظ عظيمة، وزواجر كبيرة، وتحذير شديد حين يحذر من جهنم، فجدير بنا أن نحذرها؛ لأن الجبل نفسه لو نزل عليه القرآن لتشقق وتصدع من خشية الله ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذا المثل حين قال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ..﴾ هو من الأمثال التي يضربها للناس ليتفكروا وينتفعوا بها وتتجلي بها المعاني وتتضح للناس ليهتدوا بها.

﴿٢٢﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا تنسوه اذكروه وراقبوه واتقوه وكونوا معه لأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما عملتم فهو عالم به لا يخفى عليه شيء مما خفي أو ظهر حتى ما في ضمائركم كله هو يعلمه ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيلزمكم أن تتقوه لأنه سوف يرحمكم إذا اتقيتموه فهو يقبل من رجع إليه وتاب من ذنوبه.

﴿٢٣﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أكدها مرة ثانية لنعلم أنه ليس هناك من يصح أن يرجع إليه ويطلب ويعبد إلا هو ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ ملك الملوك لأنه المالك للعالمين جميعا ولذلك كان له الأمر والنهي والتصرف فيهم كيف شاء ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المقدس المنزه عن كل نقص وعن كل عيب ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ لا ينال بضر، أو السلام في معاملته لعباده لا يريد لهم إلا السلامة والخير وإنما هم الذين يجنون على أنفسهم بمخالفته ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ للأحياء من الإنسان والحيوان الذي جعل الأمن في قلوبهم ليعيشوا في طمأنينة لأنه لو لا الأمن لتعكر صفو حياتهم وساءت معيشتهم حينما لا ينفكون يتذكرون ما يمكن أن يصيبهم من البلاء وأنواع المحن مما يبتلى به الناس عادة ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾.

ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

قال في (تفسير الشرفي): معناه: الرقيب على كل شيء الحافظ له وقيل: ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ اسم لله سبحانه وتعالى من أسمائه الحسنى وهو إما بمعنى الرقيب على كل شيء الحافظ له، أو الشاهد، أو القائم على كل نفس ، أو المتولي لرعاية عباده، وأحسن ما أراه في معنى ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أنه بمعنى الرعاية لعباده والتولي لشئونهم والحافظ لهم، من قولهم: هيمن الطائر إذا رفرف على فراخه.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ كذلك القاهر فوق عباده، أو باعتبار شدة عقابه لأعدائه مثلما قال: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء:١٣٠] يعني: من القوة والاقتدار ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ بالحق، لأن له الكبرياء والعظمة والجلال سبحانه وتعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزه عما يدعيه المشركون من الشركاء والأنداد فهو منزه عن أن تكون له أنداداً.

﴿٢٤﴾ ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ الذي خلق الأشياء وقدرها بحكمته وعلمه وقدرته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الذي برأ المخلوقات ميز بينها بأوصافها وأشكالها وصنعها، فجعل كل نوع فيها بريئاً أي متميزاً عن غيره يعني ميز بعضها عن بعض بالفروقات الواضحة ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ خالق الصور سبحانه، وهي آية عظيمة لمن تفكر وتدبر تدل على قدرة وعلم وحكمة عجيبة ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هذه التي عددها من أسمائه الحسنى الموجودة في القرآن في مواضع متعددة وهي كثيرة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ينزهه سبحانه بلسان الحال والمقال ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز الغالب الذي لا ينال، وقد أعاد ذكر هذه الصفة لكونها هنا مقرونة بالحكيم، ليبين: أن عزته لا تفارق حكمته في كل تصرفاته في مخلوقاته سبحانه وتعالى.

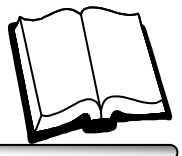

التيسير في التفسير

سورة الممتحنة

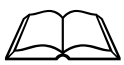

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ۝١ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ

---

١ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ هذه قالوا: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، حين كاتب أهل مكة ينذرهم مهاجمة الرسول ص لهم والرسول قد كان عزم على أن يباغتهم بناء على خطة محكمة تمكنه من فتح مكة بدون قتل كثير بسبب حرمة الكعبة، ولو أن الله قد كان أباحها له ساعة من نهار حين يفتحها لكن الرسول ص يود أن يتم الفتح بأقل ما يمكن من القتلى لما أسلفنا، قالوا ثم إن جبريل × نزل فأخبر النبي ص بأن الكتاب الذي أرسله حاطب إلى أهل مكة مع الضعينة، فلحقها الإمام علي والزبير لحقاها وأخذا منها الكتاب.

وقالوا: قال له النبي ص: ((ما حملك على ما صنعت))؟ قال: هؤلاء المهاجرون كلهم معهم قرابات يحمون بيوتهم وأهلهم، وأنا أهلي ليس معهم من يحميهم فأردت أن أتخذ يدا عند قريش، وعلمت أن الله سينصر نبيه، يعتذر بهذا ويبين أنه ما نافق، فنزلت السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ حين كاتبهم ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ بالقرآن والرسول، فلا يصلح أن يكاتبهم ولا، أن يلقي إليهم بما يدل على المودة.

إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ۚ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ

﴿تُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ **الخطاب للمهاجرين** ﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ **كراهة أن تؤمنوا بالله ربكم بسبب إيمانكم بالله ربكم حين وحدتموه وعبدتموه وحده يخرجونهم لهذا السبب** ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ **فلا تلقوا إليهم بالمودة** ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ **وهذا إخبار بما كان من حاطب من الكتاب الذي كتبه إليهم** ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ **ما راقبتموني بينما أنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم** ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ **يلقي إليهم بالمودة** ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ **الطريق السوي التي لا يضل عنها إلا هالك.**

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ **لو ظفروا بكم لأخذوكم بقوة، وكانوا لكم أعداء لا أصدقاء، حتى ولو خدمتموهم تلك الخدمة** ﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ **كانوا سيقتلونكم ويسبونكم ويلعنونكم مثلا لو ظفروا بكم** ﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ **يودون أن يرجعوكم إلى الكفر الذي يؤدي بكم إلى النار، فهم أعداء شياطين.**

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ﴾ **الذين كاتبتم الكفار من أجلهم** ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ **﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ..﴾ الآية** [عبس:٣٤] **ويكون أهل الجنة وحدهم وأهل النار وحدهم حتى ولو كانوا أقارب وأرحاماً** ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ **بصير بكم كلكم أنتم وإياهم يجازي كلاً على قدر ما يستحق.**

إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٥ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ

۝٤ ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ **كأن هذا من التجريد الذي يذكره أهل البديع بمعنى أنه أسوة نفس إبراهيم أسوة أي قدوة، أو بمعنى أنه يجدر بكم أن تتأسوا بهم ﴿إِذۡ﴾ حين ﴿قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ رفضناكم وتبرأنا منكم ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ يعني تؤمنوا بالله أنه لا إله إلا هو ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ هذا ليس إلا استثناء منقطعاً لأن قول إبراهيم لم يكن إلا عن موعدة وعدها إياه، يعني فلا يتأسى به فيها؛ لأنه قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة:١١٤] ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ﴾ لأبيه ﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ ليس لي يد عند الله تجعله يغفر لك ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ﴾ وحدك ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾ وكلنا أمورنا إليك ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ رجعنا إليك ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إليك وحدك نصير في الآخرة.**

۝٥ ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ **لما أعلنا العدواة لهم فلا تمكنهم من ظلمنا لأنه إذا مكنهم كان قد جعلهم فتنة للكفار يفتنون بهم ويظلمونهم ويقتلونهم فيعذب الكفار يوم القيامة بسببهم ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾ يا ربنا ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ لأن عزتك وحكمتك تقتضي أن تغفر لأوليائك الذين هم معك منيبين إليك راجعين إليك معادين لقومهم من أجلك.**

يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا

﴿٦﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ في إبراهيم والذين معه ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ يرجو ثوابه، ورحمته يوم القيامة كأنه يعني أن الذي لا يتأسى بهم فليس ممن يرجو الله واليوم الآخر ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عن التأسي بهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الغني عن التأسي وعن طاعتهم له ولرسوله، وهو الحميد الذي يستحق الحمد حتى لو لم يحمده أهل الأرض.

﴿٧﴾ ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ يقرب ﴿أَن يَجْعَلَ﴾ الله ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ يعني يقرب أن يسلموا وتحصل بينكم المودة ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر ما مضى إذا أسلموا وتابوا إلى الله.

﴿٨﴾ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ لا ينهاكم الله عن قوم مسالمين لكم لم يقاتلوكم في الدين، ولم يخرجوكم ولا ظاهروا على إخراجكم، فلا ينهاكم عن ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ فقط، وفرقٌ بين البر والتولي، لأن البر يعني تحسنوا إليهم ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ تعاملوهم بالعدل فالمعاملة بالعدل والإحسان لا بأس بها بينكم وبينهم مثل الإحسان إليهم بإعطائهم شيئاً بطريقة لا توحي بالمودة وإنما من باب الإحسان والمُرُوءة مثل حق الوافد عليك من طعام وشراب ونحوه حتى ولو كانوا فجاراً ماداموا غير محاربين في الدين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ الذين يعدلون في معاملتهم مع المؤمنين وغيرهم.

يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟

﴿٩﴾ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا النهي الشديد والذي أكد عليه كل التأكيد من أول السورة ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فلا تتولوهم ولا يشترط في عدم جواز التولي أن يجمعوا بين هذه الإجراءات ضد المؤمنين، لأنه هنا إنما يحكي واقعاً وأحداثاً وقعت يوم ذاك، والمهم في مسألة التولي هو أن لا تكون معهم ومن ضمنهم في قضاياهم ضد دين الله وأولياء الله.

﴿١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ الامتحان لمعرفة أهي مؤمنة حقيقة أم أن مجيئها لغرض آخر غير الهجرة إلى الله ورسوله هرباً من زوج أو من ظلم ولي أو نحوه فشرع الامتحان حتى يتحققوا من صدق إيمانها ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ إذا انكشف أنها مؤمنة فلا يجوز أن يردوها إلى الكفار.

ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فرّق بينهم اختلاف الملة ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أعطوهم المهور التي قد أنفقوا على الزوجات، تسَلَّم لزوجها الكافر لأن المرأة لا تعاد إليه.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ لأنه قد انقطع الزواج بينها وبين الأول، بشرط إعطائها المهر، وبعد نهاية العدة ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ لا يتمسك المسلم بعقد الزواج بينه وبين الزوجة إذا رفضت الإسلام والهجرة من بلاد الكفر أو ارتدت ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ فيهن من المهور اطلبوه من الكفار ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ وهم أي الكفار يسألوكم ما أنفقوا من المهور في نسائهم المؤمنات المهاجرات إليكم ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أن تسألوا ما أنفقتم ويسألوا ما أنفقوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في أحكامه وفي كل تشريعاته.

﴿١١﴾ ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ من العُقْبة وهي النوبة حين طلبتم من الكفار أن يدفعوا مهور زوجاتكم الكافرات فرفضوا ذلك ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ يعطي الأزواج المؤمنون من بيت المال أومن الغنائم مثل ما أنفقوا في نسائهم من المهور ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في معاملتكم وفي كل شيء ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ إذا كنتم مؤمنين بالله، فالإيمان بالله يستدعي التقوى.

فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

﴿١٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ﴾ **يعني أن الله أمره بمبايعة النساء، تبايعه بالقول دون أن يمس يدها، على أن لا تشرك بالله شيئاً، أي شيء لا صنماً ولا غيره ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ لأن المرأة قد تقتل ولدها إذا خافت الفضيحة في الزنا ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ عندي أنه في القذف يعني لا تختلق كذبة تفتري على غيرها وبين الأيدي والأرجل هو من الترشيح مثل: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾** [الأنعام:٣١] **﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ أمره الله أن يستغفر لهن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثير المغفرة واسع الرحمة.**

﴿١٣﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ **﴿لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود مثل قوله تعالى في (سورة المجادلة): ﴿أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾** [المجادلة:١٤] **لأنهم مظنة أن يتولوهم لما كانوا مخالطين لهم في المدينة المنورة في أول الإسلام ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قد يئسوا من رحمة الله في الآخرة ليس معهم فيها نصيب، يعني: قد عرفوا وضعهم في الآخرة من الآن؛ لأنهم قد كفروا بمحمد ص بداعي الكبر والحسد، وهم يعلمون أنه رسول ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ الذين قد ماتوا وصاروا ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ لأنهم كذلك قد يئسوا من رحمة الله وعلموا أنه لا نصيب لهم منها في الآخرة وتيقنوا أن مصيرهم إلى جهنم.**

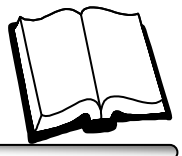

التيسير في التفسير

سورة الصف

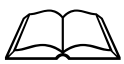

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نَزِّهه عن كل نقص وعن كل عيب ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا ينال، وليس بحاجة إلى أن يسبحوه.

﴿٢﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كانوا يعدونه بالجهاد في سبيل الله ثم يتخلف بعضهم ويؤثر الحياة الدنيا.

﴿٣﴾ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ المقت قالوا هو أشد البغض ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أن يعدوا بأنهم سيجاهدون ثم يتخلفوا.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ هؤلاء المقاتلون الصادقون الذين تراهم في تراصهم في الصف حين القتال كالبنيان المرصوص، يصف حالهم يوم كان القتال بالسيوف؛ لأن المطلوب يوم ذاك أن يظلوا بهذا الشكل، وهو يرمز إلى جانب الوحدة والأخوة والتعاون والتناصر فيما بينهم وكون ذلك من أهم عناصر القوة.

﴿٥﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ واذكر إذ قال موسى، كأن هذا ليتأسى بموسى ـ صلوات الله عليه ـ فيما يناله من الأذية من المنافقين: ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ هذا شيء عجيب أن يكافئوه بالأذية بعد أن أنقذهم من تلك

إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ

المعاناة الشديدة في طغيان فرعون ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ فكيف لا تحترمون الرسالة من الله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ هؤلاء أصحاب موسى ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فاحذروا أنتم يا أصحاب محمد أن تؤذوا رسول الله ص فيصيبكم ما أصابهم ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ لم يعودوا يستحقون الهداية بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

﴿٦﴾ **﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ واذكر إذ قال عيسى ابن مريم ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ هذه حجة كبرى عليهم كونه مصدقاً بالتوراة غير كافر بها، متمسكاً بها أيضاً يعني هو نفسه مصدق لما بين يديه من التوراة، وقد فصل في (سورة المائدة) زيادة على هذا ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ عيسى يبشرهم برسول يأتي من بعده وينص عليه بالاسم حتى لا يترددوا في التصديق به ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ عيسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ العظيمة المذكورة في القرآن ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ﴾ إضافة إلى كونه ﴿مُّبِينٌ﴾ يعني: بيّن أنه سحر وكذبوا وتمردوا على الله، فهذا قدوة يتأسى به النبي ص فيما كذبه به قومه.**

﴿٧﴾ **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ افترى على الله الكذب في حال أن الرسول يدعوه إلى الإسلام فلا أظلم من هذا المفتري مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾** [الحديد:٨] **فالرسول يدعوه إلى الإسلام وهو في نفس الوقت يفتري**

بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى

الكذب على الله مثل مسيلمة الكذاب، ومثل غيره ممن يدعي أنه يوحى إليه، كما قال الرئيس الأمريكي بوش: إنه يتلقى التوجيهات في الحرب على ما يسمى بالإرهاب من الله مباشرة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا من الظلم والله لا يهدي القوم الظالمين الذين كذبوا على الله.

﴿٨﴾ ﴿يُرِيدُونَ﴾ هؤلاء الذين افتروا على الله الكذب ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ دينه الحق الذي فيه الهدى والنور ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ظهور دين الله لا يريدون أن يظهر.

﴿٩﴾ ﴿هُوَ﴾ الله سبحانه ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ قد أرسله ليظهره على الدين فكيف يترك المجال للكفار ليضيعوا الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ولو كرهوا إظهاره، يعني أن أمر الله ووعده بإظهار دينه على الدين كله وارد لا شك فيه، وقد تقدم شيء من التوضيح حول معنى إظهاره على الدين في تفسير (سورة الفتح: آية ٢٨).

﴿١٠﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وما أعظمها من تجارة تكون نتيجتها النجاة من العذاب الأليم.

﴿١١﴾ ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذه الطريقة التي بها تنجون من عذاب أليم لأن الأساس هو الإيمان بالله ورسوله إذ لا قيمة لأي عمل بدون ذلك

مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾ لابد أن يكون الجهاد في سبيل الله ومن أجل دينه، وأن يجاهد بماله ونفسه ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الجهاد ﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ولو كرهته النفوس فهو خير لكم؛ لأنه بالجهاد ينصر الله دينه ويعلي كلمته، ويعتزّ المؤمنون، ويذل الكفار والمنافقون، وينتهي الفساد من الأرض.

﴿١٢﴾ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ هذه أول فوائد الجهاد غفران الذنوب كلها قال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ولم يقل: (من ذنوبكم) ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ وهذه الفائدة الثانية إضافة إلى النجاة من العذاب أن ينعم الإنسان بالجنة.

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أفضل من مساكنكم في الدنيا، التي تتركونها حين ذهابكم للجهاد ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ يعني استقرار وأمن ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ إذا أمن الإنسان وسلم من عذاب الله، ودخل الجنة.

﴿١٣﴾ ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ ولكم فائدة أخرى من فوائد الجهاد ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ لأنها عاجلة، والنفس مولعة بحب العاجل هي: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذا جاهدتم في سبيله ﴿وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ يفتح لكم في البلاد.

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بخير عظيم، كما قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧] غير ما ذكر من الفوائد هذه في الدنيا والآخرة تتحقق بالجهاد في سبيل الله.

ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿١٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ **هذا أمر بالجهاد ونصرة دين الله** ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ **أي كونوا كما قال الحواريون:** ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ **ونصروا دينه فانصروا دين الله مثلهم، وذلك حينما أحس عيسى بالكفر من اليهود.**

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ **بعيسى وجاهدوا معه** ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾ **بعيسى ×** **وأرادوا قتله** ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾ **قوينا** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ **أصبحوا منتصرين غالبين، وهذه بشارة للمؤمنين وتحفيز لهم كي يجاهدوا في سبيل الله لينصرهم مثل ما نصر أصحاب عيسى ×** .

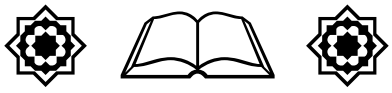

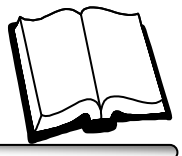

التيسير في التفسير

سورة الجمعة

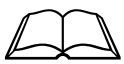

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

(سورة الجمعة) مدنية

وهي مما تأخر نزولها، لأن فيها رد على اليهود، وفيها صلاة الجمعة والدعوة إليها

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يسبح هذا يسمى فعل العادة، بمعنى أن عادة كل شيء أن يسبح لله بغض النظر عن كونه في الحال أو في المستقبل، قال الله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾ [النور:٤٥] ليس المقصود في الحال ولا في الاستقبال وإنما بمعنى عادته أن يمشي، هذا فعل العادة ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والتسبيح منها على أحد أمرين: إما الدلالة من حيث أنها آية تدل على تنزيه الباري، وكأنها ناطقة به، فكأنها تسبح تنطق بالتسبيح، وإلا من حيث أنها آية إذا فكر فيها المؤمن سبح لله، فلما كانت باعثة على التسبيح كأنها سبحت هي ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ الذي له الملك على كل شيء ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ المنزه عن كل عيب وعن كل نقص ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي أفعاله وأقواله كلها قائمة على الحكمة.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ الأميين قد يطلق هذا الاسم على من ليسوا من أهل الكتاب من الأمم الأخرى ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ من الأميين ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يقرأ عليهم آيات الله، وهذه نعمة كبيرة لهم ورحمة ودعوة إلى الجنة والنجاة من النار.

=

وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يجعلهم أزكياء طيبين بعد ما كانوا جهلة في ضلال مبين ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بحيث يكتبون ويقرؤون الكتب، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يتعلمون الحكمة يكونون حكماء يضعون الأشياء في مواضعها، يهتم بهم توعية وتعليماً حتى يكونوا حكماء لتكون أقوالهم وأفعالهم على الصواب، يعني يدعوهم إلى هذا ويربيهم عليه، ما اقتصر فقط على التلاوة عليهم ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لما كانوا عليه من الجهل ولا كتاب لهم ولا رسول وهم في جاهلية جهلاء يعبدون الأصنام ويأكلون الميتة ويئدون البنات ويحرمون بعض ما أحل الله وغير ذلك، فكانوا في أمس الحاجة إلى هذا الرسول الذي بعثه الله فيهم ليزكيهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

﴿٣﴾ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ بمعنى ويزكي آخرين ويعلمهم الكتاب والحكمة آخرين ﴿مِنْهُمْ﴾ من الأميين ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ لما يوجدوا ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ سبحانه الغالب على أمره ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تصرفاته كلها على الحكمة وهذا من حكمته إرسال الرسول ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ وإن غضب اليهود وكانوا يريدون الرسالة فيهم دون بني إسماعيل، والعطف في قوله ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ على الضمير في يزكيهم أو يعلمهم وليس على الأميين، لأنه يلزم أن يكون موجوداً فيهم وبينهم، وهم لما يوجدوا إلا بعد وفاته، فلم يبعث في الآخرين وإنما علمهم وزكاهم بواسطة نقل المعاصرين له.

﴿٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ الرسالة التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور هو فضل الله إحسانه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لأن الحكم له والأمر له، يضع رسالته حيث يشاء ويجعل الكتاب والحكمة حيث يشاء ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عنده فضل عظيم لا يطلب إلا منه، ويتوصل الناس إليه بالإيمان والطاعة.

لَمْ تَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾

﴿٥﴾ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ هذا مثل لليهود حينما لم يعملوا بالتوراة التي أنزلت عليهم وحملهم الله إياها شبههم بالحمار يحمل أسفارا، أجزاء كأنها من التوراة نفسها، أو أسفار كتب أيِّ كتب، لكن الأقرب أن القصد من التوراة لأنهم يقولون في أجزائها: سفر كذا، وسفر كذا، وهي أسفار كما نقول القرآن أجزاء ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وهو لا يعلم ماذا تحوي هذه الأسفار بينما ينوء بحملها على ظهره فكذلك اليهود لما لم يتعلموا التوراة ولا اتبعوها.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ هذا مثلهم السيئ الذي انطبق عليهم، فلم تعد لديهم الصلاحية لجعل الرسالة فيهم وقد تركوا التوراة التي أنزلت هدى لهم وموعظة وتفصيلاً لكل شيء، وقد صار غيرهم أولى بأن يجعل فيه الكتاب والحكمة فجعلها الله في الأميين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ فلأنهم استمروا على ضلالهم، صاروا مستحقين لأن يتركوا عقوبة لهم.

﴿٦﴾ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ اليهود ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ لأنهم يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم شعب الله المختار ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ تمنوه لتذهبوا إلى الجنة مادمتم ترون أنها بانتظاركم وحدكم لأنكم إذا كنتم أولياء لله فلا بد أن تكونوا من أهل الجنة، والجنة خير لكم من الدنيا.

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن

﴿٧﴾ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ لا يمكن أن يتمنوه أبداً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ لأنهم عالمون بذنوبهم وبمعاصيهم وأن لهم جرائم تسوقهم إلى النار فهم لا يريدون الموت لكثرة ذنوبهم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فلم يحكم عليهم بهذا الحكم إلا لأنه عليم بباطنهم وظاهرهم.

﴿٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ الفرار المحافظة على الحياة لا بد لكم منه ولو لم تتمنوه، ولو كنتم كارهين له فاستعدوا له بالتوبة والإيمان ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي هو عالم بكل ما قدمتم الغائب منه والمشاهد ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لأنه عليم به ما خفي عليه منه شيء، ولا نسي منه شيئاً ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

﴿٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ هذا خطاب للمؤمنين أعني الذين قد أسلموا، وهم الذين يستحقون أن يخاطبوا بهذا الخطاب ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ حين يؤذن لها قبل الخطبة ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ حين تسمعون المؤذن فاسعوا إلى ذكر الله لتسمعوا ما يذكركم بالله من خلال الخطبة والصلاة، وتذكرون الله في الصلاة ﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ عندما يؤذن لصلاة الجمعة حرم البيع ووجب التوجه لصلاة الجمعة ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أن تحضروا لذكر الله وتتركوا البيع ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تقبلون التعليم وتعملون به.

فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

﴿١٠﴾ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ انتهت صلاة الجمعة ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يلزمكم البقاء في المسجد فهو رخصة في الخروج ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ ابتغوا من فضل الله، شامل لكل عمل مباح من البيع وغيره، مثل: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ استمروا على ذكر الله أينما كنتم فليس انتهاء الصلاة يعني انتهاء ذكر الله، بل إنها محفزة للاستمرار على ذكر الله تعالى.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ عاب عليهم هذه الطريقة، قالوا: إنها وصلت تجارة من القمح وكانت العادة أن تضرب الطبول لإعلام الناس بذلك فلما سمعوا قرع الطبول انفضوا إليها مبادرين بسرعة للشراء، وكان النبي ص يخطب للجمعة، ويقال: أنه لم يبق معه سوى ثلاثة أشخاص في بعض الروايات فأنكر الله عليهم هذا وعابه عليهم.

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ﴾ لو لزموا المسجد وسماع الخطبة لحصل لهم من فضل الله وثوابه أفضل مما ذهبوا إليه من اللهو والتجارة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فهو الذي بيده خزائن السموات والأرض وهو أكرم الأكرمين.

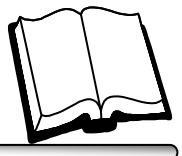

التيسير في التفسير

سورة المنافقون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟

(سورة المنافقون) مدنية

وذُكرت فيها بعض معائب المنافقين. قالوا: كانت تقرأ في عهد الرسول ص في صلاة الجمعة في الركعة الثانية و(سورة الجمعة) في الركعة الأولى، ربما أن ذلك لما يحويانه من التوعية السياسية من خلال الطرح عن اليهود والمنافقين وخبثهم ومكرهم وخداعهم، وكذا من الجوانب الاجتماعية والآداب والإسلامية.

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هذا من أعمالهم أنهم يظهرون الإيمان، حتى كأنهم متيقنون حين ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أنه رسول الله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ هذا صِدْق لكن المنافقين كاذبون في قولهم نشهد، وليس عندهم يقين، ولا علم، إنما هم جهلة شاكّون ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ وهذا فضح لهم.

﴿٢﴾ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ يتقون بها غضبكم وعقابكم، فكانت أيمانهم تتكرر دائماً مثل قولهم هذا ومثل قوله عنهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا..﴾ [التوبة:٧٤] ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ..﴾ فهي من عادتهم الأيمان الفاجرة ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صدوا ربما يعني صدوا غيرهم عن سبيل الله، فهذا فساد كبير ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إن المنافقين ساء ما كانوا يعملون أعم من هذه الأعمال التي قد ذكرت منهم.

ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ

﴿٣﴾ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ آمنوا في البداية حين قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:١٧] فكأنهم في البداية قد كانوا آمنوا حقيقة ولكنهم تحولوا ونافقوا، ثم بعد ذلك كفروا ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ فكثرت منهم المعاصي وتكررت حتى طبع على قلوبهم سلبهم الله ألطافه وتركهم في طغيانهم يعمهون ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ بسبب أنه قد طبع على قلوبهم فصارت مخذولة كالممنوع دخول الهدى إليها.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡ﴾ أجسام فيها كمال يلفت الأنظار بصنع الباري سبحانه ﴿وَإِن يَقُولُواْ﴾ حين يتحدثون بحضرتك ﴿تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ﴾ لأنه كلام فصيح منمق وجميل، فجمعوا بين كمال الأجسام وفصاحة الكلام، فهم فتنة للبسطاء وفاقدي الوعي ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞ﴾ في تثاقلهم عن طاعة الله، لا يسارعون إليها إذا دعوا إلى الصلاة أو دعوا إلى الجهاد فهم أهل تثاقل كما قال: ﴿وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة:٥٤].

﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾ لشدة حذرهم من انكشاف جرائمهم للمؤمنين وهم كذلك جبناء، كما قال الله: ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦] أي يخافون كما أنهم يتوقعون في كل لحظة مهاجمة الكفار للمسلمين. وهم في أوساطهم فينالهم أي أذىً فهم دائماً في توجس من أي صيحة سواء صيحة من المؤمنين أو صيحة من الكافرين يحسبونها كأنها عليهم ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ هم العدو الأكبر الأخطر لأنهم يُخربون من الداخل ويطلعون على أحوال المسلمين عن كثب فهم -كما يفهم من الحصر والقصر- العدو الشديد العداوة.

لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى

﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ يا رسول الله ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا دعاء عليهم بمعنى اللعنة والغضب عليهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ من أين يؤفكون، يعني: يُقْلَبُون عن الحق الذي هو القرآن والرسول، وما جاءهم به من الهدى والنور، فمن الغريب أن يضلوا في ظروف كهذه بل من حقهم في ظل الرسول والقرآن أن يهتدوا لأن القرآن يتنزل بين ظهرانيهم والرسول يتلوه على مسامعهم فكان عجيباً أمرهم من أين يؤفكون؟ يُقْلَبون من الحق إلى الباطل.

﴿٥﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مما قد وقع منكم ليتخلصوا من الجرائم الماضية ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ يلوونها إشارة إلى عدم إعجابهم بذلك ورفضهم له ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرضون ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ يستكبرون عن أن يذهبوا إلى الرسول ص ليستغفر لهم.

﴿٦﴾ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لأن الله وحده عالم بباطنهم وظاهرهم وأسرارهم وجرائمهم المخفية أما الرسول فلا يعرف ما يسرون وما يضمرون فسواء استغفاره لهم وعدمه ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فإذا لم يهدهم فكيف يغفر لهم وهم لا يزالون مجرمين مصرين على جرائمهم.

﴿٧﴾ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ وهذا من جرائمهم ينهون عن المعروف يريدون أن يفرضوا حصاراً اقتصادياً على

ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ

المسلمين لتحطيم الإسلام ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ لكي يذهبوا ويتركوا الرسول لوحده ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو الرزاق سبحانه لعباده، لو لم يمد إليهم أحد من هؤلاء المخاطبين بيد فهو قادر أن يرزقهم من ناحية ثانية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ لا يفهمون الأشياء الخفية لكونهم لم يتعلموا ولم يستعملوا عقولهم ولم يفكروا فكانوا أغبياء لا يعرفون إلا ما يتعلق بأمور الدنيا.

﴿٨﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ بعد أن ضاقوا ذرعاً بالمؤمنين من المهاجرين في المدينة ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ يقصدون أنهم الأعز والمؤمنين الأذل وأنهم عند عودتهم إلى المدينة سيخرجونهم منها ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ليست للمنافقين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جهالة وغباء مفرطاً وإلا فهي واضحة عزة رسول الله ص ومن معه من المجاهدين الذين باعوا أنفسهم من الله، متوحدين مستبسلين، فكيف لا تكون العزة لهم.

﴿٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لا تشتغلوا بها عن ذكر الله، في الصلاة صلاة الجمعة وغيرها من الصلوات ولا عن ذكر الله عموماً بحيث ينسون الله بقلوبهم، حين يكون همهم الأموال والأولاد ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ يترك ذكر الله ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة وأهليهم.

رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أنفقوا في سبيل الله مما رزقناكم من الحلال لأن المنافقين قالوا: ﴿لاَ تُنْفِقُوا﴾ فلفت انتباههم لضرورة الإنفاق في سبيل الله ليقوم الجهاد، ويعتز الإسلام والمسلمون ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ لأن النهاية هي أن يموت الإنسان ويترك ماله للوارث فقد يحضره الموت فجأة وهو لا يزال يسوف ويتردد في الإنفاق فيتمنى أن يحصل على مهلة ولو قصيرة، حين يرى عاقبة تفريطه في الإنفاق مع تمكنه منه ﴿فَيَقُولَ﴾ عند حضور الموت ﴿..رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ فلا بد من أن يعمل الإنسان ويتصدق وهو في فسحة من الأجل أما الآن فلا تأخير قد نَفِذَ العمر ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عليم بأعمالكم كلها فاعملوا في الفسحة حيث ينفعكم، وهو غير خاف عليه شيء من خبرها، وهذه نعمة ورحمة لنا يحفزنا على العمل إذا علمنا بأنه خبير بأعمالنا وأنه رحيم حكيم لا يفوت علينا منها مثقال ذرة.

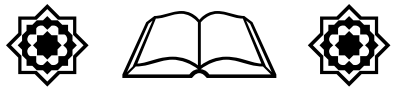

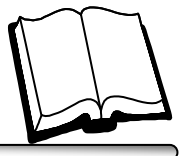

التيسير في التفسير

سورة التغابن

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ قد مر تفسيره ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كلها تسبح له لأنه الخالق المالك ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ له الأمر والنهي والتصرف ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ لأنه المنعم المتفضل المحسن على عباده ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من ذلك إعادة الخلائق بعد الموت.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الناس المخاطبين المكلفين ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ لأنه لا يتذكر أن الله الذي خلقه فكفر، إما كفر بقدرة الله لما لم يؤمن بالبعث، واستبعد أن يقدر الله على إعادته، فكفر بقدرة الله على البعث، أو الذين أشركوا بالله كفروا بكون الله المالك لهم وحده، لا شريك له في خلقهم ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مؤمن بقدرة الله على كل شيء، وأن الله ربه وحده لا شريك له ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بصير يجازي كلا على قدر ما يستحق من خير أو شر.

﴿٣﴾ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ لم يخلقها عبثا بل خلقها بالحق، ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ صور البشر ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فأحسن صورنا نعمة منه وآية تدل على قدرته وعلمه ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وحده لا شريك له، لا يصير العباد إلا إليه ليسألهم عما قدموا ويجازيهم بما عملوا وليس هناك من شفعاء ولا أحد يكون له مشاركة في الأمر.

تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

﴿٤﴾ ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هو عالم بكل شيء، علمه محيط بكل شيء، فهو يعيد الموتى، ويحيط بأعمال المكلفين، لا ينسى ولا يغلط في شيء ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ كذلك، لأنه عالم الغيب والشهادة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بما تخفيه الصدور.

﴿٥﴾ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ كان فيهم عبرة لكم لتؤمنوا، وتسلموا من العذاب فهم عبرة لكم لو اعتبرتم بهم وبأنبائهم حين كذبوا برسلهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وكيف أخذهم الله ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ وخامة أمرهم الذي هو الكفر والعناد والشقاق لله ولرسله ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة إضافة إلى العذاب العاجل في الدنيا.

﴿٦﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذاقوه ﴿بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ عادة تكون آيات بينات تدل على أنهم رسل من الله ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ كذبوا الرسل واعتلّوا باشتراط أن لا يكون الرسول بشراً، استبعاداً لأن يكون الرسول بشراً، وهذا مما لا حجة لهم فيه ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ برسلهم ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن طاعة ربهم ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عنهم ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فأخذهم الله.

﴿٧﴾ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ لأنهم لما كفروا بآيات الله كفروا بالبعث أيضا، ولو آمنوا بالآيات لآمنوا بالبعث والجزاء ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله

وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨ يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ
ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ
وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ
ٱلۡعَظِيمُ ٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ
خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن

﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ **إنه سيبعثكم وينبئكم بما عملتم، لأنه لا ينسى منه شيئاً.**

٨ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ **لتسلموا العذاب، وتسلموا من مثل ما حل بالأمم من قبلكم** ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ **هذا القرآن آمنوا به** ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ **إن آمنتم أو كفرتم، فهو عالم بعملكم وبخُبْره باطنه وظاهره.**

٩ ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ **عائد إلى قوله:** ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ **البعث والحساب يوم جمع العالمين** ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ **لأن من الناس من يخسر نفسه وأهله، فيخسر كل خير، فكان هو المغبون، الغبن الدائم** ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ **يغطي الله سيئاته كأنه بحيث لا يراها نهائياً، أو لا يحاسب بها فضلاً عن غفرانها وتغطيتها** ﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ **هذا هو الرابح ولا غبن ولا خسارة** ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾ **في الجنة أبداً هذا هو السعيد، سعادة دائمة** ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ **الفوز برضوان الله والجنة والنجاة من النار.**

١٠ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ **كفروا بالله وبرسله، وكذبوا بآيات الله الدالة على رسالة الرسل وبالكتب، كذبوا بها** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ **لا يموتون** ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ **مصير ـ نعوذ بالله منه ـ لا أسوأ منه، ولا أشر منه.**

يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ

﴿١١﴾ ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ سواء في الأرض أو في أنفسنا على ما تقدم في (سورة الحديد) ﴿إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ كلها بتخليته، وبعلمه قبل وقوعها ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ إيماناً يبعث على طاعته وتقواه وذكره وشكره ولا ينساه هذا هو الإيمان الصحيح الصادق ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ ينوره ويهديه لطاعته ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ من آمن فهو عالم بإيمانه لا يضيع منه شيئاً، ولا يخفى عليه منه شيء.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ هذا أمر بطاعة الله وطاعة رسوله لندخل الجنة، ونسلم من النار، وهذه العبادة التي خلقنا لها ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ عن طاعة الله ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ليس عليه أن يكرهكم على الطاعة ولم يكلف بهدايتكم، وإنما كلف بالإنذار والتبليغ، وقد أدى ما عليه من البلاغ البين الذي تقوم به الحجة عليكم.

﴿١٣﴾ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا إله إلا هو لأنه هو الخالق المالك فهو رب كل شيء، فإذا كان هو رب كل شيء فلا يستحق العبادة إلا هو؛ لأن كل المخلوقين عباد له وليس لغيره فيهم شرك ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يكلون أمورهم إليه ليثبتوا على الإيمان والطاعة، وليقدروا على الوقوف في وجه المشركين وتحدي طغيانهم، فلا بد من أن يكلوا أمرهم إلى الله.

وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾

﴿١٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ وإن لم يتصور منهم العداوة، لكن في ذلك الوقت قد يؤمن الإنسان وتظل زوجته مشركة حتى لو أظهرت الإيمان، أو ابنه مشركاً ولو أظهر الإيمان، فيكون عدواً لأبيه وهو لا يدري بعداوته له فينبههم الله ليحذروا، وكذلك في أي وقت وزمان خصوصاً مع اختلاف المعتقدات والأفكار فالحذر واجب ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عما يصدر منهم من أذى أو تقصير في حقوقكم ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ تعرضوا عما وقع منهم ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ والمغفرة كأنها متقاربة في المعنى هي والعفو ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ ترغيب في العفو حتى لا نشدد على الأولاد، وعلى الأزواج.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ فلا تفتتنوا ولا تحملكم الرغبة فيهم والإشفاق والحب لهم على التقصير في طاعة الله والجهاد في سبيل الله، أو على البخل بالإنفاق في سبيل الله لأنه قد يبخل الإنسان بالإنفاق لأجل الولد أو تشبثاً بالمال وحباً له فهذه هي الفتنة ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ إذا آمنتم به، وأطعتموه، وأنفقتم في سبيله.

﴿١٦﴾ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ لتنالوا هذا الأجر العظيم ولأن العذاب شديد فينبغي الحذر بقدر الجهد ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ لله ولرسوله

﴿وَأَنفِقُواْ﴾ من أموالكم في سبيل الله ﴿خَيۡرًا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ حينما تنفقون فالخير عائد لكم أنتم كما أن عاقبة البخل عليكم كما قال: ﴿وَمَنۡ يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَنۡ نَفۡسِهِۦ﴾ [محمد:٣٨] ﴿وَمَن يُوقَ﴾ من وقاه الله ﴿شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الذين يفوزون في الدنيا والآخرة ويفلحون، لأنه إذا غلبه الشح وبخل فاتت عليه الجنة واستحق عذاب النار.

﴿١٧﴾ ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ وهو أن يكون الإنفاق بطيبة نفس ومن الحلال وبحيث يكون لله خالصاً، وبنية صادقة ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ ما أقرضتم يضاعفه قال في الحديث: ((.. حتى تصير اللقمة مثل جبل أحد)) ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ لأن من أسباب المغفرة الإنفاق في سبيل الله وفي وجوه الإنفاق المذكورة في (سورة البقرة) وكأن الإنفاق يصلح الضمير مما يدفع الإنسان للتقرب إلى الله والاستقامة على طاعة الله ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ فما أنفقتم فسيضاعف الثواب عليه، فهو يشكر على القليل ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجل على من عصاه بل يتأنى بعبده لعله يتوب ويرجع.

﴿١٨﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فما عمل الإنسان فهو عالم به سبحانه كل عمله من إنفاق أو غيره فهو عالم الغيب والشهادة ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا ينال ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي تصرفاته وأفعاله وأحكامه كلها قائمة على الحكمة سبحانه وتعالى.

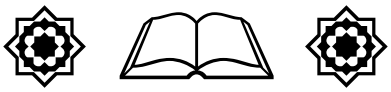

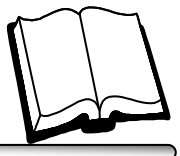

التيسير في التفسير

سورة الطلاق

سُورَةُ الطَّلَاقِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وجه الأمر في هذه المسألة إلى النبي ص مما يدل على أنه ينبغي أن يكون الوالي أو المتفقه في الدين هو الذي يتولى أمور الطلاق؛ لأنه عادة تحصل أخطاء كثيرة في الطلاق كأن يطلق غير طلاق السنة، أو يسترجع شيئاً من المهر أو نحو ذلك. فوجه الخطاب إلى النبي، كأنه الذي يتولى في وقته شئون الطلاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لتستقبل العدة، فلا يطلقها وهي حائض، وكذلك من المهم أن يطلقها في طهر لم يكن قد وطئها فيه لئلا تلتبس العدة هل هي عدة حيض أو هي عدة انتظار وضع الحمل لاحتمال العلوق بذلك الوطئ.

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ لأنها حد من حدود الله، ثلاث حيض، أو ثلاثة أشهر على ما سيأتي من التفصيل فلا بد من التدقيق في حساب الأيام إن كانت بالأشهر، وفي عدد الحيضات إن كانت بالحيض ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ لا تتساهلوا في حدوده فيما أمر به بحيث يكون الطلاق على غير السنة، أو لا تحصون العدة، كذلك اتقوا الله ربكم في أمر آخر وهو قوله: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ دعوها تعتد في بيتها، كأن الأصل والمفروض في الطلاق أن يكون رجعياً، أما الطلاق البائن فلا ينطبق عليه هذا الحكم، والهدف من هذا الحكم، في الطلاق الرجعي هو ما أشار إليه فيما بعد بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ

﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ نهاها عن الخروج من البيت ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ فيخرجها من بيته ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ فيما يتعلق بالطلاق والعدة وبقائها في البيت ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ معصية لله يستحق عليها العقاب ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ هذا كأنه توضيح لبيان الحكمة من تشريعه لهذه الأحكام من عدم الإخراج والخروج فإذا امتثل الزوجان لأمر الله، وقعدت في البيت فلعل النفوس تطيب ويصلح الله الشأن ويراجعها الزوج لأن معظم حالات الطلاق تأتي نتيجة لانفعال آني، أو لتوهم خاطئ أو نحو ذلك.

۝٢ ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ آخر العدة قبل الاغتسال من الحيض ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ لا يكن إمساكه لها من منطلق الضرار بها ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ لا بإزعاج، وجرح مشاعر وسوء أدب ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ يظهر أنه عائد إلى الكل، الطلاق والرجعة، وهذا الإشهاد لابد منه تفادياً للمشاكل التي قد تحدث ولو بعد حين، فقد ينكر البعض الطلاق أو الرجعة ليثبت الميراث أو ينفيه عن الآخر كما أن لذلك علاقة بالنفقة وغيرها ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب للشهود ليشهدوا شهادة قيمة لا عوج فيها ولا تلاعب ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ التوجيه والإرشاد من أول السورة ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يبعث على الطاعة، لمكانة الإيمان بالجزاء وبأن الباري رقيب على العباد وسوف يحاسبهم ويجازيهم.

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ مهما عظمت المصائب وكثرت المشاكل وتعقدت الأمور فإنه إذا اتقى الله وامتثل أمره يخلصه منها ويعينه ويوفقه.

﴿٣﴾ ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ من حيث لا يتوقع ولا ينافي ذلك الرزق من حيث يتوقع مع ذلك ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ يكل أموره إليه ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه وهو نعم الوكيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ لأنه على كل شيء قدير، وعالم بكل شيء، وعالم بحالة المتوكل عليه، فهو بالغ أمره ما قدّره للعبد فهو منفذ ما قضاه ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ قدَّر الأرزاق والآجال وما يتعلق بحياة الإنسان في هذه الدنيا فهي كلها بمقادير.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ أيها الحكام في احتمال الحمل حين طلقها ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ اليأس إما لبلوغ السن الميئوس من الحيض عنده، أو عرض لها مرض فانقطع الحيض حتى يئست، وتلاحظ هنا أنه علق الحكم على يأسها هي، وليس على يأس العالم أو الحاكم الشرعي بل على يأسها هي.

نعم.. فمتى يئست فعدتها ثلاثة أشهر، ولا ينبغي اليأس إلا بعد أن تستعمل الأدوية التي يرشد الطبيب إليها في مثل هذه الحالة، فإذا استعملتها وحسب الوصفة الطبية ولم تر منها فائدة حتى أيست من الحيض فلتعتد بالأشهر ثلاثة أشهر وإذا انكشف خطؤها بأن عاد إليها الحيض بعد ذلك

يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ۝٦ لِيُنفِقۡ ذُو

فلتعتد بالحيض، ولا حرج عليها كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ ﴿وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ فعدتها ثلاثة أشهر كذلك والمقصود من لم يأتها الحيض أصلاً ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ التي طلقت وهي حامل فأجلها وضع حملها وليست عدتها بالحيض ولا بالأشهر فمتى وضعت حملها ولو بعد ساعة من الطلاق انتهت عدتها ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ فما أحسن تقوى الله، والالتزام بطاعته في كل شيء، لكي تتيسر أمور الإنسان، ويعينه الباري في أمور دينه ودنياه.

﴿٥﴾ ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ تلك الأحكام في الطلاق والعدة فارعوها لكونها أمراً من الله ولا تخالفوها ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ السيئات الحادثة قبل التقوى ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ يعظم له الأجر على تقواه لأن التقوى سبب الجنة.

﴿٦﴾ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ رجع الحديث إلى مسألة السكنى بعد النهي عن إخراجهن فأعاده ليبني عليه ما بعده ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ على قدر وجدكم يعني حالتكم المادية، كما قال: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ فيكون سكناها في العدة من حيث الجودة أو عدمها على أساس الإمكانيات المادية المتوفرة ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ لا يضيق عليها المكان بأي سبب كان ليحملها على مغادرته.

سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ حتى لو طالت المدة لأن الأجل أن تضع حملها فلزم أن ينفقوا عليهن حتى ذلك الحين ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ بعد أن تضع حملها ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ نفقة الحضانة، لأنها تضطر للاشتغال بالمولود ترضعه وتحفظه وتخدمه ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ مثلا إذا قصر الزوج هذا في بعض الحقوق عليه للمرأة فلابد أن يأمره ويرشده الذين حوله من المؤمنين فيتواصوا بالحق ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ على الإجارة بأن طلبت أكثر مما ينبغي ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ يسلمونهُ لمرضعة غيرها إذا رفضت هذه الأم أن ترضعه بإجارة معقولة.

﴿٧﴾ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ بقدر حاله الذي عنده سعة وهو واجد ينفق بقدر حاله فلا يبخل ولا يقاصي ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ ينفق بقدر حاله لا يترك الإنفاق بحجة أنه مقل بل ينفق مما آتاه الله ولو قليلاً ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ بقدر ما آتاها قل أو كثر ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ فلينفق ويرجو من الله اليسر في المستقبل، فلا يوسوس له الشيطان أنه سيدخل نفسه في أزمة حين يدفع النفقة؛ لأن الله قد وعد باليسر بعد العسر.

﴿٨﴾ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ هذا ابتداء كلام في طاعة الله واتباع الرسل يقول: كم من قرية عتت عن أمر ربها أي تمردت على الله ورفضت طاعته واتباع رسله ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ على ما قد وقع منها من المعاصي كلها أولها وآخرها ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ عذابا تنكره النفوس لشدته.

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

﴿٩﴾ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ فذاقت وخامة أمرها الذي هو العتو عن أمر ربها ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ خسرت أنفسها وخسرت كل خير.

﴿١٠﴾ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ مع عذاب الدنيا عذاب الآخرة ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ احذروا الوقوع في مثل ما وقعوا فيه ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ هذا القرآن العظيم الذي يكفي العاقل إذا تتدبر آياته.

﴿١١﴾ ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ هذا الذكر عندي أن المقصود به الآيات، والمعنى: أرسل رسولاً يتلو عليكم آيات الله، فكأنه تفسير لقوله: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين يقبلون ويمتثلون ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من ظلمات الجهل والمعصية ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى نور الهدى والطاعة.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بعد ما حذَّر من مثل عذاب الأمم الماضية بشر بالخير من يؤمن بالله.. ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ قد أحسن الله أي في هذه الجنات أحسن رزقه الذي سينعم فيه خالد مخلداً.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ هو قادر على كل شيء، فكما قدر على خلق السموات والأرض، فهو قادر على البعث والجزاء بالجنة والنار، وجاء هذا التعقيب بعد الوعد والوعيد ليدلل على قدرته سبحانه على ذلك لأنه الذي خلق السموات السبع، ومن الأرض مثلهن سبع أرضين ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ بين السموات والأرضين كما قال: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة:٥] ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن خلقها آية ودليل عليه، ويكون من جملة فوائد خلقها أن نعلم أنه على كل شيء قدير ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أنه عالم بكل شيء، وقدير على كل شيء، لأن في خلقها دلالة على قدرته وفي إتقان وإحكام صنعها دليل على علمه سبحانه وتعالى.

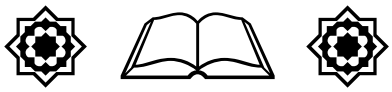

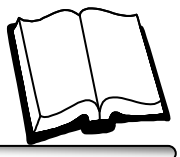

التيسير في التفسير

سورة التحريم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ يروى: أن رسول الله ص شرب عسلاً عند إحدى نسائه قيل: إنها زينب بنت جحش فتواطأت حفصة وعائشة على أن يقولا له متى دخل عليهما: إنا نشم منك ريح المغافير، وهي كما قيل: صمغة حلوة الطعم كريهة الرائحة، فلما دخل على حفصة قالت له ذلك، وكذلك قالت عائشة عند دخوله عليها، فعند ذلك حرم العسل على نفسه كراهة للومهما وتطييباً لأنفسهما، فعاتبه الله على ذلك وأمره بتكفير اليمين ليعود إلى جاريته إن شاء.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالأمر لا يستدعي كل هذا الدلال والاسترضاء لأن فعلك هذا لا يعد جريمة في حقهما.

﴿٢﴾ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ شرع وأوجب الكفارة كفارة اليمين للتحلل مما حلف منه ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ الذي يرعاكم ويحسن رعايتكم ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء من أحوالكم لا يخفى عليه شيء من أموركم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تصرفاته فيشرع لكم في دينه على ما تقتضيه الحكمة.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ﴾ واذكر ﴿إِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أفشت سر رسول الله ص ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أعلم النبي بأنها قد

قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

أخبرت بذلك السر ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ عرف النبي بعضه لها أي أخبرها ببعض ما قد أفشت وأعرض عن بعضه تكرماً منه ص، كأنه كراهية منه للتشديد عليها ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ بهذا البعض ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ يعني الله سبحانه الذي أوحى إليه هذا.

﴿٤﴾ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ رجع يخاطب بعض أزواج النبي ص ليتوبا إلى الله مما اقترفا ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ قد مالت عن الحق قالوا: إن الخطاب هذا موجه لعائشة وحفصة، الرواية في البخاري ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تتعاونا عليه على النبي ص ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ وهو ناصره ومؤيده ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ مع النبي ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب ـ صلوات الله عليه ـ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ مناصرون للنبي ص كأن هذا كله لأجل الدلالة على أن الله معه والملائكة والمؤمنين وليس فقط لأجل القضية المذكورة، وهو نوع من البديع أن يسترسل ويتطرق إلى ذكر شيء آخر غير ما عليه السياق لفائدة في ذلك.

﴿٥﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ هذا تخويف لهن لئلا يتجرأن على أذيته مرة أخرى ﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ ووصف البديل المفترض بأنهن الجامعات لهذه الأوصاف: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ مخلصات لأنفسهن لله سبحانه ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين.

وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ خاضعات لله ولرسوله ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ إلى الله إذا لم تتب أزواجه المعنيات فسيستبدلهن بنساء تائبات ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ لله سبحانه وتعالى ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ يذهبن معه حيث ذهب سواء في الجهاد أو في الهجرة أو غير ذلك ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ يكون البديل بعضهن ثيبات وبعضهن أبكار وفي كل صنف مواصفات ومميزات تحلو للرجل، فالثيبات يتمتعن بالعقل والفهم وتجربة الزواج ومعرفة ما يصلح للزوج ونحو ذلك، كما تتميز البكر باللذة والمتعة لما هي عليه من الصباء والتصابي، هذا ملخص كلام الإمام الهادي × في معنى الآية.

﴿٦﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وهذه كأنها متعلقة بما مضى ﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ على الرجل أن يسعى في نجاته ونجاة أهله من النار وذلك بالموعظة والتعليم والتربية ﴿وَقُودُهَا﴾ حطبها ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ خزنتها ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أهل غلظة وشدة على أهلها دونما رأفة ولا رحمة، فهم يوقدونها ويسعرونها باستمرار لا يدعونها يفتر تأججها ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ يمتثلون ما أمرهم الله به من تعذيب العصاة، ولا يخالفون له أمراً.

﴿٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كأنه يقال لهم هذا في حال عذابهم في جهنم ليعلموا أنه ليس إلا جزاء على ما كانوا يعملون في الدنيا لتكون أعمالهم حسرات عليهم.

أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ

﴿٨﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا الخطاب موجه إلى المؤمنين كلهم ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ارجعوا إليه ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ توبة صحيحة تمحو الذنوب وتُقبل عند الله سبحانه وتعالى، والتوبة الصحيحة هي أن يندم على المعاصي من أجل حق الله عليه وأن من حقه أن لا يُعصَى أبداً، كما يجب أن يعزم عزماً صادقاً على عدم العودة إلى المعصية، ويطلب من الله أن يغفر له فإذا لم يكن صادقاً في ذلك، وإنما توهم أنه قد عزم أو أنه قد ندم والواقع خلافه فلا تتم التوبة لأن الندم فائدته أن يتخلص من الرضى بالمعصية لأنه قال أمير المؤمنين × : ((على كل داخل في باطل إثمان إثم العمل به وإثم الرضى به)) فلهذا يكون عدم الندم بمثابة الرضى بالمعصية وهذا مخل بالتوبة كما يشترط التخلص من المظالم جميعها.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ يَقْرُبُ حينما تتوبون إلى الله توبة نصوحا أن يكفر الله عنكم سيئاتكم يغطيها كأن لم تكن ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ بسبب التوبة إلى الله ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يشرفهم ويكرمهم ولن يخزيهم بل يكرمهم جزاء لما لاقوه في الدنيا من التعب والعناء في دعوة الناس ومحاولة هدايتهم لهذا فلابد أن يكونوا مشرفين مكرمين عند الله يوم القيامة ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ مثل ما تقدم في (سورة الحديد).

جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ

﴿يَقُولُونَ﴾ وهم في الآخرة لهول المطلع وعظم الموقف وإن كانوا آمنين لكن يدعون الله قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أتمم لنا ما أعطيتنا من هذا النور وكرامات البشارة بإيصالنا إلى ما وعدتنا من دار كرامتك، والخلاص في موقف الحساب.

﴿٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أمره بجهادهم أما الكفار فواضح وأما المنافقين فلدورهم في الإفساد خصوصاً فيما بين المؤمنين ومحاولة تفكيكهم من الداخل ونحو هذا من أعمال المنافقين وتخريبهم، فلا بد من جهادهم لكن قد يكون حسب ما تقتضيه المصلحة حينئذ وقد يكون ذلك بالغلظة في القول والزجر والتخويف والتهديد غير القتل، وقد تقتضي المصلحة قتلهم كما قال: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً..﴾ إلى قوله: ﴿..وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾ [الأحزاب:٦٠-٦١] ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ في المعاملة والجهاد ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ومأوى الكفار والمنافقين جهنم ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أسوء مصير ـ نعوذ بالله ـ يصيرون إليه.

﴿١٠﴾ ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ هذا مثل للكافر وأنه لا ينفع الإنسان قربه من نبي أو نحوه إذا لم يلتزم هو في نفسه بدينه وشرعه ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾ نبي الله نوح، ونبي الله لوط ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ امرأة لوط قالوا كانت تخبر قومه بأن لديه ضيوفاً، فيتعرض لأذية قومه.

ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ لم يكن لزوجيهما أي صلاحية ليدفعا عنهما من عذاب الله شيئا ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ ولو كنتن زوجين لنبيين من أنبياء الله العظام، فهذا فيه عبرة لعائشة وحفصة لتحذرا وكذا درس لجميع أزواج النبي ص في عدم الركون إلى كونهن أزواج النبي وأنه في يوم القيامة لا ينفع الإنسان إلا عمله.

﴿١١﴾ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ ما ضرها كونها زوجة لكافر لأنها مؤمنة فنفعها إيمانها ﴿إِذۡ قَالَتۡ﴾ أذكر، إذ توجهت إلى الله بهذا الدعاء ليخلصها من فرعون وعمله ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لما كانت مؤمنة لم تلجأ إلا إلى الله لينقذها من شر فرعون وظلمه.

﴿١٢﴾ ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ﴾ ضرب بها المثل في المؤمنات ﴿ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ تطهرت وتنزهت من الجريمة ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ حين خلقنا عيسى نبي الله في بطنها.

﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ كلمات الله كل ما وعد به الباري أو أخبر به صدقت به، وكذلك كتب الله هي مصدقة بأنها من الله ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ الخاضعين لله، المنقادين له، المستسلمين لأمره، ولعل السبب في جعلها مثلاً للمؤمنين للعبرة بها فيما لاقته من اليهود من الرمي لها بالجريمة

وأن ذلك لم يضرها؛ لأنها كانت مؤمنة مخلصة عفيفة فنصرها الله، وكبت أعداءها، وأرغم أنوفهم، كما وعد به في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].

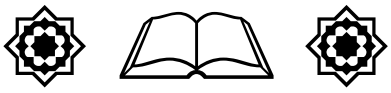

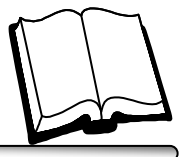

التيسير في التفسير

سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ جلّ وعظم وتعالى من كل ما ينسب إليه المشركون، الجاحدون بالنشأة الآخرة، المستبعدون لقدرة اللّه على إحيائهم بعد الموت المكذبون للنذير البشير، جهلاً بحكمة اللّه وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وتفسير ﴿تَبَارَكَ﴾ بهذا المعنى هو المناسب لاشتقاق أصله من البَرَكة ـ بفتح أوله وثانيه ـ كما أنه المناسب لسياق السورة هذه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ يفيد: أنه تعالى لا يشاركه في الملك المطلق مشارك، وأنه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، وأن كل من في السماوات والأرض تحت أمره، يحكم فيهم ما يشاء، فلا ولد له مما يزعم المشركون، الذين قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة:١١٦] ومالهم من دونه من ولي ولا شفيع.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يفيد: أنه قدير على البعث والإعادة بعد الفناء، كما يفيد: أنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

﴿٢﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ﴾ الذي ﴿يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر:٤٢] ويقدر لها الموت بتحديد أجلها، ولعله سمى خلقاً لما فيه من التقدير والتنظيم وحسن التدبير، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ [الواقعة:٦٠] حيث يترتب موت الناس على وفق الحكمة، ولما في قبض الأرواح وتوفي النفوس من التقدير؛ لاختلافه في الشدة، وتفاوته في طول النزع، على ما تقتضيه الحكمة من التشديد والتخفيف.

وقد قيل: إن الموت نفسه عرَض موجود يحلّ في الجسم محل الحياة ـ والله أعلم، وخلق الحياة دليل عظيم على قدرة اللّه؛ لأنه كالمشاهَد، فالحمل يكون في بطن أمه ميتاً، ثم يحييه اللّه فيتحرك ويخرج من بطن أمه حياً بعد أن كان نطفة، وهذا دليل على قدرته تعالى على إحياء الإنسان بعد الموت، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾ [مريم:٦٦-٦٧].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ يفعل بكم فعل المختبر الذي يريد أن ينظر كيف تعملون، ويعلم أيكم أحسن عملاً، ولما كان الاختبار مؤقتاً لمدة محدودة يترتب عليه الجزاء الدائم كانت الحياة الأولى محدودة تنتهي بالموت والحياة الآخرة التي لا تنتهي، فصحّ أنه تعالى خلق الموت والحياة ليبلونا أينا أحسن عملاً.

وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذرايات:٥٦] حيث أفاد أن المقصود من الحياة هو العبادة في هذه الحياة، وزاد الاختبار أيهم أفضل عبادة، وذلك أنه خلقنا ليعرضنا على رحمته، ويهيئ لنا طريق جنته بأن يدعونا إلى عبادته ويمكننا من الاستباق إلى خيراته ولكوننا في مقام الاختبار، لزم أن نكون ممكنين من الاختيار، ولزم من التمكين من الاختيار للعبادة التمكين من تركها، لأنه لو لم يكن تمكيناً من الفعل والترك، لكان إلجاءً إلى الفعل منافياً للاختيار ومنافياً لاستحقاق المدح والتعظيم وبلوغ مراتب الشرف والتكريم الذي أراده اللّه لمن عبده وعمل صالحاً واتقاه، فمن عدل عن ذلك وكفر نعمة ربه، فقد ترك ما خلق له، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ ولم يقل: (أيكم يحسن العمل، وأيكم يسيء).

سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ لأنّ موقف الاختبار والتخلية ليس منافياً لعزته تعالى؛ لأنه مكّنهم على شرط الجزاء لمن لم يتب من الفجار بالعذاب، ولم يمكنهم تمكين إهمال يفسدون في الأرض ويتمردون على اللّه ويكذبون الرسل ويحاربون الدعاة إلى اللّه، ثم لا يجازيهم، ولهذا فلابد من الآخرة، ولابد من عذابهم وهو أعظم مقاصد السورة الكريمة، أو من أعظم مقاصدها، فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ تقديم للوعيد.

ثم قال: ﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ لأنه يدعو إلى التوبة، يدعو الكفار إلى الإيمان والعبادة ليغفر لهم، ويتوعدهم ليخافوا عذابه ليتوبوا إليه فينجَوا من عذابه ويفوزوا بثوابه، فذِكْر العزّة مقرون بذِكْر الغُفران لهذا المعنى، لأن الوعيد الذي يأتي في السورة على معنى التحذير من الإصرار على الكفر.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ هذا دليل على قدرته ليعلم الكافرون وغيرهم أنه قادر على كل شيء، فهو قادر على خلقهم مرة ثانية كما قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات:٢٧] وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧].

وقوله تعالى: ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ هي المخلوقات العليا التي سفلاهن سقف للأرض، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢٢] والبشر يؤمنون بها، لبقاء ذكرها من النبوات الأولى، ولذلك قال نوح لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح:١٥] وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

وذكر خلق السماوات في جملة آياته للبشر، وقد فسرت السماء: بأنها عالَم النجوم، وفسرت: بأنها الفضاء الواسع الرحب بما فيه من النجوم وغيرها، حتى فسر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح:١٦] أي في مجموعهن. انتهى. ومعنى ذلك: أنها من السماوات، وهذان القولان أو هما قول واحد خلاف الظاهر عندي.

وقوله تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ معناه متطابقة والمتطابقة قيل في معناه: المتماثلة في الاتساع وغيره، وقال الإمام الهادي × ، كما حكاه الشرفي في (المصابيح): «ومعنى ﴿طِبَاقًا﴾ فهو طبقة فوق طبقة، ومعنى طبقة فوق طبقة، فهو سماء فوق سماء حتى ينتهي إلى السماء السابعة التي ليس فوقها سماء» انتهى، والأرجح عندي: الجمع بين المعنيين المذكورين هنا.

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ معناه: ما ترى في خلقه من اختلاف، والأرجح عندي هنا، أن المعنى: ما ترى فيه من تعارض وتدافع في الدلالة على اللّه والهداية إليه التي جعلها برحمته، ولهذا علّقه على قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ و(الخلق) إما أن يراد به السماوات، فكأنه تعالى قال: (ما ترى فيها من تفاوت) ولكنه أقام الظاهر مقام المضمر، ليفيد ذلك: أن كونها صنع الرحمن هو سبب عدم التفاوت وهذا أقرب؛ لأن السياق فيها.

ويحتمل: العموم، والمراد به الخلق الثابت المستمر كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار، فهي كلها على نظام وتناسب محكم يدل على ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] وأن ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يس:٨٣] يدبر أمره كيف يشاء، بل وكل المخلوقات فهي لا تتفاوت في أنها تدل على الخالق القدير الذي بيده الملك.

خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ

وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ بمعنى هل ترى من خلل في إتقان الصنع وتفاوت في الدلالة على الخالق القدير الذي بيده ملكوت كل شيء؟! وتسمية الخلل في إتقان الصنع فطوراً مجاز، لأن البناء الذي لم يحكم يتفطر، والقرينة الترتيب بـ(فاء التفريع) على قوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وإرجاع البصر: إعادة النظر إلى ما يراه البصر.

﴿٤﴾ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ في (مصابيح الشرفي): «عن الهادي × يقول: ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ وأجد استعمال النظر ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي مرّتين، ليثبت لك أمرك، ويَتبين لك خبر ما قصد بصرك، وأنك إن فعلت ذلك وأجَدت التمييز والبصر [و] استعملت في ذلك العقل والفكر لم تَرَ في شيء مما خلقنا تفاوتاً فيما ركبناه عليه من تقديرنا» انتهى.

فالمعنى: ثم ارجع البصر في خلق الرحمن، وتأمّل بفكرك وبصرك، هل ترى من خلل في خلق الرحمن؟! فإنك إن تفعل ذلك ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي يرجع إليك من حيث أرسلته ذليلاً صاغراً موقناً أنه لا خلل في خلق الرحمن ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ منقطع كليل دون أن يرى خللاً.

﴿٥-٦﴾ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ السماء الدنيا: أقرب

تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن

السماوات إلينا، زينها اللّه ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ وهي النجوم المنيرة، وهذا يشعر بأن السماء ليست عين النجوم ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ النجوم ﴿رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ يرجمون بالشهب المأخوذة منها، وهي أجزاء منها أو شُعَل نار تنقدح منها أو كهرباء تتولد منها ـ والله أعلم.

وأقرب الاحتمالات: أنها نار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر:١٨] وهي التي نراها في الجوّ نازلة يرمى بها الشياطين المسترقون للسمع من السماء ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ أعدّ اللّه للشياطين عذاب النار المسعرة الموقدة الملتهبة، وفي هذا نقل الكلام من دلائل قدرة اللّه التي منها تزيين السماء بالمصابيح، الذي هو دليل على صدق الوعيد إلى الوعيد حيث عطف على وعيد الشياطين وعيد الكفار عامة، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والذين كفروا بربهم يعم الذين أنكروا قدرته على الخلق الجديد والحياة الثانية بعد أن صاروا عظاماً ورفاتاً، فبذلك جحدوا أن اللّه على كل شيء قدير.

و(المصير): المرجع الذين يصيرون فيه في الآخرة خالدين فيه أبداً، وفي وعيد الشياطين ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ ووعيد الذين كفروا ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ ولعل سبب الفرق أن شياطين الجن هوائيون فتعذيبهم باللهب قبل الجمر، أما كفار البشر فتعذيبهم بهما نعوذ بالله.

﴿٧﴾ ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا﴾ إذا أسقطوا فيها وأوقعوا فيها ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ ﴿شَهِيقًا﴾ صوتاً يكون لقوة التهابها وتسعرّها.

وفي (سورة الفرقان): ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [آية:١٢] وأصل الزفير: الصوت الخارج من الحيوان مع خروج النفَس، والشهيق: الصوت الخارج مع الجذب للنفَس، والمراد: أصوات مشبهة للصوتين، فإذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، وإذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×): ((معنى ﴿تَفُورُ﴾ هي تغلي بأهلها وتقلبهم في أعالي لهبها، ترفعهم تارة، وتضعهم وتشويهم تارة، وتفسخهم.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿تَكَادُ﴾ تقطع ويبين بعضها وينفصل عن بعض من شدة غيظها على أهلها، وهذا يدل على أن لها حياة وشعوراً، ويوافقه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق:٣٠] ولا قرينة صارفة عن الحقيقة؛ لأن قياسها على الأرض لا يصح على فرض ثبوت حكم الأصل، لأن أمور الآخرة مخالِفة لأحوال الدنيا، ولأن اللّه تعالى يقول: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت:٢١] والسياق في النطق الحقيقي، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت:٦٤].

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يظهر من قوله تعالى: ﴿فَوْجٌ﴾ أن أهلها يلقون فيها أفواجاً، قال الإمام الهادي × : ((والفوج: فهو الجماعة الكبيرة)) انتهى، وقد قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر:٧١] وهذا يناسب كثرتهم، وفائدة السؤال تقريرهم على أنهم استحقوا العذاب ولم يبق لهم حجة، وهذا يبطل الجبر، لأنهم لو كانوا مجبورين ما كان للسؤال معنى، و(النذير): المبلغ بأنه يقع المخوف، والإنذار: الإبلاغ بوقوع الأمر المخوف.

شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ

﴿٩-١١﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ حرف يفيد إثبات المنفي بـ(لم) ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ أي كذبنا النذير، الذي هو الرسول المبلغ للإنذار عن اللّه تعالى، وكأنهم لتصغير باطلهم قالوا: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ فجعلوا جريمتهم ما فعلوا تجاه النذير، وما قالوا فيه، فهي مقصورة على النذير لم تبلغ الجرأة على اللّه والمجاهرة بالتمرد عليه، ولكن هذا لم يفدهم شيئاً.

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ سماع تفهّم وتعرّف للحقيقة ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ كذلك عقل تأمّل وطلب للحق؛ لأن العقل يدعو العاقل إلى استماع الإنذار وطلب الحقيقة إن شك في صدقه، ومعنى هذا: أن يلتمس دليلاً على صدقه إن كان صادقاً، ولكنهم على العكس من ذلك أعرضوا عن الدليل على صدق النذير، وقالوا: ما نزل اللّه القرآن، الذي هو المصدق المعجز الدالّ على صدق الرسول، فكذبوا به في ضمن قولهم: ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ تبريراً لكفرهم وتكذيبهم للرسول المنذر، ومخالفة لما يقتضيه العقل، فقالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ من الأمم التي قد خلت من قبلهم وغيرهم، نظير قوله تعالى في (سورة الأعراف): ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [آية:٣٨] فيظهر منه: أن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ..﴾ إلى هنا في الذين كفروا بمحمد ص، وهذا يوحي بكثرة أهل النار؛ لأن قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ يفهم منه كثرتهم، وقوله: ﴿فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ يفيد: أنهم مكثورون ببقية أهل النار.

ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ

﴿١١﴾ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ الذي هو التكذيب للرسول ص، والتكذيب بالحجة على صدقه وبآيات اللّه الدالة على صدقه، وبكل ما أنزل اللّه، وما ترتب على ذلك من محاربة الدين، وفتنة المسلمين، وغير ذلك والإعراض عن النظر الصحيح عند سماع النذير ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ سحقاً وبعداً، يقال ذلك فيمن أصابته مصيبة يستحقها، ومعناها: الرضى بما وقع عليهم وعدم المبالاة بهم، بل الرغبة في زيادة المصيبة عليهم، وفي (الصحاح): السُحق ـ بالضم ـ البعد، قال: ((وأسحقه اللّه، أي أبعده)) انتهى.

و(أصحاب السعير): أهلها الباقون فيها، كما يقال: أصحاب القرية، وأصحاب الدار لسكانهما، و(أصحاب السعير) إما للعموم، يشمل هؤلاء الذين اعترفوا بذنبهم فصاروا في أصحاب السعير، فالمعنى: فسحقاً لأصحاب السعير وهؤلاء منهم، وإما للخصوص وأصله فسحقاً لهم إلا أنه أقيم الظاهر مقام المضمر لإفادة تعليق الإبعاد على كونهم أصحاب السعير لئلا ينصرف إلى اعترافهم بذنبهم فتفوت الدلالة على إظهار غضب اللّه عليهم بتعذيبهم في السعير وهذا أقرب؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَسُحۡقٗا﴾ فيه تفريع بـ(الفاء) على قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ فهو قرينة الخصوص في الذين كفروا من عهد رسول اللّه ص.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ هكذا جرت عادة القرآن الكريم بالمقارنة بين الوعد والوعيد؛ لأن مهمة الرسول وإنزال القرآن التي هي التبشير والإنذار تتأكد بالتكرار الذي تقتضيه الحال؛ لبعد أكثر الناس عن السماع والإجابة والاستعداد للآخرة.

مع أن الجمع بينهما فيه زيادة إيضاح لأن بضدّها الأشياء تتميز، كما قال الشاعر:

وبضدها تتميز الأشياء

فإذا ذكرت عاقبة أهل الباطل وقرن بها ذكر عاقبة أهل الحق، كانت كل واحدة من العاقبتين تزداد وضوحاً للعاقل، بالمقابلة بينها وبين الأخرى، و(الخشية): خوف يبعث على الحذر، فهي خاصة بما يمكن الحذر منه عند الخاشي بأي وسيلة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] فهؤلاء يخافون خوفاً مقروناً بالحذر الذي هو التقوى، وقال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:٩] فالخشية خوفهم المؤدي إلى أن يحذروا أن يدانوا بمثل ما دانوا غيرهم أو أن يعاقبهم اللّه بظلم اليتيم الذي كان أبوه يخاف عليه كما أنهم لو تركوا يتامى خافوا عليهم لضعفهم، ولكون خشية اللّه تبعث المتقين على تقوى اللّه علق عليها الوعد هنا، وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣] وللتلازم بين الخوف والتقوى في معنى الخشية.

قال الإمام الهادي × في تفسيرها: «معنى ﴿يَخْشَوْنَ﴾ فهو يتقون ويخافون ربهم، فهو خالقهم وسيدهم ومالكهم ومقدرهم وجاعلهم ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فهو في الغيب، ومعنى في الغيب فهو في سرهم وما تغيّب من أمرهم واستتر من الناس من أفعالهم على التقوى، بخلاف الخوف الذي يحصل لأعداء اللّه يوم القيامة فهو اضطراري، فالذين يخشون ربهم بالغيب يخشونه من أجل إيمانهم بالغيب، ويراقبون اللّه في السر كما يراقبونه في العلانية، فيحذرون العصيان، ويلازمون التوبة مما مضى منهم من المعاصي، ويعاودون التوبة كلما وقعت منهم زلة، ولا يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون؛ لأن الخشية تعود فتبعثهم على المبادرة إلى التوبة كلما وقعت منهم زلة، فكلما رجعت الخشية فتحققت التوبة دخلوا في عموم هذه الآية الكريمة».

ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ

﴿١٣﴾ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ فهو سواء في علمه تعالى ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وهي أخفى ما يخفيه الإنسان، فهو عليم بها؛ لأنه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] و(ذات الصدور): ما تختص بها الضمائر فلم تزل مخفية فيها مذ كانت من نيّة أو عقيدة أو حب أو بغض أو رغبة أو رهبة أو إرادة أو كراهة، أو غير ذلك مما تخفيه الصدور، ولا يخرج إلى الظهور بلسان أو قلم، أو غير ذلك من أسباب الاطلاع عليها، فهي منسوبة إلى الصدور؛ لاختصاصها بها دون ما تظهره أسباب الظهور، فسميت ذات الصدور أي السرائر ذات الصدور، أو الخفايا ذات الصدور، أو نحو ذلك.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ كيف لا يعلم من خلق وخلقه دليل على أنه بكل شيء عليم فالمخلوقات تشتمل على مخلوقات غامضة محكمة في أعضائها وأجزائها كما يحويه الإنسان من مجاري الغذاء الدقيقة التي توصل إلى كل جزء غذاءه من عظم أو عرق أو عصب أو مخ أو لحم أو جلد أو غير ذلك.

وكما في الدماغ من أجزاء تركيبه وكيفياتها الخاصة بكل نوع منها من خلاياه وهكذا خلايا القلب والكبد وسائر الأعضاء كما يذكر في علم تشريح الإنسان ويعرف بالتأمل على سبيل الإجمال.

وكذلك في سائر الحيوانات والشجر وكذلك الأرض وما تحويه من مواد تناسب مواد تركيب الإنسان من كالسيوم وحديد وغير ذلك مما هو معروف

عند أهل الطب العصري وأعظم من ذلك كله خلق الروح الذي لا يعلم الناس حقيقته وماهيته على التفصيل، فكل ذلك دليل على أن الخالق تعالى بكل شيء عليم؛ لأنه بكل خلق عليم.

وقد غلط بعض الأشعرية في احتجاجه بالآية على أن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه وتعالى؛ لأن معناها عنده، ألا يعلمها وهو الذي خلقها، وهذا التفسير دعوى منه لا يدل عليه العقل ولا اللغة العربية، والذي ذكرته أنسب لعادة القرآن التي هي الاحتجاج بقضايا العقول، أما أفعال العباد فإن العرب لا تسميها خلقاً، ولا يفهمونها من قوله: ﴿خَلَقَ﴾ لأنهم إنما يقولون فعل لمن حصل منه الفعل، ولا يقولون: (خلق) وكذلك القول لا يقولون لمن أوجده خلق قولاً سراً ولا جهراً إلا إذا أرادوا أنه اختلقه وافتراه، فكيف يصح تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ كيف لا يعلم قولكم وهو الذي خلقه، والعرب لا تقول: (خلق القول) إلا بمعنى اختلقه، والقرآن ﴿عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣] وهكذا مني الناس بالتفاسير المعطوفة على المذاهب في كثير من الآيات، فإنا لله وإنا إليه راجعون، نسأل اللّه التسديد برحمته.

﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ المناسب للسياق، أن يكون معنى ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ هنا الذي يطلع على كل شيء لا يحجبه شيء عن شيء فلا يخفى عليه مستور في الصدور ولا في غيرها، قال الراغب في (المفردات): «ويعبر باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة، وعن تعاطي الأمور الدقيقة، وقد يعبر باللطائف عما لا الحاسة تدركه، ويصح أن يكون وصف اللّه تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقه بالعباد في هدايتهم» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «وقول الفرزدق: ولَلّهُ أدنى من وريدي وألطف، إنما يريد وألطف اتصالاً» انتهى، فهو قريب من قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦].

فحاصل المعنى: نفوذ علمه إلى ما بطن، فأما على تفسير اللطف بالرفق بعباده، فيكون معطوفاً على جملة الكلام في العلم، وهو الذي حكاه الشرفي عن الإمام الهادي × ، ولفظه: «واللطيف: فهو البر بخلقه المتفضل عليهم برزقه المان عليهم بمرافقه» انتهى، و﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ العليم بخُبْر كل شيء وخفي أمره.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ ﴿ذَلُولاً﴾ غير متصعبة على الإنسان، يستعملها للحرث والمشي والبناء وغير ذلك، لا تمتنع عليه بشكل يمنع من ذلك، مثل: كثرة الحفر، والشقوق، والجرف التي تنهار بمن مشى عليها، ومثل كثافة الرمال التي تهوي فيها الأرجل، ومثل: الوحل الذي يكون قد اختلط الطين والماء فصار تزل فيه الأرجل أو يتوحل الماشي، أو غير ذلك من الأشكال المبطلة للانتفاع بالأرض.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ معناه: أنه تعالى هو الذي خلقها للناس وجعلها صالحة لانتفاعهم بها، وقوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ يفيد: تذليلها على اتساعها وتذليل مجال الماشين فيها لم يقتصر تذليلها على مسكن الإنسان منها وذكر المناكب التي هي أظهر في الظهور المرتفعة؛ لأنها أوفق للمشي من الأودية التي تكون فيها البطحاء أو الماء الغيل الجاري أو يعرض لها نزول السيل الذي هو خطر على من في الوادي وفي المشي حاجات ومنافع بالتجارة وغيرها.

فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ دليل على بعض فوائد تذليل الأرض التي يحصل للإنسان بها رزقه من الحرث والضرب في الأرض للتجارة واستخراج المعادن وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ كالنتيجة للدليل فحيث بيَّن سبحانه قدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء كان ذلك رداً على من يستبعد البعث وأثبت أن إليه النشور وحيث بيَّن إنعامه على عباده كلهم مع أن منهم شاكراً ومنهم كافراً بين أن إليه النشور ليجزي كلاً بعمله، وحيث بين أنه خلق الأرض للناس بحيث ينتفعوا بها بيّن أنهم لم يخلقوا ليبقوا فيها أبداً، بل لا بد من النشور الذي هو البعث ليرجعوا إلى اللّه ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥] فخلق الإنسان كان على أساس أنه سيجزى بما عمل فيها، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية:٢٢].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ هذا خطاب للكفار الذين قد تعرضوا لأخذ العزيز المقتدر وأمنوا مكر اللّه، فهو سؤال إنذار لهم بالعقوبة، وتذكير أنهم معرضون للخسف بهم، وتوبيخ لهم على أمنهم وعدم خوفهم من العذاب مع كفرهم.

وقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قال في معناه الإمام الهادي × كما في (المصابيح): «معنى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فهو اللّه الواحد الذي هو في الأرض كما هو في السماء، لا يخلو منه مكان» انتهى.

وفي (مجموع الإمام القاسم ×) في معنى هذه الآية وأمثالها [ص٣٨١ـ ٣٨٢/ مخطوط]: ((فالمعنى في ذلك كله على المشاهدة والتدبير، لا على أنه في شيء يحويه، ولا على أنه مع شيء ملازق له، ولا على أنه على شيء كما الإنسان على السرير وعلى السطح وقد خلا منه ما هو أسفل من ذلك، ومن ذلك قول الشاعر:

وصرنا خالين وليس معنا سوى رب البنية والمقام))

انتهى المراد، والبيت شاهد واضح؛ لأن الشاعر أراد أنه معهما ولم يقصد المقارنة.

وفي كلام أمير المؤمنين علي × في (نهج البلاغة) [ج١/ ص١١٣]: ((لم يحلل في الأشياء، فيقال: هو فيها كائن، ولم ينأ عنها، فيقال: هو منها بائن)) انتهى.

وقد ظنّ بعض المشبهة أن تنزيهه سبحانه يستلزم التعطيل، أي نفي الخالق، وهو غلط سببه قياس الخالق على المخلوق، فظنوا أن قولنا: ((ليس في الأشياء بوالج ولا عنها بخارج)) تعطيل، وظنوا أنه لابد أن يكون فيها أو يكون خارجها، وذلك لظنهم أنه لابد أن يكون في مكان قياساً على المخلوق، فأما مع عدم المقايسة فلا مانع من أن يكون قريباً من المخلوق لعدم المسافة بينه وبين المخلوق، ولمشاهدته للمخلوق وتدبيره أمره، فيعتبر بذلك حاضراً، كما قال تعالى: ﴿لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

وبهذا المعنى يقال: هو في كل مكان، ومع ذلك لا تثبت له الظرفية؛ لأنه لا يحويه مكان، فلا يقال: هو في السماء إلا على المعنى الأول، لا على معنى أنها ظرف له تحويه، فالسماء والأرض سواء، ولكن تختص السماء بأنها قبلة الدعاء،

ويتنزل منها الأمر، والملائكة الذين يتنزلون بأمر اللّه إلى رسله، وغير ذلك، كما يقال للكعبة بيت اللّه، لا على معنى أنه ساكن فيها، وناسب تخصيص السماء في سياق قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ باعتبار أن محقها وخرابها يخص المشركين وآلهتهم التي يدعون من دون اللّه من الأحجار المنصوبة والتماثيل المصنوعة، فلو خسف بهم الأرض لتهاووا لأن الأرض مقرهم، أما اللّه تعالى فهو غني عن الأرض فعبر عن ذلك بقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ مع أنه غني عن السماء، لكن أفكار الجاهلين بالله لا تتحمل أن يقال: من ليس في مكان، فخاطبهم بما يفهمون وعبر عن نفسه بما يعبرون مع صحة المعنى باعتبار أن كونه فيها معناه مشاهدتها وتدبيرها.

فإن *قيل*: ففيه إيهام الظرفية ولا يصح؟

فالجواب: أنه تعالى قد دل على نفسه بآياته، ودل بمخالفته للمخلوقات على كونه خالقاً غير مخلوق، فالإيهام مدفوع بالعقل والمتوهم مستند إلى الجهل وقد بين تعالى أن في كتابه آيات محكمات وأخر متشابهات، والعقل يميز بين المحكم والمتشابه، فالآية أعني قوله تعالى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وأمثالها من الآيات الكريمة مصحوبة بدلالة العقل والمحكم من القرآن، فلا إيهام.

تنبيه: قد يكون الجاهل يتخيل أن اللّه في السماء، مع أنه غافل عن المسألة، وعن تقرير ذلك بقرار في نفسه، وإنما هو تخيل وقع له بدون نظر ولا استدلال ولا التفات إلى شبهة، كما نجد من أنفسنا تخيل بعض عظماء الرجال أهل الشهرة بالفضل وكرائم الخصال، مثل الشجاعة والإصلاح بين الناس والسخاء وغير ذلك، فيكون في خيالنا كبيراً، ولو سئلنا أهو كبير البدن عظيم الجسم أم صغير أم متوسط، لقلنا: لا ندري فالخيال غير الاعتقاد.

وقد أشار إلى هذا الإمام القاسم بن إبراهيم × ، فتقرير العامة وتركها على خيالها الذي هي غافلة عنه أرجح من إيقاعها في مشكلة لا تتحمل حلها ما دامت على جهلها، ولذلك ما روي عن أمير المؤمنين × أنه قال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب اللّه ورسوله» انتهى.

و(الخسف بهم): أن تمحق الأرض وتهدم فتهوي بهم، كما خسف بقارون وداره، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×) كما في (مصابيح الشرفي) يقول: «فإذا هي تذهب بكم ذهاباً، وتهبط بكم في بطنها هبوطاً، ومعنى ﴿تَمُورُ﴾ فهي تنخسف وتغور» انتهى.

﴿١٧﴾ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ يقول الإمام الهادي × كما في (المصابيح): «يقول: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ من هو في كل مكان من هو في السماء وغيرها، وهو اللّه الخالق لها ولغيرها» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (الحاصب): هو الذي يرميهم بالحصباء، أي بالحجارة مثل ريح شديدة تحمل الحجارة وترميهم بها، أو ملك يحصبهم، قال في (الصحاح): «وحصبت الرجل أحصبه ـ بالكسر ـ أي رميته بالحصباء» انتهى. وهو تخويف للكفار ليحذروا العذاب العاجل.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ سوف تعلمون حين ينزل بكم العذاب صدق نذيري، وأنه قاطع لأعذاركم مبطل لتعللكم، وأنه كان لكم ناصحاً أميناً ومرشداً مبيناً، لم يكن يستحق منكم إلا التصديق والإتباع، وشكر نعمته عليكم لا التكذيب.

﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم

﴿١٨﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ نكيري تغييري عليهم وردعي لهم وعقوبتي العاجلة النازلة بهم، فقد بلغكم من أنبائهم ما فيه عبرة لكم، لتحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم بسبب التكذيب، وهو يصدق على تكذيبهم لرسلهم، وتكذيبهم بآيات اللّه الدالة على صدق الرسل، وقد جاء في التكذيبين قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٤١-٤٢].

﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ هذا دليل من دلائل قدرة اللّه تعالى وحجة على الكافرين المنكرين للبعث لاستبعادهم القدرة على إحياء العظام وهي رميم، فهم يشاهدون الطير التي تصف أجنحتها وهي طائرة فوقهم وصفها لأجنحتها يكون بنشرها وبسطها، بحيث يصير الريش مصفوفاً غير متداخل بخلاف حالة القبض للجناح الذي يتداخل به الريش، والقبض ضد البسط يحدث في خلال الطيران، وهذا لصنع اللّه في الطير وأجنحتها، وفي الهواء ولطافته، فهو الذي يمسك الطير في الهواء برحمته ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ فهو عليم كيف يخلق ما شاء مهيَّأ لما يراد به، ولذلك فهو قادر على إحياء الموتى وتجديد خلقهم، وإن كان ذلك مستبعداً عند الكفار، كما هو قادر على جعل الطير يصف جناحيه وهو في الهواء ولا نعلم كيف أمكن ذلك.

مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ

﴿٢٠﴾ ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ هذا تأكيد لوعيد الكفار بعد وضوح الدلائل على قدرة اللّه، وكتب (أمَّن) في صورة كلمة واحدة والأصل (أم) و (أم) هذه بمعنى (بل) وبعدها (من) التي هي في لغة النحو للاستفهام.

والمعنى: سؤالهم: من هذا الذي هو جند ينصرهم ويدفع الرحمن عنهم ويحول بينه وبين إهلاكهم أو تعذيبهم، وهم يعلمون أنه لا جند فكيف لا يتقون عذابه؟! وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يشير إلى أنه تعالى شأنه الرحمة، وإنما يعذبهم لكفرهم وتسبيبهم لعذابه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ يدل على أنهم لا يعتمدون على سبب نجاة مع تمردهم وإنما هم في غرور وانخداع بسبب جهلهم وفرط غفلتهم واتباعهم للشيطان.

﴿٢١﴾ ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ﴾ فلا مطر ولا نبات ولا أنعام ولا طعام ولا شراب، فهم يعلمون أن اللّه هو الذي ينزل المطر وينبت الزرع ويأتي بالثمر، فلو شاء تعالى لعذبهم بالجوع وأهلكهم، فهم مُستحِقون لذلك لكفرهم بنعمة اللّه وتكذيبهم، وهذا تنبيه لهم لينتبهوا من غفلتهم عن اللّه، ويتذكروا حاجتهم إليه، ويحذروا عقوبة الكفران ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ ﴿لَّجُّواْ﴾ تمادوا وبالغوا ﴿فِي عُتُوّٖ﴾ في عناد وتمرد وإباء وتكبر عن قبول الحق ﴿وَنُفُورٍ﴾ إعراض وفرار من الحق وأهله.

وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ

﴿٢٢﴾ ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ﴿يَمۡشِي مُكِبًّا﴾ تمثيل لمن يمشي على غير بصيرة، وفي (تفسير الإمام الهادي) كما في (مصابيح الشرفي): ((ومعنى ﴿يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ يقول: يمضي على جهل من أمره ويعمل في غير صواب)) انتهى.

قلت: ووجه التمثيل أن الذي يمشي وهو مكب على وجهه كالساجد لا يرى الطريق ولا يدري أهو على صواب أم غلط لأنه ينقل مساجده إلى جهة الأمام ولا ينظر إلى أمامه، وهذا لا يكون إلا من عاجز عن القيام والقعود أو من مجنون أو نحوه، وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تمثيل لمن يعمل على بصيرة من أمره ومعرفة بالحق ويمضي على الصواب.

﴿٢٣﴾ ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ ﴿أَنشَأَكُمۡ﴾ أوجدكم ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ جمع فؤاد، والفؤاد قيل: هو باطن القلب، الذي هو مركز اللب ومحل العقل.

وفي (تفسير الإمام الهادي ×) كما في (مصابيح الشرفي): ((والأفئدة: فهي القلوب التي يعقلون بها)) انتهى.

ولعل المعنى واحد، والمراد مركز العقل، والقولان في (لسان العرب) وفي هذه الآية الكريمة الجمع بين الدلالة على قدرته تعالى القدرة التي لا تقاس بها قدرة المخلوق، والتي يفقدها من يعبدونهم من دون اللّه، والدلالة على نعمته العظمى، فكل واحدة من الثلاث النعم لا يعدلها ملك الأرض.

هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فيه احتجاج عليهم؛ لأن شكر المنعم واجب يعاب تاركه ولو كان قليلاً فكيف إذا كانت نعمة في عظمها لا تقاس بها نعمة وفي كثرتها ودوامها لا تعد لديها نعمة المخلوق شيئاً وهم مع ذلك يعصونه ويطيعون عدوه ويعبدون من دونه ما لا يستحق ولا يملك لهم نفعاً ولا ضرّاً.

﴿٢٤-٢٦﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×) كما في (المصابيح): «ومعنى ﴿ذَرَأَكُمْ﴾ فهو أنبتكم وأخرجكم وأوجدكم وخلقكم وبثكم في الأرض» انتهى، وفي (الصحاح): «ذرأ اللّه الخلق: خلقهم» انتهى باختصار.

ولا تعارض بين التفسيرين؛ لأن الإمام الهادي × زاد تفسير قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تخرجون من القبور وتبعثون بعد الموت إليه؛ ليحاسبكم ويجزي كل نفس ما كسبت تحشرون إليه وحده، فهو الذي يحاسبكم، وهو الذي يجزي وليس لأحد غيره شيء من الحكم ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] فشركاء المشركين يضلون عنهم يومئذ، والله وحده يعذب من يشاء ويرحم من يشاء [و] مع ما ذكر من الآيات والإنذار ووضوح صدق النذير والزواجر المذكورة ودلائل قدرة اللّه تعالى مع ذلك كله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ وهذا اقتراح يتخذونه شبهة، كأنهم يقولون: إن كنتم تعلمون أنه سيكون فكيف لا تعلمون متى يكون وقد خلت قرون كثيرة فلم يبعثوا، فإن كان يأتي لا محالة فحددوا وقته.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ

﴿قُلْ﴾ يا محمد، وهنا ملاحظة للفرق بين السؤال والجواب فسؤالهم موجَّه إلى رسول اللّه ص ومن معه لأن السائلين لا يفرقون بين الرسول ومن معه لإنكارهم الرسالة فجعلوهم سواء في إثبات الوعد، وجاء الجواب من اللّه تعالى مبدوءاً بـ﴿قُلْ﴾ ولم يقل: قولوا؛ لأن محمداً ص هو الرسول المبلغ الأول للوعد، أما الذين معه فهم أتباعه المؤمنون برسالته وإنذاره وتبشيره.

﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا أعلم إلا ما علمني، وحينئذ فلا تلازم بين العلم بما وعد اللّه والعلم متى يكون، لأن اللّه أعلمني ما وعد ولم يعلمني متى يكون ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فقد أديت مهمتي وليس يجب علي ما اقترحتم؛ لأنه خارج عن واجبي، والمبين: الذي صدقته الآيات الدالة على صدقه وجاء بها دالة على صدق إنذاره، فأبان بها صدق إنذاره الواضح البين المفهوم، فهو ﴿مُّبِينٌ﴾ من حيث وضوح إنذاره وتيسر فهمه، ومن حيث وضوح صدقه في إنذاره بما أبان لهم من الحجة.

﴿٢٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فلما رأوا ما وعد الله ﴿زُلْفَةً﴾ قريباً حولهم حين جاءت القيامة وأهوالها، كأنه قيل: استعجلوا العذاب بقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ لأنها كلمة يقولها من استبطأ الشيء، فإذا جاء الوعد اختلفت حالتهم.

فلما رأوه حولهم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ يظهر الخوف والفزع الذي في قلوبهم بأثره في وجوههم فأسند إلى الوجوه.

ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾

وفي (تفسير الإمام الهادي ×): ((ومعنى ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هم الكافرون أنفسهم، لا أن السوء نزل بالوجوه دون الأبدان، بل الوجوه والأبدان وسائر جميع أعضاء الإنسان، ومن ذلك ما تقول العرب في أشعارها:

إني بوجه اللّه من شر البشر أعوذ من لم يُعِذِ اللّه دمر

فقال: بوجه الله، وإنما أراد اللّه، كذلك قوله سبحانه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي سيء الذين كفروا أي نزل بهم السوء والبلاء عند معاينتهم للعذاب والشقاء)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ إخبار بتبكيتهم وتقريعهم حين يرون ما يوعدون ويندمون على تكذيبهم به واستعجالهم به ليزدادوا ندماً وتحسراً وألماً، ومعنى ﴿تَدَّعُونَ﴾ تطلبون، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧] وفي الآية دلالة على ثبوت حكم الإلزام الصحيح؛ لأنهم جعلوا مطالبين به، لأن استعجالهم به كان معلقاً على شرط يجحدون وقوعه وهو صدق الوعد كأنهم قالوا: ائتوا به إن كنتم صادقين، فلما كان الشرط واقعاً وهو أنهم صادقون لزمهم أنهم قد طالبوا به ولم ينفعهم جحدهم بوقوع الشرط ونظيره في الفقه في أن الغلط ليس عذراً قول أمير المؤمنين × : ((من حلف بالطلاق ثم حنث ناسياً لزمه الطلاق)).

﴿٢٨﴾ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ لا يغنيكم ولا ينفعكم ولا يضركم إهلاكنا أو رحمتنا،

فإذا رأيتم ذلك وعرفتموه فاهتموا بخاصة أنفسكم لتنقذوها من عذاب محقق بسبب كفركم إن متم عليه؛ لأنه لا يجيركم منه مجير وليس من اللّه مجير، ولا ينجيكم إلا التوبة من الكفر والرجوع إلى اللّه، ومعنى ﴿يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يحميهم ويدفع عنهم، كما يدفع الرجل عن جاره أو عن المستجير به.

﴿٢٩﴾ ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿قُلْ﴾ للكافرين الذين يكفرون بالرحمن ولا يؤمنون لله بهذا الإسلام الكريم ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ لأنا آمنا بقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وبما تدل عليه أسماؤه الحسنى وبأن بيده الملك ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ تسليماً لأمره، ورضى بقضائه، ورجاء لفضله ورحمته، فلذلك وكلنا أمورنا إليه، واتكلنا على تدبيره لشؤوننا، قال الإمام الهادي × : «يقول وعليه اتكلنا، ومعنى اتكلنا فهو عليه اعتمدنا وبه اكتفينا، لا نريد غيره، ولا نتوكل على سواه» انتهى.

قلت: الحصر والقصر مأخوذ من تقديم الجار والمجرور ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٢]. وقوله: ﴿مُّبِينٍ﴾ يفيد: أنهم في غواية بينة كما تتبين غواية من تراه يمشي عادلاً عن الطريق في غير طريق، وذلك لوضوح الحق وصدق النذير وشهادة كلام اللّه بصدقه ومن أصدق من اللّه قيلا.

﴿٣٠﴾ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾هذا تذكير لهم بحاجتهم إلى اللّه تعالى، كقوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ وهو مع هذا تخويف لهم من تعرضهم للعقوبة بتفويت مائهم عليهم وتغييبه في بطن الأرض وإبعاده عنهم، ومعنى ﴿غَوْرًا﴾ غائراً، ومعنى ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ فمن يأتيكم بماء ظاهر غير غائر، أي من عين ظاهرة.

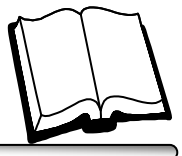

التيسير في التفسير

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ ﴿نٓ﴾ الراجح: أنه حرف من حروف المعجم استعمل هنا كاستعمال الحروف في أوائل السور ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هذا قسم بالقلم؛ لأنه آية من آيات اللّه ونعمة من نعمه، حيث هدى الإنسان للإفهام والفهم بواسطته، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٣-٥] ويمكن دخوله ـ أيضاً ـ في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤] فبواسطة القلم انتشرت العلوم وتوارثتها الأجيال وبواسطة القلم حفظت الأموال والحقوق، والقلم أحد اللسانين يقوم مقام اللسان مع التباعد ومع تعسر اللقاء ولغير ذلك من الأشياء.

وفي تفسير: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يقول الإمام الهادي × : ((﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ من كتاب رب العالمين، ويثبت به من أحكام أحكم الحاكمين، ويكون به أثبت علم المتعلمين والعالمين)) انتهى المراد.

أقسم اللّه بالقلم وما يسطرون، وجواب القسم قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..عَظِيمٍ﴾ ومعنى ﴿مَآ أَنتَ﴾ ما أنت يا محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الذي أنعم عليك بالعقل وحفظه ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ أي ما أنت بمجنون كما زعم الكافرون، والعقل وحفظه لك كان بنعمة ربك، قال الإمام الهادي × : ((يريد بكرامة ربك ومدافعته عنك كل سوء وربك فهو خالقك ومالكك)) انتهى.

﴿٣﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ ثواباً عند اللّه يعطيك في الآخرة جزاء على طاعتك له وصبرك على تحمل أعباء الرسالة، ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ لا يمن عليك يوم القيامة ولا يستكثر في جنب صبرك وعبادتك وإن كان كثيراً عظيماً.

﴿٤﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قال الإمام الهادي × : «تفسيره: فهو ما جعله اللّه عليه من الطبع الكريم والقلب البر الرحيم، والأخلاق الحسنة والطبائع الكريمة من الصبر والتجمل والعفو والتحمل وغير ذلك» إلى قوله: «والخلق: فهو ما يتخلق به العباد بينهم وتخلقهم فهو فعلهم» انتهى.

يريد × : أن حسن الخلق حسن المعاملة للناس مثل ما ذكره، ومثل: الرفق واللين، وطلاقة الوجه، والكلام الطيب، وإكرام الضيف والتفريج عن المكروب، وإطعام الجائع، ومواساة المحتاج.. إلى غير ذلك من محاسن العادات.

وفي الحديث الذي رواه الإمام الهادي × في (الأحكام): «إن الرجل لينال بحسن خلقه درجة الصائم نهاره، القائم ليله، المجاهد في سبيل اللّه، وإن سيء الخلق ليكتب جباراً وإن لم يملك إلا أهله» انتهى.

وحسن الخلق من حيث هداية اللّه وتحبيبه إلى صاحبه يعتبر نعمة من اللّه وإن كان فعل العبد، كما قال الإمام الهادي × ، وقد قال × في (الأحكام) في أواخرها: «الحسن الخلق قريب من اللّه قريب من الناس، والحسن الخلق يدرك بحسن خلقه ولين جانبه من مودة الناس ما لا يدركه المعطي للمال الذي لا خلق له من الرجال، فمن حسن خلقه فليشكر اللّه فإنها أعظم نعم اللّه عليه» انتهى، ثم ذكر الحديث السابق.

بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩

والذي يظهر: أن حسن الخلق إحسان يدل على رغبة في الخير وحسن نية وكرم نفس، وسوء الخلق إساءة تدل على اللؤم أو محبة للشر أو سوء النية، ولهذا أمكن من سيء الخلق أن يعطي المال، ومع ذلك لا يصير من أهل حسن الخلق لأن عطاءه لم يدل على الرغبة في الخير وكرم النفس؛ لأنه عارضه سوء خلقه ووصف خلق رسول اللّه ص بالعظيم لعلو درجة أخلاقه الكريمة وكثرتها وكل واحد منها عظيم فصبره عظيم وحلمه عظيم وسخاؤه عظيم ورفقه عظيم ونفعه عظيم إلى غير ذلك، فخلقه عظيم تصغر عنده أخلاق كرام الناس ص.

وذكر الإمام الهادي × أن اللّه امتن على نبيه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أراد بذلك أنه أنعم عليه بحسن الخلق وعظمه، قلت: ولا يبعد أنها في مقابلة قول الكفار: إنه لمجنون؛ لأن حسن الخلق وعظمه يدل على رجاحة في العقل عظيمة لأجلها كان له من الحلم والصبر والتجمل (بالجيم) والتحمل للأذى في اللّه ما ليس لغيره مثله.

﴿٥-٦﴾ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ سوف ترى يا محمد وسوف يرى الكفار من هو ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ وذلك يوم القيامة حين تنكشف الحقائق وتبلى السرائر ويحكم اللّه بين عباده، ويتبين لهم الذي يختلفون فيه، والمفتون إما المعذَّب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣] وهذا قول الإمام الهادي × ، وإما المغلوب على عقله كما أفاده (صاحب الكشاف).

وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتۡلَىٰ

ومرجع المعنيين واحد؛ لأنهم يوم القيامة إذا حكم اللّه بين عباده أبصروا أن رسول اللّه ص كان هو كما وصفه اللّه على خلق عظيم وعلى حق وليس بمجنون كما زعموا، وعلموا أنهم هم الذين خدعهم الشيطان وحال بينهم وبين استعمال عقولهم حتى صاروا كأنهم قد سلبوا عقولهم وعند ذلك أبصروا الحق وأبصروا أن المفتون فيهم الذي كان قائدهم إلى الباطل مثل أبي جهل أو غيره، والراجح في معنى: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾ أنه في أيكم، أي في أي الفريقين المسلمين والكافرين.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ فسيحكم بين الفريقين بالحق أو فقد أعلمك أنك على الحق فاثبت عليه وتوكل على الله.

﴿٨-٩﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ في مساوماتهم الباطلة ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ لو تساهل لهم في شركهم فيتساهلون في عبادة اللّه كأن تتركهم على دينهم ولا يفتنوا من أسلم.

﴿١٠﴾ ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ (الحلاف): كثير الحلف، و(المهين): الذليل الحقير، كما في (تفسير الإمام الهادي ×) ولعل هذا الحلاف كان يتهدد الرسول ص ويحلف على تهديده، فأمر اللّه رسوله ص أن لا يطيعه ليتوكل على اللّه ويثبت على دعوته، ولعله ـ أيضاً ـ كان يؤكد دعاويه بالأيمان لتقبل منه، وكذلك لعله كان يعد رسول اللّه ص إن أطاعه بعض الوعود ويؤكد وعوده بالأيمان لظنه أن ذلك يؤثر.

﴿١١-١٣﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×): ((فالهماز: الذي يهمز الإنسان من خلفه، ومعنى يهمزه: أي يؤذيه بلسانه ويتناوله ويقع فيه من ورائه وينتقصه)) انتهى، وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((والهمزة من الناس فهو من يغتاب صاحبه ويغمزه..)) إلخ.

والمشي بالنمائم: هو المجيء إلى هذا بالخبر عن الآخر والمجيء إلى الآخر بما قال الأول، ليوقع بينهم الوحشة والبلاء والعداوة والأذى والنميمة، فلا تكون إلا في الكلام الذي يسبب الوحشة ويفسد بين الناس.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ مناع للخير يمنع الماعون وغيره ولا يعطي من نفسه إنصافاً ولا إيماناً بالحق ولا وفاء ولا صدقاً ولا غير ذلك، وفي (تفسير الإمام الهادي ×): ((الممتنع من كل خير، الداخل في كل ضير)) انتهى. والمعتدي: الظالم، ومن الاعتداء: هتك حرمة الشهر الحرام بغير حق، والأثيم: صاحب الإثم المستحق للعقاب.

﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ فسر العتل بالغليظ الجافي في (الصحاح) و(الكشاف) وذكر له في (لسان العرب) تفاسير عدة، ويعجبني في تفسيره (تفسير الإمام الهادي ×) حيث قال: ((العتل: فهو الفدم من الرجال في الخلق والفعال، الذي لا فهم له بما يقول أو يفعل ولا معرفة له بما يأتي وما يعمل الذي لا يميز بين الأمور في معانيها ولا يعرف حسناها من مساويها ولا يفعل شيئاً بتمييز أصلاً، ولا يأتي من الخير إلا ما عتل عليه عتلاً لفدامة خلقه وقلة تمييزه لنفسه)) انتهى، قوله: فدم، قال في (الصحاح): ((أي عيي ثقيل)) انتهى.

عَلَيۡهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوۡنَـٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَـٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا

فهذه الصفات أساس الغلظة والجفاء، من حيث أفادت أنه أحمق لا خير فيه ثقيل، وقوله تعالى بعد ذلك ـ أي بعدما ذكر من أخلاقه السيئة وأوصافه الردية ـ : ﴿زَنِيمٍ﴾ قال الإمام الهادي × : ((له زنمتان في حلقه متدليتان كزنمتي الشاة)) انتهى باختصار، وقال × : ((يعرف بهما، ويستدل على معرفته بذكرهما)) انتهى، وقال (صاحب الكشاف) في تفسير ﴿زَنِيمٍ﴾ دعيّ، قال حسان:

وأنت زنيم نيط في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفردُ

وكان الوليد دعيّاً في قريش ليس من سنخهم ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة من مولده)) انتهى المراد، وهو يفيد: أن هذه الآيات نزلت في الوليد، والأولى أنها عامة؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ وإن كان الوليد بن المغيرة هو الداخل فيها دخولاً أولياً.

وقد أفاد الإمام الهادي × نزولها في الوليد ـ أيضاً ـ فالمراد: الوليد ومن كان مثله في الباطل، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨] وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان:٢٤] فالأوصاف المذكورة ذكرت لتهجين من هي فيه ولكونه من كبار الكفار، لزيادة التحذير منه بخصوصه ومن كان مثله، لا لكون الصفات شروطاً في النهي كلها.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ فلم يزده ماله وولده إلا خساراً وجمعاً

لصفات اللؤم المذكورة، فمن أجل أنه كان ذا مال وبنين ظهر فيه الجفاء والغلظة والهمز والنميمة والدناءة، في سبيل الحفاظ على ماله وولده، فهو بخيل جبان حريص رافض للعفة ومعالي الأمور كثير الكذب، فهو يحتاج إلى كثرة الأيمان ليصدق وأصل ذلك البطر.

وبعد هذا التعليل بكونه ﴿ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ رجع الكلام في وصفه، فقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هي أساطير الأولين، قال الإمام الهادي × : «و﴿أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فهي أحاديث الأولين، وأحاديث الأولين فهي أقاويل المكذبين وأسمار المتحدثين، فنسب هذا الزنيم آيات الرحمن الرحيم إلى الأسمار والباطل والقول القديم الحايل» انتهى باختصار.

قلت: وسمى هذه الأباطيل ﴿أَسَـٰطِيرُ﴾ لأنه عنى أنها مسطورة أي مكتوبة حفظت بعد الأولين بتسطيرها، والأساطير: جمع أسطورة، فهو مع لؤمه لا ينصف الحق إذا سمع الحجة، إنما يجيب بالتكذيب ومجرد الدعوى الكاذبة.

﴿١٦﴾ ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ إهانة له، والوسم: جعل السمة وهي العلامة في الدابة تكون ليبقى أثر الكي علامة فيها يميزها عن غيرها، قال الإمام الهادي: «و﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾ الأنف وما والاه» قال × : «وإنما ذكر اللّه الخرطوم دون غيره؛ لأنه شيء لا يستر بثوب ولا يستتر عن المتوسمين؛ لأن الوجه بارز أبداً للناظرين» انتهى.

وقد اتفق كلام الإمام الهادي × و(صاحب الكشاف) والراغب: أن هذا تمثيل، قال الراغب: «أي نلزمه عاراً لا ينمحي، كقولهم: جدعت أنفه، قال: و﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾ أنف الفيل، فسمى اللّه أنفه خرطوماً استقباحاً له» انتهى. وقال (صاحب الكشاف): «وفي لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة» انتهى. ووجهه ما ذكره الراغب.

يَسۡتَثۡنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوۡاْ مُصۡبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ

﴿١٧-١٨﴾ ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ * وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾ ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ ﴿بَلَوۡنَٰهُمۡ﴾ اختبرناهم كما اختبرنا ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ اختبرهم سبحانه وهو أعلم بهم من أنفسهم، والاختبار يكون بالنعمة ليظهر الشاكر ومن لا يشكر، ويكون بالشر ليظهر الصابر الراضي بقضاء اللّه من ضده، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] والضمير في ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾ للمكذبين؛ لأنه سبق ذكرهم في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿.. فَيُدْهِنُونَ﴾ وهم من قريش، كما ذكر الإمام الهادي × في تفسير ﴿بَلَوْنَاهُمْ﴾.

ويحتمل: عوده إلى الأقرب ﴿كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ..﴾ إلى آخر الصفات، ولعل وجه التشبيه: أن اللّه تعالى مكن المذكورين من قريش بحيث ظنوا أن الغلبة لهم ضد رسول اللّه ص وطغوا، مع أن حالهم ينكشف وتذهب قوتهم وتصير كأن لم تكن، وذلك في نهاية المعركة يوم (بدر) فإن كانت هذه نزلت بعد يوم بدر فالشبه ظاهر من حين نزلت، وإن كانت الآية نزلت قبل يوم (بدر) فهي مبشرة بتحول حالهم وخيبة آمالهم كما تحولت حال أصحاب هذه الجنة المذكورة وخاب أملهم، وهذه الجنة زرع كثيف كان لأناس حول (صنعاء) ولعل حرثها، ومكانها هو الذي يسمى الآن (الجنات) على طريق (صعدة).

﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ﴾ أذكر قصتهم، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَقۡسَمُواْ﴾ بمعنى حين أقسموا أي حلفوا ﴿لَيَصۡرِمُنَّهَا﴾ ليقطعن ثمرها، هكذا فسره الإمام الهادي × ، وأفاد مثله (صاحب الكشاف) وأفاد: أنه معنى الحصاد وهو الظاهر؛ لأن غرضهم أخذ الثمر ومنع المساكين.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ لا يقولون: ((إن شاء اللّه)) فيثبتوا بذلك القدرة لله، قال (صاحب الكشاف): ((فإن قلت: لم سمي استثناء، وإنما هو شرط؟ قلت: لأنه يؤدي مُؤَدَّى الاستثناء من حيث أن معنى قولك: لأخرجن إن شاء اللّه ولا أخرج إلا أن يشاء اللّه واحد)) انتهى.

قلت: الأرجح عندي: لأخرجن إلا أن يشاء اللّه أن لا أخرج، فهو المماثل لقولك: لأخرجن إن شاء الله، وقول (صاحب الكشاف): عما هو شرط، لعله يعني في عرف النحاة أو في عرف العلماء، فأما في اللغة فالمرجع في الاستثناء والشرط إلى المعنى وإن لم يكن بالأدوات الخاصة، والإمام الهادي × قد فسر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ يقول: ((لم يقولوا: إن شاء اللّه)) وهذا قد أفاده الزمخشري نفسه في الجواب على السؤال.

﴿١٩-٢١﴾ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ نزل بها أمر اللّه في ليلتهم وفي حال نومهم ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ ذهب ثمرها وأصبحت كالزرع المحصود.

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ﴾ قال الإمام الهادي: ((معنى (تنادوا مصبحين): تصايحوا وتداعوا عندما أصبحوا)) قلت: وهذا الراجح عندي في معنى النداء أن أصله الصوت العالي، ولذلك سمي الأذان نداء، وقال الشاعر:

فقلت أدعي وأدعو إن أندى لصوت أن ينادي داعيان

وقد اعترض على هذا بقوله تعالى في زكريا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣] والجواب: أنه نزل منزلة الصوت الرفيع على طريقة المجاز ومعه القرينة، وهي قوله تعالى: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ ولعل وجهه مشابهته للصوت العالي

صَـٰرِمِينَ ﴿٢٣﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾

في عناية زكريا به، وكونه عند اللّه بمنزلة الصوت العالي؛ لأنه سواء عنده ﴿مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد:١٠] فقد سمعه سبحانه كما لو كان نداء.

وقد قال الراغب: «النداء: رفع الصوت وظهوره» ولا يشترط أن يقترن بأحد حروف النداء إلا في عرف النحاة.

﴿٢٣﴾ ﴿أَنِ ٱغۡدُواْ عَلَىٰ حَرۡثِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰرِمِينَ﴾ ﴿أَنِ﴾ مفسرة، والكلام تفسير لما تنادوا به من القول، و(الغدو): الذهاب في الغداة، أي أول اليوم، و(الحرث): موضع الزرع، وقولهم: ﴿إِن كُنتُمۡ صَـٰرِمِينَ﴾ تحريض على التبكير ليصرموا زرعهم، وأعتقد أنهم أرادوا إنكم إن لم تبادروا حضر معكم المساكين فلم تحصلوا منها على طائل؛ لأن المساكين إذا حضروا لم تستطيعوا منعهم وهم كثير، وعند ذلك تعودون وكأنكم لم تصرموها لقلة ما تعودون به، وهذا مبالغة منهم لتأييد أصحابهم لهم في دفع المساكين.

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَـٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ﴾ ﴿يَتَخَـٰفَتُونَ﴾ في طريقهم، وفسر ما يتخافتون به قوله تعالى: ﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٌ﴾ وهنا نهي مؤكد بـ(نون التوكد) وتعميم لمنع المسكين الواحد لو حضر وأراد الدخول عليهم حين يصرمونها.

﴿٢٥-٢٧﴾ ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَـٰدِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ * بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَـٰدِرِينَ﴾ فحين وجدوا من أنفسهم أنهم قادرون على صرم لا يحتاجون إلى معاونة أحد غيرهم، صمموا على أن لا يدخلها عليهم مسكين، لا ليتصدقوا عليه ولا ليعينهم فيأخذ منهم أجراً من الثمر.

قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا

قال الإمام الهادي × : «فالحرد: هو القطع، يقول: على قطع الثمر قادرين» انتهى، وفي (لسان العرب) يقال: «حردت من سنام البعير حرداً، إذا قطعت منه قطعة» انتهى.

وفائدة تنكير ﴿حَرۡدٖ﴾: أن الذي يقدرون عليه هو حرد غير معين لا حرد جنتهم فليسوا قادرين عليه، فصار المعنى: أن لهم قوة في أبدانهم تغني عن الاستعانة بغيرهم ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ أي إن تهيأت أسبابه وبناء على هذه القدرة توهموا أنهم قادرون على حرد جنتهم واستغنوا عن المساكين، فذهبوا إليها وعندهم الاستعداد الكامل لقطفها.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا﴾ الضمير للجنة باعتبار ما كانت عليه أو أن الزرع باق إنما ذهب الثمر ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ غالطون غاوون ما هذه جنتنا ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ بل هي جنتنا قد ذهب ثمرها فقد حرمناه، وعند ذلك تبين أنه أمر اللّه قد أتاهم بشؤم تصرفهم وتركهم للاستثناء، والاعتراف أن الخير بيد اللّه فإن شاء نالوه وإن شاء حرموه.

﴿٢٨-٣١﴾ ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ ﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ خيرهم والخيرية بالنسبة إلى بقيتهم فهو أعدلهم المعتدل بالنسبة إليهم ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ قال الإمام الهادي × : «فأخبر أنه قد كان قال لهم عند وقت ما أقسموا: سبحوا ربكم واذكروا وأثبتوا القدرة له واستثنوا فلم يفعلوا» انتهى. و(لو) حرف تحضيض ففسر ما بعدها بالأمر ﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فلذلك حرمنا بالحق، والظلم: الحيف والجور ضد العدل سواء كان بين العباد أو في معاملة العبد لربه.

مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجۡعَلُ

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ * قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ يلوم بعضهم بعضاً، وكل بعض يلوم بعضاً، ولعل السبب: أن سوء تصرفهم كان من بعض دون بعض وإنما عمهم الرضى أو سوء التدبير من بعضهم وحمل عليه الآخرين، فتلاوموا كما سيتلاوم أهل النار حين يرون العذاب أو حين يصيرون فيه.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ قال الإمام الهادي: ((والطاغون: فهم العتاة الباغون)) انتهى المراد، والطغيان: تجاوز الحد، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١] فالطاغي: الظالم المتكبر، قال الإمام الهادي × : ((والويل: فهو الغم والطويل من الهم)) انتهى.

﴿٣٢﴾ ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ راغبون إليه بالسؤال له أن يبدلنا خيراً منها فيقرب أن يفعل، ولعلهم رجوا ذلك بندمهم على ما وقع منهم، وعزمهم أن لا يعودوا لمثله، فتوقعوا أن يجيب دعاءهم.

﴿٣٣-٣٤﴾ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ * إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُ﴾ ينزله الله بالمجرمين عقوبة لهم وعبرة للآخرين، فدل ذلك على أن الله تعالى لم يهمل عباده، وأنه لابد من عقوبات المجرمين لأنهم كلهم عباده ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ فإذا علموا أنه كان ينبغي لهم تقوى الله من أجل هذه المصيبة التي نزلت بجنتهم ليسلموا العذاب بحرمانها، فكان ينبغي لهم أن يعلموا أن تقوى الله لطلب النجاة من عذاب الآخرة أهم لأنه أشد وأبقى، فكأن تقوى الله أهم للسلامة من عذاب الآخرة مع كونها مهمة للسلامة من العذاب الأدنى.

ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ إما بمعنى لو كانوا ممن يدري ويحصل له العلم، أي ممن يستعمل عقله ويعرف به الأشياء التي تعرف به، وإما بمعنى لو كانوا يعلمون أن عذاب الآخرة أكبر فيفيد أنهم كانوا جاهلين بالآخرة لإعراضهم وتكذيبهم للنذر، وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ جوابه ما يفهم من سياق الكلام قبله أو لو كانوا يعلمون لحذروا أسباب العذاب أو نحو هذا المعنى.

وحين أفاد الكلام الماضي وعيد العصاة المتمردين، جاء بعده ذكر الوعد على عادة القرآن الحكيم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهي معدّة لهم يدخلهم اللّه الجنة وينالون ما أعده لهم ينيلهم إياه ربهم الذي هو مالكهم وخالقهم ورازقهم والذي كانوا يتقونه ويخشونه ويرجونه ويعبدونه، وهذا المعنى فيما أعتقد أفاده قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ولم يقل: عندنا، أو عند رب العالمين، والجنات: البساتين حيث يوجد الشجر المجن للأرض والزروع كما مر، وظهر من (سورة الرحمن) أن لكل واحد أربع جنات، والنعيم: الخير الواسع مما تشتهيه الأنفس من اللذات المختلفة من مطاعم وملابس وقصور وحور وغير ذلك، وأضيفت الجنات إلى النعيم إذ هي محله.

﴿٣٥﴾ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ كما يزعم الكفار الذين نفوا الآخرة فلا ثواب للمسلمين على قولهم، وهذا لا يليق بحكمة أحكم الحاكمين ولا بعزته ولا بكرمه أن يجعل المسلمين الذين أسلموا وجوههم لله فعبدوا اللّه

وتبرؤوا من الشرك والكبر فيردهم أسفل سافلين تأكل لحمهم الدود وعظامهم الأرض كما هو شأن الموتى من المجرمين ثم لا يبعثهم ليثيب المسلمين ويظهر كرامتهم عنده بإسلامهم، بل يذرهم حشواً بين التراب كما لو كانوا مجرمين لو كان المجرمون لا يبعثون كما زعم الذين كفروا، والمجرمون: جمع مجرم، وهو فاعل الجريمة وكل المعاصي المتعمدة جرائم، لأنها استعمال في معصية اللّه بأدوات هي لله، وهو قد نهى عن استعمالها في المعصية فالمعصية تعدٍّ على اللّه في ملكه ولذلك فهي جناية وجريمة.

﴿٣٦﴾ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ حيث تكذبون بآيات اللّه وتكذبون الرسل المنذرين لكم وتنكرون البعث وإذا لم يكن بد من البعث للفرق بين المسلم والمجرم، فكيف يجوز في الحكمة أن لا يرسل الله ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وإذا علمنا هذا فكيف نكذب الرسل ونكذب بما جاؤوا به من آيات ربنا وهل هذا إلا حكم الجاهلية وإهمال العقول ومعنى ﴿مَا لَكُمْ﴾ السؤال عن شأنهم العارض لهم العادل بهم عن فطرة العقول والحامل لهم على الحكم بخلاف مقتضى عقولهم، فإنه عيب فيهم أو مرض مثل كبر أو حسد أو جنون.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ أم أنزل اللّه لكم كتاباً يقضي بأن لكم ما أردتم فلا عقاب عليكم بما كذبتم، ولا بعث لكم إن اخترتم أن لا تبعثوا، وما تخيرتم من أباطيلكم فلكم أن تفعلوه لا حرج عليكم، فهذا سؤال آخر عن سبب جرأتهم على الحكم بالباطل إن كان كتاباً من اللّه ـ عزَّ وجل ـ بهذا الشكل الذي تأباه الحكمة والعزة لله العزيز الحكيم، ومعنى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم ما تخيرون محكوم به في الكتاب المذكور مسطور، وحاصله كتاب فيه إن لكم ما تخيرون، وأنتم تدرسون في هذا الكتاب وتجدون فيه أن لكم ما تخيرون.

ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ

﴿٣٩﴾ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ ﴿أَمۡ﴾ كلمة إضراب إلى سؤال آخر يسأل الكفار، و(الأيمان): جمع يمين وهي الحلفة والعهد، و﴿بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متناولة ليوم القيامة سارية المفعول فيه باق حكمها لكم يوم القيامة.

﴿إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾ تفسير للمحلوف عليه مثل: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ [التوبة:٥٦] فالمعنى: بل هل لكم عهود باقية ليوم القيامة على أن لكم ما تحكمون، أي أم لكم عهود بهذا فأنتم تفعلون ما تشاءون من الجرائم لا تخافون عقاباً؛ لأنكم سوف تحكمون لأنفسكم يوم القيامة بالسلامة من العذاب ومساواة المسلمين.

﴿٤٠﴾ ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ ﴿سَلۡهُمۡ﴾ أي اسألهم ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ الزعيم: الكفيل الضامن، أي أيهم كفيل بأن لهم ما يحكمون أو كفيل بكل ما مضى ذكره أي بأن لهم ما يحكمون وما يتخيرون، وأن المسلمين كالمجرمين، ولن يجرأ أحد على الكفالة بذلك؛ لأنهم لا يعلمون صدقه ولا يثقون به.

﴿٤١﴾ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾ ينصرونهم من دون اللّه إذا نزل بهم العذاب ويدفعونه ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواهم أن لهم شركاء ليدفعوا عنهم ما أنذروا.

وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ

﴿٤٢-٤٣﴾ ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ يوم ظرف والأرجح عندي تعلقه بما قبله أي فليأتوا بشركائهم يوم يكشف عن ساق، قال الإمام الهادي × : «والعرب تسمي الأمر الشديد ساقاً، تقول العرب: قامت الحرب على ساق، تريد أنها قامت على أمر شديد» انتهى.

وفي (الكشاف): «﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ في معنى يشتد الأمر ويتفاقم ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح: يده مغلولة ولا يد ثم ولا غل، وإنما هو مثل في البخل، وأما من شبّه فلضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان» انتهى.

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي إ : معناه: شدة وكرب، قال الإمام زيد بن علي: «كانت العرب إذا نزلت فيهم الحرب أو أمر عظيم الذي لا أشد منه، قالوا: كشفت الحرب عن ساق» انتهى.

قلت: ولا يبعد تفسيره بما يفسر به التشمير، ففي الحديث عن رسول اللّه ص: «فلما كان أول ليلة من العشر الأواخر شمَّر وشد المئزر وبرز من بيته..» الخ، قال الإمام الهادي × في (الأحكام): «ومعنى شمر: فهو أقبل على طاعة ربه العلي الأعلى» انتهى، وقال في (الصحاح): «يقال: شمَّرَ عن ساقه وشمر في أمره أي خف، ورجل شمري كأنه منسوب إليه، وقد تكسر منه (الشين) وينشد:

قد شَمَّرت عن ساقِ شَمَّريٍّ» انتهى المراد.

وعلى هذا: فهو كناية عما ينزل بالناس يوم القيامة وما يأتي به اللّه من أهوالها، وما فيها من السؤال والحساب، ونشر الصحف، وإحضار جهنم، والفضائح لأعداء اللّه، والتوبيخ لهم والتخزية، وتحقيق الحكم بالعدل، وغير ذلك مما هو مذكور في سور القرآن فيوم تنزل بالكفار تلك الشدائد الكثيرة المتواصلة العظيمة هو ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ فهو أبلغ في الوعيد من قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١] فعند ذلك فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ليدفعوا أو يشفعوا وهيهات قد ضل عنهم ما كانوا يفترون.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ قال السيد حميدان بن يحيى القاسمي في (مجموعه) في كتاب (تنبيه أولي الألباب على تنزيه ورثة الكتاب) [ص١٧٠/خ]: «ومما يدل من كتاب اللّه تعالى على الفرق بين الاستطاعة والجبر قوله سبحانه: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ فانظر كيف فرق سبحانه بين ما يدعون إليه في الدنيا وبين ما يدعون إليه في الآخرة لكونهم مستطيعين في الدنيا وممنوعين في الآخرة» انتهى.

وفي هذا دلالة على أنه جعل السجود الثاني غير السجود الأول، وأن الأول الذي في الدنيا كانوا يطيقونه ويستطيعونه والآخر الذي في الآخرة كانوا ممنوعين منه، فقد حملها على ظاهرها ولم يتأولها وأكد ذلك قوله ممنوعين منه، فإنه يوافق الرواية فيه والحمل على الظاهر هو الأصل إذا لم يكن فيه إشكال.

قال في (الكشاف): «فإن قلت: لم يدعون إلى السجود ولا تكليف؟ قلت: لا يدعون إليه تعبداً وتكليفاً، ولكن توبيخاً وتعنيفاً على تركهم السجود في الدنيا مع إعقام أصلابهم والحيلولة بينهم وبين الاستطاعة، تحسيراً لهم وتنديماً على ما فرطوا فيه حين دُعوا إلى السجود وهم سالمون الأصلاب والمفاصل ممكنون مزاحوا العلل فيما تعبدوا به» انتهى.

وقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ (الخشوع): هيئة الذلة والتذلل، وإسناده إلى الأبصار لظهوره فيها لمن يراها في شدة خوفها، وبطلان قوة أعصابها فلا تتلفت بل تتجه إلى جهة واحدة فقط، وقوله تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ أي تغشاهم لظهور الذلة على كل أبدانهم.

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ هذا الحديث: هو القرآن الذي هو أحسن الحديث، وأغنت الإشارة إليه عن وصفه لأن سماعهم له حين كان يتلوه عليهم رسول اللّه ص يتبين به لهم أنه خارق لا يكون من بشر إيجاد مثله في الإحكام وحسن البيان وقوة الحجة وقطع المعذرة، وقوله تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ﴾ بمعنى كِلْ أمره إليّ ودعني أتولى استدراجه للعذاب الشديد حتى يقع فيه خالداً أبداً، ذرني أعذبه فأنا أكفيكه، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ (الواو) فيه للمعية (واو المفعول معه) لأنه في قبضة اللّه وسلطانه.

﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قال في (الكشاف): «استدرجه إلى كذا، إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه» انتهى المراد، فالمعنى: سنقربهم إلى العذاب درجة درجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون، وذلك لخذلانهم وجهلهم واستعمالهم نعم اللّه في معصيته، وجهلهم لأسباب العذاب، ومرور الدهر بهم فهم يقربون إلى الموت وهم غافلون.

كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ

﴿٤٥﴾ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ﴾ أمهلهم زيادة في الحجة وقطعاً للمعذرة وهم مع ذلك يزدادون إثماً فكأن إمهالهم كان ليزدادوا إثماً؛ لأن الكافرين جعلوا الإمهال سبباً في زيادة الإثم، وهو سبحانه أراد ابتلاءهم في بقية أعمارهم وتمكينهم من الخير والشر وهو أعلم بما يفعلون، فكان نتيجة ذلك ازديادهم إثماً وكان الإملاء في صورة الكيد مع أنه نعمة عليهم عظيمة من حيث أنهم كانوا يستطيعون فيه أن يتوبوا فينجوا من النار ويدخلوا الجنة خالدين فيها أبداً.

﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ في تفسير (الإمام زيد بن علي ×) لهذه الجملة من (سورة الأعراف) معناه: ((شديد قوي)) وفي (تفسير الإمام الهادي ×) لهذه الآية: ((معنى أملي لهم، فهو أؤخرهم ولا أعاجلهم وأتركهم وقتاً ولا أغافصهم ثم إلي مرجعهم إن كيدي متين، فالكيد: هو الأخذ لهم والبطش بهم والانتقام منهم متين فهو قوي رصين)) انتهى.

وقال في (الكشاف): ((وسمى إنعامه وإحسانه كيداً كما سماه استدراجاً، لكونه في صورة الكيد حيث كان سبباً للتورط في الهلكة ووصفه بالمتانة لقوة أثر إحسانه في التسبيب للهلاك)) انتهى، قال في (الصحاح): ((الكيد: المكر)) انتهى، وفي (مفردات الراغب الأصفهاني): ((الكيد: ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموماً وممدوحاً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، وكذلك الاستدراج والمكر ويكون بعض ذلك محموداً، قال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف:٧٦])) انتهى المراد.

فالراجح: أنها من المتشابه، وأن تفسير الإمام الهادي إما لأن (الكيد) يستعمل في التعذيب كما قيل، وإما أنه تأويل وهذا أرجح؛ لأنه كالتعليل لقوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ فظهر: أنه جعل الإملاء كيداً كما ذكرته فيما مضى.

﴿٤٦﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ الضمير للمكذبين بهذا الحديث، و﴿أَمْ﴾ سؤال عن علة تكذيبهم عاطفة على قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ ﴿مَّغْرَمٍ﴾ نقص شديد من أموالهم ثقيل عليهم، أي لا تسألهم أجراً فيثقل عليهم فيكذبوك من أجل خوف المغرم.

﴿٤٧﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ﴿أَمْ عِندَهُمُ﴾ أم يعلمون الغيب، فكذبوا هذا الحديث بناء على علم يقين بالواقع الذي يزعمونه وهو أنه بزعمهم كذب، والواقع أنهم لا يعلمون الغيب فتكذيبهم ليس له مستند، وإنما بعثتهم عليه دواعي الهوى والحسد والكبر والحمية.

وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ الراجح في معناه عندي ـ والله أعلم ـ : أنه إبطال لما فرض من علمهم الغيب، وبيان لكونهم لا يعلمون الغيب؛ لأنهم لو كانوا يعلمون الغيب لاستغنوا بعلم الغيب عن الكتابة، لأن عادتهم أن يكتبوا مالهم وما عليهم لئلا ينسى أو يجهل أو يمكن فيه الجحد والإنكار، فلو كانوا يعلمون الغيب لاستوى عندهم المكتوب وغيره؛ لأنه يكون كله معلوماً لهم لاشك فيه وجحده مثل جحد الضروريات.

وعلى هذا: قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ رد وإبطال لا تفريع على المفروض المقدر، ونظيره في كونه رداً قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور:٣٨] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور:٤٢] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور:٣٣-٣٤].

نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ

فإن قال قائل: لا يصح هذا لأنهم أميون لم يكونوا يكتبون إلا القليل؟

قلنا: إن المهم بيان حاجتهم إلى الكتابة، فهم يكتبون لأنهم يحتاجون إليها، ولا ينافي ذلك أن الكثير منهم لا يحسن الكتابة؛ لأنهم مع حاجتهم إلى الكتابة يكتبون بواسطة الكاتبين، كما قال تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢] فأسند الكتابة إلى المتداينين، مع قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:٢٨٢] فهكذا قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ لأن من الواضح أنهم لا يكتبون كلهم، فعلم السامع بذلك قرينة حالية فهو مع القرينة الحالية مثل قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ مع القرينة القولية، فالمراد: أنهم يكتبون بأقلام الكاتبين منهم، وذلك ينافي علم الغيب من حيث دلالته على الحاجة إلى الكتابة.

﴿٤٨﴾ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هذا خطاب لرسول اللّه ص بعد كمال الرد على المكذبين له والرامين له بالجنون، وهو إلزام له بالثبات على تبليغ الرسالة والصبر على ما يلاقي في سبيل التبليغ من الأذى والمشاق، وحكم ربه: حكمه عليه بتبليغ الرسالة وتكاليفه التي كلفه.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ (صاحب الحوت): نبي اللّه يونس × الذي التقمه الحوت بسبب استعجاله ومغادرته لقومه قبل أن يؤذن له ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ نادى ﴿أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] وهذا تذكير بذنبه في ضمن التذكير بتوبته، فليس المقصود ذم صاحب الحوت، إنما المراد لا تقع في مثل ما وقع فيه، فاحتاج إلى التوبة.

وقولـه: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ في حـال شـدته وكربـه وغمـه في بطـن الحـوت واهتمامه حين انتبه أنه قد عصى ربه، ونحو هذا تفسير الإمام الهـادي × ، وفي (مفردات الراغب): «وكُظِم فلان: حُبسَ نفسه، قـال تعـالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾» انتهى، وعلى هذا: فهو تشبيه للمكروب بالمكظوم.

﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾ تلافاه وأغاثه ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هذه نعمة مخصوصة كانت سبب نجاته، فيحتمل: أنها التوبة عليه حين قال: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧] وتهيئة سلامته، ويحتمل: أنها إلهامه التسبيح هذا وهدايته له، والأول أقرب وبه يفهم الجمع بين تفسير هذه الآية وتفسير قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤] فلولا التسبيح للبث في بطنه، ولولا النعمة لهلك بعد التسبيح إما في بطن الحوت وإما عند نبذه إي إلقائه، ونبذه بالعراء والناس يذمونه؛ لأنهم لا يعلمون توبته في بطن الحوت فيذمونه على عجلته عن قومه الذين تابوا، بعده العجلة التي كانت سبب هلاكه لو لم ينجه الله.

وهذا يناسب الآيات من (سورة الصافات): ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [آية:١٤٦-١٤٧] فهـو تفسـير للنعمـة هنـا، وفي (تفسير الإمام الهادي ×): «يقـول سـبحانه: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ بالإجابة له في دعائه والرحمة له عنـد تسـبيحه ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ يقول: لما خرج من بطن الحوت حتى ينبذ بالعراء يوم القيامة ـ قال × ـ: فأراد اللّه بما ذكر من العراء عراء الأرض في يوم الدين ـ قال × ـ: فلم يرد عراء الأرض في الدنيا ألا تسمع، كيف يقول: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُـوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِـهِ إِلَـى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ﴾ [الصافات:١٤٢-١٤٤] فدل سبحانه بقوله: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ علـى

كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

أنه لولا أن تداركه نعمة من اللّه لكان لابثاً في بطنه حتى ينبذ بالعراء في يوم الدين)) انتهى المراد باختصار.

وقوله تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ..﴾ الآيتين، هما في (سورة الصافات) وفي تفسيره بعراء أرض القيامة وذمه فيها إشكال؛ لأن خطايا الأنبياء صغائر، فالأولى حمله على ذم الناس له في الدنيا لجهلهم بالحقيقة ـ والله أعلم.

﴿٥٠﴾ ﴿فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ قرّبه وهيأه للإطفاء، وفي (تفسير الإمام الهادي ×): ((معنى اجتباه: أي رفعه وأدناه وقربه واصطفاه)) انتهى، وفي (الكشاف) في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّـهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى:١٣] قال: ((يجتلب إليه ويجمع)) انتهى، ومثله في تفسير قوله تعالى: ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص:٥٧].

وفي قوله تعالى: ﴿رَبُّهُۥ﴾ إشارة إلى صلته بالله وكثرة ذكره له وعبادته وشكره ودعوته إليه كما هو شأن الأنبياء (عليهم السلام)، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ..﴾ [المؤمنون:٥٧] إلى آخر الآيات، وقد ظهر مثل هذا في غيرها ذكرته في الجزء الأول ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ زاده صلاحاً بعد تلك المصيبة وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي لشدة غضبهم ينظرون إليك نظر العداوة، كقوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [الحج:٧٢] فهم لغيظهم يحدون النظر إليه.

و(يزلقونك): يسقطونك، والإزلاق: الإسقاط في الزلق وهو هنا تمثيل والمقصود به الإهلاك أو نحوه، مثل قوله تعالى: ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى:١٦] وسبب هذا الغيظ: أنهم سمعوا الذكر، وعرفوا أنه ذكر أي هدى وتعليم من اللّه، والذكر هنا هو (القرآن) يسمعه العربي لساناً عربياً خارقاً للعادة المعهودة في حكمته وحسن بيانه، فيعلم أنه من اللّه، فيغيظه لكفره وتعصبه لدين آبائه الذي يؤذن القرآن العظيم بسقوطه.

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ يقول الذين كفروا: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي محمد الذي يتلو عليهم القرآن الشاهد بصدقه ونبوته يقولون: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ دعوى مؤكدة بـ(إن) و(اللام) أي مصاب بالجنون، وهذه الدعوى لا تناسب حالهم وتغيظهم حين سمعوا الذكر، لأن المجنون لا يلتفت إلى كلامه وإن كان مما يغيظ لو كان القائل عاقلاً فلا يبالي به سامعه لأنه مجنون، فدعواهم هذه عند سماعهم للذكر وتأكيدها إنما ذلك عناد وتعمد للكذب وتمرد منهم.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ فلم يكن ينبغي أن يغضبوا منه وينسبوا الرسول ص إلى الجنون لما سمعوه؛ لأنه ليس إلا هدى وإرشاداً عاماً للعالمين فهم كلهم محتاجون إليه ويهتدون به إن تعلموه واتبعوه، وما كان كذلك ينبغي للعاقل أن يفرح به، ويعلم أنه نعمة من اللّه ويشكره عليها ويحرص على تعلمه وحفظه والعمل به، لا أن يتغيظ منه ويدعي جنون الذي جاء به، مع أنه دليل على صدقه، وأنه رسول من اللّه، ومع أنه ذكر حكيم لا يصدر إلا من حكيم.

سورة الحاقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ

﴿١-٢﴾ ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ﴾ المراد بها القيامة، كما سميت ﴿الْوَاقِعَةُ﴾ و﴿الْغَاشِيَةِ﴾ و﴿الْقَارِعَةُ﴾ وسميت ﴿الْحَاقَّةُ﴾ إما لأنها تصيب الناس ولا تخطئ أحداً، وهذا تفسير الإمام الهادي × ، قال: ((لأن العرب تقول للشيء إذا أصابه السهم: حقَّه)) انتهى.

وإما لأنها تأتي الناس حقاً عليهم وصواباً وعدلاً، كقوله تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤] وقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨] فمعناها: الحاقة على العباد أو على المخلوقين أو نحو ذلك، وعبارة (الكشاف): ((الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء..)) الخ، والأظهر: اعتبار الحق في معناها.

﴿٣﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×): ((لأن اللّه سبحانه تبارك وتعالى لا يقول لنبيئه ص في شيء: ما أدراك ما هو إلا وهو أعظم ما يكون من النازلة الصايبة)) انتهى، وكذا قال في قوله تعالى: ﴿مَا الْحَاقَّةُ﴾: ((فهو تعظيم منه سبحانه لها، وإخبار بجليل ما يحق بأهلها)) انتهى.

﴿٤﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ (القارعة): القيامة، والقرع: الضرب، وتسمى المصيبة قارعة، قال تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد:٣١] وأقيم الظاهر مقام المضمر؛ لإفادة أنها المصيبة العظمى، وقدم ثمود ليرتب عليه ذكر عقوبتهم العاجلة، أعني ثموداً وعاداً بسبب تكذيبهم بها.

﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن

﴿٥﴾ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ وهي الرجفة الشديدة المتجاوزة للحد في شدتها، أو هي الصيحة، بمعنى: أنه صاح بأرضهم ملك رجفت الأرض من صيحته فأهلكتهم فكلاهما سبب.

﴿٦﴾ ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×): ((والصرصر، فهي الشديدة المدمدمة المدمرة لما أتت عليه المخزية)) انتهى، وعبارة (الكشاف): ((والصرصر: الشديدة الصوت، لها صرصرة)) انتهى، والمعنى واحد لأن شدة الصوت من شدة الريح.

و(العاتية) في (تفسير الإمام الهادي ×): ((فهي الغالبة الهائلة، التي لاتذر شيئاً إلا أتت عليه وعتت، فمعناها: صعبت واشتدت به وغلبت)) انتهى.

قلت: هذا حاصل المعنى في هذا الموضع في (مفردات الراغب الأصفهاني): ((العتو: النبو عن الطاعة، قال: ﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٢١].. ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف:٧٧]..)) الخ، وعلى هذا يكون المعنى أن الريح هذه كلما رجوا أن تسكن أو تفتر ازدادت واستمرت حتى أهلكتهم، أو أنه كان يطلب منها بلسان حال القوم أن تفتر فتأبى إلا الشدة، ومثل هذا قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم:٨] فالهرم لا يفتر عنه والضعف لا يزال به فلا تعاوده القوة في حال.

وهذا موافق لـ(تفسير الإمام الهادي ×) في حاصل معنى (عاتية) وفي تنكير (ريح) وصفاتها إشارة إلى أنها غير الريح المعهودة في شدتها، وأنها عقيم لا تفيد ما تفيده الرياح العادية.

﴿٧﴾ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ جعلها في حال أنها مسخرة لأمره منقادة لقضائه عليهم، وقوله: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ يفيد: أنها بدأت من الصباح فما زالت عليهم حتى آخر اليوم الثامن، فكانت ثمانية أيام في ضمنها سبع ليال.

وفي تفسير ﴿حُسُومًا﴾ قول الإمام الهادي × : ((فمعناها: دائمة متوالية لا راحة فيها ولا فترة لساعة منها، وما كان كذلك في الدوام والاستواء وقلة الغفلة والونا سمي حسوماً من الليالي والأيام)) انتهى، ومثله ذكره في (الكشاف) مع ذكر احتمال معنى آخر.

والراجح تفسير الإمام الهادي × ، فقد رواه عن العرب ولا ينشغل بملاحظة الاشتقاق التي قد تؤدي إلى شيء من التغيير للأصل في معنى الكلمة، ولعلها سميت ﴿حُسُومًا﴾ لقوة مضيها في استمرارها فهي ماضية مضاء الحسام القاطع ـ والله أعلم، وقال في (الصحاح): ((وقيل في قوله تعالى: ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي متتابعة)) انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي عليهما السلام) لـ(غريب القرآن): ((وقوله تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ معناه: متتابعات متواليات)) انتهى.

﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ هم عاد، وفي إقامة الظاهر مقام المضمر تعظيم للهول عليهم، حيث نزل بهم العذاب وصار رجالهم كلهم هلكى يراهم الرائي كأعجاز النخل، وفي التعبير بالمضارع في: ﴿فَتَرَى﴾ تصوير لهذه المصيبة كأنها في الحال، و﴿صَرْعَىٰ﴾ جمع صريع، أي قد صرعته الريح.

قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ كأن القوم وهم صرعى ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أسافل النخل وأصولها ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي النخل خاوية أي ساقطة، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر:٢٠] ومن شأن النخل إذا سقط أن تظهر أسافلها ومجامع عروقها العظيمة، فالتشبيه يصور القوم صرعى بادية أفخاذهم العظيمة وأعجازهم.

﴿٨﴾ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ أي فلا ترى، فالاستفهام معناه النفي، أي لم يبق منهم أحد بل عمهم الهلاك، ولعل فائدة (اللام) الإشارة إلى إخزائهم بأنه لم يبق لهم ﴿بَاقِيَةٍ﴾ لشدة العذاب، فالكلام مسوق لبيان شدة العذاب لا لمجرد عمومه، والغضب على القوم جملتهم لا مجرد نفي الباقية ـ والله أعلم.

﴿٩﴾ ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ ومن قبل فرعون من المكذبين للرسل المنذرين بالحاقة كقوم إبراهيم وقوم لوط وغيرهم ممن كان بعد عاد وثمود متقدماً قبل فرعون.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ وهي التي انقلبت عن الحق إلى الباطل لما أفكت، وقد تكرر ذكرهم في القرآن الكريم، ويظهر: أنهم مكذبون معينون لما يشعر به العطف.

وقد قيل: إنهم قوم لوط، فإن كان هناك دليل غير ما يروى أن جبريل × قلب قراهم فجعل عاليها سافلها، فلا ندري، والأقرب أن معنى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر:٧٤] هو هدم رؤوس الأبنية إلى الأرض.

وذلك لأن رواية: أن جبريل × رفع قراهم إلى الهوى ثم أسقطها مقلوبة لا تستقيم مع بقاء آثارهم، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥] قال في (المصابيح) في تفسيرها: ((﴿وَلَقَد تَرَكْنَا مِنْهَا﴾ ـ أي القرية ـ ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي عبرة ظاهرة لمن يعتبر هو آثار منازلهم الخربة)) انتهى، ومثله في (الكشاف).

وقال في تفسير قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]: ((وإنما ذكر اللّه هذه القصة ليعتبر بها مشركوا العرب.. إلى قوله: أي تمرون على منازلهم وآثارهم..)) الخ كلام (المصابيح).

فلو كان جبريل × حمل قراهم ورفعها ثم قلبها لضاعت الدور إن كان حمل الأرض وما فيها، وإن كان حمل الدور وما فيها فذلك يؤدي إلى تغطية من فيها فلا يلحقهم المطر الذي أصابهم الذي هو عذابهم، فالأرجح: أن اللّه تعالى أرسل حاصباً من الريح أسقط أعالي بيوتهم، ورماهم هذا الحاصب بالحجارة، أو أنها أصابتهم مع ذلك رجفة مثلاً خربت دورهم وصيرت عاليها سافلها ـ والله أعلم.

فظهر: أن ﴿ٱلْمُؤْتَفِكَتُ﴾ قرى أفكت إلى الباطل بضرب من الإفك الذي يؤفك عنه من أفك فانقلبت.

وفي تفسير الشرفي (المصابيح): ((عن الهادي × في قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم:٥٣] المؤتفكة: المنقلبة، ومعنى ﴿أَهْوَى﴾ فهو أهلك وأردى)) انتهى، ومعنى جاءوا ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أحدثوها، وهي المنكرات التي كل منها خطأ أخطأ به صاحبه وخالف الحق.

﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴿١٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ﴿١٦﴾

﴿١٠﴾ ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةٗ﴾ ﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾ رسول في معنى الجمع، والمعنى: أن هؤلاء المذكورين جاءوا بالمعاصي والمنكرات، فأرسل اللّه إليهم ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥] فعصوا رسول ربهم بعد أن جاءوهم بالبينات فأبوا إلا التكذيب ﴿فَأَخَذَهُمۡ﴾ ربهم المالك لهم المنعم عليهم ﴿أَخۡذَةٗ رَّابِيَةٗ﴾ بطشة بالغة في الشدة زائدة على بعض البطشات.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ كثر وتجاوز الحد، كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر:١١-١٢] ﴿حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ أي حملنا هذا الجنس البشري بأن حملنا مع نوح أولاده المؤمنين فكانوا آباء البشر الباقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧] فكان حمل الآباء نعمة للذرية فاعتبر حمل الآباء حملاً للأبناء، من حيث أن وجودهم توقف على حمل الآباء في الجارية أي سفينة نوح × التي تجري بهم في موج كالجبال.

﴿١٢-١٣﴾ ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ * فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ آية ودليلاً تعرفون به اللّه وصدق الرسالة لرسوله نوح × ، وتعرفون به ما دلت عليه السفينة والهداية إليها، ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ أي تعي هذه التذكرة وتحفظها ولا تنساها أذن سمعت التذكرة فوعتها؛ لأنها ﴿وَٰعِيَةٞ﴾ لآيات اللّه حافظة لتذكيره.

قال الإمام الهادي × في تفسيرها: ((والأذن الواعية: فهي الأذن المؤمنة المصدقة بكتب ربها ورسله وآياته ونذره، المستدلة بظاهر آيات اللّه وصنعه..)) الخ، والمراد: صاحب الأذن، قيل له: ((أذن)) كما يقال للمراقب الباحث ((عين)).

وقد أخرج ابن جرير الطبري في (تفسيره) عند ذكر هذه الآية: حدثنا علي بن سهل، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، عن علي بن حوشب، قال: سمعت مكحولاً يقول: قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ ثم التفت إلى علي فقال: ((سألت اللّه أن يجعلها أذنك)) قال علي " : ((فما سمعت شيئاً من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فنسيته)).

حدثني محمد بن خلف، قال: حدثني بشر بن آدم، قال: حدثنا عبد اللّه بن الزبير، قال: حدثني عبد اللّه بن رستم، قال: سمعت بريدة يقول: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لعلي: ((يا علي إن اللّه أمرني أن أدنيك ولا أقصيك وأن أعلمك وأن تعي وحق على اللّه أن تعي)) قال: فنزلت: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾.

حدثني محمد بن خلف، قال: حدثنا الحسن بن حماد، قال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم أبو يحيى التيمي، عن فضيل بن عبد اللّه، عن أبي داود، عن بريدة الأسلمي، قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول لعلي: ((إن اللّه أمرني أن أعلمك وأن أدنيك، ولا أجفوك ولا أقصيك)) ثم ذكر مثله، انتهى من (تفسير الطبري).

وذكر ابن كثير في (تفسيره) هاتين الروايتين رواية بريدة الأسلمي ورواية مكحول، والظاهر: أنها عن علي، بدليل قوله: قال علي " : ((فما سمعت..)) الخ.

والدلالة في التفريع بـ(الفاء) ورواية بريدة نقلهما ابن جرير بأسانيدهما من طريق عبد الرحمن بن أبي حاتم، ولعله من (تفسيره) والتقى السندان في الرواية الأولى في علي بن حوشب، وفي الثانية في بشر بن آدم، وقال في سنده: ((حدثنا عبد اللّه بن الزبير أبو محمد، يعني والد أبي أحمد الزبيري)) انتهى.

وقد بسط في الروايات المماثلة لهما في (شواهد التنزيل) وفي تعليقه زيادات، وفيها عن علي × ، وجابر، وابن عباس، وأنس، ولا تعارض بين تفسير الآية بالعموم لكل مؤمن حافظ عامل، وبين نزولها في علي، وكونه من معناها داخلاً فيها دخولاً أولياً.

وهذه السفينة آية متوارثة في الأجيال، فقوله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ يفيد: أنها آية للمخاطبين، وقد قال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥] وفي ذكر العذاب النازل بالأولين الذين كذبوا الرسل تذكير بأن اللّه تعالى لم يهمل عباده، وأنه لابد من الجزاء لأنه لو كان لا يجزي الظالمين لما عاقب الأولين؛ لأن الأولين والآخرين كلهم عباده، وليس غافلاً عما يعمل الظالمون، فذكر العذاب العاجل إنذار للسامعين من العاجل والآجل ولذلك اقترن بالحاقة وتهويلها ذكر ثمود وعاد.

ثم رجع الكلام إلى ذكر القيامة، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ الذي يظهر: أن هذه كناية عن الصيحة المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم:٢٥].

أو أنها صيحة قبلها مهلكة؛ لأن اللّه تعالى قال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨] وهذا أظهر، أي أنها الصيحة الأولى، لعطف قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ إلى آخر الآيتين.

فأما الإمام الهادي × وغيره من أئمتنا فقد فسروا هذه وأمثالها: بالنفخ في (الصوَر) بفتح (الواو).

قال الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة): ((وقد اختلف في قول اللّه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف:٩٩] فقيل معناها: ونفخ في الصوَر، وروي عن ابن عباس أنه قال: الصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل × ، وعندنا أنه صوت يحدثه اللّه تعالى يفزع منه من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللّه.. إلى قوله × : فصح أنه صوت يسمعه السامعون)) انتهى.

﴿١٤﴾ ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ في (تفسير محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام) لـ(سورة الفجر): ((ودك المدكوك: فهو تكسيره وتحطيمه ودق بعضه ببعض وتهشيمه، وذلك حين تدك الأرض بالجبال فتصير الجبال كالكثيب المنهال قال اللّه تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾)) انتهى من (المصابيح).

ولا مانع من حمل قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ على ظاهره، فمعناه: أنه يحملهما مثلاً ملك واحد أو أكثر بما جعل اللّه من القدرة لحاملهما وبأمره سبحانه له أن يحملهما ليدكهما بأي طريقة أذن اللّه بها، ومعنى ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أنها متصلة لا تنقطع حتى تصير الجبال ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل:١٤] مثل كثيب الرمل المجتمع الذي ينهال من موضع إلى غيره

وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ﴿١٧﴾ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ

أو قد انهال إلى موضعه، ومثل هذا يمكن أن يكون في النفخة الواحدة، فيجوز أن تكون صيحة تطول حتى تهلك من في السموات والأرض إلا من شاء اللّه، أو تقصر فتهلكهم في لحظة والله على كل شيء قدير.

﴿١٥﴾ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ يوم إذا كانت الأهوال المذكورة ﴿وَقَعَتِ﴾ القيامة التي هي واقعة لا بد من وقوعها بأمر اللّه سبحانه، وهي ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ولكونها معهودة بوعد اللّه تعالى متوقعة ثقلت في السموات والأرض ذكرت معرّفة بـ(ال).

﴿١٦﴾ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ انفصل بعضها عن بعض وانفطرت، وفي (تفسير الإمام الهادي ×): ((وانفطارها، فهو تقطعها لما يريد اللّه في ذلك اليوم من فواتها وتبديلها)) انتهى.

و(الواهية): المسترخية الضعيفة بعد قوة تماسكها، ولذلك ـ وبإذن اللّه تعالى ـ تتشقق شقوقاً متعددة، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً﴾ [الفرقان:٢٥].

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ والملائكة على جوانبها، قال الإمام الهادي × : ((يريد سبحانه أن الملائكة عند تقطع السماء يكونون واقفين على أرجائها منتظرين لأمر اللّه فيها وفي غيرها)) انتهى، ولعل ذلك بعد إحياء من مات من الصيحة الأولى.

﴿وَتَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة حين يقع ما ذكر من أحوال الأرض والسماء، وهو تصوير لموقف السؤال كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] كما ذكر اللقاء لتمثيل موقف السؤال بموقف الحضور عند الملك للمناقشة على الطاعة والمعصية ثم الجزاء وهو سبحانه أعظم وأجل من أن يحيط به عرش أو غيره لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] ولكن موقف السؤال يكون العبد فيه عند السؤال كالحاضر عند السائل وكأنه واقف بين يدي ملك الملوك فذكر العرش يفيد هذا التمثيل لما فيه من الموعظة والتخويف.

وحيث أن الكلام مسوق للتمثيل على طريق المجاز، فلا مانع مع ذلك من أن تدل الآية الكريمة على ثبوت عرش في الآخرة يحشر الناس إليه ويكون قبلة لهم كبيت اللّه في الدنيا إذا لم يكن على معنى إثبات محل لله يكون فيه وعليه، بل مجرد قبلة كالكعبة يتجه الناس إليه بين مقرب ومبعد ومستظل بظلاله ومحروم، وقد جاء ذكره في الروايات عن النبي ص في (مجموع الإمام زيد بن علي عليهما السلام) وغيره، وهذا لأجل ذكر العدد لحملة العرش وتخصيص الثمانية، فلا يبعد هذا وإن كان ذكر الثمانية من المتشابه لعدم تحقيق هل هم ثمانية أفراد أو صفوف أو غير ذلك.

﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ وهذا من التمثيل المناسب لحضور العرش؛ لأن الناس في موقف السؤال يشبهون رعية تعرض على ملكها، فهم كالمحضرين لديه ليسألهم عما كانوا يعملون ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ﴾ نفس ﴿خَافِيَةٌ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦] فهو الموقف الذي لا يخفى فيه صغير ولا كبير ولا عظيم ولا حقير ولا رجل ولا امرأة ولا بدوي ولا قروي.

هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي

﴿١٩﴾ ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ وهنا إيجاز واقتصار على بعض ما يكون في موقف العرض، وهو ما يفيد المهم الذي هو تميز السعداء والأشقياء بما يقول كل من الفريقين حين يؤتى كتابه و﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ كتاب عمله من حسنات أو سيئات يؤتاه ليقرأه، كما قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] والمؤمن يؤتاه بيمينه المناسبة لليمن فتسليمه له بيمينه كالبشارة له باليمن والخير، فإذا استبشر به، قال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ أي هاكم اقرأوا كتابيه يعرض كتابه ليقرؤه لسروره به، كما هو من طبيعة الإنسان إذا سر بشيء أن يخبر به، أو ليبشر به غيره من أمثاله، أو ليفخر به على أعداء اللّه أو غير ذلك.

﴿٢٠﴾ ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ تعليل لحصوله على هذه البشرى أو لسببها الذي هو التقوى والظن يستعمل في ما يقتضي الحذر فتفسيره بالخشية والخوف أقرب من تفسيره بالعلم اليقين واستعمال الظن بمعنى الخوف قريب؛ لأن الغالب عند العرب في المخوف أن يكون مظنوناً، والعلاقة هنا السببية في الأصل قبل استعماله في المخوف على الإطلاق.

ووجه هذا: أنا لم نجده في القرآن يستعمل في المتيقن غير المخوف، هذا وقد حكى في (لسان العرب) عن بعض أهل اللغة أن الظن يستعمل بمعنى العلم الاستدلالي دون الضروري، وزعم بعض المفسرين: ((أن الظن بمعنى العلم، يستعمل لإفادة أن الظن كان يقوم مقام العلم في إيجاب الحذر عند العقلاء)) هذا معنى كلامه.

ولا أدري كيف يفيد ذلك، مع أنه قد صار معناه: العلم، فهو كما لو قال: إني علمت، ثم لا يحسن في المدح تشبيه العلم بالظن لأنه تحقير له، فالأقرب: حمله إما على الخوف والخشية، وعليه يحمل قول الشاعر:

فقلت لهم ظنوا بألف مدجج سراتهم في الفارسي المسرّد

لأن المقصود التخويف بألف مدجج لا الأمر باليقين؛ لأنه غير ممكن لأنه مستقبل والمخبر به واحد لا يعلم الغيب ولا حاجة إليه في الإنذار بألف مدجج، بل يكفي الخبر الجازم الموجب للخوف، وإما على اليقين الإستدلالي على أن ذلك حقيقة من معنى الظن في اللغة، كما هو ظاهر ما حكاه في (لسان العرب) حيث قال: ((المحكم الظن شك ويقين، إلا أنه ليس بيقين عيان إنما هو يقين تدبر، فأما يقين العيان فلا يقال فيه: الأعلم)).

ثم قال في (اللسان): ((التهذيب: الظن يقين وشك)) ثم قال: ((وفي التنزيل: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي علمت، وكذلك قوله عزَّ وجل: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ [يوسف:١١٠] أي علموا يعني الرسل أن قومهم قد كذبوهم فلا يصدقونهم، وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير ونافع وابن عامر بالتشديد، وبه قرأت عائشة وفسرته على ما ذكرناه)) انتهى المراد.

وفي (تفسير الإمام الهادي ×) لقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي أيقنت في الدنيا ﴿أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ في هذا اليوم فأخذت له أهبته وعملت له عمله في دار الدنيا)) انتهى المراد، وبهذا قوي التفسير بيقين التدبر، وفائدة العدول إليه عن لفظ (العلم) إشعاره بالتدبر، أي النظر والاستدلال الذي يحصل به الإيمان وحسن العاقبة.

ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ

﴿٢١﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي هذا الذي ﴿أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ترتبت العيشة الراضية على إيتائه كتابه بيمينه؛ لكونه عنوانها وعلامتها، و(العيشة): حياته الآخرة، و(الراضية): المرضية لما فيها من السعادة، ويحتمل إسناد الرضى إلى الحياة كما يسند إلى النفس، فنفسه راضية بسعادتها وسلامتها من كل شر.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ هي الجنة التي وعد المتقون والعالية رفيعة القدر أو أشجارها ﴿عَالِيَةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق:١٠] أي طوال ويؤيد هذا عطف قوله تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ فالأشجار عالية ولكن تتدلى قطوفها حتى تؤخذ بسهولة كقوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان:١٤] والقطوف: الثمار التي تؤكل.

﴿٢٤﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي يقال لهم هذا القول تكرمة لهم، قال الراغب في (مفرداته): ((الهنيء: كل ما لا يلحق فيه مشقة ولا يعقب وخامة)) انتهى، وأوضح منه هنا (تفسير الإمام الهادي ×) حيث قال: ((﴿هَنِيئًا﴾ فمعناها: سليماً من كل آفة، لا أذى فيها ولا مخافة في أكله على آكله، لا يخالف طباع آكله ولا يخالف إرادة متناوله)) انتهى ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدمتم في سالف الحياة الأولى ﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أيام الدنيا الماضية الخالية الفانية، قد ذهب العناء وبقي الجزاء، وهذا يؤدي لهم ويفيدهم السرور بعملهم السالف والكرامة بإعلامهم أنه جزاء لهم بما قدموا، وهي تفيد: سروراً عظيماً.

﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾

﴿٢٥﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ يجعل في يده الشمال من وراء ظهره ﴿فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ لأنه كتاب جلب له الخوف والهم والحزن، فيتمنى أنه لم يؤته لأنه لم يجد منه مفراً ولم يتمكن من رفضه وجحده، فلم يكن منه إلا التمني للمستحيل.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لأنه رأى كتابه وقرأه فتذكر ما سعى، كقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ إلى قوله: ﴿..حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] فقد حاسب نفسه بنفسه وعرف خسرانه، ولم يبق إلا الندامة والتمني الذي لا يفيده شيئاً، ولعل هذا الكتاب كتاب يقرؤه الأمي الذي لم يكن يكتب كما يقرؤه غيره، ويمكن أنه بمنزلة أفلام التلفزيون فهو يرى نفسه يعمل ما كان يعمل، فلا يبقى مجال للتجاهل ولا للإنكار ـ والله أعلم.

﴿٢٧﴾ ﴿يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ يا ليت هذه الحالة التي هو فيها من الندم والخوف والحزن نتيجة إيتائه كتابه ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ عليه فمات ليتخلص بالموت عن العقاب المتوقع.

﴿٢٨﴾ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×): ((لم يغن عني ما كنت أجمع من المال، ومعنى يغني عني: فهو يدفع عني شيئاً مما نالني فأقر في يوم الدين بأن الذي كان فيه في الدنيا غرور)) انتهى.

﴿٢٩﴾ ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ قوتي التي كنت أغلب بها، كقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [القصص:٣٥] ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء:٣٣] فهذا كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] فهذه حاله بعدما يؤتى كتابه بشماله وينتهي حسابه، وبعد ذلك الجزاء الأوفى.

وَلَا تَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أمر من اللّه للملائكة أن يأخذوا هذا الشقي فيغلوه، والغل: أن تقيد يداه إلى رقبته ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ اجعلوه صالياً للجحيم أي للنار، والصلي: مباشرة جسده للنار فلا يباشر غيرها يفصل بينه وبينها، ولعل هذا معنى الحصر الذي يفيده تقديم الجحيم.

﴿٣٢﴾ ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴾ سلسلة من حديد تتحول في النار كالجمر طولها سبعون ذراعاً فاسلكوه ادخلوه فيها ضيقة، وقد حكى الإمام الهادي × الخلاف كيف يجعل فيها، ثم قال: ((وأصح ذلك عندنا جعلها في أعناقهم؛ لأن اللّه سبحانه قد ذكر ذلك، فقال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر:٧١])) انتهى، وإدخاله في السلسلة هو الأصل وإدخالها في عنقه مجاز مثل أدخلت الخاتم في أصبعي، ولعل استعمال الأصل هنا جاء لكبر السلسلة؛ لأنه يؤخذ ويجعل فيها بخلاف الخاتم في الأصبع.

﴿٣٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فاستحق العذاب بترك الإيمان وبما اكتسبه من السيئات التي اقترفها؛ لأنه لم يكن له إيمان يردعه.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَا تَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لأنه لا خير فيه ولا ميل إلى الخير؛ لأنه لا يرجو ثواباً لعدم الإيمان في قلبه، ولا يخشى عقاباً بترك الإطعام حيث يجب الإطعام للضرورة أو للرحامة أو من الزكاة أو إذا سأل المسكين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة:١٧٧] أو هي عامة للمسكين السائل والمسكين المحروم فتدل على وجوب إطعامه مطلقاً سأل أو لم يسأل وهذا هو الراجح، وقد دخل في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة:١٧٧].

لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

﴿٢٥﴾ ﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يوم يؤتى كتابه بشماله ويوقن بالجزاء ويتمنى ويقول ما ذكر في الآيات الماضية و﴿هَٰهُنَا﴾ اسم للمكان الذي وقع ذلك فيه، و(الحميم) قال فيه الإمام الهادي × : ((والحميم: فهو ما كان يغتر به من البنين والعصبة والأقربين)) انتهى، أي لا يدفعون عنه ولا يرحمونه.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ * لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ فهنا دل على أن ما كان له في دنياه من الطعام الذي كان من أعظم مطالبه لا يعود له في الآخرة كما لا يكون له حميم وإنما طعامه ﴿مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ وبيّن ما هو غسلين بقوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ فدل على أنه عذاب لآكله يعذب به الخاطئون، كما فسره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٦] والخاطئون هم المجرمون المذنبون المتعمدون.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ (الفاء) للتفريع على ما ذكر من الوعد والوعيد لأن مدلوله يستلزم أن يتقدم الإنذار والتبشير والهداية لما ينجي من العذاب ويوصل إلى الثواب وهذا ما جاء به الرسول ص ونزل به القرآن، فأقسم اللّه ـ جلَّ جلاله ـ أن ذلك حق من اللّه، وما يبصرونه: هو ما يرونه فكله آيات تدل على قدرة اللّه تعالى وعلمه وحكمته وصدق وعده ووعيده، وما لا يبصرون من الأشياء المعلومة وغير المعلومة فيه دلالة من حيث خلقه اللّه وجعله خلاف المبصرات بقدرته كما خالف بين المخلوقات.

وفيه تنبيه على أن علم الإنسان بالأشياء التي لا يبصرها ولكنه يعلمها جملة أو تفصيلاً، أو يعلم أنه يجهلها من حيث يعلم كثرة المخلوقات وعدم إحاطة علمه بها، دليل على أنه يصح أن يجهل ما جاء القرآن والرسول ص ببيانه والإعلام به، فليس للإنسان أن يجحده لجهله به.

ومثل هذه قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦] وقد اكتشف في هذا العصر ما لم يكن معلوماً للبشر الأولين.

﴿٤٠﴾ ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ أي القرآن هذا الذي يتلى بلّغه ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ تقي مطيع لله و﴿كَرِيمٍ﴾ يريد الخير والصلاح والنفع لمن أرسل لهم.

﴿٤١﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ لأنه كلام اللّه الذي لا يقول مخلوق مثله لا شاعر ولا غير شاعر، ولأن الرسول ص ما كان يقول الشعر ولا ينبغي له، ولكونكم لا تقبلون الحق ولا تؤمنون بآية من آيات اللّه إلا قليلاً كفرتم بالقرآن وزعمتم أنه قول شاعر.

﴿٤٢﴾ ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما القرآن بقول كاهن، والكاهن: هو رجل تزوير وكذب يدعي العلم ببعض المغيبات وتتنزل عليه الشياطين فيوسوسون له بما استرقوه من السمع فيضيف إلى ذلك كذباً كثيراً ويصدقه الجاهلون، ويقولون: قد جربناه في بعض ما أخبر به أنه كان صدقاً وذلك ما استرقه شيطانه من السمع والفرق واضح يكفي فيه تذكر؛ لأن هذا القرآن فائق لكلام البشر على لسان الرسول الأمين الذي لم يجرب في كذب ولا تزوير.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾

﴿٤٣﴾ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكيف يشتبه كلامه بكلام الكاهن وكيف لا ينزل رب العالمين لعباده ما يهتدي به من اتبعه وينجو به من النار ويصير إلى السعادة الدائمة، فإن اللّه ربهم حكيم وليس من الحكمة أن يهمل عباده.

﴿٤٤﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ أي الرسول المفهوم من السياق ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ تقول أي لو قال علينا مال م نقل أي لو كذب علينا كذبة واحدة.

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ لقهرناه ولم يبق له قوة. ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ ﴿ٱلْوَتِينَ﴾ نياط القلب وعلائقه التي يسقط القلب بقطعها ويذهب دمه وحياته.

﴿٤٧﴾ ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي مانعين دافعين للقتل لأن اللّه غالب على أمره، ولأنه أظهر له المعجز وأثبت أنه رسول منه فكيف يتركه يكذب عليه سبحانه وتعالى وهو أحكم الحاكمين، بل كل ما جاء به الرسول ص عن اللّه فهو من اللّه حقاً وصدقاً؛ لأنه معصوم عن الكذب اختاره اللّه للرسالة بحكمته؛ لصدقه وأمانته وكمال كفاءته وأهليته.

﴿٤٨﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي القرآن ينتفع به المتقون ويهتدون به وفي ذلك السعادة الدائمة، والمتقون: هم الذين يبعثهم الخوف من اللّه على اتقاء عذابه، بأن يطيعوه ولا يصروا على معصية، بل كلما زلوا رجعوا إلى الله.

وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

﴿٤٩﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فليتقوا عقاب التكذيب، كقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم:٤٢] فهو تهديد للمكذبين.

﴿٥٠﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنه حجة عليهم وطريق سلامة لهم وسعادة لو قبلوه وآمنوا به واتبعوه، فلذلك يندمون على تفويته إذا جاء جزاؤهم على التكذيب هذا في الآخرة، فأما في الدنيا فإنهم إذا سمعوه أيقنوا انه خارق للعادة، وأنه كلام ليس من كلام البشر، وأنه حجة عليهم يهدد ما هم عليه بالبطلان والسقوط، فلذلك يكون عليهم حسرة في الدنيا.

﴿٥١﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا القرآن بما فيه من الوعيد والوعد حق اليقين المتيقن المعلوم الذي لاشك فيه؛ لأنه الحق من اللّه أصدق القائلين.

﴿٥٢﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سبحه عما يقول المكذبون على اللّه مما هو خلاف الحكمة، كقولهم: لا يبعث اللّه من يموت، وتكذيبهم للرسل سبحان اللّه عما يصفون، والتسبيح هو بذكر اسمه في التسبيح؛ ليفيد: أن المراد التسبيح بالقول، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ الجليل الذي لا ينبغي أن ينسب إليه ما ينافي تعظيمه.

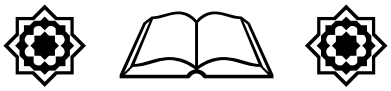

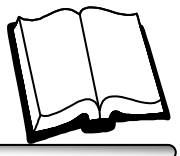

التيسير في التفسير

سورة المعارج

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ السؤال بالعذاب: المطالبة به، وكان بعض الكافرين يطالبون بما أوعد الله به في القرآن ويستعجلون به جدالاً وتكذيباً، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٥٤] وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل:٧١-٧٢] فجاء في هذه السورة ذكر حالهم عند حضور العذاب وكيف يصيرون بعد استعجالهم به وتمردهم، فأخبر سبحانه أن هذا العذاب الذي يسألونه ﴿وَاقِعٍ﴾ لا محالة ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ المكذبين بيوم الدين، المكذبين للقرآن والرسول ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ يدفعه عنهم وإن زعموا أن شركاءهم تشفع لهم فهو زعم باطل لأنه عذاب ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الغالب على أمره ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ الذي له معارج الملائكة وطرقها التي تعرج فيها بأمره.

﴿٤﴾ ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ هذا بيان للمعارج وبُعدها، وسرعة عروج الملائكة والروح فيها، فهم يصعدون في مسافة ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ في يوم واحد ومعنى ﴿إِلَيْهِ﴾ إلى مصدر وحيه لهم وأوامره، قال في (الكشاف): «إلى عرشه، وحيث تهبط منه أوامره» ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ جبريل × ، واليوم المذكور: يوم منكّر لم يقل في اليوم الواحد، فالأقرب: أنه يوم القيامة.

قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ

﴿٥﴾ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ هذا أمر من اللّه لرسوله محمد ص أن يصبر على تكذيب الكفار المستعجلين للعذاب، وعلى تحمل أعباء الرسالة ﴿صَبْرًا جَمِيلاً﴾ والصبر الجميل: هو الذي يكون تحملاً قوياً، لا يصحبه تضجر ولا شكاية، أي فاصبر فالعذاب آتيهم عن قريب.

﴿٦-٨﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾ قال الإمام الهادي × : ((أي يرونه باطلاً ولا يوقنون به، ومن ذلك ما تقول العرب: زعم فلان أنه يقتل فلاناً وهذا أمر بعيد منه أي لا يقدر عليه، يقول اللّه سبحانه: يرون ما يعدهم من وقوع هذا العذاب بهم محالاً لا تصح في عقولهم عندهم)) انتهى باختصار.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ واقعاً لا محالة لاشك فيه، قال الإمام الهادي × : ((والعرب تسمي كل ما أيقنت بوقوعه قريباً)) انتهى، والضمير في ﴿يَرَوْنَهُۥ﴾ ﴿وَنَرَىٰهُ﴾ الأقرب عندي ليوم كان مقداره أي ليوم القيامة، وقد وضحه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ أو معناه: أن العذاب واقع يوم تكون السماء، والأقرب عندي الأول، قال الإمام الهادي × : ((معنى ﴿تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ فهي تذوب بعد تجسمها، وتنحل بعد عظمها حتى تعود إلى ما كانت عليه أولاً من الدخان الذي خلقت منه، والمهل فهو صفو القطران)) انتهى باختصار.

وقد اختلفوا في تفسير (المهل) وذكر له (صاحب القاموس) معاني عديدة، وقال (صاحب لسان العرب) بعد ذكر بعض التفاسير للمهل: ((والمهل والمهلة، ضرب من القطران ما هيّ رقيق يشبه الزيت وهو يضرب إلى الصفرة من مهاوته وهو دسيم تدهن به الإبل في الشتاء)) انتهى.

يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ

﴿٩﴾ ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ قال الإمام الهادي × : «والعهن: فهو خالص الصوف» انتهى، ولعل وجه الشبه: أن الجبال صارت بعد دكها متخلخلة متجافية كالصوف على حالته الأصلية قبل أن يغزل أو يهيأ للغزل.

﴿١٠-١٤﴾ ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا * يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ * وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾ لا يسأله كما كان في الدنيا يسأله عن حاله وعن مهمات أموره، وقد مر تفسير (الحميم) والمعنى: أن كلاً مشغول بنفسه شغلاً عظيماً تنقطع به العلاقات بين ذوي الأرحام، كما بينه قوله تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ * وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ﴿يُبَصَّرُونَهُمۡ﴾ يرونهم بحيث يعرف القريب قريبه، فليس عدم السؤال لعدم الرؤية، بل يترك السؤال وهو يرى قريبه ويعرفه ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ﴾ يحب ويرغب ويتمنى، والمجرم: هو المسيء الظالم يود ﴿لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ﴾ يوم القيامة ﴿بِبَنِيهِ﴾ بأن يعذبوا بدلاً منه وفدية له من العذاب ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ التي كانت قرينة حياته في الدنيا بزواج أو خلة، ﴿وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ﴾ أمه التي فصلته أي أرضعته وفصلته من الرضاع حين كبر ﴿ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾ حين كانت تحضنه وتهيئ له مأواه للنوم وغيره ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ كلهم ﴿جَمِيعٗا﴾ مجتمعين يفدونه كلهم في وقت واحد ويدخلون النار بدله مجتمعين على كثرتهم وبما فيهم من الأصدقاء والأصهار؛ لأنه لا يهمه إلا نجاة نفسه فهو يود لو يفتدي بالمذكورين كلهم ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الافتداء بهم.

مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ

﴿١٥-١٨﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع للمجرم المتمني للافتداء، ودلالة على أنه لا تقبل منه فدية بالغة ما بلغت ﴿إِنَّهَا﴾ أي جهنم ﴿لَظَىٰ﴾ نار تلظى وتتسعر وتلتهب، أو لظى اسم علم لجهنم لأنها تتلظى وهو الأقرب ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ لفرط حرها تنزع الشوى ولا تزال تنزعه، قال الإمام الهادي × : «والشوى: فهو الجلد، وقد قيل غير الجلد، وأحسن ما سمعنا فيه: أنه الجلد» انتهى.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ حريصة على من أدبر وتولى لشدة غيظها عليه ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك:٨] ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] فكأنها تدعوه إليها، وفي كلام أمير المؤمنين × : «وهي تنادي إليّ بأهلي» فإن كان حقيقة فظاهر، وإن كان مجازاً فهو تمثيل لقوة إعدادها وتهيئتها لأعداء اللّه فحيث جعلها اللّه كذلك فلا مطمع في الافتداء و﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ هو من أدبر عن دعوة اللّه في الدنيا وأعرض عنها حتى كأنه جعل الداعي خلفه ﴿وَ﴾ من ﴿تَوَلَّىٰ﴾ من انصرف عنها وذهب. وجمع فأوعى: جمع المال وبخل به، كما هو شأن من لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً كالمكذب بالدين، وهذا قاطع لأمانيهم وظنهم أن اللّه كما أعطاهم في الدنيا يعطيهم في الآخرة ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] فدل قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ على ضد ما يتوهمون، هذا وفي (تفسير الإمام الهادي ×): ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ يقول: جمع الذنوب وأحصاها فأوعاها، ومعنى أوعاها فهو جمعها كلها ـ والله أعلم.

هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ فسر (الهلع): بشدة الجزع أو سرعته وسرعة المنع، وهو تفسير بما يؤدي إليه الهلع، والصواب: أنه ضعف يترتب عليه الجزع والمنع إذا لم تكن للإنسان قوة الإيمان، قال الإمام الهادي × في (تفسيره): «﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فهو الناس كلهم ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ يقول: طبع وفطر على الضعف والهلع وضعف البنية والجزع مما يعظم عليه ويشد أمره لديه» انتهى.

﴿٢٠﴾ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ الجزع: ضد الصبر، فهو قول أو نحوه يبعث عليه التألم، كشق الجيب، وحلق الشعر، وخدش البشر، والصياح.. ونحو ذلك من الأفعال الاختيارية، والتروك كالإضراب عن الطعام.

﴿٢١﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ المنع: إمساك المال، والمراد حبسه عن فعل الخير، وترك إنفاقه في مرضاة الله.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ فإدامة الصلاة دليل على قوة الإيمان وقوي الإيمان يديم صلاته، لا يصرفه عنها مرض، ولا شغل، ولا تعب، ولا حاجة إلى النوم، فإذا كان يديم الصلاة على كل حال فهو قوي بالإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢] وبهذه القوة يستطيع أن لا يكون ﴿جَزُوعًا﴾ ولا ﴿مَنُوعًا﴾.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ ﴿مَّعْلُومٌ﴾ محدود بمقداره، ومنه الزكاة بعد ما شرعت أما قبل شرعيتها بحدودها المعروفة، فهو محدود بما تستدعيه حاله وظروفه وتستدعيه حاجة السائل والمحروم، فلا يجحف بعياله ولا يضر نفسه بل ينفق العفو.

عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

و(السائل) الذي يسأل لحاجته إلى الطعام أو نحوه ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الذي يصبر عن السؤال مع أنه محتاج، ولذلك لا يؤبه له فيحرم للجهل بحاله، فأما السائل تكثراً مع أن عنده ما يكفيه فيوعظ ويزجر إن أصر على السؤال ويؤدب نهياً عن المنكر، هذا مع العلم بحاله، فأما لمجرد الظن فلا.. بل يعطي وعليه يحمل الحديث: «للسائل حق ولو جاء على فرس» ويحتمل: أن يعطى على كل حال، إلا أنه إذا كان غنياً أعطي قليلاً ونهي عن العودة إلى السؤال، وهذا أحوط لعموم الأدلة.

﴿٢٦﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ (يوم الدين): يوم الجزاء، وهو يوم القيامة. والتصديق به: الإقرار به عن يقين كما قال تعالى في (صفة المتقين) في (البقرة): ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [آية:٤] وقال تعالى في (صفة المؤمنين) في (سورة النمل): ﴿وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [آية:٣] وكذلك في (صفة المحسنين) في (سورة لقمان) فالتصديق بالقلب عن يقين هو الذي يفيد القوة على ترك الجزع والمنع، لأن المؤمن بالآخرة يرجو الثواب ويخاف العقاب، فأما المصدق بلسانه دون قلبه فليس المراد هنا، قال الإمام الهادي × : «و﴿يُصَدِّقُونَ﴾ معناها: يوقنون به ويؤمنون» انتهى.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ ﴿عَذَابِ رَبِّهِم﴾ عذاب الآخرة وعذاب الدنيا الذي ينزله اللّه بالمجرمين، وهذه صفة المؤمن بالآخرة يكون من خشية ربه مشفقاً، و(الإشفاق): هو ما يبعث عليه الخوف من الحذر مثلاً والتقوى وغير ذلك.

مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ

فالإشفاق أثر الخوف الذي يدل على الخوف، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون:٥٧] وقال تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى:٢٢] وتفسير (الإشفاق) بالخوف من التفسير بالملزوم للتلازم بينهما، وفي (الصحاح): «وإذا قلت أشفقت منه، فإنما تعني حذرته».

﴿٢٨﴾ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ لأنه عذاب شديد دائم، وليس من الله ﴿دَافِعٌ﴾ ولا بد منه لمن استحقه فهو مخوف حقيق بأن يخاف، ولذلك فهم يحذرونه.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ لا يطلقونها فيما تشتهي ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ لا يلامون على ذلك، واللوم أن تقول لفاعل شيء أو تاركه قولاً تعيب عليه ذلك أو تنكره عليه قال: ﴿فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢] وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كناية عن كونهم غير معاقبين على نكاح أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.

﴿٣١﴾ ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ طلب وأراد شيئاً ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ذلك، وفي (تفسير الهادي ×): «من ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ لفرجه موضعاً غير نسائه أو ما ملكت يمينه من إمائه و﴿ٱلْعَادُونَ﴾ فهم المعتدون لما جعل الله لهم إلى ما حرم عليهم» انتهى.

والآية تعم استعمال الفرج بكل طريقة غير المذكورة، فيعم الزنا، واللواط، ونكاح اليد، والاستمتاع بالمحرمات من النساء، وبالذكور.

فأما (المتعة) فقد ذكر (صاحب الكشاف) أنها ليست من ذلك إذا صح النكاح، وقد زعم بعض الإمامية أنها زواج، والمُتَمَتَّع بها عنده زوجة، وفي ذلك نظر؛ لأن سبيل المتعة سبيل الكراء، وتسميتها زواجاً مبني على أنها إذا حلت صارت زواجاً، وهذا غير مُسَلَّم، لأنه يستلزم أن تكون الأمة زوجة؛ لأنها قد حلت لمالكها، وفي الزواج من ناحية اللغة معنى ليس مجرد الحل بل هو علاقة خاصة يحصل بها الحل، فالحل من أحكام الزواج وليس مفهومه، ولذلك لا يبطل الزواج بتحريمها لعارض كالحيض والإحرام، ومفهوم الزواج العلاقة المخصوصة معروف في الجاهلية والإسلام.

وإذا استقريت أحكام المتعة ومسائلها عند الإمامية عرفت أنها من الكراء لا من الزواج، وعمدتهم في تحليلها الروايات في حلها من حيث هي متعة.

وفي كتاب (وسائل الشيعة) [ج ٢١/ ص ١٨]: عن بكر بن محمد قال: سألت أبا الحسن × عن المتعة أهي من الأربع؟ فقال: لا. وهناك عن عبيد بن زرارة عن أبيه، عن أبي عبد اللّه × ، قال: ذكرت له المتعة أهي من الأربع؟ فقال: تزوج ألفاً فإنهن مستأجَرات.

وهناك [ص ١٩ـ ٢٠]: عن ابن جريج: أنه ليس فيها وقت ولا عدد، إنما هي بمنزلة الإماء يتزوج منها ما شاء بغير ولي ولا شهود، فإذا انقضى الأجل بانت منه بغير طلاق، وهناك [ص ٢١]: عن الفضيل بن يسار أنه سأل أبا عبداللّه × عن المتعة؟ فقال: هي كبعض إمائك، وهناك [ص ٢١ـ ٢٢] عن أبي عبد اللّه قال ـ أي الراوي عنه ـ: قلت: جعلت فداك أهي من الأربع؟ قال: ليست من الأربع، إنما هي إجارة)) انتهى.

والغرض منه بيان مفهوم المتعة عندهم، وإن كانوا قد سموها زواجاً، وفيه هناك [ص٦٠]: «عن أبي جعفر × قال: قلت له الرجل يتزوج المتعة وينقضي شرطها ثم يتزوجها رجل آخر حتى بانت منه، ثم يتزوجها الأول حتى بانت منه ثلاثاً، وتزوجت ثلاثة أزواج يحل للأول أن يتزوجها؟ قال: نعم كم شاء ليس هذه مثل الحرة، هذه مستأجرة وهي بمنزلة الإماء» انتهى.

﴿٣٢﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ الأمانات أصناف، وما أحسن كلام الهادي × فيها حيث قال × في تفسير هذه الآية: «والأمانات فهي صنوف، فمنها: أمانة اللّه عندهم فيما استرعاهم من حقه وقلدهم من فرضه، ومنها: ما استأمنهم اللّه عليه من أداء ما جعل في قلوب العلماء من علمه إلى من هو دونهم من خلقه، ومنها: ما استأمنهم عليه من أمواله التي قسمها بين من سمى في كتابه، فواجب على من استؤمن على شيء من أموال اللّه أن يؤديه إلى غاية الأمانة ويوفره على غاية الوفارة، ومنها: ما يستأمن الناس عليه بعضهم بعضاً من ودائعهم وأموالهم فيجب عليهم في ذلك دفعها إلى أربابها وتسليمها إلى أصحابها ومن ذلك أمانة السر الذي يسره المؤمن إلى المؤمن، فواجب عليه أن يحفظ عليه سره ولا يفشي عنه إلى غيره» انتهى.

ورعاية الأمانة: المحافظة على أدائها كما وجبت، وحفظها وتأديتها إلى أهلها، فالرعاية ضد الإهمال والإضاعة وضد الخيانة.

﴿٣٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ القيام بها أداؤها كما علموا بدون نقص ولا تغيير ولا إخفاء قرينة حالية أو زمانية أو مكانية أو غيرها مما يفهم به المعنى، والشهادة تعم كل ما يعلم المكلف من حق لله أو للعبد فليس له أن يكتمه.

هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾

﴿٣٤﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ المحافظة عليها: العناية بحفظها لئلا تضيع أو تفوت، والحذر من فواتها عن وقتها، بدليل قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٨-٢٣٩] فشرع صلاة الخوف للمحافظة على الصلاة أي لئلا تؤخر عن وقتها إلى حالة الأمن وإدامة الصلاة تترتب على المحافظة عليها، فإذا حافظ العبد عليها وحفظها من الفوات عند الأسباب التي تؤدي بعض الناس إلى تركها كالمرض والتعب والحاجة إلى النوم وكثرة الشغل والخوف، فإذا حافظ عليها في الأحوال كلها أدامها، ونال الأجر العظيم بالأمرين المحافظة والإدامة، وكان بكل منهما قوياً على ترك الجزع والمنع؛ لأن ملازمة العزم عليهما تمرين للنفس على الإنقياد للحق والصبر عليه، وقوة للسيطرة على النفس بمصير ذلك عادة مستمرة.

﴿٣٥﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أهل الأعمال المذكورة يجتمع لهم نعيم الجنة وكرامتها فهم فيها ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾ بما صبروا ونهوا أنفسهم عن الهوى وعملوا الصالحات.

﴿٣٦﴾ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×): «﴿قِبَلَكَ﴾ عندك» انتهى، وفي (الصحاح): «ولي قِبَل فلان حق، أي عنده» انتهى، ومثله في (لسان العرب) وقيل في تفسيره: «نحوك» ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ في تفسيرها خلاف، قال في (لسان العرب): «هطع يهطع هطوعاً وأهطَع: أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه، وفي (التنزيل): ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم:٤٣].

أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾

وقيل: المهطع الذي ينظر في ذل وخشوع ـ ثم قال ـ: وأهطع أقبل مسرعاً خائفاً لا يكون إلا مع خوف، وقيل: نظر بخضوع، عن ثعلب: وقيل: مد عنقه وصوب رأسه» انتهى.

وتفسيره في هذا الموضع بالإقبال عليه بأبصارهم هو موافق لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ [القلم:٥٢].

﴿٣٧﴾ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي عن يمينك وعن شمالك، ﴿عِزِينَ﴾ جماعات قليلات متفرقات غير مجتمعين حولك ولا متجهين لسماع قولك.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ يقول الهادي × في تفسيرهما: «يقول سبحانه إعراضهم عن الحق واستغناؤهم عن الصدق إعراض من قد أمِن العذاب وأيقن بالثواب وصح عنده أنه يدخل جنة نعيم، فهو واثق بذلك طامع أن يكون كذلك، فهو معرض عما يدعا إليه لإيقانه بما يصير من الخير إليه» انتهى.

﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع عن هذا الطمع ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من الماء المهين، فهم أحقر من أن يدخلوا الجنة أو يكونوا أهلاً لها، وإن استكبروا في أنفسهم وظنوا أنهم أهل للكرامة من الله.

﴿٤٠﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ قال الإمام الهادي × : «يريد أفلا أقسم، فطرح الألف وهو يريدها» انتهى.

عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

و(رب المشارق): رب مشارق الشمس الذي سخر الشمس لتطلع منها في الشتاء والصيف في أوقات محدودة على نظام محكم لا يتغير، فهي من أوضح الدلائل على قدرته تعالى وعلمه، وكذلك المغارب التي تغيب الشمس منها، فأقسم ـ جلَّ جلاله ـ بنفسه قسماً صادقاً مقروناً بالحجة الواضحة إنه لقادر.

﴿٤١﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ أي على أن نهلكهم ونبدل ﴿خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ قوماً يقبلون الحق ويؤمنون ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ لا يفوتنا أحد من هؤلاء الكافرين الحاضرين حول الرسول وهم مصرون على كفرهم.

﴿٤٢﴾ ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ اترك هؤلاء الذين كفروا وشأنهم الذي هم فيه ﴿يَخُوضُواْ﴾ في الكلام الباطل ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ باتباع أهوائهم في غير طائل، فهو أشبه باللعب أو يلعبوا حقيقة فذرهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ﴾ يوم جزائهم، فالترك هذا ليس إهمالاً لهم وإنما هو إمهال حتى يلاقوا ﴿يَوۡمَهُمُ﴾ وأضيف إليهم لما يلقون فيه من العذاب، وبينه بقوله: ﴿ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ لأنه اليوم الذي يوعدونه على لسان الرسول فيكذبون به ويستعجلون به فيقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨].

﴿٤٣﴾ ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ من القبور ﴿سِرَاعٗا﴾ إلى الداعي منقادين

مستسلمين أذلاء صاغرين، فهم مسرعون لا يتثاقلون مع أنهم دعو لفصل القضاء وعدل الجزاء ﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ ﴿يُوفِضُونَ﴾ يسرعون، أي كأنهم في إسراع الرهبة مسرعين إسراع رغبتهم.

وقراءة نافع: ﴿نَصْبٍ﴾ بفتح النون وسكون الصاد، وفسره الإمام الهادي × ولفظه: ((والنصب: فهو شيء من الشعر تقوله العرب تطرب فيه أصواتها، وترفع به كلامها، وتمد حروفه وتطرب، قوله..)) إلخ.

وفي (الصحاح): ((وغناء النصب ضرب من الألحان..)) إلخ، ومثله في (لسان العرب) وفيه بسط في تفسير (النصب) بهذا وما يوافقه أو يقاربه، وعلى قراءة ﴿نُصُبٖ﴾ بضمتين يكون معناه: ما كان المشركون ينصبونه من الحجارة ليعبدوه.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ أي ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ﴾ قال الإمام الهادي × : ((معنى ﴿خَٰشِعَةً﴾ أي منكسرة غير مسرورة ولا منفتحة، قد خشعت أبصارهم لهول ما رأت عيونهم، وخشوع البصر: فهو شيء ينزل بالبصر عند انحلال القوى وضعف النفس وذهاب القوة والإيقان بالبلية)) انتهى المراد.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ يتبين فيه لهم صدق الوعد وخسارتهم بكفرهم به في الدنيا واستعجالهم به فيندمون حين لا ينفع الندم، كما مر في أول السورة.

سورة نوح

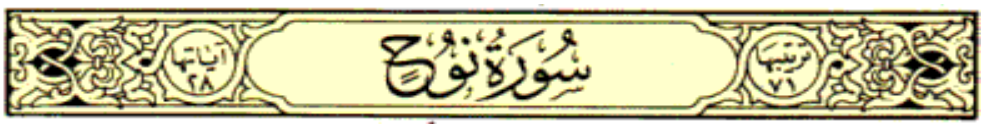

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ تدل بما تفيده من العظمة والجلال على الحكمة في الرسالة، وعلى كرامة الرسول واستحقاقه للتأييد والنصر، وفي قصة نوح وقومه إنذار للكفار الذين كفروا بمحمد وعبرة لهم ليحذروا، وفيها تسلية لرسول اللّه ص ليصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل، ويرجو النصر في العاقبة وإن طالت عليه المحنة.

وفي القصة مع تفصيلها الكامل دلالة على نبوته ص بالنسبة إلى أهل الكتاب الذين يعلمون أنها الصدق، وإنذار قوم نوح المراد به: إنذارهم ليتقوا العذاب، وذلك بطاعة الرسول واتباعه والخروج من الشرك، وإذا لم يتقوا فقد حصل إبلاغ الحجة وقطع المعذرة.

وترتيب الكلام يفيد: أن هذا هو مقصود الإنذار أن يكون قبل إتيان العذاب لأنهم مستحقون للعذاب بشركهم، ولكن اقتضت الحكمة تقديم الإنذار، فكأنه غير متوقع منهم أن يؤمنوا ويتقوا، ولكن المقصود تقديم الإنذار قبل تعذيبهم، والعذاب الأليم الشديد فهو أليم من حيث هو عذاب ووصفه بأنه أليم يفيد شدته وزيادة ألمه.

﴿٢﴾ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ امتثل أمر ربه والمبين بيّن الإنذار لإتيانه بالحجة الدالة على صدقه في إنذاره.

وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي

﴿٣﴾ ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ تفسير لفائدة إنذاره لهم وطريق سلامتهم مما ينذرهم إن أرادوا السلامة، وذلك أن يعبدوا اللّه عبادة يقبلها وهي عبادته وحده، ولهذا ورد الأمر بها معللة في قوله: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩] فكان هذا التعليل يفيد أن المراد العبادة الخالصة لله تعالى، وقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ بمعنى افعلوا ما يقيكم من عذابه من طاعة اللّه، ثم قال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ليطيعوه في التعاليم الدينية المفصلة، وفي اجتناب ما ينهاهم عنه، وفعل ما يأمرهم به ليهتدوا.

﴿٤﴾ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ فهذه فائدة عاجلة أن يغفر لهم ما قد مضى من أسباب العذاب العاجل من الشرك وغيره فيكف عنهم العذاب العاجل، وهذه مغفرة قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف:٥٨] ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ أي أجل معين في الواقع فحقق هذه المغفرة العاجلة إبقاءَهم في الحياة الدنيا حتى الأجل المسمى.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي موعد الهلاك الذي جعله اللّه أجلاً لهلاكهم ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ لأن الله ﴿غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:٢١] ولا ينفع عنده الإيمان الذي لم يكن إلا عند معاينة العذاب ﴿لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فتبادرون بالطاعة قبل نزول العذاب، ولعل أصل المعنى: لو كنتم تعلمون لبادرتم، أو لعلمتم أنه ينبغي لكم أن تبادروا بالتوبة والطاعة.

لَيۡلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ
لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ
ٱسۡتِكۡبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ

٥-٦ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلًا وَنَهَارًا * فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ في هذا بيان جوابهم وبيان الشكاية منهم أي دعوت قومي إلى اللّه وإلى ترك الشرك وطاعة اللّه ورسوله، وفي الآية دلالة على شدة عنادهم، حيث جعلوا دعاءه لهم سبباً للفرار من الطاعة.

٧ ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾ هذه الشكايات المصدرة بقوله: ﴿إِنِّي﴾ هي شكاية حاله × لالتماس الفرج، أو للتعبير عن كونه مغلوباً بأنه قد عمل ما استطاع ولم ينفع، وقوله: ﴿لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ﴾ أي دعوتهم إلى طاعتك لتغفر لهم أي ليطيعوك ليعبدوك ويتقوك فتغفر لهم فحذف الوسائط ليفيد أن الغرض المغفرة وسلامتهم من العذاب.

وقوله: ﴿جَعَلُواْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ يعني: أنهم سدوا آذانهم بأصابعهم لئلا يسمعوا دعاءه ونصائحه ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ لئلا يروه ولا يراهم كاشفين احتجاباً عن كلامه ومحادثته.

وقوله: ﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي على ما هم فيه من الشرك وغيره، وقوله: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾ يدل على أن لديهم ما يمنعهم من الانقياد فلا يرجى منهم وهو استكبارهم في أنفسهم الاستكبار المحقق.

٨ ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارًا﴾ دعاء بصوت رفيع ظاهر بين الناس.

إِسۡرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارًا﴾ **الإعلان بالشيء ضد إخفائه وإسراره، والإسرار لقومه: أن يخص كل طائفة فيكلمها وحدها لئلا تأنف من المجاهرة علانية.**

﴿١٠-١١﴾ ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا﴾ **أي ﴿فَقُلۡتُ﴾ لقومي ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ أي اطلبوه أن يغفر لكم ذنوبكم، والمقصود الطلب الذي ينفع وهو دعاؤهم بعد خروجهم من الشرك والكفر والإصرار على الذنوب ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ قد مضت سنته واستمرت عادته أن يغفر الذنوب لكثير من الناس إذا تابوا من ذنوب كثيرة ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ﴾ ينزل لكم ماء السماء أي المطر، والسماء هنا بمعنى: السحاب المبسوط في السماء، وإرساله: إرسال مائه، و﴿مِّدۡرَارًا﴾ كثير الدرور، وفي هذا دلالة على أن التوبة سبب للخير العاجل، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾** [الأعراف:٩٦].

﴿١٢﴾ ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا﴾ **﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ (الأموال) مثل: الذهب والفضة، وسائر ما يملك، و(البنين): الذكور من الأولاد.**

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا﴾ وهذا تفصيل لبعض الأموال للترغيب و(الجنات): البساتين كثيرة الأشجار من الفواكه والزروع الكثيفة، والمراد بالأنهار: مجاري الماء التي يجري فيها الماء ليسقي الجنات.

كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا

﴿١٣﴾ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×) ((ومعنى ﴿وَقَارًا﴾ فهو إعزازاً وإكباراً وإجلالاً وإعظاماً)) يريد × : مالكم لا توقرون اللّه وتجلونه وتقدسونه وتنزهونه عما تقولون فيه وتنسبون من الكذب إليه)) انتهى.

﴿١٤﴾ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ خلقاً من بعد خلق: ماء، ثم علقة، ثم مضغة ثم عظاماً..إلخ، وهذا من دلائل قدرته وعلمه.

﴿١٥﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ والطباق: الطبقات المتطابقة طبقة فوق طبقة.

﴿١٦﴾ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فالقمر تنير في ظلمة الليل دون أن تبطلها فتفوت مصلحة الظلمة، والشمس تأتي بالنهار الذي فيه السعي للمعاش والحاجات والحركات الدنيوية.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بخلق أبيكم آدم منها ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ في الأرض عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ من الأرض ﴿إِخْرَاجًا﴾ يوم القيامة.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ فراشاً، مهّدها لكم وهيأها لمنافعكم في حركاتكم للمعاش وأسفاركم، فلو لم تكن مبسوطة لتعسر المشي عليها.

سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ

﴿٢٠﴾ ﴿لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ﴿لِّتَسْلُكُواْ﴾ لتسيروا فيها ﴿سُبُلًا﴾ من الأرض ﴿فِجَاجًا﴾ واسعة.

قال الإمام الهادي × : ((لأن الفج: هو الشعب العظيم من الأرض والجانب الواسع الذي يكون بين الجبال، فسمى ذلك فجاجاً)) انتهى.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء:٣١] فقد ذكّرهم نوح × آيات اللّه في أنفسهم، وفي السموات، وفي الشمس والقمر، وذكرهم خلق أبيهم من الأرض، وكونها لهم كفاتاً إذا ماتوا، وأنهم سيخرجون منها للجزاء، وذكرهم صنع اللّه ونعمته لهم في جعل الأرض بساطاً لتسهيل سيرهم في فجاجها، وهذه الجملة تذكرهم بتدبير اللّه لمعاشهم في هذه الحياة، وتدلهم أنه ربهم الذي خلقهم ورزقهم، وتذكرهم بحكمته في إحيائهم وإماتتهم، وهي أنه سيخرجهم من الأرض للحياة الآخرة، فمالهم آيسين من عظمته التي من حقها أن يعاملهم بفضله ورحمته وبعدله وحكمته.

فكأنه يقول لهم: مالكم تعبدون غيره ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦] وهو الذي خلقه ودبر له ما يحتاجه في معاشه من بسط الأرض له وإضاءتها في النهار وهو الذي دلهم على قدرته بما خلق من آياتها وآيات السموات فهم في إعراضهم عنه وعدولهم إلى عبادة غيره كأنهم لا يعقلون فهم لا يرجون عظمته وفضله ورحمته وعدله وحكمته، بل أيسوا منه وعدلوا إلى غيره لغير سبب ولا برهان كأنهم لا يعقلون.

وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ

﴿٢١﴾ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ انتهى فيما قبل هذه الآية بيان قيام الرسول بواجبه ومبالغته في النصح والإرشاد، وبيان الآيات البينات، وابتدأ الكلام في المرسل إليهم والتقديم للدعاء عليهم.

وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يفيد: أنهم اتبعوا أهل المال والولد، كما هو شأن أهل الجهل أن يعظموا الأغنياء ويتبعوهم والواقع أنه لم يزدهم مالهم وولدهم ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥] فمالهم أطغاهم، وولدهم زادهم حباً للدنيا، وحرصاً على المال وبذلك ازدادوا بعداً عن اتباع الرسول وتوغلاً في التمرد الذي عاقبته الخسار، وهذا جهل على جهل أن عصوا رسولهم الذي جاءهم بالبينات، وأضافوا إلى ذلك اتباع الطغاة الخاسرين الذين يخسر من اتبعهم كما خسروا، ومع ذلك أنهم اتبعوهم بلا بينة، فتركوا اتباع الحق المصحوب بالبرهان، وعدلوا إلى الباطل بلا برهان، وإنما هو اتباع الهوى.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ مع أنهم عصوه كادوه وكادوا من يتبعه محاربة لدينه ومحاولة لإبطال أمره، و(الكبار): العظيم، قال في (الكشاف): ((والكبار أكبر من الكبير، والكبّار أكبر من الكبَار)) انتهى.

﴿٢٣﴾ ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ أي قال بعضهم لبعض: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي اثبتوا على الشرك ولا تطيعوا نوحاً، أي لا تتركوا آلهتكم.

تَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا

ولا تتركوا ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قال الإمام الهادي × : ((فهؤلاء كلها أصنام كانت تعبد من دون اللّه، فأما (سواع) و(يغوث) و(يعوق) و(نسرٌ) فكانت باليمن، وأما (ودٌّ) فكان بدومة الجندل، وأما (سواع) فكان بـ(جوف همدان) وأما (يعوق) فكان بخيوان، وأما (يغوث) فكان في حمير، وأما (نسر) فكان في مراد من مذحج)) انتهى. ومعنى هذا: أن تلك الأصنام التي كانت لقوم نوح صارت للمشركين من ذريته.

﴿٢٤﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ هذا تمام الشكاية من قومه، وحاصلها: إني مغلوب، وكلامه الذي يأتي طلب أن ينتصر اللّه لنفسه ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ وهذا دعاؤه عليهم حين أيس منهم واشتد غضبه لله عليهم دعا عليهم أن لا يزيدهم اللّه إلا ضلالاً ليزدادوا إثماً وعذاباً، وزيادة الإضلال بإرسال الشياطين عليهم وخذلانهم، ونحو ذلك كبسط النعمة وغيره مما لا ينافي العدل والحكمة.

﴿٢٥﴾ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ﴾ أي من أجل خطيئاتهم أغرقوا، وهو ذلك الغرق العام الذي أهلكهم ولم ينج منه إلا من آمن ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ قال الإمام الهادي × : ((أي صيّروا إلى النار، وجعلت لهم موضعاً وقراراً)) انتهى، قال (صاحب الكشاف): ((جعل دخولهم النار في الآخرة، كأنه متعقب لإغراقهم لاقترابه، ولأنه كائن لا محالة فكأنه قد كان)) انتهى.

﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ يدفعون عنهم عذاب اللّه، لا آلهتهم التي يدعون من دون اللّه، ولا غيرها.

فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

﴿٢٦﴾ ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ هذا عطف على كلام نوح السابق، وتخلل ذكر إهلاك قومه، ولعل الحكمة فيه: إفادة أن إهلاكهم بسبب خطيئاتهم لا لمجرد دعاء نوح × و﴿دَيَّارًا﴾ بمعنى أحداً، فلا تذر أحداً منهم، أي لا تترك أحداً منهم بل أهلكهم كلهم، قال الإمام الهادي × : ((لأن ﴿دَيَّارًا﴾ مشتقة من يدور، ومعنى يدور فهو يجول في الأرض)) انتهى، ثم ذكر نوح × الغرض بدعوته على قومه، فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ فبين أن دعاءه عليهم لئلا يفسدوا العباد ويتوارثوا الفساد، فالباعث على الدعاء الحرص على أن يطاع اللّه فلا يعصى، والغضب لله لا لنفسه، قال في (الكشاف): ((فإن قلت: بم علم أن أولادهم يكفرون؟ وكيف وصفهم بالكفر عند الولادة؟ قلت: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فذاقهم وأكلهم وعرف طباعهم وأحوالهم، وكان الرجل منهم ينطلق بابنه إليه ويقول: إحذر هذا فإنه كذاب وإن أبي حذّرنيه، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك، وقد أخبره اللّه ـ عزَّ وجل ـ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦])) انتهى، والفاجر: هو الذي يفعل القبيح من الظلم والفواحش والإثم وهذا ضد البر، والكفّار: كثير الكفر، إما الجحود، وإما كفر النعمة، أو المعنيان معاً.

﴿٢٨﴾ ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ (من دخل بيتي مؤمناً): خصهم

لاختصاصهم به، ثم عم المؤمنين، ويحتمل أن قوله: (من دخل) أراد به من دخل في الماضي ومن سيدخل مؤمناً متى دخل مؤمناً، لأن هذا الموصول يستعمل مع صلته للمستقبل، مثل: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [البقرة:١٢٦] ومثل: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ..﴾ [مريم:٦٠] فمعناه: طلب المغفرة لمن آمن في المستقبل متى آمن ولمن قد آمن معه.

ولعله ذكر البيت لأن من دخل البيت ﴿مُؤْمِنًا﴾ يكون قد أرغم الكفار الذين يغضبون من دخوله بيت نوح، ويكون ذلك دليلاً على صدق إيمانه، وقوله: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ علّق الدعاء على الظلم؛ لأن الكفر والشرك وكل المعاصي ظلم؛ لأنها حيف وجور ضد العدل، فهي سبب استحقاقهم للعذاب، و(التبار): البوار والذهاب والفناء، والمراد: أن يزيدهم عذاباً.

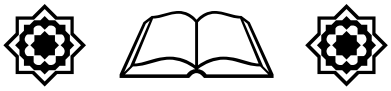

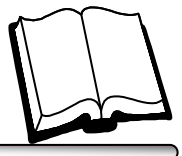

التيسير في التفسير

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ أي أوحى اللّه إلي ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ القراءة ﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جماعة من الجن، قال في (الكشاف): ((ما بين الثلاثة إلى العشرة)) ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ خارقاً في حسن نظمه وإحكامه، مخالفاً في ذلك للمعهود المألوف من الكلام، فلذلك كان عجيباً بليغاً في ذلك، وهو (القرآن الكريم).

﴿٢﴾ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ يدل على الرشد، أي على الصواب والخير ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ صدقنا بأنه كلام اللّه وأنه الحق وأذعنا له وقبلناه ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ لأن ذلك مقتضى الإيمان به؛ لأنه ينهى عن الشرك ويتوعد عليه، فلن نجعل لربنا شريكاً في الملك أو في الربوبية أو في استحقاق العبادة، ولذلك فلن نجعل له صاحبة ولا ولداً، ولا شركاء يشفعون لمعنى أنهم شركاء في الملك.

﴿٣﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ﴿تَعَـٰلَىٰ﴾ علا شأنه وعظم وجل، قال الإمام الهادي: ((ومعنى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي أمر ربنا وفعله، يقول: تعالى أمره وعظم شأنه)) انتهى، وفي (الكشاف): ((﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ عظمته، من قولك: جد فلان في عيني)) انتهى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي ×): ((معناه: علا ملك ربنا وسلطانه، ويقال: جلال ربنا، ويقال: غنى ربنا، ويقال: عظمة ربنا، ويقال: أمر ربنا، ويقال: ذكر ربنا)) انتهى.

شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ

وتفسيره بالملك والسلطان أو بما يفيده هو أظهر؛ لترتيب قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ليفيد: أن كل من في السماوات والأرض عبيد لله مملوكون، ولو كان بعضهم صاحبة أو ولداً ما كان عبداً، وذلك نقص من الملك وملكه أجل وأعلا من أن ينقص أو أن يشاركه فيه صاحبة أو ولد، قال الإمام الهادي × : ((ومعنى ﴿صَٰحِبَةً﴾ فهي الزوجة التي يسكن الزوج إليها وينتفع في كل الحالات بها)) انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا وَلَدًا﴾ تنزيه لله سبحانه عن التبني لولد؛ لأنه غني، وليس الكلام خاصاً بنفي الولد، فهو سبحانه منزه عن أن يكون له بأي طريقة لا بالولادة ولا بالتبني المذكور، مثله في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف:٢١].

﴿٤﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قال الإمام الهادي × : ((ومعنى ﴿كَانَ يَقُولُ﴾ أي لم يزل سفيهنا)) انتهى، وقوله: ﴿سَفِيهُنَا﴾ ذم لمن أهمل عقله وصار ضعيف العقل أو ناقص العقل لذلك، والمراد: السفيه منا أي الكافر، وهو عام لكل سفيه منهم، أو أرادوا إبليس ـ نعوذ بالله منه ـ وأنه ابتدأ القول الشطط فاتبعه غيره.

﴿٥﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ في الماضي قبل أن نسمع القرآن ﴿أَن لَّن تَقُولَ﴾ شياطين الجن ومن تبعهم من الإنس قولاً ﴿كَذِبًا﴾ يجمعون عليه، غفلوا عن عمل الشياطين وسعيهم في إضلال الإنس والجن، فاستبعدوا أن يتفق الفريقان على كذب، فصدقوهم ـ قبل سماع القرآن ـ في إثبات الشركاء لله تعالى أو الصاحبة والولد.

ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى

﴿٦﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ﴾ يستجيرون برجال، قال الإمام الهادي × : «كانوا إذا نزلوا وادياً أو فضاء من الأرض في مجمعة أو سفر، قالوا عند وقت نزولهم وحطهم لرحالهم: إنا نعوذ بكبرا أهل هذا الوادي وسكانه من الجن من شر شرارهم فكانوا كذلك، فيعوذون بالجن ويتركون التعوذ بالله» انتهى ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي الجن زادوا الإنس ﴿رَهَقًا﴾ أي ضراً وإثماً؛ لأنهم يخوفونهم ليزدادوا لجوءاً إليهم وبعداً من التوكل وقرباً من الشرك بالذبح لهم ودعوة الناس إلى العياذ بهم.

﴿٧﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ وقالوا: إن الكفار من الإنس ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أي المخاطبون من الجن قومهم الذين رجعوا إليهم بعد سماع القرآن ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ من قبره لحشره وجزاءه ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨] فاتفق الفريقان على القول الشطط، إثبات الولد لله ـ سبحانه ـ ونفى البعث.

﴿٨﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ أي مسسناها لنسمع ما كنا نسمع من قبل فوجدنا السماء ﴿مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ أي قوياً يحرس السماء من الشياطين ليدفعوهم عن استماع الملائكة ﴿وَشُهُبًا﴾ نجماً مشتعلة ملتهبة يرمي الشياطين بلهبها.

﴿٩﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ قبل بعث الرسول ص ﴿نَقْعُدُ﴾ في ﴿مَقَٰعِدَ﴾ من

ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ

السماء لنسمع ما تقوله الملائكة، فقد اختلف الحال فمن يلمس السماء ويستمع ﴿يَجِدْ لَهُ شِهَابًا﴾ معداً ليرمى به عند وصوله قبل أن يقعد فلا يتمكن من أن يقعد للاستماع، ولا ينافي هذا أن الشهب كانت ترمى من قبل؛ لأن ذلك لم يكن مستمراً كما صار الآن، فلم يكن مانعاً من القعود للسمع في كل حال كما هو الآن، أما الآن فلا يمكن الاستماع ﴿إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات:١٠].

﴿١٠﴾ ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ ﴿لَا نَدْرِيٓ﴾ أراد الله شراً ﴿بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بتشديد الحراسة والرمي بالشهب ﴿أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ بذلك، أو أنا لا ندري بسبب أنا لا نسمع ما تخبر به الملائكة من أمر الله وما يريد أن يقضي في أهل الأرض، وكنا قبل تشديد الحراسة ندري ببعض ما يكون بأهل الأرض لسهولة الاستماع، فالآن تعسر الاستماع فلا ندري ما يكون، قال الإمام الهادي × : ((والشر فهو العذاب والبلاء والرشد فهو الخير والرحمة)) انتهى.

﴿١١﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير صالحين، كأنهم اعتبروا الصلاح درجة رفيعة يقصر دونها من لم يصلح ﴿طَرَآئِقَ قِدَدٗا﴾ ألواناً مختلفة، مثل: مؤمن، ومنافق، وفاسق، وكافر، ممزقين قطعاً ومختلفين فرقاً.

﴿١٢﴾ ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ الأقرب في معنى ﴿ظَنَنَّآ﴾ أنه مثل معنى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ﴾ [الحاقة:٢٠] إما بمعنى

بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ

الخوف، وإما بمعنى اليقين الاستدلالي ﴿لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لو أراد أن يعذبنا لما أنجانا كوننا في الأرض إما في بطنها أو ظهرها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ لو هربنا في الفضاء، ولعلهم قالوا هذا احتراساً بعد قولهم: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ وقولهم: ﴿لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ حيث يفهم من ذلك أنهم قد صاروا يتقون مقاعد السمع خوفاً من الشهب، لئلا يوهم أنهم يعتقدون أنهم إذا نجوا من الشهب فقد أمنوا أن يصيبهم اللّه بعذاب، أو فقد فاتوا اللّه ـ عزَّ وجل.

﴿١٣﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي لما سمعنا هدى القرآن الذي يهدي إلى الرشد ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ والإيمان بالهدى الذي في القرآن إيمان بالله ورسوله واليوم الآخر وغير ذلك.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي أنه يأمن النقص من ثوابه ولا يخاف رهقاً مما يرهق أهل النار ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس:٤١] ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس:٢٧] وقال الإمام الهادي × : ((يريد ولا يخاف من اللّه إرهاقاً بعذاب ولا حكماً عليه بإثم في شيء من الأسباب)) انتهى، فكأنه × أراد (تقدير مضاف) أي: ولا يخاف عقاب رهق، أي عقاب ذنب يغشاه.

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ منا المسلمون وجوههم لله الذين يعبدونه ولا يعبدون غيره، ومنا القاسطون: الجائرون بالشرك.

ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا

﴿فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ قال في (الصحاح): «وإذا قلت: هو حر ـ بكسر الراء ـ وحريٌّ على فعيل ثنيت وجمعت.. إلى أن قال: ومنه اشتق التحري في الأشياء ونحوها وهو طلب ما هو أحرى بالاستعمال في غالب الظن» انتهى، وقال في (الصحاح) أيضاً: «ويقال: هو حري أن أفعل ـ بالفتح ـ أي خليق وجدير» انتهى.

وفي الحديث: «تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» رواه أبوطالب في (الأمالي) [ص٢٧٧] في (الباب الرابع والعشرين) فالتحري: طلب الأحرى عند الطالب أن يكون هو الصواب.

فمعنى ﴿تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ طلبوا لأنفسهم ما هو أحرى أن يكون هدى وخيراً، وفيه إشارة إلى أنهم نظروا ليعرفوا الصواب.

﴿١٥﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ ﴿ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون، ولعلهم أرادوا المشركين لمقابلة من أسلم، فسموا الشرك قسطاً لأنه حيف وجور خلاف العدل والإنصاف، كقوله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وقولهم: ﴿حَطَبًا﴾ معناه: أنها تشتعل بهم كما تشتعل النار بالحطب.

﴿١٦﴾ ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ ﴿وَ﴾ أوحي إليَّ ﴿أَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ قال الإمام الهادي × : «يعني بالاستقامة: استقامة بني آدم، يقول سبحانه: لو استقاموا على الطاعة لنا، والطريقة: هي الأمر الذي افترضه اللّه عليهم» انتهى المراد.

تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ

قلت: جعل الضمير لبني آدم، ولعله رجح ذلك لأن بني آدم هم الذين قد ظهر انتفاعهم بالماء للشرب وإحياء الأرض لتنبت الزرع الذي تأكل منه أنعامهم وأنفسهم والمرعى لأنعامهم وغير ذلك من المأكولات للبشر والحيوان غير الجن و(الماء الغدق): الكثير.

﴿١٧﴾ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم أيشكرون أم يكفرون، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الذكر إما بالقلب واللسان كما هو شأن أهل الإيمان، وهو إضافة المصدر إلى مفعوله، وإما القرآن أي الذكر الذي أنزله كما في (سورة طه): ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا * مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ [آية:٩٩-١٠٠] ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٤-١٢٦] وهذا المعنى مناسب لأول السورة، ومعنى ﴿نَسْلُكْهُ﴾ ندخله عذاباً هو عذاب جهنم، بدليل قوله: ﴿نَسْلُكْهُ﴾ والضمير عائد إلى من يعرض، ووصف العذاب بأنه صعد لأنه لهب يعلوه، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ [الزمر:١٦] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥] وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢] وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف:٤١].

﴿١٨﴾ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿وَ﴾ أوحي إليَّ ﴿أَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ المساجد جعلت لعبادة اللّه وجعلت له،

فهي له بهذا المعنى، وله كل شيء، ولكن المساجد خالصة لعبادة اللّه فأضيفت إليه هنا، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة:١١٤].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ يعم الشرك بالدعاء في المساجد وفي غيرها ولكنه فيها أقبح ولما كان المشركون يشركون في المسجد الحرام وفي البيع والكنائس نهانا ونهاهم عن ذلك.

﴿١٩﴾ ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ قال الإمام الهادي × : ((يقول: إن رسول اللّه ص ﴿لَمَّا قَامَ﴾ يدعو اللّه ويوحده كاد مشركوا قريش أن يكونوا عليه لبداً، ومعنى ﴿كَادُواْ﴾ أرادوا وهمّوا ولم يفعلوا إذ لم يقدروا و﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي فهم يغشونه جميعاً معاً حتى يقعوا بأنفسهم عليه ويبلغوا ما أمَّلوا فيه من الهلكة)) انتهى.

و﴿لِبَدًا﴾ معناه: مجتمعاً متصلاً بعضه ببعض أو متزاحماً أو متراكماً، و(لبَد) جمع (لِبْدة) بكسر اللام وسكون الباء ـ وفي (لسان العرب) عن الأزهري: ((ومعنى لبَدا: يركب بعضهم بعضاً، وكل شيء ألصقته بشيء إلصاقاً شديداً فقد لبَّدتَه، ومن هذا اشتقاق اللبود التي تفرش)) انتهى.

وفيه: ((وتلبد الشعر والصوف والوبر: تداخل ولزق وكل شعر أو صوف ملتبد بعضه على بعض فهو لِبْد ولِبْدة والجمع: ألباد ولبود على توهم طرح (الهاء))) انتهى.

وحاصل المعنى: أنه لما قام رسول اللّه ص الذي هو عبد لله وحق العبودية أن يعبد ربه المالك له المنعم عليه غضب الكفار وأقبلوا عليه منكرين لدعائه ربه لإخلاصه له ورفضه للشرك الذي هو دينهم.

لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ

﴿٢٠﴾ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ **﴿قَالَ﴾ في قراءة، و﴿قُلۡ﴾ في قراءة، فأما الأمر فمعناه: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين غضبوا من قيامك داعياً لربك ﴿إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي﴾ أي أدعوه ولا أدعو غيره ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ ولا بد أنه ص قد امتثل وقال كما أمر، وهو مصداق ﴿قَالَ﴾ الذي في (قراءة نافع)، وفي قوله: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ يدخل فيه أنه لا يطيعهم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾** [الأنعام:١٢١] **وحاصل الجواب: المصارحة بأنه يخلص الدعاء لله ويرفض الشرك، ولعل هذا كان من أول أعمال الرسالة.**

﴿٢١﴾ **﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ لعله أمر بهذا القول لبيان: أنه لا يدّعي ذلك، كقوله: ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾** [الأنعام:٥٠].

﴿٢٢﴾ **﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ وهذا جواب عنهم آخر أو جزء من الجواب، ومعناه: أني لا أتحول عن ديني ولا أطيعكم لأني لو عصيت ربي عذبني؛ لأنه ﴿لَن يُجِيرَنِي﴾ منه يوم القيامة ﴿أَحَدٞ﴾ من شركائكم ولا غيرهم ﴿وَلَنۡ أَجِدَ﴾ من دون اللّه ملجأ: مكاناً أنجو من اللّه فيه، كما يعتصم من المخلوقين بالدخول في مخبأ أو الذهاب إلى مكان يجهلون كونه فيه أو يصعد جبلاً شامخاً يصعب عليهم طلوعه فيتركونه أو نحو ذلك، أما اللّه سبحانه فلا عاصم منه.**

﴿٢٣﴾ **﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي ﴿لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ ينجيني من اللّه إلا**

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ

بلاغاً من اللّه أرسلني به وهو القرآن، قال تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم:٥٢] وقال تعالى: ﴿بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥] ورسالاته كلها، فذلك هو الذي ينجيني بأن أتمسك به وأبلغه لا رَفْضُه واطراحه كما يريد الكافرون ولا شركاؤهم ولا غير ذلك.

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بمعنى: أني أبلغكم عن اللّه ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ﴾ برفض ما بلغته أو ترك ما جئت به أو خالفه فإن له نار جهنم وهذا مناسب لقوله تعالى:

﴿٢٤﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ هذه غاية لعنادهم الذي دل عليه السياق من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ فتكرار الاحتجاج عليهم والرد بعد الرد والإنذار بعذاب نار جهنم، يفيد: أنهم مستمرون في تمردهم وعنادهم، فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ يفيد: استمرارهم في عنادهم حتى يروا ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ من القيامة أو العذاب العاجل ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ يومئذ ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ هم أم رسول اللّه ص، ويتبين: أنه أعز ناصراً وأكثر عدداً؛ لأن ﴿اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤].

﴿٢٥﴾ ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ أَدْرِي﴾ أي لا أدري ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ مدة وأجلاً متأخراً، وذلك لأني لا أعلم الغيب، وهذا من الرد على جدالهم في الآخرة، وقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨] أو نحوه.

أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ **أي هو أي ربي عالم الغيب، أو قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ نعت لقوله: ﴿رَبِّي﴾ ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ فلا يطلع على غيبه أحداً، ولذلك فلا أعلم الغيب إلا ما أرسلت به.**

وقوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ استثناء لمن ارتضاه اللّه للرسالة؛ لأنه زكي أمين على الرسالة يبلغها ولا يقصر في تبليغها كما أمره الله.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾ أي فإن اللّه ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ من الملائكة وهم الحفظة يكتبون عمله وتبليغه للرسالة كما يكتبون أعمال سائر المكلفين، وهذا تحقيق لعبودية الرسول، وتعظيم لشأن ما أرسل به، وتكريم له في النهاية حين يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه﴾ [الحاقة:١٩] وفيه إشارة إلى أن المستثنى من علم الغيب هو ما علمه اللّه ليبلغه إلى من أرسل إليهم، كالقيامة، والجنة، والنار، والملائكة.. وغير ذلك.

قال الإمام الهادي × ـ ونعم ما قال ـ : ((وقد يمكن ويكون ـ والله أعلم وأحكم ـ أن يكون معنى قوله: ﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فهو ما جعل من اللّه مع من ارتضى من التوفيق والتسديد والمعونة والتأييد ما حفظه اللّه به من الزلل والخطأ وغير ذلك من الأعداء..)) إلخ.

قلت: ويمكن أن الرصد حرس يحفظونه لتبليغ الرسالة، ويدفعون عنه من يحاول منعه مع كتابتهم لعمله وإحصائهم لما يصدر عنه إذا جعلنا الرصد حقيقة، فأما المجاز على كلام الإمام الهادي × فهو واضح في تأدية هذا المعنى.

﴿٢٨﴾ ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي ليبلغوا الغيب الذي أرسلوا به، فإذا أبلغوا علم أن قد أبلغوا وأعد لهم ثواب ذلك ولمن اتبعهم، وتمت حجته على من عصاهم، وأعدّ لهم عذابه لأنه قد هلك من هلك عن بينة وحي من حي عن بينة.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ علمه كله لم يخف عليه منه شيء فاختباره لعباده ليس لجهل بما يكون منهم ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من أعمال الرسل والمرسل إليهم وغيرها أحصاها ﴿عَدَدًا﴾ لإحاطة علمه بالجمل والتفاصيل والأعداد.

وفي الآية دلالة على أن الناس لا يعلمون من الغيب إلا ما بلغتهم الرسل، ولا يعلم الرسل منه إلا ما أرسلهم اللّه به فعلمهم ليبلغوه، فصارت دعوى من يدعي علم الغيب لبعض الأئمة أو الشيوخ دعوى مردودة، ومن روى في ذلك رواية غير متواترة ولا دل القرآن على قبولها فهي مردودة وزعمه أنها في الفضائل لا يترتب عليها عمل، فلا يشترط في قبولها الصحة زعم مردود؛ لأنها مخالفة للقرآن لا يخصص بها، فكيف صح العدول عن القرآن من أجلها؟!

مع أن قوله: لا يترتب عليها عمل مردود، فقد ترتب عليها دعاءهم للأئمة وخوفهم ورجاؤهم ومراقبتهم في الأعمال، وترتب عليها الحكم

بخلاف حكم القرآن، وذلك أنهم جوّزوا للأئمة الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة بأكل الطعام المسموم مثلاً وهم يعلمون أنه مسموم، فأثبتوا حكماً مخالفاً لحكم القرآن؛ لأن اللّه تعالى يقول: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

فقالوا: قد جاز هذا للأئمة، وتجويزه للأئمة مترتب على دعوى أنهم يعلمونه، ودعوى أنهم يعلمونه مترتب على تلك الروايات التي هي غير صحيحة، ولا يصح أن يبنى عليها حكم شرعي، فقد خالفوا القرآن لأجل تلك الرواية.

ولو أجابوا: بأنهم لا يدعون للأئمة أنهم يعلمون ذلك بالإلهام، وأنهم إنما أثبتوه على أنه علم ورثوه عن آبائهم عن النبي ص، وهذا لا خلاف في أنه قد يقع مثله من علم بعض الحوادث بهذه الطريقة.

فالجواب: أنه دعوى بلا دليل؛ لأن عمدتهم في ذلك روايات غير صحيحة مؤدية إلى مخالفة القرآن كما بينا فتبطل، لأن القرآن لا يخصص بالتجويز والاحتمال، بل يدفع به التجويز والاحتمال والروايات الضعيفة؛ لأنه الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه لقول اللّه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢١٣].

والمراد أنهم خالفوا قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥] فأما مخالفتهم لآيات نفي علم الغيب فإنما هو بإثبات علم الغيب بواسطة الإلهام دون التبليغ من الرسول ص ووصوله إليهم بالروايات من آبائهم عليهم السلام.

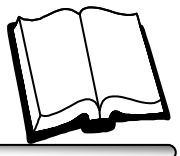

التيسير في التفسير

سورة المزمل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴿٥﴾ إِنَّ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ هذا نداء من اللّه لنبيه محمد ص، ومعنى ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ الملتحف بلحافه المتدثر في مضجعه، و﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ و﴿الْمُدَّثِّرُ﴾ معناهما سواء، كذا قال الإمام الهادي ×.

قلت: وهو من التطبيق على الواقع؛ لأن ﴿ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ الملتحف بلحافه ولو لم يكن مضطجعاً، كما في قول امرئ القيس:

كأن أبانا في عرانين وبله ... كبير أناس في بجاد مزمّل

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ قم مصلياً الليل، أي الليل كله ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ فأمر أن يستوعب بقيامه الليل إلا قليلاً؛ ليقرأ القرآن في صلاته كله، وكان قليلاً يمكن أن يقرأه كله في صلاته لأن بقيته لما ينزل في ذلك الوقت، أي في أول النبوة.

﴿٢-٤﴾ ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بيان لقوله: ﴿اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ لأن القليل غير محدود، فحدد تعالى وقت القيام بأنه نصف الليل أو أقل منه قليلاً أو أكثر منه، فالرسول ص مخير بين الثلاثة الأوقات، أو هو على حسب حاله في إتمام القرآن إن أتمه في النصف أو قبله بقليل أو بعده بقليل فقد امتثل، و(الترتيل) التفصيل والتأني بالتلاوة، وفي الحديث: ((يرتل الأذان، ويحدر الإقامة)) وقال الإمام الهادي ص في تفسيره: ((أي بيّنه تبييناً)) انتهى.

نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ

وفي (الصحاح): ((الترتيل في القراءة الترسل فيها والتبيين بغير بغي ـ ثم قال ـ: ورجل رتل مثال تعِب بيّن الرَّتَل أي مفلج الأسنان)) انتهى.

وفي (الكشاف): ((ترتيل القرآن: قراءته على ترسّل وتؤده بتبيين الحروف وإشباع الحركات، حتى يجيء المتلوّ منه شبيهاً بالثغر المرتل وهو المفلج المشبّه بنور الأقحوان، وأن لا يهذّه هذاً ولا يسرده سرداً)) انتهى، قال في (الصحاح): ((ورجل مفلج الثنايا أي منفرجها، وهو خلاف المتراص الأسنان)) انتهى.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ فأمر بالقيام استعداداً لما سيلقى عليه من القرآن لثقله بما فيه من التكاليف الشاقة، كالجهاد، ومفارقة القرابة الكفار، والهجرة من الوطن والحج.. وغير ذلك كترك الخمر على الذين كانوا تعودوه، والاستعداد بالقيام إما بأنه سبب للبركة وزيادة نور القلب وصلاح النفس حتى تهون عليها الصعاب، وإما بتمرين النفس على تحمل المشاق في طاعة اللّه، وإما لذلك كله ولغيره من فوائد القيام.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ قال في (الصحاح): ((والناشيء: الحدث الذي قد جاوز حد الصغر والجارية ناشئة أيضاً)). انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((الناشيء: الشاب)) انتهى.

وفي (نهاية ابن الأثير): ومنه نشأ الصبي ينشا نشأً فهو ناشيء إذا كبر وشبّ ولم يتكامل، ومنه الحديث: ((نَشَأ يتخذون القرآن مزامير)) يروى بفتح الشين جمع (ناشيء) كخادم وخدم، يريد جماعة أحداثاً)) انتهى.

وفي الحديث الشريف: ((سبعة تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله شاب نشأ في عبادة اللّه عز وجل..)) الحديث رواه الإمام زيد بن علي في (المجموع) والإمام الهادي × في (الأحكام)، فالأقرب في ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: أنها أوله حين يستتم ظلامه، كأنه شبّ وقوي فاشتدت وطأته على الناس ودعتهم إلى الراحة عن الأعمال والنوم مع تعب أعمال النهار، ففي هذه الحالة يتهيأ فراغ البال للعبادة وتدبر آيات القرآن؛ لأنه في هذا الوقت يخلو للعبادة ولا يكون مظنة أن يأتيه من الكفار من يشغله ويشوش عليه ذهنه بالأذية والتكذيب، فكانت ناشئة الليل ﴿أَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ تستقيم فيها التلاوة وتبعد عن السهو والغلط، وهي أفضل من غيرها في هذا المعنى.

فإن *قيل*: إن الناس في تلك الساعة يميلون إلى النوم، ورسول اللّه ص من الناس، فكيف لا يميل إلى النوم ويشغله النعاس عن إتقان القراءة وتدبر القرآن؟

والجواب: أن الفرق بينه وبين أهل مكة في ذاك الوقت فرق ظاهر، فهم مقبلون على أعمال الدنيا غافلون عن اللّه، أما رسول اللّه فهو شديد الرغبة في العبادة، شديد الخوف من اللّه، عالي الهمة، قلبه معلق بذكر اللّه، فحين قد أمر بقيام الليل فهو مشمر لطاعة اللّه بقلبه وبدنه، فهو بعيد عن النوم مع أنه ليس يتعبه الكد في أعمال الدنيا، ولا ممن يكثر الأكل فهو مخالف لهم في كل معنى.

فإن قيل: فما فائدة الترغيب في تلك الساعة مع وجوب قيام نحو نصف الليل أو النصف أو أكثر؟

قلت: ليزيد اهتمامه بها واستعداده لها، كما فضلت العشر الأواخر من شهر رمضان مع فضله كله، وذلك عند حدوث الأعذار التي ترخص في ترك القيام مثل المرض الخفيف الذي يستطيع معه قيام ناشئة الليل.

إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً

ويحتمل: أن ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ تمتد إلى النصف ولا تختص وقت العشاء، وهذا أقرب لأنه لا دليل على تحديدها بساعة أو ساعتين، وعلى هذا: فهي معظم وقت القيام.

فإن قيل: فالتفضيل في قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ﴾ تفضيل على أي وقت؟

قلت: يحتمل أنه تفضيل على وقت صلاة النهار أو صلاة الظهر؛ لأنها وإن كانت في وقت راحة من نصب الأعمال فليست مثل ناشئة الليل.

﴿٧﴾ ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾ فراغاً كبيراً تقضي فيه أعمالك، وقال الإمام الهادي × : ((يريد سبحانه بقوله: ﴿سَبْحًا طَوِيلاً﴾ أي فراغاً كبيراً ووقتاً يصلح لما تريد أن تشتغل به عن فرض صلاة ليلك في أوله حتى لا تؤخرها إلى آخره)) انتهى المراد، قلت: ولعل من أعظم شغله تبليغ الرسالة وما يتبعه من الحركات.

﴿٨﴾ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ أي في الركوع والسجود في صلاة الليل والتشهد والدعاء، وتعليق الذكر بالاسم يدل على أن المراد: الذكر بالقول.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ قال الإمام الهادي × : ((ومعنى ﴿تَبَتَّلْ﴾ فهو: تفرغ له وانقطع إليه واستسلم بكليتك في يديه، وتفرغ لعبادته ونفاذ أمره، وفي ذلك ما تقول العرب: فلان متبتل، تريد: أي متفرغ لعبادة اللّه لا يشرك في خدمته مع اللّه أحداً لا نفساً ولا والداً ولا ولداً ﴿تَبْتِيلاً﴾ فمعناه: انقطع إليه يا محمد بكليتك انقطاعاً باتاً ثابتاً)) انتهى.

﴿٩﴾ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾ ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ المالك لهما المتولي لاطلاع الشمس والقمر والنجوم من المشرق

وأفولها من المغرب، وفي ذلك الآيات العظيمة الدالة على قدرته وعلمه وفضله على عباده ونعمته ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو، فهو المستحق للعبادة لأنه المالك المنعم ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ تتكل عليه، قال الإمام الهادي × : ((يقول: فاجعله كافياً لأن الوكيل في لسان العرب: هو الكافي، فقال سبحانه: اجعل ربك لك كافياً، واتكل عليه معيناً وعاضداً)) انتهى.

قلت: يعني أنه يكفيه مهماته التي لا يستطيعها ولم يكلف بها، مثل دفع المكذبين له وحمايته، ومثل إعانته على تبليغ الرسالة، وتيسير أسباب ذلك وتيسير الأنصار وغير ذلك، وفي هذا تشجيع له على القيام بمهماته التي كلف بها.

﴿١٠﴾ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مما يؤذيك من تكذيبهم لك وغيره، فلا تعجل على مقاومة متكلم أو ترد عليه بمثل كلامه، أو تعجل على قتالهم قبل أوانه، أو على مهاجرتهم قبل أن يؤذن لك ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بالإعراض عنهم وترك مجالستهم، إلا حال التبليغ في محله، مع المداراة بالكلمة الطيبة، وترك الذم والسباب حال غيابهم.

﴿١١﴾ ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ ﴿ذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ خلني وإياهم، أي دعني أنفرد بعقابهم فأنا أكفيكهم ﴿أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ أهل المال الواسع والنعم الوافرة التي وجب عليهم شكرها فكفروا واستكبروا ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ أي قليلاً من الوقت حتى تتم الحجة عليهم ويسلم من كان يسلم في مدة الإمهال حتى يأذن اللّه بقتال الكافرين المحاربين للدين ثم يصيرون إلى ما أعد لهم في الآخرة، وبينه بقوله تعالى:

وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ

﴿١٢-١٣﴾ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿أَنكَالاً﴾ أغلالاً وقيوداً يعذبون بها ﴿وَجَحِيمًا﴾ ناراً عظيمة، قال في (الصحاح): ((الجحيم: اسم من أسماء النار وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم، من قوله تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٩٧])) انتهى.

قلت: الاسم يحلى بـ(أل) كما قال، وهنا المراد ـ والله أعلم ـ : نار موصوفة كأن الكفار في أول الإسلام لم يعرفوا اسمها، فذكرها بوصفها ليفهموا ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ يبقى في حلق آكله لا ينزل إلا بعد شدة من الاغتصاص به ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ عذاباً شديداً كلمة جامعة لأنواع العذاب نعوذ بالله منه.

﴿١٤﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ تكون الأنكال والجحيم والطعام ذو الغصة والعذاب الأليم يوم القيامة الذي هو يوم ترجف الأرض والجبال ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ صارت من الرجفة كالرمل، قال الإمام الهادي × : ((يقول: صارت الجبال بعد ما هي عليه من انعقادها ويبس صخرها وحجارتها ﴿كَثِيبًا مَّهِيلاً﴾ والكثيب: فهو الرمل، والمهيل: فهو المنهال الذي لا يمسك بعضه بعضاً)) انتهى.

﴿١٥﴾ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً﴾ شاهداً عليكم بكفركم إن كفرتم وعصيانكم إن عصيتم يشهد عليكم يوم القيامة، فإذا عصيتم وكفرتم أخذناكم أخذاً وبيلاً، كما أرسلنا إلى فرعون موسى وهارون.

فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن

﴿١٦﴾ ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي أخذنا فرعون ﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقيلاً غليظاً؛ ولأنه هلاك صار به إلى العذاب الدائم، فهو وخيم لسوء عاقبته فيمكن تفسير الوبيل: بسيء العاقبة، كقوله تعالى: ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [التغابن:٥] أي وخاومته وسوء عاقبته.

﴿١٧﴾ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ أي أرسلنا إليكم رسولاً ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ بالرسول وما جاء به من الآيات، فاليوم الذي ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ تشيب منه رؤوس الولدان ويصيرون في هرم الكبار، وهذا في أول أهوال ذاك اليوم لشدة أهواله وعظم زلزاله لا يكون لكم فيه قوة ولا ناصر، وهو يوم لا يتقى هوله إلا بالإيمان والتقوى، فإذا صرتم في ذلك اليوم على كفركم، فكيف تتقونه وقد فات أوان التقوى والإيمان النافعين؟!!

﴿١٨﴾ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ تنشق السماء بسب ذلك اليوم، كأنه آلة لانفطارها يشقها بنفسه أو في ذلك اليوم ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ لا بدَّ من وقوعه ووقوع ما وعد اللّه بوقوعه فيه؛ لأنه وعد صادق وعد أصدق القائلين وأحكم الحاكمين.

﴿١٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ هذه الآيات تذكرة لمن يتذكر، وتنبيه لمن ينتبه ويستعمل عقله ويتفكر فينتبه من غفلته.

ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً﴾ **فمن شاء من المكلفين المخاطبين بهذا في الحال والمستقبل في هذه الحياة الدنيا اتخذ لنفسه سبيلاً يقربه إلى ربه، وطريقاً يبلغه رحمة اللّه ورضوانه والنجاة من عذابه، فلا مفر منه إلا إليه بالإيمان والتقوى في هذه الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾** [الذاريات:٥٠] **وفيها دلالة على بطلان القول بالجبر.**

﴿٢٠﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰۙ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ **إن ربك يعلم أنك تقوم كما أمرت أو هو في الواقع زائد على ما يكفي من المأمور به في بعض الحالات في توفير الزيادة على النصف حتى يقارب القيام ثلثي الليل.**

ولعله ص صار إلى هذا الوقت في آخر مدة العمل بهذا التكليف الذي هو إيجاب ترتيل القرآن كله فهو يزداد وينمو بسبب تنزيله شيئاً فشيئاً، فلعله كان قد كثر حتى احتاج إلى الزيادة إلى قريب من ثلثي الليل ليتم القرآن كله، أي الذي قد نزل عليه.

﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ ولعل الطائفة: علي × ، وخديجة عليها السلام، فهما مظنة ذلك، وفي (شواهد التنزيل) للحاكم الحسكاني بسنده عن ابن عباس قال: ((علي، وأبو ذر)) وفي رواية أخرى في (شواهد التنزيل) بإسناده عن ابن عباس في هذه الآية: ((فأوَل من صلى مع رسول اللّه ص علي بن أبي طالب، وأول من قام الليل معه علي..)) إلخ.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لن تحصوا القرآن المأمور به في القيام كل ليلة، فالقرآن ينمو ويزداد ويكثر حتى لا يتسع له وقت القيام من الليل؛ لأن الليل محدود بتقدير اللّه له وللنهار، فالليل لن يتسع تبعاً لكثرة القرآن بل يبقى على حده ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أسقط عنكم القيام المشتمل على ترتيل القرآن كله.

﴿فَٱقْرَءُواْ﴾ بدلاً من ذلك ﴿مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ من قليل أو كثير، قال الإمام الهادي × : ((فجعل قليل القرآن مجزئاً لمن كان لصلاته مؤدياً)) انتهى، ويفهم من كلامه × أن ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ للبيان مثلها في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ [يونس:٦١] وعلى هذا فلا بد من قراءة ما يسمى قرآناً، والظاهر: أن السورة تسمى قرآناً لأنها معجزة، فتجزي مع (الفاتحة) سورة ولو من قصار السورة، فالقارئ المصلي مخيّر فيما تيسر له إذا كانت عدة سور متيسرة له.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ هذا تعليل للتيسير بقراءة ما تيسر؛ لأنه كان يكفي في التخفيف مع كثرة القرآن قراءة ما أمكن إلى نحو نصف الليل، ولكن اللّه سبحانه رخص بإجزاء ما تيسر، لعلمه بما سيكون من ضعف المصلين بسبب المرض أو الضرب في الأرض أو القتال في سبيل اللّه.

وفيه فائدة: أن العلة لا تخصص الحكم العام ولا تقيد المطلق، وفيه: دلالة على إباحة الضرب في الأرض لحاجة الإنسان يبتغي نيلها بالسفر كطلب العلم وهو أهم المطالب.

وفي ذلك: دلالة على أن حديث: ((لا تشد الرجال إلاَّ إلى ثلاثة مساجد)) الحصر فيه إضافي بالنسبة للصلاة أي لا تشد الرحال للصلاة في مكان لفضله إلا إلى الثلاثة المساجد، وليس هذا من العموم والخصوص؛ لأن قرائن إرادة الحصر الإضافي كثيرة مقارنة للكلام حيث كانوا يشدونها للحاجات، وخلقت لذلك الإبل كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ..﴾ الآية [النحل:٥-٧] وقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ * وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ..﴾ [يس:٧١-٧٢] وآيات عديدة، وقد كتبت في هذا رسالة مستقلة بعنوان (مسألة شد الرحال) وفي الإتيان بلفظ الجمع مرضى وآخرون وآخرون مكرراً ما يشعر بأن الأصل في الصلاة الجماعة، وخصوصاً بعد قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هكذا يحوَّل اهتمامهم الذي كان للواجب المنسوخ إلى الاهتمام بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ففي آيات الصدقة عند مناجاتهم لرسول الله ص: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المجادلة:١٣] وفي (سورة النساء): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [آية:٧٧] وذلك تقوية للهمم لأهمية الصلاة والزكاة، واحتياج المكلف إلى عناية تامة لإقامة الصلاة، بالمحافظة على أوقاتها وطهارتها وشروطها وفروضها وإخلاصها وخشوعها، في حالات المكلف المختلفة في تعبه وفتوره ونشاطه وقوته وضعفه وصحته ومرضه، وإنما يختلف التكليف فتصير إقامة الصلاة في السفر والمرض بإتمام الواجب فيهما في وقت الصلاة فيهما، وكذلك الزكاة يحتاج المكلف فيها إلى عناية تامة؛ لئلا ينقص منها شيئاً، والتقصير فيها يكون لأسباب مرجعها إلى الشح والتسهيل وقلة المبالاة بأمر الله.

﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ هذا في الإنفاق غير الزكاة كالإنفاق في سبيل الله، قال الإمام الهادي × : ((فشبهه بالسلف الذي لابد من قضائه وتسليم مثله إلى صاحبه وإعطائه، فعلى هذا المعنى: جاز أن يسمى ما تقرب به إليه سلفاً إذ كان بالمجازاة لهم عليه مرصداً ومضاعفاً)) انتهى المراد.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا فتح لباب التطوع وترغيب في الاستكثار منه، وهو ترغيب عظيم حيث جعل المنفَق تقديماً لنفس المنفِق.

وقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ يظهر منه: أنه سبحانه يربي الصدقة، كما جاء في الحديث: ((فيربيها حتى تصير اللقمة مثل أحد)) ولفظه: ((فيربيها كما يربي أحدكم فُلُوَّه أو فصيله، حتى تصير اللقمة مثل أحد)) انتهى.

وهو في (مجموع الإمام زيد بن علي إ) في (باب صدقة السر) بل وفي القرآن الكريم: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦] وهذا ممكن في العقل لأن اللّه سبحانه قادر على أن يكثّر فوائد الصدقة وآثارها ويسلسلها حتى تعظم بعظم فوائدها وكثرتها وآثارها وتسلسل الفوائد والآثار، مثاله إطعام بعض سلفنا ـ رحمه اللّه ـ لطالب لم يتمكن من البقاء على طلب العلم والاستمرار عليه إلا بذلك الإطعام، فاستمر الطالب على طلب العلم حتى صار عالماً كبيراً مؤلفاً في العلم لكتب نافعة انتفع بها الطلاب في عصره وبعده إلى يومنا هذا، بل وصار ذلك الطالب مع علمه إماماً هادياً مجاهداً في سبيل اللّه، دفع الفساد، وأحيا الدين، ونشر العدل والعلم، وبقي أثره إلى هذا الزمان، وهو الإمام القاسم بن محمد × فحسنات ذلك المطعم الذي كان يطعمه كيف تكون قد صارت لما ترتب عليها مع كون المطعم كان يطعم لهذا الغرض أعني للمعاونة على طلب العلم وما يترتب عليه، وكان المطعم من أهل العلم والدين والفضل مظنة صدق النية والإخلاص فكيف تكون تلك النفقة في عظمها، وبالأولى نفقة رسول اللّه ص ومن معه في سبيل اللّه، فكم يترتب عليها من المصالح الدينية مع تتابع الأجيال وتسلسل الفوائد فيها، وهذا مرادنا بتعظيم الحسنة وتربيتها.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ اسألوه غفران ذنوبكم، والطلب للغفران المقبول ما كان بالقلب واللسان مع الإقلاع عن المعاصي والعزم على الطاعة، فأما باللسان وحده ومع الإصرار فلا يفيد شيئاً؛ لقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] ولعل هذا المعنى فائدة الأمر بالاستغفار في هذا السياق، فكأنه يقول: وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا واستغفروا اللّه ليغفر لكم ويقبل ما تقدمون من خير.

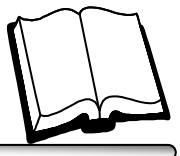

التيسير في التفسير

سورة المدثر

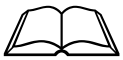

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ
فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ النداء هذا لرسول الله محمد بن عبد اللّه بن عبدالمطلب بن هاشم الهاشمي القرشي، نزل عليه القرآن أولاً بـ(مكة) في بلده الأول.

قال الإمام الهادي ص: «و﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ هو الملتحف، والالتحاف: فهو طرح الثياب على الإنسان عند اضطجاعه. قال × : وسبب تدثر رسول اللّه ص: أن الوليد بن المغيرة المخزومي لعنه اللّه جمع قريشاً في دار الندوة، ثم قال: يا معشر قريش إن هذا الإنسان قد ادعى ما ادعى والعرب تفد عليكم وتأتي بلدكم فلا يزال السائل يسأل عنه بعضكم فيقول شيئاً ويسأل آخر فيقول له شيئاً آخر، فاشتوروا وأجمعوا له أمركم وكلمتكم حتى يكون قولكم فيه قولاً واحداً فما تقولون إنه؟ فقال بعضهم: مجنون، فعبس في وجهه ـ ثم قال ـ : ليس هذا بقول وليس هو وأبيكم بمجنون. فقال بعضهم: شاعر، فقطب في وجهه أيضاً وقال: ليس هذا شاعراً، قد سمعنا الشعر وقلناه فليس هذا على مجراه. فقالوا: كاهن. قال: ولا بكاهن ليس يغبا على العرب الكاهن. فقال بعضهم: ساحر. فقال لهم: وما الساحر وما يعمل؟ فقالوا: يفعل فعلاً يفرق به بين المرء وزوجته [كذا] ويحبب المبغض ويبغض الحبيب. فقال: هذا إذاً، قد والله يفعل محمد ذلك، فأجمعوا كلمتكم على أنه ساحر فخرجت قريش من (دار الندوة) فلم يلق أحد منهم رسول اللّه ص

إلا قال: ياساحر، فاشتد ذلك عليه ص، فخرج حتى أتى منزله فطرح نفسه وتدثر بلحافه من شدة الغم وما نزل به لقولهم من الهم، فأنزل اللّه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ..﴾» انتهى.

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ معناها على رواية الإمام الهادي × : الأمر بالنهوض إلى قومه وعشيرته لينذرهم، ولا يحمله تكذيبهم له على تركهم فهو أمر له بالثبات على موقفه، والإنذار: تبليغهم أن اللّه سيعذبهم في نار جهنم خالدين فيها أبداً، ولا نجاة لهم إلا بالإيمان ورفض الشرك وتقوى الله.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ عظم ربك بعبادته وحده وبتكبيره بأن تقول: «اللّه أكبر» ولعل المراد: تكبير الصلاة، ولذلك أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ قال الإمام الهادي × : «﴿وَثِيَابَكَ﴾ فهي هذه الثياب الملبوسة المعروفة باسمها المفهومة بذكرها» انتهى، قلت: وهذا يفيد: أنه المعنى الحقيقي فلا يعدل عنه إلاَّ لقرينة صارفة.

﴿٥-٧﴾ ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ * وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ قال الإمام الهادي × : «﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾ هو كل نجس معلوم من وثن أو صنم أو شيء محرم مفهوم..» إلخ كلامه في هذا المعنى.

وقال الجوهري في (الصحاح): «الرجز: القذر مثل الرجس» انتهى، وهو موافق لكلام الإمام الهادي × وهو على قراءة نافع بكسر الراء.

فأما ﴿ٱلرُّجۡزَ﴾ بضم الراء فقيل معناه: العمل المؤدي إلى العذاب، وأن الرجز هو العذاب، والمراد اهجر ما يؤدي إلى العذاب، والمعاني متفقة على هجر الرجس من الأوثان وسيئات الجاهلية.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ نهي عن المنّ بما أعطى أو فعل من الإحسان، كما قال تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ وقوله تعالى: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ فسره (صاحب الكشاف) بمعنى: ((تراه كثيراً أو طالباً للكثير)) وقوله بمعنى تراه كثيراً مشكل إذا لم يثبت استعمال استكثر مثل استعظم واستكبر؛ لأن الأقرب في هذا المعنى: أنه سماعي لا يثبت بالقياس وهو ـ أيضاً ـ مشكل من حيث أنه لا يليق برسول اللّه ص؛ لأنه لا يراه كثيراً إلا وهو كثير في الواقع، وهذا صواب يبعد أن ينهى عنه، فأما استكثار القليل فإنما هو شأن البخلاء.

ولم يذكر (صاحب لسان العرب) لاستكثر إلا إرادة الكثير من الماء في قول القائل: استكثره إياه إذا أراد لنفسه كثيراً ليشرب منه، والرغبة في الكثير في قول القائل: استكثر من الشيء، والإكثار فسماعي وهو الذي ذكره الإمام الهادي × في تفسير ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ فقال × : ((ومعنى تستكثر فهو تكثر قول ذلك وذِكْره وتعريفهم به)) انتهى المراد.

وقد *يشكل* بأن المن مذموم قليله وكثيره فما فائدة التقييد؟

والجواب: إنه ليس تقييداً، بل القليل مسكوت عنه، ولعله ذكر لكونه كان عادة بعض الجاهلين، فكأنه قيل: لا تفعل كما يفعلون، وقد جاء في الحديث مثله: روى الإمام الهادي × في (الأحكام) عن علي × قال: قال رسول اللّه ص: ((تحرم الجنة على ثلاثة: مدمن الخمر، والمنان، والقتات)) وهو النمام، انتهى. ورواه أبو طالب × في (الأمالي) في (باب التحذير من شرب الخمر) بسند صحيح عن علي × قال: قال ص: ((تحرم الجنة على ثلاثة: المنان والعياب والنمام، وعلى مدمن الخمر)) انتهى، فقال: ((المنان)) وهو يفيد التكثير، وليس معناه إباحة القليل.

﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ على ما كلفك من تبليغ الرسالة وغيره، وعلى بلائه فيما ابتلاك به، وعلى أذى الكفار المكذبين لك حتى يحكم الله.

﴿٨-١٠﴾ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ فسر ﴿ٱلنَّاقُورِ﴾ بالنفخ في الصور، فظهر: أنه صوت، وفسره الإمام الهادي × : «بعلامة يحشر الناس إليها من نور يسطع، أو صوت ملائكة يدعون الناس ويكبرون ويهللون ويحمدون» انتهى.

وقد ذكر اللّه الداعي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦] وذكر الصيحة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ولعلهما شيء واحد في أول يوم القيامة يسمعه أهل القبور فيخرجون.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم ينقر في الناقور ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ لما فيه من الأهوال والحساب العسير والجزاء ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ الكافرين بنعم اللّه الجاحدين بما جاء به الرسول من آيات اللّه، فهو عسير عليهم. وقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيد ونفي لأن يقترن بعسره يسر، فليس كعسر الدنيا الذي يكون معه يسر، أو هو تعريض بالكافرين الذين يكذبون النذير ولا يبالون، بل كأنه ينذرهم شيئاً يسيراً لا حاجة إلى الحذر منه.

﴿١١-١٤﴾ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ من الكافرين الذين يوم القيامة عسير عليهم، خلقه اللّه ﴿وَحِيدًا﴾ فرداً، ولعله كان قد مات أبوه ولم يكن له إخوة فكان فريداً بهذا المعنى، وقد مر مثله: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم:٤٤] .

عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ كثيراً واسعاً ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً لديه غير غائبين عنه، يقال: شاهد للحاضر في البلد فهم شهود بمكة ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ بسطت له النعمة ووفرت له أسباب الرفاهية فأشبه من يمهد له مكانه بالفراش الوثير.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَـٰتِنَا عَنِيدًا﴾ ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإنعام عليه بالمال والولد والتمهيد البليغ بعد ذلك ﴿يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ له، ولعل هذا الطمع الفارغ طمعه في المستقبل من عمره أن يزيده اللّه في هذه الحياة من توفير النعم وفي الآخرة إن رجع إلى ربه، كقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن هذا الطمع؛ لأنه كافر بنعمة اللّه معاند لآيات اللّه يكذب بها ويجادل فيها معاندة وتمرداً بعدما تبين له أن القرآن كلام خارق للعادة لا يأتون بسورة من مثله، فلا يزاد مثل ما مضى بل ينقص.

﴿١٧-١٩﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ سأغشيه ناراً ذات لهب تغشاه، ويصعد لهبها حتى يكون فوقه كالظلة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٥٥] وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦].

و﴿صَعُودًا﴾ مبالغة في الصعود، مثل: ضروب، أي أجعل النار تغشاه وتصاعد عليه، وهذا أظهر في الوعيد إن أريد في الآخرة ﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ فأما

﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

إن كان المراد في الدنيا فلا إشكال في تفسيره بإرهاقه المشاق والعناء، كما يكلف الصاعد في الجبل، ولعل هذا أقرب، أعني: حمل هذا الوعيد على العذاب العاجل، لأن الوعيد بالعذاب الآجل يأتي قريباً في قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ﴿فَكَّرَ﴾ فيما يجادل به في دفع رسالة رسول اللّه ص ﴿وَقَدَّرَ﴾ هيأ كلاماً مخصوصاً حدَّده للجدل وانتخبه بالكم والكيف ﴿فَقُتِلَ﴾ لعن ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ وجملة لعن كيف قدر تعجيب من باطله الذي تخيره من بين ألوان التكذيب، ثم كرر اللعن والتعجيب منه:

﴿٢٠-٢٣﴾ ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ولعل وجه التعجيب منه: أنه أمعن في الباطل وتوغل فيه ليدفع النبوة، ولا يستطيع ذلك ولا صلاح له في هذا الجدال؛ لأن ثبوت النبوة لا يضر من آمن بها، بل هي صلاح للبشر ونور وهدى، وإنقاذ من جهالات الجاهلية التي ما زالوا فيها، فالذي يبالغ في مدافعة النصح ومجادلة النذير بالعذاب الشديد ليبطل إنذاره، إنما يسعى في مضرة نفسه وبقائه على باطله، وعاقبة ذلك أن يصير في العذاب الذي أنذره النذير، فما مثله إلا كالأعمى يرشده البصير إلى الطريق فيأبى إلا المشي على غير هدى، فيتيه ويتخبط وهذا لاشك أنه شيء عجيب.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ بعد أن هيأ الجدل في نفسه نظر إلى أصحابه المنتظرين لما يقوله لهم ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ تضجراً منهم لما يقولون ويعرضون عليه من الجدل

الذي تمجه الأسماع ولا يسوغ إلا لديهم، وهم يريدون كلاماً يجيبون به من سأل عن محمد ممن يصل إلى مكة ونحوهم من العامة فـ﴿عَبَسَ﴾ قطب بين عينيه ﴿وَبَسَرَ﴾ نفر فيهم ودفعهم ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحق ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن قبول الحق.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ ﴿فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ..﴾ إلخ، تفسير لإدباره واستكباره، فهو إدبار واستكبار جديد، مع أنه مدبر مستكبر في نفسه من قبل، ومعنى ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ سحر يحكى وينقل ويتعلم، أي تعلمه النبي ص.

وقوله: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ تكذيب من هذا الكافر ـ لعنه اللّه ـ يزعم فيه أنه ليس قول اللّه تعالى، وكذب عدو اللّه لأنه لو كان قول البشر لجاءوا بسورة من مثله كما تحداهم في مواضع عديدة من القرآن، ففي (سورة والطور): ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَ يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [آية:٣٣-٣٤].

وفي (سورة هود): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آية:١٣-١٤].

وفي (سورة يونس): ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آية:٣٧-٣٨].

عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن

وفي (سورة البقرة): ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ..﴾ الآية [آية:٢٢-٢٣].

وفي (سورة الإسراء) قال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [آية:٨٨] فكيف استمر الجاحدون على كفرهم، مع أنهم لم يأتوا بسورة مثله، وبعد نحو ثلاث عشرة سنة وهم في عنادهم ولجاجهم بعد ذلك صاروا إلى الحرب بينهم وبينه، فلو كانوا يستطيعون أن يأتوا بسورة مثله لما تأخروا يوماً واحداً عن ذلك؛ لشدة غيظهم من رسول اللّه ص وعداوتهم له، وتعصبهم لدينهم، وحرصهم على إبطال رسالة رسول اللّه ص.

﴿٢٦-٢٨﴾ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ وعيد من اللّه أنه سيصلي هذا الكافر نار جهنم، و﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء جهنم، وصليها: مباشرة جسمه للنار، ليس بينه وبينها حائل ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تعظيم لشأنها، وبيان لعظم هولها وشدة عذابها ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ ﴿لَا تُبْقِى﴾ على أحد من أهلها أي لا ترحمه فتخفف عنه ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ أحداً منهم، أي لا تترك أحداً، بل تعذبهم كلهم.

يَشَآءُ وَيَهۡدِی مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِیَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا

﴿٢٩-٣١﴾ ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ * عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِی مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِیَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلۡبَشَرِ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي ×): «معناه: مغيرة للجلد» انتهى، وفي (تفسير الإمام الهادي × »: «واللواحة: فهي المحرقة المغيّرة التي قد غيّرت أبدانهم ببلائها..» إلخ، و(البشر) يحتمل: جمع البشرة أي الجلد، ويحتمل: الناس، كقوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ وهذا الذي ذكره الإمام الهادي × ، وعليه يعم التغيير ما تحت الجلد، كقوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِلشَّوَى﴾ [المعارج:١٦] وهو أرجح، إلا أن يقال: أن اللوح في اللغة يخص تغيير الجلد أما تغيير سواه فلا يسمى لوحاً، ولكن قال في (الصحاح): «لاحه السفر: غيَّره» ولم يقل: غيّر جلده أو لونه، وفي (مفردات الراغب الأصفهاني): «لاحه الحرّ: غيّره» انتهى، وفي (لسان العرب): «ولاحه العطش لوحاً ولوّحه، غيّره وأضمره وكذلك السفر والبرد والسقم والحزن، وأنشد:

ولم يلحها حزن على ابْنِمِ ولا أخٍ ولا أبٍ فتسْـــــهُمِ»

انتهى المراد، فظهر: أنه غير خاص بتغيير الجلد.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ خزنة يعملون ما أمرهم اللّه به من تعذيب أهلها وتدبير أمرها، كفتح أبوابها حين يأتي الذين يعذبون فيها، وإغلاق أبوابها بعد مصيرهم فيها، وهذه الآية كانت من المتشابه حيث لم يأت فيها تمييز العدد، فكانت فتنة للكافرين والذين في قلوبهم مرض، وقد بين اللّه أنهم من الملائكة، فقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لأنهم مكذبون بالنار على الإطلاق، فازدادوا تكذيباً بذكر عدد خزنتها.

وقال في (الكشاف): «وروي أنه لما نزل: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهْم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم؟ فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي ـ وكان شديد البطش ـ: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، فأنزل اللّه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾» انتهى، وهذا الكلام الذي ذكره عن أبي جهل ـ لعنه الله ـ رواه الطبري في (تفسيره) بإسناده عن ابن عباس.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لتصديق القرآن بما عندهم في الكتاب ومطابقة القرآن لما عندهم من العدة للخزنة، مع أن رسول اللّه ص لم يقرا كتاباً ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ لأنهم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً.

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولئلا يرتابوا بالشك في صدق الرسول ص بعد إيقانهم وإيمانهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ [الحجرات:١٥] وذلك بتأكيد الدلائل لهم.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ (اللام) قيل فيها: (لام العاقبة) كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] وقال (صاحب الكشاف): «أفادت (اللام) معنى العلة والسبب، ولا يجب في العلة أن تكون غرضاً، ألا ترى إلى قولك: خرجت من البلد لمخافة الشر، فقد جعلت المخافة علة لخروجك، وما هي بغرضك» انتهى.

قلت: من فوائد هذا التعليل: الدلالة على أن اللّه سبحانه عالم بأنهم سيقولون ذلك من قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ومنها: الدلالة على أنه لا يبالي بهم، لأنه غني عنهم ولا يضره فسادهم ولا ينقصون عليه من ملكه، ومنها: الدلالة على أنهم بمعاصيهم الماضية وتمردهم عن الإيمان بالرسول ص يستحقون أن يبتلوا بما يجعلونه سبباً لكلامهم الباطل بعد سماعهم له، كقوله تعالى في (أصحاب السبت): ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٣]فالابتلاء بهذا عقوبة لهم بما كانوا يفسقون، وقد بسط الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) في إثبات هذا في (فصل الكلام في الهداية والإضلال).

وأما قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فقال الإمام الهادي × في تفسيره: «فأرادوا عليهم لعنة اللّه بقولهم هذا: أن الذي أراد اللّه بذكر ما ذكر من عدة هذه الخزنة وما شرح من أمرهم مثل مضروب، وأنه ليس بحق كائن ولا أمر مجعول بائن» انتهى.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ كلاً بما يستحق، فليس الإضلال خلق الضلال، وإنما هو ابتلاء لمن زاغ عن الحق يضل باختياره من أجل ذلك الابتلاء، وقد يكون الابتلاء الواحد سبباً لضلال الفاجر وهدى المؤمن؛ لأن الفاجر يختار الضلال بسببه، والمؤمن يختار الهدى بسببه.

لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ جنوده من الملائكة أو جنود السماوات والأرض، فهو العالم بهم على التفصيل والإحاطة ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي تلك الكلمة العظيمة، وهي قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فهي تذكرة وتنبيه للبشر أي للناس ليتقوها.

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ حرف زجر وردع عن قول الكافرين والمنافقين ﴿وَالْقَمَرِ﴾ قسم بالقمر بآية اللّه التي تدل على قدرته وعلمه لما فيها من أثر التدبير المحكم ﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ عطف على القمر لما فيه من دلالة القدرة التي بها أدبر الليل بعد استمراره ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ كذلك عطف على المقسم به داخل في القسم ومعنى ﴿أَسْفَرَ﴾ أضاء وانتشر نوره، وهو دليل على قدرة اللّه تعالى، فلا وجه لإنكار الكفار للآخرة والجنة والنار، وقولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ الضمير إما لصفة ﴿سَقَرُ﴾ لعظم معناها من حيث هي نذير للبشر للناس كلهم تنذرهم أمراً عظيماً، وإما لسقر لأنها إحدى الآيات الكبر.

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ نذيراً للناس أجمعين، ونصب (نذير) قال في (الكشاف): «تمييز من إحدى على معنى: أنها لإحدى الدواهي إنذاراً، كما تقول: هي إحدى النساء عفافاً، وقيل: هي حال» انتهى.

يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

وهذا على أن الضمير لصفة ﴿سَقَرُ﴾ في إنها لإحدى، فأما على أن الضمير لسقر نفسها، فيحتمل: أنه في حكم المفعول المطلق منصوباً بما يدل عليه الكلام، مثل وعد اللّه بعد الوعد لأن ذكرها إنذاراً، فكأنه قيل: أنذركم سقر إنذاراً للبشر، وقام (نذير) مقام (إنذار) مثل قوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] وفي كتاب (إعراب القرآن) ذكر فيه عشرة أقوال للنحاة.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إلى الإيمان والتقوى والفرار من النار ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ عن المبادرة إلى طلب النجاة، فهي تذكرة ﴿لِمَن شَآءَ﴾ أن ينتفع بها وحجة على من فرط في نفسه.

﴿٣٨﴾ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ قال الإمام الهادي × : ((فمعنى ﴿رَهِينَةٌ﴾ أي مأخوذة مرتهنة، ومعنى مرتهنة: أي محبوسة محاسبة)) انتهى، فالنفس رهن عند اللّه كالرهن في الدَّين حتى تحاسب فيفكها الحساب؛ لأن صاحبها أعد لنفسه ما يخلصها، أو يغلق الرهن لأن صاحبها أوجب عليها ذلك فتصير إلى النار.

﴿٣٩﴾ ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ فإنهم وإن ارتهنوا بما كسبوا فلا يضرهم ذلك، وأصحاب اليمين: أهل التقوى الذين هم أهل اليُمن والخير والسعادة.

﴿٤٠-٤١﴾ ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ إما حال من أصحاب اليمين، فالمعنى: استثناء (أصحاب اليمين) حال كونهم في الجنات، فهم حينئذ غير مرتهنين بخلاف (أصحاب النار) وإما خبر مبتدأ محذوف.

ٱلۡخَآٰئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمۡ

أي هم في جنات يتساءلون يسأل بعضهم بعضاً ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ولعل تساءلهم عن المجرمين تساؤل عن أسباب عذابهم بالنظر إلى أنواع المعاصي، وبالنظر إلى الأشخاص الذين يعرفون، كأن يقول بعضهم: ما أهلك فلاناً؟ فيقول آخر: تكذيبه بآيات اللّه، ويقول آخر: ما أهلك فلاناً؟ فيجاب: الكبر، ويقول قائل: ما أهلك فلاناً؟ فيقول مجيب عنه: الحسد، ثم يجمع رأيهم على أن يسألوا المجرمين أنفسهم ليجيبوا فيقولون للمجرمين:

﴿٤٢﴾ ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ ما أدخلكم في سقر ليجيب المجرمون مقرين على أنفسهم، ليكون ذلك أوقع في نفوس المؤمنين، حيث يذكرون نجاتهم من ذلك العذاب كما في (سورة الصافات): ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ..﴾ إلى قوله: ﴿..قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ الآيات [٥٢-٥٥].

﴿٤٣-٤٤﴾ ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ لعدم رجاء الثواب وعدم خوف العقاب، وذلك لعدم الإيمان.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآٰئِضِينَ﴾ ﴿ٱلۡخَآٰئِضِينَ﴾ فيما لا يرضي اللّه الخائضين في الباطل، مثل التكذيب للرسل، والجدال في آيات اللّه.

﴿٤٦﴾ ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ (يوم الدين) يوم يجزى الناس بأعمالهم، كنا نقول لمن أخبر به: هذا كذب، فكان التكذيب سبباً لوقوعهم في العذاب، كما أن الإيمان كان سبباً لنجاة المؤمنين.

﴿٤٧﴾ ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ عند الموت فتيقنا أن يوم الدين آت، أو حتى أتانا الموت أي جاءنا من حيث لا نطلبه.

﴿٤٨﴾ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ قال الإمام الهادي × : ((يقول ـ جلَّ جلاله ـ : إنهم لو شُفِعَ فيهم لم تكن تنفعهم شفاعة الشافعين، وإنما هذا تمثيل من اللّه، وإعلام لعباده بكفرهم وعظيم جرمهم، وذلك أن الشفاعة تنفع في موضع الأمر اليسير، ولا تنفع في الموضع الذي فيه حكم من اللّه عليهم بالعقوبة، لا أن أحداً من الأنبياء والمرسلين، ولا الملائكة المقربين صلوات اللّه عليهم يشفع لأحد من أهل الوعيد، حاشَ لله أن يكونوا كذلك، أو يفعلوا شيئاً من ذلك)) انتهى. قلت: يعني أن الشفاعة لهم لا تكون، فنفي النفع المراد به نفي الشفاعة، كقول الشاعر:

على لا حبٍ لا يهتدى بمنارِهِ

أي لا منار له فيهتدى به، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨] وقوله تعالى حاكياً في (سورة الشعراء): ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ [آية:١٠٠] وفائدة نفي النفع: أن الوعيد فيه يقطع الأماني، فلو قدرنا الشفاعة فهي لا تنفع، وفيه: دلالة على أن اللّه له الحكم وحده يوم القيامة فسواء شفع شافع لو فرض وقدر أو لم يشفع.

وبذلك يرد أماني المشركين الذين يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨] وهذا في الرد عليهم مثل قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦] فبين: أن الملك له وحده، وليس لهم من الأمر شيء، وتفسير الإمام الهادي × هنا أظهر من تفسير من قال: إن هناك شفاعة أي لغيرهم، فما تنفعهم لأنهم محرومون منها؛ لأن معنى هذا لا تنفعهم شفاعة الشافعين لغيرهم، وهذا ضعيف عند من يفهم.

حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ

﴿٤٩﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ رجع.. الكلام في الكفار في الدنيا الذين تتلى عليهم آيات القرآن التي هي تذكرة وتنبيه من الغفلة فيعرضون عنها، ولا يفكرون في عواقب الإنذار.

﴿٥٠﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في إعراضهم ونفارهم عن التذكرة ﴿حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ أي حمير أفزعت بسبب مفزع شديد، كأنه طلب نفارها وقصد تنفيرها.

﴿٥١﴾ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ هربت من قسورة، قال الإمام الهادي × : «ومعنى ﴿قَسْوَرَةٍ﴾ فهو الأسد» وهذا يدل على أنهم نافرون نفاراً باقياً في أنفسهم، كنفار الحمير من الأسد؛ لأنها تخاف أن يأكلها فإذا رأته فرت منه، وبقي الخوف في أنفسها حتى تنساه، فكلما رأته فرت منه.

﴿٥٢﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ يريد أن ينزل اللّه عليه كتباً منشرة تقرأ، ويكون هو النبي المأمور بتليغ ما فيها، قال الإمام الهادي × : «فأخبر سبحانه أن جميع الفاسقين المكذبين إنما كذبوا رسول اللّه ص حسداً منهم له على ما آتاه ربه، فكلهم يطلب ويتمنى أن يكون نبيئاً مرسلاً، وليس ذلك لهم ولا كرامة، بل لله الأمر والقدرة والعظمة والعزة يعطي من يشاء نعمته ويؤتيه كرامته» انتهى.

وفائدة التعبير بقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا﴾ دون أن يكون رسولاً الدلالة على أن غرضه الشرف بما يؤتى والعلو والفخر، لا أنه يريد أن يكون هو المكلف بتبليغ الرسالة، وتحمل أعبائها وإصلاح العالم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، فليس هذا غرضه فلم يناسب التعبير بالرسالة؛ لأنه قد يوهم خلاف غرض كل منهم.

﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ﴿٥٦﴾

﴿٥٣﴾ ﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ لجهلهم وعدم إيمانهم بها، فلذلك يعرضون وينفرون من الحق، وينقادون للحسد، و﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ لا أنهم أهل لما يتمنونه وقوله: ﴿كَلَّا﴾ زجر وردع عن هذا التمني، أو عن الإعراض عن التذكرة.

﴿٥٤﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٌ﴾ زجر وردع عن إعراضهم عن التذكرة؛ لأنه تذكرة قامت بها الحجة عليهم.

﴿٥٥﴾ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي ذكر اللّه وخافه وخشيه واتقاه، لينفع نفسه، وتذكير الضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ لأنه عبارة عن القرآن، والسياق في الآيات رد على من قال: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ ومن كان على طريقته.

﴿٥٦﴾ ﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ اللّه وتخشونه وتتقونه كما هو شأن الذاكرين اللّه ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ لأنكم مصرون على الكفر متمردون نافرون معرضون عن النظر واستماع الموعظة، فبينكم وبين الذكر مراحل، ولن يكون منكم إلا أن يشاء اللّه مصرف القلوب، هذا وأما الإمام الهادي × فجعل الخطاب لغيرهم، فقال × : ((يقول سبحانه: إنكم لم تكونوا تقدرون على التذكرة والتفكرة والتمييز بين الحق والباطل لو أن اللّه لم يشأ أن يجعل فيكم استطاعة تنالون بها الفكرة والتمييز، وعقولاً تصلون بها إلى التذكرة، ولكنه شاء ذلك لكم فركبه وجعله بمنّه فيكم)) انتهى.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ هو أهل أن يتقى ويحق له أن يتقى؛ لأن بطشه شديد وهو على كل شيء شهيد، وهو أهل لأن يغفر لمن اتقاه.

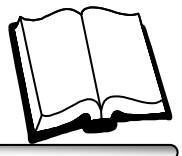

التيسير في التفسير

سورة القيامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلۡ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قال الإمام الهادي × : «معناها: ألا أقسم بيوم القيامة. قال: وإنَّما معناه إيجاب قسم» انتهى، قلت: يعني: أنه مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح:١] أي شرحنا.

وقال (صاحب الكشاف): «والمعنى في ذلك: أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له، يدلك عليه قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة:٧٥-٧٦] فكأنه بإدخال (حرف النفي) يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام، يعني أنه يستاهل فوق ذلك» انتهى، وفيه مشكلتان:

الأولى: أن حاصله: أن هذا نفي للقسم، لأنه يستاهل قسماً أعظم فيلزم أن قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة:٧٥] ليس قسماً، مع أنه قسم بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

المشكلة *الثانية*: أن كلامه وإن استقام في يوم القيامة وغيرها من المخلوقات، فلا يستقيم له في القسم بالله ـ عزَّ وجل ـ لأنه لا شيء أعظم منه سبحانه وتعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج:٤٠] فالأرجح قول الإمام الهادي × .

﴿٢﴾ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ قال الإمام الهادي × : «هو أيضاً قسم طرحت منه الألف، كان معناها: أوَ لا أقسم بالنفس اللوامة، والنفس اللوّامة: فهي نفوس المتقين اللوامة، فهي النادمة المتحسرة التي تلوم صاحبها» انتهى المراد.

يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ

وجواب القسم دل عليه السياق وهو: ليجزين اللّه كل نفس ما كسبت، أو لينتقمن من أعدائه.. أو نحو ذلك، لأن ذكر القيامة يشير إلى ما يكون فيها والجزاء من أهم ما يكون فيها.

﴿٤-٢﴾ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ فنبعثه فنجازيه ﴿بَلَىٰ﴾ سنجمعها ﴿قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ قال في (الكشاف): «أي أصابعه التي هي أطرافه وآخر ما يتم به خلقه» انتهى.

قلت: يعني فهو كناية عن إعادته خلقاً جديداً، وقال الإمام الهادي: «والبنان: فهو الخلق والجعل و﴿نُّسَوِّىَ﴾ فهو نجعل ونحيي ونرد إلى القوة كل ما قد بلي من عظم أو لحم حتى نرد بنانه إلى الاستواء بعد ما كان عليه من الخراب» انتهى.

قلت: في (لسان العرب) ما لفظه: «وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] قال أبو إسحاق: البنان هاهنا جميع أعضاء البدن، وحكى الأزهري عن الزجاج، قال: واحد البنان: بنانة، قال: ومعناه هاهنا: الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء» انتهى المراد. وحاصل المعنى: نجمع عظامه، قادرين على تسوية خلقه وإعادة جسمه كما كان.

﴿٦-٥﴾ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ * يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ أن يفجر في مستقبل أوقاته، ومعنى (يفجر) يسيء ويعصي إتباعاً لهوى نفسه، فهو يجادل في القيامة ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ﴾ متى ﴿يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كقولهم: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس:٤٨].

يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾

فـ﴿أَمَامَهُۥ﴾ اسم لما قبله من الزمان في هذه الحياة و﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى (متى) فجداله في القيامة إنما هو اتباع لهوى نفسه، لا لمصلحة تعود على البشر؛ لأنهم إذا جحدوا تجرؤوا على الفجور.

﴿٧-١٠﴾ ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ ﴿بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ شخص وحار من فزع يوم القيامة، قال في (الصحاح): «يقال: شخَص بصره فهو شاخص، إذا فتح عينيه وجعل لا يطرف» انتهى، قلت: لعل المعنى أن بصره يصير مثل بصر المحتضر ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب وتلف وتهدم ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ قيل: يجمعان في التلف والذهاب.

والأرجح عندي ـ والله أعلم ـ : يجمعان للتلف بأن يصطدما، فعندما يعاين الإنسان أهوال القيامة ويوقن بها يقول: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وقد كان ينبغي له أن يسأل أين المفر في هذه الدنيا حين جاءه النذير، فعند ذلك لو كان كذلك يقال له: المفر تقوى اللّه وطاعته، والإيمان به وبرسله، ففي قول اللّه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى أن سؤاله بعدما فات الأوان، فهو في غير وقته الذي كان ينفع فيه؛ لأن قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بعد قوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾ تجديد لذكر الوقت.

﴿١١﴾ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر عن السؤال أين المفر؟ إنكار لطمعه في المفر ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا منجا ولا مهرب.

﴿١٢﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ مستقر العباد، صائرين إلى اللّه ليسألهم ويحاسبهم، فمستقرهم في الموقف إليه وحده، ليحكم فيهم بما يشاء،

وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾

ويجزي كل نفس بما تسعى، وفي هذا قطع لأطماع المشركين الذين يقولون: إن آلهتهم تشفع لهم، فبيّن: أنهم لا يصيرون إليها لتدفع عنهم، إنما يصيرون إلى اللّه وحده، ويقفون ويستقرون للسؤال والحساب لا يجدون مفراً ولا ناصراً.

﴿يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (النبأ): الخبر ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من أعماله في حياته الدنيا ﴿وَ﴾ ما ﴿أَخَّرَ﴾ فيها، أي لا ينسى عمل من أعماله ولو تقادم عهده في حياته، ولا يترك شيء من عمله إلا أخبر به، ولعل إخباره باطلاعه على كتابه، ولا يبعد أنه يرى نفسه في كتابه كما في (التلفزيون) و(السينما) فيتذكر بمشاهدة صورته وصورة أعماله في الدنيا ويعلم ذلك يقيناً، لأنه يتذكره بالمشاهدة.

ويحتمل قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من الطاعات والمعاصي ﴿وَأَخَّرَ﴾ وما أخر من الطاعات والمعاصي، فيدخل العصيان بترك الواجب، ويمكن أن يعرض ذلك كله، ويتذكر ما ترك بمشاهدة ظروفه في الكتاب كأن يرى نفسه متكئاً في وقت الصلاة ويمر الوقت وهو على أحواله المخالفة للصلاة، وهذا أظهر لعموم قوله تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾.

﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ الإنسان على نفسه حجة بيّنة؛ لأن جوارحه تنطق بما قدم، فكأنه قيل: بل هو شاهد على نفسه، وتظهر فائدة الإضراب بقوله تعالى: ﴿بَلِ﴾ إذا فهمنا أن الإنسان ينبأ بما قدم وأخّر احتجاجاً وتقدمه للجزاء.

﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ ﴿وَلَوۡ﴾ طرح اعتذاراته التي لا تصح عذراً نافعاً وجاء بها يدافع عن نفسه، فشهادته على نفسه بنطق جوارحه لا تبطل بتلك المعاذير لو جاء بها.

كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ﴿٢٥﴾

ولعل قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ جاء على طريقة الفرض والتقدير، ولن يكون منه إلقاء المعاذير، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦].

﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه:١١٤] والمراد: إذا أوحي إليك قرآن فانتظر تمامه، وتأن حتى ينتهي وحيه، ثم اقرأه ولا تعجل بقراءته قبل تمام وحيه، أي لا تسارع إلى التلاوة في خلال وحيه إليك وانتظر تمام الوحي، وليكن المهم عندك إحرازه في قلبك بدون تحريك للسانك.

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ إن علينا أن تجمعه في قلبك وتقرأه بلسانك، فلا تعجل به خوفاً أن تنساه ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ أتممنا قراءته، أي قرأ جبريل × ما أنزل به في تلك المرة ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ أي قراءتنا، فالقرآن مصدر هنا أي فاقرأ كما قرأناه، فالإتباع هنا خاص باللفظ.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ علينا أن تبينه للناس لأنا أنزلناه إليك لتبيينه للناس، وهذا يتوقف على جمعك له في صدرك وإتقان قراءتك له كما أنزل، فلا تخف أن تنسى شيئاً قبل تبليغه أو عند نزوله قبل حفظه، فإنك لابد أن تحفظه وتقرأه وتتمكن من تبيينه للناس، فكان ص مبيناً للقرآن من خلال إرشاداته، ومن خلال حركته وسيرته، وجميع مواقفه في الحياة، إذ أن ذلك كله كان من منطلق قرآني بحت، فكانت حياته ومواقفه وكلامه كلها بياناً للقرآن الكريم.

﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ هذا راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ وهو التفات إلى من كان الكلام فيهم، كأنه تعالى

يقول: ﴿كَلَّا﴾ لا تلقوا المعاذير فليست صدقاً وإن زعمتم أنها صدق لا تزعموا أنكم مستعدون لذلك، فلستم كذلك ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ ونظيره الإضراب في قوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى:١٦] بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا﴾ [الأعلى:١٣] و﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ هي الحياة الدنيا، و﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ الحياة الآخرة عند البعث من القبور.

﴿٢٢﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ حسنة مشرقة لسرورها واطمأنانها واستبشارها والمراد أهل الوجوه، والوجوه: كناية عن أهلها؛ لأن سرور الإنسان يظهر في وجهه، ولأن بياض الوجوه علامة سعادتهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ..﴾ فأسند إليها الظن؛ لأن المراد أهلها.

﴿٢٣﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال الإمام الهادي × : ((ومعنى ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أي راجية لثوابه منتظرة كذلك، تقول العرب: ما أنظر إلا إلى اللّه وإليك ليست تريد بذلك النظر بـ(العين) وإنما تريد فضله وعطاءه)) انتهى المراد.

قلت: ويناسب هذا قوله تعالى في أعدائه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ فقابل رجاء المؤمنين بظن الفجار، ويناسبه ـ أيضاً ـ أن المؤمنين يتوقعون الخير من ربهم وحده دون غيره، فهو أنسب للحصر بتقديم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا﴾ على ﴿نَاظِرَةٌ﴾ أما الكفار فيقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف:٥٣].

وقد زعم بعض المخالفين أن تفسير الآية بـ(الانتظار) لا يصح؛ لأنه يدل على الافتقار وضعف الحال؟

والجواب: أن هذا غير صحيح، وإنما هذا في موقف الحساب قبل دخول الجنة، فهم يرجون من اللّه أن يدخلهم الجنة، وليس في هذا ضعف حال

لأنهم في موقف الحساب آمنون سعداء بأمنهم من النار ورؤيتهم أعداء اللّه في سوء الحال، وسعداء بظهور علامات الخير من بياض الوجوه وتيسير الحساب وغير ذلك، وإنما يدل الانتظار في الدنيا على ضعف الحال؛ لأن الدنيا ينظر الضعيف فيها إلى القوي، فضعف الحال فيها يقارن الانتظار، أما انتظار العبد للخير من ربه الذي بيده الخير فهو ضروري لكل مؤمن، ولا يدل على ضعف الحال الذي كان في الدنيا؛ لأن انتظار دخول الجنة لا يستلزم أن يكون المؤمن في موقف الحساب في شدة أو في حال ضعيفة.

يؤكد هذا أن نظر الوجوه لو كان معناه: توجيهها إلى اللّه لرؤيته، للزم أنه سبحانه في جهة مخصوصة توجّه الوجوه إليها، وهذا يستلزم التشبيه من حيث استلزامه تحديد المنظور إليه بالجهة التي اختصت بالنظر إليها.

وبهذا يظهر: أن الآية من المتشابه، وأن الواجب الإيمان بأنها من اللّه سواء قلنا بإمكان تفسيرها بالانتظار أم تعذر علينا تفسيرها ووقفنا متمسكين بالمحكم الموافق للعقول، وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١] وقوله تعالى: ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

ونضيف: أن النظر في الآية أضيف إلى (الوجوه) لا إلى (الأعين) فإذا جاز إسناد الظن إلى الوجوه؛ لأن المراد أهلها جاز إسناد الرجاء إلى الوجوه لأن المراد أهلها.

ونضيف: أن الرؤية لم تذكر في الآية، ولا يصح أن يكون النظر كناية عنها إلا حيث تكون الرؤية بواسطة النظر أي توجيه (العين) إلى جهة مخصوصة ولا يصح هذا في الآية كما قدمنا، ونضيف: أن (العين) لم تذكر فلا يصح الاستدلال بها على الرؤية بـ(العين).

وإذا ادعوا أن النظر كناية عن الرؤية؟

قلنا: ما المانع أن يكون كناية عن القرب الذي هو علو المكانة وارتفاع الدرجة، فيكون المعنى أنهم مقربون، كما كنى عن الطرد والإبعاد بالحجب في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] والحجب: منع الزائر من الوصول إلى الملك، كما قال الشاعر:

لهم حجاب ولنا أنفس تمنعنا الذل عزيزات

وكما قال الشاعر:

له حاجب عن كل أمر يشينه وليس له عن طالب العرف حاجب

والحاجب: هو الخادم الذي يكون على باب الملك يمنع الناس من الدخول إليه إلا بإذنه، فأما من ظن أن معنى: ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] أنهم لا يرونه، فهو ظن غير مصيب؛ لأنه لو كان هذا هو المراد لكان التعبير: إن ربهم عنهم محجوب لا يكشف لهم الحجاب كما يكشفه للمؤمنين في زعم المشبهين لله سبحانه وتعالى.

﴿٢٤﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ وهي وجوه أعداء اللّه تكون يوم القيامة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ قال في تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي إ: ((معناه: كالحة عابسة)) انتهى.

وفي (الكشاف): ((الباسر: الشديد العبوس)) وفي (لسان العرب): ((وبسر يبسر بسراً وبسوراً: عبس ـ ثم قال ـ: وفي (التنزيل العزيز): ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ وفيه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ قال أبو إسحاق: بسر أي نظر بكراهة شديدة، وقوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي مقطبة قد أيقنت أن العذاب نازل بها)) انتهى.

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾

وفي (الصحاح): «وبسر الرجل وجهه بسوراً، أي كَلَحَ» انتهى، وفي (لسان العرب): «الكلوح: تكشير في عبوس. قال ابن سيده: الكلوح والكلاح بدو الأسنان عند العبوس» انتهى. ثم قال: «وفي (التنزيل): ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤] قال أبو إسحاق: الكالح: الذي قد قلصت شفته عن أسنانه، نحو ما ترى من رؤوس الغنم إذا برزت الأسنان» انتهى.

قلت: وهذا يحصل من الخوف، وفي (قصيدة عنترة):

لما رآني قد نزلت أريده أبدى نواجذه لغير تبسّم

ويمكن تفسيره: بالمنع، على معنى: أن الذي منع نفسه رحمة اللّه عابس كالح يومئذ؛ لعلمه بسوء مصيره، فهو من التطبيق على الأمر الواقع الذي سيق له الكلام.

﴿٢٥﴾ ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ تتوقع أن يفعل بها في الحال ﴿فَاقِرَةٌ﴾ داهية دهياء ومصيبة عظمى، وأصل الفاقرة التي تصيب فقار الظهر أو تكسره، كقوله تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف:٥٣] ولا ينافي هذا الظن أنهم موقنون بالعذاب.

﴿٢٦-٢٧﴾ ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن حب العاجلة وترك الآخرة ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ النفس عند قرب الموت وخروج النفس بلغت ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ العظام التي في أعلا الصدر إلى الرقب المكتنفة لثغرة النحر عن يمين وشمال ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ من هو بصير بالرقية ليرقي هذا المريض أو من يرقي هذا المريض.

وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَـٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ

قال الإمام الهادي × : «أراد بذلك: الدليل على جهل الخلق بأمر اللّه، وقلة علمهم باقتضاء أجل صاحبهم، ويتوهمون أن ذا غير الموت» انتهى.

﴿٢٨﴾ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ فراق الروح للجسد، أي ظن أنه الموت أو فراق الإنسان لأهله، وفاعل ﴿ظَنَّ﴾ إما المريض المشرف على الموت، وإما القائل: ﴿مَنۡ رَاقٍ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ بقيت الساق منضمة إلى الساق الأخرى لموتهما لا يفترقان بمشي ولا حركة، ويحتمل: انضمت الساق إلى الساق من وجع الموت، ولكن يشكل على هذا تقدم ﴿بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ فإن النفس إذا بلغت التراقي كان الساقان قد ماتا وذهبت حركتهما.

﴿٣٠﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ أي سوق الميت إلى اللّه؛ لأنه راحل إلى الآخرة، وحضور موقف الحساب والجزاء، يساق إلى الآخرة وإلى لقاء ربه سوقاً، والحصر فيه بتقديم: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لأنه يرجع إلى ربه لا إلى غيره ممن كان يظن الجاهلون أنهم شفعاؤهم عند اللّه، وهو جهل بالحقيقة لأن الأمر يومئذ لله وحده.

﴿٣١﴾ ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ بعد هذه المواعظ القوية التأثير والآيات الدالة على الآخرة من كلام أصدق القائلين، لا صدق المكذب للرسول ص الذي ذكر في أول السورة، ولا صلى لربه الذي خلقه لعبادته.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿كَذَّبَ﴾ الرسول والقرآن ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن سماع كلام اللّه ورسوله، وانصرف وذهب.

﴿٣٣﴾ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ من ملاله لما سمع من كلام اللّه ورسوله، قال الإمام الهادي × : «والتمطي: فهو مدّ اليدين والتلوي والتلفت بالمنكبين والتثني، ولا يقع هذا إلا بالمالّ لما هو فيه من الضجر» انتهى المراد.

ويدل على هذا قول الشاعر يصف مصلوباً:

أو قائم من نعاس فيه لوثبة مواصل لتَمَطِّيه من الكسل

وفي (لسان العرب): «ومطى الشيء مطواً: مده. ثم قال: وتمطى الرجل تمدد. ثم قال: وتمطى النهار امتد، وقيل: كلما امتد وطال: فقد تمطى».

قلت: ويشهد لهذا قول امرئ القيس يصف ليلاً بالطول:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناءَ بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الاصباح منك بأمثل

ويشهد للتمطي من الضجر، قول الشاعر:

شممتها إذ كرهت شَمِيمي فهي تمطى كمطا المحموم

ذكره في (لسان العرب) استشهاداً لاستعمال (مطا) بمعنى (تمطى).

﴿٣٤-٣٥﴾ ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ * ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ خطاب لهذا المكذب المتضجر من سماع كلام اللّه ورسوله. قال الإمام الهادي × : «ومعنى ﴿أَوۡلَىٰ﴾ هو كِيْدَ لك، ومعنى كيد لك: أي كاد أخذ ربك أن ينزل بك» انتهى المراد.

وقال في (الصحاح): «وقولهم: أولى لك، تهدّد ووعيد، قال الشاعر:

فأولى ثم أولى ثم أولى وهل للدَّرّ يحلَب من مَردّ

قال الأصمعي: معناه: قاربه ما يهلكه أي نزل به، وأنشد:

فعادَى بين هاديتين منها وأولى أن يزيد على الثلاث

أي قارب أن يزيد، قال ثعلب: «ولم يقل أحد في (أولى) أحسن مما قال الأصمعي» انتهى.

نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾

﴿٣٦﴾ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «معناه: مهمل لايؤمر ولاينهى ولايحاسب ولايعذب» انتهى، وهذا مناسب لسياق السورة؛ لأن المكذبين بالقيامة والرسول والقرآن كأنهم يحسبون أن اللّه يتركهم هملاً.

﴿٣٧﴾ ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ ألم يكن ماء من مني تمنى، أي تراق وتصب في الأرحام.

﴿٣٨﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ دماً جامداً ﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي خلقه في بطن أمه ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ [الزمر:٦] ﴿فَسَوَّىٰ﴾ ما خلق أي أتقن صنعه وجعله سوياً محكم الصنعة.

﴿٣٩﴾ ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ ﴿مِنۡهُ﴾ أي من المني ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ الصنفين الذكر والأنثى، وهذا من أعظم الدلائل على قدرة الخالق وعلمه، وأنه كما قدر على خلقه قادر على إعادته.

﴿٤٠﴾ ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ ﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ﴾ الخالق المسوي الجاعل من المني الزوجين ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡۦِيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ بلى إنه على كل شيء قدير، فكيف يحسب الإنسان ﴿أَلَّنۡ نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؟!!

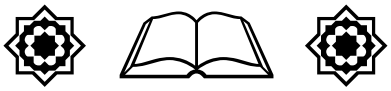

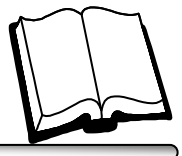

التيسير في التفسير

سورة الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿الْإِنسَانِ﴾ يعلم أنه ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا﴾ يذكر، وذلك حين كانت الأرض موجودة، والسماء والشمس والقمر، وكثير من المخلوقات دون الإنسان، والواحد منا يعلم أنه لم يكن شيئاً يذكر قبل أن حملته أمه.

فالسؤال بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ معناه التقرير للإنسان على ما هو يعلمه، ولذلك قال الإمام الهادي × : ((فمعنى ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ أي قد أتى)) انتهى، و﴿الدَّهْرِ﴾ الزمان الطويل من يوم خلق اللّه السماوات والأرض، أو من أول مخلوق خلقه اللّه وكائن كونه، ومعنى ﴿لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ أنه لم يكن قد خلق فلم يكن يذكر.

فالحاصل: أنه قد أتى عليه حين من الدهر قبل أن يخلق ثم خلقه اللّه، فهذا دليل على الخالق القادر العالم لأنه خلقه بعد أن لم يكن.

﴿٢﴾ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ هي المني ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاط مختلطة أي مؤلفة من أجزاء مضموم بعضها إلى بعض، قال الراغب الأصفهاني: ((﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ أخلاط من الدم)) وقال في (الصحاح): ((مشجت بينهما مشيجاً: خلطت، والشيء مشيج، والجمع: أمشاج، مثل: يتيم وأيتام، ويقال: نطفة أمشاج لماء الرجل يختلط بماء المرأة ودمها)).

وقال في (لسان العرب): ((المشْج والمَشِج والمشَج والمشيج، كل لونين اختلطا ـ ثم قال ـ : المشيج المختلط من كل شيء مخلوط، وفي حديث علي رضي اللّه عنه: <ومحط الأمشاج من مسارب الأصلاب> يريد المني الذي يتولد منه الإنسان)) انتهى، ومثله في (نهاية ابن الأثير).

والذي يظهر: أن المعنى: أخلاط مؤلفة، فأما ما هي الأخلاط فمرجعه إلى الاستدلال والنظر، وفي (تفسير سيد قطب): ((والأمشاج: الأخلاط، وربما كانت هذه إشارة إلى تكون النطفة من خلية الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح، وربما كانت هذه الأخلاط تعني الوراثات الكامنة في النطفة والتي يمثّلها ما يسمونه علمياً (الجينات) وهي وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميزة لجنس الإنسان أولاً ولصفات الجنين العائلية أخيراً، وإليها يعزى سير النطفة في رحلتها لتكوين جنين الإنسان لا جنين أي حيوان آخر، كما تعزى إليها وراثة الصفات الخاصة في الأسرة، ولعلها هي هذه الأمشاج المختلطة من وراثات شتى)) انتهى.

ففي خلق الإنسان منها بيان لقدرة اللّه على إعادته بعد الموت، وفي هذا البيان ابتلاء للإنسان أيؤمن أم يكفر؟! وابتلاء له أيشكر أم يكفر النعمة؟! ولذلك قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس:١٧-١٩] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢] فقد احتج عليه بخلقه من النطفة، وكان خلقه من النطفة اختباراً من حيث هي دليل واضح يمتحن به من يستعمل عقله ومن يكابر ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وفي هذا دليل واضح على قدرة اللّه وعلمه، حيث صار سميعاً بصيراً بعد أن كان نطفة، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا﴾ إشارة أن ذلك كان بقدرة اللّه وعلمه وحكمته وعظمته وجلاله، كما في الآيتين بعدها.

ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

﴿٣﴾ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ الذي هو سبيل اللّه وطريق الحق، أي بيناه له بالعقل والسمع والبصر والرسول والكتاب ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ لنعمة الهدى وسائر النعم ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ في حال هذا البيان لنعم اللّه كلها، قال الإمام الهادي × : ((والشاكر: العارف بفضل ما أولي الذاكر له بلسانه وقلبه، والكفور: فهو المعرض عن حمد من أولاه الجميل الذي ليس بشاكر ولا ذاكر)) انتهى، وله كلام آخر يجعل الفاسق كافر نعمة.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا و(الكافرين) هنا: من كفر نعمة اللّه و(السلاسل) من الحديد و(الأغلال) قيود من الحديد، والأغلال تغل بها أيديهم وأعناقهم فتجمع اليدان والعنق في قيد قصير نعوذ بالله، و(السعير) النار المسعرة الشديدة التوقد.

﴿٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ هذا وعد للأبرار وهم المؤمنون العاملون بطاعة اللّه، كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ..﴾ إلى آخر الآية [البقرة:١٧٧] و(الكأس) هنا كما في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: من خمر)) انتهى.

وقد كثر استعماله في الكوب الذي فيه خمر، وإطلاقه على الخمر نفسها كناية، وأصله الكوب من الزجاج، أو أصله الكوب بما فيه من الخمر، ثم يستعمل في أحدهما وحده، قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات:٤٥-٤٦].

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ دليل أن المراد: الشراب، أو جملة الكوب والشراب، والمزاج: ما يمزج به أي يخلط به، و(الكافور) نوع من الأطياب أبيض اللون قوي الرائحة بارد، وقال الإمام الهادي × : ((ومعنى ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فهو إخبار من اللّه أن طعم ما يشرب من تلك المياه يوجد كالمخلوط بالكافور، وهو أطيب ما يكون طعماً ورائحة)) انتهى.

﴿٦﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (العين) ما يخرج من الأرض أو الأحجار من الماء ونحوه، وهو يدل على توفر هذا الشراب وكثرته، خلاف خمر الدنيا التي تعز على أهلها ويتلفون فيها أموالهم، وكذلك قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ فهو يدل على غزارتها وتوقفها على اختيارهم، إن شاءوا فتحوا لها فانفجرت، وإن شاءوا أغلقوا.

و﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ هنا: أولياؤه المتقون، كما قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا..﴾ إلى آخر الآيات في (سورة الفرقان) فهم عباده الذين تعبدوا له في الدنيا وحققوا في سلوكهم معنى العبودية، وقد أقيم عباد اللّه مقام الضمير إن كان المعنى يشربون أي الأبرار وهو الراجح، وفائدة ذلك الإشارة إلى سبب هذه النعمة.

﴿٧﴾ ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ وهذا من صفة ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ والنذر: المنذور به، وهو ما أوجبه العبد لله على نفسه من عمل أو نفقة ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ أي يخافون يوم القيامة ومعنى ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ كان شره كثيراً منتشراً شائعاً.

وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ

وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((معناه: فاش)) انتهى، وقال الإمام الهادي × في (الأحكام): ((ولا تجوز صلاة الصبح حتى يعترض الفجر ويتبين وينتشر نوره وضوءه في الأفق، فإذا انتشر وأنار واستطار في الأفق واستضاء لذوي الأبصار وجبت الصلاة..)) إلخ، فقال: ((واستطار)) والمعنى: انتشر، وفي (مفردات الراغب الأصبهاني): ((وفجر مستطير: أي فاش، قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾)) انتهى. واسْتَطَارَهُ شر يوم القيامة لكثرة أهواله وشدة زلزاله وكثرة أهل النار.

﴿٨﴾ ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ على حب الطعام وشهوته بسبب أن هؤلاء الأبرار جائعون، لكنهم آثروا على أنفسهم ﴿مِسْكِينًا﴾ محتاجاً شديد الفقر ﴿وَيَتِيمًا﴾ صغيراً لم يبلغ وقد مات أبوه ﴿وَأَسِيرًا﴾ مقيداً من الأعداء قد أخذه المسلمون في الحرب، قال الإمام الهادي × : ((والأسير: كل مأسور قد أوثق أسره، واشتد عليه بالأسر حاله وأمره، ممن لا يقدر على ماله وأهله من الأسارى الذين أسرهم رسول اللّه ص من الكفرة الفاجرين، وكذلك من أسرته الأئمة الهادون من متأول فاجر أو جاحد كافر)) انتهى المراد.

وذكر الإمام الهادي × في كتاب (الأحكام) في أوله، وفي (التفسير) أن هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ نزلت في رسول اللّه ص، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين (عليهم السلام).

وفي (الدر المنثور) للسيوطي ـ من كبار علماء أهل السنة ـ عند ذكر هذه الآيات: ((وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ..﴾ الآية. قال: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم)) انتهى.

وفي (شواهد التنزيل) رواية نحو هذا عن ابن عباس من طرق، وعن علي × ، وعن زيد بن أرقم فطالعه، وفي كتاب (مناقب أمير المؤمنين ×) لمحمد بن سليمان الكوفي رواية ذلك عن علي × من طريق زيد بن أرقم [ج١/ ص١٦٤].

وأورد الحاكم الحسكاني روايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين حاصلها: أن (سورة هل أتى على الإنسان) مدنية، وقد اعترض بعض المفسرين على هذا القول، ورجح أنها (مكية) لما فيها من صور النعيم وطول وصف النعيم وتفصيله، وما فيها من صور العذاب الغليظ، وما فيها من توجيه رسول اللّه ص إلى الصبر لحكم ربه وعدم إطاعة آثم منهم أو كفور؟

والجواب: أن كثيراً من السور يقال: (مكية) أو (مدنية) وليست كلها مكية أو مدنية، فلو فرضنا أن السورة (مكية) باعتبار الأربع الآيات في أولها، ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ..﴾ إلى آخر السورة فلا نسلم أن الآيات في وسطها (مكية) لكثرة الروايات في نزولها في أهل البيت عليهم السلام، كما يعرفه الباحث المتطلع، مع الروايات أنها (مدنية) وهو جمع بين القولين.

وأما ما فيها من صور النعيم فإنه مناسب للترغيب في الإنفاق والإيثار على النفس؛ لأنه أمر ثقيل على النفس، فالترغيب المفصل يعين عليه،

وكانت الحاجة في المدينة إلى الإنفاق ظاهرة، وخصوصاً إطعام اليتيم مع تعدد اليتامى أبناء الشهداء، وإطعام الأسير مع أنه لا يعرف هذا إلا بالمدينة، وإطعامه يعين على إبقائه حتى يفدي دون أن يقتل بالجوع أو يطلق بلا فدية، وإطعام المسكين فقد كثر المساكين بالمدينة كأهل الصفة فكانت الحاجة إلى إطعامهم، ومصلحة ذلك في الإسلام تستدعي البسط في الترغيب والبسط في الترغيب لمن قد آمن هو أنفع من ترغيب الكفار الذين لا يؤمنون بالجنة، فمظنته المدنية لكثرة من قد آمن، أما الكفار فإنما المهم في حقهم الترهيب.

وترى (سورة الهمزة) و(سورة التكاثر) و(سورة أرأيت) كلها ترهيب خالص وهن (مكيات) إلا ما قيل في آخر (أرأيت) فأما ذكر (الآنية) فلا يدل على أنها (مكية) لأن الترغيب صالح للمدينة وغيرها وكذا (الحرير) ويكفي في معرفته السماع به وإن كان عزيزاً لا يوجد عندهم فهو أبلغ في الترغيب.

فأما صور العذاب الغليظ فهي في أولها، ولا يبعد أنه (مكي) ولا وجه لجعله لا يصلح (للمدينة) ففيها وحولها من يحتاج إلى الترهيب، وموافقته لترهيب كفار مكة لا دلالة فيه على ذلك؛ لأنه ترهيب للبشر أينما كانوا صالح لكل بلد.

وقد جاء في (سورة محمد) ص الترغيب المفصل في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [محمد:١٥] وهي (مدنية) بدليل الأمر بالقتال، وبدليل قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد:١٣] وغير ذلك، وكذا في (سورة الرحمن) ترغيب طويل مفصل وهي (مدنية)

وفي (سورة الحج) ترهيب بالمقامع من حديد، وهي (مدنية) فلا وجه لما طول به المعارض لنزول الآيات في أهل البيت، فقد ظهر انحرافه عن الاعتراف بالآيات النازلة فيهم المشهور نزولها فيهم، والظاهر من لفظها كـ(آية التطهير) و(آية المباهلة) و(آية المودة).

﴿٩-١٠﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ ﴿لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ تقرباً إليه وتوسلاً إلى رضاه ورحمته، لأن الراضي عنك يقبل إليك بوجهه، والمحب لك يقبل إليك بوجهه فهو من المجاز، كما أن الساخط يعرض عنك ولا ينظر إليك، فعبر عن السخط بترك النظر في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران:٧٧] وقال أولاد يعقوب: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا..﴾ إلى قولهم: ﴿..يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٨-٩] كان يعقوب × يكثر الإقبال على يوسف وأخيه لحبهما، فقالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩] ليقبل إليكم بوجهه ولا يقبل إلى غيركم، وقد غلطوا في التوسل إلى إقباله بظلم يوسف، ولكنهم أرادوا أن لا يبقى معارض لهم في وجه أبيهم، أي في إقباله ونظره.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ ﴿جَزَآءً﴾ بخدمة أو عطاء متى تمكنتم ﴿وَلَا شُكُورًا﴾ بإظهار نعمتنا عند الناس بالثناء مثلاً، وهذا تعبير عن خلوص نيتهم في التقرب إلى اللّه، فأما هل قالوا ذلك بألسنتهم أو أضمروه في قلوبهم من دون أن ينطقوا به؟ فالله أعلم، وقد يمكن أنهم تكلموا بذلك لمن خافوا منه الثناء في الناس والمكافأة بأي وسيلة لئلا يقع منه ذلك، وهذا هو ظاهر الخطاب بقوله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ﴾.

وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي × : ((أما إنهم لم يتكلموا به ولكن علم اللّه تعالى ما في قلوبهم فأثنى عليهم ليرغب فيه راغب)) انتهى، ومثله روي عن غيره من المفسرين، ويرجحه قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ فالأقرب: أنه حكاية للسان حالهم، وقد كان والدي / إذا قرأ هذه السورة في الصلاة يبكي إذا بلغ عند هذه الآية؛ لأنه يتذكر أنهم خافوا وهم أهل الطهارة والعصمة يوم القيامة العبوس القمطرير، فكيف لا نخافه نحن وقد وصفه اللّه هذا الوصف.

ومعنى ﴿عَبُوسًا﴾ كثير العبوس، وهو تمثيل لشدته وتشبيه له بالغضبان المقطب لوجهه الداهية، أو المراد: وصف أهله الخائفين بالعبوس الشديد فهو مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١].

وفي (تفسير الإمام زيد ×): ((والقمطرير: الطويل)) انتهى، ولعله يعني: أنه لطوله تضاعفت شدته وتراكمت أهواله، فهو كتفسير الإمام الهادي × ، حيث قال: ((والقمطرير: فهو المتضاعف الشدة، الصعب الأمر، الذي ليس بعد شدته شدة، المتراكبة شدته شيئاً فوق شيء)) انتهى.

وفي (الصحاح): ((يوم قماطر، ويوم قمطرير: أي شديد، قال الشاعر:

بني عمنا هل تذكرون بلاءنا عليكم إذا ماكان يوم قماطر

بضم القاف، واقمطرّ يومنا: اشتد. أبو عبيد: المُقْمَطِرّ: المجتمع)) انتهى المراد، وأنشد الزمخشري في (الكشاف):

((واصطليت الحروب في كل يوم باسل الشرّ قمطرير الصباح))

انتهى، قلت: يعني شديد البأس صباحُه.

وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ

﴿١١﴾ ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ (وقاهم): أنجاهم من ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾ الذي هو يوم القيامة العبوس القمطرير، ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ﴾ جعلها في أجسادهم أي جمالاً وبهجة وحسناً يؤدي إليه سرورهم واستبشارهم فاجتمع لهم نضرة الوجوه والأبدان وسرور القلوب، والتعبير بقوله تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ يشعر: بأنه جعل لهم ذلك يوم يلقونه، كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب:٤٤] فهو تقدمة لكرامتهم وعنوان لها.

﴿١٢﴾ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ في الدنيا على ما ابتلاهم به، وعلى التكاليف الشاقة، وعلى الإيثار على أنفسهم فهو صبر كان قرين حياتهم الدنيا التي طالما لاقوا فيها العناء والأذى والمنغصات من الفتن التي مالت بالناس، مع حرصهم على قوة الدين والمنغصات الأخرى من تخاذل الناس عن نصرتهم، وتثاقل الناس عن طاعتهم، حتى قال أمير المؤمنين × كما في (نهج البلاغة): ((لقد ملأتم صدري قيحاً)) فجزاهم الله الجنة بما فيها من النعيم.

وقوله تعالى: ﴿وَحَرِيرٗا﴾ ابتداء لوصف ما في الجنة، ولعل (الحرير) هنا فراشهم ونحوه، أما (اللباس) فيأتي في قوله تعالى: ﴿عَالِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ..﴾ الآية.

﴿١٣﴾ ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ الاتكاء: الميل بالبدن معتمداً على المرفق، أو هو أعم من أن يكون على المرفق بأن يكون على اليد أو على الجنب، قال الإمام الهادي × : ((والاتكاء: فهو الميلان يميناً ويساراً)) وقال × : ((والاتكاء: فهو ضرب من الاضطجاع، وهو ما كان من الاتكاء على جانب)).

و﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ قال فيها الإمام الهادي × : ((و﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ فهي الأرائك المعروفة التي تضرب في صدور البيوت، يرقد فيها ويتكأ عليها ويرخى جوانبها على من فيها من أهلها وتذال جوانبها وأغشيتها، وهي تكون كلها من الحرير..)) إلى أن قال × : ((..وقد قال غيرنا: أن ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ هي الأسرة، وليس بمعروف في اللغة ولله الحمد)) انتهى.

قلت: فعلى هذا تكون ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ فوق السرر، فلا تعارض بين التفسيرين في الواقع إلا في مفهوم ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ وفي (لسان العرب): ((قال المفسرون: ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ السرر في الحجال.

وقال الزجاج: ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ الفرش في الحجال.

وقيل: هي الأسرة. وهي في الحقيقة الفرش كانت في الحجال أو في غير الحجال. وقيل: الأريكة: سرير منجد مزين في قبة أو بيت فإذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة)) انتهى.

قلت: هذا القيل لـ(صاحب الصحاح) قال فيها: ((والنجد: ما ينجّد به البيت من المتاع أي يزيّن، والتنجيد: التزيين، قال ذو الرمة:

حتى كأنّ رياضَ القفِّ البَسَها مِن وَشْيِ عبقر تجليل وتنجيد))

انتهى باختصار، وقول الإمام الهادي × : ((ويُرخَى جوانبها على من فيها من أهلها..)) إلخ، لعله يعني: عند النوم للتدثر، وهذا في الدنيا، وذكر الاتكاء يدل على راحتهم فلا سفر شاق ولا مزاولة أعمال، ولا حاجة للذهاب لتحضير الحاجات، بل لهم خدم يأتونهم بما طلبوا، ولا ينافي هذا تنقلهم في بعض الحال، وتجولهم في الجنات للتزاور أو الانتقال من قصر إلى قصر أو نحو ذلك، والروايات في هذا تفيده.

ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يدل على أنه لا يؤذيهم حر شمس ولا برد ولا ينافي هذا وجود شمس، و(الزمهرير) البرد الشديد كما أفاده الإمام الهادي × .

﴿١٤﴾ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ ظلال الجنة: ظلال شجرها الكبار الباسقة، وعلى هذا يكون كظلال السحاب فلا يرون شمساً لدنوّ ظلالها عليهم ففي الكلام دلالة على سلامتهم من الحر والقرّ، وعلى عظم أشجار تظلهم، وقد روي في قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠] ((في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام)) أو كما قال، والظاهر من هذه الآية: أن هناك شمساً تحجبها الشجر.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي ذللت ثمارها التي تقطف، أي سهِّل تناولها وقطعها تسهيلاً، فلا يجد القاطف لها أي مشقة في قطفها لقربها وسهولة قطفها، قال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٢-٢٣]. وقال الإمام الهادي × : ((ولا أحسب ـ والله أعلم ـ أن اللّه عنى بهذا الظلال في هذا الموضع إلا ظلال الأشجار الدانية والثمار المتهدلة)) انتهى.

قلت: فيكون المعنى: أنهم إذا خرجوا من الدور أو من الغرف أظلتهم الشجر للدلالة على دوام ظل الشجر وعمومه حيث كانوا خارج القصور، كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد:٣٥] فالمعنى: متكئين على الأرائك في حال ودانية عليهم ظلالها في حال، أما دنو القطوف فيحتمل: أنها تثقل عند كمالها ونضجها حتى تميل بالغصون إلى أسفل، وبذلك تقرب من قاطفها، كما يشير إليه قول الإمام الهادي × : ((والثمار المتهدلة)).

ويدل عليه وصفها في سورتين بأنها ﴿دَانِيَةٌ﴾ بالجملة الإسمية الدالة على الاستمرار، ويحتمل: أنها تدنو لقاطفها وتدلَّى إليه كما روي، والأولى ـ إن صح الحديث ـ الجمع بين الأمرين، فهي دانية بتهدّلها بعض الدنو.

وفائدة وصفها به: أن لا يتوهم من علو الشجر وارتفاعها بُعد الثمر كما في الدنيا، بل تدنو عند القطف مساعدة لقاطفها ـ والله أعلم ـ لأنها قد ﴿ذُلِّلَتْ﴾ فلا تصعب بل تنقاد لأمره.

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ يجاء بالآنية تعرض عليهم ليأكلوا مما فيها أو يشربوا و(الآنية) الأوعية من الصحاف وغيرها، وفي هذا دلالة على الثروة العظيمة وزيادة النعيم حيث آنيتهم ﴿مِّن فِضَّةٍ﴾ دلالة على تكريمهم حيث يطاف بها عليهم كالأضياف، والأكواب التي يشرب بها معروفة، لكنها في الدنيا تكون من الزجاج أو نحوه، أما في الجنة فلها نسبتان نسبة إلى (الفضة) ونسبة إلى (القوارير) أي الزجاج، فله قوة الفضة ومرونتها، وله صفاء الزجاج وشفافيته.

﴿قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ قدروا هذه الآنية تقديراً حسناً جميلاً، وتقدير الآنية: إما تقدير كبرها وصغرها وشكلها على ما يطابق أغراضهم؛ لأن هذا زيادة في حسن الآنية، والمقدرون لها إما الولدان وإما أهل الجنة، أي يأمرون بصنعتها كما يشاءون، أو يطلبون وجودها كما يرغبون، وإما تقدير إحضارها لدى أهل الجنة، والتقدير إما من أهل الجنة وإما من الولدان، والأول أرجح عندي: أن تقدير الآنية طلب أن تكون في كبرها وصغرها وهيئاتها كما يشاءون.

كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ

﴿١٧﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾ والأقرب: أنه كأس خمر مزجت بالزنجبيل فطابت رائحته وطعمه، ولا شك أنه زنجبيل أفضل من زنجبيل الدنيا، وزنجبيل الدنيا متفاضل فزنجبيل هذه البلاد الرطب يكون لذيذاً جداً، ولا موجب للتأويل وحمله على طعم الزنجبيل ورائحته دون وجود الزنجبيل وكذلك الكافور.

﴿١٨﴾ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ تبيين للكأس أي لما في الكأس كقوله تعالى: ﴿وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الواقعة:١٨] وفي قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ إشارة إلى زيادة حسن هذه العين، من حيث أنها لكونها في الجنة تكون أحسن مما في الدنيا وكذلك قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ تفيد: أن الشراب هنيء لذيذ من حيث أنه في الجنة، قال الإمام الهادي × في قول اللّه تعالى: ﴿سَلْسَبِيلاً﴾: ((هو اسم لتلك العين، ومعناه: العذب الطيب السلس المدخل المري الغذاء)) انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ (الولدان): هم الخدم، وقوله تعالى: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ الأقرب عندي في معناه: أنهم لا يمرضون ولا يلحقهم تنغيص، فهم نظاف مما قد يكون في الخدم من الزكام والسعال والبخر، سليمون من المرض الذي يمنعهم من الخدمة أو يثقلها عليهم، سليمون من القلق والنزق، فهم يخدمون بنشاط وحسن أخلاق وطيب نفوس، واستعمال (مخلد) بمعنى المحفوظ من الآفات والمصائب ظاهر في قول امرئ القيس:

ألا عم صباحاً أي الطلل البالي ... وهل يعمن من كان في العصر الخالي
وهل يعمن إلا سعيد مخلد ... قليل هموم ما يبيت بأوجال

نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ

وهذا من المجاز، كأن الخلود لا يكون إلا بالسلامة من الآفات، وكأن الآفات هي التي تهلك الإنسان، فاستعمل الخلود في لازمه الذي هو السلامة من الآفات، ولعل منه قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق:٣٤] وأما الراغب الأصفهاني فقال: ((الخلود: هو تبرئ الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود..)) إلخ.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ إذا رآهم الرائي أي شخص كان، أو المراد رسول اللّه ص ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لقوة مشابهتهم للؤلؤ في صفائه وبياضه وجماله يحسبهم لؤلؤاً، إما في أول خاطر قبل التحقق في الرؤية، أو يحسبهم خلقوا من لؤلؤ منثور، والمنثور: الذي نثر من صدفه فهو في غاية الجمال لنظافته وجدته، أو أن الخدم المتفرقون في المكان شبهوا باللؤلؤ المنثور المتبدد، وفي هذه الآية ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ وفي التي قبلها ﴿وَيُطَافُ﴾ لأن الأولى لذكر ما يطوفون به لا للخدم، والثانية لوصف الخدم.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ ﴿ثَمَّ﴾ أي هناك في الجنة إذا رأيت رأيت قصوراً من ذهب وفضة، وآنية من ذهب وفضة، ولباساً من الحرير، وممالك كبيرة، وخدماً، وأشياء يعرف بها تعظيم أهلها وتكريمهم، وأنهم ملوك لما تحتهم من الممالك والخدم.

﴿٢١﴾ ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ وفي

(سورة الكهف): ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [آية:٣١] وكلاهما من الحرير، قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج:٢٣] وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) لقوله تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤]: ((والاستبرق ليس في صفاقة الديباج، ولا خفة الفريد)) انتهى.

وقد اختلفت أقوال المفسرين في تفسيرها، فبعضهم فرق بينهما باللون، وبعضهم بالصفاقة والرقة، ولكن يظهر اتفاقهم على: أنهما من الحرير، ويمكن أن السندس كله أخضر، وأما الإستبرق فبعضه أخضر وبعضه أحمر ـ والله أعلم.

قال الإمام الهادي × : ((والسندس والإستبرق: فهو من الحرير والديباج، غير أن السندس أخضر والإستبرق أحمر)) انتهى، وفي (تفسير الشرفي) لـ(سورة الكهف): ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [آية:٣١]: ((والمراد منه سندس الآخرة وإستبرق الآخرة، والأول: هو الديباج الرقيق، وهو [من] الحرير، والثاني: هو الديباج الصفيق)) انتهى، وعبارة سيد قطب: ((والسندس: الحرير الرقيق، والاستبرق: ما غلظ منه)) انتهى، وقال (صاحب القاموس) في السندس: ((معرب بلا خلاف)).

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ ﴿حُلُّوٓاْ﴾ جعل لهم حلية يلبسونها زينة لهم و﴿أَسَاوِرَ﴾ جمع سوار وهو من الحلية الذي يلبس على المعصم أي مكان الساعة من اليد في هذا الزمان، وقد جاء في السابقين في (سورة فاطر): ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [آية:٣٣] وفي (سورة الحج) عموم للذين آمنوا وعملوا الصالحات: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [آية:٢٣].

فيحمل: على أن لهم أساور منوعة ذهب وفضة، ولكل منهما حسنه، ولعل الذهب لا يكون أعز من الفضة لكثرتهما وسهولة حصولهما، ولعله السر في ذكر الفضة وحدها أنها هناك تبلغ درجة الذهب.

سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً

وفائدة أخرى: أن لا يوهم أنهم يجمعون بينهما في اللبس، بل يلبسون الفضة وحدها، والذهب وحده؛ لأنه أوفق لجمالهم ونضارة أجسادهم، وأما اللؤلؤ: فهو من الحلية ـ والله أعلم ـ بموضعه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ وفي (الحج): ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذا في (فاطر) دون (يتحلون) كما قيل في اللباس ﴿يَلْبَسُونَ﴾ ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ و﴿عَالِيَهُمْ﴾ وخصت الحلية بهذا الفعل المغير الصيغة لأمر ما؛ لأنها تفيد: أن غيرهم حلاّهم ويحلّيهم، ولعلهم الخدم بأمر اللّه تعالى.

﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هذا الشراب لا يتعين أنه الخمر، وقد قال تعالى في العسل: ﴿شَرَابٌ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَانُهُۥ﴾ [النحل:٦٩] وقال في اللبن: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] فالشراب يكون ﴿مِنۡ مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٍ﴾ و﴿مِنۡ لَّبَنٍ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ﴾ و﴿مِنۡ خَمۡرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ و﴿مِنۡ عَسَلٖ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥] وطهارته: نظافته الكاملة، وإسناد السقي إلى ربهم، إما للدلالة على رحمته لهم وكرامتهم عنده، وإما لأن من الشراب الخمر الذي يشرب في الدنيا مع تحريم اللّه له فيشربونه دون أن يسقيهم إياه، أما في الجنة فهو الذي يسقي عباده الخمر وغيره يقول لهم:

﴿٢٢﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءً وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي نعيم الجنة وملكها وشرابها ولباسها وحليها ﴿كَانَ لَكُمۡ جَزَآءً وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا﴾ وفي هذا القول تكرمة لهم عظيمة، ولذّة تصغر عندها لذات أخر، ومن كرم اللّه يشكرهم على عبادتهم له وصبرهم، وهم عبدوه شكراً له على نعمه التي ابتدأهم بها تفضلاً.

وفي قوله تعالى: ﴿كَانَ﴾ ﴿وَكَانَ﴾ أفادت أن هذا معدّ لهم من حين كانوا في سعيهم للآخرة وهم في الدنيا، وما أحسن هذه الآية التي ختمت ذكر ما أعد اللّه للأبرار.

﴿٢٣﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً﴾ هذا تصديق للقرآن والرسول وتحقيق للوعيد للكافرين والوعد للأبرار في هذه السورة وسائر السور، وقوله ـ عزَّ وجل ـ : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ عبارة العظمة تشير إلى عظمته وجلاله، بما تفيده أسماؤه الحسنى من كونه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:٢٠] و﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩] وأنه ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج:٦٤] وأنه ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:٦] وأنه ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:٣] ..إلى آخرها.

فإذا عرفنا أنه تعالى هو الذي أنزل القرآن، بما دل عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة:٢٣] وغيرها علمنا أن هذا القرآن صدق وحق؛ لأنه كلام أصدق القائلين وأحكم الحاكمين وأن وعده ووعيده لا يتخلف؛ لأنه خبر عن الواقع لعلمه بما سيكون، فلو تخلف كان كذباً سبحانه وتعالى علواً كبيراً.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْكَ﴾ أي يا محمد، تصديق لكونه رسولاً من اللّه أرسله بهذا القرآن، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلاً﴾ تأكيد وتحقيق لتنزيله مفرقاً على رسول اللّه ص.

﴿٢٤﴾ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ أي لأن ربك أنزل القرآن وأرسلك به وجعله مصدقاً لك ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على تحمل الرسالة والقيام بما كلفك ربك فيها وحكم به عليك من تبليغ الرسالة والثبات عليه وغيره، والصبر: هو حبس النفس على ما يشق عليها.

وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ

﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ الضمير للكافرين في أول السورة والآثم: الظالم، والكفور: كثير الكفر لنعم اللّه والكفر بآيات اللّه، أي لا توافقهم على ما طلبوا منك مما هو مخالفة لحكم ربك من التقصير في التبليغ لرسالات ربك، وإعلان توحيده، ونفي شركائهم، والإنذار لهم.. وغير ذلك مما يسوءهم ويبعثهم على نهيك والإرجاف عليك والتخويف لك، وفي هذا إلزام له ص بالتوكل على اللّه في التبليغ، وأن لا تمنعه مخافة.

﴿٢٥﴾ ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ ﴿ٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ ولعل المراد به: قراءة ما فيه اسمه تعالى، واسمه هنا ينصرف إلى الجلالة، والرحمن الرحيم؛ لأنه الذي يقع في الصلاة ﴿بُكْرَةً﴾ وهي صلاة الفجر ﴿وَأَصِيلاً﴾ وهي صلاة الظهر والعصر. والبكرة: أول الغداة، والأصيل: آخر اليوم، وكان الكفار يأنفون من ذكر اللّه وحده، ويكفرون بالرحمن، ويكرهون إخلاص العبادة له، فأمره اللّه أن يفعل ذلك، وعطف الأمر به على قوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ فأفاد أن لا يمنعه عن ذلك نهيهم كما في (سورة اقرأ).

﴿٢٦﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾ ولعل هذا في صلاة المغرب والعشاء، فتكون الآيتان قد جمعتا الخمس الصلوات.

قال الإمام الهادي × : ((فكان أمره له بالتسبيح في الصلاة فرضاً، وما كان في غير الصلاة فهو نافلة ووسيلة إلى اللّه وخير وفضيلة)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿لَيْلاً طَوِيلاً﴾ يشير إلى اتساع الليل للصلاة والتسبيح وللنوم.

وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارة إلى الموجودين في وقت نزول القرآن الكفار ونحوهم ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ الحياة الدنيا وأغراضها فيختارونها ﴿وَيَذَرُونَ﴾ يتركون ولا يستعدون لليوم الثقيل الذي هو يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَآءَهُمْ﴾ إما تشبيه ليوم القيامة بالطالب لهم الذي يريد أن يلحقهم، ومن عادة الطالب العدو المطارد أن يكون وراء المطلوب، فاستعمل له وراء وهذا هو الظاهر، وإما أن يكون بمعنى أمامهم كما قيل ـ والله أعلم.

﴿٢٨﴾ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ فكيف لا نقدر على إعادتهم لليوم الثقيل الذي هم به مكذبون ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ قوينا تركيبهم، وربط مفاصلهم، قال في (الصحاح): ((أسر قَتَبَهُ يأسِرُه أسْراً، شدَّه بالإسار وهو القِدّ)) انتهى، قال: ((والقد: سير يقد من جلد غير مدبوغ)) انتهى.

فلعل قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ إشارة إلى شد مفاصل الإنسان وأعضائه بالأعصاب المتينة، وهذا دليل على قدرة اللّه تعالى على إعادتهم وذكر لنعمته عليهم ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أهلكناهم وأتينا بناس آخرين يقومون مقامهم، بحيث يكونون بدلاً منهم، وأناس آخرين، وأناس آخرين، وذلك لقدرة اللّه تعالى على كل شيء، وكونه لا يعسر عليه، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم:٢٠] وفي هذا تنبيه على قدرته تعالى على إعادتهم.

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الآيات وما فيها من الوعد والوعيد، والدلالة على قدرة اللّه تعالى على إعادة الإنسان يوم القيامة ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ وتنبيه لمن يتفكر حتى يعلم الحق ويؤمن به ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ والسبيل إلى اللّه: هو السبيل المقرب إليه، وهو سبيل الرسول الذي سار فيه، وأشار إلى قوله: ﴿يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٢٧] فعلى العاقل أن يبحث عن ذلك السبيل ليسير فيه وهو الصراط المستقيم.

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أن تتخذوا إلى ربكم سبيلاً لأنكم تحبون العاجلة وتصرفكم الذنوب بإفسادها للقلوب، فأنتم مشغولون بدنياكم فلا تشاءون ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ هدايتكم بأن تتعرضوا لهدايته بالتوبة والدعاء، فالآية بعث على طلب الهداية والتوفيق، والتعرض لها بالتخلص من الذنوب وصلاح النية.

فإن قيل: إذا كان هذا هو التسبيب فما هو المسبَّب؟

فالجواب: أن الإنسان إذا أصر على العصيان تعرض للخذلان، وإذا تاب وأصلح تعرض للتوفيق وحسن الخاتمة، والسبيل إليه هي الخاتمة الحسنة؛ لأنها هي التي تنفع ويصير صاحبها ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] فأما البداية فهي سبب لها، أو نقول: إن السبيل إلى اللّه: هي طاعة اللّه المستمرة حتى الممات، والتسبيب للاستمرار هو بأسباب التوفيق.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم من هو أهل للهداية وتقتضي الحكمة هدايته، ومن هو أهل للخذلان وتقتضي الحكمة خذلانه ﴿حَكِيمًا﴾ يفعل ما هو الصواب ويقتضيه كرمه وعلمه وغناه وعزته ورحمته وعدله ويتقن أفعاله ويحسن تصرفاته ولا يكون فيها نقص ولا ما يعاب، وتقتضي حكمته الرحمة في المحل اللائق بها، والتعذيب في المحل اللائق بهن لأنه يضع الأمور مواضعها اللائقة بها، وقد قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] فدل على أنه يعذبهم لعزته وحكمته.

﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ بهدايته لأسبابها، أي النجاة من العذاب ودخول الجنة، قال تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام:١٦] أو ﴿فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ في أسباب رحمته بالهداية لها والذين يشاؤهم المتقون.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ الظالمون: هم المجرمون الفجار، المتعدون لحدود اللّه، المصرون الذين ماتوا قبل أن يتوبوا، وفي قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾ بالفعل الماضي و﴿يُدۡخِلُ﴾ بالفعل المضارع ما يشير إلى أن العذاب قد أعد عند خلق النار إن كانت قد خلقت، أو حين قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود:١١٩] وهي كلمة العذاب، ثم خلق الإنسان فهو يختار أسبابها ويوقع نفسه فيها، كما روي عن رسول اللّه ص أنه قال: ((إني آخذ بحجزكم أن تقعوا في النار وأنتم تتهافتون فيها تهافت الفراش)) أو كما قال.

فالإعداد من اللّه والظالمون هم أدخلوا أنفسهم بارتكاب أسبابها، وفي مقابلة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ بـ(الظالمين) دلالة على أن من يشاء إدخالهم في رحمته هم المتقون، وهذا لأنه حكيم في رحمته؛ لأنها ليست رحمة الرقة التي تكون في المخلوق فتغلبه على خلاف الحكمة والصواب، ولذلك لا يرحم الظالمين بل أعد لهم عذاباً أليماً كما تقتضيه عزته وحكمته وصدق وعده ووعيده.

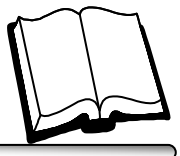

التيسير في التفسير

سورة المرسلات

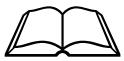

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾
فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ هذا قسم بالمرسلات عرفاً؛ لأنها من آيات اللّه ونعمته، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف:٥٧] ﴿عُرْفًا﴾ معروفة مألوفة لنفعها واعتياد الناس لها.

﴿٢﴾ ﴿فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ عطف على المقسم به الأول، والرياح العاصفات: الشديدة التي يخشى أن تكسر وتدمر ولو بعض التدمير، تدل على قدرة اللّه وعلمه، وأنه يصيب بالعقوبات من يشاء كما أصاب بها عاداً.

﴿٣﴾ ﴿وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا﴾ التي تنشر وتحيي الأرض بعد موتها، وهي السحاب الممطرات التي تحيي الأرض بإرسالها ماءها، فهي من آيات اللّه كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ..﴾ الآية [البقرة:١٦٤] فأقسم تعالى بها لما فيها من الدلالة عليه سبحانه، وعلى أنه المنعم المستحق للعبادة.

﴿٤﴾ ﴿فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا﴾ الفارقات بين الحق والباطل، وبين طريق الهدى ومتاهات الضلال، وبين دين الحق ودين الباطل، وهي آيات اللّه التي يفرق بها المؤمنون بين الهدى والضلال، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران:٤] أي ما يفرق بين الحق والباطل، وسمى القرآن فرقاناً، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الفرقان:١] وسماه نوراً فقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:٥٢].

وجعل آيات اللّه فارقة باسم الفاعل كجعل القرآن هادياً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩] وهذا القسم بالآيات كلها بعد القسم ببعضها ناسبه عطفه بـ(الفاء) لأنها كلها تفرق بين الحق والباطل، فكلها نعم من اللّه، ودليل على الله.

﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ قد فسر الملقيات ذكراً بالملائكة عليهم السلام وهو قريب من جهة المعنى، لكن استبعدت التعبير عنهم بالتأنيث، وقوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ [الصافات:١] محمول على الصفوف الصافات؛ لأن اللّه تعالى ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥] وقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦] وغيرها، ووجه استبعاد التأنيث: أن الجاهلية كانوا يسمونهم تسمية الأنثى، ورد اللّه عليهم ذلك في القرآن.

ويمكن أن يجاب عن هذا: بأن التأنيث في قوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ ليس تأنيث الأفراد، بل هو تأنيث الجماعات، مثل: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ [الصافات:١] وأكثر ما فيه أنه يستلزم كثرة الملائكة الملقين للذكر ولا مانع من ذلك، وإن كان جبريل × أشهرهم في هذا، وقد قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ..﴾ الآية [النحل:٢] وحمله على أن الملقيات: هم الملائكة، هو الموافق لقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ فهو تفسير للذكر، وهو القرآن وغيره من كتب اللّه، أو من الوحي كله، فما بقي إلا أن (الملقيات ذكراً) هم الملائكة ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ العذر: ما يعذر به من قدم الإخبار بإيقاعه الشر ليتأهب له السامع، وهو هنا بمعنى التقديم فقط الذي هو الوعيد،

يقال: ((من أنذر فقد أعذر)) والنذر: القول المبلغ للمخوف المحذر منه يستعمل في الكلام نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣٥-٣٦].

وقال (صاحب الصحاح): ((الإنذار: الإبلاغ ولا يكون إلا في المخوف والإسم النذر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٦] أي إنذاري ، والنذير: المنذر، والنذير: الإنذار)) انتهى، فلم يذكر (النذر) جمع (نذير) ولكنه وقع في كلام الإمام الهادي × وتفسيره، وهو عربي عليم باللسان العربي، ونظيره (سرر) و(قضب) ولكن استعماله بمعنى الإسم ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦] وفي قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٣] لأن التكذيب يعدى إلى الرسل بدون (باء) نحو: ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ [سبأ:٤٥] ويعدى بـ(الباء) إلى الآيات نحو: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ [القمر:٤٢].

فإن قيل: قد فسرتم (العذر) بالتقديم للوعيد، فكيف عطف عليه (النذر) والكل (نذر)؟

قلت: للإنذار اعتباران مختلفان، فإنذار لمن يفيده، وإنذار لمن لا ينتفع به، فإنذار من لا ينتفع به يسمى إعذاراً؛ لأنه حجة عليه وموجب لتعذيبه، فأشبه إعذار من قدم الوعيد بالبطش الذي يدفع عنه اللوم، فسمى الوعيد عذراً بمعنى حجة عليه لتعذيبه، أما إنذار من ينتفع به فهو الإنذار النافع، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ﴾ [فاطر:١٨] ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس:١١] فخص الإنذار النافع باسم الإنذار لحصول المقصود الأصلي به والذي ينبغي أن يكون عنده، أما من لم ينتفع بالإنذار فقد صار في حقه كلا إنذار باعتبار إهماله له، فكان إنذاره أحق باسم الإعذار ـ والله أعلم.

لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾

فحاصل القسم من أول السورة: القسم بآيات اللّه الدالة على قدرته على النشأة الآخرة، وبآيات اللّه التي يفرق بها بين الحق والباطل، ومن الحق: وعد اللّه ووعيده، وصدق رسله وغير ذلك، ومن الباطل: جحد الكفار لذلك، وبالملائكة الذين ينزلهم اللّه لإلقاء الذكر إلى رسله والإعذار والإنذار، وجواب القسم قوله سبحانه:

﴿٧﴾ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ وهو البعث والجزاء، وما وعد اللّه به في الآخرة، ومناسبة القسم لهذا الجواب ظاهرة، أما القسم بدلائل قدرته تعالى من الرياح وإرسالها من الجهات الأربع، والرياح العاصفات، والسحاب الممطرات فواضح، وأما القسم بآيات اللّه العام لها، فلأنها قسمين: آيات عقلية كالتي ذكرها ودلالتها عقلية كما ذكرت، وآيات سمعية وهي تدل على البعث بما فيها من الوعد بالبعث، وبما فيها من دلائل عقلية تدل على صدق الوعد والوعيد، نحو: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ﴾ [الأنبياء:١٦] وبما فيها من ذكر دلائل قدرته تعالى، وإحاطة علمه بكل شيء، وغير ذلك كثير كثير لأهمية الإنذار والتبشير، فمناسبة القسم بآيات اللّه على وقوع الموعود به ظاهرة.

وأما القسم بالملائكة فمرتب على القسم بآيات اللّه الدالة على نزول الوحي من اللّه، وتنزيل الملائكة به ومناسبته، من حيث أن الملائكة لا تتنزل بالإنذار والإعذار، إلا لأنه أمر عظيم من اللّه سبحانه نزلها به، فهو صدق وحق لا يخالطه كذب ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، نزلت بها

الرسل الأمناء الكرام بخلاف الكهانة التي توحيها الشياطين وكون الملائكة لا تتنزل إلا بالحق أمر مستقر في أذهان البشرية، ولهذا قالوا: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر:٧].

﴿٨﴾ ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ محيت، أي محقت وذهب نورها عند انتثارها.

﴿٩﴾ ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ شقت عند وقت تمزقها وطيها.

﴿١٠﴾ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ بالرجفة التي تدكها، قال في (الكشاف): ((كالحب إذا نسف بالمنسف)) انتهى.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ هذه الظروف ﴿فَإِذَا﴾ ﴿وَإِذَا﴾ ﴿وَإِذَا﴾ ﴿وَإِذَا﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ فجوابها يدل عليه السياق، أي جاء الموعود به، كما في (سورة الحاقة): ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة:١٥].

وقوله تعالى: ﴿أُقِّتَتْ﴾ أي جاء وقتها لتأدية ما يكون منها ولها، حيث تشهد على من جاءتهم من الأمم وشاهدت أعمالهم، وحيث تسأل ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٩] وحيث يفصل بينهم وبين المكذبين ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل:٣٩] وحيث يسألون وتسأل أممهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦] وحيث ينصر اللّه الرسل والذين آمنوا وغير ذلك، فقد بلغت الرسل ميقات ما وعدت به، ثم عظم اللّه هذا الميقات الموعود به، فقال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي ﴿أُجِّلَتْ﴾ ليوم، أيِّ يوم، أي ليوم عظيم أجلت جعل إجلالها ليحصل ما سيكون منها وغير ذلك كما ذكرنا، والتأجيل: جعل الأجل لذلك، وهو خلاف التعجيل فالتأجيل في هذه الدنيا عند نزول القرآن والوعد بالآخرة والفصل فيها، وأما التأقيت فيوم القيامة كما مر، ثم فسر تعالى اليوم الذي عظمه بقوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾ فقال تعالى:

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾

﴿١٣﴾ ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ يوم قطع الخلاف الذي كان بين المختلفين، والحكم بينهم، والتمييز بين أهل الحق وأهل الباطل تمييزاً عظيماً بضروب من التمييز الفاصل بين الفريقين، وإكرام أولياء اللّه، وإهانة أعداء اللّه ﴿ٱلۡفَصۡلِ﴾ الذي يبقى أبداً، وعظم اللّه هذا اليوم العظيم مرة أخرى، فقال تعالى:

﴿١٤﴾ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ وهو حقيق بالتعظيم، كما بينه تعالى في سائر القرآن مفصلاً، وكما يأتي في هذه السورة، وكما مر فيها.

﴿١٥﴾ ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ هذا وعيد للمكذبين، والويل، والثبور، والشقاء، وسوء المصير، وشر المنقلب معانيها متوافقة.

وقوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ أي يوم إذ يفصل اللّه بين العباد، والمكذبون: الذين يكذبون بيوم الفصل، يكذبون الرسل المنذرين به، ويكذبون وعد اللّه به، زاعمين أن الوعد ليس من الله.

﴿١٦-١٨﴾ ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ هذا احتجاج على المكذبين لأن اللّه قد أهلك المكذبين الأولين ويهلك المكذبين الآخرين في وقت نزول القرآن بتعجيل هلاك بعضهم بضروب من المصائب وقعت لهم، وهكذا يفعل اللّه بالمجرمين أهل الجرائم يعذبهم، فلو كان الوعد بالآخرة غير صادق لما عذب المكذبين، ولو كان يهمل عباده ولا يجازي لما عذب في الدنيا عذاباً عاجلاً، ثم أكد الوعيد به، فقال تعالى:

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

﴿١٩﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ كالنتيجة للدلالة عليه بقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهذا احتجاج آخر على المكذبين؛ لأنهم يعتمدون في تكذيبهم على استبعاد إحياء من كان عظاماً ورفاتاً، فجمع هنا دليلين على قدرته تعالى، وإبطال استبعادهم، وهما ما قد فصله تعالى في (سورة الحج) في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [آية:٥] ولكنه أوجزهما هنا وساقهما مساق دليل واحد.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ جواب وحده، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً..﴾ الآية [القيامة:٣٦-٣٧]، وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ دليل آخر باعتبار حفظ الماء المهين الذي شأنه أن ينزلق لولا حفظه له، بجعل مقره مكيناً يصلح لحفظه من الانزلاق، إلا أن يأذن اللّه به، فقد تكون المرأة خائفة من الحمل كارهة له تود لو يخرج ولكن يبقى في بطنها على كرهها لبقائه، وذلك لأن اللّه جعل مقره ينغلق عليه حتى كأن عليه قفلاً أقفل مجراه الذي دخل منه.

قال الإمام الهادي × : ((والمهين: فهو القليل اليسير الذليل الضعيف الحقير)) انتهى، والقرار يصلح أن يكون مصدر (قرّ) أي استقر أي في حال استقرار ﴿مَّكِينٍ﴾ أي مكين صاحبه مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] والأقرب عندي: أن القرار هو المستقر ـ بفتح القاف ـ كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١].

والمستقر هذا: هو الرحم الذي يحفظ الماء ويربيه حتى يتم خلقه، ومعنى ﴿مَّكِينٍ﴾ أن له مكانة في المرأة يتمكن بها من حفظ الجنين وتربيته وتنميته ومكانته، بما جعل اللّه له من الصلاحية لذلك في نفسه، ومن العلاقة بمصادر غذاء الجنين ومواد نموه وتمامه وأسباب حياته، ومن المحل المناسب للحمل وإطاقته.. وغير ذلك.

﴿٢٢﴾ ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ وهو إخراجه بقدر اللّه وتحديده لموعده و﴿مَّعْلُومٍ﴾ قد علمه اللّه بموعده المحدد، وخروجه بتقدير اللّه تعالى آية؛ لأن الأم تعجز عن إخراجه، والطفل عاجز عن الخروج لضعفه وجهله، فلم يخرج إلا لأن اللّه أخرجه، وفي تحديد مدة الحمل إلى تمام خلق الجنين وتحمله للعيش بعد خروجه من الأم آية.

﴿٢٣﴾ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على إخراجكم أحياء قد تم خلقكم ذوي أسماع وأبصار وأعضاء تامة مقدرة تقديراً حكيماً، وهذا على قراءة ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بالتخفيف.

فأما على قراءتها بالتشديد: فهو تقدير خلق الجنين، وتقدير أعضائه، وإتقان صنعه، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس:١٩].

﴿فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ﴾ مدح وتعظيم لله في قدرته وتعظيم لقدرته، أما مدحه في قدرته فلأنه يحكم مصنوعاته ولا يفعل ما يخالف الحكمة، بل لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، وأما تعظيم القدرة فلما دلت عليه الآيات من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُّمْ﴾ فثبت بذلك أنه تعالى قادر على بعثهم يوم الدين كما خلقهم أول مرة.

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ

﴿٢٤﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ المكذبين بيوم الدين، وهذا نتيجة أو كالنتيجة للبرهان؛ لأنهم كذبوا بيوم الدين استبعاداً للقدرة عليه.

﴿٢٥﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿كِفَاتًا﴾ مصدر (كفَتَ) قال الإمام الهادي × : ((ومعنى ﴿كِفَاتًا﴾ أي ضامة جامعة لكم إخباراً بما فيها من منازلها وبيوتها ودورها التي تكتفتون فيها وتأوون وتغلقونها عليكم، تضمكم وتجمعكم وتكفتكم، أي تجمعكم ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ وكفتها لهم أمواتاً: فهو ضمها لأبدانهم في حفرها التي هي قبورهم)) انتهى المراد.

وبه ظهر أن كفت الشيء: ضمه أو جمعه لحفظه، وهو مناسب لما في لغتنا من معنى كفت الشيء في المكْفَت، وأن معنى جعل الأرض كفاتاً لنا: جعلها مُعَدَّة مهيَّأة ليكون لنا منها وفيها مساكن تكفتنا من الحر أو البرد أو المطر أو النَّدا الخفيف الذي نسميه الطل، وغير ذلك من فوائد المساكن التي لا تخفى.

﴿٢٦﴾ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ كفاتاً أحياء وأمواتاً، أي تكفت أحياء وأمواتاً، وهذه دلالة على قدرة اللّه ونعمته علينا، ويمكن أن اللّه سمى الأرض ﴿كِفَاتًا﴾ تشبيهاً لها بالدار التي تكفت أهلها، وذلك لتجهيزها لأهلها كما تجهز الدار لأهلها بالفراش والطعام والشراب، وإعداد الأرض لاتخاذ ما يحتاجون، فأشبهت الكفات، كما سمى الأرض ﴿فِرَاشًا﴾ [البقرة:٢٢] و﴿مِهَادًا﴾ [النبأ:٦] لمشابهتها للفراش، والمهاد من حيث تجهيزها وإعدادها لسكنى أهلها عليها، والمعنيان متقاربان وحاصلهما واحد، وهو الدلالة من تهيئة الأرض للإنسان على قدرة اللّه تعالى ونعمته على عباده، ليؤمنوا بالآخرة، ولا يكفروا نعمه بتكذيب رسله، والتكذيب بآياته.

﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾

﴿٢٧﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ ﴿فِيهَا﴾ أي في الأرض ﴿رَوَٰسِيَ﴾ جبالاً راسيات ثابتات راسخات في أماكنها لا تتحول عنها لثقلها ورسوخها في أماكنها ﴿شَٰمِخَٰتٖ﴾ عاليات مشرفات في الهواء طوالاً مرتفعات، وهي دليل على قدرة خالقها، وهي تحفظ الأرض لئلا تميد بأهلها، ولعل ذلك برسوخها في الأرض مع ثقلها وأشكالها وموادها الحديدية وشموخها في الهواء.

﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا﴾ وهو ماء المطر فراتاً عذباً، يزيل العطش، ويروي الناس وأنعامهم وزروعهم وأشجارهم، فالنعمة فيه عظيمة، والآية فيه على قدرة اللّه وعلمه واضحة جلية، وهكذا يجمع اللّه بين الاحتجاج على المكذبين والتذكير بالنعمة كما في (سورة الواقعة) في سياق الرد على المكذبين بالبعث: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ [آية:٦٨-٧٠].

﴿٢٨﴾ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ فقد جمعوا بين الفساد في الأرض بتكذيبهم لآيات اللّه، وجمعوا بين كفر الجحود وكفر النعمة، فلهم الويل يوم القيامة، وفيما يلي تفصيل وبيان أسباب الويل.

﴿٢٩﴾ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم يوم القيامة: انطلقوا إلى العذاب الذي ﴿كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وانطلاقهم: مسيرهم إليه أو ذهابهم إليه بعد موقف الحساب، ويحتمل أن يقال لهم في أوقات متعددة يبشرون فيها بالنار مثل ساعة الموت، وعند خروجهم من قبورهم، وعند سوقهم إلى جهنم من موقف الحساب.

كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ ولعله جعل لهم هذا الظل تهكماً كما جعل لهم طعام ﴿لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية:٧] وشراب لا يروي من العطش و﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ إما دخان أصله واحد وحين يطلع في جوّ جهنم يتشعب ثلاث شعب لعظمه، وإما تشبيه بالظل الذي لا يفيد لدخول الشمس من بين شعبه.

والأول أظهر، فقد ذكر اللّه الظل في (سورة الواقعة) بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ﴾ [آية:٤٣] وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ) لسورة الواقعة: ((واليحموم: الدخان)) انتهى، وفي تفسيره لـ(سورة المرسلات): ((﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ معناه: إلى دخان جهنم)) انتهى ﴿وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ لا يدفع العذاب من اللهب أي لهب جهنم.

﴿٣٢﴾ ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ ﴿إِنَّهَا﴾ أي إن جهنم المفهومة من السياق ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ عظيمة تبلغ الشرة في حجمها مثل القصر، قال الإمام الهادي × : ((والقصر: فهو الدار المبنية الكبيرة المرتفعة)) انتهى، ورميها بالشرر لتسعرها على عادة النار في رميها بالشرر إذا سعرت.

﴿٣٣﴾ ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قال الإمام الهادي × : ((والجمالات الصفر: فهي الجبال الصغار المنفردة من الجبال التي تكون في قيعان الأرض، تسميها العرب: الظراب واحدها ظرب، وأهل اليمن يسمونها جمالات)) انتهى المراد، وهو مناسب للتشبيه بالقصر.

ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا

﴿٣٤﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ من عذاب جهنم، وما يلحقهم يومئذ من الخزي وغيره.

﴿٣٥﴾ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ الإشارة إلى يوم الفصل ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ إما للختم على أفواههم في حال، وإما لشدة الهيبة وانقطاع الحجة، والمنفي هو النطق الاختياري، فأما إذا أنطقهم اللّه أو سألهم، فهو غير مقصود هنا لأن السياق في بيان هول الموقف.

﴿٣٦﴾ ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي لا يؤذن لهم في الاعتذار لأنهم ليس لهم عذر صحيح ولا يعودون إلى دار الخيار أو حالة الاختيار والتكليف، كما كانوا في الدنيا فيعتذرون اعتذاراً نافعاً أي يتوبون.

﴿٣٧﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ من هول ذلك اليوم، وتقطع الأسباب، وشدة العذاب.

﴿٣٨﴾ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي يقال لهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ الذي وعدكم اللّه في الدنيا ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ والأمم التي قبلكم كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ..﴾ [الواقعة:٤٩-٥٠] فقد تحقق الوعد.

﴿٣٩﴾ ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ في هذه تعبير عن غضب اللّه عليهم، وتسجيل عليهم بعداوتهم لله، وعجزهم عن دفع بطشه، وهي كلمة غضب يحق لها أن تهد القوى وتزهق النفوس لو كان أحد يموت يومئذ، وهم أعجز عن تدبير مكيدة لرب العالمين، العزيز، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره.

يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم

﴿٤٠﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ من غضب اللّه وعذابه.

﴿٤١-٤٤﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قابل تعالى بين حال المكذبين وحال المتقين لينظر الإنسان لنفسه، وينتبه من غفلته، بالمقابلة بين الحالتين فيعمل لما يسعد به وينجو من الشقوة الكبرى، والمتقون: هم المؤمنون الذين اتقوا ربهم بطاعته، والتوبة إليه عند كل زلة، ولا يصرون على ما فعلوا من المعاصي وهم يعلمون.

والظلال: جمع ظل وهو الظل الحقيقي، فهو الظل الظليل لا كظل أهل النار، والعيون: عيون الماء وغيره من شراب الجنة، والفواكه معروفة، وهي أنواع كثيرة، ولهم من كل نوع ما يشتهون، ويقال لهم تكرمة لهم وترغيباً: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿إِنَّا﴾ بعبارة العظمة التي تشير إلى قدرته وعلمه وعدله وحكمته وكرمه ورحمته وسعة فضله، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يشير إلى ما عند اللّه من الثواب للمحسنين، وكأن ما ذكره هنا إشارة إلى سائر ما لهم من النعيم والملك الكبير؛ لأنه قال: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الذي أنتم فيه المذكور هنا ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] وبعد توجيه الأذهان إلى الآخرة وما فيها للفريقين، قارن بها حال المكذبين تهجيناً لها وعودة إلى التحذير منها، فقال تعالى:

مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٖ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾

﴿٤٥﴾ ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من غضب اللّه وعذابه.

﴿٤٦﴾ ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلاً إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾ ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾ كما تأكل الأنعام، فهو متاع قليل ينتهي وتصيرون بعده إلى العذاب والويل لأنكم ﴿مُّجۡرِمُونَ﴾.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تأكيد للوعيد ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ إذا قيل لهم: اخضعوا لله ربكم واعبدوه ﴿لَا يَرۡكَعُونَ﴾ مع أنهم ما خلقهم ربهم إلا ليعبدوه، لكنهم مستكبرون.

﴿٤٩﴾ ﴿وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لأنهم مستكبرون عن عبادة ربهم، مجرمون مفسدون في الأرض، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ﴾ دلالة على أن الأصل في الأمر إفادة الوجوب، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا..﴾ [الفرقان:٦٠] لأنه ذمهم على مخالفة قوله: ﴿ارْكَعُوا﴾ وقوله: ﴿اسْجُدُوا﴾ ومثلهما أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقوله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف:١٢].

﴿٥٠﴾ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٖ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ أي بعد هذا الحديث وما فيه من البيان الكافي والحجج المنيرة والوعيد للمكذبين الذي تكرر، وأقل أحوالهم لو أنصفوا أن يلفتهم إلى التفكر في آيات اللّه، والنظر بجدّ ونصح لأنفسهم، حتى يعرفوا الحق ويتبعوه، ولكنهم معرضون مستكبرون.

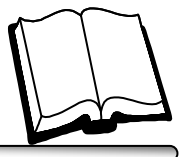

التيسير في التفسير

سورة النبأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ﴿عَمَّ﴾ أي عن أي شيء، أصله: (عن ما) أدغمت (النون) في (الميم) وأسقط ألف (ما) لدخول حرف الجر عليه، مثل: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:٣٥] ثم بين اللّه تعالى ما ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ عنه، فقال: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ و﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الخبر بالقيامة، وما يكون فيها من الفصل بين العباد، وجزاء كل نفس بما كسبت، فهم يتساءلون عن صدق هذا النبأ المهم.

﴿٣﴾ ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بين قاطع بكذبه وشاك فيه، أو نحو ذلك، أي يسأل بعضهم بعضاً، فهو سؤال شك في اليوم الآخر، أو تشكيك، أو تكذيب به، أو استهزاء، ولهذا رد اللّه عليهم فقال تعالى:

﴿٦﴾ ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ فقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا﴾ زجر يعقبه زجر لأهمية الموضوع واستحقاقه الردع عن التهاون به، وقوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أي سيعلمون يوم القيامة حين يرون العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان:٤٢] فهو وعيد للذين يتساءلون، ثم بيَّن سبحانه قدرته على الإتيان بيوم القيامة لأنهم يستبعدون القدرة على إحياء الموتى، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ فأنتم تعلمون أنا جعلنا الأرض مهاداً ممهَّدة مهيَّأة لأهلها على عظمها واتساعها.

أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ﴿١٤﴾ لِّنُخۡرِجَ

﴿٧﴾ ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ فأنتم تعلمون هذا، وترونها راسخة في الأرض غائصة في بطنها، فالأرض بها ثابتة لا تميد، وإن خلق الجبال على كثرتها وطولها وضخامتها لدليل على قدرة الله.

﴿٨﴾ ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ يقول اللّه تعالى: وخلقناكم أصنافاً ذكوراً وإناثاً.

﴿٩﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا﴾ قطعاً للأعمال، فهو راحة للبدن والفكر، قال الإمام الهادي × : «السبات: فهو الإطراق والخفات والهدوء والسكون في الحالات» انتهى.

﴿١٠﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾ ساتراً بظلامه، ولعل من هذا الستر أنه يدعوهم إلى دخول مساكنهم للنوم فيسترهم بذلك، بعد ما كانوا ظاهرين في النهار، وهذا يناسب عطف هذه الآية على التي في النوم.

﴿١١﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾ يطلب الناس فيه من الرزق ما يعيشون به.

﴿١٢﴾ ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ قال الإمام الهادي × : «يعني بالسبع الشداد: السماوات المبنيات» انتهى المراد، وتكرر في القرآن الكريم ذكر بناء السماء، والبناء: تأليف أجزاء المبني بحيث يتماسك ويصلح لما يبنى له، فكل سماء من السبع مبنية أو جملة السبع.

﴿١٣﴾ ﴿وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا﴾ وهو الشمس جعلها تعالى سراجاً تضيء بحيث يذهب الليل بظهورها، قال الإمام الهادي × : «والوهّاج: فهو المتوقد الملتهب» انتهى. قلت: يعني × الذي يزداد ضوءه لذلك.

بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا

﴿١٤﴾ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي أنزلنا من السحاب التي فيها الماء أنزلنا المطر، قال الإمام الهادي × : في ﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: «فسمين لحبسهن ما فيهن من الماء وإمساكهنّ له معصرات» وقوله تعالى: ﴿ثَجَّاجًا﴾ أي قوي الوقوع في الأرض لغزارته، بحيث يضرب ما لاقاه ضرباً؛ لأن اللّه أرسله لسقي الأرض فهي تحتاج إلى الماء الكثير.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أي أنزلنا هذا المطر ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾ رزقكم ورزق أنعامكم ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ومرعى وأشجاراً نافعة لكم ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ بساتين من الفواكه وزروعاً كثيفة ﴿أَلْفَافًا﴾ يلتف بعضها إلى بعض لكثرة فروعها وطولها وتمددها، بحيث تتلاقى في الهواء.

قال الإمام الهادي × : «وكل ما ذكر اللّه سبحانه من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ فإنما أراد اللّه تبارك وتعالى بذكر ما ذكر من هذا احتجاجاً على المكذبين بالنبأ العظيم، بما جعل من ذلك كله، وركّب فيه من الدلائل الدالة عليه سبحانه، والشاهدات على تصديق النبأ العظيم الذي هم في تصنيف الكذب به مختلفون..» إلى آخر كلامه × .

﴿١٧﴾ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ موضع ذكر هذه الآية الكريمة بعد الآيات الماضية يشبه موضع النتيجة بعد البرهان، و﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم القيامة؛ لأنه يوم يفصل اللّه فيه بين المحق والمبطل، والظالم والمظلوم، ويحكم اللّه بين العباد فيه.

﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا

وفي ذكر ﴿ٱلْفَصْلِ﴾ إشارة إلى دليل على صدق الوعد به، وهو الدليل العقلي أنه لابد في حكمة اللّه العزيز الحكيم من الإنصاف بين الظالمين والمظلومين، والفرق بين المسيء والمحسن، وكما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم:٣٥] و(الميقات): الموعد المحدد في علم اللّه وهو موعد لابد منه.

﴿١٨﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ يوم الصيحة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] ﴿فَتَأْتُونَ﴾ موقف الحساب والفصل بين العباد، تأتونه: تجيئون إليه منقادين مستسلمين ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات كبيرة لكثرة من يحشر.

﴿١٩﴾ ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ لكثرة فطورها وشقوقها عند تمزقها.

﴿٢٠﴾ ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ وذلك بعد أن تدكها الرجفة تنسف نسفاً حتى تطير في الهواء غباراً، ثم ترق حتى تصير كالسراب، والسراب: شيء يرى في القاع الواسع مع شعاع الشمس وحرها فيه يخيَّل لرائيه من بعيد أنه ماءٌ، وهذه الأهوال مقدمة أمر الآخرة، المقصود منها الذي هو جزاء الطاغين والمتقين، فلذلك رتب على ذكرها قوله تعالى:

﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ المرصاد والمرصد في الأصل: هو المكان الذي يأتيه العدو فينتظره عدوه فيه؛ لأنه طريقه ليس له طريق غيره يفوته منه، أو أنه المكان الذي لابد أن يجيئه، فإذا جاء ظفر به فقتله أو أسره، قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥] فالمعنى: أن الطاغين يأتون جهنم ولا يجدون عنها محيصاً، والجزاء والعذاب قد أعد لهم فيها، كما يستعد الراصد لعدوه في المرصد.

﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا

﴿٢٢﴾ ﴿لِّلطَّـٰغِينَ﴾ للعصاة المتمردين المتكبرين ﴿مَـَٔابًا﴾ مرجعاً ومصيراً، وسميت ﴿مَـَٔابًا﴾ إما لأن الآخرة يرجعون فيها إلى الحياة إلا أن محل رجوعهم إلى الحياة هو جهنم، وإما لأن مسكن الإنسان يسمى مئاباً لأنه يئوب إليه لأنه مسكنه.

﴿٢٣﴾ ﴿لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ ﴿لَّـٰبِثِينَ﴾ مقيمين فيها ﴿أَحْقَابًا﴾ جمع حَقْب، قال الإمام الهادي × : ((الأحقاب: الدهور الدائمة، وقيل: إن واحد الأحقاب حقب، وأن الحقب ثمانون سنة، فإن يكن ذلك كذلك فهي أحقاب متوالية متواترة متصلة لا آخر لها ولا انقطاع ولا فراغ لمدتها ولا فناء؛ لأن اللّه سبحانه ذكرها أحقاباً، ولم يذكر لها غاية ولامدى، فدل ذلك على أنها أبداً دائماً سرمداً)) انتهى.

قلت: هي مجمل فسره الآيات الكريمة في مواضع عديدة من القرآن، كقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧] وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٧] وغيرها، هذا والآية الكريمة قد دخل فيها المكذبون بالنبأ العظيم دخولاً أولياً، أو هي خاصة بهم بشهادة سياق الكلام من أول السورة وما يأتي فيهم، فلا يصح جعلها خاصة بغيرهم.

﴿٢٤﴾ ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ فلا يخفف عنهم عذابها، ولعله كناية عن حرمانهم من كل خير، فقد كان البرد والماء في الدنيا من أيسر الحاجات فإذا حرموه فبالأولى غيره.

وقال الإمام الهادي × : ((يريد: لا يجدون فيها فسحة ولا راحة تبرد عنهم كربهم، ولا تنفس عنهم ألمهم، ولا تكشف عنهم حرارتهم، ولم يرد هنا بقوله: ﴿بَرْدًا﴾ وقع البرد وحسَّه، وإنما أراد بالبرد تهوين الأمر؛ لأن العرب تقول: بَرَّد عني غمي كذا أو كذا، وبَرَّدَ عني ألَم علتي كذا وكذا، يريد: هوَّن عني وسهّل علي وفرج كربي كذا وكذا)) انتهى المراد.

﴿٢٥﴾ ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ لا يذوقون شراباً إلا حميماً وغساقاً، والحميم: الماء الحار، وقد وصفه اللّه بشدة الحر بقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥] وأما الإمام الهادي × فقد جعل شدة حره من مفهوم اسم الحميم؛ لأنه قال في معناه: ((الذي قد منع الأيدي عن مسه لشدة حموه وحره)) انتهى.

والحاصل: أن الحميم صفة للماء الذي هو شرابهم، فيحتمل: أن شرابهم جامع للوصفين، كقول الشاعر:

هو الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

فهو حميم وهو غساق، قال الإمام الهادي × في تفسير (الغساق): ((فهو الذي قد غلا حتى رمى حبه وتطاير نضجه من جوانب إنائه، فهو يتطاير من الإناء لشدة الغليان)) انتهى.

وهو يحتمل أنه من قولهم: ((غسقت عينه: دمعت)) كما ذكره في (لسان العرب) أو من غسق الليل؛ لأنه يشوي الوجوه فتسود منه وتظلم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩] وقد قيل في تفسير (الغساق): الصديد، وقيل: ما يقطر من جلود أهل النار، والأقرب: أنه شيء واحد ماء حميم وغساق، قال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧] فأفرد الإشارة وأعاد الضمير عليه مفرداً، بقوله تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] ولم يقل: (من شكلهما).

ويحتمل: أن إفراد الإشارة لأن المراد به جنس شرابهم، وأن الضمير رجع إلى الغساق وحده؛ لأن أزواج شرابهم يجمعها اسم الحميم، وهي أنواع باعتبار الصفات المختلفة، ولكن هذا لا ينافي وحدة الحميم والغساق، لكون الغساق من أنواع الحميم ـ والله أعلم.

والآية التي نحن فيها تدل بالحصر والقصر على أن أزواج الشراب المذكورة في قول اللّه تعالى: ﴿وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص:٥٨] هي من الحميم، وإلا لزم أن يكون لهم شراب غير الحميم والغساق، وهو خلاف ظاهر الآية، ولا يصح دعوى التخصيص قبل تحقق خروجها عن اسم الحميم والغساق؛ لأن الأصل بقاء الحصر على ظاهره، ولا مانع أن يكون الحميم الذي يشربونه ماء صديداً، كما قال تعالى: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٦] وإنما الترجيح في معنى (الغساق) في اللغة وتفسيره بما يسيل من صديد أجساد أهل النار يحتاج إلى دليل صحيح، وكذا تفسيره بما يقطر من أجسادهم.

﴿٢٦﴾ ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ جزاء موافقاً لجرائمهم مماثلاً لها، جزاء سيئة بمثلها.

﴿٢٧﴾ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي إن الطاغين المذكورين سابقاً ﴿كَانُوا﴾ لا يؤمّلون محاسبة لهم على جرائمهم؛ لأنهم لا يؤمنون بيوم الحساب، قال الإمام الهادي × : «ومعنى ﴿يَرْجُونَ﴾ يأملون في مخرج الكلم [و] هاهنا هو لا يخافون ويتقون ويخشون ﴿حِسَابًا﴾» انتهى.

قلت: يعني × : أن هذا هو المراد من نفي الرجاء والتأميل، فهو كناية عنه، أو أراد × أن معناه: لا يؤملون في غير هذا الموضع وهو المعنى الأصلي، أما هاهنا فمعناه: لا يخافون، وهو نظير ما قلت في: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَه﴾ [الحاقة:٢٠].

﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأۡسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا

﴿٢٨﴾ ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ بتشديده أي تكذيباً، وهذه من أعظم الجرائم؛ لأنها محاربة للدين الذي هو مبني على الآيات، فهو إفساد في الأرض، والآيات: تعم آيات الكون والمعجزات، وآيات القرآن الكريم.

﴿٢٩﴾ ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ يعم المجرمين وأعمالهم وسائر الأشياء، فلا ينسى مجرم ولا ينسى شيء من جرائمه، فالآية كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس:١٢] وقول موسى × حين قال له فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾ [طه:٥١-٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] قال الإمام الهادي × : «وإنما ضرب الله لهم بما ذكر من الكتاب مثلاً إذ كان أبين ما عندهم بياناً واضحاً، وأثبته ما كان في الكتاب مكتوباً..» إلخ كلامه × .

وعلى هذا: فسواء كان المعنى أحصيناه كتابة، أو أحاط علمنا بعدده ومقاديره حال كونه مكتوباً، والآية يصح أن تكون معطوفة على ما قبلها، داخلة في تعليل تعذيبهم، فهو عذبهم سبحانه لعلمه بما عملوا من أسباب العذاب.

﴿٣٠﴾ ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ التفات إلى المجرمين، كأن العذاب قد وقع، والمعنى يقال لهم: ذوقوا، كما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٢٤] ومواجهتهم بهذا الكلام غضب وتعذيب باليأس من رحمة الله، و(لن) تعم المنفي القريب والبعيد؛ لأنها إذا دخلت على الفعل المطلق الصادق على القريب والبعيد نفته كله، كالنكرة في سياق النفي، ومن هنا تفيد التأبيد.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا﴾ ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للذين اتقوا ربهم بالإيمان واجتناب المعاصي والمفاز والفوز: الظفر بالخير، ويقال: للنجاةن ويمكن هنا جمع المعنيين لعدم التنافي ومناسبة السياق الماضي للنجاة والآتي للنعيم، وهو قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ﴾ جمع حديقة، وهي البستان الجامع للفواكه المتعددة المحاط بحائط محدق به، ويحتمل: أنه يسمى حديقة على الإطلاق، ولو كانت ثمرته نوعاً واحداً، ولكن ذكر التنوع الإمام الهادي والزمخشري، فظهر: أنه من معنى الحديقة ﴿وَأَعْنَبًا﴾ الظاهر من الجمع أنه أنواع العنب.

﴿٣٣﴾ ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ قال الإمام الهادي × : ((والكواعب: فهن النساء النواهد، والناهد: فهي التي قد برز ثديها وتبين للناظرين في صدرها التي لم ينكسر ولم يمل)) انتهى المراد، والأتراب: المشتبهات في السن المتفقات في وقت المولد أو في عام المولد، ولكن الإمام الهادي × فسرها في هذا الموضع بالمشتبهات في القد والجسم والصورة والخلق.

وهو فائدة اتفاق الميلاد أن يكن سواء في القد والجسم ومعاني اتفاق السن وإن كان اللّه أنشأهن إنشاء بدون ولادة كما قيل في أهل الجنة، كأبناء ثلاث وثلاثين؛ لأن التاريخ نفسه غير مقصود أعني تاريخ الولادة، إلا لما يترتب عليه في الدنيا، وأمر الآخرة خلاف أمر الدنيا.

﴿٣٤﴾ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يقال في الكأس: كوب فيه الخمر يشرب به، فأما الإمام الهادي × فقال: ((والكأس: فهو ضرب من الأقداح يشرب فيها الماء وغير الماء من العسل واللبن، يكون الكأس من الفضة والذهب ويكون في الآخرة من ذلك، ومن غيره من الجواهر الياقوت الأحمر والدرّ الأبيض والزمرد الأخضر)) انتهى.

وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

فأفاد × أنه ليس من معنى (الكأس) أن يكون فيها خمر، بل أي مشروب لذيذ، ولا أن تكون من الزجاج خلاف ما يفهمه (الكشاف) في تفسير (سورة الصافات) ولعل الخمر يكون هو المعنى مع التأنيث؛ لأنها تؤنث بخلاف الماء والعسل واللبن، ففي قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ [الإنسان:٥] يفسر بالخمر، وكذا في قوله تعالى: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات:٤٦] أما مع عدم التأنيث فتصلح للكل، ولكن وصفها هنا بأنها (دهاق) أي مملوءة يشير إلى أنها شيء عزيز في الدنيا قلما يملأ منه الكأس لعزازته، وكان الخمر يتلف أموال بعضهم على ما بأنفسهم من الشح بالمال، فلعلهم كانوا يشربون منها بمقدار اقتصاداً في الإنفاق، فالأرجح أن الكأس هنا الخمر ـ والله أعلم، أو الخمر تارة والعسل تارة، وهذا إذا لم يكن الضمير الآتي راجعاً إلى الكأس، فأما إن كان راجعاً إلى الكأس فهو الخمر بغير تردد.

﴿٣٥﴾ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ الضمير إما للجنة؛ لأن السياق قد أفادها، أو لقوله تعالى: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ وإما للكأس، والمعنى: أنها خلاف خمر الدنيا التي يشربها الفساق ويقترن شربها باللغو والكلام الفاحش وتكذيب بعضهم لبعض لعباً ومجوناً كما قيل في المنافقين تحيتهم لعنة، وقد اقترن بذكر شراب الجنة هذا الوصف في (سورة الطور) قال تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ [آية:٢٣] والراجح: الجمع بين المعنيين، فالضمير للجنة، وقرن بذكر الكأس لئلا يتوهم اللغو عند شربها في الجنة، فلا لغو مع شربها لأنهم لا يسمعون في الجنة لغواً.

والكذَّاب ـ بتشديد الذال ـ التكذيب، كقوله تعالى: ﴿لاَ لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ﴾ [الطور:٢٣] وأما كذاباً بالتخفيف فالأنسب، لقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾ أنه الكذب، وهو كقوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج:٢٤] قال تعالى: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٩٠] قال الراغب: ((يقال: كذبه كذباً وكذاباً)).

﴿٣٦﴾ ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي هذا النعيم الذي ذكره لأهل الجنة، وصفه بأنه ﴿جَزَآءً﴾ لهم بما صبروا في الدنيا ﴿عَطَآءً﴾ أعطاهم اللّه ﴿حِسَابًا﴾ أي بقدر أعمالهم في الدنيا، فتختلف لذلك درجاتهم في الجنة لتفاوت حسابهم.

وقال الإمام الهادي × : ((﴿حِسَابًا﴾ يقول: عطاء كثيراً، إن حسب كثر حسابه، وإن عدّ لم يحط بعدده كثيراً جسيماً جزيلاً عظيماً)) انتهى، وقال (صاحب الكشاف): ((﴿حِسَابًا﴾ صفة بمعنى كافياً من أحسبه الشيء إذا كفاه، حتى قال: حسبي)) انتهى، والأول يناسب قوله تعالى في أهل النار ﴿وِفَاقًا﴾ وقد حكاه في (الكشاف) عن بعضهم، وكذلك حكاه الراغب حيث قال: ((وقيل: ذلك إشارة إلى ما قال: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩].

﴿٣٧﴾ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ هو مالكها كلها، ولذلك ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣] ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ لأن الملك يومئذ للرحمن، فليس لأحد حق على اللّه، أو نفوذ طلب عنده أن يأذن اللّه له في خطاب، أو لا يملك من اللّه أن يقول تعالى قولاً يريده العبد، كقوله: ﴿فَلاَ تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الأحقاف:٨].

صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

﴿٣٨﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ يوم يقفون بين يدي ربهم منتظرين أمره و﴿ٱلرُّوحُ﴾ جبريل × ، عطف عليه الملائكة، عطف العام على الخاص، مثل: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٢٨٥] ﴿صَفًّا﴾ مصدر بمعنى صفوف أو صافين صفاً ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ من هيبة ربهم وإجلاله؛ ولأن القول له ليس لهم أن يقولوا، بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ أي أذن له في الكلام ورضي القول الذي يقوله؛ لأنه حق وصواب، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم:٢٦] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ [طه:١٠٩].

وفائدة اشتراط الرضى، دفع توهم المشركين أن شركاءهم يشفعون لهم لمشاركتهم في الملك بزعمهم، وقوة مكانتهم عند اللّه بزعمهم، بحيث أنه في ظنهم يشفّعهم على كل حال؛ لأن لهم في ظنهم نفوذاً يخوّلهم ذلك، فرد اللّه عليهم، وبين لهم: أن الملائكة ﴿لاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:٢٨] وليس لأحد أن يشفعه اللّه لمكانته، ولو شفع فيما لا يرضاه اللّه أو لو شفع شفاعة لا يرضاها، وإنما يأذن بها إسعاداً وهو كاره، كما يحتاج الملك إلى تشفيع وزيره في بعض الحال فيما لا يرتضيه، حفاظاً على مكانته في نفس الوزير.

فالله سبحانه وتعالى له الملك وحده ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الإنفطار:١٩] هذا والكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ لا يختص بالشفاعة، ولكنها من معناه.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ وإن تساءّل عنه الجاهلون ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ المآب: المرجع الذي يؤوب إليه، أي يرجع إليه حين يرجع إلى الحياة في الآخرة، أو هو مصدر (آب) فالمعنى: اتخذ لنفسه في الدنيا أوباً إلى ربه في الآخرة، وأما اسم المكان فالمعنى: مئآباً عند ربه، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥].

والحاصل: اتخذ من الإيمان والعمل الصالح والتقوى ما يقربه إلى اللّه، فهذه مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل:١٩] إلا أن السبيل في هذه الآية لم يذكر، وكفى في الدلالة عليه اتخاذ المئآب؛ لأن اتخاذه هو اتخاذ السبيل بعينه.

﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ الخطاب إما للمكلفين كافة، وإما التفات إلى الذين ﴿يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ والعذاب القريب: هو عذاب جهنم المذكور سابقاً في هذه السورة، وهو قريب لأن الأجل في جنب دوامه كلا شيء والقرب والبعد من الأمور النسبية.

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ﴾ أي الإنسان أو هو أعم ﴿مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾ ما عمل من المعاصي التي توجب له العذاب، أو هو عام للمعاصي وغيرها إلا أن اختصاصه بالمعاصي أوفق للسياق وتأكيد تسبيبه للعذاب بتأكيد نسبته إليه بقوله: ﴿يَدَاهُ﴾ ﴿وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ﴾ ندماً ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ على أصلي الأول.

فيكون المعنى: ليتني لم أخلق إنساناً وبقيت على أصلي تراباً، أي يا ليتني ما زلت تراباً، أو يا ليتني صرت تراباً حين لا يفيده التمني شيئاً، وقد كان في الدنيا يستطيع أن ينقذ نفسه من ورطته، ولكنه اتبع هواه واستكبر، وقد تقدم إنذاره عذاباً كائناً في هذا اليوم الذي ينظر فيه ما قدمت يداه، فيعلم أنه هو الذي أوقع نفسه في العذاب بجرائمه التي ينظرها في كتابه.

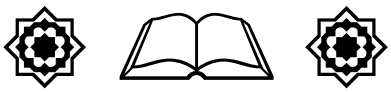

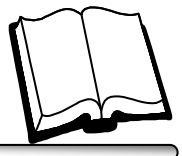

التيسير في التفسير

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾
فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ تكرر في القرآن الحكيم القسم بآيات اللّه ونعمه، وهذا وصف لمحذوف موصوف بقوله: ﴿النَّازِعَاتِ﴾ وليس يمكن القطع بتعيينه، ولكن الراجح عندي: أنها الإبل والبقر التي تنزع الماء بكثرة وتطلعه من الآبار فتغرق ما تصب إليه وما يسقى به من أماكن النخيل والعنب والزرع وغيرها، ففيها آية من حيث إعداد خلقها لذلك وتقويتها وتسخيرها وتذليلها للإنسان يسني عليها أكثر يومه فلا تمتنع منه.

ونظير هذا القسم بـ(العاديات) إما الخيل وحدها، وإما الخيل والإبل، وتفسير ﴿النَّازِعَاتِ﴾ بالمعهودة عند السامعين أظهر من تفسيرها بالسحاب النازعات لمائها من البحر؛ لأن هذا غير معهود إلا عند قليل من الناس، والآية الظاهرة في السحاب ما ذكره اللّه في مواضع من القرآن غير النزع ـ والله أعلم.

﴿٢﴾ ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ الأقرب: أنها الإبل التي يسافر عليها من بلد إلى بلد. قال في (لسان العرب): «ونشط من المكان ينشط: خرج، وكذلك إذا قطع من بلد إلى بلد، والناشط: الثور الوحشي الذي يخرج من بلد إلى بلد، أو من أرض إلى أرض..» إلى قوله: «ونشطت الإبل تنشط نشطاً: مضت على هدى أو غير هدى، ويقال للناقة: حسن ما نشطت السير، يعني سدو يديها في سيرها» انتهى، وقال في تفسير (السدو): «السدْ ومَدّ اليد نحو الشيء كما تسدو الإبل في سيرها بأيديها..» إلخ.

﴿٣﴾ ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ الراجح: أنها الخيل تسرع في عدوها حتى كأنها تسبح في الماء، وقد وصفت بالسبح في أشعار العرب، وفي معلقة امرئ القيس يصف فرساً:

مِسَحٍّ إذا ما السابحات على الونى أثرن الغبار بالكد يد المركل

قال شارحها: «السابح من الخيل: الذي يمد يديه في عدوه شبه بالسابح في الماء» انتهى، وقال في (الصحاح): «وسَبْحُ الفرس: جَرْيُه، وهو فرس سابح» انتهى.

﴿٤﴾ ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ لإسراعهن في سبحهن وقوتهن على السبح حتى يسبقن غيرهن من الخيل، فالقسم بهن؛ لما جعل اللّه فيهن من القوة والجودة.

﴿٥﴾ ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ لقلبهن موازين القوة، وتحويلهن أعداء اللّه بعد عنادهم وتكبرهم إلى أذلاء صاغرين، مما يدفع فسادهم، ويرفع راية الحق وينتشر به العدل، وذلك ما تدبره خيل الجهاد، وهذا فضل عظيم للخيل خصت به، فهي تسرع وتهجم على الأعداء وتصبر في المعارك، كما قال عنترة:

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم..الخ

وقد أمر اللّه بإعدادها للجهاد في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال:٦٠] وأقسم بها في قوله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات:١-٥] ولا إشكال أنهن من آياته العظيمة ونعمه الجسيمة، فالقسم بهن ظاهر.

ٱلرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۝١١ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ

والراجح: أن المراد بها خيل الجهاد في سبيل اللّه؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ وقد فسرت هذه الأقسام بالملائكة وهو بعيد؛ لأن الآيات خطاب للعرب في أول نزول القرآن وهم لا يعرفون هذه الصفات للملائكة حتى تتبادر إلى أذهانهم، بخلاف صفات الإبل والبقر والخيل، فهي ظاهرة وهي التي تتبادر إلى أذهانهم لكونها معهودة عندهم ـ والله أعلم ـ وجواب القسم: ما دلت عليه الآيات بعدها، أي لتبعثن وتجزون بما قدمت أيديكم.

﴿٦﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الرجفة الأولى رجفة الأرض عند الصيحة الأولى التي يصعق عندها من في السماوات والأرض إلا من شاء اللّه، وسميت الأرض ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ لأنها لابد أن ترجف عن قريب، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾ لقربها.

﴿٧﴾ ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ تتبع رجفتها الأولى الرجفة ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي التي تعقبها عند الصيحة الثانية المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر:٦٨] وسميت (رادفة) لقربها من الأولى، فهي رادفة كالراكب بعد الراكب على دابة واحدة.

﴿٨﴾ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿وَاجِفَةٌ﴾ مضطربة من الفزع، وهي قلوب الفجار.

﴿٩﴾ ﴿أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ﴾ أي أبصار أهلها ﴿خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلة خاضعة، بعد التكبر في الدنيا، والعصيان والإباء من طاعة اللّه.

خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ

﴿١٠﴾ ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ أي في الدنيا يقول الكافرون: ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي في الحياة نرد بعد الموت، قال في (الكشاف): «قيل لمن كان في أمر فخرج منه ثم عاد إليه: رجع إلى حافرته أي طريقته وحالته الأولى، قال:

أحافرةٌ على صلع وشيب معاذ اللّه من سفَهٍ وَعَارِ

يريد أرجوعاً إلى حافرة» انتهى، وفي (تفسير محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام): «أراد يكذبون بالرد لهم في الحافر ـ ثم قال ـ: والحافرة: التي تحفر على السرائر وتظهرها» انتهى.

﴿١١﴾ ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ استبعدوا إحياءهم بعد أن صاروا ﴿عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ فقولهم: ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ سؤال نفي وإنكار، ولما كان هذا يتكرر منهم جاء هنا بالفعل المضارع الذي هو فعل العادة المتكررة، والعظام النخرة: التي قد بليت ودمرت، قال في (الصحاح): «نخِر الشيء ـ بالكسر ـ أي بلي وتفتت، يقال: عظام نخرة» انتهى.

﴿١٢﴾ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي قالوا: تلك إذا كانت تقع، فهي ﴿كَرَّةٌ﴾ أي عودة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ أي نخسر فيها، فهم لشدة تكذيبهم يزعمون أنها لو كانت حقاً ما اجترئوا على تكذيبهم بها؛ لأنه يؤدي إلى خسارهم، فالمعنى: أنهم بزعمهم مطمئنون أنها لن تكون، وهم أهل عقول ونصح لأنفسهم فلم يكذبوا إلا لأنهم واثقون أنها لن تكون، ونظير هذا استعجالهم بها تكذيباً بها.

﴿١٣﴾ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي استبعادكم للقيامة بقولكم: ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ وتكذيبكم باطل، فإنها لا تصعب على اللّه أصلاً إنما هي زجرة واحدة، قال الراغب: «الزجر: طرد بصوت، قال: ثم يستعمل في الطرد تارة وفي الصوت أخرى، قال: واستعمال الزجر فيه [أي في الطرد] لصياحهم بالمطرود، نحو أن يقال: أعزب وتنحّ ووراءك» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الزجر: المنع والنهي والانتهار ـ ثم قال ـ: وزجرت البعير حتى ثار ومضى أزجره زجراً، وزجرت فلاناً عن السوء فانزجر وهو كالردع للإنسان، وأما للبعير فهو كالحث» انتهى المراد، فالزجرة هنا إما مجاز عن إعادة الموتى وإثارتهم من قبورهم كما عبر عنه بقوله كن، وإما مجاز عن الصيحة الثانية.

﴿١٤﴾ ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هؤلاء المكذبون بالقيامة، أو ﴿فَإِذَا هُم﴾ أي الأموات كلهم ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ والسهر: الأرق، أي عدم النوم في وقته أو في وقت الحاجة إليه أي في الليل.

ولكن المفسرين اختلفوا في (الساهرة) فقيل: وجه الأرض، وقيل: هي أرض القيامة، وفي (الكشاف): «الأرض البيضاء المستوية ويظهر: أن هذه المعاني ترجع إلى التشبيه بالسهر كما ذكروا، فالأقرب: أن الساهرة: هي أرض الموقف موقف الحساب، لتكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس:٥٣] وأن المراد: سهر أهلها مثل: ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١] كالإشارة إلى حالتهم التي يقولون فيها: ﴿يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢] وإثبات السهر كناية عن شدة الأمر عليهم؛ لأن الإنسان يسهر للشدة في بدنه أو في نفسه، قال امرؤ القيس:

فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ

تطـــاول ليلـــك بالأثمـــــدِ وبـــات الخلـــي ولم ترقـــدِ
وبـــات وباتـــت لـــه ليلـــــة كليلـــة ذي العـــائر الأرمـــد

وقال آخر:

فبـتّ كـأني سـاورتني ضـئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع

وهذا المعنى أقرب مـن قـول بعضـهم: «سميـت سـاهرة لِـوَطْءِ الأقـدام عليها».

﴿١٥-١٧﴾ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ هذه الآيات الكريمـة فيهـا موعظـة للمكـذبين للرسول بما يأتي من قصة فرعون لأجل التكذيب والعصـيان، وفيهـا تسـلية للرسول ص، كقوله تعـالى: ﴿وَإِنْ يُكَـذِّبُوكَ فَقَـدْ كُـذِّبَتْ رُسُـلٌ مِـنْ قَبْلِـكَ﴾ [فاطر:٤] وفيها تنبيه للكفار أن اللّه قد أرسل قبل محمد ص، فليس بدعاً مـن الرسل، ولا أرسله بشيء عجيب؛ لأنها سنة اللّه في الذين خلوا من قبـل أن يرسل إليهم.

ولكون السورة (مكية) جـاءت خطابـاً لأهـل جاهليـة جهـلاء، فجـاءت مـوجزة كأخواتهـا مـن قصـار السـور، ولـذلك اكتفـى فيهـا بـذكر موسـى وفرعون، ولعلها خصت بالذكر لأجل شهرة موسى وفرعـون، أمـا موسـى فلانتماء اليهود إليـه علـى كثـرتهم في الأرض، وأمـا فرعـون فلقصـته الـتي استحقت الشهرة تبعاً لشهرة موسى جملة، أي اشـتهار أن موسـى أرسـل إلى فرعون وقومه وهلكوا بالغرق في البحر.

أما حكاية القصة على التفصيل فهي من دلائل النبوة؛ لأنهم إذا شاءوا سألوا أهل الكتاب وعرفوا مطابقتها لما عندهم.

وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ فيه تنبيه لابتداء الحديث ليستمع له ويفرغ له ذهنه ﴿نَادَىٰهُ﴾ دعاه ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ..﴾ إلى آخر الآيات من (سورة القصص) [من آية:٣٠] والنداء بجهر الصوت ورفعه كما قدمت، وقوله: ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ الذي أوحى الله فيه إلى موسى وناداه، وقد اختصر هنا ذكر ما نادى به فذكر إرسال موسى ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ أي اذهب لإنذاره ودعوته إلى ترك الطغيان وإلى الهدى.

﴿١٨﴾ ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ ﴿فَقُلۡ﴾ له ﴿هَل لَّكَ﴾ أي اعرض عليه أن ترشده إلى أن يزكى، كأنه قيل: هل لك أن تتوجه إلى تزكية نفسك أو ترجع إلى تزكية نفسك، وأصل ﴿تَزَّكَّىٰ﴾ بتشديد الزاي أو تخفيفها ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أي تزكى نفسك وتزكية النفس إصلاحها، وقد فسر (التزكي) بالتطهر من أدران الطغيان، والأقرب عندي: أنه تفسير باللازم، بدليل قوله تعالى: ﴿تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ [البقرة:٢٣٢].

﴿١٩﴾ ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ ﴿وَأَهۡدِيَكَ﴾ معطوف على ﴿تَزَكَّىٰ﴾ فهو داخل في العرض، تعرض يا موسى على فرعون الجاهل بربه الغافل عنه الآبق منه أن تهديه إلى ربه فيخشى عذابه، لما هو عليه من الطغيان، وقل له هذا القول اللين الرفيق الذي هو قول الناصح الشفيق.

وقوله: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أعرّفك الطريق لترجع إليه، وطريق الرجوع إليه: هي الإيمان المسبب للخشية، فالتخلص من الطغيان وتعريفه الطريق تنبيهه وتبيين الأدلة له الموصلة إلى الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، والمؤدية إلى الخشية وتقوى الله وذلك هو الرجوع إلى الله.

﴿٢٣﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ

هذا الظاهر من حيث أن فرعون عبد آبق أرسل إليه سيده رسولاً يعرض عليه أن يدلَّه على الطريق ليرجع إلى سيده، وليخشى ما قد تعرض له من الأمر المخوف، وقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ إنذار له بأنه محتاج إلى الخشية من أمر مخوف يريد أن ينقذه منه، وهذا توجيه له لو استعمل عقله إلى أن يفكر وينظر في صحة ما يقول موسى وصحة دليله على صدقه دون أن يسارع إلى التكذيب والمكابرة.

وفي تفريعه بقوله: ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ على قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ دلالة على أن هدايته إلى ربه تستلزم أن يخشى؛ لأنه بذلك يوقن أنه على خطر عظيم فيخشى، وهذا يؤكد أن معنى ﴿أَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أدلك على الطريق إلى ربك لترجع إلى ربك.

﴿٢٠﴾ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وهي صدقه في أنه رسول من رب العالمين، وهي ما ذكره اللّه تعالى في قوله في (سورة الشعراء): ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [آية:٣٠-٣٣] فقد أراه الآيتين فظاهره أنهما مجموعهما الشيء المبين وهنا كذلك يحتمل أن مجموعهما هو الآية الكبرى لاجتماعهما عقيب طلب فرعون.

﴿٢١﴾ ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ كذب الرسول وعصاه، وكذب بالآية.

﴿٢٢﴾ ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ ﴿أَدْبَرَ﴾ عن موسى ﴿يَسْعَىٰ﴾ مسرعاً ليحشر قومه ويبادر إلى تضليلهم وصرفهم عن الإيمان بموسى.

ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ

﴿٢٣﴾ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ حشر قومه فناداهم بإفكه وتضليله.

﴿٢٤﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ يخوف قومه من اتباع موسى، وليس يعني: أنه الذي خلقهم، وإنما أراد أنه مالكهم الأعلى؛ ليحذروا بطشه، وجرى كلامه مجرى المشاكلة لقول موسى: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف:٤٦]، ومعناه: نفي رب العالمين وإثبات نفسه بدله في ملكهم والقدرة عليهم، وحين قابل الآيات بالتكذيب من أول الأمر بعد وضوح الحق وتمرد على اللّه خذله، فتطور في باطله واستمر على مكابرته.

﴿٢٥﴾ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿نَكَالَ﴾ مصدر مؤكد؛ لأن معنى: (أخذه اللّه) نكَّل به ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾ عقوبة الآخرة والأولى، ومعنى ﴿ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾ إما ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ من جرائمه ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾ منها أي أخذ بجرائمها كلها وقدمت الآخرة؛ لأنها سبب تعجيل العذاب لأنه في الآخرة حشر قومه ليقتلوا موسى وقومه فطردوهم حتى البحر فأغرقهم اللّه، ويحتمل ﴿ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ﴾ أنه أخذه أخذاً يستمر، فأوله في الدنيا الغرق وما اقترن به من إهانته، وآخره عذاب النار الدائم، وفيما بين ذلك يعرض على النار غدواً وعشياً، فهو أخذ الدنيا والآخرة.

﴿٢٦-٣٣﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ * ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا* وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لأنه ينذر المكذبين لرسول اللّه ص أن يؤخذوا كما أخذ فرعون فهو محل قياس لأن الأصل تكذيب فرعون وتمرده وإصراره بعد وضوح الحق، والفرع تكذيب المكذبين لمحمد رسول اللّه ص وتمردهم وعنادهم وإصرارهم، والعلة الجامعة أن كلاً منهما رسول من اللّه جاء بالآيات البينات من اللّه، والحكم استحقاق الآخذ من اللّه وكونه متوقعاً ثم وقوعه إن لم يتوبوا، فالعبرة عبور حكم الأصل إلى الفرع أو هي العلة الجامعة التي بها يعرف عبور حكم الأصل إلى الفرع وهذا أقرب، وفي كلام الإمام علي × : ((ما أكثر العبر وأقل الاعتبار)).

ولما انتهى حديث موسى وما فيه من الإنذار للمكذبين بالآخرة المكذبين بالنذر رجع الكلام إلى الاحتجاج على المكذبين بالآخرة القائلين: ﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾.

فقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر:٥٧] فالمعنى: ءأنتم يا منكري البعث ومستبعدي القدرة عليه أنتم أشد وأصعب خلقاً أم السماء والأرض، فقد قدر سبحانه وتعالى على خلق السماء والأرض، فكيف لا يقدر على خلقكم، ولعل تسمية خلق السماء بناء إشارة إلى أنه تعالى جعلها سقفاً، قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء:٣٢] ولا يبعد أنها مركبة تركيب البناء مؤلفة منظمة فسميت ﴿بِنَاءً﴾ لذلك ـ والله أعلم.

وفي تفسير (سورة الذاريات) من (المصابيح) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ [آية:٤٧] قال الإمام الهادي × : «فهو جعلناها وخلقناها وقدرناها سقفاً عليكم وجبرناها» انتهى، وهذا يشير إلى المعنى الأول ـ والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ فيه احتمال أن السمك هو الرفع، فمعناه: أبعدَ بُعْدَها في العلو أو أن يكون السمك هو الطول، ومعنى رفعه: زيادة إطالته أعني تطويل طوله، وجعله بعيد المسافة في الطول.

وقد *يقال*: لا يتبادر إلى الأذهان إلا لو كانت السماء بنياناً كالقصر فيكون رفع طوله مفهوماً؟

والجواب: أن السماء إذا كانت عبارة عن جملة السبع السماوات، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩] وقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١] وفي آية: ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [آل عمران:١٣٣].

فكما يصح في القصر الذي هو سبع طبقات أن يقال: «رفع طوله» صح في السبع السماوات أن يقال: جعلت السماء سبع سماوات طباقاً فارتفع سمكها بذلك؛ لأنها جعلت كالقصر المبني من سبع طبقات ـ والله أعلم ـ ولأن طبقاتها متباعدة في علوها.

وقد روي أن بين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وعلى هذا يسهل فهم بناء السماء بمعنى جعلها سبع طبقات، كبناء الدار، وفهم رفع سمكها بذلك مع تباعدهن في العلو.

فإن قيل: من أين لنا تفسير السمْك بالطول؟

قلت: قال في (لسان العرب): «والسمك: القامة من كل شيء بعيدٍ طويل السمك، وقال ذو الرمة:

نجائبَ من نتاج بني عُزَيرٍ طوال السمك مُفْزِعَةً نبالا

ثم قال: والسامك: العالي المرتفع، وبيت مستمك: طويل السمك.

قال رؤبة:

صَعَّدَكُم في بيت مَجْد مستَمِك

ويروى: منسمك» انتهى، وأيضاً يصح اعتبار الإطالة للبناء: رفعه، فتكون تسميتها سمكاً باعتبار رفع البناء، فلم يخرج السمك عن معنى الرفع، ويناسب هذا قول الشاعر:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول

ومثله قول لبيد في (معلقته):

فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه فسمى إليه كهلها وغلامها

وقوله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ تسويتها: إتقان صنعها وتهيأتها لما، يراد بها وسلامتها من الفطور.

وقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ في (تفسير الشرفي): عن الحسين بن القاسم: الإغطاش هو الظلام» انتهى، أي جعل ليلها ظلاماً، ونحوه في (الكشاف) و (مفردات الراغب) وقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي نهارها، إخراجه: إظهاره بعد أن كان غائباً في الليل.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ ودحو الأرض: إعدادها للإنسان لتصلح لعيشه فيها بتربتها وهواءها وجبالها ومائها، ولعل من تفسير الدحو قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وللإيجاز لم يذكر ما يترتب على الماء لأنه ظاهر ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ جعلها راسية في أماكنها أوتاداً للأرض ومنافع للناس.

ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ هذه النعم وتهيئة الأرض لعيشكم فيها ﴿مَتَٰعًا﴾ متعناكم به والمتاع: المنفعة القصيرة المدة، فاعتبرت متاعاً لأن الإنسان لا يبقى فيها إلا مدة قليلة ثم يرتحل إلى دار القرار، ألا ترى إلى قول مؤمن آل فرعون: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩] فهذه دلائل على قدرة اللّه على إعادة الإنسان في الآخرة، كما هي دلائل على نعم اللّه تعالى الموجبة لشكره واجتناب الكفر.

﴿٣٤﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم × : وإنما سميت (طامة) لعلوها ورفعتها، وهولها عند وقعها، ووثوبها بغتة وسرعتها، وأصل الطمّ في الارتفاع في الهواء سريعاً سريعاً معاً معاً» انتهى المراد.

وفي (لسان العرب): «طمّ الماء يطم طماً وطموماً، علا وغمر، وكل ما كثر وعلا حتى غلب فقد طم يطم وطمَّ الشيء يطمُّه طماً غمره» انتهى المراد، فظهر أن ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ هنا بمعنى: الواقعة على العالم، العامة لأهل السموات والأرض، القاهرة لهم، ثم قال: ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فزادها تعظيماً وتهويلاً.

﴿٣٥﴾ ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ تفسير لحين مجيء الطامة، فهو يوم يتذكر الإنسان ما قدم في الدنيا، إما لأن اللّه تعالى ألهمه لشدة خوفه من السيئات وطمعه في الحسنات، وإما لأنه يراه في كتابه وإما لذلك كله.

﴿٣٦﴾ ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ أظهرت ليروها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٧] وفي (الكشاف): «أي لكل أحد، يعني أنها تظهر إظهاراً بيناً مكشوفاً، كقوله: قد بين الصبح لذي عينين، يريد لكل من له بصر، وهو مثل في الأمر المنكشف الذي لا يخفى على أحد» انتهى.

﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن

ومن هذا المعنى قول الشاعر:

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

﴿٣٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ (الفاء) للتفريع على مجيء ﴿الطَّآمَّةُ﴾ وتبريز الجحيم، وهو يفيد: أن إظهار الجحيم لمن يرى متقدم على وقت إدخالهم جهنم، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] فهم يرونها قبل أن يصيروا فيها، والطغيان: مجاوزة الحد في العصيان، كأن العاصي المصر علا وتكبر، من حيث أنه عبد الله عليه أن يطيعه، فخلع رداء العبودية وترفع عنها بالتمرد والعصيان، فكان ذلك طغياناً.

﴿٣٨﴾ ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ جعل مطالب الحياة الدنيا أحب إليه من الإعداد للآخرة، فاختار العمل للدنيا على عمل الآخرة، وقدمه على الإعداد للآخرة.

﴿٣٩﴾ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي مأواه الذي يأوي إليه إذا جاءت ﴿الطَّآمَّةُ﴾ أي مصيره ومحله ومقره.

﴿٤٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ موقف الحساب الذي يوقف فيه العباد بين يدي ربهم ليسألهم ويحاسبهم و(المقام) الموقف، والمعنى: خاف حسابه عند ربه، فهو من المتشابه كما قدمت في تفسير (الحاقة) وتصوير العرض على اللّه والوقوف بين يديه للحساب وارد في مواضع من القرآن، وهو عبارة عن موقف الحساب الدقيق، والسؤال عما تقدم من الأعمال، ووقوف العباد للحساب.

ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

والسؤال حقيقي، وإنما المتشابه: تسميته لقاء وحساباً عنده ووقوفاً بين يديه، ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩] ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٧] ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ﴾ [الرحمن:٣١] ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [المائدة:٤٨] ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ [الكهف:٤٨] وهي تعبر عن مقام هيبة وإجلال لله تعالى، وعن كون السؤال والحساب منه، وكذلك الفصل بين العباد، وعن غير ذلك من المعاني التي لأجل جملتها كان ذلك كالحضور بين يدي ملك يقضي فيهم بما يشاء.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي في هذه الدنيا نهى نفسه عما تهوى، وكلفها الصبر على التقوى، والأولى حملها على ظاهرها، وأن الواجب مدافعة الهوى نفسه، أي ما زاد على الطبيعي الضروري.

﴿٤١﴾ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ وفي هذه حصر، وكذلك الأولى فالنار مأوى الطاغين لا مأوى لهم غيرها، والجنة مأوى المتقين لا غيرها.

﴿٤٢﴾ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ القيامة، ولعلها سميت (ساعة) لتقريبها في قدرة اللّه، والدلالة على أنها لا تعسر عليه، والسائلون عنها: إما أهل القلوب التي تكون ﴿يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ وإما الناس كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب:٦٣] و﴿أَيَّانَ﴾ بمعنى متى ﴿مُرْسَاهَا﴾ ومرساها كناية عن وصولها وثباتها، كأنها آتية إتيان المسافر وعند وصولها ثبتت ثبات الجبال، قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾.

﴿٤٣﴾ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي في أمر عظيم أنت بسبب تذكرها، أي في اهتمام بها وخوف، قال في (المصابيح): «عن الحسين بن القاسم ﷺ: يريد

بذلك التوقيف للناس على خوف رسول اللّه ص وما هو فيه من الفزع والحزن، عند ذكره لها وعندما يخطر على باله من هولها» انتهى. وهذا دليل على عظم أمر الساعة، وأن المهم الإعداد لها، لا السؤال متى تجيء.

﴿٤٤﴾ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ غايتها، أمرها إلى اللّه وحده، وهي مصير كل نفس إلى جزائها، أو الساعة تنتهي إليه فيتولاها، هو تشبيهاً كما قلنا في ﴿مُرْسَاهَا﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أي ما أنت إلا نذير لم تبعث لتخبرهم متى تكون ولم تعلم الغيب، و﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ الذي يخافها فهو الذي ينتفع بالإنذار، والحصر إضافي بالنسبة إلى أنه لم يبعث ليخبر متى الساعة.

و﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ يحتمل: من يخشاها عند سماع الإنذار فينظر في الدليل على صدق الإنذار لأجل خشيته عند الإنذار فيؤمن بها ويستعد لها، ويحتمل: من يخشاها لأنه يؤمن بها، فيكون المعنى: من ينتفع بالإنذار فيؤمن فيخشاها لأجل إيمانه بها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس:١١].

﴿٤٦﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ يوم يرون الساعة لأنها قد جاءت، ورؤيتها: رؤية أهوالها وأمورها التي تكون عند قيامها، كأنهم لم يلبثوا أي في أنفسهم يرون مدة اللبث قصيرة جداً ليست إلا مقدار بعض يوم، ومدة اللبث هذه التي يرونها قصيرة إلى هذا الحد إما أن تكون مدة لبثهم في الحياة الدنيا، فيكون المعنى: أنهم يوم يرونها يستقلون الحياة الدنيا، ومقتضى ذلك أن يندموا لإيثارها على الآخرة الباقية العظيمة الشأن.

وإما أن تكون مدة اللبث هذه هي مدة لبثهم في القبور، فيكون المعنى: أنهم حين يبعثون، وفي أول ما يرون القيامة ويعلمون أن قد قامت يستقلون المدة الماضية من حين ماتوا حتى بعثوا.

وهذا رد على من يستعجلها ويسأل ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ استعجالاً لها، كأنه قيل: لا تستعجلوها، فإنكم يوم ترونها تكونون في استقلالكم المدة الماضية من حين متم كأنكم لم تلبثوا ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ لا يكون في نفوسكم أي استطالة لمدة اللبث بل العكس.

ويشكل على هذا: أنه ليس في الآية تحديد لأول مدة اللبث من حين ماتوا، كما أنه يشكل على الأول: أنه ليس في الآية تحديد لغاية اللبث حتى ماتوا فالأولى الجمع، وهو أن يكون المعنى: كأن لم يلبثوا في حياتهم الدنيا وبعد وفاتهم إلى يوم القيامة إلا عشية أو ضحاها، وهذا يناسب قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٥-٥٦] وهو واضح في تحديد آخر المدة بالقيامة.

فأما تحديد أولها، فيمكن أن يحتج له بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥] بناء على أن جملة ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ حال من ﴿يَلْبَثُوا﴾ وهو محتمل أنه حال من ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ وإن كان الأول أرجح لأنه أقرب، وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥] وهذا ظاهر الدلالة؛ لأن السياق في الكفار المكذبين لرسول اللّه ص وهم أحياء، ولا دليل على تقدير الموت هنا، والساعة: مدة قصيرة غير محددة في لغة العرب، فلا تنافي بين الآيتين؛ لأن العشية أو ضحاها يصح أن تعتبر ساعة لقلتها.

فإن قيل: فكيف بقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون:١١٢]؟

قلنا: لم يقل في بطن الأرض، فيصح حمله على حالتي الحياة في الأرض والموت.

فإن قيل: فكيف ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف:١٩]؟

قلنا: يجوز أن يشكوا عند السؤال وإن كانوا قبله لا يترددون في أنها ساعة، وكذلك الجواب في قوله تعالى: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه:١٠٣-١٠٤] يصح أن يبدو لهم ذلك من بعد، وإن كانوا أرادوا في بطن الأرض.

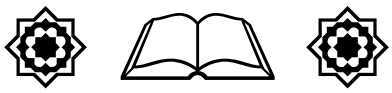

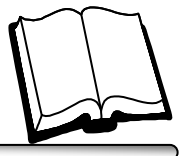

التيسير في التفسير

سورة عبس

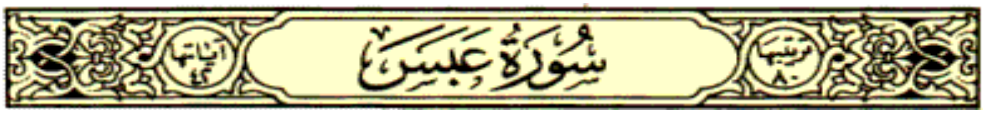

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ ﴿عَبَسَ﴾ قطب وجهه وأظهر الحمس من مجيء ﴿الْأَعْمَىٰ﴾ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عنه بترك التوجه إليه، واختلف في هذا العابس المتولي فقيل: هو رسول اللّه ص، واعتذر له بأنه كان مشغولاً بكبراء من قريش يدعوهم إلى الإسلام ويرغب في إسلامهم ليسلم أتباعهم، فشق عليه مجيء الأعمى لاشتغاله بما هو في نفسه أهم، ولم يكن تقطيب وجهه حمساً على الأعمى، وإنما هو لضجره منه أداه الضجر إليه بالطبع لا بالاختيار، وأما إعراضه عنه فلاتّجاهه إلى ما هو في نفسه أهم وكون الأعمى معارضاً له، ليس تكبراً على الأعمى ولا استخفافاً به.

وقيل: العابس المتولي: رجل من كفار قريش المتكبرين عن الجلوس مع أصحاب رسول اللّه الفقراء، عبس عند مجيء ابن أم مكتوم تكبراً، وهذا يناسب ما تشير إليه الآيات، مثل: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ..﴾ الآية إلى قوله تعالى: ﴿..فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢] وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا..﴾ الآية [الكهف:٢٨] وقد كان رسول اللّه ص على خلق عظيم، فيبعد منه وقوع هذا العبوس والتولي بسبب مجيء الأعمى، وحمله على من هو مظنته أقرب.

فإن قيل: إن الله تعالى عقبه بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ والخطاب فيه للنبي ص، فهو كالتتمة للإنكار عليه؟

قلنا: هو توجيه للإنكار على العابس المتولي؛ لأنه عبس ممن ينتفع بالمجيء إلى رسول الله ص واستماعه إليه، بخلاف العابس من كبار قريش وتوجيه الخطاب إليه؛ لأنه هو الذي يعرف قيمة هذا التوجيه، بخلاف الكافر فعيبه من أول الكلام وارد في القرآن المنزل على رسول الله ص مبلغ إلى رسول الله ص ليسمع الإنكار على المتكبرين.

ويفيد معرفة مكان المصغين إلى الرسول ص، ونظيره قوله تعالى في (سورة الطلاق): ﴿لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [آية:١] ولم يكن المراد: أن رسول الله ص هو المطلق المأمور بالطلاق للعدة، ولكن لأن الكلام معه أنزل إليه، فخوطب بتعليل الحكم.

ويؤكد أن العابس غير النبي ص: اختلاف الكلام حيث لم يقل: (عبست) كما قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ومعنى ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ يصلح نفسه بالعمل الصالح، وذلك إذا سمع من رسول الله ص تعليماً للعمل الصالح أو ترغيباً فيه، ومعنى ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ أو يتذكر ينتبه من غفلة ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ التي هي الموعظة المنبهة له من الغفلة كقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠].

﴿٥﴾ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ أي من كفر فاستغنى عن الهدى؛ لأنه كاره له لا يريده.

﴿٦﴾ ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرض له لتعليمه وإرشاده إلى الإسلام، وهو يرى أنه لا يحتاج له لكفره واستكباره.

عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾

﴿٧﴾ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وما يضرك أن لا يزكى، فعدم تزكيه ضره عليه لا عليك، وكان ص حريصاً على إسلامهم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣] وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ..﴾ إلى قوله: ﴿..أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] فهذا تسلية له بأنه لا يضره تركهم للتزكي أو عدم تزكيهم؛ لأنه ليس عليه هداهم إنما عليه البلاغ.

﴿٨-١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ ﴿مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ مسرعاً لرغبته في أن لا يفوته شيء من كلامك؛ لأنه ﴿يَخْشَىٰ﴾ اللّه ويرغب في تعلم ما ينجيه من عذاب اللّه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغل بالمستغني عنك وعن كلامك عن هذا الراغب إليك، وسمي التشاغل عنه تلهياً؛ لأنه أحق بالإقبال والتعليم ممن لا يريده ولا يقبله.

قال في (الكشاف): ((فإن قلت: قوله ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ كأن فيه اختصاصاً؟ قلت: نعم. ومعناه: إنكار التصدي عليه والتلهي، أي مثلك خصوصاً لا ينبغي له أن يتصدى للغني ويتلهى للفقير)) انتهى.

قلت: أراه أصاب وأخطأ، أصاب في تفسير الاختصاص، وأخطأ في تفسير الاستغناء بالغنى، وحاشا رسول اللّه ص أن يتصدى للأغنياء، ولا يتصور أن ينسب إليه في القرآن الكريم، ولو لم يكن المقصود أنه يتصدى للغني لغناه؛ لأنه يوهم ذلك ويكون ضعفاً في التعبير ينزه عنه أعلى الكلام في حسن البيان الذي هو القرآن، وفي كل فضل، وكذا قوله: ويتلهى عن الفقير، عبارة ضعيفة جداً.

وقد قال (صاحب الكشاف) في تفسير ﴿اسْتَغْنَى﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل:٨]: ((وزهد فيما عند اللّه، كأنه مستغن عنه فلم يتقه، أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة)) انتهى المراد.

وقالوا في قول الشاعر:

كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

التغاني: استغناء كل منهما عن الآخر، وفي (نهاية ابن الأثير): ((وفي حديث الجمعة: ((من استغنى بلهو أو تجارة استغنى اللّه عنه والله غني حميد)) انتهى المراد، وفي (كنز العمال): أنه أخرجه ابن عدي، والدار قطني، وابن ماجه و (ز) ـ لعله البزار ـ كما ذكره مؤلف (الكنز) كلهم عن جابر، وأنه أخرج رواية أخرى الطبراني في (الأوسط) عن أبي هريرة، ورواية أنه أخرجه الدار قطني في (الأفراد) عن ابن عباس.

فظهر: أن معنى ﴿اسْتَغْنَى﴾ لم يجد حاجة إليه، أي رأى أنه غير محتاج إليه، ولهذا لحقه الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل:٨] وهذا معنى الغنى الأصلي، قال في (النهاية): ((الغني: الذي ليس بمحتاج)) انتهى، ولذلك يقال: ((الغنى غنى النفس)) أي القناعة.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى..﴾ إلى قوله: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تسلية لرسول اللّه ص عن المتمردين، بأنهم مستغنون لا يريدون تعليمه وإرشاده، وإنما يشغلونه عمن ينتفع به ليجعل اهتمامه بإرشاد من يقبل دون من هو كاره متمرد.

﴿١١-١٢﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ زجر إما للعابس المتولي؛ لأن رسول اللّه ص أرسله الله ليهدي الناس ويذكرهم، والأولى به من يتبعه لا المتكبرون.

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ

﴿كَلَّآ إِنَّهَا﴾ قال الإمام القاسم بن إبراهيم × : ((معناه: نعم إنها تذكرة و(كلاَّ) هاهنا بمعنى (نعم) وليست بمعنى (لا) كغيرها)) انتهى. وهذه الجملة دالة على هوان المتكبرين عند اللّه، بحيث نهى رسوله عن التلهي بهم، وذمهم على العبوس والتولي ﴿تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ ذكر اللّه واطرح الكبر؛ لأن هذا الكلام تذكرة لهم من كتاب الله.

﴿١٣-١٦﴾ ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة:٧٧-٧٨] وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:٤] إلا أن بينهما فرقاً، فـ(أم الكتاب) و(الكتاب المكنون) لعله باق في السماء، مثبت للملائكة يقرؤونه وأما هذه الصحف فهي ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ يحملونها ليبلغوا ما فيها، وهي ﴿صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند اللّه لكرامة القرآن المكتوب فيها ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ قدراً وشأناً أو مرفوعة قبل أن تنزل بها السفرة، وهم الرسل من الملائكة (عليهم السلام) ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ لا يمسها إلا المطهرون.

﴿كِرَامٍ﴾ أهل تقوى لله وأخلاق كريمة ورغبة في هداية أهل الأرض ﴿بَرَرَةٍ﴾ أهل بر وإحسان وسعي في الخير والصلاح وطاعة لله، وهذه الجملة تعظيم للتذكرة القرآنية، ودلالة أنها منزلة من عند اللّه، والكلام من أول السورة عائد إلى الرسول وما جاء به من اللّه، ولما كان من جملة ما جاء به الإنذار والتذكرة، وكان الكافرون يكفرون باليوم الآخر، أتبعه بالدليل على قدرة اللّه على النشأة الآخرة، وعلى نعمته على الإنسان، فقال تعالى:

ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ

﴿١٧-١٨﴾ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ * مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ في (المصابيح): ((عن محمد بن القاسم بن إبراهيم: ومعنى ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ أي لعن الإنسان ما أقل شكره، وكذلك كل من كفر بآيات اللّه ولم يصر فيما أُمِر به إلى مرضاة اللّه، فمن كان كذلك أو عمل بذلك فهو من الكافرين غير الشاكرين، لما أولاه ووهب له من النعم وأعطاه)) انتهى.

فالسياق جامع للتبكيت على كفر النعمة وتعديد النعم وللاحتجاج على المكذبين بالآخرة ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ حتى يقوم لمخاصمة ربه وجحده لقدرته، أي لم يخلق من أصل عظيم، إنما خلق من شيء حقير، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

﴿١٩﴾ ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ ﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ من ماء قليل هو المني ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢] أي جعله على مقدار محكم مناسب لوظيفته في الحياة، وأيضاً جميل متناسب وتقديره يكون مع خلقه ونموه في بطن أمه.

﴿٢٠﴾ ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ التقدير: ثم يسر سبيله يسره، وهي من دلائل قدرته تعالى حيث يسر له سبيلاً للخروج من بطن أمه، لا هي أخرجته، ولا هو خرج بقدرته واختياره.

﴿٢١﴾ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ وهي من دلائل القدرة، فالعالم يعجزون عن دفع الموت بأي حيلة أو دواء أو غير ذلك، لا يدفع عن ملك من الملوك، ولا عن نبي ولا غيره ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ سخر الأحياء فقبروه، ليواروا سوأته ويصونوا جثته، تكرمة للإنسان للأحياء والأموات.

صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ

﴿٢٣﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ خلقه خلقاً جديداً يوم القيامة.

﴿٢٣﴾ ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ ردع للإنسان عن غفلته عن الآخرة أو كفره بها، مع أنها الخطر العظيم عليه، وهو لم يتم ما أمره اللّه به، وجاءت ﴿لَمَّا﴾ هنا لأن الإنسان ما زال في مدة الاختبار يمكنه أن يتم ما أمره في بقية عمره فأما (لم) فوقتها حين يموت مقصراً، ولكن السياق في دعوة الحي إلى الإيمان والطاعة والشكر، فالكلام فيمن يصلح لذلك لا فيمن قد مات.

﴿٢٤﴾ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كيف أوجدناه له نعمة وآية.

﴿٢٥﴾ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وهذا توقف على جعله في السحاب لينزل منها إلى الأرض، فيعم المال والمراتع وغيرها، وذلك دليل على قدرة اللّه مع كونه نعمة؛ لأنه يسقي الأنعام والناس والأشجار والمرعى.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ بإخراج الزرع من بين الأرض عند نباته، فالزرعة اللينة الضعيفة تطلع في منبتها فتشقه وتفرق اتصاله بقدرة اللّه تعالى، وما جعل فيها من قوة الخروج من بطن الأرض.

﴿٢٧﴾ ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ بعد خروج الزرع وصلاحه لإنبات الحب وإخراجه منه، والحب أهم طعام الإنسان.

﴿٢٨-٣١﴾ ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ أي جملة ما ذكر متاعاً لنا ولأنعامنا التي سخرها لنا لنأكل منها، فتم بيان طعام الإنسان المهم ، وأما القضب والأب فهو للأنعام، وقد يأكل بعض الناس من

وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٥﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٦﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٧﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ

القضب، والزيتون يؤكل ويستعمل دهنه دهناً للشعر والبدن وصبغاً للآكلين، وتسقى به المصابيح في الزمان الأول، والنخل تجمع فوائد في نفس الشجرة وفوائد في ثمرتها، فسعفها يصنع منه الحصير والمكانس ويجعل في سقف البيت عند بنائه وغير ذلك، والتمر يؤكل ويتخذ منه نبيذ، والنوى ينقع في الماء ويدق ويطعم الأنعام، ولعلها ذكرت ـ أعني ـ النخل دون التمر لما فيها من المتاع لنا ولأنعامنا الذي لا يخص التمر، والأبّ مرعى للأنعام، قال في (المصابيح) ـ حاكياً عن محمد بن القاسم بن إبراهيم ـ: ((والأبّ: فهو العشب والمرعى الذي جعله اللّه مرعى ومرتعاً للأنعام ومهملاً للإبل)) انتهى، وحكى في (المصابيح) أيضاً مثله عن الإمام الهادي × .

ومثله قاله ابن جرير في (تفسيره) ورواه بإسناده عن ابن عباس، ورواه عن الحسن، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وأما الحدائق فقد مر تفسيرها، وأما الغلب: فهي الغلاظ، وهي التي في أشجارها كثرة وقوة والتفاف.

﴿٣٢﴾ ﴿مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾ أي أنبتنا هذه النباتات متاعاً لكم ولأنعامكم مؤقتاً وقتاً لا يتعداه قصيراً؛ لأن الموت يحول دونه والقيامة.

﴿٣٣-٣٦﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ في (المصابيح) عن الإمام القاسم × في تفسير ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: ((المسمعة المصخة للأنفس من هولها وما يرى فيها من عظمها فتصخ لها النفوس)) انتهى.

﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

قلت: هي القيامة، أو الصيحة الثانية التي يحشر الناس عندها حين يسمعون الصيحة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢] وعبارة (الكشاف): ((يقال: صخ لحديثه، مثل أصاخ له، فوصفت النفخة بالصاخة مجازاً؛ لأن الناس يصخون لها)) انتهى.

قلت: أصاخ له أي استمع له، قال الشاعر:

وحديثها كالقطر يسمعه ... راعي سنين تتابعت جدبا

فأصاخ يرجو أن يكون حياً ... ويقول من فرح هَيَا ربَّا

ثم فسر: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ ﴿يَفِرُّ﴾ الإنسان يفر من خاصته في الدنيا؛ لأنه مشغول بنفسه ﴿وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ والديه ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ قرينة حياته الدنيا، سواء كانت زوجه كما هو شأن معظم العالم، أم خدينة تكون معه بمنزلة الزوجة أو أخص، كما هو شأن بعض الكفار ﴿وَبَنِيهِ﴾ الذين كان في الدنيا مستعداً ليفديهم بنفسه بالدفاع عنهم.

﴿٣٧-٣٩﴾ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿لِكُلِّ﴾ إنسان من المذكورين في ذلك اليوم العظيم وبسبب هوله ﴿شَأْنٌ﴾ حال ﴿يُغْنِيهِ﴾ يدفعه عن أهله ويشغله عنهم، فلا يحاول أن ينصره أو يسأله عن حاله، ثم فسر تعالى الشأن الذي يغنيه، فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ ناضرة بيضاء مشرقة، وعبارة (الكشاف): ((مضيئة متهللة من أسفر الصبح)).

وعلى هذا: فهي منيرة ليس مجرد البياض، ويحتمل: أنها لجمالها وظهور أثر السرور عليها كأنها تضيء، كما قال الشاعر:

وإذا نظـــرت إلى أسرة وجهـه برقت كبرق العـارض المتهلـل

وقال آخر:

المحه من سنا برق رأى بصـري أم وجه نُعْم بدا لي أم سنا نـار

وأما الضحك فهو دليل الأمن والسرور، وأما الاستبشار فهو في القلـوب فرح، بما عرفوا بالعلامات من حسن مأواهم وكرامتهم عند مولاهم، ولعلـه يؤخذ في معنى الاستبشار أنه سرور يظهر في البشرة.

قال الراغب: ((وَأَبشَرْتُ الرَّجُلَ، وَبَشَّرْتُهُ، وَبَشَرْتُهُ: أَخْبَرْتُهُ بخبر سَارٍّ بَسَـطَ بَشَرَةَ وَجْهِهِ، وَذَلك أنّ الـنفسَ إذا سُـرَّت انْتَشَـرَ الـدَّمُ فيهـا انْتِشَـارَ المـاءِ في الشَّجَرِ)) انتهى، وهذا الاستبشار في القيامة إذا جاءت الصاخة.

﴿٤٠-٤١﴾ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ ﴿غَبَرَةٌ﴾ غبار مـن أثـر خروجهم من بين التراب، أو مـن هبـاء الجبـال أو غـير ذلـك و﴿تَرْهَقُهَا﴾ تغشاها، أي تلحق الوجوه وتعلوها ﴿قَتَرَةٌ﴾ سواد أو تلحق الغـبرة، والأول أظهر؛ لأنه قال في الذين أحسنوا: ﴿وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ [يونس:٢٦] ولعـل هذه القترة اسوداد وجوههم من الندم والغم.

﴿٤٢﴾ ﴿أُوْلَـئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أي جملتهم كفرة فجـرة، والكفـر، إمـا كفر النعمة، وإما جحد ما أخبر اللّه بـه مـن البعـث أو غـيره، أو التكـذيب بالآيات، ويحمل على المعنيين؛ لأن السياق يناسبهما كمـا مـر، و﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ أهل الجرائم ضد الأبرار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الإنفطـار:١٣-١٤] ضد المتقين، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَـلُ الْمُـتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] وقال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٨].

وكما قال الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

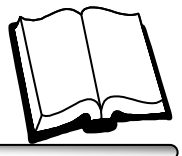

التيسير في التفسير

سورة التكوير

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾
وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ لفَّ بعضها على بعض، وفي (تفسير محمد بن القاسم إ): «والتكوير: الطرح السريع للشيء إذا طرح، فجاء لشدة طرحه متكوراً بعضه على بعض» انتهى، ذكره في (المصابيح) فلعلها ـ والله أعلم ـ اصطدام الشمس بغيرها من الكواكب، فتلتف بسبب المصادمة، وذلك إذا كانت كالحديد لا كالجبال.

﴿٢﴾ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ تهاوت مسرعة، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الإنفطار:٢].

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ وتسيير الجبال في الهواء بعد دكها فتصير غباراً تمر مر السحاب، ويحتمل: أنه تموجها عند حملها ودكها.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم إ): «يقول اللّه تعالى في هذه السورة للعرب وهو يخبرهم عن ذهول الناس يومئذ عما يحبون مما ينزل بهم من فادح الكرب و﴿ٱلْعِشَارُ﴾ حوامل النوق من الإبل، وهي أنفَس ما كان للعرب عندها من الأموال التي لم يكونوا في الدنيا لعجبهم بها يصيرون لها إلى إغفال» انتهى.

وتفسير ﴿ٱلْعِشَارُ﴾ بالحوامل جُمليّ، وفي (الكشاف): «وهي التي أتى على حملها عشرة أشهر» ومثله في (مفردات الراغب) و(صحاح الجوهري) إلا أن الجوهري زاد فقال: «ثم لا يزال ذلك اسمها حتى تضع، وبعد ما تضع أيضاً» انتهى.

﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ

ومعنى ﴿عُطِّلَتْ﴾ تركت وأهملت عن الرعاية، وتخلى عنها أهلها، وفي شعر الإمام الهادي × يتشكى من إهمال الحق وتضييعه:

وعطَّله أنصاره وحماته ... فقد درست أعلامه والشرائع

﴿٥﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ لفزعها من الزلزلة تخرج من بيوتها وتسير في الأرض وتجتمع، ولعل هذا في أول الصيحة الأولى قبل أن تموت، أو حشرت مع حشر الناس وإخراجهم من قبورهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] وهذا أقرب.

﴿٦﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أشعلت ناراً، ولعل هذا باختلاطها بالبترول عند ارتجاف الأرض ونسف الجبال وتفجّر البراكين ـ والله أعلم ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢] وفي (مفردات الراغب): ((السجر: تهييج النار، يقال: سجرت التنور، ومنه: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦]..إلى قوله: وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أضرمت ناراً عن الحسن)) انتهى.

وفي (تفسير الشرفي): ((عن محمد بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام: ويومئذ تسجر البحار، وتسجيرها: تحريكها بالاستعار كما يضطرم بالسجر والتحريك مضطرم النار)) انتهى.

﴿٧﴾ ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ في (تفسير الشرفي) عن محمد بن القاسم × : ((تزويج النفوس ـ والله أعلم ـ ضمها إلى الأبدان إذا نشرت)) انتهى، ويحتمل: جعلت أزواجاً، كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاَثَةً﴾ [الواقعة:٧] والله أعلم.

﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا

﴿٨-٩﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ ﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ التي تدفن في التراب وتقتل بذلك، كأنها تسأل لتعلم أن ربها يريد أن ينتقم لها من وائدها، وأنه لم يغفل عن عمل ظالمها.

﴿١٠﴾ ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ﴿ٱلصُّحُفُ﴾ صحف أعمال العباد التي كتبت فيها تنشر لتقرأ، قال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] فنشر الصحف للحساب يوم القيامة.

﴿١١﴾ ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ في (تفسير الشرفي): «عن محمد بن القاسم إ : وكشطها قلعها من موضعها إذا طويت» انتهى، قلت: لعل الأولى: أنه شقها وقطعها وطي أبعاضها، فالقلع قلع بعضها من بعض.

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ إعداداً لها لأهلها يشتد التهابها وتوقدها.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ ﴿أُزْلِفَتْ﴾ للمتقين قربت، فإذا كانت هذه الأمور المذكورة من أول السورة:

﴿١٤﴾ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ من عمل ينفعها أو يضرها، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠] والأقرب ـ والله أعلم ـ أنه علمها بحقيقة عملها وخبره، كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩] لأن علمها بأنها فعلت كذا وفعلت كذا، يكون عند نشر الصحف وقراءتها، وهذا العلم كأنه متأخر.

ألا ترى أن في (سورة النازعات) قدم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات:٣٥] قبل قوله: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات:٣٦] وهنا قدم: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ﴾ على قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ فالأقرب: أن هذا العلم هو العلم بخبره أحسنٌ أم قبيح أنافع أم ضار، وعلى هذا: تصلح ﴿مَّآ﴾ أن تكون هي الاستفهامية؛ لأن السؤال عن العمل هو باعتبار قيمته وخبره يومئذ أنافع أم ضار.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي أفلا أقسم بالخنس، وفي (تفسير الشرفي): «عن محمد بن القاسم إ : والخنس ـ والله أعلم ـ النجوم الخمسة والقمر والشمس، فمن النجوم الجارية وجريها تحريكها في الفلك بأنفسها، وخنوس ما خنس منها: رجوعها إذا بلغت الشمس إلى الدرجات التي خلفت من ورائها، والخنوس في لسان العرب: الرجوع إلى وراء بعد السير قُدُماً، والخنوس ـ والعلم عند اللّه ـ الذي هو الرجوع بعد الاستقامة لا يذكر به شيء من النجوم إلا هذه الخمسة من زحل والمشتري والمرّيخ وعطارد والزهرة، فإن هذه الأنجم الخمسة قدر اللّه سيرها بالجري والإقبال حتى إذا جرت في المنازل والبروج، حتى تكون في البروج الذي يواجه برج الشمس، وكادت أن تجتمع هي والشمس رجعت متحيرة في سيرها خانسة بالجري والرجوع إلى ما خلّفت من ورائها، ولكل نجم منها درج معلومة إذا بلغها وقرب من الشمس رجع عند بلوغه لها عن الشمس متحيراً خانساً راجعاً إلى ما خلفه مدبراً حتى يتغيب عن الشمس في الرجوع إلى ما ورائه من البروج، وهذا المغيب عن الشمس ـ والله أعلم ـ فهو الكنوس، وكلما غاب من شيء وتنحى في اللسان العربي دعي كانساً تقديراً قدّره اللّه فيها من أحكم التقدير، وتدبيراً منه في سيرها دبره لعجيب من الأمور، وقد يمكن ـ والله أعلم ـ أيضاً أن يكون من الجوار الخنس الكنس النجوم التي تغيب وتطلع بحساب الأوقات والأزمان وعلم الحر والبرد والأمطار» انتهى.

تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ

قلت: لعله يعني مثل الثريا تطلع في الشتاء وتغيب في الصيف، وقد بسط هنا ما اختصره في (الكشاف) و(مفردات الراغب).

﴿١٧﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ في (المصابيح): «عن محمد بن القاسم إ : عسعسة الليل إدباره وتوليه عند آخره» انتهى، وهو الذي اختاره (صاحب الكشاف).

﴿١٨-٢١﴾ ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ إذا طلع نوره منتشراً كأنّ الصباح تنفس به، وقال (صاحب الكشاف): «إذا أقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم، فجعل ذلك نفساً له على المجاز» انتهى، ومعنى القسم بهذه الأشياء أنها آيات تدل على قدرة اللّه المدبر للنجوم، والليل، والنهار.

وجواب القسم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ في (المصابيح): «عن محمد بن القاسم إ أن الرسول جبريل × » وكذا (صاحب الكشاف) وهو كذلك في (تفسير الإمام زيد بن علي إ) ومعنى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ﴾ أنه قارئه على النبي ص ومبلغه، ومعنى ﴿رَسُولٖ﴾ أنه رسول من اللّه إلى رسوله محمد ص، ومعنى أنه ﴿كَرِيمٖ﴾ أنه تقي كريم الأخلاق صاحب بر وإحسان ذي قوة عظيمة لتحمل ما حمله من تبليغ الرسالة وما كلف به من عبادة اللّه.

ومعنى أنه ﴿مَكِينٖ﴾ عند ذي العرش أن له مكانة وقدراً عظيماً وزلفى، وهو مكانة الفضل والشرف والوجاهة عند اللّه، فهو قرب معنوي لا حسي؛ لأن اللّه جل جلاله لا يختص به مكان.

ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

ومعنى ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي مطاع في السماء يطيعه الملائكة أو بعضهم، ومعنى ﴿أَمِينٍ﴾ أنه صاحب أمانة مطلقة، فهو أمين على الرسالة وتبليغ ما أرسل به إلى رسول اللّه ص، ويحتمل: مطاع ثم أنه مجاب الدعوة عند اللّه، وقد جمع بينه وبين الأول محمد بن القاسم إ ، والراجح الأول ـ والله أعلم.

وقد يقال: قد يستعمل ﴿مُّطَاعٍ﴾ بمعنى مجاب، قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨] وهذا فيه نظر لاحتمال أنه رد على المشركين الذين يعتقدون لشركائهم نفوذاً أو مشاركة لله في الملك، بحيث يشفّعهم إذا شفعوا لهم بزعمهم من دون اشتراط أذن ولا رضى من اللّه لهم بالشفاعة، بحيث يكون تشفيعه لهم طاعة لمشاركتهم له في الملك بزعمهم، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً.

وما روي عن عائشة: أنها قالت لرسول اللّه ص: «إن ربك ليطيعك» فإن صح فهو محمول على التجوز والمبالغة في أنه يجيبه بسرعة إذا دعاه، كالمطيع الذي يؤمر وصحته تبعد، إلا أن يكون صدر منها في الصغر ولم ينكر عليها لذلك، أو يكون الرسول ص أنكر ـ والله أعلم، وحاصل الآيات هذه أن هذا القرآن هو تبليغ جبريل × ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء:٢١٠] كما يأتي.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ أي محمد ص صاحب قريش أو صاحب العرب الذي هو منهم ما هو ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ وهذا نفي مؤكد بـ(ما) و(الباء) وذلك واضح لرجاحة عقله واستقامة كلامه.

﴿٢٣﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أي لقد رأى صاحبكم جبريل × ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾ أي في الأفق أي في جو السماء و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ البين الذي لاشك فيه.

﴿٢٤﴾ ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي ما محمد ص ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ والضنين: المتهم، فالمعنى أنه ص ﴿أَمِينٍ﴾ على تبليغ ما جاءه به جبريل كما بلغه، من دون زيادة ولا نقص ولا تغيير، أي أن اللّه ـ جلَّ جلاله ـ ارتضاه لذلك، لعلمه بأمانته وأنه غير متهم على ما نزل به من ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ وهو ما غاب عن الناس، وهو ما جاء به جبريل × من الغيب وهم لا يعلمونه إلا حين يبلغهم، كقوله تعالى: ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] فما جاء به من أخبار القيامة والجنة والنار وغير ذلك فهو حق كله.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وما القرآن ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ يرجم بالشهب إذا حاول استراق السمع فليس من الكهانة فقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة:٤١-٤٢] وهذا رد على الكفار الذين يقولون تارة مجنون، وتارة كاهن.

﴿٢٦﴾ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أيها الكافرون التائهون العادلون عن الطريق الواضح المستقيم إلى الدعاوى التي لا تناسب حال الرسول الذي هو أرجح الناس عقلاً وأبعدهم عن الباطل وأوضحهم حجة وأقومهم سبيلاً.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي هذا القرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ إن هذا القرآن الذي يقرؤه عليكم محمد ص أي ما هو إلا ذكر وتنبيه للعالمين لما يذكر به من الوعد والوعيد ويبلغه من إنقاذكم من الضلال والهدى إلى الصراط المستقيم، والإنذار للعالمين لحاجتهم إليه لكونهم على شفا حفرة من النار لما قد شاع فيهم من الشرك والضلال.

وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ يفيد: أن من آمن بالقرآن واتبعه مستقيم سوي سليم من الاعوجاج، وأن المخالف له اعوج باعوجاج سبيله وعدوله عن الصواب.

﴿٢٩﴾ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي ما يشاء كلكم أن تستقيموا لأن منكم من يتمرد ويجادل في آيات اللّه ويكذب بها، مع وضوح الحق وتبين أن القرآن آية خارقة لعادة الكلام في حسنه وحكمته، بحيث يُعلِم أنه كلام اللّه القادر على كل شيء؛ لأن البشر لا يأتون بسورة من كلام مثله في الحكمة والإتقان وعلو الدرجة في الحسن والإحكام، كما قد تبين واضحاً جلياً بعد عجزهم عن الإتيان بسورة من مثله.

فالمجادلون فيه بعد ذلك المكذبون له جحوداً بما قد تبين لهم تمرداً وكبراً وحسداً واتباعاً لأهوائهم قد خذلوا، وسلطت عليهم الشياطين ﴿تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم:٨٣] فصار بينهم وبين الإيمان به مسافات بعيدة ومراحل عديدة، فما يشاءون ذلك إلا أن يشاء اللّه أن ينزل عليهم آية قاهرة ملجئة إلى الإيمان فتظل أعناقهم لها خاضعين؛ لأنه رب العالمين الذي خلقهم فهو قادر على أن يفعل بهم ما يشاء ولكنه لم يشأ ذلك في الحال؛ لأن حكمته اقتضت جعل عباده في هذه الحياة في مقام اختبار، وهو يستلزم ترك العبد وما يختار حتى تنتهي مدة الاختبار ويريد اللّه إهلاك المجرم بعده أو إنزال العذاب عليه ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٥].

وهذا على فرض أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ كلام على جملتهم، ويحتمل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ أن تستقيموا لأن هوى أنفسكم يدعوكم إلى البقاء

على دينكم الذي نشأتم عليه، وأن تقتدوا بآبائكم، فلا تشاءون لأنكم تتبعون الظن وما تهوى الأنفس ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن يجبب إليكم النظر والتفكر واتباع عقولكم ويضعف داعيكم إلى ما تهوى الأنفس حتى ترغبوا في أن تستقيموا وتشاءوا ذلك، ولا إشكال أن هذا كلام على الواقع وليس فيه نفي القدرة على أن يشاءوا اتباع عقولهم ولكنه كلام على الواقع، وفائدته تحذيرهم من ترك الاستقامة بسبب أهوائهم وفائدته على المعنيين إفادة أن اللّه غني عنهم لا يضره اعوجاجهم ولا ينقص من ملكه.

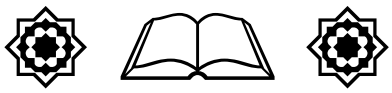

سورة الانفطار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ ﴿انفَطَرَتْ﴾ و﴿انشَقَّتْ﴾ سواء في الدلالة على تفرق اتصالها، وهو ابتداء خرابها عند مجيء القيامة.

﴿٢﴾ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ تساقطت وزالت عن أماكنها.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي خرجت من أماكنها ففاضت فيضاناً عظيماً، ولعل ذلك عند ارتجاف الأرض.

﴿٤﴾ ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ بإخراج باطنها وإلقائه حولها غير منتظم، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الإنشقاق:٤] ولعله يؤخذ منه أن الموتى تكون قبل القيامة قد صارت جثثها تراباً فصارت جزءاً من أجزاء القبور، ولذلك صح أن يقال: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ فنسبت البعثرة إلى القبور نفسها وفي (سورة العاديات): ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [آية:٩]، وعلى هذا يكون خروج أهل القبور منها وهم تراب قبل نشرهم وإحيائهم ـ والله أعلم.

﴿٥﴾ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات:٣٥].

﴿٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ﴿غَرَّكَ﴾ خدعك ﴿بِرَبِّكَ﴾ بإنعام ربك ﴿الْكَرِيمِ﴾ وستره عليك وحلمه عنك.

ما هو الذي غرك به حتى نسيت شكره، وكفرت نعمته، وكذبت رسله، وأطعت عدوه؟! وإنما ينبغي لك لو استعملت عقلك أن تشكره على نعمته وتطيعه؛ لأنه ربك الكريم الذي خلقك وأنعم عليك، وعمرك في هذه الحياة، وفتح لك باب التوبة، فما هي حجتك؟! أو ما هو عذرك حتى انخدعت؟! إنه لا حجة ولا عذر، ولكن حب العاجلة، واتباع هوى النفس، أدى إلى الطمع الفارغ في دوام النعمة مع الكفران، وأدى إلى التكذيب بآيات اللّه وجحد الآخرة والجزاء الأوفى، وصدق أمير المؤمنين ـ صلوات اللّه عليه ـ حيث قال عند هذا السؤال: «ادحض مسئول حجة، وأقطع مغتر معذرة، لقد أبرح جهالة بنفسه» انتهى.

ومن أمثلة الاغترار بالله ما حكاه في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا* ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر:١١-١٥] وفي قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف:٣٥-٣٦] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠].

و﴿ٱلْكَرِيمِ﴾ اسم جامع للصفات الخيرة الممدوحة، والبعد عن كل نقص وعيب ـ سبحانه وتعالى.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ وهو أولى بك وأحق أن تؤمن به وتعبده لأنه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾ جعلك بشراً سوياً محكم الصنع ﴿فَعَدَلَكَ﴾ ناسب بين أعضائك وعدل قامتك، فأنت منتصب غير مائل.

فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ

﴿٨﴾ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ ﴿أَيِّ﴾ تكون للترديد بين شيئين أو أشياء مثل ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير:٩] وتكون للتعظيم تقول: رأيت زيداً أي رجل، تعني: أنه من خيار الرجال، فإن كان قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ من النوع الأول، فالمعنى: إن ربك ركبك في أي صورة من الصور شاءها أو شاء تركيبك فيها، أي أنه هو عين لك صورتك من بين الصور، وركبك عليها، وهذه آية في الإنسان عظيمة بينة له جلية؛ لأنه يرى الصور الكثيرة مختلفة لكل إنسان صورة يختص بها على كثرة الناس، وذلك دليل على قدرة اللّه تعالى من حيث قدر على خلقها مختلفة هذا الاختلاف الواسع، وعلى سعة علمه تعالى حيث علم كيف يصور هذا ويخالف بينه وبين سائر الناس على كثرتهم، وذلك دليل على قدرته تعالى على إعادتهم بعد الموت للجزاء.

وعلى هذا التفسير: تكون ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿صُورَةٖ مَّا﴾ هي المؤكدة للشياع، كقولك: أعطني كتاباً ما، تريد أي كتاب كان صغيراً أو كبيراً أو في أي فن كان أو غير ذلك، فهي تؤكد الترديد بين الصور جليلها وحقيرها وجميلها ودميمها وغير ذلك، لتفيد أن أي صورة كانت للإنسان فإن اللّه ركبه عليها؛ لأنه شاء أن يركبه عليها.

وإن كانت ﴿أَيِّ﴾ للتعظيم، أي لتعظيم صورة الإنسان والتقدير في صورة أي صورة ركبك، فقوله تعالى: ﴿مَّا شَآءَ﴾ خبر ضمير محذوف، أي هي ما شاء و(ما) موصولة، والجملة صفة لصورة، فكأنه قيل: في صورة أي صورة هي ما شاء ركبك.

وفائدة هذا: هي التنبيه على أن اللّه فضل الإنسان في الصورة بمشيئته على غيره من الحيوانات، وهذا المعنى زائد على معنى ﴿فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ وفي تفضيل الإنسان على غيره في الصورة دلالة على قدرة اللّه وعلمه ونعمة عظيمة توجب عليه الشكر، فهي مرتبطة بما قبلها من قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ﴾.

﴿٩﴾ ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ حرف زجر وردع عن الاغترار بالله، لأن أمامهم أهوال القيامة، وموقف الحساب الذي يعلمون فيه ما قدموا وأخروا، فهو يستحق الاستعداد له وترك الاغترار، وقوله تعالى: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ إضراب وترقٍّ من ذكر الاغترار إلى ما هو أشد وهو التكذيب بيوم الدين بعد وضوح الدلالة عليه، فهذا هو السبب العظيم لترك الإعداد له، وهو أساس الفساد وعماد الإصرار على الباطل؛ لأن تكذيبهم بالدين الذي هو الجزاء على ما عملوا في هذه الدنيا جرأهم على كل جريمة فعلوها من التكذيب بآيات اللّه وتكذيب رسله وكتبه وغير ذلك.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فما أسوأ حالكم في اغتراركم وتكذيبكم بالدين، وجرأتكم على الجرائم، وإصراركم على العصيان والتمرد، مع أن كل عمل عملتموه تحصيه الملائكة الحافظون، ويكتبون الصغيرة والكبيرة كلما قدمتم في حياتكم الدنيا، من حين عقلتم حتى هلكتم، فكيف تكون حالكم يوم القيامة وكشف الغطاء ومشاهدة الجزاء، إذا وضع الكتاب ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

وفي (تفسير محمد بن القاسم ×) فسر (الحافظين): «بأنهم الملائكة الذين يحفظون ما عمل المكلف ولا ينسونه أبداً» انتهى بالمعنى.

﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

وقوله تعالى: ﴿كِرَامًا﴾ يفيد: أنهم أهل تقوى وإحسان، فهم مأمونون على الإنسان، موثوق بشهادتهم عليه وصحة ما يكتبون، وقوله تعالى: ﴿كَٰتِبِينَ﴾ ظاهره: الكتابة المعروفة بأي طريقة، ولو بتصوير العبد وأعماله في فيلم يعرض عليه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠] وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] ولا ملجئ للتأويل كشهادة أعضائه عليه، وكشهادة الرسول ص على من شاهده من أمته وغير ذلك، ولا يلزم من تأويل الكتاب في بعض المواضع من القرآن الحكيم تأويله في سائر المواضع مع اختلاف سياق الكلام.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ يفيد: أنهم يكتبون كل ما يفعل المخاطبون؛ لأنهم لا يخفى عليهم عمل من أعمال المخاطبين، فأفاد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أنهم موكلون على المخاطبين ليحصوا أعمالهم، وبما ذكر من صفاتهم أنهم يحصل بهم المقصود لكمال كفاءتهم له.

﴿١٣-١٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ في هذه الآيات تحقيق ما يكون ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ وكان ما ذكر في السورة وأعمال العباد محفوظة يذكرونها في ذلك اليوم، فهاهنا صرح بالجزاء الأوفى: أما الأبرار ففي نعيم، في عيش ينعم أهله ولهم ما يشاؤون، وأما الفجار ففي جحيم في نار جهنم.

والأبرار: هم المؤمنون المتقون أهل العمل الصالح، والفجار: أهل الفجور وهو ارتكاب الجرائم، وأعمال السوء، والفاجر يقابل البر، فيقال: البر والفاجر، كما يقابل المسيء بالمحسن، والعاصي بالمطيع، فيقال: المحسن والمسيء، والمطيع والعاصي، وقد فسر الراغب الأصفهاني (البر): «بالتوسع في الخير ـ ثم قال ـ: وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ..﴾ الآية [البقرة:١٧٧]» انتهى.

قلت: وكفى بها تفسيراً للبر، والأبرار: هم أهل البِرّ، وقال الراغب: «والفجور شَقُّ سِتْر الديانة ـ ثم قال ـ: وسمي الكاذب فاجراً لكون الكذب بعض الفجور» انتهى، وقد قوبل الفجور بالتقى؛ لتوافق معنى التقى والبر من حيث التطبيق، قال الشاعر:

لنفسي تقاها أو عليها فجورها

بل في القرآن الحكيم: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨] فالبر والمتقي واحد، والفاجر والمجرم واحد، وهو العاصي لله المتمرد المصر، سواء كان الفجور بالتكذيب أو غيره من الجرائم.

وقوله تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يباشرونها بأجسادهم بدون حائل، يقال: شاة مصلية إذا شويت بالنار، و﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، وذلك بعد موقف الحساب يؤمر بهم إلى النار فيلقون فيها في ذلك اليوم، ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ أبداً فهم يصلونها ولا يغيبون عنها، ومعنى ذلك: أنهم لا يغيبهم عنها مخبأ ولا مكان بعيد، أو حائل بينهم وبينها حتى لا تراهم، وهذا لأنهم في موقف الحساب يسألون وقد بُرِّزت لهم الجحيم، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] ثم يساقون إليها ثم يصيرون فيها خالدين، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾ [هود:١٦] ولذلك فهم بمرءاها لا يغيبون عنها، لا في موقف الحساب ولا بعده.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ هذا تعظيم وتهويل لذلك اليوم، أعني قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وهو حقيق بذلك؛ لأنه يوم فيه الحساب على الصغير والكبير من الأعمال، حيث الشاهد على العباد هو الحاكم فيهم، يوم فيه خضوع العالمين واستسلامهم لحكم ربهم.

﴿١٩﴾ ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وحده يأمر بما شاء ويحكم ما يريد، لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في أمره، في حال أنها تبرز الجحيم فتأتي ولها كلب ولجب وقصيف هائل، وهي تنادي: «إليّ بأهلي» كما قال أمير المؤمنين × ، وأشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٦-٨] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ..﴾ [الأحقاف:٢٠] وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢] وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج:٢].

ويبين القرآن كثرة من يساقون إلى النار يوم الدين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [الأعراف:٣٧-٣٨] وفي قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء:٩٤-٩٥] وفي قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود:١١٩] وفي قوله: ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ما يحق له أن ترتجف القلوب وتقشعر الجلود؛ لأنه يفهم منه أنهم من كل شعب من كل قبيلة، بل من كل عشيرة.

وفي قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان:١٦] ما يشير إلى عظم الهول في ذلك اليوم، وقد روي أنه يقال لأبينا آدم × : «أخرج من ذريتك بعث النار» ـ أي سلمهم إلى جهنم ـ فيقول: كم؟ فيقال: «من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» أو كما قال.

ومعنى: ﴿لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ أنه ليس لها شيء من الأمر، وليس لها ولاية تستطيع بها نفعاً أو دفع ضر أو قبول شفاعة أو غير ذلك، بل الأمر كله لله وحده، وهو قطع لأماني من يعتقد أن معبوده من دون اللّه سيكون له مشاركة في الملك بحيث يستطيع التدخل والدفاع عنه يوم القيامة بالشفاعة أو بحيث يغفر لهذا المشرك من أجل كرامة معبوده عند اللّه، فأبطل اللّه أمانيهم.

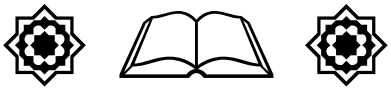

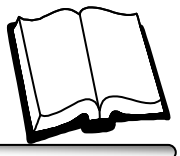

التيسير في التفسير

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ﴿وَيْلٌ﴾ في (تفسير الإمام الهادي ×) وقد مر: «يريد: الويل والعويل والبلاء واللعنة والشقاء» انتهى، وفي (تفسير الإمام القاسم ×) لـ(سورة الهمزة): «وتأويل ما ذكر الله من الويل ما يعرف من الحرقة والعويل والخزي الكبير العظيم الجليل» انتهى، والعويل: رفع الصوت بالبكاء والصياح، كما أفاده (القاموس).

والمطفف: ظالم في الكيل أو الوزن، لا يوفي بما عليه، وقد فهم هذا التفسير من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ الذم على الإخسار، الذي هو النقص على المشتري من المكيل أو الموزون، فأما الاستيفاء إذا اكتالوا أو استوزنوا فهو حجة عليهم لأنهم استوفوا، بمعنى أن ذلك حق لهم، فكيف الحق لهم لا يكون مثله حقاً عليهم؟! ومثل هذا جاء في القرآن الكريم في مواضع حيث يقرن الحق بالباطل لا لأنهما معاً باطل، ولكن للاحتجاج على صاحب الباطل، مثل: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤] ومثل: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:٥١] ومثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ

فالدعاء مخلصين لله محمود غير مذموم، ولكنه حجة عليهم حين بغوا وهذا واضح، وإنما أكثرت فيه لأن بعض المفسدين ألف كتيّباً يدعو فيه إلى ترك الدين إذا كان الإنسان لا يتمه في كل شيء ويستمر عليه، وأورد من القرآن احتجاجاً على ما زعم أمثال هذه الآيات، وهو خطأ فاحش، فالمذموم الباطل وحده ـ وبالله التوفيق.

﴿٤-٦﴾ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اعلم أن أعظم مهمة الكتاب والرسول: التعريف بالله والدعوة إليه، والإنذار والتبشير ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] وجاء مطلع هذه السورة الكريمة في (التطفيف) وإن كان المراد الأعظم: هو إنذارهم، وفي بدء السورة بإنكار التطفيف لطيفة من محاسن البيان، وهي ابتداء الكلام بما يدعو السامع إلى الإصغاء وحسن الاستماع، فقد كانوا في مكة المكرمة في مركز تجارة يعيشون عليها والعدل فيها محبب إلى الطباع؛ لأنه مما يستقيم به أمر المجتمع، وكل الناس يكرهون الجور والحيف ومنه التطفيف.

فهم إذا سمعوا الرسول ص يخوف من التطفيف لابد أن يصغوا لقوله، حتى يؤديهم إلى سماع الإنذار الذي هو المقصود الأكبر فيسمعوا ذكر البعث والوقوف للحساب بين يدي رب العالمين بإصغاء؛ لمناسبة ذكر الوعيد على التطفيف ومطابقة الكلام لفطرة العقل، من أنه لابد من جزاء الظالم، فيكون لهذا البيان الوقع الكامل في قلب من ألقى السمع وهو شهيد.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ ليس دعوة إلى الظن، فإنه لابد من العلم، ولكن ذكر الظن لأنه يكفي العاقل في أن يحذر المخوف العظيم أن يظن وقوعه عليه إن لم يحذر، وأكثر الحذر في الدنيا من الضرر المظنون، ولا يتوقف العقلاء عن الحذر حتى يتيقنوا، وهذا في ضرر الدنيا الذي هو يسير بالنسبة إلى عذاب الآخرة، فكيف لا يحذره من يظنه، هذا مع أن البعث والجزاء أمر تواترت به الرسل والكتب، وتوارثت الأجيال ذكره.

وقد اعترف بعضهم بظنه في قولهم: ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢] وكان بعض أهل الجاهلية يثبته، فكيف وقد جاءهم النذير البشير السراج المنير، وتلا عليهم القرآن الحكيم، فأقل أحوالهم أن يظنوا ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تنبيه لهم على عظم الخطر، ووجوب الحذر لعظيم ذلك اليوم وما فيه من الأهوال والعذاب الشديد، كما مر في تفسير: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الإنفطار:١٧].

وقيام الناس لرب العالمين: وقوفهم للحساب والسؤال، خاضعين لأمر رب العالمين، منقادين مستسلمين، قد ضلت الحيل وتقطعت الأسباب، فلا أنساب، ولا شركاء المشركين.. ولا غير ذلك؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده لا شريك له ولا معارض، ولا متدخل ولا منازع، ولعل الحديث الوارد أنها تصرخ جهنم يومئذ صرخة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثى على ركبتيه لتحقيق هذا المعنى، وهو أنهم كلهم خاضعون لأمر اللّه، دون أن يخاف أولياء اللّه أو يحزنوا، وقد جاء القرآن الكريم بتحقيق هذا القيام في مواضع قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤] وقال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف:٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧] وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاَ تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨] فلا بد من جمع الناس ليوم الجمع، ووقوفهم للسؤال الذي أقسم اللّه أنه يسألهم في قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣] وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف:٦-٧].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ حرف زجر وردع عن التطفيف والتهاون بعاقبته، و﴿كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ كتاب عملهم، والفجار: جمع فاجر، ضد الأبرار، ومن الفجار المطففون ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾.

وقد فسر ﴿سِجِّينٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ فسجّين الذي فيه كتاب الفجار ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ ضمنه كتاب الفجار، ولعله ـ والله أعلم ـ كتاب يرسل إلى سجنهم إلى خزنة جهنم، يؤمرون فيه بتعذيبهم كل على قدر فجوره، وتذكر فيه مقادير العذاب التي توافق مقادير الفجور، ويرسل ضمنه كتاب الفجار ليعرف الخزنة مقادير فجورهم، حتى يكون تقدير شدة عذابهم على مقادير الجرائم ـ والله اعلم.

وفي (مفردات الراغب): «الرقم: الخط الغليظ، وقيل: هو تعجيم الكتاب» انتهى وفي (الصحاح): «الرقم: الكتابة والختم، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ وقولهم: هو يرقم الماء أي بلغ من حذقه بالأمور أن يرقم حيث لا يثبت الرقم، ورقم الثوب كتابه، وهو في الأصل (مصدر) يقال: رقمت الثوب ورقمته ترقيماً مثله ـ ثم قال ـ: والرقيم: الكتاب، وقوله تعالى: ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾ [الكهف:٩] يقال: هو لوح فيه أسماؤهم وقصصهم» انتهى المراد.

لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ

ويظهر: أن الرقم في اللغة الخط سواء كان كتابة أحرف أو صورة أو نقوش، وفي الحديث الذي رواه الإمام الهادي × في (الأحكام): «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه تماثيل أو صور إلا ما كان رقماً في ثوب» انتهى، ولكن ذكر الكتاب في الآية الكريمة قرينة أن الرقم أحرف أو رقوم درجات العذاب يفهمها الخزنة أو نحو ذلك، والمراد بهذا التقريب الذي يرشد إليه السياق.

﴿١٠﴾ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ الأرجح أن معنى ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأن السياق لم يبعد، وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ..﴾ الآيتين كلام في بعض أحوال ذلك اليوم، فليس خروجاً عن السياق فيه، والمكذب: هو الذي يكذب الخبر أو المخبر، فيقول: الخبر كذب أو المخبر كاذب، والأصل: تكذيب الخبر، ويبنى عليه تكذيب المخبر في ذلك الخبر أو فيه وفي غيره، وقد غلب على الكفار الذين كذبوا الرسل كان الرسول يبلغ قومه أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد، ويخبرهم بالحياة الآخرة، وما وعد الله به من الجنة والنار، فيكذبون ذلك الخبر، محتجين بأنه لا يبعث الله من يموت، مستندين إلى استبعاد إحياء العظام وهي رميم.. ونحو ذلك.

وينتقلون من تكذيب الخبر بالبعث إلى تكذيب الرسول في قوله: إن الله أرسله إليهم ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ..﴾ [سبأ:٧-٨] ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر:٩] ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ:٤٥].

عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ

وقد يبدءون بتكذيب الرسول بدعوى أنه يريد أن يتفضل عليهم أو بدعوى أنه يريد أن يصدهم عما كان يعبد آباؤهم فالباطل ليس له ضابط، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق:٥].

﴿١١-١٢﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بيان للمراد بالمكذبين هنا، سواء كان تفسيراً أم تطبيقاً؛ لأنهم كذبوا بالآيات فكذبوا ﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وكذبوا ما بلغه الرسول عن اللّه فكذبوا بيوم الدين، ويوم الدين: يوم الجزاء الذي هو يوم القيامة وعلق الوعيد على التكذيب بيوم الجزاء؛ لأن قبحه عظيم من حيث هو تكذيب بالجزاء، ومعناه: نفي حكمة اللّه وجعله مسوياً بين المسلمين والمجرمين والمؤمن الذي عمل الصالحات والمسيء لجرمه.

قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ الاعتداء: الظلم ومجاوزة الحق إلى الباطل، قال تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١] والأثيم: الواقع في الإثم، والإثم: الذنب، فلا يتجرأ على التكذيب بيوم الدين إلا المتعدي الأثيم، الذي لا يبالي بما وقع فيه من الباطل، وذلك لأن يوم الدين قد وعد اللّه به وهو أصدق القائلين واقتضته حكمة أحكم الحاكمين، ودلت على صدق النذير به الآيات البينات من القرآن الحكيم.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ * كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فكذب بآيات اللّه ذي العظمة والجلال إصراراً على تكذيبه بيوم الدين لأن آيات اللّه تثبته والمعتدي الأثيم ينفيه، فجمع بين الكفرين.

والأساطير: جمع أسطورة يعني أن القرآن ليس من اللّه إنما هو بزعمه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما سطره الأولون من القصص والأخبار التي لا أساس لها من الصحة، وحاصله التكذيب بأنها من آيات اللّه، وقد وضح كذبهم بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله.

﴿كَلَّاۖ﴾ حرف زجر وردع عن التكذيب بآيات اللّه، ودعوى أنها أساطير الأولين ﴿بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ ﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ دنسها وغلبها، فهي كارهة للحق تأبى قبوله، ولأهل اللغة عبارات في تفسير (الران) وحاصل المعنى: إفساد قلوب الذين يكذبون بيوم الدين، والمفسد لها هو ما كانوا يكسبونه في الماضي من الذنوب المتتابعة المتوالي فسادها على القلوب، وفي (أمالي المرشد بالله الخميسية) [ج ٢/ ص٢١١]: بإسناده عن النبي ص: «أربع خلال مفسدة للقلب: مجاراة الأحمق فإن جاريته كنت مثله وإن سكت عنه سلمت منه، وكثرة الذنوب مفسدة للقلب، وقد قال اللّه تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾..» الحديث.

﴿١٥﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ مبعدون عن ربهم، وهو تمثيل كمن يحجبه حاجب الملك عن الدخول إليه، قال في (لسان العرب): «والحاجب: البوّاب صفة غالبة، وجمعه: حجَبَة وحجّاب، وخطَّته الحجابة [يعني حرفته] وحجبه أي منعه الدخول» انتهى المراد.

قلت: ومنه قول الشاعر:

لهم حجاب ولنا أنفس ... تمنعنا الذل عزيزات

وقول الشاعر:

إذا اعتروا باب ذي عِبِّيَّة رُجبوا ... والناس من بين مرجوب ومحجوب

﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى

ومنه قول أبي الأسود الدؤلي:

وَخَامِلٍ مُقرِفِ الآباءِ ذي أدَبٍ ... نالَ المعاليَ بالآداب والرُّتَبا

أمسى عزيزاً عظيم الشأن مشتهراً ... في خدِّه صَعَرٌ قد ظل محتجبا

ومعنى أنهم مبعدون: أنهم مهانون في ذلة وصغار.

﴿١٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ والترتيب بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا مستقيم على أصلها؛ لأن حجبهم في موقف الحساب ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وبعد ذلك يؤمر بهم إلى النار ويوقفون عليها ثم يلقون فيها فيصلونها نعوذ بالله.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي ﴿هَٰذَا﴾ العذاب بهذه النار ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ الرسل حين أنذروكم وتكذبون من حذر منه.

﴿١٨﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن التكذيب بيوم الدين؛ لأن معناه: نفي الجزاء للفجار والأبرار و﴿كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ كتاب أعمالهم ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ و﴿عِلِّيُّونَ﴾ فسره قوله تعالى:

﴿١٩-٢١﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ فقد فسر ﴿عِلِّيِّينَ﴾ بأنه ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ وعظم هذا الكتاب وشرّفه بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ وبقوله: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ والأقرب: أنهم الملائكة المقربون ليكرموا الأبرار، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤] واطلاعهم على الكتاب مما يسر الأبرار، قال تعالى: ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه﴾ [الحاقة:١٩] ومعنى ﴿يَشْهَدُهُ﴾ يحضره ويشاهده.

ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ لعل هذا في الأبرار مقابل قوله تعالى في الفجار: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ فهو في الجنة، ويحتمل: أنه في موقف الحساب فقد جاء في (حديث الصيام): عن علي × قال: سمعت رسول اللّه ص يقول: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظامئة أكبادهم؟! وعزتي وجلالي لأروينهم اليوم. قال: فيؤتى بالصائمين فتوضع لهم الموائد وإنهم ليأكلون والناس يحاسبون» انتهى من (أمالي أبي طالب) من (الباب الرابع والعشرين) وأوله في (مجموع الإمام زيد بن علي إ).

﴿٢٤﴾ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ النضرة: البهجة والجمال، مع أن الجمال مرئي بالبصر لإضافة النضرة إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ فالمعنى: ترى في وجوههم النضرة التي هي بسبب النعيم، يعرف بها ما هم فيه من النعيم؛ لأنه اجتمع لهم الأمن في ذلك اليوم والبشرى، مع ما يؤتون به من الطعام والشراب، فأما قوله: ﴿يَنظُرُونَ﴾ فيأتي تفسيره في آخر السورة، وفائدته هنا الدلالة على أمنهم وسرورهم، بخلاف أعداء اللّه الظالمين الذين تشخص أبصارهم.

﴿٢٥﴾ ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ والرحيق: نوع من الخمر جيد، وفي الصحاح: «الرحيق: صفوة الخمر» انتهى، وقوله تعالى: ﴿مَّخْتُومٍ﴾ الأقرب: أنه ختم زجاجه، وأثبت له الختم ليدل على صيانته، ولعل هذا قرينة كونهم في موقف الحساب قبل دخولهم الجنة، مع أنه يمكن أنهم في الجنة كذلك، وإن كان الخمر أنهاراً إلا أن قربه وكونه في الجنة لا يحوج إلى ختمه، بخلاف إذا كان يؤتى به لهم في موقف الحساب ـ والله أعلم.

وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾

﴿٢٦﴾ ﴿خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ لتطيب به رائحته، ويدل ذلك على كرامتهم عند اللّه، ولعل ذلك سبب اعتراض قوله: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ والتنافس: التسابق إلى الشيء النفيس لسبقه مع الغيرة من سبق الآخرين له.

وفي (تفسير محمد بن القاسم ×): «التنافس: التحاسد، ولم يحسّن اللّه في شيء من أمور الدنيا كلها التحاسد، وإنما حسّن سبحانه التحاسد الذي هو التنافس في نعيم الجنة؛ لعظم قدرها وجلالة فضلها، فهنالك ما يحسن التحاسد لا في هذه الدنيا الفانية» انتهى المراد.

قلت: المراد بالحسد هنا: الغيرة كما في الحديث: «لا حسد إلا في اثنتين..» والحديث موافق للآية.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي مزاج الرحيق المذكور، و﴿تَسْنِيمٍ﴾ اسم عين في الجنة كما دل عليه قوله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وتخصيصها للمقربين دليل على فضلها وزيادة حسنها، بحيث أنه يحسن الشراب بمزجه منها، فكيف إذا كان الشراب كله منها.

ولعل هذه قرينة أنهم ما زالوا في موقف الحساب؛ لأن (الأبرار) يعم السابقين وأصحاب اليمين، فهم كلهم يسقون من رحيق له الصفات الثلاث.

وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿٢٩-٣٣﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ * وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ اعلم أن إيراد هذه الأفاعيل من الذين أجرموا ليس تحويلاً للكلام عن ذكر سعادة الأبرار، ولكنه تقديم لبيان نوع من سعادة الأبرار، والذين أجرموا أهل الجرائم العصاة المتمردون، والمراد بهم هنا: مجرمون مخصوصون لاختصاصهم بهذه الأفعال السخرية من الذين آمنوا بحيث يضحكون منهم استهزاء بهم لإيمانهم محاربة للدين، والتغامز بينهم يغمز بعضهم بعضاً تنبيهاً على المؤمنين الذين مروا بهم كما يتغامز المارة بالمجنون.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ بعد مرورهم بالذين آمنوا وضحكهم منهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ ملتذين بما كان منهم وإذا رأوا الذين آمنوا ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ غاوون عن طريق الصواب أكدوا تضليلهم بـ(إن) و(اللام) والتحقيق لهم باسم الإشارة واستعملوا الجملة الاسمية لأن الذين آمنوا دخلوا في دين يثبتون عليه ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ ليحفظوهم عن الضلال، فكلامهم فضول مع كونه زيادة في الكفر.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ وهذا الضرب من نعيم الأبرار

الذي سيق له الكلام من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وهو سعادتهم بنصرهم على أعداء اللّه الذين يستخفون بهم في الدنيا ويؤذونهم ويضللونهم، فالمؤمنون بنصرهم ﴿يَضْحَكُونَ﴾ وحق لهم أن يضحكوا وهم ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ لا يحتاجون لينظروا أن يتحولوا عن فراشهم الوثير، بل ينظرون من أمكنتهم، سواء كانوا في موقف الحساب أم في الجنة، إلى ماذا ينظرون؟! ينظرون إلى الكفار إما وهم يبكتون في الموقف ويؤمر بهم إلى النار ويساقون إليها، وإما أن يكونوا قد وصلوا الجنة.

وهم ينظرون من غرفهم الواسعة الكثيرة الأبواب، ويرون من هناك إذا شاءوا أولئك ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وهم يعذبون في النار لينظروا هل ثوبوا، أي جوزوا بما كانوا يفعلون من التمرد والعدوان على أولياء اللّه، ونظير هذا التركيب قوله تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك:٣] ونظير هذا المعنى في (سورة الصافات) في سياق نعيم أهل الجنة: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ..﴾ إلى قوله: ﴿..فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الآيات:٥٠-٦١] فهذا نوع من سعادتهم.

وعكسه نوع من شقاء أعدائهم دل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ * إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١١].

فالحاصل: أن الذين آمنوا ينظرون إلى الكفار هل ثوبوا ما كانوا يفعلون، أي ليشاهدوا جزاءهم وتقر به أعينهم، وفي (تفسير محمد بن القاسم إ): «أي قد ثوب الكفار إذ عذبوا ثواب نقمة فيما كانوا يلقّون الأبرار» انتهى.

وفي (الصحاح): «وقوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ أي هل جوزوا» انتهى، قال في (مفردات الراغب): «والثواب يقال في الخير والشر، لكن الأكثر المتعارف في الخير»؟

وقال في أول البحث: «أصل الثوب رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها ـ ثم قال ـ: والثواب: ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله فيسمى الجزاء ثواباً تصوُّراً أنه هو، ألا ترى كيف جعل اللّه الجزاء نفس الفعل في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧] قال: والتثويب في القرآن لم يجيء إلا في المكروه نحو ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾» انتهى، يعني: وهو من الثواب بمعنى الجزاء المكروه.

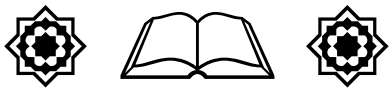

سورة الانشقاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ ﴿انشَقَّتْ﴾ و﴿انفَطَرَتْ﴾ بمعنى.

﴿٢﴾ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ﴿أَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ سمعت لأمره، أي أطاعت حكمه وانقادت لقضائه، وقوله تعالى: ﴿وَحُقَّتْ﴾ قيل في تفسيره: أصيبت أي لم يخطئها الشق.

وقيل: ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي وحق لها أن تأذن لربها؛ لأنه القادر على كل شيء الغالب على أمره، قال في (الصحاح): «وحق له أن يفعل كذا، وهو حقيق أن يفعل كذا، وهو حقيق به ومحقوق به: أي خليق له، والجمع: أحِقَّاء ومحقوقون» انتهى.

والأقرب عندي: أن المراد ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ في ابتداء خرابها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ انقادت لقضائه فيها بالتخريب ﴿وَحُقَّتْ﴾ إما أصيبت بما دمرها وأتلفها، وإما وحق لها أن تنقاد وتستسلم لقضائه، والأول أرجح؛ لأنه بدونه لا يكون في الكلام إلا إثبات انشقاقها.

ويصير الأذن لربها الاستسلام لشقها، وعلى الأول يكون شقها في ابتداء خرابها المؤذن بخرابها فاستسلامها للقضاء بخرابها، فخرابها كما يحضر الموت فيستسلم له الحي فيموت، فانشقاقها بمنزلة حضور الموت وخرابها كالموت ـ والله أعلم.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ كما يمد البساط فلا تبقى كروية ـ والله أعلم.

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ

۝٤ ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ ﴿مَا فِيهَا﴾ من الموتى والجبال تلقيهم من بطنها، ولعلها مع مدها تلقي كل ما في بطنها من الجثث وغيرها لشدة الزلزلة مع مدها، وقوله تعالى: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ يحتمل ـ وهو الراجح ـ أنها تتخلى من أهلها ومن الجبال، فتخرج أهلها إلى الجنة والنار، وتخرج الجبال إلى الهواء هباء منبثاً.

۝٥ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ استسلمت لقضاء ربها ودمرت بعد تخليها، وهذا أرجح من جعل الكلمات بمعنى واحد في مقام الإيجاز البالغ؛ لأن قصار السور أبلغ في الإيجاز.

۝٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ ﴿كَادِحٌ﴾ كادّ في مراحل عمرك مسافر فيها ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ تحقيق لكون الإنسان في كدّ وعناء في مراحل عمره مقبلاً إلى ربه ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ في نهاية هذا السفر ملاقي ربك ليسألك في موقف الحساب ويجزيك.

۝٧-٨ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ظاهر الآية: أنه يؤتى كتابه بيمينه قبل أن يحاسب، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤] والحساب اليسير سليم من المناقشة والتوبيخ، واليسير ضد العسير، فهو حساب سهل على المؤمن.

۝٩ ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ ﴿يَنقَلِبُ﴾ من موضع الحساب ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه استبشر بالسلامة ورضوان اللّه ودخول الجنة، فيصل إلى أهله وهو مسرور مبروك يا ولي الله.

أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ﴿١١﴾ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا

﴿١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ هذا لا يعارض آية إيتاء كتابه بشماله، فهو يجتمع له الأمران يناول من خلفه ليأخذه بشماله، فتلك علامة سوء العاقبة.

﴿١١﴾ ﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ يقول: «يا ثبوراه» كما يقول: «يا ويلاه» لأنه قد فاته كل خير، وهو صائر إلى العذاب الدائم قد خسر نفسه، إذ حياته ليست له وإنما هي ليجزى بما أسلف، فهو أعظم الهلاك.

والثبور: الهلاك، والدعاء: دعاء الندب مثل: «وارأساه» وفي (تفسير محمد بن القاسم إ) فسر (الثبور): بالويل، وحقيقته: الشقاء في العذاب ولذلك قال تعالى: ﴿لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان:١٤].

﴿١٢﴾ ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا﴾ يباشر النار سعيراً مسعرة موقدة ملتهبة.

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ لا يخاف الآخرة ولا يبالي بجرائمه، وإنما همه أغراضه الدنيا وسروره بما نال منها.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أن لن يرجع إلى ربه ليسأله ويجازيه، فأمن الجزاء، وتجرأ على الفجور.

﴿١٥﴾ ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ تكذيب لظنه ﴿أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ أي بلى أنه يحور ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ لم يخلقه عبثاً ولم يهمله وقد أكمل له عقله وأرسل رسله وأنزل كتبه فما بقي له بد من الجزاء كما اقتضته الحكمة.

ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ

﴿١٨﴾ ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ هذا قسم بهذه الحوادث التي هي دليل على الذي أوجدها و(الشفق): حمرة الأفق الغربي بعد غروب الشمس، وهي حمرة قوية من أثر ضوء الشمس مع اقترابه من الأرض وزاده وضوحاً سواد الليل، فهو دليل على الذي غيب الشمس وجاء بالليل بعد يوم من النهار، والقسم بالليل لما فيه من الآية لأن فيه منفعة للحيوان والشجر لما فيه من راحة الناس من الأعمال وسكونهم عن الحركة والتفكير بالنوم في الليل، والقسم بما وسق، ومعنى ﴿وَسَقَ﴾ جمع، والليل يجمع أنواعاً من المخلوقات مختلفة كثيرة وكلها آيات تدل على الخالق وتنتفع بالليل، وفي (تفسير محمد بن القاسم إ): «وتفسير وسق فيه: هو كلما كفت الليل من الخلق عند وقوعه عليه» انتهى. ولعل التفسير بقوله: كفت، أحسن لإشارته إلى فائدة الليل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ ففي (تفسير محمد بن القاسم إ): «فاتساق القمر هو تمام نوره، وما يكون من استدارته واتساقه بعد ذهاب نوره في آخر الشهر وامتحاقه» انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ هذا جواب القسم، في (الصحاح): «والطبق الحال، ومنه قوله تعالى: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي حالاً عن حال يوم القيامة» وفي (تفسير محمد بن القاسم إ) للآية: «هو ما ينتقل فيه بالبشر الحالات من الحياة الدنيا التي هم فيها، ثم ما يصيرون إليه من الذهاب والممات، ثم ما يصيرهم اللّه إليه من البعث والنشور بعد البلى في القبور» انتهى.

أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

والأقرب: أن القسم وجوابه ردّ لظنهم أن لن يحوروا، ولكنه التفات لتأكيد الوعيد، واستعمال الركوب هنا كاستعماله في ركوب الأهوال، ولأن أحوالهم يكونون عليها وينتقلون من حال إلى حال، فأشبه حالهم السفر، واستعير له الركوب الذي هو من خواص السفر، وعلى هذا فالأحوال أولها الموت، وآخرها موقف الحساب.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ وفيه الآيات التي يؤمن لأجلها من أنصف، وفيه الوعيد الشديد المؤكد بالقسم، وذكر أهوال القيامة ما يبعث على النظر والحذر والسجود، خضوعاً لله وإيماناً كما يفعل الصالحون المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء:١٠٧].

﴿٢٢﴾ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ فلذلك لا تنفعهم الآيات والمواعظ لأنهم يكذبون بها كلها، وقد خذلوا لتمردهم.

﴿٢٣﴾ ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يسرونه في قلوبهم، فهو مجازيهم على أعمالهم كلها؛ لأنه لا يخفى عليه شيء منها، حتى ما أضمروا في صدورهم من الكبر والحسد والعداوة والبغضاء لأهل الحق وسوء النيات.. وغير ذلك.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لأنها قد بلغتهم الحجة وتمردوا، وفي ذكر التبشير تهكم بهم؛ لأنهم اختاروا التكذيب وأصروا عليه، كأن له فائدة وما فائدته إلا العذاب الأليم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ فلا يعذبون بما كفروا قبل الإيمان، بل هم ناجون من عذاب الكفر، ولهم أجر الإيمان والعمل الصالح أجر عظيم غير ممنون عليهم، بل يقال لهم: هذا جزاء إيمانكم وعملكم الصالح ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:٦٠] فيسرهم أنهم قدموا لأنفسهم في الدنيا ما سعدوا به في الآخرة.

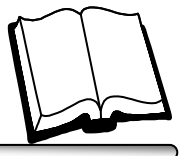

التيسير في التفسير

سورة البروج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ هذا قسم بالسماء ذات البروج، و﴿الْبُرُوجِ﴾ منازل الشمس والقمر، وفيها آية عظيمة تدل على قدرة اللّه وعلمه؛ لأن الشمس تقطع البروج في سنة بسير منتظم لا يتخلف، والقمر تقطعها في شهر كذلك، وبعضها تنزل فيها الشمس في الصيف، وبعضها تنزلها في الشتاء وبعضها بين ذلك.

﴿٢﴾ ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿٣﴾ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ في تفسير (محمد بن القاسم ×) وفي (الكشاف) كليهما ترجيح: أن الشاهد من يشهد، أي يحضر يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود:١٠٣] أي يشهدون ما في ذلك اليوم من الجزاء، وما فيه من الأهوال والعجائب، وذلك هو المشهود.

﴿٤-٥﴾ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ ﴿قُتِلَ﴾ كلمة غضب على ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ وفسرت بمعنى: لعنوا، وهم الذين خدّوا في الأرض أخدوداً وأضرموا فيه النار وأحرقوا المؤمنين.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ النار إما عطف بيان؛ لأنه صار ناراً، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف:٩٦] وإما بدل اشتمال كما قال (صاحب الكشاف، بدل اشتمال من الأخدود، و﴿الْوَقُودِ﴾ إما مصدر وإن كان غريباً، فقد فسره محمد بن القاسم × حيث قال: «والوقود: فاللهب، وكذلك

عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

تسمى كل نار التهبت، والعرب فلا يسمون النار وقوداً إلا عند التهابها واضطرامها، وذلك معروف في لسان العرب عند خواصها وعوامها» انتهى، أما (صاحب الكشاف) فقال: «وصف لها بأنها نار عظيمة لها ما يرتفع به لهبها من الحطب الكثير وأبدان الناس» انتهى.

﴿٦-٧﴾ ﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ * وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ ﴿إِذۡ﴾ ظرف إما لقتل، وإما بمعنى: اذكر كما في كثير من القرآن الكريم، والأقرب عندي ـ والله أعلم ـ أن جواب القسم حذف، وأغنى عنه ذكر هذه القصة؛ لأنها دليل على أنه لابد من الجزاء، ولولا أن اللّه يعذبهم لما مكنهم من تعذيب أوليائه، ولأن ذكر القصة يجر إلى ذكر الجزاء، ولذلك يقول محمد بن القاسم إ : «وأي أمر أعظم من أن يكون من كفر وأجرم قاعداً على أخدود من وقود النار يحرق فيها أولياء اللّه المؤمنين الأبرار، فيمهلهم اللّه سبحانه في حياة الدنيا مدة يسيرة، ويستدرجهم فيؤخرهم أياماً قصيرة، ثم يعاقبهم بما فعلوا بالمؤمنين أشد العقوبة في الآخرة، فيدخلهم نار جهنم خالدين فيها أبداً، ويحرقهم بحريق جهنم تحريقاً دائماً سرمداً، بقدرته سبحانه عليهم، ولما أعد اللّه لهم من العذاب في الآخرة الذي يخزيهم ويعطي اللّه المؤمنين من جزيل مثوبته والقول [لعل الأصل: والفوز] الدائم والخلد في جنته أكثر مما يتمنون» انتهى.

فظهر: أن القصة قامت مقام القسم: إن عذاب ربك لواقع، أو نحو هذا، ومعنى: ﴿شُهُودٞ﴾ حاضرون مشاهدون.

شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

﴿٨﴾ ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في (مفردات الراغب): «نقمت الشيء، ونقمته: إذا نكرته إما باللسان وإما بالعقوبة» انتهى، أي ما نقم ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ من المؤمنين والمؤمنات إلا إيمانهم الذي ثبتوا عليه وأبوا أن يتحولوا عنه؛ لوثوقهم به أنه ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي لا يضيع أجرهم فهم ينتقم لهم ممن ظلمهم.

﴿٩﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فهو أحق أن يطيعوه، وليس لأصحاب الأخدود حق في أن يتركوا الإيمان بالله، فهم معتدون بتحريقهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فلا مجال لأعداء اللّه من عقابه؛ لأن الشاهد هو الحاكم.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين عذبوهم ثم لم يتوبوا؛ لأن لا يقنط الذين أسرفوا على أنفسهم، فهذه الجريمة النكراء قد فتح لهم باب التوبة إن كانوا تابوا، وليس في الكلام إشارة إلى أنهم تابوا، بل يشير إلى أنهم لم يتوبوا كلهم أو بعضهم، و﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ يشتمل على أنواع من العذاب، فصح عطف ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ عليه عطف الخاص على العام.

وقد اختلف في ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ والأقرب: أنهم الذين حرقوا المؤمنين في (نجران) لأن في (نجران) موضعاً يقال له: الأخدود إلى الآن، وذلك يؤيد الرواية أنهم هم، والقصة في (الكشاف) بلفظ: «وقيل: وقع إلى (نجران) رجل ممن كان على دين عيسى × فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنود من حمير، فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا، فأحرق منهم اثني عشر ألفاً في الأخاديد، وقيل: سبعين ألفاً» انتهى.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ

قال في تخريجه: «أخرجه ابن إسحاق في (السيرة): حدثني يزيد بن أبي زياد، عن محمد بن كعب.. ذكره مطولاً» انتهى.

قلت: وكانت هذه الحادثة قبل بعثة نبينا محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم، وأظن في آخر القصة مبالغة بتكثير العدد وذكر أخاديد، وليس في القرآن ما يفيد أكثر من أخدود، مع أن عادة المؤمنين أن يكونوا قليلاً ولا سيما الخلَّص الذين يثبتون في حال الشدة ـ وبالله التوفيق.

﴿١١﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عام يدخل فيه الذين حرقوا في الأخدود، و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مجاري الماء، والمقصود بجري الماء من تحتها، فهي لا تزال خضراء لا تظمأ، وفي اجتماع الجنات والأنهار الجارية جمال أي جمال، و﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾ هنا الظفر والفلاح، أو الظفر بالخير مع حصول السلامة، كما قال الراغب في (المفردات) وهو الأرجح، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥].

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ قال في (الصحاح): «البطشة: السطوة والأخذ بالعنف» انتهى، وبطشه سبحانه بالظالمين هو الذي اقتضته عزته وحكمته، قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

﴿١٣﴾ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ فهو القادر على البعث والجزاء والبطش بالظالمين.

﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

﴿١٤﴾ ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ لمن تاب إليه في هذه الدنيا قبل حضور الموت، فالمغفرة على ما تقتضيه الحكمة والرحمة، وكذلك الود: وهو الحب لأوليائه، كما أن البطش على ما تقتضيه الحكمة فلا تدافع في صفاته تعالى.

﴿١٥﴾ ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾ فالملك له وحده، قال في (تفسير محمد بن القاسم ×): «و﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ في (لسان العرب): الجواد الماجد، والماجد: ذو العطايا والإحسان والمحامد، وكذلك الله سبحانه، فالمجيد الذي لا يبلغ مجده ماجد، وولي جميع ما بين الأرض والسماء من الخير والعطايا والمحامد» انتهى.

﴿١٦﴾ ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فإذا أراد بقوم سوءاً فلا مرد له؛ لأنه الغالب على أمره يفعل ما يشاء.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ * فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ ﴿حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ الخبر في شأنهم، وهو أنهم كذبوا الرسل فعجل الله لهم عذاباً شديداً، فإن في حديثهم عبرة لمن يخشى.

﴿١٩﴾ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ أي ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمحمد ص ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾ لهذا القرآن فلا ينتفعون بشيء من زواجره وعبره ونذره.

﴿٢٠﴾ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ طالب لهم ليجزيهم بما ظلموا، وهو ﴿مُّحِيطُۢ﴾ بهم لا يفوتونه.

﴿٢١﴾ ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ كريم محمود، لا كما يقول المكذبون.

﴿٢٢﴾ ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ فالقرآن ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] واللوح إما حقيقة على أنه كتب القرآن للملائكة وهو أم الكتاب، وإما تمثيل لحفظه بالحفظ في لوح لا ينسى منه شيء؛ لأنه مقيد بالكتابة.

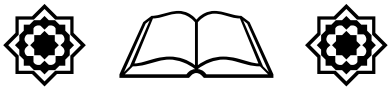

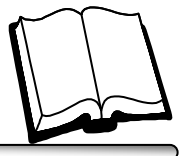

التيسير في التفسير

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ هذا قسم بـ(السماء) لما فيها من الآيات وبـ(الطارق) لأنه آية، وأصل الطارق الذي يأتي في الليل، قال في الصحاح: ((وأتانا فلان طُرُوقاً، إذا جاء بليل وقد طرق يطرق طروقاً فهو طارق)).

﴿٢-٣﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم إ): ((و﴿الطَّارِقُ﴾ فهو النجم ذو الذَّنب الذي يرى ليلاً، ويطرق في الحين الطويل، فقد رأيتموه ورأيناه مرة بعد مرة، وإنما قيل له: الطارق ـ والله أعلم ـ لأنه لا يرى إلا بالليل، والعرب تسمي ما جاء من الأشياء ورأي ليلاً أتيّاً وطارقاً، وهذا النجم يرى في الزمان بعد الزمان ليلاً غربياً ومشرِّقاً، وإنما جعله اللّه قسماً لعلمه بما فيه من أسرار الآيات، ثم قال: و﴿الثَّاقِبُ﴾ فهو الذي يبين نوره ويثقب، وفي مثل هذا من أمر النجم العجب العجيب)) انتهى المراد.

وقد ظهر أن الطارق يعتبر فيه أن يأتي ليلاً بعد غياب، كالمسافر يطرق أهله إذا أتاهم من سفره في الليل، فهذا النجم فيه هذه الصفة ظاهرة؛ لأنه يغيب زماناً ثم يظهر ليلاً، وثقوبه للظلام واضح لزيادة نوره، فهو آية عظيمة لمخالفته المعهود من النجوم بالغياب ثم الطروق، وبشكله حيث جعل اللّه شكله خلاف شكل النجوم فيما يرى، فهو حقيق بتعظيمه بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾.

دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ

﴿٤﴾ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ جواب القسم في (تفسير محمد بن القاسم إ): «أن الحافظ يحفظ أعمالها، ويحصي عليها ألفاظها وأقوالها» انتهى، وهو اللّه الرقيب عليها، الشهيد على كل شيء، والحفظ للأعمال دليل على الحساب يوم القيامة، فجواب القسم يشير إلى أنه لابد من الحساب والجزاء.

﴿٥﴾ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ ليعرف قدرة اللّه وعلمه، وأنه لا يعسر عليه أن ينشئه النشأة الأخرى.

﴿٦-٧﴾ ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ هذا الماء الدافق الذي يسيل من المجاري الضيقة حتى يصير في الرحم، ثم يخلق مصوراً بأعضائه ومفاصله وعروقه وعصبه ودماغه وقلبه وكبده ورئتيه وغير ذلك، إن الذي خلقه أول مرة قادر على أن يعيده ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩] وهذا الماء دافق يتدفق مع خروجه دفقات، و﴿ٱلصُّلْبِ﴾ صلب الظهر، قال في (الصحاح): «وكل شيء من الظهر فيه فقار فذلك الصلب» انتهى، وفي (مفردات الراغب): «﴿ٱلصُّلْبِ﴾ الظهر» وفي (لسان العرب): «الصُّلْبُ والصُّلَّبُ عَظْمٌ مِن لَدُن الكاهِل إلى العَجْب» انتهى، ﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ قال في (لسان العرب): «وقال أهل اللغة أجمعون الترائب: موضع القلادة من الصدر، وأنشدوا:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل»

انتهى، وعبارة (صاحب اللسان) أحسن من عبارة (الكشاف) حيث قال: «وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة» انتهى، والدليل البيت المذكور لأنه أراد أن صدرها مصقول لا عظام الصدر.

﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

﴿٨-٩﴾ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ كما خلقه من الماء المذكور، و﴿رَجْعِهِۦ﴾ خلقه حياً تارة أخرى ورجعه يكون ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي يرجعه يوم تبلى السرائر من النيات والعقائد، وكل ما أسر العبد في هذه الدنيا ﴿تُبْلَى﴾ تعرف ويتبين خبرها خيرها وشرها وفائدتها وضرها، كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠].

وفي (الصحاح): ((بلوته بلواً: جرَّبته واختبرته)) انتهى، وفي (المصابيح) في تفسير قول اللّه تعالى: ((﴿هُنَالِكَ تَبْلُو..﴾ [يونس:٣٠] أي تختبر وتذوق)) انتهى.

﴿١٠﴾ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ ﴿فَمَا﴾ للإنسان ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ يدفع بها عن نفسه الجزاء ﴿وَلَا﴾ له ﴿نَاصِرٍ﴾ ينصره ليخلصه من العذاب.

﴿١١-١٢﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ هذا قسم بالسماء والأرض، و﴿ٱلرَّجْعِ﴾ رجع النيرات الشمس والقمر والنجوم التي تغيب وترجع، أو رجع الخنس منها بعد خنوسها، فهذه النيرات تنسب إلى السماء، وقد فسر ﴿ٱلرَّجْعِ﴾ بالمطر ولكنه ينسب إلى الجو، قال تعالى في السحاب: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الروم:٤٨] ودعوى بعضهم: أن المطر من السماء الدنيا غير معروف، وتفسيره بعض الآيات بذلك تفسير بالمحتمل، بل المعهود الجو للمطر، والقسم ينصرف إلى المعنى المعهود عند السامعين، ورجع النيرات: أي إرجاع اللّه لها بما دبر لها من الجري في أفلاكها آية عظيمة لاستمراره وإحكام نظامه.

وأما ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ فهو الشق، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا * فَأَنۢبَتۡنَا..﴾ الآية [عبس:٢٦-٢٧] وهذه آية عظيمة، فتفسير الصدع به قريب؛ لأنه معنى حقيقي معهود بل هو الراجح.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ * وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ هذا جواب القسم، والضمير للقرآن، وفي (تفسير محمد بن القاسم الإ): ((يقول سبحانه: هذا وما جاء به من الخبر في هذه السورة وما أخبر به من وحيه في جميع السور ﴿لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ * وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ والفصل ـ والله أعلم ـ فهو الفرقان والبرهان الفاصل بين قوة الحق وضعف الباطل، والهزل من الأخبار فهو الزور)) انتهى.

قلت: تفسير (الهزل) بالزور من التطبيق، وهو الحاصل من المعنى؛ لأنه مقابل (الفصل) والهزل مقابل الجد، وهو كلام لا يراد به معناه، وفي الحديث: ((ثلاث جدهن جد وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والعتاق)) أو كما قال ص.

فلما كان الهزل لا فائدة له ولا معنى مقصوداً كان كلاماً ضائعاً مهملاً في العرف، فهو نوع من الباطل لأنه لا يعمل به، فلو استعمل في الوعد والوعيد وليس جداً ولا مقصوداً لأنه عندهم غير واقع لكان من الزور كالمزح بكلمة الكفر.

﴿١٥-١٦﴾ ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا * وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ بالتكذيب بالقرآن، يحتالون لإبطال الرسالة واستمرارهم في الباطل، أو بأي مكيدة يدبرونها، قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَامَكُمۡ﴾ [الأنبياء:٥٧] وقال تعالى: ﴿فَإِنۡ كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات:٣٩] وأكيدهم كيداً بالإنعام عليهم والإملاء لهم والإمهال، قال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٞ﴾ [الأعراف:١٨٣].

قال الراغب: «الكيد: ضرب من الاحتيال وقد يكون مذموماً وممدوحاً» انتهى، وهذا المعنى أظهر في هذا السياق من فعل المقاربة الذي يحتاج إلى جملة تكون خبراً، نحو: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ [الحج:٧٢].

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ فلا تعجل عليهم، فإن الله غالب على أمره وانتظر ﴿رُوَيْدًا﴾ قليلاً، وإمهاله لهم: أن لا يقاتلهم حتى يؤذن له، أولا يدعو عليهم بالهلاك العاجل.

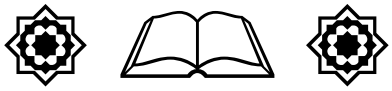

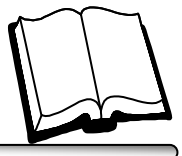

التيسير في التفسير

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ التسبيح: تنزيه بليغ عن كل نقص وعيب ﴿سَبِّحِ﴾ بعّد عن كل نقص وعيب ﴿فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠] التي تدل على عظمته وجلاله وبعده عن كل نقص وعيب، وليس فيها ما يدل على ضعف أو نقص أو منافاة للحكمة و﴿ٱلْأَعْلَى﴾ الغالب على أمره، القاهر فوق عباده، فهو علو الشأن.

﴿٢﴾ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ ﴿خَلَقَ﴾ كل مخلوق ﴿فَسَوَّىٰ﴾ جعله سوياً وأتقن صنعه.

﴿٣﴾ ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ ﴿قَدَّرَ﴾ المصنوعات بمقاديرها وقدر للأحياء أرزاقهم وآجالهم وغير ذلك ﴿فَهَدَىٰ﴾ كل حيوان إلى أسباب معيشته، وهدى المكلفين لمعرفة ما كلفوا فمنه كل هدى.

﴿٤-٥﴾ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ ﴿أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ من منابته من الأرض وأصوله والمرعى: ما ترعاه الأنعام من الغنم وغيرها ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾ الغثاء: فتات الحشيش والشجر الذي يقذفه السيل في جوانب الوادي.

والأحوى، قال في (الصحاح): «والحوّة: لون يخالط الكمتة، مثل صدأ الحديد، وقال الأصمعي: الحُوَّة: حمرة تضرب إلى السواد ـ ثم قال (صاحب الصحاح) ـ : والحوة: سمرة الشفة» اهـ.

وفي (تفسير محمد بن القاسم إ): «وما ذكر سبحانه من شبه الرعي إذا خرج وبدا بما هو له شبيه من خفيف الغثاء، والغثاء: القذاء الصغار الخفاف الذي على السيل إذا جرى، والأحوى: فهو الأصفر من أطرافه، وكذلك الرعي فهو يخرج إذا بدا بنبت أصفر من جوانب ورقه، والعرب تدعو الشاة من النعم إذا كان خداها أصفرين: حوّى، وهم على هذا في (اللسان) مجتمعون غير مختلفين» انتهى.

وفي (لسان العرب): «الحوة: سواد يضرب إلى الخضرة ـ ثم قال ـ: وجميم أحوى، يضرب إلى السواد من شدة خضرته، وهو أنعم ما يكون من النبات، قال ابن الأعرابي: هو مما يبالغون به» انتهى، قال في (الصحاح): «الجميم: النبت الذي طال بعض الطول ولم يتم» انتهى.

قلت: يمكن أن معنى الحوة في الشفة: حمرة تضرب إلى السواد، وفي النبت وغيره صفرة إلى السواد ـ أيضاً ـ وكلام (صاحب الصحاح) موافق لكلام محمد بن القاسم في المعنى وإن اختلف التعبير، حيث قال (صاحب الصحاح): «مثل صدأ الحديد» وقال محمد بن القاسم إ : شاة حواء أي صفراء الخدين وهذه الصفرة مثل صدأ الحديد.

وقد قيل: يعبر بالصفرة عن السواد، لكنه غير مقصودهم في الشاة، فتفسير محمد بن القاسم إ هو الراجح؛ لحمله الغثاء على التشبيه في الرقة والخفة، والإحوا على الحقيقة التي رواها عن العرب ووافقها كلام (صاحب الصحاح).

وأما تفسيرهم للغثاء الأحوى: بالدرين، أي الأسود الذي قد يبس وتحطم، فهو تشبيه له بالغثاء؛ لأنه قد يبس وتحطم وأشبه ما يحمله السيل،

تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا

وصار معناه: فجعله بالياً حطاماً قد اسود من القدم والعتق، فهو بعيد لأن في (تفسير محمد بن القاسم إ) في المرعى آيتين إخراجه من الأرض بشقه لها، وتطويره بجعله أخضر مصفر أطراف الورق في أول نشأته، وهذا أوضح في اعتباره آية من بلى المرعى وتحطمه واسوداده من القدم ـ والله أعلم.

وفي (تفسير محمد بن القاسم إ) مرجح آخر، وهو أنه أقرب لاستعمال (الفاء) التي للتقريب، والجعل الذي هو في الخلق أظهر من تركه حتى يبلى والعموم للمرعى ما يؤكل وترعاه الأنعام، وما يترك حتى يبلى، وتفسيرهم خاص بما يترك، والمناسبة لكلمة المرعى فهو غثاء أحوى في حال كونه مرعى، وفي أول ما يرتع، أما الدرين فهو يؤكل بشكل معلوف لا رعي، وهذا يحوج إلى تفسير جعل بمعنى صيّر وإخراجه عن كونه مرعي إلى كونه غثاء أحوى، أي يابساً متحطماً مسوداً من طول زمانه، وليس في هذا فائدة تظهر بالنسبة إلى السياق لدلائل القدرة.

﴿٦-٧﴾ ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ القرآن فتحفظه؛ لأن المراد أن تحفظه وتبلغه ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أن تنساه فلا يضرك نسيانه؛ لأن اللّه ﴿يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ﴾ من القول ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ من القول ومن ذات الصدور، فهو يعلم ما تحفظه، ولو نسيت شيئاً لكان ذلك بعلمه ومشيته.

﴿٨﴾ ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ للشريعة اليسرى السمحة السهلة، والطريقة اليسرى والأخلاق السمحة الرفيقة، فكلها من الشريعة اليسرى ﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ لها نهديك لها ونوفقك، ونهيئك حتى تصير عليها.

ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ

﴿٩﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ﴿فَذَكِّرْ﴾ بالقرآن والمواعظ والتنبيه للغافلين ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي حاول النفع بها، و﴿ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ما يذكرهم به من القرآن قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٢] أو من القرآن وغيره، ثم بين له أن الذكرى تنفع؛ ليزيده رغبة في التذكير، فقال تعالى:

﴿١٠﴾ ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ وهو من استعمل عقله فخاف الوعيد فانتبه من غفلته وصحح النظر.

﴿١١﴾ ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ يتجنب اليسرى التي تذكِّر لها وتدعو إليها وتيسَّر أنت لها، ولتشبيهها بالطريقة كانت أولى بعود ضمير التجنب إليها، أما الذكرى فهي تصدر عن الرسول ص، وليس المقصود نهيه عن تجنبها.

فإن قيل: المراد: يتجنب سماعها أو قبولها أو اتباعها؟

قلنا: ذلك زيادة مضاف مقدر بلا دليل، و﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الأشدّ شقاوة بسوء عاقبته، والشقاوة: ضد السعادة.

﴿١٢-١٣﴾ ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ يحتمل: أن جهنم متفاوتة في شدتها، فتكون ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أشدها، ويحتمل: أن النار الكبرى: نار جهنم فضلت على نار الدنيا، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧] فهو يعالج شدة الموت ولا يموت، نعوذ بالله من عذاب الله.

ٱلدُّنۡيَا ﴿١٦﴾ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

﴿١٤﴾ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ فاز وظفر من صلح بتقوى اللّه والإيمان والعمل الصالح.

﴿١٥﴾ ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ لا يبعد أن المراد بهذا الذكر: تكبيرة الإحرام؛ لأنه رتب عليه الصلاة، وهي مترتبة على تكبيرة الإحرام، أو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا..﴾ إلى قوله: ﴿..مِنَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء:١١١] والله أعلم.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ إيثار الدنيا جعل السعي لها دون الآخرة، أو تفضيل الحياة الدنيا في السعي بحيث تكون أرجح، فيكون العبد قد آثرها وخصها بالزيادة، وهذا خطأ من العبد على نفسه؛ لأن الآخرة خير من الحياة الدنيا وأبقى، فهي أحق بالإيثار مع ما في إيثارها من الفلاح بالزحزحة من النار، وذلك الفوز العظيم.

﴿١٨-١٩﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الوعد والوعيد المذكور ﴿لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۞ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ قد تضمنته الصحف المذكورة أي معناه ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] وقال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] و﴿ٱلصُّحُفِ﴾ جمع (الصحيفة).

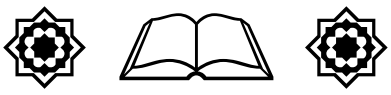

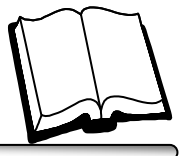

التيسير في التفسير

سورة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ هذا السؤال لتوجيه ذهن السامع إلى ﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ليصغي له، كقوله تعالى في أول (قصة داود ×): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص:٢١] و﴿حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ خبرها وذكر ما تأتي به من الجزاء للمؤمنين والفجار، و﴿الْغَاشِيَةِ﴾ هي القيامة سميت غاشية لأنها تغشى الناس وتعمهم كما يغشاهم الليل ويشتمل عليهم.

﴿٢-٣﴾ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ المراد بالوجوه أهل الوجوه، ولظهور أثر الذلة على الوجوه نسبت إليها، والخشوع: الذلة والخضوع ﴿عَامِلَةٌ﴾ لشدة العذاب كما يعمل من به ألم شديد، فهو يقوم ويقعد، أو يذهب ويرجع، أو يضطرب في مكانه ويتقلب ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ متحملة لمشقة العمل وعنائه ومقاساة العذاب وحمل السلاسل وجرها.

﴿٤﴾ ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ تباشرها بدون حائل ﴿حَامِيَةً﴾ شديدة الحرارة أعظم من هذه النار في حرها.

﴿٥﴾ ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ العين: التي تخرج من جبل أو أرض أو غير ذلك، والآنية: شديدة الحرارة، بحيث يشتد غليانها فهم يسقون منها.

﴿٦﴾ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم إ): ((والضريع، فمعناه: اليابس القاحل الخشن، الذي ليس برطب ولا لين)) انتهى المراد.

لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ

فظهر: أن (الضريع) سمي ضريعاً باعتبار صفته، وعلى هذا فهو الزقوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ [الدخان:٤٣-٤٤] وصف هاهنا بهذه الصفة.

۝٧ ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ ﴿لَا يُغْنِي﴾ لا يدفع شيئاً ﴿مِن جُوعٍ﴾ ولا قليلاً.

۝٨-٩ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومئذ تغشى الغاشية، والناعمة الحسنة اللون ذات النعومة واللين ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ ﴿لِّسَعْيِهَا﴾ في الدنيا وما صبرت عليه من عناء التكاليف، كمشاق الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصوم، والحج.. وغير ذلك ﴿رَاضِيَةٌ﴾ رضيت به لما رأت من ثوابه، والرضى: ضد الكراهة، فرضيت لنفسها ذلك السعي كما رضيته في الدنيا، إلا أنها في الآخرة أرضى لمشاهدة الثواب وانقطاع العناء.

۝١٠ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ﴿عَالِيَةٍ﴾ رفيعة، وعلوها إما بمعنى: أنها ليست كبعض جنات الدنيا التي تكون في الأودية حيث الحر والوبا، بل هي مناكب وظهور كما في الحديث أنها قيعان، وإما بمعنى: علو الشجر وسموها في الجوّ وهذا أقرب، كقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة:٢٢-٢٣].

۝١١ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ ليس فيها لغو من الكلام، كالفحش والسب واللعن والغيبة والنميمة والكذب، فلا تسمع نفس ﴿لَاغِيَةً﴾ بشيء من اللغو.

﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ

﴿١٣﴾ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ هذا اختصار للسامعين في أول نزول الوحي لقلة تحملهم للتطويل، ولذا ترى في هذه السور (المكية) إيجازاً بليغاً، ويحتمل: أن هذه العين يكون منها أنهار كثيرة متفرعة بعيدة المدى بالغة كل جنة، والمراد بها في هذا السياق: عين الماء التي تجري من تحت الجنة، أما غيرها فقد طوي ذكره، وأشير إليه بذكر الأكواب إن كان المراد بها أكواب المشروبات المختلفة.

﴿١٣-١٤﴾ ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ هنا ذكر المساكن والسرر ترفع ليرى من عليها الجنات والإخوان ـ والله أعلم ـ وقد روي أن طول السرير أربعون ذراعاً، وأنه ينخفض لصاحبه حتى يجلس عليه ثم يرتفع، هذا معنى الحديث، والأكواب: جمع كوب، وهي التي يشرب بها ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ حاضرة معدة للشرب، ولعلها تناولهم الولدان.

﴿١٥﴾ ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ الأقرب: أنها وسائد الظهور تكون ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى بعض متناسبة صفاً، ويحتمل: أنها أعظم من وسائد الظهر بعضها تحتهم وبعضها ظهور، كما ذكره الإمام الهادي × في ضمن وصف (الأرائك).

﴿١٦-١٧﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ * أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ زرابي: بسط عراض نسميها اليوم مفارش جميلة منقشة، ولما ذكر سبحانه ﴿الْغَاشِيَةِ﴾ وما يكون فيها، أتبعها بما يدعو إلى الإيمان بقدرة اللّه تعالى على الإتيان بها، تأكيداً لصدق الوعد والوعيد بالدليل العقلي، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي نظر اعتبار وتفكر، فهم يرونها ذات صور مناسبة لوظائفها، وخلق مناسب لعملها.

قال في (الكشاف): «خلقاً عجيباً، دالاً على تقدير مقدر، وتدبير مدبر، حيث خلقها للنهوض بالأثقال وجرها إلى البلاد الشاحطة، فجعلها تبرك حتى تحمل عن قرب ويسر، ثم تنهض بما حملت منقادة لكل من اقتادها بأزمّتها، لا تعازّ ضعيفاً ولا تمانع صغيراً، وبرأها طوال الأعناق لتنوء بالأوقار [أي عند النهوض من مباركها] وعن بعض الحكماء: أنه حُدّث عن البعير وبديع خلقه وقد نشأ في بلاد لا إبل فيها، ففكر ـ ثم قال ـ: يوشك أن تكون طوال الأعناق، وحين أراد بها أن تكون سفائن البرّ صبَّرها على احتمال العطش حتى أن أظماءها لترتفع إلى العشر فصاعداً، وجعلها ترعى كل شيء نابت في البراري والمفاوز مما لا يرعاه سائر البهائم» انتهى المراد.

قوله: «صبّرها على احتمال العطش» قيل: أنها تشرب في المرة الواحدة كثيراً يعينها على السفر مع فقدان الماء، وقيل: إن في السنام دسومة تمد الجسم عند السفر الطويل ـ والله أعلم ـ وقد كفى في الآية ما يرون ويشاهدون من كيفيتها.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ﴾ يقول سيد قطب في (تفسيره): «وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر في القرآن وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء، حيث للسماء طعم ومذاق وإيقاع وإيحاء، كأنما ليست السماء إلا هناك في الصحراء، السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهر، والسماء بأصيلها الفاتن الرائق الساحر، والسماء بغروبها البديع الفريد الموحي، والسماء بليلها المترامي ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر، والسماء بشروقها الجميل الحي السافر، هذه السماء.. في الصحراء.. أفلا ينظرون إليها..» الخ.

كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

﴿١٩﴾ ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ نصباً، وكان يمكن أن توجد غير منصوبة، فلا بد لها من ناصب قدير، له قدرة خلاف قدرة المخلوقين المعهودة.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ مهيأة لساكنها، يتهيأ لهم فيها السير والحرث والبناء وغير ذلك.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ذكر: نبه الغافلين بما تبيَن لهم الحق، وتثير دفين العقول، وتنذر وتبشر ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم﴾ أي على من أرسلت إليهم ﴿بِمُسَيْطِرٍ﴾ قاهر غالب تجبرهم على الإسلام.

﴿٢٣-٢٤﴾ ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ لكن من ﴿تَوَلَّىٰ﴾ عن الحق ﴿وَكَفَرَ﴾ بالآيات أو بها وبما دلت عليه من صدق الرسول والقرآن واليوم الآخر، أو كفر بنعمة اللّه ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ فليس مهملاً، وإن ترك وشأنه في هذه الحياة ولم يكن على الرسول إلا إبلاغهم و﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ نار جهنم وما فيها.

﴿٢٥﴾ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ يقول اللّه ذو العظمة إن رجوعهم في الآخرة ﴿إِلَيْنَآ﴾ أي إليه ـ جلَّ جلاله ـ وحده لا يرجعون معه إلى شفيع أو ناصر.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ حين يرجعون إلينا نحاسبهم، لنجزيهم بقدر ما عملوا، فهو واجب علينا أي واجب في الحكمة، قال في (الكشاف): ((ومعنى الوجوب: الوجوب في الحكمة)) قلت: قد دل على أن الحكمة تقتضيه قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

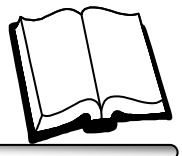

التيسير في التفسير

سورة الفجر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هذا قسم بالفجر: الذي هو النور المعترض في جهة المشرق وهو أول النهار، وفيه آية ودلالة على قدرة اللّه الذي جاء به بعد استمرار الليل، والليالي العشر: فسرها محمد بن القاسم إ : بعشر ذي الحجة، العشر التي آخر أيامها يوم الأضحى، وذلك دليل على فضلها.

وقد روى المرشد بالله × في (الأمالي الخميسية): بإسناده عن الإمام زيد بن علي، عن آبائه، عن علي (عليه السلام): ((﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ قال: عشر الأضحى)) وروى بأسانيده: عن سعيد بن جبير ا ، عن ابن عباس ب قال: قال رسول اللّه ص: ((ما من أيام أحب إلى اللّه عز وجل فيهن العمل ـ أو قال: أفضل فيهن العمل ـ من أيام العشر. قيل: يا رسول اللّه ولا الجهاد. قال: ((ولا الجهاد، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلا يرجع من ذلك بشيء)).

وفي (الأمالي) أيضاً: بإسناده عن ابن عمر نحوه مرفوعاً، وعن أبي هريرة مرفوعاً، وعبدالله بن عمرو مرفوعاً، وفيها ـ أيضاً ـ بالإسناد عن مجاهد عن ابن عباس ب ، قال: قال رسول اللّه ص: ((ما من أيام أعظم عند اللّه ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر..)) الحديث.

وفيها بإسناده عن جابر ا ، قال: قال رسول اللّه ص: ((أفضل أيام الدنيا أيام العشر عشر ذي الحجة..)) الحديث.

﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمۡ تُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِى ٱلۡبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِى ٱلۡبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا

﴿٣﴾ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ يحتمل: كل المخلوقات، ويحتمل: العبادات المشروعة شفعاً، والعبادات المشروعة وتراً، كصلاة الوتر، والطواف بالبيت، والسعي، وهذا قريب لأجل السياق.

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ حيث يأتي أوله ويتقدم شيئاً فشيئاً حتى يعم ويستحكم، ثم في آخره يتقدم إلى جهة المغرب ويكتفت من المشرق، فكأنه سرى علينا بأوله ووسطه وآخره وإقباله وإدباره وهذا دليل على قدرة اللّه وعلمه، حيث جاء به بقدر، وأبقاه بقدر، وأذهبه بقدر.

﴿٥﴾ ﴿هَلۡ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجۡرٍ﴾ سؤال تقرير على عظمة هذه الأشياء، وأنها من حيث هي آيات عظيمة تستحق القسم بها، وذو الحجر: ذو العقل.

﴿٦﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ هذه وما بعدها دليل جواب القسم، فتفهم: أنه وعيد بالعذاب للمفسدين، ومعنى كيف فعل بعاد: كيف أهلكها.

﴿٧﴾ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ ﴿إِرَمَ﴾ أي عاد إرم، وهم قوم عاد الذين أهلكوا بالريح العقيم ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ جمع عمود أي عاد ذات العماد، والعماد: إما أعمدة خيامهم إن كانوا بدواً يسكنون المظالّ التي ترفع بالعماد، وإما أعمدة عظيمة من الأحجار يبنونها ويرفعون بناءها، يفتخرون بقوتهم على من بعدهم، كما قال تعالى فيهم: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨] ولا يشكل هذا على الأول؛ لاحتمال أنهم كانوا لقوتهم لا يحتاجون البيوت وتكفيهم المظال ـ والله أعلم.

ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ

﴿٨﴾ ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ وهي قبيلة عاد الذين كانوا في قوتهم وكمال بنيتهم أعظم من كل من خلقه اللّه في البلاد، ولذلك ﴿قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

﴿٩﴾ ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي وكيف فعل ربك بثمود ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا۟﴾ أي قطعوا ﴿ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ والواد: إما اسم بلدهم فيكون قطعهم للصخر ليبنوا به بيوتاً، وإما واد حقيقة فيكون قطعهم للصخر فيه قطع صخر عظيم كان يحول السيل إلى غير ما يريدون، فقطعوا الصخر لينزل من مكانه الماء إلى حيث أرادوا ـ والله أعلم.

قال محمد بن القاسم × في (تفسيره): ((وثمود فقوم صالح ـ صلى اللّه عليه ـ والواد: فبلد في بعض نواحي الحجاز معلوم معروف، ويقال له: وادي القرى، وبلد ثمود موضع منه يسمى الحجر..)) إلخ.

﴿١٠﴾ ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي وكيف فعل ربك بفرعون، وهو فرعون الذي أغرقه اللّه وقومه و﴿ٱلْأَوْتَادِ﴾ الأهرام التي في مصر شبهت بالجبال، وإما أوتاد من الحديد كان يوتد بها من يعذبه بها في يديه ورجليه يوتده بالأرض، وهذا أنسب للسياق في عاد وثمود وفرعون كلهم.

﴿١١﴾ ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ تجاوزوا الحد في الظلم والفساد.

﴿١٢﴾ ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بإفساد الناس، وصدهم عن سبيل اللّه، وحملهم على الباطل، وظلمهم بأنواع الظلم.

﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾

﴿١٣﴾ ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ ضربهم من فوقهم بسوط عذاب، والسوط: عصى، وشبه عذابهم بضربة سوط؛ لأنه العذاب الأدنى وهو يسير في جنب عذابهم المعد لهم في الآخرة العذاب الأكبر، وعذابهم معروف مشهور، أهلكت عاد بالريح، وثمود بالصيحة، وفرعون بالغرق.

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ هذا تمثيل كالراصد لعدوه في مكان ليأخذه، قال تعالى: ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥] فهو سبحانه معد للظالمين أخذه إذا جاء أجلهم.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ إذا ما ابتلاه اختبره بالإكرام وبتوسعة الرزق، فجعله ذا نعمة أي في لين عيش وخصب ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ لا ينظر إلى أن اللّه ابتلاه من فضله ابتلاء أيشكر أم يكفر، بل اعتبر ذلك إكراماً له فحسب، وجعل المقصود به إكرامه لم يقل: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠] ولم يفكر في الشكر؛ لأنه لا يهمه إلا الدنيا، ويحتمل ﴿أَكْرَمَنِ﴾ جعلني كريماً شريفاً في الناس؛ لجهله أن الكرم بالتقوى والإحسان لا بالمال.

﴿١٦﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ ﴿ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ بتقدير ﴿رِزۡقَهُۥ﴾ وتقليله، في (تفسير محمد بن القاسم إ): ((وقدره عليه أن لا يبسطه ولا يوسعه)) اهـ.

﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ غافلاً عن كونه ابتلاء، وأن المقصود الاختبار له أيصبر، وإن الإنسان قد يكون عند اللّه كريماً ولا يريد إهانته، ولكنه أراد أن يبتليه ليثيبه إذا صبر، ويعطيه في الآخرة بغير حساب، فعليه أن يفهم أنه ابتلاء، وأن يصبر ولا يعتبره إهانة له، والحاصل: أن الإنسان لفرط حبه للمال وتعظيمه له في نفسه لا يهمه إلا المال، ولا يرى الكرامة إلا فيه.

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾
كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾

﴿١٧-٢٠﴾ ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر لهم عما زعموا في بسط الرزق وتقديره.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ﴾ إضراب وترق إلى درجة أهم من الأولى، التي هي تعظيم المال وجعل الكرامة فيه والإهانة في تقليله، فهم في حال أهم من ذلك، وهي أنهم لا يقومون بالواجب عليهم من إكرام اليتيم، والحض على طعام المسكين، الذي يدل على صلاح الضمير ورحمة الضعيف، بل يعاملون بالقسوة وعدم المبالاة بالواجب.

وهم يأكلون الميراث ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ بجمع الحرام والحلال، ويحرص على المال حرصاً شديداً يكون خطراً على المجتمع الإنساني، بحيث يفسد المجتمع لو ترك الناس عليه، ويصيرون كالسباع الضارية يأكل بعضهم بعضاً، ولذلك فلا بد من الإيمان بالآخرة لإصلاح المجتمع الإنساني، وإيجاب حق الفقير على الغني، وتربية المجتمع على الإحسان، وإكرام اليتيم، والرحمة بالضعيف، وقد دلَّ ما فعل اللّه بعاد وثمود وفرعون، على أن اللّه لا يهمل عباده، وأنه لابد من الجزاء لهؤلاء المكذبين للرسول ص، المكذبين بآيات الله.

﴿٢١﴾ ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ متكرراً متواصلاً ﴿كَلَّآ﴾ زجر عن الاشتغال بالدنيا والحرص على المال، مع تعرضهم لعذاب اللّه إذا جاءت القيامة، إذا دكت الأرض.

﴿٢٢﴾ ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ في (تفسير محمد بن القاسم إ): ((وما ذكر اللّه من مجيئه فهو مجيء أمره ونقمته، وظهور ما يظهر من عظيم آياته، وما يكون يومئذ من عقاب أهل معصيته، فلما بدا من آيات اللّه العظام في يوم القيامة ما كان لا يعاين ولا يُرى من فعله في دار الدنيا، فرأى الخلق يومئذ من أخذ اللّه بانتقامه للعاصين وشدة زلزال بطش عقاب اللّه بالظالمين ما لم يكونوا في دار الدنيا يرون، جاز أن يسمى اللّه تبارك وتعالى كما يرون ويسمعون إتيان أمره أو آياته عند أخذه لأهل معصيته لشدة بأسه وعقابه وما يصير إليه من أطاعه من كريم ثوابه إتياناً منه، إذ كان ما ظهر في ذلك كله من الآيات العظام إنما كان بقدرته وعنه، وذلك مفهوم في لسان العرب عند من كان ذا لبّ قد يقولون اليوم في مفهوم اللسان بينهم عندما يكون من سطوات ملوكهم فيهم، وعند حلول جنود ملوكهم بمن يعصيه جاء القوم ما لا يطيقون حين يسطوا جنود ملكهم بهم في الدنيا ويقولون جاءهم الملك والخليفة، وإنما جاءتهم جنوده المبعوثة..)) إلخ.

وبعبارة أخرى لما كانوا في الدنيا في دار الاختبار كأنه غائب عنهم إذ تركهم يعملون ما شاءوا بلا سؤال في الدنيا ولا حساب، كما أنه كان كالمشغول عنهم بحيث عبر عن أمر الآخرة بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:٣١].

فلماَ كان يجمعهم ويعرضون عليه صفاً ويسألهم عما كانوا يعملون، ويبين لهم الذي يختلفون فيه، ويحكم بينهم ويحاسبهم ويجازيهم، ويميّز بينهم، ويأمر ببعضهم إلى الجنة وبعضهم إلى النار، وهم يومئذ في مقام ذلة وخضوع وهيبة واستسلام، كان شأنه في ذلك الموقف شأن الملك الحاضر بعد غيابه الذي جاء ليحكم بينهم وفيهم، ويجزي كل نفس بما تسعى، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ أي وجاء الملك حال كونهم صافين صفاً بعد صف.

وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٖ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا

﴿٢٣﴾ ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٖ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٖ بِجَهَنَّمَۚ﴾ **فصارت بحيث يراها المجرمون ويسمعون لها تغيظاً وزفيراً فيسألون وهم يرونها** ﴿يَوْمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ **ما سعى في الدنيا من طاعة ومعصية، فيندم على ما فرط** ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ **أي ومن أين له الذكرى؛ لأنه مشغول بنفسه، فليس له من الذكرى إلا تذكر ما قدم في الدنيا بسبب شدة الخوف وحضور الجزاء على ما قدم.**

فأما التذكر الذي كان يدعى إليه في دار الخيار لمعرفة اللّه وعظمته وجلاله، ومعرفة حقه على عباده ووجوب شكر نعمته وقبح معصيته، والإيمان بما كان يجب الإيمان به على طريق الاختيار، والنظر في الآيات والإيمان بها، كل ذلك قد فات ولم يبق إلا ما اضطر إليه مما أهمه من العذاب ونحو ذلك، كتذكره أنه قد كان محتاجاً إلى أن يقدم في الدنيا لحياته الدائمة.

﴿٢٤﴾ ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ **وهذا التمني لم يفده شيئاً، ولكنه يدل على ندمه حين لا ينفع الندم.**

﴿٢٥﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ ﴿فَيَوْمَئِذٖ﴾ ﴿**إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ**﴾ ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ**﴾ ﴿**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**﴾ ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ **أي لا يعذب كعذاب اللّه أحد، فهو الذي يعذب وحده لا شريك له، عذاباً زائداً على كل عذاب.**

يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ في (لسان العرب): «والوثاق: اسم الإيثاق، تقول: أوثقته إيثاقاً ووثاقاً» انتهى، فالمعنى: أن أعداءه تعالى يوثقون بالسلاسل والأغلال ويقيدون بها، فيكون تعالى قد أوثقهم وثاقاً لا يوثق مثله أحد؛ لأن الأغلال والقيود لا تفك عنهم ولا تخلع أبداً، وهي حديد يصير ناراً ـ أعني جمراً ـ فهو بشدته ودوامه لا يماثله إيثاق، ولا يوثق مثله أحد ـ نعوذ بالله.

﴿٢٧ـ٢٨﴾ ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ هذا وعد بعد الوعيد كعادة القرآن في إتباع أحدهما الآخر، زيادة في البيان؛ لأن بضدها تتميز الأشياء، و﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ التي هي لأمنها لا قلق فيها ولا اضطراب، بل هي ساكنة، فهي تنادى بهذه الصفة التي تمتاز بها يوم الفزع الأكبر.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى تقريبك وتكريمك، كما قال تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:٥٥] وهذا تقريب معنوي، معناه: تكريم وتشريف ورفع منزلة، واعتبر رجوعاً لأنه أنشأها في الدنيا ورباها وأنعم عليها وتولاها بألطافه وحسن رعايته، ثم في الجنة ترجع إليه إلى حسن رعايته وتمام نعمته.

﴿رَاضِيَةً﴾ بما نالت من الثواب، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥] أو راضية عن ربك بما أثابك، كقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:١١٩] ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ للرجوع إلى ربك بما قدمت.

﴿٢٩﴾ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ كقوله: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل:١٩] معنى الدخول فيهم: الكون في زمرتهم ولها ما للعباد الصالحين، ويحتمل: كوني فيهم فأنت معهم، كقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿..وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

﴿٣٠﴾ ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ التي أعددتها لعبادي الصالحين.

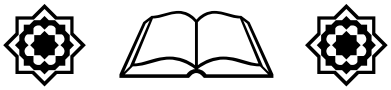

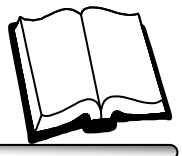

التيسير في التفسير

سورة البلد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ

(١-٢) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ * وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ البلد الحرام الذي هو مكة، وهذا قسم به وبما عطف عليه ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أقسم بها في حال أنك حل بها، والتقدير: ألا أقسم، قال محمد بن القاسم إ : «فكان قول اللّه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ إنما تفسيره: كيف لا أقسم بهذا البلد، ومعنى ﴿حِلُّۢ﴾ حال وساكن، فزاد شرف هذا البلد، واستحق القسم به لكونك يا محمد حالاً به ساكناً فيه».

(٣) ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ في تفسير (محمد بن القاسم إ): «ثم قال تعالى فيما كرر من القسم وثنى: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ لما في الولد والوالد من آياته وعجيب آثار تدبيره وقدرته، بينما الوالد كما جعله اللّه واحداً إذ خلق منه نسلاً كثيراً..» إلخ.

وفي الوالد آية من حيث ولد كيف ولد بقدرة اللّه خالق النطفة ومطور صنعها ومكمل خلقها حتى صارت إنساناً سميعاً بصيراً، وفي الولد آية حيث سخر اللّه له والديه لتربيته ورعايته حتى يكبر ويستقل بنفسه، وحتى يشب وينفع والديه إذا كبرا وصار نعمة لهما كما كان ريحانة لهما وكما كانا نعمة له، فاجتمع في المقسم به كونه آية، وكونه حكمة، وكونه نعمة للإنسان.

(٤) ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ جواب القسم، وهو يناسب أن المراد بوالد وما ولد هو الإنسان والداً ومولوداً من حيث هو آية، ومن جهة ما في ذلك من الحكمة والنعمة.

وقد رجّح (صاحب الكشاف): أن المراد بالوالد: محمد ص، وبالولد: ذريته ليناسب أول القسم، وبعضهم رجح: أن المراد بالوالد: إبراهيم، وبالولد: ابنه إسماعيل إ ليناسب كذلك أول القسم، وزعم أنه لابد من المناسبة بين المتعاطفين المقسم بهما.

وقد يمكن أن يجاب بأنهما اشتركا في أن كلا منهما فيه حفظ للإنسان ورعاية، إلا أن أحدهما عام والآخر خاص، فوجود حرمة البلد الحرام فيه حفظ ورعاية لأهله، ووجود الإنسان بطريقة التوالد فيه حفظ للطفل ورعاية، أو للوالد والولد كما مر، وكلاهما محتاج إليه من حيث خلق الإنسان في كبد، إذا كان معنى (الكبد) العناء ومكابدة مشاق الحياة، وما يعرض فيها من الشقاق، وعدوان بعضهم على بعض ـ والله أعلم.

وفي (تفسير محمد بن القاسم إ) لهذه الآية: «يريد ـ والله أعلم ـ في تقويم واعتدال وانتصاب وصعد؛ لأن اللّه ـ عزَّ وجل ـ لم يخلق في الاعتدال والإصعاد والتقويم والكبد والانتصاب شيئاً من الأبدان غير بدن الإنسان، وفي ذلك عجب عجيب من التدبير والحكمة والبيان، ولذلك ما يقول اللّه سبحانه العليم الحكيم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] تذكيراً من اللّه تبارك وتعالى بنعمته فيما خلقه فيه من الكبد، الذي هو التقويم والتصعيد، وتفضيله لخلق الإنسان على خلق جميع الأبدان..» إلخ.

وذكر × قول من فسر (الكبد) بالتعب والكد ثم قال: «والذي ذكرناه من تفسيره أولى وأشبه وأشرح وأنور وأفهم وأوضح» انتهى.

وقد ذكر ذلك في (لسان العرب) فقال: «وفي (التنزيل): ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ قال الفراء: يقول خلقناه منتصباً معتدلاً» انتهى، وفيه: «قال المنذري: سمعت أبا طالب يقول: الكبد: الاستواء والاستقامة» انتهى.

مَالاً لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا

ومناسبة هذا المعنى لما أقسم به واضحة، لأنه يكون كقوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٣-٤] ولأن الكل آيات ودلائل على تدبير اللّه للإنسان وإنعامه عليه ليترتب على ذلك إنذاره بأن اللّه الذي خلقه وأنعم عليه لن يسوي بين الشاكر والكافر لنعمته؛ لأنه أحكم الحاكمين.

﴿٥﴾ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ﴾ على إعادته وجزائه ﴿أَحَدٌ﴾ لأنه يصير عظاماً ورفاتاً، وقد خلقه اللّه ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤] فهو قادر عليه كما أنشأه أول مرة.

﴿٦﴾ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا﴾ في (تفسير محمد بن القاسم إ): «واللبد: المتراكم الكثير الوافر الذي بعضه على بعض..» إلخ، ومثله في (لسان العرب) وغيره.

﴿٧﴾ ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي قد رآه اللّه ولم يغب عنه ما صنع لكنه لا ينفعه ما يقول لأنه يفتخر به وهو في حال كفره لم يؤمن، ولم ينفقه كما شرع اللّه، بل إنما أنفقه للفخر والسمعة، وكان بعض العرب يفتخر بإتلاف المال، وفي (معلقة امرئ القيس):

ويوم عقرت للعذارى مطيتي ... فياعجباً من كورها المتحمل
فظل طهاة اللحم ما بين منضج ... صفيف شواء أو قدير معجل

وفي (معلقة طرفة):

وما زال تشرابي الخمور ولذّتي ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتْلَدي

إلى قوله:

ألا أيهذا اللائمي احضر الوغى ... وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وفي (معلقة لبيد):

بل أنت لا تدرين كم من ليلة ... طلق لذيذ لهوها وندامها

قد بت سامرها وغاية تاجر ... وافيت إذ رفعت وعز مدامها

أغلي السباء بكل أدكن عاتق ... أو جونة قدحت وفضَّ ختامها

إلى قوله:

وغداة ريح قد وزعت وقرة ... قد أصبحت بيد الشمال زمامها

إلى قوله:

وجزور أيسار دعوت لحتفها ... بمغالق متشابه أجسامها

ادعوا بهن لعاقر أو مطفل ... بذلت لجيران الجميع لحامها

فالضيف والجار الجنيب كأنما ... هبطا تبالة مخصباً إهضامها

وفي (معلقة عمرو بن كلثوم):

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا

إلى قوله:

وكأس قد شربت ببعلبكّ ... وأخرى في دمشق وقاصرينا

وفي (معلقة عنترة):

فإذا شربت فإنني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصِّر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٣﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٤﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ

وتفسير الأبيات في (شرح المعلقات السبع) وهو مطبوع منشور، فقد ظهر أن أهل الجاهلية كانوا يفتخرون بإتلاف المال في الخمر، واللذات، وأسباب الفخر.

﴿٨-١٠﴾ ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ففي هذه من الصنع المتقن ما يقصر عنه الوصف، فكيف لا يقدر عليه أحد ليعيده بعد الموت، وفيها من النعم ما يعظم لأجله قبح الكفر بآيات اللّه، فالعينين يرى بهما ولا يعدل نفعهما ملك الأرض، واللسان ينطق به وفيه العجب العجاب لتعدد مخارج الحروف واختلاف أصواتها، وهداية الإنسان للنطق بها مرتبة على ترتيبها في وضع الكلمة بسرعة، وفي اللسان منفعة للأكل والشرب، والشفتين غطاء للفم لا يدخله ما يكره دخوله من غبار وشعر وذباب وغير ذلك، ويستعملان في النطق والأكل والشرب، وهداية الإنسان لمصالحه الدينية والدنيوية، فضل فيها على الأنعام والسباع والكل من هذه النعم حجة عليه من حيث هي نعمة لم يشكرها، ومن حيث هي آية لم يهتد بها.

وفي (تفسير محمد بن القاسم إ): «فالنجد الظاهر العالي الذي لا يخفى، ولذلك ما قيل لما برز من الأرض نجد من الأنجاد دلالة على أنها ظاهرة بارزة من البلاد، وما ذكر اللّه سبحانه من هدايته للنجدين فهما ـ والله أعلم ـ الطريقان في مصالح الدنيا والدين» انتهى المراد باختصار.

﴿١١-١٥﴾ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ في (مفردات الراغب): «والعقبة: طريق وعر في الجبل» انتهى.

وفيه: «الاقتحام توسط شدة مخيفة» انتهى، وهو تمثيل لما فسره به في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ (فك الرقبة): تخليصها من الرق، وهو يصدق على إعتاق العبد وإعتاق الأمة وتسليم ما به يعتقان من مال الكتابة الذي لا يخرجان من الرق إلا به، وهذا ثقيل على النفس من أجل شحها بالمال، واعتبار ذلك غرامة، وكذلك الإطعام في يوم ذي مجاعة، والسغب: الجوع وفي يوم الجوع يكون الطعام عزيزاً يشتد البخل به، وفائدة الإطعام فيه كبيرة للمطعِم والمطعَم.

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي يطعم يتيماً ذا قربى في النسب، فإطعامه صلة رحم عظيمة لعظم موقع الإطعام في المجاعة، ولكون ذي المقربة أحق ولا يختص هذا باليتيم الذي ليس [له] مال، ولكنه المحتاج إلى الإطعام ولو لتبقى له رقاب ماله، ولعله خص القريب لأن القريب قد يطمع في مال قريبه لمجاورته أو قربه من داره أو نحو ذلك، فكان إطعامه ليستغني عن بيع ماله فضيلة وقمعاً لشرَه النفس وفيه مشقة زائدة لتفويته الغرض النفسي.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ شديد الحاجة يتصل بالتراب لقلة كسوته وفراشه أو عدم ذلك، وأصل (المسكين) المحتاج إلى الطعام وغيره لشدة فقره، وقال الإمام الهادي × في (الأحكام): بلغنا عن رسول اللّه ص أنه قال: «ليس المسكين هذا الطواف عليكم ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان» قالوا: فمن المسكين يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» انتهى.

وهو يشعر بأن المسكين هو في اللغة: شديد الفقر، فبين: أن شديد الفقر هذا الذي لا يفطن له أي حاله خفية لا تظهر بغير تأمل، ولولا هذا التفسير لانسد باب معرفة المسكين.

بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

وليس المراد: أن السائل الذي لم يعط ليس مسكيناً، وإنما المراد: السائل الذي يعطى، ولذلك قال: «ترده اللقمة واللقمتان» أي فهو يعطى من هنا وهناك، والحديث خارج مخرج المجاز الذي تنفى فيه الحقيقة تجوزاً، كقول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء

ولذلك قالوا: فمن المسكين ـ وهم عرب ـ أو هو مبني على أن الذي يسأل لابد أن يعطى لصلاح المجتمع يومئذ، فهو يخرج عن المسكنة بما يعطى لا بنفس السؤال، فظهر الردّ على الإنسان المفتخر بإنفاق المال، بأنه لم ينفق في الخير الذي يدل على كرم المعطي الذي يدل على رحمته للضعيف، ورغبته في الإحسان من حيث هو إحسان، إنما أنفق في لذاته وهوى نفسه وطلباً للسمعة وذلك غير محمود، إنما المحمود غيره ولو اقتحم العقبة لكان مفخرة له.

﴿١٧﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ هنا مشكلة الإتيان بـ(لا) في قوله: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ لم يقل: (ولا كان) والحل: أن نقدر (الهمزة) في ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ﴾ أي: أفلا اقتحم، أي أن الفخر في اقتحام العقبة إن كان يريده، ونظيره في المعنى قول الشاعر:

تعدون عقر النيب أكبر مجدكم ... بني ضوطر لولا الكمي المقنعا

وقد ذكر تقدير (الهمزة) في كتاب (إعراب القرآن) للدرويش عن بعضهم وضعّفه، ولا وجه لتضعيفه إلا دعوى: أنه لا دليل عليه، وهي مردودة بأن السياق يرشد إليه؛ لأنه رد لافتخار الإنسان بغير حق.

والفرار من تقدير (الهمزة) يلجئ إلى وجه ضعيف، وقد بيّن ضعف تلك الوجوه في كتاب (إعراب القرآن) إلا وجهاً واحداً، وهو أن بعضهم زعم أن قوله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ دعاء عليه كقولك: لا نجا، وقولك: لا سلم، وأعجبه هذا لصحته في صناعة النحو ولكنه ضعيف من جهة المعنى؛ لأن اللّه يدعو الإنسان إلى فعل الخير، ويدعوه إلى الإيمان والخروج من الجاهلية، ولذلك أرسل الرسول وأنزل القرآن، فكيف يدعو على الإنسان أن لا يفعل الخير وهو يدعوه إلى الخير، مع أن الدعاء من اللّه تعالى لا يكون لأنه يفعل ما يشاء؛ ولا معنى لأن يدعو بمثل هذا، وإنما ورد في القرآن استعمال الدعاء الذي اعتادته العرب لا لقصد الدعاء، بل للدلالة على الغضب نحو: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] ألا ترى أنهم قد ماتوا قبل نزول القرآن، وقوله تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة:٣٠] فهو واضح أن ليس المراد به الدعاء حقيقة بل ما ذكرت، وهو الدلالة على الغضب لأجل مقالتهم الشنيعة.

وعلى الجملة: فالقول بأن قوله تعالى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ﴾ دعاء عليه هو أضعف الأقوال من جهة المعنى، ولو كان المراد الدعاء عليه للدلالة على الغضب، لاستعمل الكلمات التي اعتادتها العرب لذلك، دون أن يدعوا عليهم أن لا يعتقوا نسمة، وهذا واضح فهو قرينة أن الكلام فيه تقدير يستقيم به التركيب والمعنى، ولم يبق إلا تقدير (الهمزة) وقد أثبتوه في ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ وهو أقوى الوجوه فيها لما مر.

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ فيصلح عطفه عليه مع تقدير (الهمزة) بلا إشكال، فأما استعمال ﴿ثُمَّ﴾ فقيل فيه: أنه للترقي من درجة إلى أبعد منها، أي كقول الشاعر:

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جده

وأحسن منه قول اللّه تعالى: ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية:٨] هذا ولا يبعد عندي أنه أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ لأن الإنفاق الذي افتخروا به كان في الجاهلية، وأن المعنى: أفلا اقتحم العقبة مكان ذلك الذي افتخر به، وبدلاً منه كما مر في بيت عقر النيب، وهي من الإبل والكمي البطل، فصح الإتيان بـ(ثم) على معنى: ثم لما جاء الإسلام كان من الذين آمنوا فهو متأخر وقوعاً، وهم الجماعة الخيرة رسول اللّه ص والذين معه، الذين وصفهم اللّه في آخر (سورة الفتح) ﴿ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ على البر والتقوى والصبر في البأساء والضراء وحين البأس وغير ذلك ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ فيما بينهم ورحمة اليتيم والضعيف.

﴿١٨﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم إ): «والميمنة: فهي اليُمْن والبركة» انتهى.

﴿١٩﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ في (تفسير محمد بن القاسم إ): «والمشأمة الشؤْم الذي صاروا به إلى الهلكة» انتهى المراد.

﴿٢٠﴾ ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي توصد عليهم، أي تغلق عليهم؛ لأنها محيطة بهم و﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر:٤٤] و(تفسير محمد بن القاسم إ) يفيد: أن إيصادها إغلاقها وشدها أو شد أبوابها، ولعله يعني: شدها بالعمد الممددة أي شد أبوابها.

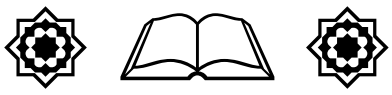

سورة السجدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ هنا قسم بالشمس؛ لأنها من آيات اللّه العظمى في خلقها وتنقلها في منازلها وثباتها على حالها مع طول الزمان ﴿وَضُحَاهَا﴾ ضوءها بعد ارتفاعها في السماء حين يخرج الناس لمعاشهم ويبدءون في أعمالهم، فهو آية في نفسه ولما جعل اللّه فيه من النعمة وإتيانه وذهابه كل يوم.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ إذا تلى الشمس جاء وراءها حين يطلع من المشرق عند غروبها متصلاً نوره بنورها، هكذا فسره الإمام القاسم × ، وذلك عند تمام القمر، فهو قريب من قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾.

ويحتمل: إذا تلاها في الغروب أول الشهر مستمر لا يتخلف، يتقاربان في رأي العين كأنهما في منزلة واحدة بعد افتراقهما في بقية الشهر، فيجتمعان ثم يجري القمر في منازل الصيف والشتاء منزلة منزلة، كل ليلة منزلة ويوافي منزلة الشمس عند أول الشهر الثاني، فهذا النظام العجيب آية تدل على مقدر لسيرهما مدبر لشأنهما بقدرته وعلمه.

﴿٣﴾ ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ جلى الجهة من الأرض لأهلها لينتشروا لمعاشهم، وقد جاء عود الضمير إلى غير مذكور في القرآن، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٦] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥].

وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾

﴿٤﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ يغشى الجهة هذه التي أنتم فيها لتسكنوا فيه والنهار يجلي الأرض ناحية بعد ناحية أي المسكون منها، والليل يغشى كذلك، وهذا لأن الضمير يعود إلى المعهودة المسكونة إضاءتها وإظلامها.

﴿٥-٧﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ قسم بالسماء بعطفها على المقسم به في (تفسير الإمام القاسم ×): ((﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ فهو وما هيأها من حكمة اللّه وتدبيره ورحمة اللّه وتقديره، قال × : وتأويل ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ فهو والأرض وما دحاها، ودحو الشيء: هو بسطه وتمهيده ونشره وتمديده ـ قال × ـ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ فهو الأنفس التي قد علمناها وهي التي إذا فارقت وزالت ماتت أجسادها)) انتهى باختصار.

﴿٨﴾ ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ علمها الحسن والقبيح، فعرفت بذلك ﴿فُجُورَهَا﴾ إن علمته ﴿وَتَقْوَىٰهَا﴾ إن اجتنبت فجورها، وهذا التعريف من اللّه سبحانه بالعلم الذي جعله فيها علم ما هو حسن وما هو قبيح من أعمالها التي كلفت بالحسن منها واجتناب القبيح، والعلمان قسمان: بديهي في النفس: وهو مبادئ العلوم وهو يحصل للنفس بغير اكتساب، واكتسابي: وهو ما يحصل بالاستدلال وإلهامها آية.

أما البديهي: فهو من فعل اللّه، وأما الاكتسابي فالله تعالى هو الذي جعل النفس قادرة على اكتسابه وألهمها كيف تنظر، فكلاهما آية.

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

﴿٩-١١﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ هذا جواب القسم ﴿أَفْلَحَ﴾ فاز وظفر بالخير ﴿زَكَّىٰهَا﴾ أصلحها وطيبها بالإيمان والعمل الصالح والتقوى ﴿خَابَ﴾ خسر وفاته كل مطلب، دسى نفسه؛ قالوا: أصله من الدس، وفسروه: بإخفاء النفس بالفجور، كأنها نقصت وخملت، فكأنه دسها فأخذوا من الدس الإخفاء.

أما الإمام القاسم × فقال: ((وتأويل تدسيتها: فهو من تطغيتها)) فمعناه على قوله: إدخال النفس في مضايق الجور والطغيان واعتباره ضيقاً باعتبار عاقبته في الدنيا والآخرة، وفي (لسان العرب): ((دسى يدسي نقيض زكا)) انتهى، وهذا أقرب من ناحية السياق والمقابلة، وحاول (صاحب الكشاف) إثبات المناسبة على التفسير الأول، فقال: ((والتزكية: الإنماء والإعلاء بالتقوى، والتدسية: النقص والإخفاء بالفجور)) انتهى، وهذا لمحاولة إرجاعه إلى معنى التدسية.

ثم ذكر تعالى قصة بعض من دسى نفسه فخاب وهلك، ليدل على أنه قد خاب من دساها، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ كذبت بآيات اللّه بسبب طغواها وجرائمها التي اجترمتها بطغيانها، فتجرأت على التكذيب، وخذلت لذلك، حتى أصرت واستكبرت وتجرأت على سبب هلاكها الأخير.

﴿١٢-١٤﴾ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ في (تفسير الإمام القاسم ×): ((وتأويله: إذ قام لشقوته)) وشؤمه، انتهى، والضمير لفريق من ثمود بدليل: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾

﴿فَقَالَ﴾ لأشقى ثمود: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ احذروا ناقة اللّه ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ لا تمسوها بسوء ولا تمنعوها سقياها، أولا تذهبوا سقياها الذي هو آية أي لبنها ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في تحذيرهم ناقة اللّه وسقياها، واعتبروه غير محذور ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عقروا الناقة أي قتلوها.

﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ اختلفوا في تفسير (دمدم) فقيل: أرجف، وقيل: غضب، وقيل: أطلق عليهم العذاب، قال في (لسان العرب): ((إلا أن أكثر المفسرين قالوا في (دمدم عليهم): أي أرجف الأرض بهم. قال أبو إسحاق: معنى (دمدم عليهم): أي أطبق عليهم العذاب، يقال: دمدمت على الشيء أي أطبقت عليه، وكذلك دممت عليه القبر وما أشبهه، ويقال للشيء يدفن: قد دمدمت عليه أي سويت عليه، وكذلك يقال: ناقة مدمومة قد ألبسها الشحم، فإذا كررت الإطباق. قلت: دمدمت عليه)) انتهى.

وقوله: أي سويت عليه، صواب العبارة: أي أطبقت عليه، وأرجح الأقوال: أنه أطبق عليهم الخراب بالرجفة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨] وفي آية: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا..﴾ [هود:٦٧-٦٨] وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي فسوى ثمود كلها أدناها وأقصاها وكبيرها وصغيرها أي عمها بالعذاب والدمدمة، كقوله تعالى: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال:٥٨].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ عقبى هذه البطشة والدمدمة والتسوية، قال سيد قطب: ((سبحانه وتعالى ومن ذا يخاف، وما ذا يخاف، وأنى يخاف، إنما يراد من هذا التعبير لازمه المفهوم منه، فالذي لا يخاف عاقبة ما يفعل يبلغ غاية البطش حين يبطش، وكذلك بطش اللّه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢] فهو إيقاع يراد إيحاؤه وظله في النفوس)) انتهى.

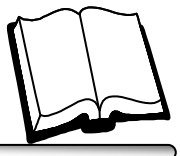

التيسير في التفسير

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ هذا قسم بآية من آيات اللّه هي ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ في أوله عند غشيانه ما ﴿يَغۡشَىٰ﴾ من الأرض وما عليها أي يشتمل عليها ويغطيها.

﴿٢﴾ ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ تبين وظهر واتضح بعد أن كان غائباً، فهاتان آيتان تدلان على مدبر لمجيء الليل واشتماله على المعمورة، والنهار كذلك وتجليه بعد غيابه في الليل.

﴿٣﴾ ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ خالق ﴿ٱلذَّكَرَ﴾ ذكراً ﴿وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أنثى، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ [القيامة:٣٩] ففي الزوجين آية ودليل على اللّه؛ لأن أصلهما المني، فلماذا كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى، واستمر هذا على مر العصور لم يتخلف ولم تتخلف عوامل الذكورة والأنوثة عن هذه المزاوجة بينهما في كل عصر، إنهما لدليل على خالق زاوج بينهما ليستمر الحيوان المتوالد، ولو انقطع أحدهما لانقطع جنسهما، ولعله ـ والله أعلم ـ قدم القسم بالليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى؛ لكونهما آيتين عظيمتين تدلان دلالة سريعة على الآتي بهما، المدبر لهذا الكون وعظما بالقسم بهما لذلك، وعطف قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ لأنه جار مجرى الاستدلال عليه بهما، فمرجع القسمين واحد، وهو ذكر الدليل على اللّه، وتقديم الدليل على المدلول عليه في الذكر يصح لما فيه من حكمة توجيه الذهن إلى الدليل لينتقل عنه إلى المدلول عليه بيقين.

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا

ألا ترى إلى قول قس بن ساعدة: «البعرة تدل على البعير، وآثار الأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، لا يدلان على اللطيف الخبير» ؟!! كيف قدم ذكر الدليل على المدلول، وكان ذلك مستحسناً في نظم الكلام.

فأما قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:٧] فإنه حسن جميل، من حيث أن (الموصول) اسم مبهم صلته الدليل عليه إذا فُهِمَتْ فُهِمَ، فكان فهمه مترتباً على الدليل كما لو قدم الدليل.

﴿٤﴾ ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ إن عملكم لمتفرق متشتت حق وباطل.

﴿٥﴾ ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ ﴿أَعْطَىٰ﴾ حيث شرع له الإنفاق ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ ربه بطاعته.

﴿٦﴾ ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ يحتمل: أن (الحسنى) هي اليسرى، أي الشريعة التي جاء بها محمد ص؛ لأنه كان يدعو إليها، وكان المشركون مكذبين بها والمسلمون المصدقون بها قليل.

﴿٧﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ نهديه ونوفقه ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ التي آمن بها.

﴿٨-١٠﴾ ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿بَخِلَ﴾ بماله عما يحق عليه ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن التقوى ورأى أنه غير محتاج إليها لجهلة بالجزاء، ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالشريعة الحسنى والسبيل إلى ربه.

﴿١٠﴾ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للعاقبة العسرى، أو العقوبة العسرى، ونهيئه لها كقوله تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى:١١].

لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

﴿١١﴾ ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ ﴿تَرَدَّىٰ﴾ هوى في العذاب، والتردي: السقوط، وهو كناية عن الهلاك فما يغني عنه ماله شيئاً من العذاب، والحاصل: لا يدفع عنه ماله، وما أحسن التشبيه بالمتردي؛ لأن المتردي لا يدفع عنه ضرر التردي ولو كان من أكثر الناس مالاً، فلا بد أن يضره التردي على قدر أسباب الضرر.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ علينا أن نهدي إلى قصد السبيل ببيانها للناس بالقرآن والرسول.

﴿١٣﴾ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ فنفعل ما نشاء ونحكم ما نريد في الدنيا والآخرة، لذلك نرسل الرسل، وننزل الكتب، وندعو العباد إلى العبادة، وفي الآخرة نجزي كل نفس بما تسعى.

﴿١٤-١٦﴾ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تفريع على قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ وتلظي النار: تلهبها وتسعرها وشدة توقدها، وهذه النار قد وصفت بوصفين الأول: ﴿تَلَظَّىٰ﴾ والثاني: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ فهي نار فيها زيادة على عذاب سائر الأشقياء، ولعلها طبقة من طبقات جهنم مخصصة للمكذبين المتولين؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا..﴾ الآية، فالشقي أعم من الأشقى.

﴿١٧-١٨﴾ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ ﴿الْأَتْقَى﴾ رسول الله ﷺ، أو هو والسابقون الأولون، ولم يخصوا بالذكر لإخراج سائر المتقين،

ولكن لعل السبب: أن هذه السورة نزلت والخصومة في الدين بين المكذبين والرسول ص، أو بينهم وبين الرسول ص والسابقين الأولين؛ لعدم غيرهم عند نزولها في أول البعثة ـ والله أعلم.

﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ﴾ ينفقه في وجوه الخير ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ يزكي نفسه بالإنفاق يجعلها زاكية صالحة، وفيه دلالة على أن الإنفاق من أسباب صلاح المنفق، وهو قريب من قول اللّه تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ..﴾ [البقرة:٢٦٥].

﴿١٩﴾ ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجۡزَىٰٓ﴾ لم ينعم عليه أحد ممن يعطيهم فيعطيهم مكافأة.

﴿٢٠﴾ ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ لكن يؤتي ماله طلب وجه ربه، أي رضوانه ونظره إليه، فالوجه كناية عن النظر، والنظر كناية عن الرضوان؛ لأن الراضي عنك ينظر إليك، كما أن الساخط عليك يعرض عنك ولا ينظر إليك، وقد فسره الإمام القاسم × : بالرضوان.

﴿٢١﴾ ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ﴾ بما يعطيه اللّه في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى:٥].

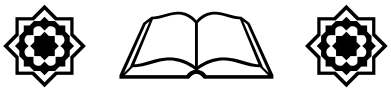

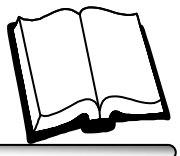

التيسير في التفسير

سورة الضحى

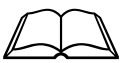

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ
خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ
يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ضياء الشمس القوي حين ينبسط شعاعها على الأرض أول اليوم، وذلك وقت شروع الناس في أعمالهم لمعايشهم، فهذا الضحى نعمة ورحمة للناس يعملون فيه بنشاط إثر راحة الليل، وقبل الحر، ويلتذون في الشتاء بشعاع الشمس، فالذي جاء به رحمة لعباده ونعمة، كيف يقلي عبده المطيع له.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ استحكم ظلامه، وعم الهدوء بسببه، واستراح الناس من أعمالهم وبرقادهم، من أجل هذا الليل الذي جاء به ربهم نعمة لهم ورحمة، فينعم به وبنهاره على عباده البر منهم والفاجر، فكيف يقلي عبده المطيع له كما زعم الذين كفروا.

﴿٣﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما تركك ترك المودع للرحيل الذي يطول غيابه ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وما أبغض.

﴿٤﴾ ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فما زال راضياً عنك معداً لك خير الآخرة العظيم، ولم يزو عنك الدنيا إلا لمصلحتك؛ لأن الدنيا خيرها قليل فان.

﴿٥﴾ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ ﴿يُعْطِيكَ﴾ الخير العظيم الذي يسرك ويرضيك.

﴿٦﴾ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ فلم يودعك وأنت صغير لم تبلغ حد التكليف، فكيف يودعك وأنت ساع في طاعته.

فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١

۝٧ ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ هداك بعد أن لم تكن تدري ما الكتاب ولا الإيمان، وبعد جهلك بطرق الحق، فما قلاك في جهلك، بل هداك ولا ودعك بل علمك ما لم تكن تعلم.

۝٨ ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ عائلاً مفتقراً فأغناك بالمال الكافي والقناعة، وكان تعالى يسر له الكسب فيما يروى بعمله في تجارة خديجة بنت خويلد رحمة اللّه عليها، فما ودعه في تلك الحال ولا قلاه، ولا في سائر أحواله ص.

۝٩ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ لا تغلبه لضعفه إما بأن تأخذ ماله أو شيئاً من حقوقه أو تستخدمه.

۝١٠ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ والسائل يعم سائل المال وطالب العلم لا تنهر لا تزجره، بل أعطه، أو أحسن الرد بالرفق والاعتذار حيث لا يتيسر إعطاؤه.

۝١١ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ كلم الناس بما أنعم به ربك عليك، ومن ذلك النبوة، والرسالة، والقرآن، فما ودعك ولا قلى، بل أحسن رعايتك صغيراً وكبيراً، فاشكر نعمته بما ذكر.

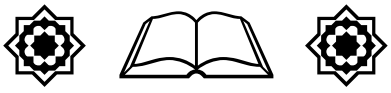

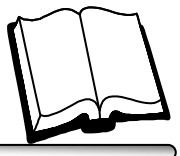

التيسير في التفسير

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ نوسع صدرك ليتحمل مشاق تكاليف الرسالة والطاعة ولا يضيق عنها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ﴾ [الأنعام:١٢٥] والسؤال لتقريره أن اللّه شرح له صدره لأنه يحس بذلك ويجده من نفسه.

﴿٢-٣﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ حططناه عنك، والوزر: الحمل، والمراد به هنا: الخطيئة، ووضعها: غفرانها، كما قال تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢].

وإنقاض الظهر: ضره بشدة ثقل حمله بحيث حصل له نقيض أي صوت انتقاض الظهر، وهو تمثيل لشدة الوزر على رسول اللّه ص واستثقاله له وتألمه منه.

﴿٤﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في (تفسير الإمام القاسم ×): ((وتأويل ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فهو رفعه لذكره بما أبقى في الغابرين إلى فناء الدنيا من أمره وقدره، ومن ذلك النداء في كل صلاة باسمه، وما جعل به من الشرف لقومه فضلاً عما منّ به على ذريته وولده ومن شركه في الأقرب من نسبه..)) إلخ.

﴿٥-٦﴾ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فمع عسر تكاليف الرسالة والطاعة وقيادة الأمة مع قلة ذات اليد وغير ذلك، مع ذلك يسر من اللّه بتيسير العسير، كشرح الصدر، وخذلان الأعداء والنصر عليهم، وأما الآخرة فيسرها خالص ليس مع عسر.

وناسب التأكيد هنا: أن اليسر قد يكون خفياً لا يشعر به الإنسان أو لا يدري بأي طريقة يكون، فعلى المكلف أن يقوم بتكاليفه ويرجو من اللّه تيسير العسير.

﴿٧﴾ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ والفراغ يكون بالخروج من الصلاة، ويكون بالخلو عن الناس ﴿فَٱنصَبْ﴾ فجدّ واجتهد في ذكر اللّه وشكره.

﴿٨﴾ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ بالدعاء لله وطلب المعونة على ذكره وشكره وحسن عبادته، وبصرف المصائب والنصر على الأعداء، ورفع الدرجة في الآخرة وغير ذلك، واجعل رغبتك إليه وحده، وأصل الرغبة إليه طلب المرغوب فيه من اللّه بالقول، أعني الدعاء أو بالعمل الصالح، توسلاً إلى رضاه وفضله.

وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((فذكر أنه لما أنزل على رسوله ما أنزل في هذه السورة من آياته فعبد رسول اللّه حتى عاد كالشّنّ البالي في عبادته شكراً لله وحمداً وتذللاً وتعبّداً)) انتهى.

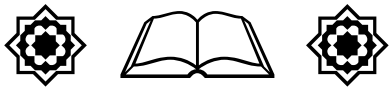

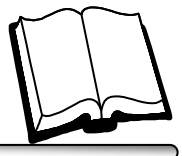

التيسير في التفسير

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ ﴿التِّينِ﴾ هذه الفاكهة التي نسميها البلس وليس خاصاً بالنوع الكبير منه، قال في (القاموس): ((التين ـ بالكسر ـ معروف ورطبه النضيج. أحمدُ الفاكهة وأكثرها غذاء وأقلها نفخاً..)) إلخ.

وفي (تذكرة داود): ((أصح الفاكهة غذاء إذا أكل على الخلاء ولم يتبع بشيء..)) إلخ، وقد بسط فيه (صاحب كتاب الغذاء لا الدواء).

وبالجملة فهو آية كبرى ونعمة عظمى، وكذلك (الزيتون) وهو ثمر شجرة تصلح بالشام ويستخرج منه الزيت الذي يستعمل صبغاً للآكلين، ودهناً للأبدان والشعر وغير الأبدان.

وقد بالغ في مدحه (صاحب كتاب الغذاء لا الدواء) وقال فيه: ((فهذا الزيت يمتاز عن غيره من الأدهان والزيوت بصفات كثيرة تعود على الإنسان بالصحة والعافية، فهو أسهل هضماً من جميع الزيوت الأخرى)) وبسط فيه بما يدل على فضله وكثرة منافعه.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو (طور سيناء) وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((فهو الجبل الذي كلم موسى × منه رب العالمين)) انتهى ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهو الحرم حرم الكعبة، فهو آية ونعمة؛ لأن الله جعل للكعبة احتراماً في قلوب الناس، فكان حرمها آمناً، وكان ذلك عوناً على حج البيت، وتواصل الناس لمنافعهم من التجارة وغيرها.

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨

وفي طور سيناء والحرم وذكرهما تذكير بما أنزل اللّه فيهما من الهدى، وجعل فيهما من الرسالة، ليذكر أهل الجاهلية الرسالات من اللّه إلى الأولين، ويعلموا أن رسول اللّه إليهم ليس بدعاً من الرسل، وجواب القسم في هذه السورة:

۝٤ ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وتقويمه: تعديله وإتقان تركيبه وصنع أعضاءه، وكونه ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ لأنه مفضل على سائر الحيوانات بتركيب بدنه ونصبه، واستغنائه عن المشي على يديه، وصلاحهما للعمل الكثير النافع، ومفضل بعقله وما ترتب عليه من المنافع الدينية والدنيوية.

۝٥ ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ لأنه إن عمر أو لم يعمر يموت، فيصير جثة هامدة وجيفة، تأكله الدود وتأكل عظامه الأرض، وهكذا القرن بعد القرن يموت قرن ويحيى قرن، ثم يموت فيصير في ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ فلماذا هذا الإتقان للصنع؟ ولماذا هذا الرد إلى أسفل سافلين من دون تمييز بين من استعمل عقله وأصلح في حياته ومن أساء في حياته وأفسد فكلهم يصير أسفل سافلين؟ إنه لابد من البعث من القبور ومجازاة المحسن بإحسانه خيراً وجعله في حياة لا موت بعدها سعيداً مخلداً.

۝٦ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ فلا يضرهم رد أجسادهم ﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ لأنهم يعودون خلقاً جديداً، ويعودون إلى أجر كريم لا يمنّ عليهم، بل يقال لهم: هذا جزاءكم بما صبرتم.

والاستثناء هنا منقطع من المردود ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ويمكن أن يكون متصلاً على أن يكون المعنى: إلا الذين آمنوا فلا يردون أسفل سافلين؛ لأن أرواحهم تصير بعد خروجها من أجسادهم في سعادة، ولا يضرهم خراب أجسادهم لأن أرواحهم لا تزال في حياة وبشرى، فليسوا أسفل سافلين، فيكون الاستثناء متصلاً بناء على أن سعادة الأرواح من مبادئ الأجر الذي هو غير ممنون لأن الاستثناء مفسر بأن لهم ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أو فلهم أجر غير مقطوع لا ينتهي كما انتهت الحياة الدنيا، بل هو ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٨] وهذا مناسب للسياق، ويمكن حمله على المعنيين لعدم التنافي ومناسبة السياق لهما معاً، وكون السورة وجيزة وهو من الإيجاز، وهذا على جواز حمل المشترك على معنييه حيث لا مرجح ولا مانع.

﴿٧﴾ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي بعد خلق الإنسان ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ورده ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فما يكذبك بعد ذلك بالدين أي بالجزاء، وقد بينا لك أنا لم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمسيء، فما الذي يجعلك مكذباً بالجزاء، وقد تبين أنه لابد منه في الحكمة.

﴿٨﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فكيف يصح منه أن يجعل الشاكر لنعمته كالكافر بها؟! ويجعل المسلمين كالمجرمين؟!سبحانه وتعالى عما يقول المكذبون بالدين.

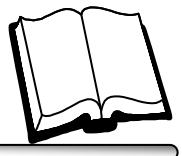

التيسير في التفسير

سورة العلق

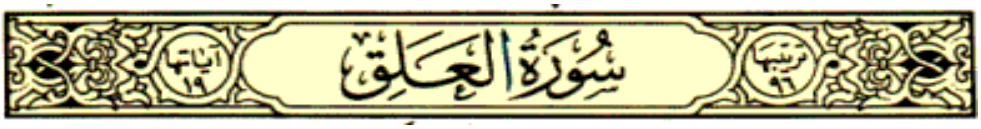

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أمر الله نبيه ص في أوائل ما نزل من القرآن أن يقرأ باسمه تعالى، أي يقرأ قراءة ممزوجة باسمه، وفي لغة النحاة: متلبسة باسمه، مثل ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون:٢٠].

وقال في (الكشاف): ((محل ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ النصب على الحال أي اقرأ مفتتحاً باسم ربك، قل: باسم الله ثم اقرأ)) انتهى، ولعله يعني: أن (الباء) للاستعانة.

وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((واسم ربه الذي أمِر أن يقرأ به، فهو: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي قدم له في تعليمه كل سورة عند الإقراء والتعليم)) انتهى، وهو الظاهر لما ذكره × .

وحكى الشرفي في (المصابيح) قبيل تفسير (الفاتحة) من كلام الإمام القاسم × : ((إن أول ما نزل سورة الفاتحة)).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ دلالة بأنه خلق مطلقاً، ثم أكد الدلالة بخلق الإنسان، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ والعلق: دم أحمر مؤتلق يتلألأ لشدة حمرته ويبرق، كما فسره الإمام القاسم × ، وفي تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي إ : ((معناه: من دم)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((والعلق: الدم الجامد، ومنه العلقة التي يكون منها الولد)) انتهى، وفي (لسان العرب): ((العلق: الدم ما كان، وقيل: هو الدم الجامد الغليظ، وقيل: الجامد قبل أن ييبس، وقيل: هو ما اشتدت حمرته)) انتهى.

﴿٣-٤﴾ ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ﴿ٱقْرَأْ﴾ الأمر بالقراءة في الموضعين مطلق وكرر لما اتصل به أول مرة من قوله تعالى: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وما اتصل به في المرة الثانية من قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ والمراد: أن يقرأ ما علمه اللّه قراءته وأمر بالقراءة؛ ليقرأ ما قد نزل إن كانت الفاتحة قد نزلت، ويقرأ هذه السورة التي أمر بالقراءة فيها، ويقرأ ما سينزل عليه، وهذا الإطلاق الأمر بالقراءة مع كونه ص متوقعاً لنزول ما سينزل وهو في أول نزول القرآن، فالمراد توجيهه للقراءة وأن يستعد لها.

ويظهر هذا المعنى لو فسّرنا اقرأ باسم ربك أي اقرأ حاكياً عن ربك فتقول حين تقرأ: بسم الله، أي هذا الذي أقرؤه كلام اللّه أحكيه عنه كما تقول: اشتر السلعة باسمي أي مضيفاً لها إلي وهذا قريب، وقد رجحته في تفسير (الفاتحة).

﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ (الواو) للحال، والمعنى تشجيعه على القراءة بأن ربه الأكرم وهذا لأن القراءة قراءة القرآن وهي بين الجاهلين المشركين أمر ثقيل يحتاج إلى التوكل على اللّه والثقة بمعونته ونصره، إن هذه القراءة تبليغ رسالة وجهاد بالحجة ﴿فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان:٥٢].

وكذلك إن هذه القراءة في الأميين يستبعد تقبلها وحفظها من السامعين الجاهلين الذين كانت أذهانهم بعيدة عن معاني هذا القرآن إنما نشأت على أمور الجاهلية والاشتغال بأغراض الدنيا، فاقرأ راجياً كرم اللّه، وإظهار دينه، ونشر العلم به في الأرض بواسطة القلم، وتخصيص التعليم بـ(القلم) بالذكر هنا مع كون الرسول ص أمياً لا يقرأ كتاباً ولا يخطه بيمينه.

ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ

ومع أن اللّه علم بأسباب العلم كلها من الفؤاد والسمع والبصر، إشارة إلى أن هذا القرآن سينتشر في الأرض بواسطة القلم، كما أن القلم انتشر به العلم في الأولين، ولله الحمد لقد انتشر القرآن النعمة العظمى في العالم، وصارت المصاحف تطبع في العالم بكثرة، وصار القرآن يقرأ حتى في بعض إذاعات الكفار فضلاً عن إذاعات المسلمين.

﴿٥﴾ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ من المعلومات المختلفة الكثيرة فهو يخرج من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ثم يعلمه اللّه العلوم الكثيرة الدنيوية التي ينتفع بها في معاشه، والدينية بواسطة الرسل والكتب وهداية العقول للنظر في آيات الكون، فكما علمه ما لم يعلم، وذلك بكرم اللّه وتكريمه للإنسان، فكذلك ينشر العلم في أمتك بواسطة ما تقرأ، نعمة منه تعالى ورحمة للعالمين، وكرماً وفضلاً على هذا الإنسان الذي خلقه من علق، ثم طور خلقه وأكمل قوته وسمعه وبصره وعقله، ثم طور إعداده للكمال والسعادة الدائمة، بهذا القرآن العظيم والرسول الكريم، فهل شكر النعمة.

﴿٦-٧﴾ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ زجر وردع عن توهم أن الإنسان يشكر نعمة اللّه لأن الإنسان ظلوم كفار إنه ﴿لَيَطْغَىٰٓ﴾ يتجاوز الحد في العصيان، بسبب أن رأى أنه غير محتاج إلى الطاعة وشكر النعمة والإيمان بالرسول؛ لظنه أن المال هو كل شيء ولا حاجة إلى الدين في ظنه، وذلك لجهله بالله واليوم الآخر، وأيضاً إنه يتصور بسبب ثروته أن حاله لن تتبدل، كما حكى اللّه تعالى قوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت:٥٠] لأنه يتخيل أنه محبوب عند اللّه، أو أنه صاحب حظ جيد لا يفارقه.

بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٣﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

﴿٨﴾ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أيها الإنسان ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ في الآخرة، فأنت محتاج إلى تقواه غير مستغن عنه.

﴿٩-١٢﴾ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ * أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ لربه وعبد خالقه، أيترك هذا الناهي المعتدي وشأنه دون أن يجزى بعدوانه الشنيع، الذي يعلم هو أنه عدوان وأن عبادة اللّه حق، إنما يزعم أن عبادة شركائهم حق مع اعترافهم لله بالربوبية واستحقاقه العبادة.

﴿أَرَءَيْتَ﴾ أيها الناهي ﴿إِن كَانَ﴾ هذا العبد المصلي ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ وأنت تنهاه عن الهدى وتدعوه إلى الفجور، فكر في هذا فإنك اعتديت وما فكرت، والتقوى: تقوى اللّه باجتناب الشرك، واجتناب الفجور كله، والتوبة إلى اللّه مما سلف من ذلك، فهو أمر بخير ولم يدع إلى باطل.

﴿١٣﴾ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ ﴿كَذَّبَ﴾ بآيات اللّه، كذب بالقرآن، وكذب الرسول، وكذب باليوم الآخر ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾ عن أمر ربه، عن استماع القرآن والتفكير في دلالته على الحق، وقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ الأولى التفات إلى الناهي، وهذه الثانية التفات إلى رسول اللّه ص.

﴿١٤﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ما يصنع من التكذيب، والتولي، والنهي عن الصلاة.. وغير ذلك من جرائم هذا المكذب، لا يخفى على اللّه منه شيء، فكيف لا يخشاه.

﴿١٥﴾ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر لهذا المكذب المعتدي المتولي ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عن ذلك ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ لنأخذن أخذاً شديداً عنيفاً ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ والناصية: مقدم الرأس، والمراد: ناصية هذا المكذب.

﴿١٦﴾ ﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي صاحبها، وأسند إليها لأنها من مميزات هذا المكذب المتولي المعتدي، فكأنها عنوان كذب وخطأ.

﴿١٧﴾ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ ﴿نَادِيَهُۥ﴾ الذين يجتمعون حوله من عشيرته وأصحابه، يوم نأخذه ﴿بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ عند الأمر به إلى النار، فلن ينصروه، ولن يغنوا عنه شيئاً.

﴿١٨﴾ ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ سندعوهم لأخذه وتعذيبه، في (تفسير الإمام القاسم ×): «والزبانية: فهم الملائكة المطهرة الزاكية، تأخذ بالشدة كل نفس عاتية متمردة، كما قال سبحانه: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

﴿١٩﴾ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ يا محمد في نهيه عن الصلاة وعن الأمر بالتقوى ﴿وَٱسْجُدْ﴾ لله في صلاتك، أي صل لله فالأمر بالسجود كناية عن الأمر بالصلاة ﴿وَٱقْتَرِب﴾ إلى ربك بما يرضيه من الطاعة والعبادة، من تبليغ الرسالة، والصبر على ما تلاقي فيها من الأذى والعناء، وسائر ما يقربك من ربك.

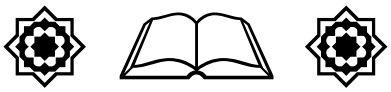

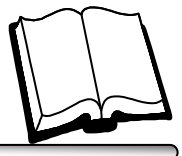

التيسير في التفسير

سورة القدر

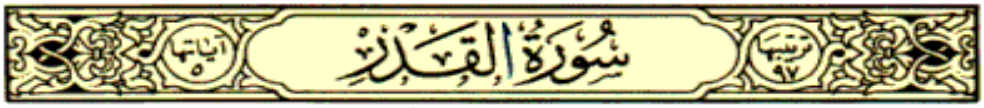

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ يقول اللّه ـ جلَّ جلاله ـ : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي أنزلنا القرآن ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ قال (صاحب الكشاف): ((عظم القرآن من ثلاثة أوجه، أحدها: أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره، والثاني: أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه، والثالث: الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه)) انتهى.

قلت: وفي الوجه الأول زيادة الإسناد إلى عظمته وجلاله حيث قال: ﴿إِنَّآ﴾ ولم يقل: (إني أنزلت) فأفاد: أنه من مقتضى عظمته وجلاله مثلاً لكرمه وفضله ورحمته وعدله وحكمته وعلمه وقدرته، وفيه زيادة التأكيد بـ(إن) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ﴾ فهو تأكيد لمضمون الجملة، وما تدل عليه من عظم شأن القرآن.

و﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ من ليالي شهر رمضان، بدليل قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾ [البقرة:١٨٥] وقد عظم اللّه شأنها بهذه السورة.

﴿٢﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هذا تعظيم لها، كما قال تعالى في تعظيم القيامة: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ**﴾ [الحاقة:٣] وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((وتأويل ﴿مَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فهو: ما يدريك لولا ما نزلنا من البيان فيها عليك

﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ في القدر والكبر، وما يضاعف فيها لعامله من الأجر والبر)) انتهى، فأثبت تعظيمها، وزاد جعل الإخبار بها من دلائل النبوة.

(٣) ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ في (تفسير الإمام القاسم ×): ((فهي ليلة خير من ألف شهر جعلت لبركتها ويمنها في التضعيف لها وبالأضعاف، كعشرة آلاف ليلة وعشرة آلاف ليلة وعشرة آلاف ليلة، فذلك ثلاثون ألف ليلة ونحوها تامة جعلت مقداراً مضاعفاً لليلة القدر، تشريفاً لها وكرامة، وهي ليلة مقدسة يضاعف فيها كل بر وعمل صالح لمن عمل به فيها من أهلها، فيزاد على تضعيفه من قبل ثلاثين ألف ضعف لقدرها وفضلها، ونحمد اللّه في ذلك وغيره رب العالمين على ما أنعم به من ذلك خير المنعمين)) انتهى.

قال في (الكشاف): ((ومعنى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ ليلة تقدير الأمور وقضائها)) انتهى، وهذا مناسب لقول اللّه تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] قال في تفسير (الغريب) للإمام زيد بن علي إ : ((معناه: يقضى ويدبر في الليلة المباركة، وهي ليلة القدر يقضى فيها أمر السنة من الأرزاق وغير ذلك إلى مثلها)) انتهى.

(٤) ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ تتنزل في ليلة القدر الملائكة وجبريل وهو من الملائكة (عليه السلام)، وذلك لبركة ليلة القدر وما ينزلون به بإذن ربهم، أي يتنزلون بإذن ربهم ينزلون إلى الأرض من كل أمر، هنا قال تعالى: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ وفي (سورة الدخان): ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤] فيمكن ـ والله أعلم ـ أن أمور السنة المقبلة تقضى فيها وتفصل في كتاب في السماء تقرؤه الملائكة (عليه السلام)، وتنزل الأرض تهيئها له

وتعدها بما تنزل به من أسباب ومعان تخفى علينا، وتؤدي ما يكون بطريق التسبيب أو التهيئة، فكأن الأمور التي ستكون في الأرض مصدرها السماء، ونزل منه في ليلة القدر ما نزل، فكان ابتداء نزول الملائكة من مصادر الأمور الحكيمة التي في السماء ـ والله أعلم.

لكن يلزم على هذا: أن تكون نزلت منها لا أنها أنزلت منها، فمن أين دلت الآية على ما قلنا؟

فالأقرب ـ والله أعلم ـ أن المعنى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي في ليلة القدر؛ لأنه تفسير لها فلم يلزم ذكر ضميرها، وقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ أي في الملائكة، ومعنى الروح: الخير والحياة والبركة الأمر الحكيم في الملائكة، كقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل:٢] وبهذا لا يبقى إشكال في معنى ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أنها للتبعيض، وهذا أحسن عندي من جعل ﴿مِّن﴾ للتسبيب، أي بسبب كل أمر؛ لأنه ليس محل (من) التي للتعليل؛ لأنك لا تقول: جئت من الصلاة أي لأجل الصلاة، وإنما تستعمل في الدوافع النفسية، مثل: جئت من الخوف، أو فررت من السبع، أو جئت من الجوع.. من العطش.. من الحر.. من البرد، تعبت من العمل ..غضبت من الباطل، فما ذكرته أخيراً هو أرجح، وهو من تفسير القرآن بالقرآن.

فالمعنى: أن الروح في الملائكة بإذن ربهم الذي جعله فيهم بحكمته فهي تتنزل في ليلة القدر، في حال كون الروح من كل أمر فيها بإذن ربهم ـ والله أعلم ـ والروح من كل أمر: هو خيره، وهو ما اقتضته الحكمة وأحكمه اللّه، فالروح من كل أمر هو الحكيم من كل أمر.

﴿٥﴾ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ أي (ليلة القدر) ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي سالمة مسلمة، قال الإمام القاسم × : ((وتأويل ﴿سَلَٰمٌ﴾ فهي سلامة حتى طلوع الفجر، فليلة القدر سالمة مسلمة، ليس فيها عذاب من اللّه تبارك وتعالى ولا نقمة، جعلها اللّه بفضله بركة وسلامة ورحمة للعباد إلى الفجر دائمة)).

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ حتى وقت طلوع الفجر، أو حتى طلوع الفجر، فأفاد أن (ليلة القدر) كلها سلام، لا ينقص منها شيء؛ لأن طلوع الفجر نهاية الليل.

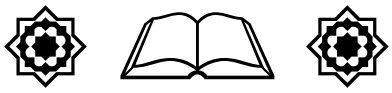

سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأنعم اللّه وكفروا بأنواع كفر الجحود المذكورة في القرآن، كقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران:١٨١] وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة:٦٤] واتخاذهم ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وقولهم في عزير وعيسى × : أنهما ابنا الله، لم يكونوا هم وعباد الأصنام ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عما هم عليه من الباطل ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ من جديد، فكانوا محتاجين إليها لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ولو لم تأتهم لاستمروا على أباطيلهم الكثيرة المتنوعة وتوارثتها القرون.

﴿٢﴾ ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ هذا تفسير ﴿الْبَيِّنَةُ﴾ المذكورة إما على معنى الهداية البينة، وإما على معنى الحجة البينة، فرسول بدل اشتمال؛ لاشتماله على الهداية والحجة التي هي تلاوة صحف مطهرة، واتباعها، ومعنى ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ بريئة من كل عيب؛ لأنها حق لا باطل فيه، وصدق لا كذب فيه، وهدى لا ضلال فيه، ونصح لا غش فيه، فهي حق واضح جلي يدعو من أراد الحق إلى اتباعه، وترك ما كان عليه من الباطل، وبذلك يختلف حال الذين كفروا عما كانوا عليه مجمعين بمجيء الإسلام وخروج الناس من الظلمات إلى النور وظهور الدين، فانفكوا به عما كانوا لولاه لا ينفكون عليه.

تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ

﴿٣﴾ ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي في الصحف ﴿كُتُبٌ﴾ وهي الكلام المكتوب، ﴿قَيِّمَةٌ﴾ لاعوج فيها، وهي آيات القرآن الحكيم الذي أنزل وكتب ليبقى وتتوارثه الأجيال، فحاصل المعنى: يتلو آيات نزلت باسم كتب من حين أنزلت، ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة:٢] فإسناد التلاوة إلى الصحف لهذا المعنى، وأسندت التلاوة إلى الصحف لتوصف بالطهارة تكريماً لها، مبالغة في تكريم الكتب، والأصل: يتلو ما في صحف مطهرة، وهو المجاز اللفظي مثل: سال الوادي.

﴿٤﴾ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ لم يتفرقوا لا اليهود ولا النصارى ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ﴾ دلالة الحق ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ التي لا تخفى على طالب الحق، فما تفرقوا لخفاء الحق، ولكن تفرقوا بغياً بينهم لأغراض سياسية، أو أهواء نفسية، قادت إلى بغي بعضهم على بعض، وتفرقهم: أنهم كانوا فرقاً متباينة متعادية مختلفة.

﴿٥﴾ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ وكان من أسباب تفرقهم: أنهم أدخلوا في دينهم ما لم يؤمروا به بل هو مخالف له، كالغلو في عيسى وعزير الذي خرجوا به من الإخلاص لله، وكذلك التشبيه لله الذي جعل أهله يعبدون غير اللّه، ومعنى ﴿حُنَفَآءَ﴾ كما أفاده الإمام القاسم × : ((مطيعين لله مستقيمين خاشعين ـ وزاد في موضع آخر في تفسير الحنيف ـ المحب)).

جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٍ

وهذا أحسن من تفسير (الحنيف): بالمائل؛ لأنه لو كان بمعنى (المائل) لما استعمل إلا بقيد يحسنه؛ لأن المطلق مذموم، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧] ولو أريد به الميل عن الباطل لكان ضعفاً في التعبير، كما لو قيل: كفار أي بالطاغوت.

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ أي ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الذي أمروا به ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ والقيمة: المستقيمة، وهي الطريقة التي لا عوج فيها مثل ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منهم: بقوا على ضلالهم وأصروا على كفرهم ولم يخرجوا منه حين أتتهم البينة التي هي القرآن يتلوه الرسول، بل أصروا على أباطيلهم فتوعدهم الله وأخبر خبراً صادقاً أنهم في الآخرة: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

قال الإمام القاسم × : ((وتأويل ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فهو أنهم غير فانين ولا بائدين، كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ..﴾ [فاطر:٣٦].. إلخ)).

ثم بين تعالى: أنهم ﴿شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ والبرية: الخليقة التي خالف بينها خالقها في صفاتها بحيث يتميز بعضها عن بعض، أي شر المخلوقات.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ الذين صدقوا وقبلوا وبعثهم ذلك على التقوى والعمل الصالح كما دل عليه

تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨

القرآن في سور متعددة، ولذلك قال القاسم والناصر: ((المؤمن: الذي يؤمن نفسه من عذاب اللّه)) وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يؤكد ذلك؛ لأن العمل لا يصلح إلا مع التقوى؛ لقول اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧] فالمعاصي كالآفة التي تصيب الزرع فتمنع من صلاحه، ولهذا كان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ لصلاحهم وطهارتهم، وشرفهم بالعقل والإيمان والعمل الصالح.

٨ ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ ﴿﴿جَزَآؤُهُمۡ﴾ على الإيمان والعمل الصالح ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ عنده حال كونهم عنده، كقوله تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ﴾ [القمر:٥٥] أو حال كون الجزاء عند ربهم أي معداً لهم، وإذا كان المعنى المراد هو الأول، فعلى معنى التقريب والكرامة والرضوان، لا الحلول في المكان؛ لأن اللّه سبحانه لا تحويه الأمكنة ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى:١١].

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ قال الإمام القاسم × في تفسير ﴿عَدۡنٖ﴾ هو: ((مستقر وأمن)) انتهى، وفي (مفردات الراغب): ((﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ أي استقرار وثبات)) انتهى، والمعنى واحد؛ لأن الخوف ينافي الاستقرار والمراد بالاستقرار: المدح للجنة، فالمراد: نفي ما ينافي الاستقرار في مجرى العادة، فالخوف في المحل يبعث على الانتقال منه كما يبعث عليه الجوع فيه والفقر الشديد والجدب في حق أهل الأنعام.. ونحو ذلك، فوصفه بالاستقرار يشير إلى سلامته من دواعي مغادرته.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا يموتون بعد مصيرهم فيها، بل هم باقون أبداً، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥] وفي (معلقة طرفة):

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى ... وإن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

وقوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ بيان لبقائهم بلا نهاية لبقائهم فيها، فلا يموتون ولا يخرجون ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ فهم سعداء في ظل رضوان ملك الملوك، ينعمون بما يصل إليهم من الكرامة والتقريب ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧] والمراد بإثبات الرضوان إثبات غاياته كالرحمة لأن السياق لبيان جزائهم.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ قال الإمام القاسم × : ((يعني من خافه واتقاه)) انتهى، وهذا يوضح ما قلناه في تفسير الإيمان والعمل الصالح.

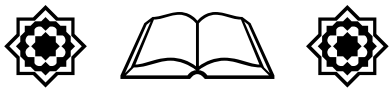

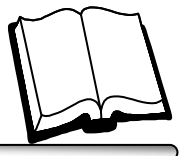

التَّيْسِيرُ فِي التَّفْسِيرِ

سُورَةُ البَيِّنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ زلزلة الأرض: أن تجعل مضطربة متزعزعة وذلك عند دكها، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١] وزلزالها المضاف إليها لتعظيمه، هو الزلزال الذي من شأنها أن يقع بها إما لضخامتها، وعموم الزلزال لها كلها وشدته.

فمعناه: الزلزال الذي يعظم هوله لما يكون من قوة الاضطراب وسرعة الحركة وارتفاع صوتها كما جرب عند الرجفات الحادثة لبعض أجزائها، وإما لذِلَّتها لربها، وخضوعها لأمره، واستسلامها لقضائه.

﴿٢﴾ ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أخرجت إلى المحشر من كان فيها من أهلها.

﴿٣﴾ ﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ اختلف شأنها وصارت تخرج أهلها الذين كانت مستقراً لهم ومتاعاً، فأنكر شأنها وقال: ﴿مَا لَهَا﴾

﴿٤-٥﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ تحدث الأرض أحاديثها وتخبر أخبارها فينكشف للإنسان مالها، فقوله تعالى: ﴿أَخْبَارَهَا﴾ قائم مقام (المفعول المطلق).

وأخبارها: جمع خبر، والذي يفهم من (أخبارها) بواسطة السياق: أنها تحدث بأن قد آن حشر الناس منها وتخليها عنهم.

وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((تحدث بأن اللّه أوحى لها بفنائها وانقطاع مدتها وأجلها)) انتهى بالمعنى، وهو يؤخذ من قول اللّه تعالى:

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] فتحدث أخبارها كلها ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بسبب أن ربك ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ بذلك، ومعنى ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ إما أوحى إليها بما تحدث به أو أمرها بأن تحدث، وإما أوحى لها بالزلزلة وما يعقبها، أي أوحى إلى الملك الذي يحملها هي والجبال ويدكهما، فبذلك أوحى لها بالزلزال كما تقول أمر له بكذا ـ والله أعلم.

۝٦ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ الصدر: العودة، وأشتاتاً: متفرقين بين شقي وسعيد ﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:١٦٧] فالسعيد يرى عمله مرضياً له، والشقي يراه حسرة، وذلك حين تجزى كل نفس ما تسعى، فهذه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩] وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس:٣٠].

فليس المراد مجرد رؤية العمل، بل رؤيته في جزائه، أو رؤيته من حيث خبره وكونه سبب سعادة أو شقاوة، وذلك لأن المقصود الأعظم من القرآن عموماً ومن هذه السور (المكية) هو الإنذار للإنسان، كما قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فسواء كان الصدر معناه: الصدر من الأرض، أو من القبور، أو من موقف الحساب، فهو لهذا المقصود ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١] وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((فتأويل (يراه) فهو يجزاه)).

﴿٧-٨﴾ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فأصغر الأعمال يرى، وهذا تعبير عن عموم الأعمال، فلا يضيع مثقال ذرة من الخير ولا أكثر ولا يهمل مثقال ذرة من الشر ولا أكثر؛ لأن الأكثر يتضمن مثاقيل ذرات كثيرة، فكل مثقال ذرة من أجزائه داخل في العموم، ولأن هذا من فحوى الخطاب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠] فهو دليل على أنه لا يظلم قليلاً ولا كثيراً.

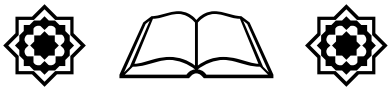

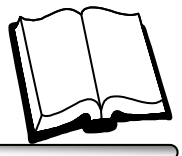

التيسير في التفسير

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ هذا قسم بالعاديات التي تعدو أي تجري بسرعة، و﴿ضَبْحًا﴾ بمعنى: عدواً نشيطاً، كما في (تفسير الإمام القاسم ×) حيث قال: «فهو عدواً ومرحاً» انتهى، وفي (لسان العرب): «وقال أبو عبيدة: ضبحت الخيل وضبعت: إذا عَدَت، وهو السير، وقال في (كتاب الخيل): «هو أن يمد الفرس يديه إذا عدا حتى كأنه على الأرض طولاً» انتهى، وذكر أقوالاً غير ذلك، ولكن هذا أقرب إلى المقصود الذي هو التعبير عن سرعة السير، ولو فسر الضبح: بالصوت الذي يخرج من أنفاسها، ما كان إلا كناية عن السرعة، فالمعنى واحد.

﴿٢﴾ ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ بشدة عدوهن وصك الحوافر في الأحجار والحصى التي تقدح عند صك بعضها ببعض.

﴿٣﴾ ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ الإغارة: الهجوم السريع لدفع الشر من عدو أو غيره، وهي هنا المغيرة على العدو، والصبح: أول النهار، وفيه تعليم نافع لوقت الإغارة.

﴿٤﴾ ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ أي هذه المغيرات أثارت ﴿نَقْعًا﴾ أي غباراً ﴿بِهِ﴾ أي بالصبح.

﴿٥﴾ ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ توسطن بالصبح ﴿جَمْعًا﴾ من جموع العدو، وهو الذي أغرن عليه صرن وسطه، وفي هذا السياق دلالة على سرعتهن وحسن طاعتهن لرجالهن المغيرين بهن.

عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

وفي ذلك آية عظمى ونعمة كبرى، حيث جعل اللّه الخيل قوية لهذا الشأن مطاوعة لاقتحام المعارك ومطارح المهالك، سريعة للكر والإقدام، بإعداد اللّه لها لهذا الشأن، وذلك من دلائل قدرته على كل شيء، وإنه قادر على بعث الإنسان بعد الموت.

﴿٦﴾ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ لكفور لربه، أي كافر بنعمة ربه، وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((الكنود: فهو الكافر لنعم اللّه بكبائر عصيانه الفاجر العنود)).

﴿٧﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ إما شهيد، بمعنى: دليل واضح لما فيه من النعم العظمى وما في سلوكه من إيثاره لهواه على طاعة ربه، وإما شهيد مقر على نفسه بذلك في نفسه شاهد على ذلك بعقله، وإما شهيد يوم تشهد عليه جوارحه فكل ذلك واقع، أو يشهد على نفسه يوم القيامة إذا سئل عن شكر النعمة.

﴿٨﴾ ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ شديد قوي، لا يضعف فيه كما يضعف عن شكر النعمة.

﴿٩-١٠﴾ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ في حال كنوده لربه البعث والجزاء فيحذر ويبدل الكنود بالشكر، وبعثرة ما في القبور: إخراجه منها منثوراً مبدداً؛ نتيجة الزلزلة وإلقاء الأرض له من بطنها.

﴿وَحُصِّلَ﴾ إما وجده صاحبه باقياً ثابتاً لم يضع ولم يهمل، مع أنه كان كاتماً له في صدره من خيره أو شره، وإما ميز خيره من شره وذاقه صاحبه وعرف خُبْره، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩] وهذا أقوى، وفي (تفسير الإمام زيد بن علي إ): ((مُيِّز)) انتهى.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ عليم بخبرهم، لا يخفى عليه سرهم ولا تخفى عليه خافية، وهذا تعبير عن عاقبتهم وما يصيرون إليه إذا رجعوا إلى ربهم، وهو عليم بما قدموا سواء ما أسروا وما أعلنوا، وهو الذي أرجعهم ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١] فعلمه بخبرهم كاف لجزائهم؛ لأن الأمر يومئذ لله وحده، وهو الذي يجزي كل نفس ما كسبت.

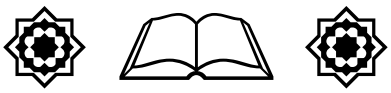

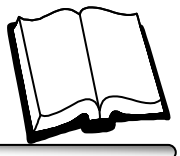

التيسير في التفسير

سورة القارعة

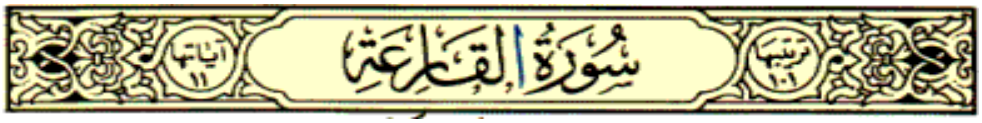

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ في (تفسير الإمام زيد بن علي إ): «فالقارعة: هي الداهية» انتهى، يعني: المصيبة، وفي (تفسير الإمام القاسم ×): «فالقارعة: ما هال من الأمور وقرع وهجم على أهله بغتة بأهواله فأفزع» انتهى، ويشهد لهذين التفسيرين قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ..﴾ الآية [الرعد:٣١]، والمراد هنا: الداهية الدهياء والمصيبة العظمى وهي القيامة، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ تعظيم لها وإنذار لخطرها.

﴿٤﴾ ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (الفراش) هذا الذي يطير في الليل إلى الضوء فيجتمع منه إلى ضوء الكهرباء ونحوه كثير، و﴿الْمَبْثُوثِ﴾ المنتشر، وهو تشبيه للناس حين يسرعون إلى موقف الحساب في ضعفهم وكثرتهم، وعدم التفات بعضهم إلى بعض، وذلك لإجابتهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ [القمر:٦] إلى موقف الحساب إلى الأمر الرهيب.

﴿٥﴾ ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ لشدة تحطم الجبال تصير متخلخلة ﴿كَالْعِهْنِ﴾ وهو الصوف الناعم الذي يسهل نفشه وتفريق اتصاله، وذلك لدكها.

﴿٦-٧﴾ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ﴿ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأعماله الصالحة ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ في حياة يرضاها؛ لأنه في سعادة دائمة في جنات النعيم.

قال الإمام القاسم × : «تأويلها: من ثقل في الوزن بره وإحسانه فسعد بثقله وثقل بعمله» انتهى، وذكر ذلك عن العرب، يعني أن المراد بالثقل: عظم الحسنة في معناها لا ثقل الأجسام، ومنه الحديث: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب اللّه، وعترتي» وقد أشار إليه الإمام القاسم × في قوله: «وثقل بعمله» انتهى، ولم يذكر في الآية وزن الحسنات، فأما وزن أهلها فقد فسره × ، وقوله × : «من ثقل في الوزن بره وإحسانه» يعني به: عظم قدره المعنوي، لا أنه يريد الثقل الذي هو للأحجار وغيرها.

﴿٨-٩﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ قال الإمام القاسم × : «فتأويله من خف به فسقه وعداوته» انتهى، فاعتبر خفيفاً لهوانه ونقص قدره، وقد قال تعالى: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥] ولم يذكر وزن السيئات، فظهر أن المقصود ما ذكره × .

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ (أمه) التي يؤمها ويتوجه إليها ويصير إليها، هي نار جهنم سميت ﴿هَاوِيَةٌ﴾ لأن صاحبها يلقى فيها فيهوي فيها مدة حتى يقع، وتسميتها (أماً) كقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٧] أي التي يرجع إليها، أو أنه نسب إليها لأنه لا يفارقها، بل تصير له مأوى كما سميت أم الطفل التي ولدته لأنه يأوي إليها، وهذا من التهكم؛ لأن الأم تعطف على ولدها، ونار جهنم تعذب ولدها ـ نعوذ بالله.

﴿١٠-١١﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ﴿وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ أي ما هي ﴿هَاوِيَةٌ﴾ وبينها تعالى بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ وصفت بأنها حامية، فدل ذلك على زيادة حرها؛ لأن النار المعهودة حامية فزاد لها وصفاً يدل على أنها حامية بالنسبة إلى هذه النار.

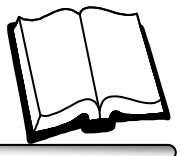

التيسير في التفسير

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أغفلكم أي سبب لغفلتكم عن المهم الذي تحتاجونه وهو تقوى الله ﴿التَّكَاثُرُ﴾ المغالبة في الكثرة إما بالعمل بأن يعمل الإنسان ليكون أكثر مالاً من غيره أو نحو هذا، وإما بالدعوى بأن يدعي كل فريق أنهم أكثر من الآخرين ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فيه وجهان:

الأول ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ أداكم الإفراط فيه إلى زيارة المقابر لتعدوا الموتى وتكاثروا بهم، الثاني: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ طول أعماركم حتَّى متم وفي هذا إشكالان: الأول: أن الخطاب للأحياء لتوبيخهم وزجرهم وردعهم عن الالتهاء بالمكاثرة، فكيف يصح أن يقول: حتَّى متم ولما يموتوا، الثاني: أن الْتهاءهم بالتكاثر حتَّى ماتوا وينقطع التكاثر بالموت قبل زيارة المقابر، وأجيب عن هذا: بأن زيارة المقابر عبارة عن الموت نفسه لا نزول القبور، ويمكن الجواب عن الأول: بأن الخطاب عام للأحياء والأموات لزجر الأحياء.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ﴾ أي زار بعضكم ﴿الْمَقَابِرَ﴾ وفيهما: أنهما من المجاز الأول والثاني، فالراجح: أنَّها الزيارة للتكاثر، قال في (الكشاف): ((روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرهم بنو عبد مناف، فقالت بنو سهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادّونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم)) انتهى.

ويقوّي هذا التفسير ما في (نهج البلاغة) عن أمير المؤمنين علي × من كلام له × ـ قاله عند تلاوته: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ ـ: ((يا له مراماً ما أبعده، وزوراً ما أغفله، وخطراً ما أفظعه، لقد استخلوا منهم أي مدكر، وتناوشوهم من مكان بعيد، أفبمصارع آبائهم يفخرون؟ أم بعديد الهلكى يتكاثرون؟..)) إلخ، وهو كلام نفيس وموعظة بالغة.

﴿٣-٤﴾ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجر للمتكاثرين عن أن يلهيهم التكاثر، وكرر ﴿كَلَّا﴾ وعطف بـ﴿ثُمَّ﴾ لتقوية الزجر، وتكرار ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمناسبة فرط غفلتهم، كأنهم يحتاجون إلى إعادة الكلام ليفهموه، ومعنى ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون أمراً عظيماً تندمون لأجله على أن ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ وذلك عند كشف الغطاء يوم القيامة، أو عند حضور الموت.

﴿٥-٨﴾ ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ ﴿كَلَّا﴾ إعادة للزجر لفرط غفلتهم وليرتب عليه قوله تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ ما سترون وعم تسألون وإلى ماذا تصيرون وجواب لو دل عليه السياق أي لعلمتم خطاكم في التهائكم بالتكاثر، ولتركتم الدنيا وآثرتم الإعداد للآخرة ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ وهي المهمة الكبرى الَّتِي هي أحق بأن يشغل الأحياء في هذه الدنيا حياتهم بالفرار منها؛ لأنَّه لا ينفع الفرار منها إلاَّ من فر منها في الدنيا، أما في الآخرة فلا مفر منها بل إنهم عند رؤيتها سيندمون حين لا ينفع الندم.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ رأي العين عن يقين ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا قسم ليسألنّ يوم إذ يرون جهنم،

فهم يسألون في حال أنهم يرونها يسألون ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي ينبغي التكاثر فيه والتنافس فيه ما هو، وعند ذلك يتبين: أنَّه نعيم من زحزح عن النار وأدخل الجنة فهو النعيم أما الدنيا، فكما قال الشاعر:

أحلام نوم أو كظل زائل إن اللبيب بمثلها لا يخدع

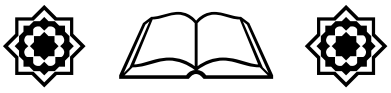

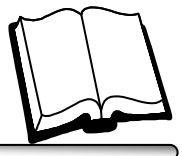

التيسير في التفسير

سورة العصر

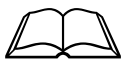

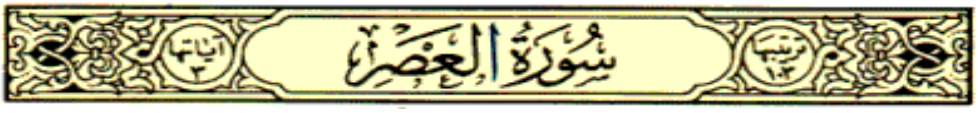

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلۡعَصۡرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴿٣﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ وَٱلۡعَصۡرِ * إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ أقسم الله تعالى بالعصر كما أقسم بـ(الفجر) و(الضحى)؛ لأنها كلها آيات تدل على قادر يتصرف في الكون وجواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ ومعنى الخسر: خسر الآخرة الذي هو فوات كل خير ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأعراف:٥٣] ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:١٥].

﴿٣﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ هذا استثناء من عموم الإنسان الخاسر ﴿آمنوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُواْ﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يقل الحسنات؛ لأن حسن العمل لا يكفي حتى يكون صالحاً، وصلاحه بتمامه ومطابقته للمشروع، وسلامته من مقارنة المحبطات والمفسدات، فهو كالزرع السليم من الآفات.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ باتباع الحق والثبات على الحق ونصرة الحق ليحفظ ولا يضيع ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ على الحق وعلى الدفاع عنه، وعلى ما يلاقون من الشدائد فيه من أعداء الدين، وعلى ما ابتلوا به من الخوف والجوع وغير ذلك، وفيه إشارة إلى التوحد في الدين والتعاون عليه وإلاَّ لما كان للتواصي حاجة، حيث لا يهم الإنسان إلاَّ نفسه لو كان لا يجب عليه أن يهتم بأمور المسلمين.

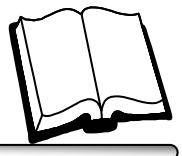

التيسير في التفسير

سورة الهمزة

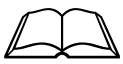

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قال في (لسان العرب): ((الويل: الحزن والهلاك والمشقة من العذاب)) اهـ، وفيه: ((والويل: حلول الشر)) انتهى، وفيه: ((ويل: كلمة مثل ويح، إلاَّ أنَّها كلمة عذاب)) انتهى، ومثله في (الصحاح).

هذا معنى (الويل) فأما إعرابه: فهو مرفوع على الابتداء ومسوغ الابتداء به أنَّه في معنى الدعاء على كل ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ والدعاء يختلف معناه، ففي مثل هذا الموضع هو دلالة على الغضب، مثل: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج:٤] فهو دعاء بالويل على الهمزة اللمزة، وقد يكون للحث، كما قال الشاعر:

على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي ... لك الويل حر الوجه أو يبك من بكى

وقد يكون للتشكي مثل ما أنشده في (لسان العرب):

قالت هريرة لما جئت زائرها ... ويلي عليك وويلي منك يارجل

قال في (لسان العرب): ((وكل من وقع في هلكة دعا بالويل، ومعنى النداء فيه ياحزني وياهلاكي ويا عذابي أحضر فهذا وقتك)) انتهى، فظهر منه معنى الويل.

و(الهمزة): الهماز، وفي (تفسير الإمام القاسم ×): ((والهمزة من الناس هو من يغتاب صاحبه ويغمزه واللمزة، فهو الذي يعيب حقاً أو محقاً ويهمزه، والهمزة: فهو الباخس المغتاب، واللمزة: هو الغامز العياب)) انتهى، والمراد بالغامز: المنقص.

ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩

۝٢ ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ﴾ ﴿عَدَّدَهُۥ﴾ بادخاره لنوائب الدهر والمصائب، ففيه إشارة إلى بخله به.

۝٣ ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ في (تفسير الإمام القاسم ×): ((وتأويل: ﴿يَحْسَبُ﴾ هو أيحسب استفهاماً وتوقيفاً وتبييناً له وتعريفاً..)) إلخ، فمعنى ﴿أَخْلَدَهُۥ﴾ صرف عنه المصائب كما قدمت في تفسير ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ﴾ [الإنسان:١] وهو تقدمةٌ للوعيد بقوله تعالى:

۝٤ ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ وهي أكبر المصائب، فلن يغني عنه ماله شيئاً منها، قال الإمام القاسم × : ((ونبذه فيها: إلقاؤه، و﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ فهي الأكول لأهلها باستعارها وحرها وهي النار..)) إلخ.

۝٥ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ تعظيم لها، ودلالة على أن الرسول لم يكن يدري حتَّى أوحى الله إليه.

۝٦ ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ قال سيد قطب: ((وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة غير معهودة، ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة)) انتهى، ونظيره: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾ [الشمس:١٣] فقد روي: أنَّها كانت عظيمة تشرب ماءهم في يومها ولهم يوم.

وما روي: أن عتبة بن أبي لهب كان تحته بنت رسول الله ص فذهب إليه، وقال: هو كافر بالنجم إذا هوى، ثُمَّ تفل في وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام، فقال ص: ((اللهم سلط عليه كلباً من كلابك)) فبينما هم يحرسونه ذات ليلة في سفر إذ جاء أسد يشم وجوههم حتَّى ضرب عتبة فقتله)) انتهى، فكان الكلب من كلاب الله هو الأسد.

و﴿ٱلْمُوقَدَةُ﴾ المسعرة الَّتِي ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] فهي نار لا تطفأ مخالفة لنار الدنيا الَّتِي وقودها الشجر، ونحوه.

﴿٧﴾ ﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ تأكل اللحم حتَّى تبدو على الأفئدة، و﴿ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ جمع فؤاد، وهو القلب أو باطن القلب ـ نعوذ بالله.

﴿٨﴾ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ إن نار الله على كل ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ﴾ إنها عليهم مغلقة، أي مغلقة عليهم أبوابها.

﴿٩﴾ ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ في (تفسير الإمام القاسم ×): ((وتأويل ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ بعد ذكره تبارك وتعالى المؤصدة، فهو ما يغلق به أبواب جهنم المؤصدة المطبقة في عمد معروضة على أبوابها ممدودة كالمهاج، والأوصاد الَّتِي تجعل على الأبواب المغلقة، وذلك من الإغلاق، والغلق فأوثق ما يغلق به كل مغلق، وذلك أنَّه يأخذ ما في طرفي الباب كله فيغلق الباب كله ويستقصي بالغلق آخره وأوله، ولاسيما إذا كان ممتداً ثابتاً)) انتهى المراد باختصار.

وهو × يعني: أنَّها تغلق أبوابها بأعمدة ممددة، والعمد: جمع عمود نظير ما يستعمل من الخشب من إحدى جهتي الباب إلى الجهة الأخرى لكل من طرفيه مدخل في هذا الركن وهذا الركن، يسمى في هذه البلاد (المرزح) واستعمال ﴿فِى﴾ يدل على أن الأعمدة تشمل الباب ويتمكن فيها أو العمود بحيث يعتبر الباب في العمود، كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١].

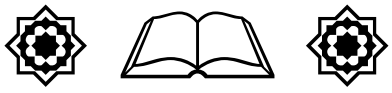

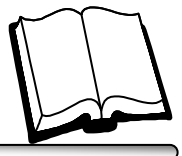

التيسير في التفسير

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ ﴿ٱلْفِيلِ﴾ هو الدابة الضخمة الذي يعرفه من قد رآه أو رأى صورته، ومعنى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم، وفائدته: التعجيب من فعل الله بهم فأصحاب الفيل كانوا باليمن من الحبشة وكانوا نصارى، وولي عليهم رجل من اليمن يدين بدين الحبشة، يقال له: أبرهة، وهذا هو الذي ذكره الإمام القاسم × : أن أبرهة يمني، فلا التفات إلى ما في (سيرة ابن هشام) مما يوهم أنَّه حبشي أو يصرح، وكانت لهم كنيسة بصنعاء أرادوا صرف العرب إليها وتحويلهم عن الكعبة، فهدم الكنيسة بعض العرب، فبعث أبرهة جيشاً وبعث معه بالفيل ليهدموا الكعبة المشرفة.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ بالجيش الذين صحبوا الفيل، وبمن بعث به لهدم الكعبة ﴿رَبُّكَ﴾ الغالب على أمره، وفي قوله: ﴿رَبُّكَ﴾ إشارة إلى أن إرسالك يا محمد هو من أمره وحمايتك لتبلغ رسالته هو من أمره، فلابد أن يحميك كما حمى بيته.

﴿٢﴾ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ﴿كَيْدَهُمْ﴾ الذي دبروه لتخريب الكعبة وتحويل العرب عنها، وهو جمعهم واجتماعهم وما صحبوا به جيشهم من قوتهم وعدتهم وأموالهم الَّتِي مولوا بها جيشهم ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضييع لهم جعل كيدهم في تدمير لهم، ولعله تعالى قال في تضليل ولم يقل تضليلاً أو هو التضليل؛ لأن سبب هلاكهم أعم من كيدهم، وإنَّما كيدهم هو منه.

﴿٣﴾ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال في (تفسير الإمام القاسم ×): «والطير الأبابيل: فهي الطير الكثير الأراعيل الَّتِي تأتي من كل جهة» انتهى، قوله: الأراعيل، جمع الجمع لرعلة، قالوا: هي القطعة من الخيل، وأنشد في (الصحاح) لطرفة:

ذلُقٌ في غابة مسفوحة كرعال الطير أسراباً تمر

قلت: وهذا يدل على أنَّه يستعمل في الطير كما استعمله الإمام القاسم × العربي اللسان والنسب وليس خاصاً بالخيل.

﴿٤﴾ ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قال الإمام القاسم × : «والسجيل فيما يقال: فهو الطين المستحجر الصلب» قلت: ولعله سمي سجيلاً؛ لأن فيه خطوطاً كخطوط الكتاب ـ والله أعلم ـ في (مفردات الراغب): «والسجيل: حجر وطين مختلط، وأصله فيما قيل: فارسي معرب، والسجل قيل: حجر كان يكتب فيه، ثُمَّ سمي كل ما يكتب فيه سجلاً» انتهى.

قلت: قوله حجر وطين، الصواب ما قال الإمام القاسم × ، والدليل قول الله تعالى في قوم لوط: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات:٣٣] وفي آية: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود:٨٢].

﴿٥﴾ ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي أهلكهم وصاروا مثل قصب الزرع الذي ذهب أجوافه وتعطل من لبّه، كما قال الشاعر:

آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله في القرية السوس

ويحتمل: المأكول الذي قد أكلته الأنعام وصار في بطونها.

تنبيه: في (تفسير سيد قطب) لـ(سورة الفيل) بحث مهم مفيد يتعلق بالسياسة الإسلامية ينبغي نشره، أو نشر ما يقوم مقامه في المدارس.

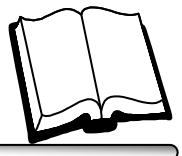

التيسير في التفسير

سورة قريش

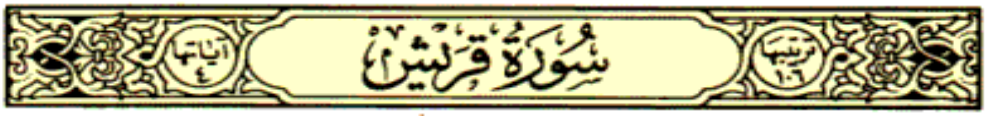

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ كان قريش آلفين مألوفين، يألفهم الناس ويألفون الناس، في حال أن الخوف كان شائعاً في بلاد العرب، والتآلف ضد التنافر والتقاطع، وذلك لأجل بيت الله الكعبة الحرام، فكان الناس يسافرون للتجارة إلى مكة فيأمنون في مكة، وكان قريش يسافرون آمنين لحرمة البيت الذي هم جيرانه، ولحاجة الناس إلى بلاد قريش الَّتِي يلتقي فيها أهل البلدان المتباعدة، وأصل ذلك كله نعمة الله بهذا البيت الذي جعله للناس مثابة وأمناً.

﴿٢﴾ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ لإيلافهم في رحلة ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ إلى الحبشة ﴿وَ﴾ رحلة ﴿ٱلصَّيْفِ﴾ إلى الشام لا يعاديهم أحد ولا ينفر منهم.

﴿٣﴾ ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ الذي هو الكعبة، وربها الله الذي جعلها نعمة لقريش، وقريش قبيلة من ذرية إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام)، وفيهم من الحديث الشريف عنه ص: ((إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم)) أخرجه مسلم، وأحمد، والترمذي، وغيرهم.

وقال ابن تيمية: ((هو حديث ثابت)) وفسره في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) والاصطفاء: يدل على نعمة يجب شكرها، وعبادة رب هذا البيت: إخلاص العبادة له ورفض شركائهم.

﴿٤﴾ ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أطعمهم وغيرهم من العرب جائعون ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ آمنهم وغيرهم خائفون، كأنه ضمن ﴿أَطْعَمَهُم﴾. ﴿وَءَامَنَهُم﴾ نجاهم، وذلك الإطعام بسبب دعوة أبيهم إبراهيم صلى الله عليه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ..﴾ إلى قوله: ﴿..وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم:٣٧] وفي (سورة البقرة): ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ..﴾ الآية [١٢٦].

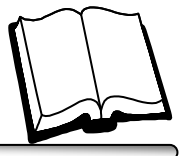

التيسير في التفسير

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا تَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ هذا توجيه للسامع ليستمع ما يقال في ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ ويقبل عليه بقلبه، والدين: هو الجزاء في الآخرة التي يجحدها المكذبون بالآخرة أو مطلقاً.

﴿٢﴾ ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ في (تفسير الإمام القاسم ×): ((ودَعُّه له: هو دفعه عن حقه)) انتهى، فالمكذب بالآخرة يظلم اليتيم؛ لأنَّه لا يخاف النار، ولا يخاف العقاب على ظلمه؛ لغفلته عن الله وتكذيبه بالجزاء من الله.

﴿٣﴾ ﴿وَلَا تَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لأنَّه لايرجو منه مكافأة ولايرجو ثواباً من الله لتكذيبه بالدين، فذلك دليل على حاجة الناس إلى الإيمان بالجزاء على البر والفجور ليصلح مجتمعهم ويسلموا التظالم، ولا يكونوا كالسباع الضارية يأكل قويها ضعيفها، فكيف يتركهم الله بلا رسول ولاكتاب كما يزعم المكذبون بالدين.

وهو سبحانه أحكم الحاكمين قد جعل لهم عقولاً وفضلهم بها على السباع والأنعام، ولو تركهم تظالموا واستحقوا العقاب، مع أنَّه لا نذير لهم من العذاب وهو عذاب شديد، فدل ذلك على أنَّه لابد من الرسول، فقد أرسله الله وجاء بالبينات، وما بقي إلاَّ أن يؤمنوا به إيماناً صادقاً.

﴿٤-٧﴾ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ لعدم صدقهم في الإيمان، فلا يأتون الصلاة إلاَّ وهم كسالى، ويبخلون بالماعون؛ لبغضهم للمهاجرين الذين جاءوا المدينة المنورة لينصروا الله ورسوله، فقال بعض المنافقين: ﴿لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧] قال الإمام القاسم × : ((والساهون: هم الذين عن صلاتهم ووقتها لاهون، ليس لهم عليها إقبال، ولا لهم بحدود تأديتها اشتغال، فنفوسهم عن ذكر الله بها ساهية وقلوبهم بغير ذلك فيها لاهية)) انتهى.

وقوله تعالى: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾ يفيد: قلة مبالاتهم بصلاتهم، فهم يميتونها في بعض الأوقات، مع أن صلاتهم خالية من الخشوع والإخلاص، فلذلك أضافها إليهم لنقص صلاتهم عن الصلاة المقبولة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ ما يحتاج إليه من الأدوات والآلات الَّتِي لا يضرها الاستعمال، مثل: القدر، والمغرفة، والشفرة، وكذلك الزكاة المفروضة في المال فقد صارت حقاً للفقراء.

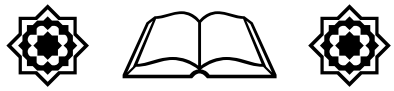

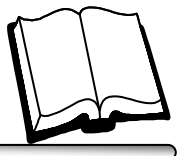

التيسير في التفسير

سورة النور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿الْكَوْثَرَ﴾ الخير الكثير، قال الإمام القاسم × : ((و﴿الْكَوْثَرَ﴾: هو العطاء الأكبر، وإنَّما قيل: كوثر من الكثرة)) انتهى، وهو عام لنعم الله الَّتِي أنعم بها على رسوله ص:

فمنها: الهدى وقد ذكره الله في (سورة الضحى) وهدى الأنبياء مثل ما ذكره الله في (سورة الأنعام) لأنبيائه نوح وإبراهيم وعدد من ذريته ولوط.

ومنها: العلم النافع والتوفيق والعصمة.

ومنها: القرآن العظيم الذي آتاه وخصه بإنزاله عليه وعلمه لفظه ومعناه وحفّظه وجعله هديه.

ومنها: الخلق العظيم الذي هداه له.

ومنها: اختياره للرسالة.

ومنها: نصره بالرعب.

ومنها: ما اختصه الله به من الكرامات والآيات.

ومنها: أن آتاه أخاه علياً وزيراً وشاهداً له بالرسالة بما رزقه من علم الكتاب، حتَّى صار شاهداً له شهادة بقوله وفعله وسلوكه، بحيث فداه بنفسه وخاض المعارك واقتحم المهالك، زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة، وهذا لرسول الله ص مع إتمام الله لخلقه، وقواه وعقله ورأيه وفهمه وقوة منطقه وفصاحته وسعة صدره، ولا نستطيع إحصاء نعم الله علينا، فضلاً عن أن نحصي نعمة رسول الله ص، وقد عظم الله هذا العطاء بإسناده إلى عظمته وجلاله.

فهي تشير أن ذلك لعلمه سبحانه وقدرته وعدله وحكمته وفضله ورحمته وكرمه، ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا العطاء مصلحة للكون، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وقد فسر ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ بنهر في الجنة، وفسر: بكثرة الذرية، والأولى: تفسيره بما قد أعطاه الله من النعم؛ لأن ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ فعل ماض، إلاَّ أن يحمل على الوعد بالنهر في الجنة، وبكثرة الذرية، فلا مانع من دخوله في العموم.

﴿٢﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ أي ﴿وَٱنْحَرْ﴾ له، وذلك في الحج والعمرة، اعبده شكراً على نعمه وعملاً بما علمك ربك الذي خلقك وربّاك وأنعم عليك صغيراً وكبيراً، صل له عبادة إقراراً له بربوبيته، وتحقيقاً لعبوديتك؛ لتدوم لك النعمة، وتنال ما وعد الله عباده الصالحين.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلأَبْتَرُ﴾ ﴿ٱلأَبْتَرُ﴾ الأقطع، قال الإمام القاسم × في تفسيرها: ((ثُمَّ أخبر سبحانه رسوله ص: أن كل من شنئه فأبغضه من البشر، فهو مخذول ذليل أبتر ليس له عز مع بغضه له وشنئانه ولا منتصر، إكراماً من الله ـ جل ثناؤه ـ لرسوله ص وإخزاء لمن شنئه وأبغضه ولم يؤد إلى الله في محبته فرضه)) انتهى المراد.

تنبيه: روي عن علي × لما نزل ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ قال النبي: ((يا جبريل ما هذه النحرة الَّتِي أمرني بها ربي؟ قال: إنها ليست بنحرة، ولكنها رفع الأيدي في ثلاث مواطن..)) إلخ الرواية.

هذه الرواية قد حققت ضعفها في شرحي لبعض (أمالي أحمد بن عيسى) [ص٢١ـ ٢٢] ضعفها من ناحية السند، وضعفها من لفظ متنها، ويكفي في إبطالها أنَّها قد أقرت بأن الرفع معنى مجازي؛ لأنَّه قال: ((إنها ليست بنحرة)).

ومن علامة المجاز: صحة نفيه، مع أنَّه واضح أن الرفع لا يسمى نحراً في اللغة، واستعمال النحر في نحر الإبل هو المعنى الحقيقي، وقد دل عليه القرآن والسنة في مناسك الحج، فالحمل على المعنى الحقيقي للمحكم هو الحق والرواية المخالفة له تعتبر مخالفة للقرآن بتغييرها معناه.

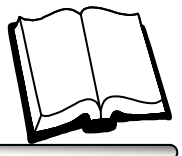

التيسير في التفسير

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ بالله وآياته ورسوله ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ لا أساعدكم ولا أوافقكم على عبادة ما تعبدون ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ولا أنتم متبعون لي في عبادة ما أعبد؛ لأنكم مصرون على الكفر، فديني خلاف دينكم، ودينكم خلاف ديني، فأنا بريء من دينكم ولا أصير إليه أبداً، وأنتم مصرون فلا تتبعوني أبداً قد برئتم من ديني، فقد افترقنا وتباينا وتقاطعنا واختلفت ملتنا.

﴿٤-٥﴾ ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ عبادتكم عملكم وحدكم، وقد برئت منها فلا ينجر علي حكمها حتَّى تكون عبادتكم مشتركة بيني وبينكم، وحتى أكون قد عبدت ما عبدتم كما ينجر حكم العمل على الآمر به أو الراضي به، وعبادتي عملي وحدي قد برئتم منه، فلا يعمكم حكمها كما يعم العمل الراضي به ويكون مشاركاً فيه، فلا تسألون عن ديني ولا أسأل عن دينكم.

﴿٦﴾ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ فجزاء عملكم خاص بكم وجزاء عملي خاص بي، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٤١].

فقدم في الآيتين الأولتين: ﴿لاَأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ نفي الموافقة، ونفي المساعدة على عبادة ما يعبده المشركون، ونفي الموافقة من المشركين على عبادة ما يعبده رسول الله ص، وتحقق فيهما التباين والتقاطع الدائم، بتعليق النفي في الأولى على معبودهم من حيث هو معبودهم، والنفي في الثانية على معبوده ص من حيث هو معبوده، فقيد الحيثية فيهما ظاهر من التعليق، ففيه معنى براءته من معبودهم وبراءتهم من معبوده.

وعلى هذا: لا نحتاج إلى جعل ﴿مَا﴾ مصدرية في قوله: ﴿ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لأنَّه واقع على طريقة الإبهام ليس على تعيين المعبود كما مر في تفسير (والليل) وكذلك ظهر في الأخيرتين نفي المشاركة في العبادة من التعليق على ما عبدتم وما تعبدون، ومِنْ عَطْفِ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وهذا الفرق رجحته؛ لأجل العطف بـ(الواو) بين الأولتين والآخرتين، الذي ظاهره التغاير بين الأولتين والأخيرتين ـ والله أعلم.

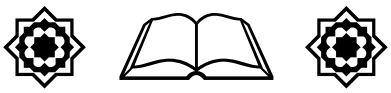

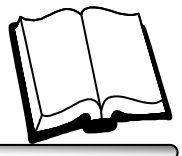

التيسير في التفسير

سورة النصر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ لدينه ولرسوله ص نصر الله الذي وعدك به يا محمد النصر العظيم من الله القدير بإظهار دينه وإعلاء كلمته، وجعل رسوله هو المنصور وجنده هو الغالب ﴿وَ﴾ جاء ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ من الله بينه وبين أعدائه من المشركين وأهل الكتاب وهو حكمه بنصر أهل الحق وتمكينهم في الأرض، وإخزاء أعدائه الذين حاربوه وعاندوه.

﴿٢﴾ ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ وهو الإسلام ﴿أَفْوَاجًا﴾ جماعات كباراً، وقد كان ذلك في السنة التاسعة من الهجرة.

قال الإمام القاسم بن إبراهيم × : «وهو المراد في كل هذا التفسير لجزء عم والأفواج: من الناس فهو ما يرى من الجماعات الَّتِي تأتي من القبائل والنواحي المختلفات، شبيه بما كان يفد على رسول الله ص من وفود القبائل والبلدان من عقيل، وتميم، وأهل البحرين، وعمان ومن كل الأمم».

﴿٣﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ سبح حامداً لربك، أي اجمع بين التسبيح لربك والحمد لربك، فالتسبيح لوقوع ما وعد به وظهور قدرته، وأما الحمد فشكراً له على نعمته ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تذللاً وإفصاحاً بعدم العجب، كقول نوح × : ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١].

قال الإمام القاسم × : «وتأويل التواب: فهو العواد بالرحمة وبالنعمة منه يعد النعمة، وقد ذكر أن رسول الله ص لما أنزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إليه وأُمر فيها بالاستغفار، ورأى ما رأى من الإظهار قال × : «نُعِيَت إليّ نفسي وأخبرت بعلامات موتي» فصدق في ذلك كله» انتهى المراد.

ولعله ص فهم ذلك من جملة الكلام في هذه السورة الكريمة، حيث رتب تعالى على النصر والتمكين وإذلال المناوين أمره بخاصة نفسه بدلاً من سعيه لإظهار الدين في بلاد الروم والفرس وغيرها مما هو واثق بأن دينه سيظهر فيها، وكان المتوقع الترتيب به على النصر والتمكين فلما لم يذكر وذكر بدله الأمر بما يخصه فهم اقتراب أجله، وأن افتتاح تلك البلدان سيكون بعده ـ والله أعلم.

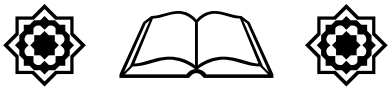

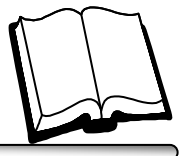

التيسير في التفسير

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أبو لهب كان من أعمام النبي ص، وهذه كنيته واسمه: عبدالعزى، ولكون الاسم فيه شرك لم يذكر به، وذكر بالكنية المناسبة لعذابه.

قال الإمام القاسم × : ((وتأويل ﴿تَبَّتْ﴾ فهو خابت وخسرت فيما رجت وقدرت)) انتهى، وقوله × : فيما رجت وقدرت، أي بعملها وسعيها في جمع المال وكسب الأصحاب والموالين المؤاخين له على شركه، فقد تب سعيه هذا أي بطل ولم يفد إلاَّ الخيبة لما أمل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧] ﴿وَتَبَّ﴾ أبو لهب نفسه خاب وخسر لأنَّه كان يأمل السعادة بما جمع من المال والسلامة من المصائب، كما مر في الهمزة اللمزة، فخاب أمله؛ لأنَّه ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وهي أكبر المصائب، فلم ينجه ماله منها، ولا ما كسب من أسباب القوة.

﴿٤﴾ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ تبت ولم تنل بحملها للحطب ما أملت، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، وكثير من الناس يميلون مع أصهارهم لقوة العلاقة والحب بينهم، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [البقرة:٢٢١] فلعلها ـ والله أعلم ـ كانت هي السبب في فساد زوجها إلى حد محاربته للدين وجده في ذلك ومخالفته لطريقة أخوته.

قال الإمام القاسم × : ((وتأويل ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ فقد يكون حملها للنمائم والكذب الذي كانت تكذبه على رسول الله ص وتأتي به زوجها وتنقله إليه وتنقله إلى غيره ممَّن كان من الكفر في مثل ما هي وما هو فيه، لتفسد بكذبها وتغري على رسول الله ص)) انتهى باختصار يسير.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ﴿جِيدِهَا﴾ عنقها وحبل حاملة الحطب يتصل بجيدها بحيث يؤثر فيه بسبب ثقل الحطب فجعل الحبل في جيدها لشدة تمكنه فيه كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:٧١] وهذا ترشيح لاستعارة حمل الحطب لما يراد به إشعال نار الفتنة من النميمة والكذب، كقول الشاعر:

لدا أسد شاكي السلاح مقذف ... له لبد أظفاره لم تُقَلَّم

قال الإمام القاسم × : ((وهذا مثل يضرب لمن يحمل كذباً أو زوراً ليلقي به [بين] الناس عداوة وشروراً)) انتهى، وقال في (الكشاف): ((وقيل: كانت تمشي بالنميمة، ويقال للمشاء بالنمائم: المفسد بين الناس، يحمل الحطب بينهم)) انتهى.

قلت: وهذا أرجح لأنَّه أنسب للقرآن ذكرُها في خيبتها بسوء عملها، فأما حمل الحطب فهو مباح والناس يحتاجون إليه ولا يعيرون بحمله، فمن البعيد أن تعير به في القرآن الحكيم بدلاً من ذكر جرمها، فظهر: أن حملها للحطب مشيها بالنميمة والكذب؛ لإشعال نار العداوة والفتنة، وإن ذكر الحبل ترشيح للمجاز، وجعله في جيدها وجعل الحبل ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ زيادة في الترشيح، ولعله الغالب في حمل الحطب أن يحمل بحبل من مسد لُيسر المسد.

قال الراغب في (مفرداته): ((المسد: ليف يتخذ من جريد النخل، أي من غصنه فيمسد أي يفتل)) انتهى، وهو أنسب من تفسير (صاحب الكشاف) للمسد؛ لأجل (من) الَّتِي لبيان الجنس.

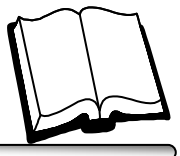

التيسير في التفسير

سورة الإخلاص

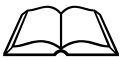

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأحد: هو الواحد ليس بمتعدد ولا مؤلف من آحاد ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ ﴿اللَّهُ﴾ وحده هو ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي يلجأ إليه ويصمد أي يقصد عند المهمات، قال الإمام القاسم: «﴿الصَّمَدُ﴾ هو النهاية والمعتمد، الذي ليس وراءه مصمود، ولا سواه إله معبود» انتهى.

فالله الصمد يفيد توحيد الإلهية، ويناسب هذا ما رواه ابن جرير في (تفسيره): بسنده عن ابن عباس في قوله: ﴿الصَّمَدُ﴾ يقول: «السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلاَّ له» انتهى.

﴿٣-٤﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فليس له ابن ولا بنت ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ما ولده أحد، فقد أبطل من قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧] فأقروا أن المسيح مولود لمريم، وادعو أن الله هو، فلزمهم أن قد جعلوا الله مولوداً.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لم يكن له مماثل في العظمة والجلال، ولا في القدرة والعزة، ولا في العلو والغلبة، ولا في شيء من الكمال، وفي (تفسير الإمام القاسم ×): «الكفؤ: فهو المثل والنظير» انتهى.

ولعل الآية تشير إلى نفي الصاحبة، بمعنى أنا لا نتخذ صاحبة إلاَّ من الأكفاء، فإذا تنازلنا فإنما يكون ذلك للحاجة والظروف الملجئة، وهو سبحانه غني عن الصاحبة على الإطلاق، مع أنَّه لا كفؤ له، إشارة إلى أن المخلوقات كلهن إماؤه، فكيف يتخذ صاحبة أحداً منهن، وإنَّما هي أمته خلقها ورزقها وأنعم عليها، ولا كفاءة بين السيد وأمته، فكيف يتنازل إلى اتخاذ أمته صاحبة وهو الغني ـ والله أعلم.

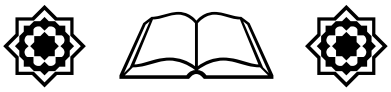

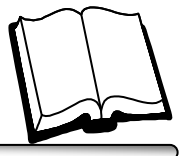

التيسير في التفسير

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

﴿١-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أستجير ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ والفلق: أول الفجر، وربه الله الذي جاء به، و﴿مَا خَلَقَ﴾ عام لكل مخلوق.

﴿٣﴾ ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ﴿غَاسِقٍ﴾ ليل مظلم ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ إذا وجب، أي وقع واستقر.

﴿٤﴾ ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ الَّتِي تنفخ مع ريق قليل ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾ الَّتِي تعقدها في خيط أو نحوه لتسحر.

﴿٥﴾ ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والحاسد: هو الذي يغار غيرة من نعمة غيره فيحب زوالها وتعظم في نفسه، وشره إما أن يبعثه الحسد على الكيد ومحاولة زوال النعمة، وإما أن يعين صاحبها لفرط رغبته فيها فيصيبه بالعين، وهذه السورة الكريمة تعلمنا أن نلجأ من المخاوف إلى الله وحده، لا إلى الجن ولا إلى الشعوذة، ولا غير ذلك من أعمال الجاهلية، فقد كان الخوف يبعثهم على العياذ بغير الله من شركائهم أو من الجن، أو اعتماد الخرافات، وقد يعتقد بعض العامة أنَّه لا مفر من شر الجن إلاَّ إلى الجن وهو غلط فاحش، فإن الله هو القادر على كل شيء، ولعل الجن يسلطها الله على من يلجأ إليها عقوبة له، ولا يبعد أنَّه معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦] وقد جربنا النفع في ترك اللجوء إليهم مع التوكل على الله واللجوء إليه، فحصل النفع بإذن الله.

سورة الناس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ رب الناس: الله مالكهم الذي خلقهم ورزقهم ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ وهو الله الذي يحكم فيهم ما يريد، وله الأمر والنَّهي والسلطان والقهر ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ الذي تأله إليه ضمائر القلوب، ويفزع إليه كل مكروب، ويخشى ويرجى ويدعى فيجيب، وهو الله المعبود بحق.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ وشره عظيم من حيث كثرته، فقد يكون بالدعوة إلى المعاصي وتزيينها، وقد يكون بشغل القلب عن ذكر الله في الصلاة وغيرها، وقد يكون بشغل القلب عن تدبر آيات القرآن وتفهم معانيه، فقد جعل الله له سورة مستقلة للأمر بالتعوذ منه بالله، وتأكيد التعوذ بتعليقه على ربوبيته وملكه وإلهيته، وإسناد الاستجارة بالله إليها، وفيه دلالة على نفع التعوذ بالله تعالى وحسنه من جهة الربوبية؛ لأنَّه رب كل شيء فهو القادر على صرف كل مكروه، ولأن له الملك، وهو القاهر فوق عباده، فهو من هذه الجهة ـ أيضاً ـ القادر على صرف المكروه من أي جهة يكون من عزيز أو ذليل أو قوي أو ضعيف، والتعوذ بالله من جهة الإلهية؛ لأن هذا التعوذ به دعاء له ولجوء إليه لقدرته على كل شيء وعلمه بحال المستجير واستجارته، فهو من عبادته الَّتِي أمر بها ورضيها لعباده، فالتعوذ به يرجى نفعه من حيث هو لله رضى وعبادة، كما تنفع سائر العبادات للتوسل إلى ما يطلبه العبد من إلهه.

و﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾ الذي يخنس بعد الوسوسة، أي يتأخر لئلا يشعر الإنسان بأنه يريد إغواءه، أو لأنَّه يتبرأ منه متى أطاعه ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ [الحشر:١٦] وهكذا يفعل الشيطان يسعى في إيقاع الإنسان في ورطة ثُمَّ يخذله إذا تورط ولا ينفعه بشيء ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان:٢٩] أو الذي يخنس إذا ذكر الله، وإنَّما يتحين فرصة الغفلة، فإذا ذكر الله خنس؛ لأن كيده ضعيف سواء كان من شياطين الجن أو الإنس، وعندي أن الأول والثاني أنسب لذكر الخناس في نفس الاستعاذة والثالث حسن مستقل.

﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ فهو مهم جداً لعموم شره للناس كلهم ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للوسواس الخناس، فقد يكون من الناس وهو أضر وأقدر على الإفساد ﴿يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً﴾ [الفرقان:٢٨] وكم جاء الفساد في الناس من جليس السوء.

نعوذ بالله من الوسواس، ونسأله السداد، وحسن الخاتمة

(تم الكتاب بحمد الله الواحد الوهاب)

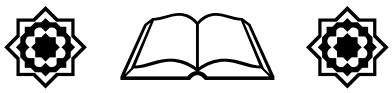

فهرس تقريبي لأهم المسائل والمواضيع التي تضمنها هذا المجلد

م	الموضـــــــــوع	اسم السورة	رقم الآية
١	لفتة جميلة في مسألة اليأس من الحيض	الطلاق	٤
٢	الدليل على أن لجهنم حياة وشعور	الملك	٨
٣	درس مهم في نفي التشبيه	الملك	١٦
٤	تنبيه مهم	الملك	١٦
٥	حسن الخلق ودوافعه	القلم	٤
٦	[وتعيها أذن واعية] نزلت في الإمام علي [ع]	الحاقة	١٢ـ ١٣
٧	المتعة ليست زواجاً	المعارج	٣١
٨	الرد على من يدعي علم الغيب لبعض الأئمة والشيوخ	الجن	٢٨
٩	معنى [ناشئة الليل]	المزمل	٦
١٠	الأصل في الصلاة أن تكون جماعة	المزمل	٢٠
١١	سبب تدثر رسول الله [ص]	المدثر	١ – ٤
١٢	معنى [ولا تمنن تستكثر]	المدثر	٥ – ٧
١٣	يوم القيامة تعرض الأعمال وتشاهد كما في التلفزيون والسينما	القيامة	١٣
١٤	تفسير الأمشاج	الإنسان	٢
١٥	لفتة عرفانية عن والد المؤلف	الإنسان	٩ – ١٠
١٦	معنى [ولدان مخلدون]	الإنسان	١٩
١٧	فضل الأيام العشر من ذي الحجة	الفجر	١ـ٢
١٨	أبدع بيان لقوله تعالى: [وجاء ربك والملك صفاً صفاً]	الفجر	٢٢
١٩	معنى [لقد خلقنا الإنسان في كبد]	البلد	٤
٢٠	تفسير [النجدين]	البلد	٨ – ١٠
٢١	تفسير [الروح فيها]	القدر	٤
٢٢	تفسير [عن صلاتهم ساهون]	الماعون	٤ – ٧

محتويات الجزء السابع

رقم السورة	السورة المفسَّرة	الصفحات من	الصفحات إلى
٥٥	سورة الرحمن	٥	١٧
٥٦	سورة الواقعة	١٩	٣٤
٥٧	سورة الحديد	٣٥	٥٢
٥٨	سورة المجادلة	٥٣	٦٤
٥٩	سورة الحشر	٦٥	٧٧
٦٠	سورة الممتحنة	٧٩	٨٧
٦١	سورة الصف	٨٩	٩٥
٦٢	سورة الجمعة	٩٧	١٠٣
٦٣	سورة المنافقون	١٠٥	١١١
٦٤	سورة التغابن	١١٣	١٢٠
٦٥	سورة الطلاق	١٢١	١٢٩
٦٦	سورة التحريم	١٣١	١٣٩
٦٧	سورة الملك	١٤١	١٦٦
٦٨	سورة القلم	١٦٧	١٩٢
٦٩	سورة الحاقة	١٩٣	٢٤١
٧٠	سورة المعارج	٢١٥	٢٢٩
٧١	سورة نوح	٢٣١	٢٤٢
٧٢	سورة الجن	٢٤٣	٢٥٧
٧٣	سورة المزمل	٢٥٩	٢٧٢
٧٤	سورة المدثر	٢٧٣	٢٩١
٧٥	سورة القيامة	٢٩٣	٣٠٦
٧٦	سورة الإنسان	٣٠٧	٣٣٠
٧٧	سورة المرسلات	٣٣١	٣٤٦
٧٨	سورة النبأ	٣٤٧	٣٦٢
٧٩	سورة النازعات	٣٦٣	٣٨٢
٨٠	سورة عبس	٣٨٣	٣٩٤
٨١	سورة التكوير	٣٩٥	٤٠٥
٨٢	سورة الانفطار	٤٠٧	٤١٦
٨٣	سورة المطففين	٤١٧	٤٣١
٨٤	سورة الانشقاق	٤٣٣	٤٤٠
٨٥	سورة البروج	٤٤١	٤٤٨

رقم السورة	السـورة المفسَّـرة	الصفحـات	
		مـن	إلـى
٨٦	سورة الطارق	٤٤٩	٤٥٥
٨٧	سورة الأعلى	٤٥٧	٤٦٣
٨٨	سورة الغاشية	٤٦٥	٤٧١
٨٩	سورة الفجر	٤٧٣	٤٨٣
٩٠	سورة البلد	٤٨٥	٤٩٥
٩١	سورة الشمس	٤٩٧	٥٠٢
٩٢	سورة الليل	٥٠٣	٥٠٨
٩٣	سورة الضحى	٥٠٩	٥١٢
٩٤	سورة الشرح	٥١٣	٥١٦
٩٥	سورة التين	٥١٧	٥٢١
٩٦	سورة العلق	٥٢٣	٥٢٩
٩٧	سورة القدر	٥٣١	٥٣٦
٩٨	سورة البينة	٥٣٧	٥٤٣
٩٩	سورة الزلزلة	٥٤٥	٥٤٩
١٠٠	سورة العاديات	٥٥١	٥٥٥
١٠١	سورة القارعة	٥٥٧	٥٦٠
١٠٢	سورة التكاثر	٥٦١	٥٦٥
١٠٣	سورة العصر	٥٦٧	٥٦٩
١٠٤	سورة الهمزة	٥٧١	٥٧٥
١٠٥	سورة الفيل	٥٧٧	٥٨٠
١٠٦	سورة قريش	٥٨١	٥٨٤
١٠٧	سورة الماعون	٥٨٥	٥٨٨
١٠٨	سورة الكوثر	٥٨٩	٥٩٢
١٠٩	سورة الكافرون	٥٩٣	٥٩٦
١١٠	سورة النصر	٥٩٧	٦٠٠
١١١	سورة المسد	٦٠١	٦٠٤
١١٢	سورة الإخلاص	٦٠٥	٦٠٨
١١٣	سورة الفلق	٦٠٩	٦١١
١١٤	سورة الناس	٦١٣	٦١٦

]